طبعة أصلية كاملة

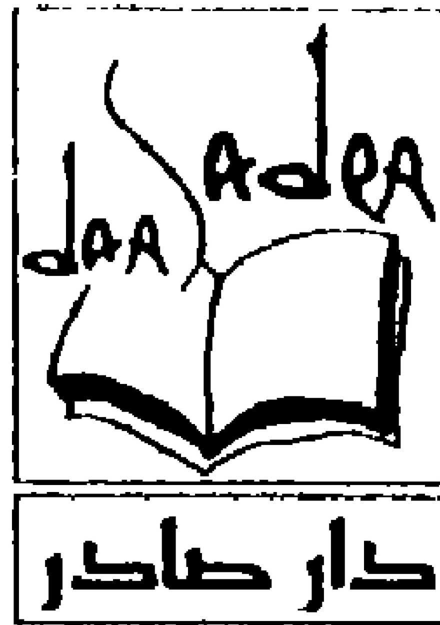
ألف ليلة وليلة



dar Sader
دار صادر

ألف ليلة وليلة

الطبعَة الأولى
1999



تأسست سنة ١٨٦٣

P.O.B. 10 Beirut, LEBANON

ص.ب ١٠ بيروت، لبنان

Fax (+961) 4,910270 فاكس
www: darsader.com
e-mail: dsp@darsader.com

مقـــدمة

لقد سحرَ هذا الكتابُ النفيس المسمّى بـ «ألفِ ليلة وليلة» عقول القُرَّاء وتحيّرت فيه الألباب ألباب الباحثين من العلماء والأدباء الأوربيّين والعرب على حدٍّ سواء.

إنّه في نظرنا كتاب قيمٌ فريد وليس له من شبيه في أدبنا العربي قديمه وحديثه. فمؤلفه الحقيقي الذي ما زلنا حتى عصرنا هذا نجهل اسمه كما نجهل العصر الذي فيه يعيشُ هو مؤلّفٌ علاّمة حافظٌ للقرآن الكريم متفقه في الدين الإسلامي الحنيف ومصلح اجتماعي كبير وحافظ للأشعار التي كان يختار منها أجودها جاعلاً منها مادة خصبة مختاراً من بينها ما كان معناه موافقاً وملائماً للموضوع الذي يضمن حكاية من حكايات كتابه أو قصة أو أقصوصة أو نادرة من النوادر التي يغلب عليها في الظاهر سمة الهزل والإضحاك قاصداً بذلك التهذيب والإصلاح ؛ تهذيب النفوس الشرّيرة وجعلها نفوساً خيّرةً، معطاءة وإصلاح المجتمعات بطرح العادات القديمة المتبعة واستبدالها بعادات جديدة مفيدة للمرء ولمجتمعه.

وقد جعل المؤلف همَّه في أغلب الحكايات إصلاح الملوك والوزراء لأنه بصلاح الملك والحاكم تصلح الرّعيَّة. لذلك وجدنا شخصيات أكثر حكاياته عن الملوك وابنائهم وخاصة من بينهم الملوك الذين خسروا ممالكهم بسبب فساد رأيهم واغترارهم بما ملكوا من أموال وجواهر ورعايا يأتمرون بأمرهم ولكنهم سرعان ما يجدون أنفسهم قد خسروا كل شيء واصبحوا يفترشون الغبراء ويعانون الجوع والحرمان بعدما كانوا يأمرون فيطاعون ويحاربون فينتصرون وينهَون ويعظون فيجلون مَن يستمع إليهم بآذان صاغية وقلوب واعية وذلك إمّا لمنفعة شخصية أو لمآرب يرجون تحقيقها.

فبالإضافة إلى هؤلاء الملوك نجد المؤلف يخالط الناس في الأسواق فيصور حالة التّجار المحظوظين، الأغنياء من بينهم، أو المفلسين الذين افلسوا إمّا بسبب وقوعهم في هوى جارية أو امرأة حسناء أو بسبب اغترارهم بأنفسهم وعدم الاتّعاظ بما يسبب الزمن الغدّار للاهين والمهْوُوسين من مصائب ونكبات وقد حظيت المرأة بحصة الأسد بين جميع شخصيات حكايات هذه الليالي.

ويبدو ان المؤلف كان ضعيف الثقة بالنساء عامةً، فراح يُحذِّرُ من كيد النساء متوخّياً أن يؤكد بما لا يدع مجالاً للشكِ بأن كل مصيبة تحدث لأي إنسان أكان ملكاً أم سوقة أو كان عالماً أم جاهلاً فلا بدَّ أن يكونَ سَببها امرأة ما.

واَمّا نحن فلا نؤيدَ المؤلف فيما ذهبَ إليه إذ لولا النساء لَما كان الرجال ولولا الحبُّ لَما وُجد الشعرُ ولا الشعراء.

اَمّا اصل هذا المؤلف القصصي الكاتب ومدى ثقافته وفي اي عصرٍ كان يعيش فقد حاول كثيرون من الباحثين العرب والأوربيّين معرفة أصله، وتحديد زمن ولادته الذي كان فيه يعيش فكانوا في نظرنا وهم يخوضون في هذا الموضوع الشائك يفعلون ما يفعله ولد واقف على الشاطيء محاولاً أن يحوشَ بأصبعيْه مياه بحرٍ واسع هائج مترامي الأطراف.

وإنني استطيع ان أؤكد ولا اقول جازماً بأن مؤلف الليالي، هو نفسه شهرزاد، التي كانت كما يقول هو عنها في القصة التي جعلها فاتحة كتابه القيّم هذا والتي اختارَ لها عنوان «الملك شهريار وشاه زمان»: وكانت (اي شهرزاد) الكبيرة: قد قرأتْ الكُتب والتواريخ وسير الملوك المتقدمين واخبار الأمم الماضين؛ فقيل إنها جمعتْ ألف كتاب من كتب التواريخ المتعلّقةِ بالأمم السابقة والملوك الخالية والشعراء».

ونحن بدورنا نقول لو لم تكن شهرزاد التي هي نفسها مؤلف هذا الكتاب قد حصلت على هذه الثروة التاريخية والأدبية والشعرية لما استطاعت أن تؤنس ولمدة الف ليلة وليلة ملكاً غطريساً ناقماً على النساء بسبب خيانة زوجته له وقتله إيّاها وتصميمه من بعدها على الزواجِ في كل ليلة من فتاة عذراء فيفض بكارتها ثم يأمر بقتلها وذلك لدى طلوع شمس صباح تلك الليلة من ليل عرسه وفرحه الكبير هذا. وقد ظل ذلك العمل الجهنمي دأبه مدة ثلاث سنوات: «فضجّت الناس وهربت ببناتها ولم يبقَ في تلك المدينة بنتٌ تتحمل الوطيء...». ثم إن الملك أَمَرَ الوزير أن يأتيهَ ببنتٍ على جرى عادته فخرج الوزير وفتشَ وحينما ادرك بأنه ليس بإمكانه ان يجدَ ضالته المنشودة توجه إلى منزله وهو غضبان مقهور خائف على نفسه من مَلِكه. وكان لهذا الوزير بنتان الكبيرة: اسمها «شهرزاد» والصغيرة: «دنْيازاد». وحينما وصل ذلك الوزير إلى منزله ووقعَ نظر ابنته شهرزاد عليه ورأته حزيناً مهموماً سارعت إليه مطمئنة إياه قائلة له وذلك بعدما قصَّ عليها خبر ذلك الملك المهووس الموتور من النساء: «... بالله يا إبتي زوّجني هذا الملك فإما ان أعيش وإما أن اكون فداء لبنات المسلمين وسبباً لخلاصهم من بين يديه. فقال لها: بالله عليكِ لا تخاطري بنفسك ابداً فقالتْ له لا بدّ من ذلك فقال أخشى عليكِ أن يحصل لكِ ما حصل للحمار والثور مع صاحب الزّرْع، فقالت له: وما الذي جرى لهما يا أبتِ؟ قال: اعلمي يا ابنتي انه كان لبعض التجار أموال ومواشٍ...».

وقد شجّعَ استهلال هذا الكتاب بهذه الحكاية التي تتضمن اسماء فارسية بعض الباحثين على القول بأن اصل الف ليلة وليلة ليس عربياً بل فارسياً ومنهم مَن ذهبَ إلى القول بأن اصله هنديّ.

ونحن بدورنا نستطيع ان نؤكد الحقيقة التالية فنقول بأن اصل كتاب الف ليلة وليلة

عربي ومؤلّفه مصري وهو عربي الوجه واللّسان.

والدليل على ما نقول، الكلام الذي وردَ على لسان مؤلفه وذلك حينما استهل كتابه هذا بقولهِ:

«الحمدُ لله رب العالمين (والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين) سيِّدنا ومولانا محمد وعلى آله صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين. وبعد:

فإن سير الأولين صارت عبرة للآخرين لكي يرى الإنسان العبر التي حصلت لغيره فيعتبر ويطالع حديث الأمم السالفة وما جرى لهم فينزجر. فسبحان من جعل حديث الأولين عبراً لقومٍ آخرين فمن تلك العبر الحكايات التي تسمّى الف ليلة وليلة وما فيها من الغرائب والأمثال. فقد حُكي والله أعلم وأحكم واعز وأكرم أنه كان فيما مضى وتقدَّم من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين صاحب جند وأعوان وخدم وحشم وكان له ولدان أحدهما كبير والآخر صغير وكانا فارسَيْن بطلَيْن وكان الكبير أفرس من الصغير وقد ملك البلاد وحكم بالعدل بين العباد وأحبه أهل بلاده ومملكته وكان اسمه الملك شهريار وكان أخوه اسمه الملك شاه زمان وكان ملك سمرقند العَجَم ...».

فهذه الكلمات التي تفوه بها مؤلف هذا الكتاب مفتتحاً بها قِصَّة أوّل ليلة من تلك الليالي التي بلغ عددها الواحدة بعد الألف حمل كثير من الباحثين الذين أمضوا شطراً كبيراً من حياتهم بحثاً عن أصل الليالي واسم مؤلفه على القول بأن أصله فارسي أو هندي.

وامّا نحن فبدورنا نقول ان مؤلف هذا الكتاب مصري المولد وهو مؤلف هذا الكتاب وقد اختار عنوانه من عنوان كتاب فارسي اسمه هزار افسانه وتفسير ذلك بالفارسية خرافة ويقال لها (افسانه) والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة[1]. والدليل على ما نقول قول المؤلف نفسه في مستهل الحكاية الأولى التي جعلها فاتحة للكتاب «فمن تلك الحكايات التي تسمّى ألف ليلة وليلة ...» إذ إننا نراه يقول: تلك الحكايات التي تُسَمَّى ولو كان هو الذي سمّاها لدى تاليفه لها بهذا الاسم لقال: تلك الحكايات التي سَمَّيتها باسم ألف ليلة وليلة.

ومما شجَّع بعض الباحثين على نسبة هذا الكتاب إلى الفرس والهنود وجود الحكايات الخرافية الكثيرة فيه فالخرافةُ على حَدِّ زعمهم تتطلبُ حدَّة الذهن واتساع الخيال.

ومَن قال لهؤلاء بانّ القصاصين العرب لم يكونوا متمتِّعين باتساع الأفق وقوَّة الخيال

---

١. دائرة المعارف الإسلامية ص ٥٣٧.

حتى يؤلّفوا حكايات وأساطير وقصص خيالية لا تمت إلى الواقع بصلة ولا يمكن للعقل ان يتصور وجودها.

فَلْنَضْرب مَثلاً على ذلك حكاية التاجر مع الجنّ الذي انقذَ حياته ثلاثةٌ من الرّجال بواسطة حكايات حكوها له. فهذه الحكاية قد رواها المفضل بن سلامة المتوفى عام ٢٥٠هـ - ٨٦٥م وذلك في كتابه المسمّى بـ «الفاخر»[٢] . وقد جعله مشتملاً على كثير من الأمثال[٣] . وهذه الحكاية عربية صريحة وتمت إلى الصحراء بِنَسَبٍ قويّ.

وإننا لنميل إلى الاعتقاد ان هذا الكتاب أُلّف في العصر الفاطمي ومؤلفه كان يعيشُ في ذلك العصر.

ومما يؤكد قولنا ما ذكره مؤلفٌ اسمه القُرطي[٤] ، ولم يذكر القرطي الحكايات التي كان ذلك الكتاب مشتملاً عليها مكتفياً بالقول: إن هذا الكتاب كان يُسمَّى الف ليلة وليلة وكان ذائعاً معروفاً.

وبعدما تبيَّن لنا أن هذا الكتاب عربي الخَطِّ واللسان والدلائل والحقائق والأوصاف والسِّمات يجدر بنا ان نذكر بأن أول طبعة للمخطوط المصري هي الطبعة المعروفة بإسم «طبعة بُولاق الأولى» التي صدرت عام ١٢٥١هـ - ١٨٣٥. وأما طبعة بُلاق الثانية فقد صدرت عام ١٢٧٩هـ وهاتان الطبعتان تعتبران الأصل وعنهما صدر فيما بعد كثير من الطبعات الشرقية.

وقد أخرجت مطبعة الآباء اليسوعيين كتاب الليالي بعدما هذّبت عباراته التي تتعلق، كما يسمى في أدبنا العربي بالأدب المكشوف، وجعلته مشتملاً على خمسة مجلدّات وذلك ما بين عامي ١٨٨٨ و ١٨٩٠.

وأرسلت نسخة من المخطوط المصري إلى الهند وطبعها مكناتن W. H. M'cnaghten بكلكته في أربعة مجلدات بين سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٢ وتسمى هذه الطبعة عادة «طبعة كلكته» أو «طبعة كلكته الكاملة» وقد أعيد طبع هذه النسخة على الحجر في بمباي وصدرت في أربعة مجلدات عام ١٢٩٧هـ .

وكانت دار صادر قد طبعت كتاب الف ليلة وليلة طبعة أصلية غير مهذبة مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطه العدوي، ونظراً لنفاذ جميع نسخ هذه الطبعة القيمة بسبب إقبال القراء على مطالعتها لما فيها من درر شعرية وفوائد أدبية ونوادر وقصص وامثال وحكايات مفيدة وبنَّاءَة تتناول في مجملها الإنسان في مجتمعه، وما له من حقوق وما عليه

---

٢ الفاخر، طبعة Story ص ١٣٧-١٤٠ .

٣ دائرة المعارف الإسلامية ص ٥٣٨ .

٤ انظر بروكلمان Geschichte der arabischen litterature ج ٢ ص ٦٨ وما بعدها .

من واجبات إنْ في المجتمع أو في الحياة . فقد قرَّرت إعادة طبع هذا الكتاب الذي يعتبر في نظرنا ظاهرة أدبية فريدة لم نجد لها مثيلاً في أدبنا العربي حتى عصرنا الحاضر .

وهو كتاب نفخر بمؤلفه ونعتزّ لأنه استطاع ان يجعل منه كتاباً عالمياً مترجماً إلى عدة لغات . ويكفي الأدب العربي فخراً أن يجد عالماً كبيراً أعجب بكتاب الف ليلة وليلة وهو المستشرق الكبير العالم Silvester de Sacy واضع فقه اللغة العربية الحديث[5] وقد أنكر ده ساسي إمكان قيام فرد واحد بتأليف هذا الكتاب القيِّم النفيس ولكنه حاول أن يثبت بأنه أُلف في عهد متاخر جداً رافضاً القول بوجود عناصر هندية وفارسية فيه معارضاً بذلك قول المسعودي صاحب كتاب مروج الذهب وذلك حيث قال متحدثاً عن اخبار شدَّاد بن عاد ومدينة إرَم ذات العماد : «إن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تَقَرَّب من الملوك برواياتها وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة إلينا من الفارسية والهندية والرومية ، ومن رواية أخرى الفهلويه بدل الهندية مثل كتاب هزار افسانه وتفسير ذلك بالفارسية خرافة ويقال لها «افسانه» والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة ، وفي روايتين أخريين ألف ليلة وليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته شهرزاد وجاريتها دنيازاد» .

ونحن بدورنا نؤكد خطأ زعم المسعودي فيما يتعلق بكتاب الليالي معتمدين في رأينا على قول المؤلف المصري الحقيقي لهذا الكتاب وهو الذي نراه يقول في مستهل كتابه هذا وذلك كما سبق لنا واسلفنا : إنَّه كان فيما مضى وتقدَّم من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين صاحب جند واعوان» . .

فبلاد ساسان لا تقع في الهند ولا في الصّين بل في بلاد فارس . فكيف يكون هناك ملك ساساني وأبو ساسان كنية كسرى وساسان الأكبر ابن بَهْمَن والأصغر ابن بابك أبو الاكاسرة[6] .

فقول المؤلف في نظرنا عن بطل هذه الحكاية التي استهل بها أول ليلة من تلك الليالي بانه أحد ملوك ساسان وكان يحيا بجزائر الهند والصين . . . ، ليس إلا قَوْلاً مقصوداً به الابتعاد قدر الامكان بواسطة اللجوء إلى التَّقيَّة والإبْهام عن معاقبة السلطان لمؤلف هذا الكتاب الذي ألَّفه فيما يزعم بعض الزاعمين بناءً على رغبة سلطان بلاده نفسه ليلهي به شعبه ولو إلى حين بسبب ريبة وقعت في قصره ودليلنا على اقتراب هذا الكتاب من أصله المصري والعراقي والسوري وورود عبارات والفاظ دارجة في المجتمعات العربية . وأوصاف حيَّة وصَفَ المؤلِّف فيها مدينة القاهرة وبغداد ودمشق والبصرة والموصل . وفي أوصافه الحية تلك أكبر دليل على كونه قد زار هذه المدن وأقام بين ظهراني أهلها وتمشى في أسواقها

٥ انظر دائرة المعارف الإسلامية ص ٥١٨ .

٦ انظر الفيروزبادي صاحب كتاب القاموس المحيط .

وسمع إنْ بواسطة الوَهْم او الحقيقة اصوات وكلمات أكثر شخصيات حكاياته وقصصه ونوادره التي أوردها في كتابه هذا .

وأمَّا وليم لين William Lane فقد أجاد ترجمة جزء من ألف ليلة وليلة محاولاً إثبات نسبة هذا الكتاب لمؤلف واحد وليس لعدد من المؤلفين عاشوا في عصور قديمة مختلفة وقال فيه إنه كتب بين ١٤٧٥ و ١٥٢٥ .[٧]

ومما شجَّع الباحثين على الأخذ بفكرة نسبة كتاب الليالي إلى الفارسية قول محمد بن اسحق في كتاب الفهرست وهو قول قد جاء فيه ما يلي : «إن كتاب هزار افسانه قيل إنه ألَّف لحميا ابنة الملك بهمن . وأمَّا الطبري[٨] ، فقد جعل من إستر أمّاً لبهمن واطلق اسم شهرزاد على حميا» .

ونحن بدورنا نقول بان هزار افسانه كتاب قيِّم واسمه ألف خرافة والبعض يسميه الف ليلة ونقول أيضاً بأن ألف ليلة وليلة الموجود بين أيدينا الآن ليس هو نفس كتاب هزار افسانه إذ انه يوجد لدينا دلائل وبراهين يؤكِّدْنَ صحة ما نزعم ونَدَّعي وليس بوسعنا ان نوردهن جميعهن في هذه المقدمة القصيرة نظراً لضيق المجال .

وقد نسج مؤلف الليالي على منوال هزار افسانه مستعيراً طريقته فيما يتعلق بإيراد الليالي متحاشياً ان ينقل خرافاته نقلاً حرفياً إلى كتابه متوخياً توزيع حكاياته على ليالٍ قد بلغ عددها ألف ليلة وليلة .

وهو قد كان يختم كل ليلة من تلك الليالي بقوله : «وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح» ، ثم يستأنف الليلة التالية بعبارة واحدة استهل بها جميع الليالي الا وهي قوله : (أي شهرزاد) - «بلغني أيها الملك السعيد أنَّ . . .» .

وقد أورد الباحثون عِدَّة أراء تتعلق بسبب تسمية هذا الكتاب الذي رزق شهرة واسعة بإسم ألف ليلة وليلة . فنرى المستشرق «أُويسْتِرُب» Oestrup يزعم في دائرة المعارف أنَّ ميل الناس في تلك العصور إلى التَّسْجيع في عناوين الكتب كان أحد البواعث على تسمية هذا الكتاب بهذا الاسم . وهناك من الباحثين من قال : «إن الليلة إنما زيدت فوق الألف لإفادة الكمال كطفحة الاناء وسقطة الميزان» .

وهناك من قال بأن الليلة عند العرب كانت في اصطلاحهم ترادف الاسطورة باعتبارها زمناً لها والدليل على ذلك كتاب الوزراء الذي ألَّفه الجهشباري وهو الذي اختار فيه الف سَمَر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم فكلٌ جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره واحضر المسامرين فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويحسنون واختار من الكتب المصنَّفة في

---

٧ مقدمة The Arabian Nights Entertainments : لندن ١٨٣٩ ــ ١٨٤١م .

٨ في تاريخه ج ١ ص٦٨٨ .

الأسماء والخرافات ما يُحلّى بنفسه فاجتمع له من ذلك اربعماية ليلة وثمانون ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة أو اقل أو أكثر . . .

وهناك من زعم وهو زعم باطل في نظرنا بأنَّ زيادة الليلة على الألف فمن عَمَل القرن السادس لأنَّ النسخة التي رآها القرطي بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي كانت تحمل اسم الف ليلة ويقول «أويستِرْب» Oestrup معلّلاً زيادة هذه الليلة على اسم هذا الكتاب بقوله إنَّ العرب كانوا يتطيرون من الأعداد الزَوْجيَّة . .

وأمّا نحن فنقول بدورنا إن شهرزاد عندما وقع نظرها على وجه الملك الشرير المنهوم المسمى بـ«شهريار» وحفاظاً منها على حياتها وحياة أبيها الوزير قالت لذلك الملك بلهجة لا تخلو من التضرع المشوب بقوة العزيمة ورباطة الجأش : اتريد منّي أن احدثك احاديث تمتد الف ليلة آملة بذلك أن تعفو عنّي وترضى عن والدي الوزير فإنني مستعدة للقيام بهذه المَهَمَّة وإكراماً منّي لعينيك وعيني والدي فسأحدثك احاديث تمتد الف ليلة وساضيف الى هذه الليالي ليلة واحدة لتصبح جميعاً الف ليلة وليلة . فهذه الليلة التي تبرعت بها شهرزاد لهذا الملك المأفون الغطريس ممكن اعتبارها في نظرنا بمثابة حَبّة مِسك . والدليل على ما تقوله المثل المشهور الذي نجد الصاحب الوفي يقوله لصاحبه كلما وجده يطلب منه ان يقدم إليه هدية ما : «ها هي الهدية ومعها حبّة مِسك» .

ولم يكتفِ مؤلف هذا السِّفر القصصي النفيس بما أوردَ فيه من حكايات وأساطير وخرافات ونوادر وأخبار وصور رَسَمَهنّ لشخصيات عامة أو خاصة شخصيات كانت وبسحر ساحر تقرّبُ الأذهان من الواقع الملموس وهي طائرة بواسطة الأجنحة في فضاء الجزر النائية والسموات العالية والبحار الهائجة الواسعة ومن حولها تطيرُ الطيور الخرافية والحيوانات الضخمة الكبيرة التي لم يعد لها وجود في عصرنا الحاضر . وإننا لنجد الكاتب يضمن كتابه هذا ي أكثر الليالي أشعاراً جيّدة الصوغ (لفظاً ومعنًى) إذْ كان في نظرنا يختارُ أكثرها من الأشعار التي كان يحفظها عن ظهر قلب لكبار شعراء اللغة العربية من أمثال المتنبي وأبي نُواس وكثيراً ما نراه يورد الاشعار مشفوعة بالعبارة التالية «وفي هذا المعنى قال الش 'عر . . .»

ففي ذلك لدليلٌ واضح يدل على قدرة المؤلف ومدى تمتّعه بطاقة جبّارة خلاّقة هي طاقة حفظ الأشعار وروايتها ونقدها وتمحيصها قاصداً ان يختار من بينها كُلّ ما هو جيد ومؤثّر وفعّال .

وهناك أشعارٌ في نظرنا ممكن نسبتها إليه وكان يضعها بنفسه على ألسنة شخصيات حكاياته ونوادره حيثُ نجده يوردها في أكثر الأحيان مشفوعة بالعبارة التالية : «وصار ينشدُ (أي بطل الحكاية أو القصة أو الخرافة) هذه الأبيات أو هذَين البيتين وستبقى تلك الأشعار في نظرنا منسوبةً إلى هذا الشاعر والمؤلف القصصي العظيم صاحب الليالي إلى أن نتمكن

أو يتمكن باحث مَا وذلك بعد جهدٍ جهيد من نسبة هذه الأبيات إلى شاعرٍ آخر سواه .وانّنا لنجد في الليالي أبياتاً أصاب الكثير منها التصحيف والتحريف وذلك بسبب كثرة النُّسّاخ الذين تولوا على مرّ العصور والأزمان تصحيح وتنقيح هذا الكتاب النفيس ، وقد أدخلنا الكثير من هذه الأشعار إلى غرفة العناية الفائقة فأسعفنا الحظ فيما بعد بوصف الدواء الشافي لها واستطعنا بعد جهدٍ ومعاناة اخراجها إلى الوجود سليمة معفاة وهي ترتدي أجمل الحلل الزاهية ورأسها مَرْفوعٌ في الهواء فخراً واعتزازاً .

ونظراً لِما لهذا الكتاب من قيمة فنية ؛ أشعرية كانت أو اجتماعية أو تاريخية فقد اتخذته الأديبة الدكتورة سهير القلماوي عنوان أطروحتها التي تقدمت بها إلى جامعة القاهرة لنيل شهادة الدكتوراه وذلك بإشراف عميد الأدب العربي الأستاذ الدكتور طه حسين فاحسنت واجادت شرحاً وتعليلاً وتوضيحاً واستنتاجاً واستقراء ، فاستفادت وأفادت المكتبة العربية بهذه الرسالة الأدبية العلمية القيِّمة كل الإفادة .

ومِنَ المفتونين الكبار بهذا السِّفر الأدبي الشِّعري العِلمي الضّخم الكاتب الفرنسي الكبير فولتير الذي اعترف بصراحة بأنه لم يتمكن من مزاولة كتابة فن القصة كتابة جيدة مفيدة بنّاءة إلاّ بعدما قرأ الف ليلة وليلة أربع عشرَ مرة فهو بلا شك وذلك في نظرنا كان قد قرأ ترجمة المستشرق جلاّن لهذا الكتاب وهي ترجمة منقولة أصلاً عن مخطوط موجود في مصر ولم يكن هذا المخطوط في نظرنا سوى مخطوط بُلاق نفسه بالرغم من إضافة جلاّن بعض الحكايات والقصص إليه وقد ساعده على ذلك موهبته التي خولته كتابة فن القصة بنجاح .

ولا يسعني في نهاية المطاف إلا ان اتقدم بالشكر والعرفان لدار صادر الغرّاء التي أعادت طبع هذا الكتاب للمرة الثانية متعمّدة بذلك ان تقدّمَ للقرّاء والمفكّرين درّة تشعّ منها الأنوار لِتغذّي العقول وتملأ الأبصار بمباهج ثمرات المعرفة والخَلْق والابتكار .

بيروت في ١/ ١/ ١٩٩٩

الدكتور عفيف نايف حاطوم
كلية الآداب - الجامعة اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله صلاة وسلاماً دائمَين متلازمَين إلى يوم الدين. وبعد، فإن سيَر الأولين صارت عبرةً للآخرين لكي يرى الإنسان العبَر التي حصلت لغيره فيعتبر ويطالع حديث الأمم السالفة وما جرى لهم فينزجر. فسبحان من جعل حديث الأولين عبرة لقوم آخرين. فمن تلك العبر الحكايات التي تسمى الف ليلة وليلة، وما فيها من الغرائب والأمثال.

حكاية الملك شهريار وأخيه شاه زمان

فقد حكي، والله أعلم وأحكم وأعز وأكرم: إنه كان في ما مضى وتقدم من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين صاحب جند وأعوان وخدم وحشم وكان له ولدان أحدهما كبير والآخر صغير وكانا فارسين بطلين وكان الكبير أفرَس من الصغير وقد ملك البلاد وحكم بالعدل بين العباد وأحبَّه أهل بلاده ومملكته وكان اسمه الملك شهريار. وكان أخوه الصغير اسمه الملك شاه زمان وكان ملك سمرقند العجم، ولم يزل الأمر مستقيماً في بلادهما وكل واحد منهما في مملكته حاكم عادل في رعيته مدة عشرين سنة، وهم في غاية البسط والانشراح. ولم يزالا على هذه الحالة إلى ان اشتاق الملك الكبير إلى أخيه الصغير فأمر وزيره أن يسافر إليه ويحضر به، فأجابه بالسمع والطاعة. وسافر حتى وصل بالسلامة ودخل على أخيه وبلّغه السلام وأعلمه انّ اخاه مشتاقٌ إليه وقَصْده ان يزوره، فأجابه بالسمع والطاعة وتجهز للسفر، وأخرج خيامه وجماله وبغاله وخدمه وأوانه وأقام وزيره حاكماً في بلاده وخرج طالباً بلاد أخيه. فلمّا كان في نصف الليل، تذكر حاجةً نسيَها في قصره، فرجع ودخل قصره فوجد زوجته راقدة في فراشه معانقة عبداً أسودَ من العبيد. فلما رأى هذا، اسودت الدنيا في وجهه وقال في نفسه: إذا كان هذا الأمر قد وقع وأنا ما فارقت المدينة، فكيف حال هذه العاهرة إذا غبت عند أخي مدة. ثم انه سلّ سيفه وضرب الإثنين فقتلهما في الفراش، ورجع من وقته وساعته وأمر بالرحيل. وسار إلى ان وصل إلى مدينة أخيه، ففرح أخوه بقدومه ثم خرج إليه ولاقاه، وسلّم عليه وفرح به غاية الفرح وزين له المدينة وجلس معه يتحدث بانشراح، فتذكر الملك شاه زمان ما كان من أمر زوجته فحصل عنده غم زائد واصفرّ لونه، وضَعُفَ جسمه. فلما رآه أخوه على هذه الحالة، ظن في نفسه أن ذلك بسبب مفارقته بلاده وملكه، فترك سبيله ولم يسأل عن ذلك. ثم إنه قال له في بعض الأيام: يا أخي إني أراك ضَعُفَ جسمك واصفرّ لونك. فقال له: يا أخي، إن في باطني جرح، ولم يخبره بما رأى من زوجته، فقال: إني أريد ان تسافر معي إلى الصيد والقنص لعلك ينشرح صدرك، فأبى ذلك. فسافر أخوه وحده إلى الصيد. وكان في قصر الملك شبابيك تطل على بستان أخيه. فنظر، وإذا بباب القصر قد فتح وخرج منه عشرون جارية وعشرون عبداً وامرأة أخيه تمشي بينهم وهي في غاية الحسن والجمال، حتى وصلوا إلى فسقية وخلعوا ثيابهم وجلسوا مع بعضهم. وإذا بإمرأة الملك قالت: يا مسعود، فجاءها عبد أسود فعانقها وعانقته وواقعها، وكذلك باقي العبيد فعلوا بالجواري. ولم يزالوا في بوس وعناق ونيك ونحو دلك حتى ولى النهار. فلما رأى ذلك أخو الملك، قال في نفسه: والله إن بليتي أخف من هذه البلية، وقد هان ما عنده

من القهر والغمّ وقال : هذا أعظم مما جرى لي ولم يزل في أكل وشرب . وبعد هذا جاء أخوه من السفر فسلّما على بعضهما ، ونظر الملك شهريار إلى أخيه الملك شاه زمان وقد رُدّ لونه واحمرّ وجهه ، وصار يأكل بشهية بعدما كان قليل الأكل ، فتعجّب من ذلك وقال : يا أخي كنت أراك مصفرّ اللون والوجه والآن قد رُدّ إليك لونك ، فأخبرني بحالك . فقال له : أمّا تغيّر لَوني فاذكره لك ، واعف عني من إخبارك بردّ لوني . فقال له : أخبرني أولاً بتغيّر لونك وضعفك حتى أسمعه . فقال له : يا أخي أعلم أنك لما أرسلت وزيرك إليّ يطلبني للحضور بين يديك ، جهّزت حالي وقد برزت من مدينتي ، ثم إني تذكرت الخرزة التي أعطيتها لك في قصري ، فوجدت زوجتي معها عبد أسود وهو نائم في فراشي فقتلتهما وجئت إليك وأنا متفكر في هذا الأمر ، فهذا سبب تغير لوني وضعفي . وأما ردّ لوني فاعف عني من أن أذكره لك . فلما سمع أخوه كلامه قال له : أقسمت عليك بالله أن تخبرني بسبب ردّ لونك ، فأعاد عليه جميع ما رآه . فقال شهريار لأخيه شاه زمان : مرادي أن أنظر بعيني ، فقال له أخوه شاه زمان : اجعل أنك مسافر للصيد والقنص واختف عندي ، وأنت تشاهد ذلك وتحققه عياناً . فنادى الملك من ساعته بالسفر . فخرجت العساكر والخيام إلى ظاهر المدينة وخرج الملك . ثم إنه جلس في الخيام وقال لغلمانه : لا يدخل عليّ أحد . ثم إنه تنكر وخرج مختفيًا إلى القصر الذي فيه أخوه . وجلس في الشباك المطل على البستان ساعة من الزمان ، وإذا بالجواري وسيدتهم دخلوا مع العبيد وفعلوا كما قال أخوه ، واستمروا كذلك إلى العصر . فلما رأى الملك شهريار ذلك الأمر ، طار عقله من رأسه وقال لاخيه شاه زمان : قم بنا نسافر إلى حال سبيلنا وليس لنا حاجة بالملك حتى ننظر هل جرى لاحد مثلنا أو لا ، فيكون موتنا خيراً من حياتنا ، فأجابه لذلك . ثم إنهما خرجا من باب سرّي في القصر ، ولم يزالا مسافرين أياماً وليالي إلى أن وصلا إلى شجرة في وسط مرج عندها عين ماء بجانب البحر المالح ، فشربا من تلك العين وجلسا يستريحان ، فلما كان بعد ساعة مضت من النهار ، وإذا هم بالبحر قد هاج وطلع منه عامود أسود صاعد إلى السماء ، وهو قاصد تلك المرجة قال : فلما رأيا ذلك ، خافا وطلعا إلى أعلى الشجرة ، وكانت عالية وصارا ينظران ماذا يكون ، وإذا بجنّي طويل القامة عريض الهامة ، واسع الصدر والقامة ، على رأسه صندوق ، فطلع إلى البر وأتى الشجرة التي هما فوقها وجلس تحتها ، وفتح الصندوق وأخرج منه علبة ، ثم فتحها فخرجت منها صبية غرّاء بهيّة كأنها شمس مضيئة كما قال الشاعر : [من الخفيف]

أَشْرَقَتْ في الدُّجَى فلاحَ النَّهارُ وأسْتَنارَتْ بِنُوْرِهَا الأَشْجارُ
مِنْ سَنَاها الشُّمُوْسُ تُشْرِقُ لَمَّا تَتَبَدَّى وتَنْجَلي الأَقْمارُ
تَسْجُدُ الكائناتُ بَينَ يَدَيْها حِينَ تَبْدُو وتُهْتَكُ الأَسْتارُ
وإذا أَوْمَضَتْ بُرُوقُ حِماها هَطَلَتْ بالمَدامِعِ الأَمْطارُ

قال فلما نظر إليها الجنّيّ قال : يا سيدة الحرائر التي قد اختطفتُها ليلة عرسها أريد أن أنام قليلاً . ثم إن الجني وضع رأسه على ركبتها ونام ، فرفعت الصبية رأسها إلى أعلى الشجرة . فرأت الملكَين وهما فوق تلك الشجرة . فرفعت رأس الجنّي من فوق ركبتها ووضعته على الأرض ووقفت تحت الشجرة وقالت لهما بالإشارة : إنزلا ولا تخافا من هذا العفريت ، فقالا لها : بالله عليك أن تسامحينا من هذا الأمر . فقالت لهما : بالله عليكما أن تنزلا وإلاّ نبّهتُ عليكما العفريت فيقتلكما شر قتلة . فخافا ونزلا

إليها، فقامت لهما وقالت: ارصعا رصعاً عنيفاً، وإلا أنبّه عليكما العفريت. فمن خوفهما قال الملك شهريار لأخيه الملك شاه زمان: يا أخي، افعل ما أمرتك به. فقال: لا أفعل حتى تفعل أنت قبلي، وأخذا يتغامزان على نَيْكها. فقالت لهما: ما لي أراكما تتغامزان؟ فإن لم تتقدّما وتفعلا، وإلا نبّهت عليكما العفريت. فمن خوفهما من الجني فعلا ما أمرتهما به. فلما فرغا قالت لهما: أفيقا، وأخرجت لهما من جيبها كيساً وأخرجت لهما منه عقداً فيه خمسُمائة وسبعون خاتماً. فقالت لهما: أتدرون ما هذه؟ فقالا لها: لا ندري. فقالت لهما: أصحاب هذه الخواتم كلهم كانوا يفعلون بي على غفلة قرن هذا العفريت، فاعطياني خاتميكما أنتما الإثنان الآخران. فأعطياها من يديهما خاتمين. فقالت لهما إن هذا العفريت قد اختطفني ليلة عرسي، ثم أنه وضعني في علبة وجعل العلبة داخل الصندوق ورمى على الصندوق سبعة أقفال وجعلني في قاع البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، ولم يعلم أن المرأةَ منا إذا أرادت أمراً لم يغلبها شيء كما قال بعضهم: [من مجزوء الكامل]

لا تَأْمَنَنَّ إلى النِّساء ولا تَـثِـقَـنَّ بعُهُودِهِنَّ
فَرِضاؤُهُــنَّ وسُخْطُهُــنَّ مُعَـلَّـقٌ بِـفُـرُوجِـهِنَّ
يَـبْدينَ وُدّاً كاذِبـاً والغَدْرُ حَشْو ثِيابِهِنَّ
بِحَديثِ يُوسُفَ فاعْتَبِرْ متَحَذِّراً مِنْ كَيْدِهِنَّ
أَوَمَا تَرَى إبْلِيسَ أَخْـ ـرَجَ آدَماً مِنْ أَجْلِهِنَّ

وقال بعضهم: [من الخفيف]

كُفَّ لَوْماً غَداً يُقَوِّيْ المَلُوما ويَزِيدُ الغَرامُ عِشْقاً عَظِيْما
إن أكُنْ عاشِقاً فَما آتِ إلاَّ ما أَتَتْهُ الرِّجالُ قَبْلِي قَدِيْما
إنَّما يَـكْثُرُ التَّعَجُّبُ مِمَّنْ كان مِنْ فِتنَةِ النِّساءِ سَلِيمَا

فلما سمعا منها هذا الكلام، تعجّبا غاية التعجّب وقالا لبعضهما: إذا كان هذا عفريت وجرى له أعظم مما جرى لنا فهذا شيء يسلّينا. ثم إنهما انصرفا من ساعتهما عنها ورجعا إلى مدينة الملك شهريار ودخلا قصره. ثم إنه رمى عنق زوجته وكذلك أعناق الجواري والعبيد. وصار الملك شهريار كلما يأخذ بنتاً بكراً يزيل بكارتها ويقتلها من ليلتها، ولم يزل على ذلك مدة ثلاث سنوات. فضجّت الناس وهربت ببناتها ولم يبق في تلك المدينة بنت تتحمل الوطىء. ثم إن الملك أمر الوزير أن يأتيه ببنت على جري عادته فخرج الوزير وفتش فلم يجد بنتاً، فتوجه إلى منزله وهو غضبان مقهور خائف على نفسه من الملك. وكان الوزير له بنتان، الكبيرة اسمها شهرزاد والصغيرة اسمها دنيازاد، وكانت الكبيرة قد قرأت الكتب والتواريخ وسِيَرَ الملوك المتقدمين وأخبار الأمم الماضين. قيل أنها جمعت ألف كتاب من كتب التواريخ المتعلقة بالأمم السالفة والملوك الخالية والشعراء. فقالت لأبيها: ما لي أراك متغيّراً حامل الهمّ والأحزان؟ وقد قال بعضهم في المعنى شعر: [من مجزوء الرَّمل]

قُلْ لِمَنْ يَحْمِلُ هَمّاً إنَّ هَمّاً لا يَدُومُ
مِثْلَ ما يَفْنَى السُّرُورُ هكذا تَفْنَى الهُمُومُ

فلما سمع الوزير من ابنته هذا الكلام ، حكى لها ما جرى له من الأول إلى الآخر مع الملك . فقالت له : بالله يا أبتي زوّجني هذا الملك ، فإما أن أعيش وإما أن أكون فداءً لبنات المسلمين وسبباً لخلاصهن من بين يديه . فقال لها : بالله عليك لا تخاطري بنفسك أبداً فقالت له : لا بد من ذلك . فقال : أخشى عليك أن يحصل لك ما حصل للحمار والثور مع صاحب الزرع . فقالت له : وما الذي جرى لهما يا أبت ؟

قال اعلمي يا ابنتي أنه كان لبعض التجار أموال ومواش ، وكان له زوجة وأولاد ، وكان الله تعالى أعطاه معرفة ألسن الحيوانات والطير ، وكان مسكن ذلك التاجر الأرياف ، وكان عنده في داره حمار وثور ، فأتى يوماً الثور إلى مكان الحمار فوجده مكنوساً مرشوشاً وفي معلفه شعير مغربل وتبن مغربل وهو راقد مستريح ، وفي بعض الأوقات يركبه صاحبه لحاجة تعرض له ويرجع على حاله . فلما كان في بعض الأيام ، سمع التاجر الثور وهو يقول للحمار : هنيئاً لك ذلك ، أنا تعبان وأنت مستريح ، تأكل الشعير مغربلاً ويخدمونك ، وفي بعض الأوقات يركبك صاحبك ويرجع ، وأنا دائماً للحرث والطحين فقال له الحمار : إذا خرجت إلى الغيط ووضعوا على رقبتك الناف ، فارقد ولا تقم ولو ضربوك ، فإن قمت فارقد ثانياً ، فإذا رجعوا بك ووضعوا لك الفول ، فلا تأكله كأنك ضعيف وامتنع من الأكل والشرب يوماً أو يومين أو ثلاثة ، فإنك تستريح من التعب والجهد ، وكان التاجر يسمع كلامهما . فلما جاء السواق إلى الثور بعلفه ، أكل منه شيئاً يسيراً . فأصبح السواق يأخذ الثور إلى الحرث فوجده ضعيفاً . فقال له التاجر : خذ الحمار وحرّثه مكانه اليوم كله ، فرجع الرجل وأخذ الحمار مكان الثور وحرّثه مكانه اليوم كله ، فلما رجع آخر النهار شكره الثور على تفضلاته حيث أراحه من التعب في ذلك اليوم فلم يرد عليه الحمار جواباً ، وندم أشد الندامة . فلما كان ثاني يوم ، جاء الزراع وأخذ الحمار وحرّثه إلى آخر النهار . فلم يرجع الحمار إلا مسلوخ الرقبة شديد الضعف . فتأمله الثور وشكره ومجّده فقال له الحمار : كنت مقيماً مستريحاً فما ضرّني الا فضولي . ثم قال : اعلم أني لك ناصح وقد سمعت صاحبنا يقول إن لم يقم الثور من موضعه ، أعطوه للجزار ليذبحه ويعمل جلده قطعاً ، وأنا خائف عليك ونصحتك والسلام . فلما سمع الثور كلام الحمار ، شكره وقال : في غد أسرح معهم . ثم إن الثور أكل كل علفه بتمامه حتى لحس المذود بلسانه . كل ذلك وصاحبهما يسمع كلامهما . فلما طلع النهار وخرج التاجر وزوجته إلى دار البقر وجلسا ، فجاء السواق وأخذ الثور وخرج . فلما رأى الثور صاحبه ، حرّك ذنَبه وضرط وبرطع . فضحك التاجر حتى استلقى على قفاه . فقالت له زوجته : من أي شيء تضحك فقال لها : شيء رأيته وسمعته ولا أقدر أن أبوح به فأموت ، فقالت له : لا بدّ أن تخبرني بذلك وما سبب ضحكك ولو كنت تموت . فقال لها : ما أقدر أن أبوح به خوفاً من الموت . فقالت له : أنت لم تضحك إلا عليّ . ثم انها لم تزل تلح عليه وتلج في الكلام إلى أن غلبت عليه وتحيّر ، فأحضر أولاده وأرسل احضار القاضي والشهود وأراد أن يوصي ثم يبوح لها بالسر ويموت ، لأنه كان يحبها محبّة عظيمة ، لأنها بنت عمه وأم أولاده . وكان قد عمّر من العمر مائة وعشرين سنة . ثم إنه أحضر جميع أهلها وأهل حارته وقال لهم حكايته ، وأنه متى قال لأحد على سرّه مات . فقال لها جميع الناس ممن حضرها : بالله عليك اتركي هذا الأمر لئلا يموت زوجك أبو أولادك . فقالت لهم : لا أرجع عنه

حتى يقول لي ولو يموت ، فسكتوا عنها . ثم إن التاجر قام من عندهم وتوجّه إلى دار الدواب ليتوضأ ، ثم يرجع يقول لهم ويموت . وكان عنده ديك تحته خمسون دجاجة ، وكان عنده كلب ، فسمع التاجر الكلب وهو ينادي الديك ويسبه ويقول له : أنت فرحان وصاحبنا رايح يموت ، فقال الديك للكلب : وكيف ذلك الأمر ؟ فأعاد الكلب عليه القصة فقال له الديك : والله إن صاحبنا قليل العقل أنا لي خمسون زوجة أُرضي هذه وأُغضب هذه ، وهو ما له إلا زوجة واحدة ولا يعرف صلاح أمره معها فما له لا يأخذ لها بعضاً من عيدان التوت ثم يدخل إلى حجرتها ويضربها حتى تموت أو تتوب ولا تعود تسأله عن شيء ؟ قال : فلما سمع التاجر كلام الديك وهو يخاطب الكلب رجع إلى عقله وعزم على ضربها .

ثم قال الوزير لإبنته شهرزاد : ربما فعل بك مثل ما فعل التاجر بزوجته ؛ فقالت له : وما فعل ؟ قال : دخل عليها الحجرة بعدما قطع لها عيدان التوت وخبأها داخل الحجرة وقال لها تعالي داخل الحجرة حتى أقول لك ولا ينظرني أحد ثم أموت . فدخلت معه ، ثم إنه قفل باب الحجرة عليهما ونزل عليها بالضرب إلى أن أغمي عليها فقالت له : تبت . ثم انها قبّلت يديه ورجليه وتابت وخرجت هي وإياه ، وفرح الجماعة وأهلها ، وقعدوا في أسرّ الأحوال إلى الممات .

فلما سمعت ابنة الوزير مقالة أبيها قالت له : لا بدّ من ذلك . فجهّزها وطلع إلى الملك شهريار . وكانت قد أوصت أختها الصغيرة وقالت لها : إذا توجهت إلى الملك أرسل أطلبك ، فإذا جئت عندي ورأيت الملك قضى حاجته مني ، فقولي : يا أختي ، حدّثيني حديثاً غريباً نقطع به السهر ، وأنا أحدّثك حديثاً يكون فيه الخلاص إن شاء اللّه . ثم إن أباها الوزير طلع بها إلى الملك فلما رآه فرح وقال : أتيتَ بحاجتي ؟ فقال : نعم . فلما أراد أن يدخل عليها بكت ، فقال لها : ما لك ؟ فقالت : أيها الملك إن لي أختاً صغيرة أريد أن أودعها . فأرسل الملك إليها فجاءت إلى أختها وعانقتها ، وجلست تحت السرير . فقام الملك وأخذ بكارتها ثم جلسوا يتحدثون . فقالت لها أختها الصغيرة : بالله عليك يا أختي حدّثينا حديثًا نقطع به سَهَرَ ليلتنا . فقالت : حبّاً وكَرامةً إن أذن لي هذا الملك المهذب . فلما سمع الملك ذلك الكلام وكان به قلق ، فَرِحَ بسماع الحديث .

1 - حكاية التاجر مع العفريت

فلما كانت الليلة 1

□ قالت : بلَغَني أيها الملك السعيد ، أنه كان تاجر من التجار كثير المال والمعاملات في البلاد ، قد ركب يوماً وخرج يطالب في بعض البلاد فاشتدّ عليه الحرّ ، فجلس تحت شجرة وحطّ يده في خرجه وأكل كِسرة كانت معه وتمرة ، فلما فرغ من أكل التمرة رمى النواة ، وإذا هو بعفريت طويل القامة وبيده سيف . دنا من ذلك التاجر وقال له : قم حتى أقتلك مثل ما قتلت ولدي ، فقال له التاجر : كيف قتلت ولدك ؟ قال له : لما أكلت التمرة ورميت نواتها ، جاءت النواة في صدر ولدي ، فقُضِيَ عليه ومات من ساعته . فقال التاجر للعفريت : أعلم أيها العفريت أني عليّ دَين ولي مال كثير وأولاد وزوجة ، وعندي رهون فدعني أذهب إلى بيتي وأعطي كل ذي حق حقه . ثم أعود إليك ولك علي عهد وميثاق أني أعود إليك فافعل بي ما تريد والله على ما أقول وكيل . فاستوثَقَ منه الجِنّيّ وأطلقه . فرجع إلى بلده وقضى جميع تعلّقاته ،

وأوصل الحقوق إلى أهلها، وأعلم زوجته وأولاده بما جرى له، فبكوا وكذلك جميع أهله ونسائه وأولاده، وأوصى وقعد عندهم إلى تمام السنة، ثم توجّه وأخذ كفنه تحت إبطه وودّع أهله وجيرانه، وجميع أهله وخرج رغماً عن انفه. فأقاموا عليه العياط والصراخ. فمشى إلى ان وصل إلى ذلك البستان، وكان ذلك اليوم أول السنة الجديدة. فبينما هو جالس يبكي على ما يحصل له، وإذا بشيخ كبير قد أقبل عليه ومعه غزالة مسلسلة، فسلّم على ذلك التاجر وحيّاه وقال له: ما سبب جلوسك في هذا المكان وأنت منفرد وهو مأوى الجن؟ فأخبره التاجر بما جرى له مع ذلك العفريت، وبسبب قعوده في هذا المكان. فتعجب الشيخ صاحب الغزالة وقال: والله يا أخي ما دينك إلا دين عظيم، وحكايتك حكاية عجيبة لو كتبت بالابر على اماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر. ثم انه جلس بجانبه وقال: والله يا أخي لا أبرح من عندك حتى أنظر ما يجري لك مع ذلك العفريت. ثم إنه جلس عنده يتحدث معه فغشي على ذلك التاجر، وحصل له الخوف والفزع والغم الشديد والفكر المزيد، وصاحب الغزالة بجانبه، وإذا بشيخ ثان قد اقبل عليهما ومعه كلبتان سلاقيتان من الكلاب السود، فسألهما بعد السلام عليهما عن سبب جلوسهما في هذا المكان وهو مأوى الجن، فأخبراه بالقصة من أولها إلى آخرها. فلم يستقرّ به الجلوس حتى أقبل عليهم شيخ ثالث ومعه بغلة زرزوريّة. فسلّم عليهم وسألهم عن سبب جلوسهم في هذا المكان فأخبروه بالقصة من أولها إلى آخرها، وليس في الإعادة إفادة، وإذا بغبرة هاجت وزوبعة عظيمة قد أقبلت من وسط تلك البرية، فانكشفت الغبرة وإذا بذلك الجنّي وبيده سيف مسلول وعيونه ترمي بالشرر فأتاهم وجذب ذلك التاجر من بينهم وقال له: قم حتى أقتلك مثل ما قتلت ولدي وحشاشة كبدي. فانتحب ذلك التاجر وبكى وأعلن الثلاثة شيوخ بالبكاء والعويل والنحيب، فانتبه منهم الشيخ الأول، وهو صاحب الغزالة وقبّل يد ذلك العفريت وقال له: أيها الجنّي وتاج ملوك الجان، إذا حكيت لك حكايتي مع هذه الغزالة ورأيتها عجيبة تهب لي ثلث دم هذا التاجر؟ فقال: نعم أيها الشيخ، إذا أنت حكيت لي الحكاية ورأيتها عجيبة وهبت لك ثلث دمه. فقال ذلك الشيخ الأول: أعلم أيها العفريت أن هذه الغزالة هي بنت عمي ومن لحمي ودمي، وكنت تزوجت بها وهي صغيرة السن وأقمت معها نحو ثلاثين سنة فلم أرزق منها بولد، فأخذت لي سرية فرزقت منها بولد ذكر كأنه البدر اذا ابدا بعينين مليحتين وحاجبين مزججين وأعضاء كاملة. فكبر شيئًا فشيئًا إلى أن صار ابن خمس عشرة سنة فطرأت لي سفرة إلى بعض المدائن، فسافرت بمتجر عظيم. وكانت بنت عمي هذه الغزالة تعلمت السحر والكهانة من صغرها فسحرت ذلك الولد عِجْلاً وسحرت الجارية أمه بقرة، وسلّمتهما إلى الراعي. ثم جئت أنا بعد مدة طويلة من السفر فسألت عن ولدي وعن أمه فقالت لي: جاريتك ماتت وابنك هرب ولم أعلم أين راح. فجلست مدة سنة وأنا حزين القلب باكي العين إلى أن جاء عيد الضحية، فأرسلت إلى الراعي أن يخصني ببقرة سمينة فجاءني ببقرة سمينة وهي سريتي التي سحرتها تلك الغزالة فشمّرت ثيابي وأخذت السكين بيدي، وتهيّأت لذبحها، فصاحت وبكت بكاءً شديداً، فقمت عنها وأمرت ذلك الراعي بذبحها وسلخها، فذبحها وسلخها فلم يجد فيها شحماً ولا لحماً غير جلد وعظم. فندمت على ذبحها حيث لا ينفعني الندم، وأعطيتها للراعي وقلت له: ائتني بعجل سمين، فأتاني بولدي المسحور عجلاً. فلما رآني ذلك العجل

قطع حبله وجاءني وتمرّغ عليّ وولول وبكى فأخذتني الرأفة عليه وقلت للراعي : ائتني ببقرة ودع هذا .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . فقالت لها أختها : ما أطيب حديثك والطفه والذّه وأعذبه . فقالت لها : وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشت وأبقاني الملك فقال الملك في نفسه والله ما أقتلها حتى أسمع بقية حديثها . ثم إنهم باتوا تلك الليلة إلى الصباح متعانقين . فخرج الملك إلى محل حكمه وطلع الوزير بالكفن تحت إبطه . ثم حكم الملك وولّى وعزل إلى آخر النهار ولم يخبر الوزير بشيء من ذلك . فتعجّب الوزير غاية العجب ، ثم انفض الديوان ودخل الملك شهريار قصره .

فلما كانت الليلة 2

□ قالت دنيازاد لاختها شهرزاد : يا أختي اتمي لنا حديثك الذي هوحديث التاجر والجنّي قالت : حُبّاً وكرامة إن أذن لي الملك في ذلك . فقال لها الملك : إحكي . فقالت : بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد ، أنه لما رأى بكاء العجل حنّ قلبه إليه وقال للراعي : أبقِ هذا العجل بين البهائم ، كل ذلك والجني يتعجّب من حكاية ذلك الكلام العجيب . ثم قال صاحب الغزالة : يا سيد ملوك الجان ، كل ذلك جرى وابنة عمي هذه الغزالة تنظر وترى وتقول : اذبح هذا العجل فإنه سمين . فلم يهن عليّ أن أذبحه وأمرت الراعي أن يأخذه ، فأخذه وتوجّه به . ففي ثاني يوم وانا جالس ، وإذا بالراعي مقبل عليّ وقال : يا سيدي إني أقول شيئًا تسر به ولي البشارة . فقلت : نعم . فقال : أيها التاجر إن لي بنتاً كانت تعلّمت السحر في صغرها من امرأة عجوز كانت عندنا . فلما كنا بالأمس وأعطيتني العجل دخلت به عليها ، فنظرت إليه بنتي وغطت وجهها وبكت . ثم انها ضحكت وقالت : يا أبي قد خسّ قدري عندك حتى تدخل عليّ الرجال الأجانب ؟ فقلت لها : وأين الرجال الأجانب ، ولماذا بكيت وضحكت ؟ فقالت لي : إن هذا العجل الذي معك ابن سيدي التاجر ولكنه مسحور وسحرته زوجة أبيه هو وأمه ، فهذا سبب ضحكي وأما سبب بكائي ، من أجل أمه حيث ذبحها أبوه فتعجبت من ذلك غاية العجب وما صدقت بطلوع الصباح حتى جئت إليك لأعلمك . فلما سمعت أيها الجنّي كلام هذا الراعي ، خرجت معه وأنا سكران من غير مدام من كثرة الفرح والسرور الذي حصل لي ، إلى ان اتيت إلى داره فرحّبت بي ابنة الراعي وقبّلت يدي . ثم ان العجل جاء إليّ وتمرغ عليّ فقلت لابنة الراعي : أحق ما تقولينه عن ذلك العجل ؟ فقالت : نعم يا سيدي إنه ابنك وحشاشة كبدك . فقلت لها : أيتها الصبية إن انت خلّصتِه ، فلك عندي ما تحت يد أبيك من المواشي والأموال فتبسمت وقالت يا سيدي ليس لي رغبة في المال إلا بشرطين : الأول أن تزوّجني به ، والثاني أن أسحر من سحرته وأحبسها ، وإلا فلست آمن مكرها . فلما سمعت أيها الجنّي كلام بنت الراعي قلت : ولك فوق جميع ما تحت يد أبيك من الأموال زيادة ، وأما بنت عمي ، فدمها لك مباح . فلما سَمِعت كلامي أخذَت طاسة وملأتها ماء ، ثم انها عزمت عليها ورشّت بها العجل وقالت له : إن كان الله خلقك عجلاً فدم على هذه الصفة ولا تتغير وإن كنت مسحوراً فَعُد إلى خلقَتِك الأولى بإذن الله تعالى . وإذا به انتفض ثم صار إنساناً فوقعت عليه وقلت له : بالله عليك إحك لي جميع ما صنعت بك وبأمك بنت عمي . فحكى لي جميع ما جرى لهما فقلت يا

ولدي قد قيض الله لك من خلصك وخلص حقك . ثم إني أيها الجنّي زوّجته ابنة الراعي ، ثم إنها سحرت ابنة عمي هذه الغزالة ، وجئت إلى هنا فرأيت هؤلاء الجماعة فسألتهم عن حالهم فأخبروني بما جرى لهذا التاجر فجلست لأنظر ما يكون وهذا حديثي . فقال الجنّي : هذا حديث عجيب وقد وهبت لك ثلث دمه . فعند ذلك تقدم الشيخ الثاني صاحب الكلبتين السلاقيتين وقال له : أعلم يا سيد ملوك الجان أن هاتين الكلبتين إخوتي وأنا ثالثهم ، ومات والدي وخلّف لنا ثلاثة آلاف دينار ، ففتحت أنا دكاناً أبيع فيه وأشتري ، وسافر أخي بتجارته وغاب عنا مدة سنة مع القوافل ثمّ أتى وما معه شيء فقلت له : يا أخي أما أشرت عليك بعدم السفر ؟ فبكى وقال :يا أخي قدّر الله عز وجل علي بهذا ولم يبق لهذا الكلام فائدة . ولست أملك شيئًا فأخذته وطلعت به إلى الدكان ، ثم ذهبت به إلى الحمام ، وألبسته حلّة من الملابس الفاخرة ، وأكلت أنا وإياه وقلت له : يا أخي إني أحسب ربح دكاني من السنة إلى السنة ، ثم أقسمه دون رأس المال بيني وبينك . ثم إني عملت حساب الدكان من ربح مالي فوجدته ألفي دينار . فحمدت الله عز وجل وفرحت غاية الفرح وقسمت الربح بيني وبينه شطرين وأقمنا مع بعضنا أياماً . ثم إن إخوتي طلبوا السفر أيضاً وأرادوا أن أسافر معهم فلم أرض وقلت لهم : أي شيء كسبتم في سفركم حتى أكسب أنا ؟ فألحّوا عليّ ولم أطعهم ، بل أقمنا في دكاكيننا نبيع ونشتري سنة كاملة وهم يعرضون عليّ السفر حتى مضت ستّ سنوات كوامل ، ثم وافقتهم على السفر وقلت لهم : يا إخوتي إننا نحسب ما عندنا من المال ، فحسبناه فإذا هو ستة آلاف دينار . فقلت : ندفن نصفها تحت الأرض لينفعنا إذا أصابنا أمر ويأخذ كل واحد منا ألف دينار ونتسبب فيها . قالوا : نِعم الرأي . فأخذت المال وقسمته نصفين ودفنت ثلاثة آلاف دينار ، وأما الثلاثة آلاف دينار الأخرى فأعطيت كل واحد منهم ألف دينار وجهزنا بضائع واكترينا مركباً ونقلنا فيها حوائجنا وسافرنا مدة شهر كامل إلى أن دخلنا مدينة وبعنا بضائعنا فربحنا في الدينار عشرة دنانير ، ثم أردنا السفر ، فوجدنا على شاطىء البحر جارية عليها خلق مقطع ، فقبّلت يدي وقالت : يا سيدي هل عندك إحسان ومعروف أجازيك عليهما ؟ قلت : نعم إن عندي الإحسان والمعروف ولو لم تجازني . فقالت : يا سيدي تزوّجني وخذني إلى بلادك فإني قد وهبتك نفسي ، فافعل معي معروفاً لأني ممن يصنع معه المعروف والإحسان ، ويجازى عليهما ولا يغرنك حالي . فلما سمعت كلامها حن قلبي إليها لأمر يريده الله عزّ وجلّ فأخذتها وكسوتها وفرشت لها في المركب فرشاً حسناً ، وأقبلت عليها وأكرمتها ، ثم سافرنا وقد أحبها قلبي محبة عظيمة ، وصرت لا أفارقها ليلاً ولا نهاراً . واشتغلت بها عن إخوتي فغاروا مني وحسدوني على مالي وكثرة بضاعتي . وطمحت عيونهم في المال جميعه . وتحدثوا بقتلي وأخذ مالي وقالوا : نقتل أخانا ويصير المال جميعه لنا . وزين لهم الشيطان أعمالهم فجاؤوني وأنا نائم بجانب زوجتي وحملوني أنا وزوجتي ورمونا في البحر . فلما استيقظت زوجتي انتفضت فصارت عفريتة وحملتني وطلعتني على جزيرة وغابت عني قليلاً وعادت إليّ عند الصباح ، وقالت لي : أنا زوجتك التي حملتك ونجيتك من القتل بإذن الله تعالى ، واعلم أنني جنّية ، رأيتك فحبك قلبي لله وأنا مؤمنة بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم . فجئتك بالحال الذي رأيتني فيه فتزوجت بي وها أنا قد نجيتك من الغرق ، وقد غضبتُ على إخوتك ولا بد أن أقتلهم . فلما سمعت حكايتها ، تعجّبت وشكرتها على فعلها وقلت لها : أما

هلاك إخوتي فلا ينبغي . ثم حكيت لها ما جرى لي معهم من أول الزمان إلى آخره . فلما سمعت كلامي قالت : أنا في هذه الليلة أطير إليهم وأغرق مركبهم وأهلكهم . فقلت لها : بالله عليك لا تفعلي فإن صاحب المثل يقول : يا محسناً لمن أساء كفى المسيءَ فعله ، وهم إخوتي على كل حال . قالت : لا بد لي من قتلهم . فاستعطفتها ، ثم إنها حملتني وطارت فوضعتني على سطح داري . ففتحت الأبواب وأخرجت الذي خبّأته تحت الأرض وفتحت دكاني بعدما سلمت على الناس ، واشتريت بضائع . فلما كان الليل ، دخلت داري فوجدت هاتين الكلبين مربوطين فيها . فلما رأياني قاما إلي وبكيا وتعلقا بي فلم أشعر إلا وزوجتي قالت : هؤلاء إخوتك . فقلت : ومن فعل بهم هذا الفعل ؟ قالت : أنا أرسلت إلى أختي ففعلت بهم ذلك وما يتخلصون إلا بعد عشر سنوات . فجئت وأنا سائر إليها تخلصهم بعد إقامتهم عشر سنوات في هذه الحال ، فرأيت هذا الفتى فأخبرني بما جرى له . فأردت أن لا أبرح حتى أنظر ما يجري بينك وبينه وهذه قصتي . قال الجني : إنها حكاية عجيبة وقد وهبت لك ثلث دمه في جنايته .

فلما كانت الليلة 3

□ قالت : بلغني أن الشيخ الثالث صاحب البغلة قال للجني : أنا أحكي لك حكاية أعجب من حكاية الإثنين وتهب لي باقي دمه وجنايته أيها الجني . قال : نعم . فقال الشيخ : أيها السلطان ورئيس الجان ، إن هذه البغلة كانت زوجتي سافرت وغبت عنها سنة كاملة ، ثم قضيت سفري وجئت إليها في الليل ، فرأيت عبداً أسودَ راقداً معها في الفراش وهما في كلام وغنج وضحك وتقبيل وهراش ، فلما رأتني عجلت وقامت إلي بكوز فيه ماء ، فتكلّمت عليه ورشّتني وقالت : أخرج من هذه الصورة إلى صورة كلب . فصرت في الحال كلباً ، فطردتني من البيت فخرجت من الباب ولم أزل سائراً حتى وصلت إلى دكان جزّار . فتقدمت وصرت آكل من العظام . فلما رآني صاحب الدكان أخذني ودخل بي بيته ، فلما رأتني بنت الجزار ، غطّت وجهها مني وقالت : أتجيء لنا برجل وتدخل علينا به ؟ فقال أبوها : أين الرجل ؟ قالت إن هذا الكلب رجل سحرته امرأته ، وأنا أقدر على تخليصه . فلما سمع أبوها كلامها قال : بالله عليك يا بنتي خلّصيه . فأخذت كوزاً فيه ماء وتكلّمت عليه ورشّت عليّ منه قليلاً وقالت : اخرج من هذه الصورة إلى صورتك الأولى . فصرت إلى صورتي الأولى فقبلت يدها وقلت لها : أريد أن تسحري زوجتي كما سحرتني ، فأعطتني قليلاً من الماء وقالت : إذا رأيتها نائمة رشّ هذا الماء عليها فإنها تصير كما أنت طالب . فوجدتها نائمة فرشيت عليها الماء وقلت : اخرجي من هذه الصورة إلى صورة بغلة . فصارت في الحال بغلة وهي هذه التي تنظرها بعينيك أيها السلطان ورئيس ملوك الجان . ثم التفت إليها قال : أصحيح ، فهزّت رأسها وقالت بالإشارة : نعم هذا صحيح . فلما فرغ من حديثه ، اهتزّ الجني من الطرب ووهب له ثلث دمه .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . فقالت لها أختها : يا أختي ما أحلى حديثك وأطيبه وألذه وأعذبه . فقالت : وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشت وأبقاني الملك ؟ فقال الملك : والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها لأنه عجيب . ثم باتوا تلك الليلة متعانقين إلى الصباح فخرج الملك إلى محل حكمه ودخل عليه الوزير والعسكر واحتبك الديوان ، فحكم الملك وولى وعزل ونهى وأمر إلى آخر النهار . ثم انفض الديوان ودخل الملك

شهريار إلى قصره . فلما أقبل الليل وقضى حاجته من بنت الوزير ، قالت لها أختها دنيازاد : يا أختي أتممي لنا حديثك . فقالت : حباً وكرامة . بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشيخ الثالث لما قال للجني حكاية أعجب من الحكايتين ، تعجّب الجني غاية العجب واهتز من الطرب ، وقال : قد وهبتُ لك باقي جنايته وأطلقته لكم ، فأقبل التاجر على الشيوخ وشكرهم وهنوه بالسلامة ورجع كل واحد إلى بلده .

2 - حكاية الصياد مع العفريت

وما هذه بأعجب من حكاية الصياد . فقال لها الملك : وما حكاية الصياد ؟ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنه كان رجل صياد وكان طاعناً في السن وله زوجة وثلاثة أولاد ، وهو فقير الحال وكان من عادته أنه يرمي شبكته كل يوم أربع مرات لا غير ، ثم إنه خرج يوماً من الأيام في وقت الظهر إلى شاطيء البحر وحطّ مقطفه وطرح شبكته ، وصبر إلى ان استقرت في الماء ، ثم جمع خيطانها فوجدها ثقيلة ، فجذبها فلم يقدر على ذلك ، فذهب بالطرف إلى البر ودقّ وتداً وربطها فيه ، ثم تعرّى وغطس في الماء حول الشبكة ، وما زال يعالج حتى أطلعها ، ففرح ولبس ثيابه وأتى إلى الشبكة . فوجد فيها حماراً ميتاً فلما رأى ذلك حزن وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال : ان هذا الرزق عجيب ، وأنشد يقول : [من البسيط]

يا خائِضاً في ظَلامِ اللَّيْلِ والهلَكَهْ   أَقْصِرْ عَناكَ فَلَيْسَ الرِّزْقُ بالحَرَكَهْ

ثم ان الصياد لمّا رأى الحمار الميت خلّصه من الشبكة وعصرها ، فلما فرغ من عصرها نشرها ، وبعد ذلك نزل البحر وقال : بسم الله ، وطرحها فيه وصبر عليها حتى استقرت ، ثم جذبها فثقلت ورسخت أكثر من الأول . فظن أنه سمك فربط الشبكة وتعرّى ونزل وغطس ، ثم عالج إلى أن خلصها وأطلعها على البر . فوجد فيها زيراً كبيراً وهو ملآن برمل وطين . فلما رأى ذلك ، تأسف وأنشد قول الشاعر : [من المجتث]

يا حُرْقَةَ الدَّهْرِ كُفِّي   إنْ لَمْ تَكُفِّ فَعِفِّي
فلا بحَظِّيَ أُعْطِي   ولا بصَنْعَةِ كَفِّي
خَرَجْتُ أَطْلُبُ رِزْقِي   وَجَدْتُ رِزْقِي تُوُفِّي
كَمْ جاهِلٍ في ظُهُورٍ   وعالِمٍ مُتَخَفِّي

ثم إنَّه رمى الزير وعصر شبكته ، ونظّفها واستغفر الله وعاد إلى البحر ثالث مرة ورمى الشبكة وصبر عليها حتى استقرّت ، وجذبها فوجد فيها شقافة وقوارير ، فأنشد قول الشاعر : [من الطويل]

هُوَ الرِّزْقُ لا حَلٌّ لَدَيْكَ ولا رَبْطُ   ولا قَلَمٌ يُجْدِي عَلَيْكَ ولا خَطُّ

ثم انه رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إنك تعلم أني لم أرم شبكتي غير أربع مرأت وقد رميت ثلاثاً ،ثم انه سمى الله ورمى الشبكة في البحر وصبر إلى أن استقرّت وجذبها ، فلم يطق جذبها وإذا بها اشتبكت في الأرض فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله . فتعرّى وغطس عليها وصار يعالج فيها الى أن طلعت على البر . وفتحها فوجد فيها قمقماً من نحاس أصفر ملآن وفمه مختوم

برصاص عليه طبع خاتم سيدنا سليمان. فلما رآه الصياد فرح وقال: هذا أبيعه في سوق النحاس فإنه يساوي عشرة دنانير ذهبًا. ثم إنه حرّكه فوجده ثقيلاً فقال: لا بد أني أفتحه وأنظر ما فيه وأدخره في الخرج ثم أبيعه في سوق النحاس. ثم إنه أخرج سكينًا وعالج في الرصاص إلى ان فكّه من القمقم وحطه على الأرض وهزّه لينكب ما فيه فلم ينزل منه شيء، ولكن خرج من ذلك القمقم دخان صعد إلى عنان السماء، ومشى على وجه الأرض، فتعجب غاية العجب. وبعد ذلك تكامل الدخان واجتمع ثم انتفض فصار عفريتاً رأسه في السحاب ورجلاه في التراب. برأس كالقبة، وأيد كالمداري، ورجلين كالصواري، وفم كالمغارة، وأسنان كالحجارة، ومناخير كالإبريق، وعينين كالسراجين، أشعث اغبر. فلما رأى الصياد ذلك العفريت ارتعدت فرائصه وتشبّكت أسنانه ونشف ريقه وعمي عن طريقه. فلما رآه العفريت قال: لا اله إلا الله سليمان نبي الله. ثم قال العفريت: يا نبي الله لا تقتلني. فإني لا عدت أخالف لك قولاً ولا أعصي لك أمراً. فقال له الصياد: أيها المارد أتقول سليمان نبي الله وسليمان مات من مدة ألف وثمانماية سنة ونحن في آخر الزمان؟ فما قصتك وما حديثك وما سبب دخولك في هذا القمقم؟ فلما سمع المارد كلام الصياد قال: لا إله إلا الله ابشر يا صياد. فقال الصياد: بماذا تبشرني؟ فقال: بقتلك في هذه الساعة اشرّ القتلات، قال الصياد: تستحق على هذه البشارة يا قيم العفاريت زوال الستر عنك يا بعيد. لأي شيء تقتلني وأي شيء يوجب قتلي، وقد خلصتك من القمقم ونجيتك من قرار البحر وطلّعتك إلى البر؟ فقال العفريت: تمنّ على أي موتة تموتها وأي قتلة تُقتلها. فقال الصياد: ما ذنبي حتى يكون هذا جزائي منك؟ قال العفريت: اسمع حكايتي يا صياد. قال الصياد: قل وأوجز في الكلام فإن روحي وصلت إلى قدمي. قال: اعلم أني من الجن المارقين وقد عصيت سليمان بن داود أنا وصخر الجن فارسل لي وزيره اصف ابن برخيا، فأتى بي مكرهًا وقادني إليه وأنا ذليل على رغم أنفي وأوقفني بين يديه. فلما رآني سليمان استعاذ مني وعرض عليّ الإيمان والدخول تحت طاعته فأبيت، فطلب هذا القمقم وحبسني فيه وختم عليّ بالرصاص وطبعه بالاسم الأعظم، وأمر الجن فاحتملوني وألقوني في وسط البحر فأقمت ماية عام وقلت في قلبي: كل من خلّصني أغنيته إلى الأبد. فمرت ماية عام ولم يخلّصني أحد. ودخلت عليّ ماية أخرى، فقلت: كل من خلّصني فتحت له كنوز الأرض، فلم يخلّصني أحد. فمرّ عليّ أربعماية عام أخرى فقلت: كل من خلّصني أقضي له ثلاث حاجات فلم يخلصني أحد. فغضبت غضبا شديداً وقلت في نفسي: كل من خلصني في هذه الساعة قتلته ومنّيته كيف يموت. وها أنت قد خلّصتني ومنّيتك كيف تموت؟ فلما سمع الصياد كلام العفريت قال: يا لله العجب، أنا ما جئت أخلّصك إلا في هذه الأيام. ثم قال الصياد للعفريت: أُعفُ عن قتلي يعف الله عنك ولا تهلكني يسلط الله عليك من يهلكك. فقال المارد: لا بد من قتلك، فتمنّى عليّ موتة تموتها. فلما تحقق ذلك منه الصياد راجع العفريت وقال: أُعفُ عني إكرامًا لما أعتقتك فقال العفريت: وأنا ما اقتلك إلا لأجل ما خلصتني. فقال له الصياد: يا شيخ العفاريت، هل أصنع معك مليحاً فتقابلني بالقبيح؟ ولكن لم يكذب المثل حيث قال: [من الطَّويل]

فَعَلْنا جَميلاً قابَلُونا بِضِدِّهِ … وهذا لَعَمْرِيْ مِنْ فِعَالِ الفَوَاجِرِ

وَمَنْ يَفْعَلِ المَعْروفَ مَعْ غَيْرِ أَهْلِهِ　　يُجازَ كما جُوْزِيْ مُجِيرُ أَمِّ عامِرِ

فلما سمع العفريت كلامه قال له : لا تطمع فلا بد من موتك فقال الصياد هذا جنيّ ، وأنا أنسيّ وقد أعطاني الله عقلاً كاملاً ، وها أنا ادبر أمراً في هلاكه بحيلتي وعقلي وهو يدبر بمكره وخبثه . ثم قال للعفريت : هل صمّمت على قتلي ؟ قال : نعم . فقال له : بالاسم الأعظم المنقوش على خاتم سليمان ، اسالك عن شيء وتصدقني فيه . قال : نعم . ثم ان العفريت لما سمع ذكر الاسم الأعظم ، اضطرب واهتز ، وقال له : أسأل وأوجز فقال له : كيف كنت في هذا القمقم والقمقم لا يسع يدك ولا رجلك ، فكيف يسعك كلك ؟ فقال له العفريت : وهل أنت لا تصدق انني كنت فيه ؟ فقال الصياد : لا أصدقك أبداً حتى أنظرك فيه بعيني . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 4

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الصياد لما قال للعفريت لا أصدّقك أبداً حتى أنظرك بعيني في القمقم ، انتفض العفريت وصار دخاناً صاعداً إلى الجوّ ، ثم اجتمع ودخل في القمقم قليلاً قليلاً حتى استكمل الدخان داخل القمقم . وإذا بالصياد أسرع وأخذ السِّدَادَة الرصاص المختومة ، وسدّ بها فم القمقم ونادى العفريت وقال له : تمنّ عليّ أي موتة تموتها . لأرمينّك في هذا البحر وأبني لي هنا بيتاً ، وكل من أتى هنا أمنعه أن يصطاد ، وأقول له هنا عفريت ، وكل من طلعه يبين له أنواع الموت ويخيره بينها ، فلما سمع العفريت كلام الصياد أراد الخروج فلم يقدر . ورأى نفسه محبوساً ورأى عليه طبع خاتم سليمان ، وعلم أن الصياد سجنه في سجن أحقر العفاريت وأقذرها وأصغرها ، ثم ان الصياد ذهب بالقمقم إلى جهة البحر . فقال له العفريت : لا ، لا . فقال الصياد : لا بد ، لا بد . فلطف المارد كلامه وخضع وقال : ما تريد أن تصنع بي يا صياد ؟ قال : أُلقيك في البحر ، إن كنت اقمت فيه ألفاً وثمانماية عام فأنا أجعلك تمكث فيه إلى ان تقوم الساعة . أما قلت لك أبقني يبقك الله ولا تقتلني يقتلك الله ، فأبيت قولي وما أردت إلا غدري . فألقاك الله في يدي فغدرت بك . فقال العفريت : إفتح لي حتى أحسن إليك . فقال له الصياد : تكذب يا ملعون أنا مثلي ومثلك مثل وزير الملك يونان والحكيم رويان . فقال العفريت : وما شأن وزير الملك يونان والحكيم رويان وما قصتهما ؟ فقال الصياد : اعلم أيها العفريت انه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان في مدينة الفرس وأرض رومان ملك يقال له الملك يونان ، وكان ذا مال وجنود وبأس وأعوان من سائر الأجناس . وكان في جسده برص قد عجزت فيه الأطباء والحكماء ولم ينفعه منهم شرب أدوية ولا سفوف ولا دهان . ولم يقدر أحد من الأطباء أن يداويه . وكان قد دخل مدينة الملك يونان حكيم كبير طاعن في السن ، يقال له الحكيم رويان ، وكان عارفاً بالكتب اليونانية والفارسية والرومية والعربية والسريانية وعلم الطب والنجوم ، وعالماً بأصول حكمتها وقواعد أمورها من منفعتها ومضرّتها ، وعالماً بخواص النباتات والحشايش والأعشاب المضرّة والنافعة ، قد عرف علم الفلاسفة وحاز جميع العلوم الطبية وغيرها . ثم ان الحكيم لما دخل المدينة وأقام بها أياماً قلائل ، سمع خبر الملك وما جرى له في بدنه من البرص الذي ابتلاه الله ، وقد عجزت عن مداواته الأطباء وأهل

العلوم . فلما بلغ ذلك الحكيم ، بات مشغولاً . فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح ، وسلمت الشمس على زين الملاح ، لبس أفخر ثيابه ودخل على الملك يونان، وقبّل الأرض ودعى له بدوام العز والنعم ، وأحسن ما به تكلم وأعلمه بنفسه فقال : ايها الملك بلغني ما اعتراك من هذا الذي في جسدك ، وان كثيراً من الأطباء لم يعرفوا الحيلة في زواله ، وها أنا أداويك أيها الملك ولا أسقيك دواء ولا أدهنك بدهن ، فلما سمع الملك يونان كلامه تعجّب وقال له : كيف تفعل فوالله ان أبرأتني أغنيك لولد الولد ، وأُنعم عليك وكل ما تتمناه فهو لك ، وتكون نديمي وحبيبي ، ثم إنه خلع عليه وأحسن إليه وقال له : أتبرئني من هذا المرض بلا دواء ولا دهان؟ قال : نعم أبريك بلا مشقّة في جسدك . فتعجّب الملك غاية التعجّب ثم قال له : أيها الحكيم ، الذي ذكرته لي يكون في أي الأوقات وفي أي الأيام ، فاسرع به يا ولدي . قال له : سمعاً وطاعة . ثم نزل من عند الملك واكترى له بيتاً وحط فيه كتبه وأدويته وعقاقيره ، ثم استخرج الأدوية والعقاقير وجعل منها صولجاناً وجوّفه وعمل له قصبة وصنع له كرة بمعرفته . فلما صنع الجميع وفرغ منها طلع إلى الملك في اليوم الثاني ودخل عليه وقبّل الأرض بين يديه وأمره أن يركب إلى الميدان وان يلعب بالكرة والصولجان ، وكان معه الأمراء والحجّاب والوزراء وأرباب الدولة . فما استقر به الجلوس في الميدان حتى دخل عليه الحكيم رويان وناوله الصولجان وقال له : خذ هذا الصولجان واقبض عليه مثل هذه القبضة وامش في الميدان واضرب به الكرة بقوتك حتى يعرق كفك وجسدك ، فينفذ الدواء من كفك فيسري في سائر جسدك . فإذا فرغت وأثّر الدواء فيك ، فارجع إلى قصرك وادخل بعد ذلك الحمام واغتسل ونم ، فقد بُرئت والسلام . فعند ذلك ، أخذ الملك يونان ذلك الصولجان من الحكيم وأمسكه بيده وركب الجواد ورُميت الكرة بين يديه وساق خلفها حتى لحقها وضربها بقوة وهو قابض بكفه على قصبة الصولجان . وما زال يضرب به الكرة حتى عرق كفه وسائر بدنه ، وسرى له الدواء من القبضة وعرف الحكيم رويان ان الدواء سرى في جسده ، فأمره بالرجوع إلى قصره وأن يدخل الحمّام من ساعته . فرجع الملك يونان من وقته وأمر أن يخلوا له الحمام فأخلوه له . وتسارع الفراشون وتسابق المماليك وأعدّوا للملك قماشه ودخل الحمام واغتسل غسلاً جيداً ولبس ثيابه داخل الحمام ، ثم خرج منه وركب إلى قصره ونام فيه . هذا ما كان من أمر الملك يونان . وأما ما كان من أمر الحكيم رويان ، فانه رجع إلى داره وبات . فلما أصبح الصباح طلع إلى الملك واستأذن عليه فأذن له في الدخول ، فدخل وقبّل الأرض بين يديه وأشار إلى الملك بهذه الأبيات : [من الكامل]

زَهَتِ الفَصاحَةُ إذْ دُعِيتَ لَها أَبا وإذا دَعَتْ يَوْماً سِواكَ لَها أَبا
يا صاحِبَ الوَجْهِ الَّذي أَنْوارُه تَمْحُو مِنَ الخَطْبِ الكَرِيْهِ غَياهِبا
ما زالَ وَجْهُكَ مُشْرِقاً مُتَهَلِّلاً كَي لا نَرَى وَجْهَ الزَّمَانِ مُقَطِّبا
أَوْلَيْتَني مِنْ فَضْلِكَ المِنَنَ الَّتي فَعَلَتْ بِنا فِعْلَ السَّحابِ مَعَ الرُّبا
وَصَرَفْتَ جُلَّ المَالِ في طَلَبِ العُلا حَتَّى بَلَغْتَ مِنَ الزَّمانِ مَآرِبا

فلما فرغ من شعره، نهض الملك قائمًا على قدميه وعانقه وأجلسه بجنبه ، وخلع الخلع السنية . ولما خرج الملك من الحمام نظر إلى جسده فلم يجد فيه شيئًا من البرص وصار جسده

نقيًا مثل الفضة البيضاء. ففرح بذلك غاية الفرح واتسع صدره وانشرح . فلما أصبح الصباح دخل الديوان وجلس على سرير ملكه ودخلت عليه الحجّاب وأكابر الدولة ودخل عليه الحكيم رويان . فلما رآه قام إليه مسرعًا وأجلسه بجانبه، وإذا بموائد الطعام قد مدت، فأكل صُحبته، وما زال عنده ينادمه طول نهاره. فلما أقبل الليل، أعطى الحكيم ألفي دينار غير الخلع والهدايا. وأركبه جواده وانصرف إلى داره. والملك يونان يتعجب من صنعه ويقول: هذا داواني من ظاهر جسدي ولم يدهنّي بدهان. فوالله ما هذه إلاّ حكمة بالغة فيجب عليّ لهذا الرجل الإنعام والإكرام وان اتّخذه جليساً أنيساً مدى الزمان. وبات الملك يونان مسروراً فرحان بصحة جسمه وخلاصه من مرضه. فلما أصبح، خرج الملك وجلس على كرسيه ووقفت أرباب دولته بين يديه وجلست الأمراء والوزراء على يمينه ويساره. ثم طلب الحكيم رويان، فدخل عليه وقبّل الأرض بين يديه، فقام له الملك وأجلسه بجانبه وأكل معه وحيّاه وخلع عليه وأعطاه. ولم يزل يتحدث معه إلى أن أقبل الليل. فرسم له بخمس خلع وألف دينار ثم انصرف الحكيم إلى داره وهو شاكر للملك. فلما أصبح الصباح خرج الملك إلى الديوان وقد أحدقت به الأمراء والوزراء والحجاب. وكان له وزير من وزرائه بشع المنظر نحس الطالع، لئيم بخيل حسود مجبول على الحسد والمقت. فلما رأى ذلك الوزير ان الملك قرّب الحكيم رويان وأعطاه هذا الإنعام حسده عليه، وأضمر له الشر كما قيل في المعنى: ما خلى جسد من حسد. وقيل في المعنى: الظلم كمين في النفس، القوة تظهره والعجز يخفيه. ثم ان الوزير تقدم إلى الملك يونان وقبل الأرض بين يده، وقال له: يا ملك العصر والأوان، أنت الذي شمل الناس إحسانك ولك عندي نصيحة عظيمة، فان أخفيتها عنك أكون ولد زنا، فإن أمرتني أن أبديها أبديتها لك. فقال الملك وقد أزعجه كلام الوزير: وما نصيحتك؟ فقال: أيها الملك الجليل، قد قالت القدماء: من لم ينظر في العواقب ما الدهر له بصاحب وقد رأيت الملك على غير صواب. حيث أنعم على عدوه وعلى من يطلب زوال ملكه وقد أحسن إليه وأكرمه غاية الإكرام. وقربه غاية القرب وأنا أخشى على الملك من ذلك. فانزعج الملك وتغيّر لونه وقال له: من الذي تزعم أنه عدوي وأحسن إليه؟ فقال له: أيها الملك إن كنت نائماً فاستيقظ، فانا أشير إلى الحكيم رويان. فقال له الملك: إنّ هذا صديقي وهو أعزّ الناس عندي لأنه داواني بشيء قبضته بيدي وأبرأني من مرضي الذي عجزت فيه الأطباء وهو لا يوجد مثله في هذا الزمان في الدنيا غرباً وشرقاً، فكيف أنت تقول عليه هذا المقال؟ وأنا من هذا اليوم أرتب له الجوامك والجرايات وأعمل له في كل شهر ألف دينار، ولو قاسمته في ملكي لكان قليلاً عليه، وما أظن أنك تقول ذلك إلا حسداً كما بلغني عن الملك السندباد، ثم قال الملك يونان: ذكر والله أعلم.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح. فقالت لها أختها: يا أختي ما أحلى حديثك وأطيبه وألذه وأعذبه. فقالت لها: وأين هذا مما أحدثكم به الليلة المقبلة إن عشت وأبقاني الملك؟ فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها لأنه حديث عجيب. ثم انهم باتوا تلك الليلة متعانقين إلى الصباح. ثم خرج الملك إلى محل حكمه واحتبك الديوان. فحكم وولّى وعزل وأمر ونهى إلى آخر النهار، ثم انفضّ الديوان فدخل الملك قصره وأقبل الليل وقضى حاجته من بنت الوزير شهرزاد.

فلما كانت الليلة 5 الخامسة

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك يونان قال لوزيره : أيها الوزير أنت دخلك الحسد من أجل هذا الحكيم فتريد أن اقتله وبعد ذلك أندم كما ندم الملك السندباد على قتل الباز . فقال الوزير : وكيف كان ذلك ؟ فقال الملك : ذكر أنه كان ملك من ملوك الفرس يحب الفرجة والتنزه والصيد والقنص ، وكان له باز ربّاه ولا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ، ويبيت طول الليل حامله على يده ، وإذا طلع إلى الصيد يأخذه معه وهو عامل له طاسة من الذهب معلقة في رقبته ، يسقيه منها فبينما الملك جالس وإذا بالوكيل على طير الصيد يقول يا ملك الزمان هذا أوان الخروج إلى الصيد ، فاستعد الملك للخروج وأخذ البازي على يده ، وساروا إلى أن وصلوا إلى واد ونصبوا شبكة الصيد ، وإذا بغزالة وقعت في تلك الشبكة فقال الملك : كل من فاتت الغزالة من جهته قتلته . فضيقوا عليها حلقة الصيد وإذا بالغزالة أقبلت على الملك وشبت على رجليها وحطت يديها على صدرها كأنها تقبل الأرض للملك . فطأطأ الملك للغزالة ففرت من فوق دماغه وراحت إلى البر ، فالتفت الملك إلى العسكر فرآهم يتغامزون عليه فقال : يا وزير ، ماذا يقول العساكر ؟ فقال : يقولون إنك قلت ، كل من فاتت الغزالة من جهته يقتل . فقال الملك : وحياة رأسي لأتبعها حتى أجيء بها . ثم طلع الملك في أثر الغزالة ، ولم يزل وراءها ، وصار البازي يلطشها على عينيها إلى أن أعماها ودوخها ، فسحب الملك دبوساً وضربها فقلبها ، ونزل ذبحها وسلخها وعلقها في قربوص السرج . وكانت ساعة حَرّ ، وكان المكان قفراً لم يوجد فيه ماء ، فعطش الملك وعطش الحصان . فالتفت الملك فرأى شجرة ينزل منها ماء مثل السمن ، وكان الملك لابساً في كفه جلداً ، فأخذ الطاسة من رقبة البازي وملأها من ذلك الماء ووضع الماء قدامه . وإذا بالبازي لطش الطاسة فقلبها ، فأخذ الملك الطاسة ثانياً وملأها وظن أن البازي عطشان فوضعها قدامه فلطشها ثانياً وقلبها . فغضب الملك من البازي وأخذ الطاسة ثالثاً وقدمها للحصان فقلبها البازي بجناحه فقال الملك : الله يخيّبك يا أشأم الطيور ، حرمتني من الشرب وحرمت نفسك وحرمت الحصان . ثم ضرب البازي بالسيف فرمى أجنحته فصار البازي يقيم رأسه ويقول بالإشارة : انظر الذي فوق الشجرة . فرفع الملك عينه فرأى فوق الشجرة حية ، والذي يسيل سمها . فندم الملك على قص أجنحة البازي ، ثم قام وركب حصانه وسار ومعه الغزالة حتى وصل إلى مكانه الأول . فالقى الغزالة إلى الطبّاخ وقال له : خذها واطبخها . ثم جلس الملك على الكرسي والبازي على يده فشهق البازي ومات . فصاح الملك حزناً وأسفاً على قتل البازي حيث خلّصه من الهلاك . وهذا ما كان من حديث الملك السندباد . فلّما سمع الوزير كلام الملك يونان قال له : أيها الملك العظيم الشأن وما الذي فعلته من الضرورة ورأيت منه سوءاً إنما أفعل معك هذا شفقة عليك ، وستعلم صحة ذلك فان قبلت مني نجوت والا هلكت كما هلك وزير كان احتال على ابن ملك من الملوك . كان لذلك الملك ولد مولع بالصيد والقنص وكان له وزير ، فأمر الملك ذلك الوزير أن يكون مع ابنه أينما توجّه . فخرج يوماً من الأيام إلى الصيد والقنص ، وخرج معه وزير أبيه . فساروا جميعاً ، فنظرا إلى وحش كبير فقال الوزير لابن الملك : دونك هذا الوحش فاطلبه ، فقصده ابن الملك حتى غاب عن العين وغاب عنه الوحش في البرية وتحيّر ابن الملك فلم يعرف أين يذهب ، وإذا بجارية على رأس الطريق وهي تبكي . فقال لها ابن الملك : من

أنت ؟ قالت : بنت ملك من ملوك الهند ، وكنت في البرية فأدركني النعاس فوقعت من فوق الدابة ولم أعلم بنفسي فصرت منقطعة حائرة . فلما سمع ابن الملك كلامها ، رقّ لحالها وحملها على ظهر دابته وأردفها وسار حتى مرّ بجزيرة فقالت له الجارية : يا سيدي أريد أن أزيل ضرورة ، فأنزلها إلى الجزيرة ثم تعوقت فاستبطأها فدخل خلفها وهي لا تعلم به ، فإذا هي غولة وهي تقول لأولادها : يا أولادي قد أتيتكم اليوم بغلام سمين . فقالوا لها ائتينا به يا أمّنا نأكله في بطوننا . فلما سمع ابن الملك كلامهم أيقن بالهلاك وارتعدت فرائصه وخشي على نفسه ورجع . فخرجت الغولة فرأته كالخائف الوجل وهو يرتعد فقالت له : ما بالك خائفاً ؟ فقال لها : ان لي عدواً وأنا خائف منه . فقالت الغولة : إنك تقول انا ابن الملك . قال لها : نعم . قالت له : ما لك لا تعطي عدوك شيئاً من المال فترضيه به ؟ فقال لها : إنه لا يرضى بمال ولا يرضى إلا بالروح وأنا خائف منه وأنا رجل مظلوم . فقالت له : إن كنت مظلوماً كما تزعم ، فاستعن بالله عليه فإنه يكفيك شرّه وشرّ جميع ما تخافه . فرفع ابن الملك رأسه إلى السماء وقال : يا من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، انصرني على عدوي واصرفه عني ، انك على ما تشاء قدير . فلما سمعت الغولة دعاءه ، انصرفت عنه وانصرف ابن الملك إلى أبيه وحدثه بحديث الوزير . وأنت أيها الملك ، متى أمنت لهذا الحكيم قتلك أقبح القتلات ، وان كنت احسنت إليه وقربته منك ، فإنه يدبر في هلاكك . أما ترى أنه أبرأك من ظاهر الجسد بشيء أمسكته بيدك ؟ فلا تأمن أن يهلكك بشيء تمسكه أيضاً . فقال الملك يونان : صدقت فقد يكون كما ذكرت أيها الوزير الناصح ، فلعل هذا الحكيم أتى جاسوساً في طلب هلاكي . وإذا كان أبرأني بشيء أمسكته بيدي فإنه يقدر أن يهلكني بشيء أشمّه . ثم إن الملك يونان قال لوزيره : أيها الوزير ، كيف العمل فيه ؟ فقال له الوزير : أرسل إليه في هذا الوقت واطلبه فإن حضر ، فاضرب عنقه فتُكفَى شرّه وتستريح منه ، واغدر به قبل أن يغدر بك . فقال الملك يونان : صدقت أيها الوزير . ثم إن الملك أرسل إلى الحكيم فحضر وهو فرحان ولا يعلم ما قدره الرحمن كما قال بعضهم في المعنى : [من الكامل]

يا خائفًا مِنْ دَهْرِهِ كُنْ آمِنًا وكِلِ الأُمورَ إلى الَّذي بَسَطَ الثَّرَى
إنَّ المُقَدَّرَ كائنٌ لا يُمْحَى ولَكَ الأمانُ مِنَ الَّذي ما قَدَّرا

وأنشد الحكيم مخاطباً للملك قول الشاعر : [من الطَّويل]

إذا لَمْ أَقُمْ يَوْماً لِحقِّكَ بالشُّكْرِ فَقُلْ لي لِمَنْ أَعْدَدْتُ نَظْمِي مَعَ النَّثْرِ
لَقَدْ جُدْتَ لي قَبْلَ السُّؤالِ بأَنْعُمٍ أَتَتْني بِلا مَطْلٍ لَدَيْكَ ولا عُذْرِ
فَمَالِيَ لا أُعطِي ثَناءَكَ حَقَّهُ وأُثْني على عُلْياكَ في السِّرِّ والجَهْرِ
سأَشْكُرُ ما أَوْلَيْتَني مِنْ صَنَائِعٍ يَخِفُّ لها فَمِي وإنْ أَثْقَلَتْ ظَهْرِي

وأيضاً في المعنى : [من مجزوء الكامل]

كُنْ عَنْ هُمُومِكَ مُعْرِضاً وكِلِ الأُمورَ إلى القَضَا
وأَبْشِرْ بِخَيْرٍ عاجِلٍ تَنْسَى بِهِ ما قَدْ مَضَى
فَلَرُبَّ أَمْرٍ مُسْخِطٍ لَكَ في عَوَاقِبِهِ رِضَى

اللهُ يَفعلُ ما يشاءُ فَلاَ تَـكُنْ مُعْتَرِضَا

وأيضاً في المعنى : [من الكامل]

سَلِّمْ أُمُورَكَ لِلْحَـكيمِ العَالِم وأَرِحْ فُؤادَكَ مِنْ جَمِيْعِ العالَمِ
وٱعْلَمْ بأَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ كما تَشَاْ بَلْ ما يَشاءُ اللهُ أَحْكَمُ حاكِمِ

وأيضاً في المعنى : [من الكامل]

لا تَبْتَئِسْ وأنْسَ الهُمُومَ جِمِيْعَها إنَّ الهُمُومَ تُزِيْلُ لُبَّ الحَازِمِ
لا يَنْفَعُ التَّدْبِيرُ عَبْداً عاجِزاً فاتْرُكْهُ تَسْلَمْ في نَعِيْمٍ دائِمِ

فلما حضر الحكيم رويان قال له الملك : أتعلم لماذا أحضرتك ؟ فقال الحكيم : لا يعلم الغيب الا الله تعالى . فقال له الملك : أحضرتك لاقتلك وأعدمك روحك . فتعجّب الحكيم رويان من تلك المقالة غاية العجب، وقال : أيها الملك لماذا تقتلني وأي ذنب بدا مني ؟ فقال له الملك : قد قيل لي إنك جاسوس وقد أتيت لتقتلني، وها أنا أقتلك قبل أن تقتلني . ثم إن الملك صاح على السياف وقال له : اضرب رقبة هذا الغدار وأرحنا من شرّه . فقال الحكيم : ابقني يبقيك الله ولا تقتلني يقتلك الله . ثم إنه كرّر عليه القول مثل ما قلت لك أيها العفريت وأنت لا تدعني بل تريد قتلي . فقال الملك يونان للحكيم رويان : اني لا آمن الا إن قتلتك فانك أبرئتني بشيء أمسكته بيدي فلا آمن ان تقتلني بشيء أشمّه أو غير ذلك . فقال الحكيم : أيها الملك أهذا جزائي منك، تقابل المليح بالقبيح ؟ فقال الملك : لا بد من قتلك من غير مهلة . فلما تحقّق الحكيم أن الملك قاتله ولا محالة، بكى وتأسّف على ما صنع من الجميل مع غير أهله كما قيل في المعنى : [من البسيط]

مَيْمُونَةُ مِنْ سِماتِ العَقْلِ عارِيَةٌ لَـكِنْ أَبُوها مِنَ الأَلْبابِ قَدْ خُلِقَ
لم يَمْشِ في يابِسٍ يَوْماً ولا وَحَلٍ إلاَّ بِنُوْرِ هُداهُ؛ يَتَّقِي الزَلَقَ

وبعد ذلك تقدم السيّاف وغمى عينيه وشَهَرَ سيفه وقال : إيذَن، والحكيم يبكي ويقول للملك : أبقني يبقِك اللّه . ولا تقتلني يقتلك الله، وأنشد قول الشاعر : [من الطويل]

نَصَحْتُ فَلَمْ أُفْلِحْ وغَشُّوا فأَفْلَحُوا فأَوْقَعَني نُصْحِي بدارِ هَوانِ
فإِنْ عِشْتُ لم أَنْصَحْ وإِن مِتّ فانْعِ لي ذَوِي النُّصْحِ مِنْ بَعْدِي بكُلِّ لِسانِ

ثمَّ إنَّ الحكيم قال للملك : أيكون هذا جزائي منك فتجازيني مجازاة التمساح ؟ قال الملك : وما حكاية التمساح ؟ فقال الحكيم : لا يمكنني ان أقولها وانا في هذه الحال، فبالله عليك أبقني يبقِك الله . ثم إن الحكيم بكى بكاءً شديداً، فقام بعض خواص الملك وقال : أيها الملك هب لي دم هذا الحكيم لأننا ما رأيناه فعل معك ذنباً وما رأيناه إلا أبراك من مرضك الذي أعصى الأطباء والحكماء . فقال لهم الملك : لم تعرفوا سبب قتلي لهذا الحكيم، وذلك لأني إن أبقيته فأنا هالك لا محالة، ومن أبرائي من المرض الذي كان بي بشيء امسكته بيدي، فيمكن أن يقتلني بشيء أشمه، فأنا أخاف ان يقتلني ويأخذ عليّ جعالة، لأنه ربما كان جاسوساً وما جاء إلا ليقتلني، فلا بد من قتله وبعد ذلك أعمن على نفسي . فقال الحكيم : ابقني يبقِك الله ولا تقتلني يقتلك الله .

فلما تحقق الحكيم ، أيها العفريت ، أن الملك قاتله لا محالة قال له : أيها الملك ، إن كان لا بد من قتلي فامهلني حتى أنزل إلى داري ، فأخلّص نفسي وأوصي أهلي وجيراني أن يدفنوني ، وأهب كتب الطب ، وعندي كتاب خاص أهبه لك هدية تدخره في خزانتك ، فقال الملك للحكيم : وما هذا الكتاب؟ قال : فيه شيء لا يحصى ، وأقلّ ما فيه من الأسرار انك إذا قطعت رأسي وفتحته وعددت ثلاث ورقات ثم تقرأ ثلاثة أسطر من الصحيفة التي على يسارك ، فان الراس تكلمك ويجاوبك عن جميع ما سألته عنه ، فتعجب الملك غاية التعجب واهتز من الطرب وقال له : أيها الحكيم ، وهل إذا قطعت رأسك تكلمت؟ فقال : نعم أيها الملك وهذا أمر عجيب . ثم إن الملك أرسله مع المحافظة عليه ، فنزل الحكيم إلى داره وقضى أشغاله في ذلك اليوم وفي اليوم الثاني ، ثم طلع الحكيم إلى الديوان وطلعت الأمراء والوزراء والحجّاب والنواب وأرباب الدولة جميعاً . وصار الديوان كزهر البستان . وإذا بالحكيم دخل الديوان ووقف قدام الملك ومعه كتاب عتيق ومكحلة فيها ذرور وجلس وقال : إئتوني بطبق . فأتوه بطبق وكبّ فيه الذرور وفرشه وقال : أيها الملك ، خذ هذا الكتاب ولا تعمل به حتى تقطع رأسي ، فإذا قطعته فاجعله في ذلك الطبق وأْمُر بكبسها على ذلك الذرور ،فإذا فعلت ذلك فان دمها ينقطع . ثم افتح الكتاب ، ففتحه الملك فوجده ملصوقاً فحط اصبعه في فمه وبلّه بريقه وفتح أول ورقة والثانية والثالثة ، والورق ما ينفتح إلا بجهد . ففتح الملك ست ورقات ونظر فيها فلم يجد فيها كتابة فقال الملك : أيها الحكيم ما فيه شيء مكتوب . فقال الحكيم : قلّب زيادة على ذلك . فقلّب فيه زيادة ،فلم يكن إلا قليل من الزمان حتى سرى فيه السمّ لوقته وساعته ، فإن الكتاب كان مسموماً . فعند ذلك تزحزح الملك وصاح وقال : قد سرى فيّ السمّ . فانشد الحكيم رويان يقول : [من البسيط]

تَحَكَّمُوا فاستَطالُوا في حُكُومَتِهِم وعَنْ قَلِيْلٍ كأنَّ الحُكْمَ لم يَكُنِ
لَو أنْصفُوا أُنصِفُوا لَكِنْ بَغُوا فَبَغَى عَلَيْهِمُ الدَّهْرُ بالآفاتِ والمِحَنِ
وأَصْبَحُوا ولِسانُ الحَالِ يُنْشِدُهُمْ هذا بذاكَ فلا عَتْبٌ على الزَّمَنِ

فلما فرغ رويان الحكيم من كلامه ، سقط الملك ميتاً من وقته . فاعلم أيها العفريت ، أن الملك يونان لو ابقى الحكيم رويان لأبقاه الله ، ولكن ابى وطلب قتله فقتله الله . وأنت ايها العفريت لو ابقيتني لأبقاك الله .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . فقالت لها اختها دنيازاد : ما أحلى حديثك فقالت : وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشت وأبقاني الملك؟ وباتوا تلك الليلة في نعيم وسرور إلى الصباح . ثم طلع الملك إلى الديوان ، ولما انفض الديوان دخل قصره واجتمع بأهله .

فلما كانت الليلة 6

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الصياد لما قال للعفريت : لو ابقيتني كنت ابقيتك لكن ما اردت إلا قتلي ، فانا اقتلك محبوساً في هذا القمقم والقيك في هذا البحر . صرخ المارد وقال : بالله عليك أيها الصياد لا تفعل ، وابقني كرماً ولا تؤاخذني بعملي . فاذا كنت أنا مسيئاً كن انت محسناً . وفي الأمثال السائرة : يا محسناً لمن اساء كفى المسيء

فعله، ولا تعمل كما عمل أمامة مع عاتكة. قال الصياد: وما شأنهما؟ فقال العفريت: ما هذا وقت حديث وأنا في السجن حتى تطلعني منه وأنا أحدثك بشأنهما. فقال الصياد: لا بد من إلقائك في البحر ولا سبيل إلى إخراجك منه. فإني كنت استعطفك واتضرع إليك وأنت لا تريد إلا قتلي من غير ذنب استوجبته منك ولا فعلت معك سوء قط، ولم افعل معك إلا خيراً لكوني اخرجتك من السجن. فلما فعلت معي ذلك علمت أنك رديء الأصل. واعلم أنني ما رميتك في هذا البحر إلا لأجل أن كل من طلّعك أخبره بخبرك وأحذره منك، فيرميك فيه ثانيا، فتقيم في هذا البحر إلى آخر الزمان حتى ترى أنواع العذاب. قال له العفريت: اطلقني فهذا وقت المروءات، وأنا أعاهدك أني لم أسؤك ابداً بل انفعك بشيء ينفعك دائماً. فأخذ الصياد عليه العهد انه إذا أطلقه لا يؤذيه أبداً بل يعمل معه الجميل. فلما استوثق منه بالايمان والعهود وحلّفه باسم الله الأعظم، فتح له الصياد، فتصاعد الدخان حتى خرج وتكامل فصار عفريتاً مشوّه الخلقة ورفص القمقم فرماه في البحر. فلما رأى الصياد رمى القمقم في البحر أيقن بالهلاك وبال في ثيابه وقال: هذه ليست علامة خير. ثم إنه قوّى قلبه وقال: أيها العفريت، قال الله تعالى: وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا. وأنت قد عاهدتني وحلفت أنك لا تغدر بي. فإن غدرت بي يجزك الله، فإنه غيور يمهل ولا يهمل. وأنا قلت لك مثل ما قال الحكيم رويان للملك يونان: أبقني يُبقِك الله. فضحك العفريت ومشى قدّامه وقال: أيها الصياد اتبعني. فمشى الصياد وراءه وهو لم يصدق بالنجاة إلى أن خرجوا من ظاهر المدينة وطلعوا على جبل ونزلوا إلى برية متسعة، وإذا في وسطها بركة ماء. فوقف العفريت عليها وأمر الصياد أن يطرح الشبكة ويصطاد. فنظر الصيّاد إلى البركة وفيها السمك ألواناً الأبيض والأحمر والأزرق والأصفر. فتعجّب الصياد من ذلك، ثم إنه طرح شبكته وجذبها، فوجد فيها أربع سمكات كل سمكة بلون، فلما رآها الصياد فرح فقال له العفريت: أدخل بها إلى السلطان وقدمها إليه فانه يعطيك ما يغنيك. وبالله اقبل عذري فانني في هذا الوقت لم أعرف طريقاً وأنا في هذا البحر مدة ألف وثمانماية عام ما رأيت ظاهر الدنيا الا في هذه الساعة ولا تصطد منها كل يوم إلا مرة واحدة، واستودعتك الله. ثم دقّ الأرض بقدميه فانشقّت وابتلعته. ومضى الصياد إلى المدينة وهو متعجّب مما جرى له مع هذا العفريت. ثم أخذ السمك ودخل به منزله وأتى بماجور، ثم ملأه ماء وحط فيه السمك، فاختبط السمك من داخل الماجور في الماء. ثم حمل الماجور فوق رأسه وقصد به قصر الملك كما أمره العفريت. فلما طلع الصياد إلى الملك وقدّم له السمك، تعجّب الملك غاية العجب من ذلك السمك الذي قدمه إليه الصياد لأنه لم ير في عمره مثله صفة ولا شكلاً. فقال: ألقوا هذا السمك للجارية الطباخة. وكانت هذه الجارية قد أهداها له ملك الروم منذ ثلاثة أيام وهو لم يجربها في طبيخ، فأمرها الوزير أن تقليه وقال لها: يا جارية، إن الملك يقول لك ما ادّخرت دمعتي إلا لشدّتي، ففرجينا اليوم على طهيك وحسن طبيخك، فان السلطان جاء إليه واحد بهدية. ثم رجع الوزير بعدما أوصاها، فأمره الملك أن يعطي الصياد أربعماية دينار، فأعطاه الوزير إياها. فأخذها في حجر وتوجّه إلى منزله لزوجته وهو فرحان مسرور. ثم اشترى لعياله ما يحتاجون إليه. هذا ما كان من أمر الصياد. وأما ما كان من أمر الجارية، فإنها أخذت السمك ونظفته ورصته في الطاجن. ثم إنها تركت السمك حتى استوى وجهه وقلبته على الوجه الثاني، وإذا بحائط المطبخ قد انشقّ

وخرج منها صبية رشيقة القد اسيلة الخدّ كاملة الوصف كحيلة الطرف بوجه مليح وقدّ رجيح ، لابسة كوفية بخزٍّ أزرق وفي اذنيها حلق وفي معاصمها أساور وفي أصابعها خواتم بالفصوص المثمنة ، وفي يدها قضيب من الخيزران . فغرزت القضيب في الطاجن وقالت : يا سمك ، هل انت على العهد مقيم ؟ فلما رأت الجارية هذا غشي عليها ، وقد أعادت الصبية القول ثانياً وثالثاً ، فرفع السمك رأسه من الطاجن وقال : نعم ، نعم . ثم قال جميعه هذا البيت : [من البسيط]

إن عُدْتَ عُدْنا وإنْ وافَيْتَ وافَيْنا وإنْ هَجَرْتَ فإنَّا قد تَـكافَـيْنا

فعند ذلك ، قلبت الصبية الطاجن وخرجت من الموضع الذي دخلت منه والتحم حائط المطبخ ثم أفاقت الجارية فرأت الأربع سمكات محروقة مثل الفحم الأسود . فقالت تلك الجارية : من أول غزوته حصل كسر عصيته . فبينما هي تعاتب نفسها وإذا بالوزير واقف على رأسها وقال لها : هاتي السمك للسلطان . فبكت الجارية وأعلمت الوزير بالحال وبالذي جرى . فتعجب الوزير من ذلك وقال : ما هذا إلا أمر عجيب . ثم إنه أرسل إلى الصياد فأتوا به إليه . فقال له : أيها الصياد ، لا بد أن تجيء لنا بأربع سمكات مثل التي جئت بها أولاً . فخرج الصيّاد إلى البركة وطرح شبكته ثم جذبها ، وإذا بأربع سمكات فاخذها وجاء بها إلى الوزير . فدخل بها الوزير إلى الجارية وقال لها : قومي اقليها قدامي حتى أرى هذه القضية . فقامت الجارية أصلحت السمك ووضعته في الطاجن على النار ، فما استقر إلا قليلاً وإذا بالحائط قد انشقّ والصبية قد ظهرت وهي لابسة ملبسها وفي يدها القضيب ، فغرزته في الطاجن وقالت : يا سمك يا سمك ، هل أنت على العهد القديم مقيم ؟ فرفعت السمكات رؤوسها وأنشدت هذا البيت : [من البسيط]

إنْ عُدْتَ عُدْنَا وإنْ وافَيْتَ وافَيْنا وإنْ هَجَرْتَ فإنَّا قد تَـكَافَـيْـنَا

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 7

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، انه لما تكلّم السمك ، قلبت الصبية الطاجن بالقضيب وخرجت من الموضع الذي جاءت منه والتحم الحائط . فعند ذلك قام الوزير وقال : هذا أمر لا يمكن إخفاؤه عن الملك . ثم إنه تقدم إلى الملك وأخبره بما جرى قدامه . فقال : لا بد أن أنظر بعيني . فأرسل إلى الصياد وأمره ان ياتي بأربع سمكات مثل الأولى ، وأمهله ثلاثة أيام . فذهب الصياد إلى البركة وأتاه بالسمك في الحال ، فأمر الملك ان يعطوه أربعمائة دينار . ثم التفت الملك إلى الوزير وقال له : سوّ أنت السمك هاهنا قدامي . فقال الوزير : سمعاً وطاعة . فأحضر الطاجن ورمى فيه السمك بعد ان نظفه ثم قلبه وإذا بالحائط قد انشقّ وخرج منها عبد أسود كأنه ثور من الثيران او من قوم عاد ، وفي يده فرع من شجرة خضراء وقال بكلام فصيح مزعج : يا سمك يا سمك ، هل انت على العهد القديم مقيم ؟ فرفع السمك رأسه من الطاجن وقال : نعم ، نعم . وأنشد هذا البيت : [من البسيط]

إنْ عُدْتَ عُدْنَا وإنْ وافَيْتَ وافَيْنا وإنْ هَجَرْتَ فإنَّا قد تَـكافَيْنَا

ثم أقبل العبد على الطاجن وقلبه بالفرع إلى ان صار فحماً أسودَ . ثم ذهب العبد من حيث

أتى . فلما غاب العبد عن أعينهم قال الملك : هذا أمر لا يمكن السكوت عنه ، ولا بد أن هذا السمك له شأن غريب ، فأمر بإحضار الصياد . فلما حضر قال له : من أين هذا السمك ؟ فقال له : من بركة بين أربع جبال وراء هذا الجبل الذي بظاهر مدينتك . فالتفت الملك إلى الصياد وقال له : مسيرة كم يوم ؟ قال له : يا مولانا السلطان مسيرة نصف ساعة . فتعجّب السلطان وأمر بخروج العسكر من وقته مع الصياد ، فصار الصياد يلعن العفريت ، وساروا إلى أن طلعوا الجبل ونزلوا منه إلى برية متسعة . لم يروها مدة أعمارهم ، والسلطان وجميع العسكر يتعجبون من تلك البرية التي نظروها بين أربع جبال والسمك فيها على أربعة ألوان ، أحمر وأبيض وأصفر وأزرق . فوقف الملك متعجباً وقال للعسكر ولمن حضر : هل أحد منكم رأى هذه البركة في هذا المكان ؟ فقالوا كلهم : لا . فقال الملك : والله لا أدخل مدينتي ولا أجلس على تخت ملكي حتى أعرف حقيقة هذه البركة وسمكها . ثم أمر الناس بالنزول حول هذه الجبال ، فنزلوا . ثم دعا بالوزير وكان وزيراً خبيراً عاقلا لبيباً عالماً بالامور . فلما حضر بين يديه قال له : إني أردت ان أعمل شيئًا فأخبرك به ، ذلك إنه خطر ببالي أن أنفرد بنفسي في هذه الليلة وأبحث عن خبر هذه البركة وسمكها ، فاجلس على باب خيمتي وقل للأمراء والوزراء والحجاب أن السلطان متشوش ، وأمرني أن لا آذن لأحد في الدخول عليه ولا تعلم أحداً بقصدي . فلم يقدر الوزير على مخالفته . ثم إن الملك غيّر حالته وتقلد سيفه وانسلّ من بينهم ومشى بقية ليله إلى الصباح . فلم يزل سائراً حتى اشتدّ عليه الحرّ فاستراح ، ثم مشى بقية يومه وليلته الثانية إلى الصباح ، فلاح له سواد من بُعد ففرح وقال : لعلّي أجد من يخبرني بقضية البركة وسمكها . فلما قرب من السواد ، وجده قصراً مبنيا بالحجارة السود مصفّحاً بالحديد وأحد شقيه مفتوح والآخر مغلوق . ففرح الملك ووقف على الباب ودق دقاً لطيفاً . فلم يسمع جواباً . فدق ثانياً وثالثاً فلم يسمع جواباً . فدق رابعاً دقاً مزعجاً فلم يجبه احد فقال : لا شك أنه خال . فشجع نفسه ودخل من باب القصر إلى دهليزه ثم صرخ وقال : يا أهل القصر ، إني رجل غريب وعابر سبيل هل عندكم شيء من الزاد ؟ وأعاد القول ثانياً وثالثاً فلم يسمع جواباً ، فقوّى قلبه وثبت نفسه ودخل من الدهليز إلى وسط القصر فلم يجد فيه أحداً ، غير أنه مفروش ، وفي وسطه فسقية عليها أربعة سباع من الذهب الأحمر تلقي الماء من أفواهها كالدرر والجواهر وفي دائره طيور ، وعلى ذلك القصر شبكة تمنعها من الطلوع ، فتعجب من ذلك وتأسف حيث لم ير فيه أحداً يستخبر منه عن تلك البركة والسمك والجبال والقصر . ثم جلس بين الأبواب يتفكّر ، وإذا هو بأنين من كبد حزين فسمعه يترنم بهذا الشعر : [من الكامل]

لَمّا خَفَيْتُ ضَنّي ووَجْدي قَد ظَهَرْ والنَّومُ مِنْ عَيْنِي تَبَدَّلَ بالسَّهَرْ
نادَيْتُ وَجْدًا قَد تَزايدَ بالفِكَرْ يا وَجْدُ لا تُبْقِي عَلَيَّ ولا تَذَرْ
ها مُهْجَتِي بَيْنَ المَشَقَّةِ والخَطَرْ

فلما سمع السلطان ذلك الأنين ، نهض قائماً وقصد جهته ، فوجد ستراً مسبولاً على باب مجلس ، فرفعه فرأى خلف الستر شاباً جالساً على سرير مرتفع عن الأرض مقدار ذراع ، وهو شاب مليح بقدّ رجيح ولسان فصيح وجبين أزهر وخدّ أحمر وشامة على كرسي خدّه كترس

من عنبر كما قال الشاعر : [من الكامل]

وَمُهَفْهَفٍ مِنْ شَعْرِهِ وجَبِينِهِ ... مَشَتِ الوَرَى في ظُلْمَةٍ وضِياءِ
ما أَبْصَرَتْ عَيْناكَ أَحْسَنَ مَنْظراً ... فِيمَا يُرَى مِنْ سائِرِ الأَشْياءِ
كالشَّامَةِ الخَضْراءِ فَوْقَ الوَجْنَةِ ... الحَمْراءِ تحتَ المُقْلَةِ السَّوْداءِ

ففرح به الملك وسلم عليه، والصبي جالس وعليه قباء حرير بطراز من ذهب لكن عليه أثر الحزن. فرد السلام على الملك وقال له: يا سيدي اعذرني في عدم القيام. فقال الملك: أيها الشاب، أخبرني عن هذه البركة وعن سمكها الملون وعن هذا القصر وسبب وحدتك فيه وما سبب بكائك. فلما سمع الشاب هذا الكلام، نزلت دموعه على خده وبكى بكاءً شديداً، فتعجّب الملك وقال له: ما يبكيك ايها الشاب؟ فقال: كيف لا ابكي وهذه حالتي؟ ومدّ يده إلى أذياله فرفعها، فإذا نصفه التحتاني إلى قدميه حجر، ومن سرته إلى شعر رأسه بشر، ثم قال الشاب: اعلم أيها الملك أن لهذا السمك أمراً عجيباً لو كتب بالابر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر. وذلك يا سيدي أنه كان والدي ملك هذه المدينة وكان اسمه محمود صاحب الجزائر السود وصاحب هذه الجبال الأربعة، فأقام في الملك سبعين عاماً. ثم توفي والدي وتسلطنت بعده وتزوجت بابنة عمي، وكانت تحبني محبة عظيمة، بحيث إذا غبت عنها لا تأكل ولا تشرب حتى تراني. فمكثت في عصمتي خمس سنين إلى أن ذهبت يوماً من الأيام إلى الحمّام فأمرت الطباخ أن يجهز لنا طعاماً لأجل العشاءِ، ثم دخلت هذا القصر ونمت في الموضع الذي انام فيه وأمرت جاريتين أن يروحا على وجهي. فجلست واحدة عند رأسي والأخرى عند رجلي، وقد قلقت لغيابها ولم يأخذني نوم، غير أن عيني مغمضة ونفسي يقظانة فسمعت التي عند رأسي تقول للتي عند رجلي: يا مسعودة إن سيدنا مسكين شبابه ويا خسارته مع سيدتنا الخبيثة الخاطئة. فقالت الأخرى: لعن الله النساء الزانيات ولكن مثل سيدنا وأخلاقه لا يصلح لهذه الزانية التي كل ليلة تبيت في غير فراشه. فقالت التي عند رأسي: إن سيدنا مغفل حيث لم يسأل عنها. فقالت الأخرى: ويلك، وهل عند سيدنا علم بحالها أو هي تخليه باختياره؟ بل تعمل له عملاً في قدح الشراب الذي يشربه كل ليلة قبل المنام. فتضع فيه البنج فينام ولم يشعر بما يجري ولم يعلم أين تذهب ولا بما تصنع، لأنها بعد ما تسقيه الشراب تلبس ثيابها وتخرج من عنده، فتغيب إلى الفجر وتأتي إليه وتبخره عند انفه بشيء فيستيقظ من منامه. فلما سمعت كلام الجواري، صار الضياء في وجهي ظلاماً وما صدّقت أن الليل أقبل وجاءت بنت عمي من الحمام، فمدينا السماط وأكلنا وجلسنا ساعة زمانية نتنادم كالعادة، ثم دعوت بالشراب الذي أشربه عند المنام فناولتني الكأس، فتزاوغت عنه وجعلت أني اشربه مثل عادتي ودلقته في عبي ورقدت في الوقت والساعة. وإذا بها قالت: نم ليتك لم تقم، والله كرهتك وكرهت صورتك وملّت نفسي من عشرتك. ثم قامت ولبست افخر ثيابها وتبخرت وتقلّدت سيفاً وفتحت باب القصر وخرجت فقمت وتبعتها حتى خرجت من القصر، وشقت في أسواق المدينة إلى ان انتهت إلى أبواب المدينة، فتكلمت بكلام لا افهمه فتساقطت الأقفال وانفتحت الأبواب وخرجت وأنا خلفها وهي لا تشعر حتى انتهت إلى ما بين الكيمان، وأتت حصناً فيه قبّة مبنية بطين لها باب،

فدخلته هي وصعدت أنا على سطح القبّة وأشرفت عليها . وإذا بها قد دخلت على عبد أسود ، إحدى شفتيه غطاء وشفته الثانية وطاء وشفاهه تلقط الرمل من الحصى وهو مبتل وراقد على قليل من قش القصب ، فقبّلت الأرض بين يديه ، فرفع ذلك العبد رأسه إليها وقال لها : ويلك ما سبب قعودك إلى هذه الساعة ؟ كان عندنا السودان وشربوا الشراب وصار كل واحد بعشيقته وأنا ما رضيت أن أشرب من شانك . فقالت : يا سيدي وحبيب قلبي ، أما تعلم أني متزوجة بابن عمي وأنا اكره الخلق في صورته وأبغض نفسي في صحبته ، ولولا أني أخشى على خاطرك لكنت جعلت المدينة خراباً يصيح فيها البوم والغراب ، وأنقل حجارتها إلى خلف جبل قاف . فقال العبد : تكذبين يا عاهرة وأنا أحلف وحق فتوّة السودان والا تكون مروءتنا مروءة البيضان إن بقيتِ تقعدين إلى هذا الوقت من هذا اليوم لا أصاحبك ولا اضع جسدي على جسدك يا خائنة . أتنقلين عليّ من أجل شهوتك يا منتنة يا أخسّ البيضان ؟ قال الملك : فلما سمعت كلامهما وأنا أنظر بعيني ما جرى بينهما ، صارت الدنيا في وجهي ظلاماً ، ولم أعرف روحي في أي موضع ، وصارت بنت عمي واقفة تبكي عليه وتتذلل بين يديه وتقول له : يا حبيبي وثمرة فؤادي ، ما أحد غيرك بقي لي ، فإن طردتني يا ويلي يا حبيبي يا نور عيني . وما زالت تبكي وتتضرّع له حتى رضي عليها ، ففرحت وقامت قلعت ثيابها ولباسها وقالت له : يا سيدي هل عندك ما تأكله جاريتك ؟ فقال : اكشفي اللقان فإن تحتها عظام فيران مطبوخة فكليها ومرمشيها وقومي لهذه القوارة تجدي فيها بوظة فاشربيها . فقامت وأكلت وشربت وغسلت يديها وجاءت مع العبد على قش القصب وتعرت ودخلت معه تحت الهدمة والشراميط . فلما نظرت إلى هذه الفعال التي قد فعلتها بنت عمي غبت عن الوجود ، فنزلت من فوق أعلى القبة ودخلت وأخذت السيف من بنت عمي وهممت أن أقتل الأثنين ، فضربت العبد أولاً على رقبته فظننت أنه قد قضي عليه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . فلما أصبح الصباح ، دخل الملك إلى محل الحكم واحتبك الديوان إلى آخر النهار . ثم طلع الملك قصره فقالت لها أختها دنيازاد : اتمي لنا حديثك قالت : حباً وكرامة .

فلما كانت الليلة 8

□ بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشاب المسحور قال للملك : لما ضربت العبد لأقطع رأسه قطعت الحلقوم والجلد واللحم فظننت أني قتلته ، فشخر شخيراً عالياً فتحرّكت بنت عمي وقامت بعد ذهابي فأخذت السيف وردّته إلى موضعه وأتت المدينة ودخلت القصر ورقدت في فراشي إلى الصباح . ورأيت بنت عمي في ذلك اليوم قد قطعت شعرها ولبست ثياب الحزن وقالت : يا ابن عمي لا تلمني في ما أفعله ، فإنه بلغني أن والدتي توفيت وأن والدي قتل في الجهاد وأن اخويّ أحدهما مات ملسوعاً والاخر رديماً ، فيحق لي أن أبكي وأحزن . فلما سمعت كلامها سكت عنها وقلت لها : إفعلي ما بدا لك فإني لم أخالفك . فمكثت في حزن وبكاء وعديد سنة كاملة من الحول إلى الحول . وبعد السنة قالت لي : أريد أن أبني لي في قصرك مدفناً مثل القبّة وأنفرد فيه بالأحزان وأسميه بيت الأحزان . فقلت لها : افعلي ما بدا لك . فبنت لها بيتاً للحزن وبنت في وسطه قبّة ومدفناً مثل الضريح ، ثم نقلت العبد وأنزلته فيه وهو ضعيف جداً لا ينفعها بنافعة لكنه يشرب الشراب ، ومن اليوم الذي جرحته فيه ما تكلم إلا أنه حي ، لأن أجله

لم يفرغ . فصارت كل يوم تدخل عليه القبّة بكرة وعشياً وتبكي عنده وتعدد عليه وتسقيه الشراب والمساليق . ولم تزل على هذه الحال صباحاً ومساءً إلى ثاني سنة وانا اطول بالي عليها إلى ان دخلت عليها يوماً من الأيام على غفلة ، فوجدتها تبكي وتلطم وجهها وتقول هذه الأبيات : [من الطويل]

عَدِمْتُ وُجُودِي فِي الوَرَى بَعْدَ بُعْدِكُمْ   فإنَّ فُؤادِي لا يُحِبُّ سِواكُمُ
خُذُوا كَرَماً جِسْمِي إلى أَيْنَ تَرْتَمُوا   وأَيْنَ حَلَلْتُمْ فادْفِنُونِيْ حِذاكُمُ
وإنْ تَذْكُرُوا اَسْمِي عِنْدَ قَبْرِي يُجِبْكُمُ   أَنِينُ عِظامِي عِنْدَ صَوْتِ نِداكُمُ

فلما فرغت من شعرها قلت لها وسيفي مسلول في يدي : هذا كلام الخائنات اللاتي ينكرن العشرة ولا يحفظن الصحبة . وأردت أن أضربها ، فرفعت يدي في الهواء فقامت وقد علمت أني أنا الذي جرحت العبد ، ثم وقفت على قدميها وتكلمت بكلام لا أفهمه وقالت : جعل الله بسحري نصفك حجراً ونصفك الآخر بشراً . فصرت كما ترى وبقيت لا أقوم ولا أقعد ولا أنا ميت ولا انا حي . فلما صرت هكذا سحرت المدينة وما فيها من الأسواق والغيطان ، وكانت مدينتنا أربعة أصناف مسلمين ونصارى ويهوداً ومجوساً فسحرتهم سمكاً ، فالأبيض مسلمون والأحمر مجوس والأزرق نصارى والأصفر يهود . وسحرت الجزائر الأربع أربعة جبال وأحاطتها بالبركة . ثم إنها كل يوم تعذبني وتضربني بسوط من الجلد مائة ضربة حتى يسيل الدم ثم تلبسني من تحت هذه الثياب ثوباً من الشعر على نصفي الفوقاني . ثم إن الشاب بكى وأنشد هذا الشعر : [من الكامل]

صَبْراً لِحُكْمِكَ يا إلٰهي والقَضَا   أَنَا صابِرٌ إنْ كانَ فيه لَكَ الرِّضا
قَدْ ضِقْتُ بالأمْرِ الَّذي قَد نَابَني   فَوَسِيْلَتي آلُ النَّبيِّ المُرْتَضَى

فعند ذلك التفت الملك إلى الشاب وقال له : أيها الشاب زدتني همّاً على همّي . ثم قال له : وأين تلك المرأة؟ قال : في المدفن الذي فيه العبد راقد في القبة وهي تجيء له كل يوم مرة . وعند مجيئها تجيء إليّ وتجردني من ثيابي وتضربني بالسوط مائة ضربة ، وأنا أبكي واصيح ولم يكن فيّ حركة حتى أدفعها عن نفسي . ثم بعد أن تعاقبني تذهب إلى العبد بالشراب والمسلوقة بكرة النهار . قال الملك : والله يا فتى لأفعلنّ معك معروفاً أُذكر به وجميلاً يؤرّخونه سِيَراً من بعدي . ثم جلس الملك يتحدث معه إلى أن أقبل الليل . ثم قام الملك وصبر إلى أن جاء وقت السحر ، فتجرد من ثيابه وتقلد سيفه ، ونهض إلى المحل الذي فيه العبد . فنظر إلى الشمع والقناديل ورأى البخور والأدهان ، ثم قصد العبد وضربه فقتله ثم حمله على ظهره ورماه في بئر كانت في القصر ، ثم نزل ولبس ثياب العبد وهو داخل في القبة والسيف معه مسلول في طوله . فبعد ساعة أتت العاهرة الساحرة وعند دخولها جرّدت ابن عمها من ثيابه ، وأخذت سوطاً وضربته فقال : آه يكفيني ما أنا فيه فارحميني . فقالت : هل كنت أنت رحمتني وأبقيت لي معشوقي؟ ثم البسته اللباس الشعر والقماش من فوقه . ثم نزلت إلى العبد ومعها قدح الشراب وطاسة المسلوقة ودخلت عليه القبة وبكت وولولت وقالت : يا سيدي كلمني ، يا سيدي حدثني . وأنشدت تقول : [من الكامل]

فإلى مَتَى هذا التَجنُّبُ والجَفا إنَّ الّذي فَعَلَ الغَرامَ لَقد كَفا
كَمْ قَدْ تُطِيلُ الهَجْرَ لي مُتَعَمِّداً إنْ كانَ قَصْدُكَ حَاسِدِيْ فَقَدِ اشْتَفَى

ثم إنها بكت وقالت : يا سيدي كلمني وحدثني . فخفض صوته وعوّج لسانه وتكلّم بكلام السودان وقال : آه آه ، لا حول ولا قوة الا بالله . فلما سمعت كلامه ، صرخت من الفرح وغشي عليها . ثم إنها استفاقت وقالت : لعل سيدي صحيح . فخفض الملك صوته بضعف وقال يا عاهرة أنت لا تستحقي أن أكلمك . قالت : ما سبب ذلك ؟ قال : سببه أنك طول النهار تعاقبين زوجك وهو يصرخ ويستغيث حتى أحرمتِني النوم من العشاء إلى الصباح ، ولم يزل زوجك يتضرع ويدعو عليك حتى أقلقني صوته ، ولولا هذا لكنت تعافيت . فهذا الذي منعني عن جوابك . فقالت : عن إذنك أخلصه مما هو فيه . فقال لها الملك : خلّصيه وأريحينا . فقالت : سمعاً وطاعةً . ثم قامت وخرجت من القبّة إلى القصر وأخذت طاسة ملأتها ماء ثم تكلمت عليها فصار الماء يغلي كما يغلي القدر ، ثم رشته منها وقالت : بحق ما تلوته أن تخرج من هذه الصورة إلى صورتك الأولى . فانتفض الشاب وقام على قدميه وفرح بخلاصه وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلّى الله عليه وسلم . ثم قالت له : أخرج ولا ترجع إلى هنا وإلاّ قتلتك ، وصرخت في وجهه . فخرج من بين يديها ، وعادت إلى القبة ونزلت وقالت : يا سيدي أخرج إليّ حتى أنظرك . قال لها بكلام ضعيف : أي شيء فعلتِه أرحتِني من الفرع ولم تريحيني من الأصل . فقالت : يا حبيبي ، وما هو الأصل ؟ قال : أهل هذه المدينة والأربع جزائر ، كل ليلة إذا انتصف الليل يرفع السمك رأسه ويدعو عليّ وعليك فهو سبب منع العافية عن جسمي ، فخلّصيهم وتعالي خذي بيدي وأقيميني فقد توجهت إليّ العافية . فلما سمعت كلام الملك وهي تظنه العبد قالت له وهي فرحانة : يا سيدي على رأسي وعيني بسم الله . ثم نهضت وقامت وهي مسرورة تجري وخرجت إلى البركة أخذت من مائها قليلاً ، وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 9

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الصبية الساحرة لما أخذت شيئاً من ماء البركة وتكلمت عليه بكلام لا يفهم ، تحرك السمك ورفع رأسه وصار آدمياً في الحال ، وانفكّ السحر عن أهل المدينة وصارت المدينة عامرة والأسواق منصوبة . وصار كل واحد في صناعته ، وانقلبت الجبال جزائر كما كانت . ثم إن الصبية الساحرة رجعت إلى الملك في الحال وهي تظن أنه العبد وقالت له : يا حبيبي ناولني يدك الكريمة أُقبِّلها . فقال الملك بكلام خفي : تقربي مني ، فدنت منه وقد أخذ صارمه وطعنها به في صدرها حتى خرج من ظهرها . ثم ضربها فشقّها نصفين ، وخرج فوجد الشاب المسحور واقفاً في انتظاره . فهنأه بالسلامة وقبّل الشاب يده وشكره . فقال له الملك : أتقعد في مدينتك أم تجيء معي إلى مدينتي ؟ فقال الشاب : يا ملك الزمان ، أتدري ما بينك وبين مدينتك ؟ فقال الملك : يومان ونصف . فعند ذلك قال له الشاب : أيها الملك إن كنت نائماً فاستيقظ ، إن بينك وبين مدينتك سنة للمجدّ ، وما أتيت في يومين ونصف إلا لأن المدينة كانت مسحورة ، وأنا أيها الملك لا أفارقك لحظة عين . ففرح الملك بقوله ثم قال :

الحمد لله الذي منّ عليّ بك فانت ولدي لاني طول عمري لم ارزق ولداً. ثم تعانقا وفرحا فرحاً شديداً، ثم مشيا حتى وصلا إلى القصر. وأخبر الملك الذي كان مسحوراً أرباب دولته أنه مسافر إلى الحج الشريف، فهيّأوا له جميع ما يحتاج إليه، ثم توجّه هو والسلطان، وقلب السلطان ملتهب على مدينته حيث غاب عنها سنة، ثم يسافر ومعه خمسون مملوكاً ومعه الهدايا. ولم يزالا مسافرين ليلاً ونهاراً سنة كاملة حتى أقبلا على مدينة السلطان، فخرج الوزير والعساكر لمقابلته بعدما قطعوا الرجاء منه، وأقبلت العساكر وقبّلت الأرض بين يديه وهنؤوه بالسلامة. فدخل وجلس على الكرسي ثم أقبل على الوزير وأعلمه بكل ما جرى على الشاب. فلما سمع الوزير ما جرى على الشاب هنّأه بالسلامة. ولما استقر الحال أنعم السلطان على أناسٍ كثيرينَ، ثم قال للوزير: عليّ بالصياد الذي أتى بالسمك. فأرسل إلى ذلك الصياد الذي كان سبباً لخلاص أهل المدينة. فأحضره وخلع عليه وسأله عن حاله وهل له أولاد، فأخبره أن له ابناً وبنتين. فتزوج الملك بإحدى بنتيه وتزوج الشاب بالأخرى، وأخذ الملك الابن عنده وجعله خازنداراً. ثم أرسل الوزير إلى مدينة الشاب التي هي الجزائر السود، وقلّده سلطنتها وأرسل معه الخمسين مملوكاً الذين جاؤوا معه وأرسل معه كثيراً من الخلع لسائر الأمراء. فقبّل الوزير يديه وخرج مسافراً، واستقر السلطان والشاب. وأما الصياد فإنه قد صار أغنى أهل زمانه وبناته زوجات الملوك إلى أن أتاهم الممات.

3 – حكاية الحمّال مع البنات

وما هذا بأعجب مما جرى للحمال، فإنه كان إنساناً من مدينة بغداد، وكان أعزب وكان حمّالاً. فبينما هو في السوق يوماً من الأيام متكئاً على قفصه إذ وقفت عليه امرأة ملتفّة بإزار موصلي من حرير مزركش بالذهب وحاشيتاه من قصب، فرفعت قناعها فبان من تحته عيون سود بأهداب وأجفان وهي ناعمة الأطراف كاملة الأوصاف، وبعد ذلك قالت بحلاوة لفظها: هات قفصك واتبعني. فما صدق الحمّال بذلك، وأخذ القفص وتبعها إلى أن وقفت على باب دار، فطرقت الباب فنزل لها رجل نصراني، فأعطته ديناراً وأخذت منه مقداراً من الزيتون ووضعته في القفص وقالت له: احمله واتبعني. فقال الحمّال: هذا والله نهار مبارك، ثم حمل القفص وتبعها. فوقفت على دكان فكهاني واشترت منه تفاحاً شامياً وسفرجلاً عثمانياً وخوخاً عمانياً وياسميناً حلبياً ونَينوفراً دمشقياً وخياراً نيلياً وليموناً مصرياً وأترجاً سلطانياً ومرسيناً ريحانياً وتمر حنا وأقحواناً، وشقائق النعمان وبنفسجاً وجلنار ونسريناً ووضعت الجميع في قفص الحمّال وقالت: احمل. فحمل وتبعها حتى وقفت على جزار وقالت له: اقطع عشرة أرطال لحماً. فقطع لها ولفت اللحم في ورق موز ووضعته في القفص. وقالت: احمل يا حمال. فحمل وتبعها. ثم وقفت على النقلي وأخذت من سائر النقل. وقالت للحمّال: احمل واتبعني، فحمل القفص وتبعها إلى أن وقفت على دكان الحلواني واشترت طبقاً وملأته من جميع ما عنده من مشبك وقطائف بالمسك محشية وصابونية وأقراص ليمونية وميمونية وأمشاط وأصابع ولقيمات القاضي، ووضعت جميع أنواع الحلاوة في الطبق ووضعته في القفص فقال الحمّال: لو أعلمتني لجئت معي ببغل نحمل عليه هذه الأم . فتبسّمت ثم وقفت على العطّار واشترت منه عشرة

مياه، ماء ورد وماء زهر وماء خلاف وغير ذلك . وأخذت قدراً من السكر وأخذت مرش ماء ورد ممسك وحصى لبان ذكر وعوداً وعنبراً ومسكاً وأخذت شمعاً اسكندرانياً، ووضعت الجميع في القفص وقالت : إحمل قفصك واتبعني . فحمل القفص وتبعها إلى أن أتت داراً مليحة وقدامها رحبة فسيحة وهي عالية البنيان مشيّدة الأركان، بابها بشقتين من الابنوس مصفّح بصفائح الذهب الأحمر . فوقفت الصبية على الباب ودقّت دقاً لطيفاً، وإذا بالباب انفتح بشقتيه، فنظر الحمال إلى من فتح لها الباب، فوجدها صبية رشيقة القدّ قاعدة النهد ذات حسن وجمال وقدّ واعتدال وجبين كغرّة الهلال وعيون كعيون الغزلان وحواجب كهلال رمضان، وخدود مثل شقائق النعمان، وفم كخاتم سليمان ووجه كالبدر في الإشراق ونهدين كرمّانتين باتفاق وبطن مطوي تحت الثياب كطي السجل للكتّاب . فلما نظر الحمّال إليها سلبت عقله وكاد القفص أن يقع من فوق رأسه ثم قال : ما رأيت عمري أبرك من هذا النهار . فقالت الصبية البوابة للدلالة والحمّال : مرحباً وهي من داخل الباب، ومشوا حتى انتهوا إلى قاعة فسيحة مزركشة مليحة ذات تراكيب وشاذروانات ومصاطب وسدلات وخزائن عليها الستور مرخيّات وفي وسط القاعة سرير من المرمر مرصّع بالدر والجوهر، منصوب عليه ناموسية من الأطلس الأحمر، ومن داخله صبية بعيون بابلية وقامة ألفية ووجه يخجل الشمس المضيئة فكأنها بعض الكواكب الدريّة أو عقيلة عربية كما قال فيها الشاعر : [من البسيط]

مَنْ قاسَ قَدَّكَ بالغُصْنِ الرَّطِيْب فَقَدْ ... اضْحَى القِياسُ بِه زُوراً وبُهْتانا
أَلغُصْنُ أَحْسَنُ ما نَلْقاهُ مُكْتَسِياً ... وأَنْتَ أَحْسَنُ ما نَلْقاكَ عُرْيانا

فنهضت الصبية الثالثة من فوق السرير وخطرت قليلاً إلى أن صارت في وسط القاعة عند أختيها، وقالت : ما وقوفكم ؟ حطّوا عن رأس هذا الحمّال المسكين . فجاءت الدلالة من قدام والبوابة من خلفه وساعدتهما الثالثة وحططن عن الحمّال وفرّغن ما في القفص وصفوا كل شيء في محله، وأعطين الحمّال دينارين وقلن له : توجّه يا حمّال . فنظر إلى البنات وما هنّ فيه من الحسن والطبائع الحسان فلم يرَ أحسن منهن، ولكن ليس عندهن رجال . ونظر ما عندهن من الشراب والفواكه والمشمومات وغير ذلك . فتعجّب غاية العجب ووقف عن الخروج ، فقالت له الصبية : ما لك لا تروح هل أنت استقليت الأجرة ؟ والتفتت إلى أختها وقالت لها : اعطيه ديناراً آخر . فقال الحمّال : والله يا سيداتي إن أجرتي نصفان وما استقليت الأجرة وإنما اشتغل قلبي وسري بكن وكيف حالكن وأنتن وحدكن وما عندكن رجال ولا أحد يؤانسكن ؟ وأنتن تعرفن أن المنارة لا تثبت إلا على أربعة . وليس لكن رابع وما يكمل حظ النساء إلا بالرجال كما قال الشاعر : [من البسيط]

أُنْظُرْ إلى أَرْبعٍ عِنْدِي قَد اْجْتَمَعَتْ ... جُنْكٌ وعُوْدٌ وقَانُونٌ ومِزْمارُ

وأنتن ثلاثة، فتفتقرن إلى رابع يكون رجلاً عاقلاً لبيباً حاذقاً وللأسرار كاتماً . فقلن له : نحن بنات ونخاف أن نودع السر عند من لا يحفظه وقد قرأنا في الأخبار شعراً : [من الرجز]

صُنْ عَنْ سِواكَ السِّرَّ لا تُوْدِعْهُ ... مَنْ أَوْدَعَ السِّرَّ فَقَدْ ضَيَّعَهُ

فلما سمع الحمال كلامهن قال: وحياتكن إني رجل عاقل أمين قرأت الكتب وطالعت التواريخ أظهر الجميل وأخفي القبيح وأعمل بقول الشاعر: [من البسيط]

لا يَكْتُمُ السِّرَّ إلاَّ كُلُّ ذي ثِقَةٍ والسِّرُّ عِنْدَ خِيارِ النَّاسِ مَكْتومُ
السِّرُّ عِنْدِيَ في بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ ضاعَتْ مَفَاتِحُهُ والبابُ مَخْتُومُ

فلما سمع البنات الشعر وما أبداه من الكلام قلن له: أنت تعلم أننا غرمنا على هذا المقام جملة من المال، فهل معك شيء تجازينا به؟ فنحن لا ندعك تجلس عندنا حتى تغرم مبلغاً من المال، لأن خاطرك أن تجلس عندنا وتصير نديمنا وتطلع على وجوهنا الصباح الملاح. فقالت صاحبة الدار: إذا كانت بغير المال محبة فلا تساوي وزن حبة. وقالت البوابة: إن لم يكن معك شيء رح بلا شيء. فقالت الدلالة: يا أختي نكف عنه، فوالله ما قصّر اليوم معنا ولو كان غيره ما طول روحه علينا ومهما جاء عليه أغرمه عنه. ففرح الحمّال وقال: والله ما استفتحت بالدراهم إلا منك. فقلنا له: اجلس على الرأس والعين. وقامت الدلالة وشدّت وسطها وصفّت القناني وروقت المدام وعملت الحضرة على جانب البحر وأحضرت ما يحتاجون إليه، ثم قدمت المدام وجلست هي وأختاها. وجلس الحمّال بينهن وهو يظن أنه في المنام. ثم قدمت باطية المدام وملأت أول قدح وشربته والثاني والثالث، ثم ملأت وناولت أختها الأخرى، ثم ملأت وناولت الحمّال، فأخذ الحمّال منها الكأس وأنشد هذا الشعر: [من الخفيف]

إشْرَبِ الرَّاحَ فائِزاً بالعَوَافي إنَّ هذا الشَّرابَ لِلدَّاءِ شَافِ

وقال أيضاً هذا البيت: [من البسيط]

لا يَشْرَبُ الرَّاحَ إلاَّ مَنْ بِهِ طَرَبٌ يَكُونُ بالسُّكْرِ في أفْراحِهِ راقِي

وبعد هذا الشعر قبّل أيديهن وشرب معهن، ثم نزل عند صاحبة المحل وقال: يا سيدتي أنا عبدك ومملوكك وخدامك وأنشد يقول: [من الطويل]

على البابِ عَبْدٌ مِنْ عَبيدِكِ واقِفٌ بِجُودِكِ والإحْسانِ والشُّكْرِ عارِفٌ

فقالت: اشرب هنيئاً وعافية في مجاري الصحة. فأخذ الكأس وقبّل يدها وترنّم بقول الشاعر: [من البسيط]

ناوَلْتُها شِبْهَ خَدَّيْها مُشَعْشَعَةً حَمْراءَ يَحْكي سَناها ضَوْءَ مِقْباسِ
فَقَبَّلَتْها وقالَتْ وهِيَ ضاحِكَةٌ فَكَيْفَ تَسْقي خُدُودَ النَّاسِ للنَّاسِ
قُلْتُ اشْرَبي فَهْيَ مِنْ دَمْعي وَحُمْرَتُها دَمِّي ومازِجُها في الكأسِ أنْفاسِي

فأخذت الصبية القدح وشربته ونزلت عند أختها، ولا زلن والحمّال بينهن في رقص وغناء ومشمومات، ولم يزل الحمّال معهن في عناق وتقبيل. وهذه تكلمه وهذه تجذبه وهذه بالمشموم تضربه وهو معهنّ حتى لعبت الخمرة بعقولهم. فلما تحكّم الشراب معهم، قامت البوابة وتجرّدت من ثيابها وصارت عريانة ثم رمت نفسها في تلك البحرة ولعبت في الماء، وأخذت الماء في فمها وبخّت الحمّال، ثم غسلت أعضاءها وما بين فخذيها، ثم طلعت من الماء ورمت نفسها في حجر الحمّال وقالت له: يا حبيبي ما اسم هذا؟ وأشارت إلى فرجها. فقال الحمّال: رحمك الله.

فقالت : يوه يوه ، أما تستحي ومسكته من رقبته وصارت تصكه . فقال : فرجك . فقالت : غيره . فقال : كسّك . فقالت : غيره . فقال : زنبورك ، فلم تزل تصكه حتى ذاب قفاه ورقبته من الصك . ثم قال لها : وما اسمه ؟ فقالت له : حبق الجسور . فقال الحمّال : الحمد لله على السلامة يا حبق الجسور . ثم إنهم أداروا الكأس والطاس فقامت الثانية وخلعت ثيابها ورمت نفسها في تلك البحرة وعملت مثل الأولى ، وطلعت ورمت نفسها في حجر الحمّال وأشارت إلى فرجها وقالت : يا نور عيني ما اسم هذا قال : فرجك قالت : أما يقبح عليك هذا الكلام ؟ وصكته كفاطن له سائر ما في القاعة ، فقال : حبق الجسور . فقالت : لا . والضرب والصك على قفاه ، فقال لها : وما اسمه ؟ فقالت له : السمسم المقشور . ثم قامت الثالثة وخلعت ثيابها ونزلت تلك البحرة وفعلت مثل من قبلها ثم لبست ثيابها وألقت نفسها في حجر الحمّال وقالت له أيضاً : ما اسم هذا ؟ وأشارت إلى فرجها . فصار يقول لها كذا وكذا ، إلى أن قال لها وهي تضربه : وما اسمه ؟ فقالت : خان أبي منصور . فقال : الحمد لله على السلامة يا خان أبي منصور . ثم بعد ساعة قام الحمّال ونزع ثيابه ونزل في البحرة وذكره يسبح في الماء ، وغسل مثل ما غسلن ثم طلع ورمى نفسه في حجر سيدتهن ورمى ذراعيه في حجر البوابة ورمى رجليه في حجر الدلالة ثم اشار إلى أيره وقال : يا سيدتي ما اسم هذا ؟ فضحك الكل على كلامه حتى انقلبن على ظهورهن وقلن : زبّك . قال : لا . وأخذ من كل واحدة عضّة . قلن : أيرك . قال : لا . وأخذ من كل واحدة حضناً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 10

□ قالت لها أختها دنيازاد : يا أختي اتمي لنا حديثك . قالت : حباً وكرامةً . قد بلغني أيها الملك السعيد ، أنهن لم يزلن يقلن زبّك أيرك وهو يقبّل ويعض ويعانق وهن يتضاحكن ، إلى أن قلن له : وما اسمه ؟ قال : اسمه البغل الجسور الذي يرعى حبق الجسور ويعلق بالسمسم المقشور ويبيت في خان أبي منصور . فضحكن حتى استلقين على ظهورهن ، ثم عادوا إلى منادمتهم . ولم يزالوا كذلك إلى ان أقبل الليل عليهم . فقلن للحمّال : توّجه وأرينا عرض أكتافك . فقال الحمّال : والله خروج الروح أهون من الخروج من عندكن . دعونا نصل الليل بالنهار وكل منّا يروح إلى حال سبيله . فقالت الدلالة : بحياتي عندكن تدعنه ينام عندنا نضحك عليه ، فإنه خليع ظريف . فقلن له : تبيت عندنا بشرط ان تدخل تحت الحكم ، ومهما رأيته لا تسأل عنه ولا عن سببه . فقال : نعم . فقلن : قم واقرأ ما على الباب مكتوباً . فقام إلى الباب فوجد مكتوباً عليه بماء الذهب : لا تتكلّم فيما لا يعنيك تسمع ما لا يرضيك . فقال الحمّال : اشهدوا أني لا أتكلم فيما لا يعنيني . ثم قامت الدلالة جهزت لهم مأكولاً فأكلوا ، ثم أوقدوا الشمع والعود وقعدوا في أكل وشرب . وإذا هم سمعوا دقّ الباب ، فلم يختل نظامهم ، فقامت واحدة منهم إلى الباب ثم عادت وقالت : قد كمل صفانا في هذه الليلة لأني وجدت بالباب ثلاثة أعجام دقونهم محلوقة ، وهم الثلاثة عوْر بالعين الشمال ، وهذا من أعجب الاتفاق . وهم ناس غرباء قد حضروا من أرض الروم ولكل واحد منهم شكل وصورة مضحكة ، فإن دخلوا نضحك عليهم . ولم تزل تتلطف بصاحبتيها حتى قالتا لها : دعيهم يدخلون ، واشرطي عليهم ان لا يتكلموا فيما لا يعنيهم فيسمعوا ما لا يرضيهم . ففرحت

وراحت ثم عادت ومعها الثلاثة العور ذقونهم محلوقة وشواربهم مبرومة ممشوقة وهم صعاليك. فسلّموا وتأخروا، فقام لهم البنات وقعدوهم. فنظر الثلاثة رجال إلى الحمّال فوجدوه سكران، فلما عاينوه ظنّوا أنه منهم وقالوا: هو صعلوك مثلنا يؤانسنا. فلما سمع الحمّال هذا الكلام قام وقلب عينيه وقال لهم: اقعدوا بلا فضول، أما قرأتم ما على الباب؟ فضحك البنات وقلن لبعضهن: إننا نضحك بين الصعاليك والحمّال. ثم وضعن الأكل للصعاليك، فأكلوا ثم جلسوا يتنادمون والبوابة تسقيهم. ولما دار الكاس بينهم قال الحمّال للصعاليك: يا أخوتنا هل معكم حكاية أو نادرة تسلوننا بها؟ فدبت فيهم الحرارة وطلبوا آلات اللهو. فأحضرت لهم البوابة دفاً موصلياً وعوداً عراقياً وجنكاً عجمياً. فقام الصعاليك واقفين وأخذ واحد منهم الدف وأخذ واحد العود وأخذ واحد الجنك وضربوا بها، وغنّت البنات وصار لهم صوت عالٍ. فبينما هم كذلك وإذا بطارق يطرق الباب، فقامت البوابة لتنظر من بالباب. وكان السبب في دقّ الباب، أن في تلك الليلة نزل الخليفة هارون الرشيد لينظر ويسمع ما يتجدد من الأخبار هو وجعفر وزيره ومسرور سيّاف نقمته، وكان من عادته أن يتنكر في صفة التجار. فلما نزل تلك الليلة ومشى في المدينة جاءت طريقهم على تلك الدار فسمعوا آلات الملاهي، فقال الخليفة لجعفر: إني أريد أن ندخل هذه الدار ونشاهد صاحب هذه الأصوات. فقال جعفر: هؤلاء قوم قد دخل السكر فيهم ونخشى أن يصيبنا منهم شرّ. فقال: لا بدّ من دخولنا، وأريد أن تتحيّل حتى ندخل عليهم. فقال جعفر: سمعاً وطاعةً. ثم تقدم جعفر وطرق الباب، فخرجت البوابة وفتحت الباب فقال لها: يا سيدتي نحن تجار من طبريه ولنا في بغداد عشرة أيام ومعنا تجارة، ونحن نازلون في خان التجار وعزم علينا تاجر في هذه الليلة فدخلنا عنده وقدم لنا طعاماً فأكلنا ثم تنادمنا عنده ساعة ثم أذن لنا بالإنصراف، فخرجنا بالليل ونحن غرباء، فتهنا عن الخان الذي نحن فيه فنرجو من مكارمكم أن تدخلونا هذه الليلة نبيت عندكم ولكم الثواب. فنظرت البوابة إليهم فوجدتهم بهيئة التجار وعليهم الوقار. فدخلت لصاحبتيها وشاورتهما فقالتا لها: أدخليهم. فرجعت وفتحت لهم الباب، فقالوا لها: أندخل بإذنك؟ قالت: أدخلوا. فدخل الخليفة وجعفرُ ومسرور. فلما رأتهم البنات قمن لهم وخدمنهم وقلن: مرحباً وأهلاً وسهلاً بأضيافنا، ولنا عليكم شرط: أن لا تتكلموا فيما لا يعنيكم فتسمعوا ما لا يرضيكم. قالوا: نعم. وبعد ذلك جلسوا للشراب والمنادمة فنظر الخليفة إلى الثلاثة الصعاليك فوجدهم عوراً بالعين الشمال، فتعجّب منهم، ونظر إلى البنات وما هم فيه من الحسن والجمال فتحيّر وتعجّب. واستمروا في المنادمة والحديث وأتين للخليفة بشراب فقال: أنا حاج، وانعزل عنهم. فقامت البوابة وقدمت له صفرة مزركشة ووضعت عليها باطية من الصيني وسكبت فيها ماء الخلاف وأرخت فيه قطعة من الثلج ومزجته بسكر، فشكرها الخليفة وقال في نفسه: لا بد أن أجازيها في غد على فعلها من صنيع الخير. ثم اشتغلوا بمنادمتهم. فلما تحكّم الشراب قامت صاحبة البيت وخدمتهم، ثم أخذت بيد الدلالة وقالت: يا أختي قومي لنقضي ديننا. فقالت لها: نعم. فعند ذلك قامت البوابة وأطلعت الصعاليك خلف الأبواب قدامهن، وذلك بعد أن أخلت وسط القاعة ونادَين الحمّال وقلن له: ما أقل مودتك، ما أنت غريب بل أنت من أهل الدار. فقام الحمّال وشدّ وسطه وقال: ما تريدين؟ فقالت: قف مكانك. ثم قامت الدلالة وقالت للحمّال: ساعدني، فرأى كلبتين من

الكلاب السود في رقبتيهما جنازير. فأخذهما الحمّال ودخل بهما إلى وسط القاعة، فقامت صاحبة المنزل وشمّرت عن معصمها وأخذت سوطًا وقالت للحمال: قدم كلبة منهما، فجرّها في الجنزير وقدّمها، والكلبة تبكي وتحرّك رأسها إلى الصبية. فنزلت الصبية عليها بالضرب على رأسها والكلبة تصرخ. ولا زالت تضربها حتى كلّت سواعدها، فرمت السوط من يدها، ثم ضمّت الكلبة إلى صدرها ومسحت دموعها وقبّلت رأسها. ثم قالت للحمّال: ردّها وهات الثانية. فجاء بها وفعلت بها مثل ما فعلت بالأولى. فعند ذلك اشتغل قلب الخليفة وضاق صدره، وغمز جعفر ان يسألها فقال له بالإشارة: اسكت. ثم التفتت صاحبة البيت للبوابة وقالت لها: قومي لقضاء ما عليك. قالت: نعم. ثم ان صاحبة البيت صعدت على سرير من المرمر مصفّح بالذهب والفضة وقالت للبوابة والدلالة: ائتيا بما عندكما. فاما البوابة فإنها صعدت على سرير بجانبها. وأما الدلالة فإنها دخلت مخدعاً وأخرجت منه كيساً من الأطلس بأهداب خضر، ووقفت قدام الصبية صاحبة المنزل ونفضت الكيس وأخرجت منه عوداً وأصلحت أوتاره وأنشدت هذه الأبيات:
[من البسيط]

رُدَّا عَلى جَفْنِيَ النَّوْمَ الَّذي سُلِبا ... وخَبِّرانِيْ بِعَقْلِي أَيَّةً ذَهَبا
عَلِمْتُ لَمّا رَضِيْتُ الحُبَّ مَنْزِلَةً ... أَنَّ المَنامَ عَلى جَفْنَيَّ قَدْ غَضِبا
قالُوا عَهِدْناكَ مِنْ أَهْلِ الرَّشادِ فَما ... أَغْواكَ؟ قُلْتُ أُطْلُبُوا مِنْ لَحْظِهِ السَّبَبا
إنِّي لَهُ عَنْ دَمِ المَسْفُوكِ مُعْتَذِرٌ ... أَقُولُ حَمَّلْتُه في سَفْكِهِ تَعَبَا
أَلْقَى بِمِرآةِ فِكْرِي شَمْسَ صُوْرَتِهِ ... فَعَكْسُها شَبَّ في أَحْشائِيَ اللَّهَبا
مَنْ صاغَهُ اللهُ مِنْ ماءِ الحَياةِ وقَدْ ... أَجْرَى بَقِيَّتَهُ في ثَغْرِهِ شَنَبا
ماذا تَرَى في مُحِبٍّ ما ذُكِرْتَ له ... إلاَّ شَكَا أَو بَكَى أو حَنَّ أو طَرِبا
يَرَى خَيالَكَ في الماءِ الزُّلالِ إذا ... رامَ الشَّرابَ، فَيُرْوَى وَهْوَ ما شَرِبَا

وأنشدت أيضاً: [من البسيط]

سَكِرْتَ مِنْ لَحْظِه لا مِنْ مُدامَتِه ... ومالَ بالنَّوْمِ عَيْنِي عَنْ تَمايُلِهُ
فَما السُّلاَفُ سَلَتْني بَلْ سَوالِفُهُ ... وما الشَّمُولُ شَلَتْني بَلْ شَمَائلهُ
لَوَى بِعَزْمِي أَصْداغٌ لَوَيْنَ لَهُ ... وغالَ عَقْلِيْ بما تَحْوِى غَلائِلُهُ

فلما سمعت الصبية ذلك قالت: طيبك الله، ثم شقّت ثيابها ووقعت على الأرض مغشياً عليها. فلما انكشف جسدها، رأى الخليفة عليه أثر ضرب المقارع والسياط فتعجّب من ذلك غاية العجب. فقامت البوابة ورشّت الماء على وجهها وأتت إليها بحلة وألبستها إيّاها. فقال الخليفة لجعفر: أما تنظر إلى هذه المرأة وما عليها من أثر الضرب، فأنا لا أقدر أن أسكت على هذا ولا أستريح إلا إن وقفت على حقيقة خبر هذه الصبية وحقيقة خبر هاتين الكلبتين. فقال جعفر: يا مولانا قد شرطوا علينا شرطاً وهو أن لا نتكلم إلا فيما يعنينا فنسمع ما لا يرضينا. ثم قامت الدلالة فأخذت العود وأسندته إلى نهدها وغمزته بأناملها وأنشدت تقول: [من الخفيف]

إن شَكَوْنا الهوَىْ فماذا تَقُولُ ... أَو تَلِفْنا شَوْقاً فماذا السَّبِيلُ

أَوْ بَعَثْنا رَسُولَنا يُتَرْجِمُ عَنّا ما يُؤَدّي شَكْوَى المُحِبِّ رَسُولُ
أَوْ صَبَرْنا فما لَنا مِن بَقاءٍ بَعْدَ فَقْدِ الأَحْبابِ إلاَّ قَليلُ
لَيْسَ إلاَّ تأَسُّفاً ثُم حُزْناً ودُمُوعاً عَلى الخُدُودِ تَسيلُ
أَيُّها الغائِبُونَ عَن لَمْحِ عَيْني أَنْتُمُ في الفُؤادِ مِنِّي حُلولُ
هَلْ حَفَظْتُمْ في الغَيْبِ عَهْداً لِصَبٍّ لَيْسَ عَنْهُ مَدَى الزَّمانِ يَحُولُ
أَمْ نَسِيتُمْ عَلى التَّباعُدِ صَبّاً شَفَّهُ فيكُمُ الضَّنَى والنُّحُولُ
وإذا الحَشْرُ ضَمَّنا أَتَمَنَّى مِنْ لَدُنْ رَبِّنا حِساباً يَطُولُ

فلما سمعت المرأة الثانية شعر الدلالة، شقت ثيابها كما فعلت الأولى، وصرخت ثم ألقت نفسها على الأرض مغشياً عليها، فقامت الدلالة والبستها حلّة ثانية بعد ان رشّت الماء على وجهها. ثم قامت المرأة الثالثة وجلست على سرير وقالت للدلالة: غنّي لي لأوفي ديني، فما بقي غير هذا الصوت. فاصلحت الدلالة العود وانشدت هذه الأبيات: [من الكامل]

فإلى مَتَى هذا الصُّدُودُ وذا الجَفا فلَقَدْ جَرَىْ مِنْ أَدْمُعِي مَا قَدْ كَفَى
كَمْ قَدْ أَطَلْتَ الهَجْرَ لي مُتَعَمِّداً إن كانَ قَصْدُكَ حاسِدِيْ فَقَدِ اشْتَفَى
لَو أَنْصَفَ الدَّهْرُ الخَؤُونُ لِعاشِقٍ ما كانَ يَوْماً لِلْعَواذِلِ مُنْصِفَا
فَلِمَنْ أَبوحُ بِصَبْوَتِيْ يا قاتِلي يا خَيْبَةَ الشَّاكِيْ إذا فَقَدَ الوَفَا
ويَزِيْدُ وَجْدِيْ في هَواكَ تَلَهُّفاً فَمَتَى، وَعَدْتَ ولا رأَيْتُكَ مُخْلِفَا
يا مُسْلِمُونَ خُذُوا بثأرِ مُتَيَّمٍ أَلِفَ السُّهادَ؛ لَدَيْهِ طَرْفٌ ما غَفَا
أَيُحِلُّ في شَرْعِ الغَرامِ تَذَلُّلِي ويَكُونُ غَيْرِيْ بالوِصالِ مُشَرَّفَا
ولَقَدْ كَلِفْتُ بِحُبِّكُمْ مُتَلَذِّذاً وغَدَا عَذُوْلي في الهَوَى مُتَكَلِّفَا

فلما سمعت المرأة الثالثة قصيدتها، صرخت وشقّت ثيابها وألقت نفسها على الأرض مغشياً عليها. فلما انكشف جسدها ظهر فيه أثر ضرب المقارع مثل من قبلها. فقال الصعاليك: ليتنا ما دخلنا هذه الدار وكنا بتنا على الكيمان، فقد تكدّر مبيتنا هنا بشيء يقطع الصلب. فالتفت الخليفة اليهم وقال لهم: لِمَ ذلك؟ قالوا: قد اشتغل سرّنا بهذا الأمر. فقال الخليفة: أما أنتم من هذا البيت؟ قالوا: لا ولا ظننا هذا الموضع إلا للرجل الذي عندكم. فقال الحمّال: والله ما رأيت هذا الموضع إلا هذه الليلة وليتني بتّ على الكيمان ولم ابت فيه. فقال الجميع: نحن سبعة رجال وهن ثلاث نسوة وليس لهن رابعة، فنسألهن عن حالهن، فإن لم يجبننا طوعا أجبننا كرهاً. واتفق الجميع على ذلك. فقال جعفر: ما هذا رأي سديد، دعوهن فنحن ضيوف عندهن وقد شرطن علينا شرطاً فنوفي به، ولم يبقَ من الليل إلا القليل وكل منا يمضي إلى حال سبيله. ثم إنه غمز الخليفة وقال: ما بقي غير ساعة، وفي غد نحضرهن بين يديك فتسألهن عن قصتهن. فأبى الخليفة وقال: لم يبقَ لي صبر عن خبرهن وقد كثر بينهن القيل والقال ثم قالوا: ومن يسألهن؟ فقال بعضهم: *الحمّال*؟ ثم *قال لهم النساء*: يا جماعة في أي شيء تتكلمون؟ فقام الحمّال

لصاحبة البيت وقال لها : يا سيدتي سألتك بالله وأقسم عليك به أن تخبرينا عن حال الكلبتين وبأي سبب تعاقبينهما ثم تعودين تبكين وتقبلينهما، وأن تخبرينا عن سبب ضرب أختك بالمقارع وهذا سؤالنا والسلام . فقالت صاحبة المكان للجماعة : أصحيح ما يقوله عندكم ؟ فقال الجميع : نعم ، إلا جعفر فإنه سكت . فلما سمعت الصبية كلامهم قالت : والله لقد آذيتمونا يا ضيوفنا الأذيّة البالغة، وتقدم لنا أننا شرطنا عليكم أن من تكلم فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه . أما كفى أننا أدخلناكم منزلنا وأطعمناكم زادنا، ولكن لا ذنب لكم وإنما الذنب لمن أوصلكم إلينا . ثم شمّرت عن معصمها وضربت الأرض ثلاث ضربات وقالت : عجّلوا، وإذا بباب خزانة قد فتح وخرج منه سبعة عبيد وبأيديهم سيوف مسلولة، فقالت : كتّفوا هؤلاء الكثير كلامهم واربطوا بعضهم ببعض . ففعلوا وقالوا : أيتها المخدّرة، ائذني لنا في ضرب رقابهم . فقالت : امهلوهم ساعة حتى أسألهم عن حالهم قبل ضرب رقابهم . فقال الحمّال : بالله يا سيدتي لا تقتليني بذنب الغير فإن الجميع أخطؤوا ودخلوا في الذنب إلا أنا، والله لقد كانت ليلتنا طيبة لو سلمنا من هؤلاء الصعاليك الذين لو دخلوا مدينة عامرة لأخربوها، ثم أنشد يقول : [من السريع]

ما أَحْسَنَ العفْوَ عَنْ قادرٍ لا سِيَّما عَنْ غَيْرِ ذِي ناصِرِ
بحُرْمَةِ الوُدِّ الَّذي بَيْنَنا لا تَقْتُلِ الأَوَّلَ بالآخِرِ

فلما فرغ الحمّال من كلامه، ضحكت الصبية . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 11

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد أن الصبية لما ضحكت بعد غيظها أقبلت على الجماعة وقالت : أخبروني بخبركم ، فما بقي من عمركم إلا ساعة . ولولا أنتم أعزّاء وأكابر قومكم أو حكّام لعجّلت جزاءكم . فقال الخليفة : ويلك يا جعفر ، عرّفها بنا وإلا تقتلنا . فقال جعفر : من بعض ما نستحق . فقال له الخليفة : لا ينبغي الهزل في وقت الجد ، كل منهما له وقت . ثم إن الصبية أقبلت على الصعاليك وقالت لهم : هل أنتم إخوة ؟ فقالوا لها : لا والله ما نحن إلا فقراء الحجام . فقالت لواحد منهم : هل أنت ولدت أعور ؟ فقال : لا والله ، وإنما قد جرى لي أمر عجيب حين تلفت عيني . ولهذا الأمر حكاية لو كتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر . فسألت الثاني والثالث فقالا لها مثل الأول . ثم قالوا : إن كل واحد منا من بلد وإن حديثنا عجيب وأمرنا غريب . فالتفتت الصبية لهم وقالت : كل واحد منكم يحكي حكايته وما سبب مجيئه إلى مكاننا . ثم يملّس على رأسه ويروح إلى حال سبيله . فأول من تقدم الحمّال فقال : يا سيدتي أنا رجل حمّال ، حملتني هذه الدلالة وأتت بي هنا وجرى لي معكن ما جرى وهذا حديثي والسلام . فقالت له : ملّس على رأسك ورح . فقال : والله ما أروح حتى أسمع حديث رفقائي .

حكاية الصعلوك الأول

فتقدم الصعلوك الأول وقال لها : يا سيدتي اعلمي ، إن سبب حلق ذقني وتلف عيني أن والدي كان ملكاً وله أخ وكان أخوه ملكاً في مدينة أخرى . واتفق أن أمي ولدتني في اليوم الذي ولد فيه ابن عمي . ثم مضت سنون وأعوام وأيام حتى كبرنا وكنت أزور عمي في بعض السنين ، وأقعد عنده أشهراً عديدة . فزرته مرة فأكرمني ابن عمي غاية الإكرام ، وذبح لي الأغنام

وروق لي المدام وجلسنا للشراب، فلما تحكّم الشراب فينا قال لي ابن عمي : يا ابن عمي، إن لي عندك حاجة مهمة وأريد أن لا تخالفني فيما أريد أن افعله . فقلت له : حباً وكرامة . فاستوثق مني بالإيمان العظام ونهض من وقته وساعته وغاب قليلاً ثم عاد وخلفه امرأة مزينة مطيبة وعليها من الحلل ما يساوي مبلغاً عظيماً . فالتفت إليّ والمرأة خلفه وقال : خذ هذه المرأة واسبقني على الجبّانة الفلانية ووصفها لي فعرفتها، وقال لي : أدخل بها التربة وانتظرني هناك . فلم يمكنني المخالفة ولم أقدر على رد سؤاله لأجل اليمين الذي حلفته . فأخذت المرأة وسرت إلى أن دخلت التربة أنا وإيّاها، فلما استقرَّ بنا الجلوس جاء ابن عمي ومعه طاسة فيها ماء وكيس فيه جبس وقادوم . ثم إنه أخذ القادوم وجاء إلى قبر في وسط التربة، ففكه ونقض أحجاره إلى ناحية التربة ثم حفر بالقادوم في الأرض حتى كشف عن طابق قدر الباب الصغير فبان ممن تحت الطابق سلم معقود . ثم التفت الى المرأة بالإشارة وقال لها : دونك وما تختاري . فنزلت المرأة على ذلك السلم ثم التفت إليّ وقال : يا ابن عمي تمّم المعروف، إذا نزلت أنا في ذلك الموضع ، فرد الطابق ورد عليه التراب كما كان وهذا تمام المعروف، وهذا الجبس الذي في الكيس وهذا الماء الذي في الطاسة أعجن منه الجبس وجبّس القبر في دائر الأحجار كما كان أولاً حتى لا يعرفها أحد ولا يقول، هذا فتح جديد وبطنه عتيق، لأن لي سنة كاملة وأنا أعمل فيه وما يعلم به إلاّ الله وهذه حاجتي عندك . ثم قال لي : لا أوحش الله منك يا ابن عمي ثم نزل على السلم . فلما غاب عن عيني، قمت ورددت الطابق وفعلت ما أمرني به حتى صار القبر كما كان، ثم رجعت إلى قصر عمي . وكان عمي في الصيد والقنص فنمت تلك الليلة، فلما أصبح الصباح تذكرت الليلة الماضية وما جرى فيها بيني وبين ابن عمّي وندمت على ما فعلت معه حيث لا ينفع الندم ، ثم خرجت إلى المقابر وفتشت على التربة فلم أعرفها . ولم أزل أفتش حتى أقبل الليل ولم أهتد إليها . فرجعت إلى القصر ولم آكل ولم أشرب، وقد اشتغل خاطري بابن عمي من حيث لا أعلم له حالاً، فاغتممت غماً شديداً وبت ليلتي مغموماً إلى الصباح . فجئت ثانياً إلى الجبّانة وأنا أفكر فيما فعله ابن عمي . وندمت على سماعي منه وقد فتشت في الترب جميعاً فلم أعرف تلك التربة، ولازمت التفتيش سبعة أيام فلم أعرف له طريقاً، فزاد بي الوسواس حتى كدت أن أجن ، فلم أجد فرجاً دون أن سافرت ورجعت إلى أبي . فساعة وصولي إلى مدينة أبي، نهض إليّ جماعة على باب المدينة وكتّفوني ، فتعجّبت كل العجب لأني ابن سلطان المدينة وهم خدم أبي وغلماني ولحقني منهم خوف زائد، فقلت في نفسي : يا ترى ما جرى على والدي ؟ وصرت أسأل الذين كتّفوني عن سبب ذلك فلم يردوا عليّ جواباً . ثم بعد حين قال لي بعضهم : وكان خادماً عندي، إن أباك قد غدر به الزمان وخانته العساكر وقتله الوزير ونحن نترقب وقوعك . فأخذوني وأنا غائب عن الدنيا بسبب هذه الأخبار التي سمعتها عن أبي . فلما تمثلت بين يدي الوزير الذي قتل أبي، وكان بيني وبينه عداوة قديمة، وسبب تلك العداوة، أني كنت مولعاً بضرب البندق، فاتفق أني كنت واقفاً يوماً من الأيام على سطح قصري، وإذا بطائر نزل على سطح قصر الوزير وكان واقفاً هناك، فأردت أن أضرب الطير، وإذا بالبندقة أخطأت الطير وأصابت عين الوزير فأتلفتها بالقضاء والقدر كما قال الشاعر : [من الوافر]

دَعِ الأَقْدارَ تَفْعَلْ ما تشاءُ   وطِبْ نَفْساً بما فَعَلَ القَضَاءُ

ولا تَفْرَحْ ولا تَحْزَنْ بِشَيءٍ فإنَّ الشَّيءَ لَيْسَ له بَقَاءُ

وكما قال الآخر : [من الوافر]

مَشَيْناها خُطًى كُتِبَتْ عَلَينا وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطًى مَشَاها

ومَنْ كانَتْ مَنِيَّتُهُ بأَرْضٍ فَلَيْس يَمُوتُ في أَرْضٍ سِواها

ثم قال ذلك الصعلوك ، فلما أتلفت عين الوزير لم يقدر أن يتكلم لأن والدي كان ملك المدينة . فهذا سبب العداوة بيني وبينه فلما وقفت قدامه وأنا مكتّف أمر بضرب عنقي فقلت له : أتقتلني بغير ذنب؟ فقال : أي ذنب أعظم من هذا؟ وأشار إلى عينه المتلفة . فقلت له : فعلت ذلك خطأ . فقال : إن كنت فعلته خطأ فأنا أفعله بك عمداً . ثم قال : قدّموه بين يدي . فقدموني بين يديه ، فمدّ أصبعه في عيني الشمال فأتلفها . فصرت من ذلك الوقت أعور كما تروني . ثم كتّفني ووضعني في صندوق وقال للسيّاف : تسلّم هذا ، واشهر حسامك وخذه واذهب به إلى خارج المدينة واقتله ودعه للوحوش تأكله . فذهب بي السياف وسار حتى خرج من المدينة وأخرجني من الصندوق وأنا مكتوف اليدين ، مقيد الرجلين وأراد أن يغمض عينيّ ويقتلني ، فبكيت وأنشدت هذه الأبيات : [من الطويل]

جَعَلْتُكُمُ الدِّرْعَ الحَصِينَ لِتَمْنَعوا سِهامَ العِدا عَنِّي فَكُنْتُمْ نِصالَها

وكُنْتُ أُرَجِّي عِنْدَ كُلِّ مُلِمَّةٍ تَخُصُّ يَمِينِي أَنْ تَكُونَ شِمالَها

دَعُوا قِصَّةَ العُذّالِ عَنِّي بِمَعْزِلٍ وَخَلُّوا العِدَى تَرْمِي إليَّ نِبالَها

إذا لَمْ تُجِدْ نَفْسِي مُكايَدَةَ العِدَى فَكُونُوا سُكُوتاً لا عَلَيْها ولا لَها

وأنشدت أيضاً هذه الأبيات : [من الوافر]

وإخوانٍ اتَّخَذْتُهُمُ دُرُوعاً فكانُوها ولَكِن للأَعادِيْ

وخِلْتُهُمُ سِهاماً صائِبات فكانُوها ولَكِنْ في فُؤَادِيْ

وقالُوا قَدْ صَفَتْ مِنَّا قُلُوبٌ لَقَدْ صَدَقُوا ولكِنْ عن وِدَادِيْ

وقالُوا قَدْ سَعَيْنا كُلَّ سَعْيٍ لَقَدْ صَدَقُوا ولَكِنْ فِيْ فَسَادِيْ

فلما سمع السيّاف شعري ، وكان سيّاف أبي ولي عليه الإحسان قال : يا سيدي كيف أفعل وأنا عبد مأمور ؟ ثم قال لي : فز بعمرك ولا تعد إلى هذه الأرض فتهلك وتهلكني معك كما قال الشاعر : [من الوافر]

وَنَفْسكَ فُزْ بِهَا إن خِفْتَ ضَيْماً وخَلِّ الدَّارُ تَنْعِي مَنْ بَنَاها

فإنَّكَ واجِدٌ أَرْضاً بأَرْضٍ ونَفْسكَ لَمْ تَجِدْ نَفْساً سِواها

عَجِبْتُ لِمَنْ يَعِيْشُ بدارِ ذُلٍّ وأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ فَلاَها

ومَنْ كانَتْ مَنِيَّتُه بأَرْضٍ فَلَيْس يَمُوتُ في أَرْضٍ سِواها

وما غَلُظَتْ رِقابُ الأُسْدِ حَتّى بأَنْفُسِها تَوَلَّتْ ما عَنَاها

فلما قال لي ذلك قبّلت يديه ، وما صدّقت بالنجاة حتى فررت . وهان عليّ تلف عيني بنجاتي

من القتل ، وسافرت حتى وصلت إلى مدينة عمي . فدخلت عليه وأعلمته بما جرى لوالدي وبما جرى لي من عيني . فبكى بكاءً شديداً وقال : لقد زدتني هماً على همي وغماً على غمّي ، فإن ابن عمك قد فقد منذ أيام ولم أعلم ما جرى له ولم يخبرني أحد بخبره ، وبكى حتى أغمي عليه . فلما استفاق قال : يا ولدي ، قد حزنت على ابن عمك حزناً شديداً ، وأنت زدتني بما حصل لك ولأبيك غماً على غميّ ، ولكن يا ولدي بعينك ولا بروحك . ثم إنّي لم يمكني السكوت عن ابن عمي الذي هو ولده ، فأعلمته بالذي جرى له كله ، ففرح عمي بما قلته له فرحاً شديداً عند سماع خبر ابنه وقال : أرني التربة . فقلت : والله يا عمي لم أعرف مكانها ، لأني رحت بعد ذلك مرات لأفتش عليها فلم أعرف مكانها . ثم ذهبت أنا وعمي إلى الجبّانة ونظرت يميناً وشمالاً فعرفتها ، ففرحت أنا وعمي فرحاً شديداً . ودخلت أنا وإيّاه التربة وأزحنا التراب ورفعنا الطابق ونزلت أنا وعمّي مقدار خمسين درجة فلما وصلنا إلى آخر السلم ، وإذا بدخان طلع علينا فغشي أبصارنا فقال عمي الكلمة التي لا يخاف قائلها وهي : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ثم مشينا ، وإذا نحن بقاعة ممتلئة دقيقاً وحبوباً وما كولاً وغير ذلك . ورأينا في وسط القاعة ستارة مسبولة على سرير ، فنظر عمي إلى السرير فوجد ابنه هو والمرأة التي قد نزلت معه صارا فحماً أسوداً وهما متعانقان كأنهما ألقيا في جبّ نار . فلما نظر عمي ذلك بصق في وجهه وقال : تستحق يا خبيث فهذا عذاب الدنيا وبقي عذاب الآخرة وهو أشد وأبقى . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 12

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الصعلوك قال للصبية ، والجماعة والخليفة وجعفر يسمعون الكلام : ثم إن عمي ضرب ولده بالنعال وهو راقد كالفحم الأسود . فتعجبت من ضربه وحزنت على ابن عمي حيث صار هو والصبية فحماً أسود ثم قلت : بالله يا عمي خفّف الهمّ عن قلبك فقد اشتغل سرّي وخاطري بما قد جرى لولدك وكيف صار هو والصبية فحماً أسود ؟ أما يكفيك ما هو فيه حتى تضربه بالنعال ؟ فقال : يا ابن أخي ، ولدي هذا كان من صغره مولعاً بحب أخته وكنت أنهاه عنها وأقول في نفسي : إنهما صغيران ، فلما كبرا وقع بينهما القبيح وسمعت بذلك ولم أصدّق ، ولكني زجرته زجراً بليغاً وقلت له : احذر من هذه الفعال القبيحة التي لم يفعلها أحد قبلك ولا يفعلها أحد بعدك وإلاّ نبقى بين الملوك بالعار والنقصان إلى الممات ، وتشيع أخبارنا مع الركبان . وإياك أن تصدر منك هذه الفعال فإني أسخط عليك وأقتلك ، ثم حجبته عنها وحجبتها عنه . وكانت الخبيثة تحبّه محبة عظيمة وقد تمكّن الشيطان فيهما . فلما رآني حجبته ، فعل هذا المكان الذي تحت الأرض خفية ونقل إليه المأكول كما تراه واستغفلني لما خرجت إلى الصيد وأتى هذا المكان فغار عليه وعليها الحق سبحانه وتعالى وأحرقهما ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى . ثم بكى وبكيت معه وقال لي : أنت ولدي عوضاً عنه . ثم إني تفكّرت ساعة في الدنيا وحوادثها : من قتل الوزير والدي وأخذه مكانه وتلف عيني وما جرى لابن عمي من الحوادث الغريبة فبكيت . ثم اننا صعدنا ورددنا الطابق والتراب وعملنا القبر كما كان ، ثم رجعنا إلى منزلنا . فلم يستقر بنا الجلوس حتى سمعنا دقّ طبول وبوقات ، ورمحت الأبطال وامتلأت الدنيا بالعجاج والغبار من حوافر الخيل . فحارت عقولنا ولم نعرف الخبر .

فسأل الملك عن الخبر. فقيل: ان وزير اخيك قتله، وجمع جميع العسكر والجنود، وجاء بعسكره ليهجموا على المدينة في غفلة، وأهل المدينة لم يكن لهم طاقة بهم فسلّموا إليه. فقلت في نفسي: متى وقعت أنا في يده قتلني، وتراكمت عليّ الأحزان، وتذكرت الحوادث التي حدثت لأبي وأمي ولم أعرف كيف العمل. فإن ظهرت، عرفني أهل المدينة وعسكر أبي فيسعون في قتلي وهلاكي، فلم أجد شيئاً أنجو به إلا حلق ذقني، فحلقتها وغيّرت ثيابي وخرجت من المدينة وقصدت هذه المدينة والسلام، لعلّ أحداً يوصلني إلى أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، حتى أحكي له قصتي وما جرى لي. فوصلت إلى هذه المدينة في هذه الليلة فوقفت حائراً ولم أدرِ أين أمضي، وإذا بهذا الصعلوك واقف فسلمت عليه وقلت له: أنا غريب. فقال: وأنا غريب أيضاً. فبينما نحن كذلك وإذا برفيقنا هذا الثالث جاء وسلم علينا وقال: انا غريب. فقلنا له: ونحن غريبان. فمشينا وقد هجم علينا الظلام فساقنا القدر إليكم، وهذا سبب حلق ذقني وتلف عيني. فقالت الصبية: ملّس على رأسك ورح. فقال لها: لا أروح حتى أسمع خبر غيري. فتعجّبوا من حديثه. فقال الخليفة لجعفر: والله أنا ما رأيت مثل الذي جرى لهذا الصعلوك.

حكاية الصعلوك الثاني

ثم تقدم الصعلوك الثاني وقبّل الأرض وقال: يا سيدتي أنا ما ولدت أعور، وإنما لي حكاية عجيبة لو كتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر. فأنا ملك ابن ملك، وقرأت القرآن على سبع روايات وقرأت الكتب على أربابها من مشايخ العلم وقرأت علم النجوم وكلام الشعراء. واجتهدت في سائر العلوم حتى فقت أهل زماني فعظم حظي عند سائر الكتبة وشاع ذكري في سائر الأقاليم والبلدان وشاع خبري عند سائر الملوك. فسمع بي ملك الهند فأرسل يطلبني من أبي وأرسل إليه هدايا وتحفاً تصلح للملوك. فجهّزني أبي في ست مراكب وسرنا في البحر مدة شهر كامل حتى وصلنا إلى البر، وأخرجنا خيلاً كانت معنا في المركب وحمّلنا عشرة جمال هدايا ومشينا قليلاً، وإذا بغبار قد علا وثار حتى سدّ الأقطار. واستمر ساعة من النهار، ثم انكشف فبان من تحته ستون فارساً وهم ليوث عبوس، فتأملناهم وإذا هم عرب قطّاع طريق. فلما رأونا ونحن نفر قليل ومعنا عشرة أحمال هدايا لملك الهند، رمحوا علينا وأشرعوا الرماح بين أيديهم نحونا، فأشرنا إليهم بالأصابع وقلنا لهم: نحن رسل إلى ملك الهند المعظّم فلا تؤذونا. فقالوا: نحن لسنا في أرضه ولا تحت حكمه. ثم إنهم قتلوا بعض الغلمان وهرب الباقون وهربت أنا بعد أن جرحت جرحاً بليغاً، واشتغلت عنا العرب بالمال والهدايا التي كانت معنا. فسرت لا أدري أين أذهب وكنت عزيزاً فصرت ذليلاً، وسرت إلى أن أتيت رأس الجبل، فدخلت مغارة حتى طلع النهار ثم سرت منها حتى وصلت إلى مدينة عامرة بالخير، قد ولّى عنها الشتاء ببرده وأقبل عليها الربيع بورده. ففرحت بوصولي إليها وقد تعبت من المشي وعلاني الهمّ والاصفرار. فتغيرت حالتي ولا أدري أين أسلك فملت إلى خياط في دكان، وسلمت عليه، فرد عليّ السلام ورحّب بي وباسطني وسألني عن سبب غربتي. فأخبرته بما جرى لي من أوله إلى آخره. فاغتمّ لأجلي وقال: يا فتى لا تظهر ما عندك فإني أخاف عليك من ملك هذه المدينة، لأنه أكبر أعداء أبيك وله عنده ثار. ثم أحضر لي مأكولاً ومشروباً فأكلت وأكل معي وتحادثت معه في الليل وأخلى لي محلاً في جانب حانوته، وأتاني بما أحتاج إليه من فراش وغطاء. فأقمت

عنده ثلاثة أيام ، ثم قال لي : أما تعرف صنعة تكتسب بها ؟ فقلت له : إني فقيه طالب علم كاتب حاسب . فقال : إن صنعتك كاسدة في بلادنا ، وليس في مدينتنا من يعرف علماً ولا كتابة غير المال . فقلت : والله لا أدري شيئاً غير الذي ذكرته لك . فقال : شدّ وسطك وخذ فاساً وحبلاً واحتطب من البرية حطباً تتقوت به إلى أن يفرج الله عليك ، ولا تعرّف أحداً بنفسك فيقتلوك . ثم اشترى لي فأساً وحبلاً وأرسلني مع بعض الحطابين وأوصلهم بي . فخرجت معهم واحتطبت ، فأتيت بحمل على رأسي فبعته بنصف دينار . فأكلت ببعضه وأبقيت بعضه ودمت على هذا الحال مدة سنة . ثم بعد السنة ذهبت يوماً على عادتي إلى البرية لأحتطب منها ودخلتها ، فوجدت فيها خميلة أشجار فيها حطب كثير ، فدخلت الخميلة وأتيت شجرة وحفرت حولها وأزلت التراب عن جدارها ، فاصطكت الفأس في حلقة نحاس فنظفت التراب وإذا هي في طابق من خشب ، فكشفته فبان تحته سلم ، فنزلت إلى أسفل السلم فرأيت باباً فدخلته فرأيت قصراً محكم البنيان ، فوجدت فيه صبية كالدرة السنية تنفي عن القلب كل همّ وغمّ وبلية . فلما نظرت إليها ، سجدت لخالقها لما أبدع فيها من الحسن والجمال . فنظرت إليّ وقالت لي : أنت أنسيّ أم جنيّ ؟ فقلت لها : أنسيّ . فقالت : ومن أوصلك إلى هذا المكان الذي لي فيه خمسة وعشرون سنة ما رأيت فيه أنسياً أبداً ؟ فلما سمعت كلامها وجدت له عذوبة وقلت لها : يا سيدتي أوصلني الله إلى منزلك ولعله يزيل همّي وغمّي . وحكيت لها ما جرى لي من الأول إلى الآخر . فصعب عليها حالي وبكت وقالت : أنا الأخرى أعلمك بقصتي . فاعلم أني بنت ملك اقصى الهند صاحب جزيرة الابنوس وكان قد زوّجني بابن عمي فاختطفني ليلة زفافي عفريت اسمه جرجريس ابن رجموس ابن ابليس ، فطار بي ونزل في هذا المكان ونقل اليه كل ما أحتاج إليه من الحلي والحلل والقماش والمتاع ، والطعام والشراب . وفي كل عشرة أيام يجيئني مرة فيبيت هنا ليلة ، وعاهدني إذا عرضت لي حاجة ليلاً أو نهاراً أن ألمس بيدي هذين السطرين المكتوبين على القبّة ، فما أرفع يدي حتى أراه عندي . ومنذ كان عندي له اليوم أربعة أيام وبقي له ستة أيام حتى يأتي ، فهل لك أن تقيم عندي خمسة أيام ثم تنصرف قبل مجيئه بيوم ؟ فقلت : نعم . ففرحت ثم نهضت على أقدامها وأخذت بيدي وأدخلتني من باب مقنطر وانتهت بي إلى حمام لطيف ظريف . فلما رأيته خلعت ثيابي وخلعت ثيابها ، ودخلت فجلست على مرتبة وأجلستني معها وأتت بسكر ممسك وسقتني ثم قدمت لي مأكولاً . فأكلنا وتحادثنا ثم قالت لي : نم واسترح فإنك تعبان . فنمت يا سيدتي وقد نسيت ما جرى لي وشكرتها . فلما استيقظت وجدتها تكبس رجلي فدعوت لها وجلسنا نتحادث ساعة ثم قالت : والله إني كنت ضيّقة الصدر وأنا تحت الأرض وحدي ولم أجد من يحدّثني خمسة وعشرين سنة فالحمد لله الذي أرسلك إلي ، ثم أنشدت : [من الخفيف]

لَوْ عَلِمْنا مَجِيْئَكُمْ لَفَرَشْنا مُهْجَةَ القَلْبِ أَو سَوادَ العُيُونِ
وفَرَشْنا خُدُودَنا والتَقَيْنا لِيَكُونَ المَسِيرُ فَوْقَ الجُفُونِ

فلما سمعت شعرها شكرتها وقد تمكّنت محبتها في قلبي وذهب عني همّي وغمّي . ثم جلسنا في منادمة إلى الليل ، فبت معها ليلة ما رأيت مثلها في عمري ، وأصبحنا مسرورين فقلت لها : هل أطلعك من تحت الأرض وأريحك من هذا الجنّي ؟ فضحكت وقالت : اقنع واسكت ، ففي كل

عشرة أيام يوم للعفريت وتسعة لك . فقلت وقد غلب عليّ الغرام : فأنا في هذه الساعة أكسر هذه القبة التي عليها النقش المكتوب لعل العفريت يجيء حتى أقتله فإني موعود بقتل العفاريت . فلما سمعت كلامي أنشدت تقول : [من المتقارب]

يا طالباً لِلْفِراق مَهْلاً ... بِحِيْلَة قَدْ كَفَى اَشْتِياقُ
إصْبِرْ، فَطَبْعُ الزَّمانِ غَدْرٌ ... وآخِرُ الصُّحْبَةِ الفِراقُ

فلما سمعت شعرها، لم ألتفت لكلامها بل رفصت القبة رفصاً قوياً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 13

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الصعلوك الثاني قال للصبية : يا سيدتي ، لما رفصت القبة رفصاً قوياً قالت لي المرأة : إن العفريت قد وصل إلينا ، أما حذرتك من هذا؟ والله لقد آذيتني ولكن ، انجُ بنفسك واطلع من المكان الذي جئت منه . فمن شدّة خوفي نسيت نعلي وفأسي ، فلما طلعت درجتين التفتّ لأنظرهما ، فرأيت الأرض قد انشقّت وطلع منها عفريت ذو منظر بشع وقال : ما هذه الزعجة التي أرعشتِني بها ، فما مصيبتك؟ فقالت : ما أصابني شيء ، غير أن صدري ضاق فأردت أن أشرب شراباً يشرح صدري فنهضت لأقضي أشغالي فوقعت على القبة . فقال لها العفريت : تكذبين يا فاجرة ، ونظر في القصر يميناً وشمالاً فرأى النعل والفأس فقال لها : ما هذا إلاّ متاع الأنس من جاء إليك؟ فقالت : ما نظرتهما إلا في هذه الساعة ولعلهما تعلّقا معك . فقال العفريت : هذا كلام محال لا ينطلي عليّ يا عاهرة . ثم إنه عراها وصلبها بين أربعة أوتاد وجعل يعاقبها ويقررها بما كان . فلم يهن عليّ أن أسمع بكاءها ، فطلعت من السلم مذعوراً من الخوف . فلما وصلت إلى أعلى الموضع رددت الطابق كما كان وسترته بالتراب وندمت على ما فعلت غاية الندم ، وتذكرت الصبية وحسنها وكيف يعاقبها هذا الملعون وهي لها معه خمسة وعشرون سنة وما عاقبها إلا بسببي ، وتذكرت أبي ومملكته وكيف صرت حطّاباً فقلت هذه الأبيات : [من الطويل]

إذا مَا أتاكَ الدَّهْرُ يوماً بِنَكْبَةٍ ... فَيَوْمٌ تَرَى يُسْراً وَيَوْمٌ تَرَى عُسْرا

ثم مشيت إلى أن أتيت رفيقي الخياط ، فلقيته من أجلي على مقالي النار وهو لي في الانتظار . فقال : إني بتّ البارحة وقلبي عندك وخفت عليك من وحش أو غيره ، فالحمد لله على سلامتك . فشكرته على شفقته عليّ ودخلت خلوتي وجعلت أتفكّر فيما جرى لي وألوم نفسي على رفصي هذه القبّة ، وإذا بصديقي الخياط دخل عليّ وقال لي : في الدكان شخص أعجمي يطلبك ومعه فأسك ونعلك قد جاء بهما إلى الخياطين وقال لهم : إني خرجت وقت أذان المؤذن لأجل صلاة الفجر فعثرت بهما ولم أعلم لمن هما فدلّوني على صاحبهما ، فدلّه الخياطون عليك وها هو قاعد في دكاني ، فاخرج إليه وأشكره وخذ فأسك ونعلك . فلما سمعت هذا الكلام اصفرّ لوني وتغيّر حالي . فبينما أنا كذلك وإذا بأرض محلي قد انشقّت وطلع منها الأعجمي . وإذا هو العفريت وقد كان عاقب الصبية غاية العقاب فلم تقر له بشيء ، فأخذ الفأس والنعل وقال لها : إن كنت جرجريس من ذرّية ابليس ، فأنا أجيء بصاحب هذه الفأس والنعال . ثم جاء بهذه الحيلة إلى

الخياطين ودخل عليّ ولم يمهلني، بل اختطفني وطار وعلا بي ونزل بي وغاص في الأرض وأنا لا أعلم بنفسي. ثم طلع بي القصر الذي كنت فيه فرأيت الصبية عريانة والدم يسيل من جوانبها. فقطرت عيناي بالدموع، فأخذها العفريت وقال لها: يا عاهرة هذا عشيقك. فنظرت إليّ وقالت له: لا أعرفه ولا رأيته إلا في هذه الساعة. فقال لها العفريت: أهذه العقوبة ولم تقري؟ فقالت: ما رأيته عمري وما يحل من الله أن أكذب عليه. فقال لها العفريت: إن كنت لا تعرفينه، فخذي هذا السيف واضربي عنقه. فأخذت السيف وجاءتني ووقفت على رأسي، فأشرت لها بحاجبي ودمعي يجري على وجنتي. فنهضت وغمزتني وقالت: أنت الذي فعلت بنا هذا كله. فأشرت لها أن هذا وقت العفو ولسان حالي يقول: [من الطويل]

يُتَرْجِمُ طَرْفِي عَنْ لِسَانِي لِتَعْلَمُوا ... وَيَبْدُو لَكُم ما كان صَدرِيَ يَكْتُمُ
ولَمَّا ٱلْتَقَيْنا والدُّمُوعُ سَواجِمٌ ... خَرِسْتُ، وَطَرْفِي بالهَوَى يَتَكَلَّمُ
تُشِيرُ لنا عَمَّا تَقُولُ بِطَرْفِها ... وأُومِي إِلَيْها بالبَنَانِ فَتَفْهَمُ
حَوَاجِبُنا تَقْضِيْ ٱلْحَوائِجَ بَيْنَنا ... فَنَحْنُ سُكُوتٌ والهَوَى يَتَكَلَّمُ

فلما فهمت الصبية إشارتي، رمت السيف من يدها يا سيدتي. فناولني العفريت السيف وقال لي: اضرب عنقها وأنا أطلقك ولا أنكّد عليك. فقلت: نعم. وأخذت السيف وتقدمت بنشاط ورفعت يدي فقالت لي بحاجبها: أنا ما قصرت في حقّك. فهملت عيناي بالدموع ورميت السيف من يدي وقلت: أيها العفريت الشديد والبطل الصنديد، إذا كانت امرأة ناقصة عقل ودين لم تستحل ضرب عنقي، فكيف يحل لي أن أضرب عنقها ولم أرها عمري؟ فلا أفعل ذلك أبداً ولو سقيت من الموت كأس الردى. فقال العفريت: أنتما بينكما مودة. ثم أخذ السيف وضرب يد الصبية فقطعها ثم ضرب الثانية فقطعها ثم قطع رجلها اليمين ثم قطع رجلها اليسار حتى قطع أربعها بأربع ضربات وأنا أنظر بعيني فأيقنت بالموت، ثم أشارت إليّ بعينها فرآها العفريت فقال لها: قد زنيت بعينك. ثم ضربها فقطع رأسها والتفت إليّ وقال: يا أنسي، نحن في شرعنا إذا زنت الزوجة يحل لنا قتلها، وهذه الصبية إختطفتها ليلة عرسها وهي بنت اثنتي عشرة سنة ولم تعرف أحداً غيري، وكنت أجيئها في كل عشرة أيام ليلة واحدة في زيّ رجل أعجمي. فلما تحققت أنها خانتني قتلتها وأما أنت فلم أتحقق أنك خنتني فيها، ولكن لا بد أني ما أخلّيك في عافية، فتمنّ عليّ أي ضرر. ففرحت يا سيدتي غاية الفرح وطمعت في العفو وقلت له: وما أتمناه عليك؟ قال: تمنّ عليّ أي صورة أسحرك فيها، إما صورة كلب وإما صورة حمار وإما صورة قرد. فقلت له: وقد طمعت أنه يعفو عني، والله إن عفوت عني يعف الله عنك بعفوك عن رجل مسلم لم يؤذك. وتضرّعت إليه غاية التضرّع، وبقيت بين يديه وقلت له: أنا مظلوم. فقال: لا تطل عليّ الكلام، أما القتل فلا تخف منه، وأما العفو عنك فلا تطمع فيه، وأما سحرك فلا بد منه. ثم شقّ الأرض وطار بي إلى الجو حتى نظرت إلى الدنيا تحتي كأنها قطعة ماء، ثم حطّني على جبل وأخذ قليلاً من التراب وهمهم عليه وتكلم ورشّني وقال: اخرج من هذه الصورة إلى صورة قرد. فمن ذلك الوقت صرت قرداً ابن مائة سنة. فلما رأيت نفسي في هذه الصورة القبيحة، بكيت على روحي وصبرت على جور الزمان وعلمت أن الزمان ليس لأحد.

وقد انحدرت من أعلى الجبل إلى أسفل، وقد سافرت مدة شهر ثم ذهبت إلى شاطىء البحر المالح فوقفت ساعة، وإذا أنا بمركب في وسط البحر قد طاب ريحها وهي قاصدة البر، فاختفيت خلف صخرة على جانب البحر، وسرت إلى أن أتيت وسط المركب فقال واحد منهم : أخرجوا هذا المشؤوم من المركب. وقال واحد منهم : نقتله. وقال آخر : اقتله بهذا السيف. فأمسكت طرف السيف وبكيت وسالت دموعي، فحنّ عليّ الريّس وقال لهم : يا تجار إن هذا القرد استجار بي وقد أجرته، وهو في جواري فلا أحد يتعرّض له ولا يشوّش عليه، ثم إن الريس صار يحسن إليّ ومهما تكلم به أفهمه وأقضي حوائجه كلها وأخدمه في المركب، وقد طاب لها الريح مدة خمسين يوماً فرسينا على مدينة عظيمة وفيها عالم كثير لا يحصي عددهم إلا الله تعالى. فساعة وصولنا أوقفنا مركبنا فجاءتنا مماليك من طرف ملك المدينة. فنزلوا المركب وهنؤوا التجار بالسلامة وقالوا : إن ملكنا يهنّئكم بالسلامة وقد أرسل إليكم هذا الدرج الورق وقال : كل واحد منكم يكتب فيه سطراً. فقمت وأنا في صورة القرد وخطفت الدرج من أيديهم فخافوا أني أقطعه وأرميه في الماء، فنهروني وأرادوا قتلي فأشرت لهم أني أكتب. فقال لهم الريس : دعوه يكتب، فإن لخبط الكتابة طردناه عنا، وإن أحسنها اتخذته ولداً، فإني ما رأيت قرداً أفهم منه. ثم أخذت القلم واستمدّيت الحبر وكتبت سطراً بقلم الرقاع ورقمت هذا الشعر : [من المتقارب]

لَقَد كَتَبَ الدَّهْرُ فَضْلَ الكِرامِ ... وفَضْلُكَ لِلآنَ لا يُحْسَبُ
فلا أَيْتَمَ اللهُ مِنْكَ الوَرَى ... لأَنَّكَ لِلْفَضْلِ، نِعْمَ الأَبُ

وكتبت بالقلم الريحاني هذا الشعر : [من الطويل]

لَهُ قَلَمٌ عَمَّ الأَقاليمَ نَفْعُهُ ... وعَمَّ جَميعَ العالَمِينَ مَنَافِعُ
وخَمْسَةُ أَنْهارٍ أَنامِلُكَ التي ... تَسِيلُ على الأقطارِ خَمْسٌ أَصابِعُ

وكتبت بقلم الثلث هذين البيتين : [من الوافر]

وما مِنْ كاتِبٍ إلا سَيَفْنَى ... ويُبْقي الدَّهْرُ ما كَتَبَتْ يَدَاهُ
فلا تَكْتُبْ بِخَطِّكَ غَيْرَ شيءٍ ... يَسُرُّكَ في القِيامَةِ أَنْ تَراهُ

وكتبت تحته بقلم المشق هذين البيتين : [من البسيط]

إذا فَتَحْتَ دَواةَ العِزِّ والنِّعَمِ ... فَاجْعَلْ مَدادَكَ مِنْ جُودٍ ومِنْ كَرَمِ
واكْتُبْ بِخَيْرٍ إذا ما كُنْتَ مُعْتَذِراً ... بِذاكَ شَرَّفْتَ فَضْلاً نِسْبَةَ القَلَمِ

ثم ناولتهم ذلك الدرج الورق، فطلعوا به إلى الملك. فلما تأمل الملك ما في ذلك الدرج لم يعجبه خط أحد إلا خطي. فقال لأصحابه : توجّهوا إلى صاحب هذا الخط والبسوه هذه الحلة. وركّبوه بغلة وهاتوه بالنوبة واحضروه بين يديّ. فلما سمعوا كلام الملك تبسّموا، فغضب منهم ثم قال : كيف آمركم بأمر فتضحكوا عليّ؟ فقالوا : أيها الملك ما نضحك على كلامك، بل الذي كتب هذا الخط قرد وليس هو آدمياً وهو مع ريس المركب. فتعجّب الملك من كلامهم واهتزّ من الطرب وقال : أريد أن أشتري هذا القرد. ثم بعث رسلاً إلى المركب ومعهم البغلة والحلة وقال : لا بدّ أن تلبسوه هذه الحلة وتركبوه البغلة وتأتوا به. فساروا إلى المركب وأخذوني من الريس وألبسوني

الحلة . فاندهش الخلائق وصاروا يتفرجون عليّ . فلما طلعوا بي إلى الملك ورأيته ، قبّلت الأرض بين يديه ثلاث مرات فامرني بالجلوس فجلست على ركبتيّ . فتعجّب الحاضرون من ادبي وكان الملك أكثرهم تعجّباً . ثم إن الملك امر الخلق بالانصراف فانصرفوا ولم يبقَ إلا الملك والطواشي ومملوك صغير وأنا . ثم أمر الملك بطعام فقدموا سفرة طعام فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، فاشار إليّ الملك ان آكل ، فقمت وقبّلت الأرض بين يديه سبع مرات وجلست آكل معه . وقد ارتفعت السفرة وذهبت فغسلت يدي وأخذت الدواة والقلم والقرطاس وكتبت هذين البيتين : [من البسيط]

مَنَاحِرُ الضَّأنِ تِرْيَاقٌ مِنَ العِلَلِ ... وأَصْحُنُ الحَلْوَى فيهَا مُنْتَهَى أَمَلِي
يا لَهْفَ قَلْبِي على مَدِّ السِّماطِ إذا ... ماجَتْ كُنَافَتُهُ بالسَّمْنِ والعَسَلِ

وكتبت أيضاً هذين البيتين : [من الطويل]

إليْكِ اشْتِيَاقٌ يا كُنَافَةَ زَائِدٌ ... ولَيْسَ غِنَى لِيْ عَنْكِ كَلاَّ ولا صَبْرُ
فلا زِلْتِ أَكْلِي كُلَّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ ... ولا زالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ القَطْرُ

ثم قمت وجلست بعيداً ، فنظر الملك إلى ما كتبته وقرأه فتعجب وقال : هل يكون عند قرد هذه الفصاحة وهذا الخط ؟ والله إن هذا من عجب العجب . ثم قدم للملك شطرنج فقال الملك : أتلعب ؟ قلت برأسي : نعم . فتقدمت وصففت الشطرنج ولعبت معه مرتين فغلبته . فحار عقل الملك وقال : لو كان هذا آدمياً لفاق أهل زمانه ، ثم قال لخادمه : اذهب إلى سيدتك وقل لها كلّمي الملك حتى تجيء فتتفرج على هذا القرد العجيب . فذهب الطواشي وعاد ومعه سيدته بنت الملك . فلما نظرت لي غطت وجهها وقالت : يا أبي كيف طاب على خاطرك أن ترسل إليّ فيراني الرجال الأجانب . فقال : يا بنتي ما عندي سوى المملوك الصغير والطواشي الذي رباك وهذا القرد وأنا أبوك فممن تغطّين وجهك ؟ فقالت : إن هذا القرد ابن ملك واسم أبيه إيمار صاحب جزائر الأبنوس الداخلة وهومسحور ، سحره العفريت جرجريس الذي هو من ذريّة إبليس . وقد قتل زوجته بنت ملك أقناموس ، وهذا الذي تزعم أنه قرد إنما هو رجل عالم عاقل . فتعجب الملك من ابنته ونظر إليّ وقال : أحق ما تقول عنك ؟ فقلت برأسي : نعم وبكيت . فقال الملك لبنته : من أين عرفت أنه مسحور ؟ فقالت : يا أبت ، كان عندي وأنا صغيرة عجوز ماكرة ساحرة علّمتني صناعة السحر وقد حفظته وأتقنته وعرفت مائة وسبعين باباً من أبوابه ، أقل باب منها أنقل به حجارة مدينتك خلف جبل قاف وأجعلها لجة بحر وأجعل أهلها سمكاً في وسطه . فقال أبوها : بحق اسم الله عليك أن تخلّصي لنا هذا الشاب حتى أجعله وزيري . وهل فيك هذه الفضيلة ولم أعلم ؟ فخلّصيه حتى أجعله وزيري ، لأنه شاب ظريف لبيب . فقالت له : حبًّا وكرامةً . ثم أخذت بيدها سكّيناً وعملت دائرة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 14

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الصعلوك قال للصبية : يا سيدتي ، ثم إن بنت الملك أخذت بيدها سكيناً مكتوباً عليها أسماء عبرانية ، وخطت بها دائرة في وسط القصر وكتبت فيها أسماء وطلاسم وعزمت بكلام وقرأت كلاماً لا يفهم ، فبعد ساعة أظلمت علينا جهات القصر حتى ظننا أن الدنيا قد انطبقت علينا . وإذا بالعفريت قد تدلّى علينا في

أقبح صفة بأيد كالمداري ورجلين كالصواري وعينين كالمشعلين يوقدان ناراً، ففزعنا منه فقالت بنت الملك : لا أهلاً بك ولا سهلاً . فقال العفريت وهو في صورة أسد : يا خائنة، كيف خنت اليمين؟ أما تحالفنا على أنه لا يتعرض أحد للآخر؟ فقالت له : يا لعين ومن أين لك يمين؟ فقال العفريت : خذي ما جاءك . ثم انقلب أسداً وفتح فاه وهجم على الصبية، فأسرعت وأخذت شعرة من شعرها بيدها وهمهمت بشفتيها فصارت الشعرة سيفاً ماضياً وضربت ذلك الأسد فصار نصفين، فصارت رأسه عقرباً وانقلبت الصبية حيّة عظيمة وهمّت على هذا اللعين وهو في صفة عقرب، فتقاتلا قتالاً شديداً، ثم انقلب العقرب عقاباً فانقلبت الحيّة نسراً، وصارت وراء العقاب واستمرّت ساعة زمانية . ثم انقلب العقاب قطاً أسود فانقلبت الصبية ذئباً فتشاحنا في القصر ساعة زمانية وتقاتلا قتالاً شديداً فرأى القط نفسه مغلوباً فانقلب وصار رمّانة حمراء كبيرة . ووقعت تلك الرّمانة في بركة، فقصدها الذئب فارتفعت في الهواء ووقعت على بلاط القصر . فانكسرت وانتثر الحب كل حبة وحدها وامتلأت أرض القصر حباً . فانقلب ذلك الذئب ديكاً لأجل أن يلتقط ذلك الحب حتى لم يترك منه حبة، فبالأمر المقدر تدارت في جانب الفسقية فصار الديك يصيح ويرفرف بأجنحته ويشير إلينا بمنقاره ونحن لا نفهم ما يقول . ثم صرخ علينا صرخة تخيّل لنا منها أن القصر قد انقلب علينا، ودار في أرض القصر كلها حتى رأى الحبة التي تدارت في جانب الفسقية فانقضّ عليها ليلتقطها، وإذا بالحبة سقطت في وسط الماء الذي في البركة فصارت سمكة . وقد غاصت في الماء فانقلب الديك حوتاً كبيراً ونزل خلفها وغاب ساعةً، وإذا بنا قد سمعنا صراخاً عالياً فارتجفنا . فبعد ذلك طلع العفريت وهو شعلة نار فألقى من فمه ناراً ومن عينيه ومنخريه ناراً ودخاناً، وانقلبت الصبية لجة نار . فأردنا أن نغطس في ذلك الماء خوفاً على أنفسنا من الحريق والهلاك . فما نشعر إلا والعفريت قد صرخ من تحت النيران وصار عندنا في الليوان ونفخ في وجوهنا بالنار، فلحقته الصبية ونفخت في وجهه بالنار أيضاً فأصابنا الشرر منها ومنه . فأما شررها فلم يؤذنا وأما شرره فلحقني منه شرارة في عيني فاتلفتها في صورة القرد ولحق الملك شرارة منه في وجهه فأحرقت نصفه التحتاني بذقنه وحنكه ووقعت أسنانه التحتانية ووقعت شرارة في صدر الطواشي فاحترق ومات من وقته وساعته . فأيقنا بالهلاك وقطعنا رجاءنا من الحياة . فبينما نحن كذلك وإذا بقائل يقول : الله اكبر الله اكبر قد فتح ونصر وخذل من كفر بدين محمد سيد البشر . وإذا بالقائل بنت الملك قد أحرقت العفريت . فنظرنا إليه فرأيناه قد صار كوم رماد . ثم جاءت الصبية إلينا وقالت : إلحقوني بطاسة ماء . فجاؤوا بها إليها، فتكلمت عليها بكلام لا نفهمه ثم رشّتني بالماء وقالت : اخلص بحق الحق وبحق اسم الله الأعظم إلى صورتك الأولى . فصرت بشراً كما كنت أولاً ولكن تلفت عيني . فقالت الصبية : النار النار يا والدي أنا ما بقيت أعيش لأني موعودة بالقتل ولو كان من الأنس لقتلته من أول الأمر، وما تعبت إلا وقت فرط الرّمانة حين لقط حبها ونسيت الحبة التي فيها روح الجنّيّ، فلو لقطها لمات من ساعته، ولكن ما رأيتها بالقضاء والقدر ولم أشعر إلاّ وهو قد أتى وجرى لي معه حرب شديدة تحت الأرض وفي الهواء والماء . وكلما فتح عليّ باباً فتحت عليه باباً أعظم منه إلى أن فتح عليّ باب النار، وقلّ من فتح عليه باب النار ونجا منه إنما ساعدني عليه القدر حتى أحرقته قبلي وكنت أعهد منه التدين بدين الإسلام . وها أنا ميتة والله خليفتي عليكم . ثم إنها لم تزل تستغيث من

النار، وإذا بشرر أسود قد طلع إلى صدرها وطلع إلى وجهها. فلما وصل إلى وجهها بكت وقالت اشهد ان لا إله إلاّ الله واشهد ان محمداً رسول الله. ثم نظرنا إليها ورأيناها كوم رماد بجانب كوم العفريت، فحزنا عليها وتمنيت لو كنت مكانها ولا أرى ذلك الوجه المليح الذي عمل فيّ هذا المعروف يصير رماداً، لكن حكم الله لا يرد. فلما رأى الملك ابنته صارت كوم رماد، نتف بقية لحيته ولطم على وجهه وشقّ ثيابه وفعلت كما فعل وبكينا عليها. ثم جاء الحجّاب وأرباب الدولة، فوجدوا السلطان في حالة العدم وعنده كومان رماداً، فتعجّبوا وداروا حول الملك ساعة. فلما أفاق أخبرهم بما جرى لابنته مع العفريت. فعظمت مصيبتهم وصرخ النساء والجواري وعملوا العزاء سبعة أيام. ثم إن الملك أمر أن يبنى على رماد ابنته قبّة عظيمة وأوقدوا فيها الشموع والقناديل. وأما رماد العفريت فإنهم ذروه في الهواء إلى لعنة الله. ثم مرض السلطان مرضاً أشرف منه على الموت واستمر مرضه شهراً، وعادت إليه العافية فطلبني وقال لي: يا فتى قد قضينا زماننا في اهنئ عيش آمنين من نوائب الزمان حتى جئتنا، فاقبلت علينا الأكدار، فليتنا ما رأيناك ولا رأينا طلعتك القبيحة التي بسببها صرنا في حالة العدم. فأولاً عدمت ابنتي التي كانت تساوي مائة رجل، وثانياً جرى لي من الحريق ما جرى وعدمت أضراسي ومات خادمي. ولكن ما بيدك حيلة بل جرى قضاء الله علينا وعليك والحمد لله حيث خلصتك ابنتي وأهلكت نفسها. فاخرج يا ولدي من بلدي وكفى ما جرى بسببك، وكل ذلك مقدّر علينا وعليك فاخرج بسلام. فخرجت يا سيدتي من عنده وما صدقت بالنجاة ولا أدري أين أتوجه وخطر على قلبي ماجرى لي، وكيف خلّوني في الطريق سالماً منهم. ومشيت شهراً وتذكرت دخولي في المدينة غريباً واجتماعي بالخياط واجتماعي بالصبيّة تحت الأرض، وخلاصي من العفريت بعد أن كان عازماً على قتلي، وتذكرت ما حصل لي من المبتدإ إلى المنتهى. فحمدت الله وقلت: بعيني ولا بروحي. ودخلت الحمام قبل أن أخرج من المدينة وحلقت ذقني وجئت يا سيدتي، وفي كل يوم أبكي وأتفكّر المصائب التي عاقبتها تلف عيني، وكلما أتذكر ما جرى لي أبكي وانشد هذه الأبيات: [من الطَّويل]

تَحَيَّرْتُ والرَّحْمٰنُ لا شَكَّ في أَمْرِي — وحَلَّتْ بِيَ الأَحْزانُ مِنْ حَيْثُ لا أَدْرِي
سأَصْبِرُ حتَّى يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّني — صَبَرْتُ على شَيءٍ أَمَرَّ مِنَ الصَّبْرِ
وما أَحْسَنَ الصَّبْرَ الجَميلَ مَعَ التُّقَى — وما قَدَّرَ المَوْلى على خَلْقِهِ يَجْرِي
سَرائِرُ سِرِّى تُرْجُمانُ سَرِيرَتي — إذا كانَ سِرُّ السِّرِّ سِرُّك في سِرِّي
ولَوْ أَنَّ ما بِيْ بالجِبالِ لَهُدِّمَتْ — وبالنَّارِ أَطْفَاها وبالرِّيحِ لَمْ يَسْرِ
ومن قال إنَّ الدَّهْرَ فيه حَلاوَةٌ — فلا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ أَمَرَّ مِنَ المُرِّ

ثم سافرت الأقطار ووردت الأمصار، وقصدت دار السلام بغداد، لعلّي أتوصل إلى أمير المؤمنين وأخبره بما جرى لي. فوصلت إلى بغداد هذه الليلة، فوجدت أخي هذا الأول واقفاً متحيّراً فقلت: السلام عليك وتحدثت معه، وإذا بأخينا الثالث قد أقبل علينا وقال: السلام عليكم، أنا رجل غريب. فقلنا له: ونحن غريبان وقد وصلنا هذه الليلة المباركة. فمشينا نحن الثلاثة وما فينا أحد يعرف حكاية أحد. فساقتنا المقادير إلى هذا الباب ودخلنا عليكم، وهذا سبب حلق ذقني

وتلف عيني . فقالت له : إن حكايتك غريبة ، فملّس على رأسك واخرج إلى حال سبيلك . فقال : لا اخرج حتى أسمع حديث رفيقي .

حكاية الصعلوك الثالث

تقدم الصعلوك الثالث وقال : أيتها السيدة الجليلة ما قصتي مثل قصتهما ، بل قصتي أعجب . وذلك أن هذان جاءهما القضاء والقدر ، وأما أنا فسبب حلق دقني وتلف عيني انني جلبت القضاء لنفسي والهمّ لقلبي ، وذلك أني كنت ملكاً ابن الملك ، ومات والدي وأخذت الملك من بعده وحكمت وعدلت واحسنت للرعية ، وكان لي محبة في السفر في البحر ، وكانت مدينتي على البحر ، والبحر متسع وحولنا جزائر معدة للقتال . فأردت أن أتفرّج على الجزائر فنزلت في عشرة مراكب وأخذت معي مؤونة شهر كامل وسافرت عشرين يوماً . ففي ليلة من الليالي هبّت علينا رياح مختلفة إلى أن لاح الفجر فهدأ الريح وسكن البحر حتى أشرقت الشمس . ثم إننا أشرفنا على جزيرة وطلعنا على البر وطبخنا شيئاً ناكله فأكلنا ، ثم أقمنا يومين وسافرنا عشرين يوماً . فاختلفت علينا المياه وعلى الريس واستغرب الريس البحر . فقلنا للناظور : أنظر البحر بتأمل . فطلع الصاري ثم نزل ذلك الناظور وقال للريس : يا ريس رأيت عن يميني سمكاً على وجه الماء ونظرت إلى وسط البحر فرأيت سواداً من بعيد يلوح تارة أسود وتارة أبيض . فلما سمع الريس كلام الناظور ضرب الأرض بعمامته ونتف لحيته وقال للناس : ابشروا بهلاكنا جميعاً ولم يسلم منا أحد . وشرع يبكي وكذلك نحن الجميع نبكي على انفسنا . فقلت : أيها الريس ، أخبرنا بما رأى الناظور . فقال : يا سيدي ، اعلم إننا تهنا يوم جاءت علينا الرياح المختلفة ولم يهدأ الريح إلاّ بكرة النهار . ثم أقمنا يومين فتهنا في البحر ، ولم نزل تائهين أحد عشر يوماً من تلك الليلة ، وليس لنا ريح يرجعنا إلى ما نحن قاصدون آخر النهار ، وفي غد نصل إلى جبل من حجر أسود يسمى حجر المغناطيس وتجرّنا المياه غصباً إلى جهته ، فتتمزق المراكب ويروح كل مسمار في المركب إلى الجبل ويلتصق به . لأن الله وضع في حجر المغناطيس سراً وهو : أن جميع الحديد يذهب إليه . وفي ذلك الجبل حديد كثير لا يعلمه إلا الله تعالى حتى أنه تكسّر من قديم الزمان مراكب كثيرة بسبب ذلك الجبل . ويلي ذلك البحر قبّة من النحاس الأصفر معقودة على عشرة أعمدة ، وفوق القبّة فارس على فرس من نحاس ، وفي يد ذلك الفارس رمح من نحاس ومعلّق في صدر الفارس لوح من رصاص منقوش عليه أسماء وطلاسم ، فيها أيها الملك ، ما دام هذا الفارس راكباً على هذه الفرس تتكسر المراكب التي تفوت من تحته ويهلك ركابها جميعاً ، ويلتصق جميع الحديد الذي في المركب بالجبل ، وما الخلاص إلاّ إذا وقع هذا الفارس من فوق تلك الفرس . ثم إن الريس يا سيدتي ، بكى بكاءً شديداً فتحققنا أننا هالكون لا محالة وكل منّا ودّع صاحبه . فلما جاء الصباح قربنا من ذلك الجبل وساقتنا المياه إليه غصباً ، فلما صارت المراكب تحته ، انفتحت وفرّت المسامير منها وكل حديد فيها نحو حجر المغناطيس ، ونحن دائرون حوله في آخر النهار . وتمزقت المراكب ، فمنّا من غرق ومنّا من سلم . ولكن أكثرنا غرق والذين سلموا لم يعلموا ببعضهم لأن تلك الأمواج واختلاف الرياح ادهشتهم . وأما أنا يا سيدتي ، فنجّاني الله تعالى لما أراده من مشقتي وعذابي وبلوتي . فطلعت على لوح من الألواح ، فالقاه الريح والأمواج إلى جبل ، فأصبت طريقاً متطرقاً إلى أعلاه على هيئة السلالم منقورة في

الجبل، فسميت الله تعالى. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 15 قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الصعلوك الثالث قال للصبية والجماعة مكتفون والعبيد واقفون بالسيوف على رؤوسهم: ثم إني سميت الله ودعوته وابتهلت إليه وحاولت الطلوع على الجبل وصرت أتمسّك بالنقر التي فيه، حتى أسكن الله الريح في تلك الساعة وأعانني على الطلوع فطلعت سالماً على الجبل، وفرحت بسلامتي غاية الفرح ولم يكن لي دأب إلاّ القبّة، فدخلتها وصلّيت فيها ركعتين شكراً لله على سلامتي، ثم إني نمت تحت القبّة فسمعت قائلاً يقول: يا ابن خصيب، إذا انتبهت من منامك فاحفر تحت رجليك تجد قوساً من نحاس وثلاث نشابات من رصاص منقوشاً عليها طلاسم، فخذ القوس والنشاب وارم الفارس الذي على القبّة وأرح الناس من هذا البلاء العظيم. فإذا رميت الفارس يقع في البحر ويقع القوس، فخذ القوس من يدك وادفنه في موضعه، فإذا فعلت ذلك يطفو البحر ويعلو حتى يساوي الجبل، ويطلع عليه زورق فيه شخص غير الذي رميته فيجيء إليك وفي يده مجداف، فاركب معه ولا تسمِّ الله تعالى فإنه يحملك ويسافر بك مدة عشرة أيام إلى أن يوصلك إلى بحر السلامة. فإذا وصلت هناك تجد من يوصلك إلى بلدك، وهذا إنما يتم لك إذا لم تسمِّ الله. ثم استيقظت من نومي وقمت بنشاط وقصدت الماء كما قال الهاتف، وضربت الفارس رميته فوقع في البحر ووقع القوس من يدي فأخذت القوس ودفنتها فهاج البحر وعلا حتى ساوى الجبل الذي أنا عليه. فلم ألبث غير ساعة حتى رأيت زورقاً في وسط البحر يقصدني فحمدت الله تعالى. فلما وصل إليّ الزورق، وجدت فيه شخصاً من النحاس في صدره لوح من الرصاص، منقوش بأسماء وطلاسم. فنزلت في الزورق وأنا ساكت لا أتكلم، فحملني الشخص أول يوم والثاني والثالث إلى تمام عشرة أيام حتى رأيت جزائر السلامة. ففرحت فرحاً عظيماً، ومن شدّة فرحي ذكرت الله وسميت وهللت وكبّرت. فلما فعلت ذلك قذفني من الزورق في البحر ثم رجع إلى البحر، وكنت أعرف العوم، فعمت ذلك اليوم إلى الليل حتى كلّت سواعدي وتعبت أكتافي وصرت في الهلكات، ثم تشهّدت وأيقنت بالموت وهاج البحر من كثرة الرياح. فجاءت موجة كالقلعة العظيمة فحملتني وقذفتني قذفة صرت بها فوق البر لما يريد الله، فطلعت البر وعصرت ثيابي ونشفتها على الأرض وبتّ. فلما أصبحت لبست ثيابي وقمت أنظر أين أمشي، فوجدت غوطة، فجئتها ودرت حولها فوجدت الموضع الذي أنا فيه جزيرة صغيرة والبحر محيط بها، فقلت في نفسي: كلما أخلص من بليّة أقع في أعظم منها. فبينما أنا متفكّر في أمري وأتمنى الموت، إذ نظرت مركباً فيها ناس، فقمت وطلعت على شجرة. وإذا بالمركب التصقت بالبر وطلع منها عشرة عبيد معهم مساحي، فمشوا حتى وصلوا إلى وسط الجزيرة وحفروا في الأرض وكشفوا عن طابق، فرفعوا الطابق وفتحوا بابه ثم عادوا إلى المركب ونقلوا منها خبزاً ودقيقاً وسمناً وعسلاً وأغناماً وجميع ما يحتاج إليه الساكن. وصار العبيد مترددين بين المركب وباب الطابق وهم يحولون من المركب وينزلون في الطابق إلى أن نقلوا جميع ما في المركب، ثم بعد ذلك، طلع العبيد ومعهم ثياب أحسن ما يكون وفي وسطهم شيخ كبير هرم قد عمّر زمناً طويلاً وأضعفه الدهر حتى صار فانياً. ويد ذلك الشيخ في يد صبي قد أفرغ في قالب الجمال وألبس من الحسن

حلّة الكمال، حتى انه يضرب بحسنه الأمثال. وهو كالقضيب الرطب يسحر كل قلب بجماله ويسلب كل لب بكماله. فلم يزالوا يا سيدتي سائرين حتى آتوا إلى الطابق ونزلوا فيه وغابوا عن عيني. فلمّا توجهوا قمت ونزلت من فوق الشجرة ومشيت إلى موضع الردم، ونبشت التراب ونقلته وصبرت نفسي حتى أزلت جميع التراب، فانكشف الطابق فإذا هو خشب مقدار حجر الطاحون. فرفعته فبان من تحته سلم معقود من حجر. فتعجبت من ذلك، ونزلت في السلم حتى انتهيت إلى آخره، فوجدت شيئاً نظيفاً ووجدت بستاناً وثانياً وثالثاً إلى تمام تسعة وثلاثين. وكل بستان أرى فيه ما يكلّ عنه الوصف من أشجار وأنهار وأثمار وذخائر. ورأيت باباً فقلت في نفسي: ما الذي في هذا المكان؟ فلا بد أن أفتحه وأنظر ما فيه. ثم فتحته فوجدت فيه فرساً مسرّجاً ملجماً مربوطاً، ففككته وركبته، فطار بي إلى أن حطّني على سطح وأنزلني وضربني بذيله فأتلف عيني وفرّ مني، فنزلت من فوق السطح، فوجدت عشرة شباب عور. فلمّا رأوني قالوا لا لأمر حبابك. فقلت لهم: أتقبلوني أجلس عندكم؟ فقالوا: والله لا تجلس عندنا. فخرجت من عندهم حزين القلب باكي العين، وكتب الله لي السلامة حتى وصلت إلى بغداد. فحلقت ذقني وصرت صعلوكاً، فوجدت هذين الاثنين الأعورين، فسلمت عليهما وقلت لهما: أنا غريب. فقالا: ونحن غريبان. فهذا سبب تلف عيني وحلق ذقني. فقالت له: ملّس على رأسك ورح. فقال: والله لا أروح حتى أسمع قصة هؤلاء. ثم إن الصبية التفتت إلى الخليفة وجعفر ومسرور وقالت لهم: اخبروني بخبركم. فتقدم جعفر وحكى لها الحكاية التي قالها للبوابة عند دخولهم. فلمّا سمعت كلامه قالت: وهبت بعضكم لبعض. فخرجوا إلى أن صاروا في الزقاق فقال الخليفة للصعاليك: يا جماعة إلى أين تذهبون؟ فقالوا: وما ندري أين نذهب. فقال لهم الخليفة: سيروا وباتوا عندنا. وقال لجعفر: خذهم واحضرهم لي غداً حتى ننظر ما يكون. فامتثل جعفر ما أمره به الخليفة. ثم إن الخليفة طلع إلى قصره ولم يجئه نوم في تلك الليلة. فلمّا أصبح جلس على كرسي المملكة ودخلت عليه أرباب الدولة، فالتفت إلى جعفر بعد أن طلعت أرباب الدولة وقال: أئتني بالثلاث صبايا والكلبتين والصعاليك. فنهض جعفر وأحضرهم بين يديه، فأدخل الصبايا تحت الاستار والتفت لهن جعفر وقال لهن: قد عفونا عنكن لما أسلفتن من الإحسان إلينا ولم تعرفنا، فها أنا أعرفكن وأنتن بين يدي الخامس من بني العباس هارون الرشيد فلا تخبرنه إلاّ حقاً. فلمّا سمع الصبايا كلام جعفر عن لسان أمير المؤمنين تقدّمت الكبيرة وقالت: يا أمير المؤمنين، إن لي حديثاً لو كتب بالإبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

حكاية البنت الأولى زبيدة

فلما كانت الليلة 16

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن كبيرة الصبايا لمّا تقدمت بين يدي أمير المؤمنين. قالت: إن لي حديثاً عجيباً، وهو أن هاتين الصبيّتين أختاي من أبي من غير أمي. فمات والدنا وخلف خمسة الآف دينار وكنت أنا أصغرهن سناً. فتجهّزت أختاي وتزوّجت كل واحدة برجل ومكثنا مدة. ثم إن كل واحد من أزواجهما هيّأ متجراً وأخذ من زوجته ألف دينار وسافرا مع بعضهما وتركاهما. فغابا أربع سنين وضيع زوجاهما المال وخسرا وتركاهما في

بلاد الناس . فجاءتاني في هيئة الشحاذين ، فلمّا رأيتهما ذُهِلت عنهما ولم أعرفهما . ثم إني لمّا عرفتهما قلت لهما : ما هذه الحال ؟ فقالتا : يا أختنا ، إن الكلام لم يفد الآن وقد جرى القلم بما حكم الله . فأرسلتهما إلى الحمام وألبست كل واحدة حلّة وقلت لهما : يا أختاي ، أنتما الكبيرتان وأنا الصغيرة وأنتما عوض عن أبي وأمي ، والارث الذي نابني معكما قد جعل الله فيه البركة ، فكلا من زكاته وأحوالي جليلة وأنا وأنتما سواء وأحسنت إليهما غاية الإحسان . فمكثتا عندي مدة سنة كاملة ، وصار لهما مال من مالي . فقالتا إن الزواج خير لنا وليس لنا صبر عنه . فقلت لهما : يا أختاي لم تريا في الزواج خيراً فإن الرجل الجيد قليل في هذا الزمان وقد جربتما الزواج ، فلم يقبلا كلامي وتزوجا بغير رضاي . فزوجتهما من مالي وسترتهما ومضتا مع زوجيهما فأقاموا معاً مدة يسيرة ولعب عليهما زوجاهما وأخذا ما كان معهما وسافرا وتركاهما ، فجاءتا عندي وهما عريانتان واعتذرتا وقالتا : لا تؤاخذينا فأنت أصغر منا سناً وأكمل عقلاً ، وما بقينا نذكر الزواج أبداً . فقلت : مرحباً بكما يا أختاي ما عندي أعزّ منكما ، وقبّلتهما وزدتهما إكراماً . ولم نزل على هذه الحالة سنة كاملة . فأردت أن أجهّز لي مركباً إلى البصرة ، فجهّزت مركباً كبيرة وحملت فيها البضائع والمتاجر وما أحتاج إليه في المركب . وقلت : يا أختاي هل لكما أن تقعدا في المنزل حتى أسافر وأرجع أو تسافرا معي ؟ فقالتا : نسافر معك فإنّا لا نطيق فراقك . فأخذتهما وسافرنا وكنت قسمت مالي نصفين . فأخذت النصف وخبأت النصف الثاني وقلت : ربما يصيب المركب شيء ويكون في العمر مدة ، فإذا رجعنا نجد شيئاً ينفعنا . ولم نزل مسافرين أياماً وليالي فتاهت بنا المركب وغفل الريس عن الطريق ودخلت المركب بحراً غير البحر الذي نريده . ولم نعلم بذلك مدة وطاب لنا الريح عشرة أيام فلاحت لنا مدينة على بعد ، فقلنا للريس : ما اسم هذه المدينة التي أشرفنا عليها ؟ فقال ؟ والله لا أعلم ولا رأيتها قط ولا سلكت عمري هذا البحر ولكن جاء الأمر بالسلامة ، فما بقي إلا أن تدخلوا هذه المدينة وتخرجوا بضائعكم ، فإن حصل لكم بيع ، بيعوا وتصرفوا فيها . وإن لم يحصل لكم بيع ، نرتاح يومين ونتزود ونسافر . فدخلنا المدينة وطلع الريس إليها وغاب ساعة ثم جاءنا وقال : قوموا اطلعوا إلى المدينة وتعجبوا من صنع الله في خلقه واستعيذوا من سخطه . فطلعنا المدينة فوجدنا كل من فيها ممسوخاً حجارة سوداً . فاندهشنا من ذلك ومشينا في الأسواق ، فوجدنا البضائع باقية والذهب والفضة باقيين على حالهما . ففرحنا وقلنا : لعل هذا يكون له أمر عجيب . وتفرقنا في شوارع المدينة وكل واحد اشتغل عن رفيقه بما فيها من المال والقماش . وأما أنا فطلعت إلى القلعة فوجدتها محكمة ، فدخلت قصر الملك فوجدت جميع الأواني من الذهب والفضة ، ثم رأيت الملك جالساً وعنده حجابه ونوابه ووزراؤه وعليه من الملابس شيء يتحيّر فيه الفكر . فلمّا قربت من الملك وجدته جالساً على كرسي مرصّع بالدر والجوهر فيه كل درّة تضيء كالنجمة وعليه حلّة مزركشة بالذهب وواقفاً حوله خمسون مملوكاً لابسين أنواع الحرير وفي أيديهم السيوف مجرّدة . فلمّا نظرت لذلك دهش عقلي ، ثم مشيت ودخلت قاعة الحريم فوجدت في حيطانها ستائر من الحرير ووجدت الملكة عليها حلة مزركشة باللؤلؤ الرطب وعلى رأسها تاج مكلّل بأنواع الجواهر وفي عنقها قلائد وعقود ، وجميع ما عليها من الملبوس والمصاغ باقٍ

على حاله وهي ممسوخة حجراً أسود . ووجدت باباً مفتوحاً ، فدخلته ووجدت فيه سلّماً بسبع درجات ، فصعدته فرأيت مكاناً مرخّماً مفروشاً بالبسط المذهبة ، ووجدت فيه سريراً من المرمر مرصّعاً بالدر والجوهر ، ونظرت نوراً لامعاً في جهة فقصدتها فوجدت فيها جوهرة مضيئة قدر بيضة النعامة على كرسي صغير وهو يضيء كالشمعة ، ونورهما ساطع ومفروش على ذلك السرير من أنواع الحرير ما يحير الناظر . فلمّا نظرت إلى ذلك تعجبت ورأيت في ذلك المكان شموعاً موقدة فقلت في نفسي : لا بدّ ان أحداً أوقد هذه الشموع . ثم إني مشيت حتى دخلت موضعاً غيره وصرت أفتش في الأماكن ونسيت نفسي ممّا أدهشني من التعجّب من تلك الأحوال . واستغرق فكري إلى ان دخل الليل ، فأردت الخروج فلم أعرف الباب وتهت عنه ، فعدت إلى الجهة التي فيها الشموع الموقدة ، وجلست على السرير وتغطيت بلحاف بعد أن قرأت شيئاً من القرآن وأردت النوم فلم أستطع ولحقني القلق . فلما انتصف الليل سمعت تلاوة القرآن بصوت حسن رقيق ، فالتفت إلى مخدع فرأيت بابه مفتوحاً ، فدخلت الباب ونظرت المكان ، فإذا هو معبد وفيه قناديل معلّقة موقدة وفيه سجادة مفروشة جالس عليها شاب حسن المنظر ، فتعجبت كيف هو سالم دون اهل المدينة ، فدخلت وسلمت عليه فرفع بصره وردّ عليّ السلام . فقلت له : أسألك بحق ما تتلوه من كتاب الله أن تجيبني عن سؤالي . فتبسّم وقال : اخبريني أنت عن سبب دخولك هذا المكان ، وانا أخبرك بجواب ما تسأليني عنه . فأخبرته بخبري ، فتعجّب من ذلك . ثم إنني سألته عن هذه المدينة فقال : أمهليني . ثم طبق المصحف وأدخله في كيس من الاطلس واجلسني بجنبه ، فنظرت إليه فإذا هو كالبدر حسن الأوصاف لين الأعطاف بهيّ المنظر رشيق القّد أسيل الخد زهيّ الوجنات كأنّه المقصود من هذه الأبيات : [من الكامل]

رَصَدَ المُنَجِّمُ لَيْلَهُ فبَدا لَه ... قَدُّ المَلِيحِ يَمِيسُ في بُرْدَيْهِ
وأَمَدَّهُ زُحَلٌ سَوادَ ذَوائِبٍ ... والمِسْكُ هَادِيُ الخَالِ في خَدَّيْهِ
وغَدَتْ مِنَ المِرِّيخِ حُمْرَةُ خَدِّهِ ... والقَوْسُ يَرْمِي النَّبْلَ مِنْ جَفْنَيْهِ
وعَطَارِدٌ أَعْطاهُ فَرْطَ ذَكائِهِ ... وأَبَى السُّها نَظَرَ الوُشَاةِ إِلَيْهِ
فَغَدا المُنَجِّمُ حائراً ممّا رأَى ... والبَدْرُ باسَ الأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ

فنظرت إليه نظرةً أعقبتني ألف حسرة وأوقدت بقلبي كل جمرة . فقلت له : يا مولاي أخبرني عمّا سألتك . فقال : سمعاً وطاعةً . اعلمي أنّ هذه المدينة مدينة والدي وجميع أهله وقومه ، وهو الملك الذي رأيتيه على الكرسي ممسوخاً حجراً . وأما الملكة التي رأيتيها فهي أمي ، وقد كانوا مجوساً يعبدون النار دون الملك الجبار ، وكانوا يقسمون بالنار والنور والظل والحرور والفلك الذي يدور ، وكان أبي ليس له ولد فرزق بي في آخر عمره ، فربّاني حتى نشأت وقد سبقت لي السعادة ، وكان عندنا عجوز طاعنة في السن مسلمة تؤمن بالله ورسوله في الباطن وتوافق أهلي في الظاهر ، وكان أبي يقدرها لاتصافها بالأمانة والعفّة ، وكان يكرمها ويزيد في إكرامها ، وكان يعتقد انها على دينه . فلمّا كبرت سلّمني أبي إليها وقال : خذيه وربيّه وعلّميه احوال ديننا وأحسني تربيته وقومي بخدمته . فأخذتني العجوز وعلّمتني شروط الطهارة وفرائض الوضوء والصلاة ، وحفظتني القرآن . فلمّا اتممت ذلك قالت لي : يا ولدي ، اكتم هذا الأمر عن أبيك ولا تعلمه به

لئلا يقتلك . فكتمته عنه ولم أزل كاتماً عن أبي الخبر حتى ماتت تلك العجوز بعد أيام قلائل فازداد أهل المدينة كفراً وعتُوّاً وضلالاً . فبينما هم على ما هم فيه إذ سمعوا منادياً ينادي بصوت عال شبيه بصوت الرعد القاصف ، سمعه القريب والبعيد يقول : يا أهل هذه المدينة ارجعوا عن عبادة النار واعبدوا الملك الجبار . فحصل عند أهل المدينة فزع واجتمعوا عند أبي وهو ملك المدينة وقالوا له : ما هذا الصوت المزعج الذي سمعناه فاندهشنا من شدّة هوله ؟ فقال لهم : لا يهولنكم الصوت ولا يفزعكم ولا يردكم عن دينكم . فمالت قلوبهم إلى قول أبي ، ولم يزالوا منكبين على عبادة النار واستمروا على طغيانهم مدة سنة ، حتى جاء ميعاد ما سمعوا الصوت الأول ، فظهر لهم ثانياً فسمعوه ثلاث مرات على ثلاث سنين في كل سنة مرة . فلم يزالوا عاكفين على ما هم عليه حتى نزل عليهم المقت والسخط من السماء بعد طلوع الفجر ، فمسخوا حجارة سوداً ، وكذلك دوابهم وإنعامهم ، ولم يسلم من أهل هذه المدينة غيري . ومن يوم جرت هذه الحادثة وأنا على هذه الحالة في صلاة وصيام وتلاوة قرآن ، وقد سئمت من الوحدة وما عندي من يؤانسني . فعند ذلك قلت له : يا أيها الشاب ، هل لك أن تروح معي إلى مدينة بغداد وتنظر إلى العلماء وإلى الفقهاء فتزداد علماً وفقهاً وأكون أنا جاريتك مع أني سيدة قومي وحاكمة على رجال وخدم وغلمان ، وعندي مركب مشحونة بالمتجر وقد رمتنا المقادير على هذه المدينة حتى كان ذلك سبباً في اطلاعنا على هذه الأمور وكان النصيب في اجتماعنا ، ولم أزل أرغبه في التوجه حتى أجابني إليه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 17

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الصبية ما زالت تحسن للشاب التوجه معها حتى غلب عليها النوم . فنامت تلك الليلة تحت رجليه وهي لا تصدق بما هي فيه من الفرح ثم قالت : فلمّا أصبح الصباح قمنا ودخلنا إلى الخزائن وأخذنا ما خفّ حمله وغلا ثمنه ، ونزلنا من القلعة إلى المدينة فقابلنا العبيد والريس وهم يفتشون عليّ . فلمّا رأوني فرحوا بي وسألوني عن سبب غيابي ، فأخبرتهم بما رأيت وحكيت لهم قصة الشاب وسبب مسخ أهل هذه المدينة وما جرى لهم ، فتعجّبوا من ذلك . فلمّا رأتني أختاي ومعي ذلك الشاب ، حسدتاني عليه وصارتا في غيظ وأضمرتا المكر لي . ثم نزلنا المركب وأنا بغاية الفرح وأكثر فرحي بصحبة هذا الشاب ، وأقمنا ننتظر الريح حتى طاب لنا الريح . فنشرنا القلوع وسافرنا فقعدت أختاي عندنا وصارتا تتحدثان فقالتا لي : يا أختنا ، ما تصنعين بهذا الشاب الحسن ؟ فقلت لهما : قصدي أن أتّخذه بعلاً . ثم التفتُّ إليه وأقبلتُ عليه وقلت : يا سيدي ، قصدي أن أقول لك شيئاً فلا تخالفني فيه . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم التفتُّ إلى أختاي وقلت لهما : يكفيني هذا الشاب وجميع هذه الأموال لكما . فقالتا : نِعم ما فعلت . ولكنهما أضمرتا لي الشر . ولم نزل سائرين مع اعتدال الريح حتى خرجنا من بحر الخوف ودخلنا بحر الأمان . وسافرنا أياماً قلائل إلى أن قربنا من مدينة البصرة ولاحت لنا أبنيتها فأدركنا المساء . فلمّا أخذنا النوم قامت أختاي وحملتاني أنا والغلام بفرشنا ورمتانا في البحر ، فأما الشاب فإنه كان لا يحسن العوم فغرق وكتبه الله من الشهداء ، وأما أنا فكتبت من السالمين . فلمّا سقطت في البحر رزقني الله بقطعة خشب فركبتها وضربتني الأمواج إلى أن رمتني على ساحل جزيرة ، فلم أزل أمشي في الجزيرة باقي ليلتي . فلمّا أصبح

الصباح رايت طريقاً فيه أثر مشي على قدر قدم ابن آدم، وتلك الطريق متصلة من الجزيرة إلى البر. وقد طلعت الشمس، فنشفت ثيابي فيها وسرت في الطريق، ولم أزل سائرة إلى أن قربت من البر الذي فيه المدينة، وإذا أنا بحيّة تقصدني وخلفها ثعبان يريد هلاكها، وقد تدلّى لسانها من شدّة التعب، فأخذتني الشفقة عليها، فعمدت إلى حجر وألقيته على رأس الثعبان فمات من وقته. فنشرت الحيّة جناحين وطارت في الجو، فتعجّبت من ذلك وقد تعبت، فنمت في موضعي ساعة، فلمّا افقت، وجدت تحت رجلي جارية وهي تكبس رجلي، فجلست واستحيت منها وقلت لها: من أنت وما شانك؟ فقالت: ما أسرع ما نسيتيني، أنت التي فعلت معي الجميل وقتلت عدوي، فأنا الحيّة التي خلصتيني من الثعبان. فإني جنّية وهذا الثعبان جنّي وهو عدوي. وما نجاني منه إلاّ أنت، فلمّا نجيتيني منه طرت في الريح وذهبت إلى المركب التي رماك منها أختاك، ونقلت جميع ما فيها إلى بيتك وأغرقتها. وأما أختاك، فإني سحرتهما كلبتين من الكلاب السود. فإني عرفت جميع ما جرى لك معهما. وأما الشاب فإنه غرق. ثم حملتني أنا والكلبتين وألقتنا فوق سطح داري، فرأيت جميع ما كان في المركب من الأموال في وسط بيتي ولم يضع منه شيء. ثم إن الحيّة قالت لي: وحق النقش الذي على خاتم سليمان، إذا لم تضربي كل واحدة منهما في كل يوم ثلاثمائة سوط لجئت وجعلتك مثلهما. فقلت: سمعاً وطاعةً. فلم أزل يا أمير المؤمنين أضربهما ذلك الضرب وأشفق عليهما. فتعجّب الخليفة من ذلك ثم قال للصبية الثانية: وأنت ما سبب الضرب الذي على جسدك؟

حكاية البنت الثانية أمينة

فقالت: يا أمير المؤمنين، إني كان لي والد فمات وخلّف مالاً كثيراً. فأقمت بعده مدة يسيرة وتزوّجت برجل أسعد أهل زمانه، فأقمت معه سنة كاملة ومات، فورثت منه ثمانين ألف دينار بمقتضى ما خصّني بالفريضة الشرعية. فعملت عشر بدلات، كل بدلة بألف دينار. فبينما أنا جالسة في يوم من الأيام إذ دخلت عليّ عجوز بوجه مسعوط وحاجب ممعوط وعيونها مفجرة وأسنانها مكسرة ومخاطها سائل وعنقها مائل، كما قال فيها الشاعر: [من الخفيف]

عَجُوْزُ النَّحْسِ إبْلِيسٌ يَرَاها تُعَلِّمُهُ الخَدِيعَةَ مِنْ سُكُوْتِ
تَقُوْدُ مِنَ السِّيَاسَةِ أَلْفَ بَغْلٍ إذا نَفَرُوا بِخَيْطِ العَنْكَبُوتِ

وكما قال الآخر: [من الوافر]

وعَجَوْز لها الكَهَانَةُ طَبْعٌ حَلَّلَتْ في الحَرام ما لا يَجُوْزُ
بُعْبِصَتْ طِفْلَةً وَلِيطَتْ فَتَاةً وزَنَتْ كَهْلَةً، وقادَت عَجُوْزُ

فلمّا دخلت العجوز سلّمت عليّ وقالت: إن عندي بنتاً يتيمةً والليلة عملت عرسها، وأنا قصدي لك الأجر والثواب فاحضري عرسها، فإنها مكسورة الخاطر ليس لها إلاّ الله تعالى. ثم بكت وقبّلت رجلي فأخذتني الرحمة والرأفة فقلت: سمعاً وطاعةً. فقالت: جهّزي نفسك فإني وقت العشاء أجيء وآخذك. ثم قبّلت يدي وذهبت. فقمت وهيّأت نفسي وجهّزت حالي. وإذا بالعجوز قد أقبلت وقالت: يا سيدتي، إن سيدات البلد قد حضرن وأخبرتهن بحضورك، ففرحن وهنّ في انتظارك، فقمت تهيأت وأخذت جواري معي وسرت حتى أتينا إلى زقاق هبّ

فيه النسيم وراق . فرأينا بوابة مقنطرة بقبّة من الرخام مشيدة البنيان ، وفي داخلها قصر قد قام من التراب وتعلق بالسحاب . فلمّا وصلنا إلى الباب ، طرقته العجوز ففتح لنا ودخلنا فوجدنا دهليزاً مفروشاً بالبسط ، معلقاً فيه قناديل موقدة وشموع مضيئة وفيه الجواهر والمعادن معلّقة . فمشينا في الدهليز إلى ان دخلنا قاعة لا يوجد لها نظير ، مفروشة بالفراش الحرير معلقاً فيها القناديل الموقدة والشموع المضيئة ، وفي صدر القاعة سرير من المرمر مرصّع بالدرّ والجواهر وعليه ناموسية من الأطلس . وإذا بصبيّة خرجت من الناموسية مثل القمر ، فقالت : مرحباً واهلاً وسهلاً يا أختي ، آنستي وجبرت خاطري ، وانشدت تقول : [من البسيط]

لَوْ تَعْلَمُ الدَّارُ مَنْ قَدْ زارَها فَرِحَتْ ... واسْتَبْشَرَتْ ثُمَّ باسَتْ مَوْضِعَ القَدَمِ
وأَعْلَنَتْ بِلِسانِ الحَالِ قائِلَةً ... أَهْلاً وسَهْلاً بأَهْلِ الجُودِ والكَرَمِ

ثم جلست وقالت لي : يا أختي ، إن لي أخاً وقد رآك في بعض الأفراح وهو شاب احسن مني . وقد أحبك قلبه حبّاً شديداً ، وأعطى هذه العجوز دراهم حتى أتتك وعملت هذه الحيلة لأجل اجتماعي بك . ويريد أخي أن يتزوّجك بسنّة الله ورسوله ، وما في الحلال من عيب . فلما سمعت كلامها ورأيت نفسي قد انحزت في الدار قلت للصبية : سمعاً وطاعةً . ففرحت وصفقت بيديها وفتحت باباً ،فخرج منه شاب مثل القمر كما قال الشاعر : [من المنسرح]

قد زَادَ حُسْناً تَبارَكَ اللهُ ... جَلَّ الَّذي صاغَهُ وسَوّاهُ
قَدْ حازَ كُلَّ الجَمَالِ مُنْفَرِداً ... كُلُّ الوَرَى في جَمَالِه تَاهُوا
قَدْ كَتَبَ الحُسْنُ فَوْقَ وَجْنَتِهِ ... أَشْهَدُ أَنَّ لا مَلِيحَ إلاَّ هُوْ

فلما نظرت إليه مال قلبي له ، ثم جاء وجلس ، وإذا بالقاضي قد دخل ومعه اربعة شهود فسلّموا وجلسوا . ثم إنهم كتبوا كتابي على ذلك الشاب وانصرفوا . فالتفت الشاب إليّ وقال : ليلتنا مباركة . ثم قال : يا سيدتي ، إني أشرط عليك شرطاً . فقلت : يا سيدي ، وما الشرط ؟ فقام واحضر لي مصحفاً وقال : احلفي لي أنك لا تختاري أحداً غيري ولا تميلي إليه . فحلفت له على ذلك ، ففرح فرحاً شديداً وعانقني . فأخذت محبته بمجامع قلبي . وقدموا لنا السماط فأكلنا وشربنا حتى اكتفينا . ودخل علينا الليل فأخذني ونام معي على الفراش ، وبتنا في عناق إلى الصباح ولم نزل على هذه الحالة مدة شهر ونحن في هناء وسرور ، وبعد الشهر استأذنته في اني أسير إلى السوق واشتري بعض قماش فأذن لي في الرواح . فلبست ثيابي واخذت العجوز معي ونزلت إلى السوق ، فجلست في دكان شاب تاجر تعرفه العجوز وقالت لي : هذا ولد صغير مات أبوه وخلف له مالاً كثيراً . ثم قالت له : هات أعزّ ما عندك من القماش لهذه الصبية . فقال : سمعاً وطاعةً . فصارت العجوز تثني عليه فقلت : ما لنا حاجة بثنائك عليه لأن مرادنا ان نأخذ حاجتنا منه ونعود إلى منزلنا . فأخرج لنا ما طلبناه واعطيناه الدراهم . فأبى ان يأخذ شيئاً وقال : هذه ضيافتكم اليوم عندي . فقلت للعجوز : إن لم يأخذ الدراهم أعطيه قماشه . فقال : والله لا آخذ منك شيئاً والجميع هدية من عندي في قبلة واحدة فإنها عندي احسن من جميع ما في دكاني . فقالت العجوز : ما الذي يفيدك من القبلة ؟ ثم قالت : يا بنتي قد سمعت هذا الشاب وما يصيبك شيء إذا اخذ منك قبلة وتأخذين ما تطلبينه . فقلت لها : أما تعرفين أني حالفة . فقالت : خلّيه

يقبّلك وأنت ساكتة ولا عليك شيء وتأخذين هذه الدراهم . ولا زالت تحسن لي الأمر حتى ادخلت راسي في الجراب ورضيت بذلك . ثم إني غطّيت عيني وداريت بطرف إزاري من الناس وحط فمه تحت إزاري على خدّي ، فلما قبّلني عضّني عضّة قوية حتى قطع اللحم من خدي ، فغشي عليّ . ثم أخذتني العجوز في حضنها ، فلما افقت وجدت الدكان مقفولة والعجوز تظهر لي الحزن وتقول : ما دفع الله كان أعظم . ثم قالت لي : قومي بنا إلى البيت واعملي نفسك ضعيفة وأنا أجيء إليك بدواء تداوين به هذه العضة فتبرأ سريعاً . فبعد ساعة قمت من مكاني وأنا في غاية الفكر واشتد بي الخوف ومشيت حتى وصلت إلى البيت واظهرت حالة المرض ، وإذا بزوجي داخل وقال : ما الذي اصابك يا سيدتي في هذا الخروج ؟ فقلت له : ما أنا طيبة . فنظر إليّ وقال لي : ما هذا الجرح الذي بخدك وهو في المكان الناعم ؟ فقلت : إني لما استأذنتك وخرجت في هذا النهار لأشتري القماش ، زاحمني جمل حامل حطباً فشرمط نقابي وجرح خدي كما ترى ، فإن الطريق ضيق في هذه المدينة . فقال : غداً اروح للحاكم وأشكو له فيشنق كل حطّاب في المدينة . فقلت : بالله عليك لا تتحمّل خطيئة أحد ، فإني ركبت حماراً فنفر بي فوقعت على الأرض فصادفني عود فخدش خدّي وجرحني . فقال : غداً أطلع لجعفر البرمكي وأحكي له الحكاية فيقتل كل حمّار في هذه المدينة . فقلت : هل أنت تقتل الناس كلهم بسببي وهذا الذي جرى لي بقضاء الله وقدره . فقال : لا بد من ذلك . وشدّد عليّ ونهض قائماً وصاح صيحة عظيمة . فانفتح الباب وطلع منه سبعة عبيد سود فسحبوني من فراشي ورموني في وسط الدار ، ثم أمر عبداً منهم أن يمسكني من أكتافي ويجلس على راسي ، وأمر الثاني أن يجلس على ركبتي ويمسك رجلي ، وجاء الثالث وفي يده سيف فقال : يا سيدي ، أأضربها بالسيف فأقسمها نصفين ، وكل واحد يأخذ قطعة يرميها في بحر الدجلة فيأكلها السمك . وهذا جزاء من يخون الإيمان والمودة وأنشد هذا الشعر : [من الطويل]

إن كانَ لي فِيمَنْ أُحِبُّ مُشَارِكاً ... مَنَعْتُ الهَوَى رُوْحِي لِيُتْلِفَني وَجْدِي
وقُلْتُ لَها يا نَفْسُ مَوتي كَرِيمَةٌ ... فلا خَيْرَ في حُبٍّ يَكُونُ مَعَ الضِّدِّ

ثم قال للعبد : اضربها يا سعد . فجرد السيف وقال : اذكري الشهادة وتذكري ما كان لك من الحوائج وأوصي فإن هذا آخر حياتك . فقلت له : يا عبد الخير ، تمهّل عليّ قليلاً حتى أتشهّد وأوصي . ثم رفعت راسي ونظرت إلى حالي ، وكيف صرت في الذلّ بعد العزّ ، فجرت عبرتي وبكيت وأنشدت هذه الأبيات : [من الطويل]

أَقَمْتُمْ فِراقِيْ في الهَوَى وَقَعَدْتُمُ ... وأَسْهَرْتُمُ جَفْنِي القَرِيْحَ ونِمْتُمُ
وَمَنْزِلُكُمْ بَيْنَ الفُؤادِ وَناظِرِي ... فلا القَلْبُ يَسْلاكُمْ ولا الدَّمْعُ يَكْتُمُ
وعاهَدْتُمُوني أَنْ تُقِيْمُوا على الوَفَا ... فَلَمَّا تَمَلَّكْتُمْ فُؤادِيْ غَدَرْتُمُ
ولم تَرْحَموا وَجْدي بكُم وَتَلَهُّفِي ... أَأَنْتمْ صُرُوْفَ الحادِثاتِ أَمِنْتُمُ
سأَلْتُكُمُ باللهِ إنْ مُتُّ فَاكْتُبُوا ... على لَوْحِ قَبْرِي إنَّ هذا مُتَيَّمُ
لَعَلَّ شَجِيّاً عارِفاً لَوْعَةَ الهَوَى ... يَمُرُّ على قَبْرِ الُمحِبِّ فَيَرْحَمُ

فلما فرغت من شعري بكيت . فلما سمع الشعر ونظر إلى بكائي ازداد غيظاً على غيظه وأنشد هذين البيتين : [من الطويل]

تَرَكْتُ حَبِيبَ القَلْبِ لا عَنْ مَلاَلَةٍ ... ولَـكِنْ جَنَى ذَنْباً يُؤَدِّي إلى التَّرْكِ
أرادَ شريكاً في المَحَبَّةِ بَيْننا ... وإيمَانُ قَلْبِي لا يَمِيلُ إلى الشِّرْكِ

فلما فرغ من شعره بكيت ، واستعطفته وقلت في نفسي : أتواضع له وألين له الكلام لعله يعفو عني من القتل ولو كان يأخذ جميع ما أملك ، ثم شكوت إليه ما أجده وأنشدته هذه الأبيات : [من الطَّويل]

وَحَقِّكَ لو أنْصَفْتَنِي ما قَتَلْتَني ... ولَـكِنَّ حُكْمَ البَيْنِ ما فِيْه مُنْصِفُ
وحَمَّلْتَني ثِقْلَ الغرَام وإنَّني ... لأعْجزُ عن حَمْلِ القَمِيْص وأضْعُفُ
وما عَجَبٌ إتلافُ رُوْحِيْ وإنَّما ... عَجِبْتُ لِجِسْمِي بَعْدَكُم كَيْفَ يَصْرِفُ

فلما فرغت من شعري بكيت ، فنظرني ونهرني وشتمني وأنشد هذه الأبيات : [من الطَّويل]

تَشَاغَلْتُمُ عنَّا بِصُحْبَةِ غَيْرِنا ... وأَظْهَرْتُمُ الهِجْرانَ ما هَـكذا كُنَّا
سَنَتْرُكُكُمْ لَمَّا تَرَكْتُمْ مَرامَنَا ... ونَصْبِرُ عَنْكم مِثْلَ صَبْرِكُمُ عنَّا
ونَهْوَى سِواكُمْ مُذْ جَنَحْتُمْ لِغَيْرِنا ... ونجعَلُ قَطْعَ الوَصْلِ مِنْكم ولا مِنَّا

فلما فرغ من شعره صرخ على العبد وقال له : اشطرها نصفين فليس لنا فيها فائدة . فلما تقدم العبد إليّ ، أيقنت بالموت ويئست من الحياة وسلمت أمري لله تعالى . وإذا بالعجوز دخلت ورمت نفسها على أقدام الشاب وقبلتهما وقالت : يا ولدي ، بحق تربيتي لك تعفو عن هذه الصبية ، فإنها ما فعلت ذنباً يوجب ذلك ، وأنت شاب صغير ، فأخاف عليك من دعائها . ثم بكت العجوز ، ولم تزل تلح عليه حتى قال : قد عفوت عنها ، ولكن لا بد أن أعمل فيها أثراً يظهر عليها بقية عمرها . ثم أمر العبيد فجذبوني من ثيابي وأحضر قضيباً من سفرجل ونزل به على جسدي بالضرب . ولم يزل يضربني ذلك الشاب على ظهري وجنبيَّ حتى غبت عن الدنيا من شدة الضرب وقد يئست من حياتي . ثم أمر العبيد أنه إذا دخل الليل يحملونني ويأخذون العجوز معهم ويرمونني في بيتي الذي كنت فيه سابقاً . ففعلوا ما أمرهم به سيدهم ، ورموني في بيتي . فتعهدت نفسي وداويت جسمي . فلما شفيت بقيت أضلاعي كأنها مضروبة بالمقارع كما ترى ، فاستمريت في مداواة نفسي أربعة أشهر حتى شفيت . ثم جئت إلى الدار التي جرى لي فيها ذلك الأمر ، فوجدتها خربة ووجدت الزقاق مهدوماً من أوله إلى آخره ، ووجدت في موضع الدار كيماناً ولم أعلم سبب ذلك . فجئت إلى أختي هذه التي من أبي ، فوجدت عندها هاتين الكلبتين ، فسلّمت عليها وأخبرتها بخبري وبجميع ما جرى لي . فقالت لي : من ذا الذي من نكبات الزمان سليم ؟ الحمد لله الذي جعل الأمر بالسلامة . ثم أخبرتني بخبرها وبجميع ما جرى لها مع أختيها ، وقعدت أنا وهي لا نذكر خبر الزواج على ألسنتنا . ثم صاحبتنا هذه الصبية الدلالة ، وفي كل يوم تخرج فتشتري لنا ما نحتاج إليه من المصالح . واستمرّينا على هذه الحالة إلى هذه الليلة التي مضت . فخرجت أختنا تشتري لنا ما نحتاج إليه من المصالح على جري

عادتها، فوقع لنا ما وقع من مجيء الحمّال والصعاليك ومن مجيئكم في صفة تجار. فلما صرنا في هذا اليوم لم نشعر إلا ونحن بين يديك. وهذه حكايتنا. فتعجّب الخليفة من هذه الحكاية وجعلها تاريخاً مثبتاً في خزانته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 18

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة أمر أن تكتب هذه القصة في الدواوين ويجعلوها في خزانة الملك. ثم إنه قال للصبية الأولى: هل عندكم خبر بالعفريتة التي سحرت أختيك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، إنها أعطتني شيئاً من شعرها وقالت: متى أردت حضوري فاحرقي من هذا الشعر شيئاً، فأحضر إليك عاجلاً ولو كنت خلف جبل قاف. فقال الخليفة: أحضري لي الشعر. فأحضرته الصبية فأخذه الخليفة وأحرق منه شيئاً، فلما فاحت رائحته اهتز القصر وسمعوا دوياً وصلصلة، وإذا بالجنيّة حضرت وكانت مسلمة فقالت: السلام عليك يا خليفة الله. فقال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فقالت: اعلم أن هذه الصبية زرعت معي جميلاً ولا أقدر أن أكافئها عليه. فهي أنقذتني من الموت وقتلت علوي ورأيت ما فعله معها أختاها، فما رأيت إلا أني أنتقم منهما فسحرتهما كلبتين بعد أن أردت قتلهما، فخشيت أن يصعبا عليها، وإن أردت خلاصهما يا أمير المؤمنين، أخلصهما كرامة لك ولها، فإني من المسلمين. فقال لها: خلّصيهما، وبعد ذلك نشرع في أمر الصبية المضروبة ونفحص عن حالها، فإذا ظهر لي صدقها أخذت ثأرها ممن ظلمها. فقالت العفريتة: يا أمير المؤمنين، أنا أدلّك على من فعل بهذه الصبية هذا الفعل وظلمها وأخذ مالها وهو أقرب الناس إليك. ثم إن العفريتة أخذت طاسة من الماء وعزمت عليها ورشّت وجه الكلبتين وقالت لهما: عودا إلى صورتكما الأولى البشرية. فعادتا صبيتين سبحان خالقهما. ثم قالت: يا أمير المؤمنين، إن الذي ضرب الصبية ولدك الأمين، فإنه كان يسمع بحسنها وجمالها. وحكت له العفريتة جميع ما جرى للصبية. فتعجّب وقال: الحمد لله على خلاص هاتين الكلبتين على يدي. ثم إن الخليفة أحضر ولده الأمين بين يديه وسأله عن قصة الصبية الأولى، فأخبره على وجه الحق. فأحضر الخليفة القضاة والشهود والصعاليك الثلاثة، وأحضر الصبية الأولى وأختيها اللتان كانتا مسحورتين في صورة كلبتين، وزوج الثلاثة للثلاثة الصعاليك الذين أخبروهم أنهم كانوا ملوكاً، وعملهم حجاباً عنده وأعطاهم ما يحتاجون إليه وأنزلهم في قصر بغداد، ورد الصبية المضروبة لولده الأمين، وأعطاها مالاً كثيراً وأمر، أن تبنى الدار أحسن ما كانت. ثم إن الخليفة تزوج بالدلاّلة ورقد في تلك الليلة معها، فلما أصبح أفرد لها بيتاً وجواري يخدمنها، ورتّب لها راتباً وشيّد لها قصراً.

4 - حكاية الصبية والتفاح وريحان العبد

ثم قال لجعفر ليلة من الليالي: إني أريد أن ننزل في هذه الليلة إلى المدينة ونسأل عن أحوال الحكام المتولين، وكل من شكا منه أحد عزلناه. فقال جعفر: سمعاً وطاعةً. فلما نزل الخليفة وجعفر ومسرور وساروا في المدينة ومشوا في الأسواق، مروا بزقاق فرأوا شيخاً كبيراً على رأسه شبكة وقفة وفي يده عصا وهو ماش على مهله وينشد هذه الأبيات: [من المتقارب]

يَقُولُونَ لِي أَنْتَ بَيْنَ الوَرَى بِعِلْمِكَ كاللَّيْلَةِ المُقْمِرَهْ
فَقُلْتُ دَعُونِي مِنْ قَوْلِكُمْ فَلاَ عِلْمَ إلاَّ مَعَ المَقْدِرَهْ
فَلَو رَهَنُونِي وعِلْمِي مَعِي وكُلَّ الدَّفاتِرِ والمِحْبَرَهْ
على فَوْتِ يَوْمٍ لِمَا أَدْرَكُوا قَبُولَ الرِّهانِ إلى الآخِرَهْ
فأَمَّا الفَقِيرُ وحَالُ الفَقِيرِ وعَيْشُ الفَقِيرِ فَما أَكْدَرَهْ
وفي الصَّيْفِ يَعْجَزُ عَنْ قُوتِهِ وفي البَرْدِ يَدْفَا على المِجْمَرَهْ
تَلِيهِ الكِلابُ إذا ما مَشَى فَكُلُّ لَئِيمٍ غَدا يَنْهَرَهْ
إذا ما شَكا حَالَهُ لامْرِئٍ وبَيَّنَ عُذْراً فَلَنْ يَعْذِرَهْ
فكُلُّ فَقِيرٍ غَدا مَسْخَرَهْ فَقُودُوا الفَقِيْرَ إلى المَقْبَرَهْ

فلما سمع الخليفة إنشاده قال لجعفر : انظر هذا الرجل الفقير وانظر هذا الشعر ، فإنه يدل على احتياجه . ثم إن الخليفة تقدم إليه وقال له : يا شيخ ، ما حرفتك ؟ قال : يا سيدي ، صياد وعندي عائلة وخرجت من بيتي من نصف النهار إلى هذا الوقت ولم يقسم الله لي شيئاً أقوت به عيالي وقد كرهت نفسي وتمنيت الموت . فقال له الخليفة : هل لك أن ترجع معنا إلى البحر وتقف على شاطىء دجلة وترمي شبكتك على بختي وكل ما طلع أشتريه منك بمائة دينار ؟ ففرح الرجل لما سمع هذا الكلام ، وقال : على رأسي أرجع معكم . ثم إن الصياد رجع إلى البحر ورمى شبكته وصبر عليها . ثم إنه جذب الخيط وجرّ الشبكة إليه فطلع في الشبكة صندوق مقفول ثقيل الوزن . فلما نظره الخليفة جسّه فوجده ثقيلاً فأعطى الصياد مائة دينار وانصرف . وحمل الصندوق مسرور هو وجعفر وطلعا به مع الخليفة إلى القصر وأوقدوا الشموع والصندوق بين يدي الخليفة . فتقدم جعفر ومسرور وكسروا الصندوق، فوجدوا فيه قفّة خوص مخيطة بصوف أحمر ، فقطعوا الخياطة فرأوا فيها قطعة بساط ، فرفعوها فوجدوا تحتها إزاراً، فرفعوا الإزار فوجدوا تحته صبية كأنها سبيكة فضة مقتولة ومقطّعة . فلما نظرها الخليفة جرت دموعه على خدّه والتفت إلى جعفر وقال : يا كلب الوزراء أتُقتل القتلى في زمني ويرمون في البحر ويصيرون متعلّقين بذمتي ؟ والله لا بد أن أقتص لهذه الصبية ممن قتلها وأقتله . وقال لجعفر : وحق اتصال نسبي بالخلفاء من بني العباس ، إن لم تأتني بالذي قتل هذه لأنصفها منه ، لأصلبنّك على باب قصري انت وأربعين من بني عمك . واغتاظ الخليفة . فقال جعفر : امهلني ثلاثة أيام . قال : أمهلتك . ثم خرج جعفر من بين يديه ومشى في المدينة وهو حزين وقال في نفسه : من أين أعرف من قتل هذه الصبية حتى احضره للخليفة ؟ وإن احضرت له غيره يصير معلّقاً بذمتي ولا أدري ما اصنع . ثم إن جعفر جلس في بيته ثلاثة ايام ، وفي اليوم الرابع أرسل إليه الخليفة يطلبه . فلمّا تمثل بين يديه قال له : أين قاتل الصبية؟ قال جعفر : يا أمير المؤمنين ، هل أنا اعلم الغيب حتى اعرف قاتلها ؟ فاغتاظ الخليفة وامر بصلبه على باب قصره ، وامر منادياً أن ينادي في شوارع بغداد : من اراد الفرجة على صلب جعفر البرمكي وزير الخليفة وصلب أولاد عمه على باب قصر الخليفة فليخرج ليتفرج . فخرجت الناس من جميع الحارات ليتفرجوا على صلب جعفر وصلب أولاد عمه ولم يعلموا سبب ذلك . ثم أمر بنصب

الخشب فنصبوه واوقفوهم تحته لأجل الصلب، وصاروا ينتظرون الاذن من الخليفة، وصار الخلق يتباكون على جعفر وعلى أولاد عمه. فبينما هم كذلك، وإذا بشاب حسن، نقي الأثواب، يمشي بين الناس مسرعاً إلى ان وقف بين يدي الوزير وقال له: سلامتك من هذه الوقفة يا سيد الأمراء وكهف الفقراء، أنا الذي قتلت القتيلة التي وجدتموها في الصندوق، فاقتلني فيها واقتص لها مني. فلما سمع جعفر كلام الشاب وما أبداه من الخطاب، فرح بخلاص نفسه وحزن على الشاب. فبينما هم في الكلام، وإذا بشيخ كبير يفسح الناس ويمشي بينهم بسرعة إلى أن وصل إلى جعفر والشاب، فسلم عليهما ثم قال: أيها الوزير لا تصدق كلام هذا الشاب فإنه ما قتل هذه الصبية إلا أنا فاقتص لها مني. فقال الشاب: أيها الوزير، إن هذا شيخ كبير خرفان لا يدري ما يقول، وأنا الذي قتلتها فاقتص لها مني فقال الشيخ: يا ولدي، أنت صغير تشتهي الدنيا، وأنا كبير شبعت من الدنيا، وأنا افديك وأفدي الوزير وبني عمه، وما قتل الصبية إلا أنا فبالله عليك أن تعجّل بالاقتصاص مني. فلما نظر إلى ذلك الأمر تعجب منه وأخذ الشاب والشيخ وطلع بهما عند الخليفة وقال: يا أمير المؤمنين، قد حضر قاتل الصبية. فقال الخليفة: أين هو؟ فقال: إن هذا الشاب يقول أنا القاتل وهذا الشيخ يكذبه ويقول لا بل أنا القاتل. فنظر الخليفة إلى الشيخ والشاب وقال: من منكما قتل هذه الصبية؟ فقال الشاب: ما قتلها إلا أنا. وقال الشيخ: ما قتلها إلا أنا. فقال الخليفة لجعفر: خذ الاثنين واصلبهما. فقال جعفر: إذا كان القاتل واحداً فقتل الثاني ظلم. فقال الشاب: وحق من رفع السماء وبسط الأرض إني أنا الذي قتلت الصبية وهذي إمارة قتلها. ووصف ما وجده الخليفة. فتحقّق عند الخليفة أن الشاب هو الذي قتل الصبية. فتعجّب الخليفة وقال: ما سبب قتلك هذه الصبية بغير حق، وما سبب إقرارك بالقتل من غير ضرب، وقولك اقتصوا لها مني؟ فقال الشاب: اعلم يا أمير المؤمنين أن هذه الصبية زوجتي وبنت عمي وهذا الشيخ أبوها وهو عمي، وتزوجت بها وهي بكر فرزقني الله منها ثلاثة أولاد ذكور وكانت تحبني وتخدمني ولم أرَ عليها شيئاً. فلما كان أول هذا الشهر مرضت مرضاً شديداً فأحضرت لها الاطباء حتى حصلت لها العافية، فأردت أن أدخلها الحمام فقالت: إني أريد شيئاً قبل دخول الحمام لأني أشتهيته. فقلت لها: وما هو؟ فقالت: إني أشتهي تفاحة أشمّها وأعضّ منها عضّة. فطلعت من ساعتي إلى المدينة وفتّشت على التفاح ولو كانت الواحدة بدينار فلم أجده. فبتّ تلك الليلة وأنا متفكّر. فلما أصبح الصباح خرجت من بيتي ودرت على البساتين واحداً واحداً فلم أجد فيها. فصادفني خولي كبير فسألته عن التفاح فقال: يا ولدي هذا شيء قلّ أن يوجد لأنه معدوم، ولا يوجد إلا في بستان أمير المؤمنين الذي في البصرة وهو عند الخولي يدّخره للخليفة، فجئت إلى زوجتي وقد حملتني محبتي إياها على أن هيّأت نفسي وسافرت خمسة عشر يوماً ليلاً ونهاراً في الذهاب والإياب. وجئت لها بثلاث تفاحات إشتريتها من خولي البصرة بثلاثة دنانير، ثم إني دخلت وناولتها إياها فلم تفرح بها بل تركتها إلى جانبها، وكان مرض الحمى قد اشتد عليها، ولم تزل في ضعفها إلى ان مضى لها عشرة أيام. وبعد ذلك عوفيت، فخرجت من البيت وذهبت إلى دكاني وجلست في بيعي وشرائي. فبينما أنا جالس في وسط النهار، وإذا بعبد أسود مرّ عليّ وفي يده تفاحة يلعب بها فقلت له: من أين أخذت هذه التفاحة حتى آخذ مثلها؟ فضحك

وقال : أخذتها من حبيبتي ، وأنا كنت غائباً وجئت فوجدتها ضعيفة وعندها ثلاث تفاحات ، فقالت : إن زوجي الديّوث سافر من شأنها إلى البصرة فاشتراها بثلاثة دنانير . فأخذت منها هذه التفاحة . فلما سمعت كلام العبد يا أمير المؤمنين ، اسودت الدنيا في وجهي وقفلت دكاني وجئت إلى البيت وأنا فاقد العقل من شدة الغيظ فلم أجد التفاحة الثالثة . فقلت لها : أين الثالثة؟ فقالت : لا أدري ولا أعرف أين ذهبت . فتحقّقت قول العبد وقمت أخذت سكّيناً وركبت على صدرها ونحرتها بالسكين وقطعت رأسها وأعضاءها وحطيتها في القفّة بسرعة وغطيتها بالإزار وحطيت عليها شقة بساط وأنزلتها في الصندوق وقفلته ، وحملتها على بغلتي ورميتها في الدجلة بيدي . فبالله عليك يا أمير المؤمنين ، أن تعجّل بقتلي قصاصاً لها فإني خائف من مطالبتها يوم القيامة . فإني لما رميتها في بحر الدجلة ولم يعلم بها أحد ، رجعت إلى البيت فوجدت ولدي الكبير يبكي ولم يكن له علم بما فعلت في أمه فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : إني أخذت تفاحة من التفاح الذي عند أمي ونزلت بها إلى الزقاق ألعب مع اخواني وإذا بعبد أسود طويل خطفها مني وقال لي : من أين جاءتك هذه؟ فقلت له : هذه ، سافر أبي وجاء بها من البصرة من أجل أمي وهي ضعيفة ، واشترى ثلاث تفاحات بثلاثة دنانير . فأخذها مني وضربني وراح بها ، فخفت من أمي أن تضربني من شأن التفاحة . فلما سمعت كلام الولد ، علمت أن العبد هو الذي افترى الكلام الكذب على بنت عمي وتحقّقت أنها قتلت ظلماً . ثم إني بكيت بكاءً شديداً ، وإذا بهذا الشيخ وهو عمي والدها ، قد أقبل فأخبرته بما كان ، فجلس بجانبي وبكى . ولم نزل نبكي إلى نصف الليل ، وأقمنا العزاء خمسة أيام . ولم نزل إلى هذا اليوم ونحن نتأسف على قتلها . فبحرمة أجدادك ان تعجّل بقتلي وتقتص لها مني . فلما سمع الخليفة كلام الشاب تعجّب وقال : والله لا أقتل إلا العبد الخبيث ، وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 19

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الخليفة أقسم أنه لا يقتل إلا العبد لأن الشاب معذور . ثم إن الخليفة التفت إلى جعفر وقال له : أحضر لي هذا العبد الخبيث الذي كان سبباً في هذه القضية ، وإن لم تحضره فأنت تقتل عوضاً عنه . فنزل يبكي ويقول : من أين أحضره؟ ولا كل مرة تسلم الجرّة ، وليس لي في هذا الأمر حيلة ، والذي يسلّمني في الأول يسلّمني في الثاني ، والله ما بقيت أخرج من بيتي ثلاثة أيام والحق سبحانه يفعل ما يشاء . ثم أقام في بيته ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع أحضر القاضي وأوصى وودّع أولاده وبكى . وإذا برسول الخليفة أتى إليه وقال له : إن أمير المؤمنين في أشد ما يكون من الغضب ، وأرسلني إليك وحلف أنه لا يمر هذا النهار إلا وأنت مقتول إن لم تحضر له العبد . فلما سمع جعفر هذا الكلام ، بكى وبكت أولاده . فلما فرغ من التوديع ، تقدّم إلى بنته الصغيرة ليودعها وكان يحبها أكثر من أولاده جميعاً ، فضمها إلى صدره وبكى على فراقها ، فوجد في جيبها شيئاً مكبباً فقال لها : ما الذي في جيبك ؟ فقالت له : يا أبت تفاحة جاء بها عبدنا ريحان ، ولها معي أربعة أيام وما أعطاها لي حتى أخذ مني دينارين . فلما سمع جعفر بذلك العبد والتفاحة فرح وقال : يا قريب الفرج . ثم إنه أمر بإحضار العبد فحضر ، فقال له : من أين هذه التفاحة؟ فقال : يا سيدي من مدة خمسة

أيام كنت ماشياً فدخلت في بعض أزقة المدينة فنظرت صغاراً يلعبون ومع واحد منهم هذه التفاحة، فخطفتها منه وضربته فبكى وقال: هذه لأمي وهي مريضة واشتهت على أبي تفاحاً فسافر إلى البصرة وجاء لها بثلاث تفاحات بثلاثة دنانير، فأخذت هذه ألعب بها، ثم بكى فلم ألتفت إليه وأخذتها وجئت بها هنا فأخذتها سيدتي الصغيرة بدينارين. فلما سمع جعفر هذه القصة تعجّب لكون الفتنة وقتل الصبية من عبده، وامر بسجن العبد وفرح بخلاص نفسه، ثم أنشد هذين البيتين: [من الوافر]

وَمَنْ كانَتْ رَزِيَّتُه بِعَبْدٍ فَقَتْلُ النَّفْسِ أَنْ تُعْطَى مُنَاها
فإنَّكَ واجِدٌ خَدَماً كَثِيراً ونَفْسكَ لَمْ تجِدْ نَفْساً سِوَاها

ثم إنه قبض على العبد وطلع به إلى الخليفة. فأمر أن تؤرخ هذه الحكاية وتجعل سيراً بين الناس. فقال له جعفر: لا تعجب يا أمير المؤمنين من هذه القصة، فما هي بأعجب من حديث الوزير نور الدين مع شمس الدين أخيه. فقال الخليفة: وأي حكاية أعجب من هذه الحكاية؟ فقال جعفر: يا أمير المؤمنين، لا أحدثك إلا بشرط أن تعتق عبدي من القتل. فقال: قد وهبت لك دمه.

5 - حكاية نور الدين مع أخيه شمس الدين

فقال جعفر: اعلم يا أمير المؤمنين، أنه كان في مصر سلطان صاحب عدل وإحسان وله وزير عاقل خبير له علم بالأمور والتدبير، وكان شيخاً كبيراً وله ولدان كأنهما قمران وكان اسم الكبير شمس الدين، واسم الصغير نور الدين، وكان الصغير أميز من الكبير في الحسن والجمال، وليس في زمانه أحسن منه حتى أنه شاع ذكره في البلاد، فكان بعض أهلها يسافر من بلاده إلى بلده لأجل رؤية جماله. فاتفق أن والدهما مات، فحزن عليه السلطان وأقبل على الولدين وقربهما وخلع عليهما وقال لهما: أنتما في مرتبة أبيكما. ففرحا وقبّلا الأرض بين يديه وعملا العزاء لأبيهما شهراً كاملاً ودخلا في الوزارة وكل منهما يتولاها جمعة، وإذا أراد السلطان السفر يسافر مع واحد منهما. فاتفق في ليلة من الليالي أن السلطان كان عازماً على السفر في الصباح وكانت النوبة للكبير. فبينما الاخوان يتحدثان في تلك الليلة، إذ قال الكبير: يا أخي، قصدي أن أتزوج أنا وأنت في ليلة واحدة. فقال الصغير: أفعل يا أخي ما تريد فإني موافقك على ما تقول، واتفقا على ذلك. ثم إن الكبير قال لأخيه: إن قدر الله وخطبنا بنتين ودخلنا في ليلة واحدة ووضعتا في يوم واحد وأراد الله وجاءت زوجتك بغلام وجاءت زوجتي ببنت، نزوّجهما لبعضهما لأنهما أولاد عم. فقال نور الدين: يا أخي، ما تأخذ من ولدي في مهر بنتك؟ قال: آخذ من ولدك في مهر بنتي ثلاثة آلاف دينار وثلاثة بساتين وثلاث ضياع، فإن عقد الشاب عقدة بغير هذا لا يصح. فلما سمع نور الدين هذا الكلام قال: ما هذا المهر الذي شرطته على ولدي؟ أما تعلم أننا اخوان ونحن الإثنان وزيران في مقام واحد، وكان الواجب عليك أن تقدم ابنتك لولدي هدية من غير مهر، فإنك تعلم أن الذكر أفضل من الأنثى وولدي ذكر وتذكر به بخلاف ابنتك. فقال: وما لها؟ قال: لا نذكر بها بين الأمراء، ولكن أنت تريد أن تفعل معي على رأي الذي قال: إن

أردت أن تطرده فاجعل الثمن غالياً . وقيل : إن بعض الناس قدم على أصحابه فقصده في حاجة فغلّى عليه الثمن ، فقال له شمس الدين : اراك قد قصرت لأنك تعمل ابنك أفضل من بنتي ، ولا شك أنك ناقص عقل وليس لك أخلاق حيث تذكر شركة الوزراء ، وأنا ما ادخلتك معي في الوزارة إلا شفقة عليك ولأجل أن تساعدني وتكون لي معيناً ، ولكن قل ما شئت وحيث صدر منك هذا القول والله لا أزوّج بنتي لولدك ولو وزنت ثقلها ذهباً . فلما سمع نور الدين كلام أخيه اغتاظ وقال : وأنا لا أزوج ابني ابنتك . فقال شمس الدين : أنا لا أرضاه لها بعلاً ، ولولا أنني أريد السفر لكنت عملت معك العبر ، ولكن لما أرجع من السفر يفعل الله ما يريد . فلمّا سمع نور الدين من أخيه ذلك الكلام ، امتلأ غيظاً وغاب عن الدنيا وكتم ما به وبات كل واحد في ناحية . فلمّا أصبح الصباح برز السلطان للسفر وعدى إلى الجزيرة وقصد الأهرام وصحبته الوزير شمس الدين ، وأما أخوه نور الدين ، فبات في تلك الليلة في أشد ما يكون من الغيظ . فلمّا أصبح الصباح قام وصلّى الصبح وعمد إلى خزانته واخذ منها خرجاً صغيراً وملأه ذهباً وتذكّر قول أخيه واحتقاره إياه وافتخاره عليه فأنشد : [من البسيط]

سافِرْ تَجِدْ عِوَضاً عَمَّنْ تُفَارِقُه ... وَٱنْصَبْ فإنَّ لَذِيذَ ٱلعَيْشِ فِيْ النَّصَبِ
ما في المَقامِ لِذي لُبٍّ وذي أَدَبٍ ... مَعَزَّةٌ فَاتْرُكِ الأَوْطانَ وَٱغْتَرِبِ
إنِّي رأَيْتُ وُقُوفَ الماءِ يُفْسِدُهُ ... فإنْ جَرَى طابَ أَوْ لَم يَجْرِ لَم يَطِبِ
والبَدْرُ لَوْلا أُفُولٌ مِنْهُ ما نَظَرَتْ ... إلَيْهِ في كُلِّ حِيْنٍ عَيْنُ مُرْتَقِبِ
والأُسْدُ لَولا فِراقُ ٱلغَابِ ما قَنَصَتْ ... والسَّهْمُ لولا فِراقُ القَوْسِ لم يَصِبِ
والتِّبْرُ كالتُّرْبِ مُلْقَى في أَماكِنه ... والعُوْدُ في أَرْضِهِ نَوْعٌ مِنَ الحَطَبِ
فإنْ تَغَرَّبَ هذا عَزَّ مَطْلَبُهُ ... وإنْ أَقامَ فلا يَعْلُو إلى رُتَبِ

فلمّا فرغ من شعره ، أمر بعض غلمانه أن يشد له بغلة زرزورية عالية سريعة المشي ، فشدّها ووضع عليها سرجاً مذهّباً بركابات هندية وعباءات من القطيفة الأصبهانية ، فصارت كأنها عروس مجلية ، وأمر أن يجعل عليها بساط حرير وسجادة وأن يضع الخرج من تحت السجادة ثم قال للغلام والعبيد : قصدي أن أتفرّج خارج المدينة وأروح نواحي القليوبية وأبيت ثلاث ليال فلا يتبعني منكم أحد فإن عندي ضيق صدر . ثم أسرع وركب البغلة وأخذ معه شيئاً قليلاً من الزاد وخرج من مصر واستقبل البر ، فما جاء عليه الظهر حتى دخل مدينة بلبيس ، فنزل عن بغلته واستراح وأراح البغلة وأكل شيئاً وأخذ من بلبيس ما يحتاج إليه وما يعلق به على بغلته . ثم استقبل البر ، فما جاء عليه الظهر بعد يومين حتى دخل مدينة القدس ، فنزل عن بغلته واستراح وأراح بغلته وأخرج شيئاً أكله ثم حطّ الخرج تحت رأسه وفرش البساط ونام في مكان والغيظ غالب عليه . ثم إنه بات في ذلك المكان ، فلمّا أصبح الصباح ركب وسار يسوق البغلة إلى أن وصل إلى مدينة حلب . فنزل في بعض الخانات وأقام ثلاثة أيام حتى استراح وأراح البغلة ، وشمّ الهواء ثم عزم على السفر وركب بغلته وخرج مسافراً ولا يدري أين يذهب . فلم يزل سائراً إلى أن وصل إلى مدينة البصرة ليلاً ولم يشعر بذلك حتى نزل في الخان ونزّل الخرج عن البغلة وفرش السجادة وأودع البغلة بعدتها عند البواب وأمره أن يسيّرها ،

فأخذها وسيّرها . فاتفق أن وزير البصرة جالس في شباك قصره ، فنظر البغلة ونظر ما عليها من العدة المثمنة فظنها بغلة وزير من الوزراء أو ملك من الملوك ، فتأمل في ذلك وحار عقله وقال لبعض غلمانه : ائتني بهذا البواب . فذهب الغلام وأتى به إلى الوزير ، فتقدم البواب وقبّل الأرض بين يديه ، وكان الوزير شيخاً كبيراً فقال للبواب : من صاحب هذه البغلة وما صفاته ؟ فقال البواب : يا سيدي إن صاحب هذه البغلة شاب صغير ظريف الشمائل من أولاد التجار ، عليه هيبة ووقار . فلمّا سمع الوزير كلام البواب ، قام على قدميه وركب وسار إلى الخان ودخل على الشاب . فلمّا رأى نور الدين قادماً عليه ، قام على قدميه ولاقاه واحتضنه ونزل الوزير من فوق جواده وسلّم عليه ، فرحب به وأجلسه عنده وقال له : يا ولدي من أين أقبلت وماذا تريد ؟ فقال نور الدين : يا مولاي إني قدمت من مدينة مصر ، وكان أبي وزيراً فيها ، وقد انتقل إلى رحمة الله . وأخبره بما جرى له من المبتدأ إلى المنتهى . ثم قال : وقد عزمت في نفسي أني لا أعود أبداً حتى أنظر جميع المدن والبلدان . فلمّا سمع الوزير كلامه قال له : يا ولدي ، لا تطاوع النفس فترميك في الهلاك فإن البلاد خراب وأنا أخاف عليك من عواقب الزمان . ثم إنه أمر بوضع الخرج على البغلة والبساط والسجادة وأخذ نور الدين معه إلى بيته وأنزله في مكان ظريف ، وأكرمه وأحسن إليه وحبّه حبّاً شديداً وقال له : يا ولدي ، أنا بقيت رجلاً كبيراً ولم يكن لي ولد ذكر ، وقد رزقني الله بنتاً تقاربك في الحسن ومنعت عنها خطّاباً كثيرين ، وقد وقع حبك في قلبي ، فهل لك أن تأخذ ابنتي جارية لخدمتك وتكون لها بعلاً ؟ فإن كنت تقبل ذلك ، أطلع إلى سلطان البصرة وأقول له : إنك ولد أخي وأُوصلك إليه حتى أجعلك وزيراً مكاني وأُلزم أنا بيتي ، فإني بقيت رجلاً كبيراً . فلمّا سمع نور الدين كلامِ وزير البصرة ، أطرق برأسه ثم قال : سمعاً وطاعةً . ففرح الوزير بذلك وأمر غلمانه أن يصنعوا له طعاماً وأن يزيّنوا قاعة الجلوس الكبيرة المعدة لحضور أكابر الأمراء . ثم جمع أصحابه ودعا أكابر الدولة وتجّار البصرة ، فحضروا بين يديه وقال لهم : إنه كان لي أخ وزير بالديار المصرية ورزقه الله ولدين ، وأنا كما تعلمون رزقني الله بنتاً . وكان أخي أوصاني أن أزوج بنتي لأحد أولاده ، فأجبته إلى ذلك . فلمّا استحق الزواج أرسل إليّ أحد أولاده وهو هذا الشاب الحاضر ، فلمّا جاءني أحببت أن أكتب كتابه على بنتي ويدخل بها عندي . فقالوا : نِعم ما فعلت . ثم شربوا السكر ورشّوا ماء الورد وانصرفوا . وأما الوزير ، فإنه أمر غلمانه أن يأخذوا نور الدين ويدخلوا به الحمام ، وأعطاه الوزير بدلة من خاص ملبوسه وأرسل إليه الفوط والطاسات ومجامر البخور وما يحتاج إليه . فلمّا خرج من الحمام ، لبس البدلة فصار كالبدر ليلة تمامه ، ثم ركب بغلته ولم يزل سائراً حتى وصل إلى قصر الوزير ، فنزل عن البغلة ودخل على الوزير فقبّل يده ورحب به الوزير . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 20

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوزير قام له ورحب به وقال له : قم ادخل هذه الليلة على زوجتك ، وفي غد أطلع بك إلى السلطان وأرجو لك من الله كل خير . فقام نور الدين ودخل على زوجته بنت الوزير . هذا ما كان من أمر نور الدين . وأما ما كان من أمر أخيه ، فإنه غاب عند السلطان مدة في السفر ، ثم رجع فلم يجد أخاه . فسأل عنه

الخدام فقالوا له : من يوم سافرت مع السلطان ، ركب بغلته بعدة الموكب وقال : انا متوجّه إلى جهة القليوبية ، فاغيب يوماً أو يومين فإن صدري ضاق ولا يتبعني منكم احد . ومن يوم خروجه إلى هذا اليوم لم نسمع له خبراً . فتشوش خاطر شمس الدين على فراق أخيه واغتم غمّاً شديداً لفقده وقال في نفسه : ما سبب ذلك إلا اني أغلظت عليه في الحديث ليلة سفري مع السلطان ، فلعلّه تغيّر خاطره وخرج مسافراً ، فلا بد ان أرسل خلفه . ثم طلع وأعلم السلطان بذلك . فكتب بطاقات وأرسل بها إلى نوابه في جميع البلاد ، ونور الدين قطع بلاداً بعيدة في مدة غياب أخيه مع السلطان . فذهبت الرسل بالمكاتيب ثم عادوا ولم يقفوا له على خبر . ويئس شمس الدين من أخيه وقال : لقد أغظت أخي بكلامي له من جهة زواج الأولاد فليت ذلك لم يكن ، وما حصل ذلك إلا من قلّة عقلي وعدم تدبيري . ثم بعد مدة يسيرة خطب بنت رجل من تجار مصر وكتب كتابه عليها ودخل بها . وقد اتفق أن ليلة دخول شمس الدين على زوجته كانت ليلة دخول نور الدين على زوجته بنت وزير البصرة وذلك بإرادة الله تعالى حتى ينفذ حكمه في خلقه . وكان الأمر كما قالاه . فاتفق أن الزوجتين حملتا منهما وقد وضعت زوجة شمس الدين وزير مصر بنتاً لا يرى في مصر احسن منها ، ووضعت زوجة نور الدين ولداً ذكراً لا يرى في زمانه أحسن منه ، كما قال الشاعر : [من الكامل]

وَمُهَفْهَفٍ يُغْنِي النَّدِيمَ بِرِيقِه ... عَنْ كأسِه المَلأى وعَنْ إبْرِيقِهِ
فَعَلَ المُدامُ ولَونُها ومَذاقُها ... في مُقْلَتَيْهِ، ووَجْنَتَيْهِ وريقِهِ

وقال آخر : [من المُنسَرِح]

إن جاءَهُ الحُسْنُ كي يُقَاسَ بِهِ ... يُنَكِّسُ الحُسْنُ رأسَهُ خَجَلاَ
أو قِيلَ يا حُسْنُ هل رأَيْتَ كَذَا ... يَقُولُ : أَمَّا نَظِيرُ ذاكَ فَلاَ

فسمّوه حسناً . وفي سابع ولادته صنعوا الولائم وعملوا أسمطة تصلح لأولاد الملوك . ثم إن وزير البصرة أخذ معه نور الدين وطلع به إلى السلطان . فلمّا صار قدّامه قبّل الأرض بين يديه ، وكان نور الدين فصيح اللسان ثابت الجنان صاحب حسن وإحسان فأنشد قول الشاعر : [من الكامل]

هَذَا الَّذي عَمَّ الأنامَ بِعَدْلِه ... وَسَطاً فَمَهَّدَ سائرَ الآفاقِ
أُشْكُرْ صَنَائِعَهُ فَلَسْنا صَنَائِعاً ... لَـكِنَّهُنَّ قَلائِدُ الأعْناقِ
والْثِمْ أَنامِلَهُ فَلَسْنَ أَناملاً ... لَـكِنَّهُنَّ مَفاتِحُ الأَرْزاقِ

فأكرمهما السلطان وشكر نور الدين على ما قال . وقال لوزيره : من هذا الشاب ؟ فحكى له الوزير قصته من أولها إلى آخرها وقال له : هذا ابن أخي . فقال له : وكيف يكون ابن أخيك ولم نسمع به : فقال : يا مولانا السلطان ، إنه كان لي أخ بالديار المصرية وقد مات وخلف ولدين ، فالكبير جلس في مرتبة والده وزيراً ، وهذا ولده الصغير جاء عندي ، وحلفت اني لا أزوج بنتي إلاّ له . فلمّا جاء زوّجته بها ، وهو شاب وانا صرت شيخاً كبيراً وقلّ سمعي وعجز تدبيري . والقصد من مولانا السلطان ان يجعله في مرتبتي ، فإنه ابن أخي وزوج ابنتي وهو أهل للوزارة لانه صاحب رأي وتدبير . فنظر السلطان إليه فاعجبه واستحسن رأي الوزير بما أشار عليه من

تقديمه في رتبة الوزارة . فأنعم عليه بها وأمر له بخلعة عظيمة وبغلة من خاص مركوبه ، وعيّن له الرواتب والجوامك . فقبّل نور الدين يد السلطان ونزل هو وصهره إلى منزلهما وهما في غاية الفرح وقالا : إن قدم هذا المولود مبارك . ثم إن نور الدين توجّه ثاني يوم إلى الملك وقبّل الأرض ، وانشد هذين البيتين : [من الوافر]

سَعاداتٌ تُجَدَّدُ كُلَّ يَوْمٍ وإقْبالٌ وقَدْ رُغِمَ الحَسَودُ
فَما زالَتْ لَكَ الأَيّامُ بِيضاً وأَيّامُ الَّذي عاداكَ سُودُ

فأمره السلطان بالجلوس في مرتبة الوزارة . فجلس وتعاطى أمور خدمته ونظر بين الناس في أمورهم ومحاكماتهم كما جرت به عادة الوزراء . وصار السلطان ينظر إليه ويتعجب من أمره وذكاء عقله وحسن تدبيره . وتبصّر في أحواله ، فحبّه وقرّبه إليه . ولما انفضّ الديوان نزل نور الدين إلى بيته وحكى لصهره ما وقع ، ففرح . ولم يزل الوزير يربي المولود المسمّى حسناً ، إلى أن مضت عليه أيام . ولم يزل نور الدين في الوزارة حتى إنه لا يفارق السلطان في ليل ولا في نهار ، وزاد له الجوامك والجرايات ، إلى أن اتسع عليه الحال وصار له مراكب تسافر من تحت يده بالمتاجر وغيرها ، وعمّر أملاكاً كثيرة ودواليب وبساتين إلى أن بلغ عمر ولده حسن أربع سنين . فتوفي الوزير الكبير والد زوجة نور الدين ، فأخرجه خرجة عظيمة وواراه في التراب . ثم اشتغل بعد ذلك بتربية ولده . فلمّا بلغ أشده ، أحضر له فقيهاً يقرئه في بيته وأوصاه بتعليمه وحسن تربيته . فقرأه وعلّمه فوائد في العلم بعد ان حفظ القرآن في مدة سنوات ، وما زال حسن يزداد جمالاً وحسنًا واعتدالاً ، كما قال الشاعر : [من الكامل]

قَمَرٌ تَكامَلَ في المَحاسِنِ وانْتَهَى فالشَّمْسُ تُشْرِقُ مِنْ شَقَائِقِ خَدِّهِ
مَلَكَ الجَمالَ بأَسْرِه فكأنَّما حُسْنُ البَرِيَّةِ كُلِّها مِنْ عِنْدِهِ

وقد ربّاه الفقيه في قصر أبيه ، ومن حين نشأته لم يخرج من قصر الوزارة ، إلى أن أخذه والده الوزير نور الدين يوماً من الأيام ، وألبسه بدلة من أفخر ملبوسه وأركبه بغلة من خيار بغاله وطلع به لعند السلطان وأدخله عليه . فنظر الملك حسن بدر الدين ابن الوزير نور الدين ، فانبهر من حسنه . وأمّا أهل المملكة فإنه لما مرّ عليهم أوّل مرة وهو طالع مع أبيه لعند الملك ، قد تحيّروا من فرط حسنه وجماله ورشاقة قدّه واعتداله وتحققوا فيه معنى قول الشاعر : [من الكامل]

رَصَدَ المُنَجِّمُ لَيْلَهُ فَبَدا لَه قَدُّ المَلِيحِ يَمِيسُ في بُرْدَيْهِ
وتَأَمَّلَ الجَوْزاءَ إذْ نَثَرَتْ به حَبَّ الجُمَانِ يَلُوحُ في عِطْفَيْهِ
وأَمَدَّهُ زُحَلٌ سَوادَ ذَوَائِبٍ والمِسْكُ هادي الخَالِ في خَدَّيْهِ
وغَدَتْ مِنَ المِرِّيخِ حُمْرَةُ خَدِّهِ والقَوْسُ يَرْمي النَّبْلَ مِنْ جَفْنَيْهِ
وعُطارِدُ أَعْطاهُ فَرْطَ ذَكائِهِ وأَبى السُّهَا نَظَرَ الوُشَاةِ إلَيْهِ
فَغَدا المُنَجِّمُ حائِراً مِمّا رأَى والبَدْرُ باسَ الأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ

فلمّا رآه السلطان ، أحبّه وأنعم عليه ، وقال لأبيه : يا وزير لا بد أنك تحضره معك في كل يوم . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم عاد الوزير بولده إلى منزله . وما زال يطلع به إلى السلطان في كل يوم إلى

أن بلغ الولد من العمر خمسة عشر عاماً، ثم ضعف والده الوزير نور الدين فأحضره وقال : يا ولدي اعلم أن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقاء، وأريد أن أوصيك وصايا فافهم ما أقول لك واصغ بقلبك إليه . وصار يوصيه بحسن عشرة الناس وحسن التدبير . ثم إن نور الدين تذكر أخاه وأوطانه وبلاده، وبكى على فرقة الأحباب وساحت دموعه وقال : يا ولدي اسمع قولي، فإن لي أخاً يسمى شمس الدين وهو عمّك ولكنه وزير بمصر قد فارقته وخرجت على غير رضاه، والقصد أنك تأخذ درجاً من الورق وتكتب ما أمليه عليك . فأحضر قرطاساً وصار يكتب فيه كل ما قاله أبوه، فأملى عليه جميع ما جرى له من أوله إلى آخره . وكتب له تاريخ زواجه ودخوله على بنت الوزير وتاريخ وصوله إلى البصرة واجتماعه بوزيرها، وكتب وصية موثقة ثم قال لولده : احفظ هذه الوصية فإن ورقتها فيها أصلك وحسبك ونسبك، فإن أصابك شيء من الأمور، فاقصد مصر واستدل على عمك وسلّم عليه واعلمه إني مت غريباً مشتاقاً إليه . فأخذ حسن بدر الدين الرقعة وطواها ولّف عليها خرقة مشمعة وخيطها بين البطانة والظهارة وصار يبكي على أبيه من أجل فراقه وهو صغير . وما زال نور الدين يوصي ولده حسن بدر الدين حتى طلعت روحه . فأقام الحزن في بيته وحزن عليه السلطان وجميع الأمراء ودفنوه، ولم يزالوا في حزن مدة شهرين، وولده لم يركب ولم يطلع الديوان ولم يقابل السلطان، وأقام مكانه بعض الحجّاب وولّى السلطان وزيراً جديداً مكانه وأمره أن يختم على أماكن نور الدين وعلى ما له وعلى عماراته وعلى أملاكه . فنزل الوزير الجديد وأخذ الحجاب وتوجّهوا إلى بيت الوزير نور الدين يختمون عليه ويقبضون على ولده حسن بدر الدين ويطلعون به إلى السلطان ليعمل فيه ما يقتضي رأيه، وكان بين العسكر مملوك من مماليك الوزير نور الدين المتوفي، فلم يهن عليه ولد سيده . فذهب ذلك المملوك إلى حسن بدر الدين، فوجده منكّس الرأس حزين القلب على فراق والده فأعلمه بما جرى . فقال له : هل في الأمر مهلة أدخل بيتي فآخذ معي شيئاً من الدنيا لأستعين به على الغربة؟ فقال له المملوك : انج بنفسك . فلمّا سمع كلام المملوك غطّى رأسه بذيله وخرج ماشياً إلى أن صار خارج المدينة، فسمع الناس يقولون : إن السلطان أرسل الوزير الجديد إلى بيت وزيره المتوفى ليختم على ماله وأماكنه، ويقبض على ولده حسن بدر الدين ويطلع به إليه فيقتله . وصارت الناس تتأسف على حسنه وجماله . فلمّا سمع كلام الناس، خرج إلى غير مقصد ولم يعلم أين يذهب . فلم يزل سائراً إلى أن ساقته المقادير إلى تربة والده فدخل المقبرة ومشى بين القبور إلى أن جلس عند قبر أبيه وأزال ذيله من فوق رأسه . فبينما هو جالس عند تربة أبيه إذ قدم عليه يهودي من البصرة وقال : يا سيدي، ما لي أراك متغيّراً؟ فقال له : إني كنت نائماً في هذه الساعة فرأيت أبي يعاتبني على عدم زيارتي قبره، فقمت وأنا مرعوب وخفت أن يفوت النهار ولم أزره فيصعب عليّ الأمر . فقال له اليهودي : يا سيدي، إن أباك كان أرسل مراكب تجارة وقدم منها البعض، ومرادي أن أشتري منك وسق كل مركب قدمت بألف دينار . ثم أخرج اليهودي كيساً ممتلئاً من الذهب وعدّ منه ألف دينار ودفعه إلى حسن ابن الوزير ثم قال له اليهودي : اكتب لي ورقة واختمها . فأخذ حسن ابن الوزير ورقة وكتب فيها : كاتب هذه الورقة حسن بدر الدين ابن الوزير نور الدين، قد باع اليهودي فلان جميع وسق كل مركب وردت من مراكب أبيه المسافرين بألف دينار وقبض الثمن على سبيل التعجيل . فأخذ اليهودي الورقة،

وصار حسن يبكي ويتذكر ما كان فيه من العز والإقبال . ثم دخل عليه الليل وأدركه النوم ، فنام عند قبر أبيه . ولم يزل نائماً حتى طلع القمر فتدحرجت رأسه عن القبر ونام على ظهره وصار وجهه يلمع في القمر . وكانت المقابر عامرة بالجن المؤمنين ، فخرجت جنية فنظرت وجه حسن وهو نائم ، فلمّا رأته تعجّبت من حسنه وجماله وقالت : سبحان الله ، ما هذا الشاب إلا كأنه من الحور العين . ثم طارت إلى الجوّ تطوف على عادتها فرأت عفريتاً طائراً ، فسلّمت عليه وسلّم عليها فقالت له : من أين أقبلت ؟ قال : من مصر . فقالت له : هل لك أن تروح معي حتى تنظر إلى حسن الشاب النائم في المقبرة ؟ فقال لها : نعم . فسارا حتى نزلا في المقبرة فقالت له : هل رأيت في عمرك مثل هذا ؟ فنظر العفريت إليه وقال : سبحان من لا شبيه له . ولكن يا أختي إن أردت حدثتك بما رأيت . فقالت له : حدّثني . فقال لها : إني رأيت مثل هذا الشاب في إقليم مصر ، وهي بنت الوزير . وقد علم بها الملك فخطبها من أبيها الوزير شمس الدين فقال له : يا مولانا السلطان ، إقبل عذري وارحم عبرتي ، فإنك تعرف أن أخي نور الدين خرج من عندنا ولا نعلم أين هو ، وكان شريكي في الوزارة . وسبب خروجه ، أني جلست أتحدث معه في شأن الزواج ، فغضب مني فخرج مغضباً . وحكى للملك جميع ما جرى بينهما . ثم قال للملك : فكان ذلك سبباً لغيظه ، وأنا حالف أن لا أزوج بنتي إلاّ لابن أخي من يوم ولدتها أمها ، وذلك نحو ثمانية عشرة سنة . ومن مدة قريبة سمعت أن أخي تزوّج بنت وزير البصرة وجاء منها بولد ، وأنا لا أزوج بنتي إلاّ له ، كرامة لأخي . ثم إني أرّخت وقت زواجي وحمل زوجتي وولادة هذه البنت وهي باسم ابن عمّها ، والبنات كثير . فلمّا سمع السلطان كلام الوزير ، غضب غضباً شديداً وقال : كيف يخطب مثلي من مثلك بنتاً فتمنعها منه وتحتجّ بحجّة باردة ؟ وحياة رأسي لا أزوّجها إلاّ لأقل مني برغم أنفك . وكان عند الملك سايس أحدب بحدبة من قدام وحدبة من وراء فأمر السلطان بإحضاره وكتب كتابه على بنت الوزير بالقهر وأمر أن يدخل عليها في هذه الليلة ويعمل له زفافاً ، وقد تركته وهو بين مماليك السلطان وهم حوله في أيديهم الشموع موقدة يضحكون عليه ويسخرون به على باب الحمّام . وأمّا بنت الوزير فإنها جالسةٌ تبكي بين المنقشات والمواشط ، وهي أشبه الناس بهذا الشاب ، وقد حجروا على أبيها ومنعوه أن يحضرها . وما رأيت يا أختي أقبح من هذا الأحدب ، وأمّا الصبية فهي أحسن من هذا الشاب . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 21

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنّ الجنيّ لمّا حكى للجنيّة حكاية بنت وزير مصر ، وأن الملك كتب كتابها على السايس الأحدب وهي في غاية الحزن ، وأنه لا أحد يشبهها في الجمال إلا هذا الشاب قالت له الجنيّة : تكذب ، فإن هذا الشاب أحسن أهل زمانه . فردّ عليها العفريت وقال : والله يا أختي إن الصبية أحسن من هذا ولكن لا يصلح لها إلاّ هو ، فإنهما مثل بعضهما ، ولعلّهما أخوان أو ولدا عمّ . فيا خسارتها مع هذا الأحدب . فقالت له : يا أخي ، دعنا ندخل تحته ونحمله ونروح به إلى الصبية التي تقول عليها وننظر أيهما أحسن . فقال العفريت : سمعاً وطاعةً ، هذا كلام صواب وليس هناك أحسن من هذا الرأي الذي اخترتيه فأنا أحمله . ثم إنه حمله وطار به إلى الجو وصارت العفريتة في ركابه تحاذيه إلى أن نزل به في مدينة

مصر وحطّه على مصطبة ونبهه واستيقظ من النوم ، فلم يجد نفسه على قبر أبيه في أرض البصرة . والتفت يميناً وشمالاً فلم يجد نفسه إلاّ في مدينة غير مدينة البصرة . فأراد أن يصيح فغمزه العفريت وقاد له شمعة وقال له : اعلم أني جئت بك وأنا أريد أن أعمل معك شيئاً لله . فخذ هذه الشمعة وامش بها إلى ذلك الحمّام واختلط بالناس ، ولا تزل ماشياً معهم حتى تصل إلى قاعة العروس ، فاسبق وادخل القاعة ولا تخشَ أحداً ، وإذا دخلت فقف على يمين العريس الأحدب ، وكل ما جاءك المواشط والمغنيات والمنقشات فحط يدك في جيبك تجده ممتلئاً ذهباً ، فاكبش وارم لهم ، ولا تتوهّم أنك تدخل يدك ولا تجده ممتلئاً بالذهب ، فاعط كل من جاءك بالحفنة ولا تخشَ من شيء وتوكّل على الذي خلقك ، فما هذا بحولك وقوّتك بل بحول الله وقوّته . فلما سمع حسن بدر الدين من العفريت هذا الكلام قال : يا ترَ أي شيء هذه القضية ، وما وجه الإحسان ؟ ثم مشى وأوقد الشمعة وتوجّه إلى الحمام فوجد الأحدب راكب الفرس ، فدخل حسن بدر الدين بين الناس وهو على تلك الحالة مع الصورة الحسنة ، وكان عليه الطربوش والعمامة والفرجية المنسوجة بالذهب . وما زال ماشياً في الزينة ، وكلمّا وقفت المغنيات للناس تنقطهنّ ، يضع يده في جيبه فيلقاه ممتلئاً بالذهب ، فيكبش ويرمي في الطار للمغنيات والمواشط فيملأ الطار دنانير . فاندهش عقول المغنيات وتعجّب الناس من حسنه وجماله . ولم يزل على هذا الحال حتى وصلوا إلى بيت الوزير ، فردّت الحجّاب الناس ومنعوهم . فقالت المغنيات والمواشط : والله لا ندخل إلاّ إن دخل هذا الشاب معنا لأنّه غمرنا بإحسانه ولا تجلى العروس إلاّ وهو حاضر . فعند ذلك دخلوا به إلى قاعة الفرح وأجلسوه برغم أنف العريس الأحدب واصطفت جميع نساء الأمراء والوزراء والحجّاب صفّين ، وكل امرأة معها شمعة كبيرة موقدة مضيئة وكلهنّ ملثمات . وصرن صفوفاً يميناً وشمالاً من تحت المنصة إلى صدر الليوان الذي عند المجلس الذي تخرج منه العروسة . فلمّا نظر النساء حسن بدر الدين وما هو فيه من الحسن والجمال ووجهه يضيئ كأنّه هلال ، مالت جميع النساء إليه فقالت المغنيات للنساء الحاضرات : اعلموا أن هذا المليح ما نقطنا إلاّ بالذهب الأحمر فلا تقصرن في خدمته وأطعنه فيما يقول . فازدحم النساء عليه بالشمع ونظرن إلى جماله فانبهرت عقولهنّ من حسنه ، وصارت كل واحدة منهنّ تودّ ان تكون في حضنه سنةً أو شهراً أو ساعةً . ورفعن ما كان على وجوههنّ من النقاب وتحيّرت منهنّ الألباب . وقلن : هنيئاً لمن كان هذا الشاب له أو عليه . ثم دعون على ذلك السايس الأحدب ومن كان سبباً في زواجه هذه المليحة ، وكلما دعون لحسن بدر الدين دعون على ذلك الأحدب . ثم إن المغنيات ضربن بالدفوف وأقبلت المواشط وبنت الوزير بينهنّ وقد طيّبنها وعطّرنها وألبسنها وحسّن شعرها ، ونحرها بالحلي والحلل من لباس الملوك الأكاسرة . ومن جملة ما عليها ، ثوب منقوش بالذهب الأحمر وفيه صور الوحوش والطيور وهو مسبول عليها من فوق حوائجها ، وفي عنقها عقد يساوي الألوف قد حوى كل فص من الجوهر ما حاز مثله تُبّع ولا قيصر . وصارت العروسة كأنها البدر إذا أقمر في ليلة أربعة عشرة . ولما أقبلت كانت كأنها حورية ، فسبحان من خلقها بهية وأحدقْ بها النساء فصارت كالنجوم وهي بينهن كالقمر إذا انجلى عنه الغيم . وكان حسن بدر الدين البصري جالساً والناس ينظرون إليه ، فخطرت العروسة وأقبلت وتمايلت فقام إليها السايس الأحدب ليقبلها فأعرضت عنه وانقلبت حتى صارت قدام حسن ابن عمها ، فضحكت

الناس . فلما رآها مالت إلى نحو حسن بدر الدين ، وحط يده في جيبه وكبش الذهب ورمى في طارة المغنيات . فرحوا وقالوا : كنا نشتهي أن تكون هذه العروسة لك ، فتبسّم . هذا كله والسايس الأحدب وحده كأنه قرد ، وكلما قادوا له الشمعة طفئت ، فبهت وصار قاعداً في الظلام يمقت في نفسه وهؤلاء الناس محدقون به وتلك الشموع الموقدة بهجتها من عجب العجاب يتحيّر من شعاعها أولوا الألباب . وأما العروسة ، فإنها رفعت كفّيها إلى السماء وقالت : اللهم اجعل هذا بعلي وأرحني من هذا السايس الأحدب . وصارت المواشط تجلي العروسة إلى آخر السبع ، خلع على حسن بدر الدين البصري والسايس الأحدب وحده . فلما فرغوا من ذلك أذنوا للناس بالانصراف ، فخرج جميع من كان في الفرح من النساء والأولاد ولم يبقَ إلا حسن بدر الدين والسايس الأحدب . ثم إن المواشط أدخلن العروسة ليكشفن ما عليها من الحلي والحلل ويهيئنها للعريس . فعند ذلك تقدم السايس الأحدب إلى حسن بدر الدين وقال : يا سيدي آنستنا في هذه الليلة وغمرتنا بإحسانك ، فلم لا تقوم تروح بيتك بلا مطرود . فقال له : بسم الله . ثم قام وخرج من الباب فلقيه العفريت فقال له : قف يا بدر الدين ، فإذا خرج الأحدب إلى بيت الراحة فادخل أنت واجلس في المخدع ، فإذا أقبلت العروسة فقل لها : أنا زوجك والملك ما عمل تلك الحيلة إلا لأنه يخاف عليك من العين ، وهذا الذي رأيته سايس من سيّاسنا . ثم أقبل عليها واكشف وجهها ولا تخش بأساً من أحد . فبينما بدر الدين يتحدث مع العفريت ، وإذا بالسايس دخل بيت الراحة وقعد على الكرسي فطلع له العفريت من الحوض الذي فيه الماء في صورة فأر وقال : زيق . فقال الأحدب : ما جاء بك هنا ؟ فكبر الفأر وصار كالقط ، ثم كبر حتى صار كلباً وقال : عوه ، عوه . فلما نظر السايس ذلك فزع وقال : اخسأ يا مشؤوم . فكبر الكلب وانتفح حتى صار جحشاً ونهق وصرخ في وجهه : هاق ، هاق . فانزعج السايس وقال : الحقوني يا أهل البيت . وإذا بالجحش قد كبر وصار قدر الجاموسة وسدّ عليه المكان وتكلّم بكلام ابن آدم وقال : ويلك يا أحدب يا أنتن السيّاس ، فلحق السايس البطن وقعد على الملاقي بأثوابه واشتبكت أسنانه ببعضها ، فقال له العفريت : هل ضاقت عليك الأرض فلا تتزوج إلا بمعشوقتي ؟ فسكت السايس . فقال له : ردّ الجواب وإلا أسكنك التراب . فقال : والله ما لي ذنب إلا أنهم غصبوني وما عرفت أن لها عشاقاً من الجواميس ، ولكن أنا تائب إلى الله ثم إليك . فقال له العفريت : أقسم بالله إن خرجت في هذا الوقت من هذا الموضع أو تكلمت قبل أن تطلع الشمس لأقتلنّك ، فإذا طلعت الشمس فاخرج إلى حال سبيلك ولا تعد إلى هذا البيت أبداً . ثم إن العفريت قبض على السايس الأحدب وقلب في رأسه الملاقي وجعلها إلى أسفل وجعل رجليه إلى فوق وقال له : استمر هنا وأنا أحرسك إلى طلوع الشمس . هذا ما كان من قصة الأحدب . وأما ما كان من قصة حسن بدر الدين البصري ، فإنه خلّى الأحدب والعفريت يتخاصمان ودخل البيت وجلس في داخل المخدع ، وإذا بالعروسة أقبلت ومعها عجوز ، فوقفت العجوز في باب المخدع وقالت : يا أبا شهاب قم وخذ عروستك وقد استودعتك الله . ثم ولّت العجوز ودخلت العروسة في صدر المخدع ، وكان اسمها ست الحسن ، وقلبها مكسور وقالت في قلبها : والله ما أمكّنه من نفسي ولو طلعت روحي . فلما دخلت إلى صدر المخدع نظرت بدر الدين فقالت : حبيبي ، وإلى هذا الوقت أنت قاعد ؟ لقد قلت في نفسي : لعلك أنت والسايس الأحدب مشتركان فيَّ . فقال حسن بدر

الدين : وأي شيء أوصل السايس إليك ومن اين له ان يكون شريكي فيك؟ فقالت : ومن زوجي أأنت أم هو ؟ قال بدر الدين : يا سيدتي ، نحن ما عملنا هذا إلا سخرية به فنضحك عليه . فلما نظرت المواشط والمغنيات وأهلك حسنك البديع خافوا علينا من العين فاكتراه أبوك بعشرة دنانير حتى يصرف عنا العين وقد راح . فلما سمعت ست الحسن من بدر الدين ذلك الكلام ، فرحت وتبسّمت وضحكت ضحكاً لطيفاً وقالت : والله لقد أطفأت ناري ، فبالله خذني عندك وضمّني إلى حضنك . وكانت بلا لباس فكشفت ثوبها إلى نحرها فبان قدامها ووراؤها ، فلما نظر بدر الدين صفاء جسمها ، تحرّكت فيه الشهوة فقام وحلّ لباسه ثم حلّ الكيس الذهب الذي كان أخذه من اليهودي ووضع فيه ألف دينار ولفّه في سرواله وحطّه تحت ذيل الطراحة وقلع عمامته ووضعها على الكرسي وبقي بالقميص الرفيع ، وكان القميص مطرّزاً بالذهب . فعند ذلك قامت إليه ست الحسن وجذبته إليها وجذبها بدر الدين إليه وعانقها وأخذ رجليها في وسطه ثم ركب المدفع وحرّره على القلعة وأطلقه ، فهدم البرج فوجدها درّة ما ثقبت ومطية لغيره ما ركبت ، فأزال بكارتها وتملى بشبابها . ولم يزل يركب المدفع ويرد إلى غاية خمس عشرة مرة ، فعلقت منه . فلما فرغ بدر الدين ، وضع يده تحت رأسها وكذلك الأخرى وضعت يدها تحت رأسه ، ثم إنهما تعانقا وناما متعانقين وشرحا بعناقهما مضمون هذه الأبيات : [من الكامل]

زُرْ مَنْ تُحِبُّ وَدَعْ كَلامَ الحَاسِدِ ... لَيْسَ الحَسُودُ على الهَوَى بِمُساعِدِ
لَم يَخْلُقِ الرَّحْمٰنُ أَحْسَنَ مَنْظراً ... مِنْ عاشِقَيْنِ على فِراشٍ واحِدِ
مُتَعانِقَيْنِ عَلَيْهِما حُلَلُ الرِّضَى ... مُتَوَسِّدَيْنِ بِمِعْصَمٍ وبِساعِدِ
وإذا تآلَفَتِ القُلُوبُ مَعَ الهَوَى ... فالنَّاسُ تَضْرِبُ في حَدِيْدٍ بارِدِ
وإذا صَفَى لَكَ مِنْ زَمَانِكَ واحِدٌ ... فَهُوَ المُرادُ ؛ وعِشْ بِذاكَ الواحِدِ

هذا ما كان من أمر حسن بدر الدين وست الحسن بنت عمه . وأما ما كان من أمر العفريت ، فإنه قال للعفريتة : قومي وادخلي تحت الشاب ودعينا نوديه مكانه لئلا يدركنا الصبح ، فإن الوقت قريب . فعند ذلك تقدمت العفريتة ودخلت تحت ذيله وهو نائم وأخذته وطارت به وهو على حاله بالقميص وهو بلا لباس ، وما زالت العفريتة طائرة به والعفريت يحاذيها ، فأذن الله للملائكة أن ترمي العفريت بشهاب من نار فاحترق وسلمت العفريتة . فنزلت بدر الدين في موضع ما أحرق الشهاب العفريت ولم تتجاوزه به خوفاً عليه . وكان بالأمر المقدّر ذلك الموضع في دمشق الشام ، فوضعته العفريتة على باب من أبوابها وطارت . فلما طلع النهار وفتحت أبواب المدينة ، خرج الناس فنظروا شاباً مليحاً بالقميص والطاقية بلا عمامة ولا لباس ، وهو مما قاسى من السهر غرقان في النوم . فلما رآه الناس قالوا : يا بخت من كان هذا عنده في هذه الليلة ، ويا ليته صبر حتى لبس حوائجه . وقال الآخر : مساكين أولاد الناس ، لعل هذا يكون في هذه الساعة خرج من المسكرة لبعض شغله ، فقوي عليه السكر فتاه عن المكان الذي كان قصده حتى وصل إلى باب المدينة فوجده مغلقاً فنام ها هنا . وقد خاض الناس فيه بالكلام ، وإذا بالهوا هبّ على بدر الدين فرفع ذيله من فوق بطنه فبان من تحته بطن وسرّة محققة وسيقان وأفخاذ مثل البلور . فصار الناس يتعجبون ، فانتبه بدر الدين فوجد روحه على باب مدينة وعليها ناس ، فتعجب وقال : أين أنا يا

جماعة الخير، وما سبب اجتماعكم عليّ، وما حكايتي معكم ؟ فقالوا : نحن رأيناك عند أذان الصبح ملقى على هذا الباب نائماً ولا نعلم من أمرك غير هذا . فأين كنت نائمًا هذه الليلة؟ فقال حسن بدر الدين : والله يا جماعة إني كنت نائمًا هذه الليلة في مصر . فقال واحد : هل أنت تأكل حشيشاً؟ وقال بعضهم : أأنت مجنون؟ كيف تكون بايتاً في مصر وتصبح نائماً في مدينة دمشق ؟ فقال لهم : والله يا جماعة الخير لم أكذب عليكم أبداً وأنا كنت البارحة بالليل في ديار مصر وقبل البارحة كنت بالبصرة. فقال واحد: هذا شيء عجيب . وقال الآخر : هذا الشاب مجنون . وصفقوا عليه بالكفوف وتحدث الناس مع بعضهم وقالوا : يا خسارة شبابه ، والله ما في جنونه خلاف . ثم إنهم قالوا له : ارجع لعقلك . فقال حسن بدر الدين : كنت البارحة عريساً في ديار مصر . فقالوا : لعلك حلمت ورأيت هذا الذي تقول في المنام . فتحيّر حسن في نفسه وقال لهم : والله ما هذا منام . وأين السايس الأحدب الذي كان قاعداً عندنا والكيس الذهب الذي كان معي ؟ وأين ثيابي ولباسي ؟ ثم قام ودخل المدينة ومشى في شوارعها وأسواقها ، فازدحمت عليه الناس وزفّوه، فدخل دكان طباخ . وكان ذلك الطباخ رجلاً مسرفاً فتاب الله عليه من الحرام وفتح له دكان طباخ ، وكان أهل دمشق كلهم يخافون منه بسبب شدّة بأسه . فلما نظر الناس إلى الشاب وقد دخل دكان الطباخ ، افترقوا وخافوا منه . فلما نظر الطباخ إلى حسن بدر الدين وشاهد حسنه وجماله وقعت في قلبه محبته . فقال : من أين أنت يا فتى ؟ فاحكِ لي حكايتك فإنك صرت عندي أعز من روحي . فحكى له ما جرى من المبتدا إلى المنتهى . فقال له الطباخ : يا سيدي بدر الدين ، اعلم أن هذا أمر عجيب وحديث غريب، ولكن يا ولدي اكتم ما معك حتى يفرج الله ما بك واقعد عندي في هذا المكان، وأنا ما لي ولد فأتخذك ولدي . فقال له بدر الدين : الأمر كما تريد يا عم . فعند ذلك نزل الطباخ إلى السوق واشترى لبدر الدين أقمشة مفتخرة وألبسه إياها وتوجّه به إلى القاضي وأشهد على نفسه أنه ولده . وقد اشتهر حسن بدر الدين في مدينة دمشق أنه ولد الطباخ وقعد عنده في الدكان يقبض الدراهم ، وقد استقر أمره عند الطباخ على هذه الحال . هذا ما كان من أمر حسن بدر الدين ، وأما ما كان من أمر ست الحسن بنت عمه ، فإنه لما طلع الفجر وانتبهت من النوم ، لم تجد حسن بدر الدين قاعداً عندها ، فاعتقدت أنه دخل المرحاض فجلست تنتظره ساعة ، وإذا بأبيها قد دخل عليها وهو مهموم مما جرى له مع السلطان وكيف غصبه وزوّج ابنته غصباً لأحد غلمانه الذي هو السايس الأحدب وقال في نفسه : أقتل هذه البنت إن كانت مكّنت هذا الخبيث من نفسها . فمشى إلى أن وصل إلى المخدع ووقف على بابه وقال : يا ست الحسن . فقالت له : نعم يا سيدي . ثم إنها خرجت وهي تتمايل من الفرح وقبّلت الأرض بين يديه وازداد وجهها نوراً وجمالاً لعناقها لذلك الغزال . فلما نظرها أبوها وهي بتلك الحالة ، قال لها : يا خبيثة ، هل أنت فرحانة بهذا السايس ؟ فلما سمعت ست الحسن كلام والدها تبسمت وقالت : بالله يكفي ما جرى منك والناس يضحكون عليّ ويعايرونني بهذا السايس الذي ما يجيء في إصبعي قلامة ظفر . إن زوجي والله ما بتّ طول عمري ليلة أحسن من ليلة البارحة التي بتّها معه ، فلا تهزأ بي وتذكر لي ذلك الأحدب . فلما سمع والدها كلامها ، امتزج بالغضب وازرقت عيناه وقال لها : ويلك، أي شيء هذا الكلام الذي تقولينه؟ إن السايس الأحدب قد بات عندك ؟ فقالت : بالله عليك لا تذكره لي ، قبّحه الله وقبّح أباه فلا تكثر

المزاح بذكره. فما كان السايس إلا مكترى بعشرة دنانير وأخذ أجرته وراح، وجئت أنا ودخلت المخدع فنظرت زوجي قاعداً بعد ما جلتني عليه المغنيات ونقّط بالذهب الأحمر حتى أغنى الفقراء الحاضرين، وقد بتّ في حضن زوجي الخفيف الروح صاحب العيون السود والحواجب المقرونة. فلما سمع والدها هذا الكلام، صار الضياء في وجهه ظلاماً وقال لها: يا فاجرة ما هذا الذي تقولينه أين عقلك؟ فقالت له: يا أبت لقد فتت كبدي لأي شيء، فهذا زوجي الذي أخذ وجهي قد دخل بيت الراحة وإني قد علقت منه. فقام والدها وهو متعجّب ودخل بيت الخلا فوجد السايس الأحدب رأسه مغروزة الملاقي ورجلاه مرتفعة إلى فوق. فبهت فيه الوزير وقال: هذا هو الأحدب. فخاطبه فلم يرد عليه، وظن الأحدب أنه العفريت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 22

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السايس الأحدب لما كلمه الوزير ظن أنه العفريت، فلم يرد عليه لأنه ظن أنه لا يكلمه إلا العفريت. فصرخ عليه الوزير وقال له: تكلّم وإلا أقطع رأسك بهذا السيف. فعند ذلك قال الأحدب: والله يا شيخ العفاريت، من حين جعلتني في هذا الموضع ما رفعت رأسي، فبالله عليك أن ترفق بي. فلما سمع الوزير كلام الأحدب قال له: ما تقول، فإني أبو العروسة ما أنا عفريت. فقال: ليس عمري في يدك ولا تقدر أن تأخذ روحي، فرح إلى حال سبيلك قبل أن يأتيك الذي فعل بي هذه الفعال، فأنتم لا تزوّجوني إلا بمعشوقة الجواميس ومعشوقة العفاريت. فلعن الله من زوّجني بها ولعن من كان السبب في ذلك. ثم إن السايس الأحدب صار يحدث الوزير والد العروسة ويقول لعن الله من كان السبب في ذلك، فقال له الوزير: قم واخرج من هذا المكان. فقال له: هل أنا مجنون حتى أروح معك بغير إذن العفريت؟ فإنه قال لي إذا طلعت الشمس فاخرج ورح إلى حال سبيلك. فهل طلعت الشمس أو لا؟ فإني لا أقدر أن أطلع من موضعي إلا إن طلعت الشمس. فعند ذلك قال له الوزير: من أتى بك إلى هذا المكان؟ فقال: إني جئت البارحة إلى هنا لأقضي حاجتي وأزيل ضرورتي، وإذا بغبار طلع من وسط الماء وصاح وصار يكبر حتى بقي قدر الجاموسة، وقال لي كلاماً دخل في أذني فخلني ورح لعن الله العروسة ومن زوّجني بها. فتقدم إليه الوزير وأخرجه من المرحاض. فخرج وهو يجري وما صدق أن الشمس طلعت وطلع إلى السلطان وأخبره بما اتفق له مع العفريت. وأما الوزير أبو العروسة، فإنه دخل البيت وهو حائر العقل في أمر ابنته فقال: يا بنتي، اكشفي لي عن خبرك؟ فقالت: إن الظريف الذي كنت أنجلي عليه بات عندي البارحة وأزال بكارتي وعلقت منه، وإن كنت لم تصدّقني، فهذه عمامته بلفّتها على الكرسي، ولباسه تحت الفرش وفيه شيء ملفوف لم أعرف ما هو. فلما سمع والدها هذا الكلام دخل المخدع فوجد عمامة حسن بدر الدين ابن أخيه، ففي الحال أخذها في يده وقَلَبها وقال: هذه عمامة وزراء إلا أنها موصلية. ثم نظر إلى حرز مخيط في طربوشه فأخذه وفتقه وأخذ اللباس فوجد الكيس الذي فيه ألف دينار. ففتحه فوجد فيه ورقة، فقرأها فوجد مبايعة اليهودي واسم حسن بدر الدين بن نور الدين المصري ووجد الألف دينار. فلما قرأ شمس الدين الورقة صرخ صرخة وخرّ مغشياً عليه. فلما أفاق وعلم مضمون القصة تعجب وقال: لا إله إلا الله القادر على

كل شيء . وقال : يا بنتي ، هل تعرفين من الذي أخذ وجهك ؟ قالت : لا . قال : إنه ابن أخي وهو ابن عمك ، وهذه الألف دينار مهرك . فسبحان الله فليت شعري كيف اتفقت هذه القضية . ثم فتح الحرز المخيط فوجد فيه ورقة مكتوباً فيها بخط أخيه نور الدين المصري أبي حسن بدر الدين ، فلما نظر خط أخيه أنشد هذين البيتين : [من الوافر]

أَرَى آثارَهُمْ فأَذُوبُ شَوْقاً   وأَسْكُبُ في مَواطِئِهِمْ دُمُوْعِي
وأَسْأَلُ مَنْ بِفُرْقَتِهِمْ رَماني   يَمُنُّ عَلَيَّ يَوْماً بالرُّجُوعِ

فلما فرغ من الشعر ، قرأ الحرز فوجد فيه تاريخ زواجه بنت وزير البصرة وتاريخ دخوله بها وتاريخ عمره إلى حين وفاته ، وتاريخ ولادة ولده حسن بدر الدين . فتعجّب واهتزّ من الطرب ، وقابل ما جرى لأخيه على ما جرى له فوجده سواء بسواء ، وزواجه وزواج الآخر متوافقين تاريخاً ودخولهما بزوجتيهما متوافقاً وولادة بدر الدين ابن أخيه وولادة بنته ست الحسن متوافقين . فأخذ الورقتين وطلع بهما إلى السلطان وأعلمه بما جرى من أول الامر إلى آخره . فتعجّب الملك وأمر أن يؤرخ هذا الأمر في الحال . ثم أقام الوزير ينتظر ابن أخيه فما وقع له على خبر . فقال : والله لأعملن عملاً ما سبقني إليه أحد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 23

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوزير قال : والله لأعملن عملاً ما سبقني إليه أحد . ثم أخذ دواةً وقلماً وكتب فيه أمتعة البيت وأن الخشخانة في موضع كذا والستارة الفلانية في موضع كذا . كتب جميع ما في البيت ثم طوى الكتاب وأمر بخزن جميع الأمتعة ، وأخذ العمامة والطربوش وأخذ معه الفرجية والكيس وحفظها عنده . وأما بنت الوزير فإنها لما كملت أشهرها ولدت ولداً مثل القمر يشبه والده في الحسن والكمال والبهاء والجمال ، فقطعوا سرّته وكحّلوا مقلته وسلّموه إلى المرضعات وسموه عجيباً . فصار يومه بشهر وشهره بسنة . فلما مرّ عليه سبع سنين ، أعطاه جدّه لفقيه ووصّاه أن يربيه ويحسن تربيته ، فأقام في المكتب أربع سنوات . فصار يقاتل أهل المكتب ويسبّهم ويقول : من فيكم مثلي أنا ابن وزير مصر ؟ فقامت الأولاد واجتمعوا يشكون إلى العريف مما قاسوه من عجيب . فقال لهم العريف : أنا أعلمكم شيئاً تقولون له لما يجيء فيتوب عن المجيء للمكتب وذلك ، أنه إذا جاء غداً فاقعدوا حوله وقولوا لبعضكم : والله ما يلعب معنا هذه اللعبة إلا من يقول لنا ما اسم أمه واسم أبيه ، ومن لم يعرف اسم أمه واسم أبيه فهو ابن حرام فلا يلعب معنا . فلما أصبح الصباح ، أتوا إلى المكتب وحضر عجيب ، فاحتاطت به الأولاد وقالوا : نحن نلعب لعبة ولكن ما يلعب معنا إلا من يقول لنا على اسم أمه واسم أبيه . واتفقوا على ذلك . فقال واحد منهم : اسمي ماجد وأمي علوى وأبي عز الدين . وقال الآخر مثل قوله ، وقال الآخر كذلك إلى أن جاء الدور إلى عجيب فقال : أنا اسمي عجيب وأمي ست الحسن وأبي شمس الدين الوزير بمصر . فقالوا له : والله إن الوزير ما هو أبوك . فقال لهم عجيب : الوزير أبي حقيقة . فعند ذلك ضحكت عليه الأولاد وصفقوا عليه وقالوا : أنت ما تعرف لك أباً ، فقم من عندنا فلا يلعب معنا إلا من يعرف إسم أبيه . وفي الحال تفرّق الأولاد من حوله وتضاحكوا عليه . فضاق صدره وانخنق بالبكاء فقال له العريف : هل تعتقد أن أباك

جدك الوزير أبو امك ست الحسن ؟ إن اباك ما تعرفه أنت ولا نحن ، لأن السلطان كان زوّجها للسايس الأحدب وجاءت الجن فناموا عندها . فإن لم تعرف لك اباً ، يجعلوك بينهم ولد زنا . الا ترى أن ابن البائع يعرف اباه ، فوزير مصر إنما هو جدك واما ابوك فلا نعرفه نحن ولا أنت ، فارجع لعقلك . فلما سمع ذلك الكلام قام من ساعته ودخل على والدته ست الحسن وصار يشكي لها وهو يبكي ومنعه البكاء من الكلام . فلما سمعت أمه كلامه وبكاءه التهب قلبها عليه وقالت له : يا ولدي ما الذي ابكاك ؟ فاحك لي قصتك . فحكى لها ما سمعه من الأولاد ومن العريف وقال لها : يا والدتي من هو أبي ؟ قالت له : أبوك وزير مصر . فقال لها : ليس هو أبي فلا تكذبي عليّ ، فإن الوزير أبوك أنت لا ابي أنا فمن هو أبي ؟ فإن لم تخبريني بالصحيح قتلت روحي بهذا الخنجر . فلما سمعت والدته ذكر أبيه بكت لذكر ولد عمها وتذكرت محاسن حسن بدر الدين البصري وما جرى لها معه وانشدت هذه الأبيات : [من الوافر]

أَهاجُوا الحُبَّ في قَلْبِي وسارُوا ... وقَدْ شَطَّتْ بِهِمْ تِلْكَ الدِّيارُ
وبانَ العَقْلُ مِنِّي حَيْثُ بانُوا ... وفارَقَنِي هُجُوعٌ وآصْطِبارُ
وقَدْ سارُوا فَفَارَقَنِي سُرُورِي ... وقَدْ عُدِمَ القَرارُ فَلاَ قَرَارُ
وأَجْرَوْا بالفِراقِ دُمُوعَ عَيْنِي ... فأدْمُعُهَا تُجارِيها البِحَارُ
إذا مَا آشْتَقْتُ يَوْماً أَنْ أَراهُمْ ... وزادَ بِهِمْ حَنِيْنِي وآنْتِظارُ
يُمَثِّلُ شَخْصُهُمْ في وَسْطِ قَلْبِي ... غَرَامٌ وآشْتِياقٌ وادِّكارُ
أَيا مَنْ ذِكْرُهُمْ أَضْحَى دِثارِيْ ... وما لِيْ غَيْرُ حُبِّهِمِ شِعَارُ
أَحِبَّتَنا إلى كَمْ ذَا التَّمادِيْ ... وَكَمْ هذا التَّبَاعُدُ والنِّفَارُ

ثم بكت وصرخت وكذلك ولدها ، وإذا بالوزير دخل ، فلما نظر إلى بكائهما احترق قلبه وقال : ما يبكيكما ؟ فأخبرته بما اتفق لولدها مع صغار المكتب . فبكى الآخر ثم تذكّر أخاه وما اتفق له معه ، وما اتفق لابنته ولم يعلم بما في باطن الأمر . ثم قام الوزير في الحال ومشى حتى طلع إلى الديوان ودخل على الملك وأخبره بالقصة وطلب منه الاذن بالسفر إلى الشرق ليقصد مدينة البصرة ويسأل عن ابن أخيه ، وطلب من السلطان أن يكتب له مراسيم لسائر البلاد إذا وجد ابن أخيه في أي موضع يأخذه . ثم بكى بين يدي السلطان فرقّ له قلبه وكتب له مراسيم لسائر الأقاليم والبلاد . ففرح بذلك ودعا للسلطان وودّعه ونزل في الحال وتجهّز للسفر وأخذ ما يحتاج إليه . وأخذ ابنته وولدها عجيباً وسافر أول يوم وثاني يوم وثالث يوم حتى وصل إلى مدينة دمشق ، فوجدها ذات أشجار وأنهار كما قال فيها الشاعر : [من الكامل]

مِنْ بَعْدِ يَوْمِيْ في دِمَشْقَ وَلَيْلَتِي ... حَلَفَ الزَّمانُ بِمِثْلِها لا يَغْلَطُ
بِتْنا ، وَجَنْحُ اللَّيْلِ في غَفَلاتِهِ ... ومِنَ الصَّباحِ عَلَيْهِ فَرْعٌ أَشْمَطُ
والطَّلُّ في تِلْكَ الغُصُونِ كأنَّه ... دُرٌّ يُصَافِحُهُ النَّسِيمُ ، فَيَسْقُطُ
والطَّيْرُ يَقْرأُ ، والغَدِيْرَ صَحِيْفَةٌ ... والرِّيحُ تَكْتُبُ ، والغَمَامُ يُنَقِّطُ

فنزل الوزير في ميدان الحصبا ، ونصب خيامه وقال لغلمانه : نأخذ الراحة هنا يومين . فدخل

الغلمان المدينة لقضاء حوائجهم . هذا يبيع وهذا يشتري وهذا يدخل الحمام وهذا يدخل جامع بني أمية الذي ما في الدنيا مثله ، ودخل المدينة عجيب هو وخادمه يتفرّجان والخادم يمشي خلف عجيب وفي يده سوط لو ضرب به جملاً لسقط لم يثر . فلما نظر أهل دمشق إلى عجيب وقدّه واعتداله وبهائه وكماله ، بديع الجمال رخيم الدلال ألطف من نسيم الشمال وأحلى للظمآن من الماء الزلال والذ من العافية لصاحب الاعتلال . فلما رآه أهل دمشق ، تبعوه وصارت الخلق تجري وراءه وتتبعه وتقعد في الطريق حتى يجيء عليهم وينظرونه إلى أن وقف العبد بالأمر المقدر على دكان أبيه حسن بدر الدين الذي أجلسه فيه الطباخ ، الذي اعترف عند القضاة والشهود أنه ولده . فلما وقف عليه العبد في ذلك اليوم وقف معه الخدام ، فنظر حسن بدر الدين إلى ولده فأعجبه حين وجده في غاية الحسن ، فحن إليه فؤاده وتعلّق به قلبه . وكان قد طبخ حَبّ رمّان محلّى ، واشتدت به المحبة الإلهية فنادى من الوجد وقال : يا سيدي يا من ملك قلبي وفؤادي وحنّ إليه كبدي ، هل لك أن تدخل عندي وتجبر قلبي وتأكل من طعامي ؟ ثم فاضت عيناه بالدموع من غير اختياره وتذكّر ما كان فيه فيما مضى وما هو فيه تلك الساعة . فلما سمع عجيب كلام أبيه ، حنّ إليه قلبه والتفت إلى الخادم وقال له : إن هذا الطباخ حنّ قلبي إليه وكأنه قد فارق ولداً له ، فادخل بنا عنده لنجبر قلبه ونأكل ضيافته لعل الله يجمع شملنا بأبينا بجبرنا خاطره . فلما سمع الخادم كلام سيده عجيب قال : والله يا سيدي لا ينبغي ، كيف نكون أولاد الوزير ونأكل في دكان الطباخ ، ولكن أنا أحجب الناس عنك بهذه العصا خوفاً أن ينظروا إليك . وإلا فما يمكنك أن تدخل الدكان أبداً . فلما سمع حسن بدر الدين كلام الخادم تعجب والتفت إلى الخادم وقد سالت دموعه على خدوده وقال له : إن قلبي حبه . فقال له الخادم : دعنا من هذا الكلام ولا تدخل . فعند ذلك التفت أبو عجيب للخادم وقال له : يا كبير لأي شيء لا تجبر خاطري وتدخل عندي ، يا من كأنه قصطل أسود وقلبه أبيض ، يا من قال فيه بعض واصفيه كذا من المدح حتى ضحك الخادم وقال : أي شيء تقول ؟ فبالله قل وأوجز . فأنشد في الحال هذين البيتين : [من الكامل]

لَوْلا تَأَدُّبُهُ وَحُسْنُ ثِقاتِه ما كانَ في دَارِ المُلُوكِ مُحَكَّمَا
وعلى الحَرِيْم ، فيا لَهُ مِنْ خَادِمٍ مِنْ حُسْنِهِ خَدَمَتْهُ أَمْلاكُ السَّمَا

فتعجّب الخادم من هذا الكلام وأخذ عجيباً ودخل دكان الطباخ ، فغرف حسن بدر الدين زبدية من حَب الرمان ، وكانت بلَوْزٍ وسكّر ، فأكلوا سواء . فقال لهم حسن بدر الدين : آنستونا ، كلوا هنيئاً مريئاً . ثم إن عجيباً قال لوالده : اقعد كُلْ معنا لعل الله يجمعنا بمن تريد . فقال حسن بدر الدين يا ولدي هل بليت على صغرسنك بفرقة الأحباب ؟ فقال عجيب : نعم يا عم ، أحرق قلبي بفراق الأحباب والحبيب الذي فارقني هو والدي ، وقد خرجت أنا وجدي نطوف عليه البلاد ، فواحسرتاه على جمع شملي به . وبكى بكاءً شديداً ، فبكى والده لبكائه وتذكر فرقة الأحباب وبُعده عن والده ووالدته ، فحن له الخادم وأكلوا جميعاً إلى أن اكتفوا . ثم بعد ذلك قاما وخرجا من دكان حسن بدر الدين فحس أن روحه فارقت جسده وراحت معهم . فما قدر أن يصبر عنهم لحظة واحدة ، فقفل الدكان وتبعهم وهو لا يعلم أنه ولده ، وأسرع في مشيه حتى لحقهم قبل أن يخرجوا من الباب الكبير . فالتفت الطواشي وقال له : ما لك يا طباخ ؟ فقال

حسن بدر الدين : لما نزلتم من عندي كأن روحي خرجت من جسمي ولي حاجة في المدينة خارج الباب، فأردت أن أرافقكم حتى أقضي حاجتي وأرجع . فغضب الطواشي وقال لعجيب : إن هذه أكلة مشؤومة وصارت علينا مكرمة، وها هو تابعنا من موضع إلى موضع . فالتفت عجيب فرأى الطباخ ، فاغتاظ واحمرّ وجهه ثم قال للخادم : دعه يمشي في طريق المسلمين، فإذا خرجنا إلى خيامنا وخرج معنا وعرفنا أنه يتبعنا نطرده . فأطرق رأسه ومشى والخادم وراءه، فتبعهم حسن بدر الدين إلى ميدان الحصبا وقد قربوا من الخيام فالتفتوا ورأوه خلفهم ، فغضب عجيب وخاف من الطواشي أن يخبر جده . فامتزج بالغضب مخافة أن يقولوا أنه دخل دكان الطباخ وأن الطباخ تبعه . فالتفت حتى صارت عيناه في عين أبيه وقد بقي جسداً بلا روح . ورأى عجيب عينه كأنها عين خائن وربما كان ولد زنا فازداد غضباً، فأخذ حجر وضرب به والده فوقع الحجر على جبينه فبطحه . فوقع حسن بدر الدين مغشياً عليه وسال الدم على وجهه، وسار عجيب هو والخادم إلى الخيام . وأما حسن بدر الدين فإنه لما أفاق، مسح دمه وقطع قطعة من عمامته وعصب بها رأسه ولام نفسه وقال : أنا ظلمت الصبي حيث غلقت دكاني وتبعته حتى ظن أني خائن . ثم رجع إلى الدكان واشتغل ببيع طعامه وصار مشتاقاً إلى والدته التي في البصرة ويبكي عليها وأنشد هذين البيتين : [من البسيط]

لا تَسْأَلِ الدَّهْرَ إنْصافاً فَتَظْلِمَهُ ... ولا تَلُمْهُ فَلَمْ يُخْلَقْ لإنْصَافِ
خُذْ ما تَيَسَّرَ وأزْوِ الهَمَّ ناحِيَةً ... لا بُدَّ مِنْ كَدَرٍ فِيهِ وإنْصَافِ

ثم إن بدر الدين استمرّ مشتغلاً يبيع في طعامه . وأما الوزير عمه فإنه أقام في دمشق ثلاثة أيام ثم رحل متوجّهاً إلى حمص، فدخلها ثم رحل عنها وصار يفتش في طريقه أينما حلّ وجهه في سيره إلى أن وصل إلى ماردين والموصل وديار بكر، ولم يزل سائراً إلى مدينة البصرة فدخلها، فلما استقرّ به المنزل دخل إلى سلطانها واجتمع به فاحترمه وأكرم منزله وسأله عن سبب مجيئه فأخبره بقصته وأن أخاه الوزير علي نور الدين . فترحّم عليه السلطان وقال له : أيها الصاحب، إنه كان وزيري وكنت أحبه كثيراً، وقد مات من مدة خمسة عشر عامًا وخلّف ولداً، وقد فقدناه ولم نطلع له على خبر، غير أن أمه عندنا لأنها بنت وزيري الكبير . فلما سمع الوزير شمس الدين من الملك أن أم ابن أخيه طيبة، فرح وقال : يا ملك، إني أريد أن أجتمع بها . فأذن له في الحال أن ينزل عندها في دار أخيه، فنزل شمس الدين ودخل عندها في دار أخيه، وجال بطرفه في نواحيها وقبّل أعتابها، وتذكّر أخاه نور الدين عليّ وكيف مات غريباً وهو مشتاق إليه . فبكى وأنشد هذه الأبيات : [من الوافر]

أمُرُّ على الدِّيارِ دِيارِ لَيْلَى ... أُقَبِّلُ ذا الجِدارَ وذَا الجِدَارا
فما حُبُّ الدِّيارَ شَغَفْنَ قَلْبِي ... ولكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارا

ثم دخل من الباب إلى فسحة عظيمة فوجد باباً مقوصراً معقوداً بالحجر الصوان، مجزعاً بأنواع الرخام من سائر الألوان . فمشى في نواحي الديار ونظرها وجال بطرفه فيها فوجد اسم أخيه نور الدين مكتوباً بالذهب على جدرانها، فأتى إلى الاسم وقبّله وبكى وأحرقه فراقه، فأنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

أَسْتَخْبِرُ الشَّمسَ عَنْكُمْ كُلَّما طَلَعَتْ وأَسْأَلُ البَرْقَ عَنْكُمْ كُلَّما لَمَعَا
أَبِيتُ والشَّوْقُ يَطْوِيني ويَنْشُرُني في راحَتَيْهِ، ولا أَشْكُو لَه وَجَعا
أَحْبابَنَا إنْ يَكُنْ طالَ المَدَى فَلَكُم قَدْ قُطِّعَ القَلْبُ منِّي بَعْدَكُمْ قِطَعَا
فَلَوْ مَنَنْتُمْ على طَرْفِي بِرؤْيَتِكُم لَكانَ أَحْسَنُ شَيءٍ بَيْنَنَا وَقَعَا
لا تَحْسَبُوا أَنَّني بالغَيْرِ مُشْتَغِلٌ إنَّ الفُؤادَ لِحُبِّ الغَيْرِ ما وَسِعَا

ثم إنه صار يمشي إلى ان وصل إلى قاعة زوجة أخيه أم حسن بدر الدين البصري، وكانت في مدة غيبة ولدها قد لزمت البكاء والنحيب بالليل والنهار . فلما طالت عليها المدة عملت لولدها قبراً من الرخام في وسط القاعة، وصارت تبكي عليه ليلاً ونهاراً ولا تنام إلا عند ذلك القبر . فلما وصل إلى مسكنها سمع حسها، فوقف خلف الباب، فسمعها تنشد على القبر هذين البيتين : [من البسيط]

باللهِ يا قَبْرُ هَلْ زالَتْ مَحاسِنُه وَهَلْ تَغَيَّر ذاكَ المَنْظَرُ النَّضِرُ
يا قَبْرُ لا أَنْتَ بُسْتانٌ وَلا فَلَكٌ فَكَيْفَ يُجْمَعُ فِيْكَ الغُصْنُ والقَمَرُ

فبينما هي كذلك، وإذا بالوزير شمس الدين قد دخل عليها وسلّم عليها وأعلمها أنه أخو زوجها، ثم أخبرها بما جرى وكشف لها عن القصة وأن ابنها حسن بدر الدين بات عند ابنته ليلة كاملة ثم فقد عند الصباح . وقال لها : إن ابنتي حملت من ولدك وولدت ولداً وهو معي، وإنه ولدك وولد ولدك من ابنتي . فلما سمعت خبر ولدها وأنه حي ورأت أخ زوجها، قامت إليه ووقعت على قدميه وقبلتهما وأنشدته هذين البيتين : [من الكامل]

للهِ دَرُّ مُبَشِّرِي بِقُدُومِهِمْ فَلَقَدْ أَتَى بأَطايِبِ المَسْمُوْعِ
لَو كانَ يَقْنَعُ بالخَلِيْعِ وَهَبْتُهُ قَلْباً تَقَطَّعَ ساعَةَ التَّوْدِيْعِ

ثم إن الوزير أرسل إلى عجيب ليحضره، فلما حضر قامت له جدّته واعتنقته وبكت . فقال لها شمس الدين : ما هذا وقت بكاء، بل هذا وقت تجهيزك للسفر معنا إلى ديار مصر، عسى الله أن يجمع شملنا وشملك بولدك ابن أخي . فقالت : سمعاً وطاعةً . ثم قامت من وقتها وجمعت جميع أمتعتها وذخائرها وجواريها وتجهّزت في الحال . ثم طلع الوزير شمس الدين إلى سلطان البصرة وودّعه، فبعث معه هدايا وتحفاً إلى سلطان مصر . وسافر من وقته هو وزوجة أخيه، ولم يزل سائراً حتى وصل إلى مدينة دمشق . فنزل على القانون وضرب الخيام وقال لمن معه : إننا نقيم بدمشق جمعة إلى ان نشتري للسلطان هدايا وتحفاً . ثم قال عجيب للطواشي : يا غلام، إني اشتقت إلى الفرجة، فقم بنا ننزل إلى سوق دمشق ونعتبر أحوالها وننظر ما جرى لذلك الطبّاخ الذي قد كنا أكلنا طعامه وشججنا رأسه مع أنه قد كان أحسن إلينا ونحن أسأناه . فقال الطواشي : سمعاً وطاعة . ثم إن عجيباً خرج من الخيام هو والطواشي، وحرّكته القرابة إلى التوجّه لوالده ودخلا مدينة دمشق . وما زالا سائرين إلى أن وصلا إلى دكان الطباخ، فوجداه واقفاً في الدكان . وكان ذلك قبل العصر، وقد وافق الأمر أنه طبخ حَبَّ زمان . فلما قربا منه ونظره عجيب، حنّ إليه قلبه ونظر إلى أثر الضربة بالحجر في جبينه . فقال : السلام عليك يا هذا، اعلم

إن خاطري عندك . فلما نظر إليه بدر الدين تعلّقت أحشاؤه وخفق فؤاده إليه واطرق براسه إلى الأرض . وأراد أن يدير لسانه في فمه فما قدر على ذلك . ثم رفع راسه إلى ولده خاضعاً متذللاً إليه وانشد هذه الأبيات : [من الطويل]

تَمَنَّيتُ مَنْ أَهْوَى فَلَمَّا رَأَيْتُه ذَهِلْتُ فَلَمْ أَمْلُكْ لِساناً ولا طَرْفَا
وأَطرَقْتُ إجلالاً له ومَهَابةً وحاولْتُ إخفاءَ الّذي بِي فَلَمْ يَخْفَى
وكُنْتُ مُعِداً لِلْعِتابِ صَحَائِفاً فَلَمَّا ٱجْتَمَعْنا ما وَجَدْتُ ولا حَرْفَا

ثم قال لهما : اجبرا قلبي وكُلا من طعامي ، فوالله ما نظرت إليك أيها الغلام إلا حنّ قلبي إليك ، وما كنت أتبعتك إلا وأنا بغير عقل . فقال عجيب : والله إنك محب لنا ونحن أكلنا عندك لقمة فلازمتنا عقبها وأردت أن تهتكنا ، ونحن لا ناكل لك أكلاً إلا بشرط ان تحلف أنك لا تخرج وراءنا ولا تتبعنا ، وإلا لا نعود إليك من وقتنا هذا ، فنحن مقيمون في هذه المدينة جمعة حتى يأخذ جدي هدايا للملك . فقال بدر الدين : لكم عليّ ذلك . فدخل عجيب هو والخادم في الدكان ، فقدم لهما زبدية ممتلئة حب رمّان . فقال عجيب : كُلْ معنا لعل الله يفرج عنا . ففرح بدر الدين وأكل معهم وهو لم يغض طرفه عن النظر في وجهه ، وقد تعلق به قلبه وصارت كل جوارحه معه . فقال له عجيب : ألم تعلم اني قلت لك انك عاشق ثقيل ، فحسبك لا تطل النظر إلى وجهي . فلما سمع بدر الدين كلامه أنشد هذه الأبيات : [من الكامل]

لَكَ في القُلُوبِ سَرِيْرةٌ لا تَظْهَرُ مَطْوِيَّةٌ وحَدِيثُها لا يُنْشَرُ
يا فاضِحَ القَمَرِ المُنِيْرِ بِحُسْنِهِ وبِوَجْهِهِ ٱفْتُضِحَ الصَّبَاحُ المُسْفِرْ
لي في سَنَاكَ أمارَةٌ لا تَنْقَضِي ومَعَاهِدُ أَبَداً تَزِيْدُ وتَـكْـثُرُ
فأذُوبُ مِنْ حُرُقِي ووَجْهُكَ جَنَّتِي وأَمُوتُ مِنْ ظَمَئِي ورِيْقُكَ كَوْثَرُ

فصار بدر الدين يلقّم عجيباً ساعة ويلقم الطواشي ساعة ، وكبّ على ايديهما الماء حتى غسلا ، وحلّ فوطة حرير من وسطه فمسح أيديهم بها ورشّ عليهما ماء الورد من قمقم كان عنده ، وخرج من الدكان ثم عاد بقلّتين من شربات ممزوجة بماء الورد الممسك ، وقدّمها بين أيديهما وقال : تمّما إحسانكما . فاخذ عجيب وشرب وناول الخادم ، ولم يزالا يشربان حتى امتلأت بطونهما وشبعا شبعاً على خلاف عادتهما . ثم انصرفا وأسرعا في مشيهما حتى وصلا إلى خيامهما . ودخل عجيب على جدته أم والده حسن بدر الدين ، فقبّلته وتذكرت ولدها بدر الدين فتنهّدت وبكت . ثم إنها أنشدت هذين البيتين : [من البسيط]

لو لم أُرَجَّى بأنَّ الشَّمْلَ يَجْتَمِعُ ما كانَ لي في حَيَاتِي بَعْدَكُمْ طَمَعُ
أَقْسَمْتُ ما في فُؤادِي غَيْرُ حُبِّكُمُ واللهُ رَبِّيْ على الأسْرارِ مُطَّلِعُ

ثم قالت لعجيب : يا ولدي أين كنت ؟ قال : في مدينة دمشق . فعند ذلك قامت وقدّمت له زبدية طعام من حب الرمان ، وكان قليل الحلاوة ، وقالت للخادم : اقعد مع سيدك . فقال الخادم في نفسه : والله ما لنا شهية في الأكل . ثم جلس الخادم ، وأما عجيب فإنه لما جلس كان بطنه ممتلئاً بما أكل وشرب . فأخذ لقمة وغمسها في حب الرمان وأكلها ، فوجده قليل الحلاوة لأنه

كان شبعاناً، فتضجّر وقال: أي شيء هذا الطعام الوحش. فقالت جدته: يا ولدي، أتعيب طبخي وانا طبخته ولا أحد يحسن الطبيخ مثلي إلا والدك حسن بدر الدين؟ فقال عجيب: والله يا سيدتي، إن طبيخك هذا غير متقن، نحن في هذه الساعة رأينا في المدينة طباخاً طبخ حب الرّمان ولكن رائحته ينفتح لها القلب، وأما طعامه فإنه يشهّي نفس المتخوم ان تأكل، وأما طعامك بالنسبة إليه فإنه لا يساوي كثيراً ولا قليلاً. فلما سمعت جدته كلامه، اغتاظت غيظاً شديداً ونظرت إلى الخادم. وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 24

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جدة عجيب لما سمعت كلامه، اغتاظت ونظرت إلى الخادم وقالت له: ويلك، هل أنت أفسدت ولدي لأنك دخلت به إلى دكاكين الطباخين؟ خاف الطواشي وأنكر وقال: ما دخلنا الدكان ولكن جزنا جوازاً. فقال عجيب: والله إلا دخلنا وأكلنا وهو أحسن من طعامك. فقامت جدته وأخبرت أخ زوجها وأغرته على الخادم، فحضر الخادم قدام الوزير، فقال له: لِمَ دخلت بولدي دكان الطباخ؟ فخاف الخادم وقال: ما دخلنا. فقال عجيب: بل دخلنا وأكلنا من حب الرمّان حتى شبعنا، وأسقانا الطباخ شراباً بثلج وسكر. فازداد غضب الوزير على الخادم وسأله فأنكر. فقال له الوزير: إن كان كلامك صحيحاً فاقعد وكل قدّامنا. فعند ذلك تقدم الخادم وأراد أن يأكل فلم يقدر، ورمى اللقمة وقال: يا سيدي إني شبعان من البارحة. فعرف الوزير أنه أكل عند الطباخ، فأمر الجواري أن يطرحنه، فطرحنه ونزل عليه بالضرب الوجيع، فاستغاث وقال: يا سيدي إني شبعان من البارحة. ثم منع عنه الضرب وقال له: انطق بالحق. فقال: اعلم أننا دخلنا دكان الطباخ وهو يطبخ حب الرمّان فغرف لنا منه، والله ما أكلت عمري مثله ولا أقبح من هذا الذي قدامنا. فغضبت أم حسن بدر الدين وقالت: لا بد أن تذهب إلى هذا الطباخ وتجيء لنا بزبدية حب زمان من الذي عنده وتريه لسيدك حتى يقول أيهما أحسن وأطيب. فقال الخادم: نعم. ففي الحال أعطته زبدية ونصف دينار فمضى الخادم حتى وصل إلى الدكان وقال للطباخ: نحن تراهنّا على طعامك في بيت سيدنا، لأن هناك حب رمّان طبخه أهل البيت، فهات لنا بهذا النصف دينار وأدر بالك في طهيه واتقنه، فقد أكلنا الضرب الموجع على طبيخك. فضحك حسن بدر الدين وقال: والله إن هذا الطعام لا يحسنه أحد إلا أنا ووالدتي، وهي الآن في بلاد بعيدة. ثم إنه غرف الزبدية وأخذها وختمها بالمسك وماء الورد. فأخذها الخادم وأسرع بها حتى وصل إليهم، فأخذتها والدة حسن وذاقتها ونظرت حُسن طعمها وجودته فعرفت طبّاخها. فصرخت ثم وقعت مغشياً عليها. فبهت الوزير من ذلك، ثم رشّوا عليها ماء الورد، بعد ساعة أفاقت وقالت: إن كان ولدي في الدنيا فما طبخ حب الرمّان هذا إلا هو، وهو ولدي حسن بدر الدين لا شك فيه ولا محالة، لأن هذا طعامه وما أحد يطبخه غيره إلا أنا، لأني علمته طبخه. فلمّا سمع الوزير كلامها فرح فرحاً شديداً وقال: واشوقاه إلى رؤية ابن أخي، أترى تجمع الأيام شملنا به، وما نطلب الاجتماع به إلا من الله تعالى. ثم إن الوزير قام من وقته وساعته وصاح على الرجال الذين معه وقال: يمضي منكم عشرون رجلاً إلى دكان الطباخ ويهدمونها ويكتفونه بعمامته ويجرونه غصباً إلى مكاني من غير إيذاء يحصل له. فقالوا: نعم. ثم إن الوزير ركب من وقته إلى دار السعادة

واجتمع بنائب دمشق واطلعه على الكتب التي معه من السلطان، فوضعها على رأسه بعد تقبيلها وقال: ومن هو غريمك؟ قال: رجل طباخ . ففي الحال أمر حجابه أن يذهبوا إلى دكانه فذهبوا فرأوها مهدومة وكل شيء فيها مكسور، لأنه لما توجّه إلى دار السعادة فعلت جماعته ما أمرهم به، وصاروا منتظرين مجيء الوزير من دار السعادة وحسن بدر الدين يقول في نفسه: يا ترى أي شيء رأوا في حب الرمّان حتى صار لي هذا الأمر؟ فلمّا حضر الوزير من عند نائب دمشق وقد أذن له في أخذ غريمه وسفره به، فلمّا دخل الخيام طلب الطباخ فأحضروه مكتفاً بعمامته، فلمّا نظر حسن بدر الدين إلى عمّه بكى بكاءً شديداً وقال: يا مولاي، ما ذنبي عندكم؟ فقال له: أنت الذي طبخت حب الرمّان؟ قال: نعم، فهل وجدتم فيه شيئاً يوجب ضرب الرقبة؟ فقال له الوزير: هذا أقل جزائك. فقال له: يا سيدي أما توقفني على ذنبي؟ فقال له الوزير: نعم، في هذه الساعة. ثم إن الوزير صرخ على الغلمان وقال: هاتوا الجمال. وأخذوا حسن بدر الدين معهم وأدخلوه في صندوق وقفلوا عليه وساروا. ولم يزالوا سائرين إلى أن أقبل الليل، فحطوا وأكلوا شيئاً من الطعام وأخرجوا بدر الدين فاطعموه وأعادوه إلى الصندوق. ولم يزالوا كذلك حتى وصلوا إلى مكان، فأخرجوا حسن بدر الدين من الصندوق وقال له: هل أنت الذي طبخت حب الرمّان؟ قال: نعم ياسيدي. فقال الوزير: قيّدوه. فقيدوه وأعادوه إلى الصندوق وساروا إلى أن وصلوا إلى مصر وقد نزلوا في الزبدانية، فأمر بإخراج حسن بدر الدين من الصندوق. وأمر بإحضار نجار وقال: اصنع لهذا لعبة خشب. فقال حسن بدر الدين: وما تصنع بها؟ فقال: أصلبك عليها وأسمرك فيها ثم أدور بك المدينة كلها. فقال: على أي شيء تفعل بي ذلك؟ فقال الوزير: على عدم إتقان طبيخك حب الرمّان، كيف طبخته وهو ناقص فلفلاً؟ فقال له: وهل لكونه ناقص فلفلاً تصنع معي هذا كله؟ أما كفاك حبسي وكل يوم تطعموني أكلة واحدة؟ فقال له الوزير: من أجل كونه ناقص فلفل ما جزاؤك إلاّ القتل. فتعجّب بدر الدين وحزن على روحه وصار يتفكّر في نفسه، فقال له الوزير: في أي شيء تتفكّر؟ فقال له: في العقول السخيفة التي مثل عقلك، فإنه لو كان عندك عقل ما كنت فعلت معي هذه الفعال لأجل نقص الفلفل. فقال الوزير: يجب علينا أن نؤذيك حتى لا تعود لمثله. فقال حسن بدر الدين: إن الذي فعلته معي أقل شيء فيه أذيتي. فقال له: لا بد من صلبك. وكل هذا والنجار يصلح الخشب وهو ينظر إليه. ولم يزالوا كذلك إلى أن أقبل الليل، فأخذه عمه ووضعه في الصندوق وقال: في غد يكون صلبك. ثم صبر عليه حتى عرف انه نام، فقام وركب وأخذ الصندوق قدامه ودخل المدينة وسار إلى أن دخل بيته، ثم قال لابنته ست الحسن: الحمدلله الذي جمع شملك بابن عمك، قومي وافرشي البيت مثل فرشه ليلة الجلاء. فأمرت الجواري بذلك، فقمن وأوقدن الشمع، وقد أخرج الوزير الورقة التي كتب فيها أمتعة البيت ثم قرأها وأمر أن يضعوا كل شيء في مكانه، حتى أن الرائي إذا رأى ذلك لا يشك في أنها ليلة الجلاء بعينها. ثم إن الوزير أمر أن يحطّ عمامة بدر الدين في مكانها الذي حطّها فيه بيده وكذلك السروال والكيس الذي تحت الطراحة. ثم إن الوزير أمر ابنته أن تتحف نفسها كما كانت ليلة الجلاء وتدخل المخدع وقال لها: إذا دخل عليك ابن عمك فقولي له: قد ابطأت عليّ في دخولك بيت الخلاء، ودعيه يبيت عندك وتحدثي معه إلى النهار، وكتب هذا التاريخ. ثم إن الوزير أخرج بدر الدين من الصندوق بعد أن فكّ القيد من

رجليه وقلع ما عليه من الثياب وصار بقميص النوم، وهو رفيع من غير سروال، كل هذا وهو نائم لا يعلم بذلك. ثم انتبه بدر الدين من النوم، فوجد نفسه في دهليز نيّر، فقال في نفسه: هل أنا في أضغاث الأحلام أو في اليقظة؟ ثم قام بدر الدين فمشى قليلاً إلى باب ثانٍ ونظر، وإذا هو في البيت الذي انجلت فيه العروسة، ورأى المخدع والسرير ورأى عمامته وحوائجه. فلمّا نظر ذلك بهت وصار يقدّم رجلاً ويؤخّر رجلاً وقال في نفسه: هل هذا في المنام أو في اليقظة؟ وصار يمسح جبينه ويقول وهو متعجب: والله إن هذا مكان العروسة التي انجلت فيه عليّ فإني أنا قد كنت في صندوق، فبينما هو يخاطب نفسه وإذا بست الحسن رفعت طرف الناموسية وقالت له: يا سيدي أما تدخل؟ فإنك أبطأت عني في بيت الخلاء. فلمّا سمع كلامها ونظر إلى وجهها، ضحك وقال: إن هذا أضغاث أحلام. ثم دخل وتنهّد وتفكّر فيما جرى له وتحيّر في أمره وأشكلت عليه قضيته، ولمّا رأى عمامته وسرواله والكيس الذي فيه الألف دينار فقال: الله أعلم أني في أضغاث أحلام. وصار من فرط التعجّب متحيّراً. فعند ذلك قالت له ست الحسن: ما لي أراك متعجّباً متحيّراً، ما كنت هكذا في أول الليل. فضحك وقال: كم عام لي غائباً عنك؟ فقالت له: سلامتك اسم الله حواليك، أنت إنما خرجت إلى الكنيف لتقضي حاجة وترجع، فأي شيء جرى في عقلك؟ فلمّا سمع بدر الدين ذلك، ضحك وقال لها: صدقت، ولكنني لمّا خرجت من عندك، غلبني النوم في بيت الراحة فحلمت أني كنت طباخاً في دمشق وأقمت بها عشر سنين وكأنه جاءني صغير من أولاد الأكابر ومعه خادم وحصل من أمره كذا وكذا. ثم إن حسن بدر الدين مسح بيده على جبينه فرأى أثر الضرب عليه فقال: والله يا سيدتي كأنه حق، لأنه ضربني على جبيني فشجّه فكأنه في اليقظة. ثم قال: لعل هذا المنام حصل حين تعانقت أنا وأنت ونمنا، فرأيت في المنام كأني سافرت إلى دمشق بلا طربوش ولا عمامة ولا سروال وعملت طباخاً. ثم بهت ساعة وقال: والله كأني رأيت أني طبخت حب الرمّان وفلفله قليل، والله ما كأني إلا نمت في بيت الراحة فرأيت هذا كله في المنام. فقالت له ست الحسن: بالله عليك، أي شيء رأيته زيادة على ذلك؟ فحكى لها جميع ما رآه ثم قال: والله لولا أني انتبهت لكانوا صلبوني على لعبة خشب. فقالت له: على أي شيء؟ فقال: على قلة الفلفل في حب الرمّان، ورأيت كأنهم أخربوا دكاني وكسروا مواعيني وحطوني في صندوق وجاؤوا بالنجار ليصنع لي لعبة من خشب لأنهم أرادوا صلبي عليها، فالحمد لله الذي جعل لي ذلك كله في المنام ولم يجعله في اليقظة. فضحكت ست الحسن وضمّته إلى صدرها وضمّها إلى صدره ثم تذكّر وقال: والله ما كأنه إلا في اليقظة، فأنا ما عرفت أي شيء الخبر ولا حقيقة الحال. ثم إنه نام وهو متحيّر في أمره، فتارة يقول رأيته في المنام، وتارة يقول رأيته في اليقظة. ولم يزل كذلك إلى الصباح. ثم دخل عليه عمّه الوزير شمس الدين فسلّم عليه، فنظر له حسن بدر الدين وقال: بالله عليك، أما أنت الذي أمرت بتكتيفي وتسمير دكاني من شأن حب الرمّان لكونه قليل الفلفل؟ فعند ذلك قال له الوزير: اعلم يا ولدي، أنه ظهر الحقّ وبان ما كان مختفياً، أنت ابن أخي وما فعلت ذلك حتى تحقّقت أنك الذي دخلت على ابنتي تلك الليلة، وما تحققت ذلك حتى رأيتك عرفت البيت وعرفت عمامتك وسروالك وذهبك والورقتين، التي كتبتها بخطك والتي كتبها والدك أخي، فإني ما رأيتك قبل ذلك وما كنت أعرفك، وأما أمك فإني جئت بها معي من البصرة. ثم رمى نفسه عليه وبكى.

فلمّا سمع حسن بدر الدين كلام عمّه، تعجب غاية العجب وعانق عمه وبكى من شدة الفرح . ثم قال له الوزير : يا ولدي، إن سبب ذلك كله ما جرى بيني وبين والدك . وحكى له جميع ما جرى بينه وبين أخيه واخبره بسبب سفر والده إلى البصرة . ثم إن الوزير أرسل إلى عجيب، فلمّا رآه والده قال : هذا هو الذي ضربني بالحجر . فقال الوزير : هذا ولدك . فعند ذلك رمى نفسه عليه وانشد هذه الأبيات : [من الكامل]

وَلَقَدْ بَكَيْتُ على تَفَرُّقِ شَمْلِنَا زَمَناً وفاضَ الدَّمْعُ مِنْ أَجْفَانِي
وَنَذَرْتُ إِنْ جَمَعَ المُهَيْمِنُ شَمْلَنا ما عُدْتُ أَذْكُرُ فُرْقَةً بِلِسانِي
هَجَمَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ مِنْ فَرْطِ ما قَدْ سَرَّنِي أَبْكانِي

فلمّا فرغ من شعره، التفتت إليه والدته وألقت روحها عليه وانشدت هذين البيتين : [من الكامل]

الدَّهْرُ أَقْسَمَ لا يَزالُ مُكَدِّرِيْ حَنَثَتْ يَمِينُكَ يا زَمانُ فَـكَفِّرِيْ
السَّعْدُ وافَى والحبيبُ مُسَاعِدِي فانْهَضْ إلى داعِي السُّرُورِ وشَمِّرِيْ

ثم إن والدته حكت له جميع ما وقع لها بعده، وحكى لها جميع ما قاساه . فشكروا الله جمع شملهم ببعضهم . ثم إن الوزير طلع إلى السلطان واخبره بما جرى له، فتعجب وأمر أن يؤرخ ذلك في السجلات ليكون حكاية على ممر الأوقات . ثم إن الوزير اقام مع ابن أخيه وبنته وابنها وزوجة أخيه في ألذّ عيش إلى أن اتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات . وهذا يا أمير المؤمنين ما جرى للوزير شمس الدين وأخيه نور الدين . فقال الخليفة هارون الرشيد : والله هذا لشيء عجاب، ووهب للشاب سرية من عنده ورتّب له ما يعيش به وصار ممن ينادمه . ثم إن البنت قالت : وما هذا باعجب من حكاية الخياط والأحدب واليهودي والمباشر والنصراني فيما وقع لهم . قال الملك : وما حكايتهم ؟

6 – حكاية الأحدب والنصراني والمباشر واليهودي والخياط

حكاية الأحدب

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان في قديم الزمان وسالف الدهر والأوان في مدينة الصين رجل خياط مبسوط الرزق يحبّ اللهو والطرب، وكان يخرج هو وزوجته في بعض الأحيان يتفرجان على غرائب المنتزهات . فخرجا يوماً من أول النهار ورجعا آخره إلى منزلهما عند المساء، فوجدا في طريقهما رجلاً أحدباً رؤيته تضحك الغضبان وتزيل الهمّ والأحزان، فعند ذلك تقدّم الخياط هو وزوجته يتفرجان عليه، ثم إنهما عزما عليه ان يروح معهما إلى بيتهما لينادمهما تلك الليلة، فأجابهما إلى ذلك ومشى معهما إلى البيت . فخرج الخياط إلى السوق وكان الليل قد أقبل، فاشترى سمكاً مقلياً وخبزاً وليموناً وحلاوة يتحلّون بها، ثم رجع وحطّ السمك قدّام الأحدب وجلسوا ياكلون، فاخذت امرأة الخياط جزلة سمك كبيرة ولقمتها للأحدب وسدت فمه بكفها وقالت : والله ما تاكلها إلا دفعة واحدة في نفس واحد ولا أمهلك حتى تمضغها، فابتلعها وكان فيها شوكة قوية فتصلبت في حلقه لأجل انقضاء اجله فمات . وأدرك شهرزاد الصباح

فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 25

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن امرأة الخياط لقمت الأحدب جذلة السمك، فمات لانقضاء أجله في وقته . فقال الخياط : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، هذا المسكين ما كان موته إلا هكذا على أيدينا . فقالت المرأة : وما هذا التواني، أما سمعت قول الشاعر :

[من البسيط]

ما لي أُعَلِّلُ نَفْسِي بالمِحَالِ على أَمْرٍ يَكُونُ بِهِ هَمٌّ وأَحْزانُ
ماذا القُعُوْدُ عَلَىْ نارٍ وما خَمَدَتْ إنَّ القُعُوْدَ عَلَى ٱلنِّيْرانِ خُسْرانُ

فقال لها زوجها : وما أفعله؟ قالت له : قم واحمله في حضنك وانشر عليه فوطة حرير، واخرج أنا قدامك وأنت ورائي في هذه الليلة وقل : هذا ولدي وهذه أمه ومرادنا أن نؤديه إلى الطبيب ليداويه . فلما سمع الخياط هذا الكلام ، قام وحمل الأحدب في حضنه وزوجته تقول : يا ولدي سلامتك، أين محل وجعك؟ وهذا الجدري كان لك في أي مكان؟ فكل من رآهما يقول : معهما طفل مصاب بالجدري . ولم يزالا سائرين وهما يسألان عن منزل الطبيب، حتى دلوهما على بيت طبيب يهودي . فقرعا الباب، فنزلت لهما جارية سوداء وفتحت الباب ونظرت، وإذا بإنسان حامل صغيراً وأمه معه . فقالت الجارية : ما خبركم ؟ فقالت امرأة الخياط : معنا صغير، مرادنا أن ينظره الطبيب فخذي هذا الربع دينار واعطيه لسيدك ودعيه ينزل ليرى ولدي فقد لحقه ضعف . فطلعت الجارية ودخلت زوجة الخياط داخل العتبة وقالت لزوجها : دع الأحدب هنا ونفوز بأنفسنا . فأوقفه الخياط وأسنده إلى الحائط وخرج هو وزوجته . وأما الجارية فإنها دخلت على اليهودي وقالت له : في أسفل البيت ضعيف مع امرأة ورجل، وقد أعطياني ربع دينار لك وتصف لهما ما يوافقه . فلما رأى اليهودي الربع دينار، فرح وقام عاجلاً ونزل في الظلام، فأول ما نزل عثرت رجله في الأحدب وهو ميت فقال : يا للعزيز، يا للمولى، والعشر كلمات، يا لهارون ويوشع بن نون كأني عثرت في هذا المريض فوقع إلى أسفل فمات، فكيف أخرج بقتيل من بيتي؟ فحمله وطلع به من حوش البيت إلى زوجته وأعلمها بذلك . فقالت له : وما قعودك ههنا؟ فإن قعدت هنا إلى طلوع النهار راحت أرواحنا . فأنا وأنت نطلع به السطح ونرميه في بيت جارنا المسلم، فإنه رجل مباشر على مطبخ السلطان وكثيراً ما تأتي القطط في بيته وتأكل مما فيه من الأطعمة والفيران، وإن استمر فيه ليلة تنزل عليه الكلاب من السطوح وتأكله جميعه . فطلع اليهودي وزوجته وهما حاملان الأحدب وأنزلاه بيديه ورجليه إلى الأرض وجعلاه ملاصقاً للحائط، ثم نزلا وانصرفا . ولم يستمر نزول الأحدب إلا والمباشر قد جاء إلى البيت وفتحه وطلع البيت ومعه شمعة مضيئة، فوجد ابن آدم واقفاً في الزاوية في جانب المطبخ فقال ذلك المباشر : ما هذا؟ والله إن الذي يسرق حوائجنا ما هو إلا ابن آدم فيأخذ ما وجده من لحم أو دهن ولو خبأته من القطط والكلاب، وإن قتلت قطط الحارة وكلابها جميعاً لا يفيد لأنه ينزل من السطوح . ثم أخذ مطرقة عظيمة ووكزه بها فصار عنده، ثم ضربه بها على صدره فوقع ، فوجده ميتاً فحزن وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله، وخاف على نفنه وقال : لعن الله الدهن

واللحم وهذه الليلة، كيف فرغت منية ذلك الرجل على يدي . ثم نظر إليه فإذا هو أحدب فقال : اما يكفي أنك أحدب حتى تكون حرامياً وتسرق اللحم والدهن ؟ يا ستّار استرني بسترك الجميل . ثم حمله على أكتافه ونزل به من بيته في آخر الليل، وما زال سائراً به إلى أول السوق فأوقفه بجانب دكان في رأس عطفة وتركه وانصرف . وإذا بنصراني وهو سمسار السلطان وكان سكران، فخرج يريد الحمام فقال له سكره : إن المسيح قريب . فما زال يمشي ويتمايل حتى قرب من الأحدب وجعل يريق الماء قباله، فلاحت منه التفاتة فوجد واحداً واقفاً، وكان النصراني قد خطفوا عمامته في أول الليل . فلما رأى الأحدب واقفاً اعتقد أنه يريد خطف عمامته، فطبق كفه ولكم الأحدب على رقبته فوقع في الأرض، وصاح النصراني على حارس السوق، ثم نزل على الأحدب من شدة سكره ضرباً، وصار يخنقه خنقاً . فجاء الحارس فوجد النصراني باركاً على المسلم وهو يضربه . فقال الحارس : قم عنه . فقام فتقدم إليه الحارس فوجده ميتاً فقال : كيف يقتل النصراني مسلماً . ثم قبض على النصراني وكتفه وجاء به إلى بيت الوالي، والنصراني يقول في نفسه : يا مسيح، يا عذراء، كيف قتلت هذا؟ وما أسرع ما مات في لكمة، قد راحت السكرة وجاءت الفكرة . ثم إن الأحدب والنصراني باتا في بيت الوالي، وأمر الوالي السياف ان ينادي عليه ونصب للنصراني خشبة وأوقفه تحتها، وجاء السيّاف ورمى في رقبة النصراني الحبل وأراد ان يعلقه، وإذا بالمباشر قد شقّ، فرأى النصراني وهو واقف تحت المشنقة، ففسح الناس وقال للسيّاف : لا تفعل أنا الذي قتلته . فقال له الوالي : لأي شيء قتلته؟ قال : إني دخلت الليلة بيتي فرأيته نزل من السطح وسرق مصالحي فضربته بمطرقة على صدره فمات، فحملته وجئت إلى السوق وأوقفته في موضع كذا في عطفة كذا، ثم قال المباشر : ما كفاني أني قتلت مسلماً حتى يقتل بسببي نصراني؟ فلا تشنق غيري . فلما سمع الوالي كلام المباشر اطلق النصراني السمسار وقال للسيّاف : اشنق هذا باعترافه . فأخذ الحبل من رقبة النصراني ووضعه في رقبة المباشر واوقفه تحت الخشبة وأراد أن يعلّقه، وإذا باليهودي الطبيب قد شقّ الناس وصاح على السيّاف وقال له : لا تفعل فَما قتله إلا انا، وذلك إنه جاءني في بيتي ليتداوى فنزلت اليه فعثرت فيه برجلي فمات . فلا تقتل المباشر واقتلني . فأمر الوالي بقتل اليهودي الطبيب . فأخذ السيّاف الحبل من رقبة المباشر ووضعه في رقبة اليهودي الطبيب، وإذا بالخياط جاء وشقّ الناس وقال للسيّاف : لا تفعل، فما قتله إلا أنا، وذلك أني كنت بالنهار أتفرج وجئت وقت العشاء فلقيت هذا الأحدب سكران ومعه دفّ وهو يغني بفرحة، فوقفت أتفرج عليه وجئت به إلى بيتي واشتريت سمكاً وقعدنا نأكل، فأخذت زوجتي قطعة سمك ولقمة ودستهما في فمه فزور فمات لوقته . فأخذته أنا وزوجتي وجئنا به لبيت اليهودي فنزلت الجارية وفتحت لنا الباب فقلت لها : قولي لسيدك إن بالباب امرأة ورجلاً ومعهما ضعيف تعال انظره وصف له دواء وأعطيتها ربع دينار، فطلعت لسيدها وأسندت الأحدب إلى جهة السلم ومضيت أنا وزوجتي، فنزل اليهودي فعثر فيه فظن أنه قتله . ثم قال الخياط لليهودي : اصحيح هذا؟ قال : نعم . والتفت الخياط للوالي وقال له : اطلق اليهودي واشنقني . فلما سمع الوالي كلامه تعجب من أمر الأحدب وقال : إن هذا أمر يؤرخ في الكتب . ثم قال للسيّاف : اطلق اليهودي واشنق الخياط باعترافه . فقدمه السيّاف وقال : هل نقدم هذا ونؤخر هذا ولا نشنق واحداً؟ ثم وضع الحبل في رقبة الخياط . فهذا ما كان من امر هؤلاء . واما ما

كان من أمر الأحدب ، فقيل إنه كان مسخرة للسلطان وكان السلطان لا يقدر أن يفارقه . فلما سكر الأحدب غاب عنه تلك الليلة وثاني يوم إلى نصف النهار ، فسأل عنه بعض الحاضرين فقالوا له : يا مولانا طلع به الوالي وهو ميت وأمر بشنق قاتله ، فنزل الوالي ليشنق القاتل فحضر له ثان وثالث وكل يقول : ما قتله إلا أنا ، وكل واحد يذكر للوالي سبب قتله له . فلما سمع الملك هذا الكلام ، صرخ على الحاجب وقال له : انزل إلى الوالي وائتني بهم جميعاً . فنزل الحاجب فوجد السيّاف كاد أن يقتل الخياط ، فصرخ عليه الحاجب وقال : لا تفعل ، واعلِم الوالي أن القضية بلغت الملك . ثم أخذه وأخذ الأحدب معه محمولاً والخياط واليهودي والنصراني والمباشر وطلع بالجميع إلى الملك . فلما تمثل الوالي بين يديه قبّل الأرض وحكى له جميع ما جرى من الجميع وليس في الإعادة إفادة . فلما سمع الملك هذه الحكاية تعجب وأخذه الطرب وأمر أن يكتب ذلك بماء الذهب وقال للحاضرين : هل سمعتم مثل قصة هذا الأحدب ؟ فعند ذلك تقدم النصراني وقال : يا ملك الزمان ، إن أذنت لي حدثتك بشيء جرى لي وهو أعجب وأغرب وأطرب من قصة الأحدب . فقال الملك : حدثنا بما عندك .

حكاية النصراني

فقال النصراني : أعلم يا ملك الزمان أني لما دخلت تلك الديار أتيت بمتجر وأوقفني المقدور عندكم ، وكان مولدي بمصر وأنا من قبطها ، وتربيت بها ، وكان والدي سمساراً . فلما بلغت مبلغ الرجال توفي والدي فعملت سمساراً مكانه . فبينما أنا قاعد يوماً من الأيام ، وإذا بشاب أحسن ما يكون وعليه أفخر ملبوس وهو راكب حماراً ، فلما رآني سلّم عليّ ، فقمت إليه تعظيماً له فأخرج منديلاً وفيه قدر من السمسم وقال : كم يساوي الإردبّ من هذا ؟ فقلت له : مائة درهم . فقال لي : خذ التراسين والكيالين واعمد إلى خان الجوالي في باب النصر تجدني فيه . وتركني ومضى وأعطاني السمسم بمنديله الذي فيه العينة . فدرت على المشترين فبلغ ثمن كل إردبّ مائة وعشرين درهماً ، فأخذت معي أربعة تراسين ومضيت إليه فوجدته في انتظاري . فلما رآني ، قام إلى المخزن وفتحه فكيّلناه فجاء جميع ما فيه خمسين إردبّاً . فقال الشاب : لك في كل إردبّ عشرة دراهم سمسرة واقبض الثمن واحفظه عندك . وقدّر الثمن خمسة آلاف ، لك منها خمسمائة ويبقي لي أربعة آلاف وخمسمائة ، فإذا فرغ بيع حواصلي جئت إليك وأخذتها . فقلت له : الأمر كما تريد . ثم قبّلت يديه ومضيت من عنده فحصل لي في ذلك اليوم ألف درهم وغاب عني شهراً ثم جاء وقال لي : أين الدراهم ؟ فقلت : ها هي حاضرة . فقال : احفظها حتى أجيء إليك فآخذها . فقعدت أنتظره فغاب عني شهراً ثم جاء وقال لي : أين الدراهم ؟ فقمت وسلّمت عليه وقلت له : هل لك أن تأكل عندنا شيئاً ؟ فأبى وقال لي : احفظ الدراهم حتى أمضي وأجيء فآخذها منك . ثم ولّى ، فقمت وأحضرت له الدراهم وقعدت أنتظره ، فغاب عني شهراً ثم جاء وقال : بعد هذا اليوم آخذها منك . ثم ولّى ، فقمت وأحضرت له الدراهم وقعدت أنتظره فغاب عني شهراً فقلت في نفسي : إن هذا الشاب كامل السماحة . ثم بعد الشهر جاء وعليه ثياب فاخرة وهو كالقمر ليلة البدر وكأنه قد خرج من الحمام ، ووجهه كالقمر وهو بخد أحمر وجبين أزهر وشامة كأنها قرص عنبر ، وفي مثل ذلك قال الشاعر : [من البسيط]

البَدْرُ والشَّمْسُ في بُرْجٍ قَدِ ٱجْتَمَعا ... في غَايَةِ ٱلْحُسْنِ والإقْبالِ قَدْ طَلَعَا

وزادَ حُسْنَهُما للنَّاظِرينَ هَوَى فَيا لَهُ عِنْدَما داعِي ٱلسُّرُورِ دَعا
في الحُسْنِ والظَّرْفِ قَدْ زادا وَقَدْ كَمُلاَ إلَيْهِما ٱلرُّوحُ راحَتْ وٱلْفُؤادُ سَعَى
تَبارَكَ اللهُ مَخْلُوقاتُه عَجَبٌ ما شاءَ رَبُّ العُلاَ في خَلْقِهِ صَنَعا

فلما رأيته، قبّلت يديه ودعوت له وقلت له: يا سيدي أما تقبض دراهمك؟ فقال: مهلاً عليّ حتى أفرغ من قضاء مصالحي وآخذها منك. ثم ولّى، فقلت في نفسي: والله إذا جاء لأضيفنه، لكوني انتفعت بدراهمه وحصل لي منها مال كثير. فلما كان آخر السنة، جاء وعليه بدلة أفخر من الأولى، فحلفت عليه أن ينزل عندي ويضيفني فقال لي: بشرط أن ما تنفقه من مالي الذي عندك. قلت: نعم. وأجلسته ونزلت هيّأت ما ينبغي من الأطعمة والأشربة وغير ذلك وأحضرته بين يديه وقلت له: بسم الله. فتقدم إلى المائدة ومدّ يده الشمال وأكل معي، فتعجّبت منه. فلما فرغنا غسل يده وناولته ما يمسحها به وجلسنا للحديث فقلت: يا سيدي، فرّج عني كربة، لأي شيء أكلت بيدك الشمال؟ لعل في يدك شيئاً يؤلمك. فلمّا سمع كلامي انشد هذين البيتين: [من الطَّويل]

خَلِيلِيَ لا تَسْأَلْ على ما بِمُهْجَتِي مِنَ ٱللَّوْعَةِ الحرَّى فَتَظْهَرَ أَسْقامُ
وما عَنْ رِضًى فارَقْتُ سَلْمَى مُعَوِّضًا بَدِيْلاً وَلَكِنْ لِلْضَّرُورَةِ أَحْكامُ

ثم أخرج يده من كمه، وإذا هي مقطوعة زنداً بلا كف، فتعجبت من ذلك فقال لي: لا تعجب ولا تقل في خاطرك أني أكلت معك بيدي الشمال عجباً، ولكن لقطع يدي اليمين سبب من العجب. فقلت له: وما سبب ذلك؟ فقال: اعلم اني من بغداد ووالدي من أكابرها، فلما بلغت مبلغ الرجال سمعت السياحين والمسافرين والتجار يتحدثون بالديار المصرية فبقي ذلك في خاطري حتى مات والدي، فأخذت أموالاً كثيرة وهيّات متجراً من قماش بغدادي وموصلي ونحو ذلك من البضائع النفيسة وحزمت ذلك وسافرت من بغداد، وكتب الله السلامة لي حتى دخلت مدينتكم هذه. ثم بكى وانشد هذه الابيات: [من السريع]

قَدْ يَسْلَمُ ٱلأَكْمَهُ مِنْ حُفْرَةٍ يَقَعُ فِيْهَا البَاصِرُ النَّاظِرُ
ويَسْلَمُ ٱلْجَاهِلُ مِنْ لَفْظَةٍ يَهْلِكُ فِيْها العَالِمُ المَاهِرُ
وَيُعْسِرُ المُؤْمِنُ في رِزْقِهِ ويُرْزَقُ الكَافِرُ الفَاجِرُ
لا حِيْلَةٌ لِلْمَرءِ في فِعْلِهِ فَفِعْلُهُ قَدَّرَهُ القَادِرُ

فلما فرغ من شعره قال: فدخلت مصر ونزلت القماش في خان سرور وفككت أحمالي وادخلتها وأعطيت الخادم دراهم ليشتري لنا بها شيئاً ناكله ونمت قليلاً، فلما قمت ذهبت بين القصرين ثم رجعت وبت ليلتي. فلما أصبحت فتحت رزمة من القماش وقلت في نفسي: اقوم لأشق في بعض الأسواق وانظر الحال. واخذت بعض القماش وحملته لبعض غلماني وسرت حتى وصلت قيسرية جرجس، فاستقبلني السماسرة وكانوا علموا بمجيئي، فأخذوا مني القماش ونادوا عليه فلم يبلغ ثمنه راس ماله. فقال لي شيخ الدلالين: يا سيدي أنا أعرف لك شيئاً تستفيد به، وهو أن تعمل مثل ما يعمل التجار، فتبيع متجرك الى مدة معلومة بكاتب وشاهد وصيرفي وتاخذ ما تحصّل من ذلك في كل يوم خميس واثنين قدراً، فتكسب الدراهم

كل درهم اثنين، وزيادة على ذلك تتفرج على مصر ونيلها. فقلت: هذا راي سديد. فأخذت معي الدلالين وذهبت إلى الخان، فأخذوا القماش إلى القيسرية فبعته إلى التجار وكتبت عليهم وثيقة ودفعت الوثيقة إلى الصيرفي واخذت عليه وثيقة بذلك ورجعت إلى الخان، واقمت اياماً كل يوم افطر على قدح من الشراب واحضر اللحم الضاني والحلويات حتى دخل الشهر الذي استُحِقَّت فيه الجباية. فبقيت كل يوم خميس واثنين اقعد على دكاكين التجار ويمضي الصيرفي والكاتب فيجيئان بالدراهم من التجار ويأتياني بها، إلى أن دخلت الحمام يوماً من الأيام وخرجت إلى الخان ودخلت موضعي وافطرت على قدح من الشراب ثم نمت وانتبهت، فأكلت دجاجة وتعطرت وذهبت إلى دكان رجل تاجر يقال له: بدر الدين البستاني. فلما رآني رحّب بي وتحدّث معي ساعة في دكانه. فبينما نحن كذلك وإذا بامرأة جاءت وقعدت جانبي وعليها عصابة مائلة وتفوح منها روائح الطيب، فسلبت عقلي بحسنها وجمالها، ورفعت الإزار فنظرت إلى أحداق سود ثم سلمت على بدر الدين فردّ عليها السلام ووقف وتحدّث معها. فلما سمعت كلامها، تمكّن حبّها من قلبي. فقالت لبدر الدين: هل عندك تفصيلة من القماش المنسوج من خالص الذهب؟ فأخرج لها تفصيلة فقالت للتاجر: هل آخذها وأذهب ثم أرسل إليك ثمنها؟ فقال لها التاجر: لا يمكن يا سيدتي، لأن هذا صاحب القماش وله عليّ قسط. فقالت: ويلك، إن عادتي أن آخذ منك كل قطعة قماش بجملة دراهم وأربحك فيها فوق ما تريد، ثم أرسل إليك ثمنها. فقال: نعم، ولكني مضطر إلى الثمن في هذا اليوم. فأخذت التفصيلة ورمته بها في صدره وقالت: إن طائفتكم لا تعرف لأحد قدراً. ثم قامت مولية. فظننت أن روحي راحت معها، فقمت ووقفت وقلت لها: يا سيدتي، تصدّقي عليّ بالالتفات وارجعي بخطواتك الكريمة. فرجعت وتبسّمت وقالت: لأجلك رجعت. وقعدت قصادي على الدكان فقلت لبدر الدين: هذه التفصيلة كم ثمنها عليك؟ قال: ألف ومائة درهم. فقلت له: ولك مائة درهم فائدة. فهات ورقة فأكتب لك فيها ثمنها. فأخذت التفصيلة منه وكتبت له ورقة بخطي وأعطيتها التفصيلة وقلت لها: خذي أنت وروحي، وإن شئت هاتي ثمنها إليّ في السوق وإن شئت هي ضيافتك مني. فقالت: جزاك الله خيراً ورزقك مالي وجعلك بعلي. فتقبل الله الدعوة وقلت لها: يا سيدتي اجعلي هذه التفصيلة لك، ولك أيضاً مثلها ودعيني أنظر وجهك. فكشفت القناع عن وجهها، فلما نظرت وجهها نظرة أعقبتني ألف حسرة وتعلّق قلبي بمحبتها فصرت لا أملك عقلي، ثم ارخت القناع وأخذت التفصيلة وقالت: يا سيدي لا توحشني. وقد ولّت وقعدت في السوق إلى بعد العصر وأنا غائب العقل وقد تحكّم الحب عندي، فمن شدة ما حصل لي من الحب سألت التاجر عنها حين أردت القيام فقال لي: إن هذه صاحبة مال، وهي بنت أمير مات والدها وخلّف لها مالاً كثيراً. فودعته وانصرفت وجئت إلى الخان فقدم إليّ العشاء فتذكرتها فلم آكل شيئاً، ونمت فلم يأتني نوم، فسهرت إلى الصباح ثم قمت فلبست بدلة غير التي كانت عليّ، وشربت قدحاً من الشراب وفطرت على شيء قليل، وجئت إلى دكان التاجر فسلّمت عليه وجلست عنده. فجاءت الصبية وعليها بدلة أفخر من الأولى ومعها جارية. فجلست وسلّمت علي دون بدر الدين وقالت لي بلسان فصيح ما سمعت أعذب ولا أحلى منه: أرسل معي من يقبض الألف والمائتين درهماً ثمن التفصيلة. فقلت لها: ولأي شيء العجلة؟ فقالت: لا عدمناك. وناولتني

الثمن وقعدت أتحدث معها، فأوميت إليها بالإشارة، ففهمت أني أريد وصالها. فقامت على عجل منها واستوحشت مني وقلبي متعلق بها، وخرجت أنا خارج السوق في أثرها، وإذ بجارية أتتني وقالت: يا سيدي كلم سيدتي. فتعجبت وقلت: ما يعرفني هنا أحد. فقالت الجارية: ما أسرع ما نسيتها، سيدتي التي كانت اليوم على دكان التاجر فلان. فمشيت معها إلى الصيارف، فلما رأتني أزوتني لجانبها وقالت: يا حبيبي وقعت بخاطري وتمكّن حبك من قلبي، ومن ساعة رأيتك لم يطب لي نوم ولا أكل ولا شرب. فقلت لها: عندي أضعاف ذلك والحال يغني عن الشكوى. فقالت: يا حبيبي اجيء عندك أو تجيء عندي. فقلت لها: أنا رجل غريب وما لي مكان يأويني إلا الخان، فإن تصدّقت علي بأن أكون عندك يكمل الحظ. قالت: نعم. لكن الليلة ليلة الجمعة ما فيها شيء، إلا إن كان في غد بعد الصلاة، فصلّ واركب حمارك واسأل عن الحبّانية، فإن وصلت فاسأل عن قاعة بركات النقيب المعروف بأبي شامة فإني ساكنة هناك، ولا تبطىء فإني في انتظارك. ففرحت فرحاً زائداً ثم افترقنا وجئت للخان الذي أنا فيه وبتّ طول الليل سهراناً. فما صدقت أن الفجر لاح، حتى قمت وغيّرت ملبوسي وتعطّرت وتطيّبت وأخذت معي خمسين ديناراً في منديل ومشيت من خان مسرور إلى باب زويلة. فركبت حماراً وقلت لصاحبه: إمض بي إلى الحبّانية، فمضى في أقل من لحظة. فما أسرع ما وقف على درب يقال له درب المنقري، فقلت له: ادخل الدرب واسأل عن قاعة النقيب. فغاب قليلاً وقال: انزل. فقلت: إمشي قدامي إلى القاعة. فمشى حتى أوصلني إلى المنزل فقلت له: في غد تجيئني هنا وتوديني. فقال الحمّار: بسم الله. فناولته ربع دينار ذهباً فأخذه وانصرف. فطرقت الباب فخرج لي بنتان صغيرتان بكران منهدتان كأنهما قمران فقالتا: ادخل إن سيدتنا في انتظارك، لم تنم الليلة لولعها بك. فدخلت قاعة معلقة بسبعة أبواب وفي دائرها شبابيك مطلة على بستان فيه من الفواكه جميع الألوان، وبه أنهار دافقة وطيور ناطقة وهي مبيضة بياضاً سلطانياً يرى الإنسان وجهه فيها، وسقفها مقربص بذهب، وفي دائرها طرازات مكتوبة باللازورد قد حوت أوصافاً حسنة وأضاءت للناظرين، وأرضها مفروشة بالرخام المجزع وفي وسطها فسقية، وفي أركان تلك الفسقية الدر والجوهر مفروشة بالبسط الحرير الملونة والمراتب. فلما دخلت جلست. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 26

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب التاجر قال للنصراني: فلما دخلت وجلست، لم أشعر إلا والصبية قد أقبلت وعليها تاج مكلّل بالدر والجوهر وهي منقشة مكتبة. فلما رأتني تبسّمت في وجهي وحضنتني ووضعتني على صدرها وجعلت فمها على فمي وجعلت تمص لساني وأنا كذلك. وقالت: أصحيح أتيت عندي أم هذا منام؟ فقلت لها: أنا عبدك. فقالت: أهلاً ومرحباً، والله من يوم رأيتك ما لذّ لي نوم ولا طاب لي طعام. فقلت: وأنا كذلك. ثم جلسنا نتحدث وأنا مطرق برأسي إلى الأرض حياء، ولم أمكث إلا قليلاً حتى قدمت لي سفرة من أفخر الألوان، من محمّر ومرقق ودجاج محشي. فأكلت معها حتى اكتفينا، ثم قدموا إليّ الطشت والإبريق فغسلت يدي، ثم تطيبنا بماء الورد الممسّك وجلسنا نتحدث، فأنشدت هذين البيتين: [من الخفيف]

لَوْ عَلِمْنا قُدُومَكُمْ لَفَرَشْنَا مُهْجَةَ القَلْبِ مَعْ سَوَادِ العُيُونِ
وَوَضَعْنا خُدُودَنا لِلِقَاكُمْ وَجَعَلْنا ٱلْمَسِيرَ فَوْقَ ٱلْجُفُونِ

وهي تشكو إليّ ما لاقت وأنا اشكو لها ما لاقيت، وتمكّن حبّها عندي وهان عليّ جميع المال، ثم اخذنا نلعب ونتهارش مع العناق والتقبيل إلى ان أقبل الليل، فقدمت لنا الجواري الطعام والمدام فإذا هي حضرة كاملة، فشربنا إلى نصف الليل ثم اضطجعنا ونمنا. فنمت معها إلى الصباح فما رأيت عمري مثل هذه الليلة. فلما أصبح الصباح قمت ورميت لها تحت الفراش المنديل الذي فيه الدنانير، وودّعتها وخرجت. فبكت وقالت: يا سيدي، متى أرى هذا الوجه المليح؟ فقلت لها: اكون عندك وقت العشاء. فلما خرجت أصبت الحمّار الذي جاء بي بالأمس على الباب ينتظرني، فركبت معه حتى وصلت خان سرور فنزلت وأعطيت الحمّار نصف دينار وقلت له: تعال في وقت الغروب، قال: على الرأس. فدخلت الخان وفطرت ثم خرجت أطالب بثمن القماش، ثم رجعت وقد عملت لها خروفاً مشوياً وأخذت حلاوة ثم دعيت الحمّال ووضعت له المحل وأعطيته أجرته ورجعت في اشغالي إلى الغروب. فجاءني الحمّار، فأخذت خمسين ديناراً وجعلتها في منديل ودخلت، فوجدتهم مسحوا الرخام وجلوا النحاس وعمروا القناديل وأوقدوا الشموع وغرفوا الطعام وروقوا الشراب. فلما رأتني، رمت يديها على رقبتي وقالت: أوحشتني. ثم قدمت الموائد فأكلنا حتى اكتفينا، ورفعت الجواري المائدة وقدمت المدام، فلم نزل في شراب ونقل وحظ إلى نصف الليل. فنمنا إلى الصباح، ثم قمت وناولتها الخمسين ديناراً على العادة وخرجت من عندها فوجدت الحمّار، فركبت إلى الخان، فنمت ساعة ثم قمت، جهزت العشاء فعملت جوزاً ولوزاً وتحتهم أرز مفلفل، وعملت قلقاساً مقلياً ونحو ذلك، وأخذت فاكهة ونقلاً ومشموماً وارسلتها وسرت إلى البيت. وأخذت خمسين ديناراً في منديل وخرجت ركبت مع الحمّار على العادة إلى القاعة. فدخلت ثم أكلنا وشربنا ونمنا إلى الصباح، ولما قمت رميت لها المنديل وركبت إلى الخان على العادة. ولم أزل على تلك الحالة مدة إلى ان بت واصبحت لا املك درهماً ولا ديناراً فقلت في نفسي: هذا من فعل الشيطان. وأنشدت هذه الأبيات: [من السَّريع]

فَقْرُ الفَتَى يُذْهِبَ أنوارَهُ كاصْفِرارِ الشَّمْسِ عِنْدَ ٱلْمَغِيبْ
إنْ غابَ لا يُذْكَرُ بَينَ ٱلْوَرَى وإنْ أَتَى فَمالَه مِنْ نَصِيْبْ
يَمُرُّ في الأَسْواقِ مُسْتَخْفِياً وفي الفَلاَ يَبْكِي بِدَمْعٍ صَبِيبْ
واللهِ ما الإنْسانُ في أَهْلِهِ إذا ٱبْتَلى بالفَقْرِ إلاَّ غَرِيْبْ

ثم تمشّيت إلى ان وصلت بين القصرين. ولا زلت أمشي حتى وصلت إلى باب زويلة، فوجدت الخلق في ازدحام، والباب مُنسداً من كثرة الخلق، فرأيت بالأمر المقدر جندياً فزاحمته بغير اختياري، فجاءت يدي على جيبه، فجسيته فوجدت فيه صرّة من داخل الجيب الذي يدي عليه، فعمدت إلى تلك الصرّة فأخذتها من جيبه، فحسّ الجندي بأن جيبه خفّ، فحط يده في جيبه فلم يجد شيئاً والتفت نحوي ورفع يده بالدبوس وضربني على رأسي فسقطت على الأرض. فاحتاط بنا الناس وأمسكوا لجام فرس الجندي وقالوا: من أجل الزحمة تضرب هذا

الشاب هذه الضربة . فصرخ عليهم الجندي وقال : هذا حرامي سارق . فعند ذلك افقت ورايت الناس يقولون : هذا شاب مليح ، لم يأخذ شيئاً . فبعضهم يصدق وبعضهم يكذب ، وكثر القيل والقال وجذبني الناس وأرادوا خلاصي منه . فبالأمر المقدر جاء الوالي هو وبعض الحكام في هذا الوقت ودخلوا من الباب فوجدوا الخلق مجتمعين عليّ وعلى الجندي ، فقال الوالي : ما الخبر ؟ فقال الجندي : والله يا امير إن هذا حرامي ، وكان في جيبي كيس أزرق فيه عشرون ديناراً فاخذه وانا في الزحام . فقال الوالي للجندي : هل كان معك احد ؟ فقال الجندي : لا . فصرخ الوالي على المقدم وقال : إمسكه وفتّشه . فأمسكني وقد زال الستر عني فقال له الوالي : أعره من جميع ما عليه . فلما أعراني وجدوا الكيس في ثيابي . فلما وجدوا الكيس أخذه الوالي وفتحه وعده فرأى فيه عشرين ديناراً كما قال الجندي . فغضب الوالي وصاح بأتباعه وقال : قدّموه . فقدّموني بين يديه فقال لي : يا صبي قل الحق ، هل أنت سرقت هذا الكيس ؟ فأطرقت برأسي إلى الأرض وقلت في نفسي : إن قلت ما سرقته فقد أخرجه من ثيابي ، وإن قلت سرقته وقعت في العناء . ثم رفعت رأسي وقلت : نعم أخذته . فلما سمع مني الوالي هذا الكلام ، تعجّب ودعا الشهود فحضروا وشهدوا على منطقي هذا كله في باب زويلة ، فأمر الوالي السيّاف بقطع يدي فقطع يدي اليمين . فرقّ قلب الجندي وشفع في عدم قتلي وتركني الوالي ومضى . وصارت الناس حولي وسقوني قدح شراب . وأما الجندي فإنه أعطاني الكيس وقال : أنت شاب مليح ، ولا ينبغي أن تكون لصاً . فأخذته منه وأنشدت هذه الأبيات : [من البسيط]

واللهِ ما كُنْتُ لِصاً يا أخَا ثِقةٍ وَلَمْ أكُنْ سارِقاً يا أحْسَنَ النَّاسِ
لَكِنْ رَمَتْنِي صُرُوفُ الدَّهْرِ عَنْ عَجَلٍ فَزادَ هَمِّي ووَسْواسِيْ وإفْلاسِي
وما رَمَيْتُ ولَـكِنَّ الإلَهَ رَمَى سَهْماً فَطَيَّرَ تَاجَ المُلْكِ عَنْ رأسِي

فتركني الجندي وانصرف ، بعد أن أعطاني الكيس . وانصرفت أنا ولففت يدي في خرقة وأدخلتها عبّي ، وقد تغيّرت حالتي واصفرّ لوني مما جرى لي . فتمشيت إلى القاعة وأنا على غير استواء ، ورميت روحي على الفراش ، فنظرتني الصبية متغيّر اللون فقالت لي : ما وجعك وما لي أرى حالتك تغيّرت ؟ فقلت لها : رأسي توجعني وما أنا طيب . فعند ذلك اغتاظت وتشوّشت لأجلي وقالت : لا تحرق قلبي يا سيدي ، اقعد وارفع رأسك وحدثني بما حصل لك اليوم ، فقد بان لي في وجهك كلام . فقلت : دعيني من الكلام . فبكت وقالت : كأنك قد فرغ غرضك منا ، فإني أراك على خلاف العادة . فبكت وصارت تحدّثني وأنا لا أجيبها حتى أقبل الليل ، فقدمت لي الطعام فامتنعت وخشيت أن تراني آكل بيدي الشمال . فقلت : لا أشتهي أن آكل في هذه الساعة . فقالت : حدثني بما جرى لك في هذا اليوم ؟ ولأي شيء أراك مهموماً مكسور الخاطر والقلب ؟ فقلت : في هذه الساعة أحدّثك على مهلي . فقدمت لي الشراب وقالت : دونك فإنه يزيل همك ، فلا بد أن تشرب وتحدّثني بخبرك . فقلت لها : إن كان ولا بد ، فاسقني بيدك . فملأت القدح وشربته وملأته وناولتني إياه فتناولته منها بيدي الشمال وفرّت الدمعة من جفني ، فأنشدت هذه الابيات : [من الرَّجز]

إذا أَرادَ اللهُ أَمْراً لامْرِىءٍ وكانَ ذَا عَقْلٍ وَسَمْعٍ وبَصَرْ

أَصَمَّ أُذْنَيْهِ وأَعْمَى قَلْبَهُ　　وسَلَّ مِنْهُ عَقْلَهُ سَلَّ الشَّعَرْ
حَتَّى إذا أَنْفَذَ فِيهِ حُكْمَهُ　　رَدَّ إلَيْهِ عَقْلَهُ مَعَ النَّظَرْ

فلما فرغت من شعري، تناولت القدح بيدي الشمال وبكيت. فلما رأتني أبكي صرخت صرخة قوية وقالت: ما سبب بكائك؟ قد أحرقت قلبي، وما لك تناولت القدح بيدك الشمال؟ فقلت لها: إن بيدي حبة. فقالت: أخرجها حتى أفقعها لك. فقلت: ما هو وقت فقعها، لا تطيلي عليّ فما أخرجها في تلك الساعة. ثم شربت القدح، ولم تزل تسقيني حتى غلب السكر عليّ فنمت مكاني. فأبصرت يدي بلا كف ففتّشتني، فرأت معي الكيس الذي فيه الذهب، فدخل عليها من الحزن ما لا يدخل على أحد. ولا زالت تتألم بسببي إلى الصباح. فلما أفقت من النوم وجدتها هيّأت لي مسلوقة وقدّمتها، فإذا هي أربعة طيور من الدجاج، وأسقتني قدح شراب فأكلت وشربت وحطّيت الكيس واردت الخروج، فقالت: أين تروح؟ فقلت: إلى مكان كذا لأزحزح بعض الهمّ عن قلبي. فقالت: لا ترحل بل اجلس، فجلست. فقالت لي: وهل بلغت محبتك إياي إلى أن صرفت جميع مالك عليّ وعدمت كفّك؟ فأشهدك عليّ والشاهد الله أني لا أفارقك، وسترى صحة قولي. ولعل الله استجاب دعوتي بزواجك. وأرسلت خلف الشهود فحضروا، فقالت لهم: اكتبوا كتابي على هذا الشاب واشهدوا أني قبضت المهر. فكتبوا كتابي عليها ثم قالت: اشهدوا أن جميع مالي الذي في هذا الصندوق وجميع ما عندي من المماليك والجواري لهذا الشاب. فشهدوا عليها وقبلت أنا التمليك وانصرفوا بعد ما أخذوا الأجرة. ثم أخذتني من يدي وأوقفتني على خزانة وفتحت صندوقاً كبيراً وقالت لي: أنظر هذا الذي في الصندوق. فنظرت فإذا هو ملآن مناديل. فقالت: هذا مالك الذي أخذته منك. فكلما أعطيتني منديلاً فيه خمسون ديناراً، ألفّه وأرميه في هذا الصندوق. فخذ مالك فقد ردّه الله عليك، وأنت اليوم عزيز فقد جرى عليك القضاء بسببي حتى عدمت يمينك، وأنا لا أقدر على مكافأتك ولو بذلت روحي لكان ذلك قليلاً ولك الفضل. ثم قالت لي: تسلّم مالك. فتسلمته، ثم نقلت ما في صندوقها إلى صندوقي وضممت مالها إلى مالي الذي كنت أعطيتها إياه. وفرح قلبي وزال همّي، فقمت قبّلتها وسكرت معها. فقالت: لقد بذلت جميع مالك ويدك في محبتي، فكيف أقدر على مكافأتك؟ والله لو بذلت روحي في محبتك لكان ذلك قليلاً، وما أقوم بواجب حقك عليّ. ثم إنها كتبت لي جميع ما تملك من ثياب بدنها وصيغتها وأملاكها بحجة، وما نامت تلك الليلة إلا مهمومة من أجلي حين حكيت لها ما وقع لي، وبتّ معها. ثم أقمنا على ذلك أقل من شهر، وقوي بها الضعف وزاد بها المرض ولا مكثت غير خمسين يوماً. ثم صارت من أهل الآخرة، فجهزتها وواريتها في التراب. وعملت لها ختمات وتصدّقت عليها بجملة من المال، ثم نزلت من التربة فرأيت لها مالاً جزيلاً وأملاكاً وعقارات، ومن جملة ذلك تلك المخازن السمسم التي بعت لك منها ذلك المخزن. وما كان اشتغالي عنك هذه المدة إلاّ لأني بعت بقية الحواصل، وإلى الآن لم أفرغ من قبض الثمن. فأرجو منك أنك لا تخالفني فيما أقوله لك لأني أكلت زادك. فقد وهبتك ثمن السمسم الذي عندك، فهذا سبب أكلي بيدي الشمال. فقلت له: لقد أحسنت لي وتفضّلت عليّ. فقال لي: لا بد أن تسافر معي إلى بلادي، فإني اشتريت متجراً مصرياً

وإسكندرانياً فهل لك مصاحبتي؟ فقلت: نعم، وواعدته على رأس الشهر. ثم بعت جميع ما أملك واشتريت به متجراً وسافرت أنا وذلك الشاب إلى هذه البلاد التي هي بلادكم. فباع الشاب متجره واشترى متجراً عوضه من بلادكم ومضى إلى الديار المصرية. فكان نصيبي في قعودي هذه الليلة حتى حصل ما حصل في غربتي. فهذا يا ملك الزمان ما هو أعجب من حديث الأحدب. فقال الملك: لا بدّ من شنقكم كلكم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 27

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ملك الصين لما قال: لا بدّ من شنقكم. فعند ذلك تقدم المباشر إلى ملك الصين وقال: إن اذنت لي، حكيت لك حكاية اتفقت لي في تلك المدة قبل أن أجد هذا الأحدب، وإن كانت أعجب من حديثه تهب لنا أرواحنا. فقال الملك: هات ما عندك.

حكاية المباشر

فقال: أعلم أني كنت الليلة الماضية عند جماعة عملوا ختمة وجمعوا الفقهاء، فلما قرأ المقرؤون وفرغوا، مدّوا السماط. فمن جملة ما قدّموا زرباجة. فتقدمنا لنأكل من الزرباجة فتأخر واحد منا وامتنع من الأكل منها، فحلفنا عليه، فاقسم انه لا يأكل منها، فشددنا عليه فقال: لا تشددوا عليّ، فكفاني ما جرى من أكلها. ثم أنشد هذا البيت: [من البسيط]

رَاعِ الصَّدِيقَ فإنْ لَمْ تَرْعَ خاطِرَهُ   فَلَنْ تُعِيْنَ على إرْجاعِهِ الحِيَلُ

فلما فرغنا قلنا له: بالله ما سبب امتناعك عن الأكل من هذه الزرباجة؟ فقال: لأني لا آكل منها إلا إن غسلت يدي أربعين مرة بالأشنان وأربعين مرة بالسَّعد وأربعين مرة بالصابون، فجملتها مائة وعشرون مرة. فعند ذلك أمر صاحب الدعوة غلمانه فأتوا بالماء وبالذي طلبه، فغسل يديه كما ذكر، ثم تقدم وهو متكرّه وجلس ومدّ يده وهو مثل الخائف، ووضع يده في الزرباجة وصار يأكل وهو متغصب، ونحن نتعجب منه غاية التعجب، ويده ترتعد، فنصب إبهام يده فإذا هو مقطوع وهو يأكل بأربعة أصابع. فقلنا له: بالله عليك، ما لإبهامك هكذا؟ أهو خلقة الله أم أصابه حادث؟ فقال: يا اخواني ما هو هذا الإبهام وحده ولكن إبهام الأخرى وكذلك رجلاي الاثنان ولكن انظروا، ثم كشف عن إبهام يده الأخرى فوجدناها مثل اليمين وكذلك رجلاه بلا إبهامين. فلما رأيناه كذلك ازددنا عجباً وقلنا له: ما بقي لنا صبر على حديثك والأخبار سبب قطع إبهامي يديك وإبهامي رجليك، وسبب غسل يديك مائة وعشرين مرة. فقال: اعلموا أن والدي كان تاجراً من التجار الكبار وكان أكبر تجار مدينة بغداد في أيام الخليفة هارون الرشيد، وكان مولعاً بشرب الخمر وسماع العود. فلما مات لم يترك شيئاً، فجهزته وقد عملت له ختمات وحزنت عليه أياماً وليالي. ثم فتحت دكانه فما وجدته خلف الأيسرا ووجدت عليه ديوناً كثيرة. فصبّرت أصحاب الديون وطيّبت خواطرهم وصرت أبيع وأشتري من الجمعة إلى الجمعة وأعطي أصحاب الديون. ولا زلت على هذه الحالة مدة إلى أن وفيت الديون وزدت على رأس مالي. فبينما أنا جالس يوماً من الأيام، إذ رأيت صبية لم ترَ عيني أحسن منها، عليها حلي وحلل فاخرة وهي راكبة بغلة وقدامها عبد ووراءها عبد. فأوقفت البغلة على رأس السوق

ودخلت ودخل خلفها خادم وقال: يا سيدتي اخرجي ولا تعلمي أحداً فتطلقي فينا النار. ثم حجبها الخادم. فلما نظرت إلى دكاكين التجار لم تجد أفخر من دكاني. فلما وصلت إلى جهتي والخادم خلفها، جلست على دكاني وسلّمت عليّ. فما سمعت أحسن من حديثها ولا أعذب من كلامها. ثم كشفت عن وجهها، فنظرتها نظرة أعقبتني حسرة وتعلق قلبي بمحبتها. وجعلت أكرر النظر إلى وجهها وأنشدت هذين البيتين: [من الكامل]

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ في الخِمارِ الفَاخِتِي ... المَوْتُ حقّاً مِنْ عَذَابِكِ رَاحَتِي
جُودِي إليَّ بِزَوْرَةٍ أَحْيا بِها ... ها قد مَدَدْتُ إلى نَوالِكِ رَاحَتَي

فلما سمعت إنشادهما أجابتني بهذه الأبيات: [من الطَّويل]

عَدِمْتُ فُؤَادِيْ فِي ٱلْهَوىٰ إِنْ سَلاَكُمْ ... فإنَّ فُؤَادِيْ لا يُحِبُّ سِواكُمْ
وإنْ نَظَرَتْ عَيْنِيْ إلى غَيرِ حُسْنِكُمْ ... فلا سَرَّها بَعْدَ البِعَادِ لِقَاكُمْ
حَلَفْتُ يَمِيْناً لَسْتُ أَسْلِي هَوَاكُمْ ... وَقَلْبِي حَزِيْنٌ مُغْرَمٌ بِهَواكُمْ
سَقَانِي ٱلْهَوَى كَأساً مِنَ الحُبِّ صافِياً ... فيا لَيْتَهُ لَمَّا سَقَانِيْ سَقَاكُمْ
خُذُوْا رَمَقِي حَيْثُ ٱسْتَقَرَّتْ بِكُمْ نَوًى ... وأَيْنَ حَلَلْتُمْ فادْفِنُونِيْ حِذاكُمْ
وإنْ تَذْكُرُوا ٱسْمِي عِنْدَ قَبْرِيْ يُجِيْبُكُم ... أَنِينُ عِظَامِي عِنْدَ رَفْعِ نِدَاكُمْ
فَلَوْ قِيْلَ لِيْ ماذا على اللهِ تَشْتَهِي ... لَقُلْتُ رِضَى الرَّحْمٰنِ ثُمَّ رِضَاكُمْ

فلما فرغت من شعرها قالت: يا فتى، أعندك تفاصيل ملاح؟ فقلت: يا سيدتي مملوكك فقير، ولكن اصبري حتى تفتح التجار دكاكينهم وأجيء لك بما تريدينه. ثم تحدثت أنا وإيّاها وأنا غارق في بحر محبتها، تائه في عشقها حتى فتحت التجار دكاكينهم، فقمت وأخذت لها جميع ما طلبته، وكان ثمن ذلك خمسة آلاف درهم. وناولت الخادم جميع ذلك، فأخذه الخادم وذهبا إلى خارج السوق فقدموا لها البغلة فركبت، ولم تذكر لي من أين هي؟ واستحيت أني أذكر لها ذلك والتزمت الثمن للتجار وتكلفت غرامة خمسة آلاف درهم. وجئت البيت وأنا سكران من محبتها، فقدموا لي العشاء فأكلت لقمة وتذكرت حسنها وجمالها فأشغلني عن الأكل، وأردت أن أنام فلم يجئني نوم. ولم أزل على هذه الحالة أسبوعاً، وطالبتني التجار بأموالهم فصبرتهم أسبوعاً آخر. فبعد الأسبوع أقبلت وهي راكبة البغلة ومعها خادم وعبدان، فسلمت عليّ وقالت: يا سيدي أبطأنا عليك بثمن القماش، فهات الصيرفي واقبض الثمن. فجاء الصيرفي وأخرج له الطواشي الثمن فقبضته، وصرت أتحدث أنا وإيّاها إلى أن عمر السوق وفتحت التجار فقالت: خذ لي كذا وكذا. فأخذت لها من التجار ما أرادت وأخذته ومضت ولم تخاطبني في ثمن. فلما مضت ندمت على ذلك، وكنت أخذت الذي طلبته بألف دينار. فلما غابت عن عيني قلت في نفسي: أي شيء هذه المحبة؟ أعطتني خمسة آلاف درهم وأخذت شيئاً بألف دينار. فخفت الإفلاس وضياع مال الناس وقلت: إن التجار لم يعرفوا إلاّ أنا. فما كانت هذه المرأة إلاّ محتالة خدعتني بحسنها وجمالها، ورأتني صغيراً فضحكت عليّ ولم أسألها عن منزلها. ولم أزل في وسواس، وطالت غيبتها أكثر من شهر، فطالبتني التجار وشدّدوا عليّ

فعرضت عقاري للبيع وأشرفت على الهلاك . ثم قعدت وأنا متفكّر، فلم أشعر إلاّ وهي نازلة على باب السوق ودخلت عليّ . فلما رأيتها زالت الفكرة ونسيت ما كنت فيه . وأقبلت تحدّثني بحديثها الحسن ثم قالت : هات الميزان وزن مالك . فأعطتني ثمن ما أخذته بزيادة، ثم انبسطت معي في الكلام فكدت أن أموت فرحاً وسروراً حتى قالت لي : هل أنت لك زوجة ؟ فقلت : لا، إني لا أعرف امرأة . ثم بكيت . فقالت لي : ما لك تبكي ؟ فقلت : من شيء خطر ببالي . ثم إني أخذت بعض دنانير وأعطيتها للخادم وسألته أن يتوسط في الأمر . فضحك وقال : هي عاشقة لك أكثر منك، وما لها بالقماش حاجة وإنما هو لأجل محبتها لك، فخاطبها بما تريد فإنها لا تخالفك فيما تقول . فرأتني وأنا أعطي الخادم الدنانير، فرجعت وجلست ثم قلت لها : تصدقي على مملوك واسمحي له فيما يقول . ثم حدثتها بما في خاطري، فأعجبها ذلك وأجابتني وقالت : هذا الخادم يأتي برسالتي واعمل أنت بما يقوله لك الخادم . ثم قامت ومضت . وقمت سلّمت التجار أموالهم وحصل لهم الربح إلاّ أنا . فإنها حين ذهبت حصل لي الندم من انقطاع خبرها عني ولم أنم طول ليلي . فما كان إلاّ أيام قلائل وجاءني خادمها، فأكرمته وسألته عنها فقال : إنها مريضة . فقلت للخادم : اشرح لي أمرها . قال : إن هذه الصبية ربتها السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد وهي من جواريها . وقد اشتهت على سيدتها الخروج والدخول فأذنت لها في ذلك، فصارت تخرج وتدخل حتى صارت قهرمانة . ثم إنها حدثت بك سيدتها وسألتها أن تزوّجها بك فقالت سيدتها : لا أفعل حتى أنظر هذا الشاب، فإن كان يشتهيك زوّجتك به . ونحن نريد في هذه الساعة أن تدخل بك الدار ، فإن دخلت الدار ولم يشعر بك أحد وصلت إلى تزويجك إيّاها، وإن انكشف أمرك ضربت رقبتك فماذا تقول ؟ قلت : نعم أروح معك وأصبر على الأمر الذي حدثتني به . فقال له الخادم : إذا كانت هذه الليلة فامض إلى المسجد الذي بنته السيدة زبيدة على الدجلة فصلّ فيه وبتّ هناك . فقلت : حبّاً وكرامةً . فلما جاء وقت العشاء، مضيت إلى المسجد وصلّيت فيه وبت هناك . فلما كان وقت السحر، رأيت الخادمين قد أقبلا في زورق ومعهما صناديق فارغة، فأدخلوه في المسجد وانصرفوا، وتأخر واحد منهما فتأملته، وإذا هو الذي كان واسطة بيني وبينهما . فبعد ساعة صعدت إلينا الجارية صاحبتي، فلما أقبلت قمت إليها وعانقتها، فقبلتني وبكت وتحدثنا ساعة، فأخذتني ووضعتني في صندوق وأغلقته عليّ، ولم أشعر إلاّ وأنا في دار الخليفة . وجاء إليّ بشيء كثير من الأمتعة بحيث يساوي خمسين ألف درهم ، ثمّ رأيت عشرين جارية أخرى وهنّ نهد أبكار وبينهن الست زبيدة، وهي لم تقدر على المشي مما عليها من الحلي والحلل . فلما أقبلت تفرقت الجواري من حواليها، فأتيت إليها وقبّلت الأرض بين يديها فأشارت لي بالجلوس ، فجلست بين يديها . ثم شرعت تسألني عن حالي وعن نسبي فأجبتها عن كل ما سألتني عنه . ففرحت وقالت : والله ما خابت تربيتنا في هذه الجارية . ثم قالت لي : اعلم أن هذه الجارية عندنا بمنزلة ولد الصلب، وهي وديعة الله عندك . فقبّلت الأرض قدامها ورضيت بزواجي إيّاها . ثم أمرتني أن أقيم عندهم عشرة أيام . فأقمت عندهم هذه المدة وأنا لا أدري من هي الجارية، إلاّ إن بعض الوصائف تأتيني بالغداء والعشاء لأجل الخدمة . وبعد هذه المدة استأذنت السيدة زبيدة زوجها أمير المؤمنين في زواج جاريتها فأذن لها، وأمر لها بعشرة آلاف دينار . فأرسلت السيدة زبيدة إلى القاضي والشهود وكتبوا كتابي عليها وبعد ذلك عملوا

الحلويات والأطعمة الفاخرة وفرّقوا على سائر البيوت، ومكثوا على هذه الحال عشرة أيام اخر. وبعد العشرين يوماً، ادخلوا الجارية الحمام لأجل الدخول بها. ثم إنهم قدموا بسفرة فيها طعام ومن جملته خافقية زرباجة محشيّة بالسكر وعليها ماء ورد ممسك، وفيها أصناف الدجاج المحمرة وغيره من سائر الألوان مما يدهش العقول. فوالله حين حضرت المائدة ما أمهلت نفسي حتى نزلت عليّ زرباجة وأكلت منها بحسب الكفاية، ومسحت يدي ونسيت أن أغسلها. ومكثت جالساً إلى أن دخل الظلام وأوقدت الشموع وأقبلت المغنيات بالدفوف، ولم يزالوا يجلون العروسة وينقطون بالذهب حتى طافت القصر كله. وبعد ذلك أقبلوا بها عليّ ونزعوا ما عليها من الملبوس، فلما خلوت بها في الفراش وعانقتها، وأنا لم أصدق بوصالها، شمّت في يدي رائحة الزرباجة. فلما شمت الرائحة صرخت صرخة، فنزل إليها الجواري من كل جانب، فارتجفت ولم أعلم ما الخبر. فقالت الجواري: ما لك يا أختنا؟ فقالت لهم: أخرجوا عني هذا المجنون فأنا أحسب انه عاقل. فقلت لها: وما الذي ظهر لك من جنوني؟ فقالت: يا مجنون لأي شيء أملت من الزرباجة ولم تغسل يدك؟ فوالله لا أقبلك على عدم عقلك وسوء فعلك. ثم تناولت من جانبها سوطاً ونزلت به على ظهري ثم على مقاعدي حتى غبت عن الوجود من كثرة الضرب، ثم إنها قالت للجواري: خذوه وامضو به إلى متولي المدينة ليقطع يده التي أكل بها الزرباجة ولم يغسلها. فلما سمعت ذلك قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، أتقطع يدي من أجل أكل الزرباجة وعدم غسلي إياها؟ فدخلت عليها الجواري وقلن لها: يا أختنا لا تؤاخذيه بفعله هذه المرة. فقالت: والله لا بد أن أقطع شيئاً من أطرافه. ثم راحت وغابت عني عشرة أيام ولم ارها. وبعد العشرة أيام أقبلت عليّ وقالت لي: يا أسود الوجه أنا لا أصلح لك، فكيف تأكل الزرباجة ولم تغسل يدك؟ ثم صاحت على الجواري فكتفوني، وأخذت موسى ماضياً وقطعت إبهام يدي وإبهام رجلي كما ترون يا جماعة. فغشي عليّ، ثم ذرّت عليّ بالذرور فانقطع الدم. وقلت في نفسي: لا أكل الزرباجة ما بقيت حتى أغسل يدي أربعين مرة بالإشنان وأربعين مرة بالسعد وأربعين مرة بالصابون. فأخذت عليّ ميثاقاً أني لا آكل الزرباجة حتى أغسل يدي كما ذكرت لكم. فلما جئتم بهذه الزرباجة، تغير لوني وقلت في نفسي: هذه سبب قطع إبهام يديّ ورجليّ. فلما غصبتم عليّ قلت: لا بد أن أوفي بما حلفت. فقلت له والجماعة حاضرون: ما حصل لك بعد ذلك؟ قال: فلما حلفت لها، طاب قلبها ونمت وإياها. وأقمنا مدة على هذا الحال، وبعد تلك المدة قالت: إن أهل دار الخلافة لم يعلموا بما حصل بيني وبينك فيها، وما دخلها أجنبي غيرك، وما دخلت فيها إلا بعناية السيدة زبيدة. ثم أعطتني خمسين الف دينار وقالت: خذ هذه الدنانير واخرج واشتر لنا بها داراً فسيحة. فخرجت واشتريت داراً مليحة فسيحة، ونقلت جميع ما عندها من النعم وما ادّخرته من الأموال والقماش والتحف إلى هذه الدار التي اشتريتها. فهذا سبب قطع إبهامي، فأكلنا وانصرفنا. وبعد ذلك جرى لي مع الأحدب ما جرى وهذا جميع حديثي والسلام. فقال الملك: ما هذا بأعذب من حديث الأحدب، بل حديث الأحدب أعذب من ذلك، ولا بد من صلبكم جميعاً. ثم إن اليهودي تقدم وقبل الأرض وقال: يا ملك الزمان، أنا أحدثك بحديث أعجب من حديث الأحدب. فقال ملك الصين: هات ما عندك. فقال:

أعجب ما جرى لي في زمن شبابي، أني كنت في دمشق الشام وتعلّمت صنعة، فعملت فيها. فبينما أنا أعمل في صنعتي يومًا من الأيام، إذ أتاني مملوك من بيت الصاحب بدمشق، فخرجت له وتوجهت معه إلى منزل الصاحب فدخلت فرأيت في صدر الإيوان سريراً من المرمر بصفائح الذهب، وعليه آدمي مريض راقد وهو شاب لم ير أحسن منه في زمانه. فقعدت عند رأسه ودعوت له بالشفاء. فأشار إليّ بعينه فقلت له: يا سيدي ناولني يدك. فأخرج لي يده اليسرى، فتعجبت من ذلك وقلت في نفسي: يا لله العجب، إن هذا الشاب مليح ومن بيت كبير وليس عنده أدب، إن هذا هو العجب. ثم جسست مفاصله وكتبت له ورقة. ومكثت أتردد عليه مدة عشرة أيام حتى تعافى ودخل الحمام واغتسل وخرج. فخلع عليّ الصاحب خلعةً مليحة وجعلني مباشراً عنده في المارستان الذي بدمشق. فلما دخلت معه الحمام وقد أخلوه لنا من جميع الناس ودخل الخادم بالثياب وأخذ ثيابه التي كانت عليه من داخل الحمام بعد أن تعرّى، رأيت بيده اليمين قطعاً صعبة. فلما رأيته أخذت أتعجب وحزنت عليه، ونظرت إلى جسده فوجدت عليه آثار ضرب مقارع فصرت أتعجب من أجل ذلك. فنظر إليّ الشاب وقال لي: يا حكيم الزمان لا تعجب من أمري، فسوف أحدّثك بحديثي حين تخرج من الحمام. فلما خرجنا من الحمام ووصلت إلى الدار وأكلنا الطعام واسترحنا، قال الشاب: هل لك أن تتفرج في الغرفة؟ فقلت: نعم. فأمر العبيد أن يطلعوا الفرش إلى فوق، وأمرهم أن يشووا خاروفاً وأن يأتوا إلينا بفاكهة. ففعل العبيد ما أمرهم به وأتوا بالفاكهة، فأكلنا وأكل هو بيده الشمال. فقلت له: حدثني بحديثك. فقال لي: يا حكيم الزمان اسمع حكاية ما جرى لي، اعلم أنني من أولاد الموصل، وكان لي والد قد توفي أبوه وخلّف عشرة أولاد ذكور من جملتهم والدي، وكان أكبرهم. فكبروا كلهم وتزوّجوا ورزق والدي بي، وأما أخوته التسعة فلم يرزقوا بأولاد. فكبرت أنا وصرت بين أعمامي وهم فرحون بي فرحاً شديداً. فلما كبرت وبلغت مبلغ الرجال، كنت ذات يوم مع والدي في جامع الموصل، وكان اليوم يوم جمعة، فصلّينا الجمعة وخرج الناس جميعاً، وأما والدي وأعمامي فإنهم قعدوا يتحدثون في عجائب البلاد وغرائب المدن إلى أن ذكروا مصر، فقال بعض أعمامي: إن المسافرين يقولون ما على وجه الأرض أحسن من مصر ونيلها. ولقد أحسن من قال فيها وفي نيلها هذين البيتين: [من الكامل]

بالله قُلْ لِلنِّيلْ عَنِّيْ إنَّني ... لم أَشْفِ مِنْ ماءِ الفُراتِ غَلِيْلاَ
يا قَلبُ كَمْ خَلَّفْتَ ثَمَّ بُثَيْنَةُ ... وأَظُنُّ صَبْرُكَ أَنْ يَكُوْنَ جَمِيْلاَ

ثم إنهم أخذوا يصفون مصر ونيلها. فلما فرغوا من كلامهم وسمعت أنا هذه الأوصاف التي في مصر، صار خاطري مشغولاً بها. ثم انصرفوا وتوجّه كل واحد منهم إلى منزله. فبتّ تلك الليلة لم يأتني نوم من شغفي بها، ولم يطب لي أكل ولا شرب. فلما كان بعد أيام قلائل تجهّز أعمامي إلى مصر، فبكيت على والدي لأجل الذهاب معهم حتى جهّز لي متجراً ومضيت معهم وقال لهم: لا تدعوه يدخل مصر بل اتركوه في دمشق ليبيع متجره فيها. ثم سافرنا وودّعت والدي وخرجنا من الموصل. وما زلنا مسافرين حتى وصلنا إلى حلب، فأقمنا بها أياماً ثم سافرنا

إلى أن وصلنا دمشق، فرأيناها مدينة ذات أشجار وأنهار وأثمار وأطيار كأنها جنة فيها من كل فاكهة، فنزلنا في بعض الخانات. واستمرّ بها أعمامي حتى باعوا واشتروا، وباعوا بضاعتي فربح الدرهم خمسة دراهم ففرحت بالربح. ثم تركني أعمامي وتوجهوا إلى مصر. فمكثت بعدهم وسكنت في قاعة مليحة البنيان يعجز عن وصفها اللسان أجرتها كل شهر ديناران، وصرت أتلذذ بالمآكل والمشارب حتى صرفت المال الذي كان معي. فبينما أنا قاعد على باب القاعة يوماً من الأيام، وإذا بصبية أقبلت عليّ وهي لابسة أفخر الملابس مما رأت عيني أفخر منها، فعزمت عليها فما قصرت بل صارت داخل الباب. فلما دخلت ظفرت بها وفرحت بدخولها، فرددت الباب عليّ وعليها وكشفت عن وجهها وقلعت إزارها فوجدتها بديعة الجمال، فتمكن حبها من قلبي. فقمت وجئت بسفرة من أطيب المأكول والفاكهة وما يحتاج إليه المقام، وأكلنا ولعبنا، وبعد اللعب شربنا حتى سكرنا. ثم نمت معها في أطيب ليلة إلى الصباح وبعد ذلك أعطيتها عشرة دنانير، فحلفت أنها لا تأخذ الدنانير مني ثم قالت: يا حبيبي انتظرني بعد ثلاثة أيام وقت المغرب أكون عندك، وهيىء لنا بهذه الدنانير مثل هذا. وأعطتني هي عشرة دنانير وودعتني وانصرفت، فأخذت عقلي معها. فلما مضت الأيام الثلاثة، أتت وعليها من المزركش والحلي والحلل أعظم مما كان عليها أولاً. وكنت هيّأت لها ما يليق بالمقام قبل أن تحضر، ثم أكلنا وشربنا ونمنا مثل العادة إلى الصباح، ثم أعطتني عشرة دنانير وواعدتني بعد ثلاثة أيام أنها تحضر عندي. فهيّأت لها ما يليق بالمقام، وبعد ثلاثة أيام حضرت في قماش أعظم من الأول والثاني ثم قالت لي: يا سيدي هل أنا مليحة؟ فقلت: إي والله. فقالت: هل تأذن لي أن أجيء معي بصبية أحسن مني وأصغر سناً مني حتى تلعب معنا ونضحك وإيّاها؟ فإنها سألتني أن تخرج معي وتبيت معنا لنضحك وإيّاها. ثم أعطتني عشرين ديناراً وقالت لي: زد لنا المقام لأجل الصبية التي تأتي معي، ثم إنها ودعتني وانصرفت. فلما كان اليوم الرابع، جهزت لها ما يليق بالمقام على العادة. فلما كان بعد المغرب، وإذا بها قد أتت ومعها واحدة ملفوفة بإزار، فدخلتا وجلستا. ففرحت وأوقدت الشموع واستقبلتهما بالفرح والسرور، فقامتا ونزعتا ما عليهما من القماش وكشفت الصبية الجديدة عن وجهها فرأيتها كالبدر في تمامه. فلم أرَ أحسن منها. فقمت وقدمت لهما الأكل والشرب. فأكلنا وشربنا، وصرت أقبل الصبية الجديدة وأملأ لها القدح وأشرب معها، فغارت الصبية الأولى في الباطن ثم قالت: بالله، إن هذه الصبية مليحة، أما هي أظرف مني؟ قلت: إي والله. قالت: خاطري أن تنام معها. قلت: على رأسي وعيني. ثم قامت وفرشت لنا، فقمت ونمت مع الصبية الجديدة إلى وقت الصبح. فلما أصبحت وجدت يدي ملوّثة بدم، ففتحت عيني فوجدت الشمس قد طلعت، فنبهت الصبية، فتدحرجت رأسها عن بدنها. فظننت أنها فعلت ذلك من غيرتها منها. ففكرت ساعة ثم قمت قلعت ثيابي وحفرت في القاعة ووضعت الصبية ورددت عليها التراب وأعدت الرخام كما كان، ثم لبست وأخذت بقية مالي وخرجت. وجئت إلى صاحب القاعة ودفعت له أجرة سنة وقلت له: أنا مسافر إلى أعمامي بمصر. ثم سافرت إلى مصر واجتمعت بأعمامي، ففرحوا بي ووجدتهم قد فرغوا من بيع متجرهم ثم قالوا لي: ما سبب مجيئك؟ فقلت لهم: اشتقت إليكم وخفت أن لا يبقى معي شيء من مالي. فأقمت عندهم سنة وأنا أتفرّج على مصر ونيلها، ووضعت يدي في بقية مالي وصرت أصرف منه

وآكل وأشرب حتى قرب سفر أعمامي فهربت منهم . فقالوا : لعلَّه سبقنا ورجع إلى دمشق . فسافروا وخرجت أنا فأقمت بمصر ثلاث سنين وصرت أصرف حتى لم يبقَ معي من المال شيء ، وأنا في كل سنة أرسل إلى صاحب القاعة أجرتها . وبعد الثلاث سنين ، ضاق صدري ولم يبقَ معي إلاّ أجرة السنة فقط . فسافرت حتى وصلت إلى دمشق ونزلت في القاعة ، ففرح بي صاحبها . فدخلت القاعة ومسحتها من دم الصبية المذبوحة ، ورفعت المخدة فوجدت تحتها العقد الذي كان في عنق تلك الصبية . فأخذته وتأملته وبكيت ساعة ، ثم أقمت يومين . وفي اليوم الثالث ، دخلت الحمام وغيرت أثوابي وأنا ما معي شيء من الدراهم ، فجئت يوماً إلى السوق فوسوس لي الشيطان لأجل إنقاذ القدر . فأخذت العقد الجوهر وتوجّهت به إلى السوق وناولته للدلال فقام لي وأجلسني بجانبه وصبر حتى عمر السوق ، وأخذ ذلك الدلال ونادى عليه خفية وأنا لا أعلم . وإذا بالعقد مثمن بلغ ثمنه ألفي دينار . فجاءني الدلال وقال لي : إن هذا العقد نحاس مصنوع بصنعة الإفرنج وقد وصل ثمنه إلى ألف درهم . فقلت : له نعم ، هذا كنا صنعناه لواحدة نضحك عليها به وورثتها زوجتي فأردنا بيعه ، فرح وأقبض الألف درهم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 28

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشاب قال للدلال : اقبض الألف درهم . وسمع الدلال ذلك ، عرف أن قضيته مشكلة . فتوجّه بالعقد إلى كبير السوق وأعطاه إيّاه ، فأخذه وتوجه به إلى الوالي وقال له : إن هذا العقد سرق من عندي ووجدنا الحرامي لابساً لباس أولاد التجار . فلم أشعر إلاّ والظلمة قد أحاطوا بي وأخذوا بي وذهبوا بي إلى الوالي . فسألني الوالي عن ذلك العقد فقلت له ما قلته للدلال . فضحك الوالي وقال : ما هذا كلام الحق . فلم أدر إلاّ وحواشيه جرّدوني من ثيابي وضربوني بالمقارع على جميع بدني فأحرقني الضرب . فقلت : أنا سرقته . وقلت في نفسي : إن الأحسن أني أقول أنا سرقته ولا أقول إن صاحبته مقتولة عندي فيقتلوني فيها . فلما قلت إني سرقته ، قطعوا يدي وقلوها في الزيت فغشي عليّ ، فسقوني الشراب حتى أفقت . فأخذت يدي وجئت إلى القاعة . فقال صاحب القاعة : حيث ما جرى لك هذا ، فاخل القاعة وانظر لك موضعاً آخر لأنك متهم بالحرام . فقلت له : يا سيدي اصبر عليّ يومين أو ثلاثة حتى أنظر لي موضعاً . قال : نعم . ومضى وتركني . فبقيت قاعداً أبكي وأقول : كيف أرجع إلى اهلي وأنا مقطوع اليد ؟ والذي قطع يدي لم يعلم أني بريء ، فلعل الله يحدث بعد ذلك امراً . وصرت أبكي بكاءً شديداً . فلما مضى صاحب القاعة عنّي ، لحقني غمّ شديد فتشوّشت يومين ، وفي اليوم الثالث ما ادري إلاّ وصاحب القاعة جاءني ومعه بعض الظلمة وكبير السوق وادّعى عليّ أني سرقت العقد . فخرجت لهم وقلت لهم : ما الخبر ؟ فلم يمهلوني بل كتفوني ووضعوا في رقبتي جنزيراً وقالوا لي : إن العقد الذي كان معك طلع لصاحب دمشق ووزيرها وحاكمها . وقالوا : إن هذا العقد قد ضاع من بيت الصاحب من مدة ثلاث سنين ومعه ابنته . فلما سمعت هذا الكلام منهم ، ارتعدت مفاصلي وقلت في نفسي : هم يقتلونني ولا محالة ، والله لا بدّ انني احكي للصاحب حكايتي ، فإن شاء قتلني وإن شاء عفا عني . فلما وصلنا إلى الصاحب أوقفني بين يديه ، فلما رآني قال : اهذا الذي سرق العقد ونزل به ليبيعه ؟ إنكم

قطعتم يده ظلماً. ثم أمر بسجّان كبير السوق وقال له: أعط هذا ديّة يده وإلاّ اشنقك وآخذ جميع مالك. ثم صاح على أتباعه، فأخذوه وجرّوه وبقيت أنا والصاحب وحدنا بعد أن فكوا الغل من عنقي بإذنه وحلّوا وثاقي. ثم نظر إليّ الصاحب وقال لي: يا ولدي، حدّثني واصدقني كيف وصل إليك هذا العقد؟ فقلت: يا مولاي إني اقول لك الحق. ثم حدثته بجميع ما جرى لي مع الصبية الأولى، وكيف جاءتني بالثانية وكيف ذبحتها من الغيرة، وذكرت له الحديث بتمامه. فلما سمع كلامي هزّ رأسه وحطّ منديله على وجهه وبكى ساعة، ثم اقبل عليّ وقال لي: اعلم يا ولدي أن الصبية الكبيرة بنتي وكنت أحجر عليها، فلما بلغت أرسلتها إلى ولد عمها بمصر فمات، فجاءتني وقد تعلمت العهر من أولاد مصر، وجاءتك أربع مرات ثم جاءتك باختها الصغيرة، والاثنتان شقيقتان وكانتا مُحِبَّتَيْنِ لبعضهما. فلما جرى للكبيرة ما جرى، اخرجت سرّها على اختها فطلبت مني الذهاب معها ثم رجعت وحدها، فسألتها عنها فوجدتها تبكي عليها وقالت: لا أعلم لها خبراً. ثم قالت لأمها سراً جميع ما جرى من ذبحها أختها. فاخبرتني أمها سراً، ولم تزل تبكي وتقول: والله لا أزال أبكي عليها حتى أموت. وكلامك يا ولدي صحيح، فإني أعلم بذلك قبل أن تخبرني به. فانظر يا ولدي ما جرى، وأنا أشتهي منك أن لا تخالفني فيما أقول لك وهو، إني أريد أن أزوّجك ابنتي الصغيرة فإنها ليست شقيقة لهما وهي بكر، ولم آخذ منك مهراً وأجعل لكما راتباً من عندي وتبقى عندي بمنزلة ولدي. فقلت له: الأمر كما تريد يا سيدي، ومن أين لي أن أصل إلى ذلك؟ فأرسل الصاحب في الحال من عنده بريداً وأتاني بمالي الذي خلّفه والدي، وأنا اليوم في أرغد عيش. فتعجبت منه وأقمت عنده ثلاثة أيام وأعطاني مالاً كثيراً، وسافرت من عنده فوصلت إلى بلدكم هذه، فطابت لي فيها المعيشة وجرى لي مع الأحدب ما جرى. فقال ملك الصين: ما هذا بأعجب من حديث الأحدب، ولا بدّ لي من شنقكم جميعاً وخصوصاً الخياط الذي هو رأس كل خطيئة. ثم قال: يا خياط إن حدثتني بشيء أعجب من حديث الأحدب وهبت لكم ذنوبكم. فعند ذلك تقدم الخياط وقال:

حكاية الخياط

اعلم يا ملك الزمان أن الذي جرى لي أعجب مما جرى للجميع، لأني كنت قبل أن أجتمع بالأحدب أول النهار في وليمة لبعض أصحابي أرباب الصنائع من خياطين وبزازين ونجارين وغير ذلك، فلما طلعت الشمس حضر الطعام لنأكل، وإذا بصاحب الدار قد دخل علينا ومعه شاب غريب مليح من أهل بغداد، وعلى ذلك الشاب أحسن ما يكون من الثياب، وهو في أحسن ما يكون من الجمال، غير أنه أعرج. فدخل علينا وسلّم فقمنا له، فلما أراد الجلوس، رأى فينا إنساناً مزيناً فامتنع من الجلوس وأراد أن يخرج من عندنا فمنعناه نحن وصاحب المنزل وشددنا عليه، وحلف عليه صاحب المنزل وقال له: ما سبب دخولك وخروجك؟ فقال: بالله يا مولاي لا تتعرض لي بشيء، فإن سبب خروجي هذا المزين الذي هو قاعد. فلما سمع منه صاحب الدعوة هذا الكلام، تعجب غاية العجب وقال: كيف يكون هذا الشاب من بغداد وتشوش خاطره من هذا المزين؟ ثم التفتنا إليه وقلنا له: إحكِ لنا ما سبب غيظك من هذا المزين. فقال الشاب: يا جماعة، إنه جرى لي مع هذا المزين أمر عجيب في بغداد بلدي وكان هو سبب عرجي وكسر رجلي. وحلفت أني ما بقيت أقاعده في مكان ولا أسكن في بلد هو ساكن فيها، وقد سافرت من

بغداد ورحلت منها وسكنت في هذه المدينة، وأنا الليلة لا أبيت إلاّ مسافراً. فقلنا له: بالله عليك أن تحكي لنا حكايتك معه. فاصفرّ لون المزين حين سألنا الشاب. ثم قال الشاب:

حكاية الأعرج مع مزيّن بغداد

اعلموا يا جماعة الخير أن والدي من أكابر تجار بغداد ولم يرزقه الله تعالى بولد غيري، فلما كبرت وبلغت مبلغ الرجال، توفي والدي إلى رحمة الله تعالى وخلّف لي مالاً وخدماً وحشماً، فصرت ألبس أحسن الملابس وآكل أحسنَ المآكل. وكان الله سبحانه بغّضني في النساء، إلى أن كنت ماشياً يوماً من الأيام في أزّقة بغداد، وإذا بجماعة تعرّضوا لي في الطريق، فهربت ودخلت زقاقاً لا ينفذ وارتكنت في آخره على مصطبة، فلم أقعد غير ساعة، وإذا بطاقة قصاد المكان الذي أنا فيه فتحت وطلّت منها صبية كالبدر في تمامه لم أرَ في عمري مثلها، ولها زرع تسقيه، وذلك الزرع تحت الطاقة، فالتفتت يميناً وشمالاً ثم قفلت الطاقة وغابت عني. فانطلقت في قلبي النار واشتغل خاطري بها وانقلب بغضي للنساء محبة، فلا زلت جالساً في هذا المكان إلى المغرب وأنا غائب عن الدنيا من شدة الغرام. وإذا بقاضي المدينة راكب وقدّامه عبيد ووراءه خدام. فنزل ودخل البيت الذي طلّت منه تلك الصبية فعرفت أنه أبوها، ثم إني جئت منزلي وأنا مكروب ووقعت على الفراش مهموماً فدخلت عليّ جواري وقعدن حولي ولم يعرفن ما بي وأنا لم أبد لهنّ أمراً ولم أرد لخطابهن جواباً. وعظم مرضي فصارت الناس تعودني. فدخلت عليّ عجوز، فلما رأتني لم يخف عليها حالي، فقعدت عند رأسي ولاطفتني وقالت: يا ولدي، قل لي خبرك. فحكيت لها حكايتي. فقالت: يا ولدي، إن هذه بنت قاضي بغداد وعليها الحجر، والموضع الذي رأيتها فيه هو طبقتها، وأبوها له قاعة كبيرة أسفل، وهي وحدها وأنا كثيراً ما أدخل عندهم. ولا تعرف وصالها إلاّ منّي فشدّ حيلك. فتجلدت وقوّيت نفسي حين سمعت حديثها وفرح أهلي في ذلك اليوم وأصبحت متماسك الأعضاء مترجّياً تمام الصحة. ثم مضت العجوز ورجعت ووجهها متغيّر فقالت: يا ولدي، لا تسأل عَمَّا جرى منها لما قلت لها ذلك، فإنها قالت لي: إن لم تسكتي يا عجوز النحس عن هذا الكلام لأفعلن بك ما تستحقّينه. ولا بد أن أرجع إليها ثاني مرة. فلما سمعت ذلك منها ازددت مرضاً على مرضي. فلما كان بعد أيام أتت العجوز وقالت: يا ولدي أريد منك البشارة. فلما سمعت ذلك منها، ردّت روحي إلى جسمي وقلت لها: لك عندي كل خير. فقالت. إني ذهبت بالأمس إلى تلك الصبية، فلما نظرتني وأنا منكسرة الخاطر باكية العين قالت: يا خالتي، ما لي أراك ضيّقة الصدر؟ فلما قالت لي ذلك، بكيت وقلت لها: يا بنتي وسيدتي، إني أتيتك بالأمس من عند فتى يهواك وهو مشرف على الموت من أجلك. فقالت وقد رق قلبها: ومن أين يكون هذا الفتى الذي تذكرينه؟ قلت: هو ولدي وثمرة فؤادي، رآك في الطاقة من أيام مضت وأنت تسقين زرعك، ورأى وجهك فهام بك عشقاً، وأنا أول مرة أعلمته بما جرى لي معك فزاد مرضه ولزم الوساد، وما هو إلاّ ميت ولا محالة. فقالت وقد اصفرّ لونها. هل هذا كله من أجلي؟ قلت: إي والله فماذا تأمرين؟ قالت: إمضي إليه واقرئيه مني السلام واخبريه أن عندي أضعاف ما عنده، فإذا كان يوم الجمعة قبل الصلاة يجيء إلى الدار وأنا أقول: افتحوا له الباب، وأطلعه عندي وأجتمع وإيّاه ساعة ويرجع قبل مجيء أبي من الصلاة. فلما سمعت كلام العجوز، زال ما كنت أجده من الالم واستراح

قلبي، ودفعت إليها ما كان عليّ من الثياب وانصرفت وقالت لي : طيب قلبك . فقلت لها : لم يبقَ فيّ شيء من الألم وتباشر أهل بيتي وأصحابي بعافيتي . ولم أزل كذلك إلى يوم الجمعة، وإذا بالعجوز دخلت عليّ وسألتني عن حالي . فأخبرتها اني بخير وعافية . ثم لبست ثيابي وتعطّرت ومكثت انتظر الناس يذهبون إلى الصلاة حتى أمضي إليها . فقالت العجوز : إن معك في الوقت اتساعاً زائداً، فلو مضيت إلى الحمام وازلت شعرك لا سيما من أثر المرض لكان في ذلك صلاحك . فقلت لها : إن هذا هو الرأي الصواب . لكن أحلق رأسي أولاً ثم أدخل الحمام . فأرسلت خلف المزين ليحلق لي رأسي وقلت للغلام : امض إلى السوق وأتني بمزين يكون عاقلاً قليل الفضول لا يصدع رأسي بكثرة كلامه . فمضى الغلام وأتى بهذا الشيخ . فلما دخل سلّم عليّ فرددت عليه السلام فقال : أذهب الله غمّك وهمّك والبؤس والأحزان . فقلت : تقبل الله منك . فقال : أبشر يا سيدي فقد جاءتك العافية، تريد تقصير شعرك وإخراج دم ؟ فإنه ورد عن ابن عباس أنه قال : من قصّر شعره يوم الجمعة صرف الله عنه سبعين داء . وروى عنه أيضاً أنه قال : من احتجم يوم الجمعة لا يأمن ذهاب البصر وكثرة المرض . فقلت له : دع عنك هذا الهذيان وقم في هذه الساعة احلق لي رأسي فإني رجل ضعيف . فقام ومدّ يده وأخرج منديلاً وفتحه، وإذا فيه اصطرلاب وهو سبع صفائح، فأخذه ومضى إلى وسط الدار ورفع رأسه إلى شعاع الشمس ونظر ملياً وقال لي : اعلم أنه مضى من يومنا هذا وهو يوم الجمعة وهو عاشر صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وطالعه بمقتضى ما أوجبه علم الحساب المريخ سبع درج وستة دقائق . واتفق أنه قارنه عطارد، وذلك يدل على أن حلق الشعر جيد جداً، ودل عندي على أنك تريد الأفضال على شخص وهو مسعود، لكن بعده كلام يقع وشيء لا أذكره لك . فقلت له : والله لقد أضجرتني وأزهقت روحي وفوّلت عليّ، وأنا ما طلبتك إلّا لتحلق رأسي، فقم واحلق رأسي ولا تطل عليّ الكلام . فقال : والله لو علمت حقيقة الأمر لطلبت مني زيادة البيان، وأنا أشور عليك أنك تعمل اليوم بالذي آمرك به بمقتضى حساب الكواكب، وكان سبيلك أن تحمد الله ولا تخالفني . فإني ناصح لك وشفيق عليك وأودّ أن أكون في خدمتك سنة كاملة وتقوم بحقي، ولا أريد منك أجرة على ذلك . فلما سمعت ذلك منه قلت له : إنك قاتلي في هذا اليوم ولا محالة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 29

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب قال له : إنك قاتلي في هذا اليوم يا سيدي، أنا الذي تسميني الناس الصامت لقلة الكلام دون إخوتي، لان أخي الكبير اسمه البقبوق، والثاني الحدار، والثالث بقبق، والرابع اسمه الكوز الأصواني، والخامس اسمه العشار، والسادس اسمه شقالق، والسابع اسمه الصامت وهو أنا . فلما زاد على هذا المزين بالكلام رأيت أن مرارتي انفطرت وقلت للغلام : اعطه ربع دينار وخلّه ينصرف عني لوجه الله، فلا حاجة لي في حلاقة رأسي . فقال هذا المزين حين سمع كلامي مع الغلام : أي شيء هذا المقال يا مولاي؟ والله لا آخذ منك أجرة حتى أخدمك، ولا بد من خدمتك، فإنه واجب عليّ خدمتك وقضاء حاجتك، ولا أبالي إذا لم آخذ منك دراهم . فإن كنت لا تعرف قدري فأنا أعرف قدرك،

وكان والدك رحمه الله تعالى له علينا الإحسان لأنه كان كريماً. والله لقد أرسل والدك خلفي يوماً مثل هذا اليوم المبارك فدخلت عليه وكان عنده جماعة من أصحابه، فقال لي: أخرج لي دماً. فاخذت الاصطرلاب واخذت له الإرتفاع. فوجدت طالع الساعة نحساً وإخراج الدم فيها صعباً، فاعلمته بذلك. فامتثل وصبر إلى أن اتت الساعة الحميدة واخرجت له فيها الدم، ولم يخالفني بل شكرني وكذلك الجماعة الحاضرون، واعطاني والدك مائة دينار في نظير إخراج الدم. فقلت له: لا رحم الله أبي الذي عرف مثلك. فضحك هذا المزين وقال: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، سبحان من يغيّر ولا يتغيّر. ما كنت اظنك إلاّ عاقلاً لكنك خرفت من المرض. وقال الله في كتابه العزيز: والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس. وأنت معذور على كل حال وما أدري سبب عجلتك، وأنت تعلم أن والدك ما كان يفعل شيئاً إلاّ بمشورتي. وقد قيل إن المستشار مؤتمن، وما تجد أحداً أعرف مني بالأمور. فأنا واقف على اقدامي أخدمك وما ضجرت منك، فكيف ضجرت أنت مني؟ وأنا أصبر عليك لأجل ما لأبيك عليّ من الفضل. فقلت له: والله لقد أطلت عليّ الخطاب وزدت عليّ في المقال، وأنا قصدي أن تحلق راسي وتنصرف عني. وأظهرت الغضب وأردت أن أقوم وإن كان قد بلّ رأسي. فقال: قد علمت أنه قد غلب عليك الضجر مني، لكن لا أواخذك لأن عقلك ضعيف وأنت صبي ومن زمن قريب كنت أحملك على كتفي وأمضي بك إلى المكتب. فقلت له: يا أخي بحق الله عليك انصرف عني حتى أقضي شغلي وقم إلى حال سبيلك. ثم مزّقت أثوابي، فلما رآني فعلت ذلك اخذ الموس وسنّه، ولا زال يسنّه حتى كادت روحي أن تفارق جسمي. ثم تقدّم إلى رأسي وحلق منها بعضاً ثم رفع يده وقال: يا مولاي، العجلة من الشيطان. ثم إنه أنشد هذين البيتين: [من الطّويل]

تأنَّ ولا تَعْجَلْ لأمرٍ تُرِيْدُهُ ... وَكُنْ راحِماً للنَّاس تُبْلَ بِراحِمِ

فما مِنْ يَدٍ إلاّ يَدُ اللهِ فَوْقَها ... وَلا ظالِمٌ إلاّ سَيُبْلَى بِظالِمِ

ثم قال: يا مولاي، ما أظنك تعرف بمنزلتي، فإن يدي تقع على رأس الملوك والأمراء والوزراء والحكماء والفضلاء، وفي مثلي قال الشاعر: [من المتقارب]

جَمِيْعُ الصَّنائعِ مِثْلُ العُقُوْدِ ... وهَذا المُزَيِّنُ دُرُّ السُّلُوْكِ

فَيَعْلُوْ على كُلِّ ذِيْ حِكْمَةٍ ... وتَحْتَ يَدَيْهِ رُؤُوسُ المُلُوْكِ

فقلت له: دع ما لا يعنيك فقد ضيقت صدري واشغلت خاطري. فقال: أظنك مستعجلاً. فقلت له: نعم، نعم، نعم. فقال: تمهل على نفسك فإن العجلة من الشيطان وهي تورث الندامة والحرمان. وقد قال عليه الصلاة والسلام: خير الأمور ما كان فيه تأنّ. وأنا والله رابني أمرك فأشتهي أن تعرفني ما الذي أنت مستعجل من أجله ولعله خير، فإني أخشى أن يكون شيئاً غير ذلك، وقد بقي من الوقت ثلاث ساعات ثم غضب ورمى الموسى من يده وأخذ الاصطرلاب ومضى إلى الشمس ووقف حصة مديدة وعاد وقال: قد بقي لوقت الصلاة ثلاث ساعات لا تزيد ولا تنقص. فقلت له: بالله عليك اسكت عني فقد فتّت كبدي. فاخذ الموسى وسنّه كما فعل أولاً، وحلق بعض راسي وقال: أنا مهموم من عجلتك، فلو أطلعتني على سببها لكان خيراً لك. لأنك تعلم أن والدك ما كان يفعل شيئاً إلاّ بمشورتي. فلما علمت أن ما لي خلاص، قلت في

نفسي : قد جاء وقت الصلاة وأريد أن أمضي قبل أن تخرج الناس من الصلاة، فإن تأخرت ساعة لا ادري اين السبيل إلى الدخول إليها . فقلت : أوجز ودع عنك هذا الكلام والفضول، فإني أريد ان أمضي إلى دعوة عند أصحابي . فلما سمع ذكر الدعوة قال : يومك يوم مبارك عليّ، لقد كنت البارحة حلفت على جماعة من أصدقائي ونسيت أن أجهز لهم شيئاً يأكلونه وفي هذه الساعة تذكرت ذلك، وافضيحتاه منهم . فقلت له : لا تهتم بهذا الأمر، بعد تعريفك أنني اليوم في دعوة، فكل ما في داري من طعام وشراب لك إن أنجزت أمري وعجّلت حلاقة رأسي . فقال : جزاك الله خيراً، صف لي ما عندك لأضيافي حتى أعرفه . فقلت : عندي خمسة أوان من الطعام وعشر دجاجات محمّرات وخاروف مشوي . فقال : أحضرها لي حتى أنظر . فأحضرت إليه جميع ذلك . فلما عاينه قال : بقي الشراب . فقلت له :عندي . قال : أحضره . فأحضرته له . قال : لله درك ما أكرم نفسك، لكن بقي البخور والطيب . فأحضرت له درجاً فيه ندّ وعود وعنبر ومسك يساوي خمسين ديناراً، وكان الوقت قد ضاق حتى صار مثل صدري فقلت له : خذ هذا واحلق لي جميع رأسي بحياة محمد ﷺ. فقال المزين : والله ما آخذه حتى أرى جميع ما فيه . فامرت الغلام ففتح له الدرج ، فرمى المزين الاصطرلاب من يده وجلس على الأرض يقلب الطيب والبخور والعود الذي في الدرج حتى كادت روحي أن تفارق جسمي، ثم تقدم وأخذ الموسى وحلق من رأسي شيئاً يسيراً وقال : والله يا ولدي ما أدري أأشكرك أم أشكر والدك ؟ لأن دعوتي اليوم كلها من بعض فضلك وإحسانك، وليس عندي من يستحق ذلك وإنما عندي زيتون الحمامي وصليع الفاني وعوكل الفوال وعكرشة البقال وحميد الزبال وعكارش اللبان، ولكل من هؤلاء رقصة يرقصها وأبيات ينشدها، وأحسن ما فيهم أنهم مثل الملوك . وعبدك أنا لا اعرف كثرة كلام ولا فضول . أما الحمامي فإنه يقول : إن لم اذهب إليها تجئني بيتي . وأما الزبال فإنه ظريف خليع ، كثيراً ما يرقص ويقول : الخير عند زوجتي ما صار في صندوق . وكل واحد من أصحابي له لطائف لا توجد في الآخر . وليس الخبر كالعيان، فإن اخترت أن تحضر عندنا كان ذلك أحب إليك وإلينا، واترك رواحك إلى أصدقائك الذين قلت لي إنك تريد الذهاب إليهم ، فإن عليك أثر المرض . وربما تمضي إلى أقوام كثيرين الكلام يتكلمون فيما لا يعنيهم ، وربما يكون فيهم واحد فضولي وأنت قلقت روحك من المرض . فقلت : إن شاء الله يكون ذلك في غير هذا اليوم . فقال لي : الأنسب أن تقدم حضورك عند أصحابي لتغتنم مؤانستهم وتفوز بحملهم وتعمل بقول الشاعر : [من الرَّمل]

لاَ تُؤَخِّرْ لَذَّةً إنْ أَمْكَنَتْ إنَّ الزَّمانَ كَثِيرُ العَطَبْ

فضحكت عن قلب مشحون بالغيظ وقلت له : أقض شغلي وأسير أنا في أمان الله تعالى، وتمضي أنت إلى أصحابك فإنهم منتظرون قدومك . فقال : ما طلبت إلاّ أن أعاشرك بهؤلاء الأقوام فإنهم من أولاد الناس الذين ما فيهم فضولي، ولو رأيتهم مرة واحدة لتركت جميع أصحابك . فقلت له : نعم الله سرورك بهم ولا بدّ أن أحضرهم عندي يوماً . فقال : إذا أردت ذلك وقدمت دعوت أصحابك في هذا اليوم ، فاصبر حتى أمضي بهذا الإكرام الذي أكرمتني به وادعه عند أصحابي يأكلون ويشربون ولا ينتظرون . ثم أعود إليك وأمضي معك إلى أصدقائك

فليس بيني وبين أصدقائي حشمة تمنعني عن تركهم والعود إليك عاجلاً وأمضي معك أينما توجهت . فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . إمض أنت إلى أصدقائك وانشرح معهم ودعني أمضي إلى أصدقائي وأكون معهم في هذا اليوم فإنهم ينتظرون قدومي . فقال المزين : لا ادعك تمضي وحدك . فقلت له : إن الموضع الذي أمضي إليه لا يقدر أحد أن يدخل غيري . فقال : أظنك اليوم في ميعاد واحدة وإلاّ كنت تأخذني معك ، وأنا أحق من جميع الناس وأساعدك على ما تريد ، فإني أخاف أن تدخل على امرأة أجنبية فتروح روحك . فإن هذه مدينة بغداد لا يقدر أحد أن يعمل فيها شيئاً من هذه الأشياء لا سيما في مثل هذا اليوم ، وهذا والي بغداد صارم عظيم . فقلت : ويلك يا شيخ الشر ، أي شيء هذا الكلام الذي تقابلني به ؟ فسكت سكوتاً طويلاً وأدر كنا وقت الصلاة وجاء وقت الخطبة وقد فرغ من حلق رأسي . قلت له : امض إلى أصحابك بهذا الطعام والشراب وأنا أنتظرك حتى تعود وتمضي معي . ولم أزل أخادعه لعله يمضي . فقال لي : إنك تخادعني وتمضي وحدك وترمي نفسك في مصيبة لا خلاص لك منها . فالله الله ، لا تبرح حتى أعود إليك وأمضي معك حتى أعلم ما يتم من أمرك . فقلت له : نعم لا تبطىء عليّ . فأخذ ما أعطيته من الطعام والشراب وغيره وخرج من عندي ، فسلّمه إلى الحمال ليوصله إلى منزله وأخفى نفسه في بعض الأزقة . ثم قمت من ساعتي وقد أعلنوا على المنارات بسلام الجمعة ، فلبست ثيابي وخرجت وحدي وأتيت إلى الزقاق ووقفت على البيت الذي رأيت فيه تلك الصبية ، وإذا بالمزين خلفي ولا أعلم به . فوجدت الباب مفتوحاً فدخلت ، وإذا بصاحب الدار عاد إلى منزله من الصلاة ودخل القاعة وغلق الباب . فقلت : من أين علم هذا الشيطان بي ؟ فاتفق في هذه الساعة لأمر يريده الله من هتك ستري ، أن صاحب الدار أذنبت جارية عنده فضربها فصاحت ، فدخل عنده عبد ليخلصها فضربه فصاح الآخر . فاعتقد المزين أنه يضربني ، فصاح ومزّق أثوابه وحثى التراب على رأسه وصار يصرخ ويستغيث والناس حوله وهو يقول : قتل سيدي في بيت القاضي . ثم مضى إلى داري وهو يصيح والناس خلفه ، وأعلم أهل بيتي وغلماني ، فما دريت إلاّ وهم قد أقبلوا يصيحون : واسيداه . كل هذا والمزين قدامهم وهو ممزق الثياب والناس معهم . ولم يزالوا يصرخون وهو في أوائلهم يصرخ وهم يقولون : واقتيلاه . وقد أقبلوا نحو الدار التي أنا فيها . فلما سمع القاضي ذلك عظم عليه الأمر وقام وفتح الباب ، فرأى جمعاً عظيماً . فبهت وقال : يا قوم ما القصة ؟ فقال له الغلمان : إنك قتلت سيدنا . فقال : يا قوم ، وما الذي فعله سيدكم حتى أقتله ؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 30

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن القاضي قال للغلمان : ما الذي فعله سيدكم حتى أقتله ، وما لي أرى هذا المزين بين أيديكم ؟ فقال له المزين : أنت ضربته في هذه الساعة بالمقارع وأنا أسمع صياحه . فقال القاضي : وما الذي فعله حتى أقتله ؟ ومن أدخله داري ؟ ومن أين جاء وإلى أين يقصد ؟ فقال له المزين : لا تكن شيخاً نحساً ، فأنا أعلم الحكاية وسبب دخوله دارك وحقيقة الأمر كله . فبنتك تعشقه وهو يعشقها ، فعلمت أنه قد دخل دارك وأمرت غلمانك فضربوه . والله ما بيننا وبينك إلاّ الخليفة ، وتخرج لنا سيدنا لتأخذه أهله ، ولا تحوجني إلى أن أدخل وأخرجه من عندكم وعجّل أنت بإخراجه . فالتجم القاضي عن الكلام

وصار في غاية الخجل من الناس وقال للمزين : إن كنت صادقاً فادخل أنت واخرجه . فنهض المزين ودخل الدار ، فلما رأيت المزين دخل أردت أن أهرب فلم أجد لي مهرباً ، غير أني رأيت في الطبقة التي أنا فيها صندوقاً كبيراً فدخلت فيه ورددت الغطاء عليه وقطعت النفس ، فدخل القاعة ولم يلتفت إلى غير الجهة التي أنا فيها ، بل قصد الموضع الذي أنا فيه والتفت يميناً وشمالاً فلم يجد إلاّ الصندوق الذي أنا فيه ، فحمله على رأسه . . فلما فعل ذلك غاب رشدي ثم مرّ مسرعاً،فلما علمت أنه ما يتركني فتحت الصندوق وخرجت منه بسرعة ورميت نفسي على الأرض فانكسرت رجلي . فلما توجهت إلى الباب وجدت خلقاً كثيراً لم أرَ في عمري مثل هذا الازدحام الذي حصل في ذلك اليوم . فجعلت أنثر الذهب على الناس ليشتغلوا به ، فاشتغل الناس به وصرت أجري في أزقة بغداد وهذا المزين خلفي ، وأي مكان دخلت فيه يدخل خلفي وهو يقول : أرادوا أن يفجعوني في سيدي ، الحمد لله الذي نصرني عليهم وخلّص سيدي من أيديهم . فما زلت يا سيدي مولعاً بالعجلة لسوء تدبيرك حتى فعلت بنفسك هذه الأفعال ، فلولا منّ الله عليك بي ما كنت خلصت من هذه المصيبة التي وقعت فيها ، وربما كانوا يرمونك في مصيبة لا تخلص منها أبداً ، فأطلب من الله أن أعيش لك حتى أخلصك . والله لقد أهلكتني بسوء تدبيرك وكنت تريد أنك تروح وحدك ، ولكن ما نؤاخذك على جهلك لأنك قليل العقل عجول . فقلت له : أما كفاك ما جرى منك حتى تجري ورائي في الأسواق ؟ وصرت أتمنى الموت لأجل خلاصي منه فلا أجد موتاً ينقذني منه ، فمن شدة الغيظ فررت منه ودخلت دكاناً في وسط السوق واستجرت بصاحبها فمنعه عني ، وجلست في مخزن وقلت في نفسي : ما بقيت أقدر أن أفترق من هذا المزين ، بل يقيم عندي ليلاً ونهاراً ولم يبقَ فيّ قدرة على النظر إلى وجهه . فأرسلت في الوقت أحضرت الشهود وكتبت وصية لأهلي وفرقت مالي وجعلت إنساناً ناظراً عليهم وأمرته أن يبيع الدار والعقارات وأوصيته بالكبار والصغار وخرجت مسافراً من ذلك الوقت حتى أتخلص من هذا القوّاد . ثم جئت إلى بلادكم فسكنتها ولي فيها مدة . فلما عزمتم عليّ وجئت إليكم ، رأيت هذا القبيح القواد عندكم في صدر المكان . فكيف يستريح قلبي ويطيب مقامي عندكم مع هذا وقد فعل معي هذه الفعال وانكسرت رجلي بسببه ؟ ثم إن الشاب امتنع من الجلوس . فلما سمعنا حكايته مع المزين قلنا للمزين : أحقاً ما قاله هذا الشاب عنك ؟ فقال : والله أنا فعلت معه ذلك بمعرفتي ، ولولا أني فعلت ذلك لهلك ، وما سبب نجاته إلا أنا ، ومن فضل الله عليه بسببي أنه أصيب برجله ولم يصب بروحه . ولو كنت كثير الكلام ما فعلت معه ذلك الجميل ، وها أنا أقول لكم حديثاً جرى لي حتى تصدقوا أني قليل الكلام وما عندي فضول من دون أخوتي .

حكاية مزيّن بغداد مع أخوته الستة

وذلك أني كنت ببغداد في أيام خلافة أمير المؤمنين المنتصر بالله ، وكان يحب الفقراء والمساكين ويجالس العلماء والصالحين ، فاتفق له يوماً أنه غضب على عشرة أشخاص ، فأمر المتولي ببغداد أن يأتيه بهم في زورق ، فنظرتهم أنا فقلت : ما اجتمع هؤلاء إلاّ لعزومة ، وأظنهم يقطعون يومهم في هذا الزورق في أكل وشرب وما يكون نديمهم غيري . فقمت ونزلت معهم واختلطت بهم فقعدوا في الجانب الآخر ، فجاء لهم أعوان الوالي بالأغلال ووضعوها في رقابهم ووضعوا في رقبتي غلاً من جملتهم . فهذا يا جماعة ما هو من مروءتي وقلّة كلامي لأني ما رضيت أن أتكلّم .

فاخذونا جميعًا في الأغلال وقدّمونا بين يدي المنتصر بالله أمير المؤمنين . فأمر بضرب رقاب العشرة ، فضرب السيّاف رقاب العشرة وقد بقيت أنا ، فالتفت الخليفة فرآني فقال للسيّاف : ما بالك لا تضرب رقاب جميع العشرة ؟ فقال : ضربت رقاب العشرة كلهم . فقال له الخليفة : ما أظنك ضربت رقاب غير تسعة وهذا الذي بين يدي هو العاشر . فقال السيّاف : وحق نعمتك إنهم عشرة . قال : عدّوهم . فعدّوهم فإذا هم عشرة . فنظر إلى الخليفة وقال : ما حملك على سكوتك في هذا الوقت وكيف صرت مع أصحاب الدم ؟ فلما سمعت خطاب أمير المؤمنين قلت له : أعلم يا أمير المؤمنين أني أنا الشيخ الصامت وعندي من الحكمة شيء كثير ، وأما رزانة عقلي وجودة فهمي وقلّة كلامي فإنها لا نهاية لها ، وصنعتي الزيانة . فلما كان أمس بكرة النهار ، نظرت هؤلاء العشرة قاصدين الزورق فاختلطت بهم ونزلت معهم وظننت أنهم في عزومة ، فما كان غير ساعة وإذا هم أصحاب جرائم . فحضرت إليهم الأعوان ووضعوا في رقابهم الأغلال ووضعوا في رقبتي غلاً من جملتهم . فمن فرط مروءتي سكتّ ولم أتكلم . فعدم كلامي في ذلك الوقت من فرط مروءتي . فساروا بنا حتى أوقفونا بين يديك فأمرت بضرب رقاب العشرة وبقيت أنا بين يدي السيّاف ولم أعرّفكم بنفسي ، أما هذه مروءة عظيمة التي أحوجتني إلى أن أشاركهم في القتل ؟ ولكن طول دهري هكذا أفعل الجميل . فلما سمع الخليفة كلامي وعلم أني كثير المروءة قليل الكلام ما عندي فضول كما يزعم هذا الشاب الذي خلّصته من الأهوال قال الخليفة : وإخوتك الستة مثلك فيهم الحكمة والعلم وقلّة الكلام . قلت : لا عاشوا ولا بقيوا إن كانوا مثلي . ولكن ذممتني يا أمير المؤمنين ولا ينبغي لك أن تقرن إخوتي بي ، لأنهم من كثرة كلامهم وقلة مروءتهم صار كل واحد منهم بعاهة ؛ فمنهم واحد أعرج ، وواحد أعور ، وواحد أفلج ، وواحد أعمى ، وواحد مقطوع الأذنين والأنف ، وواحد مقطوع الشفتين ، وواحد أحول العينين . ولا تحسب يا أمير المؤمنين أني كثير الكلام ، ولا بدّ أن أبين لك أني أعظم مروءة منهم ولكل واحد حكاية اتفقت له حتى صار فيه عاهة ، وإن شئت أن أحكي لك .

حكاية الأخ الأكبر

فاعلم يا أمير المؤمنين أن الأول وهو الأعرج كان صنعته الخياطة ببغداد . فكان يخيط في دكان استأجرها من رجل كثير المال ، كان ذلك الرجل ساكناً على الدكان ، وكان في أسفل دار الرجل طاحون . فبينما أخي الأعور جالس في الدكان في بعض الأيام يخيط إذ رفع رأسه فرأى امرأة كالبدر الطالع في روشن الدار وهي تنظر إلى الناس . فلما رآها أخي تعلّق قلبه بحبها وصار يومه ذلك ينظر إليها وترك اشتغاله بالخياطة إلى وقت المساء . فلما كان وقت الصباح ، فتح دكانه وقعد يخيط ، وهو كلما غرز غرزة ينظر إلى الروشن . فمكث على ذلك مدة لم يخيط شيئاً يساوي درهماً . فاتفق أن صاحب الدار جاء إلى أخي يوماً من الأيام ومعه قماش وقال له : فصّل لي هذا وخيّطه أقمصة . فقال أخي : سمعاً وطاعة . ولم يزل يفصّل حتى فصّل عشرين قميصاً إلى وقت العشاء وهو لم يذق طعاماً . ثم قال له : كم أجرة ذلك ؟ فلم يتكلّم أخي . فأشارت إليه الصبيَّة بعينها لا تأخذ منه شيئاً ، وكان محتاجاً إلى فلس . واستمر ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلا القليل بسبب اجتهاده في تلك الخياطة . فلما فرغ من الخياطة التي لهم أتى إليهم بالأقمصة ، وكانت الصبية قد عرّفت زوجها بحال أخي ، وأخي لا يعلم ذلك . واتفقت هي وزوجها على استعمال

اخي في الخياطة بلا أجرة بل يضحكون عليه . فلما فرغ أخي من جميع أشغالهما ، عملا عليه حيلة وزوّجاه بجاريتهما . وليلة أراد أن يدخل عليها قالا له : بتّ الليلة في الطاحون إلى غد يكون خيراً . فاعتقد أخي ان لهما قصداً صحيحاً ، فبات في الطاحون وحده وراح زوج الصبية وغمز الطحان عليه حتى أنه يدوّره في الطاحون . فدخل عليه الطحّان في نصف الليل وجعل يقول : إن هذا الثور بطال مع أن القمح كثير وأصحاب الطحين يطلبونه ، فأنا أعلّقه في الطاحون حتى يخلص طحين القمح . فعلقه في الطاحون إلى قريب الصبح . فجاء صاحب الدار فرأى أخي معلقاً في الطاحون والطحان يضربه بالسوط ، فتركه ومضى . وبعد ذلك جاءته الجارية التي عقد عليها ، وكان مجيئها في بكرة النهار ، فحلّته من الطاحون وقالت : قد شق عليّ وعلى سيدتي ما جرى لك وقد حملنا همك . فلم يكن له لسان يرد جواباً من شدة الضرب . ثم إن أخي رجع إلى منزله وإذا بالشيخ الذي كتب الكتاب قد جاء وسلّم عليه وقال له : حيّاك الله زواجك مبارك ، إنك بتّ الليلة في النعيم والدلال والعناق من العشاء إلى الصباح . فقال له أخي : لا سلّم الله الكاذب يا ألف قواد ، والله ما جئت إلاّ لأطحن في موضع الثور إلى الصباح . فقال له : حدثني بحديثك . فحدثه أخي بما وقع له . فقال له : ما وافق نجمك نجمها ، ولكن إذا شئت أن أغير لك عقد العقد أغيره لك بأحسن منه لأجل أن يوافق نجمك نجمها . فقال له : انظر إن بقي لك حيلة أخرى . ثم إن أخي تركه وأتى إلى دكانه ينتظر أحداً يأتي إليه بشغل يتقوت من أجرته وإذا هو بالجارية قد أتت إليه ، وكانت اتفقت مع سيدتها على تلك الحيلة فقالت له : إن سيدتي مشتاقة إليك وقد طلعت السطح لترى وجهك من الروشن . فلم يشعر أخي إلاّ وهي قد طلعت له من الروشن وصارت تبكي وتقول : لأي شيء قطعت المعاملة بيننا وبينك . فلم يرد عليها جواباً فحلفت له أن جميع ما وقع له في الطاحون لم يكن باختيارها . فلما نظر أخي إلى حسنها وجمالها ذهب عنه ما حصل له وقبل عذرها وفرح برؤيتها ثم سلّم عليها وتحدّث معها وجلس في خياطته مدة . وبعد ذلك ذهبت إليه الجارية وقالت له : تسلّم عليك سيدتي وتقول لك إن زوجها قد عزم على أنه يبيت عند بعض أصدقائه في هذه الليلة ، فإذا مضى عندهم تكون أنت عندنا وتبيت مع سيدتي في ألذّ عيش إلى الصباح . وكان زوجها قد قال لها : ما يكون العمل في مجيئه عندك حتى آخذه وأجرّه إلى الوالي . فقالت : دعني أحتال عليه بحيلة وأفضحه فضيحة يشتهر بها في هذه المدينة ، وأخي لا يعلم شيئاً من كيد النساء . فلما أقبل المساء جاءت الجارية إلى أخي وأخذته ورجعت به إلى سيدتها فقالت له : والله يا سيدي إني مشتاقة إليك كثيراً . فقال : بالله عجّلي بقبلة قبل كل شيء . فلم يتم كلامه إلاّ وقد حضر زوج الصبية من بيت جاره فقبض على أخي وقال له : والله لا أفارقك إلاّ عند صاحب الشرطة . فتضرع إليه أخي فلم يسمعه بل حمله إلى دار الوالي فضربه بالسياط وأركبه جملاً ودوّره في شوارع المدينة والناس ينادون عليه : هذا جزاء من يتهجّم على حريم الناس . ووقع من فوق الجمل فانكسرت رجله فصار أعرج . ثم نفاه الوالي من المدينة فخرج لا يدري أين يقصد ، فاغتظت أنا فلحقته وأتيت به والتزمت بأكله وشربه إلى الآن . فضحك الخليفة من كلامي وقال : أحسنت . فقلت : لا أقبل هذا التعظيم منك دون أن تصغي إليّ حتى أحكي لك ما وقع لبقية إخوتي ، ولا تحسب أني كثير الكلام . فقال الخليفة : حدثني بما وقع لجميع إخوتك وشنّف مسامعي بهذه الرقائق واسلك سبيل الأطناب في

ذكر هذه اللطائف . فقلت :

حكاية الحدّار الأخ الثاني

أعلم يا أمير المؤمنين أن أخي الثاني كان اسمه الحدّار وقد وقع له أنه كان ماشياً يوماً من الأيام ومتوجّهاً إلى حاجة له، وإذا هو بعجوز قد استقبلته وقالت له : أيها الرجل قف قليلاً حتى أعرض عليك أمراً فإن أعجبك فاقضه لي . فوقف أخي فقالت له : أدلك على شيء وأرشدك إليه بشرط أن لا يكون كلامك كثيراً . فقال لها أخي : هاتي كلامك . قالت له : ما قولك في دار حسنة وماؤها يجري وفاكهة ومدام ووجه مليح تشاهده وخدّ أسيل تقبّله وقدّ رشيق تعانقه ؟ ولم تزل كذلك من العشاء إلى الصباح ، فإن فعلت ما اشترط عليك رايت الخير . فلما سمع أخي كلامها قال لها : يا سيدتي وكيف قصدتني بهذا الأمر من دون الخلق أجمعين فاي شيء أعجبك مني ؟ فقالت لأخي : ما قلت لك لا تكن كثير الكلام واسكت وامض معي . ثم ولّت العجوز وسار أخي تابعاً لها طمعاً فيما وصفته له حتى دخلا داراً فسيحة وصعدت به من أدنى إلى أعلى فرأى قصراً ظريفاً، فنظر أخي فرأى فيه أربع بنات ما رأى الراؤون أحسن منهن وهن يغنين بأصوات تطرب الحجر الأصم . ثم إن بنتاً منهن شربت قدحاً فقال لها أخي : بالصحة والعافية، وقام ليخدمها فمنعته من الخدمة ثم سقته قدحاً فشرب وصفعته على رقبته، فلما رأى أخي ذلك منها خرج مغضبًا ومكثراً للكلام فتبعته العجوز وجعلت تغمزه بعينها يعني ارجع ، فرجع وجلس ولم ينطق . فأعادت الصفع على قفاه إلى أن أغمي عليه . ثم قام أخي لقضاء حاجته فلحقته العجوز وقالت له : إصبر قليلاً حتى تبلغ ما تريد . فقال لها أخي : إلى كم أصبر قليلاً ولا أبلغ ما أريد ؟ فقالت له العجوز : إذا سكرت بلغت مرادك . فرجع أخي إلى مكانه وجلس ، فقامت البنات كلهن وأمرتهن العجوز أن يجردنه من ثيابه وأن يرششن على وجهه ماء ورد ففعلن ذلك، وقالت الصبية البارعة الجمال منهن : أعزك الله، قد دخلت منزلي فإن صبرت على شرطي بلغت مرادك . فقال لها أخي : يا سيدتي أنا عبدك وفي طبقة يدك . فقالت له : اعلم أن الله أشغفني بحب الطرب فمن أطاعني نال ما يريد . ثم أمرت الجواري أن يغنين فغنين حتى طرب المجلس . ثم قالت للجارية : خذي سيدك واقضي حاجته وأتني به في الحال . فأخذت الجارية أخي وهو لا يدري ما تصنع به، فلحقته العجوز وقالت له : إصبر ما بقي إلاّ القليل . فأقبل أخي على الصبية والعجوز تقول : إصبر فقد بلغت ما تريد وإنما بقي شيء واحد وهو أن تحلق ذقنك . فقال لها أخي : وكيف أعمل في فضيحتي بين الناس ؟ فقالت له العجوز : إنها ما أرادت أن تفعل بك ذلك إلاّ لأجل أن تصير أمرد بلا ذقن ولا يبقى في وجهك شيء يشكلها، فإنها صار في قلبها لك محبة عظيمة فاصبر فقد بلغت المنى . فصبر أخي وطاوع الجارية وحلق ذقنه وجاءت به إلى الصبية وإذا هو محلوق الحاجبين والشاربين والذقن ، محمرّ الوجه . ففزعت منه ثم ضحكت حتى استلقت على قفاها وقالت : يا سيدي لقد ملكتني بهذه الاخلاق الحسنة ثم حلّفته بحياتها أن يقوم ويرقص ، فقام ورقص فلم تدع في البيت مخدة حتى ضربته بها وكذلك جميع الجواري صرن يضربنه بمثل نارنجة وليمونة وأترجة إلى أن سقط مغشياً عليه من الضرب . ولم يزل الصفع على قفاه والرجم في وجهه إلى أن قالت له العجوز : الآن بلغت مرادك، واعلم أنه ما بقي عليك من الضرب شيء وما بقي إلاّ شيء واحد وذلك أن من عادتها أنها إذا سكرت لا تمكّن

أحداً من نفسها حتى تقلع ثيابها وسراويلها وتبقى عريانة من جميع ثيابها، وانت الآخر تقلع ثيابك وتجري وراءها وهي تجري قدامك كأنها هاربة منك ولم تزل تابعها من مكان إلى مكان حتى يقوم أيرك فتمكّنك من نفسها. ثم قالت له: قم اقلع ثيابك. فقام وهو غائب عن الوجود وقلع ثيابه جميعاً وبقي عرياناً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 31

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أخي المزين لما قالت له العجوز: قم اقلع ثيابك. قام وهو غائب عن الوجود وقلع ثيابه وصار عرياناً. قالت الجارية لأخي: قم الآن واجر ورائي وأجري أنا قدامك وإذا أردت شيئاً فاتبعني. فجرت قدامه وتبعها، ثم جعلت تدخل من محل إلى محل وتخرج من محل إلى آخر وأخي وراءها وقد غلب عليه الشبق وأيره قائم كأنه مجنون، ولم تزل تجري قدامه وهو يجري وراءها حتى سمع منها صوتاً رقيقاً وهي تجري قدامه وهو يجري وراءها. فبينما هو كذلك إذ رأى نفسه في وسط الزقاق وذلك الزقاق في سوق الجلادين وهم ينادون على الجلود، فرآه الناس على تلك الحالة وهو عريان قائم الأير محلوق الذقن والحواجب والشوارب محمرّ الوجه، فصاحوا عليه وصاروا يضحكون ويقهقهون، وصار بعضهم يصفعه بالجلود وهو عريان حتى غشي عليه وحملوه على حمار حتى وصّلوه إلى الوالي فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا وقع لنا من بيت الوزير وهو على هذه الحالة. فضربه الوالي مائة سوط وخرجت أنا خلفه وجئت به وأدخلته المدينة سراً ثم رتّبت له ما يقتات به. فلولا مروءتي ما كنت أحتمل مثله.

حكاية الأخ الثالث

وأما أخي الثالث فاسمه بقبق، ساقه القضاء والقدر إلى دار كبيرة فدقّ الباب طمعاً أن يكلمه صاحبها فيسأله شيئاً. فقال صاحب الدار: من بالباب؟ فلم يكلّمه أحد. فسمعه أخي يقول بصوت عال: من هذا؟ فلم يكلّمه أخي وسمع مشية حتى وصل إلى الباب وفتحه فقال له: ما تريد؟ قال له أخي: شيئاً لله تعالى. فقال له: هل أنت ضرير؟ قال له أخي: نعم. فقال له: ناولني يدك. فناوله يده فأدخله الدار ولم يزل يصعد به من سلّم إلى سلّم حتى وصل إلى أعلى السطوح وأخي يظن أنه يطعمه شيئاً أو يعطيه شيئاً. فلما انتهى إلى أعلى مكان قال لأخي: ما تريد يا ضرير؟ قال: أريد شيئاً لله تعالى. فقال له: يفتح الله عليك. فقال له أخي: يا هذا، أما كنت تقول لي ذلك وأنا في الأسفل؟ فقال له: يا أسفل السفلة لم تسألني شيئاً لله حين سمعت كلامي أول مرة وأنت تدق الباب. فقال أخي: وفي هذه الساعة ما تريد أن تصنع بي؟ فقال له: ما عندي شيء حتى أعطيك إيّاه. قال له: انزل بي إلى السلالم. فقال له: الطريق بين يديك. فقام أخي واستقبل السلالم وما زال نازلاً حتى بقي بينه وبين الباب عشرون درجة فزلقت رجله فوقع، ولم يزل واقعاً منحدراً في السلالم حتى انشجّت رأسه، فخرج وهو لا يدري أين يذهب فلحقه بعض رفقائه العميان فقالوا له: أي شيء حصل لك في هذا اليوم؟ فحدّثهم بما وقع له ثم قال لهم: يا إخواني أريد أن آخذ شيئاً من الدراهم التي بقيت معنا وأنفق منه على نفسي. وكان صاحب الدار مشي خلفه ليعرف حاله فسمع كلامه، وأخي لا يدري بأن الرجل يسعى خلفه إلى

أن دخل أخي مكانه ودخل الرجل خلفه وهو لا يشعر به وقعد أخي ينتظر رفقاءه . فلما دخلوا عليه قال لهم : اغلقوا الباب وفتشوا البيت كي لا يكون أحد غريب تبعنا . فلما سمع الرجل كلام أخي ، قام وتعلّق بحبل كان في السقف . فطافوا البيت جميعه فلم يجدوا أحداً ثم رجعوا وجلسوا إلى جانب أخي وأخرجوا الدراهم التي معهم وعدّوها فإذا هي عشرة الآف درهم ، فتركوها في زاوية البيت وأخذ كل واحد مما زاد عنها ما يحتاج إليه ودفنوا العشرة الآف درهم في التراب . ثم قدموا بين أيديهم شيئاً من الأكل وقعدوا يأكلون ، فأحس أخي بصوت غريب في جهته فقال لأصحابه : هل معنا غريب ؟ ثم مدّ يده فتعلّقت بيد الرجل صاحب الدار . فصاح على رفقائه وقال : هذا غريب . فوقعوا فيه ضربًا ، فلما طال عليهم ذلك صاحوا : يا مسلمون دخل علينا لصّ يريد أن يأخذ مالنا . فاجتمع عليهم خلق كثير ، فتعامى الرجل الغريب صاحب الدار الذي ادعوا عليه أنه لص وأغمض عينه وأظهر أنه اعمى مثلهم بحيث لا يشك فيه أحد وصاح : يا مسلمون أنا بالله والسلطان ، أنا بالله والوالي ، أنا بالله والأمير ، فإن عندي نصيحة للأمير فلم يشعروا إلاّ وقد احتاط بهم جماعة الوالي فأخذوهم وأخي معهم وأحضروهم بين يديه . فقال الوالي : ما خبركم ؟ فقال ذلك الرجل : إسمع كلامي أيها الوالي ، لا يظهر لك حقيقة حالنا إلاّ بالعقوبة وإن شئت فابدأ بعقوبتي قبل رفقائي . فقال الوالي : إطرحوا هذا الرجل واضربوه بالسياط . فطرحوه وضربوه . فلما أوجعه الضرب فتح إحدى عينيه ، فلما أزاد عليه الضرب فتح عينه الأخرى . فقال له الوالي : ما هذه الفعال يا فاجر ؟ فقال : أعطني الأمان وأنا أخبرك . فأعطاه الأمان فقال : نحن أربعة نعمل أرواحنا عمياناً ونمر على الناس وندخل البيوت وننظر النساء ونحتال في فسادهن واكتساب الأموال من طرفهن وقد حصلنا من ذلك مكسباً عظيماً وهو عشرة الآف درهم . فقلت لرفقائي : أعطوني حقي الفين وخمسمائة فقاموا وصربوني وأخذوا مالي ، وأنا مستجير بالله وبك وانت أحق بحصتي من رفقائي . وإن شئت أن تعرف صدق قولي فاضرب كل واحد أكثر مما ضربتني فإنه يفتح عينيه . فعند ذلك أمر الوالي بعقوبتهم وأول ما بدأ بأخي ولا زالوا يضربونه حتى كاد أن يموت . ثم قال لهم الوالي : يا فسقة ، أتجحدون نعمة الله وتدعون انكم عميان ؟ فقال أخي : الله الله الله ما فينا بصير . فطرحوه إلى الضرب ثانياً ولم يزالوا يضربونه حتى غشي عليه . فقال الوالي : دعوه حتى يفيق وأعيدوا عليه الضرب ثالث مرة ، ثم أمر بضرب أصحابه كل واحد أكثر من ثلاثمائة عصا والبصير يقول لهم : إفتحوا عيونكم وإلاّ جدّدوا عليكم الضرب . ثم قال للوالي : إبعث معي من يأتيك بالمال فإن هؤلاء ما يفتحون أعينهم ويخافون من فضيحتهم بين الناس . فبعث الوالي معه من أتاه بالمال ، فأخذه وأعطى الرجل منه الفين وخمسمائة درهم على قدر حصته رغماً عنهم ونفى أخي وباقي الثلاثة خارج المدينة . فخرجت أنا يا أمير المؤمنين ولحقت أخي وسألته عن حاله فأخبرني بما ذكرته لك ، فأدخلته المدينة سراً ورتّبت له ما يأكل وما يشرب طول عمره . فضحك الخليفة من حكايتي وقال : صلوه بجائزة ودعوه ينصرف . فقلت له : والله ما آخذ شيئاً حتى أبين لأمير المؤمنين ما جرى لبقية إخوتي وأوضح له أني قليل الكلام . فقال الخليفة : إصدع آذاننا بخرافة خبرك وزدنا من عجرك وبجرك . فقلت :

حكاية الأعور الأخ الرابع

وأما أخي الرابع يا أمير المؤمنين وهو الأعور، فإنه كان جزّاراً ببغداد يبيع اللحم ويربي الخرفان، وكانت الكبار وأصحاب الأموال يقصدونه ويشترون منه اللحم فاكتسب من ذلك مالاً عظيماً واقتنى الدواب والدور، ثم أقام على ذلك زمناً طويلاً. فبينما هو في دكانه يوماً من الأيام إذ وقف عليه شيخ كبير اللحية فدفع له دراهم وقال: أعطني بها لحماً. فأخذ منه الدراهم وأعطاه اللحم وانصرف. فتأمل أخي في فضة الشيخ فرأى دراهمه بيضاً بياضها ساطع، فعزلها وحدها في ناحية. وأقام الشيخ يتردّد عليه خمسة أشهر وأخي يطرح دراهمه في صندوق وحدها، ثم أراد أن يخرجها ويشتري غنماً. فلما فتح الصندوق رأى جميع ما فيه ورقاً أبيض مقصوصاً فلطم وجهه وصاح. فاجتمع الناس عليه فحدثهم بحديثه فتعجّبوا منه. ثم رجع أخي إلى الدكان على عادته فذبح كبشاً وعلّقه داخل الدكان وقطع لحماً وعلّقه خارج الدكان وصار يقول في نفسه: لعلّ ذلك الشيخ يجيء فأقبض عليه. فما كان إلاّ ساعة وقد أقبل الشيخ ومعه الفضة، فقام أخي وتعلّق به وصار يصيح: يا مسلمون الحقوني واسمعوا قصتي مع هذا الفاجر. فلما سمع الشيخ كلامه قال له: أي شيء أحب إليك، أن تعرض عن فضيحتي أو أفضحك بين الناس؟ فقال له أخي: بأي شيء تفضحني؟ قال: بأنك تبيع لحم الناس في صورة لحم الغنم. فقال له أخي: كذبت يا ملعون. فقال الشيخ: ما ملعون إلاّ الذي عنده رجل معلّق في الدكان. فقال له أخي: إن كان الأمر كما ذكرت فمالي ودمي حلال لك. فقال الشيخ: يا معاشر الناس إن هذا الجزار يذبح الآدميين ويبيع لحمهم في صورة لحم الغنم، وإن أردتم أن تعلموا صدق قولي فادخلوا دكانه. فهجم الناس على دكان أخي فرأوا ذلك الكبش صار انساناً معلقاً. فلما رأوا ذلك تعلّقوا بأخي وصاحوا عليه: يا كافر يا فاجر، وصار أعز الناس عليه يضربه، ولطمه الشيخ على عينه فقلعها، وحمل الناس ذلك المذبوح إلى صاحب الشرطة فقال له الشيخ: أيها الأمير إن هذا الرجل يذبح الناس ويبيع لحمهم على أنه لحم غنم وقد أتينا به فقم واقض حق الله عزّ وجلّ. فدافع أخي عن نفسه فلم يسمع منه صاحب الشرطة بل أمر بضربه خمسمائة عصا وأخذوا جميع ماله، ولولا كثرة ماله لقتلوه. ثم نفوا أخي من المدينة فخرج هائماً لا يدري أين يتوجّه حتى دخل مدينة كبيرة واستحسن أن يعمل إسكافياً، ففتح دكاناً وقعد يعمل شيئاً يتقوّت منه. فخرج ذات يوم في حاجة فسمع صهيل خيل، فبحث عن سبب ذلك فقيل له: إن الملك خارج إلى الصيد والقنص. فخرج أخي ليتفرّج على الموكب وهو يتعجّب من حسن رأيه حيث انتقل من صنعة الخياطة إلى صنعة الأساكفة، فالتفت الملك فوقعت عينه على عين أخي، فأطرق الملك رأسه وقال: أعوذ بالله من شرّ هذا اليوم. وثنى عنان فرسه وانصرف راجعاً فرجع جميع العسكر، وأمر الملك غلمانه أن يلحقوا أخي ويضربوه. فلحقوا به وضربوه ضرباً موجعاً حتى كاد أن يموت، ولم يدر أخي ما السبب. فرجع إلى موضعه وهو في حالة العدم ثم مضى إلى إنسان من حاشية الملك وقصّ عليه ما وقع له. فضحك حتى استلقى على قفاه وقال له: يا أخي، اعلم أن الملك لا يطيق أن ينظر إلى أعور لا سيما إن كان العوَر شمالاً فإنه لا يرجع عن قتله. فلما سمع أخي ذلك الكلام عزم على الهروب من تلك المدينة ثم ارتحل عنها وتحول إلى مدينة أخرى لم يكن فيها ملك وأقام بها زمناً طويلاً. ثم بعد ذلك تفكر في أمره وخرج يوماً

ليتفرّج فسمع صهيل خيل خلفه فقال : جاء أمر الله . وفرّ يطلب موضعاً ليستتر فيه فلم يجد ، ثم نظر فرأى باباً منصوباً فدفع ذلك الباب فوقع فدخل فرأى دهليزاً طويلاً ، فاستمر داخلاً فيه فلم يشعر إلاّ ورجلان قد تعلّقا به وقالا له : الحمد لله الذي أمكننا منك يا عدو الله ، هذه ثلاث ليال ما أرحتنا ولا تركتنا ننام ولا يستقر لنا مضجع بل أذقتنا طعم الموت . فقال أخي : يا قوم ما أمركم ؟ فقالوا : انت تراقبنا وتريد أن تفضحنا وتفضح صاحب البيت ، أمَا يكفيك أنك أفقرته وأفقرت أصحابك ؟ ولكن أخرج لنا السكين التي تهددنا بها كل ليلة ، وفتشوه فوجدوا في وسطه السكين التي يقطع بها النعال . فقال : يا قوم اتقوا الله في أمري واعلموا أن حديثي عجيب . فقالوا : وما حديثك ؟ فحدثهم بحديثه طمعاً أن يطلقوه . فلم يسمعوا منه ما قاله ولم يلتفتوا إليه ، بل ضربوه ومزّقوا ثوبه . فلما تمزّقت أثوابه وانكشف بدنه وجدوا أثر الضرب بالمقارع على جنبيه فقالوا له : يا ملعون ، هذا أثر الضرب يشهد على جرمك . ثم أحضروا أخي بين يدي الوالي فقال في نفسه : قد وقعت بذنوبي وما يخلّصني إلاّ الله تعالى . فلما حضر بين يدي الوالي قال له : يا فاجر ، ما حملك على أن ضربت بالمقارع إلاّ جرم عظيم . ثم ضرب أخي مائة سوط ، ثم حملوه على جمل ونادوا عليه : هذا جزاء من يهجم على بيوت الناس . فلما سمعت به أنا خرجت إليه ، ولا زلت دائراً معه وهم ينادون عليه حتى تركوه . فأتيت إليه وأخذته وأدخلته المدينة سرّاً ورتبت له ما يأكل وما يشرب .

حكاية الأخ الخامس

وأما أخي الخامس فإنه كان مقطوع الأذنين يا إمير المؤمنين ، وكان رجلاً فقيراً يسأل الناس ليلاً وينفق ما يحصّله بالسؤال نهاراً . وكان والدنا شيخاً كبيراً طاعناً في السن فخلف لنا سبعمائة درهم فأخذ كل واحد منا مائة درهم . وأما أخي الخامس هذا فانه لما أخذ حصته تحيّر ولم يدر ما يصنع بها . فبينما هو كذلك إذ وقع في خاطره انه يأخذ بها زجاجاً من كل نوع ليتّجر به ويربح . فاشترى بالمائة درهم زجاجاً وجعله في طبق كبير وقعد في موضع ليبيع ذلك الزجاج وبجانبه حائط ، فأسند ظهره إليه وقعد متفكّراً في نفسه وقال : إن رأس مالي في هذا الزجاج مائة درهم وأنا أبيعه بمائتي درهم ، ثم أشتري بالمائتي درهم زجاجاً وأبيعه بأربعمائة درهم . ولا أزال أبيع وأشتري إلى أن يبقى معي مال كثير ، فأشتري به من جميع المتاجر والعطريات حتى يربح ربحاً عظيماً . وبعد ذلك أشتري داراً حسنة وأشتري المماليك والخيل والسروج المذهبة وآكل وأشرب ولا أخلي مغنية في المدينة حتى أجيء بها إلى بيتي وأسمع مغانيها . هذا كله وهو يحسب في نفسه والقفص الزجاج قدّامه . ثم قال : وأبعث جميع الخاطبات في خطبة بنات الملوك والوزراء وأخطب بنت الوزير ، فقد بلغني أنها كاملة الحسن بديعة الجمال وأمهرها بألف دينار . فإن رضي أبوها حصل المراد وإن لم يرض أخذتها قهراً على رغم أنفه فإن حصلت في داري أشتري عشرة خدام صغار . ثم أشتري لي كسوة الملوك والسلاطين وأصوغ لي سرجاً من الذهب مرصّعاً بالجواهر . ثم أركب ومعي المماليك يمشون حولي وقدامي وخلفي حتى إذا رآني الوزير قام إجلالاً لي وأقعدني مكانه ويقعد هو دوني لأنه صهري ، ويكون معي خادمين بكيسين في كل كيس ألف دينار ، فأعطيه ألف دينار مهر بنته وأهدي إليه الألف الثاني إنعاماً حتى أظهر له مروءتي وكرمي وصغر الدنيا في عيني . ثم أنصرف إلى داري ، فإذا جاء أحد من جهة امرأتي

وهبت له دراهم وخلعت عليه خلعة، وإن أرسل إليّ الوزير هدية رددتها عليه ولو كانت نفيسة، ولم أقبلها منه حتى يعلموا أني عزيز النفس . ولا أخلي نفسي إلا في أعلى مكانة، ثم أقدّم إليهم في إصلاح شأني وتعظيمي . فإذا فعلوا ذلك أمرتهم بزفافها . ثم أصلح داري إصلاحاً بيّناً، فإذا جاء وقت الجلاء لبست أفخر ثيابي وقعدت على مرتبة من الديباج لا ألتفت يميناً ولا شمالاً لكبر عقلي ورزانة فهمي، وتجيء امرأتي وهي كالبدر في حليها وحللها وأنا أنظر إليها عجباً وتيهاً حتى يقول جميع من حضر : يا سيدي، امرأتك وجاريتك قائمة بين يديك فأنعم عليها بالنظر فقد أضرّ بها القيام . ثم يقبلون الأرض قدامي مراراً، فعند ذلك أرفع رأسي وأنظر إليها نظرة واحدة ثم أطرق برأسي إلى الأرض فيمضون بها وأقوم أنا وأغيّر ثيابي وألبس أحسن مما كان علي، فإذا جاؤوا بالعروسة المرة الثانية لا أنظر إليها حتى يسألوني مراراً فأنظر إليها ثم أطرق إلى الأرض . ولم أزل كذلك حتى يتم جلاؤها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 32

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن أخا المزين الخامس قال : ثم أطرق إلى الأرض، ولم أزل كذلك حتى يتم جلاؤها . ثم إني آمر بعض الخدام أن يرمي كيساً فيه خمسمائة دينار للمواشط، فإذا أخذته المواشط آمرهن أن يدخلنني عليها، فإذا أدخلنني عليها لا أنظر إليها ولا أكلمها احتقاراً لها لأجل أن يقال : إني عزيز النفس حتى تجيء أمها تقبّل رأسي ويدي وتقول لي : يا سيدي انظر جاريتك فإنها تشتهي قربك، فاجبر خاطرها بكلمة . فلا أرد عليها جواباً ولم تزل كذلك تستعطفني حتى تقوم وتقبّل يدي ورجلي مراراً ثم تقول : يا سيدي ان بنتي صبية مليحة ما رأت رجلاً، فإذا رأت منك هذا الانقباض انكسر خاطرها، فمل إليها وكلّمها . ثم إنها تقوم وتحضر لي قدحاً فيه شراب . ثم إن بنتها تأخذ القدح لتعطيني، فإذا جاءتني تركتها قائمة بين يدي وأنا متكيء على مخدة مزركشة بالذهب لا أنظر إليها من كبر نفسي وجلالة قدري حتى تظن في نفسها أني سلطان عظيم الشأن فتقول : يا سيدي بحق الله عليك لا ترد القدح من يد جاريتك فإني جاريتك . فلا أكلمها . فتلحّ عليّ وتقول : لا بدّ من شربه . وتقدّمه إلى فمي فأنفض يدي في وجهها وأرفصها وأعمل هكذا . ثم رفص أخي برجله فجاءت في قفص الزجاج وكان في مكان مرتفع فنزل إلى الأرض فتكسر كل ما فيه . ثم قال أخي الخياط : هذا كله من كبر نفسي . ولو كان أمره إليّ يا أمير المؤمنين لضربته ألف سوط وأشهرته في البلد . ثم بعد ذلك صار أخي يلطم على وجهه ومزّق ثيابه وجعل يبكي ويلطم والناس ينظرون إليه وهم رائحون إلى صلاة الجمعة، فمنهم من يرمقه ومنهم من لم يفكر فيه وهو على تلك الحالة وراح منه رأس المال والربح . ولم يزل جالساً يبكي وإذا بامرأة مقبلة إلى صلاة الجمعة وهي بديعة الجمال، تفوح منها رائحة المسك، وتحتها بغلة برذعتها من الديباج، مزركشة بالذهب ومعها عدد من الخدم . فلما نظرت إلى الزجاج وحال أخي وبكائه، أخذتها الشفقة عليه ورقّ قلبها له وسألت عن حاله فقيل لها : إنه كان معه طبق زجاج يتعيّش منه فانكسر منه فأصابه ما تنظرينه . فنادت بعض الخدام وقالت له : إدفع الذي معك إلى هذا المسكين . فدفع له صرّة فأخذها، فلما فتحها وجد فيها خمسمائة دينار، فكاد أن يموت من شدة الفرح . وأقبل أخي بالدعاء لها ثم عاد إلى منزله غنيّاً وقعد متفكراً، وإذا بداقٍ يدق الباب فقام

وفتح وإذا بعجوز لا يعرفها فقالت له : يا ولدي أعلم ان الصلاة قد قرب زوال وقتها وأنا بغير وضوء وأطلب منك ان تدخلني منزلك حتى أتوضأ . فقال لها : سمعاً وطاعةً . ثم دخل أخي وأذن لها بالدخول وهو طائر من الفرح بالدنانير . فلما فرغت أقبلت إلى الموضع الذي هو جالس فيه وصلّت هناك ركعتين ثم دعت لأخي دعاء حسناً . فشكرها على ذلك وأعطاها دينارين . فلما رأت ذلك قالت : سبحان الله إني لأعجب ممن أحبك وأنت بسمة الصعاليك ، فخذ مالك عنّي وإن كنت غير محتاج إليه فاردده إلى التي أعطتك إيّاه لمّا انكسر الزجاج منك . فقال لها أخي : يا أمي كيف الحيلة في الوصول إليها؟ قالت : يا ولدي إنها تميل إليك لكنها زوجة رجل موسر . فخذ جميع مالك معك فإذا اجتمعت بها فلا تترك شيئاً من الملاطفة والكلام الحسن إلاّ وتفعله معها ، فإنك تنال من جمالها ومن مالها جميع ما تريده . فأخذ أخي جميع الذهب وقام ومشى مع العجوز وهو لا يصدّق بذلك . فلم تزل تمشي وأخي يمشي وراءها حتى وصلا إلى باب كبير ، فدقته فخرجت جارية رومية وفتحت الباب ، فدخلت العجوز وأمرت أخي بالدخول فدخل داراً كبيرة . فلما دخلها رأى فيها مجلساً كبيراً مفروشاً وستائر مسبلة . فجلس أخي ووضع الذهب بين يديه ووضع عمامته على ركبته ، فلم يشعر إلاّ وجارية أقبلت ما رأى مثلها الراؤون وهي لابسة أفخر القماش . فقام أخي على قدميه ، فلما رأته ضحكت في وجهه وفرحت به ثم ذهبت إلى الباب وأغلقته ثم أقبلت على أخي وأخذت يده ومضيا جميعاً إلى ان أتيا إلى حجرة منفردة ، فدخلاها وإذا هي مفروشة بأنواع الديباج . فجلس أخي وجلست بجانبه ولاعبته ساعة زمانية ثم قامت وقالت له : لا تبرح حتى أجيء إليك وغابت عن أخي ساعة . فبينما هو كذلك إذ دخل عليه عبد أسود عظيم الخلقة ومعه سيف مجرّد يأخذ لمعانه بالبصر وقال لأخي : يا ويلك ، من جاء بك إلى هذا المكان يا أخس الأنس يا ابن الزانية وتربية الخَنَا؟ فلم يقدر أخي أن يردّ عليه جواباً ، بل انعقد لسانه في تلك الساعة . فأخذه العبد وأعراه ولم يزل يضربه بالسيف صفحاً ضربات متعددة أكثر من ثمانين ضربة إلى أن سقط من طوله على الأرض ، فرجع العبد عنه واعتقد أنه مات وصاح صيحة عظيمة بحيث ارتجّت الأرض من صوته ودوى له المكان وقال : أين المليحة؟ فأقبلت إليه جارية في يدها طبق مليح فيه ملح أبيض . فصارت الجارية تأخذ من ذلك الملح وتحشو الجراحات التي في جلد أخي حتى تهورت وأخي لا يتحرك خيفة ان يعلموا أنه حي فيقتلوه . ثم مضت الجارية وصاح العبد صيحة مثل الأولى فجاءت العجوز إلى أخي وجرّته من رجله إلى سرداب طويل مظلم ورمته فيه على جماعة مقتولين فاستقر في مكانه يومين كاملين . وكان الله سبحانه جعل الملح سبباً لحياته لأنه قطع عروق الدم . فلما رأى أخي في نفسه القوة على الحركة قام من السرداب وفتح طاقة في الحائط وخرج من مكان القتلى ، وأعطاه الله عز وجل الستر فمشى في الظلام واختفى في ذلك الدهليز إلى الصبح . فلما كان وقت الصبح خرجت العجوز في طلب صيد آخر فخرج أخي في أثرها وهي لا تعلم به حتى أتى إلى منزله ، ولم يزل يعالج نفسه حتى برىء . ولم يزل يتعهد العجوز وينظر إليها كل وقت وهي تأخذ الناس واحداً بعد واحد وتوصلهم إلى تلك الدار وأخي لا ينطق بشيء . ثم لما رجعت إليه صحته وكملت قوّته ، عمد إلى خرقة وعمل منها كيساً وملأه زجاجاً وشدّه في وسطه وتنكّر حتى لا يعرفه احد ولبس ثياب العجم وأخذ سيفاً وجعله تحت ثيابه . فلما رأى العجوز قال لها بكلام العجم :

يا عجوز ، هل عندك ميزان يسع تسعمائة دينار ؟ فقالت العجوز : لي ولد صغير صيرفي عنده سائر الموازين فامض معي إليه قبل أن يخرج من مكانه حتى يزن لك ذهبك . فقال أخي : إمشي قدامي . فسارت وسار أخي خلفها حتى أتت الباب فدقّته ، فخرجت الجارية وضحكت في وجهه فقالت العجوز : أتيتكم بلحمة سمينة . فأخذت الجارية بيد أخي وأدخلته الدار التي دخلها سابقاً وقعدت عنده ساعة وقامت وقالت لأخي : لا تبرح حتى أرجع إليك . وراحت فلم يستقرّ أخي إلاّ والعبد أقبل ومعه السيف المجرّد فقال لأخي : قم يا مشؤوم . فقام أخي وتقدّم العبد أمامه وأخي وراءه ومدّ يده إلى سيفه التي تحت ثيابه وضرب به العبد فرمى رأسه وسحبه من رجله إلى السرداب ونادى : أين المليحة ؟ فجاءت الجارية وبيدها الطبق الذي فيه الملح . فلما رأت أخي والسيف بيده ولّت هاربة فتبعها أخي وضربها فرمى رأسها ثم نادى : أين العجوز ؟ فجاءت فقال لها : أتعرفينني يا عجوز النحس ؟ فقالت : لا يا مولاي . فقال لها : أنا صاحب الدنانير الذي جئت وتوضأت عندي وصليّت ثم تحيّلت عليّ حتى أوقعتني هنا . فقالت : إتق الله في أمري . فالتفت إليها وضربها بالسيف فصيّرها قطعتين ثم خرج في طلب الجارية ، فلما رأته طار عقلها وطلبت منه الأمان فامنها ، ثم قال لها : ما الذي أوقعك عند هذا الأسود ؟ فقالت : إني كنت جارية لبعض التجار وكانت هذه العجوز تتردّد عليّ ، فقالت لي يوماً من الأيام : إن عندنا فرحاً ما رأى أحد مثله فأحب أن تنظري إليه . فقلت لها : سمعاً وطاعةً . ثم قمت ولبست أحسن ثيابي وأخذت معي صرّة فيها مائة دينار ومضيت معها حتى أدخلتني هذه الدار . فلما دخلت ما شعرت إلاّ وهذا الأسود أخذني ولم ازل عنده على هذا الحال ثلاث سنين بحيلة العجوز الكاهنة . فقال لها أخي : هل له في الدار شيء ؟ فقالت : عنده شيء كثير ، فإن كنت تقدر على نقله فانقله . فقام أخي ومشى معها ففتحت له صناديق فيها أكياس . فبقي أخي متحيّراً فقالت له الجارية : إمض الآن ودعني هنا وهات من ينقل المال . فخرج واكترى عشرة رجال وجاء . فلما وصل إلى الباب وجده مفتوحاً ولم يرَ الجارية ولا الأكياس وإنما رأى شيئاً يسيراً من المال ورأى القماش فعلم أنها خدعته . فعند ذلك أخذ المال الذي بقي وفتح الخزائن وأخذ جميع ما فيها من القماش ولم يترك في الدار شيئاً وبات تلك الليلة مسروراً . فلما أصبح الصباح وجد بالباب عشرين جندياً . فلما خرج إليهم تعلّقوا به وقالوا له : إن الوالي يطلبك . فأخذوه وراحوا إلى الوالي فلما رأى أخي قال له : من أين لك هذا القماش ؟ فقال أخي : أعطني الأمانَ . فأعطاه منديل الأمان ، فحدّثه بجميع ما وقع له مع العجوز من الأول إلى الآخر ومن هروب الجارية ثم قال للوالي : والذي أخذته خذ منه ما شئت ودع لي ما أتقوّت به . فطلب الوالي جميع المال والقماش وخاف أن يعلم به السلطان ، فأخذ البعض وأعطى أخي البعض وقال له : أخرج من هذه المدينة وإلاّ أشنقك . فقال : السمع والطاعة . فخرج إلى بعض البلدان فخرجت عليه اللصوص فعرّوه وضربوه وقطعوا أذنيه ، فسمعت بخبره فخرجت إليه وأخذت إليه ثياباً وجئت به إلى المدينة مسروراً ورتبت له ما يأكله وما يشربه .

حكاية الأخ السادس

وأما أخي السادس يا أمير المؤمنين ، وهو مقطوع الشفتين ، فإنه كان فقيراً جداً لا يملك شيئاً من حطام الدنيا الفانية ، فخرج يوماً من الأيام يطلب شيئاً يسدّ به رمقه ، فبينما هو في بعض

الطرق إذ رأى داراً حسنة ولها دهليز واسع مرتفع وعلى الباب خدم وأمر ونهي، فسأل بعض الواقفين هناك فقال: هي لإنسان من أولاد الملوك. فتقدّم أخي إلى البوابين وسألهم شيئاً فقالوا: أدخل باب الدار تجد ما تحب من صاحبها. فدخل الدهليز ومشى فيه ساعة حتى وصل إلى دار في غاية ما يكون الملاحة والظرف، وفي وسطها بستان ما رأى الراؤون أحسن منه، وأرضها مفروشة بالرخام وستورها مسبولة. فصار أخي لا يعرف أين يقصد، فمضى نحو صدر المكان فرأى إنساناً حسن الوجه واللحية. فلما رأى أخي قام إليه ورحّب به وسأله عن حاله فأخبره أنه محتاج. فلما سمع كلام أخي أظهر غمّاً شديداً ومدّ يده إلى ثياب نفسه ومزّقها وقال: هل أكون أنا ببلد وأنت بها جاد؟ لا صبر لي على ذلك. ووعده بكل خير. ثم قال: لا بدّ أن تمالحني. فقال: يا سيدي ليس لي صبر وإني شديد الجوع. فصاح: يا غلام هات الطشت والإبريق. ثم قال له: يا ضيفي تقدم واغسل يديك. ثم أومأ كأنه يغسل يديه ثم صاح على أتباعه أن قدموا المائدة، فجعلت أتباعه تغدوا وتروح كأنها تهيّىء السفرة. ثم أخذ أخي وجلس معه على تلك السفرة الموهومة وصار صاحب المنزل يومِىء ويحرّك شفتيه كأنه يأكل ويقول لأخي: كُلْ ولا تستح فإنك جائع، وأنا أعلم ما أنت فيه من شدة الجوع. فجعل أخي يومىء كأنه يأكل وهو يقول لأخي: كُل وانظر هذا الخبز وبياضه، وأخي لا يبدي شيئاً. ثم إن أخي قال في نفسه: إن هذا رجل يحب أن يهزأ بالناس فقال له: يا سيدي عمري ما رأيت أحسن من بياض هذا الخبز ولا ألذّ من طعمه. فقال: هذا خبزته جارية لي كنت اشتريتها بخمسمائة دينار. ثم صاح صاحب الدار: يا غلام قدّم لنا السكباج الذي لا يوجد مثله في طعام الملوك. ثم قال لأخي: كُل يا ضيفي فإنك جائع شديد الجوع ومحتاج إلى الأكل. فصار أخي يدور حنكه ويمضغ كأنه يأكل. وأقبل الرجل يستدعي لوناً بعد لون من الطعام ولا يحضر شيئاً إلاّ ويأمر أخي بالأكل ثم صاح: يا غلام قدّم لنا الفراريج المحشوّة بالفستق، فكُل ما لم تأكل مثله قط. فقال: يا سيدي إن هذا الأكل لا نظير له في اللذّة. وأقبل يومىء بيده إلى فم أخي حتى كأنه يلقّمه بيده، وكان يعدد هذه الألوان ويصفها لأخي بهذه الأوصاف وهو جائع. فاشتدّ جوعه وصار بشهوة رغيف من شعير. ثم قال له صاحب الدار: هل رأيت أطيب من أبازير هذه الاطعمة؟ فقال له أخي: لا يا سيدي. فقال: أكثر الأكل ولا تستح. فقال: قد اكتفيت من الطعام. فصاح الرجل على أتباعه أن قدموا الحلويات، فحركوا أيديهم في الهواء كأنهم قدموا الحلويات ثم قال صاحب المنزل لأخي: كُل من هذا النوع فإنه جيد وكُل من هذه القطائف بحياتي، وخذ هذه القطيفة قبل أن ينزل منها الجلاّب. فقال له أخي: لا عدمتك يا سيدي. وأقبل أخي يسأله عن كثرة المسك الذي في القطائف، فقال له: إن هذه عادتي في بيتي فدائماً يضعون لي في كل قطيفة مثقالاً من المسك ونصف مثقال من العنبر. هذا كله وأخي يحرّك رأسه وفمه يلعب بين شدقيه كأنه يتلذّذ بأكل الحلويات. ثم صاح صاحب الدار على أتباعه أن احضروا النقل، فحرّكوا أيديهم في الهواء كأنهم احضروا النقل وقال لأخي: كُل من هذا اللوز ومن هذا الجوز ومن هذا الزبيب ونحو ذلك. صار يعدّد له أنواع النقل ويقول له: كُل ولا تستح. فقال له أخي: يا سيدي قد اكتفيت ولم يبقَ لي قدرة على أكل شيء. فقال: يا ضيفي إن أردت أن تأكل وتتفرّج على غرائب المأكولات فالله الله لا تكن جائعاً. ثم فكّر أخي في نفسه وفي استهزاء ذلك الرجل به وقال: والله

لأعملن فيه عملاً يتوب بسببه إلى الله عن هذه الفعال . ثم قال الرجل لأتباعه : قدموا لنا الشراب . فحركوا أيديهم في الهواء حتى كأنهم قدموا الشراب، ثم أومأ صاحب المنزل كأنه ناول أخي قدحاً وقال : خذ هذا القدح فإنه أعجبك . فقال له : يا سيدي هذا من إحسانك . وأومأ أخي بيده كأنه يشربه . فقال له : هل أعجبك ؟ فقال له : يا سيدي ما رأيت ألذّ من هذا الشراب . فقال له : إشرب هنيئاً وصحة . ثم إن صاحب البيت أومأ وشرب ثم ناول أخي قدحاً ثانياً فخيّل أنه شربه واظهر انه سكران . ثم إن أخي غافله ورفع يده حتى بان بياض إبطه وصفعه على رقبته صفعة رنّ لها المكان . ثم ثنى عليه بصفعة ثانية فقال له الرجل : ما هذا يا أسفل العالمين ؟ فقال : يا سيدي أنا عبدك الذي أنعمت عليه وأدخلته منزلك وأطعمته الزاد وأسقيته الخمر العتيق، فسكر وعربد عليك ومقامك أعلى من ان تؤاخذه بجهله . فلما سمع صاحب المنزل كلام أخي ضحك ضحكاً عالياً ثم قال له : إن لي زماناً طويلاً أسخر بالناس وأهزأ بجميع أصحاب المزاح والمجون، ما رأيت منهم من له طاقة على أن أفعل به هذه السخرية ولا من له فطنة يدخل في جميع أموري غيرك، والآن عفوت عنك فكن نديمي على الحقيقة ولا تفارقني . ثم أمر بإخراج عدة من أنواع الطعام المذكورة أولاً، فأكل هو وأخي حتى اكتفيا ثم انتقلا إلى مجلس الشراب فإذا فيه جوار كأنهن الأقمار، فغنين بجميع الألحان واشتغلن بجميع الملاهي، ثم شربا حتى غلب عليهما السكر . وانس الرجل بأخي حتى كأنه أخوه وحبّه محبة عظيمة وخلع عليه خلعة سنيّة . فلما أصبح الصباح عادا لما كانا عليه من الأكل والشرب ولم يزالا كذلك مدة عشرين سنة . ثم إن الرجل مات وقبض السلطان على ماله واحتوى عليه . فخرج أخي من البلد هارباً، فلما وصل إلى نصف الطريق خرج عليه العرب فأسروه، وصار الذي أسره يعذبه ويقول له : لله اشتر روحك مني بالأموال وإلاّ أقتلك . فجعل أخي يبكي ويقول : أنا والله لا أملك شيئاً يا شيخ العرب ولا أعرف طريق شيء من المال وأنا أسيرك وصرت في يدك فافعل بي ما شئت . فأخرج البدوي الجبار من حزامه سكيناً عريضة لو نزلت على رقبة جمل لقطعتها من الوريد إلى الوريد، وأخذها في يده اليمين وتقدّم إلى أخي المسكين وقطع بها شفتيه وشدّد عليه بالمطالبة . وكان للبدوي زوجة حسنة، وكانت إذا خرج البدوي تتعرض لأخي وتراوده عن نفسه وهو يمتنع حياء من الله تعالى . فاتفق ان راودت أخي يوماً من الأيام فقام ولاعبها وأجلسها في حجره، فبينما هما كذلك وإذا بزوجها داخل عليهما، فلما نظر إلى أخي قال له : ويلك يا خبيث، أتريد الآن أن تفسد عليّ زوجتي ؟ واخرج سكيناً وقطع بها ذكره وحمله على جمل وطرحه فوق جبل وتركه وسار إلى حال سبيله . فجاز عليه المسافرون فعرفوه فأطعموه وسقوه وأعلموني بخبره فذهبت إليه وحملته ودخلت به المدينة ورتّبت له ما يكفيه . وها انا جئت عندك يا أمير المؤمنين وخفت أن أرجع إلى بيتي قبل إخبارك فيكون ذلك غلطاً، وورائي ستة أخوة وأنا أقوم بهم . فلمّا سمع أمير المؤمنين قصتي وما اخبرته عن أخوتي ضحك وقال : صدقت يا صامت أنت قليل الكلام ما عندك فضول، ولكن الآن اخرج من هذه المدينة واسكن غيرها . ثم نفاني من بغداد، فلم أزل سائراً في البلاد حتى طفت الأقاليم إلى أن سمعت بموته وخلافة غيره فرجعت إلى المدينة فوجدته مات، ووقعت عند هذا الشاب وفعلت معه أحسن الفعال . ولولا أنا لقتل، وقد اتهمني بشيء ما هو فيّ، وجميع ما نقله عنّي من الفضول وكثرة الكلام وكثافة الطبع وعدم الذوق باطل يا جماعة .

ثم قال الخياط لملك الصين : فلما سمعنا قصة المزيّن وتحقّقنا فضوله وكثرة كلامه، وأن الشاب مظلوم معه، أخذنا المزين وقبضنا عليه وحبسناه وجلسنا حوله آمنين . ثمَّ أكلنا وشربنا وتمّت الوليمة على أحسن حالة، ولم نزل جالسين إلى أن أذنّ العصر فخرجت وجئت منزلي وغشيت زوجتي فقالت : أنت طول النهار في حظك وأنا قاعدة في البيت حزينة،فإن لم تخرج بي وتفرجني بقية النهار كان ذلك سبب فراقي منك . فأخذتها وخرجت بها وتفرّجنا إلى العشاء ثم رجعنا، فلقينا هذا الأحدب والسكر طافح منه وهو ينشد هذين البيتين : [من الكامل]

رَقَّ الزُّجاجُ ورَاقَتِ ٱلْخَمْرُ فَتَشابَها وتَشَاكَلَ ٱلأمْرُ
فكأنَّما خَمْرٌ ولاَ قَدَحٌ وكأنَّما قَدَحٌ ولا خَمْرٌ

فعزمت عليه فأجابني، وخرجت لأشتري سمكاً مقلياً . فاشتريت ورجعت ثم جلسنا نأكل، فأخذت زوجتي لقمة وقطعة سمك وأدخلتهما فمه وسدّته فمات . فحملته وتحايلت حتى رميته في بيت هذا الطبيب، وتحايل الطبيب حتى رماه في بيت المباشر، وتحايل المباشر حتى رماه في طريق السمسار . وهذه قصة ما لقيته البارحة . أما هي أعجب من قصة الأحدب؟ فلما سمع ملك الصين هذه القصة أمر بعض حجابه أن يمضوا مع الخياط ويحضروا المزيّن وقال لهم : لا بدّ من حضوره لأسمع كلامه ويكون ذلك سبباً في خلاصكم جميعاً وندفن هذا الأحدب ونواريه في التراب فإنه ميت من أمس، ثم نعمل له ضريحاً لأنه كان سبباً في اطلاعنا على هذه الأخبار العجيبة . فما كان إلا ساعة حتى جاء الحجّاب هم والخياط بعد أن مضوا إلى الحبس وأخرجوا منه المزيّن وساروا به إلى أن أوقفوه بين يدي هذا الملك . فلما رآه تأمله، فإذا هو شيخ كبير جاوز التسعين، أسود الوجه أبيض اللحية والحواجب مقرطم الأذنين طويل الأنف في نفسه كبر . فضحك الملك من رؤيته وقال : يا صامت أريد أن تحكي لي شيئاً من حكاياتك . فقال المزيّن : يا ملك الزمان ما شأن هذا النصراني وهذا اليهودي وهذا المسلم وهذا الأحدب بينكم ميت، وما سبب هذا الجمع ؟ فقال له ملك الصين : وما سؤالك عن هذا؟ فقال : سؤالي عنهم حتى يعلم الملك أني غير فضولي ولا اشتغل بما لا يعنيني، وإنني بريء مما اتهموني به من كثرة الكلام، وإن لي نصيباً من اسمي حيث لقبوني بالصامت كما قال الشاعر : [من البسيط]

وَقَلَّمَا أَبْصَرَتْ عَيْناكَ ذا لَقَبٍ إلاَّ وَمَعْناهُ إنْ فَتَّشْتَ في لَقَبِهْ

فقال الملك : إشرحوا للمزيّن حال هذا الأحدب وما جرى له في وقت العشاء، واشرحوا له ما حكى النصراني وما حكى اليهودي وما حكى المباشر وما حكى الخياط . فحكوا له حكايات الجميع وليس في الإعادة إفادة . فحرّك المزيّن رأسه وقال : والله إن هذا الشيء عجاب . إكشفوا لي عن هذا الأحدب . فكشفوا له عنه فجلس عند رأسه وأخذ رأسه على حجره ونظر في وجهه وضحك ضحكاً عالياً حتى انقلب على قفاه من شدّة الضحك وقال : لكل موتة سبب من الأسباب، وموتة هذا الأحدب من عجب العجاب يجب أن تؤرخ في السجلات ليعتبر بما مضى من هو آتٍ . فتعجّب الملك من كلامه وقال : يا صامت، إحك لنا سبب كلامك هذا . فقال : يا ملك، وحق نعمتك إن الأحدب فيه الروح . ثم إن المزيّن أخرج من وسطه مكحلة فيها دهن

ودهن رقبة الأحدب وغطّاها حتى عرقت، ثم أخرج كلا بتين من حديد ونزل بهما في حلقه فالتقطت قطعة السمك بعظمها. فلما أخرجها رآها الناس بعيونهم ثم نهض الأحدب واقفاً على قدميه وعطس عطسة واستفاق في نفسه وملّس بيديه على وجهه وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ. فتعجّب الحاضرون من الذي رأوه وعاينوه، فضحك ملك الصين حتى غشي عليه وكذلك الحاضرون. وقال السلطان: والله إن هذه قصة عجيبة ما رأيت أغرب منها. ثم إن السلطان قال: يا مسلمون يا جماعة العسكر، هل رأيتم في عمركم أحداً يموت ثم يحيا بعد ذلك؟ ولولا رزقه الله بهذا المزيّن لكان اليوم من أهل الآخرة فإنه كان سبباً لحياته. فقالوا: والله إن هذا من عجب العجاب. ثم إن ملك الصين أمر أن تسطر هذه القصة، فسطّروها ثم جعلوها في خزانة الملك. ثم خلع على اليهودي والنصراني والمباشر وخلع على كل واحد خلعة سنيّة، وجعل الخياط خياطه ورتّب له الرواتب وأصلح بينه وبين الأحدب، وخلع على الأحدب خلعة سنيّة مليحة ورتّب له الرواتب وجعله نديمه، وأنعم على المزيّن وخلع عليه خلعة سنيّة ورتّب له الرواتب وجعل له جامكية وجعله مزيّن المملكة ونديمه. ولم يزالوا في ألذّ عيش وأهناء إلى أن أتاهم هادم اللذّات ومفرق الجماعات. وليس هذا بأعجب من قصة الوزيرين التي فيها ذكر أنيس الجليس. قال الملك: وما حكاية الوزيرين؟ قالت:

7 – حكاية أنيس الجليس وعلي نور

بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان بالبصرة ملك من الملوك يحب الفقراء الصعاليك ويرفق بالرعية ويهب من ماله لمن يؤمن بمحمد ﷺ، وهو كما قال فيه بعض واصفيه: [الكامل]

جَعَلَ القَنَا أَقلامَهُ وطُرُوسَهُ ... مُهَجَ العِدَى ورأى المِدَادَ دَماءَها
وأَظُنَّ أَنَّ الأَقْدَمِيْنَ لِذَا رَأَوْا ... أَنْ يَجْعَلُوا خَطِّيَّةً أَسْمَاءَها

وكان يقال لهذا الملك: محمد بن سليمان الزيني، وكان له وزيران أحدهما يقال له: المعين بن ساوى والثاني يقال له: الفضل بن خاقان. وكان الفضل بن خاقان أكرم أهل زمانه حسن السيرة، اجمعت القلوب على محبته واتفقت العقلاء على مشورته وكل الناس يدعون له بطول مدّته لأنه محضر خير مزيل للشرّ والضير. وكان الوزير المعين بن ساوى يكره الناس ولا يحب الخير، وكان محضر سوء كما قال فيه بعض واصفيه: [من السريع]

تَجمَّعَتْ مِنْ نُطَفٍ ذاتُهُ ... فَرُكِّبَتْ مِنْ عُنْصرٍ فاسِدِ
لَيْسَ على اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ نَجْمَعَ العالَمَ في واحِدِ

فلكل من هذين الوزيرين نصيب من قول الشاعر: [من الكامل]

لُذْ بالكِرامِ بَني الْكِرامِ فإنَّما ... تَلِدُ الكِرامَ بَنُو الكِرامِ كِرَاما
وَدَعِ اللِّئامَ بَنِي اللئآمِ فإنَّما ... تَلِدُ اللِّئامَ بَنُوا اللِّئامِ لِئاما

وكان الناس على قدر محبتهم لفضل الدين بن خاقان يبغضون المعين بن ساوى بقدرة القادر. ثم إن الملك محمد بن سليمان الزيني كان قاعداً يوماً من الأيام على كرسي مملكته وحوله

أرباب دولته إذ نادى وزيره الفضل بن خاقان وقال له : إني أريد جارية لا يكون في زمانها أحسن منها بحيث تكون كاملة في الجمال فائقة في الاعتدال حميدة الخصال . فقال أرباب الدولة : هذه لا توجد إلا بعشرة آلاف دينار . فعند ذلك صاح السلطان على الخازندار وقال : إحمل عشرة الآف دينار إلى دار الفضل بن خاقان . فامتثل الخازندار أمر السلطان ونزل الوزير بعدما أمره السلطان أن يعمد إلى السوق في كل يوم ويوصي السماسرة على ما ذكره، وإنه : لا تباع جارية ثمنها فوق الألف دينار حتى تعرض على الوزير، فلم تبع السماسرة جارية حتى يعرضوها عليه . فامتثل الوزير أمره واستمرّ على هذه الحال مدة من الزمان ولم تعجبه جارية . فاتفق يوماً من الأيام أن بعض السماسرة أقبل على دار الوزير الفضل بن الخاقان فوجده راكباً متوجّهاً إلى قصر الملك، فقبض على ركابه وأنشد هذين البيتين : [من البسيط]

يا مَنْ أَعادَ رَمِيمَ المُلْكِ مَنْشُوراً　　أَنْتَ الوَزِيرُ الَذِي لا زال مَنْصُوْرا
أَحْيَيْتَ مَنْ مَاتَ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ كَرَمٍ　　لا زَال سَعْيُكَ عِنْدَ اللهِ مَشْكُوْرا

ثم قال : يا سيدي إن الجارية التي صدر بطلبها المرسوم الكريم قد حضرت . فقال له الوزير : عليّ بها، فغاب ساعة ثم حضر ومعه جارية رشيقة القدّ قاعدة النهد بطرف كحيل وخدّ أسيل وخصر نحيل وردف ثقيل وعليها أحسن ما يكون من الثياب، ورضابها أحلى من الجلاّب وقامتها تفضح غصون البان وكلامها أرقّ من النسيم إذا مرّ على زهر البستان، كما قال فيها بعض واصفيها هذه الأبيات : [من الطويل]

لها بَشَرٌ مِثْلُ الحَرِيْرِ ومَنْطِقٌ　　رَخِيمُ الحَواشِي لا هُراءٌ ولا نَذْرُ
وعَيْنانَ قال الله كُوْنا فكانَتَا　　فَعُوْلانِ بالأَلْبابِ ما تَفْعَلُ الْخَمْرُ
فيا حُبَّها زِدْنِي جَوًى كُلَّ لَيْلَةٍ　　ويا سَلْوَةَ الأَيَّامِ مَوْعِدُكِ الحَشْرُ
ذوائِبها لَيْلٌ ولَـكِنْ جَبِيْنُها　　إذا أَسْفَرَتْ يَوْمًا يَلُوحُ بِه الفَجْرُ

فلما رآها الوزير أعجبته غاية الإعجاب، فالتفت إلى السمسار وقال له : كم ثمن هذه الجارية؟ فقال : وقف سعرها على عشرة الآف دينار، وحلف صاحبها أن العشرة الآف دينار لم تجيء ثمن الفراريج التي أكلتها ولا ثمن الخلع التي خلعتها على معلميها . فإنها تعلمت الخط والنحو واللغة والتفسير وأصول الفقه والدين والطب والتقويم والضرب بالآلات المطربة . فقال الوزير : عليَّ بسيِّدها . فأحضره السمسار في الوقت والساعة، فإذا هو رجل أعجمي عاش زمناً طويلاً حتى صيّره الدهر عظماً في جلد كما قال الشاعر : [من المنسرح]

أَرْعَشَنِي الدَّهْرُ أَيَّ رَعْشٍ　　والدَّهْرُ ذو قُوَّةٍ وبَطْشِ
قَدْ كُنْتُ أَمْشِي ولَسْتُ أَعْيَا　　واليَوْمَ أَعْيا ولَسْتُ أَمْشِيْ

فقال له الوزير : أرضيت أن تأخذ في هذه الجارية عشرة الآف دينار من السلطان محمد بن سليمان الزيني؟ فقال العجمي : حيث كانت للسلطان فالواجب عليّ أن أقدمها إليه هدية بلا ثمن . فعند ذلك أمر الوزير بإحضار الأموال . فلما حضرت وزن الدنانير للعجمي، ثم أقبل النخاس على الوزير وقال : عن إذن مولانا الوزير أتكلم . فقال الوزير : هات ما عندك . فقال :

عندي من الرأي أن لا تطلع بهذه الجارية إلى السلطان في هذا اليوم فإنها قادمة من السفر واختلف عليها الهوا واتعبها السفر، ولكن خلّها عندك في القصر عشرة أيام حتى تستريح فيزداد جمالها، ثم أدخلها الحمام وألبسها أحسن الثياب واطلع بها إلى السلطان فيكون لك في ذلك الحظ الأوفر، فتأمل الوزير كلام النخاس فوجده صواباً. فأتى بها إلى قصره وأخلى لها مقصورة ورتّب لها كل يوم ما تحتاج إليه من طعام وشراب وغيره. فمكثت مدة على تلك الرفاهية. وكان للوزير الفضل بن خاقان ولد كأنه البدر، إذا أشرق بوجه أقمر وخدّ أحمر عليه خال كنقطة عنبر وفيه عذار أخضر، كما قال الشاعر في مثله هذه الأبيات: [من البسيط]

وَرْدُ الخُدودِ ودُونَه شَوْكُ القَنَا	فَمَنِ ٱلْمُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنْ يُجْتَنَى
لا تَمْدُدِ الأَيْدِيْ إِلَيْهِ فَطَالَمَا	شَنُّوْا الحُرُوبَ لأَنْ مَدَدْنا الأَعْيُنا
يا قَلْبَهُ القَاسِيْ ورِقَّةَ خَصْرِهِ	هَلاَّ نَقَلْتَ إلى هُنَا مِنْ هَاهُنا
لو كان رِقَّةُ خَصْرِهِ في قَلْبِهِ	ما جارَ قَطُّ على المُحِبٍّ ولا جَنَى
يا عاذِلِي في حُبِّهِ كُنْ عَاذِرِيْ	مَنْ لِي بِجِسْمٍ قد تَمَلَّكَهُ ٱلْضَّنَى
ما الذَّنْبُ إلا لِلْفُؤَادِ وناظِرِيْ	لَوْلاهُمَا ما كُنْتُ في هَذا العَنَا

وكان الصبي لم يعرف قضية هذه الجارية، وكان والده أوصاها وقال لها: يا بنتي اعلمي أني ما اشتريتك إلا سرية للملك محمد بن سليمان الزيني، وإن لي ولداً ما خلا بصبية في الحارة إلا فعل بها. فاحتفظي نفسك منه واحذري أن تريه وجهك أو تسمعيه كلامك. فقالت الجارية: السمع والطاعة. ثم تركها وانصرف. واتفق بالأمر المقدر أن الجارية دخلت يوماً من الأيام الحمّام الذي في المنزل وقد حماها بعض الجواري ولبست الثياب الفاخرة فتزايد حسنها وجمالها ودخلت على زوجة الوزير فقبّلت يدها فقالت لها: نعيم يا أنيس الجليس، كيف حالك في هذا الحمام؟ فقالت: يا سيدتي ما كنت محتاجة إلاّ حضورك فيه. فعند ذلك قالت سيدة البيت للجواري: قوموا بنا ندخل الحمّام. فامتثلن أمرها ومضين وسيدتهن بينهن وقد وكّلت بباب المقصورة التي فيها أنيس الجليس جاريتين صغيرتين وقالت لهما: لا تمكّنا أحداً من الدخول على الجارية. فقالتا: السمع والطاعة. فبينما أنيس الجليس قاعدة في المقصورة وإذا بابن الوزير الذي اسمه علي نور الدين قد دخل وسأل عن أمه وعن العائلة. فقالت له الجاريتان: دخلوا الحمام. وقد سمعت الجارية أنيس الجليس كلام علي نور الدين بن الوزير وهي من داخل المقصورة فقالت في نفسها: يا ترى، ما شأن هذا الصبي الذي قال لي الوزير عنه إنه ما خلا بصبية في الحارة إلاّ واقعها؟ والله إني أشتهي أن أنظره. ثم إنها نهضت على قدميها وهي من أثر الحمّام وتقدّمت جهة باب المقصورة ونظرت إلى علي نور الدين، فإذا هو صبي كالبدر في تمامه. فأورثتها النظرة ألف حسرة ولاحت من الصبي التفاتة إليها، فنظرها نظرة أورثته ألف حسرة ووقع كل منهما في شرك هوى الآخر. فتقدم الصبي إلى الجاريتين وصاح عليهما فهربتا من بين يديه ووقفتا من بعيد ينتظرانه وينظران ما يفعل. وإذا به تقدم إلى باب المقصورة وفتحه ودخل على الجارية وقال لها: أنت التي اشتراك إليّ أبي. فقالت له: نعم. فعند ذلك تقدّم الصبي إليها وكان في حال السكر، وأخذ رجليها وجعلهما في وسطه وهي شبكت يديها في عنقه واستقبلته بتقبيل وشهيق

وغنج ، ومصّ لسانها ومصّت لسانه فأزال بكارتها . فلما رأى الجاريتان سيدهما الصغير دخل على الجارية أنيس الجليس ، صرختا وكان قد قضى الصبي حاجته وخرج هارباً وللنجاة طالباً وفرّ من الخوف عقب الفعل الذي فعله . فلما سمعت سيدة البيت صراخ الجاريتين مضت وخرجت من الحمّام والعرق يقطر منها وقالت : ما سبب هذا الصراخ الذي في الدار ؟ فلما قربت من الجاريتين اللتين أقعدتهما على باب المقصورة قالت لهما : ويلكما ما الخبر ؟ فلما رأيتاها قالتا : إن سيدي علي نور الدين جاء إلينا وضربنا فهربنا منه ، فدخل على أنيس الجاليس وعانقها وما ندري أي شيء عمل بعد ذلك ، فلما صِحنا لك هرب . فعند ذلك تقدّمت سيدة البيت إلى أنيس الجليس وقالت لها : ما الخبر ؟ فقالت : يا سيدتي أنا قاعدة وإذا بصبي جميل الصورة دخل عليّ وقال لي : أنت التي اشتراك أبي إليّ ؟ فقلت : نعم ، والله يا سيدتي اعتقدت أن كلامه صحيح . فعند ذلك أتى إليّ وعانقني . فقالت لها : هل فعل بك شيئاً غير ذلك ؟ قالت : نعم وأخذ مني ثلاث قبلات . فقالت : ما تركك من غير افتضاض . ثم بكت ولطمت وجهها هي والجواري خوفاً على نور الدين أن يذبحه أبوه . فبينما هم كذلك وإذا بالوزير دخل وسأل عن الخبر فقالت له زوجته : احلف أن ما قلته لك تسمعه . قال : نعم . فأخبرته بما فعله ولده فحزن ومزّق ثيابه ولطم على وجهه ونتف لحيته . فقالت له زوجته : لا تقتل نفسك أنا أعطيك من مالي عشرة آلآف دينار ثمنها . فعند ذلك رفع رأسه إليها وقال لها : ويلك انا ما لي حاجة بثمنها ولكن خوفي أن تروح روحي ومالي . فقالت له : يا سيدي ما سبب ذلك ؟ قال لها : أما تعلمين أن وراءنا هذا العلو الذي يقال له : المعين بن ساوى ؟ ومتى سمع بهذا الأمر تقدّم إلى السلطان وقال له : . . . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 33

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوزير قال لزوجته : أما تعلمين أن وراءنا علواً يقال له : المعين بن ساوى ؟ ومتى سمع بهذا الامر تقدّم إلى السلطان وقال له : إن وزيرك الذي تزعم أنه يحبك أخذ منك عشرة آلف دينار واشترى بها جارية ما رأى أحد مثلها . فلما أعجبته قال لابنه : خذها أنت أحق بها من السلطان ، فأخذها وأزال بكارتها . وها هي الجارية عنده . فيقول الملك : تكذب . فيقول للملك : عن إذنك أهجم عليه وآتيك بها . فيأذن له في ذلك ، فيهجم على الدار ويأخذ الجارية ويحضرها بين يدي السلطان ثم يسألها فما تقدر أن تنكر فيقول له : يا سيدي أنت تعلم أني ناصح لك ولكن ما لي عندكم حظ . فيمثل بي السلطان والناس كلهم يتفرجون عليّ وتروح روحي . فقالت له زوجته : لا تُعلم أحداً ، وهذا الأمر حصل خفية وسلّم أمرك الى الله في هذه القضية . فعند ذلك سكن قلب الوزير وطاب خاطره . هذا ما كان من أمر الوزير . وأما ما كان من أمر علي نور الدين فإنه خاف عاقبة الأمر ، فكان يقضي نهاره في البساتين ولا يأتي إلا في آخر الليل لأمه فينام عندها ويقوم قبل الصبح ولا يراه أحد . ولم يزل كذلك شهراً وهو لم يرَوجه أبيه . فقالت امه لأبيه : يا سيدي ، هل تعدم الجارية وتعدم الولد ؟ فإن طال هذا الأمر على الولد هجّ . قال لها : وكيف العمل ؟ قالت له : إسهر هذه الليلة ، فإذا جاء إمسكه واصطلح أنت وإيّاه واعطه الجارية فإنها تحبه وهو يحبها وأعطيك ثمنها . فسهر الوزير طول الليل ، فلما أتى ولده أمسكه وأراد نحره فأدركته أمه وقالت له : أي شيء تريد أن

تفعل معه؟ فقال لها : أريد ان اذبحه . فقال الولد لأبيه : هل أهون عليك؟ مترغرغت عيناه بالدموع وقال له : يا ولدي كيف هان عليك ذهاب مالي وروحي؟ فقال الصبي : إسمع يا والدي ما قال الشاعر : [من الكامل]

هَبْنِي جَنَيْتُ فَلَمْ تَزَلْ أَهْلَ النُّهَى يَهِبُون لِلْجَانِي سَمَاحاً شامِلاَ
ماذا عَسَى يَرْجو عَدُوُّكَ وَهْوَ في دَرَكِ الحَضِيضِ وأَنْتَ أَعْلَى مَنْزِلاً؟

فعند ذلك قام الوزير من على صدر ولده وشفق عليه وقام الصبي وقبّل يد والده . فقال : يا ولدي لو علمت انك تنصف انيس الجليس كنت وهبتها لك . فقال : يا والدي كيف لا أنصفها؟ قال له : أوصيك يا ولدي أنك لا تتزوج عليها ولا تضارها ولا تبيعها . قال له : يا والدي أنا أحلف لك أني لا أتزوج عليها ولا أبيعها . ثم حلف له إيماناً على ما ذكر ودخل على الجارية فأقام معها سنة وأنسى الله تعالى الملك قصة الجارية . وأما المعين بن ساوى فإنه بلغه الخبر ولكنه لم يقدر أن يتكلم لعظم منزلة الوزير عند السلطان . فلما مضت السنة دخل الوزير فضل الدين بن خاقان الحمام وخرج وهو عرقان فأصابه الهواء ، فلزم الوساد وطال به السهاد وتسلسل به الضعف ، فعند ذلك نادى ولده علياً نور الدين ، فلما حضر بين يديه قال له : يا ولدي ، إن الرزق مقسوم والأجل محتوم ولا بدّ لكل نسمة من شرب كأس المنون وأنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

مَنْ فاتَهُ المَوْتُ يَوْماً لم يَفُتْهُ غَدا والكُلُّ منَّا على حَوْضِ الرَّدى وَرَدا
سَوَّى العَظِيمَ بِمَنْ قَدْ كانَ مُحْتَقَراً ولَمْ يَدَعْ هَيْبَهُ بَيْنَ الوَرَى أَحَدا
لَمْ يُبْقِ مِنْ مَلَكٍ كلاً ولا مَلِكٍ ولا نُبَقَّى بِعَيْشٍ دائِمٍ أبَدا

ثم قال : يا ولدي ما لي عندك وصية إلاّ تقوى الله والنظر في العواقب ، وأن تستوصي بالجارية انيس الجليس . فقال له : يا أبت ومن مثلك ، وقد كنت معروفاً بفعل الخير ودعاء الخطباء لك على المنابر؟ فقال له : يا ولدي ، أرجو من الله تعالى القبول . ثم نطق بالشهادتين وشهق شهقة فكتب من أهل السعادة . فعند ذلك امتلأ القصر بالصراخ ووصل الخبر إلى السلطان وسمعت أهل المدينة بوفاة الفضل بن خاقان ، فبكت عليه الصبيان في مكاتبها ونهض ولده علي نور الدين وجهّزه وحضرت الأمراء والوزراء وأرباب الدولة وأهل المدينة مشهده . وكان ممن حضر الجنازة الوزير المعين بن ساوى . وأنشد بعضهم عند خروج جنازته من الدار هذه الأبيات : [من الكامل]

قَدْ قُلْتُ لِلرَّجُلِ المُوَلَّى غَسْلُهُ هلاَّ أَطاعَ وكُنْتَ مِنْ نُصَحَائِه
جَنِّبْهُ ماءَكَ ثُمَّ غَسِّلْهُ بِمَا أَذْرَتْ عُيُونُ المَجْدِ عِنْدَ بُكائِه
وأَزِلْ مَجامِيعَ الحَنُوطِ ونَحِّها عَنْهُ وحَنِّطْهُ بِطِيبِ ثَنائِه
ومُرِ الملائكةَ الكِرامَ بِحَمْلِه شَرَفاً أَلَسْتَ تَراهُمُو بإزائِه
لا تُوهِ أَعناقَ الرِّجالِ بِحَمْلِهِ يَكْفِي الَّذي حَمَلُوهُ مِنْ نَعْمائِه

ثم مكث علي نور الدين شديد الحزن على والده مدة مديدة . فبينما هو جالس يوماً من الأيام في بيت والده إذ طرق الباب طارق ، فنهض علي نور الدين وفتح الباب وإذا برجل من ندماء والده وأصحابه ، فقبّل يد نور الدين وقال : يا سيدي من خلّف مثلك ما مات . وهذا مصير سيد

الأولين والآخرين . يا سيدي طب نفساً ودع الحزن . فعند ذلك نهض علي نور الدين إلى قاعة الجلوس ونقل إليها ما يحتاج إليه واجتمع عليه أصحابه وأخذ جاريته واجتمع عليه عشرة من أولاد التجار ، ثم إنه أكل الطعام وشرب الشراب وجدّد مقاماً بعد مقام وصار يعطي ويتكرَّم .

فعند ذلك دخل عليه وكيله وقال له : يا سيدي نور الدين ، أما سمعت قول بعضهم : من ينفق ولم يحسب افتقر ؟ ولقد أحسن من قال هذه الأبيات : [من الوافر]

أَصُونُ دَراهِمِي وأَذُبُّ عَنْها ... لِعِلْمِي أَنَّها سَيْفِي وتُرْسِي
أَأَبْذُلُها إلى أَعْدَى الأَعَادِي ... وأُبْدِلُ في ٱلْوَرَى سَعْدِي بِنَحْسِي
فَيَأْكُلُها ويَشْرَبُها هَنِيئاً ... ولا يَسْخُو إلى أَحَدٍ بِفَلْسِ
وأَحْفَظُ دِرْهَمِي عَنْ كُلِّ شَخْصٍ ... لَئِيمِ الطَّبْعِ لا يَصْفُو لأُنْسِي
أَحَبُّ إليَّ مِنْ قَوْلِي لِنَذْلٍ ... أَنِلْنِي دِرْهماً لِغَدٍ بِخَمْسِ
فَيَعْرِضَ وَجْهَهُ وَيَصُدُّ عَنِّي ... فَتَبْقَى مِثْلَ نَفْسِ الكَلْبِ نَفْسِي
فيا ذُلَّ ٱلرِّجالِ بِغَيرِ مالٍ ... ولَوْ كانَتْ فَضائِلُهُم كَشَمْسِ

ثم قال : يا سيدي هذه النفقة الجزيلة والمواهب العظيمة تفني المال . فلما سمع علي نور الدين من وكيله هذا الكلام ، نظر إليه وقال له : جميع ما قلته لا أسمع منه كلمة . فما أحسن قول الشاعر : [من الطَّويل]

إذا ما مَلَكْتُ المالَ يَوْماً ولم أَجِدْ ... فلا بَسَطَتْ كَفِّي ولا نَهَضَتْ رِجْلِي
فهاتُوا بَخِيلاً نالَ مَجْداً بِبُخْلِهِ ... وهاتُوا أَرُونِي باذِلاً ماتَ مِنْ بَذْلِ

ثم قال : أعلم أيها الوكيل ، إني أريد إذا فضل عندك ما يكفيني لغدائي أن لا تحمّلني همّ عشائي . فانصرف الوكيل من عنده إلى حال سبيله وأقبل علي نور الدين على ما هو فيه من مكارم الأخلاق وكل من يقول له من ندمائه : إن هذا الشيء مليح . يقول : هو لك هبة . أو يقول : يا سيدي ان الدار الفلانية مليحة . يقول : هي لك هبة . ولم يزل علي نور الدين يعقد لندمائه وأصحابه في أول النهار مجلساً وفي آخره مجلساً إلى أن مكث على هذه الحال سنة كاملة . وبعد السنة فبينما هو جالس وإذا بالجارية تنشد هذين البيتين : [من البسيط]

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بالأَيَّام إذ حَسُنَتْ ... ولَم تَخَفْ سُوْءَ ما يأتي به القَدَرُ
وسالَمَتْكَ ٱللّيَالي فاغْتَرَرْتَ بِها ... وعِنْدَ صَفْوِ ٱللَّيالِي يَحْدُثُ الكَدَرُ

فلما فرغت من شعرها وإذا بطارق يطرق الباب ، فقام نور الدين فتبعه بعض جلسائه من غير أن يعلم به . فلما فتح الباب رآه وكيله ، فقال له علي نور الدين : ما الخبر ؟ فقال له : يا سيدي الذي كنت أخاف عليك منه قد وقع لك . قال : وكيف ذلك ؟ قال : أعلم أنه ما بقي لك تحت يدي شيء يساوي درهماً ولا اقل من درهم ، وهذه دفاتر المصروف الذي صرفته ودفاتر أصل مالك . فلما سمع علي نور الدين هذا الكلام اطرق براسه إلى الارض وقال : لا حول ولا قوة إلاّ بالله . فلما سمع الرجل الذي تبعه خفية خرج ليتسلل عليه ما قاله له الوكيل ، رجع إلى أصحابه وقال لهم : أنظروا اي شيء تعملون فإن علياً نور الدين قد أفلس . فلما رجع إليهم علي نور

الدين ظهر لهم الغمّ في وجهه . فعند ذلك نهض واحد من الندماء على قدميه ونظر إلى علي نور الدين وقال له : يا سيدي إني أريد ان تأذن لي بالانصراف . فقال علي نور الدين : لماذا الانصراف في هذا اليوم ؟ فقال : إن زوجتي تلد في هذه الليلة ولا يمكنني أن اتخلّف عنها وأريد أن اذهب إليها وانظرها . فأذن له . ونهض آخر وقال له : يا سيدي نور الدين أريد اليوم أن أحضر عند أخي فإنه يطاهر ولده . وكل واحد يستأذنه بحيلة ويذهب إلى حال سبيله حتى انصرفوا كلهم وبقي علي نور الدين وحده . فعند ذلك دعا جاريته وقال لها : يا أنيس الجليس أمَا تنظرين ما حل بي ؟ وحكى لها ما قاله الوكيل . فقالت : يا سيدي من منذ ليال هممت ان أقول لك على هذه الحال فسمعتك تنشد هذين البيتين : [من الطَّويْل]

إذا جادَتِ ٱلدُّنْيا عَلَيْكَ فَجُدْ بِها ... على النَّاسِ طُرّاً قَبْلَ أَنْ تَتَفَلَّتْ
فَلاَ الجُوْد يُفْنِيها إذا هِيَ أَقْبَلَتْ ... ولا الشَّحُّ يُبْقِيها إذا هِيَ وَلَّتْ

فلما سمعتك تنشدهما سكت ولم أبد لك خطاباً . فقال لها علي نور الدين : يا أنيس الجليس انت تعرفين إني ما صرفت مالي إلاّ على أصحابي وأظنهم لا يتركونني من غير مؤاساة . فقالت أنيس الجليس : والله ما ينفعونك بنافعة . فقال نور الدين : فأنا في هذه الساعة أقوم وأروح إليهم وأطرق أبوابهم لعلّي انال منهم شيئاً فاجعله في يدي رأس مال وأتجر فيه وأترك اللهو واللعب . ثم إنه نهض من وقته وساعته ولا زال سائراً حتى اقبل على الزقاق الذي فيه أصحابه العشرة ، وكانوا كلهم ساكنين في ذلك الزقاق . فتقدّم إلى أول باب وطرقه ، فخرجت له جارية وقالت له : من أنت ؟ فقال لها : قولي لسيدك ، علي نور الدين واقف على الباب ويقول لك : مملوكك يقبل أياديك ومنتظر فضلك . فدخلت الجارية وأعلمت سيّدها فصاح عليها وقال لها : ارجعي وقولي له ما هو هنا . فرجعت الجارية إلى نور الدين وقالت له : يا سيدي ، إن سيدي ما هو هنا . فتوجّه نور الدين وقال في نفسه : إن كان هذا ولد زنى وأنكر نفسه فغيره ما هو ولد زنا . ثم تقدّم إلى الباب الثاني وقال كما قال أولاً ، فأنكر الآخر نفسه . فعند ذلك أنشد هذا البيت : [من الكامل]

ذَهَبَ الَّذِيْنَ إذا وَقَفْتَ بِبَابِهِمْ ... مَنُّوا عَلَيْكَ بِما تُرِيْدُ مِنَ النَّدَى

فلما فرغ من شعره قال : والله لا بدّ أن أمتحنهم كلهم عسى أن يكون فيهم واحد يقوم مقام الجميع . فدار على العشرة فلم يجد أحد منهم فتح الباب ولا أراه نفسه ولا أمر له برغيف . فأنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

المَرْءُ في زَمَنِ الإقْبالِ كالشَّجَرَهْ ... فالنَّاسُ مِنْ حَوْلِها ما دامَتِ الثَّمَرَهْ
حَتَّى إذا عَرِيَتْ مِنْ كُلٍّ ما حَمَلَتْ ... تَفَرَّقُوا أَوْ أَرادُوا غَيْرَهَا شَجَرَهْ
تَبّاً لأَبْناءِ هذا الدَّهْرِ كُلِّهِمِ ... فَلَمْ أَجِدْ واحِداً يَصْفُو مِنَ العَشَرَهْ

ثم إنه رجع إلى جاريته وقد تزايد همّه . فقالت له : يا سيدي أمَا قلت لك إنهم لا ينفعونك بنافعة . فقال : والله ما فيهم من أراني وجهه . فقالت له : يا سيدي بع من أساس البيت شيئاً فشيئاً وانفق . فباع إلى أن باع جميع ما في البيت ولم يبقَ عنده شيء . فعند ذلك نظر إلى أنيس الجليس وقال لها : ما نفعل الآن ؟ فقالت له : يا سيدي عندي من الرأي أن تقوم في هذه الساعة وتنزل بي

السوق فتبيعني، وأنت تعلم ان والدك كان اشتراني بعشرة آلاف دينار، فلعل الله يفتح عليك بعض هذا الثمن وإذا قدّر الله باجتماعنا نجتمع. فقال لها: يا أنيس الجليس، ما يهون عليّ فراقك ساعة واحدة. فقالت له: ولا أنا، لكن للضرورة احكام كما قال الشاعر: [من المنسرح]

تُلْجِي الضَّرُوراتُ في الأُمورِ إلى سُلُوكِ ما لا يَلِيقُ بالأَدَبِ
ما حامِلٌ نَفْسَهُ على سَبَبٍ إلاّ لأَمْرٍ يَلِيْقُ بالسَّبَبِ

فعند ذلك أخذ انيس الجليس ودموعه تسيل على خدّه، ثم انشد هذين البيتين: [من الطّويل]

قِفُوا زَوِّدُونِي نَظْرَةً قَبْلَ بَيْنِكُمْ أُعَلِّلُ قَلْباً كادَ بالبَيْنِ يَتْلَفُ
فإنْ كانَ تَزْوِيْدِي بذَلِك كُلْفَةً دَعَونِي في وَجْدِيْ ولا تَتَكَلَّفُوا

ثم مضى وسلّمها إلى الدلاّل وقال له: إعرف مقدار ما تنادي عليه. فقال الدلاّل: يا سيدي نور الدين الأصول محفوظة. ثم قال له: اما هي انيس الجليس الذي كان اشتراها والدك مني بعشرة الآف دينار؟ قال: نعم. فعند ذلك طلع الدلاّل إلى التجار فوجدهم لم يجتمعوا كلهم، فصبر حتى اجتمع سائر التجار وامتلأ السوق بسائر اجناس الجواري من تركية وورومية وشركسية وجرجية وحبشية. فلما نظر الدلاّل إلى ازدحام السوق نهض قائماً وقال: يا تجار يا أرباب الأموال، ما كل مدورة جوزة ولا كل مستطيلة موزة ولا كل حمراء لحمة ولا كل بيضاء شحمة ولا كل صهباء خمرة ولا كل سمراء تمرة. يا تجّار هذه الدرّة اليتيمة التي لا تفي الاموال لها بقيمة، بكم تفتحون باب الثمن؟ فقال واحد من التجار: بأربعة الآف دينار وخمسمائة. وإذا بالوزير العين بن ساوى في السوق، فنظر علياً نور الدين واقفاً فقال في نفسه: ما باله واقفاً، فإنه ما بقي عنده شيء يشتري به جواري. ثم نظر بعينه فسمع المنادي وهو واقف ينادي في السوق والتجار حوله فقال الوزير في نفسه: ما اظنه إلاّ افلس ونزل بالجارية ليبيعها. ثم قال في نفسه: إن صح ذلك فما ابرده على قلبي. ثم دعا المنادي فاقبل عليه وقبّل الأرض بين يديه، فقال: إني أريد هذه الجارية التي تنادي عليها. فلم يمكنه المخالفة فجاء بالجارية وقدّمها بين يديه. فلما نظر إليها وتأمل محاسنها من قامتها الرشيقة وألفاظها الرقيقة أعجبته فقال له: إلى كم وصل ثمنها؟ فقال له: أربعة الآف وخمسمائة دينار. فلما سمع ذلك التجار ما قدر واحد منهم ان يزيد درهماً ولا ديناراً بل تأخروا جميعاً لما يعلمون من ظلم ذلك الوزير. ثم نظر المعين بن ساوى إلى الدلاّل وقال له: ما سبب وقوفك؟ رح والجارية عليّ بأربعة الآف دينار ولك خمسائة دينار. فراح الدلاّل إلى علي نور الدين وقال له: يا سيدي راحت الجارية عليك بلا ثمن. فقال له: وما سبب ذلك؟ قال له: نحن فتحنا باب سعرها بأربعة الآف دينار وخمسمائة فجاء هذا الظالم المعين بن ساوى ودخل السوق، فلما نظر إلى الجارية اعجبته وقال لي: شاور على أربعة الآف دينار ولك خمسمائة. وما اظنه إلا عرف ان الجارية لك، فإن كان يعطيك ثمنها في هذه الساعة يكون ذلك من فضل الله. لكن أنا أعرف من ظلمه انه يكتب لك ورقة حوالة على بعض عملاته ثم يرسل إليهم ويقول لهم: لا تعطوه شيئاً فكلما ذهبت إليهم لتطالبهم يقولون في غد نعطيك. ولا يزالون يعدونك ويخلفون يوماً بعد يوم وانت عزيز النفس، وبعد ان يضجوا من مطالبتك إيّاهم يقولون: أعطنا ورقة الحوالة. فإذا اخذوا الورقة منك قطّعوها وراح عليك ثمن الجارية. فلما

سمع علي نور الدين من الدلاّل هذا الكلام نظر إليه وقال له : كيف يكون العمل ؟ فقال له : أنا أشور عليك بمشورة فإن قبلتها مني كان لك الحظ الأوفر . وقال : وما هي ؟ قال : تجيء في هذه الساعة عندي وأنا واقف في وسط السوق وتأخذ الجارية من يدي وتلكمها وتقول لها : ويلك قد فديت يميني التي حلفتها ونزلت بك السوق حيث حلفت عليك أنه لا بد من إخراجك إلى السوق ومناداة الدلاّل عليك . فإن فعلت ذلك ربما تدخل عليه الحيلة وعلى الناس ويعتقدون أنك ما نزلت بها إلاّ لأجل إبرار اليمين . فقال : هذا هو الراي الصواب . ثم إن الدلاّل فارقه وجاء إلى وسط السوق ومسك يد الجارية وأشار إلى الوزير المعين بن ساوى وقال : يا مولاي هذا مالكها قد أقبل . ثم جاء علي نور الدين إلى الدلاّل ونزع الجارية من يده ولكمها وقال لها : ويلك قد نزلت بك إلى السوق لأجل إبرار يميني ، روحي إلى البيت وبعد ذلك لا تخالفيني فلست محتاجاً إلى ثمنك حتى أبيعك ، أنا لو بعت أثاث البيت وأمثاله مرات عديدة ما بلغ قدر ثمنك . فلما نظر المعين بن ساوى إلى نور الدين قال له : ويلك ، وهل بقي عندك شيء يباع أو يشترى؟ ثم إن المعين بن ساوى أراد أن يبطش به . فعند ذلك نظر التجار إلى نور الدين وكانوا كلهم يحبونه فقال لهم : ها أنا بين أيديكم وقد عرفتم ظلمه . فقال الوزير : والله لولا أنتم . ثم رمزوا كلهم لبعضهم بعين الإشارة وقالوا : ما أحد منّا يدخل بينك وبينه . فعند ذلك تقدّم علي نور الدين إلى الوزير بن ساوى ، وكان نور الدين شجاعاً فجذب الوزير من فوق سرجه فرماه على الأرض ، وكان هناك معجنة طين فوقع الوزير في وسطها وجعل علي نور الدين يلكمه فجاءت لكمة على أسنانه فاختضبت لحيته بدمه . وكان مع الوزير عشرة مماليك . فلما رأوا نور الدين فعل بسيدهم هذه الأفعال وضعوا أيديهم على مقابض سيوفهم وأرادوا أن يهجموا على نور الدين ويقطعوه ، وإذا بالناس قالوا للمماليك : هذا وزير وهذا ابن وزير وربما اصطلحا مع بعضهما وتكونون مبغوضين عند كل منهما وربما جاءت فيه ضربة فتموتون جميعاً أقبح الميتات ، ومن الرأي أن لا تدخلوا بينهما . فلما فرغ علي نور الدين من ضرب الوزير أخذ جاريته ومضى إلى داره . وأمّا الوزير بن ساوى فإنه قام من ساعته وكان قماش ثيابه أبيض فصار ملوناً بثلاثة ألوان ، لون الطين ولون الدم ولون الرماد . فلما رأى نفسه على هذه الحالة أخذ برشاً وجعله في رقبته وأخذ في يده حزمتين من حلفة وسار إلى أن وقف تحت القصر الذي فيه السلطان وصاح : يا ملك الزمان مظلوم . فأحضروه بين يديه فتأمله فرآه وزيره المعين بن ساوى فقال له : من فعل بك هذه الفعال ؟ فبكى وانتحب وأنشد هذين البيتين : [من الوافر]

أَيَظْلِمُنِي ٱلزَّمانُ وأَنْتَ فِيهِ ... وتَأكُلُنِي ٱلْكِلابُ وأَنْتَ لَيْثُ
وَيُرْوَى مِنْ حِيَاضِكَ كُلُّ صادٍ ... وأَعْطَشُ في حِمَاكَ وأَنْتَ غَيْثُ

ثم قال : يا سيدي أهكذا كل من كان يحبك ويخدمك تجري له هذه المشاق ؟ قال له : ومن فعل بك هذه الفعال ؟ فقال الوزير : اعلم أني خرجت اليوم إلى سوق الجواري لعلّي أشتري جارية طبّاخة ، فرأيت في السوق جارية ما رأيت في طول عمري مثلها . فقال الدلاّل إنها لعلي بن خاقان . وكان مولانا السلطان أعطى أباه سابقاً عشرة آلاف دينار ليشتري له بها جارية مليحة فاشترى تلك الجارية فأعجبته فأعطى ولده إيّاها . فلما مات أبوه سلك طريق الإسراف حتى باع

جميع ما عنده من الأملاك والبساتين والأواني، فلما أفلس ولم يبقَ عنده شيء نزل بالجارية إلى السوق على أن يبيعها، ثم سلّمها إلى الدلاّل فنادى عليها وتزايدت فيها التجار حتى بلغ ثمنها أربعة آلاف دينار . فقلت لعقلي : أشتري هذه لمولانا السلطان فإن أصل ثمنها كان من عنده . فقلت : يا ولدي خذ ثمنها أربعة آلاف دينار . فلما سمع كلامي نظر إليّ وقال : يا شيخ النحس أبيعها لليهود والنصارى ولا أبيعها لك . فقلت : أنا ما اشتريها لنفسي وإنما أشتريها لمولانا السلطان الذي هو وليّ نعمتنا . فلما سمع مني هذا الكلام اغتاظ وجذبني ورماني عن الجواد وأنا شيخ كبير وضربني ولم يزل يضربني حتى تركني كما تراني، وأنا ما أوقعني في هذا كله إلا أنني جئت لأشتري هذه الجارية لسعادتك . ثم إن الوزير رمى نفسه على الأرض وجعل يبكي ويرتعد . فلما نظر السلطان حالته وسمع مقالته قام عرق الغضب بين عينيه ثم التفت إلى من بحضرته من أرباب الدولة وإذا بأربعين ضارب سيف وقفوا بين يديه فقال لهم السلطان : انزلوا في هذه الساعة إلى دار علي بن خاقان وانهبوها واهدموها وأتوني به وبالجارية مكتفين واسحبوهما على وجوههما وأتوا بهما بين يدي . فقالوا له : السمع والطاعة . ثم إنهم نزلوا وقصدوا المسير إلى علي نور الدين . وكان عند السلطان حاجب يقال له : علم الدين سنجر وكان أولاً من مماليك الفضل ابن خاقان والد علي نور الدين . فلما سمع أمر السلطان ورأى الأعداء تهيّأوا إلى قتل ابن سيده لم يهن عليه ذلك، فركب جواده وسار إلى أن أتى بيت علي نور الدين، فطرق الباب فخرج له نور الدين فلما رآه عرفه وأراد أن يسلّم عليه فقال : يا سيدي ما هذا وقت سلام ولا كلام واسمع ما قال الشاعر : [من الوافر]

وَنَفْسَكَ فز بها إن خِفْتَ ضَيْماً   وخَلِّ الدَّار تَنْعِي مَنْ بَناها
فإنَّكَ واجِدٌ أَرْضاً بأَرْضٍ   وَنَفْسَكَ لَمْ تَجِدْ نَفْساً سِوَاها

فقال نور الدين : يا علم الدين ما الخبر ؟ فقال له : إنهض وفز بنفسك أنت والجارية فإن المعين بن ساوى نصب لكما شركاً ومتى وقعتما في يده قتلكما، وقد أرسل إليكما السلطان أربعين ضارباً بالسيف والرأي عندي أن تهربا قبل أن يحل الضرر بكما . ثم إن سنجر مدّ يده إلى نور الدين بدنانير فعدّها فوجدها أربعين ديناراً وقال له : يا سيدي خذ هذه، ولو كان معي أكثر من ذلك لأعطيتك إيّاه لكن ما هذا وقت معاتبة . فعند ذلك دخل نور الدين على الجارية وأعلمها بذلك . فتخبلت، ثم خرج الإثنان في الوقت إلى ظاهر المدينة وأسبل الله عليهما ستره ومشيا إلى ساحل البحر فوجدا مركباً تجهّزت للسفر والريس واقف في وسط المركب يقول : من بقي له حاجة من وداع أو زوادة أو نسي حاجة فليأت بها فإننا متوجّهون . فقالوا كلهم : لم يبقَ لنا حاجة يا ريس . فعند ذلك قال الريس لجماعته : هيا حلّوا الطرف واقلعوا الأوتاد . فقال علي نور الدين : إلى أين يا ريّس ؟ فقال : إلى دار السلام بغداد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 34

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الريس لما قال لعلي نور الدين إلى دار السلام مدينة بغداد، طلع علي نور الدين وطلعت معه الجارية، وعوموا ونشروا القلوع فاندفعت المركب كأنها طير بجناحيه كما قال فيها بعضهم هذين البيتين :

[من البسيط]

أَنْظُرْ إلى مَرْكَبٍ يُسْبِيكَ مَنْظَرُهُ تُسَابِقُ الرِّيحَ في سَيْرٍ بِسَرَّاءِ
كَأَنَّهُ طائِرٌ قَدْ مَدَّ أَجْنِحَةً أَتَى مِنَ الْجَوِّ مُنْقَضاً على الماءِ

فسارت بهم المركب وطاب لهم الريح هذا ما جرى لهؤلاء. وأما ما جرى للأربعين الذين أرسلهم السلطان، فإنهم جاؤوا إلى بيت علي نور الدين فكسروا الأبواب ودخلوا وطافوا جميع الاماكن فلم يقعوا لهما على خبر. فهدموا الدار ورجعوا وأعلموا السلطان فقال: اطلبوهما من أي مكان كانا فيه: فقالوا: السمع والطاعة. ثم نزل الوزير المعين بن ساوى إلى بيته بعد أن خلع عليه السلطان خلعة وقال له: لا يأخذ بثأرك إلا أنا. فدعا له بطول البقاء واطمأن قلبه. ثم إن السلطان أمر أن ينادى في المدينة: يا معاشر الناس كافة، قد أمر مولانا السلطان أن من عثر بعلي نور الدين بن خاقان وجاء به إلى السلطان خلع عليه خلعة وأعطاه ألف دينار، ومن أخفاه أو عرف مكانه ولم يخبر به فانه يستحق ما يجري له من النكال. فصار جميع الناس في التفتيش على نور الدين فلم يعرفوا له أثراً. هذا ما كان من أمر هؤلاء. وأما ما كان من أمر علي نور الدين وجاريته فإنهما وصلا بالسلامة إلى بغداد. فقال الريّس: هذه بغداد وهي مدينة أمينة قد ولّى عنها الشتاء ببرده وأقبل عليها فصل الربيع بورده وأزهرت أشجارها وجرت أنهارها. فعند ذلك طلع علي نور الدين هو وجاريته من المركب وأعطى الريّس خمسة دنانير ثم سارا قليلاً فرمتهما المقادير بين البساتين. فجاءا إلى مكان فوجداه مكنوساً مرشوشاً بمساطب مستطيلة وقواديس معلّقة ملآنة بالماء وفوقه مكعب من القصب بطول الزقاق، وفي صدر الزقاق باب بستان إلا أنه مغلوق. فقال نور الدين للجارية: والله إن هذا محل مليح. فقالت: يا سيدي أقعد بنا ساعة على هذه المساطب. فطلعا وجلسا على المساطب ثم غسلا وجوههما وأيديهما واستلذّا بمرور النسيم فناما وجلّ من لا ينام. وكان هذا البستان يسمى بستان النزهة، وهناك قصر يقال له: قصر الفرجة وهو للخليفة هارون الرشيد. وكان الخليفة إذا ضاق صدره يأتي إلى هذا البستان ويدخل ذلك القصر فيقعد فيه. وكان القصر له ثمانون شبّاكاً ومعلّق فيه ثمانون قنديلاً وفي وسطه شمعدان كبير من الذهب. فإذا دخله الخليفة أمر الجواري أن تفتح الشبابيك وأمر إسحاق النديم والجواري أن يغنّوا، فينشرح صدره ويزول همّه. وكان للبستان خولي شيخ كبير يقال له: الشيخ ابراهيم. واتفق انه خرج ليقضي حاجة من أشغاله فوجد المتفرّجين معهم النساء أهل الريبة فغضب غضباً شديداً، فصبر الشيخ ابراهيم حتى جاء عنده الخليفة في بعض الأيام فأعلمه بذلك. فقال الخليفة: كل من وجدته على باب البستان فافعل به ما أردت. فلما كان ذلك اليوم، خرج الشيخ ابراهيم الخولي لقضاء حاجة عرضت له فوجد الإثنين نائمين على باب البستان مغطيين بإزار واحد. فقال: امَا عرفا ان الخليفة أعطاني إذنًا ان كل من لقيته هنا أقتله؟ ولكن أنا أضرب هذين ضرباً خفيفاً حتى لا يتقرّب أحد من باب البستان. ثم قطع جريدة خضراء وخرج إليهما ورفع يده فبان بياض إبطه، وأراد ضربهما فتفكّر في نفسه وقال: يا ابراهيم كيف تضربهما ولم تعرف حالهما وقد يكونان غريبين أو من ابناء السبيل ورمتهما المقادير هنا؟ فانا اكشف وجوههما وأنظر إليهما. فرفع الإزار عن وجوههما وقال: هذان حسنان لا ينبغي أن اضربهما. ثم غطّى وجوههما وتقدّم إلى رِجل علي نور الدين وجعل يكبسها، ففتح عينه فوجده شيخاً كبيراً،

فاستحيى علي نور الدين ولمّ رجليه واستوى قاعداً واخذ يد الشيخ ابراهيم وقبّلها . فقال له : يا ولدي من أين أنتم ؟ فقال له : يا سيدي نحن غرباء وفرّت الدمعة من عينه . فقال الشيخ ابراهيم : يا ولدي أعلم أن النبي ﷺ أوصى بإكرام الغريب . ثم قال له : يا ولدي أمَا تقوم وتدخل البستان وتتفرّج فيه فينشرح صدرك ؟ فقال له نور الدين : يا سيدي هذا البستان لمن ؟ قال : يا ولدي هذا البستان ورثته من أهلي . وما كان قصد الشيخ ابراهيم بهذا الكلام إلاّ ان يطمئنا ويدخلا البستان . فلما سمع نور الدين كلامه شكره وقام هو وجاريته والشيخ ابراهيم قدّامهما فدخلوا البستان ، فإذا هو بستان بابه مقنطر عليه كروم وأعنابه مختلفة الألوان الأحمر كأنه ياقوت والأسود كأنه إبنوس . فدخلوا تحت عريشة فوجدوا فيها الأثمار صنواناً وغير صنوان ، والأطيار تغرد بالألحان على الأغصان والهزار يترنم والقمريّ ملأ بصوته المكان والشحرور كأنه في تغريده انسان والفاخت كأنه شارب نشوان ، والأشجار قد أينعت أثمارها من كل مأكول ومن كل فاكهة زوجان ، والمشمش ما بين كافوري ولوزي ومشمش خراسان والبرقوق كأنه لون الحسان ، والقراصية تذهل عقل كل إنسان ، والتين ما بين أحمر وابيض وأخضر من احسن الألوان ، والزهر كأنه اللؤلؤ والمرجان والورد يفضح بحمرته خدود الحسان والبنفسج كأنه كبريت دنا من النيران والآس والمنثور والخزامة مع شقائق النعمان ، وتكلّلت تلك الأوراق بمدامع الغمام وضحك ثغر الاقحوان وصار النرجس ناظراً إلى الورد بعيون السودان ، والأترج كأنه أكواب والليمون كبنادق من ذهب وفرشت الأرض بالزهر من سائر الألوان ، وأقبل الربيع فأشرق ببهجته المكان والنهر في خرير والطير في هدير والريح في صفير والزمان في اعتدال والنسيم في اعتلال . ثم دخل بهما الشيخ ابراهيم القاعة المعلّقة ، فابتهجوا بحسن تلك القاعة وما فيها من اللطائف الغريبة وجلسوا في بعض الشبابيك ، فتذكّر نور الدين المقامات التي مضت له فقال : والله إن هذا المكان في غاية الحسن ، لقد ذكّرني بما مضى وأطفأ من كربي جمر الغضا . ثم إن الشيخ ابراهيم قدّم لهما الأكل فأكلا كفايتهما ، ثم غسلا أيديهما وجلس نور الدين في شبّاك من تلك الشبابيك وصاح على جاريته ، فأتت إليه فصارا ينظران إلى الأشجار وقد حملت سائر الأثمار . ثم التفت علي نور الدين إلى الشيخ ابراهيم وقال له : يا شيخ ابراهيم ، أمَا عندك شيء من الشراب ؟ لأن الناس يشربون بعد أن يأكلوا ؟ فجاءه الشيخ ابراهيم بماء حلو بارد . فقال له نور الدين : ما هذا الشراب الذي أريده . فقال له : أتريد الخمر ؟ فقال نور الدين : نعم . فقال : أعوذ بالله منها ، إن لي ثلاثة عشر عاماً ما فعلت ذلك لأن النبي ﷺ لعن شاربه وعاصره وحامله . فقال له نور الدين : إسمع مني كلمتين . قال : قل ما شئت . قال : إذا لم تكن عاصر الخمر ولا شاربه ولا حامله هل يصيبك من لعنهم شيء ؟ قال : لا . قال : خذ هذا الدينار وهذين الدرهمين واركب هذا الحمار وقِفْ بعيداً ، وأي إنسان وجدته يشتري ، فَصِحْ عليه وقل له : خذ هذين الدرهمين واشتري بهذين الدينارين خمراً واحمله على الحمار . وحينئذ لا تكون حاملاً ولا عاصراً ولا مشترياً ولا يصيبك شيء مما اصاب الجميع . فقال الشيخ ابراهيم وقد ضحك من كلامه : والله ما رايت اظرف منك ولا أحلى من كلامك . فقال له نور الدين : نحن صرنا محسوبين عليك وما عليك إلاّ الموافقة فاتِ لنا بجميع ما نحتاج إليه . فقال الشيخ ابراهيم : يا ولدي هذا كراري قدامك وهو الحاصل المعد لأمير المؤمنين ، فادخله وخذ منه ما شئت فإن فيه

فوق ما تريد . فدخل علي نور الدين الحاصل فرأى فيه أواني من الذهب والفضة والبلّور مرصّعة بأصناف الجواهر ، فأخرج منها ما أراد وسكب الخمر في البواطي والقناني ، وصار هو وجاريته يتعاطيان واندهشا من حسن ما رأيا . ثم إن الشيخ ابراهيم جاء لهما بالمشموم وقعد بعيداً عنهما ، فلم يزالا يشربان وهما في غاية الفرح حتى تحكّم معهما الشراب واحمرّت خدودهما وتغازلت عيونهما واسترخت شعورهما . فقال الشيخ ابراهيم : ما لي قاعداً بعيداً عنهما ؟ كيف لا أقعد عندهما ، وأي وقت أجتمع في حضرة مثل هذين الإثنين اللذين كأنهما قمران؟ ثم إن الشيخ ابراهيم تقدّم وقعد في طرف الإيوان . فقال له علي نور الدين : يا سيدي بحياتي عليك أن تتقدّم عندنا . فتقدّم الشيخ ابراهيم عندهما ، فملأ نور الدين قدحاً ونظر إلى الشيخ ابراهيم وقال له : إشرب حتى تعرف ما لذّة طعمه . فقال الشيخ ابراهيم : أعوذ بالله ، إن لي ثلاث عشرة سنة ما فعلت شيئاً من ذلك . فتغافل عنه نور الدين وشرب القدح ورمى نفسه في الأرض وأظهر أنه غلب عليه السكر . فعند ذلك نظرت إليه أنيس الجليس وقالت له : يا شيخ ابراهيم أنظر هذا كيف عمل معي ؟ قال لها : يا سيدتي ما له ؟ قالت : دائماً يعمل معي هكذا ، فيشرب ساعة وينام وأبقى أنا وحدي لا أجد لي نديماً ينادمني على قدحي ، فإذا شربت فمن يعاطيني ؟ وإذا غنّيت فمن يسمعني ؟ فقال لها الشيخ ابراهيم وقد حنت أعضاؤه ومالت نفسه إليها من كلامها وقال : لا ينبغي من النديم أن يكون هكذا . ثم إن الجارية ملأت قدحاً ونظرت إلى الشيخ ابراهيم وقالت له : بحياتي أن تأخذه وتشربه ولا تردّه ، فاقبله واجبر خاطري . فمدّ الشيخ ابراهيم يده وأخذ القدح وشربه وملأت له ثانياً ومدّت إليه يدها به وقالت له : يا سيدي بقي لك هذا . فقال لها : والله لا أقدر أن أشربه فقد كفاني الذي شربته . فقالت له : والله لا بدّ منه . فأخذ القدح وشربه . ثم أعطته الثالث فأخذه وأراد أن يشربه وإذا بنور الدين همّ قاعداً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 35

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن علياً نور الدين همّ قاعداً فقال له : يا شيخ ابراهيم ، أي شيء هذا؟ أمَا حلفت عليك من ساعة فأبيت وقلت : إن لي ثلاثة عشر عاماً ما فعلته؟ فقال الشيخ ابراهيم وقد استحيى : والله ما لي ذنب وإنما هي شدّدت علي . فضحك نور الدين وقعدوا للمنادمة فالتفتت الجارية وقالت لسيّدها سراً : يا سيدي إشرب ولا تحلف على الشيخ ابراهيم حتى أفرجك عليه . فجعلت الجارية تملأ وتسقي سيّدها ، وسيّدها يملأ ويسقيها ، ولم يزالا كذلك مرة بعد مرة ، فنظر لهما الشيخ ابراهيم وقال لهما : أي شيء هذا وما هذه المنادمة ؟ لِمَ لا تسقياني وقد صرت نديمكما ؟ فضحكا من كلامه إلى أن أغمي عليهما ثم شربا وسقياه ، ولا زالوا في المنادمة إلى ثلث الليل . فعند ذلك قالت الجارية : يا شيخ ابراهيم عن إذنك ، هل أقوم وأوقد شمعة من هذا الشمع المصفوف؟ فقال لها : قومي ولا توقدي إلاّ شمعة واحدة . فنهضت على قدميها وابتدأت من أول الشمع إلى أن أوقدت ثمانين شمعة ثم قعدت . وبعد ذلك قال نور الدين : يا شيخ ابراهيم ، وأنا أي شيء حظي عندك ؟ أمَا تخليني أوقد قنديلاً من القناديل ؟ فقال له الشيخ ابراهيم : قم وأوقد قنديلاً واحداً ولا تتثاقل أنت الآخر . فقام وابتدأ من أولها إلى أن أوقد ثمانين قنديلاً . فعند ذلك رقص المكان فقال لهما الشيخ ابراهيم وقد غلب

عليه السكر : أنتما أخرع مني . ثم إنه نهض على قدميه وفتح الشبابيك جميعاً وجلس معهما يتنادمون ويتناشدون الأشعار وابتهج بهم المكان . فقدّر الله السميع العليم الذي جعل لكل شيء سبباً ، ان الخليفة كان في تلك الساعة جالساً في الشبابيك المطلّة على ناحية الدجلة في ضوء القمر ، فنظر إلى تلك الجهة فرأى ضوء القناديل والشموع في البحر ساطعاً ، فلاحت من الخليفة التفاتة إلى القصر الذي في البستان ، فرآه يرهج من تلك الشموع والقناديل فقال : عليّ بجعفر البرمكي . فما كان إلاّ لحظة وقد حضر جعفر بين يدي أمير المؤمنين فقال له : يا كلب الوزراء أتخدعني ولم تعلمني بما يحصل في مدينة بغداد ؟ فقال له جعفر : وما سبب هذا الكلام ؟ فقال له : لولا أن مدينة بغداد أخذت مني ما كان قصر الفرجة مبتهجاً بضوء القناديل والشموع وانفتحت شبابيكه . ويلك من الذي يكون له قدرة على هذه الفعال إلاّ إذا كانت الخلافة أخذت مني ؟ فقال جعفر وقد ارتعدت فرائصه : ومن أخبرك بأن قصر الفرجة أوقدت فيه القناديل والشموع وفتحت شبابيكه ؟ فقال له : تقدّم عندي وانظر . فتقدّم جعفر عند الخلفة ونظر ناحية البستان فوجد القصر كأنه شعلة نار ، نورها غلب على نور القمر . فأراد جعفر ان يعتذر عن الشيخ ابراهيم الخولي ربما يكون هذا الأمر بإذنه لما رأى فيه من المصلحة . فقال : يا أمير المؤمنين ، كان الشيخ ابراهيم في الجمعة التي مضت قال لي : يا سيدي جعفر ، إني أريد أن افرح أولادي في حياتك وحياة أمير المؤمنين . فقلت : وما مرادك بهذا الكلام ؟ فقال لي : مرادي أن تأخذ إذناً من الخليفة بأني أطاهر أولادي في البصرة . فقلت له : إفعل ما شئت من فرح أولادك ، وإن شاء الله أجتمع بالخليفة وأعلمه بذلك . فراح من عندي على هذه الحال ونسيت أن أعلمك . فقال الخليفة : يا جعفر كان لك عندي ذنب واحد فصار لك عندي ذنبان لأنك أخطأت من وجهين : الوجه الأول إنك أعلمتني بذلك ، الوجه الثاني إنك ما بلغت الشيخ ابراهيم مقصوده ، فانه ما جاء إليك وقال لك هذا الكلام إلاّ تعريضاً بطلب شيء من المال يستعين به على مقصوده ، فلم تعطه شيئاً ولم تعلمني حتى أعطيه . فقال جعفر : يا أمير المؤمنين نسيت . فقال الخليفة : وحق آبائي وأجدادي ، ما أتمّ بقية ليلتي إلاّ عنده ، فإنه رجل صالح يتردّد إلى المشايخ ويحتفل بالفقراء ويواسي المساكين وأظن أن الجميع عنده في هذه الليلة ، فلا بدّ من الذهاب إليه لعلّ واحداً منهم يدعو لنا دعوة يحصل لنا بها خير في الدنيا والآخرة ، وربما يحصل له نفع في هذا الأمر بحضوري ويفرح بذلك هو وأحبابه . فقال جعفر : يا أمير المؤمنين ، إن معظم الليل قد مضى وهم في هذه الساعة على وجه الانفضاض . فقال الخليفة : لا بدّ من الرواح عندهم . فسكت جعفر في نفسه وصار لا يدري ما يفعل . فنهض الخليفة على قدميه ، وقام جعفر بين يديه ومعهم مسرور الخادم ومشوا الثلاثة متفكرين ونزلوا من القصر ، وجعلوا يشقون في الأزقّة وهم في زيّ التجار إلى ان وصلوا إلى باب البستان المذكور ، فتقدم الخليفة فرأى البستان مفتوحاً فتعجّب وقال : انظر يا جعفر الشيخ ابراهيم كيف خلّى الباب مفتوحاً إلى هذا الوقت وما هي عادته ؟ ثم إنهم دخلوا إلى أن انتهوا إلى آخر البستان ووقفوا تحت القصر . فقال الخليفة : يا جعفر أريد أن أتسلّل عليهم قبل ان أطلع عندهم حتى أنظر ما على المشايخ من النفحات وواردات الكرامات ، فإن لهم شؤوناً في الخلوات والجلوات ، لأننا الآن لم نسمع لهم صوتاً ولم نرَ لهم اثراً . ثم إن الخليفة نظر فرأى شجرة جوز عالية فقال : يا جعفر أريد أن أطلع على هذه الشجرة فإن فروعها قريبة من الشبابيك ،

وانظر إليهم . ثم إن الخليفة طلع فوق الشجرة ولم يزل يتعلّق من فرع إلى فرع حتى وصل إلى الفرع الذي يقابل الشبّاك وقعد فوقه ونظر من شبّاك القصر، فرأى صبية وصبيًا كأنهما قمران سبحان من خلقهما، ورأى الشيخ ابراهيم قاعداً وفي يده قدح وهو يقول : يا سيدة الملاح ، الشرب بلا طرب غير فلاح ، ألم تسمع قول الشاعر : [من الوافر]

أدِرْها بالكَبِيْرِ وبالصَّغِيْرِ وخُذْها مِنْ يَدِ القَمَرِ المُنِيْرِ
ولا تَشْرَبْ بلاَ طَرَبٍ فإنِّي رأَيْتُ الخَيْلَ تَشْرَبُ بالصَّفِيْرِ

فلما عاين الخليفة من الشيخ ابراهيم هذه الفعال، قام عرق الغضب بين عينيه ونزل وقال : يا جعفر أنا ما رأيت شيئاً من كرامات الصالحين مثل ما رأيت في هذه الليلة . فاطلع أنت الآخر على هذه الشجرة وانظر لئلا تفوتك بركات الصالحين . فلما سمع جعفر كلام أمير المؤمنين صار متحيّراً في أمره وصعد إلى اعلى الشجرة، وإذا به نظر فرأى نور الدين والشيخ ابراهيم والجارية، وكان الشيخ ابراهيم في يده القدح . فلما عاين جعفر تلك الحالة أيقن بالهلاك، ثم نزل فوقف بين يدي أمير المؤمنين . فقال الخليفة : يا جعفر الحمد لله الذي جعلنا من المتبعين لظاهر الشريعة المطهرة وكفانا شرّ تلبيسات الطريقة المزوّرة . فلم يقدر جعفر أن يتكلم من شدة الخجل . ثم نظر الخليفة إلى جعفر وقال : يا ترى من أوصل هؤلاء إلى هذا المكان؟ ومن أدخلهم قصري؟ ولكن مثل هذا الصبي وهذه الصبية ما رأت عيني حسناً وجمالاً وقدّاً واعتدالاً . فقال جعفر وقد استرجى رضاء الخليفة : صدقت يا أمير المؤمنين . فقال : يا جعفر، إطلع بنا على هذا الفرع الذي هو مقابلهم لنتفرج عليهم . فطلع الإثنان على الشجرة ونظراهما، فسمعا الشيخ ابراهيم يقول : يا سادتي، قد تركت الوقار بشرب العقار ولا يلذّ ذلك إلاّ بنغمات الأوتار . فقالت له أنيس الجليس : يا شيخ ابراهيم، والله لو كان عندنا شيء من آلات الطرب لكان سرورنا كاملاً . فلما سمع الشيخ ابراهيم كلام الجارية نهض قائماً على قدميه . فقال الخليفة لجعفر : يا ترى ماذا يريد ان يعمل؟ فقال جعفر : لا أدري . فغاب الشيخ ابراهيم وعاد ومعه عود، فتأمّله الخليفة فإذا هو عود اسحاق النديم فقال الخليفة : والله إن غنّت هذه الجارية ولم تحسن الغناء صلبتكم كلكم، وإن غنّت وأحسنت الغناء فإني أعفو عنهم وأصلبك أنت . فقال جعفر : اللّهم اجعلها لا تحسن الغناء . فقال الخليفة : لأي شيء؟ فقال : لأجل أن تصلبنا كلنا فيؤانس بعضنا بعضاً . فضحك الخليفة وإذا بالجارية أخذت العود وأصلحت أوتاره وضربت ضرباً يذيب الحديد ويفطن البليد، وجعلت تنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

أَضْحَى التَّنائِي بَدِيلاً مِنْ تَدانِينا ومُذْ دَنَى طِيبُ لُقْيانا تُجَافِيْنا
بِنْتُمْ وَبِنَّا فما ابْـتَـلَّتْ جَوانِحُنا شَوْقاً إِلَيْـكُمْ ولا جَفَّتْ مآقِيْنا
غِيْظَ العِدَى مِنْ تَسَاقِيْنا الْهَوَىٰ فَدَعُوا بأَنْ نَغَصَّ فَقَالَ: الدَّهْرُ آمِيْنا
والله ما الْخَوْفُ أَنْ تَقْتُلُونا في مَنَازِلِكُمْ وإنَّما خَوْفُنا أَنْ تَأْثَـمُوا فِيْـنَا

فقال الخليفة : والله يا جعفر، عمري ماسمعت صوتاً مطرباً مثل هذا . فقال جعفر : لعلّ الخليفة ذهب ما عنده من الغيظ . قال : نعم ذهب . ثم نزل من على الشجرة هو وجعفر، ثم التفت إلى جعفر وقال : أريد أن أطلع وأجلس عندهم وأسمع الصبيّة تغني قدّامي . فقال : يا أمير المؤمنين

إذا طلعت عليهم ربما تكدّروا، وأما الشيخ ابراهيم فإنه يموت من الخوف. فقال الخليفة: يا جعفر لا بدّ أن تعرّفني حيلة أحتال بها على معرفة حقيقة هذا الأمر من غير أن يشعروا باطّلاعنا عليهم. ثم إن الخليفة وجعفر ذهبا إلى ناحية الدجلة وهما متفكّران في هذا الأمر وإذا بصيّاد واقف يصطاد، وكان الصياد تحت شبابيك القصر، فرمى شبكته ليصطاد ما يقتات به، وكان الخليفة سابقاً صاح على الشيخ ابراهيم وقال له: ما هذا الصوت الذي سمعته تحت شبابيك القصر؟ فقال له الشيخ ابراهيم: صوت الصيادين الذين يصطادون السمك. فقال: إنزل وامنعهم من ذلك الموضع. فامتنعت الصيادون من ذلك الموضع. فلما كانت تلك الليلة جاء صياد يسمى كريماً، ورأى باب البستان مفتوحاً، فقال في نفسه: هذا وقت غفلة، لعلي أستغنم في هذا الوقت صيداً. ثم اخذ شبكته وطرحها في البحر وصار ينشد هذه الأبيات: [من البسيط]

يا راكِبَ البَحْرِ في الأَهْوالِ والهَلَكَةْ ... أَقْصِرْ عَنَاكَ فَلَيْسَ الرِّزْقُ بالحَرَكَةْ
أمَا ترى ٱلْبَحْرَ والصَّيَّادُ مُنْتَصِبٌ ... في لَيْلِهِ ونُجُومُ ٱللَّيْلِ مُحْتَبِكَةْ
قَدْ مَدَّ أَطْنابَهُ وٱلْمَوْجُ يَلْطِمُهُ ... وَعَيْنُهُ لَمْ تَزَلْ في كَلْكَلِ الشَّبَكَةْ
حتَّى إذَا باتَ مَسْرُوراً بِها فَرِحاً ... وٱلْحُوتُ قَدْ حَطَّ في فَخِّ الرَّدَى حَنَكَهْ
وصاحِبُ القَصْرِ أَمْسَى فيه لَيْلَتَهُ ... مُنَعَّمَ ٱلْبَالِ في خَيْرٍ مِنَ ٱلْبَرَكَهْ
وصارَ مُسْتَيْقِظاً مِنْ بَعْدِ رَقْدَتِهِ ... لَكِنَّ في مُلْكِهِ ظَبْيٌ وقَدْ مَلَكَهْ
سُبْحَانَ رَبِّيَ يُعْطِي ذا وَيَمْنَعُ ذَا ... بَعْضٌ يَصِيدُ وبَعْضٌ يأكُلُ السَّمَكَهْ

فلما فرغ من شعره، وإذا بالخليفة وحده واقف على رأسه فعرفه الخليفة فقال له: كريم. فالتفت إليه لما سمعه سمّاه باسمه. فلما رأى الخليفة، ارتعدت فرائصه وقال: والله يا أمير المؤمنين ما فعلته استهزاء بالمرسوم، ولكن الفقر والعيلة قد حملاني على ما ترى. فقال الخليفة: اصطد على بختي. فتقدّم الصيّاد وقد فرح فرحاً شديداً وطرح الشبكة وصبر إلى أن أخذت حدّها وثبتت في القرار، ثم جذبها إليه فطلع فيها من انواع السمك ما لا يحصى، ففرح بذلك الخليفة فقال: يا كريم إقلع ثيابك. فقلع ثيابه، وكانت عليه جبّة فيها مائة رقعة من الصوف الخشن وفيها من القمل الذي له أذناب ومن البراغيث ما يكاد أن يسير بها على وجه الأرض، وقلع عمامته من فوق رأسه وكان له ثلاث سنين ما حلّها، وإنما كان إذا رأى خرقة لفّها عليها. فلما قلع الجبّة والعمامة، خلع الخليفة من فوق جسمه ثوبين من الحرير الاسكندراني والبعلبكي وملوطة وفرجية ثم قال للصياد: خذ هذه والبسها. ثم لبس الخليفة جبّة الصيّاد وعمامته ووضع على وجهه لثاماً ثم قال للصيّاد: رُحْ انت إلى شغلك. فقبّل رجل الخليفة وشكره وأنشد هذين البيتين: [من الكامل]

أَوْلَيْتَنِي ما لا أَقُومُ بِشُكْرِهِ ... وكَفَيْتَنِي كُلَّ الأُمُورِ بأَسْرِها
فلأَشْكُرَنَّكَ ما حَيِيتُ وإنْ أَمُتْ ... شَكَرَتْكَ مِنِّي أَعظُمِي في قَبْرِها

فما فرغ الصياد من شعره حتى جال القمل عل جلد الخليفة. فصار يقبض بيده اليمين والشمال من على رقبته ويرمي ثم قال: يا صيّاد ويلك، ما هذا القمل الكثير في هذه الجبّة؟ فقال:

يا سيدي، إنه في هذه الساعة يؤلمك فإذا مضت عليك جمعة فإنك لا تحس به ولا تفكر فيه. فضحك الخليفة وقال له: ويلك، كيف اخلي هذه الجبّة على جسدي؟ فقال الصيّاد: إني اشتهي أن اقول لك كلاماً ولكني استحي من هيبة الخليفة. فقال له: قل ما عندك؟ فقال له: قد خطر ببالي يا امير المؤمنين انك اردت ان تتعلم الصيد لأجل ان تكون في يدك صنعة تنفعك، فإنْ اردت ذلك يا أمير المؤمنين فإن هذه الجبّة تناسبك. فضحك الخليفة من كلام الصيّاد ثم ولّى الصيّاد إلى حال سبيله. واخذ الخليفة السمك ووضع فوقه قليلاً من الحشيش وأتى به إلى جعفر ووقف بين يديه، فاعتقد جعفر أنه كريم الصيّاد، فخاف عليه وقال: يا كريم ما جاء بك هنا؟ انج بنفسك فإن الخليفة هنا في هذه الليلة. فلما سمع الخليفة كلام جعفر ضحك حتى استلقى على قفاه. فقال له جعفر: لعلّك مولانا امير المؤمنين؟ فقال الخليفة: نعم يا جعفر وأنت وزيري، وجئت أنا وإياك هنا وما عرفتني، فكيف يعرفني الشيخ ابراهيم وهو سكران؟ فكن مكانك حتى أرجع إليك. فقال جعفر: سمعاً وطاعةً. ثم إن الخليفة تقدّم إلى باب القصر ودقّه، فقام الشيخ ابراهيم وقال: مَنْ بالباب؟ فقال له: أنا يا شيخ ابراهيم. قال له: مَنْ أنت؟ قال: أنا كريم الصيّاد، وسمعت انّ عندك اضيافاً فجئت إليك بشيء من السمك فإنه مليح. وكان نور الدين هو والجارية يحبّان السمك، فلما سمع ذكر السمك فرحا به فرحًا شديداً وقالا: يا سيدي إفتح له ودعه يدخل لنا بالسمك الذي معه. ففتح الشيخ ابراهيم الباب، فدخل الخليفة وهو في صورة الصيّاد وابتدأ بالسلام فقال له الشيخ ابراهيم: أهلاً باللص السارق المقامر، تعال أرنا السمك الذي معك. فأراهم إياه، فلما نظروه فإذا هو حيّ يتحرك. فقالت الجارية: والله يا سيدي إن هذا السمك مليح يا ليته مقلي. فقال الشيخ ابراهيم: والله صدقت. ثم قال للخليفة: يا صيّاد، ليتك جئت بهذا السمك مقلياً،قم فاقله لنا وهاته. فقال الخليفة: على الرأس، أقليه وأجيء به. فقالوا له: عجّل بقليه والإتيان به. فقام الخليفة يجري حتى وصل إلى جعفر وقال: يا جعفر، طلبوا السمك مقلياً. فقال: يا أمير المؤمنين هاته وأنا أقليه. فقال الخليفة: وتربة أبائي وأجدادي ما يقليه إلاّ أنا بيدي. ثم إن الخليفة ذهب إلى خص الخولي وفتّش فيه، فوجد فيه كل شيء يحتاج إليه من آلة القلي حتى الملح والزعتر وغير ذلك، فتقدّم للكانون وعلّق الطاجن وقلاه قلياً مليحاً، فلما استوى جعله على ورق الموز وأخذ من البستان ليموناً وطلع بالسمك ووضعه بين أيديهم. فتقدّم الصبي والصبيّة والشيخ ابراهيم وأكلوا، فلما فرغوا غسلوا أيديهم فقال نور الدين: والله يا صيّاد، إنك صنعت معنا معروفاً في هذه الليلة. ثم وضع يده في جيبه وأخرج له ثلاثة دنانير من الدنانير التي أعطاه إياها سنجر وقت خروجه للسفر، وقال: يا صيّاد اعذرني، فوالله لو عرفتك قبل الذي حصل لي سابقاً لكنت نزعت مرارة الفقر من قلبك، لكن خذ هذا بحسب الحال. ثم رمى الدنانير للخليفة، فأخذها الخليفة وقبّلها ووضعها في جيبه، وما كان مراد الخليفة بذلك إلاّ السماع من الجارية وهي تغني. فقال له الخليفة: أحسنت وتفضلت، لكن مرادي من تصدّقاتك العميمة ان هذه الجارية تغنّي لنا صوتاً حتى اسمعها. فقال علي نور الدين: يا أنيس الجليس. قالت: نعم. قال لها: وحياتي أن تغني لنا شيئاً من شأن خاطر هذا الصيّاد لأنه يريد أن يسمعك. فلما سمعت كلام سيّدها أخذت العود وغمزته بعد أن عركت أذنه وأنشدت هذين البيتين: [من البسيط]

وغَادَة لَعِبَتْ بالعُودِ أَنْمُلُها فعَادَتِ ٱلنَفسُ عِند الجسِّ تَخْتَلِسُ
قَدْ أَسْمَعَتْ بالأغاني مَنْ بِهِ صَمَمٌ وقالَ أَحْسَنْتِ مُغَنَى مَنْ بِه خَرَسُ

ثم إنها ضربت ضرباً غريباً إلى ان أذهلت العقول، وأنشدت تقول هذين البيتين: [من البسيط]

ولَقَدْ شَرُفْنَا إِذْ نَزَلْتُم أَرْضَنَا ومَحَا سَنَاكُمْ ظُلْمَةَ الدَّيْجُورِ
فَيَحِقُّ لِي أَنِّي أُخَلِّقُ مَنْزِلِي بالمِسْكِ والمَاوَرْدِ والكَافُوْرِ

فعند ذلك اضطرب الخليفة عليه الوجد فلم يملك نفسه من شدّة الطرب وصار يقول: طيبك الله طيبك الله طيبك الله. فقال نور الدين: يا صيّاد، هل أعجبتك الجارية وتحريكها الأوتار؟ فقال الخليفة: إي والله. فقال نور الدين: هي هبة مني إليك، هبة كريم لا يرجع في عطائه. ثم إن نور الدين نهض قائماً على قدميه وأخذ ملوطة ورماها على الخليفة وهو في صورة الصيّاد وامره أن يخرج ويروح بالجارية. فنظرت الجارية إليه وقالت: يا سيدي، هل أنت رايح بلا وداع؟ إنْ كان ولا بدّ فقف حتى أودعك، وأنشدت هذين البيتين: [من الطويل]

لَئِنْ غِبْتُمُ عَنِّي فإنَّ مَحَلَّكُمْ لَفِي مُهْجَتِي بَيْنَ ٱلْجَوانِحِ والْحَشا
وأَرْجُو مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ جَمْعاً لِشَمْلِنا وذَلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشا

فلما فرغت من شعرها أجابها نور الدين وهو يقول: [من الخفيف]

وَدَّعَتْنِي يَوْمَ الفِراقِ وقَالَتْ وَهْيَ تَبْكِي مِنْ لَوْعَةٍ وفِراقِ
ما الَّذي أَنْتَ صانِعٌ بَعْدَ بُعْدِي قُلْتُ قُوْلِي هَذا لِمَنْ هُوَ بَاقِ

ثم إن الخليفة لما سمع ذلك صعب عليه التفريق بينهما والتفت إلى الصبي وقال له: يا سيدي هل أنت خائف من جناية أو لأحد عليك دين؟ فقال نور الدين: والله يا صيّاد إنه جرى لي ولهذه الجارية حديث عجيب وأمر غريب، لو كتب بالإبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر. فقال الخليفة: أما تحدّثنا بحديثك وتعرّفنا بخبرك عسى أن يكون لك فيه فرج فإن فرج الله قريب. فقال نور الدين: يا صيّاد، هل تسمع حديثنا نظماً أو نثراً؟ فقال الخليفة النثر كلام والشعر نظام. فعند ذلك أطرق نور الدين رأسه إلى الأرض وانشأ يقول هذه الأبيات: [من الخفيف]

يا خَلِيْلِي إِنِّي هَجَرْتُ رُقَادِي وَهُمُوْمِي نَمَتْ لِبُعْدِ بِلادِي
كانَ لِي وَالِدٌ عَلَيَّ شَفُوقاً غابَ عَنِّي مُجَاوِرَ الأَلْحَادِ
وَجَرَتْ لِي مِنْ بَعْدِ ذَاكَ أُمُوْرٌ صِرْتُ مِنْها مُفَتَّتَ الأَكْبادِ
إِشْتَرَى لِي مِنَ الحِسان فَتَاةً مِثْلَ غُصْنٍ بِقَدِّها المَيَّادِ
فَصَرَفْتُ الَّذي وَرِثْتُ عَلَيْها وَتَخَيَّرْتُها على الأَجْوادِ
سِمْتُها البَيْعَ إِذْ تَزَايَدَ هَمِّي وَجَوَى البَيْنِ لَم يَكُنْ بِمُرادِي
وإذا ما دَعَا إِلَيْها مُنَادٍ زادَ فِيْها شَيْخٌ كَثِيْرُ الفَسَادِ
فَلِهَذا ٱغْتَظْتُ غَيْظاً شَدِيْداً ولِمُلْكِي جَذَبْتُها بأَيادِ
فَتَرَدَّى ذاكَ اللَّئِيمُ بِقُبْحٍ ثُمَّ قادَتْ فِيهِ لَظَى الأَلْحادِ

مِنْ غَرامي لَـكَمْتُهُ بِيَميني وشِمالي حَتَّى شَفَيْتُ فُؤَادِي
ومِنَ الخَوْفِ قَد أَتَيْتُ لِدَارِي وتَيَقَّنْتُ سَطْوَةَ الأَضْدَادِ
فَهُدِي مَالِكُ البِلادِ لِحَبْسِي فأتَى الحاجِبُ الرَّشِيدُ السَّدادِ
رامِزاً كَي أَسِيرَ سَيْراً بَعيداً عَنْ ذُراهُمْ مُكَمِّداً حُسَّادِي
فَطَلَعْنا مِنْ دارِنَا جُنْح لَيْلٍ طالِبِينَ الْمُقام في بَغْدادِ
لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الذَّخَائِرِ عِنْدي دُونَها مِنْحَةٌ إلى الصَّيَّادِ
غَيْرَ أَنِّي أُعْطِيكَ مَحْبُوبَ قَلْبِي فَتَيَقَّنْ أَنِّي وَهَبْتُ فُؤَادِي

فلما فرغ من شعره، قال الخليفة: يا سيدي نور الدين إشرح لي أمرك. فأخبره نور الدين بحاله من أوله إلى آخره. فلما فهم الخليفة هذه الحال قال له: أين تقصد في هذه الساعة؟ قال له: بلاد الله فسيحة. فقال له الخليفة: أنا أكتب لك ورقة توصلها إلى السلطان محمد بن سليمان الزيني، فإذا قرأها لا يضرّك بشيء. وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 36

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة لما قال لعلي نور الدين: أنا أكتب لك ورقة توصلها إلى السلطان محمد بن سليمان الزيني فإذا قرأها لا يضرّك بشيء. فقال له علي نور الدين: وهل في الدنيا صيّاد يكاتب الملوك؟ إن هذا شيء لا يكون أبداً. فقال له الخليفة: صدقت، ولكن أنا أخبرك بالسبب. اعلم أني قرأت أنا وإياه في مكتب واحد عند فقيه وكنت أنا عريفه، ثم أدركته السعادة وصار سلطاناً وجعلني الله صيّادا، ولكني لم أرسل إليه في حاجة إلاّ قضاها ولو أرسلت إليه في كل يوم من شأن ألف حاجة لقضاها. فلما سمع نور الدين كلامه قال له: اكتب حتى أنظر. فأخذ دواة وقلماً وكتب بعد البسملة: أما بعد فإن هذا الكتاب من هارون الرشيد بن المهدى إلى حضرة محمد بن سليمان الزيني المشمول بنعمتي الذي جعلته نائباً عني في بعض مملكتي، وأعرّفك أن الواصل إليك هذا الكتاب صحبة نور الدين بن خاقان الوزير، فساعة وصوله عندكم تنزع نفسك من الملك وتجلسه مكانك، فإني قد ولّيته على ما كنت وليتك عليه سابقًا فلا تخالف أمري والسلام. ثم أعطى علي نور الدين بن خاقان الكتاب. فأخذه نور الدين وقبّله وحطّه في عمامته ونزل في الوقت مسافراً. هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر الخليفة، فإن الشيخ ابراهيم نظر إليه وهو في صورة الصيّاد وقال له: يا أحقر الصيّادين، قد جئت لنا بسمكتين تساويان عشرين نصفاً فأخذت ثلاثة دنانير وتريد أن تأخذ الجارية أيضاً؟ فلما سمع كلامه صاح عليه وأومأ إلى مسرور فأشهر نفسه وهجم عليه. وكان جعفر قد أرسل رجلاً من صبيان البستان إلى بوّاب القصر يطلب منه بدلة لأمير المؤمنين، فذهب الرجل وطلع بالبدلة وقبّل الأرض بين يدي الخليفة، فخلع عليه الخليفة ما كان عليه ولبس تلك البدلة. وكان الشيخ ابراهيم جالساً على كرسي والخليفة واقف ينظر ما يجري، فعند ذلك بهت الشيخ ابراهيم وصار يعض في أنامله من الخجل ويقول: يا ترى هل أنا نائم أم يقظان؟ فنظر إليه الخليفة وقال: يا شيخ ابراهيم ما هذا الحال الذي أنت فيه؟ فعند ذلك أفاق من سكره ورمى نفسه على الأرض وأنشد هذين البيتين: [من البسيط]

هَبْ لي جنايَةَ مَنْ زَلَّت به القَدَمُ فإنَّ لِلعَبْدِ مِنْ ساداتِه كَرَمُ
فَعَلْتُ ما يَقْتَضيه الذَّنْبُ مُعْتَرِفاً فأيْنَ ما يَقْتَضِيهِ العفوُ والْكَرَمُ

فعفا عنه الخليفة وأمر بالجارية أن تحمل إلى القصر . فلما وصلت إلى القصر أفرد لها الخليفة منزلاً وحدها ووكّل بها من يخدمها وقال لها : اعلمي اني ارسلت سيّدك سلطاناً على البصرة فان شاء الله نرسل إليه خلعة ونرسلك إليه صحبتها . هذا ما جرى لهؤلاء . واما ما جرى لنور الدين علي بن خاقان ، فإنه لا زال مسافراً حتى دخل البصرة وطلع قصر السلطان ، ثم صرخ صرخة عظيمة فسمعه السلطان فطلبه . فلما حضر بين يديه قبل الأرض قدّامه ثم اخرج الورقة واعطاه إياها . فلما رأى عنوان الكتاب بخط امير المؤمنين ، قام واقفاً على قدميه وقبّلها ثلاث مرات وقال : السمع والطاعة لله تعالى ولأمير المؤمنين ، ثم احضر القضاة الأربعة والأمراء وأراد ان يخلع نفسه من الملك . وإذا بالوزير المعين بن ساوى قد حضر ، فأعطاهُ السلطان ورقة امير المؤمنين فلما قراها قطّعها عن آخرها واخذها في فمه ومضغها ورماها . فقال له السلطان وقد غضب : ويلك ، ما الذي حملك على هذه الفعال ؟ قال له : هذا ما اجتمع بالخليفة ولا بوزيره ، وإنما هو علق شيطان مكّار ، وقع بورقة فيها خط الخليفة فزوّرها وكتب فيها ما أراد . فلأي شيء تعزل نفسك من السلطنة مع ان الخليفة لم يرسل إليك رسولاً بخط شريف ؟ ولو كان هذا الأمر صحيحاً لأرسل معه حاجباً او وزيراً لكنه جاء وحده . فقال له : وكيف العمل ؟ قال له : ارسل معي هذا الشاب وانا آخذه واتسلّمه منك وارسله صحبة حاجب إلى مدينة بغداد ، فإن كان كلامه صحيحاً يأتينا بخط شريف وتقليد ، وإن كان غير صحيح يرسلوه إلينا مع الحاجب وانا آخذ حقي من غريمي . فلما سمع السلطان كلام الوزير ودخل عقله صاح على الغلمان فطرحوه وضربوه إلى أن اغمي عليه ، ثم امر ان يضعوا في رجليه قيداً وصاح على السجّان ، فلما حضر قبّل الأرض بين يديه . وكان هذا السجّان يقال له : قطيط . فقال له : يا قطيط اريد ان تأخذ هذا وترميه في مطمورة من المطامير التي عندك في السجن وتعاقبه بالليل والنهار . فقال السجّان : سمعاً وطاعةً . ثم إن السجّان ادخل نور الدين في السجن وقفل عليه الباب ثم امر بكنس مصطبة وراء الباب وفرشها بسجادة ومخدة واقعد نور الدين عليها وفكّ يده واحسن اليه ، وكان كل يوم يرسل إلى السجّان ويأمره بضربه والسجّان يظهر انه يعاقبه وهو يلاطفه . ولم يزل كذلك مدّة اربعين يوماً ، فلما كان اليوم الحادي والأربعون جاءت هدية من عند الخليفة ، فلما راها السلطان اعجبته فشاور الوزراء في أمرها فقال بعض : لعلّ هذه الهدية كانت للسلطان الجديد . فقال الوزير المعين بن ساوى : إنما كان المناسب قتله وقت قدومه . فقال السلطان : والله لقد ذكّرتني به ، إنزل هاته واضرب عنقه . فقال الوزير : سمعاً وطاعةً . فقام وقال له : إن قصدي ان انادي في المدينة ، من أراد ان يتفرج على ضرب رقبة نور الدين علي بن الخاقان فليأتِ إلى القصر ، فيأتي جميع الناس ليتفرّجوا عليه لأشفي فؤادي واكمد حسّادي . فقال له السلطان : إفعل ما تريد . فنزل الوزير وهو فرحان مسرور واقبل على الوالي وامره ان ينادي بما ذكره . فلما سمع الناس المنادي ، حزنوا وبكوا جميعاً حتى الصغار في المكاتب والسوقة في دكاكينهم ، وتسابق الناس يأخذون لهم اماكن ليتفرّجوا فيها ، وذهب بعض الناس إلى السجن حتى يأتي معه ، ونزل الوزير ومعه عشرة مماليك إلى السجن فقال

قطيط السجّان : ما تطلب يا مولانا الوزير ؟ فقال : إحضر لي هذا العلق . فقال السجّان : إنه في أقبح حال من كثرة ما ضربته . ثم دخل السجّان فوجده ينشد هذه الأبيات : [من الكامل]

مَنْ لي يُساعِدُني على بَلْوائي ... فَقَدِ اعْتَلى دائِي وعَزَّ دَوائِي
والهَجْرُ أضنَى مُهْجَتي وحُشاشَتي ... والدَّهْرُ ردَّ أَحِبَّتي أَعْدائِي
يا قَوْمُ هَلْ فِيكُمْ رَفِيقٌ مُشْفِقٌ ... يَرْثي لِحالِيْ أو يُجِيبُ نِدائِي
فالمَوْتُ هانَ عليَّ مع سَكَراتِهِ ... وقَطَعْتُ مِنْ طِيبِ الحَياةِ رَجائِي
يا رَبُّ بالهادي البَشيرِ المُصْطَفَى ... بَحْرِ المَكارِمِ سيِّدِ الشُّفَعاءِ
أَدْعُوكَ تُنْقِذُني وتَغْفِرُ زلَّتي ... وتُزِيلُ عنّي شَقْوَتي وعَنَائِي

فعند ذلك نزع عنه السجّان ثيابه النظاف وألبسه ثوبين وسخين ونزل به إلى الوزير ، فنظره نور الدين فرآه عدوّه الذي لا زال يطلب قتله . فلما رآه بكى وقال له : هل آمنت الدهر ؟ أمَا سمعت قول الشاعر : [من المجتث]

تَحَكَّمُوا فاسْتَطالُوا في تَحَكُّمِهِم ... وعَنْ قَرِيبٍ كأنَّ الحُكْمَ لَمْ يَكُنْ

ثم قال : يا وزير اعلم ان الله سبحانه وتعالى هو الفعّال لما يريد . فقال له : يا علي ، أتخوّفني بهذا الكلام ؟ فأنا في هذا اليوم أضرب رقبتك على رغم أنف أهل البصرة ولا ألتفت إلى نصحك وإنما ألتفت إلى قول الشاعر : [من الوافر]

دَعِ الأيّامَ تَفْعَلُ ما تَشاءُ ... وطِبْ نَفْساً بما فَعَلَ القَضاءُ

وما أحسن قول الآخر : [من مجزوء الكامل]

مَنْ عاشَ بَعْدَ عَدُوِّهِ ... يَوْماً فَقَدْ بَلَغَ المُنَى

ثم إن الوزير أمر غلمانه ان يحملوه على ظهر بغل ، فقال الغلمان لعلي نور الدين وقد صعب عليهم : دعنا نرجمه ونقطعه ولو تروح أرواحنا . فقال لهم علي نور الدين : لا تفعلوا ذلك أبداً . ما سمعتم قول الشاعر : [من الكامل]

لا بُدَّ لي مِنْ مُدَّةٍ مَحْتُومَةٍ ... فإذا انْقَضَتْ أيّامُها مُتُّ
لَوْ أدْخَلَتْني الأسْدُ في غاباتِها ... لَم تُفْنِها ما دامَ لي وَقْتُ

ثم إنهم نادوا علي نور الدين : هذا أقل جزاء مَنْ يزوّر مكتوباً على الخليفة إلى السلطان . ولا زالوا يطوفون به في البصرة إلى ان أوقفوه تحت شبّاك القصر وجعلوه في منقع الدم ، وتقدّم اليه السيّاف وقال له : أنا عبد مأمور فإن كان لك حاجة فاخبرني بها حتى أقضيها لك ، فإنه ما بقي من عمرك إلاّ قدر ما يخرج السلطان وجهه من الشبّاك ، فعند ذلك نظر يميناً وشمالاً وأنشد هذه الأبيات : [من الطويل]

فَهَلْ فِيكُمُ الخِلُّ الشَّفُوقُ يُعِينُني ... أُحَلِّفُكُمْ باللهِ رُدَّ جَوابِي
مَضَى الوَقْتُ مِنْ عُمْري وحانَتْ مَنِيَّتي ... فَهَلْ راحِمٌ لي كَيْ يَنالَ ثَوابِي
ويَنْظُرَ في حَالي ويَكْشِفَ كَرْبَتي ... بِشُرْبَةِ ماءٍ كَي يَهُونَ عَذابِي

فتباكت الناس عليه، وقام السيّاف وأخذ شربة ماء يناوله إياها، فنهض الوزير من مكانه وضرب قلّة الماء بيده فكسرها وصاح على السيّاف وأمره بضرب عنقه، فعند ذلك عصب عيني علي نور الدين فصاح الناس على الوزير وأقاموا عليه الصراخ وكثر بينهم القيل والقال. فبينما هم كذلك وإذا بغبار قد علا وعجاج ملأ الجو والخلا، فلما نظر إليه السلطان وهو قاعد في القصر، قال لهم: انظروا ما الخبر؟ فقال الوزير: حتى تضرب عنق هذا قبل. فقال له السلطان: إصبر أنت حتى ننظر الخبر. وكان ذلك الغبار غبار جعفر وزير الخليفة ومَنْ معه، وكان السبب في مجيئهم أن الخليفة مكث ثلاثين يوماً لم يتذكّر قصة علي بن خاقان ولم يذكرها له أحد، إلى أن جاء ليلة من الليالي إلى مقصورة أنيس الجليس فسمع بكائها وهي تنشد بصوت رقيق قول الشاعر: [من الوافر]

خَيالُكَ في التَّباعُدِ والتَّداني وذِكْرُكَ لا يُفارِقُهُ لِساني

وتزايد بكائها، وإذا بالخليفة قد فتح الباب ودخل المقصورة، فرأى أنيس الجليس وهي تبكي. فلما رأت الخليفة وقعت على قدميه وقبّلتهما ثلاث مرات، ثم إنها أنشدت هذين البيتين: [من الطويل]

أَيا مَنْ زَكَى أَصْلاً وطابَ وِلادةً وأَثْمَرَ غُصْناً يانِعاً وزَكَى جِنْساً
أُذَكِّرُكَ ٱلْوَعْدَ ٱلَّذِي سَمَحَتْ به مَحاسِنُكَ الحُسْنَى وحاشاكَ أَنْ تَنْسَى

فقال الخليفة: من أنت؟ قالت: أنا هدية علي بن خاقان إليك، أريد إنجاز الوعد الذي وعدتني به من أنك ترسلني إليه مع التشريف، والآن لي هنا ثلاثون يوماً لم أذق طعم النوم. فعند ذلك طلب الخليفة جعفر البرمكي وقال: مِنْ منذ ثلاثين يوماً لم أسمع بخبر علي بن خاقان، وما أظن إلاّ أن السلطان قتله، ولكن وحياة رأسي وتربة أبائي وأجدادي إنْ كان جرى له أمر مكروه لأهلكت من كان سبباً فيه ولو كان أعزّ الناس عندي. وأريد أن تسافر انت في هذه الساعة إلى البصرة وتأتي بأخبار الملك محمد بن سليمان الزيني مع علي بن خاقان. فامتثل أمره وسافر، فلما أقبل جعفر نظر ذلك الهرج والمرج والازدحام فقال الوزير جعفر: ما هذا الازدحام؟ فذكروا له ما هم فيه من أمر علي نور الدين بن خاقان. فلما سمع جعفر كلامهم، أسرع بالطلوع إلى السلطان وسلّم عليه وأعلمه بما جاء فيه، وأنه إذا كان وقع لعلي نور الدين أمر مكروه فإن السلطان يُهلك من كان السبب في ذلك. ثم إنه قبض على السلطان والوزير المعين بن ساوى وأمر بإطلاق علي نور الدين بن خاقان وأجلسه سلطاناً في مكان السلطان محمد بن سليمان الزيني وقعد ثلاثة أيام في البصرة مدّة الضيافة. فلما كان صبح اليوم الرابع، التفت علي بن خاقان إلى جعفر وقال له: إني اشتقت إلى رؤية أمير المؤمنين. فقال جعفر للملك محمد بن سليمان: تجهّز للسفر فإننا نصلّي ونتوجّه إلى بغداد. فقال: السمع والطاعة. ثم إنهم صلّوا الصبح وركبوا جميعهم ومعهم الوزير المعين بن ساوى وصار يتندم على ما فعله. وأما علي نور الدين بن خاقان فإنه ركب بجانب جعفر، وما زالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى بغداد دار السلام، وبعد ذلك دخلوا على الخليفة. فلما دخلوا عليه حكوا له قصة نور الدين. فعند ذلك أقبل الخليفة على علي بن خاقان وقال له: خذ هذا السيف واضرب به رقبة عدوك. فأخذه وتقدم إلى المعين بن ساوى فنظر إليه وقال له: انا عملت بمقتضى طبيعتي فاعمل أنت بمقتضى طبيعتك. فرمى

السيف من يده ونظر إلى الخليفة وقال : يا أمير المؤمنين إنه خدعني . وانشد قول الشاعر : [من الكامل]

فَخَدَعْتُهُ بِخَدِيْعَةٍ لَمَّا أَتَى وَٱلْحُرُّ يَخْدَعُهُ ٱلْكَلَامُ ٱلطَّيِّبُ

فقال له الخليفة : أتركه أنت . ثم قال لمسرور : يا مسرور ، قم أنت واضرب رقبته . فقام مسرور ورمى رقبته . فعند ذلك قال الخليفة لعلي بن خاقان : تمنّ علي . فقال : يا سيدي أنا ما لي حاجة بملك البصرة وما أريد إلاّ مشاهدة وجه خدمتك . فقال الخليفة : حباً وكرامة . ثم إن الخليفة دعا بالجارية فحضرت بين يديه فانعم عليهما وأعطاهما قصراً من قصور بغداد ورتّب لهما مرتبات وجعله من ندمائه . وما زال مقيماً عنده إلى أن أدركه الممات .

8 - حكاية التاجر أيوب وابنه غانم وابنته فتنة

وليس هذا باعجب من حكاية التاجر وأولاده . قال الملك : وكيف ذلك ؟ قالت :

حكاية غانم المتيّم المسلوب

بلغني أيها الملك السعيد ، أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، تاجر من التجّار له مال وله ولد كأنه البدر ليلة تمامه ، فصيح اللسان يسمى غانم بن أيوب المتيّم المسلوب ، وله أخت اسمها فتنة من فرط حسنها وجمالها . فتوفي والدهما وخلّف لهما مالاً جزيلاً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 37

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ذلك التاجر خلّف لهما مالاً جزيلاً ، ومن جملة ذلك مائة حمل من القزّ والديباج ونوافح المسك ، ومكتوب على الأحمال : هذا بقصد بغداد . وكان مراده أن يسافر إلى بغداد . فلما توفاه الله تعالى ومضت مدّة ، أخذ ولده هذه الأحمال وسافر بها إلى بغداد وكان ذلك في زمن هارون الرشيد ، وودّع أمه وأقاربه وأهل بلدته قبل سيره وخرج متوكّلاً على الله تعالى . وكتب الله له السلامة حتى وصل إلى بغداد ، وكان مسافراً صحبة جماعة من التجّار ، فاستأجر له داراً حسنة وفرشها بالبسط والوسائد وأرخى عليها الستور ، ونزّل فيها تلك الأحمال والبغال والجمال وجلس حتى استراح ، وسلّم عليه تجّار بغداد وأكابرها . ثم أخذ بقجة فيها عشر تفاصيل من القماش النفيس مكتوب عليها أثمانها ونزل بها إلى سوق التجّار ، فلاقوه وسلموا عليه وأكرموه وتلقّوه بالترحيب وأنزلوه على دكان شيخ السوق وباع التفاصيل فربح في كل دينار دينارين ، ففرح غانم وصار يبيع القماش والتفاصيل شيئاً فشيئاً . ولم يزل كذلك سنة كاملة ، وفي أول السنة الثانية جاء إلى ذلك السوق فرأى بابه مقفولاً ، فسأل عن سبب ذلك فقيل له : إنه توفي واحد من التجّار وذهب التجّار كلهم يمشون في جنازته ، فهل لك ان تكسب أجراً وتمشي معهم ؟ قال : نعم . ثم سأل عن محل الجنازة فدلّوه على المحل ، فتوضأ ثم مشى مع التجّار إلى ان وصلوا إلى المصلى وصلّوا على الميت ، ثم مشى التجّار جميعهم قدّام الجنازة إلى المقبرة ، فتبعهم غانم إلى أن وصلوا بالجنازة إلى المقبرة خارج المدينة ومشوا بين المقابر حتى وصلوا إلى المدفن فوجدوا أهل الميت نصبوا على القبر خيمة

وأحضروا الشموع والقناديل . ثم دفنوا الميت وجلس القرّاء يقرؤون القرآن على ذلك القبر، فجلس التجّار ومعهم غانم بن أيوب وهو غالب عليه الحياء . فقال في نفسه : أنا لم أقدر أن أفارقهم حتى أنصرف معهم . ثم إنهم جلسوا يسمعون القرآن إلى وقت العشاء . فقدّموا لهم العشاء والحلوى فأكلوا حتى اكتفوا وغسلوا أيديهم ثم جلسوا مكانهم . فاشتغل خاطر غانم ببضاعته وخاف من اللصوص فقال في نفسه : أنا رجل غريب ومتهم بالمال ، فإن بتّ الليلة بعيداً عن منزلي سرق اللصوص ما فيه من المال والأحمال . وخاف على متاعه فقام وخرج من بين الجماعة واستأذنهم على أنه يقضي حاجة ويمشي ويتبع آثار الطريق حتى جاء إلى باب المدينة ، وكان ذلك الوقت نصف الليل فوجد باب المدينة مغلوقاً ولم يرَ أحداً غادياً ولا رايحاً ولم يسمع صوتاً سوى نبيح الكلاب وعي الذئاب فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ،كنت خائفاً على مالي وجئت من أجله فوجدت الباب مغلوقاً ، فصرت الآن خائفاً على روحي . ثم رجع ينظر له محلاً ينام فيه إلى الصباح فوجد تربة محوطة بأربع حيطان وفيها نخلة ولها باب من الصوّان مفتوح ، فدخلها وأراد أن ينام فلم يجئه نوم وأخذته رجفة ووحشة وهو بين القبور ، فقام واقفاً على قدميه وفتح باب المكان ونظر فرأى نوراً يلوح على بعد في ناحية باب المدينة ، فمشى قليلاً فرأى النور مقبلاً في الطريق التي توصل إلى التربة التي هو فيها ، فخاف غانم على نفسه وأسرع برد الباب وتعلّق حتى طلع فوق النخلة وتدارى في قلبها ، فصار النور يقترب من التربة شيئاً فشيئاً حتى قرب من التربة . فتأمّل النور فرأى ثلاثة عبيد : اثنان حاملان صندوقاً وواحد في يده فأس وفانوس . فلما قربوا من التربة قال أحد العبدين الحاملين للصندوق : ما لك يا صواب؟ فقال العبد الآخر منهما : ما لك يا كافور؟ فقال : أمَا كنّا هنا وقت العشاء وخلّينا الباب مفتوحاً؟ فقال : نعم ، هذا الكلام صحيح . فقال : ها هو مغلوق متربس . فقال لهما الثالث وهو حامل الفأس والنور وكان اسمه بخيتاً : ما أقل عقلكما ، أمَا تعرفان أن أصحاب الغيطان يخرجون من بغداد ويتردّدون هنا ، فيمسي عليهم المساء فيدخلون هنا ويغلقون عليهم الباب خوفاً من السودان الذين هم مثلنا أن يأخذوهم ويأكلوهم . فقالوا له : صدقت ، وما فينا أقل عقلاً منك . فقال لهم : إنكم لم تصدقوني حتى ندخل التربة ونجد فيها أحداً ، وأظن أنه إذا كان فيها أحد ورأى النور هرب فوق النخلة . فلما سمع غانم كلام العبد قال في نفسه : ما أمكر هذا العبد! فقبّح الله السودان لما فيهم من الخبث واللؤم . ثم قال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وما الذي يخلصني من هذه الورطة؟ ثم إن الإثنين الحاملين للصندوق قالا لمن معه الفأس : تعلّق على الحائط وافتح لنا الباب يا صواب لأننا تعبنا من حمل الصندوق على رقابنا ، فإذا فتحت لنا الباب لك علينا واحد من الذين نمسكهم ونقليه لك قلياً جيداً بحيث لا يضيع من دهنه نقطة . فقال صواب : أنا خائف من شيء تذكّرته من قلّة عقلي وهو ، إننا نرمي الصندوق وراء الباب لأنه ذخيرتنا . فقالا له : إن رميناه ينكسر . فقال : أنا خائف أن يكون في داخل التربة الحرامية الذين يقتلون الناس ويسرقون الأشياء ، لأنهم إذا أمسى عليهم الوقت يدخلون في هذه الأماكن ويقسمون ما يكون معهم . فقال له الإثنان الحاملان للصندوق : يا قليل العقل ، هل يقدرون أن يدخلوا هنا؟ ثم حملا الصندوق وتعلّقا على الحيط ونزلا وفتحا الباب ، والعبد الثالث الذي هو بخيت واقف لهما بالنور والمقطف الذي فيه بعض من الجبس . ثم إنهم جلسوا وقفلوا الباب

فقال واحد منهم : يا إخوتي، نحن تعبنا من المشي والشيل والحط وفتح الباب وقفله، وهذا الوقت نصف الليل ولم يبقَ فينا قوة لفتح التربة ودفن الصندوق، ولكننا نجلس هنا ثلاث ساعات لنستريح ثم نقوم ونقضي حاجتنا. ولكن كل واحد منا يحكي لنا سبب تطويشه وجميع ما وقع له من المبتدأ إلى المنتهى لاجل فوات هذه الليلة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 38

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن العبيد الثلاثة قالوا لبعضهم : كل واحد يحكي جميع ما وقع له. قال الأول وهو الذي كان حامل النور : انا احكي لكم حكايتي. فقالوا له : تكلّم . قال لهم :

حكاية العبد الأول صواب

اعلموا يا إخوتي أني لما كنت صغيراً، جاء بي الجلاب من بلدي وعمري خمس سنين فباعني لواحد جاويش، وكان له بنت عمرها ثلاث سنين فتربيت معها، وكانوا يضحكون علي وأنا ألاعب البنت وأرقص لها وأغني لها إلى أن صار عمري اثني عشر سنة وهي بنت عشر سنين ولا يمنعونني عنها. إلى أن دخلت عليها يوماً من الأيام وهي جالسة في محل خلوة وكأنها خرجت من الحمام الذي في البيت، لأنها كانت معطّرة مبخرة ووجهها مثل القمر في ليلة أربعة عشر، فلاعبتني ولاعبتها، فنفر إحليلي حتى صار مثل المفتاح الكبير، فدفعتني على الأرض فوقعت على ظهري وركبت فوق صدري وصارت تتمرغ عليّ فانكشف إحليلي، فلما رأته وهو نافر أخذته بيدها وصارت تحك به على شفائر فرجها من فوق لباسها، فهاجت الحرارة عندي وحضنتها، فشبكت يديها في عنقي وقرطت علي بجهدها، فما أشعر إلاّ وإحليلي فتق لباسها ودخل فرجها فأزال بكارتها. فلما عاينت ذلك هربت عند بعض أصحابي، فدخلت عليها أمها، فلما رأت حالها غابت عن الدنيا ثم تداركت أمرها وأخفت حالها عن أبيها وكتمته وصبرت عليها مدة شهرين. كل هذا وهم ينادونني ويلاطفونني حتى أخذوني من المكان الذي كنت فيه ولم يذكروا شيئاً من هذا الأمر لأبيها لأنهم كانوا يحبونني كثيراً. ثم إن أمها خطبت لها شاباً مزيناً كان يزيّن أباها، وأمهرتها من عندها وجهّزتها له. كل هذا وأبوها لا يعلم بحالها. وصاروا يجتهدون في تحصيل جهازها، ثم إنهم امسكوني على غفلة وخصّوني. ولما زفوها للعروس جعلوني طواشياً لها، أمشي قدّامها أينما راحت، سواء كان رواحها إلى الحمام أو إلى بيت أبيها وقد ستروا أمرها. وليلة الدخلة ذبحوا على قميصها حمامة، ومكثت عندها مدّة طويلة وأنا أتملّى بحسنها وجمالها على قدر ما أمكنني من تقبيل وعناق إلى أن ماتت هي وزوجها وأمها وأبوها. ثم اخذني بيت المال وصرت في هذا المكان وقد ارتفقت بكم ،وهذا سبب قطع إحليلي والسلام .

حكاية العبد الثاني كافور

فقال العبد الثاني : اعلموا يا إخوتي أني كنت في ابتداء أمري ابن ثماني سنين، ولكن كنت أكذب على الجلابة في كل سنة كذبة حتى يقعوا في بعضهم. فقلق مني الجلاب وأنزلني في يد الدلاّل وأمر أن ينادي : من يشتري هذا العبد على عيب؟ فقيل له : وما عيبه؟ قال : يكذب في كل

سنة كذبة واحدة . فتقدّم رجل تاجر إلى الدلاّل وقال له : كم أعطوا في هذا العبد من الثمن على عيبه ؟ قال : اعطوا ستمائة درهم . قال : ولك عشرون . فجمع بينه وبين الجلاب وقبض منه الدراهم وأوصلني الدلاّل إلى منزل ذلك التاجر وأخذ دلالته . فكساني التاجر ما يناسبني ومكثت عنده باقي سنتي إلى أن هلّت السنة الجديدة بالخير ، وكانت سنة مباركة مخصبة بالنبات . فصار التجّار يعملون العزومات وكل يوم على واحد منهم إلى أن جاءت العزومة على سيدي في بستان داخل البلد ، فراح هو والتجّار وأخذ لهم ما يحتاجون إليه من أكل وغيره ، فجلسوا يأكلون ويشربون ويتنادمون إلى وقت الظهر ، فاحتاج سيدي إلى مصلحة من البيت فقال : يا عبد اركب البغلة ورُحْ إلى المنزل وهات من سيدتك الحاجة الفلانية وارجع سريعاً . فامتثلت أمره ورحت إلى المنزل . فلما قربت من المنزل صرخت وأرخيت الدموع ، فاجتمع أهل الحارة كباراً وصغاراً وسمعت صوتي زوجة سيدي وبناته ففتحوا لي الباب وسألوني عن الخبر فقلت لهم : انّ سيّدي كان جالساً تحت حائط قديم هو وأصحابه فوقع عليهم . فلما رأيت ما جرى لهم ركبت البغلة وجئت مسرعاً لأخبركم . فلما سمع أولاده وزوجته ذلك الكلام ، صرخوا وشقّوا ثيابهم ولطموا على وجوههم فأتت إليهم الجيران . وأما زوجة سيدي ، فإنها قلبت متاع البيت بعضه على بعض وخلعت رفوفه وكسرت طيقانه وشبابيكه وسخمت حيطانه بطين ونيلة وقالت : ويلك يا كافور تعال ساعدني واخرب هذه الدواليب وكسّر هذه الأواني والصيني . فجئت إليها واخربت معها رفوف البيت وأتلفت ما عليها ودواليبه ، وأتلفت ما فيها ودرت على السقوف وعلى كل محل حتى أخرجت الجميع وأنا أصيح : واسيداه . ثم خرجت سيدتي مكشوفة الوجه بغطاء رأسها لا غير وخرج معها البنات والأولاد وقالوا : يا كافور إمش قدامنا وأرنا مكان سيدك الذي هو ميت فيه تحت الحائط حتى نخرجه من تحت الردم ونحمله في تابوت ونجيء به إلى البيت فنخرجه خرجة مليحة . فمشيت قدامهم وأنا أصيح واسيداه وهم خلفي مكشوفو الوجوه والرؤوس يصيحون : وامصيبتاه ، وانكبتاه . فلم يبقَ أحد من الرجال ولا من النساء ولا من الصبيان ولا صبية ولا عجوز إلا جاء معنا ، وصاروا كلهم يلطمون وهم في شدّة البكاء . فمشيت بهم في المدينة ، فسأل الناس عن الخبر فأخبروهم بما سمعوا مني . فقال الناس : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، إننا نمضي للوالي ونخبره . فلما وصلوا إلى الوالي أخبروه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 39

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنهم لما وصلوا إلى الوالي وأخبروه . قام الوالي وركب وأخذ معه الفعلة بالمساحي والقفف ومشوا تابعين أثري ، معهم كثير من الناس وأنا قدّامهم أبكي وأصيح وأحثو التراب على رأسي والطم على وجهي . فلما دخلت عليهم ورآني سيّدي وأنا الطم وأقول : واسيدتاه ، مَنْ يحن علي بعد سيدتي ، يا ليتني كنت فداءها . فلما رآني سيدي ، بهتَ واصفرّ لونه وقال : ما لك يا كافور ؟ ما هذه الحال وما الخبر ؟ فقلت له : إنك لما ارسلتني إلى البيت لأجيء لك بالذي طلبته ، فرحت البيت ودخلته فرايت الحائط الذي في القاعة وقع ، فانهدمت القاعة كلها على سيدتي وأولادها . فقال لي : وهل سيدتك لم تسلم ؟ فقلت له : لا ما سلم منهم أحد ، وأول من مات منهم سيدتي الكبيرة . فقال : وهل

سلمت بنتي الصغيرة ؟ فقلت له : لا . فقال لي : وما حال البغلة التي اركبها هل هي سالمة ؟ فقلت له : لا يا سيدي ، فإن حيطان البيت وحيطان الإصطبل انطبقت على جميع ما في البيت ، حتى على الغنم والإوز والدجاج وصاروا كلهم كُوَمُ لحم وصاروا تحت الردم ولم يبقَ منهم احد . فقال لي : ولا سيدك الكبير ؟ فقلت له : لا . فلم يسلم منهم أحد . وفي هذه الساعة لم يبقَ دار ولا سكان ولم يبقَ من ذلك كله أثر ، وأما الغنم والإوز والدجاج فإن الجميع أكلها القطط والكلاب . فلما سمع سيدي كلامي ، صار الضياء في وجهه ظلاماً ولم يقدر أن يتمالك نفسه ولا عقله ، ولم يقدر أن يقف على قدميه ، بل جاء الكساح وانكسر ظهره ومزّق أثوابه ونتف لحيته ولطم على وجهه ورمى عمامته من فوق رأسه ، ولا زال يلطم على وجهه حتى سال منه الدم وصار يصيح : آه واولاداه ، وازوجتاه آه ، وامصيبتاه ، من جرى له مثل ما جرى لي ؟ فصاحت التجّار رفقاؤه لصياحه وبكوا معه ورثوا لحاله وشقّوا أثوابهم وخرج سيدي من ذلك البستان وهو يلطم من شدة ما جرى له وأكثر اللطم على وجهه ، وصار كأنه سكران . فبينما الجماعة خارجون من باب البستان وإذا هم نظروا غبرة عظيمة وصياحاً بأصوات مزعجة ، فنظروا إلى تلك الجهة فرؤوا الجماعة المقبلين ، وهم الوالي وجماعته والخلق والعالم الذين يتفرجون وأهل التاجر وراءهم يصرخون ويصيحون وهم في بكاء شديد وحزن زائد ، فأول من لاقى سيدي زوجته وأولاده . فلما رآهم بهت وضحك وقال لهم : ما حالكم أنتم وما حصل لكم في الدار وما جرى لكم ؟ فلما رأوه قالوا : الحمد لله على سلامتك أنت . ورموا أنفسهم عليه وتعلّق أولاده به وصاحوا : وابتاه ، الحمد لله على سلامتك يا أبانا . وقالت له زوجته : الحمد لله الذي أرانا وجهك بسلامة . وقد اندهشت وطار عقلها لما رأته وقالت له : كيف كانت سلامتك أنت وأصحابك ؟ فقال لها : وكيف كان حالكم في الدار ؟ فقالوا : نحن طيبون بخير وعافية وما أصاب دارنا شيء من الشرّ ، غير أن عبدك كافور جاء إلينا مكشوف الرأس ممزّق الأثواب وهو يصيح : واسيداه ، واسيداه . فقلنا له : ما الخبر يا كافور ؟ فقال : إن سيدي جلس تحت حائط في البستان ليقضي حاجة فوقع عليه فمات . فقال لهم سيدي : والله إنه أتاني في هذه الساعة وهو يصيح : واسيّدتاه ! وأولاد سيدتاه ! وقال : إن سيدتي وأولادها ماتوا جميعًا . ثم نظر إلى جانبه فرآني وعمامتي ساقطة عن رأسي وأنا أصيح وأبكي بكاء شديداً وأحثو التراب على رأسي فصرخ عليّ ، فأقبلت عليه فقال لي : ويلك يا عبد النحس يا ابن الزانية يا ملعون الجنس ، ما هذه الوقايع التي عملتها ؟ ولكن والله لأسلخنّ جلدك عن لحمك وأقطعنّ لحمك عن عظمك . فقلت له : والله ما تقدر أن تعمل معي شيئاً لأنك قد اشتريتني على عيبي بهذا الشرط والشهود يشهدون عليك حين اشتريتني على عيبي وأنت عالم به ، وهو إني أكذب في كل سنة كذبة واحدة وهذه نصف كذبة ، فإذا كملت السنة كذبت نصفها الآخر فتبقى كذبة كاملة . فصاح علي : يا ألعن العبيد ، هل هذا كله نصف كذبة ؟ وإنما هو داهية كبيرة . إذهب عني فأنت حرّ . فقلت : والله إن أعتقتني أنت ، ما أعتقك أنا حتى تكمل السنة وأكذب نصف الكذبة الباقي ، وبعد أن أتمّها فانزل بي السوق وبعني بما اشتريتني به على عيبي ولا تعتقني ، فإنني ما لي صنعة أقتات منها . وهذه المسألة التي ذكرتها لك شرعية ، ذكرها الفقهاء في باب العتق . فبينما نحن في الكلام وإذا بالخلائق والناس وأهل الحارة نساء ورجالاً قد جاؤوا يعملون العزاء وجاء الوالي وجماعته ، فراح سيدي والتجّار إلى الوالي

وأعلموه بالقضية وإن هذه نصف كذبة . فلما سمع الحاضرون ذلك منه ، استعظموا تلك الكذبة وتعجّبوا غاية العجب فلعنوني وشتموني . فبقيت واقفاً أضحك وأقول : كيف يقتلني سيدي وقد اشتراني على هذا العيب . فلما مضى سيدي إلى البيت وجده خراباً وأنا الذي أخرجت معظمه وكسرت فيه شيئاً يساوي جملة من المال . فقالت له زوجته : إن كافوراً هو الذي كسر الأواني والصيني . فازداد غيظه وقال : والله عمري ما رأيت ولد زنا مثل هذا العبد ويقول إنها نصف كذبة ، فكيف لو كانت كذبة كاملة ؟ فحينئذ كان خرّب مدينة أو مدينتين . ثم ذهب من شدّة غيظه إلى الوالي فضربني علقة شديدة حتى غبت عن الدنيا وغشي علي ، فأتاني بالمزيّن في حال غشيتي فخصاني وكواني . فلما استفقت وجدت نفسي خصياً وقال لي سيدي : مثل ما أحرقت قلبي على أعزّ شيء عندي أحرقت قلبك على أعزّ شيء عندك . ثم أخذني فباعني بأغلى ثمن لأني صرت طواشياً . وما زلت ألقي الفتن في الأماكن التي أباع فيها وأنتقل من أمير إلى أمير ، ومن كبير إلى أكبر بالبيع والشراء ، حتى دخلت قصر أمير المؤمنين وقد انكسرت نفسي وضعفت قوتي وعدمت خصاي . فلما سمع العبدان كلامه ، ضحكا عليه وقالا له : إنك خبيث ابن خبيث ، قد كذبت كذباً شنيعاً . ثم قالوا للعبد الثالث : إحك لنا حكايتك . قال لهم :

حكاية العبد الثالث بخيت

يا أولاد عمي ، كل ما حكا هذا بطال . فأنا أحكي لكم سبب قطع خصاي ، وقد كنت أستحق أكثر من ذلك لأني كنت نكت سيدتي وابن سيدي والحكاية معي طويلة وما هذا وقت حكايتها ، لأن الصباح يا أولاد عمي قريب وربما يطلع علينا الصباح ومعنا هذا الصندوق فنفتضح بين الناس وتروح أرواحنا . فدونكم فتح الباب ، فإذا فتحناه ودخلنا محلنا قلت لكم على سبب قطع خصاي . ثم تعلّق ونزل من الحيط وفتح الباب ، فدخلوا وحطوا الشمع وحفروا حفرة على قدر الصندوق بين أربعة قبور ، وصار كافور يحفر وصواب ينقل التراب بالقفف إلى أن حفروا نصف قامة ، ثم حطوا الصندوق في الحفرة وردوا عليه التراب وخرجوا من التربة وردّوا الباب وغابوا عن عين غانم بن أيوب . فلما خلا لغانم المكان وعلم أنه وحده ، اشتغل سرّه بما في الصندوق وقال في نفسه : يا ترى أي شيء في الصندوق ؟ ثم صبر حتى برق الفجر ولاح وبان ضياؤه ، فنزل من فوق النخلة وأزال التراب بيده حتى كشف الصندوق وخلصه ، ثم أخذ حجراً وضرب به القفل فكسره وكشف الغطاء ونظر فيه ، فرأى صبية نائمة مبنّجة ونَفَسها طالع نازل ، إلاّ أنها ذات حسن وجمال وعليها حلي ومصاغ من الذهب وقلائد من الجواهر تساوي ملك السلطان ما بقي بثمنها مال . فلما رآها غانم بن أيوب عرف أنهم تغامزوا عليها . فلما تحقّق ذلك الأمر عالج فيها حتى أخرجها من الصندوق ورقّدها على قفاها . فلما استنشقت الأرياح ودخل الهواء في مناخرها ومنافسها عطست ثم شرقت وسعلت فوقع من حلقها قرص بنج لو شمّه الفيل لرقد من الليل إلى الليل . ففتحت عينيها وأدارت طرفها وقالت بكلام فصيح : ويلك يا ريح ، ما فيك ري للعطشان ولا أنس للريّان أين زهر البستان ؟ فلم يجاوبها أحد . فالتفتت وقالت صبيحة شجرة الدر نور الهدى نجمة الصبح : أنت في شهر نزهة حلوة ظريفة تكلموا . فلم يجبها أحد . فجالت بطرفها وقالت : ويلي ، عند إنزالي في القبور يا من يعلم ما في الصدر ويجازي يوم البعث والنشور من بين الستور والخدور ووضعني بين أربعة قبور . هذا كله وغانم واقف على قدميه فقال لها : يا سيدتي لا خدور ولا قصور ولا قبور ما هذا إلاّ عبدك غانم بن أيوب ، ساقه

الملك علاّم الغيوب حتى ينجّيك من هذه الكروب ويحصل لك غاية المطلوب وسكت . فلما تحققت الأمر قالت : اشهد أن لا إله إلاّ الله واشهد انّ محمد رسول الله . والتفتت إلى غانم وقد وضعت يديها على صدرها وقالت له بكلام عذب : أيها الشاب المبارك ، من جاء بي إلى هذا المكان ؟ فها أنا قد أفقت . فقال : يا سيدتي ، ثلاثة عبيد خصيون أتوا وهم حاملون هذا الصندوق . ثم حكى لها جميع ما جرى ، وكيف أمسى عليه المساء حتى كان سبب سلامتها وإلاّ كانت ماتت بغصّتها . ثم سألها عن حكايتها وخبرها فقالت : أيها الشاب ، الحمد لله الذي رماني عند مثلك ، فقم الآن وحطني في الصندوق واخرج إلى الطريق ، فإذا وجدت مكارياً وبغالاً فاكتره لحمل هذا الصندوق ووصّلني إلى بيتك . فإذا صرت في دارك يكون خيراً ، وأحكي لك حكايتي وأخبرك بقصتي ويحصل لك الخبر من جهتي . ففرح وخرج إلى البرية وقد شعشع النهار وطلعت الشمس بالأنوار وخرجت الناس ومشوا ، فاكترى رجلاً ببغل وأتى به إلى التربة ، فحمل الصندوق بعد ما حطّ فيه الصبيّة ووقعت محبتها في قلبه وسار بها وهو فرحان لأنها جارية تساوي عشرة آلاف دينار وعليها حلي وحلل تساوي مالاً جزيلاً ، وما صدّق أن يصل إلى داره ونزل الصندوق وفتحه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 40

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن غانمًا بن أيوب وصل إلى داره بالصندوق وفتحه وأخرج الصبيّة منه ، ونظرت فرأت هذا المكان محلاً مليحاً مفروشاً بالبسط الملونة والألوان المفرحة وغير ذلك ، ورأت قماشاً محزوماً وأحمالاً وغير ذلك ، فعلمت أنه تاجر كبير صاحب أموال . ثم إنها كشفت وجهها ونظرت إليه ، فإذا هو شاب مليح فلما رأته أحبته وقالت له : هات لنا شيئاً نأكله . فقال لها غانم : على الرأس والعين . ثم نزل السوق واشترى خاروفاً مشوياً وصحن حلاوة ، وأخذ معه نقلاً وشمعاً وأخذ معه نبيذاً وما يحتاج إليه الأمر من آلة المشموم . وأتى إلى البيت ودخل بالحوايج . فلما رأته الجارية ضحكت وقبّلته وعانقته وصارت تلاطفه ، فازدادت عنده المحبة واحتوت على قلبه . ثم أكلا وشربا إلى ان أقبل الليل ، وقد حبّ بعضهم بعضاً لأنهما كانا في سن واحد وحسن واحد . فلما أقبل الليل ، قام المتيم المسلوب غانم بن أيوب وأوقد الشموع والقناديل فأضاء المكان وأحضر آلة المدام ثم نصب الحضرة وجلس هو وإياها ، وكان يملأ ويسقيها وهي تملأ وتسقيه وهما يلعبان ويضحكان وينشدان الأشعار . وزاد بهما الفرح وتعلّقا بحب بعضهما ، فسبحان مؤلف القلوب . ولم يزالا كذلك إلى قريب الصبح فغلب عليهم النوم ، فنام كل منهما في موضعه إلى أن أصبح الصباح ، فقام غانم بن أيوب وخرج إلى السوق واشترى ما يحتاج إليه من خضرة ولحم وخمر وغيره ، وأتى إلى الدّار وجلس هو وإياها يأكلان . فأكلا حتى اكتفيا ، وبعد ذلك أحضرا الشراب وشربا ولعبا مع بعضهما حتى احمرّت وجناتهما واسودّت أعينهما واشتاقت نفس غانم بن أيوب إلى تقبيل الجارية والنوم معها فقال لها : يا سيدتي ، ائذني لي بقبلة من فيك لعلّها تبرد نار قلبي . فقالت : يا غانم ، إصبر حتى أسكر وأغيب واسمح لك سراً بحيث لم أشعر أنك قبلتني . ثم إنها قامت على قدميها وخلعت بعض ثيابها وقعدت في قميص رفيع وكوفية ، فعند ذلك تحركت الشهوة عند غانم وقال : يا سيدتي ، أمَا تسمحين لي بما طلبته منك ؟ فقالت : والله لا يصح لك ذلك ، لأنه

مكتوب على دكّة لباسي قول صعب. فانكسر خاطر غانم بن أيوب وزاد عنده الغرام لمّا عزّ المطلوب فأنشد هذه الأبيات: [من مجزوء الرّجز]

سَأَلْتُ مَنْ أَمْرَضَنِي ... في قُبْلَةٍ تَشْفِي ٱلسَّقَمْ
فقالَ: لا لا أَبَداً ... قُلْتُ لَهُ: نَعَمْ نَعَمْ
فقالَ: خُذْها بالرِّضَى ... مِنَ الحَلالِ وٱبْتَسَمْ
فَقُلْتُ غَصْباً. قالَ: لا ... إلاّ على رَأْسِ عَلَمْ
فلا تَسَلْ عَمَّا جَرَى ... وٱسْتَغْفِرِ اللهَ وَنَمْ
فَاظْنُنْ بما شِئْتَ بِنا ... فالْحُبُّ يَحْلُوْ بالتُّهَمْ
ولا أبالِي بَعْدَ ذا ... إنْ باحَ يَوْماً أَوْ كَتَمْ

ثم زادت محبته وانطلقت النيران في مهجته، هذا وهي تتمنع منه وتقول: ما لك وصول؟ ولم يزالا في عشقهما ومنادمتهما، وغانم بن أيوب غريق في الهيام. وأما هي فإنها قد ازدادت قسوة وامتناعاً إلى أن دخل الليل بالظلام وأرخى عليها ذيل المنام. فنام غانم وأشعل القناديل وأوقد الشموع وزاد بهجة المقام، وأخذ رجليها وقبّلهما فوجدهما مثل الزبد الطري، فمرّغ وجهه عليهما وقال: يا سيدتي، إرحمي أسير هواك ومن قتلت عيناك، كنت سليم القلب لولاك. ثم بكى قليلاً. فقالت: يا سيدي ونور عيني، أنا والله عاشقة وبك واثقة، ولكن أنا اعرف أنك لا تصل إليّ. فقال لها: وما المانع؟ فقالت له: سأحكي لك في هذه الليلة قصّتي حتى تقبل عذري. ثم إنها ترامت عليه وطوقت على رقبته بيدها وصارت تقبله وتلاطفه ثم وعدته بالوصال. ولم يزالا يلعبان ويضحكان حتى تمكن حب بعضهما من بعض. ولم يزالا على ذلك الحال وهما في كل ليلة ينامان على فراش واحد، وكلما طلب منها الوصال تتعزّز عنه مدة شهر كامل. وتمكن حب كل واحد منهما من قلب الآخر ولم يبقَ لهما صبر عن بعضهما، إلى أن كانت ليلة من الليالي وهو راقد معها والإثنان سكرانان، فمدّ يده على جسدها وملّس، ثم مرّ بيده على بطنها ونزل إلى سرّتها فانتبهت وقعدت، وتعهدت اللباس فوجدته مربوطاً فنامت ثانياً. فملّس عليها بيده ونزل بها إلى سروالها ودكّتها وجذبها فانتبهت وقعدت، وقعد غانم إلى جانبها فقالت له: ما الذي تريد؟ قال: أريد ان أنام معك وأتصافى أنا وأنت. فعند ذلك قالت له: أنا الآن أوضح لك أمري حتى تعرف قدري وينكشف لك سري ويظهر لك عذري. قال: نعم. فعند ذلك شقّت ذيل قميصها ومدّت يدها إلى دكّة لباسها وقالت: يا سيدي، إقرأ الذي على هذا الطرف. فأخذ طرف الدكّة في يده ونظره فوجد مرقوماً عليه بالذهب: أنا لك وأنت لي يا ابن عم النبي. فلما قرأه نثر يده وقال لها: إكشفي لي عن خبرك؟ قالت: نعم. اعلم أنني محظية أمير المؤمنين واسمي قوت القلوب، وأن أمير المؤمنين لما ربّاني في قصره وكبرت، نظر إلى صفاتي وما أعطاني ربي من الحسن والجمال. فأحبني محبة زائدة وأخذني وأسكنني في مقصورة وأمر لي بعشر جواري يخدمونني، ثم إنه أعطاني ذلك المصاغ الذي تراه معي. ثم إن الخليفة سافر يوماً من الأيام إلى بعض البلاد، فجاءت السيدة زبيدة إلى بعض الجواري التي في خدمتي وقالت: إذا نامت سيدتك قوت القلوب فحطّي هذه القطعة البنج في انفها او في شرابها، ولك عليّ من المال ما

يكفيك. فقالت لها الجارية: حباً وكرامة. ثم إن الجارية أخذت البنج منها وهي فرحانة لأجل المال ولكونها كانت في الأصل جاريتها. فجاءت إليّ ووضعت البنج في جوفي، فوقعت على الأرض وصارت راسي عند رجلي ورأيت نفسي في دنيا أخرى. ولما قلّت حيلتها، حطّتني في ذلك الصندوق وأحضرت العبيد سراً وأنعمت عليهم وعلى البوابين، وأرسلتني مع العبيد في الليلة التي كنت نائماً فيها فوق النخلة، وفعلوا معي ما رأيت. وكانت نجاتي على يديك، وأنت أتيت بي إلى هذا المكان وأحسنت إليّ غاية الإحسان وهذه قصتي، وما أعرف الذي جرى للخليفة في غيبتي. فاعرف قدري ولا تشهر أمري. فلما سمع غانم بن أيوب كلام قوت القلوب وتحقق أنها محظية الخليفة، تأخّر إلى ورائه خيفة من هيبة الخليفة، وجلس وحده في ناحية من المكان يعاتب نفسه ويتفكّر في أمره. وصار متحيّراً في عشق التي ليس له إليها وصول، فبكى من شدّة الغرام ولوعة الوجد والهيام، وصار يشكو الزمان وما له من العدوان. فسبحان من أشغل قلوب الكرام بالمحبة، ولم يعط الأنذال منها وزن حبة. وأنشد هذين البيتين: [من البسيط]

قَلْبُ المحِبِّ على الأَحْبابِ مَتْعُوْبُ وَعَقْلُهُ مَعْ بَدِيْعِ ٱلْحُسْنِ مَنْهُوْبُ
وقائِلٍ قالَ لي: ما ٱلْحُبُّ؟ قُلْتُ لَهُ ٱلْحُبُّ عَذْبٌ ولَـكِنْ فِيْهِ تَعْذِيْبُ

فعند ذلك، قامت إليه قوت القلوب واحتضنته وقبّلته وتمكّن حبه في قلبها وباحت له بسرّها وما عندها من المحبة وطوقت على رقبته بيديها وقبّلته وهو يتمنّع عنها خوفاً من الخليفة. ثم تحدثا ساعة من الزمان وهما غريقان في بحر محبة بعضهما إلى أن طلع النهار. فقام غانم ولبس أثوابه وخرج إلى السوق على عادته وأخذ ما يحتاج إليه الأمر وجاء إلى البيت. فوجد قوت القلوب تبكي، فلما رأته سكتت عن البكاء وتبسّمت وقالت له: أوحشتني يا محبوب قلبي، والله إن هذه الساعة التي غبتها عني كسنة، فإني لا أقدر على فراقك، وها أنا قد بيّنت لك حالي من شدّة ولعي بك فقم بنا الآن ودع ما كان واقض إربك منّي. قال: أعوذ بالله، إن هذا شيء لا يكون. كيف يجلس الكلب في موضع السبع؟ والذي لمولاي يحرم عليّ أن أقربه. ثم جذب نفسه منها وجلس في ناحية. وزادت هي محبة بامتناعه عنها، ثم جلست إلى جانبه ونادمته ولاعبته فسكرا، وهامت بالافتضاح به فغنت منشدة هذه الأبيات: [من الكامل]

قَلْبُ المُتَيَّمِ كادَ أَنْ يَتَفَتَّتا فإلى مَتَى هذا الصُّدُودُ إلى مَتَى
يا مُعْرِضًا عَنِّيْ بِغَيْرِ جِنايَةٍ فَعَوائِدُ ٱلْغُزْلانِ أَنْ تَتَلَفَّتَا
صَدٌّ وَهَجْرٌ زائِدٌ وَصَبابَةٌ ما كُلُّ هَذا الأَمْرِ يَحْمِلُهُ ٱلْفَتَى

فبكى غانم بن أيوب وبكت هي لبكائه. ولم يزالا يشربان إلى الليل. ثم قام غانم وفرش فراشين، كل فراش في مكان وحده. فقالت له قوت القلوب: لمن هذا الفراش الثاني؟ فقال لها: هذا لي والآخر لك، ومن الليلة لا ننام إلاّ على هذا النمط، وكل شيء للسيّد حرام على العبد. فقالت: يا سيدي، دعنا من هذا وكل شيء يجري بقضاء وقدر. فأبى، فانطلقت النار في قلبها وزاد غرامها فيه وقالت: والله ما ننام إلاّ سوية. فقال: معاذ الله. وغلب عليها ونام وحده إلى الصباح. فزاد بها العشق والغرام واشتدّ بها الوجد والهيام وأقاما على ذلك ثلاثة أشهر طوال، وهي كلما تقرب منه يمتنع عنها ويقول: كلما هو مخصوص بالسيّد حرام على العبد. فلما طال

بها المطال مع غانم بن أيوب المتيّم المسلوب وزادت بها الشجون والكروب انشدت هذه الأبيات :[من الوافر]

بَدِيعَ ٱلْحُسْنِ كَمْ هَذا التَّجَنِّي ‏ ‏ ‏ ‏ ومَنْ أَغراكَ بالإعْراضِ عَنِّي
حَوَيْتَ مِنَ الرَّشاقَةِ كُلَّ مَعْنَى ‏ ‏ ‏ ‏ وحُزْتَ مِنَ المَلاحَةِ كُلَّ فَنٍّ
وأَجْرَيْتَ ٱلْغَرامَ لِكُلِّ قَلْبٍ ‏ ‏ ‏ ‏ ووَكَّلْتَ السُّهادَ بِكُلِّ جَفْنِ
وأَعْرِفُ قَبْلَكَ ٱلأَغْصانَ تُجْنَى ‏ ‏ ‏ ‏ فَيَا غُصْنَ ٱلأَراكِ أَراكَ تَجْنِي
وَعَهْدِي بالظِّبا صَيْداً فَما لِي ‏ ‏ ‏ ‏ أَراكَ تَصِيدُ أَرْبابَ المِجَنِّ
وأَعْجَبُ ما أُحَدِّثُ عَنْكَ أَنِّي ‏ ‏ ‏ ‏ فُتِنْتُ وأَنْتَ لَمْ تَعْلَمْ بأَنِّي
فَلا تَسْمَحْ بَوَصْلِكَ لِي فإنِّي ‏ ‏ ‏ ‏ أَغارُ عَلَيْكَ مِنْكَ فَكَيْفَ مِنِّي
ولَسْتُ بِقائِلٍ ما دُمْتُ حَيّاً ‏ ‏ ‏ ‏ بَدِيعَ الحُسْنِ كَمْ هَذا التَّجَنِّي

وأقاموا على هذه الحال مدّة والخوف يمنع غانماً عنها. فهذا ما كان من أمر المتيّم المسلوب غانم بن أيوب. وأما ما كان من أمر زبيدة، فإنها في غيبة الخليفة فعلت بقوت القلوب ذلك الأمر ثم صارت متحيّرة تقول في نفسها: ماذا أقول للخليفة إذا جاء وسأل عنها؟ وما يكون جوابي له؟ فدعت بعجوز كانت عندها وأطلعتها على سرّها وقالت لها: كيف أفعل وقوت القلوب قد فرط فيها الفرط؟ فقالت لها العجوز لما فهمت الحال: اعلمي يا سيدتي انه قرب مجيء الخليفة، ولكن أرسلي اي نجّار وأمريه أن يعمل صورة ميت من خشب ويحفروا له قبراً وتوقد حوله الشموع والقناديل، وأمري كل من في القصر أن يلبسوا الأسود، وأمري جواريك والخدام إذا علموا أن الخليفة أتى من سفره أن يشيعوا الحزن في الدهاليز، فإذا دخل وسأل عن الخبر يقولون له أن قوت القلوب ماتت ويعظم الله أجرك فيها، ومن معزتها عند سيدتنا دفنتها في قصرها. فإذا سمع ذلك يبكي ويعزّ عليه، ثم يسهر القرّاء على قبرها لقراءة الختمات. فإن قال في نفسه: إن بنت عمي زبيدة من غيرتها سعت في هلاك قوت القلوب أو غلب عليه الهيام فأمر بإخراجها من القبر، فلا تفزعي من ذلك ولو حفروا على تلك الصورة التي على هيئة ابن آدم وأخرجوها وهي مكفّنة بالأكفان الفاخرة. فإن أراد الخليفة إزالة الأكفان عنها لينظرها فامنعيه أنت من ذلك، والأخرى تمنعه وتقول له: رؤية عورتها حرام. فيصدّق حينئذ أنها ماتت ويردّها إلى مكانها ويشكرك على فعلك وتخلصين إن شاء الله من هذه الورطة. فلما سمعت السيدة زبيدة كلامَها رأته صواباً، فخلعت عليها خلعة وأمرتها أن تفعل بعدما أعطتها جملة من المال. فشرعت العجوز في ذلك الأمر، وأمرت النجار أن يعمل لها صورة كما ذكرنا. وبعد تمام الصورة جاءت بها إلى السيدة زبيدة فكفنتها وأوقدت الشموع والقناديل وفرشت البسط حول القبر ولبست السواد وأمرت الجواري أن يلبسن السواد، واشتهر الأمر في القصر ان قوت القلوب ماتت. ثم بعد مدّة أقبل الخليفة من غيبته وطلع إلى قصره، ولكن ما له شغل إلا قوت القلوب. فرأى الغلمان والخدام والجواري كلهم لابسين السواد فارتجف فؤاده. فلما دخل القصر على السيدة زبيدة رآها لابسة الأسود، فسأل عن ذلك فأخبروه بموت قوت القلوب، فوقع مغشيّاً عليه. فلما أفاق سأل عن قبرها، فقالت له السيدة زبيدة: اعلم يا أمير المؤمنين، أنني من معزتها عندي دفنتها في قصري.

فدخل الخليفة بثياب السفر إلى القصر ليزور قوت القلوب، فوجد البسط مفروشة والشموع والقناديل موقدة . فلما رأى ذلك شكرها على فعلها . ثم إنه صار حائراً في أمره ولم يزل ما بين مصدّق ومكذّب . فلما غلب عليه الوسواس أمر بحفر القبر وأخرجها منه . فلما رأى الكفن وأراد أن يزيله عنها ليراها خاف من الله تعالى . فقالت العجوز : ردّوها إلى مكانها . ثم إن الخليفة أمر في الحال بإحضار الفقهاء والمقرئين وقرؤوا الختمات على قبرها وجلس بجانب القبر يبكي إلى أن غشي عليه . ولم يزل قاعداً على قبرها شهراً كاملاً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 41

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة لم يزل يتردّد على قبرها مدّة شهر . فاتفق أن الخليفة دخل الحريم بعد انفضاض الأمر والوزراء من بين يديه إلى بيوتهم ونام ساعة . فجلست عند رأسه جارية وعند رجليه جارية، وبعد أن غلب عليه النوم تنبه وفتح عينيه، فسمع الجارية التي عند رأسه تقول للتي عند رجليه : ويلك يا خيزران . قالت لها : لأي شيء يا قضيب؟ قالت لها : إن سيدنا ليس عنده علم بما جرى حتى إنه يسهر على قبر لم يكن فيه إلاّ خشبة منجرة صنعة النجار . فقالت لها الأخرى : وقوت القلوب أي شيء أصابها؟ فقالت : أعلمي أن السيدة زبيدة أرسلت مع جارية بنجاً وبنّجتها، فلما تحكّم البنج منها وضعتها في صندوق وارسلتها مع صواب وكافور وأمرتهما أن يرمياها في التربة . فقالت خيزران : ويلك يا قضيب، هل السيدة قوت القلوب لم تمت؟ فقالت : سلامة شبابها من الموت، ولكن أنا سمعت السيدة زبيدة تقول : إن قوت القلوب عند شاب تاجر إسمه غانم الدمشقي، وإن لها عنده بهذا اليوم أربعة أشهر، وسيدنا هذا يبكي ويسهر على قبر لم يكن فيه ميت . وصارتا تتحدثان بهذا الحديث والخليفة يسمع كلامهما . فلما فرغ الجاريتان من الحديث وعرف القضية وأن هذا القبر زور وأن قوت القلوب عند غانم بن أيوب مدّة أربعة أشهر، غضب غضباً شديداً وقام وأحضر أمراء دولته . فعند ذلك أقبل الوزير جعفر البرمكي وقبّل الأرض بين يده فقال له الخليفة بغيظ : إنزل يا جعفر بجماعة واسأل عن بيت غانم بن أيوب واهجموا على داره وائتوني بجاريتي قوت القلوب، ولا بدّ لي أن أعذبه . فأجابه جعفر : بالسمع والطاعة . فعند ذلك نزل جعفر هو وأتباعه والوالي صحبته، ولم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا دار غانم . وكان غانم خرج في ذلك الوقت وجاء بقدرة لحم، وأراد أن يمدّ يده ليأكل منها هو وقوت القلوب، فلاحت التفاتة منها فوجدت البلاء أحاط بالدار والوزير والوالي والظلمة والمماليك بسيوف مجردة، وداروا به كما يدور بالعين السواد . فعند ذلك عرفت أن خبرها وصل إلى الخليفة سيّدها فأيقنت بالهلاك، واصفرّ لونها وتغيّرت محاسنها . ثم إنها نظرت إلى غانم وقالت : يا حبيبي فز بنفسك . فقال لها : كيف أعمل وأين أذهب ومالي ورزقي في هذه الدّار؟ قالت له : لا تمكث لئلا تهلك ويذهب مالك . فقال لها : يا حبيبتي ونور عيني، كيف أصنع في الخروج وقد أحاطوا بالدّار؟ فقالت له : لا تخف . ثم إنها نزعت ما عليه من الثياب وألبسته خلقاناً بالية وأخذت القدرة التي كان فيها اللحم ووضعتها فوق رأسه وحطّت فيها بعض خبز وزبدية طعام وقالت له : أخرج بهذه الحيلة ولا عليك مني فأنا أعرف أي شيء في يدي من الخليفة . فلما سمع غانم كلام قوت القلوب وما

أشارت به عليه، خرج من بينهم وهو حامل القدرة وستر عليه الستار ونجا من المكائد والأضرار ببركة نيته. فلما وصل الوزير جعفر إلى ناحية الدّار، ترجّل عن حصانه ودخل البيت ونظر إلى قوت القلوب وقد تزيّنت وتبهرجت وملأت صندوقاً من ذهب ومصاغ وجواهر وتحف مما خفّ حمله وغلا ثمنه. فلما دخل عليها جعفر قامت على قدميها وقبّلت الأرض بين يديه وقالت له: يا سيدي، جرى القلم بما حكم الله. فلما رأى ذلك جعفر قال لها: والله يا سيدتي إنه ما أوصاني إلاّ بقبض غانم بن أيوب. فقالت: أعلم أنه حزم تجارات وذهب بها إلى دمشق ولا علم لي بغير ذلك، وأريد ان تحفظ لي هذا الصندوق وتحمله إلى قصر امير المؤمنين. فقال جعفر: السمع والطاعة. ثم أخذ الصندوق وأمر بحمله وقوت القلوب معهم إلى دار الخلافة وهي مكرّمة معزّزة. وكان هذا بعد أن نهبوا دار غانم، توجّهوا إلى الخليفة وحكى له جعفر جميع ما جرى. فأمر الخليفة لقوت القلوب بمكان مظلم وأسكنها فيه، وألزم بها عجوزاً لقضاء حاجتها لأنه ظن أن غانماً فحش بها. ثم كتب مكتوباً للأمير محمد بن سليمان الزيني وكان نائباً في دمشق ومضمونه: ساعة وصول المكتوب إلى يديك تقبض على غانم بن أيوب وترسله إليّ. فلما وصل المرسوم إليه قبّله ووضعه على رأسه ونادى في الأسواق: مَنْ أراد أن ينهب فعليه بدار غانم بن أيوب. فجاؤوا إلى الدار فوجدوا أم غانم وأخته قد صنعتا لهما قبراً وقعدتا عنده يبكيان، فقبضوا عليهما ونهبوا الدّار ولم يعلما ما الخبر. فلما أحضروهما عند السلطان سألهما عن غانم بن أيوب. فقالتا له: من مدّة سنة ما وقفنا له على خبر. فردّوهما إلى مكانهما. هذا ما كان من أمرهما. وأما ما كان من أمر غانم بن أيوب المتيّم المسلوب، فإنه لما سلبت نعمته تحيّر في أمره وصار يبكي على نفسه حتى انفطر قلبه وسار، ولم يزل سائراً إلى آخر النهار، وقد ازداد به الجوع وأضرّ به المشي حتى وصل إلى بلد فدخل المسجد وجلس على فرش وأسند ظهره إلى حائط المسجد وارتمى وهو في غاية الجوع والتعب. ولم يزل مقيماً هناك إلى الصباح وقد خفق قلبه من الجوع وركب جلده القمل وصارت رائحته منتنة وتغيّرت أحواله. فأتى أهل تلك البلدة يصلّون الصبح، فوجدوه مطروحاً ضعيفاً من الجوع وعليه آثار النعمة لايحة. فلما أقبلوا عليه وجدوه بردانا جائعاً، فألبسوه ثوباً عتيقاً قد بليت أكمامه وقالوا له: من أين أنت يا غريب وما سبب ضعفك؟ ففتح عينه ونظر إليهم وبكى ولم يرد عليهم جواباً. ثم إن بعضهم عرف شدّة جوعه فذهب وجاء له بسكرّجة عسل ورغيفين فأكل، وقعدوا عنده حتى طلعت الشمس ثم انصرفوا لأشغالهم. ولم يزل على هذه الحالة شهراً وهو عندهم وقد تزايد عليه الضعف والمرض. فتعطفوا عليه وتشاوروا مع بعضهم في أمره ثم اتفقوا على أن يوصلوه إلى المارستان الذي ببغداد. فبينما هم كذلك وإذا بامرأتين سائلتين قد دخلتا عليه، وهما أمه وأخته. فلما رآهما أعطاهما الخبز الذي عند رأسه ونامتا عنده تلك الليلة ولم يعرفهما. فلما كان ثاني يوم، أتاه أهل القرية وأحضروا جملاً وقالوا لصاحبه: إحمل هذا الضعيف فوق الجمل، فإذا وصلت إلى بغداد فانزله على باب المارستان لعلّه يتعافى فيحصل لك الأجر. فقال لهم: السمع والطاعة. ثم إنهم اخرجوا غانماً بن أيوب من المسجد وحملوه بالفرش الذي هو نائم عليه فوق الجمل، وجاءت أمه وأخته يتفرّجان عليه من جملة الناس ولم يعلما به. ثم نظرتا إليه وتأملتاه وقالتا: إنه يشبه غانماً ابننا. فيا ترى هل هو هذا الضعيف او لا؟ وأما غانم فإنه لم يفق إلاّ وهو محمول فوق

الجمل . فصار يبكي وينوح واهل القرية ينظرون أمه واخته تبكيان عليه ولم تعرفانه ، ثم سافرت امه واخته إلى أن وصلتا إلى بغداد . واما الجمّال فإنه لم يزل سائراً به حتى أنزله على باب المارستان واخذ جمله ورجع . فمكث غانم راقداً هناك إلى الصباح . فلما درجت الناس في الطريق ، نظروا إليه وقد صار رِق الخلال . ولم يزل الناس يتفرجون عليه حتى جاء شيخ السوق ومنع الناس عنه وقال : أنا أكسب الجنة بهذا المسكين ، لأنهم متى أدخلوه المارستان قتلوه في يوم واحد . ثم أمر صبيانه بحمله ، فحملوه إلى بيته وفرش له فرشاً جديداً ووضع له مخدة جديدة وقال لزوجته : إخدميه بنصح . فقالت : على الراس . ثم تشمّرت وسخنت له ماء غسلت يديه ورجليه وبدنه ، والبسته ثوباً من لبس جواريها ، وأسقته قدح شراب ورشّت عليه ماء ورد فأفاق وتذكّر محبوبته قوت القلوب فزادت به الكروب . هذا ما كان من أمره . وأما ما كان من أمر قوت القلوب ، فإنه لما غضب عليها الخليفة . . . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 42

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن قوت القلوب لما غضب عليها الخليفة وأسكنها في مكان مظلم ، استمرّت فيه على هذا الحال ثمانين يوماً . فاتفق أن الخليفة مرّ يوماً من الأيام على ذلك المكان فسمع قوت القلوب تنشد الأشعار . فلما فرغت من إنشادها قالت : يا حبيبي يا غانم ما أحسنك وما أعفّ نفسك ! قد أحسنت لمن أساءَك وحفظت حرمة من انتهك حرمتك وسترت حريمه وهو سباك وسبى أهلك ، ولا بدّ أن تقف أنت وأمير المؤمنين بين يدي حاكم عادل وتنتصف عليه في يوم يكون القاضي هو الله والشهود هم الملائكة . فلما سمع الخليفة كلامها وفهم شكواها علم أنها مظلومة . فدخل قصره وأرسل الخادم لها . فلما حضرت بين يديه ، طرقت وهي باكية العين حزينة القلب ، فقال : يا قوت القلوب ، أراك تتظلمين مني وتنسبينني إلى الظلم وتزعمين أني أسأت مَنْ أحسن إليّ ، فمن هو الذي حفظ حرمتي وانتهكت حرمته وستر حريمي وسبيت حريمه ؟ فقالت له : غانم بن أيوب ، فإنه لم يقربني بفاحشة وحق نعمتك يا أمير المؤمنين . فقال الخليفة : لا حول ولا قوة إلا بالله . يا قوت القلوب تمنّي عليّ فأنا أبلغك مرادك . فقالت : تمنّيت عليك محبوبي غانماً بن أيوب . فلما سمع كلامها قال : أحضره إن شاء الله مكرّماً . فقالت : يا أمير المؤمنين ، إن أحضرته تهبني له ؟ فقال : إن أحضرته وهبتك له هبة كريم لا يردّ في عطائه . فقالت : يا أمير المؤمنين ، إئذن لي أن أدوّر عليه لعلّ الله يجمعني به . فقال لها : إفعلي ما بدا لك . ففرحت وخرجت ومعها ألف دينار ، فزارت المشايخ وتصدّقت عنه . وطلعت ثاني يوم إلى سوق التجّار وأعطت عريف السوق دراهم وقالت له : تصدّق بها على الغرباء . ثم طلعت ثاني جمعة ومعها ألف دينار ودخلت سوق الصاغة وسوق الجوهرية فطلبت عريف السوق فحضر ، فدفعت له ألف دينار وقالت له : تصدّق بها على الغرباء . فنظر إليها العريف وهو شيخ السوق وقال لها : هل لك أن تذهبي إلى داري وتنظري إلى هذا الشاب الغريب ما أظرفه وما أكمله ! وكان هو غانم بن أيوب المتيم المسلوب ، ولكن العريف ليس له به معرفة ، وكان يظن أنه رجل مسكين مديون سلبت نعمته أو عاشق فارق أحبته . فلما سمعت كلامه خفق قلبها وتعلّقت به أحشاؤها فقالت له : أرسل معي من يوصلني إلى دارك . فأرسل معها صبيّاً صغيراً فأوصلها إلى الدار التي فيها الغريب فشكرته على ذلك . فلما دخلت تلك الدّار

وسلّمت على زوجة العريف، قامت زوجة العريف وقبّلت الأرض بين يديها لأنها عرفتها. فقالت لها قوت القلوب: أين الضعيف الذي عندكم؟ فبكت وقالت: ها هو يا سيدتي، إلاّ أنه ابن ناس وعليه أثر النعمة. فالتفتت إلى الفرش الذي هو راقد عليه وتأملته فرأته كأنه هو بذاته، ولكنه قد تغيرت حاله وزاد نحوله ورقّ إلى أن صار كالخلال، وانبهم عليها أمره فلم تتحقق أنه هو، ولكن أخذتها الشفقة عليه فصارت تبكي وتقول: إن الغرباء مساكين وإن كانوا أمراء في بلادهم. ورتّبت له الشراب والأدوية ثم جلست عند رأسه ساعة. وركبت وطلعت إلى قصرها وصارت تطلع في كل سوق لأجل التفتيش على غانم. ثم إن العريف قد أتى بأمه وأخته فتنة ودخل بهما على قوت القلوب وقال: يا سيدة المحسنات، قد دخل مدينتنا في هذا اليوم إمرأة وبنت، وهما من وجوه الناس وعليهما أثر النعمة لايح، لكنهما لابستان ثياباً من الشعر وكل واحدة منهما معلقة في رقبتها مخلاة وعيونهما باكية وقلوبهما حزينة. وها أنا أتيت بهما إليك لتأويهما وتصونيهما عن ذلّ السؤال لأنهما ليستا أهلاً لسؤال اللئام، وإن شاء الله ندخل بسببهما الجنة. فقالت: والله يا سيدي، لقد شوّقتني إليهما وأين هما؟ فأمرهما بالدخول. فعند ذلك دخلت فتنة وأمها على قوت القلوب، فلما نظرتهما قوت القلوب وهما ذاتا جمال، بكت عليهما وقالت: والله إنهما أولاد نعمة ويلوح عليهما أثر الغنى. فقال العريف: يا سيدتي، إننا نحب الفقراء والمساكين لأجل الثواب، وهؤلاء ربما جار عليهم الظلمة وسلبوا نعمتهم وأخربوا ديارهم. ثم إن المرأتان بكتا بكاء شديداً وتفكرتا غانماً بن ايوب المتيم المسلوب فزاد نحيبهما. فلما بكتا بكت قوت القلوب لبكائهما. ثم إن أمه قالت: نسأل الله أن يجمعنا بمن نريده وهو ولدي غانم بن أيوب. فلما سمعت قوت القلوب هذا الكلام علمت أن هذه المرأة أم معشوقها وأن الأخرى أخته فبكت حتى غشي عليها. فلما افاقت أقبلت عليهما وقالت لهما: لا بأس عليكما، فهذا اليوم أول سعادتكما وآخر شقاوتكما فلا تحزنا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 43

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قوت القلوب قالت لهما: لا تحزنا. ثم أمرت العريف أن يأخذهما إلى بيته ويخلّي زوجته تدخلهما الحمام وتلبسهما ثياباً حسنة وتتوصى بهما وتكرمهما غاية الإكرام، وأعطته جملة من المال. وفي ثاني يوم، ركبت قوت القلوب وذهبت إلى بيت العريف ودخلت عند زوجته، فقامت إليها وقبّلت يديها وشكرت إحسانها. ورأت أم غانم وأخته وقد أدخلتهما زوجة العريف الحمّام ونزعت ما عليهما من الثياب فظهرت عليهما آثار النعمة، فجلست تحادثهما ساعة. ثم سألت زوجة العريف عن المريض الذي عندها فقالت: هو بحاله. فقالت: قوموا بنا نطل عليه ونعوده. فقامت هي وزوجة العريف وأم غانم وأخته ودخلن عليه وجلسن عنده. فلما سمعهن غانم بن أيوب المتيم المسلوب يذكرن قوت القلوب، وكان قد انتحل جسمه ورقّ عظمه، رُدّت له روحه ورفع رأسه من فوق المخدة ونادى: يا قوت القلوب. فنظرت إليه وتحقّقته فعرفته وصاحت بقولها: نعم يا حبيبي. فقال لها: اقربي مني. فقالت له: لعلّك غانم بن أيوب المتيم المسلوب. فقال لها: نعم أنا إياه. فعند ذلك وقعت مغشياً عليها. فلما سمعت أخته وأمه كلامهما صاحتا بقولهما: وافرحتاه، ووقعتا مغشياً عليهما. وبعد ذلك استفاقوا. فقالت له قوت القلوب: الحمد لله الذي

جمع شملنا بك وبأمك وأختك. وتقدّمت إليه وحكت له جميع ما جرى لها مع الخليفة وقالت: إني قلت له قد اظهرت لك الحق يا امير المؤمنين. فصدّق كلامي ورضي عنك وهو اليوم يتمنّى أن يراك. ثم قالت لغانم: إن الخليفة وهبني لك. ففرح بذلك غاية الفرح. فقالت لهم قوت القلوب: لا تبرحوا حتى أحضر. ثم إنها قامت من وقتها وساعتها وانطلقت إلى قصرها وحملت الصندوق الذي أخذته من داره واخرجت منه دنانير وأعطت العريف إياها وقالت له: خذ هذه الدنانير واشتر لكل شخص منهم اربع بدلات كوامل من أحسن القماش، وعشرين منديلاً، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. ثم إنها دخلت بهما وبغانم الحمّام وأمرت بغسلهم وعملت لهم المساليق وماء الخولنجان وماء التفاح بعد أن خرجوا من الحمام، ولبسوا الثياب واقامت عندهم ثلاثة أيام وهي تطعمهم لحم الدجاج والمساليق وتسقيهم السكر المكرر. وبعد الثلاثة أيام ردّت لهم أرواحهم وادخلتهم الحمام ثانياً وخرجوا وغيّرت عليهم الثياب وخلّتهم في بيت العريف وذهبت إلى الخليفة وقبّلت الأرض بين يديه وأعلمته بالقصة وأنه قد حضر سيّدها غانم بن أيوب المتيم المسلوب وان امه وأخته قد حضرتا. فلما سمع الخليفة كلام قوت القلوب قال للخدّام: عليّ بغانم. فنزل جعفر إليه وكانت قوت القلوب قد سبقته ودخلت على غانم وقالت له: إن الخليفة قد أرسل إليك ليحضرك بين يديه فعليك بفصاحة اللسان وثبات الجنان وعذوبة الكلام. وألبسته حلّة فاخرة وأعطته دنانير بكثرة وقالت له: أكثر البذل إلى حاشية الخليفة وأنت داخل عليه. وإذا بجعفر أقبل عليه وهو على بغلته، فقام غانم وقابله وحيّاه وقبّل الأرض بين يديه وقد ظهر كوب سعده وارتفع طالع مجده. فأخذه جعفر، ولم يزالا سائرين حتى دخلا على امير المؤمنين. فلما حضر بين يديه نظر إلى الوزراء والأمراء والحجّاب والنواب وأرباب الدولة وأصحاب الصولة، وكان غانم فصيح اللسان ثابت الجنان رقيق العبارة أنيق الإشارة، فأطرق برأسه إلى الأرض ثم نظر إلى الخليفة وأنشد هذه الأبيات: [من الطويل]

أَفْدِيكَ مِنْ مَلِكٍ عَظِيمِ الشَّأنِ ... مُتَتَابِعِ ٱلْحَسَنَاتِ والإِحْسانِ
مُتَوَقِّدِ العَزَماتِ فَيَّاضِ النَّدَى ... حَدِّثْ عَنِ الطُّوفانِ والنِّيرانِ
لا يَلْهَجُونَ بِغَيْرِهِ مِنْ قَيْصَرَ ... في ذَا المَقامِ وصاحِبِ ٱلإِيوانِ
تَضَعُ ٱلْمُلُوكُ عَلَى ثَرَى أَعْتَابِهِ ... عِنْدَ السَّلامِ جَواهِرَ التِّيجانِ
حَتَّى إذا شَخَصَتْ لَهُ أَبْصارُهُمْ ... خَرُّوا لِهَيْبَتِهِ عَلَى الأَذْقانِ
ويُفِيدُهُمْ ذاكَ المَقامُ مَعَ الرِّضَى ... رُتَبَ العُلاَ وجَلالَةَ السُّلْطانِ
ضاقَتْ بِعَسْكَرِكَ ٱلْفَيافِي وٱلْفَلا ... فَاضْرِبْ خِيامَكَ في ذُرَى كِيوانِ
واَقْرِى الكواكِبَ مُحْسِناً مُتَفَضِّلاً ... سَعْدُ السَّعِيدِ سَعادَةُ الإِنْسانِ
وَمَلَكْتَ شامِخَةَ الصَّياصِي عَنْوَةً ... مِنْ حُسْنِ تَدْبِيرٍ وثَبْتِ جَنانِ
ونَشَرْتَ عَدْلَكَ في ٱلْبَسِيطَةِ كُلِّها ... حَتَّى اسْتَوَى ٱلْقاصِي بِها وٱلدَّانِي

فلما فرغ من شعره، طرب الخليفة من محاسن رونقه وأعجبته فصاحة لسانه وعذوبة منطقه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 44

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، ان غانماً بن ايوب لما اعجب الخليفة بفصاحته ونظمه وعذوبة منطقه قال له : ادن مني . فدنا منه . ثم قال له : إشرح لي قصتك واطلعني على حقيقة خبرك . فقعد وحدّث الخليفة بما جرى له من المبتدأ إلى المنتهى وليس في الإعادة إفادة . فلما علم الخليفة انه صادق ، خلع عليه وقرّبه إليه وقال له : أبرىء ذمّتي . فابرأ ذمته وقال له : يا أمير المؤمنين ، إن العبد وما ملكت يداه لسيده . ففرح الخليفة بذلك ثم أمر أن يفرد له قصر ، ورتّب له من الجوامك والجرايات شيئاً كثيراً . فنقل أمه وأخته إليه . وسمع الخليفة بأن اخته فتنة ، في الحسن فتنة . فخطبها منه فقال له غانم : إنها جاريتك وأنا مملوكك . فشكره وأعطاه مائة ألف دينار وأتى بالقاضي والشهود وكتبوا الكتاب ودخل هو وغانم في نهار واحد . فدخل الخليفة على فتنة ، وغانم بن أيوب على قوت القلوب . فلما أصبح الصباح أمر الخليفة أن يؤرخ جميع ما جرى لغانم من أوله إلى آخره وأن يدوّن في السجلات لأجل ان يطّلع عليه من يأتي بعده فيتعجّب من تصرّفات الأقدار ويفوّض الأمر إلى خالق الليل والنهار .

9 - حكاية الملك عمر النعمان مع ولديه بشر كان وضوء المكان

وليس هذا باعجب من حكاية الملك عمر النعمان وولده شركان وولده ضوء المكان وما جرى لهم من العجائب والغرائب . قال الملك : وما حكايتهم ؟ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، انه كان بمدينة دمشق قبل خلافة عبد الملك بن مروان ملك يقال له : عمر النعمان . وكان من الجبابرة الكبار قد قهر الملوك الأكاسرة والقياصرة ، وكان لا يصطلى له بنار ولا يجاريه أحد في مضمار ، وإذا غضب يخرج من منخريه لهيب النار . وكان قد ملك جميع الأقطار ونفذ حكمه في سائر القرى والأمصار ، وأطاع الله له جميع العباد ووصلت عساكره إلى أقصى البلاد . ودخل في حكمه المشرق والمغرب وما بينهما من الهند والسند والصين واليمن والحجاز والحبشة والسودان والشام والروم وديار بكر وجزائر البحار ، وما في الأرض من مشاهير الأنهار كسيحون وجيحون والنيل والفرات . وأرسل رسله إلى أقصى العمار ليأتوه بحقيقة الأخبار فرجعوا وأخبروه بأن سائر الناس أذعنت لطاعته ، وجميع الجبابرة خضعت لهيبته ، وقد عمّهم بالفضل والامتنان وأشاع بينهم العدل والأمان لأنه كان عظيم الشأن . وحملت إليه الهدايا من كل مكان وجُبِيَ إليه خراج الأرض في طولها والعرض . وكان له ولد قد سمّاه شركان لأنه نشأ آفة من آفات الزمان ، وقهر الشجعان وأباد الأقران . فأحبّه والده حبّاً شديداً ما عليه من مزيد وأوصى له بالملك من بعده . ثم إن شركان هذا حين بلغ مبلغ الرجال وصار له من العمر عشرين سنة ، أطاع الله له جميع العباد لما به من شدّة البأس والعناد . وكان والده عمر النعمان له أربع نساء بالكتاب والسنّة ، لكنه لم يرزق منهن بغير شركان ، وهو من إحداهن والباقي عواقر لم يرزق من واحدة منهن بولد . ومع ذلك كان له ثلاثمائة وستون سرّية على عدد أيام السنة القبطية . وتلك السراري من سائر الأجناس . وكان قد بنى لكل واحدة منهن مقصورة ، وكانت المقاصير من داخل القصر . فإنه بنى اثني عشر قصراً على عدد شهور السنة ، وجعل في كل قصر ثلاثين مقصورة ، فكانت جملة المقاصير ثلاثمائة وستين مقصورة ، وأسكن تلك الجواري في هذه المقاصير وفرض لكل سرية

منهن ليلة يبيت عندها، وما يأتيها إلاّ بعد سنة كاملة. فأقام على ذلك مدة من الزمان. ثم إن ولده شركان اشتهر في سائر الآفاق، ففرح به والده وازداد قوّة، فطغى وتجبّر وفتح الحصون والبلاد. واتفق بالأمر المقدر أن جارية من جواري عمر النعمان قد حملت واشتهر حملها وعلم الملك بذلك ففرح فرحاً شديداً وقال: لعلّ ذريتي ونسلي تكون كلها ذكوراً. فأرّخ يوم حملها وصار يحسن إليها. فعلم شركان بذلك فاغتمّ وعظم عليه الأمر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 45

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن شركان علم أن جارية أبيه قد حملت، اغتمّ وعظم عليه ذلك وقال: قد جاءني مَنْ ينازعني في المملكة. فاضمر في نفسه: إن هذه الجارية إنْ ولدت ولداً ذكراً قتلته. وكتم ذلك في نفسه. هذا ما كان من أمر شركان. وأما ما كان من أمر الجارية فإنها كانت رومية، وكان قد بعثها إليه هدية ملك الروم صاحب قسارية وأرسل معها تحفاً كثيرة، وكان اسمها صفية وكانت أحسن الجواري وأجملهن وجهاً وأصونهن عرضاً. وكانت ذات عقل وافر وجمال باهر، وكانت تخدم الملك ليلة مبيته عندها وتقول: أيها الملك، كنت أشتهي من إله السماء أن يرزقك مني ولداً ذكراً حتى أحسن تربيته لك وابالغ في أدبه وصيانته. فيفرح الملك ويعجبه ذلك الكلام. فلا زالت كذلك حتى كملت أشهرها، فجلست على كرسي الطلق، وكانت على صلاح تحسن العبادة فتصلّي وتدعو الله أن يرزقها بولد صالح ويسهل عليها ولادته. فتقبّل الله منها دعاءَها. وكان الملك قد وكّل بها خادماً يخبره بما تضعه، هل هو ذكر أو أنثى؟ وكذلك ولده شركان أرسل من يعرّفه بذلك. فلما وضعت صفية ذلك المولود، تأمّلته القوابل فوجدته بنتاً بوجه أبهى من القمر، فأعلمنَ الحاضرين ذلك، فرجع رسول الملك وأخبره بذلك وكذلك رسول شركان أخبره بذلك ففرح فرحاً شديداً. فلما انصرف الخدام قالت صفية للقوابل: امهلوا عليّ ساعة فإني أحس بان أحشائي فيها شيء آخر. ثم تأوّهت وجاءها الطلق ثانياً وسهّل الله عليها فوضعت مولوداً ثانياً، فنظرت إليه القوابل فوجدته ولداً ذكراً يشبه البدر، بجبين أزهر وخدّ أحمر مورّد. ففرحت به الجارية والخدم والحشم وكل من حضر ورمت صفية الخلاص، وقد أطلقوا الزغاريت في القصر فسمع بقية الجواري بذلك فحسدتها. وبلغ عمر النعمان الخبر، ففرح واستبشر وقام ودخل عليها وقبّل رأسها ونظر إلى المولود، ثم انحنى إليه وقبّله، وضربت الجواري بالدفوف ولعبت بالآلات. وأمر الملك أن يسمّوا المولود ضوء المكان وأخته نزهة الزمان. فامتثلوا أمره وأجابوا: بالسمع والطاعة. وأفرد لهم الملك من يخدمهم من المراضع والخدام والحشم والديّات، ورتّب لهم الرواتب من السكر والأشربة والأدهان، وغير ذلك مما يكل عن وصفه اللسان. وسمعت أهل دمشق بما رزق الله الملك من الأولاد، فزينت المدينة وأظهرت الفرح والسرور، وأقبلت الأمراء والوزراء وأرباب الدولة وهنّوا الملك عمر النعمان بولده ضوء المكان وبنته نزهة الزمان. فشكرهم الملك على ذلك وخلع عليهم وزاد في إكرامهم من الأنعام، وأحسن إلى الحاضرين من الخاص والعام. وما زال على تلك الحالة إلى أن مضى أربعة أعوام. وهو بعد كل قليل من الأيام يسأل عن صفية وأولادها. وبعد الأربعة أعوام أمر أن ينقل إليها من المصاغ والحلى والحلل والأموال شيء كثير

وأوصاها بتربيتهما وحسن أدبهما. كل هذا وابن الملك شركان لا يعلم أن والده عمر النعمان رزق ولداً ذكراً، ولم يعلم أنه رزق سوى نزهة الزمان وأخفوا عليه خبر ضوء المكان إلى أن مضت أيام وأعوام وهو مشغول بمقارعة الشجعان ومبارزة الفرسان. فبينما عمر النعمان جالس يوماً من الأيام إذ دخلت عليه الحجّاب وقبّلوا الأرض بين يديه وقالوا: أيها الملك، قد وصلت إلينا رسل من ملك الروم صاحب القسطنطينية العظمى، وإنهم يريدون الدخول عليك والتمثل بين يديك. فإن أذن لهم الملك بذلك ندخلهم وإلاّ فلا مردّ لأمره. فعند ذلك أذن لهم بالدخول. فلما دخلوا عليه مال إليهم وأقبل عليهم وسألهم عن حالهم وما سبب إقبالهم. فقبّلوا الأرض بين يديه وقالوا: أيها الملك الجليل صاحب الباع الطويل، أعلم أن الذي أرسلنا إليك الملك أفريدون، صاحب البلاد اليونانية والعساكر النصرانية المقيم بمملكة القسطنطينية يعلمك أنه اليوم في حرب شديد مع جبّار عنيد وهو صاحب قسارية. والسبب في ذلك، أن بعض ملوك العرب اتفق أنه وجد في بعض الفتوحات كنز من قديم الزمان من عهد اسكندر، فنقلا منه أموالاً لا تحصى. ومن جملة ما وجد فيه ثلاث خرزات مدورات على قدر بيض النعام، وتلك الخرزات من أغلى الجوهر الأبيض الخالص الذي لا يوجد له نظير، وكل خرزة منقوش عليها بالقلم اليوناني أمور من الأسرار ولهن منافع وخواص كثيرة. ومن خواصهن أن كل مولود علّقت عليه خرزة منهن لم يصبه ألم ما دامت الخرزة معلّقة عليه، ولا يحم ولا يسخن. فلما وضع يده عليها ووقع بها وعرف ما فيها من الأسرار، أرسل إلى الملك أفريدون هدايا من التحف والمال ومن جملتها الثلاث خرزات وجهّز مركبين: واحدة فيها مال، والأخرى فيها رجال تحفظ تلك الهدايا ممن يتعرض لها في البحر. وكان يعرف من نفسه أنه لا أحد يقدر أن يتعدى على مراكبه لكونه ملك العرب. لا سيما وطريق المراكب التي فيها الهدايا في البحر الذي في مملكة ملك القسطنطينية وهي متوجّهة إليه وليس في سواحل ذلك البحر إلاّ رعاياه. فلما جهّز المركبين سافروا إلى أن قربا من بلادنا، فخرج عليهما بعض قطاع الطُرُق من تلك الأرض وفيهم عساكر من عند صاحب قسارية. فأخذوا جميع ما في المركبين من التحف والمال والذخائر والثلاث خرزات وقتلوا الرجال. فبلغ ذلك ملكنا فأرسل اليهم عسكراً فهزموه، فأرسل لهم عسكراً أقوى من الأول فهزموه أيضاً. فعند ذلك اغتاظ الملك وأقسم أنه لا يخرج إليهم إلاّ بنفسه في جميع عسكره، وأنه لا يرجع عنهم حتى يخرب قسارية ويترك أرضها وجميع البلاد التي يحكم عليها ملكها خراباً. والمراد من صاحب القوة والسلطان الملك عمر النعمان، أن يمدّنا بعسكر من عنده حتى يصير له الفخر. وقد أرسل إليك ملكنا معنا شيئاً من أنواع الهدايا ويرجو من إنعامك قبولها والتفضل عليه بالإسعاف. ثم إن الرسل قبّلوا الأرض بين يدي الملك عمر النعمان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 46

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن رسل ملك القسطنطينية قبّلوا الأرض بين يدي الملك عمر النعمان بعد أن حكوا له ثم أعلموه بالهدية، وكانت الهدية خمسين جارية من خواص بلاد الروم، وخمسين مملوكاً عليهم أقبية من الديباج بمناطق من الذهب والفضة، وكل مملوك في أذنه حلقة من الذهب فيها لؤلؤة تساوي ألف مثقال من الذهب والجواري

كذلك . وعليهم من القماش ما يساوي مالاً جزيلاً . فلما رآهم الملك قبلهم وفرح بهم وأمر بإكرام الرسل ، وأقبل على وزرائه يشاورهم فيما يفعل ، فنهض من بينهم وزير وكان شيخاً كبيراً يقال له دندان فقبل الأرض بين يدي الملك عمر النعمان وقال : ايها الملك ، ما في الأمر أحسن من انك تجهّز عسكراً جرّاراً وتجعل قائدهم ولدك شركان ونحن بين يديه غلمان . وهذا الرأي أحسن لوجهين ، الأول : أن ملك الروم قد استجار بك وارسل إليك هدية فقبلتها . والوجه الثاني : أن العدوّ لا يجسر على بلادنا ، فإذا منع عسكرك عن ملك الروم وهزم عدوّه ينسب هذا الأمر إليك ويشيع ذلك في سائر الأقطار والبلاد ، ولا سيما إذا وصل الخبر إلى جزائر البحر وسمع بذلك اهل المغرب ، فإنهم يحملون إليك الهدايا والتحف والأموال . فلما سمع الملك هذا الكلام من وزيره دندان ، اعجبه واستصوبه وخلع عليه وقال له : مثلك من تستشيره الملوك وينبغي أن تكون انت في مقدم العسكر وولدي شركان في ساقة العسكر . ثم إن الملك امر بإحضار ولده ، فلما حضر قصّ عليه القصة واخبره بما قاله الرسل وبما قاله الوزير دندان وأوصاه بأخذ الأهبة والتجهيز للسفر ، وإنه لا يخالف الوزير دندان فيما يشور به عليه ، وأمره أن ينتخب من عسكره عشرة آلآف فارس كاملين العدّة صابرين على الشدّة . فامتثل شركان لما قاله والده عمر النعمان ، وقام في الوقت واختار من عسكره عشرة آلآف فارس ثم دخل قصره وأخرج مالاً عظيماً وأنفق عليهم المال وقال لهم : قد امهلتكم ثلاثة أيام . فقبّلوا الأرض بين يديه مطيعين لأمره ثم خرجوا من عنده واخذوا في الأهبة وإصلاح الشأن . ثم إن شركان دخل خزائن السلاح وأخذ ما يحتاج إليه من العدد والسلاح ، ثم دخل الاصطبل واختار منه الخيل المسومة وأخذ غير ذلك . وبعد ذلك أقاموا ثلاثة أيام ثم خرجت العساكر إلى ظاهر المدينة ، وخرج عمر النعمان لوداع ولده شركان فقبّل الأرض بين يديه وأهدى له سبع خزائن من المال ، وأقبل على الوزير دندان وأوصاه بعسكر ولده شركان فقبل الأرض بين يديه وأجابه : بالسمع والطاعة . وأقبل الملك على ولده شركان وأوصاه بمشاورة الوزير دندان في سائر الأمور . فقبل ذلك ورجع والده إلى أن دخل المدينة . ثم إن شركان امر كبار العسكر بعرضهم عليه وكانت عدّتهم عشرة آلآف فارس غير ما يتبعهم . ثم إن القوم حملوا ودقت الطبول وصاح النفير وانتشرت الأعلام والرايات وركب ابن الملك شركان وإلى جانبه وزيره دندان والأعلام تخفق على رؤوسهم . ولم يزالوا سائرين والرسل تقدمهم إلى ان ولّى النهار وأقبل الليل ، فنزلوا واستراحوا وباتوا تلك الليلة . فلما أصبح ركبوا وساروا ، ولم يزالوا سائرين والرسل يدلونهم على الطريق مدّة عشرين يوماً ، ثم اشرفوا في اليوم الحادي والعشرين على واد واسع الجهات ، كثير الأشجار والنبات . وكان وصولهم إلى ذلك الوادي ليلاً فامرهم شركان بالنزول والإقامة فيه ثلاثة ايام . فنزل العساكر وضربوا الخيام وافترق العسكر يميناً وشمالاً ، ونزل الوزير دندان وصحبته رسل أفريدون صاحب القسطنطينية في وسط ذلك الوادي . وأما الملك شركان فإنه كان في وقت وصول العسكر ، وقف بعدهم ساعة حتى نزلوا جميعهم وتفرقوا في جوانب الوادي ثم إنه أرخى عنان جواده وأراد ان يكشف ذلك الوادي ويتولى الحرس بنفسه لأجل وصية والده إياه . فإنهم في أول بلاد الروم وأرض العدو . فسار وحده بعد ان امر مماليكه وخواصه بالنزول عند الوزير دندان ثم إنه لم يزل سائراً على ظهر جواده في جوانب الوادي إلى ان مضى من الليل ربعه فتعب وغلب عليه النوم فصار لا يقدر أن يركض

الجواد . وكان له عادة أنه ينام على ظهر جواده . فلما هجم عليه النوم نام ولم يزل الجواد سائراً به إلى نصف الليل ، فدخل به في بعض الغابات ، وكانت تلك الغابة كثيرة الأشجار فلم ينتبه شركان حتى دقّ الجواد بحافره في الأرض فاستيقظ فوجد نفسه بين الأشجار وقد طلع عليه القمر واضاء في الخافقين . فاندهش شركان لما رأى نفسه في ذلك المكان وقال كلمة لا يخجل قائلها وهي : لا حول ولا قوة إلا بالله . فبينما هو كذلك خائف من الوحش متحيّر لا يدري اين يتوجّه . فلما رأى القمر أشرف على مرج كانه من مروج الجنة ، فسمع كلاماً مليحاً وصوتاً عالياً وضحكاً يسبي عقول الرجال . فنزل الملك شركان عن جواده في الأشجار ومشى حتى أشرف على نهر فرأى فيه الماء يجري وسمع كلام امرأة تتكلم بالعربي وهي تقول : وحق المسيح ، إن هذا مكان غير مليح ، ولكن كل من تكلمت بكلمة صرعتها وكتّفتها بزنارها . كل هذا وشركان يمشي إلى جهة الصوت حتى انتهى إلى طرف المكان ، ثم نظر فإذا هو بنهر يسبح وطيور تمرح وغزلان تسنح ووحوش ترتع والطيور بلغاتها لمعاني الحظ تشرح . وذلك المكان مزركش بأنواع النبات ، كما قيل في أوصاف مثله هذان البيتان : [من البسيط]

ما تَحْسُنُ الأَرْضُ إلاَّ عِنْدَ زَهْرَتِها ... والماءُ مِنْ فَوْقِها يَجْري بإرْسالِ
صُنْعُ الآلهِ العَظيمِ الشَّأنِ مُقْتَدِراً ... مُعْطِي ٱلْعَطايا ومُعْطِي كُلّ مِفْضالِ

فنظر شركان إلى ذلك المكان فرأى فيه ديراً ، ومن داخل الدير قلعة شاهقة في الهواء في ضوء القمر ، وفي وسطها نهر يجري الماء منه إلى تلك الرياض ، وهناك امرأة بين يديها عشر جوار كأنهن الأقمار وعليهن من أنواع الحليّ والحلل ما يدهش الأبصار وكلهنّ أبكار بديعات ، كما قيل فيهنّ هذه الأبيات : [من مجزوء الرمل]

يُشْرِقُ ٱلْمَرْجُ بما فيـ ... ـهِ مِنَ البِيضِ ٱلْعَوالِي
زادَ حُسْناً وجَمَالاً ... مِنْ بَدِيْعاتِ الخِلالِ
كُلُّ هَيْفَاءَ قَواماً ... ذاتِ غُـنْجٍ ودَلالِ
راخِيـاتٍ لِـشُعُـورٍ ... كَعَـنـاقِيدِ الـدَّوالي
فاتِـنـاتٍ بِـعُـيُـونٍ ... رامِـيـاتٍ بـالـنِّـبـالِ
مائِـسـاتٍ قـاتِـلاتٍ ... لِصَـنـاديـدِ الـرِّجالِ

فنظر شركان إلى هؤلاء الجواري العشر فوجد بينهنّ جارية كأنها البدر عند تمامه ، بحاجب مزجج وجبين أبلج وطرف أهدب وصدغ معقرب ، كاملة في الذات والصفات ، كما قال الشاعر في مثلها هذه الأبيات : [من البسيط]

تَزْهُو عَلَيَّ بألحاظٍ بَديعاتِ ... وقَدُّها مُخْجِلٌ لِلسَمْهَرِيّاتِ
تَبْدُو إلَيْنا ووَرْدُ الحَقْلِ خَدَّاها ... فِيها مِنَ الظَّرْفِ أَنْواعُ المَلاَحاتِ
كَأَنَّ طُرَّتَها في نُورِ طَلْعَتِها ... لَيْلٌ يَلُوحُ على صُبْحِ المَسَرَّاتِ

فسمعها شركان وهي تقول للجواري : تقدموا حتى اصارعكم قبل أن يغيب القمر ويأتي الصباح . فصارت كل واحدة منهنّ تتقدم إليها فتصرعها في الحال وتكتفها بزنارها . فلم تزل

تصارعهنّ وتصرعهنّ حتى صرعت الجميع . ثم التفتت إلى جارية عجوز كانت بين يديها وقالت لها وهي كالمغضبة عليها : يا فاجرة ، أتفرحين بصرعك للجواري؟ فها أنا عجوز وقد صرعتهنّ اربعين مرة ، فكيف تعجبين بنفسك؟ ولكن إن كان لك قوّة على مصارعتي فصارعيني . فإن أردت ذلك وقمتِ لمصارعتي أقوم لك وأجعل رأسك بين رجليك . فتبسّمت الجارية ظاهراً وقد امتلأت غيظاً منها باطناً وقامت إليها وقالت لها : يا سيدتي ذات الدواهي ، بحق المسيح ، أتصارعينني حقيقة أو تمزحين معي؟ قالت لها: بل أصارعك حقيقة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 47

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية لما قالت لذات الدواهي : بحق المسيح ، أتصارعينني حقيقة؟ قالت لها : أصارعك حقيقة . قالت لها : قومي للصراع إن كان لك قوة . فلما سمعت العجوز منها ذلك اغتاظت غيظاً شديداً وقام شعر بدنها كأنه شعر قنفذ وقامت لها الجارية . فقالت لها العجوز : وحقّ المسيح ، لم أصارعك إلاّ وأنا عريانة يا فاجرة . ثم إن العجوز أخذت منديلاً حريراً بعد ان فكّت لباسها وأدخلت يديها تحت ثيابها ونزعتها من فوق جسدها ولمّت المنديل وشدّته في وسطها ، فصارت كأنها عفريتة معطاء أوحيّة رقطاء . ثم انحنت على الجارية وقالت لها : إفعلي كفعلي . كل هذا وشركان ينظر إليهما . ثم إن شركان صار يتأمّل في تشويه صورة العجوز ويضحك . ثم إن العجوز لما فعلت ذلك ، قامت الجارية على مهل وأخذت فوطة يمانية وثنتها مرتين وشمّرت سراويلها فبان لها ساقان من المرمر وفوقهما كثيب من البلّور ناعم مربرب ، وبطن يفوح المسك من أعكانه كأنه مصفح بشقائق النعمان ، وصدر فيه نهدان كفحلي زمان . ثم انحنت عليها العجوز وتماسكا ببعضهما ، فرفع شركان رأسه إلى السماء ودعا الله أن الجارية تغلب العجوز . فدخلت الجارية تحت العجوز ووضعت يدها الشمال في شقتها ويدها اليمين في رقبتها مع حلقها ورفعتها على يديها ، فانفلتت العجوز من يديها وأرادت الخلاص فوقعت على ظهرها ، فارتفعت رجلاها إلى فوق فبانت شعرتها في القمر . ثم ضرطت ضرطتين عفرت إحداهما في الأرض ودخنت الأخرى في السماء . فضحك شركان منهما حتى وقع على الأرض ، ثم قام وسلّ حسامه والتفت يميناً وشمالا فلم يرَ أحداً غير العجوز مرمية على ظهرها فقال في نفسه : ما كذب من سمّاك ذات الدواهي . ثم تقرّب منهما ليسمع ما يجري بينهما ، فأقبلت الجارية ورمت على العجوز ملاءة من حرير رفيعة وألبستها ثيابها واعتذرت إليها وقالت لها : يا سيدتي ذات الدواهي ، ما أردت إلاّ صرعك لا جميع ما حصل لك ، ولكن أنت انفلتّ من بين يدي فالحمد لله على السلامة . فلم ترد عليها جواباً وقامت تمشي من خجلها . ولم تزل ماشية إلى أن غابت عن البصر ، وصار الجواري مكتفات مرميات والجارية واقفة وحدها . فقال شركان في نفسه : لكل رزق سبب ، ما غلب عليّ النوم وسار بي الجواد إلى هذا المكان إلاّ لبختي فلعلّ هذه الجارية وما معها تكون غنيمة لي . ثم ركب جواده ولكزه ففرّ به كالسهم إذا فرّ من القوس وبيده حسامه مجرّد من غلافه . ثم صاح : الله أكبر . فلما رأته الجارية نهضت قائمة وحطّت قدميها على جانب النهر وكان عرضه ستة أذرع ، ووثبت فصارت على جانبه الآخر ثم قامت على رجليها ونادت برفيع صوتها : مَنْ أنت يا هذا؟ لأنك قطعت سرورنا ، وحين جردت

حسامك صرت كأنك قد حملت في عساكر . من اين انت ؟ وإلى أين تذهب ؟ فاصدق في مقالك فإن الصدق انفع لك ، ولا تكذب فان الكذب من اخلاق اللئام . ولا شك انك تهت في هذه الليلة عن الطريق حتى جئت إلى هذا المكان الذي خلاصك فيه أكبر الغنيمات . واعلم انك في مرج ، لو صرخنا فيه صرخة واحدة لجاء إلينا اربعة الآف بطريق . فقل لنا : ما الذي تريد ؟ فإن اردت ان نرشدك إلى الطريق أرشدناك وإن اردت الرفد ارفدناك . فلما سمع شركان كلامها قال لها : انا رجل غريب من المسلمين وقد سرت في هذه الليلة منفرداً بنفسي اطلب غنيمة اغتنمها فلم أجد غنيمة احسن من هؤلاء الجواري العشر في هذه الليلة المقمرة فاخذهن وارجع بهن إلى اصحابي . فقالت له الجارية : أعلم أن الغنيمة ما وصلت إليها ، والجواري والله ما هن غنيمتك . أمَا قلت لك ان الكذب شين ؟ فقال لها : إن السعيد الذي يكتفي بالله عن غيره . فقالت له : وحق المسيح ، لولا اني اخاف ان يكون هلاكك على يدي لكنت صحت صيحة ملأت عليك الأرض خيلاً ورجالاً ولكن انا اشفق على الغرباء ، وإن اردت الغنيمة فأنا اطلب منك ان تنزل عن جوادك وتحلف لي بدينك انك لا تتقرب إليّ بشيء من السلاح واتصارع انا وانت ، فإن صرعتني فضعني على جوادك وخذنا كلنا غنيمة وإن صرعتك اتحكم فيك . فاحلف لي فإني اخاف من غدرك ، وقد ورد في الاخبار : إذا كان الغدر طباعاً فإن الثقة بكل أحد عجز . فإن حلفت لي عديت إليك واتيتك وجئت عندك . فطمع شركان في أخذها وقال في نفسه : إنها تعرف أني بطل من الأبطال . ثم ناداها وقال لها : حلّفيني بما تثقين به إني لأقربك بشيء حتى تأخذي أهبتك وتقولي ادن مني لأصارعك فحينئذ أتقرّب منك ، فإن صرعتني فإن لي من المال ما اشتري به نفسي وإن صرعتك أنا فهي الغنيمة الكبرى . فقالت الجارية : أنا رضيت بذلك . فتحيّر شركان في ذلك وقال : وحق النبي صلى الله عليه وسلم رضيت أنا الآخر . فقالت له : احلف الآن بمن ركّب الأرواح في الأجساد وشرّع لنا الشرائع . فحلف لها بما وثقت به من الإيمان فرضيت بذلك . ثم إنها وثبت فصارت في الجانب الآخر من جانبي النهر وقالت لشركان وهي تضحك : يعزّ عليّ فراقك يا مولاي ، إذهب إلى أصحابك قبل الصباح لئلا تأتيك البطارقة فيأخذوك على أسنّة الرماح ، وأنت ما فيك قوة لدفع النسوان فكيف تدفع الرجال الفرسان ؟ فتحيّر شركان في نفسه وقال لها وقد ولّت عنه معرضة تقصد الدير : يا سيدتي اتذهبين وتتركين المتيّم الغريب المسكين الكسير القلب ؟ فالتفتت إليه وهي تضحك ثم قالت له : ما حاجتك ؟ فإني أجيب دعوتك . فقال : كيف أطأ ارضك وأتحلى بحلاوة لطفك وارجع بلا أكل من طعامك وقد صرت من بعض خدمك ؟ فقالت : لا يابى الكرامة لئيم ، تفضل بسم الله على الراس والعين واركب جوادك وسِر على جانب النهر مقابلي فأنت في ضيافتي . ففرح شركان وبادر إلى جواده وركب ولا زال ماشياً مقابلها وهي سائرة قباله إلى ان وصل إلى جسر معمول بأخشاب من الحور وفيه بكر بسلاسل من البولاد وعليها اقفال في كلاليب . فنظر شركان إلى ذلك الجسر وإذا بالجواري اللاتي كنّ معها في المصارعة قائمات ينظرن إليها ، فلما اقبلت عليهنّ كلّمت جارية منهن بلسان الرومية وقالت لها : قومي إليه وامسكي عنان جواده ثم سيري به إلى الدير . فصار شركان وهي قدامه إلى ان عدّى الجسر ، وقد اندهش عقله مما راى وقال في نفسه : يا ليت الوزير دندان كان معي في هذا المكان وتنظر عيناه إلى تلك الجواري الحسان . ثم التفت إلى تلك الجارية وقال لها : يا بديعة

الجمال، قد صار لي عليك الآن حرمتان: حرمة الصحبة وحرمة سيري إلى منزلك وقبول ضيافتك وقد صرت تحت حكمك وفي عهدك، فلو أنك تنعمين عليّ بالمسير معي إلى بلاد الإسلام وتتفرجين على كل أسد ضرغام وتعرفين من أنا. فلما سمعت كلامه اغتاظت وقالت له: وحق المسيح، لقد كنت عندي ذا عقل ورأي، ولكني اطلعت الآن على ما في قلبك من الفساد، وكيف يجوز لك أن تتكلم بكلمة تنسب فيها إلى الخداع؟ كيف أصنع هذا وأنا أعلم أني متى حصلت عند ملككم عمر النعمان لا أخلص منه لأنه في صورة مثلي. ولو كان صاحب بغداد وخراسان، وبنى له اثني عشر قصراً في كل قصر ثلثمائة وستون جارية على عدد أيام السنة، والقصور عدد أشهر السنة. فإن حصل عنده فزع مني، لأن اعتقادكم أنه يحل لكم التمتع بمثلي كما في كتبكم حيث قيل فيها: أو ما ملكت ايمانكم. فكيف تكلّمني بهذا الكلام؟ وأما قولك وتتفرجين على شجعان المسلمين، فوحقّ المسيح، إنك قلت قولاً غير صحيح، فإني رأيت عسكركم لما استقبلتم أرضنا وبلادنا في هذين اليومين، فلما أقبلتم لم أرَ تربيتكم تربية ملوك وإنما رأيتكم طوائف مجتمعة. وأما قولك: تعرفين من أنا؟ فأنا لا أصنع معك جميلاً لأجل إجلالك وإنما أفعل ذلك لأجل الفخر، ومثلك لا يقول لمثلي ذلك ولو كنت شركان ابن الملك عمر النعمان الذي ظهر في هذا الزمان. فقال شركان في نفسه: لعلها عرفت قدوم العساكر وعرفت عدّتهم وأنهم عشرة آلآف فارس، وعرفت أن والدي أرسلهم معي لنصرة ملك القسطنطينية. ثم قال شركان: يا سيدتي أقسمت عليك بما تعتقدين من دينك أن تحدثيني بسبب ذلك حتى يظهر لي الصدق من الكذب ومن يكون عليه وبال ذلك؟ فقالت له: وحقّ دينك لولا إني خفت أن يشيع خبري من أني من بنات الروم لكنت خاطرت بنفسي وبارزت العشرة آلآف فارس وقتلت مقدمهم الوزير دندان وظفرت بفارسهم شركان وما كان علي في ذلك عار، ولكنني قرأت الكتب وتعلّمت الأدب من كلام العرب ولست أصف لك نفسي بالشجاعة مع أنك رأيت مني العلامة والصناعة والقوة في الصراع والبراعة، ولو حضر شركان مكانك في هذه الليلة وقيل له: نط هذا النهر لأذعن واعترف بالعجز. وإني أسأل المسيح أن يرميه بين يدي في هذا الدير حتى أخرج له في صفة الرجال وآسره وأجعله في الأغلال. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 48

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الصبيّة النصرانية لما قالت هذا الكلام لشركان وهو يسمعه، أخذته النخوة والحمية وغيرة الأبطال وأراد أن يظهر لها نفسه ويبطش بها، ولكن ردّه عنها فرط جمالها وبديع حسنها فأنشد هذا البيت:

[من الكامل]

وإذا المَليحُ أَتَى بِذَنْبٍ واحِدٍ ... جاءَتْ مَحاسِنُهُ بألْفِ شَفِيعِ

ثم صعدت وهو في أثرها، فنظر شركان إلى ظهر الجارية فرأى أردافها تتلاطم كالأمواج في البحر الرجراج فأنشد هذه الأبيات: [من البسيط]

في وَجْهِهَا شافِعٌ يَمْحُو إساءَتَها ... مِنَ ٱلْقُلُوبِ وَجِيهٌ حَيْثُما شَفَعا
إذا تأمَّلْتَها نادَيْتَ مِنْ عَجَبٍ ... ٱلْبَدْرُ في لَيْلَةِ الإكْمالِ قَد طَلَعا

لَو أَنَّ عِفْرِيتَ بَلْقِيسَ يُصارِعُهَا   مَعْ وَصْفِ قُوَّتِهِ في ساعَةٍ صَرَعا

ولم يزالا سائرين حتى وصلا إلى باب مقنطر وكانت قنطرته من رخام، ففتحت الجارية الباب ودخلت ومعها شركان وسار إلى دهليز طويل مقبى على عشر قناطر معقودة، على كل قنطرة قنديل من البلور يشتعل كاشتعال الشمس، فلقيتها الجواري في آخر الدهليز بالشموع المطيبة وعلى رؤوسهن العصائب المزركشة بالفصوص من سائر أصناف الجواهر، وسارت وهنّ أمامها وشركان وراءها إلى أن وصلوا إلى الدير. فوجد بدائر ذلك الدير أسرّة مقابلة لبعضها وعليها ستور مكلّلة بالذهب وأرض الدير مفروشة بأنواع الرخام المجزع وفي وسطه بركة ماء عليها أربعة وعشرون قارورة من الذهب والماء يخرج منها كاللّجين، ورأى في الصدر سريراً مفروشاً بالحرير الملوكي. فقالت له الجارية: اصعد يا مولاي على هذا السرير. فصعد شركان فوق السرير وذهبت الجارية وغابت عنه فسأل عنها بعض الخدام فقالوا له: إنها ذهبت إلى مرقدها ونحن نخدمك كما أمرت. ثم إنها قدّمت إليه من غرائب الألوان فأكل حتى اكتفى، ثم بعد ذلك قدمت إليه طشتاً وإبريقاً من الذهب فغسل يديه وخاطره مشغول بعسكره لكونه لا يعلم ما جرى لهم بعده، ويتذكّر أيضًا كيف نسي وصية أبيه. فصار متحيّراً في أمره نادماً على ما فعل إلى أن طلع الفجر وبان النهار وهو يتحسر على ما فعل، وصار مستغرقاً في الفكر وأنشد هذه الابيات: [من السَّريع]

لَم أَعْدَمِ ٱلْحَزْمَ وَلَـكِنَّنِيْ   دُهِيْتُ فِيْ الأَمْرِ فَمَا حِيْلَتِيْ
لَوْ كانَ مَنْ يَـكْشِفُ عَنِّيْ ٱلْهَوَى   بَرِئْتُ مِنْ حَوْلِي وَمِنْ قُوَّتِي
وإنَّ قَلْبِي في ضَلالِ ٱلْهَوَى   صَبٌّ وأَرْجُوْ اللهَ فِيْ شِدَّتِي

فلما فرغ من شعره رأى بهجة عظيمة قد أقبلت، فنظر فإذا هو بأكثر من عشرين جارية كالأقمار حول تلك الجارية، وهي بينهنّ كالبدر بين الكواكب وعليها ديباج ملوكي وفي وسطها زنار مرصّع بأنواع الجواهر وقد ضم خصرها وأبرز ردفها فصارا كأنهما كثيب بلور تحت قضيب من فضة ونهداها كفحلي زمان. فلما نظر شركان ذلك كاد عقله أن يطير من الفرح ونسي عسكره ووزيره، وتأمل رأسها فرأى عليها شبكة من اللؤلؤ مفصلة بأنواع الجواهر، والجواري عن يمينها ويسارها يرفعن أذيالها وهي تتمايل عجباً. فعند ذلك وثب شركان قائماً على قدميه من هيبة حسنها وجمالها فصاح: واحيرتاه من هذا الزنار. وأنشد هذه الأبيات: [من السَّريع]

ثَقِيْلَةُ الأَرْدَافِ مائِلَةٌ   خَرْعُوْبَةٌ ناعِمَةُ ٱلنَّهْدِ
تَكَتَّمَتْ ما عِنْدها مِنْ جَوًى   ولَسْتُ أَكْتُمُ ٱلَّذِيْ عِنْدِي
خُدَّامُها يَمْشِيْنَ مِنْ خَلْفِها   كالْقَيْلِ فِي حَلْيٍ وفي عِقْدِ

ثم إن الجارية جعلت تنظر إليه زماناً طويلاً وتكرّر فيه النظر إلى أن تحقّقته وعرفته فقالت له بعد أن أقبلت عليه: قد أشرف بك المكان يا شركان، كيف كانت ليلتك يا همّام بعد ما مضينا وتركناك؟ ثم قالت له: إن الكذب عند الملوك منقصة وعار لاسيما عند أكابر الملوك، وأنت شركان بن عمر النعمان فلا تنكر نفسك وحسبك ولا تكتم أمرك عنّي ولا تسمعني بعد ذلك غير الصدق فإن الكذب يورث البغض والعداوة. فقد نفذ فيك سهم القضاء فعليك بالتسليم

والرضاء . فلما سمع كلامها لم يمكنه الإنكار فاخبرها بالصدق وقال لها : انا شركان بن عمر النعمان الذي عذّبني الزمان وأوقعني في هذا المكان ، فمهما شئت فافعليه الآن . فأطرقت برأسها إلى الأرض زماناً طويلاً ثم التفتت إليه وقالت له : طب نفساً وقر عيناً ، فإنك ضيفي وصار بيننا وبينك خبز وملح وحديث ومؤانسة ، فانت في ذمتي وفي عهدي فكن آمنًا ، وحق المسيح لو اراد اهل الأرض ان يؤذوك لما وصلوا إليك إلاّ إن خرجت روحي من اجلك ، فانت في أمان المسيح وأماني . وجلست إلى جانبه فصارت تلاعبه إلى أن زال ما عنده من الخوف ، وعلم أنها لو كان لها أرب في قتله لقتلته في الليلة الماضية . ثم إنها كلّمت جارية بلسان الرومية فغابت ساعة ثم رجعت إليها ومعها آلة مدام ومائدة طعام فتوقف شركان عن الأكل وقال في نفسه : ربما وضعت شيئاً في ذلك الطعام . فعرفت ما في ضميره فالتفتت إليه وقالت : وحقّ المسيح ، ليس الأمر كذلك وهذا الطعام ليس فيه شيء من الذي تتوهمّه ، ولو كان خاطري في قتلك لقتلتك في هذا الوقت . ثم تقدّمت إلى المائدة واكلت من كل لون لقمة ، فعند ذلك أكل شركان ، ففرحت الجارية وأكلت معه إلى أن اكتفيا . وبعد أن غسلا أيديهما قامت وأمرت جارية أن تأتي بالرياحين وآلات الشراب من أواني الذهب والفضة والبلور وأن يكون الشراب من سائر الألوان المختلفة والأنواع النفيسة ، فأتتها بجميع ما طلبته . ثم إن الجارية ملأت أول قدح وشربته قبله كما فعلت في الطعام ثم ملأت ثانياً وأعطته إياه فشرب فقالت له : يا مسلم أنظر كيف أنت في ألذّ عيش ومسرّة . ولم تزل تشرب معه إلى أن غاب عن رشده . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 49

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية ما زالت تشرب وتسقي شركان إلى أن غاب عن رشده من الشراب ومن سكر محبتها . ثم إنها قالت لجارية : يا مرجانة هاتي لنا شيئاً من آلات الطرب . فقالت : سمعاً وطاعةً . ثم غابت لحظة وأتت بعود جلقي وجنك عجمي وناي تتري وقانون مصري فأخذت الجارية العود وأصلحته وشدّت أوتاره وغنّت عليه بصوت رخيم أرقّ من النسيم وأعذب من ماء التسنيم وأنشدت مطربة بهذه الأبيات : [من الطَّويل]

عفَا اللهُ عَنْ عَيْنَيْكَ كَمْ سَفَكَتْ دِمَا ... وَكَمْ فَوَّقَتْ مِنْكَ اللَّوَاحِظُ أَسْهُمَا
أُجِلُّ حَبِيباً جائِراً في حَبِيبِهِ ... حَرَامٌ عَلَيْهِ أَنْ يَرِقَّ وَيَرْحَمَا
هَنِيئاً لِطَرْفٍ باتَ فِيْكَ مُسَهَّدًا ... وطُوبَى لِقَلْبٍ ظَلَّ فِيْكَ مُتَيَّما
تَحَكَّمْتَ في قَتْلِيْ فإِنَّكَ مالِكِي ... بِرُوْحِيَ أَفْدِي أَلْحَاكِمَ الْمُتَحَكِّما

ثم قامت كل واحدة من الجواري ومعها آلتها وأنشدت عليها أبياتاً بلسان الرومية فطرب شركان . ثم غنّت الجارية سيدتهن أيضاً وقالت : يا مسلم أمَا فهمت ما أقول ؟ قال : لا . ولكن ما طربت إلاّ على حسن أناملك . فضحكت وقالت له : إن غنيت لك بالعربية ماذا تصنع ؟ فقال : ما كنت اتمالك عقلي . فأخذت آلة الطرب وغيّرت الضرب وأنشدت هذه الأبيات : [من المجتث]

طَعْمُ التَّفَرُّقِ مُرٌّ ... فَهَلْ لِذَلِكَ صَبْرُ
تَعَرَّضَتْ لِي ثَلاثٌ ... صَدٌّ وبَيْنٌ وَهَجْرُ

أَهْوَى ظَرِيفاً سَبَانِيْ بالحُسْنِ فَالْهَجْرُ مُرُّ

فلما فرغت من شعرها نظرت إلى شركان فوجدته قد غاب عن وجوده، ولم يزل مطروحاً بينهن ممدوداً ساعة ثم افاق وتذكّر الغناء فمال طرباً. ثم إن الجارية أقبلت هي وشركان على الشراب ولم يزالا في لعب ولهو إلى ان ولّى النهار بالرواح ونشر الليل الجناح. فقامت إلى مرقدها، فسأل شركان عنها فقالوا له: إنها مضت إلى مرقدها. فقال: في رعاية الله وحفظه. فلما أصبح الصباح أقبلت عليه الجارية وقالت له: إن سيدتي تدعوك إليها. فقام معها وسار خلفها فلما قرب من مكانها زفته الجواري بالدفوف والمغاني إلى أن وصل إلى باب كبير من العاج مرصّع بالدرّ والجوهر، فلما دخلوا منه وجدوا داراً كبيرة أيضاً وفي صدرها إيوان كبير مفروش بأنواع الحرير، وبدائر ذلك الإيوان شبابيك مفتحة مطلة على أشجار وأنهار، وفي البيت صور مجسّمة يدخل فيها الهواء فتتحرك في جوفها آلات فيتخيّل للناظر انها تتكلم، والجارية جالسة تنظر إليهم. فلما نظرته الجارية نهضت قائمة إليه وأخذت يده وأجلسته بجانبها وسألته عن مبيته فدعا لها ثم جلسا يتحدثان. فقالت له: أتعرف شيئاً مما يتعلق بالعاشقين والمتيّمين؟ فقال: نعم أعرف شيئاً من الأشعار. فقالت: أسمعني. فأنشد هذه الأبيات: [من الكامل]

لاَ لاَ أَبُوحُ بِحُبِّ عَزَّةَ إِنَّها أَخَذَتْ عَلَيَّ مَوَاثِقاً وعُهُوْدا
رُهْبانُ مَدْيَنَ والَّذين عَهِدْتُهُم يَبْكُوْنَ مِنْ حَذَرِ الفِراقِ قُعُوداً
لو يَسْمَعُوْن كما سَمِعْتُ حَدِيثَها خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسُجُوْدا

فلما سمعته قالت: لقد كان كثيّر باهر الفصاحة بارع البلاغة لأنه بالغ في وصفه لعزّة حيث قال: وانشدت هذين البيتين: [من الكامل]

لو أَنَّ عَزَّةَ حاكَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى في ٱلْحُسْنِ عِنْد مُوَفَّقٍ لَقَضَى لَها
وسَعَى إِلَيَّ بِعَيْبِ عَزَّةَ نِسْوَةٌ جَعَلَ الإِلٰهُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَها

ثم قالت: وقيل إن عزة كانت في نهاية الحسن والجمال. ثم قالت له: يا ابن الملك إن كنت تعرف شيئاً من كلام جميل فأنشدنا منه. قال: إني أعرف به كل واحد. ثم أنشد من شعر جميل هذا البيت: [الطّويل]

تُرِيْدِيْنَ قَتْلِي لا تُرِيْدِيْنَ غَيْرَهُ وَلَسْتُ أرَى قَصْداً سِواكِ أُرِيْدُ

فلما سمعت ذلك قالت له: احسنت يا ابن الملك. ما الذي أرادته عزة بجميل حتى قال هذا الشطر؛ أي تريدين قتلي لا تريدين غيره. فقال لها شركان: يا سيدتي لقد أرادت به ما تريدين مني ولا يرضيك. فضحكت لما قال لها شركان هذا الكلام، ولم يزالا يشربان إلى ان ولّى النهار واقبل الليل بالاعتكار. فقامت الجارية وذهبت إلى مرقدها ونامت ونام شركان في مرقده إلى أن أصبح الصبح. فلما افاق اقبلت عليه الجواري بالدفوف وآلات الطرب على العادة وقبّلن الأرض بين يديه وقلن له: تفضل فإن سيدتنا تدعوك إلى الحضور عندها. فقام شركان ومشى والجواري حوله يضربن بالدفوف والآلات إلى ان خرج من تلك الدار ودخل داراً غيرها اعظم من الدّار

الأولى وفيها من التماثيل وصور الطيور ما لا يوصف، فتعجّب شركان ممّا رأى من صنع ذلك المكان فانشد هذه الابيات : [من الكامل]

أجْنَى رَقِيبِي مِنْ ثِمَارِ قَلائدِ ... دُرَّ النُّحُورِ مُنَضَّداً بالعَسْجَدِ
وَعُيُونَ ماءٍ مِنْ سَبائكِ فِضَّةٍ ... وخُدُودَ وَرْدٍ في وُجُوهِ زَبَرْجَدِ
فكأنَّما لَوْنُ البَنَفْسَجِ قَد حَكَى ... زُرْقَ العُيُونِ وكُحِّلَتْ بالإثْمِدِ

فلما رات الجارية شركان قامت له وأخذت يده وأجلسته إلى جانبها وقالت له : أنت ابن الملك عمر النعمان، فهل تحسن لعب الشطرنج ؟ فقال : نعم، ولكن لا تكوني كما قال الشاعر : [من البسيط]

أَقُولُ وَالْوَجْدُ يَطْوِيني وَيَنْشُرُني ... وَنَهْلَةٌ مِنْ رُضَابِ الْحِبِّ تَرْوِيني
حَضَرْتُ شَطْرَنْجَ مَنْ أَهْوَى فَلاعَبَني ... بالبِيضِ والسُّودِ لكِنْ لَيْسَ يُرْضِيني
كَأَنَّما الشَّاةُ عِنْدَ الرُّخِّ مَوْضِعُهُ ... وقَدْ تَفَقَّدَ دَسْتاً بالفَرازِيني
فإنْ نَظَرْتُ إلى مَعْنَى لَواحِظِها ... فإنَّ أَلْحَاظَها يا قَوْمُ تُرْدِيني

ثم قدمت له الشطرنج ولعبت معه. فصار شركان كلما أراد أن ينظر إلى نقلها نظر إلى وجهها فيضع الفرس موضع الفيل ويضع الفيل موضع الفرس فضحكت وقالت: إن كان لعبك هكذا فانت لا تعرف شيئاً. فقال : هذا أول دست لا تحسبيه. فلما غلبته رجع وصف القطع ولعب معها فغلبته ثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً، ثم التفتت إليه وقالت له: أنت في كل شيء مغلوب. فقال : يا سيدتي مع مثلك يحسن أن أكون مغلوباً. ثم أمرت بإحضار الطعام فأكلا وغسلا أيديهما وأمرت بإحضار الشراب فشربا. وبعد ذلك أخذت القانون، وكان لها بضرب القانون معرفة جيدة فانشدت هذه الأبيات : [من البسيط]

الدَّهْرُ ما بَيْنَ مَطْوِيٍّ وَمَبْسُوطِ ... ومِثْلُهُ مِثْلُ مَجْرُورٍ ومَخْرُوطِ
فاشْرَبْ على حُسْنِهِ إنْ كُنْتَ مُقْتَدِراً ... أَنْ لا تُفارِقَنِي في وَجْهِ تَفْرِيطِ

ثم إنهما لم يزالا على ذلك إلى أن دخل الليل، فكان ذلك اليوم أحسن من اليوم الذي قبله. فلما أقبل الليل مضت الجارية إلى مرقدها وانصرف شركان إلى موضعه فنام إلى الصباح. ثم اقبلت عليه الجواري بالدفوف والآت الطرب وأخذته على العادة إلى ان وصلوا إلى الجارية، فلما رأته نهضت قائمة وأمسكته من يده وأجلسته بجانبها وسألته عن مبيته فدعا لها بطول البقاء. ثم أخذت العود وأنشدت هذين البيتين : [من مجزوء الكامل]

لا تَهْرُبَـنَّ مِنَ العِناقِ ... فإنَّـه حُلْـوُ المَذاقِ
الشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِها ... تَصْفَرُّ مِنْ أَلَمِ الفِراقِ

فبينما هما على هذه الحالة وإذا هما بضجة، فالتفتا فرأيا رجالاً وشباباً مقبلين وغالبهم بطارقة، وبأيديهم السيوف مسلولة تلمع وهم يقولون بلسان الرومية : وقعت عندنا يا شركان فأيقن بالهلاك. فلما سمع شركان هذا الكلام قال في نفسه : لعلّ هذه الجارية الجميلة خدعتني وأمهلتني إلى أن جاء رجالها، وهم البطارقة الذين خوّفتني بهم. ولكن أنا الذي جنيت على

نفسي والقيتها في الهلاك . ثم التفت إلى الجارية ليعاتبها فوجد وجهها قد تغيّر بالاصفرار ، ثم وثبت على قدميها وهي تقول لهم : مَنْ أنتم ؟ فقال لها البطريق المقدم عليهم : أيتها الملكة الكريمة والدرّة اليتيمة أمَا تعرفين الذي عندك مَنْ هو ؟ قالت له : لا أعرفه فمن هو ؟ فقال لها : هذا مخرّب البلدان وسيد الفرسان ، هذا شركان ابن الملك عمر النعمان ، هذا الذي فتح القلاع وملك كل حصن مناع ، وقد وصل خبره إلى الملك حردوب والدك من العجوز ذات الدواهي وتحقّق ذلك والدك ملكنا نقلاً عن العجوز وها أنت قد نصرت عسكر الروم بأخذ هذا الأسد المشؤوم . فلما سمعت كلام البطريق نظرت إليه وقالت له : ما اسمك ؟ قال لها : إسمي ماسورة ابن عبدك موسورة بن كاشرده بطريق البطارقة . قالت له : وكيف دخلت عليّ بغير إذني ؟ فقال لها : يا مولاتي إني لما وصلت إلى الباب ما منعني حاجب ولا بوّاب بل قام جميع البوّابين ومشوا بين أيدينا كما جرت به العادة أنه إذا جاء أحد غيرنا يتركونه واقفاً على الباب حتى يستأذنوا عليه بالدخول ، وليس هذا وقت إطالة الكلام والملك منتظر رجوعنا إليه بهذا الملك الذي هو شرارة جمرة عسكر الإسلام لأجل ان يقتله ويرحل عسكره إلى الموضع الذي جاؤوا منه من غير ان يحصل لنا تعب في قتالهم . فلما سمعت الجارية منه هذا الكلام قالت له : إن هذا الكلام غير حسن ، ولكن قد كذبت العجوز ذات الدواهي فإنها قد تكلّمت بكلام باطل لا تعلم حقيقته ، وحق المسيح إن الذي عندي ما هو شركان ولا أسرته ، ولكنه رجل أتى إلينا وقدم علينا وطلب الضيافة فأضفناه ، فإن تحققنا أنه شركان بعينه وثبت عندنا أنه هو من غير شك ، فلا يليق بمروءتي أني أمكّنكم منه لأنه دخل تحت عهدي وذمتي فلا تخونوني في ضيفي ولا تفضحوني بين الأنام بل إرجع أنت إلى الملك أبي وقبّل الأرض بين يديه واخبره بأن الأمر بخلاف ما قالته العجوز ذات الدواهي . فقال البطريق ماسورة : يا إبريزة ، أنا ما أقدر ان أعود إلى الملك إلاّ بغريمه . فقالت له وقد اغتاظت : ويلك ، ما يخصك بهذا الكلام ، إرجع أنت إليه بالجواب ولا عليك ملام . فقال لها ماسورة : لا أعود إلاّ به . فتغيّر لونها وقالت له : لا تكن كثير الكلام والهذيان فان هذا الرجل ما دخل إلينا إلاّ وهو واثق من نفسه أنه يحمل على مائة فارس وحده ، ولو قلت له : أنت شركان ابن عمر النعمان ويقول : نعم . ولكن لا يمكنكم أن تتعرضوا له ، فإن تعرضتم له لا يرجع عنكم إلاّ إن قتل جميع من كان في هذا المكان . وها هو عندي وها أنا أحضره بين أيديكم وسيفه وترسه معه . فقال لها البطريق ماسورة : أنا إذا امنت من غضبك لم آمن من غضب أبيك ، وإني إذا رأيته أشير إلى البطارقة فإنهم يأخذونه أسيراً ويمضون به إلى الملك حقيراً . فلما سمعت هذا الكلام قالت : لا كان هذا الأمر فإنه عنوان السفه ، لأن هذا رجل واحد وأنتم مائة بطريق . فإذا أردتم مصادمته فابرزوا له واحداً بعد واحد ليظهر عند الملك من هو البطل منكم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 50

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملكة إبريزة قالت للبطريق : هذا رجل واحد وأنتم مائة بطريق ، فإذا أردتم مصادمته فابرزوا له واحداً بعد واحد ليظهر عند الملك من هو البطل منكم . فقال البطريق ماسورة : وحق المسيح لقد قلت الحق ، ولكن ما يخرج له أولاً غيري . فقالت له الجارية : إصبر حتى أذهب إليه واعرفه بحقيقة الأمر وأنظر ما عنده من

الجواب، فإن أجاب فالأمر كذلك وإن ابى فلا سبيل لكم إليه وأكون أنا ومن في الدير وجواري فداه. ثم أقبلت على شركان واخبرته بما كان. فتبسّم وعلم أنها لم تخبر احداً بأمره وإنما شاع خبره حتى وصل إلى الملك بغير إرادتها. فرجع باللوم على نفسه وقال: كيف رميت روحي في بلاد الروم؟ ثم إنه لما سمع كلام الجارية قال لها: إن بروزهم إليّ واحداً بعد واحد إجحاف بهم، فهلاّ يبرزون لي عشرة بعد عشرة؟ وبعد ذلك وثب على قدميه وسار إلى أن أقبل عليهم وكان معه سيفه وآلة حربه، فلما رآه البطريق وثب إليه وحمل عليه فقابله شركان كأنه الأسد وضربه بالسيف على عاتقه فخرج السيف يلمع من أمعائه. فلما نظرت الجارية ذلك عظم قدر شركان عندها وعرفت أنها لم تصرعه حين صرعته بقوّتها بل بحسنها وجمالها. ثم إن الجارية أقبلت على البطارقة وقالت لهم: خذوا بثأر صاحبكم. فخرج له أخو المقتول وكان جبّاراً عنيداً فحمل على شركان فلم يمهله شركان دون أن ضربه بالسيف على عاتقه فخرج السيف يلمع من أمعائه. فعند ذلك نادت الجارية وقالت: يا عبّاد المسيح، خذوا بثأر صاحبكم. فلم يزالوا يبرزون إليه واحداً بعد واحد وشركان يلعب فيهم بسيفه حتى قتل منهم خمسين بطريقاً والجارية تنظر إليهم، وقد قذف الله الرعب في قلوب من بقي منهم وقد تأخروا عن البراز ولم يجسروا على البروز إليه بل حملوا عليه حملة واحدة بأجمعهم وحمل هو عليهم بقلب أقوى من الحجر إلى أن طحنهم طحن الدروس وسلب منهم العقول والنفوس فصاحت الجارية على جواريها وقالت لهنّ: من بقي في الدير؟ فقلن لها: لم يبقَ أحد إلاّ البوابين. ثم إن الملكة لاقته وأخذته بالأحضان وطلع شركان معها إلى القصر بعد فراغه من الحرب وكان بقي منهم قليل كامن له في زوايا الدير، فلما نظرت الجارية إلى ذلك القليل قامت من عند شركان ثم رجعت إليه وعليها زردية ضيقة العيون وبيدها صارم مهند وقالت: وحق المسيح، لم أبخل بنفسي عن ضيفي ولا أتخلى عنه ولو أني ابقى بسبب ذلك معيرة في بلاد الروم. ثم إنها تأملت البطارقة فوجدته قد قتل منهم ثمانين وانهزم منهم عشرون، فلما نظرت إلى ما صنع بالقوم قالت له: بمثلك تفتخر الفرسان فللّه درّك يا شركان. ثم إنه قام بعد ذلك يمسح سيفه من دم القتلى وينشد هذه الأبيات: [من الوافر]

وَكَمْ مِنْ فِرْقَةٍ فِي الحَرْبِ جاءَتْ ... تَرَكْتَ كُمَاتَهُمْ طَعْمَ السِّبَاعِ
سَلُوا عَنِّي إذا شِئْتُمْ نَزَالِي ... جَمِيْعَ الخَلْقِ فِي يَوْمِ القِرَاعِ
تَرَكْتَ لُيُوثَهُمْ فِي الْحَرْبِ صَرْعَى ... على الرَّمْضَاءِ فِي تِلْكَ البِقَاعِ

فلما فرغ من شعره أقبلت عليه الجارية مبتسمة وقبّلت يده وقلعت الدرع الذي كان عليها فقال لها: يا سيدتي لأي شيء لبست الدرع الزرد وشهرت حسامك؟ قالت: حرصاً عليك من هؤلاء اللئام. ثم إن الجارية دعت البوّابين وقالت لهم: تركتم أصحاب الملك يدخلون منزلي بغير إذني؟ فقالوا لها: أيتها الملكة ما جرت العادة أننا نحتاج إلى استئذان منك على رسل الملك، خصوصاً البطريق الكبير. فقالت لهم: أظنكم ما أردتم إلاّ هتكي وقتل ضيفي. ثم أمرت شركان أن يضرب رقابهم، فضرب رقابهم وقالت لباقي خدامها: إنهم يستحقون أكثر من ذلك. ثم التفتت لشركان وقالت له: الآن ظهر لك ما كان خافياً، فها أنا أعلمك بقصتي. اعلم أني بنت ملك الروم حردوب واسمي إبريزة، والعجوز التي تسمّى ذات الدواهي جدّتي أم أبي

وهي التي اعلمت ابي بك ولا بدّ انها تدبر حيلة في هلاكي خصوصاً وقد قتلت بطارقة ابي وشاع أني قد تحزّبت مع المسلمين . فالراي السديد أنني أترك الإقامة هنا ما دامت ذات الدواهي خلفي ، ولكن أريد منك ان تفعل معي مثل ما فعلت معك من الجميل ، فإن العداوة قد وقعت بيني وبين ابي فلا تترك من كلامي شيئاً فإن هذا كله ما وقع إلاّ من أجلك . فلما سمع شركان هذا الكلام طار عقله من الفرح واتسع صدره وانشرح وقال : والله لا يصل إليك أحد ما دامت روحي في جسدي ، ولكن هل لك صبر على فراق والدك وأهلك ؟ قالت : نعم . فخلفها شركان وتعاهدا على ذلك . فقالت : الآن طاب قلبي ولكن بقي عليك شرط آخر . فقال : وما هو ؟ فقالت له : إنك ترجع بعسكرك إلى بلادك . فقال لها : يا سيدتي إن أبي عمر النعمان أرسلني إلى قتال والدك بسبب المال الذي اخذه ومن جملته الثلاث خرزات الكثيرة البركات . فقالت له : طب نفساً وقرّ عيناً فها أنا أحدثك بحديثها واخبرك بسبب معاداتنا لملك القسطنطينية . وذلك إن لنا عيداً يقال له : عيد الدير . كل سنة تجمع فيه الملوك من جميع الأقطار وبنات الأكابر والتجّار ويقعدون فيه سبعة أيام وأنا من جملتهم ، فلما وقعت بيننا العداوة منعني أبي من حضور ذلك العيد مدّة سبع سنين . فاتفق في سنة من السنين أن بنات الأكابر من سائر الجهات قد جاءت من أماكنها إلى الدير في ذلك العيد على العادة ، ومن جملة مَنْ جاء إليه بنت ملك القسطنطينية و كان يقال لها صفيّة ، فأقاموا في الديرستة أيام وفي اليوم السابع انصرفت الناس فقالت صفيّة : أنا ما أرجع إلى القسطنطينية إلاّ في البحر . فجهّزوا لها مركباً فنزلت فيها هي وخواصها فلما حلّوا القلوع وساروا ، فبينما هم سائرون وإذا بريح قد خرج عليهم فأخرج المركب عن طريقها . وكان هناك بالقضاء والقدر مركب نصارى من جزيرة الكافور وفيها خمسمائة إفرنجي ومعهم العدّة والسلاح وكان لهم مدة في البحر . فلما لاح لهم قلع المركب التي فيها صفية ومَنْ معها من البنات انقضوا عليها مسرعين ، فما كان غير ساعة حتى وصلوا إلى تلك المركب ووضعوا فيها الكلاليب وجرّوها وحلّوا قلوعهم وقصدوا جزيرتهم ، فما بعدوا غير قليل حتى انعكس عليهم الريح فجذبهم إلى شعب بعد أن مزّق قلوع مركبهم وقرّبهم منّا . فخرجنا فرأيناهم غنيمة قد انساقت إلينا فأخذناهم وقتلناهم واغتنمنا ما معهم من الأموال والتحف . وكان في مركبهم أربعون جارية ومن جملتها صفيّة بنت الملك ، فأخذنا الجواري وقدّمناها إلى أبي ونحن لا نعرف أن من جملتهن ابنة الملك أفريدون ملك القسطنطينية ، فاختار أبي منهنّ عشر جواري وفيهنّ ابنة الملك وفرّق الباقي على حاشيته ثم عزل خمسة ، فيهنّ ابنة الملك من العشر جواري وأرسل تلك الخمسة هدية إلى والدك عمر النعمان مع شيء من الجوخ ومن قماش الصوف ومن القماش الحرير الرومي ، فقبل الهدية أبوك واختار من الخمس جواري صفيّة بنت الملك أفريدون . فلما كان أول هذا العام أرسل أبوها إلى والدي مكتوباً فيه كلام لا ينبغي ذكره وصار يهدده في ذلك المكتوب ويوبخه ويقول له : إنكم أخذتم مركبنا من منذ سنتين وكانت في يد جماعة لصوص من الإفرنج ، ومن جملة ما فيها بنتي صفيّة ومعها من الجواري نحو ستين جارية ولم ترسلوا إليّ أحداً يخبرني بذلك وأنا لا اقدر ان اظهر خبرها خوفاً أن يكون في حقي عار عند الملوك من اجل هتك ابنتي فكتمت أمري إلى هذا العام . والذي بيّن لي ذلك انني كاتبت هؤلاء اللصوص وسألتهم عن خبر ابنتي وأكدت عليهم ان يفتشوا عليها ويخبروني عند أي ملك هي

من ملوك الجزائر ؟ فقالوا : والله ما خرجنا بها من بلادك . ثم قال في المكتوب الذي كتبه لوالدي : إن لم يكن مرادكم معاداتي ولا فضيحتي وهتك ابنتي فساعة وصول كتابي إليكم ترسلوا إليّ بنتي من عندكم ، وإن اهملتم كتابي وعصيتم أمري فلا بد أن أكافئكم على قبيح افعالكم وسوء أعمالكم . فلما وصلت هذه المكاتبة إلى أبي وقرأها وفهم ما فيها ، شقّ عليه ذلك وندم حيث لم يعرف أن صفيّة بنت الملك بين تلك الجواري ليردّها إلى والدها فصار متحيّراً في أمره ولم يمكنه بعد هذه المدة المستطيلة أن يرسل إلى الملك عمر النعمان وبطلبها منه ، وقد سمعنا من مدّة يسيرة انه رزق من جاريته التي يقال لها صفيّة بنت الملك أفريدون أولاداً . فلما تحقّقنا ذلك علمنا ان هذه الورطة هي المصيبة العظمى ، ولم يكن لأبي حيلة غير انه كتب جواباً للملك افريدون يعتذر إليه فيه ويحلف له بالأقسام انه لم يعلم ان ابنته من جملة الجواري التي كانت في تلك المركب ، ثم اظهره على انه أرسلها إلى الملك النعمان وانه رزق منها أولاداً . فلما وصلت رسالة أبي إلى أفريدون ملك القسطنطينية ، قام وقعد وأرغى وأزبد وقال : كيف تكون ابنتي مسبيّة بصفة الجواري وتتداولها أيدي الملوك ويطأونها بلا عقد ؟ ثم قال : وحق المسيح والدين الصحيح ، إنه لا يمكنني أن أتقاعد عن هذا الأمر دون أن آخذ الثأر وأكشف العار فلا بدّ أن أفعل فعلاً تتحدث به الناس من بعدي . وما زال صابراً إلى أن عمل الحيلة ونصب مكائد عظيمة وأرسل رسلاً إلى والدك عمر النعمان وذكر له ما سمعت من الأقوال حتى جهّزك والدك بالعساكر التي معك من أجلها وصيّرك إليه حتى يقبض عليك أنت ومن معك من عسكرك . وأما الثلاث خرزات التي أخبر والدك بها في مكتوبه فليس لذلك صحة . وإنما كانت مع صفيّة ابنته وأخذها أبي منها حين استولى عليها هي والجواري التي معها ، ثم وهبها لي وهي الآن عندي فاذهب أنت إلى عسكرك وردّهم قبل أن يتوغّلوا في بلاد الإفرنج والروم ، فإنكم إذا توغلتم في بلادهم يضيّقون عليكم الطرق ولم يكن لكم خلاص من أيديهم إلى يوم الجزاء والقصاص . وأنا أعرف أن الجيوش مقيمون في مكانهم لأنك أمرتهم بالإقامة ثلاثة أيام مع أنهم فقدوك في هذه المدة ولم يعلموا ماذا يفعلون . فلما سمع شركان هذا الكلام صار مشغول الفكر بالأوهام . ثم إنه قبّل يد الملكة إبريزة وقال : الحمد لله الذي منّ عليّ بك وجعلك سبباً لسلامتي وسلامة من معي ، ولكن يعزّ عليّ فراقك ولا أعلم ما يجري عليك بعدي . فقالت له : إذهب أنت الآن إلى عسكرك وردّهم ، وإن كانت الرسل عندهم فاقبض عليهم حتى يظهر لكم الخبر وأنتم بالقرب من بلادكم ، وبعد ثلاثة أيام انا الحقكم . وما تدخلون بغداد إلاّ وأنا معكم فندخل كلنا سواء . فلما أراد الإنصراف قالت له : لا تنس العهد الذي بيني وبينك . ثم إنها نهضت قائمة معه لأجل التوديع والعناق وإطفاء نار الأشواق وبكت بكاء يذيب الأحجار وأرسلت الدموع كالأمطار . فلما رأى منها ذلك البكاء والدموع ، اشتدّ به الوجد والولوع ونزح في الوداع دمع العين وأنشد هذين البيتين : [من الكامل]

وَدَّعْتُها وَيَدِيْ ٱلْيَمِيْنُ لأَدْمُعِي ... وَيَدِي ٱلْيَسَارُ لِضَمَّةٍ وعِنَاقِ
قالتْ أمَا تَخْشَى الفَضِيْحَة قُلْتُ لاَ ... يَوْمُ الوَدَاعِ فَضِيْحَةُ ٱلْعُشَّاقِ

ثم فارقها شركان ونزل من الدير وقدّموا له جواده فركب وخرج متوجّهاً إلى الجسر . فلما

وصل إليه مرّ من فوقه ودخل بين تلك الأشجار فلما تخلّص من الأشجار ومشى في ذلك المرج وإذا هو بثلاثة فوارس، فأخذ لنفسه الحذر منهم وشهر سيفه وانحدر، فلما قربوا منه ونظر بعضهم بعضاً عرفوه وعرفهم ووجد أحدهم الوزير دندان ومعه أميران. وعندما عرفوه ترجّلوا له وسلّموا عليه وسأله الوزير دندان عن سبب غيابه فأخبره بجميع ما جرى له مع الملكة إبريزة من أوله إلى آخره. فحمد الله على ذلك ثم قال شركان: إرحلوا بنا عن هذه البلاد لأن الرسل الذين جاؤوا معنا رحلوا من عندنا ليعلموا ملكهم بقدومنا فربما أسرعوا إلينا وقبضوا علينا. ثم نادى شركان في عسكره بالرحيل فرحلوا، ولم يزالوا سائرين مجدين في السير حتى وصلوا إلى سطح الوادي، وكانت الرسل قد توجّهوا إلى ملكهم وأخبروه بقدوم شركان، فجهّز إليه عسكراً ليقبضوا عليه وعلى من معه. هذا ما كان من أمر الرسل وملكهم. وأما ما كان من أمر شركان، فإنه سافر بعسكره مدة خمسة أيام ثم نزلوا في وادٍ كثير الأشجار واستراحوا فيه مدة، وبعد ذلك ساروا منه، ولم يزالوا سائرين مدة خمسة وعشرين يوماً حتى أشرفوا على أوائل بلادهم. فلما وصلوا إلى هناك أمنوا على أنفسهم ونزلوا لأخذ الراحة فخرج إليهم أهل تلك البلاد بالضيافات وعليق البهائم، ثم أقاموا يومين ورحلوا طالبين ديارهم، وتأخر شركان بعدهم في مائة فارس وجعل الوزير دندان أميراً على مَنْ معه من الجيش. فسار الوزير دندان بمن معه مسيرة يوم، ثم بعد ذلك ركب شركان هو والمائة فارس الذين معه وساروا مقدار فرسخين حتى وصلوا إلى محل مضيق بين جبلين وإذا أمامهم غبرة وعجاج فمنعوا خيولهم من السير مقدار ساعة حتى انكشف الغبار فبان من تحته مائة فارس ليوث عوابس وفي الحديد والزرد غواطس، فلما أن قربوا من شركان ومَنْ معه صاحوا عليهم وقالوا: وحق يوحنا ومريم، إننا قد بلغنا ما أملناه ونحن خلفكم مجدّون السير ليلاً ونهاراً حتى سبقناكم إلى هذا المكان، فانزلوا عن خيولكم واعطونا أسلحتكم وسلّموا لنا أنفسكم حتى نجود عليكم بأرواحكم. فلما سمع شركان ذلك الكلام لاجت عيناه واحمرّت وجنتاه وقال لهم: يا كلاب النصارى، كيف تجاسرتم علينا وجئتم بلادنا ومشيتم في أرضنا؟ وما كفاكم ذلك حتى تخاطبونا بهذا الخطاب؟ أظننتم أنكم تخلّصون من أيدينا وتعودون إلى بلادكم؟ ثم صاح على المائة فارس الذين معه وقال لهم: دونكم وهؤلاء الكلاب فإنهم في عددكم. ثم سلّ سيفه وحمل عليهم وحملت معه المائة فارس، فاستقبلهم الإفرنج بقلوب أقوى من الصخر واصطدمت الرجال بالرجال ووقعت الأبطال في الأبطال والتحم القتال واشتد النزال وعظمت الأهوال وقد بطل القيل والقال. ولم يزالوا في الحرب والكفاح والضرب بالصفاح إلى أن ولّى النهار وأقبل الليل بالاعتكار فانفصلوا عن بعضهم، واجتمع شركان بأصحابه فلم يجد أحداً منهم مجروحاً غير أربعة أنفس حصل لهم جراحات سليمة فقال لهم شركان: أنا عمري أخوض بحر الحرب العجاج المتلاطم من السيوف بالأمواج وأقاتل الرجال، فوالله ما لقيت أصبر على الجلاد وملاقاة الرجال مثل هؤلاء الأبطال. فقالوا له: أعلم أيها الملك إن فيهم فارساً إفرنجياً وهو المقدّم عليهم له شجاعة وطعنات نافذات، غير أن كل من وقع منا بين يديه يتغافل عنه ولا يقتله. فوالله لو أراد قتلنا لقتلنا بأجمعنا. فتحيّر شركان لما سمع ذلك المقال وقال: في غد نصطف ونبارزهم، فها نحن مائة ونطلب النصر عليهم من رب السماء. وباتوا تلك الليلة على ذلك الإتفاق. وأما الإفرنج فإنهم اجتمعوا عند مقدمهم وقالوا

له : إننا ما بلغنا اليوم في هؤلاء إرباً . فقال لهم : في غد نصطف ونبارزهم واحداً بعد واحد . فباتوا على الاتفاق أيضاً . فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح وطلعت الشمس على رؤوس الروابي والبطاح وسلمت على محمد زين الملاح ، ركب الملك شركان وركب معه المائة فارس وأتوا إلى الميدان كلهم فوجدوا الإفرنج قد اصطفوا للقتال فقال شركان لأصحابه : إن أعداءنا قد اصطفوا فدونكم والمبادرة اليهم . فنادى مناد من الإفرنج : لا يكون قتالنا في هذا اليوم إلاّ مناوبة بأن يبرز بطل منكم إلى بطل منا . فعند ذلك برز فارس من أصحاب شركان وساق بين الصفين وقال : هل من مبارز ؟ هل من مناجز لا يبرز لي اليوم كسلان ولا عاجز ؟ فلم يتم كلامه حتى برز إليه فارس من الإفرنج غريق في سلاحه وقماشه من ذهب وهو راكب على جواد أشهب ، وذلك الإفرنجي لا نبات بعارضيه ، فساق جواده حتى وقف في وسط الميدان وصادمه في الضرب والطعان ، فلم يكن غير ساعة حتى طعنه الإفرنجي بالرمح فنكسه عن جواده وأخذه أسيراً وقاده حقيراً . ففرح به قومه ومنعوه أن يخرج إلى الميدان وأخرجوا غيره وقد خرج إليه من المسلمين آخر وهو أخو الأسير ، ووقف معه في الميدان وحمل الإثنان على بعضهما ساعة يسيرة ، ثم كرّ الإفرنجي على المسلم وغالطه وطعنه بعقب الرمح فنكسه عن جواده وأخذه أسيراً . ولا زال يخرج إليهم من المسلمين منهم واحد بعد واحد والإفرنج يأسرونهم إلى أن ولّى النهار وأقبل الليل بالاعتكار ، وقد أسروا من المسلمين عشرين فارساً . فلمّا عاين شركان ذلك ، عظم عليه الأمر فجمع أصحابه وقال لهم : ما هذا الأمر الذي حلّ بنا ؟ أنا أخرج في غد إلى الميدان وأطلب مبارزة الافرنجي المقدّم عليهم ، وانظر ما الذي حمله على أن يدخل بلادنا وأحذّره من قتالنا . فإن أبى قاتلناه وإن صالحنا صالحناه . وباتوا على هذه الحال إلى أن أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح . ثم ركب الطائفتان واصطف الفريقان . فلما خرج شركان إلى الميدان رأى الافرنج قد ترجّل منهم أكثر من نصفهم قدام فارس منهم ، ومشوا قدامه إلى أن صاروا في وسط الميدان . فتأمل شركان ذلك الفارس ، فرآه الفارس المقدّم عليهم وهو لابس قباء من أطلس أزرق ، ووجهه فيه كالبدر إذا أشرق ، ومن فوقه زردية ضيقة العيون ، وبيده سيف مهنّد وهو راكب على جواد أدهم في وجهه غرّة كالدرهم ، وذلك الإفرنجي لا نبات بعارضيه . ثم إنه لكز جواده حتى صار في وسط الميدان وأشار إلى المسلمين وهو يقول بلسان عربي فصيح : يا شركان يا ابن عمر النعمان الذي ملك الحصون والبلدان ، دونك والحرب والطعان وابرز إلى مَنْ قد ناصفك في الميدان ، فأنت سيد قومك وانا سيد قومي ، فمَنْ غلب منا صاحبه أخذه هو وقومه تحت طاعته . فما أتم كلامه حتى برز له شركان وقلبه من الغيظ ملآن وساق جواده حتى دنا من الإفرنجيّ في الميدان ، فكرّ عليه الافرنجي كالأسد الغضبان وصدمه صدمة الفرسان ، وأخذا في الطعن والضَّرب وصارا في حومة الميدان كأنهما جبلان يصطدمان أو بحران يلتطمان . ولم يزالا في قتال وحرب ونزال من أول النهار إلى أن أقبل الليل بالإعتكار . ثم انفصل كل منهما عن صاحبه وعاد إلى قومه . فلما اجتمع شركان بأصحابه قال لهم : ما رأيت مثل هذا الفارس قطّ ، إلاّ أني رأيت منه خصلة لم أرها من أحد غيره ، وهو أنه إذا لاح لَهُ في خصمه مضرب قاتل ، يقلب الرمح ويضربه بعقبه . ولكن ما أدري ماذا يكون مني ومنه . ومرادي أن يكون في عسكرنا مثله ومثل أصحابه . وبات شركان ، فلمّا أصبح الصباح خرج له الافرنجيّ ونزل في وسط الميدان ، وأقبل عليه شركان ثم

أخذا في القتال واوسعا في الحرب والمجال وامتدت إليهما الأعناق، ولم يزالا في حرب وكفاح وطعن بالرّماح إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالإعتكار. ثم افترقا ورجعا إلى قومهما وصار كل منهما يحكي لأصحابه ما لاقاه من صاحبه، ثم إن الافرنجي قال لأصحابه: في غد يكون الإنفصال. وباتوا تلك الليلة إلى الصباح. ثم ركب الإثنان وحملا على بعضهما، ولم يزالا في الحرب إلى نصف النهار. وبعد ذلك عمل الافرنجي حيلة ولكز الجواد ثم جذبه باللجام فعثر به ورماه، فانكبّ عليه شركان وأراد أن يضربه بالسيف خوفاً أن يطول به المطال فصاح به الإفرنجي وقال: يا شركان ما هكذا تكون الفرسان، إنما هذا فعل المغلوب بالنسوان. فلما سمع شركان من ذلك الفارس هذا الكلام، رفع طرفه إليه وأمعن النظر فيه فوجده الملكة إبريزة التي وقع له معها ما وقع في الدير. فلما عرفها رمى السيف من يده وقبّل الأرض بين يديها وقال لها: ما حملك على هذه الفعال؟ فقالت له: أردت أن أختبرك في الميدان وأنظر ثباتك في الحرب والطعان، وهؤلاء الذين معي كلهم جواريّ وكلهنّ بنات أبكار وقد قهرن فرسانك في الميدان، ولولا إن جوادي قد عثر بي، لكنت ترى قوتّي وجلادي. فتبسّم شركان من قولها وقال لها: الحمد لله على السلامة وعلى اجتماعي بك يا ملكة الزمان. ثم إن الملكة إبريزة صاحت على جواريها وأمرتهنّ بالرحيل بعد أن يطلقن العشرين أسيراً الذين كنّ أسرنهم من قوم شركان. فامتثلت الجواري أمرها ثم قبّلن الأرض بين يديها. فقال لهنّ: مثلكنّ مَنْ يكون عند الملوك مدّخراً للشدائد. ثم إنه أشار إلى أصحابه أن: سلّموا عليها. فترجّلوا جميعاً وقبّلوا الأرض بين يدي الملكة، ثم ركب المئتا فارس وساروا في الليل والنهار مدة ستة أيام. وبعد ذلك أقبلوا على الديار، فأمر شركان الملكة إبريزة وجواريها أن ينزعن ما عليهنّ من لباس الإفرنج. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 51

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنّ شركان أمر الملكة إبريزة وجواريها أن ينزعن ما عليهنّ من الثياب وأن يلبسن لباس بنات الروم، ففعلن ذلك. ثم إنه أرسل جماعة من أصحابه إلى بغداد ليعلم والده عمر النعمان بقدومه ويخبره أن الملكة إبريزة إبنة ملك الروم جاءت صحبته، لأجل أن يرسل موكباً لملاقاتها. ثم إنهم نزلوا من وقتهم وساعتهم في المكان الذي وصلوا إليه وباتوا فيه إلى الصباح. فلما أصبح، ركب الملك شركان هو ومَنْ معه وركبت أيضاً الملكة إبريزة هي ومن معها واستقبلوا المدينةَ. وإذا بالوزير دندان قد أقبل في ألف فارس من أجل ملاقاة الملكة إبريزة هي وشركان، وكان خروجه بإشارة الملك عمر النعمان، كما أرسل إليه ولده شركان. فلما قربوا منهما توجهوا إليهما وقبّلوا الأرض بين أيديهما، ثم ركبا وركبوا معهما وساروا في خدمتهما حتى وصلا إلى المدينة، وطلعا قصر الملك ودخل شركان على والده، فقام إليه واعتنقه وسأله عن الخبر، فأخبره بما قالته الملكة إبريزة وما اتفق له معها وكيف فارقت مملكتها وفارقت أباها. وقال له: إنها اختارت الرحيل معنا والقعود عندنا، وإن ملك القسطنطينية أراد أن يعمل لنا حيلة من أجل صفيّة بنته، لأن ملك الروم قد أخبره بحكايتها وبسبب إهدائها إليك، وإن ملك الروم ما كان يعرف أنها ابنة الملك أفريدون ملك القسطنطينية. ولو كان يعرف ذلك ما كان أهداها إليك بل كان يردها إلى والدها. ثم قال

شركان لوالده : ولم يخلصنا من هذه الحيل والمكايد إلا إبريزة بنت ملك القسطنطينية وما رأينا أشجع منها. ثم إنه شرع يحكي لأبيه فيما وقع له معها من أوله إلى آخره من أمر المصارعة والمبارزة. فلما سمع الملك عمر النعمان من ولده شركان ذلك الكلام، عظمت إبريزة عنده وصار يتمنى أنه يرآها. ثم إنه طلبها لأجل أن يسألها، فعند ذلك ذهب شركان إليها وقال لها : إن الملك يدعوك. فأجابت : بالسمع والطاعة. فأخذها شركان وأتى والده، وكان والده قاعداً على كرسيه وأخرج مَنْ كان عنده ولم يبقَ عنده غير الخدم. فلمّا دخلت الجارية إبريزة على الملك النعمان قبّلت الأرض بين يديه وتكلّمت بأحسن الكلام. فتعجَّب الملك من فصاحتها وشكرها على ما فعلت مع ولده شركان وأمرها بالجلوس، فجلست وكشفت عن وجهها. فلما رآه الملك حيل بينه وبين عقله، ثم إنه قرّبها إليه وأدناها منه وأفرد لها قصراً مختصّاً بها وبجواريها ورتّب لها ولجواريها الرواتب. ثم أخذ يسألها على تلك الخرزات الثلاث التي تقدّم ذكرها سابقاً فقالت له : إنّ تلك الخرزات معي يا ملك الزمان. ثم إنها قامت ومضت إلى محلها وفتحت صندوقاً وأخرجت منه علبة وأخرجت من العلبة حقّاً من الذهب وفتحته وأخرجت منه تلك الخرزات الثلاث، ثم قبّلتها وناولتها للملك وانصرفت، فأخذت قلبه معها. وبعد انصرافها أرسل إلى ولده شركان فحضر، فأعطاه خرزة من الثلاث خرزات، فسأله عن الإثنين الأخريين فقال : يا ولدي قد أعطيت منهما واحدة لأخيك ضوء المكان، والثانية لأختك نزهة الزمان. فلما سمع شركان أن له أخا يسمى ضوء المكان وما كان يعرف إلاّ أخته نزهة الزمانّ التفت إلى والده الملك عمر النعمان وقال له : يا والدي ألك ولد غيري؟ قال : نعم، وعمره الآن ست سنين. ثم أعلمه أن اسمه ضوء المكان وأخته نزهة الزمان، وإنهما في بطن واحد. فصعب عليه ذلك ولكنه كتم سرّه وقال لوالده : على بركة الله تعالى. ثم رمى الخرزة من يده ونفض أثوابه. فقال له الملك : ما لي أراك قد تغيّرت أحوالك لما سمعت هذا الخبر؟ مع أنك صاحب المملكة من بعدي. وقد عاهدت أمراء الدولة على ذلك وهذه خرزة لك من الثلاث خرزات. فأطرق شركان برأسه إلى الأرض واستحى أن يكافح والده ثم قام وهو لا يعلم كيف يصنع من شدّة الغيظ، وما زال ماشياً حتى دخل قصر الملكة إبريزة. فلما أقبل عليها نهضت إليه قائمة وشكرته على فعاله ودعت له ولوالده وجلست وأجلسته في جانبها. فلما استقرّ به الجلوس رأت في وجهه الغيظ فسألته عن حاله وما سبب غيظه. فأخبرها أن والده الملك عمر النعمان رزق من صفيّة ولدين ذكراً وأنثى وسمّى الولد ضوء المكان والأنثى نزهة الزمان. وقال لها : إنه أعطاهما خرزتين وأعطاني واحدة فتركتها. وأنا إلى الآن لم أعلم بذلك إلاّ في هذا الوقت فخنقني الغيظ. وقد أخبرتك بسبب غيظي ولم أخف عنك شيئاً وأخشى عليك من أن يتزوجك، فإني رأيت منه علامة الطمع في أنه يتزوج بك. فما تقولين أنت في ذلك؟ فقالت : أعلم يا شركان أن أباك ما له حكم عليّ ولا يقدر أن يأخذني بغير رضائي، وإن كان يأخذني غصباً قتلت روحي. وأما الثلاث خرزات فما كان على بالي أنه ينعم على أحد من أولاده بشيء منها، وما ظننت إلاّ أنه يجعلها في خزائنه مع ذخائره. ولكن أشتهي من إحسانك أن تهب لي الخرزة التي كان أعطاها لك والدك إن قبلتها منه. فقال لها : سمعاً وطاعةً. ثم قالت له : لا تخف. وتحدثت معه ساعة وقالت له : إني أخاف أن يسمع أبي أني عندكم فيسعى في طلبي ويتفق هو والملك أفريدون من أجل ابنته صفيّة، فيأتيان إليكم بعساكر

وتكون ضجة عظيمة . فلما سمع شركان ذلك قال لها : يا مولاتي إذا كنت راضية بالإقامة عندنا لا تفكري فيهم . فلو اجتمع علينا كل مَنْ في البر والبحر لغلبناهم . فقالت : ما يكون إلاّ الخير ، وها أنتم إن أحسنتم الي قعدت عندكم ، وإن اسأتموني رحلت من عندكم . ثم إنها أمرت الجواري بإحضار شيء من الأكل ، فقدمت المائدة . فأكل شركان شيئاً يسيراً ومضى إلى داره مهموماً مغموماً . هذا ما كان من أمر شركان . وأمّا ما كان من أمر ابيه عمر النعمان ، فإنه بعد انصراف ولده شركان من عنده قام ودخل على جاريته صفيّة ومعه تلك الخرزات . فلما رأته نهضت قائمة على قدميها إلى أن جلس ، فأقبل عليه أولاده ضوء المكان ونزهة الزمان . فلما رآهما قبّلهما وعلّق على كل واحد منهما خرزة . ففرحا بالخرزتين وقبّلا يديه ، وأقبلا على أمهما ففرحت بهما ودعت للملك بطول الدوام . فقال لها الملك : يا صفيّة حيث إنك إبنة الملك أفريدون ملك القسطنطينية لأي شيء لم تعلميني ؟ لأجل أن أزيد في إكرامك ورفع منزلتك . فلما سمعت صفيّة ذلك قالت : أيها الملك ، وماذا أريد أكثر من هذا زيادة على هذه المنزلة التي أنا فيها ؟ فها أنا مغمورة بأنعامك وخيرك وقد رزقني الله بولدين : ذكر وانثى . فأعجب الملك عمر النعمان كلامها واستظرف عذوبة ألفاظها ودقة فهمها وظرف أدبها ومعرفتها . ثم إنه مضى من عندها وأفرد لها ولأولادها قصراً عجيباً ورتّب لهم الخدم والحشم والفقهاء والحكماء والفلكية والأطباء والجراحين ، وأوصاهم بهم وزاد في رواتبهم وأحسن إليهم غاية الإحسان . ثم رجع إلى قصر المملكة والمحاكمة بين الناس . هذا ما كان من أمره مع صفيّة وأولادها . وأما ما كان من أمره مع الملكة إبريزة ، فإنه اشتغل بحبها وصار ليلاً ونهاراً مشغوفاً بها وفي كل ليلة يدخل إليها ويتحدث عندها ويلوّح لها بالكلام فلم تردّ له جواباً بل تقول : يا ملك الزمان ، أنا في هذا الوقت ما لي غرض في الرجال . فلما رأى تمنّعها منه اشتدّ به الغرام وزاد عليه الوجد والهيام . فلمّا أعياه ذلك أحضر وزيره دندان وأطلعه على ما في قلبه من محبة الملكة إبريزة إبنة الملك حردوب ، وأخبره أنها لا تدخل في طاعته وقد قتله حبها ولم ينل منها شيئاً . فلمّا سمع الوزير دندان ذلك قال للملك : إذا جنّ الليل ، فخذ معك قطعة بنج مقدار مثقال وادخل عليها واشرب معها شيئاً من الخمر ، فإذا كان وقت الفراغ من الشرب والمنادمة ، فاعطها القدح الأخيرة واجعل فيه ذلك البنج واسقها إياه ، فإنها ما تصل إلى مرقدها إلاّ وقد تحكّم عليها البنج ، فتبلغ غرضك منها . وهذا ما عندي من الرأي . فقال له الملك : نِعم ما أشرت به عليّ . ثم إنه عمد إلى خزائنه وأخرج منها قطعة بنج مكرّر ، لو شمّه الفيل لرقد من السنة إلى السنة ، ثم إنه وضعها في جيبه وصبر إلى أن مضى قليل من الليل ودخل على الملكة إبريزة في قصرها . فلما رأته نهضت إليه قائمة فأذن لها بالجلوس ، فجلست وجلس عندها وصار يتحدث معها في أمر الشراب ، فقدّمت سفرة الشراب وصفّت له الأواني وأوقدت الشموع وأمرت بإحضار النقل والفاكهة وكل ما يحتاجان إليه . وصار يشرب معها وينادمها إلى أن دبّ السكر في رأس الملكة إبريزة . فلمّا علم الملك النعمان ذلك ، أخرج قطعة البنج من جيبه وجعلها بين أصابعه وملأ كأساً بيده وشربه وملأه ثانياً وأسقط قطعة البنج فيه وهي لا تشعر بذلك . ثم قال لها : خذي اشربي هذا . فأخذته الملكة إبريزة وشربته . فما كان إلاّ دون ساعة حتى تحكّم البنج عليها وسلب إدراكها . فقام إليها فوجدها ملقاة على ظهرها ، وقد كانت قلعت السراويل من رجليها ورفع الهواء ذيل قميصها عنها . فلمّا دخل عليها الملك رآها

على تلك الحالة ووجد عند رأسها شمعة وعند رجليها شمعة تضيء على ما بين فخذيها . حيل بينه وبين عقله ووسوس له الشيطان . فما تمالك نفسه حتى قلع سراويله ووقع عليها وأزال بكارتها وقام من فوقها ودخل إلى جارية من جواريها يقال لها مرجانة ، وقال لها : أدخلي على سيدتك كلّميها . فدخلت الجارية على سيدتها ، فوجدت دمها يجري على ساقيها وهي ملقاة على ظهرها . فمدّت يدها إلى منديل من مناديلها وأصلحت به شأن سيدتها ومسحت عنها ذلك الدم . فلمّا أصبح الصباح تقدّمت الجارية مرجانة وغسلت وجه سيدتها ويديها ورجليها ، ثم جاءت بماء الورد وغسلت به وجهها وفمها ، فعند ذلك عطست الملكة إبريزة وتقايت ذلك البنج فنزلت قطعة البنج من باطنها كالقرص ، ثم إنها غسلت فمها ويديها وقالت لمرجانة : أعلميني بما كان من أمري . فأخبرتها أنها رأتها ملقاة على ظهرها ودمها سائل على فخذيها . فعرفت أن الملك عمر النعمان قد وقع بها وواصلها وتمت حيلته عليها . فاغتمّت لذلك غمّاً شديداً وحجبت نفسها وقالت لجواريها : إمنعوا كل مَنْ أراد أن يدخل عليّ وقولوا له إنها ضعيفة حتى أنظر ماذا يفعل الله بي . فعند ذلك وصل الخبر إلى الملك عمر النعمان بأن الملكة إبريزة ضعيفة ، فصار يرسل إليها الأشربة والسكر والمعاجين ، وأقامت على ذلك شهوراً وهي محجوبة . ثم إن الملك قد بردت ناره وانطفأ شوقه إليها وصبر عنها ، وكانت قد علقت منه . فلمّا مرّت عليها أشهر ظهر الحمل وكبر بطنها ، ضاقت بها الدنيا فقالت لجاريتها مرجانة : أعلمي أن القوم ما ظلموني وإنما أنا الجانية على نفسي حيث فارقت أبي وأمي ومملكتي ، وأنا قد كرهت الحياة وضعفت همّتي ولم يبقَ عندي من الهمّة ولا من القوّة شيء ، وكنت إذا ركبت جوادي أقدر عليه وأنا الآن لا أقدر على الركوب . ومتى ولدت عندهم صرت معيرة عند جواري ، وكل مَنْ في القصر يعلم أنه أزال بكارتي سفَاحاً . وإذا رجعت لأبي بأي وجه ألقاه ! وبأي وجه أرجع إليه ! وما أحسن قول الشاعر : [من البسيط]

بِمَ ٱلتَّعَلُّلُ لا أَهْلٌ ولا وَطَنُ ولا نَدِيْمٌ ولا كَأْسٌ ولا سَكَنُ

فقالت لها مرجانة : الأمر أمرك وأنا في طوعك . فقالت : أريد اليوم أن أخرج سراً بحيث لا يعلم بي أحد غيرك ، وأسافر إلى أبي وأمي ، فإن اللحم إذا أنتن ما له إلاّ أهله والله يفعل بي ما يريد . فقالت لها : نِعم ما تفعلين أيتها الملكة . ثم إنها جهزت أحوالها وكتمت سرّها وصبرت أياماً حتى خرج الملك للصيد والقنص وخرج ولده شركان إلى القلاع ليقيم بها مدة من الزمان . فأقبلت إبريزة على جاريتها مرجانة وقالت لها : أريد أن أسافر في هذه الليلة ؛ ولكن كيف أصنع في المقادير وقد قرب أوان الطلق والولادة ؟ وإن قعدت خمسة أيام أو أربعة وضعت هنا ولم أقدر أن أروح بلادي ، وهذا ما كان مكتوباً على جبيني ومقدّراً عليّ في الغيب . ثم تفكّرت ساعة ، وبعد ذلك قالت لمرجانة : أنظري لنا رجلاً يسافر معنا ويخدمنا في الطريق فإنه ليس لي قوة على حمل السلاح . فقالت مرجانة : والله يا سيدتي ما أعرف غير عبد أسود اسمه الغضبان ، وهو من عبيد الملك عمر النعمان وهو شجاع ملازم لباب قصرنا . فإن الملك أمره أن يخدمنا وقد غمرناه بإحساننا فها أنا أخرج إليه وأكلّمه في شأن هذا الأمر وأعده بشيء من المال وأقول له : إذا أردت المقام عندنا أزوّجك بمن شئت . وكان قد ذكر لي قبل اليوم أنه كان يقطع الطريق ، فإن هو وافقنا بلغنا مرادنا ووصلنا إلى بلادنا . فقالت لها : هاتيه عندي حتى أحدّثه . فخرجت له مرجانة وقالت

له : يا غضبان قد أسعدك الله إن قبلت من سيدتك ما تقوله لك من الكلام . ثم أخذت بيده وأقبلت به على سيدتها . فلمّا رآها قبّل يديها . فحين رأته نفر قلبها منه لكنها قالت في نفسها : إن الضرورة لها أحكام . وأقبلت عليه تحدّثه وقلبها نافر منه وقالت له : يا غضبان ، هل فيك مساعدة لنا على غدرات الزمان ؟ وإذا أظهرتك على أمري تكون كاتما له ؟ فلمّا نظر العبد إليها ورأى حسنها ملكت قلبه وعشقها لوقته وقال لها : يا سيدتي إن أمرتني بشيء لا أخرج عنه . فقالت له : أريد منك في هذه الساعة أن تأخذني وتأخذ جاريتي هذه وتشدّ لنا راحلتين وفرسين من خيل الملك ، وتضع على كل فرس خرجاً من المال وشيئاً من الزاد وترحل معنا إلى بلادنا ، وإن أقمت عندنا زوّجناك مَنْ تختارها من جواري ، وإن طلبت الرجوع إلى بلادك ، أعطيناك ما تحب ثم ترجع إلى بلادك بعد أن تأخذ ما يكفيك من المال . فلمّا سمع الغضبان ذلك الكلام ، فرح فرحاً شديداً وقال : يا سيدتي إني أخدمكما بعيوني وأمضي معكما وأشدّ لكما الخيل . ثم مضى وهو فرحان وقال في نفسه : بلغت ما أريد منهما ، وإن لم تطاوعاني قتلتهما وأخذت ما معهما من المال . وأضمر ذلك في سرّه . ثم مضى وعاد ومعه راحلتان وثلاث من الخيل وهو راكب إحداهنّ ، وأقبل على الملكة إبريزة وقدّم إليها فرساً فركبتها وهي متوجّعة من الطلق ولا تملك نفسها من كثرة الوجع ، وركبت مرجانة فرساً ثم سافر بهما ليلاً ونهاراً حتى وصلوا بين الجبال ، وبقي بينها وبين بلادها يوم واحد ، فجاءها الطلق ، فما قدرت أن تمسك نفسها على الفرس فقالت للغضبان : أنزلني فقد لحقني الطلق . وقالت لمرجانة : إنزلي واقعدي تحتي وولّديني . فعند ذلك نزلت مرجانة من فوق فرسها ، ونزل الغضبان من فوق فرسه وشدّ لجام الفرسين ، ونزلت الملكة إبريزة من فوق فرسها وهي غائبة عن الدنيا من شدّة الطلق ، وحين رآها الغضبان نزلت على الأرض وقف الشيطان في وجهه ، فشهر حسامه في وجهها وقال : يا سيدتي ارحميني بوصلك . فلمّا سمعت مقالته التفتت إليه وقالت له : ما بقي عليّ إلاّ العبيد السود بعدما كنت لا أرضى بالملوك الصناديد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 52

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنّ الملكة إبريزة لما قالت للعبد الذي هو غضبان : ما بقي عليّ إلاّ العبيد السود . ثم صارت تبكّته وأظهرت له الغيظ وقالت له : ويلك ، ما هذا الكلام الذي تقوله لي ؟ فلا تتكلم بشيء من هذا في حضرتي ، واعلم أنني لا أرضى بشيء مما قلته ولو سقيت كأس الرّدى . ولكن إصبر حتى أصلح الجنين وأصلح شأني وأرمي الخلاص ، ثم بعد ذلك إن قدرت عليّ فافعل بي ما تريد ، وإن لم تترك فاحش الكلام في هذا الوقت فإني أقتل نفسي بيدي وأفارق الدنيا وأرتاح من هذا كلّه . ثم أنشدت هذه الأبيات :

[من الوافر]

أَيَا غَضْبَانَ دَعْنِي قَدْ كَفَانِي ... مُكَابَدَةَ الحَوَادِثِ والزَّمَانِ
عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ رَبِّيْ قَدْ نَهَانِي ... وقالَ : النَّارُ مَثْوَى مَنْ عَصَانِي
وإني لا أَمِيلُ لِفِعْلِ سَوْءٍ ... بِعَيْنِ ٱلنَّقْصِ دَعْنِي لا تَرَانِي
ولو لَمْ تَتْرُكِ ٱلْفَحْشَاءَ عَنِّي ... وتَرْعَى حُرْمَتِي في مَنْ رَعَانِي

لأصْرُخُ : طاقَتي لِرِجالِ قَوْمِي ... وأَجْلِبُ كُلَّ قَاصِيْها ودَانِي
ولو قُطِّعْتُ بالسَّيفِ اليَمَانِي ... لَمَا خَلَّيْتُ فَحَاشَا يرَانِي
مِنَ الأحْرارِ والكُبَراءِ طُرّاً ... فَكَيْفَ العَبْدُ مِنْ نَسْلِ الزَّوَانِي

فلما سمع الغضبان ذلك الشعر، غضب غضباً شديداً واحمرّت مقلته واغبرّت سحنته وانتفخت مناخره واستدلّت مشافره وزادت به النفرات، وأنشد هذه الأبيات : [من الوافر]

أَإبريزَةُ اذْكُرِي إنْ تهْجُرِيني ... قَتِيلَ هَواكِ باللَّحْظِ اليماني
فَقَلْبِي قَد تَقَطَّعَ مِنْ جَفَاكِ ... وجِسْمِي ناحِلٌ والصَّبْرُ فَانِ
ولَفظُكِ قَد سَبَى الألْبابَ سِحْراً ... فَعَقْلِي نازِحٌ والشَّوْقُ دَانِ
ولَو أَجْلَبْتُ مِلءَ الأرْضِ جَيْشاً ... لأَبْلُغَ مأرَبِي في ذَا الزَّمَانِ

فلما سمعت إبريزة كلامه بكت بكاء شديداً وقالت له : ويلك يا غضبان وهل بلغ من قدرك أن تخاطبني بهذا الخطاب يا ولد الزنا وتربية الخنا ؟ أتحسب الناس كلهم سواء ؟ فلمّا سمع ذلك العبد النحس هذا الكلام غضب منها غضباً شديداً، وتقدم إليها وضربها بالسيف فقتلها، وساق جوادها قدّامه بعد ان اخذ المال وفرّ بنفسه آبقاً في الجبال . هذا ما كان من أمر الغضبان . وأما ما كان من أمر الملكة إبريزة، فإنها صارت طريحة على الأرض وكان الولد الذي ولدته ذكراً، فحملته مرجانة في حجرها وصرخت صرخة عظيمة وشقّت أثوابها وصارت تحثو التراب على رأسها وتلطم على خدّها حتى طلع الدم من وجهها، وقالت : واخيبتاه، كيف قتل سيدتي عبد أسود لا قيمة له بعد فروسيّتها ؟ فبينما هي تبكي وإذا بغبار قد طار حتى سدّ الأقطار، ولما انكشف ذلك الغبار بان من تحته عسكر جرّار . وكانت تلك العساكر عساكر ملك الروم والد الملكة إبريزة، وسبب ذلك أنه لما سمع أن ابنته هربت هي وجواريها إلى بغداد وأنها عند الملك عمر النعمان، خرج بمن معه يتنسم الأخبار من بعض المسافرين إن كانوا رأوها عند الملك عمر النعمان . فخرج بمن معه ليسأل المسافرين من أين أتوا لعلّه يعلم بخبر بنته . وكان رأى على بعد هؤلاء الثلاثة : ابنته والعبد الغضبان وجاريتها مرجانة . فقصدهم ليسألهم ، فلمّا قصدهم خاف العبد على نفسه فقتلها ونجا بنفسه . فلمّا أقبلوا عليها رآها أبوها مرميّة على الأرض وجاريتها تبكي عليها، فرمى نفسه من فوق جواده ووقع إلى الأرض مغشياً عليه . فترجّل كل من كان معه من الفرسان والأمراء والوزراء وضربوا الخيام في الجبال ونصبوا قبة للملك حردوب ووقف أرباب الدولة خارج تلك القبة . فلمّا رأت مرجانة سيدها عرفته وزادت في البكاء والنحيب . فلمّا أفاق الملك من غشيته سألها عن الخبر، فأخبرته بالقصة وقالت له : إن الذي قتل ابنتك عبد أسود من عبيد الملك عمر النعمان، وأخبرته بما فعله الملك عمر النعمان بابنته . فلمّا سمع حردوب ذلك الكلام ، اسودت الدنيا في وجهه وبكى بكاء شديداً ثم أمر بإحضار محفة وحمل ابنته فيها ومضى إلى قسارية وادخلوها القصر . ثم ان الملك حردوب دخل على امه ذات الدواهي وقال لها : اهكذا يفعل المسلمون بإبنتي ؟ فإن الملك عمر النعمان أزال بكارتها قهراً وبعد ذلك قتلها عبد أسود من عبيده، فوحقّ المسيح ، لا بدّ من أخذ ثار بنتي منه وكشف العار عن عرضي وإلاّ

قتلت نفسي بيدي . ثم بكى بكاء شديداً . فقالت له امه ذات الدواهي : ما قتل ابنتك إلاّ مرجانة ، لأنها كانت تكرهها في الباطن . ثم قالت لولدها : لا تحزن من جهة أخذ ثارها ، فوحقّ المسيح لا أرجع عن الملك عمر النعمان حتى اقتله وأقتل اولاده ، ولأعملنّ معه عملاً تعجز عنه الدهاة والأبطال ، ويتحدث به المحدثون في جميع الأقطار . ولكن ينبغي لك ان تمتثل أمري في كل ما اقوله وأنت تبلغ ما تريد . فقال لها : وحقّ المسيح لا اخالفك أبداً فيما تقولينه . قالت له : ائتني بجوارٍ نهد أبكار ، وائتني بحكماء الزمان واجزل لهم العطايا ، وأمرهم أن يعلّموا الجواري الحكمة والأدب وخطاب الملوك ومنادمتهم والأشعار وأن يتكلموا بالحكمة والمواعظ ، ويكون الحكماء مسلمين لأجل ان يعلموهنّ أخبار العرب وتواريخ الخلفاء واخبار من سلف من ملوك الإسلام . ولو أقمنا على ذلك عشرة اعوام وطوّل روحك واصبر ، فإن بعض الأعراب يقول : إن أخذ الثار بعد أربعين عاماً مدّته قليلة ، ونحن إذا علّمنا تلك الجواري بلغنا من علوّنا ما نختار ، لأنه ممتحن بحب الجواري وعنده ثلاثمائة جارية وستة وستون جارية ، وازددن مائة جارية من خواص جواريك التي كنّ مع المرحومة . فإذا تعلّم الجواري ما اخبرتك به من العلوم ، فإني آخذهم بعد ذلك واسافر بهم . فلمّا سمع الملك حردوب كلام امه ذات الدواهي ، فرح فرحاً شديداً وقبّل رأسها ثم أرسل من وقته وساعته المسافرين والقصّاد إلى اطراف البلاد وليأتوا إليه بالحكماء من المسلمين . فامتثلوا أمره وسافروا إلى بلاد بعيدة وأتوه بما طلبه من الحكماء والعلماء . فلما حضروا بين يديه أكرمهم غاية الإكرام وخلع عليهم الخلع ورتّب لهم الرواتب والجرايات ، ووعدهم بالمال الجزيل إذا فعلوا ما أمرهم به . ثم أحضر لهم الجواري . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 53

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن العلماء والحكماء حضروا عند الملك حردوب ، اكرمهم إكراماً زائداً واحضر الجواري بين أيديهم وأوصاهم ان يعلّموهن الحكمة والأدب ، فامتثلوا أمره . هذا ما كان من أمر الملك حردوب ، وأمّا ما كان من أمر الملك عمر النعمان ، فإنّه لما عاد من الصيد والقنص وطلع القصر ، طلب الملكة إبريزة فلم يجدها ولم يخبره أحد عنها . فعظم عليه ذلك وقال : كيف تخرج هذه الجارية من القصر ولم يعلم بها احد ؟ فأين كانت مملكتي على هذا الأمر ؟ فإنها ضايعة المصلحة ولا ضابط لها ، فما بقيت أخرج إلى الصيد والقنص حتى أرسل إلى الأبواب مَنْ يتوكّل بها . واشتدّ حزنه وضاق صدره لفراق الملكة إبريزة . فبينما هو كذلك وإذا بولده شركان قد أتى من سفره فأعلمه والده بذلك وأخبره انها هربت وهو في الصيد والقنص ، فاغتمّ شركان لذلك غمّاً شديداً . ثم إن الملك صار يتفقد اولاده كل يوم ويكرمهم ، وكان قد احضر العلماء والحكماء ليعلّموهم العلم ورتّب لهم الرواتب . فلما رأى شركان ذلك الأمر غضب غضباً شديداً وحسد إخوته على ذلك إلى ان ظهر اثر الغيظ في وجهه ، ولم يزل متمرّضاً بسبب هذا الأمر . فقال له والده يوماً من الأيام : ما لي اراك تزداد ضعفاً في جسمك واصفراراً في لونك ؟ فقال له شركان : يا والدي كلّما رأيتك تقرّب أخوتي وتحسن إليهم ، يحصل عندي حسد واخاف ان يزيد بي الحسد فأقتلهم وتقتلني انت بسببهم إذا أنا قتلتهم ، فمرض جسمي وتغيّر لوني بسبب ذلك . ولكن انا اشتهي من إحسانك ان تعطيني

قلعة من القلاع حتى اقيم بها بقية عمري . فإنّ صاحب المثل يقول : بعدي عن حبيبي أجمل لي واحسن عين لا تنظر وقلب لا يحزن . ثم اطرق برأسه إلى الأرض . فلما سمع الملك عمر النعمان كلامه عرف سبب ما هو فيه من التقصير ، فأخذ بخاطره وقال له : يا ولدي إني أجيبك إلى ما تريد وليس في ملكي أكبر من قلعة دمشق فقد ملكتها من هذا الوقت . ثم أحضر الموقّعين في الوقت والساعة وأمرهم بكتابة تقليد ولده شركان ولاية دمشق الشام . فكتبوا له ذلك وجهّزوه وأخذ الوزير دندان معه وأوصاه بالمملكة والسياسة وقلّده أموره ، ثم ودّعه والده وودّعته الأمراء وأكابر الدولة وسار بالعسكر حتى وصل إلى دمشق . فلمّا وصل إليها دقّ له أهلها الكاسات وصاحوا بالبوقات وزيّنوا المدينة وقابلوه بموكب عظيم سار فيه أهل الميمنة ميمنة وأهل الميسرة ميسرة . هذا ما كان من أمر شركان . وأما ما كان من أمر والده عمر النعمان ، فإنه بعد سفر ولده شركان أقبل عليه الحكماء وقالوا له : يا مولانا إن أولادك تعلّموا العلم والحكمة والأدب . فعند ذلك فرح الملك عمر النعمان فرحاً شديداً وأنعم على جميع الحكماء حيث رأى ضوء المكان كبر وترعرع وركب الخيل وصار له من العمر أربعة عشر سنة ، وطلع مشتغلاً بالدين والعبادة محبّاً للفقراء وأهل العلم والقرآن ، وصار أهل بغداد يحبونه نساء ورجالاً ، إلى أن طاف ببغداد محمل العراق من أجل الحج وزيارة قبر النبيّ ﷺ . فلمّا رأى ضوء المكان موكب المحمل اشتاق إلى الحج ، فدخل على والده وقال له : إني أتيت إليك لأستأذنك في أن أحجّ . فمنعه من ذلك وقال له : إصبر إلى العام القابل وأنا أتوجّه إلى الحجّ وآخذك معي . فلمّا رأى الأمر يطول عليه ، دخل على أخته نزهة الزمان فوجدها قائمة تصلّي . فلمّا قضت الصلاة قال لها : إني قد قتلني الشوق إلى حجّ بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، واستأذنت والدي فمنعني من ذلك ، فالمقصود أن آخذ شيئا من المال وأخرج إلى الحجّ سراً ولم أعلم أبي بذلك . فقالت له أخته : بالله عليك أن تأخذني معك ولا تحرمني من زيارة النبيّ ﷺ . فقال لها : إذا جنّ الظلام فاخرجي من هذا المكان ولا تعلمي أحداً بذلك . فلما كان نصف الليل قامت نزهة الزمان وأخذت شيئاً من المال ولبست لباس الرجال ، وكانت قد بلغت من العمر مثل عمر ضوء المكان ، ومشت متوجّهة إلى باب القصر فوجدت أخاها ضوء المكان قد جهّز الجمال . فركب وأركبها وسارا ليلاً واختلطا بالحجيج ومشيا إلى أن صارا في وسط الحجّ العراقي ، وما زالا سائرين وكتب الله لهما السلامة حتى دخلا مكّة المشرّفة . ووقفا بعرفات وقضيا مناسك الحج ثم توجها إلى زيارة النبيّ ﷺ ، فزاراه . وبعد ذلك أرادا الرجوع مع الحجاج إلى بلادهم فقال ضوء المكان لأخته يا أختي : أريد أن أزور بيت المقدس والخليل ابراهيم عليه الصلاة والسلام . فقالت له : وأنا كذلك . واتفقا على ذلك . ثم خرج واكترى له ولها مع المقادسة وجهّزا حالهما وتوجها مع الركب ، فحصل لأخته في تلك الليلة حمى باردة فتشوّشت ثم شفيت . وتشوّش الآخر ، فصارت تلاطفه في ضعفه . ولم يزالا سائرين إلى أن دخلا بيت المقدس واشتدّ المرض على ضوء المكان ، ثم إنهما نزلا في خان هناك واكتريا لهما فيه حجرة واستقرّا فيها . ولم يزل المرض يتزايد على ضوء المكان حتى أنحله وغاب عن الدنيا . فاغتمّت لذلك اخته نزهة الزمان وقالت : لا حول ولا قوة إلا بالله هذا حكم الله ، ثم إنها قعدت هي وأخوها في ذلك المكان وقد زاد به الضعف وهي تخدمه وتنفق عليه نفسها ، حتى فرغ ما معها من المال وافتقرت ولم يبقَ معها ولا درهم ، فأرسلت صبي الخان إلى السوق بشيء

من قماشها فباعه وانفقته على أخيها، ثم باعت شيئاً آخر. ولم تزل تبيع من امتعتها شيئاً فشيئاً حتى لم يبقَ لها غير حصير مقطّعة فبكت وقالت: لله الأمر من قبل ومن بعد. ثم قال لها اخوها: يا أختي إني قد أحسست بالعافية وفي خاطري شيء من اللحم المشوي. فقالت له أخته والله يا أخي إني ما لي وجه للسؤال، ولكن غداً أدخل بيت أحد من الأكابر وأخدم وأعمل بشيء نقتات به أنا وأنت. ثم تفكّرت ساعة وقالت له: إني لايهون عليّ فراقك وأنت في هذه الحالة. ولكن لا بدّ من طلب المعاش قهراً عني فقال لها أخوها: أبعد العز تصبحين ذليلة؟ فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم. ثم بكى وبكت وقالت له: يا أخي نحن غرباء وقد أقمنا هنا سنة كاملة ما دقّ علينا الباب أحد، فهل نموت من الجوع؟ فليس عندي من الراي إلاّ أني أخرج وأخدم وآتيك بشيء نقتات به إلى أن تبرأ من مرضك ثم نسافر إلى بلادنا. ومكثت تبكي ساعة، ثم بعد ذلك قامت نزهة الزمان وغطّت رأسها بقطعة عباءة من ثياب الجمالين كان صاحبها نسيها عندهما، وقبّلت رأس أخيها واعتنقته وخرجت من عنده وهي تبكي ولم تعلم أين تمضي. وما زال أخوها ينتظرها إلى أن قرب وقت العشاء ولم تأت. فمكث بعد ذلك وهو ينتظرها إلى أن طلع النهار فلم تعد إليه، ولم يزل على هذه الحالة يومين. فعظم ذلك عنده وارتجف قلبه عليها واشتدّ به الجوع فخرج من الحجرة وصاح على صبيّ الخان وقال له: أريد أن تحملني إلى السوق. فحمله والقاه في السوق، فاجتمع عليه أهل القدس وبكوا عليه لما رأوه على تلك الحالة. فأشار إليهم بطلب شيء يأكله، فجاؤوا له من بعض التجار الذين في السوق بعض دراهم واشتروا له وأطعموه إياه. ثم حملوه ووضعوه على دكان وفرشوا له قطعة برش ووضعوا عند رأسه إبريقاً. فلمّا أقبل الليل انصرف عنه كل الناس وهم حاملون همه. فلمّا كان نصف الليل تذكّر أخته، فازداد به الضعف وامتنع من الأكل والشرب وغاب عن الوجود. فقام أهل السوق وأخذوا له من التجار ثلاثين درهماً واكتروا له جملاً وقالوا للجمّال: إحمل هذا واوصله إلى دمشق، وأدخله المارستان لعلّه أن يبرأ. فقال لهم: على الراس. ثم قال في نفسه: كيف أمضي بهذا المريض وهو مشرف على الموت؟ ثم خرج به إلى مكان واختفى به إلى الليل، ثم القاه على مزبلة مستوقد حمام ثم مضى إلى حال سبيله. فلمّا أصبح الصباح طلع وقّاد الحمّام إلى شغله فوجده ملقى على ظهره. فقال في نفسه: لأي شيء ما يرمون هذا الميت إلاّ هنا؟ ورفصه برجله فتحرك. فقال له الوقّاد: الواحد منكم يأكل قطعة حشيش ويرمي نفسه في أي موضع كان. ثم نظر وجهه فرآه لا نبات بعارضيه وهو ذو بهاء وجمال، فأخذته الرافة عليه وعرف انه مريض وغريب. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، إني دخلت في خطيئة هذا الصبي وقد أوصى النبي ﷺ بإكرام الغريب لا سيّما إذا كان الغريب مريضاً. ثم حمله وأتى به إلى منزله ودخل على زوجته وأمرها أن تخدمه وتفرش له بساطاً، ففرشت له وجعلت تحت رأسه وسادة وسخنت له ماء، وغسلت له به يديه ورجليه ووجهه. وخرج الوقّاد إلى السوق وأتى له بشيء من ماء الورد والسكر، ورش ماء الورد على وجهه وسقاه السكر وأخرج له قميصاً نظيفاً وألبسه إياه، فشمّ نسيم الصحة وتوجّهت إليه العافية واتّكأ على المخدة. ففرح الوقّاد بذلك وقال: الحمد لله على عافية هذا الصبي، اللّهم إني أسألك بسرّك المكنون أن تجعل سلامة هذا الشاب على يدي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 54

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، ان الوقّاد قال : اللّهم إني اسألك بسرّك المكنون ان تجعل سلامة هذا الصبي على يدي . وما زال الوقّاد يتعهده ثلاثة أيام ، وهو يسقيه السكر وماء الخلاف وماء الورد ويتعطف عليه ويتلطف به حتى سرت الصحة في جسمه وفتح عينه . فاتفق أن الوقّاد دخل عليه فرآه جالساً وعليه آثار الشظ . فقال له : ما حالك يا ولدي في هذا الوقت؟ فقال ضوء المكان : بخير وعافية . فحمد الوقّاد ربّه وشكره ثم نهض إلى السوق واشترى له عشر دجاجات وأتى زوجته وقال لها : إذبحي له في كل يوم اثنين : واحدة في أول النهار وواحدة في آخر النهار . فقامت وذبحت له دجاجة وسلقتها وأتت بها إليه وأطعمته إياها وأسقته مرقتها . فلما فرغ من الأكل قدّمت له ماء مسخناً فغسل يديه واتكأ على الوسادة وغطّته بملاءة فنام إلى العصر . ثم قامت وسلقت دجاجة أخرى وأتته بها وفسختها وقالت له : كل يا ولدي . فبينما هو يأكل وإذا بزوجها قد دخل فوجدها تطعمه ، فجلس عند رأسه وقال له : ما حالك يا ولدي في هذا الوقت؟ فقال : الحمد لله على العافية جزاك الله عني خيراً . ففرح الوقّاد بذلك ، ثم إنه خرج وأتى بشراب البنفسج وماء الورد وسقاه . وكان ذلك الوقّاد يعمل في الحمام كل يوم بخمسة دراهم ، فيشتري له كل يوم بدرهم سكراً وماء الورد وشراب البنفسج ويشتري له بدرهم فراريج . وما زال يلاطفه إلى أن مضى عليه شهر من الزمان حتى زالت عنه آثار المرض وتوجّهت اليه العافية ، ففرح الوقّاد هو وزوجته بعافية ضوء المكان وقال له الوقاد : يا ولدي هل لك ان تدخل معي الحمام ؟ قال : نعم . فمضى إلى السوق وأتى له بمكاري اركبه حماراً وجعل يسنده إلى أن وصل إلى الحمّام . ثم دخل معه الحمام وأجلسه في داخله ومضى إلى السوق واشترى له سدراً ودقاقاً وقال لضوء المكان : يا سيدي ، بسم الله اغسل لك جسدك . وأخذ الوقّاد يحك لضوء المكان رجليه وشرع يغسل له جسده بالسدر والدقاق . وإذا ببلان قد أرسله معلم الحمام إلى ضوء المكان . فوجد الوقّاد يحك رجليه ، فتقدم إليه البلان وقال له : هذا نقص في حق المعلم . فقال الوقاد : والله إن المعلم غمرنا بإحسانه . فشرع البلان يحلق رأس ضوء المكان ثم اغتسل هو والوقاد ، وبعد ذلك رجع به الوقّاد إلى منزله وألبسه قميصاً رفيعاً وثوباً من ثيابه وعمامة لطيفة وأعطاه حزاماً . وكانت زوجة الوقّاد قد ذبحت دجاجتين وطبختهما . فلمّا طلع ضوء المكان وجلس على الفراش ، قام الوقّاد وأذاب له السكر في ماء الورد وسقاه ثم قدّم له السفرة وصار الوقّاد يفسخ له من تلك الدجاج ويطعمه ويسقيه من المسلوقة إلى أن اكتفى ، وغسل يديه وحمد الله تعالى على العافية ثم قال للوقاد : انت الذي مَنَّ الله عليَّ بك وجعل سلامتي على يديك . فقال له الوقاد : دع عنك هذا الكلام وقل لنا ما سبب مجيئك إلى هذه المدينة؟ ومن أين أنت؟ فإني أرى على وجهك آثار النعمة . فقال له ضوء المكان : قل لي أنت كيف وقعت بي حتى أخبرك بحديثي . فقال له الوقاد : اما أنا فإني وجدتك مرمياً على القمامة في الموقد حين لاح الفجر لما توجّهت إلى أشغالي ولم أعرف من رماك ، فأخذتك عندي وهذه حكايتي . فقال ضوء المكان : سبحان من يحيي العظام وهي رميم . إنك يا أخي ما فعلت الجميل إلاّ مع أهله وسوف تجيء ثمرة ذلك . ثم قال للوقاد : وأنا الآن في أي البلاد؟ فقال له الوقاد : أنت في مدينة القدس . فعند ذلك تذكّر ضوء

المكان غربته وفراق أخته، وبكى حيث باح بسرّه إلى الوقّاد وحكى له حكايته، ثم أنشد هذه الأبيات : [من الطّويل]

لَقَدْ حَمَّلُونِيْ فِي ٱلْهَوَى فَوْقَ طَاقَتِي   ومِنْ أَجْلِهِمْ قَامَتْ عَلَيَّ قِيامَتِي
أَلاَ فارْفِقُوا يا هاجِرُون بِمُهْجَتِي   فَقَد رَقَّ لِي مِنْ بَعْدِكُمْ كُلُّ شَامِتِ
وَلا تَمْنَعُوا أَنْ تَسْمَحُوا لِي بِنَظْرَةٍ   تُخَفِّفُ أَحْوالِيْ وفَرْطَ صَبَابَتِيْ
سأَلْتُ فُؤادِي ٱلصَّبْرَ عَنْكُمْ فقال لِيْ   إِلَيْكَ فإِنَّ الصَّبْرَ مِنْ غَيْرِ عَادَتِيْ

ثم زاد في بكائه فقال له الوقاد : لا تبكِ واحمد الله على السلامة والعافية . فقال ضوء المكان : كم بيننا وبين دمشق؟ فقال : ستة أيام . فقال ضوء المكان : هل لك أن ترسلني إليها؟ فقال له الوقاد : يا سيدي، كيف أدعك تروح وحدك وأنت شاب صغير؟ فان شئت السفر إلى دمشق فانا الذي أروح معك، وإن أطاعتني زوجتي وسافرت معي أقمت هناك، فإنه لا يهون عليّ فراقك . ثم قال الوقّاد لزوجته : هل لك أن تسافري معي إلى دمشق الشام أو تكوني مقيمة هنا حتى أوصل سيدي هذا إلى دمشق الشام وأعود إليك؟ فإنه يطلب السفر إليها، فإني والله لا يهون عليّ فراقه وأخاف عليه من قطاع الطريق . فقالت له زوجته : أسافر معكما . فقال الوقاد : الحمد لله على الموافقة . ثم إن الوقّاد قام وباع أمتعته وأمتعة زوجته . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 55

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد أن الوقّاد اتفق هو وزوجته على السفر مع ضوء المكان، وعلى أنّهما يمضيان معه إلى دمشق . ثم إن الوقّاد باع أمتعته وأمتعة زوجته ثم اكترى حماراً وأركب ضوء المكان إياه وسافروا . ولم يزالوا مسافرين ستة أيام إلى أن دخلوا دمشق فنزلوا هناك في آخر النهار، وذهب الوقّاد واشترى شيئاً من الأكل والشرب على العادة . وما زالوا على ذلك الحال خمسة أيام، وبعد ذلك مرضت زوجة الوقّاد أياماً قلائل وانتقلت إلى رحمة الله تعالى . فعظم ذلك على ضوء المكان لأنه كان قد اعتاد عليها وكانت تخدمه، وحزن عليها الوقّاد حزناً شديداً . فالتفت ضوء المكان إلى الوقّاد فوجده حزيناً فقال له : لا تحزن فإننا كلنا داخلون في هذا الباب . فالتفت الوقّاد إلى ضوء المكان وقال له : جزاك الله خيراً يا ولدي، فالله تعالى يعوّض علينا بفضله ويزيل عنّا الحزن . فهل لك يا ولدي أن تخرج بنا ونتفرّج في دمشق لينشرح خاطرك؟ فقال له ضوء المكان : الرأي رأيك . فقام الوقّاد ووضع يده في يد ضوء المكان وصارا إلى أن أتيا تحت إصطبل والي دمشق . فوجدا جمالاً محمّلة صناديق وفرشاً من الديباج وغيره وجنائب مسرجة وبخاتي وعبيداً ومماليك، والناس في هرج ومرج . فقال ضوء المكان : يا ترى لمن تكون هؤلاء المماليك والجمال والأقمشة؟ وسأل بعض الخدم عن ذلك . فقال له المسؤول : هذه هدية من أمير دمشق يريد إرسالها إلى الملك عمر النعمان مع خراج الشام . فلمّا سمع ضوء المكان هذا الكلام، تغرغرت عيناه بالدموع وأنشد يقول : [من الخفيف]

إِنْ شَكَوْنا البِعَادَ ماذا نَقُولُ   أَوْ تَلِفْنَا شَوْقاً فَكَيْفَ ٱلسَّبِيْلُ
أَوْ رأَيْنا الرَّسولَ تَرْجَمَ عنّا   ما يُؤَدِّي شَكْوى المُحِبِّ رَسُوْلُ

أَوْ صَبَرْنا فَمَا مِنَ الصَّبْرِ عِنْدِي بَعْدَ فَقْدِ الأَحْبَابِ إِلاَّ القَلِيْلُ

وقال أيضاً : [من الخفيف]

رَحَلُوا غائِبِينَ عَنْ جَفْنِ عَيْنِي إِنَّهُمْ في الفُؤَادِ مِنّي حُلُولُ
غابَ عَنّي جَمَالُهُمْ فَحَيَاتِي لَيْسَ تَحْلُو ولا اشْتِياقِي يَحُولُ
إِنْ قَضَى اللهُ باجْتِماعِي إِلَيْكُمْ أَذْكُرُ الوَجْدَ في حَدِيْثٍ يَطُوْلُ

فلما فرغ من شعره بكى . فقال له الوقاد : يا ولدي ، نحن ما صدقنا أنّك جاءتك العافية ، فطب نفساً ولا تبكِ فإني أخاف عليك من النكسة . وما زال يلاطفه ويمازحه وضوء المكان يتنهد ويتحسّر على غربته وعلى فراقه لأخته ومملكته ويرسل العبرات ، ثم أنشد هذه الأبيات : [من الطَّويل]

تَزَوَّدْ مِنَ الدُّنْيا فإِنَّكَ راحِلُ وأَيْقِنْ بأَنَّ الْمَوْتَ لا شَكَّ نَازِلُ
نَعِيمُكَ في الدُّنْيَا غُرُوْرٌ وَحَسْرَةٌ وَعَيْشُكَ في الدُّنْيَا مِحَالٌ وبَاطِلُ
أَلا إِنَّما الدُّنْيَا كَمَنْزِلِ رَاكِبٍ أَناخَ عَشِيّاً وَهْوَ في الصُّبْحِ راحِلُ

ثم إن ضوء المكان جعل يبكي وينتحب على غربته ، وكذلك الوقّاد صار يبكي على غربته ، وكذلك الوقّاد صار يبكي على فراق زوجته ، ولكنه ما زال يتلطّف بضوء المكان إلى أن أصبح الصباح . فلمّا طلعت الشمس قال له الوقّاد : كأنك تذكّرت بلادك . فقال له ضوء المكان : نعم . ولا أستطيع أن أقيم هنا ، وأستودعك الله فإني مسافر مع هؤلاء القوم وامشي معهم قليلاً قليلاً حتى أصل إلى بلادي . فقال له الوقاد : وأنا معك فإني لا أقدر أن أفارقك فإني عملت معك حسنة وأريد أن أتمّمها بخدمتي لك . فقال له ضوء المكان : جزاك الله عني خيراً . وفرح ضوء المكان بسفر الوقّاد معه . ثم إن الوقّاد خرج من ساعته واشترى له حماراً وهيّأ زاداً وقال لضوء المكان : إركب هذا الحمار في السفر فإذا تعبت من الركوب فانزل وامش . فقال ضوء المكان : بارك الله فيك وأعانني على مكافأتك ، فإنك فعلت معي من الخير ما لا يفعله أحد مع أخيه . ثم صبر إلى أن جنَّ الظلام ، فحملا زادهما وأمتعتهما على ذلك الحمار وسافرا . هذا ما كان من أمر ضوء المكان والوقاد .

وأما ما كان من أمر أخته نزهة الزمان ، فإنها لمّا فارقت أخاها ضوء المكان خرجت من الخان الذي كانا فيه في القدس بعد أن التفّت بالعباءة لأجل أن تخدم أحداً وتشتري لأخيها ما اشتهاه من اللحم المشوي ، وصارت تبكي في الطريق وهي لا تعرف أين تتوجه . وصار خاطرها مشغولاً بأخيها وقلبها متفكّراً في الأهل والأوطان . فصارت تتضرع إلى الله تعالى في دفع هذه البليّات وأنشدت هذه الأبيات : [من البسيط]

جَنَّ الظَّلامُ وهاجَ الْوَجْدُ بالسَّقَمِ والشَّوْقُ حَرَّكَ ما عِنْدِي مِنَ الأَلَمِ
ولَوْعَةُ البَيْنِ في الأَحْشاء قد سَكَنَتْ والْوَجْدُ صَيَّرَني في حَالَةِ العَدَمِ
والْحُزْنُ أَقْلَقَنِي والشَّوْقُ أَحْرَقَنِي والدَّمْعُ باحَ بِحُبٍّ أَيِّ مُكْتَتِمِ
ولَيْسَ لِي حِيلَةٌ في الوَصْلِ أَعْرِفُها حَتَّى تُزَحْزِحَ ما عِنْدِي مِنَ الأَلَمِ
فَنَارُ قَلْبِيَ بالأَشْواقِ مُوقَدَةٌ ومِنْ لَظَاها يَظَلُّ الصَّبُّ في نِقَمِ

يا مَنْ يَلُومُ على ما حَلَّ بِيْ وكَفَى — إنّي صَبَرْتُ على ما خُطَّ بالقَلَم
أَقْسَمْتُ بالحُبِّ ما لِيْ سَلْوَةٌ أَبَداً — يَمِينُ أَهْلِ الْهَوَى مَبْرُورَةُ الْقَسَم
يا لَيْلُ بَلِّغْ رُواةَ الحُبِّ عَنْ خَبَرِيْ — وأَشْهَدْ بِعِلْمِكَ أَنِّي فِيْكَ لَمْ أَنَم

ثم إن نزهة الزمان أخت ضوء المكان، صارت تمشي وتلتفت يميناً ويساراً وإذا شيخ مسافر من البدو ومعه خمسة نفر من العرب قد التفت إلى نزهة الزمان فرآها جميلة وعلى رأسها عباءة مقطعة، فتعجَّب من حسنها وقال في نفسه: إن هذه جميلة ولكنها ذات قشق، فإن كانت من اهل هذه المدينة أو كانت غريبة فلا بدَّ لي منها. ثم إنه تبعها قليلاً حتى تعرَّض لها في الطريق في مكان ضيّق وناداها ليسألها عن حالها وقال لها: يا بنيّة، هل انت حرّة أو مملوكة؟ فلمّا سمعت كلامه نظرت إليه وقالت له: بحياتك لا تجدّد عليَّ الأحزان. فقال لها: إني رزقت ست بنات، مات لي منهنَّ خمس وبقيت واحدة وهي أصغرهن، وأتيت إليك لأسالك: هل انت من اهل هذه المدينة أو غريبة؟ لأجل ان آخذك وأجعلك عندها لتؤانسيها فتشتغل بك عن الحزن على اخواتها. فإن لم يكن لك أحد، جعلتك مثل واحدة منهنَّ وتصيرين مثل أولادي. فلمّا سمعت نزهة الزمان كلامه قالت في سرّها: عسى أن آمن على نفسي عند هذا الشيخ. ثم اطرقت براسها من الحياء وقالت: يا عمّ، أنا بنت غريبة ولي أخ ضعيف، فأنا أمضي معك إلى بيتك بشرط ان اكون عندها بالنهار، وبالليل أمضي إلى أخي. فإن قبلت هذا الشرط مضيت معك لأني غريبة وكنت عزيزة فأصبحت ذليلة حقيرة، وجئت أنا وأخي من بلاد الحجاز وأخاف ان اخي لا يعرف لي مكاناً. فلمّا سمع البدوي كلامها قال في نفسه: والله إني فزت بمطلوبي. ثم قال لها: ما أريدك إلاّ لتؤانسي بنتي نهاراً وتمضي إلى اخيك ليلاً، وإن شئت فانقليه إلى مكاننا. ولم يزل البدوي يطيّب قلبها ويليّن لها الكلام إلى ان وافقته على الخدمة ومشى قدّامها وتبعته. ولم يزل سائراً إلى جماعته، وكانوا قد هيؤوا الجمال ووضعوا عليها الأحمال ووضعوا فوقها الماء والزاد، وكان البدوي قاطع الطريق وخائن الرفيق وصاحب مكر وحيل ولم يكن عنده بنت ولا ولد، وإنما قال ذلك الكلام حيلة على هذه البنت المسكينة لأمر قدَّره الله. ثم إن البدوي صار يحدثها في الطريق إلى ان خرج من مدينة القدس واجتمع برفقته فوجدهم قد أرحلوا الجمال. فركب البدوي جملاً وأردفها خلفه وساروا معظم الليل، فعرفت نزهة الزمان أن كلام البدوي كان حيلة عليها وأنه مكر بها، فصارت تبكي وتصرخ وهم في الطريق قاصدين الجبال خوفاً أن يراهم احد. فلما صاروا قريب الفجر، نزلوا عن الجمال وتقدم البدوي إلى نزهة الزمان وقال لها: يا مدنية، ما هذا البكاء؟ والله إن لم تتركي البكاء ضربتك إلى ان تهلكي يا قطعة حضريّة. فلمّا سمعت نزهة الزمان كلامه كرهت الحياة وتمنّت الموت. فالتفتت إليه وقالت له: يا شيخ السوء يا شيبة جهنم، كيف استأمنتك وأنت تخونني وتمكر بي؟ فلما سمع البدوي كلامها قال لها: يا قطعة حضرية، ألك لسان تجاوبيني به؟ وقام إليها ومعه سوط فضربها وقال: إن لم تسكتي قتلتك. فسكتت ساعة ثم تفكّرت أخاها وما هو فيه من الأمراض فبكت سرّاً. وفي ثاني يوم التفتت إلى البدوي وقالت له: كيف تعمل عليَّ هذه الحيلة حتى أتيت بي إلى هذه الجبال القفرة وما قصدك مني؟ فلما سمع كلامها قسا قلبه وقال لها: يا قطعة حضريّة، ألكِ لسان تجاوبينني به؟ وأخذ السوط

ونزل به على ظهرها إلى أن غشي عليها، فانكبت على رجليه وقبلتهما فكفّ عنها الضرب وصار يشتمها ويقول لها: وحقّ طرطوري إن سمعتك تبكين قطعت لسانك ودسسته في كسك، يا قطعة حضرية. فعند ذلك سكتت ولم ترد جواباً، وآلمها الضرب فقعدت على قرافيصها وجعلت رأسها في طوقها وصارت تتفكر في حالها وفي حال أخيها وفي ذلّها بعد العز وفي مرض أخيها ووحدته واغترابهما، وأرسلت دموعها على الوجنات وانشدت هذه الابيات: [من البسيط]

مِنْ عَادَةِ الدَّهْرِ إدْبارٌ وإقْبالُ ... فَمَا يَدُومُ لَه بَيْنَ ٱلْوَرَى حَالُ
وكُلُّ شيءٍ مِنَ الدُّنْيا له أَجَلٌ ... وتَنْقَضِي لِجَمِيعِ النَّاسِ آجَالُ
كم أَحْمِلُ الضَّيْمَ والأَهْوالَ يا أَسَفِي ... مِنْ عِيْشَةٍ كُلُّها ضَيْمٌ وأَهْوالُ
لا أَسْعَدَ اللهُ أَيَّاماً عُزِزْتُ بها ... دَهْراً وفي طَيِّ ذاكَ العِزِّ إذْلالُ
قَدْ خابَ قَصْدِيْ وآمالي بِهَا أنْصَرَمَتْ ... وقد تُقَطَّعُ بالتَّغْرِيبِ أَوْصالُ
يا مَنْ يَمُرُّ على دَارٍ بها سَكَنِي ... بَلِّغْهُ عَنِّيَ أَنَّ الدَّمْعَ هَطَّالُ

فلمّا سمع البدوي شعرها، عطف عليها ورثى لها ورحمها، وقام إليها ومسح دموعها، وأعطاها قرصاً من شعير وقال لها: أنا لا أحب من يجاوبني في وقت الغيظ، وأنت بعد ذلك لا تجاوبيني بشيء من هذا الكلام الفاحش، وأنا أبيعك لرجل جيد مثلي يفعل معك الخير مثل ما فعلت معك. قالت: نعم ما تفعل. ثم إنها لما طال عليها الليل وأحرقها الجوع أكلت من ذلك القرص الشعير شيئاً يسيراً. فلما انتصف الليل أمر البدوي جماعته أن يسافروا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 56

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن البدوي لما أعطى نزهة الزمان القرص الشعير ووعدها أن يبيعها لرجل جيّد مثله قالت له: نعم ما تفعل. فلما انتصف الليل وأحرقها الجوع أكلت من القرص الشعير شيئاً يسيراً. ثم إن البدوي أمر جماعته أن يسافروا فحمّلوا الجمال، وركب البدوي جملاً وأردف نزهة الزمان خلفه وساروا، وما زالوا سائرين مدة ثلاثة أيام. ثم دخلوا مدينة دمشق ونزلوا في خان السلطان بجانب باب الملك، وقد تغيّر لون نزهة الزمان من الخوف وتعب السفر فصارت تبكي من أجل ذلك. فأقبل عليها البدوي وقال لها: يا حضرية، وحقّ طرطوري إن لم تتركي هذا البكاء لا أبيعك إلاّ ليهودي. ثم إنه قام وأخذ بيدها وأدخلها في مكان، وتمشى إلى السوق ومرّ على التجار الذين يتجرون في الجواري وصار يكلمهم ثم قال لهم: عندي جارية أتيت بها معي وأخوها ضعيف فأرسلته إلى أهلي في مدينة القدس لأجل ان يداووه حتى يبرأ. وقصدي أن أبيعها، ومن يوم ضعف أخوها وهي تبكي وصعب عليها فراقه، وأريد أن الذي يشتريها مني يلين لها الكلام ويقول لها: إن أخاك عندي في القدس ضعيف، وأنا أرخّص له ثمنها. فنهض له رجل من التجار وقال له: كم عمرها؟ فقال: هي بكر بالغة ذات عقل وادب وفطنة وحسن وجمال، ومن حين أرسلت أخاها إلى القدس اشتغل قلبها به وتغيّرت محاسنها وانهزل سمنها. فلما سمع التاجر ذلك تمشّى مع البدوي وقال له: أعلم يا شيخ العرب اروح معك وأشتري منك الجارية التي تمدحها وتشكر

عقلها وأدبها وحسنها وجمالها وأعطيك ثمنها وأشرط عليك شروطاً، إن قبلتها نقدت لك ثمنها، وإن لم تقبلها رددتها عليك. فقال له البدوي: إن شئت فاطلع بها إلى السلطان واشرط عليّ ما شئت من الشروط، فإنّك إذا أوصلتها إلى الملك شركان ابن الملك عمر النعمان صاحب بغداد وخراسان، ربما تليق بعقله فيعطيك ثمنها ويكثر لك الربح فيها. فقال له التاجر: وأنا لي عند السلطان حاجة، وهو أن يكتب إلى والده عمر النعمان بالوصيّة عليَّ فإن قبل الجارية مني وزنت لك ثمنها في الحال. فقال له البدوي: قبلت منك هذا الشرط. ثم مشى الإثنان إلى أن أقبلا على المكان الذي فيه نزهة الزمان ووقف البدوي على باب الحجرة وناداها: يا ناجية. وكان سمّاها بهذا الاسم. فلما سمعته بكت ولم تجبه. فالتفت البدوي إلى التاجر وقال له: ها هي قاعدة دونك، فاقبل عليها وانظرها ولاطفها مثل ما أوصيتك. فتقدّم التاجر إليها فرآها بديعة في الحسن والجمال لا سيما وكانت تعرف بلسان العرب. فقال التاجر: إن كانت كما وصُفت لي فإني أبلغ بها عند السلطان ما أريد. ثم إنّ التاجر قال لها: السلام عليك يا بنيّة كيف حالك؟ فالتفتت إليه وقالت: كان ذلك في الكتاب مسطوراً. ونظرت إليه فإذا هو رجل ذو وقار ووجهه حسن فقالت في نفسها: أظن أن هذا جاء يشتريني. ثم قالت: إن امتنعت منه صرت عند هذا الظالم فيهلكني من الضرب، فعلى كل حال هذا رجل وجهه حسن وهو أرجى للخير من هذا البدوي الجلف، ولعلّه ما جاء إلاّ ليسمع منطقي، فأنا أجاوبه جواباً حسناً. كل ذلك وعينها في الأرض، ثم رفعت بصرها إليه وقالت له بكلام عذب: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا سيدي بهذا أمر النبي ﷺ وأمّا سؤالك عن حالي، فإن شئت أن تعرفه فلا تتمناه إلاّ لأعدائك. ثم سكتت. فلما سمع التاجر كلامها طار عقله فرحاً بها والتفت إلى البدوي وقال له: كم ثمنها؟ فإنها جليلة. فاغتاظ البدوي وقال له: أفسدت عليّ الجارية بهذا الكلام، لأي شيء تقول إنها جليلة؟ مع أنها من رعاع الناس، فأنا لا أبيعها لك. فلما سمع التاجر كلامه عرف أنه قليل العقل فقال له: طب نفساً وقرّ عيناً فأنا أشتريها على هذا العيب الذي ذكرته. فقال البدوي: وكم تدفع لي فيها؟ فقال له التاجر: ما يسمي الولد إلاّ أبوه فاطلب فيها مقصودك. فقال له البدوي: ما يتكلم إلاّ أنت. فقال التاجر في نفسه: إن هذا البدوي جلف يابس الراس وأنا لا أعرف لها قيمة إلاّ أنها ملكت قلبي بفصاحتها وحسن منظرها، وإن كانت تكتب وتقرأ فهذا من تمام النعمة عليها وعلى مَنْ يشتريها. لكن هذا البدوي لا يعرف لها قيمة. ثم التفت إلى البدوي وقال له: يا شيخ العرب أدفع لك فيها مائتي دينار سالمة ليدك غير الضمان وقانون السلطان. فلما سمع ذلك البدوي اغتاظ غيظاً شديداً وصرخ على التاجر وقال له: قم إلى حال سبيلك لو أعطيتني مائتي دينار في هذه القطعة العباءة التي عليها ما بعتها لك، فأنا لا أبيعها بل أخلّيها عندي ترعى الجمال وتطحن الطحين. ثم صاح عليها وقال: تعالي يا منتنة أنا لا أبيعك. ثم التفت إلى التاجر وقال له: كنت أحسبك أهل معرفة، وحقّ طرطوري إن لم تذهب عني لأسمعنّك ما لا يرضيك. فقال التّاجر في نفسه: إن هذا البدوي مجنون ولا يعرف قيمتها ولا أقول له شيئاً في ثمنها في هذا الوقت، فإنّه لو كان صاحب عقل ما قال: وحق طرطوري. والله إنها تساوي خزنة من الجواهر وأنا ما معي ثمنها، ولكن إن طلب مني ما يريد أعطيته إياه ولو أخذ جميع مالي. ثم التفت إلى البدوي وقال له: يا شيخ العرب طوّل بالك وقل لي: ما لها من القماش عندك؟ فقال البدوي: وما تفعل

قطاعة الجواري هذه بالقماش ؟ والله إن هذه العباءة التي هي ملفوفة فيها كثيرة عليها . فقال له التاجر : عن إذنك أكشف عن وجهها وأقلبها كما يقلب الناس الجواري لأجل الاشتراء . فقال له البدوي : دونك وما تريد ، الله يحفظ شبابك فقلّبها ظاهراً وباطناً وإن شئت فعرها الثياب ثم انظرها وهي عريانة . فقال التاجر : معاذ الله أنا ما أنظر إلاّ وجهها . ثم إن التاجر تقدم وهو خجلان من حسنها وجمالها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 57

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن التاجر تقدم إلى نزهة الزمان وهو خجلان من حسنها وجلس إلى جانبها وقال لها : يا سيدتي ما اسمك ؟ فقالت له : أتسألني عن اسمي في هذا الزمان أو عن اسمي القديم ؟ فقال لها : هل لك إسم جديد وإسم قديم ؟ قالت : نعم . إسمي القديم نزهة الزمان واسمي الجديد غصّة الزمان . فلما سمع التاجر منها هذا الكلام تغرغرت عيناه بالدموع وقال لها : هل لك أخ ضعيف ؟ فقالت : إي والله يا سيدي ، ولكن فرّق الزمان بيني وبينه وهو مريض في بيت المقدس . فتحيَّر عقل التاجر من عذوبة منطقها وقال في نفسه : لقد صدق البدوي في مقالته ، ثم إن نزهة الزمان تذكّرت أخاها ومرضه وغربته وفراقها منه وهو ضعيف ولا تعلم ما وقع له وتذكّرت ما جرى لها من هذا الأمر مع البدوي ومن بعدها عن أمها وأبيها ومملكتها ، فجرت دموعها على خدّها وأرسلت العبرات وأنشدت هذه الأبيات : [من الخفيف]

حَيْثُما كُنْتَ قَدْ وَقَاكَ إلٰهِي ... أيُّها الرَّاحِلُ المُقِيْمُ بِقَلْبِي
ولَكَ اللهُ حَيْثُ أمْسَيْتَ جَاراً ... حافِظاً مِنْ صُرُوْفِ دَهْرٍ وخَطْبِ
غِبْتَ فاسْتَوْحَشَتْ لِقُرْبِكَ عَيْنِيْ ... واسْتَهَلَّتْ مَدَامِعي أيَّ سَكْبِ
لَيْتَ شِعْرِي بأيِّ رَبْعٍ وأَرْضٍ ... أَنْتَ مُسْتَوْطِنٌ بِدَارٍ وشِعْبِ
إنْ يَكُنْ شارباً لماءِ حَياةٍ ... خَضِرِ الوَرْدِ فالْمَدامِعُ شُرْبِي
أَوْ شَهِدْتَ الرُّقادَ يَوْماً فَجَمْرٌ ... مِنْ سُهادِي بَيْنَ الفِراشِ وجَنْبِي
كُلُّ شيءٍ إلاّ فِراقَكَ سَهْلٌ ... عِنْدَ قَلْبِي وغَيْرُه غَيْرُ صَعْبِ

فلما سمع التاجر ما قالته من الشعر ، بكى ومدّ يده ليمسح دموعها عن خدّها ، فغَطَّت وجهها وقالت له : حاشاك يا سيدي . ثم إن البدوي قعد ينظر إليها وهي تغطي وجهها من التاجر حيث أراد أن يمسح دمعها عن خدّها فاعتقد أنها تمنعه من التقليب ، فقام إليها يجري وكان معه مقود جمل فرفعه في يده وضربها به على أكتافها فجاءت الضربة بقوة فانكبّت بوجهها على الأرض ، فجاءت حصاة من الأرض في حاجبها فشقته ، فسال دمها على وجهها فصرخت صرخة عظيمة وغشي عليها وبكت ، وبكى التاجر معها . فقال التاجر : لا بدّ أن أشتري هذه الجارية ولو بثقلها ذهباً وأريحها من هذا الظالم . وصار التاجر يشتم البدوي وهي في غشيتها . فلما أفاقت مسحت الدموع والدم عن وجهها وعصبت رأسها ورفعت طرفها إلى السماء وطلبت من مولاها بقلب حزين ، وأنشدت هذين البيتين : [من مجزوء الكامل]

وَارْحَـــمَتا لِعَزِيْزَةٍ بالضَّيْمِ قد صَارَتْ ذَلِيْلَهْ
تَبْكِي بِدَمْعٍ هــاطِلٍ وتَقُولُ ما في الْوَعْدِ حِيْلَهْ

فلما فرغت من شعرها، التفتت إلى التاجر وقالت له بصوت خفي : بالله لا تدعني عند هذا الظالم الذي لا يعرف الله تعالى . فإن بتّ هذه الليلة عنده قتلت نفسي بيدي، فخلصني منه يخلصك الله ممّا تخاف في الدنيا والآخرة . فقام التاجر وقال للبدوي : يا شيخ العرب هذه ليست غرضك بعني إياها بما تريد . فقال البدوي : خذها وادفع ثمنها وإلاّ أروح بها إلى النجع واتركها هناك تلمّ البعر وترعى الجمال . فقال التاجر : أعطيك خمسين الف دينار . فقال البدوي : يفتح الله . فقال التاجر : سبعون الف دينار . فقال البدوي : يفتح الله هذا ما هو راس مالها لأنها اكلت عندي اقراصاً من الشعير بتسعين الف دينار . فقال له التاجر : أنت واهلك وقبيلتك في طول عمركم ما أكلتم بالف دينار شعير ،ولكن أقول لك كلمة واحدة فإن لم ترض بها غمزت عليك والي دمشق فيأخذها منك قهراً . فقال البدوي : تكلم . فقال : بمائة الف دينار . فقال البدوي : بعتك إياها بهذا الثمن و أقدر أنني اشتريت بها ملحاً . فلما سمعه التاجر ضحك ومضى إلى منزله وأتى بالمال واقبضه إياه . فأخذه البدوي وقال في نفسه : لا بدّ أن اذهب إلى القدس لعلّي أجد اخاها فأجيء به وأبيعه . ثم ركب وسافر حتى وصل إلى بيت المقدس فذهب إلى الخان وسال عن اخيها فلم يجده . هذا ما كان من أمره . وأمّا ما كان من امر التاجر ونزهة الزمان، فإنه لمّا اخذها ألقى عليها شيئاً من ثيابه ومضى بها إلى منزله . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 58

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، ان التاجر لما تسلّم الجارية من البدوي وضع عليها شيئاً من ثيابه ومضى بها إلى منزله والبسها أفخر الملبوس، ثم اخذها ونزل بها إلى السوق واخذ لها مصاغاً ووضعه في بقجة من الأطلس ووضعها بين يديها وقال لها : هذا كلّه من أجلك، ولا اريد منك إلاّ إذا طلعت بك إلى السلطان والي دمشق أن تعلميه بالثمن الذي اشتريتك به وإن كان قليلاً في ظفرك، وإذا اشتراك مني فاذكري له ما فعلت معك واطلبي لي منه مرقوماً سلطانياً بالوصيّة عليَّ لأذهب به إلى والده صاحب بغداد الملك عمر النعمان لأجل ان يمنع من ياخذ مني مكسباً على القماش او غيره من جميع ما اتّجر فيه . فلما سمعت كلامه بكت وانتحبت . فقال لها التاجر : يا سيدتي، إني أراك كلّما ذكرت بغداد تدمع عيناك، ألكِ فيها أحد تحبينه ؟ فإن كان تاجراً او غيره فاخبريني، فإني اعرف جميع مَنْ فيها من التجار وغيرهم، وإن أردت رسالة أنا أوصلها إليه . فقالت : والله ما لي معرفة بتاجر ولا غيره وإنما لي معرفة بالملك عمر النعمان صاحب بغداد . فلما سمع التاجر كلامها ضحك وفرح فرحاً شديداً وقال في نفسه : والله إني وصلت إلى ما أريد . ثم قال لها : هل عرضت عليه سابقاً ؟ فقالت : لا . بل تربّيت أنا وبنته فكنت عزيزة عنده، ولي عنده حرمة كبيرة . فإن كان غرضك ان الملك عمر النعمان يكتب لك ما تريد، فأتني بدواة وقرطاس فإني أكتب لك كتاباً، فإذا دخلت مدينة بغداد فسلّم الكتاب من يدك إلى يد الملك عمر النعمان وقل له : إن جاريتك نزهة الزمان قد طرقتها صروف الليالي والأيام

حتى بيعت من مكان إلى مكان وهي تقرؤك السلام . وإذا سألك عنّي فاخبره اني عند نائب دمشق . فتعجب التاجر من فصاحتها وازدادت عنده محبتها وقال : ما أظنّ إلاّ ان الرجال لعبوا بعقلك وباعوك بالمال . فهل تحفظين القرآن ؟ قالت : نعم . وأعرف الحكمة والطب ومقدمة المعرفة وشرح فصول بقيراط لجالينوس الحكيم وشرحته ايضاً، وقرأت التذكرة وشرحت البرهان وطالعت مفردات ابن البيطار، وتكلّمت على القانون لابن سينا وحلّيت الرموز ووضعت الاشكال وتحدّثت في الهندسة، واتقنت حكمة الأبدان، وقرأت كتب الشافعية وقرأت الحديث والنحو وناظرت العلماء وتكلمت في سائر العلوم، وألّفت في علم المنطق والبيان والحساب والجدل، واعرف الروحاني والميقات وفهمت هذه العلوم كلها . ثم قالت : ائتني بدواة وقرطاس حتى أكتب لك كتاباً يسليك في الأسفار ويغنيك عن مجلّدات الأسفار . فلمّا سمع التاجر منها هذا الكلام صاح : بخ بخ، فيا سعد مَنْ تكونين في قصره . ثم أتاها بدواة وقرطاس وقلم من نحاس . فلما أحضر التاجر ذلك بين يديها قبّل الأرض تعظيماً لها . فأخذت نزهة الزمان الدرج وتناولت القلم وكتبت في الدرج هذه الأبيات : [من البسيط]

ما بَالُ نَوْمِيَ مِنْ عَيْنَيَّ قَدْ نَفَرَ ... أَأَنْتَ عَلَّمْتَ طَرْفِيْ بَعدَكَ ٱلسَّهَرَ
وما لِذِكْرِكَ يُذْكِي النّارَ في كَبِدِي ... أَهَكَذا كُلُّ صَبٍّ لِلْهَوَى ذُكِرَ
سَقْياً لأيّامِنا ما كان أَطْيَبَها ... مَضَتْ ولَمْ أَقْضِ مِنْ لَذّاتِها وَطَرَ
أَسْتَعْطِفُ الرِّيحَ إنَّ ٱلرِّيحَ حامِلَةٌ ... إلى المُتَيَّمِ مِنْ أَكْنافِكُم خَبَرَ
يَشْكُو إليكَ مُحِبٌّ قَلَّ ناصِرُه ... ولِلْفِراقِ خُطُوبٌ تَصْدَعُ الحَجَرَ

ثم إنها لما فرغت من كتابة هذا الشعر، كتبت بعد ذلك هذا الكلام وهي تقول : من استولى عليها الفكر وانحلها السهر، فظلمتها لا تجد لها من انوار ولا تعلم الليل من النهار، وتتقلب على مراقد البين وتكتحل بمراود الأرق، ولم تزل للنجوم رقيبة وللظلام نقيبة، إذا بها الفكر والنحول وشرح حالها يطول، لا مساعد لها غير العبرات . وأنشدت هذه الأبيات : [من البسيط]

ما غَرَّدَتْ سَحَراً وَرْقاءُ في فَنَنٍ ... إلاَّ تَحَرَّكَ عِنْدِي قاتِلُ الشَّجَنِ
ولا تأوَّه مُشْتاقٌ به طَرَبٌ ... إلى الأَحِبَّةِ إلاّ ٱزْدَدْتُ في حَزَنِي
اشْكُو ٱلْغَرامَ إلى مَنْ لَيْسَ يَرْحَمُنِي ... كَم فَرَّقَ الوَجْدُ بَيْنَ الرُّوحِ وٱلْبَدَنِ

ثم افاضت دموع العين وكتبت ايضاً هذين البيتين : [البسيط]

أَبْلى ٱلْهَوَى أَسَفاً يَوْمَ النَّوَى بَدَنِي ... وفَرَّقَ ٱلْهَجْرُ بَيْنَ ٱلْجَفْنِ والوَسَنِ
كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً إنَّني دَنِفٌ ... لَوْلاَ مُخاطَبَتِي إيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

وبعد ذلك كتبت في أسفل الدرج : هذا من عند البعيدة عن الأهل والأوطان، الحزينة القلب والجنان نزهة الزمان . ثم طوت الدرج وناولته للتاجر . فأخذه وقبّله وعرف ما فيه، ففرح وقال سبحان من صوّرك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 59

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نزهة الزمان كتبت الكتاب وناولته للتاجر، فأخذه وقراه وعلم ما فيه. فقال: سبحان من صوّرك. وزاد في إكرامها وصار يلاطفها نهاره كلّه. فلمّا أقبل الليل، خرج إلى السوق وأتى بشيء فأطعمها إياه ثم أدخلها الحمام وأتى لها ببلانة وقال لها: إذا فرغت من غسل رأسها فالبسيها ثيابها ثم أرسلي اعلميني بذلك. فقالت: سمعاً وطاعةً. ثم أحضر لها طعاماً وفاكهة وشمعاً وجعل ذلك على مسطبة الحمام. فلما فرغت البلانة من تنظيفها ألبستها ثيابها. ولما خرجت من الحمام وجلست على مسطبته وجدت المائدة حاضرة، فأكلت هي والبلانة من الطعام والفاكهة وتركتا الباقي لحارسة الحمام. ثم باتت إلى الصباح وبات التاجر منعزلاً عنها في مكان آخر. فلما استيقظ من نومه أيقظ نزهة الزمان وأحضر لها قميصاً رفيعاً وكوفية بألف دينار وبدلة لباس تركية مزركشة بالذهب، وخفاً مزركشاً بالذهب الأحمر مرصّعاً بالدرّ والجوهر. وجعل في اذنيها حلقاً من اللؤلؤ بألف دينار ووضع في رقبتها طوقاً من الذهب وقلادة من العنبر، تضرب تحت نهديها فوق سرّتها. وتلك القلادة فيها عشر أكر وتسعة أهلة، كل هلال في وسطه فص من الياقوت، وكل أكرة فيها فص من البلخش. وثمن تلك القلادة ثلاثة آلاف دينار. فصارت الكسوة التي كساها إيَّاها بجملة بليغة من المال. أمرها التاجر أن تتزيَّن، فتزيّنت بأحسن الزينة ومشت ومشى التاجر قدّامها. فلما عاينها الناس بهتوا في حسنها وقالوا: تبارك الله أحسن الخالقين، هنيئاً لمن كانت هذه عنده. وما زال التاجر يمشي وهي تمشي خلفه حتى دخل على الملك شركان. فلّما دخل على الملك قبّل الأرض بين يديه وقال: أيها الملك السعيد، أتيت لك بهدية غريبة الأوصاف عديمة النظير في الزمان، قد جمعت بين الحسن والإحسان. فقال له الملك: قصدي أن أراها عياناً. فخرج التاجر وأتى بها حتى أوقفها قدّامه. فلمّا رآها الملك شركان حنَّ الدم إلى الدم وكانت قد فارقته وهي صغيرة ولم ينظرها، لأنه بعد مضي مدّة من ولادتها سمع أن له أختاً تسمى نزهة الزمان وأخاً يسمى ضوء المكان. فاغتاظ من أبيه غيظاً شديداً غيرة على المملكة كما تقدّم. ولما قدّمها إليه التاجر قال له: يا ملك الزمان، إنها مع كونها بديعة الحسن والجمال بحيث لا نظير لها في عصرها، تعرف جميع العلوم الدينية والدنيوية والسياسية والرياضية. فقال له الملك: خذ ثمنها مثل ما اشتريتها ودعها وتوجّه إلى حال سبيلك. فقال له التاجر: سمعاً وطاعةً. ولكن أكتب لي مرقوماً إني لا ادفع عشراً أبداً على تجارتي. فقال الملك: إني افعل لك ذلك، ولكن أخبرني كم وزنت ثمنها؟ فقال: وزنت ثمنها مائة ألف دينار وكسوتها بمائة ألف دينار. فلمّا سمع ذلك الملك قال: أنا أعطيك في ثمنها أكثر من ذلك. ثم دعا بخازن داره وقال له: أعط هذا التاجر ثلثمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، ثم إن شركان أحضر القضاة الأربعة وقال لهم: اشهدكم أني اعتقت جاريتي هذه وأريد أن أتزوجها. فكتب القضاة حجّة بإعتاقها، ثم كتبوا كتابه عليها. ونثر الملك على رؤوس الحاضرين ذهباً كثيراً، وصار الغلمان والخدم يلتقطون ما نثره عليهم الملك من الذهب. ثم إن الملك أمر بكتابة منشور إلى التاجر على طبق مراده من أنه لا يدفع على تجارته عشراً ولا يتعرض له احد بسوء في سائر مملكته. وبعد ذلك أمر له بخلعة سنيّة.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 60

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك أمر بكتابة منشور للتاجر على طبق مراده من أنه لا يدفع على تجارته عشراً ابداً، ولا يتعرّض له احد بسوء في تجارته. وبعد ذلك أمر له بخلعة سنيّة ثم صرف جميع مَنْ عنده، ولم يبقَ عنده غير القضاة والتاجر. وقال للقضاة: أريد أن تسمعوا من ألفاظ هذه الجارية ما يدلّ على عملها وأدبها من كل ما ادّعاه التاجر لنحقّق صدق كلامه. فقالوا: لا بأس بذلك. فأمر بإرخاء ستارة بينه هو ومَنْ معه وبين الجارية ومن معها، وصار جميع النساء التي مع الجارية خلف الستارة يقبّلن يديها ورجليها لما علموا أنها صارت زوجة الملك. ثم درن حولها وقمن بخدمتها وخفّفن ما عليها من الثياب، وصرن ينظرن حسنها وجمالها. وسمعت نساء الأمراء والوزراء أن الملك شركان اشترى جارية لا مثل لها في الجمال والعلم والأدب، وأنها حوت جميع العلوم. وقد وزن ثمنها ثلثمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار وأعتقها وكتب كتابه عليها، وأحضر القضاة الأربعة لأجل امتحانها، حتى ينظر كيف تجاوبهم عن أسئلتهم. فطلب النساء الإذن من ازواجهن ومضين إلى القصر الذي فيه نزهة الزمان. فلمّا دخلن عليها وجدن الخدم وقوفاً بين يديها، وحين رأت نساء الأمراء والوزراء داخلة عليها قامت إليهن وقابلتهن وقامت الجواري خلفها، وتلقت النساء بالترحيب وصارت تتبسّم في وجوههن. فأخذت قلوبهن وأنزلتهن في مراتبهن كأنها تربّت معهن، فتعجبن من حسنها وجمالها وعقلها وأدبها وقلن لبعضهن: ما هذه جارية بل هي ملكة بنت ملك. وصرن يعظّمن قدرها وقلن لها: يا سيدتنا أضاءت بك بلدتنا وشرفت بلادنا ومملكتنا. فالمملكة مملكتك والقصر قصرك وكلنا جواريك. فبالله لا تخلينا من إحسانك والنظر إلى حسنك. فشكرتهن على ذلك. هذا كله والستارة مرخاة بين نزهة الزمان ومن عندها من النساء، وبين الملك شركان هو والقضاة الأربعة والتاجر. ثم بعد ذلك ناداها الملك شركان وقال لها: أيتها الجارية العزيزة في زمانها، إن هذا التاجر قد وصفك بالعلم والأدب وادّعى أنك تعرفين في جميع العلوم حتى علم النجوم. فاسمعينا من كل باب طرفاً يسيراً. فلما سمعت كلامه قالت: سمعاً وطاعةً أيها الملك. الباب الأول في السياسات والآداب الملكية وما ينبغي لولاة الأمور الشرعية وما يلزمهم من قبل الأخلاق المرضيّة. أعلم ايها الملك أن مقاصد الخلق منتهية إلى الدين والدنيا لأنه لا يتوصل أحد إلى الدين إلاّ بالدنيا. فإنّ الدنيا نِعْمَ الطريق إلى الآخرة وليس ينتظم أمر الدنيا إلاّ بأعمال اهلها. وأعمال الناس تنقسم على أربعة أقسام: الإمارة، والتجارة، والزراعة، والصناعة. فالإمارة ينبغي لها السياسة التامّة والفراسة الصادقة، لأن الإمارة مدار عمار الدنيا التي هي طريق إلى الآخرة. لأن الله تعالى جعل الدنيا للعباد كزاد المسافر إلى تحصيل المراد. فينبغي لكل إنسان أن يتناول منها بقدر ما يوصله إلى الله ولا يتبع في ذلك نفسه وهواه، ولو تناولها الناس بالعدل لانقطعت الخصومات. ولكنهم يتناولونها بالجور ومتابعة الهوى. فتسبّبت عن انهماكهم عليها الخصومات. فاحتاجوا إلى سلطان لأجل أن ينصف بينهم ويضبط أمورهم. ولولا ردع الملك الناس عن بعضهم، لغلب قويُّهم على ضعيفهم وقد قال أزدشير: إن الدين والملك توأمان؛ فالدين كنز والملك حارس، وقد دلّت الشرائع والعقول على أنه يجب على الناس أن يتّخذوا سلطاناً يدفع الظالم عن المظلوم، وينصف الضعيف من القوي ويكفّ بأس العاتي

والباغي . واعلم أيها الملك انه على قدر حسن أخلاق السلطان يكون الزمان . فإنه قد قال رسول الله ﷺ شيئان في الناس : ان صلحا صلح الناس وإن فسد أفسد الناس العلماء والأمراء . وقد قال بعض الحكماء : الملوك ثلاثة : ملك دين ، وملك محافظة على الحرمات ، وملك هوى . فأما ملك الدين فإنه يلزم رعيته باتّباع دينهم وينبغي ان يكون أدينهم ، لأنه هو الذي يقتدى به في أمور الدين ، ويلزم الناس طاعته فيما أمر به موافقاً للأحكام الشرعيّة . ولكنه ينزل الساخط منزلة الراضي بسبب التسليم إلى الأقدار . وأمّا ملك المحافظة على الحرمات فإنه يقوم بأمور الدين والدنيا ويلزم الناس باتّباع الشرع والمحافظة على المروءة ، ويكون جامعاً بين القلم والسيف . فمَنْ زاغ عمّا سطّر القلم زلّت به القدم ، فيقوّم اعوجاجه بحدّ الحسام وينشر العدل في جميع الآنام . واما ملك الهوى فلا دين له إلاّ اتّباع هواه ولم يخش سطوة مولاه الذي ولاّه فمآل ملكه إلى الدمار ونهاية عتوه إلى دار البوار . وقالت الحكماء : الملك يحتاج إلى كثير من الناس وهم محتاجون إلى واحد . ولأجل ذلك وجب أن يكون عارفاً بأخلاقهم ليرد اختلافهم إلى وفاقهم ويعمهم بعدله ويغمرهم بفضله . واعلم أيها الملك ، ان أزدشير وهو الثالث من ملوك الفرس ، قد ملك الأقاليم جميعها وقسَّمها على أربعة أقسام ، وجعل له من أجل ذلك أربع خواتم لكل قسم خاتم . الأول خاتم البحر والشرطة والمحاماة وكتب عليه النيابات ، الثاني خاتم الخراج وجباية الأموال وكتب عليه العمارة . الثالث خاتم القوت وكتب عليه الرخاء . الرابع خاتم المظالم وكتب عليه العدل . واستمرّت هذه الرسوم في الفرس إلى ان ظهر الإسلام . وكتب كسرى لابنه وهو في جيشه : لا توسعنَّ على جيشك فيستغنوا عنك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 61

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، ان كسرى كتب لابنه وهو في جيشه : لا توسعن على جيشك فيستغنوا عنك ، ولا تضيق عليهم فيضجروا منك . واعطهم عطاء مقتصداً وامنحهم منحاً جميلاً ووسّع عليهم في الرخاء ولا تضيّق عليهم في الشدّة . وروي أن أعرابياً جاء إلى المنصور وقال له : إجعل كلبك يتبعك . فغضب المنصور من الأعرابي لما سمع منه هذا الكلام . فقال أبو العباس الطوسي : أخشى أن يلوّح له غيرك برغيف فيتبعه ويتركك . فسكن غيظ المنصور وعلم أنها كلمة لا تخطىء ، وامر للأعرابي بعطيّة . واعلم أيها الملك ، أنه كتب عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز بن مروان حين وجهه إلى مصر : تفقّد كتابك وحجابك ، فإن الثابت يخبرك عنه كتابك والتوسيم تعرفك به حجابك ، والخارج من عندك يعرفك بجيشك . وكان عمر بن الخطاب إذا استخدم خادماً شرط عليه اربعة شروط : ان لا يركب البراذين وان لا يلبس الثياب النفيسة وان لا يأكل من الفيء وان لا يؤخرّ الصلاة عن وقتها . وقيل : لا مال أجود من العقل ولا عقل كالتدبير والحزم ولا حزم كالتقوى ، ولا قربة كحسن الخلق ، ولا ميزان كالأدب ، ولا فائدة كالتوفيق ، ولا تجارة كالعمل الصالح ولا ربح كثواب الله ، ولا ورع كالوقوف عند حدود السنة ، ولا علم كالتفكر ، ولا عبادة كالفرائض ولا إيمان كالحياء ، ولا حسب كالتواضع ، ولا شرف كالعلم . فاحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى ، واذكر الموت والبلاء . وقال عليّ : اتقوا اشرار النساء وكونوا منهن على حذر ، ولا

تشاورهنّ في أمر، ولا تضيّقوا عليهنّ في معروف حتى لا يطمعن في المكر. وقال: مَنْ ترك الاقتصاد حار عقله. وقال عمر رضي الله عنه: النساء ثلاثة: امرأة مسلمة تقية ودود ولود تعين بعلها على الدهر ولا تعين الدهر على بعلها، وأخرى تراد للولد لا تزيد على ذلك، وأخرى يجعلها الله غلاً في عنق مَنْ يشاء. والرجال أيضاً ثلاثة: رجل عاقل إذا أقبل على رأيه، وآخر أعقل منه وهو مَنْ إذا نزل به أمر لا يعرف عاقبته فيأتي ذوي الرأي فينزل عند آرائهم، وآخر حائر لا يعلم رشداً ولا يطيع مرشداً. والعدل لا بدّ منه في كل الأشياء، حتى إن الجواري يحتجن إلى العدل. وضربوا لذلك مثلاً في قطاع الطريق المقيمين على ظلم الناس، فإنهم لو لم يتناصفوا فيما بينهم ويستعملوا الواجب فيما يقسمونه لاختلّ نظامهم. وبالجملة: فسيّد مكارم الأخلاق، الكرم وحسن الخلق. وما أحسن قول الشاعر: [من الطويل]

بِبَذْلٍ وحِلْمٍ سادَ في قَوْمِهِ ٱلْفَتَى   وَكَوْنُـكَ إياهُ عَلَيْكَ يَسِيرُ

وقال الآخر: [من الطَّويل]

فَفِي الحِلْمِ تَقْدِيسٌ وفي ٱلْعَفْوِ هَيْبَةٌ   وفي الصِّدْقِ مَنْجاةٌ لِمَنْ كان صَادِقا
ومَنْ يَلْتَمِسْ حُسْنَ الثَّناءِ بِمالِهِ   يـكُنْ بالنَّدَى في حَلْبَةِ ٱلْمَجْدِ سَابِقَا

ثم إن نزهة الزمان تكلّمت في سياسة الملوك حتى قال الحاضرون: ما رأينا أحداً تكلم في باب السياسة مثل هذه الجارية، فلعلّها تسمعنا شيئاً من غير هذا الباب. فسمعت نزهة الزمان ما قالوه وفهمته. فقالت: وأما باب الأدب، فإنه واسع المجال لأنه مجمع الكمال. فقد اتّفق أن بني تميم وفدوا على معاوية ومعهم الأحنف بن قيس، فدخل حاجب معاوية عليه ليستأذنه لهم في الدخول، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أهل العراق يريدون الدخول عليك ليتحدّثوا معك فاسمع حديثهم. فقال معاوية: انظروا مَنْ بالباب. فقالوا: بنو تميم. قال: ليدخلوا. فدخلوا ومعهم الأحنف بن قيس. فقال له معاوية: إقرب مني يا أبا بحر بحيث أسمع كلامك. ثم قال: يا أبا بحر كيف رأيك لي؟ قال: يا أمير المؤمنين، إفرق الشعر وقصّ الشارب وقلّم الأظافر وانتف الإبط واحلق العانة وادم السواك. فإن فيه اثنين وسبعين فضيلة، وغسل الجمعة كفّارة لما بين الجمعتين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 62

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأحنف بن قيس قال لمعاوية لما سأله: وادم السواك فإن فيه اثنين وسبعين فضيلة وغسل الجمعة كفّارة لما بين الجمعتين. قال له معاوية: كيف رأيك لنفسك؟ قال: أوطىء قدمي على الأرض وأنقلها على تمهل وأراعيها بعيني. قال: كيف رأيك إذا دخلت على نفر من قومك دون الأمراء؟ قال: أطرق حياء وأبدأ بالسلام وأدع ما لا يعنيني وأقلّ الكلام. قال: كيف رأيك إذا دخلت على نظرائك؟ قال: أستمع لهم إذا قالوا ولا أجول عليهم إذا جالوا. قال: كيف رأيك إذا دخلت على أمرائك؟ قال: أسلّم من غير إشارة وانتظر الإجابة، فإن قربوني قربت وإن أبعدوني بعدت. قال: كيف رأيك مع زوجتك؟ قال: إعفني من هذا يا أمير المؤمنين. قال: أقسمت عليك أن تخبرني. قال: أحسن الخلق وأظهر العشرة وأوسع النفقة، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج. قال: فما رأيك إذا

أردت ان تجامعها؟ قال: أكلمها حتى تطيب نفسها وألثمها حتى تطرب، فإن كان الذي تعلم طرحتها على ظهرها وإن استقرّت النقطة في قرارها، قلت: اللّهم اجعلها مباركة ولا تجعلها شقيّة، وصوّرها أحسن تصوير. ثم أقوم عنها إلى الوضوء فأفيض الماء على يديّ ثم أصبّه على جسدي ثم أحمد الله على ما أعطاني من النعم. فقال معاوية: أحسنت في الجواب، فقل حاجتك. فقال: حاجتي أن تتّقي الله في الرعيّة وتعدل بينهم بالسويّة. ثم نهض قائماً من مجلس معاوية. فلما ولّى قال معاوية: لو لم يكن بالعراق إلاّ هذا لكفى. ثم إن نزهة الزمان قالت: وهذه النبذة من جملة باب الادب، واعلم ايها الملك أنه كان معيقب عاملاً على بيت المال في خلافة عمر بن الخطاب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 63

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نزهة الزمان قالت: واعلم أيها الملك انه كان معيقب عاملاً على بيت المال في خلافة عمر بن الخطاب، فاتّفق أنه رأى ابن عمر يوماً فأعطاه درهماً من بيت المال. قال معيقب: وبعد أن أعطيته الدرهم انصرفت إلى بيتي. فبينما أنا جالس وإذا برسول عمر جاءني فرهبت منه وتوجّهت إليه، فإذا الدرهم في يده وقال لي: ويحك يا معيقب، إني قد وجدت في نفسك شيئاً. قلت: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: إنك تخاصم أمّة محمد ﷺ في هذا الدرهم يوم القيامة. وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري كتاباً مضمونه: إذا جاءك كتابي هذا فاعطِ الناس الذي لهم واحمل إليّ ما بقي. ففعل. فلما ولّى عثمان الخلافة، كتب إلى أبي موسى مثل ذلك. ففعل وجاء زياد معه. فلما وضع الخراج بين يدي عثمان جاء ولده فأخذ منه درهماً، فبكى زياد. فقال عثمان: ما يبكيك؟ قال: أتيت عمر بن الخطاب بمثل ذلك فأخذ إبنه درهماً فأمر بنزعه من يده، وابنك أخذ فلم أرَ أحداً ينزعه منه أو يقول له شيئاً. فقال عثمان: وأين تلقى مثل عمر؟ وروى زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال: خرجت مع عمر ذات ليلة حتى أشرفنا على نار تضرم، فقال: يا أسلم، إني أحسب هؤلاء ركباً أضرّ بهم البرد. فانطلق بنا إليهم فخرجنا حتى أتينا إليهم، فإذا امرأة توقد ناراً تحت قدر ومعها صبيان يتضرّعون. فقال عمر: السلام عليكم أصحاب الضوء، وكره أن يقول أصحاب النار، ما بالكم؟ قالت: أضرّ بنا البرد والليل. قال: فما بال هؤلاء القوم يتضرعون؟ قالت: من الجوع. قال: فما هذه القدر؟ قالت: ما أسكتهم به، وإن عمر بن الخطاب ليسأله الله عنهم يوم القيامة. قال: وما يدري عمر بحالهم؟ قالت: كيف يتولى أمور الناس ويغفل عنهم؟ قال أسلم: فاقبل عمر عليّ وقال: إنطلق بنا. فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الصرف فأخرج عدلاً فيه دقيق وإناء فيه شحم ثم قال: حمّلني هذا. فقلت: أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين. فقال: أتحمل عني وزري يوم القيامة؟ فحمّلته إياه وخرجنا نهرول حتى ألقينا ذلك العدل عندها، ثم أخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول للمرأة: تردّدي إلي، وكان ينفخ تحت القدر وكان ذو لحية عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ وأخذ مقداراً من الشحم فرماه فيه. ثم قال: أطعميهم وأنا أبرد لهم. ولم يزالوا حتى أكلوا وشبعوا وترك الباقي عندها. ثم أقبل عليّ وقال: يا أسلم، إني رأيت الجوع ابكاهم، فأحببت أن لا انصرف حتى يتبيَّن لي سبب الضوء الذي رأيته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 64

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن نزهة الزمان قالت : قيل : إن عمر مرّ براعٍ مملوك فاستباعه شاة فقال له : إنها ليست لي . فقال : أنت القصد فاشتراه ثم أعتقه . وقال : اللّهم كما رزقتني العتق الأصغر فارزقني العتق الأكبر . وقيل : إن عمر بن الخطاب كان يطعم الحليب للخدم ويأكل الغليظ ، ويكسوهم اللين ويلبس الخشن ، ويعطي الناس حقوقهم ويزيد في عطائهم . وأعطى رجلاً اربعة آلآف درهم وزاده ألفاً ، فقيل له : أما تزيد إبنك كما زدت هذا ؟ قال : هذا ثبت والده يوم احد . وقال الحسن : أتى عمر بمال كثير فأتته حفصة وقالت له : يا أمير المؤمنين حقّ قرابتك . فقال : يا حفصة إنما أوصى الله بحق قرابتي ، وأما مال المسلمين فلا . يا حفصة قد أرضيت قومك وأغضبت أباك . فقامت تجرّ ذيلها . وقال ابن عمر : تضرّعت إلى ربي سنة من السنين أن يريني أبي حتى رأيته يمسح العرق عن جبينه . فقلت له : ما حالك يا والدي ؟ فقال : لولا رحمة ربي لهلك أبوك . ثم قالت نزهة الزمان : إسمع أيها الملك السعيد الفصل الثاني من الباب الثاني وهو : باب الأدب والفضائل وما ذكر فيه من أخبار التابعين والصالحين . قال الحسن البصري : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلاّ وهو يتأسف على ثلاثة اشياء : عدم تمتُّعه بما جمع ، وعدم إدراكه لما أمل ، وعدم استعداده بكثرة الزاد لما هو قادم عليه . وقيل لسفيان : هل يكون الرجل زاهداً وله مال ؟ قال : نعم . إذا كان متى ابتلى صبر ومتى أعطى شكر . وقيل : لما حضرت عبد الله بن شدّاد الوفاة ، أحضر ولده محمّداً فأوصاه وقال له : يا بني ، إني لأرى داعي الموت قد دعاني ، فاتّق ربّك في السرّ والعلانية واشكر الله على ما أنعم واصدق في الحديث ، فالشكر يؤذن بازدياد النعم ، والتقوى خير زاد في المعاد كما قال بعضهم : [من الوافر]

وَلَسْتُ أَرَى السَّعادَةَ جَمْعَ مالٍ ... وَلَـكِنَّ ٱلتَقِيَّ هُوَ ٱلسَّعِيدُ
وتَقْوَى اللهِ خَيْرُ الزّادِ حَقّاً ... وعِنْدَ اللهِ تَلْقَى ما تُرِيْدُ

ثم قالت نزهة الزمان : ليسمع الملك هذه النكت من الفصل الثاني من الباب الأول . قيل لها : وما هي ؟ قالت : لما ولّى عمر بن العزيز الخلافة ، جاء لأهل بيته فأخذ ما بأيديهم ووضعه في بيت المال ، ففزعت بنو أميّة إلى عمّته فاطمة بنت مروان ، فأرسلت إليه قائلة أنّه : لا بدّ من لقائك . ثم أتته ليلاً فأنزلها عن دابتها . فلما أخذت مجلسها ؛ قال لها : يا عمة ، أنت أولى بالكلام لأن الحاجة لك ، فاخبريني عن مرادك . فقالت : يا أمير المؤمنين أنت أولى بالكلام ورأيك يستشف ما يخفي عن الإفهام . فقال عمر بن عبد العزيز : إن الله تعالى بعث محمّداً رحمة للعالمين وعذا بالقوم آخرين ، ثم اختار له ما عنده ، فقبضه إليه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 65

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن نزهة الزمان قالت : فقال عمر بن عبد العزيز : إن الله بعث محمّداً ﷺ رحمة للعالمين ، وعذا بالقوم آخرين ثم اختار له ما عنده ، فقبضه إليه وترك للناس نهراً يروي عطاشهم . ثم قام أبو بكر خليفة بعده . فأجرى النهر مجراه وعمل ما يرضي الله . ثم قام عمر بعد أبي بكر فعمل خير أعمال الابرار واجتهد اجتهاداً ما يقدر

أحد على مثله . فلمّا قام عثمان اشتق من النهر نهراً ثم ولّى معاوية فاشتق منه الأنهار . ثم لم يزل كذلك يشتق منه يزيد وبنو مروان كعبد الملك والوليد وسليمان حتى آل الأمر إليّ ، فأحببت ان أرد النهر إلى ما كان عليه ، فقالت : قد أردت كلامك ومذاكرتك فقط ، فإن كانت هذه مقالتك فلست بذاكرة لك شيئاً . ورجعت إلى بني أمية فقالت لهم : ذوقوا عاقبة أمركم بتزويجكم إلى عمر بن الخطاب . وقيل : لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة جمع اولاده حوله فقال له مسلمة بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، كيف تترك أولادك فقراء وأنت راعيهم ؟ فما يمنعك احد في حياتك من ان تعطيهم من بيت المال ما يغنيهم وهذا اولى من ان ترجعه إلى الوالي بعدك . فنظر إلى مسلمة نظر مغضب متعجّب ثم قال : يا مسلمة ، منعتهم أيام حياتي فكيف أشقى بهم بعد مماتي ؟ ان أولادي ما بين رجلين إما مطيع لله تعالى فالله يصلح شأنه ، وإما عاص فما كنت لأعينه على معصية يا مسلمة . إني حضرت وإياك حين دفن بعض بني مروان ، فحملتني عيني فرأيته في المنام أفضي إلى امر من أمور الله عزّ وجل ، فهالني وراعني . فعاهدت الله ان لا أعمل عمله إن وليّت وقد اجتهدت في ذلك مدّة حياتي ، وأرجو ان افضي إلى عفو ربي . قال مسلمة : بقي رجل حضرت دفنه ، فلمّا فرغت من دفنه حملتني عيني فرأيته يرى النائم في روضة فيها أنهار جارية وعليه ثياب بيض ، فاقبل عليٍّ وقال : يا مسلمة لمثل هذا فليعمل العاملون ونحو هذا كثير . وقال بعض الثقات : كنت أحلب الغنم في خلافة عمر بن عبد العزيز فمررت براع فرأيت مع غنمه ذئباً أو ذئاباً ، فظننت أنها كلابها ، ولم أكن رأيت الذئاب قبل ذلك ، فقلت : ما تصنع بهذه الكلاب ؟ فقال : إنها ليست كلاباً بل هي ذئاب . فقلت : هل ذئاب في غنم لم تضرها ؟ فقال : إذا صلح الرأس صلح الجسد . وخطب عمر بن عبد العزيز على منبر من طين فحمد الله وأثنى عليه ، ثم تكلّم بثلاث كلمات فقال : أيها الناس أصلحوا أسراركم لتصلح علانيتكم لإخوانكم وتكفوا أمر دنياكم ، واعلموا ان الرجل ليس بينه وبين آدم رجل حيّ في الموتى ، مات عبد الملك ومَنْ قبله ، ويموت عمر ومَنْ بعده . فقال له مسلمة : يا أمير المؤمنين ، لو علمنا لك متّكئاً لتعتمد عليه قليلاً . فقال : أخاف ان يكون في عنقي منه إثم يوم القيامة . ثم شهق شهقة فخرّ مغشياً عليه . فقالت فاطمة : يا مريم يا مزاحم يا فلان انظروا هذا الرجل . فجاءت فاطمة تصب عليه الماء وتبكي حتى افاق من غشيته ، فرآها تبكي فقال : ما يبكيك يا فاطمة ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، رأيت مصرعك بين أيدينا فتذكرت مصرعك بين يدي الله عزّ وجل ، للموت وتخلّيك عن الدنيا وفراقك لنا ، فذاك الذي أبكانا . فقال : حسبك يا فاطمة ، فلقد أبلغت . ثم اراد القيام فنهض فسقط ، فضمّته فاطمة إليها وقالت : بأبي انت وأمي يا أمير المؤمنين ، ما نستطيع ان نكلمك كلنا . ثم إن نزهة الزمان قالت لأخيها شركان وللقضاة الأربعة : تتمّة الفصل الثاني من الباب الأول . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 66

قالت : بلغني ايها الملك السعيد ، أن نزهة الزمان قالت لأخيها شركان وهي لم تعرفه بحضور القضاة الأربعة والتاجر : تتمة الفصل الثاني من الباب الأول . اتفق انه كتب عمر بن عبد العزيز إلى اهل الموسم : أمّا بعد ، فإني اشهد الله في الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج الأكبر ، إني أبرأ من ظلمكم وعدوان من اعتدى عليكم ان اكون امرت بذلك

وتعمّدته ، أو يكون أمر من اموره بلغني أو احاط به علمي . وارجو ان يكون لذلك موضعاً من الغفران . إلاّ إنه لا إذن مني بظلم احد ، فإني مسؤول عن كل مظلوم ، إلاّ وأي عامل من عمالي زاغ عن الحقّ وعمل بلا كتاب ولا سنّة ، فلا طاعة له عليكم حتى يرجع إلى الحق . وقال رضي الله عنه : ما احب ان يخفّف عني الموت لأنه آخر ما يؤجر عليه المؤمن . وقال بعض الثقات : قدمت على امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، فرأيت بين يديه اثني عشر درهماً ، فامر بوضعها في بيت المال . قلت : يا امير المؤمنين إنك أفقرت اولادك وجعلتهم عيالاً لا شيء لهم ، فلو أوصيت إليهم بشيء وإلى مَنْ هو فقير من أهل بيتك ؟ فقال : أدن مني . فدنوت منه فقال : اما قولك أفقرت أولادك فاوص إليهم أو إلى مَنْ هو فقير من أهل بيتك ، فغير سديد ، لأن الله خليفتي على أولادي وعلى مَنْ هو فقير من أهل بيتي ، وهو وكيل عليهم وهم ما بين رجلين : إما رجل يتّقي الله فسيجعل الله له مخرجاً ، وإما رجل معتكف على المعاصي فإني لم أكن لأقوّيه على معصيّة الله . ثم بعث إليهم وأحضرهم بين يديه ، وكانوا اثني عشر ذكراً . فلما نظر إليهم ذرفت عيناه بالدموع ثم قال : إن اباكم ما بين أمرين : إما أن تستغنوا فيدخل أبوكم النار ، وإما ان تفتقروا فيدخل ابوكم الجنة . ودخول ابيكم الجنة أحب إليه من أن تستغنوا . قوموا قد وكّلت امركم إلى الله . وقال خالد بن صفوان : صحبني يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد الملك ، فلما قدمت عليه وقد خرج بقرابته وخدمه ، فنزل في أرض وضرب له خياماً . فلما أخذت الناس مجالسهم ، خرجت من ناحية البساط فنظرت إليه ، فلما صارت عيني في عينه قلت له : تمّمَ الله نعمته عليك يا أمير المؤمنين وجعل ما قلدك من هذه الأمور رشداً ولا خالط سرورك أذى يا أمير المؤمنين ، إني لم أجد لك نصيحة أبلغ منْ حديث من سلف قبلك من الملوك . فاستوى جالساً وكان متكئاً وقال : هات ما عندك يا ابن صفوان . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن ملكاً من الملوك خرج قبلك في عام قبل عامك هذا إلى هذه الأرض ، فقال لجلسائه : هل رأيتم مثل ما أنا فيه ؟ وهل أعطى أحد مثل ما أعطيته ؟ وكان عنده رجل من بقايا حملة الحجّة والمعينين على الحق السالكين في منهاجه فقال : أيها الملك ، إنك سألت عن أمر عظيم أتأذن لي في الجواب عنه ؟ قال : نعم . قال : أرأيت الذي أنت فيه شيئاً لم يزل أم شيئاً زائلاً ؟ فقال : هو شيء زائل . قال : فما لي أراك قد أعجبت بشيء تكون فيه قليلاً وتسأل عنه طويلاً وتكون عند حسابه مرتهناً ؟ قال : فأين المهرب وأين المطلب ؟ قال : أن تقيم في ملكك فتعمل بطاعة الله تعالى ، أو تلبس أطمارك وتعبد ربك حتى يأتيك أجلك ، فاذا كان السحر فإني قادم عليك . قال خالد بن صفوان : ثم إن الرجل قرع عليه بابه عند السحر فرآه قد وضع تاجه وتهيّأ للسياحة من عظم موعظته ، فبكى هشام بن عبد الملك بكاء كثيراً حتى بلّ لحيته وأمر بنزع ما عليه ولزم قصره . فأتت الموالي والخدم إلى خالد بن صفوان وقالوا : أهكذا فعلت بأمير المؤمنين ، أفسدت لذّته ونغّصت حياته ! ثم إن نزهة الزمان قالت لشركان : وكم في هذا الباب من النصائح إني لأعجز عن الإتيان بجميع ما في هذا الباب في مجلس واحد ؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 67

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن نزهة الزمان قالت لشركان : وكم في هذا الباب من النصائح ؟ إني لأعجز عن الإتيان لك بجميع ما في هذا الباب في مجلس واحد ولكن ، على طول الأيام يا ملك الزمان يكون خير . فقالت القضاة : أيها الملك إن هذه الجارية أعجوبة الزمان ويتيمة العصر والأوان ، فإننا ما رأينا ولا سمعنا بمثلها في زمن من الأزمان . ثم إنهم دعوا للملك وانصرفوا . فعند ذلك التفت شركان إلى خدّامه وقال لهم : إشرعوا في عمل العرس وهيّؤوا الطعام من جميع الألوان . فامتثلوا أمره في الحال وهيؤوا جميع الأطعمة ، وأمر نساء الأمراء والوزراء وأرباب الدولة أن لا ينصرفوا حتى يحضروا الجلاء والعرس . فما جاء وقت العصر حتى مدّوا السفرة مما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، وأكل جمع الناس حتى اكتفوا . وأمر الملك أن تحضر كل مغنّية في دمشق فحضرن ، وكذلك جواري الملك اللاتي يعرفن الغناء ، وطلع جميعهنّ إلى القصر . فلمّا أتى المساء واظلم الظلام أوقدوا الشموع من باب القلعة إلى باب القصر يميناً وشمالاً ، ومشى الأمراء والوزراء والكبراء بين يدي الملك شركان ، وأخذت المواشط الصبية لتزيّنها وتلبسها ، فرأتها لا تحتاج إلى زينة . وكان الملك شركان قد دخل الحمام ، فلما خرج ، جلس على المنصّة وجليت عليه العروس ، ثم خفّفوا عنها ثيابها وأوصَوْها بما توصى به البنت ليلة الزفاف ، ودخل عليها شركان وأخذ وجهها وعلقت منه في تلك الليلة وأعلمته بذلك . ففرح فرحاً شديداً وأمر الحكماء أن يكتبوا تاريخ الحمل . فلمّا أصبح ، جلس على الكرسي وطلع له أرباب دولته وهنؤوه ، وأحضر كاتب سره وأمره أن يكتب كتاباً لوالده عمر النعمان بأنه اشترى جارية ذات علم وأدب قد حوت فنون الحكمة ، وإنه لا بدّ من إرسالها إلى بغداد لتزور أخاه ضوء المكان وأخته نزهة الزمان ، وإنه أعتقها وكتب كتابه عليها ودخل بها وحملت منه . ثم ختم الكتاب وأرسله إلى أبيه صحبة بريد . فغاب ذلك البريد شهراً كاملاً ثم رجع إليه بالجواب وناوله إياه فأخذه وقرأه ، فإذا فيه بعد البسملة : هذا من عند الحائر الولهان الذي فقد الولدان وهجر الأوطان الملك عمر النعمان إلى ولده شركان ، أعلم أنه بعد مسيرك من عندي ضاق عليّ المكان حتى لا أستطيع صبراً ولا أقدر أن أكتم سرّاً ، وسبب ذلك أنني ذهبت إلى الصيد والقنص وكان ضوء المكان قد طلب مني الذهاب إلى الحجاز ، فخفت عليه نوائب الزمان ومنعته من السفر إلى العام الثاني أو الثالث . فلما ذهبت إلى الصيد والقنص غبت شهراً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 68

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، إن الملك عمر النعمان قال في مكتوبه : فلما ذهبت إلى الصيد والقنص غبت شهراً ، فلما أتيت وجدت أخاك وأختك أخذا شيئاً من المال وسافرا مع الحجاج خفية . فلما علمت بذلك ، ضاق بي الفضاء وقد انتظرت مجيء الحجاج لعلّهما يجيئان معهم . فلما جاء الحجاج سألت عنهم فلم يخبرني أحد بخبرهما . فلبست لأجلهما ثياب الحزن وأنا مرهون الفؤاد عديم الرقاد غريق دمع العين . ثم أنشد هذين البيتين : [من الطّويل]

خَيَالُهُما عِنْدِي ولَيْسَ بِغَائِبٍ　　جَعَلْتُ له في ٱلْقَلْبِ أَشْرَفَ مَوْضِعِ
ولَوْلا رَجاءُ العَوْدِ ما عِشْتُ ساعَةً　　ولَوْلا خيالُ ٱلطَّيْفِ لَمْ أَتَهَجَّعِ

ثم كتب من جملة المكتوب : وبعد السلام عليك وعلى من عندك ، أعرفك انك لا تتهاون في كشف الأخبار فإن هذا علينا عار . فلما قرأ الكتاب ، حزن على ابيه وفرح لفقد أخته واخيه ، واخذ الكتاب ودخل به على زوجته نزهة الزمان ولم يعلم أنها أخته وهي لا تعلم انه أخوها ، مع أنه يتردّد عليها ليلاً ونهاراً ، إلى ان كملت اشهرها وجلست على كرسي الطلق ، فسهّل الله عليها الولادة فولدت بنتاً . فأرسلت تطلب شركان ، فلما رآته قالت له : هذه بنتك فسمّها ما تريد . فقال : عادة الناس ان يسمّوا أولادهم في سابع يوم ولادتهم . ثم انحنى شركان على ابنته وقبّلها فوجد في عنقها خرزة معلّقة من الثلاث خرزات التي جاءت بها الملكة إبريزة من بلاد الروم . فلما عاين الخرزة معلّقة في عنق ابنته غاب عقله واشتدّ به الغيظ وحملق عينيه في الخرزة حتى عرفها حق المعرفة ، ثم نظر إلى نزهة الزمان وقال لها : من أين جاءتك هذه الخرزة يا جارية ؟ فلما سمعت من شركان ذلك الكلام قالت له : أنا سيدتك وسيّدة كل مَنْ في قصرك . أمَا تستحي وأنت تقول يا جارية وأنا ملكة بنت ملك ؟ والآن زال الكتمان واشتهر الأمر وبان . أنا نزهة الزمان بنت الملك عمر النعمان . فلما سمع منها هذا الكلام لحقه الارتعاش وأطرق برأسه إلى الأرض . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 69

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن شركان لما سمع هذا الكلام ، ارتجف قلبه واصفرّ لونه ولحقه الارتعاش وأطرق برأسه إلى الأرض وعرف أنها أخته من أبيه ، فغاب عن الدنيا . فلما أفاق صار يتعجّب ولكنه لم يعرّفها بنفسه وقال لها : يا سيدتي ، هل أنت بنت الملك عمر النعمان؟ قالت : نعم . فقال لها : وما سبب فراقك لأبيك وبيعك؟ فحكت له جميع ما وقع من الأول إلى الآخر ، وأخبرته أنها تركت أخاها مريضاً في بيت المقدس وأخبرته باختطاف البدوي لها وبيعه إياها للتاجر . فلما سمع شركان ذلك الكلام تحقّق أنها أخته من أبيه وقال في نفسه : كيف أتزوج بأختي؟ لكن أنا أزوّجها لواحد من حجابي ، وإذا ظهر أمر ، أدّعي أنني طلّقتها قبل الدخول وزوّجتها بالحاجب الكبير . ثم رفع رأسه وتأسّف وقال : يا نزهة الزمان أنت أختي حقيقة وأستغفر الله من هذا الذنب الذي وقعنا فيه ، فإنني أنا شركان بن الملك عمر النعمان . فنظرت اليه وتأمّلته فعرفته . فلمّا عرفته غابت عن صوابها وبكت ولطمت وجهها وقالت : قد وقعنا في ذنب عظيم ، ماذا يكون العمل وما أقول لأبي وأمي إذا قالا لي : من أين جاءتك هذه البنت؟ فقال : شركان : الرأي أن أزوّجك بالحاجب وأدعك تربي بنتي في بيته ، بحيث لا يعلم أحد بأنك أختي . وهذا الذي قدّره الله علينا لأمر أراده ، فما يسترنا إلاّ زواجك بهذا الحاجب قبل أن يدري أحد . ثم صار يأخذ بخاطرها ويقبّل رأسها فقالت له : وما تسمّي البنت؟ قال : أسميها قضى فكان . ثم زوّجها للحاجب الكبير ونقلها إلى بيته هي وبنتها ، فربّوها على أكتاف الجواري وواظبوا عليها بالأشربة وأنواع السفوف . هذا كله وأخوها ضوء المكان مع الوقّاد بدمشق . فاتّفق أنه أقبل بريد يوماً من الأيام من عند الملك عمر النعمان إلى

الملك شركان ومعه كتاب، فأخذه وقراه فراى فيه بعد البسملة : أعلم أيها الملك العزيز أني حزين حزناً شديداً على فراق الأولاد، وعدمت الرقاد ولازمني السهاد، وقد أرسلت هذا الكتاب إليك فحال حصوله بين يديك ترسل إلينا الخراج وترسل صحبته الجارية التي اشتريتها وتزوّجت بها، فإني أحببت ان اراها واسمع كلامها، لأنه جاءنا من بلاد الروم عجوز من الصالحات وصحبتها خمس جوار نهد ابكار، وقد حازوا من العلم والأدب وفنون الحكمة ما يجب على الانسان معرفته ويعجز عن وصف هذه العجوز ومَنْ معها اللسان. فإنهنَّ حزن أنواع العلم والفضيلة والحكمة. فلما رايتهنَّ احببتهنَّ وقد اشتهيت ان يكنّ في قصري وفي ملك يدي، لأنه لا يوجد لهنَّ نظير عند سائر الملوك. فسألت المراة العجوز عن ثمنهن : فقالت : لا ابيعهن إلاّ بخراج دمشق. وأنا والله أرى خراج دمشق قليلاً في ثمنهن، فإن الواحدة منهن تساوي اكثر من هذا المبلغ. فأجبتها إلى ذلك ودخلت بهنّ قصري وبقين في حوزتي. فعجّل لنا بالخراج لأجل ان تسافر المراة إلى بلادها، وارسل إلينا الجارية لأجل أن تناظرهنّ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 70

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك عمر النعمان قال في مكتوبه : وارسل إلينا الجارية لأجل أن تناظرهنّ بين العلماء، فإذا غلبتهن أرسلتها إليك وصحبتها خراج بغداد. فلمّا علم ذلك شركان أقبل على صهره وقال له : هات الجارية التي زوّجتك إياها. فلما حضرت أوقفها على الكتاب وقال لها : يا أختي، ما عندك من الرأي في ردّ الجواب؟ قالت له : الراي رأيك. ثم قالت له وقد اشتاقت إلى أهلها ووطنها : أرسلني صحبة زوجي الحاجب لأجل ان أحكي لأبي حكايتي وأخبره بما وقع لي مع البدوي الذي باعني للتاجر، وأخبره بأن التاجر باعني لك وزوّجتني للحاجب بعد عتقي. فقال لها شركان : وهو كذلك. ثم أخذ ابنته قضى فكان وسلّمها للمراضع والخدم وشرع في تجهيز الخراج، وأمر الحاجب أن يأخذ الخراج والجارية صحبته ويتوجه إلى بغداد. فأجابه الحاجب : بالسمع والطاعة. فأمر له بمحفّة يجلس فيها وللجارية أيضاً، ثم كتب كتاباً وسلّمه للحاجب وودّع نزهة الزمان، وكان قد أخذ منها الخرزة وجعلها في عنق ابنته في سلسلة خالص من الذهب. ثم سافر الحاجب في تلك الليلة. فاتفق انه خرج ضوء المكان هو والوقّاد في تلك الليلة يتفرجان، فرأيا جمالاً وبغالاً محمّلة ومشاعل وفوانيس مضيئة، فسأل ضوء المكان عن هذه الأحمال وعن صاحبها فقال : هذا خراج دمشق مسافر إلى الملك عمر النعمان صاحب مدينة بغداد. فقال : ومَنْ رئيس هذه المحامل؟ قيل : هو الحاجب الكبير الذي تزوَّج الجارية التي تعلّمت العلم والحكمة. فعند ذلك بكى بكاء شديداً وتذكّر امه واباه واخته ووطنه وقال للوقّاد : ما بقي لي قعود هنا بل أسافر مع هذه القافلة وامشي قليلاً قليلاً حتى اصل إلى بلادي. فقال له الوقّاد : أنا أمنت عليك من القدس إلى دمشق، فكيف آمن عليك إلى بغداد؟ فأنا أكون معك حتى نصل إلى مقصدك. فقال ضوء المكان : حبّاً وكرامة. فشرع الوقّاد في تجهيز حاله، ثم شدّ الحمار وجعل خرجه عليه ووضع فيه شيئاً من الزاد وشدّ وسطه. وما زال على اهبة حتى جازت عليه الأحمال، والحاجب راكب على هجين، والمشاة حوله، وركب ضوء المكان حمار الوقّاد وقال للوقّاد : إركب معي.

فقال : لا اركب ولكن اكون في خدمتك . فقال ضوء المكان : لا بدّ ان تركب ساعة . فقال له : إذا تعبت فأركب ساعة . ثم إن ضوء المكان قال للوقّاد : يا اخي ، سوف تنظر ما افعل بك إذا وصلت إلى أهلي . وما زالوا مسافرين إلى ان طلعت الشمس ، فلما اشتدّ عليهم الحرّ امرهم الحاجب بالنزول ، فنزلوا واستراحوا وسقوا جمالهم ، ثم امرهم بالمسير وبعد خمسة ايام وصلوا إلى مدينة حماه ونزلوا واقاموا بها ثلاثة أيام . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 71

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنهم اقاموا في مدينة حماه ثلاثة أيام ثم سافروا ، وما زالوا مسافرين حتى وصلوا مدينة أخرى فأقاموا بها ثلاثة أيام ، ثم سافروا حتى وصلوا إلى ديار بكر وهبّ عليهم نسيم بغداد ، فتذكرّ ضوء المكان أخته نزهة الزمان وأباه وأمه ووطنه ، وكيف يرجع إلى أبيه بغير أخته ؟ فبكى وأنّ واشتكى واشتدّت به الحسرات فانشد هذه الأبيات : [من الطّويل]

خَلِيلَيَّ كَمْ هذا التَّأنِّي وأَصْبِرُ ... ولَمْ يَأْتِنِي مِنْكُمْ رَسُولٌ يُخَبِّرُ
ألا إنَّ أيّامَ الوِصال قَصيرَةٌ ... فيا لَيْتَ أيّامَ التَفَرُّقِ تَقْصُرُ
خُذُوا بِيَدِي ثم اكْشِفُوا الثَوْبَ وانْظُرُوا ... ضَنَى جَسَدِي لَكِنَّنِي أتَصَبَّرُ
فإنْ تَطْلُبُوا مِنِّي سُلُوّاً أقُلْ لَكُمْ ... فَواللهِ ما أَسْلُوْ إلي حِينِ أُحْشَرُ

فقال له الوقّاد : أترك هذا البكاء والأنين فإننا قريب من خيمة الحاجب . فقال ضوء المكان : لا بدّ من إنشادي شيئاً من الشعر لعلَّ نار قلبي تنطفىء . فقال له الوقّاد : بالله عليك أن تترك الحزن حتى تصل إلى بلادك وافعل بعد ذلك ما شئت وأنا معك حيث ما كنت . فقال ضوء المكان : والله لا افتر عن ذلك . ثم التفت بوجهه إلى ناحية بغداد وكان القمر مضيئاً ، وكانت نزهة الزمان لم تنم تلك الليلة لأنها تذكّرت أخاها ضوء المكان ، فقلعت وصارت تبكي . فبينما هي تبكي إذ سمعت أخاها ضوء المكان يبكي وينشد هذه الأبيات : [من مجزوء الرَّمل]

لَمَعَ ٱلْبَرْقُ اليَمانِي ... فَشَجاني ما شَجانِي
مِنْ حَبِيبٍ كانَ عِنْدِي ... ساقِياً كأسَ التَّهانِي
يَا وَمِيضَ ٱلْبَرْقِ هَلْ ... تَرْجِعُ أيّامُ التَّدانِي
يا عَذُوْلِي لا تَلُمْنِي ... إنّ ربِّي قَدْ بَلانِي
بِحَبِيبٍ غابَ عَنِّي ... وزَمانٍ قَدْ دَهَانِي
قَدْ نَأتْ نُزْهَةُ قَلْبِي ... عِنْدَما ولَّى زَمَانِي
وحَوَى لي الهَمَّ صِرْفاً ... وبِكَأْسٍ قَدْ سَقَانِي
وأَرانِي يا خَلِيلِي ... مِتُّ مِنْ قَبْلِ التَّدانِي
يا زَماناً لِلتَّصابي ... عُدْ قَرِيباً بالتَّهانِي
في سُرُوْرٍ مَعْ أمانٍ ... مَنْ لِسَهْمٍ قَدْ رَمَانِي

مَنْ لِمِسْكِينٍ غَرِيبٍ   باتَ مَرْعُوبَ الجَنانِ
صارَ في الحُزْنِ فَرِيداً   بَعْدَ نُزْهاتِ الزَّمانِ
حُكِّمَتْ فِينا بِرَغْمٍ   كَفُّ أَوْلادِ الزَّوانِي

فلما فرغ من شعره صاح وخرّ مغشياً عليه . هذا ما كان من أمره . وأما ما كان من أمر نزهة الزمان فإنها كانت ساهرة في تلك الليلة لأنها تذكّرت أخاها في ذلك المكان . فلما سمعت ذلك الصوت بالليل ارتاح فؤادها وقامت وتنحنحت ودعت الخادم . فقال لها : ما حاجتك ؟ فقالت له : قم وائتني بالذي ينشد هذه الأشعار . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 72

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن نزهة الزمان لما سمعت من أخيها الشعر ، دعت الخادم الكبير وقالت له : إذهب وائتني بمن ينشد هذه الاشعار . فقال لها : إني لم أسمعه ولم أعرفه والناس كلهم نائمون . فقالت له : كل مَنْ رأيته مستيقظاً فهو الذي ينشد الأشعار ففتش . فلم يرَ مستيقظاً سوى الرجل الوقّاد ، وأما ضوء المكان فإنه كان في غشيته . فلما رأى الوقّاد الخادم واقفاً على رأسه خاف منه . فقال له الخادم : هل أنت الذي كنت تنشد الشعر وقد سمعتك سيدتنا ؟ فاعتقد الوقّاد ان السيدة اغتاظت من الإنشاد فخاف وقال له : والله ما هو أنا . فقال له الخادم : ومَنْ الذي كان ينشد الشعر ؟ فدلّني عليه فإنك تعرفه لأنك يقظان . فخاف الوقّاد على ضوء المكان وقال في نفسه : ربما يضرّه الخادم بشيء . فقال : لم أعرفه . فقال له الخادم : والله إنك تكذب ، فإنه ما هنا قاعد إلاّ أنت فأنت تعرفه . فقال الوقّاد : أنا أقول لك الحق ، إن الذي كان ينشد الأشعار رجل عابر طريق وهو الذي أزعجني وأقلقني فالله يجازيه . فقال له الخادم : إذا كنت تعرفه فدلّني عليه وأنا امسكه وآخذه إلى باب المحفة التي فيها سيدتنا أو امسكه أنت بيدك . فقال له : إذهب أنت حتى آتيك به . فتركه الخادم وانصرف ودخل وأعلم سيدته بذلك وقال : ما أحد يعرفه لأنه عابر سبيل فسكتت . ثم إن ضوء المكان لما أفاق من غشيته رأى القمر وصل إلى وسط السماء وهبَّ عليه نسيم الأسحار فهيَّج في قلبه البلابل والأشجان فحسن صوته وأراد أن ينشد فقال له الوقّاد : ماذا تريد أن تصنع ؟ فقال له : أريد ان أنشد شيئاً من الشعر لأطفىء به نار قلبي . قال له : أنت ما علمت بما جرى لي وما سلمت من القتل إلاّ بأخذ خاطر الخادم . فقال له ضوء المكان : وماذا جرى ؟ فاخبرني بما وقع . فقال : يا سيدي قد أتاني الخادم وأنت مغشي عليك ومعه عصى طويلة من اللوز ، وجعل يتطلّع في وجوه الناس وهم نائمون ويسأل على مَنْ كان ينشد الأشعار ، فلم يجد من هو مستيقظ غيري ، فسألني فقلت له : إنه عابر سبيل . فانصرف وسلّمني الله منه وإلاّ كان قتلني فقال لي : إذا سمعته ثانياً فأتِ به عندنا . فلما سمع ضوء المكان ذلك بكى وقال : مَنْ يمنعني من الإنشاد ؟ فأنا انشد ويجري على ما يجري فإني قربت من بلادي وما أبالي بأحد . فقال له الوقّاد : أنت ما مرادك إلاّ هلاك نفسك . فقال له ضوء المكان : لا بدّ من إنشادي . فقال له الوقّاد : قد وقع الفراق بيني وبينك من هنا وكان مرادي أن لا افارقك حتى تدخل مدينتك وتجتمع بأبيك وامك ، وقد مضى لك عندي سنة ونصف ما حصل لك مني ما يضرّك ، فما سبب إنشادك الشعر ونحن في غاية التعب من المشي والسهر والناس قد

هجعوا ليستريحوا من التعب ومحتاجون إلى النوم ؟ فقال ضوء المكان : لا أرجع عمّا أنا فيه . ثم هزّته الأشجان فباح بالكتمان وجعل ينشد هذه الأبيات : [من البسيط]

قِفْ بالدِّيارِ وحَيِّ الأَرْبُعَ الدَّرِسا ... ونادِها فَعَساها أَنْ تُجِيبَ عَسَى
فإن أَجَنَّكَ لَيْلٌ مِنْ تَوَحُّشِها ... أَوْقِدْ مِنَ الشَّوْقِ في ظَلْمائِها قَبَسا
إن صَلَّ صِلُّ عِذَارَيْهِ فلا عَجَبٌ ... أَنْ يَجْني لَسْعاً وإني أَجْتَني لَعَسا
يا جَنَّةً فارَقَتْها النَّفْسُ مُكْرَهَةً ... لَولا التأسِّي بِدارِ الخُلْدِ مِتُّ أَسَى

وانشد أيضاً هذين البيتين : [من البسيط]

كُنَّا وكانَتْ لنا الأَيَّامُ خادِمَةً ... والشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ في أَبْهَجِ الْوَطَنِ
مَنْ لي بِدارِ أَحِبَّائي وكانَ بِها ... ضَوْءُ الْمَكانِ وفِيها نُزْهَةُ الزَّمَنِ

فلما فرغ من شعره، صاح ثلاث صيحات ثم وقع مغشياً عليه، فقام الوقّاد وغطّاه . فلما سمعت نزهة الزمان ما انشده من الأشعار المتضمّنة لذكر اسمها واسم أخيها ومعاهدهما، بكت وصاحت على الخادم وقالت له : ويلك، إن الذي انشد اولاً أنشد ثانياً وسمعته قريباً مني، والله إن لم تأتني به لأنبهنَّ عليك الحاجب فيضربك ويطردك . ولكن خذ هذه المائة دينار واعطه إياها وائتني به برفق ولا تضرّه، فإن أبى فادفع له هذا الكيس الذي فيه ألف دينار، فإن أبى فاتركه واعرف مكانه وصنعته ومن أي البلاد هو، وارجع إليَّ بسرعة ولا تغب . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 73

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن نزهة الزمان أرسلت الخادم يفتش عليه وقالت له : إذا وجدته فلاطفه وأتني به برفق ولا تغب . فخرج الخادم يتأمل في الناس ويلوس بينهم وهم نائمون فلم يجد أحداً مستيقظاً . فجاء إلى الوقّاد فوجده قاعداً مكشوف الرأس، فدنا منه وقبض على يده وقال له : أنت الذي كنت تنشد الشعر . فخاف على نفسه وقال : لا والله يا مقدم القوم، ما هو أنا . فقال له الخادم : لا أتركك حتى تدلّني على مَنْ كان ينشد الشعر لأني لا أقدر على الرجوع إلى سيدتي من غيره . فلما سمع الوقّاد كلام الخادم، خاف على ضوء المكان وبكى بكاء شديداً وقال للخادم : والله ما هو أنا، وإنما سمعت إنساناً عابر سبيل ينشد، فلا تدخل في خطيئتي فإني غريب وجئت من بلاد القدس والخليل معكم . فقال الخادم للوقّاد : قم انت إلى سيدتي واخبرها بفمك، فإني ما رأيت أحداً مستيقظاً غيرك . فقال له الوقّاد : أمَا جئت ورأيتني في الموضع الذي أنا قاعد فيه وعرفت مكاني ؟ وما أحد يقدر أن ينفك عن موضعه إلاّ أمسكته الحرس . فامضِ أنت إلى مكانك فإن بقيت تسمع أحداً من هذه الساعة ينشد شيئاً من الشعر سواء كان بعيداً أو قريباً لا تعرفه إلاّ مني، ثم باس رأس الخادم وأخذ بخاطره . فتركه الخادم ودار دورة وخاف أن يرجع إلى سيدته بلا فائدة فاستتر في مكان قريب من الوقّاد . فقام الوقّاد إلى ضوء المكان ونبّهه وقال له : قم أقعد حتى أحكي لك ما جرى، وحكى له ما وقع . فقال له : دعني فإني لا أبالي بأحد فإن بلادي قريبة . فقال الوقّاد لضوء المكان : لأي شيء

أنت مطاوع نفسك وهواك ولا تخاف من أحد وأنا خائف على روحي وروحك؟ فبالله عليك إنك لا تتكلم بشيء من الشعر حتى تدخل بلدك، وانا ما كنت أظنك على هذه الحالة. أما علمت أن زوجة الحاجب تريد زجرك لأنك أقلقتها وكأنها ضعيفة أو تعبانة من السفر، وكم مرة وهي ترسل الخادم يفتش عليك؟ فلم يلتفت ضوء المكان إلى كلام الوقّاد بل صاح ثالثاً وأنشد هذه الأبيات: [من مجزوء السريع]

تَرَكْتُ كُلَّ لائِمٍ مَـلامُهُ أَقْـلَقَنِي
يَعْذُلُنِي وَمَـا دَرَى بِـأَنَّـهُ حَرَّضَـنِي
قالَ الوُشاةَ: قَدْ سَلاَ قُلْتُ: لِحُبِّ الْوَطَنِ
قالُوا: فَما أَحْسَنَهُ قُلْتُ: فَما أَعْشَقَنِي
قالُوا: فَما أَعَزَّهُ قُـلْتُ: فَـما أَذَلَّنِي
هَيْهاتَ أَنْ أَتْرُكَهُ تَرْكي لَـهُ يَقْتُلُنِي
وما أَطَعْتُ لائِماً في حُبِّـيَ يَعْذِلُنِي

وكان الخادم يسمعه وهو مستخفٍ، فما فرغ من شعره إلاّ والخادم على رأسه. فلمّا رآه الوقّاد فرّ ووقف بعيداً ينظر ما يقع بينهما. فقال الخادم: السلام عليكم يا سيدي. فقال ضوء المكان: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فقال الخادم: يا سيدي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 74

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، انّ الخادم قال لضوء المكان: يا سيدي، إني أتيت إليك في هذه الليلة ثلاث مرات لأن سيدتي تطلبك عندها. قال: ومن أين هذه الكلبة حتى تطلبني؟ مقّتها الله ومقّت زوجها معها، ونزل في الخادم شتماً. فما قدر الخادم أن يردّ عليه جواباً لأن سيدته أوصته أنه لا يأتي به إلاّ بمراده هو، فإن لم يأتِ معه يعطه المائة دينار. فجعل الخادم يلين له الكلام ويقول له: يا ولدي، نحن أخطأنا معك ولا جرنا عليك، فالقصد أن تصل بخطواتك الكريمة إلى سيدتنا وترجع في خير وسلامة ولك عندنا بشارة. فلما سمع ذلك الكلام، قام ومشى بين الناس والوقّاد ماش خلفه وناظر إليه ويقول في نفسه: يا خسارة شبابه، في غد يشنقونه. وما زال الوقّاد ماشياً عن قرب من مكانهم وقال: ما أخسّه إن كان يقول عليّ، هو الذي قال لي أنشد الأشعار. هذا ما كان من أمر الوقاد. وأما ما كان من أمر ضوء المكان، فإنه ما زال ماشياً مع الخادم حتى وصل إلى المكان ودخل على نزهة الزمان وقال لها: قد جئت بما تطلبينه، وهو شاب حسن الصورة عليه أثر النعمة. فلمّا سمعت ذلك خفق قلبها وقالت له: أمره أن ينشد شيئاً من الشعر حتى أسمعه من قرب، وبعد ذلك، فاسأله عن اسمه ومن أي البلاد هو؟ فخرج الخادم إليه وقال له: أنشد شيئاً من الشعر حتى تسمعه سيدتي فإنها حاضرة بالقرب منك، واخبرني عن اسمك وبلدك وحالك. فقال: حبّاً وكرامة. ولكن حيث سألتني عن اسمي فإنه محى ورسمي فنى وجسمي بلى، ولي حكاية تكتب بالإبر على آماق البصر، وها أنا في منزلة السكران الذي أكثر من الشراب وحلّت به الأوصاب فتاه عن نفسه

واحتار في أمره وغرق في بحر الأفكار . فلمّا سمعت نزهة الزمان هذا الكلام بكت، وزادت في البكاء والأنين وقالت للخادم : قل له هل فارقت أحداً ممّن تحب مثل أمك وأبيك؟ فسأله الخادم كما أمرته نزهة الزمان . فقال ضوء المكان : نعم فارقت الجميع وأعزّهم عندي أختي التي فرّق الدهر بيني وبينها . فلما سمعت نزهة الزمان منه هذا الكلام قالت : الله يجمع شمله بمَنْ يحب . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 75

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن نزهة الزمان لما سمعت كلامه قالت : الله يجمع شمله بمن يحب . ثم قالت للخادم : قل له أسمعنا شيئاً من الأشعار المتضمّنة لشكوى الفراق . فقال له الخادم كما أمرته سيدته . فصعّد الزفرات وانشد هذه الأبيات :

[من مجزوء الرمل]

لَيْتَ شِعْرِي لَوْ دَرَوْا   أيَّ قَلْبٍ مَلَكُوا
وفُؤادي لَوْ دَرَى   أيَّ شِعْبٍ سَلَكُوا
أتُـراهُمْ سَلِمُوا   أمْ تَراهُمْ هَلَكُوا
حَارَ أَرْبابُ ٱلْهَوَى   فِيْ ٱلْهَوَى وٱرتَبَكُوا

وانشد أيضاً هذه الأبيات : [من البسيط]

أَضْحَى التَّنائِي بَدِيلاً مِنْ تَدانِينا   ونَابَ عَنْ طِيْبِ لُقْيانا تَجَافِيْنا
بِنْتُم وبِنَّا فما ٱبْتَلَّتْ جَوانحُنا   شَوْقًا إليكُمْ ولا جَفَّتْ مآقِينا
غِيظَ ٱلْعِدَى مِنْ تَساقِيْنا فَدَعَوْا   بأنْ نَغُصَّ فَقالَ الدَّهْرُ آمِيْنا
إنَّ ٱلزَّمانَ ٱلّذِي ما زَالَ يُضْحِكُنا   أُنْساً بِقُرْبِكُمُ قَد عادَ يُبْكِينا
يا جَنَّةَ الخُلْدِ بُدِّلْنا بِسَلْسَلِها   وٱلْكَوْثَرِ ٱلْعَذْبِ زَقُّومًا وَغِسْلِينا

ثم سكب العبرات وانشد هذه الأبيات : [من السريع]

لله نَذْرٌ إنْ أزُرْ مَكَانِي   وفِيهِ أُخْتِي نُزْهَةُ ٱلزَّمانِ
لأقْضِيَنَّ بالصَّفا زَمانِي   ما بَيْنَ غِيدٍ خُرَّدٍ حِسانِ
وصَوْتِ عُودٍ مُطْرِبِ الألحانِ   مَعَ ٱرْتضاعِ كأسٍ بِنْتِ ٱلْحَانِ
ورَشْفِ ٱلْمَى فاتِرِ الأجْفَانِ   بِشَطِّ نَهْرٍ سَالَ فِي بُسْتَانِ

فلمّا فرغ من شعره وسمعته نزهة الزمان، كشفت ذيل الستارة عن المحفّة ونظرت إليه، فلما وقع بصرها على وجهه عرفته غاية المعرفة . فصاحت قائلة : يا أخي يا ضوء المكان، فرفع بصره إليها فعرفها وصاح قائلاً : يا أختي يا نزهة الزمان . فألقت نفسها عليه فتلقاها في حضنه ووقع الاثنان مغشياً عليهما . فلما رآهما الخادم على تلك الحالة تعجّب في أمرهما وألقى عليهما شيئاً سترهما به وصبر عليهما حتى أفاقا . فلما أفاقا من غشيتهما، فرحت نزهة الزمان غاية الفرح وزال عنها الهمّ والترح وتوالت عليها المسرّات وانشدت هذه الأبيات : [من الكامل]

أَلْدَّهْرُ أَقْسَمَ لا يَزَالُ مُكَدِّرِي — حَنَثَتْ يَمِينُكَ يا زَمَانُ فَكَفِّرِي
أَلْسَّعْدُ وافَى وأَلْحَبِيبُ مُسَاعِدِي — فانْهَضْ إلى داعِي السُّرورِ وشَمِّرِ
ما كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَلْسَّوالِفَ جَنَّةً — حَتَّى ظَفِرْتُ مِنَ أَللَّمَى بالكَوْثَرِ

فلما سمع ذلك ضوء المكان، ضمّ اخته إلى صدره، وفاضت لفرط سروره من اجفانه العبرات وأنشد هذه الابيات : [من الكامل]

ولَقَدْ نَدِمْتُ على تَفَرُّقِ شَمْلِنا — نَدَماً افاضَ أَلْدَّمْعَ مِنْ أَجْفانِي
ونَذَرْتُ إنْ عادَ الزَّمانُ يَلُمُّنا — لا عُدْتُ أَذْكُرُ فُرْقَةً بِلِسانِي
هَجَمَ أَلْسُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إنَّهُ — مِنْ فَرْطِ ما قَدْ سَرَّنِي أَبْكانِي
يا عَيْنُ صارَ أَلْدَّمْعُ عِنْدَكِ عادَةً — تَبْكِينَ مِنْ فَرَحٍ وَمِنْ أَحْزانِي

وجلسا على باب المحفّة ساعة ثم قالت : قم داخل المحفّة واحكِ لي ما وقع لك، وأنا أحكي لك ما وقع لي . فقال ضوء المكان : إحكي لي انت أولاً . فحكت له جميع ما وقع لها منذ فارقته من الخان وما وقع لها من البدوي والتاجر، وكيف اشتراها منه وكيف أخذها التاجر إلى أخيها شركان وباعها له، وإن شركان أعتقها من حين اشتراها وكتب كتابه عليها ودخل بها، وإن الملك أبوها سمع بخبرها فأرسل إلى شركان يطلبها منه ثم قالت له : الحمد لله الذي مَنّ عليّ بك، ومثل ما خرجنا من عند والدنا سواء نرجع إليه سواء . ثم قالت له : إن أخي شركان زوّجني بهذا الحاجب لأجل أن يوصلني إلى والدي، وهذا ما وقع لي من الأول إلى الآخر . فاحك لي أنت ما وقع لك بعد ذهابي من عندك . فحكى لها جميع ما وقع له من الأول إلى الآخر، وكيف مَنّ الله عليه بالوقّاد، وكيف سافر معه وأنفق عليه ماله وأنه كان يخدمه في الليل والنهار . فشكرته على ذلك ثم قال لها : يا أختي، إن هذا الوقّاد فعل معي من الإحسان فعلاً لا يفعله أحد مع أحد من أحبابه ولا الوالد مع ولده، حتى كان يجوع ويطعمني ويمشي ويركبني، وكانت حياتي على يديه . فقالت له نزهة الزمان : إن شاء الله تعالى نكافئه بما نقدر عليه . ثم إن نزهة الزمان صاحت على الخادم، فحضر وقبّل يد ضوء المكان، وقالت له نزهة الزمان : خذ بشارتك يا وجه الخير لأنه كان جمع شملي بأخي على يديك، فالكيس الذي معك وما فيه لك . فاذهب وائتني بسيّدك عاجلاً . ففرح الخادم وتوجّه إلى الحاجب ودخل عليه ودعاه إلى سيدته . فأتى به ودخل على زوجته نزهة الزمان فوجد عندها أخاها، فسأل عنه فحكت له ما وقع لهما من أوله إلى آخره . ثم قالت : أعلم أيها الحاجب أنك ما أخذت جارية وإنما أخذت بنت الملك عمر النعمان، فأنا نزهة الزمان وهذا أخي ضوء المكان . فلمّا سمع الحاجب القصة منها تحقّق ما قالته وبان له الحق الصريح وتيقّن انه صار صهر الملك عمر النعمان . فقال في نفسه : مصيري ان آخذ نيابة على قطر من الأقطار . ثم اقبل على ضوء المكان وهنّاه بسلامته وجمع شمله باخته، ثم أمر خدمه في الحال ان يهيؤوا لضوء المكان خيمة ومركوباً من أحسن الخيل . فقالت له أخته : إنّا قد قربنا من بلادنا فأنا أختلي بأخي ونستريح مع بعضنا ونشبع من بعضنا قبل ان نصل إلى بلادنا، فإن لنا زمناً طويلاً ونحن مفترقان . فقال الحاجب : الأمر كما تريدان . ثم أرسل إليهما الشموع وأنواع الحلاوة وخرج من عندهما، وأرسل إلى ضوء المكان ثلاث بدلات من افخر الثياب، وتمشى إلى

أن جاء إلى المحفّة وعرف مقدار نفسه. فقالت له نزهة الزمان: أرسل إلى الخادم وأمره أن يأتي بالوقّاد ويهيء له حصاناً يركبه ويرتّب له سفرة طعام في الغداة والعشيّ ويأمره أنه لا يفارقنا. فعند ذلك، أرسل الحاجب إلى الخادم وأمره أن يفعل ذلك فقال: سمعاً وطاعةً. ثم إن الخادم أخذ غلمانه وذهب يفتش على الوقّاد إلى أن وجده في آخر الركب وهو يشدّ حماره ويريد أن يهرب ودموعه تجري على خدّه من الخوف على نفسه ومن حزنه على فراق ضوء المكان. وصار يقول: قد نصحته في سبيل الله فلم يسمع مني، يا ترى كيف حاله؟ فلم يتم كلامه إلاّ والخادم واقف على رأسه ودارت حوله الغلمان، فالتفت الوقّاد فرأى الخادم واقفاً فوق رأسه ورأى الغلمان حوله، فاصفرّ لونه وخاف. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 76

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوقّاد لما أراد أن يشدّ حماره ويهرب وصار يكلّم نفسه ويقول: يا ترى كيف حاله؟ فما تمّ كلامه إلاّ والخادم واقف على رأسه والغلمان حوله، فالتفت الوقّاد فرأى الخادم واقفاً على رأسه، فارتعدت فرائصه وخاف وقال وقد رفع صوته بالكلام: إنه ما عرف مقدار ما عملته معه من المعروف. فأظنّ أنه غمز الخادم وهؤلاء الغلمان عليّ وأنه أشركني معه في الذنب. وإذا بالخادم صاح عليه وقال له: من الذي كان ينشد الأشعار يا كذاب؟ كيف تقول لي أنا ما أنشدت الأشعار ولا أعرف من أنشدها؟ وهو رفيقك. فأنا لا أفارقك من هنا إلى بغداد، والذي يجري على رفيقك يجري عليك. فلما سمع الوقّاد كلامه قال في نفسه: ما خفت منه وقعت فيه. ثم أنشد هذا البيت: [من المنسرح]

كَانَ الَّذِي خِفْتُ أَنْ يَكُوْنَ ... إِنَّا إِلَى اللهِ رَاجِعُوْنَ

ثم إن الخادم صاح على الغلمان وقال لهم: أنزلوه عن الحمار. فأنزلوا الوقّاد عن حماره وأتوا له بحصان فركبه، ومشى صحبة الركب والغلمان حوله محدقون به. وقال لهم الخادم: إن عدم منه شعره كانت بواحد منكم، ولكن أكرموه ولا تهينوه. فلما رأى الوقّاد الغلمان حوله يئس من الحياة والتفت إلى الخادم وقال له: يا مقدم، أنا ما لي أخوة ولا قرايب وهذا الشاب لا يقرب لي ولا أنا أقرب له، وإنما أنا رجل وقّاد في حمام ووجدته ملقياً على المزبلة مريضاً. وسار الوقّاد يبكي ويحسب في نفسه ألف حساب والخادم ماش بجانبه ولم يعرّفه بشيء بل يقول له: قد أقلقت سيدتنا بإنشادك الشعر أنت وهذا الصبي ولا تخف على نفسك. وصار الخادم يضحك عليه سرّاً، وإذا نزلوا أتاهم الطعام فيأكل هو والوقّاد في آنية واحدة. فإذا أكلوا أمر، الخادم الغلمان أن يأتوا بقلّة سكر، فيشرب منها ويعطيها للوقّاد فيشرب. لكنه لم تنشف له دمعة من الخوف على نفسه والحزن على فراق ضوء المكان وعلى ما وقع لهما في غربتهما وهما سائران. والحاجب تارة يكون على باب المحفة لأجل خدمة ضوء المكان بن الملك عمر النعمان ونزهة الزمان وتارة يلاحظ الوقاد. وسارت نزهة الزمان وأخوها ضوء المكان في حديث وشكوى، ولم يزالا على تلك الحالة وهم سائرون حتى قربوا من البلاد، ولم يبقَ بينهم وبين البلاد إلاّ ثلاثة أيام. فنزلوا وقت المساء واستراحوا، ولم يزالوا نازلين إلى أن لاح الفجر فاستيقظوا وأرادوا أن يحملوا، وإذا بغبار عظيم قد لاح لهم وأظلم الجو منه حتى صار كالليل الداجي. فصاح الحاجب قائلاً: امهلوا ولا

تحملوا . وركب هو ومماليكه وساروا نحو ذلك الغبار ، فلما قربوا منه بان من تحته عسكر جرّار كالبحر الزخار وفيه رايات وأعلام وطبول وفرسان وأبطال . فتعجّب الحاجب من أمرهم ، فلما رآهم العسكر افترقت منه فرقة قدر خمسمائة فارس وأتوا إلى الحاجب هو ومن معه وأحاطوا بهم ، وأحاطت كل خمسة من العسكر بمملوك من مماليك الحاجب . فقال لهم الحاجب : أي شيء الخبر ومن أين هذه العساكر حتى تفعل معنا هذه الأفعال ؟ فقالوا له : من أنت ومن أين أتيت وإلى أين تتوجه ؟ فقال لهم : أنا حاجب أمير دمشق الملك شركان بن الملك عمر النعمان صاحب بغداد وأرض خراسان ، أتيت من عنده بالخراج والهدية متوجّهاً إلى والده ببغداد . فلما سمعوا كلامه ، أرخوا مناديلهم على وجوههم وبكوا وقالوا له : إن عمر النعمان قد مات ، وما مات إلاّ مسموماً . فتوجّه وما عليك بأس حتى تجتمع بوزيره الأكبر ، الوزير دندان . فلما سمع الحاجب ذلك الكلام ، بكى بكاء شديداً وقال : يا خيبتنا في هذه السفرة . وسار يبكي هو ومن معه إلى أن اختلطوا بالعسكر ، فاستأذنوا له الوزير دندان فأذن له . وأمر الوزير بضرب خيامه وجلس على سرير في وسط الخيمة وأمر الحاجب بالجلوس . فلما جلس سأله عن خبره ، فأعلمه أنه حاجب أمير دمشق وقد جاء بالهدايا وخراج دمشق . فلما سمع الوزير دندان ذلك ، بكى عند ذكر الملك عمر النعمان ، ثم قال له الوزير دندان : إن الملك عمر النعمان قد مات مسموماً ، وبسبب موته اختلف الناس فيمن يولّونه بعده حتى أوقعوا القتل في بعضهم ، ولكن منعهم عن بعضهم الأكابر والأشراف والقضاة الأربعة ، واتفق جميع الناس على أنه ما أشار به القضاة الأربعة لا يخالفهم فيه أحد . فوقع الاتفاق على أننا نسير إلى دمشق ونقصد ولده الملك شركان ونأتي به ونسلطنه على مملكة أبيه ، وفيهم جماعة يريدون ولده الثاني وقالوا : إنه يسمّى ضوء المكان وله أخت تسمّى نزهة الزمان ، وكانا قد توجّها إلى أرض الحجاز ومضى لهما خمس سنين ولم يقع لهما أحد على خبر . فلما سمع الحاجب ذلك ، علم أن القضية التي وقعت لزوجته صحيحة ، فاغتمّ لموت السلطان غمّاً عظيماً ولكنه فرح فرحاً شديداً وخصوصاً بمجيء ضوء المكان لأنه يصير سلطاناً ببغداد في مكان أبيه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 77

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنّ حاجب شركان لما سمع الوزير دندان ما ذكره من خبر الملك عمر النعمان ، تأسّف ولكنه فرح لزوجته وأخيها ضوء المكان لأنه يصير سلطاناً ببغداد مكان أبيه . ثم التفت الحاجب إلى الوزير دندان وقال : إن قصتكم من أعجب العجائب ، أعلم أيها الوزير الكبير أنكم حيث صادفتموني الآن أراحكم الله من التعب ، وقد جاءكم الأمر كما تشتهون على أهون سبب لأن الله ردّ إليكم ضوء المكان هو وأخته نزهة الزمان وانصلح الأمر وهان . فلما سمع الوزير هذا الكلام ، فرح فرحاً شديداً ثم قال له : أيها الحاجب ، أخبرني بقصتهما وبما جرى لهما وبسبب غيابهما ؟ فحدّثه بحديث نزهة الزمان وأنها صارت زوجته وأخبره بحديث ضوء المكان من أوله إلى آخره . فلما فرغ الحاجب من حديثه ، أرسل الوزير دندان إلى الأمراء والوزراء وأكابر الدولة وأطلعهم على القصة ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وتعجّبوا من هذا الاتفاق . ثم اجتمعوا كلّهم وجاؤوا عند الحاجب ووقفوا على خدمته وقبّلوا الأرض بين يديه وأقبل الوزير من ذلك الوقت على الحاجب ووقف بين يديه .

ثم إن الحاجب عمل في ذلك اليوم ديواناً عظيماً وجلس هو والوزير دندان على تخت وبين أيديهما جميع الأمراء والكبراء وأرباب المناصب على حسب مراتبهم . ثم بلّوا السكر في ماء الورد وشربوا . ثم قعد الأمراء للمشورة وأعطوا بقية الجيش إذناً في أن يركبوا مع بعضهم ويتقدموا قليلاً حتى يتمّوا المشورة ويلحقوهم . فقبّلوا الأرض بين يدي الحاجب وركبوا وقدّامهم رايات الحرب . فلما فرغ الكبراء من مشورتهم ركبوا ولحقوا العساكر ، ثم أقبل الحاجب على الوزير دندان وقال له : الرأي عندي أن أتقدم وأسبقكم لأجل أن أهيء للسلطان مكاناً يناسبه وأعلمه بقدومكم ، وإنكم اخترتموه على أخيه شركان سلطاناً عليكم . فقال الوزير : نعم الرأي الذي رأيته . ثم نهض ونهض الوزير دندان تعظّماً له وقدّم له التقادم وأقسم عليه أن يقبلها ، وكذلك الأمراء الكبار وأرباب المناصب قدّموا له التقادم ودعوا له وقالوا : لعلّك تحدّث السلطان ضوء المكان في أمرنا ليبقينا مستمرّين في مناصبنا . فأجابهم لما سألوه . ثم أمر غلمانه فأرسل الوزير دندان الخيام مع الحاجب وأمر الفرّاشين أن ينصبوها خارج المدينة بمسافة يوم ، فامتثلوا أمره وركب الحاجب وهو في غاية الفرح وقال في نفسه : ما أبرك هذه السفرة . وعظمت زوجته في عينه وكذلك ضوء المكان . ثم جدّ في السفر إلى أن وصل إلى مكان بينه وبين المدينة مسافة يوم ، ثم أمر بالنزول فيه لأجل الراحة وتهيئة مكان لجلوس السلطان ضوء المكان بن الملك عمر النعمان . ثم نزل من بعيد هو ومماليكه وأمر الخدام أن يستأذنوا السيدة نزهة الزمان في أن يدخل عليها ، فاستأذنوها في شأن ذلك فأذنت له ، فدخل عليها واجتمع بها وبأخيها وأخبرهما بموت أبيهما وإن ضوء المكان جعله الرؤوساء ملكاً عليهم عوضاً عن أبيه عمر النعمان وهنأهما بالملك . فبكيا على فقد أبيهما وسألا عن سبب قتله . فقال لهما : الخبر مع الوزير دندان ، وفي غد يكون هو والجيش كله في هذا المكان ، وما بقي في الأمر أيها الملك إلاّ أن تفعل ما أشاروا به لأنهم كلهم اختاروك سلطاناً ، وإن لم تفعل سلطنوا غيرك . وأنت لا تأمن على نفسك من الذي يتسلطن غيرك فربما يقتلك أو يقع الفشل بينكما ويخرج الملك من أيديكما . فأطرق برأسه ساعة من الزمان ثم قال : قبلت هذا الأمر لأنه لا يمكن التخلّي عنه ، وتحقق أنّ الحاجب تكلّم بما فيه الرشاد ثم قال للحاجب : يا عمّ ، وكيف أعمل مع أخي شركان ؟ فقال : يا ولدي ، أخوك يكون سلطان دمشق وأنت سلطان بغداد ، فشد عزمك وجهز أمرك . فقبل منه ضوء المكان ذلك . ثم إن الحاجب قدّم إليه البدلة التي كانت مع الوزير دندان من ملابس الملوك وناوله النمشة وخرج من عنده ، وأمر الفرّاشين أن يختاروا موضعاً عالياً وينصبوا فيه خيمة واسعة للسلطان ليجلس فيها إذا قدم عليه الأمراء ، ثم أمر الطباخين أن يطبخوا طعاماً فاخراً ويحضروه ، وأمر السقّايين أن ينصبوا حياض الماء . وبعد ساعة طار الغبار حتى سدّ الأقطار ، ثم انكشف ذلك الغبار وبان من تحته عسكر جرّار مثل البحر الزخار . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 78

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الحاجب لما أمر الفراشين أن ينصبوا خيمة واسعة لاجتماع الناس عند الملك ، نصبوا خيمة عظيمة على عادة الملوك . فلما فرغوا من أشغالهم ، وإذا بغبار قد طار ثم محق الهواء ذلك الغبار وبان من تحته عسكر جرّار . وتبيّن أنّ ذلك العسكر عسكر بغداد وخراسان ومقدّمه الوزير دندان ، وكلهم فرحوا بسلطنة

ضوء المكان. وكان ضوء المكان لابساً خلعة الملك متقلّداً بسيف الموكب. فقدم له الحاجب الفرس فركب وصار هو ومماليكه وجميع مَنْ في الخيام مشى في خدمته حتى دخل القبة الكبيرة، وجلس ووضع النمشة على فخذيه ووقف الحاجب في خدمته بين يديه ووقفت مماليكه في دهليز الخيمة وشهروا في أيديهم السيوف. ثم أقبلت العساكر والجيوش وطلبوا الإذن، فدخل الحاجب واستأذن لهم السلطان ضوء المكان. فأمر ان يدخلوا عليه عشرة عشرة فأعلمهم الحاجب بذلك فأجابوا: بالسمع والطاعة. ووقف الجميع على باب الدهليز فدخلت عشرة منهم، فشقّ بهم الحاجب في الدهليز ودخل بهم على السلطان ضوء المكان. فلما رأوه هابوه، فتلقّاهم أحسن ملتقى ووعدهم بكل خير، فهنئوه بالسلامة ودعوا له وحلفوا له الإيمان الصادقة إنهم لا يخالفون له أمراً. ثم قبّلوا الأرض بين يديه وانصرفوا ودخلت عشرة أخرى، ففعل بهم مثل ما فعل بغيرهم. ولم يزالوا يدخلون عشرة بعد عشرة حتى لم يبقَ غير الوزير دندان. فدخل عليه وقبّل الأرض بين يديه، فقام إليه ضوء المكان وأقبل عليه وقال له: مرحباً بالوزير والوالد الكبير، إن فعلك فعل المشير العزيز والتدبير بيد اللطيف الخبير. ثم إن الحاجب خرج في تلك الساعة وأمر بمدّ السماط وأمر بإحضار العسكر جميعاً فحضروا وأكلوا وشربوا. ثم إن الملك ضوء المكان قال للوزير دندان: أمر العسكر بالإقامة عشرة أيام حتى أختلي بك وتخبرني بسبب قتل أبي. فامتثل الوزير قول السلطان وقال: لا بدّ من ذلك. ثم خرج إلى وسط الخيام وأمر العسكر بالإقامة عشرة أيام فامتثلوا أمره. ثم إن الوزير أعطاهم إذناً إنهم يتفرجون، ولا يدخل أحد من أرباب الخدمة عند الملك مدة ثلاثة أيام. فتضرَّع جميع الناس ودعوا لضوء المكان بدوام العزّ، ثم أقبل عليه الوزير وأعلمه بالذي كان، فصبر إلى الليل ودخل على أخته نزهة الزمان وقال لها: أهل علمت بسبب قتل أبي أم لم تعلمي بسببه كيف كان؟ فقالت له: لم أعلم سبب قتله. ثم إنها ضربت لها ستارة من حرير وجلس ضوء المكان خارج الستارة وأمر بإحضار الوزير دندان فحضر بين يديه. فقال له: أريد أن تخبرني تفصيلاً بسبب قتل أبي الملك عمر النعمان. فقال الوزير دندان.

حكاية مقتل الملك عمر النعمان

اعلم أيها الملك، أن الملك عمر النعمان لما أتى من سفره إلى الصيد والقنص وجاء إلى المدينة، سأل عنكما فلم يجدكما، فعلم أنكما قد قصدتما الحجّ فاغتمًّ لذلك. فازداد به الغيظ وضاق صدره وأقام نصف سنة وهو يستخبر عنكما كل شارد ووارد فلم يخبره أحد عنكما. فبينما نحن بين أياديه يوماً من الأيام بعد ما مضى لكما سنة كاملة من تاريخ فقدكما، وإذا بعجوز عليها آثار العبادة قد وردت علينا ومعها خمس جوار نهد أبكار كأنهنًّ الأقمار، وقد حوين من الحسن والجمال ما يعجز عن وصفه اللسان، ومع كمال حسنهنّ يقرأن القرآن ويعرفن الحكمة وأخبار المتقدمين. فاستأذنت العجوز في الدخول على الملك فأذن لها، فدخلت عليه وقبّلت الأرض بين يديه وكنت أنا جالساً بجانب الملك. فلما دخلت عليه قرَّبها إليه لما رأى عليها من آثار الزهد والعبادة. فلما استقرّت العجوز عنده أقبلت عليه وقالت له: اعلم أيها الملك أن معي خمس جوار ما ملك أحد من الملوك مثلهنّ، لأنهنّ ذوات عقل وجمال وحسن وكمال، يقرأن القرآن بالروايات ويعرفن العلوم وأخبار الأمم السالفة. وهنّ بين يديك واقفات في خدمتك يا ملك الزمان، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان. فنظر المرحوم والدك إلى الجواري، فسرته

رؤيتهنّ وقال لهنّ: كل واحدة منكنّ تسمعني شيئاً مما تعرفه من أخبار الناس الماضين والأمم السابقين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 79

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير دندان قال للملك ضوء المكان: فنظر المرحوم والدك إلى الجواري، فسرّته رؤيتهنّ وقال لهنّ: كل واحدة منكنّ تسمعني شيئًا مما تعرفه من أخبار الناس الماضين والأمم السابقين. فتقدّمت واحدة منهن وقبّلت الأرض بين يديه وقالت.

حكاية الصبّية الأولى

أعلم أيها الملك أنه ينبغي لذي الأدب أن يجتنب الفضول ويتحلّى بالفضائل وأن يؤدي الفرائض ويجتنب الكبائر، ويلازم ذلك ملازمة من لو أفرد عنه لهلك، وأساس الأدب مكارم الأخلاق. واعلم أن معظم أسباب المعيشة طلب الحياة، والقصد من الحياة عبادة الله. فينبغي أن تحسن خلقك مع الناس وأن لا تعدل عن تلك السنة فإن أعظم الناس خطراً أحوجهم إلى التدبير. والملوك أحوج إليه من السوقة، لأنّ السوقة قد تفيض في الأمور من غير نظر في العافية. وأن تبذل في سبيل الله نفسك ومالك. واعلم أن العدوّ خصم تخصمه بالحجة وتحترز منه. وأما الصديق فليس بينك وبينه قاض يحكم غير حسن الخلق. فاختر صديقك لنفسك بعد اختياره، فإن كان من إخوان الآخرة فليكن محافظاً على اتّباع ظاهر الشرع عارفاً بباطنه على حسب الإمكان. وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرّاً صادقاً ليس بجاهل ولا شرّير. فإن الجاهل أهل لأن يهرب منه أبواه، والكاذب لا يكون صديقاً لأن الصديق مأخوذ من الصدق الذي يكون ناشئاً عن صميم القلب. فكيف به إذا أظهر الكذب على اللسان؟ واعلم أن إتباع الشرع ينفع صاحبه. فأحب أخاك إذا كان بهذه الصفة ولا تقطعه. وإن ظهر لك منه ما تكره، فإنه ليس كالمرأة يمكن طلاقها ومراجعتها بل كالزجاج إذا انصدع لا يتجبّر. ولله درّ القائل: [من الكامل]

إحْرِصْ على فَرْطِ القُلُوبِ مِنَ الأذَى	فَرُجُوعُها بَعْدَ التَّنَافُرِ يَعْسَرُ
إنَّ القُلُوبَ إذا تَنافَرَ وُدُّها	مِثْلُ الزُّجَاجَةِ كَسْرُها لاَ يُجْبَرُ

قالت الجارية في آخر كلامها وهي تشير إلينا: إن أصحاب العقول قالوا: خير الإخوان أشدّهم في النصيحة، وخير الأعمال أجملها عافية، وخير الثناء ما كان على أفواه الرجال. وقد قيل: لا ينبغي للعبد أن يغفل عن شكر الله خصوصاً على نعمتين: العافية والعقل. وقيل: مَنْ كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته، ومَنْ عظم صغائر المصائب ابتلاه الله بكبارها، ومَنْ أطاع الهوى ضيّع الحقوق. ومَنْ أطاع الواشي ضيَّع الصديق. ومَنْ ظنّ بك خيراً فصدق ظنه بك، ومَنْ بالغ في الخصومة أثم، ومَنْ لم يحذر الحيف لم يأمن السيف. وها أنا أذكر لك شيئاً من آداب القضاة. أعلم أيها الملك أنه لا ينفع حكم بحق إلاّ بعد التثبيت. وينبغي للقاضي أن يجعل الناس في منزلة واحدة حتى لا يطمع شريف في الجور، ولا ييأس ضعيف من العدل. وينبغي أيضاً أن يجعل البيّنة على مَنْ ادّعى واليمين على مَنْ أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلاّ صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً. وما شككت فيه اليوم فراجع فيه عقلك وتبينّ به رشدك لترجع فيه إلى الحق. فالحق فرض والرجوع إلى الحق خير من التمادي على الباطل. ثم إعرف الأمثال وافقه

المقال وسوّ بين الأخصام في الوقوف. وليكن نظرك على الحق موقوفاً. وفوّض امرك إلى الله عزّ وجل. واجعل البيّنة على من ادّعى فإن حضرت بيّنته اخذت له بحقه، وإلاّ فحلف المدعي عليه. وهذا حكم الله واقبل شهادة عدول المسلمين بعضهم على بعض. فإن الله تعالى أمر الحكام ان تحكم بالظاهر وهو يتولى السرائر، ويجب على القاضي أن يجتنب القضاء عند شدة الألم والجوع وأن يقصد بقضائه بين الناس وجه الله تعالى، فإن مَنْ خلصت نيّته وأصلح ما بينه وبين نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس. وقال الزهريّ: ثلاث إذا كنّ في قاض كان متعزلاً. إذا أكرم اللئام، وأحب المحامد، وكره العزل. وقد عزل عمر بن عبد العزيز قاضياً فقال له: لِمَ عزلتني؟ فقال عمر: قد بلغني عنك أن مقالك أكبر من مقامك. وحكى أن الإسكندر قال لقاضيه: إني ولّيتك منزلة، واستودعتك فيها روحي وعرضي ومروءتي، فاحفظ هذه المنزلة لنفسك وعقلك. وقال لطباخه: إنك مسلّط على جسمي فارفق بنفسك فيه. وقال لكاتبه: إنك متصرف في عقلي فاحفظني فيما تكتبه عني. ثم تأخّرت الجارية الأولى وتقدّمت الثانية. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 80

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، ان الوزير دندان قال لضوء المكان: ثم تأخرت الجارية الأولى وتقدّمت الثانية، وقبّلت الأرض بين يديّ الملك والدك سبع مرات ثم قالت:

حكاية الصبّية الثانية

قال لقمان لابنه: ثلاثة لا تعرف إلاّ في ثلاثة مواطن: لا يعرف الحليم إلاّ عند الغضب، ولا الشجاع إلاّ عند الحرب، ولا اخوك إلاّ عند حاجتك إليه. وقيل: إن الظالم نادم وإن مدحه الناس، والمظلوم سليم وإن ذمّه الناس. وقال الله تعالى: ﴿ولا تحسبنَّ الذين يفرحون بما اتوا، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرىء ما نوى. واعلم أيها الملك إن أعجب ما في الانسان قلبه، لأن به زمام امره. فان هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه الأسى قتله الأسف، وإن عظم عنده الغضب اشتدّ به العطب، وإن سعد بالرضا أمن من السخط، وإن ناله الخوف شغله الحزن، وإن أصابته مصيبة ضمنه الجزع، وإن استفاد مالاً ربما اشتغل به عن ذكر ربه، وإن غصته فاقة اشغله الهمّ، وإن اجهده الجزع اقعده الضعف. فعلى كل حالة لا صلاح له إلاّ بذكر الله، وإشغاله بما فيه تحصيل معاشه وصلاح معاده. وقيل لبعض العلماء: من أسرّ الناس حالاً؟ قال: مَنْ غلبت شهوته مروءته وبعدت في المعالي همّته فاتّسعت معرفته وضاقت معذرته. وما أحسن ما قاله قيس: [من الطّويل]

وإنّي لأُغنِي ٱلنَّاسَ عَنْ مُتَكَلِّفٍ ... يَرَى ٱلنَّاسَ أَضلالاً وما هو مُهْتَدِي
وما المَالُ والأَخْلاقُ إلا مُعَارَةٌ ... فَكُلٌّ بما يَخْفِيهِ فِي ٱلصَّدْرِ مُرْتَدِي
إذا ما أَتَيْتَ الأَمْرَ مِنْ غَيْرِ بابِهِ ... ضَلَلْتَ وإنْ تَدْخُلْ مِنَ ٱلبَابِ تَهْتَدِي

ثم إن الجارية قالت: وأما أخبار الزاهد، فقد قال هشام بن بشر. قلت لعمر بن عبيد: ما

حقيقة الزهد؟ فقال لي: قد بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: الزاهد مَنْ لم ينسَ القبر والبلاء، وآثر ما يبقى على ما يفنى، ولم يعدّ غداً من أيامه وعدّ نفسه في الموتى. وقيل إنّ أبا ذرّ كان يقول: الفقر أحب إليّ من الغنى والسقم أحب إلي من الصحة. فقال بعض السامعين: رحم الله أبا ذرّ. أمّا أنا فأقول: مَنْ اتكل على حسن الاختيار من الله تعالى رضي بالحالة التي اختارها الله له. وقال بعض الثقات: صلى بنا ابن أبي أوفى صلاة الصبح فقرأ: يا أيها المدّثر، حتى بلغ قوله تعالى فإذا نقر في الناقور. فخرّ ميتاً. ويروى أن ثابتاً البناني بكى حتى كادت أن تذهب عيناه، فجاؤوا برجل يعالجه قال: أعالجه بشرط أن يطاوعني. قال ثابت: في أي شيء؟ قال الطبيب: في أن لا تبكي. قال ثابت: فما فضل عيناي إن لم تبكيا؟ وقال رجل لمحمد بن عبد الله: أوصني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 81

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنّ الوزير دندان قال لضوء المكان: وقالت الجارية الثانية لوالدك المرحوم عمر النعمان: وقال رجل لمحمد بن عبد الله: أوصني. فقال: أوصيك أن تكون في الدنيا مالكاً زاهداً أو في الآخرة مملوكاً طامعاً. قال: وكيف ذلك؟ قال: الزاهد في الدنيا يملك الدنيا والآخرة. وقال غوث بن عبد الله: كان أخوان في بني إسرائيل قال أحد للآخر: ما أخوف عمل عملته؟ قال له: إني مررت ببيت فرآخ فأخذت منه واحدة ورميتها في ذلك البيت، ولكن بين الفراخ التي لم آخذها منها. فهذا أخوف عمل عملته. فما أخوف ما عملته أنت؟ فقال: أما أنا فأخوف عمل أعمله إني إذا قمت إلى الصلاة أخاف أن أكون لا أعمل ذلك إلاّ للجزاء. وكان أبوهما يسمع كلامهما فقال: اللّهم إن كانا صادقين فاقبضهما إليك. فقال بعض العقلاء: إن هذين من أفضل الأولاد. وقال عبد بن جبير صحبت فضالة بن عبيد. فقلت له: أوصني. فقال: إحفظ عني هذين الخصلتين: أن لا تشرك بالله شيئاً وأن لا تؤذي من خلق الله أحداً. وأنشد هذين البيتين: [من البسيط]

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فإنَّ اللهَ ذُو كَرَمٍ ... وٱنْفِ ٱلْهُمُومَ فَما في الأَمْرِ مِنْ باسِ
إلاَّ ٱثْنَتَيْنِ فلا تَقْرَبْهُما أَبداً ... الشِّرْكُ باللهِ والإِضْرارُ بالنَّاسِ

وما أحسن قول الشاعر: [من الطَّويل]

إذا أَنْتَ لَمْ يَصْحبْكَ زادٌ مِنَ التُّقى ... ولاَقَيْتَ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ مَنْ قَد تزَوَّدا
نَدِمْتَ على أَنْ لا تَكُونَ كَمِثْلِهِ ... وأَنَّك لَمْ تَرْصُدْ كَما كانَ أَرْصَدا

حكاية الصبيّة الثالثة

ثم تقدمت الجارية الثالثة بعد أن تأخرت الثانية وقالت: إن باب الزهد واسع جداً، ولكن أذكر بعض ما يحضرني فيه عن السلف الصالح. قال بعض العارفين: أنا أستبشر بالموت ولا أتيقّن فيه راحة غير أني علمت أنّ الموت يحول بين المرء وبين الأعمال. فأرجو مضاعفة العمل الصالح وانقطاع العمل السيء. وكان عطاء السلمي إذا فرغ من وصيته انتفض وارتعد وبكى بكاء شديداً فقيل له: لِمَ ذلك؟ فقال: إني أريد أن أقبل على أمر عظيم وهو الإنتصاب بين يدي الله تعالى للعمل بمقتضى الوصيّة، ولذلك كان علي زين العابدين بن الحسين يرتعد إذا قام

للصلاة، فسئل عن ذلك فقال: أتدرون لمن أقوم ولمن أخاطب؟ وقيل: كان بجانب سفيان الثوري رجل ضرير، فإذا كان شهر رمضان يخرج ويصلّي بالناس، فيسكت ويبطىء. وقال سفيان: إذا كان يوم القيامة أتى بأهل القرآن، فيميزون بعلامة مزيد الكرامة عمّن سواهم. وقال سفيان: لو انّ النفس استقرت في القلب كما ينبغي لطار فرحاً وشوقاً إلى الجنة وحزناً وخوفاً من النار. وعن سفيان الثوري أنه قال: النظر إلى وجه الظالم خطيئة.

حكاية الصبيّة الرابعة

ثم تأخّرت الجارية الثالثة وتقدّمت الجارية الرابعة وقالت: وها انا أتكلم ببعض ما يحضرني من أخبار الصالحين: روي أن بشراً الحافي قال: سمعت خالداً يقول: إياكم وسرائر الشرك. فقلت له: وما سرائر الشرك؟ قال: أن يصلي أحدكم فيطيل ركوعه وسجوده حتى يلحقه الحدث. وقال بعض العارفين: فعل الحسنات يكفر السيّئات. وقال بعض العارفين: التمست من بشر بن الحافي شيئاً من أسرار الحقايق فقال: يا بني هذا العلم لا ينبغي أن نعلمه كل أحد، فمن كل مائة خمسة مثل زكاة الدرهم. قال ابراهيم بن أدهم: فاستحليت كلامه واستحسنته. فبينما أنا أصلّي وإذا ببشر يصلّي، فقمت وراءه اركع إلى أن يؤذّن المؤذّن، فقام رجل رثّ الحالة وقال: يا قوم احذروا الصدق الضّار ولا بأس بالكذب النافع، وليس مع الإضطرار اختيار، ولا ينفع الكلام عند العدم كما لا يضرّ السكوت عند وجود الجود. وقال ابراهيم: رأيت بشراً سقط منه دانف، فقمت إليه وأعطيته درهماً فقال: لا آخذه. فقلت: إنه من خالص الحلال. فقال لي: أنا لست أستبدل نعم الدنيا بنعم الآخرة. ويروى أن أخت بشر الحافي قصدت أحمد بن حنبل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 82

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، انّ الوزير دندان قال لضوء المكان: إن الجارية قالت لوالدك: إنّ أخت بشر الحافي قصدت احمد بن حنبل فقالت له: يا إمام الدين، إنّا قوم نغزل بالليل ونشتغل بمعاشنا في النهار، وربما تمرّ بنا مشاعل ولاة بغداد ونحن على السطح نغزل في ضوئها. فهل يحرّم علينا ذلك؟ قال لها: مَنْ انت؟ قالت: أخت بشر الحافي. فقال: يا أهل بشر، لا أزال استشفّ الورع من قلوبكم. وقال بعض العارفين: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل. وكان مالك بن دينار إذا مرّ في السوق ورأى ما يشتهيه يقول: يا نفس اصبري، فلا أوافقك على ما تريدين. وقال رضي الله عنه: سلامة النفس في مخالفتها وبلاؤها في متابعتها. وقال منصور بن عمار: حججت حجة فقصدت مكة من طريق الكوفة وكانت ليلة مظلمة، وإذا بصارخ يصرخ في جوف الليل ويقول: إلهي وعزّتك وجلالك، ما أردت بمعصيتي مخالفتك وما أنا جاهل، ولكن خطيئة قضيتها عليّ في قديم ازلك، فاغفر لي ما فرط مني فإني قد عصيتك بجهلي. فلما فرغ من دعائه تلى هذه الآية: يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة. وسمعت سقطة لم أعرف لها حقيقة فمضيت. فلما كان الغد مشينا إلى مدرجنا وإذا بجنازة خرجت ووراءها عجوز ذهبت قوّتها، فسألتها عن الميت فقالت: هذه جنازة رجل كان مرّ بنا البارحة وولدي قائم يصلّي فتلا آية من كتاب الله تعالى. فانفطرت مرارة ذلك الرجل فوقع ميتاً.

حكاية الصبيّة الخامسة

ثم تأخرت الجارية الرابعة وتقدّمت الجارية الخامسة وقالت : وها أنا أذكر بعض ما يحضرني من أخبار السلف الصالح : كان مسلمة بن دينار يقول : عند تصحيح الضمائر تغفر الصغائر والكبائر . وإذا عزم العبد على ترك الآثام أتاه الفتوح وقال : كل نعمة لا تقرب إلى الله فهي بليّة ، وقليل الدنيا يشغل عن كثير الآخرة وكثيرها ينسيك قليلها . وسئل أبو حازم : مَنْ أيسر الناس ؟ فقال : رجل أذهب عمره في طاعة الله . قال : فمن أحق الناس ؟ قال : رجل باع آخرته بدنيا غيره . وروى أن موسى عليه السلام ، لما ورد ماء مدين قال : ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير . فسأل موسى ربّه ولم يسأل الناس ، وجاءت الجاريتان فسقى لهما ولم تصدر الرعاء . فلما رجعتا أخبرتا أباهما شعيباً فقال : لعله جائع . قال لأحداهما : إرجعي إليه وادعيه . فلما أتته غطّت وجهها وقالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . فكره موسى ذلك وأراد أن لا يتبعها . وكانت امرأة ذات عجز ، فكانت الريح تضرب ثوبها فيظهر لموسى عجزها فيغضّ بصره . ثم قال لها : كوني خلفي . فمشت خلفه حتى دخل على شعيب والعشاء مهيّأ . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 83

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوزير دندان قال لضوء المكان : وقالت الجارية الخامسة لوالدك : فدخل موسى عليه السلام ، على شعيب والعشاء مهيّأ . فقال شعيب لموسى : يا موسى ، إني أريد أن أعطيك أجرة ما سقيت لهما . فقال موسى : أنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بما على الأرض من ذهب وفضة . فقال شعيب : يا شاب ، ولكن أنت ضيفي وإكرام الضيف عادتي وعادة آبائي بإطعام الطعام ، فجلس موسى فأكل . ثم إن شعيباً استأجر موسى ثماني حجج ، أي سنين وجعل أجرته على ذلك تزويجه إحدى بنتيه . وكان عمل موسى لشعيب صداقاً لها كما قال تعالى حكاية عنه : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك . وقال رجل لبعض أصحابه وكان له مدّة لم يره : إنك أوحشتني لأنني ما رأيتك من منذ زمان . قال : اشتغلت عنك بابن شهاب أتعرفه ؟ قال : نعم هو جاري من منذ ثلاثين سنة إلاّ إنني لم أكلمه . قال له : إنك نسيت الله فنسيت جارك ، ولو أحببت الله لأحببت جارك . أما علمت إن للجار على الجار حق كحق القراب ؟ وقال حذيفة : دخلنا مكة مع ابراهيم بن أدهم ، وكان شقيق البلخي قد حجّ في تلك السنة . فاجتمعنا في الطوف فقال ابراهيم لشقيق : ما شأنكم في بلادكم ؟ فقال شقيق : إننا إذا رزقنا أكلنا وإذا جعنا صبرنا . فقال : كذا تفعل كلاب بلخ ، ولكننا إذا رزقنا آثرنا وإذا جعنا شكرنا . فجلس شقيق بين يدي ابراهيم وقال له : أنت أستاذي . وقال محمد بن عمران : سأل رجل حاتماً الأصمّ فقال : ما أمرك في التوّكل على الله تعالى ؟ قال : على خصلتين : علمت إن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت نفسي به ، وعلمت أني لم أخلق من غير علم الله فاستحيت منه .

حكاية العجوز

ثم تأخرت الجارية الخامسة وتقدّمت العجوز وقبّلت الأرض بين يدي والدك تسع مرات

وقالت :قد سمعت أيها الملك ما تكلم به الجميع في باب الزهد وأنا تابعة لهنّ، فأذكر بعض ما بلغني عن أكابر المتقدمين. قيل : كان الإمام الشافعي يقسم الليل ثلاثة أقسام : الثلث الأول للعلم والثاني للنوم والثالث للتبجّد. وكان الإمام ابو حنيفة يحيي نصف الليل فأشار إليه إنسان وهو يمشي وقال لآخر : إن هذا يحيي الليل كله. فلما سمع قال : إني أستحي من الله ان أوصف بما ليس فيّ. فصار بعد ذلك يحيي الليل كله. وقال الربيع : كان الشافعي يختم القرآن في شهر رمضان سبعين مرة كل ذلك في الصلاة. وقال الشافعي رضي الله عنه : ما شبعت من خبز الشعير عشر سنين، لأن الشبع يقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن القيام. وروى عن عبد الله بن محمد السكري أنه قال : كنت انا وعمر نتحدث فقال لي : ما رأيت أروع ولا افصح من محمد بن إدريس الشافعي. واتفق أنني خرجت أنا والحارث بن لبيب الصفار، وكان الحارث تلميذ المزني وكان صوته حسناً فقرأ قوله تعالى : هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون. فرأيت الإمام الشافعي تغيّر لونه واقشعرّ جلده واضطرب اضطراباً شديداً وخرّ مغشياً عليه. فلما أفاق قال : أعوذ بالله من مقام الكذابين واعرض الغافلين. اللّهم لك خشعت قلوب العارفين. اللّهم هب لي غفران ذنوبي من جودك وجمّلني بسترك واعف عن تقصيري بكرم وجهك. ثم قمت وانصرفت. وقال بعض الثقات : فلما دخلت بغداد كان الشافعي بها، فجلست على الشاطيء لأتوضأ للصلاة إذ مرّ بي إنسان فقال لي : يا غلام، احسن وضوءك يحسن الله إليك في الدنيا والآخرة. فالتفتّ وإذا برجل يتبعه جماعة، فأسرعت في وضوئي وجعلت اقفو اثره، فالتفت إليّ وقال : هل لك من حاجة؟ فقلت : نعم. تعلّمني مما علّمك الله تعالى. فقال : أعلم ان من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد في الدنيا قرّت عيناه غداً افلا ازيدك؟ قلت : بلى. قال : كن في الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً واصدق في جميع امورك تنج مع الناجين. ثم مضى. فسألت عنه فقيل لي : هذا الإمام الشافعي. وكان الإمام الشافعي يقول : وددت أن الناس ينتفعون بهذا العلم على أن لا ينسب إليّ منه شيء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 84

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، انّ الوزير دندان قال لضوء المكان : قالت العجوز لوالدك : كان الإمام الشافعي يقول : وددت ان الناس ينتفعون بهذا العلم على ان لا ينسب إليّ منه شيء. وقال : ما ناظرت احداً إلاّ احببت أن يوفقه الله تعالى للحق ويعينه على إظهاره، وما ناظرت احداً قط إلاّ لأجل إظهار الحق. وما أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه. وقال رضي الله عنه : إذا خفت على علمك العجب فاذكر رضى من تطلب وفي أي نعيم ترغب ومن اي عقاب ترهب. وقيل لأبي حنيفة : إن أمير المؤمنين ابا جعفر المنصور قد جعلك قاضياً ورسم لك بعشرة الآف درهم فما رضي. فلما كان اليوم الذي توقّع أن يؤتى إليه فيه بالمال صلّى الصبح، ثم تغشّى بثوبه فلم يتكلم، ثم جاء رسول أمير المؤمنين بالمال، فلما دخل عليه وخاطبه فلم يكلمه. فقال له رسول الخليفة : إن هذا المال حلال. فقال : اعلم انه حلال لي ولكني اكره ان يقع في قلبي مودة الجبابرة. فقال له : لو دخلت إليهم وتحفّظت من ودّهم. قال : هل آمن ان الج البحر ولا تبتلّ ثيابي؟ ومن كلام الشافعي رضي الله تعالى عنه :

[من الوافر]

أَلا يَا نَفْسُ أَنْ تَرْضَيْ بِقَوْلِي فَأَنْتِ عَزِيزَةٌ أَبَداً غَنِيَّهْ
دَعِي عَنْكِ ٱلْمَطَامِعَ وَالأَمَانِي فَكَمْ أُمْنِيَّةٌ جَلَبَتْ مَنِيَّهْ

ومن كلام سفيان الثوري فيما أوصى به علي بن الحسن السلمي : عليك بالصدق وإياك والكذب والخيانة والرياء والعجب . فإن العمل الصالح يحبطه الله بخصلة من هذه الخصال . ولا تأخذ دينك إلاّ عن من هو مشفق على دينه . وليكن جليسك من يزهدك في الدنيا وأكثر ذكر الموت وأكثر الإستغفار . واسأل الله السلامة فيما بقي من عمرك ، وانصح كل مؤمن إذا سألك عن أمر دينه . وإياك أن تخون مؤمناً ، فإن من خان مؤمناً فقد خان الله ورسوله . وإياك والجدال والخصام ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك تكن سليماً . وأمر بالمعروف وانه عن المنكر تكن حبيب الله . واحسن سريرتك يحسن الله علانيتك . واقبل المعذرة ممّن اعتذر إليك ولا تبغض أحداً من المسلمين ، وصِل من قطعك واعف عمّن ظلمك تكن رفيق الأنبياء . وليكن أمرك مفوّضاً إلى الله في السرّ والعلانية ، واخش الله خشية من قد علم أنه ميت ومبعوث وصائر إلى الحشر والوقوف بين يدي الجبار ، واذكر مصيرك إلى إحدى الدارين : إما جنة عالية وإما نار حاميه . ثم إن العجوز جلست إلى جانب الجواري . فلما سمع والدك المرحوم كلامهنّ علم أنهنّ أفضل أهل زمانهنّ ، ورأى حسنهنّ وجمالهنّ وزيادة أدبهنّ إليه ، وأقبل على العجوز فأكرمها وأخلى لها هي وجواريها القصر الذي كانت فيه الملكة إبريزة بنت ملك الروم ، ونقل إليهنّ ما يحتجن إليه من الخيرات ، فأقامت عنده عشرة أيام . وكلما دخل عليها يجدها معتكفة على صلاتها وقيامها في ليلها وصيامها في نهارها . فوقع في قلبه محبتها وقال لي : يا وزير ، إن هذه العجوز من الصالحات وقد عظمت في قلبي مهابتها . فلما كان اليوم الحادي عشر ، اجتمع بها من جهة دفع ثمن الجواري إليها فقالت له : أيها الملك ، اعلم أن ثمنَ هذه الجواري فوق ما تتعامل به الناس ، فإني لا أطلب فيهنّ ذهباً ولا فضة ولا جواهر قليلاً كان ذلك أو كثيراً . فلما سمع والدك كلامها تعجّب وقال : أيتها السيدة ، وما ثمنهنّ ؟ قالت : ما أبيعهنّ لك إلاّ بصيام شهر كامل ، تصوم نهاره وتقوم ليلة لوجه الله تعالى ، فإن فعلت ذلك فهنّ ملك لك في قصرك تصنع بهنّ ما شئت . فتعجب الملك من كمال صلاحها وزهدها وورعها وعظمت في عينه وقال : نفعنا الله بهذه المرأة الصالحة . ثم اتفق معها على أنه يصوم الشهر كما اشترطته عليه . فقالت له : وأنا أعينك بدعوات أدعو بهنّ لك بكوز ماء . فأتاها بكوز ماء فأخذته وقرأت عليه وهمهمت وقعدت ساعة تتكلم بكلام لا نفهمه ولا نعرف منه شيئاً ، ثم غطته بخرقة وختمته وناولته لوالدك وقالت له : إذا صمت العشرة الأولى ، فافطر في الليلة الحادية عشرة على ما في هذا الكوز فإنه ينزع حب الدنيا من قلبك ويملأه نوراً وإيماناً . وفي غد أخرج إلى إخواني وهم رجال الغيب فإني اشتقت إليهم ، ثم أجيء إليك إذا مضت العشرة الأولى . فأخذ والدك الكوز ، ثم نهض وأفرد له خلوة في القصر ووضع الكوز فيها وأخذ مفتاح الخلوة في جيبه . فلما كان النهار ، صام السلطان وخرجت العجوز إلى حال سبيلها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 85

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنّ الوزير دندان قال لضوء المكان : فلمّا كان النهار وصام السلطان وخرجت العجوز إلى حال سبيلها وأتم الملك صوم العشرة أيام ، وفي اليوم الحادي عشر فتح الكوز وشربه فوجد له في فؤاده فعلاً جميلاً . وفي العشرة أيام الثانية من الشهر ، جاءت العجوز ومعها حلاوة في ورق أخضر لا يشبه ورق الشجر . فدخلت على والدك وسلّمت عليه ، فلما رآها قام لها وقال لها : مرحباً بالسيدة الصالحة . فقالت له : أيها الملك ، إن رجال الغيب يسلمون عليك لأني أخبرتهم عنك ففرحوا بك وأرسلوا معي هذه الحلاوة وهي من حلاوة الآخرة ، فافطر عليها في آخر النهار . ففرح والدك فرحاً زائداً وقال : الحمد لله الذي جعل لي إخواناً من رجال الغيب . ثم شكر العجوز وقبّل يديها وأكرمها وأكرم الجواري غاية الإكرام . ثم مضت مدة عشرين يوماً وأبوك صائم ، وعند رأس العشرين يوماً أقبلت عليه العجوز وقالت له : أيها الملك ، أعلم أني أخبرت رجال الغيب بما بيني وبينك من المحبة وأعلمتهم بأني تركت الجواري عندك ، ففرحوا حيث كانت الجواري عند ملك مثلك ، لأنهم كانوا إذا رأوهنّ يبالغون لهنّ في الدعاء المستجاب . فأريد أن أذهب بهنّ إلى رجال الغيب لتحصل نفحاتهم لهنّ ، وربما أنهنّ لا يرجعن إليك إلاّ ومعهنّ كنز من كنوز الأرض ، حتى إنك بعد تمام صومك تشتغل بكسوتهنّ وتستعين بالمال الذي يأتينك به على أغراضك . فلما سمع والدك كلامها شكرها على ذلك وقال لها : لولا أني أخشى مخالفتي لك رضيت بالكنز ولا غيره ، ولكن متى تخرجين بهنّ ؟ فقالت له : في الليلة السابعة والعشرين ، وأرجع بهنّ إليك في رأس الشهر وتكون أنت قد أوفيت الصوم وحصل استبراؤهنّ وصرن لك وتحت أمرك . والله إن كل جارية منهنّ ثمنها أعظم من ملكك مرات . فقال لها : وأنا أعرف ذلك أيتها السيدة الصالحة . فقالت له بعد ذلك : ولا بدّ أن ترسل معهنّ من يعزّ عليك من قصرك حتى يجد الأنس ويلتمس البركة من رجال الغيب . فقال لها : عندي جارية رومية اسمها صفيّة ، ورزقت منها بولدين أنثى وذكر ، ولكنهما فقدا من منذ سنتين ، فخذيها معهنّ لأجل أن تحصل لها البركة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 86

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنّ الوزير دندان قال لضوء المكان : إن اباك قال للعجوز لما طلبت منه الجواري : إن عندي جارية رومية اسمها صفيّة ورزقت منها بولدين أنثى وذكر ولكنهما فقدا من منذ سنتين ، فخذيها معك لأجل أن تحصل لها البركة ، ولعل رجال الغيب أن يدعو الله لها بأن يرد عليها ولديها ويجمع شملها بهما . فقالت العجوز : نِعم ما قلت . وكان ذلك أعظم غرضها . ثم إن والدك أخذ في تمام صيامه . فقالت له : يا ولدي ، إني متوجهة إلى رجال الغيب فاحضر لي صفيّة ، فدعا بها فحضرت في ساعتها فسلّمها إلى العجوز ، فخلطتها بالجواري ثم دخلت العجوز مخدعها وخرجت للسلطان بكأس مختوم وناولته له وقالت : إذا كان يوم الثلاثين ، فادخل الحمام ثم اخرج منه وادخل خلوة من الخلاوي التي في قصرك واشرب هذه الكأس ونم ، فقد نلت ما تطلب والسلام منّي عليك . فعند ذلك فرح الملك وشكرها وقبّل يدها فقالت له : استودعتك الله . فقال لها : ومتى أراك أيتها السيدة الصالحة ؟ فإني

أود أن لا أفارقك . فدعت له وتوجّهت ومعها الجواري والملكة صفيّة ، وقعد الملك بعدها ثلاثة أيام . ثم هلَّ الشهر فقام الملك ودخل الحمّام ، وخرج من الحمام ودخل الخلوة التي في القصر وامر أن لا يدخل عليه أحد وردّ الباب عليه ، ثم شرب الكأس ونام ، ونحن قاعدون في انتظاره إلى آخر النهار فلم يخرج من الخلوة . فقلنا : لعله تعبان من الحمام ومن سهر الليل وصيام النهار فبسبب ذلك نام . فانتظرناه ثاني يوم فلم يخرج ، فوقفنا بباب الخلوة وأعلنّا برفع الصوت لعلّه ينتبه ويسأل عن الخبر فلم يحصل منه ذلك ، فخلعنا الباب ودخلنا عليه فوجدناه قد تمزق لحمه وتفتّت عظمه . فلما رأيناه على هذه الحالة ، عظم علينا ذلك وأخذنا الكأس فوجدنا في غطائه قطعة ورق مكتوباً فيها : مَنْ أساء لا يستوحش منه ، وهذا جزاء من يتحيّل على بنات الملوك ويفسدهنّ . والذي نعلم به كل من وقف على هذه الورقة شركان ، لما جاء بلادنا قد أفسد علينا الملكة إبريزة ، وما كفاه ذلك حتى أخذها من عندنا وجاء بها إليكم ثم أرسلها مع عبد أسود فقتلها ووجدناها مقتولة في الخلاء مطروحة على الأرض . فهذا ما هو فعل الملوك ، وما جزاء من يفعل هذا الفعل إلاّ ما حلّ به . وأنتم لا تتهموا أحداً بقتله ، فما قتله إلاّ العاهرة الشاطرة التي اسمها ذات الدواهي . وها أنا أخذت زوجة الملك صفيّة ومضيت بها إلى والدها أفريدون ملك القسطنطينية . ولا بدّ أن نغزوكم ونقتلكم ونأخذ منكم الديار فتهلكون عن آخركم ولا يبقى منكم ديار ولا من ينفخ النار إلاّ من يعبد الصليب والزنار . فلما قرأنا هذه الورقة ، علمنا أن العجوز خدعتنا وتمّت حيلتها علينا . فعند ذلك صرخنا ولطمنا على وجوهنا وبكينا فلم يفدنا البكاء شيئاً ، واختلفت العساكر فيمن يجعلونه سلطاناً عليهم ، فمنهم من يريدك ومنهم من يريد أخاك شركان . ولم نزل في هذا الإختلاف مدة شهر ، ثم جمعنا بعضنا وأردنا أن نمضي إلى أخيك شركان فسافرنا إلى أن وجدناك . وهذا سبب موت السلطان عمر النعمان . فلما فرغ الوزير من كلامه ، بكى ضوء المكان هو وأخته نزهة الزمان وبكى الحاجب أيضاً . ثم قال الحاجب لضوء المكان : أيها الملك ، إن البكاء لا يفيدك شيئاً ، ولا يفيدك إلاّ أنك تشدّ قلبك وتقوّي عزمك وتؤيد مملكتك ، ومن خلّف مثلك ما مات . فعند ذلك سكت عن بكائه وأمر بنصب السرير خارج الدهليز ، ثم أمر أن يعرضوا عليه العساكر ، ووقف الحاجب بجانبه والسلحدارية من ورائه . ووقف الوزير دندان قدّامه ووقف كل واحد من الأمراء وأرباب الدولة في مرتبته . ثم إن الملك قال للوزير دندان : أخبرني بخزائن أبي . فقال : سمعاً وطاعةً . وأخبره بخزائن الأموال وبما فيها من الذخائر والجواهر ، وعرض عليه ما في خزنته من الأموال . فأنفق على العساكر وخلع على الوزير دندان خلعة سنيّة وقال له : أنت في مكانك . فقبّل الأرض بين يديه ودعا له بالبقاء . ثم خلع على الأمراء . ثم إنه قال للحاجب : أعرض عليّ الذي معك من خراج دمشق ، فعرض عليه صناديق المال والتحف والجواهر ، فأخذها وفرّقها على العساكر . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 87

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنّ ضوء المكان أمر الحاجب أن يعرض عليه ما أتى به من خراج دمشق ، فعرض عليه صناديق المال والتحف والجواهر ، فأخذها وفرّقها على العساكر ولم يبقَ منها شيئاً أبداً . فقبّل الأمراء الأرض بين يديه ودعوا له بطول البقاء وقالوا : ما رأينا ملكاً يعطي مثل هذه العطايا . ثم إنهم مضوا إلى خيامهم ، فلمّا أصبحوا

أمرهم بالسفر فسافروا ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع أشرفوا على بغداد فدخلوا المدينة ، فوجدوها قد تزينت وطلع السلطان ضوء المكان قصر أبيه وجلس على السرير ، ووقف أمراء العسكر والوزير دندان وحاجب دمشق بين يديه ، فعند ذلك أمر كاتب السرّ أن يكتب كتاباً إلى اخيه شركان ويذكر فيه ما جرى من الأول إلى الآخر ، ويذكر في آخره : وساعة وقوفك على هذا المكتوب ، تجهّز أمرك وتحضر بعسكرك حتى نتوجّه إلى غزو الكفّار وناخذ منهم الثار ونكشف العار . ثم طوى الكتاب وختمه وقال للوزير دندان : ما يتوجّه بهذا الكتاب إلاّ انت ، ولكن ينبغي ان تتلطف به في الكلام وتقول له : إن أردت ملك أبيك فهو لك ، واخوك يكون نائباً عنك في دمشق كما أخبرنا بذلك . فنزل الوزير دندان من عنده وتجهّز للسفر . ثم إن ضوء المكان أمر ان يجعلوا للوقّاد مكاناً فاخراً ويفرشوه بأحسن الفرش ، وذلك الوقّاد له حديث طويل . ثم إن ضوء المكان خرج يوماً إلى الصيد والقنص وعاد إلى بغداد ، فقدم له بعض الأمراء من الخيول الجياد ومن الجواري الحسان ما يعجز عن وصفه اللسان ، فأعجبته جارية منهنّ فاستخلى بها ودخل عليها في تلك الليلة فعلقت منه من ساعتها . وبعد مدة رجع الوزير دندان من سفره واخبره بخبر أخيه شركان ، وإنه قادم عليه وقال له : ينبغي أن نخرج ونلاقيه . فقال له ضوء المكان : سمعاً وطاعةً . فخرج إليه مع خواص دولته من بغداد مسيرة يوم ، ثم نصب خيامه هناك لانتظار أخيه . وعند الصباح أقبل الملك شركان في عساكر الشام ، ما بين فارس مقدام وأسد ضرغام وبطل مصدام . فلما أشرفت الكتائب وقدمت السحائب وأقبلت العصائب وخفقت اعلام المواكب ، توجّه شركان هو ومن معه لملاقاتهم . فلما عاين ضوء المكان أخاه ، اراد أن يترجل إليه فأقسم عليه شركان أن لا يفعل ذلك ، وترجل شركان ومشى خطوات فلما صار بين يدي ضوء المكان ، رمى ضوء المكان نفسه عليه فاحتضنه شركان إلى صدره وبكيا بكاء شديداً وعزّى بعضهما بعضاً ، ثم ركب الاثنان وسارا وسار العسكر معهما إلى أن أشرفوا على بغداد ونزلوا ، ثم طلع ضوء المكان هو وأخوه شركان إلى قصر الملك وباتا تلك الليلة . وعند الصباح خرج ضوء المكان وأمر أن يجمعوا العساكر من كل جانب وينادوا بالغزو والجهاد ، ثم اقاموا ينتظرون مجيء الجيوش من سائر البلدان وكل من حضر يكرمونه ويعدونه بالجميل ، إلى أن مضى على ذلك الحال مدة شهر كامل ، والقوم يأتون أفواجاً متتابعة . ثم قال شركان لأخيه : يا أخي أعلمني بقضيتك . فأعلمه بجميع ما وقع له من الأول إلى الآخر وبما صنعه معه الوقّاد من المعروف . فقال له شركان : أما كافأته على معروفه ؟ فقال له : يا أخي ، ما كافأته إلى الآن ، ولكن أكافئه إن شاء الله تعالى لما أرجع من الغزوة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 88

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، ان شركان قال لأخيه ضوء المكان : أما كافأت الوقّاد على معروفه ؟ فقال له : يا أخي ما كافأته إلى الآن ، ولكن اكافئه إن شاء الله تعالى لما ارجع من الغزوة وأتفرغ له . فعند ذلك عرف شركان أن اخته الملكة نزهة الزمان صادقة في جميع ما اخبرته به ، ثم كتم امره وامرها وارسل إليها السلام مع الحاجب زوجها . فبعثت له أيضاً معه السلام ودعت له وسألت عن ابنتها قضى فكان فأخبرها أنها في عافية وانها في غاية ما يكون من الصحة والسلامة . فحمدت الله تعالى وشكرته ورجع شركان إلى اخيه يشاوره في امر

الرحيل فقال له : يا أخي ، لما تتكامل العساكر تأتي العربان من كل مكان . ثم أمر بتجهيز الميرة وإحضار الذخيرة ، ودخل ضوء المكان إلى زوجته وكان مضى لها خمسة أشهر ، وجعل أرباب الأقلام وأهل الحساب تحت طاعتها ، ورتّب لهم الجرايات والجوامك وسافر في ثالث شهر من حين نزول عسكر الشام بعد أن قدمت العربان وجميع العساكر من كل مكان ، وسارت الجيوش والعساكر وتتابعت الجحافل . وكان اسم رئيس عسكر الديلم رستم ، واسم رئيس عسكر الترك بهرمان . وصار ضوء المكان في وسط الجيوش وعن يمينه أخوه شركان وعن يساره الحاجب صهره ، ولم يزالوا سائرين مدة شهر . وكل جمعة ينزلون في مكان يستريحون فيه ثلاثة أيام لأن الخلق كثير . ولم يزالوا سائرين على هذه الحالة حتى وصلوا إلى بلاد الروم ، فنفرت أهل القرى والضياع والصعاليك وفرّوا إلى القسطنطينية . فلما سمع أفريدون ملكهم بخبرهم ، قام وتوجه إلى ذات الدواهي فانها هي التي دبّرت الحيل وسافرت إلى بغداد حتى قتلت الملك عمر النعمان ، ثم أخذت جواريها والملكة صفيّة ورجعت بالجميع إلى بلادها . فلما رجعت إلى ولدها ملك الروم وأمنت على نفسها قالت لابنها : قرّ عيناً ، فقد أخذت لك بثار ابنتك إبريزة وقتلت الملك عمر النعمان وجئت بصفيّة ، فقم الآن وارحل إلى ملك القسطنطينية ورد عليه صفيّة واعلمه بما جرى حتى يكون جميعنا على حذر ، ونتجهّز بأهبة وأسافر أنا معك إلى الملك أفريدون ملك القسطنطينية ، وأظن أن المسلمين لا يثبتون على قتالنا . فقال لها : إمهلي إلى أن يقربوا من بلادنا حتى نجهّز أحوالنا . ثم أخذوا في جمع رجالهم وتجهيز أحوالهم ، فلما جاءهم الخبر كانوا قد جهزوا حالهم وجمعوا الجيوش وسارت في أوائلهم ذات الدواهي . فلما وصلوا إلى القسطنطينية ، سمع الملك الأكبر ملكها أفريدون بقدوم حردوب ملك الروم فخرج لملاقاته . فلما اجتمع أفريدون بملك الروم سأله عن حاله وعن سبب قدومه ، فأخبره بما عملته أمه ذات الدواهي من الحيل وإنها قتلت ملك المسلمين وأخذت من عنده الملكة صفيّة ، وقالت : إن المسلمين جمعوا عساكرهم وجاؤوا ، ونريد ان نكون جميعنا يداً واحدة ونلقاهم . ففرح الملك أفريدون بقدوم ابنته وقتل عمر النعمان ، وأرسل إلى سائر الأقاليم يطلب منهم النجدة ويذكر لهم سبب قتل الملك عمر النعمان . فهرعت إليه جيوش النصارى ، فأمر ثلاثة شهور حتى تكاملت جيوش الروم ، ثم اقبلت الإفرنج من سائر أطرافها كالفرنسيس والنيمسة ودوبره وجورنه وبندق وجنويز وسائر عساكر بني الاصفر ، فلما تكاملت العساكر وضاقت بهم الأرض من كثرتهم ، أمرهم الملك الأكبر افريدون أن يرحلوا عن القسطنطينية ، فرحلوا واستمرّ تتابع عساكرهم في الرحيل عشرة أيام ، وساروا حتى نزلوا بواد واسع الأطراف . وكان ذلك الوادي قريباً من البحر المالح فأقاموا ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع ارادوا أن يرحلوا ، فأتتهم الأخبار بقدوم عساكر الإسلام وحماة ملّة خير الأنام فأقاموا فيه ثلاثة أيام أخرى . وفي اليوم الرابع رأوا غباراً طار حتى سدّ الأقطار ، فلم تمض ساعة من النهار حتى انجلى ذلك الغبار وتمزّق إلى الجو وطار ومحت ظلمته كواكب الأسنّة والرماح وبريق بيض الصفاح وبان من تحته رايات إسلامية وأعلام محمّدية وأقبلت الفرسان كاندفاع البحار في دروع تحسبها سحباً مزردة على أقمار . فعند ذلك تقابل الجيشان والتطم البحران ووقعت العين في العين ، فأول من برز للقتال الوزير دندان هو وعساكر الشام وكانوا ثلاثين ألف عنان . وكان مع الوزير مقدم الترك ومقدم الديلم رستم وبهرام في

عشرين ألف فارس ، وطلع من ورائهم رجال من صوب البحر المالح وهم لابسون زرد الحديد وقد صاروا فيه كالبدور السافرة في الليالي العاكرة ، وصارت عساكر النصارى ينادون عيسى ومريم والصليب المسخم ، ثم انطبقوا على الوزير دندان ومن معه من عساكر الشام . وكان هذا كله بتدبير العجوز ذات الدواهي ، لأن الملك أقبل عليها قبل خروجه وقال لها : كيف العمل والتدبير وأنت السبب في هذا الأمر العسير ؟ فقالت : اعلم أيها الملك الكبير الكاهن الخطير ، إني أشير عليك بأمر يعجز عن تدبيره إبليس ، ولو استعان عليه بحزبه المتاعيس . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 89

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن هذا كله كان بتدبير العجوز ، لأن الملك كان أقبل عليها قبل خروجها وقال لها : كيف العمل والتدبير وأنت السبب في هذا الأمر العسير ؟ فقالت : اعلم أيها الملك الكبير والكاهن الخطير ، إني أشير عليك بأمر يعجز عن تدبيره إبليس ولو استعان عليه بحزبه المتاعيس . وهو أنك ترسل خمسين ألفاً من الرجال ينزلون في المراكب ويتوجّهون في البحر إلى أن يصلوا جبل الدخان ويقيمون هناك ولا يرحلون من ذلك المكان حتى تأتيكم أعلام الإسلام ، فدونكم وإياهم . ثم تخرج إليهم العساكر من البحر ويكونون خلفهم ، ونحن نقابلهم من البر فلا ينجو منهم أحد وقد زال عنّا العناء ودام لنا الهناء . فاستصوب الملك أفريدون كلام العجوز وقال : نِعم الرأي رأيك يا سيدة العجائز الماكرة ومرجع الكهان في الفتن الثائرة . وحين هجم عليهم عسكر الإسلام في ذلك الوادي ، لم يشعروا إلاّ والنار تلتهب في الخيام والسيوف تعمل في الأجسام . ثم أقبلت جيوش بغداد وخراسان وهم في مائة وعشرين ألف فارس وفي أوائلهم ضوء المكان . فلما رآهم عسكر الكفّار الذين كانوا في البحر طلعوا إليهم من البحر وتبعوا أثرهم ، فلما رآهم ضوء المكان قال : إرجعوا إلى الكفّار يا حزب النبي المختار وقاتلوا أهل الكفر والعدوان في طاعة الرحيم الرحمن . وأقبل شركان بطائفة أخرى من عساكر المسلمين نحو مائة ألف وعشرين ألفاً وكانت عساكر الكفّار نحو ألف وستمائة ألف . فلما اختلط المسلمون بعضهم ببعض ، قويت قلوبهم ونادوا قائلين : إن الله وعدنا بالنصر وأوعد الكفّار بالخذلان . ثم تصادموا بالسيف والسنان واخترق شركان الصفوف وهاج في الألوف وقاتل قتالاً تشيب منه الأطفال . ولم يزل يجول في الكفّار ويعمل فيهم الصارم البتّار وينادي : الله أكبر ، حتى ردّ القوم إلى ساحل البحر وكلّت منهم الأجسام ، ونصر الله دين الإسلام ، والناس يقاتلون وهم سكارى بغير مدام . وقد قتل من القوم في ذلك الوقت خمسة وأربعون ألفاً ، وقتل من المسلمين ثلاثة آلاف وخمسمائة . ثم إن أسد الدين الملك شركان لم ينم في تلك الليلة ، لا هو ولا أخوه ضوء المكان ، بل كانا يبشران الناس ويتفقدان الجرحى ويهنئونهم بالنصر والسلامة والثواب في القيامة . هذا ما كان من أمر المسلمين . وأما ما كان من أمر الملك أفريدون ملك القسطنطينية وملك الروم وأمه العجوز ذات الدواهي ، فإنهم جمعوا أمراء العسكر وقالوا لبعضهم : إنّا كنا بلغنا المراد وشفينا الفؤاد ، ولكن إعجابنا بكثرتنا هو الذي خذلنا . فقالت لهم العجوز ذات الدواهي : إنه لا ينفعكم إلاّ أنكم تتقربوا للمسيح وتتمسكوا بالاعتقاد الصحيح . فوحقّ المسيح ، ما قوّى عسكر المسلمين إلاّ هذا الشيطان الملك شركان . فقال الملك افريدون : إني

قد عولّت في غد على أن اصفّ لهم الصفوف واخرج لهم الفارس المعروف لوقا بن شملوط . فإنه إذا برز إلى الملك شركان قتله وقتل غيره من الأبطال حتى لم يبقَ منهم أحد . وقد عولّت في الليلة على تقديسكم بالبخور الأكبر . فلما سمعوا كلامه قبّلوا الأرض . وكان البخور الذي أراده خراء البطريق الكبير ذي الإنكار والنكير ، فإنهم كانوا يتنافسون فيه ويستحسنون مساويه ، حتى كانت أكابر بطارقة الروم يبعثونه إلى سائر أقاليم بلادهم في خرق من الحرير ويمزجونه بالمسك والعبير ، فإذا وصل خبره إلى الملوك يأخذون منه كل درهم بألف دينار ، حتى كان الملوك يرسلون في طلبه من أجل بخور العرايس . وكانت البطارقة يخلطونه بخرائهم ، فإنّ خراء البطريق الكبير لا يكفي عشرة أقاليم . وكان خواص ملوكهم يجعلون قليلاً منه في كحل العيون ، ويداوون به المريض والمبطون . فلما اصبح الصباح وأشرف بنوره ولاح وتبادرت الفرسان إلى حمل الرماح . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 90

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنه لما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح وتبادرت الفرسان إلى حمل الرماح ، دعا الملك أفريدون بخواص بطارقة وأرباب دولته وخلع عليهم ونقش الصليب في وجوههم وبخّرهم بالبخور . والمتقدم ذكره الذي هو خراء البطريق الأكبر والكاهن الأمكر . فلما بخّرهم دعا بحضور لوقا بن شملوط الذي يسمونه سيف المسيح ، وبخّره بالرجيع وحنكه به بعد التبخير ونشّقه ولطّخ له عوارضه ومسح بالفضلة شواربه . وكان ذلك الملعون لوقا ما في بلاد الروم أعظم منه ، ولا أرمى بالنبال ولا أضرب بالسيف ، ولا أطعن بالرمح يوم النزال . وكان بشع المنظر ، كان وجهه وجه حمار وصورته صورة قرد وطلعته طلعة الرقيب ، وقربه أصعب من فراق الحبيب . له من الليل ظلمته ومن الأبخر نكهته ومن القوس قامته ومن الكفر سيمته . وبعد ذلك أقبل على الملك أفريدون وقبّل قدميه ثم وقف بين يديه . فقال له الملك أفريدون : إني أريد أن تبرز إلى شركان ملك دمشق بن عمر النعمان ، وقد انجلى عنّا هذا الشرّ وهان . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم إن الملك نقش في وجهه الصليب ، وزعم أن البصر يحصل له عن قريب . ثم انصرف لوقا من عند الملك أفريدون وركب الملعون لوقا جواداً أشقر وعليه ثوب أحمر وزردية من الذهب المرصّع بالجوهر ، وحمل رمحاً له ثلاث حراب كأنه إبليس اللعين يوم الأحزاب ، وتوجّه هو وحزبه الكفار كأنهم يساقون إلى النار وبينهم مناد ينادي بالعربي ويقول : يا أمة محمد ﷺ ، لا يخرج منكم إلا فارسكم سيف الإسلام شركان صاحب دمشق الشام . فما استتم كلامه إلا وضجة في الفلا سمع صوتها جميع الملا وركضات فرّقت الصفين ، وإذ كرت يوم حنين ففزع اللئام منها والتفتوا الأعناق نحوها . وإذا هو الملك شركان ابن الملك عمر النعمان ، وكان أخوه ضوء المكان لما رأى ذلك الملعون في الميدان وسمع المنادي ، التفت لأخيه شركان وقال له : إنهم يريدونك . فقال : إن كان الأمر كذلك فهو أحبّ إليّ . فلما تحقّقوا الأمر وسمعوا هذا المنادي وهو يقول : في الميدان لا يبرز لي إلاّ شركان . علموا أن هذا الملعون فارس بلاد الروم وكان قد حلف أن يخلي الأرض من المسلمين وإلاّ فهو من أخسر الخاسرين ، لأنه هو الذي حرق الأكباد وفزعت من شرّه الأجناد من الترك والديلم والأكراد . فعند ذلك برز إليه شركان كأنه أسد غضبان ، وكان راكباً على ظهر جواد يشبه شارد

الغزلان، فساقه نحو لوقا حتى صار عنده وهزّ الرمح في يده كأنه أفعى من الحيّات وأنشد هذه الابيات : [من الكامل]

لِيَ أَشْقَرٌ سَمْحُ العِنانِ مُغَايِرُ ... يُعْطِيكَ ما يُرْضِيكَ مِنْ مَجْهُوْدِهِ
ومُثَقَّفٌ لَدْنُ السِّنَانِ كَأنَّما ... أمُّ ٱلْمَنايا رُكِّبَتْ في عُوْدِهِ
ومُهَنَّدٌ عَضْبٌ إذا جَرَّدْتُهُ ... خِلْتَ البُرُوقَ تَمُوْجُ في تَجْرِيْدِهِ

فلم يفهم لوقا معنى هذا الكلام ولا حماس هذا النظام، بل لطم وجهه بيده تعظيماً للصليب المنقوش عليه، ثم قبّلها وأشرع الرمح نحو شركان وكرّ عليه، ثم طوّح الحربة بإحدى يديه حتى خفيت عن أعين الناظرين وتلقاها باليد الأخرى كفعل الساحرين، ثم رمى بها شركان فخرجت من يده كأنها شهاب ثاقب. فضجّت الناس وخافوا على شركان، فلما قربت الحربة من شركان اختطفها من الهواء فتحيّرت عقول الورى، ثم إن شركان هزّها بيده التي أخذها بها من النصراني حتى كاد أن يقصفها ورماها في الجو حتى خفيت عن النظر والتقاها بيده الثانية في أقرب من لمح البصروصاح صيحة من صميم قلبه وقال: وحق من خلق السبع الطباق لأجعلنّ هذا اللعين شهرة في الآفاق. ثم رماه بالحربة، فأراد لوقا أن يفعل بالحربة كما فعل شركان، ومدّ يده إلى الحربة ليخطتفها من الهواء، فعاجله شركان بحربة ثانية ضربه بها فوقعت في وسط الصليب الذي في وجهه وعجّل الله بروحه إلى النار وبئس القرار. فلما رأى الكفّار لوقا بن شملوط وقع مقتولاً، لطموا على وجوههم ونادوا بالويل والثبور واستعانوا ببطارقة الديور. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 91

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الكفّار لما رأوا لوقا بن شملوط وقع مقتولاً، لطموا على وجوههم ونادوا بالويل والثبور واستغاثوا ببطارقة الديور وقالوا: أين الصلبان وتزهد الرهبان؟ ثم اجتمعوا جميعاً عليه وأعلموا الصوارم والرماح وهجموا للحرب والكفاح، والتقت العساكر بالعساكر وصارت الصدور تحت وقع الحوافر، وتحكّمت الرماح والصوارم، وضعفت السواعد والمعاصم. وكأن الخيل قد خلقت بلا قوائم. ولا زال منادي الحرب ينادي إلى أن كلّت الأيادي وذهب النهار وأقبل الليل بالإعتكار، وافترق الجيشان وصار كل شجاع كالسكران من شدّة الضرب والطعان، وقد امتلأت الأرض بالقتلى وعظمت الجراحات ولا يعرف الجريح ممن مات. ثم إن شركان اجتمع بأخيه ضوء المكان والحاجب والوزير دندان. فقال شركان لأخيه ضوء المكان والحاجب: إن الله قد فتح باباً لهلاك الكافرين والحمد لله رب العالمين. فقال ضوء المكان لأخيه: لم نزل نحمد الله لكشف الكرب عن العرب والعجم وسوف تتحدث الناس جيلاً بعد جيل بما صنعت باللّعين لوقا محرّف الإنجيل، وأخذك الحربة من الهواء وضربك لعدو الله بين الورى ويبقى حديثك إلى آخر الزمان. ثم قال شركان: أيها الحاجب الكبير والمقدام الخطير، فأجابه بالتلبية. فقال له: خذ معك الوزير دندان وعشرين ألف فارس وسرّ بهم إلى ناحية البحر مقدار سبعة فراسخ، وأسرعوا في السير حتى تكونوا قريباً من الساحل بحيث يبقى بينكم وبين القوم قدر فرسخين. واختفوا في وهدات الأرض حتى

تسمعوا ضجة الكفّار إذا طلعوا من المراكب وتسمعوا الصياح من كل جانب وقد عملت بيننا وبينهم القواضب. فإذا رأيتم عسكرنا تقهقروا إلى وراء كأنهم منهزمون، وجاءت الكفّار زاحفة خلفهم من جميع الجهات حتى من جانب الساحل والخيام فكونوا لهم بالمرصاد. وإذا رأيت أنت علماً عليه: لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ﷺ، فارفع العلم الأخضر وصح قائلاً: الله أكبر. واحمل عليهم من ورائهم واجتهد في أن لا يحول الكفّار بين المنهزمين وبين البحر. فقال: السمع والطاعة. واتفقوا على ذلك الأمر في تلك الساعة. ثم تجهّزوا وساروا وقد أخذ الحاجب معه الوزير دندان وعشرين ألفاً كما أمر الملك شركان. فلما أصبح الصباح، ركب القوم وهم مجردون الصفاح ومعتقلون الرماح وحاملون السلاح. وانتشرت الخلائق في الربا والبطاح، وصاحت القسوس وكشفت الرؤوس ورفعت الصلبان على قلوع المراكب وقصدوا الساحل من كل جانب، وأنزلوا الخيل في البر وعزموا على الكرّ والفرّ، ولمعت السيوف وتوجّهت الجموع، وبرقت شهب الرماح على الدروع ودارت طاحون المنايا على الرجال والفرسان، وطارت الرؤوس عن الأبدان وخرست الألسن وتغشت الأعين وانفطرت المرائر وعملت البواتر وطارت الجماجم، وقطعت المعاصم وخاضت الخيل في الدماء وتقابضوا في اللحى وصاحت عساكر الإسلام بالصلاة والسلام على سيّد الأنام، وبالثناء على الرحمان بما أولى من الإحسان. وصاحت عساكر الكفر بالثناء على الصليب والزنار والعصير والعصار والقسوس والرهبان والشعانين والمطران. وتأخر ضوء المكان هو وشركان إلى ورائهما، وقهقرت الجيوش وأظهروا الإنهزام للأعداء وزحفت عليهم عساكر الكفر لوهم الهزيمة، وتهيّأوا للطعن والضرب، فاستهلّ أهل الإسلام بقراءة أول سورة البقرة، وصارت القتلى تحت أرجل الخيل مندثرة، وصار منادي الروم يقول: يا عبدة المسيح وذوي الدين الصحيح، يا خدام الجاثليق قد لاح لكم التوفيق. إن عساكر الإسلام قد جنحوا إلى الفرار فلا تولوا عنهم الأدبار، فمكنوا السيوف من أقفيتهم ولا ترجعوا من ورائهم وإلاّ برئتم من المسيح ابن مريم الذي في المهد تكلّم. وظن أفريدون ملك القسطنطينية أن عساكر الكفّار منصورة، ولم يعلم أن ذلك من حسن تدبير المسلمين صورة. فأرسل إلى ملك الروم يبشره بالظفر ويقول له: ما نفعنا إلاّ غائط البطريق الأكبر لما فاحت رايحته من اللحى والشوارب بين عباد الصليب حاضر وغائب، وأقسم بمعجزات إبريزة النصرانية المريمية، والمياه المعمودية، إني لا أترك على الأرض مجاهداً بالكلية، وإني مصرّ على سوء هذه النيّة. وتوجّه الرسول بهذا الخطاب ثم صاح الكفّار على بعضهم قائلين: خذوا بثأر لوقا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 92

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الكفّار صاحوا على بعضهم قائلين: خذوا بثأر لوقا. وصار ملك الروم ينادي بالأخذ بثأر إبريزة. فعند ذلك صاح الملك ضوء المكان وقال: يا عباد الملك الديان، اضربوا أهل الكفر والطغيان ببيض الصفاح وسمر الرماح. فرجع المسلمون على الكفّار وأعملوا فيهم الصارم البتّار وصار ينادي منادي المسلمين ويقول: عليكم بأعداء الدين يا محبّي النبي المختار، هذا وقت إرضاء الكريم الغفّار يا راجي النجاة في اليوم المخوف، إن الجنة تحت ظلال السيوف. وإذا بشركان قد حمل هو ومن معه على

الكفّار وقطعوا عليهم طريق الفرار وجال بين الصفوف وطاف، وإذا بفارس مليح الإنعطاف قد فتح في عسكر الكفّار ميداناً وجال في الكفرة حرباً وطعاناً وملأ الأرض رؤوساً وأبداناً. وقد خافت الكفّار من حربه ومالت أعناقهم لطعنه وضربه، قد تقلّد بسيفين لحظ وحسام، واعتقل رمحين قناة وقوام بوفرة تغني عن وافر عدد العساكر. كما قال فيه الشاعر: [من السريع]

لا تَحْسُنُ ٱلْوَفْرَةُ إلاّ وَهْيَ   مَنْشُورَةُ الفَرْعَيْنِ يَوْمَ النِّزالْ
على فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً   يَعُلُّها مِنْ كُلِّ وَافِي السِّبالْ

ويقول الآخر: [من الطَّويل]

أَقُولُ لَـهُ لَـمَّا تَقَـلَّدَ سَيْفَهُ:   كَفَتْكَ سُيُوفُ اللَّحْظِ عَنْ ذَلِكَ العَضْبِ
فقال: لِحاظِيْ سَيْفُها لِذَوِيّ ٱلْهَوَىْ   وَسَيْفِي لِمَنْ لَم يَدْرِ ما لَذَّةُ ٱلْحُبِّ

فلما رآه شركان قال: أعيذك بالقرآن وآيات الرحمن. من أنت أيها الفارس من الفرسان؟ فلقد أرضيت بفعلك الملك الديّان، الذي لا يشغله شان عن شان حيث هزمت أهل الكفر والطغيان. فناداه الفارس قائلاً: أنت الذي بالأمس عاهدتني؟ فما أسرع ما نسيتني. ثم كشف اللثام عن وجهه حتى ظهر ما خفي من حسنه، فإذا هو ضوء المكان. ففرح به شركان إلاَّ أنه خاف عليه من ازدحام الأقران وانطباق الشجعان وذلك لأمرين: أحدهما صغر سنه وصيانته عن العين، والثاني إنَّ بقاءه للمملكة أعظم الجناحين. فقال له: يا ملك، إنك قد خاطرت بنفسك، فالصق جوادك بجوادي، فإني لا آمن عليك من الأعداء، والمصلحة في أن لا تخرج من تلك العصائب لأجل أن نرمي الأعداء بسهمك الصائب. فقال ضوء المكان: إني اردت أن أساويك في النزال ولا أبخل بنفسي بين يديك في القتال. ثم انطبقت عساكر الإسلام على الكفّار وأحاطوا بهم من جميع الأقطار، وجاهدوهم حق الجهاد وكسروا شوكة الكفر والعناد والفساد. فتأسّف الملك أفريدون لما رأى ما حل بالروم من الأمر المذموم، وقد ولّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار يقصدون المراكب. وإذا بالعساكر قد خرجت عليهم من ساحل البحر وفي أولهم الوزير دندان مجندل الشجعان، وضرب فيهم بالسيف والسنان، وكذا الأمير بهرام صاحب دوائر الشام وهو في عشرين ألف ضرغام، وأحاطت بهم عساكر الإسلام من خلف ومن أمام، ومالت فرقة من المسلمين على من كان في المراكب وأوقعوا فيهم المعاطب، فرموا أنفسهم في البحر وقتلوا منهم جمعاً عظيماً يزيد عن مائة ألف خنزير، ولم ينج من أبطالهم صغير ولا كبير، وأخذوا مراكبهم بما فيها من الأموال والذخائر والأثقال، إلاّ عشرين مركباً. وغنم المسلمون في ذلك اليوم غنيمة ما غنم أحد مثلها في سالف الزمان، ولا سمعت إذن بمثل هذه الحرب والطعان، ومن جملة ما غنموه خمسون ألفاً من الخيل غير الذخائر والأسلاب بما لا يحيط به حصر ولا حساب. وفرحوا فرحاً ما عليه مزيد بما منَّ الله عليهم من النصر والتأييد. هذا ما كان من أمرهم. وأما ما كان من أمر المنهزمين، فإنهم وصلوا إلى القسطنطينية وكان الخبر قد وصل إلى اهلها أولاً، بأن الملك أفريدون هو الظافر بالمسلمين. فقالت العجوز ذات الدواهي: أنا أعلم أن ولدي ملك الروم لا يكون من المنهزمين ولا يخاف من الجيوش الإسلامية، ويرد أهل الأرض إلى ملّة النصرانية. ثم إن العجوز كانت أمرت الملك الأكبر أفريدون أن يزيّن البلد، فأظهروا السرور وشربوا الخمور وما

علموا بالمقدور. فبينما هم في وسط الأفراح إذ نعق عليهم غراب الحزن والأتراح، وأقبلت عليهم العشرون مركباً الهاربة وفيها ملك الروم، فقابلهم أفريدون ملك القسطنطينية على الساحل وأخبروه بما جرى لهم من المسلمين، فزاد بكاؤهم وعلا نحيبهم وانقلبت بشارات الخير بالغمّ والضير. وأخبروه أن لوقا بن شملوط حلّت به النوائب وتمكّن منه سهم المنية الصائب. فقامت على الملك أفريدون القيامة، وعلم أن اعوجاجهم ليس له استقامة، وقامت بينهم المآتم وانحلت منهم العزائم وندبت النوادب وعلا النحيب والبكا من كل جانب. ولما دخل ملك الروم على الملك أفريدون وأخبره بحقيقة الحال، وأن هزيمة المسلمين كانت على وجه الخداع والمحال. قال له: لا تنتظر أن يصل من العسكر إلاّ من وصل إليك. فلما سمع الملك أفريدون ذلك الكلام، وقع مغشياً عليه وصار أنفه تحت قدميه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 93

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك أفريدون لما سمع ذلك الكلام وقع مغشيّاً عليه، وصار أنفه تحت قدميه. فلمّا أفاق من غشيته نفض الخوف جراب معدته، فشكا إلى العجوز ذات الدواهي. وكانت تلك اللعينة كاهنة من الكهان ومتقنة للسحر والبهتان، عاهرة مكّارة فاجرة غدّارة، ولها فم أبخر وجفن أحمر وخدّ أصفر بوجه أغبش، وطرف أعمش وجسم أجرب، وشعر أشهب وظهر أحدب ولون حائل ومخاط سائل. لكنها قرأت كتب الإسلام وسافرت إلى بيت الله الحرام. كل ذلك لتطّلع على الأديان وتعرف آيات القرآن. ومكثت في بيت المقدس سنتين لتحوز مكر الثقلين. فهي آفة من الآفات وبلية من البليات. فاسدة الاعتقاد ليست لدين تنقاد. وكان أكثر إقامتها عند ولدها حردوب ملك الروم لأجل الجواري الأبكار، لأنها كانت تحب السحاق، وإن تأخر عنها تكون في انمحاق، وكل جارية أعجبتها تعلّمها الحكمة وتسحق عليها الزعفران فيغشى عليها من فرط اللذّة مدة من الزمان. فمن طاوعتها أحسنت إليها ورغّبت ولدها فيها، ومن لم تطاوعها تتحيل على هلاكها. وسبب ذلك عملت مرجانة وريحانة وأترجة جواري إبريزة، وكانت الملكة إبريزة تكره العجوز وتكره أن ترقد معها، لأن صنانها يخرج من تحت إبطيها، ورائحة فساها أنتن من الجيفة، وجسدها أخشن من الليفة، وكانت ترغب من يساحقها بالجواهر والتعليم، وكانت إبريزة تبرأ منها إلى الحكيم العليم. ولله درّ القائل: [من الكامل]

يا مَنْ تَسَفَّلَ لِلْغَنِيِّ مَذَلَّةً   وَعَلَى ٱلْفَقِيرِ لَقَدْ عَلاَ تَيَّاها
وَيَزِينُ شُنْعَتَهُ بِجَمْعِ دَرَاهِمَ   عِطْرُ ٱلْقَبِيْحَةِ لا يَفِي بِفُسَاها

ولنرجع إلى حديث مكرها ودواهي أمرها. ثم إنها سارت وسار معها عظماء النصارى وعساكرهم وتوجّهوا إلى عسكر الإسلام. وبعدها دخل الملك أفريدون على ملك الروم وقال له: أيها الملك، ما لنا حاجة بأمر البطريق الكبير ولا بدعائه، بل نعمل برأي أمي ذات الدواهي، وننظر ما تعمل بخداعها غير المتناهي مع عسكر المسلمين. فإنهم بقوّتهم واصلون إلينا وعن قريب يكونون لدينا ويحيطون بنا. فلما سمع الملك أفريدون ذلك الكلام عظم في قلبه الرعب، فكتب

من وقته وساعته إلى سائر أقاليم النصارى يقول لهم : ينبغي أنه لا يتخلف أحد من أهل الملّة النصرانية والعصابة الصليبية خصوصاً أهل الحصون والقلاع ، بل يأتون إلينا جميعاً رجالاً وركباناً ونساءً وصبياناً ، فإن عسكر المسلمين قد وطئوا أرضنا . فالعجل العجل قبل حلول الوجل . هذا ما كان من أمر هؤلاء . وإما ما كان من أمر العجوز ذات الدواهي ، فإنها طلعت خارج البلد مع أصحابها والبستهم زيّ تجار المسلمين وكانت قد أخذت معها مائة بغل محملة من القماش الأنطاكي ما بين أطلس معدني وديباج ملكي وغير ذلك . وأخذت من الملك أفريدون كتاباً مضمونه : أن هؤلاء التجار من أرض الشام وكانوا في ديارنا . فلا ينبغي أن يتعرض لهم أحد بسوء ، ولا يأخذ منهم عشراً حتى يصلوا إلى بلادهم ومحل أمنهم . لأن التجّار بهم عمار البلاد وليسوا من أهل الحرب والفساد . ثم إن الملعونة ذات الدواهي قالت لمن معها : إني أريد أن أدبر حيلة على هلاك المسلمين . فقالوا لها : أيتها الملكة ، مرينا بما شئت ، فنحن تحت طاعتك فلا أحبط المسيح عملك . فلبست ثياباً من الصوف الأبيض الناعم وحكّت جبينها حتى صار له وسم ، ودهنته بدهان دبرته حتى صار له ضوء عظيم . وكانت الملعونة نحيلة الجسم غائرة العينين ، فقيّدت رجليها من فوق قدميها وسارت حتى وصلت إلى عسكر المسلمين . ثم حلّت القيد من رجليها وقد أثّر القيد في ساقيها . ثمّ دهنتهما بدم الأخوين وأمرت من معها أن يضربوها ضرباً عنيفاً وأن يضعوها في صندوق . فقالوا لها : كيف نضربك وأنت سيدتنا ذات الدواهي أم الملك المباهي ؟ فقالت : لا لوم ولا تعنيف على من يأتي الكنيف ، ولأجل الضرورات تباح المحظورات . وبعد أن تضعوني في الصندوق خذوه في جملة الأموال واحملوه على البغال ومرّوا بذلك بين عسكر الإسلام ولا تخشوا شيئاً من الملام ، وإن تعرّض لكم أحد من المسلمين ، فسلموا له البغال وما عليها من الأموال وانصرفوا إلى ملكهم ضوء المكان ، واستغيثوا به وقولوا : نحن كنا في بلاد الكفرة ولم يأخذوا منّا شيئاً ، بل كتبوا لنا توقيعاً إنّه لا يتعرّض لنا أحد . فكيف تأخذون أنتم أموالنا وهذا كتاب ملك الروم الذي مضمونه أن لا يتعرض لنا أحد بمكروه . فإذا قال : وما الذي ربحتموه من بلاد الروم في تجارتكم ؟ فقولوا له : ربحنا خلاص رجل زاهد ، وقد كان في سرداب تحت الأرض له فيه نحو خمسة عشر عاماً وهو يستغيث فلا يغاث ، بل يعذّبه الكفّار ليلاً ونهاراً ولم يكن عندنا علم بذلك ، مع أننا أقمنا في القسطنطينية مدة من الزمان ، وبعنا بضائعنا واشترينا خلافها وجهّزنا حالنا وعزمنا على الرحيل إلى بلادنا . وبتنا تلك الليلة نتحدث في أمر السفر . فلما أصبحنا رأينا صورة مصوّرة في الحائط . فلما قربنا منها تأملناها فإذا هي تحركت وقالت : يا مسلمون ، هل فيكم من يعامل رب العالمين ؟ فقلنا : وكيف ذلك ؟ فقالت تلك الصورة : إن الله أنطقني لكم ليقوّي يقينكم ويلهمكم دينكم وتخرجوا من بلاد الكافرين ، وتقصدوا عسكر المسلمين . فإن فيهم سيف الرحمن وبطل الزمان الملك شركان ، وهو الذي يفتح القسطنطينية ويهلك أهل الملّة النصرانية . فإذا قطعتم سفر ثلاثة أيام ، تجدوا ديراً يعرف بدير مطروحني وفيه صومعة ، فاقصدوها بصدق نيتكم وتحيّلوا على الوصول إليها بقوّة عزيمتكم ، لأن فيها رجلاً عابداً من بيت المقدس اسمه عبد الله وهو من أدين الناس ، وله كرامات تزيح الشك والالباس . قد خدعه بعض الرهبان وسجنه في سرداب له فيه مدة من الزمان ، وفي إنقاذه إرضاء ربّ العباد ، لأن فكاكه من افضل الجهاد . ثم إن العجوز لما اتّفقت مع من معها على هذا الكلام

قالت : فإذا ألقى إليكم سمعه الملك شركان فقولوا له : فلما سمعنا هذا الكلام من تلك الصورة ، علمنا أن ذلك العابد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 94

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنّ العجوز ذات الدواهي لما اتفقت مع مَنْ معها على هذا الكلام ، قالت : فإذا ألقى إليكم سمعه الملك شركان فقولوا له : فلما سمعنا هذا الكلام من تلك الصورة ، علمنا أن ذلك العابد من أكابر الصالحين وعباد الله المخلصين . فسافرنا مدة ثلاثة أيام ، ثم رأينا ذلك الدير فعرّجنا عليه وملنا إليه ، وأقمنا هناك يوماً في المبيع والشراء على عادة التجار ، فلما ولّى النهار وأقبل الليل بالإعتكار ، قصدنا تلك الصومعة التي فيها السرداب ، فسمعناه بعد تلاوة الآيات ينشد هذه الابيات : [من الكامل]

كَمَداً أُكابِدُه وَصَدْرِي ضَيِّقُ — وَجَرى بِقَلْبِي بَحْرُ هَمٍّ مُغْرِقُ
إن لَمْ يَكُنْ فَرَجٌ فَمَوْتٌ عَاجِلٌ — إن الحِمَامَ مِنَ الرَّزايا أَرْفَقُ
يا بَرْقُ إنْ جِئْتَ ٱلدِّيارَ وأَهْلَهَا — وعَلا عَلَيْكَ مِنَ ٱلْبَشائِرِ رَوْنَقُ
كَيْفَ ٱلْسَّبِيلُ إلى ٱللِّقاءِ وبَيْنَنا — تِلْكَ الحُرُوبُ ، وبَابُ رَهْنٍ مُغْلَقُ
بَلِّغْ أَحِبَّتنا السَّلامَ وَقُلْ لَهُمْ — إنِّي بِدَيْرِ الرُّومِ قاصِرٍ مُوثَقُ

ثم قالت : إذا وصلتم بي إلى عسكر المسلمين وصرت عندهم ، أعرف كيف أدبّر حيلة في خديعتهم وقتلهم عن آخرهم . فلما سمع النصارى كلام العجوز ، قبّلوا يديها ووضعوها في الصندوق بعد أن ضربوها أشدّ الضربات الموجعات تعظيماً لها لأنهم يرون طاعتها من الواجبات . ثم قصدوا بها عسكر المسلمين كما ذكرنا . هذا ما كان من أمر هذه اللعينة ذات الدواهي ومن معها . وأما ما كان من أمر عسكر المسلمين ، فإنهم لما نصرهم الله على أعدائهم وغنموا ما كان في المراكب من الأموال والذخائر ، قعدوا يتحدّثون مع بعضهم . فقال ضوء المكان لأخيه : إن الله نصرنا بسبب عدلنا وانقيادنا لبعضنا ، فكن يا شركان ممتثلاً أمري في طاعة الله عزّ وجل . فقال شركان : حباً وكرامة . ومدّ يده إلى أخيه وقال : إن جاءك ولد أعطيته ابنتي قضى فكان . ففرح بذلك وصار يهيء بعضهم بعضاً بالنصر على الأعداء وهنأ الوزير دندان شركان وأخاه وقال لهما : أعلما أيها الملكان ، إن الله نصرنا حيث وهبنا أنفسنا لله عزّ وجل ، وهجرنا الأهل والأوطان . والرأي عندي أن نرحل وراءهم ونحاصرهم ونقاتلهم لعل الله أن يبلغنا مرادنا ونستأصل أعداءنا ، وإن شئتم فانزلوا في المراكب وسيروا في البحر ونحن نسير في البر ونصبر على القتال والطعن في النزال . ثم إن الوزير دندان ما زال يحرّضهم على القتال ، وأنشد قول من قال : [من الخفيف]

أَطْيَبُ ٱلطَّيِّباتِ قَتْلُ الأَعادِي — وٱخْتِيالِي على ظُهُوْرِ ٱلْجِيادِ
وَرَسُولٌ يَأْتِي بِوَعْدِ حَبِيْبٍ — وَحَبِيْبٌ يأْتي بِلا مِيعادِ

وقول الآخر : [من البسيط]

وإنْ عَمِرْتَ جَعَلْتَ ٱلْحَرْبَ والِدَةً — وٱلْمَشْرَفِيَّ أَخاً والسَّمْهَرِيَّ أَبَا

بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَى ٱلْمَوْتَ مُبْتَسِماً حتَّى كأنَّ لَهُ في قَتْلِهِ أَرَبَا

فلما فرغ الوزير دندان من شعره قال : سبحان من أيّدنا بنصره العزيز وظفرنا بغنيمة الفضة والإبريز . ثم أمر ضوء المكان العسكر بالرحيل فسافروا طالبين القسطنطينية ، وجدّوا في سيرهم حتى أشرفوا على مرج فسيح وفيه كل شيء مليح ما بين وحوش تمرح وغزلان تسنح . وكانوا قد قطعوا مفاوز كثيرة وانقطع عنهم الماء ستة أيام . فلما أشرفوا على ذلك المرج ، نظروا تلك العيون النَّابِعَة والأثمار اليانعة ، وتلك الأرض كأنها جنة أخذت زخرفها وأزينت ، وسكرت أغصانها من رحيق الطل فتمايلت وجمعت بين عذوبة التنسيم واعتلال النسيم ، فتدهش العقل والناظر كما قال الشاعر : [من الكامل]

أُنْظُرْ إلى ٱلرَّوْضِ ٱلنَّضيرِ كأنَّما نُشِرَتْ عَلَيْهِ مُلاءَةٌ خَضْراءُ
فإذا سَنَحْتَ بِلَحْظِ عَيْنِكَ لا تَرَى إلاّ غَديْراً جالَ فيهِ ٱلْمَاءُ
وتَرَى بِنَفْسِكَ عِزَّةً في دَوْحِهِ إذ فَوْقَ رأسِكَ حَيْثُ يَسْري لِواءُ

وكما قال الآخر : [من الكامل]

النَّهْرُ خَدٌّ بالشُّعاعِ مُوَرَّدٌ قَد دَبَّ فيْهِ عِذَارُ ظِلِّ ٱلْبانِ
وٱلْمَاءُ في سُوقِ الْغُصُونِ خَلاخِلُ مِنْ فِضَّةٍ وٱلزَّهْرُ كَالتِّيجانِ

فلما نظر ضوء المكان إلى ذلك المرج الذي التفّت أشجاره وزهت أزهاره وترنّمت أطياره ، نادى أخاه شركان وقال له : يا أخي ، إن دمشقاً ما فيها مثل هذا المكان ، فلا نرحل منه إلاّ بعد ثلاثة أيام ، حتى نأخذ لنا راحة لأجل أن تنشط عساكر الإسلام وتقوى نفوسهم على لقاء الكفرة اللئام . فأقاموا فيه . فبينما هم كذلك إذ سمعوا أصواتاً من بعيد فسأل عنهم ضوء المكان فقيل له : إنها قافلة تجار من بلاد الشام ، كانوا نازلين في هذا المكان للراحة لعل العساكر صادفوهم ، وربما أخذوا شيئاً من بضائعهم التي معهم حيث كانوا في بلاد الكفّار . وبعد ساعة جاء التجار وهم صارخون يستغيثون بالملك . فلما رأى ضوء المكان ذلك أمر بإحضارهم ، فحضروا بين يديه وقالوا : أيها الملك ، إنّا كنا في بلاد الكفّار ولم ينهبوا منا شيئاً ، فكيف تنهب أموالنا إخواننا المسلمون ونحن في بلادهم ؟ فإننا لما رأينا عساكركم ، اقبلنا عليهم فأخذوا ما كان معنا وقد أخبرناك بما حصل لنا . ثم أخرجوا له كتاب ملك القسطنطينية فأخذه شركان وقرأه ثم قال لهم : سوف نرد عليكم ما أخذ منكم ، ولكن الواجب أن لا تحملوا إلى بلاد الكفّار . فقالوا : يا مولانا إن الله سيّرنا إلى بلادهم لنظفر بما لم يظفر به أحد من الغزاة ولا انتم في غزوتكم . فقال لهم : وما الذي ظفرتم به ؟ فقالوا : ما نذكر لك ذلك إلاّ في خلوة . لأن هذا الأمر إذا شاع بين الناس واطلع عليه أحد فيكون ذلك سبباً لهلاكنا وهلاك كل من يتوجّه إلى بلاد الروم من المسلمين . وكانوا قد خبّؤوا الصندوق الذي فيه اللعينة ذات الدواهي . فأخذهم ضوء المكان وأخوه واختليا بهم . فشرحوا لهما حديث الزاهد وصاروا يبكون حتى أبكوهما . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 95

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن النصارى الذين في هيئة التجار لما اختلى بهم ضوء المكان وأخوه شركان، شرحوا لهما حديث الزاهد وبكوا حتى أبكوهما كما علمتهم الكاهنة ذات الدواهي . فرقّ قلب شركان للزاهد وأخذته الرأفة عليه وقامت به الحمية لله تعالى وقال لهم : هل خلصتم هذا الزاهد أم هو في الدير إلى الآن؟ فقالوا : بل خلصناه وقتلنا صاحب الدير من خوفنا على أنفسنا ثم أسرعنا في الهرب خوفاً من العطب، وقد أخبرنا بعض الثقات أن في هذا الدير قناطير من الذهب والفضة والجواهر . ثم بعد ذلك أتوا بالصندوق وأخرجوا منه تلك الملعونة كأنها قرن خيار شنبر من شدّة السوار والنحول، وهي مكبّلة بتلك السلاسل والقيود . فلما نظرها ضوء المكان هو والحاضرون، ظنّوا أنه رجل من خيار العباد ومن أفضل الزهّاد، خصوصاً وجبينها يضيء من الدهان الذي دهنت به وجهها . فبكى ضوء المكان وأخوه بكاءً شديداً ثم قاما إليها وقبّلا يديها ورجليها وصارا ينتحبان . فأشارت إليهما وقالت : كفّا عن هذا البكاء واسمعا كلامي . فتركا البكاء امتثالاً لأمرها . فقالت : اعلما أني قد رضيت بما صنعه بي مولاي لأني أرى أن البلاء الذي نزل بي امتحان منه عزّ وجلّ، ومن لم يصبر على البلاء والمحن فليس له وصول إلى جنّات النعيم . وكنت أتمنّى أني أعود إلى بلادي لا جزعاً من البلاء الذي حلّ بي بل لأجل أن أموت تحت حوافر خيل المجاهدين الذين هم بعد القتل أحياء غير أموات . ثم أنشدت هذه الأبيات : [من البسيط]

أَلْحِصْنُ طُورٌ ونارُ ٱلْحَرْبِ مُوقَدَةٌ ... وأَنْتَ مُوسَى وهذا ٱلْوَقْت مِيْقَاتُ
أَلْقِ ٱلْعَصَى تَتَلَقَّفْ كُلَّ ما صَنَعُوا ... ولا تَخَفْ ما حِبالُ ٱلْقَوْمِ حَيَّاتُ
فاقْرِئْ صُدُورَ ٱلْعِدَىٰ يَوْمَ ٱلْوَغَى سُوَرًا ... فإنَّ سَيْفَكَ فِي الأَعْنَاقِ آيَاتُ

فلما فرغت العجوز من شعرها، تناثرت من عينيها المدامع وجبينها بالدهان كالضوء اللامع . فقام إليها شركان وقبّل يدها وأحضر لها الطعام . فامتنعت وقالت : إني لم أفطر من مدة خمسة عشر عاماً فكيف أفطر في هذه الساعة؟ وقد جاد عليّ المولى بالخلاص من أسر الكفّار ودفع عني ما هو أشق من عذاب النار، فأنا أصبر إلى الغروب . فلمّا جاء وقت العشاء، أقبل شركان هو وضوء المكان وقدّما إليها الأكل وقالا لها : كُل أيها الزاهد . فقالت : ما هذا وقت الأكل، وإنما هذا وقت عبادة الملك الديّان . ثم انتصبت في المحراب تصلّي إلى أن ذهب الليل . ولم تزل على هذه الحالة ثلاثة أيام بلياليها وهي لم تقعد إلاّ وقت التحيّة . فلما رآها ضوء المكان على تلك الحالة، ملك قلبه حسن الاعتقاد فيها وقال لشركان : اضرب خيمة من الأديم لذلك العابد ووكّل فرّاشاً بخدمته . وفي اليوم الرابع دعت الطعام، فقدّموا لها من الألوان ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين . فلم تأكل من ذلك كله إلاّ رغيفاً واحداً بملح ثم نوت الصوم . ولمّا جاء الليل قامت إلى الصلاة فقال شركان لضوء المكان : أمّا هذا الرجل فقد زهد الدنيا غاية الزهد . ولولا هذا الجهاد لكنت لازمته وأعبد الله بخدمته حتى ألقاه . وقد اشتهيت أن أدخل معه الخيمة وأتحدّث معه ساعة . فقال له ضوء المكان : وأنا كذلك . ولكن نحن في غد داهبون إلى غزو القسطنطينية ولم نجد لنا ساعة مثل هذه الساعة . فقال الوزير دندان : وأنا الآخر أشتهي أن أرى هذا الزاهد لعلّه يدعو لي

بقضاء نحبي في الجهاد ولقاء ربي ، فإني زهدت الدنيا . فلمّا جنّ عليهم الليل ، دخلوا على تلك الكاهنة ذات الدواهي في خيمتها فرأوها قائمة تصلّي ، فدنوا منها وصاروا يبكون رحمةً لها وهي لا تلتفت إليهم إلى أن انتصف الليل ، فسلّمت من صلاتها ثم أقبلت عليهم وحيّتهم وقالت لهم : لماذا جئتم ؟ فقالوا لها : أيها العابد ، أما سمعت بكاءنا حولك ؟ فقالت : إن الذي يقف بين يدي الله لا يكون له وجود في الكون حتى يسمع صوت أحد أو يراه . ثم إنّهم قالوا : إننا نشتهي أن تحدثنا بسبب أسرك وتدعو لنا في هذه الليلة فإنها خيرٌ لنا من ملك القسطنطينية . فلما سمعت كلامهم قالت : والله لولا أنكم أمراء المسلمين ما أحدّثكم بشيء من ذلك أبداً ، فإني لا أشكو إلاّ إلى الله وها أنا أخبركم بسبب أسري .

حكاية الدير

أعلموا أنني كنت في القدس مع بعض الأبدال وأرباب الأحوال ، وكنت لا أتكبّر عليهم لأن الله سبحانه وتعالى أنعم عليّ بالتواضع والزهد . فاتفق أنني توجّهت إلى البحر ليلة ومشيت على الماء ، فداخلني العجب من حيث لا أدري وقلت في نفسي : من مثلي يمشي على الماء ؟ فقسا قلبي من ذلك الوقت وابتلاني الله بحب السفر . فسافرت إلى بلاد الروم وجلت في أقطارها سنة كاملة حتى لم أترك موضعاً إلاّ عبدت الله فيه . فلمّا وصلت إلى هذا المكان ، صعدت إلى هذا الجبل وفيه دير راهب يقال له : مطروحني ، فلما رآني خرج إليّ وقبّل يدي ورجليّ وقال : إني رأيتك منذ دخلت بلاد الروم وقد شوّقتني إلى بلاد الإسلام . ثم إنه أخذ بيدي وأدخلني ذلك الدير ثم دخل بي إلى بيت مظلم . فلمّا دخلت فيه غافلني وأغلق عليّ الباب ، وتركني فيه أربعين يوماً من غير طعام ولا شراب وكان قصده بذلك قتلي صبراً . فاتفق في بعض الأيام أنه دخل ذلك الدير بطريق يقال له : دقيانوس ومعه عشرة من الغلمان ومعه إبنة يقال لها : تماثيل ، ولكنها في الحسن ليس لها مثيل . فلمّا دخلوا الدير أخبرهم الراهب مطروحني بخبري فقال البطريق : أخرجوه لأنه لم يبقَ من لحمه ما يأكله الطير . ففتحوا باب ذلك البيت المظلم فوجدوني منتصباً في المحراب أصلّي وأقرأ وأسبّح وأتضرّع إلى الله تعالى . فلمّا رأوني على تلك الحالة قال مطروحني : إن هذا ساحر من السحرة . فلما سمعوا كلامه قاموا جميعاً ودخلوا عليّ وأقبل عليّ دقيانوس هو وجماعته وضربوني ضرباً عنيفاً . فعند ذلك تمنيّت الموت ولمت نفسي وقلت : هذا جزاء من يتكبّر ويعجب بما أنعم عليه ربّه مما ليس في طاقته . وأنت يا نفسي قد داخلك العجب والكبر ، أما علمت أن الكبر يغضب الرب ويقسي القلب ويدخل الإنسان النار . ثم بعد ذلك قيّدوني وردّوني إلى مكاني ، وكان سرداباً في ذلك البيت تحت الأرض ، وكل ثلاثة أيام يرمون إليّ قرصة من الشعير وشربة ماء . وكل شهرين يأتي البطريق ويدخل ذلك الدير . وقد كبرت ابنته تماثيل لأنها كانت بنت تسع سنين حين رأيتها ، ومضى لي في الأسر خمس عشرة سنة فجملة عمرها : أربعة وعشرون عاماً ، وليس في بلادنا ولا في بلاد الروم أحسن منها . وكان أبوها يخاف عليها من الملك أن يأخذها منه لأنها وهبت نفسها للمسيح ، غير أنها تركب مع أبيها في زيّ الرجال الفرسان وليس لها مثيل في الحسن . ولم يعلم من رآها أنها جارية ، وقد خزن أبوها أمواله في هذا الدير لأن كل من كان عنده شيء من نفائس الذخائر يضعه في ذلك الدير . وقد رأيت فيه من أنواع الذهب والفضة والجواهر وسائر الأواني والتحف ما لا يحصي عدده إلاّ الله تعالى . فأنتم أولى به

من هؤلاء الكفرة، فخذوا ما في هذا الدير وانفقوه على المسلمين وخصوصاً المجاهدين . ولما وصل هؤلاء التجار إلى القسطنطينية وباعوا بضاعتهم ، كلمتهم تلك الصورة التي في الحائط كرامة أكرمني الله بها، فجاؤوا إلى ذلك الدير وقتلوا البطريق مطروحني بعد أن عاقبوه أشد العقاب وجرّوه من لحيته . فدلّهم على موضعي فأخذوني، ولم يكن لهم سبيل إلاّ الهرب خوفاً من العطب . وفي ليلة غد تأتي تماثيل إلى ذلك الدير على عادتها ويلحقها أبوها مع غلمانه لأنه يخاف عليها . فإن شئتم أن تشاهدوا هذا الأمر، فخذوني بين أيديكم وأنا أسلّم إليكم الأموال وخزانة البطريق دقيانوس التي في ذلك الجبل . وقد رأيتهم يخرجون أواني الذهب والفضة يشربون فيها . ورأيت عندهم جارية تغني لهم بالعربي . فواحسرتاه لو كان ذلك الصوت الحسن في قراءة القرآن . وإن شئتم فادخلوا ذلك الدير واكمنوا فيه إلى أن يصل دقيانوس ومعه ابنته، فخذوها فإنها لا تصلح إلا لملك الزمان شركان أو للملك ضوء المكان . ففرحوا بذلك حين سمعوا كلامها إلاّ الوزير دندان . فإنه ما دخل كلامها في عقله، وإنما كان يتحدث معها لأجل خاطر الملك . وصار باهتاً من كلامها ويلوح على وجهه علامة الإنكار عليها . فقالت العجوز ذات الدواهي : إني أخاف أن يقبل البطريق وينظر هذه العساكر في المرج ، فما يجسر أن يدخل الدير . فأمر السلطان العسكر أن يرحلوا صوب القسطنطينية . وقال ضوء المكان : إن قصدي أن نأخذ معنا مائة فارس وبغالاً كثيرة ونتوجّه إلى ذلك الجبل لأجل أن نحمّلهم المال الذي في الدير . ثم أرسل من وقته وساعته إلى الحاجب الكبير فأحضره بين يديه وأحضر المقدمين والأتراك والديلم وقال : إذا كان وقت الصباح ، فارحلوا إلى القسطنطينية . وأنت أيها الحاجب تكون عوضاً عني في الرأي والتدبير . وأنت يا رستم تكون نائباً عن أخي في القتال . ولا تعلموا أحد أننا لسنا معكم ، وبعد ثلاثة أيام نلحقكم . ثم انتخب مائه فارس من الأبطال وانحاز هو وأخوه شركان والوزير دندان والمائة فارس وأخذوا معهم البغال والصناديق لأجل حمل المال . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 96

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن شركان وأخاه ضوء المكان والوزير دندان، سافروا هم والمائة خيّال إلى الدير الذي وصفته لهم اللعينة ذات الدواهي . وأخذوا معهم البغال والصناديق لأجل حمل المال . فلما أصبح الصباح ، نادى الحاجب بين العسكر بالرحيل ، فرحلوا وهم يظنون أن شركان وضوء المكان والوزير دندان معهم ، ولم يعلموا أنهم ذهبوا إلى الدير . هذا ما كان من أمرهم . وأما ما كان من أمر شركان وأخيه ضوء المكان والوزير دندان، فإنهم أقاموا إلى آخر النهار ، وكان الكفّار أصحاب ذات الدواهي رحلوا خفية بعد أن دخلوا عليها وقبّلوا يديها ورجليها واستأذنوها في الرحيل . فأذنت لهم وأمرتهم بما شاءت من المكر . فلما جنّ الظلام قامت العجوز وقالت لضوء المكان هو وأصحابه : قوموا معي إلى الجبل وخذوا معكم قليلاً من العسكر . فأطاعوها وتركوا في سفح الجبل خمسة فوارس بين يدي ذات الدواهي وصار عندها قوّة من شدّة فرحها . وصار ضوء المكان يقول : سبحان من قوّى هذا الزاهد الذي ما رأينا مثله . وكانت الكاهنة قد أرسلت كتاباً على أجنحة الطير إلى ملك القسطنطينية تخبره فيه بما جرى وقالت في آخر الكتاب : أريد أن تنفذ لي عشرة الآف فارس من

شجعان الروم . ويكون سيرهم في سفح الجبل خفية لئلا يراهم عسكر الإسلام . ويأتون إلى الدير ويكمنون فيه حتى أحضر إليهم ومعي ملك المسلمين وأخوه . فإني خدعتهما وجئت بهما، ومعهما الوزير ومائة فارس لا غير . وسوف أسلّم إليهم الصلبان التي في الدير . وقد عزمت على قتل الراهب مطروحني لأن الحيلة لا تتم إلاّ بقتله . فإذا تمت الحيلة ، فلا يصل من المسلمين إلى بلادهم لا ديار ولا من ينفخ ناراً ويكون مطروحني فداء لأهل الملّة النصرانية والعصابة الصليبية والشكر للمسيح أولاً وآخراً . فلما وصل الكتاب إلى القسطنطينية ، جاء براج الحمام إلى الملك افريدون بالورقة . فلما قرأها أنفذ الجيش من وقته وجهّز كل واحد بفرس وهجين وبغل وزاد . وأمرهم أن يصلوا إلى ذلك الدير . هذا ما كان من أمر هؤلاء . وأما ما كان من أمر الملك ضوء المكان وأخيه شركان والوزير دندان والعسكر ، فإنهم لما وصلوا إلى الدير دخلوه فرأوا الراهب مطروحني قد أقبل لينظر حالهم فقال الزاهد : اقتلوا هذا اللعين . فضربوه بالسيف وأسقوه كأس الحتوف . ثم مضت بهم الملعونة إلى موضع النذور ، فأخرجوا منه من التحف والذخائر أكثر مما وصفته لهم ، وبعد أن جمعوا ذلك وضعوه في الصناديق وحملوه على البغال . وأما تماثيل فإنها لم تحضر لا هي ولا أبوها خوفاً من المسلمين ، فأقام ضوء المكان في انتظارها ذلك النهار وثاني يوم وثالث يوم فقال شركان : والله إن قلبي مشغول بعسكر الإسلام ولا أدري ما حالهم . فقال أخوه : إنا قد أخذنا هذا المال العظيم وما نظن أن تماثيل ولا غيرها يأتي إلى هذا الدير بعد أن جرى لعسكر الروم ما جرى . فينبغي أن نقنع بما يسّره الله لنا ونتوجّه لعل الله يعيننا على فتح القسطنطينية . ثم نزلوا من الجبل ، فما أمكن ذات الدواهي أن تتعرّض لهم خوفاً من التفطّن لخداعها . ثم إنهم ساروا إلى أن وصلوا إلى باب الشِّعب ، وإذا بالعجوز قد أكمنت لهم عشرة آلآف فارس ، فلما رأوهم احتاطوا بهم من كل جانب وأشرعوا الرماح وجرّدوا عليهم بيض الصفاح ونادى الكفّار بكلمة كفرهم وفرقوا سهام شرّهم ، فنظر ضوء المكان وأخوه شركان والوزير دندان إلى هذا الجيش فرأوه جيشاً عظيماً وقالوا : من أعلم هذه العساكر بنا؟ فقال شركان : يا أخي ، ما هذا وقت كلام بل هذا وقت الضرب بالسيف والرمي بالسهام ، فشدّوا عزمكم وقوّوا نفوسكم لأن هذه الشِعب مثل الدرب لها بابان ، وحقّ سيّد العرب والعجم لولا أن هذا المكان ضيّق لكنت أفنيتهم ولو كانوا مائة ألف فارس . فقال ضوء المكان : لو علمنا ذلك لأخذنا معنا خمسة الآف فارس . فقال الوزير دندان : لو كان معنا عشرة الآف فارس في هذا المكان الضيّق لا تفيدنا شيئاً ولكن الله يعيننا عليهم ، وأنا أعرف هذه الشِعب وضيقها ، وأعرف أن فيها مفلوز كثيرة لأني قد غزوت فيها مع الملك عمر النعمان حيث حاصرنا القسطنطينية وكنا نقيم فيها ، وفيها ماء أبرد من الثلج ، فانهضوا بنا لنخرج من هذه الشعب قبل أن يكثر علينا عساكر الكفّار ويسبقونا إلى رأس الجبل فيرموا علينا الحجارة ولم نملك فيهم إرباً . فأخذوا في الإسراع بالخروج من تلك الشعب ، فنظر إليهم الزاهد وقال لهم : ما هذا الخوف وأنتم قد بعتم أنفسكم لله تعالى في سبيله والله ؟ إني مكثت مسجوناً تحت الأرض خمسة عشر عاماً ولم أعترض على الله فيما فعل بي ، فقاتلوا في سبيل الله ، فمن قتل منكم فالجنة مأواه ، ومن قتل فإلى الشرف مسعاه . فلما سمعوا من الزاهد هذا الكلام زال عنهم الهمّ والغمّ وثبتوا حتى هجم عليهم الكفّار من كل مكان ولعبت في أعناقهم السيوف ودارت بينهم كأس الحتوف وقاتل المسلمون في طاعة الله

اشد القتال واعملوا في أعدائه الأسنّة والنصال، وصار ضوء المكان يضرب الرجال ويجندل الأبطال ويرمي رؤوسهم خمسة خمسة وعشرة عشرة حتى أفنى منهم عدداً لا يحصى وأحملاً لا تستقصى. فبينما هو كذلك إذ نظر الملعونة وهي تشير بالسيف إليهم وتقويّهم وكل من خاف يهرب إليها. وصارت تومىء إليهم بقتل شركان فيميلون إلى قتله فرقة بعد فرقة. وكل فرقة حملت عليه، يحمل عليها ويهزمها وتأتي بعدها فرقة أخرى حاملة عليه فيردّها بالسيف على أعقابها. فظن أن نصره عليهم ببركة العابد وقال في نفسه: إن هذا العابد قد نظر الله إليه بعين عنايته وقوّى عزمي على الكفّار بخالص نيّته، فأراهم يخافونني ولا يستطيعون الإقدام عليّ، بل كلما حملوا عليّ يولّون الأدبار ويركنون إلى الفرار. ثم قاتلوا بقية يومهم إلى آخر النهار. ولما أقبل الليل نزلوا في مغارة من تلك الشعب من كثرة ما حصل لهم من الوبال ورمي الحجارة، وقتل منهم في ذلك اليوم خمسة وأربعون رجلاً. ولما اجتمعوا مع بعضهم فتشوا على ذلك الزاهد فلم يروا له أثراً، فعظم عليهم ذلك وقالوا: لعله استشهد. فقال شركان: أنا رأيته يقوّي الفرسان بالإشارات الربّانية ويعيذهم الآيات الرحمانية. فبينما هم في الكلام وإذا بالملعونة ذات الدواهي قد أقبلت وفي يدها رأس البطريق الكبير الرئيس على العشرين ألفاً، وكان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً وقد قتله رجل من الأتراك بسهم فجعل الله بروحه إلى النار. فلما رأى الكفّار ما فعل ذلك المسلم بصاحبهم مالوا بكلّيتهم عليه وأوصلوا الأذيّة إليه وقطّعوه بالسيوف، فجعل الله به إلى الجنة. ثم إن الملعونة قطعت رأس ذلك البطريق وأتت بها وألقتها بين يدي شركان والملك ضوء المكان والوزير دندان، فلما رآها شركان وثب قائماً على قدميه وقال: الحمد لله على رؤيتك أيها العابد المجاهد الزاهد. فقال: يا ولدي إني قد طلبت الشهادة في هذا اليوم فصرت أرمي روحي بين عسكر الكفّار وهم يهابونني، فلما انفصلتم أخذتني الغيرة عليكم وهجمت على البطريق الكبير رئيسهم وكان يعد بألف فارس، فضربته حتى أطحت رأسه عن بدنه ولم يقدر أحد من الكفّار أن يدنو مني وأتيت برأسه إليكم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 97

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن اللعينة ذات الدواهي لما أخذت رأس البطريق رئيس العشرين ألف كافر، أتت بها وألقتها بين يدي الملك ضوء المكان وأخيه شركان والوزير دندان وقالت لهم: لما رأيت حالكم أخذتني الغيرة عليكم وهجمت على البطريق الكبير وضربته بالسيف. فأطحت رأسه ولم يقدر أحد من الكفّار أن يدنو مني، وأتيت برأسه إليكم لتقوى نفوسكم على الجهاد وترضوا بسيوفكم ربّ العباد. وأريد أن أشغلكم في الجهاد واذهب إلى عسكركم ولو كانوا على باب القسطنطينية وآتيكم من عندهم بعشرين ألف فارس يهلكون هؤلاء الكفرة. فقال شركان: وكيف تمضي إليهم أيها الزاهد والوادي مسدود بالكفّار من كل جانب؟ فقالت الملعونة: الله يسترني عن أعينهم فلا يرونني، ومن رآني لا يجسر أن يقبل عليّ فإني في ذلك الوقت أكون فانياً في الله وهو يقاتل عني أعداءه. فقال شركان: صدقت أيها الزاهد لأني شاهدت ذلك، وإذا كنت تقدر أن تمضي أول الليل يكون ذلك أجود لنا. فقال: أنا أمضي في هذه الساعة، وإن كنت تريد أن تجيء معي ولا يراك أحد فقم، وإن كان أخوك يذهب معنا أخذناه دون غيره فإن ظل الوالي لا يستر غير اثنين. فقال شركان: أما أنا فلا

أترك أصحابي . ولكن إذا كان أخي يرضى بذلك فلا بأس حيث ذهب معك وخلّص من هذا الضيق فإنه هو حصن المسلمين وسيف ربّ العالمين ، وإن شاء فليأخذ معه الوزير دندان أو من يختار ، ثم يرسل إلينا عشرة آلاف فارس إعانة على هؤلاء اللئام . واتفقوا على هذا الحال . ثم إن العجوز قالت : أمهلوني حتى اذهب قبلكم وانظر حال الكفرة هل هم نيام أو يقظانون ؟ فقالوا : ما نخرج إلاّ معك ونسلم أمرنا لله . فقالت : إذا طاوعتكم لا تلوموني ولوموا أنفسكم ، فالرأي عندي أن تمهلوني حتى أكشف خبرهم . فقال شركان : إمضِ إليهم ولا تبطئ علينا لأننا ننتظرك . فعند ذلك خرجت ذات الدواهي وكان شركان حدّث أخاه بعد خروجها وقال : لولا أن الزاهد صاحب كرامات ما كان قتل هذا البطريق الجبّار ، وفي هذا القدر كفاية في كرامة هذا الزاهد وقد انكسرت شوكة الكفّار بقتل هذا البطريق لأنه كان جبّاراً عنيداً وشيطاناً مريداً . فبينما هم يتحدّثون في كرامات الزاهد وإذا باللعينة ذات الدواهي قد دخلت عليهم ووعدتهم بالنصر على الكفرة ، فشكروا الزاهد على ذلك ولم يعلموا أن هذه حيلة وخداع . ثم قالت اللعينة : أين ملك الزمان ضوء المكان ؟ فأجابها بالتلبية . فقالت له : خذ معك وزيرك وسِرْ خلفي حتى نذهب إلى القسطنطينية . وكانت ذات الدواهي قد أعلمت الكفّار بالحيلة التي عملتها ففرحوا بذلك غاية الفرح وقالوا : ما يجبر خاطرنا إلا قتل ملكهم في نظير قتل البطريق ، لأنه لم يكن عندنا أفرس منه . وقالت العجوز النحس ذات الدواهي حين أخبرتهم بأنها تذهب إليهم بملك المسلمين : إذا أتيت به نأخذه إلى الملك أفريدون . ثم إن العجوز ذات الدواهي توجّهت وتوجّه معها ضوء المكان والوزير دندان وهي سابقة عليهما وتقول لهما : سيرا على بركة الله تعالى . فأجاباها إلى قولها ونفذ فيهما سهم القضاء والقدر . ولم تزل سائرة بهما حتى توسطت بهما عسكر الروم ووصلوا إلى الشعب المذكورة الضيقة وعساكر الكفّار ينظرون إليهم ولا يتعرّضون لهم بسوء لأن الملعونة أوصتهم بذلك . فلما نظر ضوء المكان والوزير دندان إلى عساكر الكفّار وعرفوا أن الكفّار عاينوهم ولم يتعرضوا لهم . قال الوزير دندان : والله ، إن هذه كرامة من الزاهد ولا شك أنه من الخواص . فقال ضوء المكان : والله ما أظن الكفّار إلا عمياناً ، لأننا نراهم وهم لا يرونا . فبينما هما في الثناء على الزاهد وتعداد كراماته وزهده وعباداته وإذا بالكفّار قد هجموا عليهما واحتاطوا بهما وقبضوا عليهما وقالوا : هل معكما أحد غيركما فنقبض عليه ؟ فقال الوزير دندان : أما ترون هذا الرجل الآخر الذي بين أيدينا ؟ فقال لهم الكفّار : وحقّ المسيح والرهبان والجاثليق والمطران إننا لم نرَ أحداً غيركما . فقال ضوء المكان : والله إن الذي حلّ بنا عقوبة لنا من الله تعالى . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 98

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الكفّار لما قبضوا على الملك ضوء المكان والوزير دندان قالوا لهما : هل معكما غيركما فنقبض عليه ؟ فقال الوزير دندان : أما ترون هذا الرجل الآخر الذي معنا ؟ قالوا : وحقّ المسيح والرهبان والجاثليق والمطران ، إننا ما نرى أحداً غيركما . ثم إن الكفّار قد وضعوا القيود في أرجلهما ووكّلوا بهما من يحرسهما في المبيت ، فصارا يتأسّفان ويقولان لبعضهما : إن الإعتراض على الصالحين يؤدي إلى أكثر من ذلك ، وجزانا ما حلّ بنا من الضيق الذي نحن فيه . هذا ما كان من أمر ضوء المكان والوزير دندان . وأما

ما كان من أمر الملك شركان فإنه بات تلك الليلة . فلما أصبح الصباح قام وصلّى صلاة الصبح ثم نهض هو ومن معه من العساكر وتأهّبوا لقتال الكفّار ، وقوّى قلبهم شركان ووعدهم بكل خير ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى الكفّار . فلما رآهم الكفّار من بعيد قالوا لهم : يا مسلمون إنّا أسرنا سلطانكم ووزيره الذي به انتظام أمركم ، وإن لم ترجعوا عن قتالنا قتلناكم عن آخركم ، وإذا سلمتم لنا أنفسكم فاننا نروح بكم إلى ملكنا فيصالحكم على أن لا تخرجوا من بلادنا ولا تذهبوا إلى بلادكم ولا تضرّونا بشيء ولا نضرّكم بشيء ، فإن طاب خاطركم كان الحظ لكم وإن أبيتم فما يكون إلاّ قتلكم وقد عرفناكم وهذا آخر كلامنا معكم . فلما سمع شركان كلامهم وتحقّق أسر أخيه والوزير دندان عظم عليه ذلك وبكى وضعفت قوّته وأيقن بالهلاك فقال في نفسه : يا ترى ما سبب أسرهما ؟ هل حصل منهما إساءة أدب في حق الزاهد واعترضا عليه ؟ أو ما شأنهما ؟ ثم نهضوا إلى قتال الكفّار فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وتبين في ذلك اليوم الشجاع من الجبان واختضب السيف والسنان وتهافت عليهم الكفّار تهافت الذباب على الشراب من كل مكان . وما زال شركان ومن معه يقاتلون قتال من لا يخاف الموت ولا يعتريه في طلب الفرصة فوت حتى سال الوادي بالدماء وامتلأت الأرض بالقتلى . فلما أقبل الليل تفرّقت الجيوش وكل من الفريقين ذهب إلى مكانه وعاد المسلمون إلى تلك المغارة ولم يبقَ منهم إلا القليل ، لم يكن منهم إلا على الله والسيف تعويل وقد قتل منهم في هذا النهار خمسة وثلاثون فارساً من الأمراء الأعيان ، وإن قتل بسيفهم من الكفّار الآف من الرجال والركبان . فلما عاين شركان ذلك ، ضاق عليه الامر وقال لأصحابه : كيف العمل ؟ فقال له أصحابه : لا يكون إلا ما يريده الله تعالى . فلما كان ثاني يوم قال شركان لبقية العسكر : إن خرجتم للقتال ما بقي منكم أحد لأنه لم يبقَ عندنا إلا قليل من الماء والزاد ، والرأي الذي عندي فيه الرشاد أن تجرّدوا سيوفكم وتخرجوا وتقفوا على باب تلك المغارة لأجل أن تدفعوا عن أنفسكم كل من يدخل عليكم فلعل الزاهد أن يكون وصل إلى عسكر المسلمين ويأتينا بعشرة الآف فارس فيعينونا على قتال الكفرة ، ولعل الكفّار لم ينظروه هو ومن معه . فقال له أصحابه : إن هذا الرأي هو الصواب وما في سداده ارتياب . ثم إن العسكر خرجوا وملكوا باب المغارة ووقفوا في طرفيه ، وكل من أراد أن يدخل عليهم من الكفّار يقتلونه ، وصاروا يدفعون الكفّار عن الباب وصبروا على قتال الكفار إلى أن ذهب النهار وأقبل الليل بالإعتكار . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 99

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن عسكر المسلمين ملكوا باب المغارة ووقفوا في طرفيه وصاروا يدفعون الكفّار عن الباب ، وكل من أراد أن يهجم عليهم قتلوه . وصبروا على قتال الكفّار إلى أن ولّى النهار وأقبل الليل بالاعتكار ولم يبقَ عند الملك شركان إلا خمسة وعشرون رجلاً لا غير . فقال الكفّار لبعضهم : متى تنقضي هذه الأيام فإننا قد تعبنا من قتال المسلمين . فقال بعضهم : قوموا نهجم عليهم فإنه لم يبقَ منهم إلا خمسة وعشرون رجلاً ، فإن لم نقدر عليهم نضرم عليهم النار فإن انقادوا وسلّموا أنفسهم إلينا أخذناهم أسارى ، وإن أبوا تركناهم حطباً للنار حتى يصيروا عبرة لأولي الأبصار . فلا رحم المسيح أباهم ولا جعل مستقر النصارى مثواهم . ثم إنهم حملوا الحطب إلى باب المغارة وأضرموا فيه النار ، فأيقن شركان ومن

معه بالبوار . فبينما هم كذلك وإذا بالبطريق الرئيس عليهم التفت إلى المشير بقتلهم وقال له : لا يكون قتلهم إلا عند الملك أفريدون لأجل أن يشفي غليله ، فينبغي أن نبقيهم عندنا أسارى وفي غد نسافر بهم إلى القسطنطينية ونسلمهم إلى الملك أفريدون فيفعل بهم ما يريد . فقالوا : هذا هو الرأي الصواب . ثم أمروا بتكتيفهم وجعلوا عليهم حرّاساً . فلما جنّ الظلام اشتغل الكفّار باللهو والطعام ودعوا بالشراب ، فشربوا حتى انقلب كل منهم على قفاه . وكان شركان وأخوه ضوء المكان مقيّدين وكذلك من معهم من الأبطال ، فعند ذلك نظر شركان إلى أخيه وقال له : يا أخي كيف الخلاص ؟ فقال ضوء المكان : والله لا أدري وقد صرنا كالطير في الأقفاص . فاغتاظ شركان وتنهّد من شدّة غيظه فانقطع الكتاف ، فلما خلص من الوثاق قام إلى رئيس الحراس وأخذ مفاتيح القيود من جيبه وفكّ ضوء المكان وفكّ الوزير . دندان وفكّ بقية العسكر ثم التفت إلى أخيه ضوء المكان والوزير دندان وقال : إني أريد أن أقتل من الحراس ثلاثة ونأخذ ثيابهم ونلبسها نحن الثلاثة حتى نصير في زيّ الروم ونسير بينهم حتى لا يعرفوا أحداً منا ثم نتوجه إلى عسكرنا . فقال ضوء المكان : إن هذا الرأي غير صواب ، لأننا إذا قتلناهم نخاف أن يسمع أحد شخيرهم فينتبه إلينا الكفّار فيقتلوننا ، والرأي السديد أن نسير إلى خارج الشعب . فأجابوه إلى ذلك ، فلما صاروا بعيداً عن الشعب بقليل رأوا خيلاً مربوطة وأصحابها نائمون فقال شركان لأخيه : ينبغي أن يأخذ كل واحد منا جواداً من هذه الخيول . وكانوا خمسة وعشرين رجلاً فأخذوا خمسة وعشرين جواداً وقد ألقى الله النوم على الكفّار لحكمة يعلمها . ثم إن شركان جعل يختلس من الكفّار السلاح من السيوف والرماح حتى اكتفى ، ثم ركبوا الخيل التي أخذوها وساروا وكان في ظن الكفّار أنه لا يقدر أحد على فكاك ضوء المكان وأخيه ومن معهما من العساكر وأنهم لا يقدرون على الهروب . فلما خلصوا جميعاً من الأسر وصاروا في أمن من الكفّار التفت إليهم شركان وقال لهم : لا تخافوا حيث سترنا الله ، ولكن عندي رأي ولعله صواب . فقالوا : وما هو ؟ قال : أريد أن تطلعوا فوق الجبل وتكبّروا كلكم تكبيرة واحدة وتقولوا : لقد جاءتكم العساكر الإسلامية ونصيح كلنا صيحة واحدة بقول : الله أكبر . فيفترق الجمع من ذلك ولا يجدون لهم في هذا الوقت حيلة فإنهم سكارى ويظنون أن عسكر المسلمين أحاطوا بهم من كل جانب واختلطوا بهم ، فيقعون ضرباً بالسيوف في بعضهم من دهشة السكر والنوم فنقطعهم بسيوفهم ويدور السيف فيهم إلى الصباح . فقال ضوء المكان : إن هذا الرأي غير صواب ، والصواب إننا نسير إلى عسكرنا ولا ننطق بكلمة ، لأننا إن كبّرنا تنبّهوا لنا ولحقونا فلم يسلم منا أحد . فقال شركان : والله لو تنبهوا لنا ما علينا بأس وأشتهي أن توافقوني على هذا الرأي وهو لا يكون إلا خيراً . فأجابوه إلى ذلك ، وطلعوا فوق الجبل وصاحوا بالتكبير فكبّرت معهم الجبال والأشجار والأحجار من خشية الله ، فسمع الكفّار ذلك التكبير فصاح الكفار . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 100

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن شركان قال : أشتهي أن توافقوني على الرأي وهو لا يكون إلا خيراً . فأجابوه إلى ذلك ، وطلعوا فوق الجبل وصاحوا بالتكبير فكبّرت معهم الجبال والأشجار والأحجار من خشية الله فسمعه الكفّار . فصاحوا الكفّار على بعضهم ولبسوا السلاح وقالوا : قد هجم علينا الأعداء وحقّ المسيح ، ثم قتلوا من بعضهم ما لا يعلم

عدده إلا الله تعالى . فلما كان الصباح فتّشوا على الأسارى فلم يجدوا لهم أثراً فقال رؤساؤهم : إن الذي فعل بكم هذه الفعال هم الأسارى الذين كانوا عندنا فدونكم والسعي خلفهم حتى تلحقوهم فتسقوهم كأس الوبال ولا يحصل لكم خوف ولا انذهال . ثم إنهم ركبوا خيولهم وسعوا خلفهم . فما كان إلا لحظة حتى لحقوهم وأحاطوا بهم ، فلما رأى ضوء المكان ذلك ازداد به الفزع وقال لأخيه : إن الذي خفت من حصوله قد حصل وما بقي لنا حيلة إلا الجهاد . فلزم شركان السكوت عن المقال ثم انحدر ضوء المكان من أعلى الجبل وكبّر وكبّرت معه الرجال وعوّلوا على الجهاد وبيع أنفسهم في طاعة ربّ العباد . فبينما هم كذلك وإذا بأصوات يصيحون بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشر النذير ، فالتفتوا إلى جهة الصوت فرأوا جيوش المسلمين وعساكر الموحدين مقبلين . فلما رأوهم قويت قلوبهم وحمل شركان على الكافرين وهلّل وكبّر هو ومن معه من الموحدين فارتجّت الأرض كالزلازل وتفرّقت عساكر الكفّار في عرض الجبال . فتبعهم المسلمون بالضرب والطعان وأزاحوا منهم الرؤوس عن الأبدان ، ولم يزل ضوء المكان هو ومن معه من المسلمين يضربون في أعناق الكافرين إلى أن ولّى النهار وأقبل الليل بالاعتكار ، ثم انحاز المسلمون إلى بعضهم وباتوا مستبشرين طول ليلهم . فلما أصبح وأشرق بنوره ولاح ، رأوا بهرام مقدم الديلم ورستم مقدم الأتراك ومعهما عشرون ألف فارس مقبلين عليهم كالليوث العوابس ، فلما رأوا ضوء المكان ترجّل الفرسان وسلّموا عليه وقبّلوا الأرض بين يديه فقال لهم ضوء المكان : أبشروا بنصر المسلمين وهلاك القوم الكافرين ، ثم هنؤوا بعضهم بالسلامة وعظيم الأجر في القيامة . وكان في مجيئهم إلى هذا المكان أن الأمير بهرام والأمير رستم والحاجب الكبير لما ساروا بجيوش المسلمين والرايات على رؤوسهم منشورة حتى وصلوا إلى القسطنطينية ، رأوا الكفّار قد طلعوا على الأسوار وملكوا الأبراج والقلاع واستعدّوا في كل حصن مناع حين علموا بقدوم العساكر الإسلامية والأعلام المحمّدية ، وقد سمعوا قعقعة السلاح وضجّة الصياح ونظروا فرأوا المسلمين وسمعوا حوافر خيولهم من تحت الغبار فإذا هم كالجراد المنتشر والسحاب المنهمر ، وسمعوا أصوات المسلمين بتلاوة القرآن وتسبيح الرحمن . وكان السبب في إعلام الكفّار بذلك ما دبّرته العجوز ذات الدواهي من زورها وعهرها وبهتانها ومكرها حتى قربت العساكر كالبحر الذاخر من كثرة الرجال والفرسان والنساء والصبيان فقال أمير الترك لأمير الديلم : يا أمير ، إننا بقينا على خطر من الأعداء الذين فوق الأسوار ، فانظر إلى تلك الأبراج وإلى هذا العالم الذي كالبحر العجاج المتلاطم بالأمواج ، إن هؤلاء الكفّار قدْرنا مائة مرة ولا نأمن من جاسوس شرّه فيخبرهم أننا على خطر من الأعداء الذين لا يحصى عددهم ولا ينقطع مددهم خصوصاً مع غيبة الملك ضوء المكان وأخيه والوزير الأجلّ دندان ، فعند ذلك يطمعون فينا لغيبتهم عنا فيمحقوننا بالسيف عن آخرنا ولا ينجو منا ناجٍ . ومن الرأي أن تأخذ أنت عشرة آلاف فارس من المواصلة والأتراك وتذهب بهم إلى دير مطروحني ومرج ملوخنا في طلب إخواننا وأصحابنا ، فإن أطعتموني كنتم سبباً في الفرج عنهم إن كان الكفّار قد ضيقوا عليهم ، وإن لم تطيعوني فلا لوم عليّ . وإذا توجهتم ينبغي أن ترجعوا إلينا مسرعين فإن من الحزم سوء الظن . فعندها قبل الأمير المذكور كلامه وانتخبا عشرين ألف فارس وساروا يقطعون الطرقات طالبين المرج المذكور والدير المشهور هذا ما كان من أمر سبب مجيئهم . وأما ما كان من

أمر العجوز ذات الدواهي، فإنها لما أوقعت السلطان ضوء المكان وأخاه شركان والوزير دندان في أيدي الكفّار، أخذت تلك العاهرة جواداً وركبته وقالت للكفّار: إني أريد أن ألحق عسكر المسلمين وأتحيّل على هلاكهم لأنهم في القسطنطينية فأعلمهم أن أصحابهم هلكوا. فإذا سمعوا ذلك مني، تشتّت شملهم وانصرم حبلهم وتفرّق جمعهم، ثم أدخل أنا على الملك أفريدون ملك القسطنطينية وولدي الملك حردوب ملك الروم وأخبرهما بهذا الخبر، فيخرجان بعساكرهما على المسلمين ويهلكونهم ولا يتركون أحداً منهم. ثم إنها سارت تقطع الأرض على ذلك الجواد طول الليل. فلما أصبح الصباح لاح لها عسكر بهرام ورستم، فدخلت بعض الغابات وأخفت جوادها هناك. ثم خرجت وتمشّت قليلاً وهي تقول في نفسها: لعل عساكر المسلمين قد رجعوا منهزمين من حرب القسطنطينية. فلما قربت منهم نظرت إليهم وتحقّقت أعلامهم فرأتها غير منكّسة فعلمت أنهم أتوا غير منهزمين ولا خائفين على ملكهم وأصحابهم. فلما عاينت ذلك، أسرعت نحوهم بالجري الشديد مثل الشيطان المريد إلى أن وصلت إليهم وقالت لهم: العجل العجل يا جند الرحمن إلى جهاد حرب الشيطان. فلما رآها بهرام أقبل عليها وترجّل وقبّل الأرض بين يديها وقال لها: يا وليّ الله ما وراءك؟ فقالت: لا تسأل عن سوء الحال وشديد الأهوال، فإن أصحابنا لما أخذوا المال من دير مطروحنا أرادوا أن يتوجهوا إلى القسطنطينية. فعند ذلك خرج عليهم عسكر جرّار ذو بأس من الكفّار. ثم إن الملعونة أعادت عليهم الحديث إرجافاً ووجلاً وقالت: إن أكثرهم هلك ولم يبقَ منهم إلا خمسة وعشرون رجلاً. فقال بهرام: أيها الزاهد متى فارقتهم؟ فقال: في ليلتي هذه. فقال بهرام: سبحان الذي طوى لك الأرض البعيدة وأنت ماشي على قدميك متكئاً على جريدة، لكنك من الأولياء الطيّارة الملهمين وحي الإشارة. ثم ركب على ظهر جواده وهو مدهوش حيران بما سمعه من ذات الافك والبهتان وقال: لا حول ولا قوّة إلا بالله لقد ضاع تعبنا وضاقت صدورنا وأسر سلطاننا ومن معه. ثم جعلوا يقطعون الأرض طولاً وعرضاً ليلاً ونهاراً، فلما كان وقت السحر أقبلوا على رأس الشعب فرأوا ضوء المكان وأخاه شركان يناديان بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير. فحمل هو وأصحابه وأحاطوا بالكفّار إحاطة السيل بالقفار، وصاحوا عليهم صياحاً ضجّت منه الأبطال وتصدعت به الجبال. فلما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح، فاح لهم من ضوء المكان طيبه ونشره وتعارفوا ببعضهم كما تقدّم ذكره. فقبّلوا الأرض بين يدي ضوء المكان وأخيه شركان وأخبرهم شركان بما جرى لهم في المغارة. فتعجّبوا من ذلك ثم قالوا لبعضهم: أسرعوا بنا إلى القسطنطينية لأننا تركنا أصحابنا هناك وقلوبنا عندهم. فعند ذلك أسرعوا في المسير وتوكّلوا على اللطيف الخبير. وكان ضوء المكان يقوّي المسلمين على الثبات وينشد هذه الأبيات: [من الطويل]

لَكَ الحَمْدُ يا مُسْتَوْجِبَ الحَمْدِ وَالشُّكْرِ ... فَمَا زِلْتَ لِي بالعَوْنِ يا رَبُّ فِي أَمْرِي
رَبِيْتُ غَرِيباً فِي ٱلْبِلادِ وكُنْتَ لِي ... كَفيلاً فَلَمْ أَخْشَ الرَّدَى أَبَدَ الدَّهْرِ
وَأَعْطَيْتَنِي مالاً وَمُلْكاً وَنِعْمَةً ... وَقَلَّدْتَنِي سَيْفَ ٱلشَّجاعَةِ وَٱلنَّصْرِ
وَخَوَّلْتَنِي ظِلَّ ٱلْمَلِيْكِ مُعَمَّراً ... وَقَدْ جُدْتَ لِي مِنْ فَيْضِ جُودِكَ بالْغَمْرِ
وَسَلَّمْتَنِي مِنْ كُلِّ خَطْبٍ حَذِرْتُهُ ... فَأَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلشَّرَّ يَفْضِي عَلَى الشَّرِّ
بِفَضْلِكَ قَدْ صُلْنا عَلَى ٱلرُّوْمِ صَوْلَةً ... وَقَد رَجَعُوا بِالضَّرْبِ فِي حُلَلٍ حُمْرِ

وَأَظْهَرْتُ أَنِّي قَدْ هُزِمْتُ هَزِيمَةً ... وَعُدْتُ عَلَيْهِمْ عَوْدَةَ ٱلضَّيْغَمِ الحُرِّ
تَرَكْتُهُمُ فِي ٱلْقَاعِ صَرْعَى كَأَنَّهُمْ ... نَشَاوى بِكَأسِ ٱلْمَوْتِ لا قَهْوَةَ ٱلْخَمْرِ
وَصَارَتْ بِأَيْدِينا المَرَاكِبُ كُلُّها ... وَصَار لَنا ٱلسُّلْطانُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ
وَجَاءَ إِلَيْنا ٱلزَّاهِدُ ٱلْعَابِدُ ٱلَّذِي ... كَرَامَتُهُ شَاعَتْ لَدَى ٱلْبَدْوِ وَٱلْحَضَرِ
أَتَيْنَا لأَخْذِ الثَّأْرِ مِنْ كُلِّ كافِرٍ ... وقَدْ شاعَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ ما كانَ مِنْ أَمْرِي
وقَد قَتَلُوا مِنَّا رِجالاً فَأَصْبَحُوا ... لَهُمْ غُرَفٌ فِي الخُلْدِ تَعْلُو عَلى نَهْرِ

فلما فرغ ضوء المكان من شعره، هنّأه أخوه شركان بالسلامة وشكره على أفعاله . ثم إنهم توجّهوا مجدّين المسير . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 101

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن شركان هنّاه أخوه ضوء المكان بالسلامة وشكره على أفعاله . ثم إنهم توجّهوا مجدّين المسير طالبين عساكرهم . هذا ما كان من أمرهم . وأما ما كان من أمر العجوز ذات الدواهي، فإنها لما لاقت عسكر بهرام ورستم ، عادت إلى الغابة وأخذت جوادها وركبته وأسرعت في سيرها حتى أشرفت على عسكر المسلمين المحاصرين للقسطنطينية . ثم إنها نزلت وأخذت جوادها وأتت به إلى السرادق الذي فيه الحاجب، فلما رآها نهض لها قائماً وأشار إليها بالإيماء وقال : مرحباً بالعابد الزاهد . ثم سألها عمّا جرى فأخبرته بخبرها المرجف وبهتانها المتلف وقالت : إني أخاف على الأمير رستم والأمير بهرام لأني قد لاقيتهما مع عسكرهما في الطريق وأرسلتهما إلى الملك ومن معه وكانا في عشرين ألف فارس والكفّار أكثر منهم ، وإني أردت في هذه الساعة أن ترسل جملة من عسكرك حتى يلحقوهم بسرعة لئلا يهلكوا عن آخرهم . وقالت لهم : العجل العجل . فلما سمع الحاجب والمسلمون منها ذلك الكلام ، انحلّت عزائمهم وبكوا . فقالت لهم ذات الدواهي : استعينوا بالله واصبروا على هذه الرزيّة فلكم أسوة بمن سلف من الأمة المحمّدية، فالجنة ذات القصور أعدّها الله لمن يموت شهيداً، ولا بدّ من الموت لكل أحد ولكنه في الجهاد أحمد . فلما سمع الحاجب كلام اللعينة ذات الدواهي ، دعا بأخي الأمير بهرام وكان فارساً يقال له : تركاش ، وانتخب له عشرة الآف فارس أبطال عوابس وأمره بالسير . فسار في ذلك اليوم وطول الليل حتى قرب من المسلمين، فلما أصبح الصباح رأى شركان ذلك الغبار فخاف على المسلمين وقال : إن هذه عساكر مقبلة إلينا، فإما أن يكونوا من عسكر المسلمين فهذا هو النصر المبين، وإما أن يكونوا من عسكر الكفّار فلا اعتراض على الأقدار . ثم إنه أتى إلى أخيه ضوء المكان وقال له : لا تخف أبداً فإني أفديك بروحي من الردى، فإن كان هؤلاء من عسكر الإسلام فهذا من مزيد الأنعام ، وإن كان هؤلاء أعداؤنا فلا بدّ من قتالهم . لكن أشتهي أن أقابل العابد قبل موتي لأسأله أن يدعو لي أن لا أموت إلا شهيداً . فبينما هم كذلك وإذا بالرايات قد لاحت مكتوباً عليها : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فصاح شركان : كيف حال المسلمين؟ قالوا : بعافية وسلامة، وما أتينا إلا خوفاً عليكم . ثم ترجّل رئيس العسكر عن جواده وقبّل الأرض بين يديه وقال : يا مولانا كيف السلطان والوزير دندان ورستم وأخي بهرام ، أما هم الجميع سالمون؟ فقال : بخير . ثم قال له : ومن الذي أخبركم بخبرنا؟

قال : الزاهد ، وقد ذكر أنه لقي أخي بهرام ورستم وأرسلهما إليكم وقال لنا : إن الكفّار قد أحاطوا بهم وهم كثيرون ، وما أرى الأمر إلا بخلاف ذلك وأنتم منصورون . فقالوا له : وكيف وصول الزاهد إليكم ؟ فقالوا له : كان سائراً على قدميه وقطع في يوم وليلة مسيرة عشرة أيام للفارس المجد . فقال شركان : لا شك أنه ولي لله . وأين هو ؟ قالوا له : تركناه عند عسكرنا أهل الإيمان يحرضهم على قتال أهل الكفر والطغيان . ففرح شركان بذلك وحمد الله على سلامتهم وسلامة الزاهد وترحّموا على من قتل منهم وقالوا : كان ذلك في الكتاب مسطوراً . ثم ساروا مجدّين في سيرهم . فبينما هم كذلك وإذا بغبار قد طار حتى سدّ الأقطار وأظلم منه النهار ، فنظر إليه شركان وقال : إني أخاف أن يكون الكفّار قد كسروا عسكر الإسلام لأن هذا الغبار سدّ المشرقين وملأ الخافقين . ثم لاح من تحت ذلك الغبار عمود من الظلام أشد سواداً من حالك الأيام ولا زالت تقرب منهم تلك الدعامة وهي أشد من هول يوم القيامة . فتسارعت إليها الخيل والرجال لينظروا ما سبب سوء هذا الحال ، فرأوه الزاهد المشار إليه فازدحموا على تقبيل يديه وهو ينادي : يا أمة خير الأنام ومصباح الظلام ، إن الكفّار غدروا بالمسلمين فادركوا عساكر الموحدين وانقذوهم من أيدي الكفرة اللئام ، فإنهم هجموا عليهم في الخيام ونزل بهم العذاب المهين وكانوا في مكانهم آمنين . فلما سمع شركان ذلك الكلام طار قلبه من شدة الخفقان وترجّل عن جواده وهو حيران ثم قبّل يد الزاهد ورجليه وكذلك أخوه ضوء المكان وبقية العسكر من الرجال والركبان إلا الوزير دندان ، فإنه لم يترجّل عن جواده وقال : والله إن قلبي نافر من هذا الزاهد ، لأني ما عرفت للمتنطّعين في الدين غير المفاسد فاتركوه وادركوا أصحابكم المسلمين فإن هذا من المطرودين عن باب رحمة ربّ العالمين ، فكم غزوت مع الملك عمر النعمان ودست أراضي هذا المكان . فقال له شركان : دع هذا الظن الفاسد ، أما نظرت إلى هذا العابد وهو يحرض المؤمنين على القتال ولا يبالي بالسيوف والنبال ؟ فلا تغتبه لأن الغيبة مذمومة ولحوم الصالحين مسمومة . وانظر إلى تحريضه لنا على قتال أعدائنا . ولولا أن الله تعالى يحبّه ما طوى له البعيد بعد أن أوقعه سابقاً في العذاب الشديد . ثم إن شركان أمر أن يقدموا بغلة نوبية إلى الزاهد ليركبها وقال له : إركب أيها الزاهد الناسك العابد . فلم يقبل ذلك وامتنع عن الركوب وأظهر الزهد لينل المطلوب ، وما دروا أن هذا الزاهد العاهر هو الذي قال في مثله الشاعر : [من البسيط]

صَلَّى وصَامَ لأمْرٍ كانَ يَطْلُبُهُ ... لَمَّا قَضَى الأَمْرَ لا صلى ولا صَامَا

ثم إن ذلك الزاهد ما زال ماشياً بين الخيل والرجال كأنه الثعلب المحتال للإغتيال ، وصار رافعاً صوته بتلاوة القرآن وتسبيح الرحمن . وما زالوا سائرين حتى أشرفوا على عسكر الإسلام ، فوجدهم شركان في حالة الانكسار والحاجب قد أشرف على الهزيمة والفرار والسيف يعمل بين الأبرار والفجّار . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 102

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن شركان لما أدرك المسلمين وهم في حالة الانكسار والحاجب قد أشرف على الهزيمة والفرار والسيف يعمل بين الأبرار والفجّار . وكان السبب في خذل المسلمين ، أن اللعينة ذات الدواهي عدوّة الدين ، لما رأت بهرام ورستم قد سارا بعسكرهما نحو شركان وأخيه ضوء المكان ، سارت هي نحو عسكر المسلمين وأنفذت

الأمير تركاش كما تقدّم ذكره، وقصدها بذلك أن تفرّق بين عسكر المسلمين لأجل أن يضعفوا ثم تركتهم وقصدت القسطنطينية ونلدت بطارقة الروم بأعلى صوتها وقالت : ادلوا حبلاً لأربط فيه هذا الكتاب وأوصلوه إلى ملككم أفريدون ليقرأه هو وولدي ملك الروم ويعملان بما فيه من أمره ونواهيه. فادلوا لها حبلاً فربطت فيه الكتاب وكان مضمونه : من عند الداهية العظمى والطامة الكبرى ذات الدواهي إلى الملك أفريدون أما بعد، فإني دبرت لكم حيلة على هلاك المسلمين فكونوا مطمئنين وقد أسرتهم وأسرت سلطانهم ووزيرهم، ثم توجّهت إلى عسكرهم وأخبرتهم بذلك فانكسرت شوكتهم وضعفت قوّتهم، وقد خدعت العسكر المحاصرين للقسطنطينية حتى أرسلت منهم إثني عشر ألف فارس مع الأمير تركاش خلاف المأسورين وما بقي منهم إلا القليل. فالمراد منكم أنكم تخرجون إليهم بجميع عسكركم في بقية هذا النهار وتهجمون عليهم في خيامهم ولكنكم لا تخرجون إلاّ سواء، واقتلوهم عن آخرهم فإن المسيح قد نظر إليكم والعذراء تعطفت عليكم، وأرجو من المسيح أن لا ينسى فعلي الذي قد فعلته. فلما وصل كتابها إلى الملك أفريدون فرح فرحاً شديداً وأرسل في الحال إلى ملك الروم ابن ذات الدواهي، وأحضره وقرأ الكتاب عليه ففرح وقال : أنظر مكر أمي فإنه يغني عن السيوف وطلعتها تنوب عن هول اليوم المخوف. فقال الملك أفريدون : لا عدم المسيح طلعة أمك ولا أخلاك من مكرك ولؤمك. ثم إنه أمر البطارقة أن ينادوا بالرحيل إلى خارج المدينة وشاع الخبر في القسطنطينية وخرجت العساكر النصرانية والعصابة الصليبية وجرّدوا السيوف الحداد وأعلنوا بكلمة الكفر والإلحاد وكفروا بربّ العباد. فلما نظر الحاجب إلى ذلك قال : إن الروم قد وصلوا إلينا وقد علموا أن سلطاننا غائب، فربما هجموا علينا وأكثر عسكرنا قد توجّه إلى الملك ضوء المكان. واغتاظ الحاجب ونادى : يا عسكر المسلمين وحماة الدين المتين، إن هربتم هلكتم وإن صبرتم نصرتم. فاعلموا أن الشجاعة صبر ساعة وما ضاق أمر إلا أوجد الله اتساعه، بارك الله فيكم ونظر إليكم بعين الرحمة. فعند ذلك كبّر المسلمون وصاح الموحدون ودارت رحى الحرب بالطعن والضرب وعملت الصوارم والرماح وملأ الدم الأودية والبطاح وقسس القسوس والرهبان وشدوا الزنانير ورفعوا الصلبان، وأعلن المسلمون بتكبير الملك الديّان وصاحوا بتلاوة القرآن، واصطدم حزب الرحمن بحزب الشيطان وطارت الرؤوس عن الأبدان وطافت الملائكة الأخيار على أمة النبي المختار. ولم يزل السيف يعمل إلى أن ولّى النهار وأقبل الليل بالإعتكار وقد أحاطت الكفّار بالمسلمين وحسبوا أن ينجوا من العذاب المهين، وطمع المشركون في أهل الإيمان إلى أن طلع الفجر فركب الحاجب هو وعسكره ورجا أن الله ينصره واختلطت الأمم بالأمم وقامت الحرب على قدم وطارت القمم، وثبت الشجاع وتقدّم وولّى الجبان وانهزم وقضى قاضي الموت وحكم، حتى تطاوحت الأبطال عن السروج وامتلأت بالأموات المروج وتأخر المسلمون عن أماكنهم وملك الروم بعض خيامهم ومساكنهم وعزم المسلمون على الانكسار والهزيمة والفرار. فبينما هم كذلك وإذا بقدوم شركان بعساكر المسلمين ورايات الموحدين، فلما أقبل عليهم شركان حمل على الكفّار وتبعه ضوء المكان وحمل بعدهما الوزير دندان وكذلك أمير الديلم بهرام ورستم وأخوه تركاش، فإنهم لما رأوا ذلك طارت عقولهم وغاب معقولهم وثار الغبار حتى ملأ الأقطار واجتمع المسلمون الأخيار بأصحابهم الأبرار، واجتمع شركان

بالحاجب فشكره على صبره وهنأه بتأييده ونصره، وفرح المسلمون وقويت قلوبهم وحملوا على أعدائهم وأخلصوا لله في جهادهم . فلما نظر الكفّار إلى الرايات المحمّدية وعليها كلمة الإخلاص الإسلامية، صاحوا بالويل والثبور واستغاثوا ببطارقة الديور ونادوا حنّا ومريم والصليب المسخم ، وانقبضت أيديهم عن القتال وقد أقبل الملك افريدون على ملك الروم وصار أحدهما في الميمنة والآخر في الميسرة، وعندهم فارس مشهور يسمّى لاويا، فوقف وسطاً واصطفوا للنزال وإن كانوا في فزع وزلزال . ثم صفَّ المسلمون عساكرهم ، فعند ذلك أقبل شركان على أخيه ضوء المكان وقال له : يا ملك الزمان لا شك أنهم يريدون البراز وهذا غاية مرادنا، ولكن أحب أن أقدم من العسكر من له عزم ثابت فإن التدبير نصف المعيشة . فقال السلطان : ماذا تريد يا صاحب الرأي السديد؟ فقال شركان : أريد أن أكون في قلب عسكر الكفّار وأن يكون الوزير دندان في الميسرة وأنت في الميمنة والأمير بهرام في الجناح الأيمن والأمير رستم في الجناح الأيسر . وأنت أيها الملك العظيم تكون تحت الأعلام والرايات لأنك عمادنا وعليك بعد الله اعتمادنا ونحن كلنا نفديك من كل أمر يؤذيك . فشكره ضوء المكان على ذلك . وارتفع الصياح وجردّت الصفاح ، فبينما هم كذلك وإذا بفارس قد ظهر من عسكر الروم ، فلما قرب رأوه راكباً على بغلة قطوف تفرّ بصاحبها من وقع السيوف وبرذعتها من أبيض الحرير وعليها سجادة من شغل كشمير وعلى ظهرها شيخ مليح الشيبة ظاهر الهيبة عليه مدرعة من الصوف الأبيض ، ولم يزل يسرع بها وينهض حتى قرب من عسكر المسلمين وقال : إني رسول إليكم أجمعين وما على الرسول إلا البلاغ ، فاعطوني الأمان والإقالة حتى أبلغكم الرسالة . فقال له شركان : لك الأمان ، فلا تخش حرب سيف ولا طعن سنان . فعند ذلك ترجّل الشيخ وقلع الصليب من عنقه بين يدي السلطان وخضع له خضوع راجي الإحسان . فقال له المسلمون : ما معك من الأخبار؟ فقال : إني رسول من عند الملك أفريدون فإني نصحته ليمتنع عن تلف هذه الصور الإنسانية والهياكل الرحمانية وبينت له أن الصواب حقن الدماء والإقتصار على فارسين في الهيجاء، فأجابني إلى ذلك وهو يقول لكم : إني فديت عسكري بروحي فليفعل ملك المسلمين مثلي ويفدي عسكره بروحه ، فإن قتلني فلا يبقى لعسكر الكفّار ثبات وإن قتلته فلا يبقى لعسكر الإسلام ثبات . فلما سمع شركان هذا الكلام قال : يا راهب إنّا أجبناه إلى ذلك فإن هذا هو الإنصاف فلا يكن منه خلاف ، وها أنا أبرز إليه وأحمل عليه فإني فارس المسلمين وهو فارس الكافرين ، فإن قتلني فاز بالظفر ولا يبقى لعسكر المسلمين غير المفر . فارجع إليه أيها الراهب وقل له : إن البراز يكون في غد لأننا أتينا من سفرنا على تعب في هذا اليوم ، وبعد الراحة لا عتب ولا لوم . فرجع الراهب وهو مسرور حتى وصل إلى الملك أفريدون وملك الروم وأخبرهما بذلك ، ففرح الملك أفريدون غاية الفرح وزال عنه الهمّ والترح وقال في نفسه : لا شك أن شركان هذا ، هو أضربهم بالسيف وأطعنهم بالسنان فإذا قتلته انكسرت همّتهم وضعفت قوّتهم . وقد كانت ذات الدواهي كاتبت الملك أفريدون بذلك وقالت له : إن شركان هو فارس الشجعان وشجاع الفرسان، وحذّرت أفريدون من شركان . وكان أفريدون فارساً عظيماً لأنه كان يقاتل كل أنواع القتال ويرمي بالحجارة والنبال ويضرب بالعامود الحديد ولا يخشى من البأس الشديد . فلما سمع قول الراهب من أن شركان أجاب إلى البراز كاد أن يطير من شدة الفرح لأنه واثق بنفسه ويعلم أنه لا طاقة لأحد به . ثم بات

الكفار تلك الليلة في فرح وسرور وشرب خمور . فلما كان الصباح ، اقبلت الفوارس بسمر الرماح وبيض الصفاح وإذا هم بفارس قد برز في الميدان وهو راكب على جواد من الخيل الجياد معدّ للحرب والجلاد وله قوائم شداد ، وعلى ذلك الفارس درع من الحديد معد للبأس الشديد وفي صدره مرآة من الجوهر وفي يده صارم أبتر وقنطارية خولنج من غريب عمل الافرنج . ثم إن الفارس كشف عن وجهه وقال : من عرفني فقد اكتفاني ومن لم يعرفني فسوف يراني ، أنا افريدون المغمور ببركة شواهي ذات الدواهي . فما تمّ كلامه حتى خرج في وجهه فارس المسلمين شركان ، وهو راكب على جواد أشقر يساوي ألفًا من الذهب الأحمر وعليه عدة مزركشة بالدرّ والجواهر وهو متقلّد بسيف هندي مجوهر بقد الرقاب ويهون الأمور الصعاب ، ثم ساق جواده بين الصفين والفرسان تنظره بالعين ، ثم نادى أفريدون وقال له : ويلك يا ملعون ، أتظنني كمن لاقيت من الفرسان ولا يثبت معك في حومة الميدان؟ ثم حمل كل منهما على صاحبه فصار الإثنان كانهما جبلان يصطدمان أو بحران يلتطمان ، ثم تقاربا وتباعدا والتصقا وافترقا ولم يزالا في كرّ وفرّ وهزل وجدّ وضرب وطعن والجيشان ينظران إليهما ، وبعضهم يقول : إن شركان غالب . والبعض يقول : إن أفريدون غالب . ولم يزل الفارسان على هذا الحال حتى بطل القيل والقال وعلا الغبار وولّى النهار ومالت الشمس إلى الاصفرار وصاح الملك أفريدون على شركان وقال له : وحقّ دين المسيح والاعتقاد الصحيح ، ما أنت إلا فارس كرّار وبطل مغوار غير أنك غدّار وطبعك ما هو طبع الأخيار ، لأني أرى فعلك غير حميد وقتالك قتال الصنديد وقومك ينسبونك إلى العبيد ، وها هم أخرجوا لك غير جوادك وتعود إلى القتال ، وإني وحقّ ديني قد اعياني قتالك وأتعبني ضربك وطعانك فإن كنت تريد قتالي في هذه الليلة فلا تغيّر شيئاً من عدتك ولا جوادك حتى يظهر للفرسان كرمك وقتالك . فلما سمع شركان هذا الكلام اغتاظ من قول أصحابه في حقّه حيث ينسبونه إلى العبيد ، فالتفت إليهم شركان وأراد أن يشير إليهم ويأمرهم أن لا يغيّروا له جواداً ولا عدة وإذا بأفريدون هزّ حربته وأرسلها إلى شركان فالتفت وراءه فلم يجد أحداً ، فعلم أنها حيلة من الملعون فردّ وجهه بسرعة وإذا بالحربة قد أدركته فمال عنها حتى ساوى برأسه قربوص سرجه فجرت الحربة على صدره ، وكان شركان عالي الصدر فكشطت الحربة جلدة صدره فصاح صيحة واحدة وغاب عن الدنيا . ففرح الملعون افريدون بذلك وعرف أنه قد قتله ، فصاح على الكفّار ونادى بالفرح فهاج أهل الطغيان وبكى أهل الإيمان . فلما رأى ضوء المكان أخاه مائلاً على الجواد حتى كاد أن يقع ، أرسل نحوه الفرسان فتسابقت إليه الأبطال وأتوا به إليه ، وحمل الكفّار على المسلمين والتقى الجيشان واختلط الصفّان وعمل اليماني وكان أسبق الناس إلى شركان الوزير دندان . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 103

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك ضوء المكان لما رأى اللعين قد ضرب شركان بالحربة ظن أنه مات ، فأرسل إليه الفرسان وكان أسبق الناس إليه الوزير دندان وأمير الترك بهرام وأمير الديلم فلحقوه وقد مال عن جواده فأسندوه ورجعوا به إلى أخيه ضوء المكان ، ثم أوصوا به الغلمان وعادوا إلى الحرب والطعان واشتدّ النزال وتقصفت النصال وبطل القيل والقال فلا يرى إلا دم سائل وعنق مائل ، ولم يزل السيف يعمل في الأعناق واشتد

الشقاق إلى أن ذهب أكثر الليل وكلّت الطائفتان عن القتال فنادوا بالانفصال، ورجعت كل طائفة إلى خيامها وتوجه جميع الكفّار إلى ملكهم أفريدون وقبّلوا الأرض بين يديه وهنّاه القسوس والرهبان بظفره بشركان. ثم ان الملك أفريدون دخل القسطنطينية وجلس على كرسي مملكته وأقبل عليه ملك الكفّار وقال له: قوّى المسيح ساعدك ولا زال مساعدك واستجاب من الأم الصالحة ذات الدواهي ما تدعو به لك. واعلم أن المسلمين ما بقي لهم إقامة بعد شركان. فقال أفريدون: في غد يكون الإنفصال إذا خرجت إلى النزال وطلبت ضوء المكان وقتلته، فإن عسكرهم يولون الأدبار ويركنون إلى الفراق. هذا ما كان من أمر الكفّار. وأما ما كان من عسكر الإسلام، فإن ضوء المكان لما رجع إلى الخيام لم يكن له شغل إلا بأخيه، فلما دخل عليه وجده في أسوأ الأحوال وأشد الأهوال. فدعا بالوزير دندان ورستم وبهرام للمشورة، فلما دخلوا عليه اقتضى رأيهم إحضار الحكماء لعلاج شركان، ثم بكوا وقالوا: لم يسمح بمثله الزمان. وسهروا عنده تلك الليلة، وفي آخر الليل أقبل عليهم الزاهد وهو يبكي، فلما رآه ضوء المكان قام إليه فلمس بيده على أخيه وتلى شيئاً من القرآن وعوذه بآيات الرحمن. وما زال سهراناً عنده إلى الصباح، فعند ذلك استفاق شركان وفتح عينيه وأدار لسانه في فمه وتكلّم، ففرح السلطان ضوء المكان وقال: قد حصلت له بركة الزاهد. فقال شركان: الحمد لله على العافية فإنني بخير في هذه الساعة وقد عمل علي هذا الملعون حيلة، ولولا اني زغت أسرع من البرق لكانت الحربة نفذت من صدري فالحمد لله الذي نجّاني. وكيف حال المسلمين؟ فقال له ضوء المكان: هم في بكاء من أجلك. فقال: إني بخير وعافية وأين الزاهد؟ وهو عند رأسه قاعد. فقال له: عند رأسك. فالتفت إليه وقبّل يديه. فقال الزاهد: يا ولدي عليك بجميل الصبر يعظم الله لك الأجر، فإن الأجر على قدر المشقّة. فقال شركان: ادع لي. فدعا له. فلما أصبح الصباح وبان الفجر ولاح برز المسلمون إلى ميدان الحرب وتهيأ الكفّار للطعن والضرب وتقدّمت عساكر المسلمين فطلبوا الحرب والكفاح وجرّدوا السلاح، وأراد الملك ضوء المكان وأفريدون أن يحملا على بعضهما، وإذا بضوء المكان خرج إلى الميدان وخرج معه الوزير دندان والحاجب وبهرام وقالوا لضوء المكان: نحن فداك. فقال لهم: وحقّ البيت الحرام وزمزم والمقام لا أقعد عن الخروج إلى هؤلاء العلوج. فلما صار في الميدان لعب بالسيف والسنان حتى أذهل الفرسان وتعجّب الفريقان وحمل في الميمنة فقتل منها بطريقين، وفي الميسرة فقتل منها بطريقين، ووقف في وسط الميدان وقال: أين أفريدون حتى أذيقه عذاب الهون؟ فأراد الملعون أن يولي وهو مغبون فأقسم عليه ضوء المكان أن لا يبرح من الميدان وقال له: يا ملك، بالأمس كان قتال أخي واليوم قتالي وأنا بشجاعتك لا أبالي، ثم خرج وفي يده صارم وتحته حصان كأنه عنتر في حومة الميدان، وذلك الحصان أدهم مغائر كما قال فيه الشاعر: [من الرجز]

قَد سابَقَ ٱلطَّرْفَ بِطِرْفٍ سَابِقٍ كأنَّه يُرِيْدُ إدْراكَ ٱلْقَدَرْ
دُهْمَتُهُ تُبْدِي سَواداً حَالِكاً كأنّها لَيلٌ إذا ٱللَّيْلُ اعْتَكَرْ
صَهِيلُهُ يُطْرِبُ مَنْ يَسْمَعُهُ كأنّه ٱلرَّعد إذا الرَّعْدُ حَضَرْ
لَو سَابَقَ الرِّيحَ جَرَى مِن قَبْلِها وٱلبَرْقُ لا يَسْبِقُهُ إذا ظَهَرْ

ثم حمل كل منهما على صاحبه واحترز من مضاربه واظهر ما في بطنه من عجائبه وأخذا في الكرّ والفرّ حتى ضاقت الصدور وقلّ الصبر للمقدور وصاح ضوء المكان وهجم على ملك القسطنطينية أفريدون وضربه ضربة أطاح بها رأسه وقطع أنفاسه. فلما نظر الكفّار إلى ذلك حملوا جميعاً عليه وتوجّهوا بكليتهم إليه فقابلهم في حومة الميدان واستمر الضرب والطعان حتى سال الدم بالجريان وضج المسلمون بالتكبير والتهليل والصلاة على البشير النذير وقاتلوا قتالاً شديداً وأنزل الله النصر على المؤمنين والخزي على الكافرين، وصاح الوزير دندان: خذوا بثأر الملك عمر النعمان وثأر ولده شركان، وكشف رأسه وصاح للأتراك وكان بجانبه أكثر من عشرين ألف فارس فحملوا معه جملة واحدة، فلم يجد الكفّار لأنفسهم غير الفرار وتولّي الأدبار، وعمل فيهم الصارم البتّار فقتلوا منهم نحو خمسين ألف فارس وأسروا ما يزيد على ذلك وقتل عند دخول الباب خلق كثير من شدة الزحام، ثم غلقوا الباب وطلعوا فوق الأسوار خوف العذاب وعادت طوائف المسلمين مؤيدين منصورين وأتوا خيامهم ودخل الملك ضوء المكان على أخيه فوجده في أسرّ الأحوال، فسجد شكراً للكريم المتعال ثم أقبل عليه وهنأه بالسلامة. فقال له شركان: إننا كلنا في بركة هذا الزاهد الأوّاب، وما انتصرتم إلا بدعائه المستجاب. فإنه لم يزل اليوم قاعداً يدعو للمسلمين بالنصر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 104

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك ضوء المكان لما دخل إلى أخيه شركان وجده جالساً والعابد عنده. ففرح وأقبل عليه وهنأه بالسلامة. فقال شركان: إننا كلنا في بركة هذا الزاهد وما انتصرتم إلاّ بدعائه، فإنه ما برح اليوم وهو يدعو للمسلمين. وكنت وجدت في نفسي قوّة حين سمعت تكبيركم، فعلمت أنكم منصورون على أعدائكم. فاحك لي يا أخي ما وقع لك. فحكى له جميع ما وقع له مع الملعون أفريدون وأخبره أنه قتله وراح إلى لعنة الله، فأثنى عليه وشكر مسعاه. فلما سمعت ذات الدواهي وهي في صفة الزاهد بقتل ولدها الملك أفريدون، انقلب لونها بالإصفرار وترغرغت عيناها بالدموع الغزار، ولكنها أخفت ذلك وأظهرت للمسلمين أنها فرحت وأنها تبكي من شدّة الفرح. ثم إنها قالت في نفسها: وحقّ المسيح ما بقي في حياتي فائدة إن لم أحرق قلبه على أخيه شركان كما أحرق قلبي على عماد الملّة النصرانية والعصابة الصليبية الملك أفريدون. ولكنها كتمت ما بها. ثم إن الوزير دندان والملك شركان والحاجب استمروا جالسين عند شركان حتى عملوا له اللزق والأدهان وأعطوه الدواء، فتوجّهت إليه العافية وفرحوا بذلك فرحاً شديداً، وأعلموا به العساكر فتباشر المسلمون وقالوا: في غد يركب معنا ويباشر الحصار. ثم إن شركان قال لهم: إنكم قاتلتم اليوم وتعبتم من القتال فينبغي أن تتوجّهوا إلى أماكنكم وتناموا ولا تسهروا. فأجابوه إلى ذلك وتوجّه كل منهم إلى سرادقه وما بقي عند شركان سوى قليل من الغلمان والعجوز ذات الدواهي. فتحدّث معها قليلاً من الليل ثم اضطجع لينام وكذلك الغلمان. ثم غلب عليهم النوم فصاروا مثل الأموات. هذا ما كان من شركان وغلمانه. وأما ما كان من أمر العجوز ذات الدواهي، فإنها بعد نومهم صارت يقظانة وحدها في الخيمة ونظرت إلى شركان فوجدته مستغرقاً

في النوم . فوثبت على قدميها كأنها دبّة معطا أو آفة نقطا، وأخرجت من وسطها خنجراً مسموماً لو وضع على صخرة لأذابها، ثم جرّدته من غمده وأتت عند رأس شركان وجرّته على رقبته فذبحته وأزالت رأسه من جسده، ثم وثبت على قدميها وأتت إلى الغلمان النيام وقطعت رؤوسهم لئلا يتنبهوا، ثم خرجت من الخيمة وأتت إلى خيام السلطان فوجدت الحراس غير نائمين، فمالت إلى خيمة الوزير دندان فوجدته يقرأ القرآن فوقعت عينه عليها فقال : مرحباً بالزاهد العابد . فلما سمعت ذلك من الوزير ارتجف قلبها وقالت له : إن سبب مجيئي إلى هنا في هذا الوقت أني سمعت صوت ولي من أولياء الله وأنا ذاهب إليه ثم ولّت . فقال الوزير دندان في نفسه : والله لأتبع هذا الزاهد في هذه الليلة . فقام ومشى خلفها، فلما أحسّت الملعونة بمشيه عرفت أنه وراءها . فخشيت أن تفتضح وقالت في نفسها : إن لم أخدعه بحيلة فإني أفتضح معه . فأقبلت إليه من بعيد وقالت : أيها الوزير، إني سائر خلف هذا الولي لأعرفه، وبعد أن أعرفه أستأذنه في مجيئك إليه وأقبل عليك وأخبرك لأني أخاف أن تذهب معي بغير استئذان الولي فيحصل له نفرة مني إذا رآك معي . فلما سمع الوزير كلامها استحى أن يردّ عليها جواباً فتركها ورجع إلى خيمته وأراد أن ينام فما طاب له منام وكادت الدنيا أن تنطبق عليه، فقام وخرج من خيمته وقال في نفسه : أنا أمضي إلى شركان وأتحدّث معه إلى الصباح . فسار إلى أن دخل خيمة شركان فوجد الدم سائلاً كالقناة ونظر الغلمان مذبوحين . فصاح صيحة أزعجت من كان نائماً، فتسارع الخلق اليه فرأوا الدم سائلاً فضجوا بالبكاء والنحيب . فعند ذلك استيقظ السلطان ضوء المكان وسأل عن الخبر فقيل له : إن شركان أخاك والغلمان مقتولون . فقام مسرعاً إلى أن دخل الخيمة فوجد الوزير دندان يصيح ووجد جثة أخيه بلا رأس، فغاب عن الدنيا وصاح كل العساكر وبكوا وداروا حول ضوء المكان ساعة حتى استفاق، ثم نظر إلى شركان وبكى بكاءً شديداً، وفعل مثله الوزير ورستم وبهرام . وأما الحاجب فإنه صاح وأكثر من النواح، ثم طلب الإرتحال لما به من الأوجال . فقال الملك : أما علمتم بالذي فعل بأخي هذه الفعال ؟ وما لي لا أرى الزاهد الذي عن متاع الدنيا متباعد؟ فقال الوزير : ومن جلب هذه الأحزان إلاّ هذا الزاهد الشيطان؟ فوالله إن قلبي نفر منه في الأول والآخر لأنني أعرف أن كل متنطع في الدين خبيث ماكر . ثم إن الناس ضجوا بالبكاء والنحيب وتضرّعوا إلى القريب المجيب أن يوقع بين أيديهم ذلك الزاهد الذي هو لآيات الله جاحد . ثم جهّزوا شركان ودفنوه في الجبل المذكور، وحزنوا على فضله المشهور . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 105

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أنهم جهّزوا شركان ودفنوه في الجبل المذكور، وحزنوا على فضله المشهور . ثم إن الملعونة لما فرغت من الداهية التي عملتها والخازي التي لنفسها أبدتها، أخذت دواة وقرطاساً وكتبت فيه : من عند شواهي ذات الدواهي إلى حضرة المسلمين، أعلموا أني دخلت بلادكم وغششت بلؤمي كرامكم وقتلت سابقاً ملككم عمر النعمان في وسط قصره، وقتلت أيضاً في وقعة الشعب والمغارة رجالاً كثيرون، وآخر من قتلته بمكري ودهائي وغدري شركان وغلمانه . ولو ساعدني الزمان وطاوعني الشيطان كنت قتلت السلطان والوزير دندان، وأنا الذي أتيت إليكم في زي الزاهد وانطلت عليكم مني الحيل

والمكائد. فان شئتم سلامتكم بعد ذلك فارحلوا. وإن شئتم هلاك انفسكم فعن الإقامة لا تعدلوا. فلو اقمتم سنين واعواماً فما تبلغون منّا مراماً. وبعد ان كتبت الكتاب، اقامت حزنها على الملك افريدون ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع دعت بطريقاً وامرته ان يأخذ الورقة ويضعها في سهم ويرميها إلى المسلمين. ثم دخلت الكنيسة وصارت تندب وتبكي على فقد افريدون وقالت لمن تسلطن بعده: لا بدّ ان اقتل ضوء المكان وجميع امراء الإسلام. هذا ما كان من امرها. واما ما كان من أمر المسلمين، فإنهم أقاموا ثلاثة أيام في هم واغتمام، وفي اليوم الرابع نظروا إلى ناحية الصور وإذا ببطريق معه سهم نشاب وفي طرفه كتاب، فصبروا عليه حتى رماه إليهم. فأمر السلطان الوزير دندان ان يقرأه، فلما قرأه وسمع ما فيه وعرف معناه، هملت بالدموع عيناه وصاح وتضجّر من مكرها وقال الوزير: والله لقد كان قلبي نافراً منها. فقال السلطان: وهذه العاهر، كيف عملت علينا الحيلة مرتين؟ ولكن والله لا أحول من هنا حتى أملأ فرجها بمسيح الرصاص وأسجنها سجن الطير في الأقفاص، وبعد ذلك أصلبها من شعرها على باب القسطنطينية. ثم تذكّر اخاه فبكى بكاءً شديداً. ثم إن الكفّار لما توجّهت لهم ذات الدواهي وأخبرتهم بما حصل، فرحوا بقتل شركان وسلامة ذات الدواهي. ثم إن المسلمين رجعوا إلى باب القسطنطينية ووعدهم السلطان انه إن فتح المدينة فرّق أموالها عليهم بالسويّة. هذا، والسلطان لم تنشف دموعه حزناً على أخيه وعرّى جسمه الهزال حتى صار كالخلال، فدخل عليه الوزير دندان وقال له: طب نفساً وقرّ عيناً، فإن أخاك ما مات إلاّ بأجله، وليس في هذا الحزن فائدة. وما أحسن قول الشاعر: [من الكامل]

ما لا يَـكونُ فَلا يَـكونُ بِحِيلَةٍ   أَبَداً وما هو كائِنٌ فَيَـكونُ
سَيَكُونُ ما هو كائِنٌ في وَقْتِهِ   وَأَخُوْ ٱلجَهلَةِ دائماً مَغْبُونُ

فدع البكاء والنواح وقوّ قلبك لحمل السلاح. فقال: يا وزير، إن قلبي مهموم من أجل موت أبي وأخي ومن أجل غيابنا عن بلادنا، فإن خاطري مشغول برعيتي. فبكى الوزير هو والحاضرون، وما زالوا مقيمين على حصار القسطنطينية مدة من الزمان. فبينما هم كذلك وإذا بالأخبار وردت عليهم من بغداد صحبة أمير من أمرائه مضمونه: أن زوجة الملك ضوء المكان رزقت ولداً وسمّته نزهة الزمان أخت الملك، كان ما كان. ولكن هذا الغلام سيكون له شأن بسبب ما رأوه له من العجائب والغرائب، وقد أمر العلماء والخطباء أن يدعوا لكم على المنابر ودبر كل صلاة، وإننا طيبون بخير والأمطار كثيرة، وإن صاحبك الوقّاد في غاية النعمة الجزيلة وعنده الخدم والغلمان، ولكنه إلى الآن لم يعلم بما جرى لك والسلام. فقال ضوء المكان: الآن اشتد ظهري حيث رزقت ولداً اسمه كان ما كان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 106

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنّ الملك ضوء المكان لما أتاه الخبر بأن زوجته ولدت ولداً ذكراً، فرح فرحاً شديداً وقال: الآن اشتد ظهري حيث رزقت ولداً اسمه كان ما كان. ثم قال للوزير دندان: إني أريد أن أترك هذا الحزن وأعمل لأخي ختمات وأموراً من الخيرات. فقال الوزير: نِعم ما أردت. ثم أمر بنصب الخيام على قبر أخيه، فنصبوها

وجمعوا من العسكر من يقرأ القرآن، فصار بعضهم يقرأ وبعضهم يذكر الله إلى الصباح. ثم تقدّم السلطان ضوء المكان إلى قبر أخيه شركان وسكب العبرات وأنشد هذه الأبيات :[من الكامل]

خَرَجُوا بِهِ وَلِكُلٍّ باكٍ خَلْفَهُ ... صَعِقاتُ مُوسى يَوْمَ دُكَّ الطُّورُ
حتَّى أَتَوْا حَدَثاً كأَنَّ ضَرِيحَهُ ... في قَلْبِ كُلِّ مُوَحِّدٍ مَحْفُورُ
ما كُنْتُ آمَلُ قَبْلَ نَعْشِكَ أَنْ أَرَى ... رَضْوى على أَيْدِي ٱلرِّجالِ تَسِيرُ
كَلاَّ ولا مِنْ قَبْلِ دَفْنِكَ في ٱلثَّرَى ... أَنَّ الكَواكِبَ في التُّرابِ تَغُورُ
أَمُجاوِرَ الدِّيماسِ رَهْنُ قَرارَةٍ ... فِيها الضِّياءُ بِوَجْهِهِ وٱلنُّورُ
كَفَلَ الثَّناءُ لَه بِرَدِّ حَيَاتِهِ ... لَمَّا ٱنطَوَى فَكأَنَّهُ مَنْشُورُ

فلما فرغ ضوء المكان من شعره، بكى وبكى معه جميع الناس. ثم أتى إلى القبر الوزير دندان ورمى نفسه عليه وهو حائر وأنشد قول الشاعر :[من الطويل]

تَرَكْتَ الَّذي يَفْنَى ونِلْتَ الَّذي يَبْقَى ... وَمِثْلُكَ أَقْوامٌ فَقَد سَبَقُوا سَبْقا
وَفارَقْتَ هَذِي الدَّارَ مِن غَيْرِ رِيبَةٍ ... فَفي هذه الدُّنْيا تُسَرُّ بما تَلْقَى
وَكُنْتَ مِنَ الأَعْداءِ تُبْدي وِقَايَةً ... إذا ما سِهامُ ٱلحَرْبِ حَاوَلَتْ الرَّشْقَى
أَرى هذه الدُّنْيا غُرُوراً وباطِلاً ... وجُلُّ مُرادِ ٱلخَلْقِ أَنْ يَطْلُبُوا ٱلحَقَّا
حَباكَ إلٰهُ العَرْشِ فَوْزاً بِجنَّةٍ ... وأَسْكَنَكَ ٱلْهَادِي بِها مَقْعَداً صِدْقَا
وإنِّيَ قَد أَمْسَيْتُ فِيْكَ بِحَسْرَةٍ ... أَرَى ٱلغَرْبَ مَحْزُوناً بِفَقْدِكَ وٱلشَّرْقا

فلما فرغ الوزير دندان من شعره، بكى بكاءً شديداً ونثرت عيونه الدموع دراً نضيداً. ثم تقدَّم رجل كان من ندماء شركان وبكى حتى حكت دموعه الخلجان، وذكر ما لشركان من المكرمات وأنشد هذه الأبيات :[من الكامل]

أَيْنَ العَطاءُ وكَفُّ جُودِكَ في الثَّرَى ... وٱلجِسْمُ بَعْدَكَ بالسَّقَامِ قد ٱنْبَرَى
يا حادِيَ الأَظْعَانِ سِرَّكَ ما تَرَى ... كَتَبَتْ دُمُوعي فَوْقَ خَدِّيَ أَسْطُرا
تُعْنَى بِها وتَلَذُّ مِنْها مَنْظَرا
واللهِ ما حَدَّثْتُ عَنْكَ ضَمَائِري ... كَلاَّ ولا خَطَرَ المُصابُ بِخاطِري
إلاَّ وقَد جَرَحَ الدُّمُوعُ مَحاجِري ... وإذا صَرَفْتُ إلى سِواكَ نَوَاظِري
جَذَبَ ٱلْغَرامُ عِنانَ طَرْفي في ٱلْكَرَى

فلما فرغ الرجل من شعره، بكى ضوء المكان هو والوزير دندان وضجَّ جميع العسكر بالبكاء. ثم إنهم انصرفوا إلى الخيام، وأقبل السلطان على الوزير دندان وأخذا يتشاوران في أمر القتال. واستمرّا على ذلك أياماً وليالي وضوء المكان يتضجّر من الهمّ والأحزان ثم قال: إني أشتهي سماع أخبار الناس وأحاديث الملوك وحكايات المتيمّين، لعلّ الله يفرج ما بقلبي من الهمّ الشديد ويذهب عني البكاء والعديد. فقال الوزير: إن كان ما يفرج همّك إلاّ سماع

قصص الملوك من نوادر الأخبار وحكايات المتقدمين من المتيّمين وغيرهم فإن هذا أمر سهل ، لأنني لم يكن لي شغل في حياة المرحوم والدك إلاّ بالحكايات والأشعار . وفي هذه الليلة أحدّثك بخبر العاشق والمعشوق لأجل أن ينشرح صدرك . فلما سمع ضوء المكان كلام الوزير دندان ، تعلّق قلبه بما وعده به ولم يبقَ له اشتغال إلاّ بانتظار مجيء الليل لأجل أن يسمع ما يحكيه الوزير دندان من أخبار المتقدمين من الملوك والمتيّمين . فما صدّق أن الليل أقبل حتى أمر بإيقاد الشموع والقناديل وإحضار ما يحتاجون إليه من الأكل والشرب وآلات البخور ، فأحضروا له جميع ذلك . ثم أرسل إلى الوزير دندان فحضر وأرسل إلى بهرام ورستم وتركاش والحاجب الكبير فحضروا . فلما حضر جميعهم بين يديه ، التفت إلى الوزير دندان وقال له : أعلم أيها الوزير أن الليل قد أقبل وسدل جلابيبه علينا وأسبل ، ونريد أن تحكي لنا ما وعدتنا به من الحكايات . فقال الوزير : حباً وكرامة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 107

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك ضوء المكان لما حضر الوزير والحاجب ورستم وبهرام ، التفت إلى الوزير دندان وقال : أعلم أيها الوزير أن الليل قد أقبل وسدل جلابيبه علينا وأسبل ، ونريد أن تحكي لنا ما وعدتنا به من الحكايات . فقال الوزير : حباً وكرامة .

حكاية عزيز وعزيزة والملك سليمان

أعلم أيها الملك السعيد ، أنه بلغني من حكاية العاشق والمعشوق والمتكلم بينهما وما جرى لهم من العجائب والغرائب ما يزيل الهمّ عن القلوب ويسلي عن مثل حزن يعقوب . وهو أنه كان في سالف الزمان مدينة وراء جبال أصبهان يقال لها : المدينة الخضراء . وكان بها ملك يقال له : الملك سليمان . وكان صاحب جواد وإحسان وعدل وأمان وفضل وامتنان . وسارت إليه الركبان من كل مكان وشاع ذكره في سائر الأقطار والبلدان وأقام في المملكة مدة مديدة من الزمان وهو في عزّ وأمان . إلاّ أنه كان خالياً من الأولاد والزوجات وكان له وزير يقاربه في الصفات من الجود والهبات . فاتفق أن أرسل إلى وزيره يوماً من الأيام وأحضره بين يديه وقال له : يا وزيري ، إنّه قد ضاق صدري وعيل صبري وضعف مني الجلد لكوني بلا زوجة ولا ولد ، وما هذا سبيل الملوك الحكام على كل أمير وصعلوك . فإنهم يفرحون بخلفة الأولاد وتتضاعف لهم بهم العدد والأعداد وقال النبي ﷺ : تناكحوا تناسلوا تكثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة . فما عندك من الرأي يا وزير ، فشر عليّ بما فيه النصح منَ التدبير . فلما سمع الوزير ذلك الكلام فاضت الدموع من عينه بالإنسجام وقال له : هيهات يا ملك الزمان أن أتكلم فيما هو من خصائص الرحمن . أتريد أن أدخل النار بسخط الملك الجبار ؟ فقال له الملك : أعلم أيها الوزير أن الملك إذا اشترى جارية لا يعلم حسبها ولا يعرف نسبها ، فهو لا يدري خساسة أصلها حتى يجتنبها ولا شرف عنصرها حتى يتسرى بها . فإذا أفضى إليها ربما حملت منه فيجيء الولد منافقاً ظالماً سافكاً للدماء ، ويكون مثلها مثل الأرض السبخة ، إذا زرع فيها زرع فإنه يخبث نباته ولا يحسن ثباته ، ويكون ذلك الولد متعرّضاً لسخط مولاه ولا يفعل ما أمره به ولا يجتنب ما عنه نهاه . فأنا لا أتسبب في هذا بشراء جارية أبداً ، وإنما مرادي أن تخطب لي بنتاً من بنات الملوك يكون نسبها

معروفاً وجمالها موصوفاً . فإن دللتني على ذات النسب والدين من بنات ملوك المسلمين فإني اخطبها واتزوّج بها على رؤوس الأشهاد ليحصل لي بذلك رضاء رب العباد . فقال له الوزير : إن الله قضى حاجتك وبلغك امنيتك . فقال له : وكيف ذلك ؟ فقال له : أعلم ايها الملك انه بلغني ان الملك زهرشاه صاحب الأرض البيضاء ، له بنت بارعة الجمال يعجز عن وصفها القيل والقال ولم يوجد لها في هذا الزمان مثيل لأنها في غاية الكمال ، قويمة الاعتدال ذات طرف كحيل وشعر طويل وخصر نحيل وردف ثقيل . إن اقبلت فتنت وإن ادبرت قتلت ، تأخذ القلب والناظر كما قال فيها الشاعر : [من البسيط]

هَيْفَاءُ تُخْجِلُ غُصْنَ ٱلبَانِ قَامَتُهَا ... لَمْ يَحْكِ طَلْعَتَها شَمْسٌ ولا قَمَرُ
كأنّما رِيقُها شَهْدٌ وقَد مُزِجَتْ ... بِه المُدَامَةُ لَـكِنْ ثَغْرُها دُرَرُ
مَمْشُوقَةُ ٱلقَدِّ مِن حُوْرِ الجِنانِ لها ... وَجْهٌ جَمِيلٌ وفي ٱلْحاظِها حَوَرُ
وكَمْ لها مِنْ قَتِيلٍ ماتَ مِن كَمَدٍ ... وفي طَرِيقِ هَوَاها الخَوْفُ وٱلْخَطَرُ
إنْ عِشْتُ فَهْيَ ٱلْمُنَى ما شِئْتُ أَذْكُرُها ... أو مِتُّ مِنْ دُوْنِها لَمْ يُجْدِني العُمُرُ

فلما فرغ الوزير من وصف تلك الجارية ، قال للملك سليمان شاه : الرأي عندي ايها الملك ان ترسل إلى أبيها رسولاً فطناً خبيراً بالأمور مجرّباً لتصاريف الدهور ليتلطف في خطبتها لك من أبيها . فإنها لا نظير لها في قاصي الأرض ودانيها ، وتحظى منها بالوجه الجميل ويرضى عليك الرب الجليل . فقد ورد عن النبي ﷺ انه قال : لا رهبانية في الإسلام . فعند ذلك توجّه إلى الملك كمال الفرح واتّسع صدره وانشرح وزال عنه الهمّ والغمّ ثم اقبل على الوزير وقال له : أعلم أيها الوزير أنه لا يتوجّه إلى هذا الأمر إلاّ انت ، لكمال عقلك وادبك . فقم إلى منزلك واقض أشغالك وتجهّز في غد واخطب لي هذه البنت التي اشغلت بها خاطري ، ولا تعدْ إليّ إلاّ بها . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم إن الوزير توجّه إلى منزله واستدعى بالهدايا التي تصلح للملوك من ثمين الجواهر ونفيس الذخائر وغير ذلك مما هو خفيف في الحمل ثقيل في الثمن ، ومن الخيل العربية والدروع الداوودية ، وصناديق المال التي يعجز عن وصفها المقال . ثم حملوها على البغال والجمال وتوجّه الوزير ومعه مائة مملوك ومائة عبد ومائة جارية ، وانتشرت على رأسه الرايات والاعلام وأوصاه الملك ان يأتي إليه في مدة قليلة من الأيام . وبعد توجّهه صار الملك سليمان شاه على مقالي النار مشغول بحبها في الليل والنهار ، وسار الوزير ليلاً ونهاراً يطوي براري وقفاراً حتى بقي بينه وبين المدينة التي هو متوجه إليها يوم واحد . ثم نزل على شاطىء نهر وأحضر بعض خواصه وأمره ان يتوجه إلى الملك زهر شاه بسرعة ويخبره بقدومه عليه . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم توجّه بسرعة إلى تلك المدينة ، فلما قدم عليها وافق قدومه أن الملك زهر شاه كان جالساً في بعض المنتزهات قدام باب المدينة فرآه وهو داخل وعرف أنّه غريب ، فأمر بإحضاره بين يديه . فلمّا حضر الرسول اخبره بقدوم وزير الملك الأعظم سليمان شاه صاحب الأرض الخضراء وجبال اصفهان . ففرح الملك زهر شاه ورحب بالرسول واخذه وتوجه إلى قصره وقال : أين فارقت الوزير ؟ فقال : فارقته في أول النهار على شاطىء النهر الفلاني وفي غد يكون واصلاً إليك وقادماً عليك ، أدام الله نعمته عليك ورحم والديك . فأمر زهر شاه بعض وزرائه ان يأخذ معظم

خواصه وحجّابه ونوابه وأرباب دولته ويخرج بهم إلى مقابلته تعظيماً للملك سليمان شاه، لأنّ حكمه نافذ في الأرض. هذا ما كان من أمر الملك زهر شاه. وأمّا ما كان من أمر الوزير، فإنه استقر في مكانه إلى نصف الليل ثم رحل متوجهاً إلى المدينة. فلما لاح الصباح وأشرقت الشمس على الروابي والبطاح، لم يشعر إلاّ ووزير الملك زهر شاه وحجابه وأرباب دولته وخواص مملكته قدموا عليه واجتمعوا به على فراسخ من المدينة، فأيقن الوزير بقضاء حاجته وسلّم على الذين قابلوه. ولم يزالوا سائرين قدامه حتى وصلوا إلى قصر الملك ودخلوا بين يديه في باب القصر إلى سابع دهليز وهو المكان الذي لا يدخله الراكب لأنه قريب من الملك. فترجّل الوزير وسعى على قدميه حتى وصل إلى إيوان عال، وفي صدر ذلك الإيوان سرير من المرمر مرصّع بالدّر والجواهر وله اربعة قوائم من أنياب الفيل، وعلى ذلك السرير مرتبة من الأطلس الأخضر مطرّزة بالذهب الأحمر ومن فوقها سردق مرصّع بالدرّ والجوهر. والملك زهر شاه جالس على ذلك السرير وأرباب دولته واقفون في خدمته. فلمّا دخل الوزير عليه وصار بين يديه، ثبت جنانه وأطلق لسانه وأبدى فصاحة الوزراء وتكلّم بكلام البلغاء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 108

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن وزير الملك سليمان شاه لما دخل على الملك زهر شاه، ثبت جنانه وأطلق لسانه وأبدى فصاحة الوزراء وتكلّم بكلام البلغاء، وأشار إلى الملك بلطف التفات وأنشد هذه الأبيات:

[من الكامل]

وافَى وأَقْبَلَ في ٱلْغَلائِلِ يَنْثَنِي ... يُولِي ٱلنَّدَى لَلْمُجْتَنَى وٱلْمُجْتَنِي
ورَقَى فَما تُغْنِي التَّمائِمُ والرُّقا ... وٱلسِّحْرُ مِنْ لَحظاتِ تِلْكَ الأَعْيُنِ
قُلْ لِلعَواذِلِ لا تَلُومُوا إنَّنِي ... طُولَ ٱلمَدَى عَن حُبِّه لا أَنْثَنِي
حَتَّى فُؤَادي خانَنِي وَوَفَى لهُ ... وكَذا الرُّقادُ صَبَا إليهِ ومَلَّنِي
يا قَلْبُ ما أَمْسَيْتَ وَحْدَكَ رأْفَةً ... فَامْكُثْ لَدَيْهِ وإنْ تَكُنْ أَوْحَشْتَنِي
لا شَيْءَ يَطْرِبُ مَسْمَعِي بسَمَاعِه ... إلاّ الثَّناءُ لِزَهْرِ شاهِ أَجْتَنِي
مَلِكٌ إذا أَنْفَقْتَ عُمْرَكَ كُلَّهُ ... في نَظْرَةٍ مِنْ وَجْهِهِ أَنْتَ ٱلغَنِي
وإذا ٱنْتَخَبْتَ له دُعاءً صالِحًا ... لَمْ تَلْقَ غَيْرَ مُشارِكٍ أَوْ مُؤْمِنِ
يا أَهْلَ ذا المَلِكِ الَّذِي مَنْ فَاتَهُ ... ورَجَا سِواهُ فَلَمْ يَكُن بالمُؤْمِنِ

فلما فرغ الوزير من هذا النظام، قرّبه الملك زهر شاه وأكرمه غاية الإكرام وأجلسه بجانبه وتبسّم في وجهه وشرّفه بلطيف الكلام، ولم يزالوا على ذلك إلى وقت الصباح. ثم قدّموا السماط في ذلك الإيوان، فأكلوا جميعاً حتى اكتفوا. ثم رفعوا السماط وخرج كل من في المجلس ولم يبقَ إلاّ الخواص. فلما رأى الوزير خلو المكان، نهض قائماً على قدميه وأثنى على الملك وقبّل الأرض بين يديه ثم قال: أيها الملك الكبير والسيد الخطير، إني سعيت إليك وقدمت عليك في أمر لك فيه الصلاح والخير والفلاح، وهو إني قد أتيتك رسولاً خاطباً وفي بنتك الحسيبة النسيبة

راغباً من عند الملك سليمان شاه صاحب العدل والأمان والفضل والإحسان ملك الأرض الخضراء وجبال أصفهان. وقد أرسل إليك الهدايا الكثيرة والتحف الغزيرة وهو في مصاهرتك راغب، فهل أنت له كذلك طالب؟ ثم إنه سكت ينتظر الجواب. فلما سمع الملك زهر شاه ذلك الكلام، نهض قائماً على الأقدام ولثم الأرض باحتشام. فتعجّب الحاضرون من خضوع الملك للرسول واندهشت منهم العقول. ثم إن الملك أثنى على ذي الجلال والإكرام وقال وهو في حالة القيام: أيها الوزير المعظّم والسيد المكرّم، إسمع ما أقول: إننا للملك سليمان شاه من جملة رعاياه ونتشرّف بنسبه وننافس فيه، وابنتي جارية من جملة جواريه، وهذا أجلّ مرادي ليكون ذخري واعتمادي. ثم إنه أحضر القضاة والشهود وشهدوا أن الملك سليمان شاه وكّل وزيره في الزواج وتولى الملك زهر شاه عقد بنته بابتهاج. ثم إن القضاة أحكموا عقد النكاح ودعوا لهما بالفوز والنجاح. فعند ذلك، قام الوزير وأحضر ما جاء به من الهدايا ونفائس التحف والعطايا وقدم الجميع للملك زهر شاه. ثم إن الملك أخذ في تجهيز ابنته وإكرام الوزير، وعمّ بولائمه العظيم والحقير، واستمرّ في إقامة الفرح مدة شهرين ولم يترك فيه شيئاً مما يسرّ القلب والعين. ولما تمّ ما تحتاج إليه العروسة، أمر الملك بإخراج الخيام فضربت بظاهر المدينة وعبّوا القماش في الصناديق وهيؤوا الجواري الروميات والوصائف التركيات وأصحب العروسة بنفيس الذخائر وثمين الجواهر، ثم صنع لها محفة من الذهب الأحمر مرصّعة بالدرّ والجوهر وأفرد لها عشر بغال للمسير، وصارت تلك المحفة كأنها مقصورة من المقاصير وصاحبتها كأنها حورية من الحور الحسان وخدرها كقصر من قصور الجنان. ثم رزموا الذخائر والأموال وحملوها على البغال والجمال، وتوجّه الملك زهر شاه معهم قدر ثلاثة فراسخ ثم ودّع ابنته وودّع الوزير ومن معه ورجع إلى الأوطان في فرح وأمان. وتوجّه الوزير بابنة الملك وسار، ولم يزل يطوي المراحل والقفار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 109

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير توجه بابنة الملك وسار، ولم يزل يطوي المراحل والقفار ويجدّ السير في الليل والنهار حتى بقي بينه وبين بلاده ثلاثة أيام. ثم أرسل إلى الملك سليمان شاه من يخبره بقدوم العروسة، فأسرع الرسول بالسير حتى وصل إلى الملك وأخبره بقدوم العروسة. ففرح الملك سليمان شاه وخلع على الرسول، وأمر عساكره أن يخرجوا في موكب عظيم إلى ملاقاة العروسة ومن معها بالتكريم، وأن يكونوا في أحسن البهجات وأن ينشروا على رؤوسهم الرايات. فامتثلوا أمره ونادى مناد في المدينة: أنه لا يبقى بنت مخدّرة ولا حرّة موقرة ولا عجوز مكسّرة إلاّ وتخرج إلى لقاء العروسة. فخرجوا جميعاً إلى لقائها وسعت كبراؤهم في خدمتها واتفقوا على أن يتوجهوا بها في الليل إلى قصر الملك. واتفق أرباب الدولة على أن يزينوا الطريق وأن يقفوا حتى تمرّ بهم العروسة والخدام قدامها والجواري بين يديها وعليها الخلعة التي أعطاها لها أبوها. فلمّا أقبلت أحاط بها العسكر ذات اليمين وذات الشمال، ولم تزل المحفة سائرة بها إلى أن قربت من القصر ولم يبقَ أحد إلاّ وقد خرج ليتفرّج عليها. وصارت الطبول ضاربة والرماح لاعبة والبوقات صايحة وروايح الطيب فايحة والرايات خافقة والخيل متسابقة حتى وصلوا إلى باب القصر وتقدّمت الغلمان بالمحفة إلى

باب القصر، فأضاء المكان ببهجتها وأشرقت جهاته بحلى زينتها. فلما أقبل الليل فتح الخدام أبواب السرادق ووقفوا وهم محتاطون بالباب، ثم جاءت العروسة وهي بين الجواري كالقمر بين النجوم أو الدرة الفريدة بين اللؤلؤ المنظوم. ثم دخلت المقصورة وقد نصبوا لها سريراً من المرمر مرصّعاً بالدرّ والجوهر فجلست عليه، ودخل عليها الملك وأوقع الله محبتها في قلبه فأزال بكارتها وزال ما كان عنده من القلق والقهر وأقام عندها نحو شهر، فعلقت منه من أول ليلة وبعد تمام الشهر خرج وجلس على سرير مملكته وعدل في رعيته إلى أن وفت أشهرها. وفي آخر ليلة من الشهر التاسع، جاءها المخاض عند السحر، فجلست على كرسي الطلق وهوّن الله عليها الولادة، فوضعت غلاماً ذكراً تلوح عليه علامات السعادة. فلما سمع الملك بالولد، فرح فرحاً جليلاً وأعطى المبشّر مالاً جزيلاً، ومن فرحته توجه إلى الغلام وقبّله بين عينيه وتعجّب من جماله الباهر، وتحقق فيه قول الشاعر: [من الكامل]

اللهُ أَهدَى للرِئاسَةِ كَوْكَبا ... فالدَّهْرُ بالأَبْطالِ ما يَوماً نَبا
هَشَّتْ لمَطْلَعِهِ الأَسِنَّةُ والأسِرْ ... رَةُ والمحافلُ والجَحافِلُ والظُّبى
لا تُرْكِبُوهُ على النُّهُودِ فإنَّه ... لَيرَى ظُهُورَ الخَيْلِ أَوْطأَ مَرْكِبا
ولِتَفْطِمُوهُ عَنِ الرِّضاعِ فإنَّه ... لَيرَى دَمَ الأَعْداءِ أَحْلى مَشْرَبا

ثم إن الدايات أخذن ذلك المولود وقطعن سرّته وكحّلن مقلته، ثم سمّوه تاج الملوك خاران. وارتضع ثدي الدلال وتربّى في حجر الإقبال. ولا زالت الأيام تجري والأعوام تمضي حتى صار له من العمر سبع سنين. فعند ذلك أحضر الملك سليمان شاه العلماء والحكماء، وأمرهم أن يعلّموا ولده الخط والحكمة والأدب. فمكثوا على ذلك مدة سنين حتى تعلّم ما يحتاج إليه الامر. فلمّا عرف جميع ما طلبه الملك، أحضره من عند الفقهاء والمعلّمين وأحضر له أستاذاً يعلّمه الفروسية. فلم يزل يعلمه حتى صار له من العمر أربعة عشر سنة. وكان إذا خرج إلى بعض أشغاله يفتتن به كل من رآه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 110

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن تاج الملوك خاران بن الملك سليمان شاه لما مهر في الفروسية وفاق أهل زمانه، صار من فرط جماله إذا خرج إلى بعض أشغاله يفتتن به كل من رآه حتى نظموا فيه الأشعار وتهتكت في محبته الأحرار لما حوى من الجمال الباهر، كما قال فيه الشاعر: [من الكامل]

عانَقْتُهُ فَسَكِرْتُ مِنْ طِيبِ الشَّذَى ... غُصْناً رَطِيباً بالنَّسِيمِ قَد اغْتَذَى
سَكْرانُ ما شَرِبَ المُدامُ وإنَّما ... أَمْسَى بِخَمْرِ رُضابِهِ مُتَنَبِّذا
أَضْحَى الجَمالُ بأَسْرِهِ في أَسْرِهِ ... فَلأَجْلِ ذاكَ عَلَى القُلُوبِ اسْتَحْوَذا
واللهِ ما خَطَرَ السُّلُوُّ بِخاطِرِي ... ما دُمْتُ في قَيْدِ الحَياةِ ولا إذَا
إنْ عِشْتُ عِشْتُ عَلَى هَواهُ وإنْ أَمُتْ ... وَجْداً بِهِ وصَبابَةً يا حَبَّذا

فلما بلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، دبّ عذاره الأخضر على شامة خدّه الأحمر، وزانهما

خال كنقطة عنبر، وصار يسبي العقول والنواظر، كما قال فيه الشاعر: [من الكامل]

أَضْحَى لِيُوسُفَ في الجَمالِ خَلِيفَةً ... تَخْشَاهُ كُلُّ العَاشِقِينَ إذا بَدَا
عَرِّج مَعِي وٱنْظُر إِلَيْهِ لِكَي تَرَى ... في خَدِّهِ عَلَمَ الخِلافَةِ أَسْوَدَا

وكما قال الآخر: [من الكامل]

ما أَبْصَرَتْ عَيْناكَ أَحْسَنَ مَنْظَراً ... فِيما يُرَى مِنْ سائِرِ الأَشْياءِ
كالشَّامَةِ ٱلْخَضْراءِ فَوْقَ ٱلْوَجْنَةِ ... ٱلْحَمْراءِ تَحْتَ المُقْلَةِ السَّوْداءِ

وكما قال الآخر: [من الطويل]

عَجِبْتُ لِخالٍ يَعْبُدُ النَّارِ دائِماً ... بِخَدِّكَ لَمْ يُحْرَق بها وَهْوَ كافِرُ
وأَعْجَبُ مِنْ ذا إنَّ باللَّحْظِ مُرْسَلاً ... يُصَدِّقُ بالآياتِ وَهْوَ لَسَاحِرُ
وما ٱخْضَرَّ ذاك الخَدُّ نَبْتاً وإنَّما ... لِكَثْرَةِ ما شُقَّتْ عَلَيْهِ المَرائِرُ

وكما قال الآخر: [من الكامل]

إنِّي لأَعْجَبُ مِنْ سُؤَالِ النَّاسِ عَنْ ... ماءِ الحَياةِ بأَيِّ أَرْضٍ مُنْهَمِرْ
ولَقَد أَراهُ بِثَغْرِ ظَبْيٍ أَغْيَدٍ ... حُلْوِ اللَّمَى وعَلَيه شَارِبُه ٱلْخَضِرْ
ومِنَ ٱلْعَجائِبِ أَنَّ مُوسَى يَلْتَقِي ... مَعَهُ هُنالِكَ سائِلاً لَم يَصْطَبِرْ

فلما صار بتلك الحالة وبلغ الرجال زاد به الجمال، ثم صار لتاج الملوك خاران أصحاب وأحباب. وكل من تقرّب إليه يرجو أن يصير سلطاناً بعد موت أبيه، وإنه يكون عنده أمير. ثم إنه تعلّق بالصيد والقنص وصار لم يفتر عنه ساعة واحدة. وكان والده الملك سليمان شاه ينهاه عن ذلك مخافة من آفات البر والوحوش فلم يقبل منه ذلك. فاتفق أنه قال لخدّامه: خذوا معكم عليق عشرة أيام. فامتثلوا ما أمرهم به. فلما خرج بأتباعه للصيد والقنص ساروا في البر، ولم يزالوا سائرين أربعة أيام حتى أشرفوا على أرض خضراء فرأوا فيها وحوشاً راتعة وأشجاراً يانعة وعيوناً نابعة. فقال تاج الملوك لأتباعه: أنصبوا الحبائل هنا وأوسعوا دائرة حلقتها ويكون اجتماعنا عند رأس الحلقة في المكان الفلاني. فامتثلوا أمره ونصبوا الحبائل وأوسعوا دائرة حلقتها فاجتمع فيها شيء كثير من أصناف الوحوش والغزلان، إلى أن ضجت منهم الوحوش وتنافرت في وجوه الخيل. فأغرى عليها الكلاب والفهود والصقور، ثم ضربوا الوحوش بالنشاب فأصابوا مقاتل الوحوش، وما وصلوا إلى آخر الحلقة إلاّ وقد أخذوا من الوحوش شيئاً كثيراً وهرب الباقي. وبعد ذلك نزل تاج الملوك على الماء وأحضر الصيد وقسمه، وأفرد لأبيه سليمان شاه خاص الوحوش وأرسله إليه وفرّق البعض على أرباب دولته وبات تلك الليلة في ذلك المكان. فلما أصبح الصباح أقبلت عليهم قافلة كبيرة مشتملة على عبيد وغلمان وتجار، فنزلت تلك القافلة على الماء والخضرة. فلما رآهم تاج الملوك قال لبعض أصحابه: ائتني بخبر هؤلاء واسألهم لأي شيء نزلوا في هذا المكان. فلما توجّه إليهم الرسول قال لهم: أخبرونا من أنتم وأسرعوا في ردّ الجواب؟ فقالوا له: نحن تجار، ونزلنا هنا لأجل الراحة لأن المنزل بعيد علينا، وقد نزلنا في هذا

المكان لأننا مطمئنون بالملك سليمان شاه وولده، ونعلم ان كل من نزل عنده صار في أمان واطمئنان، ومعنا قماش نفيس جئنا به من أجل ولده تاج الملوك. فرجع الرسول إلى ابن الملك واعلمه بحقيقة الحال واخبره بما سمعه من التجار. فقال ابن الملك: إذا كان معهم شيء جاؤوا به من أجلي، فما أدخل المدينة ولا أرحل من هذا المكان حتى أستعرضه. ثم ركب جواده وسار، وسارت مماليكه خلفه إلى أن اشرف على القافلة فقام له التجار ودعوا له بالنصر والإقبال ودوام العزّ والأفضال. وقد ضربت له خيمة من الأطلس الأحمر مزركشة بالدّر والجوهر، وفرشوا له مقعداً سلطانياً فوق بساط من الحرير وصدره مزركش بالزمرد. فجلس تاج الملوك ووقف المماليك في خدمته وأرسل إلى التجار وأمرهم ان يحضروا بجميع ما معهم. فأقبل عليه التجار ببضائعهم، فاستعرض جميع بضاعتهم واخذ منها ما يصلح له ووفى لهم بالثمن، ثم ركب وأراد ان يسير فلاحت منه التفاتة إلى القافلة، فرأى شاباً جميل الشباب نظيف الثياب ظريف المعاني بجبين أزهر ووجه أقمر، إلاّ ان ذلك الشاب قد تغيّرت محاسنه وعلاه الإصفرار من فرقة الأحباب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 111

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن تاج الملوك لاحت منه التفاتة إلى القافلة فرأى شاباً جميل الشباب نظيف الثياب ظريف المعاني. إلاّ أن ذلك الشاب قد تغيّرت محاسنه وعلاه الإصفرار من فرقة الأحباب، وزاد به الأنين والإنتحاب، وسالت من جفنيه العبرات وهو ينشد هذه الأبيات: [من البسيط]

طالَ الفِراقُ ودَامَ ٱلْهَمُّ والوَجَلُ ... وٱلدَّمْعُ مِنْ مُقْلَتِي يا صَاحِ مُنْهَمِلُ
وَالقَلْبُ وَدَّعتُهُ يَوْمَ الفِراقِ وَقَدْ ... بَقِيتُ فَرْداً فلا قَلْبٌ ولا أَمَلُ
يا صاحِبِي قِفْ مَعِي حَتَّى أُوَدِّعَ مَنْ ... مِنْ نُطْقِها تُشْتَفَى الأَمْراضُ والعِلَلُ

ثم إن الشاب بعدما فرغ من الشعر، بكى ساعة وغشي عليه، وتاج الملوك ناظر إليه وهو يتعجّب من أمره. فلمّا أفاق رنا بفاتك اللحظات، وأنشد هذه الأبيات: [من الطويل]

خُذُوا حِذْرَكُم مِنْ طَرْفِها فَهْوَ سَاحِرُ ... ولَيْسَ بِناجٍ مَنْ رَمَتْهُ المَحاجِرُ
فِإنَّ العُيُونَ السُّودَ وَهْيَ نَواعِسُ ... تَقُدُّ السُّيُوفَ البِيضَ وَهْيَ بَواتِرُ
ولا تَخْضَعُوا مِنْ رِقَّةٍ في كَلامِها ... فِإنَّ الحُمَيّا لِلْعُقُولِ تُخامِرُ
مُنَعَّمَةُ الأَطْرافِ لَو مَسَّ جِسْمَها ... حَرِيرٌ لأَدْماهُ وها أَنْتَ ناظِرُ
بَعِيدَةُ ما بَيْنَ المُخَلْخَلِ والطُّلا ... وأَيْنَ الشَّذا مِنْ طِيبِها وَهْوَ عاطِرُ

ثم شهق شهقة فغشي عليه. فلما رآه تاج الملوك على هذه الحالة تحيَّر في أمره وتمشّى إليه. فلما أفاق من غشيته نظر ابن الملك واقفاً على رأسه، فنهض قائماً على قدميه وقبّل الأرض بين يديه. فقال له تاج الملوك: لأي شيء لن تعرض بضاعتك علينا؟ فقال: يا مولاي، إن بضاعتي ليس فيها شيء يصلح لسعادتك. فقال: لا بدّ أن تعرض عليَّ ما معك وتخبرني بحالك فإني أراك باكي العين حزين القلب. فإن كنت مظلوماً أزلنا ظلامتك، وإن كنت مديوناً قضينا دينك. فإن

قلبي قد احترق من أجلك حين رايتك . ثم إن تاج الملوك أمر نصب كرسيين، فنصبوا له كرسياً من العاج والابنوس مشبكاً بالذهب والحرير وبسطوا له بساطاً من الحرير فجلس تاج الملوك على الكرسي، وأمر الشاب أن يجلس على البساط وقال له : أعرض عليَّ بضاعتك . فقال له الشاب : يا مولاي، لا تذكر لي ذلك، فإنَّ بضاعتي ليست بمناسبة لك . فقال له تاج الملوك : لا بدّ من ذلك . ثم أمر بعض غلمانه بإحضارها فأحضروها قهراً عنه . فلما رآها الشاب، جرت دموعه وبكى وأنَّ واشتكى وصعّد الزفرات وأنشد هذه الابيات : [من البسيط]

بِما بِجَفْنِكِ مِنْ غُنْجٍ ومِنْ كُحْلِ وما بِقَدِّكَ مِنْ لِينٍ ومِنْ مَيْلِ
وما بِثَغْرِكِ مِنْ خَمْرٍ ومِنْ شَهْدٍ وما بِطَبْعِكَ مِنْ لُطْفٍ ومِنْ مَلَلِ
عِنْدي زِيارَةُ طَيْفٍ مِنْكِ يا أَمَلِي أَحْلى مِنَ الأَمْنِ عِنْدَ الخائِفِ الوَجَلِ

ثم إن الشاب فتح بضاعته وعرضها على تاج الملوك قطعة قطعة وتفصيلة تفصيلة، وأخرج من جملتها ثوباً من الأطلس منسوجاً بالذهب يساوي ألفي دينار . فلمّا فتح الثوب، وقعت من وسطه خرقة، فأخذها الشاب بسرعة ووضعها تحت وركه، وقد ذهل عن المعقول وأنشد يقول : [من الطويل]

مَتَى يَشْتَفِي مِنْكَ الفُؤَادُ المُعَذَّبُ ونَجْمُ الثُّرَيَّا مِنْ وِصالِكَ أَقْرَبُ
بِعادٌ وهَجْرٌ واَشْتِياقٌ ولَوْعَةٌ ومَطْلٌ وتَسْوِيفٌ بِهِ العُمْرُ يَذْهَبُ
فَلا الوَصْلُ يُحْيِينِي ولا الهَجْرُ قاتِلي ولا البُعْدُ يُدْنِينِي ولا أَنْتَ تَقْرُبُ
وما مِنْكَ إِنْصافٌ ولا لَكَ رَحْمَةٌ ولا مِنْكَ إِسْعافٌ ولا عَنْكَ مَهْرَبُ
وفي حُبِّكُمْ ضاقَتْ جَمِيعُ مَذاهِبِي عَلَيَّ فلا أَدْرِي إلى أَيْنَ أَذْهَبُ

فتعجّب تاج الملوك من إنشاده غاية العجب ولم يعلم لذلك من سبب . ولما أخذ الخرقة ووضعها تحت وركه قال له تاج الملوك : ما هذه الخرقة؟ فقال : يا مولاي ليس لك بهذه الخرقة حاجة . فقال له ابن الملك : أرني إياها . قال له : يا مولاي أنا ما امتنعت من عرض بضاعتي عليك إلاَّ لأجلها، فإني لا أقدر على أنك تنظر إليها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 112

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب قال لتاج الملوك : أنا ما امتنعت من عرض بضاعتي عليك إلاَّ لأجلها، فإني لا أقدر على أنك تنظر إليها . فقال له تاج الملوك : لا بدّ من كوني أنظر إليها ولحَّ عليه واغتاظ . فاخرجها من تحت ركبته وبكى وأنّ واشتكى، وأكثر من الأنّات وأنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

لا تَعْذُلِيهِ فإِنَّ العَذْلَ يُوجِعُهُ قَد قُلْتُ حَقّاً ولَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ
أَستَوْدِعُ اللهَ في البَطْحاءِ لِي قَمَراً بِالحَيِّ مِنْ فَلَكِ الأَزْرارِ مَطْلَعُهُ
وَدَّعْتُهُ وبِوُدِّي لَوْ يُوَدِّعُنِي صَفْوَ الحَياةِ وإِنِّي لا أُوَدِّعُهُ
وكَمْ تَشَفَّعَ بي يَوْمَ الفِراقِ ضُحًى وأَدْمُعِي مُسْتَهِلاَّتٌ وأَدْمُعُهُ

لا أُكْذِبُ اللهَ ثَوْبُ العُذْرِ مُنْخَرِقٌ ... عَنِّي بِفُرْقَتِهِ لَكِنْ أُرَقِّعُهُ
لا يَسْتَقِرُّ لِجَنْبِي مَضْجَعٌ وَكَذا ... لا يَسْتَقِرُّ له مُذْ بِنْتُ مَضْجَعُهُ
وقَد سَعَى الدَّهْرُ فِيما بَيْنَنَا بِيَدٍ ... عَسْراءَ تَمْنَعُنِي حَظِّي وتَمْنَعُهُ
وصبَّتِ الْهَمَّ صِرفاً عِنْدَما مَلأتْ ... كأساً تَجَرَّعَ مِنْها ما أُجَرَّعُهُ

فلما فرغ من شعره، قال له تاج الملوك: أرى أحوالك غير مستقيمة فاخبرني، ما سبب بكائك عند نظرك إلى هذه الخرقة؟ فلما سمع الشاب ذكر الخرقة تنهّد وقال: يا مولاي، إن حديثي عجيب وأمري غريب مع هذه الخرقة وصاحبتها وصاحبة هذه الصورة والتماثيل. ثم نشر الخرقة وإذا فيها صورة غزال مرقومة بالحرير مزركشة بالذهب الاحمر، وقبالها صورة غزال آخر وهي مرقومة بالفضّة وفي رقبته طوق من الذهب الأحمر وثلاث قصبات من الزبرجد. فلما نظر تاج الملوك إليه وإلى حسن صنعته قال: سبحان الله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم. وتعلّق قلب تاج الملوك بحديث هذا الشاب فقال له: إحك لي قصتك مع صاحبة هذا الغزال.

حكاية الشاب عزيز

فقال الشاب: اعلم يا مولاي أن أبي كان من التجار الكبار ولم يرزق ولداً غيري. وكان لي بنت عمّ تربيت أنا وإياها في بيت أبي لأن أباها مات، وكان قبل موته تعاهد هو وأبي على أن يزوّجاني بها. فلمّا بلغت مبلغ الرجال وبلغت هي مبلغ النساءَ لم يحجبوها عني ولم يحجبوني عنها. ثم تحدّث والدي مع أمي وقال لها: في هذه السنة نكتب كتاب عزيز على عزيزة واتفق مع أمي على هذا الأمر، ثم شرع أبي في تجهيز مؤن الولائم. هذا كله وأنا وبنت عمي ننام مع بعضنا في فراش واحد ولم ندر كيف الحال، وكانت هي أشعر مني وأعرف وأدرى. فلما جهّز أبي أدوات الفرح ولم يبق غير كتب الكتاب والدخول على بنت عمي، أراد أبي أن يكتبوا الكتاب بعد صلاة الجمعة. ثم توجه إلى أصحابه من التجار وغيرهم وأعلمهم بذلك، ومضت أمي وعزمت أصحابها من النساء ودعت أقاربها. فلما جاء يوم الجمعة غسلوا القاعة المعدّة للجلوس وغسلوا رخامها وفرشوا في دارنا البسط ووضعوا فيها ما يحتاج إليه الأمر بعد أن ذوّقوا حيطانها بالقماش المقصَّب، واتفق الناس على أن يجيئوا بيتنا بعد صلاة الجمعة. ثم مضى أبي وعمل الحلويات وأطباق السكر وما بقي غير كتب الكتاب. وقد أرسلتني أمي إلى الحمام وأرسلت خلفي بدلة جديدة من أفخر الثياب. فلمّا خرجت من الحمام لبست تلك البدلة الفاخرة وكانت مطيبة. فلما لبستها فاحت منها رائحة ذكية عبقت في الطريق، ثم أردت أن أذهب إلى الجامع فتذكرت صاحباً لي، فرجعت أفتش عليه ليحضر كتب الكتاب وقلت في نفسي: أشتغل بهذا الأمر إلى أن يقرب وقت الصلاة. ثم إني دخلت زقاقاً ما دخلته قط وكنت عرقاناً من أثر الحمام والقماش الجديد الذي على جسدي، فساح عرقي وفاحت روائحي، فقعدت في رأس الزقاق لأرتاح على مسطبة وفرشت تحتي منديلاً مطرّزاً كان معي، فاشتدّ عليّ الحرّ فعرق جبيني وصار العرق ينحدر على وجهي ولم يمكنني مسح العرق عن وجهي بالمنديل لأنه مفروش تحتي، فأردت أن آخذ ذيل فرجيتي وامسح به وجنتي فما أدري إلاّ ومنديل أبيض وقع عليّ من فوق. وكان ذلك المنديل أرقّ من النسيم ورؤيته ألطف من شفاء السقيم، فمسكته بيدي ورفعت رأسي إلى فوق لانظر من أين سقط هذا المنديل؟ فوقعت عيني في عين صاحبة هذا الغزال.

وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 113 □ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشاب قال لتاج الملوك : فرفعت رأسي إلى فوق لأنظر من أين سقط هذا المنديل ؟ فوقعت عيني في عين صاحبة هذا الغزال وإذا بها مطلة من طاقة في شبّاك من نحاس لم ترَعيني أجمل منها، وبالجملة يعجز عن وصفها لساني . فلما رأتني نظرت إليها وضعت إصبعها في فمها ثم أخذت إصبعها الوسطاني والصقتها باصبعها الشاهد ووضعتهما على صدرها بين نهديها ثم ادخلت رأسها من الطاقة وسدّت باب الطاقة وانصرفت . فانطلقت في قلبي النار وزاد به الاستعار وأعقبتني النظرة ألف حسرة وتحيّرت ، فلم أسمع ما قالت ولم افهم ما به أشارت . فنظرت إلى الطاقة ثانياً فوجدتها مطبوقة ، فصبرت إلى مغيب الشمس ، لم اسمع حساً ولم أرَ شخصاً . فلما يئست من رؤيتها قمت من مكاني وأخذت المنديل معي ، ثم فتحته ففاحت منه رائحة المسك فحصل لي من تلك الرائحة طرب عظيم حتى صرت كأنني في الجنة ، ثم نشرته بين يديّ فسقطت منه ورقة لطيفة ففتحت الورقة فرأيتها مضمَّخة بالروائح الذكيّات ومكتوب فيها هذه الأبيات : [من الطويل]

بَعَثْتُ إلَيْهِ أَشْكُو مِنْ أَلَمِ الجوَى ... بِخَطٍ رَقِيقٍ، والخُطُوطُ فُنُونُ
فَقال : خَلِيلي ما لِخَطِّكَ هَكَذا ... رَقِيقاً دَقِيقاً لا يَكادُ يَبِينُ
فقُلْتُ: لأنِّي في نُحُولٍ ودِقَّةٍ ... كَذاكَ خُطُوطُ العاشِقِينَ تَكُونُ

ثم بعد أن قرأت الأبيات ، أطلقت في بهجة المنديل نظر العين فرأيت في إحدى حاشيتيه تسطير هذين البيتين : [من الكامل]

كَتَبَ العِذارُ ويا لَهُ مِنْ كاتِبٍ ... سَطْرَيْنِ في خَدَّيْهِ بالرَّيْحانِ
واحِيرَةَ القَمَرَيْنِ مِنْه إذا بَدَا ... وإذا انْثَنَى وَاخَجْلَةَ الأَغْصانِ

ومسطر في الحاشية الأخرى هذان البيتان : [من الكامل]

كَتَبَ العِذارُ بِعَنْبَرٍ في لُؤْلُؤٍ ... سَطْرَيْنِ مِنْ سبجٍ على تُفَّاحِ
القَتْلُ في الحَدَقِ المِراضِ إذا رَنَتْ ... والسُّكْرُ في الوَجَنات لا في الرَّاحِ

فلما رأيت ما على المنديل من الأشعار ، انطلق في فؤادي لهيب النار وزادت بي الأشواق والأفكار ، وأخذت المنديل والورقة وأتيت بهما إلى البيت وأنا لا أدري لي حيلة في الوصال ولا أستطيع في العشق تفصيل الإجمال . فما وصلت إلى البيت الى بعد مدّة من الليل ، فرأيت بنت عمي جالسة تبكي ، فلما رأتني مسحت دموعها وأقبلت عليّ وقلعتني الثياب وسألتني عن سبب غيابي وأخبرتني أن جميع الناس من أمراء وكبراء وتجار وغيرهم قد اجتمعوا في بيتنا ، وحضر القاضي والشهود وأكلوا الطعام واستمرّوا مدّة جالسين ينتظرون حضوري من أجل كتب الكتاب . فلما يئسوا من حضوري تفرّقوا وذهبوا إلى حال سبيلهم وقالت لي : إن أباك اغتاظ بسبب ذلك غيظاً شديداً وحلف أنه لا يكتب كتابنا إلاّ في السنة المقبلة لأنه غرّم في هذا الفرح مالاً كثيراً . قالت لي : ما الذي جرى لك في هذا اليوم حتى تأخرت إلى هذا الوقت وحصل ما حصل

بسبب غيابك ؟ فقلت لها : جرى لي كذا وكذا وذكرت لها المنديل وأخبرتها بالخبر من أوّله إلى آخره . فأخذت الورقة والمنديل وقرأت ما فيهما وجرت دموعها على خدودها ، وأنشدت هذه الأبيات :

مَنْ قالَ : أَوَّلُ الهَوَى ٱخْتِيَارْ فَقُلْ كَذَبْتَ كُلُّهُ ٱضْطِرارْ
وَلَيْسَ بَعْدَ الاضْطِرارِ عارْ دلَّتْ على صِحَّتِهِ أَخْبارْ
ما زَيَّفَتْ على صَحِيحِ النَّقدْ
فإنْ تَشأ فَقُلْ عَذابٌ يَعْذُبُ أَو ضَرَبانٌ في الحَشَى أَو ضَرَبُ
أَو نِعْمَةٌ أَو نَقْمَةٌ أَو أَرَبُ تَأنَسُ النَّفْسُ بِه أَو تُعْطَبُ
قَدْ حِرْتُ بَينَ عَكْسِه والطَّرْدْ
وَمَعَ ذا أَيّامِهِ مَواسِمُ وثُغْرُها على الدَّوامِ بَاسِمُ
ونَفَحاتُ طِيبِها مَواسِمَ وَهْوَ لِكُلِّ ما يَشِينُ حاسِمُ
ما حَلَّ قطُّ قَلْبَ نَذْلٍ وَغْدِ

ثم إنها قالت لي : فما قالت لك وما أشارت به إليك ؟ فقلت لها : ما نطقت بشيء ، غير أنها وضعت إصبعها في فمها ثم قرنتها بالإصبع الوسطى وجعلت الإصبعين على صدرها وأشارت إلى الأرض ثم ادخلت رأسها وأغلقت الطاقة ولم أرها بعد ذلك ، فأخذت قلبي معها فقعدت إلى غياب الشمس أنتظر أنها تطل من الطاقة ثانياً فلم تفعل . فلما يئست منها قمت من ذلك المكان وهذه قصتي . وأشتهي منك أن تعينيني على ما بليت به . فرفعت رأسها إليَّ وقالت : يا ابن عمي ، لو طلبت عيني لأخرجتها لك من جفوني ، ولا بدّ أن أساعدك على حاجتك وأساعدها على حاجتها ، فإنها مغرمة بك كما أنك مغرم بها . فقلت لها : وما تفسير ما أشارت به ؟ قالت : أما وضع إصبعها في فمها فإنه إشارة إلى أنك عندها بمنزلة روحها من جسدها وإنما تعض على وصالك بالنواجذ . وأما المنديل فإنه إشارة إلى سلام المحبين على المحبوبين . وأما الورقة فإنها إشارة إلى أن روحها متعلّقة بك . وأما وضع إصبعها على صدرها بين نهديها فتفسيره أنها تقول لك بعد يومين تعال هنا ليزول عني بطلعتك العنا . واعلم يا ابن عمي أنها لك عاشقة وبك واثقة ، وهذا ما عندي من التفسير لإشاراتها . ولو كنت أدخل وأخرج لجمعت بينك وبينها في أسرع وقت وأستركما بذيلي . قال الغلام : فلمّا سمعت ذلك منها شكرتها على قولها وقلت في نفسي : أنا أصبر يومين . ثم قعدت في البيت يومين لا أدخل ولا أخرج ولا آكل ولا أشرب ، ووضعت رأسي في حجر ابنة عمي وهي تسلّيني وتقول لي : قوّ عزمك وهمتك وطيب قلبك وخاطرك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 114

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشاب قال لتاج الملوك : فلما انقضى اليومان قالت لي ابنة عمي : طِبْ نفساً وقرّ عيناً وقوّ عزمك والبس ثيابك وتوجّه إليها على الميعاد . ثم إنها قامت وغيّرت أثوابي وبخّرتني ثم شددت حيلي وقوّيت قلبي وخرجت وتمشّيت إلى أن دخلت الزقاق وجلست على المصطبة ساعة . وإذا بالطاقة قد انفتحت فنظرتُ بعيني

إليها فلما رأيتها وقعت مغشياً عليَّ، ثم أفقت فشددت عزمي وقوّيت قلبي ونظرت إليها ثانياً فغبت عن الوجود. ثم استفقت فرأيت معها مرآة ومنديلاً أحمر، وحين رأتني شمّرت عن ساعديها وفتحت أصابعها الخمس ودقّت بها على صدرها بالكفّ والخمس أصابع، ثم رفعت يديها وأبرزت المرآة من الطاقة وأخذت المنديل الأحمر ودخلت به وعادت وأدلته من الطاقة إلى صوب الزقاق ثلاث مرات وهي تدليه وترفعه، ثم عصرته ولفّته بيدها وطأطأت رأسها، ثم جذبتها من الطاقة وأغلقت الطاقة وانصرفت ولم تكلّمني كلمة واحدة بل تركتني حيران لا أعلم ما أشارت به. واستمرّيت جالساً إلى وقت العشاء، ثم جئت إلى البيت قرب نصف الليل فوجدت ابنة عمي واضعة يدها على خدّها وأجفانها تسكب العبرات وهي تنشد هذه الأبيات:

[من البسيط]

مَا لِي ولا حَيٌّ عَلَيْكَ يَعْنُفُ ... كَيْفَ السُّلُوُّ وأَنْتَ غُصْنٌ أَهْيَفُ
يا طَلْعَةً سَلَبَتْ فُؤادِي وانْثَنَتْ ... ما لِلْهَوَى العُذْرِيُّ عَنْها مَصْرَفُ
تِرْكِيةُ الأَلحاظِ تَفعَلُ بالحَشَى ... ما لَيْسَ يَفْعَلُهُ الصَّقِيلُ المُرْهَفُ
حَمَّلْتَنِي ثِقْلَ الغَرامِ ولَيْسَ لِي ... جَلَدٌ عَلَى حَمْلِ القَمِيصِ وأَضْعُفُ
ولَقَدْ بَكَيْتُ دَماً لِقَوْلِ عَواذِلِي ... مِنْ جَفْنِ مَنْ تَهْوَى يَرُوعُكَ مُرْهَفُ
يا لَيْتَ قَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ إِنَّما ... جِسْمِي كَخَصْرِكَ بالنَّحافَةِ مُتْلَفُ
لَكَ يا أَمِيرِي فِي المَلاحَةِ ناظِرٌ ... صَعْبٌ عَلَيَّ وحاجِبٌ لا يُنْصِفُ
كَذَبَ الَّذِي قالَ: المَلاحَةُ كُلُّها ... فِي يُوسُفَ كَمْ فِي جَمالِكَ يُوسُفُ
أَتَكَلَّفُ الإِعْراضَ عَنْكَ مَخافَةً ... مِنْ أَعْيُنِ الرُّقَباءِ كَمْ أَتَكَلَّفُ

فلما سمعت شعرها، زاد ما بي من الهموم وتكاثرت عليّ الغموم ووقعت في زوايا البيت، فنهضت إليَّ وحملتني وقلّعتني أثوابي ومسحت بكمّها ثم سألتني عن ما جرى لي، فحكيت لها جميع ما حصل منها. فقالت: يا ابن عمي، أما إشارتها بالكف والخمسة أصابع فإنَّ تفسيره: تعال بعد خمسة أيام. وأما إشارتها بالمرآة وإبراز رأسها من الطاقة فإن تفسيره: أقعد على دكان الصباغ حتى يأتيك رسولي. فلما سمعت كلامها اشتعلت النار في قلبي وقلت: بالله يا بنت عمي إنك تصدقيني في هذا التفسير لأني رأيت في الزقاق صبّاغاً يهودياً، ثم بكيت. فقالت ابنة عمي: قوّ عزمك وثبت قلبك، فإن غيرك يشتغل بالعشق مدة سنين ويتجلّد على حرّ الغرام، وأنت لك جمعة فكيف يحصل لك هذا الجزع؟ ثم أخذت تسليني بالكلام وأتت لي بالطعام، فأخذت لقمة وأردت أنْ آكلها فما قدرت. فامتنعت من الشراب والطعام وهجرت لذيذ المنام واصفرّ لوني وتغيّرت محاسني لأني ما عشت قبل ذلك ولا ذقت حرارة العشق إلاّ في هذه المرة. فضعفت وضعفت بنت عمي من أجلي، وصارت تذكر لي أحوال العشّاق والمحبين على سبيل التسلي في كل ليلة إلى أن أنام. وكنت أستيقظ فأجدها سهرانة من أجلي ودمعها يجري على خدّها. ولم أزل كذلك إلى أن مضت الخمسة أيام، فقامت ابنة عمي وسخّنت لي ماء وحممتني به وألبستني ثيابي وقالت لي: توجه إليها قضى الله حاجتك وبلغك مقصودك من محبوبتك. فمضيت ولم أزل ماشياً إلى أن أتيت إلى رأس الزقاق وكان ذلك في يوم السبت، فرأيت دكان

الصباغ مقفولة . فجلست عليها حتى اذن العصر واصفرّت الشمس وأذن المغرب ودخل الليل وانا لا ارى لها اثراً ولا اسمع حساً ولا خبراً . فخشيت على نفسي وأنا جالس وحدي . فقمت وتمشيت وأنا كالسكران إلى أن دخلت البيت . فلما دخلت رأيت ابنة عمي عزيزة وإحدى يديها قابضة على وتد مدقوق في الحائط ويدها الأخرى على صدرها وهي تصعد الزفرات وتنشد هذه الأبيات : [من الطويل]

وما وَجْدُ أَعْرابيَّةٍ بَانَ أَهْلُها ... فَحَنَّتْ إلى بانِ الحِجازِ وَرَنْدِهِ
إذا آنَسَتْ رَكْباً تَكَفَّلَ شَوْقُها ... بنارِ قِراهُ والدُّمُوعُ بِوِرْدِهِ
بِأَعْظَمَ مِنْ وَجْدِي بِحبِّي وإنَّما ... يَرَى أَنَّنِي أَذْنَبْتُ ذَنْباً بِوُدِّهِ

فلما فرغت من شعرها التفتت إلي فرأتني ، فمسحت دموعها ودموعي بكمها وتبسّمت في وجهي وقالت لي : يا ابن عمي هنَّاك الله بما أعطاك ، فلأي شيء لم تبت الليلة عند محبوبتك ولم تقض منها أربك ؟ فلما سمعت كلامها رفصتها برجلي في صدرها فانقلبت على الإيوان ، فجاءت جبهتها على طرف الايوان ، وكان هناك وتد فجاء في جبهتها . فتأملتها فرأيت جبينها قد انفتح وسال دمها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 115

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشاب قال لتاج الملوك : فلمَّا رفصت ابنة عمي في صدرها انقلبت على طرف الايوان فجاء الوتد في جبهتها فانفتح جبينها وسال دمها ، فسكتت ولم تنطق بحرف واحد . ثم إنها قامت في الحال وأحرقت حراقاً وحشت به ذلك الجرح وتعصّبت بعصابة ومسحت الدم الذي سال على البساط وكأن ذلك شيء ما كان . ثم إنها أتتني وتبسّمت في وجهي وقالت لي بلين الكلام : والله يا ابن عمي ما قلت هذا الكلام استهزاء بك ولا بها ، وقد كنت مشغولة بوجع رأسي ومسح الدم . وفي هذه الساعة قد خفت رأسي وخفت جبهتي فاخبرني بما كان من أمرك في هذا اليوم . فحكيت لها جميع ما وقع لي منها في ذلك اليوم ، وبعد كلامي بكيت فقالت لي : يا ابن عمي أبشر بنجاح قصدك وبلوغ أملك ، إن هذه علامة القبول ، وذلك أنها غابت عنك لأنها تريد أن تخبرك وتعرف هل أنت صابر أولاً ، وهل أنت صادق في محبتها أولاً . وفي غد توجّه إليها في مكانك الأول وانظر ماذا تشير به إليك فقد قربت أفراحك وزالت أحزانك . وصارت تسلّيني على ما بي وأنا لم أزل متزايد الهموم والغموم ، ثم قدّمت لي الطعام فرفصته برجلي فانكبت كل زبدية في ناحية وقلت : كل من كان عاشقاً فهو مجنون ، لا يميل إلى طعام ولا يلتذّ بمنام . فقالت لي ابنة عمي عزيزة : والله يا ابن عمي إن هذه علامات المحبة . وسالت دموعها ولمت شقافة الزبادي ومسحت الطعام وجلست تسايرني وأنا أدعو الله أن يصبح الصباح . فلمَّا أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح ، توجّهت إليها ودخلت ذلك الزقاق بسرعة وجلست على تلك المسطبة . وإذا بالطاقة قد انفتحت وأبرزت رأسها منها وهي تضحك ، ثم غابت ورجعت ومعها مرآة وكيس وقصرية ممتلئة بزرع أخضر وفي يدها قنديل . فأول ما فعلت ، أخذت المرآة في يدها وأدخلتها في الكيس ثم ربطته ورمته في البيت ، ثم أرخت شعرها على وجهها ، ثم وضعت القنديل على رأس الزرع لحظة ، ثم أخذت جميع ذلك

وانصرفت به وأغلقت الطاقة . فانفطر قلبي من هذا الحال ومن إشاراتها الخفيَّة ورموزها المخفيَّة وهي لم تكلمني بكلمة قط . فاشتد لذلك غرامي وزاد وجدي وهيامي . ثم إني رجعت على عقبي وأنا باكي العين حزين القلب حتى دخلت البيت . فرأيت ابنة عمي قاعدة ووجهها إلى الحائط وقد احترق قلبها من الهمّ والغمّ والغيرة ، ولكن محبتها منعتها أن تخبرني بشيء مما عندها من الغرام لما رأت ما أنا فيه من كثرة الوجد والهيام . ثم نظرت إليها فرأيت على رأسها عصابتين : إحداهما من الوقعة على جبهتها والأخرى على عينها بسبب وجع أصابها من شدّة بكائها ، وهي في أسوء الحالات تبكي وتنشد هذه الأبيات : [من الخفيف]

أَيْنَما كُنْتَ لَمْ تَزَلْ بِأَمانٍ ... أَيُّـها الرَّاحِل المُقِيمُ بِقَلْبِي
وَلَكَ اللهُ حَيْثُ أَمْسَيْتَ جاراً ... مُنْقِذاً مِنْ صُرُوفِ دَهْرٍ وخَطْبِ
غِبْتَ فاسْتَوْحَشَتْ لِبُعْدِكَ عَيْنِي ... وأَسْتَهَلَّتْ مَدامِعِي أيَّ سَكْبِ
لَيْتَ شِعْرِي بأَيِّ أَرْضٍ ومَغْنَى ... أَنْتَ مُسْتَوْطِنٌ بِدارٍ وَشِعْبِ
إنْ يَكُنْ شُرْبُكَ القَراحَ زُلالاً ... فَدُمُوعِي مِنَ المَحاجِرِ شُرْبِي
كُلُّ شَيءٍ سِوَى فِراقِكَ عَذْبٌ ... كالتَّجافِي بَيْنَ الرُّقادِ وجَنْبِي

فلما فرغت من شعرها نظرت إليَّ فرأتني وهي تبكي ، فمسحت دموعها ونهضت إليَّ ولم تقدر أن تتكلم مما هي فيه من الوجد . ولم تزل ساكتة برهة من الزمان ، ثم بعد ذلك قالت : يا ابن عمي أخبرني بما حصل لك منها في هذه المرة . فأخبرتها بجميع ما حصل لي . فقالت لي : إصبر فقد آن أوان وصالك وظفرت ببلوغ آمالك . أما إشارتها لك بالمرآة وكونها أدخلتها في الكيس ، فإنها تقول لك : إصبر إلى أن تغطس الشمس . وأما إرخاؤها شعرها على وجهها فإنها تقول لك : إذا أقبل الليل وانسدل سواد الظلام وعلا نور النهار ، فتعال . وأما إشارتها لك بالقصرية التي فيها الزرع ، فإنها تقول لك : إذا جئت فادخل البستان الذي وراء الزقاق . وأما إشارتها لك بالقنديل ، فإنها تقول لك : إذا دخلت البستان فامش فيه ، وأي موضع وجدت فيه القنديل مضيئاً فتوجه إليه واجلس تحته وانتظرني فإن هواك قاتلي . فلما سمعت كلام ابنة عمي ، صحت من فرط الغرام وقلت : كم تعديني وأتوجه إليها ولا أحصل مقصودي ولا أجد لتفسيرك معنى صحيحاً . فعند ذلك ضحكت بنت عمي وقالت لي : بقي عليك من الصبر أن تصبر بقية هذا اليوم إلى أن يولي النهار ويقبل الليل بالإعتكار فتحظى بالوصول وبلوغ الآمال ، وهذا الكلام صدق بغير مين . ثم أنشدت هذين البيتين : [من الرمل]

دَرِّجِ الأيامَ تَنْدَرِجِ ... وبُيُوتَ الهَمِّ لا تَلِجِ
رُبَّ أَمْرٍ عَزَّ مَطْلَبُهُ ... قَرَّبَتْهُ ساعَةُ الفَرَجِ

ثم إنها أقبلت عليّ وصارت تسليني بلين الكلام ولم تجسر أن تأتيني بشيء من الطعام مخافة من غضبي عليها ورجاء ميلي إليها . ولم يكن لها قصد إلاّ أنها أتت إلي وقلعتني ثيابي ثم قالت : يا ابن عمي ، أقعد معي حتى أحدثك بما يسليك إلى آخر النهار ، وإن شاء الله تعالى ما يأتي الليل إلاّ وأنت عند محبوبتك . فلم ألتفت إليها وصرت أنتظر مجيء الليل وأقول : يا رب عجّل

بمجيء الليل . فلما أتى الليل ، بكت ابنة عمي بكاءً شديداً واعطتني حبة مسك خالص وقالت لي : يا ابن عمي ، اجعل هذه الحبة في فمك ، فإذا اجتمعت بمحبوبتك وقضيت منها حاجتك وسمحت لك بما تمنيت ، فانشدها هذا البيت : [من الطويل]

الا أيُّها العُشَّاقُ باللهِ خبّرُوا ... إذا اشْتَدَّ عِشْقٌ بالفَتَى كَيْفَ يَصْنَعُ

ثم إنها قبلتني وحلفتني أني لا أنشدها ذلك البيت الشعر إلاّ بعد خروجي من عندها . فقلت لها : سمعاً وطاعةً . ثم خرجت وقت العشاء ومشيت . ولم ازل ماشياً حتى وصلت إلى البستان فوجدت بابه مفتوحاً فدخلته ، فرأيت نوراً على بعد فقصدته ، فلما وصلت إليه وجدت مقعداً عظيماً معقوداً عليه قبة من العاج والابنوس والقنديل معلق في وسط تلك القبة . وذلك المقعد مفروش بالبسط الحرير المزركشة بالذهب والفضة . وهناك شمعة كبيرة موقودة في شمعدان من الذهب تحت القنديل . وفي المقعد فسقية فيها أنواع التصاوير ، وبجانب تلك الفسقية سفرة مغطاة بفوطة من الحرير وإلى جانبها باطية كبيرة من الصيني مملوءة خمراً وفيها قدح من بلور مزركش بالذهب ، وإلى جانب الجميع طبق كبير من فضة مغطّى فكشفته فرأيت فيه من سائر الفواكه ما بين تين ورمان وعنب ونارنج ، وبينها أنواع الرياحين من ورد وياسمين وآس ونسرين ونرجس ومن سائر المشمومات . فهمت بذلك المكان وفرحت غاية الفرح وزال عني الهمّ والترح . لكني ما وجدت في هذه الدار أحداً من خلق الله تعالى . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 116

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشاب قال لتاج الملوك : فهمت بذلك المكان وفرحت غاية الفرح لكني ما وجدت فيه أحداً من خلق الله تعالى ، ولم أرَ عبداً ولا جارية ولا من يعاني هذه الأمور . فجلست في ذلك المقعد انتظر مجيء محبوبة قلبي إلى أن مضى أول ساعة من الليل وثاني ساعة وثالث ساعة فلم تأتِ . واشتد بي ألم الجوع لأن لي مدة من الزمان ما أكلت طعاماً لشدّة وجدي . فلما رأيت ذلك المكان وظهر لي صدق بنت عمي في فهم إشارة معشوقتي ، استرحت ووجدت ألم الجوع ، وقد شوقتني روائح الطعام الذي على السفرة لما وصلت إلى ذلك المكان واطمأنت نفسي بالوصال . فاشتهت نفسي الأكل ، فتقدمت إلى السفرة وكشفت الغطاء فوجدت في وسطها طبقاً من الصيني وفيه اربع دجاجات محمرة ومتبلة بالبهارات ، وحول ذلك الطبق أربع زبادي : واحدة حلوى والأخرى حب الرمان والثالثة بقلاوة والرابعة قطائف . وتلك الزبادي ما بين حلوى وحامض . فأكلت من القطائف وقطعة لحم وعمدت إلى البقلاوة وأكلت منها ما تيسّر ، ثم قصدت الحلوى وأكلت ملعقة واثنين أو ثلاثاً أو أربعاً ، وأكلت بعض دجاجة وأكلت لقمة . فعند ذلك امتلأت بطني وارتخت مفاصلي وقد كسلت عن السهر ، فوضعت رأسي على وسادة بعد أن غسلت يدي ، فغلبني النوم ولم أعلم بما جرى لي بعد ذلك . فما استيقظت حتى أحرقني حرّ الشمس لأن لي أياماً ما ذقت مناماً . فلما استيقظت وجدت على بطني ملحاً وفحماً ، فانتصبت قائماً ونفضت ثيابي وقد تلفّت يميناً وشمالاً فلم اجد احداً ، ووجدتني كنت نائماً على الرخام من غير فرش . فتحيّرت في عقلي وحزنت حزناً

عظيماً وجرت دموعي على خدّي وتأسفت على نفسي فقمت وقصدت البيت، فلما وصلت إليه وجدت ابنة عمي تدقّ بيدها على صدرها وتبكي بدمع يباري السحب الماطرات، وتنشد هذه الأبيات :[من الخفيف]

هَبَّ رِيحٌ مِنْ الحِمَى ونَسِيمُ ... فأهاجَ الهَوَى بِنَشْرِ هُبُوبِهِ
يا نَسِيمَ الصَّبا هَلُمَّ إِلَيْنا ... كُلُّ صَبٍّ بِحَظِّهِ ونَصِيبِهِ
لَو قَدَرْنا مِنْ الغَرامِ اعْتَنَقْنا ... كاعْتِناقِ المُحِبِّ صَدْرَ حَبِيبِهِ
حَرَّمَ اللهُ بَعْدَ وَجْهِ ابْنِ عَمِّي ... كُلَّ عَيْشٍ مِنْ الزَّمانِ وطِيبِهِ
لَيْتَ شِعْرِي هَلْ قَلْبُهُ مِثْلُ قَلْبِي ... ذائِبٌ مِنْ حَرِّ الهَوَى ولَهِيبِهِ

فلما رأتني، قامت مسرعة ومسحت دموعها وأقبلت عليَّ بلين كلامها وقالت لي : يا ابن عمي، أنت في عشقك قد لطف الله بك حيث أحبك من تحب، وأنا في بكائي وحزني على فراقك من يلمني؟ ولكن لا أخذك الله من جهتي . ثم إنها تبسمت في وجهي تبسّم الغيظ ولاطفتني وقلّعتني أثوابي ونشرتها وقالت : والله ما هذه روائح من حظي بمحبوبة فاخبرني بما جرى لك يا ابن عمي . فأخبرتها بجميع ما جرى لي . فتبسمت تبسّم الغيظ ثانياً وقالت : إن قلبي ملآن موجع ، فلا عاش من يوجع قلبك . وهذه المرأة تتعزّز عليك تعزّزاً قوياً، والله يا ابن عمي إني خائفة عليك منها . واعلم يا ابن عمي، إن تفسير الملح هو أنك مستغرق في النوم فكأنك دلع الطعم بحيث تعافك النفوس ، فينبغي لك أن تتملّح حتى لا تمجّك الطباع ، لأنك تدعي أنك من العشاق الكرام والنوم على العشاق حرام . فدعواك المحبة كاذبة وكذلك هي محبتها لك كاذبة، لأنها لما رأتك نائماً لم تنبهك . ولو كانت محبتها لك صادقة لنبهتك . وأمّا الفحم فإن تفسير إشارته سوّد الله وجهك حيث ادعيت المحبة كذباً، وإنما انت صغير ولم يكن لك همّة إلاّ الأكل والشرب والنوم . وهذا تفسير إشارتها فالله تعالى يخلصك منها . فلما سمعت كلامها ضربت بيدي على صدري وقلت : والله إن هذا هو الصحيح ، لأني نمت والعشاق لا ينامون . فأنا الظالم لنفسي وما كان أضرّ علي من الأكل والنوم ، فكيف يكون الأمر؟ ثم إني زدت في البكاء وقلت لابنة عمي : دلّيني على شيء أفعله وارحميني يرحمك الله وإلاّ أموت . وكانت بنت عمي تحبني محبة عظيمة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 117

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، ان الشاب قال لتاج الملوك : فقلت لابنة عمي : دليني على شيء افعله وارحميني يرحمك الله . وكانت تحبني محبة عظيمة فقالت : على رأسي وعيني ، ولكن يا ابن عمي قد قلت لك مراراً لو كنت أدخل وأخرج لكنت أجمع بينك وبينها في أقرب زمن وأغطيكما بذيلي، ولا أفعل معك هذا إلاّ لقصد رضاك وإن شاء الله تعالى أبذل غاية الجهد في الجمع بينكما . ولكن اسمع قولي وأطع أمري واذهب إلى نفس ذلك المكان واقعد هناك ، فإذا كان وقت العشاء فاجلس في الموضع الذي كنت فيه واحذر أن تأكل شيئاً لأن الأكل يجلب النوم ، وإياك أن تنام فإنها لا تأتي لك حتى يمضي من الليل ربعه كفاك الله شرّها . فلما سمعت كلامها، فرحت وصرت أدعو الله أن يأتي الليل . فلما أتى الليل اردت

الانصراف فقالت لي ابنة عمي : إذا اجتمعت بها فاذكر لها البيت المتقدم وقت انصرافك . فقلت لها : على الرأس والعين . فلما خرجت وذهبت إلى البستان وجدت المكان مهيئاً على الحالة التي رأيتها أولاً ، وفيه ما يحتاج إليه من الطعام والشراب والنقل والمشموم وغير ذلك . فطلعت المقعد وشممت رائحة الطعام فاشتاقت نفسي إليه فمنعتها مراراً فلم أقدر على منعها ، فقمت وأتيت إلى السفرة وكشفت غطاءها فوجدت صحن دجاج وحوله أربع زبادي من الطعام فيها أربعة ألوان . فأكلت من كل لون لقمة وأكلت ما تيسر من الحلوى وأكلت قطعة لحم وشربت من الزردة وأعجبتني ، فأكثرت الشرب منها بالملعقة حتى شبعت وامتلأت بطني . وبعد ذلك انطبقت أجفاني ، فأخذت وسادة ووضعتها تحت رأسي وقلت : لعلّي أتكىء عليها ولا أنام . فأغمضت عيني ونمت وما انتبهت حتى طلعت الشمس ، فوجدت على بطني كعب عظم وفردة طاب ونواية بلح وبزرة خروب وليس في المكان شيء من فرش ولا غيره ، وكأنه لم يكن فيه شيء بالأمس . فقمت ونفضت الجميع عني وخرجت وأنا مغتاظ إلى أن وصلت إلى البيت ، فوجدت ابنة عمي تصعد الزفرات وتنشد هذه الأبيات : [من الخفيف]

جَسَدٌ ناحِلٌ وقَلْبٌ جَرِيحُ ودُمُوعٌ على الخُدُودِ تَسِيحُ
وحَبِيبٌ صَعْبُ التَّجَنِّي ولَكِنْ كُلَّما يَفْعَلُ المَلِيحُ مَلِيحُ
يا ٱبْنَ عَمِّي مَلأْتَ بالوَجْدِ قَلْبِي إنَّ طَرْفِي مِنَ الدُّمُوعِ قَرِيحُ

فنهرت ابنة عمي وشتمتها . فبكت ثم مسحت دموعها وأقبلت عليَّ وقبّلتني وأخذت تضمّني إلى صدرها وأنا أتباعد وأعاتب نفسي . فقالت لي : يا ابن عمي ، كأنك نمت في هذه الليلة . فقلت لها : نعم . ولكنني لما انتبهت وجدت كعب عظم على بطني وفردة طاب ونواية بلح وبزرة خروب ، وما أدري لأي شيء فعلت هكذا . ثم بكيت وأقبلت عليها وقلت لها : فسري لي إشارة فعلها هذا وقولي لي ماذا أفعل وساعديني على الذي أنا فيه . فقالت : على الرأس والعين . أما فردة الطاب التي وضعتها على بطنك فإنها تشير لك بها إلى أنك حضرت وقلبك غائب ، وكأنها تقول لك : ليس العشق هكذا . أفلا تعد نفسك من العاشقين ؟ وأما نواية البلح فإنها تشير لك بها إلى أنك لو كنت عاشقاً لكان قلبك محترقاً بالغرام ولم تذق لذيذ المنام ، فإن لذة الحب كتمرة ألهبت في الفؤاد جمرة . وأما بزرة الخروب فإنها تشير لك بها إلى أن قلب المحب متعوب ، وتقول لك : إصبر على فراقنا صبر أيوب . فلما سمعت هذا التفسير انطلقت في فؤادي النيران وزادت بقلبي الأحزان فصحت وقلت : قدر الله عليّ النوم لقلّة بختي . ثم قلت لها : يا ابنة عمي ، بحياتي عندك تدبري لي حيلة أتوصّل بها إليها . فبكت وقالت : يا عزيز يا ابن عمي ، إن قلبي ملآن بالفكر ولا أقدر أن أتكلم ، ولكن رح الليلة إلى ذلك المكان واحذر أن تنام فإنك تبلغ المرام هذا هو الرأي والسلام . فقلت لها : إن شاء الله لا أنام وإنما أفعل ما تأمريني به . فقامت بنت عمي وأتت لي بالطعام وقالت لي : كُل الآن ما يكفيك حتى لا يبقى في خاطرك شيء . فأكلت كفايتي ، ولما أتى الليل قامت بنت عمي وأتتني ببدلة عظيمة وألبستني إياها وحلّفتني أن أذكر لها البيت المذكور وحذرتني من النوم . ثم خرجت من عند بنت عمي وتوجهت إلى البستان وطلعت ذلك المقعد ونظرت إلى البستان ، وجعلت أفتح عيني بأصابعي وأهزّ رأسي حين جنّ الليل . وأدرك

شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 118 قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب قال لتاج الملوك : فدخلت البستان وطلعت ذلك المقعد ونظرت إلى البستان وجعلت أفتح عيني بأصابعي وأهزّ رأسي . حين جنّ الليل فجعت من السهر وهبت عليّ روائح الطعام . فازداد جوعي وتوجهت إلى السفرة وكشفت غطاءها وأكلت من كل لون لقمة وأكلت قطعة لحم ، وأتيت إلى باطية الخمر وقلت في نفسي : أشرب قدحاً فشربته ، ثم شربت الثاني والثالث إلى غاية عشرة . وقد ضربني الهوى فوقعت على الأرض كالقتيل ، وما زلت كذلك حتى طلع النهار فانتبهت ، فرأيت نفسي خارج البستان وعلى بطني شفرة ماضية ودرهم حديد . فارتجفت وأخذتهما وأتيت بهما إلى البيت . فوجدت ابنة عمي تقول : إني في هذا البيت مسكينة حزينة ليس لي معين إلاّ البكاء . فلما دخلت وقعت من طولي ورميت السكين والدرهم من يدي وغشي علي . فلما أفقت من غشيتي ، عرّفتها بما حصل لي وقلت لها : إنني لم أنل أربي . فاشتد حزنها عليَّ لما رأت بكائي ووجدي وقالت لي :إني عجزت وأنا أنصحك عن النوم فلم تسمع نصحي فكلامي لا يفيدك شيئاً . فقلت لها : أسألك بالله أن تفسّري لي إشارة السكين والدرهم الحديد . فقالت : أما الدرهم الحديد ، فإنها تشير به إلى عينها اليمين وإنها تقسم بها وتقول : وحق رب العالمين وعيني اليمين إن رجعت ثاني مرة ونمت لأذبحنك بهذه السكين . وأنا خائفة عليك يا ابن عمي من مكرها وقلبي ملآن بالحزن عليك فما أقدر أن أتكلم . فإن كنت تعرف من نفسك أنك إن رجعت إليها لا تنام ، فارجع إليها واحذر النوم فإنك تفوز بحاجتك . وإن عرفت أنك إن رجعت إليها تنام على عادتك ، ثم رجعت إليها ونمت ذبحتك . فقلت لها : وكيف يكون العمل يا بنت عمي ؟ أسألك بالله أن تساعديني في هذه البلية . فقالت : على عيني ورأسي ، ولكن إن سمعت كلامي وأطعت أمري قضيت حاجتك . فقلت لها : إني أسمع كلامك وأطيع أمرك . فقالت : إذا كان وقت الرواح أقول لك . ثم ضمّتني إلى حضنها ووضعتني على الفراش ، ولا زالت تكبسني حتى غلبني النعاس واستغرقت في النوم . فأخذت مروحة وجلست عند رأسي تروّح على وجهي إلى آخر النهار . ثم نبّهتني ، فلما انتبهت وجدتها عند رأسي وفي يدها المروحة وهي تبكي ودموعها قد بلّت ثيابها . فلما رأتني استيقظت مسحت دموعها وجاءت بشيء من الأكل ، فامتنعت منه . فقالت لي : أما قلت لك اسمع مني وكل ؟ فأكلت ولم أخالفها . وصارت تضع الأكل في فمي وأنا أمضغ حتى امتلأت . ثم أسقتني نقيع عناب بالسكر ، ثم غسلت يدي ونشفتها بمحرمة ورشت عليّ ماء الورد وجلست معها وأنا في عافية . فلما أظلم الليل ألبستني ثيابي وقالت : يا ابن عمي ، إسهر جميع الليل ولا تنم ، فإنها ما تأتيك في هذه الليلة إلاّ في آخر الليل . وإن شاء الله تجتمع بها في هذه الليلة ولكن لا تنس وصيتي ثم بكت . فأوجعني قلبي عليها من كثرة بكائها وقلت لها : ما الوصية التي وعدتني بها؟ فقالت لي : إذا انصرفت من عندها فأنشدها البيت المتقدم ذكره . ثم خرجت من عندها وأنا فرحان ومضيت إلى البستان وطلعت المقعد وأنا شبعان فجلست وسهرت إلى ربع الليل . ثم طال الليل عليَّ حتى كأنه سنة ، فمكثت ساهراً حتى مضى ثلاثة أرباع الليل وصاحت الديوك ، فاشتد عندي الجوع من السهر ، فقمت إلى السفرة وأكلت

حتى اكتفيت. فثقلت رأسي وأردت أن أنام وإذا بضجة على بعد، فنهضت وغسلت يدي وفمي ونبّهت نفسي. فما كان إلاّ قليل وإذا بها أتت ومعها عشر جوار وهي بينهنّ كالبدر بين الكواكب، وعليها حلّة من الأطلس الأخضر مزركشة بالذهب الأحمر، وهي كما قال الشاعر: [من الطويل]

تَتيهُ عَلى العُشَّاقِ في حُلَلٍ خُضْرِ   مُفَكَّكَةَ الأَزْرارِ مَحْلُولَةَ الشَّعْرِ
فَقُلْتُ لها: ما الاسْمُ؟ قالَتْ: أَنا التِي   كَوَيْتُ قُلُوبَ العاشِقِينَ على الجَمْرِ
شَكَوْتُ إِلَيْها ما أُقاسِي مِنَ الهَوَى   فَقالَتْ: إلى صَخْرٍ شَكَوْتَ ولَم تَدْرِ
فَقُلْتُ لها: إنْ كانَ قَلْبُكِ صَخْرَةً   فَقَدْ أَنْبَعَ اللهُ الزُّلالَ مِنَ الصَّخْرِ

فلما رأتني ضحكت وقالت: كيف انتبهت ولم يغلب عليك النوم؟ وحيث سهرت الليل علمت أنك عاشق، لأن من شيم العشاق سهر الليل في مكابدة الأشواق. ثم أقبلت على الجواري وغمزتهن فانصرفن عنها، وأقبلت عليَّ وضمّتني إلى صدرها وقبّلتني وقبّلتها ومصّت شفتي التحتانية ومصصت شفتها الفوقانية، ثم مددت يدي إلى خصرها وغمزته وما نزلنا في الأرض إلاّ سواء، وحلّت سراويلها، فنزلت في خلاخل رجليها، وأخذنا في الهراش والتعنيق والغنج والكلام الرقيق والعض وحمل السيقان والطواف بالبيت والأركان إلى أن ارتخت مفاصيلها وغشي عليها ودخلت في الغيبوبة. وكانت تلك الليلة مسرة القلب وقرة الناظر كما قال فيها الشاعر: [من الكامل]

أَهْنَى لَيالِي الدَّهْرِ عِنْدِي لَيْلَةٌ   لَم أُخْلِ فِيها الكأسَ مِنْ أَعْمالِي
فَرَّقْتُ فيها بَيْنَ جَفْنِي والكَرَى   وجَمَعْتُ بَيْنَ القُرْطِ والخَلْخالِ

فلما أصبح الصباح أردت الإنصراف، وإذا بها أمسكتني وقالت لي: قف حتى أخبرك بشيء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 119

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب قال لتاج الملوك: فلمّا أصبح الصباح أردت الإنصراف، وإذا بها أمسكتني وقالت: قف حتى أخبرك بشيء وأوصيك وصية. فوقفت، فحلّت منديلاً وأخرجت هذه الخرقةونشرتها قدامي، فوجدت فيها صورة غزال على هذا المثال. فتعجبت منها غاية العجب، فأخذته وتواعدت أنا وإياها أن أسعى إليها كل ليلة في ذلك البستان. ثم انصرفت من عندها وأنا فرحان، ومن فرحي نسيت الشعر الذي أوصتني به بنت عمي. وحين أعطتني الخرقة التي فيها صورة الغزال قالت لي: هذا عمل أختي. فقلت لها: وما اسم اختك؟ قالت: اسمها نور الهدى فاحتفظ بهذه الخرقة. ثم ودعتها وانصرفت وأنا فرحان، ومشيت إلى أن دخلت على ابنة عمي فوجدتها راقدة. فلمّا رأتني قامت ودموعها تتساقط، ثم أقبلت عليَّ وقبّلت صدري وقالت: هل فعلت ما أوصيتك به من إنشاد بيت الشعر؟ فقلت لها: إني نسيته، وما أشغلني عنه إلاّ صورة هذا الغزال. ورميت الخرقة قدامها، فقامت وقعدت ولم تطق الصبر وأفاضت دمع العين وأنشدت هذين البيتين: [من

المتقارب]

يا طالباً لِلْفراقِ مَهْلاً ولا يَغُرَّنَّكَ العِناقُ
مَهْلاً فَطَبْعُ الزَّمانِ غَدْرٌ وآخِرُ الصُّحْبَةِ الفِراقُ

فلما فرغت من شعرها قالت : يا ابن عمي ، هب لي هذه الخرقة فوهبتها لها ، فأخذتها ونشرتها ورأت ما فيها . فلمّا جاء وقت ذهابي قالت ابنة عمي : إذهب مصحوباً بالسلامة ، ولكن إذا انصرفت عندها فانشدها بيت الشعر الذي أخبرتك به أولاً ونسيته . فقلت لها : أعيديه علي . فأعادته ، ثم مضيت إلى البستان ودخلت المقعد فوجدت الصبية في انتظاري . فلما رأتني قامت وقبّلتني وأجلستني في حجرها ، ثم أكلنا وشربنا وقضينا غرضنا كما تقدم ولا حاجة إلى الإعادة . فلما أصبح الصباح أنشدتها بيت الشعر وهو : [من الطويل]

أَلا أَيُّها العُشَّاقُ باللهِ خَبِّرُوا إذا اشْتَدَّ عِشْقٌ بالفَتَى كَيْفَ يَصْنَعُ

فلما سمعته ، هملت عيناها بالدموع وأنشدت تقول : [من الطويل]

يُدارِي هَواهُ ثُمَّ يَكْتُمُ سِرَّهُ ويَصْبِرُ في كُلِّ الأُمُورِ ويَخْضَعُ

فحفظته وفرحت بقضاء حاجة ابنة عمي . ثم خرجت وأتيت إلى ابنة عمي ، فوجدتها راقدة وأمي عند رأسها تبكي على حالها . فلما دخلت عليها قالت لي أمي : تبّاً لك من ابن عم . كيف تترك بنت عمك على غير استواء ولا تسأل عن مرضها؟ فلما رأتني ابنة عمي رفعت رأسها وقعدت وقالت لي : يا عزيز ، هل أنشدتها البيت الذي أخبرتك به ؟ قلت لها : نعم . فلمّا سمعته بكت وأنشدتني بيتاً آخر وحفظته . فقالت بنت عمي : أسمعني إياه . فلمّا أسمعتها إياه بكت بكاءً شديداً وأنشدت هذا البيت : [من الطويل]

لَقَدْ حاوَلَ الصَّبْرَ الجَميلَ ولَمْ يَجِدْ لَهُ غَيرَ قَلْبٍ في الصَّبابَةِ يَجْزَعُ

ثم قالت لي ابنة عمي : إذا ذهبت إليها على عادتك فأنشدها هذا البيت الذي سمعته . فقلت لها : سمعاً وطاعةً . ثم ذهبت إليها في البستان على العادة ، وكان بيننا ما كان مما يقصر عن وصفه اللسان . فلما أردت الإنصراف أنشدتها ذلك البيت وهو : لقد حاول . . . إلى آخره . فلمّا سمعته سالت مدامعها من المحاجر ، وأنشدت قول الشاعر : [من الطويل]

فإنْ لَمْ يَجِدْ صَبْراً لِكِتْمانِ سِرِّهِ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدِي سِوَى المَوْتِ أَنْفَعُ

فحفظته وتوجّهت إلى البيت . فلما دخلت على ابنة عمي وجدتها ملقاة مغشياً عليها وأمي جالسة عند رأسها . فلما سمعت كلامي فتحت عيناها وقالت : يا عزيز ، هل أنشدتها البيت الشعر ؟ قلت لها : نعم . ولما سمعته بكت وأنشدتني هذا البيت : فإن لم يجد . . . إلى آخره . فلما سمعته بنت عمي غشي عليها ثانياً ، فلما أفاقت أنشدت هذا البيت وهو : [من الطويل]

سَمِعْنا أَطَعْنا ثُمَّ مِتْنا فَبَلِّغُوا سَلامِي عَلَى مَنْ كانَ لِلْوَصْلِ يَمْنَعُ

ثم لمّا أقبل الليل ، مضيت إلى البستان على جري عادتي ، فوجدت الصبية في انتظاري . فجلسنا وأكلنا وشربنا وعملنا حظنا ثم نمنا إلى الصباح . فلما أردت الإنصراف أنشدتها ما قالته

ابنة عمي . فلما سمعت ذلك صرخت صرخة عظيمة وتضجَّت وقالت : والله ، إن قائلة هذا الشعر قد ماتت . ثم بكت وقالت : ويلك ، ما تقرب لك قائلة هذا الشعر ؟ قلت لها : إنها ابنة عمي . قالت : كذبت والله ، لو كانت ابنة عمك لكان عندك لها من المحبة مثل ما عندها لك . فأنت الذي قتلتها قتلك الله كما قتلتها . والله لو أخبرتني أن لك ابنة عم ما قرّبتك مني . فقلت لها : إنها ابنة عمي ، وكانت تفسر لي الإشارات التي كنت تشيرين بها إلي ، وهي التي علّمتني ما أفعل معك ، وما وصلت إليك إلاّ بحسن تدبيرها . فقالت : وهل عرفت بنا ؟ قلت : نعم . قالت : حسرك الله على شبابك كما حسرتها على شبابها . ثم قالت لي : رح انظرها . فذهبت وخاطري متشوّش . وما زلت ماشياً حتى وصلت إلى زقاقنا . فسمعت عياطاً فسألت عنه فقيل لي : إن عزيزة وجدناها خلف الباب ميتة . ثم دخلت الدار ، فلما رأتني أمي قالت : إن خطيئتها في عنقك ، فلا سامحك الله من دمها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 120

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشاب قال لتاج الملوك : ثم دخلت الدار ، فلما رأتني أمي قالت : إن خطيئتها في عنقك فلا سامحك الله من دمها ، تبًّا لك من ابن عم . ثم إن أبي جاء وجهّزناها وشيّعنا جنازتها ودفنّاها وعملنا على قبرها الختمات ، ومكثنا على القبر ثلاثة أيام . ثم رجعت إلى البيت وأنا حزين عليها ، فأقبلت عليَّ أمي وقالت لي : إن قصدي أن أعرف ما كنت تفعله معها حتى فقعت مرارتها ، وإني يا ولدي كنت أسألها في كل الأوقات عن سبب مرضها فلم تخبرني به ولم تطلعني عليه . فبالله عليك أن تخبرني بالذي كنت تصنعه معها حتى ماتت . فقلت : ما عملت شيئاً . فقالت : الله يقتصّ لها منك ، فإنها ما ذكرت لي شيئاً بل كتمت أمرها حتى ماتت وهي راضية عنك . ولما ماتت كنت عندها ففتحت عينها وقالت لي : يا امرأة عمي ، جعل الله ولدك في حل من دمي ولا آخذه بما فعل معي ، وإنما نقلني الله من الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية . فقلت : يا بنتي ، سلامتك وسلامة شبابك . وصرت أسألها عن سبب مرضها فما تكلّمت ، ثم تبسّمت وقالت : يا امرأة عمي ، إذا أراد ابنك أن يذهب إلى الموضع الذي عادته الذهاب إليه ، فقولي له أن يقول هاتين الكلمتين عند انصرافه منه : الوفاء مليح والغدر قبيح . وهذه شفقة مني عليه لأكون شفوقة عليه في حياتي وبعد مماتي . ثم أعطتني لك حاجة وحلّفتني أني لا أعطيها لك حتى أراك تبكي عليها وتنوح . والحاجة عندي ، فإذا رأيتك على الصفة التي ذكرتها أعطيتك إياها . فقلت لها : أرني إياها . فما رضيت . ثم إني اشتغلت بلذّاتي ولم أتذكر في موت ابنة عمي لأني كنت طايش العقل ، وكنت أود في نفسي أن أكون طول ليلي ونهاري عند محبوبتي . وما صدقت أن الليل أقبل حتى مضيت إلى البستان ، فوجدت الصبية جالسة على مقالي النار من كثرة الانتظار . فما صدّقت أنها رأتني وبادرت إليَّ وتعلّقت برقبتي وسألتني عن بنت عمي فقلت لها : إنها ماتت ، وعملنا لها الذكر والختمات ، ومضى لها أربع ليال وهذه الخامسة . فلما سمعت ذلك صاحت وبكت وقالت : أما قلت لك أنك قتلتها ؟ ولو أعلمتني بها قبل موتها لكنت كافأتها على ما فعلت معي من المعروف . فإنها خدمتني وأوصلتك إليّ ، ولولاها ما اجتمعت بك . وأنا خائفة عليك أن تقع في مصيبة بسبب رزيتها . فقلت لها : إنها قد جعلتني في حل قبل موتها . ثم ذكرت لها ما أخبرتني به أمي .

فقالت : بالله عليك ، إذا ذهبت إلى أمك فاعرف الحاجة التي عندها . فقلت لها : إن أمي قالت لي : أن ابنة عمك قبل أن تموت أوصتني وقالت لي : إذا أراد ابنك أن يذهب إلى الموضع الذي عادته الذهاب إليه فقولي له هاتين الكلمتين : الوفاء مليح والغدر قبيح .. فلما سمعت الصبية ذلك قالت : رحمة الله تعالى عليها فإنها خلّصتك مني وقد كنت أضمرت على ضررك ، فأنا لا أضرّك ولا أشوّش عليك . فتعجّبت من ذلك وقلت لها : وما كنت تريدين قبل ذلك أن تفعليه معي وقد صار بيني وبينك مودة؟ فقالت : أنت مولع بي ، ولكنك صغير السن وقلبك خال عن الخداع ، فأنت لا تعرف مكرنا ولا خداعنا . ولو كانت في قيد الحياة لكانت معينة لك . فإنها سبب سلامتك حيث أنجتك من الهلكة . والآن أوصيك أن لا تتكلم مع واحدة ولا تخاطب واحدة من أمثالنا لا صغيرة ولا كبيرة . فإياك ثم إياك لأنك غير عارف بخداع النساء ولا مكرهنّ . والتي كانت تفسر لك الإشارات قد ماتت ، وإني أخاف عليك أن تقع في رزية فلا تجد من يخلّصك منها بعد موت بنت عمك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 121

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشاب قال لتاج الملوك : ثم إن الصبية قالت لي : إني أخاف عليك أن تقع في رزية فلا تجد من يخلّصك منها بعد موت بنت عمك . فواحسرتاه على بنت عمك وليتني علمت بها قبل موتها حتى أكافئها على ما فعلت معي من المعروف ، رحمة الله تعالى عليها فإنها كتمت سرّها ولم تبح بما عندها ، ولولاها ما كنت تصل إليّ أبداً وإني أشتهي عليك أمراً . فقلت : ما هو ؟ قالت : أن توصلني إلى قبرها حتى أزورها في القبر الذي هي فيه وأكتب عليه أبياتاً . فقلت لها : في غد إن شاء الله تعالى . ثم إني نمت معها تلك الليلة وهي بعد كل ساعة تقول لي : ليتك أخبرتني بابنة عمك قبل موتها . فقلت لها : ما معنى هاتين الكلمتين اللتين قالتهما وهما : الوفاء مليح والغدر قبيح ؟ فلم تجبني . فلما أصبح الصباح قامت وأخذت كيساً فيه دنانير وقالت لي : قم وأرني قبرها حتى أزوره وأكتب عليه أبياتاً وأعمل عليه قبة وأترحّم عليها وأصرف هذه الدنانير صدقة عن روحها . فقلت لها : سمعاً وطاعةً . ثم مشيت قدّامها ومشت خلفي وصارت تتصدّق وهي ماشية في الطريق ، وكلما تصدّقت صدقة تقول : هذه الصدقة عن روح عزيزة التي كتمت سرّها حتى شربت كأس مناياها ولم تبح بسرّ هواها . ولم تزل تتصدق من الكيس وتقول عن روح عزيزة حتى وصلنا إلى القبر ونفد ما في الكيس . فلما عاينت القبر ، رمت روحها عليه وبكت بكاء شديداً . ثم إنها أخرجت بيكاراً من الفولاذ ومطرقة لطيفة ، وخطت بالبيكار على الحجر الذي على رأس القبر ، خطاً لطيفاً ورسمت هذه الأبيات : [من الطويل]

مَرَرْتُ بِقَبْرٍ دارِسٍ وَسْطَ رَوْضَةٍ ... عَلَيْهِ مِنَ النُّعْمانِ سَبْعُ شَقايِقِ
فَقُلْتُ لِمَنْ ذا القَبْرُ؟ جاوبَني الثَّرَى : ... تَأَدَّبْ فَهذا القَبْر بَرْزَخُ عاشِقِ
فَقُلْتُ : رَعاكَ اللهُ يا مَيِّتَ الهَوَى ... وأَسْكَنَكَ الفِرْدَوْسَ أَعْلى الشَّواهِقِ
مَساكِينُ أَهْلُ العِشْقِ حَتَّى قُبُورُهُم ... عَلَيْها تُرابُ الذُّلِّ بَيْنَ الخَلائِقِ
فإنْ أَسْتَطِعْ زَرْعاً زَرَعْتُكِ رَوْضَةً ... وأَسْقَيْتُها مِنْ دَمْعِيَ المُتَدافِقِ

ثم بكت بكاءً شديداً وقامت، وقمت معها وتوجّهنا إلى البستان فقالت لي: سألتك بالله، إنك لا تنقطع عني أبداً. فقلت: سمعاً وطاعةً. ثم إني صرتُ أتردّد عليها، وكلما بتّ عندها تحسن إليّ وتكرمني وتسألني عن الكلمتين اللتين قالتهما ابنة عمي عزيزة لأمي، فأعيدهما لها. وما زلت على ذلك الحال من أكل وشرب وضمّ وعناق وتغيير ثياب من الملابس الرقاق حتى غلظت وسمنت، ولم يكن بي همّ ولا غمّ ولا حزن، ونسيت ابنة عمي ومكثت مستغرقاً في تلك اللذّات سنة كاملة. وعند رأس السنة دخلت الحمام وأصلحت شأني ولبست بذلة فاخرة، ولما خرجت من الحمام شربت قدحاً من الشراب وشممت روائح قماشي المضمَّخ بأنواع الطيب وأنا خالي القلب من غدرات الزمان وطوارق الحدثان. فلما جاء وقت العشاء اشتاقت نفسي الذهاب إليها وأنا سكران لا أدري أين أتوجه فذهبت إليها، فمال بي السكر إلى زقاق يقال له: زقاق النقيب. فبينما أنا ماش في ذلك الزقاق وإذا بعجوز ماشية وفي إحدى يديها شمعة مضيئة وفي يدها الأخرى كتاب ملفوف. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 122

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب الذي اسمه عزيز قال لتاج الملوك: فلمّا دخلت الزقاق الذي يقال له: زقاق النقيب مشيت فيه. فبينما أنا ماش في ذلك الزقاق، وإذا بعجوز ماشية وفي إحدى يديها شمعة مضيئة وفي يدها الأخرى كتاب ملفوف. فتقدّمت إليها وهي باكية العين وتنشد هذين البيتين: [من الكامل]

لله دَرُّ مُبَشِّرِي بِقُدُومِكُمْ ... فَلَقَدْ أَتَى بِلَطائِفِ المَسْمُوعِ
لَو كانَ يَقْنَعُ بالخَلِيعِ وَهَبْتُهُ ... قَلْباً تَمزَّقَ ساعَةَ التَّوْدِيعِ

فلما رأتني قالت لي: يا ولدي، هل تعرف أن تقرأ؟ فقلت لها: نعم يا خالتي العجوز. فقالت لي: خذ هذا الكتاب واقرأه لي وناولتني الكتاب، فأخذته منها وفتحته وقرأت عليها مضمونه: إنه كتاب من عند الغياب بالسلام على الأحباب. فلما سمعته فرحت واستبشرت ودعت لي وقالت لي: فرج الله همّك كما فرجت همّي. ثم أخذت الكتاب ومشت خطوتين وغلبني حصر البول فقعدت في مكان لأريق الماء، ثم إني قمت وتجمّرت وأرخيت أثوابي وأردت ان أمشي وإذا بالعجوز قد أقبلت علي وقبّلت يدي وقالت: يا مولاي، الله تعالى يهنيك بشبابك ولا يفضحك، أترجّاك ان تمشي معي خطوات إلى ذلك الباب فإني أخبرتهم بما أسمعتني إياه في قراءة الكتاب فلم يصدقوني، فامش معي خطوتين واقرأ لهم الكتاب من خلف الباب واقبل دعائي لك. فقلت لها: وما قصة هذا الكتاب؟ فقالت لي: يا ولدي، هذا الكتاب جاء من عند ولدي وهو غائب عني مدة عشر سنين، فإنه سافر بمتجر ومكث في الغربة تلك المدة، فقطعنا الرجاء وظننا أنه مات ثم وصل إلينا منه هذا الكتاب. وله أخت تبكي عليه في مدّة غيابه أثناء الليل وأطراف النهار فقلت لها: إنه طيّب بخير. فلم تصدّقني وقالت لي: لا بدّ أن تأتيني بمن يقرأ هذا الكتاب فيخبرني حتى يطمئن قلبي ويطيب خاطري. وأنت تعلم يا ولدي أن المحب مولع بسوء الظن، فأنعم عليّ بقراءة هذا الكتاب وأنت واقف خلف الستارة وأخته تسمع من داخل الباب، لأجل ان يحصل لك ثواب من قضى لمسلم حاجة ونفّس عنه كربة. فقد قال رسول الله ﷺ: مَنْ نفَّس

عن مكروب كربة من كرب الدنيا نفّس الله كربة من كرب الآخرة . وفي حديث آخر : مَنْ نفّس أخيه كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه اثنين وسبعين كربة من كرب يوم القيامة . وأنا قصدتك فلا تخيبني . فقلت لها : سمعاً وطاعةً تقدمي قدّامي . فمشت قدامي ومشيت خلفها قليلاً حتى وصلت إلى باب دار عظيمة ، وذلك الباب مصفح بالنحاس الأحمر ، فوقفت خلف الباب وصاحت العجوز بالعجمية ، فما أشعر إلاّ وصبية قد أقبلت بخفة ونشاط وهي مشمّرة اللباس إلى ركبتيها ، فرأيت لها ساقين يحيران الفكر والناظر ، وهي كما قال في وصفها الشاعر : [من البسيط]

يا مَنْ يُشَمِّرُ عَنْ ساقٍ لِيَعْرِضَهُ ... عَلى المُحِبِّينَ حَتَّى يَفْهَمَ الباقِي
وطافَ يَسْعَى بِكأْسٍ نَحْوَ عاشِقِهِ ... ما أَفْتَنَ النَّاسَ غَيرُ الكأْسِ والسَّاقِي

وزان ساقيها اللتين كأنهما عمودان من مرمر خلاخل الذهب المرصّعة بالجوهر . وكانت تلك الصبيّة مشمّرة ثيابها إلى تحت إبطيها ومشمّرة عن ذراعيها ، فنظرت معاصمها البيض وفي يديها زوجان من الأساور وفي أذنيها قرطان من اللؤلؤ وفي عنقها عقد من ثمين الجواهر وعلى رأسها كوفيّة دق المطرقة مكلّلة بالفصوص المثمنة ، وقد رشقت أطراف قميصها من داخل دكّة اللباس وهي كأنها كانت تعمل شغلاً . فلما رأتني قالت بلسان فصيح عذب : ما سمعت أحلى منه يا أمي ، أهذا الذي جاء يقرأ الكتاب ؟ فقالت لها : نعم . فمدّت يدها إليّ بالكتاب ، وكان بينها وبين الباب نحو نصف قصبة ، فمددت يدي لأتناول منها الكتاب وأدخلت رأسي وأكتافي من الباب لأقرب منها ، فما أدري إلاّ والعجوز قد وضعت رأسها في ظهري ودفعتني ويدي ماسكة الكتاب ، فالتفت فرأيت نفسي في وسط الدار من داخل الدهليز . ودخلت العجوز أسرع من البرق الخاطف ولم يكن لها شغل إلاّ قفل الباب . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 123

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشاب قال لتاج الملوك : فالتفت فرأيت نفسي في وسط الدار من داخل الدهليز ، ودخلت العجوز أسرع من البرق الخاطف ولم يكن لها شغل إلاّ قفل الباب . ثم إن الصبية لما رأتني من داخل الدهليز ، أقبلت عليّ وضمّتني إلى صدرها ورمتني على الأرض وركبت فوق صدري وعصرت بطني بيدها فغبت عن الوجود ، ثم أخذتني بيدها ولم أقدر أن أتخلص منها من شدة ما حضنتني ، ثم دخلت بي ودخلت العجوز قدّامها والشمعة مضيئة معها حتى قطعت سبع دهاليز . وبعد ذلك دخلت بي قاعة كبيرة بأربعة لواوين يلعب فيها الخيّال بالأكر ، ثم أجلستني وقالت لي : إفتح عينك . ففتحت عيني وأنا دايخ من شدّة ما ضمتني وعصرتني ، فرأيت جميع بناء القاعة من أبهج المرمر وجميع فرشها من الديباج وكذلك المخدّات والمراتب ، وهناك دكّتان من النحاس الأصفر وسرير من الذهب الأحمر مرصّع بالدّر والجوهر لا يصلح إلاّ للملك مثلك . ثم قالت لي : يا عزيز أيّ الحالتين أحب إليك : الموت أم الحياة ؟ فقلت لها : الحياة . فقالت : إذا كانت الحياة أحب إليك فتزوّج بي . فقلت : أنا أكره أن أتزوّج بمثلك . فقالت لي : إن تزوّجت بي تسلم من بنت الدليلة المحتالة . فقلت لها : ومن الدليلة المحتالة ؟ فضحكت وقالت : لا تعرفها وأنت لك في صحبتها اليوم

سنة وأربعة شهور ؟ أهلكها الله تعالى ، والله ما يوجد أمكر منها ، وكم قتلت شخصاً قبلك وكم عملت عملة وكيف سلمت منها ولم تقتلك أو تشوش عليك ولك في صحبتها هذه المدة؟ فلما سمعت كلامها تعجّبت غاية العجب فقلت لها : يا سيدتي ، ومن عرّفك بها ؟ فقالت : أنا أعرفها مثل ما يعرف الزمان مصائبه . لكن قصدي أن تحكي لي جميع ما وقع لك منها حتى أعرف ما سبب سلامتك منها . فحكيت لها جميع ما جرى لي معها ومع ابنة عمي عزيزة . فترحّمت عليها ودمعت عيناها ودقّت يداً على يد لما سمعت بموت ابنة عمي عزيزة وقالت : عوّضك الله فيها خيراً يا عزيز فإنها هي سبب سلامتك من بنت الدليلة المحتالة ولولا هي لكنت هلكت ، وأنا خائفة عليك من مكرها وشرّها ولكن ما أقدر أن أتكلم . فقلت لها : والله ، إن ذلك كله قد حصل . فهزّت رأسها وقالت : لا يوجد اليوم مثل عزيزة . فقلت : وعند موتها أوصتني أن أقول هاتين الكلمتين لا غير وهما : الوفاء مليح والغدر قبيح . فلما سمعت ذلك مني قالت لي : يا عزيز ، والله إن هاتين الكلمتين هما اللتان خلّصتاك منها وبسببهما ما قتلتك . فقد خلّصتك بنت عمّك حيّة وميتة . والله إني كنت أتمنى الإجتماع بك ولو يوماً واحداً فلم أقدر على ذلك إلاّ في هذا الوقت حتى تحيّلت عليك بهذه الحيلة وقد تمّت ، وأنت الآن صغير لا تعرف مكر النساء ولا دواهي العجائز . فقلت : لا والله . فقالت لي : طب نفساً وقرّ عيناً ، فإن الميت مرحوم والحي ملطوف به . وأنت شاب مليح وأنا ما أريدك إلاّ بسنة الله ورسوله ﷺ . ومهما أردت من مال وقماش يحضر لك سريعاً وما أكلفك بشيء أبداً ، وأيضاً عندي دائماً الخبز مخبوز والماء في الكوز ، وما أريد منك إلاّ أن تعمل معي كما يعمل الديك . فقلت لها : وما الذي يعمله الديك ؟ فضحكت وصفقت بيدها ووقعت على قفاها من شدّة الضحك ، ثم إنها قعدت وقالت لي : أمَا تعرف صنعة الديك ؟ فقلت : لا والله ما أعرف صنعة الديك . قالت : صنعة الديك أن تأكل وتشرب وتنيك . فخجلت أنا من كلامها ، ثم إني قلت : أهذه صنعة الديك ؟ فقالت : نعم . وما أريدك الآن إلاّ أن تشدّ وسطك وتقوّي عزمك وتنيك جهدك . ثم إنها صفقت بيدها وقالت : يا أمي إحضري من عندك . وإذا بالعجوز قد أقبلت بأربعة شهود عدول ، ثم إنها أوقدت أربع شمعات . فلما دخل الشهود سلّموا عليَّ وجلسوا ، فقامت الصبية وأرخت عليها إزاراً ووكّلت بعضهم في ولاية عقدها وقد كتبوا الكتاب وأشهدت على نفسها أنها قبضت جميع المهر مقدّماً ومؤخّراً وأن في ذمّتها لي عشرة الآف درهم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 124

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشاب قال لتاج الملوك : وأشهدت على نفسها أنها قبضت جميع المهر مقدّماً ومؤخّراً وأن في ذمّتها لي عشرة الآف درهم ، ثم إنها أعطت الشهود أجرتهم وانصرفوا من حيث أتوا . فعند ذلك قامت الصبية وقلعت أثوابها وأتت في قميص رفيع مطرّز بطراز من الذهب ، وقلعت لباسها وأخذت بيدي وطلعت بي فوق السرير وقالت لي : ما في الحلال من عيب . ووقعت على السرير وانسطحت على ظهرها ورمتني على صدرها ثم شهقت شهقة وأتبعت الشهقة بغنجة ، ثم كشفت الثوب حتى جعلته فوق نهودها . فلما رأيتها على تلك الحالة لم أتمالك نفسي دون أن أولجته فيها بعد أن مصصت شفتها وهي تتأوّه وتظهر الخشوع والخضوع والبكاء بالدموع . وأذكرتني في هذا الحال قول من

قال : [من الطويل]

ولَمَّا كَشَفْتُ الثَّوْبَ عَنْ سَطْحِ كُسِّها — وَجَدْتُ بِهِ ضِيقاً كَخَلْقِي وأَرْزَاقِي
فأَوْلَجْتُ فِيها نِصْفَهُ فَتَنَهَّدَتْ — فَقُلْتُ : لِما هذا؟ فَقالَتْ : عَلى الباقِي

ثم قالت : يا حبيبي اعمل خلاصك فأنا جاريتك ، خذه هاته كله بحياتي عندك ، هاته حتى ادخله بيدي واريح به فؤادي . ولم تزل تسمعني الغنج والشهيق في خلال البوس والتعنيق حتى صار صياحنا في الطريق وحظينا بالسعادة والتوفيق . ثم نمنا إلى الصباح واردت أن أخرج ، وإذا هي أقبلت عليّ ضاحكة وقالت : هل تحسب أن دخول الحمام مثل خروجه؟ وما أظن إلاّ أنك تحسبني مثل بنت الدليلة المحتالة . إياك وهذا الظن ، فما أنت إلاّ زوجي بالكتاب والسنّة . وإن كنت سكران فأفق لعقلك ، إن هذه الدار التي أنت فيها ما تفتح إلاّ في كل سنة يوماً ، قم إلى الباب الكبير وانظره . فقمت إلى الباب الكبير فوجدته مغلقاً مسمّراً فعدت وأعلمتها بأنه مغلق مسمّر . فقالت لي : يا عزيز ، إن عندنا من الدقيق والحبوب والفواكه والرمّان والسكر واللحم والغنم والدجاج وغير ذلك ، ما يكفينا أعواماً عديدة . ولا يفتح بابنا من هذه الليلة إلاّ بعد سنة . وأنا أعلم أنك ما بقيت ترى روحك خارجاً عن هذه الدار إلاّ بعد سنة . فقلت : لا حول ولا قوة إلاّ بالله . فقالت : وأي شيء يضرّك وأنت تعرف صنعة الديك التي أخبرتك بها . ثم ضحكت ، فضحكت أنا وطاوعتها فيما قالت ومكثت عندها وأنا أعمل صنعة الديك ، آكل وأشرب وأنيك حتى مرّ علينا عام إثنا عشر شهراً . فلما كملت السنة حملت مني ورزقت منها ولداً . وعند رأس السنة سمعت فتح الباب ، وإذا بالرجال دخلوا بكعك ودقيق وسكر ، فأردت أن أخرج فقالت : إصبر إلى وقت العشاء ومثل ما دخلت فاخرج . فصبرت إلى وقت العشاء وأردت أن أخرج وأنا خائف مرجوف ، وإذا هي قالت : والله ما أدعك تخرج حتى أحلفك أنك تعود في هذه الليلة قبل أن يغلق الباب . فأجبتها إلى ذلك ، وحلّفتني الإيمان الوثيقة على السيف والمصحف والطلاق أني أعود إليها . ثم خرجت من عندها ومضيت إلى البستان فوجدته مفتوحاً كعادته ، فاغتظت وقلت في نفسي : إني غائب عن هذا المكان سنة كاملة وجئت على غفلة فوجدته مفتوحاً كعادته ، يا ترى هل الصبية باقية على حالها أو لا ؟ فلا بدّ أن أدخل وأنظر قبل أن أروح إلى أمي وأنا في وقت العشاء . ثم دخلت البستان . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 125

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن عزيز قال لتاج الملوك : ثم دخلت البستان ومشيت حتى أتيت إلى المقعد فوجدت البنت الدليلة المحتالة جالسة ورأسها على ركبتها ويدها على خدّها وقد تغيّر لونها وغارت عيناها . فلما رأتني قالت : الحمد لله على السلامة . وهمّت أن تقوم فوقعت من فرحتها ، فاستحيت منها وطأطأت رأسي ثمّ تقدمت إليها وقبّلتها وقلت لها : كيف عرفت أني أجيء إليك في هذه الساعة؟ قالت : لا علم لي بذلك . والله إن لي سنة لم أذق فيها نوماً بل أسهر كل ليلة في انتظارك ، وأنا على هذه الحالة من يوم خرجت من عندي وأعطيتك البدلة القماش الجديدة ووعدتني أنك تجيء إليّ وقد انتظرتك فما أتيت ، لا أول ليلة ولا ثاني ليلة ولا ثالث ليلة . فاستمرّيت منتظرة لمجيئك والعاشق هكذا يكون ،

واريد أن تحكي لي ما سبب غيابك عني هذه السنة . فحكيت لها . فلما علمت اني تزوّجت اصفرّ لونها . ثم قلت لها : إني اتيتك هذه الليلة واروح قبل الصباح . فقالت : أما كفاها أنها تزوّجت بك وعملت عليك الحيلة وحبستك عندها سنة كاملة ؟ حتى حلّفتك بالطلاق أن تعود إليها قبل الصباح ولم تسمح لك بأن تتفسّح عند أمك ولا عندي ، ولم يهن عليها أن تبيت عند إحدانا ليلة واحدة . فكيف حال من غبت عنها سنة كاملة وقد عرفتك قبلها ؟ ولكن رحم الله عزيزة فإنه جرى لها ما لم يجر لأحد ، وصبرت على شيء لم يصبر عليه مثلها ، وماتت مقهورة منك وهي التي حمتك مني وكنت اظنك تجيء ، فاطلقت سبيلك مع اني كنت أقدر على حبسك وعلى هلاكك . ثم بكت واغتاظت ونظرت إليّ بعين الغضب . فلما رأيتها على تلك الحالة ارتعدت فرائصي وخفت منها وصرت مثل الفولة على النار . ثم قالت لي : ما بقي فيك فائدة بعد ما تزوّجت وصار لك ولد . فانت لا تصلح لعشرتي لأنه لا ينفعني إلاّ الأعزب ، وأما الرجل المتزوج فإنه لا ينفعني . وقد بعتني بتلك العاهرة ، والله لأحسرنها عليك وتصير لا لي ولا لها . ثم صاحت ، فما ادري إلاّ وعشر جوارٍ اتين ورمينني على الأرض . فلما وقعت تحت أيديهن قامت هي واخذت سكّيناً وقالت : لأذبحك ذبح التيوس ويكون هذا أقل جزائك على ما فعلت مع ابنة عمك . فلما نظرت إلى روحي وأنا تحت جواريها وتعفر خدّي بالتراب ورأيت السكين في يدها تحققت الموت . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 126

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوزير دندان قال لضوء المكان : ثم إن الشاب عزيز قال لتاج الملوك : فلما رأيت روحي تحت جواريها وتعفر خدّي بالتراب ورأيت السكين في يدها تحقّقت الموت فاستغثت بها ، فلم تزدد إلاّ قسوة وأمرتهن أن يكتفنني ، فكتفنني ورمينني على ظهري وجلسن على بطني ومسكن رأسي ، وقامت جاريتان فمسكتا اصابع رجلي ، وجاريتان جلستا على اقصاب رجلي ، وبعد ذلك قامت هي ومعها جاريتان فامرتهما ان يضرباني ، فضربتاني حتى اغمي عليّ وخفي صوتي . فلما استفقت قلت في نفسي : إن موتي مذبوحاً أهون علي من هذا الضرب . وتذكرت كلمة ابنة عمي حيث قالت : كفاك الله شرّها . فصرخت وبكيت حتى انقطع صوتي . ثم سنّت السكين وقالت للجواري : إكشفن عنه . فالهمني الله أن اقول الكلمتين اللتين أوصتني بهما ابنة عمي وهما : الوفاء مليح والغدر قبيح . فلما سمعت ذلك صاحت وقالت : يرحمك الله يا عزيزة ، سلامة شبابك نفعت ابنَ عمك في حياتك وبعد موتك . ثم قالت لي : والله إنك خلصت من يدي بواسطة هاتين الكلمتين . لكن لا بدّ أن اعمل فيك اثراً لأجل نكاية تلك العاهرة التي حجبتك عني . ثم صاحت على الجواري وقالت لهنّ : اركبن عليه . وأمرتهن أن يربطن رجلي بالحبال ففعلن ذلك . ثم قامت من عندي وركبت طاجناً من نحاس على النار وصبت فيه شيرجاً وقلت فيه جبناً وأنا غائب عن الدنيا . ثم جاءت عندي وحلّت لباسي وربطت محاشمي بحبل وناولته لجاريتين وقالت لهما : جرّا الحبل فجرتاه . فصرت من شدة الألم في دنيا غير هذه الدنيا . ثم رفعت يدها وقطعت ذكري بموسى وبقيت مثل المرأة ، ثم كوت موضع القطع وكبسته بذرور وأنا مغمى علي . فلما أفقت كان الدم قد انقطع ، فاسقتني قدحاً من الشراب ثم قالت لي : رح الآن لمن تزوجت بها وبخلت

عليّ بليلة واحدة، رحم الله ابنة عمك التي هي سبب نجاتك. ولولا أنك ما أسمعتني كلمتيها لكنت ذبحتك، فاذهب في هذه الساعة لمن تشتهي وأنا ما كان لي عندك سوى ما قطعته. والآن ما بقي لي فيك رغبة ولا حاجة لي بك فقم وملّس على رأسك وترحّم على ابنة عمك ثم رفصتني برجلها. فقمت وما قدرت أن أمشي فتمشّيت قليلاً قليلا حتى وصلت إلى الباب فوجدته مفتوحاً فرميت نفسي فيه وأنا غائب عن الوجود. وإذا بزوّجتي خرجت وحملتني القاعة فوجدتني مثل المرأة فنمت واستغرقت في النوم. فلما صحوت وجدت نفسي مرمياً على باب البستان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 127

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير دندان قال للملك ضوء المكان: ثم إن الشاب عزيزاً قال لتاج الملوك: فلما صحوت وجدت نفسي مرمياً على باب البستان، فقمت وأنا أتضجّر وتمشيت حتى أتيت إلى منزلي فدخلت فيه، فوجدت أمي تبكي عليّ وتقول: يا هل ترى يا ولدي أنت في أي أرض؟ فدنوت منها ورميت نفسي عليها، فلما نظرت إلي ورأتني وجدتني على غير استواء، وصار على وجهي الإصفرار والسواد وتذكّرت ابنة عمي وما فعلت معي من المعروف وتحقّقت أنها كانت تحبني، فبكيت عليها وبكت أمي ثم قالت لي: يا ولدي، إن والدك قد مات. فازددت غيظاً وبكيت حتى اغمي علي. فلما أفقت نظرت إلى موضع ابنة عمي التي كانت تقعد فيه، فبكيت ثانياً حتى اغمي عليّ من شدّة البكاء. وما زلت في بكاء ونحيب إلى نصف الليل. فقالت لي أمي: إن لوالدك عشرة أيام وهو ميت. فقلت لها: أنا لا أفكر في أحد أبداً غير ابنة عمي، لأني أستحق ما حصل لي حيث أهملتها وهي تحبني. فقالت: وما حصل لك؟ فحكيت لها ما حصل لي. فبكت ساعة، ثم قامت وأحضرت لي شيئاً من المأكول، فأكلت قليلاً وشربت وأعدت لها قصتي وأخبرتها بجميع ما وقع لي. فقالت: الحمد لله حيث جرى لك هذا وما ذبحتك. ثم إنها عالجتني وداوتني حتى برئت وتكاملت عافيتي فقالت لي: يا ولدي، الآن أُخرج لك الوداعة التي وضعتها ابنة عمك عندي فإنها لك، وقد حلفتني أني لا أخرجها لك حتى أراك تتذكرها وتحزن عليها وتقطع علاقتك من غيرها، والآن رجوت فيك هذه الخصال. ثم قامت وفتحت صندوقاً وأخرجت منه هذه الخرقة التي فيها صورة هذا الغزال وهي التي وهبتها لها أولاً، فلما أخذتها وجدت مكتوباً فيها هذه الأبيات: [من الطويل]

أَقَمْتُم فُؤادِي في الهَوَى وقَعَدْتُمُو ... وأَسْهَرْتُمُو جَفْنِي القَرِيحَ ونِمْتُمُو
وقَدْ حِلْتُمُو بَيْنَ المَنامِ وناظِرِي ... فلا القَلْبُ يَسْلاكُم ولو ذابَ مِنْكُمُو
وعاهَدْتُمُونِي أنَّكُم كاتِمُو الهَوَى ... فأغْراكُمُ الواشِي وقالَ وقُلْتُمُو
فَبِاللهِ إخْوانِي إذا مِتُّ فاكْتُبُوا ... على لَوْحِ قَبْرِي إنَّ هذا مُتَيَّمُ

فلما قرأت هذه الأبيات، بكيت بكاءً شديداً ولطمت وجهي وفتحت الرقعة فوقعت منها ورقة أخرى، ففتحتها فإذا مكتوب فيها: أعلم يا ابن عمي أني جعلتك في حل من دمي وأرجو الله أن يوفق بينك وبين من تحب، لكن إذا أصابك شيء من الدليلة المحتالة فلا ترجع إليها ولا لغيرها.

وبعد ذلك فاصبر على بليّتك ولولا أجلك المحتم لهلكت من الزمان الماضي . ولكن الحمد لله الذي جعل يومي قبل يومك وسلامي عليك . واحتفظ على هذه الخرقة التي فيها صورة الغزال ولا تفرط فيها ، فإن تلك الصورة كانت تؤانسني إذا غبت عني . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 128

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوزير دندان قال للملك ضوء المكان : ثم إن الشاب عزيزاً قال لتاج الملوك : إن ابنة عمي قالت لي : واحتفظ على هذه الخرقة التي فيها صورة الغزال ولا تفرّط فيها أبداً فان تلك الصورة كانت تؤانسني إذا غبت عني ، وبالله عليك إن قدرت على من صورت هذه الصورة ، ينبغي أنك تتباعد عنها ولا تخلها تقرب منك ولا تتزوّج بها ، وإن لم تقدر عليها ولا تجد لك سبيلاً فلا تقرب واحدة من النساء بعدها . واعلم أن التي صورت هذه الصورة تصور في كل سنة صوراً مثلها وترسلها إلى أقصى البلاد ، لأجل أن يشيع خبرها وحسن صنعتها التي يعجز عنها أهل الأرض . وأما محبوبتك الدليلة المحتالة ، فإنها لما وصلت إليها هذه الخرقة التي فيها صورة الغزال ، صارت تريها للناس وتقول لهم : إن لي أختاً تصنع هذا مع أنها كاذبة في قولها . هتك الله سترها . وما أوصيتك بهذه الوصية إلاّ لأنني أعلم أن الدنيا قد تضيق عليك بعد موتي ، وربما تتغرّب بسبب ذلك وتطوف في البلاد وتسمع بصاحبة هذه الصورة فتتشوق نفسك إلى معرفتها . واعلم أن الصبية التي صوّرت هذه الصورة بنت ملك جزائر الكافور . فلما قرأت تلك الورقة وفهمت ما فيها بكيت وبكت أمي لبكائي . ولا زلت أنظر إليها وأبكي إلى أن أقبل الليل ، ولم أزل على تلك الحالة مدّة سنة . وبعد السنة تجهّز تجار من مدينتي إلى السفر وهم هؤلاء الذين أنا معهم في القافلة ، فأشارت عليّ أمي أن أتجهز وأسافر معهم وقالت لي : لعل السفر يذهب ما بك من هذا الحزن ، وتغيب سنة أو سنتين أو ثلاثاً حتى تعود القافلة ، فلعلّ صدرك ينشرح . ولا زالت تلاطفني بالكلام حتى جهزت متجراً وسافرت معهم وأنا لم تنشف لي دمعة مدة سفري ، وفي كل منزلة ننزل بها ، أنشر هذه الخرقة قدامي وأنظر إلى هذه الصورة فأتذكر ابنة عمي وأبكي عليها كما تراني . فإنها كانت تحبني محبة زائدة وقد ماتت مقهورة مني ، وما فعلت معها إلاّ الضرر مع أنها لم تفعل معي إلاّ الخير . ومتى رجعت التجار من سفرهم أرجع معهم وتكمل مدة غيابي سنة وأنا في حزن زائد . وما زاد همي وحزني إلاّ أنني جزت على جزائر الكافور وقلعة البلور . وهي سبع جزائر والحاكم عليهم ملك يقال له شهرمان : وله بنت يقال لها : دنيا . فقيل لي : إنها هي التي تصور صورة الغزلان ، وهذه الصورة التي معك من جملة تصويرها . فلما علمت ذلك زادت بي الأشواق وغرقت في بحر الفكر والإحتراق ، فبكيت على روحي لأني بقيت مثل المرأة ولم تبقَ لي آلة مثل الرجال ولا حيلة لي . ومن يوم فراقي لجزائر الكافور وأنا باكي العين حزين القلب ، ولي مدة على هذا الحال وما أدري ، هل يمكنني أن أرجع إلى بلدي وأموت عند والدتي أو لا؟ وقد شبعت من الدنيا . ثم بكى وأنّ واشتكى ، ونظر إلى صورة الغزال وجرى دمعه على خدّه وسال وأنشد هذين البيتين : [من البسيط]

وقَائِلٍ قالَ لي : لا بُدَّ مِنْ فَرَجٍ فَقُلْتُ : لِلْغَيْظِ كَمْ لا بُدَّ مِنْ فَرَجِ
فَقال لي بَعْدَ حِينٍ ، قُلْتُ يا عَجَبِي مَنْ يَضْمَنِ العُمْرَ لي يا بارِدَ الحُجَجِ

وهذه حكايتي أيها الملك . فلما سمع تاج الملوك قصة الشاب ، تعجّب غاية العجب وانطلقت في فؤاده النيران حين سمع بجمال السيدة دنيا . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 129

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوزير دندان قال لضوء المكان : فلما سمع تاج الملوك قصة الشاب تعجّب غاية العجب ، وانطلقت في فؤاده النيران لما سمع بجمال السيدة دنيا ، وعرف أنها هي التي صوّرت صورة الغزال وزاد به الوجد والبلبال . فقال للشاب : والله لقد جرى لك شيء ما جرى لأحد غيرك مثله ، ولكن هذا تقدير ربك وقصدي أن أسألك عن شيء . فقال عزيز : وما هو ؟ فقال : تصف لي كيف رأيت تلك الصبية التي صورت صورة الغزال ؟ فقال : يا مولاي ، إني توصلت إليها بحيلة وهو أني لما دخلت مع القافلة إلى بلادها كنت أخرج وأدور في البساتين وهي كثيرة الأشجار ، وحارس البساتين شيخ طاعن في السن فقلت له : يا شيخ لمن هذا البستان ؟ فقال لي : لابنة الملك السيدة دنيا ونحن تحت قصرها ، فإذا أردت أن تتفرج فافتح باب السرّ وتفرج في البستان فتشمّ رائحة الأزهار . فقلت له : أنعم عليّ بأن أقعد في هذا البستان حتى تمرّ لعلّي أن أحظى منها بنظرة . فقال الشيخ : لا بأس بذلك . فلما قال ذلك أعطيته بعض دراهم وقلت له : إشتر لنا شيئاً نأكله . ففرح بأخذ الدراهم وفتح الباب وأدخلني معه وسرنا . وما زلنا سائرين إلى أن وصلنا إلى مكان لطيف وأحضر لي شيئاً من الفواكه اللطيفة وقال لي : إجلس هنا حتى أذهب وأعود إليك وتركني ومضى . فغاب ساعة ثم رجع ومعه خروف مشوي ، فأكلنا حتى اكتفينا وقلبي مشتاق إلى رؤية الصبية . فبينما نحن جالسان وإذا بالباب قد انفتح . فقال لي : قم اختف . فقمت واختفيت ، وإذا بطواشي أسود أخرج رأسه من الباب وقال : يا شيخ هل عندك أحد ؟ فقال : لا . فقال له : أغلق الباب . فأغلق الشيخ باب البستان وإذا بالسيدة دنيا طلعت من الباب . فلما رأيتها ظننت أن القمر نزل إلى الأرض ، فاندهش عقلي وصرت مشتاقاً إليها كاشتياق الظمآن إلى الماء . وبعد ساعة أغلقت الباب ومضت . فعند ذلك خرجت أنا من البستان وقصدت منزلي وعرفت أني لا أصل إليها ولا أنا من رجالها ، خصوصاً وقد صرت مثل المرأة . فقلت في نفسي : إن هذه ابنة ملك وأنا رجل تاجر ، فمن أين لي أن أصل إليها ؟ فلما تجهّز أصحابي للرحيل تجهّزت أنا وسافرت معهم وهم قاصدون هذه المدينة . فلما وصلنا إلى هذه الطريق اجتمعنا بك . وهذه حكايتي وما جرى لي والسلام . فلما سمع تاج الملوك ذلك الكلام اشتغل قلبه بحب السيدة دنيا ، ثم ركب جواده وأخذ معه عزيزاً وتوجّه به إلى مدينة أبيه ، وأفرد له داراً ووضع له فيها كل ما يحتاج إليه . ثم تركه ومضى إلى قصره ودموعه جارية على خدوده لأن السماع يحل محل النظر والإجتماع . وما زال تاج الملوك على تلك الحالة حتى دخل عليه أبوه فوجده متغيّر اللون ، فعلم أنه مهموم ومغموم . فقال له : يا ولدي ، أخبرني عن حالك وما جرى لك حتى غيَّر لونك ؟ فأخبره بجميع ما جرى له من قصة دنيا من أولها إلى آخرها ، وكيف عشقها على السماع ولم ينظرها بالعين . فقال : يا ولدي ، إن أباها ملك وبلاده بعيدة عنّا ، فدع عنك هذا وادخل قصر أمك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

حكاية الأميرة دنيا مع تاج الملوك

فلما كانت الليلة 130

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، ان الوزير دندان قال لضوء المكان : إن والد تاج الملوك قال له : يا ولدي، إن أباها ملك وبلاده بعيدة عنا، فدع عنك هذا وادخل قصر أمك فإن فيه خمسمائة جارية كالأقمار، فمن أعجبتك منهن فخذها، وإن لم يعجبك جارية منهن نخطب لك بنتاً من بنات الملوك تكون أحسن من السيدة دنيا. فقال له : يا والدي لا أريد غيرها، وهي التي صورت صورة الغزال التي رأيتها فلا بدّ لي منها، وإلاّ أهجّ في البراري وأقتل روحي بسببها. فقال له أبوه : يا ولدي، أمهل علي حتى أرسل إلى أبيها وأخطبها منه وأبلغك المرام مثل ما فعلت لنفسي مع أمك، وإن لم يرض زلزلت عليه مملكته وجرّدت عليه جيشاً يكون آخره عندي وأوله عنده. ثم دعا بالشاب عزيز وقال له : يا ولدي، هل أنت تعرف الطريق ؟ قال : نعم. قال له : أشتهي منك أن تسافر مع وزيري. فقال له عزيز : سمعاً وطاعةً يا ملك الزمان. ثم أحضر وزيره وقال له : دبر لي أمر ولدي كما تعرف، واذهب إلى جزائر الكافور واخطب بنت ملكها. فأجابه الوزير : بالسمع والطاعة. ثم عاد تاج الملوك إلى منزله وقد زادت به الأمراض والحسرات. وحين جنّ عليه الليل أنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

جَنَّ الظَّلامُ وَدَمْعِي زائِدُ المَدَدِ ... والوَجْدُ مِنْ شِدَّةِ النِّيرانِ في كَبِدِي
سَلُوا اللَّيالِيَ عَنِّي وَهْيَ تُخْبِرُكُمْ ... إنْ كانَ يَرْثِي لِقَلْبِي في ٱلْهَوَى كَمَدِي
أَبِيتُ أَرْعَى نُجُومَ اللَّيْلِ في سَهَرٍ ... والدَّمْعُ مُنْهَمِلٌ في الخَدِّ كالبَرَدِ
وقَد بَقِيتُ وَحِيداً لَيْسَ لي أَحَدٌ ... كَمِثْلِ صَبٍّ بِلا أَهْلٍ ولا وَلَدِ

فلما فرغ من شعره وقع مغشياً عليه، ولم يفق إلاّ وقت الصباح. فلما أصبح الصباح جاء إليه أبوه فرآه قد تغيّر لونه وزاد اصفراره ووعده بجمع شمله. ثم جهّز عزيزاً مع وزيره وأعطاهم الهدايا. فسافروا أياماً وليالي إلى أن أشرفوا على جزائر الكافور، فأقاموا على شاطئ نهر وأنفذ الوزير رسولاً من عنده إلى الملك ليخبره بقدومهم. وبعد ذهاب الرسول بنصف يوم، لم يشعر إلاّ وحجاب الملك وأمراؤه قد أقبلوا عليهم ولاقوهم من مسيرة فرسخ، فتلقوهم وساروا في خدمتهم إلى أن دخلوا بهم على الملك، فقدموا له الهدايا وأقاموا عنده أربعة أيام. وفي اليوم الخامس قام الوزير ودخل على الملك ووقف بين يديه وحدّثه بحديثه وأخبره بسبب مجيئه. فصار الملك متحيّراً في رد الجواب لأن ابنته لا تحب الزواج، وأطرق رأسه إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إلى بعض الخدام وقال له : إذهب إلى سيدتك دنيا واخبرها بما سمعت وبما جاء به هذا الوزير. فقام الخادم وغاب ساعة ثم عاد إلى الملك وقال له : يا ملك الزمان، إني لما دخلت على السيدة دنيا أخبرتها بما سمعت، فغضبت غضباً شديداً ونهضت علي بمسوقة وأرادت كسر رأسي، ففررت منها هرباً وقالت لي : إن كان أبي يغصبني على الزواج، فالذي أتزوج به أقتله. فقال

أبوها للوزير وعزيز : سلما على الملك وأخبراه بذلك ، وإن ابنتي لا تحب الزواج . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 131 قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك شهرمان قال للوزير وعزيز : سلما على الملك وأخبراه بما سمعتماه من أن ابنتي لا تحب الزواج . فرجع الوزير ومَنْ معه من غير فائدة ، وما زالوا مسافرين إلى أن دخلوا على الملك وأخبروه بما جرى . فعند ذلك أمر النقباء أن ينبّهوا العسكر إلى السفر من أجل الحرب والجهاد . فقال له الوزير : لا تفعل ذلك فإن الملك لا ذنب له ، وإنما الامتناع من ابنته فإنها حين علمت بذلك أرسلت تقول : إن غصبني أبي على الزواج أقتل من أتزوج به وأقتل نفسي بعده . فلما سمع الملك كلام الوزير ، خاف على ولده تاج الملوك وقال : إن حاربت أباها وظفرت بابنته قتلت نفسها . ثم إن الملك أعلم ابنه تاج الملوك بحقيقة الأمر . فلما علم بذلك قال لأبيه : يا والدي ، أنا لا أطيق الصبر عنها فأنا أروح إليها وأتسبّب في اتصالي بها ولو أموت ، ولا أفعل غير هذا . فقال له أبوه : وكيف تروح إليها ؟ فقال : أروح في صفة تاجر . فقال الملك : إن كان ولا بدّ ، فخذ معك الوزير وعزيزاً . ثم إنه أخرج له شيئاً من خزائنه وهيّأ له متجراً بمائة ألف دينار وأتفقا معه على ذلك . فلما جاء الليل ، ذهب تاج الملوك وعزيز إلى منزل عزيز وباتا هناك تلك الليلة ، وصار تاج الملوك مسلوب الفؤاد ولم يطب له أكل ولا رقاد بل هجمت عليه الأفكار وغرق منها في بحار وهزّه الشوق إلى محبوبته ، فأفاض دمع العين وأنشد هذين البيتين : [من الطويل]

تُرَى هَلْ لنا بَعْدَ البِعادِ وُصُولُ   فأَشْكُو إِلَيْكُمْ صَبْوَتِي وأَقُولُ :
تَذَكَّرْتُكُمْ واللَّيلُ ناءٍ صَباحُهُ   وأَسْهَرتُمُونِي والأَنامُ غُفُولُ

لما فرغ من شعره بكى بكاءً شديداً وبكى معه عزيز وتذكّر ابنة عمه ، ولا زالا يبكيان إلى أن أصبح الصباح . ثم قام تاج الملوك ودخل على والدته وهو لابس أهبة السفر ، فسألته عن حاله فأخبرها بحقيقة الأمر ، فأعطته خمسين ألف دينار ثم ودّعته وخرج من عندها ودعت له بالسلامة والإجتماع بالأحباب . ثم دخل على والده واستأذنه أن يرحل ، فأذن له وأعطاه خمسين ألف دينار وأمر أن تضرب له خيمة في خارج المدينة ، فضربت له خيمة عظيمة وأقاموا فيها يومين ثم سافروا . واستأنس تاج الملوك بعزيز وقال له : يا أخي ، أنا ما بقيت أطيق أن أفارقك . فقال عزيز : وأنا الآخر كذلك ، وأحب أن أموت تحت رجليك . ولكن يا أخي قلبي اشتغل بوالدتي . فقال له تاج الملوك : لما نبلغ المرام لا يكون إلاّ خيراً . وكان الوزير قد وصّى تاج الملوك بالإصطبار وصار عزيز ينشد له الأشعار ويحدّثه بالتواريخ والأخبار . ولم يزالوا سائرين بالليل والنهار مدّة شهرين ، فطالت الطريق على تاج الملوك واشتد عليه الغرام وزاد به الوجد والهيام . فلما قربوا من المدينة ، فرح تاج الملوك غاية الفرح وزال عنه الهمّ والترح . ثم دخلوها وهم في هيئة التجار وابن الملك في زي تاجر ، ثم أتوا إلى مكان يعرف بمنزل التجار وهو خان عظيم . فقال تاج الملوك لعزيز : أهذا منزل التجار ؟ قال عزيز : لكنه غير الخان الذي كنت نزلت فيه أنا والقافلة التي كنت معها ، إلاّ أنه أحسن منه . فأناخوا فيه مطيّهم وحطّوا رحالهم وخزنوا أمتعتهم في المخازن

واقاموا للراحة أربعة أيام . ثم إن الوزير أشار عليهم أن يكتروا لهم داراً كبيرة فأجابوه، واكتروا لهم داراً متّسعة معدّة للأفراح . فنزلوا فيها، وأقام الوزير وعزيز يدبران حيلة من أجل تاج الملوك، وصار تاج الملوك متحيّر الأيدي ماذا يفعل؟ ولم يجد له حيلة غير أنه يفتح له دكّاناً للتجارة في سوق البز . ثم إن الوزير أقبل على تاج الملوك وعزيز وقال لهما : أعلما أنه إن كان مقامنا على هذه الحالة فإننا لا نبلغ مرادنا ولا يحصل مطلوبنا، وقد خطر ببالي شيء ولعله فيه الصلاح إن شاء الله . فقال له تاج الملوك وعزيز : إفعل ما بدا لك، فإن المشايخ فيهم البركة لاسيما وأنت قد مارست الأمور فشر علينا بما خطر ببالك . فقال لتاج الملوك : الرأي أننا نكتري لك دكاناً في سوق البز وتقعد فيها للبيع والشراء لأن كل واحد من الخاص والعام يحتاج إلى البز، وإذا قعدت في تلك الدكان ينصلح أمرك إن شاء الله تعالى، خصوصاً وصورتك جميلة . ولكن إجعل عزيزاً أميناً عندك وأجلسه في داخل الدكان ليناولك الأقمشة . فلما سمع تاج الملوك ذلك الكلام قال : إن هذا رأي سديد . فعند ذلك أخرج تاج الملوك بدلة تجارية ولبسها وقام يمشي وغلمانه خلفه، وأعطى لأحدهم ألف دينار معه ليقضي بها مصالح الدكان . وما زالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى سوق البز، فلما رأت التجار تاج الملوك وشاهدوا حسنه وجماله، تحيّرت عقولهم وصاروا يقولون : هل رضوان فتح أبواب الجنان وسهى عنها فخرج هذا الشاب البديع الحسن؟ وبعضهم يقول : لعل هذا من الملائكة . فلما دخلوا عند التجار سألوا عن دكان شيخ السوق فدلّوهم عليه، فتوجّهوا إليه . فلما قربوا منه قام إليهم هو ومن عنده من التجار وعظّموهم، خصوصاً الوزير الأجلّ . فإنهم رأوه رجلاً كبيراً مهاباً ومعه تاج الملوك وعزيز . فقال التجار لبعضهم : لا شك أن هذا الشيخ والد هذين الغلامين . فقال لهم الوزير : مَنْ شيخ السوق فيكم؟ فقالوا : ها هو . فنظر إليه الوزير وتأمّله، فرآه رجلاً كبيراً صاحب هيئة ووقار وخدم وغلمان . ثم إن شيخ السوق حيّاهم تحية الأحباب وبالغ في إكرامهم وأجلسهم جنبه وقال لهم : هل لكم حاجة نفوز بقضائها؟ فقال الوزير : نعم . إني رجل كبير طاعن في السن ومعي هذان الغلامان وسافرت بهما سائر الأقاليم والبلاد، وما دخلت بلدة إلاّ أقمت بها سنة كاملة، حتى يتفرجا عليها ويعرفا أهلها . وإني قد أتيت بلدكم هذه واخترت المقام فيها، وأشتهي منك دكاناً تكون من أحسن المواضع حتى أجلسهما فيها ليتاجرا ويتفرّجا على هذه المدينة ويتخلّقا بأخلاق أهلها، ويتعلما البيع والشراء والأخذ والعطاء . فقال شيخ السوق : لا بأس بذلك . ثم نظر إلى الولدين وفرح بهما وأحبهما حبّاً زائداً . وكان شيخ السوق مغرماً بفاتك اللحظات ويغلب حب البنين على البنات ويميل إلى الحموضة . فقال في نفسه : سبحان خالقهما ومصوّرهما من ماء مهين . ثم قام واقفاً في خدمتهما كالغلام بين أيديهما . وبعد ذلك سعى وهيّأ لهما الدكان، وكانت في وسط السوق . ولم يكن أكبر منها ولا أوجه منها عندهم لأنها كانت متسعة مزخرفة فيها رفوف من عاج وإبنوس . ثم سلم المفاتيح للوزير وهو في صفة تاجر وقال : جعلها الله مباركة على ولديك . فلمّا أخذ الوزير مفاتيح الدكان توجّه إليها هو والغلامان ووضعوا فيها أمتعتهم، وأمروا غلمانهم أن ينقلوا إليها جميع ما عندهم من البضائع والقماش . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 132

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير لما أخذ مفاتيح الدكان توجّه إليها هو والغلامان ووضعوا فيها أمتعتهم ، وأمروا غلمانهم أن ينقلوا إليها جميع ما عندهم من البضائع والقماش والتحف . وكان ذلك شيئاً يساوي خزائن مال . فنقلوا جميع ذلك إلى الدكان وباتوا تلك الليلة . فلما أصبح الصباح ، أخذهما الوزير ودخل بهما الحمام . فلما دخلوا الحمام تنظفوا وأخذوا غاية حظهم . وكان كل من الغلامين ذا جمال باهر . فصار في الحمام على حدّ قول الشاعر : [من البسيط]

بُشْرَى لَقَيِّمَةٌ إذْ لامَسَتْ يَدُه ... جِسْماً تَولَّدَ بَينَ الماءِ والنُّورِ
ما زالَ يُظْهِرُ لُطْفاً مِنْ صِناعَتِهِ ... حَتَّى جَنَى المِسْكَ مِنْ تِمْثالِ كافُورِ

ثم خرجا من الحمام ، وكان شيخ السوق لما سمع بدخولهما الحمام قعد في انتظارهما . وإذا بهما قد أقبلا وهما كالغزالين وقد احمرّت خدودهما واسودت عيونهما ولمعت أبدانهما ، فكأنهما غصنان مثمران أو قمران زاهيان . فقال لهما : يا أولادي ، حمامكم نعيم دائم . فقال تاج الملوك بأعذب كلام : ليتك كنت معنا . ثم إن الإثنين قبّلا يديه ومشيا قدّامه حتى وصلا إلى الدكان تعظيماً له لأنه كبير السوق ، وقد أحسن إليهما بإعطائهما الدكان . فلما رأى أردافهما في ارتجاج ، زاد به الوجد وهاج وشخر ونخر ولم يبقَ له مصطبر . فأحدق بهما العينين وأنشد هذين البيتين : [من البسيط]

يُطالِعُ القَلْبَ بابُ الاخْتِصاصِ بِه ... ولَيْسَ يَقرأُ فِيهِ مَبْحَثَ الشَّرِكَهْ
لا غَرْوَ في كَوْنِهِ يَرْتَجُّ مِنْ ثِقَلٍ ... فَكَمْ لِذا الفَلَكِ الدَّوَّارِ مِنْ حَرَكَهْ

فلما سمعا منه هذا الشعر ، أقسما عليه أن يدخل معهما الحمام . وكانا قد تركا الوزير داخل الحمام . فلما دخل معهما شيخ السوق الحمام ثاني مرة ، سمع الوزير بدخوله فخرج إليه من الخلوة واجتمع به في وسط الحمام وعزم عليه ، فامتنع . فمسك في إحدى يديه تاج الملوك وفي يده الأخرى عزيز ، ودخلا به خلوة أخرى . فانقاد لهما ذلك الشيخ الخبيث . فحلف تاج الملوك أن لا يحميه غيره ، وحلف عزيز أن لا يصب عليه الماء غيره . فقال له الوزير : إنهما أولادك . فقال شيخ السوق : أبقاهما الله لك . لقد حلّت في مدينتنا البركة والسعود بقدومكم وقدوم أتباعكم . ثم أنشد هذين البيتين : [من السريع]

أَقْبَلْتَ فاخْضَرَّتْ لَدَيْنا الرُّبَى ... وقَد زَهَتْ بالزَّهْرِ لِلْمُجْتَلِي
ونادَتِ الأَرْضُ ومَنْ فَوْقَها ... أَهْلاً وسَهْلاً بِكَ مِنْ مُقْبِلِ

فشكروه على ذلك . وما زال تاج الملوك يحميه وعزيز يصب عليه الماء وهو يظن أن روحه في الجنة ، حتى أتما خدمته . فدعا لهما ، وجلس جنب الوزير على أنه يتحدث معه . ولكن معظم قصده النظر إلى تاج الملوك وعزيز . ثم بعد ذلك ، جاءت لهم الغلمان بالمناشف فتنشّفوا ولبسوا حوائجهم ثم خرجوا من الحمام . فاقبل الوزير على شيخ السوق وقال له : يا سيدي ، إن الحمام نعيم الدنيا . فقال شيخ السوق : جعله الله لك ولأولادك عافية وكفاهما الله شرّ العين . فهل

تحفظون شيئاً مما قالته البلغاء في الحمام ؟ فقال تاج الملوك : انا انشد لك بيتين وهما : [من الخفيف]

إنَّ عَيْشَ الحَمّامِ أَطْيَبُ عَيْشٍ   غيرَ أنَّ المَقامَ فيه قَليلُ
جَنَّةٌ تَكْرَهُ الإقامَةَ فيها   وجَحِيمٌ يَطِيبُ فِيها الدُّخُولُ

فلما فرغ تاج الملوك من شعره قال عزيز : وأنا احفظ في الحمّام شيئاً . فقال شيخ السوق : اسمعني إياه . فأنشد هذين البيتين : [من الطويل]

وبَيْتٍ لَهُ مِنْ جَلْمَدِ الصَّخْرِ أَزْهارُ   أَنيقٍ إذا ما أُضْرِمَتْ حَوْلَهُ النّارُ
تَراهُ جَحِيماً وَهْوَ في الحَقِّ جَنَّةٌ   وأَكْثَرُ ما فِيها شُمُوسٌ وأَقْمارُ

فلما فرغ عزيز من شعره ، تعجَّب شيخ السوق من صباحتهما وفصاحتهما وقال لهما : والله لقد حزتما الفصاحة والملاحة ، فاسمعا أنتما مني . ثم أطرب بالنغمات وأنشد هذه الأبيات : [من الكامل]

يا حُسْنَ نارٍ والنَّعِيمُ عَذابُها   تُحْيَى بِه الأَرْواحُ والأَبْدانُ
فاعْجَبْ لِبَيْتٍ لا يَزالُ نَعِيمُهُ   غَضاً وتُوقَدُ تَحْتَهُ نِيرانُ
عَيْشُ السُّرُورِ لِمَنْ أَلَمَّ بِه وَقَد   سَفَحَتْ عَلَيْه دُمُوعَها الغُدْرانُ

ثم سرح في رياض حسنهما نظر العين ، وأنشد هذين البيتين : [من البسيط]

وافَيْتُ مَنْزِلَهُ فَلَمْ أَرَ حاجِباً   إلاّ ويَلْقاني بِوَجْهِ ضاحِكِ
ودَخَلْتُ جَنَّتَه وزُرْتُ جَحِيمَهُ   فَشَكَرْتُ رِضْواناً ورَأْفَةَ مالِكِ

فلما سمعوا ذلك ، تعجبوا من هذه الأبيات . ثم إن شيخ السوق عزم عليهم فامتنعوا ومضوا إلى منزلهم ليستريحوا من تعب الحمام . ثم أكلوا وشربوا وباتوا تلك الليلة في منزلهم على أتمّ ما يكون من الحظ والسرور . فلمّا أصبح الصباح ، قاموا من نومهم وتوضؤوا وصلّوا فرصهم واصطبحوا . ولما طلع النهار وفتحت الدكاكين والأسواق ، خرجوا من المنزل وتوجهوا إلى السوق وفتحوا الدكان . وكان الغلمان قد هيّؤوها أحسن هيئة وفرشوها بالبسط الحرير ، ووضعوا فيها مرتبتين كل واحدة منهما تساوي مائة دينار ، وجعلوا فوق كل مرتبة نطعاً ملوكياً دائره من الذهب . فجلس تاج الملوك على مرتبة وجلس عزيز على الأخرى وجلس الوزير في وسط الدكان ، ووقف الغلمان بين أيديهم . وتسامعت بهم الناس ، فازدحموا عليهم وباعوا بعض أقمشتهم . وشاع ذكر تاج الملوك في المدينة واشتهر فيها خبر حسنه وجماله ، ثم اقاموا على ذلك أيامًا ، وفي كل يوم تهرع الناس إليهم . فاقبل الوزير على تاج الملوك وأوصاه بكتمان أمره ، وأوصى عليه عزيزاً ومضى إلى الدار ليدبر أمراً يعود نفعه عليهم . وصار تاج الملوك وعزيز يتحادثان ، وصار تاج الملوك يقول عسى أن يجيء أحد من عند السيدة دنيا . وما زال تاج الملوك على ذلك أياماً وليالي وهو لا ينام ، وقد تمكن منه الغرام وزاد به النحول والأسقام حتى حرم لذيذ المنام وامتنع من الشراب والطعام ، وكان كالبدر في تمامه . فبينما تاج الملوك جالس ، وإذا بعجوز أقبلت عليه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 133

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوزير دندان قال لضوء المكان : فبينما تاج الملوك جالس ، وإذا بعجوز أقبلت عليه وتقدّمت إليه وخلفها جاريتان ، وما زالت ماشية حتى وقفت على دكان تاج الملوك . فرأت قدّه واعتداله وحسنه وجماله ، فتعجّبت من ملاحته ورشحت في سراويلها ثم قالت : سبحان من خلقك من ماء مهين ، سبحان من جعلك فتنة للعالمين . ولم تزل تتأمل فيه وتقول : ما هذا بشر ، إن هذا إلاّ ملك كريم . ثم دنت منه وسلّمت عليه ، فردّ عليها السلام وقام لها واقفاً على الأقدام وتبسّم في وجهها . هذا كله بإشارة عزيز . ثم أجلسها إلى جانبه وصار يروح عليها إلى أن استراحت . ثم إن العجوز قالت لتاج الملوك : يا ولدي يا كامل الأوصاف والمعاني ، هل أنت من هذه الديار ؟ فقال تاج الملوك بكلام فصيح عذب مليح : والله يا سيدتي ، عمري ما دخلت هذه الديار إلاّ هذه المرة ،ولا أقمت فيها إلاّ على سبيل الفرجة . فقالت : لك الإكرام من قادم على الرحب والسعة . ما الذي جئت به معك من القماش ؟ فأرني شيئاً مليحاً ، فإن المليح لا يحمل إلاّ المليح . فلما سمع تاج الملوك كلامها خفق فؤاده ولم يفهم معنى كلامها ، فغمزه عزيز بالإشارة . فقال لها تاج الملوك : عندي كل ما تشتهين من الشيء الذي لا يصلح إلاّ للملوك وبنات الملوك . فلمن تريدين حتى اقلب عليك ما يصلح لأربابه ؟ وأراد بذلك الكلام أن يفهم معنى كلامها . فقالت له : أريدها قماشاً يصلح للسيدة دنيا بنت الملك شهرمان . فلما سمع تاج الملوك ذكر محبوبته ، فرح فرحاً شديداً وقال لعزيز : إئتني بأفخر ما عندك من البضاعة . فأتاه عزيز ببقجة وحلّها بين يديه . فقال لها تاج الملوك : إختاري ما يصلح لها ، فإنّ هذا شيء لا يوجد عند غيري . فاختارت العجوز شيئاً يساوي ألف دينار وقالت : بكم هذا ؟ وصارت تحدّثه وتحكُّ بين أفخاذها بكلوة يدها . فقال لها : وهل أساوم مثلك في هذا الشيء الحقير ؟ الحمد لله الذي عرّفني بك . فقالت له العجوز : أعوذ وجهك المليح برب الفلق . إن وجهك مليح وفعلك مليح . هنياً لمن تنام في حضنك وتضم قوامك الرجيح وتحظى بوجهك الصبيح ، وخصوصاً إذا كانت صاحبة حسن مثلك . فضحك تاج الملوك حتى استلقى على قفاه ثم قال : يا قاضي الحاجات على أيدي العجائز الفاجرات . فقالت له : يا ولدي ما الإسم ؟ قال : إسمي تاج الملوك . فقالت : إن هذا الإسم من أسماء الملوك ولكنك في زيّ التجار . فقال لها عزيز : من محبته عند أهله ومعزّته عليهم سمّوه بهذا الإسم . فقالت العجوز : صدقت ، كفاكم الله شرّ الحسّاد ولو فتت بمحاسنكم الأكباد . ثم أخذت القماش ومضت ، وهي باهتة في حسنه وجماله وقدّه واعتداله . ولم تزل ماشية حتى دخلت على السيدة دنيا وقالت لها : يا سيدتي ، جئت لك بقماش مليح . فقالت لها : أرني إياه . فقالت : يا سيدتي ها هو ، فقلّبيه وانظريه . فلما رأته السيدة دنيا قالت لها : يا دادتي ، إن هذا قماش مليح ما رأيته في مدينتنا . فقالت العجوز : يا سيدتي ، إن بائعه أحسن منه . كأن رضواناً فتح أبواب الجنان وسها فخرج منها التاجر الذي يبيع هذا القماش ، وأنا أشتهي في هذه الليلة أن يكون عندك وينام بين نهودك . فإنه فتنة لمن يراه ، وقد جاء مدينتنا بهذه الأقمشة لأجل الفرجة . فضحكت السيدة دنيا من كلام العجوز وقالت : أخزاك الله يا عجوز النحس ، إنك خرفت ولم يبقَ لك عقل . ثم قالت : هات القماش حتى أبصره بصراً جيداً . فناولتها إياه فنظرته ثانياً فرأته شيئاً قليلاً وثمنه

كثير، وتعجبّت من حسن ذلك القماش لأنها ما رأت في عمرها مثله. فقالت لها العجوز: يا سيدتي، فلو رأيت صاحبه لعرفت أنه أحسن مَنْ يكون على وجه الأرض. فقالت لها السيدة دنيا: هل سألته إن كان له حاجة يعلمنا بها فنقضيها له؟ فقالت العجوز وقد هزت رأسها: حفظ الله فراستك. والله إن له حاجة، وهل أحد يخلو من حاجة؟ فقالت لها السيدة دنيا: إذهبي إليه وسلمي عليه وقولي له: شرفت بقدومك مدينتنا، ومهما كان لك من الحوائج قضيناه لك على الرأس والعين. فرجعت العجوز إلى تاج الملوك في الوقت. فلما رآها طار قلبه من الفرح ونهض لها قائماً على قدميه وأخذ يدها وأجلسها إلى جانبه. فلما جلست واستراحت، أخبرته بما قالته السيدة دنيا. فلما سمع ذلك فرح غاية الفرح واتّسع صدره وانشرح وقال في نفسه: قد قضيت حاجتي. ثم قال للعجوز: لعلّك توصلين إليها كتاباً من عندي وتأتيني بالجواب. فقالت: سمعاً وطاعةً. فلما سمع ذلك منها قال لعزيز: إئتني بدواة وقرطاس وقلم من نحاس. فلما أتاه بتلك الأدوات كتب هذه الأبيات: [من الوافر]

كَتَبْتُ إِلَيْكَ يا سُؤْلِي كِتاباً ... بما أَلْقاهُ مِنْ أَلَمِ الفِراقِ
فَأَوَّلُ ما أُسَطِّرُ نارَ قَلْبِي ... وثانِيه غَرامِي وٱشْتِياقِي
وثالِثُهُ مَضَى عُمْرِي وصَبْرِي ... ورابِعُهُ جَمِيعُ الوَجْدِ باقِ
وخامِسُهُ مَتَى عَيْنِي تَراكُمْ ... وسادِسُهُ مَتَى يَوْمُ التَّلاقِي

ثم كتب في إمضائه: إن هذا الكتاب، من أسير الأشواق المسجون في سجن الإشتياق. الذي ليس له إطلاق إلاّ بالوصال ولو بطيف الخيال. لأنه يقاسي أليم العذاب من فرقة الأحباب. ثم أفاض دمع العين وكتب هذين البيتين: [من الوافر]

كَتَبْتُ إِلَيْكَ والعَبَراتُ تَجْرِي ... ودَمْعُ العَينِ لَيْسَ لَهُ ٱنْقِطاعُ
ولَسْتُ بِيائِسٍ مِنْ فَضْلِ رَبِّي ... عَسَى يَوْمٌ يَكُونُ بِهِ ٱجْتِماعُ

ثم طوى الكتاب وختمه وأعطاه للعجوز وقال: أوصليه إلى السيدة دنيا. فقالت: سمعاً وطاعةً. ثم أعطاها ألف دينار وقال: إقبلي هذه مني هدية. فأخذتها وانصرفت داعية له. ولم تزل ماشية حتى دخلت على السيدة دنيا. فلما رأتها قالت لها: يا دادتي، أي شيء طلب من الحوائج حتى نقضيها له؟ فقالت لها: يا سيدتي، قد أرسل معي كتاباً ولا أعلم بما فيه. ثم ناولتها الكتاب، فأخذته وقرأته وفهمت معناه ثم قالت: من أين إلى أين حتى يراسلني هذا التاجر ويكاتبني؟ ثم لطمت وجهها وقالت: لولا خوفي من الله تعالى لصلبته على دكانه. فقالت العجوز: وأي شيء في هذا الكتاب حتى أزعج قلبك؟ هل فيه شكاية مظلمة، أو فيه طلب ثمن القماش؟ فقالت لها: ويلك، ما فيه ذلك. وما فيه إلاّ عشق ومحبة وهذا كله منك، وإلاّ فمن أين يتوصّل هذا الشيطان إلى هذا الكلام؟ فقالت لها العجوز: يا سيدتي، أنت قاعدة في قصرك العالي وما يصل إليك أحد ولا الطير الطائر، سلامتك من اللوم والعتاب وما عليك من نبيح الكلاب. فلا تؤاخذيني حيث أتيتك بهذا الكتاب ولا أعلم ما فيه. ولكن الرأي أن تردي إليه جواباً وتهدّديه فيه بالقتل وتنهيه عن هذا الهزيان، فإنه ينتهي ولا يعود. فقالت السيدة دنيا: أخاف أن أكاتبه فيطمع. فقالت العجوز: إنه إذا سمع التهديد والوعيد رجع عن ما هو فيه. فقالت: عليَّ

بداوة وقرطاس وقلم من نحاس. فلما أحضروا لها تلك الأدوات، كتبت هذه الأبيات: [من البسيط]

يا مُدَّعِي الحُبِّ والبَلْوَى مَعَ السَّهَرِ ... وما يُلاقِيهِ مِنْ وَجْدٍ ومِنْ فِكَرِ
أَتَطْلُبُ الوَصْلَ يا مَغْرُورُ مِنْ قَمَرٍ ... وهَلْ يَنالُ المُنَى شَخْصٌ مِنَ القَمَرِ
إنِّي نَصَحْتُكَ عَنْ ما أَنْتَ طالِبُهُ ... فاقْصِرْ فإنَّكَ في هذا على خَطَرِ
وإنْ رَجَعْتَ إلى هذا الكَلامِ فَقَدْ ... أَتاكَ مِنِّي عَذابٌ زائِدُ الضَّرَرِ
وحَقِّ مَنْ خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ ... ومَنْ أَنارَ ضِياءَ الشَّمْسِ والقَمَرِ
لَئِنْ رَجَعْتَ إلى ما أَنْتَ ذاكِرُهُ ... لأَصْلِبَنَّكَ في جِذْعٍ مِنَ الشَّجَرِ

ثم طوت الكتاب وأعطته للعجوز وقالت لها: أعطيه له وقولي له: كفَّ عن هذا الكلام. فقالت لها: سمعاً وطاعةً. ثم أخذت الكتاب وهي فرحانة ومضت إلى منزلها وباتت في بيتها. فلما أصبح الصباح، توجّهت إلى دكان تاج الملوك فوجدته في انتظارها. فلمّا رآها كاد أن يطير من الفرح. فلما قربت منه، نهض إليها قائماً وأقعدها بجانبه، فأخرجت له الورقة وناولته إياها وقالت له: إقرأ ما فيها. ثم قالت له: إن السيدة دنيا لما قرأت كتابك اغتاظت، ولكنني لاطفتها ومازحتها حتى أضحكتها ورقّت لك وردّت لك الجواب. فشكرها تاج الملوك على ذلك وأمر عزيزاً أن يعطيها ألف دينار. ثم إنه قرأ الكتاب وفهمه وبكى بكاءً شديداً. فرقّ له قلب العجوز وعظم عليها بكاؤه وشكواه ثم قالت له: يا ولدي، وأي شيء في هذه الورقة حتى أبكاك؟ فقال لها: إنها تهدّدني بالقتل والصلب وتنهاني عن مراسلتها، وإن لم أراسلها يكون موتي خيراً من حياتي. فخذي جواب كتابها ودعيها تفعل ما تريد. فقالت له العجوز: وحياة شبابك، لا بدّ أني أخاطر معك بروحي وأبلغك مرادك وأوصلك إلى ما في خاطرك. فقال لها تاج الملوك: كل ما تفعلينه أجازيك عليه ويكون في ميزانك فإنك خبيرة بالسياسة وعارفة بأبواب الدناسة، وكل عسير عليك يسير، والله على كل شيء قدير. ثم أخذ ورقة وكتب فيها هذه الأبيات: [من البسيط]

أَمْسَتْ تُهَدِّدُني بالقَتْلِ واحَرَبِي ... والقَتْلُ لي راحَةٌ والمَوْتُ مَقْدُورُ
والمَوْتُ أَغْنَى لِصَبٍّ أَنْ تَطُولَ بِهِ ... حَياتُهُ وَهْوَ مَمْنُوعٌ ومَقْهُورُ
باللهِ زُورُوا مُحِبّاً قَلَّ ناصِرُهُ ... فإنَّنِي عَبْدُكُمْ والعَبْدُ مأسُورُ
يا سادَتِي فارْحَمُونِي في مَحَبَّتِكُمْ ... فَكُلُّ مَنْ يَعْشَقِ الأَحْرارَ مَعْذُورُ

ثم إنه تنفس الصعدا وبكى حتى بكت العجوز. وبعد ذلك أخذت الورقة منه وقالت له: طب نفساً وقرّ عيناً. فلا بدّ أن أبلغك مقصودك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 134

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن تاج الملوك لما بكى قالت له العجوز: طب نفساً وقرّ عيناً، فلا بدّ أن أبلغك مقصودك. ثم قامت وتركته على النار وتوجّهت إلى السيدة دنيا، فرأتها متغيّرة اللون من غيظها بمكتوب تاج الملوك. فناولتها الكتاب، فازدادت غيظاً وقالت للعجوز: أمَا قلت لك إنه يطمع فينا؟ فقالت لها: وأيُّ شيء هذا

الكلب حتى يطمع فيك؟ فقالت لها السيدة دنيا : إذهبي إليه وقولي له : إن راسلتها بعد ذلك ضربت عنقك . فقالت لها العجوز : أكتبي له هذا الكلام في مكتوب ، وأنا آخذ المكتوب معي لأجل أن يزداد خوفه . فأخذت ورقة وكتبت فيها هذه الأبيات : [من الطويل]

أَيَا غافِلاً عَنْ حادِثاتِ الطَّوارِقِ ... ولَيْسَ إلى نَيْلِ الوِصالِ بِسابِقِ
أَتَزْعَمُ يا مَغْرُورُ أَنْ تُدْرِكَ ٱلسُّها ... وما أَنْتَ لِلْبَدْرِ الْمُنِيرِ بِلاحِقِ
فَكَيْفَ تُؤَمِّلُنا وتَرْجُو وِصالَنا ... لِتَحْظَى بِضَمٍّ لِلْقُدُودِ الرَّواشِقِ
فَدَعْ عَنْكَ هذا القَصْدَ خِيفَةَ سَطْوَتِي ... بِيَوْمٍ عَبُوسٍ فِيهِ شَيْبُ المَفارِقِ

ثم طوت الكتاب وناولته للعجوز . فأخذته وانطلقت به إلى تاج الملوك . فلمَّا رآها ، قام على قدميه وقال : لا أعدمني الله بركة قدومك . فقالت له العجوز : خذ جواب مكتوبك . فأخذ الورقة وقرأها وبكى بكاءً شديداً وقال : إني أشتهي من يقتلني الآن ، فإن القتل أهون عليَّ من هذا الأمر الذي أنا فيه . ثم أخذ دواة وقلماً وقرطاساً وكتب مكتوباً ، ورقّم فيه هذين البيتين : [من الطويل]

فَيا مُنْيَتِي لا تَبْتَغِي الهَجْرَ والجَفا ... وزُورِي مُحِبّاً في المَحَبَّةِ غارِقُ
ولا تَحْسَبِينِي في الحَياةِ مَعَ الجَفا ... فَرُوحِيَ مِنْ بَعْدِ الأَحِبَّةِ طالِقُ

ثم طوى الكتاب وأعطاه للعجوز وقال لها : قد أتعبتك بدون فائدة . وأمر عزيزاً أن يدفع لها ألف دينار وقال لها : يا أمي إن هذه الورقة لا بدّ أن يعقبها كمال الإتصال أو كمال الإنفصال . فقالت له : يا ولدي ، والله ما أشتهي لك إلاّ الخير ، ومرادي أن تكون عندك . فإنك أنت القمر صاحب الأنوار الساطعة ، وهي الشمس الطالعة . وإن لم أجمع بينكما فليس في حياتي فائدة . وأنا قد قطعت عمري في المكر والخداع حتى بلغت التسعين من الأعوام . فكيف أعجز عن الجمع بين اثنين في الحرام؟ ثم ودَّعته وطيَّبت قلبه وانصرفت . ولم تزل تمشي حتى دخلت على السيدة دنيا وقد أخفت الورقة في شعرها . فلَمّا جلست عندها ، حكّت رأسها وقالت : يا سيدتي ، عساك أن تفلّي شوشتي فإنَّ لي زماناً ما دخلت الحمام . فكشفت السيدة دنيا عن مرفقيها وحلّت شعر العجوز وصارت تفلّي شوشتها . فسقطت الورقة من رأسها فرأتها السيدة دنيا فقالت : ما هذه الورقة؟ فقالت : كأني قعدت على دكان التاجر ، فتعلّقت معي هذه الورقة ، هاتيها حتى أوديها له . ففتحتها السيدة دنيا وقرأتها وفهمت ما فيها وقالت للعجوز : هذه حيلة منك ، ولولا أنك ما ربيتني لبطشت بك في هذا الوقت ، وقد بلاني الله بهذا التاجر وكل ما جرى لي منه تحت رأسك . وما أدري من أي أرض جاءنا هذا ولم يقدر أحد من الناس أن يتجاسر عليّ غيره . وأنا أخاف أن ينكشف أمري وخصوصاً في رجل ما هو من جنسي ولا من أقراني . فأقبلت العجوز عليها وقالت : لا يقدر أحد أن يتكلم بهذا الكلام خوفاً من سطوتك وهيبة أبيك ، ولا بأس أن تردي له الجواب . فقالت : يا دادتي ، إن هذا شيطان . كيف تجاسر على هذا الكلام ولم يخف من سطوة السلطان؟ وقد تحيّرت في أمره ، فإن أمرت بقتله فليس بصواب . وإن تركته ازداد في تجاسره . فقالت لها العجوز : أكتبي له كتاباً لعله ينزجر . فطلبت ورقة ودواةً وقلماً وكتبت له هذه الأبيات : [من البسيط]

طالَ العِتابُ وفَرْطُ الجَهْلِ أَغْراكا ... فَكَمْ بِخَطِّ يَدِي في الشِّعْرِ أَنْهاكا

وأَنْتَ تَزْدادُ عِنْدَ النَّهْيِ في طَمَعٍ ... ولَسْتُ إلاّ بِكَتْمِ السِّرِّ أَرْضاكا
أَكْتُمْ هَواكَ ولا تَجْهَرْ به أَبَداً ... وإنْ نَطَقْتَ فإنِّي لَسْتُ أَرْعاكا
وإنْ رَجَعْتَ إلى ما أَنْتَ تَذْكُرُهُ ... فَقَدْ أَتاكَ غُرابُ البَيْنِ يَنْعاكا
وعَنْ قَليلٍ يَكُونُ المَوْتُ مُنْدَفِعاً ... عَلَيْكَ والدَّفْنُ تَحْتَ الأَرْضِ مَثْواكا
وتَتْرُكُ الأَهْلَ يا مَغْرُورُ في نَدَمٍ ... ومَنْ سُيُوفِ الهَوَى قَدْ شَطَّ مَنْجاكا

ثم طوت الورقة ودفعتها للعجوز . فأخذتها وتوجّهت إلى تاج الملوك فأعطتها له . فلما قرأها علم أنها قاسية القلب، وأنه لا يصل إليها . فشكا أمره إلى الوزير وطلب منه حسن التدبير . فقال له الوزير : أعلم أنه ما بقي يفيد فيها غير أنك تكتب لها كتاباً وتدعو عليها فيه . فقال : يا أخي يا عزيز، أكتب لها عن لساني مثل ما تعرف . فأخذ عزيز ورقة وكتب الأبيات : [من البسيط]

يا رَبُّ بالخَمْسَةِ الأَشْياخِ تُنْقِذُني ... ومَنْ بُليتُ بِهِ فاجْعَلْهُ في شَجَنِي
فأَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي في جَوَى لَهَبٍ ... وقَدْ جَفانِي حَبِيبٌ لَيْسَ يَرْحَمُنِي
فَكَمْ أَرِقُّ لها فِيما بُلِيتُ بِهِ ... وكَمْ تَجُوزُ عَلى ضَعْفِي وتَظْلِمُنِي
أَهِيمُ في غَمَراتٍ لا انْقِضاءَ لها ... ولا أَرَى مُسْعِفاً يا رَبُّ يُسْعِفُنِي
وكَم أَرُومُ سُلُوّاً في مَحَبَّتِها ... وكَيْفَ أَسْلُو وصَبْرِي في الغَرامِ فَنِي
يا مانِعِي في الهَوَى طِيبَ الوِصالِ فَهَلْ ... أَمِنْتَ مِنْ نائِباتِ الدَّهْرِ والمِحَنِ ؟
أَلَسْتَ في عَيْشَةٍ مَسْرُورَةٍ وأَنا ... مُغَرَّبٌ فِيكَ عَنْ أَهْلي وعَنْ وَطَنِي

ثم إن عزيزاً طوى الكتاب وناوله لتاج الملوك . فلمّا قرأه أعجبه، فختمه ثم ناوله للعجوز . فأخذته العجوز وتوجّهت به إلى أن دخلت على السيدة دنيا فناولتها إياه، فلمّا قرأته وفهمت مضمونه، اغتاظت غيظاً شديداً وقالت : كل الذي جرى لي من تحت رأس هذه العجوز النحس . فصاحت على الجواري والخدم وقالت : إمسكوا هذه العجوز الماكرة واضربوها بنعالكم . فنزلوا عليها ضرباً بالنعال حتى غشي عليها . فلمّا أفاقت قالت لها : والله يا عجوز السوء، لولا خوفي من الله تعالى لقتلتك . ثم قالت لهم : أعيدوا عليها الضرب . فضربوها حتى غشي عليها . ثم أمرتهم أن يجرّوها ويرموها خارج الباب . فسحبوها على وجهها ورموها قدّام الباب . فلما أفاقت، قامت تمشي وتقعد حتى وصلت إلى منزلها وصبرت إلى الصباح . ثم قامت وتمشّت حتى أتت إلى تاج الملوك وأخبرته بجميع ما جرى لها . فصعب عليه ذلك وقال لها : يعزّ علينا يا أمي ما جرى لك، ولكن كل شيء بقضاء وقدر . فقالت له : طب نفساً وقرّ عيناً، فإني لا أزال أسعى حتى أجمع بينك وبينها وأوصلك إلى هذه العاهرة التي أحرقتني بالضرب . فقال لها تاج الملوك : أخبريني ما سبب بغضها للرجال . فقالت : لأنها رأت مناماً أوجب ذلك . فقال لها : وما ذلك المنام ؟ فقالت : إنها كانت نائمة ذات ليلة، فرأت صياداً نصب شركاً في الأرض وبذر حوله قمحاً ثم جلس قريباً منه، فلم يبقَ شيء من الطيور إلاّ وقد أتى إلى ذلك الشرك، ورأت في الطيور حمامتين ذكراً وأنثى . فبينما هي تنظر إلى الشرك، وإذا برجل الذكر تعلقت في الشرك وصار يختبط، فنفرت عنه جميع الطيور وفرّت . فرجعت إليه امرأته وحامت عليه، ثم تقدمت

إلى الشرك والصياد غافل فصارت تنقر العين التي فيها رجل الذكر، وصارت تجذبه بمنقارها حتى خلصت رجله من الشرك وطارت هي وإياه. فجاء بعد ذلك الصياد وأصلح الشرك وقعد بعيداً عنه. فلم يمض غير ساعة حتى نزلت الطيور وعلق الشرك في الأنثى، فنفرت عنها جميع الطيور ومن جملتها الطير الذكر، ولم يعد لأنثاه. فجاء الصياد وأخذ الطيرة الأنثى وذبحها. فانتبهت مرعوبة من منامها وقالت: كل ذكر مثل هذا ما فيه خير، والرجال جميهم ما عندهم خير للنساء. فلمّا فرغت من حديثها لتاج الملوك قال لها: يا أمي، أريد أن أنظر إليها نظرة واحدة ولو كان في ذلك مماتي فتحيّلي لي بحيلة حتى أنظر إليها. فقالت: أعلم أنّ لها بستاناً تحت قصرها وهو برسم فرجتها، وإنها تخرج إليه في كل شهر مرة من باب السرّ وتقعد فيه عشرة أيام، وقد جاء أوان خروجها إلى الفرجة. فإذا أرادت الخروج أجيء إليك وأعلمك حتى تخرج وتصادفها. واحرص على أنك لا تفارق البستان، فلعلّها إذا رأت حسنك وجمالك يتعلّق قلبها بمحبتك. فإنَّ المحبة أعظم أسباب الإجتماع. فقال: سمعاً وطاعةً. ثم قام من الدكان هو وعزيز وأخذا معهما العجوز ومضيا إلى منزلهما وعرّفاه لها. ثم إن تاج الملوك قال لعزيز: يا أخي ليس لي حاجة بالدكان، وقد قضيت حاجتي منها ووهبتها لك بجميع ما فيها لأنك تغرّبت معي وفارقت بلادك. فقبل عزيز منه ذلك ثمّ جلسا يتحدثان، وصار تاج الملوك يسأله عن غريب أحواله وما جرى له، وصار هو يخبره بما حصل له. وبعد ذلك أقبلا على الوزير وأعلماه بما عزم عليه تاج الملوك وقالا له: كيف العمل؟ فقال: قوموا بنا إلى البستان. فلبس كل واحد منهم أفخر ما عنده وخرجوا وخلفهم ثلاثة مماليك وتوجّهوا إلى البستان، فرأوه كثير الأشجار غزير الأنهار، ورأوا الخولي جالساً على الباب فسلّموا عليه، فردّ عليهم السلام. فناوله الوزير مائة دينار وقال: أشتهي أن تأخذ هذه النفقة وتشتري لنا شيئاً نأكله، فإننا غرباء ومعي هؤلاء الأولاد، وأردت أن أفرّجهم. فأخذ البستاني الدنانير وقال لهم: أدخلوا وتفرّجوا وجميعه ملككم، واجلسوا حتى أحضر لكم بما تأكلون. ثم توجه إلى السوق، ودخل الوزير وتاج الملوك وعزيز داخل البستان بعد أن ذهب البستاني إلى السوق. ثم بعد ساعة أتى ومعه خروف مشوي ووضعه بين أيديهم، فأكلوا وغسلوا أيديهم وجلسوا يتحدثون. فقال الوزير: أخبرني عن هذا البستان، هل هو لك أم أنت مستأجره؟ فقال الشيخ: ما هو لي وإنما هو لبنت الملك السيدة دنيا. فقال الوزير: كم لك في كل شهر من الأجرة؟ فقال: دينار واحد لا غير. فتأمل الوزير في البستان فرأى هناك قصراً عالياً، إلاّ أنه عتيق. فقال الوزير: يا شيخ، أريد أن أعمل هنا خيراً تذكرني به. فقال: وما تريد أن تفعل من الخير؟ فقال: خذ هذه الثلاثمائة دينار. فلمّا سمع الخولي بذكر الذهب قال: يا سيدي، مهما شئت فافعل. ثم أخذ الدنانير. فقال له: إن شاء الله تعالى نفعل في هذا المحل خيراً. ثم خرجوا من عنده وتوجّهوا إلى منزلهم، وباتوا تلك الليلة. فلمّا كان من الغد أحضر الوزير مبيّضاً ونقّاشاً وصائغاً جيداً، وأحضر لهم جميع ما يحتاجون إليه من الآلات. ودخل بهم البستان وأمرهم ببياض ذلك القصر وزخرفته بأنواع النقش. ثم أمر بإحضار الذهب واللازورد وقال للنقّاش: إعمل في صدر هذا الإيوان صورة آدمي صياد كأنه نصب شركه وقد وقعت فيه حمامة واشتبكت بمنقارها في الشرك. فلمّا نقش النقاش جانباً وفرغ من نقشه قال له الوزير: إفعل في الجانب الآخر مثل الأول وصوّر صورة الحمامة في الشرك، وأنَّ الصياد أخذها ووضع السكين على رقبتها.

واعمل في الجانب الآخر صورة جارح كبير قد قنص ذكر الحمام وانشب فيه مخالبه. ففعل ذلك. فلمّا فرغ من هذه الأشياء التي ذكرها الوزير، ودّعوا البستاني ثم توجّهوا إلى منزلهم وجلسوا يتحدثون. فقال تاج الملوك لعزيز: يا أخي أنشدني بعض الأشعار لعلّ صدري ينشرح وتزول عني هذه الأفكار، أو يبرد ما بقلبي من لهيب النار. فعند ذلك أطرب عزيز بالنغمات وأنشد هذه الابيات: [من البسيط]

جَميعُ ما قالَتِ العُشَّاقُ مِنْ كَمَدِ ... حَوَيْتُهُ مُفْرَداً حَتَّى وَهَى جَلَدِي
وإنْ تَرِدْ مَوْرِداً مِنْ أَدْمُعِي اتَّسَعَتْ ... لِلْوارِدِينَ بِحارُ الدَّمْعِ في مَدَدِ
أَنْ يَرَى العُشَّاقُ ما صَنَعَتْ ... أَيْدِي الغَرامِ بِهِمْ فانْظُرْ إلى جَسَدِي

ثم أفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات: [من البسيط]

مَنْ كانَ لا يَعْشَقُ الأَجْيادَ والحَدَقَ ... ثُمَّ ادَّعَى لَذَّةَ الدُّنيا فَما صَدَقَا
فإنَّ في العِشْقِ مَعْنًى لَيْسَ يُدْرِكُهُ ... مِنَ البَرِيَّةِ إلاّ كُلُّ مَنْ عَشِقَا
لا خَفَّفَ اللهُ عَنْ قَلْبِي صَبابَتَهُ ... بِمَنْ هَوَيْتُ ولا عَنْ جَفْنِي الأَرَقَا

ثم أطرب بالنغمات وأنشد هذه الأبيات: [من الكامل]

زَعَمَ ابنُ سِينا في أُصُولِ كَلامِهِ ... أنَّ المُحِبَّ دَواؤُهُ الأَلْحانُ
ووِصالُ مِثْلِ حَبِيبِهِ مِنْ جِنْسِهِ ... والنُّقْلُ والمَشْرُوبُ والبُسْتانُ
فَصَحِبْتُ غَيْرَكَ لِلتَّداوِي مَرَّةً ... وأَعانَنِي المَقْدُورُ والإِمْكانُ
فَعَلِمْتُ أنَّ الحُبَّ داءٌ قاتِلٌ ... فِيهِ ابنُ سِينا طِبُّهُ هَذَيانُ

فلما فرغ عزيز من شعره، تعجّب تاج الملوك من فصاحته وحسن روايته وقال له: قد أزلت عني بعض ما بي. ثم قال له: إن كان يحضرك شيء من جنس هذا، فاسمعني ما حضرك من الشعر الرقيق وطوّل الحديث. فأطرب بالنغمات وأنشد هذه الأبيات: [من الكامل]

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ وَصْلَكَ يُشْتَرَى ... بِكَرائِمِ الأَمْوالِ والأَشْباحِ
وظَنَنْتُ جَهْلاً أَنَّ حُبَّكَ هَيِّنٌ ... تَفْنَى عَلَيْهِ نَفائِسُ الأَرْواحِ
حَتَّى رَأَيْتُكَ تَجْتَبِي وتَخُصُّ مَنْ ... أَحْبَبْتَهُ بِلَطائِفِ الإِمْناحِ
فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لا تُنالُ بِحِيلَةٍ ... ولَوَيْتُ رأْسِي تَحْتَ طَيِّ جَناحِي
وجَعَلْتُ في عُشِّ الغَرامِ إقامَتِي ... فِيهِ غُدُوِّي دائِماً ورَواحِي

هذا ما كان من أمر هؤلاء. وأما ما كان من أمر العجوز، فإنها انقطعت في بيتها، واشتاقت بنت الملك إلى الفرجة في البستان وهي لا تخرج إلاّ بالعجوز. فأرسلت إليها وصالحتها وطيّبت خاطرها وقالت: إني أريد أن أخرج إلى البستان لأتفرّج على أشجاره وأثماره، وينشرح صدري بأزهاره. فقالت لها العجوز: سمعاً وطاعةً. ولكن أريد أن أذهب إلى بيتي وألبس أثوابي وأحضر عندك. فقالت لها: إذهبي إلى بيتك ولا تتأخري عني. فخرجت العجوز من عندها وتوجّهت إلى تاج الملوك وقالت له: تجهّز والبس أفخر أثوابك واذهب إلى البستان وادخل

على البستاني وسلّم عليه ثم اختف في البستان. فقال: سمعاً وطاعةً. وجعلت بينها وبينه إشارة ثم توجّهت إلى السيدة دنيا. وبعد ذهابها، قام الوزير وعزيز والبسا تاج الملوك بدلة من افخر ملابس الملوك تساوي خمسة الآف دينار، وشدّا في وسطه حياصة من الذهب مرصّعة بالجواهر والمعادن ثم توجّهوا إلى البستان. فلمّا وصلوا إلى باب البستان وجدوا الخولي جالساً هناك، فلمّا رآه البستاني نهض له على الأقدام وقابله بالتعظيم والإكرام، وفتح له الباب وقال له: ادخل وتفرّج في البستان. ولم يعلم البستاني أن بنت الملك تدخل البستان في هذا اليوم. فلمّا دخل تاج الملوك لم يلبث إلاّ مقدار ساعة وسمع ضجة، فلم يشعر إلاّ والخدم والجواري خرجوا من باب السرّ. فلمّا رآهم الخولي ذهب إلى تاج الملوك وأعلمه بمجيئها وقال له: يا مولاي، كيف يكون العمل وقد أتت ابنة الملك السيدة دنيا؟ فقال: لا بأس عليك، فإني أختفي في بعض مواضع البستان. فأوصاه البستاني بغاية الاختفاء ثم تركه وراح. فلمّا دخلت بنت الملك هي وجواريها والعجوز في البستان، قالت العجوز في نفسها: متى كان الخدم معنا فإننا لا ننال مقصودنا. ثم قالت لابنة الملك: يا سيدتي، إني أقول لك على شيء فيه راحة لقلبك. فقالت السيدة دنيا: قولي ما عندك. فقالت العجوز: يا سيدتي، إن هؤلاء الخدم لا حاجة لك بهم في هذا الوقت، ولا ينشرح صدرك ما داموا معنا، فاصرفيهم عنّا. فقالت السيدة دنيا: صدقت. ثم صرفتهم. وبعد قليل تمشّت، فصار تاج الملوك ينظر إليها وإلى حسنها وجمالها وهي لا تشعر بذلك. وكلمّا نظر إليها يغشى عليه مما رأى من بارع حسنها. وصارت العجوز تسارقها في الحديث إلى أن أوصلتها إلى القصر الذي أمر الوزير بنقشه. ثم دخلت ذلك القصر وتفرّجت على نقشه وأبصرت الطيور والصياد والحمام. فقالت: سبحان الله، إن هذه صفة ما رأيته في المنام. وصارت تنظر إلى صور الطيور والصياد والشرك وتتعجّب. ثم قالت: يا دادتي إني كنت ألوم الرجال وأبغضهم، لكن انظري الصياد كيف ذبح الطيرة الأنثى وتخلّص الذكر وأراد أن يجيء إلى الأنثى ويخلّصها فقابله الجارح وافترسه. وصارت العجوز تتجاهل عليها وتشاغلها بالحديث إلى أن قربا من المكان المختفي فيه تاج الملوك، فأشارت إليه العجوز أن يتمشى تحت شبابيك القصر. فبينما السيدة دنيا كذلك، إذ لاحت منها التفاتة فرأته وتأملت جماله وقدّه واعتداله، ثم قالت: يا دادتي، من أين هذا الشاب المليح؟ فقالت: لا أعلم به، غير أني أظن أنه ولد ملك عظيم. فإنه بلغ من الحسن النهاية ومن الجمال الغاية. فهامت به السيدة دنيا وانحلّت عرى عزائمها، وانبهر عقلها من حسنه وجماله وقدّه واعتداله، وتحرّكت عليها الشهوة. فقالت للعجوز: يا دادتي إن هذا الشاب مليح. فقالت لها العجوز: صدقت يا سيدتي. ثم إن العجوز أشارت إلى ابن الملك أن يذهب إلى بيته، وقد التهبت به نار الغرام وزاد به الوجد والهيام. فسار وودّع الخولي وانصرف إلى منزله. إلاّ أنه لم يخالف العجوز، وأخبر الوزير وعزيزاً بأن العجوز أشارت إليه بالإنصراف. فصارا يصبّرانه ويقولان له: لولا أن العجوز تعلم أنّ في رجوعك مصلحة، ما أشارت عليك به. هذا ما كان من أمر تاج الملوك والوزير وعزيز. وأمّا ما كان من أمر بنت الملك السيدة دنيا، فإنّها غلب عليها الغرام وزاد بها الوجد والهيام وقالت للعجوز: أنا ما أعرف اجتماعي بهذا الشاب إلاّ منك. فقالت لها العجوز: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أنت لا تريدين الرجال، وكيف حلت بك من عشقه الأوجال؟ ولكن والله ما يصلح لشبابك إلاّ

هو . فقالت السيدة دنيا : يا دادتي ، أسعفيني باجتماعي به ولك عندي ألف دينار وخلعة بألف دينار . وإن لم تسعفيني بوصاله فإني ميتة لا محالة . فقالت العجوز : إمض أنت إلى قصرك وأنا أتسبّب في اجتماعكما وأبذل روحي في مرضاتكما . ثم إن السيدة دنيا توجهت إلى قصرها وتوجهت العجوز إلى تاج الملوك . فلمّا رآها ، نهض لها على الأقدام وقابلها بإعزاز وإكرام ، وأجلسها إلى جانبه . فقالت له : إن الحيلة قد تمّت . وحكت له ما جرى لها مع السيدة . فقال لها : متى يكون الاجتماع ؟ قالت : في غد . فأعطاها ألف دينار وحلّة بألف دينار . فأخذتهما وانصرفت ، ولا زالت سائرة حتى دخلت على السيدة دنيا . فقالت لها : يا دادتي ، ما عندك من خبر الحبيب ؟ فقالت لها : قد عرفت مكانه وفي غد أكون به عندك . ففرحت السيدة دنيا بذلك وأعطتها ألف دينار وحلّة بألف دينار . فأخذتهما وانصرفت إلى منزلها وباتت فيه إلى الصباح . ثم خرجت وتوجّهت إلى تاج الملوك وألبسته لبس النساء وقالت له : إمشِ خلفي وتمايل في خطواتك ولا تستعجل في مشيك ، ولا تلتفت إلى مَنْ يكلّمك . وبعد أن أوصت تاج الملوك بهذه الوصية ، خرجت وخرج خلفها وهو في زي النسوان . وصارت تعلّمه في الطريق حتى لا يفزع . ولم تزل ماشية وهو خلفها حتى وصلا إلى باب القصر ، فدخلت وهو وراءها وصارت تخترق الأبواب والدهاليز إلى أن جاوزت به سبعة أبواب . ولما وصلت إلى الباب السابع ، قالت لتاج الملوك : قوّ قلبك ، وإذا زعقت عليك وقلت لك : يا جارية اعبري ، فلا تتوان في مشيك وهرول . فإذا دخلت الدهليز ، فانظر إلى شمالك ترى إيواناً فيه أبواب ، فعدَّ خمسة أبواب وادخل الباب السادس فإنَّ مرادك فيه . فقال تاج الملوك : وأين تروحين أنت ؟ فقالت له : ما أروح موضعاً ، غير أني ربما أتأخر عنك وأتحدّث مع الخادم الكبير . ثم مشت وهوخلفها حتى وصلت إلى الباب الذي فيه الخادم الكبير . فرأى معها تاج الملوك في صورة جارية . فقال لها : ما شأن هذه الجارية التي معك ؟ فقالت له : هذه جارية قد سمعت السيدة دنيا بأنها تعرف الأشغال وتريد أن تشتريها . فقال لها الخادم : أنا لا اعرف جارية ولا غيرها ، ولا يدخل أحد حتى أفتّشه كما أمرني الملك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 135

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الحاجب قال للعجوز : أنا لا أعرف جارية ولا غيرها ولا يدخل أحد حتى أفتّشه كما أمرني الملك . فقالت له العجوز وقد اظهرت الغضب : أنا أعرف أنك عاقل ومؤدّب ، فإن كان حالك قد تغيّر فإني أعلمها بذلك وأخبرها أنك تعرّضت لجاريتها . ثم زعقت على تاج الملوك وقالت له : اعبري يا جارية . فعند ذلك عبر إلى داخل الدهليز كما أمرته وسكت الخادم ولم يتكلم . ثم إن تاج الملوك عدَّ خمسة أبواب ودخل الباب السادس ، فوجد السيدة دنيا واقفة في انتظاره . فلما رأته عرفته ، فضمَّته إلى صدرها وضمّها إلى صدره . ثم دخلت العجوز عليهما وتحيَّلت على صرف الجواري . ثم قالت السيدة دنيا للعجوز : كوني أنت بوابة . ثم اختلت هي وتاج الملوك ولم يزالا في ضمّ وعناق والتفاف ساق على ساق إلى وقت السحر . ولمّا أصبح الصباح ، أغلقت عليهما الباب ودخلت مقصورة أخرى وجلست على جري عادتها وأتت إليها الجواري . فقضت حوائجهنَّ وصارت تحدثهنَّ . ثم قالت للجواري : أخرجن الآن من عندي فإني أريد أن أنشرح وحدي . فخرج

الجواري من عندها . ثم إنها أتت إليهما ومعها شيء من الأكل ، فأكلا وأخذا في الهراش إلى وقت السحر . فأغلقت عليهما الباب مثل اليوم الأول ، ولم يزلا على ذلك مدّة شهر كامل . هذا ما كان من أمر تاج الملوك والسيدة دنيا . وأمَّا ما كان من أمر الوزير وعزيز ، فإنَّهما لمَّا توجه تاج الملوك إلى قصر بنت الملك ومكث تلك المدة ، علما أنه لا يخرج منه أبداً وإنَّه هالك لا محالة . فقال عزيز للوزير : يا والدي ماذا تصنع ؟ فقال الوزير : يا ولدي ، إن هذا الأمر مشكل . وإن لم نرجع إلى أبيه ونعلمه ، فإنه يلومنا على ذلك . ثم تجهّزا في الوقت والساعة وتوجّها إلى الأرض الخضراء والعمودين وتخت الملك سليمان شاه ، وسارا يقطعان الأودية في الليل والنهار إلى أن دخلا على الملك سليمان شاه وأخبراه بما جرى لولده ، وإنه من حين دخل قصر بنت الملك لم يعلما له خبراً . فعند ذلك قامت عليه القيامة واشتدّت به الندامة وأمر أن ينادي في مملكته بالجهاد . ثم برز العساكر إلى خارج مدينته ونصب لهم الخيام . وجلس في سرادقه حتى اجتمعت الجيوش من سائر الأقطار ، وكانت رعيته تحبه لكثرة عدله وإحسانه . ثم سار في عسكر سدَّ الأفق متوجهاً في طلب ولده تاج الملوك . هذا ما كان من أمر هؤلاء . وأمّا ما كان من أمر تاج الملوك والسيدة دنيا ، فإنهما أقاما على حالهما نصف سنة وهما كل يوم يزدادان محبةً في بعضهما ، وزاد على تاج الملوك العشق والهيام والوجد والغرام حتى أفصح لها عن الضمير وقال لها : أعلمي يا حبيبة القلب والفؤاد ، أني كلما أقمت عندك ازددت هياماً ووجداً وغراماً ، لأني ما بلغت المرام بالكليَّة . فقالت له : وما تريد يا نور عيني وثمرة فؤادي ؟ إن شئت غير الضم والعناق والتفاف الساق على الساق ، فافعل الذي يرضيك وليس لله فينا شريك . فقال : ليس مرادي هكذا ، وإنّما مرادي أن أخبرك بحقيقتي . فاعلمي أني لست بتاجر ، بل أنا ملك ابن ملك واسم أبي الملك الأعظم سليمان شاه الذي أنفذ الوزير رسولاً إلى أبيك ليخطبك لي . فلمَّا بلغك الخبر ، ما رضيت . ثم إنه قصَّ عليها قصته من الأول إلى الآخر وليس في الإعادة إفادة . وأريد الآن أن أتوجه إلى أبي ليرسل رسولاً إلى أبيك ويخطبك منه ونستريح . فلمَّا سمعت ذلك الكلام فرحت فرحاً شديداً لأنه وافق غرضها ثم باتا على هذا الاتفاق . واتفق بالأمر المقدور أن النوم غلب عليهما في تلك الليلة من دون الليالي ، واستمرا إلى أن طلعت الشمس . وفي ذلك الوقت كان الملك شهرمان جالساً في دست مملكته وبين يديه أمراء دولته ، إذ دخل عليه عريف الصياغ وبيده حق كبير ، فتقدَّم وفتحه بين يدي الملك وأخرج منه علبة لطيفة تساوي مائة ألف دينار ، لما فيه من الجواهر واليواقيت والزمرد ، مما لا يقدر عليه أحد من ملوك الأقطار . فلمَّا رآها الملك تعجَّب من حسنها والتفت إلى الخادم الكبير الذي جرى له مع العجوز ما جرى ، وقال له : يا كافور ، خذ هذه العلبة وامض بها إلى السيدة دنيا . فأخذها الخادم ومضى حتى وصل إلى مقصورة بنت الملك ، فوجد بابها مغلقاً والعجوز نائمة على عتبته . فقال الخادم : إلى هذه الساعة وأنتم نائمون ؟ فلمّا سمعت العجوز كلام الخادم ، انتبهت من منامها وخافت منه وقالت : إصبر حتى آتيك بالمفتاح . ثم خرجت على وجهها هاربة . هذا ما كان من أمرها . وأما ما كان من أمر الخادم ، فإنه عرف أنها مرتابة ، فخلع الباب ودخل المقصورة ، فوجد السيدة دنيا معانقة لتاج الملوك وهما نائمان . فلما رأى ذلك تحيَّر في أمره وهمَّ أن يعود إلى الملك . فانتبهت السيدة دنيا فوجدته ، فتغيَّرت واصفرَّ لونها وقالت له : يا كافور ، أستر ما ستر الله . فقال : أنا لا أقدر أن أخفي شيئاً عن

الملك . ثم قفل الباب عليهما ورجع إلى الملك . فقال له الملك : هل أعطيت العلبة لسيدتك؟ فقال له الخادم : خذ العلبة ها هي وأنا لا أقدر أن أخفي عنك شيئاً . أعلم أني رأيت عند السيدة دنيا شاباً جميلاً نائماً معها في فراش واحد وهما متعانقان . فأمر الملك بإحضارهما ، فلمّا حضرا بين يديه قال لهما : ما هذه الفعال ؟ واشتد به الغيظ فأخذ قمشة وهمَّ أن يضرب تاج الملوك ، فرمت السيدة دنيا وجهها عليه وقالت لأبيها : أقتلني قبله . فنهرها الملك ، وأمرهم أن يمضوا بها إلى حجرتها ثم التفت إلى تاج الملوك وقال له : ويلك ، من أين أنت ومَنْ أبوك وما جسرك على ابنتي ؟ فقال تاج الملوك : اعلم أيها الملك أنك إن قتلتني هلكت وندمت أنت ومَنْ في مملكتك . فقال له الملك : ولِمَ ذلك ؟ فقال : اعلم أني ابن الملك سليمان شاه ، وما تدري إلاّ وقد أقبل عليك بخيله ورجله . فلمّا سمع الملك شهرمان ذلك الكلام ، أراد أن يؤخر قتله ويضعه في السجن حتى ينظر صحة قوله . فقال له وزيره : يا ملك الزمان ، الرأي عندي أن تعجّل قتل هذا العلق فإنّه تجاسر على بنات الملوك . فقال للسيّاف : أضرب عنقه فإنه خائن . فأخذه السيّاف وشدّ وثاقه ورفع يده وشاور الأمراء أولاً وثانياً ، وقصد بذلك أن يكون في الأمر توان ، فزعق عليه الملك وقال له : إلى متى تشاور ؟ إن شاورت مرة أخرى ضربت عنقك . فرفع السيّاف يده حتى بان شعر إبطه وأراد أن يضرب عنقه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 136

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن السيّاف رفع يده حتى بان شعر إبطه وأراد أن يضرب عنقه ، وإذا بزعقات عالية والناس أغلقوا الدكاكين . فقال الملك للسيّاف : لا تعجّل . ثم أرسل من يكشف له الخبر . فمضى الرسول ثم عاد إليه وقال له : رأيت عسكراً كالبحر العجاج المتلاطم بالأمواج وخيلهم في ركض وقد ارتجّت لهم الأرض ، وما أدري خبرهم . فاندهش الملك وخاف على ملكه أن ينزع منه ، ثم التفت إلى وزيره وقال له : أما خرج أحد من عسكرنا إلى هذا العسكر ؟ فما تمَّ كلامه إلاّ وحجّابه قد دخلوا عليه ومعهم رسل الملك القادم ومن جملتهم الوزير ، فابتدأه بالسلام ، فنهض لهم قائماً وقرّبهم وسألهم عن شأن قدومهم . فنهض الوزير من بينهم وتقدم إليه وقال له : اعلم أن الذي نزل بأرضك ملك ليس كالملوك المتقدّمين ولا مثل السلاطين السالفين . فقال له الملك : ومَنْ هو ؟ قال الوزير : هو صاحب العدل والأمان الذي شاعت بعلوّ همّته الركبان ، السلطان سليمان شاه وصاحب الأرض الخضراء والعمودين وجبال أصفهان . وهو يحب العدل والإنصاف ويكره الجور والإعتساف ويقول لك : إن ابنه عندك وفي مدينتك وهو حشاشة قلبه وثمرة فؤاده . فإن وجده سالماً ، فهو المقصود وأنت المشكور المحمود . وإن كان فقد من بلادك وأصابه شيء ، فابشر بالدمار وخراب الديار ، لأنه يصير بلدك قفراء ينعق فيها الغراب . وها أنا قد بلّغتك الرسالة والسلام . فلمّا سمع الملك شهرمان ذلك الكلام من الرسول ، انزعج فؤاده وخاف على مملكته ، وزعق على أرباب دولته ووزرائه وحجّابه ونوّابه . فلمّا حضروا قال لهم : ويلكم ، إنزلوا وفتّشوا على ذلك الغلام . وكان تحت يد السيّاف وقد تغيّر من كثرة ما حصل له من الفزع . ثم إن الرسول لاحت منه التفاتة فوجد ابن ملكه على نطع الدم ، فعرفه وقام ورمى روحه عليه ، وكذلك بقية الرسل . ثم تقدّموا وحلّوا وثاقه وقبّلوا يديه ورجليه . ففتح تاج الملوك عينه ، فعرف وزير والده وعرف صاحبه عزيزاً . فوقع

مغشياً عليه من شدّة فرحته بهما . ثم إن الملك شهرمان صار متحيّراً في أمره ، وخاف خوفاً شديداً لمّا تحقق أن مجيء هذا العسكر بسبب هذا الغلام . فقام وتمشّى إلى تاج الملوك وقبّل رأسه ودمعت عيناه وقال له : يا ولدي ، لا تؤاخذني ولا تؤاخذ المسيء بفعله ، فارحم شيبتي ولا تخرّب مملكتي . فدنا منه تاج الملوك وقبّل يده وقال : لا بأس عليك وأنت عندي بمنزلة والدي ، ولكن الحذر أن يصيب محبوبتي السيدة دنيا شيء . فقال : يا سيدي ، لا تخف عليها فما يحصل لها إلاّ السرور . وصار الملك يعتذر إليه ويطيّب خاطر وزير الملك سليمان شاه ، ووعده بالمال الجزيل على أن يخفي من الملك ما رآه . بعد ذلك أمر كبراء دولته أن يأخذوا تاج الملوك ويذهبوا به إلى الحمّام ويلبسوه بدلة من خيار ملابس الملوك ويأتوا به بسرعة . ففعلوا ذلك ، وأدخلوه الحمّام وألبسوه البدلة التي أفردها له الملك شهرمان ، ثم أتوا به إلى المجلس . فلمّا دخل على الملك شهرمان ، وقف له هو وجميع أرباب دولته ، وقام الجميع في خدمته . ثم إن تاج الملوك جلس يحدّث وزير والده وعزيزاً بما وقع له . فقال له الوزير وعزيز : ونحن في تلك المدة مضينا إلى والدك فأخبرناه بأنّك دخلت سراية بنت الملك ولم تخرج ، والتبس علينا أمرك . فحين سمع بذلك ، جهّز العساكر ثم قدمنا هذه الديار ، وكان في قدومنا الفرج والسرور . فقال لهما : لا زال الخير يجري على أيديكما أولاً وآخراً . وكان الملك في ذلك الوقت قد دخل على ابنته السيدة دنيا ، فوجدها تبكي على تاج الملوك . وأخذت سيفاً وركّزت قبضته إلى الأرض وجعلت ذبابته على رأس قلبها بين نهديها ، وانحنت على السيف وصارت تقول : لا بدّ أن أقتل نفسي ولا أعيش بعد حبيبي . فلمّا دخل عليها أبوها ورآها في هذه الحالة ، صاح عليها وقال لها : يا سيدة بنات الملوك ، لا تفعلي وارحمي أباك وأهل بلدك . ثم تقدّم إليها وقال لها : أحاشيك أن يصيب والدك بسببك سوء . ثم أعلمها بالقصة وأن محبوبها ابن الملك سليمان شاه يريد الزواج بها وقال لها : إنّ أمر الخطبة والزواج مفوّض إلى رأيك . فتبسّمت وقالت له : أما قلت لك إنه ابن سلطان؟ فأنا أخلّيه يصلبك على خشبة تساوي درهمين . فقال لها : بالله عليك أن ترحمي أباك . فقالت له : رح إليه وائتني به . فقال لها : على الرأس والعين . ثم رجع من عندها سريعاً ودخل على تاج الملوك وساره بهذا الكلام ، ثم قام معه وتوجه إليها . فلمّا رأت تاج الملوك ، عانقته قدّام أبيها وتعلّقت به وقالت له : أوحشتني . ثم التفتت إلى أبيها وقالت : هل أحد يفرّط في هذا الشاب المليح وهو ملك ابن ملك؟ فعند ذلك خرج الملك شهرمان وردّ الباب عليهما ومضى إلى وزير أبي تاج الملوك ورسله ، وأمرهم أن يعلموا السلطان سليمان شاه بأن ولده بخير وعافية ، وهو في ألذّ عيش . ثم إن السلطان شهرمان أمر بإخراج الضيافات والعلوفات إلى عساكر السلطان سليمان شاه والد تاج الملوك . فلما أخرجوا جميع ما أمر به ، أخرج مائة جواد من الخيل ومائة هجين ومائة مملوك ومائة سرية ومائة عبد ومائة جارية ، وأرسل الجميع إليه هدية . ثم بعد ذلك توجّه اليه هو وأرباب دولته وخواصّه حتى صاروا في ظاهر المدينة . فلما علم بذلك السلطان سليمان شاه تمشّى خطوات إلى لقائه . وكان الوزير وعزيز أعلماه بالخبر ففرح وقال : الحمد لله الذي بلغ ولدي مناه . ثم إن الملك سليمان شاه أخذ الملك شهرمان بالحضن وأجلسه بجانبه على السرير وصار يتحدث هو وإياه ، ثم قدموا لهم الطعام ، فأكلوا حتى اكتفوا . ثم قدموا لهم الحلويات ، ولم يمض إلاّ قليل حتى جاء تاج الملوك وقدم عليه بلباسه وزينته . فلمّا رآه والده

قام له وقبّله وقام له جميع من حضر وجلس بينهم ساعة يتحدثون . فقال الملك سليمان شاه : إني أريدُ أن أكتب كتاب ولدي على ابنتك على رؤوس الأشهاد . فقال له : سمعاً وطاعةً . ثم أرسل الملك شهرمان إلى القاضي والشهود، فحضروا وكتبوا الكتاب وفرح العساكر بذلك . وشرع الملك شهرمان في تجهيز ابنته . ثم قال تاج الملوك لوالده : إن عزيزاً رجل من الكرام وقد خدمني خدمة عظيمة، وتعب وسافر معي وأوصلني إلى بغيتي ولم يزل يصبرني حتى قضيت حاجتي . مضى له معنا سنتان وهو مشتَّت من بلاده . فالمقصود أننا نهيء له تجارة لأن بلاده قريبة . فقال له والده : نِعم ما رأيت . ثم هيأوا له مائة حمل من أغلى القماش ، وأقبل عليه تاج الملوك وودَّعه وقال له : يا أخي ، إقبل هذه على سبيل الهدية . فقبلها منه وقبّل الأرض قدّامه وقدّام والده الملك سليمان شاه . ثم ركب تاج الملوك وسار مع عزيز قدر ثلاثة أميال . وبعدها أقسم له عزيز أن يرجع وقال : لولا والدتي ما صبرت على فراقك ، فبالله عليك لا تقطع اخبارك عني . ثم ودَّعه ومضى إلى مدينته . فوجد والدته بنت له قبراً في وسط الدار وصارت تزوره ، ولما دخل الدار وجدها قد حلَّت شعرها ونشرته على القبر وهي تفيض دمع العين وتنشد هذين البيتين : [من البسيط]

بالله يا قَبْرُ هَلْ زالَتْ مَحاسِنُهُ   أَمْ قَد تَغَيَّرَ ذاكَ المَنظَرُ النَّضِرُ؟
يا قَبْرُ ما أَنْتَ بُسْتانٌ ولا فَلَكٌ   فَكَيْفَ يُجْمَعُ فِيكَ البَدْرُ والزَّهَرُ؟

ثم صعدت الزفرات وأنشدت هذه الأبيات : [من الكامل]

ما لي مَرَرْتُ على القُبُورِ مُسَلِّماً   قَبْرُ الحَبِيبِ فَلَمْ يَرُدَّ جَوابِي
قالَ الحَبِيبُ وكَيْفَ رَدُّ جَوابِكُمْ   وأَنا رَهِينُ جَنادِلَ وتُرابِ
أَكَلَ التُّرابُ مَحاسِنِي فَنَسِيتُكُمْ   وحُجِبْتُ عَن أَهْلِي وعَنْ أَحْبابِي

فما تمّت شعرها إلا وعزيز داخل عليها . فلمّا رأته قامت إليه واحتضنته وسألته عن سبب غيابه . فحدّثها بما وقع له من أوّله إلى آخره ، وأنّ تاج الملوك أعطاه من المال والأقمشة مائة حمل . ففرحت بذلك . وأقام عزيز عند والدته متحيّراً فيما وقع له من الدليلة المحتالة التي خصته . هذا ما كان من أمر عزيز . وأمّا ما كان من أمر تاج الملوك ، فإنه دخل بمحبوبته السيدة دنيا وأزال بكارتها . ثم إن الملك شهرمان شرع في تجهيز ابنته للسفر مع زوجها وأبيها . فأحضر لهم الزاد والهدايا والتحف ، ثم حملوا وساروا ، وسار معهم الملك شهرمان ثلاثة أيام لأجل الوداع . فأقسم عليه الملك سليمان شاه بالرجوع فرجع ، وما زال تاج الملوك ووالده وزوجته سائرون في الليل والنهار حتى أشرفوا على بلادهم ، وزينت لهم المدينة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 137

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك سليمان شاه سار هو وولده وزوجة ولده حتى أشرفوا على بلادهم ، وزينّت لهم المدينة . ثم دخلوا المدينة وجلس الملك سليمان شاه على سرير مملكته وولده تاج الملوك إلى جانبه . ثم أعطى ووهب وأطلق مَنْ كان في الحبوس . ثم عمل لولده عرساً ثانياً واستمرّت به المغاني والملاهي شهراً كاملاً، وازدحمت

المواشط على السيدة دنيا وهي لا تملّ من الجلاء ولا يملِلْنَ من النظر إليها. ثم دخل تاج الملوك على زوجته بعد أن اجتمع مع أبيه وأمّه، وما زالوا في ألذّ عيش وأهناه. فعند ذلك قال ضوء المكان للوزير دندان: مثلك من ينادم الملوك ويسلك في تدبيرهم أحسن السلوك. هذا كله وهم محاصرون للقسطنطينية، حتى مضى عليهم أربع سنين. ثم اشتاقوا إلى أوطانهم وضجرت العساكر من الحصار وإدامة الحرب في الليل والنهار. فأمر الملك ضوء المكان بإحضار بهرام ورستم وتركاش. فلمّا حضروا قال لهم: أعلموا أننا أقمنا هذه السنين وما بلغنا مراماً فازددنا غمّاً وهمّاً، وقد أتينا لنخلص ثأر الملك عمر النعمان، فقتل أخي شركان. فصارت الحسرة حسرتين والمصيبة مصيبتين، وسبب هذا كله العجوز ذات الدواهي. فإنها قتلت السلطان في مملكته وأخذت زوجته الملكة صفيّة، وما كفاها ذلك حتى عملت الحيلة علينا وذبحت أخي، وقد حلفت الايمان العظيمة إنه لا بدّ من أخذ الثأر. فما تقولون أنتم؟ فافهموا هذا الخطاب وردوا عليّ الجواب. فأطرقوا رؤوسهم وأحالوا الأمر على الوزير دندان. فعند ذلك تقدم الوزير دندان إلى الملك ضوء المكان وقال له: أعلم يا ملك الزمان، أنه ما بقي في إقامتنا فائدة، والرأي إننا نرحل إلى الأوطان ونقيم هناك برهة من الزمان ثم نعود ونغزوا عبدة الأصنام. فقال الملك: نِعْمَ هذا الرأي، لأن الناس اشتاقوا إلى رؤية عيالهم، وأنا أيضاً أقلقني الشوق إلى ولدي كان ما كان وإلى ابنة أخي قضى فكان، لأنها في دمشق ولا أعلم ما كان من أمرها. فلمّا سمعت العساكر ذلك، فرحوا ودعوا للوزير دندان.

ثم إن الملك ضوء المكان أمر المنادي أن ينادي بالرحيل بعد ثلاثة أيام، فابتدأوا في تجهيز أحوالهم. وفي اليوم الرابع، دقّت الكاسات ونشرت الرايات، وتقدم الوزير دندان في مقدم العسكر، وسار الملك في وسط العساكر وبجانبه الحاجب الكبير. وسارت الجيوش وما زالوا مجدّين السير بالليل والنهار حتى وصلوا إلى مدينة بغداد. ففرحت بقدومهم الناس وزال عنهم الهمّ والبأس. ثم ذهب كل أمير إلى داره وطلع الملك إلى قصره ودخل على ولده كان ما كان، وقد بلغ من العمر سبع سنين، وصار ينزل ويركب. ولما استراح الملك من السفر، دخل الحمَّام هو وولده كان ما كان. ثم رجع وجلس على كرسي مملكته ووقف الوزير دندان بين يديه، وطلعت الأمراء وخواصّ الدولة ووقفوا في خدمته. فعند ذلك أمر الملك ضوء المكان بإحضار صاحبه الوقّاد الذي أحسن إليه في غربته، فحضر بين يديه. فلمّا رآه الملك ضوء المكان قادماً عليه، نهض له قائماً وأجلسه إلى جانبه. وكان الملك ضوء المكان قد أخبر الوزير بما فعل معه صاحبه الوقّاد من المعروف، فعظم في عينه وفي أعين الأمراء. وكان الوقَّاد قد غلظ وسمن من الأكل والراحة، وصار عنقه كعنق الفيل ووجهه كبطن الدرفيل، وصار طائش العقل لأنه كان لا يخرج من المكان الذي هو فيه. فلم يعرف الملك بسيماه. فأقبل عليه الملك وبشّ في وجهه وحيّاه أعظم التحيّات وقال له: ما أسرع ما نسيتني. فأمعن فيه النظر، فلمّا تحقَّق منه وعرفه، قام له على الأقدام وقال له: يا حبيبي من عملك سلطاناً؟ فضحك عليه. فأقبل عليه الوزير بالكلام وشرح له القصة وقال له: إنه كان أخاك وصاحبك والآن صار ملك الأرض، ولا بدّ أن يصل إليك منه خير كثير. وها أنا أوصيك، إذا قال لك: تمنَّ عليَّ. فلا تتمنَّ إلاّ شيئاً عظيماً لأنك عنده عزيز. فقال الوقّاد: أخاف أن أتمنى عليه شيئاً، فلا يسمح لي به أو لا يقدر عليه. فقال له الوزير:

كل ما تمنّيته يعطيكَه إيّاه . فقال له : والله لا بدّ أن تتمنىً عليه الشيء الذي في خاطري ، وكل يوم أرجو منه أن يسمح لي به . فقال له الوزير : طيّب قلبك . والله لو طلبت ولاية دمشق موضع أخيه لولاك عليها . فعند ذلك قام الوقّاد على قدميه ، فأشار له ضوء المكان أن إجلس . فأبى وقال : معاذ الله ،قد انقضت أيام قعودي في حضرتك . فقال له السلطان : لا بل هي باقية إلى الآن ، فإنّك كنت سبباً لحياتي . والله لو طلبت مني مهما اردت لأعطيتك إيّاه ، فتمنَّ على الله . فقال له : يا سيدي ، إني أخاف ان أتمنى شيئاً ، فلا تسمح لي به أو لا تقدر عليه . فضحك السلطان وقال له : لو تمنيت نصف مملكتي لشاركتك فيها ، فتمنَّ ما تريد . قال الوقّاد : أخاف ان أتمنى شيئاً لا تقدر عليه . فغضب السلطان وقال له : تمنّ ما أردت . فقال له : تمنيت ان تكتب لي مرسوماً بعرافة جميع الوقّادين الذين في مدينة القدس . فضحك السلطان وجميع من حضر وقال له : تمنّى غير هذا . فقال الوقّاد : أنا ما قلت لك إني أخاف أن أتمنى شيئاً لا تسمح لي به وما تقدر عليه ؟ فغمزه الوزير ثانياً وثالثاً وفي كل مرة يقول : أتمنى عليك أن تجعلني رئيس الزبّالين في مدينة القدس أو في مدينة دمشق . فانقلب الحاضرون على ظهورهم من الضحك عليه وضربه الوزير . فالتفت الوقّاد إلى الوزير وقال له : ما تكون حتى تضربني وما لي ذنب ؟ فإنك أنت الذي قلت لي تمنَّ شيئاً عظيماً . ثم قال : دعوني أسير إلى بلادي . فعرف السلطان أنه يلعب . فصبر قليلاً ثم أقبل عليه وقال له : يا أخي ، تمنَّ عليَّ أمراً عظيماً لائقاً بمقامي . فقال له : أتمنى سلطنة دمشق موضع أخيك . فكتب له التواقيع بذلك وقال للوزير دندان : ما يروح معه غيرك ، وإذا أردت العود فاحضر معك بنت أخي قضى فكان . فقال الوزير : سمعاً وطاعةً . ثم أخذ الوقّاد ونزل به وتجهّز للسفر ، وأمر السلطان ضوء المكان أن يخرجوا للوقّاد تختاً جديداً وطقم سلطنة وقال للأمراء : مَنْ كان يحبني ، فليقدّم إليه هدية عظيمة . ثم سمّاه السلطان الزبلكان ولقبه بالمجاهد . وبعد شهر كملت حوائجه وطلع الزبلكان وفي خدمته الوزير دندان . ثم دخل ضوء المكان ليودّعه ، فقام له وعانقه وأوصاه بالعدل بين الرعية وأمره أن يأخذ الأهبة للجهاد بعد سنتين ثم ودّعه وانصرف . وسار الملك المجاهد المسمّى بالزبلكان بعد أن أوصاه الملك ضوء المكان بالرعية خيراً . وقدمت له الأمراء المماليك ، فبلغوا خمسة الآف مملوك وركبوا خلفه ، وركب الحاجب الكبير وأمير الديلم بهرام وأمير الترك رستم وأمير العرب تركاش ، وساروا في توديعه وما زالوا سائرين معه ثلاثة أيام ، ثم عادوا إلى بغداد . وسار السلطان الزبلكان هو والوزير دندان ، وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى دمشق . وكانت الأخبار قد وصلت إليهم على أجنحة الطيور ، بأنّ الملك ضوء المكان سلطن على دمشق ملكاً يقال له : الزبلكان ولقّبه بالمجاهد . فلما وصل إليهم الخبر ، زيّنوا له المدينة وخرج إلى ملاقاته كل من في دمشق ، ثم دخل دمشق وطلع القلعة وجلس على سرير المملكة ، ووقف الوزير دندان في خدمته يعرّفه منازل الأمراء ومراتبهم وهم يدخلون عليه ويقبّلون يديه ويدعون له . فأقبل عليهم الملك الزبلكان وخلع وأعطى ووهب . ثم فتح خزائن الأموال وأنفقها على جميع العساكر كبيراً وصغيراً ، وحكم وعدل . وشرع الزبلكان في تجهيز بنت السلطان شركان السيدة قضى فكان ، وجعل لها محفة من الإبريسم ، وجهّز الوزير وقدّم له شيئاً من المال ، فأبى الوزير دندان وقال له : أنت قريب عهد بالملك وربما تحتاج إلى الأموال ، أو نرسل إليك نطلب منك مالاً للجهاد أو غير ذلك . ولمّا تهيأ الوزير دندان للسفر ، ركب السلطان المجاهد لوداعه

وأحضر قضى فكان وأركبها في المحفة وأرسل معها عشر جوار برسم الخدمة . وبعد أن سافر الوزير دندان ، رجع الملك المجاهد إلى مملكته ليدبّرها ، واهتمّ بآلة السلاح وصار ينتظر الوقت الذي يرسل إليه فيه الملك ضوء المكان . هذا ما كان من أمر السلطان الزبلكان . وأما ما كان من أمر الوزير دندان ، فإنه لم يزل يقطع المراحل بقضى فكان ، حتى وصل إلى الرّحبة بعد شهر . ثم سار حتى أشرف على بغداد وأرسل أعلم ضوء المكان بقدومه ، فركب وخرج إلى لقائه . فأراد الوزير دندان أن يترجّل ، فأقسم عليه الملك ضوء المكان أن لا يفعل . فسار راكباً حتى جاء إلى جانبه وسأله عن المجاهد ، فأعلمه أنه بخير وأعلمه بقدوم قضى فكان بنت أخيه شركان . ففرح وقال له : دونك والراحة من تعب السفر ثلاثة أيام ، ثم بعد ذلك تعال عندي . فقال : حبّاً وكرامة . ثم دخل بيته وطلع الملك إلى قصره ودخل على ابنة أخيه قضى فكان وهي ابنة ثمان سنين . فلمّا رآها ، فرح بها وحزن على أبيها وأعطاها حلياً ومصاغاً عظيماً ، وأمر أن يجعلوها مع ابن عمها كان ما كان في مكان واحد . وكانت أحسن أهل زمانها وأشجعهم ، لأنها كانت صاحبة تدبير وعقل ومعرفة بعواقب الأمور . وأمّا كان ما كان ، فإنّه مولعاً بمكارم الأخلاق ، ولكنه لا يفكر في عاقبة شيء . ثم بلغ عمر كل واحد من الإثنين عشر سنين ، وصارت قضى فكان تركب الخيل وتطلع مع ابن عمها في البر ويتعلمان الضرب بالسيف والطعن بالرمح ، حتى بلغ عمر كل منهما اثنتي عشرة سنة . ثم إن الملك انتهت أشغاله للجهاد وأكمل الأهبة والاستعداد . فأحضر الوزير دندان وقال له : أعلم أني عزمت على شيء وأريد اطلاعك عليه ، فاسرع في ردّ الجواب . فقال الوزير دندان : ما هو يا ملك الزمان ؟ قال : عزمت على أن أسلطن ولدي كان ما كان وأفرح به في حياتي ، وأقاتل قدّامه إلى أن يدركني الممات . فما عندك من الرأي ؟ فقبّل الوزير دندان الأرض بين يدي الملك ضوء المكان وقال له : أعلم أيها الملك السعيد صاحب الرأي السديد أن ما خطر ببالك مليح ، غير أنه لا يناسب في هذا الوقت لخصلتين : الأولى ، أن ولدك كان ما كان صغير السن . والثانية : ما جرت به العادة ، من أنّ من سلطن ولده في حياته لا يعيش إلاّ قليلاً . وهذا ما عندي من الجواب . فقال : أعلم أيها الوزير ، إننا نوصي عليه الحاجب الكبير فإنه صار منّا وإلينا ، وقد تزوّج أختي فهو في منزلة أخي . فقال له الوزير : إفعل ما بدا لك ، فنحن ممتثلون أمرك . فأرسل الملك إلى الحاجب الكبير فأحضره وكذلك أكابر مملكته وقال لهم : إن هذا ولدي كان ما كان ، قد علمتم أنه فارس الزمان وليس له نظير في الحرب والطعان ، وقد جعلته سلطاناً عليكم والحاجب الكبير وصيّ عليه . فقال الحاجب : يا ملك الزمان ، إنما أنا غريس نعمتك . فقال ضوء المكان : أيها الحاجب ، إن ولدي كان ما كان وابنة أخي قضى فكان أولاد عمّ ، وقد زوّجتها به وأشهد الحاضرين على ذلك . ثم نقل لولده من المال ما يعجز عنه اللسان . وبعد ذلك دخل على أخته نزهة الزمان وأعلمها بذلك . ففرحت وقالت : إن الإثنين ولداي والله تعالى يبقيك لهما مدى الزمان . فقال : يا أختي ، إني قضيت من الدنيا غرضي وأمنت على ولدي ، ولكن ينبغي أن تلاحظيه بعينك وتلاحظي أمه . ثم صار يوصي الحاجب ونزهة الزمان على ولده وعلى زوجته ليالي وأياماً ، وقد أيقن بكأس الحمام ولزم الوساد وصار الحاجب يتعاطى أحكام العباد . وبعد سنة ، أحضر ولده كان ما كان والوزير دندان وقال : يا ولدي ، إن هذا الوزير والدك من بعدي ، واعلم أني راحل عن الدار الفانية إلى الدار الباقية وقد قضيت غرضي من الدنيا . ولكن بقي في

قلبي حسرة يزيلها الله على يديك . فقال ولده : وما تلك الحسرة يا والدي ؟ فقال : يا ولدي ، أن أموت ولم نأخذ بثار جدك الملك النعمان وعمك الملك شركان ، من عجوز يقال لها : ذات الدواهي . فإن أعطاك الله النصر ، لا تغفل عن أخذ الثار وكشف العار من الكفّار . وإياك من مكر العجوز ، واقبل ما يقوله لك الوزير دندان ، لأنه عماد ملكنا من قديم الزمان . فقال له ولده : سمعاً وطاعةً . ثم هملت عيناه بالدموع . وبعد ذلك ازداد المرض بضوء المكان وصار أمر المملكة للحاجب ، فصار يحكم ويأمر وينهي . واستمرّ على ذلك سنة كاملة وضوء المكان مشغول بمرضه ، وما زالت به الأمراض مدة أربع سنين والحاجب الكبير قائم بأمر الملك ، وارتضى به أهل المملكة ودعت له جميع البلاد . هذا ما كان من أمر ضوء المكان والحاجب . وأما ما كان من أمر كان ما كان ، فإنَّه لم يكن له شغل إلاّ ركوب الخيل واللعب بالرمح والضرب بالنشاب وكذلك ابنة عمه قضى فكان . وكانت تخرج هي وإيّاه من أول النهار إلى الليل ، فتدخل إلى أمها ويدخل هو إلى أمه فيجدها جالسة عند رأس أبيه تبكي ، فيخدمه بالليل . وإذا أصبح الصباح ، يخرج هو وبنت عمه على عادتهما . وطالت بضوء المكان التوجّعات ، فبكى وأنشد هذه الابيات : [من الوافر]

تَفانَتْ قُوَّتي ومَضَى زَمانِي ... وها أنا قَدْ بَقِيْتُ كما تَرانِي
فَيَوْمَ العِزِّ كُنْتُ أعزَّ قَوْمِي ... وأَسْبَقَهُمْ إلى نَيْلِ الأماني
وقَدْ فارَقْتُ مُلْكِي بَعْدَ عِزِّي ... إلى ذُلٍّ تَخَلَّلَ بالهَوانِ
تُرَى قَبْلَ المَماتِ أَرَى غُلامِي ... يَـكُونُ عَلى الوَرَى مَلِكاً مَكانِي
ويَفْتِكُ بالعُداةِ لأَخْذِ ثَأْرٍ ... بِضَرْبِ السَّيْفِ أَو طَعْنِ السِّنانِ
أَنا المَغْبُونُ في هَزْلٍ وجِدٍّ ... إذا مَوْلاي لا يَشْفِي جَنانِي

فلمَّا فرغ من شعره ، وضع رأسه على الوسادة ونام ، فرأى في منامه قائلاً يقول له : أبشر فإنَّ ولدك يملك البلاد وتطيعه العباد . فانتبه من منامه مسروراً . ثم بعد أيام قلائل طرقه الممات ، فأصاب أهل بغداد لذلك مصاب عظيم وبكى عليه الرضيع والعظيم ، ومضى عليه الزمان كأنه ما كان . وتغيَّر حال كان ما كان ، وعزله أهل بغداد وجعلوه هو وعياله في بيت على حدة . فلما رأت أم كان ما كان ذلك ، صارت في أذلّ الأحوال . ثم قالت : لا بدَّ لي من قصد الحاجب الكبير وأرجو الرأفة من اللطيف الخبير . فقامت من منزلها إلى أن أتت إلى بيت الحاجب الذي صار سلطاناً ، فوجدته جالساً على فراشه . فدخلت على زوجته نزهة الزمان وقالت : إنَّ الميت ما له صاحب ، فلا أحوجكم الله مدى الدهور والأعوام ، ولا زلتم تحكمون بالعدل بين الخاص والعام . قد سمعت أذناك ورأت عيناك ما كنّا فيه من الملك والعزّ والجاه والمال وحسن المعيشة والحال ، والآن انقلب علينا الزمان وقصدنا الدهر بالعدوان ، وأتيت إليك قاصدة إحسانك بعد إسدائي للإحسان . لأن الرجل إذا مات ذلّت بعده النساء البنات . ثم أنشدت هذه الأبيات : [من الطويل]

كَفاكَ بأَنَّ المَوْتَ بادِي العَجائِبِ ... وما غائِبُ الأَعْمارِ عَنّا بِغائِبِ
وما هذه الأَيَّامُ إلاَّ مَراحِلُ ... مَوارِدُها مَمْزُوجَةٌ بالمَصائِبِ

وما ضَرَّ قَلْبِي مِثْلَ فَقْدِ أكارِمٍ ... أَحاطَتْ بِهِمْ مُسْتَعْظَماتُ النَّوائِبِ

فلمّا سمعت نزهة الزمان هذا الكلام ، تذكّرت أخاها ضوء المكان وابنه كان ما كان ، فقرّبتها وأقبلت عليها وقالت : أنا الآن غنيّة وأنت فقيرة ، فوالله ما تركنا افتقارك إلاَّ خوفاً من انكسار قلبك ، لئلا يخطر ببالك أن ما نهديه إليك صدقة ، مع أن جميع ما نحن فيه من الخير منك ومن زوجك . فبيتنا بيتك ولك ما لنا وعليك ما علينا . ثم خلعت عليها ثياباً فاخرة وأفردت لها مكاناً في القصر ملاصقاً لمقصورتها ، وأقامت عندهم في عيشة طيبة هي وولدها كان ما كان . وخلعت عليه ثياب الملوك وأفردت لهما جوارٍ برسم خدمتهما . ثم إن نزهة الزمان بعد مدة قليلة ، ذكرت لزوجها حديث زوجة أخيها ضوء المكان . فدمعت عيناه وقال : إن شئت أن تنظري الدنيا بعدك ، فانظريها بعد غيرك . فاكرمي مثواها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 138

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن زوج نزهة الزمان قال لها : إن شئت أن تنظري الدنيا بعدك فانظريها بعد غيرك . فاكرمي مثواها وأغني فقرها . هذا ما كان من أمر نزهة الزمان وزوجها وأم ضوء المكان .

مغامرة كان ما كان ابن ضوء المكان

وأما ما كان من أمر كان ما كان وابنة عمه قضى فكان ، فإنهما كبرا وترعرعا حتى صارا كأنهما غصنان مثمران أو قمران أزهران ، وبلغا من العمر خمسة عشر عاماً . وكانت قضى فكان من أحسن البنات المخدرات : بوجه جميل وخصر نحيل وردف ثقيل ، وريق كالسلسبيل ، وقدّ رشيق ، وثغر ألذّ من الرحيق . كما قال فيها بعض واصفيها هذين البيتين : [من الطويل]

كَأَنَّ سُلافَ الخَمْرِ مِنْ رِيقِها بَدَتْ ... وعُنْقُودَها مِنْ ثَغْرِها الدُّرُّ يُقْطَفُ
وأَعْنابُها مالَتْ إذا ما ثَنَيْتَها ... فَسُبْحانَ خَلاَّقٍ لَها لا يُكَيَّفُ

وقد جمع الله كل المحاسن فيها : فقدُّها يخجل الأغصان ، والورد يطلب من خدّها الأمان ، وأمَّا الريقُ ، فإنَّه يهزأ بالرحيق ، تسر القلب والناظر كما قال فيها الشاعر : [من البسيط]

مَلِيحَةُ الوَصْفِ قَدْ تَمَّتْ مَحاسِنُها ... أَجْفانُها تَفْضَحُ التَّكْحِيلَ بالكَحَلِ
كأَنَّ أَلحاظَها في قَلْبِ عاشِقِها ... سَيْفٌ بِكَفِّ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِي

وأمَّا كان ما كان ، فإنَّه كان بديع الجمال فائق الكمال ، عز في الحسن عن مثال الشجاعة تلوح بين عينيه ، والشجاعة تشهد له لا عليه . وتميل كل القلوب إليه . وحين اخضر منه العذار كثرت فيه الأشعار . كقول بعضهم : [من الكامل]

ما بانَ عُذْرِيَ فِيه حَتَّى يَعْذِرا ... ومَشَى الدُّجَى في خَدِّهِ فَتَحَيَّرا
رَشَأٌ إذا رَنَتِ العُيُونُ لِحُسْنِهِ ... سَلَّتْ لَواحِظُه عَلَيها خَنْجَرا

وقول الآخر : [من الكامل]

نَسَخَتْ نُفُوسُ العاشِقِينَ بِخَدِّهِ ... نَمْلاً وتَمَّ بِها النَّجِيعُ الأَحْمَرُ

فاعْجبَ لَهُم شَهْداً ومَسْكِنُهُمْ لَظًى وِلِباسُهُمْ فِيها الحَرِيرُ الأخْضَرُ

واتّفق في بعض الأعياد أنَّ قضى فكان خرجت تعيّد على بعض أقاربها من الدولة، والجواري حواليها والحسن قد عمّها وورد الخدّ يحسد خالها، والأقحوان يتبسَّم عن بارق ثغرها. فجعل كان ما كان يدور حولها ويطلق النظر إليها، وهي كالقمر الزاهر، فقوّى جنانه وأطلق بالشعر لسانه، وأنشد هذين البيتين: [من الطويل]

مَتَى يَشْتَفِي قَلْبُ الدُّنُوِّ مِنْ البُعْدِ ويَضْحَكُ ثَغْرُ الوَصْلِ مِن زائِلِ الصَّدِّ
فَيا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِوَصْلِ حَبِيبٍ عِنْدَهُ بَعْضُ ما عِنْدِي

فلمَّا سمعت قضى فكان هذا الشعر، أظهرت له الملامة والعتاب، وتوعَّدته بأليم العقاب. فاغتاظ كان ما كان وعاد إلى بغداد غضبان. ثم طلعت قضى فكان إلى قصرها وشكت ابن عمها إلى أمها. فقالت لها: يا بنتي، لعلَّه ما أرادك بسوء وهل هو إلاَّ يتيم؟ ومع هذا لم يذكر شيئاً يعيبك، فإيّاك أن تعلمي بذلك أحداً، فإنَّه ربَّما بلغ الخبر إلى السلطان، فيقصّر عمره ويخمد ذكره، ويجعل أثره كأمس الدابر والميت القابر. وشاع في بغداد حب كان ما كان لقضى فكان وتحدّثت به النسوان. ثم إنّ كان ما كان ضاق صدره وقلَّ صبره واشتغل باله، ولم يخف على الناس حاله، واشتهى أن يبوح بما في قلبه من لوعة البين. فخاف من غضبها وأنشد هذين البيتين: [من المتقارب]

إذا خِفْتَ يَوْماً عِتابَ التي تُغَيِّرُ أَخْلاقَها الصَّافِيَهْ
صَبَرْتَ عَلَيْها كَصَبْرِ الفَتَى عَلى الكَيِّ في طَلَبِ العافِيَهْ

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 139

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنّ الحاجب الكبير لما صار سلطاناً، سمّوه الملك ساسان. ثم إنه بلغه حب كان ما كان لقضى فكان، فندم على جعلهما معاً في محل واحد. ثم دخل على زوجته نزهة الزمان وقال: إنَّ الجمع بين الحلفة والنار لمن أعظم الأخطار. وليست الرجال على النساء بمؤتمنين ما دامت العيون في دعج والمعاطف في لين. وإن ابن أخيك كان ما كان قد بلغ مبلغ الرجال، فيجب منعه عن الدخول على ربّات الحجال، ومنع بنتك عن الرجال أوجب لأنَّ مثلها ينبغي أن يحجب. فقالت: صدقت أيها الملك العاقل والهمام الكامل. فلما أصبح الصباح، جاء كان ما كان ودخل على عمته نزهة الزمان على جري عادته، وسلَّم عليها فردّت السلام وقالت له: عندي لك كلام ما كنت أحب أن أقوله، ولكن أخبرك به رغماً عني. فقال لها: وما ذاك الكلام؟ قالت: إن الملك سمع بحبك لقضى فكان فأمر بحجبها عنك. وإذا كان لك حاجة، فأنا أرسلها إليك من خلف الباب، ولا تنظر قضى فكان. فلمَّا سمع كلامها، رجع ولم ينطق بحرف واحد، وأعلم والدته بما قالت عمته. فقالت له: إنما نشأ هذا من كثرة كلامك، وقد علمت أن حديث حبك لقضى فكان شاع وانتشر في كل مكان، وكيف تأكل زادهم وبعد ذلك تعشق بنتهم؟ فقال: إني أريد الزواج بها لأنها بنت عمي، وأنا أحقُّ بها.

فقالت له أمه : أسكت لئلا يصل الخبر إلى الملك ساسان فيكون ذلك سبباً لغرقك في بحر الأحزان . ولم يبعثوا لنا في هذه الليلة عشاء . ولو كنا في بلد غير هذه ، لمتنا من ألم الجوع أو ذلّ السؤال . فلمّا سمع كان ما كان كلام أمه ، زادت بقلبه الحسرات وأنشد هذه الأبيات : [من الطويل]

أَقِلِّي مِنَ اللَّومِ الذي لا يُفارِقُ فَقَلْبِي إلى مَنْ تَيَّمَتْنِي مُفارِقُ
ولا تَطْلُبِي عِنْدي مِنَ الصبْرِ ذَرَّةً فَصَبْرِي وبَيْتِ اللهِ مِنِّيَ طالِقُ
إذا سامَنِي اللُّوَّامُ نَهْياً عَصَيْتَهُمْ وها أَنا في دَعْوَى المَحَبَّةِ صادِقُ
وقَدْ مَنَعُونِي عَنْوَةً أَنْ أَزُورَها وإِنِّيَ والرَّحْمٰنُ ما أَنا فاسِقُ
وإنَّ عِظامِي حِينَ تَسْمَعُ ذِكْرَها تُشابِهُ طَيْراً خَلْفَهُنَّ بَواشِقُ
الا قُلْ لِمَنْ قَد لامَ في الحُبِّ أَنَّني وحَقِّ إلٰهِي بِنْتُ عَمِّيَ عاشِقُ

ولما فرغ من شعره قال لأمّه : ما بقي عند عمتي ولا عند هؤلاء القوم مقام ، بل أخرج من القصر وأسكن في أطراف المدينة بجوار قوم صعاليك ، ثم خرج وفعل كما قال . وصارت أمه تتردّد إلى بيت الملك ساسان ، وتأخذ منه ما تقتات به هي وإياه . ثم إن قُضي فكان اختلت بأم كان ما كان وقالت لها : يا امرأة عمي ، كيف حال ولدك ؟ فقالت : إنه باكي العين حزين القلب ليس له من أسر الغرام فكاك ، ومقتنص من هواك في اشراك . فبكت قضى فكان وقالت : والله ما هجرته بغضاً له ، ولكن خوفاً عليه من الأعداء . وعندي من الشوق أضعاف ما عنده . ولولا عثرات لسانه وخفقان جنانه ، ما قطع أبي عنه إحسانه وأولاه منعه وحرمانه . ولكن أيام الورى دول والصبر في كل الأمور أجمل ، ولعلّ من قضى بالفراق أن يمنّ علينا بالتلاق . ثم أفاضت دمع العين وأنشدت هذين البيتين : [من الوافر]

فَعِنْدي يا ابْنَ عَمِّي مِنْ غَرامِي كأَمْثالِ الَّذي قد حَلَّ عِنْدكْ
ولكِنِّي كَتَمْتُ النّاسَ وَجْدِي فَهلاَّ كُنْتَ أَنْتَ كَتَمْتَ وَجْدَكْ

فشكرتها أم كان ما كان وخرجت من عندها وأعلمت ولدها كان ما كان بذلك . فزاد شوقه إليها وقال : ما أبدلها من الحور بألفين . وأنشد هذين البيتين : [من الطويل]

فَواللهِ لا أُصْغِي إلى قَوْلِ لائمٍ ولا بِحْتُ بالسِّرِّ الَّذي كُنْتُ كاتما
وقَدْ غابَ عَنِّي مَنْ رَجَوْتُ وِصالَهُ فَكَمْ سَهِرَتْ عَيْنِي وقَد باتَ نائما

ثم مضت الأيام والليالي وهو يتقلَّب على جمر المقالي ، حتى مضى له من العمر سبعة عشر عاماً ، وقد كمل حسنه . ففي بعض الليالي أخذه السهر وقال في نفسه : ما لي أرى جسمي يذوب ؟ وإلى متى لا أقدر على نيل المطلوب وما لي عيب سوى عدم الجاه والمال ؟ ولكن عند الله بلوغ الأمال ، فينبغي أن أشرّد نفسي عن بلادها حتى تموت أو تحظى بمرادها . ثم أضمر على هذه العزمات وأنشد هذه الأبيات : [من الكامل]

دَعْ مُهْجَتِي تَزْدادُ في خَفَقانِها لَيْسَ التَّذَلُّلُ في الوَرَى مَنْ شأْنِها
واَعْذُر فإنَّ حَشاشَتِي كَصَحِيفَةٍ لا شَكَّ أَنَّ الدَّمْعَ مِنْ عُنْوانِها

هَا بِنْتُ عَمِّي قَد بَدَتْ حُورِيَّةً نَزلَتْ إلَيْنا عَنْ رِضَى رِضْوانِها
مَنْ رامَ أَلْحاظَ العُيُونِ مُعارِضاً! فَتَكاتِها لَمْ يَنْجُ مِنْ عُدْوانِها
سَأَسِيرُ في الأَرْضِ الوَسِيعَةِ مُنْقِذاً نَفْسِي وأَمْنَحُها سِوَى حِرْمانِها
وأَعُودُ مَسْرُورَ الفُؤادِ بِمَطْلَبِي وأُقابِلُ الأَبْطالَ في مَيْدانِها
ولَسَوْفَ أَسْتاقُ الغَنائِمَ عائِداً وأَصُولُ مُقْتَدِراً عَلَى أَقْرانِها

ثم إن كان ما كان خرج من القصر ماشياً حافياً في قميص قصير الأكمام، وعلى رأسه لبدة لها سبعة أعوام، وصحبته رغيف له ثلاثة أيام. حافياً سار في حندس الظلام حتى وصل إلى باب بغداد، فوقف هناك. ولمّا فتحوا باب المدينة كان هو أول خارج منه. ثم صار يقطع الأودية والقفار في ذلك النهار، ولما أتى الليل طلبته أمه فلم تجده. فضاقت عليها الدنيا باتساعها، ولم تلتذّ بشيء من متاعها، ومكثت تنتظره أول يوم وثاني يوم وثالث يوم إلى أن مضى عشرة أيام، فلم ترَ له خبراً. فضاق صدرها وبكت ونادت قائلة: يا مؤنسي، قد هيَّجت أحزاني حيث فارقتني وتركت أوطاني. يا ولدي، من أي الجهات أناديك؟ ويا هل ترى أي بلد تأويك؟ ثم صعدت الزفرات وأنشدت هذه الأبيات: [من الطويل]

عَلِمْنا بأَنَّا بَعْدَ غَيْبَتِكُم نُبْلا ومَدَّتْ قِسِيٌّ لِلفِراقِ لنا نَبْلا
وقَدْ خَلَّفُونِي بَعْدَ شَدِّ رِحالِهِمْ أُعالِجُ كَرْبَ المَوتِ إذ قَطَعُوا الرَّمْلا
لَقَدْ هَتَفَتْ بِي جُنْحَ لَيْلٍ حَمامَةٌ مُطَوَّقَةٌ ناحَتْ فقُلْتُ لها مَهْلاً
لَعَمْرُكَ لَو كانَتْ كَمِثْلِي حَزِينَةً لَما لَبِسَتْ طَوْقاً ولا خَضَّبَتْ رِجْلا
وفارَقَنِي إلْفِي فَأَلْفَيْتُ بَعْدَهُ دَواعِيَ هَمٍّ لا تُفارِقُنِي أَصْلا

ثم إنها امتنعت عن الطعام والشراب وزادت في البكاء والإنتحاب، وصار بكاؤها على رؤوس الأشهاد، واشتهر حزنها بين العباد والبلاد. وصار الناس يقولون: أين عينك يا ضوء المكان؟ ويا هل ترى ما جرى على كان ما كان حتى بعد عن وطنه وخرج من المكان، وكان أبوه يشبع الجيعان ويأمر بالعدل والأمان؟ ووصل خبر كان ما كان إلى الملك ساسان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 140

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك ساسان وصل إليه خبر كان ما كان، من الأمراء الكبار وقالوا له: إنه ولد ملكاً ومن ذريَّة الملك عمر النعمان، وقد بلغنا أنه تغرّب عن الأوطان. فلما سمع الملك ساسان هذا الكلام، اغتاظ غيظاً شديداً وتذكّر إحسان أبيه إليه وإنه أوصاه به. فحزن على كان ما كان وقال: لا بدّ من التفتيش عنه في سائر البلاد. ثم بعث في طلبه الأمير تركاش في مائة فارس. فغاب عشرة أيام ثم رجع وقال: ما اطلعت له على خبر ولا وقفت له على أثر. فحزن عليه الملك ساسان حزناً شديداً. وأما أمه، فإنها صارت لا يقرّ لها قرار ولا يطاوعها اصطبار، وقد مضى له عشرون يوماً. هذا ما كان من أمر هؤلاء. وأما ما كان من أمر كان ما كان، فإنَّه لما خرج من بغداد صار متحيّراً في أمره ولم يدر إلى أين يتوجّه. ثم إنه

سافر في البرّ ثلاثة أيام وحده ولم يرَ راجلاً ولا فارساً، فطار رقاده وزاد سهاده وتفكّر أهله وبلاده، وصار يتقوّت من نبات الأرض، ويشرب من أنهارها ويقيل وقت الحر تحت أشجارها. ثم خرج من تلك الطريق إلى طريق أخرى وسار فيها ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع أشرف على أرض معشّبة الفلوات، مليحة النبات. وهذه الأرض قد شربت من كؤوس الغمام على أصوات القمري والحمام. فاخضرَّت رباها وطاب فلاها. فتذكر كان ما كان بلاد أبيه، فأنشد من فرط ما هو فيه: [من المتقارب]

خَرَجْتُ وفي أَمَلِي عَوْدَةٌ ... ولَـكِنَّنِي لَسْتُ أَدْرِي مَتَى
وشُرِّدْتُ عَنْ وَطَنِي لَم أَجِدْ ... سَبِيلاً إلى دَفْعِ ما قَد أَتَى

فلما فرغ من شعره، أكل من ذلك النبات، وتوضأ وصلّى ما كان عليه من الفريضة وجلس يستريح، ومكث طول ذلك اليوم في ذلك المكان. فلما جاء الليل نام، واستمرّ نائماً إلى نصف الليل. ثم انتبه، فسمع صوت إنسان ينشد هذه الأبيات: [من الكامل]

ما العَيْشُ إلاَّ أَنْ يُرَى لَكَ بارِقٌ ... مِنْ ثَغْرِ مَنْ تَهْوَى ووَجْهٌ رائِقُ
والمَوْتُ أَسْهَلُ مِنْ صُدُودِ حَبِيبَةٍ ... لَمْ يَغْشَنِي مِنْها خَيالٌ طارِقُ
يا فَرْحَةَ النُّدَماءِ حَيْثُ تَجَمَّعُوا ... وأَقامَ مَعْشُوقٌ هُناكَ وعاشِقُ
لا سِيَّما وَقْتَ الرَّبِيعِ وزَهْرِه ... طابَ الزَّمانُ بِما إلَيْهِ تُسابِقُ
يا شارِبَ الصَّهْباءِ دُونَكَ ما تَرَى ... أَرْضٌ مُزَخْرَفَةٌ وماءٌ دافِقُ

فلما سمع كان ما كان هذه الأبيات، هاجت به الأشجان وجرت دموعه على خدّه كالغدران، وانطلقت في قلبه النيران. فقام ينظر قائل هذا الكلام فلم يرَ أحداً في جنح الظلام فأخذه القلق ونزل من مكانه إلى أسفل الوادي، ومشى على شاطىء النهر، فسمع صاحب الصوت يصعد الزفرات وينشد هذه الأبيات: [من البسيط]

إنْ كُنْتَ تُضْمِرُ ما في الحُبِّ إشْفاقاً ... فأَطْلِقِ الدَّمْعَ يَوْمَ البَيْنِ إطْلاقا
بَيْنِي وبَينَ أَحِبَّائِي عُهُودُ هَوَى ... لِذا إلَيْهِم أَظَلُّ الدَّهْرَ مُشْتاقا
يَرْتاحُ قَلْبِي إلى تَيْمٍ ويَطْرِبُنِي ... نَسِيمُ تَيْمٍ إذا ما هَبَّ أَشْواقا
يا سَعْدُ هَلْ رَبَّةُ الخَلْخالِ تَذْكُرُ لِي ... بَعْدَ البِعادِ لنا عَهْداً ومِيثاقا
وهَلْ تَعُودُ لَيالِي الوَصْلِ تَجْمَعُنا ... يَوْماً ويَشْرَحُ كُلٌّ بَعْضَ ما لاقَى
قالَتْ: فُتِنتَ بِنا وَجْداً فَقُلْتُ لها: ... كَمْ قَد فَتَنْتِ رَعاكِ اللهُ عُشّاقا
لا مَتَّعَ اللهُ طَرْفِي في مَحاسِنِها ... إنْ كانَ مِنْ بَعْدِها طِيبَ الكَرَى ذاقا
يا لَسْعَةً في فُؤادِي ما رَأَيْتُ لها ... إلاَّ الوِصالَ ورَشْفَ الثَّغْرِ تِرْياقا

فلما سمع كان ما كان هذه الأشعار من صاحب ذلك الصوت ثاني مرة ولم يرَ شخصه، عرف أن القائل مثله عاشق، منع عن الوصول إلى من يحبه. فقال في نفسه: لعلّي أجتمع بهذا فيشكو كل واحد منا لصاحبه، وأجعله أنيسي في غربتي. ثمّ تنحنح ونادى قائلاً: أيها السائر في الليل العاكر، تقرّب مني وقصّ قصتك عليَّ لعلك تجدني معيناً لك على بليّتك. فلما سمع

صاحب الصوت هذا الكلام اجابه قائلاً : أيها المنادي السامع لإنشادي ، مَنْ تكون من الفرسان ؟ وهل انت من الإنس أو من الجان ؟ فعجّل عليَّ بكلامك قبل دنوّ حمامك . فإنَّ لي عشرين يوماً وانا سائر في هذه البرية ، فلم أرَ شخصاً ولم اسمع صوتاً غير صوتك . فلمّا سمع كان ما كان هذا الكلام قال في نفسه : إن هذه القصة كقصتي . فإنَّ لي أيضاً عشرين يوماً وانا سائر ولم اسمع صوتاً . فقال له صاحب الصوت : إن كنت من الجان ، فاذهب بسلام . وإن كنت إنسياً ، فالبث ملياً حتى يطلع النهار ويذهب الليل بالإعتكار . فلمّا أصبح الصباح ، نظر إليه كان ما كان فوجده رجلاً من عرب البادية . فتقدَّم إليه وسلم عليه ، فردَّ البدوي عليه السلام وقابله بالتحية والإكرام . إلاَّ أنه احتقره لما رأى صغر سنه ، وحالته حالة فقير وقال له : يا فتى ، من أيّ القوم أنت وإلى مَنْ تنسب من العربان ؟ وما قصتك وأنت سائر بالليل ؟ فإنَّ هذا فعل الأبطال ، وقد كلمتني في الليل كلاماً لا يتكلم به إلاّ كل فارس همّام وبطل مصدام ، وقد صرت الآن في قبضتي . إلاَّ أني أرحمك لصغر سنك ، فاجعلك رفيقي وتكون عندي برسم خدمتي . فلمّا سمع كان ما كان فظاعة كلامه بعد ما أبداه من حسن نظامه ، عرف أنه أحتقره وطمع فيه فقال له بلين الكلام : يا وجه العرب ، دعنا من صغر سني وكوني أخدمك واخبرني عن سبب سيرك بالليل في القفار ، وإنشادك الأشعار . فما حملك على هذا ؟ فقال له : اسمع يا غلام ، إنني صباح بن رماح بن همّام ، وقومي من عرب الشام ، ولي بنت عمّ اسمها نجمة ، كل مَنْ رآها أتته النعمة . ومات والدي وتربَّيت عند عمي أبي نجمة . فلما كبرت وكبرت ، حجبها عني لما رآني فقير الحال قليل المال . فسقت عليه العرب الكبار وسادات القبائل ، فاستحى منهم وأجابني إلى زواجها ، إلاَّ أنه اشترط عليَّ خمسين رأساً من الخيل وخمسين ناقة وعشرة عبيد وعشر جوار وخمسين حملاً قمحاً ومثلها شعيراً ، وحمّلني ما لا أطيق ، وأكثر عليَّ الصداق . وها أنا أسافر من الشام إلى العراق ، ولي عشرون يوماً ما نظرت أحداً سواك . وقصدي أن أدخل أرض بغداد وأنظر من يخرج منها من التجار المياسير الكبار ، فأخرج في اثرهم وأسلب أموالهم وأقتل رجالهم وأسوق جمالهم وأحمالهم . فمن تكون أنت من الناس ؟ قال كان ما كان : إنّ قصَّتي كقصَّتك ، غير أنّ مرضي أخطر من مرضك ، لأنَّ ابنة عمي ابنة ملك ، وأهلها لا يكفيهم ما ذكرت ولا يرضيهم شيء مثل هذا . فقال صباح : لعلك مهبول أو من كثرة العشق مخبول . كيف تكون بنت عمك بنت ملك وأنت ما عليك سيمة الملوك وما أنت إلاّ صعلوك ؟ فقال : يا واحد العرب ، لا تستغرب هذا الحال على تصرفات الزمان . وإن شئت مني البيان ، فأنا كان ما كان ابن السلطان ضوء المكان ابن الملك عمر النعمان ، صاحب بغداد وأرض خراسان . وقد جار عليَّ الزمان وتسلطن الملك ساسان وخرجت من بغداد خفية لئلا يراني إنسان ، وسافرت في هذه الأرض عشرين يوماً ما رأيت أحداً غيرك . فقصتك كقصتي وطلبتك نظير طلبتي . فلمَّا سمع صباح ذلك الكلام صاح : وافرحتي قد بلغت منيتي ، وليس لي اليوم كسب غيرك ، لأنك من ذرية الملوك وإن كنت في زيّ صعلوك . فلا بدّ أن أهلك لايتركونك ، وإذا علموا مكانك بأموالهم يفدونك . فأدر كتافك يا غلامي وامشِ قدامي . فقال كان ما كان : لا تفعل يا أخا العرب ، لأن أهلي لا يشترونني بفضة ولا ذهب ، وأنا رجل فقير وما معي قليل ولا كثير . فدع عنك هذه الأخلاق واتخذني من الرفاق ، واخرج من ارض العراق لنجول في الآفاق ، لعلّنا نفوز بالمهر

والصداق ونحظى من بنتي عمّنا بالبوس والعناق. فلمَّا سمع صباح ذلك، غضب وزاد به الإلتهاب وقال له: ويلك أترادني في الجواب يا أخسّ الكلاب؟ أدر كتافك وإلاّ أنزلت عليك العذاب. فتبسَّم كان ما كان وقال: كيف أدير الكتاف؟ أمَا عندك إنصاف؟ أمَا تخشى معايرة العربان حيث تأسر غلاماً بالذلّ والهوان وما اختبرته في حومة الميدان، وما علمت أهو فارس أو جبان؟ فضحك صباح وقال: يا لله العجب، إنك في سن الغلام ولكنك كبير الكلام، لأنَّ هذا القول لا يصدر إلاّ عن البطل المصدام. فقال كان ما كان: الإنصاف أنَّك إذا شئت أخذي أسيراً خادماً لك أن ترمي سلاحك وتخفّف لباسك وتصارعني، وكل من صرع صاحبه بلغ منه مرامه وجعله غلامه. فضحك صباح وقال: ما أظن كثرة كلامك إلاّ لدنوّ حمامك. ثم رمى سلاحه وشمَّر أذياله ودنا من كان ما كان وتجاذبا، فوجده البدوي يرجح عليه كما يرجح القنطار على الدنيا، ونظر إلى ثبات رجليه في الأرض، فوجدهما كالمئذنتين المؤسستين أو الجبلين الراسخين. فعرف من نفسه قصر باعه وندم على الدنو من صراعه وقال في نفسه: ليتني قاتلته بسلاحي. ثم إن كان ما كان قبضه وتمكّن منه وهزّه، فحّس أن أمعاءه تقطّعت في بطنه فصاح: إمسك يدك يا غلام. فلم يلتفت إلى ما أبداه من الكلام بل حمله من الأرض وقصد به النهر. فناداه صباح قائلاً: يا أيها البطل، ما تريد أن تفعل بي؟ قال: أريد أن أرميك في هذا النهر فإنه يوصلك إلى الدجلة، والدجلة توصلك إلى نهر عيسى، ونهر عيسى يوصلك إلى الفرات، والفرات يلقيك إلى بلادك، فيراك قومك فيعرفونك ويعرفون مروءتك وصدق محبتك. فصاح صباح ونادى: يا فارس البطاح لا تفعل فعل القباح، أطلقني بحياة بنت عمك سيدة الملاح. فحطّه كان ما كان على الأرض. فلما رأى نفسه خالصاً ذهب إلى ترسه وسيفه وأخذهما وصار يشاور نفسه على الهجوم عليه. فعرف كان ما كان ما يشاور نفسه عليه فقال له: قد عرفت ما في قلبك حيث أخذت سيفك وترسك، فإنه قد خطر ببالك أنك ليس لك يد في الصراع تطول، ولو كنتَ على فرس تجول لكنت بسيفك عليَّ تصول. وها أنا أبلغك ما تختار حتى لا يبقى في قلبك إنكار، فاعطني الترس واهجم عليَّ بسيفك، فإمَّا أن تقتلني وإمَّا أن أقتلك. فرمى له الترس وجرَّد سيفه وهجم به على كان ما كان، فتناول الترس بيمينه وصار يلاقي به عن نفسه، وصار صباح يضربه ويقول له: ما بقي إلاّ هذه الضربة الفاصلة، فيتلقاها كان ما كان وتروح ضائعة. ولم يكن مع كان ما كان شيء يضرب به. ولم يزل صباح يضربه بالسيف حتى كلَّت يده، وعرف كان ما كان ضعف قوّته وانحلال عزيمته، فهجم عليه وهزَّه، وألقاه في الأرض وكتّفه بحمائل سيفه وجرَّه من رجليه إلى جهة النهر. فقال صباح: وما تريد أن تصنع بي يا فارس الزمان وبطل الميدان؟ قال: ألم أقل لك إنني أرسلك إلى قومك في النهر حتى لا يشتغل خاطرهم عليك وتتعوّق عن عرس بنت عمك؟ فتضجّر صباح وبكى وصاح وقال: لا تفعل يا فارس الزمان، واجعلني لك من بعض الغلمان. ثم أفاض دمع العين وأنشد هذين البيتين: [من الطويل]

تَغَرَّبْتُ عَنْ أَهْلِي فَيا طُولَ غُرْبَتِي ... ويا لَيْتَ شِعْرِي هَل أَمُوتُ غَرِيبا
أَمُوتُ وأَهْلِي لَيْس تَعْرِفُ مَقْتَلِي ... وأُودَى غَرِيباً لا أَزُورُ حَبِيبا

فرحمه كان ما كان، وأطلقه بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق أنه يصحبه في الطريق ويكون له نِعم الرفيق. ثم إن صباحاً أراد أن يقبّل يد كان ما كان فمنعه من تقبيلها، ثم قام البلوي إلى

جرابه وفتحه، وأخذ منه ثلاث قرصات شعير وحطّها قدام كان ما كان وجلس معه على شاطىء النهر. وأكلا مع بعضهما ثم توضّآا وصلّيا وجلسا يتحدّثان فيما لقياه من صروف الزمان. فقال كان ما كان للبدوي: أين تقصد؟ فقال صباح: أقصد بغداد بلدك وأقيم بها حتى يرزقني الله بالصداق. فقال له: دونك والطريق. ثم ودّعه البدوي وتوجه في طريق بغداد، وقام كان ما كان وقال في نفسه: يا نفسي، أيّ وجه للرجوع مع الفقر والفاقة؟ فوالله لا أرجع خائباً، ولا بدّ لي من الفرج إن شاء الله. ثم تقدم إلى النهر وتوضأ وصلّى. فلمّا سجد ووضع جبهته على التراب نادى ربّه قائلاً: اللّهم منزل القطر ورازق الدود في الصخر، أسألك أن ترزقني بقدرتك ولطيف رحمتك. ثم سلم من صلاته وضاق به كل مسلك. فبينما هو جالس يلتفت يميناً وشمالاً، وإذا بفارس أقبل على جواد وقد اقتعد ظهره وأرخى عنانه، فاستوى كان ما كان جالساً. وبعد ساعة، وصل إليه الفارس وهو في آخر نفس، لأنه كان به جرح بالغ. فلمّا وصل إليه، جرت دمعة على خدّه مثل أفواه القرب وقال لكان ما كان: يا وجه العرب، اتّخذني ما عشت لك صديقاً فإنك لا تجد مثلي. واسقني قليلاً من الماء، وإن كان شرب الماء لا يصلُح للجروح سيّما وقت خروج الروح. وإن عشت، أعطيتك ما يدفع فقرك. وإن متُّ، فأنت المسعود بحسن نيتك. وكان تحت الفارس حصان يتحيَّر في حسنه الإنسان ويكلُّ عن وصفه اللسان، وله قوائم مثل أعمدة الرخام معدّ ليوم الحرب والزحام. فلمّا نظر كان ما كان إلى ذلك الحصان، أخذه الهيام وقال في نفسه: إن مثل هذا الحصان لا يكون في هذا الزمان. ثم إنه أنزل الفارس ورفق به وجرعه يسيراً من الماء، ثم صبر عليه حتى أخذ الراحة وأقبل عليه وقال له: من الذي فعل بك هذه الفعال؟ فقال الفارس: أنا أخبرك بحقيقة الحال. إني رجل سلاّل غيّار، طول دهري أسلُّ الخيل واختلسها في الليل والنهار. واسمي غسان، آفة كل فرس وحصان. وقد سمعت بهذا الحصان في بلاد الروم عند الملك أفريدون وقد سمّاه بالقاتول ولقّبه بالمجنون. وقد سافرت إلى القسطنطينية من أجله، وصرت أراقبه. فبينما أنا كذلك، إذ خرجت عجوز معظّمة عند الروم، وأمرها عندهم في الخداع متناهي تسمّى شواهي ذات الدواهي، ومعها هذا الجواد وصحبتها عشرة عبيد لا غير برسم خدمة ذلك الحصان. وهي تقصد بغداد وتريد الدخول على الملك ساسان لتطلب منه الصلح والأمان. فخرجت في أثرهم طمعاً في الحصان، وما زلت تابعهم ولا أتمكّن من الوصول إليه لأن العبيد شداد الحرص عليه، إلى أن وصلوا إلى تلك البلاد وخفت أن يدخلوا مدينة بغداد. فبينما أنا أشاور نفسي في سرقة الحصان، إذ طلع عليهم غبار حتى سدّ الأقطار، ثم انكشف ذلك الغبار عن خمسين فارساً مجتمعين لقطع الطريق على التجّار ورئيسهم يقال له: كهرداش. ولكنه في الحرب كأسد يجعل الأبطال كالفراش. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 141

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الفارس المجروح قال لضوء المكان: فخرج على العجوز ومَنْ معها كهرداش، ثم أحاط بهم وهاش وناش. فلم تمض ساعة حتى ربط العشرة عبيد والعجوز وتسلّم الحصان وسار بهم وهو فرحان. فقلت في نفسي: قد ضاع تعبي وما بلغت أربي. ثم صبرت حتى أنظر ما يؤول إليه الأمر، فلما رأت

العجوز روحها في الأسر، بكت وقالت لكهرداش : أيها الفارس الهمّام والبطل الضرغام، ماذا تصنع بالعجوز والعبيد وقد بلغت من الحصان ما تريد؟ وخادعته بلين الكلام وحلفت أنها تسوق له الخيل والأنعام . فأطلقها هي والعبيد، ثم سار هو وأصحابه وتبعتهم حتى وصلت إلى هذه الديار وأنا ألاحظه، فلمّا وجدت إليه سبيلاً سرقته وركبته وأخرجت من مخلاتي سوطاً فضربته . فلمّا أحسُّوا بي لحقوني وأحاطوا بي من كل مكان ورموني بالسهام والسنان، وأنا ثابت عليه، وهو يقاتل عنّي بيديه ورجليه، إلى أن خرج بي من بينهم مثل النجم الطارق والسهم الراشق . ولكن لما اشتد الكفاح أصابني بعض الجراح، وقد مضى لي على ظهره ثلاثة أيام لم أستطعم بطعام، وقد ضعفت مني القوى وهانت عليّ الدنيا، وأنت أحسنت إليّ وشفقت عليّ .
وأراك عاري الجسد ظاهر الكمد، ويلوح عليك أثر النعمة . فما يقال لك؟ فقال : أنا يقال لي كان ما كان ابن الملك ضوء المكان، ابن الملك عمر النعمان، قد مات والدي وربيت يتيماً وتولّى بعده رجل لئيم، وصار ملكاً على الحقير والعظيم . ثم حدَّثه بحديثه من أوله إلى آخره . فقال الرجل السلاّل وقد رقّ له : إنك ذو حسب عظيم وشرف جسيم، وليكن لك شأن وتصير أفرس هذا الزمان . فإن قدرت أن تحملني وتركب ورائي وتودّيني إلى بلادي، يكن لك الشرف في الدنيا والأجر في يوم التنادي . فإنه لم يبقَ لي قوة أمسك بها نفسي . وإن متّ في الطريق، فزت بهذا الحصان وأنت أولى به من كل إنسان . فقال له كان ما كان : والله لو قدّرت أن أحملك على أكتافي لفعلت، ولو كان عمري بيدي لأعطيتك نصفه من غير هذا الجواد، لأني من أهل المعروف وإغاثة الملهوف، وفعل الخير لوجه الله تعالى يسد سبعين باب من البلاء . وعزم على أن يحمله على الحصان ويسير متوكلاً على اللطيف الخبير . فقال له : إصبر عليّ قليلاً . ثم أغمض عينيه وفتح يديه وقال : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمّداً رسول الله . وتهيّأ للممات وأنشد هذه الأبيات : [من المتقارب]

ظَلَمْتُ العِبادَ وطُفْتُ البِلادَ	وأَمْضَيْتُ عُمْرِي بِشُرْبِ الخُمُورِ
وخُضْتُ السُّيُولَ لِسلِّ الخُيُولِ	وهَدْمِ الطُّلُولِ بِفِعْلِ النُّكُورِ
وأَمْرِي عَظِيمٌ وجُرْمِي جَسِيمٌ	وقاتُولُ مِنِّي تَمامُ الأُمُورِ
وأَمَّلْتُ أَنِّي أَنالُ المُنَى	بذاكَ الحِصانِ فَأَعْيا مَسِيرِي
وطُولَ الحَياةِ أَسَلُّ الخُيُولَ	فَكانَتْ وفاتِي عِنْدَ القَدِيرِ
وآخِرُ أَمْرِي شَقِيتُ تَعِبْتُ	لِرِزْقِ الغَرِيبِ اليَتِيمِ الفَقِيرِ

فلمَّا فرغ من شعره، أغمض عينيه وفتح فاه وشهق شهقة، ففارق الدنيا . فحفر له كان ما كان حفرة وواراه في التراب . ثم مسح وجه الحصان ورآه لا يوجد في حوزة الملك ساسان . ثم أتته الأخبار من التجار بجميع ما جرى في غيبته بين الملك ساسان والوزير دندان، وأن الوزير دندان خرج عن طاعة الملك ساسان هو ونصف العسكر، وحلفوا أنهم ما لهم سلطان إلاّ كان ما كان . واستوثق منهم بالايمان، ودخل بهم إلى جزائر الهند والبربر وبلاد السودان، واجتمعَ معهم عساكر مثل البحر الزاخر لا يعرف لهم أول من آخر . وعزم على أن يرجع بجميع الجيوش إلى البلاد ويقتل من خالفه من العباد، وأقسم على أنه لا يرد سيف الحرب إلى غمده حتى يملك كان

ما كان . فلمَّا بلغته هذه الأخبار ، غرق في بحر الأفكار . ثم إن الملك ساسان علم أن الدولة انحرفت عليه الكبار والصغار ، فغرق في بحر الهموم والأكدار ، وفتح الخزائن وفرَّق على أرباب الدولة الأموال والنعم ، وتمنى أن يقدم عليه كان ما كان ويجذب قلبه إليه بالملاطفة والإحسان ، ويجعله أميراً على العساكر الذين لم يزالوا تحت طاعته لتقوى به شرارة جمرته . ثم إنَّ كان ما كان ، لما بلغه ذلك الخبر من التجار ، رجع مسرعاً إلى بغداد على ظهر ذلك الجواد . فبينما الملك ساسان في ربكته حيران ، إذ سمع بقدوم كان ما كان . فأخرج جميع العساكر ووجهاء بغداد لملاقاته ، فخرج كل من في بغداد ولاقوه ومشوا قدّامه إلى القصر . ودخلت الطواشية بالأخبار إلى أمه ، فجاءت إليه وقبَّلته بين عينيه . فقال : يا أماه ، دعيني أمضي إلى عمي السلطان ساسان الذي غمرني بالنعمة والإحسان . ثم إن أرباب الدولة تحيَّروا في وصف ذلك الحصان وفي وصف صاحبه سيِّد الفرسان وقالوا للملك ساسان : أيها الملك ، إننا ما رأينا مثل هذا الإنسان . ثم ذهب الملك ساسان إليه وسلَّم عليه ، فلما رآه كان ما كان مقبلاً عليه ، قام إليه وقبَّل يديه ورجليه وقدَّم إليه الحصان هدية . فرحَّب به وقال : أهلاً وسهلاً بولدي كان ما كان ، والله لقد ضاقت بي الأرض لأجل غيبتك والحمد لله على سلامتك . ثم نظر السلطان إلى هذا الحصان المسمّى بالقاتول ، فعرف أنه الحصان الذي كان رآه سنة كذا وكذا في حصار عبدة الصلبان مع أبيه ضوء المكان ، حين قتل عمّه شركان وقال له : لو قدر عليه أبوك ، لاشتراه بألف جواد . ولكن الآن عاد العز إلى أهله وقد قبلناه ، ومنّا لك وهبناه ، وأنت أحقّ به من كل إنسان لأنّك سيِّد الفرسان . ثم أمر أن يحضروا لكان ما كان خلعة سنيّة وجملة من الخيل ، وأفرد له في القصر أكبر الدور وأقبل عليه العز والسرور ، وأعطاه مالاً جزيلاً وأكرمه غاية الإكرام ، لأنه كان يخشى عاقبة أمر الوزير دندان . ففرح بذلك كان ما كان وذهب عنه الذلّ والهوان . ودخل بيته وأقبل على أمه وقال : يا أمي ، ما حال ابنة عمي ؟ فقالت : والله يا ولدي ، إنه كان عندي من غيبتك ما أشغلني عن محبوبتك . فقال : يا أمي ، إذهبي إليها واقبلي عليها لعلَّها تجود عليَّ بنظرة . فقالت له : إن المطامع تذلّ أعناق الرجال ، فدع عنك هذا المقال لئلا يفضي بك إلى الوبال . فأنا لا أذهب إليها ولا أدخل بهذا الكلام عليها . فلما سمع من أمه ذلك ، أخبرها بما قاله السلاّل من أن العجوز ذات الدواهي طرقت البلاد وعزمت على أن تدخل بغداد . وقال : هي التي قتلت عمي وجدي ، ولا بدّ أن أكشف العار وآخذ الثأر . ثم ترك أمه وأقبل على عجوز عاهرة محتالة ماكرة اسمها سعدانة ، وشكى إليها حاله وما يجده من حب قضى فكان ، وسألها أن تتوجّه إليها وتستعطفها عليه . فقالت له العجوز : سمعاً وطاعةً . ثم فارقته ومضت إلى قصر قضى فكان ، واستعطفت قلبها عليه ، ثم رجعت إليه وأعلمته بأن قضى فكان تسلّم عليه ووعدتها أنها في نصف الليل تجيء إليه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 142

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن العجوز رجعت إلى كان ما كان وأعلمته بأن قضى فكان تسلّم عليه ووعدتها أنها في نصف الليل تجيء إليه . فلمَّا بلغه ذلك الخبر ، فرح لوعد ابنة عمه قضى فكان . فلمَّا جاء نصف الليل ، أتته بملاءة سوداء من الحرير ودخلت عليه ونبّهته من نومه وقالت له : كيف تدَّعي أنك تحبني وأنت خليّ البال نائم على حسن

الحال ؟ فانتبه وقال : والله يا منية القلب ، إني ما نمت إلاّ طمعاً في أن يزورني منك طيف الخيال . فعند ذلك عاتبته بلطيف الكلمات ، وأنشدت هذه الأبيات : [من مجزوء الكامل]

لَو كُنتَ تَصْدُقُ في المَحَبْـ ـبَةِ ما جَنَحْتَ إلى المَنامِ
يا مُدَّعِي طُرُقَ المَحَبْـ ـبَةِ في المَوَدَّةِ والغَرامِ
واللهِ يا آبْنَ العَمِّ ما رَقَدَتْ عُيُونُ المُسْتَهامِ

فاستحى منها كان ما كان وتعانقا وتشاكيا ألم الفراق وعظيم الوجد والاشتياق ، ولم يزالا كذلك إلى أن بدت غرّة الصباح وطلع الفجر ولاح . فبكى كان ما كان بكاءً شديداً ، وصعد الزفرات وأنشد هذه الابيات : [من الطويل]

فَيا زائِري مِنْ بَعْدِ فَرْطِ صدُودِه وفي الثَّغْرِ مِنْهُ الدُّرُّ في نَظْمِ عَقْدِه
فَقَبَّلْتُهُ أَلْفاً وعانَقْتُ قَدَّه وبِتُّ وخَدِّي لاصِقٌ تَحْتَ خَدِّه
إلى أَنْ بَدا نُورُ الصَّباحِ فَراعَنا كَحَدِّ حُسامٍ لاحَ مِنْ جَوْفِ غِمْدِه

فلمّا فرغ من شعره ، ودَّعته قضى فكان ورجعت إلى خدرها ، وأظهرت بعض الجواري على سرّها . فذهبت جارية منهن إلى الملك ساسان وأعلمته بالخبر . فتوجّه إلى قضى فكان وجرَّد عليها الحسام وأراد أن يضرب عنقها ، فدخلت عليه أمها نزهة الزمان وقالت له : بالله لا تفعل بها ضرراً ، فإنَّك إن فعلت بها ضرراً ، يشيع الخبر بين الناس وتبقى معيرة عند ملوك الزمان . إن كان ما كان صاحب عرض ومروءة ولا يفعل أمراً يعاب عليه ، فاصبر ولا تعجل ، فإنَّ أهل القصر وجميع أهل بغداد قد شاع عندهم أن الوزير دندان قاد العساكر من جميع البلدان وجاء بهم ليملّكوا كان ما كان . فقال لها : لا بدَّ أن أرميه في بلية ، بحيث لا أرض تقله ولا سماء تظله . وإني ما طيبت خاطره ولا أنعمت عليه إلاَّ لأجل أهل مملكتي ، لئلا يميلوا إليه ، وسوف ترين ما يكون . ثم تركها وخرج يدبر أمر مملكته . هذا ما كان من أمر الملك ساسان . وأمَّا ما كان من أمر كان ما كان ، فإنَّه أقبل على أمه في ثاني يوم وقال لها : يا أمي ، إني عزمت على شن الغارات وقطع الطرقات وسوق الخيل والنعم والعبيد والمماليك . وإذا كثر مالي وحسن حالي ، خطبت قضى فكان من عمي ساسان . فقالت : يا ولدي ، إن أموال الناس غير سائبة ، لأنَّ دونها ضرب الصفاح وطعن الرماح ، ورجال تقتنص الأسود وتصيد الفهود . فقال لها كان ما كان : هيهات أن أرجع عن عزيمتي إلاّ إذا بلغت منيتي . ثم أرسل العجوز إلى قضى فكان ليعلمها أنه يريد السير حتى يحصّل لها مهراً يصلح لها . وقال للعجوز : لا بدّ أن تأتيني منها بجواب . فقالت له : سمعاً وطاعةً . ثم ذهبت إليها ورجعت له بالجواب وقالت له : إنها في نصف الليل تكون عندك . فأقام سهران إلى نصف الليل من قلقه ، ولم يشعر إلاّ وهي داخلة عليه وتقول له : روحي فداك من السهر . فنهض لها قائماً وقال : يا منية القلب ، روحي فداك من جميع الأسواء . ثم أعلمها بما عزم عليه ، فبكت . فقال : لا تبكي يا بنت العم ، فأنا أسأل الذي حكم علينا بالفراق أن يمنَّ علينا بالتلاقي والوفاق . ثمَّ إن كان ما كان أخذ في السفر ودخل على أمه وودَّعها ، ونزل من القصر وتقلّد بسيفه وتعمّم وتلثّم ، وركب جواده القاتول ومشى في شوارع المدينة وهو كالبدر ، حتى

وصل إلى باب بغداد . وإذا برفيقه صباح بن رباح خارج من المدينة . فلمَّا رآه ، جرى في ركابه وحيّاه . فردّ عليه السلام . فقال صباح : يا أخي ، كيف صار لك هذا الجواد وهذا المال ، وأنا الآن لا أملك غير سيفي ؟ فقال له كان ما كان : ما يرجع الصيّاد إلاّ بصيد على قدر نيَّته . وبعد فراقك بساعة حصلت لي السعادة . وهل لك أن تأتي معي وتتخلص النيّة في صحبتي ونسافر في تلك البرية ؟ فقال : وربّ الكعبة ، ما بقيت أدعوك إلاّ مولاي . ثم جرى قدام الجواد وسيفه على عاتقه وجرابه بين كتفيه . ولم يزالا سائرين في البرّ أربعة أيام ،وهما يأكلان من صيد الغزلان ويشربان من ماء العيون . وفي اليوم الخامس اشرفا على تل عال ، تحته مرابع فيها إبل وغنم وبقر وخيل قد ملأت الروابي والبطاح ، وأولادها الصغار تلعب حول المراح . فلمَّا رأى ذلك كان ما كان ، زادت به الأفراح وامتلأ صدره بالإنشراح ، وعوَّل على القتال وأخذ النياق والجمال . فقال لصباح : إنزل بنا على هذا المال الذي عن أهله وحيد ، ونقاتل دونه القريب والبعيد حتى يكون لنا في أخذه نصيب . فقال صباح : يا مولاي ، إن أصحابه خلق كثير وجمّ غفير ، وفيهم أبطال من فرسان ورجال . وإنْ رمينا أرواحنا في هذا الخطب الجسيم فإننا نكون من هوله على خطر عظيم . فضحك كان ما كان ، وعلم أنه جبان . فتركه وانحدر من الرابية عازماً على شن الغارات ، وترنّم بإنشاد هذه الأبيات : [من المنسرح]

وآلُ نُعْمانَ نَحْنُ ذُو الهِمَمِ — والسَّادَةُ الضَّارِبُونَ في القِمَمِ
قَومٌ إذا ما الهِياجُ قامَ لَهُمُ — قامُوا بأَسْواقِهِ على قَدَمِ
تَنامُ عَيْنا الفَقِيرِ بَيْنَهُمُ — ولا يَرَى قُبْحَ صُورَةَ العَدَمِ
وإنَّنِي أَرْتَجِي مُعاوَنَةً — مِنْ مالِكِ المُلْكِ بارِىءِ النَّسَمِ

ثم حمل على ذلك المال مثل الجمل الهايج ، وساق جميع الأبل والبقر والغنم والخيل قدّامه . فتبادرت إليه العبيد بالسيوف الصقال والرماح الطوال ، وفي أوَّلهم فارس تركي ، إلاَّ أنه شديد الحرب والكفاح ، عارف بأعمال سمر القنا وبيض الصفاح . فحمل على كان ما كان وقال له : ويلك ، لو علمت لمن هذا المال ما فعلت هذه الفعال . أعلم أن هذه الأموال للعصابة الرومية والفرقة الجركسية ، الذين ما فيهم إلاَّ كل بطل عابس ، وهم مائة فارس قد خرجوا عن طاعة كل سلطان . وقد سرق منهم حصان وحلفوا أن لا يرجعوا من هنا إلاّ به . فلمَّا سمع كان ما كان هذا الكلام ، صاح قائلاً : هذا هو الحصان الذي تعنون وأنتم له طالبون وفي قتالي بسببه راغبون . فبارزوني كلكم أجمعون وشأنكم وما تريدون . ثم صرخ بين أذني القاتول فخرج عليهم مثل الغول ، وعطف على الفارس وطعنه فأخرج كلاه ، ومال على ثان وثالث ورابع أعدمهم الحياة . فعند ذلك هابته العبيد . فقال لهم : يا بني الزواني ، سوقوا المال والخيول وإلاّ خضبت من دماكم سناني . فساقوا المال وأخذوا في الانطلاق ، وانحدر إليه صباح وأعلن بالصياح وزادت به الأفراح . وإذ بغبار علا وطار حتى سدّ الأقطار ، وبان من تحته مائة فارس مثل الليوث العوابس . فلما رآهم صباح ، فرَّ إلى الرابية وترك البطاح وصار يتفرّج على الكفاح وقال : ما أنا فارس إلاَّ في اللعب والمزاح . ثم إن المائة فارس داروا حول كان ما كان وأحاطوا به من كل مكان . فتقدَّم إليه فارس منهم وقال له : أين تذهب بهذا المال ؟ فقالَ له كان ما كان : دونك والقتال ، واعلم أن

من دونه أسد أروع وبطل سميدع وسيف أينما مال قطع . فلما سمع الفارس ذلك الكلام ، التفت إليه فرآه فارساً كالأسد الضرغام ، إلاّ أن وجهه كبدر التمام . وكان ذلك الفارس رئيس المائة فارس واسمه كهرداش . فلما رأى كان ما كان مع كمال فروسيته، بديع المحاسن يشبه حسنه حسن معشوقة له يقال لها فاتن ، وكانت من أحسن النساء وجهاً، قد أعطاها الله من الحسن والجمال وكرم الخصال ما يعجز عن وصفه اللسان ويشغل قلب كل إنسان . وكانت فرسان القوم تخشى سطوتها، وأبطال ذلك القطر تخاف من هيبتها، وحلفت أنها لا تتزوج إلاّ من يقهرها . وكان كهرداش من جملة خطّابها . فقالت لأبيها : ما يقربني إلاّ من يقهرني في الميدان وموقف الحرب والطعان . فلمّا بلغ كهرداش هذا القول اختشى أن يقاتل جارية وخاف من العار . فقال له بعض خواصه : أنت كامل الخصال في الحسن والجمال ، فلو قاتلتها وكانت أقوى منك ، فإنك تغلبها . لأنها إذا رأت حسنك وجمالك تنهزم قدّامك حتى تملكها . لأن النساء لهنّ غرض في الرجال ولا يخفى عنك هذا الحال . فأبى كهرداش وامتنع من قتالها، واستمرَّ على امتناعه من القتال إلى أن جرت له مع كان ما كان هذه الأفعال ، فظن أنه محبوبته فاتن وقد عشقته لما سمعت بحسنه وشجاعته . فتقدم إلى كان ما كان وقال : ويلك يا فاتن ، قد أتيت لتريني شجاعتك ، فانزلي عن جوادك حتى أتحدث معك . فإني قد سقت هذه الأموال وقطعت الطريق على الفرسان والأبطال ، كل هذا لحسنك وجمالك الذي ما له مثيل . وتزوّجيني حتى تخدمك بنات الملوك وتصيري ملكة هذه الأقطار . فلمّا سمع كان ما كان هذا الكلام ، صارت نار غيظه في اضطرام وقال : ويلك يا كلب الأعجام ، دع فاتناً وما به ترتاب وتقدم إلى الطعن والضراب ، فعن قليل تبقى على التراب . ثم جال وصال وطلب الحرب والنزال ، فلما نظر كهرداش إليه علم أنه فارس همّام وبطل مصدام ، وتبيّن له خطأ ظنه حيث لاح له عذار أخضر فوق خدّه كآس نبت خلال ورد أحمر ، وقال للذين معه : ويلكم ، ليحمل واحد منكم عليه ويظهر له السيف البتّار والرمح الخطار ، واعلموا أن قتال الجماعة للواحد عار ولو كان في سنان رمحه شعلة نار . فعند ذلك حمل عليه فارس ، تحته جواد أدهم بتجعيل وغرة كالدرهم ، يحيّر العقل والناظر كما قال فيه الشاعر : [من الكامل]

قَدْ جاءَكَ المُهْرُ الذي نَزِلَ الوَغَى جَزْلانَ يَخْلِطُ أَرْضَهُ بِسَمائِهِ
وكأنَّما لَطَمَ الصَّباحُ جَبِينَهُ وأَقْتَصَّ مِنْهُ فَخاضَ في أَحْشائِهِ

ثم إن ذلك الفارس حمل على كان ما كان، وتجاولا في الحرب برهة من الزمان، وتضاربا ضرباً يحيّر الأفكار ويغشي الأبصار . فسبقه كان ما كان بضربة بطل شجاع قطعت منه العمامة والمغفر، فمال عن الجواد كأنه البعير إذا انحدر . وحمل عليه الثاني والثالث والرابع والخامس ، ففعل بهم كالأول . ثم حمل عليه الباقون وقد اشتد بهم القلق وزادت الحرق . فما كان إلاّ ساعة، حتى التقطهم بسنان رمحه . فنظر كهرداش إلى هذا الحال ، فخاف من الإرتحال وعرف من نفسه أن عنده ثبات الجنان ، واعتقد أنه أوحد الأبطال والفرسان . فقال لكان ما كان : قد وهبت لك دمك ودم أصحابي ، فخذ من المال ما شئت واذهب إلى حال سبيلك ، فقد رحمتك لحسن ثباتك والحياة أولى بك . فقال له كان ما كان : لا عدمت مروءة الكرام ، ولكن أترك عنك

هذا الكلام وفز بنفسك ولا تخش الملام ، ولا تطمع نفسك في ردّ الغنيمة واسلك لنجاة نفسك طريقة مستقيمة . فعند ذلك اشتد بكهرداش الغضب وحصل عنده ما يوجب العطب . فقال لكان ما كان : ويلك ، لو عرفت من أنا ما نطقت بهذا الكلام في حومة الزحام . فاسأل عني ، فأنا الأسد البطّاش المعروف بكهرداش ، الذي نهب الملوك الكبار وقطع الطريق على جميع السفار وأخذ أموال التجار . وهذا الحصان الذي تحتك طلبتي ، وأريد أن تعرفني كيف وصلت إليه حتى استوليت عليه . فقال : أعلم أن هذا الجواد كان سائراً إلى عمي الملك ساسان تحت عجوز كبيرة ، ولنا عندها ثأر من جهة جدي الملك عمر النعمان وعمي الملك شركان . فقال كهرداش : ويلك ، ومن أبوك لا أم لك ؟ فقال : اعلم أني كان ما كان بن ضوء المكان بن عمر النعمان . فلما سمع كهرداش هذا الخطاب قال : لا يستنكر عليك الكمال والجمع بين الفروسية والجمال . ثم قال له : توجّه بأمان ، فإن أباك كان صاحب فضل وإحسان . فقال له كان ما كان : أنا والله ما أوقرك يا مهان . فاغتاظ البلوي . ثم حمل كل منهما على صاحبه ، فسدت لهما الخيل آذانها ورفعت اذنابها ، ولم يزالا يصطدمان حتى ظن كل منهما أن السماء قد انشقّت . ثم بعد ذلك تقاتلا ككباش النطاح واختلفت بينهما طعنات الرماح ، فحاوله كهرداش بطعنة ، فزاغ عنها كان ما كان ثم كرَّ عليه وطعنه في صدره فأطلع السنان منْ ظهره ، وجمع الخيل والأسلاب وصاح في العبيد : دونكم والسوق الشديد . فنزل عند ذلك صباح وجاء إلى كان ما كان وقال له : أحسنت يا فارس الزمان ، إني دعوت لك وقد استجاب ربي دعائي . ثم إن صباحاً قطع رأس كهرداش . فضحك كان ما كان وقال له : ويلك يا صباح ، كنت أظن أنك فارس الحرب والكفاح . فقال له : لا تنس عبدك من هذه الغنيمة ، لعلّي أصل بسببها إلى زواج بنت عمي نجمة . فقال له : لا بدّ لك فيها من نصيب ولكن ، كن محافظاً على الغنيمة والعبيد . ثم إن كان ما كان سار متوجّهاً إلى الديار ، ولم يزل سائراً بالليل والنهار حتى أشرف على مدينة بغداد وعلمت به جميع الأجناد ، ورأوا ما معه من الغنيمة والأموال ورأس كهرداش على رمح صباح . وعرف التجار رأس كهرداش ففرحوا وقالوا : لقد أراح الله الخلق منه ، لأنه كان قاطع الطريق . وتعجّبوا من قتله ودعوا لقاتله . وأتت أهل بغداد إلى كان ما كان بما جرى من الأخبار ، فهابته جميع الرجال وخافته الفرسان والأبطال . وساق ما معه إلى أن أوصله تحت القصر ، وركزَّ الرمح الذي عليه رأس كهرداش إلى باب القصر ، ووهب للناس وأعطاهم الخيل والجمال . فأحبه أهل بغداد ومالت إليه القلوب . ثم أقبل على صباح ، وأنزله في بعض الأماكن الفساح . ثم دخل على أمه وأخبرها بما جرى له في سفره وقد وصل إلى الملك خبره ، فقام من مجلسه واختلى بخواصه وقال لهم : أعلموا أني أريد أن أبوح لكم بسرّي وأبدي لكم مكنون أمري . أعلموا أن كان ما كان ، هو الذي يكون سبباً لانقلاعنا من هذه الأوطان لأنه قتل كهرداش ، مع أنَّ له قبائل من الأكراد والأتراك ، وأمرنا معه آيل إلى الهلاك ، وأكثر خوفنا من أقاربه ، وقد علمتم بما فعل الوزير دندان . فإنه جحد معروفي بعد الإحسان وخانني في الإيمان ، وبلغني أنه جمع عساكر البلدان وقصد أن يسلطن كان ما كان ، لأن السلطنة كانت لأبيه وجدّه ، ولا شك أنه قاتلي بلا محالة . فلما سمع خواص مملكته منه هذا الكلام فقالوا له : أيها الملك : إنه أقل من ذلك ، ولولا أننا علمنا بأنه تربيتك لم يقبل عليه منّا أحد . واعلم أننا بين يديك ، إن شئت قتله قتلناه وإن شئت بعده

أبعدناه . فلما سمع كلامهم قال : إن قتله هو الصواب ، ولكن لا بدّ من أخذ الميثاق . فتحالفوا على أنهم لا بدّ أن يقتلوا كان ما كان . فإذا أتى الوزير دندان وسمع بقتله ، تضعف قوّته عمّا هو عازم عليه . فلمّا أعطوه العهد والميثاق على ذلك ، أكرمهم غاية الإكرام . ثم دخل بيته وقد تفرّق عنه الرؤساء وامتنعت العساكر من الركوب والنزول حتى يبصروا ما يكون ، لأنهم رأوا غالب العسكر مع الوزير دندان . ثم إن ذلك الخبر وصل إلى قضى فكان ، فحصل عندها غمّ زائد ، وأرسلت إلى العجوز التي عادتها أن تأتيها من عند ابن عمها بالأخبار . فلما حضرت عندها أمرتها أن تذهب إليه وتخبره بالخبر . فلما وصلت إليه العجوز سلّمت عليه ، ففرح بها وأخبرته بالخبر . فلما سمع ذلك قال : بلّغي بنت عمي سلامي وقولي لها : إن الأرض لله عزّ وجل ، يورثها مَنْ يشاء من عباده . وما أحسن قول القائل : [من البسيط]

المُلْكُ للهِ مَنْ يَظْفَرْ بِنَيْلِ مُنًى ... يَرْدِدْهُ قَهْراً ويَضْمَنْ عِنْدَهُ الدَّرَكا
لَوْ كانَ لي أَو لِغَيْرِي قَدْرُ أَنْمُلَةٍ ... مِنَ التُّرابِ لَكانَ الأَمْرُ مُشْتَرَكا

فرجعت العجوز إلى بنت عمه وأخبرتها بما قاله ، وأعلمتها بأن كان ما كان قام في المدينة . ثم إن الملك ساسان ، صار ينتظر خروجه من بغداد ليرسل وراءه من يقتله . فاتفق أنه خرج إلى الصيد والقنص وخرج صباح معه ، لأنه كان لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً . فاصطاد عشر غزالات ، وفيهنّ غزالة كحلاء العيون صارت تتلفت يميناً وشمالاً فأطلقها . فقال له صباح : لأي شيء أطلقت هذه الغزالة ؟ فضحك كان ما كان وأطلق الباقي وقال له : إن من المروءة إطلاق الغزالات التي لها أولاد ، وما تتلفت تلك الغزالة إلاّ لأن لها أولاداً . فأطلقتها وأطلقت الباقي في كرامتها . فقال له صباح : أطلقني حتى أروح إلى أهلي . فضحك وضربه بعقب الرمح على قلبه ، فوقع على الأرض يلتوي كالثعبان . فبينما هما كذلك ، وإذا بغبرة ثائرة وخيل تركض وبان من تحتها فرسان وشجعان . وسبب ذلك ، أن الملك ساسان أخبره جماعة أن كان ما كان خرج إلى الصيد والقنص ، فأرسل أميراً من الديلم يقال له : جامع ومعه عشرون فارساً ودفع لهم المال ، ثم أمرهم أن يقتلوا كان ما كان . فلما قربوا منه حملوا عليه وحمل عليهم ، فقتلهم عن آخرهم . وإذا بالملك ساسان ركب وسار ولحق بالعسكر ، فوجدهم مقتولين . فتعجّب ورجع ، وإذ بأهاليهم قبضوا عليه وشدّوا وثاقه . ثم إن كان ما كان توجّه بعد ذلك من ذلك المكان ، وتوجّه معه صباح البدوي . فبينما هو سائر إذ رأى في طريقه شاباً على باب دار ، فألقى كان ما كان عليه السلام ، فردَّ الشاب عليه السلام ثم دخل الدار وخرج ومعه قصعتان : إحداهما فيها لبن والثانية فيها ثريد والسمن في جوانبها يموج . ووضع القصعتين قدام كان ما كان وقال له : تفضل علينا بالأكل من زادنا ، فامتنع كان ما كان من الأكل . فقال له الشاب : ما لك أيها الإنسان لا تأكل ؟ فقال له كان ما كان : انه على نذر . فقال له الشاب : وما سبب نذرك ؟ فقال له كان ما كان : أعلم أن الملك ساسان غصب ملكي ظلماً وعدواناً ، مع أن ذلك الملك كان لأبي وجدّي من قبلي . فاستولى عليه قهراً بعد موت أبي ولم يعتبرني لصغر سني ، فنذرت إنني لا آكل لأحد زاداً حتى أشفي فؤادي من غريمي . فقال له الشاب : أبشر فقد وفى الله نذرك . واعلم انه مسجون في مكان وأظنه أن يموت قريباً . فقال له كان ما كان : في أي بيت هو معتقل ؟ فقال له : في تلك القبّة

العالية . فنظر كان ما كان إلى قبّة عالية ، ورأى الناس في تلك القبّة يدخلون وعلى ساسان يلطمون ، وهو يتجرّع غصص المنون . فقام كان ما كان ومشى حتى وصل إلى تلك القبّة وعاين ما فيها ثم عاد إلى موضعه ، وقعد على الأكل وأكل ما تيسّر ، ووضع ما بقي من اللحم في مزوده ، ثم جلس في مكانه . ولم يزل جالساً إلى أن أظلم الليل ونام الشاب الذي ضيّفه . ثم ذهب كان ما كان إلى القبّة التي فيها ساسان ، وكان حولها كلاب يحرسونها ، فوثب له كلب من الكلاب فرمى له قطعة لحم من الذي في مزوده . وما زال يرمي للكلاب لحماً حتى وصل إلى القبّة ، وتوصل إلى أن صار عند الملك ساسان ووضع يده على رأسه . فقال له بصوت عال : من أنت ؟ فقال : أنا كان ما كان الذي سعيت في قتله فأوقعك الله في سوء تدبيرك . أمَا يكفيك أخذ ملكي وملك أبي وجدّي حتى تسعى في قتلي ؟ فحلف ساسان الإيمان الباطلة أنه لم يسعَ في قتله ، وأن هذا الكلام غير صحيح . فصفح عنه كان ما كان وقال له : إتبعني . فقال : لا أقدر أن أخطو خطوة واحدة لضعف قوّتي . فقال كان ما كان : إذا كان الأمر كذلك ، نأخذ لنا فرسين ونركب أنا وأنت ونطلب البر . ثم فعل كما قال ، وركب هو وساسان وسارا إلى الصباح . ثم صلوا الصبح وساروا ، ولم يزالوا كذلك حتى وصلوا إلى بستان ، فجلسوا فيه يتحدثون . ثم قام كان ما كان إلى ساسان وقال له : هل بقي في قلبك مني أمر تكرهه ؟ قال ساسان : لا والله . ثم اتفقوا على أنهم يرجعون إلى بغداد . فقال صباح البدوي : أنا أسبقكما لأبشّر الناس . فسبق يبشر النساء والرجال ، فخرجت إليه الناس بالدفوف والمزامير ،وبرزت قضى فكان وهي مثل البدر بهي الأنوار في دياجي الإعتكار . فقابلها كان ما كان وحنت الأرواح للأرواح واشتاقت الأشباح للأشباح ، ولم يبقَ لأهل العصر حديث إلا في كان ما كان ، وشهد له الفرسان أنه أشجع أهل الزمان وقالوا : لا يصلح أن يكون سلطاناً علينا إلا كان ما كان ، ويعود إليه ملك جده كما كان . وأما ساسان ، فإنه دخل على نزهة الزمان فقالت له : إني أرى الناس ليس لهم حديث إلا في كان ما كان ، ويصفونه بأوصاف يعجز عنها اللسان . فقال لها : ليس الخبر كالعيان ، فإني رأيته ولم أرَ فيه صفة من صفات الكمال ، وما كل ما يسمع يقال . ولكن الناس يقلد بعضهم بعضاً في مدحه ومحبته ، وأجرى الله على ألسنة الناس مدحه حتى مالت إليه قلوب أهل بغداد ، والوزير دندان الغادر الخوان . وقد جمع له عساكر من سائر البلدان ، ومن الذي يكون صاحب الأقطار ويرضى أن يكون تحت يد حاكم يتيم ما له مقدار . فقالت له نزهة الزمان : وعلى ماذا عوّلت ؟ فقال لها : عوّلت على قتله ، ويرجع الوزير دندان خائباً في قصده ويدخل تحت أمري وطاعتي ولا يبقى له إلاّ خدمتي . فقالت له نزهة الزمان : إن الغدر قبيح بالأجانب فكيف بالأقارب ؟ والصواب أن تزوّجه ابنتك قضى فكان ، وتسمع ما قيل فيما مضى من الزمان : [من الوافر]

إذا رَفَعَ الزَّمانُ عَلَيْكَ شَخْصاً ... وكُنْتَ أَحَقَّ مِنْهُ وَلَوْ تَصاعَدْ
أَنِلْهُ حَقَّ رُتْبَتِهِ تَجِدْهُ ... يُنِيلُكَ إنْ دَنَوْتَ وإنْ تَباعَدْ
ولا تَقُلِ الَّذي تَدْرِيهِ فِيهِ ... تَكُنْ مِمَّنْ عَنِ الحُسْنَى تقَاعَدْ
فَكَمْ في الخِدْرِ أَبْهَى مِنْ عَرُوسٍ ... ولَكِنْ لِلْعَرُوسِ الدَّهْرُ ساعَدْ

فلما سمع ساسان منها هذا الكلام وفهم الشعر والنظام ، قام مغضباً من عندها وقال : لولا

إني أعرف أنك تمزحين، لعلوت بالسيف رأسك وأخمدت أنفاسك. فقالت: حيث غضبت مني فأنا أمزح معك. ثم وثبت إليه وقبلت رأسه ويديه وقالت له: الصواب ما تراه، وسوف أتدبر أنا وأنت في حيلة نقتله بها. فلمَّا سمع منها هذا الكلام فرح وقال لها: عجّلي بالحيلة وفرّجي كربتي، فلقد ضاق عليَّ باب الحيل. فقالت له: سوف أتحيَّل لك على إتلاف مهجته. فقال لها: بأي شيء؟ فقالت له: بجاريتنا التي اسمها باكون، فإنها في المكر ذات فنون. وكانت هذه الجارية من أنحس العجائز وعدم الخبث في مذهبها غير جائز. وكانت قد ربَّت كان ما كان وقضى فكان. غير أن كان ما كان يميل إليها كثيراً ومن فرط ميله إليها، كان ينام تحت رجليها. فلما سمع الملك ساسان من زوجته هذا الكلام قال: إن هذا الرأي هو الصواب. ثم أحضر الجارية باكون وحدَّثها بما جرى، وأمرها أن تسعى في قتله ووعدها بكل جميل. فقالت له: أمرك مطاع. ولكن أريد يا مولاي ان تعطيني خنجراً قد سقي بماء الهلاك لأعجّل لك بإتلافه. فقال لها ساسان: مرحبابك. ثم أحضر لها خنجراً يكاد أن يسبق القضاء. وكانت هذه الجارية قد سمعت الحكايات والأشعار وتحفظ النوادر والاخبار. فاخذت الخنجر وخرجت من الديار مفكرة فيما يكون به الدمار، وأتت إلى كان ما كان وهو قاعد ينتظر وعد السيدة قضى فكان. وكان في تلك الليلة قد تذكر بنت عمه قضى فكان، فالتهبت من حبها في قلبه النيران. فبينما هو كذلك، وإذا بالجارية باكون داخلة عليه وهي تقول: آن أوان الوصال ومضت أيام الإنفصال. فلما سمع ذلك قال لها: كيف حال قضى فكان؟ فقالت له باكون: أعلم أنها مشتغلة بحبك. فعند ذلك قام كان ما كان إليها وخلع أثوابه عليها ووعدها بكل جميل. فقالت له: أعلم أنني أنام عندك الليلة وأحدثك بما سمعت من الكلام، وأسلّيك بحديث كل متيّم أمرضه الغرام. فقال لها كان ما كان: حدثيني بحديث يفرح به قلبي ويزول به كربي. فقالت له باكون: حباً وكرامة. ثمَّ جلست إلى جانبه وذلك الخنجر من داخل أثوابها فقالت له: أعلم ان اعذب ما سمعت أذني، أن رجلاً كان يعشق الملاح وصرف عليهنَّ ماله حتى افتقر وصار لا يملك شيئاً، فضاقت عليه الدنيا، فصار يمشي في الأسواق ويفتش على شيء يقتات به. فبينما هو ماش وإذا بقطعة مسمار شكته في إصبعه فسال دمه، فقعد ومسح الدم وعصب إصبعه، ثم قام وهو يصرخ حتى جاز على الحمَّام ودخلها ثم قلع ثيابه. فلما صار داخل الحمَّام وجدها نظيفة، فجلس على الفسقية وما زال ينزح الماء على رأسه إلى أن تعب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 143

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه جلس على الفسقية وما زال ينزح الماء على رأسه إلى أن تعب، فخرج إلى الحوض البارد فلم يجد أحداً. فاختلى بنفسه وطلع قطعة حشيش وبلعها، فساحت في مخّه فانقلب على الرخام. وخيّل له الحشيش أن مهتاراً كبيراً يكبسه وعبدين واقفان على رأسه: واحد معه الطاسة والآخر معه آلة الحمَّام وما يحتاج إليه البلان. فلما رأى ذلك قال في نفسه: كان هؤلاء غلطوا فيّ أو من طائفتنا الحشاشين. ثم إنه مدَّ رجليه، فتخيَّل له أن البلان قال له: يا سيدي، قد أزف الوقت على طلوعك واليوم نوبتك. فضحك وقال في نفسه: ما شاء الله يا حشيش. ثم قعد وهو ساكت، فقام البلان وأخذ بيده وأدار على وسطه ميزراً من الحرير الأسود ومشى العبدان وراءه، بالطاسات والحوائج. ولم يزلوا به حتى

أدخلوه الخلوة وأطلقوا فيها البخور، فوجدها ملآنة من سائر الفواكه والمشموم، وشقّوا له بطيخة وأجلسوه على كرسي من الابنوس ووقف البلان يغسله والعبدان يصبّان الماء، ثم دلكوه دلكاً جيداً وقالوا له: يا مولانا الصاحب، نعيم دائم. ثم خرجوا وردّوا عليه الباب. فلمّا تخيَّل ذلك، قام ورفع الميزر من وسطه وصار يضحك إلى أن غشي عليه. واستمرّ ساعة يضحك ثم قال في نفسه: ما بالهم يخاطبونني خطاب الوزير ويقولون: يا مولانا الصاحب. ولعل الأمر التبس عليهم في هذه الساعة، وبعد ذلك يعرفونني ويقولون: هذا زليط. ويشبعون صكاً في رقبتي. ثم إنه استحمى وفتح الباب، فتخيَّل أن مملوكاً صغيراً وطواشياً قد دخلا عليه. فالمملوك معه بقجة، ففتحها وأخرج منها ثلاث فوط من الحرير، فرمى الأولى على رأسه والأخرى على أكتافه وحزمه بالثالثة. وقدَّم له الطواشي قبقاباً فلبسه، وأقبلت عليه مماليك وطواشية وصاروا يسندونه. وكل ذلك حصل وهو يضحك إلى أن خرج وطلع الليوان. فوجد فرشاً عظيماً لا يصلح إلاّ للملوك، وتبادرت إليه الغلمان وأجلسوه على المرتبة وصاروا يكبسونه حتى غلب عليه النوم. فلمَّا نام، رأى في حضنه صبية فباسها ووضعها بين فخذيه وجلس منها مجلس الرجل من المرأة، وقبض ذكره بيده وسحبها عنده وعصرها تحته، وإذا بواحد يقول له: انتبه يا زليط قد جاء الظهر وأنت نائم. ففتح عينه فوجد روحه على الحوض البارد، وحوله جماعة يضحكون عليه وأيره قائم والفوطة انحلّت من وسطه. وتبين له أن كل هذا أضغاث أحلام وتخيلات حشيش. فاغتمّ ونظر إلى الذي نبّهه وقال: كنت أصبر حتى أحطّه. فقال له الناس: أما تستحي يا حشاش وأنت نائم وذكرك قائم؟ وصكوه حتى احمرّ قفاه وهو جيعان. وقد ذاق طعم السعادة وهو في المنام. فلمَّا سمع كان ما كان من الجارية هذا الكلام، ضحك حتى استلقى على قفاه وقال لباكون: يا دادتي، إن هذا حديث عجيب. فإني ما سمعت مثل هذه الحكاية، فهل عندك غيرها؟ فقالت له: نعم. ثم إن الجارية باكون لم تزل تحدث كان ما كان بمخارق حكايات ونوادر مضحكات حتى غلب عليه النوم. ولم تزل تلك الجارية جالسة عند رأسه حتى مضى غالب الليل. فقالت في نفسها: هذا وقت انتهاز الفرصة. ثم نهضت وسلَّت الخنجر ووثبت على كان ما كان وأرادت ذبحه، وإذا بأم كان ما كان دخلت عليهما. فلمَّا رأتها باكون، قامت لها واستقبلتها ثم لحقها الخوف، فصارت تنتفض كأنها أخذتها الحمّى. فلمَّا رأتها أم كان ما كان تعجّبت ونبَّهت ولدها من النوم. فلمَّا استيقظ وجد أمه جالسة فوق رأسه. وكان السبب في حياته مجيئها، وسبب مجيء أمه إليه، أن قضي فكان سمعت الحديث والإتفاق على قتله فقالت لأمه: يا زوجة عمي، إلحقي ولدك قبل أن تقتله العاهرة باكون. وأخبرتها بما جرى من أوَّله إلى آخره، فخرجت وهي لا تفعل شيئاً حتى دخلت في الساعة التي نام فيها، وهمَّت باكون عليه تريد ذبحه. فلما استيقظ قال لأمه: لقد جئت يا أمي في وقت طيب، ودادتي باكون حاضرة عندي في تلك الليلة. ثم إنه التفت إلى باكون وقال لها: بحياتي عليك، هل تعرفين حكاية أحسن من الحكايات التي حدثتني بها؟ فقالت له الجارية: وأين ما حدثتك به سابقاً مما أحدثك به الآن؟ فإنه أعذب وأغرب. ولكن أحكيه لك في غير هذا الوقت. ثم قامت باكون وهي لا تصدق بالنجاة. فقال لها: مع السلامة. ولحت بمكرها أن أمه عندها خبر بما حصل، فذهبت إلى حالها. فعند ذلك قالت له والدته: يا ولدي، هذه ليلة مباركة حيث نجاك الله تعالى من هذه الملعونة. فقال

لها : وكيف ذلك ؟ فأخبرته بالأمر من أوله إلى آخره . فقال لها : يا والدتي ، إن الحي ما له قاتل وإن قتل لا يموت . ولكن الأحوط لنا، أننا نرحل من عند هؤلاء الأعداء، والله يفعل ما يريد . فلما أصبح الصباح ، خرج كان ما كان من المدينة واجتمع بالوزير دندان . وبعد خروجه حصلت أمور بين الملك ساسان ونزهة الزمان أوجبت خروج نزهة الزمان أيضاً من المدينة . فاجتمعت بهم واجتمع عليهم أرباب دولة الملك ساسان الذين يميلون إليهم ، فجلسوا يدبّرون الحيلة ، فأجمع رأيهم على غزو ملك الروم وأخذ الثأر . ثم توجّهوا إلى غزو الروم ووقعوا في أسر الملك رومزان ملك الروم بعد أمور يطول شرحها كما يظهر من السياق . فلمّا أصبح ، أمر الملك رومزان أن يحضر كان ما كان والوزير دندان وجماعتهما ، فحضروا بين يديه وأجلسهم بجانبه وأمر بإحضار الموائد فاحضرت ، فأكلوا وشربوا واطمأنوا بعد أن أيقنوا بالموت لما أمر بإحضارهم . وقالوا لبعضهم : إنَّه ما أرسل إلينا إلاّ لأنه يريد قتلنا . وبعد أن اطمأنوا قال لهم الملك : إني رأيت مناماً وقصصته على الرهبان فقالوا : ما يفسره لك إلاّ الوزير دندان . فقال له الوزير : خيراً رأيت يا ملك الزمان . فقال له : أيها الوزير ، رأيت أني في حفرة على صفة بئر أسود وكان أقواماً يعذبونني . فأردت القيام . فلمَّا نهضت وقعت على أقدامي وما قدرت على الخروج من تلك الحفرة . ثم التفت فرأيت فيها منطقة من ذهب، فمددت يدي لأخذها . فلمَّا رفعتها من الأرض رأيتها منطقتين . فشددت وسطي بهما ، فإذا هما قد صارتا منطقة واحدة . وهذا أيها الوزير منامي والذي رأيته في لذيذ أحلامي . فقال له الوزير دندان : أعلم يا مولانا السلطان إن رؤياك تدل على أن لك أخاً وابن أخ أو ابن عمّ أو أحداً يكون من أهلك من دمك ولحمك، وعلى كل حال هو من العصب . فلما سمع الملك هذا الكلام ، نظر إلى كان ما كان ونزهة الزمان وقضى فكان والوزير دندان ومن معهم من الأسارى وقال في نفسه : إذا رميت رقاب هؤلاء ، انقطعت قلوب عسكرهم بهلاك أصحابهم ورجعت إلى بلادي عن قريب لئلا يخرج الملك من يدي . ولما صمم على ذلك ، استدعى بالسيّاف وأمره أن يضرب رقبة كان ما كان من وقته وساعته . وإذا بداية الملك قد أقبلت في تلك الساعة فقالت له : أيها الملك السعيد ، على ماذا عولت ؟ فقال لها : عولت على قتل هؤلاء الأسارى الذين في قبضتي ، وبعد ذلك أرمي رؤوسهم إلى أصحابهم . ثم أحمل أنا وأصحابي عليهم حملة واحدة ، فنقتل الذي نقتله ونهزم الباقي . وتكون هذه وقعة الانفصال . وأرجع إلى بلادي عن قريب قبل أن يحدث بعد الأمور أمور في مملكتي . فعندما سمعت منه دايته هذا الكلام ، أقبلت عليه وقالت له بلسان الإفرنج : كيف يطيب عليك أن تقتل ابن أختك وأختك وابنة أختك ؟ فلمَّا سمع الملك من دايته هذا الكلام ، اغتاظ غيظاً شديداً وقال لها : ايا ملعونة ، ألم تعلمي أن أمي قد قتلت وأن أبي قد مات مسموماً ، وأعطيتني خرزة وقلت لي : إن هذه الخرزة كانت لأبيك ، فلِمَ لا تصدقيني في الحديث ؟ فقالت له : كل ما أخبرتك به صدق . ولكن شاني وشأنك عجيب وأمري وأمرك غريب . فإنني أنا اسمي مرجانة واسم أمك إبريزة ، وكانت ذات حسن وجمال وشجاعتها تضرب بها الأمثال ، واشتهرت بالشجاعة بين الأبطال . وأما أبوك ، فإنه الملك عمر النعمان صاحب بغداد وخراسان من غير شك ولا ريب ولا رجم غيب . وكان قد أرسل ولده شركان إلى بعض غزوانه صحبة هذا الوزير دندان ، وكان منهم الذي قد كان . وكان أخوك الملك شركان تقدم على الجيوش وانفرد وحده عن عسكره ، فوقع عند أمك الملكة إبريزة

في قصرها ،ونزلنا وإياها في خلوة للصراع . فصادفنا ونحن على تلك الحالة ، فتصارع مع أمك وغلبته لباهر حسنها وشجاعتها . ثم استضافته أمك مدّة خمسة أيام في قصرها . فبلغ أباك ذلك الخبر من العجوز شواهي الملقبة بذات الدواهي ، وكانت أمك قد أسلمت على يد شركان أخيك ، فأخذها وتوجه بها إلى مدينة بغداد سرّاً ، وكنت أنا وريحانة وعشرون جارية معها ، وكنا قد أسلمنا كلنا على يد الملك شركان . فلمّا دخلنا على أبيك الملك عمر النعمان ، ورأى أمك الملكة إبريزة وقع في قلبه محبتها ، فدخل عليها ليلة واختلى بها فحملت بك . وكان مع أمك ثلاث خرزات ، فأعطتهم لأبيك . فأعطى خرزة لابنته نزهة الزمان وأعطى الثانية لأخيك ضوء المكان وأعطى الثالثة لأخيك الملك شركان ، فأخذتها منه الملكة إبريزة وحفظتها لك . فلمّا قربت ولادتها ، اشتاقت أمك إلى أهلها وأطلعتني على سرّها . فاجتمعت بعبد أسود يقال له : الغضبان . وأخبرته بالخبر سراً ورغبته في أن يسافر معنا ، فأخذنا العبد وطلع بنا من المدينة وهرب بنا ، وكانت أمك قد قربت ولادتها . فلمّا دخلنا على أوائل بلادنا في مكان منقطع ، أخذ أمك الطلق بولادتك ، فحدّث العبد نفسه بالخنا فأتى أمك ، فلما قرب منها راودها عن الفاحشة . فصرخت عليه صرخة عظيمة وانزعجت منه . فمن عظم انزعاجها وضعتك حالاً . وكان في تلك الساعة قد طلع علينا في البر من ناحية بلادنا غبار قد علا وطار حتى سدّ الأقطار . فخشي العبد على نفسه الهلاك ، فضرب الملكة إبرزة بسيفه فقتلها من شدّة غيظه ، وركب جواده وتوجه إلى حال سبيله . وبعد ما راح العبد ، انكشف الغبار عن جدّك الملك حردوب ملك الروم ، فرأى أمك ابنته وهي في ذلك المكان قتيلة وعلى الأرض جديلة . فصعب ذلك عليه وكبر لديه وسألني عن سبب قتلها وعن سبب خروجها خفية من بلاد أبيها . فحكيت له جميع ذلك من الأول إلى الآخر . وهذا هو سبب العداوة بين أهل بلاد الروم وبين أهل بلاد بغداد . فعند ذلك احتملنا أمك وهي قتيلة ودفناها في قصرها . وقد احتملتك أنا وربيتك ، وعلقت لك الخرزة التي كانت مع أمك الملكة إبريزة . ولمّا كبرت وبلغت مبلغ الرجال ، لم يمكني أن أخبرك بحقيقة الأمر . لأنني لو أخبرتك بذلك ، لثارت بينكم الحروب . وقد أمرني جدك بالكتمان ، ولا قدرة لي على مخالفة أمر جدّك الملك حردوب ملك الروم . فهذا سبب كتمان الخبر عنك ، وعدم إعلامك بأن أباك الملك عمر النعمان . فلما استقليت بالملك أخبرتك ، وما أمكنني أن أعلمك إلاّ في هذا الوقت يا ملك الزمان ، وقد كشفت لك السرّ والبرهان ، وهذا ما عندي من الخبر وأنت برأيك أخبر . وكان الأسارى قد سمعوا من الجارية مرجانة داية الملك هذا الكلام جميعه ، فصاحت نزهة الزمان من وقتها وساعتها صيحة عظيمة وقالت : هذا الملك رومزان أخي ، من أبي عمر النعمان وأمه الملكة إبريزة بنت الملك حردوب ملك الروم ، وأنا أعرف هذه الجارية مرجانة حق المعرفة . فلمّا سمع الملك رومزان هذا الكلام ، أخذته الحدّة وصار متحيّراً في أمره وأحضر من وقته وساعته نزهة الزمان بين يديه . فلما رآها ، حنَّ الدم للدم واستخبرها عن قصته . فحكت له القصة ، فوافق كلامها كلام دايته مرجانة . فصح عند الملك أنه من أهل العراق من غير شك ولا ارتياب ، وأن أباه الملك عمر النعمان . فقام من تلك الساعة وحلّ كتاف أخته نزهة الزمان ، فتقدمت إليه وقبّلت يديه ودمعت عيناها . فبكى الملك لبكائها وأخذته حنيّة الأخوّة ، ومال قلبه إلى ابن أخته السلطان كان ما كان ، وقام ناهضاً على قدميه وأخذ السيف من يد السيّاف ، فأيقن الأسارى بالهلاك لما رأوا منه ذلك .

فأمر بإحضارهم بين يديه وفكّ وثاقهم وقال لدايته مرجانة : إشرحي حديثك الذي شرحته لي ، لهؤلاء الجماعة . فقالت دايته مرجانة : اُعلم أيها الملك ، أن هذا الشيخ هو الوزير دندان ، وهو لي أكبر شاهد لأنه يعرف حقيقة الأمر . ثم إنها أقبلت عليهم من وقتها وساعتها وعلى من حضرهم من ملوك الروم وملوك الإفرنج ، وحدثتهم بذلك الحديث . والملكة نزهة الزمان والوزير دندان ومن معها من الأسارى يصدقونها على ذلك . وفي آخر الحديث لاحت من الجارية مرجانة التفاتة ، فرأت الخرزة الثالثة بعينها ، رفيقة الخرزتين اللتين كانتا مع الملكة إبريزة في رقبة السلطان كان ما كان ، فعرفتها . فصاحت صيحة عظيمة دوى لها الفضاء وقالت للملك : يا ولدي ، اُعلم أنه قد زاد في تلك الساعة صدق يقيني ، لأن هذه الخرزة التي في رقبة هذا الأسير نظير الخرزة التي وضعتها في عنقك وهي رفيقتها ، وهذا الأسير هو ابن أخيك وهو كان ما كان . ثم إن الجارية مرجانة التفتت إلى كان ما كان وقالت له : أرني هذه الخرزة يا ملك الزمان . فنزعها من عنقه وناولها لتلك الجارية داية الملك رومزان ، فأخذتها منه ثم سألت نزهة الزمان عن الخرزة الثالثة ، فأعطتها لها . فلما صارت الخرزتان في يد الجارية ناولتهما للملك رومزان . فظهر له الحق والبرهان ، وتحقق أنه عمّ السلطان كان ما كان ، وأن أباه الملك عمر النعمان . فقام من وقته وساعته إلى الوزير دندان وعانقه ، ثم عانق الملك كان ما كان وعلا الصياح بكثرة الأفراح . وفي تلك الساعة انتشرت البشائر ودقت الكاسات والطبول وزمرت الزمور وزادت الأفراح ، وسمع عساكر العراق والشام ضجيج الروم بالأفراح ، فركبوا عن آخرهم وركب الملك الزبلكان وقال في نفسه : يا ترى ، ما سبب هذا الصياح والسرور الذي في عسكر الإفرنج والروم ؟ وأمّا عسكر العراق ، فإنهم قد أقبلوا وعلى القتال عوّلوا ، وصاروا في الميدان ومقام الحرب والطعان . فالتفت الملك رومزان ، فرأى العساكر مقبلين وللحرب متهيّئين ، فسأل عن سبب ذلك فأخبروه بالخبر . فأمر قضى فكان ابنة أخيه شركان ، أن تسير من وقتها وساعتها إلى عسكر الشام والعراق وتعلمهم بحصول الاتفاق . وأن الملك رومزان ظهر أنه عمّ السلطان كان ما كان . فسارت قضى فكان بنفسها ، ونفت عنها الشرور والأحزان حتى وصلت إلى الملك الزبلكان وسلّمت عليه وأعلمته بما جرى من الاتفاق . وأن الملك رومزان ظهر أنه عمّها وعمّ كان ما كان . وحين أقبلت عليه ، وجدته باكي العين ، خائفاً على الأمراء والأعيان . فشرحت له القصة من أولها إلى آخرها ، فزادت أفراحهم وزالت أتراحهم ، وركب الملك الزبلكان هو وجميع الأكابر والأعيان ، وسارت قدّامهم الملكة قضى فكان حتى أوصلتهم إلى سرادق الملك رومزان . فلمّا دخلوا عليه ، وجدوه جالساً مع ابن أخيه السلطان كان ما كان ، وقد استشاره هو والوزير دندان في أمر الملك الزبلكان ، فاتفقوا على أنهم يسلّمون إليه مدينة دمشق الشام ويتركونه ملكاً عليها كما كان مثل العادة ، وهم يدخلون إلى العراق . فجعلوا الملك الزبلكان عاملاً على دمشق الشام ، ثم أمروه بالتوجّه إليها . فتوجَّه بعساكره إليها ومشوا معه ساعة لأجل الوداع . وبعد ذلك رجعوا إلى مكانهم ، ثم نادوا في العسكر بالرحيل إلى بلاد العراق ، واجتمع العسكران مع بعضهم . ثم إن الملوك قالوا لبعضهم : ما بقيت قلوبنا تستريح ولا يشفى غيظنا ، إلاّ بأخذ الثأر وكشف العار بالإنتقام من العجوز شواهي الملقبة بذات الدواهي . فعند ذلك ، سار الملك رومزان مع خواصه وأرباب دولته ، وفرح السلطان كان ما كان بعمّه الملك رومزان ، ودعا للجارية مرجانة حيث عرّفتهم ببعضهم ، ثم

ساروا . ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى أرضهم ، فسمع بهم الحاجب الكبير ساسان ، فطلع وقبّل يد الملك رومزان فخلع عليه . ثم إن الملك رومزان جلس واجلس ابن أخيه السلطان كان ما كان إلى جانبه . فقال كان ما كان إلى عمّه الملك رومزان : يا عم ، ما يصلح هذا الملك إلاّ لك . فقال له : معاذ الله أن أعارضك في ملكك . فعند ذلك اشار عليهما الوزير دندان ان يكون الإثنان في الملك سواء ، وكل واحد يحكم يوماً . فارتضيا بذلك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 144

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنهما اتفقا على أن كل واحد يحكم يوماً . ثم أولموا الولائم وذبحوا الذبائح ، وزادت بهم الأفراح وأقاموا على ذلك مدة من الزمان . كل ذلك والسلطان كان ما كان يقطع ليلة مع بنت عمه قضى فكان . وبعد تلك المدة بينما هم قاعدون فرحانون بهذا الأمر وانصلاح الشأن ، اذ ظهر لهم غبار قد علا وطار حتى سدّ الأقطار ، وقد أتى إليهم من التجار صارخ يستغيث وهو يصيح ويقول : يا ملوك الزمان ، كيف أسلم في بلاد الكفر وأنهب في بلادكم وهي بلاد العدل والأمان ؟ فأقبل عليه الملك رومزان وسأله عن حاله فقال له : أنا تاجر من التجار ،ولي غائب عن الأوطان مدة مديدة من الزمان ، واستغرقت في البلاد نحو عشرين سنة من الأعوام ، وإن معي كتاباً من مدينة دمشق كان قد كتبه لي المرحوم الملك شركان . وسبب ذلك أنني كنت قد أديت إليه جارية . فلمّا قربت من تلك البلاد ، وكان معي مائة حمل من تحف الهند وأتيت بها إلى بغداد التي هي حرمكم ومحل أمنكم وعدلكم ، فخرجت علينا عربان ومعهم أكراد مجتمعة من جميع البلاد ، فقتلوا رجالي ونهبوا أموالي وهذا شرح حالي . ثم إن التاجر بكى بين يدي الملك رومزان وحوقل واشتكى ، فرحمه الملك ورقّ إليه ، وكذلك رحمه ابن أخيه الملك كان ما كان وحلفوا انهم يخرجون إليهم . فخرجوا إليهم في مائة فارس ، كل فارس منهم يعد بين الرجال بألوف ، وذلك التاجر سار أمامهم يدلّهم على الطريق . ولم يزالوا سائرين ذلك النهار وطول الليل إلى السحر ، حتى أشرفوا على واد غزير الأنهار كثير الأشجار ، فوجدوا القوم قد تفرّقوا في ذلك الوادي وقسّموا بينهم أحمال ذلك التاجر وبقي البعض . فأطبق عليهم المائة فارس وأحاطوا بهم من كل مكان ، وصاح عليهم الملك رومزان هو وابن أخيه كان ما كان . فما كان غير ساعة ، حتى أسروا الجميع وكانوا نحو ثلاثمائة فارس مجتمعين من أوباش العربان . فلمّا أسروهم ، أخذوا ما معهم من مال التاجر وشدّوا وثاقهم وطلعوا بهم إلى مدينة بغداد . فعند ذلك ، جلس الملك رومزان هو وابن أخيه الملك كان ما كان على تخت واحد مع بعضهما ، ثم عرضوا الجميع بين أيديهما وسألاهم عن حالهم وعن كبارهم . فقالوا : ما لنا كبار غير ثلاثة أشخاص ، وهم الذين جمعونا من سائر النواحي والأقطار . فقالا لهم : ميزّوهم لنا بأعيانهم ؟ فميزّوهم لهما . فأمرا بالقبض عليهم وإطلاق بقية أصحابهم بعد أخذ جميع ما معهم من الأموال وتسليمه للتاجر . فتفقد التاجر قماشه وماله فوجده قد هلك ربعه ، فوعدوه أنهم يعوّضون له جميع ما ضاع منه . فعند ذلك أخرج التاجر كتابين : أحدهما بخط شركان ، والآخر بخط نزهة الزمان . وقد كان التاجر اشترى نزهة الزمان من البدوي وهي بكر ، وقدّمها لأخيها شركان وجرى بينها وبين أخيها ما جرى . ثم إن الملك كان

ما كان وقف على الكتابين وعرف خط عمّه شركان، وسمع حكاية عمّته نزهة الزمان. فدخل عليها بذلك الكتاب الثاني الذي كانت كتبته للتاجر الذي ضاع منه المال، وأخبرها كان ما كان بقصة التاجر من أولّها إلى آخرها. فعرفته نزهة الزمان وعرفت خطّها وأخرجت للتاجر الضيافات ووصّت عليه أخاها الملك رومزان وابن أخيها الملك كان ما كان، فأمرا له بأموال وعبيد وغلمان من أجل خدمته. وأرسلت إليه نزهة الزمان مائة ألف درهم من المال، وخمسين حملاً من البضائع. وقد أتحفته بهدايا وأرسلت إليه تطلبه، فلمّا حضر، طلعت له وسلّمت عليه وأعلمته أنها بنت الملك عمر النعمان، وأن أخاها الملك رومزان، وأن ابن أخيها الملك كان ما كان. ففرح التاجر بذلك فرحاً شديداً وهنّأها بسلامتها واجتماعها بأخيها وابن أخيها، وقبّل يدها وشكرها على فعلها وقال لها: والله ما ضاع الجميل معك. ثم دخلت إلى خدرها. وأقام التاجر عندهم ثلاثة أيام ثمّ ودّعهم ورحل إلى بلاد الشام. وبعد ذلك، أحضر الملوك الثلاثة أشخاص اللصوص الذين كانوا رؤوساء قطّاع الطريق، وسألوهم عن حالهم. فتقدم واحد منهم وقال: أعلموا أني رجل بدوي، أقف في الطريق لأخطف الصغار والبنات الأبكار وأبيعهم للتجار، ودمت على ذلك مدة من الزمان إلى هذه الأيام. وأغراني الشيطان، فاتّفقت مع هذين الشقيين على جمع الأوباش من الأعراب والبلدان لأجل نهب الأموال وقطع الطريق على التجار. فقالوا له: إحك لنا على أعجب ما رأيت في خطفك الصغار والبنات. فقال لهم: أعجب ما جرى لي يا ملوك الزمان، أنني من مدة اثنتين وعشرين سنة، خطفت بنتاً من بنات المقدس ذات يوم من الأيام، وكانت تلك البنت ذات حسن وجمال. غير أنها كانت خدّامة وعليها أثواب خلقة، وعلى رأسها قطعة عباءة. فرأيتها قد خرجت من الخان. فخطفتها بحيلة في تلك الساعة، وحملتها على جمل وسبقت بها. وكان في أملي أنني أذهب بها إلى أهلي في البرية وأجعلها عندي ترعى الجمال وتجمع البعر من الوادي. فبكت بكاءً شديداً، فدنوت منها وضربتها ضرباً وجيعاً وأخذتها وسرت بها إلى مدينة دمشق. فرآها معي تاجر، فتحيّر عقله لما رآها وأعجبته فصاحتها وأراد شراءها مني، ولم يزل يزيدني في ثمنها حتى بعتها له بمائة ألف درهم. فعندما أعطيتها له، رأيت منها فصاحة عظيمة. وبلغني أن التاجر كساها كسوة مليحة، وقدّمها إلى الملك صاحب دمشق، فأعطاه قدر المبلغ الذي دفعه إليّ مرتين. وهذا يا ملوك الزمان أعجب ما جرى لي. ولعمري إن ذلك الثمن قليل في تلك البنت. فلمّا سمع الملوك هذه الحكاية تعجّبوا. ولما سمعت نزهة الزمان من البدوي ما حكاه، صار الضياء في وجهها ظلاماً وصاحت وقالت لأخيها رومزان: إن هذا البدوي كان خطفني من بيت المقدس بعينه من غير شك. ثم إن نزهة الزمان حكت لهم جميع ما جرى لها معه في غربتها، من الشدائد والضرب والجوع والذل والهوان. ثم قالت لهم: الآن حلّ لي قتله. ثم جذبت السيف وقامت إلى البدوي لتقتله وإذا هو صاح وقال: يا ملوك الزمان، لا تدعوها تقتلني حتى أحكي لكم ما جرى لي من العجائب. فقال لها ابن أخيها كان ما كان: يا عمتي، دعيه يحكي لنا حكاية وبعد ذلك فافعلي ما تريدين. فرجعت عنه. فقال له الملوك: الآن إحك لنا حكاية. فقال: يا ملوك الزمان، إن حكيت لكم حكاية عجيبة تعفّوا عني؟ قالوا: نعم. فابتدأ البدوي يحدثهم بأعجب ما وقع له. وقال: أعلموا أني من مدة يسيرة، أرقت ليلة أرقاً شديداً وما صدّقت أنّ الصباح يصبح. فلمّا أصبح الصباح، قمت من وقتي

وساعتي وتقلّدت سيفي وركبت جوادي واعتقلت رمحي وخرجت أريد الصيد والقنص . فواجهني جماعة في الطريق، فسألوني عن قصدي، فأخبرتهم به . فقالوا : ونحن رفقاؤك . فنزلنا كلنا مع بعضنا . فبينما نحن سائرون وإذا بنعامة ظهرت لنا فقصدناها، ففرّت من بين أيدينا وهي فاتحة أجنحتها . ولم تزل شاردة ونحن خلفها إلى الظهر حتى رمتنا في برية لا نبات فيها ولا ماء . ولم نسمع فيها غير صفير الحيّاة وزعيق الجان وصريخ الغيلان، فلما وصلنا إلى ذلك المكان، غابت عنّا فلم ندرِ أفي السماء طارت أم في الأرض غارت . فرددنا رؤوس الخيل وأردنا الرواح ، ثم رأينا أن الرجوع في هذا الوقت الشديد الحرّ لا خير فيه ولا إصلاح . وقد اشتد علينا الحرّ وعطشنا عطشاً شديداً ووقفت خيولنا، فأيقنّا بالموت . فبينما نحن كذلك، إذ نظرنا من بعيد مرجاً أفيح فيه غزلان تمرح . وهناك خيمة مضروبة، وفي جانب الخيمة حصان مربوط وسنان يلمع على رمح مركوز ، فانتعشت نفوسنا من بعد اليأس ورددنا رؤوس خيلنا نحو تلك الخيمة نطلب ذلك المرج والماء، وتوجه إليه جميع أصحابي وأنا في أولهم . ولم نزل سائرين حتى وصلنا إلى ذلك المرج ، فوقفنا على عين وشربنا وسقينا خيلنا . فأخذتني حمية الجاهلية وقصدت باب ذلك الخباء فرأيت فيه شاباً لا نبات بعارضيه وهو كأنه هلال، وعن يمينه جارية هيفاء كأنها قضيب بان . فلمّا نظرت إليها وقعت محبتها في قلبي . فسلمت على ذلك الشاب، فردّ عليّ السلام . فقلت : يا أخا العرب، أخبرني من أنت وما تكون لك تلك الجارية التي عندك ؟ فأطرق الشاب رأسه إلى الأرض ساعة، ثم رفع رأسه وقال : أخبرني من أنت وما الخيل التي معك ؟ فقلت : أنا حمّاد بن الفزاري الفارسي الموصوف، الذي أعد بين العرب بخمسمائة فارس . ونحن خرجنا من محلنا نريد الصيد والقنص فأدركنا العطش ، فقصدت أنا باب تلك الخيمة لعليّ أجد عندكم شربة ماء . فلما سمع مني ذلك الكلام ، التفت إلى الجارية المليحة وقال : ائتي إلى هذا الرجل بالماء وما حصل من الطعام . فقامت الجارية تسحب أذيالها والحجول والذهب تخشخش في رجليها وهي تتعثر في شعرها . وغابت قليلاً ثم أقبلت وفي يدها اليمين إناء من فضة مملوء ماء بارداً، وفي يدها اليسرى قدح ملآن تمراً ولبناً وما حضر من لحم الوحوش . فما استطعت أن آخذ من الجارية طعاماً ولا شراباً من شدة محبتي لها . فتمثلت بهذين البيتين وقلت : [من المتقارب]

كأنَّ الخِضابَ عَلَى كَفِّها غُرابٌ عَلَى ثَلْجةٍ واقِفُ
تَرَى الشَّمْسَ والبَدْرَ مِنْ وَجْهِها قَرِيبَيْنِ خافٍ وذا خائِفُ

ثم قلت للشاب بعد أن أكلت وشربت : يا وجه العرب، اعلم أني أوقعتك على حقيقة خبري، وأريد أن تخبرني بحالك وتوقفني على حقيقة خبرك . فقال الشاب : أما هذه الجارية فهي أختي . فقلت : أريد أن تزوّجني بها طوعاً وإلاّ أقتلك وآخذها غصباً . فعند ذلك أطرق الشاب رأسه إلى الأرض ساعة ثم رفع بصره إليَّ وقال لي : لقد صدقت في دعواك، إنك فارس معروف وبطل موصوف وإنك أسد البيداء، ولكن إن هجمتم عليَّ غدراً وقتلتموني قهراً وأخذتم أختي، فإنَّ هذا يكون عاراً عليكم . وإن كنتم على ما ذكرتم من أنكم فرسان تعدّون من الأبطال ولا تبالون بالحرب والنزال، فامهلوني قليلاً حتى ألبس آلة حربي وأتقلّد سيفي وأعتقل رمحي

وأركب فرسي، واصبر انا وإياكم في ميدان الحرب. فإن ظفرت بكم اقتلكم عن آخركم، وإن ظفرتم بي وقتلتموني، فهذه الجارية أختي لكم. فلمَّا سمعت منه هذا الكلام قلت له: إن هذا هو الإنصاف وما عندنا خلاف. ثم رددت رأس جوادي إلى خلفي، وقد زادني الجنون في محبة تلك الجارية. ورجعت إلى أصحابي ووصفت لهم حسنها وجمالها وحسن الشاب الذي عندها وشجاعته وقوّة جنانه، وكيف يذكر أنه يصادم ألف فارس. ثم أعلمت أصحابي بجميع ما في الخباء من الأموال والتحف وقلت لهم: أعلموا أن هذا الشاب ما هو منقطع في تلك الأرض إلاَّ لكونه ذا شجاعة عظيمة، وأنا أوصيكم أن كل من قتل هذا الغلام يأخذ أخته. فقالوا: رضينا بذلك. ثم إن أصحابي لبسوا آلة حربهم وركبوا خيلهم وقصدوا الغلام، فوجدوه قد لبس آلة حربه وركب جواده، ووثبت إليه اخته وتعلَّقت بركابه وبلَّت برقعها بدموعها، وهي تنادي بالويل والثبور من خوفها على أخيها، وتنشد هذه الأبيات: [من الطويل]

إلى اللهِ أَشْكُو مِحنةً وكآبةً ... لَعَلَّ إلهَ العَرْشِ يُرْهِقُهُمْ رُعْبا
أُخَيَّ أَرادُوا أَنْ تَمُوتَ تَعَمُّداً ... ولا شَيْءَ مِنْ قَبْلِ القِتالِ ولا ذَنْبا
وقَد عَرَفَتْ ذا الخَيْلِ أَنَّكَ فارِسٌ ... وأَشْجَعُ مِنْ حَلَّ المَشارِقَ والغَرْبا
تُحامي عَن الأُخْتِ التي قَلَّ عَزْمُها ... فأَنْتَ أَخُوها وهِيَ تَدْعُو لَكَ الرَّبا
فَلا تَتْرُكِ الأَعْداءَ تَمْلُكُ مُهْجَتِي ... وتَأْخُذُنِي قَهْراً وتَأسِرُنِي غَصْبا
ولَسْتُ وحَقِّ اللهِ أَبْقَى بِبَلْدَةٍ ... إذا لَمْ تَكُنْ فِيها وإن مُلأَتْ خِصْبا
وأَقْتُلُ نَفْسِي في هَواكَ مَحَبَّةً ... وأَسْكُنُ لَحْداً فِيه أَفْتَرِشُ التُّرْبا

فلما سمع أخوها شعرها، بكى بكاءً شديداً، وردَّ رأس جواده إلى أخته وأجابها على شعرها بقوله: [من الطويل]

قِفِي وٱنْظُرِي مِنِّي وُقُوعَ عَجائِبِ ... إذا ما ٱلْتَقَيْنا حِينَ أُثْخِنَهُمْ ضَرْبا
وإنْ بَرَزَ اللَّيْثُ المُقَدَّمُ فِيهِمْ ... وأَشْجَعُهُمْ قَلْباً وأَثْبَتُهُمْ لُبّا
سأَسْقِيهِ مِنِّي ضَرْبةً ثَعْلَبِيَّةً ... وأَتْرُكُ فِيهِ الرُّمْحَ يَسْتَغْرِقُ الكَعْبا
وإنْ لَم أُقاتِلْ عَنْكِ أُخْتِي فَلَيْتَنِي ... قَتِيلٌ ولَيْتَ الطَّيْرَ تَنْهَبُنِي نَهْبا
أُقاتِلُ عَنْكِ ما ٱسْتَطَعْتُ تَكَرُّماً ... وهذا حَدِيثٌ بَعْدَنا يَمْلأُ الكُتُبا

فلما فرغ من شعره قال: يا أختي، إسمعي ما أقوله لك وما أوصيك به. فقالت له: سمعاً وطاعةً. فقال لها: إن هلكت، فلا تمكِّني أحداً من نفسك. فعند ذلك لطمت على وجهها وقالت: معاذ الله يا أخي أن أراك صريعاً وأمكِّن الأعداء مني. فعند ذلك مدَّ الغلام يده إليها وكشف برقعها عن وجهها، فلاحت لنا صورتها كالشمس من تحت الغمام. فقبَّلها بين عينيها وودَّعها. وبعد ذلك التفت إلينا وقال لنا: يا فرسان، هل أنتم ضيفان أو تريدون الضرب والطعان؟ فإن كنتم ضيفاناً، فابشروا بالقرى. وإن كنتم تريدون القمر الزاهر، فليبرز لي منكم فارس بعد فارس في هذا الميدان ومقام الحرب والطعان. فعند ذلك برز إليه فارس شجاع. فقال له الشاب: ما اسمك وما اسم أبيك؟ فإني حالف إني ما أقتل من اسمه موافق لاسمي واسم أبيه موافق

لاسم أبي . فإن كنت بهذا الوصف، فقد سلّمت إليك الجارية . فقال له الفارس : إسمي بلال . فاجابه الشاب بقوله : [من المتقارب]

كَذَبْتَ في قَولِكَ مِنْ بِلالِ   وجِئْتَ بالزُّورِ وبالمُحالِ
إنْ كُنْتَ شَهْماً فاستَمِعْ مَقالِي   أنا مُجَنْدَلُ الأبْطالِ في المَجالِ
بِصارِمٍ ماضٍ كَما الهِلالُ   فاصْبِرْ لِطَعْنٍ مُرْجِفِ الجِبالِ

ثم حملا على بعضهما، فطعنه الشاب في صدره، فخرج السنان من ظهره . ثم برز إليه واحد فقال الشاب : [من الرجز]

يا أَيُّها الكَلْبُ الرَّجِيمُ الرِّجْسِ   فأَيْنَ غالٍ سِعْرُهُ مِنْ بَخْسِ
وإنَّما اللَّيْثُ الكَرِيمُ الجِنْسِ   مَنْ لَمْ يُبالِ في الوَغَى بِنَفْسِ

ثم لم يمهله الشاب دون أن تركه غريقاً في دمه . ثم نادى الشاب : هل من مبارز؟ فبرز إليه واحد، فانطلق على الشاب وجعل يقول : [من الرجز]

إلَيْكَ أَقْبَلْتُ وفي قَلْبِي لَهَبْ   مِنْهُ أُنادِي عِنْدَ صَحْبِي بالحَرَبْ
لِمَ قَتَلْتَ اليَوْمَ ساداتِ العَرَبِ   فاليَوْمَ لا تَلْقَى فِكاكاً مِنْ طَلَبْ

فلما سمع الشاب كلامه أجابه بقوله : [من الرجز]

كَذَبْتَ بِئْسَ أَنْتَ مِنْ شَيْطانِ   قَدْ جِئْتَ بالزُّورِ وبالبُهْتانِ
اليَوْمَ تَلْقَى فاتِكَ السِّنانِ   في مَوْقِفِ الحَرْبِ وفي الطِّعانِ

ثم طعنه في صدره، فطلع السنان من ظهره . ثم قال : هل من مبارز ؟ فخرج إليه الرابع وسأله الشاب عن اسمه . فقال له الفارس : إسمي هلال . فانشد يقول : [من الرجز]

أَخْطأْتَ إذْ أرَدْتَ خَوْضَ بَحْرِي   وجِئْتَ بالزُّورِ وكُلِّ الأَمْرِ
أنا الَّذي تَسْمَعُ مِنِّي شِعْرِي   أَخْتَلِسُ النَّفْسَ ولَسْتَ تَدْرِي

ثم حملا على بعضهما واختلف بينهما ضربتان، فكانت ضربة الشاب هي السابقة إلى الفارس فقتله . وصار كل من نزل إليه يقتله . فلمّا نظرت أصحابي قد قتلوا قلت في نفسي : إن نزلت إليه في الحرب لم أطقه، وإن هربت أبقى معيرة بين العرب . فلم يمهلني الشاب دون أن انقضّ عليّ وجذبني بيده، فأطاحني من سرجي فوقعت مغشيّاً عليّ . ورفع سيفه وأراد أن يضرب عنقي، فتعلقت بأذياله . فحملني بكفّه، فصرت معه كالعصفور . فلمّا رأت ذلك الجارية، فرحت بفعل أخيها وأقبلت عليه وقبّلته بين عينيه . ثم إنه سلّمني إلى أخته وقال لها : دونك وإياه واحسني مثواه، لأنه دخل في زمامنا . فقبضت الجارية على أطواق درعي وصارت تقودني كما تقود الكلب، وفكّت عن أخيها لامة الحرب والبسته بدلة ونصبت له كرسياً من العاج فجلس عليه . وقالت له : بيّض الله عرضك وجعلك عدة للنائبات . فأجابها بهذه الأبيات : [من الوافر]

تَقُولُ وقَدْ رَأَتْ في الحَرْبِ أُخْتِي   لَوامِعَ غُرَّتِي مِثْلَ الشُّعاعِ

ألا للهِ دَرُّكَ مِنْ شُجاعٍ تُذَلُّ لحَرْبِهِ أُسْدُ البِقاعِ
فَقُلْتُ لها سَلِي الأَبْطالَ عَنِّي إذا ما فَرَّ أَرْبابُ القِراعِ
أنا المَعْرُوفُ في سَعْدِي وجدِي وعَزْمِي قَدْ عَلا أَيَّ ٱرْتِفاعِ
أَيا حَمَّادُ قَد نازَلْتَ لَيْثاً يُرِيكَ المَوْتَ يَسْعَى كالأَفاعِي

فلمَّا سمعت شعره، حرت في أمري ونظرت إلى حالتي وما صرت إليه من الأسر، وتصاغرت إليّ نفسي. ثم نظرت إلى الجارية أخت الشاب وإلى حسنها فقلت في نفسي: هذه سبب الفتنة. وسرت أتعجَّب من جمالها، وأجريت العبرات وأنشدت هذه الأبيات: [من الوافر]

خَلِيلِي كُفَّ عَنْ لَوْمِي وعَذْلِي فإِنِّي للمَلامَةِ غَيْرُ واعِ
كُلِفْتُ بِغادَةٍ لَمْ تَبْدُ إلاَّ دَعَتْنِي في مَحَبَّتِها الدَّواعِي
أَخُوها في الهَوَى أَمْسَى رَقِيبِي وصاحِبَ هِمَّةٍ وطَوِيلَ باعِ

ثم إن الجارية أحضرت لأخيها الطعام، فدعاني إلى الأكل معه، ففرحت وأمنت على نفسي من القتل. ولما فرغ أخوها من الأكل أحضرت له آنية المدام. ثم إن الشاب أقبل على المدام وشرب حتى شعشع الشراب في رأسه واحمرَّ وجهه. فالتفت إليّ وقال لي: ويلك يا حمَّاد، أنا عبَّاد بن تميم بن ثعلبة. إن الله وهب لك نفسك وأبقى عليك عرسك. ثم حيَّاني بقدح شربته وحيَّاني بثان وثالث ورابع، فشربت الجميع ونادمني وحلَّفني أني لا أخونه، فحلفت له ألفًا وخمسمائة يمين أني لا أخونه قط، بل أكون له معيناً. فعند ذلك أمر أخته أن تأتني بعشر خلع من الحرير، وهذه بدلة منها على جسدي. وأمرها أن تأتيني بناقة من أحسن النياق، فأتتني بناقة محمَّلة من التحف والزاد، وأمرها أيضًا أن تحضر لي الحصان الأشقر، فأحضرته لي. ثم وهب لي جميع ذلك، وأقمت عندهم ثلاثة أيام في أكل وشرب. والذي قد أعطاه لي موجود عندي إلى الآن. وبعد الثلاثة أيام قال لي: يا أخي يا حمَّاد، أريد أن أنام قليلاً لأريح نفسي وقد استأمنتك على نفسي. فإن رأيت خيلاً ثائرة، فلا تفزع منها. واعلم أنهم من بني ثعلبة يطلبون حربي. ثمَّ توسَّد سيفه تحت رأسه ونام. فلمَّا استغرق في النوم وسوس إليَّ إبليس بقتله. فقمت بسرعة وجذبت سيفه من تحت رأسه وضربته ضربة أطاحت رأسه عن جثته. فعلمت بي أخته، فوثبت من جانب الخباء ورمت نفسها على أخيها وشقَّت ما عليها من الثياب وأنشدت هذه الأبيات: [من الطويل]

إلى الأَهْلِ بَلِّغْ أَنَّ ذا أَشْأَمُ الخَبَرِ وما لامْرِىءٍ مِمَّا الحَكِيمُ قَضَى مَفَرّْ
وأَنْتَ صَرِيعٌ يا أَخِي مُتَجَنْدِلٌ ووَجْهُكَ يَحْكِي حُسْنُهُ دَوْرَةَ القَمَرْ
لَقَدْ كانَ يَوْمُ الشُّؤْمِ يَوْمَ لَقِيتَهُم ورُمْحُكَ مِنْ بَعْدِ ٱطِّرادٍ قَدْ ٱنْكَسَرْ
وبَعْدَكَ لا يَرْتاحُ لِلْخَيلِ راكِبٌ ولا تَلِدُ الأُنْثَى نَظِيرَكَ مِنْ ذَكَرْ
وأَصْبَحَ حَمَّادٌ لَكَ اليَوْمَ قاتِلاً وقَدْ خانَ إيماناً وبالعَهْدِ قَدْ غَدَرْ
يُرِيدُ بِهذا أَنْ يَنالَ مُرادَهُ لَقَدْ كَذَبَ الشَّيْطانُ في كُلِّ ما أَمَرْ

فلما فرغت من شعرها. قالت له: يا ملعون الجدّين، لماذا قتلت أخي وخنته؟ وكان مراده أن

يردُّك إلى بلادك بالزاد والهدايا، وكان مراده أيضاً أن يزوّجني لك في أول الشهر . جذبت سيفاً كان عندها وجعلت قائمه في الأرض وطرفه في صدرها، وانحنت عليه حتى طلع من ظهرها، فخرَّت على الأرض ميتة . فحزنت عليها وندمت حيث لا ينفعني الندم . وبكيت، ثم قمت مسرعاً إلى الخباء وأخذت ما خفَّ حمله وغلا ثمنه وسرت إلى حال سبيلي . ومن خوفي وعجلتي، لم ألتفت إلى أحد أصحابي، ولا دفنت الصبية ولا الشاب . وهذه الحكاية أعجب من حكايتي الأولى مع البنت الخدّامة التي خطفتها من بيت المقدس . فلما سمعت نزهة الزمان من البدوي هذا الكلام، تبدّل النور في عينها بالظلام . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

مقتل العجوز ذات الدواهي

فلما كانت الليلة 145

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن نزهة الزمان لما سمعت من البدوي هذا الكلام تبدَّل الضياء في عينها بالظلام، وقامت جرَّدت السيف وضربت به البدوي حمَّاداً على عاتقه فأطلعته من علائقه . فقال لها الحاضرون : لأي شيء استعجلت على قتله؟ فقالت : الحمد لله الذي فسح في أجلي حتى أخذت ثاري بيدي . ثم إنها أمرت العبيد ان يجرُّوه من رجليه ويرموه للكلاب . وبعد ذلك أقبلوا على الإثنين الباقيين من الثلاثة، وكان أحدهما عبداً أسود . فقالوا له : ما اسمك أنت؟ فاصدقنا في حديثك . قال : أنا إسمي الغضبان . وأخبرهم بما وقع له مع الملكة إبريزة بنت الملك حردوب ملك الروم، وكيف قتلها وهرب . فلم يتم العبد كلامه حتى رمى الملك رومزان رقبته بالحسام وقال : الحمد لله الذي أحياني وأخذت ثأر أمي بيدي . وأخبرهم أن دايته مرجانة حكت له عن هذا العبد الذي إسمه الغضبان . وبعد ذلك أقبلوا على الثالث، وكان هو الجمَّال الذي اكتروه أهل بيت المقدس لحمل ضوء المكان وتوصيله إلى المارستان الذي في دمشق الشام، فذهب به وألقاه في المستوقد وذهب إلى حال سبيله . ثم قالوا له : أخبرنا أنت بخبرك واصدق في حديثك . فحكى له جميع ما وقع له مع السلطان ضوء المكان، وكيف حمله من بيت المقدس وهو ضعيف، على أن يوصله إلى الشام ويرميه في المارستان . وكيف جاء له أهل بيت المقدس بالدراهم فأخذها وهرب بعد أن رماه في مستوقد الحمَّام . فلمَّا تمَّ كلامه، أخذ السلطان كان ما كان السيف وضربه . فرمى عنقه وقال : الحمد لله الذي أحياني حتى جازيت هذا الخائن بما فعل مع أبي . فإنني قد سمعت هذه الحكاية بعينها من والدي السلطان ضوء المكان . فقال الملوك لبعضهم : ما بقي علينا إلاَّ العجوز شواهي الملقبة بذات الدواهي، فإنها سبب هذه البلايا حيث أوقعتنا في الرزايا، ومن لنا بها حتى نأخذ منها الثأر ونكشف العار . فقال لهم الملك رومزان عمّ الملك كان ما كان : لا بدّ من احضارها . ثم إن الملك رومزان كتب كتاباً من وقته وساعته وأرسله إلى جدته العجوز شواهي الملقبة بذات الدواهي، وذكر لها فيه أنه غلب على مملكة دمشق والموصل والعراق، وكسر عسكر المسلمين وأسر ملوكهم وقال : أريد أن تحضري عندي من كل بدّ، أنت والملكة صفيَّة بنت الملك أفريدون ملك القسطنطينية، ومن شئتم من أكابر النصارى من غير عسكر . فإن البلاد آمان لأنها صارت تحت أيدينا . فلمَّا وصل الكتاب إليها وقرأته، وعرفت خطّ الملك رومزان، فرحت فرحاً شديداً

وتجهَّزت من وقتها وساعتها للسفر، هي والملكة صفية أم نزهة الزمان ومن صحبهم. ولم يزالوا مسافرين حتى وصلوا إلى بغداد فتقدَّم الرسول وأخبرهم بحضورها. فقال رومزان: المصلحة تقتضي أن نلبس اللبس الإفرنجي ونقابل العجوز حتى نأمن من خداعها وحيلها. فقالوا: سمعاً وطاعةً. ثم إنهم لبسوا لباس الإفرنج، فلمَّا رأت ذلك قضى فكان قالت: وحق الرب المعبود، لولا أني لا أعرفكم لقلت إنكم إفرنج. ثم إن رومزان تقدَّم أمامهم، وخرجوا يقابلون العجوز في ألف فارس. فلمَّا وقعت العين في العين، ترجَّل رومزان عن جواده وسعى إليها، فلمَّا رأته وعرفته ترجَّلت إليه وعانقته. فقرط بيده على أضلاعها حتى كاد أن يقصفها. فقالت: ما هذا؟ فلم تتم كلامها حتى نزل إليهما كان ما كان والوزير دندان، وزعقت الفرسان على من معها من الجواري والغلمان وأخذوهم جميعهم ورجعوا إلى بغداد، وأمرهم رومزان أن يزيّنوا بغداد، فزينوها ثلاثة أيام. ثم أخرجوا شواهي الملقبة بذات الدواهي، وعلى رأسها طرطور أحمر مكلّل بروث الحمير، وقدّامها منادٍ ينادي: هذا جزاء من يتجارى على الملوك وعلى أولاد الملوك. ثم صلبوها على باب بغداد. ولما رأى أصحابها ما جرى لها، أسلموا كلهم جميعاً. ثم إنَّ كان ما كان وعمَّه رومزان ونزهة الزمان والوزير دندان، تعجّبوا لهذه السيرة العجيبة وأمروا الكتاب أن يؤرّخوها في الكتب حتى تقرأ من بعدهم. وأقاموا بقيّة الزمان في ألذّ عيش وأهناه إلى أن أتاهم هادم اللذّات ومفرّق الجماعات.

وهذا آخر ما انتهى إلينا من تصاريف الزمان بالملك عمر النعمان وولده شركان وولده ضوء المكان وولد ولده كان ما كان ونزهة الزمان وقضى فكان. ثم إن الملك قال لشهرزاد: أشتهي أن تحكي لي شيئاً من حكاية الطيور. فقالت: حبّاً وكرامة. فقالت لها أختها: لم أرَ الملك في طول هذه المدة انشرح صدره غير هذه الليلة، وأرجو أن تكون عاقبتك محمودة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

10 – حكاية طريفة تتعلق بالطيور والحيوان

فلما كانت الليلة 146

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، طاووس يأوي إلى جانب البحر مع زوجته، وكان ذلك الموضع كثير السباع وفيه من سائر الوحوش، غير أنه كثير الأشجار والأنهار. وذلك الطاووس هو وزوجته يأويان إلى شجرة من تلك الأشجار ليلاً من خوفهما من الوحوش، ويغدوان في طلب الرزق نهاراً. ولم يزالا كذلك حتى كثر خوفهما، فسارا يبغيان موضعاً غير موضعهما يأويان إليه. فبينما هما يفتشان على موضع، إذ ظهرت لهما جزيرة كثيرة الأشجار والأنهار، فنزلا في تلك الجزيرة وأكلا من أثمارها وشربا من أنهارها. فبينما هما كذلك وإذا ببطة أقبلت عليهما وهي في شدّة الفزع، ولم تزل تسعى حتى أتت إلى الشجرة التي عليها الطاووس هو وزوجته فاطمأنت. فلم يشكّ الطاووس في أن تلك البطة لها حكاية عجيبة، فسألها عن حالها وعن سبب خوفها. فقالت: إنني مريضة من الحزن وخوفي من ابن آدم، فالحذر ثم الحذر من بني آدم. فقال لها الطاووس: لا تخافي حيث وصلت إلينا. فقالت البطة: الحمد لله الذي فرج عني همّي وغمّي

بقربكما، وقد أتيت راغبة في مودتكما. فلما فرغت من كلامها نزلت إليها زوجة الطاووس وقالت لها: اهلاً وسهلاً ومرحباً لا بأس عليك، ومن أين يصل إلينا ابن آدم ونحن في تلك الجزيرة التي في وسط البحر؟ فمن البر لا يقدر ان يصل إلينا، ومن البحر لا يمكن ان يطلع علينا. فابشري وحدّثينا بالذي نزل بك واعتراك من ابن آدم. فقالت البطة: أعلمي أيتها الطاووسة، انني في هذه الجزيرة طول عمري آمنة لا أرى مكروهاً. فنمت ليلة من الليالي فرأيت في منامي صورة ابن آدم وهو يخاطبني واخاطبه، وسمعت قائلاً يقول لي: ايتها البطة، احذري من ابن آدم ولا تغترّي بكلامه ولا بما يدخله عليك، فإنه كثير الحيل والخداع، فالحذر كل الحذر من مكره. فإنه مخادع ماكر كما قال فيه الشاعر: [من الكامل]

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسانِ حَلاوةً ويَرُوغُ مِنْكَ كَما يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

واعلمي أن ابن آدم يحتال على الحيتان فيخرجها من البحار، ويرمي الطير ببندقة من طين، ويوقع الفيل بمكره. وابن آدم لا يسلم أحد من شرّه ولا ينجو منه طير ولا وحش. وقد بلغتك ما سمعته عن ابن آدم. فاستيقظت من منامي خائفة مرعوبة، وأنا إلى الآن لا ينشرح صدري خوفاً على نفسي من ابن آدم لئلا يدهمني بحيلته ويصيدني بحبائله. ولم يأتِ على آخر النهار إلاّ وقد ضعفت قوتي وبطلت همّتي. ثم إني اشتقت إلى الأكل والشرب، فخرجت اتمشى وخاطري مكدر وقلبي مقبوض، فلمّا وصلت إلى ذلك الجبل وجدت على باب مغارة شبلاً أصفر اللون، فلمّا رآني ذلك الشبل فرح بي فرحاً شديداً وأعجبه لوني وكوني لطيفة الذات. فصاح عليّ وقال لي: إقربي مني. فلمّا قربت منه قال لي: ما اسمك وما جنسك؟ فقلت له: إسمي بطة وأنا من جنس الطيور. ثم قلت له: ما سبب قعودك إلى هذا الوقت في هذا المكان؟ فقال الشبل: سبب ذلك، ان والدي الأسد له أيام وهو يحذرني من ابن آدم، فاتّفق انني رأيت في هذه الليلة في منامي صورة ابن آدم. ثم إن الشبل حكى لي نظير ما حكيته لك. فلما سمعت كلامه قلت له: يا أسد، إني قد لجأت إليك في أن تقتل ابن آدم وتحزم رأيك في قتله فإني اخاف على نفسي منه خوفاً شديداً، وازددت خوفاً على خوفي من خوفك من ابن آدم مع انك سلطان الوحوش. وما زلت يا أختي احذّر الشبل من ابن آدم واوصيه بقتله، حتى قام من وقته وساعته من المكان الذي كان فيه وتمشى وتمشيت وراءه، ففرقع بذنبه على ظهره. ولم يزل يتمشى وأنا أمشي وراءه إلى أن مرق الطريق فوجدنا غبرة طارت. وبعد ذلك انكشفت الغبرة، فبان من تحتها حمار شارد عريان، وهو تارة بقميص ويجري، وتارة يتمرّغ. فلمّا رآه الأسد صاح عليه، فأتى إليه خاضعاً. فقال له: أيها الحيوان الخريف العقل، ما جنسك وما سبب قدومك إلى هذا المكان؟ فقال له: يا ابن السلطان، أنا جنسي حمار وسبب قدومي إلى هذا المكان، هروبي من ابن آدم. فقال له الشبل: وهل أنت خائف من ابن آدم أن يقتلك؟ فقال له الحمار: لا يا بن السلطان، وإنما خوفي أن يعمل حيلة عليّ ويركبني، لأن عنده شيئاً يسمّيه البرذعة فيجعلها على ظهري، وشيئاً يسمّيه الحزام فيشده على بطني، وشيئاً يسمّيه الطفر فيجعله تحت ذنبي، وشيئاً يسمّيه اللجام فيجعله في فمي. ويعمل لي منخاساً ينخسني به، ويكلّفني ما لا أطيق من الجري. وإذا عثرت لعنني وإن نهقت شتمني. وبعد ذلك إذا كبرت ولم اقدر على الجري، يجعل لي رجلاً من الخشب ويسلّمني

إلى السقّايين، فيجعلون الماء على ظهري من البحر في القرب ونحوها كالجرار . ولا أزال في ذل وهوان وتعب حتى أموت، فيرمونني فوق التلال للكلاب . فأي شيء أكبر من هذا الهمّ؟ وأيّ مصيبة أكبر من هذه المصائب؟ فلمّا سمعت أيتها الطاووسة كلام الحمار، اقشعرّ جسدي من ابن آدم وقلت للشبل : يا سيدي، إن الحمار معذور وقد زادني كلامه رعباً على رعبي . فقال الشبل للحمار : إلى أين أنت سائر؟ فقال له الحمار : إني نظرت ابن آدم قبل إشراق الشمس من بعيد ففررت هرباً منه، وها أنا أريد أن أنطلق ولم أزل أجري من شدة خوفي منه، فعسى أجد لي موضعاً ياويني من ابن آدم الغدار . فبينما ذلك الحمار يتحدث مع الشبل في ذلك الكلام وهو يريد أن يودّعنا ويروح ، إذ ظهرت لنا غبرة . فنهق الحمار وصاح ونظر بعينه إلى ناحية الغبرة وضرط ضراطًا عاليًا، وبعد ساعة انكشفت الغبرة عن فرس أدهم بغرة كالدرهم، وذلك الفرس ظريف الغرة مليح التحجيل حسن القوائم والصهيل . ولم يزل يجري حتى وقف بين يدي الشبل ابن الأسد . فلمّا رآه الشبل استعظمه وقال له : ما جنسك أيها الوحش الجليل، وما سبب شرودك في هذا البر العريض الطويل؟ فقال له : يا سيد الوحوش، أنا فرس من جنس الخيل، وسبب شرودي هروبي من ابن آدم . فتعجّب الشبل من كلام الفرس وقال : لا تقل هذا الكلام فإنه عيب عليك وأنت طويل غليظ . وكيف تخاف من ابن آدم مع عظم جثتك وسرعة جريك؟ وأنا مع صغر جسمي قد عزمت على أن ألتقي مع ابن آدم، فأبطش به وآكل لحمه وأسكّن روع هذه البطة المسكينة وأقرّها في وطنها . وها أنت لما أتيت في هذه الساعة، قطعت قلبي بكلامك وأرجعتني عمّا أردت أن أفعله . فإذا كنت أنت مع عظمك، قد قهرك ابن آدم ولم يخف من طولك وعرضك . مع أنك لو رفصته برجلك لقتلته ولم يقدر عليك بل تسقيه كأس الردى . فضحك الفرس لما سمع كلام الشبل وقال : هيهات، هيهات أن أغلبه يا ابن الملك، فلا يغرّك طولي ولا عرضي ولا ضخامتي مع ابن آدم . لأنه من شدّة حيله ومكره يصنع شيئاً يقال له : الشكال . ويضع في أربعة قوائمي شكالين من حبال الليف الملفوفة باللباد، ويصلبني من رأسي في وتد عالٍ، وأبقى واقفاً وأنا مصلوب لا أقدر أقعد ولا أنام . وإذا أراد أن يركبني، يعمل لي شيئاً في رجليه من الحديد اسمه الركاب، ويضع على ظهري شيئاً يسمّيه السرج ويشدّه بحزامين من تحت إبطي، ويضع في فمي شيئاً من الحديد يسمّيه اللجام ويضع فيه شيئاً من الجلد يسمّيه الصرع ، فإذا ركب فوق ظهري على السرج يمسك الصرع بيده ويقودني به ويهمزني بالركاب في خواصري حتى يدميها . ولا تسأل يا ابن السلطان عن ما أقاسيه من ابن آدم . فإذا كبرت وانتحل ظهري ولم أقدر على سرعة الجري، يبيعني للطحان ليدورني في الطاحون . فلا أزال دائراً فيها ليلاً ونهاراً إلى أن أهرم ، فيبيعني للجزار فيذبحني ويسلخ جلدي وينتف ذنبي ويبيعهما للغرابلي والمناخلي، ويسلي شحمي . فلمّا سمع الشبل كلام الفرس، ازداد غيظاً وغمّاً وقال له : متى فارقت ابن آدم؟ قال : فارقته نصف النهار وهو في أثري . فبينما الشبل يتحدث مع الفرس في هذا الكلام وإذا بغبرة ثارت، وبعد ذلك انكشفت الغبرة وبان من تحتها جمل هايج، وهو يبعبع ويخبط برجليه في الأرض . ولم يزل يفعل كذلك حتى وصل إلينا، فلما رآه الشبل كبيراً غليظاً ظنّ أنه ابن آدم فأراد الوثوب عليه . فقلت له : يا ابن السلطان، إن هذا ما هو ابن آدم، وإنما هذا جمل وكأنه هارب من ابن آدم . فبينما أنا يا أختي مع الشبل في هذا الكلام،

وإذا بالجمل تقدم بين أيادي الشبل وسلّم عليه . فردّ عليه السلام وقال له : ما سبب مجيئك إلى هذا المكان ؟ قال : جئت هارباً من ابن آدم . فقال له الشبل : وأنت مع عظم خلقتك وطولك وعرضك ، كيف تخاف من ابن آدم ؟ ولو رفصته برجلك رفصة لقتلته . فقال له الجمل : يا ابن السلطان ، أعلم أن ابن آدم له دواهي لا تطاق وما يغلبه إلاّ الموت ، لأنه يضع في أنفي خيطاً ويسمّيه خزاماً ، ويجعل في رأسي مقوداً ويسلّمني إلى أصغر أولاده فيجرني الولد الصغير بالخيط مع كبري وعظمي . ويحمّلونني أثقل الأحمال ، ويسافرون بي الأسفار الطوال ، ويستعملونني في الأشغال الشاقة أثناء الليل والنهار . وإذا كبرت وشخت أو انكسرت ، فلم يحفظ صحبتي بل يبيعني للجزار فيذبحني ، ويبيع جلدي للدبّاغين ولحمي للطباخين . ولا تسأل عن ما أقاسي من ابن آدم . فقال له الشبل : أي وقت فارقت ابن آدم ؟ فقال : فارقته وقت الغروب ، وأظنه يأتي عند انصرافي فلن يجدني فيسعى في طلبي . فدعني يا ابن السلطان حتى أهجّ في البراري والقفار . فقال الشبل : تمهل قليلاً يا جمل حتى تنظر كيف أفترسه ، وأطعمك من لحمه ، وأهشم عظمه وأشرب من دمه . فقال له الجمل : يا ابن السلطان ، أنا خائف عليك من ابن آدم فإنه مخادع ماكر . ثم أنشد قول الشاعر : [من الوافر]

إذا حَلَّ الثَّقِيلُ بأَرْضِ قَوْمٍ فَما لِلْساكِنِينَ سِوَى الرَّحِيلِ

فبينما الجمل يتحدث مع الشبل في هذا الكلام ، وإذا بغبرة طلعت . وبعد ساعة انكشفت عن شيخ قصير رقيق البشرة على كتفه مقطف فيه عدة نجار ، وعلى رأسه شعبة وثمانية ألواح ، وبيده أطفال صغار ، وهو يهرول في مشيه . وما زال يمشي حتى قرب من الشبل ، فلما رأيته يا أختي ، وقعت من شدة الخوف . وأما الشبل ، فإنه قام وتمشى إليه ولاقاه ، فلما وصل إليه ضحك النجار في وجهه وقال له بلسان فصيح : أيها الملك الجليل صاحب الباع الطويل ، أسعد الله مساك ومسعاك وزاد في شجاعتك وقواك ، آجرني مما دهاني وبشرّه رماني ، لأني ما وجدت لي نصيراً غيرك . ثم إن النجار وقف بين يدي الأسد وبكى وأنّ واشتكى ، فلما سمع الشبل بكاءه وشكواه قال له : آجرتك مما تخشاه . فمن الذي قد ظلمك ، وما أنت تكون أيها الوحش الذي ما رأيت عمري مثلك ولا أحسن صورة ولا أفصح لساناً منك ، فما شأنك ؟ فقال له النجار : يا سيد الوحوش ، أما أنا فنجار ، وأما الذي ظلمني فإنه ابن آدم ، وفي صباح هذه الليلة يكون عندك في هذا المكان . فلما سمع الشبل من النجار هذا الكلام تبدل الضياء في وجهه بالظلام وشخر ونخر وارتمت عيناه بالشرر وصاح وقال : والله لأسهرن في هذه الليلة إلى الصباح ، ولا أرجع إلى والدي حتى أبلغ مقصدي . ثم إن الشبل التفت إلى النجار وقال له : إني أرى خطواتك قصيرة ولا أقدر أن أكسر بخاطرك لأني ذو مروءة ، وأظن أنك لا تقدر أن تماشي الوحوش . فاخبرني إلى أين تذهب ؟ فقال له النجار : أعلم أنني رايح إلى وزير والدك الفهد ، لأنه لما بلغه أن ابن آدم داس هذه الأرض ، خاف على نفسه خوفاً عظيماً وأرسل إليّ رسولاً من الوحوش لأصنع له بيتاً يسكن فيه ويأوي إليه ويمنع عنه عدوه حتى لا يصل إليه أحد من بني آدم . فلما جاءني الرسول ، أخذت هذه الألواح وتوجهت إليه . فلما سمع الشبل كلام النجار ، أخذه الحسد للفهد فقال له : بحياتي لا بدّ أن تصنع لي هذه الألواح بيتاً قبل أن تصنع للفهد بيته ، وإذا فرغت من شغلي

فامض إلى الفهد واصنع له ما يريد . فلما سمع النجار من الشبل هذا الكلام قال له : يا سيد الوحوش ، ما اقدر أن أصنع لك شيئاً إلاّ إذا صنعت للفهد ما يريد ، ثم أجيء إلى خدمتك وأصنع لك بيتاً يحصنك من عدوك . فقال له الشبل : والله ما أخليك تروح من هذا المكان حتى تصنع لي هذه الألواح بيتاً . ثم إن الشبل همّ على النجار ووثب عليه وأراد أن يمزح معه ، فلطشه بيده فرمى المقطف من على كتفه ووقع النجار مغشيّاً عليه . فضحك الشبل عليه وقال : ويلك يا نجار ، إنك ضعيف وما لك قوّة ، فأنت معذور إذا خفت من ابن آدم . فلما وقع النجار على ظهره ، اغتاظ غيظاً شديداً ولكنه كتم ذلك عن الشبل من خوفه منه . ثم قعد النجار وضحك في وجه الشبل وقال له : ها أنا أصنع لك البيت . ثم إن النجار تناول الألواح التي كانت معه وسمر البيت ، وجعله مثل القالب على قياس الشبل وخلى بابه مفتوحاً لأنه جعله على صورة صندوق ، وفتح له طاقة كبيرة وجعل لها غطاء ، وثقب فيه ثقباً كثيرة وأخرج منها مسامير مطرفة وقال للشبل : أدخل في هذا البيت من هذه الطاقة لما أقيه عليك . ففرح الشبل بذلك وأتى تلك الطاقة فرآها ضيقة . فقال له النجار : أدخل وابرك على يديك ورجليك . ففعل الشبل ذلك ودخل الصندوق وبقي ذنبه خارجاً ، ثم أراد الشبل أن يتأخر إلى ورائه ويخرج فقال له النجار : أمهل حتى أنظر هل يسع ذنبك معك ! فامتثل الشبل أمره . ثم إن النجار لفّ ذنب الشبل وحشاه في الصندوق وردّ اللوح على الطاقة سريعاً وسمّره . فصاح الشبل قائلاً : يا نجار ، ما هذا البيت الضيق الذي صنعته لي ؟ دعني أخرج منه . فقال له النجار : هيهات هيهات ، لا ينفع الندم على ما فات ، إنك لا تخرج من هذا المكان . ثم ضحك النجار وقال للشبل : إنك وقعت في القفص وكنت أخبث الوحوش . فقال : يا أخي ، ما هذا الخطاب الذي تخاطبني به ؟ فقال له : النجار أعلم يا كلب البرانك وقعت فيما كنت تخاف منه ، وقد رماك القدر ولم ينفعك الحذر . فلما سمع الشبل كلامه يا أختي ، علم أنه ابن آدم الذي حذره منه أبوه في اليقظة ، والهاتف في المنام . وتحققت أنه هو بلا شك ولا ريب ، فخفت منه على نفسي خوفاً عظيماً وبعدت عنه قليلاً ، وصرت أنتظر ماذا يفعل بالشبل . فرأيت يا أختي ابن آدم حفر حفرة في ذلك المكان بالقرب من الصندوق الذي فيه الشبل ، ورماه في تلك الحفرة وألقى عليه الحطب وأحرقه بالنار . فكبر يا أختي خوفي ، ولي يومان هاربة من ابن آدم وخائفة منه . فلما سمعت الطاووسة من البطة هذا الكلام . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 147

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الطاووسة لما سمعت من البطة هذا الكلام ، تعجبت منه غاية العجب وقالت : يا أختي ، إنك أمنت من ابن آدم لأننا في جزيرة من جزائر البحر ليس لابن آدم فيها مسلك . فاختاري المقام عندنا إلى أن يسهل الله أمرك وأمرنا . قالت : أخاف أن يطرقني طارق والقضاء لا ينفك عنه آبق . فقالت : أقعدي عندنا وأنت مثلنا . ولا زالت بها حتى قعدت وقالت : يا أختي ، أنت تعلمين قلّة صبري ، ولولا أني رأيتك هنا ما كنت قعدت . فقالت الطاووسة : إن كان على جبيننا شيء نستوفاه ، وإن كان أجلنا دنا فمن يخلصنا ؟ ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها . فبينما هما في هذا الكلام إذ طلعت عليهما غبرة ، فعند ذلك صاحت البطة ونزلت البحر وقالت : الحذر والحذر وإن لم يكن مفر من

القدر. وكانت الغبرة عظيمة، فلما انكشفت الغبرة ظهر من تحتها ظبي. فاطمأنت البطة والطاووسة ثم قالت البطة: يا أختي، إن الذي تفزعين منه ظبي، وها هو قد أقبل نحونا فليس علينا منه بأس، لأن الظبي إنما تأكل الحشائش من نبات الأرض. وكما أنت من جنس الطير هو الآخر من جنس الوحوش، فاطمئني ولا تهتمي فإن الهمّ ينحل البدن. فلم تتم الطاووسة كلامها حتى وصل الظبي إليهما يستظل تحت الشجرة، فلما رأى الطاووسة والبطة سلم عليهما وقال لهما: إني دخلت هذه الجزيرة اليوم فلم أرَ أكثر منها خصباً ولا أحسن منها مسكناً. ثم دعاهما لمرافقته ومصافاته. فلما رأت البطة والطاووسة توودده إليهما، أقبلتا عليه ورغبتا في عشرته وتحالفوا على ذلك، وصار مبيتهم واحداً ومأكلهم سواء. ولم يزالوا آمنين آكلين شاربين حتى مرّت بهم سفينة كانت تائهة في البحر فأرست قريباً منهم، فطلع الناس وتفرقوا في الجزيرة، فرأوا الظبي والطاووسة والبطة مجتمعين فأقبلوا عليهم فشرد الظبي في البرية وطارت الطاووسة في الجو فبقيت البطة مخبلة. ولم يزالوا بها حتى صادوها. وصاحت قائلة: لم ينفعني الحذر من القضاء والقدر. وانصرفوا بها إلى سفينتهم. فلما رأت الطاووسة ما جرى للبطة، ارتحلت عن الجزيرة وقالت: لا أرى الآفات إلاّ مراصدة لكل أحد. ولولا هذه السفينة ما حصل بيني وبين هذه البطة افتراق، ولقد كانت من خيار الأصدقاء. ثم طارت الطاووسة واجتمعت بالظبي، فسلم عليها وهنأها بالسلامة وسألها عن البطة فقالت له: قد أخذها العدوّ وكرهت المقام في تلك الجزيرة بعدها. ثم بكت على فراق البطة وأنشدت تقول: [من الخفيف]

إنَّ يَوْمَ الفِراقِ قَطَعَ لِقَلْبِي قَطَّعَ اللهُ قَلْبَ يَوْمِ الفِراقِ

وأنشدت أيضاً: [من الوافر]

تَمَنَّيْتُ الوِصالَ يَعُودُ يَوْماً لأُخْبِرَهُ بِما صَنَعَ الفِراقُ

فاغتمّ الظبي غماً شديداً. ثم ردّ عزم الطاووسة عن الرحيل، فأقام معها في تلك الجزيرة آمنين آكلين شاربين غير أنهما لم يزالا حزينين على فراق البطة. فقال الظبي للطاووسة: يا أختي، قد علمت أن الناس الذين طلعوا لنا من المركب كانوا سبباً لفراقنا ولهلاك البطة، فاحذريهم واحترسي منهم ومن مكر ابن آدم وخداعه. قالت: قد علمت يقيناً أن ما قتلها غير تركها التسبيح. ولقد قلت لها: إني أخاف عليك من تركك التسبيح، لأن كل ما خلقه الله يسبحه فإن غفل عن التسبيح عوقب بهلاكه. فلما سمع الظبي كلام الطاووسة قال: أحسن الله صورتك. وأقبل على التسبيح لا يفتر عنه ساعة. وقد قيل: إن الظبي يقول في تسبيحه: سبحان الديّان ذي الجبروت والسلطان، وورد أن بعض العباد كان يتعبّد في بعض الجبال، وكان يأوي إلى ذلك الجبل زوج من الحمام، وكان ذلك العابد قسم قوّته نصفين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 148

حكاية الصبية والراعي

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العابد قد قسم قوّته نصفين: وجعل نصفه لنفسه، ونصفه لذلك الزوج الحمام، ودعا العابد لهما بكثرة النسل، فكثر نسلهما. ولم يكن الحمام يأوي إلى غير الجبل الذي فيه العابد، وكان السبب في اجتماع الحمام بالعابد، كثرة تسبيح

الحمام . وقيل : إن الحمام يقول في تسبيحه : سبحان خالق الخلق وقاسم الرزق وباني السموات وباسط الأرضين . ولم يزل ذلك الزوج الحمام في أرغد عيش هو ونسله حتى مات العابد . فتشتّت شمل الحمام وتفرّق في المدن والقرى والجبال . وقيل : أنه كان في بعض الجبال رجل من الرعاة ، صاحب دين وعقل وعفّة . وكان له غنم يرعاها وينتفع بألبانها وأصوافها . وكان ذلك الجبل الذي يأوي إليه الراعي كثير الأشجار والمرعى والسباع ، ولم يكن لتلك الوحوش قدرة على الراعي ولا على غنمه . ولم يزل مقيماً في الجبل مطمئناً لا يهمه شيء من أمر الدنيا لسعادته وإقباله على عبادته . فاتفق له أنه مرض مرضاً شديداً فدخل كهفاً في الجبل ، وصارت الغنم تخرج بالنهار إلى مرعاها وتأوي بالليل إلى الكهف . فأراد الله أن يمتحن ذلك الراعي ويختبره في طاعته وصبره فبعث إليه ملكاً . فدخل عليه الملك في صورة امرأة حسناء وجلس بين يديه ، فلما رأى الراعي تلك المرأة جالسة عنده ، اقشعر بدنه منها فقال لها : أيتها المرأة ، ما الذي دعاك إلى المجيء هنا وليس لك حاجة معي ولا بيني وبينك ما يوجب دخولك عندي؟ فقالت له : أيها الانسان ، أمَا ترى حسني وجمالي وطيب رائحتي؟ أمَا تعلم حاجة الرجال إلى النساء؟ فما الذي يمنعك مني وقد اخترت قربك وأحببت وصالك ، وقد جئتك طائعة وعليك غير ممتنعة وليس عندنا أحد نخشاه . وأريد أن أقيم معك طول مقامك في هذه الجبال وأكون أنيسة لك ، وقد عرضت نفسي عليك لأنك تحتاج لخدمة النساء ، وأنت إن باشرتني زال عنك مرضك وعادت إليك صحتك وندمت على ما فاتك من قرب النساء في سالف عمرك ، وقد نصحتك فاقبل نصيحتي وادن مني . فقال الراعي : اخرجي عني أيتها المرأة الخدّاعة الغدّارة ، فلا أركن إليك ولا أدنو منك ولا حاجة لي بقربك ولا بوصالك ، لأن من رغب فيك زهد في الآخرة ومن رغب في الآخرة زهد فيك ، لأنك فتنت الأولين والآخرين والله تعالى لعباده بالمرصاد ، والويل لمن ابتلى بصحبتك . فقالت له : أيها التائه عن السداد والضال عن طريق الرشاد ، أقبل بوجهك إلي وانظر إلى محاسني واغتنم قربي كما فعل من كان قبلك من الحكماء ، فقد كانوا أكثر منك تجربة وأصوب منك رأياً ومع ذلك ، لم يرفضوا ما رفضت من التمتع بالنساء بل رغبوا فيما زهدت فيه من مباشرة النساء وقربهن فما أساءهم ذلك في دينهم ولا دنياهم ، فارجع عن رأيك تحمد عاقبة أمرك . فقال الراعي : إن الذي تقولينه كرهته وجميع ما تبدينه زهدته ، لأنك خدّاعة غدّارة لا عهد لك ولا وفاء . فكم من قبيح تحت حسنك أخفيته ! وكم من صالح فتنته ! وكانت عاقبته إلى الندامة والحزن ، فارجعي عنّي أيتها المصلحة نفسها لفساد غيرها . ثم ألقى عباءته على وجهه حتى لا يرى وجهها واشتغل بذكر ربه . فلما رأى الملاك حسن طاعته خرج وعرج إلى السماء ، وكان قريباً من الراعي قرية فيها رجل من الصالحين لم يعلم بمكانه ، فرأى في منامه كأن قائلاً يقول له : بالقرب منك في مكان كذا رجل صالح فاذهب إليه وكن تحت طاعة أمره . فلما أصبح الصباح توجّه نحوه سائراً ، فلما اشتد عليه الحرّ انتهى إلى شجرة عندها عين جارية ، فجلس في ظل تلك الشجرة ليستريح . فبينما هو جالس وإذا بوحوش وطيور أتوا إلى تلك العين ليشربوا منها ، فلما رأوا العابد جالساً نفروا ورجعوا شاردين . فقال العابد في نفسه : أنا ما استرحت هنا إلاّ لتعب هذه الوحوش والطيور . ثم قام وقال معاتباً لنفسه : لقد أضرّ بهذه الحيوانات في هذا اليوم جلوسي في هذا المكان ، فما عذري عند خالقي وخالق هذه الطيور والوحوش ؟ فإنني كنت سبباً

لشرودهم عن مائهم ومرعاهم . فواخجلتي من ربي يوم يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء . ثم أفاض من جفنه العبرات وأنشد هذه الأبيات : [من الوافر]

أَما واللهِ لَو عَلِمَ الأنامُ ... لِما خُلِقُوا لَمَا غَفَلُوا وناموا
فَمَوْتٌ ثُمَّ بعثٌ ثُمَّ حَشْرٌ ... وتَوْبِيخٌ وأَهْوالٌ عِظامُ
ونَحْنُ إذا ٱنْتَهَيْنا أَو أُمِرنا ... كَأَهْلِ ٱلكَهْفِ أَكْثَرُنا نِيامُ

ثم بكى على جلوسه تحت الشجرة عند العين ومنعه الطيور والوحوش من شربها وولّى هائماً على وجهه حتى أتى إلى الراعي . فدخل عنده وسلم عليه ، فرد عليه السلام وعانقه وبكى . ثم قال له الراعي : ما الذي أقدمك إلى هذا المكان الذي لم يدخله أحد من الناس عليّ ؟ فقال العابد : إني رأيت في منامي من يصف لي مكانك ويأمرني بالسير إليك والسلام عليك ، وقد أتيتك ممتثلاً لما أمرت به . فقبله الراعي وطابت نفسه بصحبته وجلس معه في الجبل يعبدان الله في ذلك الغار ، وحسنت عبادتهما . ولم يزالا في ذلك المكان يعبدان ربهما ويتقوّتان من لحوم الغنم وألبانها متجرّدين عن المال والبنين إلى أن أتاهما اليقين . وهذا آخر حديثهما .

قال الملك : لقد زهدتني يا شهرزاد في ملكي ، وندمتني على ما فرط مني في قتل النساء والبنات . فهل عندك شيء من حديث الطيور ؟ قالت : نعم .

حكاية السلحفاة وطائر الماء

زعموا أيها الملك أن طائراً طار وعلا إلى الجو ثم انقضّ على صخرة في وسط الماء وكان الماء جارياً ، فبينما الطائر واقف على الصخرة وإذا برمة إنسان جرّها الماء حتى أسندها إلى الصخرة ، ووقفت تلك الجيفة في جانب الصخرة وارتفعت لانتفاخها ، فدنا منها طير الماء وتأملها فرآها ابن آدم وظهر له فيها ضرب السيف وطعن الرماح . فقال في نفسه : إن هذا المقتول كان شريراً ، فاجتمع عليه جماعة وقتلوه واستراحوا منه ومن شرّه . ولم يزل طير الماء يكثر التعجّب من تلك الرمة حتى رأى نسوراً وعقباناً أحاطوا بتلك الجيفة من جميع جوانبها ، فلما رأى ذلك طير الماء ، جزع جزعاً شديداً وقال : لا صبر لي على الإقامة في هذا المكان . ثم طار منه يفتش على موضع يأويه إلى حين نفاد تلك الجيفة وزوال سباع الطير عنها . ولم يزل طائراً حتى وجد نهراً في وسطه شجرة ، فنزل عليها كئيباً حزيناً على بعده عن وطنه وقال في نفسه : لم تزل الأحزان تتبعني ، وكنت قد استرحت لما رأيت تلك الجيفة وفرحت بها فرحاً شديداً وقلت : هذا رزق ساقه الله إلي . فصار فرحي غماً وسروري حزناً وهماً ، وافترستها سباع الطير مني وحالوا بينها وبيني . فكيف أرجو أن أكون سالماً في هذه الدنيا وأطمئن إليها ؟ وقد قيل في المثل : الدنيا دار من لا دار له يغتربها من لا عقل له ، ويطمئن إليها بماله وولده وقومه وعشيرته ، ولم يزل المغتر بها راكناً إليها يختال فوق الأرض حتى يصير تحتها ويحث عليه التراب أعز الناس عليه وأقربهم إليه ، وما للفتى خير من الصبر على مكارهها . وقد فارقت مكاني ووطني وكنت كارهاً لفرقة إخواني وأصحابي . فبينما هو في فكرته وإذا بذكر من السلاحف أقبل منحدراً في الماء ودنا من طير الماء وسلم عليه وقال : يا سيدي ، ما الذي أبعدك عن موضعك ؟ قال : حلول الأعداء فيه . ولا صبر للعاقل على مجاورة عدوه . وما أحسن قول بعض الشعراء : [من الوافر]

إذا حَلَّ الثَّقيلُ بأَرْضِ قَوْمٍ فَما لِلسَّاكِنِينُ سِوَى الرَّحِيلُ

فقال له السلحف : إذا كان الأمر كما وصفته والحال مثل ما ذكرتها ، فأنا لا أزال بين يديك ولا أفارقك لأقضي حاجتك وأفي بخدمتك . فإنه يقال : لا وحشة أشد من وحشة الغريب المنقطع عن أهله ووطنه . وقد قيل : إن فرقة الصالحين لا يعد لها شيء من المصائب ، ومما يسلّي به العاقل نفسه الإستئناس في الغربة والصبر على الرزية والكربة ، وأرجو أن تحمد صحبتي لك وأكون لك خادماً ومعيناً . فلما سمع طير الماء مقالة السلحف قال له : لقد صدقت في قولك ولعمري إني وجدت للفراق ألماً وغماً مدة بعدي عن مكاني وفراقي لإخواني وخلاّني ، لأن في الفراق عبرة لمن اعتبر وفكرة لمن تفكّر . وإذا لم يجد الفتى من يسلّيه من الأصحاب ، ينقطع عنه الخير أبداً ويثبت الشر سرمداً . وليس للعاقل إلاّ التسلّي بالإخوان عن الهموم في جميع الأحوال وملازمة الصبر والتجلّد ، فإنهما خصلتان محمودتان يعينان على نوائب الدهر ويدفعان الفزع والجزع في كل أمر . قال له السحلف : إياك والجزع ، فإنه يفسد عليك عيشك ويذهب مروءتك . وما زالا يتحدثان مع بعضهما إلى أن قال طير الماء للسلحف : أنا لم أزل أخشى نوائب الزمان وطوارق الحدثان . فلما سمع السلحف مقالة طير الماء ، أقبل عليه وقبّله بين عينيه وقال له : لم تزل جماعة الطير تعرف في مشورتك الخير ، فكيف تحمل الهمّ والضير ؟ ولم يزل يسكن روع طير الماء حتى اطمأن . ثم إن طير الماء طار إلى مكان الجيفة ، فلما وصل إليه لم يرَ من سباع الطير شيئاً ، ولا من تلك الجيفة إلاّ عظاماً . فرجع يخبر السلحف بزوال العدو من مكانه ، فلما وصل إلى السلحف أخبره بما رأى وقال له : إني أحب الرجوع مكاني وأتملى بخلاّني ، فإنه لا صبر للعاقل عن وطنه . فذهب معه إلى ذلك المكان فلم يجد أشياء مما يخافا منه . فصار طير الماء قرير العين وأنشد هذين البيتين : [من الكامل]

وَلَرُبَّ نازِلَةٍ يَضِيقُ بها الفَتَى ذَرْعاً وعِنْدَ اللهِ مِنْها المَخْرَجُ
ضاقَتْ فَلَمَّا ٱسْتَمْكَنَتْ حَلَقاتُها فُرِجَتْ وكُنْتُ أَظُنُّها لا تُفْرَجُ

ثم سكنا في تلك الجزيرة . فبينما طير الماء في أمن وسرور وفرح وحبور ، إذ ساق القضاء اليه بازاً جائعاً فضربه بمخلبه ضربة فقتله ، ولم يغن عنه الحذر عند فراغ الأجل . وسبب قتله ، غفلته عن التسبيح . قيل : أنه كان يقول في تسبيحه : سبحان ربنا فيما قدّر ودبّر . سبحان ربنا فيما أغنى وافقر . هذا ما كان من حديث الطير . فقال الملك : يا شهرزاد ، لقد زدتني بحكايتك مواعظاً واعتباراً ، فهل عندك شيء من حكايات الوحوش ؟ فقالت : اعلم أيها الملك ، أن ثعلباً وذئباً ألفا وكراً ، فكانا يأويان إليه مع بعضهما . فلبثا على ذلك مدة من الزمان ، وكان الذئب للثعلب قاهراً . فاتفق أن الثعلب أشار على الذئب بالرفق وترك الفساد وقال له : إن دمت على عتوّك ربما سلّط الله عليك ابن آدم ، فإنه ذو حيل ومكر وخداع ، يصيد الطير من الجو والحوت من البحر ويقطع الجبال وينقلها وكل ذلك من حيله . فعليك بالإنصاف وترك الشرّ والاعتساف ، فإنه أهنا لطعامك . فلم يقبل الذئب قوله وأغلظ له الرد وقال له : لا علاقة لك بالكلام في عظيم الأمور وجسيمها . ثم لطم الثعلب لطمة فخرّ منها مغشياً عليه ، فلما أفاق تبسّم في وجه الذئب واعتذر إليه من الكلام المشين ، وانشد هذين البيتين : [من الكامل]

إنْ كُنتُ قَدْ أَذْنَبْتُ ذَنْباً سالفاً   في حُبِّكُمْ وأَتَيْتُ شَيْئاً مُنْكرا
أَنا تائبٌ عَمَّا جَنَيْتُ وعَفْوُكُمْ   يَسَعُ الـمُسِيءُ إذا أَتَى مُسْتَغْفِرا

فقبل الذئب اعتذاره وكفّ عنه أشراره وقال له : لا تتكلم فيما لا يعنيك تسمع ما لا يرضيك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

حكاية الثعلب والذئب

فلما كانت الليلة 149

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الذئب قال للثعلب : لا تتكلم فيما لا يعنيك تسمع ما لا يرضيك . فقال له الثعلب : سمعاً وطاعةً . فأنا بمعزل عن ما لا يرضيك ، فقد قال الحكيم : لا تخبر عن ما لا تسأل عنه ولا تجب ما لا تدعى إليه ، وذر الذي لا يعنيك إلى ما يعنيك ، ولا تبذل النصيحة للأشرار فإنهم يجرونك عليها شرآ . فلما سمع الذئب كلام الثعلب ، تبسّم في وجهه ولكنه أضمر له مكراً وقال : لا بدّ أن أسعى في هلاك هذا الثعلب . وأما الثعلب ، فإنه صبر على أذى الذئب وقال في نفسه : إن البطر والإفتراء يجلبان الهلاك ويوقعان في الارتباك . فقد قيل : من بطر خسر ومن جهل ندم ومن خاف سلم . والإنصاف من شيم الأشراف ، والآداب أشرف الإكتساب . ومن الرأي مداراة هذا الباغي ولا بدّ له من مصرع . ثم إن الثعلب قال للذئب : إن الربّ يعفو ويتوب على عبده إن اقترف الذنوب ، وأنا عبد ضعيف وقد ارتكبت في نصحك التعسيف . ولو علمت بما حصل لي من ألم لطمتك ، لعلمت أن الفيل لا يقوم به ولا يقدر عليه . ولكني لا أشتكي من ألم هذه اللطمة بسبب ما حصل لي بها من السرور ، فإنها وإن كانت قد بلغت مني مبلغاً عظيماً عاقبتها سرور . وقد قال الحكيم : ضرب المؤدب أوله صعب شديد وآخره أحلى من العسل المصفّى . فقال الذئب : غفرت ذنبك وأقلت عثرتك ، فكن من قوّتي على حذر واعترف لي بالعبودية ، فقد علمت قهري لمن عاداني . فسجد له الثعلب وقال له : أطال الله عمرك ، ولا زلت قاهراً لمن عاداك . ولم يزل الثعلب خائفاً من الذئب مصانعاً له . ثم إن الثعلب ذهب إلى كرم يوماً ما ، فرأى في حائطه ثلمة فأنكرها وقال في نفسه : إن هذه الثلمة لا بدّ لها من سبب . وقد قيل : من رأى خرقاً في الأرض فلم يجتنبه ويتوقى عن الإقدام عليه ، كان بنفسه مغراً وللهلاك متعرّضاً . وقد اشتهر أن بعض الناس يعمل صورة الثعلب في الكرم حتى يقدم إليه العنب في الأطباق لأجل أن يرى ذلك الثعلب فيقدم إليه فيقع في الهلاك . وإني أرى هذه الثلمة مكيدة . وقد قيل : إن الحذر نصف الشطارة . ومن الحذر أن أبحث عن هذه الثلمة وأنظر ، لعلّي أجدها أمراً يؤدي إلى التلف ولا يحملني الطمع على أن ألقي نفسي في الهلكة . ثم دنا منها وطاف بها وهو محاذر فرآها ، فإذا هي حفيرة عظيمة قد حفرها صاحب الكرم ليصيد فيها الوحش الذي يفسد الكرم ، ورأى عليها غطاء رقيقاً . فتأخر عنها وقال : الحمد لله حيث حذرتها وأرجو أن يقع فيها عدوى الذئب الذي نغّص عيشي ، فأستقل بالكرم وحدي وأعيش فيه آمناً . ثم هزّ رأسه وضحك ضحكاً عالياً وأطرب بالنغمات وأنشد هذه الأبيات : [من مجزوء الرمل]

لَيْتَنِي أَبْصَرْتُ هذا الوَقْتَ   في ذِي البِئْـرِ ذِئْـبا

طالَما قَدْ ساءَ قَلْبِي وسَقانِي الـمُرَّ غَصْبا
لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ ذا أَبْقَى ويَقْضِي الذِّئْبُ نَحْبا
ثُمَّ يَخْلُو الكَرْمُ مِنْهُ وأَرَى لي فِيهِ نَهْبا

فلما فرغ من شعره، انطلق مسرعاً حتى وصل الذئب وقال: إن الله سهل لك الأمور إلى الكرم بلا تعب وهذا من سعادتك، فهنيئاً لك بما فتح الله عليك وسهل لك من تلك الغنيمة والرزق الواسع بلا مشقّة. فقال الذئب للثعلب: وما الدليل على ما وضعت؟ قال: إني انتهيت إلى الكرم فوجدت صاحبه قد مات، ودخلت البستان فرأيت الأثمار زاهية على الأشجار. فلم يشك الذئب في قول الثعلب وأدركه الشره، فقام حتى انتهى إلى الثلمة وقد غرّه الطمع. ووقف الثعلب متهافتاً كالميت، وتمثل بهذا البيت: [من الطويل]

أَتَطْمَعُ مِنْ لَيْلَى بِوَصْلٍ وإِنَّما تَضُرُّ بأَعْناقِ الرِّجالِ المَطامِعُ

فلما انتهى الذئب إلى الثلمة قال له الثعلب: ادخل إلى الكرم فقد كفيت مؤونة هدم حائط البستان وعلى الله تمام الإحسان. فاقبل الذئب ماشياً يريد الدخول إلى الكرم، فلما توسط غطاء الثلمة وقع فيها. فاضطرب الثعلب اضطراباً شديداً من السرور والفرح وزال عنه الهمّ والترح، واطرب بالنغمات وانشد هذه الأبيات: [من مجزوء الكامل]

رَقَّ الزَّمانُ لِحالَتِي ورَثَى لِطُولِ تَحَرُّقِي
وأَنالَنِي ما أَشْتَهِي وأَزال مما أَتَّـقِي
فَلأَصْفَحَنْ عَمَّا جَنا هُ مِنَ الذُّنُوبِ السُّبَّقِ
حَتَّى جِنايَتُهُ بِما فَعَلَ المَشِيبُ بِمَفْرَقِي
فالذِّئْبُ لَيْسَ لَهُ خَلا صٌ مِنْ هَلاكٍ مُوبِقِ
والكَرْمُ لِي وَحْدِي وما لِي مِنْ شَرِيكٍ أَحْمَقِ

ثم إنه تطلع في الحفرة، فرأى الذئب يبكي ندماً وحزناً على نفسه، فبكى الثعلب معه. فرفع الذئب رأسه إلى الثعلب وقال له: أمن رحمتك لي بكيت يا أبا الحصين؟ قال: لا والذي قذفك في هذه الحفرة، إنما بكيت لطول عمرك الماضي وآسفاً على كونك لم تقع في هذه الثلمة قبل اليوم، ولو وقعت فيها قبل اجتماعي بك لكنت أرحت واسترحت، ولكن أبقيت إلى أجلك المحتوم ووقتك المعلوم. فقال له الذئب: رح أيها المسيء في فعله لوالدتي واخبرها بما حصل لي لعلّها تحتال على خلاصي. فقال له الثعلب: لقد أوقعك في الهلاك شدّة طمعك وكثرة حرصك حيث سقطت في حفرة لست منها بسالم. ألم تعلم أيها الذئب الجاهل أن صاحب المثل يقول: من لم يفكر في العواقب لم يأمن المعاطب. فقال الذئب للثعلب: يا أبا الحصين، إنما كنت تظهر محبتي وترغب في مودتي وتخاف من شدّة قوتي، فلا تحقد عليّ بما فعلت معك. فمن قدر وعفى كان اجره على الله. وقد قال الشاعر: [من البسيط]

إِزْرَعْ جَمِيلاً ولَو في غَيرِ مَوْضِعِهِ ما ضاعَ قَطُّ جَمِيلٌ أَيْنَما زُرِعَ
إِنَّ الجَمِيلُ وإِنْ طالَ الزَّمانُ بِهِ فَلَيْسَ يَحْصُدُهُ إلاّ الَّذِي زَرَعَ

فقال له الثعلب : يا أجهل السباع واحمق الوحوش في البقاع ، هل نسيت تجبّرك وعتوك وتكبّرك ؟ وانت لم ترع حق المعاشرة ولم تنتصح بقول الشاعر : [من البسيط]

لا تَظْلِمَنَّ إذا ما كُنْتُ مُقْتَدَراً إنَّ الظَّلُومُ عَلى حَدٍّ مِنَ النَّقَمِ
تَنامُ عَيْنُكَ والمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنَمِ

فقال له الذئب : يا أبا الحصين ، لا تؤاخذني بسابق الذنوب فالعفو من الكرام مطلوب ، وصنع المعروف من أحسن الذخائر ، وما أحسن قول الشاعر : [من البسيط]

بادِرْ بِخَيْرٍ إذا ما كُنْتَ مُقْتَدِراً فَلَيْسَ في كُلِّ حِينٍ أَنْتَ مُقْتَدِرا

وما زال الذئب يتذلّل للثعلب ويقول له : لعلّك تقدر على شيء تخلّصني به من الهلاك . فقال له الثعلب : أيها الذئب الماكر المخادع الغادر ، لا تطمع في الخلاص فإن هذا جزاء لقبيح فعلك وقصاص . ثم ضحك بالشدقين وأنشد هذين البيتين : [من المجتث]

لا تُكْثِرَنَّ خِداعِي فَلَنْ تَنالَ مَنالا
ما رُمْتَ مِنِّي مُحالٌ زَرَعْتَ فاحْصُدْ وَبالا

فقال الذئب للثعلب : يا حليم السباع ، أنت عندي أوثق من ان تتركني في هذه الحفرة . ثم أفاض دمع العين وأنشد هذين البيتين : [من البسيط]

يا مَنْ أَيادِيه عِنْدِي غَيرُ واحِدَةٍ ومَنْ مَواهِبُهُ تَنْمُو عَنِ العَدَدِ
ما نابَنِي مِنْ زَمانِي قَطُّ نائِبَةٌ إلاّ وَجَدْتُكَ فِيها آخِذاً بِيَدِي

فقال الثعلب : أيها العدو الأحمق ، كيف صرت إلى التضرّع والخشوع والذلّة والخضوع بعد الأنفة والتكبّر والظلم والتجبّر ؟ لقد صحبتك خائفاً من عدوانك . وتملّقت لك ، لا رغبة في إحسانك . والآن نزلت بك الرجفة وحلّت بك النقمة ، وأنشد هذين البيتين : [من الرجز]

يا أَيُّها المُلْتَمِسُ الخَدِيعَهْ وَقَعْتَ في نِيَّتِكَ الشَّنِيعَهْ
فَذُقْ وَبالَ المِحْنَةِ الفَظِيعَهْ وكُنْ مَعَ الذِّئابِ في قَطِيعَهْ

فقال له الذئب : أيها الحليم ، لا تكن بلسان العداوة ناطقاً وبعينها محدّقاً ، وكن وافياً بعهد ائتلافي قبل أن يفوت وقت التلاقي ، وقم وتسبّب لي في حبل تشد طرفه في شجرة وتدلي طرفه الآخر إلي حتى أتعلّق به ، لعلّي أنجو مما أنا فيه وأدفع لك جميع ما حوته يدي من الذخائر . فقال له الثعلب : لقد أكثرت من المحاورة فيما ليس فيه خلاصك فلا ترجو مني نجاة نفسك ، واذكر ما سلف من سوء فعلك وما تضمره لي من الغدر والمكر ، وأين أنت من الرجم بالحجارة ؟ واعلم بأن ذاتك للدنيا مفارقة ومنها زائلة وعنها راحلة ، ثم تصير إلى الدمار وسوء الدار . فقال له الذئب : يا أبا الحصين ، كن قريب الرجوع إلى الوداد ولا تصرّ على ضغائن الأحقاد ، واعلم أن من خلص نفساً من الهلاك فقد احياها ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعاً . ولا تتبع الفساد فإن الحكماء تكرهه ، ولا فساد أظهر من كوني في تلك الحفرة أتجرّع غصص الموت وأنظر إلى الهلاك وانت قادر على خلاصي من الإرتباك . فقال له الثعلب : أيها الفظّ الغليظ ، إني أشبّهك في حسن علانيتك وقبح نيتك بالباز مع الحجل . قال الذئب : وما حديث الباز والحجل ؟ قال الثعلب :

دخلت يوماً كرماً لآكل من عنبه، فبينما أنا فيه إذ رأيت بازاً انقضّ على حجل فلما اقتنصه انفلت منه الحجل ودخل وكره واختفى فيه، فتبعه الباز وناداه: أيها الجاهل إني رأيتك في البرية جائعاً، فرحمتك والتقطت لك حبّاً وامسكتك لتاكل فهربت مني ولم أعرف لهروبك وجهاً إلاّ الحرمان، فاظهر وخذ ما آتيتك به من الحب فكله هنياً مريئاً. فلما سمع الحجل قول الباز صدّقه وخرج إليه، فأنشب مخالبه فيه ومكّنها منه. فقال له الحجل: أهذا الذي ذكرت أنك أتيتني به من البرية وقلت لي: كله هنياً مريئاً فكذبت علي. جعل الله ما تأكله من لحمي في جوفك سمّاً قاتلاً. فلما أكله وقع ريشه وسقطت قوته ومات لوقته. ثم قال له الثعلب: اعلم أيها الذئب أن من حفر لأخيه قليباً وقع فيه قريباً. وأنت غدرت بي أولاً. فقال الذئب للثعلب: دعني من هذا المقال وضرب الأمثال ولا تذكر لي ما سلف مني من قبيح الفعال، يكفيني ما أنا فيه من سوء الحال حيث وقعت في ورطة يرثي لي منها العدو فضلاً عن الصديق. وانظر لي حيلة أتخلّص بها وكن فيها غياثي. وإن كان عليك في ذلك مشقة، فقد يحتمل الصديق لصديقه أشد النصب ويقاسي فيما فيه نجاته العطب. وقد قيل: إن الصديق الشفيق خير من الأخ الشقيق. وإن تسببت في نجاتي لأجمعن لك من الآلة ما يكون لك عدة، ثم لأعلمنك من الحيل الغريبة ما تفتح به الكروم الخصبة وتجني الأشجار المثمرة، فطب نفساً وقرّ عيناً. فقال له الثعلب وهو يضحك: ما أحسن ما قالته العلماء في كثير الجهل مثلك. قال الذئب: وما قالت العلماء؟ قال الثعلب: ذكر العلماء أن الغليظ الجثة الغليظ الطبع يكون بعيداً من العقل قريباً من الجهل، لأن قولك أيها الماكر الأحمق قد يتحمل الصديق المشقة في تخليص صديقه. صحيح كما ذكرت، ولكن عرفني بجهلك وقلّة عقلك كيف أصادقك مع خيانتك؟ أحسبتني لك صديقاً وأنا لك عدو شامت؟ وهذا الكلام أشد من رشق السهام إن كنت تعقل. وأما قولك أنك تعطيني من الآلات ما يكون عدّة لي، وتعلمني من الحيل ما أصل به إلى الكروم المخصبة وأجتني به الأشجار المثمرة، فما لك أيها المخادع الغادر لا تعرف لك حيلة تتخلص بها من الهلاك، فما أبعدك من المنفعة لنفسك وما أبعدني من القبول لنصيحتك. فإن كان عندك حيل، فتحيّل لنفسك في الخلاص من هذا الأمر الذي أسأل الله أن يبعد خلاصك منه. فانظر أيها الجاهل إن كان عندك حيلة، فخلّص نفسك بها من القتل قبل أن تبذل التعليم لغيرك. ولكنك مثل إنسان حصل له مرض فأتاه رجل مريض بمثل مرضه ليداويه. فقال له: هل لك أن أداويك من مرضك؟ فقال له الرجل: هلاّ بدأت بنفسك بالمداواة؟ فتركه وانصرف. وأنت أيها الذئب كذلك، فالزم مكانك واصبر على ما أصابك. فلما سمع الذئب كلام الثعلب علم أنه لا خير له عنده. فبكى على نفسه وقال: قد كنت في غفلة من أمري، فإن خلّصني الله من هذا الكرب لأتوبن من تجبّري على من هو أضعف مني، ولألبسن الصوف ولأصعدن الجبل ذاكراً الله تعالى خائفاً من عقابه، وأعتزل سائر الوحوش ولأطعمن المجاهدين والفقراء، ثم بكى وانتحب. فرقّ له قلب الثعلب وكأنه لما سمع تضرّعه والكلام الذي يدل على توبته من العتو والتكبّر، أخذته الشفقة عليه فوثب من فرحته ووقف على شفير الحفيرة ثم جلس على رجليه وأدلى ذنبه في الحفيرة، فعند ذلك قام الذئب ومدّ يده إلى ذنب الثعلب وجذبه إليه فصار في الحفيرة معه. ثم قال له الذئب: أيها الثعلب القليل الرحمة، كيف تشمت بي وقد كنت صاحبي وتحت قهري؟ وقد وقعت معي في الحفرة وتعجلت لك العقوبة. وقد

قالت الحكماء : لو عاير أحدكم أخاه برضاع كلبة لارتضعها . وما أحسن قول الشاعر : [من الوافر]

إذا ما الدَّهرُ جرَّ على أُناسٍ ... كَلاكِلَهُ أَناخَ بآخَرِينا
فَقُلْ للشَّامِتِينَ بِنا : أَفِيقُوا ... سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كما لَقِينا

ثم قال الذئب للثعلب : فلا بدّ أن أعجل قتلك قبل أن ترى قتلي . فقال الثعلب في نفسه : إني وقعت مع هذا الجبار ، وهذا الحال يحتاج إلى المكر والخداع . وقد قيل : إن المرأة تصوغ حليها ليوم الزينة . وفي المثل : ما ادّخرتك يا دمعتي إلاّ لشدّتي . وإن لم أتحيل في أمر هذا الوحش الظالم هلكت لا محالة . وما أحسن قول الشاعر : [من مجزوء الكامل]

عِشْ بالخِداعِ فأنْتَ في ... زَمَنٍ بَنُوه كَأُسْدِ بِيشَهْ
وأَدِرِ قَناةَ المَكْرِ حَتَّى ... تَسْتَدِيرَ رُحَى المَعِيشَهْ
وأجْنِ الثِّمارَ فإنْ تَفُتْكَ ... فَرِضْ نَفْسَكَ بالحَشِيشَهْ

ثم إن الثعلب قال للذئب : لا تعجل علي بالقتل فتندم ، أيها الوحش الصنديد صاحب القوة والبأس الشديد ، وإن تمهلت وأمعنت النظر فيما أحكيه لك عرفت قصدي الذي قصدته ، وإن عجّلت بقتلي فلا فائدة لك فيه وغوت جميعاً ها هنا . فقال له الذئب : أيها الخادع الماكر ، وما الذي ترجوه من سلامتي وسلامتك حتى تسألني التمهل عليك؟ فاخبرني بقصدك الذي قصدته . فقال له الثعلب : أما قصدي الذي قصدته فما ينبغي أن تحسن عليه مجازاتي ، لأني سمعت ما وعدت من نفسك واعترافك بما سلف منك وتلهفك على ما فاتك من التوبة وفعل الخير ، وسمعت ما نذرته على نفسك من كفّ الأذى عن الأصحاب وغيرهم وتركك أكل العنب وسائر الفواكه ولزومك الخشوع وتقليم اظفارك وتكسير أنيابك وأن تلبس الصوف وتقرب القربان لله تعالى إن نجّاك مما أنت فيه . أخذتني الشفقة عليك ، مع أنني كنت على هلاكك حريصاً . فلما سمعت منك توبتك وما نذرته على نفسك إن نجاك الله ، لزمني خلاصك مما أنت فيه ، فأدليت إليك ذنبي لكيما تتعلق به وتنج . فلم تترك الحالة التي أنت عليها من العنف والشدّة ولم تلتمس النجاة والسلامة لنفسك بالرفق ، بل جذبتني جذبة ظننت منها أن روحي قد خرجت . فصرت أنا وأنت في منزلة الهلاك والموت ، وما ينجيّني أنا وأنت إلاّ شيء إن قبلته مني خلصت أنا وأنت ، وبعد ذلك يجب عليك أن تفي بما نذرته وأكون رفيقك . فقال له الذئب : وما الذي أقبله منك ؟ قال له الثعلب : تنهض قائماً ثم أعلو أنا فوق رأسك حتى أكون قريباً من ظاهر الأرض ، فإني حين أصير فوقها أخرج وآتيك بما تتعلق به وتخلص أنت بعد ذلك . فقال له الذئب : لست بقولك واثقاً ، لأن الحكماء قالوا : من استعمل الثقة في موضع الحقد كان مخطئاً . وقيل : مَنْ وثق بغير ثقة كان مغروراً ، ومَنْ جرّب المجرّب حلّت به الندامة ، ومَنْ لم يفرّق بين الحالات فيعطي كل حالة حظها بل حمل الأشياء كلها على حالة واحدة قلّ حظه وكثرت مصائبه . وما أحسن قول الشاعر : [من الرمل]

لا يَكُنْ ظَنُّكَ إلاّ سَيِّئاً ... إنَّ سُوءَ الظَّنِّ مِنْ أَقْوَى الفِطَنْ
ما رَمَى الإنْسانَ في مَهْلَكَةٍ ... مِثْلُ فِعْلِ الخَيْرِ والظَّنُّ الحَسَنْ

وقول الآخر : [من البسيط]

أَلْزِمْ يَقِينَكَ سُوءَ الظَّنِّ تَنجُ بِهِ ... مَنْ عاشَ مُسْتَيْقِظاً قَلَّتْ مَصائِبُهُ
وَالْقَ العَدُوَّ بِوَجْهٍ باسِمٍ طَلِقٍ ... وَانْصُبْ لَهُ فِي الحَشَى جَيْشاً يُحارِبُهُ

وقول الآخر : [من البسيط]

أَعْدَى عَدُوِّكَ أَدْنَى مَنْ وَثِقْتَ بِهِ ... فَحاذِرِ النَّاسَ وَاصْحَبْهُمْ عَلَى دَخَلِ
وَحُسْنُ ظَنِّكَ بِالأَيَّامِ مُعْجِزَةٌ ... فَظُنَّ شَرّاً وَكُنْ مِنْها عَلَى وَجَلِ

فقال له الثعلب : إن سوء الظن ليس محموداً في كل حال ، وحسن الظن من شيم الكمال وعاقبته النجاة من الأهوال . وينبغي لك أيها الذئب أن تتحيّل على النجاة مما أنت فيه ونسلم جميعاً خير من موتنا . فارجع عن سوء الظن والحقد ، لأنك إن أحسنت الظن بي لا أخلو من أحد أمرين : إما أن آتيك بما تتعلق به وتنجو مما أنت فيه ، وإما أن أغدر بك فأخلص وأدعك ، وهذا مما لا يمكن . فإني لا آمن أن أبتلي بشيء مما ابتليت به فيكون ذلك عقوبة الغدر . وقد قيل في الأمثال : الوفاء مليح والغدر قبيح . فينبغي أن تثق بي ، فإني لم أكن جاهلاً بحوادث الدهر ، فلا تؤخر حيلة خلاصنا فالأمر أضيق من أن نطيل فيه الكلام . فقال الذئب : إن مع قلة ثقتي بوفائك قد عرفت ما في خاطرك ، من أنك أردت خلاصي لما عرفت توبتي فقلت في نفسي : إن كان محقاً فيما زعم فإنه استدرك ما أفسد ، وإن كان مبطلاً فجزاؤه على ربه . وها أنا أقبل منك ما أشرت به عليّ ، فإن غدرت بي كان الغدر سبباً لهلاكك . ثم إن الذئب انتصب قائماً في الحفرة وأخذ الثعلب على أكتافه حتى ساوى به ظاهر الأرض ، فوثب الثعلب عن أكتاف الذئب حتى صار على وجه الأرض ووقع مغشيّاً عليه . فقال له الذئب : يا خليلي ، لا تغفل عن أمري ولا تؤخر خلاصي . فضحك الثعلب وقهقه وقال : أيها المغرور ، لم يوقعني في يدك إلاّ المزح معك والسخرية بك ، وذلك إني لما سمعت توبتك استخفني الفرح فطربت ورقصت ، فتدلى ذنبي في الحفرة فجذبتني فوقعت عندك ثم أنقذني الله تعالى من يدك . فما لي لا أكون عوناً على هلاكك وأنت من حزب الشيطان؟ واعلم أنني رأيت البارحة في منامي أني أرقص في عرسك ، فقصصت الرؤيا على معبر فقال لي : أنك تقع في ورطة وتنجو منها . فعلمت أن وقوعي في يدك ونجاتي هو تأويل رؤياي . وأنت تعلم أيها المغرور الجاهل أنني عدوك ، فكيف تطمع بقلّة عقلك وجهلك في إنقاذي إياك مع ما سمعت من غلظ كلامي ؟ وكيف أسعى في نجاتك وقد قالت العلماء : إن في موت الفاجر راحة للناس وتطهيراً للأرض ، ولولا مخافة أن أحتمل من الألم في الوفاء لك ما هو أعظم من ألم الغدر لتدبّرت في خلاصك . فلما سمع الذئب كلام الثعلب ، عضّ على كفّه ندماً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 150

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الذئب لما سمع كلام الثعلب عضّ على كفّه ندماً ، ثم ليّن له الكلام ولم يجد بداً من ذلك وقال له بلسان خافت : إنكم معاشر الثعالب من أحلى القوم لساناً وألطفها مزاحاً وهذا منك مزاح ، ولكن ما كل وقت يحسن اللعب والمزاح . فقال الثعلب : أيها الجاهل ، إن للمزاح حدّاً لا يجاوزه صاحبه ، فلا

تحسب أن الله يمكّنك مني بعد أن أنقذني من يديك . فقال له الذئب : إنك لجدير أن ترغب في خلاصي لما بيننا من سابق المؤاخاة والصحبة ، وإن خلصتني لا بدّ أن أحسن مكافأتك . فقال الثعلب : قد قالت الحكماء : لا تؤاخ الجاهل الفاجر فإنه يشينك ولا يزيّنك ، ولا تؤاخ الكذاب فإنه إن بدا منك خيراً أخفاه وإن بدا منك شرّاً أفشاه . وقالت الحكماء : ، لكل شيء حيلة إلاّ الموت وقد يصلح كل شيء إلاّ فساد الجوهر ، وقد يدفع كل شيء إلاّ القدر . وأما من جهة المكافأة التي زعمت أني أستحقّها منك ، فإني شبهتك في مكافأتك بالحية الهاربة من الحاوي ، إذ رآها رجل وهي مرعوبة فقال لها : ما شأنك أيتها الحية ؟ قالت : هربت من الحاوي فإنه يطلبني ، ولئن أنجيتني منه وأخفيتني عندك لأحسنن مكافأتك وأصنع معك كل جميل . فأخذها اغتناماً للأجر وطمعاً في المكافأة وادخلها في جيبه . فلما فات الحاوي ومضى إلى حال سبيله وزال عنها ما كانت تخافه قال لها الرجل : أين المكافأة ؟ فقد أنجيتك مما تخافين وتحذرين . فقالت له الحية : أخبرني في أي عضو أنهشك ؟ وقد علمت أننا لانتجاوز هذه المكافأة . ثم نهشته نهشة مات منها . وأنت أيها الأحمق شبهتك بتلك الحية مع ذلك الرجل . أما سمعت قول الشاعر :[من البسيط]

لا تَأْمَنَنَّ فَتًى أَسْكَنْتَ مُهْجَتَهُ ... غَيْظاً وتَحْسَبُ أَنَّ الغَيْظَ قَدْ زالا
إنَّ الأَفاعِي وإنْ لانَتْ مَلامِسُها ... تُبْدي العِطافَ وتُخْفِي السَّمَّ قَتَّالا

فقال له الذئب : أيها الفصيح صاحب الوجه المليح ، لا تجهل حالي وخوف الناس مني . وقد علمت أني أهجم على الحصون وأقلع الكروم ، فافعل ما أمرتك به وقم بي قيام العبد بسيده . فقال له الثعلب : أيها الأحمق الجاهل المحاول بالباطل ، إني تعجبت من حماقتك وصلابة وجهك فيما تأمرني به من خدمتك والقيام بين يديك حتى كأنني عبدك ، ولكن سوف ترى ما يحل بك من شرخ رأسك بالحجارة وكسر أنيابك الغدّارة . ثم وقف الثعلب على تلّ يشرف على الكرم ، ولم يزل يصيح لأهل الكرم حتى بصروا به وأقبلوا عليه مسرعين . فثبت لهم الثعلب حتى قربوا منه ومن الحفرة التي فيها الذئب ، ثم ولّى الثعلب هارباً . فنظر أصحاب الكرم في الحفرة ، فلما رأوا فيها الذئب وقعوا عليه بالحجارة الثقال ولم يزالوا يضربونه بالحجارة والخشب ويطعنوه بأسنّة الرماح حتى قتلوه وانصرفوا . فرجع الثعلب إلى تلك الحفرة ووقف على مقتل الذئب فرآه ميتاً ، فحرّك رأسه من شدّة الفرحات وأنشد هذه الأبيات :[من البسيط]

أَوْدَى الزَّمانُ بِنَفْسِ الذِّئْبِ فاخْتُطِفَتْ ... بُعْداً وسُحْقاً لَها مِنْ مُهْجَةٍ تَلِفَتْ
فَكَمْ سَعَيْتَ أَبا سِرْحانٍ في تَلَفِي ... فاليَوْمَ حَلَّتْ بِكَ الآفاتُ والْتَهَبَتْ
وَقَعْتَ في حُفْرَةٍ ما حَلَّها أَحَدٌ ... إلاّ وفِيها رِياحُ المَوْتِ قَد عَصَفَتْ

ثم إن الثعلب أقام بالكرم وحده مطمئناً لا يخاف ضرراً . وهذا ما كان من حديث الذئب والثعلب .

حكاية الفأرة وبنت عرس

ومما يحكى أن فارة وبنت عرس كانا ينزلان منزلاً لبعض الناس ، وكان ذلك الرجل فقيراً . وقد مرض بعض أصدقائه فوصف له الطبيب السمسم المقشور . فأعطى قدراً من السمسم لذلك الرجل الفقير ليقشّره له ، فأعطاه ذلك الرجل لزوجته وأمرها بإصلاحه ، فقشرته تلك المرأة له

وأصلحته. فلما عاينت بنت عرس السمسم أتت إليه، ولم تزل تنقل من ذلك السمسم إلى جحرها طول يومها حتى نقلت أكثره. وجاءت المرأة فرأت نقصان السمسم واضحاً، فجلست ترصد من يأتي إليه حتى تعلم سبب نقصانه. فنزلت بنت عرس لتنقل منه على عادتها فرأت المرأة جالسة، فعلمت أنها ترصدها فقالت في نفسها: إن لهذا الفعل عواقب ذميمة، وإني أخشى من تلك المرأة أن تكون لي بالمرصاد، ومَنْ لم ينظر في العواقب ما الدهر له بصاحب. ولا بدّ لي أن أعمل عملاً حسناً أظهر به براءتي من جميع ما عملته من القبيح. فجعلت تنقل من ذلك السمسم الذي في جحرها، فرأتها المرأة وهي تفعل ذلك فقالت في نفسها: ما هذه سبب نقصه لأنها تأتي به من جحر الذي اختلسه وتضعه على بعضه، وقد أحسنت إلينا في ردّ السمسم. وما جزاء مَنْ أحسن إلاّ أن يحسن إليه. وليست هذه آفة في السمسم، ولكن لا أزال أرصده حتى يقع وأعلم من هو. فعلمت بنت عرس ما خطر ببال تلك المرأة، فانطلقت إلى الفارة فقالت لها: يا أختي، إنه لا خير فيمن لا يراعي المجاورة ولا يثبت على المودة. فقالت الفارة: نعم يا خليلتي، وأنعم بك وبجوارك. فما سبب هذا الكلام؟ قالت بنت عرس: إن ربّ البيت أتى بسمسم فأكل منه هو وعياله وشبعوا واستغنوا عنه وتركوه، وقد أخذ منه كل ذي روح فلو أخذت أنت الأخرى كنت أحق به ممن يأخذ منه. فأعجب الفارة ذلك ورقصت ولعبت ذنبها وغرّها الطمع في السمسم، فقامت من وقتها وخرجت من بيتها فرأت السمسم مقشوراً يلمع من البياض والمرأة جالسة ترصده. فلم تفكر الفأرة في عاقبة الأمر، وكانت المرأة قد استعدت بهراوة. فلم تتمالك الفأرة نفسها حتى دخلت في السمسم وعاشت فيه وصارت تأكل منه، فضربتها المرأة بتلك الهراوة فشجّت رأسها. وكان الطمع سبب هلاكها وغفلتها عن عواقب الأمور. فقال الملك: يا شهرزاد، والله إن هذه حكاية مليحة. فهل عندك حديث في حسن الصداقة والمحافظة عليها عند الشدّة في التخلص من الهلكة؟ قالت: نعم.

حكاية الغراب والسنَّور

بلغني أن غراباً وسنّوراً كانا متآخيين، فبينما هما تحت شجرة على تلك الحالة إذ رأيا نمراً مقبلاً على تلك الشجرة التي كانا تحتها ولم يعلما به حتى صار قريباً من الشجرة، فطار الغراب إلى أعلى الشجرة وبقي السنّور متحيّراً فقال للغراب: يا خليلي، هل عندك حيلة في خلاصي كما هو الرجاء فيك؟ فقال له الغراب: إنما تلتمس الأخوة عند الحاجة إليهم في الحيلة عند نزول المكروه بهم. وما أحسن قول الشاعر: [من الرجز] -

إنَّ صَدِيقَ ٱلحَقِّ مَنْ كانَ مَعَكْ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكْ
وَمَنْ إذا رَيْبُ الزَّمانِ صَدَعَكْ شَتَّتَ فِيكَ نَفْسَهُ لِيَجْمَعَكْ

وكان قريباً من الشجرة رعاة معهم كلاب، فذهب الغراب حتى ضرب بجناحه وجه الأرض ونعق وصاح، ثم تقدم إليهم وضرب بجناحه وجه بعض الكلاب وارتفع قليلاً، وتبعته الكلاب وسارت في إثره. ورفع الراعي رأسه فرأى طائراً يطير قريباً من الأرض ويقع فتبعه، وصار الغراب لا يطير إلاّ بقدر التخلص من الكلاب ويطمعها في أن تفترسه. ثم ارتفع قليلاً وتبعته الكلاب حتى انتهى إلى الشجرة التي تحتها النمر. فلما رأت الكلاب النمر، وثبت عليه

فولّى هارباً وكان يظن أنه يأكل السنوّر، فنجى منه ذلك السنوّر بحيلة الغراب صاحبه. وقد أخبرتك بهذا أيها الملك لتعلم أن مودة إخوان الصفاء تنجّي من الهلكات.

حكاية الثعلب والغراب

وحكى أن ثعلباً سكن في بيت في الجبل، وكان كلما ولد ولداً واشتدّ ولده أكله من الجوع، وإن لم يأكل ولده أضرّ به الجوع. وكان يأوي إلى دورة ذلك الجبل غراب. فقال الثعلب في نفسه: أريد أن أعقد بيني وبين هذا الغراب مودة وأجعله لي مؤنساً على الوحدة معاوناً على طلب الرزق، لأنه يقدر من ذلك على ما لا أقدر عليه. فدنا الثعلب من الغراب حتى صار قريباً منه بحيث يسمع كلامه، فسلم عليه ثم قال له: يا جاري إن للجار المسلم على الجار المسلم حقّين: حقّ الجيرة وحق الإسلام. واعلم بأنك جاري ولك علي حق يجب قضاؤه خصوصاً مع طول المجاورة، على أن في صدري وديعة من محبتك دعتني إلى ملاطفتك وبعثتني على التماس خوفك. فما عندك من الجواب؟ فقال الغراب للثعلب: أعلم أن خير القول أصدقه، وربما تتحدث بلسانك ما ليس في قلبك، وأخش أن تكون أخوتك باللسان ظاهراً وعداوتك في القلب، لأنك آكل وأنا مأكول. فوجب لنا التباين في المحبة ولا يمكن مواصلتنا. فما الذي دعاك إلى طلب ما لا ندرك وإرادة ما لا يكون، وأنت من جنس الوحش وأنا من جنس الطير وهذه الأخوة لا تصحّ. فقال له الثعلب: إن مَنْ علم موضع الإجلاء فأحسن الإختيار فيما يختاره منها ربما يصل إلى منافع الإخوان، وقد أحببت قربك واخترت الأنس بك ليكون بعضنا عوناً لبعض على أغراضنا وتعقب مودتنا نجاحاً. وعندي حكايات في حسن الصداقة، إن أردت أن أحكيها حكيتها لك. فقال الغراب: أذنت لك في أن تبثها، فحدثني بها حتى أعرف المراد منها. فقال له الثعلب: إسمع يا خليلي، يحكى عن برغوث وفارة ما يستدل به على ما ذكرته لك. فقال الغراب: وكيف كان ذلك؟ فقال الثعلب: زعموا أن فارة كانت في بيت رجل من التجار كثير المال، فآوى البرغوث ليلة إلى فراش ذلك التاجر، فرأى بدناً ناعماً وكان البرغوث عطشاناً فشرب من دمه، ووجد التاجر من البرغوث ألماً، فاستيقظ من النوم واستوى قاعداً ونادى بعض أتباعه، فأسرعوا إليه وشمّروا عن أيديهم يطوفون على البرغوث. فلما أحسّ البرغوث بالطلب ولّى هارباً، فصادف جحر الفارة فدخله، فلما رأته الفارة قالت له: ما الذي أدخلك عليّ ولست من جوهري ولا من جنسي؟ ولست بآمن من الغلظة عليك ولا مضاررتك؟ فقال لها البرغوث: إني هربت إلى منزلك وفزت بنفسي من القتل وأتيتك مستجيراً بك، ولا طمع لي في بيتك ولا يلحقك مني شرّ يدعوك إلى الخروج من منزلك. وإني أرجو أن أكافيك على إحسانك إلي بكل جميل، وسوف تحمدين عاقبة ما أقول لك. فلما سمعت الفارة كلام البرغوث. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 151

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الفارة لما سمعت كلام البرغوث قالت: إذا كان الكلام على ما أخبرت، فاطمئن هنا وما عليك بأس، ولا تجد إلاّ ما يسرّك ولا يصيبك إلاّ ما يصيبني، وقد بذلت لك مودتي ولا تندم على ما فاتك من دم التاجر ولا تأسف على قوتك منه، وارض بما تيسر لك من العيش فإن ذلك أسلم لك. وقد سمعت أيها البرغوث

بعض الوعاظ ينشد هذه الابيات : [من المتقارب]

سَلَكْتُ القَناعَةَ والانْفِرادَ وقَضَّيْتُ دَهْري بماذا اتَّفَقْ
بِكِسْرَةِ خُبْزٍ وشُرْبَةِ ماءٍ ومِلْحٍ جَرِيشٍ وثَوْبٍ خَلَقْ
فإنْ ياسَرَ اللهُ في عِيشَتِي وإلاّ قَنَعْتُ بما قَدْ رَزَقْ

فلما سمع البرغوث كلام الفارة قال : يا أختي ، قد سمعت وصيّتك وانقدت إلى طاعتك ، ولا قوة لي على مخالفتك إلى ان ينقضي العمر بتلك النيّة الحسنة . فقالت له الفارة : كفى بصدق المودة في صلاح النيّة ، ثم انعقد الود بينهما . وكان البرغوث بعد ذلك يأوي إلى فراش التاجر ولا يتجاوز بلغته ، ويأوي بالنهار مع الفارة في مسكنها . فاتفق أن التاجر جاء ليلة إلى منزله بدنانير كثيرة فجعل يقلبها ، فلما سمعت الفارة صوت الدنانير ، أطلعت رأسها من جحرها وجعلت تنظر إليها حتى وضعها التاجر تحت وسادة ونام . فقالت الفارة للبرغوث : أما ترى الفرصة والحظ العظيم ، فهل عندك حيلة توصلنا إلى بلوغ الغرض من تلك الدنانير ؟ قال البرغوث : إنه لا حسن لمن طلب الغرض إلاّ ان يكون قادراً عليه ، فإن كان ضعيفاً عنه وقع فيما يحذره ولم يدرك مراده مع الضعف ، وإن استحكمت قوة المحتال كالعصفور الذي يلتقط الحب فيقع في الشبكة فيقتنصه صائده . وليس لك قوة على أخذ الدنانير ولا على إخراجها من البيت ، وأنا لا طاقة لي على ذلك بل ولا على حمل دينار واحد منها ، فشأنك والدنانير . فقالت له الفارة : إني أعددت في جحري هذا سبعين منفذاً أخرج منها متى أردت الخروج ، وأعددت للذخائر موضعاً حريزاً ، وإن تحيّلت انت على إخراجه من البيت فلست أشك في الظفر إن ساعدني القدر . فقال لها البرغوث : قد التزمت لك بإخراجه من البيت . ثم انطلق البرغوث إلى فراش التاجر ولدغه لدغة قوية لم يكن للتاجر جري مثلها ، ثم تنحى البرغوث إلى موضع يأمن فيه على نفسه من التاجر . وانتبه التاجر يفتش على البرغوث فلم يجد شيئاً ، فرقد على جنبه الآخر فلدغه البرغوث لدغة أشد من الأولى . فقلق التاجر وفارق مضجعه وخرج إلى مصطبة على باب داره فنام هناك ولم ينتبه إلى الصباح . ثم إن الفارة أقبلت على نقل الدنانير حتى لم تترك منها شيئاً . فلما أصبح الصباح ، صار التاجر يتهم الناس ويظن الظنون ، ثم قال الثعلب للغراب : واعلم أني لم أقل لك هذا الكلام أيها الغراب البصير العاقل الخبير ، إلاّ ليصل إليك جزاء إحسانك إلي كما وصل للفارة جزاء إحسانها إلى البرغوث . فانظر كيف جازاها أحسن المجازاة وكافأها أحسن المكافأة . فقال الغراب : إن شاء المحسن يحسن أو لا يحسن ، وليس الإحسان واجباً لمن التمس صلة بقطيعة . وإن أحسنت إليك مع كونك عدوّي أكون قد تسببت في قطيعة نفسي . وأنت أيها الثعلب ، ذو مكر وخداع . ومن شيمته المكر والخديعة لا يؤمن على عهد ، ومَنْ لا يؤمن على عهد لا أمان له . وقد بلغني من قريب أنك غدرت بصاحبك الذئب ومكرت به حتى أهلكته بغدرك وحيلتك ، وفعلت به هذه الأمور مع إنه من جنسك ، وقد صحبته مدة مديدة فما أبقيت عليه . فكيف أثق منك بنصيحة ؟ وإذا كان هذا فعلك مع صاحبك الذي من جنسك ، فكيف يكون فعلك مع عدوّك الذي من غير جنسك ؟ وما مثالك معي إلاّ مثال الصقر مع ضواري الطير . فقال الثعلب : وما حكاية الصقر مع ضواري الطير ؟ فقال الغراب : زعموا أن صقراً كان جبّاراً

عنيداً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 152

حكاية الصقر مع ضرلوي الطير

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الغراب قال : زعموا أن صقراً كان جبّاراً عنيداً أيام شبيبته ، وكانت سباع البر وسباع الطير تفزع منه ولا يسلم من شرّه أحد . وله حكايات كثيرة في ظلمه وتجبّره . وكان دأب هذا الصقر الأذى لسائر الطيور ، فلما مرت عليه السنون ضعف وجاع واشتد جهده بعد فقد قوته ، فاجتمع رأيه على أن يأتي مجمع الطير فيأكل ما يفضل منها ، فعند ذلك صار قُوته بالحيلة بعد القوة والشدة . وأنت كذلك أيها الثعلب ، إن عدمت قوتك ما عدمت خداعك . ولست أشك في أن ما تطلبه من صحبتي حيلة على قوتك ، فلا كنت ممن يضع يده في يدك لأن الله أعطاني قوة في جناحي وحذراً في نفسي وبصراً في عيني . واعلم إن من تشبه بأقوى منه تعب وربما هلك ، وأنا أخاف عليك إن تشبّهت بمن هو أقوى منك أن يجري لك ما جرى للعصفور . قال الثعلب : وما جرى للعصفور ؟ فبالله عليك أن تخبرني به . فقال الغراب : بلغني أن عصفوراً كان طائراً بمراح غنم ، فنظر إلى المراح وإذا بعقاب كبير انقضّ على رميس من صغار أولاد الغنم فاختطفه بمخالبه وطار ، فلما رآه العصفور نشر جناحه وقال : أنا أفعل مثل ما فعل هذا . وأعجبته نفسه وتشبّه بمن هو أكبر منه . فطار لوقته وانقضّ على كبش سمين له صوف كثير ، وقد تلبّد صوفه من رقاده على بوله وروثه فصار صوفه مثل البزّاق . فلما انقضّ على ظهره صفق بجناحيه فاشتبكت رجلاه في الصوف ، فأراد أن يطير فلم يستطع الطيران . وقد حصل كل هذا والراعي ينظر ما جرى لهما . فرجع إليه الصقر غضباناً فقبضه ونتف أجنحته وربط في رجليه خيطاً وأتى به إلى أولاده ورماه لهم . فقال بعض الأولاد : ما هذا ؟ فقال : هذا تشبّه بمن هو أعلى منه فهلك . وأنت كذلك أيها الثعلب ، أحذرك أن تتشبه بمن هو أقوى منك فتهلك . هذا ما عندي من الكلام واذهب عني بسلام . فلما يئس الثعلب من مصادقة الغراب رجع عن حزنه يئن وقرع للندامة سنّاً على سن . فلما سمع الغراب بكاءه وأنّه ورأى كآبته وحزنه قال : أيها الثعلب ، ما نابك حتى قرعت نابك ؟ قال له الثعلب : إنما قرعت سني لأني رأيتك أخدع مني . ثم إنه ولّى هارباً ورجع إلى جحره طالباً . وهذا ما كان من حديثهما أيها الملك . فقال الملك : يا شهرزاد ، ما أحسن هذه الحكايات ، هل عندك شيء مثلها من الخرافات ؟

حكاية القنفذ والورشان

قالت : ويحكى أن قنفذاً اتّخذ مسكناً بجانب نخلة ، وكان الورشان هو وزوجته قد اتّخذا عشّاً في تلك النخلة وعاشا فوقها عيشاً رغداً . فقال القنفذ في نفسه : إن الورشان يأكل من ثمر النخلة وأنا لا أجد إلى ذلك سبيلاً ولكن لا بدّ من استعمال الحيلة . ثم حفر في أسفل النخلة بيتاً واتّخذه مسكناً له ولزوجته ، واتّخذ جانبه مسجداً وانفرد فيه وأظهر النسك والعبادة وترك الدنيا . وكان الورشان يراه متعبّداً مصلّياً ، فرقّ له من شدّة زهده وقال له : كم سنة وأنت هكذا قال : مدّة ثلاثين سنة . قال : ما طعامك ؟ قال : ما يسقط من النخلة . قال : ما لباسك ؟ قال : شوك أنتفع بخشونته . فقال : وكيف اخترت مكانك هذا على غيره ؟ قال : اخترته على غير طريق ، لأجل أن

ارشد الضّال وأعلم الجاهل . فقال له : الورشان كنت أظن أنك على غير هذه الحالة ولكني الآن رغبت فيما عندك . فقال القنفذ : إني أخشى أن يكون قولك ضد فعلك ، فتكون كالزرّاع الذي لما جاء وقت الزرع قصر في بذره وقال : إني أخشى أن يكون أوان الزرع قد فات فأكون قد أضعت المال بسرعة البذر . فلما جاء وقت الحصاد ورأى الناس وهم يحصدون ، ندم على ما فاته من تقصيره من تخلّفه ومات أسفاً وحزناً . فقال الورشان للقنفذ : وماذا أصنع حتى أتخلص من علائق الدنيا وأنقطع إلى عبادة ربي ؟ قال له القنفذ : خذ في الإستعداد للمعاد والقناعة بالكفاف من الزاد . فقال الورشان : كيف لي بذلك وأنا طائر لا أستطيع أن أتجاوز النخلة التي فيها قُوتي ؟ ولو استطعت ذلك ما عرفت موضعاً أستقرّ فيه . فقال القنفذ : يمكنك أن تنثر من ثمر النخلة ما يكفيك مؤونة عام أنت وزوجتك وتسكن في وكر تحت النخلة لالتماس حسن إرشادك ، ثم مل إلى ما نثرته من الثمر فانقله جميعه وادّخره قوتاً للعدم . وإذا فرغت الثمار وطال عليك المطال صر إلى كفاف من العيش . فقال الورشان : جزاك الله خيراً حيث ذكرتني بالمعاد وهديتني إلى الرشاد . ثم تعب الورشان هو وزوجته في طرح الثمر حتى لم يبقَ في النخلة شيء ، فوجد القنفذ ما يأكل وفرح به وملأ مسكنه من الثمر وادّخره لقوته وقال في نفسه : إن الورشان هو وزوجته إذا احتاجا إلى مؤونتهما طلباها مني وطمعا فيما عندي وركنا إلى تزهّدي وورعي . فإذا سمعا نصيحتي ووعظي ، دنيا مني فاقتنصهما وآكلهما ويخلو لي هذا المكان . وكل ما تساقط من ثمر النخلة يكفيني . ثم إن الورشان نزل هو وزوجته من فوق النخلة بعد أن نثرا ما عليها من الثمر ، فوجدا القنفذ قد نقل جميع ذلك إلى جحره . فقال له الورشان : أيها القنفذ الصالح والواعظ الناصح ، إنّا لم نجد للثمر أثراً ولا نعرف لقوتنا غيره ثمراً . فقال : لعله طارت به الرياح ، والإعراض عن الرزق إلى الرازق عين الفلاح . فالذي شقّ الأشداق لا يتركها بلا أرزاق . وما زال يعظهما بتلك المواعظ ويظهر لهما الورع بزخرف الملافظ حتى ركنا إليه وأقبلا عليه ودخلا باب وكره وأمنا من مكره ، فوثب إلى الباب وقرع الأنياب . فلما رأى الورشان منه الخديعة لائحة قال له : أين الليلة من البارحة ؟ أمَا تعلم إن للمظلومين ناصراً ؟ فإياك والمكر والخديعة لئلا يصيبك ما أصاب الخدّاعين الذين مكروا بالتاجر . فقال القنفذ : وكيف ذلك ؟ قال : بلغني أن تاجراً من مدينة يقال لها : سنده . كان ذا مال واسع ، فشدّ أحمالاً وجهز متاعاً وخرج به إلى بعض المدن ليبيعه فيها ، فتبعه رجلان من المكرة وحملا شيئاً من مال ومتاع وأظهرا للتاجر أنهما من التجار وسارا معه ، فلما نزلا أول منزل اتّفقا على المكر به وأخذ ما معه . ثم إن كل واحد منهما أضمر المكر لصاحبه وقال في نفسه : لو مكرت بصاحبي بعد مكرنا بالتاجر لصفا لي الوقت وأخذت جميع المال . ثم أضمرا لبعضهما على نيّة فاسدة وأخذ كل منهما طعاماً وجعل فيه سمّاً وقرّبه لصاحبه فقتلا بعضهما . وكانا يجلسان مع التاجر ويحدّثانه ، فلما أبطآ عليه فتّش عليهما ليعرف خبرهما فوجدهما ميتين ، فعلم أنهما كانا محتالين وأرادا المكر به ، فعاد عليهما مكرهما وسلم التاجر وأخذ ما كان معهما . فقال الملك : نبهتني يا شهرزاد على شيء كنت غافلاً عنه ، أفلا تزيديني من هذه الأمثال ؟ قالت : بلغني أيها الملك أن رجلاً كان عنده قرد ، وكان ذلك الرجل سارقاً لا يدخل سوقاً من أسواق المدينة التي هو فيها إلاّ ويرجع بكسب عظيم . فاتفق أن رجلاً حمل أثواباً مقطوعة لبيعها ، فذهب بها إلى السوق وصار ينادي عليها فلا يسومه أحد . وكان لا يعرضها على

أحد إلاّ امتنع من شرائها . فاتفق أن السارق الذي معه القرد ، رأى الشخص الذي معه الثياب المقطعة وكان قد وضعها في بقجة وجلس يستريح من التعب ، فلعب القرد قدّامه حتى أشغله بالفرجة عليه واختلس منه تلك البقجة ، ثم أخذ القرد وذهب إلى مكان خال وفتح البقجة فرأى تلك الثياب المقطعة ، فوضعها في بقجة نفيسة وذهب بها إلى سوق آخر وعرض البقجة للبيع بما فيها واشترط أن لا تفتح ، ورغب الناس فيها لقلّة الثمن . فرآها رجل وأعجبه نفاستها فاشتراها بهذا الشرط وذهب بها إلى زوجته ، فلما رأت ذلك امرأته قالت : ما هذا ؟ قال : متاع نفيس اشتريته بدون القيمة لأبيعه وآخذ فائدته . فقالت : أيها المغبون ، أيباع هذا المتاع بأقل من قيمته إلا إذا كان مسروقاً ؟ أمَا تعلم أن من اشترى شيئاً ولم يعاينه كان مخطئاً وكان مثله مثل الحايك ؟ فقال لها : وكيف كان ذلك ؟ فقالت : بلغني أن حايكاً كان في بعض القرى ، وكان يعمل فلا ينال القوت إلاّ بجهد . فاتفق أن رجلاً من الأغنياء كان ساكناً قريباً منه قد أولم وليمة ودعا الناس إليها ، فحضر الحايك فرأى الناس الذين عليهم الثياب الناعمة يقدَّم لهم الأطعمة الفاخرة ، وصاحب المنزل يعظمهم لما يرى من حسن زيّهم . فقال في نفسه : لو بدلت تلك الصنعة بصنعة أخف مؤونة منها وأكثر أجرة لجمعت مالاً كثيراً واشتريت ثياباً فاخرة لارتفع شاني وعظمت في أعين الناس . ثم نظر إلى بعض أهل الملاعب الحاضرين في الوليمة ، وقد صعد سوراً شاهقاً ثم رمى بنفسه إلى الأرض ونهض قائماً فقال في نفسه : لا بدّ أن أعمل مثل ما عمل هذا ولا أعجز عنه . ثم صعد إلى السور ورمى نفسه ، فلما وصل إلى الأرض اندقّت رقبته فمات . وإنما أخبرتك بذلك لئلا يتمّكن منك الشرّ فترغب فيما ليس من شأنك . فقال لها زوجها : ما كل عالم يسلم بعلمه ولا كل جاهل يعطب بجهله . وقد رأيت الحاوي الخبير بالأفاعي العالم بها ربما نهشته الحية فقتلته ، وقد يظفر بها الذي لا معرفة له بها ولا علم عنده بأحوالها . ثم خالف زوجته واشترى المتاع وأخذ في تلك العادة ، فصار يشتري من السارقين بدون القيمة إلى أن وقع في تهمة فهلك فيها . وكان في زمنه عصفور يأتي كل يوم إلى ملك من ملوك الطيور ، ولم يزل غادياً ورائحاً عنده بحيث كان أول داخل عليه وآخر خارج من عنده . فاتفق أن جماعة من الطير اجتمعوا في جبل عال من الجبال فقال بعضهم لبعض : إنّا قد كثرنا وكثر الإختلاف بيننا ، ولا بدّ لنا من ملك ينظر في أمورنا فتجتمع كلمتنا ويزول الاختلاف عنّا . فمرّ بهم ذلك العصفور فأشار عليهم بتمليك الطاووس وهو الملك الذي يتردد إليه ، فاختاروا الطاووس وجعلوه عليهم ملكاً . فأحسن إليهم ، وجعل ذلك العصفور كاتبه ووزيره . فكان تارة يترك الملازمة وينظر في الأمور . ثم إن العصفور غاب يوماً عن الطاووس فقلق قلقاً عظيماً ، فبينما هو كذلك إذ دخل عليه العصفور فقال له : ما الذي أخّرك وأنت أقرب أتباعي إلي ؟ فقال العصفور : رأيت أمراً واشتبه علي فتخوّفت منه . فقال له الطاووس : ما الذي رأيت ؟ قال العصفور : رأيت رجلاً معه شبكة قد نصبها عند وكري وثبّت أوتادها وبذر في وسطها حبّاً وقعد بعيداً عنها فجلست أنظر ما يفعل ، فبينما أنا كذلك وإذا بكركي هو وزوجته قد ساقهما القضاء والقدر حتى سقطا في وسط الشبكة فصارا يصرخان ، فقام الصياد وأخذهما . فأزعجني ذلك ، وهذا سبب غيابي عنك يا ملك الزمان . وما بقيت أسكن هذا الوكر حذراً من الشبكة . فقال له الطاووس : لا ترحل من مكانك لأنه لا ينفع الحذر من القدر . فامتثل أمره وقال : سأصبر ولا أرحل طاعة للملك . ولم يزل العصفور حذراً على

نفسه، وأخذ الطعام إلى الطاووس فأكل حتى اكتفى، وتناول على الطعام ماء ثم ذهب العصفور. فبينما هو في بعض الأيام شاخص، وإذا بعصفورين يقتتلان في الأرض فقال في نفسه: كيف أكون وزير الملك وأرى العصافير تقتتل في جواري؟ والله لأصلحن بينهما. ثم ذهب إليهما ليصلح بينهما، فقلب الصياد الشبكة على الجميع فوقع ذلك العصفور في وسطها، فقام إليه الصيّاد وأخذه ودفعه إلى صاحبه وقال له: استوثق به فإنه سمين ولم أرَ أحسن منه. فقال العصفور في نفسه: قد وقعت فيما كنت أخافه وما كان آمناً إلاّ الطاووس، ولم ينفعني الحذر من نزول القدر فلا مفر من القضاء لحاذر، وما احسن قول الشاعر: [من الكامل]

ما لا يَكُونُ فلا يَكُونُ بحِيلَةٍ — أَبَداً وما هوَ كائِنٌ فَيَكُونُ
سَيَكُونُ ما هوَ كائِنٌ في وَقْتِهِ — وأَخُو الجَهالَةِ دائِماً مَغْبُونُ

فقال الملك: يا شهرزاد، زيديني من هذا الحديث. فقالت: الليلة القابلة إن أبقاني الملك أعزّه الله. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

11 - حكاية علي بن بكار وشمس النهار

فلما كانت الليلة 153

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان في قديم الزمان في خلافة هارون الرشيد رجل تاجر له ولد يسمى أبا الحسن علياً بن طاهر، وكان كثير المال والنوال، حسن الصورة محبوباً عند كل مَنْ يراه، وكان يدخل دار الخلافة من غير إذن ويحبه جميع سراري الخليفة وجواريه. وكان ينادم الملك وينشد عنده الأشعار ويحدّثه بنوادر الأخبار، إلاّ إنه كان يبيع ويشتري في سوق التجار، وكان يجلس على دكانه شاب من أولاد ملوك العجم يقال له: علي بن بكار. وكان ذلك الشاب مليح القامة ظريف الشكل كامل الصورة مورد الخدّين مقرون الحاجبين عذب الكلام ضاحك السن يحب البسط والإنشراح. فاتفق أنهما كانا جالسين يتحدثان ويضحكان، وإذا بعشر جوار كأنهن الأقمار وكل منهن ذات حسن وجمال وقدّ واعتدال، وبينهن صبيّة راكبة بغلة بسرج مزركش، له ركاب من الذهب وعليها إزار رفيع وفي وسطها زنّار من الحرير مطرّز بالذهب. كما قال فيها الشاعر: [من الطويل]

لَها بَشَرٌ مِثْلُ الحَرِيرِ ومَنْطِقٌ — رَخِيمُ الحَواشِي لا هُراءٌ ولا نَذْرُ
وعَيْنانِ قالَ اللهُ: كُونا فَكانَتا — فَعُولان بِالأَلْبابِ ما تَفْعَلُ الخَمْرُ
فَيا حُبَّها زِدْنِي جَوًى كُلَّ لَيْلَةٍ — ويا سَلْوَةَ الأَحْبابِ مَوْعِدُكِ الحَشْرُ

ولما وصلوا إلى دكان أبي الحسن، نزلت عن البغلة وجلست على دكانه فسلّمت عليه وسلّم عليها، فلما رآها علي بن بكار سلبت عقله وأراد القيام فقالت له: إجلس مكانك. كيف تذهب إذا حضرنا؟ هذا ما هو إنصاف. فقال: والله يا سيدتي إني هارب مما رأيت. وما أحسن قول الشاعر: [من المتقارب]

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُها في السَّما — فَعَزِّ الفُؤَادَ عَزاءً جَمِيلا

فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إلَيْها الصُّعُودَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إلَيْكَ النُّزُولا

فلما سمعت ذلك الكلام تبسمت وقالت لأبي الحسن : ما اسم هذا الفتى، ومن أين هو؟ فقال لها : هذا غريب اسمه علي بن بكار بن ملك العجم ، والغريب يجب إكرامه . فقالت له : إذا جاءتك جاريتي تأتي به عندي . فقال أبو الحسن : على الرأس . ثم قامت وتوجّهت إلى حال سبيلها . هذا ما كان من أمرها . وأما ما كان من أمر علي بن بكار ، فإنه صار لا يعرف ما يقول . وبعد ساعة جاءت الجارية إلى أبي الحسن وقالت له : إن سيدتي تطلبك أنت ورفيقك . فنهض أبو الحسن وأخذ معه علياً بن بكار وتوجّها إلى دار هارون الرشيد، فأدخلتهما في مقصورة وأجلستهما، وإذا بالموائد وضعت قدّامهما فأكلا وغسلا أيديهما، ثم أحضرت لهما الشراب فسكرا . ثم أمرتهما بالقيام ، فقاما معها وأدخلتهما مقصورة أخرى مركبة على أربعة أعمدة وهي مفروشة بأنواع الفرش مزيّنة بأحسن الزينة كأنها من قصور الجنان، فاندهشا مما عاينا من التحف . فبينما هما يتفرّجان على هذه الغرائب، وإذا بعشر جوار أقبلن يتمايلن عجباً كأنهن الأقمار يدهشن الأبصار ويحيّرن الأفكار ، واصطففن كأنهن من حور الجنان . وجاء بعدهن عشر جوار أخرى وبأيديهن العيدان وآلات اللهو والطرب ، فسلمن عليهما وجعلن يضربن العيدان وينشدن الأشعار ، وكل واحدة منهن فتنة للعباد . وأقبل بعدهن عشر جوار مثلهن كواعب أتراب بعيون سود وخدود حمر مقرونات الحواجب ناعسات الأطراف، فتنة للعابدين ونزهة للناظرين ، وعليهن من أنواع الحرير الملون ما يحير العقول . ثم وقفن بالباب وجاء من بعدهن عشر جوار أحسن منهن وعليهن الملبوس الفاخر ، فوقفن بالباب أيضاً . ثم خرج من الباب عشرون جارية وبينهن جارية اسمها شمس النهار ، كأنها القمر بين النجوم وهي متوشحة بفاضل شعرها، وعليها لباس أزرق وإزار من الحرير بطرازات من الذهب وفي وسطها حياصة مرصّعة بأنواع الجواهر . ولم تزل تتبختر حتى جلست على السرير . فلما رآها علي بن بكار أنشد هذه الأشعار : [من الخفيف]

إنَّ هَذي هِيَ ٱبْتِداءُ سَقامِي وتَمادي وَجْدِي وطُولُ غَرامِي
عِنْدَها قدْ رَأَيْتُ نَفْسِيَ ذابَتْ مِنْ وُلُوعِي بِها وبَرْيِ عِظامِي

فلما فرغ من شعره قال لأبي الحسن : لو عملت معي خيراً، كنت أخبرتني بهذه الأمور قبل الدخول هنا لأجل أن أوطن نفسي وأصبرها على ما أصابها . ثم بكى واشتكى . فقال له أبو الحسن : يا أخي ، أنا ما أردت لك إلاّ الخير ، ولكن خشيت أن أعلمك بذلك فيلحقك من الوجد ما يصدك عن لقائها ويحيل بينك وبين وصالها ، فطب نفساً وقرّ عيناً فهي بسعدك مقبلة وللقائك متوصلة . فقال علي بن بكار : ما اسم هذه الصبية؟ فقال له أبو الحسن : تسمى شمس النهار ، وهي من محاظي أمير المؤمنين هارون الرشيد، وهذا المكان قصر الخلافة . ثم إن شمس النهار جلست وتأملت محاسن علي بن بكار وتأمل هو حسنها واشتغلا بحب بعضهما، وقد أمرت الجواري أن تجلس كل واحدة منهن في مكانها على سرير ، فجلست كل واحدة قبال طاقة وامرتهن بالغناء . فتسلمت واحدة منهن العود وأنشدت تقول : [من مجزوء الكامل]

أَعِدْ الرِّسالَةَ ثانِيَهْ وخُذِ الجَوابَ علانِيَهْ

وإلَيْكَ يا مَلِكَ الملا ح وَقَفْتُ أَشْكُو حالِيَهْ
مَوْلايَ يا قَلْبِي العَزِيـ ـزَ ويـا حَيِاتِي الغالِيَهْ
أَنْعِمْ عَلَيَّ بِقُبْلَةٍ هِبَـةً وإلاّ عـارِيَـهْ
وأَرُدُّها لَكَ لا عُدِمْتَ بِعَيْنِها وكَما هِيَهْ
وإذا أَرَدْتَ زِيادَةً خُذْها ونَفْسُكَ راضِيَهْ
يا مُلْبِسِي ثَوْبَ الضَّنَى يُهْنِيكَ ثَوْبُ العافِيَهْ

فطرب علي بن بكار وقال لها: زيديني من مثل هذا الشعر. فحركت الأوتار وانشدت هذه الأشعار: [من البسيط]

مِنْ كَثْرَةِ البُعْدِ يا حَبِيبَتِي عَلَّمْتُ طُولَ البُـكا جُفُونِي
يا حَظَّ عَيْنِي ويا مُناها ومُنْتَهَى غايَتِي ودِينِي
إرْثِي لِمَنْ طَرْفُهُ غَرِيقٌ في عَبْرَةِ الوالِهِ الحَزِينِ

فلما فرغت من شعرها، قالت شمس النهار لجارية غيرها: أنشدي. فأطربت بالنغمات وانشدت هذه الأبيات: [من البسيط]

سَـكِرْتُ مِنْ لَحْظِهِ لا مِنْ مُدامَتِه ومالَ بالنَّوْمِ عَنْ عَيْنِي تَمايُلُهُ
فَما السُّلافُ سَلَتْنِي بَلْ سَوالِفُهُ وما الشَّمُولُ شَلَتْنِي بَلْ شَمائِلُهُ
لَوَى بِعَزْمِيَ أَصْداغٌ لُوِينَ لَهُ وغالَ عَقْلِي بِما تَحْوِي غَلائِلُهُ

فلما سمعت شمس النهار إنشاد الجارية، تنهّدت وأعجبها الشعر. ثم أمرت جارية أخرى أن تغني. فأنشدت هذه الأبيات: [من الكامل]

وَجْهٌ لِمِصْباحِ السَّماءِ مُباهِ يَبْدُو الشَّبابُ عَلَيْهِ رَشْحُ مِياهِ
رَقَمَ العِذارُ غَلالَتَيْهِ بِأَحْرُفٍ مَعْنَى الهَوَى في طَيِّها مُتَناهِ
نادَى عَلَيْهِ الحُسْنُ حِينَ لَقِيتَهُ هذا المُنَمْنَمُ في طِرازِ اللهِ

فلما فرغت من شعرها قال علي بن بكار لجارية قريبة منه: أنشدي أنت أيتها الجارية. فأخذت العود وانشدت هذه الأبيات: [من مجزوء الكامل]

زَمَنُ الوِصالِ يَضِيقُ عَنْ هذا التَّمادِي والدَّلالْ
كَمْ مِنْ صُدُودٍ مُتْلِفٍ ما هـكَذا أَهْلُ الجَمالْ
فاسْتَغْنِمُوا وَقْتَ السُّعُو دِ بِطِيبِ ساعاتِ الوِصالْ

فلما فرغت من شعرها، تنهد علي بن بكار وأرسل دموعه الغزار. فلما رأته شمس النهار قد بكى وأنَّ واشتكى، أحرقها الوجد والغرام وأتلفها الوله والهيام. فقامت من فوق السرير وجاءت إلى باب القبة، فقام علي بن بكار وتلقاها وتعانقا ووقعا مغشياً عليهما في باب القبة. فقام الجواري إليهما وحملنهما وأدخلنهما القبة ورششن عليهما ماء الورد، فلما أفاقا لم يجدا أبا الحسن وكان قد اختفى في جانب سرير. فقالت الصبية: أين أبو الحسن؟ فظهر لها من جانب

السرير، فسلمت عليه وقالت: أسأل الله أن يقدرني على مكافأتك يا صاحب المعروف. ثم أقبلت على علي بن بكار وقالت له: يا سيدي، ما بلغ بك الهوى إلى غاية إلاّ وعندي أمثالها، وليس لنا إلاّ الصبر على ما أصابنا. فقال علي بن بكار: والله يا سيدتي، جمع شملي بك يطيب ولا ينطفي إليك ما عندي من اللهيب، ولا يذهب ما تمكن من حبك في قلبي إلاّ بذهاب روحي. ثم بكى فنزلت دموعه على خدّه كأنها المطر. فلما رأته شمس النهار يبكي بكت لبكائه. فقال أبو الحسن: والله إني عجبت من أمركما واحترت في شأنكما فإن حالكما عجيب وأمركما غريب. هذا البكاء وأنتما مجتمعان، فكيف تكون الحال بعد انفصالكما؟ ثم قال: هذا ليس وقت حزن وبكاء بل هذا وقت سرور وانشراح. فأشارت شمس النهار إلى جارية فقامت وعادت ومعها وصائف حاملات مائدة، صحافها من الفضة وفيها أنواع الطعام. ثم وضعت المائدة قدّامهم وصارت شمس النهار تأكل وتلقّم علياً بن بكار حتى اكتفوا. ثم رفعت المائدة وغسلوا أيديهم وجاءتهم المباخر بأنواع العود وجاءت القماقم بماء الورد، فتبخّروا وتطيّبوا وقدمت لهم أطباق من الذهب المنقوش فيها من أنواع الشراب والفواكه والنقل ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين. ثم جاءت لهم بطشت من العقيق ملآن من المدام، فاختارت شمس النهار عشرة وصائف أوقفتهم عندهم وعشر جوار من المغنيات وصرفت باقي الجواري إلى أماكنهن. وأمرت بعض الحاضرين من الجواري أن يضربن بالعود، ففعلن ما أمرت به وأنشدت واحدة منهن: [من الطويل]

بِنَفْسِيَ مَنْ رَدَّ التَحيَّة ضاحِكاً ... فَجَدَّدَ بَعْدَ اليأسِ في الوَصْلِ مَطْمَعِي
لَقَدْ أَبْرَزَتْ أَيْدِي الغَرامِ سَرائِري ... وأَظْهَرْنَ لِلعُذالِ ما بَينَ أَضْلُعِي
وحالَتْ دُمُوعُ العَينِ بَيْنِي وبَيْنَهُ ... كأنْ دُمُوعَ العَينِ تَعْشَقُهُ مَعِي

فلما فرغت من شعرها، قامت شمس النهار وملأت الكأس وشربته، ثم ملأته وأعطته لعلي بن بكار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 154

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن شمس النهار ملأت الكأس وأعطته لعليّ بن بكار، ثم أمرت جارية أن تغني. فأنشدت هذين البيتين: [من الطويل]

تَشابَهَ دَمْعِي إذْ جَرَى ومُدامَتِي ... فَمِنْ مِثْلِ ما في الكأسِ عَيْنِيَ تَسْكُبُ
فَوَاللهِ ما أَدْرِي أَبِالخَمْرِ أَسْبَلَتْ ... جُفُونِي أَمْ مِنْ أَدْمُعِي كُنْتُ أَشْرَبُ

فلما فرغت من شعرها، شرب علي بن بكار كأسه وردّه إلى شمس النهار فملأته وناولته لأبي الحسن فشربه. ثم أخذت العود وقالت: لا يغني على قدحي غيري. ثم شدّت الأوتار وأنشدت هذه الأشعار: [من البسيط]

غَرائِبُ الدَّمْعِ في خَدَّيْهِ تَقْتُلُهُ ... وَجْداً ونارُ الهَوَى في صَدْرِهِ تَقِدُ
يَبْكِي مَعَ القُرْبِ خَوْفاً مِنْ تَباعُدِهِمْ ... فالدَّمْعُ إنْ قَرُبُوا جارٍ وإنْ بَعُدُوا

وقول الشاعر : [من الخفيف]

نَتَفَدَّاكَ ساقِياً قَدْ كَساكَ الـ ـحُسْنُ مِنْ فَرْقِكَ المُضيءِ لِساقِكْ
تُشْرِقُ الشَّمْسُ مِنْ يَدَيْكَ ومِنْ فِيـ ـكَ الثُّرَيَّا والبَدْرُ مِنْ أَطْواقِكْ
إنَّ أَقْداحَكَ الَّتي تَرَكَتْني غَيرَ صاحٍ تُدارُ مِنْ أَحْداقِكْ
أَوَلَيْسَ العَجيبُ كَوْنَكَ بَدْراً كامِلاً والمُحاقُ في عُشّاقِكْ
أَإلهٌ أَنْتَ إذ تُميتَ وتُحْيِي بِتَلاقيكَ مَنْ تَشا وفِراقِكْ
خَلَقَ اللهُ مِنْ خَلِيقَتِكَ الحُسْـ ـنَ وطِيبَ النَّسيمِ مِنْ أَخْلاقِكْ
ما أَنْتَ مِنْ هذه البَرِيَّة بَلْ مَلِكٌ مُتَوَّجٌ مِنْ خَلاقِكْ

فلما سمع علي بن بكار وأبو الحسن والحاضرون شعر شمس النهار، كادوا أن يطيروا من الطرب ولعبوا وضحكوا. فبينما هم على هذا الحال وإذا بجارية أقبلت وهي ترتعد من الخوف وقالت : يا سيدتي، قد وصل أمير المؤمنين وها هو بالباب ومعه عفيف ومسرور وغيرهما. فلما سمعوا كلام الجارية كادوا أن يهلكوا من الخوف. فضحكت شمس النهار وقالت : لا تخافوا. ثم قالت للجارية : ردّي عليهم الجواب بقدر ما نتحول من هذا المكان. ثم إنها أمرت بغلق باب القبة وإرخاء الستور على أبوابها وهم فيها وأغلقت باب القاعة. ثم خرجت إلى البستان وجلست على سريرها وأمرت جارية أن تكبس رجليها وأمرت بقية الجواري أن يمضين إلى أماكنهن، وأمرت الجارية أن تدع الباب مفتوحاً ليدخل الخليفة. فدخل مسرور ومن معه، وكانوا عشرين وبأيديهم السيوف، فسلموا على شمس النهار فقالت لهم : لأي شيء جئتم؟ فقالوا : إن أمير المؤمنين يسلم عليك وقد استوحش لرؤيتك، ويخبرك أنه كان عنده اليوم سرور وحظ زائد، وأحب أن يكون ختام السرور بوجودك في هذه الساعة. فهل تأتين عنده أو يأتي عندك؟ فقامت وقبّلت الأرض وقالت : سمعاً وطاعةً لأمر أمير المؤمنين. ثم أمرت بإحضار القهرمانات والجواري فحضرن، وأظهرت لهن أنها مقبلة على ما أمر به الخليفة وكان المكان كاملاً في جميع أموره. ثم قالت للخدام : امضوا إلى أمير المؤمنين واخبروه أنني في انتظاره بعد قليل، إلى أن أهيء له مكاناً بالفرش والأمتعة. فمضى الخدام مسرعين إلى أمير المؤمنين. ثم إن شمس النهار قلعت ودخلت إلى معشوقها علي بن بكار وضمّته إلى صدرها وودعته. فبكى بكاءً شديداً وقال : يا سيدتي، هذا الوداع متّعيني به لعله يكون عوناً على تلف نفسي وهلاك روحي في هواك، ولكن أسأل الله أن يرزقني الصبر على ما بلاني به من محبتي. فقالت له شمس النهار : والله ما يصير في التلف إلاّ أنا، فإنك قد تخرج إلى السوق وتجتمع بمن يسلّيك فتكون مصوناً وغرامك مكنوناً، وأما أنا فسوف أقع في البلاء خصوصاً وقد وعدت الخليفة بميعاد، فربما يلحقني من ذلك عظيم الخطر بسبب شوقي إليك وحبي لك وتعشّقي فيك وتأسّفي على مفارقتك. فبأي لسان أغني، وبأي قلب أحضر عند الخليفة، وبأي كلام أنادم أمير المؤمنين، وبأي نظر أنظر إلى مكان ما أنت فيه، وكيف أكون في حضرة لم تكن بها؟ وبأي ذوق أشرب مداماً ما أنت حاضره؟ فقال لها أبو الحسن : لا تتحيّري واصبري، ولا تغفلي عن منادمة أمير المؤمنين هذه الليلة ولا تريه تهاوناً. فبينما هم في الكلام وإذا بجارية قدمت وقالت : يا سيدتي، جاء غلمان أمير المؤمنين. فنهضت

قائمة وقالت للجارية : خذي أبا الحسن ورفيقه واقصدي بهما أعلى الروشن المطل على البستان ودعيهما هناك إلى الظلام ، ثم تحيّلي في خروجهما . فأخذتهما الجارية وأطلعتهما في الروشن وأغلقت الباب عليهما ومضت إلى حال سبيلها . وصارا ينظران إلى البستان وإذا بالخليفة قدم وقدّامه نحو المائة خادم بأيديهم السيوف ، وحواليه عشرون جارية كأنهن الأقمار وعليهن افخر ما يكون من الملبوس وعلى رأس كل واحدة تاج مكلل بالجواهر واليواقيت ، وفي يد كل واحدة شمعة موقودة والخليفة يمشي بينهن وهنّ محيطات به من كل ناحية ، ومسرور وعفيف ووصيف قدّامه وهو يتمايل بينهم . فقامت له شمس النهار وجميع من عندها من الجواري ولاقينه من باب البستان وقبّلن الأرض بين يديه ، ولم يزلن سائرات أمامه إلى أن جلس على السرير . والذين في البستان من الجواري والخدم ، وقفوا حوله والشموع موقودة والآلات تضرب إلى أن أمرهم بالإنصراف والجلوس على الأسرّة . فجلست شمس النهار على سرير بجانب سرير الخليفة وصارت تحدثه . كل ذلك وأبو الحسن وعلي ابن بكار ينظران ويسمعان والخليفة لم يرهما . ثم إن الخليفة صار يلعب مع شمس النهار وأمر بفتح القبة . ففتحت وشرعوا طيقانها وأوقدوا الشموع ، حتى صار المكان وقت الظلام كالنهار . ثم إن الخدم صاروا ينقلون آلآت المشروب .

فقال أبو الحسن : هذه الآلات والمشروب والتحف ما رأيت مثلها ، وهذا شيء من أصناف الجواهر ما سمعت بمثله . وقد خيل لي أنني في المنام ، وقد اندهش عقلي وخفق قلبي . وأما علي بن بكار فإنه لما فارقته شمس النهار لم يزل مطروحاً على الأرض من شدّة العشق . فلما أفاق صار ينظر إلى هذه الفعال التي لا يوجد مثلها فقال لأبي الحسن : أخي ، أخشى أن ينظرنا الخليفة أو يعلم حالنا ، وأكثر خوفي عليك . وأما أنا فإني أعلم أن نفسي من الهالكين ، وما سبب موتي إلاّ العشق والغرام وفرط الوجد والهيام ، ونرجو من الله الخلاص مما بلينا به . ولم يزل علي بن بكار وأبو الحسن ينظران من الروشن إلى الخليفة وما هو فيه حتى تكاملت الحضرة بين يدي الخليفة . ثم إن الخليفة التفت إلى جارية من الجواري وقال : هاتي ما عندك يا غرام من السماع المطرب . فأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات : [من الطويل]

وما وَجْدُ أَعْرابِيَّةٍ بَانَ أَهْلُها فَحَنَّتْ إلى بانِ الحِجازِ ورَنْدِهِ
إذا آنَسَتْ رَكْباً تَكَفَّلَ شَوْقُها بنارِ قِراهُ والدُّمُوعِ بِورْدِهِ
بِأَعْظَمَ مِنْ وَجْدِي بِحُبِّي وإنَّما يَرَى أَنَّنِي أَذْنَبْتُ ذَنْباً بِوُدِّهِ

فلما سمعت شمس النهار هذا الشعر وقعت مغشياً عليها من فوق الكرسي الذي كانت عليه وغابت عن الوجود ، فقام الجواري واحتملنها . فلما نظر إليها علي بن بكار من الروشن وقع مغشياً عليه . فقال ابو الحسن : إن القضاء قسم الغرام بينكما بالسوية . فبينما هما يتحدثان وإذا بالجارية التي أطلعتهما الروشن جاءتهما وقالت : يا أبا الحسن ، إنهض أنت ورفيقك وانزلا ، فقد ضاقت علينا الدنيا وأنا خائفة أن يظهر أمرنا فقوما في هذه الساعة وإلاّ متنا . فقال أبو الحسن : فكيف ينهض هذا الغلام معي ولا قدرة له على النهوض ؟ فصارت الجارية ترش ماء الورد على وجهه حتى افاق ، فحمله أبو الحسن هو والجارية ونزلا به من الروشن ومشيا قليلاً ثم فتحت الجارية باباً صغيراً من حديد وأخرجت أبا الحسن هو وعلي بن بكار على مصطبة ، ثم صفقت

بيديها فجاء زورق فيه إنسان يقذف فأطلعتهما الجارية في الزورق وقالت للذي في الزورق: اطلعهما في ذلك البر. فلما نزلا في الزورق وفارقا البستان، نظر علي بن بكار إلى القبة والبستان وودعهما بهذين البيتين: [من الطويل]

مَدَدْتُ إلى التَّوديعِ كَفّاً ضَعيفَةً وأُخْرَى عَلى الرَّمْضاءِ تَحْتَ فُؤادِي
فَلا كانَ هذا آخِرَ العَهْدِ بَيْنَنا ولا كانَ هذا الزَّادُ آخِرَ زادِي

ثم إن الجارية قالت للملاح: أسرع بهما. فصار يقذف لأجل السرعة والجارية معهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 155

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملاح صار يقذف لأجل السرعة والجارية معهم، إلى أن قطعوا ذلك الجانب وعدّوا إلى البر الثاني. ثم انصرفت الجارية وودعتهما وطلعا إلى البر وقالت لهما: كان قصدي أن لا أفارقكما لكنني لا أقدر أن أسير إلى مكان غير هذا الموضع. ثم إن الجارية عادت وصار علي بن بكار مطروحاً بين يدي أبي الحسن لا يستطيع النهوض. فقال له ابو الحسن: إن هذا المكان غير أمين ونخشى على أنفسنا من التلف في هذا المكان بسبب اللصوص وأولاد الحرام. فقام علي بن بكار يتمشى قليلاً وهو لا يستطيع المشي. وكان ابو الحسن له في ذلك الجانب أصدقاء، فقصد من يثق به ويركن إليه منهم. فدق بابه فخرج إليه مسرعاً، فلما رآهما رحب بهما ودخل بهما إلى منزله وأجلسهما وتحدث معهما وسألهما أين كانا. فقال أبو الحسن: قد خرجنا في هذا الوقت وأحوجنا إلى هذا الأمر إنسان عاملته في دراهم وبلغني أنه يريد السفر بمالي، فخرجت في هذه الليلة وقصدته واستأنست برفيقي هذا علي بن بكار وجئنا لعلنا ننظره، فتوارى منا ولم نره وعدنا بلا شيء. وشقّ علينا العود في هذا الليل ولم نرَ لنا محلاً غير محلك فجئنا إليك على عوايدك الجميلة. فرحب بهما واجتهد في إكرامهما وأقاما عنده بقية ليلتهما. فلما أصبح الصباح خرجا من عنده ولم يزالا يمشيان حتى وصلا إلى المدينة ودخلاها وجازا على بيت أبي الحسن، فحلف على صاحبه علي بن بكار وأدخله بيته فاضطجعا على الفراش قليلاً ثم أفاقا، فأمر ابو الحسن غلمانه أن يفرشوا البيت فرشاً فاخراً ففعلوا. ثم إن أبا الحسن قال في نفسه: لا بدّ أن أؤانس هذا الغلام وأسلّيه عمّا هو فيه فإني أدرى بأمره. ثم إن علياً بن بكار لما أفاق استدعى بماء. فحضروا له بالماء فقام وتوضأ وصلّى ما فاته من الفروض في يومه وليلته وصار يسلّي نفسه بالكلام. فلما رأى منه ذلك أبو الحسن تقدم إليه وقال: يا سيدي علي، الأليق بما أنت فيه أن تقيم عندي هذه الليلة لينشرح صدرك وينفرج ما بك من كرب الشوق وتتلاهى معنا. فقال علي بن بكار: إفعل يا أخي ما بدا لك، فإني على كل حال غير ناج مما أصابني فاصنع ما أنت صانع. فقام أبو الحسن واستدعي غلمانه وأحضر أصحابه وأرسل إلى أرباب المغاني والآلات فحضروا، وأقاموا على أكل وشرب وانشراح باقي اليوم إلى المساء. ثم أوقدوا الشموع ودارت بينهم كؤوس المنادمة وطاب لهم الوقت، فأخذت المغنية العود وجعلت تقول: [من الوافر]

رَمِيتُ مِنَ الزَّمانِ بِسَهْمِ لَحْظٍ فَأَصْماني وفارَقْتُ الحَبايِبْ

وعانَدَني الزَّمانُ وقَلَّ صَبْري ... وإنِّي قَبْلَ هذا كُنْتُ حاسِبْ

فلما سمع علي بن بكار كلام المغنية خرّ مغشياً عليه . ولم يزل في غشيته إلى أن طلع الفجر ويئس منه أبو الحسن . ولما طلع النهار أفاق وطلب الذهاب إلى بيته ، فلم يمنعه أبو الحسن خوفاً من عاقبة أمره . فأتاه غلمانه ببغلة وأركبوه ، وسار معه أبو الحسن إلى أن أدخله منزله . فلما اطمأن في بيته حمد الله أبو الحسن على خلاصه من هذه الورطة وصار يسلّيه وهو لا يتمالك نفسه من شدّة الغرام . ثم إن أبا الحسن ودّعه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 156

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن أبا الحسن ودّعه . فقال له علي بن بكار : يا أخي ، لا تقطع عني الأخبار . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم إن أبا الحسن قام من عنده وأتى دكانه وفتحها وصار يرتقب خبراً من الصبية فلم يأته أحد بخبر ، فبات تلك الليلة في داره . فلما أصبح الصباح ، قام إلى أن أتى دار علي بن بكار ودخل عليه فوجده ملقى على فراشه وأصحابه حوله والحكماء عنده وكل واحد يصف له شيئاً ويجسّون يده ، فلما دخل أبو الحسن ورآه ، تبسّم . ثم إن أبا الحسن سلّم عليه وسأله عن حاله وجلس عنده حتى خرج الناس فقال له : ما هذه الحال ؟ فقال علي بن بكار : قد شاع خبري أني مريض وتسامع بذلك أصحابي ، وليس لي قوة أستعين بها على القيام والمشي حتى أكذّب من جعلني ضعيفاً ، ولم أزل ملقى مكاني كما تراني ، وقد أتى أصحابي إلى زيارتي . يا أخي ، هل رأيت الجارية أو سمعت بخبر من عندها ؟ فقال : ما جاءتني من يوم فارقتنا على شاطىء الدجلة . ثم قال له أبو الحسن : يا أخي ، إحذر الفضيحة وتجنب هذا البكاء . فقال علي بن بكار : يا أخي ، لا أملك نفسي . ثم صعد الزفرات وأنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

نَالَتْ عَلى يَدِها ما لَم تَنَلْهُ يَدِي ... نَقْشٌ عَلى مِعْصَمٍ أَوْهَتْ بِهِ جَلَدِي
خافَتْ عَلى يَدِها مِنْ نَبْلِ مُقْلَتِها ... فَأَلْبَسَتْ يَدَها دِرْعاً مِن الزَّرَدِ
جَسَّ الطَّبِيبُ يَدِي جَهْلاً فَقُلْتُ لَه : ... إنَّ التَّأَلُّمَ في قَلْبِي فَخَلِّ يَدِي
قالَتْ : لِطَيْفِ خَيالٍ زارَنِي ومَضَى ... بِاللهِ صِفْهُ ولا تَنْقصْ ولا تَزِدِ
فَقالَ : خَلَّفْتُهُ لَو ماتَ مِنْ ظَمَإٍ ... وقُلْتُ : قِفْ عَنْ وُرُودِ الماءِ لَم يَرِدِ
فاستَمْطَرَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وسَقَتْ ... وَرْداً وعَضَّتْ على العُنَّابِ بِالبَرَدِ

فلما فرغ من شعره قال : قد بليت بمصيبة كنت في أمن منها ، وليس لي أعظم راحة من الموت . فقال له أبو الحسن : إصبر لعلّ الله يشفيك . ثم نزل أبو الحسن من عنده وتوجّه إلى دكانه وفتحها ، فما جلس غير قليل حتى أقبلت عليه الجارية وسلّمت ، فرد عليها السلام ونظر إليها فوجدها خافقة القلب يظهر عليها أثر الكآبة . فقال لها : أهلاً وسهلاً ، كيف حال شمس النهار ؟ فقالت : سوف أخبرك بحالها ، كيف حال علي ابن بكار ؟ فأخبرها أبو الحسن بجميع ما كان من أمره ، فتأسفت وتأوّهت وتعجّبت من ذلك الأمر ثم قالت : إن حال سيدتي أعجب من ذلك ، فإنكم لما توجهتم ، رجعت وقلبي يخفق عليكم وما صدقت بنجاتكم . فلما رجعت وجدت سيدتي مطروحة في القبة لا تتكلم ولا ترد على أحد ، وأمير المؤمنين جالس عند رأسها لا يجد من

يخبره بخبرها ولم يعلم ما بها. ولم تزل في غشيتها إلى نصف الليل ثم أفاقت. فقال لها أمير المؤمنين: ما الذي أصابك يا شمس النهار؟ وما الذي اعتراك في هذه الليلة؟ فلما سمعت شمس النهار كلام الخليفة، قبلت أقدامه وقالت له: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك، إنه خامرني خلط، فاضرم النار في جسدي فوقعت مغشياً علي من شدّة ما بي، ولا أعلم كيف كانت حالي؟ فقال لها الخليفة: ما الذي استعملته في نهارك؟ قالت: أفطرت على شيء لم آكله قط. ثم أظهرت القوّة واستدعت بشيء من الشراب فشربته، وسألت أمير المؤمنين أن يعود إلى انشراحه فعاد إلى الجلوس في القبة. فلما جئت إليها سألتني عن أحوالكما، فأخبرتها بما فعلت معكما وأخبرتها بما أنشده علي بن بكار، فسكتت. ثم إن أمير المؤمنين جلس وأمر الجارية بالغناء. فأنشدت هذين البيتين: [من الطويل]

وَلَمْ يَصْفُ لِي شَيءٌ مِنَ العَيْشِ بَعْدَكُم فَيا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حالُكُمُ بَعْدِي
يَحِقُّ لِدَمْعِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الدِّما إِذا كُنْتُمُ تَبْكُونَ دَمْعاً على بُعْدِي

فلما سمعت هذا الشعر وقعت مغشياً عليها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 157

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت لأبي الحسن: إن سيدتي لما سمعت هذا الشعر وقعت مغشياً عليها، فأمسكت يدها ورششت ماء الورد على وجهها فأفاقت. فقلت لها: يا سيدتي، لا تهتكي نفسك ومن يحويه قصرك، بحيات محبوبك أن تصبري. فقالت: هل في الأمر أكثر من الموت؟ فأنا أطلبه لأن فيه راحتي. فبينما نحن في هذا القول إذ غنت جارية بقول الشاعر: [من الطويل]

وقالُوا لَعَلَّ الصَّبْرَ يُعْقِبُ راحَةً فَقُلْتُ: وأَيْنَ الصَّبْرُ بَعْدَ فِراقِهِ
وقَد أَكَّدَ المِيثاقُ بَيْنِي وبَيْنَهُ بِقَطْعِ حِبالِ الصَّبْرِ عِنْدَ عِناقِهِ

فلما فرغت من الشعر، وقعت مغشياً عليها. فنظرها الخليفة فأتى مسرعاً إليها وأمر برفع الشراب وأن تعود كل جارية إلى مقصورتها وأقام عندها باقي ليلته إلى أن أصبح الصباح، فاستدعى الأطبّاء وأمرهم بمعالجتها ولم يعلم بما هي فيه من العشق والغرام. وأقمت عندها حتى ظننت أنه قد صلحت حالها. وهذا الذي عاقني عن المجيء إليكما. وقد خلفت عندها جماعة من خواصها، لما أمرتني بالمسير إليكما لآخذ خبر عن علي بن بكار وأعود إليها. فلما سمع أبو الحسن كلامها تعجب وقال لها: والله إني أخبرتك بجميع ما كان من أمره، فعودي إلى سيدتك وسلمي عليها وحثّيها على الصبر وقولي لها: اكتمي السرّ وأخبريها أني عرفت أمرها وهو أمر صعب يحتاج إلى التدبير. فشكرته الجارية ثم ودّعته وانصرفت إلى سيدتها. هذا ما كان من أمرها. وأما ما كان من أمر أبي الحسن، فإنه لم يزل في دكانه إلى آخر النهار. فلما مضى النهار قام وقفل دكانه وأتى إلى دار علي بن بكار، فدقّ الباب فخرج له بعض غلمانه وأدخله. فلما دخل عليه تبسّم واستبشر بقدومه وقال له: يا أبا الحسن أوحشتني لتخلفك عني في هذا اليوم، وروحي متعلقة بك باقي عمري. فقال له أبو الحسن: دع هذا الكلام، فلو أمكن فداك كنت

افديك بروحي . وفي هذا اليوم جاءت جارية شمس النهار واخبرتني انه ما عاقها عن المجيء إلاّ جلوس الخليفة عند سيدتها ، وأخبرتني بما كان من أمر سيدتها . وحكى له جميع ما سمعه من الجارية ..فتاسّف علي بن بكار غاية التأسف وبكى ، ثم التفت إلى أبي الحسن وقال له : بالله أن تساعدني على ما بليت به ، واخبرني ماذا تكون الحيلة ؟ وأسألك من فضلك المبيت عندي هذه الليلة لأستأنس بك . فامتثل أبوالحسن أمره وأجابه إلى المبيت عنده ، وباتا يتحدثان في تلك الليلة . ثم إن علي بن بكار بكى وأرسل العبرات وأنشد هذه الأبيات : [من الكامل]

خَفَرَتْ بِسَيْفِ اللَّحْظِ ذِمَّةَ مُغْتَرِ ... وفَرَتْ بِرُمْحِ القَدِّ دِرْعَ تَصَبُّرِي
وجَلَتْ لنا مِنْ تَحْتِ مِسْكَةِ خالِها ... كافُورَ فَجْرٍ شَقَّ لَيْلَ العَنْبَرِ
فَزَعَتْ فَضَرَّسَتْ العَقِيقُ بِلُؤْلُؤٍ ... سَكَنَتْ فَرائِدُهُ غَدِيرَ السُّكَّرِ
وتَنَهَّدَتْ جَزَعاً فَأَثَّرَ كَفُّها ... في صَدْرِها فَنَظَرْتُ ما لَم أَنْظُرِ
أَقْلامَ مُرجانٍ كَتَبْنَ بِعَنْبَرٍ ... بِصَحِيفَةِ البِلَّوْرِ خَمْسَةَ أَسْطُرِ
يا حامِلَ السَّيْفِ الصَّقِيلِ إذا رَنَتْ ... إيَّاكَ ضَرْبَةَ جَفْنِها المُتَكَسِّرِ
وتَوَقَّ يا رَبُّ القَناةِ الطَّعْنَ إنْ ... حَمَلَتْ عَلَيْكَ مِنَ القَوامِ بِأَسْمَرِ

فلما فرغ علي بن بكار من شعره صرخ صرخة عظيمة ووقع مغشياً عليه . فظن أبو الحسن أن روحه خرجت من جسده ، ولم يزل في غشيته حتى طلع النهار . فأفاق وتحدّث مع أبي الحسن ، ولم يزل أبو الحسن جالساً عند علي بن بكار إلى ضحوة النهار . ثم انصرف من عنده وجاء إلى دكانه وفتحها وإذا بالجارية جاءته ووقفت عنده . فلما نظر إليها ، أومأت إليه بالسلام فردّ عليها السلام وبلغته سلام سيدتها وقالت له : كيف حال علي بن بكار ؟ فقال لها : يا جارية لا تسألي عن حاله وما هو فيه من شدّة الغرام ، فإنه لا ينام الليل ولا يستريح بالنهار ، وقد أنحله السهر وغلب عليه الضجر وصار في حال لا يسرّ حبيباً . فقالت له : إن سيدتي تسلّم عليك وعليه وقد كتبت له ورقة ، وهي في حال أعظم من حاله ، وقد سلمتني الورقة وقالت : لا تأتيني إلاّ بجوابها ، وافعلي ما أمرتك به . وها هي الورقة معي ، فهل لك أن تسير معي إلى علي بن بكار ونأخذ منه الجواب؟ فقال لها أبو الحسن : سمعاً وطاعةً . ثم قفل الدكان وأخذ معه الجارية وذهب بها من مكان غير الذي جاء منه . ولم يزالا سائرين حتى وصلا إلى دار علي بن بكار ، ثم أوقف الجارية على الباب ودخل . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 158

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن أبا الحسن ذهب بالجارية إلى دار علي بن بكار وأوقفها على الباب ودخل البيت ، فلما رآه علي بن بكار فرح به . فقال له أبو الحسن : سبب مجيئي أن فلاناً أرسل إليك جاريته برقعة تتضمن سلامه عليك ، وذكر فيها أن سبب تأخره عنك عذر حصل له . والجارية واقفة بالباب ، فهل تأذن لها بالدخول ؟ فقال علي : أدخلوها . وأشار له أبو الحسن أنها جارية شمس النهار ، ففهم الإشارة . فلما رآها تحرّك وفرح وقال لها بالإشارة : كيف حال السيّد ؟ شفاه الله وعافاه . فقالت : بخير . ثم أخرجت الورقة ودفعتها له ، فأخذها وقبّلها وقرأها ، وناولها لأبي الحسن فوجد مكتوباً فيها هذه الأبيات : [من

المنسرح]

يُنْبِيكَ هذا الرَّسُولُ عَنْ خَبَرِي　　　فاسْتَغْنِ في ذِكْرِهِ عَنْ النَّظَرِ
خَلَّفْتَ صبّاً بِحُبِّكُمْ دَنِفاً　　　وَطَرْفُهُ لا يَزال بالسَّهَرِ
أُكابِدُ الصَّبْرَ في البَلاءِ فَما　　　يَدْفَعُ خَلْقٌ مَواقِعَ القَدَرِ
وقُرَّ عَيْناً ولَيْسَ تَغْفَلُ عَنْ　　　قَلْبِي ولا يَوْمَ غِبْتَ عَنْ بَصَرِي
وٱنْظُرْ إلى جِسْمِكَ النَّحِيلِ وما　　　قَد حَلَّهُ وٱسْتَدَلَّ بالأَثَرِ

وبعد، فقد كتبت لك كتاباً بغير بنان ونطقت لك بغير لسان. وجملة شرح حالي أن لي عيناً لا يفارقها السهر وقلباً لا تبرح عنه الفكر، فكأنني قطّ ما عرفت صحة ولا فرحة، ولا رأيت منظراً بهيّاً ولا قطعت عيشاً هنياً، وكأنني خلقت من الصبابة ومن ألم الوجد والكآبة فعليّ السقام مترادف والغرام متضاعف والشوق متكاثر. وصرت كما قال الشاعر: [من البسيط]

القَلْبُ مُنْقَبِضٌ والفِكْرَ مُنْبَسِطٌ　　　والعَيْنُ ساهِرَةٌ والجِسْمُ مَتْعُوبُ
والصَّبْرُ مُنْفَصِلٌ والهَجْرُ مُتَّصِلُ　　　والعَقْلُ مُخْتَبَلٌ والقَلْبُ مَسْلُوبُ

واعلم أن الشكوى لا تطفىء نار البلوى، لكنها تعلل من أعلّه الاشتياق وأتلفه الفراق، وأتسلى بذكر لفظ الوصال. وما أحسن قول من قال: [من الطويل]

إذا لَم يَكُنْ في الحُبِّ سَخْطٌ ولا رِضًى　　　فأَيْنَ حَلاواتُ الرَّسائِلِ والكُتُبِ

قال أبو الحسن: فلما قرأتها، هيجت ألفاظها بلابلي وأصابت معانيها مقاتلي ثم دفعتها إلى الجارية. فلما أخذتها قال لها علي بن بكار: أبلغي سيدتك سلامي وعرّفيها بوجدي وغرامي، وامتزاج المحبة بلحمي وعظامي. واخبريها أنني محتاج إلى من ينقذني من بحر الهلاك وينجّيني من هذا الإرتباك. ثم بكى، فبكت الجارية لبكائه وودّعته وخرجت من عنده، وخرج أبو الحسن معها، ثم ودّعها ومضى إلى دكانه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 159

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا الحسن ودّع الجارية ورجع إلى دكانه. فلما جلس فيه وجد قلبه انقبض وضاق صدره وتحيّر في أمره، ولم يزل في فكر بقية يومه. وفي اليوم الثاني ذهب إلى علي بن بكار وجلس عنده حتى ذهبت الناس. وسأله عن حاله، فأخذ في شكوى الغرام وما به من الوجد والهيام. وأنشد قول الشاعر: [من الوافر]

شَكَى أَلَمَ الغَرامِ النَّاسُ قَبْلي　　　ورُوِّعَ بالنَّوَى حَيٌّ ومَيْتُ
وأَمَّا مِثْلَ ما ضَمَّتْ ضُلُوعِي　　　فإنِّي لا سَمِعْتُ ولا رَأَيْتُ

وقول الشاعر: [من الكامل]

ولَقِيتَ مِنْ حُبَّيْكَ ما لَمْ يَلْقَهُ　　　في حُبِّ لُبْنَى قَيْسُها المَجْنُونُ
لَكِنَّنِي لَمْ أَتَّبِعْ وَحْشَ الفَلا　　　كَفِعالِ قَيْسٍ والجُنُونُ فُنُونُ

فقال له أبو الحسن: أنا ما رأيت ولا سمعت بمثلك في محبتك، كيف يكون هذا الوجد

وضعف الحركة؟ وقد تعلّقت بحبيب موافق . فكيف إذا تعلّقت بحبيب مخالف مخادع ؟ فكان أمرك ينكشف . قال أبو الحسن : فركن علي بن بكار إلى كلامي وشكرني على ذلك . وكان لي صاحب يطلع على أمري وأمر علي بن بكار ويعلم أننا متوافقان ، ولا يعلم أحد ما بيننا غيره . وكان يأتيني فيسألني عن حال علي بن بكار ، وبعد قليل سألني عن الجارية فقلت له : قد دعته إليها وكان بينه وبينها ما لا مزيد عليه ، وهذا آخر ما انتهى من أمرهما . ولكني دبرت لنفسي أمراً أريد إعراضه عليك . فقال له صاحبه : ما هو؟ قال أبو الحسن : أعلم أني رجل معروف بكثرة المعاملات بين الرجال والنساء ، وأخشى أن ينكشف أمرهما فيكون ذلك سبباً لهلاكي وأخذ مالي وهتك عيالي . وقد اقتضى رأيي أن أجمع مالي وأجهز حالي وأتوجه إلى مدينة البصرة وأقيم بها حتى أنظر ما يكون من أحوالهما بحيث لا يشعر بي أحد ، فإن المحبة قد تمكنت منهما ودارت المراسلة بينهما . والحال أن الماشي بينهما جارية وهي كاتمة لأسرارهما ، وأخشى أن يغلب عليها الضجر فتبوح بسرّهما لأحد فيشيع خبرهما ويؤدي ذلك إلى الهلاك ، ويكون سبباً لتلفي وليس لي عذر عند الناس . فقال له صاحبه : قد أخبرتني بخبر خطير يخاف من مثله العاقل الخبير ، كفاك الله شرّ ما تخافه وتخشاه ونجّاك مما تخاف عقباه ، وهذا الرأي هو الصواب . فانصرف أبو الحسن إلى منزله وصار يقضي مصالحه ويتجهّز للسفر إلى مدينة البصرة ، فما مضى ثلاثة أيام حتى قضى مصالحه وسافر إلى البصرة . فجاء صاحبه بعد ثلاثة أيام ليزوره فلم يجده ، فسأل عنه جيرانه فقالوا له : إنه توجّه من مدّة ثلاثة أيام إلى البصرة لأن له معاملة عند تجارها ، فذهب ليطالب أرباب الديون وعن قريب يأتي . فاحتار الرجل في أمره وصار لا يدري أين يذهب وقال : يا ليتني لم أفارق أبا الحسن . ثم دبّر حيلة يتوصل بها إلى علي بن بكار ، فقصد داره وقال لبعض غلمانه : إستأذن لي سيّدك لأدخل أسلم عليه . فدخل الغلام وأخبر سيده به ثم عاد إليه وأذن له في الدخول ، فدخل عليه فوجده ملقى على الوسادة ، فسلّم عليه فرد عليه السلام ورحّب به . ثم إن ذلك الرجل اعتذر إليه في تخلّفه عنه تلك المدة ثم قال له : يا سيدي ، إن بيني وبين أبي الحسن صداقة ، وإني كنت أودعه أسراري ولا أنقطع عنه ساعة . فغبت في بعض المصالح مع جماعة من أصحابي مدّة ثلاثة أيام ثم جئت إليه ، فوجدت دكانه مقفولة فسألت عنه الجيران فقالوا : إنه توجه إلى البصرة . ولم أعلم له صديقاً أوفى منك . فبالله أن تخبرني بخبره . فلما سمع علي بن بكار كلامه ، تغيّر لونه واضطرب وقال : لم أسمع قبل هذا اليوم خبر سفره ، وإن كان الأمر كما ذكرت فقد حصل لي التعب . ثم أفاض دمع العين وأنشد هذين البيتين : [من البسيط]

قَدْ كُنْتُ أَبْكِي عَلَى ما فاتَ مِنْ فَرَحٍ ... وأَهْلُ وُدِّي جَمِيعاً غَيرُ أَشْتاتِ
واليَوْمَ فَرَّقَ ما بَيْنِيْ وبَيْنَهُمُ ... دَهْرِي فأَبْكِي عَلَى أَهْلِ المَوَدَّاتِ

ثم إن علياً بن بكار أطرق رأسه إلى الأرض يتفكّر ، وبعد ساعة رفع رأسه إلى خادم له وقال له : إمض إلى دار أبي الحسن واسأل عنه ، هل هو مقيم أو مسافر ؟ فإن قالوا : سافر . فاسأل إلى أي ناحية توجّه ؟ فمضى الغلام وغاب ساعة ثم أقبل إلى سيده وقال : إني لما سألت عن أبي الحسن أخبرني أتباعه أنه سافر إلى البصرة ، ولكن وجدت جارية واقفة على الباب ، فلما رأتني عرفتني ولم أعرفها وقالت لي : هل أنت غلام علي بن بكار ؟ فقلت لها : نعم . فقالت : إن معي

رسالة إليه من عند أعزّ الناس عليه . فجاءت معي وهي واقفة على الباب . فقال علي بن بكار : ادخلها . فطلع الغلام إليها وأدخلها ، فنظر الرجل الذي عند ابن بكار إلى الجارية فوجدها ظريفة . ثم إن الجارية تقدّمت عند ابن بكار وسلّمت عليه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 160

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية لما دخلت على علي بن بكار ، تقدمت عنده وسلمت عليه وتحدثت معه سرّاً ، وصار يقسم في أثناء الكلام ويحلف أنه لم يتكلم بذلك ، ثم ودّعته وانصرفت . وكان الرجل صاحب أبي الحسن جوهرياً ، فلما انصرفت الجارية وجد للكلام محلاً فقال لعلي بن بكار : لا شك ولا ريب أن لدار الخلافة عليك مطالبة ، أو بينك وبينها معاملة ؟ فقال : ومن أعلمك بذلك ؟ فقال : معرفتي بهذه الجارية ، لأنها جارية شمس النهار وكانت جاءتني من مدّة برقعة مكتوب ، فيها أنها تشتهي عقد جوهر فأرسلت إليها عقداً ثميناً . فلما سمع علي بن بكار كلامه ، اضطرب حتى خشي عليه التلف . ثم راجع نفسه وقال : يا أخي ، سألتك بالله من أين تعرفها ؟ فقال له الجوهري : دع الإلحاح في السؤال . فقال له علي بن بكار : لا أرجع عنك إلاّ إذا أخبرتني بالصحيح . فقال له الجوهري : أنا أخبرك بحيث لا يدخلك مني وهم ولا يعتريك من كلامي انقباض ، ولا أخفي عنك سرّاً وأبين لك حقيقة الأمر . ولكن بشرط ، أن تخبرني بحقيقة حالك وسبب مرضك . فأخبره بخبره ثم قال : والله يا أخي ، ما حملني على كتمان أمري عن غيرك إلاّ مخافة أن الناس تكشف أستار بعضها . فقال الجوهري لعلي بن بكار : وأنا ما أردت اجتماعي بك إلاّ لشدة محبتي وغيرتي عليك ، وشفقتي على قلبك من ألم الفراق . عسى أكون لك مؤنساً نيابة عن صديقي أبي الحسن مدّة غيبته ، فطب نفساً وقرّ عيناً . فشكره علي بن بكار على ذلك وأنشد هذين البيتين : [من الطويل]

وَلَوْ قُلْتُ : إنِّي صابِرٌ بَعْدَ بُعْدِهِ لَـكَذَّبَنِي دَمْعِي وَفَرْطُ نَحِيبِي
وكَيْفَ أُدارِي مَدْمَعاً جَرَيانُهُ عَلَى صَحْنِ خَدِّي مِنْ فِراقِ حَبِيبِي

ثم إن علياً بن بكار سكت ساعة من الزمان . وبعد ذلك قال للجوهري : أتدري ما سرتني به الجارية ؟ فقال له : لا والله يا سيدي . فقال : إنها زعمت أني أشرت على أبي الحسن بالمسير إلى مدينة البصرة وأنني دبرت بذلك حيلة لأجل عدم المراسلة والمواصلة . فحلفت لها أن ذلك لم يكن ، فلم تصدقني ومضت إلى سيدتها وهي على ما هي عليه من سوء الظن ، لأنها كانت تصغي إلى أبي الحسن . فقال الجوهري : يا أخي ، إني فهمت من حال هذه الجارية هذا الأمر ، ولكن إن شاء الله تعالى أكون عوناً لك على مرادك . فقال له علي بن بكار : وكيف تعمل معها وهي تنفر كوحش الفلاة ؟ فقال له : لا بدّ أن أبذل جهدي في مساعدتك واحتيالي في التوصّل إليها من غير كشف ستر ولا مضرّة . ثم استأذن في الإنصراف فقال له علي بن بكار : يا أخي ، عليك بكتمان السرّ . ثم نظر إليه وبكى ، فودّعه وانصرف . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 161

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهري ودّعه وانصرف وهو لا يدري كيف يعمل في إسعاف علي بن بكار . وما زال ماشياً وهو متفكّر في أمره إذ رأى ورقة مطروحة في الطريق فأخذها ونظر عنوانها وقرأه فإذا هو : من المحب الأصغر إلى الحبيب الأكبر . ففتح الورقة فرأى مكتوباً فيها هذان البيتان : [من البسيط]

جاءَ الرَّسُولُ بِوَصْلٍ مِنْكَ يُطْمِعُنِي ... وكانَ أَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّـهُ وَهِما
فما فَرِحْتُ ولَـكِنْ زادَنِي حَزَناً ... عِلْمِي بأنَّ رَسُولِي لَم يَـكُنْ فَهِما

وبعد، فاعلم يا سيدي أنني لم أدر سبب قطع المراسلة بيني وبينك، فإن يكن صدر منك الجفاء فأنا أقابله بالوفاء، وإن يكن ذهب منك الوداد فأنا أحفظ الود على البعاد . فأنا معك كما قال الشاعر : [من البسيط]

تِهْ أَحْتَمِلْ وأَسْتَطِلْ أَصْبِرْ وعِزَّ أَهُنْ ... وَوَلِ أَقْبَلْ وَقُلْ أَسْمَعْ وَمُرْ أَطِعِ

فلما قرأها، وإذا بالجارية أقبلت وهي تتلفت يميناً وشمالاً فرأت الورقة في يده فقالت له : يا سيدي، إن هذه الورقة وقعت مني . فلم يرد عليها جواباً ومشى، ومشت الجارية خلفه إلى أن أقبل على داره ودخل والجارية خلفه فقالت له : يا سيدي، ردّ لي هذه الورقة فإنها سقطت مني . فالتفت إليها وقال : يا جارية لا تخافي ولا تحزني، ولكن أخبريني بالخبر على وجه الصدق فإني كتوم الأسرار، وأحلّفك يميناً أنك لا تخفي عني شيئاً من أمر سيدتك، فعسى الله أن يعينني على قضاء أغراضها ويسهل الأمور الصعاب على يدي . فلما سمعت الجارية كلامه قالت : يا سيدي، ما ضاع سرّ أنت حافظه ولا خاب أمر أنت تسعى في قضائه . أعلم أن قلبي مال إليك فأنا أخبرك بحقيقة الأمر واعطني الورقة . ثم أخبرته بالخبر كله وقالت : الله على ما أقول شهيد . فقال لها : صدقت، فإن عندي علماً بأصل الخبر . ثم حدثها بحديث علي بن بكار وكيف أخذ ضميره، وأخبرها بالخبر من أوله إلى آخره . فلما سمعت ذلك فرحت واتفقا على أنها تأخذ الورقة وتعطيها لعلي بن بكار، وبجميع ما يحصل ترجع إليه وتخبره . فأعطاها الورقة، فأخذتها وختمتها كما كانت وقالت : إن سيدتي شمس النهار أعطتها لي مختومة، فإذا قرأها وردّ لي جوابها آتيك به . ثم إن الجارية ودّعته وتوجّهت إلى علي بن بكار فوجدته في الإنتظار . فأعطته الورقة وقرأها ثم كتب لها ورقة ردّ الجواب وأعطاها لها، فأخذتها ورجعت بها إلى الجوهري حكم الإتفاق، ففضّ ختمها وقرأها، فرأى مكتوباً فيها : [من البسيط]

إنَّ الرَّسُولَ الَّذي كانَتْ رَسائِلُنا ... مَكْتُومَةً عِنْدَهُ ضاعَتْ وقَد غَضِبا
فاسْتَخْلِصُوا لي رَسُولاً مِنْكُمْ ثِقَةً ... يَسْتَحْسِنُ الصِّدْقَ لا يَسْتَحْسِنُ الكَذِبا

وبعد، فإنني لم يصدر مني جفاء ولا تركت وفاء، ولا نقصت عهداً ولا قطعت وداً، ولا فارقت أسفاً ولا لقيت بعد الفراق إلاّ تلفاً، ولا علمت أصلاً بما ذكرتم ولا أحب غير ما أحببتم . وحقّ عالم السرّ والنجوى ما قصدي غير الإجتماع بمن أهوى، وشأني كتمان الغرام وإن أمرضني السقام، وهذا شرح حالي والسلام . فلما قرأ الجوهري هذه الورقة وعرف ما فيها، بكى

بكاءً شديداً . ثم إن الجارية قالت له : لا تخرج من هذا المكان حتى أعود إليك ، لأنه قد اتهمني بأمر من الأمور وهو معذور ، وأنا أريد أن أجمع بينك وبين سيدتي شمس النهار بأي حيلة ، فإني تركتها مطروحة وهي تنتظر مني ردّ الجواب . ثم إن الجارية مضت إلى سيدتها ، وبات الجوهري مشوّش الخاطر . فلما أصبح الصباح ، صلّى الصبح وقعد ينتظر قدومها ، وإذا بها أقبلت وهي فرحانة إلى أن دخلت عليه . فقال لها : ما الخبر يا جارية ؟ فقالت : مضيت من عندك إلى سيدتي ودفعت لها الورقة التي كتبها علي بن بكار ، فلما قرأتها وفهمت معناها تحيّر فكرها . فقلت لها : يا سيدتي لا تخشي من فساد الأمر بينكما بسبب غياب أبي الحسن ، فإني وجدت من يقوم مقامه وهو أحسن منه وأعلا مقداراً وأهلاً لكتمان الأسرار . وقد حدثتها بما بينك وبين أبي الحسن وكيف توصلت إليه وإلى علي بن بكار وكيف سقطت تلك الرقعة مني ووقعت أنت عليها ، وأخبرتها بما استقرّ عليه الأمر بيني وبينك . فتعجّب الجوهري غاية العجب . ثم قالت له : إنها تشتهي أن تسمع كلامك لأجل أن تؤكد عليه فيما بينك وبينه من العهود ، فاعزم في هذا الوقت على المسير معي إليها . فلما سمع الجوهري كلام الجارية ، رأى أن الدخول عليها أمر عظيم وخطر جسيم لا يمكن الدخول فيه ولا التهجّم عليه . فقال الجوهري للجارية : يا أختي ، إني من أولاد العوام ولم أكن كأبي الحسن ، لأن أبا الحسن كان رفيع المقدار معروفاً بالإشتهار ، متردّداً على دار الخلافة لاحتياجهم إلى بضاعته . وأما أنا ، فإن أبا الحسن كان يحدثني وأنا أرتعد بين يديه ، وإذا كانت سيدتك رغبت في حديثي لها فينبغي أن يكون ذلك في غير دار الخلافة ، بعيداً عن محل أمير المؤمنين لأن جناني لا يطاوعني على ما تقولين . ثم إنه امتنع من المسير معها ، وصارت تتضمن له السلامة وتقول له : لا تخش ولا تخف . فبينما هما في هذا الكلام إذ لعبت رجلاه وارتعشت يداه فقالت له الجارية : إن كان يصعب عليك الرواح إلى دار الخلافة ولا يمكنك المسير معي فأنا أجعلها تسير إليك ، فلا تبرح من مكانك حتى أرجع إليك بها . ثم إن الجارية مضت ولم تغب إلاّ قليلاً وعادت إلى الجوهري وقالت له : إحذر أن يكون عندك جارية أو غلام . فقال : ما عندي غير جارية سوداء كبيرة السن تخدمني . فقامت الجارية وأغلقت الأبواب بين جارية الجوهري وبينه وصرفت غلمانه إلى خارج الدار ، ثم خرجت الجارية وعادت ومعها جارية خلفها ودخلت دار الجوهري فأعبقت الدار من الطيب ، فلما رآها الجوهري نهض قائماً ووضع لها مخدّة وجلس بين يديها ، فمكثت ساعة لم تتكلم حتى استراحت ، ثم كشفت وجهها فخيل للجوهري أن الشمس أشرقت في منزله . ثم قالت لجاريتها : أهذا الرجل الذي قلت لي عليه ؟ فقالت الجارية : نعم . فالتفتت إلى الجوهري وقالت له : كيف حالك ؟ قال : بخير ، ودعا لها . فقالت : إنك حمّلتنا المسير إليك وأن نطلعك على ما يكون من سرّ نائم . سألته عن أهله وعياله ، فأخبرها بجميع أحواله وقال لها : إن لي دار غير هذه الدار جعلتها للاجتماع بالأصحاب والإخوان ، وليس لي فيها إلاّ ما ذكرته لجاريتك . ثم سألته عن كيفية اطلاعه على أصل القصة . فأخبرها بما سألته عنه من أول الأمر إلى آخره . فتأوّهت على فراق أبي الحسن وقالت : يا فلان ، أعلم أن أرواح الناس متلائمة في الشهوات ، والناس بالناس لا يتم عمل إلاّ بقول ولا يتم غرض إلاّ بسعي ، ولا تحصل راحة إلاّ بعد تعب . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 162

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن شمس النهار قالت للجوهري : لا تحصل راحة إلاّ بعد تعب ولا يظهر نجاح إلاّ من ذوي مروءة، وقد اطلعتك الآن على أمرنا وصار بيدك هتكنا وسترنا . ولا زيادة لما أنت عليه من المروءة، فأنت قد علمت أن جاريتي هذه كاتمة لسرّي، وبسبب ذلك لها رتبة عظيمة عندي، وقد اختصصتها لمهمات أموري فلا يكن عندك أعزّ منها، وأطلعها على أمرك وطب نفساً فأنت آمن مما تخافه من جهتنا . وما يسدّ عليك موضع إلاّ وتفتحه لك، وهي تأتيك من عندي بأخبار علي بن بكار وتكون أنت الواسطة في التبليغ بيني وبينه . ثم إن شمس النهار قامت وهي لا تستطيع القيام ومشت، فتمشى بين يديها الجوهري حتى وصلت إلى باب الدار، ثم رجع وقعد في موضعه بعد أن نظر من حسنها ما بهره وسمع من كلامها ما حيّر عقله وشاهد من ظرفها وأدبها ما أدهشه . ثم استمر يتفكّر في شمائلها حتى سكنت نفسه . وطلب الطعام فأكل ما يمسك رمقه ثم غيّر ثيابه وخرج من داره وتوجه إلى علي بن بكار، فلاقاه غلمانه ومشوا بين يديه إلى أن أوصلوه إلى سيدهم، فوجده ملقى على فراشه . فلما رأى الجوهري قال له : أبطأت عليّ فزدتني هماً على همّي . ثم صرف غلمانه وأمر بغلق أبوابه وقال له : والله ما غمضت عيني من يوم فارقتني، فإن الجارية جاءتني بالأمس ومعها مختومة من عند سيدتها شمس النهار، وحكى له بن بكار على جميع ما وقع له معها . ثم قال : لقد تحيّرت في أمري وقلّ صبري وكان لي أبو الحسن أنيساً لأنه يعرف الجارية . فلما سمع الجوهري كلام ابن بكار ضحك . فقال له ابن بكار : كيف تضحك من كلامي ؟ وقد استبشرت بك واتخذتك عدة للنائبات . ثم بكى وأنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

وضاحِكٍ مِنْ بُكائِي حِينَ أَبْصَرَنِي ... لَو كانَ قاسَى الَّذي قاسَيْتُ أَبْكاهُ
لَم يَرْثِ لِلمُبْتَلِي مِمَّا يُكابِدُهُ ... إلاّ شَجٍ مِثْلُهُ قَدْ طالَ بَلْواهُ
وَجْدِي حَنِينِي أَنِينِي فِكْرَتِي وَلَهِي ... إلى حَبِيبٍ زَوايا القَلْبِ مأواهُ
حَلَّ الفُؤادَ مُقِيماً لا يُفارِقُهُ ... وَقْتاً ولَـكِنَّهُ قَد عَزَّ لُقياهُ
ما لِي سِواهُ خَلِيلٌ أَرْتَضِي بَدَلاً ... وما اَصْطَفَيْتُ حَبِيباً قَطُّ إلاّهُ

فلما سمع الجوهري منه هذا الكلام وفهم الشعر والنظام، بكى لبكائه وأخبره بما جرى له مع الجارية من حين فارقه . فصار ابن بكار يصغي إلى كلامه، وكلما سمع منه كلمة يتغيّر لون وجهه من صفرة إلى احمرار ويقوى جسمه مرة ويضعف أخرى، فلما انتهى إلى آخر الكلام بكى ابن بكار وقال له : يا أخي، أنا على كل حال هالك فليت أجلي قريب . وأسألك من فضلك أن تكون ملاطفي في جميع أموري إلى أن يريد الله بما يريد، وأنا لا أخالف لك قولاً . فقال له الجوهري : لا يطفىء عنك هذه النار إلاّ الاجتماع بمن شغفت بها ولكن في غير هذا المكان الخطير، وإنما يكون ذلك عندي في بيت جنب بيتي، جاءتني إليه الجارية هي وسيدتها وهو الموضع الذي اختارته لنفسها . والمقصود إجتماعكما ببعضكما وفيه تشكوان لبعضكما ما قاسيتما . فقال علي بن بكار : إفعل ما تريد والذي تراه هو الصواب . قال الجوهري : فأقمت عنده تلك الليلة أسامره إلى أن أصبح الصباح .

فلما كانت الليلة 163

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهري قال: فأقمت تلك الليلة عند علي بن بكار أسامره إلى أن أصبح الصباح، ثم صلّيت الصبح وخرجت من عنده وذهبت إلى منزلي. فما استقريت إلاّ قليلاً حتى جاءت الجارية وسلّمت علي، فرددت عليها السلام وحدّثتها بما كان بيني وبين علي بن بكار. فقالت الجارية: أعلم أن الخليفة توجّه من عندنا، وأن مجلسنا لا أحد فيه وهو أستر لنا وأحسن. فقلت لها: كلامك صحيح، ولكنه ليس كمنزلي هذا فإنه أستر لنا وأليق بنا. فقالت الجارية: إن الرأي ما تراه أنت، وأنا ذاهبة إلى سيدتي لأخبرها بما ذكرت وأعرض عليها ما قلت. ثم إن الجارية توجهت إلى سيدتها وعرضت عليها الكلام وعادت إلى منزلي وقالت لي: إن سيدتي رضيت بما قلته. ثم إن الجارية أخرجت من جيبها كيساً فيه دنانير وقالت لي: إن سيدتي تسلّم عليك وتقول لك: خذ هذا واقض لنا به ما نحتاج إليه، فاقسمت أني لا أصرف شيئاً منه. فأخذته الجارية وعادت إلى سيدتها وقالت لها: إنه ما قبل الدراهم بل دفعها إلي. وبعد رواح الجارية ذهبت إلى داري الثانية وحوّلت إليها من الآلات والفرش ما تحتاج إليه الحال، ونقلت إليها أواني الفضة والصيني، وهيأت جميع ما نحتاج إليه من المأكل والمشرب. فلما حضرت الجارية ونظرت ما فعلته، أعجبها وأمرتني بإحضار علي بن بكار. فقلت: ما يحضر به إلاّ أنت. فذهبت إليه وأحضرته على أتم حال وقد راقت محاسنه. فلما جاء، قابلته ورحّبت به. ثم أجلسته على مرتبة تصلح له، ووضعت بين يديه شيئاً من المشموم في بعض الأواني الصيني والبلّور، وصرت أتحدث معه نحو ساعة من الزمان. ثم إن الجارية مضت وغابت إلى بعد صلاة المغرب، ثم عادت ومعها شمس النهار ووصيفتان لا غير فلما رأت علياً بن بكار ورآها، سقطا على الأرض مغشياً عليهما، واستمرا لساعة زمانية. ولما أفاقا أقبلا على بعضهما، ثم جلسا يتحدثان بكلام رقيق، وبعد ذلك استعملا شيئاً من الطيب. ثم إنهما صار يشكران صنعي معهما فقلت لهما: هل لكما في شيء من الطعام؟ فقالا: نعم. فأحضرت شيئاً من الطعام، فأكلا حتى اكتفيا ثم غسلا أيديهما ثم نقلتهما إلى مجلس آخر وأحضرت لهما الشراب، فشربا وسكرا ومالا على بعضهما. ثم إن شمس النهار قالت لي: يا سيدي، كمل جميلك واحضر لنا عوداً وشيئاً من آلات الملاهي حتى إننا نكمل حظنا في هذه الساعة. فقلت: على رأسي وعيني. ثم إني قمت وأحضرت عوداً، فأخذته وأصلحته. ثم إنها وضعته في حجرها وضربت عليه ضرباً بليغاً، ثم أنشدت هذين البيتين: [من البسيط]

أَرِقْتُ حَتَّى كأنّي أَعْشَقُ الأَرَقا ... وذُبْتُ حَتَّى تَراءَى السَّقْمُ لي خُلُقَا
وفاضَ دَمْعِي على خَدِّي فأَحْرَقَهُ ... يا لَيْتَ شِعْرِيَ هَلْ بَعْدَ الفِراقِ لِقَا

ثم إنها أخذت في غناء الأشعار حتى حيّرت الأفكار، بأصوات مختلفات وإشارات رايقات. وكاد المجلس أن يطير من شدّة الطرب بما أتت فيه من مغانيها بالعجب. ثم قال الجوهري: ولما استقرّ بنا الجلوس ودارت بيننا الكؤوس، أطربت الجارية بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات: [من الكامل]

وَعَدَ الحَبِيبُ بِوَصْلِهِ ووَفَى لِيْ ... في لَيْلَةٍ سأَعُدُّها بلَيالِيْ

يا لَيْلَةً سَمَحَ الزَّمانُ لنا بِها ... في غَفْلَةِ الواشِينَ والعُذَّالِ
باتَ الحَبيبُ يَضُمُّنِي بِيَمِينِه ... مِنْ فَرْحَتِي فَضَمَمْتُهُ بِشِمالِ
عانَقْتُهُ ورَشَفْتُ خَمْرَةَ رِيقِهِ ... وحَظِيتُ بالمَعْسُولِ والعَسّالِ

ثم إن الجوهري تركهما في تلك الدار وانصرف إلى دار سكناه وبات فيها إلى الصباح . ولما أصبح الصبح ، صلّى فرضه وشرب القهوة وجلس يفكّر في المسير إليهما في داره الثانية . فبينما هو جالس إذ دخل عليه جاره وهو مرعوب وقال : يا أخي ، ما هان عليّ الذي جرى لك الليلة في دارك الثانية ؟ فقلت له : يا أخي ، وأي شيء جرى ؟ فاخبرني بما حصل في داري . فقال له : إن اللصوص الذين جاؤوا إلى جيراننا بالأمس وقتلوا فلاناً وأخذوا ماله ، قد رأوك بالأمس وأنت تنقل حوائجك إلى دارك الثانية . فجاؤوا إليها ليلاً وأخذوا ما عندك وقتلوا ضيوفك . قال الجوهري : فقمت أنا وجاري وتوجّهنا إلى تلك الدار فوجدناها خالية ولم يبقَ فيها شيء . فتحيّرت في أمري وقلت : أما الأمتعة ، فلا أبالي بضياعها وإن كنت استعرت بعض أمتعة من أصحابي وضاعت فلا بأس بذلك لأنهم عرفوا عذري بذهاب مالي ونهب داري ، وأما علي بن بكار ومحظية أمير المؤمنين ، فأخشى أن يشتهر الأمر بينهما فيكون ذلك سبب رواح روحي . ثم إن الجوهري التفت إلى جاره وقال له : أنت أخي وجاري وتستر عورتي ، فما الذي تشير به علي من الأمور ؟ فقال الرجل للجوهري : الذي أشير به عليك أن تتربّص ، فإن الذين دخلوا دارك وأخذوا متاعك ، قد قتلوا أحسن جماعة من دار الخليفة وقتلوا جماعة من دار صاحب الشرطة ، وأعوان الدولة يدوّرون عليهم في جميع الطرق فلعلهم يجدونهم فيحصل مرادك بغير سعي منك . فلما سمع الجوهري هذا الكلام رجع إلى داره التي هو ساكن بها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 164

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجوهري لما سمع هذا الكلام ، رجع إلى داره التي هو ساكن بها وقال في نفسه : إن الذي حصل هو الذي خاف منه أبو الحسن وذهب إلى البصرة وقد وقعت فيه . ثم إن نهب داره اشتهر عند الناس فاقبلوا إليه من كل جانب ومكان ، فمنهم مَنْ هو شامت به ومنهم مَنْ هو حامل همّه . فصار يشكو لهم ، ولم يأكل طعاماً ولم يشرب شراباً . فبينما هو جالس متندم وإذا بغلام من غلمانه دخل عليه وقال له : إن شخصاً بالباب يدعوك لم أعرفه . فخرج إليه الجوهري وسلّم عليه ووجده إنساناً لم يعرفه . فقال له الرجل : إن لي حديثاً بيني وبينك . فأدخله الدار وقال له : ما عندك من الحديث ؟ فقال الرجل : إمض معي إلى دارك الثانية . فقال الجوهري : وهل تعرف داري الثانية ؟ فقال : إن جميع خبرك عندي ، وعندي أيضاً ما يفرج الله به همك . فقلت في نفسي : أنا أمضي معه حيث أراد . ثم توجّهت إلى أن أتينا الدار ، فلما رأى الرجل الدار قال : إنها بغير بواب ولا يمكن القعود فيها فامض معي إلى غيرها . فلم يزل الرجل يدور بي من مكان إلى مكان وأنا معه حتى دخل علينا الليل ، ولم أسأله عن أمر من الأمور . ثم إنه لم يزل يمشي وأنا أمشي معه حتى خرجنا إلى الفضاء وهو يقول : إتبعني . وصار يهرول في مشيه وأنا أهرول وراءه حتى وصلنا إلى البحر ،

فطلع بنا في زورق وقذف بنا الملاح حتى عدانا إلى البر الثاني، فنزل من ذلك الزورق ونزلت خلفه. ثم إنه أخذ بيدي ونزل بي في درب لم أدخله طول عمري ولم أعلم هو في أي ناحية. ثم إن الرجل وقف على باب دار وفتحها ودخل، وأدخلني معه وأغلق بابها بقفل من حديد ثم مشى بي في دهليزها حتى دخلنا على عشرة رجال كأنهم رجل واحد وهم أخوة. فلما دخلنا عليهم سلّم عليهم ذلك الرجل فردّوا عليه السلام، ثم أمروني بالجلوس فجلست. وكنت ضعفت من شدّة التعب، فجاؤوا إليّ بماء ورد ورشّوه على وجهي وسقوني شراباً وقدموا إلي طعامًا فقلت: لو كان في الطعام شيء مضرّ ما أكلوا معي. فلما غسلنا أيدينا عاد كل منا إلى مكانه وقالوا: هل تعرفنا؟ فقلت: لا. ولا عمري عرفت موضعكم، بل ولا أعرف مَنْ جاء بي إليكم. فقالوا: أطلعنا على خبرك ولا تكذب في شيء. فقلت لهم: أعلموا أن حالي عجيب وأمري غريب، فهل عندكم شيء من خبري؟ قالوا: نعم. نحن الذين أخذنا أمتعتك في الليلة الماضية، وأخذنا صديقك والتي كانت تغني. فقلت لهم: أسبل الله عليكم ستره، أين صديقي هو والتي كانت تغني؟ فأشاروا لي بأيديهم إلى ناحية وقالوا: ها هنا، ولكن والله يا أخي ما ظهر على سرّهما أحد منا، ومن حيث أتينا بهما، لم نجتمع بهما ولم نسألهما عن حالهما لما رأينا عليهما من الهيبة والوقار وهذا هو الذي منعنا عن قتلهما. فأخبرنا عن حقيقة أمرهما وأنت في أمان على نفسك وعليهما. قال الجوهري: فلما سمعت هذا الكلام، كدت أن أهلك من الخوف والفزع وقلت لهم: أعلموا أن المروءة إذا ضاعت لم توجد إلاّ عندكم، وإذا كان عندي سرّ أخاف إفشاءه فلا يخفيه إلاّ صدوركم. وصرت أبالغ في هذا المعنى. ثم إني وجدت المبادرة بالحديث أنفع من كتمانه، فحدثتهم بجميع ما وقع لي حتى انتهيت إلى آخر الحديث. فلما سمعوا حكايتي قالوا: وهل هذا الفتى علي بن بكار وهذه شمس النهار؟ واعتذروا لهما. ثم قالوا لي: إن الذي أخذناه من دارك ذهب بعضه وهذا ما بقي منه. ثم ردّوا لي أكثر الأمتعة والتزموا أنهم يعيدونها إلى محلها في داري ويردّون لي الباقي، ولكنهم انقسموا نصفين: فصار قسم منهم معي وقسم منهم عليّ. ثم خرجنا من تلك الدار. هذا ما كان من أمري. وأما ما كان من أمر علي بن بكار وشمس النهار، فإنهما قد أشرفا على الهلاك من الخوف، ثم تقدّمت إلى علي بن بكار وشمس النهار وسلّمت عليهما وقلت لهما: يا ترى كيف جرى بالجارية والوصيفتين؟ وأين ذهبن؟ فقالا: لا علم لنا بهن. ولم نزل سائرين إلى أن انتهينا إلى المكان الذي فيه الزورق فأطلعونا فيه، وإذا هو الزورق الذي عدّينا فيه بالأمس فقذف بنا الملاّح حتى أوصلنا إلى البر الثاني فأنزلونا، فما استقرّ بنا الجلوس على جانب البر حتى جاءت خيالة وأحاطوا بنا من كل جانب، فوثب الذين معنا عاجلاً كالعقاب، فرجع لهم الزورق فنزلوا فيه وسار بهم في البحر، وبقيت أنا وعلي بن بكار وشمس النهار على شاطىء البحر لا نستطيع حركة ولا سكوناً. فقال لنا الخيالة: من أين أنتم؟ فتحيّرنا في الجواب قال الجوهري. فقلت لهم: إن الذين رأيتموهم معنا لا نعرفهم وإنما رأيناهم هنا. وأما نحن فمغنيون، وأرادوا أخذنا لنغني لهم، فما تخلّصنا منهم إلا بالحيلة ولين الكلام، فأفرجوا عنّا في هذه الساعة وقد كان منهم ما رأيتم من أمرهم. فنظر الخيالة إلى شمس النهار وإلى علي بن بكار ثم قالوا لي: لست صادقاً في كلامك، فإن كنت صادقاً فاخبرنا من أنتم ومن أين أنتم وما موضعكم وفي أي الحارات أنتم ساكنون؟ قال الجوهري: فلم أدر ما أقول. فوثبت

شمس النهار وتقدّمت إلى مقدّم الخيالة وتحدّثت معه سراً، فنزل من فوق جواده وأركبها عليه وأخذ بزمامها وصار يقودها، وكذلك فعل بعلي بن بكار وفعل بي أيضاً. ثم إن مقدّم الخيالة لم يزل سائراً بنا إلى موضع على جانب البحر وصاح بالرطانة. فأقبل له جماعة من البرية، فطلّعنا المقدّم في زورق وطلع أصحابه في زورق آخر وقذفوا بنا إلى أن انتهينا إلى دار الخلافة ونحن نكابد الموت من شدة الخوف. ولم نزل سائرين إلى أن انتهينا إلى المحل الذي نتوصل منه إلى موضعنا، فنزلنا إلى البر ومشينا ومعنا جماعة من الخيالة يؤانسوننا إلى أن دخلنا الدار، وحين دخلناها ودّعنا مَنْ كان معنا من الخيالة ومضوا إلى حال سبيلهم. وأما نحن فقد دخلنا مكاننا ونحن لا نقدر أن نتحرك من مكاننا ولا ندري الصباح من المساء، ولم نزل على هذه الحالة إلى أن أصبح الصباح. فلما جاء آخر النهار سقط علي بن بكار مغشياً عليه، وبكى عليه النساء والرجال وهو مطروح لم يتحرّك، فجاءني بعض أهله وقالوا: حدّثنا بما جرى لولدنا واخبرنا بسبب الحال الذي هو فيها. فقلت لهم: يا قوم اسمعوا كلامي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 165

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهري قال لهم: يا قوم، إسمعوا كلامي ولا تفعلوا بي مكروهاً، واصبروا وهو يفيق ويخبركم بقصته بنفسه. ثم شددت عليهم وخوّفتهم من الفضيحة بيني وبينهم. فبينما نحن كذلك وإذا بعلي بن بكار تحرّك في فراشه، ففرح أهله وانصرف الناس عنه ومنعني أهله من الخروج من عنده، ثم رشوا ماء الورد على وجهه. فلما أفاق وشمّ الهواء، صاروا يسألونه عن حاله فصار يخبرهم ولسانه لا يرد جواباً بسرعة، ثم أشار إليهم أن يطلقوني لأذهب إلى منزلي فاطلقوني. فخرجت وأنا لا أصدق بالخلاص وأتيت إلى داري وأنا بين رجلين حتى وصلت إلى أهلي، فلما رأوني على تلك الحالة، لطموا على وجوههم فأومأت إليهم بيدي أن: أسكتوا. فسكتوا، وانصرف الرجلان إلى حال سبيلهم. وانقلبت على فراشي بقية ليلتي ولم أفق إلى وقت الضحى، فوجدت أهلي مجتمعين حولي يقولون: ما الذي دهاك وبشره رماك؟ فقلت: ائتوني بشيء من الشراب. فجاؤوا لي بشراب شربت منه حتى استكفيت ثم قلت لهم: كان ما كان فانصرفوا إلى حال سبيلهم. ثم اعتذرت إلى أصحابي وسألتهم عن الذي ذهب من داري، هل عاد شيء منه؟ فقالوا: عاد البعض. وسببه أنه جاء إنسان ورماه في باب الدار ولم ننظره. فسليت نفسي وأقمت في مكاني يومين وأنا لا أقدر على القيام من محلي، ثم قويت نفسي ومشيت حتى دخلت الحمام وأنا قلبي مشغول من جهة ابن بكار وشمس النهار ولم أسمع لهما خبراً في تلك المدة، ولم أستطع الوصول إلى دار علي بن بكار. ولم يستقر لي قرار في مكاني خوفاً على نفسي. ثم تبت إلى الله تعالى عن ما صدر مني وحمدته على سلامتي. وبعد مدة حدثتني نفسي أن أقصد تلك الناحية وأرجع في ساعة، فلما أردت المسير رأيت امرأة واقفة، فتأملتها وإذا هي جارية شمس النهار. فلما عرفتها سرت وهرولت في سيري فتبعتني، فداخلني منها الفزع وصرت كلما انظرها يأخذني الرعب منها وهي تقول لي: قف حتى أحدثك بشيء. لم ألتفت إليها ولم أزل سائراً إلى مسجد في موضع خال من الناس. فقالت لي: ادخل هذا المسجد لأقول لك كلمة ولا تخف من شيء،

وحلفتني . فدخلت المسجد ودخلت خلفي ، فصليت ركعتين ثم تقدمت إليها وأنا أتأوّه وقلت لها : ما بالك ؟ فسألتني عن حالي ، فحدّثتها بما وقع لي وأخبرتها بما جرى لعلي بن بكار وقلت لها : ما خبرك ؟ فقالت : أعلم أني لما رأيت الرجال كسروا باب دارك ودخلوا ، خفت منهم وخشيت أن يكونوا من عند الخليفة فيأخذونني أنا وسيدتي فنهلك من وقتنا ، فهربت من السطوح أنا والوصيفتان ورمينا أنفسنا من مكان عال ودخلنا على قوم فهربنا عندهم حتى وصلنا إلى قصر الخلافة ونحن على أقبح صفة . ثم أخفينا أمرنا وصرنا نتقلّب على الجمر إلى أن جنّ الليل ، ففتحت باب البحر واستدعيت بالملاح الذي أخرجنا تلك الليلة وقلت له : إن سيدتي لم نعلم لها خبراً ، فاحملني في الزورق حتى أفتش عليها في البحر لعلي أقع على خبرها . فحملني في الزورق وسار بي ، ولم أزل سائرة في البحر حتى انتصف الليل ، فرأيت زورقاً أقبل إلى جهة الباب وفيه رجل يقذف ومعه رجل آخر وامرأة مطروحة بينهما . ولا زال يقذف حتى وصل إلى البر ، فلما نزلت المرأة تأملتها فإذا هي شمس النهار ، فنزلت إليها وقد اندهشت من الفرحة لما رأيتها بعدما قطعت الرجاء منها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 166

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية قالت للجوهري : فنزلت إليها وقد اندهشت من الفرح بعد أن قطعت الرجاء منها ، فلما تقدّمت بين يديها أمرتني أن أدفع إلى الرجل الذي جاء بها ألف دينار . ثم حملتها أنا والوصيفتان إلى أن ألقيناها على فراشها ، فأقامت تلك الليلة على حالة مكدرة . فلما أصبح الصباح منعت الجواري والخدم من الدخول عليها والوصول إليها ذلك اليوم ، وفي ثاني يوم أفاقت مما كان بها فوجدتها كأنها قد خرجت من مقبرة ، فرششت على وجهها ماء الورد وغيّرت ثيابها وغسلت يديها ورجليها ، ولم أزل ألاطفها حتى أطعمتها شيئاً من الطعام وأسقيتها شيئاً من الأشربة وهي ليس لها قابلية في شيء من ذلك . فلما شمّت الهواء وتوجّهت إليها العافية قلت لها : يا سيدتي ، إرفقي بنفسك فقد حصل لك من المشقة ما فيه الكفاية فإنك قد أشرفت على الهلاك . فقالت : والله يا جارية الخير ، إن الموت عندي أهون مما جرى لي فإني كنت مقتولة لا محالة ، لأن اللصوص لما خرجوا بنا من دار الجوهري سألوني وقالوا : مَنْ أنت وما شأنك ؟ فقلت : أنا جارية من المغنيات . فصدقوني ثم سألوا علياً بن بكار عن نفسه وقالوا له : مَنْ أنت وما شأنك ؟ فقال : أنا من عوام الناس . فأخذونا وسرنا معهم إلى أن انتهوا بنا إلى موضعهم ونحن نسرع في السير معهم من شدّة الخوف . فلما استقروا بنا في أماكنهم ، تأملوني ونظروا ما علي من الملبوس والعقود والجواهر فأنكروا أمري وقالوا : إن هذه العقود لم تكن لواحدة من المغنيات . ثم قالوا لي : أصدقينا وقولي لنا الحق ، ما قضيتك ؟ فلم أرد عليهم جواباً بشيء وقلت في نفسي ؟ الآن يقتلونني لأجل ما علي من الحلي والحلل فلم أنطق بكلمة . ثم التفتوا إلى علي بن بكار وقالوا له : ومن أين أنت ؟ فإن رؤيتك غير رؤية العوام . فسكت ، وصرنا نكتم أمرنا ونبكي ، فحنن الله علينا قلوب اللصوص فقالوا لنا : من صاحب الدار التي كنتما فيها ؟ فقلنا لهم : صاحبها فلان الجوهري . فقال واحد منهم : أنا أعرفه حق المعرفة وأعرف أنه ساكن في داره الثانية وعليّ أن آتيكم به في هذه الساعة . واتفقوا على أن يجعلوني في موضع وحدي ، وعلياً بن بكار في موضع وحده . وقالوا لنا :

استريحا ولا تخافا أن ينكشف خبركما وأنتم في أمان . ثم إن صاحبهم مضى إلى الجوهري وأتى به وكشف أمرنا لهم واجتمعنا عليه . ثم إن رجلاً منهم أحضر لنا زورقاً وأطلعونا فيه وعدّوا بنا إلى الجانب الثاني ورمونا إلى البر وذهبوا، فأتت خيالة من أصحاب العسس وقالوا : مَنْ تكونوا؟ فتكلّمت مع مقدم العسس وقلت له : أنا شمس النهار محظية الخليفة ، فإني سكوت وخرجت لبعض معارفي من نساء الوزراء فجاءني اللصوص فأخذوني وأوصلوني إلى هذا المكان ، فلما رأوكم فرّوا هاربين وأنا قادرة على مكافأتك . فلما سمع كلامي مقدم الخيالة، عرفني ونزل عن مركوبه وأركبني وفعل كذلك مع علي بن بكار والجوهري . وفي كبدي الآن من أجلهما لهيب النار ، لا سيما الجوهري رفيق ابن بكار . فامضي إليه وسلّمي عليه واستخبريه عن علي بن بكار . فلمتها على ما وقع وحذّرتها وقلت لها : يا سيدتي ، خافي على نفسك . فصاحت عليّ وغضبت من كلامي . ثم قمت من عندها وجئت إليك فلم أجدك وخشيت من الرواح إلى ابن بكار ، فصرت واقفة أرتقبك حتى أسألك عنه وأعلم ما هو فيه . فأسألك من فضلك أن تأخذ مني شيئاً من المال ، فإنك ربما استعرت أمتعة من أصحابك وضاعت عليك فيحتاج أن تعوض على الناس ما ذهب لهم من الأمتعة عندك . قال الجوهري : فقلت : سمعاً وطاعةً . ثم مشيت معها إلى أن أتينا إلى قرب محلي فقالت لي : قف هنا حتى أعود إليك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 167

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية قالت للجوهري : قف هنا حتى أعود إليك . ومضت ثم عادت وهي حاملة المال فأعطته للجوهري وقالت له : يا سيدي ، نجتمع بك في أي محل ؟ قال الجوهري : فقلت لها : أتوجّه إلى داري في هذه الساعة وتتحمّل الصعوبة لأجل خاطرك وأتدبر فيما يوصلك إليه ، فإنه يتعذّر الوصول إليه في هذا الوقت . ثم ودعتني ومضت ، فحملت المال وأتيت به إلى منزلي . وعددت المال فوجدته خمسة آلاف دينار ، فأعطيت أهلي منه شيئاً ومن كان له عندي شيء أعطيته عوضاً عنه . ثم إني أخذت غلماني وذهبت إلى الدار التي ضاعت منها الأمتعة ، وجئت بالنجارين والبنائين فأعادوها إلى ما كانت عليه وجعلت جاريتي فيها ونسيت ما جرى لي . ثم تمشيت وأتيت إلى دار علي بن بكار ، فلما وصلت إليها أقبل غلمانه عليّ وقال لي واحد منهم : إن غلمان سيدي في طلبك ليلاً ونهاراً ووعدهم أن كل من أتاه بك يعتقه ، فهم يفتشون عليك ولم يعرفوا لك موضعاً ، وقد رجعت إلى سيدي عافيته ، وهو تارة يفيق وتارة يستغرق . فلما يفيق يذكرك ويقول : لا بدّ أن تحضروه لي لحظة ويعود إلى حال سبيله . قال الجوهري : فمضيت مع الغلام إلى سيده فوجدته لا يستطيع الكلام . فلما رأيته جلست عند رأسه ففتح عينيه ، فلما رآني بكى وقال لي : أهلاً ومرحباً . ثم سندته وأجلسته وضممته إلى صدري . فقال لي : أعلم يا أخي ، أني من حين رقدت ما جلست إلاّ في هذه الساعة ، فالحمد لله على مشاهدتك . قال الجوهري : فلم أزل أسنده حتى أوقفته على رجليه ومشّيته خطوات وغيّرت أثوابه وشرب شراباً ، فلما رأيت عليه علامة العافية حدّثته بما كان من الجارية ولم يسمعني أحد . ثم قلت له : شدّ حيلك فأنا أعرف ما بك . فتبسّم . فقلت له : إنك لا تجد إلاّ ما يسرك ويداويك . ثم إن علياً بن بكار أمر بإحضار الطعام فأحضروه ، وأشار إلى

غلمانه فتفرّقوا . ثم قال لي : يا أخي ، هل رأيت ما أصابنا ؟ واعتذر لي وسألني عن حالي في هذه المدة . فأخبرته بجميع ما جرى لي من الأول إلى الآخر . فتعجّب ثم قال للخدم : ائتوني بكذا . فأتوه بفرش نفيس ، وغير ذلك من تعاليق الذهب والفضة أكثر من الذي ضاع لي ، وأعطاني جميع ذلك فأرسلته إلى منزلي وأقمت عنده ليلتي . فلما أسفر الصبح قال لي : أعلم أن لكل شيء نهاية . ونهاية الهوى الموت والوصال ، وأنا إلى الموت أقرب . فيا ليتني مت قبل الذي جرى ، ولولا أن الله لطف بنا لافتضحنا ، ولا أدري ما الذي يوصلني إلى الخلاص مما أنا فيه . ولولا خوفي من الله لعجلت على نفسي بالهلاك . وأعلم يا أخي أنني كالطير في القفص ، وأن نفسي هالكة من الغصص ، ولكن لها وقت معلوم وأجل محتوم . ثم أفاض دمع العين وأنشد هذين البيتين :
[من الوافر]

شَكا أَلَمَ الفِراقِ النّاسُ قَبْلِي ... وَرُوِّعَ بالنَّوَى حَيٌّ ومَيْتُ
وأَمَّا مِثْلُ ما ضَمَّتْ ضُلُوعِي ... فإنِّي ما سَمِعْتُ ولا رَأَيْتُ

فلما فرغ من شعره قال له الجوهري : يا سيدي ، أعلم أني عزمت على الذهاب إلى داري فلعل الجارية ترجع إلي بخبر . فقال علي بن بكار : لا بأس بذلك . ولكن أسرع بالعود لعندنا لأجل أن تخبرني . قال الجوهري : فودعته وانصرفت إلى داري ، فلم يستقر بي الجلوس حتى رأيت الجارية أقبلت وهي في بكاء ونحيب . فقلت لها : ما سبب ذلك ؟ فقالت : يا سيدي ، أعلم أنه حل بنا ما حل من أمر نخافه ، فإني لما مضيت من عندك بالأمس وجدت سيدتي مغتاظة على وصيفة من الوصيفتين اللتين كانتا معنا تلك الليلة وأمرت بضربها ، فخافت من سيدتها وهربت . فلاقاها بعض الموكلين بالباب فأخذها وأراد ردّها إلى سيدتها ، فلوّحت له بالكلام . فلاطفها واستنطقها عن حالها ، فأخبرته بما كنا فيه . فبلغ الخبر إلى الخليفة ، فأمر بنقل سيدتي شمس النهار وجميع مالها إلى دار الخلافة ، ووكّل بها عشرين خادماً ولم أجتمع بها إلى الآن ولم أعلمها بالسبب . وتوهّمت أنه بسبب ذلك ، فخشيت على نفسي واحترت ولم أدر كيف أحتال في أمري وأمرها ، ولم يكن عندها أحفظ لكتمان السرّ مني . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 168

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية قالت للجوهري : إن سيدتي ، لم يكن عندها أحفظ لكتمان السرّ مني . فتوجّه يا سيدي إلى علي بن بكار سريعاً واخبره بذلك لأجل أن يكون على أهبة ، فإذا انكشف الأمر نتدبر في شيء نفعله لنجاة أنفسنا . قال الجوهري : فأخذني من ذلك هم عظيم وصار الكون في وجهي ظلاماً من كلام الجارية ، وهمّت الجارية بالإنصراف فقلت لها : وما الرأي ؟ فقالت لي : الرأي أن تبادر إلى علي بن بكار إن كان صديقك وتريد له النجاة ، وأنت عليك تبليغ هذا الخبر له بسرعة ، وأنا علي أن أتقيد باستنشاق الأخبار . ثم ودّعتني وخرجت . فلما خرجت الجارية قمت وخرجت في أثرها وتوجهت إلى علي بن بكار فوجدته يحدّث نفسه بالوصال ويعللها بالمحال ، فلما رآني رجعت إليه عاجلاً قال لي : إني أراك رجعت إلي في الحال . فقلت له : أقصر من التعلق المطال ودع ما أنت فيه من الإشتغال ، فقد حدث حادث يفضي إلى تلف نفسك وما لك . فلما سمع هذا الكلام ، تغيّر حاله وانزعج

وقال للجوهري : يا أخي ، اخبرني بما وقع . فقال له الجوهري : يا سيدي ، أعلم أنه قد جرى ما هو كذا وكذا وأنك إن أقمت في دارك هذه إلى آخر النهار تالف ولا محالة . فبهت علي بن بكار وكادت روحه أن تفارق جسده ، ثم استرجع بعد ذلك وقال له : ماذا افعل يا أخي وما عندك من الرأي ؟ قال الجوهري فقلت له : الرأي أن تأخذ معك من مالك ما تقدر عليه ومن غلمانك ما تثق به ، وأن تمضي بنا إلى ديار غير هذه قبل أن ينقضي هذا النهار . فقال لي : سمعاً وطاعةً . ثم وثب وهو متحيّر في أمره ، فتارة يمشي وتارة يقع ، وأخذ ما قدر عليه واعتذر إلى أهله وأوصاهم بمقصوده ، وأخذ معه ثلاثة جمال محملة وركب دابته . وقد فعلت أنا كما فعل ، ثم خرجنا خفية وسرنا . ولم نزل سائرين باقي يومنا وليلتنا ، فلما كان آخر الليل ، حططنا حمولنا وعقلنا جمالنا ونمنا ، فحلّ علينا التعب وغفلنا عن أنفسنا وإذا باللصوص أحاطوا بنا وأخذوا جميع ما كان معنا وقتلوا الغلمان لما أرادوا أن يمنعوا عنّا ، ثم تركونا مكاننا ونحن في أقبح حال بعد أن أخذوا المال وساروا . فلما قمنا ، مشينا إلى أن أصبح الصباح فوصلنا إلى بلد ، فدخلناها وقصدنا مسجدها ونحن عرايا وجلسنا في جنب المسجد باقي يومنا . فلما جاءالليل بتنا في المسجد تلك الليلة ونحن من غير أكل ولا شرب . فلما أصبح الصباح صلّينا الصبح وجلسنا ، وإذا برجل داخل فسلم علينا وصلّى ركعتين ثم التفت إلينا وقال : يا جماعة ، هل أنتم غرباء؟ قلنا : نعم . وقطع اللصوص علينا الطريق وعرّونا ، ودخلنا هذا البلد ولم نعرف فيها أحداً نأوي عنده . فقال لنا الرجل : هل لكم أن تقوموا معي إلى داري ؟ قال الجوهري فقلت لعلي بن بكار : قم بنا معه فننجو من أمرين . الأول : إننا نخشى أن يدخل علينا أحد يعرفنا في هذا المسجد فنفتضح ، والثاني : إننا ناس غرباء وليس لنا مكان نأوي إليه . فقال علي بن بكار : إفعل ما تريد . ثم إن الرجل قال لنا ثاني مرة : يا فقراء ، أطيعوني وسيروا معي إلى مكاني . قال الجوهري فقلت له : سمعاً وطاعةً . ثم إن الرجل خلع لنا شيئاً من ثيابه وألبسنا ولاطفنا ، فقمنا معه إلى داره فطرق الباب فخرج إلينا خادم صغير وفتح الباب ، فدخل الرجل صاحب المنزل ودخلنا خلفه . ثم إن الرجل أمر بإحضار بقجة فيها أثواب وشاشات ، فألبسنا حلّتين وأعطانا شاشين ، فتعمّمنا وجلسنا وإذا بجارية أقبلت إلينا بمائدة ووضعتها بين أيدينا فأكلنا شيئاً يسيراً ورفعت المائدة . ثم أقمنا عنده إلى أن دخل الليل ، فتأوّه علي بن بكار وقال للجوهري : يا أخي ، أعلم أنني هالك لا محالة ، وأريد أن أوصيك وصية وهو : إنك إذا رأيتني متّ ، تذهب إلى والدتي وتخبرها أن تأتي إلى هذا المكان لأجل أن تأخذ عزائي وتحضر غسلي ، وأوصها أن تكون صابرة على فراقي . ثم وقع مغشياً عليه ، فلما أفاق سمع جارية تغني من بعيد وتنشد الأشعار ، فصار يصغي إليها ويسمع صوتها وهو تارة يسكر وتارة يصحو وتارة يبكي شجناً وحزناً مما أصابه . فسمع الجارية تطرب بالنغمات وتنشد هذه الأبيات : [من الخفيف]

عَجَّلَ البَينُ بَيْنَنا بالفِراقِ ... بَعْدَ إلْفٍ وَجِيرَةٍ وٱتِّفاقِ
فَرَّقَتْ بَيْنَنا صُرُوفُ اللَّيالي ... لَيتَ شِعْرِي مَتى يَكُونُ التَّلاقِي
ما أَمَرَّ الفِراقَ بَعْدَ ٱجْتِماعٍ ... لَيْتَهُ ما أَضَرَّ بالعُشّاقِ
غُصَّةُ المَوْتِ ساعَةً ثُم تَقْضِي ... وفِراقُ الحَبِيبِ في القَلْبِ باقِ

لَو وَجَدْنا إلى الفِراقِ سَبِيلاً　　لأَذَقْنا الفِراقَ طَعْمَ الفِراقِ

فلما سمع ابن بكار الجارية، شهق شهقة ففارقت روحه جسده. قال الجوهري: فلما رأيته مات، أوصيت عليه صاحب الدار وقلت له: أعلم انني متوجه إلى بغداد لأخبر والدته وأقاربه حتى يأتوا ليجهّزوه. ثم إني توجهت إلى بغداد ودخلت داري وغيّرت ثيابي، وبعد ذلك ذهبت إلى دار علي بن بكار. فلما رآني غلمانه أتوا إلي وسالوني عنه، وسألتهم أن يستأذنوا والدته في الدخول عليها فأذنت لي بالدخول. فدخلت وسلمت عليها وقلت: إن الله إذا أقضى أمراً لا مفر من قضائه، وما كان لنفس ان تموت إلاّ بإذن الله كتاباً مؤجّلاً. فتوهّمت أم علي بن بكار من هذا الكلام أن ابنها قد مات، فبكت بكاءً شديداً ثم قالت: بالله عليك أن تخبرني، هل توفي ولدي؟ فلم أقدر ان أردّ عليها جواباً من كثرة الجزع. فلما رآتني على تلك الحالة، انخنقت بالبكاء ثم وقعت على الأرض مغشياً عليها. فلما أفاقت من غشيتها قالت: ما كان من أمر ولدي؟ فقلت لها: أعظم الله أجرك فيه. ثم إني حدثتها بما كان من أمره من المبتدأ إلى المنتهى. قالت: هل أوصاك بشيء؟ فقلت لها: نعم. وأخبرتها بما أوصاني به وقلت لها: أسرعي في تجهيزه. فلما سمعت أم علي بن بكار كلامي سقطت مغشياً عليها، فلما عزمت على ما أوصيتها به. ثم إني رجعت إلى داري وصرت في الطريق أتفكر في حسن شبابه، فبينما أنا كذلك وإذا بامرأة قبضت على يدي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 169

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهري قال: وإذا بامرأة قبضت على يدي، فتأملتها فرأيتها الجارية التي كانت تأتي من عند شمس النهار وقد علاها الإنكسار. فلما تعارفنا بكينا جميعاً حتى أتينا إلى تلك الدار فقلت لها: علمت بخبر علي بن بكار؟ فقالت: لا والله. فأخبرتها بخبره وما كان من أمره. ثم إني قلت لها: فكيف حال سيدتك؟ فقالت: لم يقبل فيها أمير المؤمنين قول أحد لشدّة محبته لها، وقد حمل جميع أمورها على المحامل الحسنة وقال لها: يا شمس النهار، أنت عندي عزيزة وأنا أتحمّلك على رغم أعدائك. ثم أمر لها بفرش مقصورة مذهّبة وحجرة مليحة وصارت عنده من ذلك في قبول عظيم. فاتفق أنه جلس يوماً من الأيام على جري عادته للشراب، وحضرت المحاظي بين يديه فأجلسهن في مراتبهن وأجلسها بجانبه وقد عدمت صبرها وزاد أمرها. فعند ذلك أمر جارية من الجواري أن تغني، فأخذت العود وضربت به وجعلت تقول: [من الطويل]

وَداعٍ دَعانِي لِلهَوَى فأَجَبْتُهُ　　ودَمْعِي يَخُطُّ الوَجْدَ خَطّاً عَلَى خَدِّي
كأنَّ دُمُوعَ العَينِ تُخْبِرُ حالَنا　　فَتُبْدِي الَّذي أُخْفِي وتُخْفِي الَّذي أُبْدِي
فَكَيْفَ أَرُومُ السِّرَّ أَو أَكْتُمُ الهَوَى　　وفَرْطُ غَرامِي فِيكَ يُظْهِرُ ما عِنْدِي
وقَد طابَ مَوْتِي عِنْدَ فَقْدِ أَحِبَّتِي　　فَيا لَيْتَ شِعْرِي ما يَطِيبُ لَهُم بَعْدِي

فلما سمعت شمس النهار إنشاد تلك الجارية لم تستطع الجلوس، ثم سقطت مغشياً عليها. فرمى الخليفة القدح وجذبها عنده وصاح، وضجت الجواري، وقلبها أمير المؤمنين فوجدها ميتة. فحزن أمير المؤمنين لموتها وأمر ان يكسر ما كان في الحضرة من الآلات والقوانين. وحملها في

حجرة بعد موتها ومكث عندها باقي ليلته، فلما طلع النهار، جهّزها وأمر بغسلها وتكفينها ودفنها وحزن عليها حزناً كثيراً ولم يسأل عن حالها ولا عن الأمر الذي كانت فيه. ثم قالت الجارية للجوهري: سألتك بالله أن تعلمني بوقت خروج جنازة علي بن بكار وان تحضرني دفنه. فقال لها: أما أنا، ففي أي محل شئت تجديني. وأما أنت فمن يستطيع الوصول إليك في المحل الذي أنت فيه؟ فقالت له: إن أمير المؤمنين لما ماتت شمس النهار، أعتق جواريها من يوم موتها وأنا من جملتهن، ونحن مقيمات على تربتها في المحل الفلاني. فقمت معها وأتيت إلى المقبرة وزرت شمس النهار ثم مضيت إلى حالي، ولم أزل أنتظر جنازة علي بن بكار إلى أن جاءت. فخرجت له أهل بغداد وخرجت معهم، فوجدت الجارية بين النساء وهي أشدهنّ حزناً، ولم أرَ جنازة ببغداد أعظم من هذه الجنازة. وما زلنا في ازدحام عظيم إلى أن انتهينا إلى قبره ودفناه، وصرت لا أنقطع عن زيارته ولا عن زيارة شمس النهار. هذا ما كان من حديثهما، وليس هذا بأعجب من حديث الملك شهرمان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

12 - حكاية قمر الزمان مع الملكة بدور

فلما كانت الليلة 170

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان في قديم الزمان ملك يسمى شهرمان، صاحب عسكر وخدم وأعوان. إلاّ أنه كبر سنّه ورقّ عظمه ولم يرزق بولد، فتفكّر في نفسه وحزن وقلق وشكا ذلك لبعض وزرائه وقال: إني أخاف إذا متّ ضاع الملك، لأنه ليس لي ولد يتولاه بعدي. فقال له ذلك الوزير: لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً، فتوكّل على الله أيها الملك وتوضأ وصلّ ركعتين ثم جامع زوجتك لعلك تبلغ مطلوبك. فجامع زوجته فحملت في تلك الساعة، ولما كملت أشهرها وضعت ولداً ذكراً كأنه البدر السافر في الليل العاكر. فسمّاه قمر الزمان، وفرح به غاية الفرح وزيّنوا المدينة سبعة أيام ودقت الطبول وأقبلت البشائر وحملته المراضع والدّايات، وتربّى في العزّ والدلال حتى صار له من العمر خمس عشرة سنة. وكان فائقاً في الحسن والجمال والقدّ والإعتدال، وكان أبوه يحبه ولا يقدر أن يفارقه ليلاً ونهاراً. فشكى الملك شهرمان لأحد وزرائه فرط محبته لولده وقال: أيها الوزير، إني خائف على ولدي قمر الزمان من طوارق الدهر والحدثان وأريد أن أزوّجه في حياتي. فقال له الوزير: أعلم أيها الملك أن الزواج من مكارم الأخلاق، ولا بأس إن تزوج ولدك في حياتك. فعند ذلك قال الملك شهرمان: عليّ بولدي قمر الزمان. فحضر وأطرق رأسه إلى الأرض حياء من أبيه. فقال له أبوه: يا قمر الزمان، أعلم أني أريد أن أزوّجك وأفرح بك في حياتي. فقال له: أعلم يا أبي أنني ما لي في الزواج أرب، وليست نفسي تميل إلى النساء لأني وجدت في مكرهن كتباً بالروايات، وبكيدهن وردت الآيات. وقال الشاعر: [من الطويل]

فإنْ تَسْأَلُونِي بالنِّساءِ فإنَّنِي ... خَبِيرٌ بأحْوالِ النِّساءِ طَبِيبُ
إذا شابَ رَأْسُ المَرْءِ أو قَلَّ مالُهُ ... فَلَيْسَ لَه مِنْ وُدِّهِنَّ نَصِيبُ

وقال الآخر: [من البسيط]

إعْصِ النِّساءَ فَتِلْكَ الطَّاعَةُ الحَسَنَهْ فَلَنْ يَفُوزَ فَتًى يُعْطِي النِّسا رَسَنَهْ
يُعِقْنَهُ عَنْ كَمالٍ في فَضائِلِهِ ولَو سَعَى طالِباً لِلعِلْمِ أَلْفَ سَنَهْ

ولما فرغ من شعره قال : يا أبي ، إن الزواج شيء لا أفعله أبداً ولو سقيت كأس الردى . فلما سمع السلطان شهرمان من ولده هذا الكلام ، صار الضياء في وجهه ظلاماً واغتمّ غمّاً شديداً على عدم مطاوعة ولده قمر الزمان له . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 171

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك شهرمان لما سمع من ولده هذا الكلام ، صار الضياء في وجهه ظلاماً واغتمّ على عدم مطاوعة ولده قمر الزمان له ، ومن محبته له لم يكرّر عليه الكلام في ذلك ولم يغضبه ، بل أقبل عليه وأكرمه ولاطفه بكل ما يجلب المحبة إلى القلب . كل ذلك وقمر الزمان يزداد كل يوم حسناً وجمالاً وظرفاً ودلالاً . فصبر الملك شهرمان على ولده سنة كاملة حتى صار كامل الفصاحة والملاحة وتهتكت في حسنه الورى ويروي لطفه كل نسيم سرى ، وصار فتنة للعشاق وروضة للمشتاق ، عذب الكلام يخجل وجهه بدر التمام ، صاحب قدّ واعتدال وظرف ودلال ، كأنه غصن بان أو قضيب خيزران ينوب خدّه عن شقائق النعمان وقدّه عن غصن البان ، ظريف الشمائل كما قال فيه القائل : [من المنسرح]

بَدا فَقالُوا : تَبارَكَ اللهُ جَلَّ الَّذي صاغَهُ وسَوّاهُ
مَليكُ كُلِّ المِلاحِ قاطِبَةً فَكُلُّهُم أَصْبَحُوا رَعاياهُ
في رِيقِهِ شَهْدَةٌ مُذَوَّبَةٌ وٱنْعَقَدَ الدُّرُّ في ثَناياهُ
مُكَمَّلاً بالجَمالِ مُنْفَرِداً كُلُّ الوَرَى في جَمالِه تاهُوا
قَد كَتَبَ الحُسْنُ فَوْقَ وَجْنَتِهِ أَشْهَدُ أَنْ لا مَلِيحَ إلاّ هُوْ

فلما تكاملت سنة أخرى لقمر الزمان بن الملك شهرمان ، دعاه والده إليه وقال له : يا ولدي ، أمَا تسمع مني ؟ فوقع قمر الزمان على الأرض بين يدي أبيه هيبة واستحى منه وقال له : يا أبي ، كيف لا أسمع منك ؟ وقد أمرني الله بطاعتك وعدم مخالفتك . فقال له الملك شهرمان : أعلم يا ولدي أني أريد أن أزوّجك وأفرح بك في حياتي وأسلطنك في مملكتي قبل مماتي . فلما سمع قمر الزمان من أبيه هذا الكلام أطرق رأسه ساعة ، وبعد ذلك رفع رأسه وقال : يا أبت هذا شيء لا افعله أبداً ولو سقيت كأس الردى . وأنا أعلم أن الله فرض عليّ طاعتك ، فبحق الله عليك لا تكلفني أمر الزواج ولا تظن أني أتزوج طول عمري . لأنني قرأت في كتب المتقدّمين والمتأخرين ، وعرفت جميع ما جرى لهم من المصائب والآفات بسبب فتن النساء ومكرهنّ غير المتناهي وما يحدث عنهن من الدواهي . وما أحسن قول الشاعر : [من المجتث]

مَنْ كادَهُ العاهِراتُ فَلا يَرَى مِنْ خَلاصِ
ولَو بَنَى أَلْفَ حِصْنٍ مُشَيَّدَهْ بالرَّصاصِ
فَلَيْسَ يُجْدِي بِناها ولا تُفِيدُ الصَّياصِيْ

إنَّ النِّسا خائناتٌ لِكُلِّ دانٍ وقاصِ
مُخَضَّباتُ بَنانٍ مُضَفَّراتُ عِقاصِ
مُكَحَّلاتُ جُفُونٍ مُجَرَّعاتُ غُصاصِ

وما أحسن قول الآخر : [من الكامل]

إنَّ النِّساءَ وإنْ دُعِينَ لعِفَّةٍ رِمَمٌ تُقَلِّبُها النُّسُورُ الحُوَّمُ
في اللَّيْلِ عِنْدَكَ سِرُّها وحَدِيثُها وغَداً لِغَيْرِكَ ساقُها والمِعْصَمُ
كالخانِ تَسْكُنُهُ وتُصْبِحَ راحِلاً فَيَحُلُّ بَعْدَكَ فِيهِ مَنْ لا تَعْلَمُ

فلما سمع الملك شهرمان من ولده قمر الزمان هذا الكلام وفهم الشعر والنظام لم يرد عليه جواباً من فرط محبته له وزاده من إنعامه وإكرامه وانفضّ ذلك المجلس من تلك الساعة وبعد انفضاض ذلك المجلس طلب الملك شهرمان وزيره واختلى به وقال له أيها الوزير وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

فلما كانت الليلة 172

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شهرمان طلب وزيره واختلى به وقال له : أيها الوزير قل لي، ما الذي أفعله في قضية ولدي قمر الزمان؟ فإني استشرتك في زواجه قبل أن أسلطنه فأشرت علي بذلك، وأشرت علي أيضاً أن أذكر له أمر الزواج ، فذكرته له فخالفني . فَشِرْ علي الآن بما تراه حسناً . فقال له الوزير : الذي أشور به عليك الآن أيها الملك أن تصبر عليه سنة أخرى، فإذا أردت أن تكلمه بعدها في أمر الزواج فلا تكلمّه سرّاً، ولكن حدثه في يوم حكومة ويكون جميع الأمراء والوزراء حاضرين وجميع العساكر واقفين، فإذا اجتمع هؤلاء فارسل إلى ولدك قمر الزمان في تلك الساعة واحضره . فإذا حضر، فخاطبه في أمر الزواج بحضرة جميع الأمراء والوزراء والحجّاب والنواب وأرباب الدولة والعساكر وأصحاب الصولة فإنه يستحي منهم وما يقدر أن يخالفك بحضرتهم . فلما سمع الملك شهرمان من وزيره هذا الكلام ، فرح فرحاً شديداً واستصوب رأي الوزير في ذلك وخلع عليه خلعة سنيّة وصبر الملك شهرمان على ولده قمر الزمان سنة . وكلما مضى عليه يوم من الأيام يزداد حسناً وجمالاً وبهجة وكمالاً حتى بلغ من العمر قريباً من عشرين عاماً، وألبسه الله حلل الجمال وتوجّه بتاج الكمال وصار طرفه أسحر من هاروت وغنج ألحاظه أضل من الطاغوت. وأشرقت خدوده بالإحمرار وازدرت جفونه بالصارم البتّار وبياض غرّته حكى القمر الزاهر وسواد شعره كأنه الليل العاكر وخصره أرق من خيط هميان وردفه أثقل من الكثبان، تهيج البلابل على أعطافه ويشتكي خصره من ثقل أردافه ومحاسنه حيّرت الورى . كما قال فيه بعض الشعراء : [من الكامل]

قَسَماً بِوَجْنَتِهِ وباسِمِ ثَغْرِه وبِأَسْهُمٍ قَد راشَها مِنْ سَحْرِهِ
وبِلِينِ عِطْفَيْهِ ومُرْهَفِ لَحْظِهِ وبَياضِ غُرَّتِهِ وأَسْوَدِ شَعْرِهِ
وبِحاجِبٍ حَجَبَ الكَرَى عَنْ صَبِّهِ وسَطا عَلَيْهِ بِنَهْيِهِ وبِأَمْرِهِ

وعَقارِبَ قَد أُرْسِلَتْ مِنْ صُدْغِهِ وسَعَتْ لِقَتْلِ العاشِقِينَ بِهَجْرِهِ
وبِورْدِ خَدَّيْهِ وآسِ عِذارِهِ وعَقِيقِ مَبْسِمِه ولُؤلؤِ ثَغْرِهِ
وبِطِيبِ نَكْهَتِهِ وسَلْسالٍ جَرَى في فِيهِ يُزْرِي بالرَّحِيقِ وعَصْرِهِ
وبِرِدْفِهِ المُرْتَجِّ في حَرَكاتِهِ وسُكُونِهِ وبِرِقَّةٍ في خَصْرِهِ
وبِجُودِ راحَتِهِ وصِدْقِ لِسانِهِ وبِطِيبِ عُنْصُرِهِ وعالي قَدْرِهِ
ما المِسْكُ إلاّ مِنْ فُضالَةِ خالِه والطِّيبُ يَرْوِي رِيحَهُ عَنْ نَشْرِهِ
وكَذلِكَ الشَّمْسُ المُنِيرَةُ دُونَهُ وأَرَى الهِلالَ قُلامَةً مِنْ ظُفْرِهِ

ثم إن الملك شهرمان سمع كلام الوزير وصبر سنة أخرى حتى حصل يوم موسم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 173

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك شهرمان سمع كلام الوزير وصبر سنة أخرى حتى حصل يوم موسم ، تكامل فيه مجلس الملك بالأمراء والوزراء والحجاب وأرباب الدولة والعساكر وأصحاب الصولة . ثم إن الملك أرسل خلف ولده قمر الزمان ، فلما حضر قبّل الأرض بين يديه ثلاث مرات ووقف مكتّفاً يديه وراء ظهره قدّام أبيه . فقال له أبوه : أعلم يا ولدي أني ما أحضرتك هذه المرة قدام هذا المجلس وجميع العساكر حاضرون بين أيدينا إلاّ لأجل أن آمرك بأمر فلا تخالفني فيه . وذلك أن تتزوج ، لأني أشتهي أن أزوّجك بنت ملك من الملوك وأفرح بك قبل موتي . فلما سمع قمر الزمان من أبيه هذا الكلام أطرق برأسه إلى الأرض ساعة ، ثم رفع رأسه إلى أبيه ولحقه في تلك الساعة جنون الصبا وجهل الشبيبة وقال له : أما أنا فلا أتزوج أبداً ولو سقيت كؤوس الردى ، وأما أنت فرجل كبير السن صغير العقل . أليس أنك سألتني قبل هذا اليوم مرتين غير هذه المرة في شأن الزواج وأنا لا أجيبك إلى ذلك ! ثم إن قمر الزمان فك كتاف يديه وشمّر عن ذراعيه قدّام أبيه وهو في غيظه ، فخجل أبوه واستحى حيث حصل ذلك قدام أرباب دولته والعساكر الحاضرين في الموسم . ثم إن الملك شهرمان لحقته شهامة الملك فصرخ على ولده فأرعبه ، وصرخ على المماليك وأمرهم بمسكه فمسكوه ، وأمرهم أن يكتفوه فكتّفوه وقدّموه بين يدي الملك وهو مطرق رأسه من الخوف والوجل ، وتكلّل وجهه وجبينه بالعرق واشتد به الحياء والخجل . فعند ذلك شتمه أبوه وسبّه وقال له : ويلك يا ولد الزنا وتربية الخنا ، كيف يكون هذا جوابك لي بين عساكري وجيوشي ؟ ولكن أنت إلى الآن ما أدّبك أحد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 174

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك شهرمان قال لولده قمر الزمان : ولكن أنت إلى الآن ما أدّبك أحد . أما تعلم أن هذا الأمر الذي صدر منك ، لو صدر من عامي من العوام لكان ذلك قبيحاً منه . ثم إن الملك أمر المماليك أن يحلّوا كتافه ويحبسوه في برج من أبراج القلعة . فعند ذلك دخل الفرّاشون القاعة التي في البرج فكنسوها ومسحوا بلاطها ونصبوا فيها سريراً لقمر الزمان ، وفرشوا له على السرير طرّاحة ونطعاً ووضعوا له مخدّة

وفانوساً كبيراً وشمعة ، لأن ذلك المكان كان مظلماً في النهار . ثم إن المماليك ادخلوا قمر الزمان في تلك القاعة وجعلوا على باب القاعة خادماً ، فعند ذلك طلع قمر الزمان فوق ذلك السرير وهو منكسر الخاطر حزين الفؤاد ، قد عاتب نفسه وندم على ما جرى منه في حق أبيه حيث لا ينفعه الندم وقال : خيب الله الزواج والبنات والنساء الخائنات ، فيا ليتني سمعت من والدي وتزوّجت . فلو فعلت ذلك كان أحسن لي من هذا السجن . هذا ما كان من أمر قمر الزمان . وأما ما كان من أمر أبيه ، فإنه أقام على كرسي مملكته بقية اليوم إلى وقت الغروب ، ثم خلا بالوزير وقال له : أعلم أيها الوزير انك كنت السبب في هذا الذي جرى بيني وبين ولدي كله حيث أشرت علي بما أشرت ، فما الذي تشور به عليّ الآن ؟ فقال له الوزير : أيها الملك ، دع ولدك في السجن مدة خمسة عشر يوماً ، ثم احضره بين يديك وأمره بالزواج فإنه لا يخالفك أبداً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 175

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوزير قال للملك شهرمان : دع ولدك في السجن مدة خمسة عشر يوماً ، ثم احضره بين يديك وأمره بالزواج فإنه لا يخالفك أبداً . فقبل الملك رأي الوزير في ذلك ، ونام تلك الليلة وهو مشتغل القلب على ولده لأنه كان يحبه محبة عظيمة حيث لم يكن له ولد سواه . وكان الملك شهرمان كل ليلة لم يجيئه نوم حتى يجعل ذراعه تحت رقبة قمر الزمان وينام ، فبات الملك تلك الليلة وهو متشوش الخاطر من أجله ، وصار يتقلّب من جنب إلى جنب كأنه نائم على جمر اللظى ، ولحقه الوسواس ولم يأخذه نوم في تلك الليلة بطولها . وزرقت عيناه بالدموع ، وأنشد قول الشاعر : [من الطويل]

لَقَدْ طالَ لَيْلي والوُشاةُ هُجُوعُ ⁂ وناهِيكَ قَلْباً بالفِراقِ مَرُوعُ
أَقُولُ ولَيلي زَادَ بالهَمِّ طُولُهُ ⁂ أَما لَكَ يا ضَوءَ الصَّباحِ رُجُوعُ

وقول الآخر : [من الكامل]

لَمّا رَأَيْتُ النَّجْمَ ساهِيَ طَرْفُهُ ⁂ والقُطْبُ قَد أَلْقَى عَلَيْه سُباتا
وبَناتُ نَعْشٍ في الحِدادِ سَوافِرَ ⁂ أَيْقَنْتُ أَنَّ صَباحَهُمْ قَد ماتا

هذا ما كان من أمر الملك شهرمان . وأما ما كان من أمر قمر الزمان ، فإنه لما قدم عليه الليل قدّم له الخادم الفانوس وأوقد له شمعة وجعلها في شمعدان ، وقدّم له شيئاً من المأكل فأكل قليلاً . وصار يعاتب نفسه حيث أساء الأدب في حقّ أبيه الملك شهرمان وقال لنفسه : ألم تعلم أن ابن آدم رهين لسانه ، وأن لسان الآدمي هو الذي يوقعه في المهالك . ولم يزل يعاتب نفسه ويلومها حتى غلبت عليه الدموع واحترق قلبه المصدوع وندم على ما خرج من لسانه في حق الملك غاية الندم . وأنشد هذين البيتين : [من الطويل]

يَمُوتُ الفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ مِنْ لِسانِهِ ⁂ ولَيْسَ يَمُوتُ المَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ
فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تَقْضِي بِحَتْفِهِ ⁂ وعَثْرَتُهُ بالرِّجْلِ تَبْرَى على مَهْلِ

ثم إن قمر الزمان لما فرغ من الأكل طلب أن يغسل يديه ، فغسل يديه من الطعام وتوضأ وصلّى المغرب والعشاء وجلس . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 176

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان بن الملك شهرمان، صلّى المغرب والعشاء وجلس على السرير يقرأ القرآن، فقرأ البقرة وآل عمران ويسين والرحمن، وتبارك الملك والمعودتين وختم بالدعاء واستعاذ بالله،ونام على السرير فوق طرّاحة من الأطلس المعدني لها وجهان وهي محشوّة بريش النعام. وحين أراد النوم تجرّد من ثيابه وخلع لباسه، ونام في قميص مشمع رفيع كان على رأسه مقنع مروزي أزرق، فصار قمر الزمان في تلك الليلة كأنه البدر في ليلة الرابعة عشر. ثم تغطى بملاءة من حرير ونام، والفانوس موقود تحت رجليه والشمعة موقودة فوق رأسه. ولم يزل نائماً إلى ثلث الليل الأول ولم يعلم ما خبىء له في الغيب وما قدره عليه علاّم الغيوب. واتفق أن القاعة والبرج كانا عتيقين مهجورين مدة سنين كثيرة، وكان في تلك القاعة بئر روماني معمور بجنيّة ساكنة فيه وهي من ذريّة إبليس اللعين، واسم تلك الجنيّة ميمونة ابنة الدمرياط أحد ملوك الجان المشهورين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 177

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن اسم تلك الجنيّة ميمونة ابنة الدمرياط أحد ملوك الجان المشهورين. فلما استمرّ قمر الزمان نائماً إلى ثلث الليل الأول، طلعت تلك العفريتة من البئر الروماني وقصدت السماء لاستراق السمع. فلما صارت في أعلى البئر رأت نوراً مضيئاً في البرج على خلاف العادة. وكانت تلك العفريتة مقيمة في ذلك المكان مدة مديدة من السنين فقالت في نفسها: أنا ما عهدت هنا شيئاً من ذلك، وتعجبت من هذا الأمر غاية العجب، وخطر ببالها أنه لا بدّ لذلك من سبب. ثم قصدت ناحية ذلك النور فوجدته خارجاً من القاعة، فدخلتها ووجدت الخادم نائماً على بابها، ولما دخلت القاعة وجدت سريراً منصوباً وعليه هيئة إنسان نائم وشمعة مضيئة عند رأسه وفانوس مضيء عند رجليه. فتعجبت العفريتة ميمونة من ذلك النور وتقدّمت إليه قليلاً قليلاً وأرخت أجنحتها ووقفت على السرير وكشفت الملاءة عن وجهه ونظرت إليه. واستمرت باهتة في حسنه وجماله ساعة زمانية، وقد وجدت ضوء وجهه غالباً على نور الشمعة، وصار وجهه يتلألأ نوراً وقد غازلت عيناه واسودت مقلتاه واحمرّ خدّاه وفتر جفناه وتقوّس حاجباه وفاح مسكه العاطر. كما قال فيه الشاعر: [من الكامل]

قَبَّلْتُهُ فاسْوَدَّتِ المُقَلُ التي ... هِيَ فِتْنَتِي وٱحْمَرَّتِ الوَجَناتُ
يا قَلْبُ إنْ زَعَمَ العَوَاذِلُ أنَّه ... في الحُسْنِ يُوجَدُ مِثْلُهُ قُلْ هاتُوا

فلما رأته العفريتة ميمونة بنت الدمرياط، سبّحت الله وقالت: تبارك الله أحسن الخالقين. وكانت تلك العفريتة من الجن المؤمنين. فاستمرّت ساعة وهي تنظر إلى وجه قمر الزمان وتوحّد الله وتغبطه على حسنه وجماله وقالت في نفسها: والله إني لا أضرّه ولا أترك أحداً يؤذيه ومن كل سوء أفديه، فإن هذا الوجه المليح لا يستحق إلاّ النظر إليه والتسبيح. ولكن كيف هان على أهله حتى نسوه في هذا المكان الخرب؟ فلو طلع له أحد من مردتنا في هذه الساعة لعطبه. ثم إن تلك العفريتة مالت عليه وقبّلته بين عينيه، وبعد ذلك أرخت الملاءة على وجهه وغطّته بها وفتحت

أجنحتها وطارت ناحية السماء وطلعت من دور تلك القاعة وصعدت، ولم تزل صاعدة في الجوّ إلى أن قربت من سماء الدنيا، وإذا بها سمعت خفق أجنحة طائرة في الهواء فقصدت ناحية تلك الأجنحة، فلما قربت من صاحبها وجدته عفريتاً يقال له: دهنش. فانقضّت عليه انقضاض الباشق. فلما أحس بها دهنش وعرف أنها ميمونة بنت ملك الجن، خاف منها وارتعدت فرائصه واستجار بها وقال لها: أقسم عليك بالإسم الأعظم والطلسم الأكرم المنقوش على خاتم سليمان أن ترفقي بي ولا تؤذيني. فلما سمعت ميمونة من دهنش هذا الكلام، حنّ قلبها عليه وقالت له: إنك أقسمت عليّ بقسم عظيم، ولكن لا أعتقك حتى تخبرني من أين مجيئك في هذه الساعة؟ فقال لها: أيتها السيدة، أعلمي أن مجيئي من آخر بلاد الصين ومن داخل الجزائر، وأخبرك بأعجوبة رأيتها في هذه الليلة، فإن وجدت كلامي صحيحاً فاتركيني أروح إلى حال سبيلي، واكتبي لي بخطك في هذه الساعة إني عتيقك حتى لا يعارضني أحد من أرهاط الجن الطيّارة العلوية والسفلية والغواصة. قالت له ميمونة: فما الذي رأيته في هذه الليلة يا دهنش؟ فاخبرني ولا تكذب عليّ. وتريد بكذبك أن تنفلت من يدي، وأنا أقسم بحق النقش المكتوب على فص خاتم سليمان بن داود عليهما السلام إن لم يكن كلامك صحيحاً نتفت ريشك بيدي ومزّقت جلدك وكسرت عظمك. فقال لها العفريت دهنش ابن شمهورش الطيار: إن لم يكن كلامي صحيحاً فافعلي بي ما شئت يا سيدتي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 178

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن دهنشاً قال: إني خرجت في هذه الليلة من الجزائر الداخلة في بلاد الصين، وهي بلاد الملك الغيور صاحب الجزائر والبحور والسبعة قصور، فرأيت لذلك الملك بنتاً لم يخلق الله في زمانها أحسن منها ولا أعرف كيف أصفها لك ويعجز لساني عن وصفها كما ينبغي، ولكن أذكر لك شيئاً من صفاتها على سبيل التقريب. أما شعرها فكليالي الهجر والإنفصال، وأما وجهها فكأيام الوصال. وقد أحسن في وصفها من قال: [من الكامل]

نَشَرَتْ ثَلاثَ ذَوائِبٍ مِنْ شَعْرِها   في لَيْلَةٍ فأَرَتْ لَيالي أَرْبَعا
وأَسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّماءِ بِوَجْهِها   فأَرَتْنِيَ القَمَرَيْنِ في وَقْتٍ مَعا

ولها أنف كحدّ السيف المصقول، ولها وجنتان كرحيق الأرجوان، ولها خدّ كشقائق النعمان وشفتاها كالمرجان والعقيق، وريقها أشهى من الرحيق يطفيء مذاقه عذاب الحريق، ولسانها يحرّكه عقل وافر وجواب حاضر، ولها صدر فتنة لمن يراه فسبحان من خلقه وسوّاه. ومتصل بذلك الصدر عضدان مدملجان كما قال فيهما الشاعر الولهان: [من الطويل]

وزَنْدانِ لَوْلا أَمْسَكا بأَساوِرَ   لَسالا مِنَ الأَكْمامِ سَيْلَ الجَداوِلِ

ولها نهدان كأنهما من العاج حقّان يستمد من إشراقهما القمران، ولها بطن بأعكان مطويّة كطي القباطي المصرية، وينتهي ذلك إلى خصر مختصر من وهم الخيال فوق ردف ككثيب من رمال يقعدها إذا قامت ويوقظها إذا نامت كما قال فيه بعض واصفيه: [من الوافر]

لَها كَفَلٌ تَعَلَّقَ في ضَعِيفٍ   وذاكَ الرِّدْفُ لي ولَها ظَلُومُ

فَيُوقِفُني إذا فَكَّرْتُ فِيهِ ويُقْعِدُها إذا هَمَّتْ تَقُومُ

يحمل ذلك الكفل فخذان كأنهما من الدّر عمودان، وعلى حمله ما أقدرها إلاّ بركة الشيخ الذي بينهما. وأما غير ذلك من الأوصاف فلا يحصيه ناعت ولا وصّاف، ويحمل ذلك كله قدمان لطيفان صنعة المهيمن الديّان. فعجبت منهما كيف يحملان ما فوقهما. وأما ما وراء ذلك فإني تركته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 179

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العفريت دهنشاً بن شمهورش قال للعفريتة ميمونة: وأما ما وراء ذلك فإني تركته، لأنه تقصر عنه العبارة ولا تفي به إشارة. وأبو تلك الصبيّة ملك جبار فارس كرار، يخوض بحار الأقطار في الليل والنهار، لا يهاب الموت ولا يخاف الفوت، لأنه جائر ظلوم وقاهر غشوم، وهو صاحب جيوش وعساكر وأقاليم وجزائر ومدن ودور، واسمه الملك الغيور صاحب الجزائر والبحور والسبعة قصور، وكان يحب ابنته هذه التي وصفتها لك حبّاً شديداً. ومن محبته لها، جلب أموال سائر الملوك وبنى لها بذلك سبعة قصور، كل قصر من جنس مخصوص. القصر الأول من البلور، والقصر الثاني من الرخام، والقصر الثالث من الحديد الصيني، والقصر الرابع من الجزع والفصوص، والقصر الخامس من الفضة، والقصر السادس من الذهب، والقصر السابع من الجواهر. وملأ السبعة قصور من أنواع الفرش الفاخر وأواني الذهب والفضة وجميع الآلات من كل ما تحتاج إليه الملوك، وأمر ابنته أن تسكن في كل قصر مدة من السنة ثم تنتقل منه إلى قصر غيره، واسمها الملكة بدور. فلما اشتهر حسنها وشاع في البلاد ذكرها، أرسل سائر الملوك إلى أبيها يخطبونها منه فراودها في أمر الزواج، فكرهت ذلك وقالت لأبيها: يا والدي، ليس لي غرض في الزواج أبداً. فإني سيدة وملكة، أحكم على الناس ولا أريد رجلاً يحكم علي. وكلما امتنعت من الزواج زادت رغبة الخطّاب فيها. ثم إن جميع ملوك جزائر الصين الجوانية أرسلوا إلى أبيها الهدايا والتحف وكاتبوه في أمر زواجها، فكرّر عليها أبوها المشاورة في أمر الزواج مراراً عديدة. فخالفته وغضبت منه وقالت له: يا أبي، إن ذكرت لي الزواج مرة أخرى أخذت السيف ووضعت قائمه في الأرض وذبابته في بطني وأتكىء عليه حتى يطلع من ظهري وأقتل نفسي. فلما سمع أبوها منها هذا الكلام، صار الضياء في وجهه ظلاماً واحترق قلبه عليها غاية الإحتراق. وخشي أن تقتل نفسها، وتحيّر في أمرها وفي أمر الملوك الذين خطبوها منه فقال لها: إن كان لا بدّ من عدم زواجك فامتنعي من الدخول والخروج. ثم إن أباها أدخلها البيت وحجبها فيه واستحفظ عليها عشر عجائز قهرمانات ومنعها من أن تظهر إلى السبع قصور. وأظهر أنه غضبان عليها وأرسل كاتب الملوك جميعهم وأعلمهم أنها أصيبت بجنون في عقلها، ولها الآن سنة وهي محجوبة. ثم قال العفريت دهنش للعفريتة: وأنا يا سيدتي، أتوجه إليها في كل ليلة فأنظرها وأتملّى بوجهها وأقبلها وهي نائمة بين عينيها، ومن محبتي فيها لا أضرها ولا أركبها لأن جمالها بارع، كل من رآها يغار عليها من نفسه. وأقسمت عليك يا سيدتي أن ترجعي معي وتنظري حسنها وجمالها وقدّها واعتدالها، وبعد هذا إن شئت أن تعاقبيني أو تأسريني فافعلي، فإن الأمر أمرك والنهي نهيك. ثم إن العفريت دهنشاً أطرق رأسه إلى الأرض وخفض أجنحته إلى الأرض. فقالت له

العفريتة ميمونة بعد أن ضحكت من كلامه وبصقت في وجهه : اي شيء هذه البنت التي تقول عنها؟ فما هي إلاّ قوارة بول . فكيف لو رأيت معشوقي ؟ والله إني حسبت ان معك أمراً عجيباً أو خبراً غريباً يا ملعون . إني رأيت إنساناً في هذه الليلة لو رأيته ولو في المنام ، لانفلجت عليه وسالت ريالتك . فقال لها دهنش : وما حكاية هذا الغلام ؟ فقالت له : اَعلم يا دهنش أن هذا الغلام قد جرى له مثل ما جرى لمعشوقتك التي ذكرتها ، وأمره أبوه بالزواج مراراً عديدة فأبى . فلما خالف أباه ، غضب عليه وسجنه في البرج الذي أنا ساكنة فيه ، فطلعت في هذه الليلة فرأيته . فقال لها دهنش : يا سيدتي ، أريني هذا الغلام لأنظر ، هل هو أحسن من معشوقتي الملكة بدور أم لا؟ لأني ما أظن يوجد في الزمان مثل معشوقتي . فقالت له العفريتة : تكذب يا ملعون يا أنحس المردة وأحقر الشياطين ، فأنا أتحقّق أنه لا يوجد لمعشوقي مثيل في هذه الديار . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 180

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن العفريتة ميمونة قالت للعفريت دهنش : أنا أتحقّق أنه لا يوجد لمعشوقي مثيل في هذه الديار ، فهل أنت مجنون حتى نقيس معشوقتك بمعشوقي؟ فقال لها : بالله عليك يا سيدتي أن تذهبي معي وتنظري معشوقتي ، وأرجع معك وأنظر معشوقك . فقالت له ميمونة : لا بدّ من ذلك يا ملعون لأنك شيطان مكّار ، ولكن لا أجيء معك ولا تجيء معي إلاّ برهن ، فإن طلعت معشوقتك التي أنت تحبها وتتغالى فيها أحسن من معشوقي الذي أنا احبه وأتغالى فيه ، فإن ذلك الرهن يكون لك عليّ . وإن طلع معشوقي أحسن فإن ذلك الرهن يكون لي عليك . فقال لها العفريت دهنش : يا سيدتي ، قبلت منك هذا الشرط ورضيت به ، تعالي معي إلى الجزائر . فقالت له ميمونة : فإن موضع معشوقي أقرب من موضع معشوقتك وها هو تحتنا ، فانزل معي لننظر معشوقي ونروح بعد ذلك إلى معشوقتك . فقال لها دهنش : سمعاً وطاعةً . ثم انحدر إلى أسفل ونزلا في دور القاعة التي في البرج ، وأوقفت ميمونة دهنشاً بجنب السرير ومدّت يدها ورفعت الملاءة عن وجه قمر الزمان ابن الملك شهرمان ، فسطع وجهه وأشرق ولمع وزها ، فنظرته ميمونة والتفتت من وقتها إلى دهنش وقالت له : أنظر يا ملعون ولا تكن أقبح مجنون ، فنحن بنات وبه مفتونات . فعند ذلك التفت إليه دهنش واستمرّ يتأمل فيه ساعة ، ثم حرّك رأسه وقال لميمونة والله : يا سيدتي إنك معذورة ، ولكن بقي شيء آخر وهو أن حال الأنثى غير حال الذكر . وحق الله أن معشوقك هذا أشبه الناس بمعشوقتي في الحسن والجمال والبهجة والكمال ، وهما الإثنان كأنهما قد أفرغا في قالب الحسن سواء . فلما سمعت ميمونة من دهنش هذا الكلام صار الضياء في وجهها ظلاماً ولطمته بجناحها على رأسه لطمة قوية كادت أن تقضي عليه من شدّتها وقالت له : قسماً بنور وجه جلاله أن تروح يا ملعون في هذه الساعة وتحمل معشوقتك التي تحبها وتجيء بها سريعاً إلى هذا المكان حتى نجمع بين الإثنين وننظرهما وهما نائمان بالقرب من بعضهما فيظهر لنا أيهما أملح ، وإن لم تفعل ما أمرتك به في هذه الساعة يا ملعون ، أحرقتك بناري ورميتك بشرر أشراري ومزّقتك قطعاً في البراري وجعلتك عبرة للمقيم والساري . فقال لها دهنش : يا سيدتي لك علي ذلك ، وأنا أعرف أن محبوبتي أملح وأحلى . ثم إن العفريت دهنش طار من وقته

وساعته، وطارت ميمونة معه من أجل المحافظة عليه. فغابا ساعة زمانية، ثم اقبلا الإثنان بعد ذلك وهما حاملان تلك الصبيّة وعليها قميص بندقي رفيع بطرازين من الذهب وهو مزركش ببدائع التطريزات ومكتوب على رأسه كمية هذه الأبيات : [من البسيط]

ثَلاثَةٌ مَنَعَتْها عَنْ زِيارَتِنا … خَوْفُ الرَّقيبِ وخَوْفُ الحاسِدِ الحَنِقِ
ضَوْءُ الجَبِينِ ووَسْواسُ الحُلِيِّ وما … حَوَتْ مَعاطِفُها مِنْ عَنْبَرٍ عَبِقِ
هَبِ الجَبِينَ بِفَضْلِ الكُمِّ تَسْتُرُهُ … والحَلِيَ تَنْزَعُهُ ما حِيلَةُ العَرَقِ

ثم إنهما نزلا بتلك الصبيّة ومدّدوها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 181

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العفريت والعفريتة نزلا بتلك الصبيّة ومدّدوها بجانب الغلام وكشفا عن وجوه الإثنين فكانا أشبه الناس ببعضهما، فكأنهما توأمان أو أخوان منفردان. وهما فتنة للمتّقين كما قال فيهما الشاعر المبين:

[من الكامل]

يا قَلْبُ لا تَعْشَقْ مَلِيحاً واحِداً … تَخْتارُ فِيهِ تَدَلُّلاً وتَذَلُّلا
وأَهْوَ المِلاحَ جَمِيعَهُم تَلْقاهُمُ … إنْ صَدَّ هذا كانَ هذا مُقْبِلا

وصار دهنش وميمونة ينظران إليهما. فقال دهنش: إن معشوقتي أحسن. قالت له ميمونة: بل معشوقي أحسن. ويلك يا دهنش، هل أنت أعمى؟ أمَا تنظر إلى حسنه وجماله وقدّه واعتداله. فاسمع ما أقوله في محبوبي. وإن كنت محبّاً صادقاً لمن تعشقها، فقل فيها مثل ما أقول في محبوبي. ثم إن ميمونة قبّلت قمر الزمان قبلاً عديدة وأنشدت هذه القصيدة: [من الكامل]

ما لِي ولِلاّحِي عَلَيْكَ يَعْنُفُ … كَيْفَ السُّلُوَّ وأَنْتَ غُصْنٌ أَهْيَفُ
لَكَ مُقْلَةٌ كَحْلاءُ تَنْفُثُ سِحْرَها … ما لِلهَوَى العُذْرِيِّ عَنْها مَصْرِفُ
تُرْكِيَّةُ الأَلحاظِ تَفْعَلُ بالحَشَى … ما لَيْسَ يَفْعَلُه الصَّقِيلُ المُرْهَفُ
حَمَّلْتَنِي ثِقْلَ الغَرامِ وإنَّنِي … بالعَجْزِ عَنْ حَمْلِ القَمِيصِ لأَضْعَفُ
وَجْدِي عَلَيْكَ كَما عَلِمْتَ ولَوْعَتِي … طَبْعٌ وعِشْقِي في سِواكَ تَكَلُّفُ
لَو أَنَّ قَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَم أَبِتْ … والجِسْمُ مِنِّي مِثْلُ خَصْرِكَ مُنْحَفُ
وَيْلاهُ مِنْ قَمَرٍ بكُلِّ مَلاحَةٍ … بَينَ الأَنامِ وكُلُّ حُسْنٍ يُوصَفُ
قالَ العَواذِلُ في الهَوَى مَن ذا الَّذِي … أَنْتَ الكَئِيبُ بِه فَقُلْتُ لَهُمْ صِفُوا
يا قَلْبَهُ القاسِي تَعَلَّمْ عَطْفَةً … مِنْ قَدِّهِ فَعَسَى يَرِقُّ ويَعْطِفُ
لَكَ يا أَمِيري في المَلاحَةِ ناظِرٌ … يَسْطُو عَلَيَّ وحاجِبٌ لا يُنْصِفُ
كَذَبَ الَّذِي ظَنَّ المَلاحَةَ كُلَّها … في يُوسُفَ كَمْ في جَمالِكَ يُوسُفُ
الجِنُّ تَخْشانِي إذا قابَلْتُها … وأَنا إذا أَلْقاكَ قَلْبِي يَرْجُفُ
أَتَكَلَّفُ الإعْراضَ عَنْكَ مَهابَةً … وإِلَيْكَ أَصْبُو، جَهْدَ ما أَتَكَلَّفُ

والشَّعْرُ أَسْوَدُ والجَبِينُ مُشَعْشِعٌ   والطَّرْفُ أَحْوَرُ والقَوامُ مُهَفْهَفُ

فلما سمع دهنش شعر ميمونة في معشوقها، طرب غاية الطرب وتعجّب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 182

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن دهنش لما سمع شعر ميمونة في معشوقها، أطرب غاية الطرب وقال: إنك أنشدتني فيمن تعشقينه هذا الشعر الرقيق مع ان بالك مشغول به، ولكن انا أبذل الجهد في إنشاد الشعر على قدر فكرتي. ثم إن دهنش قام إلى معشوقته بدور وقبّلها بين عينيها. ونظر إلى العفريتة ميمونة وإلى معشوقته بدور وجعل ينشد القصيدة وهو بلا شعور: [من الكامل]

أَقْوَتْ مَعاهِدُهُمْ بِشَطِّ الوادِي   فَبَقِيتُ مَقْتُولاً وشَطَّ الوادِي
وسَكِرْتُ مِنْ خَمْرِ الغَرامِ ورُقِّصَتْ   عَيْنُ الدُّمُوعِ على غِناءِ الحادِي
أَسْعَى لأَسْعَدَ بالوُصُولِ وحَقَّ لي   إنَّ السَّعادَةَ في بُدُورِ سُعادِ
لَم أَدْرِ مِنْ أَيِّ الثَّلاثَةِ أَشْتَكِي   ولَقَدْ عَدَدْتُ فاصْغِ لِلأَعْدادِ
مِنْ لَحْظِها السَّيّافِ أَمْ مِنْ قَدِّها   الرَّمّاحِ أَمْ مِنْ صُدْغِها الزَّرّادِ
قالَتْ: وقَد فَتَّشْتُ عَنْها كُلَّ مَنْ   لاقَيْتَهُ مِنْ حاضِرٍ أو بادِ
أَنا في فُؤادِكَ فارْمِ طَرْفَكَ نَحْوَهُ   تَرَنِي، فَقُلْتُ لها: وأَيْنَ فُؤادِي؟

فلما فرغ من شعره قالت العفريتة: أحسنت يا دهنش، ولكن أي هذين الإثنين أحسن؟ فقال لها: محبوبتي بدور أحسن من محبوبك. فقالت له: كذبت يا ملعون، بل معشوقي أحسن من معشوقتك. ثم إنهما لم يزالا يعارضان بعضهما في الكلام حتى صرخت ميمونة على دهنش وأرادت أن تبطش به، فذلّ لها ورقّق كلامه وقال لها: لا يصعب عليك الحق فابطلي قولك وقولي، فإن كلاً منا يشهد لمعشوقه أنه أحسن، فنعرض عن كلام كل واحد منّا ونطلب من يفصل الحكم بيننا بالإنصاف ونعتمد على قوله. فقالت له ميمونة: وهو كذلك. ثم ضربت الأرض برجلها، فطلع لها من الأرض عفريت أعور أجرب وعيناه مشقوقتان في وجهه بالطول، وفي رأسه سبعة قرون وله أربع ذوائب من الشعر مسترسلة إلى الأرض، ويداه مثل يدي القطرب وله أظفار كأظفار الأسد، ورجلان كرجلي الفيل وحوافر كحوافر الحمار. فلما طلع ذلك العفريت ورأى ميمونة، قبّل الأرض بين يديها وتكتّف وقال لها: ما حاجتك يا سيدتي يا بنت الملك؟ فقالت له: يا قشقش، إني أريد أن تحكم بيني وبين هذا الملعون دهنش. ثم إنها أخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها. فعندها نظر العفريت قشقش إلى وجه ذلك الصبي ووجه تلك الصبيّة، فرآهما متعانقين وهما نائمان ومعصم كل منهما تحت عنق الآخر، وهما في الحسن والجمال متشابهان وفي الملاحة متساويان. فنظر وتعجّب المارد قشقش من حسنهما وجمالهما والتفت إلى ميمونة ودهنش بعد أن أطال إلى الصبي والصبيّة الالتفات، وأنشد هذه الأبيات: [من الكامل]

زُرْ مَنْ تُحِبُّ ودَعْ مَقالَةَ حاسِدٍ   لَيْسَ الحَسُودُ عَلى الهَوَى بِمُساعِدِ

لَم يَخلقِ الرَّحمٰنُ أَحسَن مَنْظَرا ... مِنْ عاشِقَينِ عَلى فِراشٍ واحِدِ
مُتَعانِقَينِ عَلَيْهِما حُلَلُ الرِّضَى ... مَتَوَسِّدَيْنِ بِمِعْصَمٍ ويِساعِدِ
وإذا صَفا لَكَ مِنْ زَمانِكَ واحِدٌ ... فَهْوَ المُرادُ وعِشْ بِذاكَ الواحِدِ
وإذا تآلَّفَتِ القُلُوبُ عَلى الهَوَى ... فالنَّاسُ تَضْرِبُ في حَدِيدٍ بارِدِ
يا مَنْ يَلُومُ عَلى الهَوَى أَهْلَ الهَوَى ... هَلْ يُسْتَطاعُ صَلاحُ قَلْبٍ فاسِدِ
يا رَبُّ يا رَحْمٰنُ تُحْسِنُ خَتْمَنا ... قَبْلَ المَماتِ ولَو بِيَوْمٍ واحِدِ

ثم إن العفريت قشقش التفت إلى ميمونة وإلى دهنش وقال لهما : والله ما فيهما أحد أحسن من الآخر ولا دون الآخر، بل هما أشبه الناس ببعضهما في الحسن والجمال والبهجة والكمال، ولا يفرّق بينهما بالتذكير والتأنيث . وعندي حكم آخر، وهو أن ننبه كل واحد منهما من غير علم الآخر، وكل من التهب على رفيقه فهو دونه في الحسن والجمال . فقالت ميمونة : نِعم هذا الرأي الذي قلته فأنا رضيته . وقال دهنش : وأنا أيضا رضيته . فعند ذلك انقلب دهنش في صورة برغوثة ولدغ قمر الزمان . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 183

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن دهنشاً انقلب في صورة برغوث ولدغ قمر الزمان في رقبته في موضع ناعم، فمد قمر الزمان يده على رقبته وهرش موضع القرصة من شدة ما أحرقته . فتحرّك بجنبه، فوجد شيئاً نائماً بجنبه ونفسه أزكى من المسك وجسمه ألين من الزبد . فتعجب قمر الزمان من ذلك غاية العجب، ثم قام من وقته قاعداً ونظر إلى ذلك الشخص الراقد بجانبه، فوجدها صبيّة كالدرّة السنيّة أو القبّة المبنيّة بقامة ألفيّة خماسيّة القدّ بارزة النهد موردة الخدّ . كما قال فيها بعض واصفيها : [من الوافر]

بَدَتْ قَمَراً ومالَتْ غُصْنَ بانٍ ... وفاحَتْ عَنْبَراً ورَنَتْ غَزالا
كَأنَّ الحُزْنَ مُشْغُوفٌ بِقَلْبِي ... فَساعَةَ هَجْرِها يَجِدُ الوِصالا

فلما رأى قمر الزمان السيدة بدر بنت الملك الغيور، وشاهد حسنها وجمالها وهي نائمة في طوله . وجد فوق بدنها قميصاً بندقياً وهي بلا سروال وعليها كوفية من ذهب مرصّعة بالجواهر وفي عنقها قلادة من الفصوص المثمّنة لا يقدر عليها أحد من الملوك، فصار مدهوش العقل من ذلك . ثم إنه حين شاهد حسنها، تحرّكت فيه الحرارة الغريزية وألقى الله عليه شهوة الجماع وقال في نفسه : ما شاء الله، كان وما لم يشأ لم يكن . ثم قلبها بيده ثاني مرة وفتح طوق قميصها فبان له بطنها، ونظر إليه وإلى نهودها فازداد فيها محبة ورغبة، فصار ينبهها وهي لا تنتبه لان دهنشاً ثقّل نومها . فصار قمر الزمان يهزّها ويحرّكها ويقول : يا حبيبتي استيقظي وانظري من أنا، فأنا قمر الزمان . فلم تستيقظ ولم تحرّك رأسها . فعند ذلك تفكر في أمرها ساعة زمانية وقال في نفسه : إن صدق حذري فهذه الصبية هي التي يريد والدي زواجي بها ومضى لي ثلاث سنين وأنا أمتنع من ذلك، فإن شاء الله إذا جاء الصبح، أقول لأبي زوّجني بها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 184

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان قال في نفسه : إن شاء الله إذا جاء الصبح ، أقول لأبي زوّجني بها، ولا أترك نصف النهار يفوت حتى أفوز بوصلها وأتملّى بحسنها وجمالها . ثم إن قمر الزمان مال إلى بدور ليقبّلها، فارتعدت ميمونة الجنيّة وخجلت، وأما العفريت دهنش فإنه طار من الفرح . ثم إن قمر الزمان لما أراد أن يقبّلها في فمها، استحى من الله والفت وجهه وقال في نفسه : أنا أصبر، لئلا يكون والدي لما غضب عليّ وحبسني في هذا الموضع ، جاء لي بهذه العروسة وأمرها بالنيام جنبي ليمتحنني بها، وأوصاها أني إذا نبهتها لا تستيقظ . وقال لها : أي شيء فعل بك قمر الزمان فاعلميني به . وربما يكون والدي واقفاً مستخفياً في مكان، بحيث يطلع عليّ وأنا لا أنظره، فينظر جميع ما أفعله بهذه الصبية . وإذا أصبح يوبخني ويقول لي : كيف تقول ما لي أرب في الزواج ؟ وأنت قبّلت تلك الصبية وعانقتها . فأنا أكفّ نفسي عنها لئلا ينكشف أمري مع والدي . فأنا لا ألمس هذه الصبية من تلك الساعة ولا ألتفت لها، غير أني آخذ لي منها شيئاً يكون إمارة عندي وتذكرة لها حتى يبقى بيني وبينها إشارة . ثم إن قمر الزمان رفع كفّ الصبية وأخذ خاتمها من خنصرها، وهو يساوي جملة من المال لأن فصّه من نفيس الجواهر، ومنقوش في دائرته هذه الأبيات : [من الكامل]

لا تَحْسَبُوا أَنِّي نَسِيتُ عُهُودَكُمْ ... مَهْما أَطَلْتُمْ في الزَّمانِ صُدُودَكُمْ
يا سادَتِي، جُودُوا عَلَيَّ وَاعْطِفُوا ... فَعَسَى أُقَبِّلُ ثَغْرَكُمْ وخُدُودَكُمْ
واللهِ إنِّي لَسْتُ أَبْرَحُ عَنْكُمُ ... مَهْما عَدَيْتُم في الغَرامِ حُدُودَكُمْ

ثم إن قمر الزمان نزع ذلك الخاتم من خنصر الملكة بدور ولبسه في خنصره وأدار ظهره إليها ونام . ففرحت ميمونة الجنيّة لما رأت ذلك وقالت لدهنش وقشقش : هل رأيتما محبوبي قمر الزمان، وما فعله من العفّة عن هذه الصبية؟ فهذا من كمال محاسنه . فانظرا كيف رأى هذه الصبية وحسنها وجمالها ولم يعانقها، ولم يملّس بيده عليها بل أدار ظهره إليها ونام . فقالا لها : قد رأينا ما صنع من الكمال . فعند ذلك انقلبت ميمونة وجعلت نفسها برغوثاً ودخلت ثياب بدور محبوبة دهنش ومشت على ساقها وطلعت على فخذها ومشت تحت سرّتها مقدار أربعة قراريط ولدغتها، ففتحت عينيها واستوت قاعدة، فرأت شاباً نائماً بجانبها وهو يخط في نومه، وله خدود كشقائق النعمان ولواحظ تخجل الحور الحسان وفم كأنه خاتم سليمان وريقه حلو المذاق وأنفع من الترياق . كما قال فيه بعض واصفيه : [من الطويل]

سَلِي خاطِرِي عَنْ زَيْنَبٍ ونَوارِي ... بِوَرْدَةِ خَدٍّ فَوْقَ آسِ عِذارِ
وأَصْبَحْتُ بالظَّبْيِ المُقَرْطَقِ مُغْرَماً ... ولا رَأْيَ لي في عِشْقِ ذاتِ سِوارِ
أَنِيسِيَ في النَّادِي وفي خَلْوَتِي مَعاً ... خِلافُ أَنِيسِي في قَرارَةِ دارِي
فَيا لائِمِي في هَجْرِ هِنْدٍ وزَيْنَبَ ... وقَدْ لاحَ عُذْرِي كالصَّباحِ لِسارِ
أَتَرْضَيْ بأَنْ أُمْسِي أَسِيرَ أَسِيرَةٍ ... مُحَصَّنَةٍ أو مِنْ وَراءِ جِدارِ

ثم إن الملكة بدور لما رأت قمر الزمان، أخذها الهيام والوجد والغرام . وأدرك شهرزاد

الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 185

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة بدور لما رأت قمر الزمان، أخذها الهيام والوجد والغرام وقالت في نفسها : وافضيحتاه، إن هذا شاب غريب لا أعرفه، ما باله راقداً بجانبي في فراش واحد؟ ثم نظرت إاليه بعيونها، وحققت النظر فيه وفي ظرفه ودلاله وحسنه وجماله ثم قالت : وحق الله إنه شاب مليح مثل القمر إلاّ أن كبدي تكاد أن تتمزّق وجداً عليه وشغفاً بحسنه وجماله، فيا فضيحتي منه . والله لو ت أن هذا الشاب هو الذي خطبني من أبي ما رددته، بل كنت أتزوجه وأتملى بجماله . ثم إن الملكة بدور تطلعت من وقتها وساعتها في وجه قمر الزمان وقالت له : يا سيدي وحبيب قلبي ونور عيني، إنتبه من منامك وتمتّع بحسني وجمالي . ثم حرّكته بيدها، فأرخت عليه ميمونة الجنيّة النوم وتقّلت على رأسه بجناحها فلم يستيقظ قمر الزمان، فهزّته الملكة بدور بيديها وقالت له : بحياتي عليك أن تطيعني، فانتبه من منامك وانظر النرجس والخضرة وتمتع ببطني والسرّة وهارشني وناغشني من هذا الوقت إلى بكرة . قم يا سيدي واتّكئ على المخدّة ولا تنم . فلم يجبها قمر الزمان بجواب ولم يرد عليها خطاباً بل خط في النوم . فقالت الملكة بدور : ما لك تائهاً بحسنك وجمالك وظرفك ودلالك؟ فكما أنت مليح أنا الأخرى مليحة . فما هذا الذي تفعله؟ هل هم علّموك الصدّ عني أو أبي الشيخ النحس منعك من أن تكلّمني في هذه الليلة؟ ففتح قمر الزمان عينيه، فازدادت فيه محبة وألقى الله محبته في قلبها ونظرته نظرة أعقبتها ألف حسرة . فخفق فؤادها وتقلقلت أحشاؤها واضطربت جوارحها وقالت لقمر الزمان : يا سيدي كلّمني، يا حبيبي حدّثني، يا معشوقي ردّ علي الجواب وقل لي ما اسمك؟ فإنك سلبت عقلي . كل ذلك وقمر الزمان مستغرق في النوم ولم يرد عليها بكلمة . فتأوّهت الملكة بدور وقالت : ما لك معجباً بنفسك . ثم هزّته وقلبت يده فرأت خاتمها في إصبعه الخنصر، فشهقت وأتبعتها بغنجة وقالت : أوّه أوّه والله أنت حبيبي وتحبني، ولكن كأنك تعرض عني دلالاً مع أنك جئتني وأنا نائمة، وما أعرف كيف عملت أنت معي، ولكن ما أنا قالعة خاتمي من خنصرك . ثم فتحت جيب قميصه ومالت عليه وقبّلت رقبته وفتّشت على شيء تأخذه منه فلم تجد معه شيئاً . ورأته بغير سروال، فمدّت يدها من تحت ذيل قميصه وجسّت سيقانه فزلفت يدها من نعومة جسمه وسقطت على أيره، فانصدع قلبها وارتجف فؤادها . لان شهوة النساء أقوى من شهوة الرجال، وخجلت . ثم نزعت خاتمه من إصبعه ووضعته في إصبعها عوضاً عن خاتمها، وقبّلته في ثغره وقبّلت كفيّه ولم تترك فيه موضعاً إلاّ قبّلته، وبعد ذلك أخذته في حضنها وعانقته ووضعت إحدى يديها تحت رقبته والأخرى من تحت إبطه ونامت بجانبه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

فلما كانت الليلة 186

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة بدور نامت بجانب قمر الزمان وجرى منها ما جرى . فلما رأت ذلك ميمونة، فرحت غاية الفرح وقالت لدهنش : هل رأيت يا ملعون كيف فعلت معشوقتك من الوله بمعشوقي؟ وكيف فعل معشوقي من التيه والدلال . فلا شك أن معشوقي أحسن من معشوقتك، ولكن عفوت عنك . ثم كتبت له

ورقة بالعتق، والتفتت إلى قشقش وقالت له: ادخل معه واحمل معشوقته وساعده على وصولها إلى مكانها لأن الليل مضى وفاتني مطلوبي. فتقدّم دهنش وقشقش إلى الملكة بدور ودخلا تحتها وحملاها وطارا بها وأوصلاها إلى مكانها وأعاداها إلى فراشها. واختلت ميمونة بالنظر إلى قمر الزمان وهو نائم حتى لم يبقَ من الليل إلاّ القليل، ثم توجّهت إلى حال سبيلها. فلما انشق الفجر، انتبه قمر الزمان من منامه والتفت يميناً وشمالاً فلم يجد الصبيّة عنده فقال في نفسه: ما هذا الأمر؟ كان أبي يرغّبني في الزواج بالصبيّة التي كانت عندي، ثم أخذها سراً لأجل أن تزداد رغبتي في الزواج. ثم صرخ على الخادم الذي هو نائم على الباب وقال له: ويلك يا ملعون قم. فقام الخادم وهو طائش العقل من النوم، ثم قدم له الطشت والإبريق. فقام قمر الزمان ودخل المستراح وقضى حاجته وخرج، فتوضأ وصلّى الصبح وجلس يسبح الله. ثم نظر إلى الخادم فوجده واقفاً في خدمته بين يديه فقال له: ويلك يا صواب، من جاء هنا وأخذ الصبيّة من جنبي وأنا نائم؟ فقال له الخادم: يا سيدي، أي شيء الصبيّة؟ فقال قمر الزمان: الصبيّة التي كانت نائمة عندي في هذه الليلة. فانزعج الخادم من كلام قمر الزمان وقال له: لم يكن عندك صبية ولا غيرها، ومن أين دخلت الصبيّة وأنا نائم وراء الباب وهو مقفول؟ والله يا سيدي ما دخل عليك ذكر ولا أنثى. فقال له قمر الزمان: تكذب يا عبد النحس، وهل وصل من قدرك أنت الآخر أنك تخادعني ولا تخبرني أين راحت الصبيّة التي كانت نائمة عندي في هذه الليلة؟ ولم تخبرني بالذي أخذها من عندي؟ فقال الطواشي وقد انزعج منه: والله يا سيدي، ما رأيت صبيّة ولا صبياً. فغضب قمر الزمان من كلام الخادم وقال له: إنهم علّموك الخداع يا ملعون، فتعال عندي. فتقدم الخادم إلى قمر الزمان، فأخذ بأطواقه وضرب به الأرض فضرط. ثم برك عليه قمر الزمان ورفصه برجله وخنقه حتى غشي عليه، ثم بعد ذلك ربطه في سلبة البئر وأدلاه فيه إلى أن وصل إلى الماء وأرخاه. وكانت تلك الأيام أيام برد وشتاء قاطع. فغطس الخادم في الماء، ثم نشله قمر الزمان وأرخاه. ولا زال يغطس ذلك الخادم في الماء وينشله منه، والخادم يستغيث ويصرخ ويصيح، وقمر الزمان يقول له: والله يا ملعون، ما أطلعك من هذه البئر حتى تخبرني بخبر هذه الصبيّة وقضيتها، ومن الذي أخذها وأنا نائم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 187

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخادم قال لقمر الزمان: أنقذني من البئر يا سيدي وأنا أخبرك بالصحيح. فجذبه من البئر وأطلعه، وهو غائب عن الوجود من شدة ما قاساه من الغرق والغطاس والبرد والضرب والعذاب، وصار يرتعد مثل القصبة في الريح العاصف، واشتبكت أسنانه في بعضها وابتلّت ثيابه بالماء. فلما رأى الخادم نفسه على وجه الأرض قال له: دعني يا سيدي أروح وأقلع ثيابي وأعصرها وأنشرها في الشمس وألبس غيرها، ثم أحضر إليك سريعاً وأخبرك بأمر تلك الصبيّة وأحكي لك حكايتها. فقال له قمر الزمان: والله يا عبد النحس، لولا أنك عاينت الموت ما أقررت بالحق. فاخرج لقضاء أغراضك وعد إليّ بسرعة واحك لي حكاية الصبيّة وقصّتها. فعند ذلك خرج الخادم وهو لا يصدق بالنجاة، ولم يزل يجري إلى أن دخل على الملك شهرمان أبي قمر الزمان، فوجد الوزير

بجانبه وهما يتحدّثان في أمر قمر الزمان . فسمع الملك يقول للوزير : إني ما نمت في هذه الليلة من اشتغال قلبي بولدي قمر الزمان ، وأخشى أن يجري له شيء من هذا البرج العتيق ، وما كان في سجنه شيء من المصلحة . فقال له الوزير : لا تخف عليه ، والله لا يصيبه شيء ودعه مسجوناً شهر زمان حتى تلين عريكته . فبينما هما في الكلام وإذا بالخادم دخل عليهما وهو في تلك الحالة وقال له : يا مولانا السلطان ، إن ولدك حصل له جنون ، وقد فعل بي هذه الفعال وقال لي : إن صبيّة باتت عنده في هذه الليلة وذهبت بخفية فاخبرني بخبرها . وأنا لا أعرف ما شأن هذه الصبيّة . فلما سمع السلطان شهرمان هذا الكلام عن ولده قمر الزمان صرخ قائلاً : واولداه ! وغضب على الوزير الذي كان سبباً في هذه الأمور غضباً شديداً وقال له : قم اكشف لي خبر ولدي قمر الزمان . فخرج الوزير وهو يتعثّر في أذياله من خوفه من الملك وراح مع الخادم إلى البرج . وكانت الشمس قد طلعت ، فدخل الوزير على قمر الزمان فوجده جالساً على السرير يقرأ القرآن ، فسلّم عليه الوزير وجلس إلى جانبه وقال له : يا سيدي ، إن هذا العبد النحس أخبرنا بخبر شوّش علينا وأزعجنا ، فاغتاظ الملك من ذلك . فقال له قمر الزمان : أيها الوزير ، وما الذي قال لكم عنّي حتى شوّش على ابي ؟ وفي الحقيقة ، هو ما شوّش إلاّ علي . فقال له الوزير : إنه جاءنا بحالة منكرة وقال لنا قولاً حاشاك منه ، وكذب علينا بما لا ينبغي أن يذكر في شأنك . فسلامة شبابك وعقلك الرجيح ولسانك الفصيح ، وحاشا أن يصدر منك شيء قبيح . فقال له قمر الزمان : أيها الوزير ، فأي شيء قال هذا العبد النحس ؟ فقال له الوزير : إنه أخبرنا أنك جننت وقلت له : كان عندي صبيّة في الليلة الماضية . فهل قلت للخادم هذا الكلام ؟ فلما سمع قمر الزمان هذا الكلام ، اغتاظ غيظاً شديداً وقال للوزير : تبين لي أنكم علّمتم الخادم الفعل الذي صدر منه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 188

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن قمر الزمان ابن الملك شهرمان قال للوزير : تبين لي أنكم علّمتم الخادم الفعل الذي صدر منه ، ومنعتموه من أن يخبرني بأمر الصبية التي كانت نائمة عندي في هذه الليلة . وأنت أيها الوزير أعقل من الخادم ، فاخبرني في هذه الساعة أين ذهبت الصبيّة المليحة التي كانت نائمة في حضني تلك الليلة؟ فأنتم الذين أرسلتموها عندي وأمرتموها أن تبيت في حضني ، ونمت معها إلى الصباح . فلما انتبهت ما وجدتها ، فأين هي الآن ؟ فقال الوزير : يا سيدي قمر الزمان ، اسم الله حواليك والله ما أرسلنا لك في هذه الليلة أحداً ، وقد نمت وحدك والباب مقفول عليك والخادم نائم من خلف الباب ، وما أتى إليك صبيّة ولا غيرها . فارجع إلى عقلك يا سيدي ولا تشغل خاطرك . فقال له قمر الزمان وقد اغتاظ من كلامه : أيها الوزير ، إن تلك الصبيّة معشوقتي ، وهي المليحة صاحبة العيون السود والخدود الحمر التي عانقتها في هذه الليلة . فتعجّب الوزير من كلام قمر الزمان وقال له : هل رأيت تلك الصبيّة في هذه الليلة بعينك ، في اليقظة أو في المنام ؟ فقال له قمر الزمان : يا أيها الشيخ النحس ، أتظن أني رأيتها باذني ، إنما رأيتها بعيوني في اليقظة وقلّبتها بيدي ، وسهرت معها نصف ليلة كاملة وأنا اتفرّج على حسنها وجمالها وظرفها ودلالها . وإنما أنتم أوصيتموها أنها لا تكلّمني ، فجعلت نفسها نائمة . فنمت بجانبها إلى الصباح ، ثم استيقظت من منامي فلم

أجدها . فقال له الوزير : يا سيدي قمر الزمان، ربما تكون رايت هذا الأمر في المنام ، فيكون أضغاث أحلام أو تخيّلات من أكل مختلف الطعام أو وسوسة من الشياطين اللئام . فقال له قمر الزمان : يا أيها الشيخ النحس ، كيف تهزأ بي أنت الآخروتقول لي : لعلّ هذا أضغاث أحلام . مع ان الخادم قد اقرّ لي بتلك الصبيّة وقال لي : في هذه الساعة أعود إليك وأخبرك بقصّتها . ثم إن قمر الزمان قام من وقته وتقدّم إلى الوزير وقبض على لحيته في يده، وكانت لحيته طويلة . فأخذها قمر الزمان ولفّها على يده وجذبه منها، فرماه من فوق السرير وألقاه على الأرض . فحسّ الوزير ان روحه طلعت من شدّة نتف لحيته . ولا زال قمر الزمان يرفص الوزير برجليه ويصفعه على قفاه بيديه حتى كاد أن يهلكه . فقال الوزير في نفسه : إذا كان العبد الخادم خلّص نفسه من هذا الصبي المجنون بكذبه ، فانا أولى بذلك منه . وأخلص نفسي أنا الآخر بكذبة وإلاّ يهلكني ، فها أنا أكذب وأخلّص روحي منه فإنه مجنون لا شكّ في جنونه . ثم إن الوزير التفت إلى قمر الزمان وقال له : يا سيدي لا تؤاخذني ، فإن والدك أوصاني أن أكتم عنك خبر هذه الصبية ، وأنا الآن عجزت وكلّيت من الضرب لأني بقيت رجلاً كبيراً وليس لي قوة على تحمّل الضرب ، فتمهّل علي قليلاً حتى أحدّثك بقصة الصبيّة . فعند ذلك منع عنه الضرب وقال له : لأي شيء لم تخبرني بخبر تلك الصبية إلاّ بعد الضرب والإهانة؟ فقم يا أيها الشيخ النحس واحك لي خبرها . فقال له الوزير : هل أنت تسأل عن تلك الصبيّة صاحبة الوجه المليح والقدّ الرجيح ؟ فقال له قمر الزمان : نعم . أخبرني أيها الوزير ، من الذي جاء بها إليّ وأنامها عندي ؟ وأين هي في هذه الساعة حتى أروح أنا إليها بنفسي ؟ فإن كان أبي الملك شهرمان فعل معي هذه الفعال وامتحنني بتلك الصبيّة المليحة من أجل زواجها ، فأنا رضيت أن أتزوّج بها . فإنه ما فعل معي هذا الأمر كله وولع خاطري بتلك الصبيّة وبعد ذلك حجبها عني ، إلاّ من أجل امتناعي من الزواج . فها أنا رضيت بالزواج ، ثم رضيت بالزواج . فاعلم والدي بذلك أيها الوزير ، وأشر إليه أن يزوّجني بتلك الصبيّة ، فإني لا أريد سواها وقلبي لم يعشق إلاّ إياها . فقم واسرع إلى أبي وأشر إليه بتعجيل زواجي ، ثم عد إليّ قريباً في هذه الساعة . فما صدق الوزيربالخلاص من قمر الزمان، حتى خرج من البرج وهو يجري إلى ان دخل على الملك شهرمان . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 189

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، ان الوزير خرج يجري من البرج إلى أن دخل على الملك شهرمان . فلما دخل عليه قال له الملك : أيها الوزير، ما لي أراك في ارتباك، ومن الذي بشرّه رماك حتى جئت مرعوباً؟ فقال للملك : إني قد جئتك ببشارة . قال له الملك : وما تلك البشارة؟ قال له : أعلم أن ولدك قمر الزمان قد حصل له جنون . فلما سمع الملك كلام الوزير، صار الضياء في وجهه ظلاماً وقال له : أيها الوزير، أوضح لي صفة جنون ولدي . قال له الوزير : سمعاً وطاعةً . ثم أخبره بما صدر من ولده . فقال له الملك : أبشر أيها الوزير، إني أعطيتك في نظير بشارتك إياي بجنون ولدي ضرب رقبتك وزوال النعم عنك، يا انحس الوزراء وأخبث الأمراء . لأني أعلم أنك سبب جنون ولدي، بمشورتك ورأيك التعيس الذي أشرت به عليّ في الأول والآخر . والله إن كان تأتّى على ولدي شيء من الضرر والجنون،

لأسمِّرنك على القبّة وأذيقك النكبة . ثم إن الملك نهض قائماً على قدميه وأخذ الوزير معه ودخل به البرج الذي فيه قمر الزمان، فلما وصلا إليه قام قمر الزمان على قدميه لوالده ونزل سريعاً من فوق السرير الذي هو جالس عليه وقبّل يديه، ثم تأخّر وراءه وأطرق رأسه إلى الأرض وهو مكتّف اليدين قدّام أبيه . ولم يزل كذلك ساعة زمانية، وبعد ذلك رفع رأسه إلى والده وفرّت الدموع من عينيه وسالت على خدّه وأنشد قول الشاعر :[من الكامل]

إنْ كُنْتُ قَد أَذْنَبْتُ ذَنْباً سالِفاً　　في حَقِّكُمْ وأَتَيْتُ شَيْئاً مُنْكَرا
أَنا تائِبٌ عَمّا جَنَيْتُ وعَفْوُكُم　　يَسَعُ المُسِيءَ إذا أَتَى مُسْتَغْفِرا

فعند ذلك، قام الملك وعانق ولده قمر الزمان وقبّله بين عينيه وأجلسه إلى جانبه فوق السرير، ثم التفت إلى الوزير بعين الغضب وقال له : يا كلب الوزراء، كيف تقول على ولدي قمر الزمان ما هو كذا وكذا وترعب قلبي عليه؟ ثم التفت إلى ولده وقال له : يا ولدي، ما اسم هذا اليوم ؟ فقال له : يا والدي . هذا يوم السبت وغداً يوم الأحد وبعده يوم الإثنين وبعده الثلاثاء وبعده الأربعاء وبعده الخميس وبعده الجمعة . فقال له الملك : يا ولدي يا قمر الزمان، الحمد لله على سلامتك، ما اسم هذا الشهر الذي علينا بالعربي ؟ فقال : إسمه ذو القعدة ويليه ذو الحجة وبعده المحرّم وبعده صفر وبعده ربيع الأول وبعده ربيع الثاني وبعده جمادى الأولى وبعده جمادى الثانية وبعده رجب وبعده شعبان وبعده رمضان وبعده شوّال . ففرح بذلك الملك فرحاً شديداً وبصق في وجه الوزير وقال له : يا شيخ السوء، كيف تزعم أن ولدي قمر الزمان قد جُنّ؟ والحال إنه ما جنّ إلاّ أنت . فعند ذلك حرّك الوزير رأسه وأراد أن يتكلّم ، ثم خطر بباله أن يتمهّل قليلاً لينظر ماذا يكون . ثم إن الملك قال لولده : يا ولدي، أي شيء هذا الكلام الذي تكلّمت به للخادم والوزير حيث قلت لهما : إني كنت نائماً أنا وصبيّة مليحة في هذه الليلة . فما شأن هذه الصبيّة التي ذكرتها؟ فضحك قمر الزمان من كلام أبيه وقال له : يا والدي، أعلم أنه ما بقي لي قوّة تتحمّل السخرية فلا تزيدوا عليّ شيئاً ولا بكلمة واحدة، فقد ضاق خلقي مما تفعلونه معي . واعلم يا والدي أني رضيت بالزواج ، ولكن بشرط أن تزوّجني تلك الصبيّة التي كانت نائمة عندي في هذه الليلة، فإني أتحقّق أنك أنت الذي أرسلتها إليّ وشوّقتني إليها، وبعد ذلك أرسلت إليها قبل الصبح وأخذتها من عندي . فقال الملك : اسم الله حواليك يا ولدي، سلامة عقلك من الجنون . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 190

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شهرمان قال لولده قمر الزمان : اسم الله حواليك يا ولدي، سلامة عقلك من الجنون . فأي شيء هذه الصبيّة التي تزعم أني أرسلتها إليك في هذه الليلة ثم أرسلت آخذها من عندك قبل الصباح ؟ فوالله يا ولدي ليس لي علم بهذا الأمر فبالله عليك أن تخبرني هل ذلك أضغاث أحلام أو تخيّلات طعام ؟ فإنك بتّ في هذه الليلة وأنت مشغول الخاطر بالزواج وموسوس بذكره، قبّح الله الزواج وساعته وقبّح من أشار به . ولا شك أنك متكدّر المزاج من جهة الزواج ، فرأيت في المنام أن صبيّة مليحة تعانقك وأنت تعتقد في بالك أنك رأيتها في اليقظة، وهذا كله يا ولدي أضغاث أحلام . فقال قمر

الزمان : دع عنك هذا الكلام ، واحلف لي بالله الخالق العلاّم قاصم الجبابرة ومبيد الاكاسرة ، انه لم يكن عندك خبر بالصبيّة ومحلها . فقال له الملك : وحقّ الله العظيم إله موسى وإبراهيم ، انه لم يكن لي علم بذلك ، ولعلّه أضغاث أحلام رأيته في المنام . فقال قمر الزمان لوالده : أنا أضرب لك مثلاً يبين لك أن هذا كان في اليقظة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 191

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن قمر الزمان قال لوالده : أنا أضرب لك مثلاً يبيّن لك أن هذا كان في اليقظة ، وهو إني أسألك ، هل اتفق لأحد أنه رأى نفسه في المنام يقاتل ، وقد قاتل قتالاً شديداً وبعد ذلك استيقظ من منامه فوجد في يده سيفاً ملوّثاً بالدم ؟ فقال له والده : لا والله يا ولدي لم يتفق هذا . فقال له قمر الزمان : أخبرك بما حصل لي . وهو أني رأيت في هذه الليلة كأني استيقظت من منامي نصف الليل ، فوجدت بنتاً نائمة بجانبي وقدّها كقدّي وشكلها كشكلي فعانقتها ومسكتها بيدي وأخذت خاتمها ووضعته في إصبعي وقلعت خاتمي ووضعته في إصبعها ، وامتنعت عنها حياء منك . وظننت أنك أرسلتها واستخفيت في موضع لتنظر ما أفعل ، واستحييت من أجل ذلك أن أقبّلها في فمها حياء منك ، وخطر ببالي أنك تمتحنني بها حتى ترغبني في الزواج . وبعد ذلك انتبهت من منامي في وجه الصبح ، فلم أجد للصبيّة أثراً ولا وقفت لها على خبر ، وجرى لي مع الخادم والوزير ما جرى . فكيف يكون هذا الأمر كذباً وأمر الخاتم صحيح ؟ ولولا الخاتم كنت أظن أنه منام ، وهذا خاتمها الذي في خنصري في هذه الساعة . فانظر أيها الملك الخاتم ، ثم كم يساوي ؟ ثم إن قمر الزمان ناول الخاتم لأبيه ، فأخذه وقلبه ثم التفت إلى ولده وقال له : إن لهذا الخاتم نبأً عظيماً وخبراً جسيماً ، وإن الذي اتفق لك في هذه الليلة مع تلك الصبيّة أمر مشكل ، ولا أعلم من أين دخل علينا هذا الدخيل ، وما تسبب في هذا كله إلاّ الوزير . فبالله عليك يا ولدي أن تصبر لعل الله يفرج عنك هذه الكربة ويأتيك بالفرج العظيم . كما قال الشاعر : [من الطويل]

عَسَى ولَعَلَّ الدَّهْرَ يَلْوِي عِنانَهُ ... ويأْتِي بِخَيْرٍ فالزَّمانُ غَيُورُ
وتَسْعَدُ آمالي وتُقْضَى حَوائجي ... وتَحْدُثُ مِنْ بَعْدِ الأمُورِ أُمُورُ

فيا ولدي ، قد تحققت في هذه الساعة أنه ليس بك جنون ، ولكن قضيتك ما يجليها عنك إلاّ الله . فقال قمر الزمان لوالده : بالله يا والدي ، إنك تفحص لي عن هذه الصبيّة وتعجّل بقدومها وإلاّ متّ كمداً . ثم إن قمر الزمان أظهر الوجد ، والتفت إلى أبيه وأنشد هذين البيتين : [من البسيط]

إنْ كانَ وَعْدُكُمْ بالوَصْلِ تَزْوِيرُ ... فَفِي الكَرَى وَاصِلُوا المُشْتاقَ أَوْ زُورُوا
قالُوا : وكَيْفَ يَزُورُ الطَّيْفُ جَفْنَ فَتًى ... مَنامُهُ عَنْهُ مَمْنُوعٌ ومَحْجُورُ ؟

ثم إن قمر الزمان بعد إنشاد هذه الأشعار ، التفت إلى أبيه بخضوع وإنكار ، وأفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات ، وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

فلما كانت الليلة 192

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان أفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات :

[من الطويل]

خُذُوا حِذْرَكُمْ مِنْ طَرْفِها فَهو ساحِرٌ ... ولَيْسَ بِناجٍ مَنْ رَمَتْهُ المَحاجِرُ
ولا تُخْدَعُوا مِنْ رِقَّةٍ في كَلامِها ... فإن الحُمَيَّا لِلعُقُولِ تُخامِرُ
مُنَعَّمَةٌ لَو لامَسَ الوَرْدُ خَدَّها ... بَكَتْ وبَدَتْ من مُقْلَتَيْها البَوادِرُ
فَلَو في الكَرَى مَرَّ النَّسِيمُ بأَرْضِها ... سَرَى أَبَداً مِنْ أَرْضِها وَهْوَ عاطِرُ
قَلائدُها تَشْكُو رَنِينَ وِشاحِها ... وقَد خَرِسَتْ مِنْ مِعْصَمَيْها الأَساوِرُ
إذا ما اشْتَهَى الخَلْخالَ تَقْبِيلَ قُرْطِها ... بَدَتْ لِعُيُونِ الوَصْلِ مِنْها الضَّمائِرُ
ولي عاذِلٌ في حُبِّها غَيْرُ عاذِرٍ ... وما تَنْفَعُ الأَبْصارُ لَوْلا البَصائِرُ
عُذُولِي لَحاكَ اللهُ ما أَنْتَ مُنْصِفٌ ... إلى مِثْلِ هذا الحُسْنِ تُثْنَى النَّواظِرُ

فلما فرغ م شعره، قال الوزير للملك : يا ملك الزمان، إلى متى وأنت محجوب عن العسكر عند ولدك قمر الزمان؟ فربما ينفسد عليك نظام المملكة بسبب بعدك عن أرباب دولتك. والعاقل إذا ألمّ بجسمه أمراض مختلفة يجب عليه أن يبدأ بمداواة أعظمها، والرأي عندي أن تنقل ولدك من هذا المكان إلى القصر الذي في السراية المطل على البحر، وتنقطع عند ولدك فيه. وتجعل للموكب والديوان في كل جمعة يومين : الخميس والإثنين، فيدخل عليك فيهما الأمراء والوزراء والحجاب والنواب وأرباب الدولة وخواص المملكة وأصحاب الصولة وبقية العساكر والرعيّة ويعرضون عليك أحوالهم، فاقض حوائجهم واحكم بينهم وخذ واعط معهم وأمر وأنه بينهم، وبقية الجمعة تكون عند ولدك قمر الزمان. ولم تزل على تلك الحالة حتى يفرج الله عنك وعنه. ولا تأمن أيها الملك من نوائب الزمان وطوارق الحدثان، فإن العاقل دائماً محاذر. وما أحسن قول الشاعر : [من البسيط]

حَسَّنْتَ ظَنَّكَ بالأَيّامِ إذ حَسُنَتْ ... ولَم تَخَفْ سُوءَ ما يأتِي به القَدَرُ
وسالَمَتْكَ اللَّيالي فاغْتَرَرْتَ بِها ... وعِنْدَ صَفْوِ اللَّيالي يَحْدُثُ الكَدَرُ
يا مَعْشَرَ النَّاسِ مَنْ كانَ الزَّمانُ له ... مُساعِداً فَلْيَكُنْ مِنْ رأْيِهِ الحَذَرُ

فلما سمع السلطان من الوزير هذا الكلام، رآه صواباً ونصيحة في مصلحته، فأثّر عنده وخاف أن ينفسد عليه نظام الملك. فنهض من وقته وساعته وأمر بتحويل ولده من ذلك المكان إلى القصر الذي في السراية المطل على البحر، ويمشون إليه على ممشاة في وسط البحر عرضها عشرون ذراعاً، وبدائر القصر شبابيك مطلة على البحر وأرض ذلك القصر مفروشة بالرخام الملون وسقفه مدهون بأفخر الأدهان من سائر الألوان ومنقوش بالذهب واللازورد. ففرشوا لقمر الزمان فيه البسط الحرير، وألبسوا حيطانه الديباج وأرخوا عليه الستارات المكللّة بالجواهر.

ودخل فيه قمر الزمان وصار من شدّة العشق كثير السهر، فاشتغل خاطره واصفّر لونه وانتحل جسمه، وجلس والده الملك شهرمان عند رأسه وحزن عليه. وصار الملك في كل يوم اثنين ويوم خميس يأذن في أن يدخل عليه من شاء الدخول من الأمراء والوزراء والحجّاب والنواب وأرباب الدولة وسائر العساكر والرعيّة في ذلك للقصر، فيدخلون عليه ويؤدّون وظائف الخدمة ويقيمون عنده إلى آخر النهار ثم ينصرفون بعد ذلك إلى حال سبيلهم. وبعد ذلك يدخل الملك عند ولده قمر الزمان في ذلك المكان، ولا يفارقه ليلاً ولا نهاراً. ولم يزل على تلك الحالة مدة أيام وليال من الزمان. هذا ما كان من أمر قمر الزمان ابن الملك شهرمان.

وأما ما كان من أمر الملكة بدور بنت الملك الغفور صاحب الجزائر والسبعة قصور، فإن الجن لما حملوها ونيّموها في فراشها لم يبقَ من الليل إلاّ ثلاث ساعات. ثم طلع الفجر، فاستيقظت من منامها وجلست والتفتت يميناً وشمالاً فلم ترَ معشوقها الذي كان في حضنها، فارتجف فؤادها وزلّ عقلها وصرخت صرخة عظيمة، فاستيقظ جميع جواريها والدّايات والقهرمانات ودخلن عليها. فتقدّمت إليها كبيرتهنّ وقالت لها: يا سيدتي، ما الذي أصابك؟ فقالت لها: أيتها العجوز النحس، أين معشوقي الشاب المليح الذي كان نائماً هذه الليلة في حضني؟ فاخبريني أين راح؟ فلما سمعت منها القهرمانة هذا الكلام، صار الضياء في وجهها ظلاماً، وخافت من بأسها خوفاً عظيماً وقالت: يا سيدتي بدور، أي شيء هذا الكلام القبيح؟ فقالت السيدة بدور: ويلك يا عجوز النحس، أين معشوقي الشاب المليح صاحب الوجه الصبيح والعيون السود والحواجب المقرونة الذي كان بايتاً عندي من العشاء إلى قرب طلوع الفجر؟ فقالت: والله ما رأيت شاباً ولا غيره. فبالله يا سيدتي لا تمزحي هذا المزاح الخارج عن الحدّ، فتروح أرواحنا. وربما بلغ أباك هذا المزاح، فمن يخلّصنا من يده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 193

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن القهرمانة قالت للسيدة بدور: بالله عليك لا تمزحي هذا المزاح الخارج عن الحدّ، فإنه ربما بلغ أباك هذا المزاح فمن يخلصنا من يده؟ فقالت لها الملكة بدور: إنه كان غلام بايتاً عندي في هذه الليلة وهو من أحسن الناس وجهاً. فقالت لها القهرمانة: سلامة عقلك، ما كان أحد بايتاً عندك في هذه الليلة. فعند ذلك نظرت بدور إلى يدها فوجدت خاتم قمر الزمان في إصبعها ولم تجد خاتمها فقالت للقهرمانة: ويلك يا خائنة، أتكذبين عليّ وتقولين: ما كان أحد بايتاً عندي وتحلفين لي بالله باطلاً. فقالت القهرمانة: والله ما كذبت عليك ولا حلفت باطلاً. فاغتاظت منها السيدة بدور وسحبت سيفاً كان عندها وضربت القهرمانة فقتلتها. فعند ذلك صاح الخدم والجواري والسراري عليها وراحوا إلى أبيها وأعلموه بحالها. فأتى الملك إلى ابنته السيدة بدور من وقته وساعته وقال لها: يا بنتي، ما خبرك؟ فقالت: يا أبي، أين الشاب الذي كان نائماً بجانبي في هذه الليلة؟ وطار عقلها من رأسها وصارت تلتفت بعينيها يميناً وشمالاً، ثم شقّت ثوبها إلى ذيلها. فلما رأى أبوها تلك الفعال، أمر الجواري والخدم أن يمسكوها، فقبضوا عليها وقيّدوها وجعلوا في رقبتها سلسلة من حديد وربطوها في الشباك الذي في القصر. هذا ما كان من أمر الملكة بدور. وأما ما كان من أمر أبيها

الملك الغيور ، فإنه لما رأى ما جرى على ابنته السيدة بدور ، وضاقت عليه الدنيا لأنه كان يحبها فلم يهن عليه أمرها . فعند ذلك أحضر المنجمين والحكماء وأصحاب الأقلام وقال لهم : من أبرأ بنتي مما هي فيه زوّجته بها وأعطيته نصف مملكتي ، ومَنْ لم يبرئها ضربت عنقه وعلّقت رأسه على باب قصرها . وصار كل من دخل عليها ولم يبرئها يضرب عنقه ويعلّق رأسه على باب القصر ، ولم يزل يفعل ذلك إلى أن قطع من أجلها أربعين رأساً . فطلب سائر الحكماء فتوقف جميع الناس عنها ، وعجزت جميع الحكماء عن دوائها ، وأشكلت قضيتها على أهل العلوم وأرباب الأقلام . ثم إن السيدة بدور لما زاد بها الوجد والغرام وأضرّ بها العشق والهيام ، أجرت العبرات وأنشدت هذه الأبيات : [من الوافر]

غَرامِي فِيكَ يا قَمَري غَرِيمِي ... وذِكْرُكَ في دُجَى لَيلِي نَدِيمِي
أَبِيتُ وأَضْلُعِي فِيها لَهِيبٌ ... يُحاكِي حَرُّهُ نارَ الجَحِيمِ
بُلِيتُ بِفَرْطِ وَجْدٍ وٱحْتِراقٍ ... عَذابِي مِنْهُما أَضْحَى أَلِيمِي

ثم أنشدت أيضاً : [من الطويل]

سَلامِي عَلَى الأَحْبابِ في كُلِّ مَنْزِلٍ ... فإنّي إلى نَحْوِ الحَبِيبِ أُرِيدُ
سَلامِي عَلَيْكم -لا سَلامَ مُوَدِّعٍ- ... سَلامٌ كَثِيرٌ؛ لا يَزالُ يَزِيدُ
وإنِّي لأَهْواكُم وأَهْوَى دِيارَكُم ... ولَـكِـنَّنِي عَمّا أُرِيدُ بَعِيدُ

فلما فرغت السيدة بدور من إنشاد هذه الأشعار ، بكت حتى مرضت جفونها وتذبّلت وجناتها . ثم إنها استمرت على هذا الحال ثلاث سنين . وكان لها أخ من الرضاع يسمى مرزوان ، وكان سافر إلى أقصى البلاد وغاب عنها تلك المدة بطولها ، وكان يحبها محبة زيادة على محبة الأخوة . فلما حضر ، دخل على والدته وسألها عن أخته السيدة بدور فقالت له : يا ولدي ، إن أختك حصل لها جنون ومضى لها ثلاث سنين ، وفي رقبتها سلسلة من حديد وعجزت الأطباء عن دوائها . فلما سمع مرزوان هذا الكلام قال : لا بدّ من دخولي عليها لعلّي أعرف ما بها وأقدر على دوائها . فلما سمعت أمه كلامه قالت : لا بدّ من دخولك عليها ، ولكن إصبر إلى غد حتى أتحيّل في أمرك . ثم إن أمه ترجّلت إلى قصر السيدة بدور واجتمعت بالخادم الموكل بالباب وأهدت له هدية وقالت : إن لي بنتاً وقد تربّت مع السيدة بدور وقد زوّجتها ، ولما جرى لسيدتك ما جرى صار قلبها متعلّقاً بها . وأقصد فضلك في أن بنتي تأتي عندها ساعة لتنظرها ثم ترجع من حيث جاءت ولا يعلم بها أحد . فقال الخادم : لا يمكن ذلك إلاّ في الليل ، فبعد أن يأتي السلطان ينظر ابنته ويخرج ، ادخلي أنت وابنتك . فقبّلت العجوز يد الخادم وخرجت إلى بيتها . فلما جاء وقت العشاء في الليلة القابلة ، قامت من وقتها وساعتها وأخذت ولدها مرزوان وألبسته بدلة من ثياب النساء وجعلت يده في يدها وأدخلته القصر ، ولا زالت تمشي به حتى أوصلته إلى الخادم بعد انصراف السلطان من عند بنته . فلما رآها الخادم قام واقفاً وقال لها : أدخلي ولا تطلبي القعود . فلما دخلت العجوز بولدها مرزوان ، رأى السيدة بدور في تلك الحالة فسلّم عليها بعد أن كشفت عنه أمه ثياب النساء ، فأخرج مرزوان الكتب التي معه وأوقد شمعته . فنظرت إليه السيدة بدور فعرفته وقالت له : يا أخي ، أنت كنت سافرت وانقطعت أخبارك عنّا . فقال لها : صحيح ، ولكن

ردّني الله بالسلامة . وأردت السفر ثانياً ، فما ردّني عنه إلاّ هذا الخبر الذي سمعته عنك . فاحترق فؤادي عليك وجئت إليك لعلّي أعرف داءك وأقدر على دوائك . فقالت له : يا أخي ، هل تحسب أن الذي اعتراني جنون . ثم اشارت إليه وأنشدت هذين البيتين : [من البسيط]

قالوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... ما لَذَّةُ العَيْشِ إلاّ لِلمَجانِينِ
نَعَمْ جُنِنْتُ فَهاتُوا مَنْ جُنِنْتُ بِه ... إنْ كانَ يَشْفِي جُنُونِي لا تَلُومُونِي

فعلم مرزوان أنها عاشقة فقال لها : أخبريني بقصتك وما اتفق لك ، لعلّ الله أن يطلعني على ما فيه خلاصك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 194

□ قالت بلغني أيها الملك السعيد ، أن مرزوان قال للسيدة بدور : لعلّ الله أن يطلعني على ما فيه خلاصك . فقالت له السيدة بدور : يا أخي إسمع قصتي ، وذلك إني استيقظت من منامي ليلة في الثلث الأخير من الليل وجلست ، فنظرت إلى جانبي شاباً أحسن ما يكون من الشباب ، يكلّ عن وصفه اللسان كأنه غصن بان أو قضيب خيزران ، فظننت أن أبي هو الذي أمره بهذا الأمر ليمتحنني به . لأنه راودني عن الزواج لما خطبني منه الملوك فابيت ، فهذا الظن هو الذي منعني من أن انبهه ، وخشيت أني إذا عانقته ربما يخبر أبي بذلك . فلما أصبحت رأيت بيدي خاتمه عوضاً عن خاتمي . فهذه حكايتي ، وأنا يا أخي قد تعلّق قلبي به من حين رؤيته ، ومن كثرة عشقي والغرام لم اذق طعم المنام ، وما لي شغل غير بكائي بالدموع الغزار ، وإنشاد الأشعار بالليل والنهار . ثم أفاضت العبرات هذه الأبيات : [من الوافر]

أَبَعْدَ الحُبِّ لَذَّاتِي تَطِيبُ ... وذاكَ الظَّبْيُ مَرْتَعُهُ القُلُوبُ
دَمُ العُشّاقِ أَهْوَنُ ما عَلَيْهِ ... وفِيهِ مُهْجَةُ المُضْنَى تَذُوبُ
أَغارُ عَلَيْهِ مِنْ نَظَرِي وفِكْرِي ... فَمِنْ بَعْضِي على بَعْضِي رَقِيبُ
وأَجْفانٌ لَهُ تَرْمِي سِهاماً ... فَواتِكَ فِي القُلُوبِ لَنا تَصِيبُ
فَهَل لِي أَنْ أَراهُ قَبْلَ مَوْتِي ... إذا ما كانَ فِي الدُّنْيا نَصِيبُ
وأَكْتُمُ سِرَّهُ فَيَنِمُّ دَمْعِي ... بِما عِنْدِي ويَعْلَمُهُ الرَّقِيبُ
قَرِيبٌ وَصْلُهُ مِنِّي بَعِيدٌ ... بَعِيدٌ ذِكْرُهُ مِنِّي قَرِيبُ

ثم إن السيدة بدور قالت لمرزوان : أنظر يا أخي ما الذي تعمل معي في الذي اعتراني . فأطرق مرزوان رأسه إلى الأرض ساعة وهو يتعجّب وما يدري ما يفعل ، ثم رفع رأسه وقال لها : جميع ما جرى لك صحيح وإن حكاية هذا الشاب أعيت فكري ، ولكن أدور في جميع البلاد وأفتش على دوائك لعلّ الله يجعله على يدي ، فاصبري ولا تقلقي . ثم إن مرزوان ودّعها ودعا لها بالثبات ، وخرج من عندها وهي تنشد هذه الأبيات : [من الوافر]

ويَخْطُو لِي خَيالُكَ فِي ضَمِيرِي ... عَلى بُعْدِ المكانِ خُطَى مَزُورِ
وتُدْنِيكَ الأماني مِنْ فُؤَادِي ... وأَيْنَ البَرْقُ مِنْ لَمْحِ البَصِيرِ
فَلا تَبْعُدْ لأَنَّكَ نُورُ عَيْنِي ... إذا ما غِبْتَ لَم تُكْحَلْ بِنُورِ

ثم إن مرزوان تمشى إلى بيت والدته فنام تلك الليلة . ولما أصبح الصباح تجهّز للسفر فسافر، ولم يزل مسافراً من مدينة إلى مدينة ومن جزيرة إلى جزيرة مدّة شهر كامل . ثم دخل مدينة يقال لها الطيرب، واستنشق الأخبار من الناس لعلّه يجد دواء الملكة بدور . وكان كلما يدخل من مدينة أو يمرّ بها، يسمع أن الملكة بدور بنت الملك الغيور قد حصل لها جنون . ولم يستنشق الأخبار حتى وصل إلى مدينة الطيرب . فسمع أن قمر الزمان ابن الملك شهرمان مريض، وأنه اعتراه وسواس وجنون . فلما سمع مرزوان بخبره، سأل بعض أهل تلك المدينة عن بلاده ومحل تخته . فقالوا له : جزائر خالدان، وبيننا وبينها مسيرة شهر كامل في البحر، وأما في البر فستّة أشهر . فنزل مرزوان في مركب إلى جزائر خالدان، وكانت المركب مجهّزة للسفر، وطاب لها الريح مدة شهر فبانت لهم المدينة . ولما أشرفوا عليها ولم يبقَ لهم إلاّ الوصول إلى الساحل، خرج عليهم ريح عاصف فرمى القرية ووقعت القلوع في البحر وانقلبت المركب بجميع ما فيها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 195

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن المركب انقلبت بجميع ما فيها واشتغل كل واحد بنفسه . وأما مرزوان، فإنه جذبته قوّة التيار جذبة حتى أوصلته تحت قصر الملك الذي فيه قمر الزمان . وكان بالأمر المقدور، قد اجتمع الأمراء والوزراء عنده للخدمة، والملك شهرمان جالس ورأس ولده قمر الزمان في حجره وخادم ينش عليه . وكان قمر الزمان مضى له يومان وهو لم يأكل ولم يشرب ولم يتكلّم، وصار الوزير واقفاً عند رجليه قريب الشباك المطل على البحر . فرفع الوزير بصره فرأى مرزوان قد أشرف على الهلاك من التيّار وبقي على آخر نفس . فرقّ قلب الوزير اليه فتقرّب إلى السلطان ومدّ رأسه إليه وقال له : أستأذنك في ان انزل إلى ساحة القصر وأفتح بابها لأنقذ إنساناً قد أشرف على الغرق في البحر، وأطلعه من الضيق إلى الفرج . لعلّ الله بسبب ذلك يخلص ولدك مما هو فيه . فقال السلطان : كل ما جرى على ولدي بسببك، وربما أنك إذا أطلعت هذا الغريق، يطّلع على أحوالنا وينظر إلى ولدي وهو في هذه الحالة فيشمت بي . ولكن أقسم بالله إن طلع هذا الغريق ونظر إلى ولدي وخرج يتحدّث مع أحد بأسرارنا، لأضربن رقبتك قبله . لأنك أيها الوزير سبب ما جرى لنا أولاً وآخراً، فافعل ما بدا لك . فنهض الوزير وفتح باب الساحة ونزل في الممشاة عشرين خطوة، ثم خرج إلى البحر فرأى مرزوان مشرفاً على الموت . فمدّ الوزير يده إليه ومسكه من شعر رأسه وجذبه منه فخرج من البحر وهو في حال العدم، وقد امتلأ بطنه ماء وبرزت عيناه . فصبر الوزير عليه حتى ردت روحه إليه، ثم نزع عنه ثيابه وألبسه ثياباً غيرها وعمّمه بعمامة من عمائم غلمانه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 196

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير لما فعل مع مرزوان ما فعل قال له : أعلم أني كنت سبباً لنجاتك من الغرق، فلا تكن سبباً لموتي وموتك . فقال مرزوان : وكيف ذلك؟ قال الوزير : لأنك في هذه الساعة تطلع وتشق بين أمراء ووزراء، والكل ساكتون لا يتكلمون من اجل قمر الزمان ابن السلطان . فلما سمع مرزوان ذكر قمر الزمان

عرفه، لأنه كان يسمع بحديثه في البلاد. فقال مرزوان: ومن قمر الزمان؟ فقال الوزير: هو ابن السلطان شهرمان، وهو ضعيف ملقى على الفراش لا يقرّ له قرار ولا يعرف ليلاً من نهار، وكاد أن يفارق الحياة من نحول جسمه ويصير من الأموات، فنهاره في لهيب وليله في تعذيب. وقد يئسنا من حياته وأيقنّا بوفاته. وإيّاك أن تطيل النظر إليه أو تنظر إلى غير الموضع الذي تحط فيه رجلك وإلاّ فتروح روحك وروحي. فقال له: بالله تخبرني عن الشاب الذي وصفته لي، ما سبب هذا الأمر الذي هو فيه؟ فقال له الوزير: لا أعلم سبباً، إلاّ أن والده من منذ ثلاث سنين كان يرواده عن أمر الزواج وهو يأبى، فاصبح يزعم أنه كان نائماً فرأى بجنبه صبيّة بارعة الجمال، وجمالها يحيّر العقول ويعجز عنه الوصف. وذكر لنا أنه نزع خاتمها من إصبعها ولبسه وألبسها خاتمه، ونحن لا نعرف باطن هذه القضية. فبالله يا ولدي إطلع معي القصر ولا تنظر إلى ابن الملك، بعد ذلك رح إلى حال سبيلك، فإن السلطان قلبه ملآن عليّ غيظاً. فقال مرزوان في نفسه: والله إن هذا هو المطلوب. ثم طلع مرزوان خلف الوزير إلى أن وصل إلى القصر، ثم جلس الوزير تحت رجلي قمر الزمان. وأما مرزوان فإن لم يكن له دأب، إلا أنه مشى حتى وقف قدّام قمر الزمان ونظر اليه، فمات الوزير في جلده وصار ينظر إلى مرزوان ويغمزه ليروح إلى حال سبيله، ومرزوان يتغافل وينظر إلى قمر الزمان وعلم أنه هو المطلوب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 197

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مرزوان لما نظر إلى قمر الزمان وعلم أنه هو المطلوب قال: سبحان الله الذي جعل قدّه مثل قدّها وخدّه مثل خدّها ولونه مثل لونها. ففتح قمر الزمان عينيه وصغى بأذنيه، فلما رآه مرزوان صاغياً إلى ما يلقيه من الكلمات أنشد هذه الأبيات: [من الطويل]

أَراكَ طَرُوباً ذا شَجَى وتَرَنُّمٍ ... تَميلُ إلى ذِكْرِ المَحاسِنِ بالفَمِ
أَصابَكَ عِشْقٌ أَمْ رُمِيتَ بأَسْهُمٍ ... فَما هذه إلاّ سَجِيَّةُ مَنْ رَمِي
أَلا فاسْقِنِي كاساتِ خَمْرٍ وغَنِّ لي ... بِذِكْرِ سُلَيْمَى والرَّبابِ وتَنْعَمِ
أَغارُ عَلى أَعْطافِها مِنْ ثِيابِها ... إذا لَبِسَتْها فَوْقَ جِسْمٍ مُنَعَّمِ
وأَحْسِدُ كاساتٍ تُقَبِّلُ ثَغْرَها ... إذا وَضَعَتْها مَوْضِعَ اللَّثْمِ في الفَمِ
فَلا تَحْسَبُوا أَنِّي قُتِلْتُ بِصارِمٍ ... ولَـكِنْ لِحاظٌ قَد رَمَتْنِي بِأَسْهُمِ
ولَمّا تَلاقَيْنا وَجَدْتُ بَنانَها ... مُخَضَّبَةً تَحْكِي عُصارَةَ عَنْدَمِ
فَقالَتْ وأَلْقَتْ في الحَشَى لاعِجَ الجَوَى ... مَقالَةَ مَنْ لِلْحُبِّ لَم يَتَـكَتَّمِ
رُوَيْدَكَ ما هَذا خِضابٌ خَضَبْتُهُ ... فَلا تَكُ بالبُهْتانِ والزُّورِ مُتْهِمِي
ولَـكِنَّنِي لَمّا رَأَيْتُكَ نائِماً ... وقَد كُشِّفَتْ كَفِّي وزَنْدِي ومِعْصَمِ
بَـكَيْتُ دَماً يَوْمَ النَّوَى فَمَسَحْتُهُ ... بِكَفِّيَ فابْتَلَّتْ بَنانِيَ مِنْ دَمِي
فَلَوْ قَبْلَ مَبْكاها بَـكَيْتُ صَبابَةً ... لَـكُنْتُ شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ

وَلَـكِنْ بَـكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَنِي البُكا   بُكاها، فَقُلْتُ: الفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ
فَلا تَعْذُلُونِي في هَواها لأنَّنِي   وَحَقِّ الهَوَى فِيها كَثِيرُ التَّأَلُّمِ
بَـكَيْتُ عَلى مَنْ زَيَّنَ الحُسْنَ وَجْهُها   وَلَيْسَ لَها مِثْلٌ بِعُرْبٍ وأَعْجَمِ
لَها عِلْمُ لَقْمانَ وصُورَةُ يُوسُفَ   ونَغْمَةُ داوُدَ وعِفَّةُ مَرْيَمِ
ولِي حِزْنُ يَعْقُوبَ وحَسْرَةُ يُونسَ   وبَلْوَةُ أَيُّوبَ وقِصَّةُ آدَمِ
فَلا تَقْتُلُوها إنْ قُتِلْتَ بِها جَوًى   بَلى فاسْأَلُوها كَيْفَ حَلَّ لَها دَمِي

فلما أنشد مرزوان هذا الشعر، نزل على قلب قمر الزمان برداً وسلاماً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 198

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مرزوان لما أنشد هذا الشعر نزل على قلب قمر الزمان برداً وسلامًا ودار لسانه في فمه وأشار إلى السلطان بيده، دع هذا الشاب يجلس في جانبي. فلما سمع السلطان من ولده قمر الزمان هذا الكلام، فرح فرحاً شديداً بعد أن غضب على الشاب وأضمر في نفسه أنه يرمي رقبته ثم قام الملك وأجلس مرزوان إلى جانب ولده وأقبل عليه وقال له: من أي البلاد أنت؟ قال: من الجزائر الجوانيّة، من بلاد الملك الغيور صاحب الجزائر والبحور والسبعة قصور. فقال له الملك شهرمان: عسى أن يكون الفرج على يدك لولدي قمر الزمان. ثم إن مرزوان أقبل على قمر الزمان وقال له في أذنه: ثبّت قلبك وطب نفساً وقرّ عيناً، افإن التي صرت من أجلها هكذا، لا تسأل عمّا هي فيه من أجلك. ولكنك كتمت أمرك فضعفت، وأما هي فإنها أظهرت ما بها فجنّت، وهي الآن مسجونة بأسوأ حال وفي رقبتها غلّ من حديد، وإن شاء الله يكون دواؤكما على يدي. فلما سمع قمر الزمان هذا الكلام، ردّت روحه إليه واستفاق وأشار إلى الملك والده أن يجلسه، ففرح فرحاً زائداً وأجلس ولده، ثم أخرج جميع الوزراء والأمراء. واتّكأ قمر الزمان بين مخدّتين، وأمر الملك أن يطيّبوا القصر بالزعفران، ثم أمر بزينة المدينة وقال لمرزوان: والله يا ولدي إن هذه طلعة مباركة. ثم أكرمه غاية الإكرام وطلب لمرزوان الطعام فقدّموه له، فأكل وأكل معه قمر الزمان وبات عنده تلك الليلة، وبات الملك عندهما من فرحته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 199

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السلطان شهرمان بات تلك الليلة عندهما من شدّة فرحته بشفاء ولده. فلما أصبح الصباح، صار مرزوان يحدّث قمر الزمان بالقصة وقال له: أعلم أنني أعرف التي اجتمعت بها واسمها السيدة بدور بنت الملك الغيور. ثم حدّثه بما جرى للسيدة بدور من الأول إلى الآخر، وأخبره بفرط محبتها له. وقال له: جميع ما جرى لك مع والدك جرى لها مع والدها، وأنت من غير شك حبيبها وهي حبيبتك، فثبّت قلبك وقوّ عزيمتك فها أنا أوصلك إليها وأجمع بينك وبينها، وأعمل معكما كما قال بعض الشعراء: [من السريع]

إذا حَبِيبٌ صَدَّ عَنْ صَبِّه   ولم يَزَلْ في فَرْطِ إعْراضِ

أَلْفَتُ وَصْلاً بَيْنَ شَخْصَيْهِما كأَنَّني مِسْمارُ مِقْراضِ

ولم يزل مرزوان يشجع قمر الزمان حتى أكل الطعام وشرب الشراب وردّت روحه إليه، ونصل مما كان فيه. ولم يزل مرزوان يحدّثه وينادمه ويسليّه وينشد له الأشعار حتى دخل الحمام، وأمر والده بزينة المدينة فرحاً بذلك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 200

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، ان الملك شهرمان لما دخل ولده قمر الزمان الحمّام، أمر بزينة المدينة فرحاً بذلك، وخلع الخلع وتصدّق وأطلق مَنْ في الحبوس. ثم إن مرزوان قال لقمر الزمان: أعلم انني ما جئت من عند السيدة بدور إلاّ لهذا الأمر وهو سبب سفري، لأجل ان أخلّصها مما هي فيه. وما بقي لنا إلاّ الحيلة في رواحنا إليها، لأن والدك لا يقدر على فراقك. ولكن في غد إستأذن والدك في أنك تخرج إلى الصيد في البرية، وخذ معك خرجاً ملآناً من المال واركب جواداً من الخيل وخذ معك جنيباً وانا الآخر مثلك، وقل لوالدك: إني أريد أن أتفرّج في البرية وأتصيّد وأنظر الفضاء وأبيت هناك ليلة واحدة فلا تشغل قلبك عليّ بشيء. ففرح قمر الزمان بما قاله مرزوان ودخل على والده واستأذنه في الخروج إلى الصيد، وقال له الكلام الذي أوصاه به مرزوان، فأذن له والده في الخروج إلى الصيد وقال له: لا تبت غير ليلة واحدة وفي غد تحضر، فإنك تعلم أنه ما يطيب لي عيش إلاّ بك، وإنني ما صدقت انك خلصت مما كنت فيه. ثم إن الملك شهرمان أنشد لولده هذين البيتين: [من الطويل]

وَلَو أَنَّني أَصبَحْتُ في كُلِّ نِعْمَةٍ وكانَتْ لِي الدُّنْيا ومُلْكُ الأكاسِرَهْ
لَمَا وَازَنَتْ عِنْدي جَناحَ بَعُوضَةٍ إذا لم تَكُنْ عَيْني لِشَخْصِكَ ناظِرَهْ

ثم إن الملك جهزّ ولده قمر الزمان، هو ومرزوان، وأمر ان يهيأ لهما ستة من الخيل وهجيناً برسم المال وجملاً يحمل الماء والزاد، ومنع قمر الزمان ان يخرج معه أحد في خدمته. فودّعه أبوه وضمّه إلى صدره وقال له: سألتك بالله لا تغب عني إلاّ ليلة واحدة وحرام عليّ المنام فيها. وأنشد يقول: [من المتقارب]

وِصالُكَ عِنْدي أَلَذُّ نَعِيمْ وصَبْرِيَ عَنْكَ أَضَرُّ أَلِيمْ
فَدَيْتُكَ إنْ كانَ ذَنْبِي الهَوَى إلَيْكَ فَذَنْبِي أَجَلُّ عَظِيمْ
أَعِنْدَكَ مِثْلِي نارُ الجَوَى فَأَصْلَى بذاكَ عَذابُ الجَحِيمْ

ثم خرج قمر الزمان ومرزوان، وركبا فرسين ومعهما الهجين عليه المال والجمل عليه الماء والزاد واستقبلا البر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 201

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، ان قمر الزمان ومرزوان لما استقبلا البرّ، سارا أول يوم إلى المساء، ثم نزلا وأكلا وشربا وأطعما دوابهما واستراحا ساعة ثم ركبا وسارا. وما زالا سائرين مدّة ثلاثة ايام، وفي رابع يوم بان لهما مكان متّسع فيه غاب فنزلا فيه، ثم اخذ مرزوان جملاً وفرساً وذبحهما وقطع لحمهما قطعاً ونجر عظمهما، وأخذ من قمر الزمان قميصه ولباسه وقطّعها قطعاً ولوّثهما بدم الفرس، وأخذ ملوطة قمر الزمان ومزّقها

ولوّثها بالدم ورماها في مفرق الطريق، ثم اكلا وشربا وسافرا. فسأله قمر الزمان عن ما فعله، فقال له مرزوان: أعلم ان والدك الملك شهرمان إذا غبت عنه ليلة ولم تحضر له ثاني ليلة، يركب ويسافر في اثرنا إلى ان يصل إلى هذا الدم الذي فعلته، ويرى قماشك مقطّعاً وعليه الدم فيظن في نفسه انه جرى لك شيء من قطّاع الطريق او وحش البر، فينقطع رجاؤه منك ويرجع إلى المدينة ونبلغ بهذه الحيلة ما نريد. فقال قمر الزمان: نعم ما فعلت. ثم سارا اياماً وليالي، كل ذلك وقمر الزمان باكي العين إلى ان استبشر بقرب الديار فانشد هذه الأشعار: [من الطويل]

أَتَجْفُو مُحِبّاً ما سَلا عَنْكَ ساعَةً ... وتَزْهَدُ فيهِ بَعْدَما كُنْتَ راغِبا

حُرِمْتُ الرِّضَى إنْ كُنْتُ خُنْتُكَ في الهَوَى ... وعُوقِبْتُ بالهِجْرانِ إنْ كُنْتُ كاذِبا

وما كانَ لي ذَنْبٌ فأَسْتَوْجِبُ الجَفا ... وإنْ كانَ لي ذَنْبٌ فَقَدْ جِئْتُ تائِبا

ومِنْ عَجَبِ الأَيّامِ أَنَّكَ هاجِرِي ... وما زالَتِ الأَيّامُ تُبْدِي العَجائِبا

فلما فرغ قمر الزمان من شعره بانت له جزائر الملك الغيور، ففرح قمر الزمان فرحاً شديداً وشكر مرزوان على فعله. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 202

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لما بانت له جزائر الملك الغيور، فرح فرحاً شديداً وشكر مرزوان على فعله. ثم دخلا المدينة وأنزله مرزوان في خان واستراحا ثلاثة أيام من السفر، وبعد ذلك دخل بقمر الزمان الحمّام وألبسه لبس التجار وعمل له تخت رمل من ذهب وعمل له عدة وعمل له اصطرلاباً من الذهب. ثم قال له مرزوان: قم يا مولاي وقف تحت قصر الملك ونادِ: أنا الحاسب الكاتب المنجم فأين الطالب؟ فإن الملك إذا سمعك يرسل خلفك ويدخل بك على ابنته محبوبتك، وهي لمّا تراك يزول ما بها من الجنون ويفرح أبوها بسلامتها ويزوّجها لك ويقاسمك في ملكه، لأنه شرط على نفسه هذا الشرط. فقبل قمر الزمان ما أشار به مرزوان وخرج من الخان وهو لابس البدلة وأخذ معه العدّة التي ذكرناها ومشى إلى أن وقف تحت قصر الملك الغيور ونادى: أنا الكاتب الحاسب المنجم، أكتب الكتاب وأحكم الحجاب وأحسب الحساب وأخط بأقلام المطالب فأين الطالب؟ فلما سمع أهل المدينة هذا الكلام وكان لهم مدة من الزمان ما رأوا حاسباً ولا منجّماً، وقفوا حوله وتأملوه، فتعجّبوا من حسن صورته ورونق شبابه وقالوا له: بالله عليك يا مولانا لا تفعل بنفسك هذه الفعال طمعاً في زواج بنت الملك الغيور، وانظر بعينك إلى هذه الرؤوس المعلّقة فإن أصحابها كلهم قتلوا من اجل هذا الحال فآل بهم الطمع إلى الوبال. فلم يلتفت قمر الزمان إلى كلامهم بل رفع صوته ونادى: أنا كاتب حاسب أقرب المطالب للطالب. فتداخل عليه الناس. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 203

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان نهته الناس فلم يسمع كلامهم بل رفع صوته ونادى: أنا الكاتب الحاسب أقرب المطالب للطالب. فاغتاظوا منه جميعاً وقالوا له: ما أنت إلاّ شاب مكابر أحمق، إرحم شبابك وصغر سنك وحسنك وجمالك. فصاح قمر الزمان وقال: أنا المنجم والحاسب فهل من طالب؟ فبينما الناس تنهي

قمر الزمان عن هذه الحالة، إذ سمع الملك الغيور الصياح وضجّة الناس فقال للوزير: إنزل إئتنا بهذا المنجّم. فنزل الوزير وأخذ قمر الزمان. فلما دخل قمر الزمان على الملك قبّل الأرض بين يديه وأنشد هذين البيتين: [من الطويل]

ثَمانِيَةٌ في المَجْدِ حُزْتَ جَميعَها فَلا زالَ خَدّاماً بِهِنَّ لَكَ الدَّهْرُ
يَقينُكَ والتَّقْوَى ومَجْدُكَ والنَّدَى ولَفْظُكَ والمَعْنَى وعِزُّكَ والنَّصْرُ

فلما نظر الملك الغيور إليه، أجلسه إلى جانبه وأقبل عليه وقال له: يا ولدي، بالله لا تجعل نفسك منجّماً ولا تدخل على شرطي، فإني ألزمت نفسي أن كل من دخل على بنتي ولم يبرئها مما أصابها ضربت عنقه، ومَن أبرأها زوّجته بها. فلا يغرّنك حسنك وجمالك وقدّك واعتدالك. والله والله إن لم تبرأها لأضربن عنقك. فقال قمر الزمان: قبلت منك هذا الشرط. فأشهد عليه الملك الغيور والقضاة وسلّمه إلى الخادم وقال له: أوصل هذا إلى السيدة بدور. فأخذه الخادم من يده ومشى به في الدهليز، فصار قمر الزمان سابقه وصار الخادم يقول له: ويلك، لا تستعجل على هلاك نفسك، فوالله ما رايت منجّماً يستعجل على هلاك نفسه إلاّ أنت، ولكنك لم تعرف أي شيء قدّامك من الدواهي. فأعرض قمر الزمان بوجهه عن الخادم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 204

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان أعرض بوجهه عن الخادم وانشد هذه الأبيات: [من الكامل]

أنا عارِفٌ بِصِفاتِ حُسْنِكَ جاهِلٌ مُتَحَيِّرٌ لَم أَدْرِ ما أَنا قائِلُ
إنْ قُلْتُ شَمْساً كانَ حُسْنُكَ لَم يَغِبْ عَنّي وعَهْدِي بالشُّمُوسِ أَوافِلُ
كَمُلَتْ مَحاسِنُكَ التي في وَصْفِها عَجَزَ البَليغُ وحارَ فِيها القائِلُ

ثم إن الخادم أوقف قمر الزمان خلف الستارة التي على الباب. فقال له قمر الزمان: أي الحالتين أحب إليك: كوني أداوي سيدتك وأبرؤها من هنا، أو أدخل إليها فأبرؤها من داخل الستارة؟ فتعجّب الخادم من كلامه وقال له: إن أبراتها من هنا، كان ذلك زيادة في فضلك. فعند ذلك جلس قمر الزمان خلف الستارة وأطلع الدواة والقلم وكتب في ورقة هذه الكلمات: من برح به الجفا * فدواؤه الوفا * والبلاء لمن يئس من حياته * وأيقن بحلول وفاته. وما لقلبه الحزين * من مسعف ولا معين * وما لطرفه الساهر * على الهمّ ناصر * فنهاره في لهيب * وليله في تعذيب * وقد انبرى جسمه من كثرة النحول * ولم ياته من حبيبه رسول كتب. ثم كتب هذه الأبيات: [من الطويل]

كَتَبْتُ ولي قَلْبٌ بِذِكْرِكِ مُولَعٌ وجَفْنٌ قَرِيحٌ مِنْ دِمائِي يَدْمَعُ
وجِسْمٌ كساهُ لاعِجُ الشَّوْقِ والأَسَى قَميصَ نُحُولٍ فَهْوَ فِيهِ مُضَعْضَعُ
شَكَوْتُ الهَوَى لَمّا أَضَرَّ بِي الهَوَى ولَمْ يَبْقَ عِنْدِي لِلتَصَبُّرِ مَوْضِعُ

إلَيْكِ، فَجُودِي وٱرْحَمِي وتَعَطَّفِي فإنَّ فُؤَادِي بالهَوَى يَتَقَطَّعُ

ثم كتب تحت الشعر هذه السجعات * شفاء القلوب ، لقاء المحبوب * من جفاه حبيبه ، فالله طبيبه * من خان منكم ومنّا ، لا نال ما يتمنى * ولا أظرف من المحب الوافي ، إلى الحبيب الجافي *

ثم كتب في الإمضاء * مَن الهائم الولهان ، العاشق الحيران * من أقلقه الشوق والغرام ، أسير الوجد والهيام * قمر الزمان بن شهرمان ، إلى فريدة الزمان ؛ ونخبة الحور الحسان * السيدة بدور ، بنت الملك الغيور * أعلمي أنني في ليلي سهران ، وفي نهاري حيران * زائد النحول والأسقام ، والعشق والغرام * كثير الزفرات ، غزير العبرات * أسير الهوى ، قتيل الجوى * غريم الغرام ، نديم السقام * فأنا السهران الذي لا تهجع مقلته ، والمتيم الذي لا ترقأ عبرته * فنار قلبي لا تطفى ، ولهيب شوقي لا يخفى . ثم كتب في حاشية الكتاب هذا البيت المستطاب : [من الوافر]

سَلامٌ مِنْ خَزائِنِ لُطْفِ رَبِّي عَلى مَنْ عِنْدِها رُوحِي وقَلْبِي

وكتب أيضاً : [من الطويل]

هبُوا إليَّ حَدِيثاً مَنْ حَدِيثِكُمْ عَسَى بِهِ تَرْحَمُونِي أَو يَقَرُّ جَنَانِي
ومِنْ شَغَفِي فِيكُم ووَجْدِيَ أَنَّنِي أُهَوِّنُ ما أَلْقاهُ وَهْوَ هَوانِي
رَعَى اللهُ قَوْماً شَطَّ عَنِّي مَزارُهُم وصُنْتُ لَهُمْ سِرّاً بأيِّ مَكانِ
وها أنا قَد جَدَّ الزَّمانُ بِفَضْلِهِ وفي تُرْبِ أَعْتابِ الحَبِيبِ رَمانِي
رَأَيْتُ بُدُوراً في الفِراشِ بِجانِبِي زَها قَمَرِي مِنْ شَمْسِها بِزَمانِي

ثم إن قمر الزمان بعد أن ختم الكتاب ، كتب في عنوانه هذه الأبيات : [من البسيط]

سَلِي كِتابِيَ عَمّا خَطَّهُ قَلَمِي فالرَّسْمُ يُخْبِرُ عَنْ وَجْدِي وعَنْ أَلَمِي
يَدِي تَخُطُّ ودَمْعُ العَيْنِ مُنْهَمِلٌ قَدْ يَشْتَكِي الشَّوْقُ لِلقِرْطاسِ مِنْ سَقَمِي
ما زالَ دَمْعِي عَلَى القِرْطاسِ مُنْسَكِباً إنِ ٱنْقَضَتْ أَدْمُعِي أَتْبَعْتُها بِدَمِي

ثم كتب أيضاً : [من الكامل]

أَرْسَلْتُ خاتِمَكِ الَّذي ٱسْتَبْدَلْتُهُ يَوْمَ التَّواصُلِ فارْسِلِي لِي خاتِمِي

وكان قد وضع خاتم السيدة بدور في طي الكتاب . ثم ناول الكتاب للخادم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 205

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن قمر الزمان لما وضع الخاتم في الورقة ناولها للخادم ، فأخذها ودخل بها إلى السيدة بدور ، فأخذتها من يد الخادم وفتحتها فوجدت خاتمها بعينه . ثم قرأت الورقة ، فلما عرفت المقصود علمت أن معشوقها قمر الزمان وأنه هو الواقف خلف الستارة . فطار عقلها من الفرح واتّسع صدرها وانشرح ، ومن فرط المسرّات

أنشدت هذه الأبيات : [من الكامل]

وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلى تَفَرُّقِ شَمْلِنا ... دَهْراً وفاضَ الدَّمْعُ مِنْ أجْفانِي
ونَذَرْتُ إنْ عادَ الزَّمانُ يَلُمُّنا ... لا عُدْتُ أَذْكُرُ فُرْقَةً بِلِساني
هَجَمَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى أنَّه ... مِنْ فَرْطِ ما قَدْ سَرَّنِي أَبْكاني
يا عَيْنُ صارَ الدَّمْعُ مِنْكِ سَجِيَّةً ... تَبْكِينَ في فَرَحٍ وفي أَحْزانِ

فلما فرغت السيدة بدور من شعرها، قامت من وقتها وصلبت رجليها في الحائط واتّكات بقوّتها على الغل الحديد فقطعته من رقبتها، وقطعت السلاسل وخرجت من خلف الستارة ورمت روحها على قمر الزمان وقبّلته في فمه مثل زق الحمام، وعانقته من شدّة ما بها من الغرام وقالت له : يا سيدي، هل هذا يقظة أو منام ؟ وهل قد منّ الله علينا بجمع شملنا . ثم حمدت الله وشكرته على جمع شملهما بعد اليأس . فلما رآها الخادم على تلك الحالة، ذهب يجري حتى وصل إلى الملك الغيور فقبّل الأرض بين يديه وقال له : يا مولاي، أعلم ان هذا المنجّم اعلم المنجّمين كلهم، فإنه داوى ابنتك وهو واقف خلف الستارة ولم يدخل عليها. فقال الملك للخادم : أصحيح هذا الخبر؟ فقال الخادم : يا سيدي، قم وانظر إليها كيف قطعت السلاسل الحديد وخرجت للمنجّم تقبّله وتعانقه . فعند ذلك قام الملك الغيور ودخل على ابنته، فلما رأته نهضت قائمة وغطّت رأسها وأنشدت هذين البيتين : [من الخفيف]

لا أُحِبُّ السِّواكَ مِنْ أَجْلِ أَنِّي ... إنْ ذَكَرْتُ السِّواكَ قُلْتُ : سِواكا
وأُحِبُّ الأراكَ مِنْ أَجْلِ أَنِّي ... إنْ ذَكَرْتُ الأَراكَ قُلْتُ أَراكا

ففرح أبوها بسلامتها وقبّلها بين عينيها لأنه كان يحبها محبة عظيمة، واقبل الملك الغيور على قمر الزمان وسأله عن حاله وقال له : من اي البلاد انت؟ فأخبره قمر الزمان بشأنه واعلمه ان والده الملك شهرمان . ثم إن قمر الزمان قصّ عليه القصة من أولها إلى آخرها وأخبره بجميع ما اتفق له مع السيدة، وكيف اخذ الخاتم من إصبعها والبسها خاتمه . فتعجّب الملك الغيور من ذلك وقال : إن حكايتكما لا بدّ ان تؤرّخ في الكتب وتقرأ بعدكما جيلاً بعد جيل . ثم إن الملك الغيور أحضر القضاة والشهود من وقته وكتب كتاب السيدة بدور على قمر الزمان، وأمر بتزيين المدينة سبعة أيام . ثم مدّوا السماط والأطعمة وتزيّنت المدينة وجميع العساكر، وأقبلت البشائر ودخل قمر الزمان على السيدة بدور، وفرح بعافيتها وزواجها . وحمدت الله الذي رماها في حب شاب مليح من أبناء الملوك، ثم جلوها عليه . وكانا يشبهان بعضهما في الحسن والجمال والظرف والدلال، ونام قمر الزمان عندها تلك الليلة وبلغ أربه منها، وتمتعت هي بحسنه وجماله وتعانقا إلى الصباح . وفي اليوم الثاني عمل الملك وليمة وجمع جميع اهل الجزائر الجوّانيّة والجزائر البرّانيّة، وقدّم لهم الأسمطة وامتدّت الموائد مدة شهر كامل . وبعد ذلك تفكر قمر الزمان أباه ورآه في المنام يقول له : يا ولدي، أهكذا تفعل معي هذه الفعال؟ وانشده في المنام هذين البيتين : [من الطويل]

لَقَدْ راعَنِي بَدْرُ الدُّجَى بِصُدُودِه ... ووَكَّلَ أَجْفاني بِرَعْيِ كَواكِبِهْ

فَيا كَبِدِي مَهْلاً عَساهُ يَعُودُ لي   ويا مُهْجَتِي صَبْراً عَلَى ما كَواكِ بِهْ

ثم إن قمر الزمان لما رأى والده في المنام يعاتبه، أصبح حزيناً وأعلم زوجته بذلك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 206

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لما رأى والده في المنام يعاتبه، أصبح حزيناً وأخبر زوجته السيدة بلور بذلك. فدخلت هي وإياه على والدها وأعلماه واستأذناه في السفر، فأذن له في السفر. فقالت السيدة بلور: يا والدي، لا أصبر على فراقه. فقال لها والدها: سافري معه. وأذن لها بالإقامة معه سنة كاملة، وبعد السنة تجيء لتزور والدها في كل عام مرة. فقبّلت يد أبيها وكذلك قمر الزمان، ثم شرع الملك الغيور في تجهيز ابنته هي وزوجها، وهيأ لهما أدوات السفر، وأخرج لهما الخيول والهجن، وأخرج لابنته محفّة. وحمّل لهما البغال والهجن وأخرج لهما ما يحتاجان إليه في السفر. وفي يوم المسير ودّع الملك الغيور قمر الزمان وخلع عليه خلعة سنيّة من الذهب مرصّعة بالجواهر، وقدّم له خزنة مال وأوصاه على بنته بلور، ثم خرج معهما إلى طرف الجزائر. وبعد ذلك ودّع قمر الزمان، ثم دخل على ابنته بدور وهي في المحفّة وصار يعانقها ويبكي. وأنشد هذين البيتين: [من المنسرح]

يا طالِباً لِلفِراقِ صَبْراً   فَمُتْعَةُ العاشِقِ العِناقُ
مَهْلاً فَطَبْعُ الزَّمانِ غَدْرٌ   وآخِرُ العِشْرَةِ الفِراقُ

ثم خرج من عند ابنته وأتى إلى زوجها قمر الزمان فصار يودعه ويقبّله، ثم فارقهما وعاد إلى جزائره بعسكره بعد أن أمرهما بالرحيل. فسار قمر الزمان هو وزوجته السيدة بلور ومن معهم من الاتباع، أول يوم والثاني والثالث والرابع. ولم يزالوا مسافرين مدة شهر، ثم نزلوا في مرج واسع كثير الكلأ وضربوا خيامهم فيه وأكلوا وشربوا واستراحوا، ونامت السيدة بلور فدخل عليها قمر الزمان فوجدها نائمة وفوق بدنها قميص مشمشي من الحرير يبين منه كل شيء، وفوق رأسها كوفية من الذهب مرصّعة بالجواهر، وقد رفع الهواء قميصها فطلع فوق سرّتها عند نهودها فبان لها بطن أبيض من الثلج وكل عكنة من عكن طيّاته تسع أوقية من دهن البان. فزاد محبّة وهياماً وأنشد هذين البيتين: [من البسيط]

لَوْ قِيلَ لِي وزَفِيرُ الحَرِّ مُتَّقِدُ   والنَّارُ فِي القَلْبِ والأَحْشاءِ تَضْطَرِمُ
أَهُمْ تُرِيد وتَهْوَى أَن تُشاهِدَهُم   أَو شُرْبَةٌ مِن زُلالِ الماءِ؟ قُلْتُ: هُمُ

فحط قمر الزمان يده في دكّة لباسها فجذبها وحلّها لما اشتهاها خاطره، فرأى فصّاً أحمر مثل العندم مربوطاً على الدكّة وعليه أسماء منقوشة سطرين بكتابة لا تقرأ. فتعجّب قمر الزمان من تلك القصة وقال في نفسه: لولا أن هذا الفصّ أمر عظيم عندها، ما ربطته هذه الربطة على دكّة لباسها وما خبّأته في أعزّ ما كان عندها حتى لا تفارقه. فماذا تصنع بهذا؟ وما السرّ الذي هو فيه؟ ثم أخذه وخرج من الخيمة ليبصره في النور. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 207

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أنه لما أخذ الفصّ ليبصره في النور صار يتأمل فيه، وإذا بطائر انقضّ عليه وخطفه من يده وطار به وحط به على الأرض . فخاف قمر الزمان على الفصّ وجرى خلف الطائر، وصار الطائر يجري على قدر جري قمر الزمان، وصار قمر الزمان خلفه من وادٍ إلى وادٍ ومن تلٍ إلى تلٍ إلى أن دخل الليل وتغلس الظلام، فنام الطائر على شجرة عالية . فوقف قمر الزمان تحتها وصار باهتاً وقد ضعف من الجوع والتعب وظن أنه هالك، وأراد أن يرجع فما عرف الموضع الذي جاء منه . وهجم عليه الظلام فقال : لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم . ثم نام تحت الشجرة التي فوقها الطائر إلى الصباح . ثم انتبه من نومه فوجد الطائر قد انتبه وطار من فوق الشجرة، فمشى قمر الزمان خلفه وصار ذلك الطائر يطير قليلاً بقدر مشي قمر الزمان، فتبسّم قمر الزمان وقال : يا لله العجب، إن هذا الطائر كان بالأمس يطير بقدر جريتي، وفي هذا اليوم أني أصبحت تعباناً لا اقدر على الجري فصار يطير على قدر مشيي إن هذا عجيب، ولكن لا بدّ أن أتبع هذا الطائر . فإما أن يقودني إلى حياتي أو إلى مماتي، فأنا أتبعه أينما يتوجّه لأنه على كل حال لا يقيم إلاّ في البلاد العمار . ثم إن قمر الزمان جعل يمشي تحت الطائر والطائر يبيت في كل ليلة على شجرة ولم يزل تابعه مدّة عشرة أيام، وقمر الزمان يتقوّت من نبات الأرض ويشرب من الأنهار . وبعد العشرة أيام أشرف على مدينة عامرة، فمرق الطائر في تلك المدينة مثل لمح البصر وغاب عن قمر الزمان ولم يعرف أين راح . فتعجّب قمر الزمان وقال : الحمد لله الذي سلّمني حتى وصلت إلى هذه المدينة . ثم جلس عند الماء وغسل يديه ورجليه ووجهه واستراح ساعة، وتذكّر ما كان فيه من الراحة ونظر إلى ما هو فيه من الغربة والجوع والتعب فأنشد يقول : [من الكامل]

أَخْفَيْتُ ما أَلْقاهُ مِنْه وقَدْ ظَهَرْ ... والنَّوْمُ مِنْ عَيْنِي تَبَدَّلَ بالسَّهَرِ
نادَيْتُ لما أَوْهَنَتْ قَلْبِي الفِكَرْ ... يا دَهْرُ لا تُبْقِي عَلَيَّ ولا تَذَرْ
ها مُهْجَتِي بَيْنَ المَشَقَّةِ والخَطَرْ

لَو كانَ سُلطانُ المَحبَّةِ مُنْصِفِي ... ما كانَ نَوْمِي مِنْ عُيُونِي قَد نُفِي
يا سادَتِي رِفْقاً بِصَبٍّ مُدْنَفِ ... وتَعَطَّفُوا لِعَزِيزِ قَوْمٍ ذَلَّ فِي
شَرْعِ الهَوَى وغَنِيِّ قَوْمٍ إفْتَقَرْ

لَحَّ العَواذِلُ فِيكَ ما طاوَعْتُهُمْ ... وسَدَدْتُ كُلَّ مَسامِعِي وصَمَمْتُهُمْ
قالُوا عَشِقْتَ مُهَفْهَفاً فأَجَبْتُهُمْ ... إخْتَرْتُهُ مِنْ بَيْنِهِم وتَرَكْتُهُمْ
كُفُّوا إذا وَقَعَ القَضا عَمِيَ البَصَرْ

ثم إن قمر الزمان لما فرغ من شعره واستراح، دخل باب المدينة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 208

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لما فرغ من شعره □ واستراح، دخل باب المدينة وهو لا يعلم أين يتوجّه. فمشى في المدينة جميعها وقد كان دخل من باب البر، ولم يزل يمشي إلى أن خرج من باب البحر فلم يقابله أحد من أهلها، وكانت مدينة على جانب البحر. ثم إنه بعد أن خرج من باب البحر مشى، ولم يزل ماشياً حتى وصل إلى بساتين المدينة وشقّ بين الأشجار فأتى إلى بستان ووقف على بابه، فخرج إليه الخولي ورحّب به وقال له: الحمد لله الذي أتيت سالماً من أهل هذه المدينة، فادخل هذا البستان سريعاً قبل أن يراك أحد من أهلها. فعند ذلك دخل قمر الزمان ذلك البستان وهو ذاهل العقل وقال للخولي: ما حكاية أهل هذه المدينة؟ وما خبرهم؟ فقال له: أعلم أن أهل هذه المدينة كلهم مجوس، فبالله عليك أن تخبرني كيف وصلت إلى هذا المكان؟ وما سبب دخولك في بلادنا؟ فعند ذلك أخبره قمر الزمان بجميع ما جرى له. فتعجّب الخولي من ذلك غاية العجب وقال له: أعلم يا ولدي أن بلاد الإسلام بعيدة من هنا، فبيننا وبينها أربعة أشهر في البحر، وأما في البر فسنة كاملة. وأن عندنا مركباً تقلع وتسافر كل سنة ببضائع إلى أول بلاد الإسلام، وتسير من هنا إلى بحر جزائر الأبنوس ومنه إلى جزائر خالدان وملكها يقال له: السلطان شهرمان. فعند ذلك تفكّر قمر الزمان في نفسه ساعة زمانية، وعلم أنه لا أوفق له من قعوده في البستان عند الخولي ويعمل عنده مرابعاً فقال للخولي: هل تقبلني عندك مرابعاً في هذا البستان؟ فقال له الخولي: سمعاً وطاعةً. ثم علّمه تحويل الماء بين الأشجار، فصار قمر الزمان يحول الماء ويقطع الحشيش بالفأس. وألبسه الخولي بشتاً قصيراً أزرق يصل إلى ركبته، وصار يسقي الأشجار ويبكي بالدموع الغزار وينشد الأشعار بالليل والنهار في معشوقته بدور. فمن جملة ذلك هذه الأبيات: [من الطويل]

لَنا عِنْدَكُم وَعْدٌ فَهَلاّ وَفَيْتُمُ ... وقُلْتُمْ لنا قَوْلاً فَهَلاّ فَعَلْتُمُ
سَهِرْنا عَلَى حُكْمِ الغَرامِ ونِمْتُمُ ... ولَيْسَ سَواءٌ ساهِرُونَ ونُوَّمُ
وكُنّا عَهِدْنا أَنّنا نَكْتُمُ الهَوَى ... فأَغْراكُمُ الواشِي وقالَ وقُلْتُمُ
فَيا أَيُّها الأَحْبابُ في السُّخْطِ والرِّضَى ... عَلَى كُلِّ حالٍ أَنْتُمُ القَصْدُ أَنْتُمُ
ولِي عِنْدَ بَعْضِ النّاسِ قَلْبٌ مُعَذَّبٌ ... فَيا لَيْتَهُ يَرْثِي لِحالِي ويَرْحَمُ
وما كُلُّ عَيْنٍ مِثْلِ عَيْنِي قَرِيحَةٌ ... ولا كُلُّ قَلْبٍ مِثْلِ قَلْبِي مُتَيَّمُ
ظَلَمْتُمْ وقُلْتُمْ إِنَّما الحُبُّ ظالِمٌ ... صَدَقْتُمْ كَذا كانَ الحَدِيثُ صَدَقْتُمُ
سَلُوا مُغْرَماً لا يَنْقُضُ الدَّهْرَ عَهْدَهُ ... ولَو كانَ في أَحْشائِهِ النارُ تَضْرِمُ
إِذا كانَ خَصْمِي في الصَّبابَةِ حاكِمِي ... لِمَنْ أَشْتَكِي خَصْمِي لِمَنْ أَتَظَلَّمُ
ولَولا افْتِقارِي في الهَوَى وصَبابَتِي ... لما كانَ لِي في العِشْقِ قَلْبٌ مُتَيَّمُ

هذا ما كان من أمر قمر الزمان بن الملك شهرمان. وأما ما كان من أمر زوجته السيدة بدور بنت الملك الغيور، فإنها لما استيقظت من نومها طلبت زوجها قمر الزمان فلم تجده، ورأت سروالها محلولاً، فافتقدت العقدة فوجدتها محلولة والفصّ معدوماً. فقالت في نفسها: يا لله العجب، أين معشوقي؟ كأنه أخذ الفصّ وراح وهو لا يعلم السرّ الذي هو فيه، فيا ترى أين

راح ؟ ولكن لا بدّ له من أمر عجيب اقتضى رواحه فإنه لا يقدر ان يفارقني ساعة، فلعن الله الفص ولعن ساعته. ثم إن السيدة بدور تفكّرت وقالت في نفسها: إن خرجت إلى الحاشية وأعلمتهم بفقد زوجي يطمعوا فيّ، ولكن لا بدّ من الحيلة. ثم إنها لبست ثياب قمر الزمان ولبست عمامة كعمامته وضربت لها لثاماً وحطّت في محفتها جارية وخرجت من خيمتها وصرخت على الغلمان، فقدّموا لها الجواد فركبت وأمرت بشدّ الأحمال، فشدّوا الأحمال وسافروا وأخفت أمرها لأنها كانت تشبه قمر الزمان، فما شك أحد أنها قمر الزمان بعينه. وما زالت مسافرة هي وأتباعها أيامًا وليالي حتى أشرفت على مدينة مطلة على البحر المالح، فنزلت بظاهرها وضربت خيامها في ذلك المكان لأجل الإستراحة. ثم سألت عن هذه المدينة فقيل لها: هذه مدينة الأبنوس وملكها الملك أرمانوس وله بنت اسمها حياة النفوس. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 209

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السيدة بدور لما نزلت بظاهر مدينة الأبنوس لاجل الاستراحة، أرسل الملك أرمانوس رسولاً من عنده يكشف له خبر هذا الملك النازل بظاهر المدينة. فلما وصل إليهم الرسول سألهم، فأخبروه أنّ هذا ابن ملك تايه عن الطريق وهو قاصد جزائر خالدان والملك شهرمان. فعاد الرسول إلى الملك أرمانوس وأخبره بالخبر. فلما سمع الملك أرمانوس هذا الكلام نزل هو وأرباب دولته إلى مقابلته، فلما قدم على الخيام ترجّلت السيدة بدور وترجّل الملك أرمانوس وسلّما على بعضهما واخذها ودخل بها إلى مدينته وطلع بها لى قصره، وأمر بمد السماط وموائد الأطعمة، وأمر بنقل السيدة بدور إلى دار الضيافة فأقامت هناك ثلاثة أيام. وبعد ذلك أقبل الملك أرمانوس على السيدة بدور وكانت دخلت في ذلك اليوم الحمّام وأسفرت عن وجه كأنه البدر عند التمام، فافتتن بها العالم، وتهتّكت بها الخلق عند رؤيتها. فعند ذلك أقبل الملك أرمانوس عليها وهي لابسة من الحرير مطرّزة بالذهب المرصّع بالجواهر وقال لها: يا ولدي، إني بقيت شيخاً هرماً وعمري ما رزقت ولداً غير بنت، وهي على شكلك وقدّك في الحسن والجمال وعجزت عن الملك. فهل لك يا ولدي أن تقيم بأرضي وتسكن بلادي وازوّجك ابنتي واعطيك مملكة؟ فاطرقت السيدة بدور رأسها وعرق جبينها من الحياء وقالت في نفسها: كيف يكون العمل وانا امرأة؟ فإن خالفت أمره وسرت، ربما يرسل خلفي جيشاً يقتلني، وإن اطعته ربما افتضح. وقد فقدت محبوبي قمر الزمان ولم أعرف له خبراً وما لي خلاص إلاّ أن أجيبه إلى قصده واقيم عنده حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. ثم إن السيدة بدور رفعت رأسها واذعنت للملك بالسمع والطاعة. ففرح الملك بذلك وأمر المنادي آن ينادي في جزائر الأبنوس بالفرح والزينة، وجمع الحجّاب والنواب والأمراء والوزراء وأرباب دولته وقضاة مدينته، وعزل نفسه من الملك وسلطن السيدة بدور وألبسها بدلة الملك، ودخلت الأمراء جميعاً على السيدة بدور وهم لا يشكّون في أنها شاب. وصار كل من نظر إليها منهم جميعاً يبلّ سراويله لفرط حسنها وجمالها. فلما تسلطنت الملكة بدور ودقّت لها البشائر بالسرور، شرع الملك أرمانوس في تجهيز ابنته حياة النفوس، وبعد أيام قلائل أدخلوا السيدة بدور على حياة النفوس فكانتا كأنهما بدران اجتمعا أو شمسان في وقت طلعا. فردوا

عليهما الأبواب وأرخوا الستائر بعد أن أوقدوا لهما الشموع وفرشوا لهما الفرش ، فعند ذلك جلست السيدة بدور مع السيدة حياة النفوس ، فتذكّرت محبوبها قمر الزمان واشتدّت بها الأحزان ، فسكبت العبرات وأنشدت هذه الأبيات : [من البسيط]

يا راحلينَ وقَلْبِي زائدُ القَلَقِ ... لَم يُبْقِ بَيْـنَـكُمُ في الجِسْمِ مِنْ رَمَقِ
قَد كانَ لِي مُقْلَةٌ تَشْكُو السُّهادَ وقد ... أذابَها الدَّمْعُ يا لَيْتَ السُّهادَ بَقِي
لَمّا رَحَلْتُمْ أَقامَ الصَّبُّ بَعْدَكُمُ ... لَكِنْ سَلُوا عَنْهُ ماذا في البعادِ لَقِي
لَولا جُفُونِي وقَد فاضَتْ مَدامِعُها ... تَوَقَّدَتْ عَرَصاتُ الأَرْضِ مِنْ حُرَقِي
أَشْكُو إِلى اللهِ أَحْباباً عَدِمْتُهُمُ ... لَم يَرْحَمُوا صَبْوَتِي فِيهِمْ ولا قَلَقِي
لا ذَنْبَ لِي عِنْدَهُمْ إِلاّ الغَرامَ بِهِمْ ... والنّاسُ بَينَ سَعِيدٍ في الهَوَى وشَقِي

ثم إن السيدة بدور لما فرغت من إنشادها ، جلست إلى جانب السيدة حياة النفوس وقبّلتها في فمها ونهضت من وقتها وساعتها توضّأت ، ولم تزل تصلّي حتى نامت السيدة حياة النفوس . ثم دخلت السيدة بدور معها في الفرش وأدارت ظهرها لها إلى الصباح ، فلما طلع النهار دخل الملك هو وزوجته إلى ابنتهما وسألاها عن حالها ، فأخبرتهما بما جرى وما سمعته من الشعر . هذا ما كان من أمر حياة النفوس وأبويها . وأما ما كان من أمر الملكة بدور ، فإنها خرجت وجلست على كرسي المملكة وطلعت إليها الأمراء وأرباب الدولة وجميع الرؤساء والجيوش ، وهنّوها بالملك وقبّلوا الأرض بين يديها ودعوا لها ، فأقبلت عليهم وتبسمت وخلعت عليهم وزادت في اقطاع الأمراء ، فحبّها العسكر والرعية ودعوا لها بدوام الملك وهم يعتقدون أنها ذكر . ثم إنها أمرت ونهت وحكمت وعدلت وأطلقت مَنْ في الحبوس وأبطلت المكوس ، ولم تزل قاعدة في مجلس الحكومة إلى أن دخل الليل . ثم دخلت المكان المعدّ لها فوجدت السيدة حياة النفوس جالسة ، فجلست بجانبها وطقطقت على ظهرها ولاطفتها وقبّلتها بين عينيها وأنشدت هذه الأبيات : [من الكامل]

قَد صارَ سِرِّي بالدُّمُوعِ عَلانِيَهْ ... ونُحُولُ جِسْمِي في الغَرامِ عَلانِيَهْ
أُخْفِي الهَوَى ويُذِيعُهُ أَلَمُ النَّوَى ... حالِي عَلَى الواشِينَ لَيْسَتْ خافِيَهْ
يا راحِلِينَ عَنْ الحِمَى خَلَّفْتُمُ ... جِسْمِي بِكُم مُضْنًى ونَفْسِي بالِيَهْ
وسَكَنْتُمُ غَوْرَ الحَشا فَنَواظِري ... تَجْرِي مَدامِعُها وعَيْنِي دامِيَهْ
وأَنا فِداءُ الغائِبِينَ بِمُهْجَتِي ... أَبَداً وأَشْواقِي إِلَيْهِمْ بادِيَهْ
لِي مُقْلَةٌ مَقْرُوحَةٌ في حُبِّهِمْ ... جَفَتِ الكَرَى ودُمُوعُها مُتَوالِيَهْ
ظَنَّ العِدَى مِنِّي عَلَيْه تَجَلُّداً ... هَيْهاتِ ما أُذْنِي إِلَيْهِم واعِيَهْ
خابَتْ ظُنُونُهُمُ لَدَيَّ وإِنَّما ... قَمَرُ الزَّمانِ بِه أَنالُ أَمانِيَهْ
جَمَعَ الفَضائِلَ ما حَواها قَبْلَهُ ... أَحَدٌ سِواهُ في العُصُورِ الخالِيَهْ
أَنْسَى الأَنامَ بِجُودِهِ وبِعَفْوِهِ ... كَرَمَ ٱبْنِ زائِدَةَ وحِلْمَ مُعاوِيَهْ
لَولا الإِطالَةُ والقَرِيضُ مُقَصِّرٌ ... عَنْ حَصْرِ حُسْنِكَ لم أَدَعْ مِنْ قافِيَهْ

ثم إن الملكة بدور نهضت قائمة على قديمها ومسحت دموعها وتوضّأت وصلّت، ولم تزل تصلّي إلى أن غلب النوم على السيدة حياة النفوس فنامت. فجاءت الملكة بدور ورقدت بجانبها إلى الصباح، ثم قامت وصلّت الصبح وجلست على كرسي المملكة وامرت ونهت وحكمت وعدلت. هذا ما كان من أمرها. وأما ما كان من أمر الملك أرمانوس، فإنه دخل على ابنته وسألها عن حالها، فخبّرته بجميع ما جرى لها وأنشدته الشعر الذي قالته الملكة بدور وقالت: يا أبي، ما رأيت أحداً أكثر عقلاً وحياء من زوجي، غير أنه يبكي ويتنهّد. فقال لها أبوها: يا ابنتي إصبري عليه، فما بقي غيرهذه الليلة الثالثة، فإن لم يدخل بك ويزيل بكارتك يكن لنا معه رأي وتدبير وأخلعه من الملك وانفيه من بلادنا. فاتفق مع ابنته على هذا الكلام واضمر على هذا الرأي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 210

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك أرمانوس اتفق مع ابنته على هذا الكلام واضمر على هذا الرأي. ولما اقبل الليل قامت الملكة بدور من دست المملكة إلى القصر ودخلت المكان الذي هو معد لها، فرأت الشمع موقوداً والسيدة حياة النفوس جالسة، فتذكّرت زوجها وما جرى بينهما في تلك المدّة اليسيرة. فبكت ووالت الزفرات وأنشدت هذه الأبيات: [من الكامل]

قَسَماً لَقَدْ مَلأَتْ أَحادِيثِي الفَضا ... كالشَّمْسِ مُشْرِقَةٌ عَلى ذاتِ الغَضا
نَطَقَتْ إشارَتُهُ فَأَشْكَلَ فَهْمُها ... فَلِذاكَ شَوْقِي في المَزِيدِ وما انْقَضَى
أَبْغَضْتُ حُسْنَ الصَّبْرِ مُذْ أَحْبَبْتُهُ ... أَرَأَيْتَ صَبّاً في الصَّبابَةِ مُبْغَضا
ومُمَرَّضِ اللَّحَظاتِ صالَ بِفَتْكِها ... واللَّحْظُ أَقْتَلُ ما يَكُونُ مُمَرَّضا
أَلْقَى ذَوائِبَه وحَطَّ لِثامَهُ ... فَرَأَيْتُ مِنْهُ الحُسْنَ أَسْوَدَ أَبْيَضا
سَقَمِي وبُرْئِي في يَدَيْهِ وإنما ... يَشْفي سَقامَ الحُبِّ مَنْ قد أَمْرَضا
هامَ الوِشاحُ بِرِقَّةٍ في خَصْرِهِ ... والرِّدْفُ مِنْ حَسَدٍ أَبَى أَنْ يَنْهَضا
وكأَنَّ طُرَّتَه وضَوْءَ جَبِينِه ... لَيْلٌ دَجَى فَاعْتاقَهُ صُبْحٌ أَضا

فلما فرغت من إنشادها ارادت أن تقوم إلى الصلاة، وإذا بحياة النفوس تعلّقت بذيلها وقالت لها: يا سيدي، أما تستحي من والدي وما فعل معك من الجميل؟ وأنت تتركني إلى هذا الوقت. فلما سمعت منها ذلك جلست في مكانها وقالت لها: يا حبيبتي ما الذي تقولينه؟ قالت: الذي أقوله، إني ما رأيت أحداً معجباً بنفسه مثلك. فهل كل من كان مليحاً يعجب بحسنه هكذا؟ ولكن أنا ما قلت هذا الكلام لأجل أن أرغبك فيّ، وإنما قلته خيفة عليك من الملك أرمانوس فإنه أضمر، إن لم تدخل بي في هذه الليلة وتزيل بكارتي أنه ينزعك من المملكة في غد ويسفّرك من بلاده، وربما يزداد به الغيظ فيقتلك. وأنا يا سيدي رحمتك ونصحتك والرأي رأيك. فلما سمعت الملكة بدور منها ذلك الكلام، اطرقت براسها إلى الأرض وتحيّرت في أمرها ثم قالت في نفسها: إن خالفته هلكت وإن اطعته افتضحت، ولكن انا في هذه الساعة ملكة على جزائر الابنوس كلها وهي تحت حكمي، وما اجتمع انا وقمر الزمان إلاّ في هذا المكان، لأنه ليس له

طريق إلى بلاده إلآمن جزائر الأبنوس . وقد فوضت أمري إلى الله فهو نِعم المدبر ثم إن الملكة بدور قالت لحياة النفوس : يا حبيبتي ، إن تركك وامتناعي عنك بالرغم عني . وحكت لها ما جرى من المبتدأ إلى المنتهى وأرتها نفسها وقالت لها : سألتك بالله أن تخفي أمري وتكتمي سرّي حتى يجمعني الله بمحبوبي قمر الزمان ، وبعد ذلك يكون ما يكون . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 211

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن السيدة بدور لما أعلمت حياة النفوس بقصّتها وأمرتها بالكتمان ، تعجّبت من ذلك غاية العجب ورقّت لها ودعت لها بجمع شملها مع محبوبها قمر الزمان وقالت لها : يا أختي ، لا تخافي ولا تفزعي واصبري إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً . ثم إن حياة النفوس أنشدت هذين البيتين : [من البسيط]

السرُّ عِنْدِيَ في بَيْتٍ له غَلَقٌ ... قَد ضاعَ مِفْتاحُهُ والبَيْتُ مَخْتُومُ
ما يَكْتُمُ السرَّ إلاّ كُلُّ ذِي ثِقَةٍ ... والسرُّ عِنْدَ خِيارِ النّاسِ مَكْتُومُ

فلما فرغت من شعرها قالت : يا أختي ، إن صدور الأحرار قبور الأسرار وأنا لا أفشي لك سراً . ثم لعبتا وتعانقتا ونامتا إلى قريب الآذان ، ثم قامت حياة النفوس وأخذت دجاجة وذبحتها وتلطخت بدمها وقلعت سروالها وصرخت ، فدخل عليها أهلها وزغردت الجواري ودخلت عليها أمها وسألتها عن حالها ، وأقامت عندها إلى المساء . وأما الملكة بدور فإنها لما أصبحت ، قامت وذهبت إلى الحمام واغتسلت وصلّت الصبح ثم توجهت إلى مجلس الحكومة وجلست على كرسي المملكة وحكمت بين الناس . فلما سمع الملك أرمانوس الزغاريد سأل عن الخبر فأخبروه بافتضاض بنته ، ففرح بذلك واتسع صدره وانشرح وأولم الولائم . ولم يزالوا على تلك الحالة مدة من الزمان ، هذا ما كان من أمرهما . وأما ما كان من أمر الملك شهرمان ، فإنه بعد خروج ولده إلى الصيد والقنص هو ومرزوان كما تقدّم صبر حتى أقبل عليه الليل فلم يجئ ولده ، فتحيّر عقله ولم ينم تلك الليلة وقلق غاية القلق وزاد وجده واحترق . وما صدق أن الفجر انشقّ حتى أصبح ينتظر ولده إلى نصف النهار فلم يجئ ، فحسّ قلبه بالفراق والتهب على ولده من الإشفاق . ثم بكى حتى بل ثيابه بالدموع وأنشد من قلب مصدوع : [من الكامل]

ما زِلْتُ مُعْتَرِضاً عَلَى أَهْلِ الهوَى ... حَتّى بُلِيتُ بِحُلْوِهِ وبِمُرِّهِ
وشَرِبْتُ كَأسَ مَرارِهِ مُتَجَرِّعاً ... وذَلَلْتُ فِيهِ لِعَبْدِهِ ولِحُرِّهِ
نَذَرَ الزَّمانُ بأَنْ يُفَرِّقَ شَمْلَنا ... والآن قَد أَوْفَى الزَّمانُ بِنَذْرِهِ

فلما فرغ من شعره مسح دموعه ونادى في عسكره بالرحيل والحث على السفر الطويل . فركب الجيش جميعه ، وخرج السلطان وهو محترق القلب على ولده قمر الزمان وقلبه بالحزن ملآن . ثم فرّق جيشه يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً ستّ فرق وقال لهم : الإجتماع غداً عند مفرق الطريق . فتفرقت الجيوش والعسكر كما ذكرنا ، وسافرت الخيول . ولم يزلوا مسافرين بقية النهار إلى أن جنّ الليل ، فساروا جميع الليل إلى نصف النهار حتى وصلوا إلى مفرق أربع طرق فلم

يعرفوا أي طريق سلكها. ثم رأوا أثر أقمشة مقطّعة ورأوا اللحم مقطّعاً ونظروا أثر الدم باقياً وشاهدوا كل قطعة من الثياب واللحم في ناحية، فلما رأى الملك شهرمان ذلك صرخ صرخة عظيمة من صميم قلبه وقال: واولداه! ولطم على وجهه ونتف لحيته ومزّق ثوبه وايقن بموت ولده، وزاد في البكاء والنحيب، وبكت لبكائه العساكر وكلهم أيقنوا بهلاك قمر الزمان وحثّوا على رؤوسهم التراب. ودخل عليهم الليل وهم في بكاء ونحيب حتى أشرفوا على الهلاك، واحترق قلب الملك بلهيب الزفرات وأنشد هذه الأبيات: [من الكامل]

لا تَعْذِلُوا المَحْزُونَ في أَحْزانِهِ ... فَلَقَد كَفاهُ الوَجْدُ مِنْ أَشْجانِهِ
يَبْكِي لِفَرْطِ تَأَسُّفٍ وتَوَجُّعٍ ... وغَرامُهُ يُنْبِيك عَنْ نِيرانِهِ
يا سَعْدُ مَنْ لِمُتَيَّمٍ حَلَفَ الضَّنَى ... أنْ لا يُزِيلَ الدَّمْعَ مِنْ أَجْفانِهِ
يُبْدِي الغَرامَ لِفَقْدِ بَدْرٍ زاهِرٍ ... بِضِيائِهِ يَزْهُو عَلَى أَقْرانِهِ
ولَقَد سَقاهُ المَوْتُ كأساً مُتْرَعاً ... يَوْمَ الرَّحِيلِ فَشَطَّ عَنْ أَوْطانِهِ
تَرَكَ الدِّيارَ وسارَ عَنّا لِلْبِلا ... لَمْ يَحْظَ بالتَوْدِيعِ مِنْ إخْوانِهِ
ولَقَد رَمانِي بالبُعادِ وبالجَفا ... والصَدِّ والتَّبْرِيحِ مِنْ هُجْرانِهِ
ولَقَد مَضَى عَنّا وفارَقَنا ضُحًى ... لَمَّا حَباهُ رَبُّهُ بِجِنانِهِ

فلما فرغ من إنشاده، رجع بجيوشه إلى مدينته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 212

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شهرمان لما فرغ من إنشاده، رجع بجيوشه إلى مدينته وايقن بهلاك ولده. وعلم أنه عدي عليه وافترسه، إما وحش وإما قاطع طريق. ثم نادى في جزائر خالدان أن يلبسوا السواد من الأحزان على ولده قمر الزمان، وعمل له بيتاً وسمّاه بيت الأحزان. وصار كل يوم خميس واثنين يحكم في مملكته بين عسكره ورعيّته، وبقية الجمعة يدخل بيت الأحزان وينعي ولده ويرثيه بالأشعار. فمن ذلك قوله: [من الطويل]

فَيَوْمُ الأمانِي يَوْمَ قُرْبِكُمُ مِنِّي ... ويَوْمُ المَنايا يَوْمَ إعْراضِكُمْ عَنِّي
إذا بِتُّ مَرْعُوباً أُهَدَّدُ بالرَّدَى ... فَوَصْلُكُمُ عِنْدِي أَلَذُّ مِنَ الأَمْنِ

ومن ذلك قوله: [من الكامل]

نَفْسِي الفِداءُ لِظاعِنِينَ رَحِيلُهُمْ ... أَنْكَى وأَفْسَدَ في القُلُوبِ وعاثا
فَلْيَقْضِ عِدَّتَهُ السُّرُورُ فإنَّنِي ... طَلَّقْتُ بَعْدَهُمُ النَّعِيمَ ثَلاثا

هذا ما كان من أمر الملك شهرمان. وأما ما كان من أمر الملكة بدور بنت الملك الغيور فإنها صارت ملكة في بلاد الأبنوس، وصار الناس يشيرون إليها بالبنان ويقولون: هذا صهر الملك أرمانوس. وكل ليلة تنام مع السيدة حياة النفوس وتشتكي وحشة زوجها قمر الزمان وتصف لها حسنه وجماله وتتمنى ولو في المنام وصاله. هذا ما كان من أمر الملكة بدور. وأما ما كان من

أمر قمر الزمان، فإنه لم يزل مقيماً عند الخولي في البستان مدّة من الزمان وهو يبكي بالليل والنهار ويتحسّر وينشد الأشعار على أوقات الهناء والسرور، والخولي يقول له: آخر السنة تسير المراكب إلى بلاد المسلمين. ولم يزل قمر الزمان على تلك الحالة إلى أن رأى الناس مجتمعين على بعضهم، فتعجّب من ذلك. فدخل عليه الخولي وقال له: يا ولدي، بطّل الشغل في هذا اليوم ولا تحوّل الماء إلى الأشجار، لأن هذا اليوم عيد والناس فيه يزور بعضهم بعضاً. فاسترح واجعل بالك إلى الغيط فإني أريد أن أبصر لك مركباً، فما بقي إلاّ القليل وأرسلك إلى بلاد المسلمين. ثم إن الخولي خرج من البستان وبقي قمر الزمان وحده، فانكسر خاطره وجرت دموعه ولم يزل يبكي حتى غشي عليه. فلما أفاق قام يتمشّى في البستان وهو متفكّر فيما فعل به الزمان وطول البعد والهجران وعقله ولهان، فعثر ووقع على وجهه فجاءت جبهته على جذر شجرة فجرى دمه واختلط بدموعه. فمسح دمه ونشّف دموعه وشدّ جبهته بخرقة وقام يمشي في ذلك البستان وهو ذاهل العقل، فنظر بعينه إلى شجرة فوقها طائران يتخاصمان، فغلب أحدهما على الآخر ونقره في عنقه فخلص رقبته من جثته. ثم أخذ رأسه وطار بها ووقع المقتول على الأرض قدّام قمر الزمان، فبينما هو كذلك وإذا بطائرين كبيرين قد انقضّا عليه، ووقف واحد منهما عند رأسه والآخر عند ذنبه ورخّيا أجنحتهما عليه ومدّا أعناقهما إليه وبكيا، فبكى قمر الزمان على فراق زوجته حين رأى الطائرين يبكيان على صاحبهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 213

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان بكى على فراق زوجته، فرأى الطائرين يبكيان على صاحبهما. ثم إن قمر الزمان رأى الطائرين حفرا حفرة ودفنا الطائر المقتول فيها وطارا إلى الجوّ وغابا ساعة ثم عادا ومعهما الطائر القاتل، فنزلا به على قبر المقتول وبركا على القاتل حتى قتلاه وشقّا جوفه وأخرجا أمعاءه وأراقا دمه على قبر الطائر المقتول، ثم نثرا لحمه ومزّقا جلده وأخرجا ما في جوفه وفرّقاه إلى أماكن متفرّقة. هذا كله جرى وقمر الزمان ينظر ويتعجّب، فحانت منه التفاتة إلى الموضع الذي قتلا فيه الطائر فوجد شيئاً يلمع، فدنا منه فوجده حوصلة الطائر، فأخذها وفتحها فوجد فيها الفصّ الذي كان سبب فراقه من زوجته. فلما رآه وعرفه وقع على الأرض مغشيّاً عليه من فرحته، فلما أفاق قال في نفسه: هذا علامة الخير وبشارة الاجتماع بمحبوبتي. ثم تأمّله ومرّ به على عينه وربطه على ذراعه واستبشر بالخير وقام يتمشى لينتظر الخولي، ولم يزل يفتش عليه إلى الليل فلم يأت، فبات قمر لزمان في موضعه إلى الصباح. ثم قام إلى شغله وشدّ وسطه بحبل من الليف وأخذ الفأس والقفّة وشقّ في البستان، فأتى إلى شجرة خروب وضرب الفأس في جذرها فطنت الضربة، فكشف التراب عن موضعها فوجد طابقاً ففتحه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 214

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قمر الزمان لما فتح ذلك الطابق وجد باباً فنزل فيه، فلقي قاعة قديمة من عهد ثمود وعاد. وتلك القاعة واسعة وهي مملوءة ذهباً أحمر. فقال في نفسه لقد ذهب التعب وجاء الفرح والسرور. ثم إن قمر الزمان طلع من المكان إلى ظاهر البستان وردّ الطابق كما كان ورجع إلى البستان وتحويل الماء على الأشجار، ولم

يزل كذلك إلى آخر النهار . فجاء الخولي وقال : يا ولدي ، ابشر برجوعك إلى الأوطان ، فإن التجار تجهّزوا للسفر والمركب بعد ثلاثة أيام مسافرة إلى مدينة الأبنوس وهي أول مدينة من مدائن المسلمين ، فإذا وصلت إليها تسافر في البر ستة أشهر حتى تصل إلى جزائر خالدان والملك شهرمان . ففرح قمر الزمان بذلك ، ثم قبّل يد الخولي وقال له : يا والدي ، كما بشّرتني فأنا ابشّرك بشارة ، وأخبره بأمر القاعة . ففرح الخولي وقال : يا ولدي ، أنا لي في هذا البستان ثمانون عاماً ما وقفت على شيء ، وأنت لك عندي دون السنة وقد رايت هذا الأمر . فهو رزقك وسبب زوال عكسك ومعين لك على وصولك إلى أهلك واجتماع شملك بمن تحب . فقال قمر الزمان : لا بدّ من القسمة بيني وبينك . ثم أخذ الخولي ودخل به إلى تلك القاعة وأراه الذهب وكان في عشرين خابية ، فأخذ عشرة والخولي عشرة . فقال له الخولي : يا ولدي ، عبّي لك أمطاراً من الزيتون العصافيري الذي في هذا البستان ، فإنه معدوم في غير بلادنا وتحمله التجار إلى جميع البلاد . واجعل الذهب في الأمطار والزيت فوق الذهب ، ثم سدّها وخذها في المركب . فقام قمر الزمان من وقته وساعته وعبّى خمسين مطراً ووضع الذهب فيها وسدّ عليه بعد أن جعل الزيتون فوق الذهب وحطّ الفصّ معه في مطر ، وجلس هو والخولي يتحدّثان . وأيقن بجمع شمله وقربه من أهله وقال في نفسه : إذا وصلت إلى جزيرة الأبنوس أسافر منها إلى بلاد أبي وأسأل عن محبوبتي بدور ، فيا ترى هل رجعت إلى بلادها أو سافرت إلى بلاد أبي أو حدث لها حادث في الطريق ؟ ثم جلس قمر الزمان ينتظر انقضاء الأيام . وحكى للخولي حكاية الطيور وما وقع بينهما ، فتعجّب الخولي من ذلك ، ثم ناما إلى الصباح . فأصبح الخولي ضعيفاً واستمر على ضعفه يومين ، وفي ثالث يوم اشتدّ به الضعف حتى يئسوا من حياته ، فحزن قمر الزمان على الخولي . فبينما هو كذلك وإذا بالريس والبحرية قد أقبلوا وسألوا عن الخولي فأخبرهم بضعفه . فقالوا : أين الشاب الذي يريد السفر معنا إلى جزيرة الأبنوس ؟ فقال لهم قمر الزمان : هو المملوك الذي بين أيديكم . ثم أمرهم بتحويل الأمطار إلى المركب ، فنقلوها إلى المركب وقالوا لقمر الزمان : أسرع فإن الريح قد طاب . فقال لهم : سمعاً وطاعةً . ثم نقل زوادته إلى المركب ورجع إلى الخولي يودّعه فوجده في النزع ، فجلس عند رأسه حتى مات . وغمّضه وجهّزه وواراه في التراب ، ثم توجّه إلى المركب فوجدها أرخت القلوع وسارت ، ولم تزل تشقّ البحر حتى غابت عن عينه . فصار قمر الزمان مدهوشاً حيران ، ثم رجع إلى البستان وهو مهموم مغموم وحثى التراب على رأسه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 215

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن قمر الزمان رجع إلى البستان وهو مهموم مغموم بعد أن سافرت المركب ، واستأجر البستان من صاحبه وأقام تحت يده رجلاً يعاونه على سقي الشجر ، وتوجّه إلى الطابق ونزل إلى القاعة وعبّى الذهب الباقي في خمسين مطراً ووضع فوقه الزيتون وسأل عن المركب فقالوا : إنها لا تسافر إلاّ في كل سنة مرة واحدة . فزاد به الوسواس وتحسّر على ما جرى له لا سيما فقد الفصّ الذي للسيدة بدور . فصار يبكي بالليل والنهار وينشد الأشعار . هذا ما كان من أمر قمر الزمان . وأما ما كان من أمر المركب ، فإنه طاب لها الريح ووصلت إلى جزيرة الأبنوس . واتفق بالأمر المقدور أن الملكة بدور كانت

جالسة إلى الشبّاك، فنظرت إلى المركب وقد رست في الساحل، فخفق فؤادها وركبت هي والأمراء والحجّاب وتوجّهت إلى الساحل ووقفت على المركب وقد دار النقل في البضائع إلى المخازن، فأحضرت الريس وسألته عمّا معه. فقال: أيها الملك، إن معي في هذه المركب من العقاقير والسفوفات والأكحال والمراهم والأدهان والأموال والأقمشة الفاخرة والبضائع النفيسة ما يعجز عن حمله الجمال والبغال، وفيها من أصناف العطر والبهار ومن العود القافلي والتمر الهندي والزيتون العصافيري ما يندر وجوده في هذه البلاد. فاشتهت نفسها الزيتون وقالت لصاحب المركب: ما مقدار الذي معك من الزيتون؟ قال: معي خمسون مطراً ملآنة، ولكن صاحبها ما حضر معنا والملك يأخذ ما اشتهاه منها. فقالت: أطلعوها إلى البر لأنظر إليها. فصاح الريس على البحرية فطلعوا بالخمسين مطراً، ففتحت واحداً ونظرت وقالت: أنا آخذ هذه الخمسين مطراً وأعطيكم حقّها مهما كان. فقال الريس: هذا ما له في بلادنا قيمة، ولكن صاحبها تأخر عنّا وهو رجل فقير. فقالت: وما مقدار ثمنها؟ قال: ألف درهم. قالت: أنا آخذها بألف درهم. ثم أمرت بنقلها إلى القصر. فلما جاء الليل أمرت بإحضار مطر، فكشفته وما في البيت غيرها هي وحياة النفوس. ثم حطّت بين يديها طبقاً ووضعت فيه شيئاً من المطر، فنزل في الطبق كوم من الذهب الأحمر. فقالت للسيدة حياة النفوس: ما هذا إلاّ ذهباً! ثم اختبرت الجميع فوجدتها كلها ذهباً والزيتون كله يملأ مطراً واحداً، وفتّشت في الذهب فوجدت الفصّ فيه، فأخذته وتأمّلته فوجدته الفصّ الذي كان في دكّة لباسها وأخذه قمر الزمان. فلما تحقّقته صاحت من فرحتها وخرّت مغشياً عليها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 216

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة بدور لما رأت الفصّ، صاحت من فرحتها وخرّت مغشياً عليها. فلما أفاقت قالت في نفسها: إن هذا الفصّ كان سبباً في فراق محبوبي قمر الزمان ولكنه بشير الخير. ثم أعلمت السيدة حياة النفوس بأن وجوده بشارة الإجتماع. فلما أصبح الصباح جلست على كرسي المملكة وأحضرت ريّس المركب، فلما حضر قبّل الأرض بين يديها فقالت: أين خليّتم صاحب هذا الزيتون؟ قال: يا ملك الزمان تركناه في بلاد المجوس وهو خولي بستان. فقالت له: إن لم تأت به فلا تعلم ما يجري عليك وعلى مركبك من الضرر. ثم أمرت بالختم على مخازن التجار وقالت لهم: إن صاحب هذا الزيتون غريمي ولي عليه دين، وإن لم يأتِ لأقتلنّكم جميعاً وأنهب تجارتكم. فأقبلوا على الريس ووعدوه بأجرة مركبه ويرجع ثاني مرة وقالوا له: خلّصنا من هذا الغاشم. فنزل الريس إلى المركب وحل قلوعها وكتب الله له السلامة حتى دخل الجزيرة في الليل وطلع إلى البستان، وكان قمر الزمان قد طال عليه الليل وتذكّر محبوبته فقعد يبكي على ما جرى له وهو في البستان. ثم إن الريس دقّ الباب على قمر الزمان، ففتح الباب وخرج إليه، فحمله البحرية ونزلوا به إلى المركب وحلّوا القلوع وساروا. ولم يزالوا سائرين أياماً وليالي وقمر الزمان لا يعلم ما يوجب ذلك، فسألهم عن السبب فقالوا له: أنت غريم الملك صاحب جزائر الأبنوس صهر الملك أرمانوس، وقد سرقت ماله يا منحوس. فقال: والله عمري ما دخلت هذه البلاد ولا أعرفها. ثم إنهم ساروا به حتى أشرفوا على جزائر الأبنوس وطلعوا به على السيدة بدور فلما رأته عرفته وقالت: دعوه عند الخدام

ليدخلوا به الحمام ، وأفرجت عن التجار وخلعت على الريس خلعة تساوي عشرة آلآف دينار .
ودخلت على حياة النفوس وأعلمتها بذلك وقالت لها : أكتمي الخبر حتى أبلغ مرادي، وأعمل عملاً يؤرّخ ويقرأ بعدنا على الملوك والرعايا . وحين أمرت أن يدخلوا بقمر الزمان الحمام ، فدخلوا به الحمام وألبسوه لبس الملوك . ولما طلع قمر الزمان من الحمام صار كأنه غصن بان أو كوكب يخجل بطلعته القمران ، وردّت روحه إليه . ثم توجّه إليها ودخل القصر ، فلما نظرته صبرت قلبها حتى يتم مرادها وانعمت عليه بمماليك وخدم وجمال وبغال وأعطته خزانة مال . ولم تزل ترقّي قمر الزمان من درجة إلى درجة حتى جعلته خازندار وسلّمت إليه الاموال واقبلت عليه وقرّبته منها وأعلمت الأمراء بمنزلته ، فأحبوه جميعهم وصارت الملكة بدور كل يوم تزيد له في المرتبات وقمر الزمان لا يعرف ما سبب تعظيمها له . ومن كثرة الأموال صار يهب ويتكرّم ويخدم الملك أرمانوس حتى أحبّه وكذلك أحبته الأمراء والخواص والعوام ، وصاروا يحلفون بحياته . كل ذلك وقمر الزمان يتعجّب من تعظيم الملكة بدور له ويقول في نفسه : والله إن هذه المحبة لا بدّ لها من سبب ، وربما يكون هذا الملك إنما يكرّمني هذا الإكرام الزائد لأجل غرض فاسد فلا بدّ أن أستأذنه وأسافر عن بلاده . ثم إنه توجّه إلى الملكة بدور وقال لها : أيها الملك ، إنك أكرمتني إكراماً زائداً ، ومن تمام الإكرام أن تأذن لي في السفر وتأخذ مني جميع ما أنعمت به عليّ فتبسمت الملكة بدور وقالت له ما حملك على طلب الأسفار واقتحام الأخطار وانت في غاية الإكرام وتزايد الأنعام ؟ فقال لها قمر الزمان : أيها الملك ، إن هذا الإكرام إذا لم يكن له سبب فإنه من أعجب العجب ، خصوصاً وقد أوليتني من المراتب ما حقّه أن يكون للإختيار مع أنني من الأطفال الصغار . فقالت له الملكة بدور : وسبب ذلك إني أحبك لفرط جمالك الفائق وبديع حسنك الرائق ، وإن مكّنتني ما أريده منك أزدك إكراماً وعطاء وإنعاماً وأجعلك وزيراً على صغر سنك كما جعلني الناس سلطاناً عليهم وانا في هذا السن . ولا عجب اليوم في رئاسة الأطفال ولله درّ من قال : [من الوافر]

كأنَّ زَمانَنا مِنْ قَوْمِ لُوطٍ   لَهُ شَغَفٌ بِتَقْدِيمِ الصِّغارِ

فلما سمع قمر الزمان هذا الكلام ، خجل واحمرت خدوده حتى صارت كالضرام وقال : لا حاجة لي بهذا الإكرام المودي إلى ارتكاب الحرام ، بل أعيش فقيراً من المال غنياً بالمروءة والكمال . فقالت له الملكة بدور : أنا لا أغترّ بورعك الناشيء عن التيه والدلال ، ولله درّ من قال : [من الكامل]

ذاكَرْتُهُ عَهْدَ الوِصالِ فَقالَ لي :   كَمْ ذا تُطيلُ مِنَ الكَلامِ المُؤْلِمِ ؟
فأرَيْتُهُ الدِّينارَ أَنْشَدَ قائِلاً :   أَيْنَ المَفَرُّ مِنَ القَضاءِ المُبْرَمِ ؟

فلما سمع قمر الزمان هذا الكلام وفهم الشعر والنظام قال : أيها الملك ، إنه لا عادة لي بهذه الفعال ولا طاقة لي على حمل هذه الأثقال التي يعجز عن حملها أكبر مني ، فكيف بي على صغر سني ؟ فلما سمعت كلامه الملكة بدور تبسّمت وقالت : إن هذا الشيء عجاب ، كيف يظهر الخطأ من خلال الصواب إذا كنت صغيراً ؟ فكيف تخشى من الحرام وارتكاب الآثام وأنت لم تبلغ حدّ التكليف ولا مؤاخذة في ذنب الصغير ولا تعنيف ، فقد ألزمت نفسك الحجّة بالجدال وحقّت

عليك كلمة الوصال، فلا تظهر بعد ذلك امتناعاً ولا نفوراً وكأن امر الله قدراً مقدوراً. فأنا احقّ منك بخشية الوقوع في الضلال. وقد اجاد من قال: [من الكامل]

أَيْرِي كَبِيرٌ والصَّغِيرُ يَقُول لي: إطْعَنْ به الأَحْشا وَكُنْ صِنْدِيدا
فأَجَبْتُهُ: ذا لا يَجُوزُ، فَقالَ لي: عِنْدِي يَجُوزُ فَنِكْتُه تَقْلِيدا

فلما سمع قمر الزمان هذا الكلام، تبدّل الضياء في وجهه بالظلام وقال: أيها الملك، إنه يوجد عندك من النساء والجواري الحسان ما لا يوجد له نظير في هذا الزمان، فهلاّ استغنيت بذلك عنّي؟ فمل إلى ما شئت من هنّ ودعني. فقالت: إن كلامك صحيح ولكن لا يشتفي بهن من عشقك الم ولا تبريح، وإذا افسدت الأمزجة والطبيعة فهي لغير النصح سميعة مطيعة. فاترك الجدال واسمع قول من قال: [من البسيط]

أَما تَرَى السُّوقَ قَد صُفَّتْ فَواكِهُهُ لِلتِّينِ قَوْمٌ ولِلْجُمَّيْزِ أَقْوامُ

وقول الآخر: [من الطويل]

وصامِتَةَ الخَلْخالِ رَنَّ وِشاحُها فَهذا قَدِ ٱسْتَغْنَى وذا يَشْتَكِي الفَقْرا
تُرِيدُ سُلُوِّي عَنْكَ جَهْلاً بِحُسْنِها وما كُنْتُ أَرْضَى بَعْدَ إِيماني الكُفْرا
وحَقِّ عِذارٍ يَزْدَرِي بِعِقاصِها فَلَسْتُ بِعاطٍ لِلَّتِي تُلْهِنِي العُذْرا

وقول الآخر: [من الخفيف]

يا فَرِيدَ الجَمالِ حُبُّكَ دِينِي وٱخْتِيارِي على جَمِيعِ المَذاهِبْ
قَد تَرَكْتُ النِّسا لأَجْلِكَ حَتَّى زَعَمَ النَّاسُ إِنَّنِي اليَوْمَ راهِبْ

وقول الآخر: [من الطويل]

سَلا خاطِرِي عَنْ زَيْنَبٍ ونَوارِي بِوَرْدَةِ خَدٍّ فَوْقَ آسِ عِذارِ
وأَصْبَحْتُ بالظَّبِيِّ المُقَرْطَقِ مُغْرَماً ولا رَأْيٌ لي في عِشْقِ ذاتِ سِوارِ
أَنِيسِي في النَّادِي وفي خَلْوَتِي مَعاً خِلافُ أَنِيسِي في قَرارَةِ دارِي
فَيا لائِمي في هَجْرِ هِنْدٍ وزَيْنَبٍ وقَد لاحَ عُذْرِي كالصَّباحِ السَّارِي
أَتَرْضَى بِأَنْ أُمْسِي أَسِير اسيرة مُحَصَّنَة أَو مِن وَراءِ الجِدارِ

وقول الآخر: [من الخفيف]

لا تَقِسْ أَمْرَداً بأُنْثَى ولا تُصْـ ـغِ لِواشٍ يَقُولُ ذلِكَ فِسْقُ
بَينَ أُنْثَى يُقَبِّلُ الوَجْهُ رِجْلاً وغَزالٍ يُقَبِّلُ الأَرْضَ فَرْقُ

وقول الآخر: [من الوافر]

فَدَيْتُكَ إِنَّما ٱخْتَرْناكَ عَمْداً لأَنَّكَ لا تَحِيضُ ولا تَبِيضُ
ولَو مِلْنا إلى وَصْلِ الغَوانِي لَضاقَ بِنَسْلِنا البَلَدُ العَرِيضُ

وقول الآخر: [من البسيط]

تَقُولُ لي وهي غَضْبى مِنْ تَدَلُّلِها | وقَد دَعَتْني إلى شَيْءٍ فَما كانَا
إنْ لَمْ تَنِكْنِي نَيْكَ المَرْءِ زَوْجَتَهُ | فَلا تَلُمْني إذا أَصْبَحْتَ قَرْنانَا
كأنَّ أيْرَكَ مِنْ شَمْعٍ رَخاوَتُهُ | فكُلَّما عَرَكَتْهُ راحَتِي لانَا

وقول الآخر : [من البسيط]

قالَتْ وقَد أَعْرَضْتُ عَنْ غَشَيانِها | يا أَحْمَقاً في جَهْلِهِ يَتناها
لَمْ تَرْضَ مِنْ قَبْلي لِوَجْهِكَ قُبْلَةً | لَنُوَلِّيَنَّكَ قُبْلَةً تَرْضاها

وقول الآخر : [من مجزوء الرجز]

جادَتْ بِكُسٍّ ناعِمٍ | فَقُلْتُ إنِّي لَم أَنِكْ
فَانْصَرَفَتْ قائِلَةً | يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أَفِكْ
النَّيْكُ مِنْ قُدَّامٍ في | هذا الزَّمانِ قَد تُرِكْ
ودَوَّرَتْ لي فَقْحَةً | مِثْلَ اللُّجَيْنِ المُنْسَبِكْ
أَحْسَنْتِ يا سَيِّدَتي | أَحْسَنْتِ لا فُجِعْتُ بِكْ
أَحْسَنْتِ يا أَوْسَعَ مِنْ | فُتُوحِ مَوْلانا المَلِكْ

وقول الآخر : [من السريع]

يَسْتَغْفِرُ النَّاسُ بِأَيْدِيهِم | وَهُنَّ يَسْتَغْفِرْنَ بالأَرْجُلِ
يا لَهُ مِنْ عَمَلٍ صالِحٍ | يَرْفَعُهُ اللهُ إلى أَسْفَلِ

فلما سمع قمر الزمان منها هذه الأشعار وتحقّق أنه ليس له مما أرادته فرار قال : يا ملك الزمان ، إن كان ولا بدّ فعاهدني على أنك لا تفعل بي هذا الأمر غير مرة واحدة ، وإن كان ذلك لا يجدي في إصلاح الطبيعة الفاسدة . وبعد ذلك لا تسألني فيه على الأبد لعلّ الله يصلح مني ما فسد . فقالت : عاهدتك على ذلك ، راجياً أن الله علينا يتوب ويمحو بفضله عنّا عظيم الذنوب . فإن نطاق أفلاك المغفرة لا يضيق عن أن يحيط بنا ويكفّر عنّا ما عظم من سيّئاتنا ويخرجنا إلى نور الهدى من ظلام الضلال . وقد أجاد وأحسن من قال : [من الطويل]

تَوَهَّمَ فِينا النَّاسُ شَيّاً وَصَمَّمَتْ | عَلَيْهِ نُفُوسٌ مِنْهُمُ وقُلُوبُ
تَعالَ نُحَقِّقْ ظَنَّهُمْ لِنُرِيحَهُمْ | مِنْ الإثْمِ فِينا مَرَّةً ونَتُوبُ

ثم أعطته المواثيق والعهود وحلفت له بواجب الوجود إنه لا يقع بينها وبينه هذا الفعل إلاّ مرة في الزمان وإن ألجأها غرامه إلى الموت والخسران . فقام معها على هذا الشرط إلى محل خلوتها لتطفىء نيران لوعتها وهو يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ذلك تقدير العزيز العليم . ثم حلّ سراويله وهو في غاية الخجل وعيونه تسيل من شدّة الوجل . فتبسّمت وأطلعته معها على السرير وقالت له : لا ترى بعد هذه الليلة من نكير ، ومالت عليه بالتقبيل والعناق والتفاف ساق على ساق ثم قالت له : مدّ يدك بين فخذيّ إلى المعهود لعله ينتصب إلى القيام من السجود . فبكى وقال : أنا لا أحسن شيئاً من ذلك . فقالت : بحياتي أن تفعل ما أمرتك به مما هنالك . فمد يده

وفؤاده في زفير فوجد فخذها ألين من الزبد وأنعم من الحرير، فاستلذّ بلمسها وجال بيده في جميع الجهات حتى وصلت إلى قبّة كثيرة البركات والحركات. فقال في نفسه: لعلّ هذا الملك خنثى وليس بذكر ولا أنثى. ثم قال: أيها الملك، إني لم أجد لك آلة مثل الآت الرجال فما حملك على هذه الفعال؟ فضحكت الملكة بدور حتى استلقت على قفاها وقالت له: يا حبيبي ما أسرع ما نسيت لياليا بتناها، وعرفته بنفسها. فعرف أنها زوجته الملكة بدور بنت الملك الغيور صاحب الجزائر والبحور، فاحتضنها واحتضنته وقبّلها وقبّلته ثم اضطجعا على فراش الوصال وتناشدا قول من قال: [من الكامل]

لَمّا دَعَتْهُ إلى وِصالي عَطْفَةٌ / مِنْ مَعْطِفٍ بِتَعَطُّفٍ مُتَواصِ
وسَقَتْ قَساوَةَ قَلْبِهِ مِنْ لِينِها / فَأَجابَ بَعْدَ تَمَنُّعٍ وتَعاصِي
خَشِيَ العَواذِلُ أَنْ تَراهُ إذا بَدا / فَأَتَى بَعُدَّةِ آمِنِ الأَرْهاصِ
شَكَتِ الخُصورُ رَوادِفاً قد حَمَّلَتْ / أَقْدامَهُ في المَشْيِ حِمْلَ قِلاصِ
مُتَقَلِّدُ الصَّمْصامِ مِنْ أَلْحاظِهِ / ومِنَ الدُّجَى مُتَدَرِّعاً بِدِلاصِ
وشَذاهُ بَشَّرَني بِسَعْدِ قُدُومِهِ / فَفَرَرْتُ مِثْلَ الطَّيْرِ مِنْ أَقْفاصِ
وفَرَشْتُ خَدِّي في الطَّرِيقِ لِنَعْلِهِ / فَشَفَى بإثْمِدِ تُرْبِها أَرْماصِي
وعَقَدْتُ أَلْوِيَةَ الوِصالِ مُعانِقاً / وفَكَكْتُ عُقْدَةَ حَظِّيَ المُتَعاصِي
وأَقَمْتُ أَفْراحاً أَجابَ نِداءَها / طَرَبٌ صَفا عَنْ شائِبِ الإنْغاصِ
والبَدْرُ نَقَّطَ بالنُّجُومِ الثَّغْرَ مِنْ / حَبَبٍ عَلى وَجْهِ الطِّلَى رَقّاصِ
وعَكَفْتُ في مِحْرابِ لَذَّتِها عَلى / ما مِنْ تَعاطِيهِ يَتُوبُ العاصِي
قَسَماً بِآياتِ الضُّحَى مِنْ وَجْهِهِ / لَم أَنْسَ فِيهِ سُورَةَ الإخْلاصِ

ثم إن الملكة بدور أخبرت قمر الزمان بجميع ما جرى لها من الأول إلى الآخر، وكذلك هو أخبرها بجميع ما جرى له. وبعد ذلك انتقل معها إلى العتاب وقال لها: ما حملك على ما فعلته بي في هذه الليلة؟ فقالت: لا تؤاخذني، فإن قصدي بذلك المزاح ومزيد البسط والإنشراح. فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، أرسلت الملكة بدور إلى الملك أرمانوس والد الملكة حياة النفوس وأخبرته بحقيقة أمرها وإنها زوجة قمر الزمان، وأخبرته بقصتهما وبسبب افتراقهما بعضهما، وأعلمته أن ابنته حياة النفوس بكر على حالها. فلما سمع الملك أرمانوس صاحب جزائر الأبنوس قصة الملكة بدور بنت الملك الغيور، تعجّب منهما غاية العجب وأمر أن يكتبوها بماء الذهب، ثم التفت إلى قمر الزمان وقال له: يا ابن الملك، هل لك أن تصاهرني وتتزوّج بنتي حياة النفوس؟ فقال له: حتى أشاور الملكة بدور فإن لها عليّ فضلاً غير محصور. فلما شاورها قالت له: نعم هذا الرأي. فتزوّجها وأكون أنا لها جارية، لأن لها علي معروفاً وإحساناً وخيراً وامتناناً، وخصوصاً نحن في محلها وقد غمرنا إحسان أبيها. فلما رأى قمر الزمان أن الملكة بدور مايلة إلى ذلك ولم يكن عندها غيرة من حياة النفوس، اتّفق معها على هذا الأمر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 217

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن قمر الزمان اتفق مع زوجته الملكة بدور على هذا الأمر ، وأخبر الملك أرمانوس بما قالته الملكة بدور من أنها تحب ذلك وتكون جارية لحياة النفوس . فلما سمع الملك أرمانوس هذا الكلام من قمر الزمان فرح فرحاً شديداً ، ثم خرج وجلس على كرسي مملكته وأحضر جميع الوزراء والأمراء والحجّاب وأرباب الدولة وأخبرهم بقصة قمر الزمان وزوجته الملكة بدور من الأول إلى الآخر ، وإنه يريد أن يزوّج ابنته حياة النفوس لقمر الزمان ويجعله سلطاناً عليهم عوضاً عن زوجته الملكة بدور . فقالوا جميعاً : حيث كان قمر الزمان هو زوج الملكة بدور التي كانت سلطاناً علينا قبله ونحن نظن أنها صهر ملكنا أرمانوس ، فكلنا نرضاه سلطاناً علينا ونكون له خدماً ولا نخرج عن طاعته . ففرح الملك أرمانوس بذلك فرحاً شديداً ، ثم أحضر القضاة والشهود ورؤساء الدولة وعقد عقد قمر الزمان على ابنته الملكة حياة النفوس . ثم إنه أقام الأفراح وأولم الولائم الفاخرة وخلع الخلع السنية على جميع الأمراء ورؤساء العساكر ، وتصدّق على الفقراء والمساكين وأطلق جميع المحابيس ، واستبشر العالم بسلطنة الملك قمر الزمان وصاروا يدعون له بدوام العزّ والإقبال والسعادة والإجلال . ثم إن قمر الزمان لما صار سلطاناً عليهم ، أزال المكوس وأطلق من بقي في الحبوس وسار فيهم سيرة حميدة وأقام مع زوجته على هناء وسرور ووفاء وحبور ، يبيت عند كل واحدة منهما ليلة . ولم يزل على ذلك مدة من الزمان وقد انجلت عنه الهموم والأحزان ونسي أباه الملك شهرمان وما كان له عنده من عزّ وسلطان حتى رزقه الله تعالى من زوجتيه بولدين ذكرين مثل القمرين النيّرين ، أكبرهما من الملكة بدور وكان اسمه الملك الأمجد وأصغرهما من الملكة حياة النفوس واسمه الملك الأسعد . وكان الأسعد أجمل من أخيه الأمجد . ثم إنهما تربّيا في العزّ والدلال والأدب والكمال وتعلّما الخط والط والسياسة والفروسية حتى صارا في غاية الكمال ونهاية الحسن والجمال وافتتن بهما النساء ، وصار لهما من العمر نحو سبعة عشر عاماً وهما متلازمان ، فيأكلان سواء ويشربان سواء ولا يفترقان عن بعضهما ساعة من الساعات ولا وقتاً من الأوقات وجميع الناس تحسدهما على ذلك . ولما بلغا مبلغ الرجال واتّصفا بالكمال ، صار أبوهما إذا سافر يجلسهما على التعاقب في مجلس الحكم فيحكم كل واحد منهما يوماً بين الناس . واتفق بالقدر المبرم والقضاء المحتم أن محبة الأسعد الذي هو ابن حياة النفوس وقعت في قلب الملكة بدور زوجة أبيه ، وأن محبة الأمجد الذي هو ابن الملكة بدور وقعت في حياة النفوس زوجة أبيه . فصارت كل واحدة من المرأتين تلاعب ابن ضرّتها وتقبّله وتضمّه إلى صدرها ، وإذا رأت ذلك أمه تظن أنه من الشفقة ومحبة الأمهات لأولادها . وتمكّن العشق من قلوب المرأتين وافتتنتا بالولدين ، فصارت كل واحدة منهما إذا دخل عليها ابن ضرّتها تضمّه إلى صدرها وتودّ أنه لا يفارقها . ولما طال عليهما المطال ولم يجدا سبيلاً إلى الوصال ، امتنعتا من الشراب والطعام وهجرتا لذيذ المنام . ثم إن الملك توجّه إلى الصيد والقنص وأمر ولديه أن يجلسا في موضعه للحكم كل واحد منهما يوماً على عادتهما . وأدرك

شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 218 قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك توجّه إلى الصيد والقنص وأمر ولديه أن يجلسا في موضعه للحكم كل واحد يوماً على عادتهما. فجلس للحكم في اليوم الأول الأمجد بن الملكة بدور، فأمر ونهى وولّى وعزل وأعطى ومنع . فكتبت له الملكة حياة النفوس أم الأسعد مكتوباً تستعطفه فيه وتوضح له أنها متعلّقة به ومتعشّقة فيه وتكشف له الغطاء وتعلمه أنها تريد وصاله . فأخذت ورقة وكتبت فيها هذه السجعات :

من المسكينة العاشقة * الحزينة المفارقة * التي ضاع بحبك شبابها * وطال فيك عذابها * ولو وصفت لك طول الأسف * وما أقاسيه من اللهف * وما بقلبي من الشغف * وما أنا فيه من البكاء والأنين * وتقطع القلب الحزين * وتوالى الغموم * وتتابع الهموم * وما أجده من الفراق * والكآبة والاحتراق * لطال شرحه في الكتاب * وعجزت عن حصره الحساب * وقد ضاقت عليّ الأرض والسماء * ولا لي في غيرك أمل ولا رجاء * فقد أشرفت على الموت * وكابدت أهوال الفوت * وزاد بي الاحتراق * والم الهجر والفراق ولو وصفت ما عندي من الأشواق * لضاقت عنه الأوراق * ثم بعد ذلك كتبت هذين البيتين : [من البسيط]

لَو كُنْتُ أَشْرَحُ ما أَلْقاهُ مِنْ حُرَقٍ ومِنْ سَقامٍ ومِنْ وَجْدٍ ومِنْ قَلَقِ
لَم يَبْقَ في الأَرْضِ قِرْطاسٌ ولا قَلَمٌ ولا مِدادٌ ولا شَيْءٌ مِنَ الوَرَقِ

ثم إن الملكة حياة النفوس لفّت تلك الورقة في رقعة من غالي الحرير مضمّخة بالمسك والعبير ووضعت معها جدائل شعرها التي تستغرق الأموال بسعرها، ثم لفّتها بمنديل وأعطتها لخادم وأمرته أن يوصلها إلى الملك الأمجد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 219 قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أنها أعطت ورقة المراسلة للخادم وأمرته بوصلها إلى الملك الأمجد . فسار ذلك الخادم وهو لا يعلم ما خفي له في الغيب، وعلاّم الغيوب يدبر الأمور كيف يشاء . فلما دخل الخادم على الملك الأمجد قبّل الأرض بين يديه وناوله المنديل وبلّغه الرسالة . فتناول الملك الأمجد المنديل من الخادم وفتحه فرأى الورقة، ففتحها وقرأها . فلما فهم معناها علم أن امرأة أبيه في عينها الخيانة، وقد خانت أباه الملك قمر الزمان في نفسها . فغضب غضباً شديداً وذمّ النساء على فعلهن وقال : لعن الله النساء الخائنات الناقصات عقلاً وديناً . ثم إنه جرّد سيفه وقال للخادم : ويلك يا عبدالسوء، أتحمل المراسلة المشتملة على الخيانة من زوجة سيدك؟ والله إنه لا خير فيك يا أسود اللون والصحيفة، يا قبيح المنظر والطبيعة السخيفة . ثم ضربه بالسيف على عنقه فعزل رأسه عن جثته وطوى المنديل على ما فيه ووضعه في جيبه، ثم دخل على أمه وأعلمها بما جرى وسبّها وشتمها وقال : كلّكن أنحس من بعضكن، والله العظيم لولا أني أخاف إساءة الأدب في حقّ والدي قمر الزمان وأخي الملك الأسعد لأدخلن عليها وأضربن عنقها كما ضربت عنق خادمها . ثم إنه خرج من عند أمه الملكة بدور وهو في غاية الغيظ . فلما بلغ الملكة حياة النفوس زوجة أبيه ما فعل بخادمها، سبّته ودعت

عليه وأضمرت له المكر . فبات الملك الأمجد في تلك الليلة ضعيفاً من الغيظ والقهر والفكر ولم يلذّ له أكل ولا شرب ولا منام ، فلما أصبح الصباح خرج أخوه الملك الأسعد وجلس في مجلس أبيه الملك قمر الزمان ليحكم بين الناس ، وقد أصبحت أمه حياة النفوس ضعيفة بسبب ما سمعته عن الملك الأمجد من قتله للخادم . ثم إن الملك الأسعد لما جلس للحكم في ذلك اليوم ، حكم وعدل وولّى وعزل وأمر ونهى وأعطى ووهب ، ولم يزل جالساً في الحكم إلى قرب العصر . ثم إن الملكة بدور أم الملك الأمجد أرسلت إلى عجوز من العجائز الماكرات وأظهرتها على ما في قلبها ، وأخذت ورقة لتكتب فيها مراسلة للملك الأسعد ابن زوجها وتشكو إليه كثرة محبتها له ووجدها به فكتبت له هذه السجعات :

ممن تلفت وجداً وشوقاً * إلى أحسن الناس خلقاً وخلقاً * المعجب بجماله * التائه بدلاله * المعرض عن طالب وصاله * الزاهد في القرب ممن خضع وذلّ * إلى من جفا وملّ * الملك الأسعد صاحب الحسن الفائق * والجمال الرايق * والوجه الأقمر * والجبين الأزهر * والضياء الأبهر * هذا كتابي إلى من حبّه أذاب جسمي * ومزّق جلدي وعظمي * أعلم أني قد عيل صبري * وتحيّرت في أمري * وأقلقني الشوق والسهاد * وجفاني الصبر والرقاد * ولازمني الحزن والسهاد * وبرح بي الوجد والغرام * وحلول الضنى والسقام * فالروح تفديك * وإن كان قتل الصب يرضيك * والله يبقيك * ومن كل سوء يقيك * ثم بعد تلك السجعات * كتبت هذه الأبيات : [من الكامل]

حَكَمَ الزَّمانُ بأنَّني لَكَ عاشِقٌ يا مَنْ مَحاسِنُهُ كَبَدْرٍ يُشْرِقُ
حُزْتَ المَلاحَةَ والفَصاحَةَ كُلَّها وعَلَيْكَ مِنْ دُونِ البَرِيَّةِ رَوْنَقُ
ولَقَدْ رَضِيتَ بأنْ تَكُونَ مُعَذِّبِي فَعَسَى عَلَيَّ بِنَظْرَةٍ تَتَصَدَّقُ
مَنْ ماتَ فِيكَ صَبابَةً فَلَه الْهَنا لا خَيْرَ فِيمَنْ لا يُحِبُّ ويَعْشَقُ

ثم كتبت أيضاً هذه الأبيات : [من البسيط]

إلَيْكَ أَسْعَدُ أَشْكُو مِنْ لَهِيبِ جَوًى فارْحَمْ مُتَيَّمَةً بالشَّوْقِ تَلْتَهِبُ
إلى مَتَى وأَيادِي الوَجْدِ تَلْعَبُ بِي والعِشْقُ والفِكْرُ والتَّسْهِيدُ والنَّصَبُ
طَوْراً بِبَحْرٍ وطَوْراً أَشْتَكي لَهَباً في مُهْجَتِي إنَّ ذا يا مُنْيَتِي عَجَبُ
يا لائمِي خَلِّ لَوْمِي والتَمِسْ هَرَباً مِنَ الهَوَى فَدُمُوعُ العَيْنِ تَنْسَكِبُ
كَمْ صِحْتُ وَجْداً مِنَ الهِجْرانِ واحَرَبا فَلَمْ يُفِدْنِي بِذاكَ الوَيْلُ والحَرَبُ
أَمْرَضْتَنِي بِصُدُودٍ لَسْتُ أَحْمِلُهُ أَنْتَ الطَّبِيبُ فاسْعِفْنِي بما يَجِبُ
يا عاذِلِي كُفَّ عَنْ عَذْلِي مُحاذَرَةً كَيْلا يُصِيبَكَ مِنْ داءِ الهَوَى عَطَبُ

ثم إن الملكة بدور ضمّخت ورقة الرسالة بالمسك الأذفر ولفّتها في جدائل شعرها وهي من الحرير العراقي وشراريبها من قضبان الزمرد الأخضر مرصّعة بالدرّ والجوهر ، ثم سلّمتها إلى العجوز وأمرتها أن تعطيها للملك الأسعد ابن زوجها الملك قمر الزمان . فراحت العجوز من أجل خاطرها ودخلت على الملك الأسعد من وقتها وساعتها وكان في خلوة عند دخولها ، فناولته

الورقة بما فيها وقد وقفت ساعة زمانية تنتظر ردّ الجواب . فعند ذلك قرأ الملك الأسعد الورقة وفهم ما فيها ، ثم بعد ذلك لفّ الورقة في الجدائل ووضعها في جيبه وغضب غضباً شديداً ما عليه من مزيد ، ولعن النساء الخائنات . ثم إنه نهض وسحب السيف من غمده وضرب رقبة العجوز فعزل رأسها عن جثتها وبعد ذلك قام وتمشّى حتى دخل على أمه حياة النفوس ، فوجدها راقدة في الفراش ضعيفة بسبب ما جرى لها من الملك الأمجد ، فشتمها الملك الأسعد ولعنها ثم خرج من عندها فاجتمع بأخيه الملك الأمجد وحكى له جميع ما جرى له مع الملكة بدور وأخبره بأنه قتل العجوز التي جاءت له بالرسالة . ثم قال له : والله يا أخي ، لولا حيائي منك لكنت دخلت في هذه الساعة إليها وقطعت رأسها من بين كتفيها . فقال له أخوه الملك الأمجد والله يا أخي ، إنه قد جرى لي بالأمس لما جلست على كرسي المملكة مثل ما جرى لك في هذا اليوم ، فإن أمك أرسلت إليّ رسالة بمثل مضمون هذا الكلام . ثم أخبره بجميع ما جرى له مع أمه الملكة حياة النفوس وقال له : والله يا أخي ، لولا حيائي منك لدخلت إليها وفعلت بها ما فعلت بالخادم . ثم إنهما باتا يتحدّثان بقية تلك الليلة ويلعنا النساء الخائنات ، ثم تواصيا بكتمان هذا الأمر لئلا يسمع به أبوهما الملك قمر الزمان فيقتل المرأتين . ولم يزالا في غمّ تلك الليلة إلى الصباح ، فلما أصبح الصباح أقبل الملك بجيشه من الصيد وطلع إلى قصره ثم صرف الأمراء إلى حال سبيلهم ، وقام ودخل القصر فوجد زوجتيه راقدتين على الفراش وهما في غاية الضعف ، وقد عملتا لولديهما مكيدة واتفقتا على تضييع أرواحهما لأنهما قد فضحتا أنفسهما معهما وقد خشيتا أن يصيرتا تحت زلتهما . فلما رآهما الملك على تلك الحالة قال لهما : ما لكما؟ فقامتا إليه وقبّلتا يديه وعكستا عليه المسألة وقالتا له : اعلم أيها الملك أن ولديك اللذين قد تربيا في نعمتك قد خاناك في زوجتيك وأركباك العار . فلما سمع قمر الزمان من نسائه هذا الكلام ، صار الضياء في وجهه ظلاماً واغتاظ غيظاً شديداً حتى طار عقله من شدة الغيظ وقال لنسائه : أوضحا لي هذه القضية . فقالت له الملكة بدور : اعلم يا ملك الزمان أن ولدك الأسعد ابن حياة النفوس له مدة من الأيام وهو يراسلني ويكاتبني ويراودني على الزنا ، وأنا أنهاه عن ذلك ولم ينته . فلما سافرت أنت هجم عليّ وهو سكران والسيف في يده ، فخفت أن يقتلني إذا مانعته كما قتل خادمي فقضى أربه مني غصباً ، وإن لم تخلّص حقّي منه أيها الملك قتلت نفسي بيدي وليس لي حاجة بالحياة في الدنيا بعد هذا الفعل القبيح . وأخبرته حياة النفوس أيضاً بمثل ما أخبرته به ضرّتها بدور . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 220

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملكة حياة النفوس أخبرت زوجها الملك قمر الزمان بمثل ما أخبرته به الملكة بدور وقالت له : أنا الأخرى جرى لي مع ولدك الأمجد كذلك . ثم إنها أخذت في البكاء والنحيب وقالت له : إن لم تخلّص لي حقي منه أعلمت أبي الملك أرمانوس بذلك . ثم إن المرأتين بكتا قدّام زوجهما الملك قمر الزمان بكاءً شديداً . فلما رأى الملك بكاء زوجتيه الإثنتين وسمع كلامهما اعتقد أنه حق ، فغضب غضباً شديداً ما عليه من مزيد . فقام وأراد أن يهجم على أولاده الإثنين ليقتلهما فلقيه صهره الملك أرمانوس وقد كان داخلاً في تلك الساعة ليسلّم عليه لما علم أنه قد أتى من الصيد ، فرآه

والسيف مشهور في يده والدم يقطر من مناخيره من شدّة غيظه . فسأله عمّا به ، فأخبره بجميع ما جرى من ولديه الأمجد والأسعد ثم قال له : وها أنا داخل إليهما لأقتلهما أقبح قتلة وأمثل بهما أقبح مثلة . فقال له صهره الملك أرمانوس وقد اغتاظ عليهما أيضاً : ونعم ما تفعل يا ولدي ، فلا بارك الله فيهما ولا في أولاد تفعل هذه الفعال في حقّ أبيهما . ولكن يا ولدي ، صاحب المثل يقول : من لم ينظر في العواقب ما الدهر له بصاحب . وهما ولداك على كل حال وينبغي أن لا تقتلهما بيدك ، فتشرب غصتهما وتندم بعد ذلك على قتلهما حيث لا ينفعك الندم ، ولكن أرسلهما مع أحد من المماليك ليقتلهما في البرية وهما غائبان عن عينك . فلما سمع الملك قمر الزمان من صهره الملك أرمانوس هذا الكلام رآه صواباً . فأغمد سيفه ورجع وجلس على سرير مملكته ودعا خازنداره ، وكان شيخاً كبيراً عارفاً بالأمور وتقلّبات الدهور وقال له : أدخل إلى ولديّ الأمجد والأسعد وكتّفهما كتافاً جيداً واجعلهما في صندوقين واحملهما على بغل واركب أنت واخرج بهما إلى وسط البرية واذبحهما واملأ لي قنّينتين من دمهما وائتني بهما عاجلاً . فقال له الخازندار : سمعاً وطاعةً . ثم نهض من وقته وساعته وتوجّه إلى الأمجد والأسعد ، فصادفهما في الطريق وهما خارجان من دهليز القصر وقد لبسا قماشهما وأفخر ثيابهما وأراد التوجّه إلى والدهما الملك قمر الزمان ليسلّما عليه ويهنآه بالسلامة عند قدومه من السفر إلى الصيد . فلما رآهما الخازندار قبض عليهما وقال لهما : يا ولداي ، إعلما أنني عبد مأمور ، وإن أباكما قد أمرني بأمر فهل أنتما طائعان لأمره؟ قالا : نعم . فعند ذلك تقدم إليهما الخازندار وكتّفهما ووضعهما في صندوقين وحملهما على ظهر بغل وخرج بهما من المدينة ، ولم يزل سائراً بهما في البرية إلى قريب الظهر ، فأنزلهما في مكان قفر موحش ونزل عن فرسه وحطّ الصندوقين عن ظهر البغل وفتحهما وأخرج الأمجد والأسعد منهما . فلما نظر إليهما بكى بكاءً شديداً على حسنهما وجمالهما ، وبعد ذلك جرّد سيفه وقال لهما : والله يا سيداي إنه يعزّ عليّ أن أفعل بكما فعلاً قبيحاً ، ولكن أنا معذور في هذه الأمور لأنني عبد مأمور وقد أمرني والدكما الملك قمر الزمان بضرب رقابكما . فقالا له : أيها الأمير ، إفعل ما أمرك به الملك فنحن صابرون على ما قدّره الله عزّ وجلّ علينا وأنت في حِلّ من دمائنا . ثم إنهما تعانقا وودّعا بعضهما وقال الأسعد للخازندار : بالله عليك يا عمّ ، إنك لا تجرّعني غصّة أخي ولا تسقني حسرته بل اقتلني أنا قبله ليكون ذلك أهون عليّ . وقال الأمجد للخازندار مثل ما قال الأسعد ، واستعطف الخازندار بقتله قبل أخيه وقال له : إن أخي أصغر مني فلا تذقني لوعته . ثم بكى كل منهما بكاءً شديداً ما عليه من مزيد ، وبكى الخازندار لبكائهما . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 221

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الخازندار بكى لبكائهما . ثم إن الأخوين تعانقا وودّعا بعضهما وقال أحدهما للآخر إن هذا كلّه من كيد الخائنتين أمي وأمك ، وهذا جزاء ما جرى مني في حق أمك وجزاء ما جرى منك في حقّ أمي ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم إنّا لله وإنّا إليه راجعون . ثم إن الأسعد اعتنق أخاه وصعّد الزفرات وأنشد هذه

الأبيات : [من الكامل]

يا مَنْ إليْهِ المُشْتَكى والمفْزَعُ | أَنْتَ المُعَدُّ لِكُلِّ ما يُتَوَقَّعُ
ما لي سِوَى قَرْعِي لِبابِكَ حِيلَةٌ | ولَئِنْ رُدِدْتُ فأيَّ بابٍ أَقْرَعُ
يا مَنْ خَزائِنُ فَضْلِهِ في قَوْلِ كُنْ | أُمْنُنْ فإنَّ الخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ

فلما سمع الأمجد بكاء أخيه ، بكى وضمّه إلى صدره وأنشد هذين البيتين : [من البسيط]

يا مَنْ أياديه عِنْدِي غَيرُ واحِدَةٍ | ومَنْ مَواهِبُهُ تَنْمُو عَنِ العَدَدِ
ما نابَنِي مِنْ زَماني قَطُّ نائِبَةٌ | إلاّ وَجَدْتُكَ فيها آخِذاً بِيَدِي

ثم قال الأمجد للخازندار : سألتك بالواحد القهّار الملك الستّار أن تقتلني قبل أخي الأسعد ، لعل نار قلبي تخمد ولا تدعها تتوقّد . فبكى الأسعد وقال : ما يقتل قبل إلاّ أنا . فقال الأمجد : الرأي أن تعتنقني وأعتنقك حتى ينزل السيف علينا فيقتلنا دفعة واحدة . فلما اعتنق الاثنان وجهاً لوجه والتزما ببعضهما ، شدّهما الخازندار وربطهما بالحبال وهو يبكي ثم جرّد سيفه وقال : والله يا سيداي ، إنه يعزّ عليّ قتلكما فهل لكما من حاجة فاقضيها أو وصيّة فأنفذها أو رسالة فأبلغها ؟ فقال الأمجد : ما لنا حاجة . وأما من جهة الوصيّة فإني أوصيك أن تجعل أخي الأسعد من تحت وأنا من فوق لأجل أن تقع عليّ الضربة أولاً ، فإذا فرغت من قتلنا ووصلت إلى الملك وقال لك : ما سمعت منهما قبل موتهما ؟ فقل له : إن ولديك يقرآنك السلام ويقولان لك : إنك لا تعلم هل هما بريئان أو مذنبان ؟ وقد قتلتهما وما تحقّقت ذنبهما وما نظرت في حالهما . ثم أنشده هذين البيتين : [من البسيط]

إنَّ النِّساءَ شَياطِينٌ خُلِقْنَ لنا | أَعُوذُ باللهِ مِنْ كَيْدِ الشَّياطِينِ
فَهُنَّ أَصْلُ البَلِيّاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ | بَينَ البَرِيَّةِ في الدُّنْيا وفي الدِّينِ

ثم قال الأمجد : ما نريد منك إلاّ أن تبلغه هذين البيتين اللذين سمعتهما . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 222

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الأمجد قال للخازندار : ما نريد منك إلاّ أن تبلغه هذين البيتين اللذين سمعتهما ، وأسألك بالله أن تطوّل بالك علينا حتى أنشد لأخي هذين البيتين الآخرين . ثم بكى بكاءً شديداً وجعل يقول :

[من الكامل]

في الذَّاهِبِينَ الأوَّلِينَ | مِنَ المُلُوكِ لنا بِصائِرِ
كَمْ قَدْ مَضَى في ذا الطَّرِيقِ | مِنَ الأكابِرِ والأصاغِرِ

فلما سمع الخازندار من الأمجد هذا الكلام ، بكى بكاءً شديداً حتى بلّ لحيته . وأما الأسعد فإنه قد ترغرغت عيناه بالعبرات وأنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ العَيْنِ بالأَثَرِ | فَما البُكاءُ عَلى الأَشْباحِ والصُّوَرِ

ما لِلَيالي أَقالَ اللهُ عَثرَتَنا ... مِنَ اللَّيالي وخانَتْها يَدُ الغِيَرِ
فَقَدْ أَضْرَمَتْ كَيْدَها لابْنِ الزُّبَيرِ وما ... رَعَتْ لِيادَتَهُ بالبَيْتِ والحَجَرِ
ولَيْتَها إِذْ فَدَتْ عَمْراً بِخارِجَةٍ ... فَدَتْ عَلِيّاً بِمَن شاءَتْ مِنَ البَشَرِ

ثم خضب خدّه بدمعه المدرار وأنشد هذه الأشعار : [من البسيط]

إن اللَّيالِيَ والأَيّامَ قَدْ طُبِعَتْ ... عَلى الخِداعِ وفِيها المَكْرُ والحِيَلُ
سَرابُ كُلِّ يَبابٍ عِنْدَها شَنَبٌ ... وهَوْلُ كُلِّ ظَلامٍ عِنْدَها كَحَلُ
ذَنْبِي إلى الدَّهْرِ فَلْيَكْرَهْ سَجِيَّتَهُ ... ذَنْبَ الحِمامِ إذا ما أَحْجَمَ البَطَلُ

ثم صعد الزفرات وأنشد هذه الأبيات : [من الكامل]

يا طالِبَ الدُّنْيا الدَّنِيَّةِ إنَّها ... شَرَكُ الرَّدَى وقَرارَةُ الأَكْدارِ
دارٌ مَتَى ما أَضْحَكَتْ في يَوْمِها ... أَبْكَتْ غَداً تَبّاً لها مِنْ دارِ
غاراتُها لا تَنْقَضِي وأَسِيرُها ... لا يُفْتَدى بِجَلائِلِ الأَخْطارِ
كَمْ مُزْدَهٍ بِغُرُورِها حَتَّى بَدا ... مُتَمَرِّداً مُتَجاوِزَ المِقْدارِ
قَلَبَتْ لَهُ ظَهْرَ المِجَنِّ وأَوْلَغَتْ ... فِيهِ المُدَى، وتَرَتْ لأخْذِ الثّارِ
واْعْلَمْ بأَنَّ خُطُوبَها تَفْجِي ولَوْ ... طالَ المَدَى ووَنَتْ سُرَى الأَقْدارِ
فارْبأْ بِعُمْرِكَ أَنْ يَمُرَّ مُضَيَّعاً ... فِيها سُدًى مِنْ غَيرِ ما اسْتِظْهارِ
واقْطَعْ عَلائِقَ حُبِّها وطِلابِها ... تَلْقَ الهُدَى ورَفاهَةَ الأَسْرارِ

فلما فرغ الأسعد من شعره، اعتنق مع أخيه الأمجد حتى صارا كأنهما شخص واحد وسلّ الخازندار سيفه وأراد أن يضربهما، وإذا بفرسه جفل في البر وكان يساوي ألف دينار، وعليه سرج عظيم يساوي جملة من المال. فألقى السيف من يده وذهب وراء فرسه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 223

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخازندار لما ذهب وراء فرسه وقد التهب فؤاده، وما زال يجري خلفه ليمسكه حتى دخل في غابة. فدخل وراءه في تلك الغابة، فشقّ الجواد في وسط الغابة ودقّ الأرض برجليه فعلا الغبار وارتفع وثار، وأما الفرس فإنه شخر ونخر وصهل وازمهرّ. وكان في تلك الغابة أسد عظيم الخطر قبيح المنظر عيونه ترمي بالشرر، له وجه عبوس وشكل يهول النفوس. فالتفت الخازندار فرأى ذلك الاسد قاصداً إليه، فلم يجد له مهرباً من يديه ولم يكن معه سيف فقال في نفسه: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، ما حصل لي هذا الضيق إلاّ بذنب الأمجد والأسعد، وإن هذه السفرة مشؤومة من أولها. ثم إن الأمجد والأسعد قد حمي عليهما الحرّ فعطشا عطشاً شديداً حتى نزلت ألسنتهما، واستغاثا من العطش فلم يغثهما أحد. فقالا: يا ليتنا كنّا قتلنا واسترحنا من هذا، ولكن ما ندري أين جفل الحصان حتى ذهب الخازندار وراءه وخلاّنا مكتّفين، فلو جاءنا وقتلنا كان أريح لنا من مقاساة هذا العذاب. فقال الأسعد: يا أخي إصبر فسوف يأتينا فرج الله سبحانه وتعالى، فإن الحصان ما جفل

إلاّ لأجل لطف الله بنا، وما ضرّنا غير هذا العطش. ثم هزّ نفسه وتحرّك يميناً وشمالاً فانحلّ كتافه، فقام وحلّ كتاف أخيه ثم أخذ سيف الأمير وقال لأخيه: والله لا نروح من ها هنا حتى نكشف خبره ونعرف ما جرى له. وشرعا يقتصّان الأثر فدلّهما على الغابة فقالا لبعضهما: إن الحصان والخازندار ما تجاوزا هذه الغابة. فقال الأسعد لأخيه: قف هنا حتى أدخل الغابة وأنظرها. فقال له الأمجد: ما أخليك تدخل فيها وحدك وما ندخل إلاّ جميعاً، فإن سلمنا سواء وان عطبنا عطبنا سواء. فدخل الإثنان فوجد الأسد قد هجم على الخازندار وهو تحته كأنه عصفور، ولكنه صار يبتهل إلى الله ويشير إلى نحو السماء. فلما رآه الأمجد أخذ السيف وهجم على الأسد وضربه بالسيف بين عينيه فقتله ووقع الأسد مطروحاً على الأرض، فنهض الخازندار وهو متعجّب من هذا الأمر، فرأى الأمجد والأسعد ولدي سيده واقفين، فترامى على أقدامهما وقال لهما: والله يا سيداي ما يصلح ان أفرّط فيكما بقتلكما، فلا كان من يقتلكما فبروحي أفديكما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 224

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخازندار قال للأمجد والأسعد: بروحي أفديكما. ثم نهض من وقته وساعته واعتنقهما وسألهما عن سبب فكّ وثاقهما وقدومهما، فأخبراه أنهما عطشا وانحلّ الوثاق من أحدهما ففكّ الآخر بسبب خلوص نيّتهما، ثم إنهما اقتصّا الأثر حتى وصلا إليه. فلما سمع كلامهما شكرهما على فعلهما وخرج معهما إلى ظاهر الغابة، فلما صاروا في ظاهر الغابة قالا له: يا عم إفعل ما أمرك به أبونا. فقال: حاشى لله أن أقربكما بضرر، ولكن أعلما أني أريد أن أنزع ثيابكما وألبسكما ثيابي وأملأ قنّينتين من دم الأسد، ثم أروح إلى الملك وأقول له: إني قتلتهما. وأما أنتما فسيحا في البلاد وأرض الله واسعة. واعلما يا سيداي أن فراقكما يعزّ عليّ. ثم بكى كل من الخازندار والغلامين وقد قلعا ثيابهما وألبسهما ثيابه وراح إلى الملك وقد أخذ ذلك وربط قماش كل واحد منهما في بقجة معه وملأ القنّينتين من دم الأسد وجعل البقجتين قدّامه على ظهر الجواد، ثم ودعهما وسار متوجّهاً إلى المدينة. ولم يزل سائراً حتى دخل على الملك وقبّل الأرض بين يديه، فرآه الملك متغيّر الوجه وذلك مما جرى له من الأسد، فظن أن ذلك من قتل أولاده. ففرح وقال له: هل قضيت الشغل؟ قال: نعم يا مولانا. ثم ناوله البقجتين اللتين فيهما الثياب والقنّينتين الممتلئتين بالدم. فقال له الملك: ماذا رأيت منهما وهل أوصياك بشيء؟ قال: وجدتهما صابرين محتسبين لما نزل بهما وقد قالا لي: إن أبانا معذور فاقرئه منّا السلام وقل له: أنت في حلّ من قتلنا ومن دمائنا. ولكن نوصيك أن تبلغه هذين البيتين وهما: [من البسيط]

إنَّ النِّساءَ شَياطِينٌ خُلِقْنَ لنا ... أَعُوذُ باللهِ مِنْ كَيْدِ الشَّياطِينِ
فَهُنَّ أَصْلُ البَلِيّاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ ... بَينَ البَرِيَّةِ في الدُّنْيا وفي الدِّينِ

فلما سمع الملك من الخازندار هذا الكلام، أطرق برأسه إلى الأرض ملياً وعلم أن كلام ولديه هذا يدل على أنهما قد قتلا ظلماً. ثم تفكّر في مكر النساء ودواهيهن، وأخذ البقجتين وفتحهما وصار يقلّب ثياب أولاده ويبكي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 225

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك قمر الزمان لما فتح البقجتين صار يقلب ثياب أولاده ويبكي . فلما فتح ثياب ولده الأسعد وجد في جيبه ورقة مكتوبة بخط زوجته بدور ومعها جدائل شعرها، ففتح الورقة وقرأها وفهم معناها فعلم أن ولده الأسعد مظلوم . ولما قلب في ثياب الأمجد وجد في جيبه ورقة مكتوبة بخط زوجته حياة النفوس وفيها جدائل شعرها، ففتح الورقة وقرأها فعلم أنه مظلوم . فدقّ يداً على يد وقال : لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ، قد قتلت أولادي ظلماً . ثم صار يلطم على وجهه ويقول : واولداه وأطول حزناه ! وأمر ببناء قبرين في بيت وسمّاه بيت الأحزان، وقد كتب على القبرين اسمي ولديه . وترامى على قبر الأمجد وبكى وأنّ واشتكى وأنشد هذه الأبيات : [من السريع]

يا قَمَراً قَدْ غابَ تَحْتَ الثَّرَى ... بَـكَـتْ عَلَيْهِ الأَنْجُمُ الزَّاهِرَةْ
ويا قَضِيباً لَمْ يَمِسْ بَعْدَهُ ... مَعاطِفٌ للأَعْيُنِ النَّاظِرَةْ
مَنَعْتُ عَيْنِي عَنْكَ مِنْ غَيْرَتِي ... عَلَيْكَ لا أَراكَ لِلآخِرَةْ
وأُغْرِقَتْ بالسُّهْدِ في دَمْعِها ... فَمَنْ لِعَيْنٍ أَصْبَحَتْ ساهِرَةْ

ثم ترامى على قبر الأسعد وبكى وأنّ واشتكى، وافاض العبرات وأنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

قَدْ كُنْتُ أَهْوَى أَنْ أُشاطِرَكَ الرَّدَى ... لَـكِنْ أَرادَ اللهُ غَيْرَ مُرادِي
سَوَّدْتَ ما بَيْنَ الفَضاءِ وناظِرِي ... ومَحَوْتَ مِنْ عَيْنَيَّ كُلَّ سَوادِ
لا يَنْفَدُ الدَّمْعُ الَّذي أَبْكِي بِهِ ... إنَّ الفُؤادَ لَهُ مِنَ الإِمْدادِ
أَعْزِزْ عَلَيَّ بِأَنْ أَراكَ بِمَوْضِعٍ ... مُتَشابِهِ الأَوْغادِ والأَمْجادِ

ولما فرغ الملك من شعره، هجر الأحباب والخلاّن وانقطع في البيت الذي سمّاه بيت الأحزان وصار يبكي على أولاده، وقد هجر نساءه وأصحابه وأصدقاءه . هذا ما كان من أمره . وأما ما كان من أمر الأمجد والأسعد، فإنهما لم يزالا سائرين في البرية وهما يأكلان من نبات الأرض ويشربان من متحصّلات الأمطار مدة شهر كامل حتى انتهى بهما المسير إلى جبل من الصوّان الأسود لا يعلم أين منتهاه، والطريق افترقت عند ذلك الجبل طريقين : طريق تشقه من وسطه وطريق صاعدة إلى أعلاه، فسلكا الطريق التي في أعلى الجبل واستمرّا سائرين فيها خمسة أيام فلم يريا له منتهى وقد حصل لهما الأعياء من التعب، وليسا معتادين على المشي في جبل ولا في غيره . ولما يئسا من الوصول إلى منتهاه رجعا وسلكا الطريق التي في وسط الجبل . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 226

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمجد والأسعد أولاد الملك قمر الزمان، لما عادا من الطريق الصاعدة في الجبل إلى الطريق المسلوكة في وسطه، مشيا فيها طول ذلك النهار إلى الليل وقد تعب الأسعد من كثرة السير فقال لأخيه : يا أخي أنا ما بقيت أقدر على المشي فإني ضعفت جداً . فقال له الأمجد : يا أخي شدّ حيلك لعل الله يفرج عنّا . ثم إنهما

مشيا ساعة من الليل وقد تعب الأسعد تعباً شديداً ما عليه من مزيد وقال : يا أخي إني تعبت وكلّيت من المشي . ثم وقع في الأرض وبكى ، فحمله أخوه الأمجد ومشى به وصار ساعة يمشي وساعة يقعد ويستريح إلى أن لاح الفجر حتى استراح ، فطلع هو وإياه فوق الجبل فوجدا عيناً نابعة يجري منها الماء وعندها شجرة زمان ومحراب . فما صدّقا أنهما يريان ذلك . ثم جلسا عند تلك العين وشربا من مائها وأكلا من زمان تلك الشجرة وناما في ذلك الموضع حتى طلعت الشمس ، ثم جلسا واغتسلا في العين وأكلا من ذلك الرمان الذي في الشجرة وناما إلى العصر . وأرادا أن يسيرا فما قدر الأسعد على السير وقد ورمت رجلاه ، فأقاما هناك ثلاثة أيام حتى استراحا . ثم صارا في الجبل مدة أيام وهما سائران فوق الجبل وقد تعبا من العطش إلى أن لاحت لهما مدينة من بعيد ، ففرحا وسارا حتى وصلا إليها . فلما قربا منها شكرا الله تعالى وقال الأمجد للأسعد : يا أخي إجلس هنا وأنا أسير إلى هذه المدينة وانظر ما شأنها وأسأل عن أحوالها لأجل أن نعرف أين نحن من أرض الله الواسعة ونعرف الذي قطعناه من البلاد في عرض هذا الجبل ، ولولا إننا مشينا في وسطه ما كنا نصل إلى هذه المدينة في سنة كاملة ، فالحمد لله على السلامة . فقال له الأسعد : والله يا أخي ما يذهب إلى المدينة غيري وأنا فداك ، فإنك إن تركتني ونزلت وغبت عني تستغرقني الأفكار من أجلك وليس لي قدرة على بعدك عني . فقال له الأمجد : توجّه ولا تبطيء . فنزل الأسعد من الجبل وأخذ معه دنانير وخلاّ أخاه ينتظره وسار . ولم يزل ماشياً في أسفل الجبل حتى دخل المدينة وشقّ في أزقتها ، فلقيه في طريقه رجل وهو شيخ كبير طاعن في السن وقد نزلت لحيته على صدره وافترقت فرقتين ، وبيده عكاز وعليه ثياب فاخرة وعلى رأسه عمامة كبيرة حمراء . فلما رآه الأسعد تعجّب من لبسه وهيئته وتقدّم إليه وسلّم عليه وقال له : أين طريق السوق يا سيدي؟ فلما سمع الشيخ كلامه تبسّم في وجه وقال له : يا ولدي ، كأنك غريب . فقال له الأسعد : نعم أنا غريب يا عمّ . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 227

□ بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشيخ الذي لقي الأسعد ، تبسّم في وجهه وقال له : يا ولدي كأنك غريب . فقال له الأسعد : نعم أنا غريب . فقال له الشيخ : قد آنست ديارنا يا ولدي وأوحشت ديار أهلك . فما الذي تريده من السوق؟ فقال الأسعد : يا عمّ ، إن لي أخاً تركته في الجبل ، ونحن مسافرون من بلاد بعيدة ولنا في السفر مدة ثلاثة شهور ، وقد أشرفنا على هذه المدينة فجئت إلى هاهنا لأشتري طعاماً وأعود به إلى أخي من أجل أن نقتات به . فقال له الشيخ : يا ولدي ، أبشر بكل خير . و أعلم أنني عملت وليمة وعندي ضيوف كثيرة وجمعت فيها من أطيب الطعام وأحسن ما تشتهيه النفوس . فهل لك أن تسير معي إلى مكاني فأعطيك ما تريد ولا آخذ منك ثمناً؟ وأخبرك بأحوال هذه المدينة . والحمد لله يا ولدي حيث وقعت بك ولم يقع بك أحد غيري . فقال الأسعد : إفعل ما أنت أهله وعجّل ، فإن أخي ينتظرني وخاطره عندي . فأخذ الشيخ بيد الأسعد ورجع به إلى زقاق ضيّق ، وصار يتبسّم في وجهه ويقول له : سبحان من نجّاك من أهل هذه المدينة . ولم يزل ماشياً به حتى دخل دار واسعة وفيها قاعة ، وجالس في تلك القاعة أربعون شيخاً طاعنون في السن ، وهم مصطفون حلقة وفي وسطهم نار موقدة والمشايخ جالسون حولها يعبدونها ويسجلون لها . فلما رأى ذلك الأسعد ،

اقشعرّ بدنه ولم يعلم ما خبرهم . ثم إن الشيخ قال لهؤلاء الجماعة : يا مشايخ النار فما ابركه من نهار . ثم نادى قائلاً : يا غضبان . فخرج له عبد أسود بوجه أعبس وانف افطس وقامة مائلة وصورة هائلة ، ثم أشار إلى العبد فشدّ وثاق الأسعد . وبعد ذلك قال له الشيخ : إنزل به إلى القاعة التي تحت الأرض واتركه هناك ، وقل للجارية الفلانية تتولى عذابه بالليل والنهار . فأخذه العبد وانزله تلك القاعة وسلّمه إلى الجارية ، فصارت تتولى عذابه وتعطيه رغيفاً واحداً في أول النهار ورغيفاً واحداً في أول الليل وكوز ماء مالح في الغداة ومثله في العشيّ . ثم إن المشايخ قالوا لبعضهم : لما يأتي آوان عيد النار نذبحه على الجبل ونتقرّب به إلى النار . ثم إن الجارية نزلت إليه وضربته ضرباً وجيعاً حتى سالت الدماء من أعضائه وغشي عليه ، ثم حطّت عند راسه رغيفاً وكوز ماء مالح وراحت وخلّته ، فاستفاق الأسعد في نصف الليل فوجد نفسه مقيّداً وقد آلمه الضرب ، فبكى بكاءً شديداً وتذكر ما كان فيه من العزّ والسعادة والملك والسيادة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 228

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الأسعد لما رأى نفسه مقيّداً وقد آلمه الضرب ، تذكّر ما كان فيه من العزّ والسعادة والملك والسيادة ، فبكى وصعّد الزفرات وأنشد هذه الأبيات :

[من الطويل]

قِفُوا بِرُسُومِ الدَّارِ وَٱسْتَخْبِرُوا عنّا ... ولا تَحْسَبُونا في الدِّيارِ كَما كُنَّا
لَقَدْ فَرَّقَ الدَّهْرُ المُشَتِّتُ شَمْلَنا ... وما تَشْتَفِي أَكْبادُ حُسّادِنا مِنَّا
تَولَّتْ عَذابِي بالسِّياطِ لَئِيمَةٌ ... وقَدْ مَلأَتْ مِنِّي جَوانِحَها ضِغْنَا
عَسَى ولَعَلَّ اللهَ يَجْمَعُ شَمْلَنا ... ويَدْفَعُ بالتَّنْكِيلِ أَعْداءَنا عَنَّا

فلما فرغ الأسعد من شعره ، مدّ يده عند راسه فوجد رغيفاً وكوز ماء مالح ، فأكل قليلاً ليسدّ رمقه وشرب قليلاً من الماء ، ولم يزل ساهراً إلى الصباح من كثرة البق والقمل . فلما اصبح الصباح نزلت اليه الجارية ونزعت عنه ثيابه ، وكانت قد غمرت بالدم والتصقت بجلده ، فطلع جلده مع القميص فصرخ وتأوه وقال : يا مولاي ، إن كان في هذا رضاك فزدني منه يا رب إنك لست غافلاً عن من ظلمني فخذ حقي منه . ثم صعد الزفرات وانشد هذه الأبيات : [من مجزوء الكامل]

كُنْ عَنْ أُمُورِكَ مُعْرِضاً ... وكِلِ الأُمُورِ إلى القَضا
فَلَرُبَّ أَمْرٍ مُسْخِطٍ ... لَكَ في عَواقِبِهِ رِضَى
ولَرُبَّما ٱتَّسَعَ المَضِيقُ ... ورُبَّما ضاقَ الفَضا
اللهُ يَفْعَلُ ما يَشا ... ءُ فَلا تَكُنْ مُتَعَرِّضا
وٱبْشِر بِخَيْرٍ عاجِلٍ ... تَنْسَى بِهِ ما قَدْ مَضَى

فلما فرغ من شعره، نزلت عليه الجارية بالضرب حتى غشي عليه ورمت له رغيفاً وكوز ماء مالح وطلعت من عنده وخلّته وحيداً فريداً حزيناً والدماء تسيل من أعضائه وهو مقيد في الحديد بعيد عن الأحباب. فتذكّر أخاه والعزّ الذي كان فيه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 229

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأسعد تذكّر أخاه والعزّ الذي كان فيه، فحنّ وبكى وأنّ واشتكى، وسكب العبرات وأنشد هذه الأبيات:

[من الكامل]

يا دَهْرُ مَهْلاً كَمْ تَجُورُ وتَعْتَدِي ... ولَـكَمْ بأَحْبابِي تَرُوحُ وتَغْتَدِي
ما آنَ أَنْ تَرْثِي لِطُولِ تَشَتُّتِي ... وتَرِقَّ يا مَنْ قَلْبُهُ كالجَلْمَدِ
وأَسأْتَ أَحْبابِي بما أَشْمَتَّ بِي ... كُلَّ العداةِ بما صَنَعْتَ مِنَ الرَّدِي
وقَدْ اشْتَفَى قَلْبُ العَدُوِّ بما رَأَى ... مَنْ غُرْبَتِي وصَبابَتِي وتَوَحُّدِي
لَمْ يَـكْفِهِ ما حَلَّ بِي مِنْ كُرْبَةٍ ... وفِراقِ أَحْبابٍ وطَرْفٍ أَرْمَدِ
حَتَّى بُلِيتُ بِضِيقِ سِجْنٍ لَيْسَ لِي ... فِيهِ أَنِيسٌ غَيْرُ عَضٍّ باليَدِ
ومَدامِعٍ تَهْمِي كَفَيْضِ سَحائِبٍ ... وغَلِيلِ شَوْقٍ نارُه لَمْ تَخْمُدِ
وكآبَةٍ وصَبابَةٍ وتَذَكُّرٍ ... وتَحَسُّرٍ وتَنَفُّسٍ وتَنَهُّدِ
شَوْقٌ أُكابِدهُ وحُزْنٌ مُتْلِفٌ ... ووَقَعْتُ في وَجْدٍ مُقِيمٍ مُقْعِدِ
لَمْ أَلْقَ لِي مِنْ عاطِفٍ ذي رَحْمَةٍ ... يَحْنُو عَلَيَّ بِزَوْرَةِ المُتَرَدِّدِ
هَلْ مِنْ صَدِيقٍ ذِي وِدادٍ صادِقٍ ... يَرْثِي لأَسْقامِي وطُولِ تَسَهُّدِي
أَشْكُو إِلَيْهِ ما أُكابِدُهُ أَسًى ... والطَّرْفُ مِنِّي ساهِرٌ لَمْ يَرْقُدِ
ويَطُولُ لَيْلِي في العَذابِ لأَنَّنِي ... أُصْلَى بِنارِ الهَمِّ ذاتِ تَوَقُّدِ
والبَقُّ والبرْغُوثُ قَدْ شَرِبا دَمِي ... شُرْبَ الطِّلا مِنْ كَفِّ أَلْمَى أَغْيَدِ
والجِسْمُ بَيْنَ القَمْلِ مِنِّي قد حَكَى ... مالَ اليَتِيمِ بِكَفِّ قاضٍ مُلْحِدِ
وسَـكَنْتُ في سِجْنٍ ثَلاثَةَ أَذْرُعٍ ... وغَدَوْتُ بَيْنَ مُقَيَّدٍ ومُصَفَّدِ
فَمُدامَتِي دَمْعِي وقَيْدِي مُطْرِبِي ... والفِكْرُ نَقْلِي والهُمُومُ تَنَهُّدِي

فلما فرغ من نظمه ونثره، حنّ وبكى وأنّ واشتكى وتذكّر ما كان فيه وما حصل له من فراق أخيه. هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر أخيه الأمجد، فإنه مكث ينتظر أخاه الأسعد إلى نصف النهار فلم يعد إليه، فخفق فؤاده واشتد به ألم الفراق وأفاض دمعه المهراق. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 230

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، ان الأمجد لما مكث ينتظر اخاه الأسعد إلى نصف النهار فلم يعد إليه، خفق فؤاده واشتدّ به الم الفراق وافاض دمعه المهراق وصاح: واحسرتاه، ما كان اخوفني من الفراق. ثم نزل من فوق الجبل ودمعه سائل على خدّيه ودخل المدينة، ولم يزل ماشياً فيها حتى وصل إلى السوق، وسأل الناس عن اسم المدينة وعن أهلها فقالوا له: هذه تسمّى مدينة المجوس وأهلها يعبدون النار دون الملك الجبّار. ثم سأل عن مدينة الأبنوس فقالوا له: إن المسافة التي بيننا وبينها من البر سنة، ومن البحر ستة أشهر وملكها يقال له: أرمانوس. وقد صاهر اليوم ملكاً مكانه، وذلك الملك يقال له: قمر الزمان. وهو صاحب عدل وإحسان وجود وأمان. فلما سمع الأمجد ذكر ابيه، حنّ وبكى وأنّ واشتكى وصار لا يعلم اين يتوجّه، وقد اشترى معه شيئاً للأكل وذهب إلى موضع يتوارى فيه. ثم قعد وأراد أن يأكل فتذكّر اخاه، فبكى ولم يأكل إلاّ قدر سدّ الرمق. ثم قام ومشى في المدينة ليعلم خبر أخيه، فوجد رجلاً مسلماً خياطاً في دكان فجلس عنده وقد حكى للخياط قصّته. فقال له الخياط: إن كان وقع في يد أحد من المجوس، فما بقيت تراه إلاّ بعسر ولعلّ الله يجمع بينك وبينه. ثم قال له: هل لك يا أخي أن تنزل عندي؟ قال: نعم. ففرح الخياط بذلك وأقام عنده أياماً وهو يسلّيه ويصبّره ويعلّمه الخياطة حتى صار ماهراً. ثم خرج يوماً إلى شاطىء البحر، وغسل أثوابه ودخل الحمام ولبس ثياباً نظيفة. ثم خرج من الحمام يتفرّج في المدينة، فصادف في طريقه امرأة ذات حسن وجمال وقدّ واعتدال ليس لها في الحسن مثال. فلما رأته رفعت القناع عن وجهها وغمزته بحواجبها وعيونها، وغازلته باللحظات وانشدت هذه الأبيات: [من الوافر]

رَأَيْتُكَ مُقْبِلاً فَغَضَضْتُ طَرْفِي ... كأَنَّكَ يا مُهَفْهَفُ عَيْنُ شَمْسِ
فإِنَّكَ أَنْتَ أَحْسَنُ مَنْ تَبَدَّى ... وأَنْتَ اليَوْمَ أَحْسَنُ مِنْكَ أَمْسِ
ولَوْ قُسِمَ الجَمالُ لَكانَ خَمْسٌ ... لِيُوسُفَ واحِدٌ أَوْ بَعْضُ خُمْسِ
وباقِيهِ لِذاتِكَ باخْتِصاصٍ ... فكانَ فِدًى لِنَفْسِكَ كُلُّ نَفْسِ

فلما سمع الأمجد كلامها، ارتاح خاطره لديها وحنّت جوارحه إليها وقد لعبت به أيدي الصبابات. فأشار لها وانشد هذه الأبيات: [من البسيط]

وَرْدُ الخُدُودِ ودُونَهُ شَوْكُ القَنا ... فَمَنْ المُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنْ يُجْتَنَى
لا تَمْدُدِ الأَيْدِي إِلَيْهِ فَطالما ... شَنُّوا الحُرُوبَ لأَنْ مَدَدْنا الأَعْيُنا
قُلْ لِلَّتِي ظَلَمَتْ وكانَتْ فِتْنَةً ... ولَوَ أَنَّـها عَدَلَتْ لَكانَتْ أَفْتَنا
لَيُزادُ وَجْهُكِ بالتَّـبَرْقُعِ ضِلَّةً ... وأَرَى السُّفُورَ لِمِثْلِ حُسْنِكِ أَصْوَنا
كالشَّمْسِ يَمْتَنِعُ اجْتِلاؤُكِ وَجْهَها ... وإِنَ اكْتَسَتْ بِرَقِيقِ غَيْمٍ أَمْكَنا
غَدَتِ النَّحِيلَةُ في حِمًى مِنْ نَحْلِها ... فَسَلُوا حُماةَ الحَيِّ عَمّا صَدَّنا
إِنْ كانَ قَتْلِي قَصْدَهُمْ فَلْيَرْفَعُوا ... تِلْكَ الضَغائِنَ وَلْيُخَلُّوا بَيْنَنا
ما هُمْ بِأَعْظَمِ فَتْكَةٍ لَوْ بارَزُوا ... مِنْ طَرْفِ ذاتِ الخالِ إِذْ بَرَزَتْ لنا

فلما سمعت من الأمجد هذا الشعر، تنهّدت بصاعد الزفرات واشارت إليه وانشدت هذه الابيات: [من البسيط]

أَنْتَ الَّذي سَلَكَ الإِعْراضَ لَسْتُ أَنا ... جُدْ بالوِصالِ إذا كانَ الوَفاءُ أَنا
يا فالِقَ الصُّبْحِ مِنْ لألاءِ غُرَّتِهِ ... وجاعِلَ اللَّيْلِ مِنْ أَصْداغِهِ سَكَنا
بِصُورَةِ الوَثَنِ اسْتَعْبَدْتَني وبِها ... فَتَنْتَني وقَديماً هِجْتَ لي فِتَنا
لا غَرْوَ إنْ أَحْرَقَتْ نارُ الهَوَى كَبِدي ... فالنّارُ حَقٌّ على مَنْ يَعْبُدِ الوَثَنا
تَبيعُ مِثْلِيَ مَجّاناً بِلا ثَمَنٍ ... إنْ كانَ لا بُدَّ مِنْ بَيْعٍ فَخُذْ ثَمَنا

فلما سمع الأمجد منها هذا الكلام قال لها: أتجيئين عندي أو أجيء عندك؟ فأطرقت برأسها حياء إلى الأرض وتلت قوله تعالى: الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض. ففهم الأمجد إشارتها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 231

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمجد فهم إشارة المرأة وعرف أنها تريد الذهاب معه حيث يذهب، فالتزم لها بالمكان وقد استحى أن يروح بها عند الخياط الذي هو عنده، فمشى قدّامها ومشت خلفه. ولم يزل ماشياً بها من زقاق إلى زقاق ومن موضع إلى موضع حتى تعبت الصبية فقالت له: يا سيدي أين دارك؟ فقال لها: قدّام، وما بقي عليها إلاّ شيء يسير. ثم انعطف بها في زقاق مليح، ولم يزل ماشياً فيه وهي خلفه حتى وصل إلى آخره فوجده غير نافذ فقال: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم. ثم التفت بعينه فرأى في صدر الزقاق باباً كبيراً بمصطبتين ولكنه مغلوق. فجلس الأمجد على مصطبة وجلست الأخرى على مصطبة ثم قالت له: يا سيدي، ما الذي تنتظره؟ فأطرق برأسه إلى الأرض ملياً ثم رفع رأسه وقال لها: أنتظر مملوكي، فإن المفتاح معه وكنت قد قلت له هيء لنا المأكول والمشروب وصحبة المدام حتى أخرج من الحمام. ثم قال في نفسه: ربما يطول عليها المطال فتروح إلى حال سبيلها وتخلّيني في هذا المكان. فلما طال عليها الوقت قالت له: يا سيدي، إن المملوك قد أبطأ علينا ونحن قاعدون في الزقاق. ثم قامت الصبيّة إلى الضبّة بحجر فقال لها الأمجد: لا تعجّلي واصبري حتى يجيء المملوك. فلم تسمع كلامه بل ضربت الضبّة بالحجر فقسمتها نصفين فانفتح الباب. فقال لها: وأي شيء خطر لك حتى تفعلي هكذا؟ فقالت له: يا سيدي، أي شيء جرى؟ أما هو بيتك؟ فقال: نعم. ولكن لا يحتاج إلى كسر الضبّة. ثم إن الصبية دخلت البيت، فصار الأمجد متحيّراً في نفسه خوفاً من أصحاب المنزل ولم يدر ماذا يصنع. فقالت له الصبيّة: لِمَ لم تدخل يا سيدي يا نور عيني وحشاشة قلبي؟ قال لها: سمعاً وطاعةً. ولكن قد أبطأ عليّ المملوك وما أدري هل فعل شيئاً مما أمرته به أم لا؟ ثم إنه دخل معها وهو في غاية ما يكون من الهمّ خوفاً من أصحاب المنزل. ولما دخل البيت وجد فيه قاعة مليحة بأربعة لواوين متقابلة، وفيها خزائن وسدلات مفروشات بالفرش الحرير والديباج، وفي وسط القاعة فسقية متمّنة مرصوص عليها أطباق مرصّعة بفصوص الجواهر وهي مملوءة فاكهة ومشموماً، وفي جانبها أواني الشراب، وهناك شمعدان فيه شمعة مركبة والمكان ملآن بنفيس القماش وفيه صناديق وكراسي منصوبة وعلى كل

كرسي بقجة وفوقها كيس ملآن دنانير . والدار تشهد لصاحبها بالسعادة لأن ارضها مفروشة بالرخام . فلما رأى الأمجد ذلك تحيّر في امره وقال في نفسه : قد راحت روحي . إنّا لله وإنّا إليه راجعون . وأما الصبية فإنها لما رأت ذلك المكان ، فرحت فرحاً شديداً ما عليه من مزيد وقالت : والله يا سيدي ما قصرّ مملوكك ، فإنه مسح المكان وطبخ الطعام وهيّأ الفاكهة ، وقد جئت انا في أحسن الأوقات . فلم يلتفت إليها الأمجد لاشتغال قلبه بالخوف من أصحاب المكان . فقالت : يا سيدي ، ما لك واقفاً هكذا ؟ ثم شهقت شهقة وأعطت الأمجد قبلة مثل كسر الجوز وقالت له : يا سيدي ، إن كنت مواعد غيري فأنا أشد ظهري وأخدمها . فضحك الأمجد عن قلب مملوء بالغيظ ، ثم طلع وجلس وهو ينفخ وقال في نفسه : يا قتلة الشؤم إذا جاء صاحب المنزل ، وقد جلست الصبيّة في جانبه وصارت تلعب وتضحك والأمجد مهموم معبس يحسب في نفسه ألف حساب ويقول : لا بدّ أن يجيء صاحب هذه القاعة فأي شيء أقول له ؟ ولا بدّ أنه يقتلني بلا شك . ثم إن الصبيّة قامت وتشمّرت وأخذت خواناً وقد حطّت عليه السفرة وأكلت وقالت للأمجد : كل يا سيدي . فتقدّم الأمجد ليأكل فلم يطب له الأكل ، بل صار ينظر إلى ناحية الباب حتى أكلت الصبيّة وشبعت وقد رفعت الخوان وقدّمت طبق الفاكهة وشرعت تتنقّل . ثم قدّمت المشروب وفتحت الجرّة وملأت قدحاً وناولته للأمجد ، فأخذه منها وقال في نفسه : آه آه من صاحب هذه الدار إذا جاء ورآني . وقد صارت عينه صوب الدهليز والقدح في يده . فبينما هو كذلك وإذا بصاحب الدار قد جاء ، وكان مملوكاً من أكابر المدينة لأنه كان أمير ياخور عند الملك وقد جعل تلك القاعة معدة لحظه ، لينشرح فيها صدره ويختلي فيها بمن يريده . وكان في ذلك اليوم قد أرسل إلى معشوق يجيء له وقد جهّز له ذلك المكان ، وكان اسم ذلك المملوك بهادر وكان سخي اليد صاحب جود وإحسان وصدقات وامتنان . فلما وصل إلى قريب . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 232

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن بهادر صاحب القاعة لما وصل إلى قريب القاعة وجد الباب مفتوحاً ، فدخل قليلاً قليلاً وطل برأسه فنظر الأمجد والصبيّة وقدّامهما طبق الفاكهة وآلة المدام . وفي ذلك الوقت كان الأمجد ماسك القدح وعينه إلى الباب ، فلما صارت عينه في عين صاحب الدار اصفرّ لونه وارتعدت فرائصه . فلما رآه بهادر قد اصفرّ لونه وتغيّر حاله ، غمزه باصبعه على فمه يعني : أسكت وتعال عندي . فحطّ الأمجد الكأس من يده وقام إليه . فقالت الصبيّة : إلى اين ؟ فحرّك رأسه وأشار لها أنه يريق الماء . ثم خرج إلى الدهليز حافياً . فلما رأى بهادر علم أنه صاحب الدار ، فأسرع إليه وقبّل يديه ثم قال له : بالله عليك يا سيدي قبل أن تؤذيني أن تسمع مني مقالي . ثم حدّثه بحديثه من أوّله إلى آخره ، بسبب خروجه من أرضه ومملكته ، وأنه دخل القاعة باختياره ولكن الصبيّة هي التي كسرت الضبّة وفتحت الباب وفعلت هذه الفعائل . فلما سمع بهادر كلام الأمجد وعرف أنه ابن ملك ، حنّ عليه ورحمه ثم قال : اسمع يا أمجد كلامي وأطعني وأنا أتكفّل لك بالأمان مما تخاف ، وإن خالفتني قتلتك . فقال الأمجد : أمرني بما شئت فأنا لا أخالفك أبداً لأنني عتيق مروءتك . فقال له

بهادر : أدخل هذه القاعة واجلس في المكان الذي كنت فيه واطمئن وها أنا داخل إليك واسمي بَهادر ، فإذا دخلت اليك فاشتمني وانهرني وقل لي : ما سبب تأخّرك إلى هذا الوقت ؟ ولا تقبل لي عذراً بل قم اضربني ، وإن شفقت عليّ أعدمتك حياتك . فادخل وانبسط ومهما طلبته منّي تجده حاضراً بين يديك في الوقت . وبت كما تحب في هذه الليلة ، وفي غدٍ توجّه إلى حال سبيلك إكراماً لغربتك ، فإني احب الغريب وواجب عليّ إكرامه . فقبّل الأمجد يده ودخل وقد اكتسى وجهه حمرة وبياضاً ، فأول ما دخل قال للصبيّة : يا سيدتي آنست موضعك وهذه ليلة مباركة . فقالت له الصبيّة : إن هذا عجيب منك حيث بسطت لي الأنس . فقال الأمجد : والله يا سيدتي إني كنت أعتقد أن مملوكي بهادر أخذ لي عقود جواهر ، كل عقد يساوي عشرة الآف دينار . ثم إنني خرجت الآن وانا متفكّر في ذلك ففتشت عليها فوجدتها في موضعها ، ولم أدر ما سبب تأخر المملوك إلى هذا الوقت ، ولا بدّ لي من عقوبته . فاستراحت الصبيّة بكلام الأمجد ولعبا وشربا وانشرحا ، ولم يزالا في حظ إلى قريب المغرب . ثم دخل عليهما بهادر وقد غيّر لبسه وشدّ وسطه وجعل في رجليه زربوناً على عادة المماليك ، ثم سلّم وقبّل الأرض وكتّف يديه واطرق برأسه الارض كالمعترف بذنبه . فنظر اليه الأمجد بعين الغضب وقال له : ما سبب تأخّرك يا أنحس المماليك ؟ فقال له : يا سيدي ، إني اشتغلت بغسل أثوابي وما علمت أنك ها هنا ، فإن ميعادي وميعادك العشاء لا بالنهار . فصرخ عليه الأمجد وقال له : تكذب يا أنحس المماليك ، والله لا بدّ من ضربك . ثم قام الأمجد وسطّح بهادر على الأرض وأخذ عصا وضربه برفق . فقامت الصبيّة وخلصت العصا من يده ونزلت على بهادر بضرب وجيع حتى جرت دموعه واستغاث ، وصار يكزّ على اسنانه والأمجد يصيح على الصبيّة : لا تفعلي هكذا . وهي تقول : دعني أشفي غيظي منه . ثم إن الأمجد خطف العصا من يدها ودفعها ، فقام بهادر ومسح دموعه عن وجهه ووقف في خدمتهما ساعة ، ثم مسح القاعة وأوقد القناديل . وصارت الصبيّة كلما دخل بهادر أو خرج تشتمه وتلعنه ، والأمجد يغضب منها ويقول لها : بحق الله تعالى أن تتركي مملوكي فإنه غير معود بهذا . وما زالا يأكلان ويشربان وبهادر في خدمتهما إلى نصف الليل حتى تعب من الخدمة والضرب فنام في وسط القاعة وشخر . فسكرت الصبيّة وقالت للأمجد : قم خذ هذا السيف المعلّق واضرب رقبة هذا المملوك ، وإن لم تفعل عملت على هلاك روحك . فقال الأمجد : وأي شيء خطر لك في قتل مملوكي ؟ قالت : لا يكمل الحظ إلاّ بقتله ، وإن لم تقم قمت أنا وقتلته . فقال الأمجد : بحق الله عليك لا تفعلي . فقالت : لا بدّ من هذا . وأخذت السيف وجرّدته وهمّت بقتله فقال الأمجد في نفسه : هذا رجل عمل معنا خيراً وسترنا وأحسن إلينا وجعل نفسه مملوكي كيف نجازيه بالقتل ؟ لا كان ذلك أبداً . ثم قال للصبيّة : إن لم يكن من قتل مملوكي بدّ فأنا أحق بقتله منك . ثم أخذ السيف من يدها ورفع يده وضرب الصبيّة في عنقها فأطاح رأسها عن جثتها ، فوقع رأسها على صاحب الدار . فاستيقظ وجلس وفتح عينيه فوجد الأمجد واقفاً والسيف في يده مخضباً بالدم ، ثم نظر إلى الصبية فوجدها مقتولة . فاستخبره عن أمرها فأعاد عليه حديثها وقال له : إنها أبت إلاّ أن تقتلك وهذا جزاؤها . فقام بهادر وقبّل رأس الأمجد وقال له : يا سيدي ، ليتك عفوت عنها ، وما بقي في الأمر إلاّ إخراجها في هذا الوقت قبل الصباح . ثم إن بهادر شدّ وسطه وأخذ الصبيّة ولفّها في عباءة ووضعها في فرد وحملها وقال للأمجد : أنت

غريب ولا تعرف أحداً، فاجلس في مكانك وانتظرني عند طلوع الشمس، فإن عدت إليك لا بدّ أن أفعل معك خيراً كثيراً وأجتهد في كشف خبر أخيك. وإن طلعت الشمس ولم أعد إليك، فاعلم أنه قد قضي عليّ والسلام عليك. وهذه الدار لك بما فيها من الأموال والقماش. ثم إنه حمل الفرد وخرج من القاعة وشقّ بها الأسواق وقصد بها طريق البحر المالح ليرميها فيه، فلما صار قريباً من البحر التفت فراى الوالي والمقدّمين قد أحاطوا به، ولما عرفوه تعجبّوا وفتحوا الفرد فوجدوا فيه قتيلة. فقبضوا عليه وبيّتوه في الحديد إلى الصباح، ثم طلعوا به هو والفرد إلى الملك وأعلموه بالخبر. فلما رأى الملك ذلك، غضب غضباً شديداً وقال له: ويلك، إنك تفعل هكذا دائماً، فتقتل القتلى وترميهم في البحر وتأخذ جميع مالهم. وكم فعلت قبل ذلك من قتل؟ فأطرق بهادر رأسه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 233

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بهادر أطرق رأسه إلى الأرض قدّام الملك، فصرخ الملك عليه وقال له: ويلك، من قتل هذه الصبيّة؟ فقال له: يا سيدي، أنا قتلتها ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم. فغضب الملك وأمر بشنقه، فنزل به السيّاف حين أمره الملك، ونزل الوالي بالمنادي ينادي في أزّقة المدينة بالفرجة على بهادر أمير ياخور الملك، ودار به في الأزقّة والأسواق. هذا ما كان من أمر بهادر. وأما ما كان من أمر الأمجد، فإنه لما طلع عليه النهار وارتفعت الشمس ولم يعد إليه بهادر قال: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم. يا ترى أي شيء جرى له؟ فبينما هو يتفكّر وإذا بالمنادي ينادي بالفرجة على بهادر فإنهم يشنقونه في وسط النهار. فلما سمع الأمجد ذلك بكى وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. قد أراد هلاك نفسه من أجلي وأنا الذي قتلتها، والله لا كان هذا أبداً. ثم خرج من القاعة وقفلها وشقّ في وسط المدينة حتى أتى إلى بهادر ووقف قدّام الوالي وقال له: يا سيدي، لا تقتل بهادر فإنه بريء، والله ما قتلها إلاّ أنا. فلما سمع الوالي كلامه أخذه هو وبهادر وطلع بهما إلى الملك وأعلمه بما سمعه من الأمجد. فنظر الملك إلى الأمجد وقال له: أأنت قتلت الصبيّة؟ قال: نعم. فقال له الملك: إحكِ لي ما سبب قتلك إياها واصدقني. قال له: أيها الملك، إنه جرى لي حديث عجيب وأمر غريب، لو كتب بالأبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر. ثم حكى للملك حديثه وأخبره بما جرى له ولأخيه من المبتدأ إلى المنتهى. فتعجّب الملك من ذلك غاية العجب وقال له: إني قد علمت أنك معذور، ولكن يا فتى هل لك أن تكون عندي وزيراً؟ فقال له: سمعاً وطاعةً. فخلع عليه الملك وعلى بهادر خلعاً سنيّة وأعطاه داراً حسنة وخدماً وحشماً، وأنعم عليه بجميع ما يحتاج إليه ورتّب له الرواتب والجرايات وأمره أن يبحث على أخيه الأسعد. فجلس الأمجد في مرتبة الوزير وحكم وعدل وولّى وعزل وأخذ وأعطى وأرسل المنادي في أزّقة المدينة ينادي على أخيه الأسعد، فمكث مدّة أيام ينادي في الشوارع والأسواق فلم يسمع له بخبر ولم يقع له على أثر. هذا ما كان من أمر الأمجد. وأما ما كان من أمر الأسعد، فإن المجوس لا زالوا يعاقبونه بالليل والنهار وفي العشي والأبكار مدّة سنة كاملة حتى قرب عيد المجوس، فتجهّز بهرام المجوسي إلى السفر وهيّأ له مركباً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 234

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن بهرام المجوسي جهّز مركباً للسفر ثم حطّ الأسعد في صندوق وقفله عليه ونقله إلى المركب، وفي تلك الساعة التي حول فيها بهرام الصندوق الذي فيه الأسعد، كان الأمجد بالقضاء والقدر واقفاً يتفرّج على البحر. فنظر إلى الحوائج وهم ينقلونها إلى المركب، فخفق فؤاده وأمر غلمانه أن يقدّموا له فرسه، ثم ركب في جملة من جماعته وتوجّه إلى البحر ووقف على مركب المجوسي وأمر من معه أن ينزلوا المركب ويفتّشوها. فنزلت الرجال وفتّشوا المركب جميعها فلم يجدوا فيها شيئاً، فطلعوا وأعلموا الأمجد بذلك، فركب وتوجّه إلى بيته. فلما وصل إلى منزله ودخل القصر انقبض صدره، فنظر بعينه في الدار فرأى سطرين مكتوبين على حائط. وهما هذان البيتان : [من الكامل]

أَحْبابَنا إنْ غِبْتُمْ عَنْ ناظِري ... فَعَنِ الفُؤَادِ وخاطِرِي ما غِبْتُمُ
لَكِنَّكُمْ خَلَّفْتُمُونِي مُدْنَفاً ... ومَنَعْتُمُ جَفْنِي الرُّقادَ ونِمْتُمُ

فلما قراهما الأمجد تذكّر أخاه وبكى. هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر بهرام المجوسي، فإنه نزل المركب وصاح على البحرية وأمرهم أن يعجّلوا بحل القلوع، فحلّوا القلوع وسافروا. ولم يزالوا مسافرين أياماً وليالي وكل يومين يخرج الأسعد ويطعمه قليلاً من الزاد ويسقيه قليلاً من الماء إلى أن قربوا من جبل النار، فخرج عليهم ريح وهاج بهم البحر حتى تاهت المركب عن الطريق وسلكوا طريقاً غير طريقهم، ووصلوا إلى مدينة مبنية على شاطىء البحر ولها قلعة بشبابيك تطل على البحر، والحاكمة على تلك المدينة امرأة يقال لها : الملكة مرجانة. فقال الريس لبهرام : يا سيدي إننا تهنا عن الطريق ولا بدّ لنا من دخول هذه المدينة لأجل الراحة، وبعد ذلك يفعل الله ما يشاء. فقال له بهرام : نعم ما رأيت. والذي تراه افعله. فقال له الريس : إذا أرسلت لنا الملكة تسألنا، ماذا يكون جوابنا لها؟ فقال له بهرام : أنا عندي هذا المسلم الذي معنا فنلبسه لبس المماليك ونخرجه معنا، وإذا رأته الملكة تظن أنه مملوك. فأقول لها : إني جلاّب مماليك، أبيع وأشتري فيهم. وقد كان عندي مماليك كثيرة فبعتهم ولم يبقَ غير هذا المملوك. فقال له الريس : هذا كلام مليح. ثم إنهم وصلوا إلى المدينة وأرخوا القلوع ودقّوا المراسي ووقفت المركب، وإذا بالملكة مرجانة نزلت إليهم ومعها عسكرها ووقفت على المركب ونادت على الريّس، فطلع عندها وقبّل الأرض بين يديها. فقالت له : أي شيء في مركبك هذه؟ ومن معك؟ فقال لها : يا ملكة الزمان، معي رجل تاجر يبيع المماليك. فقالت : عليّ به. وإذا ببهرام طلع ومعه الأسعد ماش وراءه في صفة مملوك. فلما وصل إليها بهرام قبّل الأرض بين يديها. فقالت له : ما شأنك؟ فقال لها : أنا تاجر رقيق. فنظرت إلى الأسعد وقد ظنّت أنه مملوك فقالت له : ما اسمك؟ فخنقه البكاء وقال لها : اسمي الأسعد. فحنّ قلبها عليه وقالت : أتعرف الكتابة؟ قال : نعم. فناولته دواة وقلماً وقرطاساً وقالت له : أكتب شيئاً حتى أراه. فكتب هذين البيتين : [من البسيط]

ما حِيلَةُ العَبْدِ والأَقْدارُ جارِيَةٌ ... عَلَيْهِ في كُلِّ حالٍ أَيُّها الرائِي
أَلْقاهُ في اليَمِّ مَكْتُوفاً وقالَ لَهُ ... إيّاكَ إيّاكَ أنْ تَبْتَلَّ بالماءِ

فلما رأت الورقة رحمته، ثم قالت لبهرام : بعني هذا المملوك . فقال لها : يا سيدتي لا يمكنني بيعه، لأني بعت جميع مماليكي ولم يبقَ عندي غير هذا . فقالت الملكة مرجانة : لا بدّ من أخذه منك، إما ببيع وإما بهبة . فقال لها : لا أبيعه ولا أهبه . فقبضت على الأسعد وأخذته وطلعت به القلعة وأرسلت تقول له : إن لم تقلع في هذه الليلة عن بلدنا، أخذت جميع ما لك وكسّرت مركبك . فلما وصلت إليه الرسالة، اغتّم غماً شديداً وقال : إن هذه سفرة غير محمودة . ثم قام وتجهّز وأخذ جميع ما يريده وانتظر الليل ليسافر فيه وقال للبحرية : خذوا أهبتكم واملؤوا قربكم من الماء واقلعوا بنا في آخر الليل . فصار البحرية يقضون أشغالهم . هذا ما كان من أمرهم . وأما ما كان من أمر الملكة مرجانة، فإنها أخذت الأسعد ودخلت به القلعة وفتحت الشبابيك المطلة على البحر وأمرت الجواري أن يقدّمن الطعام . فقدّمن لهما الطعام فأكلا، ثم أمرتهن ان يقدّمن المدام . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 235

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة مرجانة أمرت الجواري أن يقدّمن المدام فقدّمنه، فشربت مع الأسعد وألقى الله سبحانه وتعالى محبّة الأسعد في قلبها، وصارت تملأ القدح وتسقيه حتى غاب عقله . فقام يريد قضاء حاجة ونزل القاعة، فرأى باباً مفتوحاً فدخل فيه وتمشّى، فانتهى به السير إلى بستان عظيم فيه جميع الفواكه والأزهار، فجلس تحت شجرة وقضى حاجته وقام إلى الفسقية التي في البستان فاستلقى على قفاه ولباسه محلول، فضربه الهواء فنام ودخل عليه الليل . هذا ما كان من أمره . وأما ما كان من أمر بهرام، فإنه لما دخل عليه الليل صاح على بحرية المركب وقال لهم : حلّوا قلوعكم وسافروا بنا . فقالوا له : سمعاً وطاعةً . ولكن إصبر علينا حتى نملأ قربنا ونحل . ثم طلع البحرية بالقِرَب وداروا حول القلعة فلم يجدوا غير حيطان البستان، فتعلقوا بها ونزلوا البستان وتتبعوا أثر الأقدام الموصلة إلى الفسقية، فلما وصلوا إليها وجدوا الأسعد مستلقياً على قفاه، فعرفوه وفرحوا به وحملوه بعد أن ملؤوا قربهم ونطّوا من الحائط وأتوا به مسرعين إلى بهرام المجوسي وقالوا له : أبشر بحصول المراد وشفاء الأكباد، فقد طبل طبلك وزمر زمرك، فإن أسيرك الذي أخذته الملكة مرجانة منك غصباً قد وجدناه وأتينا به معنا ثم رموه قدّامه . فلما نظره بهرام طار قلبه من الفرح واتّسع صدره وانشرح، ثم خلع عليهم وأمرهم أن يحلّوا القلوع بسرعة . فحلّوا قلوعهم وسافروا قاصدين جبل النار، ولم يزالوا مسافرين إلى الصباح . هذا ما كان من أمرهم . وأما ما كان من أمر الملكة مرجانة، فإنها بعد نزول الأسعد من عندها، مكثت تنتظره ساعة فلم يعد إليها . فقامت وفتّشت عليه فما وجدته، فأوقدت الشموع وأمرت الجواري أن يفتشن عليه، ثم نزلت هي بنفسها فرأت البستان مفتوحاً فعلمت انه دخله . فدخلت البستان فوجدت نعله بجانب الفسقية، فصارت تفتش عليه في جميع البستان فلم تَر له خبراً . ولم تزل تفتش عليه في جوانب البستان إلى الصباح، ثم سألت عن المركب فقالوا لها : قد سافرت في ثلث الليل . فعلمت أنهم أخذوه معهم، فصعب عليها واغتاظت غيظاً شديداً . ثم أمرت بتجهيز عشر مراكب كبار في الوقت، وتجهّزت للحرب ونزلت في مركب من العشر مراكب ونزل معها عسكرها مهيئين بالعدّة الفاخرة والآت الحرب، وحلّوا القلوع وقالت للروءساء : متى لحقتم

مركب المجوسي فلكم عندي الخلع والأموال، وإن لم تلحقوها قتلتكم عن آخركم . فحصل للبحرية خوف ورجاء عظيم ، ثم سافروا بالمراكب ذلك النهار وتلك الليلة وثاني يوم وثالث يوم . وفي اليوم الرابع لاحت لهم مركب بهرام المجوسي، ولم ينقض النهار حتى أحاطت المراكب بمركب المجوسي وكان بهرام في ذلك الوقت قد أخرج الأسعد وضربه وصار يعاقبه، والأسعد يستغيث ويستجير فلم يجد مغيثاً ولا مجيراً من الخلق، وقد آلمه الضرب الشديد . فبينما هو يعاقبه إذ لاحت منه نظرة فوجد المراكب قد أحاطت بمركبه ودارت حولها كما يدور بياض العين بسوادها، فتيقّن أنه هالك لا محالة . فتحسّر بهرام وقال : ويلك يا أسعد، هذا كله من تحت رأسك . ثم أخذه من يده وأمر البحرية أن يرموه في البحر وقال : والله لأقتلك قبل موتي . فاحتملته البحرية من يديه ورجليه ورموه في وسط البحر . فأذن الله سبحانه وتعالى لما يريد من سلامته وبقية أجله، أنه غطس ثم طلع وخبط بيديه ورجليه إلى أن سهّل الله عليه وأتاه الفرج ، وضربه الموج وقذفه بعيداً عن مركب المجوسي ووصل إلى البرّ فطلع وهو لم يصدق بالنجاة . ولما صار في البرّ قلع أثوابه وعصرها ونشرها، وقعد عرياناً يبكي على ما جرى له من المصائب والأسر . ثم أنشد هذين البيتين : [من الوافر]

إلٰهِي قَلَّ صَبْرِي وٱحْتِيالِي ... وضاقَ الصَّدْرُ وٱنْصَرَمَتْ حِبالِي
إلى مَنْ يَشْتَكِي المِسْكِينُ إلاّ ... إلى مَوْلاهُ يا مَوْلى المَوالِي

فلما فرغ من شعره، قام ولبس ثيابه ولم يعلم أين يروح ولا أين يجيء، فصار يأكل من نبات الأرض وفواكه الأشجار ويشرب من ماء الأنهار وسافر بالليل والنهار حتى أشرف على مدينة . ففرح وأسرع في مشيه نحو المدينة، فلما وصل إليها أدركه المساء . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 236

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الأسعد لما وصل إلى المدينة أدركه المساء وقد قُفل بابها . وكانت المدينة هي التي كان أسيراً فيها وأخوه الأمجد وزير ملكها . فلما رآها الأسعد مقفولة رجع إلى جهة المقابر، فلما وصل إلى المقابر وجد تربة بلا باب فدخلها ونام فيها وحطّ وجهه في عبّه . وكان بهرام المجوسي لما وصلت إليه الملكة مرجانة بالمراكب، كسرها بمكره وسحره ورجع سالماً نحو مدينته . وسار من وقته وساعته وهو فرحان، فلما جاز على المقابر طلع من المركب بالقضاء والقدر ومشى بين المقابر فرأى التربة التي فيها الأسعد مفتوحة، فتعجّب وقال : لا بدّ أن انظر في هذه التربة . فلما نظر فيها رأى الأسعد وهو نائم ورأسه في عبّه . فطل في وجهه فعرفه فقال له : هل أنت تعيش إلى الآن؟ ثم أخذه وذهب به إلى بيته . وكان له في بيته طابق تحت الأرض معدّ لعذاب المسلمين، وكان له بنت تسمّى بستاناً . فوضع في رجلي الأسعد قيداً ثقيلاً وأنزله في ذلك الطابق ووكّل بنته بتعذيبه ليلاً ونهاراً إلى أن يموت . ثم إنه ضربه الضرب الوجيع وقفل عليه الطابق وأعطى المفاتيح لبنته . ثم إن بنته بستاناً نزلت لتضربه فوجدته شاباً ظريف الشمائل حلو المنظر مقوّس الحاجبين كحيل المقلتين، فوقعت محبته في قلبها فقالت له : ما اسمك؟ قال لها : إسمي الأسعد . فقالت له : سعدت وسعدت أيامك، أنت ما

تستاهل العذاب وقد علمت أنك مظلوم ، وصارت تؤانسه بالكلام وفكّت قيوده . ثم إنها سألته عن دين الإسلام ، فأخبرها أنه هو الدين الحقّ القويم ، وإن سيّدنا محمد صاحب المعجزات الباهرة والآيات الظاهرة ، وأن النار تضرّ ولا تنفع . وعرّفها قواعد الإسلام فاذعنت إليه ودخل حب الإيمان في قلبها ومزج الله تعالى محبة الأسعد بفؤادها ، فنطقت بالشهادتين وصارت من أهل السعادة . وصارت تطعمه وتسقيه وتتحدّث معه وتصلّي هي وإياه وتصنع له المساليق بالدجاج ، حتى اشتدّ وزال ما به من الأمراض ورجع إلى ما كان عليه من الصحة . ثم إن بنت بهرام خرجت من عند الأسعد ووقفت على الباب ، وإذا بالمنادي ينادي ويقول : كل من كان عنده شاب مليح صفته كذا وكذا وأظهره ، فله جميع ما طلب من الأموال . ومن كان عنده وأنكره فإنه يشنق على باب داره وينهب ماله ويهدر دمه . وكان الأسعد قد أخبر بستاناً بنت بهرام بجميع ما جرى له . فلما سمعت ذلك عرفت أنه هو المطلوب ، فدخلت عليه وأخبرته بالخبر . فخرج وتوجّه إلى دار الوزير ، فلما رأى الوزير قال : والله إن هذا الوزير هو أخي الأمجد . ثم طلع وطلعت الصبيّة وراءه إلى القصر فرأى أخاه الأمجد ، فألقى نفسه عليه . ثم إن الأمجد عرفه فألقى نفسه عليه ، وتعانقا واحتاطت بهما المماليك وغشي على الأسعد والأمجد ساعة . فلما أفاقا من غشيتهما أخذه الأمجد وطلع به إلى السلطان وأخبره بقصته . فأمره السلطان بنهب بيت بهرام . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 237 □ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن السلطان أمر الأمجد بنهب دار بهرام . فأرسل الوزير جماعة لذلك ، فتوجّهوا إلى بيت بهرام ونهبوه وطلعوا بابنته إلى الوزير فأكرمها . وحدّث الأسعد أخاه بكل ما جرى له من العذاب وما عملت معه بنت بهرام من الإحسان ، فزاد الأمجد في إكرامها . ثم حكى الأمجد للأسعد جميع ما جرى له مع الصبية ، وكيف سلم من الشنق وقد صار وزيراً . وصار يشكو أحدهما للآخر ما وجد من فرقة أخيه . ثم إن السلطان أحضر المجوسي وأمر بضرب عنقه . فقال بهرام : أيها الملك الأعظم ، هل صممت على قتلي ؟ قال : نعم . فقال بهرام : إصبر عليّ أيها الملك قليلاً . ثم إنه أطرق برأسه إلى الأرض ، وبعد ذلك رفع رأسه وتشهّد وأسلم على يد السلطان ففرحوا بإسلامه . ثم حكى له الأمجد والأسعد جميع ما جرى لهما . فقال لهما : يا سيداي ، تجهّزا للسفر وأنا أسافر بكما . ففرحا بذلك وبإسلامه ، وبكيا بكاءً شديداً . فقال لهما بهرام : يا سيداي لا تبكيا ، فمصيركما تجتمعان كما اجتمع نعمة ونِعَم . فقالا له : ما جرى لنعمة ونِعَم ؟

حكاية نعمة ونِعَم

فقال بهرام : ذكروا والله أعلم ، أنه كان بمدينة الكوفة رجل من وجوه أهلها يقال له : الربيع بن حاتم . وكان كثير المال مرفّه الحال ، وكان قد رزق ولداً فسمّاه نعمة الله . فبينما هو ذات يوم بدكة النخاسين ، إذ نظر جارية تعرض للبيع وعلى يدها وصيفة صغيرة بديعة في الحسن والجمال . فأشار الربيع إلى النخاس وقال له : بكم هذه الجارية وابنتها ؟ فقال : بخمسين ديناراً . فقال الربيع : أكتب العهد وخذ المال سلّمه لمولاها . ثم دفع للنخاس ثمن الجارية وأعطاه دلالته وتسلّم الجارية وابنتها ومضى بهما إلى بيته ، فلما نظرت ابنة عمّه إلى الجارية قالت له : يا ابن

العمّ، ما هذه الجارية؟ قال: اشتريتها رغبة في هذه الصغيرة التي على يديها، واعلمي أنها إذا كبرت ما يكون في بلاد العرب والعجم مثلها، ولا اجمل منها. فقالت لها ابنة عمّه: ما اسمك يا جارية؟ فقالت: يا سيدتي، إسمي توفيق. قالت: وما اسم ابنتك؟ قالت: سعد. قالت: صدقت. لقد سعدت وسعد من اشتراك. ثم قالت: يا ابن عمي، ما تسميها؟ قال: ما تختارينه انت. قالت: نسمّيها نِعم. قال الربيع: لا بأس بذلك. ثم إن الصغيرة نِعم تربّت مع نعمة بن الربيع في مهد واحد إلى حين بلغا من العمر عشر سنين، وكان كل شخص منهما أحسن من صاحبه، وصار الغلام يقول لها يا اختي وهي تقول له يا أخي. ثم أقبل الربيع على ولده نعمة حين بلغا هذا السن وقال له: يا ولدي، ليست نِعم أختك بل هي جاريتك، وقد اشتريتها على اسمك وأنت في المهد فلا تدعها بأختك من هذا اليوم. قال نعمة لأبيه: فإذا كان كذلك فانا أتزوّجها. ثم إنه دخل على والدته وأعلمها بذلك. فقالت: يا ولدي، هي جاريتك. فدخل نعمة بن الربيع بتلك الجارية وأحبّها ومضى عليهما تسع سنين وهما على تلك الحالة، ولم يكن بالكوفة جارية أحسن من نِعم ولا أحلى ولا اظرف منها. وقد كبرت وقرأت القرآن والعلوم، وعرفت أنواع اللعب والآلات، وبهرت في المغنى والآت الملاهي حتى أنها فاقت جميع أهل عصرها. فبينما هي جالسة ذات يوم من الأيام مع زوجها نعمة بن الربيع في مجلس الشراب، وقد اخذت العود وشدّت أوتاره وأنشدت هذين البيتين: [من الطويل]

إذا كُنْتَ لي مَوْلى أَعيشُ بَفَضْلِه ... وسَيْفاً به أَفْني رِقابَ النَّوائبِ
فَما لي إلى زَيْدٍ وعَمْروٍ شَفاعَةٌ ... سِواكَ إذا ضاقَتْ عَلَيَّ مَذاهِبِي

فطرب نعمة طرباً عظيماً ثم قال لها: بحياتي يا نِعم أن تغني لنا على الدفّ والآت الطرب. فأطربت بالنغمات وغنّت بهذه الأبيات: [من الكامل]

وحَياةِ مَنْ مَلَكَتْ يَداهُ قِيادِي ... لأُخالِفَنَّ على الهَوَى حُسَّادِي
ولأُغْضِبَنَّ عَواذِلِي وأُطِيعُكُمْ ... ولأَهْجُرَنَّ تَلَذُّذِي ورُقادِي
ولأَجْعَلَنَّ لَكُمْ بأَكْنافِ الحَشَى ... قَبْراً ولَمْ يَشْعُرْ بِذاكَ فُؤَادِي

فقال الغلام: لله درّك يا نِعم. فبينما هما في أطيب عيش وإذا بالحجاج في دار نيابته يقول: لا بدّ لي ان أحتال على أخذ هذه الجارية التي إسمها نعم، وأرسلها إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لانه لا يوجد في قصره مثلها ولا أطيب من غناها. ثم إنه استدعى بعجوز قهرمانة وقال لها: إمضي إلى دار الربيع واجتمعي بالجارية نِعم وتسبّبي في أخذها، لأنه لم يوجد على وجه الأرض مثلها. فقبلت العجوز من الحجاج ما قاله، ولما اصبحت لبست أثوابها الصوف وحطّت في رقبتها سبحة حبّاتها ألوف. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 238

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز قبلت ما قاله الحجاج. ولما اصبحت لبست أثوابها الصوف ووضعت في رقبتها سبحة عدد حبّاتها ألوف، واخذت بيدها عكّازاً وركوة يمانية وسارت وهي تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم. ولم تزل في تسبيح وابتهال وقلبها ملآن بالمكر والمحال

حتى وصلت إلى دار نعمة بن الربيع عند صلاة الظهر، فقرعت الباب ففتح لها البوّاب وقال: ما تريدين؟ قالت: أنا فقيرة من العابدات، وأدركتني صلاة الظهر وأريد أن أصلي في هذا المكان المبارك. فقال لها: البوّاب يا عجوز، إن هذه دار نعمة بن الربيع وليست بجامع ولا مسجد. فقالت: أنا أعرف أنه لا جامع ولا مسجد مثل دار نعمة بن الربيع، وأنا قهرمانة من قصر أمير المؤمنين خرجت طالبة العبادة والسياحة. فقال لها البّواب: لا أمكّنك من أن تدخلي. وكثر بينهما الكلام فتعلّقت به العجوز وقالت له: هل يمنع مثلي من دخول دار نعمة بن الربيع وأنا أعبر إلى ديار الأمراء والأكابر؟ فخرج نعمة وسمع كلامهما فضحك وأمرها أن تدخل خلفه. فدخل نعمة وسارت العجوز خلفه حتى دخل بها على نِعم فسلمت عليها العجوز بأحسن سلام، ولما نظرت إلى نِعم تعجّبت من فرط جمالها ثم قالت لها: يا سيدتي، أعيذك بالله الذي ألف بينك وبين مولاك في الحسن والجمال. ثم انتصبت العجوز في المحراب وأقبلت على الركوع والسجود والدعاء إلى أن مضى النهار وأقبل الليل بالإعتكار. فقالت الجارية: يا أمي، أريحي قدميك ساعة. فقالت العجوز: يا سيدتي، من طلب الآخرة أتعب نفسه في الدنيا، ومن لم يتعب نفسه في الدنيا لم ينل منازل الأبرار في الآخرة. ثم إن نعماً قدمت الطعام للعجوز وقالت لها: كلي من طعامي وادعي لي بالتوبة والرحمة. فقالت العجوز: يا سيدتي، إني صائمة. وأما أنت فصبيّة يصلح لك الأكل والشرب والطرب، والله يتوب عليك. وقد قال الله تعالى: إلاّ مَنْ تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً. ولم تزل الجارية جالسة مع العجوز ساعة تحدّثها ثم قالت لسيدها: يا سيدي، أحلف على هذه العجوز أن تقيم عندنا مدّة فإن على وجهها أثر العبادة. فقال: أخلي لها مجلساً للعبادة ولا تخلّي أحداً يدخل عليها، فلعل الله سبحانه وتعالى ينفعنا ببركتها ولا يفرّق بيننا. ثم باتت العجوز ليلتها تصلّي وتقرأ إلى الصباح. فلما أصبح الصباح جاءت إلى نعمة ونُعم وصبّحت عليهما وقالت لهما: أستودعتكما الله. فقالت لها نُعم: إلى أين تمضين يا أمي، وقد أمرني سيدي أن أخلي لك مجلساً تعتكفين فيه للعبادة؟ فقالت العجوز: الله يبقيه ويديم نعمته عليكما، ولكن أريد منكما أن توصوا البواب أنه لا يمنعني من الدخول إليكما، وإن شاء الله تعالى أدور في الأماكن الطاهرة وأدعو لكما عقب الصلاة والعبادة في كل يوم وليلة. ثم خرجت من الدار والجارية نِعم تبكي على فراقها وما تعلم السبب الذي أتت إليها من أجله. ثم إن العجوز توجّهت إلى الحجاج فقال لها: ما وراءك؟ فقالت له: إني نظرت إلى الجارية فرأيتها لم تلد النساء أحسن منها في زمانها. فقال لها الحجاج: إن فعلت ما أمرتك به، يصل إليك مني خير جزيل. فقالت له: أريد منك المهلة شهراً كاملاً. فقال لها: أمهلتك شهراً. ثم إن العجوز جعلت تتردّد إلى دار نعمة وجاريته نُعم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 239

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد: أن العجوز صارت تتردّد إلى دار نعمة ونُعم وهما يزيدان في إكرامها. وما زالت العجوز تمسي وتصبح عندهما ويرحّب بها كل من في الدار، حتى أنها العجوز اختلت بالجارية يوماً من الأيام وقالت: يا سيدتي، والله إن حضرتُ الأماكن الطاهرة دعوت لك، وأتمنى أن تكوني معي حتى تري المشايخ الواصلين ويدعون لك بما تختارين. فقالت لها الجارية نُعم: بالله يا أمي أن تأخذيني معك. فقالت لها:

إستأذني حماتك وانا آخذك معي . فقالت الجارية لحماتها أم نعمة : يا سيدتي ، إسالي سيدي أن يخلّيني اخرج انا وأنت يوماً من الأيام مع أمي العجوز إلى الصلاة والدعاء مع الفقراء في الأماكن الشريفة . فلما أتى نعمة وجلس ، تقدمت إليه العجوز وقبّلت يديه فمنعها من ذلك ، ودعت له وخرجت من الدار . فلما كان ثاني يوم جاءت العجوز ولم يكن نعمة في الدار ، فاقبلت على الجارية نُعم وقالت لها : قد دعونا لكم البارحة ، ولكن قومي في هذه الساعة تفرّجي وعودي قبل أن يجيء سيّدك . فقالت الجارية لحماتها : سألتك بالله أن تأذني لي في الخروج مع هذه المراة الصالحة لأتفرّج على أولياء الله في الأماكن الشريفة وأعود بسرعة قبل مجيء سيدي . فقالت أم نعمة : أخشى أن يدري سيدك . فقالت العجوز : والله لا أدعها تجلس على الأرض بل تنظر وهي واقفة على أقدامها ، ولا تبطىء . ثم أخذت الجارية بالحيلة وتوجّهت بها إلى قصر الحجّاج وعرّفته بمجيئها بعد أن حطّتها في مقصورة . فأتى الحجاج ونظر إليها ، فرآها أجمل أهل زمانها ولم يرَ مثلها . فلما رأته نُعم سترت وجهها ، فلم يفارقها حتى استدعى بحاجبه وأركب معه خمسين فارساً وأمره أن يأخذ الجارية على نجيب سابق ويتوجّه بها إلى دمشق ويسلّمها إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان . وكتب له كتاباً وقال له : اعطه هذا الكتاب وخذ منه الجواب وأسرع إليّ بالرجوع . فتوجّه الحاجب وأخذ الجارية على هجين وسافر بها وهي باكية العين من أجل فراق سيّدها حتى وصلوا إلى دمشق ، واستأذن على أمير المؤمنين فأذن له ، فدخل الحاجب عليه وأخبره بخبر الجارية فأخلى لها مقصورة . ثم دخل الخليفة حريمه فرأى زوجته فقال لها : إن الحجاج قد اشترى لي جارية من بنات ملوك الكوفة بعشرة الآف دينار ، وأرسل إليّ هذا الكتاب وهي صحبة الكتاب . فقالت له زوجته : وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 240

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الخليفة لما أخبر زوجته بقصة الجارية قالت له زوجته : زادك الله من فضله . ثم دخلت أخت الخليفة على الجارية ، فلما رأتها قالت : والله ما خاب من أنت في منزله ولو كان ثمنك مائة ألف دينار . فقالت لها الجارية نُعم : يا صبيحة الوجه ، هذا قصر مَنْ مِنْ الملوك؟ وأي مدينة هذه المدينة؟ قالت لها : هذه مدينة دمشق ، وهذا قصر أخي أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان . ثم قالت للجارية : كأنك ما علمت هذا . قالت : والله يا سيدتي لا علم لي بهذا . قالت : والذي باعك وقبض ثمنك ، ما أعلمك بأن الخليفة قد اشتراك ؟ فلما سمعت الجارية ذلك الكلام ، سكبت دموعها وبكت وقالت في نفسها : لقد تمّت الحيلة عليّ . ثم قالت في نفسها : إن تكلّمت فما يصدّقني أحد ، ولكن .أسكت وأصبر لعلمي أن فرج الله قريب . ثم إنها أطرقت رأسها حياء وقد احمرّت خدودها من أثر السفر والشمس ، فتركتها أخت الخليفة في ذلك اليوم وجاءتها في اليوم الثاني بقماش وقلائد من الجواهر والبستها ، فدخل عليها أمير المؤمنين وجلس إلى جانبها فقالت له أخته : أنظر إلى هذه الجارية التي قد كمّل الله فيها الحسن والجمال . فقال الخليفة لنعم : أزيحي القناع عن وجهك؟ فلم تزح القناع عن وجهها .فلم يرَ وجهها وإنما رأى معاصمها ، فوقعت محبتها في قلبه وقال لاخته : لا ادخل عليها إلاّ بعد ثلاثة أيام حتى تستأنس بك . ثم قام وخرج من عندها ، فصارت الجارية متفكّرة في أمرها ومتحسّرة على افتراقها من سيدها نعمة . فلما أتى الليل ،

ضعفت الجارية بالحمى ولم تأكل ولم تشرب وتغيّر وجهها ومحاسنها، فعرّفوا الخليفة بذلك فشقّ عليه أمرها ودخل عليها بالأطباء وأهل البصائر، فلم يقف لها أحد على طب. هذا ما كان من أمرها.

وأما ما كان من أمر سيدها نعمة، فإنه أتى إلى داره وجلس على فراشه ونادى: يا نُعم. فلم تجبه، فقام مسرعاً ونادى، فلم يدخل عليه أحد وكل جارية في البيت اختفت خوفاً منه. فخرج نعمة إلى والدته فوجدها جالسة ويدها على خدها. فقال لها: يا أمي، أين نُعم؟ فقالت له: يا ولدي، مع مَنْ هي أوثق مني عليها، وهي العجوز الصالحة فإنها خرجت معها لتزور الفقراء وتعود. فقال: ومتى كان لها عادة بذلك؟ وفي أي وقت خرجت؟ قالت: خرجت بكرة النهار. قال: وكيف أذنت لها بذلك؟ فقالت: يا ولدي، هي التي أشارت عليّ بذلك. فقال نعمة: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم. ثم خرج من بيته وهو غائب عن الوجود. ثم توجّه إلى صاحب الشرطة فقال له: أتحتال عليّ وتأخذ جاريتي من داري؟ فلا بدّ لي ان أسافر وأشتكيك إلى أمير المؤمنين. فقال صاحب الشرطة: ومن أخذها؟ فقال: عجوز صفتها كذا وكذا، وعليها ملبوس من الصوف وبيدها سبحة عدد حباتها ألوف. فقال له صاحب الشرطة: أوقفني على العجوز وأنا أخلّص لك جاريتك. فقال: ومن يعرف العجوز؟ فقال له صاحب الشرطة: ومن يعلم الغيب إلاّ الله سبحانه وتعالى؟ وقد علم صاحب الشرطة أنها محتالة الحجاج. فقال له نعمة: ما أعرف جاريتي إلاّ منك، وبيني وبينك الحجاج. فقال له: إمض إلى من شئت. فتوجّه نعمة إلى قصر الحجاج، وكان والده من أكابر أهل الكوفة. فلما وصل إلى بيت الحجاج، دخل حاجب الحجاج عليه وأعلمه بالقضية. فقال له: عليّ به. فلما وقف بين يديه قال له الحجاج: ما بالك؟ فقال له نعمة: كان من أمري ما هو كذا وكذا. فقال: هاتوا صاحب الشرطة ونأمره أن يفتش على العجوز. فلما حضر صاحب الشرطة قال له: أريد منك أن تفتّش على جارية نعمة بن الربيع. فقال له صاحب الشرطة: لا يعلم الغيب إلاّ الله تعالى. فقال له الحجاج: لا بدّ أن تركب الخيل وتبصر الجارية في الطرقات وتنظر في البلدان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 241

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحجاج قال لصاحب الشرطة: لا بدّ أن تركب الخيل وتنظر في البلدان والطرقات وتفتّش على الجارية. ثم التفت إلى نعمة وقال له: إن لم ترجع جاريتك دفعت لك عشر جوار من داري، وعشر جوار من دار صاحب الشرطة. ثم قال لصاحب الشرطة: أخرج في طلب الجارية. فخرج صاحب الشرطة ونعمة مغموم وقد يئس من الحياة وكان قد بلغ من العمر أربع عشرة سنة ولا نبات بعارضيه. فجعل يبكي وينتحب وانعزل عن داره ولم يزل يبكي إلى الصباح، فأقبل والده وقال له: يا ولدي، إن الحجاج قد احتال على الجارية وأخذها، ومن ساعة إلى ساعة يأتي الله بالفرج من عنده. فتزايدت الهموم على نعمة وصار لا يعلم ما يقول ولا يعرف من يدخل عليه، وأقام ضعيفاً ثلاثة أشهر حتى تغيّرت أحواله ويئس منه أبوه. ودخلت عليه الأطباء فقالوا: ما له دواء إلاّ الجارية. فبينما والده جالس يوماً من الايام إذ سمع بطبيب ماهر أعجمي، وقد وصفه الناس

بإتقان الطب والتنجيم وضرب الرمل . فدعا به الربيع ، فلما حضر أجلسه الربيع إلى جانبه وأكرمه وقال له : أنظر حال ولدي . فقال لنعمة : هات يدك . فأعطاه يده ، فجسّ مفاصله ونظر في وجهه وضحك والتفت إلى أبيه وقال : ليس بولدك غير مرض في قلبه . فقال : صدقت يا حكيم ، فانظر في شأن ولدي بمعرفتك واخبرني بجميع أحواله ولا تكتم عني شيئاً من أمره . فقال الأعجمي : إنه متعلّق بجارية ، وهذه الجارية في البصرة أو في دمشق ، وما دواء ولدك غير اجتماعه بها . فقال الربيع : إن جمعت بينهما فلك عندي ما يسرّك وتعيش عمرك كلّه في المال والنعمة . فقال له العجمي : إن هذا الأمر قريب وسهل . ثم التفت إلى نعمة وقال له : لا بأس عليك ، فطب نفساً وقرّ عيناً . ثم قال للربيع : أخرج من مالك أربعة آلاف دينار . فأخرجها وسلّمها للأعجمي . فقال له الأعجمي : أريد أن ولدك يسافر معي إلى دمشق وإن شاء الله تعالى لا أرجع إلاّ بالجارية . ثم التفت العجمي إلى الشاب وقال له : ما اسمك؟ قال : نعمة . قال : نعمة إجلس وكن في أمان الله تعالى ، لقد جمع الله بينك وبين جاريتك . فاستوى جالساً فقال له : ثبّت قلبك ، فنحن نسافر مثل هذا اليوم ، فكل واشرب وانبسط لتقوى على السفر . ثم إن العجمي أخذ في قضاء حوائجه من جميع ما يحتاج إليه ، واستكمل من والد نعمة عشرة الآف دينار ، وأخذ منه الخيل والجمال وغير ذلك مما يحتاج لحمل الأثقال في الطريق . ثم إن نعمة ودّع والده وسافر مع الحكيم إلى حلب ، فلم يقع على خبر الجارية . ثم إنهما وصلا إلى دمشق وأقاما فيها ثلاثة أيام ، وبعد ذلك أخذ الأعجمي دكاناً وملأ رفوفها بالصيني النفيس والأغطية ، وزركش الرفوف بالذهب والقطع المثمنة ، وحطّ قدّامه أواني من القناني فيها سائر الأدهان وسائر الأشربة ، ووضع حول القناني أقداحاً من البلور وحطّ الإصطرلاب قدّامه ولبس أثواب الحكمة والطب ، وأوقف بين يديه نعمة وألبسه قميصاً وملوطة من الحرير ، وفوّطه في وسطه بفوطة من الحرير مزركشة بالذهب . ثم قال العجمي لنعمة : يا نعمة ، أنت من اليوم ولدي فلا تدعني إلاّ بأبيك وأنا لا أدعوك إلاّ بالولد . فقال نعمة : سمعاً وطاعةً . ثم إن أهل دمشق اجتمعوا على دكان العجمي ينظرون إلى حسن نعمة وإلى حسن الدكان والبضائع التي فيها ، والعجمي يكلّم نعمة بالفارسية ونعمة يكلّمه كذلك بتلك اللغة لأنه كان يعرفها على عادة أولاد الأكابر . واشتهر ذلك الأعجمي عند أهل دمشق ، وجعلوا يصفون له الأوجاع وهو يعطيهم الأدوية . ويأتونه بالقوارير المملوءة ببول المرضى فيبصرها ويقول : إن مرض صاحب البول الذي في هذه القارورة كذا وكذا . فيقول صاحب المرض : إن هذا الطبيب صادق . ثم صار يقضي حاجة الناس ، واجتمعت عليه أهل دمشق وشاع خبره في المدينة وفي بيوت الأكابر . فبينما هو ذات يوم جالس إذ أقبلت عليه عجوز راكبة على حمار ، بردعته من الديباج المرصّع بالجواهر . فوقفت على دكان العجمي وشدّت لجام الحمار وأشارت للعجمي وقالت له : إمسك يدي . فأخذ يدها فنزلت من فوق الحمار وقالت : أأنت الطبيب العجمي الذي جئت من العراق؟ قال : نعم . قالت : أعلم أن لي بنتاً وبها مرض ، وأخرجت له قارورة . فلما نظر العجمي إلى ما في القارورة قال لها : يا سيدتي ، ما إسم هذه الجارية حتى أحسب نجمها وأعرف أي ساعة يوافقها فيها شرب الدواء؟ فقالت : يا أخا الفرس ، إسمها نُعم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 242

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجمي لما سمع اسم نُعم، جعل يحسب ويكتب على يده وقال لها: يا سيدتي، ما أصف لها دواء حتى أعرف من أي أرض هي لأجل اختلاف الهواء، فعرّفيني في أي أرض تربّت؟ وكم سنة سنّها؟ فقالت العجوز: سنّها أربع عشرة سنة، ومرباها بأرض الكوفة من العراق. فقال: وكم شهراً لها في هذه الديار؟ فقالت له. أقامت في هذه الديار شهوراً قليلة. فلما سمع نعمة كلام العجوز وعرف إسم جاريته خفق قلبه. فقال لها الأعجمي: يوافقها من الأدوية كذا وكذا. فقالت له العجوز: أعطني ما وصفت على بركة الله تعالى، ورمت له عشرة دنانير على الدكان. فنظر الحكيم إلى نعمة وأمره أن يهيء لها عقاقير الدواء، وصارت العجوز تنظر إلى نعمة وتقول: أعيذك بالله يا ولدي، إن شكلها مثل شكلك. ثم قالت العجوز للعجمي: يا أخا الفرس، هل هذا مملوكك أو ولدك؟ فقال لها العجمي: إنه ولدي. ثم إن نعمة وضع لها الحوائج في علبة، وأخذ ورقة وكتب فيها هذين البيتين: [من الطويل]

إذا أَنْعَمَتْ نُعْمٌ عَلَيَّ بِنَظْرَةٍ فَلا أَسْعَدَتْ سَعْدَى ولا أَجْمَلَتْ جُمْلُ
وقالُوا اَسْلُ عَنْها تُعْطَ عِشْرِينَ مِثْلَها ولَيْسَ لها مِثْلٌ ولَسْتُ لها أَسْلُو

ثم دسّ الورقة في داخل العلبة وختمها وكتب على غطاء العلبة بالخط الكوفي: أنا نعمة بن الربيع الكوفي. ثم وضع العلبة قدّام العجوز، فأخذتها وودّعتهما وانصرفت متوجّهة إلى قصر الخليفة. فلما طلعت العجوز بالحوائج إلى الجارية، وضعت علبة الدواء قدّامها ثم قالت لها: يا سيدتي، إعلمي أنه قد أتى إلى مدينتنا طبيب عجمي ما رأيت أحداً أعرف بأمور الأمراض منه. فذكرت له إسمك بعد أن رأى القارورة فعرف مرضك ووصف دواءك. ثم أمر ولده فشدّ لك هذا الدواء، وليس في دمشق أجمل ولا أظرف من ولده ولا أحسن ثياباً منه، ولا يوجد لأحد دكان مثل دكانه. فأخذت العلبة فرأت مكتوباً على غطائها إسم سيدها واسم أبيه، فلما رأت ذلك تغيّر لونها وقالت: لا شك أن صاحب الدكان أتى في شأني. ثم قالت للعجوز: صفي لي هذا الصبي. فقالت: إسمه نعمة وعلى حاجبه الأيمن أثر وعليه ملابس فاخرة وله حسن كامل. فقالت الجارية: ناوليني الدواء على بركة الله تعالى وعونه. فأخذت الدواء وشربته وهي تضحك وقالت لها: إنه دواء مبارك. ثم فتّشت في العلبة فرأت الورقة ففتحتها وقرأتها، فلما فهمت معناها تحقّقت أنه سيدها، فطابت نفسها وفرحت. فلما رأتها العجوز قد ضحكت قالت لها: إن هذا اليوم يوم مبارك. فقالت نُعم: يا قهرمانة أريد الطعام والشراب. فقالت العجوز للجواري: قدّموا الموائد والأطعمة الفاخرة لسيدتكن. فقدّمن إليها الأطعمة وجلست للأكل، وإذا بعبد الملك بن مروان قد دخل عليهن ونظر الجارية جالسة وهي تأكل الطعام، ففرح. ثم قالت القهرمانة: يا أمير المؤمنين، يهنيك عافية جاريتك نُعم، وذلك إنه وصل إلى هذه المدينة رجل طبيب ما رأيت أعرف منه بالامراض ودوائها، فأتيت لها منه بدواء فتعاطت منه مرة واحدة فحصلت لها العافية يا أمير المؤمنين. فقال أمير المؤمنين: خذي ألف دينار وقومي بإبرائها. ثم خرج وهو فرحان بعافية الجارية، وراحت العجوز إلى دكان العجمي بالألف دينار وأعطته إياها وأعلمته أنها جارية

الخليفة، وناولته ورقة كانت نُعم قد كتبتها. فأخذها العجمي وناولها لنعمة، فلما رآها عرف خطها فوقع مغشياً عليه. فلما افاق فتح الورقة فوجد مكتوباً فيها: من الجارية المسلوبة من نعمتها، المخدوعة في عقلها المفارقة لحبيب قلبها، أما بعد: فإنه قد ورد كتابكم عليّ فشرح الصدر وسرّ الخاطر. وكان كقول الشاعر: [من الكامل]

وَرَدَ الكِتابُ فَلا عُدِمْتَ انامِلاً ... كَتَبَتْ بِهِ حَتَّى تَضَمَّخَ طِيْبا
فكَأَنَّ مُوسَى قَدْ أُعِيدَ لأُمِّهِ ... أَو ثَوْبَ يُوسُفَ قُدْ أَتَى يَعْقُوبا

فلما قرأ نعمة هذا الشعر هملت عيناه بالدموع. فقالت له القهرمانة: ما الذي يبكيك يا ولدي؟ لا أبكى الله لك عيناً. فقال العجمي: يا سيدتي، كيف لا يبكي ولدي وهذه جاريته وهو سيّدها نعمة بن الربيع الكوفي، وعافية هذه الجارية مرهونة برؤيته وليس بها علّة إلاّ هواه.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 243

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجمي قال للعجوز: كيف لا يبكي ولدي وهذه جاريته وهو سيّدها نعمة بن الربيع الكوفي، وعافية هذه الجارية مرهونة برؤيته وليس بها علّة إلاّ هواه. فخذي أنت يا سيدتي هذا الألف دينار لك، ولك عندي أكثر من ذلك، وانظري لنا بعين الرحمة ولا نعرف إصلاح هذا الأمر إلا منك. فقالت العجوز لنعمة: هل أنت مولاها؟ فقال: نعم. قالت: صدقت. فإنها لا تفترّ عن ذكرك. فأخبرها نعمة بما قد جرى له من الأول إلى الآخر. فقالت العجوز: يا غلام، لا تعرف اجتماعك بها إلاّ مني. ثم ركبت وعادت من وقتها ودخلت على الجارية فنظرت في وجهها وضحكت وقالت لها: يحق لك يا بنتي أن تبكي وتمرضي من أجل فراق سيدك نعمة بن الربيع الكوفي. فقالت نُعم: قد انكشف لك الغطاء وظهر لك الحق. فقالت لها العجوز: طيبي نفساً وانشرحي صدراً، فوالله لأجمعن بينكما ولو كان في ذلك ذهاب روحي. ثم إنها رجعت إلى نعمة وقالت له: إني رجعت لجاريتك واجتمعت بها فوجدت عندها من الشوق إليك أكثر ما عندك لها، وذلك إن أمير المؤمنين يريد أن يجتمع بها وهي تمتنع منه. فإن كان لك جنان ثابت وقوّة قلب فانا أجمع بينكما وأخاطر بنفسي معكما، وأدبر حيلة وأعمل مكيدة في دخولك قصر أمير المؤمنين حتى تجتمع بالجارية، فإنها ما تقدر أن تخرج. فقال لها نعمة: جزاك الله خيراً. ثم ودّعته وذهبت إلى الجارية وقالت لها: إن سيدك قد ذهبت روحه في هواك وهو يريد الإجتماع بك، فما تقولين في ذلك؟ فقالت نُعم: وأنا كذلك، قد ذهبت روحي وأريد الإجتماع به. فعند ذلك أخذت العجوز بقجة فيها حلي ومصاغ وبدلة من ثياب النساء وتوجّهت إلى نعمة وقالت له: أدخل بنا مكاناً وحدنا. فدخل معها قاعة خلف الدكان ونقشته وزيّنت معاصمه وزوّقت شعره وألبسته لباس جارية وزيّنته بأحسن ما تتزين به الجواري، فصار كأنه من حور الجنان. فلما رأته القهرمانة في تلك الصفة قالت: تبارك الله أحسن الخالقين، والله إنك لأحسن من الجارية. ثم قالت له: إمش وقدّم الشمال وأخّر اليمين وهزّ أردافك. فمشى قدّامها كما أمرته، فلما رأته قد عرف مشي النساء قالت له: أمكث حتى آتيك ليلة غد إن شاء الله تعلى فآخذك وأدخل بك القصر، وإذا نظرت

الحجّاب والخدّامين، فقوّ عزمك وطاطىء رأسك ولا تتكلّم مع أحد وأنا أكفيك كلامهم وبالله التوفيق. فلما أصبح الصباح، أتته القهرمانة في ثاني يوم وأخذته وطلعت به القصر ودخلت قدّامه ودخل هو وراءها في أثرها، فأراد الحاجب أن يمنعه من الدخول فقالت له: يا أنحس العبيد، إنها جارية نُعم محظية أمير المؤمنين، فكيف تمنعها من الدخول؟ ثم قالت: ادخلي يا جارية. فدخل مع العجوز ولم يزالا داخلين إلى الباب الذي يتوصل منه إلى صحن القصر فقالت له العجوز: يا نعمة، قوّ نفسك وثبّت قلبك وادخل القصر، وخذ على شمالك وعدّ خمسة أبواب وادخل الباب السادس فإنه باب المكان المعدّ لك ولا تخف، وإذا كلّمك أحد فلا تتكلم معه. ثم سارت به حتى وصلت إلى الأبواب، فقابلها الحاجب المعدّ لتلك الأبواب وقال لها: ما هذه الجارية؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 244

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحاجب قابل العجوز وقال لها: ما هذه الجارية؟ فقالت له العجوز: إن سيدتنا تريد اشتراءها. فقال الخادم: ما يدخل أحد إلاّ بإذن أمير المؤمنين، فارجعي فإني لا أخلّيها تدخل لأنني أمرت بهذا. فقالت له القهرمانة: أيها الحاجب الكبير أين عقلك؟ إن نِعماً جارية الخليفة الذي قلبه متعلّق بها قد توجّهت إليها العافية وما صدّق أمير المؤمنين بعافيتها، وتريد اشتراء هذه الجارية فلا تمنعها من الدخول لئلا يبلغها أنك منعتها فتغضب عليك، وإن غضبت عليك تسبّبت في قطع رأسك. ثم قالت: ادخلي يا جارية ولا تسمعي كلامه ولا تخبري سيدتك أن الحاجب منعك من الدخول. فطأطأ نعمة رأسه ودخل القصر، وأراد أن يمشي إلى جهة يساره فغلط ومشى إلى جهة يمينه، وأراد أن يعدّ خمسة أبواب ويدخل السادس فعدّ ستة ودخل السابع. فلما دخل في ذلك الباب رأى موضعاً مفروشاً بالديباج وحيطانه عليها ستائر الحرير المرقومة بالذهب وفيه مباخر العود والعنبر والمسك الأذفر، ورأى سريراً في الصدر مفروشاً بالديباج فجلس عليه نعمة ولم يعلم بما كتب له في الغيب. فبينما هو جالس متفكّر في أمره إذ دخلت عليه أخت أمير المؤمنين ومعها جاريتها، فلما رأت الغلام جالساً ظنّته جارية، فتقدّمت إليه وقالت له: مَنْ تكوني يا جارية وما خبرك وما سبب دخولك هذا المكان؟ فلم يتكلّم نعمة ولم يرد عليها جواباً. فقالت: يا جارية، إن كنت من محاظي أخي وقد غضب عليك فأنا استعطفه عليك. فلم يرد نعمة عليها جواباً. فعند ذلك قالت لجاريتها: قفي على باب المجلس ولا تدعي أحداً يدخل. ثم تقدّمت إليه ونظرت إلى جماله وقالت: يا صبيّة عرّفيني مَنْ تكوني وما اسمك وما سبب دخولك هنا؟ فإني لم أنظرك في قصرنا. فلم يرد نعمة عليها جواباً. فعند ذلك غضبت أخت الملك ووضعت يدها على صدر نعمة فلم تجد لها نهوداً، فأرادت أن تكشف ثيابه لتعلم خبره فقال لها نعمة: يا سيدتي أنا مملوك فاشتريني، وأنا مستجير بك فاجيريني. فقالت له: لا بأس عليك، فمن أنت ومن أدخلك مجلسي هذا؟ فقال لها نعمة: أنا أيتها الملكة أُعرف بنعمة بن الربيع الكوفي، وقد خاطرت بروحي لأجل جاريتي نُعم التي احتال عليها الحجاج وأخذها وأرسلها إلى هنا. فقالت له: لا بأس عليك. ثم صاحت على جاريتها وقالت لها: امضِ إلى مقصورة نُعم. وقد كانت القهرمانة أتت إلى مقصورة نُعم وقالت لها: هل وصل إليك سيدك؟ فقالت: لا والله. فقالت القهرمانة: لعلّه غلط فدخل

مقصورة غير مقصورتك وتاه عن مكانك . فقالت نُعم : لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ، قد فرغ اجلنا وهلكنا ، وجلسا متفكرين . فبينما هما كذلك إذ دخلت عليهما جارية أخت الخليفة فسلّمت على نُعم وقالت لها : إن مولاتي تدعوك إلى ضيافتها . فقالت : سمعاً وطاعةً . فقالت القهرمانة : لعلّ سيدك عند اخت الخليفة وقد انكشف الغطاء . فنهضت نُعم من وقتها وساعتها حتى دخلت على أخت الخليفة فقالت لها : هذا مولاك جالس عندي وكأنه غلط في المكان ، وليس عليك ولا عليه خوف إن شاء الله تعالى . فلما سمعت نُعم هذا الكلام من أخت الخليفة ، اطمأنّت نفسها وتقدّمت إلى مولاها نعمة . فلما نظرها قام إليها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 245

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن نعمة لما نظر إلى جاريته نُعم قام إليها وضمّ كل واحد منهما صاحبه إلى صدره ثم وقعا على الأرض مغشيّاً عليهما . فلما أفاقا قالت لهما أخت الخليفة : إجلسا حتى نتدبّر في الخلاص من الأمر الذي وقعنا فيه . فقالا لها : سمعاً وطاعةً والأمر لك . فقالت : والله ما ينالكما منّا سوء قطّ . ثم قالت لجاريتها : أحضري الطعام والشراب . فأحضرت ذلك فأكلوا بحسب الكفاية ثم جلسوا يشربون ، فدارت عليهم الأقداح وزالت عنهم الأتراح فقال نعمة : ليت شعري بعد ذلك ما يكون . فقالت له أخت الخليفة : نعمة ، هل تحب نعماً جاريتك ؟ فقال لها : يا سيدتي ، إن هواها هو الذي جعلني على ما أنا فيه من المخاطرة بروحي . ثم قالت لنعم : يا نُعم ، هل تحبين سيّدك نعمة ؟ قالت : يا سيدتي ، إن هواه هو الذي أذاب جسمي وغيّر حالي . فقالت : والله إنكما متحابان فلا كان من يفرّق بينكما ، فقرّا عيناً وطيبا نفساً . ففرحا بذلك ، وطلبت نعم عوداً فأحضروه لها . فأخذته وأصلحته وأطربت بالنغمات وانشدت هذه الأبيات : [من الطويل]

وَلَمَّا أَبَى الواشُونَ إلاّ فِراقَنا   ولَيْسَ لَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ ثأْرِ
وشَنُّوا عَلَى أَسْماعِنا كُلَّ غارَةٍ   وقَلَّ حُماتِي عِنْدَ ذاكَ وأَنْصارِي
غَزَوْتُهُمْ مِنْ مُقْلَتَيْكَ وأَدْمُعِي   ومِنْ نَفَسِي بالسَّيْفِ والسَّيْلِ والنَّارِ

ثم إن نعماً أعطت العود لسيدها نعمة وقالت له : غنّ لنا شعراً . فأخذه وأصلحه وأطرب بالنغمات ثم انشد هذه الأبيات : [من البسيط]

البَدْرُ يَحْكِيكِ لَوْلا أَنَّـه كَلَفٌ   والشَّمْسُ مِثْلُكِ لو لا الشَّمْسُ تَنْكَسِفُ
إنّي عَجِبْتُ وكَمْ في الحُبِّ مِنْ عَجَبٍ   فِيهِ الهُمُومُ وفِيهِ الوَجْدُ والكَلَفُ
أَرَى الطَّرِيقَ قَرِيباً حِينَ أَسْلُكُهُ   إلى الحَبِيبِ بَعِيداً حِينَ أَنْصَرِفُ

فلما فرغ من شعره ، ملأت له قدحاً وناولته إياه فأخذه وشربه . ثم ملأت قدحاً آخر وناولته لأخت الخليفة فشربته . وأخذت العود وأصلحته وشدّت أوتاره وأنشدت هذين البيتين : [من الكامل]

غَمٌّ وحُزْنٌ في الفُؤَادِ مُقِيمُ   وجَوًى تَرَدَّدَ في حَشايَ عَظِيمُ

وَنُحُولُ جِسْمٍ قَدْ تَبَدَّى ظاهِراً   فالجِسْمُ مِنِّي بالغَرامِ سَقِيمُ

ثم ناولت العود لنعمة بن الربيع ، فأخذه وأصلح أوتاره وأنشد هذين البيتين : [من البسيط]

يا مَنْ وَهَبْتُ لَهُ رُوحِي فَعَذَّبَها   ورُمْتُ تَخْلِيصَها مِنْهُ فَلَمْ أُطِقِ
دارِكْ مُحِبّاً بما يُنْجِيهِ مِنْ تَلَفٍ   قَبْلَ المَماتِ فَهَذا آخِرُ الرَّمَقِ

ولم يزالوا ينشدون الأشعار ويشربون على نغمات الأوتار وهم في لذّة وحبور وفرح وسرور . فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أمير المؤمنين ، فلما نظروه قاموا إليه وقبّلوا الأرض بين يديه ، فنظر إلى نُعم والعود معها فقال : يا نُعم ، الحمد لله الذي أذهب عنك الباس والوجع . ثم التفت إلى نعمة وهو على تلك الحالة وقال : يا أختي ، من هذه الجارية التي في جانب نُعم ؟ فقالت له أخته : يا أمير المؤمنين ، إن لك جارية من الحاظي انيسة ، لا تأكل نُعم ولا تشرب إلاّ وهي معها . ثم أنشدت قول الشاعر : [من البسيط]

ضِدّانِ واْجْتَمَعا اْفْتِراقاً في البَها   والضِّدُّ يَظْهَرُ حُسْنُهُ بالضِّدِّ

فقال الخليفة : والله العظيم إنها مليحة مثلها ، وفي غد أخلي لها مجلساً بجانب مجلسها وأُخرج لها الفرش والقماش وأنقل إليها جميع ما يصلح لها إكراماً لنعم . واستدعت أخت الخليفة بالطعام فقدّمته لأخيها ، فأكل وجلس معهم في تلك الحضرة . ثم ملأ قدحاً وأومأ إلى نُعم أن تنشد له شيئاً من الشعر ، فأخذت العود بعد أن شربت قدحين وأنشدت هذين البيتين : [من الطويل]

إذا ما نَدِيمِي عَلَّنِي ثم عَلَّنِي   ثَلاثَةَ أَقْداحٍ لَهُنَّ هَدِيرُ
أَبِيتُ أَجُرُّ الذَّيْلَ تِيهاً كأَنَّنِي   عَلَيْكَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَمِيرُ

فطرب أمير المؤمنين وملأ قدحاً آخر وناوله إلى نُعم وأمرها أن تغني . فبعد أن شربت القدح ، جسّت الأوتار وأنشدت هذه الأبيات : [من البسيط]

يا أَشْرَفَ النّاسِ في هذا الزَّمانِ وما   لَهُ مَثِيلٌ بِهذا الأَمْرِ يَفْتَخِرُ
يا واحِداً في العُلى والجُودِ مَنْصِبُهُ   يا سَيِّداً مَلِكاً في الكُلِّ مُشْتَهَرُ
يا مالِكاً لِمُلُوكِ الأَرْضِ قاطِبَةً   تُعْطِي الجَزِيلَ ولا مَنٌّ ولا ضَجَرُ
أَبْقاكَ رَبِّي عَلى رَغْمِ العِدَى كَمَداً   وزانَ طالِعَكَ الإِقْبالُ والظَّفَرُ

فلما سمع الخليفة من نعم هذه الأبيات قال لها : لله درّك يا نعم ما أفصح لسانك وأوضح بيانك . ولم يزالوا في فرح وسرور إلى نصف الليل . ثم قالت أخت الخليفة : إسمع يا أمير المؤمنين ، إني رأيت حكاية في الكتب عن بعض أرباب المراتب . قال الخليفة : وما تلك الحكاية ؟ فقالت له أخته : اْعلم يا أمير المؤمنين انه كان بمدينة الكوفة صبي يسمى نعمة بن الربيع وكان له جارية يحبها وتحبه ، وكانت قد تربّت معه في فراش واحد . فلما بلغا وتمكّن حبهما من بعضهما رماهما الدهر بنكباته وجار عليهما الزمان بآفاته وحكم عليهما بالفراق ، وتحيّلت عليهما الوشاة حتى خرجت من داره وأخذوها سرقة من مكانه . ثم إن سارقها باعها لبعض الملوك بعشرة آلآف

دينار. وكان عند الجارية لمولاها من المحبّة مثل ما عنده لها، ففارق أهله وداره وسافر في طلبها وتسبّب في اجتماعه بها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 246 □ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نعمة لم يزل مفارقاً لأهله ووطنه وخاطر بنفسه وبذل مهجته حتى توصّل إلى اجتماعه بجاريته، وكان يقال لها نُعم. فلما اجتمع بها لم يستقرّ بهما الجلوس حتى دخل عليهما الملك الذي كان اشتراها من الذي سرقها، فجعل عليهما وأمر بقتلهما ولم ينصف من نفسه ولم يمهل عليهما في حكمه. فما تقول يا أمير المؤمنين في قلة إنصاف هذا الملك؟ فقال أمير المؤمنين: إن هذا الشيء عجاب، فكان ينبغي لذلك الملك العفو عند المقدرة، لأنه يجب عليه أن يحفظ لهما ثلاثة أشياء: الأول أنهما متحابين والثاني أنهما في منزله وتحت قبضته والثالث إن الملك ينبغي له التأنّي في الحكم بين الناس، فكيف بالأمر الذي يتعلق به؟ فهذا الملك قد فعل فعلاً لا يشبه فعل الملوك. فقالت له أخته: يا أخي، بحق ملك السموات والأرض أن تأمر نِعماً بالغناء وتسمع ما تغني به. فقال: يا نُعم غنّ لي. فأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات: [من الكامل]

غَدَرَ الزَّمانُ ولَمْ يَزَلْ غَدّارا ... يُصْحِي القُلُوبَ ويُورِثُ الأَفْكارا
ويُفَرِّقُ الأَحْبابَ بَعْدَ تَجَمُّعٍ ... فَتَرَى الدُّمُوعَ على الخُدُودِ غِزارا
كانُوا وكُنْتُ وكانَ عَيْشِي ناعِماً ... والدَّهْرُ يَجْمَعُ شَمْلَنا مِدْرارا
فَلأَبْكِيَنَّ دَماً ودَمْعاً ساجِماً ... أَسَفاً عَلَيْك لَيالِيًا ونَهارا

فلما سمع أمير المؤمنين هذا الشعر طرب طرباً عظيماً. فقالت له أخته: يا أخي، من حكم على نفسه بشيء لزمه القيام به والعمل بقوله، وأنت قد حكمت على نفسك بهذا الحكم. ثم قالت: يا نعمة، قف على قدميك وكذا قفي أنت يا نُعم، فوقفا. فقالت أخت الخليفة: يا أمير المؤمنين، إن هذه الواقفة هي نُعم المسروقة، سرقها الحجاج بن يوسف الثقفي وأوصلها لك وكذب فيما ادّعاه في كتابه من أنه اشتراها بعشرة الآف دينار. وهذا الواقف هو نعمة بن الربيع سيدها. وأنا أسألك بحرمة أبائك الطاهرين أن تعفو عنهما وتهبهما لبعضهما لتغنم أجرهما، فإنهما في قبضتك وقد أكلا من طعامك وشربا من شرابك وأنا الشفيعة فيهما المستوهبة دمهما. فعند ذلك قال الخليفة: صدقت، أنا حكمت بذلك وما أحكم بشيء وأرجع فيه. ثم قال: يا نُعم هل هذا مولاك؟ قالت له: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: لا بأس عليكما فقد وهبتكما لبعضكما. ثم قال: يا نعمة وكيف عرفت بمكانها ومَنْ وصف لك هذا المكان؟ فقال: يا أمير المؤمنين إسمع خبري وانصت إلى حديثي، فوحقّ أبائك وأجدادك الطاهرين لا أكتم عنك شيئاً. ثم حدّثه بجميع ما كان من أمره وما فعله معه الحكيم العجمي وما فعلته القهرمانة وكيف دخلت به القصر وغلط في الأبواب. فتعجّب الخليفة من ذلك غاية العجب ثم قال: عليّ بالعجمي. فأحضروه بين يديه فجعله من جملة خواصه وخلع عليه الخلع وأمر له بجائزة مليحة وقال: من يكون هذا تدبيره يجب أن نجعله من خواصنا. ثم إن الخليفة أحسن إلى نعمة ونُعم وأنعم عليهما وأنعم على القهرمانة وقعدا عنده سبعة أيام في سرور وحظّ وأرغد عيش. ثم

طلب نعمة منه الأذن بالسفر هو وجاريته، فأذن لهما بالسفر إلى الكوفة. فسافرا واجتمع بوالده ووالدته وأقاموا في أطيب عيش إلى أن أتاهم هادم اللذّات ومفرّق الجماعات. فلما سمع الأمجد والأسعد هذا الحديث من بهرام، تعجّبا منه غاية العجب وقالا: إن هذا الشيء عجيب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 247

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمجد والأسعد لما سمعا من بهرام المجوسي الذي أسلم، هذه الحكاية تعجّبا منها غاية العجب وباتا تلك الليلة. ولما أصبح الصباح ركب الأمجد والأسعد وأرادا أن يدخلا على الملك، فاستأذنا في الدخول فأذن لهما. فلما دخلا أكرمهما وجلسوا يتحدثون، فبينما هم كذلك وإذا بأهل المدينة يصيحون ويتصارخون ويستغيثون، فدخل الحاجب على الملك وقال له: إن ملكاً من الملوك نزل بعساكره على المدينة وهم شاهرون السلاح وما ندري ما مرادهم. فأخبر الملك وزيره الأمجد وأخاه الأسعد بما سمعه من الحاجب. فقال الأمجد: أنا أخرج إليه وأكشف خبره. فخرج الأمجد إلى ظاهر المدينة فوجد الملك ومعه عسكر كثير ومماليك راكبة، فلما نظروا إلى الأمجد عرفوا أنه رسول من عند ملك المدينة فأخذوه وأحضروه قدّام السلطان، فلما صار قدّامه قبّل الأرض بين يديه. وإذا بالملك امرأة ضاربة لها لثاماً فقالت: أعلم أنه ما لي عندكم غرض في هذه المدينة إلاّ مملوك أمرد، فإن وجدته عندكم فلا بأس عليكم وإن لم أجده وقع بيني وبينكم القتال الشديد لأنني ما جئت إلاّ في طلبه. فقال الأمجد: أيتها الملكة، ما صفة هذا المملوك وما خبره وما اسمه؟ فقالت: إسمه الأسعد، وأنا إسمي مرجانة. وهذا المملوك كان جاءني صحبة بهرام المجوسي وما رضي أن يبيعه، فأخذته منه غصباً فعدا عليه وأخذه من عندي بالليل سرقة. وأما أوصافه فإنها كذا وكذا. فلما سمع الأمجد ذلك علم أنه أخوه الأسعد فقال لها: يا ملكة الزمان، الحمد لله الذي جاءنا بالفرج، إن هذا المملوك هو أخي. ثم حكى لها حكايته وما جرى لهما في بلاد الغربة، وأخبرها بسبب خروجهما من جزائر الأبنوس. فتعجّبت الملكة مرجانة من ذلك وفرحت بلقاء الأسعد وخلعت على أخيه الأمجد. ثم بعد ذلك عاد الأمجد إلى الملك وأعلمه بما جرى. ففرحوا بذلك ونزل الملك هو والأمجد والأسعد قاصدين الملكة، فلما دخلوا عليها جلسوا يتحدثون. فبينما هم كذلك وإذا بغبارٍ طار حتى سدّ الأقطار، وبعد ساعة انكشف ذلك الغبار عن عسكر جرّار مثل البحر الزخار وهم مهيؤون بالعدد والسلاح، فقصدوا المدينة ثم داروا بها كما يدور الخاتم بالخنصر وشهروا سيوفهم. فقال الأمجد والأسعد: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. ما هذا الجيش الكبير، إن هذه أعداء لا محالة. وإن لم نتفق مع هذه الملكة مرجانة على قتالهم أخذوا منّا المدينة وقتلونا، وليس لنا حيلة إلاّ أننا نخرج إليهم ونكشف خبرهم. ثم قام الأمجد وخرج من باب المدينة وتجاوز جيش الملكة مرجانة، فلما وصل إلى العسكر وجده عسكر جدّه الملك الغيور أبي أمه الملكة بدور. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 248

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمجد لما وصل إلى العساكر وجده عسكر جدّه الملك الغيور وصاحب الجزائر والبحور والسبعة قصور، فلما صار قدّامه قبّل الأرض بين يديه وبلّغه الرسالة. قال الملك: أنا إسمي الملك الغيور، وقد جئت عابر سبيل لأن الزمان قد فجعني في ابنتي بدور، فإنها فارقتني وما رجعت إليّ وما سمعت لها ولا لزوجها قمر الزمان خبراً فهل عندكم خبر بهما؟ فلما سمع الأمجد ذلك، أطرق إلى الأرض ساعة يتفكّر حتى تحقّق أنه جدّه أبو أمه، ثم رفع راسه وقبّل الأرض بين يديه وأخبره أنه ابن بنته بدور. فلما سمع الملك أنه ابن بنته بدور رمى روحه عليه وصارا يبكيان. ثم قال الملك الغيور: الحمد لله يا ولدي على السلامة حيث اجتمعت بك. ثم حكى له الأمجد أن ابنته بدور في عافية وكذلك أبوه قمر الزمان، وأخبره أنهما في مدينة يقال لها: جزيرة الأبنوس. وحكى له أن قمر الزمان والده غضب عليه وعلى أخيه وأمر بقتلهما وإن الخازندار رقّ لهما وتركهما بلا قتل. فقال الملك الغيور: أنا أرجع بك وبأخيك إلى والدك وأصلح بينكما وأقيم عندكم. فقبّل الأرض بين يديه، ثم خلع الملك الغيور على الأمجد ابن بنته ورجع متبسّماً إلى الملك وأعلمه بقصة الملك الغيور. فتعجّب منها غاية العجب، ثم أرسل له آلات الضيافة من الخيل والجمال والغنم والعليق وغير ذلك، وأخرج للملكة مرجانة كذلك وأعلموها بما جرى. فقالت: أنا أذهب معكم بعسكري وأكون ساعية في الصلح. فبينما هم كذلك وإذا بغبار قد ثار حتى سدّ الأقطار واسودّ منه النهار وسمعوا من تحته صياحاً وصراخاً وصهيل الخيل ورأوا سيوفاً تلمع ورماحاً تشرع، فلما قربوا من المدينة ورأوا العسكرين دقّوا الطبول. فلما رأى الملك ذلك قال: ما هذا النهار إلاّ نهار مبارك، الحمد لله الذي أصلحنا مع هذين العسكرين وإن شاء الله يصلحنا مع هذا العسكر أيضاً. ثم قال: يا أمجد أخرج أنت وأخوك الأسعد واكشفا لنا خبر هذه العساكر، فإنها جيش ثقيل ما رأيت أثقل منه. فخرج الإثنان الأمجد وأخوه الأسعد بعد أن أغلق الملك باب المدينة خوفاً من العسكر المحيط بها، ففتحا الأبواب وسارا حتى وصلا إلى العسكر الذي وصل، فوجداه عسكر ملك جزائر الأبنوس وفيه والدهما قمر الزمان. فلما نظراه قبّلا الأرض بين يديه وبكيا، فلما رآهما قمر الزمان رمى روحه عليهما وبكى بكاءً شديداً واعتذر لهما وضمّهما إلى صدره، ثم أخبرهما بما قاساه بعدهما من الوحشة الشديدة لفراقهما. ثم إن الأمجد والأسعد ذكرا له عن الملك الغيور أنه وصل إليهم، فركب قمر الزمان في خواصه وأخذ ولديه الأمجد والأسعد معه وساروا حتى وصلوا إلى قرب عسكر الملك الغيور، فسبق واحد منهم إلى الملك الغيور وأخبره أن قمر الزمان وصل فطلع إلى ملاقاته. فاجتمعوا ببعضهم وتعجّبوا من هذه الأمور وكيف اجتمعوا في هذا المكان. وصنع أهل المدينة الولائم وأنواع الأطعمة والحلويات، وقدّموا الخيول والجمال والضيافات والعليق وما تحتاج إليه العساكر. فبينما هم كذلك وإذا بغبار قد ثار حتى سدّ الأقطار وارتجّت الأرض من الخيول وصارت الطبول كعواصف الرياح والجيش جميعه بالعدد والأزراد وكلهم لابسون السواد، وفي وسطهم شيخ كبير وذقنه واصلة إلى صدره وعليه ملابس سود. فلما نظر أهل المدينة هذه العساكر العظيمة قال صاحب المدينة للملوك: الحمد لله الذي اجتمعتم بإذن الله تعالى في يوم واحد وطلعتم كلكم معارف، فما هذا العسكر الجرار الذي قد سدّ الأقطار؟

فقال له الملوك : لا تخف منه ، فنحن ثلاثة ملوك وكل ملك له عساكر كثيرة . فإن كانوا أعداء نقاتلهم معك ولو زادوا ثلاثة أمثالهم . فبينما هم كذلك وإذا برسول من تلك العساكر قد أقبل متوجّهاً إلى هذه المدينة ، فقدّموه بين يدي قمر الزمان والملك الغيور والملكة مرجانة والملك صاحب المدينة فقبّل الأرض وقال : إن هذا الملك من بلاد العجم وقد فقد ولده من مدة سنين وهو دائر يفتش عليه في الأقطار ، فإن وجده عندكم فلا بأس عليكم وإن لم يجده وقع الحرب بينه وبينكم وأخرب مدينتكم . فقال له قمر الزمان : ما يصل إلى هذا . ولكن ما يقال له في بلاد العجم ؟ فقال الرسول : يقال له : الملك شهرمان صاحب جزائر خالدان ، وقد جمع هذه العساكر من الأقطار التي مرّ بها وهو دائر يفتش على ولده . فلما سمع قمر الزمان كلام الرسول صرخ صرخة عظيمة وخرّ مغشياً عليه . واستمر في غشيته ساعة ، ثم أفاق وبكى بكاءً شديداً وقال للأمجد والأسعد وخواصهما : أمشوا يا أولادي مع الرسول وسلّموا على جدّكم والدي الملك شهرمان وبشّروه بي ، فإنه حزين على فقدي وهو إلى الآن لابس الملابس السود من أجلي . ثم حكى للملوك الحاضرين جميع ما جرى له في أيام صباه . فتعجّب جميع الملوك من ذلك ، ثم نزلوا هم وقمر الزمان وتوجّهوا إلى والده ، فسلّم قمر الزمان على والده وعانقا بعضهما ووقعا مغشياً عليهما من شدة الفرح . فلما أفاقا ، حكى لابنه جميع ما جرى له . ثم سلّم عليه بقية الملوك وردّوا مرجانة إلى بلادها بعد أن زوّجوها للأسعد ووصّوها أنها لا تقطع عنهم مراسلتها . ثم زوّجوا الأمجد بستان بنت بهرام وسافروا كلهم إلى مدينة الأبنوس . وخلا قمر الزمان بصهره وأعلمه بجميع ما جرى له وكيف اجتمع بأولاده ، ففرح وهنّأه بالسلامة . ثم دخل الملك الغيور أبو الملكة بدور على بنته وسلّم عليها وبلّ شوقه منها وقعدوا في مدينة الأبنوس شهراً كاملاً ، ثم سافر الملك الغيور بابنته إلى بلده . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

13 - حكاية علاء الدين أبي الشامات

فلما كانت الليلة 249

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك الغيور سافر بابنته وجماعته إلى بلده وأخذ الأمجد معهم ، فلما استقر في مملكته أجلس الأمجد يحكم مكان جدّه . وأما قمر الزمان فإنه أجلس ابنه الأسعد يحكم مكانه في مدينة جده أرمانوس ورضي به جدّه . ثم تجهّز قمر الزمان وسافر مع أبيه الملك شهرمان إلى أن وصل إلى جزائر خالدان ، فزينت له المدينة واستمرّت البشائر تدق شهراً كاملاً ، وجلس قمر الزمان يحكم مكان أبيه إلى أن أتاهم هادم اللذّات ومفرق الجماعات والله أعلم . فقال الملك : يا شهرزاد ، إن هذه الحكاية عجيبة جداً . قالت : أيها الملك ، ليست هذه الحكاية بأعجب من حكاية علاء الدين أبي الشامات . قال : وما حكاية علاء الدين أبي الشامات ؟ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان رجل تاجر بمصر يقال له : شمس الدين ، وكان من أحسن التجار وأصدقهم مقالاً ، وهو صاحب خدم وحشم وعبيد وجوار ومماليك ومال كثير . وكان شاه بندر التجار بمصر ، وكان معه زوجته يحبها وتحبه ، إلاّ أنه عاش معها أربعين عاماً ولم يرزق منها ببنت ولا ولد . فقعد يوماً من الأيام في دكانه فرأى التجار وكل واحد منهم له ولد أو ولدان أو أكثر ،

وهم قاعدون في دكاكين مثل آبائهم، وكان ذلك اليوم يوم جمعة. فدخل ذلك التاجر الحمّام واغتسل غسل الجمعة، ولما طلع أخذ مرآة المزين فرأى وجهه فيها وقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمّداً رسول الله. ثم نظر إلى لحيته فرأى البياض غطّى السواد، وتذكّر أن الشيب نذير الموت. وكانت زوجته تعرف ميعاد مجيئه، فتغتسل وتصلح شأنها له. فدخل عليها فقالت له: مساء الخير. فقال لها: أنا ما رأيت الخير وكانت قالت للجارية: هاتي سفرة العشاء. فأحضرت الطعام وقالت له: تعشّ يا سيدي. فقال لها: ما آكل شيئاً. وأعرض عن السفرة بوجهه. فقالت له: ما سبب ذلك؟ وأي شيء أحزنك؟ فقال لها: أنت سبب حزني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 250

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن شمس الدين قال لزوجته: أنت سبب حزني. فقالت له: لأي شيء؟ فقال لها: إني لما فتحت دكاني في هذا اليوم، رأيت كل واحد من التجار له ولد أو ولدان أو أكثر، وهم قاعدون في الدكاكين مثل آبائهم. فقلت لنفسي: إن الذي أخذ أباك ما يخليك. وليلة دخلت بك حلفتني أنني ما أتزوج عليك ولا أتسرى بجارية حبشية ولا رومية ولا غير ذلك من الجواري ولا أبيت ليلة بعيداً عنك، والحال إنك عاقر والنكاح فيك كالنحت في الحجر. فقالت: اسم الله على أن العاقة منك ما هي مني لأن بيضك رائق. فقال لها: وما شأن الذي بيضه رائق؟ فقالت: هو الذي لا يحبل النساء ولا يجيء بأولاد. فقال لها: وأين معكر البيض وأنا أشتريه لعله يعكر بيضي؟ فقالت له: فتّش عليه عند العطارين. فبات التاجر وأصبح متندّماً حيث عاير زوجته، وندمت هي حيث عايرته. ثم توجّه إلى السوق فوجد رجلاً عطّاراً فقال له: السلام عليكم. فردّ عليه السلام. فقال له: هل يوجد عندك معكر البيض؟ فقال له: كان عندي وجبر، ولكن إسأل جاري. فدار يسأل حتى سأل جميع العطارين وهم يضحكون عليه، وبعد ذلك رجع إلى دكانه وقعد. فكان في السوق نقيب الدلاّلين وكان رجلا حشّاشاً يتعاطى الأفيون والبرش ويستعمل الحشيش الأخضر، وكان ذلك النقيب يسمّى الشيخ محمد سمسم وكان فقير الحال. وكان من عادته أن يصبح على التاجر في كل يوم، فجاءه على عادته وقال له: السلام عليكم. فردّ عليه السلام وهو مغتاظ. فقال له: يا سيدي ما لك مغتاظاً؟ فحكى له جميع ما جرى بينه وبين زوجته وقال له: إن لي أربعين سنة وأنا متزوج بها ولم تحبل مني بولد ولا بنت. وقالوا لي: سبب عدم حبلها منك أن بيضك رائق، ففتشت على شيء أعكر به بيضي فلم أجده. فقال له: يا سيدي، أنا عندي معكر البيض. فما تقول فيمن يجعل زوجتك تحبل منك بعد هذه الأربعين سنة التي مضت؟ قال له التاجر: إن فعلت ذلك فأنا أحسن إليك وأنعم عليك. فقال له: هات لي ديناراً. فقال له: خذ هذين الدينارين. فأخذهما وقال له: هات لي هذه السلطانية الصيني. فأعطاه السلطانية فأخذها وتوجّه إلى بياع الحشيش وأخذ منه من المكركر الرومي قدر أوقيتين وأخذ جانباً من الكبابة الصيني والقرفة والقرنفل والحبهان والزنجبيل والفلفل الأبيض والسقنقور الجبلي، ودقّ الجميع وغلاها في الزيت الطيب، وأخذ ثلاث أواق حصى لبان ذكر وأخذ مقدار قدح من الحبة السوداء ونقعه، وعمل جميع ذلك معجوناً بالعسل النحلي وحطّه في السلطانية ورجع بها إلى التاجر وأعطاها له

وقال له : هذا معكر البيض ، فينبغي أن تأخذ منه على رأس الملوق بعد أن تأكل اللحم الضاني والحمام البيتي وتكثر له الحرارات والبهارات وتتعشّى، وتشرب السكر المكرّر . فأحضر التاجر جميع ذلك وأرسله إلى زوجته وقال لها : أطبخي ذلك طبخاً جيداً، وخذي معكر البيض واحفظيه عندك حتى أطلبه . ففعلت ما أمرها به ووضعت له الطعام فتعشّى، ثم إنه طلب السلطانية فأكل منها فاعجبته ، فأكل بقيتها وواقع زوجته فعلقت منه تلك الليلة . ففات عليها أول شهر والثاني والثالث ولم ينزل عليها الدم فعلمت أنها حملت . ثم وفت أيام حملها ولحقها الطلق وقامت الأفراح ، فقامت الدّاية المشقة في الخلاص ورقته باسمي محمد وعلي وكبّرت وأذّنت في أذنه ولفّته وأعطته لأمه ، فأعطته ثديها وأرضعته ، فشرب وشبع ونام . وأقامت الدّاية عندهم ثلاثة أيام حتى عملوا الحلاوة ليفرّقوها في اليوم السابع ، ثم رشّوا ملحه . ودخل التاجر وهنّأ زوجته بالسلامة وقال لها : أين وديعة الله ؟ فقدّمت له مولوداً بديع الجمال صنع المدبر الموجود وهو ابن سبعة أيام ، ولكن الذي ينظره يقول عليه أنه ابن عام . فنظر التاجر في وجهه فرآه بدراً مشرقاً وله شامات على الخدّين . فقال لها : ما سمّيته؟ فقالت له : لو كان بنتاً كنت سمّيتها وهذا ولد فلا يسمّيه إلاّ أنت . وكان أهل ذلك الزمن يسمّون أولادهم بالفال . فبينما هم يتشاورن في الإسم وإذا بواحد يقول لرفيقه : يا سيدي علاء الدين . فقال لها : نسمّيه بعلاء الدين أبي الشامات . ووكّل به المراضع والدايات ، فشرب اللبن عامين وفطموه ، فكبر وانتشى وعلى الأرض مشى . فلما بلغ من العمر سبع سنين ، أدخلوه تحت طابق خوفاً عليه من العين وقال : هذا لا يخرج من الطابق حتى تطلع لحيته ، ووكّل به جارية وعبداً . فصارت الجارية تهيء له السفرة والعبد يحملها إليه . ثم إنه طهّره وعمل له وليمة عظيمة ، ثم بعد ذلك أحضر له فقيهاً يعلّمه ، فعلّمه الخط والقرآن والعلم إلى أن صار ماهراً وصاحب معرفة . فاتفق أن العبد أوصل اليه السفرة في بعض الأيام ونسي الطابق مفتوحاً ، فطلع علاء الدين من الطابق ودخل على أمه وكان عندها محضر من أكابر النساء . فبينما النساء يتحدّثون مع أمه ، وإذا هو داخل عليهنّ كالمملوك السكران من فرط جماله . فحين رآه النسوة غطّين وجوههن وقلن لأمه : الله يجازيك يا فلانة ، كيف تدخلين علينا هذا المملوك الأجنبي ؟ أما تعلمين أن الحياء من الإيمان ؟ فقالت لهنّ : سمّوا الله ، إن هذا ولدي وثمرة فؤادي ، وابن شاه بندر التجار شمس الدين بن الدادة والقلادة والقشفة واللبابة . فقلن لها : عمرنا ما رأينا لك ولداً . فقالت : إن أباه خاف عليه من العين فجعل مرباه في طابق تحت الأرض . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 251

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن أم علاء الدين قالت للنسوان : إن أباه خاف عليه من العين فجعل مرباه في طابق تحت الأرض ، فلعل الخادم نسي الطابق مفتوحاً فطلع منه ولم يكن مرادنا أن يطلع منه حتى تطلع لحيته . فهنأها النسوة بذلك ، وطلع الغلام من عند النسوة إلى حوش البيت ثم طلع المقعد وجلس فيه . فبينما هو جالس وإذا بالعبيد قد دخلوا ومعهم بغلة أبيه فقال لهم علاء الدين : أين كانت هذه البغلة ؟ فقالوا له : نحن وصّلنا أباك إلى الدكان وهو راكب عليها وجئنا بها . فقال لهم : أي شيء صنعة أبي ؟ فقالوا له : إن أباك شاه بندر التجار بأرض مصر ، وهو سلطان أولاد العرب . فدخل علاء الدين على أمه

وقال لها : يا أمي ، ما صناعة أبي ؟ فقالت له : يا ولدي ، إن أباك تاجر وهو شاه بندر التجار بأرض مصر وسلطان أولاد العرب ، وعبيده لا تشاوره في البيع إلاّ على البيعة التي يكون أقل ثمنها ألف دينار ، وأما البيعة التي تكون بتسعمائة دينار فأقل فإنهم لا يشاورونه عليها بل يبيعونها بأنفسهم . ولا يأتي متجر من بلاد الناس قليلاً أو كثيراً إلاّ ويدخل تحت يده ويتصرّف فيه كيف يشاء ، ولا ينحزم متجر ويروح إلى بلاد الناس إلاّ ويكون من تحت يد أبيك . والله تعالى أعطى أباك يا ولدي مالاً كثيراً لا يحصى . فقال لها : يا أمي ، الحمد لله أنا ابن سلطان أولاد العرب ووالدي شاه بندر التجار ، ولأي شيء يا أمي تحطونني في الطابق وتتركونني محبوساً فيه؟ فقالت له : يا ولدي ، نحن ما حطّيناك في الطابق إلاّ خوفاً عليك من أعين الناس ، فإن العين حقّ . وأكثر أهل القبور من العين . فقال لها : يا أمي ، وأين المفر من القضاء؟ والحذر لا يمنع القدر والمكتوب ما منه مهروب ، وإن الذي أخذ جدّي لا يترك أبي . فإنه إن عاش اليوم ما يعيش غداً . وإذا مات أبي وطلعت أنا وقلت : أنا علاء الدين ابن التاجر شمس الدين . لا يصدّقني أحد من الناس والإختيارية يقولون : عمرنا ما رأينا لشمس الدين ولداً ولا بنتاً . فينزل بيت المال ويأخذ مال أبي ورحم الله من قال : يموت الفتى ويذهب ماله ويأخذ أنذل الرجال نساءه . فأنت يا أمي تكلمين أبي حتى يأخذني معه إلى السوق ويفتح لي دكاناً وأقعد فيه ببضائع ، ويعلمني البيع والشراء والأخذ والعطاء . فقالت له : يا ولدي ، لما يحضر أبوك أخبره بذلك . فلما رجع التاجر إلى بيته وجد إبنه علاء الدين أبا الشامات قاعداً عند أمه فقال لها : لأي شيء أخرجته من الطابق؟ فقالت له : يا ابن عمي أنا ما أخرجته ، ولكن الخدم نسوا الطابق مفتوحاً . فبينما أنا قاعدة وعندي محضر من أكابر النساء وإذا به داخل علينا ، وأخبرته بما قاله ولده . فقال له : يا ولدي ، في غد إن شاء الله تعالى آخذك معي إلى السوق ، ولكن يا ولدي قعود الأسواق والدكاكين يحتاج إلى الأدب والكمال في كل حال . فبات علاء الدين وهو فرحان من كلام أبيه ، فلما أصبح الصباح أدخله الحمام وألبسه بدلة تساوي جملة من المال ، ولما أفطروا وشربوا الشربات ركب بغلته وأركب ولده بغلة وأخذه وراءه وتوجّه به إلى السوق . فنظر أهل السوق شاه بندر التجار مقبلاً ووراءه غلام كأن وجهه القمر في ليلة أربعة عشر . فقال واحد منهم لرفيقه : أنظر هذا الغلام الذي وراء شاه بندر التجار ، قد كنا نظن به الخير وهو مثل الكرات شائب وقلبه أخضر . فقال الشيخ محمد سمسم النقيب المتقدّم ذكره للتجار : نحن ما بقينا نرضى به أن يكون شيخاً علينا أبداً . وكان من عادة شاه بندر التجار أنه لما يأتي من بيته في الصباح ويقعد في دكانه ، يتقدّم نقيب السوق ويقرأ الفاتحة للتجار فيقومون معه ويأتون إلى شاه بندر التجار ويقرؤون له الفاتحة ويصبّحون عليه ثم ينصرف كل واحد منهم إلى دكانه . فلما قعد شاه بندر التجار في دكانه ذلك اليوم على عادته ، لم تأت إليه التجار حكم عادتهم . فنادى النقيب وقال له : لأي شيء لم تجتمع التجار على جري عادتهم ؟ فقال له : أنا ما أعرف نقل الفتن ، إن التجار اتفقوا على عزلك من المشيخة ولا يقرأون لك فاتحة . فقال له : ما سبب ذلك؟ فقال له : ما شأن هذا الولد الجالس بجانبك وأنت إختيار ورئيس التجار ؟ فهل هذا الولد مملوكك أو يقرب لزوجتك؟ وأظن أنك تعشقه وتميل إلى الغلام . فصرخ عليه وقال له : أسكت قبّح الله ذاتك وصفاتك ، هذا ولدي . فقال له : عمرنا ما رأينا لك ولداً . فقال : لما جئتني بمعكر البيض حملت زوجتي وولدته ، ولكن من خوفي عليه من العين ربيته في طابق تحت

الأرض . وكان مرادي انه لا يطلع من الطابق حتى يمسك لحيته بيده، فما رضيت أمه . وطلب مني أن أفتح دكاناً وأحط عنده بضائع وأعلمه البيع والشراء. فذهب النقيب إلى التجار وأخبرهم بحقيقة الأمر، فقاموا كلهم بصحبته وتوجّهوا إلى شاه بندر التجار ووقفوا بين يديه وقرأوا الفاتحة وهنّوه بذلك الغلام وقالوا له : ربنا يبقي الأصل والفرع ، ولكن الفقير منا لما يأتيه ولداً أو بنت لا بدّ أن يصنع لإخوانه دست عصيدة ويعزم معارفه وأقاربه وأنت لم تعمل ذلك . فقال لهم : لكم عليّ ذلك، ويكون اجتماعنا في البستان . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 252

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن شاه بندر التجار وعد التجّار بالسماط وقال لهم : يكون اجتماعنا في البستان . فلما أصبح الصباح أرسل الفرّاش للقاعة والقصر اللذين في البستان وأمره بفرشهما، وأرسل آلة الطبخ من خرفان وسمن وغير ذلك ما يحتاج إليه الحال . وعمل سماطين : سماطاً في القصر وسماطاً في القاعة . وتحزم التاجر شمس الدين وتحزم ولده علاء الدين وقال له : يا ولدي، إذا دخل الرجل الشائب فأنا أتلقاه وأجلسه على السماط الذي في القصر، وأنت يا ولدي إذا دخل الولد الأمرد فخذه وادخل به القاعة وقعدّه على السماط . فقال له : لأي شيء يا أبي ؟ ما سبب إنك تعمل سماطين : واحد للرجال وواحد للأولاد ؟ فقال : يا ولدي، إن الأمرد يستحي أن يأكل عند الرجال . فاستحسن ذلك ولده . فلما جاء التجار صار شمس الدين يقابل الرجال ويجلسهم في القصر وولده علاء الدين يقابل الأولاد ويجلسهم في القاعة، ثم وضعوا الطعام فأكلوا وشربوا وتلذّذوا وطربوا وشربوا الشربات وأطلقوا البخور . ثم قعد الاختيارية في مذاكرة العلم والحديث، وكان بينهم رجل تاجر يسمى محمد البلخي وكان مسلماً في الظاهر مجوسياً في الباطن وكان يبغي الفساد ويهوى الأولاد، فنظر علاء الدين نظرة أعقبته ألف حسرة وعلق له الشيطان جوهرة في وجهه، فأخذه به الغرام والوجد والهيام . وكان ذلك التاجر الذي اسمه محمود البلخي يأخذ القماش والبضائع من والد علاء الدين . ثم إن محمود البلخي قام يتمشّى وانعطف نحو الأولاد فقاموا لملتقاه، وكان علاء الدين انحصر فقام يزيل الضرورة . فالتفت التاجر محمود إلى الأولاد وقال لهم : إن طيبّتم خاطر علاء الدين على السفر معي أعطيت كل واحد منكم بدلة تساوي جملة من المال . ثم توجّه من عندهم إلى مجلس الرجال . فبينما الأولاد جالسون وإذا بعلاء الدين أقبل عليهم ، فقاموا لملتقاه وأجلسوه بينهم في صدر المقام فقام ولد منهم وقال لرفيقه : يا سيدي حسن أخبرني برأس المال الذي عندك فيه وتشتري، من أين جاء؟ فقال له : أنا لما كبرت وانتشأت وبلغت مبلغ الرجال قلت لأبي : يا والدي أحضر لي متجراً . فقال : يا ولدي، ما عندي شيء ولكن رح خذ لك مالاً من واحد تاجر واتّجر به وتعلّم البيع والشراء والأخذ والعطاء . فتوجّهت إلى واحد من التجار واقترضت منه ألف دينار فاشتريت بها قماشاً وسافرت به إلى الشام فربحت المثل مثلين، ثم أخذت متجراً من الشام وسافرت به إلى بغداد وبعته ثم ربحت المثل مثلين، ولم أزل أتّجر حتى صار رأس مالي نحو عشرة آلآف دينار . وصار كل واحد من الأولاد يقول لرفيقه مثل ذلك إلى أن دار الدور وجاء الكلام إلى علاء الدين أبي الشامات فقالوا

له : وأنت يا سيدي علاء الدين ؟ فقال لهم : أنا تربيّت في طابق تحت الأرض وطلعت منه في هذه الجمعة ، وأنا أروح الدكان وأرجع منه إلى البيت . فقالوا له : أنت متعوّد على قعود البيت ولا تعرف لذّة السفر ، والسفر ما يكون إلاّ للرجال . فقال لهم : أنا ما لي حاجة بالسفر وليس للراحة قيمة . فقال واحد منهم لرفيقه : هذا مثل السمك إذا فارق الماء مات . ثم قالوا له : يا علاء الدين ، ما فخر أولاد التجار إلاّ بالسفر لأجل المكسب . فحصل لعلاء الدين غيظ بسبب ذلك وطلع من عند الأولاد وهو باكي العين حزين الفؤاد وركب بغلته وتوجّه إلى البيت ، فرأته أمه في غيظ زائد باكي العين فقالت له : ما يبكيك يا ولدي ؟ فقال لها : إن أولاد التجار جميعاً عايروني وقالوا لي : ما فخر أولاد التجار إلاّ بالسفر لأجل أن يكسبوا الدراهم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 253

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن علاء الدين قال لوالدته : إن أولاد التجار عايروني وقالوا لي : ما فخر أولاد التجار إلاّ بالسفر لأجل أن يكسبوا الدراهم والدنانير . فقالت له أمه : يا ولدي ، هل مرادك السفر ؟ قال : نعم . فقالت له : أتسافر إلى أي البلاد ؟ فقال لها : إلى مدينة بغداد ، فإن الانسان يكتسب فيها المثل مثلين . فقالت له : يا ولدي ، إن أباك عنده مال كثير وإن لم يجهّز لك متجراً من ماله فأنا أجهّز لك متجراً من عندي . فقال لها : خير البِرّ عاجله ، وإن كان معروفاً فهذا وقته . فأحضرت العبيد وأرسلتهم إلى الذين يحزمون القماش ، وفتحت حاصلاً وأخرجت له منه قماشاً وحزموا له عشرة أحمال . هذا ما كان من أمر أمه . وأما ما كان من أمر أبيه ، فإنه التفت فلم يجد ابنه علاء الدين في البستان فسأل عنه فقالوا له : إنه ركب بغلته وراح إلى البيت . فركب وتوجّه خلفه ، فلما دخل منزله رأى أحمالاً محزومة فسأل عنها ، فأخبرته زوجته بما وقع من أولاد التجار لولده علاء الدين . فقال له : يا ولدي ، خيّب الله الغربة . فقد قال رسول الله ﷺ : من سعادة المرء أن يرزق في بلده . وقال الأقدمون : دع السفر ولو كان ميلاً . ثم قال لولده : هل صممت على السفر ولا ترجع عنه ؟ فقال له ولده : لا بدّ لي من السفر إلى بغداد بمتجر وإلاّ قلعت ثيابي ولبست ثياب الدراويش وطلعت سايحاً في البلاد . فقال له : ما أنا محتاج ولا معدم بل عندي مال كثير . وأراه جميع ما عنده من المال والمتاجر والقماش وقال له : أنا عندي لكل بلد ما يناسبها من القماش والمتاجر . وأراه من جملة ذلك أربعين حملاً محزومة ، مكتوباً بأعلى كل حمل ثمنه ألف دينار . ثم قال له : يا ولدي ، خذ الأربعين حملاً والعشرة أحمال التي من عند أمك وسافر مع سلامة الله تعالى . ولكن يا ولدي أخاف عليك من غابة في طريقك تسمى غابة الأسد ووادٍ هناك يقال له وادي الكلاب ، فإنهما تروح فيهما الأرواح بغير سماح . فقال له : لماذا يا والدي ؟ فقال : من بدوي قاطع الطريق يقال له : عجلان . فقال له : الرزق رزق الله ، وإن كان لي فيه نصيب لم يصبني ضرر . ثم ركب علاء الدين مع والده وسار إلى سوق الدواب ، وإذا بعكام نزل من فوق بغلته وقبّل يد شاه بندر التجار وقال له : والله زمان يا سيدي ما استقضيتنا في تجارات . فقال له : لكل زمان دولة ورجال . ورحم الله مَنْ قال : [من الوافر]

وشَيْخٍ فِي جِهاتِ الأَرْضِ يَمْشِي ولِحْيَتُهُ تُعابِلُ رُكْبَتَيْهِ
فَقُلْتُ لَهُ: لماذا أَنْتَ مُحْنَى فَقالَ وقَدْ لَوَى نَحْوِي يَدَيْهِ
شَبابِي فِي الثَّرَى قَدْ ضاعَ مِنِّي وها أنا مُنْحَنٍ بَحْثاً عَلَيْهِ

فلما فرغ من شعره قال: يا مقدّم، ما مراده السفر إلاّ ولدي هذا. فقال له العكام: الله يحفظه عليك. ثم إن شاه بندر التجار عاهد بين ولده وبين العكام وجعله ولده وأوصاه عليه وقال له: خذ هذه المائة دينار لغلمانك. ثم إن شاه بندر التجار اشترى ستين بغلاً وستراً لسيدي عبد القادر الجيلاني وقال له: يا ولدي، أنا غائب وهذا أبوك عوضاً عني وجميع ما يقوله طاوعه فيه. ثم توجّه بالبغال والغلمان وعملوا في تلك الليلة ختمة ومولداً للشيخ عبد القادر الجيلاني، ولما أصبح الصباح أعطى شاه بندر التجّار لولده عشرة آلاف دينار وقال له: إذا دخلت بغداد ولقيت القماش رايجاً بعه، وإن لقيت حاله واقفاً إصرف من هذه الدنانير. ثم حمّلوا البغال وودّعوا بعضهم وساروا متوجّهين حتى خرجوا من المدينة. وكان محمود البلخي تجهّز للسفر إلى جهة بغداد وأخرج حموله ونصب صواوينه خارج المدينة وقال في نفسه: ما تحظى بهذا الولد إلاّ في الخلاء، لأنه لا واش ولا رقيب يعكر عليك. وكان لأبي الولد ألف دينار عند محمود البلخي بقية معاملة فذهب إليه وودّعه وقال له: أعط الألف دينار لولدي علاء الدين وأوصاه عليه وقال له: إنه مثل ولدك. فاجتمع علاء الدين بمحمود البلخي. وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 254

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علاء الدين اجتمع بمحمود البلخي، فقام محمود البلخي وأوصى طباخ علاء الدين أنه لا يطبخ شيئاً. وصار محمود يقدم لعلاء الدين المأكل والمشرب هو وجماعته، ثم توجّهوا للسفر. وكان للتاجر محمود البلخي أربعة بيوت: واحد في مصر وواحد في الشام وواحد في حلب وواحد في بغداد. ولم يزلوا مسافرين في البراري والقفار حتى أشرفوا على الشام، فأرسل محموداً عبده إلى علاء الدين فرآه قاعداً يقرأ، فتقدّم وقبّل أياديه. فقال: ما تطلب؟ فقال له: سيدي يسلّم عليك ويطلبك لعزومته في منزله. فقال له: لما أشاور أبي المقدم كمال الدين العكام. فشاوره على الرواح فقال له: لا ترح. ثم سافروا من الشام إلى أن دخلوا حلب، فعمل محمود البلخي عزومة وأرسل يطلب علاء الدين، فشاور المقدم فمنعه. وسافروا من حلب إلى أن بقي بينهم وبين بغداد مرحلة، فعمل محمود البلخي عزومة وأرسل يطلب علاء الدين. فشاور المقدّم فمنعه. فقال علاء الدين: لا بدّ لي من الرواح. ثم قام وتقلّد بسيف تحت ثيابه وسار إلى أن دخل على محمود البلخي، فقام لملتقاه وسلّم عليه واحضر سفرة عظيمة. فأكلوا وشربوا وغسلوا أيديهم ومال محمود البلخي على علاء الدين ليأخذ منه قبلة فلاقاها في كفه وقال له: ما مرادك أن تعمل؟ فقال: إني أحضرتك ومرادي اعمل معك حظاً في هذا المجال. وتفسّر قول من قال: [من الوافر]

أَيُمْكِنُ أَنْ تَجِيءَ لَنا لُحَيْظَهْ كَحَلْبِ شُوَيْهَةٍ أَوْ شَيٍّ بَيْضَهْ

وتَأْكُلُ ما تَيسَّرَ مِنْ خُبَيْزٍ وتَقْبِضُ ما تُحَصِّلُ مِنْ فُضَيْضَهْ
وتَحْمِلُ ما تَشاءُ بِغَيْرِ عُسْرٍ شُبَيْراً أَو فُتَيْراً أَو قُبَيْضَهْ

ثم إن محمود البلخي همّ بعلاء الدين وأراد أن يفترسه، فقام علاء الدين وجرّد سيفه وقال له: واشيبتاه، أما تخشى الله وهو شديد المحال. ولم تسمع قول من قال: [من البسيط]

إحْفَظْ مَشِيبَكَ مِنْ عَيْبٍ يُدَنِّسُهُ إنَّ البَياضَ سَرِيعُ الحَمْلِ لِلدَّنَسِ

فلما فرغ علاء الدين من شعره قال لمحمود: إن هذه البضاعة أمانة لله لا تباع، ولو بعتها لغيرك بالذهب لبعتها لك بالفضة. ولكن والله يا خبيث ما بقيت أرافقك أبداً. ثم رجع علاء الدين إلى المقدم كمال الدين وقال له: إن هذا رجل فاسق، فأنا ما بقيت أرافقه أبداً ولا أمشي معه في طريق. فقال له: يا ولدي، أما قلت لك لا ترح عنده؟ ولكن يا ولدي إن افترقنا معه نخشى على أنفسنا التلف، فخلنا قفلاً واحداً. فقال له: لا يمكن أن أرافقه في الطريق أبداً. ثم حمل علاء الدين حموله وسار هو ومن معه إلى أن نزلوا في وادٍ وأراد أن يحطّوا فيه فقال العكام: لا تحطّوا هنا واستمروا رايحين وأسرعوا في المسير لعلنا نحصل بغداد قبل أن تقفل أبوابها، فإنهم لا يفتحونها ولا يقفلونها إلاّ بشمس خوفاً على المدينة أن يملكها الروافض ويرموا كتب العلم في الدجلة. فقال له: يا والدي، أنا ما توجّهت بهذا المتجر إلى هذه البلد لأجل السبب بل لأجل الفرجة على بلاد الناس. فقال له: يا ولدي، نخشى عليك وعلى مالك من العرب. فقال له: يا رجل، هل أنت خادم أو مخدوم؟ أنا ما أدخل بغداد إلاّ مع الصباح لأجل أن تنظر أولاد بغداد إلى متجري ويعرفوني. فقال له العكام: إفعل ما تريد فأنا نصحتك وأنت تعرف خلاصك. فأمرهم علاء الدين بتنزيل الأحمال عن البغال، فأنزلوا الأحمال ونصبوا الصيوان واستمرّوا مقيمين إلى نصف الليل، ثم طلع علاء الدين يزيل ضرورة فرأى شيئاً يلمع على بعد فقال للعكام: يا مقدّم، ما هذا الشي الذي يلمع؟ فتأمل العكام وحقّق النظر فرأى الذي يلمع أسنّة رماح وحديد سلاح وسيوفاً بدوية، وإذا بهم عرب ورئيسهم يسمّى شيخ العرب عجلان أبو نائب. ولما قرب العرب منهم ورأوا حمولهم قالوا لبعضهم: يا ليلة الغنيمة. فلما سمعوهم يقولون ذلك قال المقدم كمال الدين العكام: حاس يا أقل العرب. فلطشه أبو نائب بحربته في صدره فخرجت تلمع من ظهره فوقع على باب الخيمة قتيلاً. فقال السقاء: حاس يا أخس العرب. فضربوه بسيف على عاتقه فخرج يلمع من علائقه ووقع قتيلاً. كل هذا جرى وعلاء الدين واقف ينظر. ثم إن العرب جالوا وصالوا على القافلة فقتلوهم ولم يبقوا أحداً من طائفة علاء الدين، ثم حملوا الأحمال على ظهور البغال وراحوا. فقال علاء الدين لنفسه: ما يقتلك إلاّ بغلتك وبدلتك هذه. فقام وقلع البدلة ورماها على ظهر البغلة وصار بالقميص واللباس فقط، والتفت قدّامه إلى باب الخيمة فوجد بركة دم سائلة من القتلى، فصار يتمرّغ فيها بالقميص واللباس حتى صار كالقتيل الغريق في دمه. هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر شيخ العرب عجلان، فإنه قال لجماعته: يا عرب، هذه القافلة داخلة من مصر أو خارجة من بغداد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 255

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن البدوي لما قال لجماعته : هذه القافلة داخلة من مصر أو خارجة من بغداد . فقالوا له : داخلة من مصر إلى بغداد . فقال لهم : ردّوا على القتلى لأني أظن أن صاحب هذه القافلة لم يمت . فردّ العرب على القتلى وصاروا يزودن القتلى بالطعن والضرب إلى أن وصلوا إلى علاء الدين ، وكان قد ألقى بنفسه بين القتلى . فلما وصلوا إليه قالوا : أنت جعلت نفسك ميتاً فنحن نكمل قتلك . وسحب البدوي الحربة وأراد أن يغرزها في صدر علاء الدين فقال علاء الدين : يا بركتك يا سيدي عبد القادر يا جيلاني . فنظر علاء الدين إلى يد حوّلت الحربة عن صدره إلى صدر المقدّم كمال الدين العكام فطعنه البدوي بها وامتنع عن علاء الدين ، ثم حمّلوا الأحمال على ظهور البغال ومشوا بها . فنظر علاء الدين فرأى الطير قد طارت بأرزاقها فقام يجري ، وإذا بالبدوي أبو نائب قال لرفقاته : أنا رأيت زوالاً يا عرب . فطلع واحد منهم فرأى علاء الدين يجري . فقال له : لا ينفعك الهروب ونحن وراءك . ولكز فرسه فأسرعت وراءه ، وكان علاء الدين قد رأى قدّامه حوضاً فيه ماء وبجانبه صهريج . فطلع علاء الدين إلى شباك في الصهريج وامتد وجعل نفسه أنه نائم وقال : يا جميل الستر سترك الذي لا ينكشف . وإذا بالبدوي وقف تحت الصهريج ومدّ يده ليقتنص علاء الدين فقال علاء الدين : يا بركتك يا سيدتي نفيسة هذا وقتك . وإذا بعقرب لدغ البدوي في كفّه فصرخ وقال : يا عرب تعالوا فإني لدغت . ونزل من فوق ظهر فرسه ، فأتاه رفقاؤه وأركبوه ثانياً على فرسه وقالوا له : أي شيء أصابك ؟ فقال لهم : لدغني عقرب . ثم أخذوا القافلة وساروا . هذا ما كان من أمرهم . وأما ما كان من أمر علاء الدين ، فإنه استمر نائماً في شباك الصهريج .

وأما ما كان من أمر محمود البلخي ، فإنه أمر بتحميل الأحمال وسافروا إلى أن وصل إلى غابة الأسد فوجد غلمان علاء الدين كلهم قتلى . ففرح بذلك وترجّل إلى أن وصل إلى الصهريج والحوض ، وكانت بغلته شديدة العطش فمالت لتشرب من الحوض فرأت خيال علاء الدين فجفلت منه . فرفع محمود البلخي عينه فرأى علاء الدين نائماً وهو عريان بالقميص واللباس فقط . فقال له : من فعل بك هذه الفعال وخلاّك في أسوء حال ؟ فقال له : العرب . فقال له : يا ولدي فداك البغال والأموال . وتسل بقول من قال : [من الطويل]

إذا سَلِمَتْ هامُ الرِّجالِ مِنَ الرَّدَى   فَما المالُ إلاّ مِثْلُ قَصٍّ الأظافِرِ

ولكن يا ولدي إنزل ولا تخش بأساً . فنزل علاء الدين من شباك الصهريج وأركبه بغلة وسافروا إلى أن دخلوا مدينة بغداد في دار محمود البلخي ، فأمر بدخول علاء الدين الحمام وقال له : المال والأحمال فداؤك يا ولدي ، وإن طاوعتني أعطيك قدر مالك وأحمالك مرتين . وبعد طلوعه من الحمام أدخله قاعة مزركشة بالذهب لها أربعة لواوين ، ثم أمر بإحضار سفرة فيها جميع الأطعمة فأكلوا وشربوا ومال محمود البلخي على علاء الدين ليأخذ من خدّه قبلة فلقيها علاء الدين بكفّه وقال له : ها أنت إلى الآن تابع لضلالك . أما قلت لك : أنا لو كنت بعت هذه البضاعة لغيرك بالذهب لكنت أبيعها لك بالفضة . فقال له : أنا ما أعطيك المتجر والبغلة والبدلة إلاّ لأجل هذه القضية ، فإنني من غرامي بك في خبال . ولله درّ من قال : [من السريع]

حَدَّثَنا عَنْ بَعْضِ أَشْياخِهِ أَبُو بِلالٍ شَيْخُنا عَنْ شَرِيكْ
لا يَشْتَفِي العاشِقُ مِمّا بِه بالضَمِّ والتَّقْبِيلِ حَتَّى يَنِيكْ

فقال له علاء الدين : إن هذا شيء لا يمكن أبداً . فخذ بدلتك وبغلتك وافتح لي الباب حتى أروح . ففتح له الباب فطلع علاء الدين والكلاب تنبح وراءه وسار ، فبينما هو سائر في الظلام إذ رأى باب مسجد فدخل في دهليز المسجد واستكنّ فيه ، وإذا بنور مقبل عليه ، فتأمّله فرأى فانوس في يدي عبدين قدّام اثنين من التجار : واحد منهما إختيار حسن الوجه والثاني شاب . فسمع الشاب يقول للإختيار : بالله يا عمي أن تردّ لي بنت عمي . فقال له : أما نهيتك مراراً عديدة وأنت جاعل الطلاق مصحفك . ثم إن الإختيار التفت على يمينه فرأى ذلك الولد كأنه فلقة قمر فقال له : السلام عليك . فردّ عليه السلام فقال : يا غلام من أنت ؟ فقال له : أنا علاء الدين بن شمس الدين شاهّ بندر التجار بمصر ، وتمنيت على والدي المتجر فجهّز لي خمسين حملاً من البضاعة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

علاء الدين مع زبيدة العودية

فلما كانت الليلة 256

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن علاء الدين قال : فجهّز لي والدي خمسين حملاً من البضاعة وأعطاني عشرة الآف دينار وسافرت حتى وصلت إلى غابة الأسد ، فطلع عليّ العرب وأخذوا مالي وأحمالي . فدخلت هذه المدينة وما أدري أين أبيت ، فرأيت هذا المحل فاستكنيت فيه . فقال له : يا ولدي ، ما تقول في أني أعطيك ألف دينار وبدلة بألف دينار ؟ فقال له علاء الدين : على أي وجه تعطيني ذلك يا عمي ؟ فقال له : إن هذا الغلام الذي معي ابن أخي ولم يكن لأبيه غيره ، وأنا عندي بنت لم يكن لي غيرها تسمّى زبيدة العودية وهي ذات حسن وجمال ، فزوّجتها له وهو يحبها وهي تكرهه . فحنث في يمينه بالطلاق الثلاث ، فما صدّقت زوجته بذلك حتى افترقت عنه . فساق عليّ جميع الناس أني أردّها له . فقلت له : هذا لا يصح إلاّ بالمستحل . واتفقت معه على أن نجعل المحلّل واحداً غريباً حتى لا يعايره أحد بهذا الأمر . وحيث كنت أنت غريباً فتعال معنا لنكتب كتابك عليها وتبيت عندها هذه الليلة وتصبح تطلقها ونعطيك ما ذكرته لك . فقال علاء الدين في نفسه : مبيت ليلة مع عروس في بيت على فراش أحسن من مبيت في الأزقّة والدهاليز . فسار معهما إلى القاضي ، فلما نظر القاضي إلى علاء الدين وقعت محبته في قلبه وقال لأبي البنت : أي شيء مرادكم ؟ فقال : مرادنا أن نعمل هذا مستحلاً لبنتنا ، ولكن نكتب عليه حجّة بمقدّم الصداق عشرة الآف دينار فإن بات عندها ، ومتى أصبح طلّقها ، أعطينا له بدلة بألف دينار وبغلة بألف دينار وأعطيناه ألف دينار . وإن لم يطلّقها يحطّ عشرة الآف دينار . فعقدوا العقد على هذا الشرط وأخذ أبو البنت حجة بذلك ، ثم أخذ علاء الدين معه وألبسه البدلة وساروا به إلى أن وصلوا دار بنته . فأوقفه على باب الدار ودخل على بنته وقال لها : خذي حجة صداقك ، فإني كتبت كتابك على شاب مليح يسمى علاء الدين أبا الشامات فتوصي به غاية الوصية . ثم أعطاها الحجّة وتوجّه إلى بيته . وأما ابن عمّ البنت فإنه كان

له قهرمانة تتردّد على زبيدة العودية بنت عمّه وكان يحسن إليها . فقال لها : يا أمي ، إن زبيدة بنت عمي متى رأت هذا الشاب المليح لم تقبلني بعد ذلك ، فأنا أطلب منك أن تعملي حيلة وتمنعي الصبية عنه . فقالت له : وحياة شبابك ما أخليه يقربها . ثم إنها جاءت لعلاء الدين وقالت : يا ولدي ، أنصحك لله تعالى فاقبل نصيحتي ولا تقرب تلك الصبية ودعها تنام وحدها ولا تلمسها ولا تدن منها . فقال : لأي شيء؟ فقالت له : إن جسدها ملآن بالجذام وأخاف عليك منها أن تعدي شبابك المليح . فقال : ليس لي بها حاجة . ثم انتقلت إلى الصبية وقالت لها مثل ما قالت لعلاء الدين . فقالت لها : لا حاجة لي به ، بل أدعه ينام وحده ولما يصبح يروح إلى حال سبيله . ثم دعت جارية وقالت لها : خذي سفرة الطعام واعطيها له يتعشّى . فحملت له الجارية سفرة الطعام ووضعتها بين يديه ، فأكل حتى اكتفى ثم قعد وقرأ سورة يسين بصوت حسن . فصغت له الصبية فوجدت صوته يشبه مزامير آل داود فقالت في نفسها : الله ينكد على هذه العجوز التي قالت لي عليه أنه مبتل بالجذام . فمن كانت به هذه الحالة لا يكون صوته هكذا ، وإنما هذا الكلام كذب عليه . ثم إنها وضعت في يديها عوداً من صنعة الهنود وأصلحت أوتاره وغنّت عليه بصوت يوقف الطير في كبد السماء وأنشدت هذين البيتين : [من الطويل]

تَعَشَّقْتُ ظَبْياً ناعِسَ الطَّرْفِ أَحْوَرا ... تَغارُ غُصُونُ البانِ مِنْهُ إذا مَشَى
يُمانِعُنِي والغَيرُ يَحْظَى بِوَصْلِهِ ... وذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشا

فلما سمعها أنشدت هذا الكلام بعد أن ختم السورة ، غنّى هو وأنشد هذا البيت : [من الطويل]

سَلامِي عَلى ما في الثِّيابِ مِنَ القَدِّ ... وما في بَساتِينِ الخُدُودِ مِنَ الوَرْدِ

فقامت الصبية وقد زادت محبتها ورفعت الستارة ، فلما رآها علاء الدين أنشد هذين البيتين : [من الوافر]

بَدَتْ قَمَراً ومالَتْ غُصْنَ بانٍ ... وفاحَتْ عَنْبَراً ورَنَتْ غَزالا
كأنَّ الحُزْنَ مَشْغُوفٌ بِقَلْبِي ... فَساعَةَ هَجْرِها يَجِدُ الوِصالا

ثم إنها خطرت تهزّ أردافاً تميل بأعطاف صنعة خفيّ الألطاف ، ونظر كل واحد منهما صاحبه نظرة أعقبته ألف حسرة . فلما تمكّن في قلبه منها سهم اللحظين أنشد هذين البيتين : [من الوافر]

رَأَتْ قَمَرَ السَّماءِ فأذْكَرَتْنِي ... لَيالِي وَصْلِها بالرَّقْمَتَيْنِ
كِلانا ناظِرٌ قَمَراً ولكِنْ ... رَأَيْتُ بِعَيْنِها ورَأَتْ بِعَيْنِي

فلما قربت منه ، لم يبقَ بينه وبينها إلاّ خطوتين أنشد هذين البيتين : [من البسيط]

نَشَرَتْ ثَلاثَ ذَوائِبٍ مِنْ شَعْرِها ... في لَيْلَةٍ فأَرَتْ لَيالِي أَرْبَعا
وأسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّماءِ بوَجْهِها ... فأَرَتْنِي القَمَرَيْنِ في وَقْتٍ مَعا

فلما أقبلت عليه قال لها : إبعدي عني لئلا تعديني . فكشفت عن معصمها فانفرق المعصم فرقتين وبياضه كبياض اللجين . ثم قالت له : إبعد عني فإنك مبتل بالجذام لئلا تعديني . فقال

لها : من أخبرك أني مجذوم . فقالت له : العجوز أخبرتني بذلك . فقال لها : وأنا الآخر أخبرتني العجوز أنك مصابة بالبرص . ثم كشف لها عن ذراعيه فوجدت بدنه كالفضة النقية ، فضمّته إلى حضنها وضمّها إلى صدره واعتنق الإثنان ببعضهما . ثم أخذته وراحت على ظهرها وفكّت لباسها ، فتحرّك الذي خلّفه له الوالد فقال : مددك يا شيخ ذكريا يا أبا العروق . وحطّ يديه في خاصرتها ووضع عرق الحلاوة في باب الخرق ودفعه ، فوصل إلى باب الشعرية وكان مروره من باب الفتوح . وبعد ذلك دخل سوق الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، فوجد البساط على قدر الليوان ودور الحق على غطاه حتى التقاه . فلما أصبح الصباح قال لها : يا فرحة ، ما تمّت أخذها الغراب وطار . فقالت له : ما معنى هذا الكلام ؟ فقال لها : يا سيدتي ، ما بقي لي قعود معك غير هذه الساعة . فقالت له : من يقول ذلك ؟ فقال لها : إن أباك كتب عليّ حجة بعشرة الآف دينار مهرك ، وإن لم أوردها في هذا اليوم حبسوني عليها في بيت القاضي . والآن يدي قصيرة عن نصف فضّة واحد من العشرة الآف دينار . فقالت له : يا سيدي ، هل العصمة بيدك أو بأيديهم ؟ فقال لها : العصمة بيدي ولكن ما معي شيء . فقالت له : إن الأمر سهل ولا تخش شيئاً ، ولكن خذ هذه المائة دينار ولو كان معي غيرها لأعطيتك ما تريد . فإن أبي من محبته لابن أخيه حوّل جميع ماله من عندي إلى بيته حتى صيغتي أخذها كلها ، وإذا أرسل إليك رسولاً من طرف الشرع في غد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 257

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الصبية قالت لعلاء الدين : وإذا ارسلوا إليك رسولاً من طرف الشرع في غد وقال لك القاضي وأبي : طلّق . فقل لهما : في أي مذهب يجوز إنني أتزوج في العشاء وأطلق في الصباح . ثم إنك تقبّل يد القاضي وتعطيه إحساناً ، وكذا كل شاهد تقبّل يده وتعطيه عشرة دنانير فكلّهم يتكلّمون معك . فإذا قالوا لك : لأي شيء ما تطلّق وتأخذ ألف دينار والبغلة والبدلة على حكم الشرط الذي شرطناه عليك ؟ فقل لهم : أنا عندي فيها كل شعرة بألف دينار ، ولا أطلّقها أبداً ولا آخذ بدلة ولا غيرها . فإذا قال لك القاضي : إدفع المهر . فقل له : أنا معسّر الآن . وحينئذ يترفّق بك القاضي والشهود ويمهلونك مدّة . فبينما هما في الكلام وإذا برسول القاضي يدقّ الباب ، فخرج إليه فقال له الرسول : كلّم الأفندي ، فإن نسيبك طالبك . فأعطاه خمسة دنانير وقال له : يا محضر ، في أي شرع إني أتزوج في العشاء وأطلّق في الصباح ؟ فقال له : لا يجوز عندنا أبداً ، وإن كنت تجهل الشرع فأنا أعمل وكيلك . وصاروا إلى المحكمة فقال له القاضي : لأي شيء لم تطلّق المرأة وتأخذ ما وقع عليه الشرط ؟ فتقدّم إلى القاضي وقبّل يده ووضع فيها خمسين ديناراً وقال له : يا مولانا القاضي ، في اي مذهب إني أتزوج في العشاء وأطلّق في الصباح قهراً عني ؟ فقال القاضي : لا يجوز الطلاق بالإجبار في مذهب من مذاهب المسلمين . فقال أبو الصبية : إن لم تطلق فادفع لي الصداق عشرة الآف دينار . فقال علاء الدين : إمهلني ثلاثة أيام . فقال القاضي : لا تكفي ثلاثة أيام في المهلة بل يمهلك عشرة أيام . واتفقوا على ذلك ، وشرطوا عليه بعد العشرة أيام إما المهر وإما الطلاق ، وطلع من عندهم على هذا الشرط . فأخذ اللحم والأرز والسمن وما يحتاج إليه الأمر من المآكل وتوجّه إلى البيت ، فدخل على الصبيّة وحكى لها جميع ما جرى له . فقالت له : بين الليل والنهار

عجائب . ولله درّ مَنْ قال : [من الخفيف]

كُنْ حَلِيماً إذا بُلِيتَ بِغَيْظٍ   وصَبُوراً إذا أتَتْكَ مُصِيبَهْ
فاللَّيالي مِنَ الزَّمانِ حَبالَى   مُثْقَلاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبَهْ

ثم قامت وهيّأت الطعام وأحضرت السفرة ، فأكلا وشربا وتلذّذا وطربا . ثم طلب منها أن تعمل نوبة سماع ، فأخذت العود وعملت نوبة يطرب منها الحجر الجلمود ونادت الأوتار في الحضرة : يا داود ، ودخلت في دارج النوبة . فبينما هما في حظ ومزاح وبسط وانشراح وإذا بالباب يطرق فقالت له : قم انظر من بالباب . فنزل وفتح الباب فوجد أربعة دراويش واقفين فقال لهم : اي شيء تطلبون؟ فقالوا له : يا سيدي ، نحن دراويش غرباء الديار ، وقوت أرواحنا السماع ورقائق الأشعار . ومرادنا أن نرتاح عندك هذه الليلة إلى وقت الصباح ثم نتوجّه إلى حال سبيلنا وأجرك على الله تعالى ، فإننا نعشق السماع وما فينا واحد إلاّ ويحفظ القصائد والأشعار والموشحات . فقال لهم : عليّ مشورة . ثم طلع وأعلمها فقالت له : إفتح لهم الباب . ففتح لهم الباب وأطلعهم وأجلسهم ورحّب بهم ، ثم أحضر لهم طعاماً فلم يأكلوا وقالوا له : يا سيدي ، إن زادنا ذكر الله بقلوبنا وسماع المغني بآذاننا . ولله درّ من قال : [من الطويل]

وما القَصْدُ إلاّ أنْ يَكُونَ اجْتِماعُنا   وما الأكْلُ إلاّ سِيمَةٌ لِلْبَهائِمِ

وقد كنا نسمع سماعاً لطيفاً ، فلما طلعنا بطل السماع . فيا هل ترى التي كانت تعمل النوبة جارية بيضاء أو سوداء أو بنت ناس ؟ فقال لهم : هذه زوجتي . وحكى لهم جميع ما جرى له وقال لهم : إن نسيبي عمل عليّ عشرة آلاف دينار مهرها وأمهلوني عشرة أيام . فقال له درويش منهم : لا تحزن ولا تأخذ في خاطرك إلاّ الطيب ، فأنا شيخ التكية وتحت يدي أربعون درويشاً أحكم عليهم ، وسوف أجمع لك العشرة الآف دينار منهم وتوفي المهر الذي عليك لنسيبك ، ولكن أأمرها أن تعمل لنا نوبة لأجل أن ننحظ ويحصل لنا انتعاش ، فإن السماع لقوم كالغذاء ولقوم كالدواء ولقوم كالمروحة . وكان هؤلاء الدراويش الأربعة : الخليفة هارون الرشيد والوزير جعفر البرمكي وأبو نواس الحسن بن هاني ومسرور سيّاف النقمة . وسبب مرورهم على هذا البيت أن الخليفة حصل له ضيق صدر فقال للوزير : يا وزير ، إن مرادنا أن ننزل ونشق في المدينة لأنه حاصل عندي ضيق صدر . فلبسوا لبس الدراويش ونزلوا إلى المدينة فجازوا على تلك الدار فسمعوا النوبة ، فأحبّوا أن يعرفوا حقيقة الأمر . ثم إنهم باتوا في حظ ونظام ومناقلة كلام إلى ان اصبح الصباح ، فحط الخليفة مائة دينار تحت السجادة ثم أخذوا خاطره وتوجّهوا إلى حال سبيلهم . فلما رفعت الصبيّة السجادة رأت مائة دينار تحتها فقالت لزوجها : خذ هذه المائة دينار التي وجدتها تحت السجادة فإن الدراويش حطّوها قبل ما يروحوا وليس لنا علم بذلك . فأخذها علاء الدين وذهب إلى السوق واشترى منها اللحم والأرز والسمن وجميع ما يحتاج إليه . وفي ثاني ليلة قاد الشمع وقال لها : إن الدراويش لم يأتوا بالعشرة الآف دينار التي وعدوني بها ، ولكن هؤلاء فقراء . فبينما هما في الكلام وإذا بالدراويش قد طرقوا الباب . فقالت له : إنزل إفتح لهم . ففتح لهم وطلعوا وقال لهم : هل أحضرتم العشرة الآف التي وعدتوني بها ؟ فقالوا له : ما تيسّر منها شيء ، ولكن لا تخش بأساً إن شاء الله تعالى في غد نطبخ طبخة كيمياء ، وأمر زوجتك

أن تسمعنا نوبة عظيمة تنتعش بها قلوبنا فإننا نحب السماع . فعملت لهم نوبة على العود ترقص الحجر الجلمود، فباتوا في هناء وسرور وحبور إلى أن طلع الصباح وأضاء بنوره ولاح ، فحط الخليفة مائة دينار تحت السجادة ثم أخذوا خاطره وانصرفوا من عنده إلى حال سبيلهم . ولم يزالوا يأتون إليه على هذا الحال مدّة تسع ليال، وكل ليلة يحط الخليفة تحت السجادة مائة دينار إلى أن أقبلت الليلة العاشرة فلم يأتوا . وكان السبب في انقطاعهم أن الخليفة أرسل إلى رجل عظيم من التجار وقال له : احضر لي خمسين حملاً من الأقمشة التي تجيء من مصر وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 258

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن أمير المؤمنين قال لذلك التاجر : أحضر لي خمسين حملاً من القماش الذي يجيء من مصر، يكون كل حمل ثمنه ألف دينار . واكتب على كل حمل قدر ثمنه واحضر لي عبداً حبشياً . فأحضر له التاجر جميع ما أمره به . ثم إن الخليفة أعطى العبد طشتاً وإبريقاً من الذهب وهدية والخمسين حملاً وكتب كتاباً على لسان شمس الدين شاه بندر التجار بمصر والد علاء الدين وقال له : خذ هذه الأحمال وما معها ورح بها الحارة الفلانية التي فيها بيت شاه بندر التجار وقل : أين سيدي علاء الدين أبو الشامات ؟ فإن الناس يدلونك على الحارة وعلى البيت . فأخذ العبد الأحمال وما معها وتوجّه كما أمره الخليفة . هذا ما كان من أمره . وأما ما كان من أمر ابن عم الصبيّة، فإنه توجّه إلى أبيها وقال له : تعالى نروح لعلاء الدين لنطلق بنت عمي . فنزل وسار هو واياه وتوجّها إلى علاء الدين ، فلما وصلا إلى البيت وجدا خمسين بغلاً وعليها خمسون حملاً من القماش وعبداً راكب بغلة فقالا له : لمن هذه الأحمال ؟ فقال : لسيدي علاء الدين أبي الشامات، فإن أباه كان جهّز له متجراً وسفّره إلى مدينة بغداد فطلع عليه العرب فأخذوا ماله وأحماله، فبلغ الخبر إلى أبيه فأرسلني إليه بأحمال عوضها، وأرسل له معي بغلاً عليه خمسون ألف دينار وبقجة تساوي جملة من المال وكرك سمور وطشتاً وإبريقاً من الذهب . فقال له أبو البنت : هذا نسيبي وأنا أدلّك على بيته . فبينما علاء الدين قاعد في البيت وهو في غمّ شديد وإذا بالباب يطرق . فقال علاء الدين : يا زبيدة الله، أعلم أن أباك أرسل إليّ رسولاً من طرف القاضي أو من طرف الوالي . فقالت له : إنزل وانظر الخبر . فنزل وفتح الباب فرأى نسيبه شاه بندر التجار أبا زبيدة، ووجد عبداً حبشياً أسمر اللون حلو المنظر راكباً فوق بغلة . فنزل العبد وقبّل يديه فقال له : أي شيء تريد ؟ فقال له : أنا عبد سيدي علاء الدين أبي الشامات ابن شمس الدين شاه بندر التجار بأرض مصر، وقد أرسلني إليه أبوه بهذه الأمانة ثم أعطاه الكتاب . فأخذه علاء الدين وفتحه وقرأه، فرأى مكتوباً فيه : [من الخفيف]

يا كِتابِي إذا رَآكَ حَبِيبِي قَبِّلِ الأَرْضَ والنِّعالَ لَدَيْهِ
وتَمَهَّلْ ولا تَكُنْ بِعَجُولٍ إنَّ رُوحِي وراحَتِي في يَدَيهِ

بعد السلام التام والتحية والإكرام من شمس الدين إلى ولده علاء الدين أبي الشامات . أعلم يا ولدي أنه بلغني خبر قتل رجالك ونهب أموالك وأحمالك، فأرسلت إليك غير هذه الخمسين حملاً من القماش المصري والبدلة والكرك السمور والطشت والإبريق الذهب . ولا

تخش بأساً والمال فداك يا ولدي، ولا يحصل لك حزن أبداً. وإن امك وأهل البيت طيبون بخير وعافية وهم يسلّمون عليك كثير السلام. وبلغني يا ولدي خبر أنهم عملوك مستحلاً للبنت زبيدة العودية وعملوا عليك مهرها خمسين الف دينار، فهي واصلة إليك صحبة الاحمال مع عبدك سليم. فلما فرغ من قراءة الكتاب، تسلّم الأحمال ثم التفت إلى نسيبه وقال له: يا نسيبي، خذ الخمسين الف دينار مهر بنتك زبيدة وخذ الأحمال تصرّف فيها، ولك المكسب وردّ لي رأس المال. فقال له: والله لا آخذ شيئاً. وأما مهر زوجتك فاتفق أنت وإياها من جهته. فقام علاء الدين هو ونسيبه ودخلا البيت بعد إدخال الأحمال. فقالت زبيدة لأبيها: يا ابي، لمن هذه الأحمال؟ فقال لها: هذه الأحمال لعلاء الدين زوجك أرسلها إليه أبوه عوضاً عن الأحمال التي أخذها العرب منه. وأرسل إليه خمسين ألف دينار وبقجة وكرك وبغلة وطشتاً وإبريقاً ذهباً. وأما من جهة مهرك فالرأي لك فيه. فقام علاء الدين وفتح الصندوق وأعطاها مهرها. فقال الولد ابن عم البنت: يا عمي، خلّ علاء الدين يطلّق لي امرأتي. فقال له: هذا شيء ما بقي يصح أبداً والعصمة بيده. فراح الولد مغموماً مقهوراً ورقد في بيته ضعيفاً، فكان فيها القاضية فمات. وأما علاء الدين فإنه طلع إلى السوق بعد أن أخذ الأحمال، وأخذ ما يحتاج إليه من المأكل والمشرب والسمن وعمل نظاماً مثل كل ليلة وقال لزبيدة: أنظري هؤلاء الدراويش الكذّابين قد وعدونا واخلفوا وعدهم. فقالت له: أنت ابن شاه بندر التجار وكانت يدك قصيرة على نصف فضة، فكيف بالمساكين الدراويش؟ فقال لها: أغنانا الله تعالى عنهم، ولكن ما بقيت أفتح الباب إذا أتوا إلينا. فقالت له: لأي شيء والخير ما جاءنا إلاّ على قدومهم، وكل ليلة يحطّون لنا تحت السجادة مائة دينار فلا بدّ أن تفتح لهم الباب إذا جاؤوا. فلما ولّى النهار بضيائه وأقبل الليل، أوقدوا الشمع وقال لها: يا زبيدة، قومي اعملي لنا نوبة. وإذا بالباب يطرق فقالت له: قم انظر من بالباب. فنزل وفتح الباب فرآهم الدراويش فقال: يا مرحباً بالكذابين اطلعوا. فطلعوا معه وأجلسهم وجاء لهم بسفرة الطعام، فأكلوا وشربوا وتلذّذوا وطربوا وبعد ذلك قالوا له: يا سيدي، إن قلوبنا عليك مشغولة أي شيء جرى لك مع نسيبك؟ فقال لهم: عوّض الله علينا بما فوق المراد. فقالوا: والله إنا كنّا خائفين عليك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

فلما كانت الليلة 259

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الدراويش قالوا لعلاء الدين: والله إنّا كنّا خائفين عليك، وما منعنا عنك إلاّ قصر أيدينا عن الدراهم. فقال لهم: قد أتاني الفرج القريب من عند ربي. وقد أرسل إليّ والدي خمسين الف دينار وخمسين حملاً من القماش، ثمن كل حمل ألف دينار وبدلة وكرك سمور وبغلة وعبداً وطشتاً وإبريقاً من الذهب. ووقع الصلح بيني وبين نسيبي وطابت لي زوجتي والحمد لله على ذلك. ثم إن الخليفة قام يزيل ضرورة فمال الوزير جعفر على علاء الدين وقال له: إلزم الأدب فإنك في حضرة أمير المؤمنين. فقال له: اي شيء وقع مني من قلّة الأدب في حضرة أمير المؤمنين؟ ومن هو أمير المؤمنين منكم؟ فقال له: إن الذي كان يكلمك وقام يزيل الضرورة هو أمير المؤمنين الخليفة هارون الرشيد، وأنا الوزير جعفر وهذا مسرور سيّاف نقمته وهذا ابو النواس الحسن بن هاني. فتأمّل بعقلك يا علاء الدين

وانظر مسافة كم يوم في السفر من مصر إلى بغداد . فقال له : خمسة وأربعون يوماً . فقال له : إن أحمالك نهبت من منذ عشرة أيام فقط ، فكيف يروح الخبر لأبيك ويحزم لك الأحمال وتقطع مسافة خمسة وأربعين يوماً في العشرة أيام ؟ فقال له : يا سيدي ، ومن أين أتاني هذا؟ فقال له : من عند الخليفة أمير المؤمنين بسبب فرط محبته لك . فبينما هم في هذا الكلام وإذا بالخليفة قد أقبل ، فقام علاء الدين وقبّل الأرض بين يديه وقال له : الله يحفظك يا أمير المؤمنين ويديم بقاءك ولا عدم الناس فضلك وإحسانك . فقال : يا علاء الدين خلّ زبيدة تعمل لنا نوبة حلاوة السلامة . فعملت نوبة على العود من غرائب الموجود إلى أن طرب لها الحجر الجلمود وصاح العود في الحضرة : يا داود . فباتوا على أسرّ حال إلى الصباح ، فلما أصبحوا قال الخليفة لعلاء الدين : في غد إطلع الديوان . فقال له : سمعاً وطاعةً يا أمير المؤمنين ، إن شاء الله تعالى وأنت بخير . ثم إن علاء الدين أخذ عشرة أطباق ووضع فيها هدية سنيّة وطلع بها الديوان في ثاني يوم ، فبينما الخليفة قاعد على الكرسي في الديوان وإذا بعلاء الدين مقبل من باب الديوان وهو ينشد هذين البيتين : [من الوافر]

تُصَبِّحُكَ السَّعادَةُ كُلَّ يَوْمٍ ... بإجْلالٍ وقَدْ رُغِمَ الحَسُودُ
ولا زالَتْ لَكَ الأَيّامُ بِيضاً ... وأَيّامُ الّذي عاداكَ سُودُ

فقال له الخليفة : مرحباً يا علاء الدين . فقال علاء الدين : يا أمير المؤمنين ، إن النبي ﷺ قبل الهدية ، وهذه العشرة أطباق وما فيها هدية مني إليك . فقبل منه ذلك أمير المؤمنين وأمر له بخلعة وجعله شاه بندر التجار وأقعده في الديوان . فبينما هو جالس وإذا بنسيبه أبي زبيدة مقبل فوجد علاء الدين جالساً في رتبته وعليه خلعة فقال لأمير المؤمنين : يا ملك الزمان ، لأي شيء هذا جالس في رتبتي وعليه هذه الخلعة ؟ فقال له الخليفة : إني جعلته شاه بندر التجار والمناصب تقليد لا تخليد وأنت معزول . فقال له : إنه منّا وإلينا ، ونِعم ما فعلت يا أمير المؤمنين ، الله يجعل خيارنا أولياء أمورنا وكم من صغير صار كبيراً . ثم إن الخليفة كتب فرماناً لعلاء الدين وأعطاه للوالي ، والوالي أعطاه للمشاعلي ونادى في الديوان : ما شاه بندر التجار إلاّ علاء الدين أبو الشامات وهو مسموع الكلمة محفوظ الحرمة ، يجب له الإكرام والإحترام ورفع المقام . فلما انفض الديوان نزل الوالي بالمنادي بين يدي علاء الدين وصار المنادي يقول : ما شاه بندر التجار إلاّ سيدي علاء الدين أبو الشامات . وداروا به في شوارع بغداد والمنادي ينادي ويقول : ما شاه بندر التجار إلاّ سيدي علاء الدين أبو الشامات . فلما أصبح الصباح فتح دكاناً للعبد وأجلسه فيها يبيع ويشتري ، وأما علاء الدين فإنه كان يركب ويتوجّه إلى مرتبته في ديوان الخليفة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 260

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن علاء الدين كان يركب ويتوجّه إلى مرتبته في ديوان الخليفة . فاتفق أنه جلس في مرتبته يوماً على عادته ، فبينما هو جالس وإذا بقائل يقول للخليفة : يا أمير المؤمنين تعيش رأسك في فلان النديم فإنه توفي إلى رحمة الله تعالى وحياتك الباقية . فقال الخليفة : أين علاء الدين أبو الشامات؟ فحضر بين يديه ، فلما رآه خلع

عليه خلعة سنيّة وجعله نديمه، وكتب له جامكية ألف دينار في كل شهر وأقام عنده يتنادم معه. فاتفق أنه كان جالساً يوماً من الأيام في مرتبته على عادته في خدمة الخليفة وإذا بأمير المؤمنين طالع إلى الديوان بسيف وترس فقال: يا أمير المؤمنين، تعيش رأسك في رئيس الستين فإنه مات في هذا اليوم. فأمر الخليفة بخلعه لعلاء الدين أبي الشامات وجعله رئيس الستين مكانه. وكان رئيس الستين لا ولد له ولا بنت ولا زوجة، فنزل علاء الدين ووضع يده على ماله. وقال الخليفة لعلاء الدين: واره في التراب وخذ جميع ما تركه من مال وعبيد وجوار وخدم. ثم نفض الخليفة المنديل وانفضّ الديوان، فنزل علاء الدين وفي ركابه المقدّم أحمد الدنف مقدم ميمنة الخليفة هو وأتباعه الأربعون، وفي يساره المقدم حسن شومان مقدم ميسرة الخليفة هو وأتباعه الأربعون. فالتفت علاء الدين إلى المقدم حسن شومان هو وأتباعه وقال لهم: أنتم سياق على المقدم أحمد الدنف لعله يقبلني ولده في عهد الله. فقبّله وقال له: أنا وأتباعي الأربعون نمشي قدّامك إلى الديوان في كل يوم. ثم إن علاء الدين مكث في خدمة الخليفة مدة أيام. فاتفق أن علاء الدين نزل من الديوان يوماً من الأيام وسار إلى بيته وصرف أحمد الدنف هو ومن معه إلى حال سبيلهم، ثم جلس مع زوجته زبيدة العودية وقد أوقدت الشموع وبعد ذلك قامت تزيل ضرورة. فبينما هو جالس في مكانه إذ سمع صرخة عظيمة، فقام مسرعاً لينظر الذي صرخ فرأى صاحب الصرخة زوجته زبيدة العودية وهي مطروحة، فوضع يده على صدرها فوجدها ميتة. وكان بيت أبيها قدّام بيت علاء الدين فسمع صرختها فقال لعلاء الدين: ما الخبر يا سيدي علاء الدين؟ فقال له: تعيش رأسك يا والدي في بنتك زبيدة العودية، ولكن يا والدي إكرام الميت دفنه. فلما أصبح الصباح واروها في التراب وصار علاء الدين يعزّي أباها وأبوها يعزّيه. هذا ما كان من أمر زبيدة العودية. وأما ما كان من أمر علاء الدين فإنه لبس ثياب الحزن وانقطع عن الديوان، وصار باكي العين حزين القلب. فقال الخليفة لجعفر: يا وزير، ما سبب انقطاع علاء الدين عن الديوان؟ فقال له الوزير: يا أمير المؤمنين، إنه حزين على امرأته زبيدة ومشغول بعزائها. فقال الخليفة للوزير: واجب علينا أن نعزيه. فقال الوزير: سمعاً وطاعةً. ثم نزل الخليفة هو والوزير وبعض الخدام وركبوا وتوجّهوا إلى بيت علاء الدين. فبينما هو جالس وإذا بالخليفة والوزير ومن معهما مقبلون عليه، فقام لملتقاهم وقبّل الأرض بين يدي الخليفة. فقال له الخليفة: عوّضك الله خيراً. فقال علاء الدين: أطال الله لنا بقاءك يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: يا علاء الدين، ما سبب انقطاعك عن الديوان؟ فقال له: حزني على زوجتي زبيدة يا أمير المؤمنين. فقال له الخليفة: إدفع الهم عن نفسك فإنها ماتت إلى رحمة الله تعالى والحزن لا يفيدك شيئاً أبداً. فقال: يا أمير المؤمنين، أنا لا أترك الحزن عليها إلاّ إذا مت ودفنوني عندها. فقال له الخليفة: إن في الله عوضاً من كل فائت ولا يخلص من الموت حيلة ولا مال. ولله درّ من قال: [من البسيط]

كُلُّ ابنِ أُنْثى وإنْ طالَتْ سلامَتُهُ ... يَوْماً عَلى آلةٍ حَدْباءَ مَحْمُولُ
وكَيْفَ يَلْهُو بِعَيْشٍ أو يَلَذُّ بِه ... مَنِ التُّرابُ على خَدَّيْهِ مَجْعُولُ

ولما فرغ الخليفة من تعزيته أوصاه أنه لا ينقطع عن الديوان وتوجّه إلى محله. ثم بات علاء الدين، ولما أصبح الصباح ركب وسار إلى الديوان فدخل على الخليفة وقبّل الأرض بين يديه،

فتحرّك له الخليفة من على الكرسي ورحّب به وحيّاهوأنزله في منزلته وقال له : يا علاء الدين ، أنت ضيفي في هذه الليلة . ثم دخل به سرايته ودعا بجارية تسمّى قوت القلوب وقال لها : إن علاء الدين كان عنده زوجة تسمّى زبيدة العودية ، وكانت تسليه عن الهمّ والغمّ فماتت إلى رحمة الله تعالى . ومرادي أن تسمعيه نوبة على العود . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 261

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة قال لجاريته قوت القلوب : مرادي أن تسمعيه نوبة على العود من غرائب الموجود لأجل أن يتسلّى عن الهمّ والأحزان . فقامت الجارية وعملت نوبة من الغرائب . فقال الخليفة : ما تقول يا علاء الدين في صوت هذه الجارية ؟ فقال له : إن زبيدة أحسن صوتاً منها ، إلاّ أنها صاحبة صناعة في ضرب العود لأنها تطرب الحجر الجلمود . فقال له : هل هي أعجبتك ؟ فقال له أعجبتني يا أمير المؤمنين . فقال الخليفة : وحياة رأسي وتربة جدودي إنها هبة منّي إليك هي وجواريها . فظن علاء الدين أن الخليفة يمزح معه ، فلما أصبح الخليفة دخل على جاريته قوت القلوب وقال لها : أنا وهبتك لعلاء الدين . ففرحت بذلك لانها رأته وأحبته . ثم تحول الخليفة من قصر السراية إلى الديوان ودعا بالحمّالين وقال لهم : انقلوا أمتعة قوت القلوب وحطّوها في التختروان هي وجواريها إلى بيت علاء الدين . فنقلوها هي وجواريها وأمتعتها إلى بيت علاء الدين وأدخلوها القصر . وجلس الخليفة في مجلس الحكم إلى آخر النهار ، ثم انفضّ الديوان ودخل قصره . هذا ما كان من أمره .

وأما ما كان من أمر قوت القلوب ، فإنها لما دخلت قصر علاء الدين هي وجواريها وكانوا أربعين جارية غير الطواشية . قالت لاثنين من الطواشية : أحدكما يقعد على كرسي في ميمنة الباب والثاني يقعد على كرسي في ميسرته ، ولما يأتي علاء الدين قبّلا يديه وقولا له : إن سيدتنا قوت القلوب تطلبك إلى القصر فإن الخليفة وهبها لك هي وجواريها . فقالا لها : سمعاً وطاعة . ثم فعلا ما أمرتهما به . فلما أقبل علاء الدين وجد اثنين من طواشية الخليفة جالسين بالباب فاستغرب الأمر وقال في نفسه : لعل هذا ما هو بيتي وإلاّ فما الخبر ؟ فلما رأته الطواشية قاموا إليه وقبّلوا يديه وقالوا : نحن من أتباع الخليفة ومماليك قوت القلوب ، وهي تسلم عليك وتقول لك : إن الخليفة قد وهبها لك هي وجواريها وتطلبك عندها . فقال لهم : قولوا لها مرحباً بك ، ولكن طول ما أنت عنده ما يدخل القصر الذي أنت فيه ، لأن ما كان للمولى لا يصلح أن يكون للخدام . وقولوا لها : ما مقدار مصروفك عند الخليفة في كل يوم ؟ فطلعوا إليها وقالوا لها ذلك . فقالت : كل يوم مائة دينار . فقال لنفسه : أنا ليس لي حاجة بأن يهب لي الخليفة قوت القلوب حتى أصرف عليها هذا المصروف ، ولكن لا حيلة في ذلك . ثم إنها أقامت عنده مدة أيام وهو مرتب لها في كل يوم مائة دينار ، إلى أن انقطع علاء الدين عن الديوان يوماً من الأيام فقال الخليفة : يا وزير جعفر ، أنا ما وهبت قوت القلوب لعلاء الدين إلاّ لتسلّيه عن زوجته ، وما سبب انقطاعه عنّا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد صدق من قال : من لقي أحبابه نسي أصحابه . فقال الخليفة : لعله ما قطعه عنّا إلاّ عذر ، ولكن نحن نزوره . وكان قبل ذلك بأيام قال علاء الدين للوزير : أنا شكوت للخليفة ما أجده من الحزن على زوجتي زبيدة العودية فوهب لي قوت القلوب . فقال له الوزير : لولا أنه

يحبك ما وهبها لك . وهل دخلت بها يا علاء الدين ؟ فقال : لا والله لا اعرف لها طولاً من عرض . فقال له : ما سبب ذلك؟ فقال : يا وزير ، الذي يصلح للمولى لا يصلح للخدام . ثم إن الخليفة وجعفر استخفيا وسارا لزيارة علاء الدين . ولم يزالا سائرين إلى أن دخلا على علاء الدين فعرفهما وقام قبّل أيادي الخليفة . ولما رآه الخليفة وجد عليه علامة الحزن فقال له : يا علاء الدين ، ما سبب هذا الحزن الذي أنت فيه؟ أما دخلت على قوت القلوب؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، الذي يصلح للمولى لا يصلح للخدام . وإني إلى الآن ما دخلت عليها ولا أعرف لها طولاً من عرض فاقلني منها . فقال الخليفة : إن مرادي الإجتماع بها حتى أسألها عن حالها . فقال علاء الدين : سمعاً وطاعةً يا أمير المؤمنين . فدخل عليها الخليفة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 262

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الخليفة دخل على قوت القلوب ، فلما رأته قامت وقبّلت الأرض بين يديه . فقال لها : هل دخل بك علاء الدين؟ فقالت : لا يا أمير المؤمنين ، وقد أرسلت أطلبه للدخول فلم يرضَ . فأمر الخليفة برجوعها إلى السراية وقال لعلاء الدين : لا تنقطع عنّا . ثم توجّه الخليفة إلى داره . فبات علاء الدين تلك الليلة ، ولما أصبح ركب وسار إلى الديوان فجلس في رتبة رئيس الستين ، فأمر الخليفة الخازندار أن يعطي للوزير جعفر عشرة الآف دينار ، فأعطاه ذلك المبلغ . ثم قال الخليفة للوزير : ألزمتك أن تنزل إلى سوق الجواري وتشتري لعلاء الدين بالعشرة الآف دينار جارية . فامتثل الوزير أمر الخليفة ونزل وأخذ معه علاء الدين وسار به إلى سوق الجواري ، فاتفق في هذا اليوم أن والي بغداد الذي من طرف الخليفة وكان اسمه الأمير خالد ، نزل إلى السوق من أجل اشتراء جارية لولده . وسبب ذلك أنه كان له زوجة تسمّى خاتوناً وكان رزق منها بولد قبيح المنظر يسمّى حبظلم بظاظة ، وكان بلغ من العمر عشرين سنة ولا يعرف أن يركب الحصان . وكان أبوه شجاعاً قرماً مناعاً وكان يركب الخيل ويخوض بحار الليل . فنام حبظلم بظاظة في ليلة من الليالي فاحتلم . فأخبر والدته بذلك ، ففرحت وأخبرت والده بذلك وقالت : مرادي أن نزوّجه فإنه صار يستحق الزواج . فقال لها : هذا قبيح المنظر كريه الرايحة دنس وحش لا تقبله واحدة من النساء . فقالت : نشتري له جارية . فلأمر قدّره الله تعالى ، إن اليوم الذي نزل فيه الوزير وعلاء الدين إلى السوق نزل فيه الأمير خالد الوالي هو وولده حبظلم بظاظة ، فبينما هم في السوق وإذا بجارية ذات حسن وجمال وقدّ واعتدال في يد رجل دلاّل . فقال الوزير : شاور يا دلاّل عليها بالف دينار . فمر بها على الوالي فرآها حبظلم بظاظة ،نظرة أعقبته النظرة الف حسرة وتولّع بها وتمكّن منه حبها فقال : يا أبت اشتر لي هذه الجارية . فنادى الدلاّل وسأل الجارية عن اسمها فقالت له : إسمي ياسمين . فقال له أبوه : يا ولدي ، إن كانت اعجبتك زد في ثمنها . فقال : يا دلاّل كم معك من الثمن ؟ قال : ألف دينار . قال : عليّ بالف دينار ودينار . فجاء لعلاء الدين فعملها بألفين ، فصار كلما يزيد الولد ابن الوالي ديناراً في الثمن يزيد علاء الدين الف دينار . فاغتاظ ابن الوالي وقال : يا دلاّل ، من يزيد عليّ في ثمن الجارية؟ فقال له الدلاّل : إن الوزير جعفر يريد أن يشتريها لعلاء الدين أبي الشامات . فعملها علاء الدين بعشرة الآف دينار ، فسمح له سيدها وقبض ثمنها وأخذها علاء الدين وقال

لها : أعتقتك لوجه الله تعالى . ثم إنه كتب كتابه عليها وتوجّه بها إلى البيت ورجع الدلاّل ومعه دلالته ، فناداه ابن الوالي وقال له : أين الجارية ؟ فقال له : اشتراها علاء الدين بعشرة الآف دينار وأعتقها وكتب كتابه عليها . فانكمد الولد وزادت به الحسرات ورجع ضعيفاً إلى البيت من محبته لها وارتمى في الفراش وقطع الزاد وزاد به العشق والغرام . فلما رأته أمه ضعيفاً قالت له : سلامتك يا ولدي ، ما سبب ضعفك ؟ فقال لها : إشتري لي ياسمين يا أمي . فقالت له أمه : لما يفوت صاحب الرياحين أشتري لك جنبة ياسمين . فقال لها : ليس هو الياسمين الذي ينشمّ وإنما هي جارية اسمها ياسمين لم يشترها لي أبي . فقالت لزوجها : لأي شيء ما اشتريت له هذه الجارية ؟ فقال لها : الذي يصلح للمولى لا يصلح للخدام . وليس لي قدرة على أخذها ، فإنه ما اشتراها إلاّ علاء الدين رئيس الستين . فزاد الضعف بالولد حتى جفا الرقاد وقطع وتعصّبت أمه بعصائب الحزن ، فبينما هي جالسة في بيتها حزينة على ولدها وإذا بعجوز دخلت عليها إسمها أم أحمد قماقم السراق . وكان هذا السراق ينقب وسطانياً ويلقف فوقانياً ويسرق الكحل من العين . وكان بهذه الصفات القبيحة في أول أمره ، ثم عملوه مقدّم الدرك فسرق عملة فوقع بها وهجم عليه الوالي فاخذه وعرضه على الخليفة ، فأمر بقتله في بقعة الدم . فاستجار بالوزير ، وكان للوزير عند الخليفة شفاعة لا تردّ فشفع فيه . فقال له الخليفة : كيف تشفع في آفة تضرّ الناس ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين إحبسه ، فإن الذي بنى السجن كان حكيماً لأن السجن قبر الأحياء وشماتة الأعداء . فأمر الخليفة بوضعه في قيد وكتب على قيده : مخلّداً إلى الممات لا يفك إلاّ على دكّة المغسل . فوضعوه مقيّداً في السجن . وكانت أمه تتردّد على بيت الأمير خالد الوالي وتدخل لابنها في السجن وتقول له : أما قلت لك تب عن الحرام . فيقول لها : قدر الله على ذلك . ولكن يا أمي إذا دخلتِ على زوجة الوالي فخلّيها تشفع لي عنده . فلما دخلت العجوز على زوجة الوالي وجدتها معصّبة بعصائب الحزن فقالت لها : ما لك حزينة ؟ فقالت : على فقد ولدي حبظلم بظاظة . فقالت لها : سلامة ولدك ، ما الذي أصابه ؟ فحكت لها الحكاية . فقالت العجوز : ما تقولين فيمن يلعب منصفاً يكون فيه سلامة ولدك ؟ فقالت لها : وما الذي تفعلينه ؟ فقالت : أنا لي ولد يسمّى أحمد قماقم السراق ، وهو مقيد في السجن ومكتوب على قيده مخلّد إلى الممات . فأنت تقومين وتلبسين أفخر ما عندك وتتزينين بأحسن الزينة وتقابلين زوجك ببشر وبشاشة ، فإذا طلب منك ما يطلبه الرجال من النساء فامتنعي منه ولا تمكّنيه وقولي له : يالله العجب ، إذا كان للرجل حاجة عند زوجته يلحّ عليها حتى يقضيها منها . وإذا كان للزوجة عند زوجها حاجة فإنه لا يقضيها لها . فيقول لك : وما حاجتك ؟ فقولي له : حتى تحلف لي . فإذا حلف لك بحياة رأسه أو بالله . فقولي له : إحلف لي بالطلاق منّي . ولا تمكّنيه إلاّ أن حلف لك بالطلاق ، فإذا حلف لك بالطلاق فقولي له : عندك في السجن واحد مقدم اسمه أحمد قماقم وله أم مسكينة وقد وقعت عليّ وساقتني عليك وقالت لي : خلّيه يشفع له عند الخليفة لأجل أن يتوب ويحصل له الثواب . فقالت لها : سمعاً وطاعةً . فلما دخل الوالي على زوجته . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 263

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوالي لما دخل على زوجته قالت له ذلك الكلام وحلف لها بالطلاق فمكّنته وبات عندها . ولما أصبح ، اغتسل وصلّى وجاء إلى السجن وقال : يا أحمد قماقم يا سراق هل تتوب مما أنت فيه؟ فقال : إني تبت إلى الله ورجعت ، وأقول بالقلب واللسان أستغفر الله .فأطلقه الوالي من السجن وأخذه معه إلى الديوان وهو في القيد ، ثم تقدم إلى الخليفة وقبل الأرض بين يديه فقال له : يا أمير خالد أي شيء تطلب؟ فقدم أحمد قماقم يخطر في القيد قدام الخليفة فقال له : يا قماقم ، هل أنت حي إلى الآن؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن عمر الشقي بطيء . فقال الخليفة : يا أمير خالد لأي شيء جئت به هنا؟ فقال له : إن له أماً مسكينة منقطعة وليس لها أحد غيره ، وقد وقعت على عبدك أن يتشفع عندك يا أمير المؤمنين في أنك تفكّه من القيد وهو يتوب عمّا كان فيه ، وتجعله مقدم الدرك كما كان أولاً . فقال الخليفة لأحمد قماقم : هل تبت عمّا كنت فيه؟ فقال له : تبت إلى الله يا أمير المؤمنين . فأمر بإحضار الحداد وفك قيده على دكّة المغتسل وجعله مقدم الدرك وأوصاه بالمشي الطيب والإستقامة . فقبّل يدي الخليفة ونزل بخلعة الدرك ونادوا له بالتقديم ، فمكث مدة من الزمان في منصبه . ثم دخلت أمه على زوجة الوالي فقالت لها : الحمد لله الذي خلص إبنك من السجن وهو على قيد الصحة والسلامة ، فلأي شيء لم تقولي له أن يدبر أمراً في مجيئه بالجارية ياسمين إلى ولدي حبظلم بظاظة؟ فقالت : أقول له . ثم قامت من عندها ودخلت على ولدها فوجدته سكران فقالت له : يا ولدي ، ما سبب خلاصك من السجن إلاّ زوجة الوالي ، وتريد منك ان تدبر لها أمراً في قتل عُلاء الدين أبي الشامات وتجيء بالجارية ياسمين إلى ولدها حبظلم بظاظة . فقال لها : هذا أسهل ما يكون ، لا بدّ أن أدبر أمراً في هذه الليلة . وكانت تلك الليلة أول ليلة في الشهر الجديد ، وعادة أمير المؤمنين أن يبيت فيها عند السيدة زبيدة لعتق جارية أو مملوك أو نحو ذلك . وكان من عادة الخليفة أنه يقلع بدلة الملك ويترك السبحة والنمشة وخاتم الملك ويضع الجميع فوق الكرسي في قاعة الجلوس . وكان عند الخليفة مصباح من ذهب وفيه ثلاث جواهر منظومة في سلك من ذهب ، وكان ذلك المصباح عزيزاً عند الخليفة . ثم إن الخليفة وكّل الطواشية بالبدلة والمصباح وباقي الأمتعة ودخل مقصورة السيدة زبيدة . فصبر أحمد قماقم السراق لما انتصف الليل وأضاء سهيل ونامت الخلائق وتجلّى عليهم بالستر الخالق ، ثم سحب سيفه في يمينه وأخذ ملقفه في يساره وأقبل على قاعة الجلوس التي للخليفة ونصب سلّم التسليك ورمى ملقفه على قاعة الجلوس فتعلّق بها وطلع على السلّم إلى السطوح ، ورفع طابق القاعة ونزل فيها فوجد الطواشية نائمين ، فبنّجهم وأخذ بدلة الخليفة والسبحة والنمشة والمنديل والخاتم والمصباح الذي بالجواهر ، ثم نزل من الموضع الذي طلع منه وسار إلى بيت علاء الدين أبي الشامات . وكان علاء الدين في هذه الليلة مشغولاً بفرح الجارية ودخل عليها وراحت منه حاملاً . فنزل أحمد قماقم السراق على قاعة علاء الدين وقلع لوحاً رخاماً من درّ قاعة القاعة وحفر تحته ووضع بعض المصالح وأبقى بعضها معه ، ثم جبس اللوح الرخام كما كان ونزل من الموضع الذي طلع منه وقال في نفسه : أنا أقعد أسكر وأحط المصباح قدامي وأشرب الكأس على نوره . ثم سار إلى بيته . فلما أصبح الصباح ، ذهب الخليفة إلى القاعة فوجد الطواشية مبنجين ، فأيقظهم وحط

يده فلم يجد البدلة ولا الخاتم ولا السبحة ولا النمشة ولا المنديل ولا المصباح . فاغتاظ لذلك غيظاً شديداً ولبس بدلة الغضب وهي بدلة حمراء وجلس في الديوان . فتقدم الوزير وقبّل الأرض بين يديه وقال : يكفي الله شرّ أمير المؤمنين . فقال له : يا وزير ، إن الشرّ فائض . فقال له الوزير : أي شيء حصل . فحكى له جميع ما وقع . وإذا بالوالي طالع وفي ركابه أحمد قماقم السراق فوجد الخليفة في غيظ عظيم ، فلما نظر الخليفة إلى الوالي قال له : يا أمير خالد ، كيف حال بغداد ؟ فقال له : سالمة أمينة . فقال له : تكذب . فقال له : لأي شيء يا أمير المؤمنين ؟ فقصّ عليه القصة وقال له : ألزمتك أن تجيء لي بذلك كله . فقال له : يا أمير المؤمنين ، دود الخل منه فيه ، ولا يقدر غريب أن يصل إلى هذا المحل أبداً . فقال : إن لم تجيء لي بهذه الأمور قتلتك . فقال له : قبل أن تقتلني أقتل أحمد قماقم السراق فإنه لا يعرف الحرامي والخائن إلا مقدم الدرك . فقام أحمد قماقم وقال للخليفة : شفعني في الوالي وأنا أضمن لك عهدة الذي سرق وأقص الأثر وراءه حتى أعرفه ، ولكن أعطني اثنين من طرف القاضي واثنين من طرف الوالي ، فإن الذي فعل هذا الفعل لا يخشاك ولا يخشى من الوالي ولا من غيره . فقال الخليفة : لك ما طلبت . ولكن أول التفتيش يكون في سرايتي وبعدها في سراية رئيس الستين . فقال أحمد قماقم : صدقت يا أمير المؤمنين ، ربما يكون الذي عمل هذه العملة واحد قد تربّى في سراية أمير المؤمنين أو في سراية أحد من خواصه . فقال الخليفة : وحياة رأسي ، كل من ظهرت عليه هذه العملة لا بدّ من قتله ولو كان ولدي . ثم إن أحمد قماقم أخذ ما أراده وأخذ فرماناً بالهجوم على البيوت وتفتيشها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 264

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن أحمد قماقم أخذ ما أراده وأخذ فرماناً بالهجوم على البيوت وتفتيشها ونزل وبيده قضيب ثلثه من الشؤم وثلثه من النحاس وثلثه من الحديد والفولاذ، وفتش سراية الخليفة وسراية الوزير جعفر ودار على بيوت الحجّاب والنواب إلى أن مرّ على بيت علاء الدين أبي الشامات . فلما سمع الضجة علاء الدين قدام بيته قام من عند ياسمين زوجته ونزل وفتح الباب ، فوجد الوالي في كركبة فقال له : ما الخبر يا أمير خالد ؟ فحكى له جميع القضية . فقال علاء الدين : أدخلوا بيتي وفتشوه . فقال الوالي : العفو يا سيدي، أنت أمين وحاشا أن يكون الأمين خائناً . فقال له : لا بدّ من تفتيش بيتي . فدخل الوالي والقضاة والشهود وتقدم أحمد قماقم إلى درّ قاعة القاعة وجاء إلى الرخامة التي دفن تحتها الأمتعة وأرخى القضيب على اللوح الرخام بعزمه فانكسرت الرخامة ، وإذا بشيء ينور تحتها فقال المقدم : بسم الله ما شاء الله ، على بركة قدومنا انفتح كنز . لما أنزل إلى هذا المطلب وأنظر ما فيه . فنظر القاضي والشهود إلى ذلك المحل فوجدوا الأمتعة بتمامها ، فكتبوا ورقة مضمونها أنهم وجدوا الأمتعة في بيت علاء الدين ، ثم وضعوا على تلك الورقة ختومهم وأمروا بالقبض على علاء الدين وأخذوا عمامته من فوق رأسه وضبطوا جميع ماله ورزقه في قائمة ، وقبض أحمد قماقم السراق على الجارية ياسمين وكانت حاملاً من علاء الدين ، وأعطاها لأمه وقال لها : سلّميها لخاتون امرأة الوالي . فأخذت ياسمين ودخلت بها على زوجة الوالي ، فلما رآها حبظلم بظاظة جاءت له العافية وقام من وقته وساعته وفرح فرحاً شديداً وتقرّب إليها ، فسحبت خنجراً

من حياصتها وقالت له : إبعد عني وإلاّ أقتلك وأقتل نفسي . فقالت لها أمه خاتون : يا عاهرة ، خلّي ولدي يبلغ منك مراده . فقالت لها : يا كلبة ، في أي مذهب يجوز للمرأة أن تتزوّج بإثنين ؟ وأي شيء أوصل الكلاب أن تدخل في موطن السباع ؟ فزاد بالولد الغرام وأضعفه الوجد والهيام وقطع الزاد ولزم الوسادة . فقالت لها امرأة الوالي : يا عاهرة ، كيف تجسريني على ولدي ؟ لا بدّ من تعذيب ، وأما علاء الدين فإنه لا بدّ من شنقه . فقالت لها : أنا أموت على محبته . فقامت زوجة الوالي ونزعت عنها ما كان عليها من الصيغة وثياب الحرير وألبستها لباساً من الخيش وقميصاً من الشعر وأنزلتها في المطبخ وعملتها من جواري الخدمة وقالت لها : جزاك إنك تكسرين الحطب وتقشرين البصل وتحطين النار تحت الحلل . فقالت لها : أرضى بكل عذاب وخدمة ولا أرضى برؤية ولدك . فحنن الله عليها قلوب الجواري وصرن يتعاطين الخدمة عنها في المطبخ . هذا ما كان من أمر ياسمين . وأما ما كان من أمر علاء الدين أبي الشامات فإنهم أخذوه هو وأمتعة الخليفة وساروا به إلى أن وصلوا إلى الديوان ، فبينما الخليفة جالس على الكرسي وإذا بهم طالعون بعلاء الدين ومعه الأمتعة . فقال الخليفة : أين وجدتموها ؟ فقالوا له : في وسط بيت علاء الدين أبي الشامات . فامتزج الخليفة بالغضب وأخذ الأمتعة فلم يجد فيها المصباح فقال : يا علاء الدين أين المصباح ؟ فقال : أنا لا سرقت ولا علمت ولا رأيت ولا معي خبر . فقال له : يا خائن ، كيف أقرّبك إلي وتبعدني عنك وأستأمنك وتخونني ؟ ثم أمر بشنقه . فنزل به الوالي والمنادي ينادي عليه : هذا جزاء وأقل من جزاء من يخون الخلفاء الراشدين . فاجتمع الخلائق عند المشنقة . هذا ما كان من أمر علاء الدين . وأما ما كان من أمر أحمد الدنف كبير علاء الدين فإنه كان قاعداً هو وأتباعه في بستان ، فبينما هم جالسون في حظ وسرور وإذا برجل سقاء من السقائين الذين في الديوان دخل عليهم وقبّل يد أحمد الدنف وقال : يا مقدم أحمد يا دنف ، أنت قاعد في صفاء والماء تحت رجليك وما عندك علم بما حصل . فقال له أحمد الدنف : ما الخبر ؟ فقال السقاء : إن ولدك في عهد الله علاء الدين نزلوا به إلى المشنقة . فقال أحمد الدنف : ما عندك من الحيلة يا حسن يا شومان . فقال له : إن علاء الدين بريء من هذا الأمر ، وهذا ملعوب عليه من واحد عدو . فقال له : ما الرأي عندك ؟ فقال له : خلاصه علينا إن شاء المولى . ثم إن حسناً شومان ذهب إلى السجن وقال للسجان : أعطنا واحد يكون مستوجباً للقتل . فأعطاه واحداً كان أشبه البرايا بعلاء الدين أبي الشامات ، فغطى رأسه وأخذه أحمد الدنف بينه وبين علي الزيبق المصري وكانوا قدّموا علاء الدين إلى الشنق ، فتقدم أحمد الدنف وحط رجله على رجل المشاعلي . فقال له المشاعلي : علي ، أعطني الوسع حتى أعمل صنعي . فقال له : يا لعين ، خذ هذا الرجل واشنقه موضع علاء الدين أبي الشامات فإنه مظلوم ونفدي إسماعيل بالكبش . فاخذ المشاعلي ذلك الرجل وشنقه عوضاً عن علاء الدين . ثم إن أحمد الدنف وعلياً الزيبق المصري أخذا علاء الدين وسارا به إلى قاعة أحمد ، فلما دخلوا عليه قال له علاء الدين : جزاك الله خيراً يا كبيري . فقال له : يا علاء الدين ما هذا الفعل الذي فعلته ؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 265

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن أحمد الدنف قال لعلاء الدين : ما هذا الفعل الذي فعلته؟ ورحم الله من قال : من إئتمنك لا تخنه ولو كنت خائناً . والخليفة مكّنك عنده وسمّاك بالثقة الأمين كيف تفعل معه هكذا وتأخذ أمتعته؟ فقال له علاء الدين : والإسم الأعظم يا كبيري ما هي عملتي ولا لي فيها ذنب ولا أعرف من عملها . فقال أحمد الدنف : إن هذه العملة ما عملها إلاّ عدو مبين، ومن فعل شيئاً يجازى به . ولكن يا علاء الدين أنت ما بقي لك إقامة في بغداد، فإن الملوك لا تعادى يا ولدي . ومن كانت الملوك في طلبه، يا طول تعبه . فقال علاء الدين : أين أروح يا كبيري؟ فقال له : أنا أوصلك إلى الإسكندرية فإنها مباركة وعتبتها خضراء وعيشها هنية . فقال : سمعاً وطاعة يا كبيري . فقال أحمد الدنف لحسن شومان : خلّ بالك . وإذا سأل عني الخليفة فقل له : إنه راح يطوف على البلاد . ثم أخذه وخرج من بغداد، ولم يزلا سائرين حتى وصلا إلى الكروم والبساتين فوجدا يهوديين من عمال الخليفة راكبين على بغلتين . فقال أحمد الدنف لليهود : هاتوا الغفر . فقال اليهود : نعطيك الغفر على أي شيء؟ فقال لهم : أنا غفير هذا الوادي . فأعطاه كل واحد منهما مائة دينار، وبعد ذلك قتلهما أحمد الدنف وأخذ البغلتين فركب بغلة وركب علاء الدين بغلة وسارا إلى مدينة أياس، فأدخلا البغلتين في خان وباتا فيه . ولما أصبح الصباح باع علاء الدين بغلته وأوصى البواب على بغلة أحمد الدنف ونزلوا في مركب من مينة أياس حتى وصلوا إلى الاسكندرية . فطلع أحمد الدنف ومعه علاء الدين ومشيا في السوق، وإذا بدلاّل يدلل على دكان، ومن داخل الدكان طبقة على تسعمائة وخمسين . فقال علاء الدين : عليّ بألف . فسمح له البائع وكانت لبيت المال، فتسلّم علاء الدين المفاتيح وفتح الدكان، وفتح الطبقة فوجدها مفروشة بالفرش والمساند، ورأى فيها حاصلاً فيه قلاع وصوار وحبال وصناديق وأجربة ملآنة خرزاً وودعاً وركايات وأطباراً ودبابيس وسكاكين ومقصات وغير ذلك، لأن صاحبه كان سقطياً . فقعد علاء الدين أبو الشامات في الدكان . وقال له أحمد الدنف : يا ولدي، الدكان والطبقة وما فيهما صارت ملكك فاقعد فيها وبع واشتر ولا تنكر، فإن الله تعالى بارك في التجارة . وأقام عنده ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أخذ خاطره وقال له : إستقر في هذا المكان حتى أروح وأعود إليك بخبر من الخليفة بالأمان عليك وأنظر الذي عمل معك هذا الملعوب . ثم توجّه مسافراً حتى وصل إلى أياس، فأخذ البغلة من الخان وسار إلى بغداد، فاجتمع بحسن شومان وأتباعه وقال له : يا حسن، هل الخليفة سأل عني؟ فقال : لا، ولا خطرت على باله . فأقام في خدمة الخليفة وصار يستنشق الأخبار، فرأى الخليفة التفت إلى الوزير جعفر يوماً من الأيام وقال له : أنظر يا وزير هذه العملة الذي فعلها معي علاء الدين . فقال له : يا أمير المؤمنين، أنت جازيته بالشنق وجزاؤه ما حل به . فقال له : يا وزير، مرادي أن أنزل وأنظره وهو مشنوق . فقال الوزير : إفعل ما شئت يا أمير المؤمنين . فنزل الخليفة ومعه الوزير جعفر إلى جهة المشنقة، ثم رفع طرفه فرأى المشنوق غير علاء الدين أبي الشامات الثقة الأمين . فقال : يا وزير، هذا ما هو علاء الدين . فقال له : كيف عرفت إنه غيره؟ فقال : إن علاء الدين كان قصيراً وهذا طويل . فقال له الوزير : إن المشنوق يطول . فقال له : إن علاء الدين كان أبيض وهذا وجهه أسود . فقال له : أما تعلم يا أمير المؤمنين أن الموت له غبرات . فأمر بتنزيله

من فوق المشنقة، فلما أنزلوه وجد مكتوباً على كعبيه الإثنين: إسمي الشيخين. فقال له: يا وزير، إن علاء الدين كان سنّياً وهذا رافضيّ. فقال له: سبحان الله علام الغيوب، ونحن لا نعلم هل هذا علاء الدين أو غيره؟ فأمر الخليفة بدفنه، فدفنوه. وصار علاء الدين نسياً منسياً. هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر حبظلم بظاظة ابن الوالي، فإنه قد طال به العشق والغرام حتى مات وواروه في التراب. وأما ما كان من أمر الجارية ياسمين، فإنها وفت حملها ولحقها الطلق فوضعت ولداً ذكراً كأنه القمر. فقال لها الجواري: ما تسمّيه؟ فقالت: لو كان أبوه طيباً كان سمّاه، ولكن أنا أسمّيه أصلان. ثم إنها أرضعته اللبن عامين متتابعين وفطمته وحبا ومشى. فاتفق أن أمه اشتغلت بخدمة المطبخ يوماً من الأيام فمشى الغلام ورأى سلم المقعد فطلع عليه، وكان الأمير خالد الوالي جالساً فأخذه وأقعده في حجره وسبّح مولاه فيما خلق وصوّر، وتأمّل وجهه فرآه أشبه البرايا بعلاء الدين أبي الشامات. ثم إن أمه ياسمين فتشت عليه فلم تجده، فطلعت المقعد فرأت الأمير خالداً جالساً والولد في حجره يلعب وقد ألقى الله محبة الولد في قلب الأمير خالد. فالتفت الولد فرأى أمه فرمى نفسه عليها، فزنقه الأمير خالد في حضنه وقال لها: تعالي يا جارية. فلما جاءت قال لها: هذا الولد ابن من؟ فقالت له: هذا ولدي وثمرة فؤادي. فقال لها: ومن أبوه؟ فقالت: أبوه علاء الدين أبو الشامات، والآن صار ولدك. فقال لها: إن علاء الدين كان خائناً. فقالت: سلامته من الخيانة، حاشا وكلاّ أن يكون الأمين خائناً. فقال لها: إذا كبر هذا الولد وانتشأ وقال لك: من أبي؟ فقولي له: أنت ابن الأمير خالد الوالي صاحب الشرطة. فقالت له: سمعاً وطاعةً. ثم إن الأمير خالد الوالي طاهر الولد وربّاه وأحسن تربيته، وجاء له بفقيه خطاط فعلّمه الخط والقراءة. فقرأ وعاد وختم وطلع يقول للأمير خالد: يا والدي. وصار الوالي يعمل الميدان ويجمع الخيل وينزل يعلّم الولد أبواب الحرب ومقام الطعن والضرب إلى أن انتهى في الفروسية، وتعلم الشجاعة وبلغ من العمر أربع عشرة سنة ووصل إلى درجة الأمارة. فاتفق أن أصلان اجتمع مع أحمد قماقم السراق يوماً من الأيام وصارا أصحاباً فتبعه إلى الخمارة، وإذا بأحمد قماقم السراق أطلع المصباح الجوهر الذي أخذه من أمتعة الخليفة وحطّه قدّامه وتناول الكأس على نوره وسكر. فقال له أصلان: يا مقدّم، أعطني هذا المصباح؟ فقال له: ما أقدر أن أعطيك إياه. فقال له: لأي شيء؟ فقال له: لأنه راحت على شأنه الأرواح. فقال له: أي روح راحت على شأنه؟ فقال له: كان واحد جاءنا هنا وعمل رئيس الستين يسمى علاء الدين أبي الشامات ومات بسبب ذلك. فقال له: وما حكايته؟ وما سبب موته؟ فقال له: كان لك أخ يسمّى حبظلم بظاظة وبلغ من العمر ستة عشر عاماً حتى استحق الزواج وطلب أبوه أن يشتري له جارية وخبّره بالقصة من أولها إلى آخرها، وأعلمه بضعف حبظلم بظاظة، وما وقع لعلاء الدين ظلماً. فقال أصلان في نفسه: لعل هذه الجارية ياسمين أمي وما أبي إلاّ علاء الدين أبو الشامات. فطلع الولد أصلان من عنده حَزيناً فقابل المقدم أحمد الدنف، فلما رآه أحمد الدنف قال: سبحان من لا شبيه له. فقال له حسن شومان: يا كبيري، من أي شيء تتعجّب؟ فقال له: من خلقة هذا الولد أصلان، فإنه أشبه البرايا بعلاء الدين أبي الشامات. فنادى أحمد الدنف وقال: يا أصلان. فردّ عليه. فقال له: ما اسم أمك؟ فقال له تسمّى الجارية ياسمين. فقال له: يا أصلان، طب نفساً وقر عيناً فإنه ما أبوك إلاّ علاء الدين أبو الشامات، ولكن

يا ولدي أدخل على أمك واسألها عن أبيك . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم دخل على أمه وسألها . فقالت له : أبوك الأمير خالد . فقال لها : ما أبي إلاّ علاء الدين أبو الشامات . فبكت أمه وقالت له : من أخبرك بهذا يا ولدي ؟ فقال : المقدم أحمد الدنف اخبرني بذلك . فحكت له جميع ما جرى وقالت له : يا ولدي ، قد ظهر الحق واختفى الباطل . واعلم أن أباك علاء الدين أبو الشامات إلاّ أنه ما ربّاك إلاّ الأمير خالد وجعلك ولده . فيا ولدي إن اجتمعت بالمقدم أحمد الدنف قل له : يا كبيري ، سألتك بالله أن تأخذ لي ثأري من قاتل أبي علاء الدين أبي الشامات . فطلع من عندها وسار . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 266

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن أصلان طلع من عند أمه وسار إلى أن دخل على المقدم أحمد الدنف وقبّل يده فقال له : ما لك يا أصلان ؟ فقال له : إني قد عرفت وتحقّقت أن أبي علاء الدين أبو الشامات ، ومرادي أنك تأخذ لي ثأري من قاتله . فقال له : من الذي قتل أباك ؟ فقال له : أحمد قماقم السراق . فقال له : ومن أعلمك بهذا الخبر ؟ فقال : رأيت معه المصباح الجوهر الذي ضاع من جملة أمتعة الخليفة وقلت له : أعطني هذا المصباح فما رضي . وقال لي : هذا راحت على شانه الأرواح . وحكى لي إنه هو الذي نزل وسرق العملة ووضعها في دار أبي . فقال له أحمد الدنف : إذا رأيت الأمير خالد الوالي يلبس لباس الحرب فقل له : ألبسني مثلك . فإذا طلعت معه وأظهرت باباً من أبواب الشجاعة قدّام أمير المؤمنين ، فإن الخليفة يقول لك : تمنّ عليّ يا أصلان . فقل له : أتمنى عليك أن تأخذ لي ثأر أبي من قاتله . فيقول لك : إن أباك حي وهو الأمير خالد الوالي . فقل له : إن أبي علاء الدين أبو الشامات وخالد الوالي له عليّ حق التربية فقط . وأخبره بجميع ما وقع بينك وبين أحمد قماقم السراق وقل له : يا أمير المؤمنين ، أأمر بتفتيشه وأنا أخرجه من جيبه . فقال له : سمعاً وطاعةً . ثم طلع أصلان فوجد الأمير خالداً يتجهّز إلى طلوعه ديوان الخليفة فقال له : مرادي أن تلبسني لباس الحرب مثلك وتأخذني معك إلى ديوان الخليفة . فألبسه وأخذه معه إلى الديوان ، ونزل الخليفة بالعسكر خارج البلد ونصبوا الصواوين والخيام واصطفت الصفوف وطلعوا بالأكرة والصولجان . فصار الفارس منهم يضرب الأكرة بالصولجان فيردها عليه الفارس الثاني . وكان بين العسكر واحد جاسوس مغرى على قتل الخليفة ، فأخذ الأكرة وضربها بالصولجان وحرّرها على وجه الخليفة ، وإذا بأصلان استلقاها عن الخليفة وضرب بها راميها فوقعت بين أكتافه فوقع على الأرض . فقال الخليفة : بارك الله فيك يا أصلان . ثم نزلوا من على ظهور الخيل وقعدوا على الكراسي وأمر الخليفة بإحضار الذي ضرب الأكرة ، فلما حضر بين يديه قال له : من أغراك على هذا الأمر ؟ وهل أنت عدوٌّ أو حبيب ؟ فقال له : أنا عدو كنت مضمراً على قتلك . فقال له : ما سبب ذلك ؟ أما أنت مسلم ؟ فقال : لا . وإنما انا رافضيّ . فأمر الخليفة بقتله وقال لأصلان : تمنّ عليّ . فقال له : أتمنى عليك أن تأخذ لي ثأر أبي من قاتله . فقال له : إن أباك حي وهو واقف على رجليه . فقال له : من هو أبي ؟ فقال له : الأمير خالد الوالي . فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما هو إلاّ في التربية ، وما والدي إلاّ علاء الدين أبو الشامات . فقال له : إن أباك كان خائناً . فقال : يا أمير المؤمنين ، حاشا أن يكون الأمين خائناً ، وما الذي خانك فيه ؟ فقال له : سرق بدلتي وما معها .

فقال : يا أمير المؤمنين ، حاشا أن يكون أبي خائناً . ولكن يا سيدي لما عدمت بدلتك وعادت إليك ، هل رأيت المصباح رجع إليك أيضاً؟ فقال : ما وجدناه . فقال : أنا رأيته مع أحمد قماقم وطلبته منه فلم يعطه لي وقال : هذا راحت عليه الأرواح . وحكى لي عن ضعف حبظلم بظاظة بن الأمير خالد وعشقه للجارية ياسمين وخلاصه من القيد ، وإنه هو الذي سرق البدلة والمصباح . وأنت يا أمير المؤمنين ، تأخذ لي بثأر والدي من قاتله . فقال الخليفة : أقبضوا على أحمد قماقم . فقبضوا عليه . وقال : أين المقدم أحمد الدنف؟ فحضر بين يديه فقال له الخليفة : فتش قماقم . فحط يديه في جيبه فأطلع منه المصباح الجوهر . فقال الخليفة : تعال يا خائن ، من أين لك هذا المصباح ؟ قال له : اشتريته يا أمير المؤمنين . فقال له الخليفة : من أين اشتريته؟ ومن يقدر على مثله حتى يبيعه لك ؟ وضربوه فأقرّ أنه هو الذي سرق البدلة والمصباح . فقال له الخليفة : لأي شيء تفعل هذه الفعال يا خائن حتى ضيعت علاء الدين أبا الشامات وهو الثقة الأمين ؟ ثم أمر الخليفة بالقبض عليه وعلى الوالي . فقال الوالي : يا أمير المؤمنين أنا مظلوم ، وأنت أمرتني بشنقه ولم يكن عندي خبر هذا الملعوب . فإن التدبير كان بين العجوز وأحمد قماقم وزوجتي وليس عندي خبر ، وأنا في جيرتك يا أصلان . فشفع فيه أصلان عند الخليفة ، ثم قال أمير المؤمنين : ما فعل الله بأم هذا الولد؟ فقال له : عندي . فقال : أمرتك أن تأمر زوجتك أن تلبسها بدلتها وصيغتها وتردّها إلى سيادتها ، وأن تفك الختم الذي على بيت علاء الدين وتعطي إبنه رزقه وماله . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم نزل الوالي وأمر امرأته ، فألبستها بدلتها . وفك الختم عن بيت علاء الدين وأعطى أصلان المفاتيح . ثم قال الخليفة : تمنّ عليّ يا أصلان . فقال له : تمنيت عليك أن تجمع شملي بأبي . فبكى الخليفة وقال : الغالب إن أباك هو الذي شنق ومات ، ولكن وحياة جدودي كل من بشّرني بأنه على قيد الحياة أعطيته جميع ما يطلبه . فتقدم أحمد الدنف وقبّل الأرض بين يديه وقال له : أعطني الأمان يا أمير المؤمنين . فقال له : عليك الأمان . فقال : أبشرك أن علاء الدين أبا الشامات الثقة الأمين طيب على قيد الحياة . فقال له : ما الذي تقول ؟ فقال له : وحياة رأسك إن كلامي حق وفديته بغيره ممن يستحق القتل وأوصلته إلى الاسكندرية وفتحت له دكان سقطى . فقال الخليفة : ألزمتك أن تجيء به . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 267

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الخليفة قال لأحمد الدنف : ألزمتك أن تجيء به . فقال له : سمعاً وطاعةً . فأمر له الخليفة بعشرة آلآف دينار وسار متوجهاً إلى الإسكندرية . هذا ما كان من أمر أصلان . وأما ما كان من أمر والده علاء الدين أبي الشامات ، فإنه باع ما كان عنده في الدكان جميعها ولم يبقَ في الدكان إلاّ القليل وجراب . فنفض الجراب فنزلت منه خرزة تملأ الكف في سلسلة من الذهب ولها خمسة وجوه وعليها أسماء وطلاسم كدبيب النمل . فدعك الخمسة وجوه فلم يجاوبه أحد فقال في نفسه : لعلها خرزة من جزع . ثم علّقها في الدكان ، وإذا بقنصل فائت في الطريق فرفع بصره فرأى الخرزة معلقة ، فقعد على دكان علاء الدين وقال له : يا سيدي ، هل الخرزة للبيع ؟ فقال له : جميع ما عندي للبيع . فقال له : أتبيع لي إياها بثمانين ألف دينار ؟ فقال له علاء الدين : يفتح الله . فقال له : أتبيعها بمائة ألف دينار ؟ فقال : بعتها لك بمائة ألف دينار ، فانقدني الدنانير . فقال له القنصل : ما أقدر أن أحمل

ثمنها معي، والاسكندرية فيها حرامية وشرطية فأنت تروح معي إلى مركبي وأعطي لك الثمن ورزمة صوف أنجوري ورزمة أطلس ورزمة قطيفة ورزمة جوخ. فقام علاء الدين وقفل الدكان بعد أن أعطى له الخرزة، وأعطى المفاتيح لجاره وقال له: خذ هذه المفاتيح عندك أمانة حتى أروح إلى المركب مع هذا القنصل وأجيء بثمن خرزتي، فإن عوّقت عنك وورد عليك المقدم أحمد الدنف الذي كان وطّنني في هذا المكان، فاعطه المفاتيح واخبره بذلك. ثم توجه مع القنصل إلى المركب. فلما نزل به المركب نصب له كرسياً وأجلسه عليه وقال: هاتوا المال. فدفع له الثمن والخمس رزم التي وعده بها وقال له: يا سيدي، أقصد جبري بلقمة أو شربة ماء. فقال: إن كان عندك ماء فاسقني. فأمر بالشربات فإذا فيها بنج، فلما شرب انقلب على ظهره. فرفعوا الكراسي وحطوا المداري وحلوا القلوع وأسعفتهم الرياح حتى وصلوا إلى وسط البحر، فأمر القبطان بطلوع علاء الدين من العنبر. فطلّعوه وشمّموه ضد البنج ففتح عينيه وقال: أنا أين؟ فقال له: أنت معي مربوط وديعة، ولو كنت تقول يفتح الله لكنت أزيدك. فقال له علاء الدين: ما صناعتك؟ فقال له: أنا قبطان، ومرادي أن آخذك إلى حبيبة قلبي. فبينما هما في الكلام وإذا بمركب فيها أربعون من تجار المسلمين. فطلع القبطان بمركبه عليهم ووضع الكلاليب في مركبهم ونزل هو ورجاله فنهبوها وأخذوها وساروا بها إلى مدينة جنوة. فأقبل القبطان الذي معه علاء الدين إلى باب قيطون قصر، وإذا بصبيّة نازلة وهي ضاربة لثاماً فقالت له: هل جئت بالخرزة وصاحبها؟ فقال لها: جئت بهما. فقالت له: هات الخرزة. فأعطاها لها وتوجّه إلى المِينة ورمى مدافع السلامة. فعلم ملك المدينة بوصول ذلك القبطان فخرج إلى مقابلته وقال له: كيف كانت سفرتك؟ فقال له: كانت طيبة جداً، وقد كسبت فيها مركباً فيها واحد وأربعون من تجار المسلمين. فقال له: أخرجهم إلى المينة. فأخرجهم في الحديد ومن جملتهم علاء الدين، وركب الملك هو والقبطان ومشّوهم قدّامهم إلى أن وصلوا إلى الديوان فجلسوا وقدموا أول واحد. فقال له الملك: من أين يا مسلم؟ فقال: من الإسكندرية. فقال: يا سيّاف اقتله. فضربه السياف بالسيف فرمى رقبته. والثاني والثالث هكذا إلى تمام الأربعين. وكان علاء الدين في آخرهم فشرب حسرتهم وقال لنفسه: رحمة الله عليك يا علاء الدين فرغ عمرك. فقال له الملك: وأنت من أي البلاد؟ فقال: من الإسكندرية. فقال: يا سيّاف إرمِ عنقه. فرفع السيّاف يده بالسيف وأراد أن يرمي رقبة علاء الدين وإذا بعجوز ذات هيبة تقدّمت بين أيادي الملك. فقام إليها تعظيماً لها فقالت: يا ملك، أما قلت لك لما يجيء القبطان بالأسارى تذكّر الدير بأسير أو بأسيرين يخدمان في الكنيسة؟ فقال لها: يا أمي، ليتك سبقت بساعة. ولكن خذي هذا الأسير الذي فضّل. فالتفتت إلى علاء الدين وقالت له: هل أنت تخدم في الكنيسة أو أخلّي الملك يقتلك؟ فقال لها: أنا أخدم في الكنيسة. فأخذته وطلعت به من الديوان وتوجّهت إلى الكنيسة. فقال لها علاء الدين: ما أعمل من الخدمة؟ فقالت له: تقوم في الصبح وتأخذ خمسة بغال وتسير بها إلى الغابة وتقطع ناشف الحطب وتكسره وتجيء به إلى مطبخ الدير، وبعد ذلك تلمّ البسط وتكنّس وتمسح البلاط والرخام وترد الفرش مثل ما كان وتأخذ نصف أردب قمح وتغربله وتطحنه وتعجنه وتعمله منينات للدير، وتأخذ وجبة عدس تغربلها وتدشها وتطبخها ثم تملأ الأربع فساقي ماء وتحول بالبرميل وتملأ ثلاثمائة وستة وستين قصعة وتفت فيها المنينات وتسقيها

من العدس ،وتدخل لكل راهب أو بطرك قصعته . فقال لها علاء الدين : ردّيني إلى الملك وخلّيه يقتلني أسهل لي من هذه الخدمة . فقالت له : إن خدمت ووفيت الخدمة التي عليك خلصت من القتل ، وإن ما وفيت خلّيت الملك يقتلك . فقعد علاء الدين حامل الهمّ ، وكان في الكنيسة عشرة عميان مكسحين فقال له واحد منهم : هات لي قصرية . فأتى له بها ، فتغوط فيها وقال له : إرم الغائط ، فرماه . فقال له : يبارك فيك المسيح يا خدام الكنيسة . وإذا بالعجوز أقبلت وقالت له : لأي شيء ما وفيت الخدمة في الكنيسة ؟ فقال لها : أنا لي كم يد حتى أقدر على توفية هذه الخدمة ؟ فقالت له : يا مجنون ، أنا ما جئت بك إلاّ للخدمة . ثم قالت له : خذ يا ابني هذا القضيب ، وكان من النحاس وفي رأسه صليب ، واخرج إلى الشارع فإذا قابلك والي البلد فقل له : إني أدعوك إلى خدمة الكنيسة من أجل السيد المسيح . فإنه لا يخالفك ، فخلّيه يأخذ القمح ويغربله ويطحنه وينخله ويعجنه ويخبزه منينات . وكل من يخالفك أضربه ولا تخف من أحد . فقال : سمعاً وطاعةً . وعمل كما قالت . ولم يزل يسخر الأكابر والأصاغر مدة سبعة عشر عاماً ، فبينما هو قاعد في الكنيسة وإذا بالعجوز داخلة عليه فقالت له : إطلع إلى خارج الدير ؟ فقال لها : أين أروح ؟ فقالت له : بتّ هذه الليلة في خمارة أو عند واحد من أصحابك . فقال لها : لأي شيء تطرديني من الكنيسة ؟ فقالت له : إن حسن مريم بنت الملك يوحنا ملك هذه المدينة ، مرادها أن تدخل الكنيسة للزيارة ولا ينبغي أن يقعد أحد في طريقها . فامتثل كلامها وقام وأراها أنه رايح إلى خارج الكنيسة وقال في نفسه : يا هل ترى بنت الملك مثل نسواننا أو أحسن منهن ؟ فأنا لا أروح حتى أتفرّج عليها . فاستخفى في مخدع له طاقة تطل على الكنيسة ، فبينما هو ينظر في الكنيسة وإذا ببنت الملك مقبلة ، فنظر إليها نظرة أعقبته ألف حسرة لأنه وجدها كأنها البدر إذا بزغ من تحت الغمام ، وصحبتها صبيّة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 268

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن علاء الدين لما نظر إلى بنت الملك رأى صحبتها صبيّة وهي تقول لتلك الصبيّة : آنست يا زبيدة . فأمعن علاء الدين النظر في تلك الصبيّة فرآها زوجته زبيدة العودية التي كانت ماتت . ثم إن بنت الملك قالت لزبيدة : قومي اعملي لنا نوبة على العود . فقالت لها : أنا لا أعمل لك نوبة حتى تبلغيني مرادي وتفي لي بما وعدتني به . فقالت لها : ما الذي وعدتك به ؟ قالت لها : وعدتني بجمع شملي بزوجي علاء الدين أبي الشامات الثقة الأمين . فقالت لها : يا زبيدة ، طيبي نفساً وقرّي عيناً واعملي لنا نوبة حلاوة اجتماع شملنا بزوجك علاء الدين . فقالت لها : وأين هو ؟ فقالت لها : إنه في هذا المخدع يسمع كلامنا . فعملت نوبة على العود ترقص الحجر الجلمود ، فلما سمع ذلك علاء الدين هاجت بلابله وخرج من المخدع وهجم عليهما وأخذ زوجته زبيدة العودية بالحضن وعرفته ، فاعتنق الإثنان بعضهما ووقعا في الأرض مغشياً عليهما . فتقدّمت الملكة حسن مريم ورشّت عليهما ماء الورد وصحّتهما وقالت : جمع الله شملكما . فقال لها علاء الدين : على محبتك يا سيدتي . ثم التفت علاء الدين إلى زوجته زبيدة العودية وقال لها : أنت قد متّ يا زبيدة ودفناك في القبر ، فكيف حييت وجئت إلى هذا المكان ؟ فقالت له : يا سيدي ، أنا ما مت وإنما اختطفني عون من أعوان الجان وطار بي إلى هذا المكان . وأما التي دفنتموها فإنها جنيّة وتصوّرت في

صورتي وعملت أنها ميتة، وبعدما دفنتموها شقّت القبر وخرجت منه وراحت إلى خدمة سيدتها حسن مريم بنت الملك. وأما أنا فإني صرعت وفتحت عيني فرأيت نفسي عند حسن مريم بنت الملك وهي هذه. فقلت لها: لأي شيء جئت بي إلى هنا؟ فقالت لي: أنا موعودة بزواجي بزوجك علاء الدين أبي الشامات، فهل تقبليني يا زبيدة أن أكون ضرتك ويكون لي ليلة ولك ليلة؟ فقلت لها: سمعاً وطاعةً يا سيدتي. ولكن أين زوجي؟ فقالت: إنه مكتوب على جبينه ما قدّره الله عليه، فمتى استوفى ما على جبينه لا بدّ أن يجيء إلى هذا المكان. ولكن نتسلى على فراقه بالنغمات والضرب على الآلات حتى يجمعنا الله به. فمكثت عندها هذه المدة إلى أن جمع الله شملي بك في هذه الكنيسة. ثم إن حسن مريم التفتت إليه وقالت له: يا سيدي علاء الدين، هل تقبلني أن أكون لك أهلاً وتكون لي بعلاً؟ فقال لها: يا سيدتي، أنا مسلم وأنت نصرانية فكيف أتزوج بك؟ فقالت: حاشا لله أن أكون كافرة، بل أنا مسلمة ولي ثمانية عشر عاماً وأنا متمسّكة بدين الإسلام وإني بريئة من كل دين يخالف دين الإسلام. فقال لها: يا سيدتي، مرادي أن أروح بلادي. فقالت له: أعلم أني رأيت مكتوباً على جبينك أموراً لا بدّ أن تستوفيها وتبلغ غرضك. ويهنيك يا علاء الدين أنه ظهر لك ولداً اسمه أصلان وهو الآن جالس في مرتبتك عند الخليفة، وقد بلغ من العمر ثمانية عشر عاماً. واعلم أنه ظهر الحق واختفى الباطل. وربنا كشف الستر عن الذي سرق أمتعة الخليفة وهو أحمد قماقم السراق الخائن وهو الآن في السجن محبوس ومقيّد. واعلم أني أنا التي أرسلت إليك الخرزة ووضعتها لك في داخل الجراب الذي في الدكان، وأنا التي أرسلت القبطان وجاء بك وبالخرزة. واعلم أن هذا القبطان متعلّق بي ويطلب مني الوصال، فما رضيت أن أمكّنه من نفسي بل قلت له: لا أمكّنك من نفسي إلاّ إذا جئت لي بالخرزة وصاحبها. وأعطيته مائة كيس وأرسلته في صفة تاجر وهو قبطان. ولما قدموك إلى القتل بعد قتل الأربعين الأسارى الذين كنت معهم، أرسلت إليك هذه العجوز. فقال لها: جزاك الله عني كل خير. ثم إن حسن مريم جدّدت إسلامها على يديه. ولما عرف صدق كلامها قال لها: أخبريني على فضيلة هذه الخرزة ومن أين هي؟ فقالت: هذه خرزة من كنز، مرصود فيها خمس فضائل تنفعنا عند الإحتياج إليها. وإن جدتي أم أبي كانت ساحرة تحل الرموز وتختلس ما في الكنوز، فوقعت لها هذه الخرزة من كنز. فلما كبرت أنا وبلغت من العمر أربعة عشر عاماً قرأت الإنجيل وغيره من الكتب فرأيت إسم محمد ﷺ في الأربعة كتب: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. فآمنت بمحمد وأسلمت وتحقّقت بعقلي أنه لا يعبد بحق إلاّ الله تعالى، وأن رب الآنام لا يرضى إلاّ دين الإسلام. وكانت جدتي حين ضعفت وهبت لي هذه الخرزة وعلّمتني بما فيها من الخمس فضائل. وقبل أن تموت جدتي قال لها أبي: أضربي لي تخت رمل وانظري عاقبة أمري وما يحصل لي. فقالت له: إن البعيد يموت قتيلاً من أسير يجيء من الإسكندرية. فحلف أبي أنه يقتل كل أسير يجيء منها وأخبر القبطان بذلك وقال له: لا بدّ أن تهجم على مراكب المسلمين، وكل من رأيته من الإسكندرية تقتله أو تجيء به إليّ. فامتثل أمره حتى قتل عدد شعر رأسه. ثم هلكت جدتي فطلعت أنا وضربت لي تخت رمل وأضمرت ما في نفسي وقلت: يا هل ترى من يتزوج بي؟ فظهر لي أنه ما يتزوّج بي إلاّ واحد يسمّى علاء الدين أبا الشامات الثقة الأمين. فتعجّبت من ذلك وصبرت إلى أن آن الأوان واجتمعت بك. ثم إنه

تزوج بها وقال لها : أنا مرادي أن أروح إلى بلادي . فقالت له : إذا كان الأمر كذلك فتعال معي . ثم أخذته وخبأته في مخدع قصرها ودخلت على أبيها . فقال لها : يا بنتي ، أنا عندي اليوم قبض زائد فاقعدي حتى أسكر معك . فقعدت ، ودعا بسفرة المدام وصارت تملأ وتسقيه حتى غاب عن الوجود ، ثم إنها وضعت له البنج في قدح ، فشرب القدح وانقلب على قفاه . ثم جاءت إلى علاء الدين وأخرجته من المخدع وقالت له : إن خصمك مطروح على قفاه فافعل به ما شئت ، فإني أسكرته وبنّجته . فدخل علاء الدين فرآه مبنّجاً فكتّفه تكتيفاً وثيقاً وقيّده ، ثم أعطاه ضد البنج فأفاق منه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 269

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن علاء الدين أعطى الملك أبا حسن مريم ضد البنج فأفاق ، فوجد علاء الدين وابنته راكبين على صدره فقال لها : يا بنتي ، أتفعلين معي الفعال ؟ فقالت له : إن كنت بنتك فأسلم لأنني أسلمت ، وقد تبين لي الحق فاتبعته والباطل فاجتنبته . وقد أسلمت وجهي لله رب العالمين وإنني بريئة من كل دين يخالف دين الإسلام في الدنيا والآخرة ، فإن أسلمت فحباً وكرامةً وإلاّ فقتلك أولى من حياتك . ثم نصحه أيضاً علاء الدين فأبى وتمرّد ، فسحب علاء الدين خنجراً ونحره من الوريد إلى الوريد وكتب ورقة بصورة الذي جرى ووضعها على جبهته وأخذا ما خفّ حمله وغلا ثمنه وطلعا من القصر وتوجها إلى الكنيسة . فأحضرت الخرزة وحطت يدها على الوجه الذي هو منقوش عليه السرير ودعكته ، وإذا بسرير وضع قدّامها ، فركبت هي وعلاء الدين وزوجته زبيدة العودية على ذلك السرير وقالت : بحق ما كتب على هذه الخرزة من الأسماء والطلاسم وعلوم الاقلام أن ترتفع بنا يا سرير . فارتفع بهم السرير وسار إلى وادٍ لا نبات فيه . فقامت الأربعة وجوه الباقية من الخرزة إلى السماء وقلبت الوجه المرسوم عليه السرير فنزل إلى الأرض ، وقلبت الوجه المرسوم عليه هيئة صيوان ودعكته وقالت : لينتصب صيوان في هذا الوادي . فانتصب الصيوان وجلسوا فيه . وكان ذلك الوادي أقفر لا نبات فيه ولا ماء ، فقلبت الأربعة وجوه إلى السماء وقالت : بحق أسماء الله تنبت هنا أشجار ويجري بجانبها بحر . فنبتت الأشجار في الحال وجرى بجانبها بحر عجاج متلاطم بالأمواج ، فتوضؤوا منه وصلّوا وشربوا . وقلبت الثلاثة وجوه الباقية من الخرزة إلى الوجه الذي على هيئة سفرة الطعام وقالت : بحق أسماء الله يمد السماط . وإذا بسماط امتد وفيه سائر الأطعمة الفاخرة فاكلوا وشربوا وتلذّذوا وطربوا . هذا ما كان من أمرهم . وأما ما كان من أمر ابن الملك ، فإنه دخل ينبّه أباه فوجده قتيلاً ، ووجد الورقة التي كتبها علاء الدين فقرأها وعرف ما فيها . ثم فتّش على أخته فلم يجدها . فذهب إلى العجوز في الكنيسة وسألها عنها فقالت : من أمس ما رأيتها . فعاد إلى العسكر وقال لهم : الخيل يا أربابها . وأخبرهم بالذي جرى . فركبوا الخيل وسافروا إلى أن قربوا من الصيوان . فالتفتت حسن مريم فرأت الغبار قد سدّ الأقطار ، وبعد أن علا وطار انكشف فظهر من تحته أخوها والعسكر وهم ينادون : إلى أين تقصدون ونحن وراءكم ؟ فقالت الصبيّة لعلاء الدين : كيف ثباتك في الحرب والنزال ؟ فقال لها : مثل الوتد في النخال ، فإني لا أعرف الحرب والكفاح ولا السيوف والرماح . فسحبت الخرزة ودعكت الوجه المرسوم عليه صورة الفرس والفارس ، وإذا بفارس ظهر من البر ولم يزل فيهم

ضرباً بالسيف إلى أن كسرهم وطردهم . ثم قالت له : أتسافر إلى مصر أو إلى الإسكندرية ؟ فقال : إلى الإسكندرية . فركبوا على السرير وعزمت عليه فسار بهم في لحظة إلى أن نزلوا في الإسكندرية ، فأدخلهم علاء الدين في مغارة وذهب إلى الإسكندرية فأتاهم بثياب وألبسهم إياها وتوجّه بهم إلى الدكان والطبقة . ثم طلع يجيء لهم بغداء وإذا بالمقدّم أحمد الدنف قادم من بغداد فرآه في الطريق ، فقابله بالعناق وسلّم عليه ورحّب به . ثم إن المقدم أحمد الدنف بشّره بولده أصلان وإنه بلغ من العمر عشرين عاماً . وحكى له علاء الدين جميع ما جرى له من الأول إلى الآخر ، وأخذه إلى الدكان والطبقة . فتعجّب أحمد الدنف من ذلك غاية العجب وباتوا تلك الليلة . ولما أصبحوا ، باع علاء الدين الدكان ووضع ثمنه على ما معه . ثم إن أحمد الدنف أخبر علاء الدين بأن الخليفة يطلبه . فقال له : أنا رايح إلى مصر أسلّم على أبي وأمي وأهل بيتي . فركبوا السرير جميعاً وتوجّهوا إلى مصر السعيدة ونزلوا في الدرب الأصفر لأن بيتهم كان في تلك الحارة ، ودقّ باب بيتهم . فقالت أمه : من بالباب بعد فقد الأحباب ؟ فقال لها : أنا علاء الدين . فنزلوا وأخذوه بالأحضان ، ثم أدخل زوجته وما معه في البيت . وبعد ذلك دخل وأحمد الدنف صحبته وأخذوا لهم راحة ثلاثة أيام . ثم طلب السفر إلى بغداد . فقال له : يا ولدي إجلس عندي . فقال : ما أقدر على فراق ولدي أصلان . ثم إنه أخذ أباه وأمه معه وسافروا إلى بغداد . فدخل أحمد الدنف وبشّر الخليفة بقدوم علاء الدين وحكى له حكايته . فطلع الخليفة لملتقاه وأخذ معه ولده أصلان وقابلوه بالأحضان ، وأمر الخليفة بإحضار أحمد قماقم السراق . فلما حضر بين يديه قال لعلاء الدين : دونك وخصمك . فسحب علاء الدين السيف وضرب أحمد قماقم فرمى عنقه . ثم إن الخليفة عمل لعلاء الدين فرحاً عظيماً بعد أن حضر القضاة والشهود وكتب كتابه على حسن مريم ، ولما دخل عليها وجدها درّة لم تثقب . ثم جعل ولده أصلان رئيس الستين وخلع عليهم الخلع السنيّة . وأقاموا في أرغد عيش وأهناه إلى أن أتاهم هادم اللذّات ومفرق الجماعات .

14 – حكاية حاتم الطائي

وأما حكايات الكرام فإنها كثيرة جداً . منها : ما روي عن حاتم الطائي أنه لما مات دفن في رأس جبل وعملوا على قبره حوضين من حجر وصور بنات محللات الشعور من حجر . وكان تحت ذلك الجبل نهر جار ، فإذا نزلت الوفود يسمعون الصراخ في الليل من العشاء إلى الصباح ، فإذا أصبحوا لم يجدوا أحداً غير البنات المصورة من الحجر . فلما نزل ذو الكراع ملك حمير بذلك الوادي خارجاً عن عشيرته ، بات تلك الليلة هناك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 270

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ذا الكراع لما نزل بذلك الوادي بات الليلة هناك وتقرّب من ذلك الموضع فسمع الصراخ فقال : ما هذا العويل الذي فوق هذا الجبل ؟ فقالوا له : إن هذا قبر حاتم الطائي ، وإن عليه حوضين من حجر وصور بنات من حجر محلولات الشعور ، وكل ليلة يسمع النازلون في هذا المكان هذا العويل والصراخ . فقال ذو الكراع ملك حمير يهزأ بحاتم الطائي : يا حاتم ، نحن الليلة ضيوفك ونحن خماص . فغلب

عليه النوم ثم استيقظ وهو مرعوب وقال : يا عرب إلحقوني وأدركوا راحلتي . فلما جاؤوه وجدوا الناقة تضطرب فنحروها وشووا لحمها وأكلوا . ثم سألوه عن سبب ذلك فقال : إني نمت فرأيت حاتماً الطائي في المنام قد جاءني بسيف وقال : جئتنا ولم يكن عندنا شيء وعقر ناقتي بالسيف ، ولو لم ينحروها لماتت . فلما أصبح الصباح ركب ذو الكراع راحلة واحد من أصحابه ثم أردفه خلفه ، فلما كان وسط النهار رأوا راكباً على راحلة وفي يده راحلة أخرى فقالوا له : من أنت؟ قال : أنا عديّ بن حاتم الطائي . ثم قال : أين ذو الكراع أمير حمير؟ فقالوا له : هذا هو . فقال له : إركب هذه الناقة عوضاً عن راحلتك فإن ناقتك قد نحرها أبي لك . قال : ومن أخبرك؟ قال : أتاني في المنام في هذه الليلة وقال لي : يا عدي ، إن ذا الكراع ملك حمير استضافني فنحرت له ناقته فأدركه بناقة يركبها ، فإني لم يكن عندي شيء . فأخذها ذو الكراع وتعجّب من كرم حاتم حياً وميتاً . ومن حكايات الكرام أيضاً ما يروى عن معن بن زائدة أنه كان يوماً من الأيام في الصيد والقنص ، فعطش فلم يجد مع غلمانه ماء . فبينما هو كذلك وإذا بثلاث جوار قد أقبلن عليه حاملات ثلاث قرب ماء . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

15 – حكاية معن بن زائدة

فلما كانت الليلة 271

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجواري أقبلن على معن حاملات ثلاث قرب ماء فاستسقاهن فأسقينه ، فطلب شيئاً من غلمانه ليعطيه للجواري فلم يجد معهم مالاً ، فدفع لكل واحدة منهن عشرة أسهم من كنانته نصولها من الذهب . فقالت إحداهن لصاحبتها : لم تكن هذه الشمائل إلاّ لمعن بن زائدة ، فلتقل كل واحدة منكن شيئاًمن الشعر مدحاً فيه . فقالت الأولى : [من الوافر]

يُرَكِّبُ في السِّهامِ نُصُولَ تِبْرٍ ... ويَرْمِي لِلْعِدَى كَرَماً وجُودا
فَلِلْمَرْضَى عِلاجٌ مِنْ جِراحٍ ... وأَكْفانٌ لِمَنْ سَكَنَ اللَّحُودا

وقالت الثانية : [من الكامل]

ومُحارِبٍ مِنْ فَرْطِ جُودِ بَنانِه ... عَمَّتْ مَكارِمُهُ الأَحِبَّةَ والعِدَى
صِيغَتْ نُصُولُ سِهامِهِ مِنْ عَسْجَدٍ ... كَيْ لا تُعَوِّقَهُ الحُرُوبُ عَنِ النَّدَى

وقالت الثالثة : [من الطويل]

ومِنْ جُودِهِ يَرْمِي العِداةَ بأَسْهُمٍ ... مِنَ الذَّهَبِ الإِبْرِيزِ صِيغَتْ نُصُولُها
لِيُنْفِقَها المَجْرُوحُ عِنْدَ دَوائِه ... لِيَشْتَرِيَ الأَكْفانَ مِنْها قَتِيلُها

وقيل : إن معن بن زايدة خرج في جماعة إلى الصيد ، فقرب منهم قطيع ظباء فافترقوا في طلبه وانفرد معن خلف ظبي ، فلما ظفر به نزل فذبحه . فرأى شخصاً مقبلاً من البرية على حمار ، فركب فرسه واستقبله فسلّم عليه وقال له : من أين أتيت؟ قال له : أتيت من أرض قضاعة وإن لها مدة من السنين مجدبة ، وقد أخصبت في هذه السنة فزرعت فيها مقاتاً فطرحت في غير وقتها ، فجمعت منها ما استحسنته من القثاء وقصدت الأمير معناً بن زائدة لكرمه المشهور ومعروفه المأثور . فقال له : كم أملت منه؟ قال : ألف دينار . فقال له : فإن قال لك هذا القدر كثير؟ قال :

خمسمائة دينار . قال : فإن قال لك كثير . قال : ثلاثمائة دينار . قال : فإن قال لك كثير . قال : مائتا دينار . قال : فإن قال لك كثير . قال : مائة دينار . قال : فإن قال لك كثير . قال : خمسين ديناراً . قال : فإن قال لك كثير . قال : ثلاثين ديناراً . قال : فإن قال لك كثير . قال : أدخلت قوائم حماري في حرمه ورجعت إلى أهلي صفر اليدين . فضحك معن من كلامه وساق جواده حتى لحق بعسكره ونزل في منزله وقال لحاجبه : إذا أتاك شخص على حمار بقثاء فادخله عليّ . فأتى ذلك الرجل بعد ساعة فأذن له الحاجب بالدخول ، فلما دخل على الأمير معن لم يعرف أنه الذي قابله في البرية لهيبته وجلالته وكثرة خدمه وحشمه ، وهو متصدّر في دست مملكته والحفدة قيام عن يمينه وعن شماله وبين يديه . فلما سلّم عليه قال له الأمير : ما الذي أتى بك يا أخا العرب ؟ قال : أملت الأمير وأتيت له بقثاء في غير أوانها . فقال له : كم أملت منا ؟ قال : ألف دينار . قال : هذا القدر كثير . قال : خمسمائة دينار . قال : كثير . قال : ثلاثمائة دينار . قال : كثير . قال : مائتا دينار . قال : كثير . قال : مائة دينار . قال : كثير . قال : خمسين ديناراً . قال : كثير . قال : ثلاثين ديناراً . قال : كثير . قال : والله لقد كان ذا الرجل الذي قابلني في البرية مشؤوماً ، أفلا أقل من ثلاثين ديناراً ! فضحك معن وسكت . فعلم الأعرابي أنه هو الرجل الذي قابله في البرية فقال له : يا سيدي ، إذا لم تجيء بالثلاثين ديناراً ، فها هو الحمار مربوط بالباب وها معن جالس . فضحك معن حتى استلقى على قفاه ، ثم استدعى بوكيله وقال : أعطه ألف دينار وخمسمائة دينار وثلاثمائة دينار ومائتا دينار ومائة دينار وخمسين ديناراً وثلاثين ديناراً ودع الحمار مربوطاً مكانه . فبهت الأعرابي ، وتسلّم الألفين ومائة دينار وثمانين ديناراً . فرحمة الله عليهم أجمعين .

16 – حكاية بلدة لبطة

وبلغني أيها الملك السعيد ، أن بلدة يقال لها : لبطة . وكانت دار مملكة بالروم وكان فيها قصر مقفول دائماً . وكلما مات ملك وتولى بعده ملك آخر من الروم ، رمى عليه قفلاً محكماً . فاجتمع على الباب أربعة وعشرون قفلاً ، من كل ملك قفل . ثم تولّى بعدهم رجل ليس من أهل بيت المملكة ، فأراد فتح تلك الأقفال ليرى ما داخل ذلك القصر . فمنعه من ذلك أكابر الدويلة وأنكروا عليه وزجروه ، فأبى وقال : لا بدّ من فتح ذلك القصر . فبذلوا له جميع ما بأيديهم من نفائس الأموال والذخائر على عدم فتحه ، فلم يرجع . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 272

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن أهل المملكة بذلوا لذلك الملك جميع ما في أيديهم من الأموال والذخائر على فتح ذلك القصر فلم يرجع عن فتحه . ثم إنه أزال الأقفال وفتح الباب فوجد فيه صور العرب على خيلها وجمالها وعليهم العمائم المسبلة وهم مقلّدون بالسيوف وبأيديهم الرماح الطوال ووجد كتاباً فيه . فأخذ الكتاب وقرأه فوجد مكتوباً : إذا فتح هذا الباب يغلب على هذه الناحية قوم من العرب وهم على هيئة هذه الصورة . فالحذر ثم الحذر من فتحه . وكانت تلك المدينة بالأندلس ، ففتحها طارق بن زياد في تلك السنة في خلافة الوليد بن عبد الملك من بني أمية ، وقتل ذلك الملك أقبح قتلة ونهب بلاده

وسبى من بها من النساء والغلمان وغنم أموالها ووجد فيها ذخائر عظيمة، فيها ما ينوف عن مائة وسبعين تاجاً من الدرّ والياقوت، ووجد فيها أحجاراً نفيسة وإيواناً ترمح فيه الخيل برماحهم، ووجد بها من أواني الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف، ووجد بها المائدة التي كانت لنبي الله سليمان بن داود عليهما السلام. وكانت على ما ذكر من زمرد أخضر، وهذه المائدة إلى الآن باقية في مدينة روما وأوانيها من الذهب وصحافها من الزبرجد ونفيس الجواهر، ووجد بها الزبور مكتوباً بخط يوناني في ورق من الذهب مفصّص بالجواهر، ووجد فيها كتاباً يذكر فيه منافع الأحجار والنبات والمداين والقرى والطلاسم وعلم الكيمياء من الذهب والفضة، ووجد كتاباً آخر يحكي فيه صناعة صياغة اليواقيت والأحجار وتركيب السموم والترياقات وصورة شكل الأرض والبحار والبلدان والمعادن، ووجد فيها قاعة كبيرة ملآنة من الاكسير الذي الدرهم منه يقلب ألف درهم من الفضة ذهباً خالصاً، ووجد بها مرآة كبيرة مستديرة عجيبة مصنوعة من أخلاط صنعت لنبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، إذا نظر الناظر فيها رأى الأقاليم السبعة عياناً. ووجد فيها ليواناً فيه من الياقوت البهرماني ما لا يحيط به وصف. فحمل ذلك كله إلى الوليد بن عبد الملك وتفرّق العرب في مدنها وهي من أعظم البلاد.

17 – حكاية الخليفة والأعرابي

ومما يحكى أيضاً: أن هشام بن عبد الملك بن مروان كان ذهب إلى الصيد في بعض الأيام فنظر إلى ظبي فتبعه بالكلاب، فبينما هو خلف الظبي إذ نظر إلى صبي من الأعراب يرعى غنماً. فقال هشام لبعض غلمانه: يا غلام دونك هذا الصبي فأتني به. فرفع رأسه إليه وقال: يا جاهل بقدر الأخيار، لقد نظرت إليّ بالاستصغار وكلمتني بالاحتقار فكلامك كلام جبار وفعلك فعل حمار. فقال له هشام: ويلك، أما تعرفني؟ فقال: قد عرفني بك سوء أدبك إذ بدأتني بكلامك دون سلامك. فقال له: ويلك، أنا هشام بن عبد الملك. فقال له الأعرابي: لا قرّب الله ديارك ولا حيّ مزارك فما أكثر كلامك وأقل إكرامك. فما استتمّ كلامه حتى أحدقت به الجند من كل جانب وكل واحد منهم يقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال هشام: أقصروا عن هذا الكلام واحفظوا هذا الغلام. فقبضوا عليه. فلما رأى الغلام كثرة الحجّاب والوزراء وأرباب الدولة، لم يكترث بهم ولم يسأل عنهم بل جعل ذقنه على صدره ونظر حيث يقع قدمه إلى أن وصل إلى هشام، فوقف بين يديه ونكس رأسه إلى الأرض وسكت عن السلام وامتنع من الكلام. فقال له بعض الخدام: يا كلب العرب، ما منعك أن تسلم على أمير المؤمنين؟ فالتفت إلى الخادم مغضباً وقال: يا برذعة الحمار، منعني من ذلك طول الطريق وصعود الدرجة والتعريق. فقال هشام وقد تزايد به الغضب: يا صبي، لقد حضرت في يوم حضر فيه أجلك وغاب عنك أملك وانصرف عمرك. فقال: والله يا هشام، لئن كان في المدة تأخير ولم يكن في الأصل تقصير، فما ضرّني من كلامك لا قليل ولا كثير. فقال له الحاجب: هل بلغ من مقامك يا أخسّ العرب أن تخاطب أمير المؤمنين كلمة بكلمة؟ فقال مسرعاً: لقيت الخبل ولا فارقك الويل والهبل. أما سمعت ما قال الله تعالى: يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها. فعند ذلك اغتاظ هشام غيظاً شديداً وقال: يا سيّاف، عليّ برأس هذا الغلام فإنه أكثر الكلام ولم تخش الملام.

فأخذ الغلام ونزل به إلى نطع الدم وسلّ سيفه على رأسه وقال : يا أمير المؤمنين ، هذا عبدك المدل بنفسه الصائر إلى رمسه هل أضرب عنقه وأنا بريء من دمه ؟ قال : نعم . فاستأذن ثانياً فأذن له ، فاستأذن ثالثاً ففهم الفتى أنه اذن له في هذه المرة بقتله ، فضحك حتى بدت نواجزه . فازداد هشام غضباً وقال : يا صبي أظنك معتوهاً ، أما ترى أنك مفارق الدنيا فكيف تضحك هزءاً بنفسك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لئن كان في العمر تأخير لا يضرّني قليل ولا كثير ، ولكن حضرتني أبيات فاسمعها فإن قتلي لا يفوتك . فقال هشام : أوجز هات . فأنشد هذه الأبيات : [من الكامل]

نُبِّئْتُ أَنَّ البازَ صادَفَ مَرَّةً ... عُصفُورَ حَقْلٍ ساقَهُ المَقْدُورُ
فَتَـكَلَّمَ العُصْفُورُ في أَظْفارِهِ ... والبازُ مُنْهَمِكٌ عَلَيْهِ يَطِيرُ
ما فيَّ ما يُغْنِي لِمِثْلِك شَبْعَةٌ ... ولَئِنْ أُكِلْتُ فإِنَّني لَحَقِيرُ
فَتَبَسَّمَ البازُ المُدِلُّ بِنَفْسِهِ ... عَجَباً وأَفْلَتَ ذلكَ العُصْفُورُ

فتبسّم هشام وقال : وحق قرابتي من رسول الله ﷺ لو تلفّظ بهذا اللفظ في أول كلامه وطلب ما دون الخلافة لأعطيته إياه . يا خادم ، أحش فاهه جوهراً ، وأحسن جائزته . فأعطاه الخادم صلة عظيمة فأخذها وانصرف إلى حال سبيله . انتهى .

18 - حكاية إبراهيم بن المهدي

ومن لطيف الحكايات أن ابراهيم بن المهدي أخي هارون الرشيد ، لما آل أمر الخلافة إلى المأمون ابن أخيه هارون الرشيد لم يبايعه بل ذهب إلى الري وادّعى الخلافة لنفسه وأقام على ذلك سنة واحدة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً . وابن أخيه المأمون يتوقّع منه العود إلى الطاعة وانتظامه في سلك الجماعة حتى يئس من عوده . فركب بخيله ورجله وذهب إلى الري ، فلما بلغ إبراهيم الخبر لم يسعه إلاّ أنه ذهب إلى بغداد واختفى خوفاً على دمه . فجعل المأمون لمن يدل عليه مائة ألف دينار . قال ابراهيم : لما سمعت بهذه الجعالة خفت على نفسي . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 273

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ابراهيم قال : لما سمعت بهذه الجعالة خفت على نفسي وتحيّرت في أمري ، فخرجت من داري وقت الظهيرة وأنا لا أدري أين أتوجه . فدخلت شارعاً غير نافذ فرأيت في صدر الدرب رجلاً حلاّقاً قائماً على باب داره ، فتقدمت إليه وقلت له : هل عندك موضع أختفي فيه ساعة ؟ قال : نعم . وفتح الباب فدخلت إلى بيت نظيف . ثم إنه بعد أن أدخلني ، أغلق عليّ الباب ومضى . فتوهّمت أنه سمع بالجعالة فقلت في نفسي : إنه خرج يدل عليّ . فبقيت أغلي مثل القدر على النار وأنا متفكّر في أمري . فبينما أنا كذلك إذ أقبل وصحبته حمال معه كل ما يحتاج إليه ، ثم التفت إليّ وقال لي : جعلت فداك . قال ابراهيم : وكان لي حاجة إلى الطعام فطبخت لنفسي قدراً ما أذكر أني أكلت مثلها ، فلما قضيت أربي من الطعام قال : يا سيدي ، ليس من قدري أني أحادثك ، فإن أردت أن تشرّف عبدك فلك علو الرأي . فقلت له وما أظن أنه يعرفني : ومن أين لك أني أحسن المسامرة ؟

فقال : سبحان الله ، مولانا أشهر من ذلك . أنت سيدي ابراهيم بن المهدي الذي جعل فيك المأمون لمن دلّ عليك مائة ألف دينار . قال ابراهيم : فلما قال ذلك ، عظم في عيني وثبتت مروءته عندي فوافقته على بغيته . وخطر ببالي ذكر ولدي وعيالي فجعلت أقول : [من الكامل]

وعَسَى الَّذي أَهْدَى لِيُوسُفَ أَهْلَهُ ... وأَعَزَّهُ في السِّجْنِ وهُوَ أَسيرُ
أَنْ يَسْتَجِيبَ لَنا ويَجْمَعَ شَمْلَنا ... واللهُ رَبُّ العالَمِينَ قَدِيرُ

فلما سمع ذلك مني قال : يا سيدي ، أتأذن لي أن أقول ما سنح بخاطري ؟ فقلت له : هات . فأنشد هذه الأبيات : [من الطويل]

شَكَوْنا إلى أَحْبابِنا طُولَ لَيْلِنا ... فَقالُوا لنا : ما أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنا
وذاكَ لأنَّ النَّوْمَ يَغْشَى عُيُونَنا ... سَرِيعاً ولا يَغْشَى الهَناءُ قُلُوبَنا
إذا ما دَنا اللَّيْلُ المُضِرُّ بِذي الهَوَى ... جَزِعْنا وهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ إذا دَنا
فَلَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يُلاقُونَ مِثْلَ ما ... نُلاقِي لَكانُوا في المَضاجِعِ مِثْلَنا

قال ابراهيم : فقلت له : لقد أحسنت كل الإحسان وأذهبت عني ألم الأحزان ، فزدني من هذه النزهات . فأنشد هذه الأبيات : [من الطويل]

تُعَيِّرُنا أَنّا قَلِيلٌ عَدِيدُنا ... فَقُلْتُ لَها : إنَّ الكِرامَ قَلِيلُ
وما ضَرَّنا أَنّا قَلِيلٌ وجارُنا ... عَزِيزٌ وجارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ
وإنّا لَقَوْمٌ لا نَرَى القَتْلَ سُنَّةً ... إذا ما رَأَتْهُ عامِرٌ وسَلُولُ
يُقَرِّبُ حُبُّ المَوْتِ آجالَنا لنا ... وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فَتَطُولُ
ونُنْكِرُ إنْ شِئْنا عَلى النّاسِ قَوْلَهُمْ ... ولا يُنْكِرُونَ القَوْلَ حِينَ نَقُولُ

قال إبراهيم : فلما سمعت منه هذا الشعر ، تعجّبت منه غاية العجب ومال بي عظيم الطرب ، وأخذت خريطة كانت صحبتي فيها دنانير كثيرة ورميت بها إليه وقلت له : أستودعك الله فإني متوجه من عندك وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهماتك ولك عندي الجزاء الزائد إذا آمنت من خوفي . فرد عليّ الخريطة وقال : يا سيدي ، إن الصعاليك منا لا قدر لهم عندكم ، ولكن بمقتضى مروءتي كيف آخذ ثمناً على ما وهبه لي الزمان من قربك وحلولك عندي ؟ والله لئن راجعتني في هذا الكلام ورميت بالخريطة إليّ مرة أخرى لأقتلن نفسي . قال ابراهيم : فأخذت الخريطة في كمي وقد أثقلني حملها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 274

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ابراهيم بن المهدي قال : فأخذت الخريطة في كمي وقد أثقلني حملها وانصرفت ، فلما انتهيت إلى باب داره قال : يا سيدي ، هذا المكان أخفى لك من غيره وليس عليّ في مؤونتك ثقل ، فأقم عندي إلى أن يفرج الله عنك . فقلت له : بشرط أن تنفق من تلك الخريطة . فأوهمني الرضى بذاك الشرط . ثم أقمت عنده أياماً على تلك الحالة ولم يصرف من الخريطة شيئاً . ثم تزيّيت بزي النساء كالخف والنقاب

وخرجت من داره ، فلما صرت في الطريق داخلني من الخوف أمر شديد وجئت لأعبر الجسر وإذا أنا بموضع مرشوش ، فنظرني جندي ممن كان يخدمني فعرفني وصاح وقال : هذه حاجة المأمون . ثم تعلّق بي ، فدفعته هو وفرسه ورميتهما في ذلك الزلق وصار عبرة لمن اعتبر . وتبادرت الناس إليه ، فاجتهدت أنا في مشيتي حتى قطعت الجسر ثم دخلت شارعاً فوجدت باب دار وامرأة واقفة في دهليز . فقلت : يا سيدتي ، احقني دمي فإني رجل خائف . فقالت : لا بأس عليك . وأطلعتني إلى غرفة وفرشت لي فيها وقدّمت لي طعاماً وقالت لي : ليهدأ روعك . فبينما هي كذلك وإذا بالباب يدق دقاً عنيفاً ، فخرجت وفتحت الباب وإذا بصاحبي الذي دفعته على الجسر مقبل وهو مشدود الرأس ودمه يجري على ثيابه وليس معه فرسه فقالت له : يا هذا ما دهاك ؟ فقال : كنت ظفرت بالفتى وانفلت مني . وأخبرها بالحال . فأخرجت خرقة وعصبت بها رأسه وفرشت له ونام عليلاً . ثم طلعت إلي وقالت لي : أظنك صاحب القضية . فقلت لها : نعم . فقالت : لا بأس عليك . ثم جددت لي الكرامة فأقمت عندها ثلاثة أيام ثم قالت : إني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع عليك فتقع فيما تخافه فانج بنفسك . فسألتها المهلة إلى الليل فقالت : لا بأس بذلك . فلما دخل الليل ، لبست زِيّ النساء وخرجت من عندها فأتيت إلى بيت مولاة كانت لنا . فلما رأتني بكت وتوجّعت وحمدت الله تعالى على سلامتي وخرجت كأنها تريد السوق للاهتمام بالضيافة ، فما شعرت إلاّ وابراهيم الموصلي مقبل في غلمانه وجنده وامرأة قدامهم ، فتأملتها فإذا هي المولاة صاحبة الدار التي أنا بها . ولم تزل ماشية قدامهم حتى سلمتني إليهم ، وحُملت بالزي الذي أنا فيه إلى المأمون . فعقد مجلساً عاماً وأدخلني عليه ، فلما دخلت سلمت عليه بالخلافة فقال : لا سلّمك الله ولا حيّاك . فقلت له : على رسلك يا أمير المؤمنين ، إنك ولي الأمر فتحكم في القصاص والعفو ، ولكن العفو أقرب للتقوى . وقد جعل الله عفوك فوق كل عفو كما جعل ذنبي فوق كل ذنب يا أمير المؤمنين ، فإن تأخذ فبحقك وإن تعف فبفضلك . ثم أنشدت هذه الأبيات : [من مجزوء المجتث]

ذَنْبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ ... وأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
فَخُذْ بِحَقِّكَ أو لا ... واْصْفَحْ بِحِلْمِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ في فِعالِي ... مِنَ الكِرامِ فَكُنْهُ

قال ابراهيم : فرفع المأمون إليّ رأسه ، فبادرت إليه بإنشاد هذين البيتين : [من مجزوء المجتث]

أَتَيْتُ ذَنْباً عَظِيماً ... وأَنْتَ لِلْعَفْوِ أَهْلُ
فإِنْ عَفَوْتَ فَمَنٌّ ... وإِنْ جَزَيْتَ فَعَدْلُ

فأطرق المأمون رأسه وأنشد هذين البيتين : [من الوافر]

وكُنْتُ إذا الصَّدِيقُ أَرادَ غَيْظِي ... وأَشْرَقَنِي على حَنَقِي بِرِيقِي
غَفَرْتُ ذُنُوبَهُ وعَفَوْتُ عَنْهُ ... مَخافَةَ أَنْ أَعِيشَ بلا صَدِيقِ

فلما سمعت منه هذا الكلام استروحت منه رايحة الرحمة . ثم أقبل على ابن عمه وأخيه أبي اسحاق وجميع من حضر من خاصته وقال لهم : ما ترون في أمره . فكل أشار عليه بقتلي إلاّ

أنهم اختلفوا في كيفية القتل . فقال المأمون لأحمد بن خالد : ما تقول يا أحمد؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن قتلته وجدنا مثلك قتل مثله وإن عفوت عنه فما وجدنا مثلك عفى عن مثله . فقالت دنيازاد لأختها شهرزاد : ما أحسن حديثك وأطيبه وأحلاه وأعذبه . فقالت : وأين هذا مما أحدّثكم به الليلة القابلة إن عشت وأبقاني الملك . فقال الملك في نفسه : والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 275

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن شهرزاد قالت : وأين هذا مما أحدّثكم به الليلة القابلة؟ فقالت لها أختها : يا أختي ، أتممي لنا حديثك . فقالت : حباً وكرامةً . ثم قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن أمير المؤمنين المأمون لما سمع كلام أحمد بن خالد، نكس رأسه وأنشد قول الشاعر : [من الكامل]

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي ... فإذا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سِهْمِي

وأنشد أيضاً قول الشاعر : [من مجزوء الكامل]

سامِح أَخاكَ إذا خَلَطْ ... مِنْهُ الإصابَةَ بالغَلَطْ
وٱحْفَظْ صَنِيعَكَ عِنْدَهُ ... شَكَرَ الصَّنِيعَةَ أَمْ غَمَطْ
وتجافَ عَنْ تَعْنِيفِهِ ... إنْ زاغَ يَوْماً أَو قَسَطْ
أَوَما تَرَى المَحْبُوبَ ... والمَكْرُوهَ لَدًّا في نَمَطْ
ولَذاذَةُ العُمْرِ الطَّوِيلِ ... يَشُوبُها نَغْصُ الشَّمَطْ
وٱلوَرْدُ يَبْدُو في الغُصُونِ ... مَعَ الجَنِيِّ المُلْتَقَطْ
مَنْ ذا الَّذي ما ساءَ قَطُّ ... ومَنْ لَهُ الحُسْنَى فَقَطْ
ولَوْ ٱخْتَبَرْتَ بَنِي الزَّما ... نِ وَجَدْتَ أَكْثَرَهُمْ سَقَطْ

فلما سمعت منه هذه الأبيات ، كشفت المقنعة عن رأسي وكبّرت تكبيرة عظيمة وقلت : عفا الله عنك يا أمير المؤمنين . فقال : لا بأس عليك يا عم . فقلت : ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أتفوه معه بعذر ، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر . وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات : [من الكامل]

إنَّ الَّذي خَلَقَ المَكارِمَ حازَها ... في صُلْبِ آدَمَ للإمامِ السَّابِعِ
مُلِئَتْ قُلُوبُ النَّاسِ مِنْكَ مَهابَةً ... والكُلُّ تَكْلأُهُمْ بِقَلْبٍ خاشِعِ
ما إنْ عَصَيْتُكَ والغِوايَةُ غامِرِي ... أَسْبابُها إلاَّ بِنِيَّةِ طامِعِ
فَعَفَوْتُ عَنْ مَن لَم يَكُنْ لَكَ مِثْلَهُ ... عَفْوٌ ولَمْ يَشْفَعْ إلَيْكَ بِشافِعِ
ورَحِمْتَ أَفْراخاً كأَفْراخِ القَطا ... وحَنِينَ والِدَةٍ بِقَلْبٍ جازِعِ

فقال المأمون : أقول اقتداء بسيدنا يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وقد رددت عليك أموالك وضياعك يا عمّ ولا بأس

عليك . فابتهلت له بصالح الدعوات وانشدت هذه الأبيات :[من البسيط]

رَدَدْتَ مالي ولَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ به وقَبْلَ رَدِّكَ مالي قَدْ حَقَنْتَ دَمِي
فَلَوْ بَذَلْتُ دَمِي أَبْغِي رِضاكَ بِه والمالَ حَتَّى أَسُلَّ النَّعْلَ مِنْ قَدَمِي
فإنْ جَحَدْتُكَ ما أَوْلَيْتَ مِنْ نِعَمٍ إنِّي إلى اللُّؤْمِ أَوْلى مِنْكَ بالكَرَمِ

فأكرمه المأمون وأنعم عليه وقال له : يا عمّ ، إن أبا اسحاق والعباس أشارا عليّ بقتلك . فقلت : إن أبا إسحاق والعباس نصحاك يا أمير المؤمنين ، ولكنك أتيت بما أنت أهله ودفعت ما خفت بما رجوت . فقال المأمون : إني أمت حقدي بحياتك وقد عفوت عنك ولم أحملك منّة الشافعين . ثم سجد المأمون طويلاً ورفع رأسه وقال : يا عمي ، أتدري لأي شيء سجدت ؟ قلت : لعلك سجدت شكراً لله الذي ظفرك بعدوك . فقال : ما أردت ذلك ، ولكن شكر الله الذي ألهمني العفو عنك . قال ابراهيم : فشرحت له صورة أمري وما جرى لي مع الحجام والجندي وزوجته والمولاة التي غمزت عليّ . فأمر المأمون بإحضار المولاة ، وهي في دارها تنتظر إرسال الجائزة إليها . فلما حضرت بين يدي المأمون قال لها : ما حملك على ما فعلت مع سيدك ؟ قالت : الرغبة في المال . فقال : هل لك ولد أو زوج ؟ فقالت : لا . فأمر بضربهاماية سوط وأن تخلد في السجن . ثم أحضر الجندي وامرأته والحجام فحضروا جميعاً . فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على ما فعل . فقال : الرغبة في المال . فقال المأمون : يجب أن تكون حجاماً . ووكّل به من يضعه في دكان حجام ليعلمه الحجامة ، وأكرم زوجة الجندي وأدخلها القصر وقال : هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمات . ثم قال للحجام : قد ظهر من مروءتك ما يوجب المبالغة في إكرامك . وأمر أن يسلم إليه دار الجندي وأعطاه زيادة على ذلك خمسة عشر ألف دينار .

19 – حكاية عبدالله بن أبي قلابة وإرم ذات العماد

وحكى أن عبد الله بن أبي قلابة خرج في طلب إبل شردت له ، فبينما هو سائر في صحاري أراضي اليمن وأرض سبأ ، إذ وقع على مدينة عظيمة وحولها حصن عظيم وحول ذلك الحصن قصور شاهقة في الجو . فلما دنا منها ظن أن بها سكاناً يسألهم عن إبله فقصدها ، فلما وصل إليها وجدها قفراء ليس فيها أنيس . قال : فنزلت عن ناقتي . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 276

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن عبد الله بن أبي قلابة قال : فنزلت عن ناقتي وعقلتها ، ثم سليت نفسي ودخلت البلد ودنوت من الحصن فوجدت له بابين عظيمين لم يرَ في الدنيا مثلهما في العظم والإرتفاع ، وهما مرصّعان بأنواع الجواهر واليواقيت ما بين أبيض وأحمر وأصفر وأخضر . فلما رأيت ذلك تعجّبت منه غاية العجب وتعاظمني ذلك الأمر فدخلت الحصن وأنا مرعوب ذاهل اللب ، فرأيت ذلك الحصن طويلاً مديداً مثل المدينة في السعة وبه قصور شاهقة ، في كل قصر منها غرف وكلها مبنية بالذهب والفضة ومرصّعة باليواقيت والزبرجد واللؤلؤ والجواهر الملونة ، ومصاريع أبواب تلك القصور كمصاريع الحصن في الحسن

وقد فرشت أرضها باللؤلؤ الكبار وبنادق المسك والعنبر والزعفران . فلما انتهيت إلى داخل المدينة لم أرَ بها مخلوقاً من بني آدم فكدت أن أموت من الفزع ، ثم نظرت من أعالي الغرف والقصور فرأيت الأنهار تجري من تحتها وشوارعها فيها الأشجار المثمرات والنخيل الباسقات ، وبناؤها لبنة من ذهب ولبنة من فضة . فقلت في نفسي : لا شك أن هذه هي الجنة الموعود بها في الآخرة . فحملت من جواهر حصبائها ومسك ترابها ما أمكنني حمله وعدت إلى بلادي وأعلمت الناس بذلك . فبلغ الخبر إلى معاوية بن أبي سفيان وهو يومئذ خليفة بالحجاز ، فكتب إلى عامله بصنعاء اليمن أن : أحضِرْ ذلك الرجل واسأله عن حقيقة الأمر . فأحضرني عامله واستخبرني عن ما كان من أمري وما وقع لي . فأخبرته بما رأيته . فأرسلني إلى معاوية فأخبرته أيضاً بما رأيته . فأنكر ذلك معاوية ، فأظهرت له شيئاً من ذلك اللؤلؤ وبنادق العنبر والمسك والزعفران وفيها بعض رايحة طيبة ، ولكن اللؤلؤ قد اصفرّ وتغيّر لونه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 277

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن عبد الله بن أبي قلابة قال : ولكن اللؤلؤ قد أصفرّ وتغيّر لونه . فتعجّب من ذلك معاوية بن أبي سفيان لما رأى مع أبي قلابة الؤلؤ وبنادق المسك والعنبر ، وبعث إلى كعب الأحبار فأحضره وقال له : يا كعب الأحبار ، إني دعوتك لأمر أطلب تحقيقه وأرجو أن يكون عندك حقيقة خبره . فقال له : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال له معاوية : هل عندك علم بأنه يوجد مدينة مبنية بالذهب والفضة عمدانها من الزبرجد والياقوت وحصباؤها من اللؤلؤ وبنادق المسك والعنبر والزعفران ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، هي إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وقد بناها شدّاد بن عاد الأكبر . قال معاوية : حدّثنا بشيء من حديثها . قال كعب الأحبار : إن عاد الأكبر كان له ولدان شديد وشدّاد . فلما هلك أبوهما ، ملك البلاد بعده شديد وأخوه شدّاد ، ولم يكن أحد من ملوك الأرض إلاّ تحت طاعتهما . فمات شديد بن عاد فملك أخوه شدّاد الأرض من بعده على الإنفراد ، وكان مولعاً بقراءة الكتب القديمة . فلما مرّ به ذكر الآخرة والجنة وما فيها من القصور والغرف والأشجار والثمار وغيرها مما في الجنة ، دعته نفسه إلى أن يبني مثلها في الدنيا على هذه الهيئة المتقدم ذكرها . وكان تحت يده مائة ألف ملك ، تحت يد كل ملك مائة ألف قهرمان ، تحت يد كل قهرمان مائة ألف عسكر . فأحضر الجميع بين يديه وقال لهم : إني أسمع في الكتب القديمة والأخبار بصفة الجنة التي توجد في الآخرة ، وأنا أحب أن أجعل مثلها في الدنيا . فانطلقوا إلى أطيب فلاة في الأرض وأوسعها ، وابنوا لي فيها مدينة من الذهب والفضة واجعلوا حصاها الزبرجد والياقوت واللؤلؤ ، واجعلوا تحت عقود تلك المدينة أعمدة من زبرجد واملأوها قصوراً ، واجعلوا فوق القصور غرفاً ، واغرسوا تحت القصور في أزقّتها وشوارعها أصناف الأشجار المختلفة الأثمار اليانعة ، واجروا تحتها الأنهار في قنوات الذهب والفضة . قالوا جميعهم : كيف نقدر على ما وصفت لنا ؟ وكيف بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ الذي ذكرت ؟ قال : ألستم تعلمون أن ملوك الدنيا طوعاً لي وتحت يدي وكل من فيها لا يخالف أمري ؟ قالوا : نِعم ذلك . قال : فانطلقوا إلى معادن الزبرجد والياقوت . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 278

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن شدّاد قال لجماعته : انطلقوا إلى معادن الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة فاستخرجوها واجمعوا ما بها من الأرض ولا تبقوا مجهوداً مع ذلك . فخذوا إلى ما بأيدي العالم من أصناف ذلك ولا تبقوا ولا تذروا واحذروا المخالفة . ثم كتب كتاباً إلى كل ملك كان في أقطار الأرض وأمرهم أن يجمعوا ما كان عند الناس من أصناف ذلك وأن يذهبوا إلى معادنها ويستخرجوا ما فيها من الأحجار النفيسة ولو من قعور البحار . فجمعوا ذلك في مدة عشرين سنة ، وكان عدة الملوك المتمكّنين في الأرض ثلاثمائة وستين ملكاً ، ثم أخرج المهندسين والحكماء والفعلاء والصناع من سائر البلاد والبقاع وانتشروا في البراري والقفار والجهات والأقطار حتى وصلوا إلى صحراء فيها فسحة عظيمة نقية خالية من الآكام والجبال وبها عيون نافعة وأنهار جارية . فقالوا : هذه صفة الأرض التي أمرنا بها الملك وندبنا إليها . ثم اشتغلوا ببنائها على قدر ما أمرهم به الملك شدّاد ملك الأرض في الطول والعرض ، وأجروا بها قنوات الأنهار ووضعوا الأساسات على المقدار المذكور ، وأرسل إليها ملوك الأقطار بالجواهر والأحجار واللؤلؤ الكبار والصغار والعتيق والنضار على الجمال في البراري والقفار ، وأرسلوا بها السفن الكبار في البحار ووصل إلى العمال من تلك الأصناف ما لا يوصف ولا يحصى ولا يكيف . فأقاموا في عمل ذلك ثلاثمائة سنة ، فلما فرغوا من ذلك أتوا إلى الملك وأخبروه بالإتمام . فقال لهم : انطلقوا فاجعلوا عليها حصناً منيعاً شاهقاً رفيعاً واجعلوا حول الحصن ألف قصر ، تحت كل قصر ألف علم ليكون في كل قصر منها وزير . فمضوا من وقتهم وفعلوا في عشرين سنة ، ثم حضروا بين يدي شدّاد وأخبروه بحصول الغرض فأمر وزراءه وهم ألف وكذلك أمر خاصته ومن يثق به من الجنود وغيرهم أن يستعدّوا للرحلة ويتهيؤوا للنقلة إلى إرم ذات العماد تحت ركاب ملك الدنيا شدّاد بن عاد ، وأمر من أراد من نسائه وحريمه كجواريه وخدمه أن يأخذوا في التهجير . فأقاموا في أخذ الأهبة عشرين سنة ، ثم سار شدّاد ومن معه من الجيوش . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 279

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن شداداً بن عاد سار هو ومن معه من الجيوش مسروراً ببلوغ المرام حتى بقي بينه وبين إرم ذات العماد مرحلة ، فأرسل الله عليه وعلى مَنْ معه من الكفرة الجاحدين صيحة من سماء قُدْرته فأهلكتهم جميعاً بصوت عظيم ، ولم يصل شدّاد ولا أحد ممن كان معه إليها ولم يشرف عليها ، ومحا الله آثار محجتها فهي باقية على حالها في مكانها إلى قيام الساعة . فتعجّب معاوية من أخبار كعب الأحبار بهذا الخبر وقال له : هل يصل أحد إلى تلك المدينة من البشر ؟ قال : نعم . رجل من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام وهو بصفة هذا الرجل الجالس بلا شك ولا إيهام . وقال الشعبي : حكى عن علماء حمير من اليمن أنه لما هلك شدّاد ومَنْ معه من الصيحة ، ملّك بعده ابنه شدّاد الأصغر . وكان أبوه شدّاد الأكبر خلّفه على ملكه بأرض حضرموت وسبأ بعد أن ارتحل بمن معه من العساكر إلى إرم ذات العماد . فلما بلغه خبر موت أبيه في الطريق قبل وصوله إلى مدينة إرم ، أمر بحمل أبيه من تلك المفاوز إلى حضرموت وأمر أن يحفر له حفيرة في مغارة . فلما حفروا تلك الحفيرة وضعه

فيها على سرير من الذهب وألقى عليه سبعين حلّة منسوجة بالذهب مرصّعة بنفس الجواهر، ووضع عند رأسه لوحاً من الذهب مكتوباً فيه هذا الشعر : [من مجزوء الرمل]

أَعْتَبِر يا أَيُّها المَغْـ ـرُورُ بالعُمْرِ المَدِيدِ
أَنا شَدّادُ بنُ عادٍ صاحِبُ الحُصْنِ العَمِيدِ
صاحِبُ القُدْرَةِ والقُوْ وَةِ والبَأسِ الشَّدِيدِ
كانَ أَهْلُ الأَرْضِ طَوْعِي خَوْفَ قَهْرِي ووَعِيدِي
ومَلَكْتُ الشَّرْقَ والغَرْ بَ بِسُلْطانٍ شَدِيدِ
فَدَعانا لِلْهُدَى مَنْ جاءَ بالأَمْرِ الرَّشِيدِ
فَعَصَيْناهُ وقُلْنا لَيْسَ عَنْهُ مِنْ مَحِيدِ
فاتَتْنا صَيْحَةٌ مِنْ جانِبِ الأُفْقِ البَعِيدِ
فَتَرامَيْنا كَزَرْعٍ وَسْطَ بَيْدا في الحَصِيدِ
وأَنتَظَرْنا تحتَ أَطْبا قِ الثَّرَى يَوْمَ الوَعِيدِ

قال الثعالبي : واتفق أن رجلان دخلا هذه المغارة فوجدا في صدرها درجاً فنزلا ، فوجدا حفيرة طولها مقدار مائة ذراع وعرضها أربعون ذراعاً وارتفاعها مائة ذراع ، وفي وسط تلك الحفرة سرير من الذهب وعليه رجل عظيم الجسم قد أخذ طول السرير وعرضه ، وعليه الحليّ والحلل المنسوجة بالذهب والفضة وعلى رأسه لوح من ذهب فيه كتابة . فأخذا ذلك اللوح وحملا من ذلك الموضع ما أطاقا حمله من قضبان الذهب والفضة وغير ذلك .

20 - زواج المأمون

ومما يحكى أن اسحاق الموصلي قال : خرجت ليلة من عند المأمون متوجّهاً إلى بيتي فضايقني حصر البول ، فعمدت إلى زقاق وقمت أبول خوفاً أن يضرّ بي شيء ، إذ جلست في جانب الحيطان فرأيت شيئاً معلّقاً من تلك الدور ، فلمسته لأعرف ما هو فوجدته زنبيلاً كبيراً بأربعة آذان ملبساً ديباجاً فقلت في نفسي : لا بدّ لهذا من سبب . وصرت متحيّراً في أمري ، فحملني السكر على أن أجلس فيه ، فجلست فيه وإذا بأصحاب الدار جذبوه بي وظنوا إنني الذي كانوا يرتقبونه . ثم رفعوا الزنبيل إلى رأس الحائط وإذا بأربع جوار يقلن لي : إنزل على الرحب والسعة . ومشت بين يدي جارية بشمعة حتى نزلت إلى دار فيها مجالس مفروشة لم أرَ مثلها إلاّ في دار الخلافة . فجلست فما شعرت بعد ساعة إلاّ بستور قد رفعت في ناحية من الجدار وإذا بوصائف يتماشين وفي أيديهن الشموع ومجامر البخور من العود القاقلي وبينهن جارية كأنها البدر الطالع ، فنهضت وقالت : مرحباً بك من زائر . ثم أجلستني وسألتني عن خبري فقلت لها : إني انصرفت من عند بعض إخواني وغرّ بي الوقت وحصرني البول في الطريق فملت إلى هذا الزقاق فوجدت زنبيلاً ملقى فأجلسني النبيذ في الزنبيل ورُفع بي الزنبيل إلى هذه الدار هذا ما كان من أمري . فقالت : لا ضير عليك وأرجو أن تحمد عاقبة أمرك . ثم قالت لي : فما صناعتك ؟ فقلت : تاجر في

سوق بغداد . فقالت : هل تروي من الأشعار شيئاً؟ قلت : أروي شيئاً ضعيفاً . قالت : فذاكرنا فيه وأنشدنا شيئاً منه . فقلت : إن للداخل دهشة ولكن تبدأين أنت . قالت : صدقت . ثم أنشدت شعراً رقيقاً من كلام القدماء والمحدّثين وهو من أجود أقاويلهم ، وأنا أسمع ولا أدري أأعجب من حسنها وجمالها أم من حسن روايتها؟ ثم قالت : هل ذهب ما كان عندك من الدهشة . قلت : إي والله . قالت : إن شئت فانشدنا شيئاً من روايتك . فأنشدتها لجماعة من القدماء ما فيه الكفاية فاستحسنت ذلك ثم قالت : والله ما ظننت أن يوجد في أبناء السوقة مثل هذا . ثم أمرت بالطعام . فقالت لها أختها دنيازاد : ما أحلى حديثك وأحسنه وأطيبه وأعذبه . فقالت : وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشت وأبقاني الملك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 280

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد أنها قالت : وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة؟ إن عشت وأبقاني الملك . فقال لها الملك : أتمي حديثك . قالت : سمعاً وطاعةً . قد بلغني أيها الملك السعيد ، أن اسحاق الموصلي قال : ثم إن الجارية أمرت بإحضار الطعام فحضر ، فجعلت تأخذ وتضع قدّامي . وكان في المجلس من أصناف الرياحين وغريب الفواكه ما لا يكون إلاّ عند الملوك ، ثم دعت بالشراب فشربت قدحاً ثم ناولتني قدحاً وقالت : هذا أوان المذاكرة والأخبار . فاندفعت أذاكرها وقلت : بلغني أنه كان كذا وكذا وكذا وكان رجل يقول كذا ، حتى حكيت لها عدة أخبار حسان . فانسرّت بذلك وقالت : إني لأعجب كيف يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذه الأخبار ؟ وإنما هي أحاديث ملوك . فقلت : كان لي جار يحادث الملوك وينادمهم وإذا تعطل حضرت بيته فربما حدث بما سمعت . فقالت : لعمري لقد أحسنت الحفظ . ثم أخذنا في المذاكرة وكلما أسكت ابتدأت هي حتى قطعنا أكثر الليل وبخور العود يعبق ، وأنا في حالة لو توهّمها المأمون لطار شوقاً إليها . فقالت لي : إنك من ألطف الرجال وأظرفهم لأنك ذو أدب بارع وما بقي إلاّ شيء واحد . فقلت لها : وما هو ؟ قالت : لو كنت تترنم بالأشعار على العود . فقلت لها : إني كنت تعلّقت بهذا قديماً ، ولكن لما لم أرزق حظّاً فيه أعرضت عنه وفي قلبي منه حرارة ، وكنت أحب في هذا المجلس أن أحسن شيئاً منه لتكمل ليلتي . قالت : كأنك عرضت بإحضار العود . فقلت : الرأي لك وأنت صاحبة الفضل ولك المنّة في ذلك . فأمرت بعود فحضر وغنّت بصوت ما سمعت بمثل حسنه مع حسن الأدب وجودة الضرب والكمال الراجح ثم قالت : هل تعرف هذا الصوت لمن ؟ وهل تعرف الشعر لمن ؟ قلت : لا . قالت : الشعر لفلان والمغنى لاسحاق . قلت : وهل اسحاق جعلت فداك بهذه الصفة ؟ قالت : بخ بخ ، اسحاق بارع في هذا الشأن . فقلت : سبحان الله الذي أعطى هذا الرجل ما لم يعطه أحداً سواه . قالت : فكيف لو سمعت هذا الصوت منه؟ ثم لم نزل على ذلك حتى إذا كان انشقاق الفجر أقبلت عليها عجوز كأنها داية لها وقالت : إن الوقت قد حضر . فنهضت عند قولها وقالت : لتستر ما كان منّا فإن المجالس بالأمانات . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 281

□ قالت : بلغني أيها السعيد، أن الجارية قالت : لتستر ما كان منّا فإن المجالس بالأمانات . فقلت لها : جعلت فداك، لم أكن محتاجاً إلى وصيّة في ذلك . ثم ودّعتها وأرسلت جارية تمشي بين يدي إلى باب الدار ففتحت لي وخرجت متوجّهاً إلى داري، فصلّيت الصبح ونمت . فأتاني المأمون فسرت إليه وأقمت نهاري عنده، فلما كان وقت العشاء تفكّرت ما كنت فيه البارحة وهو شيء لا يصبر عنه إلاّ جاهل، فخرجت وجئت إلى الزنبيل وجلست فيه ورفعت إلى موضعي الذي كنت فيه البارحة . فقالت لي الجارية : لقد عاودت . فقلت : لا أظن، إلاّ إنني قد غفلت . ثم أخذنا في المحادثة على عادتنا في الليلة السالفة من المذاكرة والمناشدة وغريب الحكايات منها ومني إلى الفجر، ثم انصرفت إلى منزلي وصلّيت الصبح ونمت . فأتى رسول المأمون فمضيت إليه وأقمت نهاري عنده، فلما كان وقت العشاء قال لي أمير المؤمنين : أقسمت عليك أن تجلس حتى أذهب إلى غرض وأحضر . فلما ذهب الخليفة وغاب عني جالت وساوسي وتذكّرت ما كنت فيه، فهان علي ما يحصل لي من أمير المؤمنين، فوثبت مدبراً وخرجت جارياً حتى وصلت إلى الزنبيل فجلست فيه ورفع بي إلى مجلسي . فقالت : لعلّك صديقنا . قلت : أي والله . قالت : أجعلتنا دار إقامة؟ قلت : جعلت فداك حقّ الضيافة ثلاثة أيام، فإن رجعت بعد ذلك فأنتم في حِلّ من دمي . ثم جلسنا على تلك الحالة، فلما قرب الوقت علمت أن المأمون لا بدّ أن يسألني فلا يقنع إلاّ بشرح القصة . فقلت لها : أراك ممن يعجب بالغناء ولي ابن عمّ أحسن مني وجهاً وأشرف قدراً وأكثر أدباً وهو أعرف خلق الله تعالى بإسحاق . قالت : أطفيليّ وتقترح ؟ قلت لها : أنت المحكمة في الأمر . فقالت : إن كان ابن عمك على ما تصفه فما نكره معرفته . ثم جاء الوقت فنهضت وقمت متوجّهاً إلى داري، فلم أصل إلى داري إلاّ ورسل المأمون قد هجموا عليّ وحملوني حملاً عنيفاً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 282

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن إسحاق الموصلي قال : فلم أصل إلى داري إلاّ ورسل المأمون قد هجموا عليّ وحملوني حملاً عنيفاً وذهبوا بي إليه، فوجدته قاعداً على كرسي وهو مغتاظ مني فقال : يا اسحاق، أخروجاً عن الطاعة؟ فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين . قال : فما قصتك؟ أصدقني الخبر . فقلت : نعم، ولكن في خلوة . فأومأ إلى من بين يديه فتنحّوا . فحدثته الحديث وقلت له : إني وعدتها بحضورك . قال : أحسنت . ثم أخذنا في لذتنا ذلك اليوم والمأمون متعلق القلب بها، فما صدقنا بمجيء الوقت وسرنا وأنا أوصيه وأقول له : تجنّب أن تناديني باسمي قدّامها بل أنا لك تبع في حضرتها . واتفقنا على ذلك ثم سرنا إلى أن أتينا مكان الزنبيل فوجدنا زنبيلين، فقعدنا فيهما ورفعا بنا إلى الموضع المعهود فأقبلت وسلمت علينا، فلما رآها المأمون تحيّر من حسنها وجمالها وأخذت تذاكره الأخبار وتناشده الأشعار . ثم أحضرت النبيذ، فشربنا وهي مقبلة عليه مسرورة به وهو أيضاً مقبل عليها مسرور بها . ثم أخذت العود وغنّت طريقة وبعد ذلك قالت لي : وهل ابن عمّك من التجار؟ وأشارت إلى المأمون . قلت : نعم . قالت : إنكما لقريبا الشبه من بعضكما . قلت : نعم . فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب فصاح وقال : يا اسحاق . قلت : لبيك يا أمير المؤمنين . قال :

غنّ بهذه الطريقة . فلما علمت أنه الخليفة مضت إلى مكان ودخلت فيه . فلما فرغت من الغناء قال لي المأمون : أنظر مَنْ ربّ هذه الدار . فبادرت عجوز بالجواب وقالت : هي للحسن بن سهل . فقال : عليّ به . فغابت العجوز ساعة وإذا بالحسن قد حضر . فقال له المأمون : ألك بنت ؟ قال : نعم اسمها خديجة . قال له : هل هي متزوجة ؟ قال : لا والله . قال : فإني أخطبها منك . قال : هي جاريتك وأمرها إليك يا أمير المؤمنين . قال الخليفة : قد تزوجتها على نقد ثلاثين ألف دينار تحمل إليك صبيحة يومنا هذا ، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتها . قال : سمعاً وطاعةً . ثم خرجنا فقال : يا إسحاق ، لا تقص هذا الحديث على أحد . فسترته إلى أن مات المأمون . فما اجتمع لأحد مثل ما اجتمع لي هذه الأربعة أيام : مجالسة المأمون بالنهار ومجالسة خديجة بالليل . والله ما رأيت أحداً من الرجال مثل المأمون ولا شاهدت امرأة من النساء مثل خديجة ، بل ولا تقارب خديجة فهماً ولا عقلاً ولا لفظاً والله أعلم .

21 – حكاية الحشّاش والسيدة النبيلة

ومما يحكى أنه كان في أوان الحج والناس في الطواف ، فبينما المطاف مزدحم بالناس وإذا بإنسان متعلق بأستار الكعبة وهو يقول من صميم قلبه : أسألك يا الله أنها تغضب على زوجها وأجامعها . قال : فسمعه جماعة من الحجاج فقبضوا عليه وأتوا به إلى أمير الحاج بعد أن أشبعوه ضرباً وقالوا له : أيها الأمير ، إنا وجدنا هذا في الأماكن الشريفة يقول كذا وكذا . فأمر أمير الحاج بشنقه . فقال له : أيها الأمير ، بحق رسول الله ﷺ أن تسمع قصتي وحديثي وبعد ذلك فافعل بي ما تريد . قال : تحدّث . قال : أعلم أيها الأمير أنني رجل حشاش أعمل في مسالخ الغنم فأحمل الدم والوسخ إلى الكيمان . فاتفق أنني رايح بحماري يوماً من الأيام وهو محمّل فوجدت الناس هاربين . فقال واحد منهم : أدخل هذا الزقاق لئلا يقتلوك . فقلت : ما للناس هاربين ؟ فقال لي واحد خدام : هذا حريم لبعض الأكابر . وصار الخدم ينحون الناس من الطريق قدّامها ويضربون جميع الناس ولا يبالون بأحد . فدخلت بالحمار عطفة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 283

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الرجل قال : فدخلت بالحمار عطفة ووقفت أنتظر انفضاض الزحمة ، فرأيت الخدم وبأيديهم العصيّ ومعهم نحو ثلاثين امرأة وبينهم واحدة كأنها قضيب بان ، كاملة الحسن والظرف والدلال والجميع في خدمتها . فلما وصلت إلى باب العطفة التي أنا واقف بها ، التفتت يميناً وشمالاً ثم دعت بطواشي فحضر بين يديها فساورته في أذنه . وإذا بالطواشي جاء إليّ وقبض عليّ ، فتهاربت الناس وإذا بطواشي آخر أخذ حماري ومضى به . ثم جاء الطواشي وربطني بحبل وجرّني خلفه وأنا لم اعرف ما الخبر والناس من خلفنا يصيحون ويقولون : ما يحل من الله ، هذا رجل حشاش فقير الحال ما سبب ربطه بالحبال ؟ ويقولون للطواشية : ارحموه يرحمكم الله تعالى وأطلقوه . فقلت أنا في نفسي : ما أخذني الطواشية إلاّ لأن سيدتهم شمّت رايحة الوسخ فاشمأزت من ذلك ، أو تكون حبلى أو حصل لها ضرر ، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم . وما زلت ماشياً خلفهم إلى أن وصلوا

إلى باب دار كبيرة فدخلوا وأنا خلفهم ، واستمروا داخلين بي حتى وصلت إلى قاعة كبيرة ما أعرف كيف أصف محاسنها وهي مفروشة بفرش عظيم . ثم دخلت النساء تلك القاعة وأنا مربوط مع الطواشي فقلت في نفسي : لا بدّ إنهم يعاقبونني في هذا البيت حتى أموت ولا يدري بموتي أحد . ثم بعد ذلك أدخلوني حماماً لطيفاً من داخل القاعة ، فبينما أنا في الحمام وإذا بثلاث جوار دخلن وقعدن حواليّ وقلن لي : إقلع شراميطك . فقلت : ما عليّ من الخلقان . وصارت واحدة منهنّ تحك رجلي وواحدة منهن تغسل رأسي وواحدة منهن تكبسني . فلما فرغن من ذلك ، حطّوا لي بقجة قماش وقالوا لي : إلبس هذه . فقلت : والله ما أعرف كيف ألبس . فتقدّمن إليّ وألبسنني وهنّ يتضاحكن عليّ ، ثم جئن بقماقم مملوءة بماء الورد ورششن عليّ وخرجت معهن إلى قاعة أخرى ، والله ما أعرف كيف أصف محاسنها من كثرة ما فيها من النقش والفرش . فلما دخلت تلك القاعة وجدت واحدة قاعدة على تخت من الخيزران . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 284

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الرجل قال : لما دخلت تلك القاعة وجدت واحدة قاعدة على تخت من الخيزران قوائمه من عاج وبين يديها جملة جوار . فلما رأتني قامت إليّ ونادتني فجئت عندها ، فأمرتني بالجلوس ، فجلست إلى جانبها وأمرت الجواري أن يقدمن الطعام . فقدمن لي طعاماً فاخراً من سائر الالوان ما أعرف اسمه ولا أعرف صفته في عمري ، فأكلت منه على قدر كفايتي . وبعد رفع الزبادي وغسل الأيادي ، أمرت بإحضار الفواكه فحضرت بين يديها في الحال ، فأمرتني بالأكل فأكلت . فلما فرغنا من الأكل أمرت بعض الجواري بإحضار سلاحيات الشراب ، فأحضرن شيئاً مختلف الألوان . ثم أطلقن المباخر من جميع البخور وقامت جارية مثل القمر تسقينا على نغمات الأوتار ، فسكرت أنا وتلك السيدة الجالسة . كل ذلك جرى وأنا أعتقد أنه حلم في المنام . ثم بعد ذلك أشارت إلى بعض الجواري أن يفرشن لنا في مكان ، ففرشن في المكان الذي أمرت به . ثم قامت وأخذت بيدي إلى ذلك المكان المفروش ونامت ونمت معها إلى الصباح ، وكنت كلما ضممتها إلى صدري أشم منها رائحة المسك والطيب وما أعتقد إلاّ أني في الجنة أو أنني أحلم في المنام . فلما أصبحت سألتني عن مكاني فقلت : في المحل الفلاني . فأمرت بخروجي وأعطتني منديلاً مطرّزاً بالذهب والفضة وعليه شيء مربوط فقالت لي : أدخل الحمام بهذا . ففرحت وقلت في نفسي : إن كان ما عليه خمسة فلوس فهي غدائي في هذا اليوم . ثم خرجت من عندها كأني خارج من الجنة ، وجئت إلى المخزن الذي أنا فيه ففتحت المنديل فوجدت فيه خمسين مثقالاً من الذهب ، فدفنتها وقعدت عند الباب بعد أنْ أشتريت بفلسين خبزاً وأدماً وتغديت . ثم صرت متفكرّاً في أمري ، فبينما أنا كذلك إلى وقت العصر وإذا بجارية قد أتت وقالت لي : إن سيدتي تطلبك . فخرجت معها إلى باب الدار واستأذنت لي ، فدخلت وقبّلت الأرض بين يديها فأمرتني بالجلوس وأمرت بإحضار الطعام والشراب على العادة ، ثم نمت معها على جري العادة التي تقدمت أول ليلة . فلما أصبحت ناولتني منديلاً ثانياً فيه خمسون مثقالاً من الذهب ، فأخذتها وخرجت وجئت إلى المخزن ودفنتها . ومكثت على هذه الحالة مدة ثمانية أيام ، أدخل عندها في كل يوم العصر وأخرج من عندها في

أول النهار . فبينما أنا نائم عندها ليلة ثامن يوم وإذا بجارية دخلت وهي تجري وقالت لي : قم اطلع إلى هذه الطبقة . فطلعت إلى تلك الطبقة فوجدتها تشرف على وجه الطريق . فبينما أنا جالس وإذا بضجة عظيمة ودربكة خيل في الزقاق ، وكان في الطبقة طاقة تشرف على باب فنظرت منها فرأيت شاباً راكباً كأنه القمر الطالع ليلة تمامه وبين يديه مماليك وجند يمشون في خدمته . فتقدّم إلى الباب وترجّل ودخل القاعة فرآها قاعدة على السرير ، فقبّل الأرض بين يديها ثم تقدم وقبّل يديها فلم تكلّمه . فما برح يتخضّع لها حتى صالحها ونام عندها تلك الليلة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 285

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الصبيّة لما صالحها زوجها نام عندها تلك الليلة . فلما أصبح الصباح ، أتته الجنود وركب وخرج من الباب فطلعت عندي وقالت لي : أرأيت هذا؟ قلت لها : نعم . قالت : هو زوجي . وأحكي لك ما جرى لي معه . اتفق أنني كنت أنا وإياه يوماً قاعدين في الجنينة داخل البيت وإذا هو قد قام من جانبي وغاب عني ساعة طويلة ، فاستبطأته فقلت في نفسي : لعله يكون في بيت الخلاء . فنهضت إلى بيت الخلاء فلم أجده ، فدخلت المطبخ فرأيت جارية فسألتها عنه فأرتني إياه وهو راقد مع جارية من جواري المطبخ . فعند ذلك حلفت يميناً عظيماً إنني لا بدّ أن أزني مع أوسخ الناس وأقذرهم . ويوم قبض عليك الطواشي كان لي أربعة أيام وأنا أدور في البلد على واحد يكون بهذه الصفة فما وجدت أحداً أوسخ ولا أقذر منك فطلبتك ، وقد كان ما كان من قضاء الله علينا وقد خلصت من اليمين التي حلفتها . ثم قالت : فمتى وقع زوجي على الجارية ورقد معها مرة أخرى أعدتك إلى ما كنت عليه معي . فلما سمعت منها هذا الكلام ورمت قلبي من لحاظها بالسهام ، جرت دموعي حتى قرحت المحاجر وأنشدت قول الشاعر : [من الخفيف]

مَكِّنِينِي مِنْ بَوْسِ يُسْرَاكِ عَشْراً وَاْعْرِفِي فَضْلَهَا عَلَى يُمْنَاكِ
إِنَّ يُسْرَاكِ لَهْيَ أَقْرَبُ عَهْداً وَقْتَ غَسْلِ الخَرَا بِمُسْتَنْجَاكِ

ثم إنها أمرت بخروجي من عندها وقد تحصل لي منها أربعمائة مثقال من الذهب فأنا أصرف منها . وجئت إلى ها هنا أدعو الله سبحانه وتعالى أن زوجها يعود إلى الجارية مرة أخرى لعلّي أعود إلى ما كنت عليه . فلما سمع أمير الحاج قصة ذلك الرجل أطلقه وقال للحاضرين : بالله عليكم أن تدعوا له فإنه معذور .

22 – حكاية الخليفة المزوّر

ومما يحكى أن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة من الليالي قلقاً شديداً ، فاستدعى بوزيره جعفر البرمكي وقال له : إن صدري ضيق ومرادي في هذه الليلة أن أتفرّج في شوارع بغداد وأنظر في مصالح العباد ، بشرط أننا نتزيّا بزيّ التجار حتى لا يعرفنا أحد من الناس فقال له الوزير : سمعاً وطاعة . ثم قاموا في الوقت والساعة ونزعوا ما عليهم من ثياب الإفتخار ولبسوا ثياب التجار وكانوا ثلاثة : الخليفة وجعفر ومسرور السيّاف ، وتمشوا من مكان إلى مكان حتى وصلوا إلى

الدجلة ، فرأوا شيخاً قاعداً في زورق فتقدموا إليه وسلّموا عليه وقالوا له : يا شيخ ، إنّا نشتهي من فضلك وإحسانك أن تفرجنا في مركبك هذه وخذ هذا الدينار في أجرتك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 286

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنهم لما قالوا للشيخ : إنّا نشتهي أن تفرجنا في مركبك وخذ هذا الدينار . قال لهم : من ذا الذي يقدر على الفرجة ؟ والخليفة هارون الرشيد ينزل في كل ليلة بحر الدجلة في زورق صغير ومعه مناد ينادي ويقول : يا معاشر الناس كافة من كبير وصغير وخاص وعام صبي وغلام ، كل من نزل في مركب وشق في الدجلة ضربت عنقه أو شنقته على صاري مركبه . وكأنكم به في هذه الساعة وزورقه مقبل . فقال الخليفة وجعفر : يا شيخ ، خذ هذين الدينارين وادخل بنا قبّة من هذه القباب إلى أن يروح زورق الخليفة . فقال لهم الشيخ : هاتوا الذهب والتوكّل على الله تعالى . فأخذ الذهب وعوم بهم قليلاً وإذا بالزورق قد أقبل من كبد الدجلة وفيه الشموع والمشاعل مضيئة . فقال لهم الشيخ : أما قلت لكم إن الخليفة يشق في كل ليلة . ثم إن الشيخ صار يقول : يا ستّار لا تكشف الأستار . ودخل بهم في قبّة ووضع عليهم ميزراً أسود وصاروا يتفرّجون من تحت الميزر . فرأوا في مقدم الزورق رجلاً بيده مشعل من الذهب الأحمر وهو يشعل فيه بالعود القاقلي ، وعلى ذلك قباء من الأطلس الأحمر وعلى كتفه مزركش أصفر ، وعلى رأسه شاش موصليّ ، وعلى كتفه الآخر مخلاة من الحرير الأخضر ملآنة بالعود القاقلي يوقد شها المشعل عوضاً عن الحطب . ورأى رجلاً آخر في مؤخر الزورق لابساً مثل لبسه وبيده مشعل مثل المشعل الذي معه ، ورأى في الزورق مائتي مملوك واقفين يميناً ويساراً ووجد كرسيّاً من الذهب الأحمر منصوباً وعليه شاب حسن جالس كالقمر وعليه خلعة سوداء بطرازات من الذهب الأصفر وبين يديه إنسان كأنه الوزير جعفر وعلى رأسه خادم واقف كأنه مسرور وبيده سيف مشهور ، ورأى عشرين نديماً . فلما رأى الخليفة ذلك قال : يا جعفر . فقال : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : لعلّ هذا واحد من أولادي ، إما المأمون وإما الأمين . ثم تأمّل الشاب وهو جالس على الكرسي فرآه كامل الحسن والجمال والقدّ والاعتدال . فلما تأمله التفت إلى الوزير وقال : يا وزير . قال : لبيك . قال : والله إن هذا الجالس لم يترك شيئاً من شكل الخلافة ، والذي بين يديه كأنه أنت يا جعفر والخادم الذي واقف على رأسه كأنه مسرور وهؤلاء الندماء كأنهم ندمائي ، وقد حار عقلي في هذا الأمر . فقالت لها أختها دنيازاد : ما أحسن حديثك وأطيبه وأحلاه وأعذبه . فقالت : وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة ؟ إن عشت وأبقاني الملك . فقال الملك في نفسه : والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 287

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الخليفة لما رأى هذا الأمر تحيّر في عقله وقال : والله إني تعجبت من هذا الأمر يا جعفر . فقال له جعفر : وأنا والله يا أمير المؤمنين . ثم ذهب الزورق حتى غاب عن العين . فعند ذلك خرج الشيخ بزورقه وقال : الحمد لله على السلامة حيث لم يصادفنا أحد . فقال الخليفة : يا شيخ ، وهل الخليفة في كل ليلة ينزل الدجلة ؟

قال : نعم يا سيدي ، وله على هذه الحالة سنة كاملة . فقال : يا شيخ ، نشتهي من فضلك أن تقف لنا هنا الليلة القابلة ونحن نعطيك خمسة دنانير ذهباً ، فإننا قوم غرباء وقصدنا النزهة ونحن نازلون في الخندق . فقال له الشيخ : حباً وكرامةً . ثم إن الخليفة وجعفر ومسروراً توجّهوا من عند الشيخ إلى القصر وقلعوا ما كان عليهم من لبس التجار ولبسوا ثياب الملك وجلس كل واحد في مرتبته ، ودخل الأمراء والوزراء والحجّاب والنواب وانعقد المجلس بالناس . فلما انقضى النهار وتفرّقت أجناس الناس وراح كل واحد إلى حال سبيله قال الخليفة هارون الرشيد : يا جعفر إنهض بنا للفرجة على الخليفة الثاني . فضحك جعفر ومسرور ، ولبسوا لبس التجار وخرجوا يشقون وهم في غاية الانشراح . وكان خروجهم من باب السر ، فلما وصلوا إلى الدجلة وجدوا الشيخ صاحب الزورق قاعداً لهم في الانتظار . فنزلوا عنده في المركب ، فما استقرّ بهم الجلوس مع الشيخ ساعة حتى جاء زورق الخليفة الثاني وأقبل عليهم ، فالتفتوا إليه وأمعنوا فيه النظر فوجدوا فيه مائتي مملوك غير المماليك الأول والمشاعلية ينادون على عادتهم . فقال الخليفة : يا وزير ، هذا شيء لو سمعت به ما كنت أصدّقه ولكنني رأيت ذلك عياناً . ثم إن الخليفة قال لصاحب الزورق الذي هم فيه : خذ يا شيخ هذه العشرة دنانير وسرْ بنا في محاذاتهم ، فإنهم في النور ونحن في الظلام فننظرهم ونتفرّج عليهم وهم لا ينظروننا . فأخذ الشيخ العشرة دنانير ومشى بزورقه في محاذاتهم وسار في ظلام زورقهم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 288

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الخليفة هارون الرشيد قال للشيخ : خذ هذه العشرة دنانير وسر بنا في محاذاتهم . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم أخذ الدنانير وسار بهم . وما زالوا سائرين في ظلام الزورق إلى البساتين ، فلما وصلوا إلى البساتين رأوا زربية فرسى عليها الزورق ، وإذا بغلمان واقفين ومعهم بغلة مسرجة ملجمة . فطلع الخليفة الثاني وركب البغلة وسار بين الندماء وصاحت المشاعلية واشتغلت الغاشية بشأن الخليفة الثاني ، فطلع هارون الرشيد هو وجعفر ومسرور إلى البرّ وشقّوا بين المماليك وساروا قدّامهم ، فلاحت من المشاعلية التفاتة فرأوا ثلاثة أشخاص لبسهم لبس تجار وهم غرباء الديار . فانكروا عليهم وغمزوا عليهم وأحضروهم بين يدي الخليفة الثاني ، فلما نظرهم قال لهم : كيف وصلتم إلى هذا المكان؟ وما الذي جاء بكم ...في هذا الوقت؟ فقالوا : يا مولانا ، نحن قوم من التجار غرباء الديار ، وقدمنا في هذا اليوم وخرجنا نتمشى الليلة وإذا بكم قد أقبلتم فجاء هؤلاء وقبضوا علينا وأوقفونا بين يديك وهذا خبرنا . فقال الخليفة الثاني : لا بأس عليكم لأنكم قوم غرباء ولو كنتم من بغداد ضربت أعناقكم . ثم التفت إلى وزيره وقال له : خذ هؤلاء صحبتك فإنهم ضيوفنا في هذه الليلة . فقال : سمعاً وطاعةً لك يا مولانا . ثم سار وهم معه إلى أن وصلوا إلى قصر عالٍ عظيم الشأن محكم البنيان ما حواه سلطان قام من التراب وتعلّق بأكتاف السحاب ، وبابه من خشب الساج مرصّع بالذهب الوهّاج يصل منه الداخل إلى إيوان بفسقية وشاذروان وبسط ومخدّات ومن الديباج نمارق وطوالات ، وهناك ستر مسبول وفرش يذهل العقول ويعجز من يقول . وعلى الباب مكتوب هذان البيتان : [من الكامل]

قصرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وسَلامٌ　　خَلَعَتْ عَلَيْهِ جَمالَها الأيّامُ
فِيهِ العَجائِبُ والغَرائِبُ نُوِّعَتْ　　فَتَحَيَّرَتْ في فَنِّها الأقْلامُ

ثم دخل الخليفة الثاني والجماعة صحبته إلى أن جلس على كرسي من الذهب مرصّع بالجواهر، وعلى الكرسي سجادة من الحرير الأصفر وقد جلست الندماء ووقف سيف النقمة بين يديه. فمدّوا السماط وأكلوا ورفعت الأواني وغسلت الأيادي وأحضروا آلة المدام واصطفّت القناني والكاسات، ودار الدور إلى أن وصل إلى الخليفة هارون الرشيد فامتنع من الشراب. فقال الخليفة الثاني لجعفر: ما بال صاحبك لا يشرب؟ فقال: يا مولاي، إن له مدة ما شرب من هذا. فقال الخليفة الثاني: عندي مشروب غير هذا يصلح لصاحبك وهو من شراب التفاح. ثم أمر به فأحضروه في الحال، فتقدم الخليفة الثاني بين يدي هارون الرشيد وقال له: كلما وصل إليك الدور فاشرب من هذا الشراب. ولا زالوا في انشراح وتعاطي أقداح الراح إلى أن تمكّن الشراب من رؤوسهم واستولى على عقولهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 289

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة الثاني هو وجلساؤه ما زالوا يشربون حتى تمكّن الشراب من رؤوسهم واستولى على عقولهم. فقال الخليفة هارون الرشيد لوزيره: يا جعفر، والله ما عندنا آنية مثل هذه الآنية، فيا ليت شعري ما شأن هذا الشاب. فبينما هما يتحدثان سرّاً إذ لاحت من الشاب التفاتة فوجد الوزير يتسارر مع الخليفة فقال: إن المساررة عربدة. فقال الوزير: ما ثمّ عربدة، إلاّ أن رفيقي هذا يقول: إني سافرت إلى غالب البلاد ونادمت أكابر الملوك وعاشرت الأجناد فما رأيت أحسن من هذا النظام ولا أبهج من هذه الليلة. غير أن أهل بغداد يقولون: الشراب بلا سماع ربما أورث الصداع. فلما سمع الخليفة الثاني ذلك الكلام، تبسّم وانشرح وكان بيده قضيب فضرب به على مدورة وإذا بباب فتح وخرج منه خادم يحمل كرسيّاً من العاج مصفّحاً بالذهب الوهّاج وخلفه جارية بارعة في الحسن والجمال والبهاء والكمال. فنصب الخادم الكرسي وجلست عليه الجارية وهي كالشمس الضاحية في السماء الصاحية وبيدها عود عمل صناع الهنود فوضعته في حجرها وانحنت عليه انحناء الوالدة على ولدها وغنّت عليه بعد أن طربت وقلبت أربعًا وعشرين طريقة حتى أذهلت العقول. ثم عادت إلى طريقتها الأولى وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات: [من الطويل]

لِسانُ الهَوَى في مُهْجَتِي لَكَ ناطِقُ　　يُخَبِّرُ عَنِّي أَنَّنِي لَكَ عاشِقُ
ولِي شاهِدٌ مِنْ حَرِّ قَلْبٍ مُعَذَّبٍ　　وطَرْفٍ قَرِيحٍ والدُّمُوعُ سَوابِقُ
وما كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ حُبِّكَ ما الهَوَى　　ولَكِنْ قَضاءُ اللهِ في الخَلْقِ سابِقُ

فلما سمع الخليفة الثاني هذا الشعر من الجارية صرخ صرخة عظيمة وشق البدلة التي كانت عليه إلى الذيل وسبلت عليه الستارة وأتوه ببدلة غيرها أحسن منها فلبسها ثم جلس على عادته. فلما وصل إليه القدح ضرب بالقضيب على المدوّرة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم يحمل كرسيّاً من الذهب وخلفه جارية أحسن من الجارية الأولى، فجلست على ذلك الكرسي وبيدها

عود يكمد قلب الحسود، فغنت عليه بهذين البيتين : [من البسيط]

كَيْفَ اصْطِبارِي ونارُ الشَّوْقِ في كَبِدِي   والدَّمْعُ مِنْ مُقْلَتِي طُوفانٌ للأَبَدِ
واللهِ ما طابَ لي عَيْشٌ أُسَرُّ بِه   فَكَيْفَ يَفْرَحُ قَلْبٌ حَشْوُهُ كَمَدِي

فلما سمع الشاب هذا الشعر صرخ صرخة عظيمة وشقّ ما عليه من الثياب إلى الذيل وانسبلت عليه الستارة وأتوه ببدلة اخرى فلبسها واستوى جالساً ورجع إلى حالته الأولى وانبسط في الكلام . فلما وصل القدح إليه ضرب على المدورة فخرج خادم ووراءه جارية أحسن من التي قبلها ومعه كرسي . فجلست الجارية على الكرسي وبيدها عود فغنت عليه بهذه الأبيات : [من الخفيف]

أَقْصِرُوا هَجْرَكُمْ وقِلُّوا جَفاكُمْ   فَفُؤَادِي وحَقِّكُمْ ما سَلاكُمْ
وارْحَمُوا مُدْنَفاً كَئِيباً حَزِيناً   ذا غَرامٍ مُتَيَّماً في هَواكُمْ
قَدْ بَرَتْهُ السَّقامُ مِنْ فَرْطِ وَجْدٍ   فَتَمَنَّى مِنَ الإِلهِ رِضاكُمْ
يا بُدُوراً مَحَلُّهُمْ في فُؤَادِي   كَيْفَ أَخْتارُ في الأَنامِ سِواكُمْ

فلما سمع الشاب هذه الأبيات صرخ صرخة عظيمة وشقّ ما كان عليه من الثياب فأرخوا عليه الستارة وأتوه بثياب غيرها ثم عاد إلى حالته مع ندمائه ودارت الأقداح . فلما وصل القدح إليه ضرب على المدورة فانفتح الباب وخرج منه غلام معه كرسي وخلفه جارية فنصب لها الكرسي وجلست عليه وأخذت العود وأصلحته وغنّت عليه بهذه الأبيات : [من الكامل]

حَتَّى مَتَى يَمْضِي التَّهاجُرُ والقِلى   ويَعُودُ لِي ما قَدْ مَضَى لِي أَوَّلا
مِنْ أَمْسِ كُنَّا والدِّيارُ تَلُمُّنا   في أُنْسِنا ونَرَى الحَواسِدَ غُفَّلا
غَدَرَ الزَّمانُ بِنا وفَرَّقَ شَمْلَنا   مِنْ بَعْدِ ما تَرَكَ المَنازِلَ كالخَلا
أَتَرُومَ مِنِّي يا عَذُولِي سَلْوَةً   وأَرَى فُؤَادِي لا يُطِيعُ العُذَّلا
فَدَعِ المَلامَ وخَلِّنِي بِصَبابَتِي   فالقَلْبُ مِنْ أُنْسِ الأَحِبَّةِ ما خَلا
يا سادَةً نَقَضُوا العُهُودَ وبَدَّلُوا   لا تَحْسَبُوا قَلْبِي المُتَيَّمَ قَدْ سَلا

فلما سمع الخليفة الثاني إنشاد الجارية صرخ صرخة عظيمة وشق ما عليه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 290

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة الثاني لما سمع شعر الجارية صرخ صرخة عظيمة وشق ما عليه من الثياب وخرّ مغشياً عليه . فارادوا ان يرخوا عليه الستارة بحسب العادة فتوقفت حبالها . فلاحت من هارون الرشيد التفاتة إليه فنظر على بدنه آثار ضرب مقارع . فقال الرشيد بعد النظر والتأكيد : يا جعفر والله إنه شاب مليح إلا إنه لص قبيح . فقال جعفر : من أين عرفت ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال : أما رأيت ما على جنبيه من أثر السياط؟ ثم أسبلوا عليه الستارة وأتوه ببدلة غير التي كانت عليه فلبسها واستوى جالساً على

حالته الأولى مع النداماء . فلاحت منه التفاتة فوجد الخليفة وجعفر يتحدثان سراً فقال لهما : ما الخبر يا فتيان ؟ فقال جعفر : يا مولانا خير . غير أنه لا خفاء عليك إن رفيقي هذا من التجار وقد سافر جميع الأمصار والأقطار وصحب الملوك والأخيار وهو يقول لي : إن الذي حصل من مولانا الخليفة في هذه الليلة إسراف عظيم ولم أرَ أحداً فعل مثل فعله في سائر الأقاليم ، لأنه شق كذا وكذا بدلة كل بدلة بألف دينار وهذا إسراف زائد . فقال الخليفة الثاني : يا هذا ، إن المال مالي والقماش قماشي وهذا من بعض الأنعام على الخدام والحواشي . فإن كل بدلة شققتها لواحد من النداماء الحضار ، وقد رسمت لهم مع كل بدلة خمسمائة دينار . فقال الوزير جعفر : نِعم ما فعلت يا مولانا . ثم أنشد هذين البيتين : [من الكامل]

بَنَتِ المَكارِمُ وَسْطَ كَفِّكَ مَنْزِلاً ... وجَعَلْتَ ما لَكَ للأَنامِ مُباحا
فإذا المَكارِمُ أَغْلَقَتْ أَبْوابَها ... كانَتْ يَداكَ لِقُفْلِها مُفْتاحا

فلما سمع الشاب هذا الشعر من الوزير جعفر رسم له ألف دينار وبدلة . ثم دارت بينهم الأقداح وطاب لهم الراح فقال الرشيد : يا جعفر ، اسأله عن الضرب الذي على جنبيه حتى ننظر ما يقول في جوابه . فقال : لا تعجل يا مولانا وترفّق بنفسك فإن الصبر أجمل . فقال : وحياة رأسي وتربة العباس إن لم تسأله لأخمدن منك الأنفاس . فعند ذلك التفت الشاب إلى الوزير وقال له : ما لك مع رفيقك تتسارران ؟ فاخبرني بشأنكما . فقال : خير . فقال الشاب : سألتك بالله أن تخبرني بخبركم ولا تكتم عني شيئاً من أمركم . فقال : يا مولاي ، إنه أبصر على جنبيك ضرباً وأثر سياط ومقارع فتعجّب من ذلك غاية العجب وقال : كيف يضرب الخليفة ؟ وقصده أن يعلم ما السبب . فلما سمع الشاب ذلك تبسّم وقال : اعلموا أن حديثي غريب وأمري عجيب ، لو كتب بالأبر على أماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر . ثم صعد الزفرات وأنشد هذه الأبيات : [من الطويل]

حَدِيثي عَجِيبٌ فاقَ كُلَّ العَجائِبِ ... وحَقِّ الهَوَى ضاقَتْ عَلَيَّ مَذاهِبِي
إذا ما أَرَدْتُمْ أَنْ أَقُولَ فأَنْصِتُوا ... ويَسْكُتُ هذا الجَمْعُ مِنْ كُلِّ جانِبِ
وأَصْغُوا إلى قَوْلي فَفِيهِ إشارَةٌ ... وإنَّ كَلامِي صادِقٌ غَيْرُ كاذِبِ
فإني قَتِيلٌ مِنْ غَرامٍ ولَوْعَةٍ ... وقاتِلَتِي فاقَتْ جَمِيعَ الكَواعِبِ
لها مُقْلَةٌ كَحْلاءُ مِثْلُ مُهَنَّدٍ ... وتَرْمِي سِهاماً عَنْ قِسِيِّ الحَواجِبِ
وقَدْ حَسَّ قَلْبِي أَنَّ فِيكُمْ إمامَنا ... خَلِيفَةَ هذا الوَقْتِ وابنَ الأَطايِبِ
وثانِيكُمُ وَهْوَ المُنادَى بِجَعْفَرٍ ... لَدَيْهِ وَزِيرٌ صاحِبٌ وابْنُ صاحِبِ
وثالِثُكُمْ مَسْرُورُ سَيّافُ نَقْمَةٍ ... فإنْ كانَ هذا القَوْلُ لَيْسَ بِكاذِبِ
لَقَدْ نِلْتُ ما أَرْجُو مِنَ الأَمْرِ كُلِّهِ ... وجاءَ سُرُورُ القَلْبِ مِنْ كُلِّ جانِبِ

فلما سمعوا منه هذا الكلام ، حلف له جعفر ووري في يمينه إنهم لم يكونوا المذكورين . فضحك الشاب وقال : أعلموا يا سادتي أنني لست أمير المؤمنين ، وإنما سميت نفسي بهذا الاسم

لأبلغ ما أريد من أولاد المدينة . وإنما اسمي محمد علي بن علي الجوهري، وكان ابي من الأعيان فمات وخلّف لي مالاً كثيراً من ذهب وفضة ولؤلؤ ومرجان وياقوت وزبرجد وجواهر وعقارات وحمامات وغيطان وبساتين ودكاكين وطوابين وعبيد وجوار وغلمان . فاتفق في بعض الأيام أنني كنت جالساً في دكاني وحولي الخدم والحشم ، وإذا بجارية قد أقبلت راكبة على بغلة وفي خدمتها ثلاث جوار كأنهن الأقمار . فلما قربت مني نزلت على دكاني وجلست عندي وقالت لي : هل أنت محمد الجوهري ؟ فقلت لها : نعم هو . أنا مملوكك وعبدك . فقالت : هل عندك عقد جوهر يصلح لي ؟ فقلت : يا سيدتي ، الذي عندي أعرضه عليك وأحضره بين يديك فإن أعجبك منه شيء كان يسعد المملوك وإن لم يعجبك شيء فبسوء حظي . وكان عندي مائة عقد من الجوهر فعرضت عليها الجميع ، فلم يعجبها شيء من ذلك وقالت : أريد أحسن مما رأيت . وكان عندي عقد صغير اشتراه والدي بمائة ألف دينار ولم يوجد مثله عند أحد من السلاطين الكبار فقلت لها : يا سيدتي ، بقي عندي عقد الفصوص والجواهر الذي لا يملك مثله أحد من الأكابر والأصاغر . فقالت لي : أرني إياه . فلما رأته قالت : هذا مطلوبي ، وهو الذي طول عمري أتمناه . ثم قالت لي : كم ثمنه ؟ فقلت لها : ثمنه على والدي مائة ألف دينار . فقالت : ولك خمسة الآف دينار فائدة . فقلت : يا سيدتي العقد وصاحبه بين يديك ولا خلاف عندي . فقالت : لا بدّ من الفائدة ولك المنة الزائدة . ثم قامت من وقتها وركبت البغلة بسرعة وقالت لي : يا سيدي بسم الله تفضل صحبتنا لتأخذ الثمن ، فإن نهارك اليوم بنا مثل اللبن . فقمت وقفلت الدكان وسرت معها في أمان إلى أن وصلنا إلى الدار ، فوجدتها داراً عليها آثار السعادة لائحة ، وبابها مزركش بالذهب والفضة واللازورد ومكتوب عليه هذين البيتين : [من الوافر]

أَلا يا دارُ لا يَدْخُلْكِ حُزْنٌ ... ولا يَغْدُرْ بصاحِبِكِ الزَّمانُ
فَنِعْمَ الدَّارُ أَنْتَ لِكُلِّ ضَيْفٍ ... إذا ما ضاقَ بالضَّيْفِ المَكانُ

فنزلت الجارية ودخلت الدار وأمرتني بالجلوس على مصطبة الباب إلى أن يأتي الصيرفي . فجلست على باب الدار ساعة ، وإذا بجارية خرجت إليّ وقالت لي : يا سيدي أدخل الدهليز فإن جلوسك على الباب قبيح . فقمت ودخلت الدهليز وجلست على الدكّة ، فبينما أنا جالس وإذا بجارية خرجت إليّ وقالت لي : يا سيدي ، إن سيدتي تقول لك : أدخل واجلس على باب الإيوان حتى تقبض مالك . فقمت ودخلت البيت وجلست لحظة ، وإذا بكرسي من الذهب وعليه ستارة من الحرير . وإذا بتلك الستارة قد رفعت فبان من تحتها تلك الجارية التي اشترت مني ذلك العقد وقد أسفرت عن وجه كأنه دائرة القمر والعقد في عنقها . فطاش عقلي واندهش لبّي من رؤية تلك الجارية لفرط حسنها وجمالها . فلما رأتني قامت من فوق الكرسي وسعت إلى نحوي وقالت لي : يا نور عيني ، هل كل من كان مليحاً مثلك ما يرثي لمحبوبته ؟ فقلت : يا سيدتي ، الحسن كله فيك وهو من بعض مغانيك . فقالت : يا جوهري ، أعلم أني أحبك وما صدقت أني أجيء بك عندي . ثم إنها مالت عليّ فقبّلتها وقبّلتني وإلى جهتها جذبتني وعلى صدرها رمتني . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 291

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الجوهري قال : ثم إنها مالت عليّ وقبلتني وإلى جهتها جذبتني وعلى صدرها رمتني وعلمت من حالي أني أريد وصالها. فقالت : يا سيدي، أتريد أن تجتمع بي في الحرام؟ والله لا كان من يفعل مثل هذه الآثام ويرضى بقبيح الكلام، فإني بكر عذراء ما دنا مني أحد ولست مجهولة في البلد. أتعلم من أنا؟ فقلت : لا والله يا سيدتي. فقالت : أنا السيدة دنيا بنت يحيى بن خالد البرمكي، وأخي جعفر وزير الخليفة. فلما سمعت ذلك منها أحجمت بخاطري عنها وقلت لها : يا سيدتي، ما لي ذنب في التهجّم عليك أنت التي أطمعتني في وصالك بالوصول إليك. فقالت : لا بأس عليك ولا بدّ من بلوغك المراد بما يرضى الله، فإن أمري بيدي والقاضي ولي عقدي. والقصد أن أكون لك أهلاً وتكون لي بعلاً. ثم إنها دعت بالقاضي والشهود وبذلت المجهود، فلما حضروا قالت لهم : محمد علي بن علي الجوهري قد طلب زواجي ودفع لي هذا العقد في مهري وأنا قبلت ورضيت. فكتبوا كتابها عليه ودخل بها. وأحضرت آلات الراح ودارت الأقداح بأحسن نظام وأتم أحكام، ولما شعشعت الخمرة في رؤوسنا أمرت جارية عوادة أن تغني. فأخذت العود وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات : [من الطويل]

بَدا فَأَراني الظَّبْيَ والغُصْنَ والبَدْرا ... فَتَبّاً لِقَلْبٍ لا يَبِيتُ بِهِ مُغْرَى
مَلِيحٌ أَرادَ اللهُ إطْفاءَ فِتْنَةٍ ... بِعارِضِهِ فاسْتَأْنَفَتْ فِتْنَةٌ أُخْرَى
أُغالِطُ عُذّالِي إذا ذَكَرُوا لَهُ ... حَدِيثاً كأَنِّي لا أُحِبُّ لَهُ ذِكْرا
وأُصْغِي إذا ذَكَرُوا لِغَيْرِ حَدِيثِهِ ... بِسَمْعِي ولَكِنِّي أَذُوبُ بِهِ فِكْرا
نَبِيُّ جَمالٍ كُلُّ ما فِيهِ مُعْجِزٌ ... مِنَ الحُسْنِ لَكِنْ وَجْهُهُ الآيَةُ الكُبْرَى
أَقامَ هِلالُ الخالِ في صَحْنِ خَدِّهِ ... يُراقِبُ مِنْ لألاءِ غُرَّتِهِ الفَجْرا
تُرِيدُ سُلُوِّي العاذِلُونَ جَهالَةً ... وما كُنْتُ أَرْضَى بَعْدَ إِيمانِيَ الكُفْرا

فأطربت الجارية بما أبدته من نغمات الأوتار ورقيق الأشعار، ولم تزل الجواري تغني جارية بعد جارية وينشدن الأشعار إلى أن غنّت عشر جوار. وبعد ذلك أخذت السيدة دنيا العود وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات : [من الكامل]

قَسَماً بِلِينِ قَوامِكَ المَيّاسِ ... إنِّي لَنارُ الهَجْرِ مِنْكَ أُقاسِي
فارْحَمْ حَشًى بِلَظَى هَواكَ تَسَعَّرَتْ ... يا بَدْرُ تِمٍّ في دُجَى الأَغْلاسِ
أَنْعِمْ بِوَصْلِكَ لي فإنِّي لَمْ أَزَلْ ... أَجْلُو جَمالَكَ في ضِياءِ الكاسِ
ما بَيْنَ وَرْدٍ نُوِّعَتْ أَلْوانُهُ ... وزَهَتْ مَحاسِنُهُ خِلالَ الآسِ

فلما فرغت من شعرها أخذت العود منها وضربت عليه غريب الضربات وغنيت بهذه الأبيات : [من البسيط]

سُبْحانَ رَبٍّ جَمِيعَ الحُسْنِ أَعْطاكِ ... حَتَّى بَقِيتُ أَنا مِنْ بَعْضِ أَسْراكِ
يا مَنْ لها ناظِرٌ تَسْبِي الأَنامَ بِهِ ... سَلِي الأَمانَ لنا مِنْ سَهْمِ مَرْماكِ

ضِدّانِ ماءٌ ونارٌ في سَنا لَهَبٍ　　حَوَتْهُما بِغَرِيبِ الشَّكْلِ خَدّاكِ
أَنْتِ السَّعِيرُ بِقَلْبِي والنَّعِيمُ لَه　　فَما أَمَرَّكِ في قَلْبِي وأَحْلاكِ

فلما سمعت مني هذا المعنى، فرحت فرحاً شديداً. ثم إنها صرفت الجواري وقمنا إلى أحسن مكان قد فرش لنا فيه فرش من سائر الألوان ونزعت ما عليها من الثياب وخلوت بها خلوة الأحباب فوجدتها درّة لم تثقب ومهرة لم تركب. ففرحت بها ولم أرَ في عمري ليلة أطيب من تلك الليلة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 292

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن محمد بن علي الجوهري قال: لما دخلت بالسيدة دنيا بنت يحيى بن خالد البرمكي رأيتها درّة لم تثقب ومهرة لم تركب فأنشدت هذين البيتين:

[من الكامل]

طَوَّقْتُهُ طَوْقَ الحَمامِ بِساعِدِي　　وجَعَلْتُ كَفِّي لِلّثامِ مُباحا
هذا هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ولَمْ نَزَلْ　　مُتَعانِقَيْنِ فلا نُرِيدُ بَراحا

ثم أقمت عندها شهراً كاملاً وقد تركت الدكان والأهل والأوطان. فقالت لي يوماً من الأيام: يا نور العين يا سيدي محمد، إني قد عزمت اليوم على المسير إلى الحمام، فاستقر أنت على هذا السرير ولا تنتقل من مكانك إلى أن أرجع إليك وحلفتني على ذلك. فقلت لها: سمعاً وطاعةً. ثم إنها حلفتني أني لا أنتقل من موضعي، وأخذت جواريها وذهبت إلى الحمام. فوالله يا إخواني ما لحقت أن تصل إلى رأس الزقاق إلاّ والباب قد فتح ودخلت منه عجوز وقالت: يا سيدي محمد، إن السيدة زبيدة تدعوك فإنها سمعت بأدبك وظرفك وحسن غنائك فقلت لها: والله ما أقوم من مكاني حتى تأتي السيدة دنيا. فقالت العجوز: يا سيدي، لا تخلّ السيدة زبيدة تغضب عليك وتبقى عدوتك، فقم كلّمها وارجع إلى مكانك. فقمت من وقتي وتوجّهت إليها والعجوز أمامي إلى أن وصّلتني إلى السيدة زبيدة. فلما وصلت إليها قالت لي: يا نور العين، هل أنت معشوق السيدة دنيا؟ فقلت: أنا مملوكك وعبدك. فقالت: صدق الذي وصفك بالحسن والجمال والأدب والكمال فإنك فوق الوصف والمقال، ولكن غنّ لي حتى أسمعك. فقلت لها: سمعاً وطاعةً. فأتتني بعود، فغنّيت عليه بهذه الأبيات: [من البسيط]

قَلْبُ المُحِبِّ مَعَ الأَحْبابِ مَتْعُوبُ　　وجِسْمُهُ بِيَدِ الأَسْقامِ مَنْهُوبُ
ما في الرِّحالِ وقَدْ زُمَّتْ رَكائِبُهُم　　إلاّ مُحِبٌّ لَه في الرَّكْبِ مَحْبُوبُ
أَسْتَوْدِعُ اللهَ في إطْنابِكُمْ قَمَراً　　يَهْواهُ قَلْبِي وعَنْ عَيْنَيَّ مَحْجُوبُ
يَرْضَى ويَغْضَبُ ما أَحْلَى تَدَلُّلَهُ　　وكُلُّ ما يَفْعَلُ المَحْبُوبُ مَحْبُوبُ

فلما فرغت من المغنى قالت لي: أصحّ الله بدنك وطيّب أنفاسك فلقد كملت في الحسن والأدب والمغنى. فقم وامض إلى مكانك قبل أن تجيء السيدة دنيا فلا تجدك فتغضب عليك.

فقبّلت الأرض بين يديها وخرجت والعجوز أمامي إلى أن وصلت إلى الباب الذي خرجت منه، فدخلت وجئت إلى السرير فوجدتها قد جاءت من الحمام وهي نائمة على السرير. فقعدت عند رجليها وكبستهما. ففتحت عيناها فرأتني، فجمعت رجليها ورفصتني فرمتني من فوق السرير وقالت لي: يا خائن، خنت اليمين وحنثت فيه ووعدتني انك لا تنتقل من مكانك، وأخلفت الوعد وذهبت إلى السيدة زبيدة. والله لولا خوفي من الفضيحة لهدمت قصرها على رأسها. ثم قالت لعبدها: يا صواب، قم اضرب رقبة هذا الكذّاب فلا حاجة لنا به. فتقدم العبد وشرط من ذيله رقعة وعصب بها عيني. وأراد أن يضرب عنقي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 293

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن محمّداً الجوهري قال: فتقدّم العبد وشرط من ذيله رقعة وعصب بها عينيّ وأراد أن يضرب عنقي، فقامت إليها الجواري الكبار والصغار وقلن لها: يا سيدتنا، ليس هذا أول من أخطأ وهو لا يعرف خلقك وما فعل ذنباً يوجب القتل. فقالت: والله لا بدّ أن أعمل فيه أثراً. ثم أمرت بضربي، فضربوني على أضلاعي وهذا الذي رأيتموه أثر ذلك الضرب. وبعد ذلك أمرت بإخراجي، فأخرجوني وأبعدوني عن القصر ورموني. فحملت نفسي ومشيت قليلاً قليلاً حتى وصلت إلى منزلي وأحضرت جراحياً وأريته الضرب، فلاطفني وسعى في مداواتي. فلما شفيت ودخلت الحمام وزالت عني الأوجاع والأسقام، جئت إلى الدكان وأخذت جميع ما فيها وبعته وجمعت ثمنه واشتريت لي أربعمائة مملوك، ما جمعهم أحد من الملوك. وصار يركب معي منهم في كل يوم مائتان، وعملت هذا الزورق وصرفت عليه خمسة آلآف دينار من الذهب وسمّيت نفسي بالخليفة، ورتّبت من معي من الخدم كل واحد في وظيفة واحد من أتباع الخليفة وهيأته بهيئته وناديت: كل من تفرّج في الدجلة ضربت عنقه بلا مهلة. ولي على هذا الحال سنة كاملة وأنا لم أسمع لها خبر ولم اقف لها على أثر. ثم إنه بكى وأفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات: [من البسيط]

وَاللهِ ما كُنْتُ طُولَ الدَّهْرِ ناسِيها ... ولا دَنَوْتُ إلى مَنْ لَيْسَ يُدْنِيها
كأَنَّها البَدْرُ في تَكْوِينِ خَلْقَتِها ... سُبْحانَ خالِقِها سُبْحانَ بارِيها
قَدْ صَيَّرَتْنِي حَزِيناً ساهِراً دَنِفاً ... والقَلْبُ قَدْ حارَ مِنِّي في مَعانِيها

فلما سمع هارون الرشيد كلامه وعرف وجده ولوعته وغرامه، تدلّه ولهاً وتحيّر عجباً وقال: سبحان الله الذي جعل لكل شيء سبباً. ثم إنهم استأذنوا الشاب في الإنصراف فأذن لهم. وأضمر له الرشيد على الإنصاف وأن يتحفه غاية الإتحاف، ثم انصرفوا من عنده سائرين وإلى محل الخلافة متوجّهين. فلما استقرّ بهم الجلوس وغيّروا ما عليهم من الملبوس ولبسوا أثواب المواكب ووقف بين يديهم مسرور سيّاف النقمة. فقال الخليفة لجعفر: يا وزير، عليّ بالشاب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 294

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الخليفة قال للوزير : عليّ بالشاب الذي كنا عنده في الليلة الماضية . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم توجّه إليه وسلم عليه وقال له : أجب أمير المؤمنين الخليفة هارون الرشيد . فسار معه إلى القصر وهو من الترسيم عليه في حصر . فلما دخل على الخليفة قبّل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العزّ والإقبال وبلوغ الآمال ودوام النعم وإزالة البؤس والنقم ، وقد أحسن ما به تكلم حيث قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين وحامي حومة الدين . ثم أنشد هذين البيتين : [من الكامل]

لا زَالَ بابُكَ كَعْبَةً مَقْصُودَةً   وتُرابُها فَوْقَ الجباهِ رُسُومُ
حَتَّى يُنادَى في البِلادِ بأَسْرِها   هذا المَقامُ وأَنْتَ إبْراهِيمُ

فتبسّم الخليفة في وجهه وردّ عليه السلام والتفت إليه بعين الإكرام وقرّبه وأجلسه بين يديه وقال له : يا محمد علي ، أريد منك أن تحدثني بما وقع في هذه الليلة فإنه من العجائب وبديع الغرائب . فقال الشاب : العفو يا أمير المؤمنين أعطني منديل الأمان ليسكن روعي ويطمئن قلبي . فقال له الخليفة : لك الأمان من الخوف والأحزان . فشرع الشاب يحدّثه بالذي حصل له من أوله إلى آخره . فعلم الخليفة أن الصبي عاشق وللمعشوق مفارق . فقال له : أتحب أن أردّها عليك ؟ قال : هذا من فضل أمير المؤمنين . ثم أنشد هذين البيتين : [من الكامل]

إلْثِمْ أَنامِلَهُ فَلَسْنَ أَنامِلاً   لَـكِنَّهُنَّ مَفاتِـحُ الأَرْزاقِ
وأَشْكُرْ صَنائِعَهُ فَلَسْنَ صَنائِعاً   لَـكِنَّهُنَّ قَلائِدُ الأَعْناقِ

فعند ذلك التفت الخليفة إلى الوزير وقال له : يا جعفر ، أحضر لي أختك السيدة دنيا بنت الوزير يحيى بن خالد . فقال : سمعاً وطاعةً يا أمير المؤمنين . ثم أحضرها في الوقت والساعة فلما تمثلت بين يديه قال لها الخليفة : أتعرفين من هذا ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، من أين للنساء معرفة الرجال ؟ فتبسّم الخليفة وقال لها : يا دنيا هذا حبيبك محمد علي بن الجوهري وقد عرفنا الحال وسمعنا الحكاية من أولها إلى آخرها ، وفهمنا ظاهرها وباطنها والأمر لا يخفى وإن كان مستوراً . فقالت : يا أمير المؤمنين ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وأنا استغفر الله العظيم مما جرى مني وأسألك من فضلك العفو عني . فضحك الخليفة هارون الرشيد وأحضر القاضي والشهود وجدّد عقدها على زوجها محمد علي بن الجوهري وحصل لها وله سعد السعود وإكماد الحسود وجعله من جملة ندمائه . واستمروا في سرور ولذّة وحبور إلى أن أتاهم هادم اللذّات ومفرق الجماعات .

23 - حكاية علي العجمي

ومما يحكى أيضاً أن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة من الليالي فاستدعى وزيره ، فلما حضر بين يديه قال له : يا جعفر ، إني قلقت الليلة قلقاً عظيماً وضاق صدري وأريد منك شيئاً يسرّ خاطري وينشرح به صدري . فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين ، إن لي صديقاً اسمه علي العجمي وعنده من الحكايات والأخبار المطربة ما يسرّ النفوس ويزيل عن القلب البؤس . فقال : عليّ به .

فقال : سمعاً وطاعةً . ثم إن جعفر خرج من عند الخليفة في طلب العجمي فأرسل خلفه ، فلما حضر قال له : أجب أمير المؤمنين . فقال : سمعاً وطاعةً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 295

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن العجمي قال : سمعاً وطاعةً . ثم توجّه معه إلى الخليفة ، فلما تمثل بين يديه أذن له بالجلوس فجلس . فقال له الخليفة : يا علي ، إنه ضاق صدري في هذه الليلة ، وقد سمعت عنك أنك تحفظ حكايات وأخباراً وأريد منك أن تسمعني ما يزيل همّي ويصقل فكري . فقال : يا أمير المؤمنين ، هل أحدثك بالذي رأيته بعيني أو بالذي سمعته بأذني ؟ فقال : إن كنت رأيت شيئاً فاحكه . فقال : سمعاً وطاعةً . أعلم يا أمير المؤمنين أني سافرت في بعض السنين من بلدي هذه وهي مدينة بغداد وصحبتي غلام ومعه جراب لطيف ودخلنا مدينة ، فبينما أنا أبيع وأشتري وإذا برجل كردي ظالم متعدّ قد هجم عليّ وأخذ مني الجراب وقال : هذا جرابي وكل ما فيه متاعي . فقلت : يا معشر المسلمين خلصوني من يد أفجر الظالمين . فقال الناس جميعاً : اذهبا إلى القاضي واقبلا حكمه بالتراضي . فتوجّهنا إلى القاضي وأنا بحكمه راضي ، فلما دخلنا عليه وتمثّلنا بين يديه قال القاضي : في أي شيء جئتما ؟ وما قضية خبركما ؟ فقلت : نحن خصمان إليك تداعينا وبحكمك تراضينا . فقال : أيكما المدعي ؟ فتقدم الكردي وقال : أيّد الله مولانا القاضي ، إن هذا الجراب جرابي وكل ما فيه متاعي وقد ضاع مني ووجدته مع هذا الرجل . فقال القاضي : ومتى ضاع منك ؟ فقال الكردي : من أمس هذا اليوم وبتّ لفقده بلا نوم . فقال القاضي : إن كنت عرفته فصف لي ما فيه ؟ فقال الكردي : في جرابي هذا : مرودان من لجين وفيه اكحال للعين ومنديل لليدين ووضعت فيه شربتين مذهّبتين وشمعدانين وهو مشتمل على بيتين وطبقين ومعلقتين ومخدّة ونطعين وابريقين وصينية وطشتين وقدرة وزلعتين ومغرفة ومسلّة ومزودين وهرّة وكلبتين وقصعة وقعيدتين وجبّة وفروتين وبقرة وعجلين وعنز وشاتين ونعجة وسخلين وصيوانين أخضرين وجمل وناقتين وجاموسة وثورين ولبوة وسبعين وديّة وثعلبين ومرتبة وسريرين وقصر وقاعتين ورواق ومقعدين ومطبخ ببابين وجماعة أكراد يشهدون أن الجراب جرابي . فقال القاضي : ما تقول أنت يا هذا ؟ فتقدمت إليه يا أمير المؤمنين وقد أبهتني الكردي بكلامه فقلت : أعزّ الله مولانا القاضي ، أنا ما في جرابي هذا إلاّ : دويرة خراب وأخرى بلا باب ومقصورة للكلاب وفيه للصبيان كتاب وشباب يلعبون بالكعاب وفيه خيام وأطناب ومدينة البصرة وبغداد وقصر شدّاد بن عاد وكور حدّاد وشبكة صيّاد وعصيّ وأوتاد وبنات وأولاد وألف قواد يشهدون أن الجراب جرابي . فلما سمع الكردي هذا الكلام ، بكى وانتحب وقال : يا مولانا القاضي إن جرابي هذا معروف وكل ما فيه موصوف . في جرابي هذا : حصون وقلاع وكراكي وسباع ورجال يلعبون بالشطرنج والرقاع . وفي جرابي هذا : حجرة ومهران وفحل وحصانان ورمحان طويلان وهو مشتمل على سبع وأرنبين ومدينة وقريتين وقحبة وقوادين شاطرين ومخنّث وعلقين وأعمى وبصيرين وأعرج ومكسحين وشمّاسين وبطرك وراهبين وقاض وشاهدين وهم يشهدون أن الجراب جرابي . فقال القاضي : ما تقول يا علي ؟ فامتلأت غيظاً يا أمير المؤمنين وتقدمت إليه وقلت : أيدّ الله مولانا

القاضي . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 296

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن العجمي قال : فامتلأت غيظاً يا أمير المؤمنين وتقدمت إليه وقلت : أيّد الله مولانا القاضي ، أنا في جرابي هذا : زرد وصفاح وخزائن سلاح وألف كبش نطاح وفيه للغنم مراح وألف كلب نباح وبساتين وكروم وأزهار ومشموم وتين وتفاح وأشباح وقناني وأقداح وعرايس ملاح ومغاني وأفراح وهرج وصياح وأقطار فساح وأخوه نجاح ورفقة صباح ومعهم سيوف ورماح وقسي ونشّاب وأصدقاء وأحباب وخلاّن وأصحاب ومحابس للعقاب وندماء للشراب وطنبور ونايات وأعلام ورايات وصبيان وبنات وعرايس مجليات وجوار مغنيات وخمس حبشيات وثلاث هنديات وأربع مدنيات وعشرون روميات وخمسون تركيات وسبعون عجميات وثمانون كرديات وتسعون جرجيات والدجلة والفرات وشبكة صياد وقداحة وزناد وإرم ذات العماد وألف علق وقواد وميادين واصطبلات ومساجد وحمامات وبناء وتجار وخشبة ومسمار وعبد أسود بمزمار ومقدم وركبدار ومدن وأمصار ومائة ألف دينار والكوفة مع الأنبار وعشرون صندوقاً ملآنة بالقماش وخمسون حاصلاً للمعاش وغزة وعسقلان ومن دمياط إلى أصوان وإيوان كسرى أنو شروان وملك سليمان ومن وادي نعمان إلى أرض خراسان وبلخ وأصبهان ومن الهند إلى بلاد السودان . وفيه أطال الله عمر مولانا القاضي : غلائل وعراضي وألف موسى ماضي تحلق ذقن القاضي إن لم يخش عقابي ولم يحكم بأن الجراب جرابي . فلما سمع القاضي كلام الكردي تحيّر عقله من ذلك وقال : ما أراكما إلاّ شخصين نحسين ورجلين زنديقين تلعبان بالقضاة والحكّام ولا تخشيان من الملام ، لأنه ما وصف الواصفون ولا سمع السامعون بأعجب مما وصفتم ولا تكلم بمثل ما تكلمتم ، والله إن من الصين إلى شجرة أم غيلان ومن بلاد فارس إلى أرض السودان ومن وادي نعمان إلى أرض خراسان لا يسع ما ذكرتماه ولا يصدق ما ادّعيتماه . فهل هذا الجراب بحر ليس له قرار ويوم العرض الذي يجمع الأبرار والفجار ؟ ثم إن القاضي أمر بفتح الجراب ففتحه ، وإذا فيه خبز وليمون وجبن وزيتون . ثم رميت الجراب قدّام الكردي ومضيت . فلما سمع الخليفة هذه الحكاية من علي العجمي استلقى على قفاه من الضحك وأحسن جائزته .

24 - حكاية هارون الرشيد وأبو يوسف

ومما يحكى أن جعفر البرمكي نادم الرشيد ليلة فقال الرشيد : يا جعفر ، بلغني أنك اشتريت الجارية الفلانية ولي مدة أتطلبها ، فإنها على غاية من الجمال وقلبي بحبها في اشتغال فبعها لي . فقال : لا أبيعها يا أمير المؤمنين . فقال : هبها لي . فقال : لا أهبها . فقال الرشيد : زبيدة طالق ثلاثاً إن لم تبعها لي أو تهبها لي . قال جعفر : زوجتي طالق ثلاثاً إن بعتها أو وهبتها لك . ثم أفاقا من نشوتهما وعلما أنهما وقعا في أمر عظيم وعجزا عن تدبير الحيلة . فقال الرشيد : هذه واقعة ليس لها غير أبي يوسف . فطلبوه وكان ذلك في نصف الليل . فلما جاء الرسول ، قام فزعاً وقال في نفسه : ما طُلبت في هذا الوقت إلاّ لأمر حدث في الإسلام . ثم خرج مسرعاً وركب بغلته وقال

لغلامه : خذ معك مخلاة البغلة لعلها لم تستوف عليقها، فإذا دخلنا دار الخلافة فضع لها المخلاة حتى تأكل ما بقي من عليقها إلى حين خروجي إذا لم تستوف عليقها في هذه الليلة. فقال الغلام : سمعاً وطاعةً. فلما دخل على الرشيد، قام له وأجلسه على سريره بجانبه وكان لا يجلس معه أحداً غيره وقال له : ما طلبناك في هذا الوقت إلاّ لأمر مهم وهو كذا وكذا، وقد عجزنا في تدبير الحيلة. فقال : يا أمير المؤمنين، إن هذا الأمر أسهل ما يكون. ثم قال : يا جعفر بع لأمير المؤمنين نصفها وهب له نصفها وتبرآن في يمينكما بذلك. فانسرّ أمير المؤمنين بذلك وفعلاً ما أمرهما به. ثم قال الرشيد : أحضروا الجارية في هذا الوقت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 297

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة هارون الرشيد قال : أحضروا الجارية في هذا الوقت فإني شديد الشوق اليها. فأحضروها وقال للقاضي أبي يوسف : أريد وطئها في هذا الوقت فإني لا أطيق الصبر عنها إلى مضي مدة الاستبراء، وما الحيلة في ذلك؟ فقال أبو يوسف : ائتوني بمملوك من مماليك أمير المؤمنين الذين لم يجر عليهم. فأحضروا مملوكاً فقال أبو يوسف : إأذن لي أن أزوجها منه ثم يطلقها قبل الدخول فيحل وطؤها في هذا الوقت من غير استبراء. فأعجب الرشيد ذلك أكثر من الأول، فلما حضر المملوك قال الخليفة للقاضي : أذنت لك في العقد. فأوجب القاضي النكاح ثم قبله المملوك وبعد ذلك قال له القاضي : طلقها ولك مائة دينار. فقال : لا أفعل. ولم يزل يزيده وهو يمتنع إلى أن عرض عليه ألف دينار. ثم قال للقاضي : هل الطلاق بيدي أم بيدك أم بيد أمير المؤمنين؟ قال : بل بيدك. قال : والله لا أفعل أبداً. فاشتد غضب أمير المؤمنين وقال : ما الحيلة يا أبا يوسف؟ قال القاضي أبو يوسف : يا أمير المؤمنين لا تجزع فإن الأمر هين، ملّك هذا المملوك للجارية. قال : ملّكته لها. قال لها القاضي : قولي قبلت. فقالت : قبلت. فقال القاضي : حكمت بينهما بالتفريق لأنه دخل في ملكها فانفسخ النكاح. فقام أمير المؤمنين على قدميه وقال : مثلك من يكون قاضياً في زماني. واستدعى باطباق الذهب فأفرغت بين يديه وقال للقاضي : هل معك شيء تضعه فيه؟ فتذكّر مخلاة البغلة فاستدعى بها، فملئت له ذهباً فأخذها وانصرف إلى بيته. فلما أصبح الصباح قال لأصحابه : لا طريق إلى الدين والدنيا أسهل وأقرب من طريق العلم، فإني أعطيت هذا المال العظيم في مسألتين أو ثلاث. فانظر أيها المتأدب إلى لطف هذه الواقعة فإنها اشتملت على محاسن. منها : دلال الوزير على الرشيد وعلم الخليفة وزيادة علم القاضي فرحم الله تعالى أرواحهم أجمعين.

25- حكاية خالد بن عبدالله مع السارق المزيّف

ومما يحكى أن خالد بن عبد الله القسْري كان أمير البصرة، فجاء إليه جماعة متعلقون بشاب ذي جمال باهر وأدب ظاهر وعقل وافر، وهو حسن الصورة طيب الرائحة وعليه سكينة ووقار، فقدموه إلى خالد فسألهم عن قصته. فقالوا : هذا لص أصبناه البارحة في منزلنا. فنظر اليه خالد فأعجبه حسن هيئته ونظافته فقال : اخلوا عنه. ثم دنا منه وسأله عن قصته فقال : إن القوم صادقون فيما قالوه والأمر على ما ذكروا. فقال له خالد : ما حملك على ذلك؟ وأنت في هيئة

جميلة وصورة حسنة . قال : حملني على ذلك الطمع في الدنيا وقضاء الله سبحانه وتعالى . فقال له خالد : ثكلتك أمك . أما كان لك في جمال وجهك وكمال عقلك وحسن أدبك زاجر يزجرك عن السرقة ؟ قال :دع عنك هذا أيها الأمير وامض إلى ما أمر الله تعالى فذلك بما كسبت يداي وما الله بظلام للعبيد . فسكت خالد ساعة يفكر في أمر الفتى ثم أدناه منه وقال له : إن اعترافك على رؤوس الأشهاد قد رابني وأنا ما أظنك سارقاً، ولعل لك قصة غير السرقة فاخبرني بها . قال : أيها الأمير ، لا يقع في نفسك شيء سوى ما اعترفت به عندك ، وليس لي قصة أشرحها إلاّ إني دخلت دار هؤلاء فسرقت ما أمكنني فأدركوني وأخذوه مني وحملوني إليك . فأمر خالد بحبسه وأمر منادياً ينادي بالبصرة : ألا من أحب أن ينظر إلى عقوبة فلان اللص وقطع يده فليحضر من الغداة إلى المحل الفلاني . فلما استقر الفتى في الحبس ووضعوا في رجليه الحديد ، تنفس الصعداء وأفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات : [من المنسرح]

هَدَّدَني خالدٌ بِقَطْعِ يَدِي إذْ لَمْ أَبُحْ عِنْدَهُ بِقِصَّتِها
فَقُلْتُ هَيْهاتَ أَنْ أَبُوحَ بما تَضَمَّنَ القَلْبُ مِنْ مَحَبَّتِها
قَطْعُ يَدِي بالَّذي اَعْتَرَفْتُ به أَهْوَنُ لِلْقَلْبِ مِنْ فَضِيحَتِها

فسمع ذلك الموكلون به فأتوا خالداً وأخبروه بما حصل منه . فلما جن الليل أمر بإحضاره عنده ، فلما حضر استنطقه ، فرآه عاقلاً أديباً فطناً ظريفاً لبيباً . فأمر له بطعام فأكل وتحدث معه ساعة ثم قال له خالد : قد علمت أن لك قصة غير السرقة ، فإذا كان الصباح وحضر الناس وحضر القاضي وسألك عن السرقة فانكرها واذكر ما يدرأ عنك القطع . فقد قال رسول الله ﷺ : ادرؤوا الحدود بالشبهات . ثم أمر به إلى السجن . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 298

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن خالداً بعد أن تحدث مع الشاب أمر به إلى السجن فمكث فيه ليلته . فلما أصبح الصباح حضرت الناس ينظرون قطع يد الشاب ، ولم يبقَ أحد في البصرة من رجل ولا امرأة إلا وقد حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى . وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم ، ثم استدعى بالقضاء وأمر بإحضار الفتى ، فأقبل يحجل في قيوده ولم يره أحد من الناس إلاّ بكى عليه . وارتفعت أصوات النساء بالنحيب ، فأمر القاضي بتسكيت النساء ثم قال له : إن هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهم لعلك سرقت دون النصاب . قال : بل سرقت نصاباً كاملاً . قال : لعلك شريك القوم في شيء منه . قال : بل هو جميعه لهم لا حقّ لي فيه . فغضب خالد وقام إليه بنفسه وضربه على وجهه بالسوط وقال متمثلاً بهذا البيت : [من الوافر]

يُرِيدُ المرْءُ أَنْ يُعْطَى مُناهُ ويأْبَى اللهُ إلاّ ما يُرِيدُ

ثم دعا بالجزار ليقطع يده ، فحضر وأخرج السكين ومدّ يده ووضع عليها السكين . فبادرت جارية من وسط النساء عليها أطمار وسخة ، فصرخت ورمت نفسها عليه . ثم أسفرت عن وجه كأنه القمر وارتفع للناس ضجة عظيمة وكاد أن يقع بسبب ذلك فتنة طائرة الشرر . ثم نادت تلك الجارية بأعلى صوتها : ناشدتك الله أيها الأمير لا تعجل بالقطع حتى تقرأ هذه الرقعة . ثم

دفعت إليه رقعة ففتحها خالد وقرأها ، فإذا مكتوب فيها هذه الأبيات : [من الطويل]

أَخالدُ هذا مُسْتَهامٌ مُتَيَّمٌ رَمَتْهُ لِحاظي عَنْ قَسِيٍّ الحَمالِقِ
فأَصْماهُ سَهْمُ اللَّحْظِ مِنِّي لأنَّه حَلِيفُ جَوَى مِنْ دائِهِ غَيرُ فائِقِ
أَقَرَّ بما لَمْ يَقْتَرِفْهُ كأنَّه رأَى ذاكَ خَيْراً مِنْ هَتِيكَةِ عاشِقِ
فَمَهْلاً عَنِ الصَّبِّ الكَئِيبِ فإنَّه كَرِيمُ السَّجايا في الوَرَى غَيرُ سارِقِ

فلما قرأ خالد الأبيات تنحّى وانفرد عن الناس وأحضر المرأة ثم سألها عن القصة . فأخبرته أن هذا الفتى عاشق لها وهي عاشقة له ، وإنما أراد زيارتها فتوجّه إلى دار أهلها ورمى حجراً في الدار ليعلمها بمجيئه ، فسمع أبوها وأخوتها صوت الحجر فصعدوا إليه . فلما أحسّ بهم جمع قماش البيت كله وأراهم أنه سارق ، ستراً على معشوقته . فلما رأوه على هذه الحالة أخذوه وقالوا : هذا سارق . وأتوا به إليك فاعترف بالسرقة وأصرّ على ذلك حتى لا يفضحني . وقد ارتكب هذه الأمور من رمي نفسه بالسرقة لفرط مروءته وكرم نفسه . فقال خالد : إنه لخليق بأن يسعف بمراده . ثم استدعى الفتى إليه فقبّله بين عينيه ، وأمر بإحضار أبي الجارية وقال له : يا شيخ ، إنّا كنّا عزمنا على إنفاذ الحكم في هذا الفتى بالقطع ولكن الله عزّ وجل قد حفظني من ذلك وقد أمرت له بعشرة آلآف درهم لبذله يده حفظاً لعرضك وعرض بنتك وصيانتكما من العار ، وقد أمرت لابنتك بعشرة آلآف درهم حيث أخبرتني بحقيقة الأمر . وأنا أسألك أن تأذن لي في تزويجها منه . فقال الشيخ : أيها الأمير ، قد أذنت لك في ذلك . فحمد الله خالد وأثنى عليه وخطب خطبة حسنة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

26 - حكاية جعفر البرمكي والفوّال

فلما كانت الليلة 299

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن خالداً حمد الله وأثنى عليه وخطب خطبة حسنة وقال للفتى : قد زوّجتك هذه الجارية فلانة الحاضرة بإذنها ورضائها وإذن أبيها على هذا المال وقدره عشرة الآف درهم . فقال الفتى : قبلت منك هذا التزويج . ثم إن خالداً أمر بحمل المال إلى دار الفتى مزفوفاً في الصواني وانصرف الناس وهم مسرورون . فما رأيت يوماً أعجب من ذلك اليوم ، أوله بكاء وشرور وآخره فرح وسرور .

ومما يحكى أن جعفر البرمكي لما صلبه هارون الرشيد ، أمر بصلب كل من نعاه أو رثاه فكفّ الناس عن ذلك . فاتفق أن أعرابياً كان ببادية بعيدة وفي كل سنة يأتي بقصيدة إلى جعفر البرمكي المذكور فيعطيه ألف دينار جائزة على تلك القصيدة ، فيأخذها وينصرف ويستمر ينفق منها على عياله إلى آخر العام . فجاءه ذلك الأعرابي بالقصيدة على عادته ، فلما جاء وجد جعفر مصلوباً ، فجاء إلى المحل الذي هو مصلوب به وأناخ راحلته وبكى بكاءً شديداً وحزن حزناً عظيماً وأنشد القصيدة ونام . فرأى جعفر البرمكي في المنام يقول له : إنك قد أتعبت نفسك وجئتنا فوجدتنا على ما رأيت ، ولكن توجه إلى البصرة واسأل عن رجل إسمه كذا وكذا من تجار البصرة وقل له : إن جعفر البرمكي يقرئك السلام ويقول لك : أعطني ألف دينار بإمارة الفولة . فلما انتبه الأعرابي

من نومه توجّه إلى البصرة فسأل عن ذلك التاجر واجتمع به وبلّغه ما قاله جعفر في المنام ، فبكى التاجر بكاءً شديداً حتى كاد أن يفارق الدنيا . ثم إنه كرّم الأعرابي وأجلسه عنده وأحسن مثواه ومكث عنده ثلاثة أيام مكرّماً ، ولما أراد الانصراف أعطاه ألفاً وخمسمائة دينار وقال له : الألف هي المأمور لك بها والخمسمائة إكرام مني إليك ، ولك في كل سنة ألف دينار . وعند انصرافه قال للتاجر : بالله عليك أن تخبرني بخبر الفولة حتى أعرف أصلها . فقال له : أنا كنت في ابتداء الأمر فقير الحال أطوف بالفول الحار في شوارع بغداد وأبيعه حيلة على المعاش . فخرجت في يوم بارد ماطر وليس على بدني ما يقيني من البرد ، فتارة أرتعد من شدة البرد وتارة أقع في ماء المطر وأنا في حالة كريهة تقشعّر منها الجلود . وكان جعفر في ذلك اليوم جالساً في قصر مشرف على الشارع وعنده خواصه ومحاظيه ، فوقع نظره عليّ فرق لحالي وأرسل إليّ بعض أتباعه فأخذني إليه وأدخلني عليه . فلما رآني قال لي : بع ما معك من الفول على طائفتي . فأخذت أكيله بمكيال كان معي ، فكل من أخذ كيلة فول يملأها ذهباً حتى فرغ جميع ما معي ولم يبقَ في القفّة شيء . ثم جمعت الذهب الذي حصل لي على بعضه فقال لي : هل بقي معك شيء من الفول ؟ قلت : لا أدري . ثم فتشت القفّة فلم أجد فيها سوى فولة واحدة ، فأخذها مني جعفر وفلقها نصفين : فأخذ نصفها وأعطى النصف الثاني لإحدى محاظيه وقال : بكم تشترين نصف هذه الفولة ؟ فقالت : بقدر هذا الذهب مرتين . فصرت متحيّراً في أمري وقلت في نفسي : هذا محال . فبينما أنا متعجّب وإذا بالحظية أمرت بعض جواريها فأحضرت ذهباً قدر الذهب المجتمع مرتين . فقال جعفر : وأنا أشتري النصف الذي أخذته بقدر الجميع مرتين . ثم قال لي جعفر : خذ ثمن فولك . وأمر بعض خدّامه فجمع المال كله ووضعه في قفّتي فأخذته وانصرفت . ثم جئت إلى البصرة واتّجرت بما معي من المال فوسّع الله عليّ ولله الحمد والمنّة . فإذا أعطيتك في كل سنة ألف دينار من بعض إحسان جعفر ما ضرّني شيء . فانظر مكارم أخلاق جعفر والثناء عليه حياً وميتاً رحمة الله تعالى عليه .

27 - حكاية أبومحمد الكسلان

ومما يحكى أن هارون الرشيد كان جالساً ذات يوم في تخت الخلافة إذ دخل عليه غلام من الطواشية ومعه تاج من الذهب الأحمر مرصّع بالدر والجوهر وفيه من سائر اليواقيت والجواهر ما لا يفي به مال . ثم إن ذلك الرجل قبّل الأرض بين يدي الخليفة وقال له : يا أمير المؤمنين ، إن السيدة زبيدة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . فقالت لها أختها : ما أحسن حديثك وأطيبه وأحلاه وأعذبه . فقالت : وأين هذا مما أحدثكم به الليلة القابلة إن عشت وأبقاني الملك . فقال الملك في نفسه : والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها .

فلما كانت الليلة 300

□ قالت لها أختها : يا أختي أتمي لنا حديثك . قالت : حباً وكرامةً إن أذن لي الملك . فقال الملك : إحك يا شهرزاد . قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الغلام قال للخليفة : إن السيدة زبيدة تقبّل الأرض بين يديك وتقول لك : أنت تعرف أنها قد عملت هذا التاج وإنه محتاج إلى جوهرة كبيرة تكون في رأسه ، وفتشت دخائرها فلم تجد فيها جوهرة

كبيرة على غرضها . فقال الخليفة للحجّاب والنواب : فتشوا على جوهرة كبيرة على غرض زبيدة . ففتشوا فلم يجدوا شيئاً يوافقها فأعلموا الخليفة بذلك . فضاق صدره وقال : كيف أكون خليفة وملك الأرض وأعجز عن جوهرة؟ ويلكم ! فاسألوا التجار . فسألوا التجار فقالوا لهم : لا يجد مولانا الخليفة الجوهرة إلاّ عند رجل من البصرة يسمى أبا محمد الكسلان . فأخبروا الخليفة بذلك فأمر وزيره جعفر أن يرسل بطاقة إلى الأمير محمد الزبيدي المتولّي على البصرة أن يجهّز أبا محمد الكسلان ويحضر به بين يدي أمير المؤمنين . فكتب الوزير بطاقة بمضمون ذلك وأرسلها مع مسرور . ثم توجه مسرور بالبطاقة إلى مدينة البصرة ودخل على الأمير محمد الزبيدي، ففرح به وأكرمه غاية الإكرام . ثم قرأ عليه بطاقة أمير المؤمنين هارون الرشيد فقال : سمعاً وطاعةً . ثم أرسل مسروراً مع جماعة من أتباعه إلى أبي محمد الكسلان ، فتوجّهوا إليه وطرقوا عليه الباب فخرج لهم بعض الغلمان . فقال له مسرور : قل لسيدك أن أمير المؤمنين يطلبك . فدخل الغلام وأخبره بذلك ، فخرج فوجد مسروراً حاجب الخليفة ومعه أتباع الأمير محمد الزبيدي . فقبّل الأرض بين يديه وقال : سمعاً وطاعةً لأمير المؤمنين ولكن ادخلوا عندنا . فقالوا : ما نقدر على ذلك إلاّ على عجل كما أمرنا أمير المؤمنين فإنه ينتظر قدومك . فقال : اصبروا عليّ يسيراً حتى أجهّز أمري . ثم دخلوا معه إلى الدار بعد استعطاف زائد ، فرأوا في الدهليز ستوراً من الديباج الأزرق المطرّز بالذهب الأحمر . ثم إن أبا محمد الكسلان أمر بعض غلمانه أن يدخلوا مع مسرور الحمام الذي في الدار ففعلوا ، فرأى حيطانه ورخامه من الغرائب وهو مزر كش بالذهب والفضة وماؤه ممزوج بماء الورد . واحتفل الغلمان بمسرور ومن معه وخدموهم أتم الخدمة ، ولما خرجوا من الحمام ألبسوهم خلعاً من الديباج منسوجة بالذهب . ثم دخل مسرور وأصحابه فوجدوا أبا محمد الكسلان جالساً في قصره وقد علقت على رأسه ستور من الديباج المنسوج بالذهب المرصّع بالدرّ والجوهر ، والقصر مفروش بمساند مزر كشة بالذهب الأحمر وهو جالس على مرتبته والمرتبة على سرير مرصّع بالجواهر . فلما دخل عليه مسرور ، رحّب به وتلقاه وأجلسه بجانبه ثم أمر بإحضار السماط . فلما رأى مسرور ذلك السماط قال : والله ما رأيت عند أمير المؤمنين مثل ذلك السماط أبداً . وكان في ذلك السماط أنواع الأطعمة وكلها موضوعة في أطباق صيني مذهبة . قال مسرور : فأكلنا وشربنا وفرحنا إلى آخر النهار ثم أعطانا كل واحد خمسة آلاف دينار . ولما كان اليوم الثاني ألبسونا خلعاً خضراً مذهبة وأكرمونا غاية الإكرام . ثم قال له مسرور : لا يمكننا أن نقعد زيادة على تلك المدة خوفاً من الخليفة . فقال له أبو محمد الكسلان : يا مولانا ، إصبر علينا إلى غد حتى نتجهّز ونسير معكم . فقعدوا ذلك اليوم وباتوا إلى الصباح . ثم إن الغلمان شدّوا لأبي محمد الكسلان بغلة بسرج من الذهب مرصّع بأنواع الدرّ والجواهر . فقال مسرور في نفسه : يا ترى إذا حضر أبو محمد بين يدي الخليفة بتلك الصفة ، هل يسأله عن سبب تلك الأموال؟ ثم بعد ذلك ودّعوا أبا محمد الزبيدي وطلعوا من البصرة وساروا . ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى مدينة بغداد . فلما دخلوا على الخليفة ووقفوا بين يديه أمره بالجلوس فجلس ، ثم تكلم بأدب وقال : يا أمير المؤمنين ، إني جئت معي بهدية على وجه الخدمة . فهل أحضرها عن إذنك؟ قال الرشيد : لا بأس بذلك . فأمر بصندوق وفتحه وأخرج منه تحفاً من جملتها : أشجار من الذهب وأوراقها من الزمرّد الأبيض وثمارها ياقوت أحمر وأصفر

ولؤلؤ أبيض ، فتعجّب الخليفة من ذلك . ثم احضر صندوقاً ثانياً وأخرج منه خيمة من الديباج مكلّلة باللؤلؤ والياقوت والزمرد والزبرجد وأنواع الجواهر وقوائمها من عود هندي رطب ، وأذيال تلك الخيمة مرصّعة بالزمرّد الأخضر وفيها تصوير كل الصور من سائر الحيوانات كالطيور والوحوش وتلك الصور مكلّلة بالجواهر واليواقيت والزمرّد والزبرجد والبلخش وسائر المعادن . فلما رأى الرشيد ذلك فرح فرحاً شديداً . ثم قال أبو محمد الكسلان : يا أمير المؤمنين ، لا تظن أني حملت لك هذا فزعاً من شيء ولا طمعاً في شيء ، وإنما رايت نفسي رجلاً عامياً ورأيت هذا لا يصلح إلاّ لأمير المؤمنين . وإن اذنت لي فرجتك على بعض ما أقدر عليه . فقال الرشيد : إفعل ما شئت حتى ننظر . فقال : سمعاً وطاعة . ثم حرّك شفتيه وأومأ إلى شراريف القصر فمالت إليه ، ثم أشار إليها فرجعت إلى موضعها . ثم أشار بعينه فظهرت إليه مقاصير مقفلة الأبواب ، ثم تكلم عليها وإذا بأصوات طيور تجاوبه . فتعجب الرشيد من ذلك غاية العجب وقال له : من أين لك هذا كله ؟ وأنت ما تعرف إلاّ بأبي محمد الكسلان . وأخبروني أن أباك كان حجاماً يخدم في حمام وما خلف لك شيئاً . فقال : يا أمير المؤمنين إسمع حديثي . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 301

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن أبا محمد الكسلان قال للخليفة : يا أمير المؤمنين إسمع حديثي فإنه عجيب وأمره غريب ، لو كتب بالأبر على أماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر . فقال الرشيد : حدّث بما عندك واخبرني به يا أبا محمد . فقال : أعلم يا أمير المؤمنين أدام الله لك العز والتمكّن من أخبار الناس بأني أُعرف بالكسلان وأن أبي لم يخلف لي مالاً صدق . لأن أبي لم يكن إلاّ كما ذكرت ، فإنه حجاماً في حمام . وكنت أنا في صغري أكسل من يوجد على وجه الأرض ، وبلغ من كسلي أني إذا كنت نائماً في أيام الحر وطلعت عليّ الشمس ، أكسل عن أن أقوم وأنتقل من الشمس إلى الظل . وأقمت على ذلك خمسة عشر عاماً ، ثم إن أبي توفي إلى رحمة الله تعالى ولم يخلف لي شيئاً . وكانت أمي تخدم الناس وتطعمني وتسقيني وأنا راقد على جنبي . فاتفق أن أمي دخلت عليّ في بعض الأيام ومعها خمسة دراهم من الفضة وقالت لي : يا ولدي ، بلغني أن الشيخ أبا المظفر عزم على أن يسافر إلى الصين . وكان ذلك الشيخ يحب الفقراء وهو من أهل الخير . فقالت أمي : يا ولدي ، خذ هذه الخمسة دراهم وامض بنا إليه ونسأله أن يشتري لك بها شيئاً من بلاد الصين ، لعله يحصل لك فيه ربح من فضل الله تعالى . فكسلت عن القيام معها ، فأقسمت بالله إن لم أقم معها إنها لا تطعمني ولا تسقيني ولا تدخل عليّ بل تتركني أموت جوعاً وعطشاً . فلما سمعت كلامها يا أمير المؤمنين ، علمت أنها تفعل ذلك لما تعلم من كسلي . فقلت لها : أقعديني . فأقعدتني وأنا باكي العين وقلت : إئتيني بمداسي . فأتتني به . فقلت : ضعيه في رجليّ . فوضعته فيهما . فقلت لها : احمليني حتى ترفعيني عن الأرض . ففعلت ذلك . فقلت : اسنديني حتى أمشي . فصارت تسندني وما زلت أمشي وأتعثر في أذيالي إلى أن وصلنا إلى ساحل البحر ، فسلمنا على الشيخ وقلت له : يا عمّ أنت المظفر ؟ قال : لبيك . قلت : خذ هذه الدراهم واشتر بها لي شيئاً من بلاد الصين عسى الله أن يربحني . فقال الشيخ أبو المظفر لأصحابه : أتعرفون هذا الشاب ؟ قالوا : نعم . هذا يعرف بأبي

محمد الكسلان، وما رأيناه قط خرج من داره إلاّ في هذا الوقت. فقال الشيخ أبو المظفر: يا ولدي، هات الدراهم على بركة الله تعالى. ثم أخذ مني الدراهم وقال بسم الله. ثم رجعت مع أمي إلى البيت وتوجّه الشيخ أبو المظفر إلى السفر ومعه جماعة من التجار، ولم يزالوا مسافرين حتى وصلوا إلى بلاد الصين. ثم إن الشيخ باع واشترى، وبعد ذلك توجّه إلى الرجوع هو ومن معه بعد قضاء أغراضهم وساروا في البحر ثلاثة أيام. فقال الشيخ لأصحابه: قفوا بالمركب. فقال التجار: ما حاجتك؟ فقال: اعلموا أن الرسالة التي معي لابي محمد الكسلان نسيتها. فارجعوا بنا حتى نشتر له بها شيئاً ينتفع به. فقالوا له: سألناك بالله تعالى أن لا تردنا، فإننا قطعنا مسافة طويلة زائدة، وحصل لنا في ذلك أهوال عظيمة ومشقة زائدة. فقال: لا بدّ لنا من الرجوع. فقالوا: خذ منا أضعاف ربح الخمسة دراهم ولا تردّنا. فسمع منهم وجمعوا له مالاً جزيلاً، ثم ساروا حتى أشرفوا على جزيرة فيها خلق كثير فأرسوا عليها وطلع التجار يشترون منها متجراً من معادن وجواهر ولؤلؤ وغير ذلك. ثم رأى أبو المظفر رجلاً جالساً وبين يديه قرود كثيرة وبينهم قرد منتوف الشعر، وكانت تلك القرود كلما غفل صاحبهم يمسكون ذلك القرد المنتوف ويضربونه ويرمونه على صاحبهم، فيقوم يضربهم ويقيدهم ويعذّبهم على ذلك، فتغتاظ القرود كلها من ذلك القرد ويضربونه. ثم إن الشيخ أبا المظفر لما رأى ذلك القرد حزن عليه ورفق به فقال لصاحبه: أتبيعني هذا القرد؟ قال: إشتر. قال: إن معي لصبي يتيم خمسة دراهم، هل تبيعني إيّاه بها؟ قال له: بعتك. بارك الله لك فيه. ثم تسلمه وأقبضه الدراهم، وأخذ القرد عبيد الشيخ وربطوه في المركب ثم حلّوا وسافروا إلى جزيرة أخرى فأرسوا عليها. فنزل الغطاسون الذين يغطسون على المعادن واللؤلؤ والجوهر وغير ذلك، فأعطاهم التجار دراهم أجرة على الغطاس فغطسوا. فرآهم القرد يفعلون ذلك، فحلّ نفسه من رباطه ونط من المركب وغطس معهم. فقال أبو المظفر: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، قد عدم القرد منا ببخت هذا المسكين الذي أخذناه له، ويئسوا من القرد. ثم طلع جماعة الغطاسين وإذا بالقرد طلع معهم وفي يديه نفائس الجواهر، فرماها بين يدي أبي المظفر فتعجّب من ذلك وقال: إن هذا القرد فيه سرّ عظيم. ثم حلّوا وسافروا إلى أن وصلوا جزيرة تسمّى جزيرة الزنوج، وهم قوم من السودان يأكلون لحم بني آدم. ورآهم السودان، ركبوا عليهم في القوارب وأتوا إليهم وأخذوا كل من في المركب وكتفوهم وأتوا بهم إلى الملك. فأمرهم بذبح جماعة من التجار، فذبحوهم وأكلوا لحومهم. ثم إن بقية التجار باتوا محبوسين وهم في نكد عظيم. فلما كان وقت الليل قام القرد إلى أبي المظفر وحل قيده، فلما رأى التجار أبا المظفر قد انحلّ قالوا: عسى الله أن يكون خلاصنا على يديك يا أبا المظفر. فقال لهم: أعلموا أنه ما خلصني بإرادة الله تعالى إلاّ هذا القرد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 302

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا المظفر قال: ما خلصني بإرادة الله تعالى إلاّ هذا القرد، وقد خرجت له عن ألف دينار. فقال التجار: نحن كذلك، كل واحد منّا خرج له عن ألف دينار إن خلّصنا. فقام القرد إليهم وصار يحل واحداً بعد واحد حتى حلّ الجميع من قيودهم وذهبوا إلى المركب وطلعوا عليها، فوجدوها سالمة ولم ينقص منها

شيء . ثم حلّوا وسافروا فقال أبو المظفر : يا تجار أوفوا بالذي قلتم عليه للقرد . فقالوا : سمعاً وطاعةً . ودفع له كل واحد منهم ألف دينار ، وأخرج أبو المظفر من ماله ألف دينار ، فاجتمع للقرد من المال شيء عظيم . ثم سافروا حتى وصلوا إلى مدينة البصرة فتلقّاهم أصحابهم حتى طلعوا من المركب . فقال أبو المظفر : أين أبو محمد الكسلان؟ فبلغ الخبر إلى أمي . فبينما أنا نائم إذ اقبلت عليّ أمي وقالت : يا ولدي ، إن الشيخ أبا المظفر قد أتى ووصل إلى المدينة ، فقم وتوجّه إليه وسلّم عليه واسأله عن الذي جاء به لك . فلعل الله تعالى يكون قد فتح عليك بشيء . فقلت لها : إحمليني عن الأرض واسنديني حتى أخرج وأمشي إلى ساحل البحر . ثم مشيت وأنا أتعثر في أذيالي حتى وصلت إلى الشيخ أبي المظفر ، فلما رآني قال لي : أهلاً بمن كانت دراهمه سبباً لخلاصي وخلاص هؤلاء التجار بإرادة الله تعالى . ثم قال لي : خذ هذا القرد فإني اشتريته لك وامض به إلى بيتك حتى أجيء إليك . فأخذت القرد بين يدي ومضيت وقلت في نفسي : والله ما هذا إلاّ متجر عظيم . ثم دخلت بيتي وقلت لأمي : كلما أنام تأمريني بالقيام لأتجر ، فانظري بعينك هذا المتجر . ثم جلست ، فبينما أنا جالس وإذا بعبيد أبي المظفر أقبلوا عليّ وقالوا لي : هل أنت أبو محمد الكسلان؟ فقلت لهم : نعم . وإذا بأبي المظفر أقبل خلفهم ، فقمت إليه وقبّلت يديه وقال لي : سرْ معي إلى داري . فقلت : سمعاً وطاعةً . وسرت معه إلى أن دخلت الدار ، فأمر عبيده أن يحضروا بالمال فحضروا به . فقال : يا ولدي ، لقد فتح الله عليك بهذا المال من ربح الخمسة دراهم . ثم حملوه في صناديق على رؤوسهم وأعطاني مفاتيح تلك الصناديق وقال لي : إمض قدّام العبيد إلى دارك فإن هذا المال كله لك . فمضيت إلى أمي ففرحت بذلك وقالت : يا ولدي ، لقد فتح الله عليك بهذا المال الكثير ، فدع عنك هذا الكسل وانزل السوق وبع واشتر . فتركت الكسل وفتحت دكاناً في السوق ، وصار القرد يجلس معي على مرتبتي ، فإذا أكلت يأكل معي وإذا شربت يشرب معي . وصار كل يوم من بكرة النهار يغيب إلى وقت الظهر ثم يأتي ومعه كيس فيه ألف دينار فيضعه في جانبي ويجلس . ولم يزل على هذه الحالة مدة من الزمان حتى اجتمع عندي مال كثير ، فاشتريت يا أمير المؤمنين الأملاك والربوع وغرست البساتين واشتريت المماليك والعبيد والجواري . فاتفق في بعض الأيام إنني كنت جالساً والقرد جالس معي على المرتبة وإذا به التفت يميناً وشمالاً فقلت في نفسي : أي شيء خبر هذا؟ فأنطق الله القرد بلسان فصيح وقال : يا أبا محمد . فلمّا سمعت كلامه فزعت فزعاً شديداً . فقال لي : لا تفزع أنا أخبرك بحالي ، إني مارد من الجن ، ولكني جئتك بسبب ضعف حالك وأنت اليوم لا تدري قدر مالك . وقد وقعت لي عندك حاجة وهي خير لك . فقلت : ما هي؟ قال : أريد أن أزوّجك بصبيّة مثل البدر . فقلت له : وكيف ذلك؟ فقال لي : في غد إلبس قماشك الفاخر واركب بغلتك بالسرج الذهب وامض إلى سوق العلاّفين واسأل عن دكان الشريف واجلس عنده وقل له : إني جئتك خاطباً راغباً في ابنتك . فإن قال لك : أنت ليس لك مال ولا حسب ولا نسب فادفع له ألف دينار ، فإن قال لك : زدني . فزده ورغبه في المال . فقال : سمعاً وطاعةً . في غد أفعل ذلك إن شاء الله تعالى . قال أبو محمد : فلما أصبحت ، لبست أفخر قماشي وركبت البغلة بالسرج الذهب ثم مضيت إلى سوق العلاّفين ، وسألت عن دكان الشريف فوجدته جالساً في دكانه . فنزلت وسلّمت عليه وجلست عنده . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 303

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا محمد الكسلان قال : فنزلت وسلّمت عليه وجلست عنده، وكان معي عشرة من العبيد والمماليك. فقال الشريف : لعل لك عندنا حاجة نفوز بقضائها. فقلت : نعم لي عندك حاجة. قال : وما حاجتك؟ فقلت : جئتك خاطباً راغباً في ابنتك. فقال لي : أنت ليس لك مال ولا حسب ولا نسب. فأخرجت له كيساً فيه ألف دينار ذهباً أحمر وقلت له : هذا حسبي ونسبي. وقد قال ﷺ : نِعم الحسب المال. وما أحسن قول من قال : [من الكامل]

مَنْ كانَ يَمْلُكُ دِرْهَمَينْ تَعَلَّمَتْ ... شَفَتاهُ أَنْواعَ الكَلامِ فَقالا
وتَقَدَّمَ الإخْوانُ فاسْتَمَعُوا لَه ... ورأَيْتَهُ بَينَ الوَرَى مُخْتالا
لَولا دَراهِمُهُ التي يَزْهُو بِها ... لَوَجَدْتَهُ في النَّاسِ أَسْوَأَ حالا
إنَّ الغَنِيَّ إذا تَكَلَّمَ بالخَطا ... قالُوا : صَدَقْتَ وما نَطَقْتَ مُحالا
أَمَّا الفَقِيرُ إذا تَكَلَّمَ صادِقا ... قالُوا : كَذَبْتَ وأَبْطَلُوا ما قالا
إنَّ الدَّراهِمَ في المَواطِنِ كُلِّها ... تَكْسُو الرِّجالَ مَهابَةً وجَمالا
فَهْيَ اللِّسانُ لِمَنْ أَرادَ فَصاحَةً ... وَهْيَ السِّلاحُ لِمَنْ أَرادَ قِتالا

فلما سمع الشريف منه هذا الكلام وفهم الشعر والنظام، أطرق برأسه إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه وقال له : إن كان ولا بدّ فإني أريد منك ثلاثة آلاف دينار أخرى. فقلت : سمعاً وطاعةً. ثم أرسلت بعض المماليك إلى منزلي فجاء لي بالمال الذي طلبه. فلما رأى ذلك وصل إليه قام من الدكان وقال لغلمانه : أقفلوها. ثم دعا أصحابه من السوق إلى داره وكتب كتابي على بنته وقال لي : بعد عشرة أيام أدخلك عليها. ثم مضيت إلى منزلي وأنا فرحان، فخلوت مع القرد وأخبرته بما جرى لي. فقال : نِعم ما فعلت. فلما قرب ميعاد الشريف قال لي القرد : إن لي عندك حاجة إن قضيتها لي فلك عندي ما شئت. قلت : وما حاجتك؟ قال لي : إن في صدر القاعة التي تدخل فيها على بنت الشريف خزانة، وعلى بابها حلقة من نحاس والمفاتيح تحت الحلقة، فخذها وافتح الباب تجد صندوقاً من حديد على أركانه أربع رايات من الطلسم، وفي وسط ذلك طشت ملآن من المال، وفي جانبه إحدى عشرة حيّة. وفي الطشت ديك أفرق أبيض مربوط وهناك سكين بجنب الصندوق، فخذ السكين واذبح بها الديك وقطّع الرايات وكب الصندوق، وبعد ذلك أخرج للعروسة وأزل بكارتها، فهذه حاجتي عندك. فقلت له : سمعاً وطاعةً. ثم مضيت إلى دار الشريف فدخلت القاعة ونظرت إلى الخزانة التي وصفها لي القرد، فلما خلوت بالعروسة تعجبّت من حسنها وجمالها وقدها واعتدالها لأنها لا تستطيع الألسن أن تصف حسنها وجمالها، ثم فرحت بها فرحاً شديداً. فلما كان نصف الليل ونامت العروسة، قمت أخذت المفاتيح وفتحت الخزانة وأخذت السكين وذبحت الديك ورميت الرايات وقلبت الصندوق، فاستيقظت الصبيّة فرأت الخزانة قد فتحت والديك قد ذبح فقالت : لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، قد أخذني المارد. فما استتمّت كلامها إلاّ وقد أحاط المارد بالدار وخطف العروسة. فعند ذلك وقعت الضجة وإذا بالشريف قد أقبل وهو يلطم على وجهه وقال : يا أبا محمد، ما هذا الفعل الذي فعلته معنا؟ هل هذا جزاؤنا منك؟ وأنا قد عملت هذا الطلسم في هذه الخزانة خوفاً

على بنتي من هذا الملعون، فإنه كان يقصد أخذ هذه الصبيّة من منذ ست سنين ولا يقدر على ذلك، ولكن ما بقي لك عندنا مقام فامض إلى حال سبيلك. فخرجت من دار الشريف وجئت إلى داري وفتشت على القرد فلم أجده ولم أرَ له أثراً، فعلمت أنه هو المارد الذي أخذ زوجتي وتحيّل عليّ حتى فعلت ذلك بالطلسم والديك اللذين كانا يمنعانه من أخذها. فندمت وقطّعت أثوابي ولطمت على وجهي ولم تسعني أرض، فخرجت من ساعتي وقصدت البرية، ولم أزل سائراً إلى أن أمسى عليّ المساء ولا أعلم أين أروح. فبينما أنا مشغول الفكرة إذ أقبل عليّ حيّتان واحدة سمراء والأخرى بيضاء وهما يتقاتلان، فأخذت حجراً من الأرض وضربت به الحيّة السمراء فقتلتها فإنها كانت باغية على البيضاء. ثم ذهبت الحية البيضاء فغابت ساعة وعادت ومعها عشر حيات بيض، فجاؤا إلى الحية التي ماتت وقطّعوها قطعاً حتى لم يبقَ إلاّ رأسها ثم مضوا إلى حال سبيلهم، واضطجعت في مكاني من التعب. فبينما أنا مضطجع متفكّر في أمري، وإذا أنا بهاتف أسمع صوته ولم أرَ شخصه وهو يقول هذين البيتين: [من البسيط]

دَعِ المَقاديرَ تَجْرِي في أَعِنَّتِها ولا تَبِيتَنَّ إلاّ خالِيَ البالِ
ما بَينَ طَرْفَةِ عَينٍ وٱنْتِباهَتِها يُغَيِّرُ اللهُ مِنْ حالٍ إلى حالِ

فلما سمعت ذلك، لحقني يا أمير المؤمنين أمر شديد وفكر ما عليه من مزيد. وإذا بصوت من خلفي أسمعه ينشد هذين البيتين: [من السرع]

يا مُسْلِماً أَمامَهُ القُرآنُ أَبْشِر بِهِ قَدْ جاءَكَ الأَمانُ
ولا تَخَفْ ما سَوَّلَ الشَّيْطانُ فَنَحْنُ قَوْمٌ دِينُنا الإِيمانُ

فقلت له: بحق معبودك أن تعرفني من أنت؟ فانقلب ذلك الهاتف في صورة إنسان وقال لي: لا تخف فإن جميلك قد وصل إلينا، ونحن قوم من جن المؤمنين. فإن كان لك حاجة فاخبرنا بها حتى نفوز بقضائها. فقلت له: إن لي حاجة عظيمة لأني أصبت بمصيبة جسيمة، ومن الذي حصل له مثل مصيبتي؟ فقال لي: لعلك أبو محمد الكسلان. فقلت: نعم. فقال: يا أبا محمد، أنا أخو الحيّة البيضاء التي قتلت أنت عدوّها، ونحن أربعة اخوة من أب وأم وكلنا شاكرون لفضلك، واعلم إن الذي كان على صورة القرد وفعل معك المكيدة، مارد من مردة الجن. ولولا أنه تحيّل بهذه الحيلة ما كان يقدر على أخذها أبداً، لأن له مدة طويلة وهو يريد أخذها فيمنعه من ذلك هذا الطلسم. ولو بقي ذلك الطلسم ما كان يمكنه الوصول إليها. ولكن لا تجزع من هذا الأمر فنحن نوصلك إليها ونقتل المارد فإن جميلك لا يضيع عندنا. ثم إنه صاح صيحة عظيمة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 304

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العفريت قال: فإن جميلك لا يضيع عندنا. ثم إنه صاح صيحة عظيمة بصوت هائل وإذا بجماعة قد أقبلوا عليه، فسألهم عن القرد. فقال واحد منهم: أنا أعرف مستقرّه. قال: أين مستقرّه؟ قال: في مدينة النحاس التي لا تطلع عليها الشمس. فقال: يا أبا محمد، خذ عبداً من عبيدنا وهو يحملك على ظهره

ويعلمك كيف تأخذ الصبيّة، واعلم أن ذلك العبد مارد من المردة،فإذا حملك لا تذكر اسم الله وهو حاملك فإنه يهرب منك فتقع وتهلك. فقلت: سمعاً وطاعةً. وأخذت عبداً من عبيدهم فانحنى وقال: إركب. فركبت ثم طار بي في الجوّ حتى غاب عن الدنيا، ورأيت النجوم كالجبال الرواسي وسمعت تسبيح الملائكة في السماء، كل هذا والمارد يحدّثني ويفرجني ويلهيني عن ذكر الله تعالى. فبينما أنا كذلك وإذا بشخص عليه لباس أخضر وله ذوائب شعر ووجه منير، وفي يده حربة يطير منها الشرر قد أقبل عليّ وقال لي: يا أبا محمد قل: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله وإلاّ ضربتك بهذه الحربة. وكانت مهجتي قد تقطعت من سكوتي عن ذكر الله تعالى فقلت: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. ثم إن ذلك الشخص ضرب المارد بالحربة فذاب وصار رماداً وسقطت من فوق ظهره، فصرت أهوي إلى الأرض حتى وقعت في بحر عجاج متلاطم بالأمواج. وإذا بسفينة فيها خمسة أشخاص بحرية، فلما رأوني أتوا إليّ وحملوني إلى السفينة وجعلوا يكلّموني بكلام لا أعرفه، فأشرت لهم إني لا أعرف كلامهم. فساروا إلى آخر النهار ثم رموا شبكة واصطادوا حوتاً وشووه وأطعموني. ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا بي إلى مدينتهم فدخلوا بي إلى ملكهم وأوقفوني بين يديه فقبّلت الأرض، فخلع عليّ. وكان ذلك الملك يعرف بالعربية فقال: قد جعلتك من أعواني. فقلت له: ما اسم هذه المدينة؟ قال: إسمها هناد وهي من بلاد الصين. ثم إن الملك سلمني إلى وزير المدينة وأمره أن يفرجني في المدينة، وكان أهل تلك المدينة في الزمن الأول كفّاراً، فمسخهم الله تعالى حجارة. فتفرجت فيها ولم أرَ أكثر من أشجارها وأثمارها، فأقمت فيها مدة شهر ثم أتيت إلى نهر وجلست على شاطئه. فبينما أنا جالس وإذا بفارس قد أتى وقال: هل أنت أبو محمد الكسلان؟ فقلت له: نعم. قال: لا تخف فإن جميلك وصل إلينا. فقلت له: من أنت؟ قال: أنا أخو الحيّة وأنت قريب من مكان الصبية التي تريد الوصول إليها. ثم خلع أثوابه وألبسني إياها وقال لي: لا تخف فإن العبد الذي هلك من تحتك بعض عبيدنا. ثم إن ذلك الفارس أردفني خلفه وسار بي إلى برية وقال: إنزل من خلفي وسرّ بين هذين الجبلين حتى ترى مدينة النحاس، فقف بعيداً عنها ولا تدخلها حتى أعود إليك وأقول لك كيف تصنع. فقلت له: سمعاً وطاعةً. ونزلت من خلفه ومشيت حتى وصلت إلى المدينة فرأيت صورها من نحاس، فجعلت أدور حولها لعليّ أجد لها باباً فما وجدت لها. فبينما أنا أدور حولها وإذا بأخي الحيّة قد أقبل عليّ وأعطاني سيفاً مطلسماً حتى لا يراني أحد، ثم إنه مضى إلى حال سبيله. فلم يغب عني إلاّ قليلاً وإذا بصياح قد علا ورأيت خلقاً كثيراً وأعينهم في صدورهم، فلما رأوني قالوا: من أنت؟ وما الذي رماك في هذا المكان؟ فأخبرتهم بالواقعة فقالوا: إن الصبيّة التي ذكرتها مع المارد في هذه المدينة وما ندري ما فعل بها، ونحن اخوة الحيّة. ثم قالوا: إمض إلى تلك العين وانظر من أين يدخل الماء وادخل معه فإنه يوصلك إلى المدينة. ففعلت ذلك ودخلت مع الماء في سرداب تحت الأرض طلعت منه، فرأيت نفسي في وسط المدينة ووجدت الصبيّة جالسة على

سرير من ذهب وعليها ستارة من ديباج وحول الستارة بستان فيه أشجار من الذهب وأثمارها من نفيس الجواهر، كالياقوت والزبرجد واللؤلؤ والمرجان. فلما رآتني تلك الصبيّة عرفتني وابتدأتني بالسلام وقالت لي: يا سيدي، من أوصلك إلى هذا المكان؟ فأخبرتها بما جرى. فقالت: إعلم أن هذا الملعون من كثرة محبته لي أعلمني بالذي يضرّه والذي ينفعه، وأعلمني أن في هذه المدينة طلسماً إن شاء هلاك جميع من في المدينة أهلكهم به، ومهما أمر العفاريت فإنهم يمتثلون أمره، وذلك الطلسم في عمود. فقلت لها: وأين العمود؟ فقالت: في المكان الفلاني. فقلت: وأي شيء يكون ذلك الطلسم؟ قالت: هو صورة عقاب وعليه كتابة لا أعرفها، فخذه بين يديك وخذ مجمرة نار وارم فيها شيئاً من المسك فيطلع دخان يجذب العفاريت. فإذا فعلت ذلك فإنهم يحضرون بين يديك كلهم ولا يغيب منهم أحد ويمتثلون أمرك، ومهما أمرتهم به فإنهم يفعلونه. فقم وافعل ذلك على بركة الله تعالى. فقلت لها: سمعاً وطاعةً. ثم قمت وذهبت إلى ذلك العمود وفعلت جميع ما أمرتني به، فجاءت العفاريت وحضرت بين يدي وقالوا: لبيّك يا سيدي، فمهما أمرتنا به فعلناه. فقلت لهم: قيّدوا المارد الذي جاء بهذه الصبيّة من مكانها. فقالوا: سمعاً وطاعةً. ثم ذهبوا إلى ذلك المارد وقيّدوه وشدّوا وثاقه ورجعوا إليّ وقالوا: قد فعلنا ما أمرتنا به. فأمرتهم بالرجوع. ثم رجعت إلى الصبيّة وأخبرتها بما حصل ثم قلت: يا زوجتي، هل تروحين معي؟ فقالت: نعم. ثم إني طلعت بها من السرداب الذي دخلت منه وسرنا حتى وصلنا إلى القوم الذين كانوا دلّوني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 305

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه قال: وسرنا حتى وصلنا إلى القوم الذين كانوا دلّوني عليها ثم قلت: دلّوني على طريق توصلني إلى بلادي. فدلّوني ومشوا معي إلى ساحل البحر وأنزلوني في مركب، وطاب لنا الريح وسار بنا ذلك المركب حتى وصلنا إلى مدينة البصرة. فلما دخلت الصبيّة دار أبيها رآها أهلها ففرحوا بها فرحاً شديداً. ثم إني بخّرت العقار بالمسك وإذا بالعفاريت قد أقبلوا عليّ من كل مكان وقالوا: لبيّك فما تريد أن تفعل؟ فأمرتهم أن ينقلوا كل ما في مدينة النحاس من المال والمعادن والجواهر إلى داري التي في البصرة، ففعلوا ذلك. ثم أمرتهم أن يأتوا بالقرد، فأتوا به ذليلاً حقيراً فقلت له: يا ملعون لأي شيء غدرت بي؟ ثم أمرتهم أن يدخلوه في قمقم من نحاس، فأدخلوه في قمقم ضيّق من نحاس وسدّوا عليه بالرصاص. وأقمت أنا وزوجتي في هناء وسرور وعندي الآن يا أمير المؤمنين من نفائس الذخائر وغرائب الجواهر وكثير الأموال لا يحيط به عدّ ولا يحصره حدّ. وإذا طلبت شيئاً من المال أو غيره أمرت الجن أن يأتوا لك به في الحال، وكل ذلك من فضل الله تعالى. فتعجّب أمير المؤمنين من ذلك غاية العجب، ثم أعطاه من مواهب الخلافة عوضاً عن هديته وأنعم عليه أنعاماً بما يليق به.

28 - حكاية يحيى بن خالد

ومما يحكى أن هارون الرشيد استدعى رجلاً من أعوانه يقال له : صالح قبل الوقت الذي تغير فيه على البرامكة . فلما حضر بين يديه قال له : يا صالح سرّ إلى منصور وقل له : إن لنا عندك ألف ألف درهم والرأي قد اقتضى أنك تحمل لنا هذا المبلغ في هذه الساعة . وقد أمرتك يا صالح أنه إن لم يحصل لك ذلك المبلغ من هذه الساعة إلى قبل المغرب أن تزيل رأسه عن جسده وتأتيني به . فقال صالح : سمعاً وطاعةً . ثم سار إلى منصور وأخبره بما ذكره أمير المؤمنين فقال منصور : قد هلكت والله ، فإن جميع تعلّقاتي وما تملكه يدي إذا بيعت بأغلى قيمة لا يزيد ثمنها على مائة ألف . فمن أين أقدر يا صالح على التسعمائة ألف درهم الباقية ؟ فقال له صالح : دبر لك حيلة تتخلص بها عاجلاً وإلاّ هلكت ، فإني لا أقدر أن أتمّهل عليك لحظة بعد المدة التي عيّنها لي الخليفة ولا أقدر أن أخلّ بشيء مما أمرني به أمير المؤمنين . فأسرع بحيلة تخلص بها نفسك قبل أن تنصرم الأوقات . فقال منصور : يا صالح ، أسألك من فضلك أن تحملني إلى بيتي لأودّع أولادي وأهلي وأوصي أقاربي . قال صالح : فمضيت معه إلى بيته فجعل يودع أهله وارتفع الضجيج في منزله وعلا البكاء والصياح والاستغاثة بالله تعالى . فقال صالح : قد خطر ببالي أن الله يجعل لك الفرج على يد البرامكة فاذهب بنا إلى دار يحيى بن خالد . فلما ذهبا إلى يحيى بن خالد أخبره بحاله . فاغتمّ لذلك وأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه واستدعى خازن داره وقال له : كم في خزنتنا من الدراهم ؟ فقال له : مقدار خمسة آلاف درهم . فأمر بإحضارها . ثم أرسل رسولاً إلى ولده الفضل برسالة مضمونها : إنه قد عرض عليّ للبيع جليلة لا تخرب أبداً . فارسل لنا شيئاً من الدراهم . فأرسل إليه ألف درهم . ثم أرسل إنساناً آخر إلى ولده جعفر برسالة مضمونها : إنه حصل لنا شغل مهم ونحتاج فيه إلى شيء من الدراهم . فأنفذ له جعفر في الحال ألف ألف درهم . ولم يزل يحيى يرسل إلى البرامكة حتى جمع منهم لمنصور مالاً كثيراً ، وصالح ومنصور لا يعلمان هذا . فقال منصور ليحيى : يا مولاي ، قد تمسّكت بذلك وما أعرف هذا المال إلاّ منك كما هو عادة كرمك ، فتمّم لي بقية ديني واجعلني عتيقك . فأطرق يحيى وبكى وقال : يا غلام ، إن أمير المؤمنين قد كان وهب لجاريتنا دنانير ، جوهرة عظيمة القيمة ، فاذهب إليها وقل لها ترسل لنا هذه الجوهرة . فمضى الغلام وأتى بها إليه فقال : يا صالح ، أنا ابتعت هذه الجوهرة لأمير المؤمنين من التجار بمائتي ألف دينار ، ووهبها أمير المؤمنين لجاريتنا دنانير العوادة . وإذا رآها معك عرفها وأكرمك وحقن دمك من أجلنا إكراماً لنا . وقد تمّ الآن مالك يا منصور . قال صالح : فحملت المال والجوهرة إلى الرشيد ومنصور معي ، فبينما نحن في الطريق إذ سمعته يتمثل بهذا البيت : [من الوافر]

وما حُبّاً سَعَتْ قَدَمي إليْهِمْ ولَـكِنْ خِفْتُ مِنْ ضَرْبِ النِّبالِ

فعجبت من سوء طبعه ورداءته وفساده وخبث أصله وميلاده ورددت عليه وقلت له : ما على وجه الأرض خير من البرامكة ، ولا أخبث ولا أشرّ منك ، فإنهم اشتروك من الموت وأنقذوك من الهلاك ومنوا عليك بالفكاك ولم تشكرهم ولم تحمدهم ولم تفعل فعل الأحرار بل قابلت إحسانهم بهذا المقال . ثم مضيت إلى الرشيد وقصصت عليه القصة وأخبرته بجميع ما جرى .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 306

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن صالحاً قال : فقصصت القصة على أمير المؤمنين وأخبرته بجميع ما جرى ، فتعجّب الرشيد من كرم يحيى وسخائه ومروءته وخساسة منصور ورداءته ، وأمر أن تردّ الجوهرة إلى يحيى بن خالد وقال : كل شيء قد وهبناه لا يجوز أن نعود فيه . وعاد صالح إلى يحيى بن خالد وذكر له قصة منصور وسوء فعله . فقال يحيى : يا صالح إذا كان الإنسان مثلاً ، ضيّق الصدر مشغول الفكر ، فمهما صدر منه لا يؤاخذ به لأنه ليس ناشئاً عن قلبه . وصار يتطلب العذر لمنصور ، فبكى صالح وقال : لا يجري الفلك الدائر بإبراز رجل إلى الوجود مثلك ، فوا أسفاً كيف يتوارى من له خلق مثل خلقك وكرم مثل كرمك تحت التراب . وأنشد هذين البيتين : [من البسيط]

بادِرْ إلى أيِّ مَعْرُوفٍ هَمَمْتَ بِهِ فَلَيْسَ في كُلِّ وَقْتٍ يُمْكِنُ الكَرَمُ
كَمْ مانِعٍ نَفْسَهُ إمْضاءَ مَكْرُمَةٍ عِنْدَ التَّمَكُّنِ حَتَّى عاقَهُ العَدَمُ

29 - حكاية المزوِّر

ومما يحكى أنه كان بين يحيى بن خالد وبين عبد الله بن مالك الخزاعي عداوة في السرّ ما كانا يظهرانها . وسبب العداوة بينهما ، أن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان يحب عبد الله بن مالك محبة عظيمة بحيث أنّ يحيى بن خالد وأولاده كانوا يقولون : إن عبد الله يسحر أمير المؤمنين ، حتى مضى على ذلك زمان طويل والحقد في قلوبهما . فاتفق أن الرشيد قلّد ولاية أرمينية لعبد الله بن مالك الخزاعي وسيّره إليها ، فلما استقر في تختها قصده رجل من أهل العراق كان فيه فضل أدب وذكاء وفطنة إلاّ أنه ضاق ما بيده وفني ما له واضمحل حاله ، فزوّر كتاباً على لسان يحيى بن خالد إلى عبد الله بن مالك وسافر إليه في أرمينية . فلما وصل إلى بابه سلّم الكتاب إلى بعض حجّابه ، فأخذ الحاجب الكتاب وسلّمه إلى عبد الله بن مالك بن الخزاعي ففتحه وقرأه وتدبّره فعلم أنه مزوّر ، فأمر بإحضار الرجل . فلما تمثّل بين يديه دعا له وأثنى عليه وعلى أهل مجلسه فقال له عبد الله بن مالك : ما حملك على بعد المشقة ومجيئك إليّ بكتاب مزوّر ؟ ولكن طب نفساً فإننا لا نخيّب سعيك . فقال الرجل : أطال الله بقاء مولانا الوزير ، إن كان ثقل عليك وصولي فلا تحتج في منعي بحجّة فإن أرض الله واسعة والرازق حيّ والكتاب الذي أوصلته إليك من يحيى بن خالد صحيح غير مزوّر . فقال عبد الله : أنا أكتب كتاباً لوكيلي ببغداد وآمره فيه أن يسأل عن حال هذا الكتاب الذي أتيتني به ، فإن كان ذلك حقاً صحيحاً غير مزوّر قلدتك إمارة بعض بلادي أو أعطيتك مائتي ألف درهم مع الخيل والنجب الجليلة والتشريف إن أردت العطاء ، وإن كان الكتاب مزوّراً أمرت أن تضرب مائتي خشبة وأن تحلق لحيتك . ثم أمر به عبد الله أن يحمل إلى حجرة وأن يجعل

له فيها ما يحتاج إليه حتى يتحقّق أمره، ثم كتب كتاباً إلى وكيله ببغداد مضمونه: إنه قد وصل إليّ رجل ومعه كتاب يزعم أنه من يحيى بن خالد وأنا أسيء الظن بهذا الكتاب، فيجب أن لا تهمل هذا الأمر بل تمضي بنفسك وتحقّق أمر هذا الكتاب وتسرع إليّ بردّ الجواب لأجل أن نعلم صدقه من كذبه. فلما وصل إليه الكتاب ببغداد ركب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 307

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن وكيل عبد الله بن مالك الخزاعي لما وصل إليه الكتاب ببغداد، ركب من ساعته ومضى إلى دار يحيى بن خالد فوجده جالساً مع ندمائه وخواصّه فسلّم عليه وسلّم إليه الكتاب، فقرأه يحيى بن خالد ثم قال للوكيل: عد إليّ من الغد حتى أكتب لك الجواب. ثم التفت إلى ندمائه بعد انصراف الوكيل وقال: ما جزاء من تحمّل عني كتاباً مزوّراً وذهب به إلى عدوي؟ فقال كل واحد من الندماء مقالاً وجعل كل واحد منهم يذكر نوعاً من العذاب. فقال لهم يحيى: لقد أخطأتم فيما ذكرتم، وهذا الذي أشرتم به من دناءة الهمم وخستّها، وكلكم تعرفون قرب منزلة عبد الله من أمير المؤمنين وتعلمون ما بيني وبينه من الغضب والعداوة، وقد سبب الله تعالى هذا الرجل وجعله واسطة في الصلح بيننا ووفّقه لذلك وقيّضه ليخمد نار الحقد من قلوبنا وهي تتزايد من مدة عشرين سنة وتسطلح بواسطته شؤوننا، وقد وجب عليّ أن أفي لهذا الرجل بتحقيق ظنونه وإصلاح شؤونه، وأكتب له كتاباً إلى عبد الله بن مالك الخزاعي مضمونه: أنه يزيد في إكرامه ويستمرّ على أعذاره واحترامه. فلما سمع الندماء ذلك دعوا له بالخيرات وتعجّبوا من كرمه ووفور مروءته. ثم إنه طلب الورقة واللدواة وكتب إلى عبد الله بن مالك كتاباً بخط يده مضمونه:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصل كتابك أطال الله بقاءك وقرأته وسررت بسلامتك وابتهجت باستقامتك وشمول سعادتك، وكان ظنك ذلك الرجل الحرّ زوّر عني كتاباً ولم يحمل مني خطاباً وليس الأمر كذلك، فإن الكتاب أنا كتبته وليس بمزوّر ورجائي من إكرامك وإحسانك وحسن شيمتك أن تفي لذلك الرجل الحرّ الكريم بأمله وأمنيته وترعى له حق حرمته وتوصله إلى غرضه، وأن تخصّه منك بغامر الإحسان ووافر الإمتنان، ومهما فعلته في حقّه فانا المقصود به والشاكر عليه. ثم عنون الكتاب وختمه وسلّمه إلى الوكيل، فأنفذه الوكيل إلى عبد الله. فحين قرأه ابتهج بما حواه وأحضر ذلك الرجل وقال له: أيّ الأمرين اللذين وعدتك بهما أحب إليك لأحضره لك بين يديك؟ فقال الرجل: العطاء أحب إليّ من كل شيء. فأمر له بمائتي ألف درهم وعشرة أفراس عربية: خمسة منها بالجلال الحرير وخمسة بسروج المواكب المحلاة، وبعشرين تختاً من الثياب وعشرة من المماليك ركّاب خيل وما يليق بذلك من الجواهر المثمّنة، ثم خلع عليه وأحسن إليه ووجهه إلى بغداد في هيئة عظيمة. فلما وصل إلى بغداد قصد باب دار يحيى بن خالد قبل أن يصل إلى أهله وطلب

الإذن في الدخول عليه، فدخل الحاجب إلى يحيى وقال له: يا مولاي، إن ببابنا رجلاً ظاهر الحشمة جميل الخلقة حسن الحال كثير الغلمان يريد الدخول عليك، فأذن له بالدخول. فلما دخل عليه قبّل الأرض بين يديه فقال له يحيى: من أنت؟ فقال له الرجل: أيها السيد، أنا الذي كنت ميتاً من جور الزمان فأحييتني من رمس النوائب وبعثتني إلى جنّة المطالب، أنا الذي زوّرت كتاباً عنك وأوصلته إلى عبد الله بن مالك الخزاعي. فقال له يحيى: ما الذي فعل معك؟ وأي شيء أعطاك؟ فقال: أعطاني من يدك وجميل طويتك وشمول نعمك وعموم كرمك وعلو همتك وواسع فضلك حتى أغناني وخولني وهاداني، وقد حملت جميع عطيته ومواهبه وها هي ببابك والأمر إليك والحكم في يديك. فقال له يحيى: إن صنيعك معي أجمل من صنيعي معك، ولك علي المنّة العظيمة واليد البيضاء الجسيمة حيث بدّلت العداوة التي كانت بيني وبين ذلك الرجل المحتشم بالصداقة والمودّة، فأنا أهب لك من المال مثل ما وهب لك عبد الله بن مالك. ثم أمر له من المال والخيل والتخوت بمثل ما أعطاه عبد الله فعادت لذلك الرجل نعمته كما كانت بمروءة هذين الكريمين.

30 – حكاية المأمون والفقيه الغريب

وروى أن المأمون لم يكن في خلفاء بني العباس خليفة أعلم منه في جميع العلوم، وكان له في كل أسبوع يومان يجلس فيهما لمناظرة العلماء، فيجلس المناظرون من الفقهاء والمتكلمين بحضرته على طبقاتهم ومراتبهم. فبينما هو جالس معهم إذ دخل في مجلسه رجل غريب وعليه ثياب بيض رثّة، فجلس في آخر الناس وقعد من وراء الفقهاء في مكان مجهول. فلما ابتدؤوا في الكلام وشرعوا في معضلات المسائل، وكان من عادتهم أنهم يديرون المسألة على أهل المجلس واحداً بعد واحد فكل من وجد زيادة لطيفة أو نكتة غريبة ذكرها، فدارت المسألة إلى أن وصلت إلى ذلك الرجل الغريب فتكلّم وأجاب بجواب أحسن من أجوبة الفقهاء كلهم. فاستحسن الخليفة كلامه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 308

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة المأمون استحسن كلامه وأمر أن يرفع ذلك المكان إلى أعلى منه. فلما وصلت إليه المسألة الثانية أجاب بجواب أحسن من الجواب الأول، فأمر المأمون أن يرفع إلى أعلى من تلك الرتبة. فلما دارت المسألة الثالثة أجاب بجواب أحسن وأصوب من الجوابين الأولين، فأمر المأمون أن يجلس قريباً منه. فلما انقضت المناظرة، أحضروا الماء وغسلوا أيديهم وأحضروا الطعام فأكلوا، ثم نهض الفقهاء فخرجوا ومنع المأمون ذلك الشخص من الخروج معهم وأدناه منه ولاطفه ووعده بالإحسان

إليه والإنعام عليه. ثم تهيّأ مجلس الشراب وحضر الندماء الملاح ودارت الراح ، فلما وصل الدور إلى ذلك الرجل وثب قائماً على قدميه وقال: إن أذن لي أمير المؤمنين تكلّمت كلمة واحدة. قال له: قل ما تشاء. فقال: قد علم الرأي العالي زاده الله علواً أن العبد كان اليوم في هذا المجلس الشريف من مجاهيل الناس ووضعاء الجلاّس، وأن أمير المؤمنين قرّبه وأدناه بيسير من العقل الذي أبداه وجعله مرفوعاً على درجة غيره وبلغ به الغاية التي لم تسمُ إليها همّته، والآن يريد أن يفرّق بينه وبين ذلك القدر اليسير من العقل الذي أعزّه بعد الذلّة وكثرة بعد القلّة. وحاشا وكلاّ أن يحسده أمير المؤمنين على هذا القدر الذي معه من العقل والنباهة والفضل، لأن العبد إذا شرب الشراب تباعد عنه العقل وقرب منه الجهل وسلب أدبه وعاد إلى تلك الدرجة الحقيرة كما كان وصار في أعين الناس حقيراً مجهولاً. فأرجو من الرأي العالي أنه لا يسلب منه هذه الجوهرة بفضله وكرمه وسيادته وحسن شيمه. فلما سمع الخليفة المأمون منه هذا القول مدحه وشكره وأجلسه في رتبته ووقّره وأمر له بمائة ألف درهم وحمله على فرس وأعطاه ثياباً فاخرة، وكان في كل مجلس يرفعه ويقرّ به على جماعة الفقهاء حتى صار أرفع منهم درجة وأعلى مرتبة والله أعلم.

31 – حكاية علي ثار وزمرد

وحكى أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والآوان، تاجر من التجار في بلاد خراسان إسمه مجد الدين، وله مال كثير وعبيد ومماليك وغلمان، إلاّ أنه بلغ من العمر ستين سنة ولم يرزق ولداً. وبعد ذلك رزقه الله تعالى ولداً فسماه علياً، فلما انتشى ذلك الغلام صار كالبدر ليلة التمام، ولما بلغ مبلغ الرجال وحاز صفات الكمال، ضعف والده بمرض الموت. فدعا بولده وقال له: يا ولدي، إنه قد قرب وقت المنيّة وأريد أن أوصيك وصيّة. فقال له: وما هي يا والدي؟ فقال له: أوصيك أنك لا تعاشر أحداً من الناس وتجتنب ما يجلب الضرّ والبأس، وإيّاك وجليس السوء فإنه كالحداد إن لم تحرقك ناره يضربك دخانه. وما أحسن قول الشاعر: [من البسيط]

ما في زَمانِكَ مَنْ تَرْجُو مَوَدَّتَهُ ... ولا صَدِيقٌ إذا خانَ الزَّمانُ وَفَى
فَعِشْ فَرِيداً ولا تَرْكَنْ إلى أَحَدٍ ... ها قَدْ نَصَحْتُكَ فِيما قُلْتُهُ وكَفَى

وقول الآخر: [من مجزوء المجتث]

النّاسُ داءٌ دَفِينٌ ... لا تَرْكُنَنَّ إِلَيْهِمْ
فِيهِمْ خِداعٌ ومَكْرُ ... لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ

وقول الآخر: [من الوافر]

لِقاءُ النّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئاً ... سِوَى الهَذَيانِ مِنْ قِيلٍ وقالِ

فأقْلِلْ مِنْ لِقاءِ النَّاسِ إلاّ   لأخْذِ العِلْمِ أو إصْلاحِ حالِ

وقول الآخر : [من الوافر]

إذا ما النّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبيبٌ   فإنّي قَدْ أَكَلْتُهُمُو ذَوّاقا
فَلَم ارَ وُدَّهُمْ إلاّ خِداعاً   ولَمْ أَرَ دِينَهُمْ إلاّ نِفاقا

فقال : يا أبي سمعت وأطعت . ثم ماذا أفعل ؟ فقال : إفعل الخير إذا قدرت عليه ودم على صنع الجميل مع الناس واغتنم بذل المعروف ، فما في كل وقت ينجح الطلب . وما أحسن قول الشاعر : [من السريع]

لَيْسَ فِي كُلِّ ساعَةٍ وأَوانٍ   تَتأتّـي صَنائِعُ الإحْسانِ
فإذا أَمْكَنَتْكَ بادِرْ إلَيْها   حَذَراً مِنْ تَعَذُّرِ الإمْكانِ

فقال : سمعت وأطعت . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 309

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الصبي قال لأبيه : سمعت وأطعت . ثم ماذا ؟ قال : يا ولدي إحفظ الله يحفظك وصنْ مالك ولا تفرّط فيه فإنك إن فرطت فيه تحتاج إلى أقل الناس ، واعلم أن قيمة المرء ما ملكت يمينه . وما أحسن قول الشاعر : [من البسيط]

إنْ قَلَّ مالي فَلا خِلٌّ يُصاحِبُني   أو زادَ مالي فكُلُّ النّاسِ خِلاّني
فكَمْ عَدُوٍّ لأجْلِ المالِ صاحَبَني   وكَمْ صَدِيقٍ لِفَقْدِ المالِ عاداني

فقال : ثم ماذا ؟ قال : يا ولدي ، شاور من هو أكبر منك سناً ولا تعجل في الأمر الذي تريده ، وارحم من هو دونك يرحمك من هو فوقك ، ولا تظلم أحداً فيسلط الله عليك من يظلمك . وما أحسن قول الشاعر : [من الكامل]

إقْرِنْ بِرأيِكَ رأيَ غَيرِكَ واسْتَشِرْ   فالرَّأيُ لا يَخْفَى عَلَى الإثْنَيْنِ
فالمَرْءُ مِرآةٌ تُرِيهِ وَجْهَهُ   ويَرَى قَفاهُ بِجَمْعِ مِرآتَـيْنِ

وقول الآخر : [من الطويل]

تَأَنَّ ولا تَعْجَلْ لأمْرٍ تُرِيدُهُ   وكُنْ راحِماً لِلنّاسِ تُبْلَ بِراحِمِ
فَما مِنْ يَدٍ إلاّ يَدُ اللهِ فَوْقَها   ولا ظالِمٌ إلاّ سَيُبْلَى بِأظْلَمِ

وقول الآخر : [من البسيط]

لا تَظْلِمَنَّ إذا ما كُنْتَ مُقْتَدِراً   إنَّ الظَّلُومَ على حَدٍّ مِنَ النِّقَمِ

تَنامُ عَيْناكَ والمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ، وعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنَمِ

وإياك وشرب الخمر فهو رأس كل شرّ وشربه مذهب للعقول ويزري بصاحبه. وما أحسن قول الشاعر: [من البسيط]

تَاللهِ لا خامَرَتْني الخَمْرُ ما عَلِقَتْ رُوحِي بِجِسْمِي وأَقْوالي بإفْصاحِي
ولا صَبَوْتُ إلى مَشْمُولَةٍ أَبَداً يَوْماً ولا اخْتَرْتُ نَدْماني سِوَى الصاحِي

فهذه وصيتي لك فاجعلها بين عينيك والله خليفتي عليك، ثم غشي عليه فسكت ساعة واستفاق فاستغفر الله وتشهّد وتوفي إلى رحمة الله تعالى. فبكى عليه ولده وانتحب، ثم أخذ في تجهيزه على ما يجب ومشت في جنازته الأكابر والأصاغر وصار القرّاء يقرؤون حول تابوته وما ترك ولده من حقّه شيئاً حتى فعله، ثم صلّوا عليه وواروه في التراب وكتبوا على قبره هذين البيتين: [من الوافر]

خُلِقْتَ مِنْ التُّرابِ فَصِرْتَ حَيّاً وعُلِّمْتَ الفَصاحَةَ في الخِطابِ
وعُدْتَ إلى التُّرابِ فَصِرْتَ مَيْتاً كأَنَّكَ ما بَرِحْتَ مِنَ التُّرابِ

وحزن عليه ولده علي شار حزناً شديداً وعمل عزاءه على عادة الأعيان، واستمرّ حزيناً على أبيه إلى أن ماتت أمه بعده بمدة يسيرة. ففعل بوالدته مثل ما فعل بأبيه، ثم بعد ذلك جلس في الدكان يبيع ويشتري ولا يعاشر أحداً من خلق الله تعالى عملاً بوصية أبيه. واستمر على ذلك مدّة سنة، وبعد السنة دخلت عليه أولاد النساء الزواني بالحيل وصاحبوه حتى مال معهم إلى الفساد وأعرض عن طريق الرشاد، وشرب الراح بالأقداح وإلى الملاح غدا وراح وقال في نفسه: إن والدي جمع لي هذا المال، وأنا إن لم أتصرف فيه فلمن أخليه؟ والله لا أفعل إلاّ كما قال الشاعر: [من مجزوء الكامل]

إنْ كُنْتَ دَهْرَكَ كُلَّهُ تَحْوِي إلَيْكَ وتَجْمَعُ
فَمَتَى بِما حَصَّلْتَهُ وحَوَيْتَهُ تَتَمَتَّعُ

وما زال علي شار يبذّر في المال آناء الليل وأطراف النهار حتى أذهب ماله كلّه وافتقر. فساء حاله وتكدّر باله وباع الدكان والأماكن وغيرها، ثم بعد ذلك باع ثياب بدنه ولم يترك لنفسه غير بدلة واحدة. فلما ذهبت السكرة وجاءت الفكرة وقع في الحسرة وقعد يوماً من الصبح إلى العصر بغير إفطار فقال في نفسه: أنا أدور على الذين كنت أنفق مالي عليهم لعلّ أحداً منهم يطعمني في هذا اليوم. فدار عليهم جميعاً، وكلما طرق باب أحد منهم ينكر نفسه ويتوارى منه حتى أحرقه الجوع. ثم ذهب إلى سوق التجار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 310

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن علياً شار أحرقه الجوع ، فذهب إلى سوق التجار فوجد حلقة ازدحام والناس مجتمعون فيها . فقال في نفسه : يا ترى ما سبب اجتماع هؤلاء الناس ؟ والله لا أنتقل من هذا المكان حتى أتفرج على هذه الحلقة . ثم تقدّم إلى الحلقة فوجد جارية خماسية معتدلة القدّ موردة الخدّ قاعدة النهد قد فاقت أهل زمانها في الحسن والجمال والبهاء والكمال . كما قال فيها بعض واصفيها : [من البسيط]

كَما اشْتَهَتْ خُلِقَتْ حتَّى إذا كَمُلَتْ ... في قالَبِ الحُسْنِ لا طُولٌ ولا قِصَرُ
والحُسْنُ أَصْبَحَ مَشْغُوفاً بِصُورَتِها ... والصَّدُّ يَعْذِلُها والتِّيهُ والخَفَرُ
فالبَدْرُ طَلْعَتُها والغُصْنُ قامَتُها ... والمِسْكُ نَكْهَتُها ما مِثْلُها بَشَرُ
كأنَّها أُفْرِغَتْ مِنْ ماءِ لُؤْلُؤَةٍ ... في كُلِّ جارِيَةٍ مِنْ حُسْنِها قَمَرُ

وكانت تلك الجارية إسمها زمرد . فلما نظرها عليّ شار تعجّب من حسنها وجمالها وقال : والله ما أبرح حتى أنظر القدر الذي يبلغه ثمن هذه الجارية وأعرف الذي يشتريها . ثم وقف بجملة التجار فظنوا أنه يشتري لما يعلمون من غناه بالمال الذي ورثه عن والديه . ثم إن الدلاّل قد وقف على رأس الجارية وقال : يا تجار يا أرباب الأموال ، من يفتح باب السعر في هذه الجارية سيدة الأقمار ، الدرّة السنيّة زمرد الستورية ، بغية الطالب ونزهة الراغب ؟ فافتحوا الباب فليس على من فتحه لوم ولا عتاب . فقال بعض التجار : عليّ بخمسمائة دينار . قال آخر : وعشرة . فقال شيخ يسمّى رشيد الدين وكان أزرق العين قبيح المنظر : ومائة . فقال آخر : وعشرة . قال الشيخ : بألف دينار . فحبس التجار ألسنتهم وسكتوا ، فشاور الدلاّل سيدها فقال : أنا حالف إني ما أبيعها إلاّ لمن تختاره ، فشاورها . فجاء الدلاّل إليها وقال : يا سيدة الأقمار ، إن هذا التاجر يريد أن يشتريك . فنظرت إليه فوجدته كما ذكرنا فقالت للدلاّل : أنا لا أباع لشيخ أوقعه الهرم في أسوء حال . ولله درّ مَنْ قال : [من البسيط]

سَأَلْتُها قُبْلَةً يَوْماً وقَدْ نَظَرَتْ ... شَيْبِي وقَدْ كُنْتُ ذا مالٍ وذا نِعَمِ
فأَعْرَضَتْ ثُمَّ صَدَّتْ وَهْيَ قائِلَةٌ ... لا والَّذي خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَدَمِ
ما كانَ لي في بَياضِ الشَّيْبِ مِنْ أَرَبٍ ... أَفي الحَياةِ يَكُونُ القُطْنُ حَشْوَ فَمِي ؟

فلما سمع الدلاّل قولها قال لها : والله إنك معذورة وقيمتك عشرة آلآف دينار . ثم أعلم سيدها أنها ما رضيت بذلك الشيخ فقال : شاورها على غيره . فتقدم إنسان آخر وقال : عليّ بما أعطى فيها الشيخ الذي لم ترضَ به . فنظرت إلى ذلك الرجل فوجدته مصبوغ اللحية فقالت : ما هذا العيب والريب وسواد وجه الشيب . ثم أكثرت التعجّبات وأنشدت هذه الأبيات : [من الوافر]

بَدا لي مِنْ فُلانٍ ما بَدا لي ... قَفاً واللهِ يُصْفَعُ بالنِّعالِ
وذَقْناً لِلْبَعُوضِ بِها مَجالٌ ... وقَرْناً مالَ مِنْ رَبْطِ الحِبالِ
أَيا مَفْتُونَ في خَدِّي وَقَدِّي ... تَزَوَّرْ بالمُحالِ ولا تُبالِي

أَتَصْبَغُ بالعُيُوبِ بَياضَ شَيْبٍ لِتُخْفِيَ ما بَدا لِلاحْتِيالِ
تَرُوحُ بِلِحْيَةٍ وتَجِي بأُخْرَى لِتُخْفِيَ فِعْلَ صُنَّاعِ الخَيالِ

وما أحسن قول الشاعر : [من البسيط]

قالَتْ أراكَ خَضَبْتَ الشَّيْبَ قُلْتُ لَها سَتَرْتُهُ عَنْكِ يا سَمْعِي ويا بَصَرِي
فَقَهْقَهَتْ ثُمَّ قالَتْ : إنَّ ذا عَجَبٌ تَـكاثَرَ الغِشُّ حَتَّى صارَ في الشَّعَرِ

فلما سمع الدلاّل شعرها قال لها : والله إنك صدقت . فقال التاجر : ما الذي قالت ؟ فأعاد عليه الأبيات فعرف أن الحق على نفسه وامتنع من اشترائها . فتقدّم تاجر آخر وقال : شاورها عليّ بالثمن الّذي سمعته . فشاورها عليه فنظرت إليه فوجدته أعور فقالت : هذا أعور . وقد قال فيه الشاعر : [من السريع]

لا تَصْحَبِ الأَعْوَرَ يَوْمًا وكُنْ في حَذَرٍ مِنْ شَرِّهِ ومَيْنِهِ
لَوْ كانَ في الأَعْوَرِ مِنْ خِيرَةٍ ما أَوْجَدَ اللهُ العَمَى بِعَيْنِهِ

فقال لها الدلاّل : أتُباعي لذلك التاجر ؟ فنظرت إليه فوجدته قصيراً وذقنه سابلة سرّته . فقالت : هذا الذي قال فيه الشاعر : [من السريع]

فَلِي صَدِيقٌ ولَهُ لِحْيَةٌ أَنْبَتَها اللهُ بِلا فائِدَهْ
كأَنَّها بَعْضُ لَيالِي الشِّتا طَوِيلَةٌ مُظْلِمَةٌ بارِدَهْ

فقال لها الدلاّل : يا سيدتي ، أنظري من يعجبك من الحاضرين وقولي عليه حتى أبيعك له . فنظرت إلى حلقة التجار وتفرستهم واحداً بعد واحد فوقع نظرها على علي شار . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 311

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية لما وقع نظرها على علي شار ، نظرته نظرة أعقبها ألف حسرة وتعلّق قلبها به لأنه كان بديع الجمال وألطف من نسيم الشمال . فقالت : يا دلال أنا لا أباع إلاّ لسيدي هذا ، صاحب الوجه المليح والقد الرجيح . الذي قال فيه بعض واصفيه : [من مجزوء الخفيف]

أَبْرَزُوا وَجْهَكَ الجَميـ ـلَ ولامُوا مَنْ أفْتَتَنْ
لَوْ أَرادُوا صِيانَتِي سَتَرُوا وَجْهَكَ الحَسَنْ

فلا يملكني إلاّ هو ، لأنه خده أسيل ورضابه سلسبيل وريقه يشفي العليل ، ومحاسنه تحيّر الناظم والناثر كما قال فيه الشاعر : [من السريع]

فَرِيقُهُ خَمْرٌ وأَنْفاسُهُ مِسْكٌ وذاكَ الثَّغْرُ كافُورُ
أَخْرَجَهُ رَضْوانُ مِنْ دارِهِ مَخافَةَ أَنْ تُفْتَنَ الحُورُ
يَلُومُهُ النّاسُ على تِيهِهِ والبَدْرُ مَهْما تاهَ مَعْذُورُ

صاحب الشعر الأجعد والخدّ المورد واللحظ الساحر، الذي قال فيه الشاعر: [من البسيط]

وشادنٍ بِوِصالٍ مِنْهُ واعَدَني ... فالقَلْبُ في قَلَقٍ والعَيْنُ مُنْتَظِرَهْ
أَجْفانُهُ ضَمِنَتْ لي صِدْقَ مَوْعِدِهِ ... فَكَيْفَ تُوفِي ضَماناً وَهْيَ مُنْكَسِرَهْ

وقال الآخر: [من الكامل]

قالُوا بَدا خَطُّ العِذارِ بِخَدِّهِ ... كَيْفَ التَّعَشُّقُ فيهِ وَهْوَ مُعَذَّرُ
فأَجَبْتُهُمْ كُفُّوا المَلامَةَ واقْصِرُوا ... إنْ صَحَّ ذاكَ الخَطُّ فَهْوَ مُزَوَّرُ
جَنّاتُ عَدْنٍ في جَنَى وَجَناتِهِ ... وَدَليلُهُ أَنَّ المَراشِفَ كَوْثَرُ

فلما سمع الدلاّل ما أنشدته من الأشعار في محاسن علي شار، تعجّب من فصاحتها وإشراق بهجتها فقال له صاحبها: لا تعجب من بهجتها التي تفضح شمس النهار ولا من حفظها الرقائق الأشعار، فإنها مع ذلك تقرأ القرآن العظيم بالسبع قراءات، وتروي الأحاديث الشريفة بصحيح الروايات وتكتب بالسبعة أقلام، وتعرف من العلوم ما لا يعرفه العالم العلام. ويداها أحسن من الذهب والفضة فإنها تعمل الستور الحرير وتبيعها فتكسب في كل واحد خمسين ديناراً، وتشتغل الستر في ثمانية أيام. فقال الدلاّل: يا سعادة من تكون هذه في داره ويجعلها من ذخائر أسراره. ثم قال له سيدها: بعها لكل من أرادته. فرجع الدلال إلى علي شار وقبّل يديه وقال: يا سيدي إشتر هذه الجارية فإنها اختارتك. وذكر له صفتها وما تعرفه وقال له: هنيئاً لك إذا اشتريتها، فإنه قد أعطاك من لا يبخل بالعطاء. فأطرق علي شار برأسه ساعة إلى الأرض وهو يضحك على نفسه وقال في سرّه: إني إلى هذا الوقت من غير إفطار، ولكن أختشي من التجار أن أقول ما عندي مال أشتريها به. فنظرت الجارية إلى إطراقه وقالت للدلاّل: خذ بيدي وامض بي إليه حتى أعرض نفسي عليه وأرغبه في أخذي فإني ما أباع إلاّ له. فأخذها الدلاّل وأوقفها قدّام علي شار وقال له: ما رأيك يا سيدي؟ فلم يردّ عليه جواباً. فقالت الجارية: يا سيدي وحبيب قلبي، ما لك لا تشتريني؟ فاشترني بما شئت وأكون سبب سعادتك. فرفع رأسه إليها وقال: هل الشراء بالغصب؟ أنت غالية بألف دينار. فقالت له: يا سيدي اشترني بتسعمائة. قال: لا. قالت: بثمانمائة. قال: لا فما زالت تنقص من الثمن إلى أن قالت له: بمائة دينار. قال: ما معي مائة كاملة. فضحكت وقالت له: كم تنقص مائتك؟ قال: ما معي لا مائة ولا غيرها، أنا والله لا أملك أبيض ولا أحمر من درهم ولا دينار، فانظري لك زبوناً غيري. فلمّا علمت أنه ما معه شيء قالت له: خذ بيدي على أنك تقبلني في عطفة. ففعل ذلك، فأخرجت من جيبها كيساً فيه ألف دينار وقالت: زن منه تسعمائة في ثمني وابق المائة معك تنفعنا. ففعل ما أمرته به واشتراها بتسعمائة دينار ودفع ثمنها من ذلك الكيس ومضى بها إلى الدار، فلمّا وصلت إلى الدار وجدتها قاعاً صفصفاً لا فرش بها ولا أواني، فأعطته ألف دينار وقالت له: إمض إلى السوق واشتر لنا بثلاثمائة دينار فرشاً وأواني للبيت، ففعل. ثم قالت له: إشتر لنا مأكولاً ومشروباً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 312

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية قالت له : إشتر لنا مأكولاً ومشروباً بثلاثة دنانير ، ففعل . ثم قالت له : إشتر لنا خرقة حرير قدر ستر واشتر قصباً أصفر وأبيض وحريراً ملوناً سبعة ألوان ، ففعل . ثم إنها فرشت البيت وأوقدت الشمع وجلست تأكل وتشرب هي وإياه ، وبعد ذلك قاموا إلى الفرش وقضوا الغرض من بعضهما ثم باتا معتنقين خلف الستائر . وكانا كما قال الشاعر : [من الكامل]

زُرْ مَنْ تُحِبُّ ودَعْ كَلامَ الحاسِدِ ... لَيْسَ الحَسُودُ عَلى الهَوَى بِمُساعِدِ
إنِّي نَظَرْتُكَ في المَنامِ مُضاجِعِي ... ولَثَمْتُ مِنْ شَفَتَيْكَ أَحْلى بارِدِ
حَقّاً صَحِيحاً كُلُّ ما عايَنْتُهُ ... ولَسَوْفَ أَبْلُغُهُ بِرَغْمِ الحاسِدِ
لَمْ تَنْظُرِ العَيْنانِ أَحْسَنَ مَنْظَراً ... مِنْ عاشِقَيْنَ عَلى فِراشٍ واحِدِ
مُتَعانِقَيْنَ عَلَيْهِما حُلَلُ الرِّضَى ... مُتَوَسِّدَيْنِ بِمِعْصَمٍ وبِساعِدِ
وإذا تَـآلَفَتْ القُلُوبُ لِبَعْضِها ... فالنّاسُ تَضْرِبُ في حَدِيدٍ بارِدِ
يا مَنْ يَلُومُ عَلى الهَوَى أَهْلَ الهَوَى ... هَلْ تَسْتَطِيعُ صلاحَ قَلْبٍ فاسِدِ
وإذا صَفا لَكَ مِنْ زَمانِكَ واحِدٌ ... فَهْوَ المُرادُ وعِشْ بِذاكَ الواحِدِ

واستمرا متعانقين إلى الصباح وقد سكنت محبة كل واحد منهما في قلب صاحبه . ثم أخذت الستر وطرّزته بالحرير الملوّن وزركشته بالقصب وجعلت فيه منطقة بصور طيور وصوّرت في دائرها الوحوش ولم تترك وحشاً في الدنيا إلاّ وصوّرت صورته فيه ومكثت تشتغل فيه ثمانية أيام ، فلمّا فرغ قطعته وصقلته ثم أعطته لسيدها وقالت له : إذهب به إلى السوق وبعه بخمسين دينار للتاجر ، واحذر أن تبيعه لأحد عابر طريق فإن ذلك يكون سبباً للفراق بيني وبينك لأن لنا أعداء لا يغفلون عنّا . فقال لها : سمعاً وطاعةً . ثم ذهب به إلى السوق وباعه لتاجر كما أمرته ، وبعد ذلك اشترى الخرقة والحرير والقصب على العادة وما يحتاجان إليه من الطعام وأحضر لها ذلك وأعطاها بقية الدراهم . فصارت كل ثمانية أيام تعطيه ستراً يبيعه بخمسين ديناراً ، ومكثت على ذلك سنة كاملة . وبعد السنة راح إلى السوق بالستر على العادة وأعطاه للدلاّل ، فعرض له نصراني فدفع له ستين ديناراً ، فامتنع . فلا زال يزيده حتى عمله بمائة دينار وبرطل الدلاّل بعشرة دنانير . فرجع الدلاّل إلى علي شار وأخبره بالثمن وتحيّل عليه ان يبيع الستر للنصراني بذلك المبلغ وقال له : يا سيدي لا تخف من هذا النصراني وما عليك منه بأس ، وقامت التجار عليه فباعه للنصراني وقلبه مرعوب . ثم قبض المال ومضى إلى البيت فوجد النصراني ماشياً خلفه فقال له : يا نصراني ، ما لك ماشياً خلفي ؟ فقال له : يا سيدي ، إن لي حاجة في صدر الزقاق ، الله لا يحوجك . فما وصل علي شار إلى منزله إلاّ والنصراني لاحقه . فقال له : يا ملعون ، ما لك تتبعني أين ما أسير ؟ فقال : يا سيدي ، اسقِني شربة ماء فإني عطشان وأجرك على الله تعالى . فقال علي شار في نفسه : هذا رجل ذميّ وقصدني في شربة ماء فوالله لا أخيبه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 313

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عليّ شار قال في نفسه: هذا رجل ذمي وقصدني في شربة ماء فوالله لا أخيّبه. ثم دخل البيت وأخذ كوز ماء. فرأته جاريته زمرد فقالت له: يا حبيبي هل بعت الستر؟ قال: نعم. قالت: لتاجر أو لعابر سبيل؟ فقد حسّ قلبي بالفراق. قال: ما بعته إلاّ لتاجر. قالت: أخبرني بحقيقة الأمر حتى أتدارك شأني. وما بالك أخذت كوز الماء؟ قال: لأسقي الدلال. فقالت: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم. ثم أنشدت هذين البيتين: [من المتقارب]

يا طالباً للفراقِ مَهْلاً فَلا يَغُرَّنَّكَ العِناقُ
مَهْلاً فَطَبْعُ الزَّمانِ غَدْرٌ وآخِرُ الصُّحْبَةِ الفِراقُ

ثم خرج بالكوز فوجد النصراني داخلاً في دهليز البيت فقال له: هل وصلت إلى هنا يا كلب؟ كيف تدخل منزلي بغير إذني؟ فقال: يا سيدي، لا فرق بين الباب والدهليز، وما بقيت أنتقل من مكاني هذا إلاّ للخروج وأنت لك الفضل والإحسان والجود والإمتنان. ثم إنه تناول كوز الماء وشرب ما فيه وبعد ذلك ناوله إلى علي شار، فأخذه وانتظره أن يقوم فما قام فقال له: لأي شيء لم تقم وتذهب إلى حال سبيلك؟ فقال: يا مولاي، لا تكن ممن فعل الجميل ومنّ به، ولا من الذين قال فيهم الشاعر: [من الكامل]

ذَهَبَ الَّذينَ إذا وَقَفْتَ بِبابِهِم كانُوا لِقَصْدِكَ أَكْرَمَ الكُرَماءِ
وإذا وَقَفْتَ بِبابِ قَوْمٍ بَعْدَهُمْ مَنُّوا عَلَيْكَ بِشُرْبَةٍ مِنْ ماءِ

ثم قال: يا مولاي، إني قد شربت ولكن أريد منك أن تطعمني مهما كان من البيت، سواء كان كسرة أو قرقوشة وبصلة. فقال له: قم بلا مماحكة، ما في البيت شيء. فقال: يا مولاي، إن لم يكن في البيت شيء فخذ هذه المائة دينار وائتنا بشيء من السوق ولو برغيف واحد ليصير بيني وبينك خبز وملح. فقال علي شار في سره: إن هذا النصراني مجنون، فأنا آخذ منه المائة دينار وأجيء له بشيء يساوي درهمين وأضحك عليه. فقال له النصراني: يا سيدي إنما أريد شيئاً يطرد الجوع ولو رغيفاً يابساً وبصلة، فخير الزاد ما دفع الجوع لا الطعام الفاخر. وما أحسن قول الشاعر: [من الكامل]

الجُوعُ يُطْرَدُ بالرَّغيفِ اليابِسِ فَعَلى التَّعَظُّمِ حَسْرَتي ووَساوِسِي
والمَوْتُ أَعْدَلُ حِينَ أَصْبَحَ مُنْصِفاً بَيْنَ الخَليفَةِ والفَقيرِ البائِسِ

فقال له علي شار: إصبر هنا حتى أقفل القاعة وآتيك بشيء من السوق. فقال له: سمعاً وطاعةً. ثم خرج وقفل القاعة وحطّ على الباب كيلوناً وأخذ المفتاح معه وذهب إلى السوق، واشترى جبناً مقلياً وعسلاً أبيض وموزاً وخبزاً وأتى به إليه. فلمّا نظر النصراني إلى ذلك قال: يا مولاي، هذا شيء كثير يكفي عشرة رجال وأنا وحدي، فلعلك تأكل معي. فقال له: كُل وحدك فإني شبعان. فقال له: يا مولاي، قالت الحكماء: من لم يأكل مع ضيفه فهو ولد زنا. فلمّا سمع علي شار من النصراني هذا الكلام، جلس وأكل معه شيئاً قليلاً وأراد أن يرفع يده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة
314

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن علياً شار جلس وأكل معه شيئاً قليلاً وأراد أن يرفع يده ، فأخذ النصراني موزة وقشّرها وشقّها نصفين وجعل في نصفها بنجاً مكرّراً ممزوجاً بأفيون ، الدرهم منه يرمي الفيل . ثم غمس نصف الموزة في العسل وقال له : يا مولاي ، وحقّ دينك أن تأخذ هذه . فاستحى علي شار أن يحنثه في يمينه فأخذها منه وابتلعها ، فما استقرّت في بطنه حتى سبقت رأسه رجليه وصار كأنه له سنة وهو راقد . فلمّا رأى النصراني ذلك ، قام على قدميه كأنه ذئب أمعط مسلّط وأخذ معه مفتاح القاعة وتركه مرمياً وذهب يجري إلى أخيه وأخبره بالخبر . وسبب ذلك ، أن أخا النصراني هو الشيخ الهرم الذي أراد أن يشتريها بألف دينار فلم ترضَ به وهجته بالشعر ، وكان كافراً في الباطن مسلماً في الظاهر وسمّى نفسه رشيد الدين . ولما هجته ولم ترضَ به شكا إلى أخيه النصراني الذي تحيّل في أخذها من سيّدها علي شار ، وكان اسمه برسوم . فقال له : لا تحزن من هذا الأمر فأنا أتحيّل لك في أخذها بلا درهم ولادينار . لأنه كان كاهناً ماكراً مخادعاً فاجراً . ثم إنه لم يزل يمكر ويتحيّل حتى عمل الحيلة التي ذكرناها وأخذ المفتاح وذهب إلى أخيه وأخبره بما حصل . فركب بغلته وأخذ غلمانه وتوجّه مع أخيه إلى بيت علي شار وأخذ معه كيساً فيه ألف دينار ، إذا صادفه الوالي فيعطيه إيّاه . ففتح القاعة وهجمت الرجال الذين معه على زمرد ، وأخذوها قهراً وهدّدوها بالقتل إن تكلمت وتركوا المنزل على حاله ولم يأخذوا منه شيئاً وتركوا علي شار راقداً في الدهليز ثم ردّوا الباب عليه وتركوا مفتاح القاعة في جانبه ، ومضى بها النصراني إلى قصره ووضعها بين جواريه وسراريه وقال لها : يا فاجرة ، أنا الشيخ الذي ما رضيت بي وهجوتني ، وقد أخذتك بلا درهم ولا دينار . فقالت له وقد ترغرغت عيناها بالدموع : حسبك الله يا شيخ السوء حيث فرّقت بيني وبين سيدي . فقال لها : يا فاجرة يا عشاقة ، سوف تنظرين ما أفعل بك من العذاب ، وحق المسيح والعذراء إن لم تطاوعيني وتدخلي في ديني لأعذبنك بأنواع العذاب . فقالت له : والله لو قطعت لحمي قطعاً ما أفارق دين الإسلام ، ولعل الله تعالى يأتي بالفرج القريب إنه على ما يشاء قدير . وقد قالت العقلاء : مصيبة في الأبدان ولا مصيبة في الأديان . فعند ذلك صاح على الخدم والجواري وقال لهم : اطروحها . فطرحوها ، ولا زال يضربها ضرباً عنيفاً وصارت تستغيث فلا تغاث ، ثم أعرضت عن الإستغاثة وصارت تقول : حسبي الله وكفى . إلى أن انقطع نفسها وخفي أنينها . فلمّا اشتفى قلبه منها قال للخدم : اسحبوها من رجليها وارموها في المطبخ ولا تطعموها شيئاً . ثم بات الملعون تلك الليلة ، ولما أصبح الصباح طلبها وكرّر عليها الضرب وأمر الخدم أن يرموها في مكانها ففعلوا . فلمّا برد عليها الضرب قالت : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ونعم الوكيل . ثم استغاثت بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة
315

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن زمرد استغاثت بالنبي صلى الله عليه وسلم . هذا ما كان من أمرها . وأما ما كان من أمر علي شار ، فإنه لم يزل راقداً إلى ثاني يوم ثم طار البنج من رأسه ففتح عينيه وصاح قائلاً : يا زمرد . فلم يجبه أحد ، فدخل القاعة فوجد الجوّ قفراً والمزار بعيداً فعلم أنه ما جرى عليه هذا الأمر إلاّ من النصراني . فحنّ وبكى

وأنّ واشتكى وأفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات :[من الكامل]

يا وَجْدُ لا تُبْقِي عَلَيَّ ولا تَذَرْ ... ها مُهْجَتِي بَيْنَ المَشَقَّةِ والخَطَرْ
يا سادَتِي رِقُّوا لِعَبْدٍ ذَلَّ في ... شَرْعِ الهَوَى وغَنِيِّ قَوْمٍ افْتَقَرْ
ما حِيلَةُ الرَّامِي إذا التَفَّ العِدَى ... وأَرادَ رَمْيَ السَّهْمِ فانْقَطَعَ الوَتَرْ
وإذا تَكاثَرَتْ الهُمُومُ عَلَى الفَتَى ... وتَراكَمَتْ أَيْنَ المَفَرُّ مِنَ القَدَرْ؟
ولَكَمْ أُحاذِرُ مِنْ تَفَرُّقِ شَمْلِنا ... لكِنْ إذا نَزَلَ القَضا عَمِيَ البَصَرْ

فلما فرغ من شعره، صعد الزفرات وأنشد أيضاً هذه الأبيات : [من الكامل]

خَلَعَتْ هَياكِلَها بِجَرْعاءِ الحِمَى ... فَصَبا لِمَغْناها الكَئِيبُ تَشَوُّقا
وتَلَفَّتَتْ نَحْوَ الدِّيارِ فَشاقَها ... رَبْعٌ عَفَتْ أَطْلالُهُ فَتَمَزَّقا
وَقَفَتْ تُسائِلُهُ فَرَدَّ جَوابَها ... رَجْعُ الصَّدَى أَنْ لا سَبِيلَ إلى اللِّقا
فَكَأَنَّه بَرْقٌ تَأَلَّقَ بالحِمَى ... ومَضَى فَما يُبْدِي إِلَيْكَ تَأَلُّقا

وندم حيث لا ينفعه الندم، وبكى ومزّق أثوابه وأخذ بيده حجرين ودار حول المدينة وصار يدق بهما على صدره ويصيح قائلاً : يا زمرد . فدارت الصغار حوله وقالوا : مجنون مجنون . فكان كل من عرفه يبكي عليه ويقول : هذا فلان، ما الذي جرى له؟ ولم يزل على هذه الحالة إلى آخر النهار . فلمّا جن عليه الليل نام في بعض الأزقّة إلى الصباح ، ثم أصبح دائراً بالأحجار حول المدينة إلى آخر النهار وبعد ذلك رجع إلى قاعته ليبيت فيها . فنظرته جارية وكانت امرأة عجوز من أهل الخير فقالت له : يا ولدي سلامتك، متى جننت؟ فأجابها بهذين البيتين :[من البسيط]

قالُوا : جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ : ... ما لَذَّةُ العَيْشِ إلاّ لِلْمَجانِينِ
دَعُوا جُنُونِي وهاتُوا مَنْ جُنِنْتُ بِه ... إنْ كانَ يَشْفِي جُنُونِي لا تَلُومُونِي

فعلمت جارته العجوز أنه عاشق مفارق فقالت : لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم . يا ولدي أشتهي منك أن تحكي لي خبر مصيبتك عسى الله أن يقدرني على مساعدتك عليها بمشيئته . فحكى لها جميع ما وقع له مع برسوم النصراني أخي الكاهن الذي سمّى نفسه رشيد الدين . فلمّا علمت ذلك قالت له : يا ولدي إنك معذور . ثم أفاضت دمع العين وأنشدت هذين البيتين : [من البسيط]

كَفَى المُحِبِّينَ في الدُّنْيا عَذابُهُمُ ... تَاللهِ لا عَذَّبَتْهُمْ بَعْدَها سَقَرُ
لأَنَّهُم هَلَكُوا عِشْقاً وقَدْ كَتَمُوا ... مَعَ العَفافِ، بهذا يَشْهَدُ الخَبَرُ

فلما فرغت من شعرها قالت له : يا ولدي، قم الآن واشتر قفصاً مثل أقفاص أهل الصاغة، واشتر أساور وخواتم وحلقاناً وحلياً يصلح للنساء ولا تبخل بالمال، وضع جميع ذلك في القفص وهات القفص وأنا أضعه على رأسي في صورة دلاّلة وأدور أفتش عليها في البيوت حتى أقع على خبرها إن شاء الله تعالى . ففرح علي شار بكلامها وقبّل يديها ثم ذهب بسرعة وأتى لها بما طلبته ، فلمّا حضر ذلك عندها قامت ولبست مرقّعة ووضعت على رأسها إزاراً عسلياً وأخذت في

يدها عكّازاً وحملت القفص ودارت في العطف والبيوت . ولم تزل دائرة من مكان إلى مكان ومن حارة إلى حارة ومن درب إلى درب إلى أن دلّها الله تعالى على قصر الملعون رشيد الدين النصراني، فسمعت من داخله أنيناً فطرقت الباب . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 316

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما سمعت من داخل البيت أنيناً طرقت الباب ، فنزلت لها جارية ففتحت لها الباب وسلّمت عليها . فقالت لها العجوز : إن معي هذه الحويجات للبيع هل عندكم من يشتري منها شيئاً؟ فقالت لها الجارية : نعم . ثم ادخلتها الدار وأجلستها وجلس الجواري حولها وأخذت كل واحدة شيئاً منها، فصارت العجوز تلاطف الجواري وتتساهل معهن في الثمن ، ففرح بها الجواري بسبب معروفها ولين كلامها، وهي تتأمل في جهات المكان على صاحبة الأنين . فلاحت منها التفاتة إليها فحابتهم وأحسنت إليهم وتأملت ، فوجدتها زمرّداً مطروحة فعرفتها، فبكت وقالت لهم : يا أولادي، ما بال هذه الصبيّة في هذا الحال؟ فحكى لها الجواري جميع القصة وقلن لها : هذا الأمر ليس باختيارنا ولكن سيدنا أمرنا بهذا وهو مسافر الآن . فقالت لهم : يا أولادي لي عندكم حاجة، وهي أنكم تحلّوا هذه المسكينة من الرباط إلى أن تعلموا بمجيء سيدكم فتربطوها كما كانت وتكسبوا الأجر من رب العالمين . فقلنّ لها : سمعاً وطاعةً . ثم إنهم حلّوها وأطعموها وأسقوها . ثم قالت العجوز : يا ليت رجلي انكسرت ولا دخلت لكم منزلاً . وبعد ذلك ذهبت إلى زمرد وقالت لها : يا بنتي سلامتك، سيفرج الله عنك . ثم ذكرت لها أنها جاءت من عند سيدها علي شار وواعدتها أنها في ليلة غد تكون حاضرة وتلقي سمعها للحسّ وقالت لها : إن سيدك يأتي إليك تحت مصطبة القصر ويصفّر لك، فإذا سمعت ذلك فاصفري له وتدلي له من الطاقة بحبل وهو يأخذك ويمضي . فشكرتها على ذلك، ثم خرجت العجوز وذهبت إلى علي شار وأعلمته وقالت له : توجّه في الليلة القابلة نصف الليل إلى الحارة الفلانية فإن بيت الملعون هناك وعلامته كذا وكذا، فقف تحت قصره واصفر فإنها تتدلّى إليك، فخذها وامض بها حيث شئت . فشكرها على ذلك . ثم إنه أفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات :[من البسيط]

كُفَّ العَوادِلَ عَنْ قِيلٍ وعَنْ قالِ ... قَلْبِي مُعَنًّى وجِسْمِي ناحِلٌ بالِ
ولِلدُّمُوعِ أَحادِيثٌ مُسَلْسَلَةٌ ... عَنْ الصَّحِيحِ بإعْضالٍ وإرْسالِ
يا خالِي البالِ مِنْ هَمِّي ومِنْ هِمَمِي ... أَقْصِرْ عَناكَ عَنْ التَّسآلِ عَنْ حالِي
عَذْبُ المَراشِفِ لَدْنُ القَدِّ مُعْتَدِلٌ ... سَبَى فُؤَادِي بِمَعْسُولٍ وعَسّالِ
ما قَرَّ قَلْبِيَ مُذْ غِبْتُمْ ولا هَجَعَتْ ... عَيْنِي ولا نَجَعَتْ فِي الصَّبْرِ آمالِي
تَرَكْتُمُونِي رَهِينَ الشَّوقِ مُكْتَئِباً ... مُذَبْذَباً بَيْنَ حُسّادٍ وعُذّالِ
أَمّا السُّلُوُّ فَشَيءٌ لَسْتُ أَعْرِفُهُ ... وغَيْرُكُمْ قَطُّ لَم يَخْطُرْ عَلى بالِي

فلما فرغ من شعره، تنهد وأفاض دمع العين وأنشد هذين البيتين :[من الكامل]

لله دَرُّ مُبَشِّرِي بِقُدُومِكُمْ ... فَلَقَدْ أَتَى بلَطائِفِ المَسْمُوعِ

لَوْ كانَ يَقْنَعُ بالخَلِيعِ مَنَحْتُهُ   قَلْباً تَمزَّقَ ساعَةَ التَّوْدِيعِ

ثم إنه صبر إلى أن جن الليل وجاء وقت الميعاد، فذهب إلى تلك الحارة التي وصفتها له جارته ورأى القصر فعرفه، وجلس على مصطبة تحته وغلب عليه النوم فنام وجلّ من لا ينام. وكان له مدة لم ينم من الوجد الذي به فصار كالسكران. فبينما هو نائم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 317

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، فبينما هو نائم وإذا بلص من اللصوص خرج تلك الليلة في أطراف المدينة ليسرق شيئاً، فرمته المقادير تحت قصر ذلك النصراني، فدار حوله فلم يجد له سبيلاً إلى الصعود إليه، فصار دائراً حوله إلى أن وصل إلى المصطبة فرأى علياً شار نائماً فأخذ عمامته. وبعد أن أخذها لم يشعر إلاّ وزمرد طلّت في ذلك الوقت فرأته واقفاً في الظلام فحسبته سيدها فصفّرت له، فصفّر لها الحرامي فتدلّت له بالحبل وصحبتها خرج ملآن ذهباً. فلمّا رآه اللص قال في نفسه: ما هذا إلاّ أمر عجيب له سبب غريب. ثم حمل الخرج وحملها على أكتافه وذهب بهما مثل البرق الخاطف. فقالت له: إن العجوز أخبرتني أنك ضعيف بسببي وها أنت أقوى من الفرس. فلم يرد عليها جواباً فحسست على وجهه فوجدت لحيته مثل مقشة الحمام كأنه خنزير ابتلع ريشاً فطلع زغبه من حلقه، ففزعت منه وقالت له: أي شيء أنت؟ فقال لها: يا عاهرة، أنا الشاطر جوان الكردي من جماعة أحمد الدنف، ونحن أربعون شاطراً وكلهم في هذه الليلة يسفقون في رحمك من العشاء إلى الصباح. فلمّا سمعت كلامه بكت ولطمت على وجهها وعلمت أن القضاء غلب عليها وأنه لا حيلة لها إلاّ التفويض إلى الله تعالى، فصبرت وسلمت لحكم الله تعالى وقالت: لا إله إلاّ الله، كلما خلصنا من همّ وقعنا في همّ أكبر منه. وكان السبب في مجيء جوان إلى هذا المحل أنه قال لأحمد الدنف: يا شاطر، أنا دخلت هذه المدينة قبل الآن وأعرف فيها غاراً خارج البلد يسع أربعين نفساً، وأنا أريد أن أسبقكم إليه وأدخل أمي في ذلك الغار، ثم أرجع إلى المدينة وأسرق منها شيئاً على بختكم وأحفظه على اسمكم إلى أن تحضروا فيكون ضيافتكم في ذلك النهار من عندي. فقال له أحمد: إفعل ما تريد. فخرج قبلهم وسبقهم إلى ذلك المحل ووضع أمه في ذلك الغار، ولما خرج وجد جندياً راقداً وعنده فرس مربوط فذبحه وأخذ ثيابه. وأخذ فرسه وسلاحه وثيابه وأخفاها في الغار عند أمه وربط الحصان هناك ثم رجع إلى المدينة ومشى حتى وصل إلى قصر النصراني وفعل ما تقدّم ذكره، من أخذ عمامة علي شار ومن أخذ زمرد جاريته. ولم يزل يجري إلى أن حطّها عند أمه وقال لها: احتفظي عليها إلى حين أرجع إليك في بكرة النهار ثم ذهب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 318

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جوان الكردي قال لأمه: احتفظي عليها حتى أرجع إليك في بكرة النهار ثم ذهب. فقالت زمرد في نفسها: وما هذه الغفلة عن خلاص روحي بالحيلة. كيف أصبر إلى أن يجيء هؤلاء الأربعون رجلاً فيتعاقبون عليّ حتى يجعلوني كالمركب الغريقة في البحر؟ ثم إنها التفتت إلى العجوز أم جوان الكردي وقالت

لها : يا خالتي أمَا تقومين إلى خارج الغار حتى أفلّيك في الشمس ؟ فقالت : إي والله يا بنتي فإن لي مدة وأنا بعيدة عن الحمام ، لأن هؤلاء الخنازير لم يزالوا دائرين بي من مكان إلى مكان . فخرجت معها ، فسارت تفلّيها وتقتل القمل من رأسها إلى أن استلذّت بذلك ورقدت . فقامت زمرّد ولبست ثياب الجندي الذي قتله جوان الكردي وشدّت سيفه في وسطها وتعمّمت بعمامته حتى صارت كأنها رجل ، وركبت الفرس وأخذت الخرج الذهب معها وقالت : يا جميل الستر استرني بجاه محمد صلى الله عليه وسلم . ثم إنها قالت في نفسها : إن رحت إلى البلد ربما ينظرني أحد من أهل الجندي فلا يحصل لي خير .ثم أعرضت عن دخول المدينة وسارت في البر الأقفر ، ولم تزل سائرة بالخرج والفرس وتأكل من نبات الأرض وتطعم الفرس منه وتشرب من الأنهار مدة عشرة أيام . وفي اليوم الحادي عشر أقبلت على مدينة طيبة أمينة بالخير مكينة ، قد ولّى عنها فصل الشتاء وأقبل عليها فصل الربيع بزهره وورده ، فزهت أزهارها وتدفّقت أنهارها وغرّدت أطيارها . فلمّا وصلت إلى المدينة وقربت من بابها ، وجدت العساكر والأمراء وأكابر أهل المدينة . فتعجّبت لما نظرتهم على هذه الحالة وقالت في نفسها : إن أهل هذه المدينة كلهم مجتمعون ولا بدّ لذلك من سبب . ثم إنها قصدتهم ، فلمّا قربت منهم تسابق إليها العساكر وترجّلوا وقبّلوا الأرض وقالوا : الله ينصرك يا مولانا السلطان . واصطفت بين يديها المناصب ، فصارت العساكر يرتبون الناس ويقولون : الله ينصرك ويجعل قدومك مباركاً على المسلمين يا سلطان العالمين ، ثبتك الله يا ملك الزمان يا فريد العصر والآوان . فقالت لهم زمرد : ما خبركم يا أهل هذه المدينة ؟ فقال الحاجب : إنه أعطاك من لا يبخل بالعطاء وجعلك سلطاناً على هذه المدينة وحاكماً على رقاب جميع من فيها . واعلم أن أهل هذه المدينة إذا مات ملكهم ولم يكن له ولد ، تخرج العساكر إلى ظاهر المدينة ويمكثون ثلاثة أيام فأي إنسان جاء من طريقك التي جئت منها يجعلونه سلطاناً عليهم . والحمد لله الذي ساق لنا إنساناً من أولاد الترك جميل الوجه ، فلو طلع علينا أقل منك كان سلطاناً . وكانت زمرد صاحبة رأي في جميع أفعالها فقالت : لا تحسبوا أنني من أولاد عامة الأتراك بل أنا من أولاد الأكابر ، لكنني غضبت من أهلي فخرجت من عندهم وتركتهم . وانظروا إلى هذا الخرج الذهب الذي جئت به تحتي لأتصدّق منه على الفقراء والمساكين طول الطريق . فدعوا لها وفرحوا بها غاية الفرح ، وكذلك زمرد فرحت بهم ثم قالت في نفسها : بعد أن وصلت إلى هذا الأمر . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 319

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن زمرد قالت في نفسها : بعد أن وصلت إلى هذا الأمر لعل الله يجمعني بسيدي في هذا المكان إنه على ما يشاء قدير . ثم سارت ، فسار العسكر بسيرها حتى دخلوا المدينة وترجل العسكر بين يديها حتى أدخلوها القصر . فنزلت وأخذها الأمراء والأكابر من تحت إبطيها حتى أجلسوها على الكرسي وقبّلوا الأرض جميعاً بين يديها . فلمّا جلست على الكرسي أمرت بفتح الخزائن ، ففتحت وأنفقت على جميع العسكر . فدعوا لها بدوام الملك وأطاعها العباد وسائر أهل البلاد ، واستمرت على ذلك مدة من الزمان وهي تأمر وتنهي وقد صار لها في قلوب الناس هيبة عظيمة من أجل الكرم والعفّة . وأبطلت المكوس وأطلقت من في الحبوس ورفعت المظالم فأحبها جميع الناس . وكلما تذكّرت سيدها

تبكي وتدعو الله أن يجمع بينها وبينه . واتفق أنها تذكّرته في بعض الليالي وتذكّرت أيامها التي مضت لها معه ، فأفاضت دمع العين وأنشدت هذين البيتين : [من الكامل]

شَوْقِي إِلَيْكَ عَلَى الزَّمانِ جَدِيدُ　　　والدَّمْعُ قَرَّحَ مُقْلَتِي ويَزِيدُ
وإِذا بَكَيْتُ بَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الجَوَى　　　إِنَّ الفِراقَ عَلَى المُحِبِّ شَدِيدُ

فلما فرغت من شعرها ، مسحت دموعها وطلعت القصر ودخلت الحريم وأفردت للجواري والسراري معازل ورتّبت لهن الرواتب والجرابات وزعمت أنها تريد أن تجلس في مكان وحدها عاكفة على العبادة . وصارت تصوم وتصلّي حتى قالت الأمراء : إن هذا السلطان له ديانة عظيمة . ثم إنها لم تدع عندها أحداً من الخدم غير طواشيين صغيرين لاجل الخدمة . وجلست في تخت الملك سنة وهي لم تسمع لسيدها خبراً ولم تقف له على أثر فقلقت من ذلك . فلمّا اشتد قلقها دعت بالوزراء والحجّاب وأمرتهم أن يحضروا لها المهندسين والبنّائين وأن يبنوا لها تحت القصر ميداناً طوله فرسخ وعرضه فرسخ . ففعلوا ما أمرتهم به في أسرع وقت ، فجاء الميدان على طبق مرادها . فلمّا تمّ ذلك الميدان ، نزلت فيه وضربت لها فيه قبة عظيمة وصفّت فيه كراسي الأمراء وأمرت أن يمدّوا سماطاً من سائر الأطعمة الفاخرة في ذلك الميدان ، ففعلوا ما أمرتهم به . ثم أمرت أرباب الدولة أن يأكلوا فأكلوا . ثم قالت للأمراء : أريد إذا هلّ الشهر الجديد أن تفعلوا هكذا وتنادوا في المدينة : أنه لا يفتح أحد دكانه بل يحضرون جميعاً ويأكلون من سماط الملك ، وكل من خالف منهم يشنق على باب داره . فلمّا هلّ الشهر الجديد فعلوا ما أمرتهم به . واستمروا على هذه العادة إلى أن هلّ أول شهر في السنة الثانية ، فنزلت إلى الميدان ونادى المنادي : يا معاشر الناس كافة ، كل من فتح دكانه أو حاصله أو منزله شنق في الحال على باب مكانه ، بل يجب عليكم أنكم تحضرون جميعاً لتأكلوا من سماط الملك . فلمّا فرغت المناداة وقد وضعوا السماط ، جاءت الخلق أفواجاً فأمرتهم بالجلوس على السماط ليأكلوا حتى يشبعوا من سائر الألوان . فجلسوا يأكلون كما أمرتهم ، وجلست على كرسي المملكة تنظر إليهم . فصار كل من جلس على السماط يقول في نفسه : إن الملك لا ينظر إلاّ إليّ وجعلوا يأكلون . وصار الأمراء يقولون للناس : كلوا ولا تستحوا فإن الملك يحب ذلك . فأكلوا حتى شبعوا وانصرفوا داعين للملك . وصار بعضهم يقول لبعض : عمرنا ما رأينا سلطاناً يحب الفقراء مثل هذا السلطان . ودعوا له بطول البقاء وذهبت إلى قصرها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 320

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملكة زمرد ذهبت إلى قصرها وهي فرحانة بما رتبته وقالت في نفسها : إن شاء الله تعالى بسبب ذلك أقع على خبر سيدي علي شار . ولما هلّ الشهر الثاني فعلت ذلك الأمر على جري العادة ، ووضعوا السماط ونزلت زمرد وجلست على كرسيها وأمرت الناس أن يجلسوا ويأكلوا . فبينما هي جالسة على رأس السماط والناس يجلسون عليه جماعة بعد جماعة وواحداً بعد واحد إذ وقعت عينها على برسوم النصراني الذي كان اشترى الستر من سيدها فعرفته وقالت : هذا أول الفرج وبلوغ المنى . ثم إن برسوم تقدم وجلس مع الناس يأكل ، فنظر إلى صحن أرزّ حلو مرشوش عليه سكّر وكان بعيداً

عنه، فزاحم عليه ومدّ يده إليه وتناوله ووضعه قدامه. فقال له رجل بجانبه: لِمَ لا تأكل من قدّامك؟ أمَا هذا عيب عليك، كيف تمدّ يدك إلى شيء بعيد عنك أمَا تستحي؟ فقال له برسوم: ما آكل إلاّ منه. فقال له الرجل: كُل لا هنّاك الله به. فقال رجل حشاش دعه يأكل منه حتى آكل أنا الآخر معه. فقال له الرجل: يا أنحس الحشاشين، هذا ما هو مأكولكم وإنما هو مأكول الأمراء فاتركوه حتى يرجع إلى أصحابه فيأكلوه. فخالفه برسوم وأخذ منه لقمة وحطّها في فمه وأراد أن يأخذ الثانية، والملكة تنظر إليه فصاحت على بعض الجند وقالت لهم: هاتوا هذا الذي قدّامه الصحن الأرزّ الحلو ولا تدعوه يأكل اللقمة التي في يده بل ارموها من يده. فجاءه أربعة من العساكر وسحبوه على وجهه بعد أن رموا اللقمة من يده وأوقفوه قدّام زمرد. فامتنعت الناس عن الأكل وقال بعضهم لبعض: والله إنه ظالم، لأنه لم يأكل من طعام أمثاله. فقال واحد: أنا قنعت بهذا الكشك الذي قدّامي. فقال الحشاش: الحمد لله الذي منعني أن آكل من الصحن الأرزّ الحلو شيئاً لأني كنت أنتظر أن يستقرّ قدّامه ويتهنّى عليه ثم آكل معه فحصل له ما رأينا. فقالت الناس لبعضهم: إصبروا حتى ننظر ما يجري عليه. فلمّا قدّموه بين يدي الملكة زمرد قالت له: ويلك من أزرق العينين ما اسمك وما سبب قدومك إلى بلادنا؟ فأنكر الملعون إسمه وكان متعمّماً بعمامة بيضاء فقال: يا ملك إسمي علي وصنعتي حبّاك وجئت إلى هذه المدينة من أجل التجارة. فقالت زمرد: ائتوني بتخت رمل وقلم من نحاس. فجاؤوا بما طلبته في الحال، فأخذت التخت الرمل والقلم وضربت تخت رمل وخطّت بالقلم صورة مثل صورة قرد، ثم بعد ذلك رفعت رأسها وتأمّلت في برسوم ساعة زمانية وقالت له: يا كلب، كيف تكذب على الملوك؟ أمَا أنت نصراني واسمك برسوم وقد أتيت إلى حاجة تفتّش عليها؟ فاصدقني الخبر وإلاّ وعزّة الربوبية أضرب عنقك. فتلجلج النصراني، فقال الأمراء والحاضرون: إن هذا الملك يعرف ضرب الرمل سبحان من أعطاه. ثم صاحت على النصراني وقالت له: أصدقني الخبر وإلاّ أهلكتك. فقال النصراني: العفو يا ملك الزمان إنك صادق في ضرب الرمل فإن الأبعد نصراني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 321

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن النصراني قال: العفو يا ملك الزمان إنك صادق في ضرب الرمل فإن الأبعد نصراني. فتعجّب الحاضرون من الأمراء وغيرهم من إصابة الملك في ضرب الرمل وقالوا: إن هذا الملك منجم ما في الدنيا مثله. ثم إن الملكة أمرت بأن يسلخ النصراني ويُحشى جلده تبناً ويعلّق على باب الميدان وأن يحفر حفرة في خارج البلد ويحرق فيها لحمه وعظمه وترمى عليه الأوساخ والأقذار. فقالوا: سمعاً وطاعةً. وفعلوا جميع ما أمرتهم به. فلمّا نظر الخلق ما حلّ بالنصراني قالوا: جزاؤه ما حل به، فما كان أشأمها لقمة عليه. فقال واحد منهم: على البعيد الطلاق، عمري ما بقيت آكل أرزاً حلواً. فقال الحشاش: الحمد لله الذي عافاني مما حلّ بهذا حيث حفظني من أكل ذلك الأرزّ. ثم خرج الناس جميعهم وقد حرموا الجلوس على الأرز الحلو في موضع ذلك النصراني. ولما كان الشهر الثالث، مدّوا السماط على جري العادة وملؤوه بالأصحن، وقعدت الملكة على الكرسي، ووقف العسكر على جري العادة وهم خائفون من سطوتها. ودخلت الناس من أهل المدينة على العادة

وداروا حول السماط ونظروا إلى موضع الصحن فقال واحد منهم للآخر : يا حج خلف . قال له : لبيّك يا حج خالد . قال : تجنّب الصحن الأرزّ الحلو واحذر أن تأكل منه ، فإن أكلت منه تصبح مشنوقاً . ثم إنهم جلسوا حول السماط للأكل ، فبينما هم يأكلون والملكة زمرد جالسة إذ حانت منها التفاتة إلى رجل داخل يهرول من باب الميدان ، فتأمّلته فوجدته جوان الكردي اللص الذي قتل الجندي . وسبب مجيئه أنه كان ترك أمه ومضى إلى رفقائه وقال لهم : إني كسبت البارحة كسباً طيّباً وقتلت جندياً وأخذت فرسه ، وحصل لي في تلك الليلة خرج ملآن ذهباً وصبيّة قيمتها أكثر من الذهب الذي في الخرج ، ووضعت جميع ذلك في الغار عند والدتي . ففرحوا بذلك وتوجّهوا إلى الغار في آخر النهار ، ودخل جوان الكردي قدّامهم وهم خلفه وأراد أن يأتي لهم بما قال لهم عليه فوجد المكان قفراً . فسأل أمه عن حقيقة الأمر ، فأخبرته بجميع ما جرى . فعض على كفيه ندماً وقال : والله لأدورنّ على هذه الفاجرة وآخذها من المكان الذي هي فيه ولو كانت في قشور الفستق وأشفي غليلي منها . وخرج يفتش عليها ، ولم يزل دائراً في البلاد حتى وصل إلى مدينة الملكة زمرد . فلمّا دخل المدينة لم يجد فيها أحداً ، فسأل بعض النساء الناظرات من الشبابيك فأعلمنه أن أول كل شهر يمد السلطان سماطاً وتروح الناس وتأكل منه ودلّوه على الميدان الذي يمد فيه السماط . فجاء وهو يهرول فلم يجد مكاناً خالياً يجلس فيه إلاّ عند الصحن المتقدّم ذكره ، فقعد وصار الصحن قدّامه فمدّ يده إليه ، فصاحت عليه الناس وقالوا له : يا أخانا ، ما تريد أن تعمل ؟ قال : أريد أن آكل من هذا الصحن حتى أشبع . فقال له واحد : إن أكلت منه تصبح مشنوقاً . فقال له : أسكت ولا تنطق بهذا الكلام . ثم مدّ يده إلى الصحن وجرّه قدّامه . وكان الحشاش المتقدم ذكره جالساً في جنبه ، فلمّا رآه جرّ الصحن قدّامه هرب من مكانه وطارت الحشيشة من رأسه وجلس بعيداً وقال : أنا ما لي حاجة بهذا الصحن . ثم إن جوان الكردي مدّ يده إلى الصحن وهي في صورة رجل الغراب ، وغرف بها وأطلعها منه وهي في صورة خفّ الجمل . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 322

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن جوان الكردي أطلع يده من الصحن وهي في صورة خفّ الجمل ودوّر اللقمة في كفّه حتى صارت مثل النارنجة الكبيرة ، ثم رماها في فمه بسرعة فانحدرت في حلقه ولها فرقعة مثل الرعد وبان قعر الصحن من موضعها . فقال له من بجانبه : الحمد لله الذي لم يجعلني طعاماً بين يديك لأنك خسفت الصحن بلقمة واحدة . فقال الحشاش : دعوه يأكل فإني تخيّلت فيه صورة المشنوق . ثم التفت إليه وقال له : كُل لا هنّاك الله . فمدّ يده إلى اللقمة الثانية وأراد أن يدوّرها في يده مثل اللقمة الأولى وإذا بالملكة صاحت على بعض الجند وقالت لهم : هاتوا ذلك الرجل بسرعة ولا تدعوه يأكل اللقمة التي في يده . فتجارت عليه العساكر وهو مكبّ على الصحن ، وقبضوا عليه وأخذوه وأوقفوه قدّام الملكة زمرد . فشمتت الناس به وقالوا لبعضهم : إنه يستأهل لأننا نصحناه فلم ينتصح ، وهذا المكان موعود بقتل من جلس فيه ، وذلك الأرزّ مشؤوم على كل من يأكل منه . ثم إن الملكة زمرد قالت له : ما اسمك وما صنعتك وما سبب مجيئك مدينتنا ؟ قال : يا مولانا السلطان إسمي عثمان وصنعتي خولي بستان وسبب مجيئي إلى هذه المدينة أنني دائر أفتش على شيء ضاع مني . فقالت

الملكة : عليّ بتخت الرمل . فأحضروه بين يديها ، فأخذت القلم وضربت تخت رمل ثم تأملت فيه ساعة ، وبعد ذلك رفعت رأسها وقالت له : ويلك يا خبيث ، كيف تكذب على الملوك ؟ هذا الرمل يخبرني أن اسمك جوان الكردي وصنعتك إنك لص تأخذ أموال الناس بالباطل وتقتل النفس التي حرّم الله قتلها إلاّ بالحق . ثم صاحت عليه وقالت له : يا خنزير ، أصدقني بخبرك وإلاّ قطعت رأسك . فلمّا سمع كلامها ، اصفرّ لونه وضحكت أسنانه وظن أنه إن نطق بالحق ينجو فقال : صدقت أيها الملك ، ولكنني أتوب على يديك من الآن وأرجع إلى الله تعالى . فقالت له الملكة : لا يحل لي أن أترك آفة في طريق المسلمين . ثم قالت لبعض أتباعها : خذوه واسلخوا جلده وافعلوا به مثل ما فعلتم بنظيره في الشهر الماضي . ففعلوا ما أمرتهم به . ولما رأى الحشاش العسكر حين قبضوا على ذلك الرجل ، أدار ظهره إلى الصحن الأرزّ وقال : إن استقبالك بوجهي حرام . ولما فرغوا من الأكل تفرّقوا وذهبوا إلى أماكنهم وطلعت الملكة إلى قصرها وأذنت للمماليك بالإنصراف . ولما هلّ الشهر الثالث ، نزلوا إلى الميدان على جري العادة وأحضروا الطعام وجلس الناس ينتظرون الإذن ، وإذا بالملكة قد أقبلت وجلست على الكرسي وهي تنظر إليهم ، فوجدت موضع الصحن الأرزّ خالياً وهو يسع أربعة أنفس فتعجّبت من ذلك . فبينما هي تجول بنظرها إذ حانت منها التفاتة فنظرت إنساناً داخلاً من باب الميدان يهرول ، وما زال يهرول حتى وقف على السماط فلم يجد مكاناً خالياً إلاّ عند الصحن فجلس فيه . فتأملته فوجدته الملعون النصراني الذي سمّى نفسه رشيد الدين فقالت في نفسها : ما أبرك هذا الطعام الذي وقع في حبائله هذا الكافر . وكان لمجيئه سبب عجيب ، وهو أنه لما رجع من سفره . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 323

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملعون الذي سمّى نفسه رشيد الدين لما رجع من سفره أخبره أهل بيته أن زمرد قد فقدت ومعها خرج مال . فلمّا سمع ذلك الخبر شقّ أثوابه ولطم على وجهه ونتف لحيته وأرسل أخاه برسوماً يفتش عليها في البلاد ، فلمّا أبطأ عليه خبره خرج هو بنفسه ليفتش على أخيه وعلى زمرد في البلاد . فرمته المقادير إلى مدينة زمرد ودخل تلك المدينة في أول يوم من الشهر ، فلمّا مشى في شوارعها وجدها خالية ورأى الدكاكين مقفولة ونظر النساء في الطيقان ، فسأل بعضهن عن الحال فقلن له : إن الملك يعمل سماط لجميع الناس في أول كل شهر وتأكل منه الخلق جميعاً ، وما يقدر أحد أن يجلس في بيته ولا في دكانه ودلّوه على الميدان . فلمّا دخل الميدان وجد الناس مزدحمين على الطعام ولم يجد موضعاً خالياً إلاّ الموضع الذي فيه الصحن الأرزّ المعهود . فجلس فيه ومدّ يده ليأكل منه ، فصاحت الملكة على بعض العسكر وقالت : هاتوا الذي قعد على الصحن الأرزّ . فعرفوه بالعادة وقبضوا عليه وأوقفوه قدّام الملكة زمرد . فقالت له : ويلك ، ما اسمك وما صنعتك وما سبب مجيئك إلى مدينتنا ؟ فقال : يا ملك الزمان إسمي رستم ولا صنعة لي لأني فقير درويش . فقالت لجماعتها : هاتوا لي تخت رمل والقلم النحاس . فأتوها بما طلبته على العادة ، فأخذت القلم وخطّت به تخت رمل ومكثت تتأمل فيه ساعة ، ثم رفعت رأسها إليه وقالت : يا كلب ، كيف تكذب على الملوك ؟ أنت اسمك رشيد الدين النصراني وصنعتك أنك تنصب الحيل لجواري

المسلمين وتأخذهنّ، وأنت مسلم في الظاهر نصراني في الباطن. فانطق بالحق، وإن لم تنطق بالحق فإني أضرب عنقك. فتلجلج في كلامه ثم قال: صدقت يا ملك الزمان. فأمرت به أن يمدّ ويضرب على كل رجل مائة سوط وعلى جسده ألف سوط، وبعد ذلك يسلخ ويحشى جلده ساساً ثم تحفر له حفرة في خارج المدينة ويحرق، وبعد ذلك يضعون عليه الأوساخ والأقذار. ففعلوا ما أمرتهم به. ثم أذنت للناس بالأكل فأكلوا. ولما فرغ الناس من الأكل وانصرفوا إلى حال سبيلهم طلعت الملكة زمرد إلى قصرها وقالت: الحمد لله الذي أراح قلبي من الذين آذوني. ثم إنها شكرت فاطر الأرض والسموات وأنشدت هذه الأبيات: [من البسيط]

تَحَكَّمُوا فاستَطالُوا في تَحَكُّمِهِم ... وبَعْدَ حِينٍ كأنَّ الحُكْمَ لَمْ يَكُنِ
لَوْ أَنْصَفُوا أُنْصِفُوا لَكِنْ بَغُوا فَأَتَى ... عَلَيْهِمُ الدَّهْرُ بالآفاتِ والمِحَنِ
فأَصْبَحُوا ولِسانُ الحالِ يُنْشِدُهُمْ ... هذا بذاكَ ولا عَتْبٌ عَلَى الزَّمَنِ

ولما فرغت من شعرها خطر ببالها سيّدها علي شار فبكت بالدموع الغزار، وبعد ذلك رجعت إلى عقلها وقالت في نفسها: لعلّ الله الذي مكّنني من أعدائي يمنّ عليّ برجوع أحبّائي. فاستغفرت الله عزّ وجلّ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 324

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة استغفرت الله عزّ وجلّ وقالت: لعلّ الله يجمع شملي بحبيبي علي شار قريباً، إنه على ما يشاء قدير وبعباده لطيف خبير. ثم حمدت الله ووالت الإستغفار وسلمت لمواقع الأقدار وأيقنت أنه لا بدّ لكل أول من آخر. وأنشدت قول الشاعر: [من المتقارب]

هَوِّنْ عَلَيْكَ فإنَّ الأُمُورَ ... بِكَفِّ الإلٰهِ مَقادِيرُها
فَلَيْسَ بِمُؤْذِيكَ مَنْ هابَها ... ولا قاصِرٌ عَنْكَ مأْمُورُها

وقول الآخر: [من الرمل]

دَرِّجِ الأَيامَ تَنْدَرِجِ ... وبُيُوتَ الهَمِّ لا تَلِجِ
رُبَّ أَمْرٍ عَزَّ مَطْلَبُهُ ... قَرَّبَتْهُ ساعَةُ الفَرَجِ

وقول الآخر: [من الخفيف]

كُنْ حَلِيماً إذا بُلِيتَ بِغَيْظٍ ... وصَبُوراً إذا أَتَتْكَ مُصِيبَهْ
فاللَّيالِي مِنَ الزَّمانِ حَبالَى ... مُثْقلاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبَهْ

وقول الآخر: [من البسيط]

إصْبِرْ فَفِي الصَّبْرِ خَيْرٌ لَو عَلِمْتَ بِهِ ... لَطِبْتَ نَفْساً ولَمْ تَجْزَعْ مِنَ الأَلَمِ
وأعْلَمْ بأَنَّكَ لَو لَمْ تَصْطَبِرْ كَرَماً ... صَبَرْتَ رَغْماً عَلَى ما خُطَّ بالقَلَمِ

فلما فرغت من شعرها، مكثت بعد ذلك شهراً كاملاً وهي بالنهار تحكم بين الناس وتأمر وتنهي، وبالليل تبكي وتنتحب على فراق سيّدها علي شار. ولما هلَّ الشهر الجديد أمرت بمد

السماط في الميدان على جري العادة، وجلست فوق الناس وصاروا ينتظرون الإذن في الأكل. وكان موضع الصحن الأرزّ خالياً، وجلست هي على رأس السماط وجعلت عينها قبال باب الميدان لتنظر كل من يدخل منه وصارت تقول في سرّها: يا من ردّ يوسف على يعقوب وكشف البلاء عن أيوب، امنن عليّ برد سيدي علي شار، بقدرتك وعظمتك إنك على كل شيء قدير يا رب العالمين يا هادي الضّالين يا سامع الأصوات يا مجيب الدعوات إستجب مني يا رب العالمين. فلم يتم دعاؤها إلاّ وشخص داخل من باب الميدان كأن قوامه غصن بان إلاّ أنه نحيل البدن يلوح عليه الإصفرار، وهو أحسن ما يكون من الشباب كامل العقل والآداب. فلمّا دخل لم يجد موضعاً خالياً إلاّ الموضع الذي عند الصحن الأرزّ فجلس فيه، ولما رأته زمرد خفق قلبها فحقّقت النظر فيه، فتبين لها أنه سيدها علي شار. فأرادت أن تصرخ من الفرح، فثبتت نفسها وخشيت من الفضيحة بين الناس. ولكن تقلقلت أحشاؤها واضطرب قلبها فكتمت ما بها. وكان السبب في مجيء علي شار أنه لما رقد على المصطبة ونزلت زمرد وأخذها جوان الكردي، استيقظ بعد ذلك فوجد نفسه مكشوف الرأس، فعرف أن إنساناً تعدّى عليه وأخذ عمامته وهو نائم. فقال الكلمة التي لا يخجل قائلها وهي: إنا لله وإنّا إليه راجعون. ثم إنه رجع إلى العجوز التي كانت أخبرته بمكان زمرد، وطرق عليها الباب فخرجت إليه، فبكى بين يديها حتى وقع مغشياً عليه. فلمّا أفاق أخبرها بجميع ما حصل له، فلامته وعنّفته على ما وقع منه وقالت له: إن مصيبتك وداهيتك من نفسك. ولا زالت تلومه حتى طفح الدم من منخريه ووقع مغشياً عليه. فلمّا أفاق من غشيته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 325

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن علياً شار لما أفاق من غشيته، رأى العجوز تبكي من أجله وتفيض دمع العين. فتضجر وأنشد هذين البيتين:

[من الخفيف]

ما أَمَرَّ الفِراقَ للأَحْبابِ وأَلَذَّ الوِصالَ لِلْعُشّاقِ
جَمَعَ اللهُ شَمْلَ كُلِّ مُحِبٍّ ورَعانِي لأَنَّنِي في السِّياقِ

فحزنت عليه وقالت له: أقعد هنا حتى أكشف لك الخبر وأعود بسرعة. فقال: سمعاً وطاعةً. ثم تركته وذهبت وغابت عنه إلى نصف النهار ثم عادت إليه وقالت: يا علي، ما أظن إلاّ أنك تموت بحسرتك، لأنك ما بقيت تنظر محبوبتك إلاّ على الصراط. وذلك، إن أهل القصر لما أصبحوا وجدوا الشباك الذي يطل على البستان مخلوعاً، ووجدوا زمرد مفقودة ومعها خرج مال للنصراني. ولما وصلت هناك وجدت الوالي واقفاً على باب القصر هو وجماعته، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم. فلمّا سمع علي شار منها هذا الكلام، تبدل الضياء في وجهه بالظلام ويئس من الحياة وأيقن بالوفاة. وما زال يبكي حتى وقع مغشياً عليه، فلمّا أفاق أضرّ به العشق والفراق ومرض مرضاً شديداً ولزم داره. فما زالت العجوز تأتيه بالأطباء وتسقيه الأشربة وتعمل له المساليق مدّة سنة كاملة حتى ردّت له روحه. فتذكّر ما فات وأنشد هذه الأبيات: [من البسيط]

الهَمُّ مُجْتَمِعٌ والشَّمْلُ مُفْتَرِقٌ والدَّمْعُ مُسْتَبِقٌ والقَلْبُ مُحْتَرِقُ
زادَ الغَرامُ على مَنْ لا قَرارَ لَهُ وقَدْ ضَناهُ الهَوَى والشَّوْقُ والقَلَقُ
يا رَبُّ إن كان شَيْءٌ فِيهِ لِي فَرَجٌ فامْنُن عَلَيَّ بِهِ ما دامَ لِي رَمَقُ

ولما دخلت عليه السنة الثانية قالت له العجوز : يا ولدي ، هذا الذي أنت فيه من الكآبة والحزن لا يرد عليك محبوبتك ، فقم وشدّ حيلك وفتش عليها في البلاد لعلك أن تقع على خبرها . ولم تزل تجلده وتقوّيه حتى نشطته وأدخلته الحمام وأسقته الشراب وأطعمته الدجاج ، وصارت كل يوم تفعل معه كذلك مدة شهر حتى تقوّى وسافر . ولم يزل مسافراً إلى أن وصل إلى مدينة زمرد ودخل الميدان وجلس على الطعام ومدّ يده ليأكل ، فحزنت عليه الناس وقالوا له : يا شاب ، لا تأكل من هذا الصحن لأن من أكل منه يحصل له ضرر . فقال : دعوني آكل منه ويفعلون بي ما يريدون لعليّ أستريح من هذه الحياة المتعبة . ثم أكل أول لقمة وأرادت زمرد أن تحضره بين يديها فخطر ببالها أنه جائع فقالت في نفسها : المناسب أني أدعه يأكل حتى يشبع . فصار يأكل والخلق باهتة له ينتظرون الذي يجري له . فلمّا أكل وشبع ، قالت لبعض الطواشية : إمضوا إلى ذلك الشاب الذي يأكل من الأرزّ وهاتوه برفق وقولوا له : كلّم الملك لسؤال لطيف وجواب . فقالوا : سمعاً وطاعةً . ثم ذهبوا إليه حتى وقفوا على رأسه وقالوا له : يا سيدي ، تفضّل كلّم الملك وأنت منشرح الصدر . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم مضى مع الطواشية . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 326

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن علي شار قال : سمعاً وطاعةً ثم ذهب مع الطواشية . فقال الخلق لبعضهم : لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ، يا ترى ما الذي يفعله الملك؟ فقال بعضهم : لا يفعل به إلاّ خيراً ، لأنه لو كان يريد ضرره ما كان تركه يأكل حتى يشبع . فلمّا وقف قدّام زمرد سلّم وقبّل الأرض بين يديها ، فردّت عليه السلام وقابلته بالإكرام وقالت له : ما اسمك وما صنعتك وما سبب مجيئك إلى هذه المدينة ؟ فقال لها : يا ملك اسمي علي شار وأنا من أولاد التجار وبلدي خراسان ، وسبب مجيئي إلى هذه المدينة التفتيش على جارية ضاعت مني وكانت عندي أعز من سمعي وبصري ، فروحي متعلّقة بها من حين فقدتها وهذه قصتي . ثم بكى حتى غشي عليه ، فأمرت أن يرشّوا على وجهه ماء الورد ، فرشّوا على وجهه ماء الورد حتى أفاق . فلمّا أفاق من غشيته قالت : عليّ بتخت الرمل والقلم النحاس . فجاؤوا به ، فأخذت القلم وضربت تخت رمل وتأمّلت فيه ساعة من الزمان . ثم بعد ذلك قالت له : صدقت في كلامك ، الله يجمعك عليها قريباً فلا تقلق . ثم أمرت الحاجب أن يمضي به إلى الحمّام ويلبسه بدلة حسنة من ثياب الملوك ويركبه فرساً من خواص خيل الملك ويمضي به بعد ذلك إلى القصر في آخر النهار . فقال الحاجب : سمعاً وطاعةً . ثم أخذه من قدّامها وتوجّه به ، فقال الناس لبعضهم : ما بال السلطان لاطف الغلام هذه الملاطفة ؟ وقال بعضهم : أمَا قلت لكم إنه لا يسيئه فإن شكله حسن ، ومن حين صبر عليه لما شبع عرفت ذلك . وصار كل واحد منهم يقول مقالة ، ثم تفرّق الناس إلى حال سبيلهم . وما صدقت زمرد أن الليل يقبل حتى

تختلي بمحبوب قلبها. فلمّا أتى الليل دخلت محل مبيتها وأظهرت أنه غلب عليها النوم ولم يكن لها عادة بأن ينام عندها أحد غير خادمين صغيرين برسم الخدمة. فلمّا استقرّت في ذلك المحل أرسلت إلى محبوبها علي شار، وقد جلست على السرير والشمع يضيء فوق رأسها وتحت رجليها والتعاليق الذهب مشرقة في ذلك المحل. فلمّا سمع الناس بإرسالها إليه تعجّبوا من ذلك وصار كل واحد منهم يظن ظنّاً ويقول مقالة وقال بعضهم: إن الملك على كل حال تعلّق بهذا الغلام وفي غد يجعله قائد عسكر. فلمّا دخلوا به عليها قبّل الأرض بين يديها ودعا لها. فقالت في نفسها: لا بدّ أن أمزح معه ساعة ولا أعلمه بنفسي. ثم قالت: يا علي، هل ذهبت الحمام؟ قال: نعم يا مولاي. قالت: قم كُل من هذا الدجاج واللحم واشرب من هذا السكر والشراب فإنك تعبان، وبعد ذلك تعال هنا. فقال: سمعاً وطاعةً. ثم فعل ما أمرته به، ولما فرغ من الأكل والشرب قالت له: إطلع عندي على السرير وكبّسني. فشرع يكبّس رجليها وسيقانها فوجدها أنعم من الحرير. فقالت له: إطلع بالتكبيس إلى فوق. فقال: العفو يا مولاي، من عند الركبة ما أتعدّى. قالت: أتخالفني، فتكون ليلة مشؤومة عليك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 327

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زمرد قالت لسيدها علي شار: أتخالفني فتكون ليلة مشؤومة عليك، بل ينبغي لك أن تطاوعني وأنا أعملك معشوقي وأجعلك أميراً من أمرائي. فقال علي شار: يا ملك الزمان، ما الذي أطيعك فيه؟ قالت: حلّ لباسك ونم على وجهك. فقال: هذا شيء عمري ما فعلته، وإن قهرتني على ذلك فإني أخاصمك فيه عند الله يوم القيامة. فخذ كل شيء أعطيتني إيّاه ودعني أروح من مدينتك. ثم بكى وانتحب. فقالت له: حل لباسك ونم على وجهك وإلاّ ضربت عنقك. ففعل، فطلعت على ظهره فوجد شيئاً ناعماً أنعم من الحرير وألين من الزبد فقال في نفسه: إن هذا الملك خير من جميع النساء. ثم إنها صبرت ساعة وهي على ظهره وبعد ذلك انقلبت على الأرض. فقال علي شار: الحمد لله كأن ذكره لم ينتصب. فقالت: يا علي، إن من عادة ذكري أنه لا ينتصب إلاّ إذا عركوه بأيديهم، فقم واعركه بيدك حتى ينتصب وإلاّ قتلتك. ثم رقدت على ظهرها وأخذت يده ووضعتها على فرجها، فوجد فرجاً أنعم من الحرير، وهو أبيض مربرب كبير يحكي في السخونة حرارة الحمام أو قلب صبّ ضناه الغرام. فقال علي شار في نفسه: إن الملك له كسّ فهذا من العجب العجاب. وأدركته الشهوة فصار ذكره في غاية الإنتصاب، فلمّا رأت منه ذلك ضحكت وقهقهت وقالت: يا سيدي، قد حصل هذا كله وما تعرفني؟ فقال: ومن أنت أيها الملك؟ قالت: أنا جاريتك زمرد. فلمّا علم ذلك قبّلها وعانقها وانقضّ عليها مثل الأسد على الشاه وتحقّق أنها جاريته بلا اشتباه، فأغمد قضيبه في جرابها. ولم يزل بواباً لبابها وإماماً لمحرابها وهي معه في ركوع وسجود وقيام وقعود، إلاّ أنها صارت تتبع التسبيحات بغنج في ضمنه حركات حتى سمع الطواشية. فجاؤوا ونظروا من خلف الأستار فوجدوا الملك راقداً وفوقه علي شار، وهو يرصع ويرهز وهي تشخر وتغنج. فقالت الطواشية: إن هذا الغنج ما هو غنج رجل، لعل هذا الملك امرأة. ثم كتموا أمرهم ولم يظهروه على أحد. فلمّا أصبحت زمرد، أرسلت إلى كامل العسكر

وأرباب الدولة وأحضرتهم وقالت لهم : أنا أريد أن أسافر إلى بلد هذا الرجل ، فاختاروا لكم نائباً يحكم بينكم حتى أحضر عندكم . فأجابوا زمرد بالسمع والطاعة . ثم شرعت في تجهيز آلة السفر من زاد وأموال وأرزاق وتحف وجمال وبغال وسافرت من المدينة . ولم تزل مسافرة إلى أن وصلت إلى بلد علي شار ، ودخل منزله وأعطى وتصدّق ووهب ، ورزق منها الأولاد وعاشا في أحسن المسرّات إلى أن أتاهما هدم اللذّات ومفرّق الجماعات . فسبحان الباقي بلا زوال والحمد لله على كل حال .

32 - حكاية جبير بن عمير والست بدور

ومما يحكى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ليلة من الليالي وتعذّر عليه النوم ، ولم يزل يتقلّب من جنب إلى جنب لشدّة أرقه . فلما أعياه ذلك أحضر مسروراً وقال له : يا مسرور ، أنظر لي من يسلّيني على هذا الأرق . فقال له : يا مولاي ، هل لك أن تدخل البستان الذي في الدار وتتفرّج على ما فيه من أزهار وتنظر إلى الكواكب وحسن ترصيعها والقمر بينها مشرق على الماء ؟ قال له : يا مسرور ، إن نفسي لا تهفو إلى شيء من ذلك . قال : يا مولاي إن في قصرك ثلاثمائة سرية لكل سرية مقصورة ، فأمر كل واحدة منهن أن تختلي بنفسها في مقصورتها وتدور أنت تتفرّج عليهن وهنّ لا يدرين . قال : يا مسرور ، القصر قصري والجواري ملكي ، غير أن نفسي لا تهفو إلى شيء من ذلك . قال : يا مولاي ، آمر العلماء والحكماء والشعراء أن يحضروا بين يديك ويفيضون في المباحث وينشدون لك الأشعار ويقصّون عليك الحكايات والأخبار . قال : ما تهفو نفسي إلى شيء من ذلك . قال : يا مولاي ، أأمر الغلمان والندماء والظرفاء أن يحضروا بين يديك ويتحفوك بغريب النكات . قال : يا مسرور ، ما تهفو نفسي إلى شيء من ذلك . قال : يا مولاي ، فاضرب عنقي . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 328

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن مسروراً قال للخليفة : يا مولاي ، فاضرب عنقي لعلّه يزيل أرقك ويذهب القلق الذي عندك . فضحك الرشيد من قوله وقال له : يا مسرور أنظر من بالباب من الندماء . فخرج مسرور ثم عاد وقال : يا مولاي ، الذي على الباب علي بن منصور الخليعي الدمشقي . قال : عليّ به . فذهب وأتى به ، فلمّا دخل قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فردّ عليه السلام وقال : يا ابن منصور ،حدّثنا بشيء من أخبارك . فقال : يا أمير المؤمنين هل أحدّثك بشيء رأيته عياناً أو بشيء سمعت به ؟ فقال أمير المؤمنين : إن كنت عاينت شيئاً غريباً فحدّثنا به فإنه ليس الخبر كالعيان . قال : يا أمير المؤمنين إخل لي سمعك وقلبك . قال : يا ابن منصور ها أنا سامع لك بأذني ناظر لك بعيني مصغ لك بقلبي . قال : يا أمير المؤمنين ، اعلم أن لي كل سنة رسماً على محمد بن سليمان الهاشمي سلطان البصرة . فمضيت إليه على عادتي ، فلمّا وصلت إليه وجدته متهيّئاً للركوب إلى الصيد والقنص ، فسلّمت عليه وسلّم علي وقال لي : يا ابن منصور اركب معنا إلى الصيد . فقلت له : يا مولاي ، ما لي قدرة على الركوب . فأجلسني في دار الضيافة ووصّى عليّ الحجّاب والنواب . ففعل ، ثم توجّه إلى الصيد . فأكرموني غاية الإكرام وضيّفوني أحسن الضيافة . فقلت في نفسي : بالله العجب ، إن لي مدة

أقدم من بغداد إلى البصرة ولم أعرف في البصرة سوى من القصر إلى البستان ومن البستان إلى القصر، ومتى يكون لي فرصة أنتهزها في الفرجة على جهات البصرة مثل هذه النوبة، فأنا أقوم في هذه الساعة وأتمشى وحدي لأتفرج وينهضم عني الأكل. فلبست أفخر ثيابي وتمشيت في جانب البصرة. ومعلومك يا أمير المؤمنين، إن فيها سبعين درباً، طول كل درب سبعون فرسخاً بالعراقي، فتهت في أزقتها ولحقني العطش. فبينما أنا ماشٍ يا أمير المؤمنين، وإذا بباب كبير له حلقتان من النحاس الأصفر ومرخى عليه ستور من الديباج الأحمر وفي جانبيه مصطبتان وفوقه مكعب لدوالي العنب وقد ظللت على ذلك الباب، فوقفت أتفرج على هذا المكان. فبينما أنا واقف إذ سمعت صوت أنين ناشيء من قلب حزين يقلب النغمات وينشد هذه الأبيات: [من البسيط]

جِسْمِي غَدا مَنْزِلَ الأَسْقامِ والمِحَنِ　　مِنْ أَجْلِ ظَبْيٍ بَعِيدِ الدّارِ والوَطَنِ
فَيا نَسِيماً، زَرُوداً هَيَّجا شَجَنِي　　باللهِ ربّكُما عُوجا على سَكَنِي

وعاتِباهُ لَعَلَّ العَتْبَ يَعْطِفُهُ

فَذَوِّقا القَوْلَ إذْ يُصْغِي لِقَوْلِكُما　　واسْتَدْرِجا خَبَرَ العُشّاقِ بَيْنَكُما
وأَوْلِيانِي جَمِيلاً مِنْ صَنِيعِكُما　　وعَرِّضا بِي وقُولا في حَدِيثِكُما

ما بالُ عَبْدِكَ بالهِجْرانِ تَتْلِفُهُ

مِنْ غَيرِ ذَنْبٍ جَناهُ أَوْ مُخالَفَةِ　　أَو مَيْلِ قَلْبٍ لِغَيرٍ أَوْ مُحارَفَةِ
أَوْ نَقْضِ عَهْدٍ وَثِيقٍ أَوْ مُعاسَفَةِ　　فإنْ تَبَسَّمَ قُولا في مُلاطَفَةِ

ما ضَرَّ لَو بِوِصالٍ مِنْكَ تُسْعِفُهُ

فإنَّهُ بِكَ مَشْغُوفٌ كَما يَجِبُ　　وطَرْفُهُ ساهِرٌ يَبْكِي ويَنْتَحِبُ
فإنْ أَبانَ الرِّضَى فالقَصْدُ والأَدَبُ　　وإنْ بَدا لَكُما في وَجْهِهِ غَضَبُ

فَغالِطاهُ وقُولا لَيْسَ نَعْرِفُهُ

فقلت في نفسي: إن كان صاحب هذه النغمة مليحاً، فقد جمع بين الملاحة والفصاحة وحسن الصوت. ثم دنوت من الباب وجعلت أرفع الستر قليلاً قليلاً، وإذا أنا بجارية بيضاء كأنها البدر إذا بدر في ليلة أربعة عشر، بحاجبين مقرونين ناعسين ونهدين كرمانتين، ولها شفتان رقيقتان كأنهما أقحوانتان وفم كأنه خاتم سليمان ونضيد أسنان يلعب بفعل الناظم والناثر كما قال فيه الشاعر: [من المنسرح]

يا دُرَّ ثَغْرِ الحَبِيبِ مَنْ نَظَمَكْ　　وأَوْدَعَ الرَّاحَ والأَقاحَ فَمَكْ
ومَنْ أَعارَ الصَّباحَ مُبْتَسَمَكْ　　ومَنْ بِفِعْلِ العَقِيقِ قَدْ خَتَمَكْ
فأَصْبَحَ مَنْ رَآكَ مِنْ طَرَبٍ　　يَتِيهُ عُجْباً فَكَيْفَ مَنْ لَثَمَكْ

وقول الآخر: [من مجزوء المجتث]

يا دُرَّ ثَغْرِ حَبِيبِي　　كُنْ بالعَقِيقِ رَحِيما
ولا تُعالِ عَلَيْهِ　　أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيما

وبالجملة، فقد حازت أنواع الجمال وصارت فتنة للنساء والرجال، لا يشبع من رؤية حسنها الناظر وهي كما قال فيها الشاعر : [من الكامل]

إنْ أَقْبَلَتْ قَتَلَتْ وإنْ هِيَ أَدْبَرَتْ — جَعَلَتْ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ عُشّاقِها
شَمْسِيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ لَكِنَّها — لَيْسَ الجَفَا والصَّدُّ مِنْ أَخْلاقِها
جَنّاتُ عَدْنٍ فَتَّحَتْ بِقَمِيصِها — والبَدْرُ في فَلَكٍ على أَطْواقِها

فبينما أنا أنظر إليها من خلال الستارة، وإذا هي التفتت فرأتني واقفاً على الباب فقالت لجاريتها : أنظري مَنْ بالباب. فقامت الجارية وأتت إليّ وقالت : يا شيخ، أليس عندك حياء وهل شيب وعيب؟ فقلت لها : يا سيدتي، أمّا الشيب فقد عرفناه وأما العيب فما أظن أني أتيت بعيب. فقالت سيدتها : وأي عيب أكثر من تهجّمك على دار غير دارك ونظرك إلى حريم غير حريمك؟ فقلت لها : يا سيدتي، إن لي عذراً في ذلك. فقالت : وما عذرك؟ فقلت لها : إني أنا رجل غريب عطشان وقد قتلني العطش. فقالت : قبلنا عذرك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 329

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت : قبلنا عذرك. ثم نادت بعض جواريها وقالت : يا لطف، إسقيه شربة بالكوز الذهب. فجاءتني بكوز من الذهب الأحمر مرصّع بالدّر والجوهر ملآن ماء ممزوجاً بالمسك الأذفر وهو مغطّى بمنديل من الحرير الأخضر، فجعلت أشرب وأطيل في شربي وأنا سارق النظر إليها حتى طال وقوفي. ثم رددت الكوز على الجارية ووقفت. فقالت : يا شيخ إمض إلى حال سبيلك. فقلت لها : يا سيدتي، أنا مشغول الفكر. فقالت : في ماذا؟ فقلت : في تقلب الزمان وتصرف الحدثان. قالت : يحق لك لأن الزمان ذو عجائب، ولكن ما الذي رأيت من عجائبه حتى تفكّر فيه؟ فقلت لها : أفكر في صاحب هذه الدار لأنه كان صديقي في حال حياته. فقالت لي : ما اسمه؟ فقلت : محمد بن علي الجوهري وكان ذا مال جزيل، فهل خلّف أولاداً؟ قالت : نعم، خلّف بنتاً يقال لها بدور، وقد ورثت أمواله جميعها. فقلت لها : كأنك ابنته. قالت : نعم. وضحكت ثم قالت : يا شيخ، قد أطلت الخطاب فاذهب إلى حال سبيلك. فقلت لها : لا بدّ من الذهاب، ولكني أرى محاسنك متغيّرة فاخبريني بشأنك لعلّ الله يجعل لك على يدي فرجاً. فقالت لي : يا شيخ، إن كنت من أهل الأسرار كشفنا لك سرّنا، فاخبرني من أنت حتى أعرف هل أنت محل للسر أو لا؟ فقد قال الشاعر : [من البسيط]

لا يَكْتُمُ السِّرَّ إلاّ كُلُّ ذي ثِقَة — والسِّرُّ عِنْدَ خِيارِ النَّاسِ مَكْتُومُ
قَدْ صُنْتُ سِرِّيَ في بَيْتٍ لَهُ غُلُقٌ — قَدْ ضاعَ مِفْتاحُهُ والبابُ مَخْتُومُ

فقلت لها : يا سيدتي، كأن قصدك أن تعلمي من أنا. فأنا علي بن منصور الخليعي الدمشقي نديم أمير المؤمنين هارون الرشيد. فلمّا سمعت باسمي نزلت من على كرسيها وسلمت عليّ وقالت لي : مرحباً بك يا ابن منصور، الآن أخبرك بحالي وأستأمنك على سرّي، أنا عاشقة

مفارقة . فقلت لها : يا سيدتي ، أنت مليحة وما تعشقين إلاّ كل مليح فمن الذي تعشقينه ؟ قالت : أعشق جبير بن عمير الشيباني أمير بني شيبان . وقد وصفت لي شاباً لم يكن بالبصرة أحسن منه . فقلت لها : يا سيدتي هل جرى بينكما مواصلة أو مراسلة ؟ قالت : نعم . إلاّ أنه قد عشقنا عشقاً باللسان بل بالقلب والجنان لأنه لم يف بوعد ولم يحافظ على عهد . فقلت لها : يا سيدتي ، وما سبب الفراق بينكما ؟ قالت : سببه أني كنت يوماً جالسة وجاريتي هذه تسرّح شعري ، فلمّا فرغت من تسريحه جدّلت ذوائبي فأعجبها حسني وجمالي فطأطت عليّ وقبّلت خدّي . وكان في ذلك الوقت داخلاً عليّ فرأى ذلك . فلمّا رأى الجارية تقبّل خدّي ، ولّى من وقته غضبان ، عازماً على دوام البين وأنشد هذين البيتين : [من الكامل]

إذا كانَ لي في مَنْ أُحِبُّ مُشارِكٌ ... تَرَكْتُ الَّذي أَهْوَى وعِشْتُ وَحِيداً
فَلا خَيرَ في المَعْشُوقِ إن كانَ في الهوَى ... لِغَيرِ الَّذي يُرْضِي المُحِبَّ مُرِيدا

ومن حين ولّى معرضاً عني إلى الآن لم يأتنا من عنده كتاب ولا جواب يا ابن منصور . فقلت لها : فما تريدين ؟ قالت : أريد أن أرسل إليه معك كتاباً ، فإن اتيتني بجوابه فلك عندي خمسمائة دينار وإن لم تأتني بجوابه فلك حق مشيك مائة دينار . فقلت لها : إفعلي ما بدا لك . فقالت : سمعاً وطاعةً . ثم نادت بعض جواريها وقالت : إئتيني بدواة وقرطاس . فأتتها بدواة وقرطاس فكتبت هذه الأبيات : [من الطويل]

حَبِيبِي ما هذا التَّباعُدُ والقِلا ... فأَيْنَ التَّغاضِي بِيْنَنا والتَّعَطُّفُ
وما لَكَ بالهِجْرانِ عَنِّي مُعْرِضاً ... فَما وَجْهُكَ الوَجْهُ الَّذي كُنْتُ أَعْرِفُ
نَعَمْ نَقَلَ الواشُونَ عَنِّيَ باطِلاً ... فَمِلْتَ لِما قَالُوا فَزادُوا وأَسْرَفُوا
فإنْ تَكُ قَدْ صَدَّقْتَهُمْ في حَدِيثِهِمْ ... فَحاشاكَ مِنْ هذا ورأْيُكَ أَعْرِفُ
بِعَيْشِكَ قُلْ لي : ما الَّذي قَدْ سَمِعْتَهُ ... فإنَّكَ تَدْرِي ما يُقالُ وتُنْصِفُ
فإنْ كانَ قَوْلاً صَحَّ أَنِّيَ قُلْتَهُ ... فَلِلْقَوْلِ تَأْوِيلٌ ولِلقَوْلِ مَصْرِفُ
وهَبْ أَنَّهُ قَوْلٌ مِنَ اللهِ مُنْزَلٌ ... فَقَدْ بَدَّلَ التَّوْراةَ قَوْمٌ وحَرَّفُوا
وبالزُّورِ كَم قَدْ قِيلَ في النَّاسِ قَبْلَنا ... فَها عِنْدَ يَعْقُوبَ تُلَوَّمُ يُوسُفُ
وها أَنا والواشِي وأَنْتَ جَمِيعُنا ... يَكُونُ لنا يَوْمٌ عَظِيمٌ ومَوْقِفُ

ثم بعد ذلك ختمت الكتاب وناولتني إياه . فأخذته ومضيت إلى دار جبير بن عمير الشيباني فوجدته في الصيد ، فجلست أنتظره . فبينما أنا جالس وإذا به قد أقبل من الصيد ، فلمّا رأيته يا أمير المؤمنين على فرسه ذهل عقلي من حسنه وجماله . فالتفتّ فرآني جالساً بباب داره ، فلمّا رآني نزل عن جواده وأتى إليّ واعتنقني وسلّم عليّ ، فخيل لي أني اعتنقت الدنيا وما فيها . ثم دخل بي إلى داره وأجلسني على فراشه وأمر بتقديم المائدة ، فقدّموا مائدة من الخولنج الخراساني وقوائمها من الذهب عليها جميع الأطعمة وأنواع اللحم : من مقلي ومشوي وما أشبه ذلك . فلمّا جلست على المائدة أمعنت إليها الإلتفات فوجدت مكتوباً عليها هذه الأبيات . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 330

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، ان علياً بن منصور قال : لما جلست على مائدة جبير بن عمير الشيباني، فأمعنت إليها الالتفات فوجدت مكتوباً عليها هذه الأبيات :

[من البسيط]

عُجْ بالغَرانِيقِ في رَبْعِ السَّكاريجِ وأنْزِلِ بِحَيٍّ القَلايا والسَّكابِيجِ
وأنْدُبْ بَناتَ القَطا ما زِلْتُ أنْدُبُها مَعَ المُحَمَّرِ في وَسْطِ الفَراريجِ
يا لَهْفَ قَلْبِي على لَوْنَيْنِ من سَمَك لَدى رَغيفٍ طَرِيٍّ في المَعاريجِ
للهِ دَرُّ العَشا ما كانَ أَحْسَنَهُ والبَقْلُ يُغْمَسُ في خَلٍّ الدَّكاكيجِ
كذا الأَرُزُّ بأَلْبانِ الجَمُوسِ غَدَتْ فِيهِ الأَكُفُّ إلى حَدِّ الدَّماليجِ
يا نَفْسُ صَبْراً فإنَّ اللهَ ذُو كَرَمٍ إنْ ضِقْتِ ذَرْعاً أَتاكِ بالتَّفاريجِ

ثم إن جبير بن عمير قال : مدّ يدك إلى طعامنا واجبر خاطرنا بأكل زادنا . فقلت له : والله ما آكل من طعامك لقمة واحدة حتى تقضي حاجتي . قال : فما حاجتك ؟ فأخرجت إليه الكتاب، فلمّا قرأه وفهم ما فيه مزّقه ورماه في الأرض وقال لي : يا ابن منصور، مهما كان لك من الحوائج قضيناه إلاّ هذه الحاجة التي تتعلّق بصاحبة هذا الكتاب، فإن كتابها ليس له عندي جواب . فقمت من عنده غضبان، فتعلّق بأذيالي وقال لي : يا ابن منصور، أنا أخبرك بالذي قالته لك وإن لم أكن حاضراً معكما . فقلت له : ما الذي قالته لي ؟ قال : أمَا قالت لك صاحبة هذا الكتاب إن أتيتني بجوابه فلك عندي خمسمائة دينار وإن لم تأتني بجوابه فلك عندي حق مشيك ماية دينار ؟ قلت : نعم . قال : إجلس عندي اليوم وكُل واشرب وتلذّذ واطرب وخذ لك خمسمائة دينار . فجلست عنده وأكلت وشربت وتلذّذت وطربت وسامرته ثم قلت : يا سيدي، ما في دارك سماع ؟ قال لي : إن لنا مدة نشرب من غير سماع . ثم نادى بعض جواريه وقال : يا شجرة الدر . فأجابته جارية من مقصورتها ومعها عود من صنع الهنود ملفوف في كيس من الإبريسم، ثم جاءت وجلست ووضعته في حجرها وضربت عليه إحدى وعشرين طريقة ثم عادت إلى الطريقة الأولى وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات : [من الكامل]

مَنْ لَمْ يَذُقْ حُلْوَ الغَرامِ ومُرَّهُ لَم يَدْرِ وَصْلَ حَبِيبِه مِنْ هَجْرِهِ
وكذاكَ مَنْ قَد حادَ عَنْ سُنَنِ الهَوَى لَم يَدْرِ سَهْلَ طَرِيقِه مِنْ وَعْرِهِ
ما زِلْتُ مُعْتَرِضاً على أَهْلِ الهَوَى حَتَّى بُلِيتُ بِحُلْوِهِ وبِمُرِّهِ
وشَرِبْتُ كأْسَ مِرارِهِ مُتَجَرِّعاً وخَضَعْتُ فِيهِ لِعَبْدِهِ ولِحُرِّهِ
كَمْ لَيْلَةٍ باتَ الحَبِيبُ مُنادِمِي ورَشَفْتُ حُلْوَ رِضابِهِ مِنْ ثَغْرِهِ
ما كانَ أَقْصَرَ عُمْرَ لَيْلِ وِصالِنا مُذْ جاءَ وَقْتُ عَشائِه مَعْ فَجْرِهِ
نَذَرَ الزَّمانُ بأَنْ يُفَرِّقَ شَمْلَنا والآنَ قَدْ أَوْفَى الزَّمانُ بِنَذْرِهِ

حَكَمَ الزَّمانُ فَلا مَرَدَّ لِحُكْمِهِ مَنْ ذا يُعارِضُ سَيِّداً في أَمْرِهِ

فلما فرغت الجارية من شعرها، صرخ سيدها صرخة عظيمة ووقع مغشياً عليه. فقالت الجارية: لا آخذك الله أيها الشيخ، إن لنا مدة ونحن نشرب بلا سماع مخافة على سيدنا من مثل هذه الصرعة، ولكن إذهب إلى تلك المقصورة ونم فيها. فتوجّهت إلى المقصورة التي أشارت إليها ونمت فيها إلى الصباح، وإذا أنا بغلام أتاني ومعه كيس فيه خمسمائة دينار وقال: هذا الذي وعدك به سيدي ولكنك لا تعد إلى الجارية التي أرسلتك وكأنك لا سمعت بهذا الخبر ولا سمعنا. فقلت له: سمعاً وطاعةً. ثم أخذت الكيس ومضيت إلى حال سبيلي وقلت في نفسي: إن الجارية في انتظاري من أمس، والله لا بدّ أن أرجع إليها وأخبرها بما جرى بيني وبينه، لأنني إن لم أعد إليها ربما تشتمني وتشتم كل من طلع من بلادي. فمضيت إليها فوجدتها واقفة خلف الباب فلمّا رأتني قالت: يا ابن منصور، إنك ما قضيت لي حاجة. فقلت لها: من أعلمك بهذا؟ فقالت: يا ابن منصور، إن معي مكاشفة أخرى وهي إنك لما ناولته الورقة مزّقها ورماها لك وقال: يا ابن منصور، مهما كان لك من الحوائج قضيناها لك إلاّ حاجة صاحبة هذه الورقة فإنها ليس لها عندي جواب. فقمت أنت من عنده مغضباً فتعلّق بأذيالك وقال لك: يا ابن منصور، إجلس عندي اليوم فإنك ضيفي، فكُل واشرب والتذ واطرب وخذ لك خمسمائة دينار. فجلست عنده وأكلت وشربت وتلذّذت وطربت وسامرته وغنّت الجارية بالصوت الفلاني والشعر الفلاني فوقع مغشياً عليه. فقلت له يا أمير المؤمنين: هل أنت كنت معنا؟ فقالت لي: يا ابن منصور، أمَا سمعت قول الشاعر: [من الوافر]

قُلُوبُ العاشِقِينَ لها عُيُونُ تَرَى ما لا يَراهُ الناظِرُونَ

ولكن يا ابن منصور، ما تعاقب الليل والنهار على شيء إلاّ وغيرّاه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 331

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت: يا ابن منصور، ما تعاقب الليل والنهار على شيء إلاّ وغيرّاه. ثم رفعت طرفها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي ومولاي، كما بليتني بمحبة جبير بن عمير أن تبليه بمحبتي وأن تنقل المحبة من قلبي إلى قلبه. ثم إنها أعطتني مائة دينار حق طريقي فأخذتها ومضيت إلى سلطان البصرة فوجدته قد جاء من الصيد، فأخذت رسمي منه ورجعت إلى بغداد. فلمّا أقبلت السنة الثانية، توجّهت إلى مدينة البصرة لأطلب رسمي على عادتي، ودفع السلطان إليّ رسمي. ولما أردت الرجوع إلى بغداد تفكّرت في نفسي أمر الجارية بدور وقلت: والله لا بدّ أن أذهب إليها وأنظر ما جرى بينها وبين صاحبها. فجئت إلى دارها فرأيت على بابها كنساً ورشاً وخدماً وحشماً وغلماناً فقلت: لعلّ الجارية طفح الهمّ على قلبها فماتت ونزل في دارها أمير من الأمراء. فتركتها ورجعت إلى دار جبير بن عمير الشيباني فوجدت مصاطبها قد هدمت ولم أجد على بابه غلماناً مثل العادة. فقلت في نفسي: لعلّه مات. ثم وقفت على باب داره وجعلت أفيض العبرات وأندبه بهذه الأبيات: [من البسيط]

يا سادَةً رَحَلُوا والقَلْبُ يَتْبَعُهُم عُودُوا تَعُدْ لِيَ أَعْيادِي بِعَوْدِكُمُ

وَقَفْتُ في دارِكُمْ أَنْعِي مَساكِنَكُم والدَّمْعُ يَدْفُقُ والأجْفانُ تَلْتَطِمُ
أُسائِلُ الدَّارَ عَنْكُمْ وَهْيَ باكِيَةٌ أَيْنَ الَّذي كانَ مِنْهُ الجُودُ والنِّعَمُ
إقْصِدْ سَبِيلَكَ فالأَحْبابُ قَدْ رَحَلُوا مِنَ الرُّبُوعِ وتَحْتَ التُّرْبِ قَدْ رُدِمُوا
لا أَوْحَشَ اللهُ مِنْ رُؤْيا مَحاسِنَهُمْ طُولاً وعَرْضاً ولا غابَتْ لَهُم شِيَمُ

فبينما أنا أندب أهل هذه الدار بهذه الأبيات يا أمير المؤمنين وإذا بعبد أسود قد خرج علي من الدّار فقال : يا شيخ أسكت ثكلتك أمك ، ما لي أراك تندب هذه الدّار بهذه الأبيات ؟ فقلت له : إني كنت أعهدها لصديق من أصدقائي . فقال : وما اسمه ؟ قلت : جبير بن عمير الشيباني . قال : وأي شيء جرى له ؟ الحمد لله ها هو على حاله من الغنى والسعادة والملك ، ولكن ابتلاه الله بمحبة جارية يقال لها السيدة بدور وهو في محبتها مغمور . ومن شدة الوجد والتبريح فهو كالحجر الجلمود الطريح ، فإن جاع لا يقول لهم اطعموني وإن عطش لا يقول اسقوني . فقلت : إستأذن لي في الدخول عليه . فقال : يا سيدي ، أتدخل على من يفهم أو على من لا يفهم ؟ فقلت : لا بدّ أن أدخل إليه على كل حال . فدخل الدّار مستأذناً ثم عاد إليّ آذناً ، فدخلت عليه فوجدته كالحجر الطريح لا يفهم بإشارة ولا تصريح ، وكلّمته فلم يكلّمني . فقال لي بعض أتباعه : يا سيدي ، إن كنت تحفظ شيئاً من الشعر ، فأنشده إياه وارفع صوتك به فإنه ينتبه لذلك ويخاطبك . فأنشدت هذين البيتين : [من الكامل]

أَسَلَوْتَ حُبَّ بُدُورَ أَمْ تَتَجَلَّدُ وسَهِرْتُ لَيْلَكَ أَمْ جُفُونُكَ تَرْقُدُ
إنْ كانَ دَمْعُكَ سائِلاً مَهْمُولُهُ فاعْلَمْ بأَنَّكَ في الجِنانِ مُخَلَّدُ

فلما سمع هذا الشعر فتح عينيه وقال لي : مرحباً يا ابن منصور ، قد صار الهزل جداً . فقلت له : يا سيدي ، ألك بي حاجة ؟ قال : نعم . أريد أن أكتب لها ورقة وأرسلها معك إليها فإن أتيتني بجوابها فلك علي ألف دينار وإن لم تأتني بجوابها فلك عليّ حق مشيك مائتا دينار . فقلت له : إفعل ما بدا لك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 332

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ابن منصور قال : فقلت له : إفعل ما بدا لك . فنادى بعض جواريه وقال : إئتني بدواة وقرطاس . فأتته بما طلبه فكتب هذه الأبيات :

[من الطول]

سأَلْتُكُمُ باللهِ يا سادَتِي مَهْلا عَلَيَّ فإنَّ الحُبَّ لَمْ يُبْقِ لي عَقْلا
تَمَكَّنَ مِنِّي حُبُّكُمْ وهَواكُمُ فأَلْبَسَنِي سَقْماً وأَوْرَثَنِي ذُلاَّ
لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليَوْمِ أَسْتَصْغِرُ الهَوَى وأَحْسَبُهُ يا سادَتِي هَيِّناً سَهْلا
فلَمَّا أَرانِي الحُبُّ أَمْواجَ بَحْرِهِ رَجَعْتُ لِحُكْمِ اللهِ أَعْذِرُ مَنْ يَبْلى
فإنْ شِئْتُمُ الإسْعادَ سَعْدِي وِصالُكُمْ وإنْ شِئْتُمُ الهِجْرانَ فلْتَذْكُروا الفَضْلا

ثم ختم الكتاب وناولني إياه . فأخذته ومضيت إلى دار بدور وجعلت أرفع الستر قليلاً على العادة، وإذا أنا بعشر جوار نهد أبكار كأنهن الأقمار والسيدة بدور جالسة في وسطهن كأنها البدر في وسط النجوم أو الشمس إذا خلت عن الغيوم وليس بها ألم ولا وجع . فبينما أنا أنظر إليها وأتعجّب من هذا الحال إذ لاحت منها التفاتة إليّ فرأتني واقفاً بالباب فقالت لي : أهلاً وسهلا ومرحباً بك يا ابن منصور أدخل . فدخلت وسلّمت عليها وناولتها الورقة، فلمّا قرأتها وفهمت ما فيها ضحكت وقالت لي : يا ابن منصور، ما كذب الشاعر حيث قال : [من الكامل]

فَلأَصْبِرَنَّ على هَواكَ تَجَلُّداً حَتَّى يَجِيءَ إليَّ مِنْكَ رَسُولُ

يا ابن منصور، ها أنا أكتب لك جواباً حتى يعطيك الذي وعدك به . فقلت لها : جزاك الله خيراً . فنادت بعض جواريها وقالت : إئتيني بدواة وقرطاس . فلمّا أتتها بما طلبت كتبت إليه هذه الأبيات : [من الكامل]

ما لِي وَفَيْتُ بِعَهْدِكُمْ فَغَدَرْتُمُو وأَرَيْتُمُونِي مُنْصِفاً فَظَلَمْتُمُو
بادَيْتُمُونِي بِالقَطِيعَةِ والجَفا وغَدَرْتُمُو والغَدْرُ بادٍ مِنْكُمُو
ما زِلْتُ أَحْفَظُ في البَرِيَّةِ عَهْدَكُم وأَصُونُ عِرْضَكُمُو وأَحْلِفُ عَنْكُمُو
حَتَّى رَأَيْتُ بِناظِرِي ما ساءَنِي وسَمِعْتُ أَخْبارَ القَبايحِ عَنْكُمُو
أَيَهُونُ قَدْرِي حِينَ أَرْفَعُ قَدْرَكُمْ واللهِ لَوْ أَكْرَمْتُمُو كُرِّمْتُمُو
فَلأَصْرِفَنَّ القَلْبَ عَنْكُمْ سَلْوَةً ولأَنْفُضَنَّ يَدَيَّ يأْساً مِنْكُمُو

فقلت لها : والله يا سيدتي، إنه ما بينه وبين الموت إلاّ حتى يقرأ هذه الورقة . ثم مزّقتها وقلت لها : أكتبي إليه غير هذه الأبيات . فقالت : سمعاً وطاعةً . ثم إنها كتبت إليه هذه الأبيات : [من الكامل]

أَنا قَدْ سَلَوْتُ ولَذَّ في طَرْفِيَ الكَرَى وسَمِعْتُ مِنْ قَوْلِ العَواذِلِ ما جَرَى
وأَجابَنِي قَلْبِي إلى سلوانِكُمْ ورأَتْ جُفُونِي بَعْدَكُمْ أَنْ تَسْهَرا
كَذَبَ الَّذي قالَ: البِعادُ مَرارَةٌ ما ذُقْتُ طَعْمَ البُعْدِ إلاّ سُكَّرا
قَدْ صِرْتُ أَكْرَهُ مَنْ يَمُرُّ بِذِكْرِكُمْ مُتَعَرِّضاً وأَراهُ شَيْئاً مُنْكَرا
ها قَدْ سَلَوْتُكُمُو بِكُلِّ جَوارِحِي فَلْيَعْلَمِ الواشِي ويَدْرِي مَنْ دَرَى

فقلت لها : والله يا سيدتي إنه ما يقرأ هذه الأبيات إلاّ وتفارق روحه جسده . فقالت لي : يا ابن منصور، قد بلغ بي الوجد إلى هذا الحد حتى قلت ما قلت . فقلت لها : لو قلت أكثر من ذلك الحق لك، ولكن العفو من شيم الكرام . فلمّا سمعت كلامي ترغرغت عيناها بالدموع وكتبت إليه رقعة، والله يا أمير المؤمنين ما في ديوانك من يحسن أن يكتب مثلها . وكتبت فيها هذه الأبيات : [من الوافر]

إلى كَمْ ذا الدَّلالِ وذا التَّجَنِّي شَفَيْتَ وحَقِّكَ الحُسّادَ مِنِّي
لَعَلِّي قَد أَسأْتُ ولَسْتُ أَدْرِي فَقُلْ لِي: ما الَّذي بُلِّغْتَ عَنِّي

مُرادِي لَوْ وَضَعْتُكَ يا حَبِيبِي مَكانَ النَّوْمِ مِنْ عَيْنِي وجَفْنِي
وكَيْفَ شَرِبْتَ كأسَ الحُبِّ صِرْفاً فإنْ تَرَنِي سَكِرْتُ فَلا تَلُمْنِي

فلمّا فرغت من كتابة المكتوب . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 333

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن بدور لما فرغت من كتابة المكتوب وختمته ناولتني إياه . فقلت لها : يا سيدتي ، إن هذه الرقعة تدواي العليل وتشفي الغليل . ثم أخذت المكتوب وخرجت ، فنادتني بعدما خرجت من عندها وقالت لي : يا ابن منصور ، قل له : إنها في هذه الليلة ضيفتك . ففرحت أنا بذلك فرحاً شديداً ومضيت بالكتاب إلى جبير بن عمير . فلمّا دخلت عليه وجدت عينه شاخصة إلى الباب ينتظر الجواب ، فلمّا ناولته الورقة فتحها وقرأها وفهم معناها ، فصاح صيحة عظيمة ووقع مغشياً عليه . فلمّا أفاق قال : يا ابن منصور ، هل كتبت هذه الرقعة بيدها ولمستها بأناملها ؟ قلت : يا سيدي ، وهل الناس يكتبون بأرجلهم ؟ فوالله يا أمير المؤمنين ما استتم كلامي أنا وإياه إلا وقد سمعنا شن خلاخلها في الدهليز وهي داخلة ، فلمّا رآها قام على أقدامه كأنه لم يكن به ألم قطّ وعانقها عناق اللام للألف وزالت عنه علّة الذي لا ينصرف . ثم جلس ولم تجلس هي فقلت لها : يا سيدتي ، لأي شيء لم تجلسي ؟ قالت : يا ابن منصور ، ما أجلس إلاّ بالشرط الذي بيننا . فقلت لها : وما ذلك الشرط الذي بينكما ؟ قالت : إن العشاق لا يطّلع أحداً على أسرارهم . ثم وضعت فمها على أذنه وقالت له كلاماً سراً . فقال لها : سمعاً وطاعةً . ثم قام جبير ووشوش بعض عبيده ، فغاب العبد ساعة ثم أتى ومعه قاض وشاهدان . فقام جبير وأتى بكيس فيه مائة الف دينار وقال : أيها القاضي ، إعقد عقدي على هذه الصبيّة بهذا المبلغ . فقال لها القاضي : قولي رضيت بذلك . فقالت : رضيت بذلك . فعقدوا العقد ثم فتحت الكيس وملأت يدها منه وأعطت القاضي والشهود ثم ناولته بقية الكيس . فانصرف القاضي والشهود وقعدت أنا وإياها في بسط وانشرح إلى أن مضى من الليل أكثره فقلت في نفسي : إنهما عاشقان ومضت عليهما مدة من الزمان وهما متهاجران ، فأنا أقوم في هذه الساعة لأنام في مكان بعيد عنهما وأتركهما يختليان ببعضهما . ثم قمت فتعلقّت بأذيالي وقالت لي : ما الذي حدّثتك به نفسك ؟ فقلت : ما هو كذا وكذا . فقالت : إجلس ، وإذا أردنا انصرافك صرفناك . فجلست معهما إلى أن قرب الصبح فقالت : يا ابن منصور ، إمض إلى تلك المقصورة لأننا فرشناها لك وهي محل نومك . فقمت ونمت فيها إلى الصباح ، فلمّا أصبحت جاءني غلام بطشت وإبريق فتوضأت وصلّيت الصبح ثم جلست . فبينما أنا جالس وإذا بجبير ومحبوبته خرجا من حمام في الدّار وكل منهما يعصر ذوائبه ، فصبّحت عليهما وهنّأتهما بالسلامة وجمع الشمل ثم قلت له : الذي أوّله شرط آخره رضى . فقال لي : صدقت ، وقد وجب لك الإكرام . ثم نادى خازن داره وقال له : إئتني بثلاثة الآف دينار . فأتاه بكيس فيه ثلاثة الآف دينار فقال لي : تفضّل علينا بقبول هذا . فقلت له : لا أقبله حتى تحكي لي ما سبب انتقال المحبة منها إليك بعد ذلك الصد العظيم . قال : سمعاً وطاعةً . أعلم أن عندنا عيداً يقال له : عيد النواريز . يخرج الناس فيه وينزلون الزوارق ويتفرّجون في البحر . فخرجت أتفرّج أنا وأصحابي

فرأيت زورقاً فيه عشر جوار كأنهن الأقمار والسيدة بدور هذه في وسطهن وعودها معها، فضربت عليه إحدى عشرة طريقة ثم عادت إلى الطريقة الأولى وأنشدت هذين البيتين: [من البسيط]

النّارُ أَبْرَدُ مِنْ نيرانِ أَحْشائِي والصَّخْرُ أَلْيَنُ مِنْ قَلْبٍ لِمُولائي
إنّي لأَعْجَبُ مِنْ تأْليفِ خَلْقَتِهِ قَلْبٌ مِنَ الصَّخرِ في جِسْمٍ مِنَ الماءِ

فقلت لها: أعيدي البيتين والطريقة. فما رضيت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

فلما كانت الليلة 334

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جبيراً قال: فقلت لها: أعيدي البيتين والطريقة فما رضيت. فأمرت النوّاتية أن يرجموها، فرجموها بالنارنج حتى خشينا الغرق على الزورق الذي هي فيه ثم مضت إلى حال سبيلها. وهذا سبب انتقال المحبة من قلبها إلى قلبي. فهنّأتها بجمع الشمل وأخذت الكيس بما فيه وتوجّهت إلى بغداد. فانشرح صدر الخليفة وزال عنه ما كان يجده من الأرق وضيق الصدر.

33 - حكاية اليمني والست جوار

ومما يحكى أن أمير المؤمنين المأمون، جلس يوماً من الأيام في قصره وأحضر رؤساء دولته وأكابر مملكته جميعاً، وكذلك أحضر الشعراء والندماء بين يديه. وكان من جملة ندمائه نديم يسمّى محمد البصري. فالتفت إليه المأمون وقال له: يا محمد، أريد منك في هذه الساعة أن تحدثّني بشيء ما سمعته قطّ. فقال له: يا أمير المؤمنين، أتريد أن أحدّثك بحديث سمعته بإذني أو بأمر عاينته ببصري. فقال المأمون: حدثني يا محمد بالأغرب منهما. فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أنه كان في الأيام الماضية رجل من أرباب النعم وكان موطنه باليمن، ثم إنه ارتحل من اليمن إلى مدينة بغداد هذه فطاب له مسكنها فنقل أهله وماله وعياله إليها. وكان له ست جوار كأنهن الأقمار: الأولى بيضاء والثانية سمراء والثالثة سمينة والرابعة هزيلة والخامسة صفراء والسادسة سوداء. وكنّ حسان الوجوه كاملات الأدب عارفات بصناعة الغناء وآلات الطرب. فاتفق أنه أحضر هؤلاء الجواري بين يديه يوماً من الأيام وطلب الطعام والمدام، فأكلوا وشربوا وتلذّذوا وطربوا ثم ملأ الكأس وأخذه في يده وأشار للجارية البيضاء وقال لها: يا وجه الهلال، أسمعينا من لذيذ المقال. فأخذت العود وأصلحته ورجعت عليه الألحان حتى رقص المكان. ثم أطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات: [من الخفيف]

لِي حَبِيبٌ خَيالُهُ نُصْبَ عَيْنِي واْسْمُهُ في جَوارِحِي مَكْنُونُ
إنْ تَذَكَّرْتُهُ فكُلِّي قُلُوبٌ أَو تأَمَّلْتُهُ فكُلِّي عُيُونُ
قالَ لِي عاذِلِي: أَتَسْلُو هَواهُ قُلْتُ: ما لا يَكُونُ كَيْفَ يَكُونُ
قُلْتُ: يا عاذِلي اْمْضِ عَنّي ودَعْني لا تُهَوِّنْ عَلَيَّ ما لا يَهُونُ

فطرب مولاهنّ وشرب قدحه وسقى الجواري، ثم ملأ الكأس وأخذه في يده وأشار إلى الجارية السمراء وقال لها: يا نور المقباس وطيبة الأنفاس، أسمعينا صوتك الحسن الذي من سمعه افتتن. فأخذت العود ورجعت عليه الألحان حتى طرب المكان. وأخذت القلوب باللفتات وأنشدت هذه الأبيات: [من الكامل]

وحَياةِ وَجْهِكَ لا أُحِبُّ سِواكا حَتَّى أَمُوتَ ولَنْ أَخُونَ هَواكا
يا بَدْرَ تِمٍّ بالجَمالِ مُبَرْقَعاً كُلُّ المِلاحِ تَسِيرُ تحتَ لِواكا
أَنْتَ الَّذِي فُقْتَ المِلاحَ لَطافَةً واللهِ رَبِّ العالَمِينَ حَباكا

فطرب مولاهنّ وشرب كأسه وسقى الجواري، ثم ملأ القدح وأخذه في يده وأشار إلى الجارية السمينة وأمرها بالغناء وتقليب الأهواء. فأخذت العود وضربت عليه ضرباً يذهب الحسرات وأنشدت هذه الأبيات: [من البسيط]

إنْ صَحَّ مِنْكَ الرِّضَى يا مَنْ هُوَ الطَّلَبُ فلا أُبالِي بِكُلِّ النّاسِ إنْ غَضِبُوا
وإن تَبَدَّى مُحَيّاكَ الجَمِيلُ فَلَمْ أَعْبأْ بِكُلِّ مُلُوكِ الأَرْضِ إنْ حُجِبُوا
قَصْدِي رضاكَ مِنَ الدُّنْيا بأَجْمَعِها يا مَنْ إلَيْهِ جَمِيعُ الحُسْنِ يَنْتَسِبُ

فطرب مولاهنّ وأخذ الكأس وسقى الجواري، ثم ملأ الكأس وأخذه في يده وأشار إلى الجارية الهزيلة وقال: يا حور الجنان أسمعينا الألفاظ الحسان. فأخذت العود وأصلحته ورجعت عليه الألحان وأنشدت هذين البيتين: [من الطويل]

ألا في سَبِيلِ اللهِ ما حَلَّ بِي مِنْكا بِصَدِّكَ عَنِّي حَيْثُ لا صَبْرَ لِي عَنْكا
ألا حاكِمٌ في الحُبِّ يَحْكُمُ بَيْنَنا فيأْخُذَ لِي حَقِّي ويُنْصِفَنِي مِنْكا

فطرب مولاهنّ وشرب القدح وسقى الجواري، ثم ملأ القدح وأخذه بيده وأشار إلى الجارية الصفراء وقال: يا شمس النهار أسمعينا من لطيف الأشعار. فأخذت العود وضربت عليه أحسن الضربات وأنشدت هذه الأبيات: [من الخفيف]

لِي حَبِيبٌ إذا نَظَرْتُ إلَيْهِ سَلَّ سَيْفاً عَلَيَّ مِنْ مُقْلَتَيْهِ
أَخَذَ اللهُ بَعْضَ حَقِّيَ مِنْهُ إذ جَفانِي ومُهْجَتِي في يَدَيْهِ
كُلَّما قُلْتُ يا فُؤَادِيَ دَعْهُ لا يَمِيلُ الفُؤَادُ إلاّ إلَيْهِ
هُوَ سُؤْلِي مِنَ الأَنامِ ولَكِنْ حَسَدَتْنِي عَيْنُ الزَّمانِ عَلَيْهِ

فطرب مولاهنّ وشرب وسقى الجواري، ثم ملأ الكأس وأخذه في يده وأشار إلى الجارية السوداء وقال: يا سوداء العين أسمعينا ولو كلمتين. فأخذت العود وأصلحته وشدّت أوتاره وضربت عليه عدة طرق ثم رجعت إلى الطريقة الأولى، وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات: [من الوافر]

أَلا يا عَيْنُ بالعَبَراتِ جُودِي فَوَجْدِي قَدْ عَدِمْتُ بِهِ وُجُودِي

أَكابِدُ كُلَّ وَجْدٍ مِنْ حَبِيبٍ ... أَلِفْتُ بِهِ ويَشْمَتُ بِي حَسُودِي
وتَمْنَعُنِي العَواذِلُ وَرْدَ خَدٍّ ... ولِي قَلْبٌ يَحِنُّ إلى الوُرُودِ
لَقَدْ دارَتْ هناكَ كُؤُوسُ راحٍ ... بأفْراحٍ لَدَى ضَرْبٍ وعُودِ
ووافانِي الحَبِيبُ فَهِمْتُ فِيهِ ... وأَشْرَقَ بالوَفَى نَجمُ السُّعُودِ
تَصَدَّى للصُّدُودِ بِغَيرِ ذَنْبٍ ... وهَلْ شَيْءٌ أَمَرُّ مِنَ الصُّدُودِ
وفِي وَجَناتِه وَرْدٌ جَنِيٌّ ... فَيا للهِ مِنْ وَرْدِ الخُدُودِ
فَلَو أَنَّ السُّجُودَ يُحَلُّ شَرْعاً ... لِغَيرِ اللهِ كانَ لَهُ سُجُودِي

ثم بعد ذلك قامت الجواري وقبّلن الأرض بين يدي مولاهنّ وقلن له : إنصف بيننا يا سيدي . فنظر مولاهنّ إلى حسنهنّ وجمالهنّ واختلاف ألوانهن ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال لهنّ : ما منكنّ إلاّ وقد قرأت القرآن وتعلمت الألحان وعرفت أخبار المتقدمين واطلعت على سير الأمم الماضين ، وقد اشتهيت أن تقوم كل واحدة منكنّ وتشير بيدها إلى ضرّتها . يعني تشير البيضاء إلى السمراء والسمينة إلى الهزيلة والصفراء إلى السوداء وتمدح كل واحدة منكنّ نفسها وتذم ضرّتها ، ثم تقوم ضرّتها وتفعل معها مثلها ، ولكن يكون ذلك بدليل من القرآن الشريف وشيء من الأخبار والأشعار لننظر أدبكنّ وحسن ألفاظكنّ . فقلن له : سمعاً وطاعةً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 335

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الرجل اليمني قالت له جواريه : سمعاً وطاعةً . ثم قامت أوّلاهنّ وهي البيضاء وأشارت إلى السوداء وقالت لها : ويحك يا سوداء ، قد ورد أن البياض قال : أنا النور اللامع أنا البدر الطالع لوني ظاهر وجبيني زاهر في حسن . قال الشاعر :

[من البسيط]

بَيْضاءُ مَصْقُولَةُ الخَدَّيْنِ ناعِمَةٌ ... كأنَّها لُؤْلُؤٌ في الحُسْنِ مَكْنُونُ
فَقَدُّها أَلِفٌ يَزْهُو ومَبْسِمُها ... مِيمٌ وحاجِبُها مِنْ فَوْقِهِ نُونُ
كأنَّ أَلحاظَها نَبْلٌ وحاجِبَها ... قَوْسٌ على أنَّه بالمَوْتِ مَقْرُونُ
الخَدُّ والقَدُّ والجِيدُ ووَجْنَتُها ... وَرْدٌ وآسٌ ورَيْحانٌ ونِسْرِينُ
والغُصْنُ يُعْهَدُ في البُسْتانِ مَغْرِسُهُ ... وغُصْنَ قَدِّكِ لَم تَشْهَدْ بَساتِينُ

فلوني مثل النهار الهني والزهر الجني والكوكب الدري . وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز لنبيه موسى عليه السلام : أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء . وقال الله تعالى : وأمّا الذين ابيضّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون . فلوني آية وجمالي غاية وحسني نهاية ، وعلى مثلي يحسن الملبوس وإليه تميل النفوس ، وفي البياض فضائل كثيرة منها : أن الثلج ينزل من السماء أبيض . وقد ورد أن أحسن الألوان البياض ، وتفتخر المسلمون بالعمائم البيض . ولو ذهبت أذكر فيه من المدح لطال الشرح ، ولكن ما قلّ وكفى خير مما كثر وما وفى . وسوف أبتدي بذمك يا سوداء يا لون المداد وهباب الحداد ووجه الغراب المفرق بين الأحباب . وقد قال الشاعر

يمدح البياض ويذم السواد : [من الطويل]

أَلَم تَرَ أَنَّ الدُرَّ يَغْلُو بِلَوْنِه | وأَنَّ سَوادَ الفَحْمِ حِمْلٌ بِدِرْهَمِ
وأَنَّ الوُجُوهَ البِيضَ تَدْخُلُ جَنَّةً | وأَنَّ الوُجُوهَ السُّودَ حَشْوُ جَهَنَّمِ

وقد ورد في بعض الأخبار المروية عن الأخبار أن نوحاً عليه السلام نام في بعض الأيام وولداه سام وحام جالسان عند رأسه، فجاءت ريح فرفعت أثوابه وأنكشفت عورته. فنظر إليه حام وضحك ولم يغطه فقام سام وغطّاه. فانتبه أبوهما من منامه وقد علم بما جرى من ولديه، فدعا لسام ودعا على حام. فابيض وجه سام وجاءت الأنبياء والخلفاء الراشدون والملوك من أولاده، واسودّ وجه حام وخرج هارباً إلى بلاد الحبشة وجاءت السودان من نسله وقد أجمعت الناس على قلة عقل السودان. وفي المثل يقول القائل: كيف يوجد أسود عاقل؟ فقال لها سيدها: إجلسي ففي هذا القدر كفاية فقد أسرفت. ثم أشار إلى السوداء فقامت وأشارت بيدها إلى البيضاء وقالت: أما علمت أنه ورد في القرآن المنزل على نبيه المرسل قول الله تعالى: والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى. ولولا أن الليل أجل لما أقسم الله به وقدّمه على النهار وقبلته ألوف البصائر والأبصار. أمَا علمت أن السواد زينة الشباب فإذا نزل المشيب ذهبت اللذّات ودنت أوقات الممات. ولو لم يكن أجل الأشياء ما جعله الله في حبة القلب والناظر وما أحسن قول الشاعر: [من البسيط]

لَمْ أَعْشَقِ السُّمْرَ إلاّ مِنْ حِيازَتِهِم | لَوْنَ الشَّبابِ وحَبَّ القَلْبِ والحَدَقِ
لا ما سَلَوْتُ بَياضَ البِيضِ عَنْ غَلَطٍ | إِنِّي مِنَ الشَّيْبِ والأَكْفانِ في فَرَقِ

وقول الآخر: [من مجزوء الرجز]

السُّمْرُ دُونَ البِيضِ هُمْ | أَوْلى بِعِشْقِي وأَحَقّ
السُّمْرُ في لَوْنِ اللَّمَى | والبِيضُ في لَوْنِ البَهَقْ

وقول الآخر: [من الكامل]

سَوْداءُ بَيْضاءُ الفِعالِ كأَنَّها | مِثْلُ العُيُونِ تُخَصُّ بالأَضْواءِ
أَنا إِنْ جُنِنْتُ بِحُبِّها لا تَعْجَبُوا | أَصْلُ الجُنُونِ يَكُونُ بالسَّوْداءِ
فكأَنَّ لَوْنِي في الدَّياجِي غَيْهَبٌ | لَوْلاهُ ما قَمَرٌ أَتَى بِضِياءِ

وأيضاً، فهل يحسن اجتماع الأحباب إلاّ في الليل؟ فيكفيك هذا الفضل والنبل. فما ستر الأحباب عن الواشين واللوّام مثل سواد الظلام، ولا خوفهم من الافتضاح مثل بياض الصباح. فكم للسواد من مآثر وما أحسن قول الشاعر: [من البسيط]

أَزُورُهُم وسَوادُ اللَّيلِ يَشْفَعُ لي | وأَنْثَنِي وبَياضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي

وقول الآخر: [من الطويل]

وكَمْ لَيْلَةٍ باتَ الحَبِيبُ مُؤانِسِي | وقَد سَتَرَتْنا مِنْ دُجاها ذَوائِبُ

فَلَمَّا بَدا نُورُ الصَّباحِ أَراعَني　　فَقُلْتُ لَه : إنَّ المَجُوسَ كَواذِبُ

وقول الآخر : [من البسيط]

وزارَنِي في قَميصِ اللَّيْلِ مُسْتَتِراً　　يَسْتَعْجِلُ الخَطْوَ مِنْ خَوْفٍ ومِنْ حَذَرِ
وقُمْتُ أَفْرِشُ خَدِّي في الطَّرِيقِ لَه　　ذُلّاً وأَسْحَبُ أَذْيالِي على أَثَرِي
ولاحَ ضَوْءُ هِلالٍ كادَ يَفْضَحُنا　　مِثْلُ القُلامَةِ قَدْ قُدَّتْ مِنْ الظُّفُرِ
وكانَ ما كانَ مِمّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ　　فَظُنَّ خَيْراً ولا تَسْأَلْ عَنِ الخَبَرِ

وقول الآخر : [من البسيط]

لا تَلْقَ إلاّ بِلَيْلٍ مَنْ تُواصِلُهُ　　فالشَّمْسُ نَمّامَةٌ واللَّيْلُ قَوّادُ

وقول الآخر : [من البسيط]

لا أَعْشَقُ الأَبْيَضَ المَنْفُوخَ مِنْ سِمَنٍ　　لكِنَّنِي أَعْشَقُ السُّمْرَ المَهازِيلا
إنِّي امْرُؤٌ أَرْكَبُ المُهْرَ المُضَمَّرَ في　　يَوْمِ الرِّهانِ وغَيْرِي يَرْكَبُ الفِيلا

وقول الآخر : [من مجزوء الرمل]

زارَنِي المَحْبُوبُ لَيْلاً　　فَتَعانَقْنا جَمِيعا
ثُمَّ بِتْنا وإذا قَدْ　　طَلَعَ الصُّبْحُ سَرِيعا
أَسأَلُ اللهَ إلٰهِي　　يَجْمَعُ الشَّمْلَ رُجُوعا
ويُدِيمُ اللَّيْلَ لي ما　　دامَ لِيَ الإلْفُ ضَجِيعا

ولو ذهبت أذكر ما في السوداء من المدح لطال الشرح ، ولكن ما قلّ وكفى خير مما كثر وما وفى . وأما أنت يا بيضاء، فلونك لون البرص ووصالك من الغصص . وقد ورد أن البرد والزمهرير في جهنم لعذاب أهل النكير . ومن فضيلة السواد أن منه المداد الذي يكتب به كلام الله . ولولا سواد المسك والعنبر ما كان الطيب يحمل للملوك ولا يذكر . وكم للسواد من مفاخر وما أحسن قول الشاعر : [من الكامل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المِسْكَ يَعْظُمُ قَدْرُهُ　　وأَنَّ بَياضَ الجِيرِ حِمْلٌ بِدِرْهَمِ
وإِنَّ بَياضَ العَيْنِ يَقْبَحُ بالفَتَى　　وأَنَّ سَوادَ العَيْنِ يَرْمِي بأَسْهُمِ

فقال لها سيدها : إجلسي ففي هذا القدر كفاية فجلست . ثم أشار إلى السمينة فقامت . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 336

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن اليماني سيد الجواري أشار إلى الجارية السمينة فقامت، وأشارت بيدها إلى الهزيلة وكشفت سيقانها ومعاصمها وكشفت عن بطنها، فبانت طيّاته وظهر تدوير سرتها، ثم لبست قميصاً رفيعاً فبان منه جميع بدنها وقالت : الحمد لله الذي خلقني فأحسن صورتي وسمّنني فأحسن سمنتي وشبّهني بالأغصان وزاد في

حسني وبهجتي، فله الحمد على ما أولاني وشرّفني إذ ذكرني في كتابه العزيز فقال تعالى: وجاء بعجل سمين وجعلني كالبستان المشتمل على خوخ ورمان. وإن أهل المدن يشتهون الطير السمين فيأكلون منه ولا يحبون طيراً هزيلاً. وبنو آدم يشتهون اللحم السمين ويأكلونه. وكم للسمن من مفاخر وما أحسن قول الشاعر: [من البسيط]

وَدِّعْ حَبِيبَكَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وهَلْ تُطِيقُ وَداعاً أَيُّها الرَّجُلُ
كأنَّ مَشْيَتَها في بَيْتِ جارَتِها مَشْيُ السَّمِينَةِ لا عَيْبٌ ولا مَلَلُ

وما رأيت أحداً يقف على الجزار إلاّ ويطلب منه اللحم السمين. وقالت الحكماء: اللذة في ثلاثة أشياء: أكل اللحم والركوب على اللحم وإدخال اللحم في اللحم. وأما أنت يا رفيعة، فسيقانك كسيقان العصفور ومحراك التنور وأنت خشبة المصلوب ولحم المعيوب. وليس فيك شيء يسر الخاطر كما قال فيك الشاعر: [من البسيط]

أَعُوذُ باللهِ مِنْ أَشْياءَ تُحْوِجُنِي إلى مُضاجَعَةٍ كالدُّلْكِ بالمَسَدِ
في كُلِّ عُضْوٍ لَها قَرْنٌ يُناطِحُنِي عِنْدَ المَنامِ فأُمْسِي وَاهِيَ الجَسَدِ

فقال لها سيدها: إجلسي ففي هذا القدر كفاية فجلست. ثم أشار إلى الهزيلة فقامت كأنها غصن بان أو قضيب خيزران أو عود ريحان وقالت: الحمد لله الذي خلقني فأحسنني وجعل وصلي غاية المطلوب وشبّهني بالغصن الذي تميل إليه القلوب. فإن قمت قمت خفيفة وإن جلست جلست ظريفة. فأنا خفيفة الروح عند المزاح طيبة النفس من الإرتياح. وما رأيت أحداً وصف حبيبه فقال: حبيبي قدر الفيل ولا مثل الجبل العريض الطويل، وإنما حبيبي له قدّ أهيف وقوام مهفهف. فاليسير من الطعام يكفيني والقليل من الماء يرويني. لعبي خفيف ومزاجي ظريف فأنا أنشط من العصفور وأخف حركة من الزرزور. ووصلي منية الراغب ونزهة الطالب. وأنا مليحة القوام حسنة الإبتسام كأني غصن بان أو قضيب خيزران أو عود ريحان. وليس لي في الجمال مماثل كما قال فيّ القائل: [من المتقارب]

شَبَّهْتُ قَدَّكِ بالقَضِيبِ وجَعَلْتُ شَكْلَكِ مِنْ نَصِيبِي
وغَدَوْتُ خَلْفَكِ هائِماً خَوْفاً عَلَيْكِ مِنَ الرَّقِيبِ

وفي مثلي تهيم العشاق ويتولّه المشتاق وإن جذبني انجذب إليه وإن استمالني ملت له لا عليه. وها أنت يا سمينة البدن، فإن أكلك أكل الفيل ولا يشبعك كثير ولا قليل. وعند الإجتماع لا يستريح معك خليل ولا يوجد لراحته معك سبيل فكبر بطنك يمنعه من جماعك وعن التمكّن من فرجك يدفعه غلظ أفخاذك أي شيء في غلظك من الملاحة؟ أو في فظاظتك من اللطف والسماحة؟ ولا يليق باللحم السمين غير الذبح وليس فيه شيء من موجبات المدح. إن مازحك أحد غضبت وإن لاعبك حزنت، فإن غنجت شخرت وإن مشيت لهثت، وإن اكلت ما شبعت. وأنت أثقل من الجبال وأقبح من الخبال والوبال ما لك حركة ولا فيك بركة وليس لك شغل إلاّ الأكل والنوم. وإن بلت شرشرت وإن تغوطت بطبطت كأنك زقّ منفوخ أو فيل ممسوخ. إن دخلت بيت الخلا تريدين من يغسل لك فرجك وينتف من فوقه شعرك وهذا غاية الكسل

وعنوان الخبل . وبالجملة ليس فيك شيء من المفاخر وقد قال فيك الشاعر : [من البسيط]

ثَقِيلَةٌ مِثْلُ زِقِّ البَوْلِ مُنْتَفِخٌ أَوْراكُها كَعَوامِيدَ مِنَ الجَبَلِ
إذا مَشَتْ في بِلادِ الغَرْبِ أَو خَطَرَتْ سَرَى إلى الشَّرْقِ ما تُبْدِي مِنَ الهبلِ

فقال لها سيدها : إجلسي ففي هذا القدر كفاية فجلست . ثم أشار إلى الصفراء فقامت على قدميها وحمدت الله تعالى وأثنت عليه وأتت بالصلاة والسلام على خيار خلقه لديه . ثم أشارت بيدها إلى السمراء وقالت : وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 337

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية الصفراء قامت على قدميها فحمدت الله تعالى وأثنت عليه ثم أشارت بيدها إلى السمراء وقالت لها : أنا المنعوتة في القرآن ووصف لوني الرحمن وفضّله على سائر الألوان بقوله تعالى في كتابه المبين : صفراء فاقع لونها . تسرّ الناظرين آية وجماعي غاية وحسني نهاية ، لأن لوني لون الدينار ولون النجوم والأقمار ولون التفاح ، وشكلي شكل الملاح ولون الزعفران يزهو على سائر الألوان . فشكلي غريب ولوني عجيب وأنا ناعمة البدن غالية الثمن وقد حويت كل معنى حسن ، ولوني في الوجود عزيز مثل الذهب الإبريز وكم من مآثر . وفي مثلي قال الشاعر : [من البسيط]

لَها اَصْفِرارٌ كَلَوْنِ الشَّمْسِ في البَهَجِ وكالدَّنانِيرِ في حُسْنٍ مِنَ النَّظَرِ
ما الزَّعْفَرانُ يُحاكِي بَعْضَ بَهْجَتِها كَلاَّ ومَنْظَرُها يَعْلُو عَلَى القَمَرِ

وسوف أبتدي بذمّك يا سمراء اللون ، فلونك لون الجاموس تشمئز عند رؤيتك النفوس . إن كان لونك في شيء فهو مذموم وإن كان في طعام فهو مسموم ، فلونك لون الذباب وفيه بشاعة الكلاب وهو محيّر بين الألوان ومن علامات الأحزان . وما سمعت قط بذهب أسمر ولا درّ ولا جوهر . إن دخلت الخلاء يتغيّر لونك وإن خرجت ازددت قبحاً على قبحك فلا أنت سوداء فتعرفي ولا أنت بيضاء فتوصفي . وليس لك شيء من المآثر كما قال فيك الشاعر : [من البسيط]

لَوْنُ الهَبابِ لها لَوْنٌ فَغُبْرَتُها كالتُّرْبِ تَرْهَسُهُ في أَقْدامِ قُصّادِي
لَما نَظَرْتُ إِلَيها قُمْتُ أَرْمُقُها وقَد تَزايَدَ بِي هَمِّي وأَنْكادِي

فقال لها سيدها : إجلسي ففي هذا القدر كفاية فجلست . ثم أشار إلى السمراء وكانت ذات حسن وجمال وقدّ واعتدال وبهاء وكمال ، لها جسم ناعم وشعر فاحم ، معتدلة القدّ موردة الخدّ ذات طرف كحيل وخدّ أسيل ووجه مليح ولسان فصيح وخصر نحيل وردف ثقيل . ثم قالت : الحمد لله الذي خلقني لا سمينة مذمومة ولا هزيلة مهضومة ولا بيضاء كالبرص ولا صفراء كالمغص ولا سوداء بلون الهباب ، بل جعل لوني معشوقاً لأولي الألباب وسائر الشعراء يمدحون السمر بكل لسان ويفضّلون ألوانهم على سائر الألوان . فأسمر اللون حميد الخصال ولله درّ من قال : [من الطويل]

وفي السُّمْرِ مَعْنًى لَوْ عَلِمْتَ بَيانَهُ لَما نَظَرَتْ عَيْناكِ بِيضاً ولا حُمْرا

لَباقَةُ أَلفاظٍ وغُنْجُ لَواحِظٍ يُعَلِّمْنَ هارُوتَ الكَهانَةَ والسِّحْرا

وقول الآخر : [من البسيط]

مَنْ لي بأَسْمَرَ تَرْوي عَنْ مَعاطِفِه السُّمْرِ الرِّشاقِ عَوالٍ سَمْهَرِيّاتُ
ساجِي الجُفُونِ حَرِيرِيُّ العِذارِ لَهُ في قَلْبِ عاشِقِهِ المُضْني مَقاماتُ

وقول الآخر : [من الكامل]

بالرُّوحِ أَسْمَرُ نُقْطَةٌ مِنْ لَوْنِهِ تَدَعُ البَياضَ يُفاخِرُ الأَقْمارا
ولَو اسْتَقَلَّ مِنَ البَياضِ بِمِثْلِها لَتَبَدَّلَتْ مِنْهُ المَلاحَةُ عارا
ما مِنْ سُلافَتِهِ سَكِرْتُ وإِنما تَرَكَتْ سَوالِفُهُ الأَنامَ سُكارَى
حَسَدَ المَحاسِنُ بَعْضَها حَتَّى اشْتَهَتْ كُلُّ المَحاسِنِ أَنْ تَكُونَ عِذارا

وقوله : [من الكامل]

لِمْ لا أَمِيلُ إِلى العِذارِ إِذا بَدا مِنْ أَسْمَرَ كالصَّعْدَةِ السَّمْراءِ
مَعَ أَنَّهُ قِصَصُ المَحاسِنِ كُلُّها في نَمْلِهِ الأَنْقالُ لِلشُّعَراءِ
ورَأَيْتُ كُلَّ العاشِقِينَ تَهَتَّكُوا في الخالِ تَحْتَ المُقْلَةِ السَّوْداءِ
أَتَلُومُنِي العُذّالُ في مَنْ كُلُّهُ خالٌ فَخَلُّونِي مِنَ السُّفَهاءِ

فشكلي مليح وقدّي رجيح ولوني ترغب فيه الملوك ويعشقه كل غني وصعلوك، وأنا لطيفة خفيفة مليحة ظريفة ناعمة البدن غالية الثمن. وقد كملت في الملاحة والأدب والفصاحة فظاهري مليح ولساني فصيح ومزاحي خفيف ولعبي ظريف. وأما أنت فمثل ملوخية باب اللوق صفراء وكلها عروق، فتعساً لك يا قدرة الرواس ويا صدأ النحاس وطلعة البوم وطعام الزقوم. فضجيعك مُضيِّق الأنفاس مقبور في الأرماس وليس لك في الحسن مآثر. وفي مثلك قال الشاعر : [من الطويل]

عَلَيْها اصْفِرارٌ زادَ مِنْ غَيرِ عِلَّةٍ يَضِيقُ لَهُ صَدْرِي وتُوجِعُني راسِي
إذا لَمْ تَتُبْ نَفْسِي فإني أَذِلُّها بِلَثْمِ مُحَيّاها فَتَقْلَعُ أَضْراسِي

فلما فرغت من شعرها قال لها سيدها : إجلسي ففي هذا القدر كفاية. ثم بعد ذلك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 338

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما فرغت من شعرها قال لها سيدها : إجلسي ففي هذا القدر كفاية. ثم بعد ذلك أصلح بينهن وألبسهن الخلع السنيّة ونقّطهن بنفيس الجواهر البرية والبحرية. فما رأيت يا أمير المؤمنين في مكان ولا زمان أحسن من هؤلاء الجواري الحسان. فلمّا سمع المأمون هذه الحكاية من محمد البصري أقبل عليه وقال له : يا محمد، هل تعرف لهؤلاء الجواري وسيّدهنّ محلاً؟ وهل يمكنك أن تشتريهن لنا من

سيّدهنّ؟ فقال له محمد : يا أمير المؤمنين، قد بلغني أن سيّدهنّ مغرم بهنّ ولا يمكنه مفارقتهن . فقال المأمون : خذ معك إلى سيّدهنّ في كل جارية عشرة آلآف دينار فيكون مبلغ ذلك الثمن ستين ألف دينار ، فاحملها صحبتك وتوجه إلى منزله واشترهنّ منه . فأخذ محمد البصري منه ذلك القدر وتوجّه به، فلمّا وصل إلى سيد الجواري أخبره بأن أمير المؤمنين يريد اشتراءهنّ منه بذلك المبلغ . فسمح ببيعهنّ لأجل خاطر أمير المؤمنين وأرسلهنّ إليه . فلمّا وصلت الجواري إلى أمير المؤمنين هيّأ لهنّ مجلساً لطيفاً وصار يجلس فيه معهنّ وينادمنه، وقد تعجّب من حسنهنّ وجمالهنّ واختلاف ألوانهنّ وحسن كلامهنّ . وقد استمر على ذلك مدة من الزمان، ثم إن سيّدهنّ الأول الذي باعهنّ، لما لم يكن له صبر على فراقهنّ . أرسل كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون يشكو إليه فيه ما عنده للجواري من الصبابات ومن ضمنه هذه الأبيات : [من الخفيف]

سَلَبَتْنِي سِتٌّ مِلاحٍ حِسانٍ فَعلى السِّتَّةِ المِلاحِ سَلامِي
هُنَّ سَمْعِي وناظِرِي وحَياتي وشَرابِي ونُزْهَتِي وطَعامِي
لَسْتُ أَسْلُو مِنْ حُسْنِهِنَّ وِصالاً ذاهِبٌ بَعْدَهُنَّ طِيبُ مَنامِي
آهِ يا طُولَ حَسْرَتِي وبُكائِي لَيْتَنِي ما خُلِقْتُ بَيْنَ الأَنامِ
وعُيُونٍ قَدْ زانَهُنَّ جُفُونٌ كَقِسِيٍّ رَمَيْنَنِي بِسِهامِ

فلما وقع ذلك الكتاب في يد الخليفة المأمون، كسا الجواري من الملابس الفاخرة وأعطاهنّ ستين ألف دينار وأرسلهنّ إلى سيّدهنّ . فوصلن إليه وفرح بهنّ غاية الفرح أكثر مما أتى إليه من المال . وأقام معهن في أطيب عيش وأهناه إلى أن أتاهم هادم اللذّات ومفرّق الجماعات .

ومما يحكى أن الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد قلق ذات ليلة قلقاً شديداً وتفكّر فكراً عظيماً، فقام يتمشى في جوانب قصره حتى انتهى إلى مقصورة عليها ستر . فرفع ذلك الستر فرأى في صدرها تختاً وعلى ذلك التخت شيء أسود كأنه إنسان نائم وعلى يمينه شمعة وعلى يساره شمعة . فبينما هو ينظر إلى ذلك ويتعجّب منه وإذا بباطية مملوءة خمراً عتيقاً والكأس عليها، فلمّا رأى ذلك أمير المؤمنين تعجّب في نفسه وقال : أتكون هذه الصحبة لمثل هذا الأسود؟ ثم دنا من التخت فرأى الذي فوقه صبيّة نائمة وقد تجلّلت بشعرها، فكشف عن وجهها فرآها كأنها البدر ليلة تمامه . فملأ الخليفة الكأس من الخمر وشربه على ورد خدّها ومالت نفسه إليها فقبّل أثراً كان بوجهها، فانتبهت من منامها وهي قائلة : يا أمين الله ما هذا الخبر؟ فقال : ضيف طارق في حيّكم كي تضيفونه إلى وقت السحر . قالت : نعم بالسمع مني والبصر . ثم قدّمت الشراب فشربا معاً، ثم أخذت العود وأصلحت أوتاره وضربت عليه إحدى وعشرين طريقة ثم عادت إلى الطريقة الأولى وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات : [من الطويل]

لِسانُ الهَوَى في مُهْجَتِي لَكَ ناطِقُ يُخَبِّرُ عَنِّي أَنَّنِي لَكَ عاشِقُ
ولِي شاهِدٌ عَنْ فَرْطِ سَقْمِي مُعْرِبٌ وقَلْبٌ جَرِيحٌ مِنْ فِراقِكَ خافِقُ
ولَمْ أَكْتُمْ الحُبَّ الَّذي قَدْ أَذابَنِي ووَجْدِي مَزِيدٌ والدُّمُوعُ سَوابِقُ
وما كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ حُبِّكَ ما الهَوَى ولَـكِنْ قَضاءُ اللهِ في الخَلْقِ سابِقُ

فلما فرغت من شعرها قالت : أنا مظلومة يا أمير المؤمنين . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 339

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية قالت : أنا مظلومة يا أمير المؤمنين . قال : ولم ذلك ؟ ومن ظلمك ؟ قالت : إن ولدك اشتراني من مدة بعشرة الآف درهم وأراد أن يهبني لك ، فأرسلت إليه ابنة عمك الثمن المذكور وأمرته أن يحجبني عنك في هذه المقصورة فقال لها : تمنّي عليّ . قالت : تمنيت عليك أن تكون ليلة غد عندي . فقال : إن شاء الله تعالى . ثم تركها ومضى . فلمّا أصبح الصباح توجّه إلى مجلسه وأرسل إلى أبي نواس فلم يجده ، فأرسل الحاجب يسأل عنه فرآه مرتهناً في بعض الخمارات على ألف درهم انفقها على بعض المرد . فسأله الحاجب عن حاله ، فقصّ عليه قصته وما وقع له مع أمرد مليح أنفق عليه الألف درهم . فقال له : أرني إياه فإن كان يستحق ذلك فانت معذور . فقال له : إصبر وأنت تراه في هذه الساعة . فبينما هما في الحديث وإذا بالأمرد قد أقبل ودخل عليهما وعليه ثوب أبيض ومن تحته ثوب أحمر ومن تحته ثوب أسود . فلمّا شاهده أبو نواس صعد الزفرات وأنشد هذه الأبيات : [من الوافر]

تَبَدَّيْ في قَميصٍ مِنْ بَياضٍ ... بأَحْداقٍ وأَجْفانٍ مِراضِ
فَقُلْتُ لَه : عَبَرْتَ ولَمْ تُسَلِّمْ ... وإنِّي مِنْكَ بالتَّسْليمِ راضِ
تَبارَكَ مَنْ كَسا خَدَّيْكَ وَرْداً ... ويَخْلُقُ ما يَشاءُ بِلا اعْتِراضِ
فَقالَ دَعِ الجِدالَ فإنَّ رَبِّي ... بَديعُ الصُّنْعِ مِنْ غَيْرِ انْتِقاضِ
فَثَوبِي مِثْلُ وَجْهِي مِثْلُ حَظِّي ... بَياضٌ في بَياضٍ في بَياضِ

فلمّا سمع الأمرد هذا الكلام نزع الثوب الأبيض من فوق الثوب الأحمر . فلمّا رآه أبو نواس أكثر التعجبات وأنشد هذه الأبيات : [من الوافر]

تَبَدَّى في قَميصٍ مِنْ شَقِيقٍ ... عَدُوٌّ لي يُلَقَّبُ بالحَبيبِ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ : أَنْتَ بَدْرٌ ... وقَدْ أَقْبَلْتَ في زِيٍّ عَجيبِ
أَحُمْرَةُ وَجْنَتَيْكَ كَسَتْكَ هذا ... أَمْ أَنْتَ صَبَغْتَهُ بِدَمِ القُلُوبِ
فَقالَ : الشَّمْسُ أَهْدَتْ لِي قَميصاً ... قَريبَ العَهْدِ مِنْ شَفَقِ المَغيبِ
فَثَوْبي والمُدامُ ولَوْنُ خَدِّي ... شَقيقٌ في شَقيقٍ في شَقيقِ

فلمّا فرغ أبو نواس من شعره ، خلع الأمرد الثوب الأحمر وبقي في الثوب الأسود . فلمّا رآه أبو نواس أكثر إليه الإلتفات وأنشد هذه الأبيات : [من الوافر]

تَبَدَّى في قَميصٍ مِنْ سَوادِ ... تَجلّى في الظَّلامِ على العِبادِ
فَقُلْتُ لَه : عَبَرْتَ ولَمْ تُسَلِّمْ ... وأَشْمَتَّ الحَواسِدَ والأَعادِي
فَثَوبُكَ مِثْلُ شَعْرِكَ مِثْلُ حَظِّي ... سَوادٌ في سَوادٍ في سَوادِ

فلمّا رأى ذلك الحاجب علم بحال أبي نواس وغرامه . فرجع إلى الخليفة وأخبره بحاله ،

فاحضر الخليفة ألف درهم وأمر الحاجب أن يأخذها ويرجع بها إلى أبي نواس ويدفعها عنه ويخلّصه من الرهن. فرجع بها الحاجب إلى أبي نواس وخلّصه وتوجّه به إلى الخليفة. فلمّا وقف بين يديه قال له الخليفة: أنشدني شعراً يكون فيه يا أمين الله ما هذا الخبر؟ فقال: سمعاً وطاعةً يا أمير المؤمنين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 340

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا نواس قال: سمعاً وطاعةً يا أمير المؤمنين. ثم أنشد هذه الأبيات:

[من الرمل]

طالَ لَيْلي بالعَوادِي والسَّهَرْ | فانْضَنَى جِسْمِي وأَكْثَرْتُ الفِكَرْ
قُمْتُ أَمْشِي في مَحَلي تارَةً | ثُم طَوْراً في مَقاصِيرِ الحَجَرْ
فَرَأَتْ عَيْنايَ شَخْصاً أَسْوَد | وبُيَيْضَهْ قَد تَغَطَّتْ بالشَّعَرْ
يا لَها مِنْ بَدْرِ تِمٍّ زاهِرٍ | تَنْثَنِي كالغُصْنِ في وَقْتِ المَطَرْ
فَشَرِبْتُ الخَمْرَ مَفْتُوناً بِها | ثُمَّ أَقْبَلْتُ وقَبَّلْتُ الأَثَرْ
فاسْتَفاقَتْ وهِيَ في غَشْيَتِها | صَفَّقَتْ تَصْفِيقَ أَوْراقِ الشَّجَرْ
بَعْدُ جاءَتْ وهِيَ لي قائِلَةً: | يا أَمِينَ اللهِ ما هَذا الخَبَرْ؟
قُلْتُ: ضَيْفٌ طارِقٌ في حَيِّكُمْ | يَرْتَجِي المَأْوَى إلى وَقْتِ السَّحَرْ
فأَجابَتْ: بِسُرُورٍ سَيِّدي | أَكْرِمِ الضَّيْفَ بِسَمْعِي والبَصَرْ

فقال له الخليفة: قاتلك الله كأنك كنت حاضراً معنا. ثم أخذه الخليفة من يده وتوجّه به إلى الجارية. فلمّا رآها أبو نواس وكان عليها بدلة زرقاء وقناع أزرق. أكثر التعجّبات وأنشد هذه الأبيات: [من الكامل]

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ في القِناعِ الأَزْرَقِ | ناشَدْتُكِ باللهِ أَنْ تَتَرَفَّقي
إنَّ المُحِبَّ إذا جَفاهُ حَبِيبُهُ | هاجَتْ بِهِ زَفَراتُ كُلِّ تَشَوُّقِ
فَبِحَقِّ حُسْنِكِ مَعْ بَياضٍ زانَهُ | هَلاّ رَثِيتِ لِقَلْبِ صَبٍّ مُحْرَقِ
حِنِّي عَلَيْهِ وساعِدِيهِ على الهَوَى | لا تَقْبَلِي فِيهِ كَلامَ الأَحْمَقِ

فلما فرغ أبو نواس من شعره، قدمت الجارية الشراب للخليفة. ثم أخذت العود بيدها وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات: [من الطويل]

أَتُنْصِفُ غَيرِي في هَواكَ وتَظْلِمُ | وتُبْعِدُنِي والغَيْرُ فِيكَ مُنَعَّمُ
ولَو كانَ لِلْعُشّاقِ قاضٍ شَكَوْتُكُمْ | إلَيْهِ عَساهُ بالحَقِيقَةِ يَحْكُمُ
فإنْ تَمْنَعُونِي أَنْ أَمُرَّ بِبابِكُمْ | فإنِّي عَلَيْكُم مِنْ بَعِيدٍ أُسَلِّمُ

ثم إن أمير المؤمنين أمر بإكثار الشراب على أبي نواس حتى غاب عن رشده. ثم ناوله قدحاً

فشرب منه جرعة واستدامه في يده، فأمرها الخليفة أن تأخذ القدح من يده وتخفيه. فأخذت القدح من يده وأخفته بين أفخاذها، ثم إن الخليفة سحب سيفه في يده ووقف على رأس أبي نواس ووكزه بالسيف، فاستفاق فوجد السيف مسلولاً في يد الخليفة فطار السكر من رأسه. فقال له الخليفة: أنشدني شعراً واخبرني فيه عن قدحك وإلاّ ضربت عنقك. فأنشد هذه الأبيات: [من مجزوء الرمل]

قِصَّتِي أَعْظَمُ قِصَّهْ صارَتِ الظَّبْيَةُ لِصَّهْ
سَرَقَتْ كأسَ مُدامِي وٱمْتِصاصِي مِنْهُ مَصَّهْ
سَتَرَتْهُ في مَكانٍ بِفُؤَادِي مِنْهُ غَصَّهْ
لا أُسَمِّيهِ وَقاراً لِلْخَلِيفَةِ فِيهِ حِصَّهْ

قال له أمير المؤمنين: قاتلك الله، من أين علمت ذلك؟ ولكن قد قبلنا ما قلت. وأمر له بخلعة وألف دينار وانصرف مسروراً.

34 – حكاية الرجل والصحن من ذهب

ومما يحكى أن رجلاً كثرت عليه الديون وضاق عليه الحال فترك أهله وعياله وخرج هائماً على وجهه. ولم يزل سائراً إلى ان اقبل بعد مدة على مدينة عالية الأسوار عظيمة البنيان، فدخلها وهو في حالة الذل والانكسار وقد اشتد به الجوع وأتعبه السفر. فمرّ في بعض شوارعها فرأى جماعة من الأكابر متوجّهين، فذهب معهم إلى أن دخلوا في محل يشبه محل الملوك فدخل معهم. ولم يزالوا داخلين إلى أن انتهوا إلى رجل جالس في صدر المكان وهو في هيئة عظيمة وجلالة جسيمة وحوله الغلمان والخدم كأنه من أبناء الوزراء، فلمّا رآهم قام إليهم وأكرم مثواهم. فأخذ الرجل المذكور الوهم من ذلك الأمر واندهش مما رآه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 341

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الرجل المذكور أخذه الوهم من ذلك الأمر واندهش مما رآه من حسن البنيان والخدم والحشم، فتأخر إلى ورائه وهو في حيرة وكرب خائفاً على نفسه حتى جلس في محل وحده بعيداً عن الناس بحيث لا يراه أحد. فبينما هو جالس إذ أقبل رجل ومعه أربعة كلاب من كلاب الصيد وعليهم أنواع القزّ والديباج، وفي أعناقهم أطواق من الذهب بسلاسل الفضة. فربط كل واحد منهم محل منفرد له، ثم غاب وأتى لكل كلب بصحن من الذهب ملآن طعاماً من الأطعمة الفاخرة، ووضع لكل واحد صحنه على انفراده ثم مضى وتركهم. فصار هذا الرجل ينظر إلى الطعام من شدة جوعه ويريد أن يتقدم إلى كلب منهم ويأكل معه فيمنعه الخوف منهم، ثم إن كلباً منهم نظر إليه فألهمه الله تعالى معرفة حاله فتأخر عن الصحن وأشار إليه، فأقبل وأكل حتى اكتفى. وأراد أن يذهب فأشار إليه الكلب أن يأخذ الصحن بما فيه من الطعام لنفسه وألقاه له بيده. فأخذه وخرج من الدّار وسار ولم يتبعه أحد. ثم سافر إلى مدينة أخرى فباع الصحن وأخذ بثمنه بضائع وتوجّه إلى بلده،

فباع ما معه وقضى ما كان عليه من الديون وكثر رزقه وصار في نعمة زائدة وبركة عميمة . ولم يزل مقيماً في بلده مدة من الزمان، وبعد ذلك قال في نفسه : لا بدّ أنني أسافر إلى مدينة صاحب الصحن وآخذ له هدية مليحة لائقة وادفع له ثمن الصحن الذي أنعم عليّ به كلب من كلابه . ثم إنه أخذ هدية تليق به وأخذ معه ثمن الصحن وسافر . ولم يزل مسافراً أياماً وليالي حتى وصل إلى تلك المدينة فدخلها وأراد الاجتماع به، فمشى في شوارعها حتى أقبل على محلّه فلم يرَ إلاّ طللاً بالياً وغراباً ناعياً وديارا قد قفرت وأحوالاً قد تغيّرت وحالاً قد تنكّرت . فارتجف منه القلب والبال وانشد قول من قال : [من الكامل]

خَلَتِ الزَّوايا مِنْ خَباياها كَما ... خَلَتِ القُلوبُ مِنَ المَعارِفِ والتُّقَى
وتَنَكَّرَ الوادِي فَما غِزْلانُه ... تِلْكَ الظِّباءُ ولا التقَى ذاكَ النَّقا

وقول الآخر : [من الطويل]

سَرَى طَيْفُ سَعْدَى طارِقاً يَسْتَفِزُّني ... سُحَيْراً وصَحْبِي بالفَلاةِ رُقُودُ
فَلَمّا انْتَبَهْنا لِلْخَيّالِ الَّذي سَرَى ... أَرَى الجَوَّ قَفْراً والمَزارَ بَعِيدُ

ثم إن ذلك الرجل لما شاهد تلك الأطلال البالية ورأى ما صنعت بها أيدي الدهر علانية ولم يجد بعد العين إلاّ الأثر، أغناه الخبر عن الخبر والتفت فرأى رجلاً مسكيناً في حالة تقشعرّ منها الجلود ويحنّ إليها الحجر الجلمود . فقال : يا هذا، ما صنع الدهر والزمان بصاحب هذا المكان؟ وأين بدوره السافرة ونجومه الزاهرة؟ وما سبب الحادث الذي حدث على بنيانه حتى لم يبقَ فيه غير جدرانه؟ فقال له : هو هذا المسكين الذي تراه وهو يتأوّه مما عراه . ولكن أما تعلم أن في كلام الرسول عبرة لمن به اقتدى وموعظة لمن اهتدى حيث قال ﷺ : إن حقاً على الله تعالى أن لا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلاّ وضعه . فإن كان سؤالك عن مآل هذا الأمر من سبب، فليس مع انقلاب الدهر عجب . أنا صاحب هذا المكان ومنشئه ومالكه وبانيه وصاحب بدوره السافرة وأحواله الفاخرة وتحفه الزاهية وجواريه الباهية، لكن الزمان قد مال فأذهب الخدم والمال وصيّرني في هذه الحالة الراهنة ودهمني بحوادث كانت عنده كامنة . لكن لا بدّ لسؤالك هذا من سبب فاخبرني عنه واترك العجب . فأخبره الرجل بجميع القصة وهو في ألم وغصّة وقال له : قد جئتك بهدية فيها النفوس ترغب، وثمن صحنك الذي أخذته فإنه كان سبباً لغناي بعد الفقر ولعمار ربعي وهو قفر ولزوال ما كان عندي من الهمّ والحصر . فهزّ الرجل رأسه وبكى وأنّ واشتكى وقال : يا هذا، أظنك مجنوناً . فإن هذا الأمر لا يكون من عاقل، كيف يتكرّم عليك كلب من كلابنا بصحن من الذهب وأرجع أنا فيه؟ فرجوعي فيما تكرّم به كلبي من العجب ولو كنت في أشدّ الهمّ والوصب . والله لا يصل إليّ منك شيء يساوي قلامة، فامض من حيث جئت بالصحة والسلامة . فقبّل الرجل قدميه وانصرف راجعاً يثني عليه . ثم إنه عند فراقه ووداعه أنشد هذا البيت : [من الكامل]

ذَهَبَ النّاسُ والكِلابُ جَمِيعاً ... فَعَلَى النّاسِ والكِلابِ السَّلامُ

والله أعلم .

35 - حكاية اللصّ ووالي الإسكندرية

ومما يحكى أنه كان بثغر الإسكندرية والٍ يقال له : حسام الدين . فبينما هو جالس في دسته ذات ليلة إذ أقبل عليه رجل جندي وقال له : أعلم يا مولانا الوالي ، أني دخلت هذه المدينة في هذه الليلة ونزلت في خان كذا فنمت فيه إلى ثلث الليل ، فلمّا انتبهت وجدت خرجي مشروطاً وقد سرق منه كيس فيه ألف دينار . فلم يتمّ كلامه حتى وصل الوالي وأحضر المقدمين وأمرهم بإحضار جميع مَنْ في الخان وأمر بسجنهم إلى الصباح . فلمّا جاء الصبح أمر بإحضار آلة العقوبة وأحضر هؤلاء الناس بحضرة الجندي صاحب الدراهم وأراد عقابهم ، وإذا برجل قد أقبل وشقّ الناس حتى وقف بين يدي الوالي . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 342

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوالي أراد عقابهم ، وإذا برجل قد أقبل وشقّ الناس حتى وقف بين يدي الوالي والجندي فقال : أيها الأمير ، أطلق هؤلاء الناس كلهم فإنهم مظلومون ، وأنا الذي أخذت مال هذا الجندي وها هو الكيس الذي أخذته من خرجه . ثم أخرجه من كمّه ووضعه بين يدي الوالي والجندي . فقال الوالي للجندي : خذ مالك وتسلّمه فما بقي لك على الناس سبيل . وصار الناس وجميع الحاضرين يثنون على ذلك الرجل ويدعون له . ثم إن الرجل قال : أيها الأمير ، ما الشطارة أني جئت إليك بنفسي وأحضرت هذا الكيس وإنما الشطارة في أخذ الكيس ثانياً من هذا الجندي . فقال له الوالي : وكيف فعلت يا شاطر حين أخذته ؟ فقال : أيها الأمير ، إني كنت واقفاً في مصر في سوق الصيارف إذ رأيت هذا الجندي لما صرف هذا الذهب ووضعه في هذا الكيس . فتبعته من زقاق إلى زقاق فلم أجد لي إلى أخذ المال منه سبيلاً .ثم إنه سافر فتبعته من بلد إلى بلد وصرت أحتال عليه في أثناء الطريق فما قدرت على أخذه ، فلمّا دخل هذه المدينة تبعته حتى دخل في هذا الخان ، فنزلت إلى جانبه ورصدته حتى نام وسمعت خطيطه فمشيت إليه قليلاً قليلاً وقطعت الخرج بهذه السكين وأخذت الكيس هكذا ، ومدّ يده وأخذ الكيس من بين أيادي الوالي والجندي وتأخّر إلى خلف الوالي والجندي والناس ينظرون إليه ويعتقدون أنه يريهم كيف أخذ الكيس من الخرج ، وإذا به قد جرى ورمى نفسه في بركة . فصاح الوالي على حاشيته وقال : إلحقوه وانزلوا خلفه . فما نزعوا ثيابهم ونزلوا في الدرج حتى كان الشاطر مضى إلى حال سبيله ، وفتشوا عليه فلم يجدوه ، وذلك إن أزقّة الإسكندرية كلها تنفذ إلى بعضها . ورجع الناس ولم يحصّلوا الشاطر . فقال الوالي للجندي : لم يبقَ لك عند الناس حق لأنك عرفت غريمك وتسلّمت مالك وما حفظته . فقام الجندي وقد ضاع عليه ماله ، وخلصت الناس من يدي الجندي والوالي وكل ذلك من فضل الله تعالى .

36 - حكاية الملك الناصر والولاة الثلاثة

ومما يحكى أن الملك الناصر أحضر الولاة الثلاثة في بعض الأيام : والي القاهرة ووالي بولاق ووالي مصر القديمة وقال : أريد أن كل واحد منكم يخبرني بأعجب ما وقع له في مدة ولايته .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 343

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك الناصر قال للولاة الثلاثة : أريد أن كل واحد منكم يخبرني بأعجب ما وقع له في مدة ولايته . فأجابوه بالسمع والطاعة . ثم قال والي القاهرة : أعلم يا مولانا السلطان أن أعجب ما وقع في مدة ولايتي ، إنه كان بهذه المدينة عدلان يشهدان على الدماء والجراحات ، وكانا مولعين بحب النساء وشرب الشراب والفساد وما قدرت عليهما بحيلة لأنتقم منهما بها وعجزت عن ذلك . فأوصيت الخمارين والنقليين والفكهانيين والشمّاعين وأرباب البيوت المعدّة للفساد أن يخبروني بهذين الشاهدين متى كانا في مكان يشربان أو يفسدان ، سواء كانا مع بعضهما أو متفرقين ، وأن اشتريا أو اشترى أحدهما منهم شيئاً من الأشياء المعدة للشراب فلا يخفوه عني . فقالوا : سمعاً وطاعةً . فاتفق في بعض الأيام أنه حضر إليّ رجل ليلاً وقال : يا مولانا ، أعلم أن الشاهدين في المكان الفلاني في الدرب الفلاني في دار فلان وإنهما في منكر عظيم . فقمت وتخفّيت أنا وغلامي ومضيت إليهما منفرداً ليس من أحد معي غير غلامي ، ولم أزل ماشياً حتى وقفت على الباب وطرقته ، فأتت إلي جارية وفتحت لي الباب وقالت : من أنت ؟ فدخلت ولم أرد عليها جواباً ، فرأيت الشاهدين وصاحب الدّار جلوساً وعندهم نساء بغايا ومن الشراب شيء كثير . فلمّا رأوني قاموا إليّ وعظموني وأجلسوني في صدر المقام وقالوا لي : مرحباً بك من ضيف عزيز ونديم ظريف . واستقبلوني من غير خوف مني ولا فزع . وبعد ذلك قام صاحب الدّار من عندنا وغاب ساعة ثم عاد ومعه ثلاثمائة دينار وليس عنده من الخوف شيء وقالوا : أعلم يا مولانا الوالي أنك تقدر على أكثر من هتيكتنا وفي يديك تعزيرنا ، ولكن لا يعود عليك من ذلك إلاّ التعب . فالرأي أن تأخذ هذا القدر وتستر علينا فإن الله تعالى إسمه الستّار ويحب من عباده الستّيرين ولك الأجر والثواب . فقلت في نفسي : خذ هذا الذهب منهم واستر عليهم في هذه المرة وإذا قدرت عليهم مرة أخرى فانتقم منهم . فطمعت في المال وأخذته منهم وتركتهم وانصرفت ولم يشعر بي أحد . فما أشعر في ثاني يوم إلاّ ورسول القاضي جاء إليّ وقال : أيها الوالي تفضل كلّم القاضي فإنه يدعوك . فقمت معه ومضيت إلى القاضي ولا أعلم ما سبب ذلك . فلمّا دخلت عليه رأيت الشاهدين وصاحب الدّار الذي أعطاني الثلاثمائة دينار جالسين عنده ، فقام صاحب الدّار وادّعى عليّ بثلاثمائة دينار . فما وسعني الإنكار ، فخرج مسطوراً وشهد فيه هذان الشاهدان العدلان عليّ بثلثمائة دينار فثبت ذلك عند القاضي بشهادة الشاهدين ، . فأمرني بدفع ذلك المبلغ فما خرجت من عندهم حتى أخذوا مني الثلاثمائة دينار . فاغتظت ونويت لهم كل سوء وندمت على عدم تنكيلهم وانصرفت وأنا في غاية الخجل . وهذا أعجب ما وقع لي في مدة ولايتي .

فقام والي بولاق وقال : وأما أنا يا مولانا السلطان ، فأعجب ما وقع لي في مدة ولايتي أنه كمل علي من الدين ثلاثمائة ألف دينار فاضرّ بي ذلك وبعت ما ورآئي وما قدّامي وما كان بيدي ، فجمعت مائة ألف دينار من غير زيادة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 344

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن والي بولاق قال : بعت ما ورائي وما قدّامي فجمعت مائة ألف دينار من غير زيادة وبقيت في حيرة عظيمة . فبينما أنا جالس في داري ليلة من الليالي وأنا في هذا الحال وإذا بطارق يطرق الباب، فقلت لبعض الغلمان : أنظر مَنْ بالباب . فخرج ثم عاد إليّ وهو مصفّر الوجه متغيّر اللون مرتعد الفرائص فقلت له : ما دهاك ؟ فقال : إن بالباب رجلاً عرياناً وعليه ثياب من الجلد ومعه سيف وفي وسطه سكين ومعه جماعة على هيئته وهو يطلبك . فأخذت السيف في يدي وخرجت لأنظر مَن هؤلاء، وإذا بهم كما قال الغلام . فقلت لهم : ما شأنكم ؟ فقالوا : إننا لصوص وغنمنا في هذه الليلة غنيمة عظيمة وجعلناها برسمك لتستعين بها على هذه القضية التي أنت مهموم بسببها وتسدّ بها الدين الذي عليك . فقلت لهم : وأين الغنيمة ؟ فأحضروا لي صندوقاً كبيراً ممتلئاً أواني من ذهب وفضة . فلمّا رأيته فرحت وقلت في نفسي : أسدّ الدَين الذي عليّ من هذا ويفضل لي قدر الدين مرة أخرى . فأخذته ودخلت الدّار وقلت في نفسي : ليس من المروءة أن أدعهم يذهبون من غير شيء، فأخذت المائة ألف دينار التي كانت عندي ودفعتها إليهم وشكرت صنعهم . فأخذوا الدنانير ومضوا تحت الليل إلى حال سبيلهم ولم يعلم بهم أحد . فلمّا أصبح الصباح ، رأيت ما في الصندوق نحاساً مطلياً بالذهب والقزير يساوي كله خمسمائة درهم . فعظم عليّ ذلك وضاعت الدنانير التي كانت معي وازددت غماً على غمّي . وهذا أعجب ما جرى لي في زمن ولايتي .

فقام والي مصر القديمة وقال : يا مولانا السلطان، وأما أنا فأعجب ما جرى لي في مدة ولايتي إني شنقت عشرة لصوص وجعلت كل واحد على خشبة وحده وأوصيت الحراسين أنهم يحفظونهم ولا يتركون الناس يأخذون أحداً منهم . فلمّا كان من الغد جئت لأنظرهم فنظرت مشنوقين على خشبة واحدة . فقلت للحراسين : من فعل هذا؟ وأين الخشبة التي كان عليها المشنوق الثاني ؟ فأنكروا ذلك . فأردت أن أضربهم فقالوا : اعلم أيها الأمير أننا نمنا البارحة فلمّا انتبهنا وجدنا مشنوقاً واحداً سرق هو والخشبة التي كان عليها، فخفنا منك وإذا برجل فلاح مسافر قد أقبل علينا ومعه حمار فقبضنا عليه وقتلناه وشنقناه مكان الذي سرق على هذه الخشبة . فتعجّبت من ذلك وقلت لهم : وما كان مع الفلاح ؟ فقالوا : كان معه خرج على الحمار . قلت لهم : وما فيه ؟ قالوا : لا ندري . فقلت لهم : عليّ به . فأحضروه بين يدي فأمرت بفتحه وإذا فيه رجل مقتول مقطّع . فلمّا رأيته تعجّبت من ذلك وقلت في نفسي : سبحان الله، ما كان سبب شنق هذا الفلاح إلاّ ذنب هذا المقتول، وما ربّك بظلاّم للعبيد .

37 – حكاية اللصّ والصيرفي

ومما يحكى أن رجلاً من الصيارف كان معه كيس ملآن ذهباً وقد مرّ على اللصوص فقال واحد من الشطّار : أنا أقدر على أخذ هذا الكيس . فقالوا له : كيف تصنع ؟ فقال : أنظروا . ثم تبعه إلى منزله فدخل الصيرفي ورمى الكيس على الصفة وكان حاقناً، فدخل بيت الراحة لإزالة الضرورة وقال للجارية : هاتي إبريق ماء . فأخذت الجارية الإبريق وتبعته إلى بيت الراحة وتركت الباب مفتوحاً . فدخل اللص وأخذ الكيس وذهب إلى أصحابه وأعلمهم بما جرى . وأدرك

شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 345

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن اللص أخذ الكيس وذهب إلى □ أصحابه وأعلمهم بما جرى له مع الصيرفي والجارية . فقالوا له : والله إن الذي عملته شطارة ، وما كل إنسان يقدر عليه . ولكن في هذا الوقت يخرج الصيرفي من بيت الراحة فلم يجد الكيس فيضرب الجارية ويعذّبها عذاباً أليماً فكأنك ما عملت شيئاً تشكر عليه ، فإن كنت شاطراً فخلّص الجارية من الضرب والعذاب . فقال لهم : إن شاء الله تعالى أخلّص الجارية والكيس . ثم إن اللصّ رجع إلى دار الصيرفي فوجده يعاقب الجارية لأجل الكيس . فدقّ عليه الباب ، فقال له : من هذا؟ قال له : أنا غلام جارك الذي في القيسرية . فخرج إليه وقال له : ما شأنك ؟ فقال له : إن سيدي يسلّم عليك ويقول لك : قد تغيّرت أحوالك كلها ، كيف ترمي بمثل هذا الكيس على باب الدكان وتروح وتخليه ؟ ولو لقيه أحد غريب كان أخذه وراح . ولولا أن سيدي رآه وحفظه لكان ضاع عليك . ثم أخرج الكيس وآراه إياه . فلمّا رآه الصيرفي قال : هذا كيسي بعينه . ومدّ يده ليأخذه منه فقال له : والله ما أعطيك إيّاه حتى تكتب ورقة لسيدي أنك تسلّمت الكيس مني ، فإني أخاف أن لا يصدّقني في أنك أخذت الكيس وتسلّمته حتى تكتب لي ورقة وتختمها بختمك . فدخل الصيرفي ليكتب له ورقة بوصول الكيس كما ذكر له ، فذهب اللص بالكيس إلى حال سبيله وخلصت الجارية من العذاب .

38 - حكاية والي قوص وقاطع الطريق

ومما يحكى أن علاء الدين والي قوص كان جالساً ذات ليلة من الليالي في بيته ، وإذا بشخص حسن الصورة والمنظر ، كامل الهيئة ، قد أتاه في الليل ومعه صندوق على رأس خادم ووقف على الباب وقال لبعض غلمان الأمير : أدخل واعلم الأمير أني أريد الاجتماع به من أجل سرّ . فدخل الغلام وأعلمه بذلك ، فأمره بإدخاله . فلمّا دخل رآه الأمير عظيم الهيئة حسن الصورة . فأجلسه إلى جانبه وأكرم مثواه وقال له : ما حاجتك ؟ فقال له : أنا رجل من قطاع الطريق وأريد التوجّه والرجوع إلى الله تعالى على يديك ، وأريد أن تساعدني على ذلك لأني صرت في طرفك وتحت نظرك . ومعي هذا الصندوق فيه شيء قيمته نحو أربعين ألف دينار فأنت أولى بها ، واعطني من خالص مالك ألف دينار حلالاً أجعلها رأس مال وأستعين بها على التوبة وأستغني بها عن الحرام وأجرك على الله تعالى . ثم إنه فتح الصندوق ليرى الوالي ما فيه وإذا به مصاغ وجواهر ومعادن وفصوص ولؤلؤ . فأدهشه ذلك وفرح به فرحاً شديداً وصاح على خازنداره وقال له : أحضر الكيس الفلاني . وكان فيه ألف دينار . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 346

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوالي صاح على خازنداره وقال له : أحضر الكيس الفلاني . وكان فيه ألف دينار . فلمّا أحضر الخازندار ذلك الكيس أعطاه لذلك الرجل ، فأخذه منه وشكره على فعله ومضى إلى حال سبيله تحت الليل . فلمّا أصبح الصباح أحضر الوالي قيّم الصاغة . فلمّا حضر ، أراه ذلك الصندوق وما فيه من المصاغ فوجد

جميع ذلك من القزير والنحاس، ورأى الجواهر والفصوص واللؤلؤ كلها من الزجاج. فعظم ذلك على الوالي وأرسل في طلبه فلم يقدر أحد على تحصيله.

39 - حكاية زواج إبراهيم بن المهدي

ومما يحكى أن أمير المؤمنين المأمون قال لإبراهيم بن المهدي: حدّثنا بأعجب ما رأيت. قال: سمعاً وطاعةً يا أمير المؤمنين. أعلم أني خرجت يوماً للنزهة فانتهى بي المشي إلى موضع، فشممت فيه رايحة الطعام فاشتاقت نفسي إليه ووقفت يا أمير المؤمنين متحيراً لا أقدر على المضي ولا على دخول ذلك الموضع. فرفعت بصري وإذا أنا بشباك ومن خلفه كفّ ومعصم ما رأيت أحسن منهما، وطار عقلي عند رؤيتهما ونسيت رائحة الطعام بذلك الكفّ والمعصم وأخذت في الحيلة على الوصول إلى ذلك الموضع، وإذا بخياط قريب من ذلك الموضع فتقدّمت إليه وسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام. فقلت: لمن هذه الدّار؟ فقال: لرجل من التجار. فقلت له: ما اسمه؟ قال: إسمه فلان بن فلان وهو لا ينادم إلاّ التجار. فبينما نحن في الكلام إذ أقبل رجلان نبيلان ذكيان فأعلمني أنهما أخصّ الناس بصحبته وأخبرني باسمهما. فحركت دابتي حتى لقيتهما وقلت لهما: جعلت فداكما قد استبطأكما أبو فلان. وسايرتهما حتى وصلنا إلى الباب فدخلت ودخل الرجلان، فلمّا رآني صاحب الدّار معهما لم يشك في أنني صاحبهما، فرحّب بي وأجلسني في أرفع المواضع ثم جاؤوا بالمائدة. فقلت في نفسي: قد مَنّ الله عليّ ببلوغ الغرض من هذه الأطعمة وبقي الكفّ والمعصم. ثم انتقلنا إلى المنادمة في موضع آخر فرأيته محفوفاً باللطائف، وجعل صاحب المنزل يتلطّف بي ويقبل عليّ بالحديث لظنه أني ضيف لأضيّافه، وهم كذلك يلاطفونني غاية الملاطفة لظنهم أنني صاحب رب المنزل. ولم يزل جميعهم في ملاطفتي حتى شربنا أقداحاً، ثم خرجت علينا جارية كأنها غصن بان وهي في غاية الظرف وحسن الهيئة. فأخذت العود وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات: [من الطويل]

أَلَيْسَ عَجِيباً أَنَّ بَيْتاً يَضُمُّنا ... وإيّاكَ لا تَدْنُو ولا تَتَكَلَّمُ
سِوَى أَعْيُنٍ تُبْدِي سَرائِرَ أَنْفُسٍ ... وتَقْطِيعَ أَكْبادٍ عَلى النّارِ تُضْرَمُ
إشارَةُ أَلحاظٍ وغَمْزُ حَواجِبٍ ... وتَكْسِيرُ أَجْفانٍ وكَفٌّ تُسَلِّمُ

فهيجت بلابلي يا أمير المؤمنين وأخذني الطرب من فرط جمالها ورقّة شعرها الذي غنّت به فحسدتها على حسن صنعتها وقلت: بقي عليك شيء يا جارية. فرمت العود من يدها غضباً وقالت: متى كنتم تحضرون السفهاء في مجالسكم؟ فندمت على ما كان مني ورأيت القوم قد أنكروا عليّ. فقلت: قد فاتني جميع ما أملت ولم أرَ حيلة لدفع اللوم عني إلاّ أنني طلبت عوداً وقلت: أنا أبين ما فاتها من الطريقة التي ضربت بها. فقال القوم: سمعاً وطاعةً. ثم أحضروا لي عوداً فأصلحت منه الأوتار وغنيّت بهذه الأشعار: [من البسيط]

هذا مُحِبُّك مَطْوِيّاً عَلى كَمَدِهْ ... صَبٌّ مَدامِعُهُ تَجْرِي عَلى جَسَدِهْ
لَهُ يَدٌ تَسْأَلُ الرَّحْمٰنَ راجِيَةً ... آمالَهُ ويَدٌ أُخْرَى عَلى كَبِدِهْ
يا مَنْ يَرى هالِكاً مِنْ عِشْقِهِ تَلِفاً ... كانَتْ مَنِيَّتُهُ مِنْ عَيْنِهِ ويَدِهْ

فوثبت الجارية وانكبّت على رجلي تقبّلها وقالت : المعذرة إليك يا سيدي ، والله ما علمت بمكانك ولا سمعت بمثل هذه الصناعة . ثم أخذ القوم في إكرامي وتبجيلي بعد ما طربوا غاية الطرب وسألني كل منهم الغناء . فغنيّت نوبة مطربة . فصار القوم سكارى وذهبت عقولهم ، فحملوا إلى منازلهم وبقي صاحب المنزل هو والجارية . فشرب معي أقداحاً ثم قال : يا سيدي ، ذهب عمري مجاناً حيث لم أعرف مثلك قبل ذلك الوقت . فبالله يا سيدي من أنت ؟ حتى أعرف نديمي الذي منَّ الله عليّ به في هذه الليلة . فأخذت أورى ولم أصرّح له باسمي وهو يقسم عليّ فأعلمته . فلمّا عرف إسمي وثب قائماً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 347 : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ابراهيم بن المهدي قال : فلمّا عرف إسمي صاحب الدّار وثب قائماً على قدميه وقال : عجبت من أن يكون هذا الفضل إلاّ لمثلك ، ولقد أهدى الزمان إليّ يداً لا أقوم بشكرها ، ولعل هذا منام وإلاّ فمتى طمعت أن تزورني الخلافة في منزلي وتنادمني ليلتي هذه ؟ فأقسمت عليه أن يجلس فجلس وأخذ يسألني عن السبب في حضوري عنده بألطف معنى . فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها وما سترت منها شيئاً وقلت : أما الطعام فقد نلت منه بغيتي ، وأما الكفّ والمعصم فلم أنل مرادي منهما . فقال : والكفّ والمعصم تنال مرادك منهما إن شاء الله تعالى . ثم قال : يا فلانة قولي لفلانة أن تنزل . ثم جعل يستدعي جواريه واحدة بعد واحدة ويعرض الجميع علي وأنا لا أرى صاحبتي إلى أن قال : والله يا سيدي ما بقي إلاّ أمي وأختي ، ولكن والله لا بدّ من إنزالهما إليك وعرضهما عليك حتى تراهما . فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت : جعلت فداك فابدأ بالأخت . قال : حبّاً وكرامةً . ثم نزلت أخته فأراني يدها فإذا هي صاحبة الكفّ والمعصم اللذين رأيتهما . فقلت : جعلت فداك ، هذه الجارية هي التي رأيت كفها ومعصمها . فأمر الغلمان أن يحضروا الشهود في الوقت والساعة . فأحضروا الشهود ثم أحضر بدرتين من الذهب وقال للشهود : هذا مولانا سيدي ابراهيم بن المهدي عم أمير المؤمنين ، خطب أختي فلانة وأشهدكم أني قد زوّجتها له وقد أمهرها ببدرة . ثم قال : زوّجتك أختي فلانة على المهر المسمّى . فقلت : قبلت ذلك ورضيته . ثم دفع إحدى البدرتين إلى أخته والأخرى إلى الشهود ثم قال : يا مولانا ، أريد أن أمهد لك بعض البيوت لتنام مع أهلك . فأحشمني ما رأيت من كرمه واستحيت أن أخلو بها في داره فقلت له : جهّزها إلى منزلي . فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل إليّ من الجهاز ما ضاقت عنه بيوتنا مع سعتها . ثم أولدتها هذا الغلام القائم بين يديك . فتعجب المأمون من كرم هذا الرجل وقال : لله درّه ما سمعت قط بمثله . وأمر ابراهيم بن المهدي بإحضار الرجل ليشاهده . فأحضره بين يديه واستنطقه ، فأعجبه ظرفه وأدبه فصيّره من جملة خواصه . والله هو المعطي الوهّاب .

40 - حكايات الصدقة

ومما يحكى أن ملكاً من الملوك قال لأهل مملكته : لئن تصدّق أحد منكم بشيء لأقطعن يده . فأمسكت الناس جميعاً عن الصدقة ولم يقدر أحد أن يتصدق على أحد . فاتفق أن سائلاً جاء إلى امرأة يوماً من الأيام وقد أضرّ به الجوع وقال لها : تصدّقي علي بشيء . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة

348

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الرجل السائل قال للمرأة : تصدّقي عليّ بشيء . فقالت : كيف أتصدّق عليك والملك يقطع يد كل من تصدّق ؟ فقال : أسألك بالله تعالى أن تتصدّقي عليّ . فلمّا سألها بالله رقّت له وتصدّقت عليه برغيفين . فوصل الخبر إلى الملك فأمر بإحضارها . فلمّا حضرت قطع يديها وتوجّهت إلى دارها . ثم إن الملك بعد حين قال لأمه : إني أريد الزواج فزوجيني امرأة جميلة . قالت : إن في جوارنا امرأة لم يوجد أحسن منها ولكن بها عيب شديد . قال : وما هو ؟ قالت : مقطوعة اليدين . قال : أريد أن أنظرها . فأتت بها إليه ، فلمّا نظرها افتتن بها فتزوّجها ودخل بها . وكانت تلك المرأة هي التي تصدّقت على السائل برغيفين وقطع يديها من أجل ذلك . فلمّا تزوّج بها حسدها ضرائرها وكتبن إلى الملك يخبرنه عنها بأنها فاجرة وقد ولدت غلاماً . فكتب الملك إلى أمه كتاباً وأمرها فيه أن تخرج بها إلى الصحراء وتتركها هناك ثم ترجع . ففعلت أمه ذلك وخرجت بها إلى الصحراء ثم رجعت . فصارت تلك المرأة تبكي على ما جرى لها وتنتحب انتحاباً شديداً ما عليه من مزيد . فبينما هي تمشي والولد على عنقها إذ مرّت على نهر ، فبركت لتشرب من شدّة العطش الذي لحقها من مشيها وتعبها وحزنها ، فعندما طأطأت سقط الولد في الماء فجلست تبكي على ولدها بكاءً شديداً . فبينما هي تبكي إذ مرّ عليها رجلان فقالا لها : ما يبكيك ؟ قالت لهما : كان لي ولد على عنقي فسقط في الماء . فقالا لها : أتحبين أن نخرجه لك ؟ قالت : نعم . فدعوا الله تعالى فخرج الولد إليها سالماً لم يصبه شيء . ثم قالا لها : أتحبين أن يرد الله يديك كما كانتا ؟ قالت : نعم . فدعوا الله سبحانه وتعالى فرجعت يداها أحسن ما كانتا عليه . ثم قالا لها : أتدرين من نحن ؟ قالت : الله أعلم . قالا : نحن رغيفاك اللذان تصدّقت بنا على السائل وكانت الصدقة سبباً لقطع يديك ، فاحمد الله تعالى الذي ردّ عليك يديك وولدك . فحمدت الله تعالى وأثنت عليه .

ومما يحكى أنه كان في بني إسرائيل رجل عابد له عيال يغزلون القطن ، فكان كل يوم يبيع الغزل ويشتري قطناً ، وما خرج من الكسب يشتري به طعاماً لعياله يأكلونه في ذلك اليوم . فخرج ذات يوم وباع الغزل ، فلقيه أخ له فشكا إليه الحاجة ، فدفع له ثمن الغزل ورجع إلى عياله من غير قطن ولا طعام . فقالوا له : أين القطن والطعام ؟ فقال لهم : استقبلني فلان فشكا إليّ الحاجة فدفعت إليه ثمن الغزل . قالوا : وكيف نصنع وليس عندنا شيء نبيعه ؟ وكان عندهم قصعة مكسورة وجرّة ، فذهب بهما إلى السوق فلم يشترهما أحد منه . فبينما هو في السوق إذ مرّ به رجل ومعه سمكة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة

349

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الرجل أخذ القصعة والجرّة وذهب بهما إلى السوق فلم يشترهما أحد منه . فبينما هو في السوق إذ مرّ به رجل ومعه سمكة منتنة منفوخة لم يشترها أحد منه . فقال له صاحب السمكة : أتبيعني كاسدك بكاسدي ؟ قال : نعم . فدفع القصعة والجرّة وأخذ منه السمكة وجاء بها إلى عياله . فقالوا له : ما تفعل بهذه السمكة ؟ قال : نشويها ونأكلها إلى أن يشاء الله تعالى لنا برزقنا . فأخذوها وشقّوا بطنها فوجدوا فيه حبة لؤلؤ ، فأخبروا بها الشيخ فقال : أنظروا إن كانت مثقوبة فهي لبعض الناس وإن كانت غير

مثقوبة فإنها رزق رزقكم الله تعالى به . فنظروا فإذا هي غير مثقوبة . فلمّا أصبح الصباح غدا بها إلى بعض إخوانه من أصحاب المعرفة بذلك فقال : يا فلان من أين لك هذه اللؤلؤة ؟ قال : رزق رزقنا الله تعالى به . قال : إنها تساوي ألف درهم وأنا أعطي لك ذلك . ولكن إذهب بها إلى فلان فإنه أكثر مني مالاً ومعرفة . فذهب بها إليه فقال : إنها تساوي سبعين ألف درهم لا أكثر من ذلك . ثم دفع له سبعين ألف درهم ودعا بالحمّالين فحملوا له المال حتى وصل إلى باب منزله . فجاءه سائل وقال له : أعطني مما أعطاك الله تعالى . فقال للسائل : قد كنّا بالأمس مثلك ، خذ نصف هذا المال . فلمّا قسّم المال شطرين وأخذ كل واحد شطره قال له السائل : أمسك عليك مالك وخذه بارك الله لك فيه . وإنما أنا رسول ربك بعثني إليك لأختبرك . فقال : لله الحمد والمنّة . وما زال في أرغد عيش هو وعياله إلى الممات .

41 - حكاية أبي حسان الزيادي والخراساني

ومما يحكى أن أبا حسان الزيادي قال : ضاق عليّ الحال في بعض الأيام ضيقاً شديداً حتى إنه قد ألحّ عليّ البقال والخباز وسائر المعاملين . فاشتد عليّ الكرب ولم أجد لي حيلة . فبينما أنا على تلك الحالة لا أدري كيف أصنع ؟ إذ دخل عليّ غلام لي فقال : إن بالباب رجلاً حاجياً يطلب الدخول عليك . فقلت : إئذن له . فدخل فإذا هو رجل خراساني ، فسلّم عليّ فرددت عليه السلام . ثم قال لي : هل أنت أبو حسان الزيادي ؟ قلت : نعم وما حاجتك ؟ قال : إني رجل غريب وأريد الحج ومعي جملة من المال ، وإنه قد أثقلني حمله وأريد أن أدع عندك هذه العشرة آلاف درهم إلى أن أقضي حجّي وأرجع . فإن رجع الركب ولم ترني فاعلم أنني قد مُتّ فالمال هبة مني إليك ، وإن رجعت فهي لي . فقلت له : لك ذلك إن شاء الله تعالى . فأخرج جراباً فقلت للغلام : إئتني بميزان . فأتى بميزان فوزنها وسلّمها إلي وذهب إلى حال سبيله . فأحضرت المعاملين وقضيت ديني . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 350 قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن أبا حسان الزيادي قال : أحضرت المعاملين وقضيت ما كان عليّ من الدين وأنفقت واتّسعت وقلت في نفسي : إلى أن يرجع يفتح الله علينا بشيء من عنده . فلمّا كان بعد يوم دخل الغلام عليّ وقال لي : إن صاحبك الخراساني بالباب . فقلت : ائذن له . فدخل ثم قال : إني كنت عازماً على الحج فجاءني خبر بوفاة والدي ، وقد عزمت على الرجوع فاعطني المال الذي أودعتك إيّاه بالأمس . فلمّا سمعت منه هذا الكلام ، حصل لي همّ عظيم لم يحصل لأحد مثله قط ، وتحيّرت فلم أرد جواباً . فإن جحدته استحلفني وكانت الفضيحة في الآخرة ، وإن أخبرته بالتصرف فيه صاح وهتكني . فقلت له : عافاك الله ، إن منزلي هذا ليس بحصين ولاحرز لذلك المال ، وإني لما أخذت جرابك أرسلته إلى من هو عنده الآن . فعدْ علينا في الغد لتأخذه إن شاء الله تعالى . فانصرف عنّي وبتّ متحيّراً من أجل رجوع الخراساني إليّ ، فلم يأخذني نوم في تلك الليلة ولم أقدر على غمض عيني . فقمت للغلام وقلت له : أسرج لي البغلة . قال : يا مولاي ، إن هذا الوقت عتمة ولم يمض من الليل شيء . فرجعت إلى فراشي فإذا النوم ممتنع . فلم أزل أيقظ الغلام وهو يردّني حتى طلع الفجر ،

فأسرج لي البغلة فركبت وأنا لا أدري أين أذهب، فطرحت عنان البغلة على عاتقها وصرت مشغولاً بالفكر والهموم وهي تسير إلى الجانب الشرقي من بغداد. فبينما أنا سائر وإذا أنا بقوم قد رأيتهم فانحرفت عنهم وعدلت عن طريقهم إلى طريق أخرى فتبعوني، فلمّا رأوني بطيلسان تبادروا إلي وقالوا لي: أتعرف منزل أبي حسان الزيادي؟ فقلت لهم: هو أنا. قالوا: أجب أمير المؤمنين. فسرت معهم حتى دخلت على المأمون فقال لي: من أنت؟ قلت: رجل من أصحاب القاضي أبي يوسف، من الفقهاء وأصحاب الحديث. فقال: بأي شيء تكنّى؟ قلت: بأبي حسان الزيادي. قال: إشرح لي قصتك. فشرحت له خبري، فبكى بكاءً شديداً وقال: ويحك، ما تركني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنام في هذه الليلة بسببك. فإني لما نمت أول الليل قال لي: أغث أبا حسان الزيادي. فانتبهت ولم أعرفك. ثم نمت فأتاني وقال لي: ويحك، أغث أبا حسان الزيادي. فانتبهت ولم أعرفك، ثم نمت فأتاني ولم أعرفك. ثم نمت فأتاني وقال لي: ويحك، أغث أبا حسان الزيادي. فما تجاسرت على النوم بعد ذلك وسهرت الليل كله وقد أيقظت الناس وأرسلتهم في طلبك من كل جانب. ثم أعطاني عشرة الآف درهم وقال: هذه للخراساني. ثم أعطاني عشرة الآف درهم وقال: اتسع بهذه وأصلح بها أمرك. ثم أعطاني ثلاثين ألف درهم وقال: جهّز نفسك بهذه وإذا كان يوم الموكب فائتني حتى أقلّدك عملاً. فخرجت والمال معي، فجئت إلى منزلي فصلّيت فيه الغداة وإذا بالخراساني قد حضر. فأدخلته البيت وأخرجت له بدرة وقلت له: هذا مالك. قال: ليس هذا عين مالي. فقلت: نعم. فقال: ما سبب هذا؟ فقصصت عليه القصة. فبكى وقال: والله لو أصدقتني من أول الأمر ما طالبتك، وأنا الآن والله لا أقبل شيئاً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 351

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخراساني قال للزيادي: والله لو أصدقتني من أول الأمر ما طالبتك، وأنا الآن والله لا أقبل شيئاً من هذا المال وأنت في حلّ منه. وانصرف من عندي. ثم أصلحت أمري وذهبت في يوم الموكب إلى باب المأمون فدخلت عليه وهو جالس، فلمّا مثلت بين يديه استدناني وأخرج لي عهداً من تحت مصلاه وقال: هذا عهد بقضاء المدينة الشريفة من الجانب الغربي من باب السلام إلى ما لا نهاية له، وقد أجريت لك كذا وكذا في كل شهر. فاتق الله عزّ وجل وحافظ على عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم بك. فتعجّب الناس من كلامه وسألوني عن معناه، فأخبرتهم بالقصة من أولها إلى آخرها. فشاع الخبر بين الناس، وما زال أبو حسان الزيادي قاضياً في المدينة الشريفة إلى أن مات في أيام المأمون رحمة الله عليه.

42 - حكاية الصديق عند الضيق

ومما يحكى أن رجلاً كان ذا مال كثير ففقد منه وصار لا يملك شيئاً، فأشارت عليه زوجته أن يقصد بعض أصدقائه فيما يصلح به حاله. فقصد صديقاً له وذكر له ضرورته له فأقرضه خمسمائة دينار على انه يتجر فيها، وكان في ابتداء حاله جوهرياً. فأخذ الذهب ومضى إلى سوق الجواهر وفتح دكّانه ليشتري ويبيع، فلمّا قعد في الدكان أتاه ثلاثة رجال وسألوه عن والده فذكر

لهم وفاته . فقالوا له : هل خلّف أحداً من الذريّة ؟ قال : خلّف العبد الذي بين أيديكم . قالوا : ومن يعرف أنك ولده ؟ قال : أهل السوق . فقالوا له : إجمعهم حتى يشهدوا أنك ولده . فجمعهم وشهدوا بذلك ، فأخرج الثلاثة رجال خرجاً فيه مقدار ثلاثين ألف دينار وفيه جواهر ومعادنُ ثمينة وقالوا : هذا كان عندنا أمانة لأبيك ثم انصرفوا . فأتته امرأة وطلبت منه شيئاً من ذلك الجوهر يساوي خمسمائة دينار ، فاشترته منه بثلاثة آلاف دينار فباعه لها . ثم قام وأخذ الخمسمائة دينار التي كان اقترضها من صديقه وحملها إليه وقال له : خذ الخمسمائة دينار التي اقترضتها منك فقد فتح الله عليّ ويسّر لي . فقال له صديقه : إني أعطيتك إيّاها وخرجت عنها لله فخذها وخذ هذه الورقة ولا تقرأها إلاّ وأنت في دارك واعمل بما فيها . فأخذ المال والورقة وذهب إلى بيته ، فلمّا فتحها وجد مكتوباً فيها هذه الأبيات : [من البسيط]

إنَّ الرِّجالَ الأُولى جاؤُوكَ مِنْ نَسَبِي   أَبِي وعَمِّي وخالي صالِحُ بْنُ عَلِي
كذاكَ ما بِعْتَهُ نَقْداً لِوالِدَتِي   المالَ والجَوْهَرَ المَبْعُوثَ مِنْ قِبَلِي
وما أَرَدْتُ بهذا مِنْكَ مَنْقَصَةً   لَـكِنْ لأَكْفِيكَ مِنِّي وَرْطَةَ الخَجَلِ

43- حكاية إفلاس رجل من بغداد

ومما يحكى أن رجلاً من بغداد كان صاحب نعمة وافرة ومال كثير ، فنفد ماله وتغيّر حاله وصار لا يملك شيئاً ولا ينال قوته إلاّ بجهد جهيد . فنام ذات ليلة وهو مغمور مقهور فرأى في منامه قائلاً يقول له : إن رزقك بمصر فاتبعه وتوجّه إليه . فسافر إلى مصر ، فلمّا وصل إليها أدركه المساء فنام في مسجد . وكان بجوار المسجد بيت ، فقدّر الله تعالى أن جماعة من اللصوص دخلوا المسجد وتوصّلوا منه إلى ذلك البيت ، فانتبه أهل البيت على حركة اللصوص وقاموا بالصياح . فأغاثهم الوالي بأتباعه فهرب اللصوص ، ودخل الوالي المسجد فوجد الرجل البغدادي نائماً في المسجد فقبض عليه وضربه بالمقارع ضرباً مؤلماً حتى أشرف على الهلاك وسجنه . فمكث ثلاثة أيام في السجن ثم أحضره الوالي وقال له : من أي البلاد أنت؟ قال : من بغداد . قال له : وما حاجتك التي هي سبب في مجيئك إلى مصر ؟ قال : إني رأيت في منامي قائلاً يقول لي : إن رزقك بمصر فتوجّه إليه . فلمّا جئت إلى مصر وجدت الرزق الذي أخبرني به ، تلك المقارع التي نلتها منك . فضحك الوالي حتى بدت نواجذه وقال له : يا قليل العقل ، أنا رأيت ثلاث مرات في منامي قائلاً يقول لي : إن بيتاً في بغداد بخط كذا ووصفه كذا بحوشه جنينة تحتها فسقية بها مال له جرم عظيم فتوجّه إليه وخذه ، فلم أتوجّه . وأنت من قلّة عقلك سافرت من بلدة إلى بلدة من أجل رؤيا رأيتها وهي أضغاث أحلام . ثم أعطاه دراهم وقال له : إستعن بها على عودك إلى بلدك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 352

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوالي أعطى البغدادي دراهم وقال له : إستعن بها على عودك إلى بلدك . فأخذها وعاد إلى بغداد . وكان البيت الذي وصفه الوالي ببغداد هو بيت ذلك الرجل ، فلمّا وصل إلى منزله حفر تحت الفسقية فرأى مالاً كثيراً ووسّع الله عليه رزقه . وهذا اتفاق عجيب .

44 - حكاية المتوكل ومحبوبة

ومما يحكى أنه كان في قصر أمير المؤمنين المتوكّل على الله أربعة الآف سرية : مائتان روميات ومئتان مولدات وحبش . وقد أهدى عبيد بن طاهر إلى المتوكّل أربعمائة جارية : مائتان بيض ومئتان حبش ومولدات . وكان من جملة ذلك ، جارية من مولدات البصرة يقال لها : محبوبة . وكانت فائقة في الحسن والجمال والظرف والدلال ، وكانت تضرب بالعود وتحسن الغناء وتنظم الشعر وتكتب خطاً جيداً . فافتتن بها المتوكل وكان لا يصبر عنها ساعة واحدة ، فلمّا رأت ميله إليها تكبّرت عليه وبطرت النعمة ، فغضب عليها غضباً شديداً وهجرها ومنع أهل القصر من كلامها ، فمكثت على ذلك أياماً وكان المتوكل له ميل إليها . فأصبح ذات يوم وقال لجلسائه : إني رأيت في هذه الليلة في منامي كأني صالحت محبوبة . فقالوا له : نرجو من الله تعالى أن يكون ذلك يقظة . فبينما هو في الكلام وإذا بخادمة قد أقبلت وأسرّت إلى المتوكل حديثاً ، فقام من المجلس ودخل دار الحريم . وكان الذي أسرّته إليه أنها قالت له : سمعنا من حجرة محبوبة غناءً وضرباً بالعود وما ندري سبب ذلك . فلمّا وصل إلى حجرتها سمعها تغني على العود وتحسن الضربات وتنشد هذه الأبيات : [من المنسرح]

أَدُورُ في القَصْرِ لا أَرَى أَحَداً ... أَشْكُو إِلَيْهِ ولا يُكَلِّمُنِي
حَتَّى كأنّي ٱرْتَـكَبْتُ مَعْصِيَةً ... لَيْسَ لَها تَوْبَةٌ تُخَلِّصُنِي
فَهَلْ لَنا شافعٌ إلى مَلِكٍ ... قَدْ زارَنِي في الكَرَى وصالَحَنِي
حَتَّى إذا ما الصَّباحُ لاحَ لَنا ... عادَ إلى هَجْرِهِ وقاطَعَنِي

فلما سمع المتوكل كلامها ، تعجّب من هذه الأبيات ومن هذا الإتفاق الغريب حيث رأت محبوبة مناماً موافقاً لمنامه فدخل عليها في الحجرة . فلمّا دخل حجرتها وأحسّت به بادرت بالقيام إليه وانكبّت على أقدامه وقبّلتها وقالت : والله يا سيدي ، لقد رأيت هذه الواقعة في منامي ليلة البارحة ، فلمّا انتبهت من النوم نظمت هذه الأبيات . فقال لها المتوكل : والله إني رأيت مناماً مثل ذلك . ثم إنهما تعانقا واصطلحا وأقام عندها سبعة أيام بلياليها . وكانت محبوبة قد كتبت على خدها بالمسك إسم المتوكل ، وكان اسمه جعفر . فلمّا رأى المتوكل إسمه مكتوباً بأعلى خدها بالمسك انشد يقول : [من الطويل]

وكاتِبَةٍ بالمِسْكِ في الخَدِّ جَعْفَرا ... بِنَفْسِيَ مَنْ قَد خَطَّ في الخَدِّ ما أَرَى
لَئِنْ كَتَبَتْ في الخَدِّ سَطْراً بَنانُها ... لَقَدْ أَودَعَتْ قَلْبِي مِنَ الخَطِّ أَسْطُرا
فَيا مَنْ هَداها في البَرِيَّةِ جَعْفَرٌ ... سَقَى اللهُ مِنْ سُقْيا شَرابِكِ جَعْفَرا

ولما مات المتوكّل ، سلاه جميع من كان له من الجواري إلاّ محبوبة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 353

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنه لما مات المتوكّل ، سلاه جميع من كان له من الجواري إلاّ محبوبة . فإنها لم تزل حزينة عليه حتى ماتت ودفنت بجانبه رحمة الله عليهم أجمعين .

45 - حكاية وردان الجزار والمرأة والدب

ومما يحكى أنه كان في زمن الحاكم بأمر الله رجل بمصر يسمّى وردان . وكان جزّار في اللحم الضاني وكانت امرأة تأتيه كل يوم بدينار يقارب وزنه وزن دينارين ونصف من الدنانير المصرية وتقول له : أعطني خروفاً . وتحضر معها حمّالاً بقفص فيأخذ منها الدينار ويعطيها خروفاً فتحمله إلى الحمال وتأخذه وتروح به إلى مكانها ، وفي ثاني يوم وقت الضحى تأتي . وكان ذلك الجزّار يكتسب منها كل يوم ديناراً ، وأقامت مدة طويلة على ذلك . فتفكّر وردان الجزّار ذات يوم في أمرها وقال في نفسه : هذه المرأة كل يوم تشتري مني بدينار ولم تغلط يوماً واحداً وتشتري مني بدراهم فهذا أمر عجيب . ثم إن وردان سأل الحمال في غيبة المرأة فقال له : إلى أين تروح كل يوم مع هذه المرأة ؟ فقال له : أنا في غاية العجب منها ، فإنها كل يوم تحمّلني الخروف من عندك وتشتري حوائج الطعام والفاكهة والشمع والنقل بدينار آخر ، وتأخذ من شخص نصراني مروقتين نبيذاً وتعطيه ديناراً وتحمّلني الجميع وأسير معها إلى بساتين الوزير ، ثم تعصب عيني بحيث إني لا أنظر موضعاً من الأرض أحط فيه قدمي ، وتأخذ بيدي فما أعرف أين تذهب بي ، ثم تقول : حط هنا . وعندها قفص آخر فتعطيني الفارغ ثم تمسك يدي وتعود بي إلى الموضع الذي شدّت عينيّ فيه بالعصابة فتحلّها وتعطيني عشرة دراهم . فقال له الجزّار : الله يكون في عونها . ولكن ازداد فكراً في أمرها وكثرت عنده الوساوس وبات في قلق عظيم . قال وردان الجزّار : فلمّا أصبحت أتتني على العادة وأعطتني الدينار وأخذت الخروف وحملته إلى الحمّال وراحت . فأوصيت صبييّ على الدكان وتبعتها بحيث لا تراني . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 354

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، ان وردان الجزّار قال : فأوصيت صبييّ على الدكان وتبعتها بحيث لا تراني . ولم أزل أعاينها إلى أن خرجت من مصر وأنا أتوارى خلفها حتى وصلت إلى بساتين الوزير ، فاختفيت حتى عصبت عيني الحمّال وتبعتها من مكان إلى مكان إلى أن أتت الجبلْ ، فوصلت إلى مكان فيه حجر كبير وحطت القفص عن الحمال فصبرت إلى أن عادت بالحمال ورجعت ونزعت جميع ما كان بالقفص وغابت ساعة . فأتيت إلى ذلك الحجر فزحزحته ودخلت ، فوجدت خلفه طابقاً من نحاس مفتوحاً ودرجاً نازلة . فنزلت في تلك الدرج قليلاً قليلاً حتى وصلت إلى دهليز طويل كثير النور ، فمشيت فيه حتى رأيت هيئة باب قاعة ، فارتكنت في زوايا الباب فوجدت صفة بها سلالم خارج باب القاعة فتعلّقت فيها فوجدت صفة صغيرة بها طاقة تشرف على قاعة ، فنظرت في القاعة فوجدت المرأة قد

أخذت الخروف وقطعت منه مطايبه وعملته في قِدر ورمت الباقي إلى دبّ كبير عظيم الخلقة فأكله عن آخره وهي تطبخ . فلمّا فرغت ، أكلت كفايتها ووضعت الفاكهة والنقل وحطت النبيذ وصارت تشرب بقدح وتسقي الدب بطاسة من ذهب حتى حصل لهما نشوة السكر فنزعت لباسها ونامت ، فقام الدب وواقعها وهي تعاطيه من أحسن ما يكون لبني آدم حتى فرغ وجلس ، ثم وثب إليها وواقعها ولما فرغ جلس واستراح .ولم يزل كذلك حتى فعل ذلك عشر مرات ثم وقع كل منهما مغشياً عليه وصارا لا يتحركان . فقلت في نفسي : هذا وقت انتهاز الفرصة . فنزلت ومعي سكين تبري العظم قبل اللحم ، فلمّا صرت عندهما وجدتهما لا يتحرك فيهما عرق لما حصل لهما من المشقة ، فجعلت السكين في منحر الدب واتّكأت عليه حتى خلّصته وانعزلت رأسه عن بدنه فصار له شخير عظيم مثل الرعد . فانتبهت المرأة مرعوبة ، فلمّا رأت الدب مذبوحاً وأنا واقف والسكين في يدي زعقت زعقة عظيمة حتى ظننت أن روحها قد خرجت وقالت لي : يا وردان ، أيكون هذا جزاء الإحسان؟ فقلت لها : يا عدوة نفسها ، هل عدمت الرجال حتى تفعلي هذا الفعل الذميم ؟ فأطرقت رأسها إلى الارض لا ترد جواباً وتأمّلت الدب وقد نزعت رأسه عن جثّته ثم قالت : يا وردان . أي شيء أحب إليك : أن تسمع الذي أقوله لك ويكون سبباً لسلامتك .وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 355

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن المرأة قالت : يا وردان ، أن أي شيء أحب إليك : أن تسمع الذي أقوله لك ويكون سبباً لسلامتك وغناك إلى آخر الدهر ، أوتخالفني ويكون سبباً لهلاكك؟ قلت : أختار أن أسمع كلامك فحدثيني بما شئت . فقالت : إذبحني كما ذبحت هذا الدب وخذ من هذا الكنز حاجتك وتوجّه إلى حال سبيلك . فقلت لها : أنا خير من هذا الدب ، فارجعي إلى الله تعالى وتوبي وأتزوج بك ونعيش باقي عمرنا بهذا الكنز . قالت : يا وردان، إن هذا بعيد ، كيف أعيش بعده؟ والله إن لم تذبحني لأتلفنّ روحك . فلا تراجعني تتلف وهذا ما عندي من الرأي والسلام . فقلت : أذبحك وتروحين إلى لعنة الله . ثم جذبتها من شعرها وذبحتها وراحت إلى لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وبعد ذلك نظرت في المحل فوجدت فيه من الذهب والفصوص واللؤلؤ ما لا يقدر على جمعه أحد من الملوك ، فأخذت قفص الحمال وملأته على قدر ما أطيق ثم سترته بقماشي الذي كان عليّ وحملته وطلعت من الكنز وسرت . ولم أزل سائراً إلى باب مصر وإذا بعشرة من جماعة الحاكم بأمر الله مقبلون والحاكم خلفهم فقال لي : يا وردان . قلت : لبيّك أيها الملك . قال : هل قتلت الدب والمرأة؟ قلت : نعم . قال : حط عن رأسك وطب نفساً فجميع ما معك من المال لك لا ينازعك فيه أحد . فحطّيت القفص بين يديه فكشفه ورآه وقال : حدثني بخبرهما وإن كنت أعرفه كأنني حاضر معكم . فحدّثته بجميع ما جرى وهو يقول : صدقت . فقال : يا وردان ، قم سرّ بنا إلى الكنز . فتوجّهت معه إليه فوجد الطابق مغلقاً فقال : إرفعه يا وردان ، فإن هذا الكنز لا يقدر أحد أن يفتحه غيرك فإنه مرصود باسمك وصفتك . فقلت : والله لا أطيق فتحه . فقال : تقدم أنت على بركة الله . فتقدّمت إليه وسميّت الله تعالى ومددت يدي إلى الطابق فارتفع كأنه أخف ما يكون . فقال الحاكم : إنزل واطلع ما فيه فإنه لا ينزله إلاّ من هو باسمك وصورتك وصفاتك من حين

وضع ، وقتل هذا الدب وهذه المرأة على يديك وهو عندي مؤرخ وكنت أنتظر وقوعه حتى وقع . قال وردان : فنزلت ونقلت له جميع ما في الكنز ، ثم دعا بالدواب وحمله وأعطاني قفصي بما فيه فأخذته وعدت به إلى بيتي وفتحت لي دكاناً في السوق . وهذا السوق موجود إلى الآن ويعرف بسوق وردان .

46 - حكاية بنت السلطان والقرد

ومما يحكى أيضاً أنه كان لبعض السلاطين إبنة وقد تعلّق قلبها بحب عبد أسود ، فافتض بكارتها وأولعت بالنكاح فكانت لا تصبر عنه ساعة واحدة . فشكت أمرها إلى بعض القهرمانات فأخبرتها أنه لا شيء ينكح أكثر من القرد . فاتفق أن قراداً مرّ تحت طاقتها بقرد كبير فأسفرت عن وجهها ونظرت إلى القرد وغمزته بعيونها ، فقطع القرد وثاقه وسلاسله وطلع لها فخبأته في مكان عندها ، وصار ليلاً ونهاراً على أكل وشرب وجماع . ففطن أبوها بذلك وأراد قتلها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 356

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن السلطان لما فطن بأمر ابنته وأراد قتلها شعرت بذلك ، فتزيّت بزيّ المماليك وركبت فرساً وأخذت لها بغلاً وحملته من الذهب والمعدن والقماش ما لا يوصف ، وحملت القرد معها وسارت حتى وصلت إلى مصر فنزلت في بعض بيوت الصحراء . وصارت كل يوم تشتري لحماً من شاب جزّار ولكن لا تاتيه إلاّ بعد الظهر وهي مصفرّة اللون متغيّرة الوجه . فقال الشاب في نفسه : لا بدّ لهذا المملوك من سبب عجيب . فلمّا جاءت على العادة وأخذت اللحم ، تبعها من حيث لا تراه قال : ولم أزل خلفها من حيث لا تراني من محل إلى محل حتى وصلت إلى مكانها الذي بالصحراء ودخلت هناك ، فنظرت إليها من بعض جهاته فرأيتها استقرّت بمكانها وأوقدت النار وطبخت اللحم وأكلت كفايتها وقدّمت باقيه إلى القرد الذي معها فأكل كفايته . ثم إنها نزعت ما عليها من الثياب ولبست أفخر ما عندها من ملابس النساء فعلمت أنها أنثى . ثم إنها أحضرت خمراً وشربت منه وسقت القرد ، ثم واقعها القرد نحو عشر مرات حتى غشي عليها . وبعد ذلك نشر القرد عليها ملاءة من حرير وراح إلى محله . فنزلت إلى وسط المكان فاحسّ بي القرد وأراد افتراسي ، فبادرته بسكين كانت معي فضربت بها كرشه . فانتبهت الصبيّة فزعة مرعوبة فرأت القرد على هذه الحالة ، فصرخت صرخة عظيمة حتى كادت أن تزهق روحها ثم وقعت مغشيّاً عليها . فلمّا أفاقت من غشيتها قالت لي : ما حملك على ذلك ؟ ولكن بالله عليك أن تلحقني به . فلا زلت ألاطفها وأضمن لها أني أقوم بما قام به القرد من كثرة النكاح إلى أن سكن روعها وتزوّجت بها ، فعجزت عن ذلك ولم أصبر عليه ، فشكوت حالي إلى بعض العجائز وذكرت لها ما كان من أمرها . فالتزمت لي بتدبير هذا الأمر وقالت لي : لا بدّ أن تأتيني بقدر وتملأه من الخل البكر ، وتأتيني بقدر رطل من العود القرح . فأتيت لها بما طلبته ، فوضعته في القدر ووضعت القدر على النار وغلته غلياناً قوياً . ثم أمرتني بنكاح الصبيّة فنكحتها إلى أن غشي عليها ، فحملتها العجوز وهي لا تشعر وألقت فرجها على فم القدر فصعد دخانه حتى دخل فرجها ، فنزل من فرجها شيء

فتأملته فإذا هو دودتان : إحداهما سوداء والأخرى صفراء . فقالت العجوز : الأولى تربّت من نكاح العبد والثانية تربّت من نكاح القرد . فلمّا أفاقت من غشيتها استمرّت معي وهي لم تطلب النكاح وقد صرف الله عنها تلك الحالة وتعجبّت من ذلك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 357

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشاب قال : وقد صرف الله عنها تلك الحالة وتعجّبت من ذلك ، فأخبرتها بالقصة واستمرّت معه في أرغد عيش وأحسن لذّة واتخذت عندها العجوز مكان والدتها ، وما زالت هي وزوجها والعجوز في هناء وسرور إلى أن أتاهم هادم اللذّات ومفرّق الجماعات . فسبحان الحي الذي لا يموت وبيده الملك والملكوت .

47 - حكاية الفرس الطائر

ومما يحكى أنه كان في قديم الزمان ملك عظيم ذو خطر جسيم ، وكان له ثلاث بنات مثل البدور السافرة والرياض الزاهرة وولد ذكر كأنه القمر . فبينما الملك جالس على كرسي مملكته يوماً من الأيام إذ دخل عليه ثلاثة من الحكماء ، مع أحدهم طاووس من ذهب ومع الثاني بوق من نحاس ومع الثالث فرس من عاج وأبنوس . فقال لهم الملك : ما هذه الأشياء؟ وما منفعتها؟ فقال صاحب الطاووس : إن منفعة هذا الطاووس أنه كلما مضت ساعة من ليل أو نهار يصفق بأجنحته ويزعق . وقال صاحب البوق : أنه إذا وضع هذا البوق على باب المدينة يكون كالمحافظ عليها فإذا دخل إلى تلك المدينة عدو يزعق عليه هذا البوق فيعرف ويمسك باليد . وقال صاحب الفرس : يا مولاي ، إن منفعة هذه الفرس أنه إذا ركبها إنسان فإنها توصله إلى أي بلاد أراد . فقال الملك : لا أنعم عليكم حتى أجرّب منافع هذه الصور . ثم إنه جرّب الطاووس فوجده كما قال صاحبه ، وجرّب البوق فوجده كما قال صاحبه . فقال الملك للحكيمين : تمنّيا عليّ . فقالا : نتمنّى عليك أن تزوّج كل واحد منا بنتاً من بناتك . فأنعم الملك عليهما ببنتين من بناته . ثم تقدم الحكيم الثالث صاحب الفرس وقبّل الأرض بين يدي الملك وقال له : يا ملك الزمان ، أنعم عليّ كما أنعمت على أصحابي . فقال له الملك : حتى أجرّب ما أتيت به . فعند ذلك تقدم ابن الملك وقال : يا والدي أنا أركب هذه الفرس وأجرّبها وأختبر منفعتها . فقال الملك : يا ولدي جرّبها كما تحب . فقام ابن الملك وركب الفرس وحرّك رجليه فلم تتحرّك من مكانها . فقال : يا حكيم أين الذي ادّعيته من سرعة سيرها؟ فعند ذلك جاء الحكيم إلى ابن الملك وأراه لولب الصعود وقال له : افرك هذا اللولب . ففركه ابن الملك ، وإذا بالفرس قد تحرّك وطار بابن الملك إلى عنان السماء ، ولم يزل طائراً به حتى غاب عن الأعين . فعند ذلك احتار ابن الملك في أمره وندم على ركوبه الفرس ثم قال : إن الحكيم قد عمل حيلة على هلاكي فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم . ثم إنه جعل يتأمّل في جميع أعضاء الفرس ، فبينما هو يتأمل فيها إذ نظر إلى شيء مثل رأس الديك على كتف الفرس الأيمن وكذلك الأيسر فقال ابن الملك : ما أرى فيه أثراً غير هذين الزرين . ففرك الزر الذي على الكتف الأيمن فازدادت به الفرس سيراً طالعة إلى الجو فتركه ، ثم نظر إلى الكتف الأيسر فرأى ذلك الزر ففركه فتناقصت حركات الفرس من الصعود إلى الهبوط ، ولم تزل هابطة

به إلى الأرض قليلاً قليلاً وهو محترس على نفسه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 358

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ابن الملك لما فرك الزر الأيسر تناقصت حركات الفرس من الصعود إلى الهبوط ، ولم تزل هابطة به إلى الأرض قليلاً قليلاً محترساً على نفسه . فلمّا نظر ابن الملك ذلك وعرف منافع الفرس ، امتلأ قلبه فرحاً وسروراً وشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه حيث أنقذه من الهلاك . ولم يزل هابطاً طول نهاره لأنه كان في حال صعوده بعدت عنه الأرض وجعل يدور وجه الفرس كما يريد وهي هابطة به ، وإذا شاء نزل بها وإذا شاء طلع بها . فلما تمّ له من الفرس ما يريد ، أقبل بها إلى جهة الأرض وصار ينظر إلى ما فيها من البلاد والمدن التي لا يعرفها لأنه لم يرها طول عمره . وكان من جملة ما رآه مدينة مبنية بأحسن البنيان وهي في وسط أرض خضراء ناضرة ذات أشجار وأنهار . فتفكّر في نفسه وقال : يا ليت شعري ما اسم هذه المدينة ؟ وفي أي الأقاليم هي ؟ ثم إنه جعل يطوف حول تلك المدينة ويتأمّلها يميناً وشمالاً وكان النهار قد ولّى ودنت الشمس للمغيب فقال في نفسه : إني لم أجد موضعاً للمبيت أحسن من هذه المدينة ، فأنا أبيت فيها هذه الليلة وعند الصباح أتوجّه إلى أهلي ومحل ملكي ، وأعلم أهلي ووالدي بما جرى لي ، وأخبره بما نظرت عيناي : وصار يفتش على موضع يأمن فيه على نفسه وعلى فرسه ولا يراه أحد . فبينما هو كذلك وإذا به قد نظر في وسط المدينة قصراً شاهقاً في الهواء وقد أحاط بذلك القصر صور متسع بشرفات عاليات . فقال ابن الملك في نفسه : إن هذا الموضع مليح . وجعل يحرك الزرّ الذي يهبط به الفرس ، ولم يزل هابطاً به حتى نزل مستوياً على سطح القصر . ثم نزل من فوق الفرس وحمد الله تعالى وجعل يدور حول الفرس ويتأمّلها ويقول : والله إن الذي عملك بهذه الصفة لحكيم ماهر ، فإن مدّ الله تعالى في أجلي وردّني إلى بلادي وأهلي سالماً وجمع بيني وبين والدي لأحسن إلى هذا الحكيم كل الإحسان ولأنعمن عليه غاية الأنعام . ثم جلس فوق سطح القصر حتى علم ان الناس قد ناموا وكان قد أضرّ به الجوع والعطش لأنه منذ فارق والده لم يأكل طعاماً فقال في نفسه : إن مثل هذا القصر لا يخلو من الرزق . فترك الفرس في مكان ونزل يتمشّى لينظر شيئاً يأكله ، فوجد سلّماً فنزل منه إلى أسفل فوجد ساحة مفروشة بالرخام ، فتعجّب من ذلك المكان ومن حسن بنيانه ولكنه لم يجد في ذلك القصر حسّ حسيس ولا أنس انيس ، فوقف متحيّراً وصار ينظر يميناً وشمالاً وهو لا يعرف أين يتوجّه ثم قال في نفسه : ليس لي أحسن من أن أرجع إلى المكان الذي فيه فرسي وأبيت عندها ، فإذا أصبح الصباح ركبتها وسرت . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 359

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ابن الملك قال في نفسه : ليس لي أحسن من البيات عند فرسي فإذا أصبح الصباح ركبتها وسرت . فبينما هو واقف يحدّث نفسه بهذا الكلام إذ نظر إلى نور مقبل إلى ذلك المحل الذي هو فيه ، فتأمّل ذلك النور فوجده مع جماعة من الجواري وبينهن صبيّة بهية بقامة ألفية تحاكي البدر الزاهر كما قال فيها الشاعر : [من

البسيط]

جاءَتْ بِلا مَوْعِدٍ في ظُلْمَةِ الغَسَقِ كأنَّها البَدْرُ في داجٍ مِنَ الأُفُقِ
هَيْفاءُ ما في البَرايا مَنْ يُشابِهُها في بَهْجَةِ الحُسْنِ أَو في رَوْنَقِ الخَلَقِ
نادَيْتُ لما رأَتْ عَيْنَيَّ مَحاسِنُها سُبْحانَ مَنْ خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقِ
أُعِيذُها مِنْ عُيُونِ النّاسِ كُلِّهِمِ بِقُل: أَعُوذُ بِرَبِّ النّاسِ والفَلَقِ

وكانت تلك الصبيّة بنت ملك هذه المدينة وكان أبوها يحبها حباً شديداً، ومن محبته إيّاها بنى لها هذا القصر. فكانت كلما ضاق صدرها تجيء إليه هي وجواريها وتقيم فيه يوماً أو يومين أو أكثر ثم تعود إلى سرايتها. فاتفق أنها قد أتت تلك الليلة من أجل الفرجة والإنشراح وصارت ماشية بين الجواري ومعها خادم مقلّد بسيف، فلمّا دخلوا ذلك القصر فرشوا الفرش وأطلقوا مجامر البخور ولعبوا وانشرحوا. فبينما هم في لعب وانشراح إذ هجم ابن الملك على ذلك الخادم ولطمه لطمة فبطحه وأخذ السيف من يده وهجم على الجواري اللاّتي مع ابنة الملك، فشتتهنّ يميناً وشمالاً. فلمّا نظرت ابنة الملك إلى حسنه وجماله قالت: لعلك أنت الذي خطبتني من والدي بالأمس وردّك وزعم أنك قبيح المنظر. والله لقد كذب أبي حيث قال ذلك الكلام، فما أنت إلاّ مليح. وكان ابن ملك الهند قد خطبها من أبيها فردّه لأنه كان بشع المنظر فظنّت أنه هو الذي خطبها. ثم أقبلت عليه وعانقته وقبّلته ورقدت هي وإيّاه. فقالت لها الجواري: يا سيدتي، هذا ما هو الذي خطبك من أبيك لأن ذاك قبيح وهذا مليح، وما يصلح الذي خطبك من أبيك وردّه أن يكون خادماً لهذا. ولكن يا سيدتي، إن هذا الفتى له شأن عظيم. ثم توجّهت الجواري إلى الخادم المبطوح وأيقظته، فوثب مرعوباً وفتّش على سيفه فلم يجده بيده. فقالت له الجواري: إن الذي أخذ سيفك وبطحك جالس مع ابنة الملك. وكان ذلك الخادم قد وكّله الملك بالمحافظة على ابنته خوفاً عليها من نوائب الزمان وطوارق الحدثان. فقام ذلك الخادم وتوجّه إلى الستر ورفعه، فرأى ابنة الملك جالسة مع ابن الملك وهما يتحدثان. فلمّا نظرهما الخادم قال لابن الملك: يا سيدي، هل أنت إنسي أو جنيّ؟ فقال له ابن الملك: ويلك يا أنحس العبيد، كيف تجعل أولاد الملوك الأكاسرة من الشياطين الكافرة؟ ثم إنه أخذ السيف بيده وقال له: أنا صهر الملك وقد زوّجني بابنته وأمرني بالدخول عليها. فلمّا سمع الخادم منه ذلك الكلام قال له: يا سيدي، إن كنت من الإنس كما زعمت، فإنها ما تصلح إلاّ لك وأنت أحق بها من غيرك. ثم إن الخادم توجّه إلى الملك وهوصارخ وقد شقّ ثيابه وحثى التراب على رأسه. فلمّا سمع الملك صياحه قال له: ما الذي دهاك؟ فقد أرجفت فؤادي أخبرني بسرعة وأوجز في الكلام. فقال له: أيها الملك أدرك ابنتك، فإنه قد استولى عليها شيطان من الجن في زيّ الإنس مصور بصورة أولاد الملوك، فدونك وإيّاه. فلمّا سمع الملك منه ذلك الكلام همّ بقتله وقال له: كيف تغافلت عن ابنتي حتى لحقها هذا العارض؟ ثم إن الملك توجّه إلى القصر الذي فيه ابنته فلمّا وصل إليه وجد الجواري قائمات فقال لهنّ: ما الذي جرى لابنتي؟ فقلن له: أيها الملك، بينما نحن جالسات معها فلم نشعر إلاّ وقد هجم علينا هذا الغلام الذي كأنه بدر التمام ولم نرَ قط أحسن منه وجهاً وبيده سيف مسلول، فسألناه عن حاله فزعم أنك قد زوّجته ابنتك ونحن لا نعلم شيئاً غير هذا،

ولا نعرف هل هو إنسيّ أو جنيّ؟ ولكنه عفيف أديب لا يتعاطى القبيح . فلمّا سمع الملك مقالتهن برد ما به . ثم إنه رفع الستر قليلاً قليلاً ونظر ، فرأى ابن الملك جالساً مع ابنته يتحدثان وهو في أحسن التصوير ووجهه كالبدر المنير . فلم يقدر الملك أن يمسك نفسه من غيرته على ابنته ، فرفع الستر ودخل وبيده سيف مسلول وقد هجم عليهما كأنه الغول ، فلمّا نظره ابن الملك قال لها : أهذا أبوك ؟ قالت : نعم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 360

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ابن الملك لما رأى الملك بيده سيف مسلول وقد هجم عليهما كأنه الغول قال لها : أهذا أبوك ؟ قالت له : نعم . فعند ذلك وثب قائماً على قدميه وتناول سيفه بيديه وصاح على الملك صيحة منكرة فأدهشه ، وهمّ أن يحمل عليه بالسيف فعلم الملك أنه أوثب منه . فأغمد سيفه ثم وقف حتى انتهى إليه ابن الملك فقابله بملاطفة وقال له : يا فتى ، هل أنت إنسي أم جنيّ؟ فقال له ابن الملك : لولا أني أرعى زمامك وحرمة ابنتك لسفكت دمك . كيف تنسبني إلى الشياطين ؟ وأنا من أولاد الملوك الأكاسرة الذين لو شاؤوا أخذ ملك ، لَزَلْزَلُوك عن عزك وسلطانك وسلبوا عنك جميع ما في أوطانك . فلمّا سمع الملك كلامه هابه وخاف على نفسه منه وقال له : إن كنت من أولاد الملوك كما زعمت ، فكيف دخلت قصري بغير إذني وهتكت حرمتي ووصلت إلى بنتي وزعمت أنك بعلها وادعيت أني قد زوّجتك بها ؟ وأنا قد قتلت الملوك وأبناء الملوك حين خطبوها مني . ومن ينجّيك من سطوتي ، وأنا إن صحت على عبيدي وغلماني وأمرتهم بقتلك قتلوك في الحال . فمن يخلّصك من يدي ؟ فلمّا سمع ابن الملك منه ذلك الكلام قال للملك : إني لأعجب منك ومن قلة بصيرتك ، هل تطمع لابنتك في بعل أحسن مني ؟ وهل رأيت أحداً أثبت جناناً وأكثر مكافأة وأعز سلطاناً وجنوداً وأعواناً مني ؟ فقال له الملك : لا والله ، ولكن وددت يا فتى أن تكون خاطباً لها على رؤوس الأشهاد حتى أزوّجك بها . وأما إذا زوجتك بها خفية فإنك تفضحني فيها . فقال له ابن الملك : لقد أحسنت في قولك . ولكن أيها الملك إذا اجتمعت عبيدك وخدمك وجنودك عليّ وقتلوني كما زعمت فإنك تفضح نفسك وتبقي الناس فيك بين مصدّق ومكذّب ، ومن الرأي عندي أن ترجع أيها الملك إلى ما أشير به عليك . فقال له الملك : هات حديثك . فقال له ابن الملك : الذي أحدّثك به ، إما أن تبارزني أنا وأنت خاصة فمن قتل صاحبه كان أحق وأولى بالملك ، وإما أن تتركني في هذه الليلة وإذا كان الصباح ، فاخرج إليّ عسكرك وجنودك وغلمانك واخبرني بعدّتهم . فقال له الملك : إن عدّتهم أربعون ألف فارس غير العبيد الذي لي وغير أتباعهم ، وهم مثلهم في العدد . فقال ابن الملك : إذا كان طلوع النهار فاخرجهم إليّ وقل لهم : وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 361

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ابن الملك قال لي : إذا كان طلوع النهار فاخرجهم إليّ وقل لهم : هذا قد خطب مني ابنتي على شرط أن يبارزكم جميعاً ، وادّعى أنه يغلبكم ويقهركم وإنكم لا تقدرون عليه . ثم اتركني معهم أبارزهم ، فإذا قتلوني فذلك أخفى لسرّك وأصون لعرضك ، وإن غلبتهم وقهرتهم فمثلي يرغب الملك في مصاهرته . فلمّا

سمع الملك كلامه استحسن رأيه وقبل رأيه مع ما استعظمه من قوله وما أهاله من أمره في عزمه على مبارزة جميع عسكره الذين وصفهم له. ثم جلسا يتحدثان، وبعد ذلك دعا الملك بالخادم وأمره أن يخرج من وقته وساعته إلى وزيره ويأمره أن يجمع جميع العساكر ويأمرهم بحمل أسلحتهم وأن يركبوا خيولهم. فسار الخادم إلى الوزير وأعلمه بما أمره به الملك. فعند ذلك طلب الوزير نقباء الجيش وأكابر الدولة وأمرهم أن يركبوا خيولهم ويخرجوا لابسين آلات الحرب. هذا ما كان من أمرهم. وأما ما كان من أمر الملك فإنه لا زال يتحدّث مع الغلام حيث اعجبه حديثه وعقله وأدبه. فبينما هما يتحدثان وإذا بالصباح قد أصبح، فقام الملك وتوجّه إلى تخته وأمر جيشه بالركوب وقدّم لابن الملك فرساً جيداً من خيار خيله، وأمر أن تسرج له بعدة حسنة. فقال له: أيها الملك، إني ما أركب حتى أشرف على الجيش وأشاهدهم. فقال له الملك: الأمر كما تحب. ثم سار الملك والفتى بين يديه حتى وصلا إلى الميدان، فنظر الغلام إلى الجيش وكثرته ثم نادى الملك: يا معاشر الناس، إنه قد وصل إليّ غلام يخطب ابنتي ولم أرَ قطّ أحسن منه ولا أشدّ قلباً ولا أعظم بأساً منه، وقد زعم أنه يغلبكم ويقهركم وحده، ويدّعي أنكم ولو بلغتم مائة ألف ما أنتم عنده إلاّ قليل. فإذا بارزكم فخذوه على أسنّة رماحكم وأطراف صفاحكم فإنه قد تعاطى أمراً عظيماً. ثم إن الملك قال له: يا ابني دونك وما تريد منهم. فقال له: أيها الملك، إنك ما أنصفتني، كيف أبارزهم وأنا مترجّل وأصحابك ركاب خيل؟ فقال له: قد أمرتك بالركوب فأبيت، فدونك والخيل فاختر منها ما تريد. فقال له: لا يعجبني شيء من خيلك ولا أركب إلاّ الفرس التي جئت راكباً عليها. فقال له الملك: وأين فرسك؟ فقال له: هي فوق قصرك. فقال له: في أي موضع في قصري؟ فقال: على سطح القصر. فلمّا سمع الملك كلامه قال له: هذا أول ما ظهر من خبالك، يا ويلك كيف تكون الفرس فوق السطح؟ ولكن في هذا الوقت يظهر صدقك من كذبك. ثم إن الملك التفت إلى بعض خواصه وقال له: إمض إلى قصري واحضر الذي تجده فوق السطح. فصار الناس متعجبين من قول الفتى ويقول بعضهم لبعض: كيف ينزل هذا الفرس من سلالم السطح؟ إن هذا شيء ما سمعنا بمثله. ثم إن الذي أرسله الملك إلى القصر صعد إلى أعلاه فرأى الفرس قائماً ولم ير أحسن منه، فتقدّم إليه وتأمّله فوجده من الأبنوس والعاج. وكان بعض خواص الملك طلع معه أيضاً، فلمّا نظروا إلى الفرس تضاحكوا وقالوا: وعلى مثل هذا الفرس يكون ما ذكره الفتى، فما نظنه إلاّ مجنوناً ولكن سوف يظهر لنا أمره. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 362

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خواص الملك لما نظروا إلى الفرس تضاحكوا وقالوا: وعلى مثل هذا الفرس يكون ما ذكره الفتى؟ فما نظنه إلاّ مجنوناً، ولكن سوف يظهر لنا أمره وربما يكون له شأن عظيم. ثم إنهم رفعوا الفرس على أيديهم، ولم يزالوا حاملين لها حتى وصلوا إلى قدّام الملك وأوقفوها بين يديه. فاجتمع عليها الناس ينظرون إليها ويتعجّبون من حسن صنعتها وحسن سرجها ولجامها، واستحسنها الملك أيضاً وتعجّب منها غاية العجب. ثم قال لابن الملك: يا فتى، أهذه فرسك؟ فقال: نعم أيها الملك هذه فرسي، وسوف ترى منها العجب. فقال له الملك: خذ فرسك واركبها. قال: لا أركبها إلا إذا بَعُدَ عنها

العساكر . فأمر الملك العسكر الذين حوله أن يبعدوا عنها مقدار رمية السهم . فقال له : أيها الملك ، ها أنا رايح أركب فرسي وأحمل على جيشك فأفرّقهم يميناً وشمالاً وأصدّع قلوبهم . فقال له الملك : إفعل ما تريد ولا تبقِ عليهم فإنهم لا يبقون عليك . ثم إن ابن الملك توجّه إلى فرسه وركبها واصطفت له الجيوش وقال بعضهم لبعض : إذا وصل الغلام بين الصفوف نأخذ بأسنّة الرماح وشفار الصفاح . فقال واحد منهم : والله إنها مصيبة ، كيف نقتل هذا الغلام صاحب الوجه المليح والقدّ الرجيح ؟ فقال واحد آخر : والله لن تصلوا إليه إلاّ بعد أمر عظيم ، وما فعل الفتى هذه الفعال إلاّ لما علم من شجاعة نفسه وبراعته . فلمّا استوى ابن الملك على فرسه ، فرك لولب الصعود فتطاولت إليه الأبصار لينظروا ماذا يريد أن يفعل ، فماجت فرسه واضطربت حتى عملت أغرب حركات تعملها الخيل وامتلأ جوفها بالهواء ثم ارتفعت وصعدت إلى الجوّ . فلمّا رآه الملك قد ارتفع وصعد ، نادى على جيشه وقال : ويلكم ، خذوه قبل أن يفوتكم . فعند ذلك قال له وزراؤه ونوابه : أيها الملك ، هل أحد يلحق الطير الطائر ؟ وما هذا إلاّ ساحر عظيم قد نجاك الله منه ، فاحمد الله تعالى على خلاصك من يده . فرجع الملك إلى قصره بعد ما رأى من ابن الملك ما رأى ، ولما وصل إلى قصره ذهب إلى ابنته وأخبرها بما جرى له مع ابن الملك في الميدان ، فوجدها كثيرة التأسّف عليه وعلى فراقها له . ثم إنها مرضت مرضاً شديداً ولزمت الوساد ، فلمّا رآها أبوها على تلك الحالة ضمّها إلى صدره وقبّلها بين عينيها وقال لها : يا بنتي ، احمدي الله تعالى واشكريه حيث خلّصنا من هذا الساحر الماكر . وجعل يكرّر عليها ما رآه من ابن الملك ويذكر لها صفة صعوده في الهواء ، وهي لا تصغي إلى شيء من قول أبيها . واشتدّ بكاؤها ونحيبها ثم قالت في نفسها : والله لا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى يجمع الله بيني وبينه . فحصل لأبيها الملك همّ عظيم من أجل ذلك وشقّ عليه حال ابنته ، وصار حزين القلب عليها وكلما يلاطفها لا تزداد إلاّ شغفاً به . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 363

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك صار حزين القلب على ابنته ، وكلما يلاطفها لا تزداد إلاّ شغفاً به . هذا ما كان من أمر الملك وابنته . وأما ما كان من أمر ابن الملك ، فإنه لما صعد في الجو اختلى بنفسه وتذكّر حسن الجارية وجمالها ، وكان قد سأل أصحاب الملك عن اسم المدينة واسم الملك واسم ابنته ، وكانت تلك المدينة مدينة صنعاء . ثم إنه جدّ في السير حتى اشرف على مدينة أبيه ، ودار حول المدينة ثم توجّه إلى قصر أبيه ونزل فوق السطح وترك فرسه هناك ونزل إلى والده ودخل عليه فوجده حزيناً كئيباً لأجل فراقه . فلمّا رآه والده قام إليه واعتنقه وضمّه إلى صدره وفرح به فرحاً شديداً . ثم إنه لما اجتمع بوالده سأله عن الحكيم الذي عمل الفرس وقال : يا والدي ، ما فعل الدهر به ؟ فقال له والده : لا بارك الله في الحكيم ولا في الساعة التي رأيته فيها ، لأنه هو الذي كان سبباً لفراقك منّا ، وهو مسجون يا ولدي من يوم غبت عنا . فأمر ابن الملك بالإفراج عنه وإخراجه من السجن وإحضاره بين يديه . فلمّا حضر بين يديه خلع عليه خلعة الرضى وأحسن إليه غاية الإحسان إلاّ أنه لم يزوّجه ابنته . فغضب الحكيم من أجل ذلك غضباً شديداً وندم على ما فعل وعلم أن ابن الملك قد عرف سر الفرس وكيفية سيرها . ثم إن الملك قال لابنه : الرأي عندي أنك لا تقرب هذه الفرس بعد ذلك

ولا تركبها أبداً بعد يومك هذا لأنك لا تعرف أحوالها، فأنت منها على غرور. وكان ابن الملك حدّث أباه بما جرى له مع ابنة الملك صاحب تلك المدينة وما جرى له مع أبيها. فقال له أبوه: لو أراد الملك قتلك لقتلك ولكن في أجلك تأخير. ثم إن ابن الملك هاجت بلابله بحب الجارية ابنة الملك صاحب صنعاء، فقام إلى الفرس وركبها وفرك لولب الصعود فطارت به في الهواء وعلت به إلى عنان السماء. فلمّا أصبح الصباح افتقده أبوه فلم يجده، فطلع إلى أعلى القصر وهو ملهوف فنظر إلى ابنه وهو صاعد في الهواء فتأسّف على فراقه وندم كل الندم حيث لم يأخذ الفرس ويخفي أمرها. ثم قال في نفسه: والله إن رجع إليّ ولدي ما بقيت أخلّي هذه الفرس لأجل أن يطمئن قلبي على ولدي. ثم إنه عاد إلى بكائه ونحيبه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 364

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك عاد إلى بكائه ونحيبه من حزنه على ولده. هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر ابنه، فإنه لم يزل سائراً في الجوّ حتى وقف على مدينة صنعاء ونزل في المكان الذي نزل فيه أولاً، ومشى مستخفياً حتى وصل إلى محل ابنة الملك فلم يجدها لا هي ولا جواريها ولا الخادم الذي كان محافظاً عليها. فعظم ذلك عليه، ثم إنه دار يفتش عليها في القصر فوجدها في مجلس آخر غير محلها الذي اجتمع معها فيه وقد لزمت الوساد وحولها الجواري والدّايات، فدخل عليهنّ وسلّم عليهنّ. فلمّا سمعت الجارية كلامه قامت إليه واعتنقته وجعلت تقبّله بين عينيه وتضمّه إلى صدرها. فقال لها: يا سيدتي، أوحشتني هذه المدة. فقالت له: أنت الذي أوحشتني، ولو طالت غيبتك عني لكنت هلكت بلا شك. فقال لها: يا سيدتي، كيف رأيت حالي مع أبيك وما صنع بي؟ ولولا محبتك يا فتنة العالمين لقتلته وجعلته عبرة للناظرين، ولكن أحبه من أجلك. فقالت له: كيف تغيب عني؟ وهل تطيب حياتي بعدك؟ فقال لها: أتطيعيني وتصغي الى قولي؟ فقالت له: قل ما شئت فإني أجيبك إلى ما تدعوني إليه ولا أخالفك في شيء. فقال لها: سيري معي إلى بلادي وملكي. فقالت له: حبّاً وكرامةً. فلمّا سمع ابن الملك كلامها، فرح فرحاً شديداً وأخذ بيدها وعاهدها بعهد الله تعالى على ذلك. ثم صعد بها إلى أعلى سطح القصر وركب فرسه وأركبها خلفه، ثم ضمّها إليه وشدّها شدّاً وثيقاً وحرّك لولب الصعود الذي في كتف الفرس فصعدت بهما إلى الجوّ. فعند ذلك زعقت الجواري وأعلمن الملك أباها وأمها، فصعدا مبادرين إلى سطح القصر والتفت الملك إلى الجوّ فرأى الفرس الأبنوس وهي طائرة بهما في الهواء. فعند ذلك انزعج الملك وزاد انزعاجه وصاح وقال: يا ابن الملك، سألتك بالله أن ترحمني وترحم زوجتي ولا تفرّق بيننا وبين بنتنا. فلم يجبه ابن الملك. ثم إن ابن الملك ظن في نفسه أن الجارية ندمت على فراق أمها وأبيها فقال لها: يا فتنة الزمان، هل لك أن أردّك إلى أمك وأبيك؟ فقالت له: يا سيدي والله ما مرادي ذلك، إنما مرادي أن أكون معك أينما تكون لأنني مشغولة بمحبتك عن كل شيء حتى عن أبي وأمي. فلمّا سمع ابن الملك كلامها فرح بذلك فرحاً شديداً وجعل يسير الفرس بهما سيراً لطيفاً لكي لا يزعجها. ولم يزل يسير بها حتى نظر إلى مرج أخضر وفيه عين ماء جارية، فنزلا هناك وأكلا وشربا. ثم إن ابن الملك ركب فرسه وأردفها خلفه وأوثقها بالرباط خوفاً عليها وسار بها. ولم

يزل سائراً بها في الهواء حتى وصل إلى مدينة أبيه فاشتدّ فرحه . ثم أراد أن يظهر للجارية محل سلطانه وملك أبيه ويعرفها أن ملك أبيه أعظم من ملك أبيها ، فانزلها في بعض البساتين التي يتفرّج فيها والده وادخلها في المقصورة المعدّة لأبيه وأوقف الفرس الأبنوس على باب تلك المقصورة وأوصى الجارية بالمحافظة على الفرس وقال لها : اقعدي ها هنا حتى أرسل إليك رسولي ، فإني متوجه إلى أبي لأهيّيء لك قصراً وأظهر لك ملكي . ففرحت الجارية عندما سمعت منه هذا الكلام وقالت له : إفعل ما تريد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 365

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية فرحت عندما سمعت من ابن الملك هذا الكلام وقالت له : إفعل ما تريد . ثم خطر ببالها أنها لا تدخل إلاّ بالتبجيل والتشريف كما يصلح لأمثالها . ثم إن ابن الملك تركها وسار حتى وصل إلى المدينة ودخل على أبيه ، فلمّا رآه أبوه فرح بقدومه وتلقّاه ورحّب به . ثم إن ابن الملك قال لوالده : أعلم أنني قد أتيت ببنت الملك التي كنت أعلمتك بها ، وقد تركتها خارج المدينة في بعض البساتين وجئت أعلمك بها لأجل أن تهيّيء الموكب وتخرج لملاقاتها وتظهر لها ملكك وجنودك وأعوانك . فقال له الملك : حبّاً وكرامةً . ثم أمر من وقته وساعته أهل المدينة أن يزيّنوا المدينة بالزينة الحسنة ، وركب في أكمل هيئة وأحسن زينة هو وجميع عساكره وأكابر دولته وسائر مملكته وخدمه ، وأخرج ابن الملك من قصره الحلي والحلل وما تدّخره الملوك ، وهيّأ لها عمارة من الديباج الأخضر والأحمر والأصفر ، وأجلس على تلك العمارة الجواري الهنديات والروميات والحبشيات وأظهر من الذخائر شيئاً عجيباً . ثم إن ابن الملك ترك العمارة بمن فيها وسبق إلى البستان ودخل المقصورة التي تركها فيها وفتش عليها فلم يجدها ولم يجد الفرس . فعند ذلك لطم على وجهه ومزّق ثيابه وجعل يطوف في البستان وهو مدهوش العقل ، ثم بعد ذلك رجع إلى عقله وقال في نفسه : كيف علمت بسرّ هذه الفرس وأنا لم أعلمها بشيء من ذلك ؟ ولعل الحكيم الفارسي الذي عمل الفرس قد وقع عليها وأخذها جزاء ما عمله والدي معه . ثم إن ابن الملك طلب حرّاس البستان وسألهم عن من مرّ بهم وقال لهم : هل نظرتم أحداً مرّ بكم ودخل هذا البستان ؟ فقالوا : ما رأينا أحداً دخل هذا البستان سوى الحكيم الفارسي . فإنه دخل ليجمع الحشائش النافعة . فلمّا سمع كلامهم صحّ عنده أن الذي أخذ الجارية هو ذلك الحكيم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 366

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ابن الملك لما سمع كلامهم صحّ عنده أن الذي أخذ الجارية هو ذلك الحكيم . وكان بالأمر المقدّر أن ابن الملك لما ترك الجارية في المقصورة التي في البستان وذهب إلى قصر أبيه ليهيىء أمره ، دخل الحكيم الفارسي إلى البستان ليجمع شيئاً من الحشيش النافع ، فشمّ رائحة المسك والطيب التي عبق منها المكان وكان ذلك الطيب من رائحة ابنة الملك . فقصد الحكيم صوب تلك الرائحة حتى وصل إلى تلك المقصورة فرأى الفرس التي صنعها بيده واقفة على باب المقصورة . فلمّا رأى الحكيم الفرس امتلأ

قلبه فرحاً وسروراً، لأنه كان كثير التأسّف على الفرس حيث خرجت من يده. فتقدّم إلى الفرس وافتقد جميع أجزائها فوجدها سالمة، ولما أراد أن يركبها ويسير قال في نفسه: لا بدّ أن أنظر إلى ما جاء به ابن الملك وتركه مع الفرس ها هنا. فدخل المقصورة فوجد الجارية جالسة وهي كالشمس الضاحية في السماء الصاحية، فلمّا نظرها علم أنها جارية لها شأن عظيم وقد أخذها ابن الملك وأتى بها على الفرس وتركها في تلك المقصورة ثم توجّه إلى المدينة ليجيىء لها بموكب ويدخلها المدينة بالتبجيل والتشريف. فعند ذلك دخل الحكيم إليها وقبّل الأرض بين يديها، فرفعت إليه طرفها ونظرت إليه فوجدته قبيح المنظر جداً بشع الصورة فقالت له: من أنت؟ فقال لها: يا سيدتي أنا رسول ابن الملك، قد أرسلني إليك وأمرني أن أنقلك إلى بستان آخر قريب من المدينة. فلمّا سمعت الجارية منه ذلك الكلام قالت له: وأين ابن الملك؟ قال لها: هو في المدينة عند أبيه وسيأتي إليك في هذه الساعة بموكب عظيم. فقالت له: يا هذا، وهل ابن الملك لم يجد أحداً يرسله إليّ غيرك؟ فضحك الحكيم من كلامها وقال لها: يا سيدتي، لا يغرنّك قبح وجهي وبشاعة منظري، فلو نلت منّي ما ناله ابن الملك لحمدت أمري. وإنما خصني ابن الملك بالإرسال إليك لقبح منظري ومهول صورتي غيرة منه عليك ومحبة لك، وإلاّ فعنده من المماليك والعبيد والغلمان والخدم والحشم ما لا يحصى. فلمّا سمعت الجارية كلامه دخل في عقلها وصدّقته وقامت معه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 367

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحكيم الفارسي لما أخبر الجارية بأحوال ابن الملك، صدقت كلامه ودخل في عقلها وقامت معه ووضعت يدها في يده ثم قالت له: يا والدي، ما الذي جئت لي به معك حتى أركبه؟ فقال: يا سيدتي، الفرس الذي جئت عليها تركبينها. فقالت له: أنا لا أقدر على ركوبها وحدي. فتبسّم الحكيم عندما سمع منها ذلك وعلم أنه قد ظفر بها. فقال لها: أنا أركب معك بنفسي. ثم إنه ركب وأركب الجارية خلفه وضمّها إليه وشدّ وثاقها وهي لا تعلم ما يريد بها، ثم إنه حرّك لولب الصعود فامتلأ جوف الفرس بالهواء وتحرّكت وماجت ثم ارتفعت صاعدة إلى الجوّ، ولم تزل سائرة بهما حتى غابت عن المدينة. فقالت له الصبيّة: يا هذا، أين الذي قلته عن ابن الملك حيث زعمت أنه أرسلك إليّ. فقال لها الحكيم: قبّح الله ابن الملك فإنه خبيث لئيم. فقالت له: يا ويلك، كيف تخالف أمر مولاك فيما أمرك به؟ فقال لها: ليس هو مولاي، فهل تعرفين من أنا؟ فقالت له: لا أعرفك إلاّ بما عرّفتني به عن نفسك. فقال لها: إنما كان إخباري لك بهذا الخبر حيلة منّي عليك وعلى ابن الملك، ولقد كنت متأسّفاً طول عمري على هذه الفرس التي تحتك، فإنها صناعتي وكان استولى عليها. والآن قد ظفرت بها وبك أيضاً وقد أحرقت قلبه كما أحرق قلبي، ولا يتمكّن منها بعد ذلك أبداً. فطيبي قلباً وقرّي عيناً فأنا لك أنفع منه. فلمّا سمعت الجارية كلامه لطمت على وجهها ونادت: يا أسفاه، لا حصلت حبيبي ولا بقيت عند أبي وأمي. وبكت بكاءً شديداً على ما حلّ بها. ولم يزل الحكيم سائراً بها إلى بلاد الروم حتى نزل بها في مرج أخضر ذي أنهار وأشجار وكان ذلك المرج بالقرب من مدينة، وفي تلك المدينة ملك عظيم الشأن. فاتفق في ذلك اليوم أن ملك تلك المدينة خرج إلى الصيد والنزهة فجاز على ذلك المرج، فرأى الحكيم واقفاً والفرس

والجارية بجانبه . فلم يشعر الحكيم إلاّ وقد هجم عليه عبيد الملك واخذوه هو والجارية والفرس وأوقفوا الجميع بين يدي الملك ، فلمّا نظر إلى قبح منظره وبشاعته ونظر إلى حسن الجارية وجمالها قال لها : يا سيدتي ، ما نسبة هذا الشيخ منك ؟ فبادر الحكيم بالجواب وقال : هي زوجتي وابنة عمي . فكذّبته الجارية عندما سمعت قوله وقالت : أيها الملك ، والله لا أعرفه ولا هو بعلي ، بل أخذني بالحيلة . فلمّا سمع الملك مقالها أمر بضربه فضربوه حتى كاد أن يموت ، ثم أمر الملك أن يحملوه إلى المدينة ويطرحوه في السجن ففعلوا به ذلك . ثم إن الملك أخذ الجارية والفرس منه ، ولكنه لم يعلم بأمر الفرس ولا بكيفية سيرها . هذا ما كان من أمر الحكيم والجارية . وأما ما كان من أمر ابن الملك ، فإنه لبس ثياب السفر وأخذ ما يحتاج إليه من المال وسافر وهو في أسوأ حال ، وصار مسرعاً يقتصّ الأثر في طلبهما من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة ويسأل عن الفرس الأبنوس ، وكل من سمع منه خبر الفرس الأبنوس يتعجّب منه ويستعظم قوله . فأقام على هذا الحال مدة من الزمان ، ومع كثرة السؤال والتفتيش عليهما لم يقع لهما على خبر . ثم إنه سار إلى مدينة أبي الجارية وسأل عنها هناك فلم يسمع لها بخبر ، ووجد أباها حزيناً على فقدها . فرجع وقصد بلاد الروم وجعل يقتصّ أثرهما ويسأل عنهما . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 368

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ابن الملك قصد بلاد الروم وجعل يقتصّ أثرها ويسأل عنهما . فاتفق أنه نزل في خان من الخانات ، فرأى جماعة من التجار جالسين يتحدّثون . فجلس قريباً منهم فسمع أحدهم يقول : يا أصحابي ، لقد رأيت عجباً من العجائب . فقالوا له : وما هو ؟ قال : إني كنت في بعض الجهات في مدينة كذا ، وذكر إسم المدينة التي فيها الجارية . فسمعت أهلها يتحدّثون بحديث غريب ، وهو أن ملك المدينة خرج يوماً من الايام إلى الصيد والقنص ومعه جماعة من أصحابه وأكابر دولته ، فلمّا طلعوا إلى البرية جازوا على مرج أخضر فوجدوا هناك رجلاً واقفاً وإلى جانبه امرأة جالسة ومعه فرس من أبنوس . فأما الرجل فإنه قبيح المنظر مهول الصورة جداً ، وأما المرأة فإنها صبيّة ذات حسن وجمال وبهاء وكمال وقدّ واعتدال ، وأما الفرس الأبنوس فإنها من العجائب التي لم يرَ الراؤون أحسن منها ولا أجمل من صنعتها . فقال له الحاضرون : فما فعل الملك بهم ؟ فقال : أمّا الرجل فإنه أخذه الملك وسأله عن الجارية فادّعى أنها زوجته وابنة عمه . وأما الجارية فإنها كذّبته في قوله فأخذها الملك منه وأمر بضربه وطرحه في السجن . وأما الفرس الأبنوس فما لي بها علم . فلمّا سمع ابن الملك هذا الكلام من التاجر ، دنا منه وصار يسأله برفق وتلطّف حتى أخبره باسم المدينة واسم ملكها . فلمّا عرف ابن الملك إسم المدينة وإسم ملكها بات ليلته مسروراً . فلما أصبح الصباح خرج وسافر ، ولم يزل مسافراً حتى وصل إلى تلك المدينة ، فلمّا أراد أن يدخلها أخذه البوّابون وأرادوا إحضاره قدّام الملك ليسأله عن حاله وعن سبب مجيئه إلى تلك المدينة وعن ما يحسنه من الصنائع . وكانت هذه عادة الملك من سؤال الغرباء عن أحوالهم وصنائعهم . وكان وصول ابن الملك إلى تلك المدينة في وقت المساء ، وهو وقت لا يمكن الدخول فيه على الملك ولا المشاورة عليه . فأخذه البوّابون وأتوا به إلى السجن ليضعوه فيه ، فلمّا نظر

السجّانون إلى حسنه وجماله، لم يهن عليهم أن يدخلوه إلى السجن بل أجلسوه معهم خارج السجن . فلمّا جاءهم الطعام أكل معهم بحسب الكفاية، فلمّا فرغوا من الأكل جعلوا يتحدثون . ثم أقبلوا على ابن الملك وقالوا له : من أي البلاد أنت ؟ فقال : أنا من بلاد فارس بلاد الأكاسرة . فلمّا سمعوا كلامه ضحكوا وقال له بعضهم : يا كسروي ، لقد سمعت حديث الناس وأخبارهم وشاهدت أحوالهم فما رأيت ولا سمعت أكذب من هذا الكسروي الذي عندنا في السجن . فقال آخر : ولا رأيت أقبح من خلقته ولا أبشع من صورته . فقال لهم ابن الملك : ما الذي بان لكم من كذبه . فقالوا : يزعم أنه حكيم . وكان الملك قد رآه في طريقه وهو ذاهب إلى الصيد، ومعه امرأة بديعة الحسن والجمال والبهاء والكمال والقدّ والإعتدال، ومعه أيضاً فرس من الأبنوس الأسود ما رأينا قط أحسن منها . فأما الجارية فهي عند الملك وهو لها محب . ولكن تلك المرأة مجنونة، ولو كان ذلك الرجل حكيماً كما يزعم ، لداواها . والملك مجتهد في علاجها وغرضه ، مداواتها مما هي فيه . وأما الفرس الأبنوس فإنها في خزانة الملك، وأما الرجل القبيح المنظر الذي كان معها فإنه عندنا في السجن ، فاذا جنّ عليه الليل يبكي وينتحب أسفاً على نفسه ولا يدعنا ننام . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 369

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الموكلين بالسجن لما أخبروه بخبر الحكيم الفارسي الذي عندهم في السجن وبما هو فيه من البكاء والنحيب، خطر بباله أنه يدبر تدبيراً يبلغ به غرضه . فلمّا أراد البوّابون النوم أدخلوه السجن وأغلقوا عليه الباب، فسمع الحكيم يبكي وينوح على نفسه بالفارسية ويقول في نوحه : الويل لي بما جنيت على نفسي وعلى ابن الملك، وبما فعلت بالجارية حيث لم أتركها ولم أظفر بمرادي . وذلك كله من سوء تدبيري، فإني طلبت لنفسي ما لا أستحقه ولا يصلح لمثلي . ومن طلب ما لا يصلح له وقع في مثل ما وقعت فيه . فلمّا سمع ابن الملك كلام الحكيم كلّمه بالفارسية وقال له : إلى كم هذا البكاء والعويل ، هل ترى أنه أصابك ما لم يصب غيرك . فلمّا سمع الحكيم كلامه أنس به وشكا إليه حاله وما يجده من المشقة . فلمّا أصبح الصباح أخذ البوّابون ابن الملك وأتوا به إلى ملكهم وأعلموه أنه وصل إلى المدينة بالأمس في وقت لا يمكن الدخول فيه على الملك . فسأله الملك وقال له : من أي البلاد أنت ؟ وما اسمك وما صنعتك وما سبب مجيئك إلى هذه المدينة ؟ فقال ابن الملك : أما إسمي فإنه بالفارسية حرجة، وأما بلادي فهي بلاد فارس ، وأنا من أهل العلم وخصوصاً علم الطب . فإني أداوي المرضى والمجانين ولهذا أطوف في الأقاليم والمدن لأستفيد علماً على علمي ، وإذا رأيت مريضاً فإني أداويه فهذه صنعتي . فلمّا سمع الملك كلامه ، فرح به فرحاً شديداً وقال له : أيها الحكيم الفاضل ، لقد وصلت إلينا في وقت الحاجة إليك . ثم أخبره بخبر الجارية وقال له : إن داويتها وأبرأتها من جنونها فلك عندي جميع ما تطلبه . فلمّا سمع كلام الملك قال له : أعزّ الله الملك، صف لي كل شيء رأيته من جنونها، واخبرني منذ كم يوم عرض لها هذا الجنون، وكيف أخذتها هي والفرس والحكيم ؟ فأخبره بالخبر من أوّله إلى آخره . ثم قال له : إن الحكيم في السجن . فقال له : أيها الملك السعيد، فما فعلت بالفرس التي كانت معهما ؟ فقال له : باقية عندي إلى الآن محفوظة في بعض المقاصير . فقال ابن الملك في نفسه : إن

من الرأي عندي أن اتفقّد الفرس وأنظرها قبل كل شيء، فإن كانت سالمة لم يحدث فيها أمر فقد تمّ كل ما أريده، وإن رأيتها قد بطلت حركاتها تحيّلت بحيلة في خلاص مهجتي. ثم التفت إلى الملك وقال له: أيها الملك، ينبغي أن أنظر الفرس المذكورة لعليّ أجد فيها شيئاً يعينني على برء الجارية. فقال له الملك: حبّاً وكرامة. ثم قام الملك وأخذ بيده ودخل معه إلى الفرس، فجعل ابن الملك يطوف حول الفرس ويتفقّدها وينظر أحوالها فوجدها سالمة لم يعبها شيء. ففرح ابن الملك بذلك فرحاً شديداً وقال: أعزّ الله الملك، إني أريد الدخول إلى الجارية حتى أنظر ما يكون منها وأرجو الله أن يكون برؤها على يدي بسبب الفرس إن شاء الله تعالى. ثم أمر بالمحافظة على الفرس ومضى به الملك إلى البيت الذي فيه الجارية، فلمّا دخل عليها ابن الملك وجدها تختبط وتتصرع على عادتها ولم يكن بها جنون وإنما تفعل ذلك حتى لا يقربها أحد. فلمّا رآها ابن الملك على هذه الحالة قال لها: لا بأس عليك يا فتنة العالمين. ثم إنه جعل يرفق بها ويلاطفها إلى أن عرّفها بنفسه، فلمّا عرفته صاحت صيحة عظيمة حتى غشي عليها من شدة ما حصل لها من الفرح. فظن الملك أن هذه الصرعة من فزعها منه. ثم إن ابن الملك وضع فمه على أذنها وقال لها: يا فتنة العالمين، احقني دمي ودمك واصبري وتجلّدي فإن هذا موضع نحتاج فيه إلى الصبر وإتقان التدبير في الحيل حتى نتخلّص من هذا الملك الجائر. ومن الحيلة أني أخرج إليه وأقول له: إن المرض الذي بها عارض من الجنون وأنا أضمن لك برءها. وأشرط عليه أن يفك عنك القيد ويزول هذا العارض عنك. فإذا دخل إليك فكلّميه بكلام مليح حتى يرى أنك برئت على يدي فيتم لنا كل ما نريد. فقالت له: سمعاً وطاعةً. ثم إنه خرج من عندها وتوجّه إلى الملك فرحاً مسروراً وقال: أيها الملك السعيد، قد عرفت بسعادتك دائها ودوائها وقد داويتها لك، فقم الآن وادخل إليها ولَيِّن كلامك لها وترفّق بها وعِدْها بما يسرّها فإنه يتم لك كل ما تريد منها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 370

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك لما جعل نفسه حكيماً ودخل على الجارية وأعلمها بنفسه، أخبرها بالتدبير الذي يدبره. فقالت له: سمعاً وطاعةً. ثم خرج من عندها وتوجه إلى الملك وقال له: قم ادخل إليها ولين لها الكلام وعدها بما يسرّها فإنه يتم لك كل ما تريد منها. فقام الملك ودخل عليها، فلمّا رأته قامت إليه وقبلت الأرض بين يديه ورحّبت به. ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً، ثم أمر الجواري والخدم أن يقوموا بخدمتها ويدخلوها الحمام ويجهّزوا لها الحلي. فدخلوا إليها وسلّموا عليها فردّت عليهم السلام بألطف منطق وأحسن كلام، ثم ألبسوها حللاً من ملابس الملوك ووضعوا في عنقها عقداً من الجواهر وساروا بها إلى الحمام وخدموها، ثم أخرجوها من الحمام كأنها البدر التمام، ولما وصلت إلى الملك سلّمت عليه وقبّلت الأرض بين يديه. فحصل للملك بها سرور عظيم وقال لابن الملك: كل ذلك ببركاتك زادنا الله من نفحاتك. فقال له: أيها الملك، إن تمام برئها وكمال أمرها، أنك تخرج أنت وكل من معك من أعوانك وعسكرك إلى المحل الذي كنت وجدتها فيه وتكون صحبتك الفرس الأبنوس التي كانت معها لأجل أن أعقد عنها العارض هناك وأسجنه وأقتله فلا يعود إليها أبداً. فقال له الملك: حبّاً وكرامةً. ثم أخرج الفرس الأبنوس إلى المرج الذي وجدها

فيه هي والفرس والحكيم الفارسي، وركب الملك مع جيشه وأخذ الجارية صحبته وهم لا يدرون ما يريد أن يفعل. فلمّا وصلوا إلى ذلك المرج، أمر ابن الملك الذي جعل نفسه حكيماً أن توضع الجارية والفرس بعيداً عن الملك والعساكر بمقدار مدّ البصر وقال للملك: دستور عن إذنك، أنا أريد أن أطلق البخور وأتلو العزيمة وأسجن العارض هنا حتى لا يعود إليها أبداً، ثم بعد ذلك أركب الفرس الأبنوس وأركب الجارية خلفي، فإذا فعلت ذلك فإن الفرس تضطرب وتمشي حتى تصل إليك، فعند ذلك يتمّ الأمر فافعل بها بعد ذلك ما تريد. فلمّا سمع الملك كلامه فرح فرحاً شديداً. ثم إن ابن الملك ركب الفرس ووضع الصبيّة خلفه وصار الملك وجميع عسكره ينظرون إليه، ثم إنه ضمها إليه وشدّ وثاقها وبعد ذلك فرك ابن الملك لولب الصعود، فصعدت بهما الفرس في الهواء والعساكر تنظر إليه حتى غاب عن أعينهم. ومكث الملك نصف يوم ينتظر عوده إليه فلم يعد، فيئس منه وندم ندماً عظيماً وتأسّف على فراق الجارية، ثم أخذ عسكره وعاد إلى مدينته. هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر ابن الملك، فإنه قصد مدينة أبيه فرحاً مسروراً. ولم يزل سائراً إلى أن نزل على قصره وأنزل الجارية في القصر وأمّن عليها، ثم ذهب إلى أبيه وأمه فسلّم عليهما وأعلمهما بقدوم الجارية ففرحا بذلك فرحاً شديداً. هذا ما كان من أمر ابن الملك والفرس والجارية. وأما ما كان من أمر ملك الروم، فإنه لما عاد إلى مدينته احتجب في قصره حزيناً كئيباً، فدخل عليه وزراؤه وجعلوا يسلّونه ويقولون له: إن الذي أخذ الجارية ساحر والحمد لله الذي نجّاك من سحره ومكره. ولا زالوا به حتى تسلّى عنها. وأما ابن الملك فإنه عمل الولائم العظيمة لأهل المدينة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 371

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك عمل الولائم العظيمة لأهل المدينة وأقاموا في الفرح شهراً كاملاً، ثم دخل على الجارية وفرحا بعضهما فرحاً شديداً. هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر والده، فإنه كسر الفرس الأبنوس وأبطل حركاتها. ثم إن ابن الملك كتب كتاباً إلى أبي الجارية وذكر له فيه حالها وأخبره أنه تزوّج وهي عنده في أحسن حال وأرسله إليه مع رسول وصحبته هدايا وتحفاً نفيسة. فلمّا وصل الرسول إلى مدينة أبي الجارية وهي صنعاء اليمن، أوصل الكتاب والهدايا إلى ذلك الملك، فلمّا قرأ الكتاب فرح فرحاً شديداً وقبل الهدايا وأكرم الرسول. ثم جهّز هدية لصهره ابن الملك وأرسلها إليه مع ذلك الرسول، فرجع بها إلى ابن الملك وأعلمه بفرح الملك أبي الجارية حين بلغه خبر ابنته فحصل له سرور عظيم. وصار ابن الملك في كل سنة يكاتب صهره ويهاديه، ولم يزالوا كذلك حتى توفي الملك أبو الغلام وتولّى هو بعده في المملكة. فعدل في الرعية وسار فيهم بسيرة مرضية، فدانت له البلاد وأطاعته العباد. واستمروا على هذه الحالة في ألذّ عيش وأهناه وأرغده وأمراه إلى أن أتاهم هادم اللذّات ومفرّق الجماعات ومخرّب القصور ومعمّر القبور. فسبحان الحي الذي لا يموت وبيده الملك والملكوت.

48 – حكاية أنس الوجود والورد في الأكمان

ومما يحكى أيضاً أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والآوان ملك عظيم الشان ذو عزّ

وسلطان، وكان له وزير يسمّى ابراهيم وكانت له ابنة بديعة في الحسن والجمال فائقة في البهجة والكمال، ذات عقل وافر وأدب باهر إلاّ أنها تهوى المنادمة والراح والوجوه الملاح ورقائق الأشعار ونوادر الأخبار. تدعو العقول إلى الهوى رقّة معانيها كما قال فيها بعض واصفيها: [من الطويل]

كَلِفْتُ بها فَتّانَةَ التُّرْكِ والعَرَبْ ... تجادِلُني في الفِقْهِ والنَّحْوِ والأَدَبْ
تَقُولُ: أنا المَفْعُولُ بِي وخَفَضْتَنِي ... لماذا وهذا فاعِلٌ فَلِمْ أَنْتَصِبْ
فَقُلْتُ لَها: نَفْسِي ورُوحِي لَكِ الفدا ... أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الزَّمانَ قَدْ انْقَلَبْ
وإِنْ كُنْتِ يَوْماً تُنْكِرِينَ انْقِلابَهُ ... فَها فانْظُرِي ما عُقْدَةُ الرَّأْسِ في الذَّنَبْ

وكان اسمها الورد في الأكمام. وسبب تسميتها بذلك فرط رقّتها وكمال بهجتها. وكان الملك محبّاً لمنادمتها لكمال أدبها، ومن عادة الملك أنه في كل عام يجمع أعيان مملكته ويلعب الكرة. فلمّا كان ذلك اليوم الذي يجمع فيه الناس للعب الكرة، جلست ابنة الوزير في الشباك لتتفرّج. فبينما هم في اللعب إذ لاحت منها التفاتة فرأت بين العسكر شاباً لم يكن أحسن منه منظراً ولا أبهى طلعة، نيّر الوجه ضاحك السن طويل الباع واسع المنكب. فكرّرت فيه النظر مراراً فلم تشبع منه نظراً فقالت لدايتها: ما اسم هذا الشاب المليح الشمائل الذي بين العسكر؟ فقالت لها: يا بنتي الكل ملاح، فمن هو فيهم؟ فقالت لها: إصبري حتى أشير لك إليه. ثم أخذت تفاحة ورمتها عليه، فرفع رأسه فرأى ابنة الوزير في الشباك كأنها البدر في الأفلاك. فلم يردّ إليه طرفه إلاّ وهو بعشقها مشغول الخاطر فانشد قول الشاعر: [من الكامل]

أَرَمانِي القَوّاسُ أَمْ جَفْناكِ ... فَتَكا بِقَلْبِ الصَّبِّ حِينَ رآكِ
أَأَتانِي السَّهْمُ المُفَوَّقُ بُرْهَةً ... مِنْ جَحْفَلٍ أَمْ جاءَ مِنْ شُبّاكِ

فلما فرغ اللعب قالت لدايتها: ما اسم هذا الشاب الذي أريته لك؟ قالت: إسمه أنس الوجود. فهزّت رأسها ونامت في مرتبتها وقدحت فكرتها. ثم صعّدت الزفرات وانشدت هذه الأبيات: [من السريع]

ما خابَ مَنْ سَمّاكَ أُنْسَ الوُجُودْ ... يا جامِعاً ما بَيْنَ أُنْسٍ وُجُودْ
يا طَلْعَةَ البَدْرِ الَّذي وَجْهُهُ ... قَدْ نَوَّرَ الكَوْنَ وعَمَّ الوُجُودْ
ما أَنْتَ إلاّ مُفْرَدٌ في الوَرَى ... سُلْطانُ ذي حُسْنٍ وعِنْدِيَ شُهُودْ
حاجِبُكَ النُّونُ التي حُرِّرَتْ ... ومُقْلَةٌ كالصّادِ صُنْعُ الوَدُودْ
وقَدُّكَ الغُصْنُ الرَّطِيبُ الَّذي ... إذا دَعَى في كُلِّ شَيْءٍ يَجُودْ
قَدْ فُقْتَ فُرْسانَ الوَرَى سَطْوَةً ... وفُقْتَهُمْ أُنْساً وحُسْنَ وُجُودْ

فلما فرغت من شعرها كتبته في قرطاس ولفّته في خرقة من الحرير مطرّزة بالذهب ووضعته تحت المخدة. وكانت واحدة من داياتها تنظر إليها، فجاءتها وصارت تمارسها في الحديث حتى نامت وسرقت الورقة من تحت المخدة وقرأتها، فعرفت أنها حصل لها وجد بأنس الوجود. وبعد

أن قرأت الورقة وضعتها في مكانها، فلمّا استفاقت سيدتها الورد في الأكمام من نومها قالت لها: يا سيدتي، إني لك من الناصحات وعليك من الشفيقات، أعلمي أن الهوى شديد وكتمانه يذيب الحديد ويورث الأمراض والأسقام وما على من يبوح بالهوى ملام. فقالت لها الورد في الأكمام: يا دايتي، وما دواء الغرام؟ قالت: دواؤه الوصال. قالت: وكيف يوجد الوصال؟ قالت: يا سيدتي، يوجد بالمراسلة ولين الكلام وإكثار التحيات والسلام. فهذا يجمع بين الأحباب وبه تسهل الأمور الصعاب، وإن كان لك أمر يا مولاتي فأنا أولى بكتم سرّك وقضاء حاجتك وحمل رسالتك. فلمّا سمعت منها الورد في الأكمام ذلك الكلام، طار عقلها من الفرح لكن أمسكت نفسها عن الكلام حتى تنظر عاقبة أمرها. وقالت في نفسها: إن هذا الأمر ما عرفه أحد مني فلا أبوح به لهذه المرأة إلاّ بعد اختبارها. فقالت لها المرأة: يا سيدتي، إني رأيت في منامي كأن رجلاً جاءني وقال لي: ان سيدتك وانس الوجود متحابّان فمارسي أمرهما واحملي رسائلهما واقضي حوائجهما واكتمي امرهما وأسرارهما يحصل لك خير كثير. وها أنا قد قصصت ما رأيت عليك والأمر إليك. فقالت الورد في الأكمام لدايتها لما أخبرتها بالمنام: وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 372

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الورد في الأكمام قالت لدايتها لما أخبرتها بالمنام الذي رأته: هل تكتمين الأسرار يا دايتي؟ فقالت: كيف لا أكتم الأسرار وأنا من خلاصة الأحرار؟ فأخرجت لها الورقة التي كتبت فيها الشعر وقالت لها: إذهبي برسالتي هذه إلى أنس الوجود وائتيني بجوابها. فأخذتها وتوجّهت بها إلى أنس الوجود، فلمّا دخلت عليه قبّلت يديه وحيّته بألطف كلام ثم أعطته القرطاس. فقرأه وفهم معناه، ثم كتب على ظهره هذه الأبيات: [من الطويل]

أُعَلِّلُ قَلْبِي في الغَرامِ وأَكْتُمُ ... ولَـكِنَّ حالي عَنْ هَوايَ يُتَرْجِمُ
وإنْ فاضَ دَمْعِي قُلْتُ: جُرْحٌ بِمُقْلَتِي ... لِئَلا يَرَى حالِي العَذُولُ فَيَفْهَمُ
وكُنْتُ خَلِيّاً لَسْتُ أَعْرِفُ ما الهَوَى ... فأَصْبَحْتُ صَبّاً والفُؤَادُ مُتَيَّمُ
رَفَعْتُ إِلَيْكُمْ قِصَّتِي أَشْتَكِي بِها ... غَرامِي ووَجْدِي كَي تَرِقُّوا وتَرْحَمُوا
وسَطَّرْتُها مِنْ دَمْعِ عَيْنِي لَعَلَّها ... بما حَلَّ بِي مِنْكُمْ إِلَيْكُمْ تُتَرْجِمُ
رَعَى اللهُ وَجْهاً بالجَمالِ مُبَرْقَعاً ... لَه البَدْرُ عَبْدٌ والكَواكِبُ تَخْدُمُ
على حُسْنِ ذاتٍ ما رَأَيْتُ مَثِيلَها ... ومِنْ مَيْلِها الأَغْصانُ عَطْفاً تَعَلَّمُ
وأَسْأَلُكُمْ مِنْ غَيرِ حَمْلِ مَشَقَّةٍ ... زِيارَتَنا إِنَّ الوِصالَ مُعَظَّمُ
وَهَبْتُ لَـكُمْ رُوحِي عَسَى تَقْبَلُونَها ... فَلِي الوَصْلُ خُلْدٌ والصُّدُودُ جَهَنَّمُ

ثم طوى الكتاب وقبّله وأعطاه لها وقال لها: يا داية، استعطفي خاطر سيدتك. فقالت له: سمعاً وطاعةً. ثم أخذت منه المكتوب ورجعت إلى سيدتها وأعطتها القرطاس. فقبلته ورفعته فوق رأسها ثم فتحته وقرأته وفهمت معناه وكتبت في أسفله هذه الأبيات: [من الكامل]

يا مَنْ تَوَلَّعَ قَلْبُهُ بِجَمالِنا ... إصْبِرْ لَعَلَّكَ في الهَوَى تَحْظَى بِنا
لَمّا عَلِمْنا أَنَّ حُبَّكَ صادِقٌ ... وأَصابَ قَلْبَكَ ما أَصابَ فُؤادَنا
زِدْناكَ فَوْقَ الوَصْلِ وَصْلاً مِثْلَهُ ... لَـكِنَّ مَنْعَ الوَصْلِ مِنْ حُجّابِنا
لَمّا يُجَنُّ اللَّيْلُ مِنْ فَرْطِ الهَوَى ... تَـتَوَقَّـدُ النيرانُ في أَحْشائِنـا
وجَفَتْ مَضاجِعُنا المَنامَ ورُبَّما ... قَدْ بَرَّحَ التَبْرِيحُ في أَجْسامِنا
الفَرْضُ في شَرْعِ الهَوَى كَتْمُ الهَوَى ... لا تَرْفَعُوا المَسْبُولَ مِنْ أَسْتارِنا
وقَدِ انْحَشَى مِنّي الحَشَى بِهَوَى الرَّشا ... يا لَيْتَهُ ما غابَ عَنْ أَوْطانِنا

فلما فرغت من شعرها طوت القرطاس وأعطته للداية. فأخذته وخرجت من عند الورد في الأكمام بنت الوزير فصادفها الحاجب وقال لها: أين تذهبين؟ فقالت: إلى الحمام. وقد انزعجت منه فوقعت منها الورقة حين خرجت من الباب وقت انزعاجها. هذا ما كان من أمرها. وأما ما كان من أمر الورقة، فإن بعض الخدم رآها مرمية في الطريق فأخذها. ثم إن الوزير خرج من الحريم وجلس على سريره فقصده الخادم الذي التقط الورقة، فبينما الوزير جالس على سريره وإذا بذلك الخادم تقدّم إليه وفي يده الورقة وقال له: يا مولاي، إني وجدت هذه الورقة مرمية في الدّار فأخذتها. فتناولها الوزير من يده وهي مطوية ففتحها، فرأى مكتوباً فيها الأشعار التي تقدّم ذكرها فقرأها وفهم معناها. ثم تأمّل كتابتها فرآها بخط ابنته، فدخل على أمها وهو يبكي بكاءً شديداً حتى ابتلّت لحيته. فقالت له زوجته: ما أبكاك يا مولاي؟ فقال لها: خذي هذه الورقة وانظري ما فيها. فأخذت الورقة وقرأتها فوجدتها مشتملة على مراسلة من بنتها الورد في الأكمام إلى أنس الوجود. فجاءها البكاء لكنها غلبت على نفسها وكفكفت دموعها وقالت للوزير: يا مولاي، إن البكاء لا فائدة فيه، وإنما الرأي الصواب أن نتبصّر في أمر يكون فيه صون عرضك وكتمان أمر بنتك. وصارت تسلّيه وتخفّف عنه الأحزان. فقال لها: إني خائف على ابنتي من العشق. أما تعلمين أن السلطان يحب أنس الوجود محبة عظيمة، ولخوفي من هذا الأمر سببان: الأول من جهتي وهو إنها بنتي، والثاني من جهة السلطان وهو إن أنس الوجود محظي عند السلطان وربما يحدث من هذا أمر عظيم. فما رأيك في ذلك؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 373

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، ان الوزير لما أخبر زوجته بخبر بنته وقال لها: فما رأيك في ذلك؟ قالت له: إصبر عليّ حتى أصلّي صلاة الاستخارة. ثم إنها صلّت ركعتين سنّة الاستخارة، فلمّا فرغت من صلاتها قالت لزوجها: إن في وسط بحر الكنوز جبلاً يسمى جبل الثكلا. وسبب تسميته بذلك سيأتي. وذلك الجبل لا يقدر على الوصول إليه أحد إلاّ بالمشقة، فاجعل لها موضعاً هناك. فاتفق الوزير مع زوجته على أنه يبني فيه قصراً منيعاً ويجعلها فيه ويضع عندها مؤونتها عاماً بعد عام، ويجعل عندها من يؤانسها ويخدمها. ثم جمع النجارين والبنائين والمهندسين وأرسلهم إلى ذلك الجبل، وقد بنوا لها قصراً منيعاً لم يرَ مثله الراؤون. ثم هيّأ الزاد والراحلة ودخل على ابنته في الليل وأمرها بالسير فحسّ قلبها بالفراق،

فلمّا خرجت ورات هيئة الأسفار بكت بكاءً شديداً وكتبت على الباب تُعرّف أنس الوجود بما جرى لها من الوجد الذي تقشعر منه الجلود ويذيب الجلمود ويجزي العبرات . والذي كتبته هذه الأبيات : [من البسيط]

بالله يا دارُ إنْ مَرَّ الحَبِيبُ ضُحًى ... مُسَلِّماً بإشاراتِ المُحِبِّينا
أَهْدِيهِ مِنَّا سَلاماً زاكِياً عَطِراً ... لأَنَّهُ لَيْسَ يَدْرِي أَيْنَ أَمْسَيْنا
ولَسْتُ أَدْرِي إلى أَيْنَ الرَّحِيلُ بِنا ... لَمَّا مَضَوا بِي سَرِيعاً مُسْتَخِفِّينا
في جُنْحِ لَيْلٍ وطَيْرُ الأَيْكِ قَد عَـكَفَتْ ... عَلى الغُصُونِ تُباكِينا وتَنْعِينا
وقالَ عَنْها لِسانُ الحالِ واحَرَبا ... مِنَ التَّفَرُّقِ ما بَينَ المُحِبِّينا
لَمَّا رَأَيْتُ كُؤُوسَ البُعْدِ قَد مُلِئَتْ ... والدَّهْرُ مِنْ صِرفِها بالقَهْرِ يَسْقِينا
مَزَجْتُها بِجَمِيلِ الصَّبْرِ مُعْتَذِراً ... وعَنْكُمُ الآنَ لَيْسَ الصَّبْرُ مُجْدِينا

فلما فرغت من شعرها ركبت ، وساروا بها يقطعون البراري والقفار والسهول والأوعار حتى وصلوا إلى بحر الكنوز ونصبوا الخيام على شاطيء البحر ومدّوا لها مركباً عظيمةً وأنزلوها فيها هي وعائلتها . وقد أمرهم أنهم إذا وصلوا إلى الجبل وأدخلوها في القصر هي وعائلتها يرجعون بالمركب ، وبعد أن يطلعوا من المركب يكسرونها . فذهبوا وفعلوا جميع ما أمرهم به ثم رجعوا وهم يبكون على ما جرى . هذا ما كان من أمرهم . وأما ما كان من أمر أنس الوجود ، فإنه قام من نومه وصلّى الصبح ثم ركب وتوجّه إلى خدمة السلطان ، فمر في طريقه على باب الوزير على جري العادة لعلّه يرى أحداً من أتباع الوزير الذين كان يراهم ، ونظر إلى الباب فرأى الشعر المتقدم ذكره مكتوباً عليه . فلمّا رآه غاب عن وجوده واشتعلت النار في أحشائه ورجع إلى داره ، ولم يقرّ له قرار ولم يطاوعه اصطبار ولم يزل في قلق ووجد إلى أن دخل الليل . فكتم أمره وتنكّر وخرج في جوف الليل هائماً على غير طريق وهو لا يدري أين يسير ، فسار الليل كله وثاني يوم إلى أن اشتدّ حرّ الشمس وتلهبت الجبال واشتدّ عليه العطش . فنظر إلى شجرة فوجد بجانبها جدول ماء يجري ، فقصد تلك الشجرة وجلس في ظلها على شاطيء ذلك الجدول وأراد أن يشرب فلم يجد للماء طعماً في فمه ، وقد تغيّر لونه واصفرّ وجهه وتورمت قدماه من المشي والمشقة . فبكى بكاءً شديداً وسكب العبرات وأنشد هذه الأبيات : [من الرمل]

سَكَرُ العاشِقِ في حُبِّ الحَبِيبْ ... إنْ سأَلْناهُ سُؤالاً لا يُجِيبْ
هائِمٌ في الحُبِّ صَبٌّ تائِهٌ ... طَعْمُ زادٍ عِنْدَه لَيْسَ يَطِيبْ
كَيْفَ يَهْنَى العَيْشُ لِلصَّبِّ الَّذي ... فارَقَ الأَحْبابَ ذا شَيْءٍ عَجِيبْ
ذُبْتُ لَمّا أَنْ ذَكا وَجْدِي بِهِمْ ... وجَرَى دَمْعِي عَلى خَدِّي صَبِيبْ
هَلْ أَراهُمْ أَو أَرَى مِنْ رَبْعِهِم ... أَحَداً يَبْرَى بِه القَلْبُ الكَئِيبْ

فلما فرغ من شعره بكى حتى بلّ الثرى . ثم قام من وقته وساعته وسار من ذلك المكان ، فبينما هو سائر في البراري والقفار إذ خرج عليه سبع رقبته مختنقة بشعره ورأسه قدر القبة وفمه أوسع من الباب وأنيابه مثل أنياب الفيل . فلمّا رآه أنس الوجود أيقن بالموت واستقبل القبلة

وتشهّد واستعد للموت، وكان قد قرأ في الكتب أن من خادع السبع انخدع له لأنه ينخدع بالكلام الطيب وينتخي بالمديح . فشرع يقول له : يا أسد الغابة يا ليث الفضاء يا ضرغام يا أبا الفتيان يا سلطان الوحوش، إنني عاشق مشتاق وقد أتلفني العشق والفراق وحين فارقت الأحباب غبت عن الصواب، فاسمع كلامي وارحم لوعتي وغرامي . فلمّا سمع الأسد مقالته تأخّر عنه وجلس مقعياً على ذنبه ورفع رأسه إليه وصار يلعب له بذنبه ويديه . فلمّا رأى أنس الوجود هذه الحركات أنشد هذه الأبيات : [من الرمل]

أَسَدَ البَيْداءِ هَلْ تَقْتُلُني ... قَبْلَ ما أَلْقَى الَّذي تَيَّمَني
لَسْتُ صَيْداً لا ولا بِيَّ سِمَنْ ... فَقْدُ مَنْ أَهْواهُ قَد أَسْقَمَني
وفِراقُ الحُبِّ أَضْنَى مُهْجَتِي ... فَمِثالي صُورَةٌ في كَفَني
يا أَبا الحارِثِ يا لَيْثَ الوَغَى ... لا تُشَمِّتْ عُذَّلي في شَجَني
أَنا صَبٌّ مَدْمَعِي غَرَّقَني ... وفِراقُ الحُبِّ قَد أَقْلَقَني
وٱشْتِغالي في دُجَى اللَّيْلِ بِهِمْ ... عَنْ وُجُودِي في الهَوَى غَيَّبَني

فلما فرغ من شعره قام الأسد ومشى نحوه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 374

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أنّ أنس الوجود لما فرغ من شعره، قام الأسد ومشى نحوه بلطف وعيناه مغرغرتان بالدموع . ولما وصل إليه لحسه بلسانه ومشى قدّامه وأشار إليه أن : اتبعني . فتبعه، ولم يزل سائراً وهو خلفه ساعة من الزمان حتى طلع به فوق جبل، ثم نزل به من فوق ذلك الجبل فرأى آثار المشي في البراري فعرف ان ذلك أثر مشي القوم بالورد في الأكمام . فتبع الأثر ومشى فيه، فلمّا رآه الأسد تبع الأثر وعرف أنه أثر مشي القوم بمحبوبته رجع الأسد إلى حال سبيله . وأما أنس الوجود فإنه لم يزل ماشياً في الأثر أياماً وليالي حتى أقبل على بحر عجاج متلاطم بالأمواج، ووصل الأثر إلى شاطىء البحر وانقطع فعلم أنهم ركبوا البحر وساروا فيه، وانقطع رجاؤه منهم هناك . فسكب العبرات وأنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

شَطَّ المَزارُ وعَنْهُمْ قَلَّ مُصْطَبَري ... وكَيْفَ أَمْشِي لَهُمْ في لُجَّةِ البَحَرِ
أَو كَيْفَ أَصْبِرُ والأَحْشاءُ قَد تَلَفَتْ ... في حُبِّهِم وبَدَلْتُ النَّوْمَ بالسَّهَرِ
مِنْ يَوْمِ غابُوا عَنْ الأَوْطانِ وٱرْتَحَلُوا ... ومُهْجَتِي في لَهِيبٍ أَيِّ مُسْتَعِرِ
سَيْحُون جَيْحُون دَمْعِي كالفُراتِ جَرَى ... فَفَيْضُهُ فائِقُ الطُّوفانِ والمَطَرِ
تَقَرَّحَ الجَفْنُ مِنْ جَرْيِ الدُّمُوعِ بِهِ ... وأَحْرَقَ القَلْبَ بالنِّيرانِ والشَّرَرِ
جُيُوشُ وَجْدِي والأَشْواقُ قَد هَجَمَتْ ... وجَيْشُ صَبْرِي في إدْبارِ مُنْكَسِرِ
خاطَرْتُ بالرُّوحِ بَذْلاً في مَحَبَّتِهِ ... وكانَتِ الرُّوحُ عِنْدِي أَسْهَلَ الخَطَرِ
لا آخَذَ اللهُ عَيْناً في الحِمَى نَظَرَتْ ... ذاكَ الجَمالَ الذي أَبْهَى مِنَ القَمَرِ

أَصْبَحْتُ مُنْطَرِحاً مِنْ أَعْيُنٍ نُجُلٍ سِهامُها رَشَقَت قَلْبِي بِلا وَتَرِ
وخادَعَتْنِي بِلِينٍ مِنْ مَعاطِفِها كَما تَلِينُ غُصُونُ البانِ في الشَّجَرِ
طَمِعْتُ مِنْهُم بِوَصْلٍ أَسْتَعِينُ بِه عَلى أُمُورِ الهَوَى والغَمِّ والكَدَرِ
وصِرْتُ فِيهِمْ كَما أَمْسَيتُ مُكْتَئِباً وكُلُّ ما حَلَّ بِي مِنْ فِتْنَةِ النَّظَرِ

فلما فرغ من شعره بكى حتى وقع مغشياً عليه . واستمرّ في غشيته مدة مديدة ،ثم افاق من غشيته والتفت يميناً وشمالاً فلم يرَ احداً في البرية ، فخشي على نفسه من الوحوش فصعد على جبل عال . فبينما هو في ذلك الجبل إذ سمع صوت آدمي يتكلم في مغارة فصغى إليه ، وإذا هو عابد قد ترك الدنيا واشتغل بالعبادة . فطرق عليه باب المغارة ثلاث مرات فلم يجبه العابد ولم يخرج إليه . فصعد الزفرات وأنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

كَيْفَ السَّبِيلُ إلى أَن أَبْلُغَ الأَرَبا وأَتْرُكَ الهَمَّ والتَّكْديرَ والتَّعَبا
وكُلُّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوالِ شَيَّبَنِي قَلْباً ورَأْساً مَشِيباً في زَمانِ صِبا
ولَم أَجِدْ لِي مُعِيناً في الغَرامِ ولا خِلاً يُخَفِّفُ عَنِّي الوَجْدَ والنَّصَبا
وكَمْ أُكابِدُ في الأَشْواقِ مِنْ وَلَهٍ كأَنَّ دَهْرِي عَلَيَّ الآنَ قَد قَلَبا
وارَحْمَتاهُ لِصَبٍّ عاشِقٍ قَلِقٍ كأْسَ التَّفَرُّقِ والهِجْرانِ قَد شَرِبا
فالنَّارُ في القَلْبِ والأَحْشاءِ قَد مُحِيَتْ والعَقْلُ مِنْ لَوْعَةِ التَّفْرِيقِ قَد سُلِبا
ما كانَ أَعْظَمَ يَوْماً جِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وقَدْ رَأَيْتُ على الأَبْوابِ ما كُتِبا
بَكَيْتُ حَتَّى سَقَيْتُ الأَرْضَ مِنْ وَلَهٍ لَكِنْ كَتَمْتُ عَنِ الدَّانِينَ والغُرَبا
يا عابِداً قَدْ تَغاضَى في مَغارَتِهِ كأَنَّهُ ذاقَ طَعْمَ العِشْقِ وانْسَلَبا
وبَعْدَ هَذا وهَذا كُلِّه فإذا بَلَغْتُ قَصْدِي فَلا هَمّاً ولا تَعَبا

فلما فرغ من شعره وإذا بباب المغارة قد انفتح وسمع قائلاً يقول : وارحمتاه . فدخل الباب وسلم على العابد ، فردّ عليه السلام وقال له : ما اسمك ؟ قال : إسمي أنس الوجود . فقال له : ما سبب مجيئك إلى هذا المكان ؟ فقص عليه قصته من أولها إلى آخرها وأخبره بجميع ما جرى له . فبكى العابد وقال له : يا أنس الوجود ، إن لي في هذا المكان عشرين عاماً ما رأيت فيه أحداً إلاّ بالأمس ، فإني سمعت بكاءً وغواشاً فنظرت إلى جهة الصوت فرأيت ناساً كثيرين وخياماً منصوبة على شاطىء البحر ، وأقاموا مركباً ونزل فيها قوم منهم وساروا بها في البحر ، ثم رجع بالمركب بعض من نزل فيها وكسروها وتوجّهوا إلى حال سبيلهم . وأظن أن الذين ساروا على ظهر البحر ولم يرجعوا ، هم الذين أنت في طلبهم يا أنس الوجود ، وحينئذ همّك عظيم وأنت معذور ، ولكن لا يوجد محب إلاّ وقد قاسى الحسرات . ثم أنشد العابد هذه الأبيات : [من البسيط]

أُنْسُ الوُجُودِ خَلِيَّ البالِ تَحْسَبُنِي والشَّوْقُ والوَجْدُ يَطْوِينِي ويَنْشُرُنِي
إنِّي عَرَفْتُ الهَوَى والعِشْقَ مِنْ صِغَرِي مِنْ حِينِ كُنْتُ صَبِيّاً راضِعَ اللَّبَنِ
مارَسْتُهُ زَمَناً حَتَّى عُرِفْتُ بِه إنْ كُنْتَ تَسْأَلُ عَنِّي فَهُوَ يَعْرِفُنِي

شَرِبْتُ كأسَ الجَوَى مِنْ لَوْعَةٍ وضَنَى فَصِرْتُ مَحْواً بِهِ مِنْ رِقَّةِ البَدَنِ
قَدْ كُنْتُ ذا قُوَّةٍ لَكِنْ وَهَى جَلَدِي وجَيْشُ صَبْرِي بأسْيافِ اللِّحاظِ فَنِي
لا تَرْتَجِي في الهَوَى وَصْلاً بِغَيْرِ جَفا فالضِّدُّ بالضِّدِّ مَقْرُونٌ مَدَى الزَّمَنِ
قَضَى الغَرامُ عَلَى العُشّاقِ أَجْمَعِهِمْ إنَّ السُّلُوَّ حَرامٌ حِكْمَةُ الفَطِنِ

فلما فرغ العابد من نشاد شعره قام إلى أنس الوجود وعانقه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 375

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العابد لما فرغ من إنشاد شعره قام إلى أنس الوجود وعانقه وتباكيا حتى دوت الجبال من بكائهما. ولم يزالا يبكيان حتى وقعا مغشياً عليهما، ثم أفاقا وتعاهدا على أنهما اخوان في الله تعالى. ثم قال العابد لأنس الوجود: أنا في هذه الليلة أصلّي وأستخير الله لك على شيء تعمله. فقال له أنس الوجود: سمعاً وطاعةً. هذا ما كان من أمر أنس الوجود. وأما ما كان من أمر الورد في الأكمام، فإنها لما وصلوا بها إلى الجبل وادخلوها القصر ورأته ورأت ترتيبه بكت وقالت: والله إنك مكان مليح غير إنك ناقص وجود الحبيب فيك. ورأت في تلك الجزيرة أطياراً فأمرت بعض أتباعها أن ينصب لها فخّاً ويصطاد به منها، وكل ما اصطاده يضعه في أقفاص من داخل القصر، ففعل ما أمرته به. ثم إنها قعدت في شباك القصر وتذكّرت ما جرى لها وزاد بها الغرام والوجود والهيام. فسكبت العبرات وأنشدت هذه الأبيات: [من الخفيف]

يا لِمَنْ أَشْتَكِي الغَرامَ الَّذي بِي وشُجُونِي وفرْقَتِي عَنْ حَبِيبِي
يا لَهِيباً بَيْنَ الضُّلُوعِ تَلَظَّى لَسْتُ مُبْدِيكَ خِيفَةً مِنْ رَقِيبِي
أَصْبَحَ القَدُّ رِقَّ عُودِ خِلالٍ مِنْ بُعادٍ وحُرْقَةٍ ونَحِيبِ
أَيْنَ عَيْنُ الحَبِيبِ حَتَّى تَرانِي كَيْفَ أَمْسَيْتُ مِثْلَ حالِ السَّلِيبِ
قَدْ تَعَدَّوْا عَلَيَّ إذْ حَجَبُونِي في مَكانٍ لَمْ يَسْتَطِعْهُ حَبِيبِي
أَسْأَلُ الشَّمْسَ حَمْلَ أَلْفِ سَلامٍ عِنْدَ وَقْتِ الشُّرُوقِ ثُمَّ الغُرُوبِ
لِحَبِيبٍ قَد أَخْجَلَ البَدْرَ حُسْناً مُذْ تَبَدَّى بِقامَةٍ كالقَضِيبِ
إنْ حَكَى الوَرْدَ خَدَّهُ قُلْتُ فِيهِ: ذلك الوَرْدُ نَوْرُهُ مِنْ نَصِيبِي
إنَّ في ثَغْرِهِ لَسِلْسالُ رِيقِي يَجْلِبُ البَرْدَ عِنْدَ حَرِّ اللَّهِيبِ
كَيْفَ أَسْلُوهُ وَهْوَ قَلْبِي ورُوحِي مُسْقِمِي مُمْرِضِي حَبِيبِي طَبِيبِي

فلما جن عليها الظلام اشتد بها الغرام وتذكرت ما فات. فأنشدت هذه الأبيات: [من البسيط]

جَنَّ الظَّلامُ وهاجَ الوَجْدُ بالسَّقَمِ والشَّوْقُ حَرَّكَ ما عِنْدِي مِنَ الأَلَمِ
ولَوْعَةُ البَيْنِ في الأَحْشاءِ قَدْ سَكَنَتْ والفِكْرُ صَيَّرَنِي في حالَةِ العَدَمِ

والوَجْدُ أَقْلَقَنِي والشَّوْقُ أَحْرَقَنِي والدَّمْعُ باحَ بِسِرٍّ أَيُّ مُكْتَتِمِ
ولَيْسَ لِي حالَةٌ في العِشْقِ أَعْرِفُها مِنْ رِقِّ عُودِي ومِنْ ضَعْفِي ومِنْ أَلَمِي
جَحِيمُ قَلْبِي مِنَ النِّيرانِ قَدْ سُعِرَتْ ومِنْ لَظَى حَرِّها الأَكْبادُ في نِقَمِ
ما كُنْتُ أَمْلُكُ نَفْسِي أَنْ أُوَدِّعَهُمْ يَوْمَ الفِراقِ فَيا قَهْرِي ويا نَدَمِي
يا مَنْ يُبَلِّغُهُمْ ما حَلَّ بِي وكَفَى إنِّي صَبَرْتُ عَلَى ما خُطَّ بالقَلَمِ
واللهِ لا حِلْتُ عَنْهُم في الهَوَى أَبَداً يَمِينُ شَرْعِ الهَوَى مَبْرُورَةُ القَسَمِ
يا لَيْلُ سَلِّمْ عَلَى الأَحْبابِ مُخْبِرَهُمْ واشْهَدْ بِعِلْمِكَ أَنِّي فِيكَ لَمْ أَنَمِ

هذا ما كان من أمر الورد في الأكمام. واما ما كان من أمر أنس الوجود، فإن العابد قال له: إنزل إلى الوادي وائتني من النخيل بليف. فنزل وجاء له بليف، فأخذه العابد وفتله وجعله شنفاً مثل أشناف التبن وقال: يا أنس الوجود، إن في جوف الوادي فرعاً يطلع وينشف على أصوله، فانزل إليه واملأ هذا الشنف منه واربطه وارمه في البحر واركب عليه وتوجّه به إلى وسط البحر لعلك تبلغ قصدك، فإن من لم يخاطر بنفسه لم يبلغ المقصود. فقال: سمعاً وطاعةً. ثم ودّعه وانصرف من عنده إلى ما أمره به بعد أن دعا له العابد. ولم يزل أنس الوجود سائراً إلى جوف الوادي وفعل كما قال له العابد، ولما وصل بالشنف إلى وسط البحر خرج عليه ريح فزفه بالشنف حتى غاب عن عين العابد. ولم يزل سابحاً في لجّة البحر ترفعه موجة وتحطه أخرى وهو يرى ما في البحر من العجائب والأهوال إلى أن رمته المقادير على جبل الثكلا بعد ثلاثة أيام. فنزل إلى البر مثل الفرخ الدايخ لهفان من الجوع والعطش، فوجد في ذلك المكان أنهاراً جارية وأطياراً مغرّدة على الأغصان وأشجاراً مثمرة صنواناً وغير صنوان. فأكل من الأثمار وشرب من الأنهار وقام يمشي فرأى بياضاً على بعد، فمشى جهته حتى وصل إليه فوجده قصراً منيعاً حصيناً. فأتى باب القصر فوجده مقفولاً، فجلس عنده ثلاثة أيام. فبينما هو جالس وإذا بباب القصر قد فتح وخرج منه شخص من الخدم فرأى أنس الوجود قاعداً فقال له: من أين أتيت ومن أوصلك إلى هنا؟ فقال: من أصبهان. وكنت مسافراً في البحر بتجارة فانكسرت المركب التي كنت فيها فرمتني الأمواج على ظهر هذه الجزيرة. فبكى الخادم وعانقه وقال: حيّاك الله يا وجه الأحباب، إن أصبهان بلادي ولي فيها بنت عم كنت أحبها وأنا صغير وكنت متولّعاً بها، فغزانا قوم أقوى منا وأخذوني في جملة الغنائم وكنت صغيراً، فقطعوا إحليلي ثم باعوني خادماً وها أنا في تلك الحالة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 376

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخادم الذي خرج من قصر الورد في الأكمام حدّث أنس الوجود بجميع ما حصل له وقال له: إن القوم الذين أخذوني قطعوا إحليلي وباعوني خادماً وها أنا في تلك الحالة. وبعدما سلّم عليه وحيّاه أدخله ساحة القصر. فلمّا دخل رأى بحيرة عظيمة وحولها أشجار وأغصان وفيها أطيار في أقفاص من فضة وأبوابها من الذهب، وتلك الأقفاص معلقة على أغصان والأطيار فيها تناغي وتسبح الملك الديان. فلمّا وصل إلى أولها تأمله فإذا هو قمري، فلمّا رآه الطير مدّ صوته وقال: يا كريم. فغشي

على انس الوجود . فلمّا أفاق من غشيته صعّد الزفرات وأنشد هذه الأبيات : [من الرمل]

أَيُّها القَمَرِيُّ هَلْ مِثْلي تَهِيمْ ... فاسْأَلِ المَوْلى وغَرِّد يا كَرِيمْ
يا تُرَى نَوْحُكَ هذا طَرَبٌ ... أَو غَرامٌ مِنْكَ في القَلْبِ مُقِيمْ
إنْ تَنُحْ وَجْدًا لأَحْبابٍ مَضَوْا ... إنَّني مُضْنًى بِهِمْ دَوْماً سَقِيمْ
أَوْ فَقَدْتَ الحُبَّ مِثْلي في الهَوَى ... فالتَّجافي يُظْهِرُ الوَجْدَ القَدِيمْ
يا رَعَى اللهُ مُحِبّاً صادِقاً ... لَسْتُ أَسْلاهُ ولَو عَظْمِي رَمِيمْ

فلما فرغ من شعره بكى حتى وقع مغشيّاً عليه . وحين افاق من غشيته مشى حتى وصل إلى ثاني قفص فوجده فاختاً . فلمّا رآه الفاخت غرّد وقال : يا دايم اشكرك . فصعّد انس الوجود الزفرات وانشد هذه الأبيات : [من السريع]

وفاخِتٍ قَد قالَ في نَوْحِهِ ... يا دائِماً شُكراً عَلى بَلْوَتي
عَسَى لَعَلَّ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ... يَقْضِي بِوَصْلِ الحُبِّ في سَفْرَتي
ورُبَّ مَعْسُولِ اللَّمَى زارَني ... فَزادَني عِشْقاً عَلى صَبْوَتي
فَقُلْتُ والنِّيرانُ قَد أُضْرِمَتْ ... في القَلْبِ حَتَّى أَحْرَقَتْ مُهْجَتي
والدَّمْعُ مَسْفُوحٌ يُحاكِي دَماً ... قَد فاضَ جارِيهِ عَلى وَجْنَتي
ما ثَمَّ مَخْلُوقٌ بِلا مِحْنَةٍ ... لَكِنَّ لي صَبْراً عَلى مِحْنَتي
بِقُدْرَةِ اللهِ مَتَى لَمَّنِي ... وقْتَ الصَّفا يَوْماً عَلى سادَتي
جَعَلْتُ لِلعُشّاقِ مالي قِرًى ... لأَنَّهُمْ قَوْمٌ عَلى سُنَّتي
وأُطْلِقُ الأَطْيارَ مِنْ سِجْنِها ... وأَتْرُكُ الأَحْزانَ مِنْ فَرْحَتي

فلما فرغ من شعره تمشّى إلى ثالث قفص فوجده هزاراً . فزعق الهزار عند رؤيته . فلمّا سمعه انشد هذه الأبيات : [من البسيط]

إنَّ الهَزارَ لَطِيفُ الصَّوْتِ يُعْجِبُني ... كأَنَّهُ صَوْتُ صَبٍّ في الغَرامِ فَنِي
وَارَحْمَتاهُ عَلى العُشّاقِ كَمْ قَلِقُوا ... مِنْ لَيْلَةٍ بالهَوَى والشَّوْقِ والمِحَنِ
كأَنَّهُمْ مِنْ عَظِيمِ الشَّوْقِ قَدْ خُلِقُوا ... بِلا صَباحٍ ولا نَوْمٍ مِنَ الشَّجَنِ
لما جُنِنْتُ بِمَنْ أَهْواهُ قَيَّدَني ... فِيهِ الغَرامُ ولَمَّا عادَ قَيَّدَني
تَسَلْسَلَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي فَقُلْتُ لَه ... سَلاسِلُ الدَّمْعِ قَد طالَتْ فَسَلْسَلَني
زادَ ٱشْتِياقِي وطُولُ البُعْدِ وٱنْعَدَمَتْ ... كُنُوزُ صَبْرِي وفَرْطُ الوَجْدِ أَتْلَفَني
إنْ كانَ في الدَّهْرِ صافٍ قامَ يَجْمَعُني ... بِمَنْ أُحِبُّ وسَتْرُ اللهِ يَشْمَلُني
قَلَعْتُ ثَوْبِي لِحِبِّي كَيْ يَرَى جَسَدِي ... بالصَّدِّ والبُعْدِ والهِجْرانِ كَيْفَ ضَنِي

فلما فرغ من شعره تمشّى إلى رابع قفص فرآه بلبلاً ، فناح وغرّد عند روية انس الوجود . فلمّا سمع تغريده سكب العبرات وأنشد هذه الأبيات : [من الرمل]

إنَّ لِلْبُلْبُلِ صَوْتاً في السَّحَرِ — يُشْغِلُ العاشِقَ عَنْ حُسْنِ الوَتَرْ
في الهَوَى أُنْسُ الوُجُودِ المُشْتَكِي — مِنْ غَرامٍ قَدْ مَحا مِنْهُ الأَثَرْ
كَمْ سَمِعْنا صَوْتَ أَلحانٍ مَحَتْ — طَرَباً صَلْدَ حَدِيدٍ وحَجَرْ
ونَسِيمُ الصُّبْحِ قَد يَرْوِي لَنا — عَنْ رِياضٍ يانِعاتٍ بالزَّهَرْ
فَطَرِبْتُ بِسَماعٍ وشَذا — مِنْ نَسِيمٍ وطُيُورٍ في السَّحَرْ
وتَذَكَّرْنا حَبِيباً غائِباً — فَجَرَى الدَّمْعُ سُيُولاً ومَطَرْ
ولَهِيبُ النّارِ في أَحْشائِنا — مُضْرَمٌ ذاكَ كَجَمْرٍ بالشَّرَرْ
مَتَّعَ اللهُ مُحِبّاً عاشِقاً — مِنْ حَبِيبٍ بِوِصالٍ ونَظَرْ
إنَّ لِلعُشّاقِ عُذْراً واضِحاً — يَعْرِفُ الأَعْذارَ إلاَّ ذُو نَظَرْ

فلما فرغ من شعره، مشى قليلاً فرأى قفصاً حسناً لم يكن هناك أحسن منه. فلمّا قرب منه وجده حمام الأيك، وهو اليمام المشهور من بين الطيور ينوح بالغرام. وفي عنقه عقد من جوهر بديع النظام، وتأمّله فوجده ذاهلاً باهتاً في قفصه. فلمّا رآه بهذه الحالة أفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات: [من الرمل]

يا حَمامَ الأَيْكِ أُقْرِيكَ السَّلامْ — يا أَخا العُشّاقِ مِنْ أَهْلِ الغَرامْ
إنَّنِي أَهْوَى غَزالاً أَهْيَفَ — لَحْظُهُ أَقْطَعُ مِنْ حَدِّ الحُسامْ
في الهَوَى أَحْرَقَ قَلْبِي والحَشَى — وعَلا جِسْمِي نُحُولِي والسَّقامْ
ولَذِيذُ الزّادِ قَدْ حُرِمْتُهُ — مِثْلَ ما حُرِمْتُ مِنْ طِيبِ المَنامْ
واصْطِبارِي وسُلُوِّي رَحَلا — والهَوَى بالوَجْدِ عِنْدِي قَد أَقامْ
كَيْفَ يَهْنَى العَيْشُ لي مِنْ بَعْدِهِمْ — وهُمُو رُوحِي وقَصْدِي والمَرامْ

فلما فرغ انس الوجود من شعره. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 377

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أنس الوجود لما فرغ من شعره، كان حمام الأيك قد انتبه من ذهوله وسمع إنشاده. فصاح وناح وأكثر التغريد والنواح حتى كاد أن ينطق بالترنّمات. وأنشد عنه لسان الحال هذه الأبيات: [من الرمل]

أَيُّها العاشِقُ قَد ذَكَّرْتَنِي — زَمَناً فِيهِ شَبابِي قَد فَنِي
وحَبِيباً كُنْتُ أَهْوَى شَكْلَهُ — ذا جَمالٍ فائِقٍ ومُفْتِنِ
صَوْتُه مِنْ فَوْقِ أَغْصانِ النَّقَى — عَنْ سَماعِ النّايِ وَجْداً رَدَّنِي
نَصَبَ الصَّيّادُ فَخّاً صادَهُ — قائِلاً لَو لِلْفَضا يَتْرُكُنِي
كُنْتُ أَرْجُو أَنَّه ذُو رَأْفَةٍ — أَو يَرانِي عاشِقاً يَرْحَمُنِي
فَرَماهُ اللهُ لَمّا إنَّهُ — مِنْ حَبِيبِي بالجَفا أَفْرَقَنِي

وغَرامِي فِيهِ أَضْحَى زائِداً ... وبِنارِ البُعْدِ قَد أَحْرَقَنِي
يا رَعَى اللهُ مُحِبّاً عاشِقًا ... مارَسَ الحُبَّ وقاسَى شَجَنِي
إذْ يَرانِي لابِثاً في قَفَصِي ... لِحَبِيبِي رَحْمَةً يُطْلِقُنِي

ثم إن أنس الوجود التفت إلى صاحبه الأصبهاني وقال له : ما هذا القصر ؟ وما فيه ؟ ومن بناه ؟ قال له : بناه وزير الملك الفلاني لابنته خوفاً عليها من عوارض الزمان وطوارق الحدثان ، وأسكنها فيه هي وأتباعها . ولا تفتحه إلاّ في كل سنة مرة لما تاتي إليهم مؤونتهم . فقال في نفسه : قد حصل المقصود ولكن المدة طويلة . هذا ما كان من أمر أنس الوجود . وأما ما كان من أمر الورد في الأكمام ، فإنها لم يهن لها شراب ولا طعام ولا قعود ولامنام ، فقامت وقد زاد بها الغرام والوجد والهيام ودارت في أركان القصر فلم تجد لها مصرفاً . فسكبت العبرات وأنشدت هذه الأبيات : [من الرمل]

حَبَسُونِي عَنْ حَبِيبِي قَسْوَةً ... وأَذاقُونِي بِسِجْنِي لَوْعَتِي
أَحْرَقُوا قَلْبِي بِنيرانِ الهَوَى ... حَيْثُ رَدُّوا عَنْ حَبِيبِي نَظْرَتِي
حَبَسُونِي في قُصُورٍ شُيِّدَتْ ... في جِبالٍ خُلِقَتْ في لُجَّةٍ
إنْ يَكُونُوا قَدْ أَرادُوا سَلْوَتِي ... لَمْ تَزِدْ في الحُبِّ إلاَّ مِحْنَتِي
كَيْفَ أَسْلُو والَّذي بِي كُلُّهُ ... أَصْلُهُ في وَجْهِ حِبِّي نَظْرَتِي
فَنَهارِي كُلُّهُ في أَسَفٍ ... أَقْطَعُ اللَّيْلَ بِهِمْ في فِكْرَتِي
وأَنِيسِي ذِكْرُهُمْ في وِحْدَتِي ... حِينَ أَلْقَى مِنْ لُقاهُمْ وَحْشَتِي
يا تَرَى هَلْ بَعْدَ هذا كُلِّهِ ... يَرْتَضِي الدَّهْرُ لِقَلْبِي مُنْيَتِي

فلما فرغت من شعرها ، طلعت إلى سطح القصر وأخذت أثواباً بعلبكية وربطت نفسها فيها وتدلّت حتى وصلت إلى الأرض . وقد كانت لابسة أفخر ما عندها من اللباس وفي عنقها عقد من الجواهر . وسارت في تلك البراري والقفار حتى وصلت إلى شاطىء البحر فرأت صياداً في مركب دائراً في البحر يصطاد ، فرماه الريح على تلك الجزيرة فالتفت فرأى الورد في الأكمام في تلك الجزيرة . فلمّا رآها فزع منها وخرج بالمركب هارباً . فنادته وأكثرت إليه الإشارات وأنشدت هذه الأبيات : [من الرجز]

يا أَيُّها الصَّيّادُ لا تَخْشَ الكَدَرْ ... فإِنَّنِي إنْسِيَّةٌ مِثْلُ البَشَرْ
أُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تُجِيبَ دَعْوَتِي ... وتَسْمَعَنْ قَوْلِي بإسْنادِ الخَبَرْ
فارْحَمْ وَقاكَ اللهُ حَرَّ صَبْوَتِي ... إنْ أَبْصَرَتْ عَيْناكَ مَحْبُوباً نَفَرْ
فإِنَّنِي أَهْوَى مَلِيحاً وَجْهُهُ ... قَدْ فاقَ وَجْهُ الشَّمْسِ نُوراً والقَمَرْ
والظَّبْيُ لَمّا أَنْ رَأَى أَلْحاظَهُ ... قَد قالَ : إنِّي عَبْدُهُ ثُمَّ اعْتَذَرْ
قَدْ كَتَبَ الحُسْنُ عَلى وجْنَتِهِ ... سَطْراً بَدِيعاً في المَعانِي مُخْتَصَرْ
فَمَنْ رَأَى نُورَ الهَوَى قَدِ اهْتَدَى ... أَمّا الَّذي ضَلَّ تَعَدَّى وكَفَرْ

عَسَى حَبِيبِي أَنْ يُوَفِّي بالمُنَى   فإنَّ قَلْبِي ذابَ شَوْقاً وٱنفطَرْ

فلما سمع الصياد كلامها، بكى وانَّ واشتكى وتذكّر ما مضى له في صباه حين غلب عليه هواه واشتدّ به الغرام وزاد به الوجد والهيام وأحرقته نيران الصبابات. فانشد هذه الأبيات: [من الرمل]

بِغَرامِي أَيُّ عُذْرٍ وَاضِحِ   سَقِيمُ أَعْضاءٍ بِدَمْعٍ سافِحِ
تلكَ عَيْنِي في الدُّجَى ساهِرَةٌ   مَنْ لِقَلْبٍ كَزِنادٍ قادحِ
قَدْ بَلَوْنا العِشْقَ مِنْ نَشْأَتِنا   وعَرَفْنا ناقِصاً مِنْ راجِحِ
ثُمَّ بِعْنَا في الهَوَى أَنْفُسَنا   بِوِصالٍ مِن حَبِيبٍ نازِحِ
ثُمَّ بالأَرْواحِ خاطَرْنا عَسَى   أَنْ يَكُونَ البَيْعُ بَيْعَ الرَّابِحِ
مَذْهَبُ العُشّاقِ انَّ المُشْتَرِي   وَصْلَ مَحْبُوبٍ سَما عَنْ رابِحِ

فلما فرغ من شعره أرسى مركبه على البر وقال لها: إنزلي في المركب حتى أعدي بك إلى أي موضع تريدين. فنزلت في المركب وعوم بها، فلمّا فارق البر بقليل هبّت على المركب ريح من خلفها فسارت المركب بسرعة حتى غاب البر عن أعينهما. وصار الصياد لا يعرف أين يذهب، ومكث اشتداد الريح مدة ثلاثة أيام. ثم سكت الريح بإذن الله تعالى ولم تزل المركب تسير بهما حتى وصلت إلى مدينة على شاطىء البحر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 378

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المركب لما وصلت بالصياد والورد في الأكمام إلى مدينة على شاطىء البحر، أراد الصياد أن يرسي مركبه على تلك المدينة وكان فيها ملك عظيم السطوة يقال له: درباس. وكان في ذلك الوقت جالساً هو وابنه في قصر مملكته وصارا ينظران من شبّاك القصر، فالتفتا إلى جهة البحر فرأيا تلك المركب. فتأمّلاها فوجدا فيها صبية كأنها البدر في أفق السماء وفي أذنيها حلق من البلخش النفيس وفي عنقها عقد من الجوهر النفيس، فعرف الملك أنها من بنات الأكابر والملوك. فنزل الملك من قصره وخرج من باب القيطون، فرأى المركب قد رست على الشاطىء وكانت البنت نائمة والصياد مشغولاً يربط المركب. فأيقظها الملك من منامها، فاستيقظت وهي تبكي. فقال لها الملك: من أين أنت؟ وابنة من أنت؟ وما سبب مجيئك هنا؟ فقالت له الورد في الأكمام: أنا ابنة ابراهيم وزير الملك شامخ، وسبب مجيئي هنا أمر عجيب وشأن غريب. وحكت له جميع قصتها من أولها إلى آخرها ولم تخف عنه شيئاً. ثم صعّدت الزفرات وأنشدت هذه الأبيات: [من البسيط]

قَد قَرَّحَ الدَّمْعُ جَفْنِي فاقْتَضَى عَجَبا   مِنْ التَّكَدُّرِ لَمَّا فاضَ وٱنْسَكَبا
مِنْ أَجْلِ خِلٍّ ثَوَى في مُهْجَتِي أَبَداً   وَلَم أَنَلْ في الهَوَى مِنْ وَصْلِهِ أَرَبا
لَه مُحَيّا جَمِيلٌ باهِرٌ نَضِرٌ   وفي المَلاحَةِ فاقَ التُّرْكَ والعَرَبا
والشَّمْسُ والبَدْرُ قَدْ مالا لِطَلْعَتِهِ   كالصَّبِّ والتَزَما في حُبِّهِ الأَدَبا
وطَرْفُهُ بِعَجِيبِ السِّحْرِ مُكْتَحِلٌ   يُرِيكَ قَوْساً لِرَمْيِ السَّهْمِ مُنْتَصِبا

يا مَنْ لَه حالَتِي كَمْ جِئْتُ مُعْتَذِراً إرْحَمْ مُحِباً بِه صَرْفُ الهَوَى لَعِبا
إنَّ الهوَى قَدْ رَماني وَسْطَ ساحَتِكُمْ ضَعِيفَ عَزْمٍ ومِنْكُمْ أرْتَجِي حَسَبا
إنَّ الكِرامَ إذا ما حَلَّ ساحَتَهُمْ مُسْتَحْسِبٌ فَحَماهُمْ يَرْفَعُ الحَسَبا
فاسْتُرْ فَضائِحَ أَهْلِ العِشْقِ يا أَمَلِي وكُنْ لِوَصْلَتِهِمْ يا سَيِّدِي سَبَبا

فلما فرغت من شعرها حكت للملك قصتها من أولها إلى آخرها. ثم افاضت العبرات وانشدت هذه الأبيات: [من البسيط]

عِشْنا إلى أنْ رَأَيْنا في الهَوَى عَجَبا كَلُّ الشُّهُورِ وفي الأمْثالِ عِشْ رَجَبا
أَلَيْسَ مِنْ عَجَبٍ أَنِّي ضُحَى ٱرْتَحَلُوا أَوْقَدْتُ مِنْ ماءِ دَمْعِي في الحَشَى لَهَبا
وإنَّ أَجْفانَ عَيْنِي أَمْطَرَتْ وَرَقاً وإنَّ ساحَةَ خَدِّي أَنْبَتَتْ ذَهَبا
كأَنَّ ما ٱنْعَقَّ عَنْهُ مِنْ مُعَصْفَرِهِ قَمِيصُ يُوسُفَ غَشَّوْهُ دَماً كَذِبا

فلما سمع الملك كلامها تحقّق وجدها وغرامها. فأخذته الشفقة عليها وقال لها: لا خوف عليك ولا فزع، قد وصلت إلى مرادك فلا بدّ أن أبلغك ما تريدين وأوصل إليك ما تطلبين. فاسمعي مني هذه الكلمات ثم أنشد هذه الأبيات: [من البسيط]

بِنْتَ الكِرامِ بَلَغْتِ القَصْدَ والأرَبا لَكِ البِشاراتُ لا تَخْشَي هُنا نَصَبا
اليَوْمَ أَجْمَعُ أَمْوالاً وأَرْسِلُها لِشامِخٍ صَحِبَ الفُرْسانَ والنُّجُبا
نَوافِحَ المِسْكِ والدِّيباجِ أُرْسِلُها وأُرْسِلُ الفِضَّةَ البَيْضاءَ والذَّهَبا
نَعَمْ وتُخْبِرُهُ عَنِّي مُكاتَبَتِي أنِّي مُرِيدٌ لَهُ صِهْراً ومُنْتَسِبا
وأَبْذُلُ اليَوْمَ جَهْدِي في مُعاوَنَة حَتَّى يَكُونَ الَّذِي تَهْوِينَ مُقْتَرِبا
قَدْ ذُقْتُ طَعْمَ الهَوَى دَهْراً وأَعْرِفُهُ وأَعْذِرُ اليَوْمَ مَنْ كأسَ الهَوَى شَرِبا

فلما فرغ من شعره، خرج إلى عسكره ودعا بوزيره وحزم له مالاً لا يحصى وامره أن يذهب بذلك إلى الملك شامخ وقال له: لا بدّ أن تاتيني بشخص عنده إسمه أنس الوجود وقل له: إنه يريد مصاهرتك بأن يزوج ابنته لأنس الوجود تابعك، فلا بدّ من إرساله معي حتى نعقد عقده عليها في مملكة أبيها. ثم إن الملك درباس كتب مكتوباً للملك شامخ بمضمون ذلك وأعطاه لوزيره واكد عليه في الإتيان بأنس الوجود وقال له: إن لم تاتني به تكن معزولاً من مرتبتك. فقال له: سمعاً وطاعةً. ثم توجّه بالهدية إلى الملك شامخ، فلما وصل إليه بلّغه السلام عن الملك درباس وأعطاه المكاتبة والهدية التي معه. فلمّا رآها الملك شامخ وقرأ المكاتبة ونظر إسم أنس الوجود، بكى بكاءً شديداً وقال للوزير المرسل إليه: وأين أنس الوجود؟ فإنه ذهب ولا نعلم مكانه، فأتني به وأنا أعطيك أضعاف ما جئت به من الهدية. ثم بكى وأنّ واشتكى وأفاض العبرات وانشد هذه الأبيات: [من مجزوء الرمل]

رُدُّوا عَلَيَّ حَبِيبِي لا حاجَةَ لِي بِمالِ
ولا أُرِيدُ هَدايا مِنْ جَوْهَرٍ ولآلِي

قَد كانَ عِنْدِي بَدْراً سَما بأُفْقِ جَمالِ
وفاقَ حِسّاً ومَعْنَى ولَم يُقَسْ بِغَزالِ
وقَدُّهُ غُصْنُ بانٍ أَثْمارُهُ مِنْ دَلالِي
ولَيْسَ في الغُصْنِ طَبْعٌ يُسْبِي عُقُولَ الرِّجالِ
رَبَّيْتُهُ وَهْوَ طِفْلٌ على مِهادِ الدَّلالِ
وإنَّني لَحَزِينٌ عَلَيْهِ مَشْغُولُ بالِي

ثم التفت إلى الوزير الذي جاء بالهدية والرسالة وقال له : إذهب إلى سيدك واخبره أن أنس الوجود مضى له عام وهو غائب، وسيده لم يدر أين ذهب ولا يعرف له خبر . فقال له الوزير : يا مولاي، إن سيدي قال لي : إن لم تأتني به تكن معزولاً عن الوزارة ولا تدخل مدينتي . فكيف اذهب إليه بغيره؟ فقال الملك شامخ لوزيره ابراهيم : إذهب معه صحبة جماعة وفتّشوا على أنس الوجود في سائر الأماكن . فقال له : سمعاً وطاعةً . ثم أخذ جماعة من أتباعه واستصحب وزير الملك درباس وساروا في طلب أنس الوجود . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 379

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن ابراهيم وزير الملك شامخ أخذ جماعة من أتباعه واستصحب وزير الملك درباس وساروا في طلب أنس الوجود. فكانوا كلما مرّوا بعرب أو قوم يسألونهم عن أنس الوجود فيقولون لهم : هل مرّ بكم شخص إسمه كذا وصفته كذا وكذا؟ فيقولون : لا نعلمه . وما زالوا يسألون في المدائن والقرى ويفتشون في السهل والأوعار والبراري والقفار حتى وصلوا إلى شاطىء البحر، وطلبوا مركباً ونزلوا فيها وساروا بها حتى أقبلوا على جبل الثكلا . فقال وزير الملك درباس لوزير الملك شامخ : لأي شيء سمي هذا الجبل بذلك الإسم ؟ فقال له : لأنه نزلت به جنية في قديم الزمان، وكانت تلك الجنية من جن الصين وقد حبت إنساناً ووقع له فيها غرام وخافت على نفسها من أهلها . فلمّا زاد بها الغرام ، فتشت في الأرض على مكان تخفيه فيه عن أهلها فوجدت هذا الجبل منقطعاً عن الإنس والجن، بحيث لا يهتدي إلى طريقه أحد لا من الإنس ولا من الجن . فاختطفت محبوبها ووضعته فيه وصارت تذهب إلى أهلها وتأتيه في خفية . ولم تزل على ذلك زمناً طويلاً حتى ولدت منه في ذلك الجبل أطفالاً متعددة . وكان كل من يمر على هذا الجبل من التجار المسافرين في البحر يسمع بكاء الأطفال كبكاء المرأة التي ثكلت أولادها أي فقدتهم . فيقول : هل هنا ثكلا؟ فتعجّب وزير الملك درباس من ذلك الكلام . ثم إنهم ساروا حتى وصلوا إلى القصر وطرقوا الباب، فانفتح الباب وخرج لهم خادم فعرف ابراهيم وزير الملك شامخ فقبّل يديه . ثم دخل القصر فوجد في فسحته رجلاً فقيراً بين الخدامين وهو أنس الوجود فقال لهم : من أين هذا؟ فقالوا له : إنه رجل تاجر غرق ماله ونجى بنفسه وهو مجذوب . فتركه ثم مشى إلى داخل القصر فلم يجد لابنته أثراً . فسأل الجواري التي هناك فقلن له : ما عرفنا كيف راحت، ولا أقامت معنا سوى مدة يسيرة . فسكب العبرات وأنشد هذه الأبيات : [من الرمل]

أَيُّها الدّارُ التي أَطْيارُها قَد تَغَنَّتْ وٱزْدَهَتْ أَعتابُها
كَمْ أَتاها الصَّبُّ يَنْعِي شَوْقَه ورآها فُتِّحَتْ أَبْـوابُها
لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ ضاعَتْ مُهْجَتِي عِنْدَ دارٍ قَد نَأَتْ أَرْبابُها
كانَ فِيها كُلُّ شَيءٍ فاخِراً وٱسْتَطابَتْ وٱعْتَلَتْ حُجّابُها
وكَسَوْها حُلُلاً مِن سُنْدُسٍ يا تُرَى أَيْنَ غَدَتْ أَصْحابُها

فلما فرغ من شعره بكى وأنَّ واشتكى وقال: لا حيلة في قضاء الله ولا مفر مما قدّره وقضاه. ثم طلع إلى سطح القصر فوجد الثياب البعلبكية مربوطة في شراريف القصر واصلة إلى الأرض، فعرف أنها قد نزلت من ذلك المكان وراحت كالهائم الولهان. والتفت فرأى هناك طيرين غراباً وبومة، فتشاءم من ذلك وصعد الزفرات وأنشد هذه الأبيات: [من الطويل]

أَتَيْتُ إلى دارِ الأَحِبَّةِ راجِياً بآثارِهِمْ إطْفاءَ وَجْدِي ولَوْعَتِي
فَلَمْ أَجِدِ الأَحْبابَ فِيها ولَم أَجِدْ بِها غَيرَ مَشْؤُومَيْ غُرابٍ وبُومَةِ
وقالَ لِسانُ الحالِ: قَد كُنْتَ ظالماً وفَرَّقْتَ بَينَ المُغْرَمِينَ الأَحِبَّةِ
فَذُقْ طَعْمَ ما ذاقُوهُ مِنْ أَلَمِ الجَوَى وعِشْ أَبَداً ما بَينَ دَمْعٍ وحُرْقَةِ

ثم نزل من فوق القصر وهو يبكي وقد أمر الخدام أن يخرجوا إلى الجبل ويفتشوا على سيدتهم، ففعلوا ذلك فلم يجدوها. هذا ما كان من أمرها. وأما ما كان من أمر أنس الوجود، فإنه لما تحقّق أن الورد في الأكمام قد ذهبت، صاح صيحة عظيمة ووقع مغشياً عليه. واستمرّ في غشيته فظنوا أنه أخذته جذبة من الرحمن واستغرق في جمال هيئة الديان. ولما يئسوا من وجود أنس الوجود واشتغل قلب الوزير ابراهيم بفقد بنته الورد في الأكمام، أراد وزير الملك درباس أن يتوجّه إلى بلاده وإن لم يفز من سفره بمراده. فأخذ يودعه الوزير ابراهيم والد الورد في الأكمام فقال له وزير الملك درباس: إني أريد أن آخذ هذا الفقير معي عسى الله تعالى أن يعطف عليّ قلب الملك ببركته لأنه مجذوب، ثم بعد ذلك أرسله إلى بلاد أصبهان لأنها قريبة من بلادنا. فقال له: إفعل ما تريد. ثم انصرف كل منهما متوجّهاً إلى بلاده، وقد أخذ وزير الملك درباس أنس الوجود معه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 380

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن وزير الملك درباس أخذ أنس الوجود معه وهو مغشى عليه، وسار به ثلاثة أيام وهو في غشيته محمول على البغال ولا يدري، هل محمول أو لا! فلمّا أفاق من غشيته قال: في أي مكان أنا؟ فقالوا له: أنت صحبة وزير الملك درباس. ثم ذهبوا إلى الوزير وأخبروه أنه أفاق، فارسل إليه ماء الورد والسكر فسقوه وأنعشوه، ولم يزالوا مسافرين حتى قربوا من مدينة الملك درباس. فارسل الملك إلى الوزير يقول له: إن لم يكن أنس الوجود معك فلا تأتني أبداً. فلما قرأ مرسوم الملك عسر عليه ذلك. وكان الوزير لا يعلم أن الورد في الأكمام عند الملك، ولا يعلم ما سبب إرسال الملك إيّاه إلى أنس الوجود، ولا يعلم ما سبب رغبته في مصاهرته، وأنس الوجود لا يعلم أين يذهبون به ولا يعلم

أن الوزير مرسل في طلبه، والوزير لا يعلم ان هذا هو أنس الوجود. فلمّا رأى الوزير أن أنس الوجود قد استفاق قال له: إن الملك أرسلني في حاجة وهي لم تقض، ولما علم بقدومي أرسل إليّ مكتوباً يقول لي فيه: إن لم تكن الحاجة قد قضيت فلا تدخل مدينتي. فقال له: وما حاجة الملك؟ فحكى له جميع الحكاية. فقال له أنس الوجود: لا تخف واذهب إلى الملك وخذني معك وأنا اضمن لك مجيء أنس الوجود. ففرح الوزير بذلك وقال له: أحق ما تقول؟ فقال: نعم. فركب وأخذه معه وسار به إلى الملك، فلمّا وصلا إلى الملك قال له: أين أنس الوجود؟ فقال أنس الوجود: أيها الملك، أنا أعرف مكان أنس الوجود. فقرّبه إليه وقال له: في أي مكان هو؟ قال: في مكان قريب جداً، ولكن أخبرني ماذا تريد منه؟ وأنا أحضره بين يديك. فقال له: حبّاً وكرامةً، ولكن هذا الامر يحتاج إلى خلوة. ثم أمر الناس بالإنصراف ودخل معه خلوة وأخبره الملك بالقصة من أولها إلى آخرها. فقال له أنس الوجود: إئتني بثياب فاخرة وألبسني إيّاها وأنا آتيك بأنس الوجود سريعاً. فأتاه ببدلة فاخرة فلبسها وقال: أنا أنس الوجود وكالحسود. ثم رمى القلوب باللحظات وأنشد هذه الأبيات: [من الطويل]

يُؤانِسُنِي ذِكْرُ الحَبيبِ بِخَلْوَتِي ... ويَطْرُدُ عَنِّي في التَباعُدِ وَحْشَتِي
وما لي غَيرَ الدَّمْعِ عَوْنٌ وإنَّما ... إذا فاضَ مِنْ عَيْني يُخَفِّفُ زَفْرَتِي
وشَوْقِي شَدِيدٌ لَيْسَ يُوجَدُ مِثْلُهُ ... وأمْرِي عَجِيبٌ في الهَوَى والمَحَبَّةِ
فأَقْطَعُ لَيلِي ساهِرَ الجَفْنِ لَم أَنَمْ ... وفي العِشْقِ أَسْعَى بَينَ نارٍ وجَنَّةِ
وقَد كانَ لي صَبْرٌ جَميلٌ عَدِمْتُهُ ... وما مِنْحَتِي في الحُبِّ إلاَّ بِمِحْنَتِي
وقَد رَقَّ جِسْمِي مِنْ أَليمِ بِعادِهِمْ ... وغَيَّرَتِ الأَشْواقُ وَصْفِي وصُورَتِي
وأَجْفانُ عَيْنِي بالدُّمُوعِ تَقَرَّحَتْ ... ولَم أَسْتَطِعْ أَنْ أُسْكِتَ الآنَ دَمْعَتِي
وقَد قَلَّ حَيْلِي والفُؤادُ عَدِمْتُهُ ... وكَمْ ذا أُلاقِي لَوْعَةً بَعْدَ لَوْعَةِ
وقَلْبِي ورأسِي في المَشيبِ تَشابَها ... عَلى سادَةٍ في الحُسْنِ أَحْسَنَ سادَةِ
عَلى رُغْمِهِمْ كانَ التَفَرُّقُ بَيْنَنا ... وما قَصْدُهُمْ إلاَّ لِقائِي ووَصْلَتِي
فَيا هَل تُرَى بَعْدَ التَّقاطُعِ والنَّوَى ... يُمَتِّعُنِي دَهْرِي بِوَصْلِ أَحِبَّتِي
ويَطْوِي كِتابَ البُعْدِ مِنْ بَعْدِ نَشْرِهِ ... وتُمْحَى براحاتِ الوِصالِ مَشَقَّتِي
ويَبْقَى حَبِيبِي في الدِّيارِ مُنادِمِي ... وتُبْدَلُ أَحْزانٌ بِصَفْوِ سَرِيرَتِي

فلمّا فرغ من شعره، قال له الملك: والله إنكما لمحبان صادقان وفي سماء الحسن كوكبان نيران وامركما عجيب وشأنكما غريب. ثم حكى له حكاية الورد في الأكمام إلى آخرها. فقال له: وأين هي يا ملك الزمان؟ قال: هي عندي الآن. ثم أحضر الملك القاضي والشهود وعقد عقدها عليه وأكرمه وأحسن إليه. ثم أرسل الملك درباس إلى الملك شامخ وأخبره بجميع ما اتفق له من أمر أنس الوجود والورد في الأكمام. ففرح الملك شامخ بذلك غاية الفرح وأرسل إليه مكتوباً مضمونه: حيث حصل عقد العقد عندك ينبغي أن يكون الفرح والدخول عندي. ثم جهّز الجمال والخيل والرجال وأرسل في طلبهما، فلمّا وصلت الرسالة إلى الملك درباس مدّهما

بمال عظيم وأرسلهما مع جملة من عسكره، فساروا بهما حتى دخلوا مدينتهما. وكان يوماً مشهوداً لم يرَ اعظم منه، وجمع الملك شامخ سائر المطربات من الآت المغاني وعمل الولائم ومكثوا على ذلك سبعة ايام، وفي كل يوم يخلع الملك شامخ على الناس الخلع السنيّة ويحسن إليهم. ثم إن انس الوجود دخل على الورد في الأكمام فعانقها وجلسا يبكيان من فرط الفرح والمسرّات. فأنشدت الورد في الأكمام هذه الأبيات: [من البسيط]

جاءَ السُّرُورُ أَزالَ الهَمَّ والحَزَنا ... ثُم اجْتَمَعْنا وأَكْمَدْنا حَواسِدَنا
ونَسْمَةُ الوَصْلِ قَد هبَّتْ مُعَطِّرَةً ... فأَحيَتَ القَلْبَ والأَحْشاءَ والبَدَنا
وبَهْجَةُ الأُنْسِ قَد لاحَتْ خَوالِقُها ... وفي الخَوافِقِ قَد دَقَّتْ بَشائِرَنا
لا تحسَبُوا أَنَّنا باكُونَ مِنْ حَزَنٍ ... لَـكِنْ فَرحْنا وقَد فاضَتْ مَدامِعَنا
فكَمْ رَأَيْنا مِنَ الأَهْوالِ وانْصَرَفَتْ ... وقَد صَبَرْنا عَلى ما هَيَّجَ الشَّجَنا
فَساعَةٌ مِنْ وِصالٍ قَد نَسِيْنا بِها ... ما كانَ مِنْ شِدَّةِ الأَهْوالِ شَيَّبَنا

فلما فرغت من شعرها تعانقا، ولم يزالا متعانقين حتى وقعا مغشيّاً عليهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 381

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أنس الوجود والورد في الأكمام لما اجتمعا تعانقا، ولم يزالا متعانقين حتى وقعا مغشيّاً عليهما من لذّة الإجتماع. فلمّا افاقا من غشيتهما أنشد أنس الوجود هذه الأبيات: [من الرمل]

ما أُحَيْلاها لُيَيْلاتِ الوَفا ... حَيْثُ أَمْسَى لي حَبِيبِي مُنْصِفا
وتَوالى الوَصْلُ فِيما بَيْنَنا ... وانْفِصالُ الهَجْرِ عَنَّا قَدْ وَفَى
وإلَيْنا الدَّهْرُ يَسْعَى مُقْبِلاً ... بَعْدَما مالَ وعَنّا انْحَرَفا
نَصَبَ السَّعْدُ لَنا أَعْلامَهُ ... وشَرِبْنا مِنْهُ كأْساً قَدْ صَفا
واجْتَمَعْنا وتَشاكَيْنا الأَسَى ... ولُيَيْلاتٍ تَقَضَّتْ بالجَفا
ونَسِينا ما مَضَى يا سادَتِي ... وعَفا الرَّحْمٰنُ عَمّا سَلَفا
ما أَلَذَّ العَيْشَ ما أَطْيَبَهُ ... لَمْ يَزِدْنِي الوَصْلُ إلاَّ شَغَفا

فلما فرغ من شعره تعانقا واضطجعا في خلوتهما. ولم يزالا في منادمة وأشعار ولطيف حكايات وأخبار حتى غرقا في بحر الغرام، ومضت عليهما سبعة أيام وهما لا يدريان ليلاً من نهار لفرط ما هما فيه من لذة وسرور وصفو وحبور، فكأن السبعة أيام يوم واحد ليس له ثاني، وما عرفا يوم الأسبوع إلاّ بمجيء آلات المغاني. فاكثرت الورد في الأكمام التعجبات ثم أنشدت هذه الأبيات: [من الوافر]

عَلى غَيْظِ الحَواسِدِ والرَّقِيبِ ... بَلَغْنا ما نُرِيدُ مِنَ الحَبِيبِ

وأَسْعَفَنا التَّواصُلُ باعْتِناقٍ عَلَى الدِّيباجِ والقَزِّ القَشِيبِ
وفَرْشٍ مِنْ أَدِيمٍ قَدْ حَشَوْنا بِرِيشِ الطَّيْرِ مِنْ شَكْلٍ غَرِيبِ
وعَنْ شُرْبِ المُدامِ قَدْ اغْتَنَيْنا بِرِيقِ الحِبِّ جَلَّ عَنِ الضَّرِيبِ
ومِنْ طِيبِ الوِصالِ فَلَيْسَ نَدْرِي بِأَوْقاتِ البَعِيدِ مِنَ القَرِيبِ
لَيالٍ سَبْعَةٌ مَرَّتْ عَلَيْنا ولَمْ نَشْعُرْ بِها كَمْ مِنْ عَجِيبِ
فَهَنُّونِي بِأُسْبُوعٍ وقُولُوا أَدامَ اللهُ وَصْلَكَ بالحَبِيبِ

فلما فرغت من شعرها، قبّلها أنس الوجود ما ينوف عن المئات. ثم أنشد هذه الأبيات: [من الوافر]

أَتَى يَوْمُ السُّرُورِ مَعَ التَّهانِي وجاءَ الحِبُّ مِنْ صَدٍّ وَقانِي
فآنَسَنِي بِطِيبِ الوَصْلِ مِنْهُ ونادَمَنِي بِأَلْطافِ المَعانِي
وأَسْقانِي شَرابَ الأُنْسِ حَتَّى ذُهِلْتُ عَنِ الوُجُودِ بِما سَقانِي
طَرِبْنا وانْشَرَحْنا واضْطَجَعْنا وصِرْنا في شَرابٍ مَعْ أَغانِي
ومِنْ فَرْطِ السُّرُورِ فَلَيْسَ نَدْرِي مِنَ الأَيّامِ أَوَّلَها وثانِي
هَنِيئاً لِلْمُحِبِّ بِطِيبِ وَصْلٍ ووَافاهُ السُّرُورُ كَما وَفانِي
ولا يَدْرِي لِمُرِّ الصَّدِّ طَعْماً ورَبِّي قَدْ حَباهُ كَما حَبانِي

فلما فرغ من شعره، قاما وخرجا من مكانهما وأنعما على الناس بالمال والخلع وأعطيا ووهبا. ثم أمرت الورد في الأكمام أن يخلو لها الحمام وقالت لأنس الوجود: يا قرّة عيني، قصدي أن أراك في الحمام ونكوّن بمفردنا من غير أحد معنا. وزادت بها المسرّات فأنشدت هذه الأبيات: [من الوافر]

أَيا مَنْ قَدْ تَمَلَّكَنِي قَدِيماً ولمْ يُغْنِ الحَدِيثُ عَنِ القَدِيمِ
ويا مَنْ لَيْسَ لِي عَنْهُ غَناءٌ ولا أَرْجُو سِواهُ مِنْ نَدِيمِ
إلى الحَمّامِ قُمْ يا نُورَ عَيْنِي نَرَى الفِرْدَوْسَ في وَسَطِ الجَحِيمِ
ونَعْبَقُها بِعُودِ النَّدِّ حَتَّى يَفُوحَ الطِّيبُ في القَطْرِ العَمِيمِ
ونَصْفَحُ عَنْ ذُنُوبِ الدَّهْرِ طُرّاً ونَشْكُرُ فَضْلَ مَوْلانا الرَّحِيمِ
وأَنْشُدُ إِذْ أَراكَ هُناكَ فِيها هَنِيئاً يا حَبِيبِي بالنَّعِيمِ

فلما فرغت من شعرها، قاما وذهبا إلى الحمام وتنعّما فيه. ثم عادا إلى قصرهما وأقاما به في ألذّ المسرّات إلى أن أتاهما هادم اللذّات ومفرّق الجماعات. فسبحان من لا يحول ولا يزول وإليه كل الأمور تؤول.

49 - حكاية أبي نواس والغلمان الحسان

ومما يحكى أن أبا نواس خلا بنفسه يوماً من الأيام وهيّأ مجلساً فاخراً وجمع فيه من أنواع الأطعمة وسائر الألوان كل ما تشتهي الشفة واللسان. ثم إنه خرج يمشي في طلب محبوب لائق

بذلك المجلس وقال : يا إلهي وسيدي ومولاي ، أسألك أن تسوق لي من يناسب ذلك المجلس ويصلح للمنادمة معي في هذا اليوم . فما استتم كلامه إلاّ وقد رأى ثلاثة من المرد الحسان كأنهم من ولدان الجنان ، إلاّ أن ألوانهم مختلفة ومحاسنهم في الإبداع مؤتلفة ، وفي تثني معاطفهم تطمع الآمال على حدّ قول من قال : [من الوافر]

مَرَرْتُ بأَمْرَدَينِ فَقُلْتُ : إنِّي أُحِبُّكُما ! فَقالَ الأَمْرَدانِ
أَذُو مالٍ ؟ فَقُلْتُ : وذُو سَخاءٍ فَقالَ الأَمْرَدانِ : الأَمْرُ دانِ

وكان أبو نواس يذهب هذا المذهب ومع الملاح يلهو ويطرب ، ويجتني ورد كل خدّ ناضر كما قال الشاعر : [من المتقارب]

وشَيْخٍ كَبِيرٍ لَهُ صَبْوَةٌ يُحِبُّ المِلاحَ ويَهْوَى الطَّرَبْ
غَدا مُوصِلِيّاً بأَرْضِ النَّقا فَما إنْ تَذَكَّر إلاَّ حَلَبْ

فذهب إلى هؤلاء الغلمان وحيّاهم بالسلام ، فقابلوه بأوفى تحية وإكرام . ثم أرادوا الإنصراف إلى بعض الجهات ، فحجزهم أبو نواس وأنشد هذه الأبيات : [من مجزوء الوافر]

فَلا تَسْعَوْا إلى غَيرِي فَعِنْدِي مَعْدَنُ الخَيْرِ
وعِنْدِي قَهْوَةٌ تُجلَى سَباها راهِبُ الدَّيْرِ
وعِنْدِي اللَّحْمُ مِنْ ضَأْنٍ وأَصْنافٌ مِنَ الطَّيْرِ
كُلُوا ذا واشْرَبُوا خَمْراً عَتِيقاً مُذْهِبَ الضَّيْرِ
ونِيكُوا بَعْضَكُمْ بَعْضاً ودُسُّوا بَيْنَكُمْ أَيْرِي

فلما خدع الغلمان بأبياته مالوا إلى مرضاته وأجابوه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 382

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن أبا نواس لما خدع الغلمان بأبياته ، مالوا إلى مرضاته وأجابوه : بالسمع والطاعة . وذهبوا معه إلى منزله فوجدوا جميع ما وصفه في شعره حاضراً في المجلس ، فجلسوا وأكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا وتحاكموا عند أبي نواس في أيهم أحسن بهجة وجمالاً وأقوم قداً واعتدالاً . فأشار إلى أحدهم بعد تقبيله مرتين ثم أنشد هذين البيتين : [من الطويل]

بِرُوحِيَ أَفْدِي خالَهُ فَوْقَ خَدِّهِ ومِنْ أَيْنَ هذا الخالُ أَفْدِيهِ بالمالِ
تَبارَكَ مَنْ أَخْلى مِن الشَّعْرِ خَدَّهُ وأَسْكَنَ كُلَّ الحُسْنِ في ذلكَ الخالِ

ثم أشار إلى الثاني بعد لثم الشفتين وأنشد هذين البيتين : [من الوافر]

ومَعْشُوقٍ لَه في الخَدِّ خالٌ كَمِسْكٍ فَوْقَ كافُورٍ نَقِيِّ
تَعَجَّبَ ناظِرِي لَمّا رَآهُ فَقالَ الخالُ : صَلِّي عَلَى النَبِيِّ

ثم أشار إلى الثالث بعد تقبيله عشر مرات وأنشد هذه الأبيات : [من الوافر]

أذابَ التِّبْرُ في كأسِ اللُّجَينِ | فَتًى بالرَّاحِ مَخْضُوبُ اليَدَيْنِ
وطافَ مَعَ السُّقاةِ بِكأسِ راحٍ | وطافَتْ مُقْلَتاهُ بِآخَرَيْنِ
مَلِيحٌ مِنْ بَنِي الأَتْراكِ ظَبْيٌ | يُجاذِبُ خَصْرُهُ جَبَلَي حُنَينِ
لَئِنْ سَكَنَتْ إلى الزَّوْراءِ نَفْسِي | فإنَّ القَلْبَ بَينَ مُحَرَّكَينِ
هُوَ يَقْتادُهُ لِدِيارِ بَكْرٍ | وآخَرُ نَحْوَ أَرْضِ الجامِعَينِ

وكان كل واحد من الغلمان قد شرب قدحين . فلمّا وصل الدور إلى أبي نواس أخذ القدح وأنشد هذين البيتين : [من البسيط]

لا تَشْرَبِ الرَّاحَ إلاَّ مِنْ يَدَي رَشأٍ | تَحْكِيهِ في رِقَّةِ المَعْنَى ويَحْكِيها
إنَّ المُدامَةَ لا يَلْتَذُّ شارِبُها | حَتَّى يَكُونَ نَقِيَّ الخَدِّ ساقِيها

ثم شرب كأسه ودار الدور . فلمّا وصل الدور إلى أبي نواس ثانياً ، غلبت عليه المسرّات فأنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

إجْعَلْ نَدِيمَكَ أَقْداحاً تُواصِلُها | مِنَ المُدامِ وأَتْبِعْها بأَقْداحِ
مِنْ كَفِّ أَلْمَى بَدِيعِ الحُسْنِ رَيِّقَتُهُ | بَعْدَ الهَجُوعِ كَمِسْكٍ أَو كَتُفّاحِ
لا تَشْرَبِ الرَّاحَ إلاَّ مِنْ يَدَي رَشأٍ | تَقْبِيلُ وَجْنَتِهِ أَشْهَى مِنَ الرَّاحِ

فلما غلب السكر على أبي نواس ولم يعرف له يداً من رأس ، مال على الغلمان بالبوس والعناق والتفاف الساق على الساق ، ولم يبال بإثم ولا عار وأنشد هذه الأشعار : [من السريع]

ما آسْتَكْمَلَ اللذّاتِ إلاّ فَتَى | يَشْرَبُ والمُرْدُ نَداماهُ
هذا يُغَنِّيهِ وهذا إذا | أَنْعَشَهُ بالكأْسِ حَيّاهُ
وكُلَّما آحْتاجَ إلى قُبْلَةٍ | مِنْ واحِدٍ أَرْشَفَهُ فاهُ
سَقْياً لَهُمْ قَدْ طابَ يَوْمِي بِهِمْ | وَاعَجَباً ما كانَ أَحْلاهُ
نَشْرَبُها صِرْفاً وَمَمْزُوجَةً | وشَرْطُنا مَنْ نامَ نِكْناهُ

فبينما هم كذلك وإذا بطارق يطرق الباب فأذنوا له في الدخول ، فلمّا دخل وجدوه أمير المؤمنين هارون الرشيد .فقام له الجميع وقبّلوا الأرض بين يديه ، واستفاق أبو نواس من سكره لهيبة الخليفة فقال له أمير المؤمنين : يا أبا نواس . فقال : لبيك يا أمير المؤمنين أيدك الله . قال له : ما هذا الحال ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، لا شك أن الحال يغني عن السؤال . فقال له الخليفة : يا أبا نواس ، قد استخرت الله تعالى ووليتك قاضي المعرّصين . فقال أبو نواس : وهل تحب لي هذه الولاية يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك من دعوة تدعيها عندي ؟ فاغتاظ منه أمير المؤمنين ثم ولّى وتركهم وهو ممزوج بالغضب . فلمّا جن الليل بات أمير المؤمنين في غيظ شديد من أبي نواس ، وبات أبو نواس في أسر الليالي بما هو فيه من البسط والإنشراح . فلمّا أصبح الصباح وأضاء كوكبه ولاح ، فضّ أبو نواس المجلس وصرف الغلمان ولبس لبس الموكب وخرج من بيته متوجّهاً إلى أمير المؤمنين . وكان من عادة أمير المؤمنين أنه إذا فضّ

الديوان يدخل قاعة الجلوس، ثم يحضر فيها الشعراء والندماء وارباب الآلات ويجلس كل منهم في مرتبته لا يتعداها. فاتفق أنه كان في ذلك اليوم نزل من الديوان إلى القاعة وأحضر ندماءه وأجلسهم في مراتبهم، فلمّا جاء ابو نواس وأراد ان يجلس في موضعه، دعا أمير المؤمنين بمسرور السيّاف وأمره أن ينزع عن أبي نواس ثيابه ويشد على ظهره برذعة حمار ويجعل في رأسه مقوداً وفي دبره طفراً ويدور به على مقاصير الجواري. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 383

□ قالت: بلغني ايها الملك السعيد، أن امير المؤمنين أمر مسرور السيّاف أن ينزع عن أبي نواس ثيابه ويشد على ظهره برذعة ويجعل في رأسه مقوداً وفي دبره طفراً، ثم يدور به على مقاصير الجواري وعلى منازل الحريم وسائر المحلات ليسخروا به وبعد ذلك يقطع رأسه ويأتيه بها. فقال مسرور: سمعاً وطاعةً. وأخذ يفعل ما أمره به الخليفة ودار به على المقاصير، وكان عددها بعدد أيام السنة وكان أبو نواس مضحكاً وكل من رآه يعطيه مالاً، فما رجع إلاّ وجيبه ملآن مالاً. فبينما هو على هذه الحالة وإذا بجعفر البرمكي مقبل، فدخل على الخليفة وكان غائباً في أمر مهم لأمير المؤمنين، فرأى أبا نواس في هذه الحالة فعرفه فقال له: يا أبا نواس. فقال له: لبيك يا مولانا. قال له: أي ذنب فعلت حتى حصلت لك هذه العقوبة؟ فقال له أبو نواس: ما فعلت ذنباً إلاّ أني هاديت مولانا الخليفة بمحاسن أشعاري فهاداني بمحاسن ملبوسه. فلمّا سمع أمير المؤمنين ذلك، ضحك ضحكاً ناشئاً عن قلب مملوء بالغيظ وعفا عنه وأمر له ببدرة من المال.

50 - من حكايات العشق ومكارم الأخلاق

حكاية عبدالله بن معمّر ورجل من البصرة

ومما يحكى أن بعض أهل البصرة اشترى جارية فأدّبها وأحسن أدبها وتعليمها، وكان يحبها غاية المحبة وأنفق جميع ماله على البسط والإنشراح وهو معها ولم يبقَ عنده شيء، وقد أضرّ به الفقر الشديد. فقالت له الجارية: يا سيدي، بعني لأنك محتاج إلى ثمني، وقد شفقت على حالك مما أرى بك من الفقر، فلو بعتني وأنفقت ثمني لكان ذلك أصلح لك من بقائي عندك ولعل الله تعالى يوسع عليك رزقك. فأجابها إلى ذلك من ضيق حاله، ثم أخذها ونزل بها السوق فعرضها الدلاّل على أمير البصرة وكان اسمه عبد الله بن معمر التيمي، فأعجبته فاشتراها بخمسمائة دينار ودفع ذلك المبلغ إلى سيدها. فلمّا قبضه سيدها وأراد الإنصراف، بكت الجارية وأنشدت هذين البيتين: [من الطويل]

هَنِيئاً لَكَ المالُ الذي قَدْ حَوَيْتَهُ ... ولَمْ يَبْقَ لي غَيرُ الأَسَى والتَّفَكُّرِ
أَقُولُ لِنَفْسِي وَهْيَ في سُوءِ كَرْبِها ... أَقِلِّي فَقَدْ بانَ الحَبِيبُ أَوَ اكْثِرِي

فلما سمعها سيدها صعّد الزفرات وأنشد هذه الأبيات: [من الطويل]

إذا لَمْ يَكُنْ لِلأَمْرِ عِنْدَكِ حِيلَةٌ ... ولَمْ تَجِدِي شَيْئاً سِوَى المَوْتِ فاعْذِرِي

أَرُوحُ وأَغْدُو والأَوانِسُ ذِكْرَهُمْ　　أُناجِي بِهِ قَلْباً شَدِيدَ التَّفَكُّرِ
عَلَيْكِ سَلامٌ لا زِيارَةَ بَيْنَنا　　ولا وَصْلَ إلاّ أَنْ يَشاءَ آبْنُ مَعْمَرِ

فلما سمع عبد الله بن معمر شعرهما ورأى كآبتهما قال : والله كنت معيناً على فراقكما وقد ظهر لي أنكما متحابان ، فخذ المال والجارية أيها الرجل بارك الله لك فيهما ، فإن افتراق الحبيبين من بعضهما صعب عليهما . فقبّل الإثنان يده وانصرفا ، وما زالا مجتمعين إلى أن فرّق بينهما الموت . فسبحان من لا يدركه فوت .

حكاية العاشق العذري

ومما يحكى أنه كان في بني عذرة رجل ظريف وكان لا يخلو من العشق يوماً واحداً . فاتفق له أنه أحب امرأة جميلة من الحي ، فراسلها أياماً وهي لا تزال تجفوه وتصدّ عنه إلى أن أضرّ به الغرام والوجد والهيام ، فمرض مرضاً شديداً ولزم الوساد وجفا الرقاد وظهر للناس أمره واشتهر بالعشق ذكره . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 384

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الرجل لزم الوساد وجفا الرقاد وظهر للناس أمره واشتهر بالعشق ذكره وازداد سقمه وعظم أمله حتى كاد أن يموت . ولم تزل أهله وأهلها يسألونها أن تزوره وهي تأبى إلى أن أشرف على الموت فأخبروها بذلك ، فرقّت له وأنعمت عليه بالزيارة . فلمّا نظرها تحدّرت عيناه بالدموع وأنشد عن قلب مصدُوع : [من الطويل]

بِعَيْشِكِ إنْ مَرَّتْ عَلَيْكِ جَنازَتِي　　وقَدْ رُفِعَتْ مِنْ فَوْقِ أَعْناقِ أَرْبَعِ
أَما تَتْبَعِينَ النَّعْشَ حَتَّى تُسَلِّمِي　　عَلَى قَبْرِ مَيْتٍ في الحَفِيرَةِ مُودَعِ

فلما سمعت كلامه بكت بكاءً شديداً وقالت له : والله ما كنت أظن أنه بلغ بك الغرام إلى أن يلقيك بين أيدي الحمام ، ولو علمت بذلك لساعدتك على حالك وتمتّعت بوصالك . فلمّا سمع كلامها صارت دموعه كالسحاب الماطر وأنشد قول الشاعر : [من الطويل]

دَنَتْ حِينَ حالَ المَوْتُ بَيْنِي وبَيْنَها　　وجادَتْ بِوَصْلٍ حَيْنَ لا يَنْفَعُ الوَصْلُ

ثم شهق شهقة فمات . فوقعت عليه تلثمه وتبكي . ولم تزل تبكي حتى وقعت عنده مغشياً عليها ، فلمّا أفاقت أوصت أهلها أنهم يدفنونها في قبره إذا ماتت . ثم أجرت دمع العين وأنشدت هذين البيتين : [من البسيط]

كُنّا على ظَهْرِها والعَيْشُ في رَغَدٍ　　والحَيُّ يَزْهُو بِنا والدَّارُ والوَطَنُ
فَفَرَّقَ الدَّهْرُ والتَّصْرِيفُ أُلْفَتَنا　　وصارَ يَجْمَعُنا في بَطْنِها الكَفَنُ

فلما فرغت من شعرها بكت بكاءً شديداً، ولم تزل تبكي حتى وقعت مغشياً عليها . واستمرّت في غشيتها ثلاثة أيام ، وماتت ودفنت في قبره . وهذا من عجيب الإتفاق في المحبة .

حكاية بدر الدين وزير اليمن والشيخ

ومما يحكى أن الصاحب بدر الدين وزير اليمن كان له أخ بديع الجمال وكان شديد الحرص

عليه، فالتمس له من يعلّمه فوجد شيخاً ذا هيبة ووقار وعفّة وديانة، فأسكنه بمنزل بجانب منزله وأقام على ذلك مدّة أيام. وهو كل يوم يذهب من بيته إلى بيت الصاحب بدر الدين ليعلم أخاه ثم ينصرف إلى منزله. ثم إن الشيخ تعلق قلبه بحب ذلك الشاب وقوي به غرامه وهاجت بلابله، فشكا حاله يوماً إلى الشاب. فقال له الشاب: ما حيلتي وأنا لا أستطيع مفارقة أخي ليلاً ونهاراً، فهو ملازم لي كما ترى. فقال له الشيخ: إن منزلي بجانب منزلكم، فيمكن إذا نام أخوك أن تقوم أنت تدخل الخلوة وتظهر للناس أنك تنام ثم تأتي إلى حائط السطح وأنا أتناولك من وراء الجدار، فتجلس عندي لحظة ثم تعود من غير أن يشعر بك أخوك. فقال الشاب: سمعاً وطاعةً. فجهّز الشيخ من التحف ما يليق بمقامه. هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر الشاب، فإنه دخل الخلوة وصبر حتى أخذ أخوه في مضجعه، ومضت ساعة من الليل حتى استغرق أخوه في النوم، ثم قام وتمشّى إلى الحائط فوجد الشيخ واقفاً ينتظره، فناوله يده فأخذه ودخل به المجلس. وكانت تلك الليلة ليلة البدر، فجلسا وتنادما ودارت بينهما كاسات الراح، فأخذ الشيخ في الغناء وقد ألقى البدر شعاعه عليهما. فبينما هما في فرح وسرور ولذّة وحبور وحظ يدهش العقل والطرف ويجلّ عن الوصف، إذ انتبه الصاحب بدر الدين من منامه فلم يجد أخاه، فقام فزعاً فوجد الباب مفتوحاً، فطلع منه فسمع همس الكلام، فصعد من الحائط إلى السطح فوجد نوراً ساطعاً بالبيت، فنظر من خلف جدار فوجدهما والكأس دائر بينهما. فحسّ به الشيخ والكأس في يده فأطرب بالنغمات وأنشد هذه الأبيات: [من الوافر]

سَقاني خَمْرَةً مِنْ رِيقِ فِيهِ ... وحَيَّا بالعَذارِ وما يَلِيهِ
وباتَ مُعانِقِي خَدّاً لِخَدٍّ ... مَلِيحٌ في الأَنامِ بِلا شَبِيهِ
وباتَ البَدْرُ مُطَّلِعاً عَلَيْنا ... سَلُوهُ لا يَنِمُّ عَلى أَخِيهِ

فكان من لطافة الصاحب بدر الدين أنه لما سمع هذه الأبيات قال: والله لا أنمّ عليكما. ومضى وتركهما في أتم سرور.

حكاية العاشقين في مكتب التعليم

ومما يحكى أن غلاماً وجارية كانا يقرآن في مكتب، فتعلّق الغلام بحب الجارية. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 385 □ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الغلام تعلّق بحب الجارية وأحبها حبّاً شديداً. فلمّا كان في بعض الأيام في ساعة غفلة الصبيان، أخذ الغلام لوح الجارية وكتب فيه هذين البيتين: [من البسيط]

ماذا تَقُولِينَ فِيمَنْ شَفَّهُ سَقَمُ ... مِنْ فَرْطِ حُبِّكِ حَتَّى صارَ حَيْرانا
يَشْكُو الصَّبابَةَ مِنْ وَجْدٍ ومِنْ أَلَمٍ ... لا يَسْتَطِيعُ لِما في القَلْبِ كِتْمانا

فلما أخذت الجارية لوحها رأت هذا الشعر مكتوباً فيه. فلمّا قرأته وفهمت معناه بكت رحمة

له وكتبت تحت خط الغلام هذين البيتين : [من البسيط]

إذا رَأَيْنا مُحِباً قَدْ أَضَرَّ بِهِ حالُ الصَّبابَةِ أَوْلَيْناهُ إحْسانا
ويَبْلُغُ القَصْدَ مِنّا في مَحَبَّتِه ولَوْ يَكُونُ عَلَيْنا كُلُّ ما كانا

فاتفق أن الفقيه دخل عليهما فوجد اللوح على حين غفلة ، فأخذه وقرأ ما فيه فرقّ لحالهما . وكتب في اللوح تحت كتابهما هذين البيتين : [من البسيط]

صِلِي مُحِبَّكِ لا تَخْشَي مُعاقَبَةً إنَّ المحِبَّ غَدا في الحُبِّ حَيْرانا
أَمّا الفَقِيهُ فلا تَخْشَى مَهابَتَهُ فإنَّهُ قَدْ بُلِيَ بالعِشْقِ أَزْمانا

فاتفق أن سيد الجارية دخل المكتب في تلك الساعة ، فوجد لوح الجارية فأخذه وقرأ ما فيه من كلام الجارية وكلام الشاب وكلام الفقيه فكتب الآخر في اللوح تحت كتابة الجميع هذين البيتين : [من البسيط]

لا فَرَّقَ اللهُ طُولَ الدَّهْرِ بَيْنَكُما وظَلَّ واشِيكُما حَيْرانَ تَعْبانا
أَمّا الفَقِيهُ فلا واللهِ ما نَظَرَتْ عَيْنايَ أَعْرَصَ مِنْهُ قَطُّ إنْسانا

ثم إن سيد الجارية أرسل خلف القاضي والشهود وكتب كتابها على الشاب في المجلس ، وجعل لهما وليمة وأحسن إليهما إحساناً عظيماً . وما زالا مجتمعين في هناء وسرور إلى أن أدركهما هادم اللذّات ومفرّق الجماعات .

حكاية المتلمس وزوجته أميمة

ومما يحكى أن المتلمّس هرب من النعمان بن المنذر وغاب غيبة طويلة حتى ظنّوا أنه مات ، وكان له زوجة جميلة تسمى أميمة . فشار عليها أهلها بالزواج فأبت ، فألحّوا عليها لكثرة خطّابها وغصبوها على الزواج ، فأجابتهم إلى ذلك وهي كارهة ، فزوّجوها رجلاً من قومها وكانت تحب زوجها المتلمّس محبة عظيمة . فلمّا كانت ليلة زفافها على ذلك الرجل الذي غصبوها على الزواج به ، قدم زوجها المتلمس في تلك الليلة ، فسمع في الحي صوت المزامر والدفوف ورأى علامات الفرح ، فسأل من بعض الصبيان عن هذا الفرح فقالوا له : إن أميمة زوجة المتلمس زوّجوها لفلان وها هو داخل في هذه الليلة . فلمّا سمع المتلمّس ذلك الكلام تحيّل في الدخول مع جملة النساء ، فوجدهما على منصتهما وقد تقدّم إليها العريس . فتنفست الصعداء وبكت وأنشدت هذا البيت : [من الطويل]

أَيا لَيْتَ شِعْرِي والحَوادِثُ جَمَّةٌ بأيِّ بِلادٍ أَنْتَ يا مُتَلَمِّسُ؟

وكان زوجها المتلمّس من الشعراء المشهورين . فأجابها بقوله : [من الطويل]

بِأَقْرَبِ دارٍ يا أُمَيْمَةَ فاعْلَمِي وما زِلْتُ مُشْتاقاً إذا الرَّكْبُ عَرَّسُوا

فعند ذلك فطن العريس بهما ، فخرج من بينهما بسرعة وهو ينشد قوله : [من الطويل]

فَكُنْتُ بِخَيْرٍ ثُم بِتْ بِضدِّهِ وضَمَّكُما بَيْتٌ رَحِيبٌ ومَجْلِسُ

ثم تركهما وذهب. واختلى بها زوجها المتلمّس، وما زالا في أطيب عيش وأصفاه وأرغده وأهناه إلى أن فرّق بينهما الممات. فسبحان من تقوم بأمره الأرض والسموات.

حكاية هارون الرشيد والسيدة زبيدة في البحيرة

ومما يحكى أن الخليفة هارون الرشيد كان يحب السيدة زبيدة محبة عظيمة، وبنى لها مكاناً للتنزّه وعمل فيه بحيرة من الماء وعمل لها سياجاً من الأشجار وأرسل إليها الماء من كل جانب، فالتفّت عليها الأشجار حتى لو دخل أحد يغتسل في تلك البحيرة لم يره أحد من كثرة أوراق الشجر. فاتفق أن السيدة زبيدة دخلت ذلك المكان يوماً وأتت إلى البحيرة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 386

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السيدة زبيدة لما دخلت ذلك المكان يوماً وأتت إلى البحيرة وتفرّجت على حسنها، فأعجبها رونقها والتفاف الأشجار عليها وكان ذلك في يوم شديد الحر. فقلعت أثوابها ونزلت في البحيرة ووقفت، وكانت البحيرة لا تستر من يقف فيها. فجعلت تملأ الماء بإبريق من لجين وتصبّ الماء على بدنها. فعلم الخليفة بذلك فنزل من قصره يتجسّس عليها من خلف أوراق الأشجار، فرآها عريانة وقد بان منها ما كان مستوراً. فلمّا أحسّت بأمير المؤمنين من خلف أوراق الأشجار وعرفت أنه رآها عريانة، التفتت إليه ونظرته فاستحت منه ووضعت يديها على فرجها ففاض من بين يديها لفرط كبره وغلظه. فولّى من ساعته وهو يتعجّب من ذلك وينشد هذا البيت: [من مجزوء الرمل]

نَظَرَتْ عَيْنِي لِحَيْنِي ۝ وذَكَى وَجْدِي لِبَيْنِي

ولم يدر بعد ذلك ما يقول، فأرسل خلف أبي نواس يحضر. فلمّا حضر بين يديه قال له الخليفة: أنشدني شعراً في أوله: نظرت عيني وذكى وجدي لبيني. فقال أبو نواس: سمعاً وطاعةً. وارتجل في أقرب اللحظات وأنشد هذه الأبيات: [من مجزوء الرمل]

نَظَرَتْ عَيْنِي لِحَيْنِي ۝ وذَكَى وَجْدِي لِبَيْنِي
مِنْ غَزالٍ قَدْ سَبانِي ۝ تَحْتَ ظِلِّ السِّدْرَتَيْنِ
سَكَبَ الماءَ عَلَيْهِ ۝ بِأَبارِيقِ اللُّجَيْنِ
نَظَرَتْنِي سَتَرَتْه ۝ فاضَ مِنْ بَيْنِ اليَدَيْنِ
لَيْتَنِي كُنْتُ عَلَيْهِ ۝ ساعةً أَو ساعَتَيْنِ

فتبسّم أمير المؤمنين من كلامه وأحسن إليه وانصرف من عنده مسروراً.

حكاية هارون الرشيد والشعراء الثلاث

ومما يحكى أن أمير المؤمنين الرشيد قلق ذات ليلة قلقاً شديداً، فقام يتمشّى في جوانب قصره فوجد جارية تتمايل من السكر، وكان يهوى تلك الجارية ويحبها محبة عظيمة. فلاعبها وجذبها إليه فسقط رداؤها وانحلّ إزارها، فسألها الوصل. فقالت: إمهلني إلى ليلة غد يا أمير المؤمنين فإني غير متهيئة لك، لأنه لم يكن لي علم بحضورك. فتركها ومضى. فلمّا أقبل النهار وأشرقت

من شمسه الأنوار أرسل إليها غلاماً يعرّفها أن أمير المؤمنين حاضر إلى حجرتها، فأرسلت تقول له: كلام الليل يمحوه النهار. فقال الرشيد لندمائه: أنشدوني شعراً فيه كلام الليل يمحوه النهار. فقالوا: سمعاً وطاعةً. ثم تقدّم الرقاشي وانشد هذه الأبيات: [من الوافر]

أَما واللهِ لَو تَجِدينَ وَجْدِي ... لَوَلَّى مُعْرِضاً عَنْكِ القَرارُ
وقَدْ تَرَكَتْكَ صَبّاً مُسْتَهاماً ... فَتاةٌ لا تَزُورُ ولا تُزارُ
إذا وَعَدَتْكَ صَدَّتْ ثُمَّ قالتْ ... كَلامُ اللَّيْلِ يَمْحُوهُ النَّهارُ

وبعد ذلك تقدّم أبو مصعب وأنشد هذه الأبيات: [من الوافر]

مَتَى تَصْحُو وقَلْبُكَ مُسْتَطارُ ... ولَمْ تَهْجَعْ وقَدْ مُنِعَ القَرارُ
أَما يَكْفِيكَ أَنَّ العَينَ عَبْرَى ... وفي الأَحْشاءِ آلامٌ ونارُ
تَبَسَّمَ ضاحِكاً إذ قالَ عُجْباً ... كَلامُ اللَّيْلِ يَمْحُوهُ النَّهارُ

ثم تقدّم أبو نواس وأنشد هذه الأبيات: [من الوافر]

تَمادَى الحُبُّ وانْقَطَعَ المَزارُ ... وجاهَرْنا فَلَمْ يُغْنِ الجِهارَ
ولَيْلَةَ أَقْبَلَتْ في القَصْرِ سَكْرَى ... ولَـكِنْ زَيَّنَ السُّكْرَ الوَقارُ
وقَدْ سَقَطَ الرِّدا عَنْ مَنْكِبَيْها ... مِنَ التَّخْمِيشِ وانْحَلَّ الإِزارُ
وهَزَّ الرِّيحُ أَرْدافاً ثِقالاً ... وغُصْناً فِيهِ رُمّانٌ صِغارُ
فَقُلْتُ: عِدِي مُحِبَّكِ وَعْدَ صِدْقٍ ... فَقالَتْ: في غَدٍ يَصْفُو المَزارُ
فَجِئْتُ وقُلْتُ: أَيْنَ الوَعْدُ؟ قالَتْ: ... كَلامُ اللَّيْلِ يَمْحُوهُ النَّهارُ

فامر الخليفة لكل واحد من الشعراء ببدرة من المال إلاّ أبا نواس فإنه أمر بضرب عنقه وقال له: أنت كنت حاضراً معنا في القصر ليلاً؟ فقال: والله ما نمت إلاّ في بيتي، وإنّما استدللت بكلامك على مضمون الشعر. وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون وإنهم يقولون ما لا يفعلون. فعفا عنه وأمر له ببدرتين من المال ثم انصرفوا من عنده.

حكاية مصعب بن الزبير وعائشة بنت طلحة

ومما يحكى عن مصعب بن الزبير انه وجد عزة في المدينة وكانت من أعقل النساء فقال لها: إني عزمت على زواج عائشة بنت طلحة، وأنا أحب منك أن تسيري إليها متأملة لخلقها. فسارت إليها ثم رجعت إلى مصعب وقالت له: رأيت وجهاً أحسن من العافية، لها عينان نجلاوان من تحتهما انف اقنى وخدان أسيلان وفم كفم الرمانة وعنق كإبريق فضة، وتحت ذلك صدر فيه نهدان كأنهما رمانتان، وتحت ذلك بطن أقب فيه سرّة كأنها حق عاج ولها عجيزة كدعص الرمل وفخذان ملفوفتان وساقان كأنهما من المرمر عمودان. غير اني رأيت في رجلها كبرا وأنت تغيب عندها وقت الحاجة. فلمّا وصفتها عزة بتلك الصفات، تزوّجها مصعب ودخل بها.

وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

فلما كانت الليلة 387

قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن عزة لما وصفت عائشة بنت طلحة بتلك الصفات تزوّجها مصعب ودخل بها. ثم إن عزة دعت عائشة ونساء قريش إلى بيتها. فغنت عزة ومصعب قائم بهذين البيتين : [من المتقارب]

وثَغْرُ البَناتِ لَهُ نَـكْهَةٌ لَذيذُ المُقَبَّلِ والمُبْتَسَمْ
وما ذُقْتُهُ غَيرَ ظَنّي بِه وبالظَّنِّ يَحْكُمُ فِينا الحَـكَمْ

وليلة دخول مصعب بها لم ينصرف عنها إلاّ بعد سبع مرات. فلقيته مولاة له حين أصبح فقالت له : فديتك، كملت في كل شيء حتى في هذا. وقالت امرأة : كنت عند عائشة بنت طلحة فدخل زوجها فحنّت إليه، فوقع عليها فشخرت ونخرت وأتت من الحركات بالعجائب وبدائع الغرائب وأنا أسمع. فلمّا خرج من عندها قلت لها : كيف تفعلين هذا وأنا في بيتك مع شرفك ونسبك وحسبك؟ فقالت : إن المرأة تأتي لزوجها بكل ما تقدر عليه من المهيجات وغريب الحركات، فما الذي تنكرينه من ذلك؟ فقلت : أحب ان يكون ذلك ليلاً. قالت : ذاك هكذا بالنهار، وبالليل أفعل أعظم منه، لأنه حين يراني تتحرّك شهوته وتهيج عليه باءته، فيمد يده إليّ فأطاوعه فيكون ما ترين.

حكاية أبي الأسود والجارية الحولاء

وبلغني أن أبا الأسود اشترى جارية حولاء مولدة فأعجب بها، فذمّها أهله عنده. فتعجّب منهم وقلب الكفين وأنشد هذين البيتين : [من المتقارب]

يُعِيبُونَها عِنْدِي ولا عَيْبَ عِنْدَها سِوَى أَنَّ في العَيْنَينِ بَعْضُ المآثِرِ
فإنْ يَكُ في العَيْنَينِ عَيْبٌ فإنَّها مُهَفْهَفَةُ الكَشْحَين تَحْتَ المآزِرِ

حكاية هارون الرشيد والجواري

ومما يحكى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان ليلة بين جاريتين : مدنية وكوفية. فجعلت الكوفية تكبس يديه، والمدنية تكبس رجليه وجعلت ترفع البضاعة. فقالت لها الكوفية : أراك قد انفردت دوننا برأس المال وحدك، فاعطيني نصيبي منه. فقالت المدنية : حدّثني مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن النبيّ أنه قال : من أحيا مواتاً فهو له ولعقبه. فاستغفلتها الكوفية ثم دفعتها وأخذته بيديها جميعاً وقالت : حدّثنا الأعمش عن خيثمة عن عبد الله بن مسعود أن النبيّ قال : الصيد لمن صاده لا لمن أثاره.

وحكى أيضاً أن هارون الرشيد رقد مع ثلاث جوار : مكية ومدنية وعراقية. فمدت المدنية يدها إلى ذكره وأنعظته فقام، فوثبت المكية وجذبته إليها. فقالت لها المدنية : ما هذا التعدّي؟ حدثني مالك عن الزهري عن عبد الله بن سالم عن سعيد بن زيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أحيا أرضاً ميتة فهي له. فقالت المكية : حدّثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الصيد لمن صاده لا لمن أثاره. فدفعتهما العراقية عنه وقالت : هذا لي حتى تنقضي مخاصمتكما.

حكاية الطحان وزوجته

ومما يحكى أن رجلاً كان عنده طاحون وله حمار يطحن عليه، وكان له زوجة سوء وهو يحبها وهي تكرهه، وكانت تحب جاراً لها وهو يبغضها ويمتنع منها. فرأى زوجها في النوم قائلاً يقول له: أحفر في الموضع الفلاني من مدار الحمار بالطاحون تجد كنزاً. فلمّا انتبه من منامه وحدّث زوجته برؤياه وأمرها بكتمان السرّ. فأخبرت بذلك جارها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 388

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زوجة الطحّان أخبرت جارها الذي تهواه بذلك لأجل أن تتقرّب إليه، فعاهدها أن يأتيها ليلاً. فأتاها ليلاً وحفر في مدار الطاحون فوجدا الكنز فاستخرجاه. فقال لها الجار: كيف نصنع بهذا؟ فقالت: نقسمه نصفين بالسوية وتفارق أنت زوجتك وأنا أحتال في فراق زوجي ثم تتزوج بي، فإذا اجتمعنا جمعنا المال كله على بعضه فيصير بأيدينا. فقال لها جارها: أنا أخاف أن يطغيك الشيطان فتأخذي غيري فإن الذهب في المنزل كالشمس في الدنيا، والرأي السديد أن يكون المال كله عندي لتحرصي أنت على الخلاص من زوجك والإتيان إليّ. فقالت له: إني أيضاً أخاف مثل ما تخاف أنت ولا أسلم إليك نصيبي من هذا المال فإني أنا التي قد دللتك عليه. فلمّا سمع منها هذا الكلام دعاه البغي إلى قتلها فقتلها وألقاها في موضع الكنز، ثم أدركه النهار فعوقه عن مداراتها فحمل المال وخرج. فاستيقظ الطحان من النوم فلم يجد زوجته فدخل الطاحون وعلق حماره في الطاحون وصاح عليه فمشى ووقف، فضربه الطحان ضرباً شديداً وكلما ضربه يتأخر لأنه قد جفل من المرأة الميتة وصار لا يمكنه التقدّم، كل ذلك والطحان لا يدري ما سبب توقف الحمار. فأخذ سكيناً ونخسه نخساً كثيراً فلم ينتقل من موضعه، فغضب منه وطعنه بها في خاصرته فسقط الحمار ميتاً. فلمّا طلع النهار رأى الطحان الحمار ميتاً ورأى زوجته ميتة ووجدها في موضع الكنز، اشتد غيظه على ذهاب الكنز وهلاك زوجته والحمار وحصل له همّ عظيم. فهذا كله من إظهار سرّه لزوجته وعدم كتمانها له.

حكاية المغفّل والشاطر

ومما يحكى أن أحد المغفلين كان سائراً وبيده مقود حماره وهو يجره خلفه، فنظره رجلان من الشطار فقال واحد منهما لصاحبه: أنا آخذ هذا الحمار من هذا الرجل. فقال له: كيف تأخذه؟ فقال له: إتبعني وأنا أريك. فتبعه، فتقدم ذلك الشاطر إلى الحمار وفكّ منه المقود وأعطاه لصاحبه وحط المقود في رأسه ومشى خلف المغفل حتى علم أن صاحبه ذهب بالحمار ثم وقف، فجرّه المغفل بالمقود فلم يمش. فالتفت إليه فرأى المقود في رأس رجل فقال له: أي شيء أنت؟ فقال له: أنا حمارك ولي حديث عجيب؛ وهو إنه كان لي والدة عجوز صالحة جئت إليها في بعض الأيام وأنا سكران فقالت لي: يا ولدي تب إلى الله تعالى من هذه المعاصي. فأخذت العصا وضربتها بها فدعت عليّ فمسخني الله تعالى حماراً وأوقعني في يدك فمكثت عندك هذا الزمان كله. فلمّا كان هذا اليوم تذكّرتني أمي وحنّن الله قلبها عليّ فدعت لي فأعادني الله آدمياً كما كنت. فقال الرجل: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، بالله عليك يا أخي أن تجعلني في حل

مما فعلته بك من الركوب وغيره . ثم خلى سبيله ومضى ورجع صاحب الحمار إلى داره وهو سكران من الهمّ والغمّ فقالت له زوجته : ما الذي دهاك واين الحمار ؟ فقال لها : انت ما عندك خبر بأمر الحمار فأنا أخبرك به . ثم حكى لها الحكاية فقالت : يا ويلنا من الله تعالى ، كيف مضى لنا هذا الزمان كله ونحن نستخدم بني آدم ؟ ثم إنها تصدقت واستغفرت ، وجلس الرجل في الدار مدة وهو من غير شغل فقالت له زوجته : إلى متى هذا القعود في البيت من غير شغل ؟ فامض إلى السوق واشتر لنا حماراً واشتغل عليه . فمضى إلى السوق ووقف عند الحمير وإذا هو بحماره يباع ، فلمّا عرفه تقدم إليه ووضع فمه على أذنه وقال له : ويلك يا مشؤوم لعلك رجعت إلى السكر وضربت أمك ، والله ما بقيت أشتريك أبداً ثم تركه وانصرف .

حكاية هارون الرشيد والسيدة زبيدة والقاضي

ومما يحكى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد آوى إلى فراشه ذات يوم في وقت الظهيرة ، فلمّا رقى السرير الذي ينام عليه وجد منياً طرياً في فراشه ، فهاله ذلك وانحرف مزاجه انحرافاً شديداً وحصل له غمّ زائد فدعا السيدة زبيدة ، فلمّا حضرت بين يديه قال لها : ما هذا المُلقى على الفراش ؟ فنظرت إليه ثم قالت له : هذا مني يا أمير المؤمنين . فقال لها : أصدقيني عن سبب هذا المني وإلاّ بطشت بك في الوقت . فقالت له : يا أمير المؤمنين والله لا أعلم لذلك سبباً وإني بريئة مما توهّمته فيّ . فطلب القاضي أبا يوسف وذكر له القصة وأراه المني ، فرفع القاضي أبو يوسف رأسه إلى السقف فرأى فيه فرجة . فقال : يا أمير المؤمنين إن للخفاش منياً كمني الرجال ، وهذا منيّ خفّاش . وطلب رمحاً فأخذه بيده وطعن به في الفرجة فوقع الخفّاش فاندفع الوهم عن هارون الرشيد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

فلما كانت الليلة 389

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن القاضي أبا يوسف لما أخذ الرمح بيده وطعن به في الفرجة وقع الخفاش فاندفع الوهم عن هارون الرشيد وظهرت براءة زبيدة . ثم إنها تفوّهت بلسانها فرحاً ببراءتها وأقرّت لأبي يوسف بجائزة وافرة . وكان عندها فاكهة عظيمة في غير أوانها وتعلم بفاكهة أخرى في غير أوانها أيضاً في البستان فقالت له : يا إمام الدين أي الفاكهتين أحب إليك ؛ الفاكهة الحاضرة أو الغائبة . فقال : مذهبنا لا يحكم غائب فإذا حضر يحكم عليه . فأحضرت له الفاكهتين فأكل من هذه ومن هذه . فقالت : ما الفرق بينهما ؟ فقال : كلما أردت أن أشكر إحداهما قامت عليّ الأخرى بحجتها . فلمّا سمع الرشيد كلامه ضحك وأعطاه الجائزة وأعطته أيضاً زبيدة الجائزة التي وعدته بها وانصرف من عندهما مسروراً . فانظر فضيلة هذا الإمام وما حصل على يديه من براءة السيدة زبيدة وإظهار السبب .

حكاية الحاكم بأمر الله

ومما يحكى أن الحاكم بأمر الله كان راكباً في موكبه يوماً من الأيام فمرّ على بستان فرأى رجلاً هناك وحوله عبيد وخدم ، فاستسقاه ماء فسقاه . ثم قال : لعل أمير المؤمنين أن يكرمني بنزوله عندي في هذا البستان . فنزل الملك ونزل جيشه في ذلك البستان ، فأخرج الرجل المذكور مائة بساط ومائة نطع ومائة وسادة ومائة طبق من الفاكهة ومائة جام ملآن حلوى ومائة زبدية ملأى بالشربات السكرية . فاندهش عقل الحاكم بأمر الله من ذلك وقال له : أيها الرجل إن خبرك

عجيب، فهل علمت بمجيئنا فأعددت لنا هذا؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما علمت بمجيئكم وإنما أنا تاجر من جملة رعيتك، ولكن لي مائة محظية فلمّا أكرمني أمير المؤمنين بنزوله عندي أرسلت إلى كل واحدة منهن أن ترسل لي الغدا في البستان، فأرسلت كل واحدة منهن شيئاً من فراشها وزائد أكلها وشربها. فإن كل واحدة منهن ترسل لي في يوم طبق طعام وطبق مبرّدات وطبق فاكهة وجاماً ممتلئاً حلوى وزبدية شراب وهذا غدائي في كل يوم لم أزد لك فيه شيئاً. فسجد أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله تعالى وقال: الحمد لله الذي جعل في رعايانا من وسّع الله عليه حتى يطعم الخليفة وعسكره من غير استعداد لهم بل من فاضل طعامه. ثم أمر له بما في بيت المال من الدراهم المضروبة في تلك السنة فكانت ثلاثة الآف ألف وسبعمائة ألف ولم يركب حتى أحضرها وأعطاها لذلك الرجل وقال له: إستعن بها على حالك فإن مروءتك أكبر من ذلك، ثم ركب الملك وانصرف.

حكاية كسرى أنوشروان والصبيّة

ومما يحكى أن الملك العادل كسرى أنوشِروان ركب يوماً إلى الصيد فانفرد عن عسكره خلف ظبي. فبينما هو ساع خلف الظبي إذ رأى ضيعة قريبة منه وكان قد عطش عطشاً شديداً، فتوجّه إلى تلك الضيعة وقصد باب دار قوم في طريقه فطلب ماء ليشرب، فخرجت له صبيّة فأبصرته ثم عادت إلى البيت وعصرت له عوداً واحداً من قصب السكر ومزجت ما عصرته منه بالماء ووضعته في قدح ووضعت عليه شيئاً من الطيب يشبه التراب ثم سلمته إلى أنوشروان. فنظر في القدح فرأى فيه شيئاً يشبه التراب فجعل يشرب منه قليلاً حتى انتهى إلى آخره ثم قال للصبية: أيتها الصبيّة نِعم الماء ما أحلاه، لولا ذلك القذي الذي فيه فإنه كدّره. فقالت الصبيّة: أيها الضعيف، أنا عمداً ألقيت فيه ذلك القذي الذي كدّره. فقال الملك: ولِمَ فعلت ذلك؟ فقالت: لأني أراك شديد العطش وخفت أن تشربه نهلة واحدة فيضرّك، فلو لم يكن فيه قذى لكنت شربته بسرعة نهلة واحدة وكان يضرّك شربه على هذه الطريقة. فتعجب الملك العادل أنوشروان من كلامها وذكاء عقلها وعلم أن ما قالته ناشيء عن ذكاء وفطنة وجودة عقل. فقال لها: من كم عود عصرت ذلك الماء؟ فقالت: من عود واحد. فتعجب أنوشروان وطلب جريدة الخراج الذي يحصل من تلك القرية فرأى خراجها قليلاً، فأضمر في نفسه أنه إذا عاد إلى تخته يزيد في خراج تلك القرية وقال: قرية يكون في عود واحد منها هذا الماء، كيف يكون خراجها هذا القدر القليل؟ ثم إنه انصرف عن تلك القرية إلى الصيد. وفي آخر النهار رجع إليها واجتاز على ذلك الباب منفرداً وطلب الماء ليشرب، فخرجت له تلك الصبيّة بعينها فرآته فعرفته ثم عادت لتخرج له الماء فأبطأت عليه، فاستعجلها أنوشروان وقال: لأي شيء أبطأت؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 390

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك أنوشروان لما استعجل الصبيّة قال لها: لأي شيء أبطأت؟ فقالت له: لأنه لم يخرج من عود واحد قدر حاجتك فعصرت ثلاثة أعواد ولم يخرج منها مثل ما كان يخرج من عود واحد. فقال الملك أنوشروان: ما سبب ذلك؟ فقالت: سببه أن نيّة السلطان قد تغيّرت. فقال لها: من أين جاءك هذا؟ فقالت:

سمعنا من العقلاء أنه إذا تغيرت نيّة السلطان على قوم زالت بركتهم وقلّت خيراتهم . فضحك آنوشروان وأزال من نفسه ما كان أضمر لهم عليه وتزوّج بتلك الصبيّة حالاً، حيث أعجبه فرط ذكائها وفطنتها وحسن كلامها .

حكاية السقّاء وزوجة الصائغ

ومما يحكى أنه كان بمدينة بخارى رجل سقّاء يحمل الماء إلى دار رجل صائغ ومضى له على تلك الحالة ثلاثون سنة . وكان لذلك الصائغ زوجة في غاية الحسن والجمال والبهاء والكمال موصوفة بالديانة والحفظ والصيانة . فجاء السقاء على عادته يوماً وصبّ الماء في الجباب وكانت المرأة قائمة في وسط الدار فدنا منها السقاء واخذ بيدها وفركها وعصرها ثم مضى وتركها، فلمّا جاء زوجها من السوق قالت : إني أريد أن تعرفني أي شيء صنعت هذا اليوم في السوق ما يغضب الله تعالى؟ فقال الرجل : ما صنعت شيئاً يغضب الله تعالى . فقالت المرأة : بلى والله إنك فعلت شيئاً يغضب الله تعالى، وإن لم تحدّثني بما صنعت وتصدقني في حديثك لا أقعد في بيتك ولا تراني ولا أراك . فقال : أخبرك بما فعلته في يومي هذا على وجه الصدق . إتفق أنني جالس في الدكان على عادتي اذ جاءتني امرأة إلى دكاني وأمرتني أن أصوغ لها سواراً وانصرفت، فصغت لها سواراً من ذهب ورفعته . فلمّا حضرت أتيتها به فأخرجت يدها ووضعتُ السوار في ساعدها، فتحيّرت من بياض يدها وحسن زندها الذي يسبي الناظر وتذكرت قول الشاعر : [من الكامل]

وسَواعِدَ تَزْهُو بِحُسْنِ أَساوِرِ ... كالنّارِ تُضْرَمُ فَوْقَ ماءٍ جارِ
فَـكَأَنَّها والتِّبْرُ مُحْتاطٌ بِها ... ماءٌ تَمَنْطَقَ مُعْجَباً بالنّارِ

فأخذت يدها وعصرتها ولويتها . فقالت له المرأة : الله أكبر، لِمَ فعلت هذا؟ لا جرم إن ذلك الرجل السقاء الذي كان يدخل بيتنا منذ ثلاثين سنة ولم نرَ فيه خيانة، أخذ اليوم يدي وعصرها ولواها . فقال الرجل : نسأل الله الأمان أيتها المرأة، إني تائب مما كان مني فاستغفري الله لي . فقالت المرأة : غفر الله لنا ولك ورزقنا حسن العاقبة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 391

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن زوجة الصائغ قالت : غفر الله لنا ولك ورزقنا حسن العاقبة . فلمّا كان من الغد جاء الرجل السقاء وألقى نفسه بين يدي المرأة وتمرّغ على التراب واعتذر إليها وقال : يا سيدتي، إجعليني في حلّ مما أغراني به الشيطان حيث أضلّني وأغواني . فقالت له المرأة : إمضِ إلى حال سبيلك فإن ذلك الخطأ لم يكن منك وإنما كان سببه من زوجي حيث فعل ما فعل في الدكان فاقتص الله منه في الدنيا . وقيل : إن الرجل الصائغ لما أخبرته زوجته بما فعل السقاء معها قال : دقّة بدقّة ولو زدت لزاد السقاء . فصار هذا الكلام مثلاً سائراً بين الناس، فينبغي للمرأة أن تكون مع زوجها ظاهراً وباطناً وتقنع منه بالقليل إن لم يقدر على الكثير وتقتدي بعائشة الصدّيقة وفاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنهما لتكون من حواشي السلف .

حكاية خسرو وشيرين والصيّاد

ومما يحكى أن خسرو وهو ملك من الملوك كان يحب السمك ، فكان يوماً جالساً في قاعته هو وشيرين زوجته فجاء صياد ومعه سمكة كبيرة فأهداها لخسرو ، فأعجبته تلك السمكة فأمر له بأربعة الآف درهم . فقالت له شيرين : بئس ما فعلت . فقال : ولِمَ ؟ قالت : لأنك بعد هذا إذا أعطيت أحداً من حشمك هذا القدر يحتقره ويقول : إنما أعطاني مثل القدر الذي أعطاه للصياد ، وإن أعطيته أقل منه يقول : قد احتقرني وأعطاني أقل مما أعطى الصياد . فقال خسرو : لقد صدقت ، ولكن يقبح بالملوك أن يرجعوا في هبتهم وقد فات هذا . فقالت شيرين : أنا أدبر لك أمراً في استرجاع العطية منه . فقال لها : وكيف ذلك ؟ قالت له : إذا أردت ذلك فادع الصياد وقل له : هل هذه السمكة ذكراً أو أنثى ؟ فإن قال : ذكر . فقل له : إنما أردنا أنثى . وإن قال : أنثى . فقل له : إنما أردنا ذكراً . فأرسل خلف الصياد فعاد وكان الصياد صاحب ذكاء وفطنة فقال له الملك خسرو : هل هذه السمكة ذكراً أو أنثى ؟ فقبّل الصياد الأرض وقال : هذه السمكة خنثى لا ذكر ولا أنثى . فضحك خسرو من كلامه وأمر له بأربعة الآف درهم أخرى ، فمضى الصياد إلى الخازن دار وقبض منه ثمانية الآف درهم ووضعها في جراب كان معه وحملها على عنقه وهمّ بالخروج فوقع منه درهم واحد ، فوضع الصياد الجراب عن كاهله وانحنى على الدرهم فأخذه والملك وشيرين ينظران إليه . فقالت شيرين : أيها الملك ، رأيت خسّة هذا الرجل وسفالته حيث سقط منه درهم لم يسهل عليه أن يتركه ليأخذه بعض غلمان الملك . فلمّا سمع الملك كلامها اشمأز من الصياد وقال : لقد صدقت يا شيرين . ثم إنه أمر بإعادة الصياد وقال له : يا ساقط الهمة لست بإنسان ، كيف وضعت هذا المال عن كاهلك وانحنيت لأجل درهم وبخلت أن تتركه في مكانه ؟ فقبّل الصياد الأرض وقال : أطال الله بقاء الملك ، إنني لم أرفع ذلك الدرهم عن الأرض لخطره عندي وإنما رفعته عن الأرض لأن على أحد وجهيه صورة الملك وعلى وجهه الآخر اسمه ، فخشيت أن يضع أحد رجله عليه بغير علم فيكون ذلك استخفافاً باسم الملك وصورته فأكون أنا المؤاخذ بهذا الذنب . فتعجب الملك من قوله واستحسن ما ذكره فأمر له بأربعة الآف درهم أخرى . وأمر الملك منادياً أن ينادي في مملكته ويقول : لا ينبغي لأحد أن يقتدي برأي النساء ، فمن اقتدى برأيهن خسر مع درهمه درهمين .

حكاية يحيى بن خالد والفقير

ومما يحكى أن يحيى بن خالد البرمكي خرج من دار الخلافة متوجّهاً إلى داره فرأى على باب الدار رجلاً ، فلمّا قرب منه نهض الرجل قائماً وسلم عليه وقال له : يا يحيى ، أنا محتاج إلى ما في يدك وقد جعلت الله وسيلتي إليك . فأمر يحيى أن يفرد له موضع في داره وأمر خازن داره أن يحمل إليه في كل يوم ألف درهم وأن يكون طعامه من خاص طعامه . فاستمرّ الرجل على ذلك الحال شهرا كاملاً . فلمّا انقضى الشهر كان قد وصل إليه ثلاثون ألف درهم ، فخاف الرجل أن يحيى يأخذ منه الدراهم لكثرتها فانصرف خفية . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 392

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، ان الرجل أخذ الدراهم وانصرف خفية . فاخبروا يحيى بذلك فقال : والله لو أقام عندي عمره وطول دهره لما منعته صلتي ولا قطعت عنه إكرام ضيافتي . وفضائل البرامكة لا تحصى ومناقبهم لا تستقصى وخصوصاً يحيى بن خالد فإنه جمّ المفاخر كما قال فيه الشاعر : [من الطويل]

سَأَلْتُ النَّدَى هَل أَنْتَ حُرٌّ فَقالَ : لا ... ولَـكِنَّنِي عَبْدٌ لِيَحْيَ بنِ خالِدِ
فَقُلْتُ : شِراءٌ ، قالَ : حاشَى وإِنَّما ... تَوارَثَنِي مِنْ والِدٍ بَعْدَ والِدِ

حكاية جعفر بن موسى ومحمد الأمين

ومما يحكى أن جعفر بن موسى الهادي كانت له جارية عوادة اسمها البدر الكبير ، ولم يكن في زمانها أحسن منها وجهاً ولا أعدل قداً ولا ألطف معنى ولا أعرف بصناعة الغناء وضرب الأوتار ، وكانت في غاية الجمال ونهاية الظرف والكمال . فسمع بخبرها محمد الأمين بن زبيدة والتمس من جعفر أن يبيعها له فقال له جعفر : أنت تعلم أنه لا يليق بمثلي بيع الجواري والمساومة على السراري ولولا أنها تربية داري لأرسلتها هدية إليك ولم أبخل بها عليك . ثم إن محمداً الأمين بن زبيدة توجّه يوماً لقصد الطرب إلى دار جعفر فأحضر له ما يحسن حضوره بين الأحباب وأمر جاريته البدر الكبير أن تغني له وتطربه ، فأصلحت الآلات وغنّت بأطيب النغمات . فأخذ محمد الأمين بن زبيدة في الشراب والطرب ، وأمر السقاة ان يكثر الشراب على جعفر حتى يسكروه ثم أخذ الجارية معه وانصرف إلى داره ولم يمدّ إليها يده . فلمّا اصبح الصباح أمر باستدعاء جعفر ، فلمّا حضر قدم بين يديه الشراب وأمر الجارية أن تغني له من داخل الستارة ، فسمع جعفر صوتها فعرفها فاغتاظ لذلك ولكن لم يظهر غيظاً لشرف نفسه وعلو همّته ولم يبد تغيّراً في منادمته . فلمّا انقضى مجلس الشراب أمر محمد الأمين بن زبيدة بعض أتباعه أن يملأ الزورق الذي ركب فيه جعفر إليه من الدراهم والدنانير وأصناف الجواهر واليواقيت والثياب الفاخرة والأموال الباهرة ، ففعل ما أمره به حتى إنه وضع في الزورق ألف بدرة وألف درة قيمة الدرّة عشرون ألف درهم . ولم يزل يضع فيه أصناف التحف حتى استغاث الملاّحون وقالوا : ما يقدر الزورق أن يحمل شيئاً آخر . وأمر بحمله إلى دار جعفر . وهكذا همم الأكابر رحمهم الله .

حكاية سعيد بن سالم وابنا يحيى بن خالد

ومما يحكى أن سعيد بن سالم الباهلي قال : اشتدّ بي الحال في زمن هارون الرشيد واجتمع عليّ ديون كثيرة أثقلت ظهري وعجزت عن قضائها وضاقت حيلي وبقيت متحيّراً لا ادري ما أصنع حيث عسر عليّ أداؤها إعساراً عظيماً ، واحتاطت ببابي أرباب الديون وتزاحم عليّ المطالبون ولازمني الغرماء فضاقت حيلي وازدادت فكرتي . فلمّا رأيت الأمور متعسّرة والأحوال متغيّرة ، قصدت عبد الله بن مالك الخزاعي والتمست منه أن يمدّني برأيه ويرشدني إلى باب الفرج بحسن تدبيره . فقال عبد الله بن مالك الخزاعي : لا يقدر احد على خلاصك من محنتك وهمّك وضيقك وغمّك غير البرامكة . فقلت : ومن يقدر على احتمال تكبّرهم ويصبر على تجبرهم ؟ فقال : تحمّل ذلك لأجل إصلاح حالك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 393

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن عبد الله بن مالك الخزاعي قال لسعيد بن سالم : تحمّل ذلك لأجل إصلاح حالك . فنهضت من عنده ومضيت إلى الفضل وجعفر ولدي يحيى بن خالد وقصصت عليهما قصتي وأبديت لهما حالتي . فقالا : ساعدك الله بعونه وأغناك عن خلقه بمنه وأجزل لك عظيم خير وقام لك بالكفاية دون غيره إنه على ما يشاء قدير وبعباده لطيف خبير . فانصرفت من عندهما ورجعت إلى عبد الله بن مالك ضيّق الصدر متحيّر الفكر منكسر القلب وأعدت عليه ما قالاه . فقال : ينبغي أن تقيم اليوم عندنا لننظر ما يقدره الله تعالى . فجلست عنده ساعة وإذا بغلامي قد أقبل وقال : يا سيدي ، إن ببابنا بغالاً كثيرة بأحمالها ومعها رجل يقول : أنا وكيل الفضل بن يحيى وجعفر بن يحيى . فقال عبد الله بن مالك : أرجو أن يكون الفرج قد أقبل عليك فقم وانظر ما الشأن . فنهضت من عنده وأسرعت عدواً إلى بيتي فرأيت ببابي رجلاً معه رقعة مكتوب فيها : إنك لما كنت عندنا وسمعنا كلامك توجهنا بعد خروجك إلى الخليفة وعرفناه أنه أفضى بك الحال إلى ذل السؤال ، فأمرنا أن نحمل إليك من بيت المال ألف درهم . فقلنا له : هذه الدراهم يصرفها إلى غرمائه ويؤدّي بها دينه ، ومن اين يقيم وجه نفقاته ؟ فامر لك بثلاثمائة ألف درهم اخرى . وقد حمل إليك كل واحد منا من خالص ماله ألف ألف درهم فصارت الجملة ثلاثة الآف ألف وثلاثمائة ألف درهم تصلح بها احوالك وأمورك . فانظر إلى هذا الكرم من هؤلاء الكرام رحمهم الله تعالى .

حكاية مكيدة امرأة مع زوجها

ومما يحكى أن امرأة فعلت مع زوجها مكيدة . وهي أن زوجها أتى لها بسمكة يوم الجمعة وأمرها بطبخها وإحضارها عقب صلاة الجمعة وانصرف إلى أشغاله . فجاءها صديقها وطلبها لحضور عرس عنده ، فامتثلت ووضعت السمكة في زير عندها وذهبت معه . وقعدت غائبة عن بيتها إلى الجمعة الثانية وزوجها يفتش في البيوت ويسأل عنها فلم يخبره أحد بخبرها . ثم حضرت يوم الجمعة الثانية واخرجت له السمكة بالحياة وجمعت عليه الناس وأخبرتهم بالقصة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 394

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن المرأة لما جاءت لزوجها في الجمعة الثانية أخرجت السمكة من الزير حية وجمعت عليه الناس ، فأخبرهم بالقصة فكذبوه وقالوا له : لا يمكن أن السمكة تقعد بالحياة هذه المدة . وأثبتوا جنونه وسجنوه وصاروا يضحكون عليه . فأفاض دمع العين وانشد هذين البيتين : [من الطويل]

عَجُوزٌ تَوَلَّتْ في القَبائِح مَنْصِباً … عَلى وَجْهِها لِلْفاحِشاتِ شُهُودُ
إذا طُمِّثَتْ قادَتْ وإنْ طُهِّرَتْ زَنَتْ … مَدَى الدَّهْرِ تَزْنِي تارَةً وتَقُودُ

حكاية الإسرائيلية والشيخان

ومما يحكى أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والآوان امرأة صالحة في بني إسرائيل ، وكانت تلك المرأة ديّنة عابدة تخرج كل يوم إلى المصلّي . وكان بجانب تلك المصلّي بستان فإذا

خرجت إلى المصلّي تدخل ذلك البستان وتتوضأ منه . وكان في البستان شيخان يحرسانه ، فتعلق الشيخان بتلك المرأة وراوداها عن نفسها فأبت . فقالا لها : إن تمكّنينا من نفسك لنشهدنّ عليك بالزنا . فقالت لهما الجارية : الله يكفيني شرّكما . ففتحا باب البستان وصاحا ، فأقبل عليهما الناس من كل مكان وقالوا : ما خبركما ؟ فقالا : إنا وجدنا هذه الجارية مع شاب يفجر بها وانفلت الشاب من أيدينا . وكان الناس في ذلك الوقت ينادون بفضيحة الزاني ثلاثة أيام ثم يرجمونه . فنادوا عليها ثلاثة أيام من أجل الفضيحة ، وكان الشيخان في كل يوم يدنوان منها ويضعان أيديهما على رأسها ويقولان لها : الحمد لله الذي أنزل بك نقمته . فلمّا أرادوا رجمها تبعهم دانيال وهو ابن اثني عشر سنة وهذه أول معجزة له على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ولم يزل تابعاً لهم حتى لحقهم وقال : لا تعجلوا عليها بالرجم حتى أقضي بينهم . فوضعوا له كرسياً ثم جلس وفرّق بين الشيخين وهو أول من فرّق بين الشهود . فقال لأحدهما : ما رأيت ؟ فذكر له ما جرى . فقال له : حصل ذلك في أي مكان في البستان ؟ فقال : في الجانب الشرقي تحت شجرة الكمثري . ثم سأل الثاني على ما رأى فأخبره بما جرى . فقال له : في أي مكان في البستان ؟ فقال : في الجانب الغربي تحت شجرة التفاح . كل هذا والجارية واقفة رافعة رأسها ويديها إلى السماء وهي تدعو الله بالخلاص . فأنزل الله تعالى صاعقة من العذاب فأحرقت الشيخين واظهر الله تعالى براءة الجارية . وهذا أول ما جرى من المعجزات لنبي الله دانيال عليه السلام .

حكاية جعفر البرمكي والشيخ

ومما يحكى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد خرج يوماً من الأيام هو وأبو يعقوب النديم وجعفر البرمكي وأبو نواس وساروا في الصحراء ، فرأوا شيخاً متكئاً على حمار له فقال هارون الرشيد لجعفر : إسأل هذا الشيخ من أين هو ؟ فقال له جعفر : من أين جئت ؟ قال : من البصرة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 395

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن جعفر البرمكي لما سأل الرجل وقال له : من أين جئت ؟ قال : من البصرة . فقال له جعفر : وإلى أين سيرك ؟ قال : إلى بغداد . قال له : وما تصنع فيها ؟ قال : ألتمس دواء لعيني . فقال هارون الرشيد : يا جعفر مازحه . فقال : إذا مازحته أسمع منه ما أكره . فقال : بحقي عليك أن تمازحه . فقال جعفر للشيخ : إن وضعت لك دواء ينفعك ما الذي تكافئني به ؟ فقال له : الله تعالى يكافئك عني بما هو خير لك من مكافآتي . فقال : أنصت إليّ حتى أصف لك هذا الدواء الذي لا أصفه لأحد غيرك . فقال له : وما هو ؟ قال له جعفر : خذ لك ثلاث أواق من هبوب الريح وثلاث أواق من شعاع الشمس وثلاث أواق من زهر القمر وثلاث أواق من نور السراج واجمع الجميع وضعها في الريح ثلاثة أشهر ، ثم بعد ذلك ضعها في هون بلا قعر ودقها ثلاثة أشهر . فإذا دققتها ، فضعها في جفنة مشقوقة وضع الجفنة في الريح ثلاثة أشهر . ثم استعمل هذا الدواء في كل يوم ثلاثة دراهم عند النوم واستمر على ذلك ثلاثة أشهر فإنك تعافى إن شاء الله تعالى . فلمّا سمع الشيخ كلام جعفر ، انسطح على حماره وضرط ضرطة منكرة وقال : خذ هذه الضرطة مكافأة لك على وصفك هذا الدواء . فإذا استعملته ورزقني الله العافية أعطيتك جارية تخدمك في حياتك خدمة يقطع الله بها

أجلك، فإذا مت وعجّل الله بروحك إلى النار سخمت وجهك بخراها من حزنها عليك وتندب وتلطم وتنوح وتقول في نياحتها: يا ساقع الذقن ما أسقع ذقنك! فضحكَ هارون الرشيد حتى استلقى على قفاه وأمر لذلك الرجل بثلاثة آلآف درهم.

حكاية عمر بن الخطاب والشاب الحسن

وحكى الشريف حسين بن ريّان أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان جالساً في بعض الأيام للقضاء بين الناس والحكم بين الرعايا وعنده أكابر أصحابه من أهل الرأي والإصابة. فبينما هو جالس إذ أقبل عليه شاب من أحسن الشباب، نظيف الثياب وقد تعلق به شابان من أحسن الشباب. وقد جذبه الشابان من طوقه وأوقفاه بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فنظر أمير المؤمنين إليهما وإليه، فأمرهما بالكفّ عنه وأدناه منه وقال للشابين: ما قصتكما معه؟ فقالا: يا أمير المؤمنين، نحن أخوان شقيقان وباتباع الحق حقيقان. كان لنا أب شيخ كبير حسن التدبير معظّم في القبائل منزّه عن الرذائل معروف بالفضائل، ربّانا صغاراً وأولانا مِنناً كباراً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 396

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشابين قالا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب: أبانا كان معظّماً في القبائل منزّهاً عن الرذائل معروفاً بالفضائل ربّانا صغاراً وأولانا مِنناً كباراً، جمّ المناقب والمفاخر حقيقاً بقول الشاعر:

[من البسيط]

قالُوا: أَبُو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبانَ قُلْتُ لَهُمْ: كَلاَّ لَعَمْرِي ولَـكِنْ مِنْهُ شَيْبانُ
فَـكَمْ أَبٍ قَدْ عَلا بابْنٍ ذَوِي شَرَفٍ كَما عَلَتْ بِرَسُولِ اللهِ عَدْنانُ

فخرج يوماً إلى حديقة له ليتنزّه في أشجارها ويقتطف يانع أثمارها فقتله هذا الشاب وعدل عن طريق الرشاد، ونسألك القصاص بما جناه والحكم فيه بما أمر الله. فنظر عمر إلى الشاب نظرة مرهبة وقال له: قد سمعت من هذين الغلامين الخطاب فما تقول أنت في الجواب؟ وكان ذلك الغلام ثابت الجنان جريء اللسان قد خلع ثياب الهلع ونزع لباس الجزع، فتبسم وتكلّم بأفصح لسان وحيّا أمير المؤمنين بكلمات حسان ثم قال: والله يا أمير المؤمنين لقد وعيت ما ادّعياه وصدقا فيما قالاه حيث أخبرا بما جرى وكان أمر الله قدراً مقدوراً. ولكن سأذكر قصتي بين يديك والأمر فيها إليك. أعلم يا أمير المؤمنين إني من صميم العرب العرباء الذين هم أشرف من تحت الجرباء، نشأت في منازل البادية فأصابت قومي سود السنين العادية. فأقبلت إلى ظاهر هذه البلد بالأهل والمال والولد وسلكت بعض طرائقها إلى المسير بين حدائقها بنياق كريمات لديّ عزيزات عليّ، بينهنّ فحل كريم الأصل كثير النسل مليح الشكل، به يكثر منهنّ النتاج ويمشي بينهن كأنه ملك عليه تاج. فندّت بعض النياق إلى حديقة أبيهم وقد ظهر من الحائط شجرها فتناولته بمشفرها فطردتها عن تلك الحديقة، وإذا بشيخ من خلال الحائط قد ظهر وزفير غيظه يرمي بالشرر وفي يده اليمنى حجر وهو يتهادى كالليث إذا حضر، فضرب الفحل بذلك الحجر فقتله لأنه أصاب مقتله. فلمّا رأيت الفحل قد سقط بجانبي آنست أن قلبي قد توقدت فيه جمرات

الغضب فتناولت ذلك الحجر بعينه وضربته به فكان سبباً لحينه ولقي سوء منقلبه والمرء مقتول بما قتل به . وعند إصابته بالحجر صاح صيحة عظيمة وصرخ صرخة أليمة ، فأسرعت بالسير من مكاني فأسرع هذان الشابان وأمسكاني وإليك احضراني وبين يديك أوقفاني . فقال عمر رضي الله تعالى عنه : قد اعترفت بما اقترفت وتعذر الخلاص ووجب القصاص ولات حين مناص . فقال الشاب : سمعاً وطاعةً لما حكم به الإمام ورضيت بما اقتضته شريعة الإسلام ، ولكن لي أخ صغير كان له أب كبير خصّه قبل وفاته بمال جزيل وذهب جليل وسلّم أمره إليّ وأشهد الله عليّ وقال : هذا لأخيك عندك فاحفظه جهدك . فأخذت ذلك المال منه ودفنته ولا أحد يعلم به إلاّ أنا ، فإن حكمت الآن بقتلي ذهب المال وكنت أنت السبب في ذهابه وطالبك الصغير بحقه يوم يقضي الله بين خلقه . وإن أنت أنظرتني ثلاثة أيام أقمت من يتولّى أمر الغلام وعدت وافياً بالذمام ولي من يضمنني على هذا الكلام . فأطرق أمير المؤمنين رأسه ثم نظر إلى من حضر وقال : من يقوم لي بضمانه والعود إلى مكانه؟ فنظر الغلام إلى وجوه من في المجلس وأشار إلى أبي ذرّ دون الحاضرين وقال : هذا يكفلني ويضمنني . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 397

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشاب لما أشار إلى أبي ذرّ وقال : هذا يكفلني ويضمنني . قال عمر رضي الله تعالى عنه : يا أبا ذرّ ، أسمعت هذا الكلام وتضمن لي حضور هذا الغلام ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين اضمنه إلى ثلاثة أيام . فمضى بذلك وأذن للغلام في الإنصراف . فلمّا انقضت مدة الإمهال وكاد وقتها أن يزول أو زال ولم يحضر الشاب إلى مجلس عمر والصحابة حوله كالنجوم حول القمر ، وأبو ذرّ قد حضر والخصمان ينتظران فقالا : أين الغريم يا أبا ذرّ؟ كيف رجوع من فرّوا؟ لكن نحن لا نبرح من مكاننا حتى تأتينا به للأخذ بثأرنا . فقال أبو ذرّ : وحق الملك العلاّم إن انقضت الثلاثة أيام ولم يحضر الغلام وفيت بالضمان وسلمت نفسي للإمام . فقال عمر رضي الله عنه : والله إن تأخر الغلام لأقضين في أبي ذرّ ما اقتضته شريعة الإسلام . فهملت عبرات الحاضرين وارتفعت زفرات الناظرين وعظم الضجيج ، فعرض أكابر الصحابة على الشابين أخذ الديّة واغتنام الإثنية فأبيا ولم يقبلا شيئاً إلاّ الأخذ بالثار . فبينما الناس يموجون ويضجون تأسّفاً على أبي ذرّ إذ أقبل الغلام ووقف بين يدي الإمام وسلّم عليه بأحسن سلام ووجهه مشرق يتهلّل وبالعرق يتكلّل وقال له : قد أسلمت الصبي إلى أخواله وعرّفتهم بجميع أحواله وأطلعتهم على ما كان من ماله ، ثم اقتحمت هاجرة الحرّ ووافيت وفاء الحرّ . فتعجّب الناس من صدقه ووفائه وإقدامه على الموت واجترائه فقال له بعضهم : ما أكرمك من غلام وأوفاك بالعهد والذمام . فقال الغلام : أما تحققتم إن الموت إذ حضر لا ينجو منه أحد . وإنما وفيت كي لا يقال : ذهب الوفاء من الناس . فقال أبو ذرّ : والله يا أمير المؤمنين لقد ضمنت هذا الغلام ولم أعرفه من أي قوم ولا رأيته قبل ذلك اليوم . ولكن لما أعرض عمن حضر وقصدني وقال : هذا يضمنني ويكفلني . لم أستحسن ردّه وأبت المروءة أن تخيب قصده إذ ليس في إجابة القصد من بأس كي لا يقال : ذهب الفضل من الناس . فعند ذلك قال الشاب : يا أمير المؤمنين قد وهبنا لهذا الشاب دم أبينا حيث بدل الوحشة بالإيناس كي لا يقال : ذهب المعروف من الناس . واستبشر الإمام بالعفو عن الغلام وصدقه ووفائه بالذمام ،

واستكبر مروءة أبي ذرّ دون جلسائه، واستحسن اعتماد الشابين في اصطناع المعروف واثنى عليهما ثناء الشاكر. وتمثّل بقول الشاعر: [من البسيط]

مَنْ يَصْنَعِ الخَيْرَ بينَ الخَلْقِ يُجْزِيهِ لا يَذْهَبُ الخَيْرُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ

ثم عرض عليهما أن يصرف إليهما ديّة أبيهما من بيت المال فقالا: إنما عفونا عنه ابتغاء وجه الله الكريم المتعالي ومن نيته كذا لا يتبع إحسانه منّاً ولا أذى.

حكاية المأمون والأهرام

ومما يحكى أن المأمون بن هارون الرشيد لما دخل مصر المحروسة أراد هدم الأهرام ليأخذ ما فيها. فلمّا حاول هدمها لم يقدر على ذلك مع انه اجتهد في هدمها وانفق على ذلك أموالاً. وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 398

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المأمون اجتهد في هدم الأهرام وأنفق على ذلك أموالاً عظيمة ولم يقدر على هدمها وإنما فتح في أحدها طاقة صغيرة. ويقال: إن المأمون وجد في الطاقة التي فتحها من الأموال قدر الذي انفقه على فتحها لا يزيد ولا ينقص. فتعجب المأمون من ذلك، ثم أخذ ما هناك ورجع عن تلك النيّة. والأهرام ثلاثة وهي من عجائب الدنيا لم يكن على وجه الأرض مثلها في إحكامها وإتقانها وعلوّها، وذلك إنها مبنية بالصخور العظام. وكان البناؤون الذين بنوها يثقبون الحجر من طرفيه ويجعلون فيه القضبان الحديد قائمة ويثقبون الحجر الثاني وينزلونه فيه ويذيبون الرصاص ويجعلونه فوق القضيب بترتيب الهندسة، حتى إذا كمل بناؤها وصار ارتفاع كل هرم في الهواء مائة ذراع بالذراع المعهود في ذلك الوقت، وهي مربعة الأطراف من كل جانب منحدرة الأعالي من آواخرها مقدار الواحد منها ثلاثمائة ذراع. ويقول القدماء: إن في داخل الهرم الغربي ثلاثين مخزناً من حجارة الصوان مملوءة بالجواهر النفيسة والأموال الجمّة والتماثيل الغريبة والآلات والأسلحة الفاخرة التي دهنت بالدهان المدبر بالحكمة فلا تصدأ إلى يوم القيامة. وفيها الزجاج الذي ينطوي ولا ينكسر واصناف العقاقير المركبة والمياه المدبرة. وفي الهرم الثاني أخبار الكهنة مكتوبة في ألواح من الصوّان، لكل كاهن لوح من ألواح الحكمة ومرسوم في ذلك اللوح عجائب صناعته وأعماله. وفي الحيطان صور أشخاص كالأصنام تعمل بأيديها جميع الصناعات وهي قاعدة على المراتب، ولكل هرم منها خازن حارس عليها، وتلك الحراس يحفظونها على ممر الزمان من طوارق الحدثان. وعجائب الأهرام حيّرت أرباب البصائر والأبصار، وقد كثرت في وصفها الأشعار ولم تحصل منه على طائل. فمن ذلك قول القائل: [من الكامل]

هِمَمُ المُلوكِ إذا أَرادُوا ذِكْرَها مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِألْسُنِ البُنْيانِ
أَوَ ما تَرى الهرَمَينِ قَدْ بَقِيا ولَمْ يَتَغَيَّرا بِطَوارِقِ الحَدَثانِ

وقول الآخر: [من الكامل]

أُنْظُرْ إلى الهَرَمَينِ وأَسْمَعْ مِنْهُما ما يَرْوِيان عَنِ الزَّمانِ الغابِرِ

لَو يَنْطُقانِ لأخْبَرانا بالّذي فَعَلَ الزَّمانُ بأوَّلٍ وبآخِرِ

وقول الآخر : [من الطويل]

خَليلَيَّ هَلْ تَحْتَ السَّماءِ بِنايَةٌ تُضارِعُ في إتْقانِها هَرَمَيْ مِصْرِ
بِناءٌ يَخافُ الدَّهْرُ مِنْهُ وكُلُّ مَنْ عَلى ظاهِرِ الدُّنْيا يَخافُ مِنَ الدَّهْرِ
تَنَزَّه طَرْفِي في بَدِيعِ بِنائِها ولَمْ يَتَنَزَّه في المُرادِ بِها فِكْرِي

وقول الآخر : [من الكامل]

أيْنَ الّذي الهَرَمانِ مِنْ بُنْيانِه ما قَوْمُهُ ما يَوْمُهُ ما المَصْرَعُ
تَتَخَلَّفُ الآثارُ عَنْ أصْحابِها حِيناً ويُدْرِكُها المَماتُ فَتُصْرَعُ

حكاية اللصّ وتاجر القماش

ومما يحكى ، أن رجلاً كان لصاً وتاب إلى الله تعالى وحسنت توبته وفتح له دكاناً يبيع فيها القماش ، ولم يزل على ذلك مدة من الزمان . فاتفق في بعض الأيام أنه أغلق دكانه ومضى إلى بيته فجاء اللصوص المحتالين وتزيا بزيّ صاحب الدكان وأخرج من كمّه مفاتيح ، وكان ذلك ليلاً وقال لحارس السوق : إشعل لي هذه الشمعة . فأخذها منه الحارس ومضى ليشعلها . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 399 قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الحارس أخذ منه الشمعة ومضى ليشعلها ، ففتح اللص الدكان وأشعل شمعة أخرى كانت معه . فلمّا جاء الحارس وجده جالساً في الدكان ودفتر الحساب في يده وهو ينظر إليه ويحسب بأصابعه . ولم يزل على تلك الحالة إلى وقت السحر ثم قال للحارس : ائتني بجمّال وجمله ليحمل لي بعض البضائع . فأتاه بجمّال وجمله ، فتناول أربع رزم من القماش وناولها له فحمّلها على الجمل . ثم أغلق الدكان وأعطى الحارس درهمين ومضى خلف الجمال والحارس معتقد أنه صاحب الدكان . فلمّا أصبح الصباح واتضح النهار جاء صاحب الدكان فجعل الحارس يدعو له لأجل الدرهمين ، فأنكر صاحب الدكان مقالته وتعجّب منها . فلما فتح الدكان وجد سيلان الشمع ودفتر الحساب مطروحاً ، وتأمل في الدكان فوجد أربع رزم من القماش مفقودة . فقال للحارس : ما الخبر ؟ فحكى له ما صنع بالليل ومقاولة الجمّال على الرزم . فقال له : ائتني بالجمّال الذي حمل القماش معك سحراً . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم أتاه به فقال له : إلى أين حملت القماش سحراً ؟ فقال له : إلى الموردة الفلانية ووضعته في مركب فلان . فقال له : سرّ معي إليها . فمضى معه إليها وقال له : هذه المركب وهذا صاحبها . فقال للمراكبي : إلى أين حملت التاجر والقماش ؟ فقال له : إلى المكان الفلاني . وأتاني بجمّال فحمل القماش على جمله ومضى ولم أعرف إلى أين ذهب . فقال له : ائتني بالجمال الذي حمل من عندك القماش . فأتاه به فقال له : إلى أين حملت القماش من المركب مع التاجر ؟ فقال : إلى موضع كذا . فقال له : سرّ معي إليه وأرني إيّاه . فمضى معه الجمّال إلى مكان بعيد عن الشاطىء وعرفه الخان الذي وضع فيه القماش وأراه حاصل التاجر .

فتقدم إلى الحاصل وفتحه فوجد الأربع رزم القماش بحالها لم تنفك، فناولها إلى الحمّال. وكان اللص قد وضع كساءه على القماش، فناوله صاحب القماش إلى الجمّال أيضاً فحمل الجميع على الجمل ثم أغلق الحاصل وذهب مع الجمّال وإذا باللص واجهه فتبعه إلى أن أنزل القماش في المركب فقال له: يا أخي، أنت في وداعة الله وقد أخذت قماشك وما ضاع منه شيء فاعطني الكساء. فضحك منه التاجر وأعطاه الكساء ولم يشوّش عليه وانصرف كل منهما إلى حال سبيله.

حكاية مسرور السيّاف وابن القاربي

ومما يحكى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد قلق ليلة من الليالي قلقاً شديداً فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكي: إني أرقت في هذه الليلة وضاق صدري ولم أعرف كيف أصنع. وكان خادمه مسرور واقفاً أمامه فضحك. فقال له الخليفة: مم تضحك، أتضحك استخفافاً بي أم جنوناً منك؟ فقال: لا والله يا أمير المؤمنين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 400

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن هارون الرشيد قال لمسرور السيّاف: أتضحك استخفافاً بي أم جنوناً منك؟ فقال: لا والله يا أمير المؤمنين وحق قرابتك من سيد المرسلين، ما فعلت ذلك باختياري ولكنني خرجت بالأمس أتمشّى بظاهر القصر حتى وصلت إلى شاطىء الدجلة فرأيت الناس مجتمعين فوقفت، فرأيت رجلاً يضحك الناس يقال له: ابن القاربي. فتذكرت الآن كلامه فغلب عليّ الضحك، وأطلب منك العفو يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: عليّ به في هذه الساعة. فخرج مسرور مسرعاً إلى أن وصل إلى ابن القاربي وقال له: أجب أمير المؤمنين. فقال: سمعاً وطاعةً. فقال له مسرور: ولكن بشرط، أنك إذا دخلت عليه وأنعم عليك بشيء يكون لك فيه الربع والبقية لي. فقال له ابن القاربي: بل لك النصف ولي النصف. فقال له مسرور: لا. فقال له ابن القاربي: لك الثلثان ولي الثلث. فأجابه مسرور إلى ذلك بعد جهد جهيد ثم قام معه، فلمّا دخل على أمير المؤمنين حياه بتحية الخلافة ووقف بين يديه. فقال له أمير المؤمنين: إذا أنت لم تضحكني ضربتك بهذا الجراب ثلاث مرات. فقال ابن القاربي في نفسه: وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب مع أن ضرب السياط لا يضرّني، وظن أن الجراب فارغ. ثم تكلم بكلام يضحك المغتاظ وأتى بأنواع السخرية فلم يضحك أمير المؤمنين ولم يتبسّم، فتعجّب ابن القاربي منه وضجر وخاف. فقال له أمير المؤمنين: الآن استحقيت الضرب. ثم أخذ الجراب وضربه مرة وكان فيه أربع زلطات، كل زلطة زنتها رطلان. فوقعت الضربة في رقبته فصرخ صرخة عظيمة وتذكّر الشرط الذي بينه وبين مسرور فقال: العفو يا أمير المؤمنين إسمع مني كلمتين. قال له: قل ما بدا لك. فقال: إن مسرور أشرط عليّ شرطاً واتفقت معه عليه، وهو أن ما حصل لي من أنعام أمير المؤمنين يكون لي منه الثلث وله الثلثان، وما أجابني إلى ذلك إلاّ بعد جهد عظيم. فالآن لم تنعم عليّ إلاّ بالضرب وهذه الضربة نصيبي والضربتان الباقيتان نصيبه. فأنا قد أخذت نصيبي وها هو واقف يا أمير المؤمنين فادفع له نصيبه. فلمّا سمع أمير المؤمنين كلامه ضحك حتى استلقى على قفاه ودعا بمسرور فضربه ضربة فصاح وقال: يا أمير المؤمنين يكفيني الثلث واعطه الثلثين. وأدرك شهرزاد

الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 401 □ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن مسروراً قال : يا أمير المؤمنين يكفيني الثلث وأعطه الثلثين . فضحك عليهما وأمر لكل واحد منهما بألف دينار . وانصرفا مسرورين بما أنعم عليهما الخليفة .

حكاية هارون الرشيد وابنه

يحكى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان له ولد قد بلغ من العمر ستة عشر عاماً ، وكان معرضاً عن الدنيا وسالكاً طريقة الزهاد والعباد . فكان يخرج إلى المقابر ويقول : قد كنتم تملكون الدنيا فما ذلك بمنجّيكم ، وقد صرتم إلى قبوركم . فيا ليت شعري ما قلتم وما قيل لكم . ويبكي بكاء الخائف الواجل وينشد قول القائل : [من الوافر]

تُرَوِّعُني الجَنائزُ كُلَّ وَقْتٍ ... ويُحْزِنُني بُكاءَ النائحاتِ

فاتفق أن أباه مرّ عليه في بعض الأيام وهو في موكبه وحوله وزراؤه وكبراء دولته وأهل مملكته ، فرأوا ولد أمير المؤمنين وعلى جسده جبّة من صوف وعلى رأسه مئزر من صوف . فقال بعضهم لبعض : لقد فضح هذا الولد أمير المؤمنين بين الملوك ، فلو عاتبه لرجع عمّا هو فيه . فسمع أمير المؤمنين كلامهم فكلّمه في ذلك وقال له : يابني ، لقد فضحتني بما أنت عليه . فنظر إليه ولده ولم يجبه ، ثم نظر إلى طائر على شرافة من شرفات القصر فقال له : أيها الطائر بحق الذي خلقك أن تسقط على يدي . فانقض الطائر على يد الغلام ثم قال له : إرجع موضعك . فرجع إلى موضعه ثم قال له : أسقط على يد أمير المؤمنين . فأبى أن يسقط على يده . فقال الغلام لأبيه أمير المؤمنين : أنت الذي فضحتني بين الأولياء بحبك الدنيا ، وقد عزمت على مفارقتك مفارقة لا أعود إليك بعدها إلاّ في الآخرة . ثم انحدر إلى البصرة ، فكان يعمل مع الفعلة في الطين وكان لا يعمل في كل يوم إلاّ بدرهم ودانق ، فيتقوّت بالدانق ويتصدّق بالدرهم . قال ابو عامر البصري : وكان قد وقع في داري حائط فخرجت إلى موقف الفعلة لأنظر رجلاً يعمل لي فيه ، فوقعت عيني على شاب مليح ذي وجه صبيح . فجئت إليه وسلمت عليه وقلت له : يا حبيبي أتريد الخدمة ؟ فقال : نعم . فقلت : قم معي إلى بناء حائط . فقال لي : بشروط اشترطها عليك . قلت : يا حبيبي ما هي ؟ قال : الأجرة درهم ودانق ، وإذا أذّن المؤذن تتركني حتى أصلّي مع الجماعة . قلت : نعم . ثم أخذته وذهبت به إلى المنزل فخدم خدمة لم أرَ مثلها ، وذكرت له الغداء فقال : لا . فعلمت أنه صائم . فلمّا سمع الآذان قال لي : قد علمت الشرط . فقلت : نعم . فحلّ حزامه وتفرّغ للوضوء ، فتوضأ وضوءاً لم أرَ احسن منه . ثم خرج إلى الصلاة فصلّى مع الجماعة ثم رجع إلى خدمته ، فلمّا أذّن العصر توضأ وذهب إلى الصلاة ثم عاد إلى الخدمة . فقلت له : يا حبيبي ، قد انتهى وقت الخدمة فإن خدمة الفعلة الى العصر . فقال : سبحان الله إنما خدمتي إلى الليل . ولم يزل يخدم إلى الليل فاعطيته درهمين . فلمّا رآهما قال : ما هذا ؟ قلت له : والله إن هذا بعض أجرتك لاجتهادك في خدمتي . فرمى بهما إليّ وقال : لا أريد زيادة على ما كان بيني وبينك . فرغّبته فلم

اقدر عليه، فأعطيته درهماً ودانقاً وسار. فلمّا اصبح الصباح بكّرت إلى الموقف فلم أجده، فسألت عنه فقيل لي: إنه لا يأتي ها هنا إلاّ في يوم السبت فقط. فلمّا كان يوم السبت الثاني ذهبت إلى ذلك المكان فوجدته. فقلت له: بسم الله تفضل إلى الخدمة. فقال لي: على الشروط التي تعلمها. قلت: نعم. فذهبت به إلى داري ووقفت أنظره وهو لا يراني، فأخذ كفاً من الطين ووضعه على الحائط فإذا الحجارة يتركّب بعضها على بعض. فقلت: هكذا أولياء الله. فخدم يومه ذلك وزاد فيه على ما تقدم، فلمّا كان الليل دفعت له أجرته فأخذها وسار. فلمّا جاء يوم السبت الثالث أتيت إلى الموقف فلم أجده، فسألت عنه فقيل لي: هو مريض وراقد في خيمة فلانة. وكانت تلك المراة عجوزاً مشهورة بالصلاح ولها خيمة من قصب في الجبانة. فسرت إلى الخيمة ودخلتها فإذا هو مضطجع على الأرض وليس تحته شيء وقد وضع رأسه على لبنة ووجهه يتهلّل نوراً، فسلّمت عليه فردّ عليّ السلام. فجلست عند رأسه أبكي على صغر سنه وغربته وتوفيقه لطاعة ربه، ثم قلت له: ألك حاجة؟ قال: نعم. قلت: وما هي؟ قال: إذا كان الغد تجيء إليّ في وقت الضحى فتجدني ميتاً، فتغسلني وتحفر قبري ولا تعلم بذلك أحداً، وتكفّنني في هذه الجبّة التي عليّ بعد أن تفتقها تفتش جيبها وتخرج ما فيه وتحفظه عندك. فإذا صلّيت عليّ وواريتني في التراب فاذهب إلى بغداد وارتقب الخليفة هارون الرشيد حتى يخرج وادفع له ما تجده في جيبي واقرئه مني السلام. ثم تشهّد وأثنى على ربه بأبلغ الكلمات وأنشد هذه الأبيات:

[من البسيط]

بَلِّغْ أَمانَةَ مَنْ وافَتْ مَنِيَّتُهُ ... إلى الرَّشِيدِ فإنَّ الأَجْرَ في ذاكَ
وقُل: غَرِيبٌ لَه شَوْقٌ لِرُؤْيَتِكُمْ ... عَلى تمادي الهَوَى والبُعْدِ لَبّاكَ
ما صَدَّهُ عَنْكَ بُغْضٌ لا، ولا مَلَلٌ ... لأَنَّ قُرْبَتَهُ مِنْ لَثْمِ يُمْناكَ
وإنَّما أَبْعَدَتْهُ عَنْكَ يا أَبَتِي ... نَفْسٌ لَها عِفَّةٌ عَنْ نَيْلِ دُنْياكَ

ثم إن الغلام بعد ذلك اشتغل بالإستغفار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 402

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الغلام بعد ذلك اشتغل بالإستغفار والصلاة والسلام على سيّد الأبرار وتلاوة بعض الآيات. ثم أنشد هذه الأبيات:

[من الكامل]

يا والِدِي لا تَغْتَرِرْ بِتَنَعُّمٍ ... فالعُمْرُ يَنْفَدُ والنَّعِيمُ يَزُولُ
وإذا عَلِمْتَ بِحالِ قَوْمٍ ساءَهُمْ ... فاعْلَمْ بأَنَّكَ عَنْهُمُ مَسْؤُولُ
وإذا حَمَلْتَ إلى القُبُورِ جَنازَةً ... فاعْلَمْ بأَنَّكَ بَعْدَها مَحْمُولُ

قال أبو عامر البصري: فلمّا فرغ الغلام من وصيته وإنشاده ذهبت عنه وتوجّهت إلى بيتي. فلمّا أصبح الصباح ذهبت إليه من الغد وقت الضحى فوجدته قد مات رحمة الله عليه، فغسلته

وفتقت جبّته فوجدت في جيبها ياقوتة تساوي الآف من الدنانير . فقلت في نفسي : والله إن هذا الفتى زهد في الدنيا غاية الزهد . ثم بعد أن دفنته توجّهت إلى بغداد ووصلت إلى دار الخلافة وصرت أترقّب خروج الرشيد إلى أن خرج ، فتعرّضت له في بعض الطرق ودفعت إليه الياقوتة . فلمّا رآها عرفها وخر مغشياً عليه فقبض عليّ الخدمة ، فلمّا أفاق قال للخدمة : أفرجوا عنه وارسلوه برفق إلى القصر . ففعلوا ما أمرهم به ، فلمّا دخل قصره طلبني وأدخلني محله وقال لي : ما فعل صاحب هذه الياقوتة ؟ فقلت له : قد مات . ووصفت له حاله ، فجعل يبكي ويقول : انتفع الولد وخاب الوالد . ثم نادى : يا فلانة ؟ فخرجت امرأة ، فلمّا رأتني أرادت أن ترجع فقال لها : تعالي وما عليك منه . فدخلت وسلّمت ، فرمى إليها الياقوتة فلمّا رأتها صرخت صرخة عظيمة ووقعت مغشياً عليها . فلمّا أفاقت من غشيتها قالت : يا أمير المؤمنين ، ما فعل الله بولدي ؟ فقال لي : أخبرها بشأنه وأخذته العبرة . فأخبرتها بشأنه ، فجعلت تبكي وتقول بصوت ضعيف : ما أشوقني إلى لقائك يا قرّة عيني ، ليتني كنت أسقيك إذا لم تجد ساقياً ، ليتني كنت أؤانسك إذا لم تجد مؤنساً . ثم سكبت العبرات وأنشدت هذه الأبيات : [من البسيط]

أَبْكِي غَرِيباً أَتاهُ المَوْتُ مُنْفَرِداً ... لَم يَلْقَ إلفاً لَه يَشْكُو الَّذي وَجَدا
مَنْ بَعْدِ عِزٍّ وشَمْلٍ كانَ مُجْتَمِعاً ... أَضْحَى فَرِيداً وَحِيداً لا يَرَى أَحَدا
يُبِينُ لِلنّاسِ ما الأَيّامُ تُضْمِرُهُ ... لَمْ يَتْرُكِ المَوْتَ مِنّا وَاحِداً أَبَدا
يا غائِباً قَدْ قَضَى رَبِّي بِغُرْبَتِهِ ... وصارَ مِنِّيَ بَعْدَ القُرْبِ مُبْتَعِدا
إنْ أَيْأَسِ المَوْتُ مِنْ لُقْياكَ يا وَلَدِي ... فإنَّنا نَلْتَقِي يَوْمَ الحِسابَ غَدا

فقلت : يا أمير المؤمنين ، أهو ولدك ؟ قال : نعم . وقد كان قبل ولايتي هذا الأمر يزور العلماء ويجالس الصالحين ، فلمّا وليت هذا الأمر نفر مني وباعد نفسه عني . فقلت لأمه : إن هذا الولد منقطع إلى الله تعالى وربما تصيبه الشدائد ويكابد بالإمتحان ، فادفعي إليه هذه الياقوتة ليجدها وقت الإحتياج إليها . فدفعتها إليه وعزمت عليه أن يمسكها ، فامتثل أمرها وأخذها منها ثم ترك لنا دنيانا وغاب عنّا . ولم يزل غائباً حتى لقي الله عز وجل تقياً نقياً . ثم قال : قم فأرني قبره . فخرجت معه وجعلت أسير إلى ان أريته إيّاه ، فجعل يبكي وينتحب حتى وقع مغشياً عليه . فلمّا أفاق من غشيته استغفر الله وقال : إنّا لله وإنا إليه راجعون . ودعا له بخير . ثم سألني الصحبة فقلت له : يا أمير المؤمنين ، إن في ولدك أعظم العظات . ثم انشدت هذه الأبيات : [من البسيط]

أَنا الغَرِيبُ فَلا آوِي إلى أَحَدِ ... أَنا الغَرِيبُ وإنْ أَمْسَيْتُ في بَلَدِي
أَنا الغَرِيبُ فَلا أَهْلٌ ولا وَلَدٌ ... ولَيْسَ لي أَحَدٌ يأوِي إلى أَحَدِ
إلى المَساجِدِ آوِي بَلْ وأُعْمِرُها ... فَلَنْ يُفارِقُها قَلْبِي مَدَى الأَبَدِ
فالحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ عَلى ... أَفْضالِهِ بِبَقاءِ الرُّوحِ في الجَسَدِ

حكاية الفقيه والصبيان

ومما يحكى عن بعض الفضلاء أنه قال : مررت بفقيه في كتاب وهو يقرىء الصبيان فوجدته في هيئة حسنة وقماش مليح . فأقبلت عليه فقام إلي وأجلسني معه ، فمارسته في القرآن والنحو

والشعر واللغة فإذا هو كامل في كل ما يراد منه . فقلت له : قوّى الله عزمك فإنك عارف بكل ما يراد منك . ثم عاشرته مدة وكل يوم يظهر لي فيه حسن فقلت في نفسي : إن هذا شيء عجيب من فقيه يعلّم الصبيان ، مع إن العقلاء اتفقوا على نقص عقل معلم الصبيان . ثم فارقته وكنت كل أيام قلائل أتفقده وأزوره ، فأتيت إليه في بعض الأيام على عادتي من زيارته فوجدت الكتاب مغلوقاً فسألت جيرانه فقالوا : إنه مات عنده ميت . فقلت في نفسي : وجب علينا أن نعزّيه . فجئت إلى بابه وطرقته ، فخرجت لي جارية وقالت : ما تريد ؟ فقلت : أريد مولاك . فقالت : إن مولاي قاعد في العزاء وحده . فقلت لها : قولي له أن صديقك فلان يطلب أن يعزيك . فراحت وأخبرته فقال لها : دعيه يدخل . فأذنت لي في الدخول ، فدخلت إليه فرأيته جالساً وحده ومعصباً رأسه . فقلت له : عظّم الله أجرك وهذا سبيل لا بدّ لكل أحد منه فعليك بالصبر . ثم قلت له : من الذي مات لك ؟ فقال : أعزّ الناس عليّ وأحبهم إليّ . فقلت : لعله والدك . فقال : لا . قلت : والدتك . قال : لا . قلت : أخوك . قال : لا . قلت : أحد من أقاربك . قال : لا . قلت : فما نسبته إليك ؟ قال : حبيبتي . فقلت في نفسي : هذا أول المباحث في قلّة عقله . ثم قلت له : قد يوجد غيرها مما هو أحسن منها . فقال : أنا ما رأيتها حتى أعرف إن كان غيرها أحسن منها أو لا . فقلت في نفسي : وهذا مبحث ثان . فقلت له : وكيف عشقت من لا تراها ؟ فقال : أعلم أني كنت جالساً في الطاقة وإذا برجل عابر طريق يغني بهذا البيت : [من البسيط]

يا أُمَّ عَمْرٍو جَزاكِ اللهُ مَكْرُمَةً   رُدِّي إليَّ فُؤَادِي كالذي كانا

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 403

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الفقيه قال : لما غنّى الرجل المار في الطريق بالشعر الذي سمعته منه قلت في نفسي : لولا إن أم عمرو هذه ما في الدنيا مثلها ، ما كان الشعراء يتغزّلون فيها فتعلّقت بحبها . فلمّا كان بعد يومين عبر ذلك الرجل وهو ينشد هذا البيت : [من الوافر]

إذا ذَهَبَ الحِمارُ بِأُمِّ عَمْرٍو   فَلا رَجَعَتْ ولا رَجَعَ الحِمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فخرجت عليها ومضى لي ثلاثة أيام وأنا في العزاء . فتركته وانصرفت بعدما تحققت قلّة عقله .

ومما يحكى من قلّة عقل معلم الصبيان أنه كان رجل فقيه في مكتب فدخل عليه رجل ظريف وجلس عنده ومارسه ، فرآه فقيهاً نحوياً لغوياً شاعراً أديباً فهيماً لطيفاً . فتعجب من ذلك وقال : إن الذين يعلمون الصبيان في المكاتب ليس لهم عقل كامل . فلمّا همّ بالإنصراف من عند الفقيه قال له : أنت ضيفي في هذه الليلة . فأجابه إلى الضيافة وتوجّه صحبته إلى منزله ، فأكرمه وأتى له بالطعام فأكلا وشربا ثم جلسا بعد ذلك يتحدّثان إلى ثلث الليل . وبعد ذلك جهّز له الفراش وطلع إلى حريمه ، فاضطجع الضيف وأراد النوم وإذا بصراخ كثير ثار في حريمه . فسأل : ما الخبر ؟ فقالوا له : إن الشيخ حصل له أمر عظيم وهو في آخر رمق . فقال : طلعوني له . فطلعوه

له ودخل عليه فرآه مغشياً عليه ودمه سائل ، فرش الماء على وجهه فلمّا افاق قال له : ما هذا الحال ؟ أنت طلعت من عندي في غاية ما يكون من الحظ وأنت صحيح البدن فما اصابك ؟ فقال له : يا أخي ، إني بعدما طلعت من عندك جلست أتذكر في مصنوعات الله تعالى وقلت في نفسي : كل شيء خلقه الله للإنسان فيه نفع . لأن الله سبحانه خلق اليدين للبطش والرجلين للمشي والعينين للنظر والأذنين للسماع والذكر للجماع وهلم جرّ إلاّ هذين البيضتين ليس بهما نفع ، فأخذت موسى كان عندي وقطعتهما فحصل لي هذا الأمر . فنزل من عنده وقال : صَدَق من قال : إن كل فقيه يعلم الصبيان ليس له عقل كامل ولو كان يعرف جميع العلوم .

وحكى أيضاً أن أحد المجاورين كان لا يعرف الخط ولا القراءة وإنما كان يحتال على الناس بحيل يأكل منها الخبز ، فخطر بباله يوماً من الأيام أنه يفتح له مكتباً ويقرئ فيه الصبيان . فجمع ألواحاً وأوراقاً مكتوبة وعلّقها في مكان وكبّر عمامته وجلس على باب المكتب ، فصار الناس يمرّون عليه وينظرون إلى عمامته وإلى الألواح والأوراق فيظنون انه فقيه جيد فيأتون إليه بأولادهم . فصار يقول لهذا أكتب ولهذا اقرأ ، فصار الأولاد يعلم بعضهم بعضاً . فبينما هو ذات يوم جالس في باب المكتب على عادته وإذا بامرأة مقبلة من بعيد وبيدها مكتوب فقال في باله : لا بدّ أن هذه المرأة تقصدني لأقرأ لها المكتوب الذي معها ، فكيف يكون عملي معها وأنا لا أعرف قراءة الخط ؟ وهمَّ بالنزول ليهرب منها فلحقته قبل أن ينزل وقالت له : إلى أين ؟ فقال لها : أريد أن أصلّي الظهر وأعود . فقالت له : الظهر بعيد فاقرأ لي هذا الكتاب . فأخذه منها وجعل أعلاه أسفله وصار ينظر إليه ويهز عمامته تارة ويرقص حواجبه تارة أخرى ويظهر غيظاً . وكان زوج المرأة غائباً والكتاب مرسل إليها من عنده ، فلمّا رأت الفقيه على تلك الحالة قالت في نفسها : لا شك أن زوجي مات وهذا الفقيه يستحي أن يقول لي إنه مات . فقالت له : يا سيدي ، إن كان مات قل لي . فهزّ رأسه وسكت . فقالت له المرأة : هل أشقّ ثيابي ؟ فقال لها : شقّي . فقالت له : هل ألطم وجهي ؟ فقال لها : ألطمي . فأخذت الكتاب من يده وعادت إلى منزلها وصارت تبكي هي وأولادها ، فسمع بعض جيرانها البكاء فسألوا عن حالها فقيل لهم : إنه جاءها كتاب بموت زوجها . فقال الرجل : إن هذا كلام كذب لأن زوجها أرسل لي مكتوباً بالأمس يخبر فيه إنه طيب بخير وعافية وإنه بعد عشرة أيام يكون عندها . فقام من ساعته وجاء إلى المرأة وقال لها : أين الكتاب الذي جاءك ؟ فجاءت به إليه فأخذه منها وقرأه وإذا فيه : أما بعد ، فإني طيب بخير وعافية وبعد عشرة أيام أكون عندكم وقد أرسلت إليكم ملحفة ومكمرة . فأخذت الكتاب وعادت به إلى الفقيه وقالت له : ما حملك على الذي فعلته معي ؟ واخبرته بما قال جارها من سلامة زوجها وإنه أرسل إليها ملحفة ومكمرة . فقال لها : صدقت ، ولكن يا حرمة أعذريني فإني كنت في تلك الساعة مغتاظاً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 404

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن المرأة قالت للفقيه : ما حملك على الذي فعلته معي ؟ فقال لها : إني كنت في تلك الساعة مغتاظاً مشغول الخاطر ورأيت المكمرة ملفوفة في الملحفة فظننت انه مات وكفنوه . وكانت المرأة لا تعرف الحيلة فقالت له : أنت معذور . وأخذت الكتاب منه وانصرفت .

حكاية ملك خرج متخفّياً

وحكي أن ملكاً من الملوك خرج مستخفياً ليطّلع على أحوال رعيته، فوصل إلى قرية عظيمة فدخلها منفرداً وقد عطش. فوقف بباب دار من دور القرية وطلب ماء، فخرجت إليه امرأة جميلة بكوز ماء فناولته إيّاه فشرب، فلمّا نظر إليها افتتن بها فراودها عن نفسها وكانت المرأة عارفة به. فدخلت به بيتها وأجلسته وأخرجت له كتّاباً وقالت: أنظر في هذا إلى أن أصلح أمري وأرجع إليك. فجلس يطالع في الكتاب وإذا فيه الزجر عن الزنا وما أعدّه الله لأهله من العذاب. فاقشعر جلده وتاب إلى الله تعالى وصاح بالمرأة وأعطاها الكتاب وذهب. وكان زوج المرأة غائباً، فلمّا حضر أخبرته بالخبر فتحيّر وقال في نفسه: أخاف أن يكون وقع غرض الملك فيها، فلم يتجاسر على وطئها بعد ذلك. ومكث على ذلك مدة، فأعلمت المرأة أقاربها بما حصل لها مع زوجها فرفعوه إلى الملك، فلمّا مثلوا بين يديه قال أقارب المرأة: أعزّ الله الملك إن هذا الرجل استأجر منا أرضاً للزراعة فزرعها مدة ثم عطّلها فلا هو يتركها حتى نؤاجرها لمن يزرعها ولا هو يزرعها. وقد حصل الضرر للأرض فنخاف فسادها بسبب التعطيل لأن الأرض إذا لم تزرع فسدت. فقال الملك: ما الذي يمنعك من زرع أرضك؟ فقال: أعزّ الله الملك، إنه قد بلغني أن الأسد قد دخل الأرض فهبته ولم أقدر على الدنو منها، لعلمي أنه لا طاقة لي بالأسد وأخاف منه. ففهم الملك القصة وقال له: يا هذا، إن أرضك لم يطأها الأسد وأرضك طيبة الزرع فازرعها بارك الله لك فيها فإن الأسد لا يعدو عليها. ثم إنه أمر له ولزوجته بصلة حسنة وصرفهم.

حكاية عبد الرحمن المغربي وفرخ الرخ

ومما يحكى أن رجلاً من أهل المغرب كان سافر الأقطار وجاب القفار والبحار فألقته المقادير في جزيرة وأقام فيها مدة طويلة، ثم رجع إلى بلده ومعه قصبة ريشة من جناح فرخ الرخ وهو في البيضة ولم يخرج منها إلى الوجود. وكانت تلك القصبة تسع قربة ماء وقيل: إن طول جناح فرخ الرخ حين خروجه من البيضة ألف باع، وكان الناس يتعجبون من تلك القصبة حين رؤوها. وكان هذا الرجل اسمه عبد الرحمن المغربي واشتهر بالصيني لكثرة إقامته هناك، وكان يحدث بالعجائب منها ما ذكره من أنه سافر في بحر الصين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 405

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عبد الرحمن المغربي الصيني كان يحدث بالعجائب منها ما ذكره من أنه سافر في بحر الصين مع جماعة فرأوا جزيرة على بعد، فرست بهم المركب على تلك الجزيرة فرأوها عظيمة واسعة. فخرج إليها أهل تلك السفينة ليأخذوا ماء وحطباً ومعهم الفؤوس والحبال والقرب وذلك الرجل معهم، فرأوا في الجزيرة قبّة عظيمة بيضاء لمّاعة طولها مائة ذراع. فلمّا رأوها قصدوها ودنوا منها فوجدوها بيضة الرخ، فجعلوا يضربونها بالفؤوس والحجارة والخشب حتى انشقّت عن فرخ الرخ فوجدوه كالجبل الرامخ. فنتفوا ريشه من جناحه ولم يقدروا على نتفها منه إلاّ بتعاونهم مع إنه لم يتكامل خلف الريش في ذلك الفرخ. ثم أخذوا ما قدروا عليه من لحم الفرخ وحملوه معهم وقطعوا أصل الريشة من حدّ القصبة وحلّوا قلوع المركب وسافروا طول الليل إلى طلوع الشمس، وكانت

الريح مسعفة لتلك السفينة وهي سائرة بهم . فبينما هم كذلك إذ أقبل الرخ كالسحابة العظيمة وفي رجليه صخرة كالجبل العظيم أكبر من السفينة، فلمّا حاذى السفينة وهو في الجو ألقى الصخرة عليها وعلى من بها من الناس، وكانت السفينة مسرعة في الجري فسبقت فوقعت الصخرة في البحر وكان لوقوعها هول عظيم . وكتب الله لهم السلامة ونجّاهم من الهلاك وطبخوا ذلك اللحم وأكلوه وكان فيهم مشايخ بيض اللحى، فلمّا أصبحوا وجدوا لحاهم قد اسودّت ولم يشب بعد ذلك أحد من القوم الذين أكلوا من ذلك اللحم . وكانوا يقولون : إن سبب عود شبابهم إليهم وامتناع المشيب عنهم أن العود الذي حرّكوا به القدر كان من شجرة النشاب . وبعضهم يقول : سبب ذلك لحم فرخ الرخ . وهذا من أعجب العجب .

حكاية عدي بن زيد والأميرة هند

ومما يحكى أن النعمان بن المنذر ملك العرب كان له بنت تسمى هنداً، وقد خرجت في يوم الفصح وهو عيد النصارى لتتقرّب في البيعة البيضاء ولها من العمر أحد عشر عاماً وكانت أجمل نساء عصرها وزمانها . وفي ذلك اليوم كان عديّ بن زيد قد قدم إلى الحيرة من عند كسرى بهدية إلى النعمان، فدخل البيعة البيضاء ليتقرّب وكان مديد القامة حلو الشمائل حسن العينين نقي الخدّ ومعه جماعة من قومه . وكان مع هند بنت النعمان جارية تسمّى مارية، وكانت مارية تعشق عدياً ولكنها لا يمكنها الوصول إليه . فلمّا رأته في البيعة قالت لهند : انظري إلى هذا الفتى فهو والله أحسن من كل من تزيّن . قالت هند : ومن هو ؟ قالت : عدي بن زيد . قالت هند بنت النعمان : أخاف أن يعرفني إن دنوت منه حتى أراه من قريب . قالت مارية : ومن أين يعرفك وما رآك قط ؟ فدنت منه وهو يمازح الفتيان الذين معه وقد برع عليهم بجماله وحسن كلامه وفصاحة لسانه وما عليه من الثياب الفاخرة، فلمّا نظرت إليه افتتنت به واندهش عقلها وتغيّر لونها . فلمّا عرفت مارية ميلها إليه قالت لها : كلّميه . فكلّمته وانصرفت . فلمّا نظر إليها وسمع كلامها افتتن بها واندهش عقله وارتجف قلبه وتغيّر لونه حتى أنكر عليه الفتيان، فأسرّ إلى بعضهم أن يتبعها ويكشف له خبرها . فمضى خلفها ثم عاد إليه وأخبره أنها هند بنت النعمان . فخرج من البيعة وهو لا يدري أين الطريق من شدة عشقه . ثم أنشد هذين البيتين : [من الخفيف]

يا خَلِيلَيَّ زِدتُما تَيْسِيرا ... إنْ تَؤُمّا إلى البِقاعِ مَسِيرا
عَرِّجا لي عَلى دِيارِ لِهِنْدٍ ... ثُمَّ رُوحا وخَبِّرا تَخْبِيرا

فلما فرغ من شعره ذهب إلى مكانه وبات ليلته قلقاً لم يذق طعم النوم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 406

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن عدياً لما فرغ من شعره ذهب إلى بيته وبات ليلته قلقاً لم يذق طعم النوم . فلمّا أصبح تعرّضت له مارية، فلمّا رآها هشّ لها وكان قبل ذلك لا يلتفت إليها . ثم قال لها : ما مرادك ؟ قالت : إن لي حاجة إليك . قال : اذكريها فوالله لا تسأليني شيئاً إلاّ أعطيتك إيّاه . فأخبرته أنها تهواه وأن حاجتها إليه الخلوة . فسمح لها بذلك بشرط أن تحتال في هند وتجمع بينها وبينه، وأدخلها حانوت خمار في بعض دروب الحيرة

وواقعها . ثم خرجت واتت هند فقالت لها : أما تشتهين أن تري عدياً ؟ قالت : وكيف لي بذلك ؟ وقد أقلقني الشوق إليه ولا يقرّ لي قرار من البارحة . فقالت : أنا أعده بمكان كذا أو كذا وتنظرين إليه من القصر . فقالت هند : إفعلي ما شئت . واتفقت معها على ذلك الموضع فأتى عدي فأشرفت عليه ، فلمّا رأته كادت أن تسقط من أعلاه ثم قالت : يا مارية ، إن لم تدخليه عليّ في هذه الليلة هلكت ثم وقعت مغشياً عليها . فحملنها وصائفها وأدخلنها القصر ، فبادرت مارية إلى النعمان وأخبرته بخبرها وأصدقته الحديث وذكرت له : إنها هامت بعدي . وأعلمته أنه إن لم يزوّجها به افتضحت وماتت من عشقه ويكون ذلك عاراً عليه بين العرب وإنه لا حيلة في ذلك الأمر إلاّ تزويجها به . فأطرق النعمان ساعة يفكر في أمرها واسترجع مراراً ثم قال : ويلك ، وكيف الحيلة في تزويجها به وأنا لا أحب أن أبتدئه بذلك الكلام ؟ فقالت : هو أشد عشقاً منها وأكثر رغبة فيها ، فأنا أحتال في ذلك من حيث لا يعلم أنك عرفت أمره ولا تفضح نفسك أيها الملك . ثم إنها ذهبت إلى عدي وأخبرته وقالت له : إصنع طعاماً ثم ادع الملك إليه فإذا أخذ منه الشراب فاخطبها منه فإنه غير رادك . فقال : أخشى أن يغضبه ذلك فيكون سبباً للعداوة بيننا . فقالت له : ما جئتك إلاّ بعدما فرغت من الحديث معه . وبعد ذلك رجعت إلى النعمان وقالت له : أطلب منه أن يضيفك في بيته . فقال لها : لا بأس . ثم إن النعمان بعد ذلك بثلاثة أيام سأله أن يتغدّى عنده أصحابه فأجابه إلى ذلك . ثم ذهب إليه النعمان فلمّا أخذ منه الشراب مأخذه قام عدي فخطبها منه . فأجابه وزوّجه إيّاها وضمّها إليه بعد ثلاثة أيام فمكثت عنده ثلاث سنين وهما في أرغد عيش وأهناه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 407

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن عدياً مكث مع هند بنت النعمان بن المنذر ثلاث سنين وهما في أرغد عيش وأهناه . ثم أن النعمان بعد ذلك غضب على عدي وقتله فوجدت عليه هند وجداً عظيماً . ثم إنها بنت لها ديراً في ظاهر الحيرة وترهّبت فيه وجلست تندبه وتبكيه حتى ماتت . وديرها معروف إلى الآن في ظاهر الحيرة .

حكاية دعبل الخزاعي والجارية وابن الوليد

ومما يحكى أن دعبل الخزاعي قال : كنت جالساً بباب الكرخ إذ مرت بي جارية لم أرَ أحسن منها ولا أعدل قداً ، وهي تتثنى في مشيتها وتسبي الناظرين بتثنيها . فلمّا وقع بصري عليها افتتنت بها وارتجف فؤادي وآنست أنه قد طار قلبي من صدري . فأنشدت معرضاً لها هذا البيت : [من المنسرح]

دُمُوعُ عَيْنِي بِها ٱنْفِضاضُ   ونَوْمُ جَفْنِي بِهِ ٱنْقِباضُ

فنظرت إليّ واستدارت بوجهها وأجابتني بسرعة بهذا البيت : [من المنسرح]

وذا قَلِيلٌ لِمَنْ دَعَتْهُ   بِلَحْظِها الأَعْيُنُ المِراضُ

فأدهشتني بسرعة جوابها وحسن منطقها . فأنشدتها ثانياً هذا البيت : [من المنسرح]

فَهَلْ لِمَوْلايَ عَطْفُ قَلْبٍ   عَلَى الَّذي دَمْعُهُ مُفاضُ

فأجابتني بسرعة من غير توقف بهذا البيت : [من المنسرح]

إنْ كُنْتَ تَهْوَى الوِدادَ مَنّا فالوُدُّ ما بَيْنَنا قِراضُ

فما دخل في أذني قطّ أحلى من كلامها ولا رأيت أبهج من وجهها . فعدلت بالشعر عن القافية امتحاناً لها وعجباً بكلامها فقلت لها هذا البيت : [من الكامل]

أَتَرى الزَّمانَ يَسُرُّنا بِتَلاقٍ ويَضُمُّ مُشْتاقاً إلى مُشْتاقِ

فتبسمت فما رأيت أحسن من فمها ولا أحلى من ثغرها وأجابتني بسرعة من غير توقّف بهذا البيت : [من الكامل]

ما لِلزَّمانِ ولِلتَّحَكُّمِ بَيْنَنا أَنْتَ الزَّمانُ فَسُرَّنا بِتَلاقِ

فنهضت مسرعاً وصرت أقبّل يديها وقلت لها : ما كنت أظن أن الزمان يسمح لي بمثل هذه الفرصة ، فاتبعي أثري غير مأمورة ولا مستكرهة بل بفضل منك تعطّفاً عليّ . ثم وليت وهي خلفي ، ولم يكن إليّ في ذلك الوقت منزل أرضاه لمثلها . وكان مسلم بن الوليد صديقاً لي وله منزل حسن فقصدته ، فلمّا قرعت عليه الباب خرج إليّ فسلّمت عليه وقلت : لمثل هذا الوقت تدخر الإخوان . فقال : حباً وكرامة ادخلا . فدخلنا فصادفنا عنده عسرة ، فدفع لي منديلاً وقال : إذهب به إلى السوق وبعه وخذ ما تحتاج إليه من طعام وغيره . فمضيت مسرعاً إلى السوق وبعته وأخذت ما نحتاج إليه من طعام وغيره ، ثم رجعت فرأيت مسلماً قد خلا بها في سرداب ، فلمّا أحسّ بي وثب إليّ وقال لي : كافاك الله يا أبا عليّ على جميل ما صنعت معي ولقاك ثوابه وجعله حسنة في حسناتك يوم القيامة . ثم تناول مني الطعام والشراب وأغلق الباب في وجهي . فغاظني قوله ولم أدرِ ما أصنع وهو قائم خلف الباب يهتز سروراً . فلمّا رآني على تلك الحالة قال : بحياتي يا أبا علي ، من الذي أنشأ هذا البيت : [من الخفيف]

بِتُّ في دِرْعِها وباتَ رَفِيقِي جُنُبَ القَلْبِ طاهِرَ الأَطْرافِ

فاشتد غيظي منه وقلت : هو منشىء هذا البيت : [من الخفيف]

مَنْ لَهُ في حِزامِهِ أَلْفُ قَرْنٍ قَدْ أَنافَتْ عَلى عُلُوِّ مَنافِ

ثم جعلت أشتمه وأسبّه على قبيح فعله وقلة مروءته وهو ساكت لا يتكلم . فلمّا فرغت من سبّي له تبسّم وقال : ويلك يا أحمق ، إنما دخلت منزلي وبعت منديلي وأنفقت دراهمي فعلى من تغضب يا قواد ؟ ثم تركني وانصرف إليها . فقلت له : أما والله لقد صدقت في نسبتي إلى الحماقة والقوادة . وانصرفت عن بابه وأنا في همّ شديد أجد أثره في قلبي إلى يومي هذا ولم أظفر بها ولا سمعت لها خبراً .

حكاية إسحاق الموصلي والمغنية

ومما يحكى أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال : اتفق أنني ضجرت من ملازمة دار الخليفة والخدمة بها فركبت وخرجت بكرة النهار وعزمت على أن أطوف الصحراء وأتفرّج وقلت لغلماني : إذا جاء رسول الخليفة أو غيره فعرفوه إنني بكرة في بعض مهماتي وأنكم لا تعرفون أين

ذهبت . ثم مضيت وحدي وطفت في المدينة وقد حمى النهار فوقفت في شارع يعرف بالحرم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 408

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : لما حمى النهار وقفت في شارع يعرف بالحرم لأستظل من حرّ الشمس وكان للدار جناح رحب بارز على الطريق ، فلم ألبث حتى جاء خادم أسود يقود حماراً فرأيت عليه جارية راكبة وتحتها منديل مكلّل بالجواهر وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية بعده ، ورأيت لها قواماً حسناً وطرفاً فاتراً وشمائل ظريفة . فسألت عنها بعض المارين فقال لي : إنها مغنية . وقد تعلق بحبها قلبي عند نظري إليها وما قدرت أن أستقر على ظهر دابتي . ثم إنها دخلت الدار التي كنت واقفاً على بابها ، فجعلت اتفكّر في حيلة أتوصّل بها إليها . فبينما أنا واقف إذ أقبل رجلان شابان جميلان فاستأذنا ، فاذن لهما صاحب الدار فنزلا ونزلت معهما ودخلت صحبتهما فظنا أن صاحب الدار دعاني . فجلسنا ساعة فأتى بالطعام فأكلنا ، ثم وضع الشراب بين أيدينا . ثم خرجت الجارية وفي يدها عود فغنّت وشربنا وقمت لأقضي حاجة ، فسأل صاحب المنزل الرجلين عني فأخبراه أنهما لا يعرفاني فقال : هذا طفيليّ ولكنه ظريف فأجملوا عشرته . ثم جئت فجلست في مكاني ، فغنت الجارية بلحن لطيف وأنشدت هذين البيتين : [من الكامل]

قُلْ لِلْغَزالَةِ وَهْيَ غَيرُ غَزالَةٍ وَالجُؤْذُرُ المَكْحُولُ غَيرُ الجُؤْذُرِ
لِمُذَكَّرِ الخَلَواتِ غَيرِ مُؤَنَّثٍ ومُؤَنَّثِ الخَطَواتِ غَيرِ مُذَكَّرِ

فأدّته أداء حسناً وشرب القوم وأعجبهم ذلك . ثم غنّت طرقاً شتى بألحان غريبة ، وغنّت من جملتها طريقة هي لي وأنشدت هذين البيتين : [من مجزوء الخفيف]

الطُّلُولُ الدَّوارِسُ فارَقَتْها الأوانِسُ
أَوْحَشَتْ بَعْدَ أُنْسِها فَهْيَ قَفْراءُ طامِسُ

فكان أمرها أصلح فيها من الأولى . ثم غنّت طرقاً شتى بألحان غريبة من القديم والحديث ، وغنّت في أثنائها طريقة هي لي بهذين البيتين : [من مجزوء الخفيف]

قُلْ لِمَنْ صَدَّ عاتِبا ونَأَى عَنْكَ جانِبا
قَدْ بَلَغْتَ الَّذي بَلَغْـ ـتَ وإنْ كُنْتَ لاعِبا

فاستعدته منها لأصحّحه لها ، فأقبل عليّ أحد الرجلين وقال : ما رأينا طفيلياً أصفق وجهاً منك ، أما ترضى بالتطفل حتى اقترحت ؟ وقد صح فيك المثل : طفيلي ومقترح . فأطرقت حياء ولم أجبه . فجعل صاحبه يكفه عني فلا ينكف ، ثم قاموا إلى الصلاة فتأخرت قليلاً وأخذت العود وشددت طرفيه وأصلحته إصلاحاً محكماً وعدت إلى موضعي فصليّت معهم . ولما فرغنا من الصلاة رجع ذلك الرجل إلى اللوم عليّ والتعنيف ولجّ في عربدته وأنا صامت . فأخذت الجارية العود وجسّته فأنكرت حاله وقالت : من جسّ عودي ؟ فقالوا : ما جسّه أحد منا . قالت : بلى والله لقد جسّه حاذق متقدّم في الصناعة لأنه أحكم أوتاره وأصلحه إصلاح حاذق في

صنعته. فقلت لها: أنا الذي أصلحته. فقالت: بالله عليك أن تأخذه وتضرب عليه. فأخذته وضربت عليه طريقة عجيبة صعبة تكاد أن تميت الأحياء وتحيي الأموات. وانشدت عليه هذه الأبيات: [من الرمل]

كانَ لي قَلْبٌ أَعيشُ بِه ... فاكْتَوَى بالنَّارِ وٱحْتَرَقَ
أَنا لَمْ أُرْزَقْ مَحبَّتُها ... إنَّما لِلعَبْدِ ما رُزِقَ
إنْ يَكُنْ ما ذُقْتُ طَعْمَ هَوًى ... ذاقَهُ لا شَكَّ مَنْ عَشِقَ

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 409

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: لما فرغت من شعري لم يبقَ أحد من الجماعة إلاّ وثب من موضعه وجلسوا بين يدي وقالوا: بالله عليك يا سيدنا أن تغني لنا صوتاً آخر. فقلت لهم: حباً وكرامةً. ثم أحكمت الضربات وغنّيت بهذه الأبيات: [من الطويل]

الا مَنْ لِقَلْبٍ ذائبٍ بالنَّوائبِ ... أَناخَتْ بِه الأَحْزانُ مِنْ كُلِّ جانِبِ
حَرامٌ عَلى رامِي فُؤَادِي بِسَهْمِه ... دَمُ الصَّبِّ ما بَينَ الحَشَى والتَّرائِبِ
تَبِينُ يَوْمَ البَينِ أَنَّ ٱقْترابَهُ ... عَلَى البَينِ مِنْ ضِمْنِ الظُّنُونِ الكَواذِبِ
أَراقَ دَماً لَوْلا الهَوَى ما أَراقَهُ ... فَهَلْ لِدَمِي مِنْ ثائِرٍ ومُطالِبِ

فلما فرغ من شعره لم يبقَ أحد منهم إلاّ وقام على قدميه ثم رمى بنفسه على الأرض من شدة ما أصابه من الطرب، قال: فرميت العود من يدي فقالوا: بالله عليك أن لا تفعل بنا هذا وزدنا صوتاً آخر زادك الله تعالى من نعمته. فقلت لهم: يا قوم أزيدكم صوتاً آخر وآخر وآخر وأعرّفكم من أنا. أنا اسحاق بن ابراهيم الموصلي، والله إني لأتيه على الخليفة إذا طلبني وأنتم قد أسمعتموني غليظ ما أكره في هذا اليوم، فوالله لا نطقت بحرف ولا جلست معكم حتى تخرجوا هذا العربيد من بينكم. فقال له صاحبه: من هذا حذّرتك وخفت عليك. ثم أخذوا بيده وأخرجوه، فأخذت العود وغنيت الأصوات التي غنتها الجارية من صنعتي ثم أسررت إلى صاحب الدار أن الجارية قد وقعت في قلبي ولا صبر لي عنها. فقال الرجل: هي لك بشرط. فقلت: وما هو؟ قال: أن تقيم عندي شهراً والجارية وما يتعلق بها من حلي وحلل لك. فقلت: نعم أفعل ذلك. فأقمت عنده شهراً لا يعرف أحد أين أنا والخليفة يفتش عليّ في كل موضع ولا يعرف لي خبر. فلمّا انقضى الشهر سلّم إليّ الجارية وما يتعلّق بها من الأمتعة النفيسة وأعطاني خادماً آخر، فجئت بذلك إلى منزلي وكأني قد حزت الدنيا بأسرها من شدّة فرحي بالجارية. ثم ركبت إلى المأمون من وقتي فلمّا حضرت بين يديه قال لي: ويحك يا اسحاق، أين كنت؟ فأخبرته بخبري. فقال: عليّ بذلك الرجل في هذه الساعة. فدللتهم على داره، فأرسل إليه الخليفة فلمّا حضر سأله عن القصة فأخبره بها. فقال له: أنت رجل ذو مروءة، الرأي أن تعان على مروءتك. فأمر له بمائة ألف درهم وقال لي: يا اسحاق أحضر الجارية. فأحضرتها فغنت له وأطربته فحصل له منها سرور عظيم فقال: قد جعلت عليها نوبة في كل يوم خميس فتحضر

وتغني من وراء الستارة، ثم أمر لها بخمسين ألف درهم . فوالله لقد ربحت وأربحت في تلك الركبة .

حكاية ثلاثة عشّاق حزانا

ومما يحكى أن العتبي قال : جلست يوماً وعندي جماعة من أهل الأدب، فتذاكرنا أخبار الناس ونزع بنا الحديث إلى أخبار المحبين فجعل كل منّا يقول شيئاً، وفي الجماعة شيخ ساكت، ولم يبقَ عند أحد منهم شيء إلاّ أخبر به . فقال ذلك الشيخ : هل أحدثكم حديثاً لم تسمعوا مثله قط؟ قلنا : نعم . قال : أعلموا أنه كانت لي ابنة وكانت تهوى شاباً ونحن لا نعلم بها، وكان الشاب يهوى قينة وكانت القينة تهوى ابنتي . فحضرت في بعض الأيام مجلساً فيه ذلك الشاب . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 410

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ قال : فحضرت في بعض الأيام مجلساً فيه ذلك الشاب والقينة . فغنّت القينة بهذين البيتين :

[من مجزوء المتقارب]

عَلاماتُ ذُلِّ الهَوَى عَلى العاشِقِينَ البُكا
ولا سِيَّما عاشِقٌ إذا لَمْ يَجِدْ مُشْتَكَى

فقال لها الشاب : أحسنت والله يا سيدتي، أفتأذني لي أن أموت؟ فقالت القينة من وراء الستر : نعم إن كنت عاشقاً فمت . فوضع الشاب رأسه على وسادة وأغمض عينه . فلمّا وصل القدح إليه حرّكناه فإذا هو ميت . فاجتمعنا عليه وتكدّر علينا السرور وتنكّدنا وافترقنا من ساعتنا . فلمّا سرت إلى منزلي نكر عليّ أهلي حيث انصرفت إليهم في غير الوقت المعتاد، فأخبرتهم بما كان من أمر الشاب لأعجبهم بذلك . فسمعت ابنتي كلامي فقامت من المجلس الذي أنا فيه ودخلت مجلساً آخر، فقمت خلفها ودخلت ذلك المجلس فوجدتها متوسّدة على مثال ما وصفت من حال الشاب، فحرّكتها فإذا هي ميتة . فأخذنا في تجهيزها وغدونا بجنازتها وغدوا بجنازة الشاب، فلمّا صرنا في طريق الجبانة وإذا نحن بجنازة ثالثة، فسألنا عنها فإذا هي جنازة القينة . فإنها حين بلغها موت ابنتي فعلت مثل ما فعلت فماتت، فدفنا الثلاثة في يوم واحد . وهذا أعجب ما سمع من أخبار العشاق .

حكاية عشاق بني طي

ومما يحكى أن القاسم بن عدي حكى عن رجل من بني تميم أنه قال : خرجت في طلب ضالة فوردت على مياه بني طيّ فرأيت بفريقين أحدهما قريب من الآخر، وإذا في أحد الفريقين كلام مثل كلام أهل الفريق الآخر . فتأملت فرأيت في أحد الفريقين شاباً قد نهكه المرض وهو مثل الشن البالي . فبينما أنا أتأمله وإذا هو ينشد هذه الأبيات : [من الوافر]

أَلا ما لِلْمَلِيحَةِ لا تَعُودُ أَبُخْلٌ بالـمَلِيحَةِ أَمْ صُدُودُ
مَرِضْتُ فَعادَنِي أَهْلِي جَمِيعاً فَما لَكِ لَمْ تُرَيْ فِيمَنْ يَعُودُ

فَلَو كُنْتِ المَرِيضَةَ جِئْتُ أَسْعَى إِلَيْكِ ولَمْ يُنَهْنِهْنِي الوَعِيدُ
عَدِمْتُكِ مِنهُمُو فَبَقِيتُ وَحْدِي وفَقْدُ الإِلْفِ يا سَكَنِي شَدِيدُ

فسمعت كلامه جارية من الفريق الآخر، فبادرت نحوه وتبعها أهلها وجعلت تضاربهم. فأحسّ بها الشاب فوثب نحوها، فبادر إليه أهل فريقه وتعلّقوا به. فجعل يجذب نفسه منهم وهي تجذب نفسها من فريقها حتى تخلصا وقصد كل واحد منهما صاحبه حتى التقيا بين الفريقين وتعانقا، ثم خرّا إلى الأرض ميتين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 411

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشاب والشابة لما التقيا بين الفريقين وتعانقا، خرّا إلى الأرض ميتين. فخرج شيخ من تلك الأخبية ووقف عليهما واسترجع وبكى بكاءً شديداً ثم قال: رحمكما الله تعالى، والله لئن كنتما لم تجمعا في حال حياتكما لأجمعن بينكما بعد الموت. ثم أمر بتجهيزهما، فغسلا وكفنا في كفن واحد وحفر لهما جدث واحد وصلّى عليهما الناس ودفنوهما في ذلك القبر، ولم يبقَ في الفريقين ذكر ولا أنثى إلاّ رأيته يبكي عليهما ويلطم. فسألت الشيخ عنهما فقال لي: هذه ابنتي وهذا ابن أخي، بلغ بهما الحب إلى ما رأيت. فقلت: أصلحهما الله، فهلا زوجتهما لبعضهما؟ فقال: خشيت من العار والفضيحة وقد وقعت الآن فيهما. وهذا من عجائب أخبار العشاق.

حكاية العاشق المجنون

ومما يحكى أن أبا العباس المبرد قال: قصدت البريد مع جماعة إلى حاجة فمررنا بدير هرقل فنزلنا في ظله، فجاءنا رجل وقال: إن في الدير مجانين، فيهم رجل مجنون ينطق بالحكمة فلو رأيتموه لتعجبتم من كلامه. فنهضنا جميعاً ودخلنا الدير فرأينا رجلاً جالساً في مقصورة على نطع، وقد كشف رأسه وهو شاخص ببصره إلى الحائط. فسلّمنا عليه فردّ علينا السلام من غير أن ينظر إلينا بطرفه. فقال رجل: أنشده شعراً فإنه إذا سمع الشعر يتكلّم. فأنشدت هذين البيتين: [من البسيط]

يا خَيْرَ مَنْ وَلَدَتْ حَوّاءُ مِنْ بَشَرِ لَوْلاكَ لَمْ تَحْسُنِ الدُّنْيا ولَمْ تَطِبِ
أَنْتَ الَّذي مَنْ أَراكَ اللهُ صُورَتَهُ نالَ الخُلُودَ فَلَمْ يَهْرَمْ ولَمْ يَشِبِ

فلما سمع ذلك مني، استدار نحونا وأنشد هذه الأبيات: [من الكامل]

اللهُ يَعْلَمُ أَنَّني كَمِدُ لا أَسْتَطِيعُ أَبُثُّ ما أَجِدُ
نَفْسانِ لي: نَفْسٌ يُضَمُّ لَها بَلَدٌ وأُخْرَى ضَمَّها بَلَدُ
وأَظُنُّ غائِبَتي كَشاهِدَتي وأَظُنُّها تَجِدُ الَّذي أَجِدُ

ثم قال: أحسنت في قولي أم أسأت؟ قلنا له: ما أسأت بل أحسنت وأجملت. فمدّ يده إلى حجر عنده فتناوله، فظننا أنه يرمينا به فهربنا منه. فجعل يضرب به صدره ضرباً قوياً ويقول: لا تخافوا وادنوا مني واسمعوا لي شيئاً خذوه عني. فدنونا منه فأنشد هذه الأبيات: [من البسيط]

لَمّا أَناخُوا قُبَيْلَ الصُّبْحِ عِيسَهُمُ   حَثُّ المَطايا بالهَوَى الإبِلُ
ومُقْلَتِي مِنْ خِلالِ السِّجْنِ تَنْظُرُها   فَقُلْتُ مِنْ لَوْعَتِي والدَّمْعُ يَنْهَمِلُ
يا حادِيَ العِيسِ عَرِّجْ كَيْ أُوَدِّعها   فَفِي الفِراقِ وفي تَوْدِيعِها الأَجَلُ
إنِّي عَلَى العَهْدِ لَمْ أَنْقُضْ مَوَدَّتَها   يا لَيْتَ شِعْرِي بِذاكَ العَهْدِ ما فَعَلُوا

ثم إنه نظر إليّ وقال : هل عندك علم بما فعلوا؟ قلت : نعم ، إنهم ماتوا رحمهم الله تعالى . فتغير وجهه ووثب قائماً على قدميه وقال : كيف علمت موتهم ؟ قلت : لو كانوا أحياء ما تركوك هكذا . فقال : صدقت والله ، ولكنني أيضاً لا أحب الحياة بعدهم . ثم ارتعدت فرائصه وسقط على وجهه ، فتبادرنا إليه وحرّكناه فوجدناه ميتاً . رحمة الله تعالى عليه . فتعجبّنا من ذلك وأسفنا عليه أسفاً شديداً ثم جهزّناه ودفناه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 412

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن المبرد قال : لما سقط الرجل ميتاً أسفنا عليه وجهزّناه ودفناه . فلمّا رجعت إلى بغداد دخلت على المتوكّل فنظر آثار الدموع على وجهي فقال : ما هذا؟ فذكرت له القصة . فصعب عليه وقال : ما حملك على ذلك؟ والله لو علمت أنك غير حزين عليه لأخذتك به . ثم إنه حزن عليه بقية يومه .

حكاية إسلام الراهب

ومما يحكى أن أبا بكر بن محمد الأنباري قال : خرجت من الأنبار في بعض الأسفار إلى عمورية من بلاد الروم ، فنزلت في أثناء الطريق بدير الأنوار في قرية قريبة من عمورية . فخرج إليّ صاحب الدير الرئيس على الرهبان وكان اسمه عبد المسيح ، فادخلني الدير فوجدت فيه أربعين راهباً ، فأكرموني في تلك الليلة بضيافة حسنة ثم رحلت عنهم من الغد . وقد رأيت من كثرة اجتهادهم وعبادتهم ما لم أره من غيرهم ، فقضيت أربي من عمورية ثم رجعت إلى الأنبار . فلمّا كان في العام المقبل حججت إلى مكة ، فبينما أنا أطوف حول البيت إذ رأيت عبد المسيح الراهب يطوف أيضاً ومعه خمسة نفر من أصحابه الرهبان . فلمّا تحققت معرفته تقدمت إليه وقلت له : هل أنت عبد المسيح الراهب؟ قال : بل أنا عبد الله الراغب . فجعلت أقبل شيبته وأبكي ثم أخذت بيده وملت إلى جانب الحرم وقلت له : أخبرني عن سبب إسلامك . فقال : إنه من أعجب العجائب . وذلك أن جماعة من زهاد المسلمين مرّوا بالقرية التي فيها ديرنا ، فأرسلوا شاباً يشتري لهم طعاماً فرأى في السوق جارية نصرانية تبيع الخبز وهي من أحسن النساء صورة . فلمّا نظر إليها افتتن بها وسقط على وجهه مغشيّاً عليه ، فلمّا أفاق رجع إلى أصحابه وأخبرهم بما أصابه وقال : إمضوا إلى شأنكم فلست بذاهب معكم . فعذلوه ووعظوه فلم يلتفت إليهم ، فانصرفوا عنه ودخل القرية وجلس عند باب حانوت تلك المرأة ، فسألته عن حاجته فأخبرها أنه عاشق لها . فأعرضت عنه ، فمكث في موضعه ثلاثة أيام لم يطعم طعاماً بل صار شاخصاً إلى وجهها . فلمّا رأته لا ينصرف عنها ذهبت إلى أهلها وأخبرتهم بخبره ، فسلطوا عليه الصبيان فرموه بالحجارة حتى رضّوا أضلاعه وشجّوا رأسه وهو مع ذلك لا ينصرف . فعزم أهل القرية على قتله فجاءني رجل منهم وأخبرني بحاله ، فخرجت إليه فرأيته طريحاً . فمسحت الدم عن وجهه

وحملته إلى الدير وداويت جراحه وأقام عندي أربعة عشر يوماً، فلمّا قدر على المشي خرج من الدير. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 413

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الراهب عبد الله قال: فحملته إلى الدير وداويت جراحه وأقام عندي أربعة عشر يوماً، فلمّا قدر على المشي خرج من الدير إلى باب حانوت الجارية وجلس ينظر إليها. فلمّا أبصرته قامت إليه وقالت له: والله لقد رحمتك، فهل لك أن تدخل في ديني وأنا أتزوجك؟ فقال: معاذ الله أن أنسلخ من دين التوحيد وأدخل في دين الشرك. فقالت: قم وادخل معي داري واقض مني أربك وانصرف راشداً. فقال: لا، ما كنت لأذهب عبادة اثنتي عشر سنة بشهوة لحظة واحدة. فقالت: إنصرف عني حينئذ. قال: لا يطاوعني قلبي. فأعرضت عنه بوجهها. ثم فطن به الصبيان فأقبلوا عليه يرمونه بالحجارة، فسقط على وجهه وهو يقول: إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. فخرجت من الدير وطردت عنه الصبيان ورفعت رأسه عن الأرض فسمعته يقول: اللهم إجمع بيني وبينها في الجنة. فحملته إلى الدير فمات قبل أن أصل به إليه. فخرجت به عن القرية وحفرت له قبراً ودفنته. فلمّا دخل الليل وذهب نصفه، صرخت تلك المرأة وهي في فراشها صرخة، فاجتمع إليها أهل القرية وسألوها عن قصتها فقالت: بينما أنا نائمة إذ دخل عليّ هذا الرجل المسلم فأخذ بيدي وانطلق بي إلى الجنة. فلمّا صار بي إلى بابها منعني خازنها من دخولها وقال: إنها محرّمة على الكافرين. فأسلمت على يديه ودخلت معه، فرأيت فيها من القصور والأشجار ما لا يمكن أن أصفه لكم. ثم إنه أخذني إلى قصر من الجوهر وقال لي: إن هذا القصر لي ولك وأنا لا أدخله إلاّ بك، وبعد خمس ليال تكونين عندي فيه أن شاء الله تعالى. ثم مدّ يده إلى شجرة على باب ذلك القصر فقطف منها تفاحتين وأعطانيهما وقال: كلي هذه واخفي الأخرى حتى يراها الرهبان. فأكلت واحدة فما رأيت أطيب منها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 414

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت: لما قطف التفاحتين أعطانيهما وقال: كلي هذه واخفي الأخرى حتى يراها الرهبان. فأكلت واحدة فما رأيت أطيب منها، ثم إنه أخذ بيدي وخرج بي حتى أوصلني إلى داري. فلمّا استيقظت من منامي وجدت طعم التفاح في فمي والتفاحة الثانية عندي. ثم أخرجت التفاحة فأشرقت في ظلام الليل كأنها كوكب درّي، فجاؤوا بالمرأة إلى الدير ومعها التفاحة فقصّت علينا الرؤيا وأخرجت لنا التفاحة، فلم نر شيئاً مثلها في سائر فواكه الدنيا. فأخذت سكيناً وشققتها على عدد أصحابي، فما رأينا ألذّ من طعمها ولا أطيب من ريحها. فقلنا: لعل هذا شيطان تمثل إليها ليغويها عن دينها. فأخذها أهلها وانصرفوا، ثم إنها امتنعت من الأكل والشرب. فلمّا كانت الليلة الخامسة، قامت من فراشها وخرجت من بيتها وتوجّهت إلى قبر ذلك المسلم وألقت نفسها عليه وماتت ولم يعلم بها أهلها. فلمّا كان الصباح أقبل على القرية شيخان مسلمان عليهما ثياب من الشعر ومعهما امرأتان كذلك فقالا: يا أهل القرية، إن لله تعالى عندكم ولية من أوليائه قد ماتت مسلمة ونحن

نتولاها دونكم . فطلب أهل القرية تلك المرأة فوجدوها على القبر ميتة . فقالوا : هذه صاحبتنا قد ماتت على ديننا ونحن نتولاها . وقال الشيخان : بل ماتت مسلمة ونحن نتولاها . واشتدّ الخصام والنزاع بينهم فقال أحد الشيخين : إن علامة إسلامها أن يجتمع رهبان الدير الأربعون ويجذبوها عن القبر ، فإن قدروا على حملها من الأرض فهي نصرانية وإن لم يقدروا على ذلك يتقدّم واحد منا ويجذبها ، فإن جاءت معه فهي مسلمة . فرضي أهل القرية بذلك واجتمع الأربعون راهباً وقوّى بعضهم بعضاً وأتوها ليحملوها فلم يقدروا على ذلك ، فربطنا في وسطها حبلاً عظيماً وجذبناها فانقطع الحبل ولم تتحرك . فتقدّم أهل القرية وفعلوا كذلك فلم تتحرك من موضعها . فلمّا عجزنا عن حملها بكل حيلة قلنا لأحد الشيخين : تقدّم أنت واحملها . فتقدّم إليها أحدهما ولفّها في ردائه وقال : بسم الله الرحمن الرحيم وعلى ملّة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم حملها في حضنه وانصرف بها المسلمون إلى غار هناك فوضعوها فيه ، وجاءت المرأتان فغسلتاها وكفنتاها ، ثم حملها الشيخان وصلّيا عليها ودفناها إلى جانب قبره وانصرفا ، ونحن نشاهد هذا كله . فلمّا خلا بعضنا ببعض قلنا : إن الحق أحق أن يتبع ، وقد وضح الحق لنا بالمشاهدة والعيان ولا برهان لنا على صحة الإسلام أوضح لنا مما رأيناه بأعيننا . ثم أسلمت وأسلم رهبان الدير جميعهم وكذلك أهل القرية . ثم إنّا بعثنا إلى أهل الجزيرة نستدعي فقيهاً يعلمنا شرائع الإسلام وأحكام الدين ، فجاءنا رجل فقيه صالح فعلّمنا العبادة وأحكام الإسلام . ونحن اليوم على خير كثير ولله الحمد والمنّة .

حكاية أبي عيسى وعشقه لقرّة العين

ومما يحكى أن عمرو بن مسعدة قال : كان أبو عيسى بن الرشيد أخو المأمون عاشقاً لقرّة العين جارية علي بن هشام ، وكانت هي أيضاً عاشقة له . ولكن كان أبو عيسى كاتماً لهواه فلا يبوح به ولا يشكوه إلى أحد ولم يطّلع أحداً على سرّه وكل ذلك من نخوته ومروءته ، وكان يجتهد في ابتياعها من مولاها بكل حيلة فلم يقدر على ذلك . فلمّا عيل صبره واشتدّ وجده وعجز عن الحيلة في أمرها ، دخل على المأمون في يوم موسم بعد انصراف الناس من عنده وقال : يا أمير المؤمنين ، إنك لو امتحنت فؤادك في هذا اليوم على حين غفلة منهم لتعرف أهل المروءة من غيره ومحل كل واحد منهم وقدر همّته . وإنما قصد أبو عيسى بهذا الكلام أن يتّصل بذلك إلى الجلوس مع قرّة العين في دار مولاها . فقال المأمون : إن هذا الرأي صواب . ثم أمر أن يشدّوا له زورقاً اسمه الطيار ، فقدموه له فركبه ومعه جماعة من خواصه . فأول قصر دخله قصر حميد الطويل الطوسي ، ودخلوا عليه في القصر على حين غفلة منه فوجدوه جالساً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 415

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن المأمون ركب هو وخواصه وساروا حتى وصلوا إلى قصر حميد الطويل الطوسي ، فدخلوا قصره على حين غفلة فوجدوه جالساً على حصير وبين يديه المغنيون وبأيديهم الآت المغاني من العيدان والنايات وغيرها . فجلس المأمون ساعة ثم حضر بين يديه طعام من لحوم الدواب ليس فيه شيء من لحوم الطير ، فلم يلتفت المأمون إلى شيء من ذلك . فقال أبو عيسى : يا أمير المؤمنين ، إنّا دخلنا هذا المكان على

حين غفلة وصاحبه لم يعلم بقدومك فقم بنا إلى مجلس هو معدّ لك يليق بك . فقام الخليفة هو وخواصه وصحبه أخوه أبو عيسى وتوجهوا إلى دار علي بن هشام ، فلمّا علم بمجيئهم قابلهم أحسن مقابلة وقبّل الأرض بين يدي الخليفة ثم ذهب بهم إلى القصر وفتح مجلساً لم يرَ الراؤون أحسن منه . أرضه وأساطينه وحيطانه مرخمة بأنواع الرخام وهو منقوش بأنواع النقوش الرومية ، وأرضه مفروشة بالحصر السندية وعليها فرش بصرية ، وتلك الفرش متخذة على طول المجلس وعرضه . فجلس المأمون ساعة وهو يتأمل البيت والسقف والحيطان ثم قال : أطعمنا شيئاً . فأحضر إليه من وقته وساعته قريباً من مائة لون من الدجاج سوى ما معها من الطيور والثرائد والقلايا والبوارد ، فلمّا أكل قال : اسقنا يا علي شيئاً . فأحضر إليه نبيذاً مثلثاً مطبوخاً بالفواكه والأبازير الطيبة في أواني الذهب والفضة والبلور . والذي حضر بذلك النبيذ في المجلس غلمان كأنهم الأقمار ، عليهم الملابس الإسكندرانية المنسوجة بالذهب وعلى صدرهم بواط من البلور فيها ماء الورد الممسك . فتعجب المأمون مما رأى عجباً شديداً وقال : يا أبا الحسن . فوثب إلى البساط وقبّله ثم وقف بين يدي الخليفة وقال : لبيك يا أمير المؤمنين . فقال : أسمعنا شيئاً من المغاني المطربة . فقال : سمعاً وطاعةً يا أمير المؤمنين . ثم قال لبعض اتباعه : أحضر الجواري المغنيات . فقال له : سمعاً وطاعةً . ثم غاب الخادم لحظة وحضر ومعه عشرة من الخدم يحملون عشرة كراسي من الذهب فنصبوها ، وبعد ذلك جاءت عشر وصائف كأنهن البدور السافرة والرياض الزاهرة وعليهن الديباج الأسود وعلى رؤوسهن تيجان الذهب ومشين حتى جلسن على الكراسي وغنين بأنواع الألحان . فنظر المأمون إلى جارية منهنّ فافتتن بظرفها وحسن منظرها فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : اسمي سجاح يا أمير المؤمنين . فقال لها : غني لنا يا سجاح . فأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات : [من البسيط]

أَقْبَلْتُ أَمْشِي عَلَى خَوْفٍ مُخالَسَةً ... مَشْيَ الذَّلِيلِ رَأَى شِبْلَيْنِ قَدْ وَرَدا
سَيْفِي خَضُوعٌ وقَلْبِي مُشْغَفٌ وَجِلٌ ... أَخْشَى العُيُونَ مِنَ الأَعْداءِ والرَّصَدا
حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى خَوْدٍ مُنَعَّمَةٍ ... كَظَبْيَةِ الدِّعْصِ لَمّا تَفْقِدِ الوَلَدا

فقال لها المأمون : لقد أحسنت يا جارية ، لمن هذا الشعر ؟ قالت : لعمرو بن معديكرب الزبيدي والغناء لمعبد . فشرب المأمون وأبو عيسى وعلي بن هشام . ثم انصرفت الجواري وجاءت عشر جوار أخرى ، على كل واحدة منهن الوشي اليماني المنسوج بالذهب ، فجلسن على الكراسي وغنين بأنواع الألحان . فنظر المأمون إلى وصيفة منهنّ كأنها مهاة رمل فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ فقالت : إسمي ظبية يا أمير المؤمنين . قال : غني لنا يا ظبية . فغرّدت بالشدقين وأنشدت هذين البيتين : [من الكامل]

حُورٌ حَرائِرُ ما هَمَمْنَ بِرِيبَةٍ ... كَظَباءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرامُ
يُحْسَبْنَ مِنْ لِينِ الحَدِيثِ زَوانِيا ... ويَصُدُّهُنَّ عَنِ الخَنا الإِسْلامُ

فلما فرغت من شعرها قال لها المأمون : لله درّك . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 416

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما فرغت من إنشادها قال لها المأمون : لله دركّ لمن هذا الشعر ؟ قالت : لجرير والغناء لابن سريج . فشرب المأمون ومن معه . ثم انصرفت الجواري وجاءت بعدهنّ عشر جوار أخرى كأنهنّ اليواقيت وعليهن الديباج الأحمر المنسوج بالذهب المرصّع بالدر والجوهر وهنّ مكشوفات الرؤوس، فجلسن على الكراسي وغنين بأنواع الألحان . فنظر إلى جارية منهن كأنها شمس النهار فقال لها : ما اسمك يا جارية؟ قالت : إسمي فاتن يا أمير المؤمنين . فقال لها : غني لنا يا فاتن . فأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات : [من الكامل]

أَنْعِمْ بِوَصْلِكَ لِي فَهذا وَقْتُهُ   يَكْفِي مِنَ الهِجْرانِ ما قَدْ ذُقْتُهُ
أَنْتَ الَّذي جَمَعَ المَحاسِنَ وَجْهُهُ   لَكِنْ عَلَيْهِ تَصَبُّرِي فَرَّقْتُهُ
أَنْفَقْتُ عُمْرِي في هَواكَ ولَيْتَنِي   أُعْطَى وِصالاً بالَّذي أَنْفَقْتُهُ

فقال : لله دركّ يا فاتن، لمن هذا الشعر ؟ فقالت : لعدي بن زيد والطريقة قديمة . فشرب المأمون وأبو عيسى وعلي بن هشام . ثم انصرفت الجواري وجاءت بعدهن عشر من الجواري كأنهنّ الدراري، عليهنّ الوشي المنسوج بالذهب الأحمر وفي أوساطهن المناطق المرصّعة بالجوهر، فجلسن على الكراسي وغنين بأنواع الألحان . فقال المأمون لجارية منهن كأنها قضيب بان : ما اسمك يا جارية؟ قالت : إسمي رشأ يا أمير المؤمنين . فقال : غني لنا يا رشأ . فاطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات : [من المتقارب]

وأَحْوَرَ كالغُصْنِ يَشْفِي الجَوَى   ويَحْكِي الغَزالَ إذا ما رَنا
شَرِبْتُ المُدامَ عَلَى خَدِّهِ   ونازَعْتُهُ الكَأسَ حَتَّى انْثَنَى
فَباتَ ضَجِيعِي وبِتْنا مَعاً   وقُلْتُ لِنَفْسِيَ: هذا المُنَى

فقال لها المأمون : أحسنت يا جارية، زيدينا . فقامت الجارية وقبّلت الأرض بين يديه وغنّت بهذا البيت : [من الخفيف]

خَرَجَتْ تَشْهَدُ الرِّفاقَ رُوَيْداً   في قَمِيصٍ مُضَمَّخٍ بالعَبِيرِ

فطرب المأمون لذلك البيت طرباً عظيماً . فلمّا رات الجارية طرب المأمون صارت تردّد الصوت بهذا البيت . ثم إن المأمون قال : قدموا الطيار . وأراد أن يركب ويتوجه، فقام علي بن هشام وقال : يا أمير المؤمنين عندي جارية اشتريتها بعشرة آلآف دينار قد أخذت مجامع قلبي وأريد أن أعرضها على أمير المؤمنين، فإن أعجبته ورضيها فهي له وإلاّ فيسمع منها شيئاً . فقال الخليفة : عليّ بها . فخرجت جارية كأنها قضيب بان لها عينان فتانتان وحاجبان كأنهما قوسان وعلى رأسها تاج من الذهب الأحمر مرصّع بالدر والجوهر تحته عصابة مكتوب عليها بالزبرجد هذا البيت : [من البسيط]

جِنِّيَّةٌ ولَها جِنٌّ تُعَلِّمُها   رَمْيَ القُلُوبِ بِقَوْسٍ ما لَها وَتَرُ

ومشت تلك الجارية كأنها غزال شارد وهي تفتن العابد، ولم تزل ماشية حتى جلست على

الكرسي . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 417 قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية مشت كأنها غزال شارد وهي تفتن العابد ، ولم تزل ماشية حتى جلست على الكرسي . فلمّا رآها المأمون تعجّب من حسنها وجمالها ، وجعل أبو عيسى يتوجّع من فؤاده وأصفرّ لونه وتغيّر حاله . فقال له المأمون : ما لك يا أبا عيسى قد تغيّر حالك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين بسبب علّة تعتريني في بعض الأوقات . فقال له الخليفة : أتعرف هذه الجارية قبل اليوم ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وهل يخفى القمر ؟ ثم قال لها المأمون : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : إسمي قرّة العين يا أمير المؤمنين . قال لها : غني لنا يا قرّة العين . فغنّت بهذين البيتين : [من الكامل]

ظَعَنَ الأَحِبَّةُ عَنْكَ بالإدْلاجِ ... ولَقَدْ سَرَوْا سَحَراً مَعَ الحَجّاجِ
ضَرَبُوا خِيامَ العِزِّ حَوْلَ قِبابِهِمْ ... وتَسَتَّرُوا بأَكِلَّةِ الدِّيباجِ

فقال لها الخليفة : لله درّك لمن هذا الشعر ؟ قالت : لدعبل الخزاعي والطريقة لزرزور الصغير . فنظر إليها أبو عيسى وخنقته العبرة حتى تعجب منه أهل المجلس . فالتفتت الجارية إلى المأمون وقالت له : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في أن أغير الكلام . فقال لها : غني بما شئت . فأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات : [من الطويل]

إذا كُنْتَ تُرْضِيهِ ويُرْضِيكَ صاحِبٌ ... جِهاراً فَكُنْ في الغَيْبِ أَحْفَظَ لِلْوُدِّ
وأَلْغِ أَحادِيثَ الوُشاةِ فَقَلَّما ... يُحاوِلُ واشٍ غَيرَ هِجْرانِ ذِي وُدِّ
وقَدْ زَعَمُوا أَنَّ المُحِبَّ إذا دَنا ... يَمَلُّ وأَنَّ البُعْدَ يَشْفِي مِنَ الوَجْدِ
بِكُلٍّ تَداوَيْنا فَلَمْ يُشْفَ ما بِنا ... عَلى أَنَّ قُرْبَ الدّارِ خَيرٌ مِنَ البُعْدِ
عَلى أَنَّ قُرْبَ الدّارِ لَيْسَ بِنافِعٍ ... إذا كانَ مَنْ تَهْواهُ لَيْسَ بِذِي وُدِّ

فلما فرغت من شعرها قال أبو عيسى : يا أمير المؤمنين . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 418 قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن قرّة العين لما فرغت من شعرها قال أبو عيسى : يا أمير المؤمنين إذا افتضحنا استرحنا ، أتأذن لي في جوابها ؟ فقال له الخليفة : نعم قل لها ما شئت . فكفكف دمع العين وأنشد هذين البيتين : [من الوافر]

سَكَتُّ ولَمْ أَقُلْ إنِّي مُحِبٌّ ... وأَخْفَيْتُ المَحَبَّةَ عَنْ ضَمِيرِي
فإنْ ظَهَرَ الهَوَى في العَيْنِ مِنِّي ... فَدانِيَةٌ مِنَ القَمَرِ المُنِيرِ

فأخذت العود قرّة العين وأطربت بالنغمات وغنّت هذه الأبيات : [من المنسرح]

لَوْ كانَ ما تَدَّعِيهِ حَقّاً ... لَما تَعَلَّلْتَ بالأَماني
ولا تَصَبَّرْتَ عَنْ فَتاةٍ ... بَدِيعَةِ الحُسْنِ والمَعاني

لَـكِنَّ دَعْواكَ لَيْسَ مِنْها   شَيْءٌ سِوَى القَوْلِ باللِّسانِ

فلما فرغت قرّة العين من شعرها، جعل أبو عيسى يبكي وينتحب ويتوجّع ويضطرب، ثم رفع رأسه إليها وصعد الزفرات وأنشد هذه الأبيات: [من السريع]

تَحْتَ ثِيابِي جَسَدٌ ناحِلُ   وفي فُؤادي شُغُلٌ شاغِلُ
ولِي فُؤادٌ داؤُهُ دائِمُ   ومُقْلَةٌ مَدْمَعُها هاطِلُ
وكُلَّما سالَمَنِي عاقِلُ   قامَ لِحَيْنِي فِي الهَوَى عاذِلُ
يا رَبُّ لا أَقْوَى عَلى كُلِّ ذا   مَوْتٌ وإلاَّ فَرَجٌ عاجِلُ

فلما فرغ أبو عيسى من شعره، وثب علي بن هشام إلى رجله فقبّلها وقال له: يا سيدي، قد استجاب الله دعاءك وسمع نجواك وأجابك إلى أخذها بجميع متعلقاتها من التحف واللطائف إن لم يكن لأمير المؤمنين غرض فيها. فقال المأمون: ولو كان لنا غرض فيها لآثرنا أبا عيسى على أنفسنا وساعدناه على قصده. ثم قام المأمون وركب في الطيار، وتخلّف أبو عيسى لأخذ قرّة العين. ثم أخذها وانصرف بها إلى منزله وهو منشرح الصدر. فانظر إلى مروّة عليّ بن هشام.

حكاية الأمين وعمّه إبراهيم بن المهدي

ومما يحكى أن الأمين أخا المأمون، دخل دار عمه ابراهيم بن المهدي فرأى بها جارية تضرب بالعود وكانت من أحسن النساء، فمال قلبه إليها فظهر ذلك عليه لعمه ابراهيم. فلمّا ظهر له ذلك من حاله بعثها إليه مع ثياب فاخرة وجواهر نفيسة، فلمّا رآها الأمين ظن أن عمه ابراهيم بنى بها، فكَرِه الخلوة بها من أجل ذلك، وقَبِل ما كان معها من الهدية وردّها إليه. فعلم ابراهيم بذلك الخبر من بعض الخدم، فأخذ قميصاً من الوشي وكتب على ذيله بالذهب هذين البيتين: [من المنسرح]

لا والَّذي سَجَدَ الجِبَاهُ لَهُ   ما لِي بِما تَحْتَ ذَيْلِها خَبَرُ
ولا بِفِيها ولا هَمَمْتُ بِهِ   ما كانَ إلاَّ الحَدِيثُ والنَّظَرُ

ثم ألبسها القميص وناولها عوداً وبعثها إليه ثانياً. فلمّا دخلت عليه قبّلت الأرض بين يديه وأصلحت العود وغنّت عليه بهذين البيتين: [من المتقارب]

هَتَـكْتَ الضَّمِيرَ بِرَدِّ التُّحَفْ   وقَدْ بانَ هَجْرُكَ لِي وانْكَشَفْ
فإنْ كُنْتَ تَحْقُدُ شَيْئاً مَضَى   فَهَبْ لِلْخِلافَةِ ما قَدْ سَلَفْ

فلما فرغت من شعرها نظر إليها الأمين فرأى ما على ذيل القميص فلم يملك نفسه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 419

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأمين لما نظر إلى الجارية رأى ما على ذيل القميص، فلم يملك نفسه بل أدناها منه وقبّلها وأفرد لها مقصورة من المقاصير وشكر عمّه ابراهيم على ذلك وأنعم عليه بولاية الريّ.

حكاية المتوكل والفتح بن خاقان

ومما يحكى أن المتوكّل شرب دواء فجعل الناس يهدون إليه طرائف التحف وأنواع الهدايا، وأهدى إليه الفتح بن خاقان جارية بكراً ناهداً من أحسن نساء زمانها، وأرسل معها أناء بلور فيه شراب أحمر وجاماً أحمر مكتوباً عليه بالسواد هذه الأبيات : [من الوافر]

إذا خَرَجَ الإمامُ مِنَ الدَّواء　　وأُعقِبَ بالسَّلامَةِ والشِّفاءِ
فَلَيْسَ لَهُ دَواءٌ غَيرَ شُرْبٍ　　بهذا الجامِ مِنْ هذا الطِّلاءِ
وفَضٍّ الخاتِمِ المُهْدَى إلَيْه　　فَهذا صالِحٌ بَعْدَ الدَّواءِ

فلما دخلت الجارية بما معها على الخليفة كان عنده يوحنا الطبيب، فلمّا رأى الطبيب الأبيات تبسّم وقال : والله يا أمير المؤمنين إن الفتح أعرف مني بصناعة الطب فلا يخالفه أمير المؤمنين فيما وصفه له . فقبل الخليفة رأي الطبيب واستعمل ذلك الدواء على مقتضى مضمون الأبيات، فشفاه الله وحقّق ما رجاه .

حكاية في محاسن اختلاف الأجناس

ومما يحكى ان بعض الفضلاء قال : ما رأيت في النساء أذكى خاطراً وأحسن فطنة وأغزر علماً وأجود قريحة وأظرف أخلاقاً من امرأة واعظة من أهل بغداد يقال لها : سيدة المشايخ . اتفق أنها جاءت إلى مدينة حماه سنة إحدى وستين وخمسمائة، فكانت تعظ الناس على الكرسي وعظاً شافياً . وكان يتردّد على منزلها جماعة من المتفقهين وذوي المعارف والآداب يطارحونها مسائل الفقه ويناظرونها في الخلاف . فمضيت إليها ومعي رفيق من أهل الأدب، فلمّا جلسنا عندها وضعت بين أيدينا طبقاً من الفاكهة وجلست هي خلف ستر، وكان لها أخ حسن الصورة قائماً على رؤوسنا في الخدمة . فلمّا أكلنا شرعنا في مطارحة الفقه فسألتها مسألة فقهية مشتملة على خلاف بين الأئمة، فشرعت تتكلم في جوابها وأنا أصغي إليها، وجعل رفيقي ينظر الى وجه أخيها ويتأمل في محاسنه ولا يصغي إليها وهي تلحظه من وراء الستر . فلمّا فرغت من كلامها التفتت إليه وقالت : أظنك ممن يفضل الرجال على النساء . قال : أجل . قالت : ولِمَ ذلك ؟ قال : لأن الله فضل الذكر على الأنثى . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 420

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ أجابها بقوله : لأن الله فضّل الذكر على الأنثى، وأنا أحب الفاضل وأكره المفضول . فضحكت ثم قالت : أتنصفني في المناظرة إن ناظرتك في هذا المبحث ؟ قال : نعم . قالت : فما الدليل على تفضيل الذكر على الأنثى ؟ قال : المنقول والمعقول . أما المنقول فالكتاب والسنّة، أما الكتاب فقوله تعالى : الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض . وقوله تعالى : فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان . وقوله تعالى في الميراث : وإن كانوا أخوة رجالاً ونساء، فللذكر مثل حظ الأنثيين . فالله سبحانه وتعالى فضّل الذكر على الأنثى في هذه المواضع ، واخبر ان الأنثى على النصف من الذكر لأنه افضل منها . وأما السنة، فما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه جعل ديّة المرأة على

النصف من دية الرجل . وأما المعقول ، فإن الذكر فاعل والأنثى مفعول بها ، والفاعل أفضل من المفعول به . فقالت له : أحسنت يا سيدي ، لكنك والله أظهرت حجتي عليك من لسانك ونطقت ببرهان هو عليك لا لك ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى إنما فضل الذكر على الأنثى بمجرد وصف الذكورية وهذا لا نزاع فيه بيني وبينك . وقد يستوي في هذا الوصف الطفل والغلام والشاب والكهل والشيخ لا فرق بينهم في ذلك ، وإذا كانت الفضيلة إنما حصلت له بوصف الذكورية فينبغي أن يميل طبعك وترتاح نفسك إلى الشيخ كما ترتاح إلى الغلام إذ لا فرق بينهما في الذكورية ، وإنما وقع الخلاف بيني وبينك في الصفات المقصودة من حسن العشرة والاستمتاع ، وأنت لم تات ببرهان على فضل الغلام على الأنثى في ذلك . فقال لها : يا سيدتي ، أما علمت ما اختصّ به الغلام من اعتدال القدّ وتوريد الخدّ وملاحة الإبتسام وعذوبة الكلام . فالغلمان بهذا الإعتبار أفضل من النساء ، والدليل على ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تديموا النظر إلى المرد فإن فيهم لمحة من الحور العين . وتفضيل الغلام على الجارية لا يخفى على أحد من الناس . وما أحسن قول أبي نواس : [من المنسرح]

أَقَلُّ ما فِيهِ مِنْ فَضائِلِه ... أَمْنُكَ مِنْ طَمْثِهِ ومِنْ حَبَلِهِ

وقول الشاعر : [من الكامل]

قالَ الإمامُ أَبُو نُواسٍ وَهْوَ في ... شَرْعِ الخَلاعَةِ والمُجُونِ يُقَلَّدُ
يا أُمَّةً تَهْوَى العِذارَ تَمَتَّعُوا ... مِنْ لَذَّةٍ في الخُلْدِ لَيْسَتْ تُوجَدُ

ولأن الجارية إذا بالغ الواصف في وصفها وأراد ترويجها بذكر محاسن أوصافها شبّهها بالغلام . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 421

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشيخ قال : ولأن الجارية إذا بالغ الواصف في وصفها وأراد ترويجها بذكر محاسن أوصافها ، شبّهها بالغلام لما له من المآثر كما قال الشاعر :

[من الطويل]

غُلامِيَّةُ الأَرْدافِ تَهْتَزُّ في الصِّبا ... كَما اُهْتَزَّ في رِيحِ الشَّمالِ قَضِيبُ

فلولا أن الغلام افضل وأحسن لما شبهت به الجارية . واعلمي صانك الله تعالى ، أن الغلام سهل القياد موافق على المراد حسن العشرة والأخلاق مائل عن الخلاف للوفاق ولا سيما إن تنمنم عذاره واخضرّ شاربه وجرت حمرة الشبيبة في وجنته حتى صار كالبدر التمام . وما أحسن قول أبي تمام : [من البسيط]

قالَ الوُشاةُ : بَدا في الخَدِّ عارِضُه ... فَقُلْتُ : لا تُكْثِرُوا ما ذاكَ عايِبُهُ
لَمَّا اُسْتَقَلَّ بأَرْدافٍ تُجاذِبُه ... واُخْضَرَّ فَوْقَ جُمانِ الدُّرِّ شارِبُهُ
وأَقْسَمَ الوَرْدُ إيماناً مُغَلَّظَةً ... أَنْ لا تُفارِقَ خَدَّيْهِ عَجائِبُهُ
كَلَّمْتُهُ بِجُفُونٍ غَيْرِ ناطِقَةٍ ... فَكانَ مِنْ رَدِّهِ ما قالَ حاجِبُهُ :

الحُسْنُ مِنْهُ عَلى ما كُنْتَ تَعْهَدُه   والشَّعْرَ أَحْرَزَهُ مِمَّنْ يُطالِبُهُ
أَحْلى وأَحْسَنُ ما كانَتْ شَمائِلُه   إذْ لاحَ عارِضُهُ وأَخْضَرَّ شارِبُهُ
وصار مَنْ كانَ يَلْحَى في مَحَبَّتِهِ   إنْ يُحْكَ عَنِّي وعَنْهُ قالَ صاحِبُهُ

وقال الآخر وأجاد: [من البسيط]

قالَ العَواذِلُ: ما هذا الغَرامُ بِه   أما تَرَى الشَّعْرَ في خَدَّيْهِ قَدْ نَبَتا
فَقُلْتُ: واللهِ لَوْ أنَّ المُفَنِّدَ لي   تَأَمَّلَ الرُّشْدَ في عَيْنَيْهِ ما ثَبَتا
ومَنْ أَقامَ بِأَرْضٍ لا نَباتَ بِها   فَـكَيْفَ يَرْحَلُ عَنْها والرَّبِيعُ أَتى

وقول الآخر: [من البسيط]

قالَ العَواذِلُ عَنِّي: قَدْ سَلا كَذَبُوا   مَنْ مَسَّهُ الشَّوْقُ لا يَعْرُوهُ سُلْوانُ
ما كُنْتُ أَسْلُو ووَرْدُ الخَدِّ مُنْفَرِدٌ   فَـكَيْفَ أَسْلُو وحَوْلَ الوَرْدِ رَيْحانُ

وقول الآخر: [من الكامل]

ومُهَفْهَفٍ أَلْـحاظُـهُ وعِذارُهُ   يَتَعاضَدانِ عَلى قِتالِ النَّاسِ
سَفَكَ الدِّماءَ بِصارِمٍ مِنْ نَرْجِسٍ   كانَتْ حَمائِلُ غِمْدِهِ مِنْ آسِ

وقول الآخر: [من الكامل]

ما مِنْ سُلافَتِهِ سَـكِرْتُ وإنَّما   تَرَكَتْ سَوالِفُهُ الأَنامَ سُكارَى
حَسَدَ المحاسِنُ بَعْضُها حَتَّى اشْتَهَتْ   كُلُّ المحاسِنِ أَنْ تَـكُونَ عِذارا

فهذه فضيلة في الغلمان لم تعطها النساء، وكفى بذلك للغلمان عليهنّ فخراً ومزية. فقالت له: عافاك الله تعالى، إنك قد شرطت على نفسك المناظرة وقد تكلمت وما قصرت واستدللت بهذه الأدلة على ما ذكرت، ولكن الآن قد حصحص الحق فلا تعدل عن سبيله، وإن لم تقنع بإجمال الدليل فأنا آتيك بتفصيله. بالله عليك أين الغلام من الفتاة؟ ومن يقيس السخل على المهاة؟ إنما الفتاة رخيمة الكلام حسنة القوام فهي كقضيب الريحان بثغر كالافحوان وشعر كالأرسان وخدّ كشقائق النعمان ووجه كتفاح وشفة كالراح وثدي كالرمان ومعاطف كالأغصان، وهي ذات قدّ معتدل وجسم منجدل وخدّ كحد السيف اللايح وجبين واضح وحاجبين مقرونين وعينين كحلاوين، إن نطقت فاللؤلؤ الرطب يتناثر من فيها وتجذب القلوب برقة معانيها، وإن تبسّمت ظننت البدر يتلألأ من بين شفتيها، وإن رنت فالسيوف تسل من مقلتيها، إليها تنتهي المحاسن وعليها مدار الظاعن والقاطن، ولها شفتان حمروان ألين من الزبد وأحلى مذاقاً من الشهد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 422

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المرأة الواعظة لما وصفت الفتاة قالت: ولها شفتان حمراوان ألين من الزبد وأحلى مذاقاً من الشهد. ثم قالت بعد ذلك: ولها صدر كجادة الفجاج فيه ثديان كأنهما حقّان من عاج وبطن لطيف الكشح كالزهر الغض وعكن قد انعطفت وانطوى بعضها على بعض، وفخذان ملتفان كأنهما من الدرّ عمودان وارداف

تموج كأنها بحر من بلور أو جبال من نور ولها قدمان لطيفان وكفّان كأنهما سبائك العقيان . فيا مسكين أين الإنس من الجان ؟ أما علمت أن الملوك القادة والأشراف السادة أبداً للنساء خاضعون وعليهن في التلذّذ معتمدون ؟ وهنّ يقلن : قد ملكنا الرقاب وسلبنا الألباب ، فالأنثى كم غنيّ أفقرته وعزيز أذلّته وشريف استخدمته . فالنساء قد فتنّ الأدباء وهتكن الأنقياء وأفقرن الأغنياء وصيّرن أهل النعيم أشقياء ، ومع ذلك لا تزداد العقلاء لهنّ إلاّ محبة وإجلالاً ولا يعدّون ذلك ضيماً ولا إذلالاً . فكم عبد قد عصى فيهنّ ربّه وأسخط أباه وأمه ؟ كل ذلك لغلبة هواهنّ على القلوب . أما علمت يا مسكين أن لهنّ تبنى القصور وعليهنّ ترخى الستور ولهنّ تشتري الجواري وعليهنّ الدمع جار ولهن يتخذ المسك الأذفر والحلي والعنبر ولأجلهنّ تجمع العساكر وتعقد الدساكر وتجمع الأرزاق وتضرب الأعناق ؟ ومن قال : إن الدنيا عبارة عن النساء كان صادقاً . وأما ما ذكرت من الحديث الشريف فهو حجة عليك لا لك ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تديموا النظر إلى المرد فإن فيهم لمحة من الحور العين . فشبه المرد بالحور العين ولا شك إن المشبه به أفضل من المشبه . فلولا أن النساء أفضل وأحسن لما شبه بهنّ غيرهنّ . وأما قولك : إن الجارية تشبه بالغلام . فليس الأمر كذلك بل الغلام يشبه بالجارية فيقال : هذا الغلام كأنه جارية . وأما ما استدللت به من الأشعار فهي ناشئة عن شذوذ الطبيعة عند الإعتبار . وأما اللاطة العادون والفسقة المخالفون الذين ذمّهم الله تعالى في كتابه العزيز وأنكر عليهم فعلهم الشنيع فقال : أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون . فهؤلاء الذين يشبهون الجارية بالغلام لغلوّهم في الفسق والعصيان وإتباع النفس والشيطان حتى قالوا : إنها تصلح للأمرين جميعاً عدولاً منهم عن سلوك طريق الحق عند الناس . كما قال كبيرهم أبو نواس : [من السريع]

مَمْشُوقَةُ الخَصْرِ غُلامِيَّةٌ تَصلُحُ لِلُوطِيٍّ والزّاني

وأما ما ذكرته من حسن نبات العذار واخضرار الشارب وأن الغلام يزداد به حسناً وجمالاً . فوالله لقد عدلت عن الطريق وقلت غير التحقيق ، لأن العذار يبدل حسنات الجمال بالسيّئات . ثم أنشدت هذه الأبيات : [من المتقارب]

بَدا الشَّعْرُ في وَجْهِهِ فانْتَقَمْ لِعاشِقِهِ مِنْهُ لَمّا ظَلَمْ
ولَمْ أرَ في وَجْهِهِ كالدُّخا نِ إلاّ وسالِفُهُ كالحِمَمْ
إذا اَسْوَدَّ فاضِل قِرطاسِهِ فَما ظَنُّكُمْ بِمَكانِ القَلَمْ
فَإنْ فَضَّلُوه على غَيرِه فَما ذاكَ إلاّ لِجَهْلِ الحَكَمْ

فلما فرغت من شعرها قالت للرجل : سبحان الله العظيم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 423

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد أن المرأة الواعظة لما فرغت من شعرها قالت للرجل : سبحان الله العظيم كيف يخفى عليك أن كمال اللذّة في النساء وأن النعيم المقيم لا يكون إلاّ بهنّ . وذلك إن الله سبحانه وتعالى وعد الأنبياء والأولياء في الجنة بالحور العين وجعلهم جزاً لأعمالهنّ الصالحة . ولو علم الله تعالى أن في غيرهنّ لذّة الإستمتاع لجزاهم به

ووعدهم إيّاه. وقال صلى الله عليه وسلم: حبب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وقرّة عيني في الصلاة. وإنما جعل الله الولدان خدماً للأنبياء والأولياء في الجنة، لأن الجنة دار نعيم وتلذذ ولا يكمل ذلك إلاّ بخدمة الولدان. وأما استعمالهم غير الخدمة فهو من الخبال والوبال. وما أحسن قول الشاعر حيث قال: [من البسيط]

لَحاجَةُ المَرْءِ في الإِدْبارِ إِدْبارُ ... والمائِلُونَ إلى الأَحْرارِ أَحْرارُ
كَمْ مِنْ ظَرِيفٍ لَطِيفٍ باتَ مُمْتَطِياً ... رِدْفَ الغُلامِ فَأَضْحَى وَهْوَ عَطّارُ
تَصْفَرُّ أَثْوابُهُ مِنْ وَرْسٍ فَقْحَتِه ... فَيَسْتَبِينُ لِذاكَ الخِزْيُ والعارُ
لا يَسْتَطِيعُ جُحُوداً إِذْ تُقَذِّرُهُ ... يَوْماً وفي ثَوْبِهِ لِلسَّلْحِ آثارُ
كَمْ بَيْنَ ذاكَ ومَنْ باتَتْ مَطِيَّتَهُ ... حَوْراءُ ناظِرُها باللَّحْظِ سَحّارُ
يَقُومُ عَنْها وقَدْ أَهْدَتْ لَهُ أَرَجاً ... تَضَوَّعَتْ مِنْ غَوالِي طِيبِهِ الدّارُ
لَيْسَ الغُلامُ لَها عِدْلاً يُقاسُ بِها ... وهَلْ يُقاسُ بِعُودِ النَّدِّ أَقْذارُ

ثم قالت: يا قوم لقد أخرجتموني عن قانون الحياء ودائرة أحرار النساء إلى ما لا يليق بالعلماء من اللغو والفحشاء، ولكن صدور الأحرار قبور الأسرار والمجالس بالأمانات وإنما الأعمال بالنيات، وأنا أستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين إنه هو الغفور الرحيم. ثم سكتت فلم تجبنا عن شيء بعد ذلك، فخرجنا من عندها مسرورين بما استفدناه من مناظرتها متأسّفين على مفارقتها.

حكاية أبي سويد والعجوز الصبيحة

ومما يحكى أن أبا سويد قال: اتفق أنني أنا وجماعة من أصحابي دخلنا بستاناً يوماً من الأيام لنشتري شيئاً من الفاكهة، فرأينا في جانب ذلك البستان عجوزاً صبيحة الوجه غير أن شعر رأسها أبيض وهي تسرّحه بمشط من العاج. فوقفنا عندها فلم تحتفل بنا ولم تغط رأسها فقلت لها: يا عجوز، لو صبغت شعرك أسود لكنت أحسن من صبية، فما منعك من ذلك؟ فرفعت رأسها إليّ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 424 □ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا سويد قال: لما قلت للعجوز ذلك الكلام رفعت رأسها اليّ، حملقت العينين وأنشدت هذين البيتين:

[من الكامل]

وصَبَغْتُ ما صَبَغَ الزَّمانُ فَلَمْ يَدُمْ ... صِبْغِي ودامَتْ صَبْغَةُ الأَيّامِ
أَيّامَ أَرْفُلُ في ثِيابِ شَبِيبَتِي ... وأُناكُ مِنْ خَلْفِي ومِنْ قُدّامِي

فقلت لها: لله درك من عجوز ما أصدقك في اللهج بالحرام وأكذبك في دعوى التوجه من الآثام.

حكاية علي بن طاهر والجارية مؤنس

ومما يحكى أن علياً بن محمد بن عبد الله بن طاهر استعرض جارية إسمها مؤنس للشراء، وكانت فاضلة أديبة شاعرة. فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: أعز الله الأمير إسمي مؤنس. وكان قد عرف اسمها قبل ذلك، فاطرق ساعة ثم رفع رأسه إليها وأنشد هذا البيت: [من البسيط]

ماذا تَقُولِينَ فِيمَنْ شَفَّهُ سَقَمٌ ... مِنْ أَجْلِ حُبِّكِ حَتَّى صارَ حَيْرانا

فقالت: أعز الله الأمير. وأنشدت هذا البيت: [من البسيط]

إذا رَأَيْنا مُحِباً قَدْ أَضَرَّ بِه ... داءُ الصَّبابَةِ أَوْلَيْناهُ إحْسانا

فأعجبته، فاشتراها بسبعين ألف درهم وأولدها عبيد الله بن محمد صاحب المآثر.

حكاية أبي العيناء عن امرأتين عاشقتين

وقال أبو العيناء: كان عندنا في الدرب امرأتان: إحداهما تعشق رجلاً والأخرى تعشق أمرد. فاجتمعنا ليلة على سطح إحداهما وهو قريب من داري وهما لا يعلمان بي. فقالت صاحبة الأمرد للأخرى: يا أختي، كيف تصبرين على خشونة اللحية حين تقع على صدرك وقت لثمك وتقع شواربه على شفتيك وخدّيك؟ فقالت لها: يا رعناء، وهل يزين الشجر إلاّ ورقه والخيار إلاّ زغبه؟ وهل رأيت في الدنيا أقبح من أقرع منتوف؟ أما علمت أن اللحية للرجل مثل الذوائب للمرأة؟ وما الفرق بين الخد واللحية. أما علمت أن الله سبحانه وتعالى خلق في السماء ملكاً يقول: سبحان من زيّن الرجال باللحى والنساء بالذوائب، فلولا أن اللحى كالذوائب في الجمال لما قرن بينهما. يا رعناء، ما لي أفرش نفسي تحت الغلام الذي يعاجلني إنزاله ويسابقني انحلاله وأترك الرجل الذي إذا شمّ ضمّ وإذا أدخل أمهل وإذا فرغ رجع وإذا هزّ أجاد وكلما خلص عاد. فاتّعظت صاحبة الغلام بمقالها وقالت: سلوت صاحبي ورب الكعبة.

حكاية علي المصري التاجر من بغداد

ومما يحكى أنه كان بمدينة مصر رجل تاجر وكان عنده شيء كثير من مال ونقود وجواهر ومعادن وأملاك لا تحصى، وكان اسمه حسن الجوهري البغدادي. وقد رزقه الله بولد حسن الوجه معتدل القدّ مورد الخد، ذو بهاء وكمال وبهجة وجمال فسمّاه علياً المصري. وقد علّمه القرآن والعلم والفصاحة والأدب وصار بارعاً في كامل العلوم، وكان تحت يد والده في التجارة. فحصل لوالده مرض وزاد عليه الحال فأيقن بالموت وأحضر ولده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 425

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن التاجر الجوهري البغدادي لما مرض وأيقن بالموت أحضر ولده الذي إسمه عليّ المصري وقال له: يا ولدي، إن الدنيا فانية والآخرة باقية وكل نفس ذائقة الموت. والآن يا ولدي، قد قربت وفاتي وأريد أن أوصيك وصية، إن عملت بها لم تزل آمناً سعيداً إلى أن تلقى الله تعالى، وإن لم تعمل بها فإنه يحصل لك تعب زائد وتندم على ما فرطت في وصيتي. فقال له: يا أبت، كيف لا أسمع ولا أعمل بوصيتك مع

أن طاعتك فرض عليّ وسماع قولك عليّ واجب . فقال له : يا ولدي ، إني خلّفت لك أماكن ومحلات وامتعة ومالاً لا يحصى ، بحيث إذا كنت تنفق منه في كل يوم خمسمائة دينار لم ينقص عليك شيء من ذلك . ولكن يا ولدي عليك بتقوى الله واتباع ما أمر به من الفرائض ، وباتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما ورد عنه مما أمر به ونهى عنه في سنته ، وكن مواظباً على فعل الخيرات وبذل المعروف وصحبة أهل الخير والصلاح والعلم ، وعليك بالوصية بالفقراء والمساكين وتجنب الشحّ والبخل وصحبة الأشرار وذوي الشبهات ، وانظر لخدمك وعيالك بالرأفة ولزوجتك أيضاً فإنها من بنات الأكابر وهي حامل منك لعل الله يرزقك منها بالذريّة الصالحة . وما زال يوصيه ويبكي ويقول له : يا ولدي ، إسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يخلّصك من كل ضيق يحصل لك ويدركك بالفرج القريب منه . فبكى الولد بكاءً شديداً وقال : يا والدي ، والله إني ذبت من هذا الكلام كأنك تقول قول مودّع . فقال له : نعم يا ولدي ، أنا عارف بحالي فلا تنس وصيّتي . ثم إن الرجل صار يتشهّد ويقرأ إلى أن حضر الوقت المعلوم فقال لولده : ادن مني يا ولدي . فدنا منه فقبّله وفهق ، ففارقت روحه جسده وتوفي إلى رحمة الله تعالى . فحصل لولده غاية الحزن وعلا الضجيج في بيته واجتمعت عليه أصحاب والده ، فأخذ في تجهيزه وتشهيله وأخرجه خرجة عظيمة وحملوا جنازته إلى الصلاة فصلوا عليه وانصرفوا بجنازته إلى المقبرة فدفنوه وقرأوا عليه ما تيسّر من القرآن العظيم ثم رجعوا إلى المنزل ، فعزوا ولده وانصرف كل واحد منهم إلى حال سبيله . وعمل له ولده الجمع والختمات إلى تمام أربعين يوماً وهو مقيم في البيت لا يخرج إلاّ إلى المصلّى ، ومن يوم الجمعة إلى الجمعة يزور والده . ولم يزل في صلاته وقراءته وعبادته مدة من الزمان حتى دخل عليه أقرانه من أولاد التجار وسلّموا عليه وقالوا له : إلى متى هذا الحزن الذي أنت فيه وترك شغلك وتجارتك واجتماعك على أصحابك ؟ وهذا أمر يطول عليك ويحصل لجسدك منه ضرر زائد . وحين دخلوا عليه كان صحبتهم إبليس اللعين يوسوس لهم . فصاروا يحسنون له أن يخرج معهم إلى السوق وإبليس يغريه بموافقتهم إلى أن وافقهم على الخروج معهم من البيت . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 426

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن أولاد التجار لما دخلوا على التاجر علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري ، حسنوا له أن يخرج معهم إلى السوق فوافقهم على ذلك لأمر يريده الله سبحانه وتعالى . وخرج معهم من البيت فقالوا له : اركب بغلتك وتوجه بنا إلى البستان الفلاني لنتفرج فيه ويذهب عنك الحزن والفكر . فركب بغلته وأخذ عبده معه وتوجه معهم إلى البستان الذي قصدوه ، فلمّا صاروا في البستان ذهب واحد منهم وعمل لهم الغداء وأحضره في البستان . فأكلوا وانبسطوا وجلسوا يتحدثون إلى آخر النهار ، ثم ركبوا وانصرفوا وسار كل منهم إلى منزله وباتوا . فلمّا أصبح الصباح جاؤوا إليه وقالوا له : قم بنا . فقال لهم : إلى أين ؟ فقالوا : إلى البستان الفلاني فإنه أحسن من الأول وأنزه . فركب وتوجه معهم إلى البستان الذي قصدوه ، فلمّا صاروا في البستان ذهب واحد منهم وعمل لهم الغداء وأحضره إلى البستان وأحضر صحبته المدام المسكر . فأكلوا ثم احضروا الشراب فقال لهم : ما هذا؟ فقالوا له : هذا الذي يذهب الحزن ويجلي السرور . ولم يزالوا يحسنونه له حتى غلبوا عليه ، فشرب معهم

واستمروا في حديث وشرب إلى آخر النهار ثم توجهوا إلى منازلهم . ولكن علي المصري حصل له دوخة من الشراب ، فدخل على زوجته وهو بهذا الحال . فقالت له : ما بالك متغيّراً ؟ فقال : نحن اليوم كنا في حظ وانبساط ، ولكن بعض أصحابنا جاء لنا بماء فشرب أصحابي وشربت معهم فحصلت لي هذه الدوخة . فقالت له زوجته : يا سيدي ، هل نسيت وصية والدك وفعلت ما نهاك عنه من معاشرة أصحاب الشبهات ؟ فقال لها : إن هؤلاء من أولاد التجار ولم يكونوا أصحاب شبهات ، وإنما هم أصحاب حظ وانبساط . وما زال كل يوم مع أصحابه على هذه الحالة يتوجهون إلى محل بعد محل وهم في أكل وشرب إلى أن قالوا له : قد فرغ دورنا وصار الدور عليك . فقال لهم : أهلاً وسهلاً ومرحباً . ولما أصبح أحضر كامل ما يحتاج إليه الحال من المآكل والمشرب أضعاف ما فعلوه ، وأخذ معه الطباخين والفراشين والقهوجية وتوجهوا إلى الروضة والمقياس ، ومكثوا فيها شهراً كاملاً على أكل وشرب وسماع وانبساط . فلمّا مضى الشهر رأى نفسه قد صرف جملة من المال لها صورة ، فغرّه إبليس اللعين وقال له : لو صرفت كل يوم قدر الذي صرفته لم ينقص مالك . فلم يبال بصرف المال واستمرّ على هذا الحال مدة ثلاث سنوات ، وزوجته تنصحه وتذكّره بوصية والده فلم يسمع كلامها إلى أن نفد المال الذي كان عنده من النقود جميعه . فصار يأخذ من الجواهر ويبيع ويصرف أثمانها إلى أن أنفدها ، ثم أخذ في بيع البيوت والعقارات حتى لم يبقَ منها شيء . فلمّا نفدت صار يبيع في الضياع والبساتين واحداً بعد واحد إلى أن ذهبت جميعها ولم يبقَ عنده شيء يملكه إلاّ البيت الذي هو فيه . فصار يقلع رخامه وأخشابه ويتصرّف فيها إلى أن أفناها جميعها ، ونظر في نفسه فلم يجد عنده شيئاً يصرفه فباع البيت وتصرّف في ثمنه . ثم بعد ذلك جاءه الذي اشترى منه البيت وقال له : أنظر لك محلاً فإني محتاج إلى بيتي . فنظر في نفسه فلم يجد عنده شيئاً يحتاج إلى بيت غير زوجته ، وقد ولدت منه ولداً وبنتاً ولم يبقَ عنده خدم غير نفسه وعياله . فأخذ له قاعة في بعض الحيشان وسكن فيها بعد العزّ والدلال وكثرة الخدم والمال ، وصار لا يملك قوت يوم . فقالت له زوجته : من هذا كنت أحذرك وأقول لك : إحفظ وصية والدك ، فلم تسمع قولي . فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ، ومن أين تأكل الأولاد الصغار ؟ فقم وطف على أصحابك أولاد التجار لعلهم يعطونك شيئاً نتقوت به في هذا اليوم . فقام وتوجه إلى أصحابه واحد بعد واحد ، وكل من توجه إليه منهم يوارى وجهه منه ويسمعه ما يكره من الكلام المؤلم ، ولم يعطه أحد منهم شيئاً . فرجع إلى زوجته وقال لها : لم يعطوني شيئاً . فقامت إلى جيرانها لتطلب منهم شيئاً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 427

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن زوجة علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري لما رجع إليها زوجها من غير شيء ، قامت إلى جيرانها لتطلب شيئاً يتقوتون به في ذلك اليوم . فتوجهت إلى امرأة كانت تعرفها في الأيام السابقة ، فلمّا دخلت عليها ورأت حالها ، قامت وأخذتها بقبول وبكت وقالت لها : ما الذي أصابكم ؟ فحكت لها جميع ما كان من زوجها . فقالت لها : مرحباً بك وأهلاً وسهلاً ، فجميع ما تحتاجينه أطلبيه مني من غير مقابل . فقالت لها : جزاك الله خيراً . ثم أعطتها ما يكفيها هي وعيالها مؤنة شهر كامل ، فأخذته

وتوجهت إلى محلها . فلما رآها زوجها بكى وقال لها : من أين لك ذلك ؟ فقالت له : من فلانة ، فإني لما أخبرتها بما حصل لم تقصّر في شيء وقالت لي : جميع ما تحتاجين إليه أطلبيه مني . فعند ذلك قال لها زوجها : حيث صار عندك هذا فأنا متوجّه إلى محل أقصده لعل الله تعالى يفرج عنا . وأخذ بخاطرها وقبّل أولاده ثم خرج ولم يعرف أين يقصد . وما زال ماشياً حتى وصل إلى بولاق فرأى مركباً مسافرة إلى دمياط ، فرآه رجل كان بينه وبين أبيه صحبة فسلم عليه وقال له : أين تريد ؟ قال : أريد دمياط فإن لي أصحاباً أسأل عنهم وأزورهم ثم أرجع . فأخذه إلى بيته وأكرمه وعمل له زاداً وأعطاه شيئاً من الدنانير وأنزله في المركب المتوجهة إلى دمياط ، فلمّا وصلوا إليها طلع من المركب ولم يعرف أين يقصد . فبينما هو ماش إذ رآه رجل من التجار فحنّ عليه وأخذه معه إلى منزله فمكث عنده مدّة ، وبعد ذلك قال في نفسه : وإلى متى هذا القعود في بيوت الناس ؟ ثم طلع من بيت ذلك التاجر فرأى مركباً مسافرة إلى الشام ، فعمل له الرجل الذي كان نازلاً عنده زاداً وأنزله في تلك المركب وتوجّهت بهم حتى وصلوا إلى ساحل الشام . فنزل من المركب وسافر حتى دخل دمشق ، فبينما هو ماش في شوارعها اذ رآه رجل من أهل الخير فأخذه إلى منزله فأقام عنده مدة . ثم بعد ذلك خرج فرأى قافلة متوجهة إلى بغداد ، فخطر بباله أن يسافر مع تلك القافلة . ثم رجع إلى التاجر الذي كان مقيماً عنده في منزله وأخذ خاطره وطلع مع القافلة ، فحنّن الله سبحانه وتعالى عليه رجل من التجار فأخذه عنده وصار يأكل ويشرب معه إلى أن بقي بينهم وبين بغداد مسافة يوم واحد . فطلع على القافلة جماعة من قطاع الطريق فأخذوا كامل ما معهم ولم ينج منهم إلاّ القليل ، فسار كل واحد من القافلة بقصد محلاً يأوي إليه . وأما علي المصري فإنه قصد بغداد ، ثم وصل إليها عند غروب الشمس وما حصل باب المدينة حتى رأى البوابين مرادهم أن يقفلوا الباب . فقال لهم : دعوني أدخل عندكم . فأدخلوه عندهم وقالوا له : من أين أتيت وإلى أين تسير ؟ فقال : أنا رجل من مدينة مصر ومعي تجارة وبغال وأحمال وعبيد وغلمان ، فسبقتهم لكي أنظر لي محلاً أحط فيه تجارتي . فلمّا سبقتهم وأنا راكب على بغلتي قابلني جماعة من قطاع الطريق فأخذوا بغلتي وحوائجي وما نجوت منهم إلاّ وأنا على آخر رمق . فأكرموه وقالوا له : مرحباً بك ، فبت عندنا إلى الصباح ثم ننظر لك محلاً يليق بك . ففتش في جيبه فرأى ديناراً كان باقياً من الدنانير التي أعطاها له التاجر في بولاق ، فأعطى ذلك الدينار لواحد من البوابين وقال له : خذ هذا واصرفه وائتنا بشيء نأكله . فأخذه وذهب إلى السوق وصرفه وجاء له بخبز ولحم مطبوخ ، فأكل هو وإياهم ونام عندهم إلى الصباح . ثم أخذه رجل من البوابين وتوجّه إلى رجل من تجار بغداد وحكى له حكايته ، فصدّقه ذلك الرجل وظن أنه تاجر ومعه أحمال ، فأطلعه دكانه وأكرمه وأرسل إلى منزله فأحضر له بدلة عظيمة من ملبوسه وأدخله الحمام . قال علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري : فدخلت معه الحمام وعند خروجنا أخذني وتوجّه بي إلى منزله وأحضر لنا الغداء ، فأكلنا وانبسطنا وقال لواحد من عبيده : يا مسعود ، خذ سيدك واعرض عليه البيتين اللذين في المكان الفلاني والذي يعجبه منهما أعطه مفتاحه وتعال . فتوجّهت أنا والعبد حتى وصلنا إلى درب فيه ثلاثة بيوت بجانب بعضها جديدة مقفولة ، ففتح أول بيت وتفرّجت عليه وخرجنا وتوجهنا إلى الثاني ففتحه وتفرّجت عليه فقال لي : أيهما أعطيك مفتاحه ؟ فقلت له : وهذا البيت الكبير لمن ؟ قال : لنا . قلت له : إفتحه لأجل

ان نتفرّج عليه . فقال : ليس لك حاجة به . فقلت له : لِمَ ذلك ؟ فقال : لأنه معمور ولم يسكنه أحد إلاّ ويصبح ميتاً ، ولا نفتح بابه لإخراج الميت منه بل نطلع على سطح أحد البيتين ونخرجه منه . فمن ذلك تركه سيدي وقال : أنا ما بقيت أعطيه لأحد . فقلت : افتحه لي حتى أتفرّج عليه . وقلت في نفسي : هذا هو المطلوب ، فأبيت فيه وأصبح ميتاً وأرتاح من هذا الحال الذي أنا فيه . ففتحه ودخلته فرأيته بيتاً عظيماً لا مثيل له . فقلت للعبد : أنا ما أختار إلاّ هذا البيت فاعطني مفتاحه . فقال لي العبد : لا أعطيك المفتاح حتى أشاور سيدي . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 428

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن العبد قال لي : لا أعطيك المفتاح حتى أشاور سيدي . ثم توجّه إلى سيده وقال له : إن التاجر المصري يقول : ما أسكن إلاّ في البيت الكبير . فقام وجاء إلى علي المصري وقال له : يا سيدي ، ليس لك بهذا البيت حاجة . فقال له علي المصري : ما أسكن إلاّ فيه ولا أبالي بهذا القول . فقال له : أكتب بيني وبينك حجة أنه إذا حصل لك شيء لا علاقة لي بك . قال : كذلك . فأحضر شاهداً من المحكمة وكتب عليه حجة وأخذها عنده وأعطاه المفتاح ، فأخذه ودخل البيت . فأرسل إليه التاجر فرشاً مع عبد ، ففرشه له على المصطبة التي خلف الباب ورجع . ثم بعد ذلك قام علي المصري ودخل فرأى بئراً في حوش البيت وعليها منطال ، فأنزله في البئر وملأه وتوضأ منه وصلّى فرضه وجلس قليلاً فجاء له العبد بالعشاء من بيت سيده وجاء له بقنديل وشمعة وشمعدان وطشت وإبريق وقلّة ثم تركه وتوجّه إلى بيت سيّده . فأوقد الشمعة وتعشّى وانبسط وصلّى العشاء وقال في نفسه : قم اطلع فوق وخذ الفرش ونم هناك أحسن من هنا . فقام وأخذ الفرش وأطلعه فوق ، فرأى قاعة عظيمة سقفها مذهب وأرضها وحيطانها بالرخام الملون . ففرش فرشة وجلس يقرأ شيئاً من القرآن العظيم فلم يشعر إلاّ وشخص يناديه ويقول له : يا علي يا ابن حسن ، هل أنزل عليك الذهب ؟ قال له : وأين الذهب الذي تنزله ؟ فما قال له ذلك حتى صبّ عليه ذهبًا كالمنجنيق ، ولم يزل الذهب منصباً حتى ملأ القاعة . فلمّا فرغ انصباب الذهب قال له : إعتقني حتى أتوجّه إلى حال سبيلي فقد فرغت خدمتي . فقال له علي المصري : أقسمت عليك بالله العظيم أن تخبرني عن سبب هذا الذهب ؟ فقال له : إن هذا الذهب كان مرصوداً عليك من قديم الزمن ، وكان كل من دخل هذا البيت نأتيه ونقول له : يا علي يا ابن حسن ، هل ننزل الذهب ؟ فيخاف من كلامنا ويصرخ ، فننزل له ونكسر رقبته ونروح . فلمّا جئت أنت وناديناك باسمك واسم أبيك وقلنا لك : هل ننزل الذهب ؟ قلت لنا : وأين الذهب ؟ فعرفنا أنك صاحبه فأنزلناه . وبقي لك كنز في بلاد اليمن فإذا سافرت وأخذته وأتيت إلى هنا كان أولى لك . وأريد منك أن تعتقني حتى أروح إلى حال سبيلي . فقال : والله ما أعتقك إلاّ إذا أتيتني بالذي في بلاد اليمن إلى هنا . فقال له : إذا أتيتك به هل تعتقني وتعتق خادم ذلك الكنز ؟ فقال : نعم . قال له : احلف لي . فحلف له ، وأراد أن يتوجه فقال له علي المصري : بقي لي عندك حاجة . قال : وما هي ؟ قال : لي زوجة وأولاد بمصر في المحل الفلاني ينبغي أن تأتيني بهم على راحة من غير ضرر . فقال له : آتيك بهم في موكب من تختروان وخدم وحشم مع الكنز الذي نأتيك به من بلاد اليمن إن شاء الله تعالى . ثم أخذ منه

إجازة على ثلاثة أيام ويكون جميع ذلك عنده وتوجّه . فأصبح يدور في القاعة على محل يأوي فيه الذهب فرأى رخامة على طرف ليوان القاعة وفيها لولب ، فرك اللولب فانزاحت الرخامة وبان له باب ففتحه ودخل ، فرأى خزنة كبيرة وفيها أكياس من القماش مخيطة . فصار يأخذ الأكياس ويملؤها من الذهب ويدخلها في الخزنة إلى أن حوّل الذهب جميعه وأدخله الخزنة وقفل الباب وفرك اللولب فرجعت الرخامة محلها . ثم قام ونزل وقعد على المصطبة التي وراء الباب ، فبينما هو قاعد وإذا بطارق يطرق عليه الباب ، فقام وفتحه فرآه عبد صاحب البيت . فلمّا رآه العبد جالساً رجع بسرعة إلى سيده . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 429

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن عبد صاحب البيت لما جاء وطرق الباب على علي المصري ابن التاجر حسن فتح له الباب ، فلمّا رآه جالساً رجع بسرعة إلى سيده ليبشّره . فلمّا وصل إلى سيده قال له : يا سيدي ، إن التاجر الذي سكن في البيت المعمور بالجن طيب بخير ، وهو جالس على المصطبة التي وراء الباب . فقام سيده وهو فرحان وتوجه إلى ذلك البيت ومعه الفطور ، فلمّا رآه عانقه وقبّله بين عينيه وقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : خيراً ، وما نمت إلاّ فوق في القاعة المرخمة . فقال له : هل أتاك شيء أو نظرت شيئاً ؟ قال : لا ، وإنما قرأت ما تيسّر من القرآن العظيم ونمت إلى الصباح . ثم قمت وتوضأت ونزلت وجلست على المصطبة . فقال : الحمد لله على السلامة . ثم قام من عنده وأرسل إليه عبيداً ومماليك وجواري وفرشاً ، فكنسوا البيت من فوق وتحت وفرشوه له فرشاً عظيماً وبقي عنده ثلاثة مماليك وثلاثة عبيد وأربع جوار للخدمة والباقي توجّهوا إلى بيت سيدهم . ولما سمع بخبره التجار أرسلوا إليه هدايا من كل شيء نفيس حتى من المأكول والمشروب والملبوس وأخذوه عندهم في السوق وقالوا له : متى تجيء حملتك ؟ فقال لهم : بعد ثلاثة أيام تدخل . فلمّا مضت الثلاثة أيام ، جاء له خادم الكنز الأول الذي أنزل له الذهب من البيت وقال له : قم لاق الكنز الذي جئت لك به من اليمن ، وحريمك وصحبتهم من جملة الكنز . مال على صورة المتجر العظيم وجميع ما معه من البغال والخيل والجمال والخدم والمماليك كلهم من الجان . وكان ذلك الخادم قد توجّه إلى مصر فرأى زوجة علي وأولاده في هذه المدة صاروا في عري وجوع زائد ، فحملهم من مكانهم في تختروان خارجاً عن مصر ، وألبسهم خلعاً عظيمة من الخلع التي في كنز اليمن . فلمّا جاء إليه وأخبره بذلك الخبر ، قام وتوجّه إلى التجار وقال لهم : قوموا بنا نطلع خارج المدينة لنلاقي القافلة التي فيها متجرنا ، وتشرفونا بحريماتكم لأجل ملاقاة حريمنا . فقالوا له : سمعاً وطاعةً . ثم أرسلوا أحضروا حريمهم وطلعوا جميعاً وقعدوا في بستان من بساتين المدينة وجلسوا يتحدثون . فبينما هم في الحديث وإذا بغبار قد ثار من كبد البر ، فقاموا ينظرون ما سبب ذلك الغبار . فانكشف وبان عن بغال ورجال وعكامة وفراشين وضويه وهم مقبلون في غناء ورقص إلى أن أقبلوا . فتقدّم مقدم العكامة إلى علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري وقبّل يده وقال له : يا سيدي ، إننا تعوّقنا في الطريق لأننا أردنا الدخول بالأمس فخفنا من قطاع الطريق ، فمكثنا أربعة أيام ونحن مقيمون في محلنا إلى أن صرفهم الله تعالى عنّا . فقام التجار وركبوا بغالهم وساروا مع القافلة ، وتأخرت الحريمات عند حريم التاجر علي المصري إلى أن ركبوا معهم ودخلوا في موكب عظيم .

وصار التجار يتعجبون من البغال المحملة بالصناديق، ونساء التجار يتعجبن من ملبس زوجة التاجر علي وملبس أولادها ويقلن : إن هذه الملابس لا يوجد مثلها عند ملك بغداد ولا غيره من سائر الملوك والأكابر والتجار . ولم يزلوا سائرين في موكبهم ؛ الرجال مع التاجر علي المصري والنساء مع حريمه إلى ان دخلوا المنزل . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 430

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، انهم لم يزالوا سائرين في موكبهم الرجال مع الرجال والنساء مع حريمه حتى دخلوا المنزل ونزلوا، وأدخلوا البغال باحمالها في وسط الحوش، ثم نزلوا الأحمال وخزنوها في الحواصل . وطلع الحريمات مع الحريم إلى القاعة فرأوها مثل الروضة الغنّاء مفروشة بالفرش العظيم، فجلسوا في حظ وسرور واستمروا جالسين إلى وقت الظهر . فطلع الغداء لهم على أحسن ما يكون من أنواع الأطعمة والحلويات، فأكلوا وشربوا الشربات العظيمة وتطيبوا بعدها بماء الورد والبخور ثم أخذوا خاطره وانصرفوا إلى محلاتهم رجالاً ونساء . ولما رجع التجار إلى أماكنهم صاروا يرسلون إليه الهدايا على قدر أحوالهم، وصار الحريمات يهادين الحريم إلى أن جاء لهم شيء كثير من جوار وعبيد ومماليك، ومن كامل الأصناف كالحبوب والسكر وغير ذلك من الخير الذي لا يحصى . وأما التاجر البغدادي صاحب البيت الذي هو فيه، فإنه استمر مقيماً عنده ولم يفارقه وقال له : خل العبيد والخدم يدخلون البغال وغيرها من البهائم في بيت من البيوت لأجل الراحة . فقال له : إنهم مسافرون في هذه الليلة إلى محل كذا . وأعطاهم إجازة بأن يخرجوا إلى خارج المدينة حتى يأتي الليل يسافرون . فما صدقوا أن يعطيهم الإجازة بذلك حتى أخذوا خاطره وانصرفوا إلى ظاهر المدينة وطاروا في الهواء إلى أماكنهم . وقعد التاجر علي مع صاحب البيت الذي هو فيه إلى ثلث الليل، ثم انفضّ مجلسهما وذهب صاحب البيت إلى محله، وطلع التاجر علي إلى حريمه وسلّم عليهم وقال لهم : ما الذي جرى لكم بعدي في هذه المدة؟ فأخبرته زوجته بما قاسوه من الجوع والعري والتعب . فقال لها : الحمد لله على السلامة، وكيف جئتم ؟ فقالت : يا سيدي، أنا نائمة مع أولادي ليلة البارحة فلم أشعر إلاّ والذي رفعني عن الأرض أنا وأولادي إلى أن صرنا طائرين في الهواء، ولكن لم يحصل لنا ضرر . ولم نزل طائرين حتى نزلنا على الأرض في مكان على شكل حلة العرب، فرأينا هناك بغالاً محمّلة وتختروانا على بغلتين كبيرتين وحوله خدم من غلمان ورجال . فقلت لهم : من أنتم ؟ وما هذه الأحمال؟ ونحن في أي مكان؟ فقالوا : نحن خدام التاجر علي المصري ابن التاجر حسن الجرهري، وقد أرسلنا نأخذكم ونوصلكم إليه في مدينة بغداد . فقلت لهم : وهل المسافة التي بيننا وبين بغداد بعيدة أو قريبة؟ فقالوا لي : قريبة، فما بيننا وبينها غير سواد الليل . ثم أركبونا في التختروان، فما أصبح الصباح إلاّ ونحن عندكم ولم يحصل لنا ضرر أبداً . فقال لها : ومن أعطاكم هذا الملبس ؟ فقالت : مقدم القافلة، فتح صندوقاً من الصناديق التي على البغال وأخرج منه هذه الحلل فألبسني حلة وألبس أولادك كل واحد حلة ثم قفل الصندوق الذي أخذ منه الحلل وأعطاني مفتاحه وقال لي : إحرصي عليه حتى تعطيه لزوجك . وها هو محفوظ عندي، ثم أخرجته له . فقال لها : هل تعرفين الصندوق ؟ قالت : نعم أعرفه . فقام ونزل معها إلى الحواصل وأراها الصناديق فقالت له : هذا هو الصندوق الذي أخذ

منه الحلل . أخذ المفتاح منها وحطه في القفل وفتحه فرأى فيه حللاً كثيرة، ورأى فيه مفاتيح كامل الصناديق . فأخذها منه وصار يفتح الصناديق صندوقاً بعد صندوق ويتفرّج على ما فيها من الجواهر والمعادن الكنوزية التي لم يوجد عند أحد من الملوك نظيرها . ثم قفلها وأخذ مفاتيحها وطلع هو وزوجته إلى القاعة وقال لها : هذا من فضل الله تعالى . ثم بعد ذلك أخذها وتوجّه بها إلى الرخامة التي فيها اللولب، وفركه وفتح باب الخزنة ودخل هو وإيّاها وفرّجها على الذهب الذي وضعه فيها . فقالت له : من أين جاءك هذا كله؟ فقال لها : جاءني من فضل ربي . فإني خرجت من عندك بمصر . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 431

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، انه لما فرّج التاجر علي المصري زوجته على الذهب قالت له : من اين جاءك هذا كله؟ فقال لها : جاءني من فضل ربي . فإني خرجت من عندك بمصر وطلعت وأنا لا أدري أين أذهب، فتمشيت حتى وصلت إلى بولاق فوجدت مركباً مسافرة إلى دمياط فنزلت فيها . لما وصلت إلى دمياط قابلني رجل تاجر كان يعرف والدي فأخذني وأكرمني وقال لي : إلى أين تسافر؟ فقلت له : أريد أن أسافر إلى دمشق الشام فإن لي فيها أصحاباً . وحكى لها على ما وقع له من أوله إلى آخره . فقالت له : يا سيدي، هذا كله ببركة دعاء والدك حين كان يدعو لك قبل موته ويقول : إسأل الله أن لا يوقعك في شدة إلاّ ويدركك بالفرج القريب . فالحمد لله تعالى حيث أتاك بالفرج وعوّض عليك بأكثر مما ذهب منك . فبالله عليك يا سيدي لا تعد إلى ما كنت فيه من عشرة أصحاب الشبه، وعليك بتقوى الله تعالى في السرّ والعلانية وصارت توصيه . فقال لها : قبلت وصيتك، وأسأل الله تعالى أن يبعد عنا أقران السوء، وأن يوفقنا لطاعته واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وصار هو وزوجه وأولاده في أرغد عيش . ثم إنه أخذ له دكاناً في سوق التجار ووضع فيه شيئاً من الجواهر والمعادن المثمنة وجلس في الدكان وعنده أولاده ومماليكه، وصار أجلّ التجار في مدينة بغداد . فسمع بخبره ملك بغداد فأرسل إليه رسولاً بطلبه، فلمّا جاءه الرسول قال له : أجب الملك فإنه يطلبك . فقال : سمعاً وطاعةً . ثم جهّز هدية للملك، فأخذ أربع صواني من الذهب الأحمر وملأها من الجواهر والمعادن التي لا يوجد مثلها عند الملوك، وأخذ الصواني وطلع بها إلى الملك . فلمّا دخل عليه قبّل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العزّ والنعم وأحسن ما به تكلّم . فقال له الملك : يا تاجر، قد آنست بلادنا . فقال له :

يا ملك الزمان، إن العبد أتاك بهدية ويرجو من فضلك قبولها . ثم قدم الأربع صواني بين يديه فكشف عنها الملك وتأمّلها، فرأى فيها شيئاً من الجواهر لم يكن عنده مثله، وقيمته تساوي خزائن مال . فقال له : هديتك مقبولة يا تاجر، وإن شاء الله تعالى نجازيك بمثلها . فقبّل يدي الملك وانصرف من عنده . فاحضر الملك أكابر دولته وقال لهم : كم ملك من الملوك خطب ابنتي؟ قالوا له : كثير . فقال لهم : هل أحد منهم هاداني بمثل هذه الهدية؟ فقالوا جميعاً :لا، لأنه لا يوجد عند أحد منهم مثل هذا قط . فقال الملك : استخرت الله تعالى في أن أزوج ابنتي لهذا التاجر فما تقولون؟ فقالوا له : الأمر كما ترى . فأمر الطواشية أن يحملوا الأربع صواني بما فيها ويدخلوها إلى سرايته، ثم اجتمع بزوجته ووضع الصواني بين يديها، فكشفت عنها فرأت فيها

شيئاً لم يكن عندها مثله ولا قطعة واحدة. فقالت له: من أي الملوك هذا؟ لعله من أحد الملوك الذين خطبوا بنتك. فقال: لا، وإنما هذا من رجل تاجر مصري جاء عندنا في هذه المدينة، فلما سمعت بقدومه أرسلت إليه رسولاً يحضره لنا كي نصاحبه لعلنا نجد عنده شيئاً من الجواهر فنشتريه منه من أجل جهاز بنتنا. فامتثل أمرنا وجاء لنا بهذه الأربع صواني وقدّمها لنا هدية، فرأيته شاباً حسناً ذا مهابة وعقل كامل وشكل ظريف يكاد أن يكون من أبناء الملوك. فلما رأيته مال إليه قلبي وانشرح له صدري وأحببت أن أزوّجه بنتي، وقد عرضت الهدية على أرباب دولتي وقلت لهم: كم واحد من الملوك خطب ابنتي؟ فقالوا: كثير. فقلت لهم: وهل جاءني أحد منهم بمثل ذلك؟ فقالوا كلهم: لا والله يا ملك الزمان إنه لا يوجد عند أحد منهم مثل ذلك. فقلت لهم: إني استخرت الله تعالى في أن أزوّجه ابنتي، فما تقولون؟ قالوا: الأمر كما تراه. فما تقولين أنت في جوابك؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 432

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ملك مدينة بغداد لما عرض الهدية على زوجته وأخبرها بشمائل التاجر علي الجوهري وأنه يريد أن يزوّجه ابنته قال لها: فما تقولين أنت في جوابك؟ قالت له: الأمر لله ولك يا ملك الزمان، والذي يريده الله هو الذي يكون. فقال: إن شاء الله تعالى، لا نزوّجها إلا لهذا الشاب. وبات تلك الليلة، فلما أصبح الصباح طلع إلى ديوانه وأمر بإحضار التاجر علي المصري وكامل تجار بغداد. فحضروا جميعاً، فلما تمثلوا بين يدي الملك أمرهم بالجلوس فجلسوا. ثم قال: أحضروا قاضي الديوان. فحضر بين يديه فقال له: يا قاضي، اكتب كتاب ابنتي على التاجر علي المصري. فقال علي المصري: العفو يا مولانا السلطان، لا يصح أن يكون صهر الملك تاجر مثلي. فقال الملك: قد أنعمت عليك بذلك وبالوزارة. ثم خلع عليه خلعة الوزارة في الحال. فعند ذلك جلس على كرسي الوزارة وقال: يا ملك الزمان، أنت أنعمت علي بذلك وقد تشرّفت بإنعامك، ولكن إسمع لي كلمة أقولها لك. فقال: قل ولا تخف. قال: حيث صدر أمرك الشريف بزواج ابنتك فينبغي أن يكون زواجها لولدي. فقال: هل لك ولد؟ قال: نعم. فقال الملك: أرسل إليه في هذه الساعة. فقال: سمعاً وطاعةً. ثم أرسل واحداً من مماليكه إلى ولده وأحضره. فلمّا حضر بين يدي الملك قبّل الأرض بين يديه ووقف متأدباً، فنظر إليه الملك فرآه أجمل من بنته وأحسن منها قداً واعتدالاً وبهجةً وكمالاً فقال له: ما اسمك يا ولدي؟ فقال: يا مولانا السلطان إسمي حسن. وكان عمره حينئذ أربعة عشر عاماً. فقال الملك للقاضي: أكتب كتاب بنتي حسن الوجود على حسن ابن التاجر علي المصري. فكتب كتابه عليها وتمّ الأمر على أحسن حال وانصرف كل من في الديوان إلى سبيله. ونزل التجار خلف الوزير علي المصري إلى أن وصل إلى منزله وهو في منصب الوزارة، ثم هنوه بذلك وانصرفوا إلى حال سبيلهم. ثم دخل الوزير علي المصري على زوجته فرأته لابساً خلعة الوزارة فقالت له: ما هذا؟ فحكى لها الحكاية من أولها إلى آخرها وقال لها: إن الملك زوّج ابنته لحسن ولدي. ففرحت بذلك فرحاً زائداً. ثم بات علي المصري تلك الليلة، ولما أصبح الصباح طلع الديوان فلاقاه الملك ملاقاة حسنة وأجلسه إلى جانبه وقرّبه منه وقال له: يا وزير، قصدنا أننا نقيم الفرح وندخل ابنك على بنتي. فقال: يا مولانا السلطان، ما تراه حسناً فهو

حسن . فأمر الملك بقيام الفرح وزيّنوا المدينة واستمرّوا في إقامة الفرح ثلاثين يوماً وهم في هناء وسرور . وفي تمام الثلاثين يوماً دخل حسن بن الوزير على بنت الملك وتمتع بحسنها وجمالها، وأما زوجة الملك فإنها حين رأت زوج ابنتها احبته حباً شديداً وكذلك فرحت بأمه فرحاً زائداً. ثم إن الملك امر لحسن ابن الوزير بسراية . فبنوا له سراية عظيمة بسرعة وسكن فيها ابن الوزير، وصارت أمه تقعد عنده أياماً ثم تنزل إلى بيتها . فقالت زوجة الملك لزوجها : يا ملك الزمان، إن والدة حسن لا يمكنها أن تقعد عند ولدها وتترك الوزير، ولا يمكنها أن تقعد عند الوزير وتترك ولدها . فقال : صدقت . وأمر أن تبنى سراية ثالثة بجنب سراية حسن ابن الوزير . فبنوا سراية ثالثة في أيام قلائل، وأمر الملك أن ينقلوا حوايج الوزير إلى السراية، فنقلوها وسكن بها الوزير. وصارت الثلاث سرايات نافذات لبعضها، فإذا أراد الملك أن يتحدث مع الوزير يمشي له ليلاً أو يرسل إليه يحضره، وكذلك حسن وأمه وأبوه . وما زالوا مع بعضهم في حالة مرضية وعيشة هنية . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 433

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك والوزير وابنه، ما زالوا مع بعضهم في حالة مرضية وعيشة هنية مدة من الزمان . ثم إن الملك حصل له ضعف وزاد سقمه، فأحضر أكابر دولته وقال لهم : إنه حصل لي مرض شديد وربما كان مرض الموت، وأحضرتكم لأشاوركم في أمر فشوروا عليّ بما ترونه حسناً . فقالوا : ما الرأي الذي تشاورنا فيه أيها الملك؟ فقال : إني صرت كبيراً وقد مرضت وأخاف على المملكة بعدي من الأعداء، وقصدي أن تتفقوا أنتم الجميع على واحد حتى أبايعه على المملكة في حياتي لكي ترتاحوا . فقالوا جميعاً : نحن نرضى كلنا بزوج ابنتك حسن ابن الوزير علي، فإننا رأينا عقله وكماله وفهمه وهو يعرف مقام الكبير والصغير . فقال لهم الملك : وهل رضيتم بذلك؟ قالوا : نعم . قال لهم : ربما تقولون ذلك بين يديّ حياء مني وفي خلفي تقولون غير ذلك . فقالوا جميعاً : والله إن كلامنا ظاهراً وباطناً واحد لا يتغيّر، وقد ارتضيناه بطيب قلوبنا وانشراح صدورنا . فقال لهم : إن كان الأمر كذلك فاحضروا قاضي الشرع الشريف وسائر الحجّاب والنواب وأرباب الدولة جميعاً بين يدي في غد ونتمّم الأمر على أحسن حال . فقالوا له : سمعاً وطاعةً . ثم انصرفوا من عنده ونبّهوا على كامل العلماء ووجهاء الناس من الأمراء . فلمّا أصبح الصباح طلعوا إلى الديوان وأرسلوا إلى الملك يستأذنونه في الدخول عليه فأذن لهم، فدخلوا وسلموا عليه وقالوا : نحن الجميع قد حضرنا بين يديك . فقال لهم الملك : يا أمراء بغداد، من ترضوا يكون عليكم ملكاً بعدي لأجل أن أبايعه في حياتي قبل مماتي في حضوركم جميعاً؟ فقالوا كلهم : قد اتفقنا على حسن ابن الوزير على زوج ابنتك . فقال لهم : إن كان الأمر كذلك فقوموا جميعاً واحضروه بين يديّ . فقاموا جميعاً ودخلوا سرايته وقالوا له : قم بنا إلى الملك . فقال لهم : لأي شيء؟ فقالوا له : لأمر فيه صلاح لنا ولك . فقام معهم حتى دخلوا على الملك فقبّل حسن الأرض بين يديه . فقال له الملك : إجلس يا ولدي فجلس . فقال له : يا حسن، إن الأمراء جميعاً استرضوا عنك واتفقوا على أن يجعلوك ملكاً عليهم من بعدي، وقصدي أن أبايعك في حياتي لأجل انفضاض الأمر . فعند ذلك قام حسن وقبّل الأرض بين يدي الملك وقال له : يا مولانا الملك، إن في الأمراء من هو أكبر مني سناً وأعلى

قدراً، فاقيلوني من ذلك الأمر. فقالت الأمراء جميعاً: لا نرضى إلاّ أن تكون ملكاً علينا. فقال لهم: إن أبي أكبر مني وأنا وأبي شيء واحد ولا يصح تقديمي عليه. فقال له أبوه: أنا لا أرضى إلاّ بما رضي به إخواني، وقد رضوا بك واتفقوا عليك فلا تخالف أمر الملك ولا أمر إخوانك. فاطرق حسن برأسه إلى الأرض حياء من الملك ومن أبيه. فقال لهم الملك: هل رضيتم به؟ قالوا: رضينا به. فقرأوا جميعاً على ذلك فواتح سبع ثم قال الملك: يا قاضي، أكتب حجة شرعية على هؤلاء الأمراء أنهم اتفقوا على سلطنة حسن زوج بنتي وإنه يكون عليهم ملكاً. فكتب الحجة بذلك وأمضاها بعد أن بايعوه جميعاً على الملك، وبايعه الملك وأمره بالجلوس على كرسي المملكة. فقاموا جميعاً وقبّلوا أيادي الملك حسن ابن الوزير وأبدوا له الطاعة. فحكم في ذلك النهار حكماً عظيماً وخلع على أرباب الدولة الخلع السنية ثم انفض الديوان ودخل حسن على والد زوجته وقبّل يديه. فقال له: يا حسن عليك بتقوى الله في الرعية. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 434

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك حسن لما فرغ من الديوان دخل على والد زوجته وقبّل يديه. فقال له: يا ولدي، عليك بتقوى الله في الرعية. فقال له: بدعائك لي يا والدي يحصل لي التوفيق. ثم دخل سرايته فلاقته زوجته هي وأمها وأتباعها وقبّلوا يديه وقالوا له: يوم مبارك وهنوه بالمنصب. ثم قام من سرايته ودخل سراية والده وفرحوا فرحاً زائداً بما أنعم الله به عليه من تقليد الملك، وأوصاه والده بتقوى الله والشفقة على الرعية. وبات تلك الليلة في فرح وسرور إلى الصباح. ثم صلّى فرضه وختم ورده وطلع إلى الديوان، وطلع إليه كامل العسكر وأرباب المناصب. فحكم بين الناس وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وولّى وعزل، ولم يزل في الحكومة إلى آخر النهار. ثم انفضّ الديوان على أحسن حال وانصرف العسكر وسار كل واحد منهم إلى حال سبيله. ثم قام ودخل السراية فرأى والد زوجته قد ثقل عليه الضعف فقال له: لا بأس عليك. ففتح عينيه وقال له: يا حسن. قال: لبيك يا سيدي. قال له: أنا الآن قد قرب أجلي فكن متوصياً بزوجتك ووالدتها، وعليك بتقوى الله وببر والديك، واخش مهابة الملك الديان واعلم بأن الله يأمر بالعدل والإحسان. فقال له الملك حسن: سمعاً وطاعةً. ثم إن الملك القديم أقام ثلاثة أيام بعد ذلك وتوفي إلى رحمة الله تعالى. فجهّزوه وكفّنوه وعملوا له القراءات والختمات إلى تمام الأربعين يوماً. واستقلّ الملك حسن ابن الوزير بالملك، وفرحت به الرعية وكانت أيامه كلها سروراً. وما زال والده وزيراً كبيراً على ميمنته، واتخذ له وزيراً آخر على ميسرته. واستقامت به الأحوال ومكث ملكاً في بغداد مدة مستطيلة. ورزق من بنت الملك ثلاثةأولاد ذكور وتوارثوا المملكة من بعده. وصاروا في أرغد عيش وأهناه إلى أن أتاهم هادم اللذّات ومفرّق الجماعات. فسبحان من له الدوام وبيده النقض والإبرام.

حكاية رجل من الحجاج وامرأة عجوز

ومما يحكى أن رجلاً من الحجاج نام نومة طويلة ثم انتبه فلم يرَ للحجاج أثراً، فقام يمشي فضلّ عن الطريق وصار يسير إلى أن رأى خيمة ورأى امرأة عجوزاً على باب الخيمة ووجد عندها كلباً نائماً. فدنا من الخيمة ثم سلّم على العجوز وطلب منها طعاماً. فقالت: إمض إلى ذلك

الوادي واصطد من الحيات بقدر كفايتك لأشوي لك منها وأطعمك . فقال لها الرجل : أنا لا أجسر على أن أصطاد الحيات ، وما أكلتها قط . فقالت العجوز : أنا أمضي معك وأتصيّد منها فلا تخف . ثم إنها مضت معه وتبعها الكلب ، فاصطادت من الحيات بقدر الكفاية وجعلت تشوي منها . قال : فلم يرَ الرجل الحاج من الأكل بدّاً وخاف من الجوع والهزال فأكل من تلك الحيات ، ثم إنه عطش فطلب من العجوز ماء ليشرب فقالت له : دونك والعين فاشرب منها . فمضى إلى العين فوجد ماءها مرّاً ولم يجد له من شربه بدّاً مع شدة مرارته لما لحقه من العطش . فشرب ثم عاد للعجوز وقال لها : عجباً منك أيتها العجوز ومن مقامك بهذا الموضع ومكثك في هذا المكان . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 435

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الرجل الحاج لما شرب من ماء العين المرّ لكثرة ما لحقه من العطش . ثم عاد للعجوز وقال لها : أعجب أيتها العجوز منك ومن مقامك بهذا الموضع واغتذائك بهذا الطعام وشربك من هذا الماء . قالت له العجوز : فكيف تكون بلادكم ؟ قال لها : إن في بلادنا الدور الواسعة الرحبة والفواكه اليانعة اللذيذة والمياه الغزيرة العذبة والأطعمة الطيبة واللحوم السمينة والغنم الكثيرة وكل شيء طيب ، والخيرات الحسان اللاتي لا يكون مثلهن إلاّ في الجنة التي وصفها الله تعالى لعباده الصالحين . فقالت العجوز : قد سمعت هذا كله فقل لي : هل يكون لكم من سلطان يحكم عليكم ويجور في حكمه وأنتم تحت يده ؟ وإن أذنب أحد منكم أخذ أمواله وأتلفه ؟ وإذا أراد أخرجكم من بيوتكم واستأصل شأفتكم ؟ فقال لها الرجل : قد يكون ذلك . فقالت العجوز : إذا والله يكون ذلك الطعام اللطيف والعيش الظريف والنعم اللذيذة مع الجور والظلم سمّاً ناقعاً ، وتعود أطعمتنا مع الأمن درياقاً نافعاً . أما سمعت إن أجل النعيم بعد الإسلام الصحة والأمن ، وإنما يكون هذا من عدل السلطان خليفة الله في أرضه وحسن سياسته . وكان من تقدّم من السلاطين يحب أن يكون له أدنى هيبة بحيث إذا رأته الرعية خافوه ، وسلطان هذا الزمان يحب أن يكون له أوفى سياسة وأتمّ هيبة لأن الناس الآن ليسوا كالمتقدّمين . وزماننا هذا زمان ذوي الوصف الذميم والخطب الجسيم حيث اتصفوا بالسفاهة والقساوة وانطووا على البغضاء والعداوة . وإذا كان السلطان والعياذ بالله تعالى بينهم ضعيفاً أو غير ذي سياسة وهيبة فلا شك في أن ذلك يكون سبباً لخراب البلاد . وفي الأمثال : جور السلطان مائة سنة ولا جور الرعية بعضهم على بعض سنة واحدة . وإذا جارت الرعية سلّط الله عليهم سلطاناً جائراً وملكاً قاهراً كما ورد في الأخبار : أن الحجاج بن يوسف رفعت إليه في بعض الأيام قصة مكتوب فيها : اتق الله ولا تجر على عباد الله كل الجور . فلمّا قرأ القصة رقي المنبر وكان فصيحاً فقال : أيها الناس ، إن الله تعالى سلطني عليكم بأعمالكم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 436

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الحجاج بن يوسف لما قرأ القصة ، رقي المنبر وكان فصيحاً فقال : أيها الناس ، إن الله تعالى سلطني عليكم بأعمالكم ، فإن أنا مت فأنتم لا تخلصون من الجور مع هذه الاعمال السيئة لأن الله تعالى خلق أمثالي خلقاً كثيراً ، وإذا لم أكن أنا كان من هو أكثر مني شرّاً وأعظم جوراً وأشد سطوة . كما قال الشاعر في

معنى ذلك : [من الطويل]

وما مِنْ يَدٍ إلاّ يَدُ اللهِ فَوْقَها ... وما ظالِمٌ إلاّ سَيُبْلى بِأَظْلَمِ

والجور يخاف منه ، والعدل أصلح كل شيء . نسأل الله أن يصلح أحوالنا .

حكاية الجارية تودّد

ومما يحكى أنه كان ببغداد رجل ذو مقدار ، وكان موسراً بالمال والعقار وهو من التجار الكبار وقد وسّع الله عليه دنياه ولم يبلغه من الذرية ما يتمناه . ومضت عليه مدة من الزمان ولم يرزق بإناث ولا ذكران . فكبر سنه ورقّ عظمه وانحنى ظهره وكثر وهنه وهمّه ، فخاف ذهاب ماله ونشبه إذا لم يكن له ولد يرثه ويذكر به . فتضرع إلى الله تعالى وصام النهار وقام الليل ونذر النذور لله تعالى الحي القيوم وزار الصالحين وأكثر التضرع إلى الله تعالى ، فاستجاب الله له وقبل دعاه ورحم تضرعه وشكواه . فما كان إلاّ قليل من الأيام حتى جامع إحدى نسائه فحملت منه في ليلتها ووقتها وساعتها ، وأتمّت أشهرها ووضعت حملها وجاءت بذكر كأنه فلقة قمر . فأوفى بالنذر شكراً لله عزّ وجلّ وأخرج الصدقات وكسا الأرامل والأيتام . وليلة سابع الولادة سمّاه بأبي الحسن ، فأرضعته المراضع وحضنته الحواضن وحملته المماليك والخدم إلى أن كبر ونشأ وترعرع وانتشأ . وتعلّم القرآن العظيم وفرائض الإسلام وأمور الدين القويم والخط والشعر والحساب والرمي بالنشاب ، فكان فريد دهره وأحسن أهل زمانه وعصره ، ذا وجه مليح ولسان فصيح يتهادى تمايلاً واعتدالاً ويتزاهى تدلّلاً واختيالاً ، بخد أحمر وجبين زاهر وعذار أخضر . كما قال فيه بعض واصفيه : [من المنسرح]

بَدا رَبِيعُ العِذارِ لِلْحَدَقِ ... والوَرْدُ بَعْدَ الرَّبِيعِ كَيْفَ بَقِي

أَما تَرَى النَّبْتَ فَوْقَ عارِضِهِ ... بَنَفْسَجاً طالِعاً مِنَ الوَرَقِ

فأقام مع أبيه برهة من الزمن في أحسن حال ، وأبوه به فرح مسرور إلى أن بلغ مبالغ الرجال . فأجلسه أبوه بين يديه يوماً من الأيام وقال له : يا ولدي ، إنه قد قرب الأجل وحانت وفاتي ولم يبقَ غير لقاء الله عزّ وجلّ ، وقد خلّفت لك ما يكفيك إلى ولد الولد من المال المتين والضياع والأملاك والبساتين . فاتّقِ الله تعالى يا ولدي فيما خلّفته لك ولا تتبع إلاّ من رفدك . فلم يكن إلاّ قليل حتى مرض الرجل ومات . فجهزه ولده أحسن تجهيز ودفنه ورجع إلى منزله وقعد للعزاء أياماً ولياليَ ، وإذا بأصحابه قد دخلوا عليه وقالوا له : من خلّف مثلك ما مات وكل ما فات فقد فات وما يصلح العزاء إلاّ للبنات والنساء المخدرات . ولم يزالوا به حتى دخل الحمام ، ودخلوا عليه وفكوا حزنه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 437

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن أبا الحسن بن الخواجا لما دخل عليه أصحابه الحمام وفكّوا حزنه ، نسي وصية أبيه وذهل لكثرة المال ، وظن أن الدهر يبقى معه على حال وأن المال ليس له زوال . فأكل وشرب ولذّ وطرب وخلع ووهب وجاد بالذهب ولازم أكل الدجاج وفضّ ختام الزجاج وقهقهة القناني واستماع الأغاني ، ولم يزل على هذا الحال إلى أن مال المال وقعد الحال وذهب ما كان لديه وسقط في يديه ولم يبق له بعد أن أتلف ما

ألف غير وصيفة خلّفها له والده من جملة ما خلّف. وكانت الوصيفة هذه ليس لها نظير في الحسن والجمال والبهاء والكمال والقد والاعتدال، وهي ذات فنون وآداب وفضائل تستطاب، قد فاقت أهْل عصرها وأوانها وصارت أشهر من علم في افتتانها، وزادت على الملاح بالعلم والعمل والتثني والميل مع كونها خماسية القد مقارنة للسعد بجبينين كأنهما هلال شعبان وحاجبين أزجين وعينين كعيون غزلان وأنف كحدّ الحسام وخدّ كأنه شقائق النعمان وفم كخاتم سليمان وأسنان كأنها عقود الجمال وسرّة تسع أوقية دهن بان وخصر أنحل من جسم مَنْ أضناه الهوى وأسقمه الكتمان وردف أثقل من الكثبان. وبالجملة فهي في الجمال جديرة بقول من قال: [من الكامل]

إنْ أَقْبَلَتْ فَتَنَتْ بِحُسْنِ قِوامِها أَوْ أَدْبَرَتْ قَتَلَتْ بِصَدِّ فِراقِها
شَمْسِيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ غُصْنِيَّةٌ لَيْسَ الجَفا والبُعْدُ مِنْ أَخْلاقِها
جَنّاتُ عَدَنٍ تَحْتَ جَيْبِ قَميصِها والبَدْرُ في فَلَكٍ عَلى أَطْواقِها

كأنها البدر الطالع والغزال الراتع، بنت تسع وخمس تخجل القمر والشمس. كما قال الشاعر البليغ الماهر: [من السريع]

شَبِيهَةُ البَدْرِ إذا ما مَضَى خَمْسٌ وخَمْسٌ بَعْدَها أَرْبَعُ
ما كانَ ذَنْبِي حِينَ صَيَّرَتْنِي شَبِيهَهُ أَوَّلَ ما يَطْلَعُ

صافية الأديم عاطرة النسيم كأنها خلقت من النور وتكوّنت من البلور، تورّد منها الخدّ واعتدل القوام والقدّ. كما قال فيها بعض واصفيها: [من الكامل]

تَخْتالُ بَيْنَ مُعَصْفَرٍ ومُدَنَّرٍ ومُغَضَّضٍ ومُوَرَّدٍ ومُصَنْدَلِ
هِيَ زَهْرَةٌ في رَوْضَةٍ أَوْ دُرَّةٌ في شَمْسِهِ أَو صُورَةٌ في هَيْكَلِ
هَيْفاءُ إنْ قالَ القَوامُ لَها: انْهَضِي قالَتْ رَوادِفُها: قِفِي وتَمَهَّلِي
وإذا طَلَبْتُ الوَصْلَ قالَ جَمالُها: جُودِي وقالَ دَلالُها: لا تَفْعَلِي
سُبْحانَ مَنْ جَعَلَ المَلاحَةَ حَظَّها ونَصِيبُ عاشِقِها كَلامُ العُذَّلِ

تسلب من يراها بحسن جمالها وبريق ابتسامها وترميه من عيونها بنبل سهامها. وهي مع هذا كله فصيحة الكلام حسنة النظام. فلمّا نفد جميع ماله وتبيّن سوء حاله ولم يبقَ معه غير هذه الجارية، أقام ثلاثة أيام وهو لم يذق طعم طعام ولم يسترح في منام. فقالت له الجارية: يا سيدي، إحملني إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 438

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت لسيدها: يا سيدي، إحملني إلى هارون الرشيد الخامس من بني العباس واطلب ثمني منه عشرة آلاف دينار، فإن استغلاني فقل له: يا أمير المؤمنين وصيفتي أكثر من ذلك، فاختبرها يعظم قدرها في عينك لأن هذه الجارية ليس لها نظير ولا تصلح إلاّ لمثلك. ثم قالت له: إياك يا سيدي أن تبيعني بدون ما

قلت لك من الثمن فإنه قليل في مثلي . وكان سيد الجارية لا يعلم قدرها ولا يعرف أنها ليس لها نظير في زمانها . ثم إنه حملها إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد وقدّمها له وذكر ما قالت . فقال لها الخليفة : ما اسمك ؟ قالت : إسمي تودد . قال : يا تودد ، ما تحسنين من العلوم ؟ قالت : يا سيدي ، إني أعرف النحو والشعر والفقه والتفسير واللغة ، وأعرف فن الموسيقى وعلم الفرائض والحساب والقسمة والمساحة وأساطير الأولّين ، وأعرف القرآن العظيم وقد قرأته للسبع وللعشر وللأربع عشرة ، وأعرف عدد سوره وآياته وأحزابه وإنصافه وأرباعه وأثمانه وأعشاره وسجداته وعدد أحرفه ، وأعرف ما فيه من الناسخ والمنسوخ والمدينة والمكية وأسباب التنزيل ، وأعرف الحديث الشريف دراية ورواية المسند منه والمرسل ، ونظرت في علوم الرياضة والهندسة والفلسفة وعلم الحكمة والمنطق والمعاني والبيان وحفظت كثيراً من العلم . وتعلّقت بالشعر وضربت العود وعرفت مواضيع النغم فيه ومواقع حركات أوتاره وسكناتها ، فإن غنيت ورقصت فتنت وإن تزينت وتطيبت قتلت . وبالجملة فإني وصلت إلى شيء لم يعرفه إلاّ الراسخون في العلم . فلمّا سمع الخليفة هارون الرشيد كلامها على صغر سنّها تعجّب من فصاحة لسانها والتفت إلى مولاها وقال : إني أحضر من يناظرها في جميع ما ادّعته ، فإن أجابت دفعت لك ثمنها وزيادة ، وإن لم تجب فأنت أولى بها . فقال مولاها : يا أمير المؤمنين حبّاً وكرامة . فكتب أمير المؤمنين إلى عامل البصرة بأن يرسل إليه ابراهيم بن سيّار النظّام وكان أعظم أهل زمانه في الحجة والبلاغة والشعر والمنطق ، وأمره أن يحضر القرّاء والعلماء والأطباء والمنجّمين والحكماء والمهندسين والفلاسفة . وكان ابراهيم أعلم من الجميع . فما كان إلاّ قليل حتى حضروا دار الخلافة وهم لا يعلمون الخبر . فدعاهم أمير المؤمنين إلى مجلسه وأمرهم بالجلوس فجلسوا . ثم أمر أن تحضر الجارية تودد ، فحضرت وأظهرت نفسها وهي كأنها كوكب دري ، فوضع لها كرسي من ذهب . فسلّمت ونطقت بفصاحة لسان وقالت : يا أمير المؤمنين ، مر مَن حضر من العلماء والقراء والأطباء والمنجّمين والحكماء والمهندسين والفلاسفة أن يناظروني . فقال لهم أمير المؤمنين : أريد منكم أن تناظروا هذه الجارية في أمر دينها وأن تدخلوا حجتها في كل ما ادّعته . فقالوا : السمع والطاعة لله ولك يا أمير المؤمنين . فعند ذلك أطرقت الجارية وقالت : أيّكم الفقيه العالم المقرئ المحدّث . فقال أحدهم : أنا ذلك الرجل الذي طلبت . قالت له : إسأل عمّا شئت . قال لها : أنت قرأت كتاب الله العزيز وعرفت ناسخه ومنسوخه وتدبرت آياته وحروفه . قالت : نعم . فقال لها : أسألك عن الفرائض الواجبة والسنن القائمة فاخبريني أيتها الجارية عن ذلك ، وما ربك وما نبيك وما إمامك وما قبلتك وما إخوانك وما طريقتك وما منهاجك ؟ قالت : الله ربي ومحمد ﷺ نبيي والقرآن إمامي والكعبة قبلتي والمؤمنون إخواني والخير طريقتي والسنّة منهاجي . فتعجّب الخليفة من قولها ومن فصاحة لسانها على صغر سنها . ثم قال لها : أيتها الجارية ، أخبريني بم عرفت الله تعالى ؟ قالت : بالعقل . قال : وما العقل ؟ قالت : العقل عقلان : عقل موهوب وعقل مكسوب .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 439

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت: العقل عقلان: موهوب ومكسوب. فالعقل الموهوب هو الذي خلقه الله عزّ وجلّ يهدي به من يشاء من عباده، والعقل المكسوب هو الذي يكسبه المرء بتأدّبه وحسن معرفته. فقال لها: أحسنت. ثم قال: أين يكون العقل؟ قالت: يقذفه الله في القلب فيصعد شعاعه في الدماغ حتى يستقرّ. قال لها: أحسنت. ثم قال: أخبريني بم عرفت النبي ﷺ؟ قالت: بقراءة كتاب الله تعالى وبالآيات والدلالات والبراهين والمعجزات. قال: أحسنت، فاخبريني عن الفرائض الواجبة والسنن القائمة. قالت: أما الفرائض الواجبة فخمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأن محمّداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام من استطاع إليه سبيلاً. وأما السنن القائمة فهي أربع: الليل والنهار والشمس والقمر وهن يبنين العمر والأمل، وليس يعلم ابن آدم أنهنّ يهدمن الأجل. قال: أحسنت، فاخبريني ما شعائر الإيمان؟ قالت: شعائر الإيمان: الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد واجتناب الحرام. قال: أحسنت، فاخبريني بأي شيء تقومين إلى الصلاة؟ قالت: بنية العبودية مقرّة بالربوبية. قال: فاخبريني كم فرض الله عليك قبل قيامك إلى الصلاة؟ قالت: الطهارة وستر العورة واجتناب الثياب المتنجّسة والوقوف على مكان طاهر والتوجّه للقبلة والقيام والنية وتكبيرة الإحرام. قال: أحسنت، فاخبريني بم تخرجين من بيتك إلى الصلاة؟ قالت: بنية العبادة. قال: فبأي نية تدخلين المسجد؟ قالت: بنية الخدمة. قال: فبماذا تستقبلين القبلة؟ قالت: بثلاث فرائض وسنّة. قال: أحسنت، فاخبريني ما مبدأ الصلاة وما تحليلها وما تحريمها؟ قالت: مبدأ الصلاة الطهور وتحريمها تكبيرة الإحرام وتحليلها السلام من الصلاة. قال: فماذا يجب على من تركها؟ قالت: روي في الصحيح: من ترك الصلاة عامداً متعمّداً من غير عذر فلا حظّ له في الإسلام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 440

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما ذكرت الحديث الشريف، قال لها الفقيه: أحسنت، فاخبريني عن الصلاة ما هي؟ قالت: الصلاة صلة بين العبد وربه وفيها عشر خصال: تنوّر القلب وتضيء الوجه وترضي الرحمن وتغضب الشيطان وتدفع البلاء وتكفي شرّ الأعداء وتكثر الرحمة وتدفع النقمة وتقرّب العبد من مولاه وتنهي عن الفحشاء والمنكر، وهي من الواجبات المفروضات المكتوبات، وهي عماد الدين. قال: أحسنت، فاخبريني ما مفتاح الصلاة؟ قالت: الوضوء. قال: فما مفتاح الوضوء؟ قالت: التسمية. قال: فما مفتاح التسمية؟ قالت: اليقين. قال: فما مفتاح اليقين؟ قالت: التوكّل. قال: فما مفتاح التوكّل؟ قالت: الرجاء. قال: فما مفتاح الرجاء؟ قالت: الطاعة. قال: فما مفتاح الطاعة؟ قالت: الإعتراف لله تعالى بالوحدانية والإقرار له بالربوبية. قال: أحسنت، فاخبريني عن فروض الوضوء. قالت: ستة أشياء على مذهب الإمام الشافعي محمد بن ادريس رضي الله عنه: النيّة عند غسل الوجه وغسل اليدين مع المرفقين ومسح بعض الرأس وغسل الرجلين مع الكعبين، والترتيب وسننه عشرة أشياء: التسمية وغسل الكفّين قبل إدخالهما الإناء

والمضمضة والإستنشاق ومسح جميع الرأس ومسح الأذنين ظاهرهما وباطنهما بماء جديد وتخليل اللحية الكثّة وتخليل أصابع اليدين والرجلين وتقديم اليمنى على اليسرى والطهارة ثلاثاً ثلاثاً والموالاة، فإذا فرغ من الوضوء قال: أشهد ان لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد ان محمّداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوّابين واجعلني من المتطهّرين سبحانك اللهم، وبحمدك أشهد ان لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك. فقد جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال: من قالها عقب كل وضوء فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء. قال: أحسنت. فإذا أراد الإنسان الوضوء ماذا يكون عنده من الملائكة والشياطين؟ قالت: إذا تهيأ الإنسان للوضوء أتت الملائكة عن يمينه والشياطين عن شماله، فإذا ذكر الله تعالى في ابتداء الوضوء فرّت منه الشياطين واستولت عليه الملائكة بخيمة من نور لها أربعة أطناب، مع كل طنب ملك يسبح الله تعالى ويستغفر له ما دام في انصات أو ذكر، فإن لم يذكر الله عزّ وجل عند ابتداء الوضوء ولم ينصت استولت عليه الشياطين وانصرفت عنه الملائكة ووسوس له الشيطان حتى يدخل عليه الشك والنقض في وضوئه. فقد قال عليه الصلاة والسلام: الوضوء الصالح يطرد الشيطان ويؤمن من جور السلطان. وقال أيضاً: من نزلت عليه بلية وهوعلى غير وضوء فلا يلومنّ إلاّ نفسه. قال: أحسنت، فاخبريني عما يفعل الشخص إذا استيقظ من منامه. قالت: إذا استيقظ الشخص من منامه فليغسل يديه ثلاثاً قبل إدخالهما الإناء. قال: أحسنت، فاخبريني عن فروض الغسل وعن سننه. قالت: فروض الغسل؛ النيّة وتعميم البدن بالماء أي إيصال الماء إلى جميع الشعر والبشرة. وأما سننه فالوضوء قبله والتدليك وتخليل الشعر وتأخير غسل الرجلين في قول... إلى آخر الغسل. قال: أحسنت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 441

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما أخبرت الفقيه عن فروض الغسل وسننه قال: أحسنت، فاخبريني عن أسباب التيمم وفروضه وسننه. قالت: أما أسبابه فسبعة: فقد الماء والخوف والحاجة إليه وإضلاله في رحله والمرض والجبيرة والجراح. وأما فروضه فأربعة: النيّة والتراب وضربة للوجه وضربة لليدين. وأما سننه فالتسمية وتقديم اليمنى على اليسرى. قال: أحسنت، فاخبريني عن شروط الصلاة وعن أركانها وعن سننها. قالت: أما شروطها فخمسة أشياء: طهارة الأعضاء وستر العورة ودخول الوقت يقيناً أو ظناً واستقبال القبلة والوقوف على مكان طاهر. وأما أركانها: فالنية وتكبيرة الإحرام والقيام مع القدرة وقراءة الفاتحة وبسم الله الرحمن الرحيم آية منها على مذهب الإمام الشافعي والركوع والطمأنينة فيه والإعتدال والطمأنينة فيه والسجود والطمأنينة فيه والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه والتشهّد الأخير والجلوس له والصلاة على النبي ﷺ فيه والتسليمة الأولى ونيّة الخروج من الصلاة في قول. وأما سننها: فالآذان والإقامة ورفع اليدين عند الإحرام ودعاء الإفتتاح والتعوّذ والتأمين وقراءة السورة بعد الفاتحة والتكبيرات عند الإنتقالات وقول سمع الله لمن حمده وربنا لك الحمد والجهر في موضعه والأسرار في موضعه والتشهّد الأول والجلوس له والصلاة على النبي ﷺ فيه والصلاة على الآل في التشهّد الأخير والتسليمة الثانية. قال: أحسنت،

فاخبريني في ماذا تجب الزكاة؟ قالت : تجب في الذهب والفضة والإبل والبقر والشاء والحنطة والشعير والدخن والذرة والفول والحمص والأرز والزبيب والتمر . قال : أحسنت ، فاخبريني في كم تجب الزكاة في الذهب؟ قالت لا زكاة فيما دون عشرين مثقالاً ، فإذا بلغت العشرين ففيها نصف مثقال وما زاد فبحسابه . قال : فاخبريني في كم تجب الزكاة في الورق؟ قالت : ليس فيما دون مائتي درهم زكاة ، فإذا بلغت المائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه . قال : أحسنت ، فاخبريني في كم تجب الزكاة في الإبل ؟ قالت : في كل خمس شاة إلى خمس وعشرين ففيها بنت مخاض . قال : أحسنت ، فاخبريني في كم تجب الزكاة في الشياه؟ قالت : إذا بلغت أربعين ففيها شاة . قال : أحسنت ، فاخبريني عن الصوم وفروضه . قالت : أما فروض الصوم : فالنيّة والإمساك عن الأكل والشرب والجماع وتعمّد القيّ ، وهو واجب على كل مكلف خال عن الحيض والنفاس ، ويجب برؤية الهلال أو بأخبار عدل يقع في قلب المخبر صدقه ومن واجباته تبييت النيّة . وأما سننه : فتعجيل الفطر وتأخير السحور وترك الكلام إلاّ في الخير والذكر وتلاوة القرآن . قال : أحسنت ، فاخبريني عن شيء لا يفسد الصوم ؟ قالت : الأدهان والإكتحال وغبار الطريق وابتلاع الريق وخروج المني بالإحتلام والنظر لامرأة أجنبية والفصادة والحجامة ، هذا كله لا يفسد الصوم . قال : أحسنت ، فاخبريني عن صلاة العيدين . قالت : ركعتان وهما سنّة من غير آذان ولا إقامة . ولكن يقول الصلاة جامعة ويكبّر في الأولى سبعاً سوى تكبيرة الإحرام ، وفي الثانية خمساً سوى تكبيرة القيام على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ويتشهّد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 442

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية لما أخبرت الفقيه عن صلاة العيدين قال لها : أحسنت ، فاخبريني عن صلاة كسوف الشمس وخسوف القمر . قالت : ركعتان بغير آذان ولا إقامة ، يأتي في كل ركعة بقيامين وركوعين وسجودين ويجلس ويتشهّد ويسلّم . قال : أحسنت ، فاخبريني عن صلاة الإستسقاء . قالت : ركعتان بغير آذان ولا إقامة ويتشهّد ويسلّم ثم يخطب ويستغفر الله تعالى مكان التكبير في خطبتي العيدين ، ويحول رداءه بأن يجعل أعلاه أسفله ويدعو ويتضرّع . قال : أحسنت ، فاخبريني عن صلاة الوتر . قالت : الوتر أقلّه ركعة واحدة وأكثره إحدى عشرة . قال : أحسنت ، فاخبريني عن صلاة الضحى . قالت : الضحى أقلّها ركعتان وأكثرها إثنتا عشرة ركعة . قال : أحسنت ، فاخبريني عن الإعتكاف . قالت : هو سنّة . قال : فما شرطه ؟ قالت : النيّة ، وأن لا يخرج من المسجد إلاّ لحاجة ولا يباشر النساء وأن يصوم ويترك الكلام . قال : أحسنت ، فاخبريني بماذا يجب الحج ؟ قالت : بالبلوغ والعقل والإسلام والإستطاعة ، وهو واجب في العمر مرة واحدة قبل الموت . قال : فما فروض الحج ؟ قالت : الإحرام والوقوف بعرفة والطواف والسعي والحلق أو التقصير . قال : فما فروض العمرة؟ قالت : الإحرام بها وطوافها وسعيها . قال : فما فروض الإحرام ؟ قالت : التجرّد من المخيط واجتناب الطيب وترك حلق الرأس وتقليم الأظافر وقتل الصيد والنكاح . قال : فما سنن الحج ؟ قالت : التلبية وطواف القدوم والوداع والمبيت بالمزدلفة وبمنى ورمي الجمار . قال : أحسنت ، فما الجهاد وما أركانه ؟ قالت : أما أركانه ، فخروج الكفّار علينا ووجود الإمام والعدّة

والثبات عند لقاء العدو. وأما سننه، فهو التحريض على القتال لقوله تعالى: يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال. قال: أحسنت، فاخبريني عن فروض البيع وسننه. قالت: أما فروض البيع فالإيجاب والقبول وأن يكون المبيع مملوكاً منتفعاً به مقدوراً على تسلّمه وترك الربا. وأما سننه فالإقالة والخيار قبل التفريق لقوله ﷺ: البيعان بالخيار ما لم يتفرّقا. قال: أحسنت، فاخبريني عن شيء لا يجوز بيع بعضه ببعض. قالت: حفظت في ذلك حديثا صحيحاً عن نافع عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن بيع التمر بالرطب والتين الرطب باليابس والقديد باللحم والزبد بالسمن، وكل ما كان من صنف واحد مأكول فلا يجوز بيع بعضه ببعض. فلمّا سمع الفقيه كلامها وعرف أنها ذكية فطنة حاذقة عالمة بالفقه والحديث والتفسير وغير ذلك قال في نفسه: لا بدّ من أن أتحيل عليها حتى أغلبها في مجلس أمير المؤمنين. فقال لها: يا جارية، ما معنى الوضوء في اللغة؟ قالت: الوضوء في اللغة النظافة والخلوص من الأدناس. قال: فما معنى الصلاة في اللغة؟ قالت: الدعاء بخير. قال: فما معنى الغسل في اللغة؟ قالت: التطهير. قال: فما معنى الصوم لغة؟ قالت: الإمساك. قال: فما معنى الزكاة لغة قالت: الزيادة. قال: فما معنى الحج لغة؟ قالت: القصد. قال: فما معنى الجهاد؟ قالت: الدفاع. فانقطعت حجة الفقيه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 443

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الفقيه لما انقطعت حجته قام قائماً على قدميه وقال: إشهد عليّ يا أمير المؤمنين بأن الجارية أعلم مني بالفقه. فقالت له الجارية: أسألك عن شيء فأتني بجوابه سريعاً إن كنت عارفاً. قال: إسألي. قالت: فما سهام الدين. قال: هي عشرة: الأول الشهادة وهي الملة، الثاني الصلاة وهي الفطرة، الثالث الزكاة وهي الطهارة، الرابع الصوم وهي الجنة، الخامس الحج وهي الشريعة، السادس الجهاد وهي الكفاية، السابع والثامن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما الغيرة، التاسع الجماعة وهي الألفة، العاشر طلب العلم وهو الطريق الحميدة. قالت: أحسنت وقد بقيت عليك مسألة، فما أصول الإسلام؟ قال: هي أربعة: صحة العقد وصدق القصد وحفظ الحد والوفاء بالعهد. قالت: بقي مسألة أخرى فإن أجبت، وإلاّ أخذت ثيابك. قال: قولي يا جارية. قالت: فما فروع الإسلام؟ فسكت ساعة ولم يجب بشيء. فقالت: إنزع ثيابك وأنا أفسّرها لك. قال أمير المؤمنين: فسّريها وأنا انزع لك ما عليه من الثياب. قالت: هي اثنان وعشرون فرعاً: التمسك بكتاب الله تعالى والإقتداء برسوله ﷺ وكفّ الأذى وأكل الحلال واجتناب الحرام ورد المظالم إلى أهلها والتوبة والفقه في الدين وحب الخليل واتباع التنزيل وصدق المرسلين وخوف التبديل والتأهّب للرحيل وقوة اليقين والعفو عند القدرة والقوة عند الضعف والصبر عند المصيبة ومعرفة الله تعالى ومعرفة ما جاء به نبيه ﷺ ومخالفة اللعين إبليس ومجاهدة النفس ومخالفتها والإخلاص لله. فلمّا سمع أمير المؤمنين ذلك منها أمر بنزع ثياب الفقيه وطيلسانه، فنزعهما ذلك الفقيه وخرج مقهوراً منها خجلاً من بين يدي أمير المؤمنين. ثم قام لها رجل آخر وقال: يا جارية إسمعي مني مسائل قليلة. قالت له: قل. قال: فما صحة التسليم؟ قالت: القدر والمعلوم والجنس المعلوم والأجل المعلوم. قال: أحسنت، فما فروض الأكل وسننه؟ قالت: فروض الأكل الإعتراف بأن الله تعالى

رزقه وأطعمه وسقاه والشكر لله تعالى على ذلك . قال : فما الشكر ؟ قالت : صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله . قال : فما سنن الأكل ؟ قالت : التسمية وغسل اليدين والجلوس على الورك الأيسر والأكل بثلاث أصابع والأكل مما يليك . قال : أحسنت ، فاخبرني ما آداب الأكل ؟ قالت : أن تصغّر اللقمة وتقل النظرة إلى جليسك . قال : أحسنت . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 444

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية لما سئلت عن أدب الأكل وذكرت الجواب قال لها الفقيه السائل : أحسنت ، فاخبرني عن عقائد القلب وأضّدادها . قالت : هي ثلاث وأضّدادها ثلاث : الأولى اعتقاد الإيمان وضدها مجانبة الكفر ، والثانية اعتقاد السنّة وضدها مجانبة البدعة ، والثالثة اعتقاد الطاعة وضدها مجانبة المعصية . قال : أحسنت ، فاخبرني عن شروط الوضوء . قالت : الإسلام والتمييز وطهور الماء وعدم المانع الحسي وعدم المانع الشرعي . قال : أحسنت ، فاخبرني عن الإيمان . قالت : الإيمان ينقسم إلى تسعة أقسام : إيمان بالمعبود وإيمان بالعبودية وإيمان بالخصوصية وإيمان بالقبضتين وإيمان بالقدر وإيمان بالناسخ وإيمان بالمنسوخ ، وأن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومرّه . قال : أحسنت ، فاخبرني عن ثلاث تمنع ثلاثاً . قالت : نعم . روي عن سفيان الثوري أنه قال : ثلاث تذهب ثلاثاً ، الإستخفاف بالصالحين يذهب الآخرة والإستخفاف بالملوك يذهب الروح والإستخفاف بالنفقة يذهب المال . قال : أحسنت ، فاخبرني عن مفاتيح السموات وكم لها من باب ؟ قالت : قال الله تعالى : ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾ النبإ١٩ . وقال عليه الصلاة والسلام : ليس يعلم عدة أبواب السماء إلاّ الذي خلق السماء ، وما من أحد من بني آدم إلاّ وله بابان في السماء ، باب ينزل منه رزقه وباب يصعد منه عمله ولا يغلق باب رزقه حتى ينقطع أجله ولا يغلق باب عمله حتى تصعد روحه . قال : أحسنت ، فاخبرني عن شيء وعن نصف شيء وعن لا شيء . قالت : الشيء هو المؤمن ونصف الشيء هو المنافق واللاشيء هو الكافر . قال : أحسنت ، فاخبرني عن القلوب . قالت : قلب سليم وقلب سقيم وقلب منيب وقلب نذير وقلب منير . فالقلب السليم هو قلب الخليل والقلب السقيم هو قلب الكافر والقلب المنيب هو قلب المتّقين الخائفين والقلب النذير هو قلب سيدنا محمد ﷺ والقلب المنير هو قلب من يتبعه . وقلوب العلماء ثلاثة : قلب متعلّق بالدنيا وقلب متعلّق بالآخرة وقلب متعلّق بمولاه . وقيل : إن القلوب ثلاثة : قلب معلّق وهو قلب الكافر وقلب معدوم وهو قلب المنافق وقلب ثابت وهو قلب المؤمن . وقيل هي ثلاثة : قلب مشروح بالنور والإيمان وقلب مجروح من خوف الهجران وقلب خائف من الخذلان . قال : أحسنت . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلا م المباح .

فلما كانت الليلة 445

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية لما سألها الفقيه الثاني عن المسائل وأجابته وقال لها : أحسنت . قالت : يا أمير المؤمنين ، إنه قد سألني حتى عيي ، وانا أسأله مسألتين فإن أتى بجوابهما فذاك وإلاّ أخذت ثيابه وانصرف بسلام . فقال لها الفقيه : سليني عمّا شئت . قالت : فما تقول في الإيمان ؟ قال : إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل

بالجوارح . قال عليه الصلاة والسلام : لا يكمل المرء من الإيمان حتى يكمل فيه خمس خصال : التوكّل على الله والتفويض إلى الله والتسليم لأمر الله والرضى بقضاء الله وأن تكون أموره لله، فإنه من أحب لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان . قالت : فاخبرني عن فرض الفرض وعن فرض في ابتداء كل فرض وعن فرض يحتاج إليه كل فرض وعن فرض يستغرق كل فرض وعن سنّة داخلة في الفرض وعن سنّة يتم بها الفرض . فسكت ولم يجب بشيء . فأمرها أمير المؤمنين بأن تفسّرها وأمره بأن ينزع ثيابه ويعطيها إيّاها . فعند ذلك قالت : يا فقيه، أما فرض الفرض فمعرفة الله تعالى، وأما الفرض في ابتداء كل فرض فهي شهادة إن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، وأما الفرض الذي يحتاج إليه كل فرض فهو الوضوء، وأما الفرض المستغرق كل فرض فهو الغسل من الجنابة، وأما السنة الداخلة في الفرض فهي تخليل الأصابع وتخليل اللحية الكثيفة، وأما السنّة التي يتم بها الفرض فهو الإختتان . فعند ذلك تبيّن عجز الفقيه وقام على قدميه وقال : أشهد الله يا أمير المؤمنين أن هذه الجارية أعلم مني بالفقه وغيره . ثم نزع ثيابه وانصرف مقهوراً .

وأما حكايتها مع المقرئ فإنها التفتت إلى من بقي من العلماء الحاضرين وقالت : أيكم الأستاذ المقرئ العالم بالقراءات السبع والنحو واللغة؟ فقام اليها المقرئ وجلس بين يديها وقال لها : هل قرأت كتاب الله تعالى وأحكمت معرفة آياته وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومكيه ومدنيه وفهمت تغيره وعرفته على الروايات والأصول في القراءات؟ قالت : نعم . قال : أخبريني عن عدد سور القرآن؟ وكم فيه من عشر؟ وكم فيه من آية؟ وكم فيه من خوف؟ وكم فيه من سجدة؟ وكم فيه من نبي مذكور؟ وكم فيه من سورة مدنية؟ وكم فيه من سورة مكية؟ وكم فيه من طير؟ قالت : يا سيدي، أما سور القرآن فمائة وأربع عشرة سورة، المكي منها سبعون سورة، والمدني أربع وأربعون سورة . وأما أعشاره فستمائة عشر وواحد وعشرون عشراً . وأما الآيات فستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية . وأما كلماته فتسعة وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة . وأما حروفه فثلاثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفاً وستمائة وسبعون حرفاً، وللقارىء بكل حرف عشر حسنات . وأما السجدات فأربع عشرة سجدة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 446

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما سألها المقرئ عن القرآن أجابته وقالت له : وأما الأنبياء الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن فخمسة وعشرون نبياً وهم : آدم ونوح وابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف واليسع ويونس ولوط وصالح وهود وشعيب وداود وسليمان وذو الكفل وادريس والياس ويحيى وزكريا وأيوب وموسى وهارون وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وأما الطير فهن تسع . قال : ما اسمهنّ؟ قالت : البعوض والنحل والذباب والنمل والهدهد والغراب والجراد والأبابيل وطير عيسى عليه السلام وهو الخفاش . قال : أحسنت، فاخبريني أي سورة في القرآن أفضل ؟ قالت : سورة البقرة . قال : فأي آية أعظم . قالت : آية الكرسي وهي خمسون كلمة مع كل كلمة خمسون بركة . قال : فأي آية فيها تسع آيات؟ قالت : قوله تعالى : ﴿إن في خلق السموات

والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ البقرة ١٦٩ إلى آخر الآية. قالت أحسنت، فاخبريني أي آية أعدل. قالت: قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ النحل ٩٠. قال: فأي آية اطمع؟ قالت: قوله تعالى: ﴿أيطمع كل أمرىء منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ المعارج ٣٨. قال: فأي آية أرجى؟ قالت: قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ الزمر ٥٣. قال: أحسنت، فاخبريني بأي قراءة تقرئين؟ قالت: بقراءة أهل الجنة وهي قراءة نافع. قال: فأي آية كذب فيها الأنبياء؟ قالت: قوله تعالى: ﴿وجاؤوا على قميصه بدم كذب وهم أخوة يوسف﴾ يوسف ١٨. قال: فاخبريني أي آية صدق فيها الكفّار؟ قالت: قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء. وقالت النصارى ليست اليهود على شيء. وهم يتلون الكتاب وهم صدقوا جميعاً﴾ البقرة ١١٣. قال: فأي آية قالها الله لنفسه؟ قالت: قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾ الذرايات ٥٦. قال: فأي آية فيها قول الملائكة؟ قالت: قوله تعالى: ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك﴾ البقرة ٣٠. قال: فاخبريني عن أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وما جاء فيها. قالت: التعوّذ واجب أمر الله به عند القراءات، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ النحل ٩٨. قال: فاخبريني ما لفظ الإستعاذة وما الخلاف فيها؟ قالت: منهم من يستعيذ بقوله: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ومنهم من يقول: أعوذ بالله القوي والأحسن ما نطق به القرآن العظيم ووردت به السنّة. وكان ﷺ إذا استفتح القرآن قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وروى عن نافع عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام يصلي في الليل قال: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً. ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن همزات الشياطين ونزعاتهم. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أول ما نزل جبريل على النبي ﷺ علّمه الإستعاذة وقال له: قل يا محمد أعوذ بالله السميع العليم. ثم قل: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم اقرأ: ﴿باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق﴾ العلق ١, ٢. فلمّا سمع المقرئ كلامها تعجّب من لفظها وفصاحتها وعلمها وفضلها ثم قال لها: يا جارية، ما تقولين في قوله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ النمل ١. هل هي آية من آيات القرآن؟ قالت: نعم، آية من القرآن في النمل وآية بين كل سورتين، والإختلاف في ذلك بين العلماء كثير. قال: أحسنت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 447

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية أجابت المقرئ وقالت: إن بسم الله الرحمن الرحيم فيها اختلاف كثير بين العلماء. قال: أحسنت، فاخبريني لم لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم في أول سورة براءة؟ قالت: لما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بينه ﷺ وبين المشركين، وجّه النبي ﷺ علياً بن أبي طالب كرّم الله وجهه في يوم موسم بسورة براءة، فقرأها عليهم ولم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. قال: فاخبريني عن فضل بسم الله الرحمن الرحيم وبركتها. قالت: روي عن النبي ﷺ أنه قال: ما قرأت بسم الله الرحمن الرحيم على شيء إلاّ كان فيه البركة، وعنه ﷺ حلف ربّ العزّة بعزّته لا تسمّى بسم الله الرحمن

الرحيم على مريض إلاّ عوفي من مرضه . وقيل : لما خلق الله العرش اضطرب اضطراباً عظيماً فكتب عليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، فسكن اضطرابه . ولما نزلت بسم الله الرحيم على رسول الله ﷺ قال : آمنت من ثلاثة : من الخسف والمسخ والغرق . وفضلها عظيم وبركتها كثيرة يطول شرحها . وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : يؤتى برجل يوم القيامة فيحاسب فلا يلقى له حسنة فيؤمر به إلى النار فيقول : إلهي ما أنصفتني . فيقول الله عزّ وجلّ : ولِمَ ذلك ؟ فيقول : يا ربّ لأنك سمّيت نفسك الرحمن الرحيم وتريد أن تعذّبني بالنار . فيقول الله جلّ جلاله : أنا سمّيت نفسي الرحمن الرحيم ، إمضوا بعبدي إلى الجنة برحمتي وأنا أرحم الراحمين . قال : أحسنت ، فاخبريني عن أول بدء بسم الله الرحمن الرحيم . قالت : لما أنزل الله تعالى القرآن كتبوا : باسمك اللهم . فلمّا أنزل الله تعالى : ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياماً تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ الإسراء ١١٠ . كتبوا بسم الله الرحمن . ﴿فلمّا نزل إلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم ﴾ البقرة ١٦٣ . كتبوا بسم الله الرحمن الرحيم . فلمّا سمع المقرئ كلامها أطرق وقال في نفسه : إن هذا العجب عجيب ، وكيف تكلمت هذه الجارية في أول بدء بسم الله الرحمن الرحيم ؟ والله لا بد من أن أتحيّل عليها لعلّي أغلبها . ثم قال لها : يا جارية ، هل أنزل الله القرآن جملة واحدة أو أنزله متفرّقاً ؟ قالت : نزل به جبريل الأمين عليه السلام من عند ربّ العالمين على نبيه محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين ، بالأمر والنهي والوعد والوعيد والأخبار والأمثال في عشرين سَنَة آيات متفرّقات على حسب الوقائع . قال : أحسنت ، فاخبريني عن أول سورة نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وسلم . قالت : في قول ابن عباس سورة العلق ، وفي قول جابر بن عبد الله سورة المدثر . ثم أنزلت السورة والآيات بعد ذلك . قال : فاخبريني عن آخر آية نزلت . قالت : آخر آية نزلت عليه آية الربا . وقيل : ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ النصر ١ .
وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 448

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية لما أجابت المقرئ عن آخر آية نزلت في القرآن قال لها : أحسنت ، فاخبريني عن عدة الصحابة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ . قالت : هم أربعة : أُبَيّ بن كعب وزيد بن ثابت وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين . قال : أحسنت ، فاخبريني عن القرّاء الذين تؤخذ عنهم القراءات . قالت : هم أربعة : عبد الله بن مسعود وأُبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم بن عبد الله . قال : فما تقولين في قوله تعالى : ﴿وما ذبح على النصب﴾ المائدة ٣ . قالت : هي الأصنام التي تنصب وتعبد من دون الله تعالى ، والعياذ بالله تعالى . قال : فما تقولين في قوله تعالى : ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ المائدة ١١٦ . قالت : تعلم حقيقتي وما عندي ولا أعلم ما عندك . والدليل على هذا قوله : ﴿إنك أنت علاّم الغيوب﴾ المائدة ١١٦ . وقيل : تعلم عيني ولا أعلم عينك . قال : فما تقولين في قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ المائدة ٨٧ . قالت : حدّثني الشيخ رحمه الله تعالى عن الضحاك أنه قال : هم قوم من المسلمين . قالوا : نقطع مذاكيرنا ونلبس المسوح . فنزلت هذه الآية . وقال قتادة : إنها نزلت في جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وهم : علي بن أبي طالب وعثمان بن مصعب وغيرهما . قالوا : نخصي

أنفسنا ونلبس الشعر ونترهّب. فنزلت هذه الآية. قال: فما تقولين في قوله تعالى: ﴿واتخذ الله ابراهيم خليلاً﴾ قالت: الخليل المحتاج الفقير. وفي قول آخر هو المحب المنقطع إلى الله تعالى الذي ليس لانقطاعه اختلال. فلمّا رآها المقرئ تمرّ في كلامها مرّ السحاب ولم تتوقف في الجواب، قام قائماً على قدميه وقال: أشهد الله يا أمير المؤمنين أن هذه الجارية أعلم مني بالقراءات وغيرها. فعند ذلك قالت الجارية: أنا أسألك مسألة واحدة فإن أتيت بجوابها فذاك وإلا نزعت ثيابك. قال أمير المؤمنين: سليه. فقالت: ما تقول في آية فيها ثلاثة وعشرون كافاً وآية فيها ستة عشر ميماً وآية فيها مائة وأربعون عيناً وحزب ليس فيه جلالة؟ فعجز المقرئ عن الجواب. فقالت: إنزع ثيابك. فنزع ثيابه. ثم قالت: يا أمير المؤمنين، إن الآية التي فيها ستة عشر ميماً في سورة هود وهي قوله تعالى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك﴾ هود ٤٨الآية. وإن الآية التي فيها ثلاثة وعشرون كافاً في سورة البقرة وهي آية الدين، وإن الآية التي فيها مائة وأربعون عيناً في سورة الأعراف وهي قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ الأعراف ١٥٥. لكل رجل عينان. وإن الحزب الذي ليس فيه جلالة هو سورة: ﴿اقتربت الساعة وانشقّ القمر﴾ القمر ١. والرحمن والواقعة. فعند ذلك نزع المقرئ ثيابه التي عليه وانصرف خجلاً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 449

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما غلبت المقرئ ونزع ثيابه وانصرف خجلاً، تقدّم إليها الطبيب الماهر وقال: فرغنا من علم الأديان فتيقظي لعلم الأبدان وأخبريني عن الإنسان وكيف خلقه؟ وكم في جسده من عرق؟ وكم من عظم؟ وكم من فقارة؟ وأين أول العروق؟ ولِمَ سمّي آدم آدم؟ قالت: سمّي آدم لأدمته أي سمرة لونه. وقيل: لأنه خلق من أديم الأرض أي ظاهر وجهها، صدره من تربة الكعبة ورأسه من تربة المشرق ورجلاه من تربة المغرب. وخلق له سبعة أبواب في رأسه: وهي العينان والأذنان والمنخران والفم. وجعل له منفذين: قبله ودبره. فجعل العينين حاسة النظر والأذنين حاسة السمع والمنخرين حاسة الشم والفم حاسة الذوق، وجعل اللسان ينطق بما في ضمير الإنسان. وخلق آدم مركباً من أربعة عناصر وهي: الماء والتراب والنار والهواء. فكانت الصفراء طبع النار وهي حارة يابسة والسوداء طبع التراب وهو بارد يابس والبلغم طبع الماء وهو بارد رطب والدم طبع الهواء وهو حار رطب. وخلق في الإنسان ثلاثمائة وستين عرقاً ومائتين وأربعين عظماً وثلاثة أرواح: حيواني ونفساني وطبيعي وجعل لكل منها حكماً. وخلق الله له قلباً وطحالاً ورئة وستة أمعاء وكبداً وكليتين وأليتين ومخاً وعظماً وجلداً وخمس حواس: سامعة وباصرة وشامة وذائقة ولامسة. وجعل القلب في الجانب الأيسر من الصدر وجعل المعدة أمام القلب وجعل الرئة مروحة للقلب وجعل الكبد في الجانب الأيمن محاذية للقلب وخلق ما دون ذلك من الحجّاب والأمعاء ترائب الصدر وشبكها بالأضلاع. قال: أحسنت، فاخبريني كم في رأس ابن آدم من بطن؟ قالت: ثلاثة بطون وهي تشمل على خمس قوى تسمّى الحواس الباطنية وهي: الحس المشترك والمتصرفة والواهمة والحافظة. قال: أحسنت، فاخبريني عن هيكل العظام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 450

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لمّا قال لها الطبيب : أخبريني عن هيكل العظام ؟ قالت : هو مؤلف من مائتين وأربعين عظماً وينقسم إلى ثلاثة أقسام : رأس وجذع وأطراف . أما الرأس فتنقسم إلى جمجمة ووجه . فالجمجمة مركبة من ثمانية عظام ويضاف إليها عظميات السمع الأربع . والوجه ينقسم إلى فك علوي وفك سفلي يشتمل على أحد عشر عظماً والسفلي عظم واحد، ويضاف إليه الأسنان وهي إثنتان وثلاثون سناً وكذا العظم اللامي . وأما الجذع فينقسم إلى سلسلة فقارية وصدر وحوض ، فالسلسلة مركبة من أربعة وعشرين عظماً تسمى الفقار والصدر مركب من القفص والأضلاع التي هي أربع وعشرون ضلعاً في كل جانب إثنتا عشرة، والحوض مركب من العظمين الحرقفيين والعجز والعصعص . وأما الأطراف فتنقسم إلى طرفين علويين وطرفين سفليين، فالعلويان ينقسم كل منهما أولاً إلى منكب مركب من الكتف والترقوة، وثانياً إلى عضد وهو عظم واحد، وثالثاً إلى ساعد مركب من عظمين هما : الكعبرة والزند . ورابعاً إلى كف ينقسم إلى رسغ ومشط وأصابع . فالرسغ مركب من ثمانية عظام مصفوفة صفين، كل منهما يشتمل على أربعة عظام . والمشط يشتمل على خمسة عظام والأصابع عدتها خمس : كل منهما مركب من ثلاثة عظام تسمّى السلاميات إلاّ الإبهام ، فإنها مركبة من اثنين فقط . والطرفان السفليان ينقسم كل منهما : أولاً إلى فخذ هو عظم واحد، وثانياً إلى ساق مركب من ثلاثة عظام القصبة والشظية والرضفة . وثالثاً إلى قدم ينقسم كالكف إلى رسغ ومشط وأصابع . فالرسغ مركب من سبعة عظام مصفوفة صفين : الأول فيه عظمان والثاني فيه خمسة والمشط مركب من خمسة عظام . والأصابع عدتها خمس كل منهما مركب من ثلاث سلاميات إلاّ الإبهام فمن سلاميين فقط . قال : أحسنت، فاخبريني عن أصل العروق ؟ قالت : أصل العروق الوتين ومنه تتشعّب العروق وهي كثيرة لا يعلم عددها إلاّ الذي خلقها . وقيل : إنها ثلاثمائة وستون عرقاً كما سبق . وقد جعل الله اللسان ترجماناً والعينين سراجين والمنخرين منشقين واليدين جناحين . ثم إن الكبد فيه الرحمة والطحال فيه الضحك والكليتين فيهما المكر والرئة مروحة والمعدة خزانة والقلب عماد الجسد، فإذا صلح القلب صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله . قال : أخبريني عن الدلالات والعلاقات الظاهرة التي يستدل بها على المرض في الأعضاء الظاهرة والباطنة ؟ قالت : نعم . إذا كان الطبيب ذا فهم ونظر في أحوال البدن واستدلّ بجس اليدين على الصلابة والحرارة واليبوسة والبرودة والرطوبة، وقد توجد في المحسوس دلالات على الأمراض الباطنة كصفرة العينين فإنها تدل على اليرقان، تحقف الظهر فإنه يدل على ذات الرئة . قال : أحسنت . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 451

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما وصفت للطبيب العلامات الظاهرة قال لها : أحسنت، فما العلامات الباطنة ؟ قالت : إن الوقوف على الأمراض بالعلامات الباطنة يؤخذ من ستة قوانين : الأول من الأفعال، والثاني مما يستفرغ من البدن، والثالث من الوجع ، والرابع من الموضع ، والخامس من الورم ، والسادس من الأعراض .

قال : أخبريني بماذا يصل الأذى إلى الرأس ؟ قالت : بإدخال الطعام على الطعام قبل هضم الأول ، والشبع على الشبع فهو الذي أفنى الأمم . فمن أراد البقاء فليباكر بالغدا ولا ينمس بالعشاء ، وليقل من مجامعة النساء وليخفف الردى ، أي لا يكثر الفصد ولا الحجامة . وأن يجعل بطنه ثلاثة أثلاث : ثلث للطعام وثلث للماء وثلث للنفس . لأن مصران بني آدم ثمانية عشر شبراً يجب أن يجعل ستة للطعام وستة للشراب وستة للنفس ، وإذا مشى برفق كان أوفق له وأجمل لبدنه وأكمل لقوله تعالى : ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ الإسراء ٣٧ . قال : أحسنت ، فاخبريني ما علامة الصفراء وماذا يخاف منها ؟ قالت : تعرف بصفرة اللون ومرارة الفم والجفاف وضعف الشهوة وسرعة النبض ، ويخاف صاحبها من الحمى المحرقة والسرسام والجمرة واليرقان والورم وقروح الأمعاء وكثرة العطش ، فهذه علامات الصفراء . قال : أحسنت ، فاخبريني عن علامات السوداء وماذا يخاف على صاحبها إذا غلبت على البدن ؟ قالت : إنها تتولد منها الشهوة الكاذبة وكثرة الوسوسة والهمّ والغمّ ، فينبغي حينئذ أن تستفرغ وإلاّ تولّد منها الماليخوليا والجذام والسرطان وأوجاع الطحال وقروح الأمعاء . قال : أحسنت ، فاخبريني إلى كم جزء ينقسم الطب ؟ قالت : ينقسم إلى جزءين : أحدهما علم تدبير الأبدان المريضة والآخر كيفية ردّها إلى حال صحتها . قال : فاخبريني عن وقت يكون شرب الأدوية فيه أنفع منه في غيره . قالت : إذا جرى الماء في العود وانعقد الحب في العنقود وطلع سعد السعود فقد دخل وقت نفع شرب الدواء وطرد الداء . قال : فاخبريني عن وقت إذا شرب فيه الإنسان من إناء جديد يكون شرابه أهنأ وأمرأ منه في غيره وتصعد له رائحة طيبة زكية . قالت : إذا صبر بعد أكل الطعام ساعة . فقد قال الشاعر : [من الكامل]

لا تَشْرَبَنْ مِنْ بَعْدِ أَكْلِكَ عاجِلاً فَتَسُوقَ جِسْمَكَ لِلأَذَى بِزِمامِ
وٱصْبِرْ قَلِيلاً بَعْدَ أَكْلِكَ ساعَةً فَعَساكَ تَظْفَرُ يا أَخِي بِمُرامِ

قال : فاخبريني عن طعام لا تتسبب عنه أسقام . قالت : هو الذي لا يطعم إلاّ بعد الجوع وإذا طعم لا تمتلىء منه الضلوع لقول جالينوس الحكيم : من أراد إدخال الطعام فليبطىء ثم لا يخطىء . ولنختم بقوله عليه الصلاة والسلام : المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة يعني التخمة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 452

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية لما قالت للحكيم : المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء الحديث . قال لها : فما تقولين في الحمام ؟ قالت : لا يدخله شبعان . وقد قال النبي ﷺ : نعم البيت الحمام ينظف الجسد ويذكر النار . قال : فأي الحمامات أحسن ماء ؟ قالت : ما عَذُبَ ماؤه واتّسع فضاؤه وطاب هواؤه ، بحيث تكون أهويته أربعة : خريفي وصيفي وشتوي وربيعي . قال : فاخبريني أي الطعام أفضل ؟ قالت : ما صنعت النساء وقلّ فيه الفناء وأكلته بالهناء ، وأفضل الطعام الثريد لقوله عليه الصلاة والسلام : فضل الثريد على الطعام كفضل عائشة على سائر النساء . قال : فأي الأدم أفضل ؟ قالت : اللحم ، لقوله عليه الصلاة والسلام : أفضل الأدم اللحم لأنه لذة الدنيا والآخرة . قال : فأي اللحم أفضل ؟ قالت :

الضأن، ويجتنب القديد لأنه لا فائدة فيه. قال: فاخبريني عن الفاكهة. قالت: كلها في إقبالها واتركها إذا انقضى زمانها. قال: فما تقولين في شرب الماء؟ قالت: لا تشربه شرباً ولا تعبه عباً فإنه يؤذيك صداعه ويشوّش عليك من الأذى أنواعه، ولا تشربه عقب خروجك من الحمام ولا عقب الجماع ولا عقب الطعام إلاّ بعد مضي خمس عشرة درجة للشاب وللشيخ بعد أربعين درجة، ولا عقب يقظتك من المنام. قال: أحسنت، فاخبريني عن شرب الخمر. قالت: أفلا يكفيك زاجراً ما جاء في كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿إنما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ المائدة٩٠. وقال تعالى: يسألونك عن الخمر والميسر. قل: ﴿فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ البقرة٢١٩. وقد قال الشاعر: [من السريع]

يا شارِبَ الخَمْرِ أَمَا تَسْتَحِي ... تَشْرَبُ شَيْئاً حَرَّمَ اللهُ
فَخَلِّهِ عَنْكَ ولا تَأْتِهِ ... فَفِيهِ حَقّاً عَنَّفَ اللهُ

وقال آخر في المعنى: [من الوافر]

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى زالَ عَقْلي ... فَبِئْسَ الشُّرْبُ حَيْثُ العَقْلُ زالا

وأما المنافع التي فيها فإنها تفتت حصى الكلى وتقوّي الأمعاء وتنفي الهمّ وتحرك الكرم وتحفظ الصحة وتعين على الهضم وتصح البدن وتخرج الأمراض من المفاصل وتنقي الجسم من الأخلاط الفاسدة وتولد الطرب والفرح وتقوّي الغريزية وتشدّ المثانة وتقوّي الكبد وتفتح السدد وتحمّر الوجه وتنقي الفضلات من الرأس والدماغ وتبطىء بالمشيب، ولولا الله عز وجلّ حرمها لم يكن على وجه الأرض ما يقوم مقامها. وأما الميسر فهو القمار قال: فأي شيء من الخمر أحسن؟ قالت: ما كان بعد ثمانين يوماً أو أكثر وقد اعتصر من عنب أبيض ولم يشبه ماء ولا شيء على وجه الأرض مثلها. قال: فما تقولين في الحجامة؟ قالت: ذلك لمن كان ممتلئاً من الدم وليس به نقصان في دمه، فمن أراد الحجامة فليحتجم في نقصان الهلال في يوم هو بلا غيم ولا ريح ولا مطر ويكون في السابع عشر من الشهر، وإن وافق يوم الثلاثاء كان أبلغ في النفع ولا شيء أنفع من الحجامة للدماغ والعينين وتصفية الذهن. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 453

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما وصفت منافع الحجامة قال لها الحكيم: أخبريني عن أحسن الحجامة؟ قالت: أحسنها على الريق، فإنها تزيد في العقل وفي الحفظ لما روي عنه عليه الصلاة والسلام، أنه كان ما اشتكى إليه أحد وجعاً في رأسه ورجليه إلاّ قال له: إحتجم. وإذا احتجم لا يأكل على الريق مالحاً فإنه يورث الجرب ولا يأكل على أثره حامضاً. قال: فأي وقت تكره فيه الحجامة؟ قالت: يوم السبت والأربعاء، ومن احتجم فيهما فلا يلومنّ إلاّ نفسه. ولا يحتجم في شدة الحر ولا في شدة البرد وخيار أيامه أيام الربيع. قال: أخبريني عن المجامعة. فلمّا سمعت ذلك أطرقت وطأطأت رأسها واستحيت إجلالاً لأمير المؤمنين ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين ما عجزت بل خجلت، وإن جوابه على طرف لساني. قال

لها : يا جارية تكلّمي . قالت له : إن النكاح فيه فضائل مزيدة وأمور حميدة منها : إنه يخفف البدن الممتلىء بالسوداء ويسكن حرارة العشق ويجلب المحبة ويبسط القلب ويقطع الوحشة ، والإكثار منه في أيام الصيف والخريف أشدّ ضرراً منه في أيام الشتاء والربيع . قال : فاخبريني عن منافعه ؟ قالت : إنه يزيل الهمّ والوسواس ويسكن العشق والغضب وينفع القروح هذا إذا كان الغالب على الطبع البرودة واليبوسة ، إلا فالإكثار منه يضعف النظر ويتولّد منه وجع الساقين والرأس والظهر . وإيّاك إيّاك من مجامعة العجوز فإنها من القواتل . قال الإمام عليّ كرّم الله وجهه : أربع يقتلن ويهرمن البدن : دخول الحمام على الشبع وأكل المالح والمجامعة على الإمتلاء ومجامعة المريضة فإنها تضعف قوّتك وتسقم بدنك ، والعجوز سمّ قاتل . قال بعضهم : إياك أن تتزوّج عجوزاً ولو كانت أكثر من قارون كنوزاً . قال : فما أطيب الجماع . قالت : إذا كانت المرأة صغيرة السن مليحة القد حسنة الخدّ كريمة الجد بارزة النهد فهي تزيدك قوّة في صحة بدنك . وتكون كما قال فيها بعض واصفيها : [من الكامل]

مَهْما لَحَظْتَ عَلِمْتَ ما قَدْ تَبْتَغِي   وَحْياً بِدُونِ إشارَةٍ وبَيانِ
وإذا نَظَرْتَ إلى بَدِيعِ جَمالِها   أَغْنَتْ مَحاسِنُها عَنِ البُسْتانِ

قال : فاخبريني عن أي وقت يطيب فيه الجماع ؟ قالت : إذا كان ليلاً فبعد هضم الطعام ، وإذا كان نهاراً فبعد الغداء . قال : فاخبريني عن أفضل الفواكه . قالت : الرمان والأترج . قال : فاخبريني عن أفضل البقول . قالت : الهندبا . قال : فما أفضل الرياحين ؟ قالت : الورد والبنفسج . قال : فاخبريني عن قرار مني الرجل . قالت : إن في الرجل عرقاً يسقي سائر العروق فيجتمع الماء من ثلاثمائة وستين عرقاً ثم يدخل في البيضة اليسرى دماً أحمر فينطبخ من حرارة مزاج بني آدم ماء غليظاً أبيض رائحته مثل رائحة الطلع . قال : أحسنت ، فاخبريني عن طير يمني ويحيض . قالت : هو الخفاش أي الوطواط . قال : فاخبريني عن شيء إذا حُبس عاش وإذا شمّ الهواء مات . قالت : هو السمك . قال : فاخبريني عن شجاع يبيض . قالت : الثعبان . فعجز الطبيب من كثرة سؤاله وسكت . فقالت الجارية : يا أمير المؤمنين ، إنه سألني حتى عيي وأنا أسأله مسألة واحدة ، فإن لم يجب أخذت ثيابه حلالاً لي . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 454

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية لما قالت لأمير المؤمنين : إنه سألني حتى عيي وأنا أسأله مسألة واحدة فإن لم يجب أخذت ثيابه حلالاً لي . قال لها الخليفة : سليه . فقالت له : ما تقول في شيء يشبه الأرض استداره ويوارى عن العيون فقاره وقراره ؟ قليل القيمة والقدر ضيق الصدر والنحر مقيد وهو غير آبق ، موثق وهو غير سارق ، مطعون لا في القتال مجروح لا في النضال ، يأكل الدهر مرّه ويشرب الماء كثره ، وتارة يضرب من غير جناية ويستخدم لا كفاية ، مجموع بعد تفرّقه متواضع لا من تملّقه ، حامل لا لولد في بطنه مائل لا يسند إلى ركنه ، يتسخ فيتطهر ويصلّي فيتغيّر ، يجامع بلا ذكر ويصارع بلا حذر ، يريح ويستريح ويعض فلا يصيح ، أكرم من النديم وأبعد من الحميم ، يفارق زوجته ليلاً ويعانقها

نهاراً، مسكنه الأطراف في مساكن الأشراف. فسكت الطبيب ولم يجب بشيء وتحيّر في أمره وتغيّر لونه وأطرق برأسه ساعة ولم يتكلم. فقالت: أيها الطبيب تكلّم وإلاّ فانزع ثيابك. فقام وقال: يا أمير المؤمنين، أشهد على أن هذه الجارية أعلم مني بالطب وغيره ولا لي عليها طاقة. ونزع ما عليه من الثياب وخرج هارباً. فعند ذلك قال لها أمير المؤمنين: فسّري لنا ما قلته. فقالت: يا أمير المؤمنين، هذا الزر والعروة.

وأما ما كان من أمرها مع المنجم فإنها قالت: من كان منكم منجّماً فليقم. فنهض إليها المنجّم وجلس بين يديها. فلما رأته ضحكت وقالت: أنت المنجم الحاسب الكاتب. قال: نعم. قالت: إسأل عمّا شئت وبالله التوفيق. قال: أخبريني عن الشمس وطلوعها وأفولها. قالت: أعلم أن الشمس تطلع من عيون وتأفل من عيون، فعيون الطلوع أجزاء المشارق وعيون الأفول أجزاء المغارب، وكلتاهما مائة وثمانون جزءاً. قال الله تعالى: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾ وقال تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل﴾ يونس ٥. لتعلموا عدد الستين والحساب فالقمر سلطان الليل والشمس سلطان النهار وهما مستبقان متدار كان. قال الله تعالى: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌّ في فلك يسبحون﴾ يس ٤٠. قال: فاخبريني إذا جاء الليل كيف يكون النهار وإذا جاء النهار كيف يكون الليل. قالت: يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل. قال: فاخبريني عن منازل القمر. قالت: منازل القمر ثمان وعشرون منزلة وهن: الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبره والصرفة والعواء والسماك والغفر والزباني والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرغ المقدم والفرغ المؤخر والرشاء، وهي مرتّبة على حروف أبجد هوّز إلى آخرها. وفيها سرّ غامض لا يعلمه إلاّ الله سبحانه وتعالى والراسخون في العلم. وأما قسمتها على البروج الإثني عشر، فهي أن تعطي كل برج منزلتين وثلث منزلة فتجعل الشرطين والبطين وثلث الثريا للحمل، وثلثي الثريا مع الدبران وثلثي الهقعة للثور، وثلث الهقعة مع الهنعة والذراع للجوزاء، والنثرة والطرف وثلث الجبهة للسرطان، وثلثيها مع الزبرة وثلثي الصرفة للأسد، وثلثها مع العواء والسماك للسنبلة، والغفر والزباني وثلث الإكليل للميزان، وثلثي الإكليل مع القلب وثلثي الشولة للعقرب، وثلثها مع النعائم والبلدة للقوس، وسعد الذابح وسعد بلع وثلث سعد السعود للجدي، وثلثي سعد السعود مع سعد الأخبية وثلثي المقدم للدلو، وثلث المقدم مع المؤخر والرشا للحوت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 455

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما عدّت المنازل وقسّمتها على البروج قال لها المنجّم: أحسنت، فاخبريني عن الكواكب السيارة وعن طبائعها وعن مكثها في البروج والسعد منها والنحس، وأين بيوتها وشرفها وسقوطها؟ قالت: المجلس ضيق ولكن سأخبرك. أما الكواكب فسبعة وهي: الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل. فالشمس حارة يابسة نحيسة بالمقارنة سعيدة بالمنظر تمكث في كل برج ثلاثين يوماً، والقمر بارد رطب سعيد يمكث في كل برج يومين وثلث يوم، وعطارد ممتزج سعد مع السعود

نحس مع النحوس يمكث في كل برج سبعة عشر يوماً ونصف يوم ، والزهرة معتدلة سعيدة تمكث في كل برج من البروج خمسة وعشرين يوماً، والمريخ نحس يمكث في كل برج عشرة أشهر ، والمشتري سعد يمكث في كل برج سنة ، وزحل بارد يابس نحس يمكث في كل برج ثلاثين شهر . والشمس بيتها الأسد وشرفها الحمل وهبوطها الدلو . والقمر بيته السرطان وشرفه الثور وهبوطه العقرب ووباله الجدي . وزحل بيته الجدي والدلو وشرفه الميزان وهبوطه الحمل ووباله السرطان والأسد . والمشتري بيته الحوت والقوس وشرفه السرطان وهبوطه الجدي ووباله الجوزاء والأسد . والزهرة بيتها الثور وشرفها الحوت وهبوطها الميزان ووبالها الحمل والعقرب . وعطارد بيته الجوزاء والسنبلة وشرفه السنبلة وهبوطه الحوت ووباله الثور . والمريخ بيته الحمل والعقرب وشرفه الجدي وهبوطه السرطان ووباله الميزان . فلمّا نظر المنجّم إلى حذقها وعلمها وحسن كلامها وفهمها ابتغى له حيلة يخجلها بها بين يدي أمير المؤمنين فقال لها : يا جارية ، هل ينزل في هذا الشهر مطر ؟ فأطرقت ساعة ثم تفكّرت طويلاً حتى ظن أمير المؤمنين أنها عجزت عن جوابه . فقال لها المنجّم : لِمَ لم تتكلمي ؟ فقالت : لا أتكلم إلاّ إن أذن لي في الكلام أمير المؤمنين . فقال لها أمير المؤمنين : وكيف ذلك ؟ قالت : أريد أن تعطيني سيفاً أضرب به عنقه لأنه زنديق . فضحك أمير المؤمنين وضحك مَن حوله ثم قالت : يا منجّم ، خمسة لا يعلمها إلاّ الله تعالى ، وقرأت أن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴿إن الله عليم خبير﴾ لقمان٣٤ . قال لها : أحسنت ، وإني والله ما أردت إلاّ اختبارك . فقالت له : أعلم أن أصحاب التقويم لهم إشارات وعلامات ترجع إلى الكواكب بالنظر إلى دخول السنة وللناس فيها تجاريب . قال : وما هي ؟ قالت : إن لكل يوم من الأيام كوكباً يملكه ، فإذا كان أول يوم من السنة يوم الأحد فهو للشمس ، ويدل ذلك والله أعلم على الجور من الملوك والسلاطين والولاة وكثرة الوخم وقلة المطر ، وأن تكون الناس في هرج عظيم وتكون الحبوب طيبة إلاّ العدس فإنه يعطب ، ويفسد العنب ويغلو الكتان ويرْخص القمح من أول طوبة إلى آخر برمهات ، ويكثر القتال بين الملوك ويكثر الخير في تلك السنة والله أعلم . قال : فاخبريني عن يوم الإثنين . قالت : هو للقمر ، ويدل ذلك على صلاح ولاة الأمور والعمال ، وأن تكون السنة كثيرة الأمطار وتكون الحبوب طيبة ويفسد بزر الكتان ويرخص القمح في شهر كيهك ويكثر الطاعون ويموت نصف الدواب من الضأن والمعز ويكثر العنب ويقل العسل ويرخص القطن والله أعلم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 456

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية لما فرغت من بيان يوم الإثنين قال لها : أخبريني عن يوم الثلاثاء . قالت : هو للمريخ ، ويدل ذلك على موت كبار الناس وكثرة الفناء وإهراق الدماء والغلاء في الحَب وقلّة الأمطار وأن يكون السمك قليلاً ويزيد في أيام وينقص في أيام ويرخص العسل والعدس ويغلو بزر الكتان في تلك السنة وفيها يفلح الشعير دون سائر الحبوب ويكثر القتال بين الملوك ويكون الموت بالدم ويكثر موت الحمير والله أعلم . قال : فاخبريني عن يوم الأربعاء . قالت : هو لعطارد ، ويدل ذلك على هرج عظيم يقع في

الناس وعلى كثرة العلو وأن تكون الأمطار معتدلة وأن يفسد بعض الزرع وأن يكثر موت الدواب وموت الأطفال ويكثر القتل في البحر ويغلو القمح من برمودة إلى مسرى، وترخص بقية الحبوب ويكثر الرعد والبرق ويغلو العسل ويكثر طلع النخل ويكثر الكتان والقطن ويغلو الفجل والبصل والله أعلم. قال: أخبريني عن يوم الخميس. قالت: هو للمشتري، ويدل ذلك على العدل في الوزراء والصلاح في القضاة والفقراء وأهل الدين وأن يكون الخير كثيراً وتكثر الأمطار والثمار والأشجار والحبوب ويرخص الكتان والقطن والعسل والعنب ويكثر السمك والله أعلم. قال: أخبريني عن يوم الجمعة. قالت: هو للزهرة، ويدل ذلك على الجور في كبار الجن والتحدث بالزور والبهتان وأن يكثر الندى ويطيب الخريف في البلاد ويكون الرخص في بلاد دون بلاد ويكثر الفساد في البر والبحر ويغلو بزر الكتان ويغلو القمح في هاتور ويرخص في أمشير ويغلو العسل ويفسد العنب والبطيخ والله أعلم. قال: فاخبريني عن يوم السبت. قالت: هو لزحل ويدل ذلك على إيثار العبيد والروم ومن لا خير فيه ولا في قربه، وأن يكون الغلاء والقحط كثيراً ويكون الغيم كثيراً ويكثر الموت في بني آدم والويل لأهل مصر والشام من جور السلطان، وتقل البركة من الزرع وتفسد الحبوب والله أعلم. ثم إن المنجّم أطرق وطأطأ رأسه. فقالت: يا منجّم، أسألك مسألة واحدة فإن لم تجب أخذت ثيابك. قال لها: قولي. قالت: أين يكون مسكن زحل؟ قال: في السماء السابعة. قالت: فالمشتري؟ قال: في السماء السادسة. قالت: فالمريخ؟ قال: في السماء الخامسة. قالت: فالشمس؟ قال: في السماء الرابعة. قالت: فالزهرة؟ قال: في السماء الثالثة. قالت: فعطارد؟ قال: في السماء الثانية. قالت: فالقمر؟ قال: في السماء الأولى. قالت: أحسنت وبقي عليك مسألة واحدة. قال: إسألي. قالت: فاخبرني عن النجوم إلى كم جزء تنقسم؟ فسكت ولم يحر جواباً. قالت: إنزع ثيابك. فنزعها، ولما أخذتها قال لها أمير المؤمنين: فسّري لنا هذه المسألة. فقالت: يا أمير المؤمنين، هم ثلاثة أجزاء: جزء معلّق بسماء الدنيا كالقناديل وهو ينير الأرض، وجزء يرمى به الشياطين إذا استرقوا السمع. قال الله تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ الملك٥. والجزء الثالث معلّق بالهواء وهو ينير البحار وما فيها. قال المنجّم: بقي لنا مسألة واحدة فإن أجابت أقررت لها. قالت: قل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 457

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنه قال: أخبريني عن أربعة أشياء متضادة مترتبة على أربعة أشياء متضادة. قالت: هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، خلق الله من الحرارة النار وطبعها حار يابس، وخلق من اليبوسة التراب وطبعه بارد يابس، وخلق من البرودة الماء وطبعه بارد رطب، وخلق من الرطوبة الهواء وطبعه حار رطب. ثم خلق الله اثني عشر برجاً وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، وجعلها على أربع طبائع: ثلاثة نارية وثلاثة ترابية وثلاثة هوائية وثلاثة مائية. فالحمل والأسد والقوس نارية، والثور والسنبلة والجدي ترابية، والجوزاء والميزان والدلو هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مائية. فقام المنجم وقال: إشهدوا على أنها أعلم منّي وانصرف مغلوباً. ثم قال أمير المؤمنين: أين الفيلسوف؟ فنهض إليها رجل وتقدّم

وقال : أخبريني عن الدهر وحده وأيامه وما جاء فيه . قالت : إن الدهر هو إسم واقع على ساعات الليل والنهار ، وإنما هي مقادير جري الشمس والقمر في أفلاكهما كما أخبر الله تعالى حيث قال : ﴿وآية لهم الليل انسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ يس ٣٧, ٣٨ . قال : فاخبريني عن ابن آدم كيف يصل إليه الكفر ؟ قالت : روي عن رسول ﷺ انه قال : الكفر في بني آدم يجري كما يجري الدم في عروقه حيث يسبّ الدنيا والدهر والليلة والساعة . وقال عليه الصلاة والسلام : لا يسبّ أحدكم الدهر فإن الدهر هو الله ، ولا يسبّ أحدكم الدنيا فتقول : لا أعان الله من يسبني . ولا يسب أحدكم الساعة فإن الساعة آتية لا ريب فيها ، ولا يسب أحدكم الأرض فإنها آية لقوله تعالى : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ طه٥٥ . قال : فاخبريني عن خمسة أكلوا وشربوا وما خرجوا من ظهر ولا بطن . قالت : هم آدم وشمعون وناقة صالح وكبش اسماعيل والطير الذي رآه أبو بكر الصديق في الغار . قال : فاخبريني عن خمس في الجنة لا من الإنس ولا من الجن ولا من الملائكة . قالت : ذئب يعقوب وكلب أصحاب الكهف وحمار العزيز وناقة صالح ودلدل النبي ﷺ . قال : أخبريني عن رجل صلّى صلاة لا في الأرض ولا في السماء . قالت : هو سليمان حين صلّى على بساطه وهو على الريح . قال : أخبريني عن من صلّى صلاة الصبح فنظر إلى أمة فحرمت عليه ، فلمّا كان الظهر حلّت له ، فلمّا كان العصر حرمت عليه ، فلمّا كان المغرب حلّت له ، فلمّا كان العشاء حرمت عليه ، فلمّا كان الصبح حلّت له . قالت : هذا رجل نظر إلى أمة غير عند الصبح وهي حرام عليه ، فلمّا كان الظهر اشتراها فحلت له . فلمّا كان العصر أعتقها فحرمت عليه . فلمّا كان المغرب تزوّجها فحلت له . فلمّا كان العشاء طلّقها فحرمت عليه . فلمّا كان الصبح راجعها فحلّت له . قال : أخبريني عن قبر مشى بصاحبه . قالت : هو حوت يونس بن متى حين ابتلعه . قال : أخبريني عن بقعة واحدة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولا تطلع عليها بعد إلى يوم القيامة . قالت : البحر حين ضربه موسى بعصاه فانفلق اثني عشر فرقاً على عدد الأسباط وطلعت عليه الشمس ولم تعد له إلى يوم القيامة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 458 □ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الفيلسوف قال بعد ذلك للجارية : أخبريني عن أول ذيل سحب على وجه الأرض . قالت : ذيل هاجر حياء من سارة ، فصارت سنّة في العرب . قال : أخبريني عن شيء يتنفّس بلا روح . قالت : قوله تعالى : ﴿والصبح إذا تنفس﴾ التكوير١٨ . قال : أخبريني عن حمام طائر أقبل على شجرة عالية ، فوقع بعضه فوقها وبعضه تحتها ، فقالت التي فوق الشجرة للتي تحتها : إن طلعت منكن واحدة صرتن الثلث وإن نزلت منا واحدة كنا مثلكن في العدد . قالت الجارية : كان الحمام اثنتي عشرة حمامة فوقع منهن فوق الشجرة سبع وتحتها خمس ، فإذا طلعت واحدة صار الذي فوق قدر الذي تحت مرتين ولو نزلت واحدة صار الذي تحت مساويا للذي فوق والله أعلم . فتجرّد الفيلسوف من ثيابه وخرج هارباً .

وأما حكايتها مع النظام فإن الجارية التفتت إلى العلماء الحاضرين وقالت : أيّكم المتكلم في كل فن وعلم ؟ فقام إليها النظام وقال لها : لا تحسبيني كغيري . فقالت له : الأصح عندي أنك

مغلوب لأنك مدعي، والله ينصرني عليك حتى أجردك من ثيابك. فلو أرسلت من يأتيك بشيء تلبسه لكان خيراً لك. فقال: والله لاغلبنك واجعلنك حديثاً يتحدّث بك الناس جيلاً بعد جيل. فقالت له الجارية: كفّر عن يمينك. قال: أخبريني عن خمسة أشياء خلقها الله تعالى قبل خلق الخلق. قالت له: الماء والتراب والنور والظلمة والثمار. قال: أخبريني عن شيء خلقه الله بيد القدرة. قالت: العرش وشجرة طوبى وآدم وجنة عدن فهؤلاء خلقهم الله بيد قدرته، وسائر المخلوقات قال لهم الله: كونوا فكانوا. قال: أخبريني عن أبيك في الإسلام. قالت: محمد ﷺ. قال: فمن أبو محمّد؟ قالت: ابراهيم خليل الله. قال: فما دين الإسلام؟ قالت: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله. قال: فاخبريني ما أوّلك وما آخرك؟ قالت: أولي نطفة مذرة وآخري جيفة قذرة. وأوّلي من التراب وآخري التراب. قال الشاعر: [من الوافر]

خُلِقْتُ مِنْ التُّرابِ فَصِرْتُ شَخْصاً فَصيحاً في السُّؤَالِ وفي الجَوابِ
وعُدْتُ إلى التُّرابِ فَصِرْتُ فيهِ لأنّي قَدْ خُلِقْتُ مِنَ التُّرابِ

قال: فاخبريني عن شيء أوله عود وآخره روح. قالت: هي عصا موسى حين ألقاها في الوادي، فإذا هي حية تسعى بإذن الله تعالى. قال: فاخبريني عن قوله تعالى: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ طه١٨. قالت: كان يغرسها في الأرض فتزهر وتثمر وتظله من الحر والبرد وتحمله إذا عيي وتحرس له الغنم إذا نام من السباع. قال: أخبريني عن أنثى من ذكر وذكر من أنثى. قالت: حوّاء من آدم وعيسى من مريم. قال: فاخبريني عن أربع نيران: نار تأكل وتشرب ونار تأكل ولا تشرب ونار تشرب ولا تأكل ونار لا تأكل ولا تشرب. قالت: أما النار التي تأكل ولا تشرب فهي نار الدنيا. وأما النار التي تأكل وتشرب فهي نار جهنم. وأما النار التي تشرب ولا تأكل فهي نار الشمس. وأما النار التي لا تأكل ولا تشرب فهي نار القمر. قال: أخبريني عن المفتوح وعن المغلق. قالت: يا نظام، المفتوح هو المسنون والمغلق هو المفروض. قال: أخبريني عن قول الشاعر: [من الطويل]

وساكِنِ رَمْسٍ طُعْمُهُ عِنْدَ رَأْسه إذا ذاقَ مِنْ ذاكَ الطَّعامِ تَكَلَّما
يَقُومُ ويَمْشِي صامِتاً مُتَكَلِّماً ويَرْجِعُ لِلْقَبْرِ الَّذي مِنْهُ قُوِّما
ولَيْسَ بِحَيٍّ يَسْتَحِقُّ كَرامَةً ولَيْسَ بِمَيِّتٍ يَسْتَحِقُّ التَّرَحُّما

قالت له: هو القلم. قال: فاخبريني عن قول الشاعر حيث قال: [من الطويل]

مُلَمْلَمَةُ الجَبِينِ مَوْرُودَةُ الدَّمِ مُحَمَّرَةُ الأُذْنَينِ مَفْتُوحَةُ الفَمِ
لَها صَنَمٌ كالدِّيكِ يَنْقُرُ جَوْفَها تُساوِي إذا قَوَّمْتَها نِصفَ دِرْهَمِ

قالت: هي الدواة. قال: فاخبريني عن قول الشاعر حيث قال: [من الطويل]

أَلا قُلْ لأَهْلِ العِلْمِ والعَقْلِ والأَدَبْ وكُلِّ فَقيهٍ سادَ في الفَهْمِ والرُّتَبْ
أَلا أَنْبِئُونِي أَيَّ شَيْءٍ رَأَيْتُمُو مِنَ الطَّيْرِ في أَرْضِ الأَعاجِمِ والعَرَبْ
ولَيْسَ لَهُ لَحْمٌ ولَيْسَ لَهُ دَمٌ ولَيْسَ لَهُ رِيشٌ ولَيْسَ لَهُ زَغَبْ

وَيُؤْكَلُ مَطْبُوخاً وَيُؤْكَلُ بارِداً ويُؤْكَلُ مَشْوِيّاً إذا دُسَّ في اللَّهَبْ
وَيَبْدُو لَهُ لَوْنانِ: لَوْنٌ كَفِضَّةٍ ولَوْنٌ ظَرِيفٌ لَيسَ يُشْبِهُهُ الذَّهَبْ
ولَيْسَ يُرَى حَيّاً ولَيْسَ بِمَيِّتٍ أَلا أَخْبِرُونِي إنَّ هذا مِنَ العَجَبْ

قالت : لقد أطلت السؤال في بيضة قيمتها فلس . قال : أخبريني كم كلمة كلّم الله موسى ؟ قالت : روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : كلم الله موسى ألف كلمة وخمسمائة وخمس عشرة كلمة . قال : أخبريني عن أربعة عشر كلموا ربّ العالمين . قالت : السموات السبع والأرضون السبع لما قالتا : أتينا طائعين . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 459

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية لما قالت له الجواب قال لها : أخبريني عن آدم وأول خلقته . قالت : خلق الله آدم من طين ، والطين من زبد ، والزبد من بحر ، والبحر من ظلمة ، والظلمة من نور ، والنور من حوت ، والحوت من صخرة ، والصخرة من ياقوتة ، والياقوتة من ماء ، والماء من القدرة . لقوله تعالى : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون﴾ يس ٨٢ . قال : فاخبريني عن قول الشاعر حيث قال : [من الوافر]

وآكِلَةٍ بِغَيْرِ فَمٍ وبَطْنٍ لَها الأَشْجارُ والحَيَوانُ قُوتُ
فإنْ أَطْعَمْتَها ٱنْتَعَشَتْ وعاشَتْ ولَوْ أَسْقَيْتَها ماءً تَمُوتُ

قالت : هي النار . قال : فاخبريني عن قول الشاعر حيث قال : [من الطويل]

خَلِيلانِ مَمْنُوعانِ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ يَبِيتانِ طُولَ اللَّيْلِ يَعْتَنِقانِ
هُما يَحْفَظانِ الأَهْلَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وعِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ يَفْتَرِقانِ

قالت : هما مصراعا الباب . قال : فاخبريني عن أبواب جهنم . قالت : سبعة ، وهم ضمن بيتين من الشعر : [من البسيط]

جَهَنَّمٌ ولَظَى ثُمَّ الحَطِيمُ كَذا عُدَّ السَّعِيرُ وكُلُّ القَوْلِ في سَقَرِ
وبَعْدَ ذاكَ جَحِيمٌ ثُمَّ هاوِيَةٌ فَذاكَ عِدَّتُهُم في قَوْلِ مُخْتَصَرِ

قال : فاخبريني عن قول الشاعر حيث قال : [من الوافر]

وذاتِ ذَوائِبَ تَنْجَرُّ طُولاً وراءَها في المَجِيءِ وفي الذَّهابِ
بِعَيْنٍ لَمْ تَذُقْ لِلنَّوْمِ طَعْماً ولا ذَرَفَتْ لِدَمْعٍ ذِي ٱنْسِكابِ
ولا لَبِسَتْ مَدَى الأَيّامِ ثَوْباً وتَكْسُو النّاسَ أَنْواعَ الثِّيابِ

قالت : هي الإبرة . قال : فاخبريني عن الصراط ما هو وما طوله وما عرضه ؟ قالت : أما طوله فثلاثة آلاف عام ألف هبوط وألف صعود وألف استواء وهو أحدّ من السيف وأرقّ من الشعر . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 460

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الجارية لما وصفت له الصراط . قال : اخبريني كم لنبينا محمد ﷺ من شفاعة؟ قالت له : ثلاث شفاعات . قال لها : هل كان أبو بكر أول من أسلم ؟ قالت : نعم . قال : إن علياً أسلم قبل أبي بكر . قالت : إن علياً أتى النبي ﷺ وهو ابن سبع سنين فأعطاه الله الهداية على صغر سنه فما سجد لصنم قط . قال : فاخبريني ، أعليّ الأفضل أم العباس ؟ قال النظّام . فعلمت أن هذه مكيدة لها ، فإن قالت : عليّ أفضل من العباس فما لها من عذر عند أمير المؤمنين . فأطرقت ساعة وهي تارة تحمر وتارة تصفر ثم قالت : تسألني عن اثنين فاضلين لكل واحد منهما فضل ، فارجع بنا إلى ما كنا فيه . فلمّا سمعها الخليفة هارون الرشيد استوى قائماً على قدميه وقال لها : أحسنت وربّ الكعبة يا تودد . فعند ذلك قال لها ابراهيم النظام : أخبريني عن قول الشاعر حيث قال : [من الطويل]

مُهَفْهَفَةُ الأَذْيالِ عَذْبٌ مَذاقُها   تحاكِي القَنا لَـكِنْ بِغَيرِ سِنانِ
ويَأْخُذُ كُلُّ النّاسِ مِنْها مَنافِعاً   وتُؤْكَلُ بَعْدَ العَصْرِ في رَمَضانِ

قالت : قصب السكر . قال : فاخبريني عن مسائل كثيرة . قالت : وما هي ؟ قال : ما أحلى من العسل وما أحدّ من السيف وما أسرع من السمّ وما لذّة ساعة وما سرور ثلاثة أيام وما أطيب يوم وما فرحة جمعة وما الحق الذي لا ينكره صاحب الباطل وما سجن القبر وما فرحة القلب وما كيد النفس وما موت الحياة وما الداء الذي لا يداوي وما العار الذي لا ينجلي وما الدابة التي لا تأوي إلى العمران وتسكن الخراب وتبغض بني آدم وخلق فيها خلق من سبعة جبابرة؟ قالت له : إسمع جواب ما قلت ثم انزع ثيابك حتى أفسّر لك ذلك . قال لها أمير المؤمنين : فسّري وهو ينزع ثيابه . قالت : أما ما هو أحلى من العسل فهو حب الأولاد البارين بوالديهم ، وأما ما هو أحدّ من السيف فهو اللسان ، وأما ما هو أسرع من السمّ فهو عين المعيان ، وأما لذّة ساعة فهو الجماع ، وأما سرور ثلاثة أيام فهو النورة للنساء ، وأما ما هو أطيب يوم فهو يوم الربح في التجارة ، وأما فرحة جمعة فهو العروس ، وأما الحق الذي لا ينكر صاحب الباطل فهو الموت ، وأما سجن القبر فهو الولد السوء ، وأما فرحة القلب فهي المرأة المطيعة لزوجها وقيل اللحم حين ينزل على القلب فإنه يفرح بذلك . وأما كيد النفس فهو العبد العاصي ، وأما موت الحياة فهو الفقر ، وأما الداء الذي لا يداوى فهو سوء الخلق ، وأما العار الذي لا ينجلي فهو البنت السوء ، وأما الدابة التي لا تأوي إلى العمران وتسكن الخراب وتبغض بني آدم وخلق فيها خلق من سبعة جبابرة فإنها الجرادة ، رأسها كرأس الفرس وعنقها كعنق الثور وجناحها جناح النسر ورجلها رجل الجمل وذنبها ذنب الحية وبطنها بطن العقرب وقرنها قرن الغزال . فتعجّب الخليفة هارون الرشيد من حذقها وفهمها ثم قال للنظّام : إنزع ثيابك . فقام وقال : أشهد على جميع من حضر هذا المجلس أنها أعلم مني ومن كل عالم . ونزع ثيابه وقال لها : خذيهم لا بارك الله لك فيهم . فأمر له أمير المؤمنين بثياب يلبسها . ثم قال أمير المؤمنين : يا تودد ، بقي عليك شيء مما وعدت به وهو الشطرنج . وأمر بإحضار معلمي الشطرنج والكنجفة والنرد ، فحضروا وجلس الشطرنجي معها وصفت بينهما الصفوف ونقل ونقلت ، فما نقل شيئاً إلاّ أفسدته عن قليل . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة
461

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما لعبت الشطرنج مع المعلم بحضرة أمير المؤمنين هارون الرشيد، صارت كلما نقل نقلاً أفسدته حتى غلبته ورأى الشاه مات فقال : أنا أردت أن أطمعك حتى تظني أنك عارفة، لكن صفي حتى أريك . فلمّا صفّت الثاني قال في نفسه : إفتح عينك وإلا غلبتك، وصار ما يخرج قطعة إلاّ بحساب . وما زال يلعب حتى قالت له : الشاه مات . فلمّا رأى ذلك منها دهش من حذقها وفهمها، فضحكت وقالت له : يا معلم أنا أراهنك في هذه المرة الثالثة على أن أرفع لك الفرزان ورخ الميمنة وفرس الميسرة، وإن غلبتني فخذ ثيابي وإن غلبتك أخذت ثيابك . قال : رضيت بهذا الشرط . ثم صفا الصفين ورفعت الفرزان والرخ والفرس وقالت له : أنقل يا معلم . فنقل وقال : ما لي لا أغلبها بعد هذه الحطيطة وعقد عقداً، وإذا هي نقلت نقلاً قليلاً قليلاً إلى أن صيرت له فرزاناً ودنت منه وقربت البيادق والقطع وشغلته وأطعمته قطعة فقطعها فقالت : الكيل كيل وافي والرز رز صافي، فكُل حتى تزيد على الشبع ما يقتلك يا ابن آدم إلاّ الطمع . أما تعلم أني أطعمك لأخدعك؟ أنظر فهذا الشاه مات . ثم قالت له : إنزع ثيابك . فقال لها : أتركي لي السراويل وأجرك على الله، وحلف بالله أن لا يناظر أحداً ما دامت تودد بمملكة بغداد . ثم نزع ثيابه وسلّمهم لها وانصرف . فجيء بلاعب النرد فقالت له : إن غلبتك في هذا اليوم فماذا تعطيني؟ قال : أعطيك عشرة ثياب من الديباج القسطنطيني المطرّز بالذهب وعشرة ثياب من المخمل وألف دينار، وإن غلبتك فما أريد منك إلاّ أن تكتبي لي درجاً بأني غلبتك . قالت له : دونك وما عولت عليه . فلعب فإذا هو قد خسر وقام وهو يرطن بالإفرنجية ويقول : ونعمة أمير المؤمنين، إنها لم يوجد مثلها في سائر البلاد . ثم إن أمير المؤمنين دعا بأرباب آلات الطرب فحضروا، فقال لها أمير المؤمنين : هل تعرفين شيئاً من آلات الطرب؟ قالت : نعم . فأمر بإحضار عود محكوك مدعوك مجرود صاحبه بالهجران مكدود . قال فيه بعض واصفيه : [من الطويل]

سَقَى اللهُ أَرْضاً أَنْبَتَتْ عُودَ مُطْرِبٍ زَكَتْ مِنْهُ أَغْصانٌ وطابَتْ مَغارِسُ
تَغَنَّتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ والعُودُ أَخْضَرٌ وغَنَّتْ عَلَيْهِ الغِيدُ والعُودُ يابِسُ

فجيء بعود في كيس من الأطلس الأحمر له شرابة من الحرير المزعفر، فحلت الكيس وأخرجت العود فإذا هو عليه منقوش : [من الطويل]

وغُصْنٍ رَطِيبٍ عادَ عُوداً لِقَيْنَةٍ تَحِنُّ إلى أَتْرابِها في المَحافِلِ
تُغَنّي فَيَتْلُو لَحْنَها وكأَنَّه يُلَقِّنُها إعْرابَ لَحْنِ البَلابِلِ

فوضعته في حجرها وأرخت عليه نهدها وانحنت انحناء والدة ترضع ولدها وضربت عليه اثني عشر نغماً حتى ماج المجلس من الطرب وأنشدت تقول : [من الخفيف]

أَقْصِرُوا هَجْرَكُمْ وقِلُّوا جَفاكُمْ فَفُؤادِي وحَقِّكُمْ ما سَلاكُمْ
وارْحَمُوا باكِياً حَزِيناً كَئِيباً ذا غَرامٍ مُتَيَّماً في هَواكُمْ

فطرب أمير المؤمنين وقال : بارك الله فيك ورحم من علّمك . فقامت وقبّلت الأرض بين

يديه . ثم إن أمير المؤمنين أمر بإحضار المال ودفع لمولاها مائة ألف دينار وقال لها : يا تودد تمنّي علي . قالت : تمنّيت عليك أن تردّني إلى سيدي الذي باعني . فقال لها : نعم . فردّها إليه وأعطاها خمسة الآف دينار لنفسها وجعل سيدها نديماً له على طول الزمان . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 462

قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الخليفة أعطى الجارية خمسة الآف دينار وردّها إلى مولاها وجعله نديماً له على طول الزمان وأطلق له في كل شهر ألف دينار ، وقعد مع جارِيتِهِ تودد في أرغد عيش . فاعجب أيها الملك من فصاحة هذه الجارية ومن غزارة علمها وفهمها وفضلها في كامل العلوم ، وانظر إلى مروءة أمير المؤمنين هارون الرشيد حيث أعطى سيدها هذا المال وقال لها : تمنّي عليّ . فتمنّت عليه أن يردّها إلى سيدها ، فردّها إليه وأعطاها خمسة الآف دينار لنفسها وجعل سيدها نديماً له . فأين يوجد هذا الكرم بعد الخلفاء العباسيين ؟ رحمة الله تعالى عليهم أجمعين .

حكاية الملك المغرور وملك الموت

ومما يحكى أيها الملك السعيد ، أن ملكاً من الملوك المتقدمين أراد أن يركب يوماً في جملة أهل مملكته وأرباب دولته ويظهر للخلائق عجائب زينته ، فأمر أصحابه وأمراءه وكبراء دولته أن يأخذوا أهبة الخروج معه ، وأمر خازن الثياب بأن يحضر له من أفخر الثياب ما يصلح للملك في زينته ، وأمر بإحضار خيله الموصوفة العتاق المعروفة ، ففعلوا ذلك . ثم إنه اختار من الثياب ما أعجبه ومن الخيل ما استحسنه ، ثم لبس الثياب وركب الجواد وسار بالموكب والطوق المرصّع بالجواهر وأصناف الدر واليواقيت ، وجعل يركض الحصان في عسكره ويفتخر بتيهه وتجبّره . فأتاه إبليس فوضع يده على منخره ونفخ في أنفه نفخة الكبر والعجب فزها وقال في نفسه : مَن في العالم مثلي ؟ وطفق يتيه بالعجب والكبر ويظهر الأبهة ويزهو بالخيلاء ولا ينظر إلى أحد من تيهه وكبره وعجبه وفخره . فوقف بين يديه رجل عليه ثياب رثّة فسلّم عليه ، فلم يردّ عليه السلام . فقبض على عنان فرسه ، فقال له الملك : إرفع يدك فإنك لا تدري بعنان مَن قد أمسكت . فقال له : إن لي إليك حاجة . فقال : إصبر حتى أنزل واذكر حاجتك . فقال : إنها سرّ ولا أقولها إلاّ في أذنك . فمال بسمعه إليه فقال له : أنا ملك الموت وأريد قبض روحك . فقال : إمهلني بقدر ما أعود إلى بيتي وأودّع أهلي وأولادي وجيراني وزوجتي . فقال : كلا لا تعود ولن تراهم أبداً ، فإنه قد مضى أجل عمرك . فأخذ روحه وهو على ظهر فرسه فخرّ ميتاً ومضى ملك الموت من هناك ، فأتى رجلاً صالحاً قد رضي الله تعالى عنه فسلّم عليه فقال ملك الموت : أيها الرجل الصالح ، إن لي إليك حاجة وهي سرّ . فقال له الرجل الصالح : أذكر حاجتك في أذني . فقال : أنا ملك الموت . فقال الرجل : مرحباً بك ، الحمد لله على مجيئك فإني كنت كثيراً أترقب وصولك إليّ ولقد طالت غيبتك عن المشتاق إلى قدومك . فقال له ملك الموت : إن كان لك شغل فاقضه . فقال له : ليس لي شغل أهم عندي من لقاء ربي عزّ وجلّ . فقال : كيف تحب أن أقبض روحك ؟ فإني أُمرت أن أقبضها كيف أردت واخترت . فقال : إمهلني حتى أتوضأ وأصلي ، فإذا سجدت فاقبض روحي وأنا ساجد . فقال ملك الموت : إن ربي عزّ وجل أمرني أن لا أقبض روحك إلاّ باختيارك كيف

أردت، وأنا أفعل ما قلت. فقام الرجل وتوضأ وصلّى، فقبض ملك الموت روحه وهو ساجد ونقله الله تعالى إلى محل الرحمة والرضوان والمغفرة.

حكاية الملك الغني وملك الموت

وحكى أن ملكاً من الملوك كان قد جمع مالاً عظيماً لا يحصى عدده واحتوى على أشياء كثيرة، من كل نوع خلقه الله تعالى في الدنيا ليرفّه نفسه. حتى إذا أراد أن يتفرغ لما جمعه من النعم الطائلة، بنى له قصراً عالياً مرتفعاً شاهقاً يصلح للملوك ويكون بهم لائقاً، ثم ركّب عليه بابين محكمين ورتب له الغلمان والأجناد والبوابين كما أراد، وأمر الطباخ في بعض الأيام ان يصنع له شيئاً من أطيب الطعام، وجمع أهله وحشمه وأصحابه وخدمه ليأكلوا عنده وينالوا رفده. وجلس على سرير مملكته وسيادته واتكأ على وسادته وخاطب نفسه وقال: يا نفس، قد جمعت لك نعم الدنيا بأسرها، فالآن تفرّغي وكُلي من هذه النعم مهنأة بالعمر الطويل والحظ الجزيل. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 463

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما حدّث نفسه وقال لها: كُلي من هذه النعم مهنأة بالعمر الطويل والحظ الجزيل. لم يفرغ مما حدّث به نفسه حتى أتاه رجل من ظاهر القصر عليه ثياب رثّة وفي عنقه مخلاة معلّقة على هيئة سائل يسأل الطعام، فجاء وطرق حلقة باب القصر طرقة عظيمة هائلة كادت تزلزل القصر وتزعج السرير. فخاف الغلمان فوثبوا إلى الباب وصاحوا بالطارق وقالوا له: ويحك، ما هذه الفعلة وسوء الأدب؟ إصبر حتى يأكل الملك ونعطيك مما يفضل. فقال للغلمان: قولوا لصاحبكم يخرج إليّ حتى يكلّمني فلي إليه حاجة وشغل مهم وأمر ملمّ. فقالوا: تنحّ أيها الضعيف، من أنت حتى تأمر صاحبنا بالخروج إليك؟ فقال لهم: عرّفوه ذلك. فجاؤوا إليه وعرّفوه فقال: هلا زجرتموه وجردتم عليه ونهرتموه. ثم طرق الباب أعظم من الطرقة الأولى، فنهض الغلمان إليه بالعصي والسلاح وقصدوه ليحاربوه، فصاح بهم صيحة وقال: إلزموا أماكنكم، فأنا ملك الموت. فرعبت قلوبهم وذهبت عقولهم وطاشت حلومهم وارتعدت فرائصهم وبطلت عن الحركة جوارحهم. فقال لهم الملك: قولوا له يأخذ بدلاً مني وعوضاً عني. فقال ملك الموت: لا آخذ بدلاً ولا أتيت إلاّ من أجلك لأفرّق بينك وبين النعم التي جمعتها والأموال التي حويتها وخزنتها. فعند ذلك تنفّس الصعداء وبكى وقال: لعن الله المال الذي غرّني وأضرّني ومنعني عن عبادة ربي، وكنت أظن أنه ينفعني، فبقي اليوم حسرة عليّ ووبالاً لدي. وها أنا أخرج صفر اليدين منه ويبقى لأعدائي. قال: فأنطق الله المال وقال: لأي سبب تلعنني؟ إلعن نفسك فإن الله تعالى خلقني وإيّاك من تراب وجعلني في يدك لتتزود مني لآخرتك وتتصدّق بي على الفقراء والمساكين والضعفاء، ولتعمّر بي الربط والمساجد والجسور والقناطر، لأكون عوناً لك في الدار الآخرة. وأنت جمعتني وخزنتني وفي هواك أنفقتني ولم تشكر لحقي بل كفرتني، فالآن تركتني لأعدائك وأنت بحسرتك وندامتك. فاي ذنبٍ لي حتى تسبّني؟ ثم إن ملك الموت قبض روحه وهو على سريره قبل أن يأكل الطعام، فخرّ ميتاً ساقطاً من فوق سريره. قال الله تعالى: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ الأنعام ٤٤.

حكاية ملك إسرائيلي جبّار وملك الموت

وممّا يحكى أن ملكاً جبّاراً من ملوك بني إسرائيل ، كان في بعض الأيام جالساً على سرير مملكته فرأى رجلاً قد دخل عليه باب الدار وله صورة منكرة وهيئة هائلة . فاشمأز من هجومه عليه وفزع من هيئته فوثب في وجهه وقال : من أنت أيها الرجل ؟ ومن أذن لك في الدخول عليّ وأمرك بالمجيء إلى داري ؟ فقال : أمرني صاحب الدار ، وأنا لا يحجبني حاجب ولا أحتاج في دخولي على الملوك إلى إذن ، ولا أرهب سياسة سلطان ولا كثرة أعوان . أنا الذي لا يقرّ عني جبّار ولا لأحد من قبضتي فرار . أنا هادم اللذّات ومفرّق الجماعات . فلمّا سمع الملك هذا الكلام خرّ على وجهه ودبّت الرعدة في بدنه ووقع مغشياً عليه . فلمّا أفاق قال : أنت ملك الموت . قال : نعم . قال : أقسمت عليك بالله ألا أمهلتني يوماً واحداً لأستغفر من ذنبي وأطلب العذر من ربي وأرد الأموال التي في خزائني إلى أربابها ولا أتحمل مشقة حسابها وويل عقابها . فقال ملك الموت : هيهات هيهات ، لا سبيل لك إلى ذلك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 464

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ملك الموت قال للملك : هيهات هيهات ، لا سبيل لك إلى ذلك . وكيف أمهلك وأيام عمرك محسوبة وأنفاسك معدودة وأوقاتك مثبوتة مكتوبة ؟ فقال : إمهلني ساعة . فقال : إن الساعة في الحساب وقد مضت وأنت غافل وانقضت وأنت ذاهل ، وقد استوفيت أنفاسك ولم يبقَ لك إلاّ نفس واحد . فقال : من يكون عندي إذا نقلت إلى لحدي ؟ قال : لا يكون عندك إلاّ عملك . فقال : ما لي عمل . قال : لا جرم أنه يكون مقيلك في النار ومصيرك إلى غضب الجبار . ثم قبض روحه فخرّ ساقطاً عن سريره ووقع إلى الأرض . فحصل الضجيج في أهل مملكته وارتفعت الأصوات وعلا الصياح والبكاء ، ولو علموا ما يصير إليه من سخط ربه لكان بكاؤهم عليه أكثر وعويلهم أشد وأوفر .

حكاية إسكندر ذي القرنين

ومما يحكى أن إسكندر ذا القرنين اجتاز في سفره بقوم ضعفاء لا يملكون شيئاً من أسباب الدنيا ، وقد حفروا قبور موتاهم على أبواب دورهم . وكانوا في كل وقت يتعهدون تلك القبور ويكنسون التراب عنها وينظفونها ويزورونها ويعبدون الله تعالى فيها ، وليس لهم طعام إلاّ الحشيش ونبات الأرض . فبعث إليهم اسكندر ذو القرنين رجلاً يستدعي ملكهم إليه ، فلم يجبه وقال : ما لي إليه حاجة . فسار ذو القرنين إليه وقال :؟ كيف حالكم وما أنتم عليه ؟ فإني لا أرى لكم شيئاً من ذهب ولا فضة ولا أجد عندكم شيئاً من نعيم الدنيا . فقال له : إن نعيم الدنيا لا يشبع منه أحد . فقال له اسكندر : لِمَ حفرتم القبور على أبوابكم ؟ فقال : لتكون نصب أعيننا ، فننظر إليها ونجدّد ذكر الموت ولا ننسى الآخرة ، ويذهب حب الدنيا من قلوبنا فلا نشغل بها عن عبادة ربنا تعالى . فقال اسكندر : كيف تأكلون الحشيش ؟ قال : لأنّا نكره أن نجعل في بطوننا قبور الحيوانات ، ولأن لذّة الطعام لا تتجاوز الحلق . ثم مدّ يده فأخرج قحفاً من رأس آدمي فوضعه بين يدي اسكندر وقال له : يا ذا القرنين ، أتعلم من كان صاحب هذا ؟ قال : لا . قال : كان صاحبه ملكاً من ملوك الدنيا ، فكان يظلم رعيته ويجور عليهم وعلى الضعفاء ويستفرغ زمانه في جمع حطام الدنيا ، فقبض الله روحه وجعل النار مقرّه وهذا رأسه . ثم مدّ يده ووضع قحفاً آخر بين

يديه وقال له : أتعرف هذا؟ قال : لا . قال : هذا كان ملكاً من ملوك الارض ، وكان عادلاً في رعيته شفوقاً على أهل ولايته وملكه فقبض الله روحه وأسكنه جنته ورفع درجته . ووضع يده على رأس ذي القرنين وقال : ترى ، أنت أي هذين الرأسين؟ فبكى ذو القرنين بكاءً شديداً وضمه إلى صدره وقال له : إن أنت رغبت في صحبتي سلّمت إليك وزارتي وقاسمتك في مملكتي . فقال الرجل : هيهات هيهات ، ما لي رغبة في هذا . فقال له اسكندر : ولِمَ ذلك؟ قال : لان الخلق كلهم أعداؤك بسبب المال ، والملك الذي أعطيته وجميعهم أصدقائي في الحقيقة بسبب القناعة والصعلكة لأنني ليس لي ملك ولا طمع في الدنيا ولا لي إليها طلب ولا فيها أرب وليس لي إلا القناعة فحسب . فضمّه اسكندر إلى صدره وقبّله بين عينيه وانصرف .

حكاية أنوشروان وتظاهره بالمرض

ومما يحكى أن الملك العادل أنوشروان أظهر يوماً من الأيام أنه مريض ، وأنفذ ثقاته وأمناه وأمرهم أن يطوفوا أقطار مملكته وأكتاف ولايته وأن يتطلبوا له لبنة عتيقة من قرية خربة ليتداوى بها ، وذكر لأصحابه أن الأطباء وصفوا له ذلك . فطافوا أقطار مملكته وجميع ولايته وعادوا إليه فقالوا : ما وجدنا في جميع المملكة مكاناً خرباً ولا لبنة عتيقة . ففرح أنوشروان بهذا وشكر الله وقال : إنما أردت أن أجرّب ولايتي وأختبر مملكتي لأعلم هل بقي فيها موضع خرب لأعمّره؟ وحيث إنه الآن لم يبق فيها مكان إلاّ وهو عامر فقد تمّت أمور المملكة وانتظمت الأحوال ووصلت العمارة إلى درجة الكمال . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 465

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، ان الملك لما رجع إليه أرباب دولته وقالوا له : ما وجدنا في جميع المملكة مكاناً خرباً . شكر الله وقال : الآن قد تمّت أمور المملكة وانتظمت الأحوال ووصلت العمارة إلى درجة الكمال . فاعلم أيها الملك ان أولئك الملوك القدماء ما كانت همّتهم واجتهادهم في عمارة ولايتهم ، إلاّ لعلمهم أنه كلما كانت الولاية أعمر وكانت الرغبة أوفر ، لأنهم كانوا يعلمون أن الذي قالته العلماء ونطقت به الحكماء صحيح لا ريب فيه ، حيث قالوا : إن الدين بالملك والملك بالجند والجند بالمال والمال بعمارة البلاد وعمارة البلاد بالعدل في العباد . فما كانوا يوافقون أحداً على الجور والظلم ولا يرضون لحشمهم بالتعدي ، علماً منهم أن الرعية لا تثبت على الجور وان البلاد والأماكن تخرب إذا استولى عليها الظالمون ، وتتفرق أهلها ويهربون إلى ولايات غيرها . ويقع النقص في الملك ويقل في البلاد الدخل وتخلوا الخزائن من الأموال ويتكدّر عيش الرعايا لأنهم لا يحبون جائراً ولا يزال دعاؤهم عليه متواتراً ، فلا يتمتع الملك بمملكته وتسرع إليه دواعي مهلكته .

حكاية القاضي الإسرائيلي وزوجته

ومما يحكى أنه كان في بني اسرائيل قاض من قضاتهم ، وكان له زوجة بديعة الجمال كثيرة الصون والصبر والإحتمال . فأراد ذلك القاضي النهوض إلى زيارة بيت المقدس فاستخلف أخاه على القضاء وأوصاه بزوجته . وكان أخوه قد سمع بحسنها وجمالها فكلف بها . فلمّا سار القاضي ، توجه إليها وراودها عن نفسها فامتنعت واعتصمت بالورع ، فأكثر الطلب عليها وهي تمتنع . فلمّا يئس منها خاف ان تخبر أخاه بصنيعه إذا رجع ، فاستدعى بشهود زور يشهدون

عليها بالزنا . ثم رفع مسألتها إلى ملك ذلك الزمان فامر برجمها . فحفروا لها حفرة وأقعدوها فيها ورجمت حتى غطتها الحجارة وقال : تكون الحفرة قبرها . فلمّا جن الليل صارت تئن من شدّة ما نالها ، فمرّ بها رجل يريد قرية . فلمّا سمع أنينها قصدها فاخرجها من الحفرة واحتملها إلى زوجته وامرها بمداواتها ، فداوتها حتى شفيت . وكان للمرأة ولد فدفعته إليها ، فصارت تكفله وتبيت معها في بيت ثان . فرآها أحد الشطار فطمع فيها وأرسل يراودها عن نفسها فامتنعت ، فعزم على قتلها . فجاءها بالليل ودخل عليها البيت وهي نائمة ثم هوى بالسكين إليها فوافق الصبي فذبحه . فلمّا علم انه ذبح الصبي أدركه الخوف فخرج من البيت وعصمها الله منه . ولما أصبحت وجدت الصبي عندها مذبوحاً ، وجاءت أمه وقالت : أنت التي ذبحته . ثم ضربتها ضرباً موجعاً وأرادت ذبحها ، فجاء زوجها وأنقذها منها وقال : والله لم تفعل ذلك . فخرجت المرأة فارّة بنفسها لا تدري أين تتوجه ، وكان معها بعض دراهم . فمرّت بقرية والناس مجتمعون ورجل مصلوب على جذع ، إلاّ أنه في قيد الحياة . فقالت : يا قوم ، ما له ؟ قالوا لها : أصاب ذنباً لا يكفره إلاّ قتله وصدقة كذا وكذا من الدراهم . فقالت : خذوا الدراهم واطلقوه . فتاب على يديها ونذر على نفسه أن يخدمها لله تعالى حتى يتوفاه الموت . ثم بنى لها صومعة أسكنها فيها وصار يحتطب ويأتيها بقوتها ، واجتهدت المرأة في العبادة حتى كان لا يأتيها مريض أو مصاب فتدعو له إلا شفى من وقته . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 466

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن المرأة لما صارت مقصودة للناس وهي مقبلة على عبادتها في الصومعة ، كان من قضاء الله تعالى أنه نزل بأخي زوجها الذي رجمها عاهة في وجهه ، وأصاب المرأة التي ضربتها برص ، وابتلى الشاطر بوجع أقعده . وقد جاء القاضي زوجها من حجه وسأل أخاه عنها فأخبره أنها ماتت ، فأسف عليها واحتسبها عند الله . ثم تسامعت الناس بالمرأة حتى كانوا يقصدون صومعتها من أطراف الأرض ذات الطول والعرض . فقال القاضي لأخيه : يا أخي ، هلا قصدت هذه المرأة الصالحة ؟ لعل الله يجعل لك على يديها شفاء . قال : يا أخي ، إحملني إليها . وسمع زوج المرأة التي نزل بها البرص فسار بها إليها . وسمع أهل الشاطر المقعد بخبرها فساروا به إليها أيضاً . واجتمع الجميع عند باب صومعتها ، وكانت ترى جميع من يأتي صومعتها من حيث لا يراها أحد . فانتظروا خادمها حتى جاء ورغبوا إليه في أن يستأذن لهم في الدخول عليها ففعل ، فتنقبت واستترت ووقفت عند الباب تنظر زوجها وأخاه واللص والمرأة ، وعرفتهم وهم لا يعرفونها . فقالت لهم : يا هؤلاء ، إنكم ما تستريحون مما بكم حتى تعترفوا بذنوبكم . فإن العبد إذا اعترف بذنبه تاب الله عليه وأعطاه ما هو متوجه فيه إليه . فقال القاضي لأخيه : يا أخي ، تب إلى الله ولا تصر على عصيانك فإنه أنفع لخلاصك . ولسان الحال يقول هذا المقال : [من البسيط]

اليَوْمَ يُجْمَعُ مَظْلُومٌ ومَنْ ظَلَما ويُظْهِرُ اللهُ سِرّاً كانَ قَدْ كُتِما
هذا مَقامٌ تُذَلُّ الُمذْنِبُونَ لَه ويَرْفَعُ اللهُ مَنْ طاعاتِهِ لَزِما
ويُظْهِرُ الحَقُّ مَوْلانا وسَيِّدُنا هذا وإنْ سَخَطَ العاصِي وإنْ رُغِما

يا وَيْحَ مَنْ جاهَرَ المَوْلى وأَسْخَطَهُ كأنَّهُ بعقابِ اللهِ ما عَلِما
يا طالبَ العزِّ إنَّ العزَّ وَيْحَكَ في تَقْوَى الإلهِ فَكُنْ باللهِ مُعْتَصِما

قال : فعند ذلك قال أخو القاضي : الآن أقول الحق . فعلت بزوجتك ما هو كذا وكذا وهذا ذنبي . فقالت البرصاء : وأنا كانت عندي امرأة فنسبت إليها ما لم أعلمه وضربتها عمداً وهذا ذنبي . فقال المقعد : وأنا دخلت على امرأة لأقتلها بعد مراودتها عن نفسها وامتناعها من الزنا، فذبحت صبياً كان بين يديها وهذا ذنبي . فقالت المرأة : اللهم كما اريتهم ذلّ المعصية فأرهم عزّ الطاعة إنك على كل شيء قدير . فشفاهم الله عزّ وجلّ . وجعل القاضي ينظر إليها ويتأمّلها . فسألته عن سبب النظر فقال : كانت لي زوجة ولولا إنها ماتت لقلت : إنها أنت . فعرّفته بنفسها، وجعلا يحمدان الله عزّ وجلّ على ما منّ عليهما به من جمع شملهما . ثم طفق كل من أخي القاضي واللص والمرأة يسألونها المسامحة، فسامحت الجميع وعبدوا الله في ذلك المكان مع لزوم خدمتها إلى أن فرّق الموت بينهم .

حكاية امرأة مسافرة إلى الحاج وابنها

ومما يحكى أن بعض السادة قال : بينما أنا أطوف بالكعبة في ليلة مظلمة إذ سمعت صوت ذي حنين ينطق عن قلب حزين وهو يقول : يا كريم لطفك القديم فإن قلبي على العهد مقيم . فتطاير قلبي لسماع ذلك الصوتَ تطايراً أشرفت منه على الموت . فقصدت نحوه فإذا صاحبته امرأة فقلت : السلام عليك يا أمة الله . فقالت : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقلت : أسألك بالله العظيم، ما العهد الذي قلبك عليه مقيم ؟ فقالت : لولا قسمك بالجبار ما أطلعتك على الأسرار، أنظر ما بين يدي . فنظرت فإذا بين يديها صبي نائم يخط في نومه . فقالت : خرجت وأنا حامل بهذا الصبي لأحج هذا البيت، فركبت في سفينة فهالت علينا الأمواج واختلفت علينا الرياح وانكسرت بنا السفينة فنجوت على لوح منها ووضعت هذا الصبي وأنا على ذلك اللوح . فبينما هو في حجري والأمواج تضربني . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 467 □ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قالت : لما انكسرت السفينة نجوت على لوح منها ووضعت هذا الصبي وأنا على ذلك اللوح . فبينما هو في حجري والأمواج تضربني إذ وصل إليّ رجل من ملاحي السفينة وحصل معي وقال لي : والله لقد كنت أهواك وأنت في السفينة والآن قد حصلت معك فمكّنيني من نفسك وإلاّ قذفتك في هذا البحر . فقلت : ويحك، أما كان لك مما رأيت تذكرة وعبرة؟ فقال : إني رأيت مثل ذلك مراراً ونجوت وأنا لا أبالي . فقلت : يا هذا نحن في بلية نرجو السلامة منها بالطاعة لا بالمعصية . فألحّ عليّ، فخفت منه وأردت أن أخادعه فقلت له : مهلاً حتى ينام هذا الطفل . فأخذه من حجري وقذفه في البحر . فلمّا رأيت جرأته وما فعل بالصبي، طار قلبي وزاد كربي . فرفعت رأسي إلى السماء وقلت : يا من يحول بين المرء قلبه حِل بيني وبين هذا الأسد إنك على كل شيء قدير . فوالله ما فرغت من كلامي إلاّ ودابة قد طلعت من البحر فاختطفته من فوق اللوح وبقيت وحدي . وزاد كربي وحزني إشفاقاً على ولدي فانشدت وقلت : [من الرمل]

قُرَّةَ العَيْنِ حَبِيبِي وَلَدِي ضاعَ حَيْثُ الوَجْدُ أَوْهَى جَلَدِي
وأَرَى جِسْمِي غَرِيقاً وغَدَتْ بالتِّباعِ الوَجْدِ تَشْوِي كَبِدِي
لَيْسَ لِي فِي كُرْبَتِي مِنْ فَرَجٍ غَيْرُ أَلْطافِكَ يا مُعْتَمَدِي
أَنْتَ يا رَبِّي تَرَى ما حَلَّ بِي مِنْ غَرامِي بِفِراقِي وَلَدِي
فاجْمَعِ الشَّمْلَ وكُنْ لِي راحِماً فَرَجائِي فِيكَ أَقْوَى عُدَدِي

فبقيت على تلك الحالة يوماً وليلة . فلمّا كان الصباح بصرت بقلاع سفينة تلوح من بعد فما زالت الأمواج تقذفني والرياح تسوقني حتى وصلت إلى تلك السفينة التي كنت أرى قلاعها، فاخذني اهل السفينة ووضعوني فيها . فنظرت فإذا ولدي بينهم فتراميت عليه وقلت : يا قوم هذا ولدي، فمن أين كان لكم ؟ قالوا : بينما نحن نسير في البحر إذ حبست السفينة، فإذا دابة كأنها المدينة العظيمة وهذا الصبي على ظهرها يمص إبهامه فأخذناه . فلمّا سمعت منهم ذلك حدّثتهم بقصتي وما جرى لي وشكرت لربي على ما أنالني وعاهدته على أن لا أبرح بيته ولا أنثني عن خدمته وما سألته بعد ذلك شيئاً إلاّ أعطانيه . فمددت يدي إلى كيس النفقة وأردت أن أعطيها فقالت : إليك عني يا بطال، أفاحدثك بأفضاله وكرم فعاله وآخذ الرفد على يد غيره ! فلم أقدر على أن تقبل مني شيئاً . فتركتها وانصرفت من عندها وأنا أنشد وأقول هذه الأبيات : [من الوافر]

وكَمْ للهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ يَدُقُّ خَفاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ
وكَمْ يُسْرٍ أَتَى مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ وفَرَّجَ لَوْعَةَ القَلْبِ الشَّجِيِّ
وكَمْ هَمٍّ تُعانِيهِ صَباحاً فَتُعْقِبُهُ المَسَرَّةُ بِالعَشِيِّ
إذا ضاقَتْ بِكَ الأَسْبابُ يَوْماً فَثِقْ بِالواحِدِ الصَّمَدِ العَلِيِّ
تَشَفَّعْ بِالنَّبِيِّ فَكُلُّ عَبْدٍ يَنالُ إذا تَشَفَّعَ بِالنَّبِيِّ

وما زالت في عبادة ربّها ملازمة بيته إلى أن أدركها الموت .

حكاية العبد الأول المتعبد

ومما يحكى أن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال : انحبس عنا المطر بالبصرة فخرجنا نستقي مراراً فلم نرَ أثر الإجابة . فخرجت أنا وعطاء السلمي وثابت البناني ونجى البكاء ومحمد بن واسع وايوب السختياني وحبيب الفارسي وحسان بن أبي سنان وعتبة الغلام وصالح المزني حتى صرنا إلى المصلّى، وخرجت الصبيان من المكاتب واستقينا فلم نر أثر الإجابة . فانتصف النهار وانصرف الناس وبقيت أنا وثابت البناني بالمصلّى، فلمّا أظلم الليل بصرنا بأسود مليح الوجه رقيق الساقين عظيم البطن قد أقبل، عليه مئزر من صوف، إذا قوّم جميع ما كان عليه لا يساوي درهمين . فجاء بماء فتوضأ، ثم أتى المحراب فصلّى ركعتين خفيفتين . كان قيامه وركوعه وسجوده فيها سواء، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : إلهي وسيدي ومولاي إلى كم ترد عبادك فيما لا ينقص ملكك ؟ أنفد ما عندك أم فنيت خزائن ملكك ؟ أقسمت عليك بحبك لي إلاّ سقيتنا غيثك الساعة . قال : فما تم الكلام حتى تغيّمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب، ولم نخرج من المصلّى إلاّ ونحن نخوض في الماء للركب . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 468

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنه قال : فما تمّ كلامه حتى تغيّمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب ، ولم نخرج من المصلّى إلاّ ونحن نخوض في الماء للركب ، وبقينا نتعجب من الأسود . قال مالك : فتعرّضت له وقلت : ويحك يا أسود ، أما تستحي مما قلت ؟ فالتفت إلي وقال : ماذا قلت ؟ فقلت له : قولك بحبك لي ، وما يدريك أنه يحبك ؟ قال : فقال لي : تنحّ عني يا من اشتغل عن نفسه . فأين كنت أنا حين أيّدني بالتوحيد وخصّني بمعرفته ؟ أفتراه أيّدني بذلك إلاّ لمحبته لي . ثم قال : محبته لي على قدر محبتي له . فقلت له : قف عليّ قليلاً يرحمك الله . فقال : إني مملوك وعلي فرض من طاعة مالكي الصغير . قال : فجعلنا نقفو أثره على البعد حتى دخل دار نخاس وقد مضى من الليل نصفه ، فطال علينا النصف الثاني فذهبنا . فلمّا كان الصباح أتينا النخاس وقلنا له : أعندك غلام تبيعه لنا لأجل الخدمة ؟ قال : نعم ، عندي نحو مائة غلام كلهم للبيع . قال : وجعل يعرض علينا غلاماً بعد غلام حتى عرض سبعين غلاماً ولم أرَ صاحبي فيهم . فقال : ما عندي غير هؤلاء . فلمّا أردنا الخروج دخلت حجرة خربة خلف داره فإذا الأسود قائم . فقلت : هو ورب الكعبة . فرجعت إلى النخاس وقلت : بعني هذا الغلام . قال : يا أبا يحيى ، إنه غلام مشؤوم نكد ليس له في الليل همة إلاّ البكاء وفي النهار إلاّ الندم . فقلت : لذلك أريده . قال : فدعاه فخرج وهو يتناعس . فقال لي : خذه بما شئت بعد أن تبريني من عيوبه كلها . قال : واشتريته بعشرين ديناراً وقلت : ما اسمه ؟قال : ميمون . فأخذت بيده وانطلقنا نريد به المنزل ، فالتفت إلي وقال لي : يا مولاي الصغير ، لماذا اشتريتني ؟ فأنا والله لا أصلح لخدمة المخلوقين . فقلت له : إنما اشتريتك لأخدمك بنفسي وعلى رأسي . فقال لي : ولم ذلك ؟ فقلت : ألست صاحبنا البارحة بالمصلّى ؟ فقال : وهل اطلعت عليّ ؟ قلت : أنا الذي اعترضتك البارحة في الكلام . قال : فجعل يمشي حتى دخل مسجداً ، فصلّى ركعتين ثم قال : إلهي وسيدي ومولاي ، سرّ كان بيني وبينك أطلعت عليه المخلوقين وفضحتني فيه بين العالمين ، فكيف يطيب الآن عيشي وقد وقف على ما كان بيني وبينك غيرك ؟ أقسمت عليك إلاّ ما قبضت روحي الساعة . ثم سجد فانتظرته ساعة فلم يرفع رأسه ، فحرّكته فإذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه . فمددت يديه ورجليه ونظرت إليه فإذا هو ضاحك وقد غلب البياض على السواد ووجهه يستنير ويبدو تهلّلاً . فبينما نحن نعجب من أمره إذ بشاب قد أقبل من الباب وقال : السلام عليكم عظم الله أجرنا وإيّاكم في أخينا ميمون ، هاك الكفن فكفّنوه فيه . فناولني ثوبين ما رأيت مثلهما قط ، فكفناه فيهما . قال مالك : فقبره الآن يستسقى به وتطلب الحوائج من الله عزّ وجلّ لديه . وما أحلى ما قال بعضهم في هذا المعنى : [من الطويل]

مَجالُ قُلُوبِ العارِفِينَ بِرَوْضَةٍ ... سَماوِيَّةٍ مِنْ دُونِها حُجبُ الرَّبِّ
إذا شَرِبُوا فِيها الرَّحِيقَ مِزاجُهُ ... بِتَسْنِيمِ راحِ الأُنْسِ باللهِ مِنْ قُرْبِ
سَرَى سِرُّهُم بَيْنَ الحَبِيبِ وبَيْنَهُم ... فَأَضْحَى مَصُوناً عَنْ سِوَى ذلكَ القَلْبِ

حكاية المتعبد الإسرائلي وزوجته

ومما يحكى أنه كان في بني اسرائيل رجل من خيارهم ، وقد اجتهد في عبادة ربّه وزهد في دنياه

وأزالها عن قلبه . وكانت له زوجة مساعدة على شأنه مطيعة له في كل زمانه ، وكانا يعيشان من عمل الأطباق والمراوح يعملان النهار كله ، فإذا كان آخر النهار خرج الرجل بما عملاه في يده ومشى به يمرّ على الأزقّة والطرق يلتمس مشترياً يبيع له ذلك ، وكانا يديمان الصوم . فأصبحا في يوم من الأيام وهما صائمان وقد عملا يومهما ذلك ، فلمّا كان آخر النهار خرج الرجل على عادته وبيده ما عملاه يطلب من يشتريه منه ، فمرّ بباب أحد أبناء الدنيا وأهل الرفاهية والجاه . وكان الرجل وضيء الوجه جميل الصورة ، فرأته امرأة صاحب الدار فعشقته ومال قلبها إليه ميلا شديداً ، وكان زوجها غائباً . فدعت خادمتها وقالت لها : لعلّك تتحيّلين على ذلك الرجل لتأتي به عندنا . فخرجت الخادمة إليه ودعته لتشتري منه ما بيده وردته من طريقه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 469 □ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الخادمة خرجت إلى الرجل ودعته وقالت : أدخل فإن سيدتي تريد أن تشتري من هذا الذي بيدك شيئاً بعد أن تختبره وتنظر إليه . فتخيّل الرجل أنها صادقة في قولها ولم يرَ في ذلك بأساً . فدخل وقعد كما أمرته ، فأغلقت الباب عليه وخرجت سيدتها من بيتها وأمسكت جلابيبه وجذبته وأدخلته وقالت له : كم ذا ؟ أطلب خلوة منك وقد عيل صبري من أجلك ، وهذا البيت مبخّر والطعام محضّر وصاحب الدار غائب في هذه الليلة وأنا قد وهبت لك نفسي . ولطالما طلبتني الملوك والرؤساء وأصحاب الدنيا ولم ألتفت لأحد منهم . وطال أمرها في القول والرجل لا يرفع رأسه من الأرض حياء من الله تعالى وخوفاً من أليم عقابه . كما قال الشاعر : [من الوافر]

وربَّ كَبيرَةٍ ما حالَ بَيْني ... وبَينَ رُكُوبِها إلاَّ الحَياءُ
وكانَ هُوَ الدَّواءُ لَها ولَـكِنْ ... إذا ذَهَبَ الحَياءُ فَلا دَواءُ

قال : وطمع الرجل في أن يخلّص نفسه منها فلم يقدر فقال : أريد منك شيئاً . قالت : وما هو ؟ قال : أريد ماءً طاهراً أصعد به إلى أعلى موضع في دارك لأقضي به أمراً وأغسل به درناً مما لا يمكنني أن أطلعك عليه . فقالت : الدار متسعة ولها خبايا وزوايا وبيت الطهرة معدّ . قال : ما غرضي إلاّ الإرتفاع . فقالت لخادمتها : إصعدي به إلى المنظرة العليا من الدار . فصعدت به إلى أعلى موضع فيها ودفعت له آنية الماء ونزلت . فتوضأ الرجل وصلّى ركعتين ونظر إلى الأرض ليلقي نفسه فرآها بعيدة ، فخاف أن لا يصل إليها إلاّ وقد تمزّق . ثم تفكّر في معصية الله وعقابه فهان عليه بذل نفسه وسفك دمه فقال : إلهي وسيدي ، ترى ما نزل بي ؟ ولا يخفى عليك حالي إنك على كل شيء قدير . ولسان الحال ينشد ويقول في المعنى : [من الوافر]

أَشارَ القَلْبُ نَحْوَكَ والضَّميرُ ... وسِرُّ السِّرِّ أَنْتَ بِهِ خَبيرُ
وإنِّي إنْ نَطَقْتُ بِكُمْ أُنادِي ... وفي وَقْتِ السُّكُوتِ لَـكُم أُشيرُ
أَيا مَنْ لا يُضافُ إلَيْهِ ثانٍ ... أَتاكَ الوالِه الصَّبُّ الفَقيرُ
ولي أَمَلٌ تُحَقِّقُهُ ظُنُوني ... ولي قَلْبٌ كَما تَدْرِي يَطِيرُ

وبَذْلُ النَّفسِ أَصْعَبُ ما يُلاقِي   فإِنْ قَدَّرْتَهُ فَهْوَ اليَسِيرُ
وإِنْ تَمْنُنْ وتَمْنَحْنِي خَلاصِي   فَأَنْتَ عَلَيْهِ يا أَمَلِي قَدِيرُ

ثم إن الرجل ألقى نفسه من أعلى المنظرة، فبعث الله إليه ملكاً احتمله على جناحه وانزله إلى الأرض سالماً دون ان يناله ما يؤذيه. فلمّا استقر بالأرض حمد الله عزّ وجلّ على ما أولاه من عصمته وما أناله من رحمته وسار دون شيء إلى زوجته، وكان قد أبطأ عنها. فدخل وليس معه شيء فسألته عن سبب بطئه وعن ما خرج به في يده وما فعل به وكيف رجع بدون شيء. فأخبرها بما عرض له من الفتنة وإنه ألقى نفسه من ذلك الموضع فنجّاه الله. فقالت زوجته: الحمد لله الذي صرف عنك الفتنة وحال بينك وبين المحنة. ثم قالت: يا رجل، إن الجيران قد تعودوا منّا ان نوقد تنّورنا في كل ليلة، فإن رأونا الليلة دون نار علموا أننا بلا شيء. ومن شكر الله كتم ما نحن فيه من الخصاصة، ووصال صوم هذه الليلة باليوم الماضي وقيامها لله تعالى. فقامت إلى التنّور وملأته حطباً وأضرمته لتغالط به الجارات وأنشدت تقول هذه الأبيات: [من الطويل]

سأَكْتُمُ ما بِي مِنْ غَرامِي وأَشْجانِي   وأُضْرِمُ نارِي كَيْ أُغالِطَ جِيرانِي
وأَرْضَى بما أَمْضَى مِنَ الحُكْمِ سَيِّدِي   عَساهُ يَرَى ذُلِّي إِلَيْهِ فَيَرْضانِي

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 470

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المرأة لما أضرمت النار تغالط الجيران، نهضت هي وزوجها وتوضأا وقاما إلى الصلاة. فإذا امرأة من جاراتها تستأذن في أن توقد من تنّورهما. فقالا لها: شأنك والتنّور. فلمّا دنت المرأة من التنّور لتأخذ النار نادت: يا فلانة، أدر كي خبزك قبل أن يحترق. فقالت امرأة الرجل لزوجها: أسمعت ما تقول هذه المرأة؟ فقال: قومي وانظري. فقامت وتوجّهت للتنّور فإذا هو قد امتلأ من خبز نقي أبيض. فأخذت المرأة الأرغفة ودخلت على زوجها وهي تشكر الله عزّ وجلّ على ما أولى من الخير العميم والمن الجسيم. فأكلا من الخبز وشربا من الماء وحمدا الله تعالى. ثم قالت المرأة لزوجها: تعال ندع الله تعالى عساه أن يمنّ علينا بشيء يغنينا عن كدّ المعيشة وتعب العمل ويعيننا به على عبادته والقيام بطاعته. قال لها: نعم. فدعا الرجل ربّه وأمنت المرأة على دعائه. فإذا السقف قد انفرج ونزلت ياقوتة أضاء البيت من نورها، فزادا شكراً وثناء، وسُرّا بتلك الياقوتة سروراً كثيراً وصليا ما شاء الله تعالى. فلمّا كانا آخر الليل ناما فرأت المرأة في منامها كأنها دخلت الجنة وشاهدت منابر كثيرة مصفوفة وكراسي منصوبة فقالت: ما هذه المنابر وما هذه الكراسي؟ فقيل لها: هذه منابر الأنبياء وهذه كراسي الصدّيقين والصالحين. فقالت: وأين كرسي زوجي فلان؟ فقيل لها: هذا. فنظرت إليه فإذا في جانبه ثلم. فقالت: وما هذا الثلم؟ فقيل لها: هو ثلم الياقوتة النازلة عليكما من سقف بيتكما. فانتبهت من منامها وهي باكية حزينة على نقصان كرسي زوجها بين كراسي الصدّيقين فقالت: أيها الرجل، ادع ربك أن يردّ هذه الياقوتة إلى موضعها، فمكابدة الجوع والمسكنة في الأيام القلائل أهون من ثلم كرسيك بين أصحاب الفضائل. فدعا الرجل ربّه فإذا

الياقوتة قد طارت صاعدة إلى السقف وهما ينظران إليها . وما زالا على فقرهما وعبادتهما حتى لقيا الله عزّ وجلّ .

حكاية الحجاج بن يوسف والسجين المتعبد

ومما يحكى ان الحجاج بن يوسف الثقفي كان يتطلب رجلاً من الأكابر ، فلمّا حضر بين يديه قال : اي عدو الله قد أمكن الله منك . ثم قال : إحملوه إلى السجن وقيدوه بقيد ضيّق ثقيل وابنوا عليه بيتاً لا يخرج منه ولا يدخل إليه فيه أحد . فأمر بالرجل إلى السجن وأحضر الحداد والقيد ، وكان الحداد إذا ضرب بمطرقته يرفع الرجل رأسه وينظر إلى السماء ويقول : ألا له الخلق والأمر . فلمّا فرغ منه بنى السجان عليه البيت وتركه فيه وحيداً فريداً . فداخله الوجد والذهول ولسان حاله ينشد ويقول : [من الخفيف]

يا مُرادَ المُريدِ أَنْتَ مُرادِي — وعَلَى فَضْلِكَ العَميمِ ٱعْتِمادِي
لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ ما أَنا فِيهِ — لَحْظَةً مِنْكَ بُغْيَتِي وٱقْتِصادِي
سَجَنُونِي وبالَغُوا في ٱمْتِحاني — وَيْحَ نَفْسِي لِغُرْبَتِي وٱنْفِرادِي
إنْ أَكُنْ مُفْرَداً فَذِكْرُكَ أُنْسِي — وسَمِيرِي إذا مُنِعْتُ رُقادِي
إنْ تَكُنْ راضِياً فَلَسْتُ أُبالِي — أَنْتَ تَدْرِي بما تَرَى في فُؤَادِي

فلمّا جنّ الليل أبقى السجّان حرسه عنده وذهب إلى بيته . ولما أصبح جاء وتفقّد الرجل فإذا القيد مطروح والرجل ليس له خبر . فخاف السجّان وأيقن بالموت ، فسار إلى منزله وودّع أهله وأخذ كفنه وحنوطه في كمه ودخل على الحجاج . فلمّا وقف بين يديه شمّ الحجاج رائحة الحنوط فقال : ما هذا؟ قال : يا مولاي ، أنا جئت به . قال : وما حملك على هذا؟ فأخبره بخبر الرجل . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 471

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن السجّان لما أخبر الحجاج بخبر الرجل قال للرجل : ويحك ، هل سمعته يقول شيئاً؟ قال : نعم . كان إذا ضرب الحداد بالمطرقة ينظر إلى السماء ويقول : ألا له الخلق والأمر . فقال الحجاج : أوما علمت أن الذي ذكره وأنت حاضر ، سرحه وأنت عنه غائب؟ وقد أنشد لسان الحال في هذا المعنى وقال : [من البسيط]

يا رَبُّ كَمْ مِنْ بَلاءٍ قَدْ ذَهَبْتَ بِه — عَنِّي ولَوْلاكَ لَمْ أَقْعُد ولَمْ أَقُمِ
فَكَمْ وَكَمْ مِنْ أُمُورٍ لَسْتُ أَحْصُرُها — نَجَّيْتَنِي مِنْ بَلاها كَمْ وكَمْ وكَمِ

حكاية الحداد الذي يدخل يده في النار فلا تعدو عليه

وحكي أن رجلاً من الصالحين بلغه أن بمدينة كذا وكذا حداد يدخل يده في النار ويأخذ الحديدة المحماة منها بها فلا تعدو عليه النار . فقصد الرجل تلك البلدة يسأل عن الحداد فدُلّ عليه ، فلمّا نظره وتأمّله رآه يصنع ما قد وصف له . فأمهله حتى فرغ من عمله وأتاه وسلم عليه وقال له : إني أريد أن أكون الليلة ضيفك . فقال : حباً وكرامةً . فاحتمله إلى منزله وتعشّى معه وناما جميعاً ، فلم يرَ له أثر قيام ولا عبادة . فقال في نفسه : لعله يستتر مني . فبات عنده ثانية وثالثة فرآه

لا يزيد على الفرض إلاّ السنن، ولا يقوم من الليل إلاّ القليل. فقال له: يا اخي، إني سمعت عمّا اكرمك الله به ورأيته بادياً عليك، ثم نظرت إلى اجتهادك فلم أرَ منك عمل من تظهر عليه الكرامات. فمن أين لك هذا؟ قال: إني أحدّثك بسببه. وذلك اني كنت تولّعت بجارية وكنت بها كلفاً؛ فراودتها عن نفسها كثيراً فلم أقدر عليها لاعتصامها بالورع. فجاءت سنة قحط وجوع وشدّة، فعدم الطعام وعظم الجوع. فبينما أنا قاعد إذ قرع الباب قارع فخرجت، فإذا هي واقفة فقالت: يا اخي، أصابني جوع شديد وقد رفعت إليك رأسي لتطعمني لله. فقلت لها: أما تعلمين ما كان من حبك وما قاسيته من أجلك؟ فانا لا اطعمك شيئاً حتى تمكّنيني من نفسك. فقالت: الموت ولا معصية الله. ثم رجعت وعادت بعد يومين فقالت لي مثل مقالتها الأولى، وقلت مثل جوابي الأول. فدخلت وقعدت في البيت وقد أشرفت على الهلاك، فلمّا جعلت الطعام بين يديها، ذرفت عيناها وقالت: أطعمني لله عزّ وجلّ. فقلت لها: لا والله إلاّ أن تمكّنيني من نفسك. فقالت: الموت خير لي من عذاب الله تعالى. وقامت وتركت الطعام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 472

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، ان المرأة قالت للرجل حين أتاها بالطعام: أطعمني لله عزّ وجل. فقال: لا إلاّ أن تمكّنيني من نفسك. فقالت: الموت ولا عذاب الله. ثم قامت وتركت الطعام وخرجت ولم تأكل شيئاً. وجعلت تقول هذه الأبيات:

[من الطويل]

أَيا واحِداً إحْسانُهُ شَمَلَ الخَلْقا ... بِسَمْعِكَ ما أَشْكُو بِعَيْنِكَ ما أَلْقَى
فَقَدْ صَدَمَتْني شِدَّةٌ وخَصاصَةٌ ... ونازَلَني ما بَعْضُهُ يَمْنَعُ النُّطْقا
كأَنِّيَ ظَمْآنٌ تَرَى الماءَ عَيْنُهُ ... فَلا عَيْنُهُ تُرْوَى ولا شُرْبَةٌ يُسْقَى
تُنازِعُني نَفْسِي إلى نَيْلِ أَكْلَةٍ ... لَذاذَتُها تَفْنَى وعِصْيانُها يَبْقَى

ثم إنها غابت يومين وأتت تقرع الباب، فخرجت فإذا الجوع قد قطع صوتها فقالت لي: يا أخي، قد أعيتني الحيل ولا أقدر على إبداء وجهي لأحد من الناس غيرك، فهل تطعمني لله تعالى؟ فقلت: لا، إلاّ أن تمكّنيني من نفسك. فدخلت وقعدت في البيت ولم يكن عندي طعام حاضر، فلمّا نضج الطعام وجعلته في القصعة تداركني الله تعالى وقلت لنفسي: ويحك، هذه امرأة ناقصة عقل ودين تمتنع من الطعام، ولا قدرة لها على الصبر دونه لما نالها من الجوع، وهي ترد المرة بعد الأخرى وأنت لا تنثني عن معصية الله تعالى. فقلت: اللهم إني أتوب إليك مما خطر بنفسي. فقمت بالطعام ودخلت عليها وقلت لها: كُلي ولا بأس عليك فإنه لله عزّ وجل. فرفعت عينها إلى السماء وقالت: اللهم إن كان هذا صادقاً فحرّم عليه النار في الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير. قال: فتركتها وقمت لأزيل النار من الكانون وكان الوقت وقت فصل الشتاء والبرد، فوقعت جمرة على بدني فلم أجد لها ألماً بقدرة الله عزّ وجل، فوقع في نفسي أن دعوتها أجيبت. فأخذت الجمرة بكفي فلم تحرقني، فدخلت عليها وقلت: أبشري فإن الله قد أجاب دعوتك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 473

قالت لها : أبشري فإن الله قد أجاب دعوتك . فالقت اللقمة من يدها وقالت : اللهم كما أريتني مرادي فيه وأجبت دعوتي له فاقبض روحي إنك على كل شيء قدير . فقبض الله روحها تلك الساعة رحمة الله عليها . وأنشد لسان الحال في هذا المعنى وقال

[من الوافر]

دَعَتْ فَأَجابَ مَوْلاها دُعاها وتابَ عَلى غَوِيٍّ قَدْ دَعاها
أَراها سُؤْلَها فيهِ ٱمْتِنانًا وواتاها كَما شاءَتْ مُناها
أَتَتْهُ لِبابِهِ تَرْجُو نَوالاً وتَقْصِدُهُ لِكَرْبٍ قَدْ عَراها
فَمالَ إلى غِوايَتِهِ وأَهْوَى لِشَهْوَتِهِ وأَمَّلَ مُنْتَهاها
ولَمْ يَعْلَمْ مُرادَ اللهِ فيهِ وتَوْبَتُهُ أَتَتْهُ وما نَواها
قَضايا اللهِ أَرْزاقٌ فَمَنْ لا تُتاحُ لَهُ وتَأْتِيهِ أَتاها

حكاية رجل إسرائيلي وسحابة

وحكي أنه كان في بني اسرائيل رجل من العباد المشهورين بالعبادة المعصومين الموصوفين بالزهادة ، وكان إذا دعا ربه أجابه وإذا سأل أعطاه وآتاه مناه . وكان سيّاحاً في الجبال قوام الليل . وكان الله سبحانه وتعالى قد سخّر له سحابة تسير معه حيث يسير وتسكب عليه ماء منهمراً فيتوضأ منه ويشرب . فما زال على ذلك إلى أن اعتراه فتور في بعض الأوقات ، فأزال الله عنه سحابته وحجب عنه إجابته . فكثر لذلك حزنه وطال كمده ، وما زال يشتاق إلى زمن الكرامة الممنون بها عليه ويتحسّر ويتأسّف ويتلهّف . فنام ليلة من الليالي فقيل له في نومه : إن شئت أن يرد الله عليك سحابتك ، فاقصد الملك الفلاني في بلد كذا أو كذا واسأله أن يدعو لك فإن الله سبحانه وتعالى يردّها عليك ويسوقها إليك ببركة دعواته الصالحات . وأنشد يقول هذه الأبيات : [من المتقارب]

أَقْصِدْ إلى الصَّالِحِ الأَميرِ في خَطْبِكَ الواقِعِ الكَبيرِ
فإنْ دَعا اللهُ جاءَ ما قَدْ سَأَلْتَ مِنْ وابِلٍ هَميرِ
لَقَدْ سَما في المُلوكِ قَدْراً وجَلَّ فيهِمْ عَنِ النَّظيرِ
وسَوْفَ تَلْقَى لَدَيْهِ أَمْراً يُؤْذِنُ بالبِشْرِ والسُّرُورِ
فاقْطَعْ لَهُ البِيدَ والفَيافِي وواصِلِ السَّيْرَ بالمَسيرِ

قال : فسار الرجل يقطع الأرض حتى دخل البلدة التي ذكرت له في المنام ، فسأل عن الملك فدُل عليه . فسار إلى قصره فإذا عند باب القصر غلام قاعد على كرسي عظيم وعليه كسوة هائلة ، فوقف الرجل وسلّم . فردّ عليه السلام وقال : ما حاجتك ؟ قال : أنا رجل مظلوم وقد جئت الملك أرفع قصتي إليه . قال : لا سبيل لك اليوم عليه لأنه قد جعل لأهل المسائل في الأسبوع يوماً يدخلون عليه فيه وهو يوم كذا أو كذا ، فسر راشداً حتى يأتي ذلك اليوم . فأنكر الرجل عليه تحجّبه عن الناس وقال : كيف يكون هذا ولياً من أولياء الله عزّ وجل وهو على مثل هذا الحال ؟ وذهب ينتظر اليوم الذي قيل له عليه . فلمّا كان ذلك اليوم الذي ذكره البوّاب دخلت ، فوجدت

عند الباب أناساً ينتظرون الإذن لهم في الدخول . فوقفت معهم إلى أن خرج وزير عليه ثياب هائلة وبين يديه خدم وعبيد فقال : لتدخل أرباب المسائل . فدخلوا ودخلت في الجملة ، فإذا الملك قاعد وبين يديه أرباب مملكته على قدر مقاديرهم ومراتبهم . فوقف الوزير وجعل يقدّم واحداً بعد واحد حتى وصلت النوبة إليّ . فلمّا قدّمني الوزير نظر الملك إليّ وقال : مرحباً بصاحب السحابة ، اقعد حتى أفرغ لك . فتحيّرت من قوله واعترفت بمرتبته وفضله . فلمّا قضى بين الناس وفرغ منهم قام وقام الوزير وأرباب المملكة ، ثم أخذ الملك بيدي وأدخلني إلى قصره ، فوجدت عند باب القصر عبداً أسود وعليه ثياب هائلة وفوق رأسه أسلحة وعن يمينه وشماله دروع وقسي . فقام إلى الملك وسارع لأمره وقضاء حوائجه ، ثم فتح باب القصر فدخل الملك ويدي في يده ، فإذا بين يديه باب قصير ففتحه الملك بنفسه ودخل إلى خربة وبناء هائل ، ثم دخل إلى بيت ليس فيه إلاّ سجادة وقدح للوضوء وشيء من الخوص . ثم جرّد ثيابه التي كانت عليه ولبس جبّة خشنة من الصوف الأبيض وجعل على رأسه قلنسوة من لبد ثم قعد وأقعدني ونادى أن : يا فلانة لزوجته . فقالت له : لبيك . قال لها : أتدرين مَن ضيفنا في هذا اليوم ؟ قالت : نعم ، هو صاحب السحابة . فقال لها : أخرجي لا عليك منه . قال : فإذا هي امرأة كأنها الخيال ووجهها يتلألأ كالهلال وعليها جبّة صوف وقناع . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 474

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك لما نادى زوجته ، خرجت ووجهها يتلألأ كالهلال وعليها جبّة خشنة من صوف وقناع . فقال الملك : يا أخي ، أتريد أن تعرف خبرنا أو ندعو لك وتنصرف ؟ قال : بل أريد أسمع خبركما فإنه الأشوق إليّ . فقال له : إنه كان آبائي وأجدادي يتداولون المملكة ويتوارثونها كابراً عن كابر إلى أن ماتوا ووصل الأمر إليّ ، فبغّض الله ذلك لي . فأردت أن أسيح في الأرض وأترك أمر الناس لأنفسهم ، ثم إني خفت عليهم من دخول الفتنة وتضييع الشرائع وتشتيت شمل الدين فتركت الأمر على ما كان عليه ، وجعلت لكل رأس منهم جراية بالمعروف ولبست ثياب الملك وأقعدت العبيد على الأبواب إرهاباً لأهل الشرّ وذاباً عن أهل الخير وإقامة للحدود . فإذا فرغت من ذلك كله دخلت منزلي وأزلت هذه الثياب ولبست ما ترى ، وهذه ابنة عمي وافقتني على الزهادة وساعدتني على العبادة . فنعمل من هذا الخوص بالنهار ما نفطر به عند الليل . وقد مضى علينا ونحن على هذه الحالة نحو أربعين سنّة ، فأقم معنا يرحمك الله حتى نبيع خوصنا وتفطر معنا وتبيت عندنا ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى . قال : فلمّا كان آخر النهار أتى غلام خماسي ودخل ، فأخذ ما عملاه من الخوص وسار به إلى السوق فباعه بقيراط واشترى به خبزاً وفولاً وأتى بهما ، فافطرت معهما ونمت عندهما . فقاما من نصف الليل يصلّيان ويبكيان ، فلمّا كان السحر قال الملك : اللهم إن هذا عبدك يطلب منك أن ترد سحابته عليه وأنت على ذلك قدير ، اللهم أره إجابته واردد عليه سحابته . قال : وأمنت المرأة فإذا السحابة قد نشأت في السماء . فقال لي البشارة ، فودّعتهما وانصرفت والسحابة تسير معي كما كانت . فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بحرمتهما شيئاً إلاّ أجابني . وأنشأت أقول هذه الأبيات : [من الطويل]

وإنَّ لِرَبِّي صَفْوَةً مِنْ عَبِيدِهِ قُلُوبُهُمُو في رَوْضِ حِكْمَتِهِ تَجْرِي
وأَبْدانُهُمْ قَدْ أُسْكِنَتْ حَرَكاتُها لِما في صُدُورِ القَوْمِ مِنْ خالِصِ السِّرِّ
تَراهُمْ صُمُوتاً خاشِعِينَ لِرَبِّهِمْ بِحَيْثُ يَرَوْنَ الغَيْبَ بالغَيْبِ كالجَهْرِ

حكاية المسلم الجريء والنصراني

وحكي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جهّز جيشاً من المسلمين تجاه العدو قبل الشام فحاصروا حصناً من حصونهم حصاراً شديداً. وكان في المسلمين رجلان أخوان قد آتاهما الله حدة وجراءة على العدو. وكان أمير ذلك الحصن يقول لأقياله ومن بين يديه من أبطاله: لو أن هذين المسلمين خطلا أو قتلا لكفيتكم من سواهما من المسلمين. قال: فما زالوا ينصبون لهما المصائد ويحتالون عليهما بالمكائد ويجعلون المكامن ويكثرون الكوامن إلى أن أُخذ أحدهما أسيراً وقُتل الآخر شهيداً. فاحتمل المسلم الأسير إلى أمير ذلك الحصن فلمّا نظر إليه قال: إن قتل هذا لمصيبة، وإن رجوعه إلى المسلمين لكريهة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 475

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العدو لما حملوا المسلم الأسير إلى أمير ذلك الحصن ونظر إليه قال: إن قتل هذا لمصيبة ورجوعه إلى المسلمين لكريهة، ووددت لو يدخل في دين النصرانية عوناً وعضداً. فقال بطريق من بطارقته: أيها الأمير، أنا أفتنه حتى يرتدّ عن دينه. وذلك إن العرب تكثر الصبوة إلى النساء، ولي بنت لها جمال وكمال فلو رآها لفتن بها. فقال: هو مسلّم إليك فاحمله. فحمله إلى منزله، وألبس الصبية من الثياب ما زاد في زينتها وجمالها وجاء بالرجل وأدخله المنزل، وأحضر الطعام ووقفت الصبية النصرانية بين يديه كالخادمة المطيعة لسيدها تنتظر أن يامرها بأمر تمتثله. فلمّا رأى المسلم ما نزل به، اعتصم بالله تعالى وغضّ بصره واشتغل بعبادة ربه وقراءة القرآن. وكان له صوت حسن وقريحة مؤثرة في النفس، فاحبته الصبية النصرانية حباً شديداً وكلفت به كلفا عظيماً. وما زال كذلك سبعة أيام حتى صارت تقول: ليته يرضى بدخولي في الإسلام. ولسان حالها ينشد هذه الأبيات: [من الطويل]

أَتَعْرِضُ عَنِّي والفُؤَادُ لَكُمْ يَصْبُو فِداؤُكُمُو نَفْسِي ومَثْواكُم القَلْبُ
وإنِّي لأَرْضَى أَنْ أُفارِقَ فِرْقَتِي وأَتْرُكَ دِيناً دُونَهُ الصَّارِمُ العَضْبُ
وأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ لا رَبَّ غَيرَه بِذا ثَبَتَ البُرْهانُ وارْتَفَعَ الرَّيْبُ
عَسَى أَنَّه يَقْضِي بِوَصْلِه مُعْرِضٌ ويُبْرِدُ قَلْباً شَفَّهُ الشَّوْقُ والحُبُّ
فَقَدْ تُفْتَحُ الأَبْوابُ بَعْدَ تَغَلُّقٍ ويُعْطَى الأَماني مَنْ تَداوَلَهُ الكَرْبُ

فلمّا عيل صبرها وضاق صدرها ترامت بين يديه وقالت: أسألك بدينك إلاّ ما سمعت كلامي. فقال: وما كلامك؟ قالت: أعرض عليّ الإسلام. فعرضه عليها وأسلمت. ثم تطهّرت وعلّمها كيف تصلي. فلمّا فعلت ذلك قالت: يا أخي، إنما كان دخولي في الإسلام بسببك وابتغاء قربك. فقال لها: إن الإسلام يمنع من النكاح إلاّ بشاهدين عدلين ومهر وولي، وأنا لا أجد

الشاهدين ولا الولي ولا المهر . فلو تحيّلت في خروجنا من هذا الموضع لرجوت الوصول إلى دار الإسلام ، وأعاهدك على أن لا يكون لي زوجة في الإسلام غيرك . فقالت : أنا أحتال لذلك . ثم دعت أباها وأمها وقالت لهما : إن هذا المسلم قد لان قلبه ورغب في الدخول إلى الدين ، وأنا أوصله إلى ما يريد من نفسي . فقال : إن هذا لا يتفق لي في بلد قتل فيه أخي ، فلو خرجت منه ليتسلّى قلبي وفعلت ما هو المراد مني ، ولا بأس أن تخرجاني معه إلى بلد أخرى فإني ضامنة لكما وللملك ما تريدونه . قال : فمشى والدها إلى أميرهم وعرفه ، فسرّ بذلك سروراً كبيراً وأمر بإخراجها معه إلى القرية التي ذكرت . فخرجا فلمّا وصلا إلى القرية وبقيا يومهما ، وجنّ الليل عليهما أخذا في الرحيل وقطع السبيل . كما قال بعضهم شعراً : [من المتقارب]

وقالُوا: قَدْ دَنا مِنّا رَحِيلٌ	فَقُلْتُ: وَكَمْ أُهَدِّدُ بالرَّحِيلِ
وما لي غيرَ جَوْبِ القَفْرِ شُغْلٌ	وقَطْعِ الأَرْضِ مِيلاً بَعْدَ مِيلِ
لَئِنْ ظَعَنَ الأَحِبَّةُ نَحْوَ أَرْضٍ	رَجَعْتُ بِها مِنْ أَبْناءِ السَّبِيلِ
وأَجْعَلُ نَحْوَهُم شَوْقِي دَلِيلاً	فَتَهْدِينِي الطَّرِيقَ بلا دَلِيلِ

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 476 □ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن المسلم الأسير والصبية أقاما بتلك القرية التي دخلاها بقية يومهما ، ولما جنّ عليهما الليل أخذا في الرحيل وقطع السبيل . وسارا ليلتهما تلك ، وكان الشاب قد ركب جواداً سابقاً وأردفها خلفه . فما زال يقطع الأرض حتى قرب الصباح ، فمال بها عن الطريق وأنزلها وتوضأا وصلّيا الصبح . فبينما هما كذلك إذ سمعا قعقعة السلاح وصلصلة اللجم وكلام الرجال وحوافر الخيل فقال لها : يا فلانة ، هذا تبع النصارى قد أدركنا ، فما تكون الحيلة والفرس قد كلّ وملّ حتى لا يقدر أن يخطو باعاً . فقالت له : ويحك ، أفزعت وخفت ؟ قال : نعم . قالت : فأين ما كنت تحدّثني به من قدرة ربك وغياثه مستغيثين ؟ تعال نتضرّع إليه وندعه لعله يغيثنا بغياثه ويتداركنا بلطفه سبحانه وتعالى . فقال : نعم والله ما قلت . فأخذا في التضرع إلى الله تعالى ، وجعل ينشد ويقول هذه الأبيات : [من البسيط]

إِنِّي إِلَيْكَ مَدَى السّاعاتِ مُحْتاجُ	لَوْ كانَ فِي مَفْرِقِي الإِكْلِيلُ والتّاجُ
وأَنْتَ حاجَتِيَ الكُبْرَى فَلَو ظَفِرَتْ	بما أَرَدْتَ يَدِي لَمْ يَبْقَ لِي حاجُ
ولَيْسَ عِنْدَكَ شَيْءٌ أَنْتَ مانِعَهُ	بَلْ سَيْلُ جُودِكَ سَيّالٌ وثَجّاجُ
لَـكِنَّنِي أَنا مَحْجُوبٌ بِمَعْصِيَتِي	ونُورُ عَفْوِكَ يا ذا الحِلْمِ وَهّاجُ
يا فارِجَ الهَمِّ فَرِّج ما بُلِيتُ بِهِ	فَمَنْ سِواكَ لِهذا الهَمِّ فَرّاجُ

قال : فبينما هو يدعو والجارية تؤمن على دعائه ووجيف الخيل يقرب منهما إذ سمع الفتى كلام أخيه الشهيد المقتول وهو يقول : يا أخي ، لا تخف ولا تحزن فالوفد وفد الله وملائكته ، أرسلهم إليكما ليشهدوا عليكما في التزويج ، وإن الله تعالى قد باهى بكما ملائكته وأعطاكما أجر

السعداء والشهداء وطوى لكما الأرض وإنك تصبح بجبال المدينة، فإذا اجتمعت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فاقرأ عليه السلام مني وقل له: جزاك الله عن الإسلام خيراً فلقد نصحت واجتهدت. ثم رفعت الملائكة أصواتها بالسلام عليه وعلى زوجته وقالوا: إن الله تعالى زوّجها منك قبل أن يخلق أباكما آدم عليه السلام بألفي عام. قال: فغشيهما البشر والسرور والأمن والحبور، وزاد اليقين وثبتت هداية المتّقين. ولما طلع الفجر وصلّيا الصبح، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يغلس بصلاة الصبح، وربما دخل المحراب وخلفه رجلان فيبتدئ بسورة الأنعام وبسورة النساء فينتبه الراقد ويتوضأ المتوضئ ويأتي البعيد، فما يتم الركعة الأولى إلاّ والمسجد قد امتلأ من الناس، فيصلي الركعة الثانية بسورة خفيفة يوجز فيها. فلمّا كان ذلك اليوم، صلّى في أول ركعة بسورة خفيفة أوجز فيها وفي الثانية كذلك. فلمّا سلم نظر إلى أصحابه وقال: اخرجوا بنا لتلقي العروسين. فتعجّب أصحابه ولم يفهموا كلامه، فتقدّم وهم خلفه حتى خرج إلى باب المدينة. وكان الشاب عندما ظهر له النور ورأى أعلام المدينة، أقبل نحو الباب وزوجته خلفه فلقيه عمر والمسلمون فسلموا عليه. فلمّا دخلوا المدينة أمر عمر رضي الله عنه أن تصنع وليمة، فحضر المسلمون وأكلوا، ودخل الشاب بعروسه ورزقه الله تعالى منها الأولاد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 477

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر أن تصنع وليمة، فحضر المسلمون وأكلوا، ودخل الشاب بعروسه ورزقه الله منها أولاداً يقاتلون في سبيل الله ويحفظون أنسابهم لفخرهم. وما أحسن ما قيل في هذا المعنى:

[من الطويل]

أَراكَ عَلَى الأَبْوابِ تَبْكِي وتَشْتَكِي ... وما لَكَ دُونَ الطّالِبِينَ جَوابُ
أَصابَتْكَ عَينٌ أَمْ دَهَتْكَ مُلِمَّةٌ ... فَصَدَّكَ عَنْ بابِ الحَبِيبِ حِجابُ
صِحِ اليَوْمَ يا مِسْكِينَ والْهَجْ بِذِكْرِهِ ... وتُبْ مِثْلَ ما تابَ الوَرَى وأَنابُوا
عَسَى مَطَرُ الغُفْرانِ يَغْسِلُ ما مَضَى ... ويَهْمِي بِأَرْبابِ الذُّنُوبِ ثَوابُ
فَقَدْ يَفْلِتُ المَأْسُورُ وَهْوَ مُقَيَّدٌ ... وتُعْتَقُ مِنْ سِجْنِ العِقابِ رِقابُ

وما زالوا في أرغد عيش وأتمّ سرور إلى أن أتاهم هادم اللذّات ومفرّق الجماعات.

حكاية بنت الملك والطبيب

ومما يحكى أن سيدي ابراهيم بن الخواص رحمة الله عليه قال: طالبتني نفسي في وقت من الأوقات بالخروج إلى بلاد الكفّار فكففتها فلم تكتف وتكفّ، وعملت على نفي هذا الخاطر فلم ينتف. فخرجت أخترق ديارها وأجول إفطارها والعناية تكنفني والرعاية تلحفني لا ألقى نصرانياً إلاّ غضّ ناظره عنّي وتباعد منّي إلى أن أتيت مصراً من الأمصار، فوجدت عند بابها جماعة من العبيد عليهم الأسلحة وبأيديهم مقامع الحديد. فلمّا رأوني قاموا على القدم وقالوا لي: أطبيب أنت؟ قلت: نعم. فقالوا: أجب الملك. واحتملوني إليه، فإذا هو ملك عظيم ذو وجه وسيم. فلمّا

دخلت عليه نظر إلي وقال : أطبيب أنت؟ قلت : نعم . فقال : إحملوه إليها وعرّفوه بالشرط قبل دخوله عليها . فأخرجوني وقالوا لي : إن للملك ابنة قد أصابها إعلال شديد وقد أعيى الأطباء علاجها، وما من طبيب دخل عليها وعالجها ولم يفد طبه إلاّ قتله الملك . فانظر ماذا ترى . فقلت لهم : إن الملك ساقني إليها فادخلوني عليها واحتملوني إلى بابها . فلمّا وصلت قرعوه فإذا هي تنادي من داخل الدار : أدخلوا عليّ الطبيب صاحب السرّ العجيب . وانشدت تقول : [من الرمل]

إفْتَحُوا البابَ فَقَدْ جاءَ الطَّبِيبُ وٱنْظُرُوا نَحْوِي فَلِي سِرٌّ عَجِيبْ
فَلَكُمْ مُقْتَرِبٌ مُبْتَعِدٌ ولَكُمْ مُبْتَعِدٌ وَهْوَ قَرِيبْ
كُنْتُ فِيما بَيْنَكُمْ في غُرْبَةٍ فأرادَ الحَقُّ أُنْسِي بِقَرِيبْ
جَمَعَتْنا نِسْبَةٌ دِينِيَّةٌ فَتَراأَيْنا مُحِبٌّ وحَبِيبْ
ودَعانِي لِلتَّلاقِي إذْ دَعا حَجَبَ العاذِلَ عَنّا والرَّقِيبْ
فَاتْرِكُوا عَذْلِي وخَلّوا لَوْمَكُمْ إنَّنِي يا وَيْحَكُمْ لَسْتُ أُجِيبْ
لَسْتُ أَلْوِي نَحْوَ فانٍ غائِبٍ إنَّما قَصْدِيَ باقٍ لا يَغِيبْ

قال : فإذا شيخ كبير قد فتح الباب بسرعة وقال : أدخل . فدخلت فإذا بيت مبسوط بأنواع الرياحين وستر مضروب في زاويته، ومن خلفه أنين ضعيف يخرج من هيكل نحيف . فجلست بإزاء الستر وأردت أن أسلّم فتذكرت قوله ﷺ : لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا القيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه . فأمسكت، فنادت من داخل الستر : أين سلام التوحيد والإخلاص يا خواص؟ قال : فتعجّبت من ذلك وقلت : من أين عرفتني؟ فقالت : إذا صفت القلوب والخواطر أعربت الألسن عن مخبآت الضمائر . وقد سألته البارحة أن يبعث إليّ وليّاً من أوليائه يكون لي على يديه الخلاص، فنوديت من زوايا بيتي : لا تحزني إنّا سنرسل إليك ابراهيم الخواص . فقلت لها : ما خبرك؟ فقالت لي : أنا منذ أربع سنين قد لاح لي الحق المبين، فهو المحدث والأنيس والمقرّب والجليس . فرمقني قومي بالعيون وظنّوا بي الظنون ونسبوني إلى الجنون، فما دخل عليّ طبيب منهم إلاّ أوحشني ولا زائر إلاّ ادهشني . فقلت : ومن دلّك على ما وصلت إليه؟ قالت : براهينه الواضحة وآياته اللائحة، وإذا وضح لك السبيل شاهدت المدلول والدليل . قال : فبينما أنا أكلمها إذ جاء الشيخ الموكل بها وقال لها : ما فعل طبيبك؟ قالت : عرف العلّة وأصاب الدواء . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 478

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ الموكل بها لما دخل عليها قال لها : ما فعل طبيبك؟ قالت : عرف العلّة وأصاب الدواء . فظهر لي منه البشر والسرور وقابلني بالبر والحبور وسار إلى الملك وأخبره . فحضه الملك على إكرامي، فبقيت أختلف إليها سبعة أيام . فقالت : يا أبا اسحاق، متى تكون الهجرة إلى دار الإسلام؟ فقلت : كيف يكون خروجك ومن يتجاسر عليه؟ فقالت : الذي أدخلك عليّ وساقك إليّ . فقلت : نِعم ما قلت . فلمّا كان الغد خرجنا على باب الحصن وحجب عنا العيون من أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن

فيكون . قال : فما رأيت أصبر منها على الصيام والقيام ، فجاورت بيت الله الحرام سبعة أعوام ، ثم قضت نحبها وكانت أرض مكة تربها . أنزل الله عليها الرحمات ورحم من قال هذه الأبيات :
[من الطويل]

وَلَمّا أَتَوْنِي بالطَّبِيبِ وَقَدْ بَدَتْ ... دَلائِلُ مِنْ دَمْعٍ سَفُوحٍ وِمِنْ سَقَمِ
نَضا الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِي فَلَمْ يرَ تَحْتَهُ ... سِوَى نَفَسٍ مِنْ غَيرِ رُوحٍ ولا جَسْمِ
فَقالَ لَهُمْ : ذا قَدْ تَعَذَّرَ بُرْؤُهُ ... ولِلْحُبِّ سِرٌّ لَيْسَ يُدْرَكُ بالوَهْمِ
فَقالُوا : إذا لَمْ يَعْلَمِ النّاسُ ما بِه ... ولَمْ يَكُ تَعْرِيفٌ بِحَدٍّ ولا رَسْمِ
فَكَيْفَ يَكُونُ الطِّبُّ فِيهِ مُؤَثِّراً ... دَعُونِي فإنِّي لَسْتُ أَحْكُمُ بالوَهْمِ

حكاية النبي والفارس

وحكى أن نبياً من الأنبياء كان يتعبّد في جبل مرتفع وتحته عين ماء تجري . فكان بالنهار يقعد في أعلى الجبل من حيث لا تراه الناس وهو يذكر الله تعالى وينظر إلى من يرد العين من الناس . فبينما هو ذات يوم قاعد ينظر إلى العين إذ بصر بفارس قد أقبل ونزل عن فرسه ووضع جراباً كان في عنقه واستراح وشرب من الماء ثم راح وترك الجراب وكان فيه دنانير ، وإذا رجل أقبل وارد العين فأخذ الجراب بالمال وشرب من الماء وانصرف سالماً . فجاء بعده رجل حطاب وهوحامل حزمة حطب ثقيلة على ظهره وقعد على العين يشرب من الماء ، فإذا الفارس الأول قد أقبل لهفان وقال للحطّاب : أين الجراب الذي كان هنا ؟ فقال : لا أدري له خبراً . فجذب الفارس سيفه وضرب الحطاب وقتله ، وفتّش في ثيابه فلم يجد شيئاً فتركه وسار إلى حال سبيله . فقال ذلك النبي : يا ربّ ، واحد أخذ ألف دينار وآخر قتل مظلوماً . فاوحى الله إليه أن : اشتغل بعبادتك فإن تدبير المملكة ليس من شأنك . إن والد هذا الفارس كان قد غصب ألف دينار من مال والد هذا الرجل ، فمكّنت الولد من مال أبيه . وإن الحطاب كان قد قتل والد هذا الفارس ، فمكّنت الولد من القصاص . فقال ذلك النبي : لا إله إلاّ أنت سبحانك ، أنت علام الغيوب . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 479

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن النبي لما أوحى الله إليه أن : اشتغل بعبادتك . وأخبره بحقيقة الأمر قال : لا إله إلاّ أنت سبحانك ، أنت علاّم الغيوب . وأنشد بعضهم في هذا المعنى شعراً :
[من البسيط]

رَأَى النَّبِيُّ الَّذي قَدْ كانَ بالبَصَرِ ... فَصارَ يَسْأَلُ عَمّا كانَ مِنْ خَبَرِ
إذْ شاهَدَتْ عَيْنُهُ ما لَيْسَ يَفْهَمُهُ ... فَقالَ : يا رَبُّ ماذا والقَتِيلَ بَرِي
هذا أَصابَ الغِنَى مِنْ دُونِ ما تَعَبٍ ... وكانَ لَمّا بَدا في زِيٍّ مُفْتَقِرِ
وذاكَ قَدْ صارَ مَيْتاً بَعْدَ عِيشَتِهِ ... مِنْ غَيرِ ذَنْبٍ جَنَى يا خالِقَ البَشَرِ
إنَّ الدَّراهِمَ كانَتْ مالَ والِدِ مَنْ ... رَأَيْتَهُ قَدْ أَتَى إرْثاً بِلا كَدَرِ

وكانَ قَدْ قَتَلَ الخطّابُ والِدَ ذا فاقْتَصَّ مِنْهُ ٱبْنُهُ إذْ فازَ بالظَّفَرِ
دَعْ عَنْكَ يا عَبْدَنا هذا فإنَّ لَنا في الخَلْقِ سِرٌّ خَفا عَنْ حِدَّةِ النَّظَرِ
سَلِّمْ لأَحْكامِنا وٱخْضَعْ لِعِزَّتِنا فَحُكْمُنا قَدْ جَرَى بالنَّفْعِ والضَّرَرِ

حكاية الملاّح والشيخ

ومما يحكى ان رجلاً من الصالحين قال : كنت ملاّحاً بنيل مصر أعبر من الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي ، فبينما أنا ذات يوم من الأيام قاعد في الزورق إذا بشيخ ذي وجه مشرق قد وقف عليّ وسلّم ، فرددت عليه السلام . فقال : تحملني لله تعالى . قلت : نعم . قال : وتطعمني لله . قلت : نعم . فصعد الزورق وعبرت به إلى الجانب الشرقي ، وكان عليه مرقعة وبيده ركوة وعصا . فلمّا أراد النزول قال لي : إني اريد أن أحملك أمانة . قلت : وما هي ؟ قال : إذا كان الغد والهمت أن تأتيني وقت الظهر واتيت ووجدتني تحت تلك الشجرة ميتاً ، فغسلّني وكفّني في الكفن الذي تجده تحت رأسي وادفني بعد الصلاة عليّ في هذا الرمل ، وامسك المرقعة والركوة والعصا فإذا جاءك من يطلبهن فادفعهن له . قال : فتعجّبت من قوله وبتّ ليلتي تلك ، ثم اصبحت أنتظر الوقت الذي ذكره لي . فلمّا جاء وقت الظهر نسيت كما قال ، ثم الهمت قريب العصر فسرت بسرعة فوجدته تحت الشجرة ميتاً ، ووجدت كفناً جديداً عند رأسه تفوح منه رائحة المسك . فغسلته وكفنته وصلّيت عليه وحفرت له قبراً ودفنته ، ثم عبرت النيل وجئت الجانب الغربي ليلاً ومعي المرقعة والركوة والعصا . فلمّا لاح الصباح وفتح باب البلد ، بصرت بشاب أصله شاطر كنت أعرفه ، عليه ثياب رقيقة وفي يده أثر حناء . فأتى حتى وصل إليّ فقال : أنت فلان ؟ قلت : نعم . قال : هات الأمانة . قلت : وما هي ؟ قال : المرقعة والركوة والعصا . فقلت : ومن لك بهن ؟ قال : لا أدري ، غير أني بتّ البارحة في عرس فلان وسهرت أغني إلى أن جاء وقت الصبح ، فنمت لأستريح فإذا شخص قد وقف عليّ وقال لي : إن الله تعالى قد قبض روح فلان الولي وأقامك مقامه ، فسر إلى فلان المعدي وخذ منه مرقعته وركوته وعصاه فإنه قد وضعها لك عنده . قال : فأخرجتها ودفعتها له ، فنضا ثيابه ثم لبسها وسار وتركني . فبكيت لما حرمت من ذلك . فلمّا جن الليل عليّ نمت فرأيت ربّ العزّة تبارك وتعالى في المنام فقال : يا عبدي ، أثقل عليك أني مننت على عبد من عبادي بالرجوع إليّ ؟ إنما هو فضلي أوتيه من اشاء وانا على كل شيء قدير . فأنشدت هذه الأبيات : [من الكامل]

ما لِلْمُحِبِّ مَعَ الحَبيبِ مَرامُ كُلُّ ٱخْتِيارِكَ لَوْ عَرَفْتَ حَرامُ
إنْ شاءَ وَصْلَكَ مِنَّةً وتَعَطُّفًا أَوْ صَدَّ عَنْكَ فَما عَلَيْهِ مَلامُ
إنْ لَمْ تَكُنْ بِصُدُودِهِ مُتَلَذِّذاً فادْرُجْ فَما لَكَ في المُقامِ مَقامُ
أَوَلَمْ تُميِّزْ قُرْبَهُ مِنْ بُعْدِهِ فَلأَنْتَ خَلْفٌ والهَوَى قُدَّامُ
إنْ كانَ مَلَّكَكَ الغَرامُ حُشاشَتي أَوْ قادَني لِلْقَتْلِ فِيكَ زِمامُ
فَاهْجُرْ وصُدَّ وصِلْ فَذلِكَ واحِدٌ لَيْسَ الوُقُوفُ مَعَ الحُظُوظِ يُلامُ
ما القَصْدُ في حُبِّي إلَيْكَ سِوَى الرِّضَى فإذا رَأَيْتَ البُعْدَ فَهْوَ قَوامُ

حكاية إسرائيلي وملك الجزيرة

ومما يحكى ان رجلاً من خيار بني اسرائيل كان كثير المال وله ولد صالح مبارك ، فحضرت الرجل الوفاة فقعد ولده عند رأسه وقال : يا سيدي أوصني . فقال : يا بني ، لا تحلف بالله باراً ولا فاجراً . ثم مات الرجل وبقي الولد بعد أبيه . فتسامع به ، فسّاق بني اسرائيل . فكان الرجل يأتيه فيقول : لي عند والدك كذا أو كذا وانت تعلم بذلك ، أعطني ما في ذمته وإلاّ فاحلف . فيقف الولد مع الوصية ويعطيه جميع ما طلبه . فما زالوا به حتى فنى ماله واشتد إقلاله . وكان للولد زوجة صالحة مباركة وله منها ولدان صغيران فقال لها : إن الناس قد أكثروا طلبي وما دام معي ما أدفع به عن نفسي بذلته ، والآن لم يبقَ لنا شيء فإن طالبني مطالب امتحنت أنا وأنت . فالأولى أن نفوز بانفسنا ونذهب إلى موضع لا يعرفنا فيه أحد ونتعيش بين أظهر الناس . قال : فركب بها البحر وبولديه وهو لا يعرف أين يتوجّه والله يحكم لا معقب لحكمه . ولسان الحال يقول : [من الكامل]

يا خارِجاً خَوْفَ العِدَى مِنْ دارِهِ   واليُسْرُ قَدْ وافاهُ عِنْدَ فِرارِهِ
لا تَجْزَعَنَّ مِنْ البِعادِ فَرُبَّما   عَزَّ الغَرِيبُ بَطُولِ بُعْدِ مَزارِهِ
لَوْ قَدْ أَقامَ الدُّرُّ في أَصْدافِهِ   ما كانَ تاجُ المُلْكِ بَيْتَ قَرارِهِ

قال : فانكسرت السفينة وخرج الرجل على لوح وخرجت المرأة على لوح وخرج كل ولد على لوح وفرّقتهم الأمواج . فحصلت المرأة على بلدة وحصل أحد الولدين على بلدة أخرى والتقط الولد الآخر أهل سفينة في البحر . وأما الرجل فقذفته الأمواج إلى جزيرة منقطعة وخرج إليها فتوضأ من البحر وأذّن وأقام الصلاة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 480

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الرجل لما خرج إلى الجزيرة ، توضأ من البحر وأذّن وأقام الصلاة . فإذا قد خرج من البحر أشخاص بالوان مختلفة فصلّوا معه . ولما فرغ قام إلى شجرة في الجزيرة فأكل من ثمرها فزال عنه جوعه ، ثم وجد عين ماء فشرب منها وحمد الله عزّ وجل . وبقي ثلاثة أيام يصلي وتخرج أقوام يصلّون مثل صلاته ، وبعد مضي الأيام الثلاثة سمع منادياً يناديه أن : يا أيها الرجل الصالح ، البار بأبيه المجلّ قدر ربّه ، لا تحزن إن الله عزّ وجل مخلف عليك ما خرج من يدك ، فإن في هذه الجزيرة كنوزاً وأموالاً ومنافع يريد الله ان تكون لها وارثاً وهي في موضع كذا وكذا من هذه الجزيرة فاكشف عنها . وإنّا لنسوق إليك السفن فاحسن إلى الناس وأدعهم إليك ، فإن الله عزّ وجل يميل قلوبهم إليك . فقصد ذلك الموضع من الجزيرة وكشف الله له عن تلك الكنوز ، وصارت أهل السفن ترد عليه فيحسن إليهم إحساناً عظيماً ويقول لهم : لعلكم تدلّون عليّ الناس فإني أعطيهم كذا وكذا ، واجعل لهم كذا وكذا . فصار الناس يأتونه من الأقطار والأماكن ، وما مضت عليه عشر سنين إلاّ والجزيرة قد عمرت والرّجل قد صار ملكها ، لا يأوي إليه أحد إلاّ أحسن إليه ، وشاع ذكره في الأرض بالطول والعرض . وكان ولده الأكبر قد وقع عند رجل علّمه وأدّبه ، والآخر قد وقع عند رجل ربّاه واحسن تربيته وعلّمه طرق التجارة . والمرأة قد وقعت عند رجل من التجار ائتمنها على ماله وعاهدها على أن لا يخونها وان يعينها على طاعة الله عزّ وجل ، وكان يسافر بها في السفينة إلى

البلاد ويستصحبها في أي موضع أراد. فسمع الولد الكبير بصيت ذلك الملك، فقصده وهو لا يعلم من هو، فلمّا دخل عليه أخذه وائتمنه على سرّه وجعله كاتباً له. وسمع الولد الآخر بذلك الملك العادل الصالح، فقصده وصار إليه وهو لا يعلم من هو ايضاً. فلمّا دخل عليه وكّله على النظر في أموره. وبقيا مدة من الدهر في خدمته وكل واحد منهم لا يعلم بصاحبه. وسمع الرجل التاجر الذي عنده المرأة بذلك الملك وبرّه للناس وإحسانه إليهم. فأخذ جانباً من الثياب الفاخرة ومما يستظرف من تحف البلاد وأتى بسفينة والمرأة معه حتى وصل إلى شاطىء الجزيرة، ونزل إلى الملك وقدّم له هديته، فنظرها الملك وسرّ بها سروراً كثيراً وأمر للرجل بجائزة سنيّة. وكان في الهدية عقاقير اراد الملك من التاجر أن يعرّفها له بأسمائها ويخبره بمصالحها. فقال الملك للتاجر: أقم الليلة عندنا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 481

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، ان التاجر لما قال له الملك: أقم الليلة عندنا. قال: إن لي في السفينة وديعة عاهدتها أن لا أكل أمرها إلى غيري. وهي امرأة صالحة تيمنت بدعائها وظهرت لي البركة في آرائها. فقال الملك: سأبعث إليها أمناء يبيتون عليها ويحرسون كل ما لديها. قال: فاجابه لذلك وبقي عند الملك. ووجّه الملك كاتبه ووكيله إليها وقال لهما: إذهبا فاحرسا سفينة هذا الرجل الليلة إن شاء الله تعالى. قال: فسارا وصعدا إلى السفينة، وقعد هذا على مؤخرها وهذا على مقدمها، وذكرا الله عزّ وجل برهة من الليل ثم قال احدهما للآخر: يا فلان إن الملك قد أمرنا بالحراسة ونخاف النوم فتعال نتحدّث بأخبار الزمان وما رأيناه من الخير والإمتحان. فقال الآخر: يا أخي، أما أنا فمن امتحاني أن فرق الدهر بيني وبين أبي وأمي وأخ لي كان اسمه كاسمك. والسبب في ذلك انه ركب والدنا البحر من بلد كذا وكذا فهاجت علينا الرياح واختلفت، فكسرت السفينة وفرّق الله شملنا. فلمّا سمع الآخر بذلك قال: وكيف كان اسم والدتك يا أخي؟ قال: فلانة. قال: وما اسم والدك؟ قال: فلان. فترامى الأخ على أخيه وقال له: أنت أخي والله حقاً. وجعل كل واحد منهما يحدّث اخاه بما جرى عليه في صغره والأم تسمع الكلام، ولكنها كتمت أمرها وصبّرت نفسها. فلمّا طلع الفجر قال احدهما للآخر: سر يا أخي نتحدّث في منزلي. قال: نعم. فسارا وأتى الرجل فوجد المرأة في كرب شديد فقال لها: ما دهاك؟ وما اصابك؟ قالت: بعثت إليّ الليلة من ارادني بالسوء وكنت منهما في كرب عظيم. فغضب التاجر وتوجّه للملك وأخبره بما فعل الأمينان. فأحضرهما الملك بسرعة وكان يحبهما لما تحقّق فيهما من الأمانة والديانة. ثم أمر بإحضار المرأة حتى تذكر ما كان منهما مشافهة، فجيء بها وأحضرت وقال لها: أيتها المرأة، ماذا رأيت من هذين الأمينين؟ فقالت: أيها الملك، أسألك بالله العظيم ربّ العرش الكريم إلا ما أمرتهما أن يعيدا كلامهما الذي تكلّما به البارحة. فقال لهما الملك: قولا ما قلتماه ولا تكتما منه شيئاً. فأعادا كلامهما، وإذا الملك قد قام من فوق سريره وصاح صيحة عظيمة وترامى عليهما واعتنقهما وقال: والله انتما ولداي حقاً. فكشفت المرأة عن وجهها وقالت: أنا والله امهما. فاجتمعوا جميعاً وصاروا في ألذّ عيش وأهناه إلى أن أبادهم الموت. فسبحان من إذا قصده العبد نجّاه ولم يخيب ما أمله فيه ورجاه. وما أحسن ما قيل في المعنى: [من البسيط]

لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الأَشْياءِ مِيقاتُ ... والأَمْرُ فِيهِ أَخِي مَحْوٌ وإِثْباتُ
لا تَجْزَعَنَّ لأَمْرٍ قَدْ دُهِيتَ بِهِ ... فَقَدْ أَتانا بِيُسْرِ العِسْرِ آياتُ
ورُبَّ ذِي كُرْبَةٍ باتَتْ مَضَرَّتُها ... تَبْلُو وباطِنُها فِيهِ المَسَرَّاتُ
وكَمْ مُهانٍ عُيُونُ النَّاسِ تَشْنَؤُهُ ... مِنَ الهَوانِ تَغَشَّتْهُ الكَراماتُ
هذا الَّذِي نالَهُ كَرْبٌ وكابَدَهُ ... ضَرٌّ وحَلَّتْ بِهِ فِي الوَقْتِ آفاتُ
وفَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْهُ شَمْلَ أُلْفَتِهِ ... فَكُلُّهُمْ بَعْدَ طُولِ الجَمْعِ أَشْتاتُ
أَعْطاهُ مَوْلاهُ خَيْراً ثُمَّ جاءَ بِهِمْ ... وفِي الجَمِيعِ إِلى المَوْلَى إِشاراتُ
سُبْحانَ مَنْ عَمَّتِ الأَكْوانَ قُدْرَتُهُ ... وأَخْبَرَتْ بِتَدانِيهِ الدَّلالاتُ
فَهْوَ القَرِيبُ ولَكِنْ لا يُكَيِّفُهُ ... عَقْلٌ ولَيْسَتْ تُدانِيهِ المَسافاتُ

حكاية أبي الحسن الدرّاج وأبي جعفر المجذوم

ذذومما يحكى أن أبا الحسن الدراج قال: كنت كثيراً ما آتي مكة زادها الله شرفاً، وكان الناس يتبعونني لمعرفتي بالطريق وحفظ المناهل. فاتفق في عام من الأعوام أني أردت الوصول إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام وقلت في نفسي: أنا عارف بالطريق فأذهب وحدي. ومشيت حتى وصلت إلى القادسية فدخلتها وأتيت المسجد، فرأيت رجلاً مجذوماً قاعداً في المحراب. فلمّا رآني قال: يا أبا الحسن، أسألك الصحبة إلى مكة. فقلت في نفسي: إني فررت من الأصحاب وكيف أصحب المجذومين؟ ثم قلت له: إني لا أصحب أحداً. فسكت عني. فلمّا أصبح الصباح مشيت في الطريق وحدي ولم أزل منفرداً حتى وصلت إلى العقبة ودخلت المسجد، فلمّا دخلته وجدت الرجل المجذوم في المحراب فقلت في نفسي: سبحان الله كيف سبقني هذا إلى ها هنا؟ فرفع رأسه إليّ وتبسّم وقال: يا أبا الحسن، يصنع للضعيف ما يتعجّب منه القوي. فبتّ تلك الليلة متحيّراً مما رأيت، فلمّا أصبحت سلكت الطريق وحدي، فلمّا وصلت إلى عرفات وقصدت المسجد إذا الرجل قاعد في المحراب. فتراميت عليه وقلت له: يا سيدي، أسألك الصحبة وجعلت أقبّل قدميه. فقال: ليس لي إلى ذلك سبيل. فجعلت أبكي وأنتحب لما حرمت من صحبته فقال لي: هوّن عليك فإنه لا ينفعك البكاء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 482

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أبا الحسن قال: لما رأيت الرجل المجذوم قاعداً في المحراب ترّاميت عليه وقلت له: يا سيدي، أسألك الصحبة وجعلت أقبّل قدميه. فقال لي: ليس إلى ذلك سبيل. فجعلت أبكي وأنتحب لما حرمته من صحبته. فقال لي: هوّن عليك فإنه لا ينفعك البكاء. وأجرى العبرات ثم أنشد هذه الأبيات: [من الطويل]

أَتَبْكِي عَلى بُعْدِي ومِنْكَ جَرَى البُعْدُ ... وتَطْلُبُ رَدّاً حِينَ لا يُمْكِنُ الرَّدُّ
نَظَرْتَ إِلى ضَعْفِي وظاهِرِ عِلَّتِي ... وقُلْتَ سَقِيمٌ لا يَرُوحُ ولا يَغْدُو
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ ... يَمُنُّ بِلُطْفٍ ما تَخَيَّلَهُ العَبْدُ

لَئِنْ كُنْتَ في رَأْيِ العُيُونِ كَما تَرَى   وبالجِسْمِ مِنْ فَرْطِ الزَّمانَةِ ما يَبْدُو
ولَيْسَ مَعِي زادٌ لِيُوصِلَنِي إلى   مَحَلٍ بِهِ يَأْتِي إلى سَيِّدِي الوَفْدُ
فَلِي خالِقٌ أَلْطافُهُ بِي خَفِيَّةٌ   ولَيْسَ لَهُ نَدٌّ ولا مِنْهُ لِي بُدُّ
فَسِرْ سالِماً عَنِّي ودَعْنِي وغُرْبَتِي   فإنَّ الغَرِيبَ الفَرْدَ يُؤْنِسُهُ الفَرْدُ

فانصرفت من عنده وكنت بعد ذلك لا آتي منهلاً إلاّ وجدته قد سبقني. فلمّا وصلت إلى المدينة غاب عني أثره وعمي عليّ خبره، فلقيت أبا يزيد البسطامي وأبا بكر الشبلي وطوائف الشيوخ وأخبرتهم بقصتي وشكوت إليهم قضيتي. فقالوا: هيهات أن تنال بعد ذلك صحبته. هذا أبو جعفر المجذوم، بحرمته تستقي الأنواء وببركته يستجاب الدعاء فلمّا سمعت منهم هذا الكلام زاد شوقي إلى لقائه وسألت الله أن يجمعني عليه، فبينما أنا واقف بعرفات إذا بجاذب يجذبني من خلفي فالتفت إليه فإذا هو ذلك الرجل، فلمّا رأيته صحت صيحة عظيمة ووقعت مغشياً عليّ. فلمّا أفقت ما وجدته، زاد وجدي لذلك وضاقت عليّ المسالك وسألت الله تعالى رؤيته. فلم يكن إلاّ أيام قلائل وإذا به يجذبني من خلفي، فالتفت إليه فقال: عزمت عليك ان تأتيني وتسأل حاجتك. فسألته أن يدعو لي ثلاث دعوات: الأولى أن يحبّب الله إليّ الفقر، والثانية أن لا أبيت على رزق معلوم، والثالثة أن يرزقني النظر إلى وجهه الكريم. فدعا لي هذه الدعوات وغاب عني. وقد استجاب الله دعاه لي. أما الأولى فإن الله حبّب إليّ الفقر، فوالله ما في الدنيا شيء هو أحب إليّ منه. وأما الثانية فإني منذ كذا سنة ما بتّ على رزق معلوم ومع ذلك لا يحوجني الله إلى شيء. وإني لأرجو أن يمن الله عليّ بالثالثة ويكون قد أجاب فيها كما أجاب في الإثنتين قبلها إنه كريم مفضال. ورحم الله من قال: [من الكامل]

زِيُّ الفَقِيرِ تَبَتُّلٌ ووَقارُ   ولِباسُهُ الخُلْقانُ والأَطْمارُ
والإصْفِرارُ يَزِينُهُ ولَرُبَّما   بِسِرارِها تَتَزَيَّنُ الأَقْمارُ
قَدْ شَفَّهُ طُولُ القِيامِ بِلَيْلِه   ودُمُوعُهُ مِنْ جَفْنِه مِدْرارُ
فَأَنِيسُهُ في دارِهِ تَذْكارُهُ   وجَلِيسُهُ في لَيْلِهِ الجَبَّارُ
إنَّ الفَقِيرَ بِهِ يُغاثُ المُلْتَجِي   وكَذَلِكَ الأَنْعامُ والأَطْيارُ
ولأَجْلِه يُجْرِي الإلَهُ بَلاءَهُ   وبِفَضْلِه تُتَنَزَّلُ الأَمْطارُ
وإذا دَعا يَوْماً بِكَشْفِ مَلَمَّةٍ   هَلَكَ الظَّلُومُ وعُطِّلَ الجَبَّارُ
فَالخَلْقُ أَجْمَعُهُمْ مَرِيضٌ مُدْنَفٌ   وَهُوَ الطَّبِيبُ المُشْفِقُ المِدْرارُ
سِيماهُ تُبْدُو إنْ نَظَرْتَ لِوَجْهِهِ   صَفَتْ القُلُوبُ ولاحَتْ الأَنْوارُ
يا راغِباً عَنْهُم ولَمْ تَرَ فَضْلَهُمْ   حَجَبَتْكَ وَيْحَكَ عَنْهُمُ الأَوْزارُ
تَرْجُو لِحاقَهُمُ وأَنْتَ مُقَيَّدٌ   قَدْ أَخَّرَتْكَ عَنِ المُنَى أَوْزارُ
لَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ قَدْرَهُمْ لأَجَبْتَهُمْ   وجَرَتْ لَهُمْ مِنْ جَفْنِكَ الأَنْهارُ
إنِّي إلى المَذْكُومِ شَمُّ أَزاهِرٍ   الثَّوْبُ يَعْرِفُ قَدْرَهُ السِّمْسارُ
فَاسْرِعْ إلى مَوْلاكَ وَاسْأَلْ وَصْلَهُ   فَعَسَى تُساعِدُ سَعْيَكَ الأَقْدارُ

وتُراحُ مِنْ فَرْطِ التَّباعُدِ والقِلى ... وتَنالُ ما تَهْوَى وما تَخْتارُ
فَجَنابُهُ رَحْبٌ لِكُلِّ مُؤَمِّلٍ ... وَهْوَ الإلهُ الواحِدُ القَهَّارُ

51 - حكاية مغامرات حاسب كريم الدين

ومما يحكى أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والآوان حكيم من حكماء اليونان، وكان ذلك الحكيم يسمى دانيال وكان له تلامذة وجنود. وكانت حكماء اليونان يذعنون لأمره ويعوّلون على علومه ومع هذا لم يرزق ولداً ذكراً. فبينما هو ذات ليلة من الليالي يتفكّر في نفسه ويبكي على عدم ولد يرثه في علومه من بعده، إذ خطر بباله أن الله سبحانه وتعالى يجيب دعوة من إليه أناب، وإنه ليس على باب فضله بواب ويرزق من يشاء بغير حساب ولا يرد سائلاً إذا سأله بل يجزل الخير والإحسان له. فسأل الله تعالى الكريم أن يرزقه ولداً يخلفه من بعده ويجزل له الإحسان من عنده. ثم رجع إلى بيته وواقع زوجته فحملت منه تلك الليلة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 483

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحكيم اليوناني رجع إلى بيته وواقع زوجته فحملت منه تلك الليلة. ثم بعد أيام سافر إلى مكان في مركب، فانكسرت به المركب وراحت كتبه في البحر وطلع هو على لوح من تلك السفينة، وكان معه خمس ورقات بقيت من الكتب التي وقعت منه في البحر. فلمّا رجع إلى بيته وضع تلك الأوراق في صندوق وقفل عليها. وكانت زوجته قد ظهر حملها فقال لها: أعلمي أنه قد دنت وفاتي وقرب انتقالي من دار الفناء إلى دار البقاء، وأنت حامل فربما تلدين بعد موتي صبياً ذكراً. فإذا وضعته فسمّيه حاسب كريم الدين وربّيه أحسن التربية. فإذا كبر وقال لك: ما خلّف لي أبي من الميراث؟ فاعطيه هذه الخمس ورقات، فإذا قرأها وعرف معناها يصير أعلم أهل زمانه. ثم إنه ودّعها وشهق شهقة ففارق الدنيا وما فيها رحمة الله تعالى عليه. فبكى عليه أهله وأصحابه، ثم غسلوه وأخرجوه خرجة عظيمة ودفنوه ورجعوا. ثم إن زوجته بعد أيام قلائل وضعت ولداً مليحاً فسمّته حاسب كريم الدين كما أوصاها به. ولما ولدته أحضرت له المنجمون فحسبوا طالعه وناظره من الكواكب ثم قالوا لها: أعلمي أيتها المرأة أن هذا المولود يعيش أياماً كثيرة ولكن بعد شدة تحصل له في مبدأ عمره، فإذا نجا منها فإنه يعطي بعد ذلك علم الحكمة. ثم مضى المنجمون إلى حال سبيلهم. فأرضعته اللبن سنتين وفطمته. فلمّا بلغ خمس سنين، حطته في المكتب ليتعلم شيئاً من العلم فلم يتعلّم. فأخرجته من المكتب وحطته في الصنعة فلم يتعلّم شيئاً من الصنعة ولم يطلع من يده شيء من الشغل. فبكت أمه من أجل ذلك فقال لها الناس: زوجّيه لعله يحمل هم زوجته ويتّخذ له صنعة. فقامت وخطبت بنتاً وزوّجته بها ومكث على ذلك الحال مدة من الزمان وهو لم يتّخذ له صنعة أبداً. ثم إنهم كان لهم جيران حطابون، فأتوا إلى أمه وقالوا لها: إشتري لابنك حماراً وحبلاً وفأساً ويروح معنا إلى الجبل فنحتطب نحن وإياه ويكون ثمن الحطب له ولنا وينفق عليكم مما يخصه. فلمّا سمعت أمه ذلك من الحطابين فرحت فرحاً

شديداً واشترت لابنها حماراً وحبلاً وفاساً واخذته وتوجّهت به إلى الحطابين وسلّمته إليهم وأوصتهم عليه. فقالوا لها: لا تحملي همّ هذا الولد، ربنا يرزقه وهذا ابن شيخنا. ثم أخذوه معهم وتوجّهوا إلى الجبل، فقطعوا الحطب وحملوا حميرهم وأتوا إلى المدينة وباعوا الحطب وأنفقوا على عيالهم. ثم إنهم شدّوا حميرهم ورجعوا إلى الإحتطاب في ثاني يوم وثالث يوم، ولم يزالوا على هذه الحالة مدة من الزمان. فاتفق أنهم ذهبوا إلى الإحتطاب في بعض الأيام فنزلت عليهم مطرة عظيمة فهربوا إلى مغارة عظيمة ليداروا أنفسهم فيها من تلك المطرة. فقام من عندهم حاسب كريم الدين وجلس وحده في مكان من تلك المغارة وصار يضرب الأرض بالفأس، فسمع حس الأرض خالية من تحت الفأس. فلمّا عرف أنها خالية، مكث يحفر ساعة فرأى بلاطة مدوّرة وفيها حلقة. فلمّا رأى ذلك فرح ونادى جماعته الحطابين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 484

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حاسب كريم الدين لما رأى البلاطة التي فيها الحلقة فرح ونادى جماعته. فحضروا إليه فرأوا تلك البلاطة، فتسارعوا إليها وقلعوها فوجدوا تحتها باباً، ففتحوا الباب الذي تحت البلاطة فإذا هو جب ملآن عسل نحل. فقال الحطابون لبعضهم: هذا جب ملآن عسلاً، وما لنا إلاّ أن نروح المدينة ونأتي بظروف ونعبي هذا العسل فيها ونبيعه ونقتسم حقّه، وواحد منا يقعد عنده ليحفظه من غيرنا. فقال حاسب: أنا أقعد وأحرسه حتى تروحوا وتأتوا بالظروف. فتركوا حاسب كريم الدين يحرس لهم الجب وذهبوا إلى المدينة وأتوا بظروف وعبّوها من ذلك العسل وحمّلوا حميرهم ورجعوا إلى المدينة وباعوا ذلك العسل ثم عادوا إلى الجب ثاني مرة. وما زالوا على هذه الحالة مدة من الزمان وهم يبيعون في المدينة ويرجعون إلى الجب يعبّون من ذلك العسل وحاسب كريم الدين قاعد يحرس لهم الجب. فقالوا لبعضهم يوماً من الأيام: إن الذي لقي جب العسل حاسب كريم الدين، وفي غد ينزل إلى المدينة ويدّعي علينا ويأخذ ثمن العسل ويقول: أنا الذي لقيته. وما لنا خلاص من ذلك إلاّ أن ننزله في الجب ليعبي العسل الذي بقي فيه ونتركه هناك فيموت كمداً ولا يدري به أحد. فاتفق الجميع على هذا الأمر ثم ساروا. وما زالوا سائرين حتى أتوا إلى الجب فقالوا له: يا حاسب، إنزل الجب وعبّ لنا العسل الذي بقي فيه. فنزل حاسب في الجب وعبّى لهم العسل الذي بقي فيه وقال لهم: إسحبوني فما بقي فيه شيء. فلم يرد عليه أحد منهم جواباً، وحمّلوا حميرهم وساروا إلى المدينة وتركوه في الجبّ وحده. وصار يستغيث ويبكي ويقول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العظيم، قد متّ كمداً. هذا ما كان من أمر حاسب كريم الدين.

وأما ما كان من أمر الحطابين، فإنهم لما وصلوا إلى المدينة باعوا العسل وراحوا إلى أم حاسب وهم يبكون وقالوا لها: تعيش رأسك في ابنك حاسب. فقالت لهم: ما سبب موته؟ فقالوا لها: إنا كنا قاعدين فوق الجبل فأمطرت علينا السماء مطراً عظيماً، فآوينا إلى مغارة لنتدارى فيها من ذلك المطر. فلم نشعر إلاّ وحمار ابنك هرب في الوادي، فذهب خلفه ليردّه من الوادي وكان فيه ذئب عظيم، فافترس ابنك وأكل الحمار. فلمّا سمعت أمه كلام الحطابين، لطمت على وجهها وحثت التراب على رأسها وأقامت عزاءه. وصار الحطابون يجيئون لها بالأكل والشرب في كل

يوم . هذا ما كان من أمر أمه .

وأما ما كان من أمر الحطابين ، فإنهم فتحوا لهم دكاكين وصاروا تجاراً . ولم يزالوا في أكل وشرب وضحك ولعب . وأما ما كان من أمر حاسب كريم الدين فإنه صار يبكي وينتحب . فبينما هو قاعد في الجب على هذه الحالة وإذا بعقرب كبير وقع عليه ، فقام وقتله . ثم تفكر في نفسه وقال : إن الجب كان ملآناً عسلاً فمن أين أتى العقرب؟ فقام ينظر المكان الذي وقع منه العقرب ، وصار يلتفت يميناً وشمالاً في الجب فرأى المكان الذي وقع منه العقرب يلوح منه النور ، فاخرج سكيناً كانت معه ووسّع ذلك المكان حتى صار قدر الطاقة وخرج منه وتمشّى ساعة في داخله فرأى دهليزاً عظيماً ، فمشى فيه فرأى باباً عظيماً من الحديد الأسود وعليه قفل من الفضة ، وعلى ذلك القفل مفتاح من الذهب . فتقدّم إلى ذلك الباب ونظر من خلاله فرأى نوراً عظيماً يلوح من داخله . فأخذ المفتاح وفتح الباب وعبر إلى داخله وتمشّى ساعة حتى وصل إلى بحيرة عظيمة ، فرأى في تلك البحيرة شيئاً يلمع مثل الماء . فلم يزل يمشي حتى وصل إليه فرأى تلاً عالياً من الزبرجد الأخضر وعليه تخت منصوب من الذهب مرصّع بأنواع الجواهر . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 485

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن حاسب كريم الدين لما وصل إلى التل وجده من الزبرجد الأخضر وعليه تخت منصوب من الذهب مرصّع بأنواع الجواهر ، وحول ذلك التخت كراسي منصوبة بعضها من الذهب وبعضها من الفضة وبعضها من الزمرد الأخضر . فلمّا أتى إلى تلك الكراسي ، تنهّد ثم عدّها فرآها اثني عشر ألف كرسي . فطلع على ذلك التخت المنصوب في وسط تلك الكراسي وقعد عليه وصار يتعجّب من تلك البحيرة وتلك الكراسي المنصوبة . ولم يزل متعجباً حتى غلب عليه النوم ، فنام ساعة وإذا هو يسمع نفخًا وصفيراً وهرجًا عظيماً . ففتح عينه وقعد ، فرأى على الكراسي حيّات عظيمة طول كل منها مائة ذراع . فحصل له من ذلك فزع عظيم ونشّف ريقه من شدة خوفه ويئس من الحياة وخاف خوفا عظيماً . ورأى عين كل حية تتوقّد مثل الجمر وهنّ فوق الكراسي . والتفت إلى البحيرة فرأى فيها حيّات صغاراً لا يعلم عددها إلاّ الله تعالى . وبعد ساعة ، أقبلت عليه حية عظيمة مثل البغل ، وعلى ظهر تلك الحية طبق من الذهب ، وفي وسط ذلك الطبق حية تضيء مثل البلور وجهها وجه إنسان وهي تتكلّم بلسان فصيح . فلمّا قربت من حاسب كريم الدين سلّمت عليه فردّ عليها السلام . ثم أقبلت حية من تلك الحيات التي فوق الكراسي . ثم إن تلك الحية زعقت على تلك الحيات بلغّاتها ، فخرّت جميع الحيات من فوق كراسيها ودعين لها ، وأشارت إليهن بالجلوس فجلسن . ثم إن الحية قالت لحاسب كريم الدين : لا تخف منا يا أيها الشاب ، فإني أنا ملكة الحيات وسلطانتهم . فلمّا سمع حاسب كريم الدين ذلك الكلام من الحية اطمأن قلبه . ثم إن الحية أشارت إلى تلك الحيات أن يأتوا بشيء من الأكل ، فأتوا بتفاح وعنب ورمان وفستق وبندق وجوز ولوز وموز ، وحطوه قدام حاسب كريم الدين . ثم قالت له ملكة الحيات : مرحبًا بك يا شاب ، ما اسمك؟ فقال لها : إسمي حاسب كريم الدين . فقالت له : يا حاسب ، كُل من هذه الفواكه فما عندنا طعام غيرها ولا تخف منا ابداً . فلمّا سمع جاسب هذا الكلام من الحية ، أكل

حتى اكتفى وحمد الله تعالى . فلمّا اكتفى من الاكل ، رفعوا السماط من قدّامه . ثم بعد ذلك قالت له ملكة الحيات : أخبرني يا حاسب ، من اين انت؟ ومن اين اتيت إلى هذا المكان؟ وما جرى لك؟ فحكى لها حاسب جميع ما جرى لأبيه ، وكيف ولدته امه وحطّته في المكتب وهو ابن خمس سنين ولم يتعلّم شيئاً من العلم ، وكيف حطته في الصنعة ، وكيف اشترت امه له الحمار وصار حطاباً ، وكيف لقي الجب العسل ، وكيف تركه رفقاؤه الحطابون في الجب وراحوا ، وكيف نزل عليه العقرب وقتله ، وكيف وسّع الشقّ الذي نزل منه العقرب وطلع من الجب وأتى إلى الباب الحديد وفتحه حتى وصل إلى ملكة الحيات التي يكلمها . ثم قال لها : وهذه حكايتي من أولها إلى آخرها ، والله أعلم بما يحصل لي بعد هذا كله . فلمّا سمعت ملكة الحيات حكاية حاسب كريم الدين من أولها إلى آخرها قالت له : ما يحصل لك إلا كل خير . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 486

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن ملكة الحيات لما سمعت حكاية حاسب كريم الدين من أولها إلى آخرها قالت له : ما يحصل لك إلاّ كل خير . ولكن اريد منك يا حاسب أن تقعد عندي مدة من الزمان حتى أحكي لك حكايتي واخبرك بما جرى لي من العجائب . فقال لها : سمعاً وطاعةً فيما تأمرينني به . فقالت له : أعلم يا حاسب أنه كان بمدينة مصر ملك من بني اسرائيل وكان له ولد اسمه بلوقيا . وكان هذا الملك عالماً عابداً مكباً على قراءة كتب العلم . فلمّا ضعف واشرف على الموت ، طلعت له أكابر دولته ليسلّموا عليه . فلمّا جلسوا عنده وسلموا عليه قال لهم : يا قوم ، اعلموا انه قد دنا رحيلي من الدنيا إلى الاخرة وما لي عندكم شيء أوصيكم به إلاّ إبني بلوقيا ، فاستوصوا به . ثم قال : أشهد ان لا إله إلاّ الله ، وشهق شهقة ففارق الدنيا رحمة الله عليه . فجهّزوه وغسلوه ودفنوه وأخرجوه خرجة عظيمة ، وجعلوا ولده بلوقيا سلطاناً عليهم . وكان ولده عادلاً في الرعية واستراحت الناس في زمانه . فاتفق في بعض الأيام أنه فتح خزائن أبيه ليتفرّج فيها ، ففتح خزانة من تلك الخزائن فوجد فيها صورة باب ، ففتحه ودخل فإذا هي خلوة صغيرة وفيها عمود من الرخام الأبيض وفوقه صندوق من الأبنوس . فأخذه بلوقيا وفتحه فوجد فيه صندوق آخر من الذهب ، ففتحه فرأى فيه كتاباً ، ففتح الكتاب وقرأه فرأى فيه صفة محمد ﷺ ، وإنه يبعث في آخر الزمان وهو سيد الأولين والآخرين . فلمّا قرأ بلوقيا هذا الكتاب وعرف صفات سيدنا محمد ﷺ ، تعلّق قلبه بحبه . ثم إن بلوقيا جمع أكابر بني اسرائيل من الكهان والأحبار والرهبان وأطلعهم على ذلك الكتاب وقرأه عليهم وقال لهم : يا قوم ، ينبغي أن أخرج أبي من قبره وأحرقه . فقال له قومه : لأي شيء تحرقه؟ فقال لهم بلوقيا : لأنه أخفى عني هذا الكتاب ولم يظهره لي ، وقد كان استخرجه من التوراة ومن صحف ابراهيم ووضع هذا الكتاب في خزائنه ولم يطلع عليه أحداً من الناس . فقالوا له : يا ملكنا ، إن اباك قد مات وأمره مفوّض إلى ربّه ، وهو الآن في التراب ولا تخرجه من قبره . فلمّا سمع بلوقيا هذا الكلام من أكابر بني اسرائيل عرف أنهم لا يمكنونه من أبيه . فتركهم ودخل إلى امه وقال لها : يا امي ، إني رأيت في خزائن أبي كتاباً فيه صفة محمد ﷺ ، وهو نبي يبعث في آخر الزمان . وقد تعلّق قلبي بحبه ، وانا اريد ان اسيح في البلاد حتى اجتمع به ، فانني إن لم اجتمع به متّ غراماً

في حبّه . ثم نزع ثيابه ولبس عباءة وزربوناً وقال : لا تنسيني يا أمي من الدعاء . فبكت عليه أمه وقالت له : كيف يكون حالنا بعدك ؟ قال بلوقيا : ما بقي لي صبر أبداً وقد فوضت أمري وأمرك إلى الله تعالى . ثم خرج سايحًا نحو الشام ولم يدرِ به أحد من قومه ، وسار حتى وصل إلى ساحل البحر فرأى مركبًا ، فنزل فيها مع الركاب وسارت بهم إلى أن أقبلوا على جزيرة . فطلع الركاب من المركب إلى تلك الجزيرة وطلع معهم . ثم انفرد عنهم في الجزيرة وقعد تحت شجرة فغلب عليه النوم ، فنام . ثم إنه أفاق من نومه وقام إلى المركب لينزل فيها ، فرأى المركب قد أقلعت ورأى في تلك الجزيرة حيات مثل الجمال ومثل النخل وهم يذكرون الله عزّ وجلّ ويصلّون على محمد ﷺ ويصيحون بالتهليل والتسبيح . فلما رأى بلوقيا تعجّب غاية العجب . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

حكاية مغامرات بلوقيا

فلما كانت الليلة 487

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن بلوقيا لما رأى الحيات يسبّحون ويهلّلون تعجّب من ذلك غاية العجب . ثم إن الحيات لما رأت بلوقيا ، اجتمعت عليه وقالت له حية منهم : من تكون أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وما اسمك ؟ وإلى أين رايح ؟ فقال لها : إسمي بلوقيا ، وأنا من بني اسرائيل وخرجت هائماً في حب محمد ﷺ وفي طلبه ، فما تكونون أنتم أيها الخليقة الشريفة ؟ فقالت له الحيات : نحن من سكان جهنم وقد خلقنا الله تعالى نقمة على الكافرين . فقال لهم بلوقيا : وما الذي جاء بكم إلى هذا المكان ؟ فقالت له الحيات : أعلم يا بلوقيا أن جهنم من كثرة غليانها تنفس في السنة مرتين : مرة في الشتاء ومرة في الصيف . واعلم أن كثرة الحر من شدة فيحها ، ولما تخرج نفسها ترمينا من بطنها ، ولما تسحب نفسها تردّنا إليها . فقال لهم بلوقيا : هل في جهنم أكبر منكم ؟ فقالت له الحيات : إننا ما نخرج الا مع تنفّسها لصغرنا ، فإن في جهنم كل حية لو عبر أكبر ما فينا إلى أنفها لم تحسّ به . فقال لهم بلوقيا : أنتم تذكرون الله وتصلّون على محمد ، ومن اين تعرفون محمداً ﷺ ؟ فقالوا : يا بلوقيا ، إن إسم محمد مكتوب على باب الجنة ، ولولاه ما خلق الله المخلوقات ولا جنة ولا ناراً ولا سماء ولا أرضاً ، لأن الله لم يخلق جميع الموجودات إلا من أجل محمد ﷺ وقرن إسمه باسمه في كل مكان . ولأجل هذا نحن نحب محمداً ﷺ . فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من الحيات ، زاد غرامه في حب محمد ﷺ وعظم اشتياقه إليه . ثم إن بلوقيا ودّعهم وسار حتى وصل إلى شاطىء البحر ، فرأى مركبًا راسية في جنب الجزيرة ، فنزل فيها مع ركابها وسارت بهم . وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى جزيرة أخرى ، فطلع عليها وتمشّى ساعة فرأى فيها حيات كباراً وصغاراً لا يعلم عددها إلا الله تعالى ، وبينها حية بيضاء أبيض من البلور ، وهي جالسة في طبق من الذهب . وذلك الطبق على ظهر حية مثل الفيل ، وتلك الحية ملكة الحيات وهي أنا يا حاسب . ثم إن حاسب سأل ملكة الحيات وقال لها : أي شيء جوابك مع بلوقيا ؟ فقالت الحية : يا حاسب ، أعلم أني لما نظرت إلى بلوقيا سلّمت عليه ، فردّ عليّ السلام . وقلت له : من أنت ؟ وما شأنك ؟ ومن أين أقبلت ؟ وإلى أين تذهب ؟ وما اسمك ؟ فقال : أنا من بني اسرائيل واسمي بلوقيا ، وأنا سايح في حب محمد ﷺ وفي طلبه ، فإني رأيت صفاته في الكتب المنزلة . ثم إن بلوقيا سألني وقال لي : أي شيء أنت ؟ وما شأنك ؟

وما هذه الحيات التي حولك؟ فقلت له : يا بلوقيا أنا ملكة الحيات، وإذا اجتمعت بمحمد ﷺ فاقرئه مني السلام . ثم إن بلوقيا ودّعني ونزل في المركب وسار حتى وصل إلى بيت المقدس . وكان في بيت المقدس رجل تمكّن من جميع العلوم، وكان متقنًا في علم الهندسة وعلم الفلك والحساب والسيمياء والروحاني . وكان يقرأ التوراة والإنجيل والزبور وصحف ابراهيم . وكان يقال له : عفان . وقد وجد في كتاب عنده : أن كل من لبس خاتم سيدنا سليمان انقادت له الإنس والجن والطير والوحش وجميع المخلوقات . ورأى في بعض الكتب أنه لما توفي سيدنا سليمان، حطوه في تابوت وعدوا به سبعة أبحر . وكان الخاتم في إصبعه ولا يقدر احد من الإنس ولا من الجن أن يأخذ ذلك الخاتم، ولا يقدر احد من أصحاب المراكب أن يروح بمركبه إلى ذلك المكان . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 488

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن عفان وجد في بعض الكتب أنه لا يقدر أحد من الإنس ولا من الجن ان يأخذ الخاتم من إصبع سيدنا سليمان، ولا يقدر أحد من أصحاب المراكب أن يسافر بمركبه في السبعة أبحر التي عدّوها بتابوته . ووجد في بعض الكتب أيضًا أن بين الأعشاب عشبًا، كل من أخذ منه شيئًا وعصره وأخذ ماءه ودهن به قدميه فإنه يمشي على أي بحر خلقه الله تعالى، ولم تبتل قدماه . ولا يقدر أحد على تحصيل ذلك العشب إلا إذا كانت معه ملكة الحيات . ثم إن بلوقيا لما دخل بيت المقدس جلس في مكان يعبد الله تعالى . فبينما هو جالس يعبد الله إذ أقبل عليه عفان وسلّم عليه، فردّ عليه السلام . ثم إن عفان نظر إلى بلوقيا فرآه يقرأ في التوراة وهو جالس يعبد الله تعالى . فتقدّم إليه وقال له : أيها الرجل، ما اسمك؟ ومن أين أتيت؟ وإلى أين تذهب؟ فقال له : إسمي بلوقيا، وأنا من مدينة مصر، وخرجت سائحًا في طلب محمد ﷺ . فقال عفان لبلوقيا : قم معي إلى منزلي حتى أضيفك . فقال : سمعًا وطاعة . فأخذ عفان بيد بلوقيا وذهب به إلى منزله وأكرمه غاية الإكرام وبعد ذلك قال له : أخبرني يا أخي بخبرك ومن أين عرفت محمداً ﷺ حتى تعلّق قلبك بحبه وذهبت في طلبه؟ ومن دلّك على هذه الطريق؟ فحكى له بلوقيا حكايته من الأول إلى الآخر . فلما سمع عفان كلامه كاد أن يذهب عقله، وتعجّب من ذلك غاية العجب . ثم إن عفان قال لبلوقيا : إجمعني على ملكة الحيات وأنا أجمعك على محمد ﷺ، لأن زمان مبعث محمد ﷺ بعيد، وإذا ظفرنا بملكة الحيات نحطها في قفص ونروح بها إلى الأعشاب التي في الجبال، وكل عشب جزنا عليه وهي معنا ينطق ويخبر بمنفعته بقدرة الله تعالى . فإني قد وجدت عندي في الكتب أن في الأعشاب عشباً كل من أخذه ودقّه وأخذ ماءه ودهن به قدميه ومشى على أي بحر خلقه الله تعالى، لم يبتل له قدم . فإذا أخذنا ملكة الحيات تدلنا على ذلك العشب، وإذا وجدناه نأخذه وندقّه ونأخذ ماءه ثم نطلقها إلى حال سبيلها . وندهن بذلك الماء أقدامنا ونعدّي السبعة أبحر ونصل إلى مدفن سيدنا سليمان ونأخذ الخاتم من إصبعه ونحكم كما حكم سيدنا سليمان ونصل إلى مقصودنا . وبعد ذلك ندخل بحر الظلمات ونشرب من ماء الحياة، فيمهلنا الله إلى آخر الزمان ونجتمع بمحمد ﷺ . فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من عفان قال له : يا عفان، أنا أجمعك بملكة الحيات وأريك مكانها . فقام عفان وصنع له قفصًا من حديد وأخذ معه قدحين، وملأ

أحدهما خمراً وملأ الآخر لبنًا . وسار عفان هو وبلوقيا أياماً وليالي حتى وصلا إلى الجزيرة التي فيها ملكة الحيات . فطلع عفان وبلوقيا إلى الجزيرة وتمشيا فيها ، وبعد ذلك وضع عفان القفص ونصب فيه فخًا ووضع فيه القدحين المملوءين خمراً ولبنًا ثم تباعدا عن القفص واستخفيا ساعة ، فاقبلت ملكة الحيات على القفص حتى قربت من القدحين ، فتأمّلت فيهما ساعة . فلما شمت رائحة اللبن ، نزلت من فوق ظهر الحية التي هي فوقها وطلعت من الطبق ودخلت القفص وأتت إلى القدح الذي فيه الخمر وشربت منه . فلما شربت من ذلك القدح ، داخت رأسها ونامت . فلما رأى ذلك عفان ، تقدّم إلى القفص وقفله على ملكة الحيات ثم أخذها هو وبلوقيا وسارا . فلما أفاقت رأت روحها في قفص من حديد ، والقفص على رأس رجل وبجانبه بلوقيا . فلما رأى ملكة الحيات بلوقيا قالت له : هذا جزاء من لا يؤذي بني آدم . فردّ عليها بلوقيا وقال لها : لا تخافي منا يا ملكة الحيات فإنا لا نؤذيك أبداً ، ولكن نريد منك أن تدلينا على عشب بين الأعشاب ، كل من أخذه ودقّه واستخرج ماءه ودهن به قدميه ومشى على أي بحر خلقه الله تعالى لا تبتل قدماه . فإذا وجدنا ذلك العشب أخذناه ونرجع بك إلى مكانك ونطلقك إلى حال سبيلك . ثم إن عفان وبلوقيا سارا بملكة الحيات نحو الجبال التي فيها الأعشاب ، ودارا بها على جميع الأعشاب فصار كل عشب ينطق ويخبر بمنفعته بإذن الله تعالى . فبينما هما في هذا الأمر والأعشاب تنطق يميناً وشمالاً وتخبر بمنافعها ، وإذا بعشب نطق وقال : أنا العشب الذي كل من أخذني ودقّني وأخذ مائي ودهن به قدميه وجاز على أي بحر خلقه الله تعالى لم تبتل قدماه . فلما سمع عفان كلام العشب حطّ القفص من فوق رأسه ، وأخذا من ذلك العشب ما يكفيهما ودقّاه وعصراه وأخذا ماءه وجعلاه في قزازتين وحفظاهما ، والذي فضّل منهما دهنا به أقدامهما . ثم إن بلوقيا وعفان أخذا ملكة الحيات وسارا بها ليالي وأيامًا حتى وصلا إلى الجزيرة التي كانت فيها . ففتح عفان باب القفص وخرجت منه ملكة الحيات . فلما خرجت قالت لهما : فما تصنعان بهذا الماء ؟ فقالا لها : مرادنا أن ندهن به أقدامنا حتى نتجاوز السبعة أبحر ونصل إلى مدفن سيدنا سليمان ونأخذ الخاتم من إصبعه . فقالت لهما ملكة الحيات : هيهات أن تقدرا على أخذ الخاتم . فقالا لها : لأي شيء . فقالت لهما : لأن الله تعالى منّ على سليمان بإعطائه ذلك الخاتم . وخصّه بذلك لأنه قال : ربّ هب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي ، إنك أنت الوهّاب . فما لكما ولذلك الخاتم . ثم قالت لهما : لو أخذتما من العشب الذي كل من أكل منه لا يموت إلى النفخة الأولى وهو بين تلك الأعشاب ، لكان أنفع لكما من هذا الذي أخذتماه فإنه لا يحصل لكما منه مقصودكما . فلما سمعا كلامها ندما ندمًا عظيمًا وسارا إلى حال سبيلهما . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 489

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن بلوقيا وعفان لما سمعا كلام ملكة الحيات ، ندما ندمًا عظيما وسارا إلى حال سبيلهما . هذا ما كان من أمرهما . وأما ما كان من أمر ملكة الحيات ، فإنها أتت إلى عساكرها فرأتهم قد ضاعت مصالحهم وضعف قويّهم وضعيفهم مات . فلما رأى الحيات ملكتهم بينهم فرحوا والتمّوا حولها وقالوا لها : ما خبرك ؟ وأين كنت ؟ فحكت لهم جميع ما جرى لها مع عفان وبلوقيا . ثم بعد ذلك جمعت جنودها

وتوجّهت بهم إلى جبل قاف لأنها كانت تشتي فيه وتصيف في المكان الذي رآها فيه حاسب كريم الدين . ثم إن الحية قالت : يا حاسب ، هذه حكايتي وما جرى لي . فتعجّب حاسب من كلام الحية ثم قال لها : أريد من فضلك ان تأمري أحداً من أعوانك ان يخرجني إلى وجه الأرض وأروح إلى أهلي . فقالت له ملكة الحيات : يا حاسب ، ليس لك رواح من عندنا حتى يدخل الشتاء وتروح معنا إلى جبل قاف وتتفرّج فيه على تلال ورمل وأشجار وأطيار تسبّح الواحد القهار ، وتتفرج على مردة عفاريت وجان ما يعلم عددهم إلا الله تعالى . فلما سمع حاسب كريم الدين كلام ملكة الحيات صار مهموماً مغموماً . ثم قال لها : أعلميني بعفان وبلوقيا لما فارقاك وسارا هل عديا السبعة بحور ووصلا إلى مدفن سيدنا سليمان أو لا ؟ وإذا كانا وصلا إلى مدفن سيدنا سليمان ، هل قدرا على أخذ الخاتم أو لا ؟ فقالت له : أعلم ان عفان وبلوقيا لما فارقاني وسارا ، دهنا أقدامهما من ذلك الماء ومشيا على وجه البحر ، وصارا يتفرجان على عجائب البحر . وما زالا سائرين من بحر إلى بحر حتى عديا السبعة أبحر . فلما عديا تلك البحار وجدا جبلا عظيماً شاهقاً في الهواء وهو من الزمرد الأخضر وفيه عين تجري وترابه كله من المسك . فلما وصلا إلى ذلك المكان فرحا وقالا : قد بلغنا مقصودنا . ثم صارا حتى وصلا إلى جبل عال فمشيا فيه ، فرأيا مغارة من بعيد في ذلك الجبل وعليها قبة عظيمة والنور يلوح منها . فلما رأيا تلك المغارة قصداها حتى وصلا إليها ، فدخلا فرأيا فيها تختاً منصوباً من الذهب مرصّعاً بأنواع الجواهر وحوله كراسي منصوبة لا يحصى لها عدداً إلا الله تعالى . ورأيا السيد سليمان نائماً فوق ذلك التخت وعليه حلّة من الحرير الأخضر مزركشة بالذهب مرصّعة بنفيس المعادن من الجواهر ، ويده اليمنى على صدره والخاتم في إصبعه ، ونور الخاتم يغلب على نور تلك الجواهر التي في ذلك المكان . ثم إن عفان علّم بلوقيا أقساماً وعزائم وقال له : إقرأ هذه الأقسام ولا تترك قراءتها حتى آخذ الخاتم . ثم تقدّم عفان إلى التخت حتى قرب منه وإذا بحية عظيمة طلعت من تحت التخت وزعقت زعقة عظيمة ، فارتعد ذلك المكان من زعقتها وصار الشرر يطير من فمها . ثم إن الحية قالت لعفان : إن لم ترجع هلكت . فاشتغل عفان بالأقسام ولم ينزعج من تلك الحية ، فنفخت عليه الحية نفخة عظيمة كادت ان تحرق ذلك المكان وقالت : يا ويلك ، إن لم ترجع أحرقتك . فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من الحية ، طلع من المغارة . وأما عفان فإنه لم ينزعج من ذلك بل تقدّم إلى السيد سليمان ومد يده ولمس الخاتم وأراد أن يسحبه من إصبع السيد سليمان ، وإذا بالحية نفخت على عفان فأحرقته فصار كوم رماد . هذا ما كان من أمره . وأما ما كان من أمر بلوقيا ، فإنه وقع مغشيّاً عليه من هذا الأمر . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 490

□ قالت : بلغني ايها الملك السعيد ، أن بلوقيا لما رأى عفان احترق وصار كوم رماد وقع مغشيّاً عليه . وأمر الربّ جلّ جلاله جبريل أن يهبط إلى الأرض قبل أن تنفخ الحية على بلوقيا ، فهبط إلى الأرض بسرعة فرأى بلوقيا مغشياً عليه ورأى عفان احترق من نفخة الحية . فأتى جبريل إلى بلوقيا وأيقظه من غشيته ، فلما أفاق سلم عليه جبريل وقال له : من أين أتيتم إلى هذا المكان ؟ فحكى له بلوقيا جميع حكايته من الأول إلى الآخر . ثم قال له : أعلم انني ما أتيت إلى هذا المكان إلا بسبب محمد ﷺ ، فإن عفان أخبرني انه يبعث في آخر الزمان ولا

يجتمع به إلا من يعيش إلى ذلك الوقت، ولا يعيش إلى ذلك الوقت إلا من شرب من ماء الحياة، ولا يمكن ذلك إلا بحصول خاتم سليمان عليه السلام. فصحبته إلى هذا المكان وحصل له ما حصل، وها هو قد احترق وأنا لم أحترق. ومرادي أن تخبرني بمحمد أين يكون؟ فقال له جبريل: يا بلوقيا، إذهب إلى حال سبيلك فإن زمان محمد بعيد. ثم ارتفع جبريل إلى السماء من وقته. وأما بلوقيا فإنه صار يبكي بكاء شديداً وندم على ما فعل وتفكّر قول ملكة الحيات: هيهات ان يقدر أحد على أخذ الخاتم. وتحيّر بلوقيا في نفسه وبكى. ثم إنه نزل من الجبل وسار. ولم يزل سائراً حتى قرب من شاطىء البحر وقعد هناك ساعة يتعجّب من تلك الجبال والبحار والجزائر. ثم بات تلك الليلة في ذلك الموضع. ولما أصبح الصباح دهن قدميه من الماء الذي كانا أخذاه من العشب ونزل البحر وسار ماشياً فيه أياماً وليالي وهو يتعجّب من أهوال البحر وعجائبه وغرائبه. وما زال سائراً على وجه الماء حتى وصل إلى جزيرة كأنها الجنة، فطلع بلوقيا إلى تلك الجزيرة وصار يتعجب منها ومن حسنها، وساح فيها فرآها جزيرة عظيمة، ترابها من الزعفران وحصاها من الياقوت والمعادن الفاخرة، وسياجها الياسمين وزرعها من أحسن الأشجار وأبهج الرياحين وأطيبها، وفيها عيون جارية وحطبها من العود القماري والعود القاقلي، وبوصها قصب السكر وحولها الورد والنرجس والعبهر والقرنفل والأقحوان والسوس والبنفسج وكل ذلك فيها أشكال وألوان. وأطيارها تناغي على تلك الأشجار وهي مليحة الصفات واسعة الجهات كثيرة الخيرات قد حوت جميع الحسن والمعاني، وتغريد أطيارها ألطف من رنّات المثاني، وأشجارها باسقة وأطيارها ناطقة وأنهارها دافقة وعيونها جارية ومياها حالية. وفيها الغزلان تمرح والجآذر تسنح والأطيار تناغي على تلك الأغصان وتسلي العاشق الولهان. فتعجّب بلوقيا من هذه الجزيرة وعلم أنه قد تاه عن الطريق التي قد أتى منها أول مرة حين كان معه عفان. فساح في تلك الجزيرة وتفرّج فيها إلى وقت المساء. فلما أمسى عليه الليل طلع على شجرة عالية لينام فوقها، وصار يتفكّر في حسن تلك الجزيرة. فبينما هو فوق الشجرة على تلك الحالة وإذ بالبحر قد اختبط وطلع منه حيوان عظيم وصاح صياحاً عظيماً حتى انزعجت حيوانات تلك الجزيرة من صياحه، فنظر إليه بلوقيا وهو جالس على الشجرة فرآه حيواناً عظيماً، فصار يتعجّب منه. فلم يشعر بعد ساعة إلا وطلع خلفه من البحر وحوش مختلفة الألوان، وفي يد كل وحش منها جوهرة تضيء مثل السراج حتى صارت الجزيرة مثل النهار من ضياء الجواهر. وبعد ساعة أقبلت من الجزيرة وحوش لا يعلم عددها إلا الله تعالى، فنظر إليها بلوقيا فرآها وحوش الفلاة من سباع ونمور وفهود وغير ذلك من حيوانات البر. ولم تزل وحوش البر مقبلة حتى اجتمعت مع وحوش البحر في جانب الجزيرة وصاروا يتحدثون إلى الصباح. فلما أصبح الصباح افترقوا من بعضهم ومضى كل واحد منهم إلى حال سبيله. فلما رآهم بلوقيا خاف ونزل من فوق الشجرة وسار إلى شاطىء البحر ودهن قدميه من الماء الذي معه، ونزل البحر الثاني وسار على وجه الماء ليالي واياماً حتى وصل إلى جبل عظيم. وتحت ذلك الجبل واد ما له آخر، وذلك الوادي حجارته من المغناطيس ووحوشه سباع وأرانب ونمور. فطلع بلوقيا إلى ذلك الجبل وساح فيه من مكان إلى مكان حتى أمسى عليه المساء، فجلس تحت قنة من قنن ذلك الجبل بجانب البحر وسار يأكل من السمك الناشف الذي يقذفه البحر. فبينما هو جالس يأكل من ذلك السمك وإذا بنمر عظيم

أقبل على بلوقيا وأراد أن يفترسه، فالتفت بلوقيا إلى ذلك النمر فرآه حاطمًا عليه ليفترسه، فدهن قدميه من الماء الذي معه ونزل البحر الثالث هرباً من ذلك النمر وسار على وجه الماء في الظلام، وكانت ليلة سوداء ذات ريح عظيم. وما زال سائراً حتى أقبل على جزيرة، فطلع عليها فرأى فيها أشجاراً رطبة ويابسة، فأخذ بلوقيا من ثمر تلك الأشجار وأكل وحمد الله تعالى ودار فيها يتفرج إلى وقت المساء. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 491

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بلوقيا دار يتفرّج في تلك الجزيرة، ولم يزل دائراً يتفرّج فيها إلى وقت المساء، فنام في تلك الجزيرة. ولما أصبح الصباح صار يتأمل في جهاتها، ولم يزل يتفرج فيها مدة عشرة أيام. وبعد ذلك توجّه إلى شاطىء البحر ودهن قدميه ونزل في البحر الرابع ومشى على وجه الماء ليلاً ونهاراً حتى وصل إلى جزيرة، فرأى أرضها من الرمل الناعم الأبيض وليس فيها شيء من الشجر ولا من الزرع، فتمشّى فيها ساعة فوجد وحشها الصقور وهي معششة في ذلك الرمل. فلما رأى ذلك دهن قدميه ونزل البحر الخامس وسار فوق الماء، وما زال سائراً ليلاً ونهاراً حتى أقبل على جزيرة صغيرة أرضها وجبالها مثل البلور، وفيها العروق التي يصنع منها الذهب، وفيها أشجار غريبة ما رأى مثلها في سياحته، وأزهارها كلون الذهب. فطلع بلوقيا إلى تلك الجزيرة وصار يتفرّج فيها إلى وقت المساء. فلما جنّ عليه الظلام صارت الأزهار تضيء في تلك الجزيرة كالنجوم. فتعجّب بلوقيا من هذه الجزيرة وقال: إن الأزهار التي في الجزيرة هي التي تيبس من الشمس وتسقط على الأرض فتضربها الرياح فتجتمع تحت الحجارة وتصير إكسيراً، فيأخذونها ويصنعون منها الذهب. ثم إن بلوقيا نام في تلك الجزيرة إلى وقت الصباح، وعند طلوع الشمس دهن قدميه من الماء الذي معه ونزل البحر السادس وسار ليالي وأياماً حتى أقبل على جزيرة، فطلع عليها وتمشّى فيها ساعة، فرأى فيها جبلين وعليهما أشجار كثيرة، وثمار تلك الأشجار كرؤوس الآدميين وهي معلّقة من شعورها. ورأى فيها أشجاراً أخرى أثمارها طيور خضر معلّقة من أرجلها، وفيها أشجار تتوقّد مثل النار ولها فواكه مثل الصبر، وكل من سقطت عليه نقطة من تلك الفواكه احترق بها. ورأى بها فواكه تبكي وفواكه تضحك، ورأى بلوقيا في تلك الجزيرة عجائب كثيرة. ثم إنه تمشّى إلى شاطىء البحر فرأى شجرة عظيمة فجلس تحتها إلى وقت العشاء، فلما أظلم الظلام طلع فوق تلك الشجرة وصار يتفكّر في مصنوعات الله. فبينما هو كذلك وإذا بالبحر قد اختبط وطلع منه بنات البحر، وفي يد كل واحدة منهنّ جوهرة تضيء مثل الصباح. وسرن حتى أتين تحت تلك الشجرة وجلسن ولعبن ورقصن وطربن. فصار بلوقيا يتفرّج عليهن وهن في هذه الحالة. ولم يزلن في لعب إلى الصباح، فلما أصبح نزلن البحر. فتعجّب منهن بلوقيا ونزل من فوق الشجرة ودهن قدميه من الماء الذي معه ونزل البحر السابع وسار. ولم يزل سائراً مدة شهرين وهو لا ينظر جبلاً ولا جزيرة ولا براً ولا وادياً ولا ساحلاً حتى قطع ذلك البحر وقاسى فيه جوعاً عظيماً، حتى صار يخطف السمك من البحر ويأكله نيئًا من شدة جوعه. ولم يزل سائراً على هذه الحالة حتى انتهى إلى جزيرة أشجارها كثيرة وأنهارها غزيرة. فطلع إلى تلك الجزيرة وصار يمشي فيها ويتفرّج يميناً وشمالاً وكان ذلك في وقت

الضحى . وما زال يتمشّى حتى أقبل على شجرة تفاح ، فمد يده ليأكل من تلك الشجرة ، وإذا بشخص صاح عليه من تلك الشجرة وقال له : إن تقرّبت إلى هذه الشجرة وأكلت منها شيئًا قسمتك نصفين . فنظر بلوقيا إلى ذلك الشخص فرآه طويلاً ، طوله أربعون ذراعاً بذراع أهل ذلك الزمان . فلما رآه بلوقيا خاف منه خوفًا شديدًا وامتنع عن تلك الشجرة ، ثم قال له بلوقيا : لأي شيء تمنعني من الأكل من هذه الشجرة ؟ فقال له : لأنك ابن آدم ، وأبوك آدم نسي عهد الله فعصاه وأكل من الشجرة . فقال له بلوقيا : أي شيء أنت ؟ ولمن هذه الجزيرة وهذه الأشجار ؟ وما اسمك ؟ فقال له الشخص : أنا إسمي شراهيا ، وهذه الأشجار والجزيرة للملك صخر ، وأنا من أعوانه ، وقد وكّلني على هذه الجزيرة . ثم إن شراهيا سأل بلوقيا وقال له : من أنت ؟ ومن أين أتيت إلى هذه البلاد ؟ فحكى له بلوقيا حكايته من الأول إلى الأخر . فقال له شراهيا : لا تخف . ثم جاء له بشيء من الأكل . فأكل بلوقيا حتى اكتفى ثم ودّعه وسار ، ولم يزل سائراً مدة عشرة أيام . فبينما هو سائر في جبال ورمال إذ نظر غبرة عاقدة في الجو ، فقصد بلوقيا صوب تلك الغبرة فسمع صياحًا وضرباً وهرجًا عظيمًا . فمشى بلوقيا نحو تلك الغبرة حتى وصل إلى واد عظيم طوله مسيرة شهرين . ثم تأمل بلوقيا في جهة ذلك الصياح ، فرأى ناسًا راكبين على خيل وهم يقتتلون مع بعضهم وقد جرى الدم بينهم حتى صار مثل النهر ، ولهم أصوات مثل الرعد ، وفي أيديهم رماح وسيوف وأعمدة من الحديد وقسي ونبال وهم في قتال عظيم . فأخذه خوف شديد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 492

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن بلوقيا لما رأى هؤلاء الناس بأيديهم السلاح وهم في قتال عظيم ، أخذه خوف شديد وتحيّر في أمره . فبينما هو كذلك وإذا هم رأوه . فلما رأوه امتنعوا عن بعضهم وتركوا الحرب ، ثم أتت إليه طائفة منهم . فلما قربوا منه تعجّبوا من خلقته ، ثم تقدم إليه فارس منهم وقال له : أي شيء أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وإلى أين رايح ؟ ومن دلّك على هذه الطريق حتى وصلت إلى بلادنا ؟ فقال له : أنا من بني آدم وجئت هائمًا في حب محمد ﷺ ولكني تهت عن الطريق . فقال له الفارس : نحن ما رأينا ابن آدم قط ، ولا أتى إلى هذه الأرض . وصاروا يتعجبون منه ومن كلامه . ثم إن بلوقيا سألهم وقال لهم : أي شيء أنتم أيها الخليقة ؟ فقال له الفارس : نحن من الجان . فقال له بلوقيا : يا أيها الفارس ، ما سبب القتال الذي بينكم ؟ وأين مسكنكم ؟ وما اسم هذا الوادي وهذه الأراضي ؟ فقال له الفارس : نحن مسكننا الأرض البيضاء ، وفي كل عام يأمرنا الله تعالى أن نأتي إلى هذه الارض ونغازي الجان الكافرين . فقال له بلوقيا : وأين الأرض البيضاء ؟ فقال له الفارس : خلف جبل قاف بمسيرة خمسة وسبعين سنة ، وهذه الارض يقال لها : أرض شداد بن عاد . ونحن أتينا اليها لنغازي فيها وما لنا شغل سوى التسبيح والتقديس . ولنا ملك يقال له : الملك صخر . وما يمكن إلا ان تروح معنا إليه حتى ينظرك ويتفرّج عليك . ثم إنهم ساروا وبلوقيا معهم حتى أتوا منزلهم ، فنظر بلوقيا خيامًا عظيمة من الحرير الأخضر لا يعلم عددها إلا الله تعالى ، ورأى بينها خيمة منصوبة من الحرير الأحمر واتساعها مقدار ألف ذراع وأطنابها من الحرير الأزرق وأوتادها من الذهب والفضة . فتعجّب بلوقيا من تلك الخيمة . ثم إنهم ساروا به حتى أقبلوا على الخيمة ،

فإذا هي خيمة الملك صخر . ثم دخلوا به حتى أتوا قدام الملك صخر ، فنظر بلوقيا إلى الملك فرآه جالساً على تخت عظيم من الذهب الأحمر مرصّع بالدر والجوهر ، وعلى يمينه ملوك الجان ، وعلى يساره الحكماء والأمراء وأرباب الدولة وغيرهم . فلما رآه الملك صخر ، امر أن يدخلوا به عنده . فدخلوا به عند الملك ، فتقدّم بلوقيا وسلّم عليه وقبّل الأرض بين يديه . فردّ عليه الملك صخر السلام ثم قال له : ادن مني أيها الرجل . فدنا منه بلوقيا حتى صار بين يديه . فعند ذلك أمر الملك صخر أن ينصبوا له كرسياً بجانبه ، فنصبوا له كرسيّاً بجانب الملك . ثم أمره الملك صخر ان يجلس على ذلك الكرسي ، فجلس بلوقيا عليه . ثم إن الملك صخر سأل بلوقيا وقال له : أي شيء أنت ؟ فقال له : أنا من بني آدم من بني اسرائيل . فقال له الملك صخر : إحك لي حكايتك ، واخبرني بما جرى لك ، وكيف أتيت إلى هذه الأرض ؟ فحكى له بلوقيا جميع ما جرى له في سياحته من الأول إلى الآخر . فتعجّب الملك صخر من كلامه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 493

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن بلوقيا لما اخبر الملك صخر بجميع ما جرى له في سياحته من الأول إلى الآخر تعجّب من ذلك ، ثم أمر الفراشين أن يأتوا بسماط . فأتوا بسماط ومدّوه ، ثم إنهم أتوا بصوان من الذهب الأحمر وصوان من الفضة وصوان من النحاس ، وبعض الصواني فيها خمسون مسلاقة ، وبعضها فيه عشرون جملاً ، وبعضها فيه خمسون رأساً من الغنم . وعدد الصواني ألف وخمسمائة صينية . فلما رأى بلوقيا ذلك تعجّب منه غاية العجب . ثم إنهم أكلوا وأكل بلوقيا معهم حتى اكتفى وحمد الله تعالى وبعد ذلك رفعوا الطعام وأتوا بفواكه فأكلوا . ثم بعد ذلك سبحوا الله تعالى وصلّوا على نبيه محمد ﷺ . فلما سمع بلوقيا ذكر محمد تعجّب وقال للملك صخر : أريد أن أسألك بعض مسائل . فقال له الملك صخر : سل ما تريد . فقال له بلوقيا : يا ملك ، أي شيء أنتم ؟ ومن أين أصلكم ؟ ومن اين تعرفون محمداً ﷺ حتى تصلّوا عليه وتحبوه ؟ فقال له الملك صخر : يا بلوقيا ، إن الله تعالى خلق النار سبع طبقات بعضها فوق بعض ، وبين كل طبقة وطبقة مسيرة ألف عام . وجعل إسم الطبقة الأولى جهنم ، وأعدها لعصاة المؤمنين الذين يموتون من غير توبة . واسم الطبقة الثانية لظى ، وأعدها للكفار . واسم الطبقة الثالثة الجحيم ، وأعدها لياجوج وماجوج . واسم الرابعة السعير ، وأعدها لقوم إبليس . واسم الخامسة سقر ، وأعدّها لتارك الصلاة . واسم السادسة الحطمة ، وأعدها لليهود والنصارى . واسم السابعة الهاوية ، وأعدها للمنافقين . فهذه السبع طبقات . فقال له بلوقيا : لعل جهنم أهون عذاباً من الجميع لانها هي الطبقة الفوقانية . قال الملك صخر : نعم . أهون الجميع عذاباً ومع ذلك فيها ألف جبل من النار ، وفي كل جبل سبعون ألف واد من النار ، وفي كل واد سبعون ألف مدينة من النار ، وفي كل مدينة سبعون ألف قلعة من النار ، وفي كل قلعة سبعون الف بيت من النار ، وفي كل بيت سبعون ألف تخت من النار ، وفي كل تخت سبعون الف نوع من العذاب . وما في جميع طبقات النار يا بلوقيا أهون عذاباً من عذابها لأنها هي الطبقة الاولى ، وأما الباقي فلا يعلم عددها فيه من انواع العذاب إلا الله تعالى . فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من الملك صخر وقع مغشيّاً عليه . فلما افاق من غشيته بكى وقال :

يا ملك، كيف يكون حالنا؟ فقال له الملك صخر: يا بلوقيا لا تخف، واعلم أن كل من كان يحب محمداً لم تحرقه النار وهو معتوق لأجل محمد ﷺ، وكل من كان على ملّته تهرب منه النار. وأما نحن فخلقنا الله تعالى من النار وأول ما خلق الله المخلوقات في جهنم خلق شخصين من جنوده: أحدهما اسمه خليت، والآخر اسمه مليت. وجعل خليت على صورة أسد ومليت على صورة ذئب. وكان ذنب مليت على صورة الأنثى ولونها أبلق، وذنب خليت على صورة ذكر وهو في هيئة حية. وذنب مليت في هيئة سلحفاة وطول ذنب خليت مسيرة عشرين سنة. ثم أمر الله تعالى ذنبيهما أن يجتمعا مع بعضهما ويتناكحا، فتوالد منهما حيات وعقارب ومسكنها في النار ليعذّب الله بها من يدخلها. ثم إن تلك الحيات والعقارب تناسلوا وتكاثروا. ثم بعد ذلك أمر الله تعالى ذنبي خليت ومليت أن يجتمعا ويتناكحا ثاني مرة، فاجتمعا وتناكحا فحمل ذنب مليت من ذنب خليت. فلما وضعت ولدت سبعة ذكور وسبع إناث، فتربوا حتى كبروا. فلما كبروا تزوّج الإناث بالذكور وأطاعوا والدهم إلا واحداً منهم عصى والده فصار دودة. وتلك الدودة هي إبليس لعنه الله تعالى وكان من المقربين، فإنه عبد الله تعالى حتى ارتفع إلى السماء وتقرّب من الرحمن وصار رئيس المقربين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 494

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن إبليس كان عبد الله تعالى وصار رئيس المقربين. ولما خلق الله تعالى آدم عليه السلام أمر إبليس بالسجود له فامتنع من ذلك، فطرده الله تعالى ولعنه. فلما تناسل جاءت منه الشياطين. وأما الستة الذكور الذين قبله فهم الجان المؤمنون ونحن من نسلهم وهذا أصلنا يا بلوقيا. فتعجب بلوقيا من كلام الملك صخر ثم إنه قال: يا ملك، أريد منك أن تامر واحداً من أعوانك ليوصلني إلى بلادي. فقال له الملك صخر: ما نقدر أن نفعل شيئاً من ذلك إلا إن أمرنا الله تعالى، ولكن يا بلوقيا إن شئت الذهاب من عندنا فإني أحضر لك فرساً من خيلي وأركبك على ظهرها وآمرها أن تسير بك إلى آخر حكمي، فاذا وصلت إلى آخر حكمي يلاقيك جماعة ملك إسمه براخيا فينظرون الفرس فيعرفونها وينزلونك من فوقها ويرسلونها إلينا، وهذا الذي نقدر عليه لا غير. فلما سمع بلوقيا هذا الكلام بكى وقال للملك: إفعل ما تريد. فأمر الملك أن يأتوا له بالفرس، فأتوا له بالفرس وأركبوه على ظهرها وقالوا له: إحذر أن تنزل من فوق ظهرها أو تضربها في وجهها، فإن فعلت ذلك أهلكتك. بل استمر راكبا عليها مع السكون حتى تقف بك فانزل عن ظهرها ورح إلى حال سبيلك. فقال له بلوقيا: سمعاً وطاعة. ثم ركب الفرس وسار في الخيام مدة طويلة ولم يمرّ في سيره إلا على مطبخ الملك صخر، فنظر بلوقيا إلى قدور معلقة في كل قدر خمسون جملاً والنار تلتهب من تحتها. فلما رأى بلوقيا تلك القدور وكِبرها، تأمّلها وتعجّب منها وأكثر التعجّب والتأمّل فيها. فنظر إليه الملك فرآه متعجّباً من المطبخ، فظن الملك في نفسه أنه جائع فأمر أن يجيئوا له بجملين مشويين. فجاؤا له بجملين مشويين وربطوهما خلفه على ظهر الفرس، ثم إنه ودّعهم وسار حتى وصل إلى آخر حكم الملك صخر فوقف الفرس، فنزل عنها بلوقيا ينفض تراب السفر من ثيابه. وإذا برجال أتوا اليه ونظروا الفرس فعرفوها فأخذوها وساروا وبلوقيا معهم حتى وصلوا إلى الملك براخيا. فلما دخل بلوقيا على الملك براخيا سلّم عليه فردّ عليه السلام. ثم إن بلوقيا نظر

إلى الملك فرآه جالساً في صيوان عظيم وحوله عساكر وأبطال وملوك الجان على يمينه وشماله . ثم إن الملك أمر بلوقيا أن يدنو منه ، فتقدّم بلوقيا إليه فأجلسه الملك بجانبه وأمر أن يأتوا بالسماط . فنظر بلوقيا إلى حال الملك براخيا فرآه مثل حال الملك صخر . ولما حضرت الأطعمة أكلوا وأكل بلوقيا حتى اكتفى وحمد الله تعالى . ثم إنهم رفعوا الأطعمة وأتوا بالفاكهة فأكلوا . ثم إن الملك براخيا سأل بلوقيا وقال له : متى فارقت الملك صخر ؟ فقال له : من مدة يومين . فقال الملك براخيا لبلوقيا : أتدري مسافة كم يوم في هذين اليومين؟ قال : لا . قال : مسيرة سبعين شهراً . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 495

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك براخيا قال لبلوقيا : إنك سافرت في هذين اليومين مسيرة سبعين شهراً ، ولكنك لما ركبت الفرس فزعت منك وعلمت أنك ابن آدم وأرادت أن ترميك عن ظهرها فأثقلوها بهذين الجملين . فلما سمع بلوقيا ذلك الكلام من الملك براخيا تعجّب وحمد الله تعالى على السلامة . ثم إن الملك براخيا قال لبلوقيا : أخبرني بما جرى لك وكيف أتيت إلى هذه البلاد . فحكى له بلوقيا جميع ما جرى له وكيف ساح وأتى إلى هذه البلاد . فلما سمع الملك كلامه تعجّب منه ، ومكث بلوقيا عنده مدة شهرين . فلما سمع حاسب كلام ملكة الحيات تعجّب منه غاية العجب ثم قال لها : أريد من فضلك وإحسانك أن تأمري أحداً من أعوانك أن يخرجني إلى وجه الأرض حتى أروح إلى أهلي . فقالت له ملكة الحيات : يا حاسب كريم الدين ، أعلم أنك متى خرجت إلى وجه الأرض تروح إلى أهلك ثم تدخل الحمام وتغتسل ، وبمجرد ما تفرغ من غسلك أموت أنا لأن ذلك يكون سبباً لموتي . فقال حاسب : أنا أحلف لك ما أدخل الحمام طول عمري ، وإذا وجب عليّ الغسل أغتسل في بيتي . فقالت له ملكة الحيات : لو حلفت لي مائة يمين ما أصدقك أبداً فإن هذا أمر لا يكون . واعلم أنك ابن آدم ما لك عهد لأن أباك آدم قد عاهد الله ونقض عهده ، وكان الله تعالى خمر طينته أربعين صباحاً وأسجد له ملائكته ، وبعد ذلك نكث العهد ونسيه وخالف أمر ربّه . فلما سمع حاسب ذلك الكلام سكت وبكى ، ومكث يبكي مدة عشرة أيام . ثم قال لها حاسب : أخبريني بالذي جرى لبلوقيا بعد قعوده شهرين عند الملك براخيا . فقالت له : أعلم يا حاسب ، أن بلوقيا بعد قعوده عند الملك براخيا ودّعه وسار في البراري ليلاً ونهاراً حتى وصل إلى جبل عال ، فطلع ذلك الجبل فرأى فوقه ملكاً عظيماً جالساً على ذلك الجبل وهو يذكر الله تعالى ويصلي على محمد ، وبين يدي ذلك الملك لوح مكتوب فيه شيء أبيض وشيء أسود وهو ينظر في اللوح ، وله جناحان : أحدهما ممدود بالمشرق والآخر ممدود بالمغرب . فأقبل عليه بلوقيا وسلّم عليه فردّ عليه السلام . ثم إن الملك سأل بلوقيا وقال له : من أنت؟ ومن أين أتيت؟ وإلى أين رايح ؟ وما اسمك؟ فقال بلوقيا : أنا من بني آدم من قوم بني اسرائيل ، وأنا سايح في حب محمد ﷺ واسمي بلوقيا . فقال : ما الذي جرى لك في مجيئك إلى هذه الأرض ؟ فحكى له بلوقيا جميع ما جرى له وما رأى في سياحته . فلما سمع الملك من بلوقيا ذلك الكلام تعجّب منه . ثم إن بلوقيا سأل الملك وقال له : أخبرني أنت الآخر بهذا اللوح وأي شيء مكتوب فيه ، وما هذا الأمر الذي أنت فيه ، وما اسمك؟ فقال له الملك : أنا إسمي مخاييل ، وأنا موكل بتصريف الليل

والنهار وهذا شغلي إلى يوم القيامة. فلما سمع بلوقيا ذلك الكلام تعجّب منه ومن صورة ذلك الملك ومن هيبته وعظم خلقته. ثم إن بلوقيا ودّع ذلك الملك وسار ليلاً ونهاراً حتى وصل إلى مرج عظيم، فتمشّى في ذلك المرج فرأى فيه سبعة أنهر ورأى أشجاراً كثيرة. فتعجّب بلوقيا من ذلك المرج العظيم وسار في جوانبه فرأى فيه شجرة عظيمة، وتحت تلك الشجرة أربعة ملائكة. فتقدّم إليهم بلوقيا ونظر إلى خلقتهم فرأى واحد منهم صورته صورة بني آدم والثاني صورته صورة وحش والثالث صورته صورة طير والرابع صورته صورة ثور وهم مشغولون بذكر الله تعالى، ويقول كل منهم: إلهي وسيدي ومولاي بحقك وبجاه نبيك محمد ﷺ أن تغفر لكل مخلوق خلقته على صورتي وتسامحه إنك على كل شيء قدير. فلما سمع بلوقيا منهم ذلك الكلام تعجّب وسار من عندهم ليلاً ونهاراً حتى وصل إلى جبل قاف، فطلع فوقه فرأى هناك ملكاً عظيماً وهو جالس يسبّح الله تعالى ويقدّسه ويصلّي على محمد ﷺ. ورأى ذلك الملك في قبض وبسط وطي ونشر. فبينما هو في هذا الأمر إذ أقبل بلوقيا وسلّم عليه، فردّ الملك عليه السلام وقال له: أي شيء أنت؟ ومن أين أتيت؟ وإلى أين رايح؟ وما اسمك؟ فقال بلوقيا: أنا من بني اسرائيل من بني آدم واسمي بلوقيا، وأنا سايح في حب محمد ﷺ ولكن تهت في طريقي. وحكى له جميع ما جرى له. فلما فرغ بلوقيا من حكايته سأل الملك وقال له: من أنت؟ وما هذا الجبل؟ وما هذا الشغل الذي أنت فيه؟ فقال له الملك: أعلم يا بلوقيا أن هذا جبل قاف المحيط بالدنيا، وكل أرض خلقها الله في الدنيا قبضتها في يدي. فإذا أراد الله تعالى بتلك الأرض شيئًا من زلزلة أو قحط أو خصب أو قتال أو صلح أمرني أن أفعله، فأفعله وأنا في مكاني. واعلم أن يدي قابضة بعروق الأرض. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 496

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك قال لبلوقيا: واعلم أن يدي قابضة بعروق الأرض. فقال بلوقيا للملك: هل خلق الله في جبل قاف أرضًا غير هذه الأرض التي أنت فيها؟ قال الملك: نعم. خلق أرضًا بيضاء مثل الفضة وما يُعلم قدر اتّساعها إلا الله تعالى، وأسكنها ملائكة أكلهم وشربهم التسبيح والتّقديس والإكثار من الصلاة على محمد ﷺ. وفي كل ليلة جمعة يأتون إلى هذا الجبل ويجتمعون ويدعون الله تعالى طول الليل إلى وقت الصباح، ويهدون ثواب ذلك التسبيح والتقديس والعبادات للمذنبين من أمة محمد ﷺ ولكل من اغتسل غسل الجمعة. وهذا حالهم إلى يوم القيامة. ثم إن بلوقيا سأل الملك وقال له: هل خلق الله جبالاً خلف جبل قاف؟ فقال الملك: نعم. خلف جبل قاف جبل قدره مسيرة خمسمائة عام، وهو من الثلج والبرد وهو الذي ردّ حرّ جهنم عن الدنيا ولولا ذلك الجبل لاحترقت الدنيا من حر نار جهنم. وخلف جبل قاف أربعون أرضاً، كل أرض منها قدر الدنيا أربعين مرة، منها ما هو من الذهب ومنها ما هو من الفضة ومنها ما هو من الياقوت. ولكل أرض من تلك الأراضي لون، وأسكن الله في تلك الأراضي ملائكة لا شغل لهم سوى التسبيح والتقديس والتهليل والتكبير، ويدعون الله تعالى إلى أمة محمد ﷺ، ولا يعرفون حواء ولا آدم ولا ليلاً ولا نهاراً. واعلم يا بلوقيا، أن الأراضي سبع طباق فوق بعض، وخلق الله ملكًا من الملائكة لا يعلم

اوصافه ولا قدره إلا الله عزّ وجلّ وهو حامل السبع أراضي على كاهله . وخلق الله تعالى تحت ذلك الملك صخرة ، وخلق الله تعالى تحت تلك الصخرة نوراً ، وخلق الله تعالى تحت ذلك النور حوتًا ، وخلق الله تحت ذلك الحوت بحراً عظيمًا . وقد أعلم الله تعالى عيسى عليه السلام بذلك الحوت . فقال له : يا رب ، أرني ذلك الحوت حتى أنظر اليه . فأمر الله تعالى ملكًا من الملائكة أن يأخذ عيسى ويروح به إلى الحوت حتى ينظره . فأتى ذلك الملك إلى عيسى عليه السلام وأخذه وأتى إلى البحر الذي فيه الحوت وقال له : أنظر يا عيسى إلى الحوت . فنظر عيسى إلى الحوت فلم يره ، فمرّ الحوت على عيسى مثل البرق . فلما رأى ذلك عيسى وقع مغشيًا عليه . فلما أفاق أوحى الله إلى عيسى وقال له : يا عيسى ، هل رأيت الحوت ؟ وهل علمت طوله وعرضه ؟ فقال عيسى : وعزّتك وجلالك يا رب ما رأيته ، ولكن مرّ عليّ نور عظيم قدره مسافة ثلاثة أيام ولم أعرف ما شأن ذلك النور . فقال الله : يا عيسى ، ذلك الذي مرّ عليك وقدره مسافة ثلاثة أيام إنما هو رأس النور . واعلم يا عيسى أنني في كل يوم أخلق أربعين حوتًا مثل ذلك الحوت . فلما سمع ذلك الكلام تعجّب من قدرة الله تعالى . ثم إن بلوقيا سأل الملك وقال له : أي شيء خلق الله تحت البحر الذي فيه الحوت ؟ فقال له الملك : خلق الله تحت البحر هواء عظيمًا ، وخلق الله تحت الهواء ناراً ، وخلق الله تحت النار حية عظيمة إسمها فلق . ولولا خوف تلك الحية من الله تعالى لابتلعت جميع ما فوقها من الهواء والنار والملك ومما حمله ولم تحسّ بذلك الملك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 497

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك قال لبلوقيا في وصف الحية : ولولا خوفها من الله تعالى لابتلعت جميع ما فوقها من الهواء والنار والملك وما حمله ولم تحسّ بذلك . ولما خلق الله تعالى تلك الحية أوحى إليها أني أريد منك أن أودع عندك أمانة فاحفظيها . فقالت الحية : إفعل ما تريد . فقال الله لتلك الحية : إفتحي فاك . ففتحت فاها ، فأدخل الله جهنم في بطنها وقال لها : إحفظي جهنم إلى يوم القيامة . فاذا جاء يوم القيامة يأمر الله ملائكته أن يأتوا ومعهم سلاسل يقودون بها جهنم إلى المحشر ، ويأمر الله تعالى جهنم أن تفتح أبوابها فتفتحها ويطير منها شرر كبار أكثر من الجبال . فلما سمع بلوقيا ذلك الكلام من الملك بكى بكاء شديداً . ثم إنه ودّع الملك وسار إلى ناحية الغرب حتى أقبل على شخصين فرآهما جالسين وعندهما باب عظيم مقفول . فلما قرب منهما رأى أحدهما صورته صورة أسد والآخر صورته صورة ثور . فسلّم عليهما بلوقيا فردّا عليه السلام ، ثم إنهما سألاه وقالا له : أي شيء أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وإلى أين رايح ؟ فقال لهما بلوقيا : أنا من بني آدم وأنا سايح في حب محمد ﷺ ولكن تهت عن طريقي . ثم إن بلوقيا سألهما وقال لهما : أي شيء أنتما ؟ وما هذا الباب الذي عندكما ؟ فقالا له : نحن حراس هذا الباب الذي تراه ، وما لنا شغل سوى التسبيح والتقديس والصلاة على محمد ﷺ . فلما سمع بلوقيا هذا الكلام تعجّب وقال لهما : أي شيء داخل هذا الباب ؟ فقالا : لا ندري . فقال لهما : بحق ربّكما الجليل أن تفتحا لي هذا الباب حتى أنظر أي شيء داخله . فقالا له : ما نقدر أن نفتح هذا الباب ولا يقدر على فتحه أحد من المخلوقين إلا الأمين جبريل عليه السلام . فلما سمع بلوقيا ذلك ، تضرّع إلى الله تعالى وقال : يا رب ، ائتني بالأمين جبريل ليفتح

لي هذا الباب حتى أنظر ما داخله . فاستجاب الله دعاه وأمر الأمين جبريل أن ينزل إلى الأرض ويفتح باب مجمع البحرين حتى ينظره بلوقيا . فنزل جبريل إلى بلوقيا وسَلّمَ عليه وأتى إلى ذلك الباب وفتحه . ثم إن جبريل قال لبلوقيا : أدخل إلى هذا الباب فإن الله أمرني أن أفتحه لك . فدخل بلوقيا وسار فيه ، ثم إن جبريل قفل الباب وارتفع إلى السماء . ورأى بلوقيا في داخل الباب بحراً عظيماً نصفه مالح ونصفه حلو ، وحول ذلك البحر جبلان ، وهذان الجبلان من الياقوت الأحمر . وسار بلوقيا حتى أقبل على هذين الجبلين فرأى فيهما ملائكة مشغولين بالتسبيح والتقديس . فلما رآهم بلوقيا سلّم عليهم فردّوا عليه السلام . فسألهم بلوقيا عن البحر وعن هذين الجبلين . فقال له الملائكة : إن هذا مكان تحت العرش ، وإن البحر هذا البحر يمد كل بحر في الدنيا ، ونحن نقسم هذا الماء ونسوقه إلى الأراضي ؛ المالح للأرض المالحة والحلو للأرض الحلوة . وهذان الجبلان خلقهما الله ليحفظا هذا الماء ، وهذا أمرنا إلى يوم القيامة . ثم إنهم سألوه وقالوا له : من أين أقبلت ؟ وإلى أين رايح ؟ فحكى لهم بلوقيا حكايته من الأول إلى الآخر . ثم إن بلوقيا سألهم عن الطريق . فقالوا له : إطلع هنا على ظهر هذا البحر . فأخذ بلوقيا من الماء الذي معه ودهن قدميه وودّعهم وسار على ظهر البحر ليلاً ونهاراً . فبينما هو سائر وإذا هو ينظر شاباً مليحاً سائراً على ظهر البحر فأتى اليه وسلّم عليه ، فردّ عليه السلام . ثم إن بلوقيا لما فارق الشاب رأى أربعة ملائكة سائرين على وجه البحر وسيرهم مثل البرق الخاطف ، فتقدّم بلوقيا ووقف في طريقهم . فلما وصلوا اليه سلّم عليهم بلوقيا وقال لهم : أريد أن أسألكم بحق العزيز الجليل ، ما اسمكم ؟ ومن أين أنتم ؟ وإلى أين تذهبون ؟ فقال واحد منهم : أنا إسمي جبريل والثاني اسمه اسرافيل والثالث اسمه ميكائيل والرابع اسمه عزرائيل ، وقد ظهر في المشرق ثعبان عظيم وذلك الثعبان خرّب ألف مدينة وأكل أهلها ، وقد أمرنا الله تعالى أن نروح إليه ونمسكه ونرميه في جهنم . فتعجّب منهم بلوقيا ومن عظمهم . وسار على عادته ليلاً ونهاراً حتى وصل إلى جزيرة فطلع عليها وتمشّى فيها ساعة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 498

□ قالت : بلغني ايها الملك السعيد ، أن بلوقيا طلع إلى الجزيرة وتمشّى فيها ساعة فرأى شاباً مليحاً والنور يلوح من وجهه . فلما قرب منه بلوقيا رآه جالساً بين قبرين مبنيين وهو ينوح ويبكي ، فأتى إليه بلوقيا وسلّم عليه ، فردّ عليه السلام . ثم إن بلوقيا سأل الشاب وقال له : ما شانك ؟ وما اسمك ؟ وما هذان القبران المبنيان اللذان أنت جالس بينهما ؟ وما هذا البكاء الذي أنت فيه ؟ فالتفت الشاب إلى بلوقيا وبكى بكاء شديداً حتى بلّ ثيابه من دموعه وقال لبلوقيا : أعلم يا أخي أن حكايتي عجيبة وقصّتي غريبة ، وأحب أن تجلس عندي حتى تحكي لي ما رأيت في عمرك وما سبب مجيئك إلى هذا المكان وما اسمك وإلى اين رايح . وأحكي لك أنا الآخر حكايتي . فجلس بلوقيا عند الشاب وأخبره بجميع ما وقع له في سياحته من الأول إلى الآخر ، وأخبره كيف مات والده وخلّفه ، وكيف فتح الخلوة ورأى فيها الصندوق ، وكيف رأى الكتاب الذي فيه صفة محمد ﷺ ، وكيف تعلّق قلبه به وطلع سايحاً في حبّه ، وأخبره بجميع ما وقع له إلى أن وصل إليه . ثم قال له : وهذه حكايتي بتمامها ، والله أعلم وما أدري

بالذي يجري عليّ بعد ذلك . فلما سمع الشاب كلامه تنهّد وقال له : يا مسكين ، أي شيء رأيت في عمرك ؟ أعلم يا بلوقيا أني رأيت السيد سليمان في زمانه ، ورأيت شيئًا لا يعدّ ولا يحصى . وحكايتي عجيبة وقصتي غريبة ، وأريد منك أن تقعد عندي حتى أحكي لك حكايتي وأخبرك بسبب قعودي هنا . فلما سمع حاسب هذا الكلام من الحية تعجّب وقال : يا ملكة الحيات ، بالله عليك أن تعتقيني وتأمري أحد خدمك أن يخرجني إلى وجه الأرض ، وأحلف لك يمينًا أنني لا أدخل الحمام طول عمري . فقالت له : إن هذا أمر لا يكون ولا أصدقك في يمينك . فلما سمع منها ذلك بكى وبكت الحيات جميعًا لأجله وصارت تستشفع له عند الملكة وتقول لها : نريد منك أن تأمري إحدانا أن تخرجه إلى وجه الأرض ويحلف لك يمينًا أنه لن يدخل الحمام طول عمره . وكانت ملكة الحيات إسمها يمليخا . فلما سمعت يمليخا منهن ذلك الكلام أقبلت على حاسب وحلّفته ، فحلف لها . ثم أمرت حية أن تخرجه إلى وجه الأرض ، فأتته وأرادت أن تخرجه . فلما أتت تلك الحية لتخرجه قال لملكة الحيات : أريد منك أن تحكي لي حكاية الشاب الذي قعد عنده بلوقيا ورآه جالسًا بين القبرين . فقالت : أعلم يا حاسب ، أن بلوقيا جلس عند الشاب وحكى له حكايته من أولها إلى آخرها لأجل أن يحكي له الآخر قصته ويخبره بما جرى له في عمره ويعرّفه بسبب قعوده بين القبرين . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 499

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن بلوقيا لما حكى للشاب حكايته قال له الشاب : وأي شيء رأيت من العجائب يا مسكين ؟ أنا رأيت السيد سليمان في زمانه ، ورأيت عجائب لا تعدّ ولا تحصى . واعلم يا أخي أن أبي كان ملكاً يقال له : الملك طيغموس . وكان يحكم على بلاد كابل وعلى بني شهلان وهم عشرة آلاف بهلوان ، كل بهلوان منهم يحكم على مائة مدينة ومائة قلعة بأسوارها . وكان يحكم على سبعة سلاطين ويُحمل له المال من المشرق إلى المغرب ، وكان عادلاً في حكمه . وقد أعطاه الله تعالى كل هذا ومنّ عليه بذلك الملك العظيم ولم يكن له ولد ، وكان مراده في عمره أن يرزقه الله ولدًا ذكرًا ليخلفه في ملكه بعد موته . فاتفق أنه طلب العلماء والمنجمين وأرباب المعرفة والتقويم يومًا من الأيام وقال لهم : أنظروا طالعي وهل يرزقني الله في عمري ولدًا ذكرًا فيخلفني في ملكي ؟ ففتح المنجمون الكتب وحسبوا طالعه وناظره من الكواكب ثم قالوا له : أعلم أيها الملك ، أنك ترزق ولدًا ذكرًا ولا يكون ذلك الولد إلا من بنت ملك خراسان . فلما سمع طيغموس ذلك منهم فرح فرحًا شديدًا وأعطى المنجمين والحكماء مالاً كثيرًا لا يعدّ ولا يحصى وذهبوا إلى حال سبيلهم . وكان عند الملك طيغموس وزير كبير وكان بهلوانًا عظيمًا مقومًا بألف فارس وكان اسمه عين زار . فقال له : يا وزير ، أريد منك أن تتجهّز للسفر إلى بلاد خراسان وتخطب لي بنت الملك بهروان ملك خراسان . وحكى الملك طيغموس لوزيره عين زار ما أخبره به المنجمون . فلما سمع الوزير ذلك الكلام من الملك طيغموس ، ذهب من وقته وساعته وتجهّز للسفر ثم برز إلى خارج المدينة بالعساكر والأبطال والجيوش . هذا ما كان من أمر الوزير .

وأما ما كان من أمر الملك طيغموس فإنه جهز ألفاً وخمسمائة حمل من الحرير والجواهر واللؤلؤ واليواقيت والذهب والفضة والمعادن ، وجهز شيئًا كثيرًا من آلة العرس وحمّلها على

الجمال والبغال وسلّمها إلى وزيره عين زار، وكتب له كتاباً مضمونه: أما بعد، فالسلام على الملك بهروان، واعلم أننا قد جمعنا المنجمين والحكماء وأرباب التقاويم فأخبرونا أننا نرزق ولداً ذكراً ولا يكون ذلك الولد إلا من بنتك، وها أنا قد جهّزت لك الوزير عين زار ومعه أشياء كثيرة من آلة العرس. وإني قد أقمت وزيري مقامي في هذه المسألة ووكّلته في قبول العقد. وأريد من فضلك أن تقضي للوزير حاجته فإنها حاجتي، ولا تبدي في ذلك إهمالاً ولا إمهالاً، وما فعلته من الجميل فهو مقبول منك. والحذر من المخالفة في ذلك. واعلم يا ملك بهروان، أن الله قد منّ عليّ بمملكة كابل وملّكني على بني شهلان وأعطاني ملكاً عظيماً وإذا تزوجت بنتك أكون أنا وأنت في الملك شيئاً واحداً وأرسل إليك في كل سنة ما يكفيك من المال، وهذا قصدي منك. ثم إن الملك طيغموس ختم الكتاب وناوله لوزيره عين زار وأمره بالسفر إلى بلاد خراسان. فسافر الوزير حتى وصل إلى قرب مدينة الملك بهروان فأعلموه بقدوم وزير الملك طيغموس. فلما سمع الملك بهروان بذلك الكلام جهّز أمراء دولته للملاقاة وجهّز معهم أكلا وشرباً وغير ذلك، وأعطاهم عليقاً لأجل الخيل، وأمرهم بالسير إلى ملاقاة الوزير عين زار. فحمّلوا الأحمال وساروا حتى أقبلوا على الوزير، وحطوا الأحمال ونزلت الجيوش والعساكر وسلّم بعضهم على بعض ومكثوا في ذلك المكان مدة عشرة أيام وهم في أكل وشرب. ثم بعد ذلك ركبوا وتوجّهوا إلى المدينة، وطلع الملك بهروان إلى مقابلة وزير الملك طيغموس وعانقه وسلّم عليه وأخذه وتوجّه به إلى القلعة. ثم إن الوزير قدّم الأحمال والتحف وجميع الأموال للملك بهروان وأعطاه الكتاب. فأخذه الملك بهروان وقرأه وعرف ما فيه وفهم معناه، وفرح فرحاً شديداً ورحّب بالوزير وقال له: أبشر بما تريد. ولو طلب الملك طيغموس روحي لأعطيته إياها. وذهب الملك بهروان من وقته إلى بنته وأمها وأقاربه وأعلمهم بذلك الأمر واستشارهم فيه. فقالوا: إفعل ما شئت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 500

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك بهروان استشار البنت وأمها وأقاربها فقالوا له: إفعل ما تريد. ثم إن الملك بهروان رجع إلى الوزير عين زار وأعلمه بقضاء حاجته. ومكث الوزير عند الملك بهروان مدة شهرين، ثم بعد ذلك قال الوزير للملك: إننا نريد منك أن تنعم علينا بما أتيناك فيه ونروح إلى بلادنا. فقال الملك للوزير: سمعاً وطاعةً. ثم أمر بإقامة العرس وتجهيز الجهاز. ففعلوا ما أمرهم به. وبعد ذلك أمر بإحضار وزرائه وجميع الأمراء من أكابر دولته، فحضروا جميعاً. ثم أمر بإحضار الرهبان والقسيسين، فحضروا وعقدوا عقد البنت للملك طيغموس، وهيأ الملك بهروان آلة السفر وأعطى بنته من الهدايا والتحف والمعادن ما يكلّ عنه الوصف، وأمر بفرش أزقة المدينة وزيّنها بأحسن زينة وسافر الوزير عين زار ببنت الملك بهروان إلى بلاده. فلما وصل الخبر إلى الملك طيغموس أمر بإقامة الفرح وزينة المدينة. ثم إن الملك طيغموس دخل على بنت الملك بهروان وأزال بكارتها، فما مضت عليها أيام قلائل حتى علقت منه. ولما تمّت أشهرها وضعت ولداً ذكراً مثل البدر في ليلة تمامه. فلما علم الملك طيغموس أن زوجته وضعت ولداً ذكراً مليحاً، فرح فرحاً شديداً وطلب الحكماء والمنجمين وأرباب التقاويم وقال لهم: أريد منكم أن تنظروا طالع هذا المولود وناظره من الكواكب

وتخبروني بما يلقاه في عمره . فحسب الحكماء والمنجمون طالعه وناظره ، فرأوا الولد سعيداً ولكنه يحصل له في أول عمره تعب وذلك عند بلوغه خمس عشرة سنة ، فإن عاش بعدها رأى خيراً كثيراً وصار ملكًا عظيماً أعظم من أبيه وعظم سعده وهلك ضدّه وعاش عيشًا هنياً . وإن مات فلا سبيل إلى ما فات والله أعلم . فلما سمع الملك ذلك الخبر ، فرح فرحاً شديداً وسمّاه جانشاه وسلّمه للمراضع والدايات وأحسن تربيته . فلما بلغ من العمر خمس سنين ، علّمه أبوه القراءة وصار يقرأ في الإنجيل ، وعلّمه الحرب والطعن والضرب في أقل من سبع سنين . وجعل يركب للصيد والقنص وصار بهلواناً عظيماً كاملاً في جميع آلات الفروسية ، وصار أبوه كلما سمع بفروسيته في جميع آلات الحرب فرح فرحًا شديداً . فاتفق في يوم من الأيام أن الملك طيغموس أمر عسكره أن يركبوا للصيد والقنص ، فطلعت العسكر والجيوش وركب الملك طيغموس هو وابنه جانشاه وساروا إلى البراري والقفار واشتغلوا بالصيد والقنص إلى عصر اليوم الثالث . فسنحت لجانشاه غزالة عجيبة اللون وشردت قدّامه ، فلما نظر جانشاه إلى تلك الغزالة وهي شاردة قدامه تبعها وأسرع في الجري وراءها وهي هاربة ، فانتبذ سبعة مماليك من مماليك طيغموس وذهبوا في أثر جانشاه . فلما نظروا إلى سيدهم وهو مسرع وراء تلك الغزالة ، راحوا مسرعين وراءه وهم على خيل سوابق . وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى بحر ، فتهاجم الجميع على الغزالة ليمسكوها قنصًا ففرّت منهم الغزالة وألقت نفسها في البحر . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

حكاية جانشاه ابن الملك طيغوس

فلما كانت الليلة

501

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن جانشاه هو ومماليكه لما هجموا على الغزالة ليمسكوها قنصًا ، فرّت منهم ورمت نفسها في البحر . وكان في ذلك البحر مركب صياد ، فنطّت فيها الغزالة . فنزل جانشاه ومماليكه عن خيلهم إلى المركب وقنصوا الغزالة وأرادوا أن يرجعوا إلى البر ، وإذا بجانشاه ينظر إلى جزيرة عظيمة فقال للمماليك الذين معه : إني أريد أن نذهب إلى الجزيرة . فقالوا له : سمعًا وطاعة . وساروا بالمركب إلى ناحية الجزيرة حتى وصلوا إليها . فلما وصلوا إليها طلعوا فيها وصاروا يتفرّجون عليها ، ثم بعد ذلك عادوا إلى المركب ونزلوا فيها وساروا والغزالة معهم قاصدين البر الذي أتوا منه ، فأمسى عليهم المساء وتاهوا في البحر ، فهبّت عليهم الريح وأجرت المركب في وسط البحر وناموا إلى وقت الصباح . ثم انتبهوا وهم لا يعرفون الطريق ، ولم يزالوا سائرين في البحر . هذا ما كان من أمرهم .

وأما ما كان من أمر الملك طيغموس والد جانشاه فإنه تفقّد ابنه فلم يره ، فأمر العسكر أن يروح كل جماعة منهم إلى طريق . فصاروا دائرين يفتشون عن ابن الملك طيغموس ، وذهب جماعة منهم إلى البحر فرأوا المملوك الذي خلّوه عند الخيل . فأتوه وسألوه عن سيده وعن الستة المماليك ، فأخبرهم المملوك بما جرى لهم . فأخذوا المملوك والخيل ورجعوا إلى الملك وأخبروه بذلك الخبر . فلما سمع الملك بذلك الكلام ، بكى بكاء شديداً ورمى التاج من فوق رأسه وعضّ يديه ندمًا وقام من وقته وكتب كتباً وأرسلها إلى الجزائر التي في البحر ، وجمع مائة مركب وأنزل فيها عساكر وأمرهم أن يدوروا في البحر ويفتشوا عن ولده جانشاه . ثم إن الملك أخذ بقية العساكر والجيوش ورجع إلى المدينة وصار في نكد شديد . ولما علمت والدة جانشاه

بذلك، لطمت وجهها وأقامت عزاه. هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر جانشاه والمماليك الذين معه، فإنهم لم يزالوا تايهين في البحر، ولم يزل الرواد دائرين يفتشون عنهم في البحر مدة عشرة أيام فما وجدوهم، فرجعوا إلى الملك وأعلموه بذلك. ثم إن جانشاه والمماليك الذين معه هبّ عليهم ريح عاصف وساق المركب التي هم فيها حتى أوصلها إلى جزيرة، وطلع جانشاه والستة المماليك من المركب وتمشّوا في تلك الجزيرة حتى وصلوا إلى عين ماء جارية في وسط تلك الجزيرة، فرأوا رجلاً جالساً على بعد قريباً من العين، فأتوه وسلّموا عليه، فردّ عليهم السلام. ثم إن الرجل كلّمهم بكلام مثل صفير الطير. فلما سمع جانشاه كلام ذلك الرجل تعجّب. ثم إن الرجل التفت يميناً وشمالاً، وبينما هم يتعجبون من ذلك الرجل إذا هو قد انقسم نصفين وراح كل نصف في ناحية. وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم أصناف رجال لا تحصى ولا تعدّ وأتوا من جانب الجبل وساروا حتى وصلوا إلى العين، وصار كل واحد منهم منقسماً نصفين. ثم إنهم أتوا جانشاه والمماليك ليأكلوهم. فلما رآهم جانشاه يريدون أكلهم، هرب منهم وهربت معه المماليك. فتبعهم هؤلاء الرجال فأكلوا من المماليك ثلاثة وبقي ثلاثة مع جانشاه. ثم إن جانشاه نزل إلى المركب ومعه الثلاثة المماليك، ودفعوا المركب إلى وسط البحر وساروا ليلاً ونهاراً وهم لا يعرفون أين تذهب بهم المركب. ثم إنهم ذبحوا الغزالة وصاروا يقتاتون منها، فضربتهم الرياح فنقلتهم إلى جزيرة أخرى. فنظروا إلى تلك الجزيرة فرأوا فيها أشجاراً وأنهاراً وأثماراً وبساتين، وفيها من جميع الفواكه والأنهار تجري من تحت تلك الأشجار وهي كأنها الجنة. فلما رأى جانشاه تلك الجزيرة أعجبته وقال للمماليك: من فيكم يطلع هذه الجزيرة وينظر لنا خبرها؟ فقال مملوك منهم: أنا أطلع وأكشف لكم عن خبرها وأرجع إليكم. فقال جانشاه: هذا أمر لا يكون، وإنما تطلعون أنتم الثلاثة وتكشفون لنا عن خبر هذه الجزيرة وأنا قاعد لكم في المركب حتى ترجعوا. ثم إن جانشاه أنزل الثلاثة المماليك ليكشفوا عن خبر الجزيرة، فطلع المماليك إلى الجزيرة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 502

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المماليك لما طلعوا إلى الجزيرة داروا فيها شرقاً وغرباً فلم يجدوا فيها أحداً، ثم مشوا فيها إلى وسطها فرأوا على بعد قلعة من الرخام الأبيض وبيوتها من البلور الصافي. وفي وسط تلك القلعة بستان فيه من جميع الفواكه اليابسة والرطبة ما يكلّ عنه الوصف، وفيه جميع المشموم. ورأوا في تلك القلعة أشجاراً وأثماراً وأطياراً تناغي على تلك الأشجار، وفيها بحيرة عظيمة. وبجانب البحيرة إيوان عظيم وعلى ذلك الإيوان كراسي منصوبة، وفي وسط تلك الكراسي تخت منصوب من الذهب الأحمر مرصّع بأنواع الجواهر واليواقيت. فلما رأى المماليك حسن تلك القلعة وذلك البستان، داروا في تلك القلعة يميناً وشمالاً فما رأوا فيها أحداً. ثم طلعوا من القلعة ورجعوا إلى جانشاه وأعلموه بما رأوه. فلما سمع جانشاه ابن الملك منهم ذلك الخبر قال لهم: إني لا بد لي من أن أتفرج في هذه القلعة. ثم إن جانشاه طلع من المركب وطلعت معه المماليك وساروا حتى أتوا القلعة ودخلوا فيها، فتعجب جانشاه من حسن ذلك المكان. ثم داروا يتفرجون في البستان ويأكلون من تلك

الفواكه، ولم يزالوا دائرين إلى وقت المساء. ولما أمسى عليهم المساء، أتوا إلى المنصوبة وجلس جانشاه على التخت المنصوب في الوسط وصارت الكراسي منصوبة عن يمينه وشماله. ثم إن جانشاه لما جلس على ذلك التخت صار يتفكّر ويبكي على فراق تخت والده وعلى فراق بلاده وأهله وأقاربه، وبكت حوله الثلاثة المماليك. فبينما هم في ذلك الأمر إذا بصيحة عظيمة من جانب البحر، فالتفتوا إلى جهة تلك الصيحة فإذا هم قردة كالجراد المنتشرة. وكانت تلك القلعة والجزيرة للقردة. ثم إن هؤلاء القردة لما رأوا المركب التي أتى فيها جانشاه، خسفوها على شاطىء البحر وأتوا جانشاه وهو جالس في القلعة. ثم قالت ملكة الحيات: كل هذا يا حاسب مما يحكيه الشاب الجالس بين القبرين لبلوقيا. فقال لها حاسب: وما فعل جانشاه مع القردة بعد ذلك؟ قالت له ملكة الحيات: لما طلع جانشاه وجلس على التخت والمماليك عن يمينه وشماله، أقبل عليهم القردة فأفزعوهم وأخافوهم خوفاً عظيماً. ثم دخلت جماعة من القردة وتقدّموا إلى أن قربوا من التخت الجالس عليه جانشاه، وقبّلوا الأرض قدّامه ووضعوا أيديهم على صدورهم ووقفوا قدامه ساعة. وبعد ذلك أقبلت جماعة منهم ومعهم غزلان، فذبحوها وأتوا بها إلى القلعة وسلخوها وقطعوا لحمها وشووها حتى طابت للأكل، وحطوها في صوان من الذهب والفضة ومدّوا السماط وأشاروا إلى جانشاه وجماعته أن يأكلوا. فنزل جانشاه من فوق التخت وأكل، وأكلت معه القرود والمماليك حتى اكتفوا من الأكل. ثم إن القرود رفعوا سماط الطعام وأتوا بفاكهة، فأكلوا منها وحمدوا الله تعالى. ثم إن جانشاه أشار إلى أكابر القرود وقال لهم: ما شأنكم؟ ولمن هذا المكان؟ فقال له القرود بالإشارة: اعلم أن هذا المكان لسيدنا سليمان بن داود عليهما السلام، وكان يأتي إليه في كل سنة مرة يتفرّج فيه ويروح من عندنا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 503

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جانشاه أخبره القرود عن القلعة وقالوا له: إن هذا المكان كان لسيدنا سليمان بن داود، وكان يأتي إليه في كل سنة يتفرّج فيه ويروح من عندنا. ثم قال له القرود: اعلم أيها الملك أنك بقيت علينا سلطاناً ونحن في خدمتك، وكُل واشرب، وكل ما أمرتنا به نفعله. ثم قام القرود وقبلوا الأرض بين يديه وانصرف كل واحد منهم إلى حال سبيله. ونام جانشاه فوق التخت ونام المماليك حوله على الكراسي إلى وقت الصباح. ثم دخل عليه الأربعة وزراء الرؤساء على القرود وعساكرهم حتى امتلأ ذلك المكان، وصاروا حوله صفاً بعد صف، وأتت الوزراء وأشاروا إلى جانشاه أن يحكم بينهم بالصواب. ثم صاح القرود على بعضهم وانصرفوا وبقي منهم جانب قدام الملك جانشاه من أجل الخدمة. ثم بعد ذلك أقبل قرود معهم كلاب في صورة الخيل، وفي رأس كل كلب منهم سلسلة. فتعجّب جانشاه من هؤلاء الكلاب ومن عظم خلقتها. ثم إن وزراء القرود أشاروا لجانشاه أن يركب ويسير معهم، فركب جانشاه والثلاثة مماليك وركب معهم عسكر القرود وصاروا مثل الجراد المنتشرة، وبعضهم راكب وبعضهم ماش. فتعجّب من أمورهم. ولم يزالوا سائرين إلى شاطىء البحر، فلما رأى جانشاه المركب التي كان راكباً فيها قد خسفت، التفت إلى وزرائه من القرود وقال لهم: أين المركب التي كانت هنا؟ فقالوا له: اعلم أيها الملك أنكم لما أتيتم إلى جزيرتنا

علمنا أنك تكون سلطاناً علينا، وخفنا أن تهربوا منّا إذ أتينا عندكم وتنزلوا المركب، فمن أجل ذلك خسفناها. فلما سمع جانشاه هذا الكلام التفت إلى المماليك وقال لهم: ما بقي لنا حيلة في الرواح من عند هؤلاء القرود، ولكن نصبر لما قدره الله تعالى. ثم ساروا، وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى شاطىء نهر، وفي جانب ذلك النهر جبل عال. فنظر جانشاه إلى ذلك الجبل فرأى فيه غيلاناً كثيرة، فالتفت إلى القرود وقال لهم: ما شأن هؤلاء الغيلان؟ فقال له القرود: اعلم أيها الملك أن هؤلاء الغيلان أعداؤنا ونحن أتينا لنقاتلهم. فتعجّب جانشاه من هؤلاء الغيلان ومن عظم خلقتهم وهم راكبون على الخيل ورؤوس بعضهم على صورة رؤوس البقر، وبعضهم على صورة الجمال. فلما رأى الغيلان عسكر القرود، هجموا عليهم ووقفوا على شاطىء النهر وصاروا يرجمونهم بشيء من الحجارة في صورة العواميد وحصل بينهم حرب عظيم. فلما رأى جانشاه الغيلان غلبوا القرود، زعق على المماليك وقال لهم: أطلعوا القسيّ والنشاب وارموا عليهم بالنبال حتى تقتلوهم وتردّوهم عنّا. ففعل المماليك ما أمرهم به جانشاه حتى حصل للغيلان كرب عظيم وقتل منهم خلق كثير وانهزموا وولّوا هاربين. فلما رأى القرود من جانشاه هذا الأمر، نزلوا في النهر وعدّوه وجانشاه معهم، وطرد الغيلان حتى غابوا عن أعينهم وانهزموا وقتل منهم كثير. ولم يزل جانشاه والقرود سائرين حتى وصلوا إلى جبل عال. فنظر جانشاه إلى ذلك الجبل فوجد فيه لوحاً من المرمر مكتوباً فيه: اعلم يا من دخل هذه الأرض أنك تصير سلطاناً على هؤلاء القرود، وما يتأتى لك رواح من عندهم إلا إن رحت من الدرب الشرقي بناحية الجبل وطوله ثلاثة أشهر، وأنت سائر بين الوحوش والغيلان والمردة والعفاريت، وبعد ذلك تنتهي إلى البحر المحيط بالدنيا. أو رحت من الدرب الغربي وطوله أربعة أشهر وفي رأسه وادي النمل، فاذا وصلت إلى وادي النمل ودخلت فيه، فاحترز على نفسك من هذا النمل حتى تنتهي إلى جبل عال. وذلك الجبل يتوقّد مثل النار ومسيرته عشرة أيام. فلما رأى جانشاه ذلك اللوح. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 504

☐ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جانشاه لما رأى ذلك اللوح، قرأه ورأى فيه ما ذكرناه ورأى في آخر الكلام: ثم تنتهي إلى نهر عظيم وهو يجري، وجريانه يخطف البصر من شدّة عزمه. وذلك النهر في كل سبت ييبس، وبجانبه مدينة أهلها كلهم يهود ولدين محمد جحود، ما فيهم مسلم أبداً. وما في هذه الارض إلا هذه المدينة، وما دمت مقيماً عند القرود هم منصورون على الغيلان. واعلم أن هذا اللوح كتبه السيد سليمان ابن داود عليهما السلام. فلما قرأه جانشاه بكى بكاء شديداً ثم التفت إلى مماليكه وأعلمهم بما هو مكتوب على اللوح، وبعد ذلك ركب وركب حوله عساكر القرود وصاروا فرحانين بالنصر على أعدائهم ورجعوا إلى قلعتهم. ومكث جانشاه في القلعة سلطانًا على القرود سنة ونصفاً. ثم بعد ذلك أمر جانشاه عساكر القرود أن يركبوا للصيد والقنص، فركبوا وركب معهم جانشاه ومماليكه وساروا في البراري والقفار. ولم يزالوا سائرين من مكان إلى مكان حتى عرف وادي النمل ورأى الأمارة المكتوبة في اللوح المرمر. فلما رأى ذلك أمرهم أن ينزلوا في ذلك المكان، فنزلوا ونزلت عساكر القرود ومكثوا في أكل شرب مدة عشرة أيام. ثم اختلى جانشاه بمماليكه ليلة من الليالي وقال

لهم : إني أريد أن نهرب ونروح إلى وادي النمل ونسير إلى مدينة اليهود ، لعل الله ينجينا من هؤلاء القرود ونروح إلى حال سبيلنا . فقالوا له : سمعاً وطاعة . ثم إنه صبر حتى مضى من الليل شيء قليل وقام ، وقامت معه المماليك وتسلّحوا بأسلحتهم وحزموا أوساطهم بالسيوف والخناجر وما أشبه ذلك من آلات الحرب وخرج جانشاه هو ومماليكه وساروا من أول الليل إلى وقت الصبح . فلما انتبه القرود من نومهم ، لم يروا جانشاه ولا مماليكه فعلموا أنهم هربوا منهم . فقامت جماعة من القرود وركبوا وساروا إلى ناحية الدرب الشرقي ، وجماعة ركبوا وساروا إلى وادي النمل . فبينما القرود سائرون إذ نظروا جانشاه والمماليك معه وهم مقبلون على وادي النمل ، فلما رآهم أسرعوا وراءهم . فلما نظرهم جانشاه هرب وهربت معه المماليك ودخلوا وادي النمل ، فما مضت ساعة من الزمان إلا والقرود قد هجمت عليهم وأرادوا أن يقتلوا جانشاه هو ومماليكه ، وإذا هم بنمل قد خرج من تحت الأرض مثل الجراد المنتشر ، كل نملة منه قدر الكلب . فلما رأى النمل القرود ، هجم عليهم وأكل منهم جماعة وقُتل من النمل جماعة كثيرة ، لكن حصل النصر للنمل . وصارت النملة تأتي إلى القرد وتضربه فتقسمه نصفين ، وصار العشرة قرود يركبون النملة الواحدة ويمسكونها ويقسمونها نصفين ، ووقع بينهم حرب عظيم إلى وقت المساء . ولما أمسى الوقت ، هرب جانشاه هو والمماليك في بطن الوادي . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 505

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أنه لما أقبل المساء ، هرب جانشاه هو ومماليكه في بطن الوادي إلى الصباح . فلما أصبح ، أقبل القرود على جانشاه ، فلما رآهم زعق على مماليكه وقال لهم : اضربوهم بالسيوف . فسحب المماليك سيوفهم وجعلوا يضربون القرود يميناً وشمالاً . فتقدم قرد عظيم له أنياب مثل أنياب الفيل وأتى واحد من المماليك وضربه فقسمه نصفين ، وتكاثرت القرود على جانشاه فهرب إلى أسفل الوادي ورأى هناك نهراً عظيماً وبجانبه نمل عظيم . فلما رأى النمل جانشاه مقبلاً عليه واحتاط به ، وإذا بمملوك ضرب نملة بالسيف فقسمها نصفين . فلما رأت عساكر النمل ذلك ، تكاثروا على المملوك وقتلوه . فبينما هم في هذا الأمر وإذا بالقرود قد أقبلوا من فوق الجبل وتكاثروا على جانشاه . فلما رأى جانشاه اندفاعهم عليه ، نزع ثيابه ونزل النهر ونزل معه المملوك الذي بقي ، وعاما في الماء إلى وسط النهر . ثم إن جانشاه رأى شجرة في شاطىء النهر من الجهة الأخرى ، فمدّ يده إلى غصن من أغصانها وتناوله وتعلّق به وطلع إلى البرّ . وأما المملوك فإنه غلب عليه التيار فأخذه وقطعه في الجبل . وصار جانشاه واقفاً وحده في البرّ يعصر ثيابه وينشّفها في الشمس . ووقع بين القرود والنمل قتال عظيم ، ثم رجع القرود إلى بلادهم . هذا ما كان من أمر القرود والنمل .

وأما ما كان من أمر جانشاه ، فإنه صار يبكي إلى وقت المساء ، ثم دخل مغارة واستكن فيها وقد خاف خوفاً شديداً واستوحش لفقد مماليكه . ثم نام في تلك المغارة إلى الصباح ، ثم سار . ولم يزل سائراً ليالي وأياماً وهو يأكل من الأعشاب حتى وصل إلى الجبل الذي يتوقد مثل النار . فلما أتى إليه سار فيه حتى وصل إلى النهر الذي ينشف في كل يوم سبت . فلما وصل إلى ذلك النهر رآه نهراً عظيماً وبجانبه مدينة عظيمة ، وهي مدينة اليهود التي رآها مكتوبة في اللوح . فأقام

هناك إلى أن أتى يوم السبت ونشّف النهر، ثم مشى من النهر حتى وصل إلى مدينة اليهود فلم ير فيها أحداً. فمشى فيها حتى وصل إلى باب بيت ففتحه ودخله فرأى أهله ساكتين لا يتكلمون أبداً. فقال لهم: إني رجل غريب جائع. فقالوا له بالإشارة: كُل واشرب ولا تتكلم. فقعد عندهم وأكل وشرب ونام تلك الليلة. فلما أصبح الصباح، سلّم عليه صاحب البيت ورحّب به وقال له: من أين أتيت؟ وإلى أين رايح؟ فلما سمع جانشاه كلام ذلك اليهودي، بكى بكاء شديداً وحكى له قصته وأخبره بمدينة أبيه. فتعجّب اليهودي من ذلك وقال له: ما سمعنا بهذه المدينة قط، غير أننا كنا نسمع من قوافل التجار أن هناك بلاداً تسمّى بلاد اليمن. فقال جانشاه لليهودي: هذه البلاد التي تخبر بها التجار لا تبعد عن هذا المكان. فقال له اليهودي: إن تجار تلك القوافل يزعمون أن مدة سفرهم من بلادهم إلى هنا سنتان وثلاثة أشهر. فقال جانشاه لليهودي: ومتى تأتي القافلة؟ فقال له: تأتي في السنة القابلة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 506

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جانشاه لما سأل اليهودي عن مجيء القافلة قال له: تأتي في السنة القابلة. فلما سمع جانشاه كلامه، بكى بكاء شديداً وحزن على نفسه وعلى مماليكه وعلى فراق أمه وأبيه وعلى ما جرى له في سفره. فقال له اليهودي: لا تبك يا شاب، واقعد عندنا حتى تأتي القافلة ونحن نرسلك معها إلى بلادك. فلما سمع جانشاه ذلك الكلام قعد عند اليهودي مدة شهرين، وصار في كل يوم يخرج إلى أزقة المدينة ويتفرّج فيها. فاتفق أنه خرج على عادته يوماً من الأيام ودار في شوارع المدينة يميناً وشمالاً فسمع رجلا ينادي ويقول: من يأخذ ألف دينار وجارية حسناء، بديعة الحسن والجمال ويعمل لي شغلاً من وقت الصبح إلى وقت الظهر؟ فلم يجبه أحد. فلما سمع جانشاه كلام المنادي قال في نفسه: لولا أن هذا الشغل خطر ما كان صاحبه يعطي ألف دينار وجارية حسناء في شغل من الصبح إلى الظهر. ثم إن جانشاه تمشّى إلى المنادي وقال له: أنا أعمل هذا الشغل. فلما سمع المنادي من جانشاه هذا الكلام، أخذه وأتى به إلى بيت عال، فدخل هو وجانشاه ذلك البيت فوجده بيتاً عظيماً ووجد هناك رجلاً يهودياً تاجراً جالساً على كرسي من الأبنوس. فوقف المنادي قدامه وقال له: أيها التاجر، إن لي ثلاثة شهور وأنا أنادي في المدينة فلم يجبني أحد إلا هذا الشاب. فلما سمع التاجر كلام المنادي رحّب بجانشاه وأخذه ودخل به إلى مكان نفيس وأشار إلى عبيده أن يأتوا له بالطعام، فمدّوا السماط وأتوا بأنواع الأطعمة، فأكل التاجر وجانشاه وغسلا أيديهما وأتوا بالمشروب فشربا. ثم إن التاجر قام وأتى لجانشاه بكيس فيه ألف دينار، وأتى له بجارية بديعة الحسن والجمال وقال له: خذ هذه الجارية وهذا المال في الشغل الذي تعمله. فأخذ جانشاه الجارية والمال وأجلس الجارية بجانبه. وقال له التاجر: في غد إعمل لنا الشغل. ثم ذهب التاجر من عنده ونام جانشاه هو والجارية في تلك الليلة. ولما أصبح الصباح راح إلى الحمام فأمر التاجر عبيده أن يأتوا إليه ببدلة من الحرير، فأتوا له ببدلة نفيسة من الحرير وصبروا حتى خرج من الحمام وألبسوه البدلة وأتوا به إلى البيت، فأمر التاجر عبيده أن يأتوا بالجنك والعود والمشروب فأتوا إليهما بذلك. فشربا ولعبا وضحكا إلى أن مضى من الليل نصفه، وبعد ذلك ذهب التاجر

إلى حريمه، ونام جانشاه مع الجارية إلى وقت الصباح . ثم راح إلى الحمام، فلما رجع من الحمام جاء إليه التاجر وقال : إني أريد أن تعمل لنا الشغل . فقال جانشاه : سمعًا وطاعة . فأمر التاجر عبيده أن يأتوا ببغلتين . فأتوه ببغلتين، فركب بغلة وأمر جانشاه أن يركب البغلة الثانية فركبها . ثم إن جانشاه والتاجر ساروا من وقت الصباح إلى وقت الظهر حتى وصلا إلى جبل عال ما له حدّ في العلو، فنزل التاجر من فوق ظهر البغلة وأمر جانشاه أن ينزل، فنزل جانشاه . ثم إن التاجر ناول جانشاه سكيناً وحبلاً وقال له : أريد منك أن تذبح هذه البغلة . فشمّر جانشاه ثيابه وأتى إلى البغلة ووضع الحبل في أربعتها ورماها على الأرض وأخذ السكين وذبحها وسلخها وقطع أربعتها ورأسها وصارت كوم لحم . فقال له التاجر : أمرتك أن تشق بطنها وتدخل فيه وأخيط عليك وتقعد هناك ساعة من الزمان، ومهما تراه في بطنها فاخبرني به . فشقّ جانشاه بطن البغلة ودخله وخاطه عليه التاجر ثم تركه وبَعُد عنه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 507

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن التاجر لما خاط بطن البغلة على جانشاه تركه وبعد عنه واستخفى في ذيل الجبل، وبعد ساعة نزل على البغلة طائر عظيم فاختطفها وطار، ثم حط بها أعلى الجبل وأراد أن يأكلها، فحسّ جانشاه بالطائر فشقّ بطن البغلة وخرج منها، فجفل الطائر لما رأى جانشاه وطار وراح إلى حال سبيله . فقام جانشاه على قدميه وصار ينظر يميناً وشمالاً فلم ير أحداً إلا رجالاً ميتة يابسة من الشمس . فلما رأى ذلك قال في نفسه : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ثم إنه نظر إلى أسفل الجبل فرأى التاجر واقفاً تحت الجبل ينظر إلى جانشاه، فلما رآه قال له : إرم لي من الحجارة التي حولك حتى أدلك على طريق تنزل منها . فرمى جانشاه من تلك الحجارة نحو مائتي حجر، وكانت تلك الحجارة من الياقوت والزبرجد والجواهر الثمينة . ثم إن جانشاه قال للتاجر : دلّني على الطريق وأنا أرمي لك مرة أخرى . فلمّ التاجر تلك الحجارة وحملها على البغلة التي كان راكبها وسار ولم يردّ له جواباً وبقي جانشاه فوق الجبل وحده، فصار يستغيث ويبكي . ثم مكث في الجبل ثلاثة أيام، وبعد الثلاثة أيام قام وسار في عرض الجبل مدة شهرين وهو يأكل من أعشاب الجبل، وما زال سائراً حتى وصل في سيره إلى طرف الجبل . فلما وصل إلى ذيل الجبل رأى وادياً على بعد وفيه أشجار وأثمار وأطيار تسبح الله الواحد القهار . فلما رأى جانشاه ذلك الوادي فرح فرحًا شديداً فقصده، ولم يزل ماشيًا ساعة من الزمان حتى وصل إلى شرم في الجبل ينزل منه السيل، فنزل منه وسار حتى وصل إلى الوادي الذي رآه وهو على الجبل . فنزل الوادي وصار يتفرّج فيه يمينًا وشمالاً، وما زال يمشي ويتفرّج حتى وصل إلى قصر عال شاهق في الهواء . فتقرّب جانشاه من ذلك القصر حتى وصل إلى بابه، فرأى شيخًا مليح الهيئة يلمع النور من وجهه وبيده عكاز من الياقوت وهو واقف على باب القصر، فتمشّى جانشاه حتى قرب منه وسلّم عليه .فردّ عليه السلام ورحّب به وقال له : إجلس يا ولدي . فجلس جانشاه على باب ذلك القصر . ثم إن الشيخ سأله وقال له : من أين أتيت إلى هذه الأرض ؟ وابن آدم ما داسها قط، وإلى أين رايح ؟ فلما سمع جانشاه كلام الشيخ بكى بكاءً شديداً من كثرة ما قاساه وخنقه البكاء . فقال له الشيخ : يا ولدي، أترك البكاء

فقد أوجعت قلبي . ثم قام الشيخ وأتى إليه بشيء من الأكل وحطّه قدّامه وقال له : كُل من هذا . فأكل جانشاه حتى اكتفى وحمد الله تعالى . ثم إن الشيخ بعد ذلك سأل جانشاه وقال له : يا ولدي أريد منك أن تحكي لي حكايتك وتخبرني بما جرى لك . فحكى له حكايته وأخبره بجميع ما جرى له من أول الأمر إلى أن وصل إليه . فلما سمع كلامه ، تعجّب منه عجباً شديداً . فقال جانشاه للشيخ : أريد منك أن تخبرني بصاحب هذا الوادي ، ولمن هذا القصر العظيم ؟ فقال الشيخ لجانشاه : اْعلم يا ولدي أن هذا الوادي وما فيه ، وذلك القصر وما حواه ، للسيد سليمان بن داود عليهما السلام ، وانا إسمي الشيخ نصر ملك الطيور . واعلم أن السيد سليمان وكّلني بهذا القصر . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 508

☐ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشيخ نصر ملك الطيور قال لجانشاه : واعلم أن السيد سليمان وكّلني بهذا القصر وعلّمني منطق الطير وجعلني حاكمًا على جميع الطير الذي في الدنيا . وفي كل سنة يأتي الطير إلى هذا القصر وننظره ويروح . وهذا سبب قعودي في المكان . فلما سمع جانشاه كلام الشيخ نصر بكى بكاء شديداً وقال له : يا والدي ، كيف تكون حيلتي حتى أروح إلى بلادي ؟ فقال له الشيخ : اْعلم يا ولدي أنك بالقرب من جبل قاف وليس لك رواح من هذا المكان إلا إذا أتت الطيور وأوصى عليك واحداً منها فيوصلك إلى بلادك ، فاقعد عندي في هذا القصر وكُل واشرب وتفرّج في هذه المقاصير حتى تأتي الطيور . فقعد جانشاه عند الشيخ وصار يدور في الوادي ويأكل من تلك الفواكه ويتفرّج ويضحك ويلعب ، ولم يزل مقيما في ألذ عيش مدة من الزمان حتى قرب مجيء الطيور من أماكنها لزيارة الشيخ نصر . فلما علم الشيخ بمجيء الطيور قام على قدميه وقال لجانشاه : يا جانشاه ، خذ هذه المفاتيح وافتح المقاصير التي في هذا القصر وتفرّج على ما فيها إلا المقصورة الفلانية فاحذر أن تفتحها ، ومتى خالفتني وفتحتها ودخلتها لا يحصل لك خير أبداً . وأوصى جانشاه بهذه الوصية وأكّد عليه فيها وسار من عنده لملاقاة الطيور . فلما نظرت الطيور الشيخ نصر ، أقبلت عليه وقبّلت يديه جنسًا بعد جنس . هذا ما كان من أمر الشيخ نصر .

وأما ما كان من أمر جانشاه ، فإنه قام على قدميه وصار دائرًا يتفرّج على القصر يميناً وشمالاً وفتح جميع المقاصر التي في القصر حتى وصل إلى المقصورة التي حذّره الشيخ نصر من فتحها . فنظر إلى باب تلك المقصورة فأعجبه ورأى عليه قفلاً من الذهب . فقال في نفسه : إن هذه المقصورة أحسن من جميع المقاصير التي في القصر ، يا ترى ما يكون في هذه المقصورة حتى منعني الشيخ نصر من الدخول فيها ؟ فلا بد لي من أن أدخل هذه المقصورة وأنظر الذي فيها ، وما كان مقدّرًا على العبد لا بدّ أن يستوفيه . ثم مدّ يده وفتح المقصورة ودخلها ، فرأى فيها بحيرة عظيمة وبجانب البحيرة قصر صغير وهو مبني من الذهب والفضة والبلور ، وشبابيكه من الياقوت ، ورخامه من الزبرجد الأخضر والبلخش والزمرد والجواهر مرصّعة في الأرض على هيئة الرخام . وفي وسط ذلك القصر فسقية من الذهب ملآنة بالماء ، وحول تلك الفسقية وحوش وطيور مصنوعة من الذهب والفضة يخرج من بطونها الماء ، وإذا هب النسيم يدخل في آذانها فتصفر كل صورة بلغتها ، وبجانب الفسقية ليوان عظيم وعليه تخت عظيم من الياقوت مرصّع

بالدر والجواهر، وعلى ذلك التخت خيمة منصوبة من الحرير الأخضر مزركشة بالفصوص والمعادن الفاخرة ومقدار سعتها خمسون ذراعاً. وداخل تلك الخيمة مخدع فيه البساط الذي كان للسيد سليمان عليه السلام. ورأى جانشاه حول ذلك القصر بستاناً عظيماً وفيه أشجار وأثمار وأنهار، وفي دائر القصر مزارع من الورد والريحان والنسرين ومن كل مشموم، وإذا هبت الرياح على الأشجار تمايلت تلك الأغصان. ورأى جانشاه في ذلك البستان من جميع الأشجار رطباً ويابساً وكل ذلك في تلك المقصورة. فلما رأى جانشاه هذا الأمر، تعجّب منه غاية العجب وصار يتفرّج في ذلك البستان وفي ذلك القصر على ما فيها من العجائب والغرائب. ونظر إلى البحيرة فرأى حصاها من الفصوص النفيسة والجواهر الثمينة والمعادن الفاخرة، ورأى في تلك المقصورة شيئًا كثيرًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 509

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جانشاه رأى في تلك المقصورة شيئًا كثيراً فتعجّب منه. ثم تمشّى حتى دخل القصر الذي في تلك المقصورة وطلع على التخت المنصوب على الليوان بجانب الفسقية ودخل الخيمة المنصوبة فوقه، ونام في تلك الخيمة مدة من الزمان. ثم افاق وقام يتمشّى حتى خرج من باب القصر وجلس على كرسي قدام باب القصر وهو يتعجّب من حسن ذلك المكان. فبينما هو جالس إذ أقبل عليه من الجو ثلاثة طيور في صفة الحمام. ثم إن الطيور حطّوا بجانب البحيرة ولعبوا ساعة، وبعد ذلك نزعوا ما عليهم من الريش فصاروا ثلاث بنات كأنهن الأقمار ليس لهن في الدنيا شبيه. ثم نزلن البحيرة وسبحن فيها ولعبن وضحكن، فلما رآهن جانشاه تعجّب من حسنهن وجمالهن واعتدال قدودهن. ثم طلعن إلى البرّ ودرن يتفرّجن في البستان، فلما رآهن جانشاه طلعن إلى البرّ، كاد عقله أن يذهب وقام على قدميه وتمشّى حتى وصل إليهن. فلما قرب منهن سلّم عليهن، فرددن عليه السلام. ثم إنه سألهن وقال لهن: من أنتن أيتها السيدات الفاخرات؟ ومن أين أقبلتن؟ فقالت له الصغيرة: نحن أتينا من ملكوت الله تعالى لنتفرج في هذا المكان. فتعجّب من حسنهن ثم قال للصغيرة: إرحميني وتعطّفي عليّ وارثي لحالي وما جرى لي في عمري. فقالت له: دع عنك هذا الكلام. فلما سمع جانشاه منها هذا الكلام، بكى بكاء شديداً واشتدت به الزفرات وأنشد هذه الأبيات: [من الطويل]

بَدَتْ لِيَ فِي البُسْتانِ بالحُلَلِ الخُضْرِ ... مُفَكَّكَةَ الأَزْرارِ مَحْلولَةَ الشَّعْرِ
فَقُلْتَ لَها: ما الاسْمُ؟ قالَتْ: أَنا الَّتِي ... كَوَيْتُ قُلُوبَ العاشِقِينَ عَلى جِجْرِي
شَكَوْتُ إِلَيْها ما لَقِيتُ مِنَ الهَوَى ... فَقالَتْ: إلى صَخْرٍ شَكَوْتَ ولَمْ تَدْرِ
فَقُلْتُ لَها: إنْ كانَ قَلْبُكِ صَخْرَةً ... فَقَدْ أَنْبَعَ اللهُ الزُّلالَ مِنَ الصَّخْرِ

فلما سمع البنات هذا الشعر من جانشاه، ضحكن ولعبن وغنين وطربن. ثم إن جانشاه أتى إليهن بشيء من الفواكه فأكلن وشربن ونمن مع جانشاه تلك الليلة إلى الصباح. فلما أصبح الصباح لبسن البنات ثيابهن الريش وصرن في هيئة الحمام وطرن ذاهبات إلى حال سبيلهن. فلما رآهن جانشاه طايرات وقد غبن عن عيونه، كاد عقله أن يطير معهن وزعق زعقة عظيمة ووقع

مغشياً عليه ومكث في غشيته طول ذلك اليوم . فبينما هو طريح على الأرض وإذا بالشيخ نصر قد أتى من ملاقاة الطيور وفتّش على جانشاه ليرسله مع الطيور ويروح إلى بلاده فلم يره، فعلم الشيخ نصر أنه دخل المقصورة . وقد كان الشيخ نصر قال للطيور : إن عندي ولداً صغيراً جاءت به المقادير من بلاد بعيدة إلى هذه الأرض وأريد منكم أن تحملوه وتوصلوه إلى بلاده . فقالوا له : سمعاً وطاعة . ولم يزل الشيخ نصر يفتش على جانشاه حتى أتى إلى باب المقصورة التي نهاه عن فتحها فوجده مفتوحاً، فدخل فرأى جانشاه مرمياً تحت شجرة وهو مغشي عليه . فأتاه بشيء من المياه العطرية ورشّه على وجهه فأفاق من غشيته وصار يلتفت . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 510

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ نصر لما رأى جانشاه مرمياً تحت شجرة، أتاه بشيء من المياه العطرية ورشّه على وجهه فأفاق من غشيته وصار يلتفت يميناً وشمالاً فلم يرَ عنده أحداً سوى الشيخ نصر . فزادت به الحسرات وأنشد هذه الأبيات :

[من الطويل]

تَبَدَّتْ كَبَدْرِ التَّمِّ في لَيْلَةِ السَّعْدِ مُنَعَّمَةَ الأَطْرافِ مَمْشُوقَةَ القَدِّ
لَها مُقْلَةٌ تَسْبِي العُقُولَ بِسِحْرِها وثَغْرٌ حَكَى الياقُوتَ في حُمْرَةِ الوَرْدِ
تَحَدَّرَ فَوْقَ الرِّدْفِ أَسْوَدُ شَعْرِها فإيّاكَ إيّاكَ الحُبابَ مِنَ الجَعْدِ
لَقَدْ رَقَّتِ الأَعْطافُ مِنْها وقَلْبُها عَلى صَبِّها أَقْسَى مِنَ الحَجَرِ الصَّلْدِ
وتُرْسِلُ سَهْمَ اللَّحْظِ مِنْ قَوْسِ حاجِبٍ يُصِيبُ ولَمْ يُخطِئْ ولَوْ كانَ مِنْ بُعْدِ
فَيا حُسْنَها قَدْ فاقَ كُلَّ مَلاحَةٍ ولَيْسَ لَها بَيْنَ البَرِيَّةِ مِنْ نِدِّ

فلما سمع الشيخ نصر من جانشاه هذه الأشعار قال له : يا ولدي، أما قلت لك لا تفتح هذه المقصورة ولا تدخلها . ولكن أخبرني يا ولدي بما رأيت فيها واحك لي حكايتك وعرّفني ما جرى لك . فحكى له جانشاه حكايته وأخبره بما جرى له مع الثلاث بنات وهو جالس . فلما سمع الشيخ نصر كلامه قال له : أعلم يا ولدي أن هذه البنات من بنات الجان، وفي كل سنة يأتين إلى هذا المكان فيلعبن وينشرحن إلى وقت العصر ثم يذهبن إلى بلادهن . فقال له جانشاه : وأين بلادهن ؟ فقال له الشيخ نصر : والله يا ولدي ما أعلم أين بلادهن . ثم إن الشيخ نصر قال له : قم معي وقوِّ نفسك حتى أرسلك إلى بلادك مع الطيور، وخلِّ عنك هذا العشق . فلما سمع جانشاه كلام الشيخ نصر صرخ صرخة عظيمة ووقع مغشياً عليه . فلما أفاق قال له : يا والدي، أنا لا أريد الرواح إلى بلادي حتى أجتمع بهذه البنات، واعلم يا والدي أني ما بقيت أذكر أهلي ولو أموت بين يديك . ثم بكى وقال : أنا رضيت بأن أنظر وجه من عشقتها ولو في السنة مرة واحدة . ثم صعّد الزفرات وأنشد هذه الأبيات : [من البسيط]

لَيْتَ الخَيالَ عَلى الأَحْبابِ ما طَرَقَ ولَيْتَ هذا الهَوَى لِلنّاسِ ما خُلِقَ
لَولا حَرارَةُ قَلْبِي مِنْ تَذَكُّرِكُمْ ما سالَ دَمْعِي عَلى خَدِّي ولا انْدَفَقَ

أُصَيِّرُ القَلْبَ في يَوْمِي ولَيْلَتِهِ وصارَ جِسْمِي بِنارِ الحُبِّ مُحْتَرِقا

ثم إن جانشاه وقع على رجلي الشيخ وقبّلهما وبكى بكاء شديداً وقال له : إرحمني يرحمك الله ، وأعنّي على بلوتي يعينك الله . فقال له الشيخ نصر : يا ولدي ، والله لا اعرف هذه البنات ولا أدري أين بلادهن ، ولكن يا ولدي حيث تولّعت بإحداهن ، فاقعد عندي إلى مثل هذا العام لأنهن يأتين في السنة القابلة مثل هذا اليوم . فإذا قربت الأيام التي يأتين فيها ، فكن مستخفياً في البستان تحت شجرة ، ولما ينزلن البحيرة ويسبحن فيها ويلعبن ويبعدن عن ثيابهن فخذ ثياب التي تريدها منهن ، فإذا نظرنك يطلعن إلى البر ليلبسن ثيابهن وتقول لك التي أخذت ثيابها بعذوبة كلام وحسن ابتسام : أعطني ثيابي يا أخي حتى ألبسها وأستتر بها . ومتى قبلت كلامها وأعطيتها ثيابها فإنك لا تبلغ مرادك منها أبداً ، بل تلبس ثيابها وتروح إلى أهلها ولا تنظرها بعد ذلك أبداً . فإذا ظفرت بثيابها فاحفظها وحطّها تحت إبطك ولا تعطها إياها حتى أرجع من ملاقاة الطيور وأوفّق بينك وبينها وأرسلك إلى بلادك وهي معك . وهذا الذي أقدر عليه يا ولدي لا غير . وأدرك شهرزاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 511 □ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الشيخ نصر قال لجانشاه : إحفظ ثياب التي تريدها ولا تعطها إياها حتى أرجع من ملاقات الطيور وهذا الذي أقدر عليه يا ولدي لا غير . فلما سمع جانشاه كلام الشيخ نصر اطمأن قلبه وقعد عنده إلى ثاني عام ، وصار يعد الماضي من الأيام التي تأتي الطيور عقبها . فلما جاء ميعاد مجيء الطيور وأتى الشيخ نصر إلى جانشاه وقال له : إعمل بالوصية التي أوصيك بها من أمر ثياب البنات فإنني ذاهب إلى ملاقاة الطيور . فقال جانشاه : سمعاً وطاعة لأمرك يا والدي . ثم ذهب الشيخ نصر إلى ملاقاة الطيور . وبعد ذهابه قام جانشاه وتمشّى حتى دخل البستان واختفى تحت شجرة بحيث لا يراه أحد ، وقعد أول يوم وثاني يوم وثالث يوم فلم تأت إليه البنات ، فقلق وصار في بكاء وأنين ناشيء عن قلب حزين . ولم يزل يبكي حتى أغمي عليه ، ثم بعد ساعة أفاق وجعل ينظر تارة إلى السماء وتارة ينظر إلى الأرض وتارة ينظر إلى البحيرة وتارة ينظر إلى البرّ وقلبه يرتجف من شدة العشق . فبينما هو على هذه الحالة إذ اقبل عليه من الجو ثلاثة طيور في صفة الحمام ، ولكن كل حمامة قدر النسر . ثم إنهن نزلن بجانب البحيرة وتلفتن يميناً وشمالاً فلم يرين أحداً من الإنس ولا من الجن ، فنزعن ثيابهن ونزلن البحيرة وصرن يلعبن ويضحكن وينشرحن وهن عرايا كسبايك الفضة . ثم إن الكبيرة فيهن قالت لهن : أخشى يا أخواتي أن يكون أحد مختفياً لنا في هذا القصر . فقالت الوسطى منهن : يا أختي ، إن هذا القصر من عهد سليمان ما دخله إنس ولا جن . فقالت الصغيرة منهن وهي تضحك : والله يا أخواتي ، إن كان أحد مختفياً في هذا المكان فإنه لا يأخذ إلا أنا . ثم إنهن لعبن وضحكن وقلب جانشاه يرتجف من فرط الغرام وهو مختف تحت الشجرة ينظرهن وهن لا ينظرنه . ثم إنهن سبحن في الماء حتى وصلن إلى وسط البحيرة وبعدن عن ثيابهن ، فقام جانشاه على قدميه وهو يجري كالبرق الخاطف وأخذ ثياب البنت الصغيرة وهي التي تعلّق قلبه بها وكان اسمها شمسة . فلما التفتت رأت جانشاه ، فارتجفت قلوبهن

واستترن منه بالماء وأتين إلى قرب البر، ثم نظرن إلى وجه جانشاه فرأينه كأنه البدر في ليلة تمامه. فقلن له: من أنت؟ وكيف أتيت إلى هذا المكان وأخذت ثياب السيدة شمسة؟ فقال لهن: تعالين عندي حتى أحكي لَكُنَّ ما جرى لي. فقالت السيدة شمسة: ما خبرك؟ ولأي شيء أخذت ثيابي؟ وكيف عرفتني من دون أخواتي؟ فقال لها جانشاه: يا نور عيني، إطلعي من الماء حتى أحكي لك حكايتي وأخبرك بما جرى لي وأعلمك بسبب معرفتي بك. فقالت له: يا سيدي وقرّة عيني وثمرة فؤادي، أعطني ثيابي حتى ألبسها وأستتر بها وأطلع عندك. فقال لها جانشاه: يا سيدة الملاح، ما يمكن أن أعطيك ثيابك وأقتل نفسي من الغرام، فلا أعطيك ثيابك إلا إذا أتى الشيخ نصر ملك الطيور. فلما سمعت السيدة شمسة كلام جانشاه قالت له: إن كنت لا تعطيني ثيابي فتأخّر عنّا قليلاً حتى تطلع أخواتي إلى البرّ ويلبسن ثيابهن ويعطينني شيئًا أستتر به. فقال لها جانشاه: سمعًا وطاعة. ثم تمشّى من عندهن إلى القصر ودخله. فطلعت السيدة شمسة هي وأخواتها إلى البر ولبسن ثيابهن، ثم إن أخت السيدة شمسة الكبيرة أعطتها ثوبًا من ثيابها لا يمكنها الطيران به وألبستها إياه. ثم قامت السيدة شمسة وهي كالبدر الطالع والغزال الراتع وتمشّت حتى وصلت إلى جانشاه، فرأته جالسًا فوق التخت. فسلّمت عليه وجلست قريباً منه وقالت له: يا مليح الوجه، أنت الذي قتلتني وقتلت نفسك، ولكن أخبرنا بما جرى لك حتى ننظر ما خبرك. فلما سمع جانشاه كلام السيدة شمسة بكى حتى بلّ ثيابه من دموعه. فلما علمت أنه مغرم بحبها، قامت على قدميها وأخذته من يده وأجلسته بجانبها ومسحت دموعه بكمها وقالت له: يا مليح الوجه، دع عنك هذا البكاء واحك لي ما جرى لك. فحكى لها جانشاه ما جرى له وأخبرها بما رآه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 512

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السيدة شمسة قالت لجانشاه: إحك لي ما جرى لك. فحكى لها جميع ما جرى له. فلما سمعت السيدة منه ذلك الكلام تنهدت وقالت له: يا سيدي، إذا كنت مغرمًا بي فاعطني ثيابي حتى ألبسها وأروح أنا وأخواتي إلى أهلي وأعلمهم بما جرى لك في محبتي، ثم أرجع إليك وأحملك إلى بلادك. فلما سمع جانشاه منها ذلك الكلام بكى بكاء شديداً وقال لها: أيحل لك من الله أن تقتليني ظلماً؟ فقالت له: يا سيدي، بأي سبب أقتلك ظلمًا؟ فقال لها: لأنك متى لبست ثيابك ورحت من عندي فإني أموت من وقتي. فلما سمعت السيدة شمسة كلامه ضحكت وضحك أخواتها. ثم قالت له: طب نفساً وقرّ عيناً فلا بدّ ان أتزوج بك. ومالت عليه وعانقته وضمّته إلى صدرها وقبّلته بين عينيه وفي خده وتعانقت هي وإياه ساعة من الزمان ثم افترقا وجلسا فوق ذلك التخت. فقامت أختها الكبيرة وخرجت من القصر إلى البستان فأخذت شيئًا من الفواكه والمشموم وأتت به إليهم فأكلوا وشربوا وتلذّذوا وطربوا وضحكوا ولعبوا. وكان جانشاه بديع الحسن والجمال رشيق القد والإعتدال فقالت له السيدة شمسة: يا حبيب، والله إني أحبك محبة عظيمة وما بقيت أفارقك أبدًا. فلما سمع جانشاه كلامها انشرح صدره وضحك سنّه، واستمروا يضحكون ويلعبون. فبينما هم في حظ وسرور وإذا بالشيخ نصر قد أتى من ملاقاة الطيور، فلما أقبل عليهم نهض الجميع إليه قائمين على أقدامهم وسلّموا عليه وقبّلوا يديه. فرحّب بهم الشيخ نصر وقال لهم:

إجلسوا، فجلسوا . ثم إن الشيخ نصر قال للسيدة شمسة : إن هذا الشاب يحبك محبة عظيمة، فبالله عليك أن تتوصّي به فإنه من أكابر الناس ومن أبناء الملوك، وأبوه يحكم على بلاد كابل وقد حوى ملكًا عظيمًا . فلما سمعت السيدة شمسة كلام الشيخ نصر قالت له : سمعاً وطاعة لأمرك . ثم إنها قبّلت يدي الشيخ نصر ووقفت قدامه . فقال لها الشيخ نصر : إن كنت صادقة في قولك فاحلفي لي بالله أنك لا تخونينه ما دمت في قيد الحياة . فحلفت يميناً عظيماً أنها لا تخونه أبدًا ولا بدّ أن تتزوج به . وبعد أن حلفت قالت : أعلم يا شيخ نصر أني لا أفارقه أبدًا . فلما حلفت السيدة شمسة للشيخ نصر صدّق يمينها وقال لجانشاه : الحمد لله الذي وفّق بينك وبينها . ففرح جانشاه بذلك فرحًا شديدًا . ثم قعد جانشاه هو والسيدة شمسة عند الشيخ نصر مدة ثلاثة أشهر في أكل وشرب ولعب وضحك . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 513

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن جانشاه هو والسيدة شمسة قعدا عند الشيخ نصر ثلاثة أشهر في أكل وشرب ولعب وحظ عظيم . وبعد الثلاثة أشهر قالت السيدة شمسة لجانشاه : إني أريد أن نروح إلى بلادك وتتزوّج بي ونقيم فيها . فقال لها : سمعًا وطاعة . ثم إن جانشاه شاور الشيخ نصر وقال له : إننا نريد أن نروح إلى بلادي، وأخبره بما قالته السيدة شمسة . فقال له الشيخ نصر : اذهبا إلى بلادك وتوصّ بها . فقال جانشاه : سمعاً وطاعة . ثم إنها طلبت ثوبها وقالت : يا شيخ نصر، مره أن يعطيني ثوبي حتى ألبسه . فقال له : يا جانشاه، أعطها ثيابها . فقال : سمعًا وطاعة . ثم قام بسرعة ودخل القصر وأتى بثوبها وأعطاها لها . فأخذته منه ولبسته وقالت له : يا جانشاه، إركب فوق ظهري وغمّض عينيك وسدّ أذنيك حتى لا تسمع دويّ الفلك الدوّار، وامسك في ثوبي الريش وأنت على ظهري بيديك واحترس على نفسك من الوقوع . فلما سمع جانشاه كلامها، ركب على ظهرها ولما أرادت الطيران قال لها الشيخ نصر : قفي حتى أصف لك بلاد كابل خوفاً عليكما أن تغلطا في الطريق . فوقفت حتى وصف لها البلاد وأوصاها بجانشاه ثم ودّعهما وودّعت السيدة شمسة أختيها وقالت لهما : روحا إلى أهليكما واعلماهم بما جرى لي مع جانشاه . ثم إنها طارت من وقتها وساعتها وصارت في الجو مثل هبوب الريح والبرق اللائح، وبعد ذلك طارت أختاها وذهبتا إلى أهلهما وأعلماهم بما جرى للسيدة شمسة مع جانشاه . ومن حين طارت السيدة شمسة، لم تزل طائرة من وقت الضحى إلى وقت العصر وجانشاه راكب على ظهرها . وفي وقت العصر لاح لها على بعد واد ذو أشجار وأنهار فقالت لجانشاه : قصدي أن ننزل في هذا الوادي لنتفرج على ما فيه من الأشجار والنباتات هذه الليلة . فقال لها جانشاه : إفعلي ما تريدين . فنزلت من الجو وحطت في ذلك الوادي، ونزل جانشاه من فوق ظهرها وقبلها بين عينيها ثم جلسا بجانب نهر ساعة من الزمان، وبعد ذلك قاما على قدميهما وصارا دائرين في الوادي يتفرّجان على ما فيه ويأكلان من تلك الأثمار . ولم يزالا يتفرّجان في الوادي إلى وقت المساء، ثم أتيا إلى شجرة وناما عندها إلى الصباح . ثم قامت السيدة شمسة وأمرت جانشاه أن يركب على ظهرها . فقال جانشاه : سمعًا وطاعة . ثم ركب على ظهرها وطارت به من وقتها وساعتها . ولم تزل طائرة من الصبح إلى وقت الظهر . فبينما هما سائران اذ نظرا الأمارات التي أخبرهما بها الشيخ نصر، فلما رأت السيدة

شمسة تلك الأمارات نزلت من أعلى الجو إلى مرج فسيح ذي زرع مليح فيه غزلان راتعة وعيون نابعة وأثمار يانعة وأنهار واسعة . فلما نزلت في ذلك المرج نزل جانشاه من فوق ظهرها وقبلها بين عينيها فقالت له : يا حبيبي وقرّة عيني ، أتدري المسافة التي سرناها؟ قال : لا . قالت : مسافة ثلاثين شهراً . فقال لها جانشاه : الحمد لله على السلامة . ثم جلس وجلست بجانبه وقعدا في أكل وشرب ولعب وضحك . فبينما هما في هذا الأمر إذ اقبل عليهما مملوكان : أحدهما الذي كان عند الخيل لما نزل جانشاه في مركب الصياد ، والثاني من المماليك الذين كانوا معه في الصيد والقنص . فلما رأيا جانشاه عرفاه وسلّما عليه وقالا له : عن إذنك نتوجّه إلى والدك ونبشّره بقدومك . فقال لهما جانشاه : اذهبا إلى أبي واعلماه بذلك وأتيانا بالخيام ونحن نقعد في هذا المكان سبعة أيام لأجل الراحة حتى يجيء الموكب لملاقاتنا وندخل في موكب عظيم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 514

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن جانشاه قال للمملوكين : اذهبا إلى أبي واعلماه بي وأتياني بالخيام ونحن نقعد في هذا المكان سبعة أيام لأجل الراحة حتى يجيء الموكب لملاقاتنا وندخل في موكب عظيم . فركب المملوكان خيلهما وذهبا إلى أبيه وقالا له : البشارة يا ملك الزمان . فلما سمع الملك طيغموس كلام المملوكين قال لهما : بأي شيء تبشّراني؟ هل قدم إبني جانشاه؟ فقالا : نعم . إن ابنك جانشاه أتى من غيبته وهو بالقرب منك في مرج الكراني . فلما سمع الملك كلام المملوكين ، فرح فرحًا شديداً ووقع مغشيًا عليه من شدة الفرح . فلما أفاق ، أمر وزيره أن يخلع على المملوكيْن كل واحد خلعة نفيسة ويعطي كل وحد منهما قدراً من المال . فقال له الوزير : سمعًا وطاعة . ثم قام من وقته وأعطى المملوكين ما أمره به الملك وقال لهما : خذا هذا المال في نظير البشارة التي أتيتما بها ، أسواء كذبتما أو صدقتما . فقال المملوكان : نحن ما نكذب ، وكنا في هذا الوقت قاعدين عنده وسلّمنا عليه وقبلنا يديه ، وأمرنا أن نأتي له بالخيام وهو يقعد في مرج الكراني سبعة أيام حتى تذهب الأمراء والوزراء وأكابر الدولة لملاقاته . ثم إن الملك قال لهما : كيف حال ولدي؟ فقالا له : إن ولدك معه حورية كأنه خرج بها من الجنة . فلما سمع الملك ذلك الكلام أمر بدق الكاسات والبوقات ، فدقّت البشائر وأرسل الملك طيغموسَ المبشرين في جهات المدينة ليبشروا أم جانشاه ونساء الأمراء والوزراء وأكابر الدولة . فانتشر المبشرون في المدينة وأعلموا أهلها بقدوم جانشاه . ثم تجهّز الملك طيغموس بالعساكر والجيوش وتوجّه إلى مرج الكراني . فبينما جانشاه جالس والسيدة شمسة بجانبه وإذا بالعساكر قد أقبلت عليهما ، فقام جانشاه على قدميه وتمشّى حتى قرب منهم ، فلما رأته العساكر عرفوه ونزلوا عن خيلهم وترجّلوا إليه وسلّموا عليه وقبّلوا يديه . وما زال جانشاه سائراً والعساكر قدّامه واحد بعد واحد حتى وصل إلى أبيه ، فلما نظر الملك طيغموس ولده رمى نفسه عن ظهر الفرس وحضنه وبكى بكاء شديداً ، ثم ركب وركب ابنه والعساكر عن يمينه وشماله . وما زالوا سائرين حتى أتوا إلى جانب النهر ، فنزلت العساكر والجيوش ونصبوا الخيام والصواوين والبيارق ودقّت الطبول وزمرت الزمور وضربت الكاسات وزعقت البوقات . ثم إن الملك طيغموس أمر الفراشين أن يأتوا بخيمة من الحرير الأحمر وينصبوها للسيدة شمسة ،

ففعلوا ما أمرهم به . وقامت السيدة شمسة وقلعت ثوبها الريش وتمشّت حتى وصلت إلى تلك الخيمة وجلست فيها . فبينما هي جالسة وإذا بالملك طيغموس وابنه جانشاه بجانبه أقبلا عليها، فلما رأت السيدة شمسة الملك طيغموس قامت على قدميها وقبلت الأرض بين يديه . ثم جلس الملك وأخذ ولده جانشاه عن يمينه والسيدة شمسة عن شماله، ورحّب بالسيدة شمسة وسأل ابنه جانشاه وقال له : أخبرني بالذي وقع لك في هذه الغيبة . فحكى له جميع ما جرى له من الأول إلى الآخر . فلما سمع الملك من ابنه هذا الكلام تعجّب عجبًا شديداً والتفت إلى السيدة شمسة وقال : الحمد لله الذي وفّقك حتى جمعت بيني وبين ابني، إن هذا لهو الفضل العظيم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 515

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك طيغموس قال للسيدة شمسة : الحمد لله الذي وفّقك حتى جمعت بيني وبين ولدي، إن هذا لهو الفضل العظيم . ولكن أريد منك أن تتمنّي عليّ ما تشتهينه حتى افعله إكراماً لك . فقالت له السيدة شمسة : تمنّيت عليك عمارة قصر في وسط بستان والماء يجري من تحته . فقال : سمعًا وطاعة . فبينما هما في الكلام وإذا بأم جانشاه أقبلت ومعها جميع نساء الأمراء والوزراء ونساء أكابر المدينة جميعًا، فلما رآها ولدها جانشاه خرج من الخيمة وقابلها وتعانقا ساعة من الزمان . ثم إن أمه من فرط الفرح أجرت دمع العين وانشدت هذين البيتين : [من الكامل]

هَجَمَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إنَّهُ مِنْ فَرْطِ ما قَدْ سَرَّني أبْكاني
يا عَيْنُ صارَ الدَّمْعُ مِنْكِ سِجِيَّةً تَبْكِينَ مِنْ فَرَحٍ ومِنْ أحْزانِ

ثم شكيا لبعضهما ما قاسياه من البعد وألم الشوق، ثم انتقل والده إلى خيمته وانتقل جانشاه هو وأمه إلى خيمته وجلسا يتحدثان مع بعضهما . فبينما هما جالسان إذ أقبلت المبشرون بقدوم السيدة شمسة وقالوا لأم جانشاه : إن شمسة أتت إليك وهي ماشية تريد أن تسلّم عليك . فلما سمعت أم جانشاه ذلك الكلام ، قامت على قدميها وقابلتها وسلّمت عليها وقعدتا ساعة من الزمان . ثم قامت أم جانشاه مع السيدة شمسة وسارت هي وإياها ونساء الأمراء وأرباب الدولة، وما زلن سائرات حتى وصلن إلى خيمة السيدة شمسة فدخلنها وجلسن فيها . ثم إن الملك طيغموس اجزل العطايا وأكرم الرعايا وفرح بابنه فرحًا شديداً ومكثوا في ذلك المكان مدة عشرة أيام في أكل وشرب وأهنى عيش . وبعد ذلك أمر الملك عساكره أن يرحلوا ويتوجّهوا إلى المدينة، ثم ركب الملك وركبت حوله العساكر والجيوش وصارت الوزراء والحجاب عن يمينه وعن شماله . وما زالوا سائرين حتى دخلوا المدينة وذهبت أم جانشاه هي والسيدة شمسة إلى منزلهم وتزيّنت المدينة بأحسن زينة ودقّت البشائر والكاسات وزوّقوا المدينة بالحلي والحلل وفرشوا نفيس الديباج تحت سنابك الخيل وفرحت أرباب الدولة وأظهروا التحف وانبهرت المتفرجون وأطعموا الفقراء والمساكين وعملوا فرحًا عظيماً مدة عشرة أيام، وفرحت السيدة شمسة فرحاً شديداً لما رأت ذلك . ثم إن الملك طيغموس أرسل إلى البنّائين والمهندسين وأرباب المعرفة وأمرهم أن يعملوا له قصراً في ذلك البستان . فأجابوه بالسمع والطاعة، وشرعوا في تجهيز ذلك القصر، ثم

إنهم أتموه على أحسن حال . وحين علم جانشاه بصدور الأمر ببناء القصر ، أمر الصناع أن يأتوا بعمود من الرخام الأبيض وأن ينقروه ويجوفوه ويجعلوه على صورة صندوق ، ففعلوا ما أمرهم به . ثم إن جانشاه أخذ ثوب السيدة شمسة الذي تطير به وحطه في ذلك العمود ودفنه في أساس القصر وأمر البنائين أن يبنوا فوقه القناطر التي عليها القصر . ولما تمّ القصر ، فرشوه وصار قصراً عظيماً في وسط ذلك البستان والأنهار تجري من تحته . ثم إن الملك طيغموس بعد ذلك عمل عرس جانشاه في تلك المدة ، وصار فرحاً عظيماً لم يبق له نظير ، وزفوا السيدة شمسة إلى جانشاه وذهب كل واحد منهم إلى حال سبيله . ولما دخلت السيدة شمسة في ذلك القصر شمّت رائحة ثوبها الريش . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 516

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن السيدة شمسة لما دخلت ذلك القصر شمّت رائحة ثوبها الريش الذي تطير به وعرفت مكانه ، وأرادت أخذه فصبرت إلى نصف الليل حتى استغرق جانشاه في النوم ، ثم قامت وتوجّهت إلى العمود الذي عليه القناطر وحفرت بجانبه حتى وصلت إلى العمود الذي فيه النبات وأزالت الرصاص الذي كان مسبوكاً عليه وأخرجت الثوب منه ولبسته وطارت من وقتها وجلست على أعلى القصر وقالت لهم : أريد منكم أن تحضروا لي جانشاه حتى أودّعه . فأخبروا جانشاه بذلك ، فذهب إليها فرآها فوق سطح القصر وهي لابسة ثوبها الريش . فقال لها : كيف فعلت هذه الفعال ؟ فقالت له : يا حبيبي وقرة عيني وثمرة فؤادي ، والله إني أحبك محبة عظيمة ، وقد فرحت فرحاً شديداً حيث أوصلتك إلى أرضك وبلادك ورأيت أمك وأباك ، فإن كنت تحبني كما أحبك فتعال عندي إلى قلعة جوهر تكني . ثم طارت من وقتها وساعتها ومضت إلى أهلها . فلما سمع جانشاه كلام السيدة شمسة وهي فوق سطح القصر كاد يموت من الجزع ووقع مغشياً عليه . فمضوا إلى أبيه وأعلموه بذلك ، فركب أبوه وتوجّه إلى القصر ودخل على ولده فرآه مطروحاً على الأرض . فبكى الملك طيغموس وعلم أن ابنه مغرم بحب السيدة شمسة ، فرشّ على وجهه ماء ورد فأفاق ، فرأى أباه عند رأسه فبكى من فراق زوجته . فقال له أبوه : ما الذي جرى لك يا ولدي ؟ فقال : أعلم يا أبي أن السيدة شمسة من بنات الجان وأنا أحبها ومغرم بها وقد عشقت جمالها ، وكان عندي ثوب لها وهي ما تقدر أن تطير بدونه وقد كنت أخذت ذلك الثوب وأخفيته في عمود على هيئة الصندوق وسبكت عليه الرصاص ووضعته في أساس القصر ، فحفرت ذلك الأساس وأخذته ولبسته وطارت ، ثم نزلت على سطح القصر وقالت : إني أحبك وقد أوصلتك إلى أرضك وبلادك واجتمعت بأبيك وأمك ، فإن كنت أنت تحبني فتعال عندي في قلعة جوهر تكني ثم طارت من سطح القصر وراحت إلى حال سبيلها . فقال الملك طيغموس : يا ولدي ، لا تحمل همّاً ، فإننا نجمع أرباب التجارة والسياحين في البلاد ونستخبرهم عن تلك القلعة ، فإذا عرفناها نسير إليها ونذهب إلى أهل السيدة شمسة ونرجوا من الله تعالى أن يعطوك إياها وتتزوّج بها . ثم خرج الملك من وقته وساعته وأحضر وزراءه الأربعة وقال لهم : إجمعوا لي كل من في المدينة من التجار والمسافرين واسألوهم عن قلعة جوهر تكني ، وكل من عرفها ودلّ عليها فإني أعطيه خمسين ألف دينار . فلما سمع الوزراء ذلك الكلام قالوا له : سمعاً وطاعة . ثم ذهبوا من وقتهم وساعتهم وفعلوا ما

أمر به الملك، وصاروا يسألون التجار والسياحين في البلاد عن جوهر تكني فما أخبرهم بها أحد، فأتوا الملك وأخبروه بذلك. فلما سمع الملك كلامهم قام من وقته وساعته وأمر أن يأتوا ابنه جانشاه من السراري الحسان والجواري ربات آلات والمحاظي المطربات بما لا يوجد مثله إلا عند الملوك لعله يتسلّى عن حب السيدة شمسة، فأتوه بما طلبه. ثم بعد ذلك أرسل الملك رواداً وجواسيس إلى جميع البلاد والجزائر والأقاليم ليسألوا عن قلعة جوهر تكني، فسألوا عنها مدة شهرين فما أخبرهم بها أحد، فرجعوا إلى الملك وأعلموه بذلك. فبكى بكاء شديداً وذهب إلى ابنه فوجده جالساً بين السراري والمحاظي وربات آلات الطرب من الجنك والسنطير وغيرهما، وهو لا يتسلّى بهن عن السيدة شمسة. فقال له: يا ولدي، ما وجدت من يعرف هذه القلعة، وقد أتيتك بأجمل منها. فلما سمع جانشاه من أبيه ذلك الكلام، بكى وأفاض دمع العين وأنشد هذين البيتين: [من الطويل]

تَرَحَّلَ صَبْرِي والغَرامُ مُقِيمُ ... وجِسْمِي مِنْ فَرْطِ الغَرامِ سَقِيمُ
مَتَى تَجْمَعُ الأيّامُ شَمْلِي بشِمْسَةَ ... وعَظْمِي مِنْ حَرِّ الفِراقِ رَمِيمُ

ثم إن الملك طيغموس كان بينه وبين ملك الهند عداوة عظيمة، فإن الملك طيغموس كان عدا عليه وقتل رجاله وسلب أمواله، وكان ملك الهند يقال له: الملك كفيد، وله جيوش وعساكر وأبطال. وكان له ألف بهلوان، كل بهلوان منهم يحكم على ألف قبيلة، وكل قبيلة من تلك القبائل تشمل على أربعة آلاف فارس، وكان عنده أربعة وزراء وتحته ملوك وأكابر وأمراء وجيوش كثيرة. وكان يحكم على ألف مدينة، لكل مدينة ألف قلعة. وكان ملكاً عظيماً شديد البأس وعساكره قد ملأت جميع الأرض. فلما علم الملك كفيد ملك الهند أن الملك طيغموس اشتغل بحب ابنه وترك الحكم والملك وقلّت من عنده العساكر وصار في همّ ونكد بسبب اشتغاله بحب ابنه، جمع الوزراء والأمراء وأرباب الدولة وقال لهم: أمَا تعلمون أن الملك طيغموس قد هجم على بلادنا وقتل أبي وإخوتي ونهب أموالنا وما منكم أحد إلا وقد قتل له قريباً وأخذ له مالاً ونهب رزقه وأسر أهله، وإني سمعت اليوم أنه مشغول بحب ابنه جانشاه وقد قلّت من عنده العساكر وهذا وقت أخذ ثأرنا منه، فتأهبوا للسفر إليه وجهّزوا آلات الحرب للهجوم عليه ولا تتهاونوا في هذا الأمر، بل نسير إليه ونهجم عليه ونقتله هو وابنه ونملك بلاده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 517

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك كفيد ملك الهند أمر جيوشه وعساكره أن يركبوا على بلاد الملك طيغموس وقال لهم: تأهبوا للسفر إليه وجهّزوا آلات الحرب للهجوم عليه، ولا تتهاونوا في هذا الأمر بل نسير إليه ونهجم عليه ونقتله هو وابنه ونملك بلاده. فلما سمعوا منه ذلك الكلام قالوا له: سمعاً وطاعة. وأخذ كل واحد منهم في تجهيز عدّته. واستمروا في تجهيز العدد والسلاح وجمع العساكر ثلاثة أشهر، ولما تكاملت العساكر والجيوش والأبطال، دقوا الكاسات ونفخوا في البوقات ونصبوا البيارق والرايات. ثم إن الملك كفيد خرج بالعساكر والجيوش وسار حتى وصل إلى أطراف بلاد كابل، وهي بلاد الملك

طيغموس. ولما وصلوا إلى تلك البلاد نهبوها وفسقوا في الرعية وذبحوا الكبار وأسروا الصغار، فوصل الخبر إلى الملك طيغموس. فلما سمع بذلك الخبر، اغتاظ غيظاً شديداً وجمع أكابر دولته ووزراءه وأمراء مملكته وقال لهم: أعلموا أن كفيد قد أتى ديارنا ونزل بلادنا ويريد قتالنا ومعه جيوش وأبطال وعساكر لا يعلمهم إلا الله تعالى، فما الرأي عندكم؟ فقالوا له: يا ملك الزمان، الرأي عندنا أننا نخرج إليه ونقاتله ونردّه عن بلادنا. فقال لهم الملك طيغموس: تجهّزوا إلى القتال. ثم أخرج لهم من الزرد والدروع والخوذ والسيوف وجميع آلات الحرب ما يردي الأبطال ويتلف صناديد الرجال. فاجتمعت العساكر والجيوش والأبطال وتجهّزوا للقتال ونصبوا الرايات ودقّت الكاسات ونفخ في البوقات وضربت الطبول وزمرت الزمور، وسار الملك طيغموس بعساكره إلى ملاقاة الملك كفيد. وما زال الملك طيغموس سائراً بالعساكر والجيوش حتى قربوا من الملك كفيد، ثم نزل الملك طيغموس على واد يقال له: وادي زهران، وهو في أطراف بلاد كابل. ثم إن الملك طيغموس كتب كتاباً وأرسله مع رسول من عسكره إلى الملك مضمونه: أما بعد، فالذي نعلم به الملك كفيد أنك ما فعلت إلا فعل الأوباش، ولو كنت ملكاً ابن ملك ما فعلت هذه الفعال ولا كنت تجيء بلادي وتنهب أموال الناس وتفسق في رعيتي. أما علمت أن هذا كله جور منك. ولو علمت بأنك تتجارى على مملكتي لكنت أتيتك قبل مجيئك بمدة ومنعتك عن بلادي، ولكن إن رجعت وتركت الشرّ بيننا وبينك فيها نعمت، وإن لم ترجع فابرز إليّ في حومة الميدان وتجلّد لدي في موقف الحرب والطعان. ثم إنه ختم الكتاب وسلّمه لرجل عامل من عسكره وأرسل معه جواسيس يتجسّسون له على الأخبار. ثم إن الرجل أخذ الكتاب وسار به حتى وصل إلى الملك كفيد، فلما قرب من مكانه رأى خياماً منصوبة على بعد وهي مصنوعة من الحرير الأطلس ورأى رايات من الحرير الأزرق، ورأى بين الخيام خيمة عظيمة من الحرير الأحمر وحول تلك الخيمة عسكر عظيم. وما زال حتى وصل إلى تلك الخيمة فسأل عنها فقيل له: إنها خيمة الملك كفيد. فنظر الرجل إلى وسط الخيمة، فرأى الملك كفيد جالساً على كرسي مرصّع بالجواهر وعنده الوزراء والأمراء وأرباب الدولة. فلما رأى ذلك، أظهر الكتاب في يده فذهب إليه جماعة من عسكر الملك كفيد وأخذوا الكتاب منه وأتوا به الملك. فأخذه الملك، فلما قرأه وعرف معناه كتب له جواباً مضمونه: أما بعد، فالذي نعلم به الملك طيغموس أنه لا بدّ من أننا نأخذ الثار ونكشف العار ونخرب الديار ونهتك الأستار ونقتل الكبار ونأسر الصغار، وفي غد ابرز إلى القتال في الميدان حتى أريك الحرب والطعان. ثم ختم الكتاب وسلّمه لرسول الملك طيغموس فأخذه وسار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 518

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك كفيد سلّم جواب الكتاب الذي أرسله إليه الملك طيغموس لرسوله فأخذه ورجع. فلما وصل إليه قبّل الأرض بين يديه ثم أعطاه الكتاب وأخبره بما رآه وقال له: يا ملك، إني رأيت فرساناً وأبطالاً ورجالاً لا يحصى لهم عدد ولا ينقطع لهم مدد. فلما قرأ الكتاب وفهم معناه، غضب غضباً شديداً وأمر وزيره عين زار أن يركب ومعه ألف فارس ويهجم على عسكر الملك كفيد في نصف الليل، وأن

يخوضوا فيهم ويقتلوهم . فقال له الوزير عين زار : سمعاً وطاعة . ثم ركب وركبت معه العساكر والجيوش وساروا نحو الملك كفيد . وكان للملك كفيد وزير يقال له : غطرفان . فأمره ان يركب ويأخذ معه خمسة آلاف فارس ويذهب بهم إلى عسكر الملك طيغموس ويهجموا عليهم ويقتلوهما فركب الوزير غطرفان وفعل ما امره به الملك كفيد وسار بالعسكر نحو الملك طيغموس . وما زالوا سائرين إلى نصف الليل حتى قطعوا نصف الطريق ، فإذا الوزير غطرفان وقع في الوزير عين زار ، فصاحت الرجال على الرجال ووقع بينهم شديد القتال . وما زال يقاتل بعضهم بعضاً إلى وقت الصباح . فلما أصبح الصباح ، انهزمت عساكر الملك كفيد وولّوا هاربين إليه ، فلما رأى ذلك غضب غضباً شديداً وقال لهم : يا ويلكم ، ما الذي اصابكم حتى فقدتم أبطالكم ؟ فقالوا له : يا ملك الزمان ، إنه لما ركب الوزير غطرفان وسرنا نحو الملك طيغموس ، لم نزل سائرين إلى أن نصفنا الليل وقطعنا نصف الطريق ، فقابلنا عين زار وزير الملك طيغموس واقبل علينا ومعه جيوش وأبطال وكانت المقابلة بجنب وادي زهران فما نشعر إلا ونحن في وسط العسكر ، ووقعت العين في العين وقاتلنا قتالاً شديداً من نصف الليل إلى الصباح وقد قتل خلق كثير ، وصار الوزير عين زار يصيح في وجه الفيل ويضربه ، فيجفل الفيل من شدة الضربة ويدوس الفرسان ويولي هارباً وما بقي احد ينظر احداً من كثرة ما يطير من الغبار وصار الدم يجري كالتيار ، ولولا اننا اتينا هاربين لكنّا قتلنا عن آخرنا . فلما سمع الملك كفيد هذا الكلام قال : لا باركت فيكم الشمس بل غضبت عليكم غضباً شديداً . ثم إن الوزير عين زار رجع إلى طيغموس وأخبره بذلك ، فهنّاه الملك طيغموس بالسلامة وفرح فرحاً شديداً وأمر بدق الكاسات والنفخ في البوقات ، ثم تفقّد عسكره فإذا هم قد قتل منهم مائتا فارس من الشجعان الشداد . ثم إن الملك كفيد هيأ عسكره وجنوده وجيوشه وأتى الميدان واصطفّوا صفاً بعد صف فكمّلوا خمسة عشر صفاً ، كل صف عشرة آلاف فارس . وكان معه ثلاثمائة بهلوان يركبون على الأفيال ، وقد انتخب الأبطال وصناديد الرجال ، ونصب البيارق والرايات ودقت الكاسات ونفخ في البوقات وبرز الأبطال طالبين القتال . وأما الملك طيغموس فإنه صفّ عسكره صفاً بعد صف فإذ هم عشرة صفوف ، في كل صف عشرة آلاف فارس . وكان معه مائة بهلوان يركبون عن يمينه وشماله . ولما اصطفّت الصفوف ، تقدّم كل فارس موصوف وتصادمت الجيوش وضاق رحب الأرض عن الخيل وضربت الطبول وزمرت الزمور ودقت الكاسات ونفخ في البوقات وصاح النفير وصمّت الآذان من صهيل الخيل في الميدان وصاحت الرجال بأصواتهم وانعقد الغبار على رؤوسهم واقتتلوا قتالاً شديداً من أول النهار إلى أن اقبل الظلام ، ثم افترقوا وذهبت العساكر إلى منازلهم . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 519

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن العساكر افترقوا وذهبوا إلى منازلهم . فتفقّد الملك كفيد عسكره فإذ هم قتل منهم خمسة آلاف ، فغضب غضباً شديداً . وتفقّد الملك طيغموس عسكره فإذ هم قتل منهم ثلاثة آلاف فارس من خواص شجعانه ، فلما رأى ذلك غضب غضباً شديداً . ثم إن الملك كفيد برز إلى الميدان ثانياً وفعل كما فعل أول مرّة وكل واحد منهما يطلب النصر لنفسه . وصاح الملك كفيد على عسكره وقال لهم : هل فيكم من

يبرز إلى الميدان ويفتح لنا باب الحرب والطعان ؟ فإذا بطل يقال له : بركيك ، قد اقبل راكبًا على فيل وكان بهلواناً عظيمًا ، ثم تقدّم ونزل من فوق ظهر الفيل وقبّل الأرض بين يدي الملك كفيد واستأذنه في البراز ، ثم ركب الفيل وساقه إلى الميدان وصاح وقال : هل من مبارز ؟ هل من مناجز ؟ هل من مقاتل ؟ فلما سمع ذلك الملك طيغموس التفت إلى عسكره وقال لهم : من يبرز إلى هذا البطل منكم ؟ فإذا فارس قد برز من بين الصفوف راكبًا على جواد عظيم الخلقة ، وسار حتى اقبل على الملك طيغموس وقبّل الأرض قدامه واستأذنه في المبارزة ثم توجه إلى بركيك . فلما اقبل عليه قال له : من تكون انت حتى تستهزأ بي وتبرز إليّ وحدك ؟ وما اسمك ؟ فقال له : إسمي غضنفر بن كمخيل . فقال له بركيك : كنت أسمع بك وأنا في بلادي فدونك والقتال بين صفوف الأبطال . فلما سمع غضنفر كلامه سحب العود الحديد من تحت فخذه وقد أخذ بركيك السيف في يده وتقاتلا قتالاً شديداً . ثم إن بركيك ضرب غضنفر بالسيف فأتت الضربة في خودته ولم يصبه منها ضرر . فلما رأى ذلك غضنفر ، ضربه بالعود فاستوى لحمه بلحم الفيل . فأتاه شخص وقال له : من أنت حتى تقتل أخي ؟ ثم أخذ نبلة في يده وضرب بها غضنفر فأصابت فخذه ، فسمرت الدرع فيه . فلما رأى ذلك غضنفر ، جرّد السيف في يده وضربه فقسمه نصفين ، فنزل إلى الأرض يخور في دمه . ثم إن غضنفر ولّى هارباً نحو الملك طيغموس . فلما رأى ذلك الملك كفيد صاح على عسكره وقال لهم : إنزلوا الميدان وقاتلوا الفرسان . ونزل الملك طيغموس بعسكره وجيوشه وقاتلوا قتالاً شديداً ، وقد صهلت الخيل على الخيل وصاحت الرجال على الرجال وتجرّدت السيوف وتقدّم كل فارس موصوف وحملت الفرسان على الفرسان وفرّ الجبان من موقف الطعان ودقّت الكاسات ونفخ في البوقات ، فما تسمع الناس إلا ضجة صياح وقعقعة سلاح ، وهلك في ذلك الوقت من الأبطال من هلك . وما زالوا على هذا الحال إلى أن صارت الشمس في قبة الفلك . ثم إن الملك طيغموس انفرق بعسكره وجيوشه وعاد لخيامه ، وكذلك الملك كفيد . ثم إن الملك طيغموس تفقّد رجاله فوجدهم قد قتل منهم خمسة آلاف فارس ، وانكسرت منهم أربعة بيارق . فلما علم الملك طيغموس ذلك غضب غضباً شديداً . وأما الملك كفيد فإنه تفقّد عسكره فوجدهم قد قتل منهم ستمائة فارس من خواص شجعانه وانكسرت منهم تسعة بيارق . ثم ارتفع القتال من بينهم مدة ثلاثة أيام ، وبعد ذلك كتب الملك كفيد كتابًا وأرسله مع رسول من عسكره إلى ملك يقال له : فاقون الكلب . فذهب الرسول إليه ، وكان كفيد يدّعي أنه قريبه من جهة أمه . فلما علم الملك فاقون بذلك جمع عسكره وجيوشه وتوجّه إلى الملك كفيد . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 520

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك فاقون جمع عساكره وجيوشه وتوجّه إلى الملك كفيد . فبينما الملك طيغموس جالس في حظه إذ أتاه شخص وقال له : إني رأيت غبرة ثائرة على بعد قد ارتفعت إلى الجو . فامر الملك طيغموس جماعة من عسكره أن يكشفوا عن خبر تلك الغبرة فقالوا : سمعاً وطاعة . ثم ذهبوا ورجعوا وقالوا : أيها الملك ، قد رأينا الغبرة وبعد ساعة ضربها الهواء وقطعها وبان من تحتها بيارق ، تحت كل بيرق ثلاثة آلاف فارس وساروا إلى ناحية الملك كفيد . ولما وصل الملك فاقون الكلب إلى الملك كفيد سلّم عليه

وقال له : ما خبرك؟ وما هذا القتال الذي انت فيه؟ فقال له الملك كفيد : أمَا تعلم ان الملك طيغموس عدوّي وقاتل إخوتي وأبي؟ وانا قد جئته لأقاتله وآخذ بثاري منه . فقال الملك فاقون : باركت الشمس فيك . ثم إن الملك كفيد اخذ الملك فاقون الكلب وذهب به إلى خيمته وفرح فرحًا شديداً . هذا ما كان من أمر الملك طيغموس والملك كفيد .

حكاية جانشاه ابن الملك طيغموس

وأما ما كان من أمر الملك جانشاه، فإنه استمر شهرين وهو لم ينظر أباه ولم يأذن بالدخول عليه لأحد من الجواري اللاتي كنّ في خدمته، فحصل له بذلك قلق عظيم . فقال لبعض أتباعه : ما خبر أبي حتى إنه لم يأتني؟ فأخبروه بما جرى لأبيه مع الملك كفيد . فقال : ائتوني بجوادي حتى أذهب إلى أبي . فقالوا له : سمعاً وطاعة وأتوه بالجواد . فلما حضر جواده قال في نفسه : أنا مشغول بنفسي، فالرأي أن آخذ فرسي وأسير إلى مدينة اليهود، وإذا وصلت إليها يهون الله عليّ بذلك التاجر الذي استأجرني للعمل لعله يفعل بي مثل ما فعل أول مرّة . وما يدري أحد أين تكون الخيرة! ثم إنه ركب وأخذ معه ألف فارس وسار، حتى صار الناس يقولون : إن جانشاه ذاهب إلى أبيه ليقاتل معه . وما زالوا سائرين إلى وقت المساء، ثم نزلوا في مرج عظيم وباتوا بذلك المرج . فلما ناموا وعلم جانشاه أن عسكره ناموا كلهم، قام في خفية وشدّ وسطه وركب جواده وسار إلى طريق بغداد، لأنه كان سمع من اليهود انه تأتيهم في كل سنتين قافلة من بغداد . وقال في نفسه : إذا وصلت إلى بغداد اسير مع القافلة حتى اصل إلى مدينة اليهود . وصمّمت نفسه على ذلك وسار إلى حال سبيله . فلما استيقظ العساكر من نومهم ولم يروا جانشاه ولا جواده، ركبوا وساروا يفتشون على جانشاه يميناً وشمالاً فلم يجدوا له خبراً، فرجعوا إلى أبيه وأعلموه بما فعل ابنه . فغضب غضبًا شديداً وكاد الشرار يطلع من فيه ورمى بتاجه من فوق رأسه وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله، قد فقدت ولدي والعدو قبالتي . فقال له الملوك والوزراء : إصبر يا ملك الزمان، فما بعد الصبر إلا الخير . ثم إن جانشاه صار من أجل أبيه وفراق محبوبته حزيناً مهموماً جريح القلب قريح العين سهران الليل والنهار . وأما أبوه فإنه لما علم بفقد جميع عساكره وجيوشه، رجع عن حرب عدوّه وتوجّه إلى مدينته ودخلها وغلق أبوابها وحصّن أسوارها وصار هارباً من الملك كفيد . وصار كفيد في كل شهر يجيء المدينة طالباً القتال والخصام ويقعد عليها سبع ليالي وثمانية أيام، وبعد ذلك يأخذ عسكره ويرجع بهم إلى الخيام ليداووا المجروحين من الرجال . فأما أهل مدينة الملك طيغموس، فإنهم عند انصراف العدو عنهم يشتغلون بإصلاح السلاح وتحصين الأسوار وتهيئة المنجنيقات . ومكث الملك طيغموس والملك كفيد على هذه الحالة سبع سنين والحرب مستمرة بينهما . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 521

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك طيغموس مكث هو والملك كفيد على هذه الحالة سبع سنين . هذا ما كان من أمرهما . وأما ما كان من أمر جانشاه، فإنه لم يزل سائراً يقطع البراري والقفار، وكلما وصل إلى بلد من البلاد سأل عن قلعة جوهر تكني فلم يخبره أحد بها وإنما يقولون له : إننا لم نسمع بهذا الإسم اصلاً . ثم إنه سأل عن مدينة

اليهود فأخبره رجل من التجار أنها في أطراف بلاد المشرق وقال له : في هذا الشهر سر معنا إلى مدينة مزرقان وهي في الهند، ومن تلك المدينة نذهب إلى خراسان ثم نسافر من هناك إلى مدينة شمعون ومنها إلى خوارزم وتبقى مدينة اليهود قريبة من خوارزم ، فإن بينها وبينها مسافة سنة وثلاثة أشهر . فصبر جانشاه حتى سافرت القافلة وسافر معها إلى أن وصل إلى مدينة مزرقان، ولما دخل تلك المدينة صار يسأل عن قلعة جوهرتكني فلم يخبره بها أحد . وسافرت القافلة وسافر معها إلى الهند ودخل المدينة وسأل عن قلعة جوهرتكني فلم يخبره بها أحد وقالوا له : ما سمعنا بهذا الإسم أصلاً . وقاسى في الطريق شدّة عظيمة وأهوالاً صعبة وجوعاً وعطشاً، ثم سافر من الهند . ولم يزل مسافراً حتى وصل إلى بلاد خراسان وانتهى إلى مدينة شمعون ودخلها وسأل عن مدينة اليهود فأخبروه عنها ووصفوا له طريقها، فسافر أياماً وليالي حتى وصل إلى المكان الذي هرب فيه من القردة . ثم مشى أياماً وليالي حتى وصل إلى النهر الذي بجانب مدينة اليهود وجلس على شاطئه وصبر إلى يوم السبت حتى نشف بقدرة الله تعالى، فعدّى منه وذهب إلى بيت اليهودي الذي كان فيه أول مرّة، فسلّم عليه هو وأهل بيته وفرحوا به وأتوه بالأكل والشرب ثم قالوا له : أين كانت غيبتك؟ فقال لهم : في ملك الله تعالى . ثم بات تلك الليلة عندهم ، ولما كان الغد دار في المدينة يتفرّج فرأى منادياً ينادي ويقول : يا معاشر الناس ، من يأخذ ألف دينار وجارية حسنة ويعمل عندنا شغل نصف يوم ؟ فقال جانشاه : أنا أعمل هذا الشغل . فقال له المنادي : إتبعني . فتبعه حتى وصل إلى بيت اليهودي التاجر الذي وصل إليه أول مرّة . ثم قال المنادي لصاحب البيت : إن هذا الولد يعمل الشغل الذي تريد . فرحّب به التاجر وقال له : مرحباً بك . وأخذه ودخل به إلى الحريم وأتاه بالأكل والشرب، فأكل جانشاه وشرب . ثم إن التاجر قدّم له الدنانير والجارية الحسنة وبات معها تلك الليلة . ولما اصبح الصباح أخذ الدنانير والجارية وسلّمها لليهودي الذي بات في بيته أول مرة، ثم رجع إلى التاجر صاحب الشغل فركب معه وسارا حتى وصلا إلى جبل عال شاهق في العلو . ثم إن التاجر أخرج حبلاً وسكيناً وقال لجانشاه : إرم هذا الفرس على الأرض . فرماها وكتّفها بالحبل وذبحها وسلخها وقطع قوائمها ورأسها وشقّ بطنها كما أمره التاجر . ثم قال التاجر لجانشاه : أدخل بطن هذه الفرس حتى أخيطه عليك ومهما رأيته فيه فقل لي عليه، فهذا الشغل الذي أخذت أجرته . فدخل جانشاه بطن الفرس وخاطه عليه التاجر ثم ذهب إلى محل بعيد عن الفرس واختفى فيه، وبعد ساعة أقبل طير عظيم ونزل من الجو وخطف الفرس وارتفع بها إلى عنان السماء ثم نزل على رأس الجبل . فلما استقرّ على رأس الجبل أراد أن يأكل الفرس . فلما أحس به جانشاه، شقّ بطن الفرس وخرج ، فجفل الطير منه وطار إلى حال سبيله. فطلع جانشاه ونظر إلى التاجر فرآه واقفاً تحت الجبل مثل العصفور فقال له : ما تريد أيها التاجر ؟ فقال له :إرم لي بشيء من هذه الحجارة التي حواليك حتى أدلك على الطريق التي تنزل منها . فقال جانشاه : أنت الذي فعلت بي كيت وكيت من مدة خمس سنين، وقد قاسيت جوعًا وعطشاً وحصل لي تعب عظيم وشرّ كثير، وها أنت عدت بي إلى هذا المكان وأردت هلاكي . والله لا أرمي لك بشيء . ثم إن جانشاه سار وقصد الطريق التي توصل إلى الشيخ نصر ملك الطيور . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 522

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن جانشاه سار وقصد الطريق التي توصل إلى الشيخ نصر ملك الطيور . ولم يزل سائراً أياماً وليالي وهو باكي العين حزين القلب ، وإذا جاع يأكل من نبات الأرض وإذا عطش يشرب من أنهرها حتى وصل إلى قصر السيد سليمان ، فرأى الشيخ نصر جالساً على باب القصر . فأقبل عليه وقبّل يديه فرحّب به الشيخ وسلّم عليه ثم قال له : يا ولدي ، ما خبرك حتى جئت هذا المكان ؟ وكنت قد توجّهت من هنا مع السيدة شمسة وأنت قرير العين منشرح الصدر . فبكى جانشاه وحكى له ما جرى من السيدة شمسة لما طارت وقالت له : إن كنت تحبني تعال عندي في قلعة جوهرتكني . فتعجّب الشيخ نصر من ذلك وقال : والله يا ولدي ما أعرفها وحقّ السيد سليمان ولا سمعت بهذا الإسم طول عمري . فقال جانشاه : كيف أعمل وقد متّ من العشق والغرام ؟ فقال له الشيخ نصر : إصبر حتى تأتي الطيور ونسألهم عن قلعة جوهرتكني لعل أحداً منهم يعرفها . فاطمأن قلب جانشاه ودخل القصر وذهب إلى المقصورة المشتملة على البحيرة التي رأى فيها البنات الثلاث ومكث عند الشيخ نصر مدة من الزمان . فبينما هو جالس على عادته إذ قال له الشيخ نصر : يا ولدي ، إنه قد قرب مجيء الطير . ففرح جانشاه بذلك الخبر ولم يمضِ إلا أيام قلائل حتى أقبلت الطيور ، فجاء الشيخ جانشاه وقال له : يا ولدي ، تعلم هذه الأسماء واقبل على الطيور . فجاءت الطيور وسلّمت على الشيخ نصر نوعاً بعد نوع ، ثم سألها عن قلعة جوهرتكني فقال كل منها : ما سمعت بهذه القلعة طول عمري . فبكى جانشاه وتحسّر ووقع مغشياً عليه . فطلب الشيخ نصر طيراً عظيماً وقال له : أوصل هذا الشاب إلى بلاد كابل . ووصف له البلاد وطريقها . فقال له : سمعاً وطاعة . ثم ركب جانشاه على ظهره وقال له : احترس على نفسك وإياك أن تميل فتتقطع في الهواء ، وسدّ أذنيك من الريح لئلا يضرّك جري الأفلاك ودوي البحار . فقبل جانشاه ما قاله الشيخ نصر ثم اقتلع الطير وعلا إلى الجو وسار به يوماً وليلة ، ثم نزل به عند ملك الوحوش واسمه شاه بدري . فقال الطير لجانشاه : قد تهنا عن البلاد التي وصفها لنا الشيخ نصر . وأراد أن يأخذ جانشاه ويطير به فقال له جانشاه : إذهب إلى حال سبيلك واتركني في هذه الأرض حتى أموت فيها أو أصل إلى بلادي . فتركه الطير عند ملك الوحوش شاه بدري وذهب إلى حال سبيله . ثم إن شاه بدري سأله وقال له : يا ولدي ، من أنت ؟ ومن أين أقبلت مع هذا الطير العظيم ؟ وما حكايتك ؟ فحكى له جميع ما جرى له من الأول إلى الآخر . فتعجّب ملك الوحوش من حكايته وقال له : وحق السيد سليمان إني ما أعرف هذه القلعة ، وكل من دلّنا عليها نكرمه ونرسلك إليها . فبكى جانشاه بكاء شديداً وصبر مدة قليلة ، وبعدها أتاه ملك الوحوش وهو شاه بدري وقال له : قم يا ولدي وخذ هذه الألواح واحفظ الذي فيها ، وإذا أتت الوحوش نسألها عن تلك القلعة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 523

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن شاه بدري ملك الوحوش قال لجانشاه : إحفظ ما في هذه الألواح وإذا جاءت الوحوش نسألها عن تلك القلعة . فما مضى غير ساعة حتى أقبلت الوحوش نوعاً بعد نوع وصاروا يسلّمون على الملك شاه بدري . ثم إنه سألهم عن قلعة جوهرتكني فقالوا له جميعاً : ما نعرف هذه القلعة ولا سمعنا بها . فبكى

جانشاه وتأسف على عدم ذهابه مع الطير الذي أتى به من عند الشيخ نصر . فقال له ملك الوحوش : يا ولدي لا تحمل هماً، إن لي أخاً أكبر مني يقال له : الملك شماخ . وكان أسيراً عند السيد سليمان لأنه كان عاصياً عليه، وليس أحد من الجن أكبر منه هو والشيخ نصر، فلعله يعرف هذه القلعة . وهو يحكم على الجان الذين في هذه البلاد . ثم ركبه ملك الوحوش على ظهر وحش منها وأرسل معه كتاباً إلى أخيه بالوصية عليه . ثم إن ذلك الوحش سار من وقته وساعته . ولم يزل سائراً بجانشاه أياماً وليالي حتى وصل إلى الملك شماخ ، فوقف ذلك الوحش في مكان وحده بعيداً من الملك ثم نزل جانشاه من فوق ظهره وصار يتمشّى حتى وصل إلى حضرة الملك شماخ ، فقبّل يديه وناوله الكتاب، فقرأه وعرف معناه ورحّب به وقال له : والله يا ولدي إن هذه القلعة عمري ما سمعت بها ولا رأيتها . فبكى جانشاه وتحسّر . فقال له الملك شماخ : إحك لي حكايتك واخبرني من أنت ومن أين اتيت وإلى أين تذهب؟ فأخبره بجميع ما جرى له من الأول إلى الآخر . فتعجّب شماخ من ذلك وقال له : يا ولدي، ما أظن أن السيد سليمان في عمره سمع بهذه القلعة ولا رآها، ولكن يا ولدي أنا أعرف راهباً في الجبل وهو كبير في العمر وقد أطاعته جميع الطيور والوحوش والجان من كثرة أقسامه، لأنه ما زال يتلو الأقسام على ملوك الجن حتى أطاعوه قهراً عنهم من شدة تلك الأقسام والسحر الذي عنده، وجميع الطيور والوحوش تسير إلى خدمته . وها أنا قد كنت عصيت السيد سليمان فهو أسرني عنده وماغلبني سوى هذا الراهب من شدّة مكره وأقسامه وسحره وقد بقيت في خدمته . واعلم أنه ساح في جميع البلاد والأقاليم وعرف الطرق والجهات والأماكن والقلاع والمداين، وما أظن أنه يخفى عليه مكان . فأنا أرسلك إليه لعلّه يدلّك على هذه القلعة، وإن لم يدلّك هو عليها فما يدلّك عليها أحد لأنه قد أطاعته الطيور والوحوش والجان وكلهم يأتونه . ومن شدّة سحره قد اصطنع له عكازة ثلاث قطع ، فيغرزها في الأرض ويتلو القسم على القطعة الأولى من العكازة فيخرج منها لحم ويخرج منها دم ، ويتلو القسم على القطعة الثانية فيخرج منها لبن، ويتلو القسم على القطعة الثالثة فيخرج منها قمح وشعير، وبعد ذلك يخرج العكازة من الأرض ثم يذهب إلى ديره، وديره يسمّى دير الماس . وهذا الراهب الكاهن يخرج من يده اختراع كل صنعة غريبة، وهو ساحر كاهن ماكر مخادع خبيث واسمه يغموس ، وقد حوى جميع الأقسام والعزايم . ولا بدّ من أن أرسلك إليه مع طير عظيم له أربعة أجنحة . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 524

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك شماخ قال لجانشاه : ولا بدّ من أن أرسلك إلى الراهب مع طير عظيم له أربعة أجنحة . ثم ركبه على ظهر طير عظيم له أربعة أجنحة، طول كل جناح منها ثلاثون ذراعاً بالهاشمي، وله أرجل مثل أرجل الفيل ، لكنه لا يطير في السنة إلا مرتين . وكان عند الملك شماخ عون يقال له : طمشون . كل يوم يختطف لهذا الطير بختيين من بلاد العراق ويفسخهما له ليأكلهما . فلما ركب جانشاه على ظهر ذلك الطير ، أمره الملك شماخ أن يوصله إلى الراهب يغموس . فأخذه على ظهره وسار به ليالي واياماً حتى وصل إلى جبل القلع ودير الماس ، فنزل جانشاه عند ذلك الدير فرأى يغموس

الراهب داخل الكنيسة وهو يتعبد فيها . فتقدّم جانشاه إليه وقبّل الأرض ووقف بين يديه . فلما رآه الراهب قال له : مرحباً بك يا ولدي يا غريب الديار وبعيد المزار ، أخبرني ما سبب مجيئك هذا المكان ؟ فبكى جانشاه وحكى له حكايته من الأول إلى الآخر . فلما سمع الراهب الحكاية تعجّب منها غاية العجب وقال له : والله يا ولدي عمري ما سمعت بهذه القلعة ولا رأيت من سمع بها أو رآها مع أني كنت موجوداً على عهد نوح نبي الله ، وحكمت من عهد نوح إلى زمن السيد سليمان بن داود على الوحوش والطيور والجن ، وما أظن أن سليمان سمع بهذه القلعة . ولكن إصبر يا ولدي حتى تأتي الطيور والوحوش وعون الجان وأسألهم لعل أحداً منهم يخبرنا بها ويأتينا بخبر عنها ويهوّن الله تعالى عليك . فقعد جانشاه مدة من الزمان عند الراهب . فبينما هو قاعد إذ أقبلت عليه الطيور والوحوش والجان أجمعون ، وصار جانشاه والراهب يسألونهم عن قلعة جوهرتكني فما أحد منهم قال : أنا رأيتها أو سمعت بها ، بل كان كل منهم يقول : لا رأيت هذه القلعة ولا سمعت بها . فصار جانشاه يبكي وينوح ويتضرّع إلى الله تعالى . وبينما هو كذلك إذا بطير قد أقبل آخر الطيور وهو أسود اللون عظيم الخلقة ، ولما نزل من أعلى الجو جاء وقبّل يدي الراهب . فسأله الراهب عن قلعة جوهرتكني . فقال له الطير : أيها الراهب ، إننا كنا ساكنين خلف قاف بجبل البلور في برّ عظيم ، وكنت أنا وإخوتي فراخاً صغاراً ، وأبي وأمي كانا يسرحان في كل يوم ويجيئان برزقنا . فاتفق أنهما سرحا يوماً من الأيام وغابا عنا سبعة أيام فاشتدّ علينا الجوع ، ثم أتيا في اليوم الثامن وهما يبكيان . فقلنا لهما : ما سبب غيابكما عنا ؟ فقالا : إنه خرج علينا مارد فخطفنا وذهب بنا إلى قلعة جوهرتكني وأوصلنا إلى الملك شهلان ، فلما رآنا الملك شهلان أراد قتلنا . فقلنا له : إن وراءنا فراخًا صغاراً . فأعتقنا من القتل . ولو كان أبي وأمي في قيد الحياة لكانا أخبراكم عن القلعة . فلما سمع جانشاه هذا الكلام ، بكى بكاء شديداً وقال للراهب : أريد منك أن تأمر هذا الطير أن يوصلني إلى نحو وكر أبيه وأمه في جبل البلور خلف جبل قاف . فقال الراهب للطير : أيها الطير ، أريد منك أن تطيع هذا الولد في جميع ما يأمرك به . فقال الطير للراهب : سمعًا وطاعة لما تقول . ثم إن ذلك الطير أركب جانشاه على ظهره وطار . ولم يزل طائراً به أيامًا وليالي حتى أقبل على جبل البلور ، ثم نزل به هناك ومكث برهة من الزمان ثم أركبه على ظهره وطار . ولم يزل طائراً به مدة يومين حتى وصل إلى الأرض التي فيها الوكر . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 525

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الطير لم يزل طائراً بجانشاه مدة يومين حتى وصل به إلى الأرض التي فيها الوكر ونزل به هناك ثم قال له : يا جانشاه ، هذا الوكر الذي كنا فيه . فبكى جانشاه بكاء شديداً وقال للطير : أريد منك أن تحملني وتوصلني إلى الناحية التي كان أبوك وأمك يذهبان إليها ويجيئان منها بالرزق . فقال له الطير : سمعاً وطاعة يا جانشاه . ثم حمله وطار به . ولم يزل طائراً سبع ليال وثمانية أيام حتى وصل به إلى جبل عال . ثم أنزله من فوق ظهره وقال له : ما بقيت أعرف وراء هذا المكان أرضاً . فغلب على جانشاه النوم ، فنام في رأس ذلك الجبل . فلما أفاق من النوم رأى بريقاً على بعد يملأ نوره الجو ، فصار متحيّراً في نفسه من ذلك اللمعان والبريق ولم يدر أنه لمعان القلعة التي هو يفتّش عنها ، وكان بينه

وبينها مسيرة شهرين . وهي مبنية من الياقوت الأحمر وبيوتها من الذهب الأصفر، ولها ألف برج مبنية من المعادن النفيسة التي تخرج من بحر الظلمات، ولهذا سمّيت قلعة جوهرتكني لأنها من نفيس الجواهر والمعادن. وكانت قلعة عظيمة واسم ملكها شهلان، وهو أبو البنات الثلاث . هذا ما كان من أمر جانشاه .

وأما ما كان من أمر السيدة شمسة ، فإنها لما هربت من عند جانشاه وراحت عند أبيها وأمها وأهلها أخبرتهم بما جرى لها مع جانشاه، وحكت لهم حكايته وأعلمتهم أنه ساح في الأرض ورأى العجائب، وعرّفتهم بمحبته لها ومحبتها له وبما وقع بينهما . فلما سمع أبوها وأمها منها ذلك الكلام قالا لها : ما يحل لك من الله أن تفعلي معه هذا الأمر . ثم إن أباها حكى هذه المسألة لأعوانه من مردة الجان وقال لهم : كل من رأى منكم إنسياً فليأتني به . وكانت السيدة شمسة أخبرت أمها أن جانشاه مغرم بها وقالت لها : ولا بدّ من أنه يأتينا ، لأني لما طرت من فوق قصر أبيه قلت له : إن كنت تحبّني فتعال في قلعة جوهرتكني . ثم إن جانشاه لمّا رأى ذلك البريق واللمعان قصد نحوه ليعرف ما هو . وكانت السيدة شمسة قد أرسلت عوناً من الأعوان في شغل بناحية جبل قرموس ، فبينما ذلك العون سائر إذا هو ينظر من بعيد إلى شخص إنسيّ، فلما رآه أقبل نحوه وسلّم عليه . فخاف جانشاه من ذلك العون ولكنه ردّ عليه السلام . فقال له العون : ما اسمك ؟ فقال له : إسمي جانشاه . وكنت قبضت على جنية اسمها السيدة شمسة لأني تعلّقت بحسنها وجمالها وكنت أحبها محبة عظيمة، ثم إنها هربت منّي بعد دخولها في قصر والدي . وحكى له جميع ما جرى له معها، وصار جانشاه يكلّم المارد وهو يبكي . فلما نظر العون إلى جانشاه وهو يبكي أحرق قلبه وقال له : لا تبك فإنك قد وصلت إلى مرادك . واعلم أنها تحبك محبة عظيمة ، وقد أعلمت أباها وأمها بمحبتك لها وكل من في القلعة يحبك لأجلها ، فطب نفساً وقرّ عيناً . ثم إن المارد حمله على كاهليه وسار به حتى وصل إلى قلعة جوهرتكني ، وذهب المبشرون إلى الملك شهلان وإلى السيدة شمسة وإلى أمها يبشرونهم بمجيء جانشاه . ولما جاءتهم البشائر بذلك فرحوا فرحًا عظيمًا . ثم إن الملك شهلان أمر جميع الأعوان أن يلاقوا جانشاه ، وركب هو وجميع الأعوان والعفاريت والمردة إلى ملاقاة جانشاه . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 526

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك شهلان ركب هو وجميع الأعوان والعفاريت والمردة إلى ملاقاة جانشاه . فلما أقبل الملك أبو السيدة شمسة على جانشاه عانقه ، ثم إن جانشاه قبّل يدي الملك شهلان . وأمر له الملك بخلعة عظيمة من الحرير مختلفة الألوان مطرزة بالذهب مرصعة بالجوهر، ثم ألبسه التاج الذي ما رأى مثله أحد من ملوك الإنس ، ثم أمر له بفرس عظيمة من خيل ملوك الجان، فركبها ثم ركب والأعوان عن يمينه وشماله وسار هو والملك في موكب عظيم حتى أتوا باب القصر . فنزل الملك ونزل جانشاه في ذلك القصر، فرآه قصرًا عظيماً ، حيطانه مبنية بالجواهر واليواقيت ونفيس المعدن، وأما البلور والزبرجد والزمرد فمرصّع في الأرض . فصار يتعجّب من ذلك ويبكي ، والملك وأم السيدة شمسة يمسحان دموعه ويقولان له : قلّل من البكاء ولا تحمل همّاً، واعلم أنك قد وصلت إلى مرادك . ثم إنه لما

وصل إلى وسط المكان ، لاقته الجواري الحسان والعبيد والغلمان واجلسوه في أحسن مكان ووقفوا في خدمته ، وهو متحيّر في حسن ذلك المكان وحيطانه التي بنيت من جميع المعادن ونفيس الجواهر . وانصرف الملك شهلان إلى محل جلوسه وأمر الجواري والغلمان ان يأتوه بجانشاه ليجلس عنده ، فأخذوه ودخلوا به عليه . فقام الملك إليه واجلسه على تخته بجانبه . ثم إنهم أتوا بالسماط ، فأكلوا وشربوا ثم غسلوا ايديهم . وبعد ذلك اقبلت عليه أم السيدة شمسة فسلّمت عليه ورحّبت به وقالت له : قد بلغت المقصود بعد التعب ونامت عينك بعد السهر والحمد لله على سلامتك . ثم ذهبت من وقتها إلى بنتها السيدة شمسة فأتت بها جانشاه . فلما أقبلت عليه السيدة شمسة سلّمت عليه وقبّلت يديه واطرقت برأسها خجلاً منه ومن أمها وابيها ، وأتى إخوتها الذين كانوا معها في القصر وقبّلوا يديه وسلّموا عليه . ثم إن السيدة أم شمسة قالت له : مرحباً بك يا ولدي ، ولكن بنتي شمسة قد أخطأت في حقك ولا تؤاخذها بما فعلت معك لأجلنا . فلما سمع جانشاه منها ذلك الكلام صاح ووقع مغشيًا عليه . فتعجّب الملك منه ، ثم إنهم رشّوا وجهه بماء الورد الممزوج بالمسك والزباد ، فأفاق ونظر إلى السيدة شمسة وقال : الحمد لله الذي بلغني مرادي واطفأ ناري حتى لم يبق في قلبي نار . فقالت له السيدة شمسة : سلامتك من النار ، ولكن يا جانشاه أريد ان تحكي لي على ما جرى لك بعد فراقي ، وكيف أتيت هذا المكان ؟ مع ان أكثر الجان لا يعرفون قلعة جوهرتكني ونحن عاصون على جميع الملوك ، وما احد عرف طريق هذا المكان ولا سمع به . فاخبرها بجميع ما جرى له وكيف أتى ، واعلمهم بما جرى لأبيه مع الملك كفيد ، وأخبرهم بما قاساه في الطريق وما رآه من الأهوال والعجائب . وقال لها : كل هذا كان من اجلك يا سيدتي شمسة . فقالت له أمها : قد بلغت المراد ، والسيدة شمسة جارية نهديها إليك . فلما سمع ذلك جانشاه ، فرح فرحًا شديداً . فقالت له : بعد ذلك إن شاء الله تعالى في الشهر القابل ، ننصب الفرح ونعمل العرس ونزوّجك بها ، ثم تذهب بها إلى بلادك ونعطيك الف مارد من الأعوان ، لو أذنت لأقل من فيهم في أن يقتل الملك كفيد هو وقومه لفعل ذلك في لحظة . وفي كل عام نرسل إليك قوماً ، إذا أمرت واحداً منهم بإهلاك أعدائك جميعاً هلكهم . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 527

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن أم السيدة شمسة قالت له : وفي كل عام نرسل إليك قوماً ، إذا أمرت واحداً منهم بإهلاك أعدائك جميعاً اهلكهم عن آخرهم . ثم إن الملك شهلان جلس فوق التخت وأمر أرباب الدولة أن يعملوا فرحاً عظيماً ويزيّنوا المدينة سبعة أيام ولياليها . فقالوا له : سمعاً وطاعة . ثم ذهبوا ذلك الوقت وأخذوا في تجهيز الأهبة للفرح . ومكثوا في التجهيز مدة شهرين ، وبعد ذلك عملوا عرساً عظيمًا للسيدة شمسة حتى صار فرحًا عظيمًا لم يكن مثله . ثم أدخلوا جانشاه على السيدة واستمرّ معها مدة سنتين في ألذ عيش وأهناه وأكل وشرب . ثم بعد ذلك قال للسيدة شمسة : إن أباك قد وعدنا بالذهاب وان نقعد هناك سنة وهنا سنة . فقالت السيدة شمسة : سمعاً وطاعة . ولما أمسى المساء دخلت على ابيها وذكرت له ما قاله جانشاه . فقال لها : سمعاً وطاعة ، ولكن إصبرا إلى أول الشهر حتى نجهّز لكما الأعوان . فأخبرت جانشاه بما قاله أبوها ، وصبر المدة التي عيّنها . وبعد ذلك أذن

الملك شهلان للأعوان ان يخرجوا في خدمة السيدة شمسة وجانشاه حتى يوصلوهما إلى بلاد جانشاه، وقد جهّز لهما تختاً عظيماً من الذهب الاحمر مرصّعاً بالدر والجوهر، فوقه خيمة من الحرير الأخضر منقوشة بسائر الألوان مرصّعة بنفيس الجواهر يحار في حسنها الناظر. فطلع جانشاه هو والسيدة شمسة فوق ذلك التخت، ثم انتخب من الأعوان أربعة ليحملوا ذلك التخت، فحملوه وصار كل واحد منهم في جهة من جهاته وجانشاه والسيدة شمسة فوقه. ثم إن السيدة شمسة ودّعت أمها وأباها وإخوتها وأهلها، وقد ركب أبوها وسار مع جانشاه وسارت الأعوان بذلك التخت. ولم يزل الملك شهلان سائراً معهم إلى وسط النهار، ثم حطّت الأعوان ذلك التخت ونزلوا وودّعوا بعضهم، وصار الملك شهلان يوصي جانشاه على السيدة شمسة ويوصي الأعوان عليهما. ثم امر الأعوان بأن يحملوا التخت، فودّعت السيدة شمسة أباها وكذلك ودّعه جانشاه وسارا ورجع أبوها. وكان أبوها قد أعطاها ثلاثمائة جارية من السراري الحسان، وأعطى جانشاه ثلاثمائة مملوك من أولاد الجان، ثم إنهم ساروا من ذلك الوقت بعد أن طلعوا جميعهم على ذلك التخت والأعوان الأربعة قد حملته وطارت به بين السماء والأرض، وصاروا يسيرون في كل يوم مسيرة ثلاثين شهراً. ولم يزالوا سائرين على هذه الحالة مدة عشرة أيام. وكان في الأعوان عون يعرف بلاد كابل، فلما رآها أمرهم أن ينزلوا على المدينة الكبيرة في تلك البلاد. وكانت تلك المدينة مدينة الملك طيغموس، فنزلوا عليها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 528

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأعوان نزلوا على مدينة الملك طيغموس ومعهم جانشاه والسيدة شمسة. وكان الملك طيغموس قد انهزم من الأعداء وهرب في مدينة وصار في حصر عظيم، وضيّق عليه الملك كفيد. وطلب الآمان من الملك كفيد فلم يؤمنه. فلما علم الملك طيغموس أنه لم يبق له حيلة في الخلاص من الملك كفيد، أراد أن يخنق روحه حتى يموت ويستريح من ذلك الهمّ والحزن. وقام وودّع الوزراء والأمراء ودخل بيته ليودّع الحريم، وصارت أهل مملكته في بكاء ونواح وعزاء وصياح. فبينما هو في ذلك الأمر إذا بالأعوان قد أقبلوا على القصر الذي في داخل القلعة وأمرهم جانشاه أن ينزلوا بالتخت في وسط الديوان. ففعلوا ما أمرهم به جانشاه، ونزلت السيدة شمسة مع جانشاه والجواري والمماليك، فرأوا جميع أهل المدينة في حصر وضيق وكرب عظيم. فقال جانشاه للسيدة شمسة: يا حبيبة قلبي وقرة عيني، أنظري إلى ابي كيف هو في أسوأ حال. فلما رأت السيدة شمسة أباه وأهل مملكته في ذلك الحال، أمرت الأعوان أن يضربوا العسكر الذين حاصروهم ضرباً شديداً ويقتلوهم. وقالت للأعوان: لا تبقوا منهم أحداً. ثم إن جانشاه أومأ إلى عون من الأعوان شديد البأس إسمه قراطش، وأمره أن يجيء بالملك كفيد مقيّداً. ثم إن الأعوان ساروا إليه وأخذوا ذلك التخت معهم، وما زالوا سائرين حتى حطوا التخت فوق الأرض ونصبوا الخيمة على التخت وصبروا إلى نصف الليل ثم هجموا على الملك كفيد وعساكره، وصاروا يقتلونهم وصار الواحد ياخذ عشرة أو ثمانية وهم على ظهر الفيل، ويطير بهم إلى الجو ثم يلقيهم فيتمزّقون في الهواء. وكان بعض الأعوان يضرب العساكر بالعمد الحديد. ثم إن العون الذي اسمه قراطش، ذهب من

وقته إلى خيمة الملك كفيد، فهجم عليه وهو جالس فوق السرير وأخذه وطار به إلى الجو، فزعق من هيبة ذلك العون. ولم يزل طائراً به حتى وضعه على التخت قدّام جانشاه، فأمر الأعوان الأربعة أن يقتلعوا التخت وينصبوه في الهواء. فلم ينتبه الملك كفيد إلا وقد رأى نفسه ما بين السماء والأرض، فصار يلطم وجهه ويتعجّب من ذلك. هذا ما كان من أمر الملك كفيد.

وأما ما كان من أمر الملك طيغموس، فإنه لما رأى ابنه كاد يموت من شدّة الفرح، وصاح صيحة عظيمة ووقع مغمى عليه، فرشّوا وجهه بماء الورد. فلما أفاق تعانق هو وابنه وبكيا بكاء شديداً، ولم يعلم الملك طيغموس بأن الأعوان في قتال الملك كفيد. وبعد ذلك قامت السيدة شمسة وتمشّت حتى وصلت إلى الملك طيغموس أبي جانشاه وقبّلت يديه وقالت له: يا سيدي إصعد إلى أعلى القصر وتفرّج على قتال اعوان ابي. فصعد الملك أعلى القصر وجلس هو والسيدة شمسة يتفرّجان على الأعوان. وذلك إنهم صاروا يضربون في العساكر طولاً وعرضاً، وكان منهم من يأخذ العمود الحديد ويضرب به الفيل، فينهرس الفيل والذي على ظهره حتى صارت الفيلة لا تتميز من الآدميين. ومنهم من يجيء جماعة وهم هاربون، فيصيح في وجوههم فيسقطون ميتين. ومنهم من يقبض على العشرين فارساً ويقتلع بهم إلى الجو ويلقيهم إلى الأرض فيتقطّعون قطعاً. هذا وجانشاه ووالده والسيدة شمسة ينظرون إليهم ويتفرّجون على القتال. وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 529

□ قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن طيغموس هو وابنه جانشاه وزوجته السيدة شمسة ارتقوا إلى أعلى القصر وصاروا يتفرّجون على قتال الأعوان مع عسكر الملك كفيد، وصار الملك كفيد ينظر إليهم وهو فوق التخت ويبكي. وما زال القتل في عسكره مدة يومين حتى قطعوا عن آخرهم. ثم إن جانشاه أمر الأعوان أن يأتوا بالتخت وينزلوا به إلى الأرض في وسط قلعة الملك طيغموس، فأتوا به وفعلوا ما أمرهم به سيدهم الملك جانشاه. ثم إن الملك طيغموس أمر عوناً من الأعوان يقال له: شموال. ان يأخذ الملك كفيد ويجعله في السلاسل والأغلال ويسجنه في البرج الأسود. ففعل شموال ما أمره به. ثم إن الملك طيغموس أمر بضرب الكاسات وأرسل المبشرين إلى أم جانشاه، فذهبوا وأعلموها بأن ابنها أتى وفعل هذه الأفعال. ففرحت بذلك وركبت وأتت، فلما رآها جانشاه ضمّها إلى صدره فوقعت مغشيّة عليها من شدّة الفرح، فرشّوا وجهها بماء الورد. فلما أفاقت عانقته وبكت من فرط السرور. ولما علمت السيدة شمسة بقدومها، قامت تتمشّى حتى وصلت إليها وسلّمت عليها وعانق بعضهما بعضاً ساعة من الزمان، ثم جلستا تتحدّثان. وفتح الملك طيغموس أبواب المدينة وأرسل المبشرين إلى جميع البلاد فنشروا البشائر فيها، ووردت عليه الهدايا والتحف، وصار الأمراء والعساكر والملوك الذين في البلدان يأتون ليسلّموا عليه ويهنوه بتلك النصرة وبسلامة ابنه. وما زالوا على هذا الحال والناس يأتونهم بالهدايا والتحف العظيمة مدة من الزمان. ثم إن الملك عمل عرساً عظيماً للسيدة شمسة مرة ثانية، وأمر بزينة المدينة، وجلاها على جانشاه بالحلي والحلل الفاخرة. ودخل جانشاه عليها وأعطاها مائة جارية من السراري الحسان لخدمتها. ثم بعد ذلك بأيام، توجّهت السيدة شمسة إلى الملك طيغموس وتشفّعت عنده في الملك كفيد وقالت له: أطلقه ليرجع إلى بلاده، وإن حصل

منه شراً أمرت أحد الأعوان أن يخطفه ويأتيك به . فقال لها : سمعاً وطاعة . ثم أرسل إلى شموال أن يحضر إليه بالملك كفيد ، فأتى به في السلاسل والأغلال . فلما قدم عليه وقبّل الأرض بين يديه ، أمر الملك أن يحلّوه من تلك الأغلال ، فحلّوه منها . ثم أركبه على فرس عرجاء وقال له : إن الملكة شمسة قد تشفّعت فيك فاذهب إلى بلادك ، وإن عدت لما كنت عليه فإنها ترسل إليك عوناً من الأعوان فيأتي بك . فسار الملك كفيد إلى بلاده وهو في أسوأ حال . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 530

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك كفيد سار إلى بلده وهو في أسوأ حال . ثم إن جانشاه قعد هو وأبوه والسيدة شمسة في ألذّ عيش وأهناه وأطيب سرور وأوفاه . وكل هذا يحكيه الشاب الجالس بين القبرين لبلوقيا . ثم قال له : وها أنا جانشاه ، الذي رأيت هذا كله يا أخي يا بلوقيا . فتعجّب بلوقيا من حكايته . ثم إن بلوقيا السايح في حب محمد ﷺ قال لجانشاه : يا أخي ، وما شأن هذين القبرين ؟ وما سبب جلوسك بينهما ؟ وما سبب بكائك ؟ فردّ عليه جانشاه وقال له : اعلم يا بلوقيا أننا كنا في ألذّ عيش وأهناه وأطيب سرور وأوفاه ، وكنا نقيم ببلادنا سنة وبقلعة جوهرتكني سنة ، ولا نسير إلا ونحن جالسون فوق التخت والأعوان تحمله وتطير به بين السماء والأرض . فقال له بلوقيا : يا أخي يا جانشاه ، ما كان طول المسافة التي بين تلك القلعة وبين بلادكم ؟ فردّ عليه جانشاه وقال له : كنا نقطع في كل يوم مسافة ثلاثين شهراً وكنا نصل إلى القلعة في عشرة أيام ، ولم نزل على هذه الحالة مدة من السنين . فاتفق أننا سافرنا على عادتنا حتى وصلنا إلى هذا المكان ، فنزلنا فيه بالتخت لنتفرج على هذه الجزيرة . فجلسنا على شاطىء النهر وأكلنا وشربنا . فقالت السيدة شمسة : إني أريد أن أغتسل في هذا النهر . ثم نزعت ثيابها ونزع الجواري ثيابهن ونزلن في النهر وسبحن فيه . ثم إني تمشّيت على شاطىء النهر وتركت الجواري فيه مع السيدة شمسة ، فإذ بقرش عظيم من دواب البحر ضربها في رجلها من دون الجواري ، فصرخت ووقعت ميتة من وقتها وساعتها . فطلعت الجواري من النهر هاربات إلى الخيمة من ذلك القرش . ثم إن بعض الجواري حملها وأتى بها الخيمة وهي ميتة ، فلما رأيتها ميتة وقعت مغشياً عليّ ، فرشّوا وجهي بالماء . فلما أفقت بكيت عليها وأمرت الأعوان أن يأخذوا التخت ويروحوا به إلى أهلها ويعلموهم بما جرى لها . فراحوا إلى أهلها وأعلموهم بما جرى لها ، فلم يغب أهلها إلا قليلاً حتى أتوا هذا المكان ، فغسلوها وكفنوها وفي هذا المكان دفنوها وعملوا عزاءها ، وطلبوا أن يأخذوني معهم إلى بلادهم . فقلت لأبيها : أريد منك أن تحفر لي حفرة بجانب قبرها ، واجعل تلك الحفرة قبراً لي . لعلي إذا مت أدفن فيها بجانبها . فأمر الملك شهلان عوناً من الأعوان بذلك . ففعل لي ما أردته ، ثم راحوا من عندي وخلّوني هنا أنوح وأبكي عليها . وهذه قصتي وسبب قعودي بين هذين القبرين . ثم أنشد هذين البيتين : [من البسيط]

ما الدَّارُ مُذْ غِبْتُمُو يا سادَتِي دارُ   كَلاَّ ولا ذلكَ الجارُ الرَّضِيْ جارُ
ولا الأَنِيسُ الَّذي قَدْ كُنْتُ أَعْهَدُهُ   فِيها أَنِيسٌ ولا الأَنْوارُ أَنْوارُ

فلما سمع بلوقيا هذا الكلام من جانشاه، تعجّب. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 531

□ قالت: بلغني ايها الملك السعيد، ان بلوقيا لمّا سمع هذا الكلام من جانشاه، تعجّب وقال: والله إني كنت أظن أنني سحت ودرت طايفاً في الأرض، والله نسيت الذي رأيته بما سمعته من قصّتك. ثم إنه قال لجانشاه: أريد من فضلك وإحسانك يا أخي، أنك تدلّني على طريق السلامة. فدلّه على الطريق ثم ودّعه وسار. وكل هذا الكلام تحكيه ملكة الحيات لحاسب كريم الدين. فقال لها حاسب كريم الدين: كيف عرفت هذه الأخبار؟ فقالت له: أعلم يا حاسب، أني كنت أرسلت إلى بلاد مصر حيّة عظيمة من مدة خمسة وعشرين عاماً وأرسلت معها كتاباً بالسلام على بلوقيا لتوصله إليه، فراحت تلك الحية وأوصلته إلى بنت شموخ، وكان لها بنت في أرض مصر. فأخذت ذلك الكتاب وسارت حتى وصلت إلى مصر، وسألت الناس عن بلوقيا فدلّوها عليه. فلما أتت ورأته، سلّمت عليه وأعطته ذلك الكتاب. فقرأه وفهم معناه ثم قال للحية: هل أنت أتيت من عند ملكة الحيات؟ قالت: نعم. فقال لها: أريد أن أروح معك إلى ملكة الحيات لأن لي عندها حاجة. فقالت له: سمعاً وطاعة. ثم أخذته وسارت به إلى بنتها وسلّمت عليها، ثم ودّعتها وخرجت من عندها وقالت له: إغمض عينيك. فأغمض عينيه وفتحهما فإذا هو في الجبل الذي أنا فيه. فسارت به إلى الحية التي أعطتها الكتاب وسلّمت عليها وقالت لها: هل أوصلت الكتاب إلى بلوقيا؟ قالت: نعم أوصلته إليه وقد جاء معي، وها هو. فتقدّم بلوقيا وسلّم على تلك الحية وسألها عن ملكة الحيات فقالت له: أنها راحت إلى جبل قاف بجنودها وعساكرها، وأنها حين يأتي الصيف تعود إلى هذه الارض، وكلما ذهبت إلى جبل قاف وضعتني في موضعها حتى تأتي. فإن كان لك حاجة فأنا أقضيها لك. فقال لها بلوقيا: أريد منك أن تجيئي بالنبات الذي كل من دقّه وشرب ماءه لا يضعف ولا يشيب ولا يموت. فقالت له تلك الحية: ما أجيء به حتى تخبرني بما جرى لك بعد مفارقتها، حيث رحت أنت وعفان إلى مدفن السيد سليمان. فأخبرها بلوقيا بقصّته من أولها إلى آخرها، وأعلمها بما جرى لجانشاه وحكى لها حكايته. ثم قال لها: إقضي لي حاجتي حتى أروح إلى بلادي. فقالت الحية: وحق السيد سليمان ما أعرف طريق ذلك العشب. ثم إنها أمرت الحية التي جاءت به وقالت لها: أوصليه إلى بلاده. فقالت لها: سمعاً وطاعة. ثم قالت له: إغمض عينيك. فأغمض عينيه وفتحها، فرأى نفسه في الجبل المقطب، فسار حتى أتى منزله. ثم إن ملكة الحيات لمّا عادت من جبل قاف توجّهت إليها الحية التي أقامتها مقامها وسلّمت عليها وقالت لها: إن بلوقيا يسلّم عليك. وحكت لها جميع ما أخبرها به بلوقيا مما رآه في سياحته ومن اجتماعه بجانشاه. ثم قالت ملكة الحيات لحاسب كريم الدين: وهذا الذي أخبرني بهذا الخبر يا حاسب. فقال لها حاسب: يا ملكة الحيات، أخبريني بما جرى لبلوقيا حيث عاد إلى مصر. فقالت له: أعلم يا حاسب، أن بلوقيا لمّا فارق جانشاه، سار ليالي وأياماً حتى وصل إلى بحر عظيم. ثم إنه دهن قدميه من الماء الذي معه ومشى على وجه الماء حتى وصل إلى جزيرة ذات اشجار وأنهار وأثمار كأنها الجنة، ودار في تلك الجزيرة فرأى شجرة عظيمة ورقها مثل قلوع المراكب. فقرب من تلك

الشجرة فرأى تحتها سماطاً ممدوداً وفيه جميع الألوان الفاخرة من الطعام، ورأى على تلك الشجرة طيراً عظيماً من اللؤلؤ والزمرد الأخضر، ورجلاه من الفضة، ومنقاره من الياقوت الأحمر، وريشه من نفيس المعادن وهو يسبّح الله تعالى ويصلّي على محمد ﷺ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 532

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بلوقيا لما طلع الجزيرة ووجدها كالجنة، تمشى في جوانبها ورأى ما فيها من العجائب، ومن جملتها الطير الذي هو من اللؤلؤ والزمرد الأخضر وريشه من نفيس المعدن، على تلك الحالة وهو يسبح الله تعالى ويصلّي على محمد ﷺ. فلما رأى بلوقيا ذلك الطائر العظيم قال له: من أنت؟ وما شأنك؟ فقال له: أنا من طيور الجنة. واعلم يا أخي أن الله تعالى أخرج آدم من الجنة وأخرج معه أربع ورقات يستتر بها فسقطن في الارض. فواحدة منهن أكلها الدود فصار منها الحرير، والثانية أكلها الغزلان فصار منها المسك، والثالثة أكلها النحل فصار منها العسل، والرابعة وقعت في الهند فصار منها البهار. وأما أنا فإني سحت في جميع الأرض إلى أن منَّ الله عليّ بهذا المكان فمكثت فيه. وإنه في كل ليلة جمعة ويومها تأتي الأولياء والقطاب الذين في الدنيا هذا المكان ويزورونه ويأكلون من هذا الطعام وهو ضيافة الله تعالى لهم، يضيفهم بها في كل ليلة جمعة ويومها. ثم بعد ذلك يرتفع السماط إلى الجنة ولا ينقص أبداً ولا يتغيّر. فأكل بلوقيا، ولما فرغ من الأكل وحمد الله تعالى فإذا الخضر عليه السلام قد أقبل. فقام بلوقيا إليه وسلّم عليه وأراد أن يذهب. فقال له الطير إجلس يا بلوقيا في حضرة عليه السلام. فجلس بلوقيا فقال له الخضر: أخبرني بشأنك واحك لي حكايتك. فأخبره بلوقيا بجميع ما جرى له من الأول إلى الآخر إلى أن أتاه ووصل إلى المكان الذي هو جالس فيه بين يدي الخضر. ثم قال له: يا سيدي، ما مقدار الطريق من هنا إلى مصر؟ فقال له: مسيرة خمسة وتسعين عاماً. فلما سمع بلوقيا هذا الكلام، بكى ثم وقع على يد الخضر وقبّلها وقال له: أنقذني من هذه الغربة وأجرك على الله، لأني قد أشرفت على الهلاك وما بقيت لي حيلة. فقال له الخضر: ادع الله تعالى أن يأذن لي في أن أوصلك إلى مصر قبل أن تهلك. فبكى بلوقيا وتضرّع إلى الله تعالى، فتقبّل الله دعاءه وألهم الخضر عليه السلام أن يوصله إلى أهله. فقال الخضر عليه السلام لبلوقيا: إرفع رأسك فقد تقبّل الله دعاءك وألهمني أن أوصلك إلى مصر، فتعلّق بي واقبض عليّ بيديك واغمض عينيك. فتعلّق بلوقيا بالخضر عليه السلام وقبض عليه بيديه وأغمض عينيه. وخطا الخضر عليه السلام خطوة ثم قال لبلوقيا: إفتح عينيك. ففتح عينيه فرأى نفسه واقفاً على باب منزله. ثم إنه التفت ليودّع الخضر عليه السلام فلم يجد له أثراً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة 533

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بلوقيا لما أوصله الخضر عليه السلام إلى باب منزله، فتح عينيه ليودّعه فلم يجده. فدخل بيته، فلما رأته أمه صاحت صيحة عظيمة ووقعت مغشية عليها من شدّة الفرح، فرشّوا وجهها بالماء حتى أفاقت. فلما أفاقت، عانقته وبكت بكاءً شديداً. وصار بلوقيا يبكي وتارة يضحك، وأتاه أهله وجماعته وجميع

أصحابه وصاروا يهنونه بالسلامة. وشاعت الأخبار في البلاد وجاءته الهدايا من جميع الأقطار ودقّت الطبول وزمرت الزمور وفرحوا فرحًا شديدًا. ثم بعد ذلك، حكى لهم بلوقيا حكايته واخبرهم بجميع ما جرى له، وكيف اتى به الخضر واوصله إلى باب منزله. فتعجّبوا من ذلك وبكوا حتى ملّوا من البكاء. وكل هذا تحكيه ملكة الحيات لحاسب كريم الدين. فتعجب حاسب كريم الدين من ذلك وبكى بكاء شديداً ثم قال لملكة الحيات: إني أريد الذهاب إلى بلادي. فقالت له ملكة الحيات: إني أخاف يا حاسب إذا وصلت إلى بلادك أن تنقض العهد وتحنث في اليمين الذي حلفته وتدخل الحمام. فحلف إيماناً أخرى وثيقة أنه لن يدخل الحمام طول عمره. فأمرت حية وقالت لها: اخرجي حاسب كريم الدين إلى وجه الأرض. فأخذته الحية وسارت به من مكان إلى مكان حتى اخرجته على وجه الأرض من سطح جب مهجور. ثم مشى حتى وصل إلى المدينة وتوجّه إلى منزله، وكان ذلك آخر النهار وقت اصفرار الشمس. ثم طرق الباب فخرجت أمه وفتحت الباب فرأت ابنها واقفًا، فلما رأته صاحت من شدّة فرحتها وألقت نفسها عليه وبكت. فلما سمعت زوجته بكاها خرجت إليها فرأت زوجها فسلّمت عليه وقبّلت يديه وفرح بعضهم ببعض فرحًا عظيمًا ودخلوا البيت. فلما استقرّ بهم الجلوس وقعد بين أهله سأل عن الحطابين الذين كانوا يحطبون معه وراحوا وخلّوه في الجب. فقالت له أمه: إنهم أتوني وقالوا لي: إن ابنك أكله الذئب في الوادي. وقد صاروا تجاراً وأصحاب أملاك ودكاكين واتّسعت عليهم الدنيا. وهم في كل يوم يجيئوننا بالأكل والشرب، وهذا دأبهم إلى الآن. فقال لأمه: في غد روحي إليهم وقولي لهم: قد جاء حاسب كريم الدين من سفره فتعالوا وقابلوه وسلّموا عليه. فلما أصبح الصباح راحت أمه إلى بيوت الحطابين وقالت لهم ما وصّاها به ابنها. فلما سمع الحطابون ذلك الكلام، تغيّرت ألوانهم وقالوا لها: سمعاً وطاعة. وقد أعطاها كل واحد منهم بدلة من الحرير مطرزة بالذهب وقالوا لها: أعط ولدك هذه ليلبسها وقولي له: إنهم في غد يأتون عندك. فقالت لهم: سمعًا وطاعة. ثم رجعت من عندهم إلى ابنها وأعلمته بذلك وأعطته الذي أعطوها إياه. هذا ما كان من أمر حاسب كريم الدين وأمه.

وأما ما كان من أمر الحطابين، فإنهم جمعوا جماعة من التجار وأعلموهم بما حصل منهم في حق حاسب كريم الدين وقالوا لهم: كيف نصنع معه الآن؟ فقال لهم التجار: ينبغي لكل منكم أن يعطيه نصف ماله ومماليكه. فاتفق الجميع على هذا الرأي، وكل واحد أخذ نصف ماله معه وذهبوا إليه جميعًا وسلّموا عليه وقبّلوا يديه وأعطوه ذلك وقالوا له: هذا من بعض إحسانك، وقد صرنا بين يديك. فقبله منهم وقال لهم: قد راح الذي راح وهذا مقدور من الله تعالى، والمقدور يغلب المحذور. فقالوا له: قم بنا نتفرّج في المدينة وندخل الحمام. فقال لهم: أنا قد صدر مني يمين أنني لا أدخل الحمام طول عمري. فقالوا له: قم بنا لبيوتنا حتى نضيفك. فقال لهم: سمعاً وطاعة. ثم قام وراح معهم إلى بيوتهم، وصار كل واحد منهم يضيفه ليلة. ولم يزالوا على هذه الحالة مدة سبع ليال، وقد صار صاحب أموال وأملاك ودكاكين، واجتمعت به تجار المدينة وأخبرهم بجميع ما جرى له وما رآه، وصار من أعيان التجار ومكث على هذا الحال مدة من الزمان. فاتفق أنه خرج في يوم من الأيام يتمشّى في المدينة فرآه صاحب حمامي وهو جائز على باب الحمام. ووقعت العين في العين، فسلّم عليه وعانقه وقال له: تفضل عليّ بدخول

الحمام وتكيس حتى أعمل لك ضيافة . فقال له : إنه صدر مني يمين أنني لا أدخل الحمام مدة عمري . فحلف الحمامي وقال له : نسائي الثلاث طالقات ثلاثاً إن لا تدخل معي الحمام وتغتسل فيه . فتحيّر حاسب كريم الدين في نفسه وقال له : أتريد يا أخي أنك تيتّم أولادي وتخرب بيتي وتجعل الخطيئة في رقبتي . فارتمى الحمامي على رجل حاسب كريم الدين وقبّلها وقال له : أنا في جيرتك أن تدخل معي الحمام وتكون الخطيئة في رقبتي أنا . واجتمع عملة الحمام وكل من فيه على حاسب كريم الدين وتداخلوا عليه ونزعوا عنه ثيابه وأدخلوه الحمام . فبمجرد ما دخل الحمام وقعد بجانب الحائط وسكب على رأسه من الماء ، أقبل عليه عشرون رجلاً وقالوا له : قم أيها الرجل من عندنا فإنك غريم السلطان . وأرسلوا واحداً منهم إلى وزير السلطان ، فراح الرجل وأعلم الوزير . فركب الوزير وركب معه ستون مملوكاً وساروا حتى أتوا الحمام واجتمعوا بحاسب كريم الدين ، وسلّم عليه الوزير ورحّب به وأعطى الحمامي مائة دينار وأمر أن يقدموا لحاسب حصانا ليركبه . ثم ركب الوزير وحاسب وكذلك جماعة الوزير وأخذوه معهم وساروا به حتى وصلوا إلى قصر السلطان ، فنزل الوزير ومن معه ونزل حاسب وجلسوا في القصر وأتوا بالسماط فأكلوا وشربوا . ثم غسلوا أيديهم وخلع عليه الوزير خلعتين ، كل واحدة تساوي خمسة آلاف دينار وقال له : أعلم أن الله قد منّ علينا بك ورحمنا بمجيئك ، فإن السلطان كان أشرف على الموت من الجذام الذي به ، وقد دلّت عندنا الكتب على أن حياته على يديك . فتعجّب حاسب من أمرهم . ثم تمشّى الوزير وحاسب وخواص الدولة من أبواب القصر السبعة إلى أن دخلوا على الملك . وكان يقال له : الملك كرزدان ملك العجم . وقد ملك الأقاليم السبعة ، وكان في خدمته مائة سلطان يجلسون على كراسي من الذهب الأحمر ، وعشرة آلاف بهلوان ، كل بهلوان تحت يده مائة نائب ومائة جلاد وبأيديهم السيوف والأطبار . فوجدوا ذلك الملك نائماً ووجهه ملفوف في منديل وهو يئن من الأمراض . فلما رأى حاسب هذا الترتيب ، دهش عقله من هيئة الملك كرزدان وقبّل الأرض بين يديه ودعا له . ثم أقبل عليه وزيره الأعظم وكان يقال له : الوزير شمهور ، ورحّب به وأجلسه على كرسي عظيم عن يمين الملك كرزدان . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 534

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الوزير شمهور أقبل على حاسب وأجلسه على كرسي عن يمين الملك كرزدان وأحضروا السماط ، فأكلوا وشربوا وغسلوا أيديهم . ثم بعد ذلك قام الوزير شمهور وقام لأجله كل من في المجلس هيبة له ، وتمشّى إلى نحو حاسب كريم الدين وقال له : نحن في خدمتك وكل ما طلبت نعطيك ، ولو طلبت نصف الملك أعطيناك إياه لأن شفاء الملك على يديك . ثم أخذه من يده وذهب به إلى الملك . فكشف حاسب عن وجه الملك ونظر إليه فرآه في غاية المرض ، فتعجّب من ذلك . ثم إن الوزير نزل على يد حاسب وقبّلها وقال له : نريد منك أن تداوي هذا الملك ، والذي تطلبه نعطيك إياه وهذه حاجتنا عندك . فقال حاسب : نعم إني ابن دانيال نبي الله ، لكنني ما أعرف شيئًا من العلم . فإنهم وضعوني في صنعة الطب ثلاثين يوماً ولم أتعلم شيئًا من تلك الصنعة ، وكنت أود لو عرفت شيئًا من العلم وأداوي هذا الملك . فقال الوزير : لا تطل علينا الكلام ، فلو جمعنا حكماء المشرق

والمغرب ما يداوي الملك إلا أنت . فقال له حاسب : كيف أدوايه وأنا ما اعرف داءه ولا دواءه؟ فقال الوزير : إن دواء الملك عندك . قال له حاسب : لو كنت اعرف دواءه لداويته . فقال له الوزير : أنت تعرف دواءه معرفة جيدة ، فإن دواءه ملكة الحيات وأنت تعرف مكانها ورايتها وكنت عندها . فلما سمع حاسب هذا الكلام عرف أن سبب ذلك دخول الحمام . وصار يتندم حيث لا ينفعه الندم وقال لهم : كيف ملكة الحيات وأنا لا أعرفها ولا سمعت طول عمري بهذا الإسم . فقال الوزير : لا تنكر معرفتها فإن عندي دليلاً على أنك تعرفها واقمت عندها سنتين . فقال حاسب : أنا لا اعرفها ولا رايتها ولا سمعت بهذا الخبر إلا في هذا الوقت منكم . فأحضر الوزير كتاباً وفتحه وصار يتحسّب ثم قال : إن ملكة الحيات تجتمع برجل ويمكث عندها سنتين ويرجع من عندها ويطلع على وجه الأرض ، فإذا دخل الحمام تسود بطنه . ثم قال لحاسب : أنظر إلى بطنك . فنظر إليها فرآها سوداء . فقال لهم حاسب : إن بطني سوداء من يوم ولدتني أمي . فقال له الوزير : أنا كنت وكّلت على كل حمام ثلاثة مماليك لأجل أن يتعهدّوا كل من يدخل الحمام وينظروا إلى بطنه ويعلموني به . فلما دخلت أنت الحمام نظروا إلى بطنك فوجدوها سوداء ، فأرسلوا إليّ خبراً بذلك وما صدّقنا أننا نجتمع بك في هذا اليوم ، وما لنا عندك حاجة إلا أن ترينا الموضع الذي طلعت منه وتروح إلى حال سبيلك ، ونحن نقدر على إمساك ملكة الحيات وعندنا من يأتينا بها . فلما سمع حاسب هذا الكلام ندم على دخول الحمام ندمًا عظيماً حيث لا ينفعه الندم ، وصار الأمراء والوزراء يتدخّلون على حاسب في أن يخبرهم بملكة الحيات حتى عجزوا . وهو يقول : لا رايت هذا الأمر ولا سمعت به . فعند ذلك طلب الوزير الجلاد فاتوه به ، فأمره أن ينزع ثياب حاسب عنه ويضربه ضرباً شديداً ، ففعل ذلك حتى عاين الموت من شدّة العذاب . وبعد ذلك قال له الوزير : إن عندنا دليلاً أنك تعرف مكان ملكة الحيات ، فلأي شيء أنت تنكره؟ ارنا الموضع الذي خرجت منه وابعد عنّا ، وعندنا الذي يمسكها ولا ضرر عليك . ثم لاطفه وأقامه وأمر له بخلعة مزركشة بالذهب والمعادن . فامتثل حاسب أمر الوزير وقال له : أنا اريكم الموضع الذي خرجت منه . فلما سمع الوزير كلامه ، فرح فرحاً شديدًا وركب هو والأمراء جميعاً ، وركب حاسب وسار قدّام العساكر . وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى الجبل ، ثم إنه دخل بهم إلى المغارة ويبكي وتحسّر ونزلت الأمراء والوزراء وتمشّوا وراء حاسب حتى وصلوا إلى البئر الذي طلع منه . ثم تقدّم الوزير وجلس وأطلق البخور وأقسم وتلا العزائم ونفث وهَمْهَم . فإنه كان ساحراً ماكراً كاهنًا يعرف علم الروحاني وغيره . ولما فرغ من عزيمته الأولى قرأ عزيمة ثانية وعزيمة ثالثة ، وكلما فرغ البخور وضع غيره على النار . ثم قال : اخرجي يا ملكة الحيات . فاذا البئر قد غاض ماؤه وانفتح فيه باب عظيم وخرج منه صراخ عظيم مثل الرعد حتى ظنوا أن ذلك البئر قد انهدم . ووقع جميع الحاضرين في الأرض مغشياً عليهم ومات بعضهم ، وخرج من ذلك البئر حية عظيمة مثل الفيل ، يطير من عينيها ومن فيها الشرر مثل الجمرة ، وعلى ظهرها طبق من الذهب الأحمر مرّصع بالدر والجوهر ، وفي وسط ذلك الطبق حية تضيء المكان ووجهها كوجه إنسان وتتكلّم بأفصح لسان ، وهي ملكة الحيات . والتفتت يميناً وشمالاً فوقع بصرها على حاسب كريم الدين فقالت له : أين العهد الذي عاهدتني به واليمين الذي حلفته لي من أنك لا تدخل الحمام ؟ ولكن لا تنفع حيلة من قدر ، والذي على الجبين

مكتوب ما منه مهروب . وقد جعل الله آخر عمري على يديك . وبهذا حكم الله وأراد أن أقتل أنا والملك كرزدان يشفى من مرضه . ثم إن ملكة الحيات بكت بكاء شديداً وبكى حاسب لبكائها . ولما رأى الوزير شمهور الملعون ملكة الحيات، مدّ يده إليها ليمسكها فقالت له : إمنع يدك يا ملعون وإلا نفخت عليك وصيّرتك كوم رماد أسود . ثم صاحت على حاسب وقالت له : تعال عندي وخذني بيدك وحطّني في هذه الصينية التي معكم واحملها على رأسك، فان موتي على يدك مقدور من الأزل ولا حيلة لك في دفعه . فأخذها حاسب وحطّها في الصينية وحملها على رأسه وعادت البئر كما كانت . ثم ساروا وحاسب حامل الصينية التي هي فيها على رأسه . فبينما هم في أثناء الطريق إذ قالت ملكة الحيات لحاسب كريم الدين سرًا : يا حاسب إسمع ما أقول لك من النصيحة ولو كنت نقضت العهد وحنثت في اليمين وفعلت هذه الأفعال، لأن ذلك مقدور من الأزل . فقال لها : سمعًا وطاعة . ما الذي تأمريتني به يا ملكة الحيات ؟ فقالت له : إذا وصلت إلى بيت الوزير فإنه يقول لك : إذبح ملكة الحيات وقطّعها ثلاث قطع . فامتنع من ذلك ولا تفعل وقل له : أنا ما أعرف الذبح . لأجل أن يذبحني هو بيده ويعمل فيّ ما يريد . فإذا ذبحني وقطّعني يأتيه رسول من عند الملك كرزدان ويطلبه إلى الحضور عنده، فيضع لحمي في قدر من النحاس ويضع القدر فوق الكانون قبل الذهاب إلى الملك ويقول لك : أوقد النار على هذا القدر حتى تطلع رغوة اللحم، فإذا طلعت الرغوة فخذها وحطّها في قنينة واصبر عليها حتى تبرد واشربها أنت فإذا شربتها لا يبقى في بدنك وجع . فإذا طلعت الرغوة الثانية فحطها عندك في قنينة ثانية حتى أجيء من عند الملك وأشربها من أجل مرض في صلبي . ثم إنه يعطيك القنينتين ويروح إلى الملك . فإذا راح إليه، أوقد النار على القدر حتى تطلع الرغوة الأولى فخذها وحطها في قنينة واحفظها عندك وإياك أن تشربها، فإن شربتها لم يحصل لك خير . وإذا طلعت الرغوة الثانية فحطها في القنينة الثانية واصبر حتى تبرد واحفظها عندك حتى تشربها . فاذا جاء من عند الملك وطلب منك القنينة الثانية فاعطه الأولى وانظر ما يجري له . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 535

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد، أن ملكة الحيات أوصت حاسب كريم الدين بعدم الشرب من الرغوة الأولى والمحافظة على الرغوة الثانية . قالت له : إذا رجع الوزير من عند الملك وطلب منك القنينة الثانية فاعطه الأولى وانظر ما يجري له . ثم بعد ذلك إشرب أنت الثانية، فإذا شربتها يصير قلبك بيت الحكمة . ثم بعد ذلك أطلع اللحم وحطّه في صينية من النحاس واعط الملك إياه ليأكله، فإذا أكله واستقرّ في بطنه، أستر وجهه بمنديل واصبر عليه إلى وقت الظهر حتى تبرد بطنه . وبعد ذلك اسقه شيئًا من الشراب فإنه يعود صحيحاً كما كان ويبرأ من مرضه بقوة الله تعالى . واسمع هذه الوصية التي وصّيتك بها وحافظ عليها كل المحافظة . وما زالوا سائرين حتى أقبلوا على بيت الوزير . فقال الوزير لحاسب : أدخل معي البيت . فلما دخل الوزير وحاسب وتفرّق العساكر وراح كل منهم إلى حال سبيله، وضع حاسب الصينية التي فيها ملكة الحيات من فوق رأسه . ثم قال له الوزير : إذبح ملكة الحيات . فقال له حاسب : أنا لا أعرف الذبح وعمري ما ذبحت شيئًا، فإن كان لك غرض في ذبحها فاذبحها أنت بيدك . فقام الوزير

شمهور واخذ ملكة الحيات من الصينية التي هي فيها وذبحها . فلما رأى حاسب ذلك بكى بكاء شديداً . فضحك شهمور منه وقال له : يا ذاهب العقل ، كيف تبكي من أجل ذبح حية ؟ وبعد أن ذبحها الوزير قطّعها ثلاث قطع ووضعها في قدر من النحاس ووضع القدر على النار وجلس ينتظر نضج لحمها . فبينما هو جالس إذا بمملوك اقبل عليه من عند الملك وقال له : إن الملك يطلبك في هذه الساعة . فقال له الوزير : سمعاً وطاعة . ثم قام وأحضر قنينتين لحاسب وقال له : أوقد النار على هذا القدر حتى تخرج رغوة اللحم الأولى ، فإذا خرجت فاكشطها من فوق اللحم وحطها في إحدى هاتين القنينتين واصبر عليها حتى تبرد واشربها أنت ، فإذا شربتها صحّ جسمك ولا يبقى في جسدك وجع ولا مرض . وإذا طلعت الرغوة الثانية فضعها في القنينة الأخرى واحفظها عندك حتى أرجع من عند الملك وأشربها ، لأن في صلبي وجعاً عساه يبرأ إذا شربتها . ثم توجّه إلى الملك بعد أن أكّد على حاسب في تلك الوصية . فصار حاسب يوقد النار تحت القدر حتى طلعت الرغوة الأولى ، فكشطها وحطّها في قنينة من الإثنتين ووضعها عنده . ولم يزل يوقد النار تحت القدر حتى طلعت الرغوة الثانية ، فكشطها وحطها في القنينة الأخرى وحفظها عنده . ولما استوى اللحم أنزل القدر من فوق النار وقعد ينتظر الوزير . فلما أقبل الوزير من عند الملك قال لحاسب : أي شيء فعلت ؟ فقال له حاسب : قد انقضى الشغل . فقال له الوزير : ما فعلت في القنينة الأولى ؟ قال له : شربت ما فيها في هذا الوقت . فقال له الوزير : أرى جسدك لم يتغيّر منه شيء . فقال له حاسب : إن جسدي من فرقي إلى قدمي أحس منه بأنه يشتعل مثل النار . فكتم الماكر الوزير شمهور الأمر عن حاسب خداعاً . ثم إنه قال له : هات القنينة الباقية لأشرب ما فيها لعلي أشفى وأبرؤ من هذا المرض الذي في صلبي . ثم إنه شرب ما في القنينة الأولى وهو يظن أنها الثانية ، فلم يتم شربها حتى سقطت من يده وتورّم من ساعته . وصحّ فيه قول صاحب المثل : من حفر بئراً لأخيه وقع فيه . فلما رأى حاسب ذلك الأمر تعجّب منه وصار خائفاً من شرب القنينة الثانية ، ثم تفكر وصية الحية وقال في نفسه : لو كان ما في القنينة الثانية مضراً ما كان الوزير استخارها لنفسه . ثم إنه قال : توكلت على الله تعالى وشرب ما فيها . ولما شرب فجّر الله تعالى في قلبه ينابيع الحكمة وفتح له عين العلم وحصل على الفرح والسرور ، وأخذ اللحم الذي كان في القدر ووضعه في صينية من نحاس وخرج به من بيت الوزير ، ورفع رأسه إلى السماء فرأى السموات السبع وما فيهن إلى سدرة المنتهى ، ورأى كيفية دوران الفلك ، وكشف الله له عن جميع ذلك . ورأى النجوم السيارة والثوابت وعلم كيفية الكواكب وشاهد هيئة البر والبحر ، واستنبط من ذلك علم الهندسة وعلم التنجيم وعلم الهيئة وعلم الفلك وعلم الحساب وما يتعلق بذلك كله . وعرف ما يترتّب على الكسوف والخسوف وغير ذلك . ثم نظر إلى الأرض فعرف ما فيها من المعادن والنبات والأشجار وعلم جميع ما لها من الخواص والمنافع ، واستنبط من ذلك علم الطب وعلم السيميا وعلم الكيميا ، وعرف صنعة الذهب والفضة . ولم يزل سائراً بذلك اللحم حتى وصل إلى قصر الملك كرزدان ودخل عليه وقبّل الأرض بين يديه وقال له : تسلم رأسك في وزيرك شمهور . فاغتاظ الملك غيظاً شديداً بسبب موت وزيره وبكى بكاء شديداً . وبكت عليه الوزراء والأمراء وأكابر الدولة . ثم بعد ذلك قال الملك كرزدان : إن الوزير شمهور كان عندي في هذا الوقت وهو في غاية الصحة ، ثم ذهب ليأتيني باللحم إن كان طاب

طبخه . فما سبب موته في هذه الساعة ؟ وأي شيء عرض له من العوارض ؟ فحكى حاسب للملك جميع ما جرى لوزيره من أنه شرب القنينة وتورّم وانتفخ بطنه ومات . فحزن عليه الملك حزناً شديداً ثم قال لحاسب : كيف حالي بعد شمهور . فقال حاسب : لا تحمل هماً يا ملك الزمان ، فأنا اداويك في ثلاثة أيام ولا أترك في جسمك شيئًا من الأمراض . فانشرح صدر الملك كرزدان وقال لحاسب : أنا مرادي أن أعافى من هذا البلاء ولو بعد مدة من السنين . فقام حاسب وأتى بالقدر وحطه قدام الملك ، فأخذ قطعة من لحم ملكة الحيات وأطعمها للملك كرزدان وغطاه ونشر على وجهه منديلاً وقعد عنده وأمره بالنوم . فنام من وقت الظهر إلى وقت المغرب حتى دارت قطعة اللحم في بطنه ، بعد ذلك أيقظه وسقاه شيئًا من الشراب وأمره بالنوم . فنام الليل إلى وقت الصبح . ولما طلع النهار ، فعل معه مثل ما فعل بالأمس حتى أطعمه القطع الثلاث على ثلاثة أيام . فقبّ جلد الملك وانقشر جميعه . فعند ذلك عرق الملك حتى جرى العرق من رأسه إلى قدمه وتعافى وما بقي في جسده شيء من الأمراض . وبعد ذلك قال له حاسب : لا بدّ من دخول الحمام . ثم ادخله الحمام وغسل جسده وأخرجه ، فصار جسمه مثل قضيب الفضة ، وعاد لما كان عليه من الصحة وردّت له العافية أحسن ما كانت أولاً . ثم إنه لبس أحسن ملبوسه وجلس على التخت وأذن لحاسب كريم الدين في أن يجلس معه ، فجلس بجانبه . ثم أمر الملك بمد السماط فمدّ ، فأكلا وغسلا أيديهما . وبعد ذلك أمر أن يأتوا بالمشروب ، فأتوا بما طلب ، فشربا . ثم بعد ذلك أتى جميع الأمراء والوزراء والعسكر وأكابر الدولة وعظماء رعيته ، وهنّوه بالعافية والسلامة ودقوا الطبول وزينوا المدينة من أجل سلامة الملك . ولما اجتمعوا عنده للتهنئة قال لهم الملك : يا معشر الوزراء والأمراء وأرباب الدولة ، هذا حاسب كريم الدين الذي داواني من مرضي . أعلموا أنني قد جعلته وزيراً أعظم ، مكان الوزير شمهور . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

فلما كانت الليلة 536

□ قالت : بلغني أيها الملك السعيد ، أن الملك قال لوزرائه وأكابر دولته : إن الذي داواني من مرضي هو حاسب كريم الدين وقد جعلته وزيراً أعظم مكان الوزير شمهور ، فمن أحبه فقد أحبني ومن أكرمه فقد أكرمني ومن أطاعه فقد أطاعني . فقال له الجميع : سمعاً وطاعة . ثم قاموا كلهم وقبلوا حاسب كريم الدين وسلّموا عليه وهنّوه بالوزارة . ثم بعد ذلك خلع عليه الملك خلعة سنية منسوجة بالذهب الأحمر مرصّعة بالدر والجوهر . أقل جوهرة فيها تساوي خمسة آلاف دينار ، وأعطاه ثلاثمائة مملوك وثلاثمائة سرية تضيء مثل الأقمار ، وثلاثمائة جارية من الجيش وخمسمائة بغلة محملة من المال ، وأعطاه من المواشي والغنم والجاموس والبقر ما يكلّ عنه الوصف . وبعد هذا كله أمر وزراءه وأرباب دولته وأكابر مملكته ومماليكه وعموم رعيته أن يهادوه . ثم ركب حاسب كريم الدين وركب خلفه الوزراء والأمراء وأرباب الدولة وجميع العساكر وساروا إلى بيته الذي أخلاه له الملك . ثم جلس على كرسي وتقدّمت إليه الأمراء والوزراء وقبّلوا يده وهنّوه بالوزارة وصاروا كلهم في خدمته . وفرحت أمه بذلك فرحًا شديداً وهنّته بالوزارة ، وجاءه أهله وهنّوه بالسلامة والوزارة وفرحوا به فرحًا شديداً . ثم بعد ذلك أقبل عليه اصحابه الحطابون وهنّوه بالوزارة ، وبعد ذلك ركب وسار

حتى وصل إلى قصر الوزير شمهور ، فختم على بيته ووضع يده على ما فيه وضبطه ثم نقله إلى بيته . وبعد أن كان لا يعرف شيئًا من العلوم ولا قراءة الخط ، صار عالمًا بجميع العلوم بقدرة الله تعالى ، وانتشر علمه وشاعت حكمته في جميع البلاد . واشتهر بالمتجر في علم الطب والهيئة والهندسة والتنجيم والكيمياء والسيمياء والروحاني وغير ذلك من العلوم . ثم إنه قال لأمه يوماً من الأيام : يا والدتي ، إن أبي دانيال كان عالماً فاضلاً ، فاخبريني بما خلّفه من الكتب وغيرها . فلما سمعت أمه كلامه ، أتته بالصندوق الذي كان أبوه قد وضع فيه الورقات الخمس الباقية من الكتب التي غرقت في البحر وقالت له : ما خلف أبوك شيئًا من الكتب إلا الورقات الخمس التي في هذا الصندوق . ففتح الصندوق وأخذ منه الورقات الخمس وقرأها وقال لها : يا أمي ، إن هذه الأوراق من جملة كتاب ، وأين بقيته ؟ فقالت له : إن أباك كان قد سافر بجميع كتبه في البحر ، فانكسرت به المركب وغرقت كتبه وأنجاه الله تعالى من الغرق ، ولم يبق من كتبه إلا هذه الورقات الخمس . ولما جاء أبوك من السفر كنت حاملاً بك . فقال لي : ربما تلدين ذكراً ، فخذي هذه الأوراق واحفظيها عندك فإذا كبر الغلام وسأل عن تركتي ، فأعطيه إياها وقولي له : إن أباك لم يخلّف غيرها . وهذه إياها . ثم إن حاسب كريم الدين تعلّم جميع العلوم . ثم بعد ذلك قعد في أكل وشرب وأطيب معيشة وأرغد عيش إلى أن أتاه هادم اللذّات ومفرّق الجماعات .

وهذا آخر ما انتهى إلينا من حديث حاسب بن دانيال رحمه الله تعالى . والله أعلم .

قد تمّ بعون الله تعالى طبع هذا الجزء

الأول ويليه الجزء الثاني .

وبالله التوفيق .

فهرس الحكايات

ALF LAYLA
WA LAYLA

THE BOOK OF
A THOUSAND AND ONE NIGHTS

LE LIVRE DES
MILLE ET UNE NUITS

Introduction by

Dr. Afif Nayef Hatoum

DAR SADER *Publishers*
Beirut, 1999

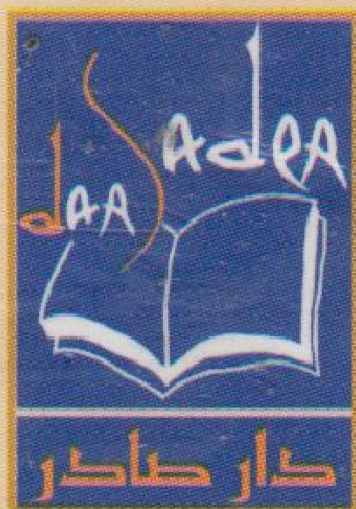
ألف ليلة وليلة

لقد سحر هذا الكتاب النفيس عقول القرّاء وتحيّرت فيهم الألباب وهو في نظرنا كتاب قيّم فريد. فمؤلفه الحقيقي علامة ومصلح اجتماعي كبير. وهو حافظ للأشعار وكان يختار منها أجودها وما كان معناه موافقاً مع موضوع القصة أو الحكاية أو نادرة من النوادر التي يغلب عليها في الظاهر سمة الهزل والإضحاك قاصداً بذلك التهذيب والإصلاح.

بالإضافة إلى شخصيات الملوك والوزراء نجد المؤلف يخالط الناس في الأسواق فيصوّر حالة التّجار الأغنياء أو المفلسين بسبب وقوعهم في هوى جارية أو حسناء. وقد حظيت المرأة الحصّة الأكبر بين جميع شخصيات هذه الحكايات. وبعد قراءة هذا الكتاب والتمعّن فيه، نرى قيمته الفنية، الشعرية والاجتماعية والتاريخية كبيرة.

ومن المفتونين بهذا العمل الأدبي الشعري العلمي الضخم الكاتب الفرنسي الكبير «فولتير» الذي اعترف بأنه لم يتمكن مـ مزاولة كتابة فن القصة كتابة جيّدة مفيدة بنّاءة إلا بعدما قر كتاب «ألف ليلة وليلة» أربع عشر مرة.

الدكتور عفيف نايف حاطو
دكتوراه من جامعة عين شمس
دكتوراه من جامعة الصوربون



طبع على مطابع دار صادر تأسست سنة ١٨٦٣